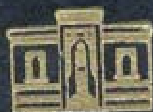
رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



دار الكتب والوثائق القومية
الإدارة المركزية للمراكز العلمية
مركز تحقيق التراث

عِقدُ الجُمانِ في تاريخ أهلِ الزمانِ

تأليف
بدر الدين محمود العينى
المتوفى سنة ٨٥٥ هـ/ ١٤٥١ م

(العصر الأيوبى)

الجزء الأول

تحقيق ودراسة
دكتور / محمود رزق محمود
جامعة المنيا

الطبعة الثانية

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
(١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م)

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس



دار الكتب والوثائق القومية
الإدارة المركزية للمراكز العلمية
مركز تحقيق التراث

عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان

تأليف

بدر الدين محمود العيني
المتوفى سنة ٨٥٥ هـ/١٤٥١م

العصر الأيوبى

الجزء الأول

٥٦٥ ـ ٥٧٨ هـ/ ١١٦٨ - ١١٨٢م

تحقيق ودراسة

دكتور/ محمود رزق محمود
جامعة المنيا

الطبعة الثانية

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
(١٤٣١ هـ - ٢٠١٠م)

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية
رئيس مجلس الإدارة
أ. د. محمد صابر عرب

بدرالدين العينى، محمد بن أحمد بن موسى بن أحمد،
١٣٦١ - ١٤٥١.
عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان/ تأليف بدر الدين
محمود العينى؛ تحقيق محمود رزق محمود. . القاهرة: دار
الكتب والوثائق القومية، مركز تحقيق التراث، 2010-
مج 1 ؛ 29 سم.
المحتويات: العصر الأيوبى ٥٦٥ - ٥٧٨هـ/ ١١٦٨ -
١١٨٢م
تدمك 0 - 0708 - 18 - 977
١ - التاريخ
أ - محمود، محمود رزق (محقق) ب - العنوان.
٩٠٧,٢

إخراج وطباعة:
مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

www.darelkotob.gov.eg
رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠١٠/٧٠٣٧
I.S.B.N. 977 - 18 - 0708 - 0

بسم الله الرحمن الرحيم

شكر وتقدير

يتقدم المحقق بالشكر للباحثات الفضليات بلجنة التاريخ بمركز تحقيق التراث اللاتى شاركن فى إنجاز هذا العمل بكل إخلاص وتفان .

وهن :

الدكتورة/ لبيبة إبراهيم مصطفى محمد **نعمات عباس محمد**

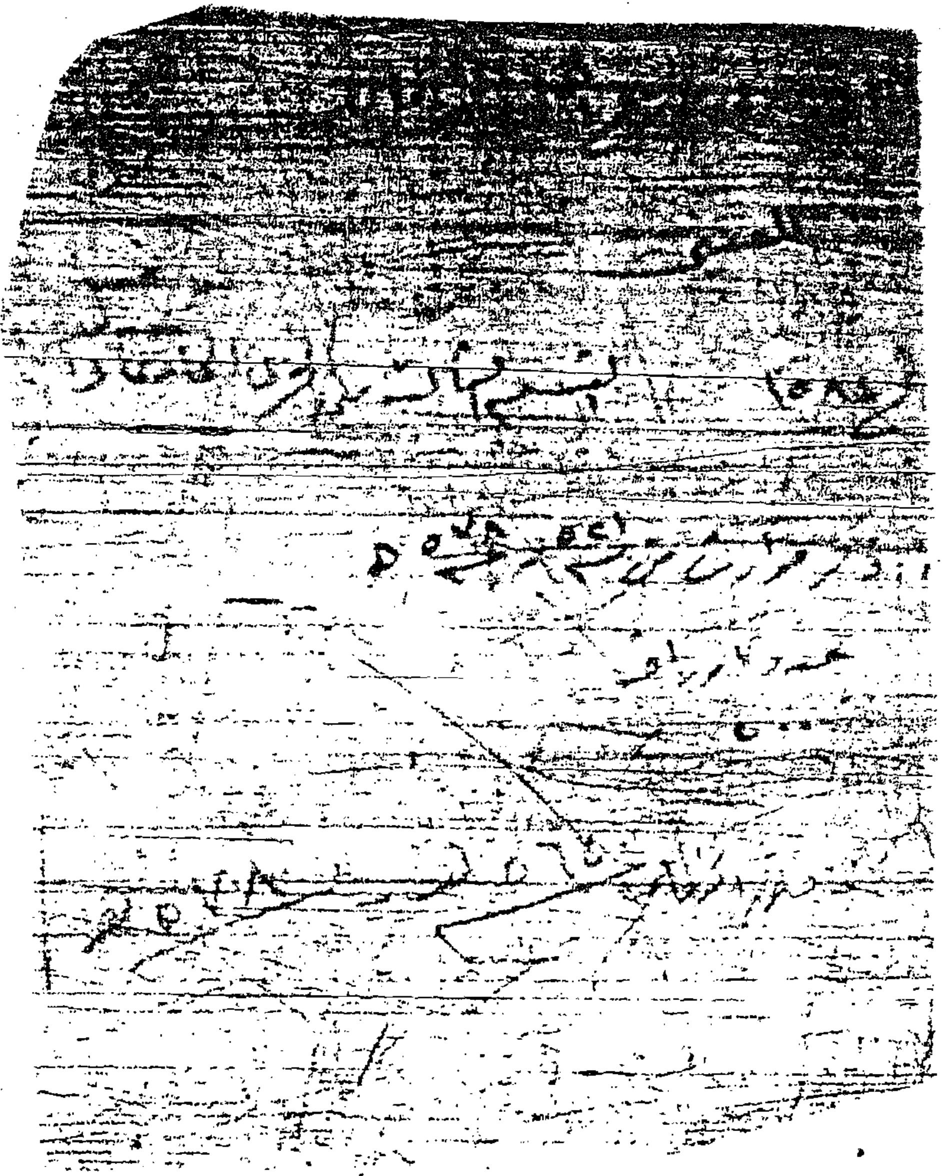
تماضر زكريا غنام **نفيسة محمد محمد صميدة**

صور من المخطوطات

لوحة ١ من نسخة معهد المخطوطات العربية رقم ١٩/٢٩١١ المصورة
من مكتبة أحمد الثالث بتركيا. توضح بداية سنة ٥٦٥هـ.

لوحة ٢ من نسخة معهد المخطوطات العربية رقم ١٩/٢٩١١ المصورة
من مكتبة أحمد الثالث بتركيا .

لوحة ٣ من نسخة معهد المخطوطات العربية رقم ١٩/٢٩١١ المصورة من مكتبة أحمد الثالث بتركيا .



لوحة ١ من نسخة دار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ

لوحة ٢ من نسخة دار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ

لوحة ٣ من نسخة معهد المخطوطات العربية رقم ١٩/٢٩١١
المصورة من مكتبة أحمد الثالث بتركيا

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

بعد دراستى لفترة العصر الأيوبى التى كتبها العينى فى سفره الكبير «عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان» شعرت بالمكانة الهامة له بين ثبت المصادر التى تناولت هذه الحقبة التاريخية ؛ إذ تضمن المزيد من المعلومات والإضافات الجديدة التى كنا نحتاج إليها ، فضلا عن ذلك استشفيت ملحوظتين ربما غابتا عنى قبل ذلك وهما :

أولاً : ظاهرة الفروسية التى تعنى تمسك الفارس بمبادئ أخلاقية نبيلة فى علاقته بخصمه ، أو بغير خصمه من شتى صنوف البشر حوله ، وهذه المبادئ فى كثير من جوانبها قد تفوق مايعرفه العالم المعاصر من مبادئ حقوق الإنسان . إذ كان الفارس العربى يغضب أمام أية محاولة لخرق عرف أو تقليد أخلاقى ، ويرق أمام أية عاطفة إنسانية نبيلة ، وكان هذا موروثًا عربيًا إسلاميًا ، انتقل إلى أوربا فى العصور الوسطى عبر الفاتحين المسلمين ، فى بلاد الأندلس وصقلية ، وعبر الاحتكاك العنيف بين فرسان المسلمين والغزاة الصليبيين ، إبان الحروب الصليبية ، وخاصة العصر الأيوبى .

ثانياً : ظاهرة الدوافع التى انطلقت منها أوربا لغزو المشرق الإسلامى ؛ وتجاهلها الكثرة من مؤرخى أوربا ، حيث صورت هذه الكثرة تلك الدوافع على أنها دينية أى بغرض استرداد بيت المقدس ـ مهد السيد المسيح عليه السلام ـ من أيدى المسلمين ، وقد كان هذا هو الزعم المعلن من قبل بابوات روما ، وأباطرة وأمراء أوربا ، وقد انطلى هذا الزعم على بعض الأتقياء .

أما الهدف الحقيقى ؛ فكان المغنم المادى ، وانتهاب ثروات بلاد الشرق ، وإيجاد مقاطعات للأمراء الأوربيين الذين كانوا مصدر قلاقل لأصحاب النفوذ هناك ، بالإضافة إلى طمع المدن التجارية فى إيطاليا وغيرها ، فى السيطرة على طرق التجارة التى تدر عليهم أرباحاً طائلة .

على أى حال كان العينى صاحب فضل فى جمع ونقل مادته العلمية عن العصر الأيوبى من مصادرها الأصلية ، التى كان أصحابها شهود عيان على الأحداث ، كابن الأثير ، والعماد الأصفهانى الكاتب ، وابن شداد ، وغيرهم ممن عاصروا الأحداث ، وأهلتهم مكانتهم فى الدولة للاطلاع على أدق الأسرار وأخطرها .

كذلك سجل العينى روايات كثيرة فُقدت مصادرها فلم تعد متداولة بين المؤرخين ، كنقله من الروضتين ماسجله أبوشامة عن ابن أبى طى ، وكتاب البرق الشامى للعماد الأصفهانى .

لذا جاءت كتابات العينى عن هذا العصر شبه كاملة ، فقد توافرت فيها المادة العلمية ، مما جعل لها السبق على سواها ، ومن هنا برزت قيمة المخطوط لدى الباحثين .

ولم تكن مصادفة أن أعمل على تحقيق هذا السفر العظيم ، خاصة وقد عرفت قيمته العلمية منذ أن سجلت لدرجة الماجستير ، فكان من بين المصادر المهمة التى اطلعت عليها ، وعرفت كنه مافيه من مادة علمية شائقة . لهذا شدنى هذا السفر العظيم ، وانتظرت فرصة سانحة من العمر أتفرغ فيها تماماً لإنجاز تحقيقه ، إلا أن ظروف العمل ، والشواغل ، كانت دائماً تحول دون تحقيق هذه الرغبة ، حتى شاءت إرادة الله أن يتحول الحلم إلى حقيقة واقعة . فبدأت متوكلاً على العلى القدير ، وألزمت نفسى ببرنامج عمل أسبوعى منتظم ، كنت أتوجه فيه إلى مركز تحقيق التراث ، أعمل فيه بهمة واستمتاع ، يساعدنى فى ذلك زميلات فاضلات وزملاء أعزاء ، خصصت صفحة لذكر أسمائهم وتقديم الشكر لهم .

ولقد أمضيت على هذا النحو أكثر من تسع سنوات ، أحقق كل جزئية من جزئيات المخطوط ، فكان يتزايد حماسى للعمل مع كل لوحة تنسخ ، وورقة تحقق ، وحاشية تكتب .

الكتاب ومنهج المؤلف :

لم يكن العينى مؤرخاً عادياً من المتخصصين فى عصر معين من العصور التاريخية ، وإنما كان موسوعياً وذلك شأن الكثرة الغالبة من المؤرخين المسلمين ، فقد انصب اهتمامه عند كتابته لمخطوط «عقد الجمان» على تتبع التاريخ منذ عهد آدم حتى سنة خمسين وثمانمائة . ومن ثم فإن ما قدمه فى كتابه يعد رؤية شاملة للتاريخ الإنسانى الذى جاء فى حلقات متتابعة . وكان من بين هذه الحلقات العصر الأيوبى الذى بين أيدينا . وقد بدأ حديثه عن هذا العصر بقيام الدولة الأيوبية واستمر معها حتى نهايتها .

ولم تكن كتابته عنها من النوع الإخبارى الذى يهتم بالحدث الفردى بعينه ، وإنما كانت كتابته عنها شاملة تتناول الصورة العامة دون النظر إلى الاختلافات الجزئية التى ربما تؤثر كثيراً على فهم المسار العام للأحداث .

فعند حديثه عن ملوك بنى أيوب وأمرائهم ؛ ذكر علاقاتهم الخاصة مع بعضهم البعض ، ومع غيرهم من شرائح المجتمع ، والدول المجاورة ، وأعدائهم من الصليبيين وغيرهم . وفى كل هذا كان موضوعيًا وأمينًا فى نقله ؛ إذ ذكر أسماء المصادر التى استقى منها مادته العلمية ، وأسماء مؤلفيها فى ترتيب وإيجاز ، باستثناء حالات قليلة . وقدم العينى ذكر حوادث كل سنة على وفيات أعيانها ، ورتب ما بعد الهجرة على السنين حتى انتهى إلى آخر سنة ٨٥٠ هـ / ١٤٤٦م .

ومن ذلك أنه سجل أمر الحج منذ السنة التاسعة للهجرة فى نهاية أحداث كل سنة ، كما ضبط الأسماء المشتبهة سواء أكانت أسماء أعلام أم مدن أم بقاع .

كذلك نقل العينى العبارات المتداولة واللهجات السائدة ، والأقوال والحوارات ، كما جاءت فى مصادرها ، وهذا من غير أن يقدم لها تفسيرات مناسبة ؛ مما يترتب عليه بعض الغموض أحياناً فى كتابته لها .

ومما يؤخذ على العينى عدم اهتمامه بالأحوال الاقتصادية كزيادة النيل ونقصانه ، وغلة الأرض من حيث الوفرة والقلة ، والعمل والبطالة ، والأسعار غلاءً ورخصاً فى العصر الأيوبى ، مقارنة بما سجله عن هذه الأمور فى العصر المملوكى .

ويبدو أن السبب فى ذلك راجع إلى أن العينى كان شاهد عيان على العصر المملوكى ، بينما كان يكتب عن العصر الأيوبى نقلاً عن غيره . ومما يؤخذ أيضاً على العينى عدم دقته أحيانا فى ذكر أسماء المصادر التى ينقل عنها ؛ ففى بعض الأحيان يذكر أنه نقل عن ابن الأثير ، بينما يكون النقل من ابن كثير أو غيره .

السيرة الذاتية والتكوين العلمى للعينى :

العينى من رجالات القرن الثامن الهجرى ـ الرابع عشر الميلادى ـ وهو محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد ، أبو محمد ، بدر الدين العينى الحنفى العينتابى(١) نسبة إلى عينتاب ، إحدى قرى شمالى حلب ، وكانت قديما تسمى قلعة الفصوص .

وقد اختلفت الآراء حول تاريخ ميلاده ؛ فبعضها ذكر أنه ولد فى السادس والعشرين(٢) من رمضان سنة ٧٦٢ هـ / ١٣٦٠ م ، والبعض الآخر ذكر أنه ولد سابع عشرى رمضان(٣) ، مع أن والده سجل التاريخ الأول بخط يده(٤) ، وكانت ولادته فى درب كيكن(٥) فى قلعة عينتاب ، وهى إحدى قلاع بلاد الشام الحصينة . وقد تفتحت عيون أبناء هذه المنطقة على الجهاد ، وحب الفداء والتضحية بالنفس فى سبيل عزة الإسلام ، وكان العينى واحداً منهم .

وقد نشأ العينى فى أسرة تميز أهلها بحب العلم ، والعمل فى أشرف مهنة وهى القضاء . وكان والده حامل لواء العدل والعلم الدينى فى المنطقة(٦) ، وقد انعكس هذا بالتالى على أفراد أسرته ؛ إذ تلقى ابنه تعليماً جيداً بمقاييس ذلك العصر ، فلقنه والده مبادئ القراءة والكتابة وتعاليم الإسلام ، ثم أدخله الكُتاب فحفظ القرآن الكريم ، ولم يتجاوز عمره الثامنة ، مما يدل على ظهور ملامح الذكاء المبكر وقوة الذاكرة .

---

(١) الزركلى : الأعلام ، ج٨ ، ص٣٨ ، الطبعة الثانية ؛ جرجى زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، ج٣ ، ص٢١٠-ص٢١١ ، راجعها وعلق عليها شوقى ضيف ، دار الهلال .

(٢) ابن حجر : رفع الإصر عن قضاة مصر ، ص٢٦٠ أ ؛ ابن تغرى بردى : الدليل الشافى على المنهل الصافى ، تحقيق فهيم محمد شلتوت ، ج٢ ، ص٧٢١-٧٢٢ ، ترجمة رقم ٢٤٦٥ ، الطبعة الثانية ، دار الكتب - القاهرة ١٩٩٨م .

(٣) السخاوى : الضوء اللامع ، ج١٠ ، ص١٣١ ؛ الشوكانى : البدر الطالع ، ص٢٩٤ ؛ على مبارك : الخطط التوفيقية ، ج٦ ، ص٢٥ .

(٤) السخاوى : الضوء اللامع ، ج١٠ ، ص١٣١ .

(٥) ابن تغرى بردى : الدليل الشافى ، ج٢ ، ص٧٢٢ .

(٦) السخاوى : الضوء اللامع ، ج١٠ ، ص١٣١ .

وبعدها بدأ العينى بدراسة القراءات السبع على يد الشيخ حسين العينتابى ، شيخ القراءات فى عصره .

أما الفقه فقد أخذه عن والده ، وقرأ عليه مقدمة أبى الليث السمرقندى فى الفقه الحنفى ، وساعده هذا على العمق فى دراسة المذهب ، حتى أن والده كان يستعين به فى منصب القضاء ، كما تولاه نيابة عنه ، فأحسن القيام بمهام منصبه .

على أية حال شكلت دراساته السابقة البنية العلمية والفكرية لحبه للعلم ، ومن ثم أخذ الرجل يبحث عن منابعه فى كل مكان ، فكانت رحلاته المتعددة بقصد التزود بالعلم والمعرفة ، وأولى رحلاته كانت إلى حلب سنة ٧٨٣ هـ / ١٣٨١م[1] ، فأخذ الفقه عن جمال الدين يوسف بن موسى الملطى ، وعلوم اللغة على الشيخ شمس الدين محمد الراعى بن الزاهد ، وغيرهم من العلماء . ثم عاد مرة ثانية إلى عينتاب ليفيض عطاؤه العلمى على أبناء بلده .

وكانت وفاة والده عارضاً أعاقه إلى حد ما عن تأدية عمله على الوجه الأكمل ، وبالرغم من هذا ارتفع على مستوى حزنه مبتعداً عن كل مايؤثر فى نفسه ونشاطه العلمى . لذا اتجه ناحية المدن الشمالية «بهسنا وسميساط» ؛ فنهل من علمائهما من أمثال الشيخ ولى الدين البهسنى ، ثم توجه إلى أملاك دولة ذى الغادر التركمانية ، فالتقى بالشيخ علاء الدين الكختاوى فأخذ عنه ، وكان محطه الأخير فى هذه الرحلة ملطية ، فالتقى بعلمائها ، فأخذ عن الشيخ بدر الدين الكشافى .

ومن الجدير بالملاحظة أن إنجازات العينى الهائلة خلال هذه الفترة كانت لاتتناسب مع صغر سنه ، الذى لم يكن يتجاوز الثانية والعشرين وهى سن لاتمكن صاحبها من تحصيل كل هذه العلوم والمعارف ، إلا أن الرجل استطاع أن يحقق أضعاف أضعاف ما حققه أقرانه ممن هم فى سنه .

---

(١) الخطط التوفيقية ، ج٦ ، ص٢٥ ، ط٢ ، بولاق ١٣٠٥ .

وقد ظل الظمأ العلمى يلاحق نفس العينى على الرغم من كل ما حققه . لذا قام برحلة جديدة إلى دمشق عام ٧٨٥هـ / ١٣٨٣م ؛ فالتقى بعلمائها كالبحر أحمد بن إسماعيل بن الكشك ، وشرف الدين بن الكويك ، والعز بن الكويك ، فأخذ عنهم ، كما احتك بطلبة المدرسة النورية(١) .

وبعدها رجع مرة ثانية إلى حلب ، متحصناً برصيد علمى وافر ، جعله جديراً باحترام كوكبة من علماء حلب ؛ أمثال الشيخ زين الدين حيدر بن محمد الحنفى ، وجمال الدين يوسف الملطى ، وأبو الروح عيسى بن الخاص السرماوى ، فأجازوا له الإفتاء والتدريس بحلب ، ولم يكن عمره تجاوز الخامسة والعشرين .

وفى سنة ٧٨٦ هـ / ١٣٨٤م توجه إلى دمشق للتدريس بها ليثبت لعلمائها أنه قادر على العطاء المتجدد . وقد كان له ما أراد . ثم شد رحاله إلى مكة والمدينة لتأدية مناسك الحج والزيارة ، وليتزود من علمائهما ، وعاد بعد ذلك إلى مسقط رأسه عينتاب ، بعد أن أفاد واستفاد .

غير أن حنيناً دينياً وعلمياً شده لزيارة بيت المقدس فتوجه إليها ، فحقق بذلك هدفين : الزيارة ، والالتقاء بالشيخ علاء الدين أحمد بن محمد السيرامى الحنفى ، فلازمه حتى اقتنع خلالها السيرامى بإمكانيات العينى العلمية ، فدعاه للتوجه معه إلى القاهرة ، فلم يتردد العينى ولو لحظة واحدة فى اقتناص هذه الفرصة ، فحضر مع شيخه السيرامى إلى القاهرة سنة ٧٨٨ هـ /١٣٨٦م ، وانخرط فى سلك صوفية المدرسة الظاهرية برقوق ، فاستفاد من بقائه بها ،إذ كان قريباً من شيخه السيرامى ، فقرأ عليه مجموعة من الكتب القديمة فى الفقه والأصول والمعانى(٢) . كما أن وجود العينى بالقاهرة أتاح له فرصة اللقاء والأخذ عن بعض علمائها ، أمثال : زين الدين عبدالرحيم العراقى ، والشيخ عمر بن رسلان ، وسراج الدين عمر البلقينى ، وقطب الدين عبد الكريم ابن محمد ، وعلاء الدين الضوى ، وتغرى برمش بن يوسف الفقيه ، وغيرهم .

---

(١) عن المدرسة النورية انظر : النعيمى : الدارس ، ج١ ، ص٤٠٦ .
(٢) السخاوى : الضوء اللامع ، ج١٠ ، ص١٣١ .

وقد أظهر العينى نبوغاً واضحاً فى القاهرة ، فكثر حساده الذين انتهزوا وفاة شيخه السيرامى سنة ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م ، وقد كان سنده ، وأوقعوا بينه وبين الأمير جهاركس الخليلى أمير آخور ، الذى أمر بنفيه ، ولم يشفع له من النفى إلا شيخ الإسلام سراج الدين البلقينى ، فبقى مدة فى القاهرة ، إلا أنه شعر بأن الأمور لاتسير حسبما يريد ، لهذا قرر العودة إلى مسقط رأسه عينتاب فى ربيع الآخر سنة ٧٩١هـ / ١٣٨٨م .

كانت هذه المرحلة ضرورية فى حياة العينى ، إذ كانت مرحلة التجربة والاختبار ، والمعاناة والابتلاء ، فضلاً عن كونها مرحلة الاطلاع والتثقف ، إذ كوّنت شخصيته ، وعرّفت الناس قدره ، وحققت شهرته وفضله ، حتى كتب ابن تغرى بردى عنه « فريد عصره ووحيد دهره ، عمدة المؤرخين ومقصد الطالبين »[١] .

على أية حال اشتغل العينى بعد رجوعه إلى عينتاب بالتدريس والإفتاء والوعظ ، نائياً بنفسه عن شئون السياسة ، إلا أن حوادث الدهر لم تتركه يهنأ بحياته ، فقد حدث فى الدولة الجركسية صراع بين كل من يلبغا ومنطاش ضد السلطان برقوق ، فتصدى العينى بالكلمة للمعارضين لبرقوق حتى أباح للناس قتالهم ، مما أوغر صدر منطاش عليه ؛ فحاصر عينتاب سنة ٧٩٢ هـ / ١٣٨٩م ، مما اضطر العينى للاحتماء بقلعة المدينة ، وظل بها حتى فك منطاش الحصار عنها .

ورحل العينى وأسرته إلى حلب سنة ٧٩٣هـ / ١٣٩٠ م ، إلا أنه لم يجد فيها ذاته ، فتوجه إلى القاهرة بعد أن عركته الحياة ، ورأى بثاقب بصره أنه لا مقام له بها إلا إذا كان قريباً من صانعى القرار ؛ لهذا اقترب من الأمراء والسلاطين وصادقهم ، أمثال الأمير جكم من عوض ، وتغرى بردى القردمى ، وقلمطاى العثمانى[٢] ، فقدموه للسلطان الظاهر برقوق ، فأعجب بعلمه ومنطقه ، فطلب منه تعليم المماليك الأتراك الفقه على مذهب الإمام أبى حنيفة ، فأثبت قدرة فائقة . فلما تولى الناصر فرج بن برقوق أمر السلطنة ، عين العينى فى حسبة القاهرة وضواحيها ، فى مستهل ذى الحجة سنة ٨٠١هـ/١٣٩٩م ، بدلا من تقى الدين أحمد بن على المقريزى[٣] .

---

(١) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٥ ، ورقة ٣٤٠ .(مخطوط بدار الكتب المصرية ، تاريخ تيمور ، رقم ١٢٠٩) [ميكروفيلم ٥٣٣٥٩] .

(٢) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٥ ، ص١٤١ ؛ السخاوى : الذيل على رفع الإصر ، ص٣٣٢ ؛ السخاوى : الضوء اللامع ، ج١٠ ، ص١٣٢ .

(٣) المقريزى : السلوك ، ج٣ ، ص٩٧٠ ؛ السخاوى : الضوء اللامع ، ج٣ ، ص١٣٢ .

فكان هذا بداية الصراع بين العينى والمقريزى ، ذلك الصراع الذى استمر بينهما حتى توفى المقريزى ، غير أن العينى لم ينعم كثيراً بهذا المنصب ، إذ عزل سنة ٨٠٢ هـ/ ١٣٩٩م ؛ فخلفه جمال الدين الطنبدى عن طريق البذل ، إلا أنه لم يستمر فيه أكثر من ثلاثة أشهر ، ثم أعيدت الحسبة للعينى مرة ثانية ، ولكنه لم يستمر فيها طويلاً حيث صرف عنها بالشيخ تقى الدين المقريزى . وقد تكرر صرفه وإعادته لحسبة القاهرة أكثر من مرة خلال عصر سلاطين الجراكسة وحتى وفاته .

وقد عمل العينى فى عدة وظائف منها ؛ ناظر الأحباس ، وعمل بالوعظ والفتوى ، ودرس الفقه بالمدرسة المحمودية ، كما برع فى وظيفة القضاء .

وقد شغل نفسه بتأليف الكتب وتصنيفها ، من ذلك كتاب « معانى الأخبار فى رجال معانى الآثار» ، «المقاصد النحوية فى شرح شواهد شروح الألفية» .

ولم ينعم العينى كثيراً بالبعد عن الوظائف العامة والتفرغ للتأليف ؛ ففى سنة ٨١٩هـ/ ١٤١٦م كلفه سلطان مصر المؤيد شيخ بتولى الحسبة ، فكان همه الأول معالجة المشكلة الاقتصادية خاصة الخبز ، وقد نجح فى ذلك ، فازداد حنق حساده عليه ، خاصةً ابن البارزى الذى كان له ثقله السياسى لدى المؤيد شيخ ، فأوعز إليه بإقالة العينى وتولية ابن شعبان بدلاً منه ، فتم ذلك ، إلا أن السلطان خلع عليه بوظيفة نظر الأحباس فى السابع والعشرين من ربيع الأول سنة ٨١٩هـ /١٤١٦م ، فكان هذا ترضية له .

وفى الثامن عشر من ربيع الأول سنة ٨٢٤ هـ /١٤٢٠م ، كلف المؤيد شيخ العينى بالتوجه إلى بلاد ابن قرمان (قونية) ، لكشف أخبارها والحصول من نوابها على يمين الولاء ، فالتقى بأمير البلاد على باك بن قرمان ، ونجحت مهمته ، فأعجب المؤيد شيخ بالعينى ، وسمح له بالدخول إلى قصره أربعة أيام دون وساطة ، وكان ينوى تعيينه فى الحسبة ، لولا أن ابن البارزى وقف حجر عثرة فى ذلك ، فتم تعيين إبراهيم بن الحسام فيها[1] .

(١) الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ، ج٢ ، ص٤٧٣ .

ولقد تبسم الحظ للعينى بعد تولى الظاهر ططر للسلطة سنة ٨٢٤ هـ/١٤٢٠م ، فقد كانت تربط بينهما علاقة حميمة ، فألف العينى له كتاب « الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر» ، و «القدورى» فى فقه الحنفية ، وترجمه للغة التركية بناء على أمر ططر[١] .

ولما تولى الأشرف برسباى حكم مصر فى ربيع الأول سنة ٨٢٥هـ/ ١٤٢٢م ، قَرَّب العينى منه ، وأسند إليه حسبة القاهرة ومصر ، فضلاً عن النظر فى الأحكام الشرعية وبذلك اتسعت سلطات العينى ، إلا أنه واجه فى عام ٨٢٨ هـ/١٤٢٤م ثورة من العامة الجياع ؛ بسبب نقص الخبز فى الأسواق ، وقد شَهَّر المقريزى ، وابن حجر بهذا الأمر لمنافستهما للعينى[٢] ، ولكن العينى ظل فى الحسبة حتى المحرم سنة ٨٢٩ هـ/١٤٢٥م وتولاها بعده الأمير أينال الششمانى[٣] ، فانهارت الحياة الاقتصادية فى عهده[٤] .

وقد عرف السلطان قدرات العينى العلمية والإدارية والفقهية ، فأراد أن يستثمرها فى أفضل عمل ، ومن ثم أوكل إليه منصب قاضى القضاة ، وهو أرفع المناصب الدينية فى البلاد ، وكان العينى مثالاً للقاضى المؤمن برسالته ، لاتأخذه فى الحق لومة لائم ، يؤكد هذا قول الأشرف برسباى لأمرائه وأعوانه «لولا العينى ماكنا مسلمين» [٥] .

وبالرغم من معرفة الحكام لقدر العينى فإن بعضهم وقع تحت تأثير الحاقدين والحساد له ، فعزل العينى عن القضاء ، وتولى بدلاً منه عبد الرحمن التفهنى فى صفر سنة ٨٣٣ هـ/ ١٤٢٩ م ، وكُلف العينى بتولى الحسبة إضافة لما بيده من الأحباس ، وكان ذلك فى الرابع من ربيع الآخر سنة ٨٣٣ هـ/ ١٤٢٩ م [٦] .

وفضلاً عما سبق قام العينى بدور المستشار الخاص للشئون السياسية والثقافية والدينية والتعليمية للسلطان برسباى ؛ إذ كان يقوم نيابة عنه باستقبال بعض الوفود [٧] ، كما كان يقرأ الرسائل الواردة له من الدول والولايات المجاورة ، بالإضافة إلى قيامه بدور المترجم للسلطان ، من العربية إلى التركية وبالعكس .

(١) السخاوى : الذيل على رفع الإصر ، ص٤٣٤ ؛ السخاوى : الضوء اللامع ، ج١٠ ، ص١٣٢ - ١٣٣ .
(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج١٤ ، ص٢٨٢ .
(٣) الصيرفى : نزهة النفوس والأبدان ، ج٣ ، ص٩٩ .
(٤) المقريزى : الخطط ، ج٤ ، ص٧١٠ .
(٥) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٥ ، ص٣٤٣ .
(٦) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٥ ، ص٣٤٣ ؛ ابن حجر : إنباء الغمر ، ج٣ ، ص٤٣٥ .
(٧) ابن حجر : إنباء الغمر ، ج٣ ، ص٤٦٠ .

وكان يقرأ له تاريخ الأمم السابقة ، ويبين له مايتخذ منها من عبر[١] ، كما يعلمه أمور الدين وقواعد العدل ، والبعد عن الظلم والقهر ، وحسن معاملة العلماء خاصة علماء الدين . ومما يرويه المقريزى فى هذ الشأن ؛ أن العينى طلب من السلطان أن يوسِّع على قراء البخارى بالقلعة فى شعبان ورمضان ، فخلع على أكثر من عشرين عالماً صوفاً مربعاً ، وسنجاباً طرياً[٢] .

وكانت شفاعة العينى لدى السلطان لاترد ، فيقال أن العينى عندما طلب من السلطان العفو عن الفقيه أحمد الكورانى ، الذى كان قد قرر التشهير به ، وضربه ونفيه خارج البلاد ، قبل السلطان شفاعته فيه .

على أية حال وصل العينى إلى قمة التألق الوظيفى فى عصر السلطان برسباى ، إذ عاد مرة ثانية إلى القضاء فى السابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٨٣٥هـ/١٤٣١م ، بالإضافة إلى الحسبة ونظر الأحباس ، وهى أهم الوظائف فى الدولة . كذلك كان للعينى الفضل فى تشجيع السلطان برسباى على قيامه بالغزوات البحرية ضد جزيرة قبرص سنة ٨٢٧ هـ / ١٤٢٣ م التى انتصر فيها .

ولما مات برسباى وتولى جقمق ، عزل العينى عن القضاء ، وقد لزم العينى بيته إلى أن عينه الملك الظاهر جقمق فى حسبة القاهرة مرتين[٣] ؛ مرة فى ربيع الأول سنة ٨٤٤هـ/ ١٤٤٠م ، ومرة فى ٢٧ شوال سنة ٨٤٦ هـ / ١٤٤٢ م . ثم عزل فى صفر سنة ٨٤٧هـ/ ١٤٤٣م ، وبعدها ظل بعيداً عن السلطة حتى توفى فى ذى الحجة سنة ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م .

مكانة العينى العلمية :

تحدد المكانة العلمية لأى عالم من خلال شخصيته وإبداعاته وإنتاجه العلمى ، وآراء علماء عصره فيه .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم ، ج١٥ ، ص١١٠ ـ ١١١ .
(٢) المقريزى : السلوك ، ج٤ ، ص٦٦٧ .
(٣) ابن تغرى بردى : المنهل الصافى ، ج٥ ، ص٣٤٤ .

وإذا طبقنا هذه القواعد على العينى نجده كوكب عصره ، وشيخ معاصريه وإمامهم ، وهذا بشهادة هؤلاء المعاصرين وغيرهم . فالمؤرخ ابن تغرى بردى يصفه بقوله« فريد عصره وعمدة المؤرخين[١]» .

والسخاوى يقول فيه « كان إماماً عالماً علامة ، عارفاً بالتصريف والعربية وغيرها ، حافظاً للتاريخ واللغة ، كثير الاستعمال لها ، مشاركاً فى الفنون ، لايمل من المطالعة والكتابة »[٢] .

وقد ركز الشوكانى[٣] على عطاء العينى العلمى ، فقال : «وانتفع به الناس وأخذ عنه الطلبة من كل مذهب» . وابن العماد الحنبلى يقول عنه : «كان فصيحاً ، عارفاً للغتين العربية والتركية ، قرأ وسمع ما لا يحصى من الكتب والتفاسير ، وبرع فى الفقه والحديث والتفسير واللغة والنحو والتصريف والتاريخ ، وكان أحد أوعية العلم ، وأخذ عنه مالا يحصى»[٤] .

واللكنوى ، يصف العينى بأن له « سعة نظر فى الفنون كلها »[٥] .

ويستشف مما سبق أن العينى كان جهبذ عصره ، ولم يصل إلى هذه المرتبة إلا بعد أن قطع شوطاً طويلاً صنع من خلاله هذا النجاح ، ولعل من عوامل ذلك رحلاته العلمية وماشاهده من خلالها ، فضلاً عن التراكمات التراثية التى حصلها من شتى فنون المعرفة التى اطلع عليها ويأتى فى مقدمة هذه المصادر ، علوم القرآن الكريم والتفسير ، التى كانت المنهل الذى استقى منه العينى ثقافته ، وشكلت تكوينه العلمى والأدبى . وقد تفاعل العينى مع كل العلوم التى درسها ؛ وكان من نتيجة ذلك أن بدأ مشوار حياته مبكراً فى التأليف فى أغلب فنون عصره ، فكان من أهم المصنفات التاريخية التى كتبها : «عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان» ، «السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد أبى النصر شيخ» ، «سيرة الملك الأشرف» ، «الروض الزاهر فى سيرة الملك الظاهر ططر» ، «الجوهرة السنية فى تاريخ الدولة المؤيدية» ، وله بالتركية « تاريخ الأكاسرة» [٦] . كما كان له «تاريخ

---

(١) ابن تغرى بردى : الدليل الشافى ، ج٢ ، ص٧٢٢ ، ترجمة رقم ٢٤٦٥ .

(٢) السخاوى : الضوء اللامع ، ج١٠ ، ص١٣٣ .

(٣) الشوكانى : البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع ، ج٢ ، ص٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٤) ابن العماد : شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، ج٧ ، ص٢٨٧ - ٢٨٨ .

(٥) اللكنوى : الفوائد البهية فى تراجم الحنفية ، ص٢٠٨ .

(٦) الزركلى : الأعلام ، ج٧ ، ص١٦٣ .

البدر فى أوصاف أهل العصر» وهو مختصر لعقد الجمان ، «مختصر المختصر» ، وهو «مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر» ، «التاريخ الكبير على السنين» فى عشرين مجلداً اختصره فى ثلاثة مجلدات ، وكتاب «التاريخ الصغير» فى ثلاثة مجلدات ، و«سيرة مغلطاى» (١) .

العينى وعلماء وعصره :

شهد القرن الثامن الهجرى/الرابع عشر الميلادى نهضة فكرية وثقافية فى مصر والشام ، ساعد على قيامها ما وفرته دولة المماليك من بعض الجوانب فى مجال الحرية الفكرية ، والإمكانات الاقتصادية ، إلى جانب هجرة كثير من علماء العصر إلى مصرأمام الزحف المغولى ، فتجمعت فى البلاد كوكبة من العلماء أثروا الحياة العلمية والثقافية ، وتركوا لنا ثروة علمية فى شتى فنون المعرفة الإنسانية ، وكان من قمم هذا العصر وشوامخه بدر الدين العينى المتوفى سنة ٨٥٥ هـ / ١٤٥١م ، وابن حجر العسقلانى المتوفى سنة ٨٥٢ هـ / ١٤٤٨ م ، والمقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م ، وناصر الدين بن البارزى وغيرهم .

وكان كل واحدمن هؤلاء العلماء يعرف قدر الآخر ويكن له غير قليل من الاحترام ، إلا أن الاختلاف فى وجهات النظر وارد عند كل منهم سواء أكان من الناحية المذهبية أو العلمية أو السياسية ، مما جعل حدة المنافسة بينهم شديدة ، فالعينى كان حنفياً ، وابن حجر العسقلانى كان شافعياً ، وكان الاختلاف المذهبى بينهما سبباً لقيام مناقشات فقهية ، تحولت فى النهاية إلى شبه صراع مذهبى ، تبين عندما عزل العينى عن القضاء ، فقام ابن حجر بقطع الخطبة عن مسجد القاضى بدر الدين حسن بن سويد ، بحجة أن المذهب الشافعى لايجيز تعدد خطبة الجمعة فى المصر الواحد(٢) .

كما اشتدت المنافسة أيضاً بين العينى والمقريزى ؛ إذ كان كل منهما يمثل قمة علمية شامخة فى شتى مجالات الحياة ، فعلى الصعيد العلمى حاول كل منهما أن

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن مؤلفات العينى . انظر : الضوء اللامع ، ج١٠ ، ص١٣٣ ـ ١٣٥ .
(٢) السخاوى : التبر المسبوك ، ص٩ ـ ١٠ .

يتصدر مقدمة مؤرخى عصره ، ليس هذا فحسب بل إن الصراع بينهما على وظيفة حسبة القاهرة وضواحيها تأجج بينهما ، خاصة بعد أن عزل السلطان الناصر فرج بن برقوق الشيخ المقريزى من الحسبة ، وولاها العينى سنة ٨٠١ هـ/١٣٩٩ م . فكان هذا الأمر بمثابة القشة التى قصمت ظهر البعير ، إذ أخذ المقريزى يكيل التهم للعينى ، ويصفه بممالأة الحكام ، وكان رد العينى عليه أن وصفه بالجهل وعدم المعرفة[1] .

ولم يسلم المقريزى من نقد العينى حتى بعد وفاته ؛ إذ ذكر عند ترجمته له أنه «كان مشتغلاً بكتابة التواريخ ، ويضرب الرمل»[2] . وفى هذا تقليل من قيمة المقريزى العلمية ، إذ لا يجتمع العلم والدجل .

وقد شرب العينى من الكأس التى سقى منها المقريزى ؛ فلم يسلم من نكاية المنافسين له من أرباب الوظائف ، أمثال ناصر الدين بن البارزى - كاتب السر - الذى نجح فى إيغار صدر السلطان المؤيد شيخ ، فأبعده عن الحسبة . كما نجح ابن البارزى أيضاً فى الإيعاز إلى صهره السلطان جقمق ، فأبعد العينى عن القضاء عام ٨٤٢ هـ/ ١٤٤١م . ولا يعنى هذا أن العينى كان مضطهداً من كل معاصريه ، وإنما كانت الحرب بينه وبين المنافسين له بسبب نجاحه وتبوئه المناصب العليا التى كانوا يحلمون بتقلدها .

مصادر العصر الأيوبى التى اعتمد عليها العينى :

من أشهر من نقل عنهم العينى عند كتابته عن العصر الأيوبى القاضى الفاضل - (عبد الرحيم البيسانى المتوفى سنة ٥٩٦ هـ / ١٢٠٠م) الذى كان من ألصق الناس بصلاح الدين . وقد عاصر فترة انتقال الحكم من الفاطميين إلى الأيوبيين . وعمل بمثابة مستشار خاص لصلاح الدين ، وقد بلغت ثقته به حداً كبيراً حتى أنابه فى إدارة شئون مصر فى الفترة من سنة ٥٨٥ - ٥٨٨ هـ / ١١٨٩ - ١١٩٢م إبان حربه ضد الحملة الصليبية الثالثة . واعترف صلاح الدين بفضله بقوله « ما فُتحت البلاد بالعساكر إنما فُتحت بكلام القاضى الفاضل» . وهذا يؤكد خصوصية دور القاضى الفاضل لدى صلاح الدين .

(١)انظر عقد الجمان ، ج٢٥ ، ورقة٥١ . مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ١٥٨٤ تاريخ .

(٢)عقد الجمان ، ج١٩ ، ورقة ٢٣٤ ؛ ج٢٥ ، ورقة ٧٢٥ .

كما نقل العينى أيضاً عن العماد الأصفهانى ؛ وهو عماد الدين أبو عبد الله بن صفى الدين أبو الفرج محمد بن نفيس الدين ، الملقب بالعماد الكاتب ، المتوفى سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠١م ، الذى يعد حجة فى فترة من فترات العصر الأيوبى ، بحكم عمله كاتباً فى ديوان الإنشاء بمصر فى عصر صلاح الدين ، ولازمه فى حله وترحاله ، حتى أصبح بمثابة سكرتير خاص .

وقد اقتبس العينى من كُتب العماد الأصفهانى الكثير ؛ خاصة «البرق الشامى» ، «الفتح القسى فى الفتح القدسى» ، «خريدة العصر وجريدة القصر» ، فضلاً عن بعض أشعار ديوانه . وهذه الكتب تناولت أحداثاً هامة وأخباراً قيمة ؛ فالبرق الشامى ذكر حياة العماد الأصفهانى فى العراق ، منذ كان فى خدمة السلاجقة وحتى وفاة صلاح الدين الأيوبى ، أى من سنة ٥٦٢ هـ - ٥٨٩ هـ /١١٦٧ - ١١٩٣م .وفى هذه الفترة اتصل بنور الدين محمود ومن بعده بصلاح الدين الأيوبى .

أما « الفتح القسى» فقد تناول تحرير فلسطين وبلاد الشام من يد الفرنجة فى الفترة من سنة ٥٨٣ هـ - ٥٨٩هـ / ١١٨٧م - ١١٩٣م .

أما الكتاب الثالث «الخريدة» فقد غلب عليه الطابع الأدبى . وهو مقسم إلى عدة أقسام ؛ قسم عن شعراء الشام ، قسم عن شعراء مصر ، قسم عن شعراء العراق ، وقسم خاص بشعراء اليمن والمغرب .

كذلك اعتمد العينى على كتابى ابن الأثير - (على بن أحمد بن أبى الكرم) - المتوفى سنة ٦٣٠ هـ /١٢٣٣ م ؛ فالأول كتاب «التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية» وهو يتناول تاريخ ملوك الموصل من الأتابكة فى الفترة من سنة ٤٧٧ - ٦٠٧هـ / ١٠٨٤ - ١٢١١ م .

والثانى كتاب «الكامل فى التاريخ» وهو موسوعة كبيرة فى التاريخ العام للعالم الإسلامى . ابتدأه بأول الزمان ، وأنهاه بعام ٦٢٨هـ/ ١٢٣١م .

كذلك نقل العينى من كتاب «الروضتين فى أخبار الدولتين النورية والصلاحية» ، لأبى شامة - (شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل المقدسى) ، المتوفى سنة

٦٦٥هـ/١٢٦٧م . وهذا الكتاب سجل فيه أبو شامة أغلب ماكتبه ابن أبى طى - فتاريخ ابن أبى طى مصدر على جانب كبير من الأهمية ، لأنه تناول بعناية ودقة تاريخ العالم الإسلامى كله ، وأعطى مدينة حلب قدرًا ملحوظاً من اهتمامه ، وذكر حاجى خليفة أن ابن أبى طى رتب تاريخه على طريقة الحوليات (١) . وقد فُقدت كتب ابن أبى طى ، والفضل يرجع إلى أبى شامة فى معرفتنا بما كتبه ابن أبى طى . وقد تميز أسلوب ابن أبى طى بأنه مجرد من الزخرف ، واقعى ، مختصر ، مباشر فى معالجته للموضوعات .

وترجع أهمية كتاب «الروضتين» أيضا إلى أنه نقل لنا ماكتبه العماد الكاتب فى كتابه « البرق الشامى» ، وهذا الكتاب الأخير فقدت معظم مجلداته ، ولا يوجد منه سوى الجزء الثالث والجزء الخامس بمكتبة البودليان بجامعة أكسفورد .

كذلك أخذ العينى من كتاب «النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية » المعروف بسيرة صلاح الدين ، لابن شداد -(بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن شداد) المتوفى سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤م . وأهمية هذا الكتاب بالنسبة للعينى أن ابن شداد كان من بين معيَّة صلاح الدين ؛ التحق بخدمته سنة ٥٨٤ هـ /١١٨٨م ، ولم يفارقه فى سلم أو حرب منذ ذلك التاريخ وحتى وفاة صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م .

لذلك كان ابن شداد شاهد عيان على العصر ، وهو يوضح ذلك بقوله فى حوادث سنة ٥٨٤ هـ حيث قال : « منذ هذا التاريخ ماسطرت إلا ما شاهدته أو أخبرنى به من أثق به خبراً يقارب العيان » . وقد ولاه صلاح الدين قضاء العسكر وقضاء القدس بعد فتحها . ولما توفى صلاح الدين اتصل ابن شداد بالملك الظاهر بن صلاح الدين صاحب حلب .

نسخ المخطوطة :

للمخطوطة نسخ عديدة اعتمدنا على نسختين ؛ رمزنا للنسخة الأولى بالرمز (أ) ، وللنسخة الثانية بالرمز (ب) وهى النسخة المساعدة .

---

(١) حاجى خليفة : كشف الظنون ، ج١ ، ص٢١٤ . ط . أولى .

النسخة الأولى : مصورة من معهد المخطوطات العربية عن مخطوطة مكتبة أحمد الثالث بتركيا رقم ١٩/٢٩١١ وقد عثرت عليها الباحثة الفاضلة/نعمات عباس ، فلها الشكر ، وهى تقع فى تسعة عشر جزءاً ، يهمنا منها الجزءين الآتيين :

الجزء الثانى عشر : من سنة ٥٢١ هـ إلى سنة ٥٧٨هـ . وهو مكون من ٢٢٧ ورقة مكتوبة بخط المؤلف سنة ٨٣١ هـ ، ومسطرتها ٣١ سطراً .

الجزء الثالث عشر : مأخوذ عن مكتبة ولى الدين بتركيا ، تحت رقم ٢٣٩٠ . وتبدأ حوادثه من سنة ٥٧٩ هـ إلى سنة ٦٢٠ هـ . وهذه النسخة بخط المؤلف أيضاً ، كتبها سنة ٨٣٢ هـ . وعدد أوراقها ٢٢١ ورقة ، ومسطرتها ٣١ سطراً .

أما النسخة الثانية : فقد رمزنا لها بالرمز ب ، وهى نسخة ملفقة تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ ، بدار الكتب المصرية ، وتتكون من ستة وثلاثين جزءاً . اعتمدنا فيها على الأجزاء الآتية :

القسم الثالث من الجزء الحادي والعشرين [ميكروفيلم ٣٥٧٥٥] ويشتمل على السنوات : من ٥٢١ هـ ـ ٥٧٨ هـ .

القسم الأول من الجزء الأول [ميكروفيلم ٣٥٥٧١] ويشتمل على السنوات : من ٥٧٩ هـ ـ ٥٩٢ هـ .

القسم الثانى من الجزء السابع عشر (ميكروفيلم ٣٧٦٦٦) ويشتمل على السنوات : من ٥٩٢هـ / ٦٢٠ هـ .

القسم الأول من الجزء الثامن عشر (ميكروفيلم ٣٥٧٥٦) ويشتمل على السنوات : من ٦٢١ هـ ـ ٦٣٥هـ .

القسم الثانى من الجزء الثامن عشر (ميكروفيلم ٣٦٣٩٥) ويشتمل على السنوات : من ٦٣٥هـ ـ ٦٥٦ هـ .

وقد اعتمدنا على هذه النسخة كنسخة مساعدة حتى سنة ٦٢٠ هـ . ثم اعتمدناها أصلاً بعد ذلك لاستكمال السنوات من ٦٢١ هـ إلى ٦٤٧ هـ ، لعدم وجود هذه السنوات فى نسخة معهد المخطوطات التى بين أيدينا .

منهج التحقيق :

حرصنا فى عملنا على الالتزام بالنص الأصلى الذى جاء بالنسخة الرئيسة من المخطوط ، لكن الأمر فى بعض الأحيان كان يتطلب التدخل من أجل تقويم النص ، نتيجة لتصحيف أو تحريف وقع فى بعض الكلمات ، ربما يكون من الناسخ . بالإضافة إلى تكملة بعض الكلمات أو العبارات التى سقطت من المؤلف أو الناسخ بعد الرجوع إلى النصوص التى نقل عنها من المصادر . وحينئذ كنا نضع ما سقط بين حاصرتين .

كما قمنا بتقسيم الصفحات إلى فقرات مع مراعاة وضع علامات الترقيم ، حتى يسهل على القارئ متابعه النص وتحصل الاستفادة الكاملة من التحقيق .

ثم قمنا بتحقيق أسماء الأعلام والأماكن والبقاع . كما استخرجنا التعريفات الخاصة بالمصطلحات الواردة فى النص .

وبعد ، ،

الحمد لله الذى وفقنا لهذا العمل بفضله ومنه ، وأول ما يعن لنا هنا بعد شكر الله تعالى ، التقدم بالشكر والعرفان للسيد/ **سمير غريب** رئيس مجلس إدارة الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية ، والأستاذ/ **السيد حسن عرب** مدير عام مركز تحقيق التراث ، كما أتقدم بشكرى وتقديرى للزميلة الفاضلة الدكتورة/ **لبيبة إبراهيم مصطفى محمد** على الجهد الكبير الذى بذلته فى جميع مراحل تحقيق هذا الكتاب ، ولمراجعتها الدقيقة للتجربة الأخيرة للكتاب قبل اعتماده للطبع ، وللباحثات الفضليات اللاتى ساهمن معنا فى بدايات هذ العمل ثم حالت ظروف عملهن من الاستمرار ، وهن :

السيدة/ نجوى مصطفى كامل ، السيدة /**نفيسة محمد رشاد** ، السيدة/ **قدرية إبراهيم** ، السيدة/ **خلود مصطفى** . كما نشكر السيدة/ **إيزيس سامح زكى** التى قامت بنسخ الجزء الأكبر من هذا السفر .

كذا نتقدم بالشكر للسيد المهندس/ مدير مطبعة دار الكتب وللسادة العاملين معه .

والله من وراء القصد .

دكتور/ محمود رزق محمود

الهرم ــ الأريزونا

تحريرًا فى : ٢٠٠١/٩/١٥م

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الخامسة والستين بعد الخمسمائة★

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستنجد[١] بالله، وصاحب مصر العاضد[٢]، والوزير بها صلاح الدين يوسف بن أيوب[٣]، وقد كتب إلى نور الدين محمود[٤] بن زنكى يستنجده على الفرنج؛ لأنهم حاصروا مدينة دمياط[٥] فى صفر من هذه السنة «خمسين يوما»، بحيث ضيقوا على أهلها، وقتلوا منهم خلقا لا يحصون، وهم فى أمم لا يحصون كثرة، قد اجتمعوا من البرّ والبحر؛ رجاء أن يملكوا الديار المصرية، وخوفا من استيلاء المسلمين على القدس الشريف[٦].

وكتب صلاح الدين إلى نور الدين يطلب منه أن يرسل إليه بأمداد من الجيوش؛ فإنه إن خرج من مصر خلفه أهلها بسوء، وإن غفل عن الفرنج أخذوا دمياط وجعلوها معقلا لهم، يتقوون به على[٧] أخذ مصر، فأرسل إليه ببعوث كثيرة يتلو بعضها بعضًا.

(★) يوافق أولها ٢٥ سبتمبر ١١٦٩ م.

(١) هو أبو المظفر يوسف المستنجد بالله بن المقتفى، الخليفة العباسى. تولى الحكم من سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠م إلى وفاته سنة ٥٦٦ هـ/١١٧١م. انظر: ابن الأثير: التاريخ الباهر، ص١٥٠-١٥٥، القاهرة ١٩٦٣م؛ الكامل فى التاريخ، ج١٠، ص٢٨-٢٩، بيروت ١٩٨٧م؛ سبط ابن الجوزى: مرآة الزمان، ج٨، ص ١٧٧-١٧٨، شيكاغو ١٩٠٧م؛ ابن واصل: مفرج الكروب، ج١، ص١٩٥-١٩٦، القاهرة ١٩٥٣م؛ السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص٤٤٢-٤٤٤، مصر ١٩٥٩م.

(٢) هو أبو محمد عبد الله الملقب بالعاضد بن يوسف بن الحافظ محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم، العبيدى الفاطمى، آخر ملوك العبيديين، توفى بمصر سنة ٥٦٧هـ/١١٧٢م انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج٣، ص١٠٩-١١٢، بيروت، دار صادر؛ ابن دقماق: الجوهر الثمين، ج١، ص٢٦٧-٢٦٩، بيروت ١٩٨٥م؛ المقريزى: اتعاظ الحنفا، ج٣، ص٣٢٨-٣٢٩، القاهرة ١٩٦٧م (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية). وستأتى ترجمته فى هذا الجزء فى وفيات سنة ٥٦٧هـ.

(٣) هو أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شاذى، الملك الناصر صلاح الدين، صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية، توفى بدمشق سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٤م انظر: العماد الكاتب: الفتح القسى، ص٦٢٧-٦٢٩؛ وفيات الأعيان، ج٧، ص١٣٩-٢١٨؛ مرآة الزمان، ج٨، ص ٢٧٢-٢٧٩.

(٤) هو الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن عماد الدين زنكى بن قسيم الدولة آق سنقر التركى، سلطان الدولة النورية، توفى بدمشق سنة ٥٦٩ هـ/١١٧٣م. انظر تفصيل ترجمته فيما سيأتى من هذا الجزء؛ الباهر، ص ١٦١-١٦٥؛ مرآة الزمان، ج٨، ص١٩١-٢٠٥؛ وفيات الأعيان، ج٥، ص١٤٨-١٥١؛ أبو شامة: الروضتين، ج١ ق٢، ص٥٧٧-٥٨٥، القاهرة ١٩٦٢م.

(٥) عن تفاصيل حصار الفرنج لدمياط، انظر: البندارى: سنا البرق الشامى، ص ٨٦-٨٧، تحقيق فتحية النبراوى، مصر ١٩٧٩م؛ الباهر، ص١٤٤؛ الروضتين، ج١ ق٢، ص٤٥٦-٤٥٧؛ مفرج الكروب، ج١، ص١٧٩.

(٦) «وخوفًا من المسلمين أن يملكوا القدس الشريف». فى نسخة ب.

(٧) «إلى» فى نسخة ب.

واغتنم نور الدين غيبة الفرنج عن بلادهم فصمد إليها فى جيشه فجاس خلال الديار لهم «وقتل من رجالهم»[١] وسبى من نسائهم وأطفالهم شيئًا كثيرًا .

وأجلت الفرنج عن دمياط ؛ لأنه بلغهم أن نور الدين (رحمه الله) قد حصر بلادهم ، وقتل خلقًا من رجالهم ، وسبى كثيرًا من نسائهم ، وغنم مالاً جزيلاً من أموالهم . ولما أجلت الفرنج عن دمياط ؛ فرح المسلمون ونور الدين وصلاح الدين على ذلك فرحًا شديدًا ، وأنشد الشعراء فى ذلك كل منهم قصيدًا[٢] .

وفى تاريخ[٣] بيبرس : وفيها قدم الفرنج دمياط وحاصروها ، وذلك أن أسد الدين [شيركوه][٤] لما ملك مصر خاف الفرنج الذين بالساحل فكاتبوا أهل صقلية والأندلس ؛ يستمدونهم ويعلمونهم أنهم خائفون على بيت المقدس ، فأمدوهم بالمال والسلاح والعدد والرجال ، فنزلوا دمياط ظنًا أنهم يملكونها . فأرسل صلاح الدين إليها العساكر برًا وبحرًا ، وأمدهم بالأموال والأسلحة والأقوات ، وسير إلى نور الدين يعلمه بذلك ويشكو إليه ، أنه إن خرج من القاهرة ما يأمن أن تنقض الشيعة أمرنا . فسير إليه نور الدين عسكرًا نجدة ، وسار بنفسه لقصد الفرنج ، فصعد إلى الكرك[٥] وحاصرها . وجاءت الفرنج إلى بيسان[٦] ، فرحل نور الدين عن الكرك للقائهم ، فرجعوا إلى عكا[٧] ، فعاد نور الدين إلى دمشق .

ولما سمع فرنج الشام بنزول الفرنج على دمياط طمعوا ، واشتد أمرهم ، فسرقوا حصن عكار من المسلمين ، وأسروا صاحبها وكان مملوكًا لنور الدين يسمى[١٥٨و] ختلخ[٨] العلم دار وأولاده .

---

(١) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٢) ذكر أبو شامة بعضًا من هذه الأشعار فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٤٦٠ - ٤٦٢ ؛ تاريخ ابن الفرات ، ج١ ، ص٨٢ - ٨٧ .

(٣) يقصد كتاب زبدة الفكرة ، وهو غير موجود بين أيدينا . وانظر الكلام عن هذه الحادثة بالتفصيل فى المصادر المشار إليها سابقًا .

(٤) مابين الحاصرتين إضافة من نسخة ب ، و هو أبو الحارث شيركوه بن شاذى بن مروان الملقب الملك المنصور أسد الدين عم السلطان صلاح الدين ، توفى سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٩م .انظر : وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٤٧٩- ٤٨١ .

(٥) الكرك : اسم لقلعة حصينة جدًا فى أطراف الشام من نواحى البلقاء . ياقوت : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٢٥١- ٢٥٢ .

(٦) بيسان : مدينة بالأردن بالغور الشامى ، وهى بين حوران وفلسطين . معجم البلدان ، ج١ ، ص٧٨٨ ، ٧٨٩ .

(٧) عكا : بلد على ساحل بحر الشام من عمل الأردن . معجم البلدان ، ج٣ ، ص٧٠٧ .

(٨) ختلخ العلم دار : فى الروضتين «خطلخ» ، ج١ ق٢ ، ص٤٥٨ . كان مملوكًا لنور الدين . وكان على حصن عكار لما هاجمه فرنج الشام . انظر : وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٥٢ .

وفى المرآة(١) : وفيها نزلت الفرنج على دمياط يوم الجمعة ثالث صفر ، وجدّوا فى القتال ، وأقاموا عليها ثلاثة وخمسين يوما يضربونها بالمجانيق(٢) ، ويزحفون إليها ليلاً ونهارًا .

ووجه إليها صلاح الدين العساكر مع شهاب الدين(٣) خاله «وتقى الدين»(٤) وطلب من العاضد مالاً فبعث إليه بشىء كثير . فكان صلاح الدين يقول : مارأيت أكرم من العاضد ؛ جهز إلىّ فى حصار الفرنج ألف ألف دينار ، سوى الثياب وغيرها .

واشتغل نور الدين ببلاد الفرنج بالغارات ، ووقع فيهم الفناء . فرحلوا بعد أن مات منهم خلق كثير ، وكان رحيلهم فى ربيع الآخر . وفى شعبان سار نور الدين إلى الكرك ، فنازله وضربه بالمجانيق ، واجتمع ملوك الساحل وجاؤوه فتأخر إلى البلقاء(٥) .

وقال القاضى ابن شداد(٦) : لما رأى نور الدين ظهور الفرنج ونزولهم على دمياط ، قصد شغل قلوبهم ، فنزل على الكرك محاصرًا لها فى شعبان ، وقصده فرنج الساحل ، فرحل عنها ، وقصد لقاءهم ، فلم يقفوا له . ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الداية(٧) بحلب فى رمضان ، فاشتغل قلبه ، لأنه كان صاحب أمره ، فعاد يطلب الشام ، فبلغه خبر الزلزلة(٨) بحلب التى خرَّبت كثيرًا من البلاد . وسار يطلب حلب ، فبلغه موت أخيه قطب

(١) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٧٤ حيث ينقل العينى عنه بتصرف . ويذكر صاحب المرآة فقط أن مدة إقامة الفرنج على دمياط ثلاثة وخمسين يومًا ، انظر ما سبق .

(٢) «المناجنيق» فى المرآة وهى آلة من خشب لقذف الحجر على العدو إلى مسافات بعيدة . القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٢ ، ص ١٣٦- ١٣٧ .

(٣) شهاب الدين محمود الحارمى ، خال صلاح الدين الأيوبى ، توفى سنة ٥٧٣هـ/ ١١٧٧م انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٢٢ ؛ وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٥٤ ، ص١٦٣ .

(٤) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب . وهو الملك المظفر تقى الدين أبو سعيد عمر بن شاهنشاه بن أيوب ابن أخى السلطان صلاح الدين صاحب الديار المصرية ، توفى سنة ٥٨٧ هـ/ ١١٩١م . انظر : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٥٦ - ٤٥٨ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٦٩- ٣٧٠ (ط . دار الكتب العلمية بيروت) .

(٥) البلقاء : كورة من أعمال دمشق ، بين الشام ووادى القرى قصبتها عمان ، انظر : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٧٣٨ .

(٦) انظر قول ابن شداد فى : النوادر السلطانية ، ص ٤٢- ٤٣ حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

(٧) هو مجد الدين أبو بكر بن الداية وسيأتى فى وفيات هذه السنة ، وعن أولاد ابن الداية انظر ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٢٤ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٧٥- ١٧٦ ؛ النعيمى : الدارس ، جـ٢ ، ص٢٥٩ ، القاهرة ١٩٨٨م .

(٨) انظر تفصيل خبر الزلزلة بالشام فيما سيأتى ص٤١-٤٤ .

الدين[١] بالموصل ، وبلغه الخبر وهو بتل باشر[٢] ، فسار من ليلته طالبًا بلاد الموصل . ولما علم صلاح الدين شدة قصد العدو دمياط ، أنفذ إلى البلد ، وأودعه من الرجال ، والأبطال والفرسان ، والميرة ، والآلات ، والسلاح ، ما أمن معه عليه ، ووعد المقيمين فيه بإمدادهم بالعساكر ، والآلات ، وإزعاج العدو عنهم إن نزل عليهم . وبالغ فى العطايا والهبات ، وكان وزيرًا متحكمًا لا يُرد أمره فى شىء . ولما رأى الفرنج عجزهم عن المسلمين ؛ رحلوا خائبين خاسرين ، فأحرقت مجانيقهم ، ونهبت آلاتهم ، وقتل منهم خلق كثير ، وسلم البلد بحمد الله تعالى .

وقال العماد[٣] : أقام صلاح الدين بالقاهرة فى دار ملكه ، ومدار فلكه ، يُنهض إليها المدد بعد المدد ، ويُرسل إليها العُدد بعد العُدد ، وسبق تقى الدين ، ابن أخى السلطان ، إلى دمياط فدخلها ، وكذا شهاب الدين محمود خاله فنزلها . واتَّصل الحصار ، وتواصلت الأنصار ، ودب فى الفرنج الفناء ، وَهبَّ عليهم البلاء ، فرحلوا عنها فى الحادى والعشرين من ربيع الأول .

قال صاحب تاريخ الدولتين[٤] : وبلغنى من شدة اهتمام نور الدين (رحمه الله) بأمر المسلمين حين نزل الفرنج على دمياط ، أنه قرىء عليه جزء من حديث كان له به رواية ، فجاء فى جملة الأحاديث حديث مسلسل بالتبسُّم ، فطلب منه بعض طلبة الحديث أن يَتَبَسَّمَ لتتم السلسلة ، على ما عُرف من عادة أهل الحديث ، فغضب من ذلك وقال : إنى لأستحى من الله تعالى أن يرانى متبسمًا والمسلمون محاصرون بالفرنج . وبلغنى أن إمامًا لنور الدين رأى ليلة رحيل الفرنج عن دمياط فى منامه النبى ﷺ وقال له : أَعْلِم نور الدين أن الفرنج رحلوا عن دمياط فى هذه الليلة ، فقال : يا رسول الله ربما لا يصدقنى ، فاذكر لى علامة يعرفها ، فقال : قل له بعلامة ما سجدت على تل حارم[٥] وقلت : يا رب انصر

---

(١) هو الأتابك قطب الدين مودود بن الشهيد زنكى بن آقسنقر ، صاحب الموصل . تولى السلطنة بعد أخيه سيف الدين غازى سنة ٥٤٤ هـ/ ١١٤٩م . وتوفى قطب الدين فى شوال ٥٦٥ هـ/ يونية ١١٧٠م . انظر ترجمته فى التاريخ الباهر ، ص ٩٢- ٩٤ ، ص١٩٦ ؛ وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٣٨٧- ٣٨٨ .

(٢) تل باشر : قلعة حصينة وكورة واسعة فى شمالى حلب . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٨٦٤ .

(٣) انظر قول العماد فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٤٥٩ حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

(٤) الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٥٩ - ٤٦١ ؛ وانظر أيضًا : مفرج الكروب ، ج١ ، ص١٨٢ .

(٥) تل حارم : حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ١٨٤ . وعن الواقعة التى جرت فى قلعة حارم ، انظر : التاريخ الباهر ، ص١٢٥- ١٢٦ .

دينك ولا تنصر محمودًا . من هو [١٥٨ظ] محمود الكلب حتى «تنصره»[١] !! قال : فانتبهت [٢] ونزلت إلى المسجد ، وكان من عادة نور الدين أن ينزل إليه بغَلَس[٣] ، ولا يزال يتركع فيه حتى يصلى الصبح .

قال : فتعرضت له ، فسألنى عن أمرى ، فأخبرته بالمنام ، وذكرت له العلامة ، إلا أننى لم أذكر لفظة الكلب . فقال نور الدين : اذكر العلامة كلها ؛ وألح علىّ فى ذلك ، فقلتها ؛ فبكى (رحمه الله) وصدّق الرؤيا . وأرّخت تلك الليلة ، فجاء الخبر برحيل الفرنج بعد ذلك فى تلك الليلة .

وأرسل نور الدين إلى العاضد كتابًا ، يهنئه برحيل الفرنج عن ثغر دمياط ، وكان قد ورد عليه كتاب العاضد بالاستقالة من الأتراك فى مصر[خوفًا منهم][٤] ، والاقتصار على[صلاح الدين][٥] وألزامه[٦] وخواصه . فكتب إليه نور الدين يمدح الأتراك ، ويعلمه أنه ما أرسلهم واعتمد عليهم إلا لعلمه بأن قنطاريات[٧] الفرنج ليس لها إلا سهام الأتراك ، فإن الفرنج لا يرعبون إلا منهم ، ولولاهم لزاد طمعهم فى الديار المصرية ، ولحصلوا منها على الأمنية ، فلعل الله أن ييسر فتح المسجد الأقصى مضافًا إلى[نعمه][٨] التى لاتحصى . ولعمارة[٩] التميمى قصيدة منها قوله :

---

(١) «يُنصر» فى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٥٩ .

(٢)«فانتهيت» فى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٥٩ .

(٣) الغلس : ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح . المعجم الوسيط . مادة غلس .

(٤) ما بين الحاصرتين مثبت من الروضتين حيث ينقل العينى عنه ، وهو لازم لإيضاح المعنى . الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٦٠ .

(٥) « أسد الدين» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٦٠ حيث ينقل العينى عنه .

(٦) الألزام هم الأتباع .

(٧) القنطاريات ، مفردها قنطارية : وهى نوع من الرماح يصنع من خشب يعرف باليونانية بهذا الاسم . انظر ماير : الملابس المملوكية ، ص٦٧- ٨٣ ، القاهرة ١٩٧٢ ؛ مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١٨٣ ، حاشية (٢) ؛ راجع أيضًا :
Dozy: Supp. Dict. Ar., T.II, pp.412-413.

(٨)«نعمته» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٦٠ حيث ينقل العينى عنه .

(٩) عمارة اليمنى التميمى سيأتى ذكره بالتفصيل فى وفيات سنة ٥٦٩ هـ/ ١١٨٣م .

مِنْ شَاكِرٍ ، واللهُ أعْظَمُ شَاكِرٍ ... مَا كَانَ مِنْ نُعْمَى بَنِى أَيُّوبِ
طَلَبَ الْهُدى نَصْرَاً ، فَقَالَ وَقَدْ أَتَوْا ... حَسْبِى ، فَأَنْتُم غَايَةَ الْمَطْلُوبِ
جَلَبُوا إلى دِمْيَاطِ عِنْدَ حِصَارِهَا ... عِزَّ الْقَوِىِّ وَذِلَّةَ الْمَغْلُوبِ
وَجَلُوا عَنِ الإسْلام فِيها كُرْبَةً ... لَوْ لَمْ يُجَلُّوها أَتَتْ بِكُرُوبِ
فَالنَّاسُ فِى أَعْمَالِ مِصْر كُلِّهَا ... عُتَقَاؤهم مِنْ نَازِحٍ وقَرِيبِ
إنْ لَمْ تَظُنْ النَّاس قِشْرًا فَارِغاً ... وهُمُ اللُّبَابُ فأنتَ غَيرُ لَبِيبِ

وللشهاب فتيان[1] الشاغورى من قصيدة :

وَلا غَرْوَ أَنْ عَادَ هَزِيمَةً ... وَلَو لَمْ[2] تعُد لَمْ يَبْقَ لِلْشِرْكِ سَاحِلُ
فَقَدْ أَيْقَنَتْ أَعْدَاؤُهُ أَنَّ حَظَّهُم ... لَدَيْهِ رِمَاحُ أُشْرِعَتْ أوْ سَلاسِلُ
وَلَمَّا أَتَوْا دِمْيَاط كَالْبَحْرِ طَامِياً ... وَلَيْسَ لَهُ مِنْ كَثْرَةِ «الْقَوْم»[3] سَاحِلُ
يَزِيدُ عَن الإحْصَاءِ وَ الْعَدِّ جَمْعُهم ... أُلُوفُ أُلُوفُ خَيْلُهم وَ الرَّوَاحِلُ
رَأَوا[دونهم][4] أُسْداً ، بِأَيْدِيهم الْقَنَا ... وَبِيضاً رِقَاقاً أَحْكَمَتْها الصَّيَاقِلُ
وَدَارُوا بِها فِى الْبَحْرِ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ... وَمِنْ دُونِها سَدٌّ مِنَ الْمَوْتِ حَائِلُ
رَجَا الْكَلْبُ ، مَلكُ الرُّومِ إذْ ذَاكَ ، فَتْحَهَا ... فَخَافَ ، فَأَمَّ الْمُلْكَ هَائِلُ[5]
فَعَادُوا عَلَى الأَعْقَابِ مِنْها هَزِيمَةً ... كَأَنَّهُم - ذلاًّ - نعَامٌ جَوَافِلُ
وَمَا أَمَّلُوا أَنْ يَلْحَقُوا بِبِلادِهِم ... لَتَعْصِمَهُم مِمَّا [رأوْه][6] المعَاقِلُ

وللعماد الأصبهانى[7] :

---

(١) هو الشاعر الأديب المعلم ، شهاب الدين فتيان بن على بن فتيان بن ثمال الأسدى الخزيمى الدمشقى الشاغورى ، توفى سنة سنة ٦١٥ هـ/ ١٢١٨م . له ديوان شعر . انظر ترجمته فى العماد الكاتب : الخريدة ، قسم شعراء الشام ، جـ١ ، ص٢٤٧- ٢٥٩ ؛ وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٢٤- ٢٦ .

(٢) «تعد» فى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٦١ .

(٣) «العوم» فى نسخة ب .

(٤) «فيها» فى نسختى المخطوطة أ ، ب والمثبت من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٤٦١ .

(٥) «هابل» فى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٦١ .

(٦) «زواه» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٤٦١ .

(٧) انظر قول العماد فى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٥٩- ٤٦١ .

يا يوسف الحُسْنِ وَالإحسَانِ ، يَا ملكاً — بِجِـدِّه صَـاعِـدًا أَعْـداؤهُ هَبَطُوا
حلَلْتَ مِنْ وَسطِ الْعَلْيَاءِ فِى شَرَفٍ — وَمَرْكَزُ الشَّمْسِ مِنْ أَفْلاكِها الْوسَطُ
هُنِّيت صَوْنَكَ دِمْيَاطَ الَّتِى اجْتَمَعَتْ — لَهَا الْفِرنْجُ فَلا(١) حَلُّوا وَلا رَبَطُوا/ [١٥٩و]
مِصْرٌ بِيُوسُفِها أَضْحَتْ مَشَرَّفَةً — وَكُلُّ أَمْرٍ لَهَا بِالْعَدْلِ مُنْضَبِطُ
وَحِينَ وَافَى صَلاحُ الدِّينِ أَصْلَحَهَا — فَلِلْمَصَالِحِ مِنْ أَيَّامِهِ نَمَطُ

ذكر بقية الحوادث

منها أنه أبطل من الآذان بمصر «حى على خير العمل»[٢] . وأمر صلاح الدين أن يذكر فى الخطبة أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلىّ (رضى الله عنهم) .

ومنها أن شهاب الدين[محمود بن إلياس][٣] بن إيلغازى بن أرتق ، صاحب قلعة البيرة[٤] ، سار فى عسكره ـ وهو مائتا فارس ـ إلى نور الدين وهو بعشترا[٥] . فلما وصل إلى قلعة اللبؤة[٦] من عمل بعلبك[٧] ، ركب متصيدًا فصادف ثلاثمائة فارس من الفرنج ، قد شنوا الإغارة على بلاد الإسلام ، فاتقعوا ، واقتتلوا ، فانهزم الفرنج . وأكثر شهاب الدين فيهم القتل والأسر ، فلم يفلت منهم إلا من لا يُعتد به ، وسار شهاب الدين برؤوس القتلى إلى نور الدين ، فركب نور الدين والعسكر للقائه ، وكان فى جملة تلك الرؤوس رأس مقدم الإستبار[٨] ، صاحب حصن الأكراد[٩] ، وكان من الشجاعة بمحلٍّ كبير ، ولأنه

---

(١) «فما» فى الروضتين ، جـ١ ، ق٢ ، ص٤٦١ .
(٢) انظر تفصيل ذلك فى ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص٦٧٢ـ ٦٧٥ ، دمشق ١٩٥٤م ؛ البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٢٧٨ .
(٣) فى الأصل محمد بن أيلغازى ؛ وفى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٧١ «محمد بن إلياس» ، والمثبت بين الحاصرتين من الباهر ، ص١٤٥ ؛ وانظر : زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، ج٢ ، ص٣٤٦-٣٤٧ ، القاهرة ١٩٥١م .
(٤) قلعة البيرة : هى قلعة حصينة لها رستاق واسع وهى بين بيت المقدس ونابلس . انظر : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٧٨٧ .
(٥) عشترا : موضع بحوران من أعمال دمشق . معجم البلدان ، ج٣ ، ص٦٧٩ .
(٦) «قرية اللبوة» فى الباهر ، ص١٤٥ ؛ انظر أيضًا ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٣٥ ، حيث تكلم عن حصن اللبؤة والرأس بالتفصيل ، وذكر أنهما من أعمال بعلبك .
(٧) بعلبك : مدينة قديمة فيها أبنية عجيبة وآثار عظيمة ، بينها وبين دمشق ثلاثة أيام .انظر : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٦٧٣ .
(٨) الإسبتار ـ الإستبار : أطلق المؤرخون المسلمون هذا اللفظ على فرسان جمعية الهسبتاليين Hospitaliers وقد تأسست هذه الجمعية سنة ١٠٩٩م بعد استيلاء الصليبيين على بيت المقدس . عن هذه الجمعية انظر : المقريزى : السلوك ، جـ١ ق١ ، ص٦٨ . القاهرة ١٩٣٤م .
(٩) حصن الأكراد : حصن منيع حصين على الجبل الذى مقابل حمص من جهة الغرب وهو جبل الجليل ، وهو بين بعلبك وحمص . معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٣٧٦ .

كان شجًا[١] فى حلوق المسلمين ، وكذلك أيضًا كان فيها رأس غيره من مشهورى الفرنج ، فازدادوا سرورًا . وكان ذلك فى سابع عشر شوال من هذه السنة .

ومنها أنه وقعت الحرب بين عبد المؤمن وبين ابن مردنيش[٢] محمد بن سعد ، ملك شرق الأندلس ، وكان اتفق هو والفرنج على عبد المؤمن وابنه بعده ، فاستفحل أمره بعد وفاة عبد المؤمن ، فلما كانت هذه السنة جهز إليه يوسف[٣] بن عبد المؤمن العساكر الكثيرة مع أخيه عمر[٤] بن عبد المؤمن ، فجاسوا بلاده ، وخربوها ، وأخذ مدينتين من بلاده ، وأخافوا عسكره وجنوده ، وأقاموا ببلاده مدة ينتقلون فيها ، ويجبون أموالها .

ومنها أنه كثرت الأذية من عبد الملك[٥] بن محمد بن عطاء ، وتطرق إلى بلاد حلوان[٦] ، وأفسد ، ونهب ، وأخذ الحاج ، فأُنفذ إليه من بغداد عسكر ، فنازله فى قلاعه ، وضايقوه ، ونهبوا أمواله وأموال أهله ، حتى أذعن بالطاعة ، وأنه لا يعود إلى أذى الحاج ولا غيرهم ، فعاد عنهم العسكر .

ومنها أن فى ليلة عيد الفطر رزق السلطان صلاح الدين ولده الملك الأفضل[٧] نور الدين على ، وفرح به فرحًا عظيمًا ، وخلع ، وأعطى ، وتصدق بما بهر به العقول .

ومنها أن نجم الدين أيوب[٨] ـ والد صلاح الدين ـ كان مسيره من دمشق إلى ولده صلاح الدين بمصر فى هذه السنة ، وقد ذكرناه فى السنة الماضية .

---

(١) الشجا : هو ما اعترض ونشب فى الحلق من عظم أو نحوه . انظر : المعجم الوجيز ، ص٣٣٦ .

(٢) هو : محمد بن سعد بن محمد بن أحمد بن مردنيش ، أبو عبد الله . وقد ورد فى الكامل ، ج١٠ ، ص٢٦ «محمد بن سعيد بن مردنيش» جـ١٠ ، ص٢٦ .

(٣) هو : أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن على القيسى الكومى ، صاحب المغرب . توفى سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م انظر : الكامل ، جـ ١٠ ، ص١٢٦ـ ١٢٧ ؛ ومعجم الأسرات ، جـ١ ، ص١١٣ .

(٤) عمر بن عبد المؤمن بن على بن علوى الكومى ، أبو حفص ، بايع لأخيه أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وصار وزيره أيامًا يسيرة . ثم ولاه أخوه جزيرة الأندلس . انظر أخبار أولاد عبد المؤمن فى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، ص١٨٧ـ ٢٤٧ .وقد ذُكر فى ترجمة أخيه فى وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص١٣٠ .

(٥) انظر : الكامل ، جـ١٠ ، ص١٢٧ .

(٦) بلاد حلوان : مدينة عامرة فى آخر حدود السواد مما يلى الجبال من بغداد . انظر : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٣١٦ـ ٣١٧ .

(٧) الملك الأفضل نور الدين على بن يوسف بن أيوب . كان أكبر أولاد السلطان صلاح الدين . توفى بسميساط سنة٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م . انظر : وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص ٤١٩ـ ٤٢١ .

(٨) نجم الدين أيوب بن شاذى بن مروان ، الملك الأفضل ، والد السلطان صلاح الدين . انظر : وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص٢٥٥ـ ٢٦١ .

ومن قصيدة الحكيم عبد المنعم[١] فى ذلك قوله :

فى مَشْرِقِ المجْدِ نَجْمُ الدِّينِ مَطْلَعُه ... وَكُلُّ أبنائه شُــهُبٌ ، فَــلا أَفَلُوا

جَاؤُا لِيَعْقُوبَ[٢] والأَسْبَاطِ ، إِذْ وَرَدُوا ... عَلَى العَزِيزِ من ارْضِ الشام واشْتَملوُا

لَكِنَّ يُوسفَ هَذَا جَــاءَ إِخْــوَتُه ... ولـم يَـكُـن بـيْـنَـهُـم نَـزْغٌ ولا زَلَـلُ

و مُلِّكوا مُلْكَ مِصْرٍ فى شَـمَـاخَـتِـه ... ومِــثْلُهَــا لِرِجَــالٍ مِــثْلُهم نُزُلُ

ومنها أن نور الدين (رحمه الله) خرج فى هذه السنة إلى داريا[٣] ، فأعاد عمارة جامعها ، ومشهد أبى سليمان الدارانى[٤] ، وشتى بدمشق .

قال فى المرآة[٥] : وفى هذه السنة أمر نور الدين بعمارة جامع داريا القائم الآن ، وكان قديمًا عند قبة أبى سليمان الدارانى ، فأحرقه الإفرنج لما نزلوا على داريا فى أيام مجير الدين أبق[٦] ، فعمَّر نور الدين - فى هذه السنة - هذا الجامع الذى فى وسط[١٥٩ظ] القرية .

ذكر الأمور المزعجة

منها الزلزلة الكبرى :

قال ابن الأثير[٧] : وفى ثانى عشر شوال من هذه السنة كانت زلزلة عظيمة لم ير الناس مثلها ، عمت أكثر البلاد من الشام ، ومصر ، والجزيرة ، والموصل ، والعراق ،

---

(١) الحكيم عبد المنعم : هو عمر بن عبد الله الجلياني الغساني الأندلسي أبو الفضل «حكيم الزمان» من أهل جليانة وهى حصن من أعمال وادى آش بالأندلس ، انتقل إلى دمشق وأقام فيها أيام صلاح الدين ، فأكرمه وأجلَّه ، فكتب فيه أشعارًا كثيرة ، توفى سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥م . انظر : المقرى : نفح الطيب ، جـ٢ ، ص٦٣٥- ٦٣٧ ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٨ ؛ ابن شاكر الكتبى : فوات الوفيات ، ج٢ ، ص٣٥-٣٧ ؛ معجم البلدان ، جـ٢ ، ص١٠٩ .

(٢) «كيعقوب» فى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٦٧ .

(٣) داريا : قرية كبيرة مشهورة من قرى دمشق بالغوطة . وعن الجامع ومشهد أبى سليمان الدارانى . انظر نفس المادة . معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٥٣٦ .

(٤) أبو سليمان الدارانى هو عبد الرحمن بن أحمد الدارانى الصوفى المشهور ، المتوفى سنة ٢٣٥هـ/٨٤٩م . انظر : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٥٣٦ .

(٥) انظر : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص١٧٥ .

(٦) هو : مجير الدين أبق بن جمال الدين محمد بن تاج الملوك بورى بن ظهير الدين طغتكين . وهو سادس وآخر من حكم دمشق من بنى بورى ، توفى سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٩م . انظر : معجم الأنساب ، جـ٢ ، ص٣٤٠ ؛ وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص ١٨٨- ١٨٩ .

(٧) انظر قول ابن الأثير فى الباهر ، ص١٤٥ حيث ينقل العينى عنه بتصرف ؛ وانظر أيضًا : سنا البرق الشامى ، ص٩١ ؛ المرآة ، جـ٨ ، ص١٧٤- ١٧٥ ؛ زبدة الحلب ، جـ٢ ، ص٣٣٠ .

وغيرها . إلا أن أشدها وأعظمها كان بالشام ، فخربت بعلبك ، وحمص ، وحماة ، وشيزر[١] ، وبعرين[٢] ، وغيرها ، وتهدمت أسوارها وقلاعها ، وسقطت الدور على أهلها ، وهلك من الناس ما يخرج عن العد والإحصاء . فلما أتى نور الدين خبرها ، سار إلى بعلبك ، ليعمر ما انهدم من أسوارها وقلعتها ، وكان لم يبلغه خبر غيرها . فلما وصلها أتاه خبر باقى البلاد بخراب أسوارها ، وخلوها من أهلها ، فرتب ببعلبك من يحميها ويعمرها ، وسار إلى حمص ، ففعل مثل ذلك ، ثم إلى حماة ، ثم إلى بارين . وكان شديد الحذر على البلاد من الفرنج لاسيما بارين ؛ فإنها مع قربها منهم لم يبق من سورها شىء ألبتة ، فجعل فيها طائفة صالحة من العسكر مع أمير كبير ، ووكل بالعمارة من يحث عليها ليلاً ونهارًا .

ثم أتى مدينة حلب ، فرأى فيها من آثار الزلزلة ما ليس بغيرها من البلاد ؛ فإنها قد أتت عليها ، وكانوا لا يقدرون يأوون إلى بيوتهم السالمة من الخراب خوفًا من الزلزلة ، فإنها عاودتهم غير مرة ، وكانوا يخافون يقيمون بظاهر حلب خوفًا من الفرنج ، فلما شاهد ما صنعت الزلزلة بها وبأهلها أقام فيها ، وباشر عمارتها بنفسه ، وكان هو يقف على استعمال الفعلة والبنائين . ولم يزل كذلك حتى أحكم أسوارها ، وجميع البلاد ، وجوامعها ، وأخرج من الأموال ما لا يقدَّر قدره .

وأما بلاد الفرنج ـ خذلهم الله ـ فإنها أيضًا فعلت فيها الزلزلة قريبًا من هذا ، وهم أيضًا يخافون نور الدين على بلادهم ، فاشتغل كل منهم بعمارة بلاده عن قصد الآخر .

قال العماد[٣] : وكانت قلاع الإفرنج المجاورة لبعرين كحصن الأكراد[٤] ، وصافيثا[٥] ، والعُرَيْمة[٦] وعرقا[٧] . وقد وافقت الزلزلة الفرنج يوم عيدهم وهم فى

(١) شيزر : قلعة تشتمل على كورة بالشام ، قرب المعرة بينها وبين حماة يوم ، ملوكها بنى منقذ . انظر : معجم البلدان ، جـ٣ ، ص ٣٤٨ .

(٢) بعرين (بارين) : بليدة بين حمص والساحل . معجم البلدان ، جـ١ ، ص٦٧٢ .

(٣) انظر قول العماد فى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص ٤٦٨ـ ٤٧٠ ، حيث ينقل عنه العينى بتصرف .

(٤) «ولحصن الأكراد» فى الروضتين ، وهو خطأ . حيث أن حصن الأكراد كان يتبع الفرنج فى ذلك الوقت . ويؤيد ذلك ما ورد فى المرآة ، جـ٨ ، ص١٧٤ ؛ معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٧٦ .

(٥) صافيثا : قلعة تقع إلى الشمال من عرقة من أعمال حلب . انظر العماد : الفتح القسى ، ص٢٢٧ حاشية (١) . وذُكرت من الحصون القريبة من طرابلس مع العُريمة وعرقا فى خطط الشام ، لكرد على ، جـ٥ ، ص٢٩٣ .

(٦) العُريمة : موضع بين أجا وسلمى . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٦٦٣ .

(٧) عرقا : بلدة فى شرقى طرابلس . وهى فى سفح جبل ، وعلى جبلها قلعة . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٦٥٣ ؛ انظر أيضًا عن القلاع والحصون بالشام ، خطط الشام ، ج٥ ، ص ٢٩١ ـ ٢٩٤ .

الكنائس ، ﴿ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْعُرُونَ ﴾[1] .

وذكر العماد قصيدة[2] فى مدح نور الدين ووصف الزلزلة :

هل لِعانى الْهَوَى مِنَ الأَسْرِ فَادِى ... وَلِسَارِى لَيْلِ الصَّبَابَةِ هادِى

جَنِّبُونِى خَطْبَ البعادِ ، فَسَهْلٌ ... كُلُّ خَطْبٍ سِوَى النَّوَى وَ الْبعادِ

كُنْتُ فِى غَفْلَةٍ مِنَ الْبَيْنِ حَتَّى ... صَبَاحَ يَوْمِ الأثيلِ بِالْبَينِ حَادِى

قَدْ حَلَلْتُم مِنْ مُهْجَتِى فِى السُّوَيْدَا ... ءِ ، وَ مِنْ قَلْبِى[3] مَحَلَّ السَّوَادِ

إلى أن قال :

أَتَمَنَّى بِالشَّامِ أَهْلِى بِبَغْدَا ... دَ ، وَ أَيْنَ الشَّامُ مِنْ بَغْدَادِ

مَا اعْتِيَاضِى عَنْ حُبِّهِم يَعْلَمُ اللَّـ ... ـهُ تَعَالَى إلا بِحُبِّ الجِهَادِ

وَ اشْتِغَالِى بِخِدْمَةِ الْمَلِكِ الْعَا ... دِلِ محمود ، الْكَرِيمِ ، الجَوَادِ

أَنَا مِنْه عَلَى سَرِيرِ سُرُورِى ... رَاتِعُ الْعَيْشِ فِى مَرَادِ مُرَادِى/ [١٦٠و]

إلى أن قال :

[هُوَ][4]نِعْمَ الْمَلاَذُ مِنْ نَائِبِ الدَّهْـ ... ـرِ ونِعْمَ الْمَعَاذُ عِنْدَ الْمَعَادِ

جَلَّ رُزْءُ الْفِرِنْجِ فَاسْتَبْدَلُوا منـ ... ـه بِلُبْسِ الْحَدِيدِ لُبْسَ الْحِدَادِ

فَرَّقَ الرُّعْبُ مِنْهُ فِى أَنْفُسِ الْكُفَّـ ... ـارِ بَيْنَ الأَرْوَاحِ وَ الأَجْسَادِ

سَطْوَةٌ زَلْزَلَتْ بِسُكَّانِهَا الأَرْ ... ضَ وَهَدَّتْ قَوَاعِدَ الأَطْوَادِ

---

(١) سورة النحل : آية (٢٦) .

(٢) لم يذكر العينى كل الأبيات التى أوردها أبو شامة نقلاً عن العماد الأصفهانى . انظر : الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٦٨ـ ٤٧٠ .

(٣)«مقلتى» فى الروضتين عن العماد ، جـ١ ق٢ ، ص٤٦٨ .

(٤)«هم» فى الأصل ، والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين نقلاً عن العماد ، جـ١ ق٢ ، ص٤٦٩ .

أَخَـذَتْهُم بِالْحَقِ رَجْـفَـةُ بَأْسٍ تَرَكَتْـهُم صَرْعَى صُرُوف الْعَوَادِي
خَفَّضَتْ مِنْ قِلاعِها كُلَّ عَالٍ وَ أَعَادَتْ قِلاعَهَا كَالْوِهَادِ
أَنْفَذَ اللهُ حُكْمَهُ فَهْوَ مَاضٍ «مُظْهِرًا سِرًّ»[١] غَيْبِه فَهْوَ بَادِي

وفى المرآة[٢] : وكانت هذه الزلزلة عامة فى الدنيا ، أخربت قلاع المسلمين وبلادهم بالشام ، وحلب ، والعواصم ، وأنطاكية[٣] ، ونزلت إلى اللاذقية ، وجبلة[٤] ، وجميع بلاد الساحل إلى الداروم[٥] .

ويقال : إنه لم يمت من دمشق إلا رجل واحد ، أصابه حجر وهو على دَرج جَيْرون[٦] ؛ لأن أهلها خرجوا إلى الصحراء . ثم امتدت الزلزلة ، وقطعت الفرات ، فوصلت إلى الموصل ، وسنجار[٧] ، ونصيبين[٨] ، والرها[٩] ، وحران[١٠] ، والرقة[١١] ، وماردين[١٢] ، وغيرها ، وامتدت إلى بغداد ، وواسط[١٣] ، والبصرة ، وجميع بلاد العراق ، ولم ير الناس زلزلة من أول الإسلام مثلها ؛ أفنت العالم .

---

(١) «مظهر سر» فى الروضتين ، انظر باقى القصيدة فى الروضتين عن العماد ، جـ١ ق٢ ، ص٤٦٩- ٤٧٠ .

(٢) انظر : مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص١٧٥ .

(٣) أنطاكية : قصبة العواصم من الثغور الشامية ، بينها وبين حلب يوم وليلة . وهى من بلاد الروم القديمة ، انظر : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٣٨٢ ؛ زبدة الحلب ، جـ١ ، ص١٥ .

(٤) اللاذقية : مدينة فى ساحل بحر الشام ، تعد من أعمال حمص ، وهى غربى جبلة ، انظر : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٣٣٨- ٣٤٠ . أما جبلة : فهى قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٤-٢٧ .

(٥) الداروم : بليدة بينها وبين غزة أربعة فراسخ . معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٥٢٥ .

(٦) جيرون : باب وحصن بدمشق . معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٧٥- ١٧٦ .

(٧) سنجار : مدينة مشهورة من نواحى الجزيرة ، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام . معجم البلدان ، جـ٣ ، ص١٥٨-١٦٠ .

(٨) نصيبين : مدينة عامرة من بلاد الجزيرة ، على جادة القوافل من الموصل إلى الشام . معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٧٨٧ .

(٩) الرها : مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام . معجم البلدان ، ج٢ ،ص٨٧٦ .

(١٠) حران : مدينة عظيمة مشهورة على طريق الموصل والشام . معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٢٣٢ - ٢٣٣ .

(١١) الرقة : مدينة مشهورة على الفرات ، وهى فى بلاد الجزيرة بالعراق . معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٨٠٢- ٨٠٤ .

(١٢) ماردين : قلعة مشهورة على قنة جبل الجزيرة . معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٣٩٠ .

(١٣) واسط : بلدة ببلاد العراق ، متوسطة بين البصرة والكوفة . معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٨٨١ -٨٨٢ .

ومنها : نزول الإفرنج على دمياط ، وقد ذكرناه[١] مفصلاً .

وفيها[٢] : . . . .

وفيها : حج بالناس الأمير برْغش الكبير .

(١) انظر ما سبق ص٣٣ وما بعدها .
(٢) فى نسختى المخطوطة أ ، ب بياض بمقدار سطر وكلمة .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

أحمد بن صالح بن شافع أبو الفضل الجيلى[١] ؛ سمع الحديث من الأرموى وغيره ، وتوفى فى شعبان منها ، ودفن على أبيه فى دكة الإمام أحمد (رحمه الله) .

أحمد بن عمر بن محمد بن لبيدة أبو العباس الأزجى ؛ سمع من ابن جيرون وغيره ، وكان فيه خير ، خرج إلى مكة ، فتوفى فى الطريق ، ودفن بزبالة[٢] .

هبة الله بن محمد بن أحمد بن أبى البركات بن البخارى ؛ الفقيه الشافعى ، تفقه ببغداد على أسعد الميهنى[٣] ، وسمع أباه ، وولى القضاء بقونية[٤] من بلد الروم ، وابنه على ولى القضاء ببغداد ، وكنيته أبو طالب ، وناب فى الوزارة ، ومات ابنه على ببغداد فى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وعقبه اليوم ببغداد قضاة يقال لهم بيت البخارى .

الملك طُغرل[٥] بن قاوَرْت صاحب كرمان[٦] ؛ توفى فى هذه السنة ، واختلف أولاده بهرام شاه ، وأرسلان شاه ـ وهو الأكبر ـ فجرى بينهما قتال ، انهزم منه بهرام شاه إلى خراسان[٧] ، فدخل على المؤيد[٨] صاحب نيسابور[٩] ، واستنجده ، فأنجده بعساكر سار

---

(١) انظر : الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٧ ؛ ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص١٢ .

(٢) زَبالة : منزل معروف بطريق مكة من الكوفة . وهى قرية عامرة لها أسواق . معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٩١٢ـ ٩١٣ .

(٣) «المهنى» فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص ١٧٥ .

(٤) قونية : أعظم مدن الإسلام بالروم ، وهى سكنى ملوكهم . معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٢٠٤ـ ٢٠٥ .

(٥) انظر : معجم الأنساب ، جـ٢ ، ص٣٣٥ حيث ذكر أنه محيى الدين طغرلشاه بن ملكشاه ، من سلاجقة كرمان ، تولى السلطنة سنة ٥٥٩هـ/١١٦٤م . وهو والد بهرام شاه وأرسلان شاه . وفى الكامل ، ج١ ، ص٢٦ طغرل بن قاروت .

(٦) كرمان : هى ولاية مشهورة . وناحية كبيرة معمورة ذات بلاد وقرى ومدن واسعة بين فارس ومكران وسجستان وخراسان . معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٣٦٣ـ ٣٦٧ .

(٧)خراسان : هى إقليم من أقاليم بلاد فارس . وتشتمل على أمهات من البلاد التى دون نهر جيحون . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٠٩ .

(٨) المؤيد صاحب نيسابور : هو «أى أبه» . كان مملوكًا للسلطان سنجر . ولما انهزم سنجر سنة ٥٤٨ هـ/ ١١٥٣م ، تقدم المؤيد وعلا شأنه فاستولى على نيسابور . واستقرت البلاد له ودانت له الرعية .وقتل المؤيد سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م . انظر : الكامل ، ج٩ ، ص٨٩ ، ج١٠ ، ص٣٦ .

(٩) نيسابور : هى أعظم مدن إقليم خراسان . انظر : الإصطخرى : المسالك والممالك ، ص١٤٥ـ ١٤٧ ؛ معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٨٥٧ .

بها إلى كرمان ، فجرت بين الأخوين حرب ، ظفر فيها بهرام شاه ، وهرب أرسلان شاه ، وقصد أصفهان(١) مستجيرًا بأيلدكز(٢) ، فأنفذ معه عسكرًا ، فاستنقذوا البلاد من بهرام شاه وسلموها إلى أرسلان شاه ، فعاد بهرام شاه إلى نيسابور مستنجدًا[١٦٠ظ] بالمؤيد صاحبها ، فأقام عنده . فاتفق أن أخاه أرسلان شاه مات ، فسار إلى كرمان فملكها وأقام بها بغير منازع .

قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى بن آقسنقر ؛ المعروف بالأعرج ، صاحب الموصل ، وهو أخو نور الدين محمود بن زنكى . وكان قطب الدين مودود تولى السلطنة بالموصل وتلك البلاد ، عقيب موت أخيه سيف الدين غازى(٣) ، وكان حسن السيرة عادلاً فى حكمه ، محببًا إلى الرعية ، محسنًا إليهم ، حسن الشكل . وفى دولته عظم جمال الدين محمد الأصفهانى(٤) ، كما ذكرنا فى ترجمته . وكان مدبر دولته ، وصاحب رأيه الأمير زين الدين على كوجك(٥) ، والد مظفر الدين صاحب إربل(٦) . وكان نعم المدبر ، مع شجاعته وفروسيته . ولم يزل قطب الدين على سلطنته ونفاذ كلمته ، إلى أن توفى فى شوال من هذه السنة . وقيل فى الثانى والعشرين من ذى الحجة من هذه السنة . وقيل توفى فى ربيع الآخر من سنة ست وستين وخمسمائة .

وقال ابن خلكان(٧) : هذا ليس بصحيح ، فإن أخاه[نور الدين](٨)كان بالموصل فى شهر ربيع الآخر ، وجاءت رسل الخليفة ، وهو مخيم على وفاة أخيه قطب الدين . وكانت

---

(١) أصفهان : هى أصبهان ، وهى مدينة بأرض فارس . معجم البلدان ، جـ١ ، ص ٢٩٢ .

(٢)هو : «أيلدكز» شمس الدين ، توفى سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م . حكم بين سنوات ٥٣١هـ - ٥٦٨هـ/١١٣٧-١١٧٣م ببلاد أذربيجان . وعن بنى أيلدكز أتابكة أذربيجان . انظر : معجم الأنساب ، جـ٢ ، ص٣٤٩ ؛ الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٧٦ ؛ وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص٢٠٨ .

(٣) هو سيف الدين غازى بن أتابك عماد الدين زنكى . توفى سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م . انظر : الباهر ، ص٨٤- ٩٢ .

(٤) «محمود» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت هو الصحيح . وهو جمال الدين محمد بن على بن أبى منصور ، الوزير ، المعروف بالجواد ، توفى سنة ٥٥٩ هـ/١١٦٤م . انظر : وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص١٤٣ ؛ وقد ذكره ابن العماد الحنبلى فى الشذرات فى وفيات سنة ٥٥٨هـ/١١٦٣م .

(٥) زين الدين على كوجك بن بكتكين . نائب قطب الدين بالموصل . وكانت بيده إربل . توفى سنة ٥٦٣هـ/١١٦٨م . انظر : النوادر السلطانية ، ص٣٩ ؛ وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص١١٤ ؛ الكامل ، جـ١٠ ، ص٨ .

(٦) إربل : قلعة حصينة ومدينة كبيرة من أعمال الموصل . وأكثر أهلها أكراد وقد استعربوا . انظر : معجم البلدان ، جـ١ ، ص١٨٩ .

(٧) انظر : وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص٣٠٣ فى ترجمة قطب الدين مودود .

(٨) ما بين الحاصرتين مثبت من وفيات الأعيان للتوضيح .

وفاته بالموصل ، ومدة عمره أكثر من أربعين سنة ، وخلَّف عدة أولاد ، أكثرهم ملوك ، منهم : سيف الدين غازى تولى السلطنة بعده ، وعز الدين مسعود ، وعماد الدين زنكى صاحب سنجار .

وقال ابن كثير[(١)] : وتملك من بعد قطب الدين ولده سيف الدين غازى ، ابن الست خاتون بنت تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق ، أصحاب ماردين . وكان مدبر مملكته ، والمتحكم فيهم ، فخر الدين عبد المسيح[(٢)] ، وكان ظالمًا غاشمًا .

وفى تاريخ الدولتين[(٣)] : لما اشتد مرض قطب الدين ، أوصى بالملك بعده لولده عماد الدين زنكى ، وهو أكبر أولاده ، وأعزهم[عليه][(٤)] وأحبهم إليه . وكان النائب عن قطب الدين حينئذ والقائم بأمر دولته فخر الدين عبد المسيح ، وكان يكره عماد الدين زنكى ؛ لأنه قد كان أكثر المقام عند عمه الملك العادل نور الدين وخدمه ، وتزوج ابنته ، وكان عزيزه وحبيبه . وكان نور الدين يبغض عبد المسيح لظلم كان فيه ، ويذمه ويلوم أخاه قطب الدين على توليته الأمور . فخاف عبد المسيح أن يتصرف عماد الدين فى أموره عن أمر عمه فيعزله ويبعده ، فاتفق هو والخاتون ابنة حسام الدين تمرتاش ، زوجة قطب الدين ، فردُّوه عن هذا الرأى . فلما كان الغد أحضر الأمراء ، واستحلفهم لولده سيف الدين غازى . وتوفى وقد جاوز عمره أربعين سنة .

وكان تام القامة ، كبير الوجه ، أسمر اللون ، واسع الجبهة ، جهورى الصوت . وكانت ولايته إحدى وعشرين سنة وخمسة أشهر ونصف شهر .

ولما توفى استقر سيف الدين فى الملك ، ورحل عماد الدين إلى عمه نور الدين شاكيًا ومستنصرًا . وكان عبد المسيح هو[متولى][(٥)] أمر سيف الدين وتحكم فى مملكته ، وليس لسيف الدين من الأمر إلا اسمه ؛ لأنه فى عنفوان شبابه وعزة حداثته .

---

(١) انظر : البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٢١٠ .

(٢) فخر الدين عبد المسيح : نائب قطب الدين مودود على الموصل . ثم مدبر مملكته من بعده . كان نصرانيًا فأظهر الإسلام . كان سيئ السيرة خبيثًا فى حق العلماء والمسلمين خاصة . أطلق عليه نور الدين : عبد الله ، وأقطعه إقطاعًا حسنًا . انظر : البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٢٨٠ .

(٣) انظر : الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٧٢ . وانظر أيضًا الباهر ، ص١٤٦ .

(٤) «فيه» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٤٧٢ ، حيث ينقل العينى عنه .

(٥) «يتولى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٤٧٣ .

وقال ابن الأثير[١] : وكان حسن الاتفاق مع أخيه الملك العادل نور الدين ، كثير المساعدة له والإنجاد بنفسه وعسكره وأمواله ؛ حضر معه المصاف بحارم وفتحها وفتح بانياس[٢] . وكان يخطب له فى بلاده باختياره [١٦١و] من غير خوف . وكان إحسانه إلى أصحابه متتابعًا ، من غير طلب منهم ولا تعريض . وكان يبغض الظلم وأهله ، ويعاقب من يفعله .

مجد الدين أبو بكر بن الداية ؛ رضيع نور الدين محمود ، مات فى هذه السنة . وكانت حلب ، وقلعة جعبر[٣] ، وحارم إقطاعه ، فأقر نور الدين أخاه عليَّ بن [الداية][٤] على إقطاعه ، وكان موته بحلب فى شهر رمضان . وكان نور الدين حينئذ محاصرًا الكرك ، وبلغه قصد الفرنج من الساحل ، فرحل عنها ، وقصد لقاءهم ، فلم يقفوا له . ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الداية ، فاشتغل قلبه به ؛ لأنه كان صاحب أمره . ودفن مجد الدين بحلب ، وكان من أكابر أمراء نور الدين ، وكان شجاعًا دينًا ، بنى بحلب خانكاه[٥] ، وهى باقية إلى هلم جرا . ولما مات مجد الدين ، قدّم نور الدين على العساكر سابق الدين عثمان بن الداية أخا مجد الدين ، وأعطى أولاده بعلبك .

أمير حاجب[٦] العمادى ؛ مات فى هذه السنة ، وكان إقطاعه تدمر[٧] وبعلبك .

---

(١) نقل العينى هذا النص بتصرف من الباهر ، ص١٤٩ .

(٢) بانياس : اسم لبلدة صغيرة من أعمال دمشق ، وهى على مرحلة ونصف من دمشق من جهة الغرب بميلة إلى الجنوب . انظر : تقويم البلدان ، ص٣٤٩ ؛ وصبح الأعشى ، جـ٤ ، ص١٠٤ .

(٣) قلعة جعبر : على الفرات بين بالس والرقة ، قرب صفين . انظر : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٨٤ .

(٤) «على بن مجد الدين» فى نسختى المخطوطة أ ، ب وهو خطأ . وأولاد الداية خمسة هم : سابق الدين عثمان ، شمس الدين على ، بدر الدين حسن ، بهاء الدين عمر ، أبو بكر وهو أكبرهم واسمه محمد . انظر : الروضتين جـ١ ق٢ ، ص٣٨٧ـ ٣٨٩ حيث أورد أبو شامة شعرًا فى أولاد ابن الداية عن العماد الكاتب ؛ وانظر أيضًا : النعيمى : الدارس ، جـ٢ ، ص٢٩٥ .

(٥) خانكاه حلب : ذكر كرد على فى خطط الشام أن مجد الدين أنشأ خانقاتين إحداهما بعرصة الفراتى ، والثانية بمقام إبراهيم . انظر : خطط الشام ، جـ٦ ، ص١٤٥ .

(٦) لم ترد وظيفة أمير حاجب فى المصادر المتخصصة كصبح الأعشى ، ونهاية الأرب فى فنون الأدب ، وإنما وردت وظيفة حاجب الحجاب على وزن أمير جاندار وأمير سلاح . انظر : صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص١٩ ، جـ٥ ، ص٤٤٩ .

(٧) تدمر : مدينة قديمة مشهورة فى برية الشام . انظر : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٨٢٨ .

وفى المرآة[١] : ودفن العمادى بقاسيون[٢] ، فى تربة قريبة من تربة شركس[٣] ، شماليها ، وهى أول تربة بنيت فى الجبل ، واسمه مكتوب على بابها .

قال السبط :[٤] ووقفت على باب التربة ، وعليها مكتوب : «هذه تربة العمادى محمد عامل قومسان»[٥] .

الحسين بن محمد أبو المظفر بن الشيبى ؛ حبس مديدة ، ثم قطعت يده ورجله ، وحمل إلى المارستان ، فتوفى فى محرم هذه السنة . وكان أديبًا لطيفًا ، له شعر حسن . ومما قال من الشعر يتشوق أهله :

سَلامٌ عَلَى أَهْلِى وَصَحْبِى وَجُلاَّسِى ... وَمَنْ فِى فُؤادِى ذِكْرُهُم رَاسِبٌ رَاسِى
أَحِبَّةَ قَلْبِى قَلَّ صَبْرِى عَنْكُمُ ... وَزَادَ بِكُم وَجْدِى وَحُزْنِى وَوَسْوَاسِى
أُعَالِجُ فِيكُم كُلَّ هَمٍّ وَلا أَرَى ... لِدَاءِ هُمُومِى غَيْرَ رُؤْيَتِكُم آسِى
خُذُوا الْوَاكِفَ الْمِدْرَارَ مِنْ فَيْضِ أَدْمُعِى ... وَحَرَّ لَهِيبِ النَّارِ مِنْ كَرْبِ أَنْفَاسِى
لَقَدْ أَبْدَتْ الأَيَّامُ لِى كُلَّ شِدَّةٍ ... تَشِيبُ لَهَا الأَكْبَادُ فَضْلاً عَنِ الرَّاسِ
أَقُولُ لِقَلْبِى وَالْهُمُوم تَنُوشُهُ ... وَقَدْ حَدَّثَتْهُ النَّفْسُ بِالصَّبْرِ والْيَاسِ
وَكَيْفَ اصْطِبَارِى عَنْكُمُ وَتَجَلُّدِى ... عَلَى فَقْدِكُمُ ، وَيْلِى عَلَى قَلْبِى الْقَاسِى
وَمَنْ لِى بِطَيْفٍ مِنْكُم أَنْ يَزُورَنِى ... عَلَى اللَيْلَةِ اللَيْلاءِ فِى جُنْحِ دَيْمَاسِ[٦]

طاوس أم المستنجد بالله ؛ توفيت يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان من هذه السنة ، وحملت إلى الترب بالرصافة[٧] .

---

(١) انظر : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص١٧٥-١٧٦ .
(٢) قاسيون : هو الجبل المشرف على مدينة دمشق . انظر : معجم البلدان . جـ٤ ، ص١٣ .
(٣) تربة شركس : هى تربة جهاركس بن عبد الله الأنصارى الأمير فخر الدين من أكابر الأمراء الصلاحية . وهى بقاسيون . انظر : الدارس ، جـ١ ، ص٤٩٧ .
(٤) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص١٧٥ - ١٧٦ .
(٥) قومسان : قرية من قرى اغلم ، واعلم ناحية بين همذان وزنجان . انظر : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٢٠٢ .
(٦) «وتماس» كذا فى الأصل ، والمثبت من ب .
(٧) الرصافة : بالجانب الشرقى من بغداد . بناها المهدى وعمل له جامعًا . وبها مقابر الخلفاء من بنى العباس . انظر : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٧٨٣ .

فصل فيما وقع من الحوادث
فى السنة السادسة والستين بعد الخمسمائة★

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستنجد بالله ، ولكنه مات فى هذه السنة . والكلام فيه على أنواع :

الأول فى ترجمته[(١)] : هو أمير المؤمنين ، المستنجد بالله ، أبو المظفر يوسف بن ـ أمير المؤمنين ـ المقتفى لأمر الله ، أبى عبد الله محمد بن ـ أمير المؤمنين ـ المستظهر بالله أبى العباس أحمد بن ـ أمير المؤمنين ـ المقتدى بأمر الله ، عبد الله بن ـ الأمير ـ ذخيرة الدين ولى العهد ، أبى العباس أحمد ، القادر بأمر الله بن إسحاق بن المقتدر بالله ابن المعتضد بالله بن ـ الأمير ـ أبى أحمد الموفق بن المتوكل على الله بن المعتصم بالله بن هارون الرشيد بن المهدى بن المنصور أبى جعفر . وأمه أم ولد ، يقال لها طاوس[(٢)] ، وكانت رومية ، توفيت فى السنة الماضية كما ذكرنا .

وكان مولده فى ربيع الأول سنة ثمانى عشرة وخمسمائة ، وبويع له بالخلافة [فى][(٣)] صبيحة يوم الأحد ، ثانى ربيع الأول ، من سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وعمره يومئذ سبع [١٦١ظ] وعشرون سنة ، وكان ولى عهد أبيه من مدة متطاولة .

الثانى فى صفته : كان أسمر ، طويل اللحية ، تام القامة .

الثالث فى سيرته : كان من خيار الخلفاء ، وأعدلهم ، وأرفقهم بالرعايا ، وضع عنهم المكوس والضرائب ، ولم يترك بالعراق مكسًا ، وكان أمارًا بالمعروف ، نهاءً عن المنكر . وقد رأى رسول الله ﷺ فى المنام غير مرة ؛ وكانت آخرهن قبل أن يلى بأربعة أيام وهو يقول له : قل : اللهم اهدنى فيمن هديت ، وعافنى فيمن عافيت ، دعاء القنوت بتمامه .

(★) يوافق أولها ١٤ سبتمبر ١١٧٠م .

(١) انظر ترجمته فى المنتظم ، جـ ١٨ ، ص١٩٠ ـ ١٩١ ؛ الكامل ، جـ ١٠ ، ص٢٨ ـ ٢٩ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٢٤١ ؛ تاريخ الخلفاء ، ص٤٤٢ ـ ٤٤٤ .

(٢) طاوس ، وقيل نرجس ، وهى أم المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتفى لأمر الله . انظر : الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٨ .

(٣) ما بين الحاصرتين مثبت من نسخة ب .

وفى تاريخ بيبرس : وكان حسن السيرة ، عادلاً فى الرعية ، رفيقًا بهم ، شديدًا على أهل العبث والفساد والسعاية بالناس ، جاهدًا فى دفع المضار عنهم ، وكفٍّ أكُفِّ العدوان الممتدة إليهم ، وكان فاضلاً ، محبًا للعلم ، أديبًا .

وله شعر ، منه قوله فى الشمعة :

وَصَفْراءُ مِثْلِى فى الْقِياسِ وَدَمْعُهَا سجامٌ علَى الخَدَّين مِثل دُمُوعى
تَذُوبُ كَمَا فِى الْحُبّ ذُبْتُ صَبَابَةً وتَحْوِى حَشَاهَا ما حَوته ضُلُوعى

وفي تاريخ ابن العميد : كان منكرًا للظلم مؤثرًا للعدل ، كثير الصدقات مهيبًا مخوفًا ، ذا سطوة وعزيمة وبأس شديد . وله شعر جيد .

وفى المرآة :[1] كان شجاعًا مهيبًا عادلاً ، أزال المظالم والمكوس ، ذكيًا فطنًا فصيحًا ، له واقعات عجيبة . شكى إليه رجل من القاضى فوقَّع[2] على الرقعة إلى القاضى : «تجنب الآثام ، وانصف الأنام ، وخف سطوات حاكم الحكام» .

وقبض على إنسان يسعى بالناس ، فشفع فيه بعض أصحاب الخليفة ، وبذل عشرة آلاف دينار ، فقال له الخليفة : أنا أعطيك عشرة آلاف دينار ، وأحضر لى إنسانًا مثله يؤذى الناس بالسعايات ؛ لأحبسه وأكف شره عن الناس . ومن شعره :

عَيَّرَتْنِى بِالشّيبِ وَهْوَ وَقَارُ لَيْتَها عَيَّرَتْ بِمَا هُوَ عَارُ
إِنْ تَكُنْ شَابَتْ الذَّوَائِبُ مِنِّى فَاللَّيَالِى[تُزيْنُها][3] الأقْمارُ

الرابع فى وفاته :

قال ابن كثير[4] : وكان المستنجد قد مرض فى أول هذه السنة ، ثم عوفى فيما يبدو للناس ، وعمل ضيافة عظيمة بسبب ذلك ، وفرح الناس بذلك . ثم أدخله الحكيم إلى

(١) انظر : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص١٧٧ حيث ينقل العينى عنه بتصرف .
(٢) «فرفع» فى المرآة ج٨ ، ص١٧٧ .
(٣) «تزينهن» فى الأصل . والمثبت بين الحاصرتين من نسخة ب . وهو الصحيح .
(٤) انظر : البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٢٨١ ، حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

الحمام وعنده ضعف شديد ، فمات فى الحمام يوم السبت بعد الظهر ثامن(١) ربيع الآخر . ويقال إن ذلك بإشارة بعض أهل الدولة على الطبيب ؛ استعجالاً لموته .

وفى عيون المعارف(٢) : أن الأمير يَزْدَن(٣) دخل الحمام وداس على بطنه فمات .

وفى المرآة(٤) : وكان مرض ، فلما اشتد مرضه اتفق بعض الأمراء الأكابر وأستاداره(٥) مع طبيبه أنه يصف له صفة يكون فيها حتفه ، فوصف له دخول الحمام ، فدخل ، وأغلق عليه بابها ، فمات ، وأظهروا وفاته للناس .

وفى المرآة(٦) مرض فى ربيع الآخر أيامًا ، فاحمر الأفق ، وما زالت الحمرة على الحيطان ، وشعاعها متصل بالسماء حتى مات .

وكان قد فوض أمور العساكر إلى قطب الدين قيماز مملوكه ، فأظهر الاستبداد بالأمر ، وبلغه أن قيماز يجتمع بالأمير أبى محمد الحسن بن المستنجد ، المستضىء ، وأن بينهما مراسلات ، فتغير على قيماز .

ومرض المستنجد ، وكان وزيره ابن البلدى(٧) قد اطلع على الحال ، فأخبر المستنجد ، فأمره بالقبض عليهما ، وخاف قيماز وكان [١٦٢و] له طبيب يقال له ابن صفية ، فخلا به قيماز ، فقال : خلصنا منه وإلا قتلتك . فقال : به حمى محرقة ، وليس عليه أضر من الحمام ، فدخل عليه قيماز وهو فى فراشه ، فقال : قد وصف لك ابن صفية

---

(١) ذكر ابن كثير فى البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٢٨١ أن الوفاة كانت فى «ثانى ربيع الآخر» ؛ أما ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٨ فذكر أن وفاته فى تاسع ربيع الآخر ، وقد وافقه أبو شامة فى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٨٤ ؛ أما السيوطى فقد اتفق مع العينى ، انظر : تاريخ الخلفاء ، ص٤٤٣ .

(٢) عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف ؛ جمعه القاضى أبو عبد الله محمد بن سلامة بن خضر «جعفر» القضاعى المتوفى سنة ٤٥٤ هـ/١٠٦٢م . جمع فيه أنباء الأنبياء وتواريخ الخلفاء وولايات الملوك والأمراء ، انتهى فيه إلى الخلافة الفاطمية . انظر : حاجى خليفة : كشف الظنون ، جـ٢ ، ص١١٨٨ .

(٣) يزدن : الحسن بن صافى بن يزدن التركى . من أكابر أمراء بغداد المتحكمين فى الدولة . كان رافضيًا خبيثًا . توفى سنة ٥٦٨هـ/١١٧٣م . انظر : البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٢٩٢ ؛ الباهر ، ص١٥١ .

(٤) لم نعثر على هذه الفقرة فى ذكر وفاة المستنجد بالمرآة وأقرب نص لهذا المعنى موجود بالكامل ، جـ١٠ ، ص٢٨ .

(٥) أستاداره أبو الفرج عضد الدين ابن رئيس الرؤساء ، وطبيبه ابن صفية .

(٦) انظر : مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص١٧٧- ١٧٨ حيث ينقل العينى عن السبط ؛ وانظر أيضًا : تاريخ الخلفاء ، ص٤٤٤ .

(٧) هو الوزير شرف الدين أبو جعفر أحمد بن محمد بن سعيد بن إبراهيم التميمى ، وزير الإمام المستنجد بالله ، المعروف بابن البلدى . لمزيد من التفاصيل عن هذا الوزير انظر : الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٨- ٢٩ ؛ الباهر ، ص١٥١ ؛ وفيات الأعيان ؛ جـ٤ ، ص٤٦٩ .

الحمام ، فقال : لا حاجة لى فيه ، وقيماز يقول : لابد لك منه ، فحمله كرهًا وهو يقول : بلى ينفعك ، فأدخله الحمام وأغلق عليه الباب ، وقطع عنه الماء البارد ، فمات يوم السبت ثامن ربيع الآخر ودفن بالدار .

وفى تاريخ المؤيد(١) : ولما مرض واشتد مرضه ، كان قد خاف منه أستاداره عضد[الدين](٢) أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء ، وقطب الدين قيماز المقتفوى ، وهو حينئذ أكبر أمراء بغداد ، فاتفقا مع الطبيب على أن يصف له ما يهلكه ، فوصف له دخول الحمام ، فامتنع منه لضعفه فأدخلوه ، وغلقوا عليه الباب ، فمات .

الخامس فى أشياء تتعلق به :

ولما مات المستنجد كان عمره ثمانيًا وأربعين سنة ، وكانت مدة خلافته إحدى عشرة سنة وشهرًا . قاله فى تاريخ ابن كثير(٣) . وفى تاريخ بيبرس : وكان عمره ستًا وخمسين سنة ، وخلافته إحدى عشرة سنة وشهرًا وسبعة أيام .

وفى المرآة(٤) : وقد بلغ من العمر [ثمانيًا] (٥) وأربعين سنة ، وكانت خلافته إحدى عشرة سنة وشهرًا ، وعمل العزاء ثمانية أيام .

وقال ابن الجوزى(٦) : وتكلمت فيه وخلع علىَّ . وقال : وحضرت الصلاة عليه يوم الأحد قبل الظهر فى التاج(٧) ، ودفن فى الدار ، أعنى دار الخلافة ، ثم نقل إلى الترب بالرصافة .

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص٤٩ حيث ينقل عنه العينى بتصرف .

(٢) «الدولة» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين مما سيأتى ص٥٨ . وهو عضد الدين أبو الفرج محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر بن رئيس الرؤساء ، المعروف بابن المسلمة . انظر : وفيات الأعيان ، جـ٦ ، ص٢٤١ فى ترجمة الوزير ابن هبيرة ؛ الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٩ .

(٣) انظر : البداية والنهاية : جـ١٢ ، ص٢٨١ .

(٤) انظر : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص١٧٨ .

(٥) «ثمانية» فى الأصل والصحيح ما أثبتناه .

(٦) انظر : المنتظم ، جـ ١٨ ، ص١٩١ حيث ينقل عنه العينى بتصرف .

(٧) التاج : دار مشهورة جليلة ببغداد ، من دور الخلافة . كان أول من وضع أساسه وسماه بهذه التسمية أمير المؤمنين المعتضد ، وأتمه ابنه المكتفى . ياقوت ، معجم البلدان ، جـ١ ، ص٨٠٦ .

وفى تاريخ ابن العميد(١) : مدة خلافته إحدى عشرة سنة وسبعة وعشرون يومًا ، أولها يوم الأحد ، وآخرها يوم الخميس ، لتتمة خمسمائة وخمس وستين سنة وثمانية وثمانين يومًا للهجرة ، ولتمام ست آلاف سنة وستمائة و[اثنتين](٢) وستين سنة ، ومائة وأربعة أيام للعالم شمسية .

ذكر خلافة المستضىء بأمر الله(٣)

هو أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد بن المقتفى ، وهو الثالث والثلاثون من خلفاء بنى العباس ، بويع له بالخلافة يوم مات أبوه ، وجلس بكرة الأحد تاسع ربيع الآخر ، وبايعه الناس . ولم يل الخلافة أحد اسمه الحسن بعد الحسن بن على بن أبى طالب (رضى الله عنهم) غير هذا ، ووافقه فى الكنية أيضًا ، وخلع على الناس يومئذ أكثر من ألف خلعة . وكان يومًا مشهودًا .

ولما بويع أظهر العدل والإحسان ، وأمر بإطلاق المسجونين ، وكانوا نحوًا من سبعمائة ، أكثرهم بغير جرم ، فأطلقوا . وسار سيرة حسنة ، ورد المظالم ، وفرق مالاً جزيلاً على الشرفاء والفقهاء والقراء وذوى الأقدار . وأمر بإسقاط الضرائب والمكوس التى كانت أحدثت ، وإسقاط الخراج المجدد على الناس ، وأمر بإعادة أملاك مغصوبة على(٤) أربابها ، وعاد إلى البلاد كثير ممن كان نأى عنها وبَعُدَ منها . ويوم مبايعته قتل الوزير شرف الدين أبو جعفر أحمد بن البلدى ، أعان على قتله أبو الفرج أستاذ الدار ، وقتل الوزير يحيى بن محمد بن هبيرة(٥) ، ووزر أبو الفرج أستاذ الدار للمستضىء من يومه ذلك .

---

(١) الجزء الخاص بهذه الفترة لم يقع بين أيدينا ويبدو أنه مفقود .

(٢) «اثنين» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت هو الصحيح .

(٣) انظر : الكامل ، جـ ١٠ ، ص٢٩ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٢٨١ ؛ تاريخ الخلفاء ، ص٤٤٤ـ ٤٤٨ .

(٤) «إلى» فى نسخة ب .

(٥) يحيى بن محمد بن هبيرة ، أبو المظفر عون الدين . من كبار وزراء الدولة العباسية . وزر للمقتفى ثم لابنه المستنجد ومات فى جمادى الأولى سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م . قيل أن طبيبه سقاه سمًا ودفن فى مدرسته بباب البصرة . أجمعت المصادر كلها على سنة وفاته وهى سنة ٥٦٠هـ/ ١١٦٥م ، وانفرد العينى بذكر وفاته فى سنة ٥٦٦ هـ/ ١١٧٠م يوم مبايعة المستضىء . انظر : المنتظم ، جـ ١٨ ، ص١٦٦ ؛ وفيات الأعيان ، جـ ٦ ، ص٢٣٠ـ ٢٤٤ ؛ الخريدة ، قسم شعراء الشام ، جـ٢ ، ص٣٦٦ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٢ ص٢٥٠ـ ٢٥١ .

وقال ابن التعاويذى(١) ، يمدح المستضىء ، ويهنئه بما أتاه الله وأباحه له ، قصيدة مطلعها :

لَكَ النَّهْىُ بَعْدَ اللَّهِ فِى الخَلْقِ وَ الأَمْرُ ... وَ فِى يَدِكَ المَبْسُوطَةِ النَّفْعُ والضَّرُّ

[١٦٢ظ] وَطَاعَتُكَ الإِيمَانُ بِاللَّهِ وَ الْهُدَى ... وَعِصْيَانُكَ الإِلْحَادُ بِاللَّهِ والْكُفْرُ

وَلَوْلاكَ مَا صَحَّتْ عَقِيدَةُ مُؤمِنٍ ... تَقِىٍّ وَ لَمْ يُقْبَلْ دُعَاءٌ وَلا نَذْرُ

مُرِ الدَّهْرَ يَفْعَلْ مَا تَشَاءُ فَإِنَّهُ ... بِأَمْرِكَ يجْرِى فِى تَقَلُّبِهِ الدَّهْرُ

إِمَامُ هُدًى عَمَّتْ سِيَاسَةُ عَدْلِهِ ... فَأوَّلُ مَقْتُولٍ بِإحْسَانِهِ الْفَقْرُ

يُقَصِّرُ بَاعُ المدْحِ دُونَ صِفَاتِهِ ... وَيَصْغُرُ أن يُهْدِى الثَّنَاء لَهُ الشِّعْرُ

وَكَيْفَ يُقَاسُ الْبَحْرُ جُودًا بِكَفِّهِ ... وَمِنْ بَعْضِ مَا تَحْوِيهِ قَبْضَتُه الْبَحْرُ

وَهَلْ لِضِيَاءِ الْبَدْرِ إِشْرَاقُ وَجْهِهِ ... وَأَنَّى وَ مِنْ أَنْوَارِهِ خُلِقَ الْبَدْرُ

وَ مَنْ يُسْتَهَلُّ الْقَطْرُ مِنْ بَرَكَاتِهِ ... عَلَى النَّاسِ ظُلْمٌ أَنْ يُقَاسَ بِهِ القَطْرُ

وَكَيْفَ يُهَنَّى بِالزَّمَانِ وَ إِنَّمَا ... تُهَنَّى بِهِ الأَيَّامُ وَ العَامُ والْعَصْرُ

وَلَوْلا الإِمَامُ الْمُسْتَضِيءُ وَرَأْيُهُ ... تَدَاعَتْ قوَى الإِسْلامِ وَ انْثَغَرَ الثَّغْرُ

بِهِ أَيَّدَ اللَّهُ الْخِلافَةَ بَعْدَمَا ... تَفَاقَمَ دَاءُ الْبَغْىِ وَاسْتَفْحَلَ الشَّرُّ

فَمَنْ مُبْلِغٌ تَحْتَ التُّرابِ ابْنَ هَانِىءٍ ... وَقَبْرَ المُعِزِّ إِنْ أَصَاخَ لَهُ الْقَبْرُ

بَأَنَّ الحُقُوقَ اسْتُرْجِعَتْ فِى زَمَانِهِ ... على رغْمِ مَنْ نَاوَاهُ وافْتُتِحَتْ مِصْرُ

وَ أَنَّ اللَّيَالِى الدُّهمَ بالجَوْرِ أَشْرَقَتْ ... عَلَى إِثْرِهَا بالعَدْلِ أَيَّامُهُ الغُرُّ

شَكَرْنَاهُ مَا أولاه لا(٢) إنّ وسْعنا ... بنا بالغٌ ما يَقْتَضِيهِ لَهُ الشُّكْرُ

وَلَكِنَّنا نُثْنِى عَلَيْهِ تَعَبُّدًا ... وَ إِنْ كَانَ عَنَّا ذَا غِنًى فَبِنَا فَقْرُ

فَمَا نبْتَغِى فِى لَيْلِنَا وَ نهَارِنَا ... مِنَ اللَّهِ إِلاَّ أَنْ يُمَدَّ لَهُ العُمْرُ

---

(١) ابن التعاويذى : هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله الكاتب المعروف والشاعر المشهور . وهو سبط أبى محمد المبارك بن المبارك بن على بن نصر السراج الجوهرى الزاهد المعروف بابن التعاويذى . وقد نسب إلى جده لأمه لأنه كفله صغيرًا ونشأ فى حجره فنسب إليه . توفى فى ثانى شوال سنة أربع وقيل ثلاث وثمانين وخمسمائة ببغداد . انظر وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٤٦٦ ؛ ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، جـ ٤ ، ص٢٧٩ .

(٢) «ما» فى نسخة ب .

وله فيه من قصيدة :

الْمُسْتَضِيءُ الْمُسْتَضَاءُ بِهَدْيِهِ — السَّاجِدُ الْمُتَبَتِّلُ
سُسْتَ الأَنَامَ بِسِيرَةٍ ما سَارَهَا — فى النَّاسِ إلاَّ جَدُّكَ الْمُتَوَكِّلُ

ومدحه الحيص بيص[1] بقوله :

أقُولُ وَقَدْ تَوَلَّى الأمْرَ حَبْرٌ — وَلِىٌّ لَمْ يَزَلْ بَرًا تَقِيَّا
وَقَدْ كَشَفَ الظَّلامُ بِمُسْتَضِيءٍ — غَدَا بِالْخَلْقِ كُلِّهِمُ حَفِيَّا
وَفَاضَ الْجُودُ وَالْمَعْرُوفُ حَتَّى — حَسِبْنَاهُ عُبَابًا أَوْ أَتِيَّا
بَلَغْنَا فَوْقَ مَا كُنَّا نُرَجِّى — هَنِيئًا يَا بَنِى الدُّنْيَا هَنِيَّا
سَأَلْنَا اللَّهَ يَرْزُقَنا إمَامًا — نُسَرُّ بِهِ فَأَعْطَانَا نَبِيَّا/ [١٦٣و]

ومدحه العماد[2] الكاتب الأصفهانى (رحمه الله) بقوله :

قَدْ أَضَاءَ الزَّمَانُ بِالْمُسْتَضِيءِ — وَارِثُ الْبُرْدِ وَ ابْنُ عَمِّ النَّبِىءِ
جَاءَ بِالْحَقِّ والشَّرِيعَةِ والْـ — ـعَدْل فَيَا مَرْحَبًا بِهَذَا الْمَجِئ
فَهَنِيئًا لأهْلِ بَغْدَادَ فَازُوا — بَعْدَ بُؤْسٍ بِكُلِّ عَيْشٍ هَنِئ

وله أيضًا من قصيدة أخرى :

لَهْفِى عَلَى زَمَنِ الشَّبَابِ فَإِنَّنِى — بِسِوَى التَّأَسُّفِ عَنْهُ لَمْ أتَعَوَّضِ
نُقِضَتْ عُهُودُ الغَانِيَاتِ وَإِنَّها — لَوْلا انْقِضَاءُ شَبِيبَتِى لَمْ تُنْقَضِ
يَا حُسْنَ أَيَّامِ الصِّبَا وَ كَأَنَّها — أَيَّامُ مَوْلانَا الإمَامِ الْمُسْتَضِى
ذُو الْبَهْجَةِ الزَّهْرَاءِ يُشْرِقُ نُورُهَا — وَ الطَّلْعَةِ الغَرَّاءِ وَ الْوَجْهِ الوضِى
قَسَمَ السَّعَادَةَ وَ الشَّقَاوَةَ رَبُّنَا — فى الْخَلْقِ بَيْنَ مُحِبِّهِ وَ الْمُبْغِضِ

---

(١) الحيص بيص : هو شهاب الدين أبو الفوارس سعد بن محمد بن سعد بن صيفى التميمى ، المعروف بحيص بيص . شاعر مشهور توفى فى بغداد سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م . انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص٣٦٢ .
(٢) انظر قول العماد فى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٨٥ .

فَضَلَ الخَلائِفَ والْخَلائِقَ بِالتُّقَى وَ الفَضْلِ [وَ الإِحْسَانِ][١] والْخُلُقِ الرضى
فَـانْعَمْ أَمِـيـرَ المُـؤْمِنِين بِدَوْلَةٍ مَـا تَنْتَـهِي وَسَـعَـادَةٍ مَـا تَنْقَـضِي

ثم إن الخليفة ولّى قضاء قضاة بغداد لروح بن الحديثى يوم الجمعة الحادى والعشرين من ربيع الآخر ، وخلع على الوزير خلعة عظيمة ، وهو عضد الدين الأستادار ، وضربت[٢] على بابه ثلاث نوب[٣] فى ثلاثة أوقات : الفجر ، والمغرب ، والعشاء . وأمّر سبعة عشر من المماليك ، وأذن للوعاظ فتكلموا ، بعدما كانوا قد منعوا مدة طويلة ، ثم كثر احتجابه[٤] بعد هذا .

ذكر ماجريات نور الدين محمود

وهى أنه سار إلى الرقة فأخذها ، وكذلك نصيبين والخابور وسنجار ، وسلمها إلى زوج ابنته ، ابن أخيه عماد الدين زنكى[٥] بن مودود بن زنكى ، ثم سار إلى الموصل ، فأقام بها أربعة وعشرين يومًا ، وأقرها لابن أخيه سيف الدين غازى[٦] بن مودود مع الجزيرة ، وزوجه ابنته الأخرى ، وأمر بعمارة جامعها[٧] وتوسعته ، ووقف على تأسيسه بنفسه ، وجعل له خطيبًا ودرسًا للفقه ، وولى التدريس للفقيه أبى بكر البرقانى[٨] ، تلميذ محمد بن يحيى ، تلميذ الغزالى ، وكتب له منشورًا بذلك ، ووقف على الجامع قرية من

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من نسخة أ والمثبت من ب .

(٢) «ضرب» فى نسخة ب .

(٣) نوبة ـ نوب : لفظ النوبة يطلق على فرق الجند التى تتناوب الوقوف لحراسة شخص أو سلطان ، وهى خمس نوبات ويكون تغييرها فى الظهر والعصر والعشاء ونصف الليل وعند الصباح . انظر : السلوك ، جـ١ ق٢ ، ص٤٦١ ، حاشية(٢) .

(٤) «احتجاجه» فى نسخة ب .

(٥) هو : أبو الفتح وأبو الجود عماد الدين زنكى بن قطب الدين مودود صاحب سنجار . توفى سنة ٥٩٤هـ/١١٩٨م . انظر : الباهر ، ص١٩١ ؛ الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٥٠ ؛ وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص٣٣٠ـ ٣٣١ .

(٦) هو الملك سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن أتابك الشهيد زنكى . ملك البلاد الجزرية . توفى فى صفر سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م . انظر : الباهر ، ص١٧٥ـ ١٨٠ ؛ وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٤ـ ٥ .

(٧) جامع الموصل : هو جامع كبير تقام فيه الجمعة ـ بناه نور الدين محمود وسط السوق . وعن قصة بناء الجامع انظر : الباهر ، ص١٧٠ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص١٩٥ ؛ الروضتين ، جـ١ ق١ ، ص٢٠ـ ٢١ ، جـ ١ ق٢ ، ص٤٨٠ ؛ معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص٦٨٤ . وانظر ما يلى ص٦١ .

(٨) «النوقانى» فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٤٨٠ .

قرى الموصل ، وذلك كله بإشارة الشيخ الصالح العابد عمر[١] المُلا ، وكانت له زاوية يقصد فيها ، وله فى كل سنة دعوة فى شهر المولد ، يحضر عنده الملوك والأمراء والعلماء ، ويحتفل بذلك . وقد كان الملك نور الدين صاحبه ، ويستشيره فى أموره وما يعتمده من المهمات ، وهو الذى أشار عليه فى مدة مقامه بالموصل بجميع ما فعله من الخيرات ، وأسقط عنهم المكوسات والضرائب ، وأخرج من بين أهلها الظالم الغاشم[١٦٣ظ] فخر الدين عبد المسيح ، وسماه عبد الله ، وأخذه معه إلى دمشق ، فأقطعه إقطاعًا حسنًا . وكان عبد المسيح هذا نصرانيًا ، فأظهر الإسلام ، وكان يقال : إن له كنيسة فى جوف داره ، وكان سيئ السيرة فى حق العلماء وخاصة المسلمين ، وكان نور الدين لم يدخل الموصل حتى قوى الشتاء ، فأقام بها كما ذكرنا أربعة وعشرين يومًا ، فلما كان آخر ليلة أقام بها ، رأى رسول الله ﷺ فى المنام ، وهو يقول له : «طابت لك بلدك ، وتركت الجهاد وقتال أعداء الله» ، فنهض من فوره إلى السفر ، وما أصبح إلا وهو سائر إلى الشام . واستقضى الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون[٢] ، وكان على سنجار ، ونصيبين ، والخابور ، فاستناب فيها ابن أبى عصرون نوابًا من أصحابه .

وفى تاريخ بيبرس : وفى هذه السنة اتصل بنور الدين بن زنكى أن [سيف الدين[٣]] غازى ، ابن أخيه صاحب الموصل ، قد فوض أموره إلى فخر الدين عبد المسيح ، وأنه استولى وقام بالأمر وتحكم ، فأنف لذلك وكرهه وعظم عليه ؛ لأنه كان يبغض فخر الدين المذكور ، لما بلغه من خشونة سياسته . وقال : أنا أولى بتدبير أولاد أخى . وسار عند انقضاء الغزاة جريدة فى قلة من العسكر ، وعبر الفرات عند قلعة جعبر ، وملك نصيبين ، فأتاه بها نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود ـ صاحب حصن كيفا[٤] ـ وكثر جمعه ، وكان قد ترك عساكره بالشام ؛ لحفظ ثغوره . فلما اجتمعت العساكر ، سار إلى سنجار فحصرها ، ونصب عليها المناجيق ، وملكها ، وسلمها إلى عماد الدين ابن أخيه قطب

---

(١) هو : عمر بن محمد بن خضر الإربلى الموصلى ، أبو حفص معين الدين ، المعروف بالمُلا . شيخ الموصل من العلماء الزاهدين . انظر : الباهر ، ص١٢٩ ، ١٧٠ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٣١٠ ؛ الروضتين ، جـ١ ق١ ، ص٢٠-٢١ ، جـ١ ق٢ ، ص٣٥٢-٣٥٣ ، ص٤٨٠-٤٨٣ .

(٢) هو : أبو سعد عبد الله بن أبى السرى محمد بن هبة الله بن مطهر بن على . الفقيه الشافعى ، شرف الدين . من أعيان الفقهاء وفضلاء عصره . توفى فى رمضان سنة٥٨٥هـ/١١٨٩م . انظر : وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٥٣ .

(٣) «شهاب الدين» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والتصحيح مما يلى .

(٤) حصن كيفا : ويقال كيبا ، وهى بلدة وقلعة عظيمة ، مشرفة على دجلة ، بين آمد وجزيرة ابن عمر . انظر : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٢٧٧ .

الدين ، وكان قد جاءته كتب الأمراء الذين بالموصل سرًا ، يبذلون له الطاعة ، ويحثونه على الوصول إليهم . فسار إلى الموصل ، فأتى مدينة بلد[1] ، وعبر الدجلة ، وسار فنزل شرق الموصل على حصن نينوى[2] ، ويوم نزوله سقط من سور الموصل بدنة كبيرة . وكان سيف الدين غازى بن أخيه قد أرسل عز الدين[3] مسعود بن قطب الدين أخيه إلى أتابك شمس الدين[4] ألدكز ، صاحب همذان[5] وأذربيجان[6] ، وبلد الجبل[7] ، وأصفهان ، والرّى[8] ، وتلك الأعمال ، يستنجده على عمه نور الدين . فأرسل أيلدكز رسولاً إلى نور الدين ؛ ينهاه عن التعرض للموصل ، ويقول له : إن هذه البلاد للسلطان ، فلا تقصدها ، فلم يلتفت إليه ، وقال للرسول : قل لصاحبك أنا أصلح لأولاد أخى منك ، فلِمَ تُدخل نفسك بيننا ؟ وعند الفراغ من إصلاح بلادهم يكون الحديث معك على باب همدان ، فإنك قد ملكت هذه المملكة العظيمة ، وأهملت الثغور حتى غلب الكُرج[9] عليها ، وقد بليت أنا بالفرنج ، وهم أشجع العالم ، ولى مثل ربع بلادك ، فأخذت معظم بلادهم ، وأسرت ملوكهم ، ولا يحل لى السكوت عنك ؛ فإنه يجب علينا حفظ ما أهملت ، وإزالة الظلم عن المسلمين .

---

(١) مدينة بَلَدَ : هى مدينة قديمة على دجلة ، فوق الموصل ، بينهما سبعة فراسخ . انظر : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٧١٥ .

(٢) حصن نِيْنَوَى : قرية يونس بن متى بالموصل . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٨٧٠ .

(٣) هو المولى السعيد عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى أتابك صاحب الموصل . كان مقدم الجيوش فى أيام أخيه غازى . ولما توفى أخوه سيف الدين استقل عز الدين بالملك من بعده . توفى فى شعبان سنة ٥٨٩هـ/ ١١٩٣م . انظر : الباهر ، ص١٨١- ١٨٩ ؛ وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٢٠٣ .

(٤) انظر ترجمته فيما سيأتى ص١٢١ فى وفيات سنة ٥٦٨هـ .

(٥) همذان : مدينة عتيقة بالجبال بأرض فارس بجوار أذربيجان والموصل والرى . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٩٨١ .

(٦) أذربيجان : إقليم واسع من برذعة مشرقًا إلى أرزنجان مغربًا ويحدها من الشمال بلاد الديلم والجيل والطَّرْم . وعاصمته تبريز . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص١٧١- ١٧٤ .

(٧) بلد الجبل : وهى البلاد المعروفة عند العامة بعراق العجم . وهى ما بين أصبهان إلى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرميسين والرى وما بين ذلك من البلاد الجليلة والكور العظيمة . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٢ ؛ تقويم البلدان ، ص٤٠٨ .

(٨) الرَّىُّ : مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن . وهى مَحَطُّ الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٨٩٢ .

(٩) الكُرج : أمة من المسيحيين كانت مساكنها بجبال القوقاز المجاورة لتفليس ، ثم استولوا على تفليس من المسلمين سنة ٥١٥هـ/١١٢١م . ولم يزالوا متملكين لها حتى أغار عليهم جلال الدين خوارزمشاه سنة ٦٢١هـ/١٢٢٤م . انظر : مفرج الكروب ، ج١ ، ص١٩٢ ؛ معجم البلدان ، ج٤ ، ص٢٥١-٢٥٢ .

فأقام نور الدين على الموصل ، وعزم من بها من الأمراء على مجاهرة عبد المسيح بالعصيان ، وتسليم البلد لنور الدين ، فعلم ذلك ، فأرسل إلى نور الدين فى تسليم البلد إليه ، على أن يقره بيد سيف الدين غازى ، ويطلب لنفسه الأمان ، فأجابه إلى ذلك ، وشرط[١٦٤و] أن يأخذ فخر الدين معه إلى الشام ، ويعطيه عنده إقطاعًا يرضيه . فسلم البلد فى جمادى الأولى من هذه السنة ، ودخل القلعة من باب السر ، ثم وهب الموصل لسيف الدين غازى ابن أخيه ، وأمر بعمارة جامعها ، ورتب فيها خصيًا له ، يقال له كمشتكين[١] ، وأمره بأن لا ينفرد عن سيف الدين غازى بقليل من الأمور ولا بكثير ، وكان مقامه بالموصل أربعة وعشرين يومًا ، وعاد إلى الشام .

وفى تاريخ الدولتين[٢] : وجعل نور الدين سعد الدين كمشتكين دُزْ داراً[٣] فى قلعة الموصل[٤] ، ثم قسم جميع ما خلفه أخوه قطب الدين بين أولاده بمقتضى الفريضة .

ولما كان يحاصر الموصل ، جاءته خلعة من الخليفة ، فلبسها ، فلما دخلها ، خلعها على سيف الدين . وقال العماد : استدعانى نور الدين ونحن بظاهر الرقة ، وقال : أنست بك ، وأمنت إليك ، وأنا غير مختار[للفرقة][٥] . وأمره أن يروح فى الرسلية إلى الخليفة ، فمضى وسار على البرية بخفير من بنى خفاجة[٦] ، فوصل إلى الخليفة ، وقضى حاجته ، ثم رجع إلى نور الدين وهو يحاصر سنجار ، فأخذها وسلمها إلى ختنه[٧] ، ابن أخيه عماد

---

(١) وعن دور سعد الدين كمشتكين فى علاقة مصر بالشام بعد وفاة نور الدين محمود ، انظر تفصيل ذلك فى حوادث سنة ٥٦٩هـ فيما سيأتى .

(٢) انظر الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٤٧٧ ، حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

(٣) دزدار : كلمة فارسية مكونة من لفظين ، «دز» أى قلعة ، و«دار» أى الحافظ أو الممسك ، فكان معناها صاحب القلعة أو متوليها أو حارس القلعة . انظر : المعرب للجواليقى ، ص٣١٥ ؛ قاموس الفارسية فارسى - عربى .

(٤) قلعة الموصل : سكنها نور الدين بعد فتحه الموصل وتسلمها ، ووليها سعد الدين كمشتكين من قبل نور الدين بعد تسلمه الموصل من فخر الدين عبد المسيح سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م . الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٤٧٧- ٤٧٩ .

(٥)«تفرقة» فى الأصل . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين وهو يتفق مع سياق الكلام وانظر باقى خطاب نور الدين للعماد فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٤٧٨ .

(٦) بنو خفاجة : بطن من بنى عقيل بن كعب بن عامر بن صعصعة من العدنانية . وهم أمراء العراق من قديم الزمان . القلقشندى : نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ، ص٢٤٦-٢٤٧ .

(٧) الخَتَنُ : كل من كان من قبل المرأة كأبيها وأخيها ، وكذلك زوج البنت أو زوج الأخت . انظر : المعجم الوسيط ، ج١ ، مادة ختن .

الدين زنكى بن مودود بن زنكى . قال[١] : وحضر مجاهد الدين قيماز[٢] صاحب إربل إلى خدمة نور الدين بالموصل .

ذكر ماجريات صلاح الدين يوسف بن أيوب

منها أن صلاح الدين عزل قضاة مصر ؛ لأنهم كانوا شيعة ، وولى قضاء القضاة بها لصدر الدين عبد الملك بن درباس المارانى الشافعى ، واستناب فى سائر الأعمال شافعية .

وفى تاريخ قضاة مصر : ولى القضاء صدر الدين عبد الملك بن عيسى بن درباس بن مبشر بن عبدوس الهمدانى المارانى الكردى الموصلى ، وكان قاضى[الغربية][٣] ، قدم من المشرق إلى مصر ، فولاه صلاح الدين (رحمه الله) وكان عنده بمكانة .

وفى تاريخ[٤] الدولتين : ولى صدر الدين عبد الملك المذكور القضاء والحكم بمصر والقاهرة وأعمالهما ، فى الثانى والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة .

ومنها أن صلاح الدين خرج إلى الغزاة ، وأغار على الرملة[٥] وعسقلان[٦] ، وهجم ربض غزة ، ثم رجع إلى القاهرة .

وفى تاريخ بيبرس[٧] : وفى هذه السنة تجهز صلاح الدين للمسير إلى الساحل غازيًا ، فمضى وأغار على عسقلان والرملة ، فأتاه ملك الفرنج[٨] فقاتله ، وهزمه ، ونجا بنفسه ، ثم رجع إلى القاهرة .

---

(١) القول لأبى شامة فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص ٤٨٠ نقلاً عن العماد .

(٢) مجاهد الدين قيماز : أبو منصور ، قايماز بن عبد الله الزينى ، الملقب مجاهد الدين الخادم . كان نائب سيف الدين غازى بن مودود صاحب الموصل فى الحكم وهو السلطان فى الحقيقة . توفى سنة ٥٩٥هـ/١١٩٩م بقلعة الموصل . انظر : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٨٢- ٨٤ .

(٣) «الغرية» كذا فى الأصل ، والمثبت بين الحاصرتين من نسخة ب .

(٤) انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٤٨٦ .

(٥) الرملة : مدينة عظيمة بفلسطين . وكانت رباطًا للمسلمين . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٨١٧ .

(٦) عسقلان : مدينة بالشام من أعمال فلسطين ، على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٦٧٣ .

(٧) انظر هذه الأحداث فى الكامل ، ج١٠ ، ص٣١ .

(٨) ملك الفرنج : يقصد «عمورى الأول» ملك مملكة بيت المقدس الصليبية . انظر تفصيل هذه الحادثة فى مفرج الكروب ، ج١ ، ص١٩٨ .

ومنها أنه لما عاد من هذه الغزوة وصله الخبر بخروج قافلة من دمشق ، فيها أهله ، فأشفق عليها ، وأحب أن يجتمع بها شمله ،فخرج فى النصف من ربيع الأول . وكانت بأيلة[١] قلعة فى البحر ، قد حصنها أهل الكفر ، فعمر لها مراكب ، وحملها إلى ساحلها على الجمال ، وركَّبها الصناع هناك ، وشحنها بالرجال ، وفتح القلعة فى العشر الأول من ربيع الآخر ، واستحلها ، واستباح بالأسر والقتل أهلها ، وملأها بالعَددِ والعُدَد ، وحصنها بأهل الجلاد والجلد ، واجتمع بأهله عليها ، وسار بهم على سمت القاهرة ، ودخلوا فى السادس والعشرين من جمادى الأولى .

ومنها أنه سار إلى الإسكندرية فى الثالث والعشرين من شعبان ليشاهدها ، ويرتب قواعدها ، وهى أول دفعة سار إليها فى أيام سلطانه ، [١٦٤ظ] وعم أهلها بإحسانه ، وأمر بعمارة أسوارها وأبراجها وأبدانها .

ومنها أنه كان بمصر سجن تعرف بدار المعونة[٢] ، فهدها صلاح الدين ، وبناها مدرسة للشافعية ، وبنى بها أيضًا مدرسة للمالكية ، وكانت دار العدل ، وكان ذلك فى النصف من محرم هذه السنة .

واشترى ابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب دارًا ، كانت تعرف بمنازل العز[٣] ، فجعلها مدرسة للشافعية ، وأوقف عليها الروضة[٤] ، وحمام الذهب[٥] ، وغيرهما ، وكان ذلك فى النصف من شعبان .

وفى النصف من جمادى الآخرة أغار شمس الدولة[٦] ـ أخو السلطان ـ على العربان بالصعيد ، ثم دخل القاهرة فى عاشر شهر رمضان .

---

(١) أيلة : مدينة على رأس خليج العقبة على ساحل البحر الأحمر ، وهى آخر الحجاز وأول الشام . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص ٢٩٢ـ ٢٩٣ .

(٢) سجن دار المعونة : يقال له أيضًا «حبس المعونة» . كانت بالفسطاط . وسميت كذلك لأنها بنيت بمعونة المسلمين ينزلها ولاتهم . وعن تطورها إلى أن حولها صلاح الدين إلى مدرسة للشافعية وما حدث لها بعد ذلك . انظر المقريزى : الخطط ، ج١ ، ص٤٦٣ ؛ ابن دقماق : الانتصار ، ج٤ ، ص٩٣ ؛ النجوم الزاهرة ، ج٥ ، ص٣٨٥ .

(٣) منازل العز : بنتها السيدة تغريد أم العزيز بالله بن المعز . وكانت مطلة على النيل . انظر : الخطط ، ج١ ، ص٤٨٤ـ٤٨٥ .

(٤) هى جزيرة الروضة التى تقع بين مصر القديمة والجيزة . الخطط ، ج٢ ، ص١٧٧ـ ١٨٢ .

(٥) حمام الذهب : هذه الحمام كانت بدار الذهب أحد مناظر الخلفاء الفاطميين . انظر : الخطط ، ج٢ ، ص٨٠ .

(٦) شمس الدولة : تورانشاه بن أيوب بن شاذى فخر الدين ، الملك المعظم ، توفى سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م . انظر : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٣٠٦ـ ٣٠٩ .

ومنها أن صلاح الدين شرع فى هذه السنة فى عمارة سور القاهرة[١] ؛ لأنه كان قد تهدم أكثره ، وصار طريقًا لا يَرُدُّ داخلاً ولا خارجًا ، وولى أمره لقراقوش[٢] الخادم ، وقبض على القصور ، وسلمها إليه .

وأمر بتغيير شعار الإسماعيلية ، وقطع من الآذان «حى على خير العمل» ، وشرع فى تمهيد أسباب الخطبة لبنى العباس . كذا ذكره ابن أبى طى[٣] .

ومنها أن شمس الدولة طلب من أخيه السلطان رَبْع الكامل[٤] بالقاهرة ، وزاد على إقطاعه بوش[٥] ، وأعمال الجيزة ، وسمنود[٦] ، وغيرها .

ومن جملة الحوادث فى هذه السنة : أن فى نصف رمضان هبت ريح شديدة عظيمة ، ورعدت السماء بقعقعة لم يسمع بمثلها ، فخر الناس على وجوههم .

وفيها[٧] : . . . .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

أبو طاهر البرقى الواعظ ؛ تعلم الوعظ من أبى الحسن الزَّاغونى - شيخ ابن الجوزى - وسمع الحديث ، وكان يعظ ، توفى فى محرم هذه السنة ، ودفن بمقبرة أحمد (رحمه الله) .

---

(١) سور القاهرة : عُمل السور ثلاث مرات . الأول وضعه جوهر القائد ، الثانى بناه أمير الجيوش بدرر الجمالى ، الثالث بدأه السلطان صلاح الدين وأكمله بهاء الدين قراقوش بتكليف من صلاح الدين . انظر : المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص٢٠٤ - ٢٠٩ (طبعة مكتبة الآداب ، القاهرة د . ت)

(٢) بهاء الدين قراقوش بن عبد الله الأسدى ، أبو سعيد . جعله صلاح الدين زمام القصر ، واعتمد عليه فى تدبير الديار المصرية لما استقل بها ، توفى سنة ٥٩٧هـ/١٢٠١م . انظر وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٩١ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٣٣١- ٣٣٢ .

(٣) انظر قول ابن أبى طى فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٤٨٨ .

(٤) ربع الكامل : أنشأه الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ، وكان موضعه من جملة القصر الغربى وهو على باب الخرنشف ويمتد إلى الدرب المقابل للجامع الأقمر . انظر : الخطط ، ج٢ ، ص٣٧٥ .

(٥) بوش : كورة ومدينة بمصر من نواحى الصعيد الأدنى فى غربى النيل . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٧٥٨ . وهى تقع الآن ضمن محافظة بنى سويف . رمزى : القاموس الجغرافى ، ق٢ ج٣ ، ص١٥٨ .

(٦) سمنود : بلد من نواحى مصر جهة دمياط على ضفة النيل . معجم البلدان ، ج٣ ، ص١٤٥ .

(٧) بياض في نسختي المخطوطة أ ، ب بمقدار سطر .

النفيس بن صَعْوَة[١] ؛ قرأ القرآن ، وناظر ، ووعظ ، ومات فى شبابه يوم الثلاثاء التاسع من شوال منها . ودفن عند أحمد (رحمه الله) .

أبو نصر بن المستظهر[٢] ؛ عم المستنجد ، مات فى هذه السنة ، وكان يذكر عنه الخير ، وحمل إلى التُرَبِ ، ودفن بها ، ولم يبق من أولاد المستظهر غيره ، وكان المستنجد تزوج بابنته .

طاهر بن محمد بن طاهر أبو زرعة ؛ المقدسى[٣] الأصل ، الرازى المولد ، الهمدانى الدار ، ولد سنة إحدى وثمانين وأربعمائة ، وأسمعه والده الحافظ محمد بن طاهر الكثير ، ومما كان يَرويه مسند الشافعى ، وتوفى بهمذان ، يوم الأربعاء سابع ربيع الآخر ، وقد قارب التسعين .

أبو الحجاج يوسف بن محمد ، المعروف بابن الخلال[٤] ؛ الملقب الموفق ، صاحب ديوان الإنشاء بمصر ، فى دولة الحافظ أبى الميمون عبد المجيد[٥] العُبيدى ، ومَنْ بعده .

وقال العماد فى الخريدة[٦] : هو ناظر [ديوان][٧] مصر ، وإنسان ناظره ، وجامع مفاخره ، وكان إليه الإنشاء ، وله قوة على الترسل ، يكتب كما يشاء ، عاش كثيرًا ، وعُطِّل فى آخر عمره ، وأضرّ ، ولزم بيته إلى أن تعوض منه القبر ، وتوفى بعد مُلك[٨] الملك الناصر صلاح الدين يوسف مصر بثلاث أو أربع سنين .

---

(١) النفيس بن صعوة : هو ابن مسعود بن أبى الفتح بن سعيد بن على المعروف بابن صعوة السلامى الفقيه الحنبلى ، أبو محمد . انظر : شذرات الذهب ، جـ ٤ ، ص٢١٧ .

(٢) انظر ترجمته فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص٣٢ وفيها ذكره ابن الأثير «نصر بن المستظهر» .

(٣) هو أبو زرعة طاهر بن الحافظ محمد بن طاهر المقدسى ثم الهمذانى ، انظر : شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص٢١٧ .

(٤) «ابن الحلال» فى ب وهو خطأ . انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ ٧ ، ص٢١٩ . انظر أيضًا : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، جـ١ ، ص٢٣٥ ـ ٢٣٦ .

(٥) هو الإمام أبو الميمون عبد المجيد بن الأمير أبى القاسم محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز العبيدى . هو الحافظ لدين الله ـ ولى مملكة الديار المصرية سنة ٥٢٤هـ/١١٣٠م . توفى سنة٥٤٤هـ/١١٤٩م فكانت خلافته تسع عشرة سنة وخمسة شهور . وكان وزيره أبو على بن الأفضل أمير الجيوش هو المتحدث وليس للحافظ معه إلا الاسم . انظر : الجوهر الثمين ، جـ ١ ، ص٢٦١ـ ٢٦٢ ؛ وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص٢٣٥ـ ٢٣٧ ؛ اتعاظ الحنفا ، جـ٣ ، ص١٣٧ـ ١٩٢ .

(٦) انظر : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، جـ ١ ، ص٢٣٥ـ ٢٣٦ . حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

(٧) ما بين الحاصرتين إضافة من الخريدة للتوضيح .

(٨) «تملك» فى الخريدة حيث ينقل عنه العينى . انظر : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، جـ ١ ، ص٢٣٥ .

وقال ابن خلكان : إن القاضى الفاضل[(١)] كان يرعى له حق الصحبة والتعلم ، وكان يُجرى عليه ما يحتاج إليه إلى أن مات فى الثالث والعشرين من جمادى الآخرة [١٦٥و] من سنة ست وستين وخمسمائة .

ومن شعره :

يَا أَخَا الغِرَّةِ حَسْبُ الدَّهرِ مِنْ عِظَةِ المَغْرُورِ مَا أَصْبَحَ يُبْدِى
تُوْثِرُ الدُّنْيَا فَهَلْ نلْتَ بِهَا لَحْظَةً تَخْلُصُ مِنْ هَمٍّ وَكَدٍّ !![(٢)]

وذكر ضياء الدين أبو الفتح نصر الله بن محمد ، المعروف بابن الأثير الجزرى[(٣)] فى أول كتابه المسمى بـ «الوَشْى المرقوم فى حل المنظوم»[(٤)] قال : حدثنى عبد الرحيم بن على البيسانى[(٥)] بمدينة دمشق ، فى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، قال : كان فن[(٦)] الكتابة بمصر «فى زمن بنى عبيد»[(٧)] غضًا طريا ، ولا يخلو ديوان المكاتبات من رأس يرأس مكانًا وبيانا ، ويقيم [السلطانه بقلمه][(٨)] سلطانا . وكان من العادة أن كلا من أرباب الدواوين إذا نشأ له ولد ، وحصّل شيئًا من علم الأدب ، أحضره إلى ديوان المكاتبات ؛ ليتعلم فن الكتابة ، ويتدرب ، ويرى ، ويسمع . قال : فأرسلنى والدى ـ وكان إذ ذاك قاضيًا بثغر عسقلان ـ إلى الديار المصرية فى أيام الحافظ ـ وهو أحد خلفائها ـ وأمرنى بالمصير إلى ديوان المكاتبات ، وكان الذى يرأس به فى تلك الأيام رجلٌ يقال له : ابن الخلال . فلما حضرت الديوان ، ومثلت بين يديه ، وعرفته من أنا ، وما طلبى ، رَحّبَ بى وسهّل ،

---

(١) هو القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على بن الحسن بن الحسن بن أحمد اللخمى العسقلانى البيسانى . وزير صلاح الدين ، فاق المتقدمين فى صناعة الإنشاء ، توفى سنة ٥٩٦هـ/١٢٠٠م بالقاهرة . انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص١٥٨ـ١٦٣ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٩ ، ص١٣ـ١٨ .

(٢) انظر : الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٤٨٧ .

(٣) وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص٣٨٩ـ٣٩٧ .

(٤) ورد اسم هذا الكتاب فى ترجمة الموفق بن الخلال الكاتب ، انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٧ ، ص٢١٩ .

(٥) انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٧ ، ص٢١٩ .

(٦) «فى» فى نسخة ب وهو خطأ .

(٧) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٨) «لسلطانيه قلمه» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين تصحيح من وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص٢٢٠ .

ثم قال : ما أعددت لفن الكتابة من الآلات؟ فقلت : ليس عندى شىء «سوى»[١] إننى أحفظ القرآن العزيز وكتاب «الحماسة»[٢] ، فقال : فى هذا بَلاغ ، ثم أمرنى بملازمته . فلما ترددت إليه ، وتدربت بين يديه ، أمرنى بعد ذلك أن أحُل شعر الحماسة ، فحللته من أوله إلى آخره ، ثم أمرنى أن أحُله مرة ثانية فحللته .

(١) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٢) كتاب الحماسة : لأبى تمام حبيب بن أوس الطائى المتوفى سنة ٢٣١هـ/٨٤٦م . جمع فيه ما اختاره من أشعار العرب العرباء ورتب أبوابه عشرة . انظر : كشف الظنون ، جـ ١ ، ص٦٩١ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة السابعة والستين بعد الخمسمائة *

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء[1] بأمر الله ، والخليفة فى[2] مصر العاضد ، والوزير بها الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، ولكنه فى الحقيقة سلطانها ، وليس لأحد معه كلام ، لا من أمرائها ، ولا من أعيانها ، والعاضد تحت حكمه وقهره ، ومع هذا قطعت الخطبة باسمه ، وخطب باسم المستضيء الخليفة . وعقيب ذلك مات العاضد ، والكلام فيه مفصل على أنواع :

الأول : فى قطع خطبته :

قُطعت خطبته من ديار مصر فى محرم هذه السنة ، وسبب ذلك أن صلاح الدين لما ثبت ملكه فى البلاد ، وأمِن السودان والأجناد ، وضعف أمر العاضد ، وصار قراقوش[3] حاكما فى قصره ، كتب نور الدين إلى صلاح الدين ؛ يأمره بالقبض على العاضد وأقاربه ، وقطع خطبته ، وإقامة الخطبة للمستضيء بأمر الله ، وكان المستضيء قد راسله فى ذلك .

ولما وصل رسول الخليفة إلى نور الدين بذلك ، سير نور الدين كتاب الخليفة ، وكتابه إلى صلاح الدين ؛ يأمره بالقبض على العاضد وأهله ، والخطبة للإمام المستضيء .

فجمع صلاح الدين الأمراء ، وشاورهم فى ذلك ، فمنهم من خوفه ، ومنهم من هون عليه ، فحضر الفقيه أبو يحيى بن اليسع الجامع يوم الجمعة سابع المحرم ، وصعد المنبر قبل [١٦٥ظ] طلوع الخطيب ، ودعا للإمام المستضيء ، فلم ينكر أحد عليه . فلما كانت الجمعة الثانية ، أمر صلاح الدين جميع الخطباء أن يخطبوا للمستضيء .

★ يوافق أولها : ٤سبتمبر ١١٧١م .

(١) هو الحسن - أبو محمد - بن المستنجد بالله يوسف بن المقتفى ، ولد سنة ٥٣٦هـ/١١٤٢م ، بويع له بالخلافة يوم موت أبيه ، أى فى ثمانى ربيع الآخر سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م . وتوفى سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م . وفى خلافته انقضت دولة بنى عُبيد وخطب له فى مصر . انظر : تاريخ الخلفاء ، ص٤٤٤- ٤٤٨ .

(٢)«بمصر» فى نسخة ب .

(٣) قراقوش : هو أبو سعيد قراقوش بن عبد الله الأسدى الملقب بهاء الدين ، خدم صلاح الدين وتوفى ٥٩٧هـ/١٢٠١م بالقاهرة . انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص٩١- ٩٢ .

وفى تاريخ الدولتين[١] : استفتح صلاح الدين سنة سبع وستين وخمسمائة بإقامة الخطبة فى الجمعة الأولى منها بمصر لبنى العباس ، وفى الجمعة الثانية خطب لهم بالقاهرة ، وانقطع ذكر خلفاء مصر[٢] منها .

وقال فيه أيضا[٣] : إن صلاح الدين لما تمكن فى الديار المصرية ، وضعف أمر العاضد ، كتب إليه نور الدين ؛ يأمره بقطع الخطبة العاضدية ، وإقامة الخطبة العباسية . فاعتذر صلاح الدين بالخوف من وثوب أهل مصر ، وامتناعهم من الإجابة إلى ذلك ؛ لميلهم إلى العلويين . فلم يصغ نور الدين إلى قوله ، وأرسل إليه يلزمه بذلك إلزامًا لا فسحة فيه . واتفق أن العاضد مرض ، واستشار صلاح الدين الأمراء ، فاختلفوا فيه كما ذكرنا ، وكان قد دخل فى مصر إنسان أعجمى ، يعرف بالأمير العالم .

قال ابن الأثير[٤] : وقد رأيناه بالموصل كثيرًا ، فلما رأى ما هم فيه من الإحجام ، قال : أنا أبتدىء بها ، فلما كان أول جمعة من المحرم ، صعد المنبر قبل الخطيب ، ودعا للمستضىء بأمر الله ، فلم ينكر أحد عليه ذلك . فلما كانت الجمعة الثانية أمر صلاح الدين الخطباء بمصر والقاهرة بقطع خطبة العاضد ، وإقامة الخطبة للمستضىء بأمر الله ، ففعلوا ذلك ، ولم ينتطح فيها عنزان ، وكتب بذلك إلى سائر الديار المصرية . وكان العاضد قد اشتد مرضه فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك ، وقالوا : إن سَلِمَ فهو يعلم ، وإن توفى فلا ينبغى أن نغُصَّ عليه هذه الأيام التى قد بقيت من أجله ، فتوفى يوم عاشوراء ، ولم يعلم بذلك على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ولما انتهى الخبر إلى نور الدين بالشام ، أرسل إلى الخليفة ببغداد يعلمه بذلك مع شهاب الدين أبى المعالى بن أبى عصرون ، فزينت بغداد ، وغلقت الأسواق ، وعملت القباب ، وفرح المسلمون فرحًا شديدًا .

---

(١) انظر : الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٤٩٢ .
(٢) يقصد بذلك الخلفاء الفاطميين .
(٣) انظر : الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٤٩٢-٤٩٣ .
(٤) كذا فى الأصل ، أما نص قول ابن الأثير فى الكامل فهو : «رأيته أنا بالموصل» . انظر : الكامل ، جـ ١٠ ، ص٣٤ . ط . بيروت ، دار الكتب العلمية ، ١٩٨٧ .

وكانت الخطبة لبنى العباس قد قُطعت من ديار مصر من سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ، فى خلافة المطيع[١] العباسى ، حين تغلب الفاطميون عليها أيام المعز[٢] الفاطمى ، بانى القاهرة ، إلى هذا الأوان ، وذلك مائتا سنة وثمانى سنين .

وقال ابن الجوزى[٣] : ووصل يوم السبت ثانى عشرين المحرم ابن أبى عصرون ، رسولاً يبشر بأن الخليفة خطب له بمصر ، وضُربت السَّكَّةُ باسمه ، وخُلع على الرسول ، وانكمدت الروافض[٤] . وقد صنفتُ فى هذا كتابا سميته «النصر ، على مصر»[٥] ، وعرضته على الإمام المستضىء بأمر الله ، أمير المؤمنين .

وقال العماد[٦] : شيع نور الدين شهاب الدين أبا المعالى المطهر ، ابن الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون بهذه البشارة ، وأمرنى بإنشاء بشارة عليه ، تقرأ فى سائر بلاد الإسلام ، وبشارة خاصة للديوان العزيز بحضرة الإمام فى مدينة السلام[٧] . قال[٨] : ونظمت قصيدة مشتملة على الخطبة بمصر أولها :

قَدْ خَطَبْنَا لِلْمُسْتَضِى بِمِصْرٍ	نَائِبُ الْمُصْطَفَى إِمَامُ الْعَصْرِ
وَخَذَلْنَا لِنَصْرِهِ[٩] العَضُدَ العا	ضِدَ والقَاصِرَ الَّذِى بِالْقَصْرِ

وأراد بالعضد وزير بغداد ، عضد الدين بن رئيس الرؤساء .

---

(١) الخليفة المطيع العباسى : هو أبو القاسم الفضل بن المقتدر بن المعتضد ، ولد سنة ٣٠١هـ/٩١٤م ، وبويع له بالخلافة عند خلع المستكفى فى جمادى الآخرة سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م ، توفى سنة ٣٦٤هـ/٩٧٥م . انظر : تاريخ الخلفاء ، ص٣٩٨- ٤٠٥ .

(٢) الخليفة المعز الفاطمى : أبو تميم معد الملقب المعز لدين الله بن المنصور بن القائم بن المهدى عبيد الله ، وكانت مدة مملكته ثلاثا وعشرين سنة ، وتوفى فى ربيع الآخر سنة ٣٦٥هـ/٩٧٦م . انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص٢٢٤- ٢٢٨ ؛ الجوهر الثمين ، ج١ ، ص٢٤٧- ٢٤٩ .

(٣) انظر : المنتظم ، ج١٠ ، ص٢٣٧ حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

(٤) الروافض : تطلق على الغلاة فى حب عَلِىّ وسموا كذلك لأنهم رفضوا رأى الصحابة حيث بايعوا أبا بكر وعمر . انظر : عبد القادر الرسعنى : مختصر كتاب الفرق بين الفرق . نشر فيليب حِتّى ، ج١ ، ص٣٠ ، مصر ١٩٢٤ .

(٥) «النصر على . . . مصر» فى الأصل : وبالرجوع إلى المصنفات التى وردت فى ترجمة ابن الجوزى فى المرآة ، جـ ٨ ، ص٣١٥ ذكر السبط اسم الكتاب كما أثبتناه ؛ انظر أيضا : البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٢٦٤ حيث ورد الاسم «النصر على مصر» .

(٦) «فسير» فى الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٥٠٣ عن العماد .

(٧) مدينة السلام : هى بغداد . انظر : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص٤٥٣ .

(٨) القول للعماد فى الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٥٠٣ .

(٩) «كنصره» فى نسخة ب .

وقال العماد فى الخريدة : قصدت بالعضد والعاضد المجانسة ، ونصرة وزير الخليفة كنصرته . ثم قال [١٦٦و] :

وَأَشَعْنَا بِهَا شِعَارَ بَنِى الْعَبْـ ـبَاسِ فَاسْتَبشرت وُجُوه النَّصْرِ
وَتَرَكْنَا [الدَّعِىَّ][١] يَدْعُو ثُبُورًا وَهُوَ بِالذُّلِّ تَحْتَ حَجْرٍ وحَصْرِ
وتباهت منابر الدين بالخط ـبة [للهاشمى][٢] فى أرض مصر
ولدينا تضاعفَتْ نِعَمُ اللـ ـه ، وَجَلَّت عَنْ كُلِّ عَدٍّ وَحَصْرِ

وهى قصيدة طويلة[٣] :

قال العماد[٤] : ووصل من دار الخلافة فى جواب هذه البشارة عماد الدين صندل ، وهو من أكابر الخدم المقتفوى[٥] ، ومعه التشريف لنور الدين ، والكتاب من الخليفة . وناول نور الدين الكتاب للعماد ؛ ليقرأه ، فتناوله منه الموفق بن القيسرانى[٦] ، وكان عنده فى مقام الوزير ، فقرأه .

وذكر فى «عِبرة أولى الأبصار» أن الخليفة سَيَّر إلى نور الدين الخلع ومعها سيفان ؛ إشارة إلى تقليد مصر والشام ، وسير معها طوقًا زنته ألف دينار ، وبعث أيضًا إلى صلاح الدين تشريفًا أقل من تشريف نور الدين ، فلبس صلاح الدين ذلك التشريف ، فركب به فى الديار المصرية ، وهى أول أهبة عباسية دخلت الديار المصرية بعد استيلاء بنى عُبيد عليها . وأما نور الدين ؛ فكذلك لما لبس التشريف خرج إلى ظاهر دمشق حتى انتهى إلى الميدان الأخضر ، ثم عاد .

---

(١) «المدعى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢١٦ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٠٣ .

(٢) «الهاشمى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين تصحيح من الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٥٠٣ .

(٣) أورد أبو شامة القصيدة كاملة فى الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٥٠٣ ـ ٥٠٤ .

(٤) ينقل أبو شامة هذا القول للعماد من كتاب البرق الشامى . انظر الروضتين ، جـ ١ق٢ ، ص٥٠٥ حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

(٥) نسبة إلى الخليفة العباسى أبو عبد الله محمد المقتفى لأمر الله بن المستظهر ، المتوفى سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠م . انظر ترجمته فى تاريخ الخلفاء ، ص ٤٣٧ـ ٤٤٢ .

(٦) هو موفق الدين أبو البقاء خالد بن محمد بن نصر بن صغير بن داغر المخزومى الخالدى ، المعروف بابن القيسرانى . انظر : سنا البرق الشامى ، ص٦٨ـ ٦٩ ؛ السلوك ، ج١ق١ ، ص٧٣ ، ط . الثانية .

الثانى فى كتاب صلاح الدين إلى الخليفة المستضىء بخط القاضى الفاضل ؛ يهنئه بفتح مصر :

أوله[١] : ﴿**سَلامٌ قَوْلاً مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ**﴾[٢] يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان ، وجنات لهم فيها نعيم مقيم ، وصلواته التى تنزل بها الروح الأمين ، وتشيعها الملائكة بالتأمين ، على مولى الأمة ومولى النعمة ، ووالى الأمر المصون بقاؤه فى عقبه ، وولى الله الذى لاخوف عليه ، ولا خوف به الخليفة على الخليقة[٣] ، والإمام الذى يحمى من دون الله الحقيقة على الحقيقة ، ووارث السقايتين زمزم والكوثر ، والولايتين السرير والمنبر ، والدعاءين اليوم وفى المحشر ، والشرفين المشعر والمعشر ، والطرفين المشهد الأول والمشهد الأكبر ، والمقامين مقام إبراهيم ومقام محمد ﷺ أبدًا سرمدًا ، والشعارين الأبيض فى القلب والأسود فى اليد ، والخالدين فى دار السلام ودار السلامة ، والموطنين مقام الإمامة ودار المقامة ، والشفاعتين سالفًا فى أهل العمام وآنفًا فى أهل النار ، والسلامين سلام لكم من ألسنة الأبرار ﴿**سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**﴾[٤] ، على الخليفة ابن الخلائف على رغم من رضى أن يكون مع الخوالف ، وابن الأئمة المشهورين فى المناظر والمواقف ، مولينا ومولانا الإمام المستضىء بالله ـ أمير المؤمنين ـ صلوات الله على تلك الأنوار القدسية ، يتضوع عن نسيم الأنفاس الفردوسية . والحمد لله الذى وفى الدين دينه المسئول ، وأغمد عن أهله سيف الفتنة المسلول ، فأورث أمير المؤمنين حقًا كان به ممطولاً ، وأطال يده إلى استيفاء طائلة كان دم الحق بها مطلولاً[٥] ، وكتاب [١٦٦ط] المملوك صادر إلى المقر الشريف الأشرف الأصيل ، وَمَنْ شرفُهُ لشرف الرسول رسيل ، والاسم الشريف المستضىء به قد صدحت منابره وعروشه ، وطرزت المدائن والملابس والدنانير والدراهم رقومه[٦] ورقوشه[٧] ، وجهزت إلى بلاد الكفار فى

---

(١) بالرجوع إلى الروضتين وهو المرجع المتاح بين أيدينا لرسائل القاضى الفاضل ، لم نعثر على نص هذه الرسالة .
(٢) سورة يس : آية (٥٨) .
(٣) «الحقيقة» فى نسخة ب .
(٤) سورة الرعد : الآية (٢٤) .
(٥) «ممطولاً» فى نسخة ب . ومطلولاً أى مهدرًا . انظر : المنجد ، ص٤٨٥ ، مادة «طل» .
(٦) الرقوم : مفردها رقم . ذكر ماير أن اسم السلطان أو الأمير كان يسجل بالتطريز بالذهب على النسيج وكانوا يسمون هذا رقمًا . انظر : الملابس المملوكية ، ص٦١ ، ص١٠٦ .
(٧) الرقوش : مفردها رقش ؛ وهى النقوش والزخارف . انظر : المعجم الوسيط ، مادة «رقش» جـ١ ، ص٣٦٥ .

العام مرة أو مرتين بعوث نصره وجيوشه ، والزمن قد وقرتهُ السكينة لا الوجوم ، والكواكب قد همت بأن تتساقط إيثار الطرب لا إيثار الرجوم ، ونشأة الدعوة المنيعة قد أشبهت ولاية النبوة الشريفة ، وقد طالع وزير أمير المؤمنين بتفصيل ما أجمله ، وتحصيل ما منعته الجلالة أن يستوفيه ويستكمله ، راجيا أن يناله من الملاحظات النبوية ما يجعل له سلطاناً ، ويمكن له فى قلوب الأعداء والأولياء مكاناً ؛ حتى يحفظ على الخلافة من لا يعنيه إلا إياها ، وينفذ على الثقلين فى الخافقين أوامرها وقضاياها ، ويستضيف لها نصرًا إلى نصرٍ ، ويستنجز لها ما كتب فى الزبور من بعد الذكر ، نَوَّه الله باسم أمير المؤمنين فى الملأ الأعلى ، وطبق بدعوته المعمورة حتى لا يستثنى مكان بإلا ، وقلص به عن الأمة ضلالة ، ومد عليه ظلاً إن شاء الله تعالى .

الثالث : فى أمر[١] نور الدين بالقبض على العاضد :

قد ذكرنا أن نور الدين كتب إلى صلاح الدين ، يأمره بالقبض على العاضد وأقاربه وقطع خطبته ، وعزم صلاح الدين على ذلك ، واستفتى الفقهاء ، فأفتوه بجواز ذلك ، لما كان عليه العاضد وأشياعه من انحلال العقيدة ، وفساد الاعتقاد ، وكثرة الوقوع فى الصحابة (رضى الله عنهم) ، والاستهتار بذلك . وكان أكثرهم مبالغة فى الفتيا الشيخ نجم الدين الخبوشانى[٢] ، فإنه عدد مساوىء هؤلاء القوم ، وسلب عنهم الإيمان ، وأطال الكلام فى ذلك .

وكان العاضد رأى ـ فى آخر دولته ـ فى منامه وهو بمدينة مصر وقد خرجت إليه عقرب من مسجد هو معروف بها ، فلدغته ، فلما استيقظ ارتاع لذلك ، فقصَّ على بعض المعبّرين المنام ، فقال له : ينالك مكروه من شخص هو مقيم فى هذا المسجد ، فأمر والى مصر أن يكشف عمن هو مقيم فى المسجد الفلانى ، وأنه إذا رأى به أحدًا يحضره عنده . فمضى الوالى إلى المسجد ، فرأى فيه رجلاً صوفيًا فأخذه ودخل به على العاضد ،

(١) تكرار فى نسخة ب .

(٢) نجم الدين الخبوشانى : أبو البركات محمد بن الموفق بن سعيد بن على بن الحسن بن عبد الله الخبوشانى ، الملقب نجم الدين الفقيه الشافعى ، توفى يوم الأربعاء ثانى عشر ذى القعدة سنة٥٨٧هـ/١١٩١م . انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص٢٣٩ ـ ٢٤٠ .

فلما رآه سأله : من أين هو ؟ ومتى قدم البلاد؟ وفى أى شىء قدم؟ وهو يجاوبه عن كل سؤال ، فلما ظهر له [منه][1] ضعف الحال والصدق والعجز عن إيصال المكروه إليه ، أعطاه شيئًا وقال له : يا شيخ ادْعُ لنا ، وأطلق سبيله ، وعاد إلى مسجده . فلما استفتى صلاح الدين فى أمر العاضد والقبض عليه ، وأفتاه الفقهاء ، كان هذا الصوفى هو المبالغ فى فتواه ، وهو الشيخ نجم الدين كما ذكرنا ، فصحَّت بذلك رؤيا العاضد[2] .

الرابع فى وفاة العاضد :

قال بيبرس : جلس الخليفة فى قصرة بعد الإرجاف بقطع خطبته ، فظهر عليه ضعف القوى ، وتخاذل الأعضاء ، وأثر الحمى . ولما اشتد مرضه ، تخاذل عنه حتى طبيبه الذى يعوده ، وانقطع عن عيادته[3] .

وما أحسن قول الشاعر :

جَرَّبْتُ فِى شِدَّتِى أَنْ لاَ صَدِيق لِمَنْ　　أضْحَى كعْصف عليه الدهرُ قد عصفا/ [١٦٧و]
خُلْقُ الصَّدِيقِ لِخُلْقِ الدَّهْرِ مُتَّبعٌ　　فإن صفا[4] لك صَافَى أو جفاك جَفَا

ثم توفى يوم عاشوراء من هذه السنة ، فلم يكن بين قطع خطبته ووفاته إلا أيام يسيرة . وقال القاضى الفاضل : كان[5] بين وضع اسمه من على أعواد المنابر ووضع جثته على أعواد النعش ثلاثة أيام . فأقام له صلاح الدين الجنازة ، وواصل العزاء به شهرًا كاملاً .

وفى المرآة[6] : واختلفوا فى سبب وفاته على أقوال ؛ أحدها : أنه تفكر فى أموره فرآها فى إدبار ، فأصابه ذرب[7] عظيم ، فمات منه .

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة لازمة من وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص١١١ .
(٢) نقل العينى هذا النص بتصرف من وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص١١١ .
(٣) «يعوده وانقطع عن عيادته» كذا فى نسخة ب .
(٤) «صفى» كذا فى نسخة أ والمثبت من نسخة ب ، وهو الصحيح .
(٥) «وكان» فى نسخة ب .
(٦) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص١٨١ .
(٧) كذا فى الأصل ، وفى المرآة «كرب» ، جـ ٨ ، ص١٨١ ، حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

والثانى : أنه لما خطب لبنى العباس بلغه ، فاغتم ، فمات . وقيل : إن أهله أخفوا عنه ذلك على ما ذكرناه .

والثالث : أنه لما أيقن بزوال دولته ، كان فى يده خاتم له فص مسموم ، فمصه فمات . وجلس صلاح الدين فى عزائه ، ومشى بين يدى جنازته ، وتولى غسله وتكفينه ودفنه عند أهله .

وقال ابن الأثير[١] : ولما اشتد مرض العاضد أرسل يستدعى صلاح الدين ، فظن أن ذلك خديعة ، فلم يمض إليه ، فلما توفى علم صدقه ، فندم على تخلفه عنه . وكان صلاح الدين يقول : لو علمت أنه يموت من هذا المرض ما قطعت خطبته إلى أن يموت .

وقال ابن خلكان[٢] قيل : إنه حصل له غيظ من شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو صلاح الدين ، فسمّ نفسه فمات ، والله أعلم .

قال العماد[٣] : ولما وصل الخبر بموت العاضد ، فى ليلة عاشوراء سنة سبع وستين وخمسمائة ، بعد الخطبة بمصر للمستضىء بأمر الله أمير المؤمنين ، عملتُ هذه الأبيات . فذكر قصيدة منها :

تُوُفِّىَ الْعَاضِدُ الدَّعِىُّ ، فَمَا ... يَفْتَحُ ذُو بِدْعَةٍ بِمِصْرَ فَمَا
وَعَصْرُ فِرْعَوْنِهَا انْقَضَى ، وَغَدَا ... يُوسُفُهَا فِى الْأُمُورِ مُحْتَكِمَا
وَانْطَفَأَتْ جَمْرَةُ الْغُوَاةِ ، وَقَدْ ... بَاخَ مِنَ الشِّرْكِ كُلُّ مَا اضْطَرَمَا
وصَارَ شَمْلُ الصَّلاحِ مُلْتَئِمًا ... بِهَا ، وَعَقْدُ السَّدَادِ مُنْتَظِمَا
لَمَّا غَدَا مُعْلِنًا شِعَارَ بَنِى الْـ ... ـعَبَّاسِ حَقًّا ، وَالْبَاطِلَ اكْتَتَمَا
وَبَاتَ دَاعِى التَّوْحِيدِ مُنْتَصِرًا ... وَمِنْ دُعَاةِ الإِشْرَاكِ مُنْتَقِمَا
وَظَلَّ أَهْلُ الضَّلالِ فى ظُلَلٍ ... دَاجِيَةٍ مِنْ غَيَابَةٍ وَعَمَى[٤]

(١) انظر : الكامل ، جـ ١٠ ، ص٣٣ - ٣٤ حيث ينقل العينى عنه بتصرف .
(٢) انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص١١٢ .
(٣) انظر : الروضين ، جـ ١ ق٢ ، ص٤٩٥ - ٤٩٦ .
(٤) «وعما» فى نسخة ب .

الخامس فى سيرته :

كان شيعيًا خبيثًا ، لو أمكنه قَتَلَ كل من قدر عليه من أهل السنة ، وكان كريمًا جوادًا ممدحًا .

وقال ابن خلكان : كان العاضد شديد التشيع ، متغاليًا(١) فى سب الصحابة رضى الله عنهم ، وإذا رأى سُنِّيًا استحل دمه ، وسار وزيره(٢) الصالح بن رزيك فى أيامه سيرة مذمومة فإنه احتكر الغلات فارتفع سعرها ، وقتل أمراء الدولة خشية منهم ، وأضعف أحوال الدولة المصرية فقتل مقاتلتها ، وأفنى ذوى الآراء والحزم منها .

وفى تاريخ ابن العميد : وكان مذهبهم مذهب أهل التناسخ(٣) ، واعتقاد الجزء الإلهى فى أشياخهم . وقد ذكرنا أن الحاكم(٤) قال لداعيه : كم فى جريدتك؟ قال : ستة عشر ألفا ، يعتقدون أنك إله .

وقال فيه بعض الشعراء :

مَا شِئْتَ لاَ مَاشَاءتْ الأقْدَارُ		فَاحْكُمْ فَأنْتَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ

وهذا كفر محض ، وليس مثله إلا قول فرعون : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَىٰ ﴾(٥) ، وقال بعض شعرائهم [١٦٧ظ] يذكر ظهور مهديهم فيما يزعمون برقادة(٦) من عمل القيروان :

حَلَّ بِرُقَّادَةَ الْمَسِيح		«و»(٧)حَلَّ بِهَا آدَمُ وَنُوحُ
حَلَّ بِهَا اللَّهُ فى عُلاَهُ		وَمَا سِوَى اللهِ فَهْوَ رِيحُ

---

(١) «غاليا» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص ١١٠ .

(٢) الصالح بن رزيك ، هو أبو الغارات طلائع بن رزيك ، توفى سنة ٥٥٦ هـ/١١٦١م . انظر وفيات الأعيان ، جـ ٢ ، ص ٥٢٦ - ٥٣٠ .

(٣) أهل التناسخ : قالوا بتناسخ الأرواح فى الأجساد والانتقال من شخص إلى شخص . الشهرستانى : الملل والنحل ، جـ ١ ، ص ٢٥٣ ، تحقيق محمد سيد كيلانى ، القاهرة ١٩٦١م .

(٤) هو الحاكم بأمر الله الفاطمى ، المنصور أبو على بن العزيز بالله نزار بن المعز ، وكانت مدة خلافته خمسًا وعشرين سنة وشهرًا . تولى سنة ٣٨٦هـ /٩٩٦م وقتل سنة ٤١١ هـ /١٠٢٠م . انظر : اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا ، تحقيق جمال الدين الشيال ، جـ٢ ، ص٣-١٢٣ ؛ نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ، ص ١٦٧ - ٢٠٢ .

(٥) سورة النازعات : آية (٢٤) .

(٦) رقَّادَة : بلدة بتونس بينها وبين القيروان أربعة أميال . انظر : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٧٩٧ - ٧٩٨ .

(٧) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

وهذا أعظم من اعتقاد النصارى فى المسيح ؛ لأنهم يزعمون أن فيض الإله حل على المسيح ، وهؤلاء يعتقدون حلول البارىء تعالى فى جسد آدم ونوح وسائر الأنبياء وجميع خلفائهم وأئمتهم ، نعوذ بالله من ذلك ، وتعالى الله عن ذلك .

السادس فى ترجمته :

هو أبو محمد عبد الله ، الملقب العاضد بن يوسف ، ابن الحافظ لدين الله أبى الميمون ، عبد المجيد بن أبى القاسم محمد ـ ولم يل الخلافة(١) ـ ابن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدى . آخر ملوك مصر من العبيديين .

والعاضد فى اللغة القاطع(٢) ، ومنه الحديث : «لا يعضد شجرها»(٣) . وبه قطعت دولتهم وعُضِدَت .

ولى المملكة بعد عمه الفائز ، وكان أبوه يوسف أحد الأخوين اللذين قتلهما عباس(٤) بعد الظافر . واستقر الأمر للعاضد اسمًا ، وللصالح طلائع بن رزيك جسمًا ، وكان مولده فى سنة ست وأربعين وخمسمائة ، فعاش إحدى وعشرين سنة .

وفى المرآة(٥) : توفى يوم عاشوراء وعمره ثلاث وعشرون سنة ، وكانت أيامه إحدى(٦) عشرة سنة وشهورًا ، وكان العاضد مولده سنة أربع وأربعين وخمسمائة(٧) . وبويع له فى

---

(١) يقصد هنا أن أبا القاسم محمد لم يخطب له بالخلافة ـ وقد ذكر ذلك ابن الأثير فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص٣٤ . كما ذكر أن والد العاضد يوسف بن الحافظ لم يخطب له بالخلافة أيضا .

(٢) وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص ١٠٩ ـ ١١٢ .

(٣) نص الحديث : «إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرىء يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دمًا ولا يعضد بها شجرة . . . البخارى ، جـ١ ، ص٣٦ ـ ٣٧ .

(٤) هو : أبو الفضل عباس بن أبى الفتوح بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس الصنهاجى . تولى الوزارة للخليفة الفاطمى الظافر سنة ٥٤٨ هـ/١١٥٣م . توفى ٥٤٩ هـ/١١٥٤م . وعن قتله للظافر انظر : وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص٢٣٧ ؛ اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٢٠٨-٢٠٩ .

(٥) انظر : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص١٨١ . حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

(٦) «أحد عشر» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب و الصحيح ما أثبتناه .

(٧) انفرد سبط ابن الجوزى فى المرآة بذكر مولد العاضد فى سنة أربع وأربعين وخمسمائة . فى حين أن المصادر الأخرى أجمعت على أن مولده كان سنة ست وأربعين وخمسمائة . انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص١١١ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٢٦٤ ؛ اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٢٤٣ ؛ الشذرات ، جـ ٤ ، ص٢٢٣ .

رجب سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وهو ابن إحدى عشرة سنة[١] . ولم يل أبوه الخلافة ، وأمه أم ولد ، يقال لها ست المُنى . وكانت الخطبة لبنى العباس قد قطعت من ديار مصر من سنة تسع وخمسين وثلاثمائة ، فى خلافة المطيع العباسى ، حين تغلب الفاطميون عليها أيام المعز الفاطمى - بانى القاهرة - [و][٢] إلى هذا الأوان ، وذلك مائتا سنة وثمانى سنين .

وقال النويرى[٣] فى تاريخه : وجميع من خطب [له من الفاطميين][٤] بالخلافة أربعة عشر خليفة ، بمصر أحد عشر خليفة ، وبالمغرب ثلاثة - عدد خلفاء بنى أمية[٥] - وهم : المهدى ، والقائم والمنصور ، والمعز ، والعزيز ، والحاكم ، والظاهر ، والمستنصر ، والمستعلى ، والآمر ، والحافظ ، والظافر ، والفائز ، والعاضد[٦] .

وجميع مدة خلافتهم من حين ظهر المهدى بسجلماسة[٧] فى ذى الحجة من سنة ست وتسعين ومائتين إلى أن توفى العاضد فى هذه السنة - أعنى سنة سبع وستين[٨] وخمسمائة - مائتان واثنان وسبعون سنة .

وقال ابن كثير[٩] : كان أول من ملك منهم المهدى ، وكان من أهل سلمية[١٠] حداد اسمه سعيد ، وكان يهوديًا ، فدخل بلاد المغرب ، وتسمى بعبيد الله ، وادعى أنه شريف علوى فاطمى ، وقال : إنه المهدى . وقد ذكر هذا غير واحد من سادات العلماء الكبراء ؛ كالقاضى أبى بكر الباقلانى ، والشيخ أبى حامد الإسفرايينى ، كما ذكرنا ذلك مفصلاً . والمقصود أن هذا الكذاب راج له ما افتراه فى تلك البلاد ، ووازره جهلة من العباد ،

---

(١) إلى هنا توقف العينى عن النقل من سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص١٨١ .

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل ومثبت فى ب .

(٣) نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ، ص٣٤٧ حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

(٤) «للفاطميين» فى الأصل . والمثبت بين الحاصرتين لإيضاح المعنى .

(٥) عن خلفاء بنى أمية فى المشرق انظر : معجم الأنساب ، جـ ١ ، ص١ .

(٦) انظر : معجم الأنساب ، جـ ١ ، ص ١٤٦ - ١٤٧ .

(٧) سجلماسة : مدينة فى جنوب المغرب بينها وبين فاس عشرة أيام . انظر : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص٤٥ - ٤٦ .

(٨) ذكر المقريزى أن دولة الفاطميين اتصلت نحوًا من مائتين وسبعين سنة . انظر : اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٣٣١ .

(٩) انظر البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٢٨٦ حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

(١٠) سَلَمْية : بفتح أوله وثانيه وسكون الميم . بليدة من أعمال حماه . انظر : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص١٢٣ .

وصارت له دولة وصولة وجولة ، فتمكن إلى أن بنى مدينة سماها المهدية[١] ، نسبة إليه . وصار ملكًا مطاعًا أظهر الرفض وانطوى على الكفر المحض ، ثم كان من بعده أولاده[٢] كما ذكرنا .

وقد كانوا من أنجس الملوك سيرة ، وأخبثهم سريرة ، ظهرت فى دولتهم البدع والمنكرات ، وكثر أهل الفساد ، وقل عندهم الصالحون من العباد ، وكثر بأرض الشام [١٦٨و] النصيرية[٣] والدرزية[٤] والحشيشية[٥] .

وتغلب الإفرنج على سواحل الشام بكماله ، حتى أخذوا القدس الشريف ، ونابلس ، والغور ، وبلاد غزة ، وعسقلان ، والكرك ، والشوبك ، وطبرية ، وبانياس ، وصُور ، وعثليث[٦] ، وصيدا ، وبيروت ، وعكا ، وصفد ، وطرابلس ، وأنطاكية ، وجميع ما والى ذلك إلى بلاد إياس وسيس . واستحوذوا على بلاد آمد والرها [ورأس العين][٧] وبلاد شتى ، وقتلوا خلقًا لا يعلمهم إلا الله ، وسبوا من الذرارى المسلمين من النساء والولدان ما لا يحد ولا يوصف[٨] .

وفى أيام العاضد وصل[٩] أسطول الفرنج إلى الإسكندرية ، وكان معهم من الخيل ألف وخمسمائة فرس ، وفى الأسطول ثلاثون ألف مقاتل فى مائتى شين ، ومعهم آلات الحرب والحصار ، ومعهم أربعون مركبًا أخرى تحمل الأزواد ، وفيها من الرجال والغلمان تتمة خمسين ألف رجل ، وكشفوا المسلمين عن البر ، وطلعوا فضربوا خيامهم ، وكانت

---

(١) المهدية : موضع بتونس قرب سلا ، معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٦٩٣ - ٦٩٧ .

(٢) فى البداية والنهاية تفصيل لأولاده : «ابنه القائم محمد ، ثم ابنه المنصور إسماعيل ، ثم ابنه المعز معد» . جـ١٢ ، ص٢٨٦ .

(٣) النصيرية أو العلوية : «قال القدماء : هم أتباع نصير غلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب . وهم يدعون ألوهية على ﷺ مغالاة فيه» . انظر : خطط الشام ، جـ ٦ ، ص٢٦٥ .

(٤) هم من الباطنية ينسبون إلى محمد بن إسماعيل الدرزى المعروف بنشتكين . وعنهم انظر : خطط الشام ، جـ ٦ ، ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

(٥) الحشيشية : أطلق هذا اللفظ على فرقة الإسماعيلية مع بداية دخول الصليبيين إلى الشام . وسموا بذلك لأن رؤساءهم كانوا يعطون الحشيشة لمن يكلفونه منهم على قتل أحد خصومهم السياسيين . انظر : خطط الشام ، جـ ٦ ، ص٢٦٥ .

(٦) عَثْلِيثُ : اسم حصن بسواحل الشام يعرف بالحصن الأحمر ، كان فيما فتحه الملك الناصر يوسف بن أيوب سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧م . معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٦١٦ .

(٧) ما بين الحاصرتين إضافة من البداية والنهاية حيث ينقل العينى عنه ، جـ ١٢ ، ص٢٨٧ .

(٨) إلى هنا توقف العينى عن النقل من : البداية والنهاية جـ ١٢ ، ص٢٨٦ - ٢٨٧ .

(٩) «وصلت» فى نسختى المخطوطة أ ، ب والمثبت هو الصحيح .

ثلاثمائة خيمة ، وحاصروا الإسكندرية أيامًا . ففتح المسلمون أبواب المدينة بالليل ، وكبسوا الفرنج على غفلة ، فأفنوهم قتلاً وأسرًا[١] ، وغنموا جميع ما أحضروه ، وغنموا بعض المراكب ، وأقلعوا بعض المراكب الباقية . وحين زالت أيام الفاطميين أعاد الله هذه البلاد إلى أهلها من السادة المسلمين .

وقد قال حسان[٢] الشاعر المدعو عرقلة :

أَصْــبَحَ الْمُلْكُ بَعْــدَ آلِ عَلِيٍّ ... مُشْـرِقًا بِالْمُلُوكِ مِنْ آلِ شَاذِى

وَغَدا الشَّرْقُ يَحْسُدُ الْغَرْبَ لِلْقَوْ ... م وَ مِــصْــرُ تَزْهُو عَلَى بَغْــدَاذِ

مَا حَوَوْها[٣] إلاَّ بِعَـزْمٍ وَحَـزْمٍ[٤] ... وَصَلِيلِ الفُــؤادِ مِنْ فُــولاَذِ[٥]

[لا][٦]كَفِرْعَوْنَ وَ الْعَزِيزِ وَمَنْ كَا ... نَ بِهَا كَالْخَصَيبِ[٧] وَالأُسْتَاذِ

وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة[٨] : يعنى بالأستاذ كافور الإخشيدى . وقوله : آل علىٍّ يعنى الفاطميين على زعمهم ؛ لأنهم ما كانوا فاطميين ، وإنما كانوا أدعياء .

وقال أبو شامة[٩] : وقد أفردت كتابًا سميَته «كشف ما كان عليه بنو عُبيد من الكفر والكذب والكيد»[١٠] . وكذا صنف العلماء فى الرد عليهم كتبًا كثيرة . ومن أَجَلِّ ما وضع فى ذلك[١١] : كتاب القاضى أبى بكر الباقلانى الذى سماه كتاب «كشف الأسرار وهتك الأستار» .

---

(١) «وأسروا» فى نسخة ب .

(٢) هو : أبو الندى حسان بن نُمير الكلبى المعروف بعرقله الكلبى . كان شاعرًا خصيصًا بالأمراء السادة بنى أيوب . ولد سنة ٤٨٦ هـ/١٠٩٣م ، وتوفى سنة ٥٦٧ هـ/١١٧٢م . انظر ترجمته فى الخريدة . قسم شعراء الشام ، جـ ١ ، ص١٧٨ وما بعدها . وانظر هذه الأبيات ص٢٠٣ - ٢٠٤ فى الجزء نفسه .

(٣) «حواها» فى الخريدة ، قسم شعراء الشام ، جـ١ ، ص٢٠٣ .

(٤) «بحزم وعزم» انظر الخريدة ، قسم شعراء الشام ، جـ١ ، ص٢٠٣ ؛ الروضتين جـ١ ق٢ ، ص٥٠٩ .

(٥) «وصليل الفولاذ فى الفولاذ» كذا فى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٥٠٩ ؛ الخريدة : قسم شعراء الشام ، جـ١ ، ص٢٠٣-٢٠٤ .

(٦) «بها» فى الأصل . والمثبت من الخريدة ؛ والروضتين جـ١ ق٢ ، ص ٥٠٩ .

(٧) الخصيب : هو الخصيب بن عبد الحميد ، والى خراج مصر زمن الرشيد . وإليه تنسب منية ابن خصيب . انظر : الخريدة ، قسم شعراء الشام ، جـ١ ، ص ١٧٩ ، حاشية ٦ .

(٨) انظر : الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص ٥٠٩ . حيث ينقل العينى عنه .

(٩) انظر الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٥١٤ - ٥١٥ . حيث ينقل العينى عنه باختصار شديد .

(١٠) لم نعثر على هذا الكتاب فى المصادر التى بين أيدينا .

(١١) عن هذه القضية وصحة نسب الفاطميين انظر : اتعاظ الحنفا ، ج١ ، ص٢٢ وما بعدها .

وما أحسن ما قال بعض الشعراء فى بنى أيوب ، يمدحهم على ما فعلوه بديار مصر :

أَلَسْتُمْ مُزِيلِى دَوْلَةَ الكُفْرِ مِنْ بَنِى عُبَيد بِمِصْرَ إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ
زَنَادِقَةٌ شِيعِيَّةٌ بَاطِنِيَّةٌ مَجُوسٌ مَعًا فِى الصَّالِحين لَهُمْ أَصْلُ
يُسِرُّون كُفْراً ، يُظْهِرُون تَشَيُّعا لِيَسْتَتِروا شَيْئًا وَعَمَّهُم الْجَهْلُ

السابع فى قصيدة يرثيهم بها عمارة اليمنى وهى هذه :

رَمَيْتَ يَا دَهْرُ كَفَّ الْمَجْدِ بِالشَّلَل وَجِيدَهُ بَعْدَ «حُسْنِ الحَلْىِ بِالْعَطَلِ»[١]
سَعَيْتَ فِى مَنْهَج الرَّأىِ العَثُورِ فَإِنْ قَدَرْتَ مِنْ عَثَرَات «الدَّهرِ فَاسْتَقِل»[٢]
[١٦٨ظ] جَدَعْتَ مارِنَك الأقْنى ، [فَأَنْفُكَ][٣] لا يَنْفَكُّ مَا بَيْن نَقْصِ[٤] الشَّين والخَجَلِ/
هَدَمْتَ قَاعِدَةَ الْمَعْرُوفِ عَنْ عَجَلٍ سُقِيتَ مُهْلاً ، أَمَا تَمْشِى عَلَى مَهَلِ
لَهْفِى وَلَهْف بَنِى الآمَالِ قَاطِبَةً عَلَى فَجِيعَتِنَا[٥] فِى أَكْرَمِ الدُّوَلِ
قَدِمْتُ مِصْرَ فَأَوْلَتْنِى خَلائِفُهَا مِنَ الْمَكَارِمِ مَا أَرْبَى عَلَى الأمَلِ
قَوْمٌ عَرَفْتُ بِهِمْ كَسْبَ الألُوفِ ، وَمِنْ كَمَالِهَا أَنَّها جَاءَتْ وَلَمْ أَسَلِ
وَكُنْتُ مِنْ وُزَرَاءِ الدَّسْتِ حَيْثُ سَمَا رَأْسُ الْحِصَانِ بِهَادِيه عَلَى الكَفَلِ
وَنِلْتُ مِنْ عُظَمَاءِ الْجَيْشِ تَكْرِمَةً وَخُلَّةً حُرِسَتْ مِنْ عَارِضِ الْخَلَلِ
يَا عَاذِلِى فِى هَوَى أَبْنَاءِ فَاطِمَةٍ لَكَ الْمَلامَةُ إِنْ قَصَّرْتَ فِى عَذَلِى
بِاللّهِ زُرْ سَاحَةَ الْقَصْرَيْن ، وَابْكِ مَعِى عَلَيْهِمَا ، لا عَلَى صِفِّين والْجَمَلِ
وَقُلْ لأَهْلِهِمَا[٦] : وَاللّهِ مَا الْتَحَمَتْ فِيكُمْ جُرُوحِى ، وَلاَ قَرْحِى بِمُنْدَمِلِ[٧]

(١)«حلى الحسن بالعطل» فى الروضتين ، وقد ذكر أبو شامة القصيدة فى حديثه عن مقتل عماره اليمنى سنة ٥٦٩هـ/١١٧٠م . جـ١ ق٢ ، ص٥٧٠ - ٥٧١ ؛ أيضا وردت القصيدة فى مفرج الكروب ، جـ١ ، ص ٢١٢ - ٢١٦ ؛ تاريخ ابن الفرات ، جـ١ م٤ ، ص١٦٩- ١٧٢ .
(٢) «البغى فاستقل» كذا فى الروضتين .
(٣)«فوجهك» فى الأصل . والمثبت من الروضتين ومفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات وهو الأولى للمعنى .
(٤)«أمر» فى مفرج الكروب .
(٥) «فجيعتها» فى مفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات .
(٦) «لأهلهما» فى الروضتين ، جـ١ق٢ ، ص٥٧٠ .
(٧) «وقل لأهلهما . . . فيكم قروحى ولاجُرحى . . .» . فى الروضتين .

مَـاذَا تُرىَ كَـانَت الإفْـرِنْجُ فَـاعِلَةً ... فِى نَسْلِ آلِ أَمِـيـرِ الْمُـؤْمِنِينَ عَلِي
هَلْ كَانَ فِى الأَمْرِ شَىءٌ غَيْرُ قِسْمَـةِ مَا ... مُلِّكْتُمُ[1] بَيْنَ حُكْمِ السَّـبْىِ والنَّفَل
وَقَـدْ حَـصَلْتُم عَلَيْـهَـا وَاسْمُ جَـدِّكم ... مُحَـمَّد ، [وأبوكم][2] ، خَيـرُ مُنْتَعِلِ[3]
مـررتُ بالقـصـرِ والأركـانُ خـاليـةٌ ... من «الأنيس»[4] وكـانتْ قِبلَةَ القِبَلِ
فملتُ عنها بوجْهِى[5] خوفَ مُنْتَقِدٍ ... مِنَ الأَعــادِى ووجْـــهُ الودِّ لـم يَمِلِ
أسْبَلتُ من أسَفٍ[6] دمْعِى غداةَ خلتْ ... رحـابُكم وغَـدَتْ مَـهْجـورةَ السُّـبُلِ
أبكى على [مأثرات][7] منْ مَكارِمكُم ... حَـالَ الزمـانُ عليـهـا وهى لم تَحُلِ
دَارُ الضـيـافـة كـانت أُنْسَ وافِـدِكم ... واليـــومَ أَوْحَشُ من رسْمٍ ومنْ طَلَلِ
وفطرةُ الصَّومِ إنْ أصْغَتْ[8] مَكَارمُكم ... [تَشكُو][9]من الدهرِ حَيفًا غيرَ مُحْتَملِ
وكُسْوةُ النّاسِ فى الفصْلين قد دَرَسَت ... ورث فـيـهـا جـديدٌ عندكم[10] وَبَلى
وموسِمٌ كـان فى كَسْرِ الخليجِ[11] لكُم ... يأتى تَجَـمُّلكم فـيـه على الجُـمَلِ
وأولُ العامِ و[العِيدان][12] [كان][13] لكم ... فـيـهـن من وَبْلِ جُـودٍ ليس بالْوَشَلِ
والأرضُ تهتزُّ فى «عيد الغدير»[14] كما[15] ... يَهْـتَـزُّ مـا بَيْن قـصْـرَيْكم من الأَسَلِ
والخيلُ تُعْرضُ «فى» وشْىٍ وفى[16] شِيَةٍ ... مـثلُ العـرائِس فى حَلْى وفـى حُلَلِ

---

(١)«ملكتمو» : فى مفرج الكروب .
(٢)«أبيكم» فى الأصل والروضتين . والمثبت ما بين الحاصرتين من مفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات وهو الأصح .
(٣) «غير منتقل» فى الروضتين ؛ «خير منتحل» فى تاريخ ابن الفرات .
(٤) «الوقود» فى الروضتين ومفرج الكروب وابن الفرات .
(٥) «بوجه» فى مفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات .
(٦) «من أسفى» فى مفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات .
(٧) «ما تراءت» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، جـ ١ق٢ ، ص٥٧٠ .
(٨) «أضفت» فى تاريخ ابن الفرات .
(٩) «فشكوا» فى الأصل . والمثبت بين الحاصرتين من نسخة ب ، ومن الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٧٠ .
(١٠)«عنهم» فى الروضتين ومفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات .
(١١) «يوم الخليج» فى مفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات .
(١٢)«العيدين» فى الأصل . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، جـ ١ق٢ ، ص٥٧١ .
(١٣)«كنز» فى الأصل . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين وتاريخ ابن الفرات . وفى مفرج الكروب «كم لكم» .
(١٤)«يوم الغدير» فى مفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات .
(١٥) «لما» فى الروضتين ، جـ١ق٢ ، ص٥٧١ .
(١٦) «من» فى الروضتين وتاريخ ابن الفرات . وقد أورد ابن الفرات البيت التالى قبل هذا البيت .

وما[١] حَمَلْتُم[٢] قِرى الأضْياف مِن سعَةِ الْـ أطْباقِ إلاَّ علَى الأعناقِ[٣] والعَجَلِ
وما خَصَصْتم ببِرٍّ أهلَ مِلّتِكُم حتى عَمَمْتُم به الأقْصى مِن المِلَلِ
كانت رَوَاتِبُكُم لِلذمتينِ[٤] وللضَّـ ـيفِ المقيم وللطّارِى من الرُّسُلِ
[١٦٩و] وللجوامعِ[٥] مِنْ أحَباسِكُم نِعَمٌ لمنْ تَصَدَّرَ فى عِلْمٍ وفى عَمَلِ/
ورُبَّما عادَت الدُّنْيا لِمَعْقِلِها[٦] منكُم، وأضحَتْ بكُم محلُولة الْعُقَلِ[٧]
والله لا فازَ يومَ الحشْرِ ظالِمُكُم[٨] ولا [نَجا][٩] من عذابِ النارِ غيرُ وَلِى
ولا[١٠] رأى جَنّةَ «الخُلد» التى «وُعِدَتْ» مَنْ خَانَ عهدَ الإمَامِ العَاضِدِ بن علي
ولا سُقِى الماءُ مِن «حَرٍّ»[١١] ومنْ ظمأٍ مِن كفٍّ خيرِ البَرايا خَاتَمِ الرُّسُلِ
أئمتى وهُدَاتى والذخيرةُ لى إذا ارْتَهنْتُ بمَا قَدّمْتُ مِن [عَمَلِ][١٢]
«بِالله»[١٣] لم أُوفِهِمْ فى المدْحِ حَقَّهُمُ لأنَّ فَضْلَهُمُ كالوابِلِ الهَطِلِ
وإنْ[١٤] تَضَاعَفَت الأقْوالُ واسْتَبَقَتْ ما كنتُ فيهِم بحمدِ الله بالْخَجِلِ
بابُ النجاةِ فَهُمْ دُنيا وآخرةً وحُبُّهم فهو أصلُ الدِّين والعَملِ

(١) «ولا» فى الروضتين .
(٢) «جلتم» كذا فى نسخة ب .
(٣) «الأكتاف» فى مفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات .
(٤) «للوافدين» فى مفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات .
(٥) فى مفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات بيت زائد عن الأصل نصه :
«ثم الطراز بتنيس الذى عظمت منه الصلات لأهل الأرض والدول» .
(٦) كذا فى الأصل والروضتين . وفى مفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات : «فمعقلها» .
(٧) إلى هنا انتهت القصيدة فى الروضتين .
(٨) «مبغضكم» فى مفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات .
(٩) «نجى» فى الأصل والمثبت من نسخة ب .
(١٠) فى مفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات هذا البيت والذى يليه فيهما تقديم وتأخير عن الأصل المثبت . وفى الشطر الأول من البيت الأول اختلاف نصه : «ولا رأى جنة الله التى خلقت» .
(١١) «خير» كذا فى نسخة ب .
(١٢) «عملى» فى الأصل . والمثبت من مفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات .
(١٣) «تالله» فى مفرج الكروب فقط .
(١٤) «ولو» فى مفرج الكروب وتاريخ ابن الفرات .

نُورُ الهُدَى و مَصَابيحُ الدُّجَى ومَحَـ	ـلُّ الغَيْثِ إن وَنَت الأنواءُ فى المحَلِ
أئمـــــةٌ خُلِقُـــوا نورًا فنورهـم	مِنْ نور خَالصِ نُورِ اللّٰهِ لَمْ يَفلِ[١]
واللهِ لا زُلْتُ عن حُـبِّى لهُم أبدًا	ما أخَّـرَ اللهُ لى فى مُـدةِ الأَجَلِ[٢]

الثامن فيما جرى بعد موته .

قال ابن كثير[٣] (رحمه الله) : لما مات العاضد استحوذ الملك الناصر صلاح الدين يوسف على القصر بما فيه ، وأخرج منه أهل العاضد إلى دار أفردها لهم ، وأجرى عليهم الأرزاق والنفقات الهنيئة ؛ عوضًا عما فاتهم من الخلافة[٤] .

واستعرض حواصل القصرين ، فوجد فيهما من الحواصل والأمتعة والآلات والثياب والملابس شيئًا كثيرًا باهرًا ، وأمرًا هائلاً ، فمن ذلك : سبعمائة يتيمة من الجوهر ، وقضيب زمرد[٥] طوله أكثر من شبر وسُمْكُهُ نحو الإبهام ، وحبل من ياقوت ، وَوُجِدَ فيه إبريق عظيم من الحجر المانع ، وطبل للقولنج[٦] . فاتفق أن بعض أمراء الأكراد أخذه فى يده ، ولم يدر ما شأنه ، فلما ضرب عليه حبق[٧] فألقاه من يده فكسره فبطل أمره ، وأما القضيب الزمرد فإن السلطان كسره ثلاث فلق ، فقسَّمه بين نسائه ، وقسَّم بين الأمراء شيئًا كثيرًا من قطع البلخش[٨] والياقوت والذهب والأثاث وغير ذلك . واستمر البيع فيما كان هنالك من الأثاث والأمتعة نحوًا من عشر سنين ، وأرسل إلى الخليفة ببغداد هدايا

---

(١) «أئمة خلقوا نورا ، قبورهم	من خالص نور الله لم يأفُل» فى الأصل . والمثبت من مفرج الكروب وابن الفرات .
(٢) فى مفرج الكروب و ابن الفرات بيت زائد نصه :
عمارة قالها المسكين وهو على	خوفٍ من القتل ، لا خوف من الزلل .
(٣) انظر البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٢٨٤ .
(٤) ذكر ابن كثير هذا القول نقلاً عن ابن أبى طى . انظر أيضا قول ابن أبى طى فى الروضتين ، جـ ١ق٢ ، ص٥٠٦-٥٠٧ .
(٥) «قضيب زمرد وطوله قبضة ونصف» فى المرآة . وانظر تفصيل ما وجد فى القصر من الأمتعة والجواهر فى المرآة أيضًا ، جـ٨ ، ص١٨١ ؛ وعن الزمرد راجع ، صبح الأعشى ، جـ ٢ ، ص ١٠٣ - ١٠٥ .
(٦) القَولَنْج : مرض اعتقال الطبيعة لانسداد المعى المسمى قولون . انظر : الخوارزمى : مفاتيح العلوم ، ص٩٨٠ ؛ النوادر السلطانية ، ص٥٥ ، حاشيه ٣ .
(٧) حبق : هو ضراط المعى . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة «حبق» .
(٨) البلخش ، يسمى اللّعْلُ وهو من نفائس الأحجار . انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ٢ ، ص٩٩- ١٠٠ .

عظيمة سنية ، وكذلك إلى الملك العادل نور الدين ، أرسل إليه جانبًا كبيرًا صالحا ، وكان مما أرسله لنور الدين ثلاث قطع بلخش ، زنة الواحدة أحد وثلاثون مثقالاً ، والأخرى ثمانية عشر مثقالاً ، والثالثة «دونهما»(١) ، مع لآلئ كثيرة ، وستين(٢) ألف دينار ، وعطر لم يسمع بمثله(٣) ، ووجد في القصر أيضا خزانة كتب ليس في دار الإسلام مثلها ، تشتمل على نحو ألفى ألف مجلد(٤) . ومن عجائب ذلك أنه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبرى .

وقال العماد الكاتب(٥) : كانت الكتب قريبًا من مائة وعشرين ألف مجلد ، وقد تسلمها القاضى الفاضل ، وأخذ منها شيئًا كثيرًا مما اختاره و انتخبه(٦) .

قال(٧) : وقَسَّم القصر الشمالى بين الأمراء ، فسكنوه ، وأسكن أباه نجم الدين فى [١٦٩و] قصر عظيم على الخليج ، الذى يقال له اللؤلؤة(٨) ، الذى فيه بستان الكافورى ، وسكن أكثر الأمراء فى دور من كان ينتمى إلى الفاطميين ، ولا يلقى أحد من الأتراك أحدًا من أولئك الذين كانوا بها أكابر إلا شلحوه ثيابه ، ونهبوا داره حتى تمزق كثيرًا منهم فى البلاد ، وتفرقوا شذر مذر ، وصاروا أيادى سبأ .

وقال ابن أبى طىّ : ولم يوجد فى القصر من المال كثير ؛ لأن [شاور](٩) قد ضيعه فى إعطائه الفرنج فى المرات العديدة ، ووجد فيه ذخائر جليلة من ملابس وفرش وخيول وخيام وكتب وجوهر ، ووجد فيه إبريق عظيم من الحجر المانع ، فأنفذه السلطان إلى

---

(١) «عشرة مثاقيل ، وقيل أكثر» فى البداية والنهاية .
(٢) «ستون» فى نسختى المخطوطة أ ،ب .
(٣) فى البداية والنهاية زيادة نصها : «ومن ذلك حمارة وفيل عظيم جدا ، فأرسلت الحمارة إلى الخليفة فى جملة هدايا» .
(٤) «ألفى مجلد» فى نسخة ب . وكذا ابن كثير الذى ينقل عنه العينى . انظر : البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٢٨٦ .
(٥) انظر قول العماد فى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص ٥٠٨ .
(٦) انظر تفصيل ذلك فى الروضتين ، جـ١ق٢ ، ص٥٠٧ ، حيث أوردها نقلا عن ابن أبى طى .
(٧) القول لابن أبى طى . انظر الروضتين ، جـ١ق٢ ، ص٥٠٧ .
(٨) قصر اللؤلؤة . أو منظرة اللؤلؤة : كانت للخلفاء الفاطميين ، وتقع على الخليج بالقرب من باب القنطرة . وكان القصر من أحسن القصور وأعظمها زخرفة ، وهو أحد منتزهات الدنيا ، فهو يشرف من شرقيه على البستان الكافورى ، ومن غربيه على الخليج . وهذه المنظرة بناها العزيز بالله الفاطمى . انظر : الخطط ، جـ١ ، ص٤٦٧ ـ ٤٦٩ .
(٩) «العاضد» فى الأصل وهو خطأ . والمثبت بين الحاصرتين من قول ابن أبى طى فى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٥٠٦ .

بغداد . وجعل السلطان أهل العاضد فى موضع خارج القصر ، وجعل أمرهم إلى قراقوش الخادم ، وفرق بين النساء والرجال ؛ ليكون ذلك أسرع إلى انقراضهم ، واستعرض مَنْ بالقصر مِنَ الجوارى والعبيد ، والعدة والعديد ، والطريف والتليد ، فأطلق من كان منهم حرًا ، وأعتق من رأى إعتاقه ، ووهب من أراد هبته ، وفرق على الأمراء والأصحاب من نفائس القصر وذخائره شيئًا كثيرًا ، وحصل هو على اليتيمات وقطع البلخش والياقوت وقضيب الزمرد ، وأطلق البيع بعد ذلك فى كل جديد وعتيق ، فأقام البيع فى القصر مدة عشر سنين .

قال[1] : ومن جملة ما باعوا خزانة الكتب ، وكانت من عجائب الدنيا .

ويقال إنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام دار كتب أعظم من الدار التى بالقاهرة فى القصر . ويقال إنها كانت تحتوى على ألفى ألف وستمائة ألف كتاب ، وكان فيها من الخطوط المنسوبة أشياء كثيرة . وانقضت تلك الدولة برمتها ، وذهبت تلك الأيام بجملتها بعد أن كانوا قد احتووا على البلاد ، واستخدموا العباد مائتين وثمانين سنة وكسورًا . [قال][2] : وحكى أن الشريف الجليس[3] وهو رجل كان قريبًا من العاضد ، يجلس معه ويحدثه ، عمل دعوة لشمس الدولة بن أيوب ، أخى السلطان ، بعد القبض على القصور[4] وأخذ ما فيها ، وانقراض دولتهم .

وغرم هذا الشريف على هذه الدعوة مالاً كثيرًا ، وأحضرها أيضا جماعة من أكابر الأمراء ، فلما جلسوا على الطعام ، قال شمس الدولة لهذا الشريف : حدثنى بأعجب ما شاهدته من أمر القوم . قال نعم ؛ «طلبنى العاضد يوما وجماعة من الندماء ، فلما دخلنا

---

(١) القول لابن أبى طى . انظر الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٥٠٧ .

(٢) الإضافة من قول ابن أبى طى فى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٥٠٧ .

(٣) الشريف الجليس : هو القاضى الجليس أبو المعالى عبد العزيز بن الحباب السعدى . تولى ديوان الإنشاء للخليفة الفائز الفاطمى (٥٤٩هـ - ٥٥٥هـ/١١٥٤هـ - ١١٦٠م) ؛ وسمى الجليس لأنه كان يجالس الخلفاء الفاطميين . وهو من نسل بنى الأغلب أصحاب إفريقية . توفى سنة ٥٦١هـ/١١٦٦م . انظر : ابن شاكر : فوات الوفيات ، جـ١ ص٥٧٧ - ٥٧٩ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٢٥١ .

(٤) «القصر» فى الأصل .والمثبت من الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص ٥٠٨ . وهو الأولى مع سياق الكلام .

عليه وجدنا عنده مملوكين من الترك ، عليهما أقبية[١] مثل أقبيتكم ، وقلانس[٢] مثل قلانسكم ، وفى أوساطهم مناطق[٣] كمناطقكم . فقلنا له : يا أمير المؤمنين ما هذا الزى الذى ما رأيناه قط؟ قال : هذه هيئة الذين يملكون ديارنا ، ويأخذون أموالنا وذخائرنا .

وفى تاريخ الدولتين[٤] : أخبرنى أبو الفتوح [بن العاضد][٥] أن السلطان جعل أهل العاضد فى دار برجوان[٦] ، فى الحارة المنسوبة إليه بالقاهرة ، وهى دار كبيرة واسعة ، كان عيشهم فيها طيبًا ، ثم نقلوا بعد الدولة الصلاحية منها ، وأبعدوا عنها .

التاسع : فى ذكر كتاب[٧] كتبه القاضى الفاضل عن صلاح الدين ، إلى وزير بغداد ، على يد الخطيب شمس الدين [بن][٨] أبى المضاء .

«كتب الخادم هذه الخدمة من مستقره ودين الولاء مشروع ، وعلم الجهاد مرفوع ، وسؤدد السواد متبوع ، وحكم السداد بين الأمة[٩] موضوع ، وسبب الفساد مقطوع ممنوع . وقد توالت الفتوح غربا ويمنا وشامًا ، وصارت [١٧٠و] البلاد بل الدنيا ، والشهر بل الدهر ، حرمًا حرامًا ، وأضحى الدين واحدًا بعد ما كان أديانا ، والخلافة إذا ذكر بها أهل الخلاف لم يخروا عليها [إلا][١٠] صُمّاً وعُميانا ؛ والبدعة خاشعة ، والجمعة جامعة ، والمذلة فى شيع الضلال شائعة ؛ ذلك بأنهم اتخذوا عباد الله من دونه أولياء ، وسمَّوا أعداء الله أصفياء ، وتقطعوا أمرهم بينهم شيعا ، وفرقوا أمر الأمة وكان مجتمعا ، وكذَّبوا بالنار فعجلت لهم نار الحتوف ، ونثرت أقلام الظبا حروف رءوسهم نثر الأقلام للحروف ، ومزقوا كل ممزق ، وأخذوا منهم كل مخنق ، وقطع دابرهم ، ووعظ آيبهم غابرهم ، ورغمت

(١) أقبية : مفردها قباء وهو ثوب له أكمام ضيقة . انظر : ماير : الملابس المملوكية ، ص٢٥ .
(٢) قلانس : مفردها قلنسوة ، وهى كلوته مطرزة أى زركش . انظر : الملابس المملوكية ، ص٤٢ .
(٣) مناطق : مفردها منطقة ؛ وهى حزام العسكريين ، وقد أطلق عليه فيما بعد «حياصة» . وكان يصنع من معدن ثمين وأضخمها ما كان من الفضة المطلية بالذهب . وأحيانا بالذهب الخالص . انظر : الملابس المملوكية ، ص٤٨ .
(٤) انظر : الروضتين ، جـ١ق٢ ، ص٤٩٤ - ٤٩٥ .
(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من الروضتين للتوضيح .
(٦) دار برجوان : هذه الدار كانت بحارة برجوان وتعرف بدار الأستاذ ، وكان يسكن فيها . انظر : مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢٥٤ ؛ السلوك ، جـ ٢ ، ص ٣٣٨ .
(٧) عن كتاب القاضى الفاضل انظر : الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص ٤٩٦ - ٤٩٧ .
(٨) «شمس الدين أبى المضاء» فى الأصل . والمثبت من الروضتين ، جـ١ق٢ ، ص٤٩٦ . وهو : أبو عبد الله محمد ابن المحسن بن الحسين بن أبى المضاء البعلبكى . انظر : الروضتين ، جـ ١ق٢ ، ص٤٩٢ .
(٩) «الأئمة» فى الأصل . والمثبت من الروضتين ، جـ١ق٢ ، ص٤٩٦ ، نقلاً عن نص كتاب القاضى الفاضل .
(١٠) ما بين الحاصرتين إضافة من الروضتين ، جـ١ق٢ ، ص٤٩٦ .

أنوفهم ومنابرهم ، وحقت عليهم الكلمة تشريدًا وقتلا ، ﴿**وتمت كلمة**[١] **ربك صدقًا وعدلاً**﴾ ، وليس السيف عمن سواهم من كفار الفرنج بصائم ، ولا الليل عن سير إليهم بنائم . ولا خفاء عن المجلس الصاحبىّ . أن من شد عقد خلافة وحلّ عقد خلاف ، وقام بدولة وقعد بأخرى قد عجز عنها الأخلاف والأسلاف ، فإنه مفتقر إلى أن يُشكر ما نصح ، ويقلَّد ما فتح ، ويبلَّغ ما اقترح ، ويقدّم حقه ولا يطرح ، ويقرب مكانه وإن نزح ، وتأتيه التشريفات الشريفة ، وتتواصل إليه أمداد التقويات الجليلة اللطيفة ، وتلبى دعوته بما أقام من دعوة ، وتوصل عروته بما وصل من غزوة ، وترفع دونه الحجب المعترضه ، وترسل إليه السحب المروضة . فكل ذلك تعود عوائده ، وتبدو فوائده ، بالدولة التى كشف وجهه لنصرها ، وجرد سيفه لرفع منارها ، والقيام بأمرها . وقد أتى البيوت من أبوابها ، وطلب النّجعة[٢] من سحابها ، ووعد آماله الواثقة بجواب كتابها ، وأنهض لإيصال ملطفاته وتنجيز تشريفاته خطيب الخطباء بمصر ، وهو الذى اختاره لصعود درجة المنبر ، وقام بالأمر قيام من بَرَّ ، واستفتح بلباس السواد الأعظم ، الذى جمع الله عليه السَّواد الأعظم ، أملاً[٣] أنه يعود إليه بما يطوى الرجاء فضل عقبه ، ويخلد الشرف فى عقبه » .

العاشر : فيما ذكر جماعة من أكابر العلماء فى حق الفاطميين المذكورين :

قالوا[٤] : إنهم لم يكونوا لذلك أهلاً ، ولا نسبهم صحيحًا ، بل المعروف أنهم بنو عبيد . وكان والد عبيد هذا من نسل القدَّاح الملحد المجوسى . وقِيل كان والدعبيد هذا يهوديا من أهل سَلَمْيه من بلاد الشام ، وكان حدادًا ، وعبيد هذا كان اسمه سعيدًا ، فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله ، وزعم أنه علوى فاطمى ، وادعى نسبًا ليس بصحيح ، لم يذكره أحد من مصنفى الأنساب العلوية ، بل ذكر جماعة من العلماء بالنسب خلافه .

---

(١) «كلمات» فى الأصل وفى الروضتين ، جـ ١ق٢ ، ص٤٩٧ . و الصحيح ما أثبتناه طبقًا للآية الكريمة من سورة (الأنعام) آية (٦) .

(٢) النجعة : طلب الكلأ فى مواضعه . انظر : المنجد ، مادة «نجع» ص٨٥٧ - ٨٥٨ .

(٣) «إملاء» فى الأصل . والمثبت من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٤٩٧ .

(٤) انظر الأقوال المختلفة فى نسب الفاطميين فى اتعاظ الحنفا ، ج١ ، ص٢٢ وما بعدها ؛ وانظر أيضا : الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص ٥٠٩ - ٥١٠ .

وقد استقصينا الكلام فيه فيما مضى[١] . وقد صنف الشريف الهاشمى[٢] كتابًا كبيرًا ، كان فى أيام الملقب بالعزيز - ثانى خلفاء مصر - فبين فيه أصولهم أتم بيان ، وأوضح كيفية [١٧٠ظ] ظهورهم وغلبتهم على البلاد ، وتتبع ذكر فضائحهم ، وما كان يصدر منهم من أنواع الزندقة والفسق والمخرقة ، وما فعله هؤلاء من الانتساب إلى على رضي الله عنه ، والتستر بالتشيع قد فعله القرامطة[٣] ، وصاحب الزنج[٤] الخارج بالبصرة ، وغيرهم من المفسدين فى الأرض ، على ما عَرَف مِنْ سيرهم مَنْ وقَف على أخبار الناس . وكلهم كَذَبَةٌ فى ذلك ، وإنما غرضهم التقرب إلى العوام والجهال .

وذكر القاضى عبد الجبار[٥] أن الملقب بالمهدى - عليه ما يستحق - كان يتخذ الجهال ويسلطهم على أهل الفضل ؛ وكان يرسل إلى الفقهاء والعلماء فيذبحون فى فرشهم . وأرسل إلى ملك الروم ، وسلطهم على المسلمين ، وأكثر من الجود واستصفاء الأموال ، وقتل الرجال . وكان له دعاة يضلون الناس على قدر طبقاتهم ، فيقولون لبعضهم : «هو المهدى ابن رسول الله ﷺ ، وحجة الله على خلقه» . ويقولون لآخرين : «هو رسول الله وحجة الله على خلقه» . ويقولون لطائفة أخرى : «هو الله الخالق الرازق» .

ولما هلك قام ابنه المسمى بالقائم[٦] مقامه ، وزاد شره على شر أبيه أضعافًا مضاعفة ، وجاهر بشتم الأنبياء ، فكان ينادى فى أسواق المهدية وغيرها : «العنوا عائشة وبعلها ، العنوا الغار ومن حوى» . وبعث إلى أبى طاهر القرمطى[٧] ، المقيم بالبحرين ، وحثه على قتل المسلمين ، وإحراق المساجد والمصاحف .

---

(١) انظر ما سبق ص٧٩-٨٠ .

(٢) هو أبو القاسم على المرتضى . نقيب الطالبيين ؛ عاش فيما بين سنتى ٣٥٥ - ٤٣٦هـ/٩٦٦-١٠٤٤م . انظر : الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٥١٥ ، حاشية (١) .

(٣) القرامطة : طائفة سياسية اتخذت الدعوة إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وسيلة لتحقيق أغراضها ، وعرفت بذلك نسبة إلى أحد دعاتها حمدان بن الأشعث الملقب بقرمط . ويقال إنه سمى بقرمط لقصور قامته ورجليه . انظر : نهاية الأرب ، جـ٢٣ ، ص٥٦ ؛ الرسعنى : مختصر الفرق بين الفرق ، ص١٧١ .

(٤) هو على بن محمد بن أحمد . . . بن زيد ، ثائر ظهر بالبصرة ، واشتد أمره أيام الخليفة المعتمد ، وزعم أنه من نسل آل على ، وكثر أتباعه من عبيد الأرض الذين كانوا يعملون فى حمل المخصبات (السباخ) وغيرها لأهل البصرة ، واستمرت ثورته الخطيرة التى شملت جنوبى العراق بين سنتى ٢٥٥ - ٢٧٠هـ/٨٦٩-٨٨٣م ، ثم انهارت أمام جيوش الموفق أخى الخليفة المعتمد . انظر : الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٥١٥ ، حاشية (٣) .

(٥) انظر أقوال القاضى عبد الجبار فى العلويين وأصولهم فى الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٥١٢ - ٥١٣ .

(٦) القائم : أبو القاسم محمد بن عبيد الله المهدى ، تولى الخلافة سنة٣٢٠هـ /٩٣٢م ، وتوفى سنة٣٣٤ هـ/٩٤٦م . انظر : البداية والنهاية ، ج١١ ، ص ٢٢٤ - ٢٢٧ ؛ اتعاظ الحنفا ، ج١ ، ص٧٤-٨٢ .

(٧) أبو طاهر القرمطى هو حمدان بن الأشعث .

وقام بعده ابنه المنصور(١) ، فقتل أبا يزيد مخلد(٢) ، الذى خرج على أبيه ؛ ينكر عليه قبيح فعله ، وسلخه وصلبه ، واشتغل بأهل الجبال يقتلهم ويشردهم ؛ خوفًا من أن يثور عليه ثائر مثل أبى يزيد .

وقام بعده ابنه المعز(٣) ، فبث دعاته ، فكانوا يقولون : «هو المهدى الذى يملك [الأرض](٤) ، وهو الشمس التى تطلع من مغربها» . وكان يسره ما ينزل بالمسلمين من المصائب ، من أخذ الروم بلادهم . واحتجب عن الناس أيامًا ، ثم ظهر ، وأوهم أن الله رفعه إليه ، وأنه كان غائبًا فى السماء ، وأخبر الناس بأشياء صدرت منهم ، كان ينقلها إليه جواسيس له ، فامتلأت قلوب العامة والجهال منه . وهو أول الخلفاء منهم بمصر ، وهو الذى تنسب إليه القاهرة ، واستدعى بفقيه الشام أبى بكر محمد بن أحمد بن سهل الرملى ، ويعرف بابن النابلسى ، فحمل إليه فى قفص خشب ، فأمر بسلخه ، فسلخ حيًا ، وحشى جلده تبنًا ، وصلب (رحمه الله) . قال أبو ذر الهروى(٥) : سمعت أبا الحسن الدارقطنى(٦) يذكره ويبكى ، ويقول : كان يقول وهو يُسلخ : ﴿**كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا**﴾(٧) .

وقال صاحب تاريخ الدولتين(٨) : وفى أيام الحاكم أمر بكتْب سب الصحابة (رضى الله عنهم) على حيطان الجوامع ، والقياسر ، والشوارع ، والطرقات . وكتب السجلات إلى سائر الأعمال بالسب ، ثم [أمر](٩) بقلع ذلك ، وأنا رأيته مقلوعًا فى بعض أبواب دمشق ،

---

(١) المنصور : أبو طاهر إسماعيل ، مدة خلافته «٣٣٤ - ٣٤١ هـ/٩٤٦-٩٥٢م» .انظر : اتعاظ الحنفا ، ج١ ، ص٨٢-٩٢ .
(٢) مخلد بن كيداد الخارجى ، أبو يزيد . انظر ترجمته فى اتعاظ الحنفا ، ج١ ، ص٧٥-٨٥ .
(٣) هو : أبو تميم معد ، مدة خلافته «٣٤١ - ٣٦٥ هـ/٩٥٢-٩٧٦م» . انظر : اتعاظ الحنفا ، ج١ ، ص٩٣ وما بعدها .
(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٥١٣ حيث ينقل أبو شامة أقوال القاضى عبد الجبار .
(٥) أبو ذر الهروى : هو عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن غفير ، أبو ذر الأنصارى الهروى ، عالم بالحديث من الحفاظ والفقهاء المالكية . توفى سنة ٤٣٤ هـ/ ١٠٤٣م . انظر : الأعلام ، جـ ٤ ، ص٤١ . الطبعة الثانية .
(٦) هو : أبو الحسن على بن عمر بن أحمد بن مهدى البغدادى الدارقطنى .انظر : وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٢٩٧-٢٩٨ .
(٧) سورة الإسراء : آية (٥٨) .
(٨) انظر : الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص ٥١٣ .
(٩) ما بين الحاصرتين إضافة من الروضتين للتوضيح .

فى الأسكفة[١] العليا منقورًا فى الحجر . ودلنى أول الكلام وآخره على ذلك ، ثم جُدد ذلك الباب ، وأزيل ذلك الحجر . وفى أيامه طَوَّفَ بدمشق رجل مغربى ، ونودى عليه : «هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر» . ثم ضربت عنقه .

وجرى فى أيامهم مثل هذه الأشياء ؛ مثل قطع لسان أبى القاسم الواسطى ـ أحد الصالحين ـ وكان أذَّن فى بيت المقدس وقال فى أذانه : «حى على الفلاح» ، فأُخذ ، وقطع لسانه . وما كانت ولاية [١٧١و] هؤلاء الملاعين إلا محنة من الله تعالى ، ولهذا طالت مدتهم ، مع قلة عِدتهم ، فعدتهم عدة خلفاء بنى أمية أربعة عشر ، وأولئك بقوا نيفا وتسعين سنة ، وهؤلاء بقوا مائتى سنة [وثمانيا][٢] وستين سنة .

وحكى ابن المارستانى[٣] فى سيرة ابن هبيرة الوزير قال : إنه من عجيب ما جرى فى أمر المصريين ؛ أنه رأى إنسانٌ[٤] من أهل بغداد فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، كأنَّ قمرين أحدهما أنور من الآخر ، والأنور منهما مسامت للقبلة ، وله لحية سوداء فيها طول ، ويهُبُّ أدنى نسيم فيحركها ، وأثر حركتها وظلها فى الأرض ، وكان الرجل يتعجب من ذلك ، وكأنه سمع أصوات جماعة يقرؤون بألحان وأصوات لم يسمع قط مثلها ، وكأنه سأل بعض من حضر فقال : ما هذا؟ فقالوا : قد استبدل الناس بإمامهم . قال : وكأن[٥] الرجل استقبل القبلة ، وهو يدعو الله أن يجعله إمامًا برًا تقيًا . واستيقظ الرجل . وبَلَّغَ هذا المنام ابن هبيرة ـ الوزير إذ ذاك ببغداد ـ فعبَّر المنام بأن الإمام الذى بمصر يُستبدل به ، وتكون الدعوة لبنى العباس لمكان اللحية السوداء . وقوى هذا عنده ، حتى كاتب نور الدين

---

(١) «الأمكنة» فى الروضتين .و اسكف وأسكفة : عتبة الباب .انظر : المعجم الوسيط ، مادة «سكف» .

(٢) «مائتى سنة وستين» كذا فى نسخة أ ؛ أما نسخة ب «مائتى سنة وستين سنة» . والمثبت من الروضتين جـ١ ق٢ ، ص٥١٤ حيث ينقل العينى عنه .

(٣) انظر قول ابن المارستانى فى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص ٤٩٩ ـ ٥٠٠ .

(٤) ذكر الدكتور/ محمد حلمى محمد أحمد أنه وجد بأصل نسخة الروضتين تعليقًا بالهامش نصه «حاشية . قال المؤلف : رأيت فى السيرة المذكورة أن الذى رأى هذا المنام هو الفقيه الزاهد أبو محمد عفيف بن المبارك بن محمود الأحمدى سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة والله أعلم» . انظر : الروضتين ، جـ١ق٢ ، ص٥٠٠ ، حاشية(١) .

(٥) «وكان» فى الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٥٠١ .

[حين][(١)] دخل أسد الدين إلى مصر فى أول مرة ، بأنه يظفر بمصر ، وتكون الدعوة لبنى العباس بها على يده .

وقيلت فى ذلك الزمان أشعار فى هذا منها : قصيدة شمس المعالى أبى الفضائل الحسين بن محمد بن بركات ، وكان حاجب ابن هبيرة ، قالها حين سمع تأويله المنام[(٢)] :

لتَـهْنَك يا مَـولَى الأنَام بِشَـارةٌ ... بها سَيفُ دينِ الله بالحقِّ مُرهَفُ
ضَربْتَ بهـا هَامَ الأعـادِى بهِـمَّةٍ ... تَقَاصَر عنْها السَّمْهرِىُّ المثَقَّفُ
بَعثْتَ إلى شَرقِ البلاد وغَرْبها ... بُعوثًا من الآراءِ تُحْيِى وتُتْلِفُ
فقامتْ مقامَ السّيفِ والسَّيْفُ قَاطِرٌ ... ونابتْ مَنَابَ الرمْحِ والرمحُ يَرْعُفُ
وقُدْت لها جيشًا من الروْع هائلاً ... إلى كل قلبٍ من عِداتك يَرجُفُ[(٣)]
ملكتَ به أقصى المغَاربِ عُنْوةً ... وكادتْ بمنْ فيها المشَارقُ تَزْحَفُ[(٤)]
ليهْنَك يا مولاى [فتحا][(٥)] تتابعتْ ... إليك به خُوصُ الركائب تُوجَفُ
أخذْتَ به مصرا وقَد حَال دونَها ... من الشركِ [ناسٌ][(٦)] فى لُهى الحقِّ تُقْذفُ
وقد دَنّسَتْ منها المنابرَ عُصْبَةٌ ... يعافُ التُّقىَ والدّينُ منهم ويأنَفُ
فَطَهَّـرهَا من كُلّ شِـركٍ وبدعـةٍ ... أغـرٌّ غَـريرٌ بالمكارمِ يُشْـغَفُ
فعَادتْ بِحمْد الله بِاسْم إمَامِنا ... تَتيـهُ على كلِّ البلادِ وتَشْرُفُ
ولا غَرْوَ أنْ دَانت ليُوسفَ مِصْرُه ... وكـانت إلى علْيـائه تَتَـشَوّفُ
تملّكَها من قَبضَةِ الكُفْرِ يُوسُف ... وخَلَّصَها من عُصْبَة الرفضِ يُوسفُ

(١)«حتى» فى الأصل . وما بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٠٠ وهو أولى .
(٢) ذكر الدكتور/ محمد حلمى محمد أحمد أنه بهامش أصل الروضتين تعليق نصه : حاشية . قال المؤلف : أول هذه القصيدة : لعل حداة الركب أن يتوقفوا ... ليشفى غليلاً بالمدامع مدنف . انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٠٠ ، حاشية(٣) .
(٣)«يزحف» فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٠٠ .
(٤)«ترجف» فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٠٠ .
(٥)«فتح» فى الأصل . والمثبت من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٠١ .
(٦) «أناس» فى الأصل . والمثبت بين الحاصرتين من نسخة ب ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٠١ .

قال يحى بن أبى طى : يريد بيوسف الأول يوسف الصديق النبى عليه السلام ، وبيوسف الثانى المستنجد بالله الخليفة يومئذ ، وقاله على سبيل الفأل ؛ ألا تراه قال بعد هذا البيت :

فَشَابَهْتَه خَلْقًا وخُلُقًا وعِفَةً وَكُلٌ عن الرحمنِ فِى الأرضِ يَخْلُفُ[1]

[١٧١ظ] ذكر بقية الحوادث

منها أن فى السابع والعشرين من شوال وقع حريق عظيم فى بغداد ، واحترقت دكاكين كثيرة . ومنها أن فى ذى الحجة وصلت رسل ملك البحرين وكبش[2] بهدايا ، فيها ألواح صندل وأبنوس وطيب وأنياب فيل .

ومنها ما قاله ابن الجوزى[3] : وفى يوم الأربعاء غرة رمضان تكلمت فى مجلسى بالحلبة ، فتاب على يدى نحو من مائتى رجل ، وقطعت شعور مائة وعشرين منهم .

ومنها أن الخطا[4] عبروا على جيحون يريدون خوارزم شاه ، وهو أرسلان بن أتسز ، فجمع عساكره ، وسار لقتالهم وصدهم عن بلاده ، فمرض ، فأرسل العسكر مع أحد أمرائه فلقيهم ، فاقتتلوا قتالاً شديدًا ، فانهزم الخوارزميون وأسر مقدمهم ، ورجع الخطا إلى ما وراء النهر ، وعاد خوارزم شاه إلى خوارزم مريضا[5] .

ومنها أن الخليفة المستضىء عزل وزيره عضد الدين بن رئيس الرؤساء كرهًا ؛ لأن قطب الدين قيماز ألزمه بعزله ، فلم يمكنه مخالفته[6] والله أعلم .

---

(١) لقول ابن أبى طى بقية ذكرها أبو شامة فى الروضتين رأينا أنه من الأهمية ذكرها لأنها تطابق الأحداث زمنيًا ونصها : «وجرى الفأل فى البيت باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لأن المستنجد مات قبل تغيير الخطبة لبنى العباس ، وهذا من عجيب الاتفاق» . انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٠١ .

(٢) كبش ، جمعها كبوش وأكبش . وهى آلة حربية لها رأس ضخم وقرنان تدفعها الجنود نحو أسوار الحصون لتهديمها . انظر : Dozy: Supp. Dict. Ar. T.II, P. 440

(٣) انظر : المنتظم ، ج١٨ ، ص ١٩٧ .

(٤) الخطا : تطلق على الصين الشمالية فى العصور الوسطى . والخطا جماعة من المغل من جنس الترك . انظر : ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص ٦٤٣ ـ ٦٤٥ ، ط . دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧ م .

(٥) انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٧ ـ ٣٨ .

(٦) انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٨ .

ذكر ماجريات نور الدين

منها أن نور الدين استدعى ابن أخيه صاحب الموصل[١] ، فوصل بالعساكر إلى خدمته ، وكانت غزوة عرقا[٢] ، فأخذها نور الدين ومعه ابن أخيه ، وذلك فى المحرم من هذه السنة .

وقال ابن أبى طى : جمع نور الدين عساكره ، وخرج إلى عرقا ، ونازلها وقاتلها أياما حتى فتحها ، واحتوى على ما فيها كلها ، وغنم الناس غنيمة عظيمة .

وقال ابن الأثير[٣] : خرجت مراكب من مصر إلى الشام ، فأخذ الإفرنج من اللاذقية مركبين منها ، مملوءين من الأمتعة والتجار ، وغدروا بالمسلمين ، وكان نور الدين قد هادنهم ، فنكثوا . فلما سمع نور الدين الخبر استعظمه ، وراسل الفرنج فى ذلك[٤] ، وأمرهم بإعادة ما أخذوه ، فغالطوه ، واحتجوا بأمور لا طائل تحتها . فجمع العساكر من الشام والموصل والجزيرة ، وبث السرايا فى بلادهم ؛ بعضهم نحو أنطاكية ، وبعضهم نحو طرابلس ، وحصر هو حصن عرقا ، وأخرب[٥] ربضه ، وأرسل طائفة من العسكر إلى حصنى صافيتا[٦] وعريمة[٧] ، فأخذهما عنوة ، وكذلك غيرهما ، ونهب وأخرب[٨] ، وغنم المسلمون الكثير ، وعادوا إليه وهو بعرقة ، فسار فى العساكر جميعها إلى قريب طرابلس ، يخرب ويحرق وينهب . وأما الذين ساروا إلى أنطاكية ، فإنهم فعلوا فى ولايتها مثلما فعل

(١) هو سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى بن آق سنقر ، صاحب الموصل ، تقلد المملكة بعد وفاة أبيه مودود ، توفى يوم الأحد ثالث صفر سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م . انظر : مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢٢٠ ؛ وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٥٠٤ .

(٢) عِرْقَا ، عِرْقَة : بلدة فى شرقى طرابلس ، وهى آخر عمل دمشق ، وهى فى سفح الجبل ، وعلى جبلها قلعة . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٦٥٣ ؛ ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص٢٥٥ ، ط . بغداد ١٨٨٩م .

(٣) وردت هذه الرواية بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص٣٧ ؛ انظر أيضا : مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢٢٠ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص ٥١٦ .

(٤) ورد هذا النص باستفاضة فى الباهر . ص ١٥٤

(٥) «أخرب» فى الأصل والروضتين ، وفى الباهر «وخرب» . انظر : الباهر ، ص ١٥٤ .

(٦) صافيتا : قلعة تقع إلى الشمال من عرقه من أعمال حلب قرب اللاذقية . انظر : العماد الكاتب : الفتح القسى فى الفتح القدسى ، تحقيق محمد محمود صبح ، ص٢٢٧ ، حاشية ١ .

(٧) عُرَيْمَة : موضع بين أجا وسلمى . معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٦٦٢ .

(٨) «وخرب» فى الباهر ، ص ١٥٥ .

[نور الدين] من النهب والتحريق والتخريب بولاية طرابلس ، فراسله الفرنج ، وبذلوا إعادة ما أخذوه من المركبين ، وتجدد[١] معهم الهدنة ، فأجابهم [إلى ذلك][٢] ، وكانوا فى ذلك كما يقال : «اليهودى لا يعطى الجزية حتى يُلطم»[٣] .

ومنها أن نور الدين أمر فى هذه السنة باتخاذ الحمام الهوادى[٤] ، وهى المناسيب التى تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها ، فاتخذت فى سائر بلاده . وكان سبب ذلك أنه اتسعت مملكته ، وبعدت بلاده ، فكانت من حد النوبة إلى باب همذان[٥] ، لا يتخللها سوى بلاد الفرنج . فكان[٦] الفرنج (لعنهم الله) ربما نازلوا بعض الثغور ، فإلى أن يصله الخبر ويسير إليهم ، [يكونون][٧] قد بلغوا بعض الغرض ، فحينئذ أمر بذلك ، وكتب به إلى سائر بلاده[٨] ، وأجرى الجرايات لها ، ولمرتبها ، فوجد بها راحة كبيرة .

[و][٩] كانت الأخبار تأتيه لوقتها ؛ لأنه كان له فى كل ثغر رجال مرتبون ، ومعهم من حمام المدينة التى تجاورهم ، فإذا رأوا أو سمعوا أمرًا كتبوه لوقته ، وعلقوه على [١٧٢و] الطائر ، وسرحوه إلى المدينة التى هو فيها فى ساعته ، فتنقل الرقعة منه إلى طائر آخر ، من البلد الذى[١٠] يجاورهم ، فى الجهة التى فيها نور الدين ، وهكذا إلى أن تصل الأخبار إليه ، فانحفظت الثغور بذلك .

ومنها أن نور الدين أشار إلى صلاح الدين بإسقاط المكوس والضرائب عن أهل مصر والقاهرة ، وقرىء المنشور بذلك على رؤوس الأشهاد ، يوم الجمعة بعد الصلاة ، ثالث صفر من هذه السنة ، والذى اشتملت «عليه»[١١] المسامحة فى السنة ؛ من العين مائة

---

(١) «ويجدد» فى الباهر ، ص ١٥٥ .
(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من الباهر للتوضيح ، ص ١٥٥ .
(٣) ورد هذا الحدث بتصرف فى ، الكامل ، ج١٠ ، ص٣٧ .
(٤) هو حمام يتخذه الملوك لحمل المكاتبات ، ويقال أن أول من اعتنى به من الملوك نور الدين بن زنكى . انظر : صبح الأعشى ، ج١٤ ، ص ٣٨٩ - ٣٩٢ .
(٥) ورد هذا النص بتصرف فى مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ١٧٨ .
(٦) «وكان» فى الباهر ، ص ١٥٩ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٢٠ .
(٧) ما بين الحاصرتين إضافة من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٢٠ .
(٨) «البلاد» فى الباهر ، ص ١٥٩ .
(٩) ما بين الحاصرتين إضافة من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص ٥٢٠ .
(١٠) «التى» فى نسخة ب .
(١١) ما بين الأقواس ساقط من نسخه ب .

ألف دينار . وفى تاريخ الدولتين[١] : قرئت نسخة سجل بإسقاط المكوس بمصر على المنبر بالقاهرة ، فى التاريخ المذكور عن السلطان الملك الناصر فى أيام نور الدين ، فهو كان الآمر ، وذاك المباشر .

ذكر وقوع النفرة بين نور الدين وصلاح الدين

وذلك أن نور الدين غزا فى هذه السنة بلاد الإفرنج[٢] فى السواحل ، فأحل بهم بأسًا شديدًا ، ثم عزم على محاصرة الكرك ، وكتب إلى صلاح الدين ؛ أن يلاقيه بالعساكر المنصورة إلى بلاد الكرك ؛ ليجتمعا هناك على المصالح ، فيما يعود نفعه على المسلمين[٣] . فتوهم من ذلك صلاح الدين ، وخاف أن يكون لهذا الأمر غائلة ، يزول بها ما حصل له من التمكين ، ولكنه ركب فى جيشه من الديار المصرية ؛ ليقصد امتثال المرسوم ، فسار أيامًا ، ثم كر راجعًا معتلا بقلة الظهر ، والخوف على اختلال الديار المصرية إذا بعد منها واشتغل عنها ، وأرسل يعتذر بذلك إلى السلطان نور الدين ، فوقع فى نفسه منه ، واشتد غضبه عليه ، وعزم على الدخول إلى الديار المصرية ، وانتزاعها من يد صلاح الدين ، وتوليته غيره فيها . ولما بلغ هذا الخبر إلى صلاح الدين ضاق بذلك ذرعه ، وذكره بحضرة الأمراء والكبراء ، فبادر ابن أخيه تقى الدين عمر[٤] فقال : والله لو قصدنا نور الدين لنقاتلنه ، فشتمه الأمير نجم الدين أيوب[٥] والد صلاح الدين يوسف وأسكته . ثم قال لابنه : اسمع ما أقول لك : والله ما هاهنا أحد أشفق عليك منى ومن خالك هذا ، يعنى شهاب الدين الحارمى ، ولو رأينا الملك نور الدين لبادرنا إليه ، ولقبلنا الأرض بين يديه ، ولو كتب إلى أن أبعثك إليه مع نجاب لفعلت ، ثم أمر من هنالك بالانصراف والذهاب .

---

(١) انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص ٥٢٢-٥٢٣ .

(٢) «الفرنج» فى نسخة ب .

(٣) ورد هذا الحدث بتصرف فى الباهر ، ص ١٥٨ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص ٥٢٨ .

(٤) هو الملك المظفر تقى الدين أبو سعيد عمر بن نور الدولة شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة ، وهو ابن أخى السلطان صلاح الدين ، توفى يوم الجمعة تاسع عشر شهر رمضان سنة ٥٨٧ هـ/١١٩١م بالقرب من خلاط . وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص ٤٥٦ - ٤٥٧ .

(٥) هو أبو الشكر أيوب بن شاذى بن مروان ، الملقب بالملك الأفضل نجم الدين ، والد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، توفى سنة ٥٦٨ هـ/١١٧٣م . انظر : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص ٢٥٥ - ٢٥٩ .

فلما خلا بابنه قال «له»[١] : أما لك عقل تذكر مثل هذا بحضرة هؤلاء ، ويقول ابن عمك مثل هذا الكلام وتقره عليه ، فلا يبقى عند نور الدين وجه أهم عنده من قصدك وقتالك ، ولكن ابعث إليه وترفق له وتواضع له ، وقل له أى حاجة إلى مجيء مولانا ، ابعث إلىَّ بنجاب أجيء معه[٢] إلى بين يديك ، فإنك إذا فعلت هذا تمادى الوقت بما تحصل به الكفاية من الله تعالي . ففعل صلاح الدين ذلك ، وكان كما قال نجم الدين أيوب : ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾[٣] .

وقال العماد : وكان صلاح الدين واعده نور الدين أن [يجتمعا][٤] على الكرك والشوبك يتشاوران فيما يعود بالصلاح المشترك ، فخرج من القاهرة فى الثانى والعشرين من المحرم ، فلقى فى تلك السفرة شدة ، وعدم خيلا وظهرًا وعُدّة ، وعاد إلى القاهرة فى النصف من ربيع الأول .

وفى تاريخ بيبرس : تجهز صلاح الدين من مصر إلى الكرك ، وكان قد قرر مع نور الدين أن يخرج من دمشق ، ويجتمعا على غزو الإفرنج ، فسبق صلاح الدين ، وخرج نور الدين من دمشق ، [١٧٢ظ] فأوجس صلاح الدين خيفة منه أن يعزله عن مصر ويوليها غيره ، فرجع عائدًا وقد بقى بينه وبين الكرك مسافة قريبة ، وأرسل إلى نور الدين رسولاً ، وأصحبه هدايا كثيرة وتحفًا جليلة ، وكتب إليه ؛ يعتذر بأن والده ضعيف . وكان الرسول إليه الفقيه عيسى الهكارى ، فلاطف نور الدين ، وخاطبه بالحسنى حتى قال نور الدين : حفظ مصر عندنا أهم من غيرها ، وفطن لما قصده برجعته ، وعز ذلك عليه فى باطنه .

وقال ابن الأثير[٥] : لما نصح نجم الدين ولده صلاح الدين ، وأشار عليه بأن يرسل رسولاً إلى نور الدين ويستعطفه ، فأرسل إليه بذلك ، عدل نور الدين عن قصده ، وكان من جملة ما قال نجم الدين لولده صلاح الدين : الأيام تندرج ، والله كل وقت فى شأن . وكان الأمر كما قال ؛ توفى نور الدين . ولم يقصد صلاح الدين ، ولا أزاله ، وكان هذا الرأى من نجم الدين من أحسن الآراء وأجودها .

---

(١) ما بين الأقواس ساقط من نسخة «ب» .
(٢) ورد هذا النص بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص ٣٥ - ٣٦ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص ٥١٨ - ٥٢٠ ؛ مفرج الكروب ، ج١ ، ص ٢٢١ - ٢٢٣ .
(٣) سورة الأحزاب : آية (٣٨) .
(٤) «يجتمعوا» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص ٥١٨ حيث يتسق مع السياق واللغة .
(٥) نقل العينى هذا النص بتصرف من الباهر ، ص ١٥٨ - ١٥٩ .

وفيها[١] . . . .

وفيها حج بالناس[٢] . . . .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

عبد الله بن أحمد بن أحمد بن أحمد بن أبو محمد [بن][٣] الخشاب[٤] ؛ قرأ القرآن وسمع الحديث الكثير ، وقرأ النحو واللغة ، وانتهى علمهما إليه ، وشرح الجُمَل للإمام عبد القاهر (رحمه الله) ، وفاق أهل عصره . وكان مُغْرَى بشراء الكتب ، وكان يؤدب أولاد الخليفة ، وكان يكتب[٥] خطًا حسنًا . وله مصنفات فى النحو واللغة والعروض والحساب وغيره ، وكانت وفاته فى رمضان يوم الجمعة الثالث منه ، ودفن قريبًا من بشر الحافى (رحمه الله) . وكان يقول الشعر ، ومن شعره فى الشمعة :

صفراءُ لا مِنْ سَقَمٍ مَسَّها	كَيفَ وكانَتْ أُمُّها الشَّافِية
عُرْيانَةٌ باطِنُها مُكْتَسٍ	فَاعْجَبْ لَها كَاسِيَةً عَارِيَة[٦]

محمد بن محمد بن محمد بن أبو المظفر البرَوى[٧] ؛ تفقه على محمد بن يحيى ، وناظر ووعظ ، وقدم بغداد فجلس للوعظ فى أول ولاية المستضىء ، وأظهر مذهب الأشعرية ، وتعصب على الحنابلة وبالغ ، فأخذه قيام الدم فى رمضان هذه السنة ، وتوفى ودفن فى تربة أبى إسحق الشيرازى (رحمهما الله)[٨] .

---

(١) بياض فى نسختى المخطوطة بمقدار سطر ونصف تقريبًا .

(٢) بياض فى نسختى المخطوطة بمقدار سطر .

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة لازمة من وفيات الأعيان ، ج ٣ ص١٠٢ ؛ البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٨٩ .

(٤) انظر : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص ١٠٢ - ١٠٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ٢٨٩ .

(٥) «يقرأ» فى نسخة ب .

(٦) أورد ياقوت هذه الأبيات فى معجم الأدباء ، ج١٢ ، ص٥٣ ؛ كما أوردها ابن خلكان ، مع بعض الاختلاف فى الألفاظ . انظر : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص ١٠٣ .

(٧) انظر : المنتظم ، ج ١٨ ، ص ١٩٨ ؛ وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص ٢٢٥ - ٢٢٦ ؛ السبكى : طبقات الشافعية ، ج٤ ، ص١٨٢ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٢٤ .

(٨) انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ٢٨٩ .

وفى المرآة[١] : وبالغ فى ذم الحنابلة ، وقال : لو كان إلى أمر لوضعت على الحنابلة الجزية ، وكان شابًا حسنًا ، جميل الصورة ، مليح العبارة ، فصيحًا ، فيقال : إن الحنابلة دسوا عليه من سمه ؛ جاءته امرأة فى الليل ، ومعها صحن حلواء ، فطرقت بابه ، فقال : من؟ قالت : أنا امرأة آكل من مغزلى ، وقد غزلت قطنًا وبعته ، واشتريت من ثمنه هذه الحلواء ، واشتهيت أن الشيخ يأكل منها ، فإنه حلال ، فتناوله منها ، ومضت . فجلس يأكل هو وزوجته وولده الصغير ، فأصبحوا موتى جميعًا فى رمضان ، ودفن بباب أبرز (رحمه الله) ولا رحم تلك المرأة .

أبو الفتوح نصر الله بن عبد الله بن مخلوف بن على بن عبد القوى بن قلاقس ، اللخمى الأزهرى الإسكندرى ، الملقب القاضى الأعز[٢] ، الشاعر المشهور ؛ كان شاعرًا مجيدًا وفاضلاً نبيلاً ، ولم يكن له لحية ، بل كان سناطًا ، وقيل فيه أشعار بسبب ذلك . صحب الشيخ الحافظ أبا طاهر أحمد بن محمد السِّلفى ، وانتفع بصحبته ، وله فيه غرر المدائح ، وقد تضمنها ديوان . وكان كثير الحركات والأسفار ، وفى آخر وقته دخل اليمن فحصَّل [١٧٣و] شيئًا كثيرًا من صاحب بلاد اليمن ، فركب البحر ، فانكسر المركب به ، وغرق جميع ما كان معه ، بجزيرة الناموس بالقرب من دَهْلَك[٣] ، وذلك يوم الجمعة خامس ذى القعدة سنة [ثلاث][٤] وستين وخمسمائة ، فعاد إليه وهو عريان ، فلما دخل عليه أنشده قصيدته التى أولها :

صَدَرْنا وقَد نَادَى السَّماحُ بِنَا رِدُوا   فَعُدْنَا إلى مَغْنَاكَ والعَوْدُ أحْمَدُ

وهى من القصائد المختارة ، ولو لم يكن فيها سوى هذا البيت لكفاه . ومحاسنه نادرة ، وكانت ولادته بإسكندرية يوم الأربعاء رابع شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، وتوفى فى ثالث شوال من هذه السنة بعيذاب .

وله فى جارية سوداء ، وهو معنى غريب :

---

(١) انظر : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ١٨٣ .

(٢) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ٣٨٥ ـ ٣٨٩ .

(٣) دَهْلَك : وهى جزيرة فى بحر اليمن ومرسى بين بلاد اليمن والحبشة . معجم البلدان ج ٢ ، ص ٦٣٤ .

(٤) « ست وستين» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ٣٨٦ .

رُبَّ سَوْداءَ وهى بيضاءُ مَعْنى		نافَسَ المسكَ عندها الكافُورُ
مثل حَبِّ العُيونِ يَحْسَبُه النا		سُ سَوادًا ، وإنما هُو نُورُ

وقَلاقِس : جمع قُلقاس «بضم القاف»[(١)] ، وهو معروف .

وعَيْذاب : بليدة على شاطئ بحر جدة ، تعدى منها المراكب المصرية المتوجهة إلى الحجاز ، على طريق فى ليلة واحدة فى غالب الأوقات ، فتصل إلى جُدَّة ، ومنها إلى مكة مسافة يوم [واحد][(٢)] . وجُدَّةُ قبر أم البشر حواء (عليها السلام) ، على ما يقال ، وقبرها ظاهر هناك يزار ، كذا قال ابن خلكان (رحمه الله) .

عبد الله بن أحمد بن الحسين بن إسحق أبو محمد الحميرى[(٣)] ؛ ويعرف بابن [النقار[(٤)]] الكاتب ، ولد بطرابلس سنة تسع وسبعين وأربعمائة ، ونشأ بها ، وقرأ الأدب . ولما استولى الفرنج عليها انتقل إلى دمشق ، وكان شاعرًا فاضلاً ، وله شعر رقيق ، ومعنى دقيق ، ومنه هذه الأبيات :

اللهُ يعلمُ أنّنى ما خِلْتُه		يَصْبُو إلى الهِجرانِ [حين[(٥)]] وصَلْتُه
مَنْ مُنْصِفى مِن ظَالمٍ مُتَعَنِّت[(٦)]		يزدَادُ ظُلماً كُلَّما حَكّمْتُه
مَلَّكتُهُ رُوحى ليحفَظَ مُلْكَه		فأضَاعَنى وأضاعَ ما مَلّكْتُه
لا ذَنبَ لى إلا هَواهُ لأنّه		لما دَعانى للسّقَامِ أَجَبْتُه
أَحْبابَنا أنفقتُ عُمْرِى عِندكُمْ		فمتَى أعَوِّضُ بعضَ ما أنفَقْتُه
وبمَنْ أعوذُ إلى سِواكُمْ قاصِدًا		والقلبُ فى عَرصَاتِكُم خَلّفْتُه

---

(١) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٢) ما بين الحاصرتين مثبت من نسخة ب .

(٣) كذا فى الأصل ، والنجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص٦٥ ؛ ومرآة الزمان ، ج ٨ ، ص١٨٠ . و «الحميدى» فى تهذيب تاريخ ابن عساكر ، ص٢٧٧ .

(٤) «ابن البقار» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الخريدة ، شعراء الشام ، ج١ ، ص٣١٤ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٨٠ ؛ الأعلام ، ج٤ ، ص١٩١ ، ط٢ ، ١٩٥٩ ؛ النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٦٥ .

(٥) «يوم» فى نسخة أ ، «منذ» فى نسخة ب ، والمثبت بين الحاصرتين من الخريدة ، شعراء الشام ، ج١ ، ص ٣١٤ ؛ النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٦٥ .

(٦) «مُتَعتِّبٍ» فى الخريدة ، شعراء الشام ، ج١ ، ص ٣١٥ .

ولِمَن أَلُومُ على الهـوَى وأنا الذى ... قُدتُ الفؤادَ إلى الغرام وسُقْتُه
قد كنتُ أعْذلُ[١] كلَّ صَبٍّ فى الهَوَى ... وألومُه فى العِشْقِ حتى ذُقْتُه
مالى سوى قَلْبى وفيكَ أَذَبْتُه ... مالى سِوَى دمْعِى وفيكَ سَكَبْتُه
أبكى إذا جَنّ الظلامُ تَشَوقًا ... من طُولِ لَيْلٍ فى هواكَ سَهِرْتُه
وأنُوحُ إن نَاحَ الحمامُ ضُحًى على ... إلْفٍ فقدتُ الصبرَ حينَ فَقَدتُه
ما كنتُ أعرفُ مَا الغَرامُ ولاَ الأَسَى ... والشوقُ والتبريحُ حتى ذُقْتُه[٢]

عَرقَلَةُ الشَّاعِرُ[٣] ؛ واسمه حَسَّان بن نمير البدوى ؛ الشاعر الحلبىّ ، من حاضرة دمشق ، وكان شيخًا [١٧٣ظ] خليعا أعور ، مطبوعا كَيسا لطيفا ظريفا منادما . وله فى صلاح الدين قصائد كثيرة ، وتوفى فى هذه السنة ، وقيل إن وفاته تأخرت ، حتى أخذ صلاح الدين دمشق ، وله ديوان مشهور ، ومن شعره :

عِنْدِى إليكم مِنَ الأَشْواقِ والبُرَحَا ... ما صيَّر الجسْمَ من بعْد الضنا شَبَحَا
أحَبابَنا لا تَظُنُّونى سَلَوْتُكُمُ ... الحالُ بالحالِ والتَّبْرِيحُ ما بَرِحَا
لو كان يَسْبَحُ صَبٌّ فى مَدامِعِهِ ... لكُنتُ أوَّلَ[٤] مَن فى دَمْعِه سَبَحَا
أو كُنتُ أعْلَمُ أنّ البيْنَ يَقْتُلُنى ... ما حُلْتُ عنْكُم ولكنْ فَاتَ «ما»[٥] ذَبحَا

وقال :

كَتمَ الهَوى فوشَتْ عليه دُمُوعُه ... مِن حَرِّ جَمْرٍ تَحْتَويه ضُلُوعُهُ
صَبٌّ تشاغَلَ بالحبيبِ وزَهْرِه ... [زمنًا][٦] وفى وجْه الحبِيبِ رَبيعُه
يا لائِمِى فِيمَن تَمَنَّعَ وصْلُه ... عن بُغيتى أحْلَى الهَوى مَمْنُوعُه

(١) «أعدك» فى نسخة ب .
(٢) انظر : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ١٨٠ - ١٨١ .
(٣) انظر ترجمته فى الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج١ ، ص ١٧٨ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص ٢٢٠ .
(٤) «أولى» فى نسخة ب .
(٥) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٦) «قوم» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٦٤ ، وهو ما يتفق مع السياق .

كيف التخلُّصُ إنْ تَجَنَّى أو [جَنَى][١]	والحسْنُ شيءٌ ما يُردُّ شَفيعُه
شمسٌ ولكنْ فى فؤادِى حَرُّها	بدرٌ ولكِنْ فى القلوبِ طُلُوعُه
قال العواذلُ ما الذى استَحْسنتُه	منه وما [يسبيك][٢] قلتُ جميعُه

ابن مَرْدَنِيش ؛[٣] هو الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد بن محمد بن سعد ، المعروف بابن مردنيش ، صاحب شرق الأندلس ، مُرْسِيَّةُ[٤] وما يضاف إليها . توفى فى هذه السنة ، وسبب موته أن أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، صاحب المغرب ، دخل إلى جزيرة الأندلس ؛ لكشف مصالح دولته ، وتفقد أحوالها ، وذلك فى سنة ست وستين وخمسمائة ، وفى صحبته مائة ألف فارس من العرب والموحدين ، فنزل بإشبيلية[٥] ، فخافه الأمير أبو عبد الله المذكور ، وحمل على قلبه ، فمرض مرضًا شديدًا ، ومات فى التاسع والعشرين من رجب سنة سبع وستين وخمسمائة بإشبيلية .

وقيل أن أمَّهُ سَمَّتْهُ ، لأنه كان قد أساء العشرة مع أهله [وأصحابه][٦] وخواصه وكبراء دولته ، فنصحته وأغلظت عليه فى القول ، وتهدَّدَها . فخافت بطشته ، فعملت عليه وقتلته بالسُّم . «ومولده»[٧] فى سنة ثمانى عشرة وخمسمائة ، فى قلعة من أعمال طرطوشة[٨] ، يقال لها بُنُشْكُلَة ، وهى من الحصون المنيعة .

ولما مات محمد بن سعد جاء أولاده ، وقيل إخوته ، إلى الأمير يوسف بن عبد المؤمن ، وهو بإشبيلية ، فسلّموا إليه جميع بلاد شرق[٩] الأندلس التى كانت لأبيهم ، وقيل لأخيهم ، فأحسن إليهم الأمير يوسف وتزوج أختهم ، وأصبحوا عنده فى أعز مكان .

---

(١) «يحى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٦٥ .
(٢) «يشينك» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج١ ، ص١٨٣ ؛ النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ٦٥ .
(٣) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص١٣١ - ١٣٣ .
(٤) مُرْسِيَة : مدينة بالأندلس من أعمال تُدْمير . معجم البلدان ، ج ٤ ، ص٤٩٧ .
(٥) إشْبيلية ، بالكسر ثم السكون وكسر الباء الموحدة وياء ساكنة ولام وياء خفيفة ، مدينة عظيمة بالأندلس . معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٣٧٥ .
(٦) ما بين الحاصرتين ساقط من نسخة أ ، و مثبت من نسخة ب .
(٧) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٨) طرطوشة : مدينة بالأندلس تتصل بكور بلنسية وهى شرقى بلنسية وقرطبة . معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٥٣٩ .
(٩) تقديم وتأخير فى نسخة ب .

ومَرْدَنِيْش[١] : بفتح الميم وسكون الراء وفتح الدال المهملة وكسر النون وسكون الياء آخر الحروف وفى آخره شين معجمة ، وهو بلغة الإفرنج[٢] اسم العَذِرَة .

وبُنُشْكُلَة : بضم الباء الموحدة والنون وسكون الشين المعجمة وضم الكاف وفتح اللام وفى آخره هاء .

ناصر الجونى[٣] ؛ كان متصوفًا ، وكان يمشى فى طلب الحديث حافيا ، وتوفى ببغداد فى هذه السنة (رحمه الله) .

(١) لمعرفة المزيد من التفاصيل عن ابن مردنيش انظر المقرى : نفح الطيب ، ج ٦ ، ص ١١٣ .
(٢) «الفرنج» فى نسخة ب .
(٣) انظر ترجمته فى البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٢٨٩ .

[١٧٤و] فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الثامنة والستين بعد الخمسمائة*

استهلت هذه السنة والخليفة المستضىء بأمر الله العباسى، وإليه الأمر والنهى. وصاحب مصر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب. وسُلطان الشام وحلب وغيرهما الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى. وسلطان الروم عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان السلجوقى. وسلطان المغرب يوسف بن عبد المؤمن. وسلطان خوارزم أرسلان شاه، ولكنه مات فى هذه السنة على ما نذكره إن شاء الله. وسلطان همدان وغيرها أتابك شمس الدين أيلدكز، ولكنه مات فى هذه السنة على ما نذكره. وصاحب اليمن عبد النبى. وصاحب الموصل وغيرها سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن أخى نور الدين. وصاحب تبريز فلك الدين بن آقسنقر الأحمديلى. وصاحب نيسابور المؤيد أيَابَا[١]. وصاحب خُوزِسْتان شملة التركمانى. وصاحب خلاط شاهْ أَرْمن. وصاحب غزنة شهاب الدين الغُورى.

ذكر مَاجريات نور الدين

منها أن نور الدين برز إلى الإفرنج، وكانوا قد اجتمعوا بالشام؛ لقصد مدينة زُرْع[٢]، فوصلوا إلى [سَمكين][٣]، فهربوا من نور الدين إلى الغَوْر[٤]، ثم إلى السَّواد[٥]، ثم إلى[الشلالة][٦]، فبعث نور الدين سرية إلى طبرية[٧]، فعاثوا هنالك، وسبوا وقتلوا وغنموا وعادوا. ورجعت الفرنج خائبين[٨].

---

* يوافق أولها ٢٣ أغسطس ١١٧٢م.

(١) يرسم الاسم أيابه أو أيابا أو أى به.

(٢) زُرْع: تدعى قديما «زُرًا» من أعمال حوران. انظر: معجم البلدان، ج ٢، ص ٩٢١.

(٣) «سمسكين» فى نسختى المخطوطة أ، ب. والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين، ج١ ق٢، ص ٥٢٨. وهى ناحية من أعمال دمشق من جهة حوران. انظر: معجم البلدان، ج٣، ص ١٤٠ - ١٤١.

(٤) الغور: المنخفض من الأرض. معجم البلدان، ج ٣، ص ٨٢١.

(٥) السواد قرب البلقاء، وسميت بذلك لسواد حجارتها. انظر: معجم البلدان، ج ٣، ص ١٧٤.

(٦) ذكرها العينى برسمين «السّلالة»، «انشلالة». والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين، ج ١ ق٢، ص ٥٢٨؛ مفرج الكروب، ج ١، ص ٢٢٧؛ البداية والنهاية، ج ١٢، ص ٢٨٩.

(٧) طبرية: بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية من أعمال الأردن. انظر: معجم البلدان، ج ٣، ص ٥٠٩.

(٨) ورد هذا النص بتصرف فى الروضتين، ج ١ ق٢، ص ٥٢٨؛ الكامل، ج ١٠، ص ٤٥.

ومنها أن نور الدين فتح فى هذه السنة مَرعش فى ذى القعدة ، وأخذ بَهَسْنَى فى ذى الحجة منها .

ومنها أن كلب الروم(١) اللعين خرج فى جنوده الشياطين ، فقصد الغارة على ناحية زُرًّا من حوران ، ونزلوا بقرية تعرف [بسمكين](٢) . فركب نور الدين وهو نازل بالكسوة(٣) إليهم ، فلما عرفوا وصوله ، رحلوا إلى الفوار ثم إلى السواد ، ثم نزلوا بالشلالة(٤) ، ونزل نور الدين عشترا(٥) ، فأنفذ سرية إلى أعمال طبرية ، واغتنموا خُلُوّها ، فلما عادت لحقها الفرنج عند المخاضة ، فوقف الشجعان حتى عبرت السرية ، ورحل نور الدين من عشترا فنزل بظاهر زُرًّا .

قال العماد : وكنت راكبًا فى لقائهم مع الملك العادل وهو يقول لى : كيف تصف ماجرى ، فمدحته بقصيدة(٦) منها :

عُقِدَتْ بنَصْرِكَ رَايةُ الإيمانِ ... وبَدَتْ لعَصْرِكَ آيةُ الإحْسَانِ
يا غالبَ الغُلْبِ المُلُوكِ وصَائدَ الصِّـ ... ـيدِ اللُّيُوثِ وفارسَ الفُرسَانِ
يا سَالبَ التِّيجانِ مِنْ أرْبَابِها ... حُزْتَ الفَخَارَ علَى ذَوِى التِّيجانِ
محمودٌ المحمودُ ما بينَ الوَرَى ... فى كلِّ إقليمٍ بكلِّ لسانِ
يا واحِدًا فى الفضلِ غير مُشَارَكٍ ... أقْسَمْتُ مالَك فى البَسِيطَةِ(٧) ثانِ

ومنها :

وجَلَوْتَ نُورَ الدِّينِ ظُلْمَةَ ظُلْمِهِم(٨) ... لما أَتَيتَ بواضِحِ البُرهَانِ
وهَزَمْتَهُم بالرأيِ قبلَ لِقَائِهِم ... والرأيُ قبلَ شَجاعَةِ الشُّجْعَانِ
[١٧٤ظ] أصبحتَ للإسْلامِ رُكْنا ثابتًا ... والكُفْرُ منك مضَعْضَعُ الأرْكَانِ/

---

(١) يقصد بذلك امبراطور الروم Manuel Comnenus الذى حكم بين سنتى ١١٤٣ - ١١٨٠ م/ ٥٣٨ - ٥٧٦هـ .
(٢) «بسمسكين» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين .
(٣) الكسوة ؛ أول منزل تنزله القوافل التى تخرج من دمشق فى اتجاه مصر . انظر : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ .
(٤) «الشلالة» الروضتين ج ١ ق٢ ، ص ٥٢٨ .
(٥) عشترا ، موضع بحوران من أعمال دمشق . انظر : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٦٧٩ .
(٦) وردت هذه القصيدة فى الروضتين ، ج ١ ق٢ ، ص ٥٢٩ - ٥٣٠ . وقد وردت بعض أبياتها فى مفرج الكروب ، ج١ ، ص ٢٢٧ - ٢٢٨ .
(٧) «من ثانى» فى نسخة ب وهو خطأ .
(٨) «كفرهم» فى الروضتين ، ج ١ ق٢ ، ص ٥٢٩ .

وهى قصيدة طويلة ، مدح فيها أمراءه الحاضرين الجهاد معه[١] ومدحه .

ومنها أن نور الدين سار قاصدًا جانب الشمال ، فسار إلى بعلبك ، ومنها إلى حمص ، ثم حلب ، وفعل فى كلٍّ منها من المصالح ما وجب ، وقصد بلاد قليج أرسلان ملك الروم ، وكان العماد معه ، ووصل إلى مرعش ، وكان الزمان فى أطيب فصوله ، وهو زمن المشمش . وكتب العماد إلى صديق له بدمشق :

كِتَابى فَديْتُكَ ، من مَرْعَش ... وخوفُ نَوَائِبها مُرْعِشِى
وما مَرَّ فى طُرْقِها مُبصِرٌ[٢] ... صحيحُ النواظرِ إلاَّ عَشِى[٣]
ومَا حَلّ فى أرضِها آمِنٌ ... من الضُّرِّ والضَّيْم إلاَّ خَشِى
تُرَنِّحُنى نشواتُ الغرام ... كأنِّىَ[٤] من كأسِه مُنْتَشِى
أُسِرُّ وأُعْلِنُ بَرْحَ الجَوَى ... فَقَلْبِى يُسِرُّ ودمعى يَشِى
بذلْتُ لكُم مُهْجَتى رِشْوةً ... فَحَاكِمُ حُبِّكُمْ مُرْتَشى
وَكَيفَ يَلَذُّ الكَرَى مُغْرَمٌ ... بِنَارِ الغَرام حَشَاهُ حُشِى
بمَرْعَش أبغى[٥] وبَلُّوطِها ... مضاهاة جِلَّقَ والمِشْمِشِ

قال العماد فى الخريدة : فسارت هذه القطعة ، ونُمى حديثها إلى نور الدين ، فاستنشدنيها ، فأنشدتها إياه ، ونحن سائرون فى وادٍ كثير الأشجار ، مع بيتين بدهت بهما[٦] فى الحال ، [وهما][٧] :

وبالمَلِكِ العادلِ اسْتأنَسْتُ ... نجاحًا مُنَى كُلِّ مسْتَوحِشِ
ومَا فِى الأنَامِ كَريمٌ سِوَاه ... فإنْ كُنتَ تنْكِر ذا [فتِّشِ][٨]

(١) «معهم» فى نسخة ب .
(٢) «مُنْصر» فى نسخة ب .
(٣) «غشى» فى الروضتين ، ج ١ ق٢ ، ص ٥٤٣ .
(٤) «كأننى» فى نسخة ب ، وهو خطأ إذ يخل بوزن البيت .
(٥) «أبقى» فى الروضتين ، ج ١ ق٢ ، ص ٥٤٣ .
(٦) «بدهتهما» فى نسخة ب .
(٧) ما بين الحاصرتين مثبت من الروضتين ، ج ١ ق٢ ، ص ٥٤٣ ، وذلك لاستقامة النص .
(٨) «ففتش» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج ١ ق٢ ، ص ٥٤٣ .

قال ابن الأثير[١] : وفى سنة ثمان وستين سار نور الدين نحو ولاية الملك عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان السلجوقى ، وهى ملطية[٢] ، وسيواس[٣] ، وقونية[٤] ، وأقصرا[٥] ، عازما على حربه ، وأخذ بلاده منه . وكان سبب ذلك أن ذا النون[٦] بن دانشمند صاحب ملطية وسيواس وغيرهما من تلك البلاد ، قصده قليج أرسلان ، وأخذ بلاده ، وأخرجه عنها طريدا فريدا ، فسار إلى نور الدين مستجيرًا به ، وملتجئا إلى ظله ، فأكرم نزله ، وأحسن إليه ، وحمل له ما يليق أن يحمل للملوك[٧] ، ووعده النصرة والسعى فى رد ملكه إليه[٨] . وأرسل [ذو النون][٩] إلى قليج أرسلان ، وشفع إليه فى إعادة ما غلبه عليه من بلاده ، فلم يجبه إلى ذلك ، فسار نور الدين نحوه ، فابتدأ بكيسون ، و بهسنى ، ومرعش ، ومرزبان ، فملكها وما بينها من الحصون[١٠] ، وسير طائفة من عسكره إلى سيواس فملكوها . وكان قليج أرسلان لما بلغه قصد نور الدين بلاده قد سار من «أطرافها»[١١] التى تلى الشام إلى وسطها ؛ خوفا وجزعًا ، وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح والصفح عنه ، فأجابه إلى الصلح[١٢] ، وكان فى جملة رسالة نور الدين إليه : إننى أريد منك أمورا وقواعد ، ومهما تركت منها فلا أترك [١٧٥و] ثلاثة أشياء :

---

(١) الكامل ، ج ١٠ ، ص ٤٨ ـ ٤٩ .
(٢) ملطية : ثغر من ثغور الجزيرة مما يلى الروم ، وهى مدينة كبيرة من أكبر الثغور ، وبين ملطيه ومنبج أربعة أيام . انظر : الاصطخرى : المسالك والممالك ، ص٤٣-٤٨ .
(٣) سيواس : بلد بالروم ، إحدى بلاد آسيا الصغرى وتقع على مسافة ٦٠ ميلا من قيسارية . انظر : ابن عبد الحق : مراصد الاطلاع ، ج ٢ ، ص ٧٦٨ .
(٤) قونية : من أعظم مدن الإسلام بالروم : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٠٤ .
(٥) أقصرا : يطلق عليها الآن آق سراى وهى قرب قونية . انظر : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص ٢٠٤ «داخل مادة قونية» ؛ انظر : السلوك ج ١ ق١ ، ص ١٣٩ حاشية ٤ .
(٦) أمير تركى كون لنفسه إمارة مستقلة عن السلاجقة فى مدن ملطية وسيواس وقيسارية أثناء تقدم السلاجقة نحو آسيا الصغرى ، وقد حكم ذو النون فى مناسبتين أولاهما بين سنتى ٥٣٧ ـ ٥٥٠هـ/١١٤٢ ـ ١١٥٥م ، وثانيهما بين سنتى٥٦٤ ، ٥٦٩هـ/١١٦٩ـ ١١٧٤م . انظر : معجم الأنساب ، ج١ ، ص٢٢٠ـ ٢٢١ .
(٧) «إلى الملوك» فى الباهر ، ص١٦٠ .
(٨) ورد هذا النص فى الروضتين ، ج ١ ق٢ ، ص ٥٤٣ ـ ٥٤٤ ؛ الباهر ، ص ١٦٠ .
(٩) ما بين الحاصرتين إضافة من الباهر ، ص ١٦٠ .
(١٠) الكامل ، ج ١٠ ، ص ٤٨ ـ ٤٩ ؛ كما ورد النص بتصرف فى الروضتين ، ج ١ ق٢ ، ص ٥٤٤ .
(١١) «طرقها» فى الكامل ، جـ١٠ ، ص ٤٩ .
(١٢)وردت الرواية فى الباهر بتصرف ، ص ١٦٠ .

أحدها : أن تجدد إسلامك على يد رسولى ؛ حتى يحل لى إقرارك على بلاد الإسلام ، فإنى[١] لا أعتقدك مؤمنا ، وكان قليج أرسلان يتهم باعتقاد مذاهب[٢] الفلاسفة .

والثانى : إذا طلبت عسكرك إلى الغزاة[٣] تسيره ، فإنك قد ملكت طرفا كبيرا من بلاد الإسلام ، وتركت الروم وجهادهم ، وهادنتهم ، فإما أن تكون[٤] تنجدنى بعسكرك ؛ لأقاتل بهم الفرنج ، وإما أن تجاهد من يجاورك من الروم ، وتبذل الوسع والجهد فى جهادهم .

والثالث : أن تزوج ابنتك لسيف الدين غازى ابن[٥] أخى ، وذكر أمورًا غيرها . فلما سمع قليج أرسلان الرسالة قال : ما قصد نور الدين إلا الشناعة على بالزندقة[٦] ، وقد أجبته إلى ما طلب ، أن أجدد إسلامى على يد رسوله .

واستقر الصلح ، وعاد نور الدين ، وترك عسكره فى سيواس مع فخر الدين عبد المسيح فى خدمة ذى النون ، فبقى العسكر بها إلى أن مات نور الدين ، فرحل العسكر عنها ، وعاد قليج أرسلان وملكها[٧] .

ومنها أن مليح بن لاون[٨] مقدم بلاد الأرمن التجأ إلى نور الدين ، وتقوى به على الروم والأرمن . وكانت الدروب أذنة[٩] والمصيصة[١٠] ، وكان كلب الروم يحمى سيواس ويضبطها بجنده ، حتى استولى عليها مليح بن لاون ، فكسرهم وقتل وأسر ، وساق لنور الدين من مقدمى الروم ثلاثين أسيرًا ، فأرسل نور الدين القاضى كمال الدين بن الشهرزورى[١١] بالأسرى والهدايا إلى الخليفة المستضىء بأمر الله ، ومعه كتاب يشرح هذه الكسرة وما فتح من البلاد .

---

(١) «فإننى» فى الباهر ، ص١٦٠ ؛ وفى الروضتين : «إننى» ، ج١ ق٢ ، ص٥٤٤ .
(٢) «مذهب» فى الباهر ، ص١٦٠ ، وفى الروضتين « مذاهب» ، ج١ ق٢ ، ص ٥٤٤ وهى الأصح .
(٣) «للغزاة» فى الروضتين ، ج ١ ق٢ ، ص٥٤٤ .
(٤) «تكون» هنا زائدة ، وتجعل النص مضطربًا ، وقد تركناها حفاظًا على النص .
(٥) «ولد» فى الباهر ، ص١٦١ .
(٦) «الزندقية» فى نسخة ب .
(٧) ورد هذا النص فى : الباهر ، ص١٦٠ - ١٦١ ، ثم توقف العينى عن النقل من ابن الأثير وأخذ ينقل من البرق الشامى للعماد الأصفهانى دون ذكر اسمه .
(٨) «إليون» فى نسخة ب .
(٩) أَذَنَة : بلد من الثغور قرب المصِّيصة . معجم البلدان ، ج١ ، ص ١٧٩- ١٨٠ .
(١٠) المصِّيصة : هى مدينة على شاطئ جيحان من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم تقارب طرسوس . معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٥٥٧- ٥٥٨ .
(١١) هو أبو الفضل محمد بن أبى محمد عبد الله بن أبى أحمد القاسم الشهرزورى . المتوفى سنة ٥٧٢ هـ/١١٧٦م بدمشق . انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج ٤ ، ص ٢٤١- ٢٤٥ .

ومنها أنه وصل شهاب الدين بن أبى عصرون[١] من بغداد، ومعه توقيع لنور الدين بدرب هارون[٢]، وصُرَيْفين[٣]، وخمسين دينارا من دنانير النثار، التى نثرت يوم دخل الشهاب إلى بغداد بالبشارة بالخطبة فى مصر، وزن كل دينار عشرة دنانير.

قال العماد[٤]: وكانت ناحيتا درب هرون وصريفين من أعمال العراق لزنكى - والد نورالدين - قديما من إنعام أمير المؤمنين، فسأل نور الدين إحياء ذلك الرسم فى حقه، فأنعم بهما الخليفة عليه، ووجه بهما. وكان مراده (رحمه الله) أن يستوهب ببغداد على شاطئ دجلة أرضا، يبنى عليها مدرسة للشافعية، ويقف عليها الناحيتين، فعاقه أمر القدر عن قدرته على الأمر.

ومنها أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين الموفق خالد بن القيسرانى؛ ليقيم له حساب الديار المصرية؛ وذلك لأنه استقل الهدية التى أرسل بها إليه من خزائن العاضد، ومقصوده أن يقرر له على الديار المصرية خراج، يحمل إليه كل سنة.

ذكر ماجريات صلاح الدين

منها أن صلاح الدين بعث إلى نور الدين هدية، فيها[٥] فيل وحمار عتابى[٦]، فبعث بها نور الدين إلى بغداد، وخرج الناس للقائها، وعجبوا من خلقة الحمار.

وقال العماد: خرج صلاح الدين فى النصف من شوال، ومعه الفيل والحمارة العتابية، والذخائر النفيسة التى كان انتخبها من خزائن القصر. قال: ووصل ذلك إلينا

---

(١) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان، ج٣، ص٥٣-٥٧.

(٢) درب هارون: من أعمال بغداد.

(٣) صَرِيفون أو صريفين. من أعمال بغداد على ضفة نهر دُجَيْل. وهى قرية كبيرة غناء. انظر: معجم البلدان، ج ٣، ص ٣٨٤-٣٨٧. وقد ورد فى الروضتين، ج ١ ق٢، ص ٥٤٩ أن درب هارون وصريفين من أعمال بغداد. انظر حاشية (١).

(٤) إلى هنا توقف العينى عن النقل من ابن أبى طى دون أن يذكر اسم المرجع... وقد ذكر هذا فى الروضتين، ج١ ق٢، ص ٥٤٩.

(٥) «منها» فى نسخة ب.

(٦) حمار عتابى، واحدة من حمر الوحش المخطط، والعتابى نسبة إلى العتابيين وهى أحد محال بغداد واشتهرت بإنتاج نوع من النسيج المخطط، ومن ثم وصف هذا النوع من الحمير بأنه عتابى تشبها له بهذا النسيج. راجع
Dozy: Supp. Dict. Ar. vol.1, p. 321.

ونحن بحلب بالميدان الأخضر ، وأهدى نور الدين الفيل إلى ابن أخيه سيف الدين غازى صاحب الموصل ، مع شىء من تحف الثياب والعود والعنبر ، [١٧٥ظ] ثم سَيّره سيف(١) الدين هدية إلى بغداد للخليفة مع ماسيره معه من التحف اللطيفة ، وسير نور الدين الحمارة إلى بغداد مع هدايا وتحف سنايا .

ومنها أن صلاح الدين نزل فى هذه السنة على الكرك والشوبك وغيرهما من الحصون ، فبرح بها ، وفرق عنها عُربها ، وخرب عمارتها ، وبعث سراياه على أعمالها(٢) ، وأرسل كتابا بذلك إلى نور الدين .

وقال ابن الأثير وابن شداد : هذه أول غزوة غزاها صلاح الدين من الديار المصرية ، وإنما بدأ ببلاد الكرك والشوبك(٣) ؛ لأنها كانت أقرب إليه ، وكانت فى الطريق تمنع من يقصد الديار المصرية ، فخرج صلاح الدين فى أثناء السنة ، فحاصرها ، وجرى بينه وبين الفرنج وقعات(٤) ، وعاد عنها ، فلم يظفر منها بشىء فى تلك الدفعة ، وحصل ثواب القصد .

وفى المرآة(٥) : وفى هذه السنة سار نور الدين إلى الموصل ، وصلى فى الجامع الذى بناه وسط البلد ، وتصدق بمال عظيم .

ولما علم صلاح الدين أن نور الدين قد توجه إلى الموصل ، خرج بعساكره [ومضى إلى الشام](٦) ، فحصر الكرك والشوبك ، ونهب أعمالها ، وكانت جماعة من العرب نازلين بأرض الكرك ؛ ينقلون الأخبار إلى الإفرنج ، وإذا غاروا على البلاد دلوهم على المسلمين ، فنهبهم صلاح الدين ، وقتل البعض ، وأجلى من بقى منهم عن أرض الكرك ، وكتب كتابا إلى نور الدين ؛ يخبره بما جرى من العربان ، وأنه لم(٧) يبق منهم أحد ، فإنهم كانوا

---

(١) انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٢٦ حيث ينقل العينى قول العماد عنه . أما فى سنا البرق الشامى ، ص٦٥ فقد ذكر البندارى أنه «نور الدين» .
(٢) أورد ابن واصل هذه الرواية بتصرف ، انظر : مفرج الكروب ، ج ١ ، ص ٢٢٤ .
(٣) انظر : النوادر السلطانية ، ص٤٥ ؛ الكامل ، ج ١٠ ، ص ٤٩ .
(٤) «وجرى بينه وبين صلاح الدين الفرنج وقعات» كذا فى نسخة ب وهو خطأ .
(٥)انظر : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص١٨٣ .
(٦) ما بين الحاصرتين إضافة من مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص١٨٣ .
(٧) «وان لا يبقى» فى المرآه ، ج ٨ ، ص ١٨٣ .

آفة على المسلمين ، ودليلا للكفار على الإسلام . ثم عاد صلاح الدين إلى مصر ، وعاد نور الدين من الموصل ، وقطع الفرات ، وقصد بلاد الروم ، وقد ذكرناه[١] .

ومنها أن فى جمادى الأولى غزا توران شاه شمس الدولة بن أيوب ـ أخو صلاح الدين ـ بلاد النوبة ، بأمر صلاح الدين ، وفتح حصنا لهم يقال له إبريم[٢] ، وهى بلاد عديمة الجدوى ، كثيرة البلوى ، ثم جمع السبى ، وعاد به إلى أسوان ، وفرق على أصحابه من الغنائم السودان .

وقال ابن أبى طى الحلبى[٣] : وفى هذه السنة اجتمع السودان والعبيد من بلاد النوبة ، وخرجوا فى أمم عظيمة ؛ قاصدين ملك بلاد مصر ، وساروا إلى أعمال الصعيد ، وصمموا على قصد أسوان ، وحصارها ، ونهب قراها . وكان بها الأمير كنز الدولة[٤] ، فأنفذ يعلم الملك الناصر صلاح الدين ، وطلب منه نجدة ، فأنفذ قطعة من جيشه مع الشجاع البعلبكى ، فلما وصل إلى أسوان ، وجد العبيد قد عادوا عنها بعد أن أخربوا أرضها ، فأتبعهم الشجاع وكنز الدولة ، فجرت حرب عظيمة ؛ قتل فيها من الفريقين عالم عظيم ، ورجع الشجاع إلى القاهرة ، وأخبر بفعال العبيد ، وتمكنهم من بلاد الصعيد ، فأنفذ صلاح الدين أخاه شمس الدولة فى عسكر كثيف ، فوجدهم قد دخلوا بلاد النوبة ، فسار قاصدًا بلادهم ، وشحن مراكب كثيرة فى البحر بالرجال والميرة ، وأمرها بلحاقه إلى بلاد النوبة[٥] ، وسار إليها ، ونزل على قلعة إبريم ، وافتتحها بعد ثلاثة أيام ، وغنم جميع ما فيها من المال والكراع[٦] والميرة ، وخلص جماعة من الأسرى ، وأسر من وجده فيها ،

(١) نقل العينى هذا النص بتصرف من مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص١٨٤ .

(٢) إبريم : بلدة قديمة تقع على الضفة الشرقية للنيل فى منطقة النوبة المصرية التى عرفت فى العصر الرومانى باسم Nabatia ، وفى المراجع العربية القديمة باسم مريس . انظر : الإسلام والنوبة فى العصور الوسطى ، للدكتور مصطفى مسعد ، ص ٢٧ ، ص ٩٣ ، ص ٩٦ .

(٣) انظر ، الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٣١ .

(٤) كنز الدولة ، لقب منح لأول مرة أيام الحاكم بأمر الله الفاطمى لأمير أسوان أبى المكارم هبة الله بعد انتصاره على ثورة أبى ركوة وأصبح هذا اللقب وراثيا فى أسرة أبى المكارم بعد اندماجها مع النوبيين . انظر : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص١٦ حاشية ٢ .

(٥) بلاد النوبة : بلاد واسعة عريضة فى جنوبى مصر بعد أسوان ، واسم مدينة النوبة دمقلة ودنقلة ودنكلة ، وهى منزل الملك ، على ساحل النيل . وأهلها نصارى أهل شدة فى العيش . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٨٢٠ـ ٨٢١ ؛ ج٢ ، ص ٥٩٩ ، ٦١١ ؛ مراصد الاطلاع ، ج٣ ، ص١٣٩٤ .

(٦) الكراع : لغة طرف الشىء ؛ وكراع الأرض طرفها البعيد ، والكراع هنا ذخيرة الحرب من الأطعمة والمؤنة ، انظر : السلوك ، ج١ ق٢ ، ص٣٧٤ ، ص٦٢٠ حاشية ٣ .

وهرب صاحبها[١] ، وكتب إلى صلاح الدين بذلك ، ثم رجع شمس الدولة إلى أسوان ثم إلى قوص[٢] . وكان فى صحبته أمير يقال له إبراهيم الكردى ، فطلب من شمس الدولة قلعة إبريم ، فأقطعه إياها ، وأنفذ معه جماعة من الأكراد البطالين[٣] ، فلما حصلوا فيها ، تفرقوا فرقا ، وكانوا يشنون الغارة [١٧٦و] على بلاد النوبة حتى برَّحوا بهم ، واكتسبوا أموالا عظيمة ، وكثرت مواشيهم ، واتفق أنهم عدوا إلى جزيرة من بلاد النوبة ، تعرف بجزيرة دندان ، فغرق أميرهم إبراهيم وجماعة من أصحابه ، ورجع من بقى منهم إلى قلعة إبريم ، وأخذوا جميع ما كان فيها ، وأخلوها بعد مقامهم بها سنتين ، فعاد النوبة إليها وملكوها . وأنفذ ملك النوبة رسولا إلى شمس الدولة ، وهو مقيم بقوص ، ومعه كتاب فيه طلب الصلح ، ومع الرسول هدية عبد وجارية ، فكتب له[٤] جواب كتابه ، وأعطاه زوجى نشاب[٥] ، وقال مالك عندى جواب إلا هذا ، وجهز معه رسولا يعرف بمسعود الحلبى ، وأوصاه أن يكشف له خبر البلاد ليدخلها ، فسار الحلبى مع الرسول حتى وصل دنقلة ، وهى مدينة الملك .

قال مسعود : فوجدت بلاداً ضيقة ، ليس لهم زرع إلا الذرة ، وعندهم نخل صغار ، منه إدامهم ، ووصف ملكهم بأوصاف منها أن قال : خرج علينا يومًا وهو عريان ، قد ركب فرسًا عريًا ، وقد التف فى ثوب أطلس ، وهو أقرع ليس على رأسه شعر . قال : فأتيت فسلمت عليه ، فضحك ، وأمر بى أن تكوى يدى ، فكوى عليها هيئة صليب ، وأمر لى بقدر خمسين رطلا من الدقيق ، فصرفنى[٦] .

---

(١) انظر : الروضتين : جـ١ق٢ ، ص٥٣٢ .

(٢) قوص : من المدن القديمة بصعيد مصر من الجهة الشرقية من النيل ، انظر : رمزى ، القاموس الجغرافى ، ق٢ جـ٤ ، ص ١٨٧ـ ١٨٩ .

(٣) البطالون من الأجناد والأمراء هم العاطلون من إقطاعات الدولة ووظائفها لكبر السن أو لغضب السلطان أو لغير ذلك . انظر : السلوك ، جـ١ ، ص٧٣ ، حاشية ٤ .

(٤) «له» فى نسخة ب .

(٥) نشاب : هى النبل أو السهام وواحدته نشابة . والنَّشَّابة قوم يرمون بالنشاب . وقد ذكر الحسين بن عبد الله فى آثار الأول وأخبار الدول ، صفحة ١٦٠ أنواع النشاب وما يمتاز به كل نوع على الآخر . والنشاب صحيحة الاعتدال والاستداره . انظر : النوادر السلطانية ، ص٦٣ ، حاشية ١ .

(٦) إلى هنا توقف العينى عن النقل من الروضتين جـ ١ ق٢ ، ص٥٣٣ .

ومنها أن صلاح الدين (رحمه الله) بعث سرية صحبة قراقوش[١] ـ مملوك تقى الدين عمر بن شاهنشاه[٢] ـ إلى بلاد إفريقية فملكوا طائفة كبيرة منها ، فمن ذلك مدينة طرابلس المغرب وعدة مدن معها .

وفى تاريخ الدولتين[٣] : كان مع قراقوش طائفة من الترك ، وجماعة من العرب ، فاستولوا على طرابلس ، وكثير من بلاد إفريقية ما خلا المهدية[٤] ، وسفاقس[٥] ، وقفصة[٦] وتونس .

ذكر الأمور المزعجة

منها أن فى صفر زاد الإرجاف ببغداد بمجيء العسكر من باب همدان ، فغلت الأسعار ، وأخذ الخليفة فى التجنيد ، وعمارة السور ، وجمع الغلات ، وعرض العسكر[٧] .

ومنها أنه وقع حريق ببغداد ، وتغير ماء دجلة باصفرار ، وثخن الماء ، فبقى على هذا مدة[٨] .

ومنها أنه فى شعبان مرت ريح سوداء أظلمت منها الدنيا .

---

(١) قراقوش التقوى : هو غلام تقى الدين عمر بن شاهنشاه ، وهو غير بهاء الدين قراقوش الأسدى . وقد قام قراقوش التقوى بعدة غزوات للمغرب تعددت فى السنوات ٥٧١هـ ، ٥٧٢هـ ، ٥٧٥هـ ، ٥٧٦هـ ، ٥٧٨هـ ، ٥٨٢هـ ، لأن تقى الدين عمر بن شاهنشاه فكر فى الخروج بنفسه إلى المغرب أكثر من مرة لإقامة ملك له هناك . انظر : الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص ٥٤٨ ؛ مفرج الكروب ، جـ ١ ، ص ٢٣٦ ، حاشية١ ، حاشية٤ .

(٢) تقى الدين عمر : أحد أبناء البيت الأيوبى ، كان طموحًا غيورًا ، وقد رأى تورانشاه يستولى لنفسه على اليمن ، فطمع تقى الدين فى تأسيس ملك له بالمغرب ، وكان صلاح الدين يريد إرضاءه ، لذا منحه مدينة عزاز إقطاعًا له سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م وجعله نائبًا عنه فى مصر سنة ٥٧٩هـ/١١٨٣م ، انظر : شذرات الذهب ، جـ ٤ ، ص٢٨٩ـ٢٩٠ ؛ الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص ٥٤٨ ، حاشية ٤ .

(٣) انظر : الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص ٥٤٨ .

(٤) المهدية : أنشأها عبيد الله المهدى الفاطمى بقرب القيروان لتكون عاصمة لدولته وبدأ انشاءها سنة ٣٠٠هـ/٩١٢م وانتقل إليها ٣٠٨هـ/٩٢٠م . انظر : معجم البلدان جـ٤ ، ص٦٩٣ ، ص ٦٩٦ .

(٥) سفاقس : على مقربة من المهدية وسوس وقابس على ضفة الساحل فى وسط غابة للزيتون . انظر : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٩٦ .

(٦) قفصة : فى طرف مقاطعة إفريقيا من ناحية المغرب فى أرض سبخة . انظر : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص١٥١ .

(٧) إلى هنا توقف العينى عن النقل من الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص ٥٤٨ .

(٨) نقل العينى هذا الحدث بتصرف من الكامل ، جـ١٠ ، ص٥٠ .

ومنها أنه خرج ترجم الإيوانى[١] فى جمع من التركمان فى حياة أيلدكز ، وتطرق إلى أعمال همدان ، ونهب الدينور[٢] ، وسمع أيلدكز الخبر وهو بنقجوان[٣] ، وتبعه بمن خف من عسكره ، فهرب ترجم إلى أن قارب بغداد ، وهو يتبعه ، وظن الخليفة أنه حيلة ليصل إلى بغداد فجأة ، فشرع الخليفة فى جمع العساكر وتحصين السور ، وأرسل إلى أيلدكز خلعًا فأرسل إليه يعتذر ، ويذكر أنه لم يقصد إلا كف هؤلاء ، ولم يتعد قنطرة خانقين[٤] ، وعاد راجعًا[٥] .

ذكر بقية الحوادث

منها أن فى أيام إرجاف أهل بغداد عمل الخليفة مهما عظيما ؛ لختان أولاده السادة ، وفرق خلعًا كثيرة ، وعمل من الطعام ما لا يحد ، فذكر أنه ذبح ثلاث آلاف دجاجة وألف رأس من الغنم ، وعملت إحدى وعشرون ألف خشكنانكة[٦] من ستين كارة من سميد[٧] .

وفى المرآة[٨] : [١٧٦ظ] ذبح من الغنم ألف رأس ، وخمسمائة بقرة ، وخمس آلاف دجاجة ، وألف صحن حلواء ، وعشرين ألف قطعة خشكنانكة[٨] ، وخلع على جميع أرباب الدولة ، والقضاة ، والعدول ، والعلماء ، والفقهاء ، والصوفية ، وغيرهم .

---

(١) «الايوانى» فى الكامل ، ج١٠ ، ص٥٠ .

(٢) الدينور : مدينة من أعمال الجبل قرب قرميسين بينها وبين همذان نيف وعشرون فرسخًا . والفرسخ ثلاثة أميال . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٣٨ ، ج٢ ، ص٧١٤ .

(٣) نقجوان : بلد من نواحى أرّان وهو نخجوان . انظر : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص٨٠٣ .

(٤) خانقين : بلدة من نواحى السواد فى طريق همذان من بغداد وبها قنطرة عظيمة على واديها . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٩٣ .

(٥) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من الكامل ، ج١٠ ، ص٥٠ .

(٦) خشتنانك أو خشكنانج ، كلمة من أصل فارسى وهو نوع من الطعام ، عَرّفه دوزى بأنه نوع من الفطير المصنوع من الزبد والسكر والجوز أو الفستق ويكون على هيئة الهلال . انظر : الجواليقى : المعرب ، ص١٣٤ ؛ الجاحظ : البخلاء ، تحقيق د . طه الحاجرى ، ص١١٠ ، ٣٣٣ ؛ مفرج الكروب ، ج١ ، ص١٠٢ ، حاشية ٣ ؛
Dozy: Supp. Dict. Ar.T.1,P.373

(٧) ورد هذا الحدث فى المنتظم ، ج١٨ ، ص ١٩٩- ٢٠٠ .

(٨) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٨٣ .

ومنها أنه وصل الإمام الكبير الفقيه قطب الدين النيسابورى[١] ، وهو فقيه عصره ونسيج وحده ، فسر به نور الدين ، وأنزله بحلب بمدرسته بباب العراق ، ثم أرسله إلى دمشق ، فدرس بزاوية الجامع الغربية ، المعروفة بالشيخ نصر المقدسى ، ونزل بمدرسة الجاروق[٢] ، وشرع نور الدين فى إنشاء مدرسة كبيرة للشافعية ، فأدركه الأجل قبل ذلك[٣] . قال أبو شامة[٤] : هى العادلية[٥] الكبيرة التى عمرها بعده الملك العادل أبو بكر ابن أيوب أخو صلاح الدين .

ومنها أن أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن[٦] سير عساكره ، وسار من إشبيلية إلى الغزو ، فقصد بلاد الإفرنج ، ونزل على مدينة رُنْدَة - وهى بالقرب من طليطلة شرقا منها - وحصرها ، فاجتمعت الفرنج على ابن ألفونش - ملك طليطلة - فى جمع كثير ، فلم يقدموا على لقاء المسلمين ، واتفق أن الغلاء اشتد على المسلمين ، وعدمت الأقوات عندهم ، وهم فى جمع كثير ، فاضطروا إلى مفارقة بلاد الإفرنج ، فعادوا إلى أشبيلية ، وأقام أبو يعقوب بها إلى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، وهو فى ذلك يجهز العساكر ، ويسيرها إلى بلاد الإفرنج فى كل وقت . وكان فيها عدة وقائع وغزوات ، وظهر فيها من العرب من الشجاعة ما لا يوصف ، حتى صار الفارس منهم يبرز بين الصفين ، ويطلب مبارزة الفارس المشهور من الفرنج ، فلا يبرز إليه أحد[٧] .

---

(١) القطب النيسابورى : هو أبو المعالى مسعود بن محمد بن مسعود الطريثيثى ، نسبة إلى طرثيث بنيسابور . ولد سنة ٥٠٥هـ/١١١١م ، وتوفى سنة ٥٧٨هـ/١١١٢م بدمشق ، انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص ١٩٦ ؛ الدارس ، ج١ ، ص١٨٣- ١٨٤ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٦٣ .

(٢) مدرسة الجاروق : هى الجاروخية ، وكانت داخل بابى الفرج والفراديس شمال الجامع الأموى ، بناها سيف الدين جاروخ التركمانى . انظر : الدارس ، ج١ ، ص٢٢٥ وما بعدها .

(٣) انظر هذا الخبر فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٤٥ ؛ مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص١٨٤ .

(٤) انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٤٥ .

(٥) المدرسة العادلية : هى المدرسة التى أنشأها العادل داخل دمشق شمالى الجامع . انظر : الدارس ، ج ٣ ، ص١٥٩ وما بعدها ، انظر أيضا : خطط الشام ، ج ٦ ، ص٨٥ - ٨٦ .

(٦) أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن : صاحب المغرب ، دخل الأندلس سنة ٥٦٦هـ/١١٧١م ، ونزل أشبيلية ، وتوفى سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م ، انظر : وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٣٠-١٣٧ .

(٧) ورد هذا النص بتصرف فى ، الكامل ، ج١٠ ، ص٤٧ - ٤٨ .

ومنها أن شملة التركمانى[١] نهب نهاوند[٢]، وكان فى أيام أيلدكز لا يزال يطلب نهاوند منه ؛ لكونها مجاورة لبلاده، ويبذل له فيها الأموال، وهو لا يجيبه إلى ذلك، فلما مات أيلدكز، وملك بعده ولده محمد البهلوان[٣]، سار إلى أذربيجان[٤] لإصلاحها، فَنَفَّذَ شملة ابن أخيه ابن سُنكاه ؛ لأخذ نهاوند، وبلغ أهل البلد الخبر، فتحصنوا، وحصرهم، فقاتلهم وقاتلوه، فلما علم أنه لا طاقة له بهم، رجع إلى تُسْتر[٥] ـ وهى قريبة منها ـ وأرسل أهل نهاوند إلى البهلوان ؛ يطلبون منه نجدة، فتأخرت عنهم، ولما اطمأنوا، خرج ابن سنكاه من تستر فى خمسمائة فارس، وسار يومًا وليلة، فقطع أربعين فرسخًا، حتى وصل إلى نهاوند، وضرب البوق، وأظهر أنه من أصحاب البهلوان ؛ لأنه جاءهم من ناحيته، ففتح أهل البلد الأبواب، فدخلها، وقبض على القاضى والرؤساء فصلبهم ونهب البلد، وقصد نحو ما سبذان[٦] ونحو العراق .

وفيها[٧] . . .

وفيها حج بالناس[٨] . . .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

أحمد بن سالم بن أحمد أبو العباس الشحمى[٩] ؛ قرأ القرآن، وأقرأ، وصنف كتابا فى المتشابه كبيرا، وسمع من المروقى وغيره، وتوفى فى المحرم من هذه السنة،

---

(١) شملة التركمانى تملك بلاد فارس وكان يخطب للخليفة .وهو صاحب خوزستان وبنى بها عدة قصور وكانت وفاته بسبب صراعه مع شمس الدين البهلوان بن أيلدكز صاحب عراق العجم، وتوفى سنة ٥٧٠هـ/١١٧٤م . انظر : الكامل، ج١٠، ص٧١ ؛ شذرات الذهب، ج٤، ص٢٣٧ .

(٢) نهاوند : مدينة عظيمة فى قبلة همذان بينهما ثلاثة أيام . معجم البلدان، ج٤، ٨٢٧ ـ ٨٢٩ .

(٣) محمد البهلوان بن أيلدكز : صاحب أذربيجان وعراق العجم . توفى سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م، انظر : شذرات الذهب، جـ ٤، ص ٢٦٩ ؛ البداية والنهاية، ج١٢، ص٣١١ .

(٤) أذربيجان : يحدها من الشرق بَرْذَعة إلى أرزنجان من الغرب ويتصل حدها من جهة الشمال ببلاد الديلم . وأشهر مدنها بلاد تبريز . معجم البلدان : ج١، ص١٧١ ـ ١٧٤ .

(٥) تُسْتَر : أعظم مدينة بخوزستان اليوم، وهو تعريب شوشتر . معجم البلدان : ج١، ص٨٤٧ ـ ٨٥٠ .

(٦) ماسبذان : من بلاد عراق العجم أى من بلاد الجبل وهى عاصمة السيروان . انظر : تقويم البلدان، ص٤١٤ ؛ انظر أيضا : معجم البلدان، ج٤، ص٣٩٣ .

(٧) بياض بمقدار سطر تقريبًا .

(٨) بياض بمقدار سطر .

(٩) انظر ترجمته فى المنتظم، ج١٨، ص٢٠١ .

ودفن فى مقبرة الفيل(١) من باب الأزج(٢) .

أبو المعالى الكتبى(٣) ؛ كان فاضلا ، يقول الشعر المليح ، والنثر الجيد ، وله رسائل ومدائح ، وكان من الذكاء على غاية ، [١٧٧و] وكان دلال الكتب «ببغداد»(٤) ، وتوفى فى صفر ، ودفن بباب حرب(٥) .

وفى المرآة : أبو المعالى الكتبى الخطيرى ، والخطيرة بالطاء القائمة : قرية بدُجْل(٦) . واسمه سعد بن على بن [القسم](٧) بن على ، صحب أبا القاسم على بن أفلح الشاعر(٨) مدة ، واشتغل بالأدب حتى فرغ منه ، وقال الشعر ، وتفقه على مذهب أبى حنيفة (رضي الله عنه) وغلبت عليه الفكرة ، فأحب الخلوة ، فخرج على التجريد سائحا ، ورأى عجائب ، وجال(٩) فى أقطار الشام وغيره ، وحج ، وعاد إلى بغداد ، وصنف الكتب : [لمح الملح فى الأدب نظمًا ونثرًا](١٠) ، و[زينة الدهر فى عصرة أهل العصر](١١) ، وغير ذلك(١٢) .

وذكره العماد فى الخريدة ، وسجع له ، وقال : أنشدنى أبياتا فى وصف العذار أرق من الاعتذار ، وذكر مقطعات من شعره ، وكلامًا فاحشًا يدل على أنه كان خليعًا(١٣) .

---

(١) مقبرة الفيل : تقع تجاه باب الخاصة ، أحد أبواب بغداد . انظر : ابن الساعى : الجامع المختصر ، جـ ٩ ، ص٢٠٣ .

(٢) باب الأزج : من أبواب بغداد ، على شاطئ دجلة . والأزج من قرى بغداد على طريق خراسان . انظر : الباهر ، ص١٣ ؛ مراصد الاطلاع ، ج١ ، ص٤ .

(٣) انظر : المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠١ .

(٤) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٥) باب حرب : أحد أبواب بغداد ، وينسب إلى حرب بن عبد الله أحد أصحاب أبى جعفر المنصور ، وينسب إلى حرب المحلة المعروفة بالحربية ، وبها قبر أحمد بن حنبل . انظر : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٦٤ ، ٦٥ .

(٦) «دحيل» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من معجم البلدان ج٢ ، ص٥٥٧ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص ١٨٦ .

(٧) «القاسم» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من المرآة ، ج٨ ، ص ١٨٦ .

(٨) هو جمال الملك أبو القاسم على بن أفلح العبسى الشاعر ، وقد اختلف فى تاريخ وفاته فابن الجوزى ذكره فى وفيات سنة ٥٣٣هـ/١١٣٩م ؛ أما ابن خلكان فقد ذكر عدة تواريخ لوفاته هى ٥٠٥هـ/١١١١م ، ٥٠٦هـ/١١١٢م ، ٥٣٧هـ/١١٤٢م . انظر : المنتظم ج١٨ ، ص٥٣٣ ؛ وفيات الاعيان ، ج٣ ، ص ٣٨٩ ، ٣٩١ .

(٩) «جبال» فى نسخة ب .

(١٠) «لمح اللمح فى الألغاز» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من البغدادى : هدية العارفين ، ج١ ، ص٣٨٤ .

(١١) «زينة الدهر فى شعر العصر» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من هدية العارفين ، ج١ ، ص٣٨٤ .

(١٢) إلى هنا توقف العينى عن النقل من المرآة ، ج ٨ ، ص ٨٦ .

(١٣) انظر شعره فى الخريدة ، قسم شعراء الشام ، جـ١ ، ص٨٨ ـ ٨٩ ، ص١٢٣ ، ج٢ ، ص٢٥٤ ، ٢٦٧ ، ص٤٥٣ ؛ مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ١٨٦ .

أبو الفتح بن الربى[١] ؛ كان متفقها على مذهب الإمام أبى حنيفة (رضي الله عنه) وكان عاملا على ديوان المقاطعات ، فتوفى فى غرة ذى الحجة منها ، ودفن بباب أبرز[٢] .

وقال ابن الجوزى[٣] : وكانت له امرأة يهودية ، وابن أخ مسلم ، فكتب جميع ما له لليهودية ، وترك ابن أخيه المسلم ، فاجتلب من الناس ذمًا كثيرًا .

أرسلان شاه صاحب خوارزم[٤] ؛ مات فى هذه السنة ، وملك بعده ولده سلطان شاه ، وكان قد عاد من قتال الخطا مريضا ، فاتفقت وفاته . [ومَلَكَ بعده][٥] سلطان شاه محمود ، وكان صغيرا ، ودبرت والدته المملكة والعساكر ، وكان ولده الكبير علاء الدين تكش - ابن أرسلان شاه - مقيمًا فى الجند ، قد أقطعه أبوه إياها ، فلما بلغه موت أبيه وتولية أخيه الصغير ، أنف من ذلك ، وقصد ملك الخطا ، واستمده على أخيه ، وأطمعه فى الأموال وذخائر والده ، فسير معه جيشًا كثيفًا مقدمهم قوما ، فساروا حتى قاربوا خوارزم ، فلما قربوا منها ، خرج سلطان شاه وأمه ولحقا بالمؤيد[٦] صاحب نيسابور ، ومَلَكَ تكش خوارزم بغير قتال . ولما وصل سلطان شاه إلى المؤيد ، أهدى إليه هدية جليلة ، ووعده أموال خوارزم ، فاغتر بقوله ، وجمع جيوشه ، وساروا إلى خوارزم ، وكان تكش قد أعد عسكره بالقرب منها ، فلما تراءى الجمعان ، انهزم عسكر المؤيد ، وأخذ أسيرا ، وجيء به إلى خوارزم شاه تكش ، وهرب سلطان شاه ، وأُخذت أمه ، فقتلها تكش ، وعاد إلى خوارزم . ولما عاد المنهزمون إلى نيسابور ، ملّكوا ابنه طوغان شاه أبا بكر بن المؤيد ، فلما أخبر به سلطان شاه ، سار إلى غياث الدين ملك الغورية ، فأكرمه ، وأحسن نزله . وأما علاء الدين تكش فإنه لما ثبت قدمه بخوارزم ، اتصلت به رسل الخطا بالاقتراحات والتحكم كعادتهم ، فأخذته حمية الملك والدين ، وقتل أحد أقارب الملك . وكان ورد

---

(١) انظر : المنتظم ، ج١٨ ، ص ٢٠١ .

(٢) باب أبرز : قريبًا من المدرسة التاجية ، التى بزاوية الجامع الأموى الشرقية . انظر : الجامع المختصر ، جـ ٩ ، ص٦٤ ؛ الدارس ، ج١ ، ص٤٨٣ .

(٣) المنتظم ، ج١٨ ، ص ٢٠١ .

(٤) أرسلان خوارزم شاه بن أنس خوارزم شاه بن محمد ، توفى سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م . الشذرات ، ج٤ ، ص٢٢٦ .

(٥) «واسم» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين هو الصحيح . انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص٣٩ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص٥٣ .

(٦) المؤيد أى به بن عبد الله السنجرى ، توفى سنة ٥٦٨هـ/١١٧٢م . انظر : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٢٧ . وقد ذكر صاحب المختصر الاسم كالآتى طوغان شاه بن المؤيد «أى به» انظر : المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص٥٣ .

إليه ومعه جماعة أرسله ملكهم فى مطالبته ، وأمر أعيان خوارزم فقتل كل واحد منهم رجلا من الخطا الذين صحبته ، فلم يسلم منهم أحد ، ونبذوا إلى ملك الخطا عهده . وبلغ ذلك سلطان شاه ، فسار إلى ملك الخطا ، واغتنم الفرصة بهذه الحال ، فاستنجده على أخيه تكش . وقال له : إن أهل خوارزم يريدونه ، ويختارون ملكه عليهم ، ولو رأوه لسلموها إليه ، فسير معه جيشًا كبيرًا من الخطا مع قوما ، انضموا إليه ، فوصلوا إلى خوارزم فحصروها ، فأمر علاء الدين تكش بإجراء ماء جيحون عليهم ، فكادوا يغرقون ، فرحلوا ، ولم يبلغوا منها غرضًا ، وندموا على ما فعلوا ، ولاموا سلطان شاه ، وعنفوه ، فقال لمقدمهم المسمى قوما : لو أرسلت معى جيشًا إلى مرو لاستخلصتها من يد دينار الغزى ؛ فإنه استولى عليها منذ كانت فتنة الغزُ إلى الآن[1] فسير معه جيشاً ، فنزل على سرخس[2] ، على غرة من أهلها ، وهجم على الغز ، فقتل منهم مقتلة عظيمة ، وألقى دينار الغزى - ملكها - نفسه فى خندق القلعة ، فأُخرج منه ، ودخل القلعة ، وتحصن بها .

وسار سلطان شاه إلى مرو فملكها ، وعاد الخطا إلى ماوراء النهر ، وجعل سلطان شاه دأبه قتال الغز ، والغزو[3] فيهم ، وانتهابهم . فلما عجز دينار عن مقاومته أرسل إلى نيسابور إلى طغان شاه بن المؤيد ، يقول له أن يرسل إليه من يسلم له قلعة سرخس ، فأرسل إليه جيشاً مع أمير اسمه قراقوش ، فسلم إليه دينار القلعة ، ولحق بطغان شاه ، فجمع جيوشه ، وقصد سرخس ، فلما التقى هو وسلطان شاه فرَّ طغان شاه إلى نيسابور ، فأخلى قراقوش قلعة سرخس ، ولحق بصاحبه ، وملك سلطان شاه قلعة سرخس ، ثم أخذ طوس[4] [والزَّام][5] ، وضيق الأمر على طغان شاه بعلو همته واجتهاده وقلة قراره .

وكان طغان شاه يحب الدعة ومعاقرة الخمر ، فلم تزل الحال كذلك إلى أن مات طغان شاه سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة[6] .

---

(١) وردت هذه الرواية بتقديم وتأخير فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٩ .

(٢) سرخس : مدينة قديمة من نواحى خراسان بين نيسابور ومرو . انظر : معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٧١ .

(٣) «القتل» فى الكامل ، ج ١٠ ، ص ٣٩ .

(٤) طوس : مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص ٥٦٠ - ٥٦٣ .

(٥) «الرَّام» فى الأصل .والمثبت من معجم البلدان ، ج٢ ، ص٩٠٩ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص٤٠ وهى إحدى كور نيسابور المشهورة .

(٦) إلى هنا توقف العينى عن النقل من الكامل ، ج١٠ ، ص٤٠ .

أتابك شمس الدين أيلدكز[١] صاحب همذان وغيرها ، مات فى هذا السنة بهمذان ، وملك بعده ابنه محمد بن البهلوان ، ولم يختلف عليه أحد . وكان أيلدكز هذا مملوكاً للكمال وزير السلطان محمود ، ولما مات الكمال صار أيلدكز إلى السلطان محمود ، واستمر بأصفهان ، ولم يحضر إلى السلطان مسعود[٢] عندما ملك ولا إلى غيره ، ثم ملك أذربيجان وهمذان وغيرهما . وتزوج امرأة السلطان طغرل[٣] .

وكان عسكره خمسين ألف فارس سوى الأتباع ، واتسع ملكه ، وامتد من باب تفليس[٤] إلى مكران[٥] . وكان أيلدكز عاقلا ، حسن السيرة ، يجلس بنفسه للرعية ، ويسمع شكاويهم ، وينصف بعضهم من بعض[٦] .

وفى تاريخ المؤيد[٧] : وكان أيلدكز يخطب فى بلاده بالسلطنة للسلطان أرسلان بن طغرل ، ولم يكن لأرسلان معه حكم .

يزْدن التركى[٨] ؛ كان من أكابر أمراء بغداد ، المتحكمين فى الدولة ، ولكنه كان رافضياً خبيثاً متعصباً للروافض ، وكانوا فى خفارته وجاهه حتى أراح الله المسلمين منه فى هذه السنة ، فإنه مات فى ذى الحجة من هذه السنة ، ودفن بداره ، ثم نقل إلى مقابر قريش . وحين مات فرح أهل السنة بموته ، وغضبت الشيعة من ذلك ، فقام بسبب ذلك فتنة .

---

(١) انظر ترجمته فى شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٢٦ .

(٢) السلطان مسعود : هو مسعود بن محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقى . انظر ترجمته فى الباهر ، ص٤٣ ومايليها .

(٣) وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٢٠٨ .

(٤) تفليس : بفتح أوله أو كسره ، بلد بأرمينية والبعض يقول بأرّان . وهى قصبة ناحية جُرزان قرب باب الأبواب ، وقد فتحها المسلمون فى خلافة عثمان بن عفان .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٨٥٧ ـ ٨٥٩ .

(٥) مكران : بالضم ثم السكون ولاية واسعة فى بلاد الهند تشتمل على مدينة وقرى غربها كرمان ، وشمالها سجستان ، والبحر جنوبها . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٩١٤ ؛ تقويم البلدان ، ص٢٢ ، ص٣٣٢ ، ص٣٣٨ ؛ مراصد الاطلاع ، ج٣ ، ص١٣٠٢ .

(٦) إلى هنا توقف العينى عن النقل من الكامل ، ج١٠ ، ص٤٦ ـ ٤٧ .

(٧) المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص٥٣ .

(٨) «بزدن» فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٧٢ ، وهو الحسن بن صافى بن بزدن التركى . انظر : المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠١ .

وذكر ابن الساعى[١] فى [١٧٨و] تاريخه أنه كان فى صباه شاباً حسنًا مليحًا . قال : ولشيخنا أبى اليمن الكندى فيه وقد رمدت عينه :

بِكلِّ صَبَاحٍ لِى وَكُلِّ عَشِيَّةٍ وُقُوفٌ عَلَى أَبْوَابِكُم وَسَلامُ
وَقَدْ قِيلَ لِى يَشْكُو سِقَامًا بَعَيْنِهِ فَهَا نَحْنُ مِنْهَا نَشْتَكِى وَنُضَامُ

الأمير نجم الدين أيوب ؛[٢] والد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، والكلام فيه على أنواع :

الأول فى ترجمته : هو أبو الشكر أيوب بن شاذى ، والد الملوك بنى أيوب الكردى الزرْزَارِى ، وهم خيار الأكراد[٣] من بلاد دُوَيْن بشمال بلاد أذربيجان ممايلى الكرج . ومنهم من يقول «أيوب بن شاذى بن مروان»[٤] ، ومنهم من يقول أيوب بن شاذى بن مروان بن يعقوب ، وأغرب بعضهم ، فزعم أنهم من سلالة مروان بن محمد الجعدى ، آخر خلفاء بنى أمية . وهذا ليس بصحيح ، والذى عليه الجمهور أنه لا يعرف بعد شاذى أحد من نسبهم ، والذى نسب إلى بنى أمية ادعاء هو الملك أبو الفداء إسماعيل بن طغتكين بن أيوب بن شاذى ، ويعرف بابن سيف الإسلام ، وقد ملك اليمن بعد أبيه ، فتعاظم فى نفسه ، وادعى الخلافة ، وتلقب بالإمام الهادى بنور الله ، المعز لدين الله ، أمير المؤمنين ، وزعم أنه أموى ، ومدحه الشعراء ، وأطروه ، ولهجوا بذلك ، وقال هو فى ذلك أيضاً :

وَإِنِّى[أَنَا][٥] الهَادِى الخَلِيفَةَ وَالَّذِى أَدُوسُ رِقَابَ الغُلْبِ الضُّمَّرِ الجُرْدِ
وَلابُدَّ مِنْ بَغْدَادَ أَطْوِى رُبُوعَهَا وَأَنْشُرها نَشْرَ السَّمَاسِرَةِ البُرْدِ

(١) ورد النص بتصرف فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٧٢- ٢٧٣ .
(٢) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢٥٥-٢٦١ ، ترجمة رقم ١٠٧ ؛ النوادر السلطانية ، ص٤٦ ؛ الشذرات ، ج٤ ، ص٢٢٦ - ٢٢٧ ، كما أن هناك ترجمة كاملة لأسرة شاذى . انظر ، التاريخ الباهر ، ص١١٩ ، ١٢٠ .
(٣) ذكر ابن الأثير أنه من الأكراد الروادية وهم أشرف الأكراد . انظر : التاريخ الباهر ، ص١١٩ .
(٤) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٥) «وأنا» في نسختي المخطوطة أ ، ب . والصواب ما أثبتناه .

وأَنْصُبُ أَعْلاَمِي عَلَى شُرفاتِها	وَأُحْيِي بِهَا مَاكَانَ أَسَّسَهُ جَدِّي
وَيُخْطَبُ لِي فِيهَا عَلَى كُل مِنْبَرٍ	وَأُظْهِرُ دِينَ الَّلهِ فِي الغَوْرِ وَالنَّجْدِ[١]

وهذا الادعاء ليس بصحيح ، ولا له أصل يعتمد عليه ، ولا مستند يستند إليه .

قال ابن أبى طى الحلبى : لا يعرف فى نسب نجم الدين أكثر من والده شاذى . وحدثنى أبى قال : كان تقى الدين عمر يُزيد فيقول : شاذى بن مروان ، وسمعت أنا من يقول : شاذى بن مروان بن يعقوب [٢] . قال : وأجمع الجماعة من آل أيوب أن دعوى ابن سيف الإسلام أنهم من بنى مروان بن محمد الجعدى ـ آخر خلفاء بنى أمية ـ كذب ، وأن جميع آل أيوب لا يعرفون جدًّا فوق شاذى[٣] .

قال : وكذلك أخبرنى السلطان الملك [الناصر][٤] قال : وصحة دليل ذلك أنى وقفت على كتاب وقف رباط النجمى بدمشق [٥] ، ولم يزد فيه على نجم الدين أبى سعيد أيوب ابن شاذى العادلى[٦] . والمقصود أن الأمير نجم الدين والأمير أسد الدين شيركوه كانا أخوين ، وكان نجم الدين أسن من أسد الدين ، وُلدا بأرض الموصل [٧] .

وقال ابن أبى طى «الحلبى»[٨] فى تاريخه الكبير : كان مولد نجم الدين أيوب ببلد شَبَخْتان ، وقيل : إنه ولد بجبل جور[٩] ، وربى فى الموصل ، ومولد أبيه شاذى فى بلد دوين .

الثانى : فى بيان ابتداء أمره ، وانتسابه واتصاله بالدولة : وهو أن أباه شاذى كان من أعيان أهل دوين ، وكان له صاحب يقال له جمال الدولة مجاهد الدين[١٧٨ظ]

---

(١) وردت هذه الأبيات فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٣٥ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩١ .
(٢) ورد النص فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٣٤ .
(٣) ورد النص بتصرف فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٣٤ ـ ٥٣٥ .
(٤) « الظاهر» فى الأصل ، والتصحيح من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٣٠ .
(٥) رباط النجمى : ناحية باب البريد ، أنشأه نجم الدين أيوب .انظر : خطط الشام ، ج٦ ، ص١٣٧ .
(٦) ورد النص فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٣٥ .
(٧) انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٧١ .
(٨) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٩)جور : كورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحى أرمينيا وفيها قلاع وقرى وأهلها نصارى . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٢٠ .

بَهْرُوز[١] ، وكان من أظرف الناس ، وألطفهم ، وكان بينه وبين شاذى أخوة أكيدة ، فجرت لبهروز قضية فى دوين ، فخرج منها حياءً . وذلك أنه اتهم بزوجة بعض الأمراء بدوين ، فأخذه صاحبها فخصاه . فلما جرى له ذلك ، لم يقدر على الإقامة ، فخرج وقصد خدمة أحد الملوك السلجوقية ، وهو السلطان مسعود بن غياث الدين محمد بن ملكشاه[٢] ، واتصل باللالا[٣] الذى لأولاده ، فوجده لطيفاً كافياً فى جميع الأمور ، فتقدم عنده وفوض إليه أموره ، وجعله يركب مع أولاد السلطان مسعود إذا كان له شغل . فرآه السلطان يوماً مع أولاده فأنكر علي اللالا ، فقال : إنه خادم ، وأثنى عليه وشكر دينه ومعرفته ، ثم صار يسيره إلى السلطان فى الأشغال ، فخف على قلبه ، فلعب معه الشطرنج والنرد[٤] ، فحظى عنده ، واتفق موت اللالا فجعله السلطان مكانه ، وسلم إليه أولاده ، وأرصده لمهماته ، وسار ذكره فى تلك النواحى . فسير إلى شاذى يستدعيه من بلده ؛ ليشاهد ماصار إليه من النعمة والدولة ، وليقاسمه ماخوله الله تعالى ، وليعلم أنه مانسيه . فلما وصل إليه بالغ فى إكرامه والإنعام عليه ، واتفق أن السلطان رأى أن يسير المجاهد المذكور إلى بغداد والياً ونائباً عنه بها ، وكذا كانت عادة الملوك السلجوقية فى بغداد ، يُسيرون إليها النواب ، فاستصحب معه شاذى ، فسار هو وأولاده صحبته ، وأعطى السلطان لبهروز قلعة تكريت[٥] ، فلم يجد من يثق إليه فى أمرها سوى شاذى ، فأرسله إليها ، فمضى وأقام بها مدة ، وتوفى بها ، فولى مكانه نجم الدين أيوب ، فنهض فى أمرها ، وشكره بهروز وأحسن إليه . وكان أكبر سناً من أخيه أسد الدين شيركوه . ثم أن شيركوه رأى يوماً امرأه تبكى

---

(١) جمال الدولة مجاهد الدين بهروز : كان خادماً رومياً تولى شحنة بالعراق من جهة السلطان مسعود بن غياث الدين محمد بن ملكشاه السلجوقى ، وكانت تكريت إقطاعاً له ، وبنى فى بغداد رباطاً وقف عليه وتوفى سنة ٥٤٠هـ/١١٤٥م وبهروز لفظ أعجمى معناه جيد .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٤١-١٤٢ .

(٢) أبو الفتح مسعود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقى ، الملقب غياث الدين ، أحد ملوك السلجوقية المشاهير ، رباه بالموصل الأمير مودود ثم آق سنقر البرسقى ، توفى سنة ٥٤٧ هـ/١١٥٢م .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٢٠٠-٢٠٢ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص١٤٥ .

(٣) اللا لا : لفظ فارسى ، معناه هنا الشخص المكلف بالعناية بالأطفال - أى مربى الطفل . انظر : السلوك ، ج١ ق٢ ، ص٤١٨ ، هامش(٣) .

(٤) النرد : شىء يلعب به ، وهو لفظ فارسى معرب «نردشير» انظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة «نرد» .

(٥) تكريت : بفتح التاء وكسرها غربى دجلة بين بغداد والموصل وهى إلى بغداد أقرب . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٨٦١ .

فقال[١] لها : مايبكيك ؟ فقالت : أنا داخلة من باب القلعة ، فتعرض إلىَّ الاسفهسلار[٢] ، فقام شيركوه ، وتناول حربة الاسفهسلار ، وضربه بها فقتله ، فمسكه أخوه نجم الدين واعتقله . وعرف بهروز بذلك ، فوصل جوابه : «لأبيكما علىَّ حقٌ ، وبينى وبينه مودة متأكدة ، مايمكنني أن أكافئكما بسيئة ، ولكنى أشتهى أن تتركا خدمتى ، وتخرجا من بلدى ، وتطلبا رزقكما» . فلما وقفا عليه ، خرجا . ووصلا إلى الموصل ، فأحسن إليهما الأتابك عماد الدين زنكى ، والد نور الدين محمود بن زنكى ، وأقطعهما إقطاعاً حسناً . ثم لما ملك الأتابك قلعة بعلبك كما ذكرناه ، استخلف بها نجم الدين أيوب ، ثم بعد مدة انتقل إلى دمشق ، وأقام فى خدمة نور الدين محمود بن زنكى ، ثم لم يزل معه فى السراء والضراء والحضر والسفر حتى صار أكبر الأمراء عنده ، فصار لا يقطع أمرًا دونه ، ثم أن نور الدين أرسل أخاه شيركوه إلى الديار المصرية ثلاث مرات كما ذكرناه .

وكان معه فى كل مرة ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ثم لما جرى ماجرى من أمور المصريين ، وغلب عليهم صلاح الدين يوسف ، وصار أمر الديار المصرية إليه كما ذكرناه مفصلاً ، طلب من نور الدين أن يرسل إليه أباه نجم الدين ، فأرسله إليه مع أهله وحاشيته كما ذكرنا .

وقال العماد الكاتب[٣] : لما دخل فصل النيروز[٤] ، استأذن الأمير نجم الدين أيوب نور الدين فى قصده ولده صلاح الدين ، والخروج من دمشق إلى مصر بأهله وجماعته . [١٧٩و] وخيم بظاهر البلد ، ثم سار ، فوصل إلى مصر فى السابع والعشرين من رجب من سنة خمس وستين وخمسمائة ، وركب العاضد خليفة مصر لاستقباله . ووصف ذلك عمارة اليمنى فى قصيدة مدح بها السلطان صلاح الدين منها قوله :

---

(١) أورد ابن خلكان هذه الأحداث بالتقديم والتأخير . انظر : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢٥٧ .

(٢) اسفهسلار : كلمة مكونة من لفظين أحدهما فارسى وهو « اسفه» ومعناه المقدم ، والثانى تركى هو «سلار» معناه العسكر ، فكان معناها « مقدم العسكر» ، وقد استعمل هذا المصطلح فى عهد الدولة الفاطمية ، وكان حامله صاحب وظيفة تلى صاحب الباب . انظر : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٨٣ .

(٣) انظر قول العماد فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٤٦٣ - ٤٦٤ أحداث سنة ٥٦٥هـ .

(٤) النيروز : أول من اتخذ النوروز جمشيد ويقال فى اسمه أيضًا جمشاد ، أحد ملوك الفرس الأول ، وهو فى الأصل نوروز وعربته العرب إذ قلبوا الواو ياء فقالوا نيروز ، ومعناه اليوم الجديد . انظر الخطط ، ج٢ ، ص٣٩٠- ٣٩١ . طبعة مكتبة الآداب .

صَحَّتْ بِهِ مِصْرُ وَكَانَتْ قَبْلَهُ تَشْكُو سِقَامًا لَمْ تُعَنْ[١] بِطَبِيبِ
عَجَبًا لِمُعْجِزَةٍ أَتَتْ فِى عَصْرِهِ وَالدَّهْرُ وَلاَّدٌ لِكُلِّ عَجِيبِ
رَدَّ الإله بِهِ قَضِيَّةَ يُوسُفٍ نَسْقاً عَلَى ضَرْبٍ مِنَ التَّقْرِيبِ
جَاءَتْهُ إِخْوَتهُ وَوَالِدُهُ إِلَى مِصْرٍ عَلَى التَّدْرِيجِ وَالتَّرْتِيبِ
فَاسْعَدْ بِأَكْرَمِ قَادِمٍ وبدولة قَدْ سَاعَدَتْكَ رِيَاحُهَا بِهُبُوبِ

وفى تاريخ الدولتين[٢] : وكان بهروز المذكور يُنَفِّذ أمره فى جميع العراق إلى البصرة ، إلى الموصل ، إلى أصفهان . وكانت خيله خمسة آلاف فارس ، فأقر نجم الدين فى ولاية تكريت ، وأضاف إليه النظر فى جميع الولاية المتاخمة له ، وقرر أمره عند السلطان مسعود[٣] .

ثم إن عماد الدين زنكى والد نور الدين محمود طمع فى أخذ بغداد ، ووصل الخبر إلى قراجا الساقى[٤] ، وهو أتابك [ابن][٥] السلطان محمود ، فجرد ألف فارس للقاء زنكى ، فانهزم زنكى ، وقتل جماعة من أصحابه ، ونهب جميع ما كان معه فى عسكره ، وجاء إلى تكريت وبه عدة جراحات . وعلم مكانه الأمير نجم الدين وأخوه شيركوه ، فأحسنا إليه وداويا جراحاته ، وخدماه أحسن خدمة ، فأقام عندهما بتكريت خمسة عشر يوماً ، ثم سار إلى «الموصل وأعوزه»[٦] الظهر ، فأعطياه «جميع ما كان عندهما من الظهر»[٧] حتى أنهما أعطياه جملة من البقر ، حمل [عليها][٨] ماسلم معه من أمتعته ، فكان زنكى يرى لنجم الدين أيوب هذه اليد ، ويواصله بالهدايا والألطاف مدة مقامه فى

---

(١) «يعن» فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٤٦٣ .
(٢) الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٣٦ .
(٣) «وكان» أضافها العينى بعد كلمة مسعود . ووجودها يخل بالنص .
(٤) قراجا الساقى : اسمه برس صاحب بلاد فارس وخوزستان . انظر : وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٤٢ فى ترجمة صلاح الدين يوسف .
(٥) ما بين الحاصرتين مثبت من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٣٧ .
(٦) مابين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٧) مابين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٨) «عليهما» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ج١ق٢ ، ص٥٣٧ .

تكريت ، فلما انفصل منها على ماذكرنا ، تلقاه زنكى بالرحب والسعة ، واحترمه احتراماً عظيماً [١] .

وقال صاحب تاريخ الدولتين[٢] : وكان نجم الدين قد ساس الناس بتكريت أحسن سياسة ، حتى ملك بذلك حبات قلوبهم ، وكان أخوه شيركوه معه فى القلعة ، وكان شجاعا باسلاً ، ينزل من القلعة ويصعد إليها فى أسبابه وحاجاته . وكان نجم الدين لايفارق القلعة ولاينزل منها ، فاتفق أن أسد الدين شيركوه نزل يوماً لبعض شأنه ، ثم عاد إلى القلعة ، وكان بينه وبين كاتب صاحب القلعة قوارض ، وكان رجلاً نصرانيا ، فاتفق فى ذلك اليوم أن النصرانى صادف أسد الدين صاعداً إلى القلعة ، فعبث به بكلمة مُمِضّة ، فجرد أسد الدين سيفه ، وقتل النصرانى ، وصعد إلى القلعة ، وكان مهيباً ، فلم يتجاسر أحد على معارضته فى أمر النصرانى بشىء ، وأخذ النصرانى برجله ، فألقاه من القلعة . وبلغ ذلك إلى بهروز [وحضر][٣] عنده مَنْ خوَّفه جرأة أسد الدين ، وأنه ذو عشيرة كبيرة ، وأن أخاه نجم الدين قد استحوذ على قلوب الرعايا ، وأنه ربما كان منهما [٤] أمر يخشى عاقبته ويصعب استدراكه ، فكتب إلى نجم الدين ينكر عليه ماجرى من أخيه ، ويأمره بتسليم القلعة إلى نائب [١٧٩ظ] سيرهُ صحبة الكتاب ، فأجاب نجم الدين [إلى][٥] ذلك با لسمع والطاعة ، وأنزل من القلعة جميع ماكان له بها من أهل ومال . واجتمع هو وأخوه أسد الدين ، وصمما على قصد عماد الدين زنكى بالموصل ، فخرجا واتصلا به كما ذكرنا . وقيل إن أسد الدين خرج إلى الموصل قبل نجم الدين ، ثم أنه جرى بين أسد الدين وبين جمال الدين الوزير مودة عظيمة ، حتى حلف كل واحد منهما للآخر أنه يقوم بأمره فى [حياته][٦] وبعد وفاته ، وتجرد جمال الدين فى أمر أسد الدين وأخيه نجم الدين ، حتى قربهما من قلب أتابك ، وجعلهما عنده بالمنزلة العظيمة ، وخرجا معه إلى الشام ، وشهدا معه حروب الكفار وقتال الإفرنج ، لعنهم الله ، وكان لأسد الدين فى تلك الوقائع اليد البيضاء ، والفعلة الغراء .

---

(١) ورد هذا النص بتصرف فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٣٧ ؛ انظر أيضا : الباهر ، ص٤٣ - ٤٤ ، حاشية ٦ .

(٢) الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٣٧ .

(٣) «وحصل» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٣٧ ، حيث ينقل العينى عنه .

(٤) «منه» فى نسخة ب .

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٣٨ ، لاستقامة النص .

(٦) «حيوته» فى نسخة أ . والمثبت بين الحاصرتين من نسخة ب والروضتين .

وقال ابن أبى طى[١] : حدثنى أبى عن سعد الدولة أبى الميامن عن حسام الدين سنقر غلام نجم الدين أبى طالب ـ وكان فى خدمة نجم الدين أيوب ـ قال : لما دخل نجم الدين أيوب الديار المصرية إلى ولده صلاح الدين ، كنت معه فى خدمته ، وكانا قد اجتمعا فى دار الوزارة ، وقعدا على طراحة[٢] واحدة ، والمجلس غاصٌّ بأرباب الدولتين ، إذ تقدم نصرانى كان فى خدمة نجم الدين ، فقبل الأرض بين يديهما ، وقال لنجم الدين : يامولاى هذا تأويل مقالتى لك حين وُلد هذا السلطان ، يعنى صلاح الدين ، فضحك نجم الدين وقال : صدقت والله ، ثم التفت إلى الجماعة الذين حوله من أكابر العلماء والقضاة والأمراء ، وقال : لكلام هذا النصرانى حكاية عجيبة ، وذلك أنى ليلة رُزقت هذا الولد ـ يعنى السلطان صلاح الدين ـ أمرنى صاحب قلعة تكريت «فى تلك الليلة»[٣] بالرّحلة عنها ، بسبب أخى شيركوه من قتله ذلك النصرانى ، وكنت قد أَلِفْت هذه القلعة وصارت لى كالوطن ، فثقل علىّ الخروج منها جداً ، واغتممت . وفى ذلك الوقت جاءنى البشير بولادة هذا ـ يعنى صلاح الدين ـ فتشاءمت به ، وتطيرت لِما جرى علىّ ، وخرجنا من القلعة ، وأنا لا سميته ولا التفت إليه . وكان هذا النصرانى معى كاتباً لى ، فلما رأى مانزل بى ، قال : يامولاى أى شىء لهذا المولود من الذنب ، وبما استحق ذلك منه وهو لا يضر ولا ينفع ، وهذا الذى جرى عليك قضاء من الله تعالى ، ثم مايُدريك أن هذا الطفل يكون سبباً لوصول الخيرات إليك ، ويكون هو مِلكا عظيم الصيت ، جليل المقدار . فعطَّفنى كلامه عليه ، وها هو قد جرى ماقال لى . فتعجب الحاضرون من ذلك ، وحمد السلطان ووالده الله تعالى وشكراه[٤] .

ولعمارة اليمنى فى نجم الدين مدائح ومراثٍ منها :

ثَغْرُ الزَّمان بِنَجْمِ الدِّين مُبْتسِمٌ ... وَوَجْـهُـهُ بِدَوَامِ العِـزِّ مُـتَّـسِمُ

يقول فيها :

---

(١) لم يذكر أبو شامة مصدر هذا القول مباشرة «وحدثنى أبى رحمه الله قال حدثنى سعد الدولة . . .» انظر الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٣٨ .

(٢) الطراحة : مرتبه يفترشها السلطان إذا جلس . انظر : Dozy. Supp. Dict. Ar.T.II,P.32

(٣) مابين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٤) الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٣٩ .

أَضْحَى بِكَ النِّيلُ مَحْجُوجاً وَمُعْتَمِرَا	كَـأَنَّمَـا حَلَّ فِـيــهِ الحِلُّ وَالْحَـرمُ

إلى أن قال :

وَالنَّاصِرُ ابْنُكَ كَـافِى كُلِّ مُعضلةٍ	إِذا الْحَوَادِثُ لَمْ تُكْشفْ لَهَا غُمَمُ[١]

الثالث فى سيرته : وكان شجاعاً باسلاً أمينا خيراً محسناً ناصحاً ، عظيمًا فى أنفس الناس بالخير والدين وحسن السياسة ، وكان لا يأتى أحد من أهل العلم والدين« إلا حمل إليه المال والضيافة الجليلة ، وكان لايسمع بأحد من أهل الدين»[٢] فى مدينته إلا أنفذ إليه . وقد ذكره العماد الكاتب ، وذكر من دينه وعفته ، ووفور أمانته وكثرة خيره أشياء كثيرة حسنة . [١٨٠و] .

قال ابن خلكان[٣] : وكان نجم الدين رجلاً مباركاً كثير الصلاح ، مائلاً إلى الخير ، حسن النية ، جميل الطوية ، وظهرت ثمرة بركته فى أولاده ، وله خانقاه بدمشق تعرف بالنجمية[٤] ، وخانقاه بالديار المصرية ، ومسجد ، وقناة خارج باب النصر من القاهرة ، وخانقاه أخرى لطيفة ببعلبك ، بناها حين كان نائباً بها عن عماد الدين زنكى .

وفى المرآة :[٥] وكان نجم الدين رجلاً عاقلاً حازماً شجاعاً حليماً جواداً ، عاطفاً على الفقراء والمساكين ، محباً للصالحين ، قليل الكلام جداً ، لا يتكلم إلا عن ضرورة . ولما قدم مصر سأله ولده صلاح الدين أن يكون هو السلطان ، فقال : أنت أولى ، وكان يلعب بالأكرة[٦] دائماً .

وقال القاضى ابن شداد[٧] : كان شديد الركض بالخيل ، يلعب بالأكرة ، ومن يراه يلعب بها يقول : مايموت إلا من وقوعه عن ظهر الفرس .

---

(١) انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٤٠ ؛ وبالرجوع إلى النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية لعمارة اليمنى ، لم ترد هذه الأبيات الخاصة بالمديح .
(٢) مابين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٣) وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢٦١ .
(٤) الخانقاه النجمية بدمشق ، بنواحى باب البريد ، وقد اندرست ولم يبق لها أثر . الدارس ، ج٢ ، ص١٧٤ ، حاشية٢ .
(٥) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٨٤ .
(٦) اللعب بالأكرة : هى من ألعاب الفروسية وكان يقام لها احتفال خاص يخرج إليه السلطان فى موكب رسمى ويشترك فيها الأمراء ومن أدواتها الجوكان أو الصولجان وهو المحجن الذى يضرب به الكرة ، وهو عصا مدهونة برأسها خشبه معقوفة . انظر :صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٤٧ ؛ ج٥ ، ص٤٥٨ .
(٧) النوادر السلطانية ، ص٤٦ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٨٤ - ١٨٥ .

الرابع فى وفاته : خرج نجم الدين يوماً من باب النصر - أحد أبواب القاهرة - فشب به فرسه ، فألقاه في وسط المحجة ، وذلك يوم الاثنين ثامن عشر ذى الحجة من سنة ثمان وستين وخمسمائة ، وحمل إلى داره ، وبقى متألماً ، إلى أن توفى يوم الأربعاء سابع عشرى الشهر المذكور . ويقال فى الثامن والعشرين منه .

وفى تاريخ بيبرس : وكان سبب وفاته أنه تقنطر عن فرسه ، فحمل إلى داره ، فمات بها .

وفى تاريخ الدولتين [١] : وعاش ثمانية أيام بعد وقوعه من الفرس ، وكانت وفاته يوم الثلاثاء السابع والعشرين من ذى الحجة . وكان ولده صلاح الدين غائباً عنه فى بلاد الكرك والشوبك على الغزاة .

وقال القاضى ابن شداد[٢] : ولما عاد صلاح الدين من غزاته ، بلغه قبل وصوله إلى مصر وفاة نجم الدين أبيه ، فشق ذلك عليه ؛ حيث لم يحضر وفاته .

ومن كتاب فاضلى عن السلطان إلى عز الدين فرخشاه بمصر يقول فيه : صحّ من المصاب بالمولى الدارج ، غفر الله له ذنبه ، وسقى بالرحمة تُربه ، ماعظمت به اللَّوعة ، واشتدت الرَّوعة ، وتضاعفت لِغيبتنا [٣] عن مشهده الحسرة ، فاستنجدنا بالصبر ، فأبى ، وانحدرت العبرة ، فياله فقيداً فقد عليه العزاء ، وهانت بعده الأرزاء .

وَتَخَطَّفَتْه يدُ الردَى فى غَيْبَتى ... هبْنى حضرتُ ، فكنتُ ماذا أَصْنَعُ؟! .

قال : فدفن نجم الدين إلى جانب قبر أخيه أسد الدين ، فى بيت بالدّار السلطانية ، ثم نقلا بعد [سنتين][٤] إلى المدينة الشريفة النبوية ، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، وقبرهما فى تربة الوزير جمال الدين الأصفهانى وزير الموصل . وكان جمال الدين المذكور مؤاخيًا لأسد الدين شيركوه كما ذكرنا [٥] .

---

(١) نقل العينى هذا النص بتصرف من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٣٣ .
(٢) النوادر السلطانية ، ص٤٦ .
(٣)«بغيبتنا» فى نسخة ب .
(٤) «سنين» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢٣٠ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٣٣ .
(٥) انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٣٣-٥٣٤ .

وفى تاريخ القاضى الفاضل : وصل كتاب من المدينة النبوية يوم الخميس رابع صفر من سنة ثمانين وخمسمائة ، يخبر بوصول تابوتى[١] الأمير نجم الدين أيوب ، وأسد الدين شيركوه ، واستقرارهما بتربتيهما ، مجاورين الحجرة المقدسة النبوية (على ساكنها أفضل الصلاة والسلام) [٢] .

الخامس فيما يتعلق به خلف نجم الدين من الأولاد : صلاح الدين يوسف الناصر ، وسيف الدين أبو بكر العادل ، وشمس الدولة توران شاه ، وشاهنشاه ، وسيف الإسلام طغتكين ، وتاج الملوك بورى . ومن البنات : ست الشام وربيعة خاتون[٣] . وقال عمارة اليمنى يرثيه :[١٨٠ظ] .

صَفْوُ الحَيَاةِ وَإِنْ طَالَ الْمَدَى كَدَرُ ... وَحَادِثُ الدَّهْرِ لاَيُبْقِى وَلاَيَذَرُ
وَمَا يَزَالُ لِسَانُ الدَّهْرِ يُنْذِرُنَا ... لَوْ أَثَّرَتْ عِنْدَنَا الْآثَارُ وَالنُّذُرُ
كَمْ شَامِخِ العِزِّ ذَاقَ الْمَوْتَ مِنْ يَدِهَا ... مَا أَضْعَفَ الْقَدْرَ إِنْ أَلْوَى بِهِ الْقَدَرُ
أُوذِى عَلِىٌّ وَعُثْمَانٌ بِمِخْلَبِهَا ... وَلَمْ يَفُتْهَا أَبُوبَكْرٍ وَلاَعُمَرُ
وَمَنْ أَرَادَ التَّأَسِّى فِى مُصِيبَتِهِ ... فَلِلْوَرَى فِى رَسُولِ اللَّهِ مُعْتَبَرُ
لا قُدِّسَتْ لَيْلَةٌ كَادَتْ مُصِيبَتُهَا ... الأكْبَادُ حُزْنًا عَلَى أَيُّوب تَنْفَطِرُ
كَأَنَّمَا صَوَّرَ اللَّهُ الكَمَالَ بِهِ ... شَخْصًا وَيُوسُفُ مِنْهُ السَّمْعُ وَالْبَصَرُ
إِذَا اللَّيَالِى تَجَافَتْ عَنْ حُشَاشَتِهِ ... فَالجُرْحُ مُنْدَمِلٌ وَالذَّنْبُ مغْتَفَرُ
يَانَاصِرَ الْحَقِّ والأَيَّامُ خَاذِلَةٌ ... إِنَّ الغَرِيبَ بِغَيْرِ الدَّمْعِ يَنْتَصِرُ
مَامَاتَ أَيُّوبُ إِلاَّ بَعْدَ مُعْجِزَةٍ ... فِى الْخَلْقِ لَمْ يُؤْتَهَا مِنْ جِنْسِهِ بَشَرُ
مَضَى حَمِيدًا مِنَ الدُّنْيَا وَلَيْسَ لَهُ ... فِى رُتْبَةٍ أَرَبٌ مِنْهَا وَلاَ وَطَرُ
صَلَّى الإِلَهُ عَلَى نَجْمٍ أَضَاءَ لَنَا ... مِنْ نَسْلِهِ النَّيِّرانِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ[٤]

وهى قصيدة طويلة . وله قصيدة أخرى فى مرثيته وأولها هو قوله :

---

(١) «تابوت» فى نسخة ب .
(٢) وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢٥٨ .
(٣) ذكر سبط ابن الجوزى أن نجم الدين خلف ست بنات . انظر مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٨٥ .
(٤) وردت هذه الأبيات بالنقص والزيادة مع بعض الاختلافات فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٤١ - ٥٤٢ .

هِيَ الصَّدْمَةُ الأُولَى فَمَنْ بَانَ صَبْرُهُ عَلَى هَوْلِ مَلْقاهَا [تَضَاعَفَ][١] أَجْرُه[٢]
أَذُمُّ صَبَاحَ الأَرْبعَاء فَإِنَّهُ تَبَسَّمَ عَنْ ثَغْرِ المَنيَّة فَجْرُهُ
أَصَابَ الهُدَى فِى نَجْمِهِ بِمُصِيبَةٍ تَدَاعى سِماكُ الجوِّ مِنْهَا وَنَسْرُه
فَلاَ تَعْذلُونَا ، وَاعْذُرونَا ، فَمَنْ بَكَى عَلَى فَقْدِ أَيُّوبٍ فَقَد بانَ عذْرُهُ
أَقَامَ بِأَعْمَالِ الفُراتِ ، وخيْلُه يُرَاعُ بِهَا نيلُ العَزيزِ وَمِصْرُهُ
إِلَى أَنْ رَمَاهَا مِنْ أَخِيه بِضَيْغَمٍ فَرَى نَابُه أَهْلُ الصَّلِيبِ وَظُفْرُهُ
تَعَاقَبْتُمَا مِصْرًا تَعَاقُبَ وابِلٍ يَبِيتُ بِقُطْرِ النَّيلِ تنهلُّ قَطْرُهُ
نزلتَ بدارٍ حلّهَا فحللتهَا فمغْناك مغْناه ، وقطرك «قطره»[٣]
وَوَاخَيْتَه فِى البر حَيًّا وَمَيِّتا فَقَبْرُكَ فِى دَارِ القَرَارِ وَقَبْرُهُ
وَقَدَ شَخَصَتْ أَهْلُ البَقِيعِ إِلَيْكُما وَ إلا فَسُكَّانُ الحَجُونِ وَحِجرُهُ
هَنيئًا لِمَلِكٍ مَاتَ وَالعزُ عِزهُ وَقُدْرَتُهُ فَوْقَ الرِّجَالِ وَقَدرُهُ
[١٨١و] وَأَدْرَكَ مِنْ طُولِ الحَيَاةِ مُرَادَهُ وَمَاطَالَ إلاَّ فِى رِضَى اللَّه عُمْرُهُ/
وَأَسْعَدُ خَلْقِ اللَّه مَنْ مَاتَ بَعْدَمَا رأى فِى بَنِى أَبْنائه مَايَسُرُّهُ
رَعَى اللَّهُ نَجْمًا تَعْرِفُ الشَّمْسُ أَنَّهُ أَبُوهَا ، ونورُ البَدْرِ مِنْهَا ، وَزَهْرُهُ
وَأَبْقَى المَقَامَ النَّاصِرِىَّ ، فَإِنَّهُ لِدَوْلَتِكُمْ كَنْزُ الرَّجَاءِ وَذُخْرُهُ[٤]

ملك النحاة واسمه الحسن بن أبى الحسن صافى[٥] ؛ مولى حسين زين الدين الأرموى ، التاجر البغدادى ، ولد ببغداد سنة تسع وثمانين وأربعمائة ، وقرأ النحو على أبى الحسن الاستراباذى ، وأصول الدين على أبى عبد الله القيروانى ، وقرأ أصول الفقه . ودخل الشام ، واستوطن دمشق ، وعاش تحت ظل نور الدين محمود إلى أن مات فى سنة

---

(١) «يضاعف» فى الأصل . والمثبت بين الحاصرتين من النكت العصرية ، ص٢٦٠ .
(٢) ذكر مطلع القصيدة فقط فى النكت العصرية ، ص٢٦٠ .
(٣) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٤) ذكر أبوشامة القصيدة كاملة فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٤٠ - ٥٤١ .
(٥) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٩٢ - ٩٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٢ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٨٥ - ١٨٦ .

ثمان وستين وخمسمائة فى شوال ، ودفن بالباب الصغير[١] ، وقد جاوز الثمانين سنة ، وله ديوان شعر مليح ، ومدائح فى وصف النبى عليه السلام . وذكره ابن عساكر ، ووصفه بالكرم . وكان يصنع الحلاوات ، ويهديها إلى جيرانه وأصحابه وخلانه .

قال العماد : ورآه بعض الصالحين ، أو بعض أصحابه فى المنام ، فقال له : مافعل الله بك؟ فقال : غفر لى بأبيات قلتها :

يَارَبُّ هَا قَدْ أَتَيْتُ مُعْتَرِفًا ... بِمَا جَنَتْهُ يدَاىَ مِنْ زَلَلِ
مَلآنُ كَفٍّ من كُلِّ مَأْثُمَة ... صِفْرُ يَدٍ مِنْ مَحَاسِنِ العمِلِ
وكَيْفَ أَخْشَى نَارًا مُسَعَّرَةً ... وَأَنتَ يَارَبُّ فِى القِيَامَةِ لِى

قال : فوالله منذ فرغتُ من إنشادها ما سمعت حسيس النار .

(١) الباب الصغير : أحد أبواب دمشق . انظر : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٩٢ .

رفع

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

فصل فيما وقع من الحوادث
فى السنة التاسعة والستين بعد الخمسمائة*

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضىء بأمر الله(١) ، وصاحب مصر السلطان الملك الناصر يوسف بن أيوب ، وصاحب الشام وحلب وغيرهما الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى ، غير أنه توفى إلى رحمة الله فى هذه السنة على مانذكره عن قريب إن شاء الله تعالى . فلنذكر أولا ماجريات صلاح الدين ، ثم ماجريات نور الدين ، ثم نذكر وفاته إن شاء الله .

ذكر ماجريات صلاح الدين

منها أنه أرسل أخاه شمس الدولة تورانشاه بن أيوب إلى اليمن(٢) ، وكان صلاح الدين قد أقطعه قوص وأعمالها ، وارتفاعها مائة ألف دينار ، ثم تجهز منها ، وسافر ، ووصل زَبيد(٣) ، وقتل ابن المهدى(٤) صاحبها ، وكان يلقب أمير المؤمنين ، فلما قتله سيّر نواب الحصون مفاتيحها إليه ، وهى أحد وأربعون حصناً .

وقال العماد(٥) : وفى رجب توجه توران شاه(٦) ـ أكبر أخوة صلاح الدين ـ إلى اليمن فملكها ، وكان يحثه على المسير إليها عمارة اليمنى(٧) ، شاعر القصر ، وكان كثير المدح

---

* يوافق أولها ١٢ أغسطس ١١٧٣م .

(١) الخليفة المستضىء بأمر الله هو الحسن بن يوسف بن محمد بن أحمد بن عبد الله أمير المؤمنين المستضىء بالله ، توفى عام ٥٧٥هـ/١١٧٩م . انظر : فوات الوفيات ، ج١ ، ص٢٦٩ ـ ٢٧١ .

(٢) ورد النص بتصرف فى النوادر السلطانية ، ص٤٦ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٥١ .

(٣) زَبيد : مدينة فى اليمن أحدثت فى أيام المأمون وبإزائها ساحل غلافقة وساحل المندب . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٩١٥ .

(٤) هو : عبد النبى بن على بن مهدى بن محمد ثالث حكام الدولة المهدية باليمن« زبيد» حكم من(٥٥٨هـ ـ ٥٦٩هـ/١١٦٢م ـ ١١٧٣م) . وقد هزمه المعظم توران شاه بن أيوب . انظر : زامباور معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، ج١ ، ص١٨٢ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٣٤ .

(٥) انظر قول العماد بالروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥١ ، حيث ينقل أبو شامة عن العماد من كتاب البرق الشامى وهو غير موجود بين أيدينا الآن .

(٦) هو الملك المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب بن شاذى بن مروان الملقب فخر الدين ، سيره أخوه فغزا النوبة ، ثم بعثه فافتتح اليمن ، وتحول من الشام الى مصر سنة ٥٧٤هـ/١١٧٨م ، ثم مات بالإسكندرية سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م .انظر : وفيات الأعيان ج١ ، ص٣٠٦ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٥٥ ـ ٢٥٦ .

(٧) عمارة اليمنى : هو أبو محمد عمارة بن أبى الحسن على بن زيدان بن أحمد بن محمد الحكمى اليمنى ، وسيذكره العينى بالتفصيل فى وفيات هذه السنة ٥٦٩هـ/١١٧٣م . انظر مايلى ص١٨٤ وما بعدها . انظر : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٣١ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٤ ؛ النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٧٠ ؛ الشذرات ، ج٤ ، ص٢٣٤ .

لتُورَان شاه ، فتجهَز وسَار إلى مكة ، ثم إلى زبيد فملكها ، وقبض على الخارجى[١] بها ، وأهلكه نائبه سيف الدولة مبارك بن منقذ[٢] . ومضى إلى عدن فأخذها[١٨١ظ] واستناب فيها عز الدين عثمان الزنجيلى[٣] ، وفتح حصن تعزّ[٤] وغيره من القلاع .

وقال ابن شداد[٥] : ولما [كانت][٦] سنة تسع وستين رأى صلاح الدين قوة عسكره وكثرة عدد إخوته وقوّة بأسهم . وكان بلغه أن باليمن إنسانا استولى عليها وملك حصونها ، وهو يخطب لنفسه ، يسَمَّى عبد النبى بن مهدى ، ويزعم أنه ينتشر ملكه إلى الأرض كلها ، واستَتبَ أمره ، فرأى أن يسيّر إليها أخاه الأكبر الملك المعظم توران شاه ، وكان كريما أريحيّا حسن الأخلاق[٧] ، فمضى إليها ، وفتح الله على يديه ، وقتل الخارجى الذى كان بها . وكان أخو هذا الخارجى[قد خرج][٨] باليمن قبله .

وقال ابن أبى طىّ[٩] : وكان سبب خروج شمس الدولة إلى اليمن أنه كان كريما جوادا ، وكان إقطاعه بمصر لا يقوم بفتوَّته ، ولا [ينهض][١٠] بمروَّته . وكان قد انتظم فى سلكه عمارة الشاعر ، وكان من أهل اليمن ، وكان ورد إلى مصر ، ومدح أصحابها . فلما

---

(١) الخارجى : هو عبد النبى بن على بن مهدى ، ثالث حكام الدولة المهدية . انظر ماسبق ص١٣٥ ، حاشية (٤) .

(٢) هو : المبارك بن كامل بن على بن مقلد بن نصر من منقذ الكنانى ، الملقب سيف الدولة مجد الدين . كان من أمراء الدولة الصلاحية ، ولما سير صلاح الدين أخاه توران شاه إلى بلاد اليمن وتملكها ، رتب ابن منقذ هذا نائباً عنه فى زبيد . وكانت وفاة المبارك هذا سنة ٥٨٩ هـ/١١٩٣م بالقاهرة . انظر : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص١٤٤ .

(٣) هو : «عز الدين أبو عُمر عثمان بن على الزنجارى ـ كان صاحب اليمن ، وانتقل إلى الشام فى زمن الملك العادل سيف الدين أبى بكر» . هكذا ورد اسمه فى الأعلاق الخطيرة لابن شداد ، ص٢٢٢ . وورد اسمه فى الدارس ، ج١ ، ص٥٢٦ . «أبو عمرو عثمان بن على الزنجيلى» .

(٤) حصن تَعِزُّ : بالفتح ثم الكسر والزاى مشددة ، قلعة عظيمةمن قلاع اليمن المشهورات . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٨٥٤ .

(٥) انظر : النوادر السلطانية ، ص٤٦ ، حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

(٦) «كان» فى نسختى أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من النوادر السلطانية ، ص٤٦ ، حيث ينقل العينى عنه .

(٧) ذكر فى الروضتين أنه سمع من صلاح الدين مانصه « الثناء على كرمه ومحاسن أخلاقه وترجيحه إياه على نفسه» .
انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٥٢ .

(٨) مابين الحاصرتين إضافة للتوضيح من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥٢ .

(٩) انظر قول ابن أبى طى فى الروضتين ، المصدر السابق حيث أن الروضتين هو المصدر المتاح لدينا لأقوال ابن أبى طى ، ج١ ق٢ ، ص٥٥٢ .

(١٠) « تنهض» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥٢ .

زالت دولتهم انضوى إلى شمس الدولة ومدحَه ، وكان إذا خلا بِه يصف له بلاد اليمن وكثرة أموالها وخيرها ، وضعف مَن فيها ، وأنها قريبة المأخذ لمن طلبها .

ومن جملة شعره فى ذلك قوله فى القصيدة التى أولها :

العِلْمُ مُذْ كَانَ مُحْتَاجًا[١] إِلَى الْعِلْمِ ... وَشَفرَةُ السَّيْفِ تَسْتَغنى عَنِ الْقَلَمِ

كَمْ تَتْرُكُ البيضُ فِى الأَجْفَانِ ظَامِئَةً ... إلى المَـوَارِدِ فِى الأعْنَاقِ وَالقِـمَمِ

أَمَـامَكَ الْفَـتحُ مُنْ شَـامٍ وَمِنْ يَمَنٍ ... فَـلاَ تَرُدّ رؤوسَ الْخَـيْلِ بِاللُّجم

فَعَـمُّكَ الْملكُ الْمنصورُ[٢] سَوَّمَـهَا ... مَنِ الْفُـراتِ إِلَى مِـصْرٍ بِلاَ سَـأَمِ[٣]

وله قصيدة أخرى منها قوله :

أفـاتحَ أرضَ النِّيل وهى منيعـةٌ[٤] ... على كل راجٍ فـتْـحـهـا ومُـؤمّلِ

مـتى توقِـدُ النار التى أنت قَـادحٌ ... بغمْدَانَ [مشبوبًا][٥] سناها بمنْدلِ

وتفـتـح مـا بين الحَـصـين وأَبْيَنٍ ... وصنعاء من حِصْنٍ حَصِينٍ ومَعْقِلِ[٦]

وقال ابنُ أبى طى : ووافق ذلك أنه كاتَبَه رجل من أهل اليمن ، يقال له هاشم بن غانم ، وأطمعه [فى المعاونة][٧] لأن صاحب اليمن عبد النبى كان قد تعدى على هذا الشريف هاشم ، فأعلم شمس الدولة أصحابه بعزمه على اليمن فأجابوه ، وتجهز ، ثم دخل على أخيه السلطان واستأذنه فى دخول اليمن ، فأذن له ، وأطلق له مُغَلّ[٨] قوص[٩] سنة ، وزوّده فوق ماكان فى نفسه ، وأصحبه جماعةً من الأمراءِ ومقدار ألف فارس خارجا

(١) « محتاج» فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥٣ ؛ وانظر أيضاً : مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢٣٨ - ٢٤٠ .
(٢) المنصور : يقصد بها أسد الدين شيركوه .
(٣) أورد أبو شامة أبياتًا أخرى من القصيدة فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٥٣ .
(٤) «عظيمة» فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥٣ .
(٥) «مشوبا» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت هو الصواب من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥٣ .
(٦) ذكر أبو شامة بيتين آخرين من القصيدة ، كما ذكر أبياتاً من قصيدة أخرى ، انظر : الروضتين ج١ ق٢ ، ص٥٥٣ .
(٧) مابين الحاصرتين إضافة من الروضتين يحتاجها السياق . انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٥٣ .
(٨) يقصد ما تغله قوص فى السنة .
(٩) قوص : مدينة كبيرة بصعيد مصر ، كانت محط التجار القادمين من عدن . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٢٠٠ ، وهى مركز بمديرية قنا ، انظر : القاموس الجغرافى ، ق٢ ج٤ ، ص١٨٣ .

عمّن سيره من حلقته[١] ، وسار فى البر والبحر ، فى البر العساكر ، وفى البحر الأسطول يحمل الأزواد والعُدد والآلات ، فوصل إلى مكة شرفها الله تعالى ، فدخلها زائراً ، ثم خرج متوجها منها إلى اليمن ، فوصل زبَيد فى أول شوال ، فنزل عليها ، ولقيه الشريف هاشم بن غانم الحسنى ، وجميع[٢] الأشراف بنو سليمان[٣] فى جمع جم وعدد كثير ، فهجم زبيد وتسلمها واحتوى على مافيها ، وقبض على صاحب اليمن - عبد النبى - أخى على[٤] بن مهدى ، ثم رحل إلى عدن [٥] وفى صحبته ابن مهدى [١٨٢و] ، ففتحها عنوةً ، وولاها عز الدين بن الزنجيلى .

ثم سار إلى [المخلاف][٦] ، وتسلم الحصون التى كانت فى يد ابن مهدى كتعز وغيرها ، وسار إلى صنعَاء بعد فتح مدينة الجَنَد[٧] وغيرها ، فأحرقت صنعاء ، فدخلها شمس الدولة فلم يجد فيها إلا شيخا [و][٨] امرأة عجوزًا ، فأقام بها ثمانية أيام ، ثم لم يستطع المقام لقلة الميرة ، فرجع إلى زَبِيد فوجد ابن منقذ قد قتل عبد النبى بن مهدى . وكان شمس الدولة قد استناب بزَبيد الأمير سيف الدولة المبارك بن منقذ ، وأمره بحمله ، فلما بعُد شمس الدولة خاف ابن منقذ من فساد أمره ، فرأى المصلحة فى قتله ، فقتله ابن منقذ بزَبِيد . فلما بلغ شمس الدوله قتله استصوبه .

ولما «حصل»[٩] شمس الدولة فى زَبِيدَ أنفذ إليه صاحب طمار[١٠] ، وصالحه هو وباقى الملوك على أداء المال ، ثم تتبع تلك الحصون والقلاع فاحتوى عليها جميعها ،

---

(١) جند الحلقة : هم طبقة من الأجناد دون المماليك السلطانية فى الدرجة . وهم مماليك السلاطين والأمراء السابقين وأولادهم . انظر : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص١٥ - ١٦ .

(٢) «وجمع » فى نسخة ب .

(٣) بنو سليمان : هم العلويون باليمن حكموا من سنة ٤٥٠هـ - ٦٤٩هـ/١٠٥٨- ١٢٥١م ، والذى حارب بنو مهدى ، منهم هو وحاس بن غانم . انظر : زامباور ، ج١ ، ص١٧٨ - ١٧٩ .

(٤) هو : على بن مهدى بن محمد بن على بن داود . أول حكام بنو مهدى الخوارج بزبيد . حكم من سنة ٥٥٣هـ - ٥٥٤هـ/ ١١٥٨م - ١١٥٩م . انظر : زامباور ج١ ، ص١٨٢ .

(٥) «العدن» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٥٤ ، حيث ينقل عن ابن أبى طى .

(٦) «المحلاف» فى الأصل . والمثبت من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٥٤ . والمخاليف بمنزلة الكور والرساتيق . وقد أضيف إليها أسماء قبائل اليمن . انظر : معجم البلدان ج٤ ، ص٤٣٤ .

(٧) الجند : هى من أعمال اليمن العظيمة ومن المدن النجدية ، بينها وبين صنعاء ثمانية وخمسون فرسخا . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٣٦ .

(٨) «أو» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥٤ .

(٩) «دخل» فى نسخة ب .

(١٠) طمار : الطمار المكان المرتفع ، وهو جبل باليمن . معجم البلدان ، ج٣ ، ص٥٤٦ .

وكتب بذلك إلى أخيه الملك الناصر صلاح الدين ، فأرسل إلى نور الدين يخبره بذلك ، فأرسل نور الدين مهذب الدين أبا الحسن على بن عيسى النقاش بالبشارة بذلك إلى بغداد . وذكر العماد الأمير مجد الدين سيف الدولة المبارك بن كامل بن منقذ المستناب بزَبِيدَ ، ووصفه بأنه من الكفاة «الرماة»[١] والدُّهاة ذوى الآراء ، وأنه فاضل من أهل بيت فضل ، كتب العماد من شعره :

لما نزلتُ الدَّيرَ قُلْتُ لصَاحبى ... قُم فاخطُب الصَّهْباءَ من شَمّاسِه
فأتى وفى يُمناه كأسٌ خِلْتُها ... مقبوسَةً فى اللّيل من نبراسه
وكأنّ ما فى كأسه من خَدّه ... وكأنّ ما فى خَدِّه من كَاسِه
وكأن لذَّةَ طَعْمِها من ريقِه ... وأريجُها الفيَّاحُ من أنْفَاسِه
لم أنسَ ليلة شُربِها بغنائه ... إذ بات يجْلُوها على جُلاسِه
إذ قام يَسْقِينَا المُدام وكُلَّما ... عاتَبْتُه[٢] ردَّ الجوابَ بِراسِه

ومدحه أبو الحسن بن الذَّروى المصرى[٣] بقصيدة غراء ذالية ، ما أظن أنه نُظِمَ على قافية الذال أرق منها لفظا وأروق[٤] معنى ، أولُهَا :

لك الخيرُ عرِّج بى[٥] على رَبْعِهم فَذِى ... رُبوعُ يفوح المِسْكُ من عَرْفِها الشَّذِى
مَبَارِكُ عِيسِ الوَفد بَابُ مُبارِكٍ[٦] ... وهل منقذُ القُصَّاد غيرُ ابن مُنْقذِ

وفى المرآة[٧] : لما سار شمس الدولة إلى اليمن ، وكان أعيانها قد كتبوا إلى صلاح الدين ؛ يسألونه أن يبعث إليهم بعض أهله ، فلما وصل شمس الدولة إلى مكة ، صعد

---

(١) «الكرماء» فى الروضتين الذى ينقل عن ابن أبى طى . انظر : ج١ ق٢ ، ص٥٥٥ .
(٢) «عابثته» فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٥٥ .
(٣) هو : القاضى الوجيه رضى الدين أبو الحسن على بن أبى الحسن يحيى بن الحسن بن أحمد المعروف بابن الذّروى ، وهو الأديب الشاعر . والذّروى بفتح الذال المعجمة والراء وبعدها واو نسبة إلى ذَرَوَة ، وهى قرية بصعيد مصر . انظر : خريدة القصر ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص١٨٧-١٨٨ ؛ وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص ١٤٥ - ١٤٦ ؛ فوات الوفيات ، ج٢ ، ص١٨٨ .
(٤) «أدق» فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥٥ .
(٥) «من على» فى نسخة ب .
(٦) «مبارك وفد العيس» فى وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص١٤٥ .
(٧) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٨٨ ، حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

صاحبها إلى أبى قبيس [١] ، فتحصن فيه[٢] بقلعة بناها عليه ، وأغلق باب الكعبة وأخذ المفاتيح ، فجاء شمس الدولة فطاف بالبيت ، وصلى ركعتين وصعد إلى باب الكعبة ، وقال : اللهم إن كنت تعلم أنى جئت إلى هذه البلاد لإصلاح العباد وتمهيدها ، فيَسِّر علىّ فتح الباب ، وإن كنت تعلم أنى جئت لغير ذلك فلا تفتحه . ومدَ يدَه فجذب القفل فانفتح [٣] ، فدخل شمس الدولة إلى البيت وصلى ودعا .

فلما بلغ أمير مكة ذلك نزل إلى خدمته ، وحمل المفاتيح واعتذر وقال : خفت منك ، والآن فأنا تحت طاعتك .[١٨٢ظ] فقال له : إذا أخذت منك مفاتيح مكة فلمن أعطيها ، ثم خلع عليه وعلى أصحابه ، وطيب قلوبهم . وسار إلى اليمن ، فانهزم عبد النبى بين يديه إلى زَبيد . وكان أبوه المسمى بالمهدى قد فتح البلاد ، وقتل خلقاً كثيرا ، وشق بطون الحوامل ، وذبح الأطفال على صدور أمهاتهم . وكان يرى رأى القرامطة[٤] ، ويظهر أنه داعية « لصاحب»[٥] مصر ، ويتستر بالإسلام [٦] . وكان قد مات قبل دخول شمس الدولة اليمن بسنين ، وملك بعده ولده عبد النبى ، ففعل باليمن أشد مما فعله أبوه ، وسبى[نساءهم][٧] واستعبدهم . وكان أبوه لما مات بنى عليه قبةً عظيمةً وصَفَّح حيطانها بالذهب الأحمر والجواهر ظاهرا وباطنا ، بحيث لم يعمل فى الدنيا مثلها ، وجعل فيها قناديل الذهب وستور الحرير ، ومنع أهل اليمن[٨] من زَبِيدَ إلى حضرموت أن يحجوا إلى

(١) أبو قُبَيْس : اسم الجبل المشرف على مكة من شرقها . وهو نسبة إلى رجل من مذحج كان يكنى أبا قبيس لأنه أول من بنى فيه قبة . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص١٠٢ .
(٢) «عليه» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٨٨ .
(٣)« بها ففتح» فى نسخة ب .
(٤) القرامطة : طائفة سياسية اتخذت الدعوة إلى إمامة إسماعيل بن جعفر الصادق وسيلة لتحقيق أغراضها ، وسلاحا للوصول إلي ما تصبو إليه . وهم يُنسبون إلى حمدان بن الأشعث قَرْمَط . وقد سمى بهذا الاسم لأنه كان يقرمط فى سيره إذا مشى ، أى يقارب بين خطواته . ويقال إنه سمى بقرمط لقصور قامته ورجليه . ويقال أيضا أنه لقب بهذا لأنه كان أحمر البشرة تشبيها له بالقرمد ، وهو الطوب الأحمر (الآجر) . وأصل هذا اللفظ يونانى Keramidi. انظر : اتعاظ الحنفا ، ج١ ، ص٢٦ ؛ جمال الدين سرور : سياسة الفاطميين الخارجية ، ص٤١ ، ط . دار الفكر العربى ، ١٩٧٦م ؛ انظر : المعجم الوسيط ، ج٢ ، ص٧٣٧ .
(٥) «لأهل» ، فى المرآة ، ج٨ ، ص١٨٨ .
(٦) « باليمن» ، فى المرآة ، والمثبت هو الأولى للسياق .
(٧) «نسائهم» فى نسخة أ . والمثبت بين الحاصرتين من نسخة ب .
(٨)«البلد» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٨٨ .

الكعبة ، وأمرهم بالحج إلى قبر أبيه ، وكانوا يحملون إليها من الأموال كل سنة مالا يحد ولا يوصف[(١)] ، ويطوفون حولها مثل مايطاف [(٢)] با لكعبة ، ومن لم يحمل مالا قتله ، وكانوا يقصدونها من البحر ، فاجتمع فيها أموال عظيمة . وأقام عبد النبى على الظلم والفسق والفجور ، وذبح الأطفال ، وسفك الدماء ، وسبى النساء ، إلى أن دخل شمس الدولة إلى اليمن وجاء إلى زبيد . فيقال : إنه حصر عبد النبى فيها وأمَّنه وقيده وقتله . ويقال : أنه انهزم بين يديه ، وجاء إلى قبة أبيه فهدمها ، وأخذ ماكان فيها من المال والجواهر والفضة ، وكان على ستمائة جمل ، ونبش القبر وأحرق عظام أبيه وذراها فى الريح . ومضى إلى صنعاء ، فحلف شمس الدولة أنه لا ينتهى عنه حتى يقتله ويحرقه كما فعل بأبيه ، وصار خلفه فرجع إلى زبيد ، وعاد شمس الدولة إليها فظفر به ، فأخذ ماكان معه وقتله وصلبه وحرقه كما فعل بعظام أبيه .

وفى تاريخ ابن كثير[(٣)] : ولما وصل شمس الدولة زَبِيد ، خرج إليه عبد النبى فقاتله ، فانهزم ، وأسره شمس الدولة وأسر زوجته الحرة ، وكانت ذات أموال جزيلة ، فاستقرها على أشياء جزيلة ، وذخائر جليلة ، ونهب الجيش زَبِيدَ ، ثم سار إلى عدن فقاتله صاحبها ياسر ، فهزمه توران شاه ، وأخذ البلد بيسير [من الحصار] [(٤)] ومنع الجيش من نهبها . وقال : ماجئنا لنخرب البلاد ، وإنما جئنا لعمارتها وملكها . ثم سار فى الناس سيرة حسنة عادلة فأحبوه . واستوسق[(٥)] له ملك اليمن ، وخَطب فيها للخليفة العباسى المستضىء[(٦)] بأمر الله ، وقتل الداعى المسمى بعبد النبى [(٧)] .

---

(١) «يحصى» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٨٩ .

(٢) «يطوفون» فى المرآة ، ج٨ ، ص١٨٩ .

(٣) انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٣ - ٢٩٤ ، حيث ينقل عنه العينى .

(٤) مابين الحاصرتين إضافة للتوضيح من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٣ .

(٥) استوسقت الإبل أى اجتمعت . انظر : القاموس المحيط ، ج٣ ، ص٢٩٩ . مادة «وسق» .

(٦) هو : أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله يوسف بن المقتفى محمد بن المستظهر أحمد . بويع بالخلافة بعد أبيه وتلقب بالمستضىء . وكانت وفاته سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م . انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٤ ؛ الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين ، ج١ ص٢١٢ - ٢١٣ .

(٧) إلى هنا انتهى نقل العينى عن البداية والنهاية بتصرف ، ج١٢ ، ص٢٩٣ - ٢٩٤ .

ومنها إرسال صلاح الدين بالهدايا إلى نور الدين (رحمه الله) .

قال ابن أبى طىّ [١] : وفى هذه السنة وصل رسول نور الدين ، وهو الموفق بن القيسرانى ، واجتمع بالملك الناصر ، وأنهى إليه رسالة نور الدين ، وطالبه بحساب جميع ماحصَّله وارتفع إليه من ارتفاع[٢] البلاد ، فصعب ذلك على السلطان ، وأراد شق العصا ، لولا ما ثاب إليه من السكينة ثم أمر النواب بعمل الحساب ، وعرضه على ابن القيسرانى ، وأراه جريدة [٣] الأجناد بمبلغ إقطاع وكميات جامكيتهم[٤] ورواتب نفقاتهم . فلما حصل عنده جميع ذلك ، أرسل معه هدية[٥] إلى نور الدين على يد الفقيه [عيسى][٦] . قال : ووقفت على برنامج شرحها بخط الموفق بن القيسرانى وهى : خمس ختمات[إحداها][٧] ختمة ثلاثون جزءاً مغشاة بأطلس[١٨٣و] أزرق ، مضببة بصفائح ذهب ، وعليها أقفال ذهب ، مكتوبة بذهب ، بخط يانسى[٨] ؛ وختمة بخط راشد مغشاة

---

(١) انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥٨ حيث أورد أقوال ابن أبى طى ؛ مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢٥٧ ؛ السلوك ، ج١ق١ ، ص٥٢ .

(٢) الارتفاع : مايتحصل من الدواوين عامة . انظر : السلوك ، ج١ ق١ ، ص٥٢ .

(٣) فى الروضتين« جرائد الأجناد بمبالغ إقطاعهم وتعيين جامكياتهم» انظر : ج١ ق٢ ، ص٥٥٨ .

(٤) الجامكية : رواتب الجند بصفة عامة . انظر :صبح الأعشى ،ج٣ ،ص٤٥٧ ؛ وانظر أيضًا : Dozy: Supp. Dict. Ar

(٥) انظر ذكر تفصيل الهدية فى السلوك ،ج١ ق١ ، ص٥٤ ـ ٥٥ .

(٦) «الساعى» فى الأصل . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ،ج١ق٢ ، ص٥٥٨ . وقد صحح العينى الاسم بعد ذلك حين ذكر تفصيل الهدية فيما بعد . وهو : الفقيه أبو محمد عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد بن أحمد بن يوسف . ويقال له الهكارى ، الملقب ضياء الدين . توفى بمنزلة الخروبة سنة ٥٨٥ هـ /١١٨٩م . انظر : الفتح القسى ، ص٣٥٥ ؛ الكامل : ج١٠ ، ص١٩٠ ؛ مضمار الحقائق ، ص٢٩٦ ـ ٢٩٧ ؛ وفيات الأعيان ،ج٣ ، ص٤٩٧ .

(٧) «أحديها» فى الأصل : والتصحيح من الروضتين ، ج١ ، ق٢ ، ص٥٥٨ .

(٨) لعله الخط اليابس . وقد ذكر القلقشندى فى صبح الأعشى أن ابن الحسين ذكر فى كتابة «الأبحاث الجميلة فى شرح العقيلة» فى قلم الثلث : « أن الخط الكوفى فيه عدة أقلام مرجعها إلى أصلين وهما التقوير والبسط . فالمقور هو المعبر عنه الآن باللين . . . والمبسوط هو المعبر عنه الآن باليابس وهو مالا انخساف وانحطاط فيه كالمحقق» . انظر : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص١١ . وقد ذكر فوزى سالم عفيفى فى كتابه « نشأة وتطور الكتابة الخطية العربية» : أن الخط اللّين والخط اليابس كانا موجودين قبل الإسلام . بدليل النقوش النبطية التى تغلب عليها اليبوسة والليونة معا . انظر : ص١١٥ .

بديباج فُسْتُقى عشرة أجزاء ؛ وختمة بخط ابن البواب[١] ، مجلد واحد بقفل ذهب ؛ وختمة بخط مهلهل ، جزء واحد ، وختمة بخط الحاكم البغدادى ؛ وثلاثة أحجار بلخش[٢] ، حجر وزنه اثنان وعشرون مثقالا ، وحجر وزنه اثنا عشر مثقالا ، وحجر وزنه عشرة مثاقيل ونصف ؛ وست قصبات زمرد[٣] ، قصبة وزنها مثقالان وربع وسدس ، وقصبة وزنها مثقالان وثلث ، وقصبة وزنها مثقالان ونصف ، وقصبة وزنها ثلاثة عشر مثقالا وثلث وربع ، وقصبة وزنها ثلاثة مثاقيل ؛ وحجر ياقوت وزنه سبعة مثاقيل ؛ وحجر أزرق وزنه ستة مثاقيل وسدس ؛ ومائة عقد جوهر مختومة وزنها [٤] ثمانمائة وسبعة وخمسون مثقالا ؛ و[خمسون][٥] قارورة دهن بلسان[٦] ، وعشرون قطعة بلور ؛ [أربع عشرة قطعة][٧] جزع[٨] ، وذكر تفصيلها ؛ إبريق يشم [٩] ، طشت يشم سقرق [١٠] مينا مذهب ؛ صحون صينى وزبادى وسكارج [١١] ؛ أربعون قطعة عود طيب ، قطعتين كبار ؛ كرتان وزن أحديهما ثلاثون رطلا

(١) هو : أبو الحسن على بن هلال المعروف بابن البواب الكاتب المشهور ، لم يوجد فى المتقدمين ولا المتأخرين من كتب مثله ولا قاربه من خط الكوفيين . توفى سنة ٤٢٣هـ/١٠٣٢م ، وقيل ٤١٣ هـ/١٠٢٢م . انظر ، وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٣٤٢ ؛ صبح الأعشى ، ج٣ ، ص١٣ ذكر «أن» : ابن البواب هو الذى أكمل قواعد الخط وتممها واخترع غالب الأقلام التى أسسها ابن مقلة» .

(٢) البلخش : يسمى اللَّعْلَ ، وهو من نفائس الأحجار . انظر : صبح الأعشى ، ج٢ ، ص٩٩ - ١٠٠ .

(٣) لم يذكر أبو شامة فى كتابه الروضتين غير خمس قصبات مع اختلاف فى الترتيب . ج١ ق٢ ، ص٥٥٨ .

(٤) «وزنها جميعها» فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٥٨ .

(٥) ما بين الحاصرتين ساقط من نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥٨ لاستقامة النص ؛ انظر أيضًا : السلوك ، ج١ق١ ، ص٥٤ .

(٦) البلسان : هو شجر كثير الوجود فى سورية ، له زهر أبيض صغير عطرٌ فى عناقيد منبسطة . الواحدة بيلسانة ، كبير النفع فى التفتيح والتحليل . انظر : محيط المحيط ، ج١ ص ١٥٠ ؛ Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٧) «وقطعة» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، الذى ينقل عنه العينى ، ج١ق٢ ، ص٥٥٨ .

(٨) الجَزْع : هو الخرز اليمانى . فيه سواد وبياض . والمقصود هنا الآنية المصنوعة من الصينى المجزع . انظر : Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٩) اليشم : هو من الأحجار غير النفيسة . انظر : صبح الأعشى ، ج٢ ، ص١١٨ ؛ مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢٢٤ ، حاشية٣ حيث ذكر أن : اليشم واليشب حجر ثمين قريب من الزبرجد ، منه الأبيض والأصفر والزيتى ؛ انظر أيضًا : نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر ، ص٧٠ .

(١٠) سقرق : لعلها محرفة عن السكرك . فقد ذكر فى لسان العرب : « السُكُرْكَة خمر الحبشة ، وذكر فى المعرب أن السكركة ضرب من الشراب تتخذه الحبش من الذرة ، وهى تسكر . ولعل المقصود هنا الآنية الخاصة بهذا الشراب . انظر : لسان العرب مادتى «س ك ر» ، « س ك ر ك» . ؛ المعرب ، ص٢٨٤ ؛ السلوك ، ج١ ق١ ، ص٥٥ .

(١١) الزبادى : جمع زبدية ، وهى وعاء الشراب . وسكارج جمع سكُرُّجة : لفظة فارسيه تعنى الإناء الصغير أو الصحفة ، يؤكل فيه الشئ القليل . انظر : لسان العرب ، مادة «سكرج» ؛ Dozy : Supp. Dict. Ar.

بالمصرى والأخرى[واحد](١) وعشرون رطلا ؛ ومائة ثوب أطلس ؛ وأربعة وعشرون بَقْيَاراً(٢) مُذهبة ؛ وأربعة وعشرون ثوبا حريريا ؛ وأربعة وعشرون ثوبا من الوَشى حريرية بيض ؛ حلة فلفلى مذهبة ؛ حلة مرايش صفراء مُذهبة . وذكر غير ذلك أنواعا من القماش قيمتها مائتان وخمسة وعشرون ألف دينار مصرية ، وعدة من الخيل والغلمان والجوارى ، وشيئًا كثيرا من السلاح على اختلاف ضروبه . قال : وخرجوا بهذه الهدية فلم تصل إلى نور الدين ؛ لأنه(٣) اتصل بهم وفاته ، فمنها ما أعيد ومنها ما استهلك ، لأن الفقيه عيسى وابن القيسرانى وضعا [عليها من نهبها] (٤) واستبدًّا بأكثرها . وقيل إنها وصلت جميعها إلى السلطان ؛ لأنه اتصل به خبر موت نور الدين ؛ فأنفذ مَن ردّها .

قال : وحدثنى من شاهد هذه الهدية أنه كان معها عشرة صناديق مالاً لايعلم(٥) مقداره(٦) .

ومنها أن صلاح الدين صلب فى رمضان منها جماعة من أعيان المصريين ؛ فإنهم قصدوا الوثوب عليه ، وإعادة الدولة العلوية (٧) ، فعلم بهم وصلبهم عن آخرهم (٨) . فمنهم عبد الصمد الكاتب ، والقاضى[العويرس](٩) ، وداعى الدُعاة(١٠) ، وعمارة بن على اليمنى الشاعر الفقيه الشافعى .

---

(١)« أحد» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين هو الصحيح لاستقامة النص .

(٢) بقيارا : كلمة فارسية ومعناها سجادة سوداء مصنوعة من وبر الجمل . انظر السلوك ، ج١ق١ ، ص٥٥ ، حاشية٤ ، وقد ذكر دوزى أنها نوع من العمائم الكبار كالتى يلبسها الوزراء وأصحاب القلم . انظر أيضا : مفرج الكروب ، ج٣ ، ص٢٤٥ ، حاشية٢ .

(٣)« لأنهم» فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥٩ .

(٤)«وضعا عليهم من نهبهم» فى نسختى المخطوطة . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ج١ق٢ ، ص٥٥٩ .

(٥) «لم يعلم» ، فى الروضتين ج١ق٢ ، ص٥٥٩ .

(٦) نهاية قول ابن أبى طىّ المنقول من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥٩ .

(٧) قصد بها الدولة العبيدية وهى : الدولة الفاطمية نسبة إلى مؤسسها المهدى بالله أبو محمد عبيد الله بن الحسن بن محمد بن على الرضى بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين ، السبط ابن على بن أبى طالب ، رضى الله عنهم . وهى فى الفترة ما بين ٢٩٧هـ -٥٦٧ هـ / ٩١٠م -١١٧١م . انظر : الجوهر الثمين ، ج١ ، ص٢٤١ -٢٤٣ ؛ تاريخ الدول الإسلامية ، ج١ ، ص١٣١ - ١٣٥ .

(٨) انظر تفصيل هذه الحادثة فى الكامل ، ج١٠ ، ص٥٣ - ٥٥ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٦٠ - ٥٦٤ ومابعدها ؛ مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢٤٣ - ٢٤٤ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٨٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٤ - ٢٩٦ ؛ السلوك ، ج١ق١ ، ص٥٣ - ٥٤ .

(٩) «العويرس» فى الأصل وكذا فى الكامل ، ج١٠ ، ص٥٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٥ ؛ والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين نقلاً عن ابن أبى طى ، ج١ق٢ ، ص٥٦١ . وهو القاضى الأعز أبا محمد الحسن بن على بن سلامة ، المعروف بالعويرس . انظر : اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٢٧٨ . وقد ذكر فى السلوك ، ج١ق١ ، ص٥٣ أنه : سلامة العويرس .

(١٠) هو : عبد الجبار بن إسماعيل بن عبد القوى ، داعى الدعاة . انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٥ ؛ السلوك ، ج١ق١ ، ص٥٣ .

وفى تاريخ ابن كثير[١] : اجتمع نجم الدين عمارة الشاعر اليمنى الفقيه الشافعى مع جماعة من رؤس الدولة الفاطمية الذين كانوا حكاما ، فاتفقوا فيما بينهم أن يعيدوا الدولة الفاطمية ، وكتبوا إلى الإفرنج يستدعونهم إليهم ، وعينوا خليفة من ذرية الفاطميين ، ووزيرا وأمراء فى غيبة السلطان صلاح الدين ببلاد الكرك ، ثم اتفق مجيؤه وحرض عمارة اليمنى شمس الدولة توران شاه على المسير[٢] إلى اليمن ؛ ليخف الجيش ويضعف عن مقاومة الفرنج إذا قدموا لنصرة الفاطميين . فخرج توران شاه ولم يخرج معه عمارة إلى اليمن ، بل أقام بالقاهرة يفيض فى هذا الحديث ، [ويداخل][٣] المتكلمين فيه ، وكان من أكابر الدعاة إليه والمحرضين[١٨٣ظ] عليه . هذا وقد أدخلوا معهم فى هذا الأمر بعض من ينسب إلى الملك الناصر ؛ وذلك من قلة «عقلهم وكثرة جهلهم»[٤] . فخانهم أحوج ماكانوا إليه ، وهو الشيخ زين الدين على بن نجا الواعظ [٥] ، جاء إلى السلطان الملك الناصر ، فأخبره بما تمالأ القوم عليه ، وبما انتهى أمرهم إليه ، فأطلق له السلطان أموالا جزيلة ، وأفاض عليه حللا جميلة ، ثم استدعاهم السلطان واحداً واحداً ، فقررهم فأقروا له بذلك ، فاعتقلهم ، ثم استفتى الفقهاء فى أمرهم فأفتوه بقتلهم[٦] ، وتبدد شملهم . فعند ذلك أمر بصلب رؤوسهم وأعيانهم دون أتباعهم وغلمانهم ، وأمر بنفى من بقى من جيش العبيديين إلى أقاصى البلاد ، وأفرد ذرية العاضد وأهل بيته فى دار ، فلا يصل إليهم إصلاح ولا إفساد ، وأجرى عليهم من الأرزاق كفايتهم[٧] . وقد كان عمارة معاديا للقاضى الفاضل[٨] فلما أحضر بين يدى السلطان ، قام القاضى الفاضل فاجتمع

(١) انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٤ ، حيث نقل العينى عنه بتصرف .
(٢) « المصير» فى نسختى المخطوطة وهو خطأ . والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٤ .
(٣) «ويتداخل» فى نسختى المخطوطة أ ، ب ، والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٤ ، وهو أولى .
(٤) « عقولهم وتعجيل دمارهم» فى البداية والنهاية ج١٢ ، ص٢٩٤ .
(٥) هو : زين الدين أبو الحسن على بن إبراهيم بن نجا بن غنايم الأنصارى . الفقيه الواعظ ، المعروف بابن نجيّة . توفى سنة ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢م بمصر . انظر : وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٥٣٠ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٣٤ ، طبقات الحنابلة ، ج١ ، ص٤٣٦ ؛ الدارس ، ج٢ ، ص٦٧ .
(٦) عن هذه الحادثه انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٦٠-٥٦١ .
(٧) « مايليق بهم من الأرزاق والثياب» فى البداية والنهاية : ج١٢ ، ص٢٩٥ .
(٨) هو : أبو على عبد الرحيم بن على بن الحسن بن البيسانى ، المولى الأجل القاضى الفاضل . وقد عاصر فترتين من فترات الحكم فى مصر ، سقوط الفاطمى وقيام الأيوبى . كما كان صاحب ديوان الإنشاء فى عهدى شيركوه وصلاح الدين وقد جعله صلاح الدين كاتبه وصاحبه ووزيره ، واعتمد عليه فى كل مايتعلق بشئون دولته . توفى بالقاهرة . سنة٥٩٦هـ/١٢٠٠م . انظر :خريدة القصر ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص٣٥ ؛ وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص١٥٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٢٧ - ٢٩ .

بالسلطان ليشفع فيه ، فتوهم [عمارة][١] أنه يكلمه فيه فقال : يامولانا السلطان لاتسمع منه . فغضب القاضى الفاضل ، ونهض وخرج من القصر ، فقال له السلطان : إنه كان قد شفع فيك ، فندم ندماً عظيماً ، ولما ذهب به ليُصْلب اجتاز بدار القاضى ، فطلبه ، فتغيب عنه ، فأنشد عند ذلك :

عُبَيدُ[٢] الرحيم قد احْتجَبْ إنَّ الخلاصَ هو الْعَجَبْ[٣]

وفى تاريخ الدولتين[٤] : وكان صلب المذكورين يوم السبت ثانى شهر رمضان ، وكان الذين صلبوا منهم : المفضل[٥] بن كامل[٦] القاضى ، وابن عبد القوى الداعى ، والعويرس[٧] ، وكان قد تولى ديوان النظر[٨] ثم القضاء بعد ذلك ، وشبرما[٩] كاتب السر ، وعبد الصمد أحد أمراء المصريين ، ونجاح الحمامى ، ورجل منجم نصرانى أرمنى ، كان قال لهم إن أمرهم يتم بطريق علم النجوم ، وعمارة اليمنى الشاعر .

قال العماد فى البرق : ووصل من صلاح الدين يوم وفاة نور الدين إلى دمشق كتاب يتضمن هذه القضية ، وهو بخط ابن قريش يعنى المرتضى[١٠] . وفى قضية عماره هذه

---

(١) مابين الحاصرتين إضافة من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٥ .
(٢) «عبد» فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٥ .
(٣) انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٦٩ .
(٤) انظر : الروضتين ج١ ، ق٢ ، ص٥٦٠ ـ ٥٦٢ . حيث ينقل العينى عنه بتصرف .
(٥) «الفضل» فى نسخة ب ، أما المقريزى فقد ذكر فى السلوك ، ج١ق١ ، ص٥٣ : أنه : القاضى المفضل ضياء الدين نصر الله بن عبد الله بن كامل وهو خطأ . وقد ذكر العماد أنه : أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل ، القاضى المفضل ، قاضى قضاة الديار المصرية زمن الفاطميين ، الملقب بفخر الأمناء . انظر : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص١٨٦ ـ ١٨٧ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٥ ؛ اتعاظ الحنفا ، ج٣ ، ص٢٢٣ ، ٢٧٨ ، ٣١٨ . ويؤيد ذلك ماذكر فى الروضتين ، ج١ ق ٢ ، ص٥٦١ .
(٦) «ابن كامل» مكرر فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ج١ ق ٢ ، ص٥٦١ .
(٧) «العورس» فى نسخه ب .
(٨) تقاصر منصب الوزارة بمصر منذ عصر الأيوبين وشارك الوزير فى أعماله وتصريفها النظارُ . وتنوعت ألقاب هؤلاء بحسب الأعمال التى آلت إليهم فمنهم ناظر الدولة ويسمى أيضًا ناظر الدواوين وأحيانا ناظر النظار أو الصاحب الشريف . وعمله مشاركة الوزير فى التصرف عامة ، والنظر فى المالية وأرزاق أصحاب القلم من الموظفين خاصة . ومقره ديوان النظر . انظر : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص ٤٦٥ ـ ٤٦٦ .
(٩) «شهريا» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٦١ ؛ السلوك ، ج١ق١ ، ص٥٧ .
(١٠) هو : القاضى المرتضي صفى الدين أبو المجد عبد الرحمن بن على بن عبد العزيز بن على بن قريش المخزومى ، أحد كتاب الإنشاء فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . وهو صاحب قيسارية ابن قريش بالقاهرة . قتل شهيدا على عكا سنة ٥٨٦ هـ /١١٩٠م . المقريزى : الخطط ، ج٢ ص٨٦ .

يقول : العلامة تاج الدين[١] الكندى - رحمه الله - قال أبو شامة[٢] : نقلته من خطه :

عُمارةُ فى الإسلام أبْدَى خيانةً[٣]		وبايعَ فيها بَيْعةً وصَليبَا
وأمسى شريكَ الشِّرك فى بُغض أحمد		فأصْبح فى حُبِّ الصَّليبِ صَليبَا
وكان حثيث[٤] الملتقَى إنْ عَجَمْتَهُ		تجِدْ منه عُودًا فى النِّفاقِ صَليبَا
سيلقى غدًا مَا كان يَسْعَى لأجْله		ويُسْقى صَديدًا فى لظى وصَليبَا

قلت[٥] : الصليب الأول صليب النصارى ، والثانى بمعنى مصلوب ، والثالث من الصلابة ، والرابع وَدَك العظام . وقيل هو الصديد أى يُسقى ما يسيل من أهل النار ، نعوذ بالله منها[٦] . وقال ابن أبى طىّ الحلبى : وكان[٧] داعى الدعاة يعلم بدفائن القصر ، فعوقب ؛ ليُعْلِم بها ، فامتنع من ذلك ، فمات واندرست .

ذكر ماجريات نور الدين (رحمه الله)

منها أن نور الدين قد فتح من حصون الروم مرعش [٨] وغيرها [٩] ، ومليح بن لاون متملك الأرمن فى خدمته[١٠] ، ووصل إلى خدمته أيضا ضياء الدين مسعود بن

---

(١) هو : الشيخ العلامة تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد الكندى المقرىء النحوى الأديب . توفى سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م . انظر : الذيل على الروضتين ، ص ٩٥ - ٩٩ ؛ وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٣٣٩ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٧٨ - ٨١ .

(٢) ينقل العينى قول تاج الدين الكندى من الروضتين ج١ ق٢ ، ص٥٦٦ ، وانظر أيضا قول الكندى فى النكت العصرية ، ص٣٩٧ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٦ ؛ ج١٣ ، ص٨٠ - ٨١ حيث أورد الأبيات بطريقة مختلفة .

(٣) «جناية» فى الروضتين ج١ق٢ ، ص٥٦٦ الذى ينقل عنه العينى ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٦ .

(٤) «خبيث» فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٦٦ .

(٥) القول هنا لأبى شامة فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٦٦ .

(٦) انتهى نقل العينى بتصرف من الروضتين ، وقد أورد أبو شامة بعد ذلك أبياتا كثيرة لعمارة فى مدح الفاطميين . انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٦٦ - ٥٦٩ .

(٧) بالرجوع إلى الروضتين وجدنا أن هذا القول هو للعماد وليس لابن أبى طى . انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٦١ .

(٨) مرعش : مدينة فى الثغور بين الشام وبلاد الروم وفى وسطها حصن . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٤٩٨ ؛ تقويم البلدان ، ص٢٦٢ .

(٩) انظر ذكر باقى الحصون فى الباهر ، ص١٦٠ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص٤٨ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٢ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٤٢ - ٥٤٤ ؛ زبدة الحلب ، ج٢ ، ص٣٣٧ - ٣٣٨ .

(١٠) يذكر ابن الأثير فى كتابه الباهر دواعى استخدام نور الدين لمليح بن ليون بالتفصيل . انظر : الباهر ، ص١٦٩ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص٤٦ ؛ زبدة الحلب ، ج٢ ص٣٣٧ . وهو مليح بن ليون الأرمنى صاحب بلاد الدروب المجاورة لحلب .

قفجاق[١] صاحب ملطية[٢] ، وكان فى خدمته أيضا الأمراء من البلاد[٣] [١٨٤و] ، وأظهر أنه ينزل على قلعة الروم[٤] على[٥] الفرات ، فبذل له صاحبها خمسين ألف دينار على سبيل الجزية ، ثم عاد إلى حلب ، وأراد أن يُسرع إلى دمشق ، فتوقف لمرض سَرِيتّه ، فتصدق عنها بألوف ، والتزم لله فى شفائها بنذور ووقوف ، ثم سيرها فى محفة تحمل على أيدى الرجال ، وتأخر نور الدين جريدة مع عدة من مماليكه ، ثم سار على طريق سَلَمْية[٦] ، فجاءَه الخبر أن الفرنج قد أغارت على حوران [٧] ، فثنى إلى الجهاد العنان ، وسمع الفرنج به فتفرقوا ، ودخل دمشق[٨] .

ومنها أنه فى جمادى الأولى أبطل فريضة الأتبان [٩] ، وكتب بذلك منشوراً[١٠] وعلامته بخطه «الحمد لله» . يقول فيه : وبعد فإن من سُنتنا العادلة ، وسير آبائنا الزاهرة ، وعوائد دولتنا القاهرة ، إشاعة المعروف ، وإغاثة الملهوف ، وإنصاف المظلوم ، وإعفاء رسم ما سنّه الظالمون من جائرات الرسُوم . ومانزال نجدّد للرعيّة رسماً من الإحسان يرتعون فى رياضة ، ويرتوون من[١١] حياضه ، ونستقرئ أعمال بلادنا المحروسة ، ونصفّيها من الشبه والشوائب ، ونلحق مايعثر عليه من بواقى رسومها الضائرة بما أسقطناه من المكوس

---

(١) هكذا ورد الاسم فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٤٩ . وقد أجمعت المصادر على أن ملطية وسيواس كانتا تابعتين لسلاجقة الروم وبالتحديد لعز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلمش بن أرسلان بيغو بن سلجوق سلطان الروم . الذى حكم من سنة ٥٥١هـ - ٥٨٤ هـ/١١٥٦-١١٨٨م - المتوفى سنة ٥٨٨هـ/١١٩٢م . انظر : الباهر ، ص ١٦٠ ، ١٦٩ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص٤٨ ؛ زبدة الحلب ، ج٢ ، ص٣٣٧ ؛ مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٤١١-٤١٣ ؛ تاريخ الدول الإسلامية ، ج١ ، ص٣١٣ - ٣٢٥ .

(٢) بلدة من بلاد الروم مشهورة تتاخم الشام . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٦٣٣ - ٦٣٤ .

(٣) أوضح أبو شامة البلاد بأنها هى : المجْدل ، وهى بلد من إقليم الخابور إلى جانبه تل عليه قصر ، والخابور : اسم نهر كبير بين رأس عين والفرات . انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٤٩ - ٥٥٠ ، وانظر أيضًا : معجم البلدان ، ج٤ ص٤١٨ .

(٤) هى قلعة حصينة فى غربى الفرات مقابل البيرة بينها وبين سميساط . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٧٨٧ .

(٥) « من» فى نسخة ب .

(٦) هى : بليدة فى ناحية البرية من أعمال حماة . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص١٢٣ - ١٢٤ .

(٧) هى : كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة ذات قرى كثيرة . ياقوت ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٥٧-٣٥٨ .

(٨) انظر هذا الخبر بالتفصيل فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٤٩ - ٥٥٠ .

(٩) عن فريضة الأتبان انظر : ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص٣٤٤ .

(١٠) انظر نص هذا المنشور فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٥٠ - ٥٥١ .

(١١) « فى » نسخة ب .

والضرائب ؛ تقربا إلى الله تعالى ، الكافل لنا بسبوغ المواهب وبلوغ المطالب . وقد أطلقنا جميع ماجرت العادة بأخذه من فريضة الأتبان المقسطة على أعمال دمشق المحروسة ، وضياع الغوطة ، والمرج ، وجبل سنير[١] ، وقصر حجاج[٢] ، والشاغور[٣] ، والعقيبة[٤] ، ومزارعها الجارية فى الأملاك ، وجميع مايقُسّط بعد المقاسمة من الأتبان على الضياع الخواص والمقْطعة ، بسائر الأعمال المذكورة ، ووفّرناه على أربابه ؛ طلباً لمرضاة الله وعظيم أجره وثوابه ، وهرباً من انتقامه وأليم عقابه . وسبيل الثواب[٥] إطلاق ذلك على الدوام ، وتعفية آثاره ، [والاستعفاء][٦] من أوزاره ، والاحتراز من التدنس بأوضاره ، وإبطال رسمه من الدواوين ؛ لاستقبال سنة تسع وستين ، ومابعدها على تعاقب الأيام والسنين .

ومنها أن نور الدين تكلف فى هذه السنة بإفادة الألطاف ، والزيادة فى الأوقاف ، وتكثير الصدقات ، وتوفير النفقات ، وكسوة النسوة الأيامى فى أيامها ، وإغناء فقراء الرعية وإنجادها بعد إعدامها ، وصَون الأيتام والأرامل ببَذله ، وعون الضعفاء وتقوية المقوين بعدله[٧] .

ذكر وفاة نور الدين

والكلام فيه على أنواع :

الأول فى ترجمته : هو السلطان الجليل الملك العادل ، أبو الغنائم ، نور الدين محمود[٨] بن الملك الأتابك ، قسيم الدولة عماد الدين أبى سعيد زنكى ، ابن الملك آقسنقر الأتابك الملقب بقسيم الدولة أيضا ، المعروف بالحاجب بن عبدالله . وكان

---

(١) «شنير» فى نسختى المخطوطة أ ، ب ، وبالبحث لم نجد هذه الكلمة ، وإنما وجدنا سنير ، وهو جبل بين حَمص وبعلبك على الطريق ، وعلى رأسه قلعة سنير . ويمتد غربا إلى بعلبك وشرقا إلى سلمية . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص١٧٠ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥١ .

(٢) قصر حجاج : محلة كبيرة فى ظاهر باب الجابية من دمشق ، قيل إنه ينسب إلى حجاج بن عبد الملك بن مروان . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص١١٠ .

(٣) الشاغور : محلة بالباب الصغير من دمشق بظاهر المدينة . معجم البلدان ، ج٣ ، ص٢٣٦ .

(٤) يذكر القلقشندى أن العقيبة تقع فى الجانب الشمالى من دمشق وهى مدينة مستقلة بذاتها ذات أبنية جليلة وعمائر ضخمة . انظر : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٩٤ .

(٥) «النّواب» فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥١ .

(٦) « الاستغناء» كذا فى نسخة أ ، والمثبت من نسخة ب ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٥١ .

(٧) انظر قول العماد فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥٦ .

(٨) انظر ترجمته فى الباهر ، ص٤ ومابعدها ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٥ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥٦ ومابعدها ؛ وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص١٨٤ رقم ٧١٥ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٧ ـ ٣٠٤ .

آقسنقر[١] مملوك السلطان ملكشاه[٢] ابن السلطان ألب أرسلان السلجوقى كما ذكرنا . فنور الدين أيضا تركى سلجوقى ولاءً ، ولد وقت[٣] طلوع الشمس يوم الأحد السابع عشر من شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة بحلب ، ونشأ فى كفالة والده ، صاحب حلب والموصل وغيرهما من البلدان الكثيرة ، وتعلم الفروسية والرمى .

الثانى فى ألقابه : السلطان الملك العادل العالم العامل الزاهد العابد الورع المجاهد المرابط[١٨٤ظ] نور الدين ، وعدته ركن الدين ، وسيفه قسيم الدولة ، وعمادها اختيار الخلافة ، ومقرها ورضى الإمامة وأمرها فخر الملة ومخبرها شمس المعالى ، وفلكها سيد ملوك الشرق والغرب ، وسلطانها محيى العدل فى العالمين ، منصف المظلومين من الظالمين ، ناصر دولة أمير المؤمنين . ثم إن نور الدين أسقط الجميع قبل موته ، وقال : اللهم وأصلح عبدك الفقير محمود بن زنكى .

ورُوى أنه كتب رقعة بخطه إلى وزيره خالد بن القيسرانى ، يأمره أن يكتب له صورة مايدعى له «به»[٤] على المنابر ، وكان مقصوده صيانة الخطيب عن الكذب ، ولئلا يقول ما ليس فيه ، فكتب ابن القيسرانى كلاماً ، ودعا له فيه ، ثم قال : وأرى أن يقال على المنبر : اللهم وأصلح عبدك الفقير إلى رحمتك ، الخاضع لهيبتك ، المعتصم بقوتك ، المجاهد فى سبيلك ، المرابط لأعداء دينك ، أبا القاسم محمود بن زنكى ، ابن آقسنقر ، ناصر أمير المؤمنين . فإن هذا مايدخله كذب ولا تزيد[٥] . فكتب نور الدين على رأسها بخطه : مقصودى أن لا يكذب على المنبر ، أنا بخلاف كل ما يقال ، [لا] [٦] أفرح بما لا أعمل .

---

(١) هو : أبو سعيد آق سنقر بن عبد الله ، الملقب قسيم الدولة ، المعروف بالحاجب . جد البيت الأتابكى أصحاب الموصل . قتله تاج الدولة تتش سنة ٤٨٧ هـ/١٠٩٤م . وهو غير آق سنقر البرسقى الذى قتلته الباطنية سنة ٥٢١هـ/١١٢٧م . انظر : وفيات الأعيان ، ج١ ؛ ص٢٤١ ؛ الكامل ، ج٨ ، ص٤٩٤ - ٤٩٥ ؛ البداية والنهاية : ج١٢ ،ص١٥٧ ؛ النجوم ، ج٥ ، ص١٤١ .

(٢) هو : أبو الفتح ملكشاه بن ألب أرسلان محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق ، الملقب جلال الدولة . كان من أحسن ملوك السلاجقة سيرة حتى كان يلقب بالسلطان العادل .حكم من ٤٦٥هـ - ٤٨٥هـ/ ١٠٧٣-١٠٩٢م . وتوفى سنة ٤٨٥ هـ . انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٢٨٣ ؛ الكامل ، ج٨ ، ص٤٨١ - ٤٨٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص١٥١- ١٥٣ . وعن السلاجقة فى غرب آسيا انظر : تاريخ الدول الإسلامية ، ص٣١٣ -٣٢٢ .

(٣) «قبل» فى نسخة ب .

(٤) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٥) انظر : الروضتين ، ج١ق١ ، ص٣٠ .

(٦) مابين الحاصرتين إضافة لاستقامة النص .

الثالث فى صفته : قال ابن خلكان[١] : كان أسمر اللون ، طويل القامة ، حسن الصورة ، ليس بوجهه شعر سوى ذقنه . وقال ابن كثير[٢] : كان حلو العينين ، واسع الجبين ، تركى الشكل ، ليس له لحية إلا فى حنكه . وفى المرآة[٣] : وكان معتدل القامة ، واسع الجبهة ، بلحيته شعرات خفيفة فى حنكه . ونشأ على الخير والصلاح وقراءَة القرآن والعبادة .

الرابع فى سيرته : كان ملكا مهيبا متواضعا ، عليه جَلالة ونور ، [يعظم الإسلام وقواعد الدين ، ويعظم الشرع[٤]] . وقال ابن خلكان[٥] : وكان ملكا عادلا ، زاهدا ، عابدًا ، ورعاً ، مستمسكا بالشريعة ، مائلا إلى أهل الخير ، مجاهدًا فى سبيل الله .

وفى تاريخ الدولتين[٦] : ولقد كان من أولياء الله المؤمنين ، وعباده الصالحين ، وجمع الله له من العقل المتين ، والرأى الثاقب الرصين ، والاقتداء بسيرة السلف الماضيين ، والتشبه بالعلماءِ والصالحين ، والإصغاء لسيرة مَن سلف منهم فى حسن سمتهم ، والاتباع لهم فى حفظ حالهم ووقتهم ، حتى روى فى حديث المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وأسمعه . وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه ؛ حرصا منه على الخير فى نشر السنة بالأداءِ والتحديث ، رجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثًا ، كما جاءَ فى الحديث . فمن رآه شاهد من جلال[٧] السلطنة ، وهيبة الملك مايبهره ، فإذا فاوضه رأى من لطافته وتواضعه مايحيره . يحبُ الصالحين ، ويؤاخيهم ، ويزورُ مساكنهم . لحسن ظنه فيهم ، وإذا احتلم مماليكه أعتقهم ، وزوَّج ذكرانهم بإناثهم ورزقهم ؛ ومتى تكررت الشكاية إليه من أحد من ولاته ، أمره بالكف عن أذى من تظَّلم

---

(١) انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص١٨٨ .

(٢) انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٤ ؛ النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٧١ .

(٣) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٢ .

(٤) «عليه جلالة ونور الإسلام وتعظيم قواعد الشرع» فى نسختى المخطوطة أ ، ب ، والمثبت بين الحاصرتين من البداية والنهاية ج١٢ ، ص٣٠٢ لدقة المعنى .

(٥) انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص١٨٥ .

(٦) انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨٠ - ٥٨١ حيث ينقل العينى بتصرف عن أبى شامة .

(٧) «خلال» فى الروضتين ، ج١ ق٢ ص٥٨١ ، الذى ينقل عنه العينى . ويبدو أن هذا خطأ مطبعى فى الروضتين .

بشكاته ، فمن لم يرجع منهم إلى العدل ، قابله بإسقاط المنزلة والعزل . فلما جمع الله له من شريف الخصال ، يسر له جميع مايقصده من الأعمال ، وسهل على يديه فتوح[1] الحصون والقلاع ، ومكن له فى البلدان والبقاع[2] .

وفى تاريخ ابن العميد : وكان ملكا عظيما ، جليلا ، عابدًا ، سخيا ، كريما ، صالحا ، معدودا من الأبدال[3] . وفى تاريخ ابن العميد : ولما اشتهر من قلة ابتهاجه بالشعر ، لما علم من تزيد الشعراء ، وهى طريقة عمر بن عبد العزيز(رضي الله عنه) زاهد الخلفاء .
قال يحيى بن محمد الوهرانى فى مقامة له ، وقد سئل فى بغداد عن نور الدين : هو سهم للدولة سديد ، وركن للخلافة شديد ، وأمين زاهد[١٨٥و] وملك مجاهد ، تُساعده الأفلاك ، وتعضده الجيوش والأملاك ، غير أنه عرف بالمرعى الوَبيل لابن السبيل ، وبالمحل الجدب[4] للشاعر الأديب ، فما يرزى ولا يعزى ، وما لشاعر عنده من نعمة تجزى ، وإياه عُنى أسامة بن منقذ[5] بقوله :

سلطاننا زاهد والناسُ قد زهدوا [له][6] فكلٌّ على الخيرات مُنكمشُ
أيامُه مثل شهر الصوم طاهرةٌ من المعاصى وفيها الجوعُ والعطشُ

وقال صاحب التاريخ : ماكان يبذل أموال المسلمين إلا فى الجهاد ، ومايعود نفعه على العباد ، وكان كما قيل فى حق عبد الله بن محيريز ؛ وهو من سادات التابعين بالشام . قال يعقوب بن سفيان الحافظ : حدثنا ضمرة عن الشيبانى[7] قال : كان ابن الديلمى من

---

(١) «فتح» فى نسخة ب .
(٢) عن هذه الصفة لنور الدين انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨٣ ، حيث ينقل أبو شامة هذا القول عن ابن عساكر .
(٣) الأبدال : قوم بهم يقيم الله عز وجل الأرض وهم سبعون ؛ أربعون بالشام وثلاثون بغيرها ، لايموت أحدهم إلا قام مكانه آخر من سائر الناس . انظر : الفيروز آبادى : القاموس المحيط ، مادة بدل ، ج٣ ، ص٣٤٤ ؛ ابن عربى : الفتوحات المكية ، السفر الأول ، ص٥٣ ، ط . هيئة الكتاب ، القاهرة ١٩٨٥م .
(٤) «الجديب» فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨٤ .
(٥) هو : أبو المظفر أسامة بن مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى الشيزرى ، مؤيد الدولة مجد الدين ، من أكابر بنى منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعانهم . له تصانيف عديدة فى فنون الأدب . توفى سنة ٥٨٤هـ/ ١١٨٨م . انظر : ترجمته فى الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج١ ، ص٤٩٨ ـ ٥٤٧ ؛ وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٩٥ .
(٦) ما بين الحاصرتين إضافة من الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج١ ، ص٥١٦ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٥٨٤ .
(٧) «ضمرة الشيبانى» فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨٤ .

أنصر الناس لإخوانه ، فذكر ابن محيريز فى مجلسه ، فقال رجل : «كان رجلا بخيلا»[١] ، فغضب ابن الديلمى وقال : كان جوادا حيث يحب الله ، بخيلا حيث تحبون . وأما شعر ابن منقذ فلا اعتبار به ، فهو القائل فى ليلة الميلاد يمدح نور الدين :

فى كلِّ عامٍ للبريَّةِ ليلةٌ	فيها [تُشَبُّ][٢] النارُ بالإيقادِ
لكِنْ لنورِ الدّين مِن دُونِ الوَرى	نارينِ نارُ قِرًى ونارُ جِهادِ
أبدًا يُصَرِّفُها نداهُ وبأسُه	فالعامُ أجمعُ ليلةَ الميلادِ
مَلكٌ له فى كلِّ جِيدٍ منَّةٌ	أَبْهَى من الأَطْواقِ فى الأَجْيادِ
أعلى الملوكَ يدًا وأمْنعُهم حِمًى	وأمَدُّهم كفًّا ببَذْل تلادِ
يعْطِى الجَزيلَ مِن النوالِ تبرُّعًا	مِن غيرِ مَسْألةٍ ولا مِيعادِ
لازالَ فى سَعْدٍ ومُلْكٍ دائمٍ	مادامَت الدُّنيا بغيرِ نفادِ

ولقد أكثر ابن منير[٣] ، وابن القيسرانى[٤] ، والعماد الكاتب وغيرهم من مدح نورَ الدين بالكرم والجود ، «وذلك كله»[٥] يردّ قول الوهرانى[٦] وابن منقذ . على أن ابن منقذ قد رددنا شعره لشعره كما تراه . وإنما الشعراء وأكثر الناس كما قال الله [تعالى][٧] فى وصف قوم : ﴿فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا [مِنْهَا][٨] إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾ .

وما كلّ وقت يتفق العطاء ، ويفعل الله مايشاء .

---

(١) «رجل كان بخيلاً» فى الروضتين عن الحافظ ابن عساكر ، ج١ ق٢ ، ص٥٨٤ .

(٢) «يشب» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨٤ .

(٣) هو : أبو الحسين أحمد بن منير بن أحمد بن مفلح الطرابلسى ، الملقب مهذب الدين . كان شاعرا مجيدا مكثرا هجاءً معارضا للقيسرانى فى زمانه . توفى بحلب سنة٥٤٨هـ /١١٥٣م . انظر : الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج١ ، ص٧٦ - ٩٥ ؛ وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٥٦ .

(٤) ابن القيسرانى : أبو عبدالله محمد بن نصر بن صغير بن داغر المخزومى الخالدى الحلبى ، الملقب شرف الدين . كان هو وابن منير شاعرى الشام فى ذلك العصر . توفى بدمشق سنة ٥٤٨هـ . انظر : الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج١ ، ص٩٦- ١٦٠ . وقد ذكر أبو شامة أشعار كثيرة لهما وللعماد فى مدح نور الدين انظر : الروضتين ، ج١ ق١ ، ص٤٤ - ٥٨ ؛ وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٤٥٨ .

(٥) « ما قليل منه» فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨٥ .

(٦) «المهرانى» فى نسخة ب .

(٧) ما بين الحاصرتين إضافة من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨٥ .

(٨) ما بين الحاصرتين ساقط من نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من سورة التوبة : آية (٥٨) .

الخامس فى شجاعته[١] : كان يقال إنه لم يرُ على ظهر الفَرس أحسن ولا أثبت منه ، وكان حسن اللعب بالأكرة[٢] ، وربما ضربها ، ثم يسوق وراءها ، ويأخذها من الهواء بيده ، ثم يرميها إلى آخر الميدان ، ولم يُرَ جوكانه[٣] يعلو على رأسه ، ولا يرى الجوكان فى يده ؛ لأن الكم ساتر لها . كان شجاعا صبورا فى الحرب ، يضرب به المثل فى ذلك ، وكان يقول : قد تعرضت للشهادة غير مرة . فقال له يوما الفقيه قطب الدين النيسابورى : بالله يامولانا[لا] [٤] تخاطر بنفسك ؛ فإنك لو قتلت قتل جميع من معك ، وأخذت البلاد . فقال : أسكت ياقطب الدين ، من هو محمود؟! [و][٥] من كان يحفظ البلاد قبلى؟! الله الذى لا إله إلا هو . قال : فبكى من حضر . وكان إذا حضر الحرب شد تركاشين[٦] ، وحمل قوسين ، وباشر الحرب بنفسه ، وشجاعته ظاهرة فى غزواته وفتوحاته على ماذكر فى السنين المتقدمة .

السادس فى ورعه وزهده : وقال ابن الأثير فى تاريخه[٧] : قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين من قبل الإسلام إلى يومنا هذا ، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز (رضى الله عنهم) [١٨٥ظ] ملكًا أحسن سيرة من نور الدين ، ولا أكثر تحريا للعدل والإنصاف منه .

وقال الحافظ ابن عساكر[٨] (رحمه الله) : وكان لا يأكل ولايلبس ولا يتصرف فيما يخصه إلا من مِلك اشتراه من سهمه من غنائم الكفار ، وكان يُحضر الفقهاء ويستفتيهم فيما يحل له من تناول الأموال ، فأفتوه من جهات عينوها ، فلم يتعد إلى غيرها ، ولم

---

(١) انظر : الباهر ، ص١٦٨ - ١٦٩ ؛ لبداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٠ ؛ الروضتين ، ج١ ق١ ، ص١٨ - ١٩ .

(٢) هى : لعبة الكرة وهى اللعبة المعروفة الآن باسم Polo . وعن تعريف هذه اللعبة ووصف هيئة السلطان للعب بالميدان الأكبر . انظر : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٤٧ ؛ السلوك ، ج١ ق٢ ، ص٤٤٤ .

(٣) الجوكان : هو المحجن الذى تضرب به الكرة ويعبر عنه بالصولجان . انظر : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٤٥٨ ؛ السلوك ، ج١ ق٢ ، ص٤٣٥ .

(٤) مابين الحاصرتين ساقط من أ ، والمثبت من ب .

(٥) مابين الحاصرتين ساقط من أ ، والمثبت من ب .

(٦) مثنى تركاش ؛ وهو لفظ فارسى الأصل ، ومعناه الكنانة أو الجعبة التى توضع فيها النشاب . انظر Dozy : Supp. Dict. Ar. ؛ السلوك ، ج١ ق٢ ، ص٣٧١ .

(٧) انظر : الباهر ، ص١٦٣ حيث ينقل العينى عنه بتصرف ، وانظر أيضا : الكامل ، ج١٠ ، ص٥٦ - ٥٧ .

(٨) ورد هذا النص فى الباهر نقلا عن ابن عساكر ، ص ١٦٤ ؛ الروضتين ، ج ١ ق١ ، ص ١١ .

يلبس حريرا قط ، ولا ذهبا ولا فضة ، ومنع من بيع الخمر فى بلاده ، وكان يَحد شاربها ، والناس عنده سواء فى ذلك ، وكان كثير الصيام ، وله أوراد فى الليل والنهار ، وكان يقدم أشغال المسلمين عليها ، ثم يتم أوراده [١] .

وكان قد تزوج الخاتون [٢] بنت معين الدين[أُنر][٣] ، فطلبت منه زيادة نفقة ، وقال : قد فرضتها مايكفيها ، والله لا أخوض جهنم بسببها ، وهذه الأموال ليست لى ، وإنما هى للمسلمين ، وأنا خازنهم ، فلا أخونهم فيها ، ولى بحمص ثلاثة [٤] دكاكين ، اشتريتها من الغنائم ، قد وهبتها لها ، وكان يحصل منها قدر يسير[٥] .

وكان أول من بنى دار العدل[٦] بدمشق ، وسماها دار الكشف ؛ وسببه أن الأمراء لما قدموا دمشق اقتنوا الأملاك ، واستطالوا على الناس خصوصاً أسد الدين شيركوه[٧] ، وكثرت الشكاوى إلى القاضى[كمال الدين] [٨] ، فلم يقدر على الإنصاف من أسد الدين ، فشكوا إلى نور الدين ، وأمر ببناء دار العدل ، فأحضر أسد الدين شيركوه أصحابه

---

(١) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٣ .

(٢) هى : الست خاتون عصمت الدين بنت معين الدين أُنر . توفيت سنة ٥٨١هـ /١٠٨٥م . انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٩ ؛ الشذرات ، ج٤ ، ص٢٧٢ .

(٣) «أنز» فى الأصل ؛ الكامل ، ج٩ ، ص٣٦٤ ؛ الشذرات ، ج٤ ، ص١٣٨ . أما مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٢٢-١٢٣ فقد ورد الاسم «أبر» . والمثبت بين الحاصرتين من ذيل تاريخ دمشق ، ص٢٨٨-٣٠٦ ؛ الباهر ، ص٥٨ . وهو : معين الدين أُنر بن عبد الله ، تولى منصب الاسفهسلار بدمشق زمن النوريين سنة ٥٣٢هـ/١٠٣٨م ، ثم ارتفع شأنه حتى حاصر نور الدين دمشق ، فتصالحا وتزوج نور الدين ابنته . توفى سنة ٥٤٤هـ/١١٤٩م .

(٤) «ثلاث» فى نسختى المخطوطة أ ، ب والصحيح لغويا ماأثبتناه .

(٥) عن معاملة نور الدين لزوجته انظر : الباهر ، ص١٦٤ حيث ينقل عنه العينى باختصار .

(٦) عن دار العدل بالتفصيل انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٤ ـ ١٩٥ . وعن جلوس السلطان بدار العدل لخلاص المظالم انظر : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٤٤ .

(٧) هو أبو الحارث شيركوه بن شاذى بن مروان ، الملك المنصور ، أسد الدين ، عم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . ولاه العاضد الفاطمى الوزارة بمصر سنة ٥٦٤هـ/١٠٦٩م ، فأقام بها شهرين وخمسة أيام . ثم توفى فجأة فى نفس السنة ، فتولى الوزارة صلاح الدين من بعده . انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص١٥ ـ ١٦ ؛ الباهر ، ص٤٣ ـ ٤٤ ؛ وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٤٧٩ ؛ الروضتين ، ج١ق١ ، ص٤٠٥ ـ ٤٠٦ .

(٨) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح من الباهر . وانظر ماسيأتى ص١٥٧ . وهو : القاضى كمال الدين أبو الفضل محمد بن أبى محمد عبدالله بن أبى أحمد القاسم الشهرزورى ، الفقيه الشافعى . بنى مدرسة بالموصل للشافعية . كان فى خدمة نور الدين محمود بعد والده عماد الدين زنكى . كان فقيها أديبا شاعرا . توفى بدمشق سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦ م . انظر : الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج٢ ، ص٣٢٣ ـ ٣٢٧ ؛ وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٢٤١ ـ ٢٤٤ ؛ طبقات الشافعية ، ج٤ ، ص٧٤ ـ ٧٦ .

وديوانه ، وقال : إن نور الدين مابنى هذه الدار إلا بسببى وحدى ؛ لينتقم منى ، وإلا فمن هو الذى يمتنع على كمال الدين ، والله لإن أحضرت إلى دار العدل بسبب واحد منكم لأصلبنه ، فإن كان بينكم وبين أحد منازعة فأرضوه مهما أمكن ، ولو أتى على جميع مافى يدى ، فإن خروج أملاكى من يدى أهون من أن يرانى نور الدين بعين ظالم ، ويسوى بينى وبين آحاد العوام ، ففعلوا وأرضوا الخصوم . فجلس نور الدين فى دار العدل ، وقال للقاضى : ما أرى أحدا يشكو من شيركوه ، فأخبره الخبر ، فسجد وقال : الحمد لله الذى جعل أصحابنا ينصفون من نفوسهم قبل حضورهم عندنا .

وكان نور الدين يقعد فى دار العدل فى كل أسبوع أربعة أيام أو خمسة [١] ، ويحضر عنده العلماء والفقهاء ، ويأمر بإزالة الحاجب والبواب ، ويُوصل إليه الشيخ الضعيف والعجوز الكبيرة ، ويسأل الفقهاء عما أشكل عليه .

وكان إذا مات أحد من جنده أو قتل وله ولد ؛ فإن كان كبيرا أقر الإقطاع عليه ، وإن كان صغيرا رتب معه من يتولى أمره إلى أن يكبر[٢] .

وماكان أحد من الأمراء يتجاسر أن يجلس عنده ؛ من هيبته[٣] ، فإذا دخل عليه فقير أو عالم أو رب خرقة [٤] قام ومشى إليه ، وأجلسه إلى جانبه ، ويعطيهم الأموال ، فإذا قيل له فى ذلك ، يقول : هؤلاء لهم حق فى بيت المال ، فإذا قنعوا منا ببعضه ، فلهم المنة علينا [٥] .

وأسقط ماكان يؤخذ من دار بطيخ[٦] ، وسوق الخيل والغنم ، والكيالة ، وجميع المكوس[٧] . وعاقب على شرب الخمر .

---

(١) «وكان يجلس فى الأسبوع يومين» كذا فى الباهر ، ص١٦٨ ويوافق العينى فى روايته ما ورد فى المرآة ، ج٨ ، ص١٩٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٩ .

(٢) انظر : الباهر ، ص١٦٩ . حيث يوضح نظام الإقطاع فى دولة نور الدين ؛ مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢٨٠ حيث تعليق د . الشيال على ذلك .

(٣) عن وقاره وهيبته ، انظر الباهر ، ص١٧٢ - ١٧٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠١ .

(٤) هم المتصوفة . والخرقة : هى خرقة التصوف . وهى مايلبسه المريد من يد شيخه الذى يدخل فى إرادته ويتوب على يده . انظر : كشاف اصطلاحات الفنون ، ج٢ ، ص٢٢٤ .

(٥) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٢ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠١ .

(٦) دار البطيخ : محلة ببغداد كانت تباع فيها الفواكه ، توجد فى درب الأساكفة بجانب درب الخير ، ثم نقلت إلى الكرخ ، انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥١٧ ؛ الدارس ، ج٢ ، ص٣١٤ .

(٧) عن إبطال نور الدين للمكوس انظر : ذيل تاريخ دمشق ، ص٣٢٩ ؛ الباهر ، ص١٦٦ ؛ مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢٨٠ - ٢٨١ .

وكان كثير المطالعة فى الكتب الدينية ، متبعا الآثار النبوية ، مواظبا على الصلوات الخمس فى الجماعات ، عاكفا على تلاوة القرآن ، حريصا على فعل الخير ، عفيف البطن والفرج ، مقتصدا فى الإنفاق ، متحريا فى المطعم والمشرب والملبس . لم تسمع منه كلمة فحش قط ، لا فى رضاه ولا فى غضبه ، هذا مع ماجمع الله فيه من العقل المتين ، والرأى الصائب الرصين ، والاقتداء بسنة السلف الصالحين[١٨٦و] حتى روى حديث المصطفى [وأسمعه][١] ، وكان قد استجيز له ممن سمعه وجمعه ؛ حرصا منه على الخير ، ونشر السنة والتحديث ، ورجاء أن يكون ممن حفظ على الأمة أربعين حديثاً ، كما جاء في الحديث . وكان يكتب خطاً حسنا ، وكان عارفًا بمذهب أبى حنيفة (رضي الله عنه) ، وليس عنده تعصب على أحد ، والمذاهب كلها سواء .

وقال ابن الأثير[٢] : وكان يوما يلعب بالأكرة فى ميدان دمشق ، فجاء رجل ، فوقف بإزائه ، وأشار إليه ، فقال للحاجب : اسأله ما حاجته ، فسأله ، فقال : لى مع نور الدين حكومة ، فرمى الصولجان من يده ، وجاء إلى مجلس القاضى كمال الدين بن الشهرزورى ، وتقدمه الحاجب يقول للقاضى : قد قال لك : لا تنزعج واسلك معه ماتسلكه مع آحاد الناس ، فلما سوى بينه وبين خصمه ، وتحاكما ، فلم يثبت للرجل عليه حق ، وكان يدعى مُلكا فى يد نور الدين ، فقال نور الدين للقاضى والعدول : هل ثبت له علىّ حق؟ قالوا : لا ، قال : فاشهدوا أنى قد وهبت له هذا المُلك ، وقد كنت أعلم أنه لاحق[له][٣] عندى ، وإنما حضرت معه ؛ لئلا يقال عنى : إنى دُعيت إلى مجلس الشرع فأبيت[٤] .

---

(١) «واسمه» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والصحيح ما أثبتناه .

(٢) انظر : الباهر ، ص ١٦٦ ـ ١٦٧ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٩ .

(٣) «لك» : فى الأصل : ويبدو أنه خطأ من الناسخ ويؤيد ذلك الضمير السابق واللاحق فى الكلام ، انظر : الباهر ، ص ١٦٦ - ١٦٧ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٩ .

(٤) انظر هذه القصة عن عدله فى الكامل ، ج١٠ ، ص٥٧ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٣ ؛ الروضتين ، ج١ق١ ، ص١٥ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٩ .

قال[١] : ودخل يوما إلى خزائنه ، فرأى مالا كثيرا ، فقال : من أين هذا؟ قال خازنه : بعث به القاضى كمال الدين من فائض الأوقاف ، فقال : ردُّوه إليه ، وقولوا له : إن رقبتى دقيقة لا [تقدر][٢] على حمله غدًا ، وأنت رقبتك غليظة ، تقدر على حمله .

وكان له برسم نفقته الخاص فى كل شهر من الجزية مايبلغ ألفى قرطاس[٣] ، يصرفها فى كسوته ، وملبوسه ، ومأكوله ، حتى أجرة خياطه وجامكية طباخه ، ويستفضل منها ما يتصدق به فى آخر الشهر . ويقال : إن قيمة القراطيس مائة وخمسون درهما ، وقيل : كل ستين قرطاسا أو سبعين بدينار [٤] .

قال ابن الأثير[٥] : وماكان يصل إليه من هدايا الملوك وغيرهم يبعثه إلى القاضى كمال الدين ، يبيعه ويعمر به المساجد المهجورة ، ولايتناول منه شيئا .

وقال ابن الجوزى[٦] : وكان يتدين بطاعة الخلافة ، والطرق آمنة فى أيامه ، والمحامد كثيرة ، وكان يميل إلى التواضع ، ويحب العلماء وأهل الدين ، وقد كاتبنى مرارًا . وقد صنف له كتابا سماه «الفخر النورى»[٧] فيه أحاديث العدل والجهاد ومواعظ وغير ذلك . وصنف نور الدين أيضا كتابا فى الجهاد ، وهو بدمشق .

وقال السبط(رحمه الله) [٨] : كانت له عجائز بدمشق وحلب ، وكان يخيط الكوافى ، ويعمل السكاكر[٩] للأبواب ، وتبيعها العجائز ، ولا يدرى من أخذ ، فكان يوم يصوم يفطر على أثمانها . وحكى شرف الدين يعقوب ولد المبارز المعتمد أن فى دارهم سكّرة من عمل نور الدين ، وهى باقية إلى سنة خمسين وستمائة ، يتبركون بها . وفى المرآة[١٠]

---

(١) القول لابن الأثير حيث يستمر العينى فى الاقتباس منه . انظر : الباهر ، ص ١٦٧ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٣ ؛ الروضتين ، ج١ق١ ، ص١٦ -١٧ ؛ مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢٨١ .

(٢) « أقدر» فى نسخة أ وماأثبتناه من نسخه ب .

(٣) «قرطاش» فى نسخة ب .

(٤) عن الأوقاف والصدقات انظر : الروضتين ، ج١ق١ ، ص٢٦ ، حيث ينقل أبو شامة عن العماد الأصفهانى .

(٥) بالرجوع إلى ابن الأثير ، لم نجد النص المذكور وإنما ورد فى مصادر أخرى . انظر هذا القول فى الروضتين ، ج١ق١ ، ص٢٦ ، حيث ينقل أبو شامة عن العماد الأصفهانى .

(٦) انظر : المنتظم ، ج١٨ ، ص٢١٠ ؛ انظر أيضًا : المرآة ، ج٨ ، ص١٩٦-١٩٧ .

(٧) انظر مؤلفات ابن الجوزى كما أوردها السبط فى المرآة ، ج٨ ، ص٣١٢- ٣١٦ ؛ هدية العارفين ، ج١ ، ص٥٢٠- ٥٢٣ .

(٨) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٧ حيث ينقل العينى عنه بتصرف .

(٩) «الكساكير» فى المرآة ، ج٨ ، ص١٩٧ .

(١٠) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٧- ١٩٩ .

قال : حكى لى رجل صالح من أهل حرّان[١] قال : لما قُتل أتابك زنكى على قلعة جعبر[٢] ، وملك نور الدين قلعة حلب ، تصدَّق وأزال المكوس ورد المظالم وأنا حديث عهد بعرس ، وقد ركبنى دين ، فقالت لى زوجتى : قد سمعتُ أوصاف نور الدين ، وإحسانه إلى الناس ، فلو قصدته وأنهيت إليه حالك[٣] لقضى دينك ، قال : فخرجت من حرّان وليس معى سوى درهمين ، فتركت عندها درهمًا ، وتزودت بدرهم ، وأتيت الفرات وقت القائلة ، فعبرت جسر منبج[٤] ، وأبعدت عن أعين الناس ، وخلعت ثيابى ، ونزلت فتوضأت للصلاة ، وصليت [١٨٦ظ] ركعتين ، وإذا إلى جانبى شخص ، ملفوف فى عباءة ، فقال لى : يافقير من أين أنت؟ قلت : من حرّان . قال : وإلى أين؟ قلت : إلى حلب ، قال : وماتصنع فيها؟ فقلت : أنا فقير مديون ، وقد بلغنى إحسان نور الدين إلى الخلق ، فقصدته لعله يقضى دينى ، فقال : وأين أنت من نورالدين؟ ومن يوصلك إليه؟ كم عليك دين؟ قلت : خمسون دينارا ، فأخرج يده من العباءة ، وبحث [فى][٥] الرمل ، وأخرج منه قرطاسا وألقاه إلىّ ، وقال : خذ هذا فاقض به دينك ، وارجع إلى أهلك . قال : فأخذته فعددته ، وإذا به خمسون دينارا ، فالتفتُ فلم أره ، فبهتُ وبتُ فى مكانى [أتفكر][٦]هل أرجع إلى حران ، أم أمضى إلى حلب ، وترجّح عندى المضى إلى حلب ، وقلت فى نفسى : فهذه أوفى بها دينى ، فمن أين أتقوّت ؟ .

ثم قمت وقصدت طريق حلب ، فبتُ بباب بزاعة[٧] ، وقمت فى الليل ، فأصبحت تحت قلعة حلب وقت الصباح ، وقعدت تحت القلعة ، وإذا قد فتح بابها ، ونزل نور الدين فى أبهة عظيمة ، والأمراء بين يديه ، حتى جاء إلى الميدان ، فلما أراد أن يدخل ، نظر إلىّ فرمقنى طويلا ، وأشار إلى خادم بين يديه ، فجاء الخادم إلىّ ، وقال : قم ، فأخذنى ،

---

(١) حران : قصبة ديار مضر . وهى على طريق الموصل والشام والروم . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٣٠ـ ٢٣٢ .
(٢) جعبر : هى على الفرات بين بالس والرقة ، قرب صفين . وكانت قديمًا تسمى دوسر . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٨٤ .
(٣) «ذلك» فى نسخة ب .
(٤) منبج : بلد قديم ، بين الفرات وحلب . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٦٥٤ ـ ٦٥٥ .
(٥) مابين الحاصرتين إضافة للتوضيح من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٨ .
(٦) «اذكر» فى الأصل والمثبت من المرآة ، وهو الأصح .
(٧) بزاعة : هى بلدة من أعمال حلب ، بين منبج وحلب . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٦٠٣ .

وصعد بى [إلى][(١)] القلعة ، قال : فندمت على مجيئى حلب ، وقلت : ياليتنى قبلت من ذلك الرجل الصالح ، ولعل نور الدين يتوهم أني إسماعيلى .

قال : فلما كان بعد ساعة عاد نور الدين إلى القلعة ، وجلس فى الإيوان[(٢)] ، وَمُدَّ سماط عظيم ، ولم يمد يده إليه ، وإذا قد فتح باب عن يمينه صغير ، وخرج منه خادم ، وعلى يده طبق خوص ، مغطى بمنديل ، فوضعه بين يديه ، وفيه غضارة[(٣)] عليها رغيف ، فتأملتها من بعيد ، وهى ترِدُه ، فتناول منها شيئا يسيرا ، وأكل الناس وأكلت معهم ، وصرف الناس ، وبقيت قاعدا خائفا ، فأومأ إلى ، فقمت وأتيت إلى بين يديه ، وأنا خائف أرعد ، فقال : من أين أنت؟ قلت : من حران ، قال : وماالذى أقدمك ؟ قلت : على دين وبلغنى إحسانك إلى الناس ، فقصدتك لتقضى دينى ، قال : وكم دينك ؟ قلت : خمسون دينارا ، قال : ما أعطاك صاحب العباءة أمس على الفرات خمسين دينارا ؟ هل لا رجعت إلى أهلك ، وأنت عليك خرقة الفقر ، وإذا حصل القوت للفقير فما[(٤)] يطلب شيئا آخر . ثم قال : مايضيع تعبك ، ورفع سجادته ، وكانت زرقاء ، وإذا بقرطاس مثل القرطاس الذى أعطانى صاحب العباءة . قال : فبكيت بكاء كثيرا ، وقلت : لا آخذه حتى تخبرنى بصاحب العباءة ، قال : هو أمر لا يلزمك ، فقلت : يامولاى أنا غريب وضيف ولى حرمة ، فبالله عليك أخبرنى ، فقال : احلف لى أنك لا تتحدث بهذا فى حال حياتى ، فحلفت له ، فكشف [القباء][(٥)] ، وإذا بتلك العباءة على جسده ، وقال : أنا ذاك الفقير . فقلت : بالله الذى أعطاك هذه المنزلة بأى شئ وصلت إلى هذا ، فقال : بقوله تعالى :﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ [(٦)] .

قال : لما التقينا بالإفرنج على حارم[(٧)] ، ونصرنا الله عليهم ، وعدت إلى حلب ،

---

(١) مابين الحاصرتين ساقط من أ ومثبت من ب .
(٢) «الديوان» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٨ .
(٣) الغضارة : صحفة من الطين يوضع فيها الطعام . انظر : ابن منظور ، لسان العرب ، مادة «غضر» ، ج٦١ ، ص٣٢٧ .
(٤) «فلا» فى نسخة ب .
(٥) «العباءة» فى الأصل . والمثبت من المرآة ، ج٨ ، ص١٩٩ حيث ينقل عنه العينى .
(٦) سورة الأنبياء : آية (١٠١) .
(٧) هى حصن حصين وكورة جليلة تجاه أنطاكية ، وهى من أعمال حلب . انظر : معجم البلدان ؛ ج٢ ، ص١٨٤ ؛ وعن فتح نور الدين لحارم انظر : الباهر ، ص١٢٢ ـ ١٢٦ ؛ الكامل ، ج٩ ، ص٤٦٧ ـ ٤٦٩ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٣٣٩-٣٤٣ .

التقانى فى الطريق شاب حسن الوجه ، طيب الرائحة ، فسلم على وقال : يامحمود أنت من الأبدال ، وقد أعطاك الله الدنيا ، فاشتر بها الآخرة ، وسله مهما شئت ، ثم علمنى كلمات وقال : إذا طلبت أمراً فاذكرها ، فقلت له : بالله من أنت؟ فقال : أنا أخوك الخضر ، ثم غاب عنى .[١٨٧و] فإذا عزمت على أمر ، أو أردت أن أذهب إلى مكة أو إلى المدينة أو إلى أى بلد شئت ، لبست العباءة ، وتكلمت بتلك الكلمات ، وأغمض عينى وما أفتحها إلا وأنا فى تلك البقعة .

قال السبط[١] أيضا : وحكى لى نجم الدين الحسن بن سلام ،[٢] أحد عدول دمشق وأعيانها ، وكان صديقنا وصاحبنا(رحمه الله) قال : لما ملك الأشرف[٣] بن العادل دمشق ، وبنى مسجد أبى الدرداء[٤] فى القلعة ، وأفرده عن الدور ، قال : وماصلى فيه أحد منذ زمان أبى الدرداء إلى الآن . فقلت له : الله الله يامولانا ، مازال نور الدين منذ ملك دمشق يصلى فيه الصلوات الخمس ، فقال : من أين لك هذا؟ قلت : حدثنى والدى ـ وكان من أكابر عدول دمشق ، وكان أبوه يلقب بالسعيد ـ أنه لما نزلت الفرنج على دمياط[٥] بعد وفاة أسد الدين شيركوه(رحمه الله) وضايقوها وأشرفت على الأخذ ، فأقام نور الدين عشرين يوما صائما لا يفطر إلا على الماء ، فضعف وكاد يتلف[٦] . وكان مهيباً لا يتجاسر أن يخاطبه أحد فى ذلك[٧] ، وكان له إمام يقال له يحيى ، ضرير ، يصلى به فى هذا المسجد ، وكان يقرأ عليه القرآن ، وله عنده حرمة ، فاجتمع إليه خواص نور الدين وخدمه ، وقالو [له] [٨] : قد خفنا على السلطان ، ونحن من هيبته ما نقابله[٩] ، وأنت تدل

(١) يستمر العينى فى النقل بتصرف عن المرآة ، ج٨ ، ص١٩٩ .
(٢) هو : النجم بن سلام ، متولى ديوان دمشق بالقلعة بعد الشمس بن النفيس . توفى سنة ٦٤٣هـ/ ١٢٤٥م . انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٧٥ .
(٣) هو : الملك الأشرف موسى بن العادل أبو بكر بن أيوب . ملك دمشق بعد ابن أخيه الناصر داود سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م . وذلك بالاتفاق مع أخيه الملك الكامل محمد . توفى سنة ٦٣٥ هـ/١٢٣٨م . انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٣٣٠ ـ ٣٣٦ .
(٤) هو : عويمر بن زيد ، أو ابن عامر ، أو ابن مالك ، بن عبد الله بن قيس بن عائشة بن أمية ، أسلم يوم بدر ، توفى سنة ٣٢هـ/٦٥٢م ، انظر السلمى : طبقات الصوفية ، ص٥٧ ـ ٥٨ ، حاشية(و) . والمسجد من المقامات والمزارت فى قلعة دمشق . انظر : خطط الشام ، ج٦ ، ص١٥٧ ؛ وانظر أيضاً : ابن قتيبة : المعارف ص٢٦٨ ، تحقيق ثروت عكاشة ، القاهرة ١٩٦٠م .
(٥) عن نزول الفرنج على دمياط انظر : ماسبق فى أحداث سنة ٥٦٥هـ ؛ انظر أيضا : الباهر ، ص١٤٣ ـ ١٤٤ .
(٦) « أن يتلف» فى نسخة ب .
(٧) «لايتجاسر أحد أن يخاطبه فى ذلك » فى نسخة ب .
(٨) مابين الحاصرتين ساقط من أ ، والمثبت من نسخة ب .
(٩) «لانقابله» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٠ .

عليه ، ونحن [نسألك][1] أن تسأله أن يتناول شيئا مما يحفظ به قوته ، فقال : نعم إذا صليت به غداة الفجر سألته . قال : فلما كان فى تلك الليلة ، رأى الشيخ يحيى فى المنام رسول الله (ﷺ) يقول له : يايحيى بشر نور الدين محمود برحيل الفرنج عن دمياط ، قال : فقلت : يارسول الله ربما لا يصدقنى ، وأريد له أمارة ، قال : قل له بعلامة يوم حارم ، قال : فانتبه يحيى وهو ذاهب العقل ، فلما صلى نور الدين خلفه الفجر وسلم ، شرع [يدعو ، ففاته][2] أن يتحدث معه ، فقال له نور الدين : يايحيى ، قال : لبيك يامولانا ، قال : تحدثنى أو أحدثك ، قال : فارتعد يحيى وخرس ، فقال له : أنا أحدثك ؛ رأيت النبى (ﷺ) فى هذه الليلة ، وقال لك : كذاوكذا ، فقال : نعم يامولانا ، فقال : يامولانا مامعنى قوله عليه السلام : بعلامة يوم حارم؟ فقال له نور الدين : لما التقى الصفان يوم حارم ، خفت على الإسلام ؛ لأنى رأيت من كثرة الفرنج ما هالنى ، فانفردت عن العسكر ، ونزلت فمرغت وجهى على التراب ، وقلت : ياسيدى مَنْ محمود فى الدين؟ الدين دينك ، والجند جندك ، وهذا اليوم هو ، فافعل مايليق بكرمك . قال : فنصرنا الله عليهم[3] .

السابع : فيما فعله من الخيرات ومابناه من بيوت العبادات وغيرها[4] :

وكان نور الدين (رحمه الله) بنى المدائن ، وأوقف الأوقاف ، وبنى سور دمشق والمساجد والمدارس ، ووقف أوقافا على المرضى والمجانين ، وبنى المكاتب لليتامى ، وبنى المارستان[5] فى دمشق .

---

(١) «نسأله» فى نسختى أ ، ب . والمثبت من مرآة الزمان ج ٨ ، ص ٢٠٠ ، حيث ينقل عنه العينى ، ويتمشى مع السياق .

(٢) مابين الحاصرتين إضافة يحتاجها النص من المرآة ، ج٨ ، ص٢٠٠ .

(٣) إلى هنا ينتهى النص المنقول بتصرف من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٠ .

(٤) عن تفاصيل هذه المنجزات انظر : الباهر ، ص ١٧٠ - ١٧٢ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ص١٩٢ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٨ .

(٥) المارستان : مستشفى لمعالجة المرضى وإقامتهم . وهو لفظ فارسى مركب من «بيمار» أى مريض و«ستان» أى محل . ويقال بيمرستان وبيمارستان . وأول من بنى المارستان فى الإسلام ودار المرضى الوليد بن عبد الملك . وكان بدمشق ثلاث مستشفيات أو بيمارستانات الأول أنشأه نور الدين محمود بن زنكى ، كما أنشأ غيره فى البلاد . وكان بيمارستان دمشق أعظمها وأكثرها خرجا ودخلا . انظر : خطط الشام ، ج٦ ، ص١٦١ - ١٦٢ .

ووقف على سكان الحرمين ، وأقطع أمراء العرب القطائع ؛ لئلا يتعرضوا للحاج . وأمر بإكمال سور المدينة ، وأجرى إليها العين التى تأخذ من أُحُد من عند قبر حمزة(رضي الله عنه) . وبنى الرُبط والخانات والقناطر ، وجدد كثيرا من قنى السبيل ، ووقف كتبا كثيرة فى مدارسه . وأول من بنى دار العدل بدمشق ، وقد ذكرناه .

وبنى جامعا فى الموصل ، وفوض عمارته إلى الشيخ عمر المُلا[١٨٧ظ] ، وكان من الصالحين ، وإنما سمى المُلا ؛ لأنه كان يملأ تنانير الآجر ، ويأخذ الأجرة فيتقوت بها ، وكان لايملك شيئا من الدنيا ، وكان عالما بفنون العلوم ، وجميع الملوك والعلماء والأعيان يزورونه ويتبركون به . وصنف كتاب سيرة النبى(ﷺ) . وكان يعمل بمولد رسول الله(عليه السلام) فى كل سنة ، ويحضر عنده صاحب الموصل والأكابر ، وكان نور الدين يحبه ويكاتبه .

وكان مكان الجامع النورى[١] خربة واسعة ، ماشرع أحد فى عمارتها إلا وقصر عمره ، فأشار عمر على نور الدين بعمارتها جامعا ، فاشتراها ، وأنفق عليها أموالا كثيرة ، يقال ستون ألف دينار ، ويقال ثلثمائة ألف دينار ، فتم فى ثلاث سنين . ولما تم ، جاء نور الدين إلى الموصل ، وهى المرة الأخيرة ، فصلى فيه ، ووقف عليه قرية بالموصل ، ورتب فيه الخطيب والمؤذنين والحصر والبسط وغيرها . ثم دخل عمر المُلا على نور الدين وهو جالس على دجلة ، فوضع بين يديه أوراق الحساب والخرج ، وقال : يامولانا أشتهى أن تنظر فيها ، فقال له نور الدين : ياشيخ نحن عملنا هذا لله ، دع الحساب إلى يوم الحساب ، ثم رمى بالأوراق فى الدجلة [٢] .

---

(١) يقصد جامع الموصل السابق ذكره . وعن قصة بناء الجامع النورى بالموصل انظر : الباهر ، ص١٧٠ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٥ .

(٢) انفرد السبط بذكر هذه الحادثة . انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٥ .

وقال ابن الأثير[١] : وبنى جامع حماة[٢] على العاصى[٣] ، وهو من أحسن الجوامع . قال[٤] : ووقع بيد نور الدين إفرنجى[٥] من أكابر الملوك ، ففدى نفسه بمال عظيم ، فشاور نور الدين أمراءه ، فأشاروا ببقائه فى الأسر ؛ خوفا من شره ، فأرسل إليه نور الدين فى السر ، يقول : أحضر المال ،فأحضر ثلثمائة ألف دينار ، فأطلقه نور الدين ، فعند وصوله إلى مأمنه مات . وطلب الأمراء سهمهم من المال ، فقال نور الدين : ما تستحقون منه شيئا ؛ لأنكم نهيتم عن الفداء ، وقد جمع الله لى الحُسْنَيَيْن : الفداء ، وموت اللعين وخلاص المسلمين منه . فبنى بذلك المال مارستان دمشق ، ومدرسة ودار الحديث بدمشق[٦] ، ووقف عليها الأوقاف .

قال ابن الأثير[٧] : وبلغنى أن أوقاف نور الدين فى أبواب البر بالشام فى وقتنا هذا ، وهو سنة ثمان وستمائة ، كل شهر تسعة آلاف دينار صورِية[٨] ، ليس فيها مِلك ، بل حق ثابت بالشرع باطنا وظاهرا ، صحيح الشراء .

وقال السبط[٩] : أما فى زماننا هذا فقد تشعَّث وقفه ، وتغيرت صفاته ، ولم يبق منه إلا آثاره وبركاته .

(١) انظر : الباهر ، ص١٧٠ ، حيث ينقل العينى عنه بتصرف ؛ المرآة ، ج٨ ، ص١٩٥ ؛ الروضتين ، ج١ق١ ، ص ٢١ .
(٢) جامع مفرد مشرف على نهرها ، المعروف بالعاصى . عليه عدة نواعير تستقى الماء من العاصى فتسقى بساتينها وتصب إلى بركة جامعها . انظر : معجم البلدان ج٢ ، ص٣٣١ ، مادة «حماة» ؛ خطط الشام ، ج٦ ، ص٦١ .
(٣) اسم نهر حماة وحمص ، مخرجه من بحيرة قَدَسْ ومصبه فى البحر قرب أنطاكية . والعاصى ضد الطائع . وقد سمى بذلك لأن أكثر الأنهُر تتوجه ذات الجنوب ، وهو يأخذ ذات الشمال . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٥٨٨ .
(٤) القول هنا ليس لابن الأثير . فقد ذكر ابن الأثير ، أن نور الدين أطلق بيمند صاحب أنطاكية بمال جزيل أخذه منه ، وأسرى كثيرة من المسلمين أطلقهم» . انظر : الباهر ، ص ١٢٥ ؛ الكامل ، جـ ٩ ، ص ٤٦٩ ، أحداث سنة ٥٥٩هـ . أما عن تفصيل هذه النادرة وارتباطها ببناء مارستان دمشق ، انظر : مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص ١٩٦ - ١٩٧ ؛ الروضتين ، جـ ١ ق١ ، ص٢١ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص ٣٠٠ .
(٥) هو : البرنس بوهيموند الثالث صاحب أنطاكية . ويطلق عليه العرب بيمند . وقد أسره نور الدين فى معركة حارم مع عدة من ملوك الفرنج وذلك فى سنة ٥٥٩ هـ/ ١١٦٤م . انظر : الباهر ، ص ١٢٥ ؛ حسين مؤنس : نور الدين محمود ، ص ٢٩٤ - ٢٩٧ .
(٦) عن مدرسة ودار الحديث النورية بدمشق انظر : الدارس ، ج١ ، ص٦٠٨ - ٦١١ ؛ الباهر ، ص ١٧٢ .
(٧) نقل العينى هذا النص بتصرف من الباهر ، ص١٧٢ . انظر أيضًا : مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ١٩٥ ؛ الروضتين ، ج١ق١ ، ص٢٣ .
(٨) الدنانير الصورية : هى الدنانير المسكوكة التى يؤتى بها من البلاد الإفرنجية والروم ، وهى مشخصة ، على أحد وجهيها صورة الملك الذى تضرب فى زمنه . ويعبر عنها بالإفرنتية . انظر : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٣٧ .
(٩) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٥ .

وقال [العماد](١) : فى سنة وفاته أكثر من الخيرات والصدقات والأوقاف ، وعمارة المساجد المهجورة ، وإسقاط كل ما كان فيه من الحرام ، فما أبقى سوى الجزية والخراج ، وما يحُصَّل من قسمة الغلات على قويم المنهاج . قال : وأمرنى[بكتابة](٢) المناشير لجميع أهل «البلاد»(٣) ، فكتبت أكثر من ألف منشور . وحسِبنا ماتصدق به فى تلك الشهور ، فكان (٤) ثلاثين ألف دينار .

وقال العماد(٥) : بنى جامع قلعة دمشق ، ومسجد عطية(٦) بباب الجابية ، ومسجد الرماحين(٧) ، ومسجد سوق الصاغة ، ومسجد دار البطيخ ، ومسجد العباسى(٨) ، ومسجد بجوار بيعة اليهود ، ومسجد الكشك(٩) وأشياء أخر .

وقال ابن الجوزى : وكان من عزمه أن يفتح(١٠) البيت المقدس ، فعمر منبرا وقبلة بجامع حلب على اسم القدس ، فتوفى قبل الفتوح . فلما ملك صلاح الدين البيت المقدس ، حمل المنبر إليه ، وأبقى القبلة بجامع حلب . وحكى عن الشيخ أبى عمر[١٨٨و] شيخ المقادسة (رحمه الله) قال : كان نور الدين (رحمه الله) يزور والدى الشيخ أحمد (رحمه الله) فى المدرسة الصغيرة(١١) التى على نهر يزيد ، المجاورة للدير ، ونور الدين بنى هذه المدرسة والمصنع والفرن .

---

(١) «ابن الأثير» فى الأصل وهو خطأ ، والصحيح ماأثبتناه من الروضتين ج١ق١ ، ص٢٦ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٦ حيث ينقل كلاً من أبى شامة والسبط هذا القول عن العماد . وقد نقل العينى هذا النص بتصرف .

(٢) «بكتبه» فى الأصل . والتصحيح من الروضتين ، ج١ق١ ، ص٢٦ ، حيث ينقل أبو شامة هذا النص من العماد .

(٣) مابين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٤) كذا فى الأصل والمرآة ، ج٨ ، ص١٩٦ ، عن العماد . وفى الروضتين عن العماد « فزاد على» انظر : ج١ق١ ، ص٢٦ .

(٥) انظر : قول العماد فى المرآة ، ج٨ ، ص١٩٦ . وقد ذكر السبط هذه الجوامع والمساجد فى معرض الحديث عن إحصاء نور الدين للمساجد لوقف الأوقاف عليها .

(٦) يعرف بمسجد عطية الحائك . انظر : الدارس ، ج٢ ، ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦ .

(٧) مسجد الرماحين : يعرف بمسجد الطريفيين فى سوق السراجين . الدارس ، ج٢ ، ص٣٠٦ .

(٨) مسجد العباسى : ويعرف بسوق الأحد قبلة المطرزين ، له بابان ، انظر : الدارس ، ج٢ ، ص٣٢٨ .

(٩) مسجد الكشك : كان دارًا فبناه الملك نور الدين مسجداً ، وبنى له منارة ، وعين له إماماً ومؤذناً . الدارس ، ج٢ ، ص٣١٥ .

(١٠) « أن يفتح» مكرره فى نسخة ب .

(١١) المدرسة الصغيرة على نهر يزيد ، بجوار دير الحنابلة . ووصفت بالصغيرة لأنها صغيرة بالنسبة للمدرسة العمرية ، وهى مسجد ناصر الدين غربى المدرسة العمرية . وقد بناها نور الدين محمود . انظر : الدارس ، ج٢ ، ص١٠٣ ـ ١٠٤ .

وقال ابن خلكان[١] (رحمه الله) : وبنى نور الدين المدارس بجميع بلاد الشام الكبار مثل : دمشق وحلب وحماه وحمص وبعلبك ومنبج والرحبة ، وبنى جامع الرها ، وجامع منبج ودار الحديث بدمشق .

وقال النويرى فى تاريخه[٢] : وأحصيت أوقافه ، وكانت فى كل شهر تسعة عشر ألف دينار مصرية من وجه حل ، إما من إرث والده ، أو من سهمه فى الغنيمة . وهو الذى بنى أسوار مدن الشام مثل : دمشق وحمص وحماة وحلب وشيزر [٣] وبعلبك وغيرها ، لما هدمت بالزلازل .

وقال ابن كثير[٤] : وبنى المارستان الذى بدمشق ، وهو أحسن مابنى من المارستانات بالبلاد ، ومن شرطه أنه على الفقراء والمساكين ، وإذا لم توجد بعض الأدوية التى يعز وجودها إلا فيه ، فلا يمنع منه الأغنياء ، ومن جاء إليه مستوصفا ، فلا يمنع من شرائه ، ولهذا جاء نور الدين إليه ، وشرب من شرابه . وقال ابن كثير[٥] : ويقول بعض الناس : إنه لم تخمد النار منه منذ بُنى إلى زماننا هذا ، والله أعلم . وقد بنى الخانات فى الطرقات والأبراج ، [ورتب الخفراء][٦] فى الأماكن المخوفة ، وفيها الحمام الهوادى[٧] التى تطالع بالأخبار فى أسرع مدة ، وبنى الربط والخانقاهات[٨] .

وقال ابن الأثير[٩] : وهو أول من بنى دار الحديث ، ووقف على من يعلم الأيتام الخط ، وجعل لهم نفقة وكسوة ، وعلى من يقرئ القرآن ، وعلى المجاورين بالحرمين . وكان الجامع بدمشق داثرًا ، فولى نظره للقاضى كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزورى

---

(١) انظر : ترجمة نور الدين محمود بن زنكى فى وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص١٨٥ ، حيث ينقل العينى عنه باختصار .
(٢) بالرجوع إلى تاريخ النويرى« نهاية الأرب» لم نجد هذه المعلومة بخصوص أوقافه فى كل شهر . انظر : نهاية الأرب ، ج٢٧ ، ص١٦٧ ، ولمعرفة تفاصيل أوقافه انظر : أبوشامة ، الروضتين ، ج١ق١ ، ص٣٩ - ٤٤ .
(٣) شيزر : قلعة تشتمل على كورة بالشام قرب المعرة بينها وبين حماة يوم .انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٣٥٣ .
(٤) انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٠ .
(٥) ينقل العينى هنا عن ابن كثير بتصرف ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٠ .
(٦) «والخفر» فى الأصل ، والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٠ ، حيث ينقل عنه العينى هذا الخبر .
(٧) الحمام الهوادى : ذكر أبو شامة فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٢٠ ، أنها : «المناسيب التى تطير من البلاد البعيدة إلى أوكارها» . انظر أيضا : الباهر ، ص١٥٩ .
(٨) خانقاه وجمعها خنقاوات وخنقاهات ، وهى منزل للصوفية . العصر المماليكى ، ص ٤١١ .
(٩) انظر : الباهر ، ص١٧٢ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٨١ .

الموصلى ، الذي قدم به فولاه قاضى القضاة بدمشق ، فأصلح أموره ، وفتح المشاهد الأربعة ، وقد كانت حواصل الجامع بها من حين احترق فى سنة إحدى وستين وأربع مائة ، وأضاف إلى أوقاف الجامع الأوقاف التى لايعرف[١] واقفوها ، ولايعرف[١] شروطهم فيها ، وجعلها قلما واحدا ، وسمى مال المصالح ، ورتب عليه ذوى الحاجات والفقراء والمساكين والأرامل والأيتام وما أشبه ذلك .

وأحاط السور على حارة اليهود ، وكان خرابا ، وأغلق باب كيسان ، وفتح باب الفرج ، ولم يكن هناك قبله باب بالكلية . وحكى الشيخ شهاب الدين : أن نور الدين وقف بستان الميدان سوى الغيط الذى قبليه نصفه على «تطييب»[٢] جامع دمشق ، والنصف الآخر يقسم على أحد عشر جزءاً ، جزءان منها على تطييب المدرسة التى أنشأها للحنفية ، والتسعة الأجزاء الباقية على تطييب المساجد التسعة[٣] ؛ وهى : جامع الصالحية بجبل قاسيون ، وجامع القلعة ، ومسجد عطية ، ومسجد ابن لبيد بالفسقار[٤] ، ومسجد الرماحين المعلق ، والمسجد العباسى بالصاغة ، ومسجد دار البطيخ المعلق ، والمسجد الذى جدده نور الدين بجوار بيعة اليهود ، لكل من هذه المساجد جزء من أحد عشر جزءا من النصف .

الثامن فى فتوحاته وبلاده :

قال النويرى : وكان قد اتسع ملكه جدًا ، وخطب له بالحرمين ومصر والشام وحلب وديار بكر والجزيرة ، وكذلك باليمن لما ملكها الملك المعظم توران شاه بن أيوب بن شاذى ، وطبق ذكره الأرض بحسن سيرته وعدله وكرمه وصدقاته . وتصدق فى شهر واحد بثلاثين ألف دينار ، وقسم في يوم واحد مائتى ألف دينار ، خلاف الدواب والسلاح والخيام . وكان يُحضر أماثل البلد عنده ، ويعطيهم الذهب ، ويقول : تصدقوا به على من تعرفونه فى جواركم من الأرامل والأيتام[٥] .

(١ -١)«تعرف» فى نسخة ب .

(٢) «تطبيب» فى الروضتين ، ج١ق١ ، ص٤١ . والمثبت أولى لمقصود أبى شامة حيث ذكر أنه : «يبتاع بذلك عود وطيب» .

(٣) عدد المساجد ثمانية وليست تسعة كما ذكرها العينى .

(٤) « العسقار» فى نسخة ب . وهو خطأ . ويوجد فى دمشق سوق يسمى سوق الفسقار . انظر : الدارس ، ج٢ ، ص٣٠٥ .

(٥) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٨٧ .

وقال ابن الجوزى[(١)] : ولى نور الدين الشام سنين ، وجاهد الثغور وانتزع من أيدى الكفار نيفا وخمسين مدينة وحصناً منها الرها . وكان محبًا للعلماء وأهل الدين ، وكاتبنى مرارا . وعاهد ملك الإفرنج[(٢)] صاحب طرابلس ، وقد كان فى قبضته أسيرا على أن يطلقه بثلثمائة ألف دينار ، وخمسمائة حصان ، وخمسمائة زردية[(٣)] ، ومثلها أتراس[(٤)] إفرنجية ، ومثلها قنطاريات[(٥)] ، وخمسمائة أسير [١٨٨ظ] من المسلمين ، وأنه لا يعبر بلاد الإسلام سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام . وأخذ منه فى قبضته على الوفاء بذلك ، مائة من أولاد كبراء الإفرنج وبطارقتهم ، فإن نكث أراق دمهم . وعزم على فتح بيت المقدس ، فوافته المنية فى شوال من هذه السنة [(٦)] .

وذكر الحافظ ابن عساكر(رحمه الله) : فتح نور الدين(رحمه الله) نيفا وخمسين حصنا منها : تل باشر وعينتاب وأعزاز ومرعش وبهسنى وتل خالد وحارم والمرزبان ورعبان وكيسون والرها . وكسر إبرنس أنطاكية وقتله ، وقتل معه ثلاثة آلاف ، وأخذ من القومص ثلثمائة ألف دينار ، وخمسمائة زردية ، وخمسمائة حصان ، وخمسمائة أسير . واتسع ملكه ، ففتح الموصل والجزيرة وديار بكر والشام والعواصم ودمشق وبعلبك وبانياس ومصر واليمن ، وخُطب له فى الدنيا ، وأظهر السُنة بحلب ، وأزال الأذان بحى على خير العمل . وكان يتعرض للشهادة ، ويسأل الله تعالى أن يحشره [فى] [(٧)] بطون السباع[(٨)] وحواصل الطير[(٩)] .

---

(١) انظر : المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠٩ ـ ٢١٠ .

(٢) ملك الإفرنج صاحب طرابلس ، هو ريموند بن ريموند الصنجيلى ، تزوج بالقومصية صاحبة طبرية ، وعاش معها فى طبرية ، وتوفى بالشام . الكامل ، ج١٠ ، ص١٤١ .

(٣) زردية : هى قميص من الزرد يقوى برقائق من المعدن تتداخل أطرافه بعضها فوق بعض . انظر ماير : الملابس المملوكية ، ص٦٨ .

(٤) أتراس : جمع ترس ، وهو مستدير الشكل ، تحيطه حافة ، وله مقبض أفقى من الداخل ، وعليه من الخارج بعض النهود القليلة ، وكان يصنع من الخشب أو المعدن . انظر : الملابس المملوكية ، ص٨٦

(٥) القنطارية : نوع من الرماح أسنتها قصار وعراض . انظر : نبيل عبد العزيز : خزائن السلاح ومحتوياتها ، ص١٢٤ ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، المجلد ٢٣ لسنه ١٩٧٦م ؛ الملابس المملوكية ، ص٦٧ ـ ٨٣ .

(٦) الى هنا توقف العينى عن النقل من المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠٩ ـ ٢١٠ .

(٧) «من» فى الأصل وهو خطأ . والمثبت هو الصحيح .

(٨) «السبا» فى نسخة ب .

(٩) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص١٩٢ .

النوع التاسع فى وفاته :

قال العماد (١) : أمر نور الدين بتطهير ولده الملك الصالح إسماعيل (٢) يوم عيد الفطر . قال : ونظمت للهنا بالعيد والطهر قصيدة منها :

عيدان فِطرٌ وطُهْرٌ		فَتْحٌ قريبٌ ونصْرُ
كلاهُما لك فيه		حقًّا هناءٌ وأجرُ
وفيهما بالتَّهانى		رسمٌ لنا مُسْتَمِرٌّ
طَهارة طابَ فيها		أصْلٌ وفرعٌ وذكرُ
نَجْلٌ على الطُّهْرِ نام		زَكِىٌّ له مِنْك نَجْرُ
محمود المَلكُ العاً		دلُ الكريمُ الأغرُّ
وبابنه الملِكِ الصا		لحِ العيونُ تَقَرُّ
مولى به اشتدَّ للديـ		ـنِ والشريعةِ أزرُ

وهى قصيدة طويلة آخرها :

هذا الطُّهورُ ظُهُورٌ		على الزمان وأمْرُ
وذا الخِتَانُ خِتَامٌ		بِمِسْكِهِ طَابَ نَشْرُ (٣)

قال : وفى يوم العيد ركب نور الدين على الرسم المعتاد ، محفوفا من الله بالإسعاد ، والقدر يقول له : هذا آخر الأعياد . ووقف فى الميدان الأخضر ، ورمى القبق (٤) ، وكان قد ضرب خيمته فى الميدان القبلى الأخضر ، وأمر بوضع المنبر ، وخطب له القاضى شمس

---

(١) انظر قول العماد فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٧٧ - ٥٨٠ .

(٢) عن الملك الصالح إسماعيل انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص١٨٨ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٧٧- ٥٧٩ .

(٣) أورد أبو شامة/ القصيدة كلها ، مع زيادة بيت عما ذكره العينى وهو آخر القصيدة ، ونصه :

رزقت عمرا طويلا		ماطال للدهر عمر

(٤) القبق أو القباق : لفظ تركى معناه القرعة العسلية (Une Courgette)وقد أطلق فى العربية على الهدف الذى كان مستعملاً فى لعب الرماية ، المعروف باسم القبق أيضا ، وكانت طريقة لعب القبق أن ينصب صار طويل من خشب يكون فى رأسه شكل قرعة من ذهب أو فضة بمثابة هدف ويكون فى القرعة طير حمام ثم يأتى اللاعبون للمباراة فى رمى الهدف بالنشاب أو السهام وهم على ظهور الخيل من أصاب منهم القرعة وطار الحمام فاز بالسباق وأخذ القرعة المعدنية نفسها مكافأة . انظر : المقريزى : السلوك ، ج٢ ، ص١١١ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص٣٠٤ ؛ راجع أيضا : Dozy: Supp. Dict. Ar.

الدين بن الفراش قاضى العسكر ، بعد أن صلى به ، وعاد إلى القلعة ، وأنهب سماطه العام على رسم الأتراك ، وأكابر الأملاك . قال : ثم حضرنا على خوانه[١] الخاص . وفى يوم الاثنين ثانى العيد بكّر وركب ، ودخل الميدان والعظماء يسايرونه ، وفيهم همام الدين مودود ، وكان قديما فى أول دولته والى حلب ، فقال لنور الدين فى كلامه ، عظة لمن يغتر بأيامه ، هل نكون ههنا فى مثل هذا اليوم فى العام القابل؟ فقال نور الدين : قل هل نكون بعد شهر؟ فإن السنة بعيدة ! فجرى على منطقهما ماجرى به القضاء السابق ، فإن نور الدين لم يصل إلى الشهر ، والهمام[٢] لم يصل إلى العام . ثم شرع نور الدين فى اللعب بالأكرة ، فاعترضه أمير يقال له ، برتقش وقال له باش ، فأحدث له الغيظ والاستيحاش ، وكان ذلك على خلاف مذهبه ، ونهره وزجره ، ثم ساق ودخل القلعة واحتجب ؛ فبقى أسبوعا فى منزله . ثم اتصل به مرض ، وأشار عليه الأطباء بالفصد ، فامتنع من ذلك ، وكان مهيبا فما روجع ، وانتقل[١٨٩و]يوم الأربعاء حادى عشر شوال من دار الفناء إلى دار البقاء .

وقال ابن شداد[٣] : وكانت وفاة نور الدين بسبب خوانيق اعترته ، عجز الأطباء عن علاجها . وقال ابن الأثير[٤] : وكان نور الدين قد شرع بتجهيز المسير إلى مصر ؛ لأخذها من صلاح الدين ، فإنه رأى منه فتورا فى غزو الفرنج من ناحيته ، فأرسل إلى الموصل وديار الجزيرة وديار بكر يطلب العساكر ليتركها [٥] بالشام ؛ لمنعه من الإفرنج ، ليسير هو بعساكره إلى مصر . وكان المانع [لصلاح][٦] الدين من الغزو ، «الخوف من نور الدين»[٧] ، فإنه كان يعتقد أن نور الدين متى زال عن طريقه الفرنج أخذ البلاد منه ، فكان يحتمى بهم عليه ، وكان نور الدين لايرى إلا الجدّ فى غزوهم بجهده وطاقته ، فلما رأى إخلال صلاح الدين بالغزو ، علم غرضه ، فتجهز للمسير إليه ، فأتاه أمر الله الذى لايرد . قال[٨] : وحكى

(١) الخوان : كلمة فارسية معناها ، سفرة الطعام ، أو السماط ، انظر : محمود التونجى : المعجم الذهبى ، ص٢٤٥ .
(٢) «وهمام الدين» فى نسخة ب .
(٣) انظر : النوادر السلطانية ، ص٤٧ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨٠ .
(٤) انظر : التاريخ الباهر ، ص١٦١ . حيث ينقل العينى عنه بتصرف .
(٥) «ليتركها مع ابن أخيه سيف الدين فى الشام» ، فى التاريخ الباهر ، ص١٦١ .
(٦) «من صلاح» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الباهر ، ص١٦١ .
(٧) « خوف نور الدين» فى الباهر ، ص١٦١ ، والمثبت من الأصل ؛ والروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨١ وهو الأولى حسب السياق .
(٨) الضمير عائد على ابن الأثير فى الباهر ، ص١٦١ .

لى طبيب بدمشق يعرف بالرحبى[١] ، وهو من أحذق الأطباء ، قال[٢] : استدعانى نور الدين فى مرضه الذى توفى فيه مع غيرى من الأطباء ، فدخلنا عليه ، وهو ببيت صغير بقلعة دمشق ، وقد تمكنت الخوانيق منه ، وقارب الهلاك . فلايكاد يسمع صوته ، وكان يخلو فيه للتعبد فى أكثر أوقاته ، فابتدأ به المرض فيه ، فلم ينتقل عنه . فلما دخلنا عليه ، ورأينا مابه ، قلت : كان ينبغى أن لا يؤَخَّر[إحضارنا][٣] إلى أن يشتد المرض إلى هذا الحد ، فالآن ينبغى أن تنتقل إلى مكان فسيح ، فله أثر فى هذا المرض . وشرعنا فى علاجه ، فلم ينجع فيه الدواء ، ومات عن قريب[٤] . قال ابن عساكر[٥] : وتوفى يوم الأربعاء الحادى عشر من شوال سنة تسع وستين وخمسمائة ، ودفن بقلعة دمشق ، ثم نقل إلى تربة تجاور مدرسته التى بناها لأصحاب أبى حنيفة (رضي الله عنه) جوار الخواصين فى الشارع الغربى . وقال العماد : قلت فى ذلك :

عَجِبْتُ من[٦] المَوتِ كيفَ اهْتدى ... إلى مَلِكٍ فى سَجايا مَلَكْ
وكيف ثَوى الفَلَكُ المُستَدِيـ ... ـرُ فى الأرضِ ، والأرضُ وسط الفَلَكْ[٧]

وقال ابن كثير[٨] : حصلت له علة الخوانيق ، ومنعته عن النطق ، فمات فى التاريخ المذكور ، وصلى عليه بجامع القلعة ، ودفن بها ، حتى حُوّل إلى تربته التى بُنيت له بباب المدرسة التى أنشأها للحنفية . وقبره بدمشق مشهور يزار وَيُخَلَّقُ شباكه ، فيستطيب برائحته[٩] كل مَار . وإنما يقول الناس : [قبر][١٠] نور الدين الشهيد ، لما حصل له فى «حلقه»[١١] من الخوانيق ، وكذا كان يقال لأبيه الشهيد ، ويلقب بالقسيم . وكانت الإفرنج

---

(١) هو : جمال الدين عثمان بن يوسف بن حيدرة الرحبى .
(٢) انظر هذا الخبر فى ابن واصل : مفرج الكروب ، ج١ ، ص٢٦٢ .
(٣) «إحضارك عنك» فى نسختى المخطوطة أ ، ب والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨٢ .
(٤) ورد هذا الخبر بتصرف فى : الباهر ، ص١٦١ - ص١٦٢ .
(٥) «العساكر» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . وقد نقل العينى هذا الخبر من الروضتين عن ابن عساكر ، ج١ ق٢ ، ص٥٨٢ - ٥٨٣ .
(٦) « إلى» فى نسخة ب .
(٧) انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨١ .
(٨) البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٤ .
(٩) «رائحته» فى نسخة ب .
(١٠) مابين الحاصرتين إضافة من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٤ ، لتوضيح النص .
(١١) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

يقولون له ابن القسيم . وقال ابن خلكان[1] : ويقول أهل دمشق إن الدعاء عند قبره مستجاب . وقال القاضى : ولقد جربت ذلك فصحَّ . وكان عمره حين مات ثمانيا وخمسين سنة ، وله فى المُلك ثمان وعشرون سنة .

العاشر فيما رثى به ، وماقيل له من الأشعار :

قال العماد : ومما نظمته فى مرثية نور الدين قصيدة «منها» [2] :

لِفَقْدِ المَلكِ العَادِ ... لِ يبْكِى المُلْكُ والعَدْلُ
وقد أظْلَمَت الآفَا ... ق : لا شَمْسٌ ولا ظِلُّ
ولمَّا غَابَ نُور الدِّيـ ... ـنِ عنَّا أظْلَمَ الحَفْلُ
وزالَ الخِصْبُ والخَيْرُ ... وزاد الشَّرُّ والمَحْلُ
ومات البَأسُ[3] والجُودُ ... وعاش اليَأسُ والبُخْلُ
[١٨٩ظ] وعَزَّ النَّقْصُ لَمّا هَا ... نَ أهلُ الفَضْلِ والفَضْلُ/
وهلْ يَنْفقُ ذو العِلْمِ ... إذا مَا نفَقَ الجَهْلُ[4]
وماكَانَ لِنُور الدِّيـ ... ـنِ ،لولا نَجْلُه مِثْلُ

[يا مَلكاً] [5] أيامُه لم تَزلْ ... بفَضْلِه فَاضِلةً فاخره
مَلكتَ دُنْياك وخَلَّفْتَها ... وسِرْتَ حتى تَمْلِكَ الآخره

وكان الواعظ أبو عثمان[6] المنتجب بن أبى محمد الواسطى ـ من الصالحين الكبار ـ أنشد لنور الدين بقوله :

---

(١) وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص١٨٧ .
(٢) ما بين الأقواس ساقط من ب ./انظر هذه القصيدة فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨٨ .
(٣) «الناس» فى نسخة ب .
(٤) هذا الشطر مكرر فى نسخة ب .
(٥) «يا ملك» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨١ .
(٦) «أبو عنان» فى نسخة ب .

مَـثِّلْ وُقُـوفَكَ أيهـا المَـغْـرور يومَ القـيـامـةِ والسـمـاءُ تمـورُ
إن قـيلَ نورُ الدين رُحتَ مسلمًا فـاحـذر بأن تبـقى ومـالك نُور
أنهيتَ عن شُربِ الخمور وأنت فى كأسِ المَظالم طَالحٌ[١] مخْـمورُ
عطَّلت كـاسـات المُـدام تعَـفُّـفًا وعليك كاسَاتُ [الحَرام][٢]تَدُورُ
ماذا تقول إذا [نُقلتَ][٣] إلى البلى فَــرْدًا وجــاءك مُنكرٌ ونَكيــرُ
وتَعلَّقتْ فيك الخُصُومُ وأنت فى يوم الحساب مُسَحَّبٌ[٤] مجرور
وتَفـرقَتْ عنك الجُنودُ وأنت فى ضـيق اللحُـودِ مُوَسّـدٌ مَـقْـبـورُ
ووَددْتَ أنك مَــــا وَلِيتَ ولايةً يومًــا ولاقــال الأنامُ أمِـــيــرُ
وبقـيتَ بعـد العـزِّ رهنَ حُـفَـيْـرةٍ فى عَـالَـم المَـوتَى وأنت حَـقِـيرُ
وحُـشِـرت عُـرْيانًا حَـزينًا باكـيًـا قلِقًـا ومَـالَك فى الأنام[٥] مُـجِـيرُ
أرضِيت أن [تحيا][٦] وقلبُكَ دارسٌ عافى الخرابَ وجسْمُك المَعْمُورُ
أرضِـيتَ أنْ يحْظَى سِـواكَ بقُـرْبِه أبداً وأنتَ مُـبَـعَّـدٌ مَـهْـجـورُ
مَـهِّـدْ لنفْسِك حُـجَّـةً تَنْجو بهـا يومَ المَـعَـادِ لَعَلَّك المَـعْـذُورُ

فلما سمعها الملك نور الدين بكى ، وأمر بوضع المكوسات والضرائب فى سائر البلاد . وقيل : إن برهان الدين البلخى[٧] أنكر على نور الدين استعانته فى الحروب بأموال المكوس . قال : وكيف تنصرون وفى عسكركم الطبول والخمور والزمور؟ . وقص عليه وزيره موفق الدين خالد بن محمد بن نصر «بن»[٨] القيسرانى الشاعر أنه رأى فى منامه أنه

---

(١) «طائش» فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٢ .
(٢) «المظالم» فى نسختى المخطوطة أ ، ب ، والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٢ .
(٣) «انقلبت» فى نسختى المخطوطة أ ، ب ، والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٢ حيث ينقل عنه العينى .
(٤) «مسلسل» فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٢ .
(٥) «الأنام» مكررة فى نسخة أ .
(٦) «تحيى» فى الأصل . والمثبت هو الصحيح .
(٧) هو أبو الحسن البلخى على بن الحسن الحنفى الواعظ درس بالصادرية ، وكان يلقب ببرهان الدين توفى سنة ٥٤٨هـ/١١٥٣م . انظر : الدارس ، ج١ ، ص٤٨١ ، مطبعه الترقى بدمشق١٩٤٨ ؛ وانظر أيضًا : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص١٤٨ .
(٨) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

يغسل ثياب الملك نور الدين ، فأمره أن يكتب مناشير بوضع المكوسات والضرائب عن البلاد ، وقال : هذا تفسير رؤياك . وكتب إلى الناس يستحل منهم عما أخذ منهم ، ويقول : إنما صُرفت فى قتال أعدائكم من الكفرة . وكتب بذلك إلى سائر ممالكه وبلدان سلطانه ، وأمر الوعاظ أن يستحلوا من التجار لنور الدين ، وكان يقول فى سجوده : اللهم أنا العشَّار المكَّاس .

الحادى عشر فى تملك ولده الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ابن الملك العادل نور الدين محمود ابن الأتابك زنكى بن آقسنقر

ولما توفى نور الدين فى التاريخ المذكور ملك ولده المذكور دمشق ومامعها ، بعد أن حلف له الأمراء والمقدمون بدمشق ، وكان عمره إحدى عشرة سنة ، وأطاعه أهل الشام ، وخطب له الناصر صلاح الدين بمصر ، وضرب السكة باسمه ، وأظهر له الطاعة . وتولى تربيته وتدبير دولته الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك[١٩٠و] المعروف بابن المقدم[١] . وقال له كمال الدين بن الشهرزورى ولمن معه من الأمراء والمقدمين : قد علمتم أن صلاح الدين صاحب مصر من أصحاب الشهيد ، والمصلحة أن تشاوره فى الذى تفعله ، ولا تخرجه من بيننا ، فيخرج عن طاعتنا ، ويجعل ذلك حجة علينا ، وهو أقوى منا ؛ لأنه انفرد اليوم بملك مصر . فلم يوافق هذا القول أغراضهم ، وخافوا أن يدخل صلاح الدين فيخرجهم ، فلم يمض غير قليل حتى وردت كتب صلاح الدين إلى الملك الصالح ؛ يعزيه ويهنيه بالملك ، وأرسل دنانير مصر عليها اسمه ، ويعرفه أن الخطبة والطاعة له[٢] كما كانت لأبيه . ولما سار سيف الدين غازى بن قطب الدين صاحب الموصل إلى الجزيرة ، وملك البلاد الجزرية - على مانذكره - أرسل صلاح الدين يعتب الملك الصالح ، حيث لم يعرِّفه قصد سيف الدين ابن عمه بلاده قبل أخذها ؛ ليحضر فى خدمته ويكفه عنه .

---

(١) ابن المقدم : هو شمس الدين محمد بن عبد الملك من أعيان أمراء الدولتين وهو الذى سلَّم سنجار إلى نور الدين ثم تملك بعلبك توفى سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧م . انظر : العبر ، ج٤ ، ص٢٥٠ ؛ الدارس ، ج١ ، ص٥٩٤ .

(٢) ورد هذا الخبر فى الكامل ، ج١٠ ، ص٥٨ ؛ التاريخ الباهر ، ص١٦٢ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٤ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٩٤ ـ ٥٩٥ ؛ انظر أيضا : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص١ .

وكتب إلى كمال الدين الشهرزورى والأمراء يقول لهم : لو كان نور الدين يعلم أن فيكم من يقوم مقامى أو يثق إليه ثقته إلىَّ لسلم إليه مصر ، التى هى أعظم ممالكه وولاياته ، ولو لم يعجل إليه الموت ، لم يعهد إلى أحد بتربية ولده[1] والقيام بخدمته غيرى ، وأراكم قد تفردتم بمولاى وابن مولاى دونى ، وسوف أصل إلى خدمته ، وأجازى إنعام والده بخدمة يظهر أثرها [له][2] ، وأجازى كلا منكم بسوء صنيعه فى ترك الذب عن بلاده [3] .

وتمسك ابن المقدم وجماعة من الأمراء بالملك الصالح ، ولم[4] يرسلوه إلى حلب ؛ خوفا أن يغلب عليهم شمس الدين على بن الداية ، فإنه كان أكبر الأمراء النورية ، وإنما منعه من الاتصال بخدمته مرض لحقه . وكان هو و[أخوته][5] بحلب ، وأمرها إليهم ، وعساكرها معهم فى حياة نور الدين وبعده ، ولما عجز عن الحركة أرسل إلى الملك الصالح يدعوه إلى حلب ؛ ليمنع به البلاد الجزرية من سيف الدين ابن عمه ، فلم يمكِّنه الأمراء الذين معه من الانتقال إلى حلب .

وفى المرآة :[6] وكان الصالح لم يبلغ الحلم ، فأجلسوه مكان أبيه ، وحضر القاضى كمال الدين بن الشهرزورى ، وشمس الدين بن المقدم ، وجمال الدولة ، وريحان وهو أكبر الخدم ، والعدل أبوصالح بن العجمى أمين [7] الأعمال ، والشيخ إسماعيل خازن بيت المال ، وتحالفوا أن تكون أيديهم واحدة ، وأن شمس الدين «بن»[8] المقدم إليه تقدمة العساكر وتربية الملك الصالح . ووصل كتاب صلاح الدين من إنشاء الفاضل[9] إلى دمشق وفيه : « أدام الله أيام مولانا الملك الصالح ، ورفع قدره ، وأعظم أجر المملوك فى مولانا السلطان الملك العادل» . وآخره : «أصدر خدمته هذه يوم الجمعة رابع عشر ذى

---

(١) «بتربيته لولده» كذا فى نسخة ب .

(٢) مابين الحاصرتين ساقط من أ ، ومثبت فى ب .

(٣) لمعرفة المزيد عن هذا الحدث انظر : النوادر السلطانية ، ص٥٠ .

(٤) «لم» مكرره فى نسخه ب .

(٥) «أخوه» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الكامل ، ج١٠ ، ص٥٨ ، وهى الأقرب إلى سياق النص .

(٦) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٤ .

(٧)«أمير» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٤ حيث ينقل العينى عنه .

(٨) ما بين الأقواس ساقط من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٤ .

(٩) هو أبو على عبد الرحيم بن القاضى الأشرف بهاء الدين أبى المجد على بن القاضى السعيد . . . اللخمى العسقلانى ولد بعسقلان . . . عرف باسم القاضى الفاضل ولقب مجير الدين وزر للسلطان الملك الناصر صلاح الدين توفى بالقاهرة سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م . وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص١٥٨ـ ١٦٣ .

القعدة ، وفيه أقيمت الخطبة بالاسم الكريم ، وصرح بذكره فى الموسم العظيم ، والجمع الذى لا لغو فيه ولا تأثيم[١] ، والله تعالى يخلد ملك مولانا الملك الصالح ويصلح به وعلى يديه ، ويديم النعمة[٢] عليه» . وذكر فصولا تتعلق بالتهنئة والتعزية . وقال العماد[٣] : أخرجوا يوم وفاة نور الدين ولده الملك الصالح إسماعيل ، وقد أبدى الحزن والعويل ، وهو مجزوز الذوائب ، مشقوق الجيب ، حاسر حاف مما فجأه وفجعه من الريب ، وأجلسوه فى الإيوان الشمالى من الدست [١٩٠ظ] والتخت الباقى من عهد تاج الدولة تتش ، فاستوحى كل قلب حزنه ، فاستوحش . وبعد أن تحالفوا له أنشأ العماد كتابا عن الملك الصالح إلى صلاح الدين فى تعزيته بنور الدين ، ترجمته : «إسماعيل بن محمود» وفيه :

«أطال الله بقاء سيدنا الملك الناصر ، وعَظَّمَ أجرنا وأجره فى والدنا الملك العادل ، ندبُ الشام بل الإسلام ، حافظ ثغوره ، وملاحظ أموره ، مقتنى فضيلته ، ومؤدى فريضته ، ومحيى سنته . وأورثنا بالاستحقاق ملكه وسريره ، على أنه يعزّ أن يرى الزمان نظيره . وما هاهُنا ما يشغل السر ، ويقسم الفكر ، إلا أمر الفرنج خذلهم الله ، وماكان اعتماد مولانا الملك العادل «عليه»[٤] وسكونه إليه إلا لمثل هذا الحادث [الجلل][٥] ، والصرف الكارث المذهل ، فقد ادخره لكفايات النّوائب ، وأعده لحسم أدواء المعضلات اللوازب ، وأمّله ليومه ولغده ، ورجاه لنفسه ولولده ، ومكنه قوة لعضده . فما فقد رحمه الله إلا صورة والمعنى باق ، والله تعالى [حافظٌ][٦] لبيته واق ، وهل غيره ، دام سموه ، من مؤازر ، وهل سوى السيد الأجل الناصر من ناصر[٧] . وفى تاريخ ابن كثير[٨] : لما مات نور الدين وتولى ابنه المذكور اختلفت الأمراء ، [وحادت][٩] الآراء ، وظهرت الشرور ، وكثرت الخمور ، وانتشرت الفواحش ، حتى أن ابن أخيه سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود ـ

---

(١) فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٤ جملة زائدة مضطربة نصها « وأسد الملوك اسمه فى الخدمة ووفى بما لزمه من حقوق الخدمة وجمع كلمة الإسلام لعلمه أن الجماعة رحمة» .

(٢) «النعما» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٤ والمثبت أولى .

(٣) ورد هذا الخبر فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨٥- ٥٨٦ نقلاً عن العماد ؛ انظره أيضا فى مفرج الكروب ج٢ ، ص١ .

(٤) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٥) «الجليل» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت هو الصحيح من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨٦ .

(٦) «حافظه» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨٦ حيث ينقل العينى عنه .

(٧) انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٨٦ نقلاً عن العماد .

(٨) البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٥ .

(٩) «حارت» فى نسخة أ ، والمثبت من نسخه ب ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٥ حيث ينقل العينى عنه .

صاحب الموصل ـ لما تحقق موت عمه ، وكان محصورا منه ، نادى مناديه بالبلد بالمسامحة فى اللعب واللهو والشرب والطرب ، ومع المنادى دف[١] وقدح ومزمار ، وتحقق حينئذ قول الشاعر[٢] :

ألا فاسقنى خَمْرا وقُلْ لى هى الخَمْرُ　　　ولا تَسْقِنى سِراً وقد أمكَن الجَهْرُ

وطمعت الأعداء من كل جانب فى المسلمين ، وعزم الإفرنج على قصد دمشق ، فبرز إليهم الأتابك ابن المقدم[فواقعهم][٣] عند بانياس ، فضعف عن مقاومتهم ، فهادنهم مدة ودفع إليهم أموالاً جزيلة عجَّلها لهم ، ولولا خوفهم من قدوم السلطان الملك الناصر صلاح الدين صاحب الديار المصرية« لما هادنوه . ولما بلغ ذلك صلاح الدين»[٤] كتب إلى الأمراء ، وخاصة إلى ابن المقدم ، يلومهم على ماصنعوا من المهادنة ، ودفع الأموال إلى الإفرنج ، وهم أقل وأذل ، وأنه على عزم[٥] قصد البلاد ؛ لحفظها من الإفرنج فردوا إليه كتابا فيه غلظة وكلاما فيه بشاعة ، فلم يلتفت إليهم . ومن شدة خوفهم منه كتبوا إلى سيف الدين غازى صاحب الموصل ليملِّكوه عليهم ، [ليدفع عنهم كيد][٦] الملك الناصر صلاح الدين ، فلم يفعل ؛ لأنه خاف أن تكون مكيدة منهم له ، وذلك أنه كان قد هرب منه الطواشى سعد الدولة كمشتكين ، الذى كان قد جعله عنده نور الدين عينا عليه ، وحافظاً له من تعاطى مالا يليق عليه ، فلما سمع الخادم بموت أستاذه خاف أن يمسكه ، فهرب سرا ، فحين تحقق غازى موت عمه بعث فى طلب الخادم ففاته ، فاستحوذ على حواصله [٧] . ودخل سعد الدولة حلب ، ثم سار إلى دمشق ، فاتفق مع الأمراء على أن يأخذ ابن أستاذه الملك الصالح إسماعيل إلى حلب ، [١٩١و] فيربيه هنالك ، وتكون دمشق مسلمة إلى الأتابك شمس الدين بن المقدم ، والقلعة إلى الطواشى جمال الدين ريحان ، فسار معه الأمراء والأكابر من دمشق ، وذلك فى الثالث

---

(١) «دنّ» فى نسخة ب .

(٢) ذكر أبو شامة الشطر الثانى من هذا البيت ونسبه إلى ابن هانى . انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٩٢ .

(٣) «فوافقهم» فى نسختى المخطوطة أ ، ب .والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٥ .

(٤) مابين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٥) «عزم على» فى نسخة ب .

(٦) «ليدفعوا به الملك الناصر» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٥ .

(٧) انظر هذا الخبر فى مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٥ .

والعشرين من ذى الحجة من هذه السنة . وحين وصلوا إلى حلب جلس الصبى على سرير مملكتها ، واحتاطوا على بنى الداية شمس الدين[١] ، وعلى أخيه مجد الدين ، الذى كان رضيع نور الدين ، وأخوته الثلاثة ، وقد كان شمس الدين بن الداية يظن أن يُسلَّم إليه ابن نور الدين ليربيه ؛ لأنه أحق الناس بذلك ، فخيبوا ظنه وسجنوه وأخوته[٢] فى الجب . فكتب صلاح الدين إلى الأمراء ، يلومهم على مافعلوا من نقل الولد[من دمشق][٣] إلى حلب ، ومن سجْنهم لبنى الداية[٤] ، وقد كانوا من خيار الأمراء ورؤوس الأمراء الأكابر ، [ولم لا يسلموا] [٥] الولد الى مجد الدين بن الداية ، الذى كان أحظى الناس عند نور الدين؟ فكتبوا إليه يسيئون الأدب عليه ، وكل ذلك مما يزيده حنقا عليهم ، ويحرضه على القدوم بجيشه إليهم ، ولكنه فى هذا الوقت فى شغل شاغل بما [دهم][٦] بلاده من الأمر الهائل ، كما سنذكره إن شاء الله فى السنة الآتية .[٧] إنه على ذلك قدير .

ذكر الأمور المزعجة

منها أن فى ثالث المحرم وقع حريق ببغداد ، فاحترقت مواضع كثيرة .

ومنها أن فى ربيع الأول وقعت صاعقة فى نخلة بالجانب الغربى فاشتعلت النخلة .

ومنها أنه سقط فى بغداد بَرَدٌ كبار كالنارنج ، منها ما وزنه سبعة أرطال ، ثم جاء عقيب ذلك سيل عظيم ، وزادت دجلة زيادة عظيمة لم يعهد مثلها أصلا ، فخرب شيئا كثيرا من العمران والقرى والمزارع والقبور ، حتى خرج الناس إلى الصحراء ، وكثر الضجيج والابتهال إلى الله تعالى ، حتى فرَّج الله وتناقصت زيادة الماء[٨] . وقال ابن الجوزى[٩] (رحمه الله) : ودخل الماء إلى المارستان وعلا عليه ، ورمى عدة شبابيك من شبابيكه

---

(١) هو : على بن الداية ، الأمير شمس الدين .

(٢) «أخوه» فى نسخة ب ؛ وقد ذكر أبو شامة فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٩٣ ، أسماء أخوته وهم : سابق الدين عثمان ، بدر الدين حسن ، ومجد الدين .

(٣) الإضافة من البداية والنهاية حيث ينقل العينى عنه ، ج١٢ ، ص٣٠٦ .

(٤) انظر : تفصيل هذا الخبر فى مفرج الكروب ، ج٢ ، ص١٠ .

(٥) «ولم ما سلموا» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٦ .

(٦) «ردم» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . وفى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٦ «لما دهمه ببلاد مصر» . ولعل الصواب ما أثبتناه لسياق النص .

(٧) نهاية النص المنقول بتصرف من ابن كثير المرجع السابق .

(٨) انظر هذا الخبر فى : الكامل ، ج١٠ ، ص٦١ - ٦٢ ؛ المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠٤ .

(٩) انظر : المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠٤ - ٢٠٥ .

الحديد ، فكانت السفن تدخل من الشبابيك إلى أرض المارستان ، وَرَقَت المرضى إلى الأسطحة ، وامتلأت مقبرة أحمد بن حنبل(رحمه الله) كلها ، ولم يسلَم منها إلا موضع قبر بشر الحافى[(١)] (رحمه الله) ؛ لأنه كان على نشز . وكان من يرى مقبرة أحمد(رحمه الله) بعد أيام يدهش ، كأن القبور قد قلبت ، وجمع الماءُ من عظام الموتى كالتل العظيم ، وكذلك من ألواح القبور[(٢)] .

ومنها أن بالموصل كان نحو مما كان ببغداد أو أكثر ؛ حتى انهدم بالماء نحو من ألفى دار ، وهلك تحت الهدم شئ كثير .

ومنها أن الفرات أيضا زاد زيادة عظيمة ، فهلك بسببها شئ كثير من القبور[(٣)] ، وغلت الأسعار بالعراق فى هذه السنة فى الزروع والثمار ، ووقع الموتان فى الغنم ، حتى أبيع الحمل منها بقيراط ، وأصيب كثير ممن أكل منها بالعراق وغيرها [(٤)] .

ومنها أن فى رمضان توالت الأمطار بديار بكر والموصل أربعين صباحا ، لم يروا الشمس فيها سوى مرتين لحظتين يسيرتين ، فتهدمت «البيوت»[(٥)] والمساكن على أهلها .

ومنها أنه سقط أبو العباس أحمد[(٦)] ابن أمير المؤمنين المستضىء من قبة شاهقة إلى الأرض ، ولكنه سلم ووثئت[(٧)] يده اليمنى وساعده الأيسر ، وانسلخ شىء من أنفه ، وكان معه خادم أسود يقال له نجاح ، فلما رأى سيده قد سقط إلى الأرض ، ألقى نفسه أيضا وقال : لا حاجه لى بالحياة بعد . فسلم أيضًا . فلما[١٩١ظ] صارت الخلافة إلى أبى العباس الناصر كان لاينساها لنجاح ، فحكَّمه فى الدولة ، و أحسن إليه كثيرا .

---

(١) بشر الحافى : هو أبو نصر بشر بن الحارث بن عبد الرحمن بن عطاء بن هلال بن ماهان بن عبد الله المروزى المعروف بالحافى ـ أسلم على يد على بن أبى طالب (ﷺ) ، أصله من مرو ، وسكن بغداد وتوفى بها سنة ٢٢٦هـ/٨٤١م وقيل بمرو . انظر : شذرات الذهب ، ج٢ ، ص٦٠ .

(٢) إلى هنا توقف العينى عن النقل من المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠٤-٢٠٦ .

(٣) «التبول» ، فى نسخة ب .

(٤) وردت هذه الأحداث بتصرف فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠٧ .

(٥) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٦) أبو العباسى أحمد بن المستضىء توفى سنة ٦٢٣ هـ/١٢٢٦م . انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٢٦ .

(٧) «وثئت» من الوثء ، وهو مايصيب اللحم ، ولا يبلغ العظم . القاموس المحيط ، مادة«وثأ» .

ذكر بقية الحوادث

منها أن ابن سُنكا ، وهو ابن أخى شملة صاحب [خوزستان](١) ، بنى قلعة بالقرب من [قلعة](٢) الماهكى ؛ ليتقوى بها على الاستيلاء على تلك الأعمال ، فسير إليه الخليفة العساكر من بغداد لتمنعه ، فالتقوا ، فحمل بنفسه على الميمنة فهزمها ، واقتتل الناس قتالا عظيما ، ثم كانت الهزيمة عليه ، فأُخذ أسيرا وقتل وحمل رأسه إلى بغداد ، فعلِّق بباب النوبى (٣) ، وهدمت القلعة التى بناها (٤) .

ومنها أنه كانت وقعة عظيمة بين المؤيد ، صاحب نيسابور ، وبين شاه مازندران ، فقُتل فيها كثير من الطائفتين ، فانهزم شاه مازندران ، ودخل المؤيد بلد الديلم ، وخربها وفتك بأهلها وعاد عنها .

ومنها أن ملك الروم خرج من القسطنطينية ، وقصد بلاد قليج أرسلان ، فجرت فيها حرب استظهر فيها المسلمون ، فلما رأى ملك الروم عجزه ، عاد إلى بلده ، وقد قُتل من عسكره وأُسر جماعة كبيرة(٥) .

ومنها أن الفرنج حاصروا بانياس ، ثم عادوا عنها ، وقد قلنا إن هذا كان بعد موت نور الدين ، وأن شمس الدين محمد بن عبد الملك خرج من دمشق ، وراسل الإفرنج وبذل لهم فعادوا (٦) .

ومنها أن ابن الجوزى قال(٧) : وعظت يوما بالحربية ، فاجتمع عندى قريب من ثلثمائة ألف .

---

(١) «خوزستا» فى نسخة ب ، وخوز : بضم أوله وتسكين ثانيه وآخره«ز» ، بلاد خوزستان وهو اسم لجميع بلاد الخوز . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٩٤ - ٤٩٧ .

(٢) مابين الحاصرتين إضافة من المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠٤ ، للتوضيح ، وقد ذكر ابن الجوزى أنه استحدث قلعة فى ولاية باذرايا ، بالقرب من قلعة الماهكى .

(٣) باب النوبى : أحد أبواب الثلث الشرقى من مدينة بغداد ، وهو الباب الذى به العتبة التى يقال أن الملوك والرسل كانوا يقبلونها . صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٣٣٠ - ٣٣١ .

(٤) الكامل ، ج١٠ ، ص٦٠ .

(٥) الكامل ، ج١٠ ، ص٦٢ .

(٦) انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٩٤ ، الذى نقل هذا الخبر عن ابن أبى طى ؛ وانظر أيضًا : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٧ . حيث أورد قول شمس الدين بن المقدم تفصيلاً ؛ انظر أيضاً : مرآه الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٤ ، ٢٠٥ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص٦٢ .

(٧) المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠٣ .

ومنها أن فى يوم عاشوراء جلس محمد الطوسي بالتاجيَّة[١] ، وقال على المنبر أن ابن ملجم لم يكفر بقتل على (رضي الله عنه) ، فضرب بالآجر ، ثم ثار الناس ، ولولا من كان حوله من الغلمان لقتل . فلما كان اليوم الثانى من مجالسه فرشوا له المنبر ليجلس ، فاجتمع الناس على باب التاجية ، ومعهم قوارير النفط ليحرقوه ، وبعضهم فى أيديهم الآجُر ليرجموه ، ولم يحضر فأحرقوا منبره ، وأحضره نقيب النقباء ، وأسمعه كلاما غليظا ، فقال لنقيب النقباء : « أنت نائب الديوان»[٢] ، وأنا نائب الله فى أرضه ، وأمر النقيب بأن يُجر برجله ، وكتب إلى الخليفة يخبره بما بدا منه ، فأمر الخليفة بنفيه ، فنفى إلى الجانب الغربى ، ثم خرج بعد مدة إلى مصر ، وجرى له العجائب ، وسنذكره إن شاء الله تعالى[٣] .

وفيها : ....
..........................[٤]

وفيها : حج بالناس ....[٥]

ذكر من توفى فيها من الأعيان

أحمد بن على بن المعمر بن محمد بن عبيد الله أبو عبد الله الحسينى[٦] نقيب العلويين ؛ وكان يلقب بالطاهر ، سمع الحديث الكثير ، وكان جم الأخلاق ، جميل المعاشرة ، يتبرأ من الرافضة ، توفى ليلة الخميس العشرين من جمادى الآخرة منها ، ودفن بداره ، ثم نقل بعد مدة إلى مشهد الصبيان بالمدائن ، وولى ولده مكانه .

الحسن بن أحمد بن الحسن بن أحمد بن محمد العطار أبو العلاء الهمدانى[٧] ؛ سافر الكثير وسمع الكثير ، وانتهت إليه القراءات والتحديث فى همدان ، وتوفى ليلة الخميس عاشر جمادى الآخرة منها وقدجاوز الثمانين بأربعة أشهر .

---

(١) المدرسة التاجية : توجد بزاوية الجامع الأموى الشرقية ، غربى دار الحديث العروية . انظر : الدارس ، ج١ ، ص٤٨٣-٤٨٧ .
(٢) مابين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٣) ورد هذا الحدث بتصرف فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠٣ .
(٤) بياض فى نسختى المخطوطة : أ ، ب بمقدار سطر ونصف .
(٥) بياض فى نسختى المخطوطة : أ ، ب مقداره نصف سطر .
(٦) انظر ترجمته فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠٨ .
(٧) انظر ترجمته فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠٨ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٣١ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٦ .

رستم بن سرهنك أبو القاسم الواعظ[١] ؛ سمع الحديث ، وتعلم الوعظ من ابن الزاغونى شيخ ابن الجوزى ، وتوفى يوم الثلاثاء السادس والعشرين من ربيع الأول منها ، عن ستين سنة تقريبا ، ودفن بباب حرب[١٩٢و] .

ابن الأهوازى خازن دار الكتب بمشهد أبى حنيفة[٢] (رضي الله عنه) ؛ توفى فى ربيع الأول ، جاء من محلته إلى البلد ، فاتكأ على دكة فمات ، وكذلك أخوه وأبوهما فجأة .

يحيى بن نجاح المؤدب[٣] ؛ سمع الحديث الكثير ، وقرأ النحو واللغة ، وكان غزير الفضل ، يقول الشعر الحسن ، توفى فى أواخر هذه السنة .

ابن قرقول أبو إسحق إبراهيم بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن باديس[بن][٤] ، القائد الحَمْزى المعروف بابن قُرقُول[٥] ؛ صاحب كتاب «معارف الأنوار» الذى وضعه علي مثال كتاب ؛ «مشارق الأنوار» ، للقاضى عياض ، كان من الأفاضل ، وصحب جماعة من علماء الأندلس ، وكانت ولادته بالمَرِيَّة من بلاد الأندلس فى سنة خمس وخمسمائة ، وتوفى بمدينة فاس[٦] يوم الجمعة وقت العصر ، السادس من شوال من هذه السنة ، وكان قد صلى الجمعة فى الجامع ، فلما حضرته الوفاه تلا[٧] سورة الإخلاص ، وجعل يكررها ، ثم تشهَّد ثلاث مرات ، وسقط على وجهه ساجدا ميتا (رحمه الله) . وقُرقُول بضم القافين وسكون الراء المهملة وبعد الواو لام . مَرِيّة بفتح الميم وكسر الراء المهمله وتشديد الياء آخر الحروف وفى آخرها هاء ، وهى مدينة عظيمة بالمغرب بالقرب من سبتة[٨] . والحمزى بفتح الحاء المهملة وبعد الميم الساكنة زاى معجمة نسبة إلى حمزة .

---

(١) انظر ترجمته فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠٩ .
(٢) انظر ترجمته فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٠٩ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٦ .
(٣) انظر ترجمته فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢١٠ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٣٦ .
(٤) مابين الحاصرتين إضافة من وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٦٢ .
(٥) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٦٢ - ٦٣ .
(٦) فاس : مدينة عظيمة بالمغرب الأقصى بالقرب من مدينة سبته . انظر : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٤٦ ؛ صبح الأعشى ، ج٥ ، ص١٥٣ .
(٧) «تلى» كذا فى نسخة ب .
(٨) «سيتة» ، فى نسخة ب وهو خطأ من الناسخ .

أبو العباس الخضر بن نصر بن عقيل بن نصر الإربلي ؛ الفقيه الشافعي[(١)] ، كان فقيها فاضلا عارف بالمذهب والفرائض والخلاف ، واشتغل ببغداد على الكِياهِراسي وابن الشاشي ، ولقى عدة من مشايخها ، ثم رجع إلى إربل ، وبنى له بها الأمير أبو منصور سُرفتكين بن عبد الله الزيني - صاحب[(٢)] نائَب إربل- مدرسة القلعة سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ، ودرس فيها زمانا ، وهو أول من درس بإربل ، وله تصانيف حسان كثيرة في التفسير والفقة وغير ذلك ، وله كتاب ذكر فيه ست وعشرين خطبة للرسول(ﷺ) وكلها مسندة ، واشتغل عليه خلق كثير ، وانتفعوا به . وكان رجلا صالحا زاهدا عابدا ورعا متقللا فى نفسه مباركا ، وكان قدم دمشق فأقام بها مدة ، وأثنى عليه ابن عساكر فى تاريخ دمشق ، ثم رجع إلى إربل ، ومن جملة من تخرَّج عليه ؛ الفقيه ضياء الدين أبو عمر ، وعثمان بن عيسى بن دِرباس الهمداني ، وتوفى ليلة الجمعة الرابع عشر من جمادى الآخرة من هذه السنة بإربل ، ودفن بمدرسته التى في الربض فى قبة منفردة ، وقبره يزار[(٣)] . وقال ابن خلكان[(٤)] : وزرته كثيرا ، وتولى موضعه ابن اخيه .

عز الدين أبو القاسم نصر بن عقيل بن نصر ؛ وكان فاضلا ، ومولده بإربل فى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة ، وسخط عليه الملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل ، وأخرجه منها ، فانتقل إلى الموصل ، وسكن فى رباط ابن الشهرزوري ، ولم يزل هنالك إلى أن توفى فى ثالث عشر ربيع الآخر سنة تسع عشرة وستمائة ، وكان له ولد يسمى شرف الدين محمد[(٥)] ، وكانت له اليد الطولى في عمل الدوبيت ، ومولده فى رجب سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة بإربل ، وتوفى ليلة السبت الثامن والعشرين من المحرم سنة ثلاث وثلاثين وستمائة بدمشق ، ودفن فى مقابر الصوفية .

---

(١) انظر ترجمته فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٧ ؛ السبكى : طبقات الشافعية ، ج٤ ، ص٢١٨ . المطبعة الحسينية ، القاهرة .

(٢) «حاجب» فى نسخة ب .

(٣) ورد هذا النص فى وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٢٣٧ - ٢٣٩ .

(٤) وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢٣٨ - ٢٣٩ .

(٥) «مشرف» فى نسخة ب وهو خطأ فى النسخ .

أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل(١) ؛ قاضى القضاة بالديار المصرية زمن الفاطميين ، ويلقب بفخر الأمناء ، وكان أول من صُلب مع عمارة [١٩٢ظ] اليمنى وأصحابه كما ذكرنا ، وقد كان ينسب إلى فضيلة وأدب ، وله شعر رائق ، فمن ذلك قوله فى غلام رفا :

يا رافـيًـا خَـرْقَ كُلِّ ثوبٍ ويا [رَشَا](٢) حُبُّه اعْتِقَادى
عسى بكَفِّ الوِصَالِ ترفو ما مَزَّق الهجرُ من فؤادى

وقال العماد فى الخريدة(٣) : أبو القاسم هبه الله بن عبد الله ؛ كان داعى الدعاة بمصر للأدعياء ، وقاضى القضاة لأولئك الأشقياء ، يلقبونه بفخر الأمناء ، وهو عندهم فى المحلة العلياء ، والمرتبة الشماء ، والمنزلة[التى](٤) فى السماء ، حتى انكدرت نجومهم ، وتغيرت رسومهم ، وأقيم قاعدهم وعضد عاضدهم ، [وأخليت](٥) منهم مصرهم ، [وأجلى](٦) عنهم قصرهم ، وهو أول من ضمه حبل الصَلَب ، وأمه فاقرة الصُلب ، وهذا صنع الله فيمن كفر النعمة وجحد ، وذلك غرة رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة .

عمارة اليمنى ؛ هو الفقيه أبو محمد عمارة بن أبى الحسن على بن زيدان بن أحمد ابن محمد بن سليمان بن أيوب الحكمى اليمنى الملقب نجم الدين الشاعر المشهور . وقال ابن خلكان(٧) : نقلت من بعض تواليفه أنه من قحطان . ثم الحكم بن سَعد العشيرة المذحجى ، وأن وطنه من تهامة باليمن ، مدينة يقال لها مرَطان من وادى وساع ، وبُعدها من مكة فى مهب الجنوب أحد عشر يوما ، وبها مولده ومرباه ، وأنه بلغ الحلم سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، ورحل إلى زبَيد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة ، فأقام يشتغل بالفقه فى بعض مدارسها مدة أربع سنين ، وأنه حج سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، وسيّره قاسم بن هاشم بن فليته صاحب مكة ـ شرفها الله ـ رسُولاً إلى الديار المصرية ، فوصلها

---

(١) انظر ترجمته فى شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٣٥ .
(٢) «رشاء» فى الأصل . والمثبت من الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص١٨٧ .
(٣) انظر الخبر فى الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ص١٨٦ـ ١٨٧ .
(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من المرجع السبق ، ص١٨٦ .
(٥) «أجليت» فى نسخة أ ، والمثبت من نسخة ب .
(٦) «وأخلى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص١٨٧ .
(٧) انظر وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٣١ ـ ٤٣٦ .

فى ربيع الأول سنة خمسين وخمسمائة، وصاحبها يومئذ الفائز بن الظافر[١]، والوزير الصالح طلائع بن رُزيك[٢]، وأنشَدهما فى تلك الدفعة قصيدته الميمية[٣] وهى :

الحَمْدُ للعيس بعدَ العَزْمِ والهِمَمِ حَمْدًا يقومُ بما أَولَت من النِّعمِ
لا أَجْحَدُ الحقَّ عِنْدى للركابِ يَدٌ تمنَّت اللُّجَمُ فيها رُتبةَ الخَطُمِ
قَرَّبنَ بعدَ مَزارِ العزِّ من نظرى حتى رأيتُ إمامَ العَصْرِ من أَمَمِ
ورُحْن من كَعْبةِ البَطحاءِ والحرَمِ وفدًا الى كَعْبةِ المَعْروفِ والكَرمِ
فهل دَرىَ البيتُ أنِّى بعدَ فُرقَتِه ماسِرْتُ من حَرمٍ إلا إلى حَرمِ
حيثُ الخلافةُ مضروبٌ سُرادقُها بين النقيضين من عَفْوٍ ومن نِقَمِ
وللإمَامةِ أنوارٌ مُقَدّسةٌ تجْلُو البغيضين من ظُلَمٍ ومن ظُلَمِ
وللنبوةِ آياتٌ [تنصٌّ][٤] لنا على الخَفِيين[٥] من حُكمٍ ومن حِكمِ
وللمَكارمِ أعلامٌ تعُلِّمُنا مدحَ الجَزِيلَيْن مِنْ بأسٍ ومن كَرَمِ
وللعُلا ألْسُنٌ تُثْنِى مَحَامِدُها على الحَميدين من فعلٍ ومن شِيَمِ
ورايةُ [الشَّرفِ][٦] البذَّاخِ ترفَعُها يدُ الرفيعَيْن من مَجْدٍ ومن هِمَمِ
أقسَمْتُ بالفائزِ المعصوم معتقداً فوزَ النجاة وأجْرَ البر فى القَسَمِ/ [١٩٣و]
لقد حَمى الدينَ والدُّنيا وأهلَهُما وزيرُه الصالحُ الفَرّاجُ للغُممِ
اللابسُ الفخْرَ لم تَنْسجْ غَلائلَهُ إلا يدُ الصَّنعتين[٧] السيفِ والقلمِ
وُجُودُه أوجَدَ الأيامَ ما اقْتَرحَتْ وَجُودُه أعْدَمَ الشَّاكِين للعَدَمِ

---

(١) الفائز بن الظافر : هو أبو القاسم عيسى الملقب الفائز بن الحافظ بن محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدى عبيد الله توفى سنة ٥٥٥ هـ/١١٦٠م . انظر : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٩١ ـ٤٩٤ .

(٢) هو أبو الغارات طلائع بن رزيك الملقب بالملك الصالح وزير مصر كان والياً بمنية بنى خصيب من أعمال صعيد مصر توفى سنة ٥٥٦ هـ/١١٦١م . انظر : وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٥٢٦ ـ ٥٣٠ .

(٣) انظر القصيدة أيضا فى النكت العصرية لعمارة اليمنى ، ص٣٢ ـ ٣٤ ؛ وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٣٢ ـ ٤٣٣ .

(٤) «ينص» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من النكت العصرية ، ص٣٣ ؛ وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٣٢ ـ ٤٣٣ .

(٥) «الحفيين» فى نسخة ب .

(٦) «للشرف» فى الأصل ، والمثبت من ديوان عمارة ؛ وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٣٢ .

(٧) «الصنعين» فى وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٣٣ .

قـد مَلَّكَتْـه العَـوالى رقَّ مـملكةٍ تُعـيـرُ أنفَ الثُـريّا عـزَّة الشَّـمَمِ
أرى مَـقـامًـا عَظِيمَ الشَّأْن أَوهَمَنِى فى يقظتى أنهـا من جُـملَةِ الحُلُمِ
يومٌ من العُمْرِ لم يخْطُرْ على أمَلى[1] ولا ترقَّت إليـه رَغْـبَـةُ الهِـمَمِ
ليتَ الكواكبَ تدنوُ لى فـأنظُمُـهـا عقوُدَ مَدْحٍ فـمـا أرضَى لكُمْ كلِمى
تَرى الـوزارةَ فـيــه وهى بَاذِلَةٌ عندَ الخلافـة نُصْحًا غيـرَ مُتَّهَمِ
عـواطفُ علَّمَـتْنا[2] أنَّ بَيْنَهُـمـا قَـرابةً من جَـمِـيل الرأى لا الرَّحِمِ
خليـفـةٌ ووزيرٌ مَـدَّ عَـدْلُهُـمـا ظِلاً على مَـفْـرِق الإسْـلام والأُمَمِ
زيادَةُ النيلِ نقْصٌ عند فَيْضِهِمـا[3] فَـمَـا عـسَى نتـعـاطَى منَّةَ الدِّيَمِ

فاسْتَحْسَنا قصيدته ، وأجْزَلا صِلَته .

قال عمارة[4] : لما دخلتُ مصرَ ، وحضرتُ للسلام على الخليفة ، والوزير فى قاعة الذهب من قصر الخليفة ، أنشدتهما هذه القصيدة[5] ، والصالح يستعيدها فى حالة الإنشاد مراراً ، فاستحسنها الأستاذون والأمراء والكبراء ، ثم أُفيضت علىَّ خلع من ثياب الخليفة[6] مُذهبة ، ودفع إلىَّ الصالح خمسمائة دينار ، وإذا بعض الأستاذين قد خرج لى من عند السيدة [الشريفة] [7] بنت الإمام الحافظ بخمسمائة دينار أخرى ، وحمل المال معى إلى المنزل ، وأطلقت لى من دار الضيافة رسوم لم تطلق لأحد[من][8] قبلى ، وتهادتنى أمراء الدولة إلى منازلهم للولائم ، فاستحضرنى الصالح للمجالسة ، ونظمنى فى سلك أهل المؤانسة ، [وانثالت علىّ صلاته وغمرنى برّه][9] ، ووجدت بحضرته من أعيان أهل الأدب الشيخ الجليس أبا المعالى بن الحباب ، والموفق أبا الحجاج يوسف بن الخلال صاحب ديوان الإنشاءِ ، وأبا الفتح محمود بن قادوس ، والمهذب أبا محمد الحسن بن الزبير وغيرهم .

(١) «أمل» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٣٣ .
(٢) «أعلمتنا» فى نسختي المخطوطة أ ، ب . والمثبت من وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٣٣ .
(٣) «قبضهما» فى وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٣٣ .
(٤) انظر : النكت العصرية ، ص٣٢ ـ٣٤ حيث ورد النص مع اختلاف طفيف فى الألفاظ .
(٥) أورد عمارة القصيدة السابقة فى هذا الموضع .
(٦) «الخلافة» فى النكت العصرية .
(٧) مابين الحاصرتين إضافة من النكت العصرية ، ص٣٤ .
(٨) مابين الحاصرتين إضافة من النكت العصرية ، ص٣٤ .
(٩) مابين الحاصرتين إضافة من النكت العصرية ، ص٣٤ .

وقال ابن خلكان[١] : وأقام عمارة فى مصر إلى شوال من سنة خمسين فى أرغد عيش وأعز جانب ، ثم فارق مصر فى هذا التاريخ ، وتوجه إلى مكة ، ومنها إلى زَبيد فى صفر سنة إحدى وخمسين ، ثم حج من عامه ، فأعاده قاسم صاحب مكة المذكور فى رسالة[٢] إلى مصر مرة ثانية ، فاستوطنها ولم يُفارقها بعد ذلك . وكان فقيها شافعى المذهب ، شديد التعصب للسُّنة ، أديبا ماهراً ، شاعراً مجيدا ، محادثا ممتعًا ، فأحسن الصالح وبنوه إليه كل الإحسان ، وصحبوه مع اختلاف العقيدة ؛ لحسن صحبته .

وله فى الصالح وولده مدائح كثيرة ، وكانت بينه وبين ابن شاور[٣] صحبة متأكدة قبل وزارة أبيه ، فلما وُزِّرَ استحال عليه فكتَبَ إليه :

إذا لم يُسَالِمْك الزمَانُ فحارِبِ ... وباعِدْ إذا لم تنتفعْ بالأقاربِ
ولا تحتقرْ كيداً ضَعيفا فربَّما ... تموتُ الأفاعِى من[سمام][٤]العقَاربِ
فقد هَدّ قِدمًا عرش بلقيس هدْهدٌ ... وَخرَّبَ فأرٌ قبل ذا سد مأربِ/ [١٩٣ظ]
إذا كان رأسُ المالِ عُمْرك فاحترز ... عليه من الإنفاقِ فى غير واجبِ
فبين اختلافِ الليلِ والصبح مَعرَكٌ ... يَكر علينا جيشُه بالعجائبِ
وما راعَنى غَدْرُ الشبابِ لأننى ... أنِستُ بهذا الخُلْق من كلِّ صاحبِ
وغدْرُ الفتى فى عَهْده ووفائِه ... وغدْرِ المواضِى فى نُبُوِّ المضاربِ
إذا كان هذا الدُّرُّ مَعْدِنُه فَمى ... فصُونوه عن تقْبِيلِ راحة واهبِ
رأيتُ رجالا أصبَحَتْ فى مآدبِ ... لدَيكم وحالى وحْدَها فى نوادِبِ
تأخَرْتُ لَمَّا قدَّمَتْهُم عُلاكُم ... عَلىَّ وتأبى الأسْدُ سَبْقَ الثعالبِ
تُرى أين كَانُوا فى مواطِنِى التى ... غَدَوْتُ لكُم فيهِنَّ أكرمَ نائبِ
ليالىَ أتْلُو ذِكْركُم فى مَجَالسٍ ... حَديثُ الورَى فيها بغَمزِ الحواجبِ

(١) انظر : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٣٣ - ٤٣٥ .
(٢) انظر خبر هذه الرسالة فى النكت العصرية ، ص٤٢ .
(٣) هو : الكامل بن شاور . انظر النكت العصرية ، ص١٢٩ ، حيث أورد بعد ذلك الأبيات الآتى ذكرها ص١٣٠ .
(٤) «سموم» فى نسخة ب .

قال ابن خلكان(١) : وزالت (٢) دولة المصريين وهو فى البلاد . ولما ملك السلطان صلاح الدين مدحَه ، ومدح جماعةً من أهل بيته ، يتضمن ديوانه جميع ذلك . ورَثى أصحاب القصر عند زوال ملكهم بقصيدة لامية طويلة أجاد فيها ، وغالبُ شعره جيدِ ، ثم أنه شرع فى أمور وأسباب من الاتفاق مع جماعةٍ من رُوساء البلد على التعصب للمصريين وإعادة دولتهم ، فأحس بهم صلاح الدين ، فكانوا ثمانية من الأعيان ، ومن جملتهم عمارة هذا ، وشنقهم يوم السبت ثانى شهر رمضان سنة تسع وستين وخمسمائة بالقاهرة ، وقد ذكرناه مفصلاً . وقال ابن خلكان(٣) : وله تواليف منها كتاب «أخبار اليمن» ، وفيه فوائد . ومنها «النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصريّة» ، وغير ذلك .

وقال ابن كثير(٤) : وله تصنيف فى الفرائض ، وقد كان أديبا فاضلا فقيها فصيحا ، غير أنه كان ينسب إلى موالاة الفاطميين ، وله فيهم وفى أمرائهم ووزرائهم مدائح كثيرة جداً ، وأقل ما [كان](٥) ينسب إلى الرفض ، وقد اتهم باطنه بالكفر المحض .

وذكر العماد(٦) فى الخريدة أنه قال فى قصيدته التى يقولُ فيها :

قد كان أول هذا الدينِ من رجل   سعى إلى أن دَعَوْه سيِّد الأمم

قال [العماد](٧) : فأفتى علماء مصر بقتله وحرَّضوا السلطان صلاح الدين على ذلك . قال : ويجوز أن يكون [هذا البيت] (٨) معمولا به عليه(٩) ، والله أعلم .

وقد أورد ابن الساعى(١٠) شيئا من رقيق شعره ، فمن ذلك قوله يتغزل :

---

(١) انظر : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٣٤ ـ ٤٣٥ حيث نقل العينى عنه بتصرف .
(٢) «ورايت» فى نسخة ب .
(٣) وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٣٤ ـ ٤٣٥ .
(٤) انظر البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٥ .
(٥) مابين الحاصرتين من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٥ .
(٦) ذكر فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٥ أول القصيدة هذا نصها :
العلم مذ كان محتاج إلى العلم   وشفرة السيف تستغنى عن القلم .
وقال أيضاً : « وهى طويلة جداً» . وقد ذكر فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٥٣ نقلاً عن العماد أن هذا منسوب إليه .
(٧) «العلماء» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٦ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٦١ .
(٨) مابين الحاصرتين إضافه للتوضيح من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٦ .
(٩) انظر هذا الخبر فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٦٢ .
(١٠) انظر : النكت العصرية ، ص٢٦٥ حيث أورد عمارة اليمنى القصيدة كاملة .

لى فى هوى[الرَّشَأ][1] العُذْرىِّ أعْذارُ	لم يبقَ لى مُذْ أقَرَّ الدمعُ إنكارُ
لى فى القُدودِ وفى لثْمِ الخدودِ وفى[2]	ضَمِّ النُّهُودِ لُبَاناتٌ وأوطارُ
هذا اختيارى فوافِقْ إن رَضِيتَ به	أو لاَ فَدَعْنى بما أهْوى وأخْتارُ

ومما وجد فى شعره يرثى العاضد وأيامه ، ويظهر محبته للفاطميين[3] :

يا عاذِلِى فى هَوى أبناءِ فاطِمَةٍ	لكَ المَلامةُ إن قصَّرتَ فى عَذْلى
بالله زُر ساحةَ القَصْرين ، وابكِ معى	عليهما ، لا على صِفِّين والجَمَلِ[4]/ [١٩٤و]

وهى قصيدة طويلة ، وقد ذكرناها فيما مضى .

مَالك بن على[5] **صاحب قلعة جعبر** ؛ قتل فى هذه السنة ، قتله الإسماعيلية بسرُوج[6] .

مِرى ملك الإفرنج ، صاحب عسقلان (لعنه الله) ، هلك فى هذه السنة ، وقد كاد اللعين أن يغلب على الديار المصرية ، لولا فضل الله تعالى ورحمته .

---

(١) «الرشاء» فى الأصل . والمثبت هو الصحيح لسلامة الوزن .
(٢) «لى» فى نسخة ب .
(٣) ذكر ابن كثير أبياتا أخرى لعمارة اليمنى فى رثاء العاضد أولها :
أسفى على زمان الإمام العاضد	أسف العقيم على فراق الواحد
انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٧٧ .
(٤) انظر هذه القصيدة فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٧٠ - ٥٧١ حيث نقلها عن العماد .
(٥) هو : شهاب الدين مالك بن على بن مالك بن سالم بن مالك بن بدران بن مقلد العقيلى . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٨٥ .
(٦) سروج : بلدة قريبة من حران من ديار مضر . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٨٥ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة السبعين بعد الخمسمائة*

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله ، وصاحب مصر السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وسلطان الشام وحلب وماوالاهما الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى ، وسلطان الروم عز الدين قُليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن[1] سليمان بن قطلومش بن أرسلان بيغو بن سلجوق ، وصاحب اليمن الملك المعظم توران شاه بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وصاحب المغرب أبو يعقوب [2] يوسف بن السلطان عبد المؤمن ، وصاحب الموصل وغيرها سيف الدين غازى بن مودود ، وصاحب ماردين وغيرها قطب الدين إيل غازى بن نجم الدين ألبى بن تمرتاش بن إيلغازى بن أرتُق ، وصاحب آمِد وحصن كيفا[3] نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود ، وصاحب تبريز[4] فلك الدين ابن آقسنقر الأحمديلى ، وصاحب خوزستان وفارس شملة التركمانى ، وصاحب همدان وغيرها البهلوان محمد [5] بن أيلدكز ، وصاحب غزنة[6] شهاب الدين الغورى .

ذكرُ تملك صلاح الدين دمشق وأخذه من الملك الصالح بن نور الدين

ولما مات نور الدين فى التاريخ الذى ذكرناه ، وتولى عوضه ولده إسماعيل ، وطمعت الفرنج فى بلاد الشام ، واختلفت آراء أمراء الشام ، وعزم السلطان صلاح الدين للتوجه إلى

---

* يوافق أولها ٢ أغسطس ١١٧٤م .

(١) «ابن» مكرره فى نسخة ب .

(٢) يوسف بن عبد المؤمن بن على القيسى الكومى ، تولى الحكم سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٣م ، وتوفى سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م . انظر : وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٣٠ - ١٣٨ .

(٣) حصن كيفا : بلدة وقلعة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ،ص٢٧٧ .

(٤) تبريز : من مدن أذربيجان وهى مدينة عامرة . معجم البلدان ،ج١ ، ص٨٣٢ .

(٥) هو : محمد البهلوان بن أيلدكز الأتابك شمس الدين صاحب أذربيجان وعراق العجم توفى ٥٨١هـ/١١٨٥م . انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٢٠٨ ، عارضة ٢٥٣ ؛ الشذرات ج٤ ، ص٤٦٩ .

(٦) غزنة : من طرف خراسان وأول بلاد الهند . انظر : تقويم البلدان ، ج٣ ، ص٤٦٦ - ٤٦٧ .

الشام ، لأخذها وحفظها من الإفرنج ، ولكنه عرض عليه أمران : الأول : مجئ الإفرنج إلى بلاد مصر ، والثانى : مخالفة كنز المقدم بأسوان ، فلنذكر الأمرين أولاً ، ثم نذكر أخذ صلاح الدين دمشق .

أما الأمر الأول فقد قال ابن كثير[١] : استهلت هذه السنة والسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب على عزم الدخول إلى الشام ؛ ليحفظه من أيدى الإفرنج المخذول ، ولكنه قد دهمه أمر شغله عنه . وذلك أن الفرنج قدموا إلى ساحل البلاد المصرية فى أسطول لم يسمع بمثله ؛ فى كثرة مراكبه ومافيه من آلات الحصار ، وكثرة الرجال والمقاتلة ، فى جملة ذلك ؛ مائتا شينى فى كل منها مائة وخمسون مقاتلا ، وأربعمائة قطعة أخرى . وكان قدومهم من صقلية إلى ظاهر إسكندرية قبل رأس السنة بأربعة أيام ، فنصبوا المنجنيقات والدبابات حول البلد ، وبرز إليهم أهلها ، فقاتلوهم دونها قتالاً شديداً ، واستمر القتال أياما ، وقتل من كل الفريقين خلق كثير ، ثم اتفق أهل «البلد»[٢] على تحريق مانصبوه من المنجنيقات والدبابات ، ففعلوا ذلك ، فأضعف ذلك قلوب الإفرنج وفنَّد فى أعضادهم ، ثم كبسهم المسلمون فى منازلهم ، فقتلوا من أحبوُا وأرادوا ، وغنموا ماشاءوا واختاروا . وانهزم الكفار فى كل وجه ، ولم يكن لهم ملجأ إلا البحر أو القتل أو الأسر ، واستحوذ المسلمون على أموالهم وأثقالهم وخيولهم ، وماضربوه من الخيام لنزولهم ، وبالجملة قتلوا خلقا من الرجال ، وغنموا شيئا كثيراً من الأموال ، وركب من بقى منهم فى الأسطول راجعين إلى بلادهم خائبين لعنهم الله .

وفى تاريخ بيبرس[٣] : وفى هذه السنة قصد الإفرنج ثغر الإسكندرية[١٩٤ظ] وجاءوا فى مائتى شينى وطريدة وبطسة ، و أمد الملك الناصر صلاح الدين أهل الثغر بالعسكر ، وتحرك ليتوجه إليهم ، فألقى الله فى قلوبهم الرعب ، فعادوا خائبين بعد أن ضايقوا الثغر وزحفوا عليه ثلاثة أيام ، وقاتلوا قتالا شديداً .

---

(١) انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٧ ، حيث ينقل عنه العينى بتصرف .
(٢) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٣) انظر : نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص٣٩٢ .

وفى تاريخ الدولتين[١] : أما وصول الأسطول إلى إسكندرية فكان يوم الأحد السادس والعشرين من ذى الحجة سنة تسع وستين ، وانهزم فى أول المحرم سنة سبعين .

وأرسل صلاح الدين كتابا إلى بعض الأمراء بالشام ، وفيه : وصل[٢] أول الأسطول وقت الظهر ، ولم يزل واصلا إلى وقت العصر . وكان ذلك على حين غفلة من المتوكلين بالنظر ، لاعلى خفاءٍ من الخبر ، واستنزلوا خيولهم من الطرائد ورجالهم من المراكب ، فكانت الخيل[ألفا وخمسمائة رأس][٣] ، وكانوا ثلاثين ألف مقاتل مابين فارس وراجل ، وكانت عدة الطرائد[ست وثلاثين طريدة تحمل الخيل وكان معهم][٤] مائتا شينى ، فى كل شينى مائة وخمسون راجلا ، وكانت عدة السفن التى تحمل آلات الحرب والحصار من الأخشاب الكبار وغيرها ست سفن ، وكانت عدة المراكب الحمالة برسم الأزواد للرجال أربعين مركبا ، وفيها من الرجال المتفرقين وغلمان الخيالة وصُنَّاع المراكب وأبراج الزحف ودباباته والمنجنيقية ، مايتمم خمسين ألف راجل .

ولما تكاملوا نازلين على البر ، حملوا على المسلمين حملة أوصلوهم إلى السور ، وفقد من أهل الثغر فى وقت الحملة مايناهز سبعة أنفس . واستشهد محمود بن البصار و[كان][٥] بسهم جرح ، وجدفت مراكب الإفرنج داخلة إلى الميناء ، وكان به مراكب مقاتلة ومراكب مسافرة ، فسبقهم المسلمون إليها فخسفوها وغرقوها ، وغلبوهم على أخذها ، وأحرقوا ما احترق منها ، واتصل القتال إلى المساء ، فضربوا خيامهم بالبر ، وكانت عدتهم ثلثمائة خيمة .

فلما أصبحوا زحفوا وضايقوا وحاصروا ونصبوا ثلاث دبابات بكباشها ، وثلاثة مجانيق كبارا تضرب بحجارة سوداء استصحبوها معهم من صقلية ، والدبابات تشبه الأبراج فى جفاء أخشابها ، وارتفاعها ، وكثرة مقاتِلتها واتساعها ، وزحفوا بها إلى أن قاربت السّور ، ولجّوا فى القتال عامة النهار المذكور .

(١) انظر : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٩٨ .
(٢) «وصول» فى نسخة ب .
(٣) «ألفين وخمسمائة فارس» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٩٨ ؛ مفرج الكروب ، ج٢ ، ص١٢-١٣ .
(٤) مابين الحاصرتين ساقط من نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٩٨ ؛ وانظر أيضا : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص١٣ ؛ السلوك ، ج١ق١ ، ص٥٦ .
(٥) ما بين الحاصرتين إضافة لازمة من الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٩٩ لاستقامة النص .

وورد الخبر إلى منزلة العساكر بفاقوس يوم الثلاثاء ثالث يوم نزول العدو على جناح الطائر، فاستنهض السلطان العساكر إلى الثغرين إسكندرية ودمياط . وأما أهل إسكندرية فإنهم فتحوا الأبواب[١] على غفلة ، وخَرَّجُوا منها ممن كان من الأمراء ، فأحرقوا الدبابات المنصوبة ، وأنزل الله النصر على المسلمين ، والخذلان على الكفار ، واتصل القتال إلى العصر من يوم الأربعاء ، وانهزم الإفرنج واستحر القتل والجرح فيهم ، ولم يسلم منهم إلا من نزع لبسه ، ورمى فى البحر نفسه . وتقحم المسلمون فى البحر على بعض المراكب فخسفوها وأتلفوها ، فولت بقية المراكب هاربة ، وبقى العدو بين قتل وغرق وأسرٍ ، واحتمى ثلثمائة فارس فى رأس تل ، فأخذت خيولهم ، ثم قتلوا وأسروا ، وأقلع هذا الأسطول عن الثغر يوم الخميس . وذكر ابن شداد [٢] أن نزول هذا العدو كان فى شهر [١٩٥و] صفر ، وكانوا ثلاثين ألفا فى ستمائة قطعة ما بين شينى ، وطرادة ، وبطسة ، وغير ذلك .

وأما الأمر الثانى : فهو نوبة الكنز . وقال بيبرس فى تاريخه[٣] : وفى هذه السنة خالف الكنز بأسوان وهو مقدم من المصريين ، وكان قد انتزح إلى أسوان ، فأقام بها ، ولم يزل يدبر أمره ويجمع السودان عليه ، ويخيل لهم أنه يملك البلاد ويعيد الدولة المصرية ، ويقطع خطبة الناصر صلاح الدين ، ويخطب لداود بن العاضد ، فاجتمع إليه جمع وافر من السودان ، وقصد قوص وأعمالها . فانتهى خبره إلى الملك الناصر ، فجرد إليه عسكرا[٤] ، وقدّم عليه أخاه الملك العادل ، وتوجه صحبته أبو الهيجاءِ السمين ، فساروا إلى الكنز ، وقد حشد جمعا كثيرا من السودان والرعية وعُربان البلاد ، فالتقوا وقتلوا الكنز وأبادوا جموعه ، واطمأنَّ الصعيد ، وعاد الملك العادل وسكن القصر بالقاهرة ، ولقب من ذلك الحين بالملك العادل[٥] .

---

(١) «الباب» فى نسخة ب .

(٢) نقل العينى هذا النص بتصرف من النوادر السلطانية ، ص٤٨ - ٤٩ .

(٣) زبدة الفكرة غير موجود بين أيدينا ، انظر : نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص٣٦٩ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص٦٤ - ٦٥ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٣٠ - ٥٣٣ حيث أورد أبوشامة نقلاً عن المؤرخ الحلبى ابن أبى طى حديثاً مفصلاً عن حملة تورانشاه إلى بلاد النوبة .

(٤) «فجرد عسكر إليه» كذا فى نسخة ب .

(٥) ورد هذا النص بتصرف فى النوادر السلطانية ، ص٤٧-٤٨ .

والكنز المذكور من قبيلة ربيعة[١] ، وكان مسكنهم بجزيرة العرب ، ومستقرهم منها باليمامة ، وانتقلوا إلى مصر من أيام المتوكل العباسى[٢] ، فسكنوا بيوت الشعر فى صحارى هذه الأعمال . وكانت البجاة [٣] تشن الغارات فى كل وقت ، فمنعوهم من ذلك ، ثم تزوجوا عندهم ، وظفروا معدن الذهب بالعلاقى[٤] ، فتمولوا .

وفى تاريخ ابن كثير[٥] : ومما عوق الملك الناصر صلاح الدين عن الشام رجل يعرف بالكنز ، وسماه بعضهم عباس بن شادى ، وكان من مقدمى الديار المصرية ، ومن الدولة الفاطمية ، وكان قد [انتزح][٦] إلى أسوان ، وجمع عليه خلقا من الرعاع من الحاضرة والعربان ، وزعم لهم أنه سيعيدُ الدولة[الفاطمية][٧] ، ويدحض الدولة [الأتابكية][٨] التركية ، ثم ذكر قريبا مما ذكرناه .

وقال ابن أبى طى[٩] : خرج بقرية من قرى الصعيد يقال لها طود[١٠] رجل يعرف بعباس بن شادى[١١] ، وثار فى بلاد قوص ونهبها وخربها ، وأخذ أموال الناس ، واتصل ذلك بالملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب ، وكان السلطان استنابه بمصر ، فجمع له العساكر وأوقع به ، وبدد شمله ، ثم قصد بعده كنز الدولة الوالى بأسوان ، وكان قصد بلد طُود ، فقتل أكثر عسكره وهرب ، فأدركه بعض أصحاب الملك العادل فقتله .

---

(١) بنو ربيعة : هم بطن من طى من القحطانية مساكنهم البلاد الشامية . انظر : نهاية الأرب فى معرفة أنساب العرب ، ص١٠٠ ـ ١٠٣ .

(٢) المتوكل العباسى : هو أبو الفضل جعفر بن المعتصم بن الرشيد بن المهدى توفى سنة ٢٤٧هـ/٨٦١م . وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٣٥٠ ـ ٣٥٦ .

(٣) البُجَاة : البجة بضم الباء الموحدة وفتح الجيم وألف فى الآخر ، وهم من أصفى السودان لوناً ، وهم مسلمون ونصارى وأصحاب أوثان ، وموطنهم فى جنوب صعيد مصر مما يلى الشرق فيما بين بحر القلزم وبين نهر النيل على الغرب من الديار المصرية وقاعدتهم سواكن . صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٢٧٣ ـ ٢٧٤ .

(٤) العلاقى : وادى العلاقى فى بلاد البجة فى جنوبى أرض مصر به معدن التبر . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٧١٠ .

(٥) البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٨ .

(٦) «انتزع» فى نسخة أ ، وهو خطأ ، والمثبت من نسخة ب .

(٧) مابين الحاصرتين إضافة من ابن كثير الذى ينقل عنه العينى ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٨ .

(٨) مابين الحاصرتين إضافة من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٠٨ .

(٩) انظر قول ابن أبى طى فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٦٠١ ـ ٦٠٢ .

(١٠) الطود : بليدة بالصعيد الأعلى فوق قوص ودون أسوان لها مناظر وبساتين ، أنشأها الأمير درباس الكردى المعروف بالأحول فى أيام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب . معجم البلدان ، ج٣ ، ص٥٥٦ .

(١١) عباس بن شادى : من مقدمى الديار المصرية والدولة الفاطمية استند إلى بلد يقال له أسوان وقيل إنه تولى حكم أسوان فى أول أيام صلاح الدين . انظر : البداية والنهاية ، ج١١ ص٢٨٨ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٦٠١ ـ ٦٠٢ ؛ النوادر السلطانية ، ص٤٧ ـ ٤٨ .

وأما توجه السلطان صلاح الدين إلى الشام فقد كان فى هذه السنة فخرج إلى البركة فى مستهل صفر، وأقام حتى اجتمع العسكر، ثم رحل إلى بلبيس فى ثالث عشر ربيع الأول، وكان عنده رسل شمس الدين صاحب بُصْرَى، صديق ابن جاولى، وشمس الدين بن المقدم [١]، ثم سار إلى أيلة، ثم أناخَ على بصرى[٢]، فاستقبله صاحب بُصرَى، ولم يزل فى خدمته إلى الكسوة[٣]، وبكر صلاح الدين يوم الاثنين آخر شهر ربيع الأول، وسار فى عسكره حتى دخل دمشق، ودخل إلى دار العقيقى[٤] وكانت مسكن أبيه، وكان فى قلعة دمشق جمال الدين ريحان الخادم، فاستماله صلاح الدين حتى ملك القلعة أيضًا، ونزل فى القلعة سيف الإسلام أخو السلطان صلاح الدين، وأظهر السلطان لأهل دمشق أنه إنما جاءَ لتربية الملك الصالح بن نور الدين، وحفظ مالهُ من المصالح، وجاء إليه أعيان البلد، [١٩٥ظ] منهم: القاضى كمال الدين بن الشهرزورى، فأكرمه السُلطان، وبالغ فى إكرامه، والأمراء والأجناد والأتراك والأكراد والعربان، ثم أرسل السلطان الكتب الفاضلية إلى مصر بهذا الفتح والنصر. وفى بعض كتبه: «وكان رحيلنا من بُصرى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ربيع الأول، ومن ثم[٥] لقينا الأجَلّ ناصر الدين بن المولى أسد الدين [شيركوه][٦]، والأمير سعد الدين بن أُنر يوم السبت السابع والعشرين منه، ونزلنا يوم الأحد بجسر الخشب، واستقبلنا هناك الأجناد الدمشقية، ولما دخلنا دمشق أمرنا بالنداء بإطابة النفوس، وإزالة المكوس».

---

(١) شمس الدين بن المقدم: هو محمد بن عبد الملك من أعيان أمراء الدولتين، وهو الذى سلم سنجار إلى نور الدين، ثم تملك بعلبك وعصى على صلاح الدين مدة، ثم صالحه وناب له بدمشق. توفى سنة٥٨٣ هـ/١١٨٧م. انظر: شذرات الذهب، ج٤، ص٢٧٦.

(٢) بصرى موضع بالشام من أعمال دمشق. معجم البلدان، ج١، ص٦٥٤.

(٣) الكسوة: قريه قريبة من دمشق، وهى أول منزل تنزله القوافل الخارجة من دمشق إلى مصر، معجم البلدان، ج٤، ص٢٧٥.

(٤) دار العقيقى: هى دار أبى أيوب والد صلاح الدين، وهى ظاهر دمشق إلى داخل بابى الفرج والفراديس فى دمشق. أما العقيقى؛ فهو أحمد بن الحسين بن أحمد بن على العقيقى صاحب الحمام بباب البريد. انظر: الدارس فى تاريخ المدارس، ج١، ص٣٤٩.

(٥) «وفيه» فى نسخة ب.

(٦) مابين الحاصرتين إضافة من الروضتين، ج١ق٢، ص٦٠٣.

وفي تاريخ بيبرس : وفي هذه السنة خرج الملك الناصر صلاح الدين إلى دمشق ، واستناب عنه الملك العادل أخاه بالديار المصرية ، وكان السبب في ذلك أن الملك الصالح بن نور الدين كتب إلى ابن عمه سيف الدين غازى بن مودود[١] ، صاحب الموصل ، وإلى أخيه عماد الدين زنكى ، صاحب سنجار ، بأن يحضرا إليه بعساكرهما ؛ ليجتمعوا جميعا على قصد صلاح الدين وأخذ الديار المصرية منه ، فأما أخوه عماد الدين زنكى فإنه امتنع منه ؛ لأن صلاح الدين كان قد كاتبه وأطمعه فى ملك والده ، بحكم أنه الكبير ، فحمله الطمع على الامتناع على أخيه ، فلما رأى أخوه امتناعه ، سار إليه إلى سنجار ، وحاصره بها ، وامتنع عماد الدين ، وجَدَّ فى حفظ البلد ، والذب عنها ، فدام الحصار عليها[٢] .

فبينا يحاصرها أتاه الخبر بانهزام عسكره الذى مع أخيه عز الدين مسعود[٣] من صلاح الدين ؛ لأنه كان عند مسيره إلى سنجار قد رتبه مع عسكر بدمشق ، وصحبته أمير كبير يسمى عز الدين محمود ، فلما وصل صلاح الدين إلى دمشق أخذها ، وانهزم العسكر الذى بها . فراسل الملك الصالح أخاه عماد الدين ، وصالحه على مابيده ، ورحل إلى الموصل ، إلى سيف الدين ابن عمه ؛ ليستنجده على صلاح الدين ، فسار بنفسه ، وسار صلاح الدين من دمشق إلى حمص ، واستخلف عليها أخاه سيف الإسلام طُغتكين[٤] ، وقاتل أهل حمص يوما واحدا ، فملكها ، وامتنعت القلعة عليه . فسار عنها إلى حماة ، وبها عزُ الدين جُورديك[٥] ، وهو من مماليك نور الدين ، فامتنع من التسليم . فسَيَّر إليه صلاح الدين يذكر أنه فى طاعة الملك الصالح ، وأنه ما خرج إلا لحفظ البلاد

---

(١) انظر : ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٤ - ٥ .

(٢) «عليه» فى نسخة ب .

(٣) عز الدين مسعود : هو مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى الأتابك صاحب الموصل ، توفى سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م . انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٢٠٣ - ٢٠٩ ؛ التاريخ الباهر ، ص١٨٥ - ١٨٩ .

(٤) سيف الإسلام طغتكين : هو طغتكين بن أيوب بن شادى بن مروان المنعوت بالملك العزيز ظهير الدين صاحب اليمن ، توفى سنة ٥٩٣ هـ/١١٩٧م . انظر : وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٥٢٣-٥٢٤ .

(٥) عز الدين جُورديك : كان من مماليك نور الدين ، لهذا لقب بالنورى ، وكان واحداً من القواد الذين رافقوا أسد الدين شيركوه أثناء حملته على مصر ، كما شارك صلاح الدين فى القبض على شاور والقضاء عليه . انظر : وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٤٤٠-٤٤١ ، ص٤٤٨ ؛ النوادر السلطانية ، ص٦١ ، حاشية ٦ .

من الفرنج ، فاستحلفه على ذلك ، وسلم إليه البلد ، فلما تسلمها سار منها إلى حلب ، فحاصرها وبها الملك الصالح بن نور الدين ، واتفق وصول سيف الدين غازى ابن عمه من الموصل منجدًا له ، وتقدمت عساكره لقتال صلاح الدين ، فبذل له صلاح الدين تسليم حمص وحماة ، وأن يقر بيده مدينة دمشق ، ويكون فيها نائبا من جهة الملك الصالح ، فلم يجبه إلى ذلك ، وقال : لابد من تسليم جميع ما أخذه من بلاد الشام وعوده إلى مصر أو القتال .

وكان صلاح الدين فى أثناء المراسلة يجمع عساكره ، ويتأهب للقائه ، فلما امتنع سيف الدين من إجابته لما بذل ، سار بعسكره ، فالتقى هو وعسكر سيف الدين غازى على قرون حماة[١] ، فهزمهم وتتبعهم حتى حازوا معسكرهم ، وغنم منهم[١٩٦و] غنائم كثيرة ودوابا وسلاحا ، وعاد العسكر السيفى منهزما إلى حلب ، فتتبعهم صلاح الدين إليها ونزل عليها محاصرًا لها ، فراسلوه فى الصلح على أن يكون له مابيده من بلاد الشام ، ولهم ما بأيديهم من بلاد حلب معًا ، فأجابهم وانتظم الصلح ، ورحل عن حلب فى شوال منها ، وقطع خطبةَ الملك الصالح من بلاده ، وأزال اسمه عن الصَّكة[٢] .

وفى تاريخ النويرى[٣] : وفى هذه السنة أرسل شمس الدين بن الداية ، المقيم بحلب ، كمشتكين الطواشى ، يستدعى الملك الصالح بن نور الدين من دمشق إلى حلب ؛ ليكون مقامه بها ، فسار الصالح إليه ، ولما استقر بحلب تمكن كمشتكين وقبض على شمس الدين بن الداية وأخوته ، وقبض على الرئيس ابن الخشاب وأخوته ، وهو رئيس حلب ، واستبدّ كمشتكين بتدبير[أمر][٤] الملك الصالح ، فخاف ابن المقدم وغيره من الأمراء الذين بدمشق ، وكاتبوا صلاح الدين بن أيوب صاحب مصر ، واستدعوه ؛ ليملكوه .

---

(١) قرون حماة : منطقة جبلية تشرف على مدينة حماة ، وهى مكونة من قلعتين متقابلتين . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٣٢ .

(٢) أورد ابن شداد هذا الحدث بالتفصيل فى النوادر السلطانية ، ص٥٠- ٥١ .

(٣) نقل العينى هذا النص بتصرف من نهاية الأرب ، ج٢٧ ، ص١٧٠ .

(٤) مابين الحاصرتين إضافة من الباهر ، ص١٧٦ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٥٩٢ .

فسار صلاح الدين جريدة(١) فى سبعمائة فارس ، ووصل إلى دمشق واستقر فيها ، ولم ينتطح عنزان ولا اختلف سَيفان ، وذلك أن نائبها شمس الدين بن المقدم كان قد كتب إليه أولا فأغلظ لرمى الكتاب ، فلما رأى أمره متوجهاً ، جعل يكاتبه ويستحثه على القدوم[إلى دمشق](٢) ، ويعده بتسليم البلد ، فلما رأى الجدَّ لم يمكنه المخالفة ، فسلمه البلد ، فنزل السلطان «صلاح الدين»(٣) أولاً فى دار والده ، وهى دار العقيقى ، وهى التى بنيت مدرسة للملك الظاهر بيبرس(رحمه الله) ، ولما ثبت أمره بها ، استخلف بها أخاه سيف الإسلام طغتكين ، وأخذ ما فى القلعة من الأموال ، ثم سار إلى حمص مستهل جمادى الأولى ، ونزل عليها فى حادى عشر جمادى الأولى ، وملك المدينة ، وعصت عليه القلعة ، فترك عليها من يضيق عليها .

ورحل إلى حماة ، وملك مدينتها مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة ، وكان بقلعتها عز الدين جُرديك أحد المماليك النورية ، فامتنع ، فذكر له صلاح الدين أنه ليس له غرض سوى حفظ بلاد الملك الصالح بن نور الدين عليه ، وإنما هو نائبه . وقَصَدَ جُرديك من صلاح الدين أن يكون سفيره بينه وبين الحلبيين ، فأجابه إلى ذلك ، فسار جرديك إلى حلب للرسالة ، واستخلف فى قلعة حماة أخاه ، فلما وصل جُرديك إلى حلب قبض عليه كمشتكين وسجنه(٤) ، فلما علم بذلك أخوه ، سلم قلعة حماة إلى صلاح الدين ، فملكها ، ثم سار صلاح الدين إلى حلب ، فنازلها على جبل جَوشَن(٥) وحصرها ، فاجتمع أهل حلب وقاتلوا صلاح الدين ، وصدُّوه عن حلب ، فأرسل كمشتكين إلى سنان مقدم الإسماعيلية(٦) أموالا عظيمة ، ليقتلوا صلاح الدين . ووثبوا

---

(١) جريدة : فرقه من العسكر الخيالة لا رجالة فيها ، والمقصود بها سير السلطان على وجه السرعة دون أن يأخذ أثقالاً أو حشداً . المعجم الوسيط ، مادة «جرد» .

(٢) مابين الحاصرتين إضافة من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٨٨ .

(٣) مابين الأقواس ساقط من نسخه ب .

(٤) ورد هذا النص بتصرف فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٨٨ - ٢٨٩ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٦٠٧ - ٦٠٨ ؛ السلوك ، ج١ق١ ، ص٥٨ - ٥٩ .

(٥) جبل جوشن : بالفتح ثم السكون وشين معجمه فى غربى حلب . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٥٥ .

(٦) سنان مقدم الإسماعيلية : هو أبو الحسن سنان بن سليمان بن محمد الملقب راشد الدين صاحب قلاع الإسماعيلية ، ومقدم الفرق الباطنية بالشام ، وإليه تنسب الطائفة السنانية . وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص١٨٥ .

على صلاح الدين ، فقُتِلوا دونه . واستمر صلاح الدين محاصراً لحلب إلى مستهل رجب ، ثم رحل عنها ؛ بسبب نزول الفرنج على حمص ، وذلك أن أهل حلب راسلوا قومص[١] صاحب طرابلس ، ووعدوا له بأموال جزيلة ، إن هو رَحَّلَ عنهم السلطان صلاح الدين ، وكان هذا اللعين قد أسره نور الدين معتقلا مدة عشرسنين ، ثم فاداه على مائة ألف دينار وألف أسير من أسارى المسلمين ، وكان لا ينسى ذلك لنور الدين ، فركب قومص ـ لعنه الله ـ من مدينة طرابلس فى جيشه ، فلم يتجاسر على مقابلة صلاح الدين ، بل قصد حمص ؛ ليأخذها[١٩٦ظ] بغتة . وركب إليه السلطان ، وقد أرسل سريةً إلى بلده ، فقتلوا منها وأسروا وغنموا ، فلما اقترب السلطان منه نكص على عقبه ، وكر راجعا إلى بلده ، وتراءى أنه قد أجاب إلى ماسألوا ، فوصل صلاح الدين إلى حماة وسار إلى حمص ، فرحل الفرنج عنها ، وحَصَر قلعتها وملكها فى الحادى والعشرين من شعبان ، ثم سار إلى بعلبك فملكها[٢] ، ولما استقر صلاح الدين فى هذه البلاد أرسل الملك الصالح بن نور الدين إلى ابن عمه سيف الدين غازى صاحب الموصل ؛ يستنجده على صلاح الدين ، فجهز جيشه ، صحبة أخيه عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى ، وجعل مقدم جيشه اكبر أمرائه ، وهو عز الدين محمود ، ولقبه سلفندار ، ووصلوا إلى حلب ، وانضم إليه عسكر حلب ، وساروا إلى صلاح الدين ، وأرسل صلاح الدين يبذل حمص وحماة ، وأن يقر بيده دمشق ، ويكون فيها نائبا للملك الصالح بن نور الدين ، وإنما فعل ذلك صلاح الدين ؛ لقلة الجيش الذى معه بالنسبة إلى جيش هؤلاء . فامتنع من المصالحة الخادم[سعد الدولة][٣] كمشتكين ، إلا أن يجعل لهم الرحبة[٤] التى بيد ابن عمه ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه ، فقال : ليس لى ذلك ولا أقدر عليه ، فأبوا الصلح ، وأقدَموا على القتال ، فجعل صلاح الدين جيشه كردوساً [٥] واحداً ، وذلك يوم

---

(١) القومص تعريب للكلمة اللاتينية (Comes) والتى سارت فى اللغة الفرنسية (Comte) والمقصود هنا الكونت ريموند الثالث صاحب إمارة طرابلس الصليبية ، ولقبه الصنجيلى فى المراجع الإسلامية . انظر : الكامل فى التاريخ ، ج١٠ ، ص٦٨ .

(٢) ورد هذا النص بتصرف فى السلوك ، ج١ق١ ، ص٥٩ ؛ البداية والنهاية ، ج١١ ، ص٢٨٩ .

(٣) مابين الحاصرتين إضافة من البداية والنهاية للتوضيح ، ج١١ ، ص٢٩٠ .

(٤) الرحبة : قرية من قرى الشام . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٧٦٢ .

(٥) الكردوسة : طائفة عظيمة من الخيل والجيش . انظر : المعجم الوسيط ماده «كردس» ، وقد فسرها دوزى بأنها الفرقة الحربية الراكبة والجماعة العظيمة من الخيل . Dozy: Supp. Dict. Ar

الأحد التاسع عشر من شهر رمضان ، عند قرون حماة فصبر صبرًا عظيما ، وجاءه فى أثناء الحال ابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه ، ومعه أخوه فرخشاه فى طائفة من الجيش ، وقد ترجح دِسْتَهُ عليهم ، وخلص رعبه إليهم ، فانهزموا وولوا مدبرين . وغنم صلاح الدين وعسكره أموالهم ، فأسر منهم من أسر من رؤسائهم ، ونادى أن لا يتبع مدبر ، ولا يذفف[١] على جريح ، ثمَّ أطلق من وقع فى أسرِه منهم ، وسار على الغور حتى نازل حلبَ . فانعكس عليهم الحال ، فبالأمس كان يطلب منهم المصالحة ، واليوم هم طلبوا منه أن يكف عنهم ، ويسير عنهم ، على أن له المعرة[٢] وكفر طاب [٣] وبارين[٤] زيادة على مابيده من أراضى حماة وحمص وبعلبك مع دمشق ، فقبل منهم وكف عنهم ، وحلف أن لا يغزو بعدها الملك الصالح ، وأن يدعُو له على سائر منابر بلاده وممالكه . وشفع فى بنى الداية أخوة مجد الدين ، أن يخرجوا من السجن ، ففعلوا ذلك ، ثم رجع مؤيداً منصوراً .

فلما وصل إلى حماة وصل إليه رسل الخليفة المستضىء بأمر الله ، ومعهم الخلع السنية ، والتشريفات العباسية ، والأعلام السُّود ، وتوقيع من الديوان بالسَلطنة ببلاد مصر والشام ، وأفيضت الخلع على أهله وأقاربه وأصحابه وأصهاره وأعوانه وأنصاره ، وكان يوماً مشهودا .

واستناب على حماة ابن خاله وصهره الأمير شهاب الدين محمود ، ثم سار إلى حمص فأطلقها لابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ، كما كانت لأبيه من قبل ، ثم إلى بعلبك ، ثم إلى البقاع[٥] ، ثم إلى دمشق فى ذى القعدة من هذه السنة[٦] .

(١) ذف على الجريح ذفًا وذفافاً ، أجهز عليه . انظر ابن منظور ؛ القاموس المحيط ، مادة ذفف .

(٢) المعرة : يقصد بها هنا معرة مصرين وهى بليدة وكورة بنواحى حلب . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٥٧٤ .

(٣) كفر طاب : بلدة بين المعرة ومدينة حلب . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٢٨٩ .

(٤) وبارين : بلدة تقع بين حلب وحماة من جهة الغرب . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٤٦٥ـ ٤٦٦ ؛ وقد أوردها ابن كثير «ماردين» وهو خطأ . انظر : البداية والنهاية ، ج١١ ، ص٢٩٠ .

(٥) البقاع : أرض واسعة بين حمص وبعلبك ودمشق . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٦٩٩ .

(٦) ورد هذا النص بتصرف فى البداية والنهاية ، ج١١ ، ص٢٩٠ـ ٢٩١ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٦٣٨ـ ٦٤٠ .

وفى المرآة[١] : لما دخل السلطان صلاح الدين دمشق من مجيئه من مصر التقاه أهل دمشق بأسرهم ، ونثروا عليه الدراهم والدنانير ، وأحسن[١٩٧و] صلاح الدين إلى ابن المقدم[٢] ، والقاضى ابن الشهرزورى ، ومشى إلى دار كمال الدين ، فانزعج وخرج إلى لقائه ، ودخل صلاح الدين ، فجلس وباسطه ، وقال : يا كمال الدين لما كنت فى الشحنكية[٣] قد كانت بيننا هنَّات ومشاحنات ، وكان كمال الدين يكرهه ، وكان كل واحد منهما ينقض على الآخر أحكامه . فقال له صلاح الدين : «ما مشيت إليك إلا لأزيل ما فى خاطرك من الوهم ، وأعرفك أن ما فى قلبى لك ما تكره ، فطب نفسًا ، وقر عينًا ، فالأمرُ أمرُكُ ، والبلد بلدك . وأكثر الشعراء فى أخذ صلاح الدين دمشق ، ثم كتب إلى الملك الصالح كتابًا تواضع فيه له ، وخاطبه بمولانا ابن مولانا ، ويقول : إنما جئتُ من مصرَ ؛ خدمةً لك لأودى ما يجب من حقوق المرحوم ، فلا تسمع ممن حولك ، فتفسد أحوالك وتختل أمورك ، وما قصدى إلا جمع كلمة الإسلام على الإفرنج» . فعرض كتابه على أرباب دولته ، وفيهم خالد بن محمد بن القيسرانى ، وغلمان أبيه ، وابن العجمى ، فأشاروا إليه[٤] بأن يُكاتِبه بالغلظة ، فكتبَ إليه ينكر عليه ، وينسبه إلى كفر النعمة ، وجَحْدِ إحسان والده ، ووعده وهدده ، وبعث بالكتاب[مع][٥] ينال بن حسان[٦] صاحب منبج[٧] ، فأغلظ لصلاح الدين فى الجواب ، وقال : السيوف التى ملَّكَتْكَ مصرَ هى التى تَرُدُّكَ . وأشار إلى سيفه ، فغضب صلاح الدين ، وقال : والله لولا أنك هنا . . . . من مصر رسول لضربت عنقك[٨] ، والله ما جئت إلى ها هنا شرهًا ولا طمعًا فى الدنيا ، وفى مصر كفاية ، وإنما جئت ؛ لأستنقذ هذا الصبى من يد مثلك و أمثالك ، فأنتم سبب

---

(١) انظر : سبط ابن الجوزى ، المرآة ، ج٨ ، ص٢٠٦ حيث نقل العينى عنه بتصرف .

(٢) هو : محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم ، توفى سنة ٥٨٣هـ مقتولاً على جبل عرفات . انظر : وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص٨٧ ؛ وانظر : حادث القتل فى الشذرات ، ج٤ ، ص٢٧٦ . أحداث سنة ٥٨٢هـ/١١٨٦م .

(٣) الشحنكية : ويقال لها الشحنة ، وصاحب الشحنة هو متولى رئاسة الشرطة . انظر : سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص٤٢٧ ؛ Dozy:Supp. Dict. Ar.

(٤) «عليه» فى نسخة ب .

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من المرآة ، ج٨ ، ص٢٠٧ .

(٦) ينال بن حسان : هو قطب الدين ينال بن حسان المنبجى ، بقى بمنبج إلى أن أخذها صلاح الدين منه سنة ٥٧٢هـ/١١٧٧م . انظر : الباهر ، ص١٣٤- ١٣٥ .

(٧) منبج : مدينة كبيرة ذات خيرات كثيرة بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٦٥٤ـ ٦٥٦ .

(٨) «والله لولا أنك رسول لضربت عنقك» فى نسخة ب . أما فى الأصل فيوجد ثلاث كلمات غير مقروءة .

زوال دولته ، ثم طرده بغير جواب ، فعاد إلى حلب . و استناب صلاح الدين بدمشق أخاه سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين ، وسار إلى حِمص فأخذها ، وفتح حماة ، وسار إلى حلب ، فاستعانوا[١] عليه بالإسماعيلية ، وأعطوهم مالاً وضياعًا ، فأرسلوا إليه جماعة من فُتَّاكهم ، ورآهم ناصر الدين خمار تكين[٢] صاحب أبى قبيس[٣] ففرقهم ؛ لأنه كان مثاغرًا[٤] لهم وأنكر عليهم مجيئهم ، وسبق إلى خيمة صلاح الدين ليخبره ، فأدركوه على باب الخيمة ، ثم أرادوا الهجوم على صلاح الدين ، وكان أمير جنداره[٥] سيف الدين طغرل هناك ، فجذب سيفه ، وقتل واحدًا منهم ، واجتمع الغلمان على الباقين فقتلوهم . ورحل صلاح الدين عن حلب فى أول رجب ، وجاء إلى حمص ، ثم نازل بعلبك ، فأخذها فى رمضان من الخادم يُمن الريحانى ، ووصل عسكر الموصل إلى حلب ، وانضاف إليهم عسكر حلب ، ونزلوا [على][٦] تل السلطان[٧] ، فساق عليهم صلاح الدين ، وبغتهم ، وكان مقدمهم عز الدين مسعود ، أخو سيف الدين غازى ، فكسرهم كسرة عظيمة ، وانهزموا إلى حلب ، وغنم أثقالهم ، وأسر أبطالهم[٨] ، وجاء فحصر حلب ، وهذه هى المرة الثانية من حصار حلب ، والمرة الأولى من كسرة المواصلة . ورجع صلاح الدين ، فنزل[حصن][٩] بارين ، وأخذه من ابن الزعفرانى ، وكان من أكابر أمراء نور الدين ، ولقبه فخر الدين ، واسمه مسعود ، وأعطى مدينة حلب لخاله ، وقيل لابن خاله وصهره ابن شهاب الدين محمود ، وأعطى حمص لناصر الدين محمد ابن أسد الدين [١٩٧ظ] شيركوه[١٠] .

---

(١) «فاستغاثوا» فى المرآة ، ج٨ ، ص٢٠٧ .

(٢) انظر : ترجمته فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦١٣ ؛ سنا البرق الشامى ، ص٨٣ «ناصح الدين» .

(٣) أبو قبيس : حصن مقابل شيزر . معجم البلدان ، ج١ ، ص١٠٣ .

(٤) «منازعًا» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٧ .

(٥) أمير جنداره : هو الأمير الذى يستأذن على دخول الأمراء للخدمة السلطانية ، ويدخل أمامه إلى الديوان . صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٢٠ ؛ العصر المماليكى ، ص٤٠٤ .

(٦) ما بين الحاصرتين إضافة من نسخة ب .

(٧) تل السلطان : موضع بينه وبين حلب مرحلة نحو دمشق ، وفيه خان ومنزل للقوافل ، وهو المعروف بالفنيدق ، كانت به وقعة بين صلاح الدين يوسف بن أيوب وسيف الدين غازى بن مودود بن زنكى صاحب الموصل سنة ٥٧١هـ/١١٧٥م . معجم البلدان ، ج١ ، ص٨٦٧ .

(٨) «رجالهم» فى المرآة ، ج٨ ، ص٢٠٨ .

(٩) ما بين الحاصرتين إضافة من المرآة ، ج٨ ، ص٢٠٨ ؛ كما ورد ذكرها فى تقويم البلدان ، ص٢٥٨- ٢٥٩ .

(١٠) هو : ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ، توفى سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م . وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٤٨٠ .

وقال ابن أبى طى : بلغ السلطان أن ابن المقدم «نقض»[١] عهد[السلطان][٢] الملك الصالح ، وهو كان السبب فى خروج سيف الدين من الموصل ، واستيلائه على البلاد الشرقية ، ومضايقته للملك الصالح فى ممالكه . وقيل إن ابن المقدّم كاتب إلى السلطان ، ودعاه إلى الخروج . وقيل إنما خرج إلى الشام ؛ خوفًا من حركة تنشأ من جانب الفرنج بسبب اختلاف أمراء الشام ، وشغل بعضهم ببعض . قال : ولما حصل على دمشق وقلعتها ، واستوطن بُقعتها ، نشر علم العدل والإحسان ، وعفّى آثارَ الظلم والعدوان ، وأبطل ما كان الولاة استجدُّوه بعد موت نور الدين من القبائح والمنكرات ، والمؤن والضرائب المحرمات .

وقال صاحب تاريخ الدولتين[٣] : وكان قد كتب إليه أسامة بن منقذ[٤] قصيدة بعد مصاف عسقلان أولها :

تَـهـنّ يـا أطولَ الـمـلوكِ يـدًا ... فـى بَسْطِ عـدلٍ وسَطوةٍ ونَدا

لا تستقلَّ [الذى][٥] صنعت ، فقد ... قمتَ بِفَرْضِ الجهاد مجتهدا

وجُسْتَ أرضَ العِدا وأفنَيتَ من ... أبطالِهم مـا يجـاوزُ العـددَا

ومـا رأينا غـزا الفـرنج من الـ ... ـملوكِ فى عُـقْـرِ دارهم أَحَـدَا

فَسِرْ إلى الشامِ فـالمـلائكةُ الـ ... أبرارُ يلقـاكَ جَـمْـعُـهم مـدَدَا

فـهـو فـقـيـرٌ إليكَ يَأملُ أن ... تُصلح بالعـدلِ مِنْهُ مـا فَسَـدَا

والله يُعطيك فيـه عـاقبـةَ النّـ ... ـصرِ كـمـا فى كتـابهِ وَعـدَا

فـمـا حَـبَـاك الورَى وأَلْهَـمكَ الـ ... ـعدلَ وأعْطَاكَ ما مَلَكْتَ سُدى

ومدح وُحَيش الأسدى[٦] صلاح الدين عند أخذه دمشق ، بقصيدة أولها هو قولهُ :

---

(١) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من أ وما أثبتناه من نسخة ب .

(٣) الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٠٥ـ ٦٠٦ .

(٤) أبو المظفر أسامة بن مُرشد بن على بن مقّلد بن نصر بن منقذ الكنانى الكلبى الشيزرى الملقب مؤيد الدولة مجد الدين ، من أكابر بنى منقذ أصحاب قلعة شيزر ، ولد سنة ٤٨٨هـ/١٠٩٥م ، وتوفى سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م بدمشق . وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٩٥ـ ١٩٩ ترجمة ٨٤ ؛ الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج١ ، ص٤٩٨ ، وما بعدها .

(٥) «للذى» فى نسخة أ والمثبت من ب ؛ الروضتين ج١ ق٢ ، ص٦٠٥ .

(٦) وحيش الأسدى : هو سبع بن خلف بن محمد بن عبد الله بن سعيد الأسدى . . . ، ولد سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م . انظر : الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج١ ، ص٢٤٢ـ ٢٤٦ .

قد جَاءكَ النصرُ[١] والتوفيقُ فاصْطَحَبَا — فكنْ لأضعافِ هذا النصرِ مُرْتَقِبَا
للهِ أنتَ صلاحُ الدينِ من أسدٍ — [أدنى][٢] فريسته الأيام إن وَثَبَا
رأيتَ جلَّق[٣] [ثغراً][٤] لا نظيرَ لَهُ — فَجِئتَها عامرًا منها الذى خربا
نادتك بالذل لمَّا قلَّ ناصرُها — وأزْمَع الخلقُ من أوطانِها هربَا
أحييتها مِثْل ما أحْيَيْتَ مصرَ فقد — أَعدْتَ من عَدْلِها ما كان قد ذَهَبَا
هَذا الذى نَصرَ الإسلامَ فاتَّضَحَتْ — [سبيلُه][٥] وأهان الكفرَ والصُّلُبَا
ويوم[٦] شاور والإيمانُ قد هُزمت — جيوشُه ، كان فيه الجحفلُ اللَّجِبَا
ويومَ دمياط والإسكندرية[٧] قد — أصارهم مثلاً فى الأرضِ قد ضُرِبا
والشامُ لو لم تدارك أهلَه اندَرَست — آثارهُ وعَفَتْ آياتُهُ حُقُبا[٨]

ولما نزل السلطان صلاح الدين على حلب أشير على ابن نور الدين أن يجمع أهل حلب فى الميدان ، ويقبل عليهم بنفسه ، ويخاطبهم بلسانه ، أنهم الوَزَرُ والملجأ ، فأمر أن ينادى باجتماع الناس إلى ميدان باب العراق[٩] ، فاجتمعوا حتى غص الميدان بالناس ، فنزل الصالح [١٩٨و] من باب الدرجة ، وصعد من الخندق ، ووقف فى رأس الميدان من الشمال ، وقال لهم : يا أهل حلب أنا ربيبكم ، ونزيلكم ، واللاجئ إليكم ، كبيركم عندى

(١) «السعد» فى الخريدة ، ج١ ، ص٢٤٢ .
(٢) «أدى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٠٦ .
(٣) جلَّق : اسم لكورة الغوطة كلها ، وقيل بل هى دمشق نفسها . معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٠٤-١٠٥ .
(٤) «بعزٍّ» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج١ ، ص٢٤٢ .
(٥) «سبله» فى الأصل والمثبت بين الحاصرتين من الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج١ ، ص٢٤٢ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٦٠٦ .
(٦) يقصد بشاور هنا الأمير أبو شجاع شاور بن مجير بن نزار السعدى من بنى هوازن ، وقد سبق التعريف به .
(٧) يشير إلى منازلة الفرنج دمياط بعد تولى صلاح الدين وزارة مصر سنة ٥٦٤هـ/١١٦٩م . إذ انهزمت جيوشهم وأساطيلهم ، فارتدوا عنها فى سنة ٥٦٥هـ/١١٧٠م . أما عن الإسكندرية فالإشارة إلى الحصار هنا ، يقصد بها حصار الفرنج للإسكندرية ، ودفاع صلاح الدين عنها فى عام ٥٦٢هـ/١١٦٧م ، وقد انتهى هذا الحصار بصلح اضطر إليه الفرنج . انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٠٦ ، حاشية ٦ .
(٨) نقل العينى القصيدة من الخريدة والروضتين بالنقص والزيادة . انظر : الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج١ ، ص٢٤٢-٢٤٤ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٠٦ .
(٩) باب العراق : أحد أبواب حلب الستة . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٠٨ .

بمنزلة الأب ، وشابكم عندى بمنزلة الأخ ، وصغيركم عندى يحل محل الولد ، قال : وخنقته العبرة ، وسبقته الدمعة ، وعلا نشيجُه ، فافتتن الناس ، وصاحوا صيحة واحدة ، ورموا بعمائمهم ، وضجوا بالبكاء والعويل ، وقالوا : نحن عبيدك ، وعبيد أبيك ، نقاتل بين يديك ، ونبذل أموالنا وأنفسنا لك ، وأقبلوا على الدعاء له ، وعلى الترحم على أبيه ، وكانوا قد اشترطوا على الملك الصالح أن يعيد إليهم شرقية[١] الجامع ، يُصَلُّون فيها على عادتهم القديمة ، وأن يُجهر بحى على خير العمل والأذان ، والتذكير فى الأسواق وقدام الجنائز بأسماء الأئمة الإثنى عشر[٢] ، وأن يصلوا على أمواتهم خمس تكبيرات ، وأن تكون عقود الأنكحة إلى الشريف الطاهر أبى المكارم حمزة بن زهرة الحُسَينى ، وأن تكون العصبية مرتفعة ، وأشياء كثيرة اقترحوها مما كان أبطله نور الدين (رحمه الله) فأجيبوا إلى ذلك . وقال ابن أبى طى : فأذن المؤذنون فى منارة الجامع وغيره بحى على خير العمل ، وصلى أبى فى الشرقية مسبلاً ، وصلى وجوه الحلبيين[٣] خلفه ، وذكروا فى الأسواق وقدام الجنائز بأسماء الأئمة الإثنى عشر ، وصلوا على الأموات خمس تكبيرات ، وأذن للشريف فى أن تكون عقود الحلبيين من الإمامية إليه ، وفعلوا جميع ما وقعت الأيمان عليه .

ذكر بقية الحوادث

منها أنه ظهر رجل من قرية مَشْغَرَا[٤] من معاملة[٥] دمشق ، وكان مغربيًا ، فادعى النبوة ، وأظهر شيئًا من المخاريق والمخاييل والشعبذة والأبواب النيرنجية[٦] ، فافتتن به طوائف من أهل تلك الناحية من الطغام[٧] العوام ، فتطلبه السلطان ، فهرب فى الليل من

(١) يقصد هنا أن يكون لهم شرق الجامع .

(٢) الأئمة الإثنى عشرية : ويقال لهم «القطعية» ، وسموا بالإثنى عشرية لدعواهم أن الإمام المنتظر الثانى عشر من نسل على بن أبى طالب ﷺ . انظر البغدادى : الفرق بين الفرق ، تحقيق محيى الدين عبد الحميد ، ص٦٤-٦٥ ، بيروت د .ت .

(٣) ورد فى حاشية الروضتين أن حلب كانت دائمًا مركزًا من مراكز النشاط الإسماعيلى ، والأدلة على ذلك موجودة فى أحداث سنوات ٥٥١هـ/١١٥٦م ، ٥٥٤ هـ/١١٥٩م ، ٥٧٠هـ/١١٧٤م . انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦١٠ حاشية ٢ .

(٤) مشغرا : قرية من قرى دمشق من ناحية البقاع . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٥٤٠ .

(٥) «مناملة» فى نسخة ب وهو خطأ فى النسخ .

(٦) النَّيرنْج : أَخْذٌ كالسحر وليس به . الجمع : نيرنجات ونيارج . انظر : المعجم الوسيط : مادة «نير» ؛ كما ذكرها الفيروزابادى . وعرفها دوزى بالرقى أو الطلاسم أو السحر . Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٧) الطغام : هم أراذل الناس وأوغادهم . انظر : المعجم الوسيط ، مادة «طغم» .

مشغرا إلى معاملة حلب ، فالتف عليه كل مقطوع الذنب ، وأضل[1] خلقًا من الفلاحين لا المفلحين ، فتزوج امرأة أحبها ، وكانت من أهل البطاح ، فعلمها أن ادعت النبوة ، فأشبها قصة مسيلمة وسجاح ، لعنهما الله[2] .

ومنها أن الشمس كسفت وقت طلوعها يوم الثلاثاء الثامن[3] والعشرين من ربيع الآخر ، فبقيت كذلك إلى ضحوة عالية .

ومنها أن وزير الخليفة هرب ، ونهبت داره .

ومنها أن سيف الدين غازى صاحب الموصل استوزر جلال الدين أبا الحسن على[4] ابن جمال الدين الوزير الأصبهانى[5] فظهر منه من الكفاية والنهضة وحسن التدبير والكفاءة ما لم يكن من غيره ، وكان عمره خمسًا وعشرين سنة[6] .

ومنها أن ابن الجوزى قال : فى هذه السنة انتهى تفسيرى للقرآن[7] على المنبر ، فإنى كنت أذكر فى كل مجلس منه آيات ، ففرغت منه فى هذه السنة ، وسجد على المنبر شكرًا لله تعالى وقال : ما عرفت واعظًا غيرى فسر القرآن كله على المنبر إلا أنا .

قلت : وكان شيْخى أبو الروح عيسى السَرْمادى - رحمه الله - قد فسر القرآن على المنبر فى عينتاب مرتين كاملتين ، وفى المرة الثالثة لما وصل إلى سورة ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ[8]﴾ أدركته المنية .

(١) «واختل» فى نسخة ب .
(٢) ورد هذا النص فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١١ .
(٣) «الثانى» فى نسخة ب .
(٤) جلال الدين أبو الحسن على ، تولى الوزارة لسيف الدين غازى بن قطب الدين مودود ، وتوفى عام ٥٧٤ هـ/١١٧٨م ، ودفن أولاً بالموصل ثم نقلت رفاته إلى المدينة المنورة . وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص١٤٦ - ١٤٧ ؛ التاريخ الباهر ، ص١٧٧ .
(٥) جمال الدين الوزير الأصفهانى : هو جمال الدين أبو جعفر محمد بن على الأصفهانى وزير صاحب الموصل أتابك زنكى ، وقد وزر أيضًا لسيف الدين غازى ثم لأخيه قطب الدين مدة ، ثم قبض عليه وحبسه حتى مات عام ٥٥٨هـ/١١٦٢م وقيل عام ٥٥٩هـ/١١٦٣م . انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص١٤٣- ١٤٦ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص١٨٥ ؛ التاريخ الباهر ، ص١٢٧ ، ١٣٠ .
(٦) ورد هذا النص فى التاريخ الباهر بتصرف ، ص١٧٧ .
(٧) «القرآن» فى نسخة ب ؛ انظر المنتظم ، ج١٨ ، ص٢١٣ .
(٨) سورة البروج : آية (١) .

ومنها أن ابن الجوزى[١] قال : وسُلمت إلىَّ المدرسة التى بباب الأزج[٢] ، وكانت دار الوزير ابن جهير ، وكانت بنفشَة[٣] جهة[٤] الخليفة المستضىء بأمر الله قد اشترتها وأوقفتها على أصحاب أحمد بن حنبل ـ رضى الله عنه ـ [١٩٨ظ] وفوضت أمرها إلىَّ ، وأَوْقَفَت عليها قرية . وحضر درسى[٥] قاضى القضاة[٦] ، وحاجب[٧] الباب ، وأرباب الدولة ، وخُلِعَ علَىَّ خلعةً نفيسةً ، وذكرتُ دروسًا كثيرة ، وكان يومًا مشهودًا ، وخرجتُ وبين يدى الدُعاة ، وارتفعت الأدعية للخليفة ، ووقفت الناسُ صفوفًا مثل يوم العيدين . قال : وأصاب أهل المذهب ـ يعنى الحنابلة ـ من ذلك غم عظيم ؛ لأنهم حسدونى ، وجلستُ تحت المدرسة يومِ الأربعاء في شوال ، فكان الجمع زيادة على خمسين ألفًا ، فازداد غم أهل المذهب . وكان يقول ابن الجوزى[٨] : «والله لولا أحمد والوزير ابن هبيرة لانتقلت عن المذهب ، فإنى لو كُنت حنفيًا[٩] أو شافعيًا لحملنى القوم على رؤسهم» .

ومنها أن السلطان صلاح الدين استخدم فى هذه السنة العماد الكاتب[١٠] ؛ وسببه أنه التقى القاضى الفاضل على حمص ، ومدحه بأبيات من الشعر ، فدخل الفاضل على صلاح الدين وقال له : غدًا يأتيك تراجم الأعاجم ، وما يحلها مثل العماد ، فقال : مالى

(١) المنتظم ، ج١٨ ، ص٢١٤ .
(٢) باب الأزج : محلة كبيرة شرق بغداد بها العديد من الأسواق . معجم البلدان ، ج١ ، ص٢٣٣ .
(٣) بنفشة : هى بنت عبد الله الرومية كانت من خواص سرارى الخليفة المستضىء بالله ، توفيت سنة ٥٩٨هـ/١٢٠٢م . انظر : ابن الساعى ، نساء الخلفاء . ص١١١ ، ١١٥ (ذخائر العرب رقم ٢٨) .
(٤) الجِهَةُ : هى المرأة الجليلة القدر ، كما يكنى الرجل الجليل بالجناب ، انظر : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٥٠٢ .
(٥) «درسى» يقصد بها درس عبد الرحمن بن الجوزى .
(٦) قاضى القضاة : من أجلِّ رتب أرباب العمائم والأقلام ، ويطلق على قاضى القضاة أحيانًا راعى الرعاة ، ويقوم بكل الأمور الدينية كما يشرف على دار الضرب . انظر : الخطط ، ج٢ ، ص٢٤٦ ، مكتبة الآداب ؛ القلقشندى ، ج٤ ، ص٣٤ـ ٣٦ .
(٧) حاجب الباب : وظيفة تركية تلى رتبة نيابة السلطنة ، فحاجب الباب هو القائم مقام النواب فى كثير من الأمور ، إذ كان يقوم بالفصل فى المنازعات التى تقوم بين الأجناد واختلافهم فى أمور الإقطاعات ثم تطور نظام حاجب الباب وصار اسمًا لعدة جماعات من الأمراء ، الخطط ، ج٢ ، ص٢٤٥ ؛ صبح الأعشى ، ج٤ ، ص١٩ـ ٢٠ ، ص١٨٥ ، ص١٨٨ .
(٨) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٦ وقد نقلها السبط بتصرف عن جده ابن الجوزى فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢١٤ـ ٢١٥ .
(٩) «شافعيًا أو حنفيًا» فى نسخة ب .
(١٠) العماد الكاتب : هو أبو عبد الله محمد بن صفى الدين أبو الفرج محمد بن نفيس الدين أبى الرجا حامد بن محمد بن عبد الله بن على بن محمود بن هبة الله ، المعروف بابن أخى العزيز المعروف بألُهْ الملقب عماد الدين الكاتب الأصبهانى ، توفى سنة ٥٩٧هـ/١٢٠١م بدمشق . انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص١٤٧ـ ١٥٣ .

عنك مندوحة ، أنت [كاتبى][١] ووزيرى ، وقد رأيت على وجهك البركة ، فإذا استكتبتُ[٢] غيرك تحدث الناسُ . فقال الفاضل : هذا يحل التراجم ، وربما أغيبُ أنا ولا أقدر على ملازمتك ، فإذا غبتُ قام مقامى فاستكتبهُ . وقال العماد : وأول ما أهديته للفاضل مدحَةً ، حين لقيته بحمص فى شعبان من هذه السنة بقصيدة .

منها قوله :

عاينتُ طَوْدَ سكينةٍ ، ورأيتُ شمـ ـس فضيلةٍ ، ووردتُ بَحْر فواضلِ
ورأيت[٣] سَحْبَانَ[٤] البلاغةِ ساحِبًا ببيانه ذيلَ[٥] الفَخارِ لوائلِ[٦]
أبصرتُ قُسًّا فى الفصاحةِ معجزًا فعرفْتُ أنى فى فَهَاهَةِ[٧] بَاقِل[٨]
حِلْفُ الحصافةِ والفصاحةَ والسماحة والحماسةِ والتقَى والنائلِ
بحرٌ من الفضلِ الغزير خِضَمُّه طامِى العُبابِ ومالَهُ من ساحلِ
وجميعُ ما فى الأرضِ سبعةُ أبحرٍ وبحورُهُ تسوى بعشرِ أناملِ
فى كفِّهِ قَلمٌ يُعَجِّلُ جَرْيُهُ ما كان من أجلٍ ورزقٍ آجلِ

ومنها أن أخا السُلطان المعظم شمس الدولة توران شاه بن أيوب وصل من اليمن إلى دمشق ، وأقام بها مدة ، ثم حضر إلى الديار المصرية[٩] .

(١) «أبى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٨ .
(٢) «سلمت» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٨ .
(٣) «ولقيت» فى الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص٣٧ .
(٤) سَحْبَان : بليغ عربى من وائل يضرب به المثل . انظر : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص٣٧ ، حاشية (٧) .
(٥) «ثوب» فى الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص٣٧ .
(٦) «كوابل» فى نسخة ب .
(٧) «فكاهة» فى نسخة ب .
(٨) باقل : رجل يضرب به المثل فى الْعِىِّ . انظر : لسان العرب ، ج١٣ ، ص٦٧ ، مادة (بقل) .
(٩) ورد هذا الخبر فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٣ نقلاً عن العماد ؛ انظر أيضًا : النوادر السلطانية ، ص٥٢ .

ومنها أن فى غيبة صلاح الدين بالشام اجتمعت بالقاهرة طائفة من جند الأرمن والإسماعيلية وجند المصريين وغلمان العادل أبى بكر، ونادوا بشعار أبى الطاهر بن العاضد، فلما سمع العادل بذلك أوقع بهم، وقتل منهم جماعة، واعتقل جماعة، ونفى آخرين. وكان الذى حملهم على ذلك الشريف ابن هانىء[1].

ومنها أن بهلوان بن أيلدكز ملك مدينة تبريز، وهى من جملة بلاد آقسنقر الأحمديلى؛ وسبب ذلك أن البهلوان سار إلى مراغة[2] وحصرها، وكان آقسنقر الأحمديلى صاحبها قد مات، ووصى بالملك لولده فلك الدين، فقصده البهلوان ونزل على قلعة روندز[3] وحصرها، فامتنعت عليه، فتركها وحصر مراغة، وسير أخاه[١٩٩و] قزل أرسلان[4] فى جيش إلى مدينة تبريز فحصرها أيضًا. ولما كان يقاتل أهل مراغة ظفروا بطائفة من عسكره، فخلع عليهم صدر الدين قاضيها وأطلقهم، فَحَسُنَ ذلك عند البهلوان، وسعى القاضى فى الصلح على أن يسلموا تبريزَ إلى البهلوان[5]، فأجابوه إلى ذلك، واستقر الأمر عليه، وحلف كل منهما لصاحبه، وتسلم البهلوان تبريز، وأعطاها أخاه قزل أرسلان، ورحل بعسكره عنها.

ومنها أن السلطان صلاح الدين بعث العساكر فأغاروا على بلاد الإسماعيلية، وأحرقوا سرمين[6]، ومعرة مصرين، وضياع جبل السُماق[7]، وقتلوا معظم أهله.

---

(١) الشريف ابن هانىء: هو محمد بن هانىء الأندلسى الشاعر المشهور، ظهر فى بلاط الخليفة المعز لدين الله الفاطمى قبل مجيئه إلى مصر، وقال الشعر فى مدح الخلافة الفاطمية ويؤخذ على شعره الغلو فى المدح والإفراط المفضى إلى الكفر. توفى فى سنة ٣٦٢ هـ/٩٧٣م. انظر: وفيات الأعيان، ج٤، ص٤٢١- ٤٢٤؛ ابن أيبك الدوادارى: كنز الدرر، ج٦، ص٢٤٠- ٢٤٥، تحقيق صلاح الدين المنجد، القاهرة ١٩٦١م؛ عبد اللطيف حمزة: الحركة الفكرية فى مصر فى العصرين الأيوبى والمملوكى، ص٢٦٥، ط القاهرة د. ت.

(٢) مراغة: بلدة مشهورة بأذربيجان. معجم البلدان، ج٤، ص٤٧٦.

(٣) قلعة روندز: ذكرها ابن الأثير فى الكامل، ج١٠، ص٧٠، «رويندز». وهى قلعة حصينة من أعمال أذربيجان قرب تبريز. انظر: معجم البلدان، ج٢، ص٨٧٥.

(٤) قزل أرسلان بن ألدكز ملك أذربيجان وإيران وهمذان وأصبهان والرى، توفى سنة ٥٨٧هـ/١١٩١م. انظر: وفيات الأعيان، ج٥، ص٢٠٩؛ شذرات الذهب، ج٤، ص٢٨٩؛ المختصر فى أخبار البشر، ج٣، ص٨١.

(٥) البهلوان: هو محمد بن البهلوان بن ألدكز الأتابك شمس الدين صاحب أذربيجان وعراق العجم، توفى سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م. انظر: شذرات الذهب، ج٤، ص٢٦٩.

(٦) سرمين: بلدة مشهورة من أعمال حلب وأهلها من الإسماعيلية. انظر: معجم البلدان، ج٣، ص٨٣.

(٧) جبل السُماق: جبل عظيم من أعمال حلب الغربية يشتمل على مدن كثيرة وقرى وقلاع عامتها للإسماعيلية. انظر: معجم البلدان، جـ٢، ص٢١.

ومنها أنه وصلت النوبة من العراق فى عشرة آلاف فارس وراجل ، فنزلوا مراغة الباب ، فقتلوا ثلاثة عشر ألفًا من الإسماعيلية ، وسبوا نساءهم وذراريهم ، وعادوا إلى العراق ومعهم الغنائم والرؤوس على رماحهم ، وعلى القصب عشرون ألف[١] أُذُن .

وفيها ....[٢]

حج بالناس ... ...[٣] . وتأخر الناس عن الحج فى هذه السنة ، ثم ساروا من الكوفة إلى عرفات فى ثمانية أيام دومًا ، وهذا لم يسمع قبله بمثله .

ذكر من توفى فى هذه السنة من الأعيان

حامد بن حامد أبو الفضل الحرانى[٤] ؛ قدم بغداد وتفقه وناظر وعاد إلى حران[٥] ، فأفتى ودرس ، وكان ورعًا ، به وسوسة فى الطهارة ، وروى عن عبد الوهاب شيخ ابن الجوزى ، وتوفى بحران فى هذه السنة .

روح بن أحمد أبو طالب الحديثى قاضى القضاة[٦] ؛ توفى يوم الاثنين الخامس عشر من المحرم ، ودفن يومئذ بقراح ظفر[٧] ، وكان ولده عبد الملك فى الحج فبلغته وفاته وهو بالكوفة ، فلما دخل بغداد مرض أيامًا ومات ، وكان ينبز بالرفض .

عبد الله بن عبد الصمد بن عبد الرزاق أبو محمد الدهان[٨] ؛ سمعَ الحديث ورواه ، وكان شيخًا صالحًا ، ففلج قبل موته ، وتوفى يوم الجمعة ، ودفن بمقبرة أحمد (رحمه الله) .

يحيى بن جعفر أبو الفضل[٩] ؛ كان صاحب مخزن المقتفى ، فأقره على ذلك المستنجد ، ولم يغير عليه المستضىء ، ثم استنابه من الديوان ، إذ خلا عن وزير ، فتقلب فى هذه الأحوال عشرين سنة ، وكان يحفظ القرآن ، وسمع الحديث ، وحج حجات

---

(١) ورد هذا الحدث بتصرف فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٨ .
(٢) بياض فى نسختى المخطوطة أ ، ب بمقدار سطر .
(٣) بياض فى نسختى المخطوطة أ ، ب بمقدار كلمتين .
(٤) انظر ترجمته فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢١٦ .
(٥) حران : مدينة مشهورة وهى قصبة ديار مضر بينها وبين الرها يومان ، وبين الرقة يومان ، وهى على طريق الموصل والشام والروم . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٣١ .
(٦) انظر ترجمته فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢١٦ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١١ .
(٧) ظَفَرْ : موضع قرب الحَوْءب فى طريق البصرة إلى المدينة . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٥٧٧ . وقد ذكر ياقوت أن القراح اصطلاح بغدادى بمعنى البستان . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٤٥ .
(٨) انظر ترجمته فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢١٦ . وقد أضاف ابن الجوزى إلى هذا الاسم «السلمى» .
(٩) انظر ترجمته فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢١٧ .

كثيرة، وتوفى يوم السبت تاسع عشر ربيع الأول منها. وخلف ولدين نجيبين، فبلغ كل واحد منهما نحو ثلاثين سنة من العمر، وتهيأ للولايات، فمات الأكبر، ثم تبعه أخوه بعد قليل، ودفنا عند أبيهما[١]. وفى المرآة[٢]: وكان فاضلاً عادلاً منصفًا، محبًا للعلماء والصالحين، وكانت داره مأوى لهم. قال السبط: وكان يحب جدى - يعنى ابن الجوزى - ولجدى فيه[٣] مدائح كثيرة، وله على جدى فضل كبير، وكان لقبه زعيم الدين.

عمر بن محمد بن عبد الله أبو شجاع البسطامى البلخى[٤]؛ كان فقيهًا فاضلاً شاعرًا فصيحًا، وكان ينشد فى مجالس وعظه، ومن شعره:

لقد هَبَّتْ الريحُ من بَلْدَتى[٥] فيا حبَّ ساكِن ذاك البَلَدْ
فقُمتُ إليها وعانَقْتُها وَمَا عانَقَ الرِّيحَ قبلى أَحَدْ

قلت: ومن ها هنا أخذ القائل، ولعله «أخذه»[٦] من قول القائل:

[١٩٩ظ] هَبَّتْ شمالاً فَقَال يا بلدُ أتَتْ به طابَ ذلك البلدُ/
وَقَبَّلَ الريحَ من صبابته مَا قَبَّلَ الريحَ قَبْلَهُ أَحَدُ[٧]

أرسلان شاه بن طغرل بن ملكشاه[٨]؛ توفى فى هذه السنة، وجلس بعده فى الملك طغرل شاه، وكان صغير السن، والذى تولى أمره محمد بن أيلدكز ويلقب بالبهلوان، فأقام بهمدان يدبر الأمور، وبعث أخاه القزل، فاستولى على أذربيجان، وبعث البهلوان يطلب من الخليفة السلطنة لطغرل شاه، فطرد رسوله، ولم يلتفت إليه.

شَملةُ التركمانى[٩] **صاحب خوزستان**؛ توفى فى هذه السنة، وكان قد غلب على بلاد فارس وخوزستان، وبنى بها قلاعًا، وقوى على السلجوقية، وكان يُظهر طاعة الخليفة

---

(١) ورد هذا النص بتصرف فى المنتظم، ج١٨، ص٢١٧.
(٢) ورد هذا النص بتصرف فى مرآة الزمان، ج٨، ص٢٠٩.
(٣) «فيه» مكررة فى نسخة ب.
(٤) انظر ترجمته فى مرآة الزمان، ج٨، ص٢٠٩؛ الشذرات، ج٤، ص٢٣٨.
(٥) «بلدى» فى نسخة ب.
(٦) ما بين الأقواس ساقط من ب.
(٧) ورد هذا الشعر فى مرآة الزمان، ج٨، ص٢٠٩.
(٨) انظر ترجمته فى مرآة الزمان، ج٨، ص٢٠٨-٢٠٩.
(٩) انظر ترجمته فى الكامل، ج١٠، ص٦، ص٧١؛ العبر، ج٤، ص٢١١.

مخادعة منه ، فأقام كذلك نيفًا وعشرين سنة ، وكان يباشر الحروب بنفسه . قصده تركمان ، فخرج بنفسه ، فجاءه سهم ، فمات بعد يومين ، وأقام أولاده في قلاع خوزستان إلى أيام الناصر أبي العباس أحمد بن المستضيء[١] ، فبعث إليهم وزيره ابن القصاب ، فأخرجهم من البلاد ، واستولى على ثلاثين قلعةً ، وبعث بأولادهم إلى بغداد ، فأقاموا بها حتى ماتوا[٢] .

وفي تاريخ ابن كثير : شملة التركماني تغلب على بلاد فارس ، واستجد بها قلاعًا[٣] ينهب الأكراد والتركمان ، ثم يأوي إليها . نهض إلى قتال بعض التركمان ، فعلموا ذلك ، فاستعانوا بالبهلوان ، فساعدهم بجنوده ، فاقتتلوا ، فأصاب شملة سهم ، ثم أخذ أسيرًا وولده وابن أخيه[٤] ، وتوفي بعد يومين .

قيماز بن عبد الله[٥] ؛ كان مملوكًا للمستنجد بالله ، وارتفع أمره وعلا كثيرًا ، فلما ولي المستضيء بأمر الله زاد أمره ، وصار مقدمًا على الكل ، وكانت الجنود كلها تحت أمره ، وانبسط كثيرًا ، حتى أن المستضيء أراد توليه وزيرًا فمنع من ذلك ، وأغلق باب النوبي[٦] يومين ، وقيل : إنه نوى نية رديئة ، وقصد أن ينهب دار الخلافة ، فصعد الخليفة فوق السطح في داره ، وأمر العامة بنهب دار قيماز ، فنهبت ، وكان ذلك بإفتاء الفقهاء ، فآل أمره إلى أن خرج من بغداد هاربًا ، فتوفي بناحية الموصل ، وغسل في سقاية ، ووصل خبره في ذي القعدة[٧] .

وفي تاريخ بيبرس : ولما أمر الخليفة بنهب داره نهبت ، وأخذ منها أموال لا تعد ولا تحصى ، فمن ذلك أن بيت الطهارة الذي كان له كانت فيه سلسلة من ذهب من السقف

---

(١) هو الخليفة العباسي الناصر لدين الله أحمد أبو العباس بن المستضيء ، ولد سنة ٥٥٣ هـ/١١٥٨م . وبويع له عند موت أبيه سنة ٥٧٥ هـ/١١٧٩م . توفي سنة ٦٢٢هـ/١٢٦٤م . انظر : تاريخ الخلفاء ، ص٤٤٨- ٤٥٨ .

(٢) ورد هذا النص في مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٠٩ ؛ المنتظم ، ج١٨ ، ص٢١٦ .

(٣) نقل العيني هذا النص بتصرف من البداية والنهاية ، ج١٢ ص٣١١ .

(٤) «ابن أخته» في المنتظم ، ج١٨ ، ص٢١٦ ؛ واتفق العيني مع ابن الأثير في الكامل ، ج١٠ ، ص٧١ .

(٥) انظر ترجمة قيماز بن عبد الله في المنتظم ، ج١٨ ، ص٢١٦ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١١ ؛ العبر ، ج٤ ، ص٢١١ .

(٦) باب النوبي : أحد أبواب الثلث الشرقي من مدينة بغداد ، وهو الباب الذي به العتبة التي يُقَبِّلُها الملوك والرسل . صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٣٣٠- ٣٣١ .

(٧) ذكر الذهبي وابن الأثير أنه توفي في «ذي الحجة» . انظر : العبر ، ج٤ ص٢١١ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص٧١- ٧٣ .

إلى محاذى وجه القاعد على الخلاء ، وفى أسفلها كرة كبيرة من ذهب مخرمة محشوة عنبرًا ومسكًا ؛ ليشمها إذا قعد ، فتسلق إنسان وقطعها ، ودخل بعض الصعاليك ، فأخذ عدة أكياس مملوءة دنانير ، وبالباب أقوام أقوياء يأخذون ما يخرجونه الناس ، فقصد ذلك الصعلوك المطبخ ، فأخذ قدرًا مملوءة طعامًا ، فوضع الأكياس فيها وحملها ، والناس يضحكون منه ، وخرج وهو يقول : أنا آخذ شيئًا أطعم عيالى اليوم ، فنجى بما معه ، فاستغنى بعد ذلك ، وظهر المال عليه . ولم يبق من نعمة قطب الدين قيماز فى ساعة واحدة قليل ولا كثير . ولما خرج قايماز من البلد تبعه تنامش الملقب بعلاء الدين ، وكان من أكبر أمراء بغداد ، وهو صهر قطب الدين قايماز ، وكذلك تبعه جماعة من الأمراء ، فنهبت دورهم «أيضًا»[(١)] وأخذت أموالهم ، وأحرق أكثرها . وسار قايماز إلى الحلة[(٢)] [٢٠٠و] ومعه الأمراء ، فأرسل الخليفة إليه صدر الدين شيخ الشيوخ ، فلم يزل يخدعه حتى سار عن الحلة إلى الموصل على البر ، فلحقه ومن معه عطش عظيم ، فهلك أكثرهم عطشًا ، ومات قايماز قبل وصوله إلى الموصل ، فدفن بظاهر باب العمادى[(٣)] ، وكان قد ظلم أهل العراق ، وكفر إحسان الخليفة .

ولما مات وصل علاء الدين تنامش إلى الموصل ، وأقام يسيرها ، ثم أمره الخليفة بالقدوم إلى بغداد ، فعاد وأقام بها بغير إقطاع إلى أن مات ، فقال بعض الشعراء فى ذلك[(٤)] :

إنْ كُنتَ معْتزا[(٥)] بمُلك زائلٍ وحوادث عنقية الإدلاجِ
فَدَعِ العجائِب والتواريخَ الأولَى وانْظر إلى قيماز وابن قماجِ
عَطَفَ الزمانُ عليهما فسقاهُما من كأسِهِ صِرْفًا بغيرِ مزاجِ
فتبدَّلُوا بعد القصورِ وظِلِّها ونَعِيمها بمهامِهِ وفجاجِ
فَلْيحذَر الباقون من أمثالِهم[(٦)] نكباتِ دهرٍ خائنٍ مزعاجِ

---

(١) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٢) الحلة : مدينة كبيرة بين الكوفة وبغداد . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٢٢ . انظر أيضًا : تقويم البلدان ص٢٩٨-٢٩٩ .

(٣) باب العمادى : يبدو أنه أحد أبواب قلعة العمادية التى بناها عماد الدين إسماعيل بن على بن موسى وهى من أحسن القلاع بجبل الهكارية من أعمال الموصل . انظر : صبح الأعشى ، ج٧ ، ص٢٨٦ ؛ وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٢٠٨ .

(٤) ورد هذا النص بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص٧١-٧٢ .

(٥) «معتبرًا» فى الكامل ، ج١٠ ، ص٧٢ .

(٦) «أمثالها» فى الكامل ، ج١٠ ، ص٧٢ .

إلياس الأُرتقى الملقب شهاب الدين ؛ صاحب البيرة[1] ، توفى فى هذه السنة ، وأوصى إلى الملك الناصر صلاح الدين بولده شهاب الدين محمد .

(١) البيرة : هى قلعة حصينة بين بيت المقدس ونابلس . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٧٨٧ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الحادية بعد السبعين بعد الخمسمائة*

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضئ بأمر الله ، والسلطان صلاح الدين مقيم بمرج الصُّفر بدمشق ، فجاءه رسول الفرنج يطلب الهدنة ، فأجابهم السلطان ، بعد أن اشترط عليهم السلطان أمورًا ، فالتزموها . وكان الشام ذلك العام جدبًا ، فأذن السلطان للعساكر المصرية فى الرحيل[١] إلى بلادهم ، وإذا استغلوا[المغل][٢] خرجوا إليه ، وسار معه الفاضل ، واعتمد على العماد فيما كان بصدده ، وواظب السلطان على الجلوس فى دار العدل وعلى الصيد ، ومدحه العماد بقصيدة منها :

سِواكَ لِسَهْمِ العُلا[٣] لن يريشَا	فنسألُ ربَّ[٤] العُلا أن تعيشَا
مِن الناسِ بالبِرِّ صِدْتَ الكِرامَ	وبالبأسِ فى البَرِّ صدتَ الوحوشَا
وكمْ سِرتَ من مصرَ نحو العَرِيش	فهدّمتَ للمشركينَ العُروشَا
سَرَايَاكَ تَبعَثُ قُدّامَها	مِنَ الرُّعْبِ نحوَ الأعادى جيوشَا
ويوم حَماةَ تركتَ العُداةَ	كما طَيّرتْ بالفَلا الريحُ ريشَا[٥]

قال العماد : وفى أول هذه السنة وصل إلى دمشق الجماعة الذين خرجوا من بغداد موافقة لقطب الدين قايماز .

قلت : هو الذى عصى على الخليفة ـ على ما ذكرناه ـ فى الوفيات المذكورة فى السنة الماضية .

ومن الذين أتَوْا الشام : حسام الدين نُميرك[بن يونس][٦] ، وعز الدين أقبورى بن أزغش ، وكان صهر السلطان قديمًا فأقطعه فى الديار المصرية . قال العماد[٧] : وكان أقبورى زوج أخت السلطان ، والسلطان خال بنته ، وهى زوجة عز الدين[٢٠٠ظ] فرخشاه ابن أخى السلطان .

★ يوافق أولها ٢٢ يوليو ١١٧٥م .
(١) «بالرحيل» فى نسخة ب .
(٢) ما بين الحاصرتين إضافة لتوضيح النص . انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١١ .
(٣) «العلى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب ، والمثبت هو الصحيح .
(٤) «فنساءل» ، كذا فى نسخة ب .
(٥) وردت هذه الأبيات من الشعر فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٦٤٣ ـ ٦٤٤ .
(٦) ما بين الحاصرتين إضافة من سنا البرق الشامى ، ص٩٢ .
(٧) ورد هذا النص فى أبى شامة الذى ينقل عن العماد . انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٤٥ .

ذكر الحرب بين السلطان صلاح الدين وبين غازى ابن مودود[١] صاحب الموصل

وأصل ذلك أن غازى هذا ـ الذى هو ابن أخى نور الدين ـ كتب إلى جماعة الحلبيين يلومهم على ما وقع بينهم وبين السلطان صلاح الدين من المصالحة ، وأرسل رسولاً إلى صلاح الدين ، ودفع له كتابين ، أحدهما : إلى صلاح الدين ؛ ليأخذ منه عهدًا للمواصلة ، ويكشف ماعنده . والكتاب الثانى : إلى الحلبيين ؛ يلومهم «فيه»[٢] على الصلح ، ويخبرهم أنه واصل بعساكر الشرق . ولما دخل الرسول على صلاح الدين غلط ودفع كتاب الحلبيين إليه ، وذلك لسعادة صلاح الدين ، فتأمله صلاح الدين وعلم أن الرسول غلط ، فلم يقل له شيئًا ، وفهم الرسول فقام وخرج من عنده ، ولم يمكنه الاستدراك[٣] . وكتب صلاح الدين إلى مصر ـ إلى أخيه الملك العادل أبى بكر ـ بتجهيز العساكر المصرية إلى الشام سرعة . و جمع غازى العساكر من الجزيرة ، وكان أخوه عماد الدين زنكى صاحب سنجار عاصيًا عليه ، مائلاً لصلاح الدين ، فصالحه ، وكان أخوه عز الدين مسعود وعسكره انهزموا فى العام الماضى لما التقوا بصلاح الدين كما ذكرنا ، فصالح غازى مع أخويه المذكورين ، وجمع عساكره وأنفق فيهم ، واستنجد أيضًا بصاحب حصن كيفا وصاحب ماردين ، فاجتمع معه عسكر كثير عدته ستة آلاف فارس ، وسار إلى نصيبين فى ربيع الأول ، وأقام بها حتى انقضى الشتاء ، فضجر العسكر وفنيت نفقاتهم ، فصار العود إلى بيوتهم مع الهزيمة أحب إليهم من الظفر . ثم سار غازى وقطع الفرات ونزل عليه ، وبعث إلى أمراء حلب وكمشتكين الخادم ، وتقرر بينهم الأمر ، ثم سار إلى حلب ، والتقاه الملك الصالح بن نور الدين ، فاعتنقه سيف الدين غازى . وبكى ، ونزل بظاهر حلب بعين المباركة[٤] ، وصعد القلعة جريدة ، وكان أمراء حلب يركبون كل يوم إلى خدمته .

---

(١) غازى بن مودود : هو سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن أتابك الشهيد زنكى توفى سنة ٥٧٦هـ/١١٨٧م . انظر : التاريخ الباهر ، ص١٨٠ ؛ الشذرات ، ج٤ ، ص٢٥٧ .

(٢) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٣) ورد هذا النص بتصرف فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٤٧ـ ٦٤٨ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢١٠ ؛ سنا البرق ، ص٩٠ـ ٩١ .

(٤) عين المباركة : ذكرها ابن الشحنة فى الدر المنتخب ، ص٢٥٥ ، وقال إنها فى جملة متنزهات حلب . انظر أيضًا : زبدة الحلب ، ج٣ ، ص٢٥ ، حاشية ٢ ؛ مفرج الكروب ، ج٣ ، ص١٦٧ . حيث يذكر ابن واصل أن «عين المباركة على باب حلب» .

وفى تاريخ النويرى[١] : وكان غازى فى عشرين ألف مقاتل ، ثم رحل إلى تل السلطان ومعه هؤلاء العساكر ؛ عسكر[٢] الشرق وديار بكر[٣] والحلبيون ، وبلغ صلاح الدين وهو بدمشق ، ولم يكن عنده سوى ستة آلاف فارس كذا فى المرآة[٤] .

وفى تاريخ النويرى[٥] : وسار صلاح الدين نحوهم ومعه ألف فارس ، ولكن الجيوش قد خرجت من الديار المصرية فى جحافل كالجبال ، ووصل إلى حماة ونزل بها ، وترك أثقاله بها ، وساق إلى جباب التركمان[٦] ، وجاءه رسول الحلبيين بأنهم يخوفونه بأسهم ، ويأمرونه بالرجوع إلى مصر ، قال رسولهم : فوافيته وهو فى خيمة صغيرة ، وهو على بساط «لطيف»[٧] ، وتحته سجادة ، وبين يديه مصحف ، وهو مستقبل القبلة ، وإلى جانبه زرديته[٨] ، وسيفه بين يديه ، وقوسه وتركاشه[٩] معلق فى عمود الخيمة . قال : فلما رأيته وقع فى خاطرى أنه المنصور ؛ لأنى فارقت سيف الدين غازى والأمراء وهم على طنافس الحرير ، والخمور تُروّق ، وليس فى خيامهم خيمة إلا وفيها أنواع المحرمات ، فأديت إليه الرسالة ، وجاء وقت الظهر فضج العسكر لصوت الأَذَان ، وفى كل خيمة إمام ، فقال لى : «الحق بأصحابك وقل لهم يستعدون [٢٠١و] للقائى ، فإنى عند طلوع الشمس نازل

---

(١) نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص٣٧٩ .

(٢) «عساكر» فى نسخة ب .

(٣) ديار بكر : بلاد كبيرة واسعة تنسب إلى بكر بن وائل ، وحدها ما غرب من دجلة من بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة ، ومنه حصن كيفا وآمد وميافارقين . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٦٣٦ .

(٤) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢١٠ـ ٢١١ . وقد علق ابن الأثير على هذا الحدث بأن العماد قصد أن يعظِّم صلاح الدين بأن جعل جيشه البالغ ستة آلاف يهزم جيشًا قوامه «عشرون ألفًا» . انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص٧٥ .

(٥) نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص٣٧٨ .

(٦) يبدو أن «جباب التركمان» ، مكان بين حماة وتل السلطان ، ونستشف هذا مما ورد فى المتن ، وفى زبدة الحلب لابن العديم ، ج٣ ، ص٢١٢ ، مع العلم بأن سامى الدهان المحقق أشار إلى أنه لايدرى أين جباب التركمان حاشية١ ـ ولعل المقصود بجباب التركمان جمع لكلمة جُب وهو البئر التى لم تطو ـ أى التى بها ماء . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٧ ـ ١٨ .

(٧) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٨) الزردية : نوع من الدروع ، وهى قميص من الزرد خالى من الصفائح المعدنية ويوجد منها الطويل المسترسل إلى الأرض ويسمى «زرديات سابلة» أو «زرديات مسبلة» وهى تغطى ساقى الفارس . وبعضها كانت قصيرة ولها ياقات عريضة تغطى الرقبة . انظر : ماير : الملابس المملوكية ، ص ٦٦ـ ٦٨ .

(٩) التركاش وجمعها تراكيش :وهى الجعبة التى توضع فيها النشاب وهو معرب عن الكلمة الفارسية تركش . Dozy: Supp. Dict. Ar.

عليهم ، ويحكم الله بيننا ، ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكمينَ﴾[(١)] . قال : ففارقته وأنا على بصيرة من نصرته وخذلانهم . وسقت عامة الليل ، فوافيتهم وقت الفجر وهم سكارى ، فطلبت سيف الدين غازى ، فقيل لى : هو نائم . قال : فوالله ما انبسطت[(٢)] الشمس إلا وأعلام صلاح الدين قد أقبلت ، والكوسات[(٣)] تخفق ، وأصحابنا نيام ، فقاموا مسرعين ، وكان يوم الخميس العاشر من شوال ، وكانت ملاقاتهم على تل السلطان ، وكان على ميمنة السلطان صلاح الدين ابن خاله شهاب الدين محمود ، وعلى ميسرته صاحب بصرى ، وهو[(٤)] فى القلب ، وكان فى ميمنة المواصلة مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل ، وعلى ميسرتهم الحلبيون ، وسيف الدين غازى فى القلب .

وفى المرآة[(٥)] : وكان صلاح الدين قد وقف على تل عال ، فحمل ابن زين الدين فطحن ميسرة صلاح الدين ، وحمل الحلبيون على ميمنته فتعتعوها ، ونزل صلاح الدين من التل ، ورأى أن يباشر الأمر بنفسه وإلا اختل الأمر ، فساق إليهم[(٦)] ، واتفق وصول العساكر المصرية فى تلك الساعة مع تقى الدين عمر ، وعز الدين فرخشاه ، وناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ، فهال ذلك الحلبيين ، من دق الكوسات وحسن الأطلاب[(٧)] والعُددِ الوافرة[(٨)] والخيل العربية ، فانخذلوا وولوا منهزمين .

وفى تاريخ النويرى[(٩)] : وحمل السلطان صلاح الدين بنفسه الكريمة فكانت بإذن الله الهزيمة ، فقتلوا من الحلبيين والمواصلة خلقًا ، وأُخذت مضارب سيف الدين غازى وحواصله[(١٠)] .

---

(١) ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ ، سورة الأعراف : آية (٨٧) .

(٢) «والله ما انتظر الشمس» . فى المرآة ج٨ ، ص٢١١ .

(٣) الكوسات : هى صنوجات من نحاس شبه التُّرس الصغير ، يدق بأحدها على الآخر بإيقاع خاص ، ومع ذلك طبول وشَبَّابَة ، يدق بها مرتين فى القلعة فى كل ليلة ، ويدار بها فى جوانبها مرة بعد العشاء الآخرة ، ومرة قبل التسبيح على المآذن ، وتسمَّى الدورة بذلك فى القلعة ، وكذلك إذا كان السلطان فى السفر تدور حول خيامه . ويقال للذى يضرِبُ بالصنوج النحاس بعضها على بعض الكوسى . انظر : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٩ ، ١٣ .

(٤) يقصد صلاح الدين يوسف بن أيوب .

(٥) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢١١ .

(٦) «عليهم» فى نسختي المخطوطة أ ، ب . والمثبت من المرآة ، ج٨ ، ص٢١١ حيث ينقل عنه العينى .

(٧) الأطلاب ـ مفردها طُلب : وهو لفظ كردى معناه الأمير الذى يقود مائتى فارس فى ميدان القتال ، ويطلق أيضًا على قائد المائة أو السبعين ، وكان أول استخدامه فى العصر الأيوبى ، ثم أصبح يطلق على الكتيبة من الجيش . انظر السلوك ، ج١ ق١ ، ص٢٤٨ ، حاشية ٢ .

(٨) «الواردة» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢١١ . والمثبت كما كتبه العينى متفق مع السياق .

(٩) ورد هذا النص بتصرف فى نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص٣٧٩-٣٨٠ .

(١٠) الحواصل ـ مفردها حاصل : وهى الشراب خاناه والفراش خاناه والسلاح خاناه والركاب خاناه والحوائج خاناه والمطبخ والطبلخاناه . انظر : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٩-١٣ .

وأسر جماعة من رؤسهم ، فأطلقهم السلطان بعد أن خلع عليهم ، وقد كانوا استعانوا بجماعة من الإفرنج فى حال القتال ، وليس هذا من صنيع الصناديد(١) .

وفى تاريخ بيبرس :(٢) وكان غازى قد سبق ووصل صلاح الدين وقت العصر ، وقد تعب هو وأصحابه ، وعطشوا فألقوا نفوسهم على الأرض ليس فيهم حركة ، وأشار على غازى جماعة من أصحابه بقتالهم فى تلك الساعة ، فتأخر إلى الغد فلما التقوا من الغد انهزم(٣) عسكر سيف الدين ، ورجع إلى حلب ، ولم يقتل من الفريقين مع كثرتهم سوى رجل واحد ، وترك سيف الدين أخاه عز الدين مسعود بحلب ، وسار إلى الموصل وهو يظن أنه لا ينجو ، وأن صلاح الدين يعبر الفرات إليه ويقصده بالموصل ، فاستشار وزيره فى مفارقة الموصل والاعتصام بقلعة [عقر](٤) الحميدية ، فمنعه من «ذلك وثبته وشد قلبه»(٥) ، وعزل عز الدين عن إمارة العسكر ، واستعمل مكانه مجاهد الدين قايماز(٦) .

وفى تاريخ النويرى(٧) وغيره : ووجد السلطان صلاح الدين فى مخيم غازى شيئا من الأقفاص التى فيها الطيور المطربة ، وذلك فى مجلس شرابه ، وكيف ينصر من كان هذا مسلكه ومذهبه ؟! فأمر صلاح الدين بردها عليه ، وقال للرسول : قل له : اشتغالك بهذه الطيور أحب إليك من الوقوع فيما رأيت من المحذور . وغنم السلطان من أموالهم شيئا كثيرا ، ففرقه على أصحابه ، وأنعم بخيمة الملك سيف الدين غازى على ابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن نجم الدين(٨) أيوب ، وردّ ما كان فى وطاقه(٩) من الجوارى

---

(١) وردت هذه الأحداث بالتفصيل فى الروضتين ، ج١/ ق٢ ، ص٦٥٠-٦٥٣ .

(٢) ورد هذا النص بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص٧٤-٧٥ .

(٣) «انكسر» فى نسخة ب .

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من الكامل ، ج١٠ ، ص٧٥ ، وعَقْر الحُميدية ، قلعة حصينة فى جبال الموصل أهلها أكراد وهى شَرقى الموصل . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٦٩٦ ؛ تقويم البلدان ، ص٢٧٤ .

(٥) كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب . وقد وردت هذه العبارة فى الكامل ، ج١٠ ، ص٧٥ على النحو التالى : «واتفق هو والوزير على شد أزره ، وتقوية قلبه ، فثبت» .

(٦) مجاهد الدين قايماز : هو أبو منصور قايماز بن عبد الله الزينى الملقب مجاهد الدين الخادم توفى فى سنة ٥٩٥هـ/١١٩٩م بقلعة الموصل . وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٨٢-٨٤ .

(٧) يبدو أن العينى نقل هذا النص عن ابن كثير وليس النويرى . انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٢ ؛ كما ورد هذا النص بتصرف فى الروضتين نقلاً عن العماد ، ج١ ق٢ ، ص٦٥١ .

(٨) «نجم الدين بن أيوب» كذا فى نسخة ب . وهو خطأ .

(٩) الوطاق : الخيمة الكبيرة التى تعد للعظماء . انظر : العصر المماليكى ، ص٤٦٢ .

والمغنيات [٢٠١ظ]، وقد كان معه أكثر من مائة مغنية، ورد الأقفاص وآلات اللعب إلى حلب، وقال: قولوا له: هذه أحب إليك من الحرب. ووجِدَ عسكر المواصلة كالحانة من كثرة الخمور والبرابط والملاهى.

وفى المرآة[١]: ولما انهزم غازى ومن معه ساق صلاح الدين وراءهم، وأسر أمراءهم، ونجا غازى بنفسه، وعاد صلاح الدين إلى خيامهم، فوجد سرادق سيف الدين غازى مفروشا بالرياحين. والمغانى جلوس فى انتظاره، والخمور تروق، ومطابخه بقدورها، وفيه أقفاص لطيور فيها أنواع من القمارى والبلابل والهزارات[٢]، ثم فرق صلاح الدين الخزائن والخيل والخيام على أصحابه، وأعطى عز الدين فرخشاه سرادق سيف الدين، وكان عز الدين قد أبلى فى ذلك اليوم بلاءً حسنا.

ذكر ما جرى لصلاح الدين بعد انتصاره

قال النويرى[٣]: لما رجع الحلبيون إلى حلب وهم منهزمون ندموا على نقضهم الأيمان ومخالفتهم لطاعة الرحمن، وشقهم العصا على السلطان، وتحصنوا بالبلد خوفا من وثوب الأسد بن أخى الأسد، وأسرع صاحب الموصل فوصلها، وما صدق حتى دخلها.

وأما السلطان صلاح الدين فإنه لما فرغ من قسمة ما غنم، أسرع المسير إلى حلب، فوجدهم قد حصنوها، والقلعة قد أحكموها، فقال: من المصلحة أن نبادر إلى فتح الحصون التى حول البلد، ثم نعود إليهم، فلا يمتنع علينا أحد منهم. فشرع يفتح الحصون حصنا حصنا، ويهدم من أركان دولتهم ركنا ركنا، ففتح بزاعة[٤] ومنبج، ثم سار إلى أعزاز[٥]، فأرسل[٦] الحلبيون إلى سنان مقدم الفداوية، فأرسل جماعة من أصحابه ليقتلواصلاح الدين، فدخل طائفة منهم فى زى الجند، فقاتلوا أشد القتال، حتى اختلطوا بهم، ثم وجدوا فرصة ذات يوم والسلطان ظاهر للناس، فحمل عليه واحد منهم

(١) انظر هذه الأحداث فى المرآة، ج٨، ص٢١١-٢١٢ حيث ينقل العينى عنه بتصرف.
(٢) الهزارات جمع الهزار: طائر حسن الصوت، فارسى معرب. المعجم الوسيط، مادة هزر.
(٣) يبدو أن النص المذكور هنا لابن كثير من البداية والنهاية، ج١٢، ص٣١٢-٣١٣، حيث أنه بنفس ترتيب الأحداث. بينما وردت بعض هذه الأحداث فى النويرى: نهاية الأرب، ج٢٨، ص٣٧٨ - ٣٨٠.
(٤) بزاعة: بلدة من أعمال حلب واقعة بينها وبين منبج. معجم البلدان، ج١ ص٦٠٣.
(٥) أعزاز - ذكرها ياقوت فى معجمه ج٢، ص٦٦٧، عَزَاز وهى بليدة فيها قلعة ولها رستاق شمالى حلب بينهما مسيرة يوم.
(٦) «فأرسلت» فى نسخة ب.

فضربه بالسكين على رأسه ، فإذا هى باللأمة[١] ، فسلمه الله ، غير أن السكين مرت على خده فجرحته جرحًا هينًا ، ثم أخذ الفداوى رأس السلطان ، فوضعه إلى الأرض[٢] ليذبحه و مَنْ حوله قد أخذتهم دهشة ، ثم ثاب إليهم عقلهم ، فبادروا إلى الفداوى ، فقتلوه وقطعوا رأسه ، ثم هجم آخر فى الساعة الراهنة على السلطان ، فَقُتِل ، ثم هجم آخر على بعض الأمراء ، فَقُتِل أيضًا ، وهرب الرابع ، فأُدرك فقُتل ، وبطل القتال ذلك اليوم . ثم صمم السلطان على البلد ففتحه ، وأقطعه ابن أخيه تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، وقد اشتد حنقه على أهل حلب ؛ لما أرسلوا من الفداوية ، وجاء فنزل تجاه البلد على جبل جوشن[٣] ، وضربت خيمته على رأس الياروقية[٤] ، وذلك فى خامس عشر ذى الحجة من هذه السنة ، وجبى الأموال وأخذ الخراج من القرى ، ومنع أن يدخل البلد شىء أو يخرج منها شىء ، واستمر حصاره إياها حتى انسلخت هذه السنة[٥] .

وفى تاريخ بيبرس : لما انهزم غازى ، وغنم صلاح الدين وعسكره ثقله وثقل عسكره ، سير طائفة إلى بزاعة فحصروها وقاتلوا من بها وأخذوها ، ورتب بها من يحفظها ، وسار إلى منبج ، فملكها عنوة ، وأخذ صاحبها أسيرًا ، وكان بينه وبين[٢٠٢و] صلاح الدين عداوة قديمة ، وهو قطب الدين ينال[بن حسان][٦] المنبجى ، ثم أطلقه فسار إلى الموصل ، فأقطعه سيف الدين غازى الرقة ، ثم دخل إلى أعزاز فنازلها وحصرها ، وهى من أحصن القلاع ، وقتل عليها كثيرًا من العسكر ، ثم ذكر حكاية الفداوية كما ذكرناها .

وفى المرآة[٧] : لما نزل صلاح الدين على منبج[٨] وبها قطب الدين ينال بن حسان فقاتله ، واتفق وقوع ثلمة فى السور ، فطلب الأمان لنفسه ، فأمَّنهُ ، فخرج سليبًا ، وأخذ صلاح الدين من الحصن ثلثمائة ألف دينار ، وعرض عليه المقام عنده فامتنع وسار إلى

---

(١) اللَّأْمَةُ : أداة الحرب كلها من رمح وبيضة ومغفر وسيف ودرع ، والجمع لأْم . انظر : المعجم الوسيط ، ماده لأى .
(٢) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٣) جبل جوشن : يطل على حلب من غربها ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٥٥ .
(٤) الياروقية : محلة كبيرة بظاهر مدينة حلب تنسب إلى أمير من أمراء التركمان . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص١٠٠١ .
(٥) انظر هذه الأحداث فى الكامل ، ج١٠ ، ص٧٦ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٠ .
(٦) «خان» فى نسختى المخطوطة أ ، ب ، والمثبت بين الحاصرتين من الكامل ، ج١٠ ، ص٧٦ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٥٥ .
(٧) انظر هذه الأحداث فى المرآة ، ج٨ ، ص٢١٢ .
(٨) «ثم سار سيف الدين فنزل على منبج» كذا فى المرآة ، ج٨ ، ص٢١٢ ولعله خطأ من الناسخ ، واتفق ابن الأثير ، وأبو شامة مع ما أورده العينى . انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص٧٦ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٥٦ .

صاحب الموصل كما ذكرناه . ثم سار السلطان ففتح حصن بُزَاعةَ ثم نازل أعزاز ، فأقام عليها ثمانية وعشرين يومًا وفتحه فى ذى الحجة من هذه السنة .

وفى تاريخ الدولتين[1] : وهنأ العماد الكاتب السلطان بقصيدة ، منها :

فـالحـمـدُ للهِ الذى إفْـضـالُه ... حُلْوُ الجنا ، [عالى][2] السَّنا ، وَضَّاحُه

عـادَ العـدُوُّ بظُلْمـةٍ[3] من ظلمـهِ ... فى ليلِ وَيْلٍ قد خبا مِصْباحُه

وَجَنَى عليـه جَـهلُه بوقـوعـهِ ... فى قبضَةِ البازِى فهِيضَ جناحُه[4]

حَمَلَ السلاحَ إلى القتالِ وما درَى ... أنّ الذى يَجْنِى عليـه سِـلاحُـهُ

قال : وكان لعز الدين فرخشاه فى هذه الوقعة يد بيضاء . وقال العماد : نظمت فيه قصيدة منها الأبيات[5] :

نصـرٌ أنارَ[لِمُلْكِكُم][6] بُرْهانُه ... وَعـلا لذِلَّةِ شـانِئيكُم شـانُه

مـا أسـعـد الإسـلامَ وهو مظفّـرٌ ... وأبو المظفَّـرِ يوسفٌ سُلْطانُه

المُلكُ مـرفـوعٌ لكُم مِـقْـدارُه ... والعـدلُ مـوضـوعٌ بكُم مـيـزانُه

والدّهرُ لا يأتى بغـيـرِ مُـرادِكم ... [فهل][7] القضاءُ لأجلكم جَرَيَانُه

[وكـأنمـا][8] للَّه فى أحكامِـه ... فَلَكٌ على إيثـارِكُم دَوَرانُه

فـخـرًا بنى أيوب ، إنَّ فَـخَـارَكم ... بذَّ الملوكَ السـابقـيـن رهانُه

يكفى حـسودَكم اعـتـقـالاً همُّـه ... فكأنمـا أشْـجَـانُه أسْـجَـانُهُ

(١) انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٥٢ .

(٢) «على» فى نسختى المخطوطة أ ، ب والمثبت بين الحاصرتين من الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص١٨ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ٦٥٢ .

(٣) «فى» نسخة ب .

(٤) هذا البيت غير موجود بالخريدة .

(٥) «الأبيات» ذكرت فى الهامش اليسار من الصفحة بالأصل .

(٦) «لملكهم» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٥٣ .

(٧) « فعلى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٥٤ .

(٨) «فكأنما» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٥٤ .

الدِّينُ ، عزَّ الدينِ ، عزَّ بنصرِكُم و الكفرُ ذُلَّ بعونِكُم أعوانُه
قد كان [جيشكُمُ][1] كَبَحرٍ زاخرٍ و اللابِسُون جواشنًا[2] حيتانُه .

وقال العماد أيضًا فى فتح منبج قصيدة منها قوله :

نُزولك فى منبج على الظَفَرِ المُبْهِجِ
ونُجحك فى المرتجَى وفتحك للمُرْتَجِ
دليل على كلِّ[3] ما تحاول أو تَرْتَجِى
أمورك فيما ترو مُ واضحةُ المَنْهَجِ
وشانيك دامى الشئو ن منك ، شَقِىٌّ ، شَجِى .

وقال ابن أبى طى[4] : لما ملك السلطان منبج وتسلم الحصن صعد إليه وجلس يستعرض أموال ابن حسان وذخائره ؛ فكان فى جملة أمواله ثلثمائة ألف دينار ، ومن الفضة والآنية الذهبية والأسلحة والذخائر ما يناهز ألفى ألف دينار . فحان من السلطان التفاتة فرأى مكتوبًا على الأكياس والآنية يوسف ، فقيل له : ولد يؤثره ويحبه اسمه يوسف كان يدّخر هذه الأموال له . فقال السلطان : أنا يوسف وقد أخذت ما خُبِىء لى . فَتَعُجِبَ[٢٠٢ظ] من ذلك .

وقال العماد أيضًا قصيدة فى فتح أعزاز[5] ، منها :

أعطاهُ ربُّ العالمينَ دولةً عِزَّةُ أهلِ الدينِ فى إعزازِها
حازَ العُلا ببأسِه وجودِه وهو أحقُّ الخلقِ باحْتيازِها

(١) «جيشهم» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٥٤ .
(٢) الجواشن جمع جوشن : وهى نوع من الدروع . تختلف عن الزردية فى أنها قميص من الزرد مغطى بصفائح معدنية على شكل حلقات وضع بين كل حلقة منها والأخرى قطعة صغيرة من القصدير «التنك» . انظر : الملابس المملوكية ، ص٦٨ ، حاشية ٢ .
(٣) «كلما» فى نسخة ب . وقد نقل أبو شامة هذه الأبيات عن العماد فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٥٦ .
(٤) انظر قول ابن أبى طى فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٥٦ .
(٥) انظر القصيدة فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٥٧ .

إلى أن قال :

تَهَنَّ من فتح عزازٍ نصرة أوقعت العداة فى اعتزازها
واليوم ذُلّتْ حلبُ ، فإنَّها كانت تنالُ العزَّ من عزازِها
وحلب تنفى كمشتكينها كما انتفت بغدادُ من قيْمازِها

ذكر بقية الحوادث

منها أن فى رمضان قدم شمس الدولة تورانشاه بن أيوب من اليمن إلى الشام ، وأرسل إلى أخيه صلاح الدين يعلمه بوصوله ، وكتب إليه أبياتًا من شعر ابن المنجم المصرى[١] :

وإلى صلاحِ الدينِ أشكو أننى من بَعدِه مُضنَى الجوانحِ مُولَعُ
جزعًا لبُعدِ الدّارِ منه ولم أكن لولا نواه[٢] لبُعْد دارٍ أجْزَعُ
فلأركَبَنَّ إليه مَتْنَ عزائمى ويخبُّ بى رَكْبُ الغرامِ ويوسعُ[٣]
ولأقطعنَّ مِنَ النهارِ هَوَاجرًا قلبُ النَّهارِ بِحَرِّها يتقطَّعُ
ولأسْرِينَّ الليلَ لا يَسْرى به طيفُ الخيالِ ولا البُرُوق اللُّمَّعُ
وأُقَدمَنَّ إليه قلبى مُخْبِرًا أنى بِجِسْمى من قريبٍ أتبعُ
حَتَّى أُشارِفَ[٤] منهُ أسعدَ طلعةٍ من أُفْقِها صُبحُ السَّعادةِ يطلُعُ

قال العماد : وفى سابع شوال وصل شمس الدولة أخو السلطان من اليمن إلى دمشق[٥] . وذكر ابن شداد[٦] : أنه قدم فى ذى الحجة .

---

(١) ابن المنجم المصرى : هو نشؤ الملك أبى الحسن على بن مفرج المعروف بابن المنجم المصرى الأصل المصرى الدار والوفاة ، توفى سنة ٦٣٠هـ/١٢٣٣م . انظر : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص١٦٨ـ ١٦٩ ؛ انظر : وفيات الأعيان ج٧ ، ص٢٠٧ـ ٢٠٨ .

(٢) «هواه» كذا فى الكامل ، ج١٠ ، ص٧٩ .

(٣) «يوضع» كذا فى الكامل ، ج١٠ ، ص٧٩ .

(٤) «أشاهد» فى الكامل ، ج١٠ ،ص ٧٩ .

(٥) ورد هذا الخبر فى سنا البرق الشامى ، ص٩٧ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٦٦٣ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢١٢ .

(٦) انظر : النوادر السلطانية ، ص٥٢ .

ولما سمع السلطان بقدومه أرسل إليه[١] بالمثال[٢] الفاضلى كتابًا أوله : ﴿أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾[٣] . وقال فى آخره : «ولقد أحسن عدنان المبشر إذ طلع علينا طلوع الفجر قبل شمسه ، وغرس فى القلوب ما يسرّنا ويسرّه جنى غرسه»[٤] .

وقال ابن أبى طى : كان سبب خروجه من اليمن كراهية البلاد ، والشوق إلى أخيه الملك الناصر ، وأن يرى ملوك الشام وغيرها .[وأمر العساكر][٥] بما أنعم الله به عليه من النعم والأموال .

وفى تاريخ الدولتين[٦] : لما تحدث الناس بخروج شمس الدولة من اليمن كان باليمن رجل يقال له عباس ، وكان صهر ياسر بن بلال الحبشى[٧] صاحب عدن ، وكان بين ياسر وعباس عداوة ، فافتعل عباس كتابًا على لسان ياسر وزوّر عليه علامته إلى زيد ابن عمرو بن حاتم صاحب صنعاء يقول فيه : «إن شمس الدولة سائر إلى أخيه الملك الناصر إلى الشام ، وسبب خروجه ضعفه عن اليمن ، فأمسكوا ما كنتم تحملون إليه من الإتاوة والرشوة ، «تبقى لكم»[٨] . واحتال حتى وصل الكتاب إلى شمس الدولة ، وكان نازلاً على حصن يعرف بالخضراء[٩] [٢٠٣و] يحاصره .

فلما وقف شمس الدولة على الكتاب استدعى ياسرًا وقال له : هذا خطك وعلامتك؟ قال : كأنه هو . قال : فبأى شىء استحققت منك هذا ، وقد قرَّبتُ منزلتك ، وأبقيتُ عليك بلادك ، ورفعت بضبعك[١٠] على أهل إقليمك . وأراه الكتاب . فلما وقف عليه

---

(١) «السلطان» فى نسخة ب .
(٢) المثال : الجمع مثالات ، وهو أول ما يكتب من الأوراق الرسمية بموافقة السلطان . انظر : صبح الأعشى ، ج١٣ ، ص١٥٣ـ ١٥٥ .
(٣) سورة يوسف : آية (٩٠) .
(٤) انظر هذا النص فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٣ .
(٥) «أمراء العساكر» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٣ .
(٦) انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٣ـ ٦٦٥ .
(٧) كان ياسر بن بلال بن جرير الحبشى وزيرًا للأخوين منصور وأبى سعود ولدى عمران المكرم من أسرة بنى زريع الإسماعيلية التى سيطرت على عدن منذ سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣م حتى سقطت فى أيدى الأيوبيين . انظر : زامباور : معجم الأنساب ، ج١ ، ص١٨١ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٤ حاشية ١ .
(٨) «ويبقى لكم» فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٤ .
(٩) حصن الخضراء : حصن فى اليمن فى جبل وصاب من عمل زبيد . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٥١ .
(١٠) الضَّبْعُ : العضد كلها وأوسطها بلحمها أو الإبط أو ما بين الإبط إلى نصف العضد من أعلاه . القاموس المحيط ج٣ ، ص٥٣ـ ٥٤ .

ياسر حلف أنه ما كتبه ، ولا يعرفه ، ولا أملاه لأحد ، ولم يعلم خبره . فلم يصدقه شمس الدولة ، وأمر به فقتل صبرًا بين يديه ، فهاب شمس الدولة مُلوكُ اليمن وحملوا إليه الأموال وحلفوا له على الطاعة .

ثم إن شمس الدولة خرج الى تهامة(١) وتوجه إلى الشام واستخلف على تهامة سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ ، وعثمان بن على الزنجيلى على عدن ، وتوجه إلى حضرموت ففتحها ، واستناب عنه بها رجلاً كرديًا يسمى هرون ، واستمر الكردى بها مدة .

ثم إن صاحب حضرموت تحرك وجمع ، فقتل ، وعاث هرون فى تلك البلاد ، واستقام أمره . وولى شمس الدولة ثغر تعز(٢) مملوكه ياقوت وجعل إليه أمر الجند ، وولى قلعة[تعكر](٣) مملوكه قايماز .

قال صاحب تاريخ الدولتين(٤) : وكان وصول شمس الدولة إلى السلطان قبل وقعة المواصلة وكسرتهم ، وكان شمس الدولة هو سبب الظفر ، وأعطاه السلطان سرادق سيف الدين صاحب الموصل بما كان فيه من الفرش والأثاث والآلات ، وولاه دمشق وأعمالها والشام ، وأمره أن يكون فى وجه الفرنج لأن السلطان خاف من الحلبيين أن يكاتبوا الفرنج على عادتهم .

ومنها أن تقى الدين عمر ابن أخى السلطان أنفذ مملوكه بهاء الدين قراقرش فى جيش إلى بلاد المغرب ، ففتح بلادًا كثيرة هناك ، وغنم أموالاً جزيلة ، ثم عاد إلى مصر ، وطابت له ، وترك تلك البلاد(٥) .

---

(١) تهامة : تقع من الناحية الجنوبية من الحجاز ، وعرفت بتهامة لشدة حرها وركود ريحها . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٦٠٣ ؛ تقويم البلدان ، ص٧٨ .

(٢) تعز : قلعة مشهورة من قلاع اليمن العظيمة . معجم البلدان ، ج١ ، ص٨٥٤ .

(٣) «بعكر» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب ، والمثبت بين الحاصرتين من معجم البلدان ، ج١ ، ص٨٥٥ ؛ الهمذانى : صفة جزيرة العرب ، ص١٢٥ ، طبعة مصر ١٩٥٣ . وتعكر : قلعة حصينة باليمن من مخلاف جعفر مطلة على ذى جَبْلَة ليس باليمن قلعة أحصن منها .

(٤) الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٥ .

(٥) انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٣ .

وقال ابن أبى طى[١] : لما ملك شمس الدولة اليمن سمتْ نفس ابن أخيه تقى الدين إلى المُلك وجعل يرتاد مكانًا يحتوى عليه ، فأُخبِرَ أنَّ قلعة أزْبرى[هى][٢] فم درب المغرب ، وكانت خرابًا فأشير عليه بعمارتها ، وقيل له متى عُمِّرَت وسكنها أجنادٌ أقوياء شجعان مُلِكَتْ برقة ، وإذا مُلِكَتْ برقة مُلِكَت ما وراءها . فأنفذ مملوكه بهاء الدين قراقوش فقدَّمهُ على جماعة من أجناده ومماليكه ، فصاروا إلى القلعة المذكورة وشرعوا فى عمارتها .

واجتمع بقراقوش رجل من المغرب فحدَّثهُ عن بلاد الجريد وفزان[٣] ، وذكر له كثرة خيرها ، وغزارة أموالها ، وضعف أهلها ، ورَغَّبَهُ فى الدخول إليها . فأخذ جماعة من أصحابه وسار فى حادى عشر محرم[من][٤] هذه السنة ، فكان يكمن النهار ويسير [الليل][٥] مدة خمسة أيام ، وأشرف على مدينة أوْجَلة[٦] فلقيه مالكها وأكرمه واحترمه ، وسأله المقام عنده ليعتضد به ويزوِّجه بنته ويحفظ البلاد من العرب ، وله ثلث ارتفاعها . ففعل قراقوش ذلك فَحُصِّل له من ثلث الارتفاع ثلاثون ألف دينار ، فأخذ عشرة آلاف لنفسه وفرق على رجاله عشرين ألفًا .

وكان إلى جنب أُوجلة مدينة يقال لها [الأرزاقية][٧] ، فبلغ أهلها صنيع قراقوش فى أوْجلة ، وأنه حرس غلالهم ، فصاروا إليه ووصفوا له بلدهم وكثرة خيره وطيب هوائه ، ورغّبوه فى المصير إليهم على أنهم[٢٠٣ظ] يملِّكونه عليهم . فأجاب إلى ذلك ، واستخلف على أوجلة رجلاً من أصحابه يقال له صباح ومعه تسعة[فوارس][٨] من أصحابه ، فَحُصِّل لقراقوش أموال كثيرة .

واتّفق أن صاحب أَوْجله مات ، فقتل أهل أوجلة أصحاب قراقوش ، فجاء قراقوش وحاصرها حتى افتتحها عنوة وقتل من أهلها سبعمائة رجل ، وغنم أصحابه منها غنيمة عظيمة ، واستولى على البلد .

---

(١) انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٥ .
(٢) ما بين الحاصرتين إضافة لازمة لتوضيح النص من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٥ .
(٣) فزان : ولاية واسعة بين الفيوم وطرابلس الغرب . معجم البلدان ، ج٣ ، ص٨٩٠ .
(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٦ .
(٥) «بالليل» كذا فى نسختى أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٦ .
(٦) أوْجَلَة : جنوبى برقة نحو الغرب منها ، وهذا اسم للناحية أما مدينتها فتسمى أرزاقية . معجم البلدان ، ج١ ، ص٣٩٧ .
(٧) «الأزرافية» فى نسختى المخطوطة أ ، ب والمثبت من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٦ .
(٨) ما بين الحاصرتين إضافة من الروضتين لتوضيح النص ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٦ .

ثم إن أصحابه[رغبوا][(١)] فى الرجوع إلى مصر وخشى قراقوش أن يقيم وحده فرجع معهم . فلما حصل بمصر طاب له المقام وثقل عليه العود ، وزوَّجه تقى الدين بإحدى جواريه . وكان استناب بأوجلة وقال لأهلها أنا أمضى إلى مصر لتجديد رجال وأعود إليكم[(٢)] .

ومنها ما قال ابن الأثير[(٣)] : وفى ربيع الآخر سنة إحدى وسبعين استوزر سيف الدين صاحب الموصل جلال الدين أبا الحسن على بن جمال الدين الوزير ، ومكّنه فى ولايته ، فظهرت منه كفاية لم يظُنَّها الناس ، وبدا منه معرفة بقواعد الدول وأوضاع الدواوين ، وتقرير الأمور والاطلاع على دقائق الحسابات ، والعلم بصناعة الكتابة الحسابية والإنشاء حيّرت العقول ، ووضع فى كتابة الإنشاء وضعًا لم يعرفوه .

وكان عمره حين ولى الوزارة خمسًا وعشرين سنة ، ثم قُبض عليه فى شعبان سنة ثلاث وسبعين وشفع فيه كمال الدين بن [نيسان[(٤)]] وزير صاحب آمد وكان قد زوجه بنته ، فأُطلق وسار إليه . وبقى بآمد يسيرًا مريضًا ، ثم فارقها ، وتوفى بدُنَيْسِر[(٥)] سنة أربع وسبعين ، وحُمل إلى الموصل فدفن بها ، ثم حُمل منها فى موسم الحج إلى المدينة ودفن عند والده . وكان من أحسن الناس صورة ومعنى ، رحمه الله .

ومنها[(٦)] أنه قدم إلى دمشق الواعظ الكبير أبو الفتوح عبد السلام بن يوسف بن محمد بن مقلد التنوخى ، الدمشقى الأصل البغدادى المنشأ ، ذكره العماد فى الخريدة ، وقال : كان صاحبى[(٧)] ، وجلس للوعظ فحضر عنده السلطان صلاح الدين ، وأورد له مقطّعات من أشعاره ، فمن ذلك ما كان يقول فى مجلسه :

---

(١) «رغبوه» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ . ص٦٦٦ .

(٢) إلى هنا توقف نص ابن أبى طى ، فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٦٦٦ .

(٣) نقل العينى هذا النص عن أبى شامة نقلاً عن ابن الأثير ، انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٦ـ ٦٦٨ ؛ راجع أيضًا : الباهر ، ص١٧٧ .

(٤) «سنان» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الباهر ، ص١٧٧ .

(٥) دُنَيْسِرُ : بلدة عظيمة مشهورة من نواحى الجزيرة قرب ماردين ، ولها اسم آخر يقال لها قوچ حصار . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٦١٢ .

(٦) انظر ترجمته فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٧ـ ٦٦٨ .

(٧) «صديقى» فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٨ .

يا مالِكًا مُهْجَتى ، يا مُنْتَهى أمَلى	يا حاضرًا شاهدًا فى القلب والفِكَر
خلقتنى من تراب أنت خالقُهُ	حتى إذا صرتُ تمثالاً من الصُّوَرِ
أجريتَ فى قالَبى روحًا منوّرةً	تمرُّ فيه كَجَرْى الماء فى الشجرِ
جمعتَ بين صفَا رُوح منوَّرةٍ	وهيكلٍ صُغْتَه من معدنٍ كدرِ
إنْ غبتُ فيك فيا فَخرى ويا شرفى	وإنْ حضرتُ فيا سَمْعى ويا بصرى
أو احتَجَبْتُ فَسِرِّى منك فى وَلَهٍ	وإنْ خطَرْتُ فقَلْبِى مِنْكَ فى خطرِ
[تبدو][1] فتمحُو رسُومى ثُمَّ تثبتُها	وإنْ تَغَيبتَ عنِّى عشتُ بالأثرِ[2]

ومنها أنه حملت إلى أمير المؤمنين من قرية قريبة من بغداد ، يقال لها الوقت ، بقرتان [٢٠٤و] قد ولدتا برأسين ورقبتين وأربع أيدى وبطن واحدة وفرج ذكر وفرج أنثى ، ولكل واحدة رجل ، قيل إنها ولدت حية ثم ماتت[3] .

ومنها ما قال ابن الجوزى[4] : تكلمتُ يوم عرفة ، وكان مجلسًا عظيمًا ، تاب فيه خلق كثير ، وقُطعَت شعورٌ كثيرة ، وكان الخليفة حاضرًا .

ومنها أن الخليفة عزل الخادم صندل المقتفوى عن الأستادارية[5]

وفيها ....[6] .

وفيها حج بالناس طاشتكين . وكان فى مكة أمير يقال له مُكثر[7] ، عزله الخليفة[8] وأمر أن يُولِّى أخوه داود مكانه ، وكان قد بنى قلعة على جبل أبى قبيس ، فاختلف الناس ،

---

(١) «وتبدو» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين حتى لا يختل الوزن ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص١٤ .

(٢) ورد هذا الشعر فى الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٦٦٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٣- ٣١٤ .

(٣) ورد هذا الخبر فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٢٠ .

(٤) المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٢٣ .

(٥) انظر هذه الحادثة فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢١٨ .

(٦) يوجد بياض بالأصل بمقدار سطر ونصف .

(٧) «مكبر» فى نسخة ب . وهو الأمير مُكَثِّر بن عيسى بن فليته وقد ولى إمرة مكة مرتين المرة الأولى سنة ٥٧١-٥٧٢هـ/١١٧٥- ١١٧٦م وعزل منها بداود بن عيسى . والمرة الثانية من سنة ٥٨٤- ٥٩٣ هـ/١١٨٨- ١١٩٧م . انظر زامباور : معجم الأسرات ج١ ص٣١ ؛ وانظر : الكامل ، ج١٠ ، ص٧٧ .

(٨) هو الخليفة العباسى المستضىء بأمر الله الحسن أبو محمد بن المستنجد بالله [٥٣٦هـ - ٥٧٥هـ/١١٤١- ١١٧٩م] . انظر : السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٤٤٤ - ٤٤٨ .

وتشوش الحجاج ، ولم يرم الناس من الجمار إلا قليلاً ، ونُهب كثير من الحاج ، وأخذوا أموال التجار المقيمين بها . ومن أعجب ما تم أن إنسانًا زرّاقًا أحرق دارًا بقارورة نفط لأيتام ، ثم أخذ قارورة أخرى ليحرق بها دارًا أخرى ، فأتاه حجر فأصابِ القارورة فكسرها ، فاحترق هو بها ، وبقى ثلاثة أيام يُعَذَّبُ بالحريق إلى أن مات(١) .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

المبارك بن الحسن أبو النجم بن القابلة الفرضى ؛ سمع أبا الحسين بن الفراء وغيره ، وكان عالمًا(٢) بعلم الفرائض والمواقيت ، وتوفى فى جمادى الأولى منها ، ودفن بمقبرة الزادمان ، قرية قريبة من بغداد(٣) .

مسعود بن الحسين بن سعد أبو الحسين البزدى(٤) القاضى ؛ أحد الكبار الحنفية ، ولد سنة خمس وخمسمائة ، وتفقه وأفتى ، وناب فى القضاء ، ودَرَّسَ بمدرسة أبى حنيفة رضي الله عنه ومدرسة السلطان ، ثم خرج إلى الموصل ، فأقام مدة يدرس هناك ، وينوب فى القضاء ، فتوفى بها فى جمادى الآخرة من هذه السنة ، رحمه الله .

الحافظ ابن عساكر(٥) على بن أبى محمد الحسنى بن أبى الحسن هبة الله بن عبد الله بن الحسين ، المعروف بابن عساكر الدمشقى الملقب ثقة الدين ؛ كان محدث الشام فى وقته ، ومن أعيان الفقهاء الشافعية ، غلب عليه الحديث فاشتهر به ، وبالغ فى طلبه إلى أن جمع منه ما لم يتفق لغيره ، رحل وطَوَّفَ وجاب البلاد ، ولقى المشايخ ، وكان رفيق الحافظ أبى سعد عبد الكريم بن السمعانى فى الرحلة ، وكان حافظًا دينًا ، جمع بين معرفة المتون والأسانيد ، سمع ببغداد فى سنة عشرين وخمسمائة من أصحاب

---

(١) انظر هذه الحادثة فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٢٤ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص٧٧ .

(٢) كذا فى الأصل . وفى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٢٥ ؛ وفى الشذرات ، ج٤ ، ص٢٤٠ «عارفًا» .

(٣) انظر : المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٢٥ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٤٠ .

(٤) «البزودى» فى نسخة ب والمثبت من النسخة أ ومن المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٢٥ ، وهو نسبة إلى بزدة ويقال بَزْدَوَة . والنسبة إليها بزدى وبزدوى . وهى قلعة حصينة على ستة فراسخ من نَسف من بلاد ما وراء النهر . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٦٠٤ .

(٥) انظر ترجمته فى الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج١ ، ص٢٧٤ـ ٢٨٠ ؛ المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٢٥ ؛ المرآة ج٨ ، ص٢١٢ـ٢١٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٤ـ ٣١٥ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٣٩ .

البرمكى والتنوخى والجوهرى ، ثم رجع إلى دمشق ، ثم رحل إلى خراسان ، ودخل نيسابور وهَرَاةُ [١] وأصفهان والجبال[٢] ، وصنّف التصانيف المفيدة ، وخرّج التخاريج ، وكان حسن الكلام على الأحاديث ، محظوظًا فى الجمع والتأليف ، صنف التاريخ الكبير لدمشق فى ثمانين مجلدة ، أتى فيه بالعجائب ، وهو على نسق تاريخ بغداد ، وله شعر لا بأس به ، ومن المنسوب إليه :

أيا نَفْسُ وَيْحكِ جاءَ المشيبُ ... فماذا التَّصابى وماذا الغَزَلْ
تَوَلَّى شَبَابى كأن لم يَكُنْ ... وجاء مَشِيبِى كأن لم يَزَلْ
كأنِّى بنفسِى على غِرَّةٍ ... وخَطْبُ المَنُونِ بها قد نزلْ
فيالَيتَ شِعرِى مِمَّنْ أكونُ ... وما قدَّرَ اللهُ لى فى الأزلْ[٣]/ [٢٠٤ظ]

وقد التزم فيها ما لا يلزم[٤] ، وهو الزاى قبل اللام[٥] .

وفى المرآة : وصنف كتبًا كثيرة ؛ منها «تاريخ دمشق» ثمانمائة جزء فى ثمانين مجلدًا[٦] ، وكتاب «الإشراف[على][٧] معرفة الأطراف» ، وكتاب «فضل[٨] أصحاب الحديث» ، وكتاب «الجهاد» ، و «الأربعين» ، و «فضائل مكة والمدينة والبيت المقدس» ، و «فضل قريش والأنصار» ، و «فضائل أهل البيت» ، و «فضائل الصحابة» ، و «مسند أبى حنيفة رضي الله عنه » ، وكتاب «الزلازل[٩]» ، وغير ذلك .

وذكره العماد فى الخريدة[١٠] : وقال : سمعتُ عليه من التاريخ الذى صنفه . ومن أنواع ما ألفه وأنشدنى لنفسه بقرية المِزَّة غربى دمشق «أيا نفس» إلى آخره .

---

(١) هَرَاةُ : مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٩٥٨ .
(٢) الجبال : جمع جبل اسم علم للبلاد المعروفة باصطلاح العجم وهى ما بين أصبهان إلى زنجان وقزوين وهمذان والدينور . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٥ .
(٣) كذا فى الأصل وفى وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٣١٠ «بالأزل» .
(٤) «ما لم» فى نسخة ب .
(٥) ورد هذا الشعر فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٤ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ص٢١٣ .
(٦) «جلد» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢١٣ .
(٧) «فى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من حاجى خليفة : كشف الظنون ج١ ص١٠٣ ؛ الزركلى : الأعلام ، ج٤ ، ص٢٧٣ .
(٨) «وصل» فى المرآة ، ج٨ ، ص٢١٣ .
(٩) إلى هنا يتوقف نقل العينى من المرآة .
(١٠) انظر : الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج١ ، ص٢٧٤-٢٧٥ .

وقال ابن خلكان[١] : قال لى شيخنا الحافظ زكى الدين عبد العظيم المنذرى ، حافظ مصر ، وقد جرى ذكر تاريخ ابن عساكر ، وأخرج لى منه مجلدًا ، وطال الحديث فى أمره واستعظامه ، وقال : ما أظن هذا الرجل إلا عَزَمَ على وضع هذا التاريخ من يوم عقل على نفسه ، وشرع فى الجمع من ذلك الوقت ، وإلا فالعمر يقصر عن أن يجمع الإنسان فيه مثل هذا الكتاب بعد الاشتغال . ولقد قال الحق ، ومن وقف عليه عرف حقيقة هذا الكتاب ، ومتى يسع الإنسان الوقت حتى يضع مثله ، وهذا الذى ظهر هو الذى اختاره ، وما صح له هذا إلا بعد مسودات ما يكاد ينضبط حصرها[٢] .

وقال ابن كثير : وله «أطراف السنن الأربعة»[٣] و «الشيوخ النُبل» ، و «تبيين كذب المفترى على أبى الحسن الأشعرى» . وقال ابن الجوزى[٤] : وكان شديد التعصب لأبى الحسن الأشعرى ، حتى صنف كتابًا سماه : «تهذيب المفترى على أبى الحسن الأشعرى» .

وفى المرآة[٥] : وكان ولده أبو محمد القاسم يقول : سمع أبى من ألف شيخ وثلثمائة شيخ وبضع وثمانين امرأة ، وسمع منه الحافظ أبو العلاء الهمدانى ، وهو أكبر منه ، وذكر ابنه القاسم أنه صنف ستين كتابًا ، وكانوا يفضلونه على الخطيب ، ولأجله بنى نور الدين دار الحديث بدمشق ، وعاش ابنه القاسم إلى سنة ستمائة ، وتوفى بها[٦] . وقال السبط[٧] : توفى الحافظ ابن عساكر ليلة الاثنين حادى عشر رجب من هذه السنة ، وقد بلغ من العمر اثنين وسبعين سنة وستة أشهر وعشرة أيام ، وصُلى عليه بجامع دمشق وميدان «الحصا»[٨] صلى عليه القطب النيسابورى ، وحضر السلطان صلاح الدين صلوٰته .[٩]

---

(١) انظر : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٣١٠ـ ٣١١ .
(٢) إلى هنا توقف العينى عن النقل من ابن خلكان .
(٣) كذا فى الأصل ، وفى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٤ ، «أطراف الكتب الستة» .
(٤) انظر : المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٢٤ـ ٢٢٥ .
(٥) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢١٣ـ ٢١٤ .
(٦) أبو محمد القاسم الملقب بهاء الدين ابن الحافظ توفى سنة ٦٠٠هـ/١٢٠٤م بدمشق . انظر : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٣١١ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٣٤٧ .
(٧) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢١٣ .
(٨) ميدان الحصا : ميدان قبلى دمشق . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥٩٥ .
(٩) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢١٣ .

وقال ابن خلكان(١) : ودفن عند والده وأهله بمقابر باب الصغير(٢) ، وتوفى ولده القاسم الملقب بهاء الدين فى التاسع من صفر سنة ستمائة بدمشق ، ودفن من يومه خارج باب النصر ، ومولده بها ليلة النصف من جمادى الآخرة سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، وكان أيضًا حافظًا .

(١) وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٣١١ .
(٢) باب قبلى دمشق . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥٩٥ .

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الثانية والسبعين بعد الخمسمائة★

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضيء بأمر الله ، والسلطان صلاح الدين صاحب مصر والشام محاصر حلب ، وقد ضجر الناس من طول الحصار ، فترددت الرسل بينهم ، وتقررت القاعدة بين صلاح الدين والملك الصالح بن نور الدين وسيف الدين غازى صاحب الموصل وصاحب حصن كيفا وصاحب ماردين ، وتحالفوا أن يكونوا كلهم عونًا على الناكث الغادر .

وقال ابن كثير(١) : وكان صلاح الدين قد أشرف على أخذ حلب[٢٠٥و] فسألوه الصلح ، فصالحهم على أن تكون حلب [وأعمالها](٢) للملك الصالح بن نور الدين فقط ، وكتب بذلك الكتاب . فلما كان المساء بعث الملك الصالح إلى صلاح الدين يسأل منه زيادة قلعة عَزاز ، وأرسل بأخت له صغيرة وهى الخاتون(٣) بنت نور الدين ؛ ليكون ذلك أدعى إلى قبول السلطان سؤاله ، فحين رآها صلاح الدين قام قائمًا ، وقبل الأرض ، وأجابها إلى سؤالها ، وأطلق لها من الجواهر والتحف شيئًا كثيرًا .

ذكر رحيل صلاح الدين من حلب

ولما تعاقدوا على ما ذكرنا ؛ رحل صلاح الدين عن حلب يوم الجمعة لعشر بقين من المحرم ، وقصد بلد الإسمعيلية الذين اعتدوا عليه ، فحاصر حصنهم مِصياث(٤) ، فَقَتَلَ وخرَّب وسبى حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش صاحب حماة ؛ لأنهم جيرانه ، فقبل شفاعته ، وقد أحضر إليه نائب بعلبك الأمير شمس الدين محمد ابن عبد الملك بن [المقدم](٥) ـ الذى كان نائب دمشق ـ جماعة من أسارى الإفرنج

★ يوافق أولها ١٠ يوليو ١١٧٦م .

(١) نقل العينى هذا النص بتصرف من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٥ .

(٢) «وعملها» فى نسختى المخطوطة أ ، ب والمثبت من ابن كثير حيث ينقل عنه العينى ، انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٥ .

(٣) الخاتون : هى السيدة عريقة الأصل ، وجمعها «خاتونات» . انظر : محمد التونجى ، المعجم الذهبى ، ج١ ، ص٢٣٠ ، بيروت ١٩٨٠ م .

(٤) مصيات : ذكرها ياقوت مصياب . وأنها حصن حصين مشهور للإسماعيلية بالساحل الشامى قرب طرابلس ـ ويقال لها مصياف . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٥٥٦ ؛ انظر أيضًا : تقويم البلدان ، ص٢٢٩- ٢٣٠ .

(٥) «مقدم» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الكامل ، ج١٠ ، ص٨١ . انظر أيضًا : الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٦٦٩ ؛ سنا البرق الشامى ، ص١٠٦-١٠٧ .

الذين عاثوا بالبقاع فى غيبة السلطان ، واشتغاله بحصار مصيات ، فجدد له العزم على غزو الإفرنج ، فصالح الإسمعيلية أصحاب سنان ، ثم كر راجعًا إلى دمشق .

وفى تاريخ الدولتين[١] : وكان الأسرى أكثر من مائتى أسير . وقال ابن أبى طى :وكان أكبر الدواعى فى مصالحةصلاح الدين لسنان مقدم الإسمعيلية وخروجه من بلادهم ، خوفه من الفرنج أن يهيجوا فى الشام الأعلى ، وهو بعيد عنه ، فربما ظفروا من البلاد بطائل ، فصالح سنانًا ، وعاد إلى دمشق .

قال العماد : وكان خرج شمس الدولة أخو السلطان من دمشق حين سمع أن الإفرنج على الخروج ، وباسطهم عند عين الجَرّ[٢] ، فى تلك المروج ، ووقع من أصحابه عدة فى الإسار ، منهم سيف الدين أبو بكر[بن][٣] السلار . ووصل السلطان إلى حماة ، واجتمع فيها بأخيه شمس الدولة ثانى صفر ، وهو أول لقائه بعدما أزمع عنه إلى اليمن السفر ، وتعانق الأخوان فى المخيم بالميدان ، وكان قد وصل إلى السلطان من أخيه هذا عند مفارقته بلاد اليمن كتاب ضمنه أبياتًا من شعر ابن المنجم المصرى ، أولها :

الشـوقُ أولعُ بالقلوبِ و أوْجَعُ ... فعلامَ أدفعُ منه ما لا يُدفعُ

وحَملتُ من وجْدِ الأحبّةِ مُفردًا ... ما ليسَ تحملُهُ الأحِبّةُ أجمعُ

لا يَستقرُّ بى النَّوى فى موضعٍ ... إلا تَقَاضانِى التَّرحُّلُ[٤] موضعُ

فإلى صلاحِ الدينِ أشكو أننى ... مِن بُعده مُضْنَى الجوانح مُوجَعُ

وقد ذكرنا بقية الأبيات عن قريب .

قال العماد : فسألنى السلطان أن أكتب فى جوابها على رَوِيّها ووزنها ، فقلت . فذكر قصيدة منها :

---

(١) الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٦٩ .

(٢) عين الجَرّ : موضع معروف بالبقاع بين بعلبك ودمشق . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٧٦٠ .

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من الروضتين الذى ينقل عنه العينى ، ج١ ق٢ ، ص٦٧٠ .

(٤) «الترجل» كذا فى نسخة ب .

مَولاىَ شمسُ الدولةِ الملكُ الذى ... شمسُ السيادةِ من سناهُ تَطْلُعُ
مالى سواكَ من الحوادثِ ملجأٌ ... مالى سواكَ من النَّوائبِ مفْزعُ
وَ لأنْتَ فخرُ الدينِ فخْرِى فى العُلا ... وملاذُ آمالى ، ورُكنى الأمنَعُ
إلا بِخدمتك المجلة موقعى ... والله ما للملكِ عندى موقعُ/ [٢٠٥ظ]
وبغيرِ قُربك كُلُّ ما أرجوهُ من ... دَرْكِ المُنَى متعذّر متمنّعُ
النصر[١] إن أقبلتَ نحوى مُقْبلٌ ... واليُمْنُ إن أسرعتَ نحوى مسرعُ

قال : ثم سرنا إلى دمشق ، ووصلنا إليها سابع عشر صفر ، وفَوّض ملك دمشق إلى أخيه الملك المعظم شمس الدولة ، وعزم إلى مصر السفر[٢] فى صفر .

منها وقف صلاح الدين قرية حزمُ باللوى من حوران على الزاوية الغزالية[٣] ، ومن يشتغل بها من العلوم الشرعية وما يحتاج إليه الفقيه ، وجعل النظر لقطب الدين النيسابورى مدرسها .

وفى هذا الشهر تزوج صلاح الدين بالست خاتون[٤] عصمة الدين بنت معين الدين أُنَر ، وكانت زوجة الملك نور الدين الشهيد (رحمه الله) فأقامت بعده فى القلعة محترمة مكرمة ، وولى تزويجها منه أخوها الأمير سعد الدين مسعود بن أنر ، وحضر القاضى ابن أبى عصرون العقد ومعه جماعة من العُدول ، وبات السلطان عندها تلك الليلة والليلة التى بعدها ، ثم سافر إلى مصر بعد يومين من الدخول بها[٥] .

(١) «للنصر» فى الروضتين ، ج١ ق٢ ص٦٧١ .
(٢) إلى هنا توقف العينى عن النقل من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٧٠ .
(٣) الزاوية الغزالية : بالجامع الأموى بدمشق . كرد على ، خطط الشام ، ج٦ ، ص١٤٣ .
(٤) خاتون عصمة الدين بنت معين الدين أُنَر : كانت من أحسن النساء وأعفهن وأكبرهن صدقة ولها أوقاف كثيرة ـ توفيت سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م . انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ص٣١٧ـ ٣١٨ ؛ الشذرات ، ج٤ ص٢٧٢ .
(٥) الروضتين ج١ ق٢ ، ص٦٧٥-٦٧٦ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ص٢١٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ص٢٩٥ .

ذكر توجه صلاح الدين من دمشق إلى مصر

خرج من دمشق يوم الجمعة الرابع من ربيع الأول ، ونزل بمرج الصُّفَّر ، ثم رحل عنه قبل العصر إلى قريب الصنمين[١] . قال العماد : وخرجت معه وقلبى مروع[٢] إلى أهلى ، فما نزلت منزلاً «إلا نظمت أبياتًا[٣]» فقلت يوم المسير وقد عبرت بالخيارة[٤] :

أقُولُ لركبٍ بالخِيارةِ نُزّلُ ... أشيروا ؛ فمالى فى المقامِ خيارُ
هُمُ[٥] رحلوا عنك الغداةَ وما دَرَوْا ... بأنهمُ قد خَلّفوك وساروا
حَليفَ اشتياقٍ [لا ترى من تحبُّه][٦] ... وفى القلبِ مِنْ نار الغرامِ أُوارُ
أَجِيروا من البَلْوى فؤادِى فعندكُم ... ذِمَامٌ له يا سادتى وجِوارُ

وقلت وقد نزلنا بالفُقَيع[٧] :

رَأَيتُنى بالفَقيعِ منفردًا أَضْـ ... ـيعُ من فقعِ قاعِها [الضائع][٨]
بعتُ بمصرَ دمشقَ عن غَررٍ ... مِنِّى فيا غبن صفقة البائع
صَبْرِىَ والقلبُ عاصيان ، وما ... غيرَ همومى وأَدْمُعِى طائِعى

وقلت بالفُوّار[٩] :

تحدّرَ بالفوّارِ دمْعى على الفَوْرِ ... فقُلتُ لجيرانى أجيروا [مِنَ الْجَوْرِ][١٠]
وأصعبُ ما لاقيتُ أنّى قانعٌ ... من الطيفِ مُذْ بنْتُم بزورٍ من الزورِ

---

(١) الصنمان : قرية من أعمال دمشق فى أوائل حَوْران بينها وبين دمشق مرحلتان . معجم البلدان . ج٣ ص٤٢٩ .
(٢) «يروع» فى نسخة ب .
(٣) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٤) الخِيَارَةُ : قرية قرب طبرية من جهة عكا قرب حطين بها قبر شُعيب النبى ﷺ . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥٠٣ .
(٥) «هموا» فى نسخة ب وهو خطأ . والمثبت من نسخة أ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٧٩ .
(٦) «لايرى من يحبه» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ٦٧٩ .
(٧) يتضح من الشعر أن الفقيع مكان صحراء يقع فى شرق الأردن . انظر : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص٧ .
(٨) «الصنائع» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٧٩ .
(٩) الفُوّار : اسم ماء . انظر : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص٧ ، حاشية (٣) .
(١٠) «لمن يجور» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت هو الصحيح من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٠ .

وقلت بالزرقاء[١] :

وَلَمْ أنسَ بالزرقـاءِ يومَ وَداعِنا	أنامل تدْمى حيـرةً للتّندُّمِ
أعـدْتُك يا زرقـاءَ حـمراءَ ، إنني	بكيتُك حتى شِيبَ ماؤكَ بالدَّمِ
تأخَّرَ قلبي عندهُم مُتـخلِّفًا	وخالفْتُهم فى عَزْمتى والتقدُّمِ
فيا ليتَ شِعرِى هل أعود إليهمُ	وهل ليت شِعرِى نافعٌ لِلمُتيَّمِ

قال : وقلت وقد عبرنا على مسالك قريبة من قلعة الشوبك ، وفيها تخطف الإفرنجُ القاصدين إلى مصر :

طريقُ مصرَ ضيّقُ المسْلكِ	سالكُهُ لاشكَّ فى مَهلكِ/ [٢٠٦و]
وحُبُّ مصر صارَ[جُبًّا][٢] لمنْ	أوقَعَهُ فى شبكِ «الشوبك»
لكِنّما مِنْ دونها كعبةٌ	محجوجةٌ مبرُورةُ المنسكِ
بها صلاحُ الدينِ يُشكى الذى	إليه من أيامهِ يشْتكِي

قال ونظمت فى طريق مصر قصيدة مشتملة على ذكر المنازل وهى :

هجرتُكمُ لا عَنْ مَلالٍ ولا [غدْرِ][٣]	ولكن لِمَقْدُورٍ أُتيحَ منَ الأمرِ
وأَعلمُ أنِّى مخطىءٌ فى فِراقِكُم	وعُذْرِىَ فى ذنْبى ، وذَنبِىَ فى عُذرِى
أرى نُوَبًا للدهرِ تُحْصَى ولا أَرى	أَشدَّ من الهِجْرانِ فى نُوبِ الدهرِ

إلى أن قال :

أسيرُ إلى مصر وقلبِى أسيرُكُم	ومِنْ عَجَبٍ أسْرِى وقَلبِىَ فى أَسْرِ

وهى قصيدة طويلة[٤] .

---

(١) الزرقاء : يقصد بها نهر الزرقاء الواقع شرق الأردن وهو على درب حجاج الشام . انظر : تقويم البلدان ، ص٢٤٧ ؛ الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص٧ .
(٢) «حبا» فى نسختي المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٠ .
(٣) «عُذر» فى نسختي المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص٦ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٠ .
(٤) انظر القصيدة كاملة فى الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص٦ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٠-٦٨١ .

ذكر دخول صلاح الدين القاهرة

دخل السلطان صلاح الدين القاهرة يوم السبت السادس عشر من ربيع الأول ، وتلقاه أخوه الملك العادل سيف الدين(١) إلى عند بحر القلزم ، ومعه من الهدايا والتحف شيء كثير ، ولا سيما من المآكل المتنوعة(٢) . قال العماد : وتوفرنا على الاجتماع فى المغانى لاستماع(٣) الأغانى ، والتنزه فى الجزيرة والجيزة ، والأماكن العزيزة ، ومنازل العز والروضة ، ودار الملك والنيل والمقياس ، ومرامى(٤) السفن ومجارى الفلك(٥) والقصور بالقرافة(٦) ، وربوع الضيافة ، ورواية الأحاديث النبوية ، والمباحثة فى المسائل الفقهية ، والمعانى الأدبية .

قال : واقترحنا على القاضى ضياء الدين بن الشهرزورى أن يفرجنا فى الأهرام ، فقد كنا شغُفنا بأخبارها فى الشام ، فخرج بنا إليها ، ودُرْنا تلك البرابى والبرارى ، والرمال والصحارى ، وهَالَنا أبو الهول ، وضاق فى وصفه مجال القول ، وتداولنا الحديث فى الهرم ومَنْ بناه ، فكلٌ يأتى فى وصفها بما نقله(٧) ، لا بما عقله ، واجتهدوا فى الصعود إليه فلم يُوجد من توَقَّله(٨) ، وحارت العقول فى عقوده ، وطارت الأفكار عن توهُّم حدوده ؛ فيالَهُ مِنْ مولود للدهر قبل الطوفان ، انقرضت القرون الخالية على آبائه وجدوده ، وسمّار الأخبار تذكر حديث أحداث عَادِه(٩) وثَمُودِه ، ويدُل إحكامُه وعلوّه على علو همة بانيه فى بأسه وجوده . وإن فى الأرض الهرمين كما [أنّ](١٠) فى السماء الفرقدين .

---

(١) لمعرفة المزيد انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ؛ ص٧٤-٧٩ .
(٢) إلى هنا توقف العينى عن النقل من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٦ .
(٣) «لسماع» فى نسخة ب .
(٤) كذا فى نسختى أ ، ب . أما فى الروضتين «مراسى» . والمرمى هو مقصد السفينة . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، مادة «رمى» ، ج١٩ ، ص٢٥ .
(٥) «الملك» فى نسخة ب وهو خطأ فى النسخ .
(٦) «فى القرافة» فى نسخة ب .
(٧) «إلا» فى نسخة ب ، وهو خطأ .
(٨) «وَقَلَ» أى صعد الجبل انظر : الفيروزآبادى : القاموس المحيط ، ج٤ ، ص٦٦ .
(٩) يقصد هنا قوم عاد وثمود .
(١٠) ما بين الحاصرتين إضافة من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٥ ، حيث ينقل عنه العينى قول العماد بتصرف .

ثم ذكر العماد جماعة ممن كان يقيم الضيافة له ولمثله من الفضلاء الأعيان ؛ فذكر منهم الناصح مؤدب أولاد السلطان ، وله دار مشرفة على النيل ، وذكر منهم اللّسان الصوفى البلخى ، وكانت له صحبة قديمة بنجم الدين أيوب والد السلطان ، وله دار أيضًا على شاطىء النيل برسم[ضيافة](١) من نزل به .

ذكر ما صدر من صلاح الدين بعد دخوله القاهرة

من ذلك أنه أمر ببيع الكتب فى القصر كل أسبوع يومان ، وهى تباع بأرخص الأثمان ، وكانت كتبًا كثيرة جدًا ، قالوا : إنها كانت أكثر من مائة ألف مجلد .

وكان فيها من الكتب الكبار ، وتواريخ الأمصار ، ما يشتمل كل كتاب على خمسين أو ستين مجلدًا(٢) ، وكانت خزائن مملوءة بها فى القصر ، [٢٠٦ظ] وكان الحاكم على القصر ومتولى أموره الأمير بهاء الدين قراقوش . ولما حضرت الناس للشراء كان الدلالون يخرجون عشرة عشرة من كل فنّ كتبًا[مبترة](٣) وتُباع بالهُون ، وتُسام بالدون ، وربما كان دلال يشارك مع واحد فَتُقَوَّمُ عليه بعشرة ، ثم بعد ذلك يبيعونه بمائة .

قال العماد : لما رأيت الأمر حضرت[القصر](٤) ، واشتريت كما اشتروا ، واستكثرت من ذلك . ولما عرف السلطان بذلك ، وكان(٥) بِمئين(٦) ، أنعم بها علىَّ ، وأَبْرأَ ذمتى من ثمنها ؛ ثم وهبِ لى أيضًا من خزانة القصر ما عيّنتُ عليه من كتبها .

ودخلت عليه يومًا وبين يديه مجلدات كثيرة ، انتُقِيَتْ له من القصر ، وهو ينظر فى بعضها ، وقال : كنتَ طلبت كُتُبا عَيَّنْتها ، فهل فى هذه منها شىء؟ فقلت : كُلّها ، وما استغنى عنها ، فأخرجتها من عنده بحمّال ، وكان هذا بالنسبة إلى جوده أقلَّ نوال .

ومن ذلك أنه أمر ببناء سور على مصر والقاهرة ، ودَوْر السور تسعة وعشرون ألفًا وثلثمائة ذراع بالهاشمى(٧) .

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة لازمة للسياق من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٦ .

(٢) لمزيد من التفاصيل عن تلك الكتب ، انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٦- ٦٨٧ .

(٣) «مميزة» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٦ ؛ سنا البرق الشامى ، ص١١٦ وهو الأصح . ومبترة أى هالكة أو متفرقة .

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة لازمة للإيضاح من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٧ .

(٥) «كان» مكررة فى نسخة ب .

(٦) مئين : المقصود بها ما بين الثلاثة إلى العشرة . انظر : لسان العرب مادة «مائة» فصل الميم حرف الواو والياء .

(٧) الذراع الهاشمى : هو قياس خاص بالأراضى والأقمشة وهو أكبر من الذراع الزيادى الذى طوله ذراع وثلث بذراع اليد ، وقد وجد فى عصر الدولة العباسية . انظر : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٤٦- ٤٤٧ .

وفى تاريخ الدولتين[١] : ولما تملك السلطان مصر رأى أن مصر والقاهرة لكل [واحدة][٢] منهما سور لا يمنعها ، وقال :[إن][٣] أفردت كلّ [واحدة][٤] بسور [احتاجت][٥] إلى جند مفرد يحميها ، وإنى أرى أن أدير عليهما سورًا واحدًا من الشاطىء إلى الشاطىء .

وأمر ببناء قلعة فى الوسط عند مسجد سعد الدولة[٦] على جبل المقطم ، فابتدأ من ظاهر القاهرة ببرج فى المقسم[٧] ، وانتهى به إلى أعلى مصر ببروج وصلها بالبرج الأعظم . قال العماد : ومبلغ السور وهو دائر البلدين مصر والقاهرة بما فيه من ساحل البحر والقلعة بالجبل ، تسعة وعشرون ألفًا وثلثمائة[ذراع][٨] ، وذراعان ؛ من ذلك ما بين قلعة المقسم على شاطىء النيل والبرج بالكوم الأحمر[٩] بساحل مصر عشرة آلاف وخمسمائة ذراع ، ومن القلعة بالمقسم إلى حائط القلعة بالجبل بمسجد سعد الدولة ثمانية آلاف وثلثمائة واثنان وتسعون ذراعًا ، ومن جانب حائط القلعة من جهة مسجد سعد الدولة إلى البرج بالكوم الأحمر سبعة آلاف ومائتا ذراع ، ودائر القلعة بجبل مسجد سعد الدولة ثلاثة آلاف ومائتان وعشرة أذرع . وذلك طول قوسه فى أبدانه ، وأبراجه[١٠] من النيل إلى النيل ، على التحقيق والتعديل ، وذلك بالذراع الهاشمى ، بتولى الأمير[بهاء الدين][١١] قراقوش الأسدى .

---

(١) انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٧ .

(٢) «واحد» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٧ .

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٧ ، حيث ينقل عنه العينى .

(٤) «واحد» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ج١ ق٢ ، ص٦٨٧ .

(٥) «احتاج» فى نسختى المخطوطة أ ، ب والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٧ .

(٦) مسجد سعد الدولة ، لمعرفة المزيد عنه انظر : الخطط ، ج٢ ، ص٢٠٢ ، طبعة بولاق .

(٧) يقصد بذلك برج المقس . وقد ذكر المقريزى أن قلعة المقس كانت برجًا مطلاً على النيل فى شرقى جامع المقس . انظر ، الخطط ، ج١ ، ص٣٧٩ـ ٣٨٠ .

(٨) ما بين الحاصرتين إضافة من مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٥٢ .

(٩) الكوم الأحمر : يقع فى بر الخليج الغربى ، وكان النيل يصل إلى هذا الكوم . وهو تجاه خط بين الزقاقين ، وهو عند المنطقة المسماة فم الخليج قريبًا من نهاية شارع قصر العينى حاليًا ، أى قريبًا من مجرى العيون . انظر : الخطط ، ج٢ ، ص١٤٦ .

(١٠) «أبراجه وأبدانه» فى نسخة ب .

(١١)«شهاب الدين» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . وهو خطأ . والمثبت بين الحاصرتين من مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٥٣ ؛ وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٩١ـ ٩٢ ؛ النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص١٧٦ ؛ السلوك ، ج١ ق١ ، ص١٥٨ .

وبنى القلعة على الجبل ، وقطع الخندق ، وحفر واديه . وهناك مساجد يعرف أحدها بمسجد سعد الدولة ، فاشتملت القلعة عليها ودخلت فى الجملة . وحفر فى رأس الجبل بئرًا(١) ينزل فيها بالدّرج المنحوتة من الجبل إلى الماء المعين .

وتوفى السلطان وقد بقى من السّور مواضع ، والعمارة [فيه](٢) مستمرة ، ووظائف نفقاتها مستدرّة .

ومن ذلك أن السلطان (رحمه الله) أمر ببناء المدرسة بالتربة المقدسة الشافعية(٣) ، ورتب قواعدها ، وتولاها الفقيه الزاهد نجم الدين الخبوشانى(٤) ، وأمر أيضًا باتخاذ دارٍ فى القصر بيمارستانا للمرضى ، ووقف على المدرسة والبيمارستان وقوفًا كثيرة .

ذكر خروج صلاح الدين [٢٠٧ و] إلى الإسكندرية

ثم إن السلطان صلاح الدين خرج من القاهرة يوم الأربعاء الثانى والعشرين من شعبان ، واستصحب معه ولديه الأفضل عليًا والعزيز عثمان ، وجعل طريقه على دمياط ، فأقام بظاهرها يومين ، ثم وصل إلى ثغر الإسكندرية .

قال العماد(٥) : وترددنا مع السلطان إلى الشيخ الحافظ أبى طاهر أحمد بن محمد السِّلَفى(٦) ، وسمعنا عليه ثلاثة أيام ، الخميس والجمعة ، والسبت ، رابع شهر رمضان . قال : وشاهدنا ما استجده السلطان من السور الدائر ، وما انصرفنا حتى أمر بإتمام الثغور وتعمير الأسطول .

---

(١) هذه البئر من العجائب ، حفرها قراقوش ، تدور البقر من أعلاها ، فتنقل الماء من نقالة فى وسطها ، وتدور أبقار فى وسطها تنقل الماء من أسفلها . وجميعها حجر منحوت . ويُنزل إلى هذه البئر بدرج نحو ثلثمائة درجة . انظر : الخطط ، ج٢ ، ص٢٠٤ .

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة لازمة للإيضاح من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٨ .

(٣) هذه المدرسة بجوار قبة الإمام الشافعى بقرافة مصر . انظر : الخطط ، ج٢ ، ص٤٠٠-٤٠١ ، ص٤٤٤ .

(٤) نجم الدين الخبوشانى : هو أبو البركات محمد بن الموفق بن سعيد بن عبد الله ؛ شافعى المذهب ، قدم مصر للمرة الأولى سنة ٥٦٥هـ /١١٧٠م من خبوشان بناحية نيسابور . وتوفى سنة٥٨٧هـ/١١٩١م . انظر : طبقات الشافعية ، ج٤ ، ص١٩٠ ؛ وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٣٧٤ ؛ الروضتين ، ج٢ ، ص١٩٥ [ط . وادى النيل ، ١٢٨٧هـ] ؛ معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٠٠ .

(٥) انظر قول العماد فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٩ .

(٦) الحافظ أبى طاهر أحمد بن محمد السِّلفى الأصبهانى ، دخل ثغر الإسكندرية سنة ٥١١هـ/١١١٧م وأقام بها ، وقصده الناس من الأماكن البعيدة ولد سنة ٤٧٢هـ/١٠٨٠م بأصبهان ، وتوفى سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م بالإسكندرية . ونسبه سِلَفى إلى جده إبراهيم .وسِلَفَة بكسر السين المهملة وفتح اللام والفاء وفى آخره الهاء ، وهو لفظ أعجمى معناه بالعربى ثلاث شفاه ؛ لأن شفته الواحدة كانت مشقوقة فصارت مثل شفتين غير الأخرى الأصلية . انظر : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٠٥ - ١٠٧ .

وقال ابن أبى طى[١] : ولما نوى السلطان المقام بالإسكندرية ؛ ليصوم فيها ، رأى أنه لا يُخلى نفسه من ثوابٍ يقوم له مقام القَصْد إلى بلاد الكفار والجهاد فى المشركين ، فرأى الأسطول وقد أخْلقت[٢] سُفُنه ، وتغيّرت آلاته ، فأمر بتعمير الأسطول ، وجَمع له من الأخشاب والصُّناع أشياء كثيرة . ولما تم عملُ المراكب أمر بحمل الآلات ، فنقل من السِّلاح والعُدد ما يحتاج الأسطول إليه ، وشحنه بالرِّجال ، وولّى فيه أحد أصحابه ، وأفرد له إقطاعًا مخصوصًا وديوانًا مُفْردًا ، وكتب إلى سائر البلاد المصرية بقبول قول صاحب الأسطول[٣] ، وأن لا يُمنع مِنْ أخذ رجاله وما يحتاج إليه ، وأمر صاحب الأسطول أن لا يبارح البحر ويغزى إلى جزائر البحر[٤] .

قال العماد : وقُلتُ فى معنى تنقلى فى البلاد :

يَومًا بجَىٍّ[٥] ، ويومًا فى دمشق ، وبالْـ ـفُسْطَاطِ يومًا ، ويومًا بالعراقَيْنِ
كأنَّ جِسمِى وقَلْبى الصَّبَّ ما خُلقَا إلا ليُقْتَسَمَا بالشَّوقِ والبَيْنِ

وقلت يوم الخروج من القاهرة :

يا باخِلاً عندَ الوَداعِ بوقفةٍ لَوْ سامَنِى رُوحِى بها لم أبْخَلِ
ما كان ضَرُّكَ لَوْ وقفتَ لِسائلٍ تركَ الفؤادَ بِدائِه فى المنزلِ
إنْ أَسرِ مُرْتَحِلاً [ففى][٦] أسْرِ الهوَى قلبى لديك ، مُقَيَّدٌ لم يَرْحَلِ
عَذُبَ العذابُ لدى فُؤادِى[٧] المُبَتلَى إذ كُنتَ أنت مُعذِّبى والمُبْتَلِى

---

(١) انظر قول ابن ابى طى فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٨٩- ٦٩٠ .
(٢) أخلق الشيء وخَلُق أو خَلِق ، أى بَلِىَ . انظر : أحمد بن فارس : مقاييس اللغة ، ج٢ ، ص٢١٤ ، ط . أولى ، القاهرة ١٣٦٦هـ .
(٣) «يقول القول قول صاحب الأسطول» كذا فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٩٠ .
(٤) ورد هذا النص بتصرف فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٢٩٦ .
(٥) جَىُّ بالفتح ثم التشديد ، اسم مدينة ناحية أصبهان القديمة ، وسميت عند العجم «شهرستان» . انظر ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٨١ .
(٦) «فى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت ين الحاصرتين من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٩٠ .
(٧) «فؤاد» فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٩٠ .

قال : ونزلنا بين مُنْية غمر[١] ومُنْية سمنود[٢] ، فقلتُ :

نَزلتُ بأرضِ المُنْيتَيْنِ ومُنْيَتى — لِقَاؤكمُ الشَّافِى ووصْلُكم المُجْدِى

سأبْلَى ولا تَبْلى سَرِيرةُ وُدِّكم — وَتؤنسُنِى إنْ مِتُّ فى وحشةِ اللَّحْدِ

قال : وعدنا من الإسكندرية فى شهر رمضان ، فصمنا بقية الشهر فى القاهرة .

قال : ومن مدائحى للسلطان ما أنشدتهُ إياه فى سادس شوال :

فَدَيتُكَ من ظالمٍ مُنْصفٍ — وناهيكَ من باخِلٍ [مُسْعِفِ][٣]

أيبلغ دَهْرِىَ قَصْدِى وقدْ — قَصدْتُ بمصر ذُرَى[٤] يوسفِ

ويوسفُ مصرَ بغيرِ التُّقَى — وبَذلِ الصنائِعِ لم يوصَفِ/ [٢٠٧ظ]

فَسِرْ وافْتَح القُدْسَ واسْفِكْ به — دماءً متى تُجْرِها ينظف

وخلِّص من الكُفْرِ تلك البلادَ — يخلِّصْك اللهُ فى المَوْقِفِ[٥]

ذكرُ مجىء الرسل إلى صلاح الدين

وفيها وصلت الرسل إلى السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وهم رسول سيف الدين صاحب الموصل ، ورسول صاحب حصن كيفا[٦] ، ورسُول صاحب ماردين ، فأولاً جاءوا إلى دمشق ، فاستوثقوا بتحليف أخى السلطان صلاح الدين ، وهو شمس الدولة تورانشاه بن أيوب ، ثم قصدوا مصر ، ووقع رسول صاحب الحصن فى الأسر .

---

(١) منية غمر : من القرى القديمة . وهى الآن ميت غمر ، من أعمال الشرقية . انظر : القاموس الجغرافى ، ج١ ق٢ ، ص٢٦٣ . وحاليًا تتبع الدقهلية .

(٢) منية سمنود : من القرى القديمة . من أعمال الدقهلية . انظر : القاموس الجغرافى ، ج١ ق٢ ، ص١٧٦ .

(٣) « مسرف» فى نسختى المخطوطة أ ، ب ؛ والروضتين ، ج١ق٢ ، ص٦٩١ . والمثبت بين الحاصرتين من الخريدة . قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص١٥ .

(٤) ذرى : بمعنى ظله ونعمته . انظر : الخريدة ،ج١ ، قسم شعراء مصر ، ص١٧ ، حاشية ٢ .

(٥) وردت هذه الأبيات فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٩١ .

(٦) حصن كيفا : هو قلعة عظيمة تشرف على نهر دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٧٧ .

وقال ابن أبى طى(١) : وصل رسول صاحب الموصل(٢) القاضى عماد الدين بن كمال الدين الشهرزورى بهدية وقود ، فخرج الموكب إلى لقائه ، وأكرمه السلطان واحترمه . وقدم بعده رسول نور الدين[محمد بن](٣) قرا أرسلان ، ورسول صاحب ماردين(٤) بهدايا ، واجتمعوا فى دمشق ، وخرجوا إلى السلطان بمصر ، فاعترضهم الفرنج ، فأسر رسول صاحب الحصن ، ولم يزل فى الأسر حتى فتح السلطان بيت الأحزان(٥) ، فأطلقه وأحسن إليه .

ذكر خروج صلاح الدين إلى مرج فاقوس(٦) من أعمال مصر

قال العماد(٧) : ثم خرج السلطان إلى مرج فاقوس من أعمال مصر الشرقية ؛ لإرهاب العدو وهو يركب للصيد والقنص ، ويتطلع إلى أخبار الفرنج لانتهاز الفرص . واقترح علىَّ أن أمدح عز الدين فرخشاه(٨) بقصيدة موسُومة ، ألزم فيها الشين قبل الهاء ، فعملت ذلك قبل(٩) ذى الحجة ، «فقلت»(١٠) :

---

(١) انظر قول ابن أبى طيّ فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٩١-٦٩٢ .

(٢) صاحب الموصل هو سيف الدين غازى الثانى بن مودود . حكم بين سنتى ٥٦٤- ٥٧٢ هـ/ ١١٦٨-١١٧٦م . انظر : زامباور : معجم الأنساب ، ج٢ ، ص٣٤١ .

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة للتوضيح من الباهر ، ص١٥٢ ، وقد حكم محمد بن قرا أرسلان بين سنتى ٥٦٢-٥٨١هـ/١١٦٧-١١٨٥م . انظر : زامباور : معجم الأنساب ، ج٢ ، ص٣٤٤ .

(٤) هو نجم الدين ألبى بن تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق - حكم من سنة ٥٤٨ - ٥٧٥هـ/١١٥٣-١١٧٩م . انظر : التاريخ الباهر ، ص١٠٦ ، ١٢٣ ؛ زامباور : معجم الأنساب ، ج٢ ، ص٣٤٥ .

(٥) بيت الأحزان : بلد بين دمشق والساحل . وذكر ياقوت أنه سمى بذلك لأنهم زعموا أنه كان مسكن يعقوب عليه السلام أيام فراقه ليوسف عليه السلام . وكان الإفرنج عمروه وبنوا به حصنًا حصينًا . وفى سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م . فتحه صلاح الدين يوسف بن أيوب وأخربه . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٧٧٥ .

(٦) فاقوس : من المدن القديمة بمحافظة الشرقية فى مصر . انظر القاموس الجغرافى ، ق٢ ج١ ، ص١١٦-١١٧ ؛ معجم البلدان ، ج٣ ، ص٨٤٥-٨٤٦ .

(٧) انظر قول العماد فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٩٢ .

(٨) عز الدين فرخشاه ، هو ابن شاهنشاه بن أيوب وهو أخو تقى الدين عمر صاحب حماة ، وفرخشاه صاحب بعلبك هو والد الملك الأمجد بهرام شاه ، وفى الوقت نفسه هو ابن أخ السلطان صلاح الدين ، حكم من سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م . وتوفى سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م . انظر : وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٦٧ ؛ معجم الأنساب ، ج١ ، ص١٥٢-١٥٣ . انظر أيضًا : العماد : الخريدة ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص٥٤ حاشية ٣ .

(٩) «أواخر ذى الحجة» فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٩٢ .

(١٠) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

مَـولاى عِـزّ الدينِ فـرّخْـشَـه		الدّهر[مَنْ][(١)] يَرْجُك لا يخشَهْ
تَلقـاه سَـمْحَ الكفِّ ، دفَّـاقَـهـا		طَلْقَ المـحـيَّـا كـرمًـا ، بَشَّـه
إنْ شِـئتَ فَـوتًا بالرَّدَى فـالْقَـهْ		أو شئتَ[فوزًا][(٢)] بالعُلا فاغْشَه
يُديم بالأيدِى و بالأيد[(٣)] فى		[خـزى لهـاه والعِـدا بطشَـه][(٤)]
كـم ملكٍ عـــادَاكُمُ لم يَبِتْ		إلا جَـعلتُم عـرشَـهُ نَعْـشَـه
خَوَّفْتُمُ الشركَ ، فلا «قَمْصَهُ»		أمَّنتُم يومًـــا ولا «فُنْشَـــه»
أوْرَثَك السُؤددَ يا ابن [العُـلا][(٥)]		والدّكَ السـيــدُ شـاهِنْشَـه

وقال فى الخريدة[(٦)] : [كنّا][(٧)] مخيمين على مرج فاقوس ، مصممين على الغزاة إلى غزة ، وقد وصلت أساطيل ثغرى دمياط والإسكندرية[بسبى][(٨)] الكُفّار ، وقد أوفت على ألف رأس ، عدّة من وصل فى قيد الأسار .

وسنذكر خروجه إلى[(٩)] الغزاة فى السنة الآتية إن شاء الله .

وفى هذه السنة أبطل صلاح الدين[المكس][(١٠)] الذى كان يؤخذ من الحج بجدة ، مما يحمل فى البحر ، وعَوَّضَ صاحب مكة عنها فى كل سنة ثمانية آلاف إردب قمحًا ، تُحمل إليه فى البحر ، ويحمل مثلها فتفرق فى أهل الحرمين .

(١) «متى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٩٢ حيث ينقل عن العماد .
(٢) «نورا» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٩٢ .
(٣) الأيدْ : القوة . انظر : القاموس المحيط «أود» .
(٤) «حَربى لهاه والعدى بطشه» فى نسخة أ ، «حربى لهام والعدا بطشه» فى نسخة ب . والمثبت من الروضتين نقلاً عن العماد . انظر : ج١ق٢ ، ص٦٩٢ .
(٥) «العلى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والتصحيح من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٩٢ .
(٦) انظر : الخريدة ، قسم شعراء الشام ، ج١ ، ص٤٩١ .
(٧) «كما» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الخريدة ، ج١ ، ص٤٩١ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٦٩١ .
(٨) «تسبى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الخريدة ، ج١ ، ص٤٩١ ؛ الروضتين ، ج١ق٢ ، ص٦٩١ حيث ينقل العينى عنهما .
(٩) «فى» فى نسخة ب .
(١٠) ما بين الحاصرتين إضافة لازمة من الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٩٣ .

ذكر بقية الحوادث

منها أن صاحب المرآة(١) ذكر أن فى هذه السنة كانت نوبة الكنز، مقدم السودان بالصعيد، جمع كل أسود بالصعيد، وسار إلى [٢٠٨و] القاهرة فى مائة ألف؛ ليعيد الدولة المصرية، فخرج إليه الملك العادل سيف الدين أبو بكر، وأبو الهيجاء(٢) الهكارى، وعز الدين موسك(٣)، والتقوا فقتل الكنز ومن معه، ويقال إنهم قتلوا منهم ثمانين ألفًا وعادوا إلى القاهرة.

ومنها ما ذكره ابن الجوزى(٤) فقال: كتب إلىَّ بعض الوعاظ أن امرأة تقول: كان رجل إذا رآنى فى الطريق مشى إلى جانبى ويتعرض لى(٥)، فقلت له: أنا لا أوافق إلا على الحلال، فتزوج بى عند الحاكم، وقضيت معه مديدة يأتينى كما يأتى الرجل المرأة، ثم عظمت بطنه، وقال لى: قد حبلت فاعملى لى دواء الإسقاط، فعملتُ له فولد، وقد حضرت المجلس أنا وهو فما حُكمنا؟ فقال الواعظ: هذا النكاح ما صح؛ لأنه بالولادة انكشف أنه امرأة، وتعجب الناس من حال هذا الخنثى الذى كان يأتى ويؤتَى.

ومنها ما ذكره أيضًا وقال: حدثنى طلحة بن مظفر العَلَثِى(٦) الفقيه أنه وُلد عندهم بالعَلَثِ(٧) فى رمضان مولود لستة أشهر، فخرجت له أربعة أضراس(٨).

قال: ووصل الخبر فى ذى القعدة بأن بلادًا كثيرة تزلزلت، وخسفت ببعضها، وذكر فيها الرَّى(٩) وقزوين(١٠).

---

(١) ذكر سبط ابن الجوزى فى مرآة الزمان، ج٨، ص٢١٤. نوبة الكنز فى أحداث سنة ٥٧٢هـ. وهو خطأ حيث أن هذه الحادثة سبق ذكرها فى جميع المصادر فى سنة ٥٧٠ هـ. وقد سبق لنا تحقيقها فى تلك السنة. انظر تفاصيل حادث الكنز فى الروضتين، ج١ ق٢، ص٦٠٠-٦٠٢، وانظر ما سبق من تحقيقنا ص١٩٤ وما بعدها.

(٢) أبو الهيجاء السمين، حسام الدين، كردى الأصل، وكان مقدمًا للأمراء. انظر: زبدة الحلب، ج٣، ص١٣٤.

(٣) عز الدين موسك: قريب السلطان صلاح الدين. وكان خيرًا يحفظ القرآن الكريم ويواظب على تلاوته. ويحب أهل العلم والصلاح. مات بدمشق سنة ٥٨٤ هـ/١١٨٨م. الخطط، ج٢، ص١٤٧.

(٤) انظر: المنتظم، ج١٨، ص٢٣١-٢٣٢.

(٥) «بى» كذا فى نسخة ب.

(٦) هو أبو محمد طلحة بن مظفر بن غانم الفقيه العلثى توفى سنة ٥٩٣هـ/١١٩٧م. انظر: معجم البلدان، ج٣، ص٧١١.

(٧) العلث: قرية على دجلة بين عكبرا وسامراء. معجم البلدان، ج٣، ص٧١١.

(٨) انظر: المنتظم، ج١٨، ص٢٣٠.

(٩) الرَّىُّ: مدينة مشهورة من أمهات البلاد وأعلام المدن كثيرة الفواكه والخيرات. وهى محط الحاج على طريق السابلة وقصبة بلاد الجبال. انظر: معجم البلدان، ج٢، ص٨٩٢.

(١٠) انظر: المنتظم، ج١٨، ص٢٣٠. وقزوين مدينة مشهورة بينها وبين الرى سبعة وعشرون فرسخًا. انظر: معجم البلدان، ج٤، ص٨٨.

ومنها ما ذكره أيضًا أن فى يوم الخميس حادى عشر صفر دخل رجل إلى جامع المنصور[١] ببغداد ليأكل خبزًا ، فمات فى مكانه ، ومات آخر فى باب البصرة ، وامرأة فى تلك الساعة ، ودخل رجل من السَّواد إلى مسجد العتابيين[٢] ، وترك جماعة على الباب ، فمات الرجل .

ومنها ما ذكره وقال : وفى ربيع الآخر أخرج المجذمون[٣] من بغداد ، ونفوا إلى تحت البلد .

ومنها ما ذكره فى المرآة[٤] : أنه خرج الفرنج إلى بقاع بعلبك ، وكان شمس الدين محمد بن عبد الملك المعروف بابن المقدم بها ، فخرج وكمن لهم فى الشعارى والغياض ، وأوقع بهم ، وقتل وأسر نحو مائتى رجل .

ومنها أن الروم قصدت بلاد قليج أرسلان بن مسعود فى جمع من الحشود ، فالتقاهم وكسرهم ، وقتل منهم جماعة ، وأسر أسرى كثيرين ، وبعث برؤوس القتلى وببعض الأسرى إلى الإمام المستضىء بأمر الله أمير المؤمنين ، وقال فى ذلك ابن التعاويذى[٥] الشاعر من قصيدة يمدح بها الخليفة ، ويذكر بلاء قليج أرسلان وإيقاعه الروم فى يوم الجمعة ، مطلعها :

خَجِلَتْ من عطائك الأنواءُ	وتَجَلّتْ بوجْهِكَ الظلْماءُ
ولقد سَرَّ آنفًا خَبرٌ	جاءَتْ على رقبةٍ به الأنباءُ
فهو فى الرومِ والكنائِس رُزءٌ	وهو فى الشامِ والعراقِ هناءُ

---

(١) جامع المنصور ببغداد : بناه الخليفة العباسى المنصور بالله أبو جعفر عبد الله بن محمد بن على بن عبدالله بن عباس ـ ثانى الخلفاء العباسيين . انظر تفاصيل هذا الجامع فى البغدادى : تاريخ بغداد ، ج١ ، ص١٠٧ـ١٠٨ ؛ ياقوت : معجم البلدان ، ج١ ، ص٦٨٣ .

(٢) «العباس» فى نسخة ب ، والمثبت من أ ، ومن المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٢٧ .

(٣) المخنثون» فى نسخة ب .

(٤) لم يرد هذا النص فى مرآة الزمان حوادث سنة ٥٧٢هـ و إنما ذكره ابن الأثير بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص٨١ـ٨٢ .

(٥) هو أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله الكاتب المعروف بابن التعاويذى ـ كان شاعر وقته . توفى سنة ٥٨٤هـ/١١٨٨م . والتعاويذى نسبة إلى كتبة التعاويذ وهى الحروز . وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٤٦٦ـ ٤٧٣ ؛ الشذرات ، ج٤ ، ص٢٨١ـ ٢٨٢ .

وقْعةٌ بالثغورِ أضحَى لكلبِ الرومِ فـيـهـا من الزئيـرِ عـواءُ
فـرماهُ على اللُّقانِ ابن مسعود بنحْسٍ غـداة جـدٌّ اللقـاءُ
زَفَّت النصـرَ حـينَ أوفتْ على أعْـوادِها فى بلادِك الخُطبـاءُ

ومنها أنه عصى شهاب الدين محمد بن نزار[1] صاحب شهرزور على سيف الدين غازى، وكان فى طاعته وتحت حكمه، وكان سبب ذلك أن مجاهد الدين قايماز كان متوليًا[2] مدينة إربل، وكان بينه وبين ابن نزار عداوة، فأرسل إليه وزير سيف الدين كتابًا [٢٠٨ظ]حسنًا؛ يأمره بالعود إلى الطاعة، والرجوع عن المخالفة والمعصية. فلما وصل الكتابُ إليه بادر إلى الحضور للخدمة السيفية بالموصل، فأوجب ما جرى من ابن نزار[3].

ومنها أن ابن ملكشاه بن محمود الذى كان بخوزستان[4] عند ابن شملة وصل إلى البندنيجين[5] فخربها ونهبها وسبى حريمها. ووصل عسكر الحلة من بغداد وواسط صحبة طاشتكين أمير الحاج[6] وقزاغلى، وساروا نحوه، فلما سمع بوصولهم فارق مكانه، وعاد ومعه من التركمان خلق كثير، فنهبهم عسكر بغداد، ورجعوا من غير أمرٍ لهم بالعَود، فأنكر عليهم ذلك، فرجعوا إلى مواقعهم، ووقعت بينهم وبين ابن أرسلان «شاه»[7] وقعة ثم افترقوا. ففارق المذكور ولاية العراق، وعاد عسكر بغداد إليها[8].
وفيها ....[9]

وفيها حج بالناس الأمير طاشتكين، وحج من الشام قايماز النجمى.

(١) «بوزان» كذا فى الباهر، ص١٧٨؛ «يزان» فى الكامل، ج١٠ ص٨٢.
(٢) «متولى» فى نسختى المخطوطة أ، ب.
(٣) انظر هذه الأحداث فى، الكامل، ج١٠، ص٨٢.
(٤) خوزستان، إحدى بلاد الفرس، ويقال لها الخوز وتعنى بلاد الخوزستان، وأرضها أشبه شىء بأرض العراق وهى قريبة من البصرة. انظر: معجم البلدان، ج٢، ص٤٩٤-٤٩٧.
(٥) هى بلدة مشهورة من طرف النهروان من ناحية الجبل من أعمال بغداد. انظر: معجم البلدان، ج١، ص ٧٤٥.
(٦) طاشتكين أمير الحاج العراقى ويلقب بمجير الدين؛ حج بالناس ستًا وعشرين سنة، وتوفى سنة ٦٠٢هـ/١٢٠٥هـ بالعراق. انظر: شذرات الذهب، ج٥، ص٨.
(٧) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب.
(٨) ورد هذا الحدث بتصرف فى، الكامل، ج١٠، ص٨٣-٨٤.
(٩) بياض فى نسختى المخطوطة أ، ب بمقدار سطر.

ذكر من توفى فيها من الأعيان

على بن العساكر بن المرحب بن العوام أبو الحسن البطائحى[١] **المقرىء اللغوى** ؛ سمع الحديث وأسمعه ، وكان حسن المعرفة بالنحو واللغة ، ووقف كتبه بمسجد ابن جَردة[٢] ببغداد ، وتوفى فى شعبان من هذه السنة ، وقد نيف على الثمانين[٣] .

محمد بن سعيد بن محمد أبو سعد بن الرزاز ؛ كان من المعدلين ، وسمع الحديث من ابن برهان[٤] وغيره ، وكان ينظر فى التركات ، ويقول شعرًا مطبوعًا ، كتب إليه بعض الناس مكاتبة تتضمن شعرًا ، فكتب فى جوابها :

يا مَنْ أياديه تُعْيى[٥] مَنْ يُعدِّدُها ... وليس يُحْصِى مدَاها مَنْ لها يَصِفُ
عجزتُ عن شُكْرِ ما أَوْلَيْتَ من كرم ... وصِرتُ عبدًا ولِى فى ذلكَ الشَّرفُ
أهديتَ مَنظُومَ شعرٍ كلُّهُ دُررٌ ... فكُلُّ ناظم عِقْدٍ دُونَه يقفُ
إذا أَتَيْتَ [بِبَيْتٍ][٦] مِنْهُ كان لنا ... قصرًا ودُرُّ المعالى فوقَهُ شَرفُ
وإنْ أتيتُ أنا بيتًا يناقِضُهُ ... أتيتُ لكِنْ ببيتٍ سَقفُهُ يَكِفُ
ما كنتُ[٧] منهُ ولا مِنْ أَهْلِهِ أبدًا ... وإنَّما حينَ أَدْنو مِنه أقتطِفُ

مسلم بن ثابت بن زيد بن القاسم بن أحمد أبو عبد الله بن جوالق[٨] ؛ الفقيه ، سمع الحديث ، وتفقه على أبى بكر الدِّينَورى ، وناظر ، وعلت سِنُّه ، وتوفى فى ذى القعدة منها ، ودفن بمقبرة أحمد ، رحمه الله[٩] .

---

(١) انظر ترجمته فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٣٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٦-٣١٧ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص٢٤٢ .
(٢) «جودة» فى نسخة ب ، «ابن جرارة» فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٦-٣١٧ .
(٣) المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٣٣ .
(٤) «برهان» فى نسخة ب .
(٥) «يعيا» فى ابن الجوزى ، المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٣٣ .
(٦) «بيتًا» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت هو الصحيح من المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٣٣ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص٨٠ .
(٧) «لا كنت» فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٣٣ .
(٨) انظر ترجمته فى المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٣٤ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٤٣-٢٤٤ .
(٩) يقصد بها تربة الإمام أحمد بن حنبل ، وهى توجد بقطيعة أم جعفر فى مقبرة باب حرب خارج مدينة بغداد ، انظر البغدادى : تاريخ بغداد ، ج١ ، ص١٢١ ؛ معجم البلدان ، ج٤ ، ص٥٨٧ ، انظر ترجمة أحمد بن حنبل فى المنتظم ، ج١١ ، ص٢٨٦-٢٨٩ .

مختار الخادم(١) ؛ كان من خواص الخليفة ، وكان يتدين ، وعلت سِنُّهُ ، توفى فى آخر شعبان منها ، ودفن فى الترب بالرصافة(٢) .

على بن منصور أبو الحسن السروجى ؛ الأديب مؤدب أولاد الأتابك زنكى(٣) ، مات فى هذه السنة ، ومن شعره يذكر فصل الربيع ، وفضل دمشق ، ويمدح نور الدين محمود ابن زنكى بقصيدة مطلعها(٤) :

فصلُ الربيع زمانٌ نَوْرُهُ نُورُ ... وَنشرُ(٥) أزهارِه مِسْكٌ وكافُورُ
[٢٠٩و] تظلُّ تشْدو به الأطيارُ من طربٍ ... فذا هزارٌ وقُمرىٌّ وشَحْرورُ(٦)/
كأن أصواتَها فوق الغصون ضُحًى ... زيرٌ(٧) ويَمٌّ ومِزمَارٌ وطنْبورُ
يا لائمى فى دمشق إنَّ لَوْمَكَ لى ... لؤمٌ وتشبيهُكِ الزَّورَا بها زورُ(٨)
تكامل الحُسْنُ فيها مثلما كَملَتْ ... أوصافُ مولى بنشرِ العدْلِ مشْهورُ
مولاىَ يا خيرَ من يُدْعى لمَكْرُمةٍ ... وخيرَ من زانَه عقلٌ وتوقيرُ
عِشْ وابقَ واسْلَمْ ومُرْ واحكُم ودُم أبدًا ... ما سحَّ (٩)غيثٌ وما هَبّتْ أعَاصِيرُ

محمد(١٠) **بن مسعود أبو المعالى بن القَسَّام الأصفهانى** ؛ توفى فى هذه السنة ، وكان أديبًا ، ومن شعره يذم قاضيًا :

وَلمَّا أَنْ توليتَ القَضايا ... وفاضَ الجَوْرُ من كَفَّيْكَ فَيْضَا
ذبحتَ بغيرِ سكينٍ وإنِّى ... لأرجو الذبحَ بالسِّكينِ أيضَا

---

(١) انظر ترجمته فى ، المنتظم ، ج١٨ ، ص٢٣٤ .
(٢) بناها الخليفة المنصور العباسى سنة ١٥١هـ/٧٦٨هـ وعمل لها سورًا وخندقًا وميدانًا وبستانًا وأجرى لها الماء ، وهى توجد فى الجانب الشرقى من بغداد وبها مقابر خلفاء بنى العباس . انظر : تاريخ بغداد ، ج١ ، ص٨٢ ؛ معجم البلدان ، ج٢ ، ص٧٨٣ـ ٧٨٤ .
(٣) هو عماد الدين زنكى والد نور الدين محمود .
(٤) انظر هذه الأبيات فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢١٥ .
(٥) «وأنفاس» فى المرآة ، ج٨ ، ص٢١٥ .
(٦) «وزرزور» فى المرآة ، ج٨ ، ص٢١٥ .
(٧) «بنب» فى المرآة ، ج٨ ، ص٢١٥ .
(٨) «زور ويشهد لزورانه زور» فى المرآة ، ج٨ ، ص٢١٥ .
(٩) سَحَّ : سال من فوق إلى أسفل . والسح هو الصب الكثير . انظر : المصباح المنير ، ج١ ، ص٣١٧ .
(١٠) «محمود» فى نسخة ب .

وفى المرآة : خرج إلى الحج ، وتوفى بفَنْد[١] .

القاضى الشريف أبو محمد عبد الله العثمانى الديباجى ؛ من ولد الديباج محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان رضي الله عنه ويعرف بابن أبى إلياس[٢] ، من بيت القضاء والعلم ، وكان واسع الباع فى علم الأحاديث ، كثير الرواية ، قيمًا بالأدب ، متصرفًا فى النظم والنثر ، إلا أنه مقل من النظم أوحد عصره فى علم الشروط ، قوله المقبول على كل العدول ، مات فى هذه السنة بالإسكندرية .

شمس الدين ابن الوزير أبى المضاء[٣] **خطيب الديار المصرية ، وابن وزيرها** ؛ كان أول من خطب بديار مصر للخليفة المستضىء بأمر الله العباسى ، بأمر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ثم حظى عنده حتى كان قد جعله سفيرًا بينه وبين الملوك والخلفاء ، وكان رئيسًا مطاعًا كريمًا ممدحًا ، توفى فى هذه السنة ، وجعل مكانه فى السفارة وأداء الرسائِل ضياء الدين ابن قاضى القضاة الشهرزورى بمرسوم سلطانى ، وكانت وظيفة مقررة[٤] .

وقال العماد الكاتب[٥] : وفى ليلة الجمعة الثانى عشر من صفر ونحن فى طريق الوصول إلى دمشق توفى شمس الدين ابن الوزير بدمشق .

قاضى القضاة الشهرزورى ، أبو الفضل محمد بن أبى محمد عبد الله بن أبى أحمد القاسم الشهرزورى ؛ الملقب كمال الدين ، الفقيه الشافعى ، قاضى القضاة بدمشق ، وكان فاضلاً دينًا أمينًا ثقة ورعًا ، ولى القضاء بدمشق لنور الدين محمود بن زنكى . واستوزره أيضًا فيما حكاه ابن الساعى قال : وكان يبعثه فى الرسائل ، كتب مرة على أعلى القصة «إلى الخليفة المقتفى»[٦] محمد بن عبد الله الرسول ، فكتب الخليفة تحت ذلك صلى الله عليه وسلم .

---

(١) «بقند» فى المرآة ج٨ ، ص٢١٥ . ولعل ماأثبتناه هو الصواب من ابن عبد الحق البغدادى : مراصد الإطلاع ، ج٣ ، ص١٠٤٤ حيث أن فَنْد : بالفتح ثم السكون وآخره دال ؛ جبل بين مكة والمدينة قرب البحر .

(٢) «ابن أبى اليابس» فى شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٤١-٢٤٢ . والمثبت من الأصل وكما فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٩٥ .

(٣) اتفقت نسختى المخطوطة أ ، ب مع الروضتين فى أن اسمه «أبو المضاء» . أما البداية والنهاية فقد ورد الاسم «أبو الضياء» . انظر : الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٤٩٢-٤٩٦ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٧ .

(٤) إلى هنا انتهى العينى من النقل من ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٧ .

(٥) انظر قول العماد فى الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٦٧١-٦٧٢ .

(٦) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

وقال ابن كثير[١] : وقد فوض إليه نور الدين نظر الجامع ودار الضرب ، وعَمَّر له المارستان والمدارس وغير ذلك من الأمور المهمة . وقال ابن خلكان[٢] : وكانت ولادته سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة بالموصل ، وتوفى يوم الخميس سادس المحرم من سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة بدمشق ، ودفن من الغد بجبل قاسيون . وقال : ولما ملك صلاح الدين الشام أَقَرَّه على ما كان عليه فى أيام نور الدين .

وكان شهما جسورًا كثير الصدقة والمعروف ، وقف أوقافًا كثيرة بالموصل ونصيبين ودمشق ، وبنى بالموصل مدرسة للشافعية ، ورباطًا بمدينة الرسول (ﷺ) . وتولى القضاء بالموصل أيضًا ، وله نظم جيد ، فمن ذلك قوله :

[٢٠٩ظ] ولقْد أتَيْتُك والنجومُ روَاصدٌ والفجرُ وَهْمٌ فى ضميرِ المشرقِ/

وركبتُ [م الأهوال][٣] كُلَّ عظيمةٍ شوقًا إليك لعلّنا أنْ نلتقِى[٤] .

وفى المرآة[٥] : قدم بغداد وتفقه على أسعد الميهنى[٦] بالنظامية[٧] ، وسمع الحديث ببغداد والموصل ، وكان رئيس أهل بيته ، وولى قضاءَ القضاة بدمشق وحمص وحماة وحلب وجميع الشام فى أيام نور الدين ، وكان إليه أمر المدارس والمساجد والأوقاف والحسبة والأمور الدينية والشرعية ، وكان صاحب القلم والسيف . وكانت شحنكية دمشق إليه ، ولىَّ فيها بعض غلمانه ، ثم ولاها نور الدين لصلاح الدين ، وكانت بينهما

---

(١) نقل العينى هذا النص من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٧ .

(٢) وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٢٤١ـ ٢٤٥ . ترجمة رقم ٥٩٨ .

(٣) «من أهوال» فى نسختى المخطوطة أ ، ب .والمثبت بين الحاصرتين من وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص٢٤٣ حيث ينقل العينى عنه .

(٤) إلى هنا توقف العينى عن النقل من وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص٢٤٣ .

(٥) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢١٥ـ ص٢١٦ .

(٦) أسعد الميهنى : هو أبو الفتح أسعد بن أبى نصر بن أبى الفضل الميهنى ، الفقيه الشافعى الملقب محى الدين ، توفى سنة ٥٢٧هـ/١١٣٣م ، وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص٢٠٧ـ ٢٠٨ .

(٧) المدرسة النظامية ببغداد : بناها الوزير نظام الملك أبو على الحسن بن على بن إسحاق بن العباس ، وزير السلطان ملكشاه السلجوقى ، وهو أول من أنشأ المدارس فاقتدى به الناس ، وقد شرع فى عمارة هذه المدرسة ببغداد سنة ٤٥٧هـ/١٠٦٥م . وفرغت عمارتها فى سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٧م . انظر : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٩ ، ص٥٥ ؛ وفيات الأعيان ، جـ ٢ ، ص ١٢٨ـ ١٢٩ .

مضاغنة وكل واحد منهما ينقض حكم الآخر ، فلما كتب إليه صلاح الدين بأن[١] يساعده على أخذ دمشق أعانه وفتح له أبوابها . فلما دخلها صلاح الدين مشى إلى دار كمال الدين وطيب قلبه ، وجاء إلى الشيخ أحمد والد الشيخ أبى عمر شيخ الحنابلة ـ وأحمد أول من سكن منهم قاسيون ـ فزاره ومعه ألف دينار ، فدفعها للشيخ أحمد فامتنع من أخذها . فاشترى كمال الدين قرية الهامة بوادى بَرَدَىَ[٢] ، ووقف نصفها على الشيخ أحمد والمقادسة ، والنصف الآخر على الأسارى ، وهى باقية إلى هلم جرا .

ولما مرض كمال الدين وهو بدمشق بلغ ابن أبى عصرون وهو بحلب ، فقدم دمشق ودخل على القاضى كمال الدين وعانقه وبكيا ، فلما توفى كمال الدين تولى ابن أبى عصرون أمره ، وخرج فى جنازته ماشيا هو وجميع الملوك مشاة ؛ سيف الإسلام وتقى الدين عمر وشمس الدولة وغيرهم . وصلى عليه بجامع دمشق ، وحمل إلى قاسيون ، فدفن بسفحه قريبا من الجادة عند مسجد البصار[٣] . ولم يكن عنده من أولاده أحد وإنما كان عنده ابن أخيه ضياء الدين أبو الفضائِل[٤] ، وكان كمال الدين قد تصدق بجميع ما كان عنده وأوصى بماله ، ووقف أوقافًا كثيرة على أبواب البر ، وقيل إنه لم يكن له كفن فكفن فى إحرامه . وأوصى بالقضاء إلى ابن أخيه ضِياء الدين مع وجود ولده ، وكان لكمال الدين ولد اسمه محمد[٥] بن محمد بن عبد الله ولقبه محى الدين ، وكان[أبو][٦] ضياء الدين قاضيا على حلب ، وهو تاج الدين الشهرزورى .

وفى تاريخ الدولتين[٧] : ولما مات كمال الدين كان عمره ثمانين سنة .

---

(١) «أن» فى المرآة ، جـ ٨ ، ص٢١٦ .

(٢) بَرَدَى : أعظم نُهر دمشق ، مخرجة من قرية قَنْوًا من كورة الزبدانى ، ويمر بمدينة دمشق فى ظاهرها فيشق ما بينها وبين العقيبة حتى يصب فى بحيرة المرج فى شرقى دمشق . انظر : معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٥٥٦ ـ ٥٥٧ .

(٣) «البصار» فى نسختى المخطوطة أ ، ب ، ولعله مسجد البيطار إذ ذكر ابن عساكر : أن مسجد البيطار من مساجد دمشق بناه ابن البيطار ، ولم تذكر المصادر التى وقعت بين أيدينا اسم مسجد «البصار» . انظر ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، مجلد٢ ق١ ، ص٥٦ .

(٤) هو ضياء الدين أبو الفضائل القاسم ابن القاضى تاج الدين أبى طاهر يحيى بن عبد الله . توفى سنة ٥٩٩هـ/١٢٠٣م . انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص٢٤٤ ـ ٢٤٥ .

(٥) هو القاضى أبو حامد محمد بن القاضى كمال الدين بن الشهرزورى . توفى سنة ٥٨٦هـ/١١٩٠م . انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ٢٤٦ ـ ٢٤٨ .

(٦) «أبوه» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٢٤٥ . والمقصود هنا ضياء الدين أبو الطاهر يحى أخو كمال الدين الشهرزورى ، توفى بالموصل سنة ٥٥٦هـ/١١٦١م .

(٧) الروضتين ، جـ١ق٢ ، ص٦٧١ .

رفع

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الثالثة والسبعين بعد الخمسمائة★

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضىء بأمر الله العباسى ، والسلطان صلاح الدين مخيم بمرج فاقوس ، ثم عاد إلى القاهرة وأقام بها ، ثم قصد أن يسير إلى غزة وعسقلان .

ذكر غزو صلاح الدين عسقلان والرملة

وفى[1] جمادى الأول ، سار السلطان صلاح الدين من مصر إلى ساحل الشام لغزو الإفرنج ، فوصل إلى عسقلان والرملة فى الرابع والعشرين من الشهر ، فنهب ، وتفرق عسكره فى [الأعمال][2] ، وبقى السلطان فى بعض العسكر فلم يشعر إلا بالفرنج قد طلعت عليهم ، فقاتلهم .

وكان لتقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ولد اسمه أحمد ، حسن الصورة ، كما بدت لحيته ، فأمره أبوه تقى الدين بالحملة على الفرنج ، فحمل عليهم وقاتلهم ، وأثَّر فيهم أثرًا كثيرًا ، فعاد سالمًا ، فأمره أبوه بالعود إليهم ثانية ، فحمل عليهم ، فقُتل شهيدا .

وتمت الهزيمة على المسلمين ، وقاربت حملات الفرنج [٢١٠و] للسلطان ، فمضى منهزما إلى مصر على البرية ، ومعه من سلِم ، فلقوا فى طريقهم مشقة وعطشًا شديدًا ، وهلك كثير من الدواب . وأخذت الفرنج العسكر الذين كانوا تفرقوا للإغارة أسرى ، وأُسر للملك المظفر تقى الدين عمر ولده شاهنشاه ، فبقى عندهم سبع سنين ، وقُتل ابنه الآخر ـ كما ذكرنا ـ فحزن على المقتول والمفقود ، وصبر تأسيًا بأيوب ، وناح كما ناح داود . وكذلك أسر الفقيهان الأخوان ضياء الدين عيسى[3] ، وظهير الدين ، وكانا من أكبر

★ يوافق أولها ٣٠ يونيو ١١٧٧م .

(١) ورد هذا النص بتصرف فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٨٥ـ ٨٦ ؛ الروضتين ، جـ ١ق٢ ، ص٦٩١ـ ٧٠٠ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣١٧ـ ٣١٨ .

(٢) «الإغارة» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الكامل ، جـ ١٠ ، ص٨٥ ؛ الروضتين ، جـ١ ، ق٢ ، ص ٧٠٠ .

(٣) ضياء الدين عيسى الهكارى : هو أبو محمد عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد . . . أحد أمراء الدولة الصلاحية ، كبير القدر وافر الحرمة ، يؤخذ برأيه فى الأمور الهامة ، توفى سنة ٥٨٥هـ/١١٨٩م بمنزلة الخروبة . انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص٤٩٧ـ ٤٩٨ .

أصحاب السلطان صلاح الدين ، فافتداهما السلطان بعد سنتين بسبعين[١] ألف دينار ، ووصل السلطان إلى القاهرة فى نصف جمادى الآخرة .

وفى المرآة[٢] : خرج صلاح الدين فى جمادى الآخرة من مصر بالعساكر ، ونزل على عسقلان ثم رحل[٣] يريد تل الصافية[٤] ، فازدحمت العساكر على الجسر تريد العبور ، فلم يشعروا إلا وقد خالطهم الفرنج ، فثبت تقى الدين عمر وقاتل ثم غُلب ، وقُتل من المسلمين خلق كثير ، وانهزمت عساكر الإسلام وأسر كثير ، منهم الفقيه عيسى وغيره . لولا أن [الليل][٥] حجز بينهم لم يبق من المسلمين أحد . وسار صلاح الدين فى الليل إلى مصر من غير دليل ولا ماء ولا زاد .

وكانت هذه الوقعة من أعظم الوقائع ، ونكب صلاح الدين نكبة شديدة ، وكاد يتلف جوعًا وعطشًا ، ونهبت خزائنه وقتل رجاله وأسر أبطاله[٦] . وكان مقدم الفرنج أرناط[٧] ، وكان من أكبر ملوك الإفرنج . وما أتلف عسكر المسلمين إلا أنهم [كانوا][٨] تفرقوا فى الغارات ، وكانوا زيادة على عشرين ألفًا ، ووقعت الكسرة ومعظمهم لم يعلم ، فلما رجعوا من الغارات لم يجدوا صلاح الدين ، ولم يكن لهم حصن يأوون إليه ، فدخلوا الرمل وتبعهم الفرنج قتلاً وأسرًا ، ومن سلم منهم مات جوعًا وعطشًا ، وكان يومًا عظيما على الإسلام لم يجبره إلا وقعة حطين ، ورجع أرناط بجمعه إلى حماة - كما نذكره - إن شاء الله الآن .

وقال ابن الأثير[٩] : كتب صلاح الدين بخط يده إلى أخيه توران شاه نائبه بدمشق ؛ يذكر له الوقعة وفى أوله :

---

(١) «ستين» فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٨٥- ٨٦ ؛ وفى الروضتين ، جـ١ق٢ ، ص٧٠١ «بستين أو سبعين» ؛ وفى البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣١٨ ، «بتسعين» .
(٢)مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢١٧ .
(٣) «نزل» فى نسخة ب .
(٤) تل الصافية : حصن من أعمال فلسطين قرب بيت جبرين من نواحى الرملة . انظر : معجم البلدان ، جـ ١ ، ص٨٦٧ .
(٥) «الملك» فى الأصل . والمثبت بين الحاصرتين من نسخة ب ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢١٧ .
(٦) ورد هذا النص بتصرف فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢١٧ .
(٧) أرناط : هو البرنس أرناط صاحب الكرك والشوبك ، أسر فى وقعة حطين عام ٥٨٣هـ/١١٨٧م ، ثم قتله صلاح الدين بيده . انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٧ ، ص١٩٣ .
(٨) ما بين الحاصرتين ساقط من نسخة أ ، والمثبت من ب .
(٩) انظر : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٨٦ .

ذَكَــرْتُكَ والخَطِّيُّ يخطرُ بَينَنا		وقد نَهَلتْ مِنّا المُثَـقَّـفَةُ السُّمْرُ

ويقول فيه : لقد أشرفنا على الهلاك غير مرّة ، وما [أنجانا الله][١] سبحانه و«تعالى»[٣] منه إلا لأمر «يريده»[٢] سبحانه و«تعالى»[٣] .

ذكرُ[٤] حَصر الفرنج حماة

وذلك أنه وصل من الفرنج كند[٥] كبير فى البحر ، فرأى صلاح الدين وقد عاد منهزمًا إلى مصر ، فاغتنم خلو البلاد ؛ وليس بها إلا شمس [الدولة][٦] توران شاه بن أيوب ، نائبًا عن أخيه ، وليس عنده كثير من العسكر ، فجمع الكند مَنْ بالشام من الفرنج ، وفرق فيهم الأموال ، وسار إلى مدينة حماة وبها شهاب الدين محمود بن تكش الحارمى ، خال صلاح الدين ، وهو يومئذ بمرض شديد ، وكانت طائفة من العسكر الصلاحى بالقرب منها فدخلوا إليها وأغاثوا مَنْ بها ، وقاتلوا الفرنج قتالاً شديدًا ، ودخل الفرنج البلد ، فاجتمع العسكر وأهل البلد وقاتلوهم حتى أزاحوهم منها ، وأخرجوهم إلى ظاهرها . فساروا إلى حارم ، واتفقت وفاة شهاب الدين الحارمى على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

قال العماد[٧] : ومن شرط هدنة الفرنج أنه متى جاء ملك من ملوكهم [أو][٨] كبير «لا»[٩] يمكنهم دفعه ، فإنهم يقاتلون معه ، ويؤازرونه ، وينصرونه ، فإذا انصرف عنهم

---

(١) «وما نجانا إلا الله» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الكامل ، حيث ينقل عنه العينى ، جـ ١٠ ، ص٨٦ .

(٢) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٣)(٣) ما بين الأقواس زيادة على نص ابن الأثير .

(٤) ما زال العينى ينقل تلك الأحداث عن الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٨٦ ـ ٨٧ ؛ أيضا انظر هذا النص بالتفصيل فى الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص ٧٠٦ .

(٥) كُند كبير أو الكونت تعريب اللفظ اللاتينى Comes وبالفرنسية Comte وبالإنجليزية Count ، انظر : السلوك ، جـ١ ق٣ ، ص ٩٦٦ ، حاشية ٢ ؛ مفرج الكروب ، جـ٤ ، ص ٩٨ ، حاشية ٣ . كما أن المقصود بالكند الكبير هنا Philip of Flanders ، وقد قدم مع امبراطور بيزنطة وأصحاب الإمارات اللاتينية فى مهاجمة مصر . انظر أيضا : الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٧٠١ ، حاشية ٢ . «وقمس» بضم القاف وتشديد الميم ، انظر الجواليقى ، المعرب ، ص٣٠٦ .

(٦) «الدين» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٨٦ .وهو الصحيح .

(٧) انظر الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص ٧٠٦ ؛ وانظر أيضا : البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص ٣١٨ .

(٨) ما بين الحاصرتين إضافة من الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٧٠٦ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٢٩٧ . وذلك لاستقامة النص .

(٩) ما بين الأقواس ساقط من ب .

عادت الهدنة كما كانت . [٢١٠ظ] فقصد هذا الملك وجملة الفرنج معه مدينة حماة ، وصاحبها شهاب الدين مريض ، ونائب دمشق ومن معه من الأمراء مشغولون بلذاتهم[١] ، فكادوا يأخذون البلد ، ولكن هزمهم الله تعالى بعد أربعة أيام ، فانصرفوا إلى حارم ، فلم يتمكنوا من أخذه ، وكشفهم عنه الملك الصالح صاحب حلب ، وقد دفع إليهم من الأموال والأسارى ما طلبه الكفرة النصارى . وقال العماد[٢] أيضًا : ووصل فى هذه السنة إلى الساحل من البحر كند كبير ، يقال له أقلندس[٣] . أكبر طواغيت الكفر . قلتُ : هذا هو الذى ذكرناه الآن ، الذى جرى منه ما جرى .

ذكرُ توجه صلاح الدين إلى الشام

لما سمع السلطان بنزول الفرنج على حارم برز من الديار المصرية قاصدًا إلى بلاد الشام ؛ لغزو الفرنج ونزل فى البركة[٤] حتى خرجت العساكر ، ورحل من البركة يوم عيد الفطر بعساكره ، ووصل إلى أيلة فى عاشر الشهر ، واستناب بمصر أخاه الملك العادل ، وأقام بها أيضا القاضى الفاضل بنيَّة الحج ، وسافر العماد معه .

ووصل السلطان إلى دمشق فى الرابع والعشرين من شوال[٥] ، وبها أخوه شمس الدولة مشغولاً بلذاته ولهوه ، وكان قد بعث إلى الفرنج بمال مُصَانَعة ، فعز على صلاح الدين ولامه وقبح فعله ، وقال : أنت مشغول باللعب وتُضيع أموال المسلمين ، وأقام صلاح الدين فى دمشق .

(١) «بذاتهم» فى الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٧٠٦ ؛ كذلك ورد فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٨٦ «الانهماك فى اللذات» .

(٢) انظر ، الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٧٠٦ ، حيث ينقل عن العماد .

(٣) هو Philip of Flanders وكان قد قدم للتعاون مع Manuel Comnenus امبراطور بيزنطة ، وأصحاب الإمارات اللاتينية ، فى مهاجمة مصر . وفشل هذا الهجوم كفكرة بسبب النزاع حول الوصاية على ملك القدس الطفل Baldwin V ، فتحولت الحملة بعد انصراف البيزنطيين عنها إلى هجوم محلى على حماة ، ثم على حارم . انظر : الروضتين ، جـ١ق٢ ، ص٧٠٦ حاشية ٢ ؛ راجع أيضًا The Crusaders In The East,pp. 214-216.

(٤) المقصود بالبركة هنا : بركة الحجاج وتقع فى الجهة البحرية من القاهرة وقد عرفت أولاً «بجب عميرة» ثم قيل لها «أرض الجب» ثم عرفت إلى زمن المقريزى «ببركة الحاج» من أجل نزول حجاج البر بها عند مسيرهم من القاهرة . انظر : الخطط ، جـ ٢ ، ص ١٦٣ .

(٥) أورد أبو شامة هذه الرواية بتصرف فى الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٧٠٧ ـ ٧٠٨ .

قال العماد(١) : وخرج السلطان صلاح الدين للصيد فى ذى الحجة نحو قارا(٢) ، فشكوتُ ضرسى ، فرجعت مع عز الدين فرخشاه لحُمَّى عرتْهُ ، فشكا منها ، أن لا تزور إلا نهارًا جهارًا ، ولا تفارق بعرق ، بالضد من الحُمَّى التى وصفها أبو الطيب المتنبى . فنظمت فيه كلمة طويلة أوّلها :

يَمينُك دأبُها بَذلُ اليسَار	وَكفُّكَ صوبُها بِدَر النُّضارِ
وإنَّك من ملوكِ الأرْض طُرًّا	بمنزلِة اليمين مِنَ اليسارِ
وأنتَ البحرُ فى بَثِّ العطَايَا	وأنتَ الطَّودُ فى بادى الوقارِ

ومنها فى وصف الحُمى :

وزائرةٌ وليسَ [بها](٣) حياءٌ	فليْسَ تزورُ إلا فى النَّهَار
أَتتْ والقلبُ فى وَهَجٍ(٤) اشْتِياقٍ	ليظهَرَ ما أُوَارِى مِنْ أُوارِى(٥)

إلى أن قال :

أَيَا شَمسُ الملوكِ ، بقيتَ شمسًا	تنيرُ على الممالكِ والدّيارِ

ذكر قبض الملك الصالح صاحب حلب على كُمُشْتِكين مدبر دولته

قال العماد(٦) : وقعت المنافسة بين الحلبيين مدبرى الملك الصالح ، واستولى على أمره العدل ابن العجمى أبو صالح . وكان سعد الدين كمشتكين الخادم مقدم

---

(١) انظر الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٧١٢ - ٧١٣ ، حيث ينقل أبو شامة عن العماد .

(٢) قارة : هى قرية كبيرة بين حمص ودمشق على نحو منتصف الطريق ، وهى منزلة للقوافل . انظر : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص١٢ - ١٣ ؛ تقويم البلدان ، ص ٢٢٩ .

(٣) «لها» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من ديوان أبى الطيب المتنبى ، جـ٤ ، ص١٤٦ ، تحقيق مصطفى السقا ، الطبعة الثانية ١٩٥٦م ؛ الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص٧١٣ ؛ سنا البرق الشامى ، ص٢٨٣ .

(٤) «وضح» فى نسخة ب .

(٥) الأُوار : حَرُّ الشمس والنار .

(٦) الروضتين ، جـ١ ق٢ ، ص٧٠٤ - ٧٠٥ .

العساكر[١]، وأمير المعشر، وهو صاحب حصن حارم، وقد حسده أمثالُه[٢] من الأمراء والخدام، فسلَّموا لابن العجمى الاسْتبداد بتدبير الدولة، فقفز عليه الإسماعيليّة يوم الجمعة بعد الصلاة فى جامع حلب فقتلوه.

واستقل كمشتكين بالأمر، فتكلم فيه حسّادُه، وقالوا للملك الصالح: ما قتل وزيرك ومُشيرَك ابن العجمى إلا كمشتكين فهو الذى حسّن ذلك للإسماعيليّة. وقالوا له: أنت السلطان وكيف يكون لغيرك حُكمٌ أو أمر! فما زالوا به[٣] حتى قبض عليه، وطالبوه بتسليم قلعة [٢١١و] حارم. فكتب إلى نوابه بها «فنبَوْا»[٤] وأبَوْا، فحملوه ووقفوا به تحت القلعة، وخوّفوه بالصرعة، فلما طال أمره، قصر عمره، ونزل عليه الإفرنج، ثم رحلوا بقطيعة بذلها لهم الملك الصالح واستنزل عنها أصحاب كمشتكين، وولى بها مملوكا لأبيه يقال له [سرخك][٥].

وقال ابن الأثير[٦]: سار الملك الصالح من حلب إلى حارم ومعه كمشتكين، فعاقبه ليأمُرَ مَنْ بها بالتسليم، فلم يجب إلى ما طلب منه، فعُلق[٧] منكوسا، ودُخِّنَ تحت أنفه فمات. وعاد الملك الصالح عن حارم ولم يملكها. ثم إنه أخذها بعد ذلك[٨].

قال ابن شداد[٩]: أما الملك الصالح فإنه تخبَّط أمره، وقبض على كمشتكين صاحب دولته، وطلب منه تسليم حارم إليه، فلم يفعل، فقتله. ولما سمع الفرنج بقتله نزلوا على حارم، طمعا فيها، وذلك فى جمادى الآخرة، و قاتل عسكر الملك الصالح العساكر الإفرنجية. ولما رأى أهل القلعة خطرها من جانب الفرنج، سلموها إلى الملك

(١) مقدم العسكر: تعنى كلمة مقدم قائد الجيش المرابط عند الحدود. انظر: ابن الكردبوس: تاريخ المسلمين فى الأندلس، ص٤٢.
(٢) «أولاده» فى نسخة ب.
(٣) «عليه» فى نسخة ب.
(٤) ما بين قوسين ساقط من نسخة ب.
(٥) «سرجك» فى نسختى المخطوطة أ، ب. والمثبت بين الحاصرتين من الكامل، جـ ١٠، ص ٨٨؛ الروضتين، جـ١ق٢، ص٧٠٥.
(٦) انظر: التاريخ الباهر، ص ١٧٨.
(٧) «فعلقوه» فى نسخة ب.
(٨) كرر الناسخ فى نسخة ب جملة «ثم أخذها بعد ذلك».
(٩) انظر: النوادر السلطانية، ص٥٣.

الصالح فى العشر [الأواخر][(١)] من رمضان . ولما [علم][(٢)] الإفرنج ذلك رحلوا عن حارم طالبين بلادهم ، ثم عاد الصالح إلى حلب ولم يزل أصحابه على [اختلاف][(٣)] ، يميل بعضهم إلى جانب السلطان صلاح الدين (رحمه الله)[(٤)] .

ذكر بقية الحوادث

منها أنه خُطب للسلطان طغرل بن أرسلان شاه المقيم عند أيلدكز بهمذان ، بحكم وفاة والده أرسلان شاه[(٥)] .

ومنها أنه[(٦)] وصل يُتَامِش الذى عصى على الخليفة ، وقاتل مع قطب الدين قايماز إلى تحت التاج ، وبيده سيف وكفن وقبل الأرض مرارًا ، وطلب العفو ، فعفا الخليفة عنه وأعيد إلى إمرته وأحسن إليه .

ومنها أنه وقعت ببغداد واقعة وهى : أنه كان لرجل عبد وأَمَةٌ ، فعتقهما وزوج العبد بالأمة ، فأولدها أولادا وأقام أربعين سنة على ذلك ، ثم تبين أن الأَمَة أخت العبد لأمه وأبيه . الجواب لا إثم عليهما فيما مضى ؛ لعدم العلم بحالهما ، ويفرق بينهما للأخوة ، وتعتد لاحتمال أن تكون حاملاً منه ، فإذا فرق بينهما حرمت عليه ، ويجوز له النظر إليها ؛ لأنها أخته إلا أن يخاف على نفسه[(٧)] .

ومنها[(٨)] أنه اجتمعت طائفة من الإفرنج ، وقصدوا أعمال حمص ، فقتلوا وأسروا وسبوا ، فسار ناصر الدين محمد بن شيركوه إليهم وسبقهم ، ووقف على طريقهم مكمنًا لهم ، فلما وصلوا [إليه][(٩)] خرج عليهم هو والكمين ، ووضع السيف فيهم ، فقتل أكثرهم ، ومن سلم منهم لم يفلت إلا مثخنًا بالجراح ، واسترجع منهم جميع ما أخذوه ، ورده على أصحابه .

---

(١) «الأخير» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من النوادر السلطانية ، ص٥٣ ، حيث ينقل العينى عنه .
(٢) «عرف» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من النوادر السلطانية ، ص٥٣ ، حيث ينقل العينى عنه .
(٣) «الاختلاف» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من النوادر السلطانية ، ص٥٣ ، حيث ينقل العينى عنه .
(٤) إلى هنا توقف العينى عن النقل من النوادر السلطانية ، ص٥٣ .
(٥) انظر تفاصيل هذا الخبر فى المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ص٦٠ .
(٦) انظر هذا الخبر فى المنتظم ، جـ ١٨ ، ص٢٣٥ .
(٧) عن تلك الفتوى انظر المنتظم ، جـ ١٨ ، ص٢٣٧ ـ ٢٣٨ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢١٧ .
(٨) انظر هذا الخبر فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٨٩ ـ ٩٠ .
(٩) ما بين الحاصرتين إضافة من الكامل ، جـ ١٠ ، ص٩٠ ، وذلك لاستقامة النص .

وفيها : ....[1]

وفيها : حج بالناس الأمير طاشتكين .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

أحمد بن محمد بن بكروش[2] الحمامى أبو العباس ؛ ولد سنة اثنتين وخمسمائة ، وقرأ القرآن على أبى القاسم بن الحصين وغيره ، وتفقه على أبى بكر الدينورى شيخ ابن الجوزى ، وكان يكثر الصوم والصلاة ، وتوفى يوم الثلاثاء خامس صفر ، ودفن بمقبرة الإمام أحمد . قال السبط[3] : وزوجه جدى أكبر بناته ، يقال لها ست العلماء .

صدقة بن الحسين بن الحسن أبو [الفرج][4] الحداد ؛ ولد سنة سبع وتسعين وأربعمائة ، فقرأ القرآن ، وسمع الحديث ، وتفقه وأفتى ، وقال الشعر ، ونظر فى الكلام وناظر ، وله تاريخ ذيَّل فيه على شيخه ابن الزاغونى ، وفيه غرائب وعجائب . [٢١١ظ] وقال ابن الساعى : وكان شيخا عالما فاضلا ، وكان فقيرا يأكل من أجرة النسخ ، وخط عليه ابن الجوزى[5] فى منتظمه ، ورماه بالعظائم ، وأورد من أشعاره ما فيه مشابهة لابن الراوندى[6] فى الزندقة ، قال : وقرأ «الشفاء» لابن سينا ؛ وكُتب الفلاسفة ، وتغير اعتقاده ، وكان يبدر من فلتات لسانه ما يدل على سوءِ عقيدته ، وتارة يسقف من جنس ابن الراوندى ، وتارة يشير إلى عدم بعث الأجساد ، وتارة يعترض على القضاءِ والقدر . قال : وقال لى يوما : أنا لا أخاصم إلا من فوق الفلك . وقال : ما أدرى من أين جئنا؟! وإلى أى مطبق[7] يريدون أن يحملونا . قال : فلما تحقق هذا عندى هجرته سنين ، ولما مات

---

(١) بياض بمقدار سطر فى النسختين .

(٢) «بكروس» فى المنتظم ، جـ ١٨ ، ص٢٤٣ ؛ شذرات الذهب ، جـ ٤ ، ص٢٤٤ . انظر ترجمته أيضًا فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢١٨ .

(٣) انظر مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢١٨ .

(٤) «أبو الفريح» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من المنتظم ، جـ ١٨ ، ص٢٤٣ ؛ وفيات الأعيان ، جـ ٦ ، ص٢٥٣ ؛ شذرات الذهب ، جـ ٤ ، ص٢٤٥ .

(٥) انظر : المنتظم ، جـ ١٨ ، ص٢٤٣ ـ ٢٤٤ .

(٦) ابن الراوندى : هو أبو الحسين أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندى ، توفى سنة ٢٤٥هـ/٨٥٩م . وفيات الأعيان : جـ١ ، ص٩٤ـ٩٥ ؛ إبراهيم مدكور : فى الفلسفة الإسلامية منهج وتطبيق ، ص٩٦ـ ١٠٠ ، مكتبة دار إحياء الكتب العربية ، ١٩٤٧م .

(٧) «مضيق» فى المنتظم ، جـ ١٨ ، ص٢٤٣ . والمُطْبِقُ : السجن تحت الأرض ، المعجم الوسيط ، جـ ٢ ، ص٥٥٧ ، مادة «طبق» .

ما صليت عليه . ومع هذه الفواحش والاعتقاد السَّيِّىء كان يُظهر الفقر ويطلب من الناس ، فلما مات وجدوا له ثلثمائة دينار ، ومات فى ربيع الآخر ، ودفن بباب حرب . وقال ابن [الجوزى][1] : يوم السبت ثالث عشر ربيع الآخر .

محمد بن أسعد بن محمد بن أبى منصور[2] العطارى المعروف بحفدة ؛ ولد بطوس[3] ، وكانت له معرفة جيدة بالخلاف[4] ، وأَنِسَ بالتفسير ، وكان يعظ بتبريز ، وناظر طويلا ودرس وأفتى ، وقدم بغداد بعد الستين وخمسمائة فناظر بها ، وتوفى بتبريز فى رجب منها .

محمد بن محمد بن هبة الله بن أحمد بن الزيتونى أبو الثناء[5] ؛ سمع الحديث ووعظ وانقطع فى مسجده ، وتوفى فى رمضان من هذه السنة ببغداد .

محمد بن أبى نصر ، أبو سعد بن المعوج[6] ؛ حاجب الباب . ضربه الباطنية يوم قتل الوزير أبى المظفر ، كما نذكره الآن ، وحمل إلى داره بنهر معلى[7] ، فدفن بها .

محمد بن أحمد بن عبد الجبار أبو المظفر الحنفى المعروف بالمشطب[8] ؛ كان من الفضلاءِ المشاهير ، تفقه ودرس وأفتى وناظر ، وتوفى فى هذه السنة ، وقد جاوز الثمانين ، وذكر فى طبقات الحنفية أنه من أهل سِمنان[9] ، ورحل إلى مرو ، وتفقه على أبى الفضل الكرمانى وجال فى بلاد خراسان ، ثم دخل بغداد واستوطنها ، وولى التدريس بمدرسة زيرك بسوق العميد ، وحَدَّث عن أبى عبد الله الحسين بن محمد بن فرحان

---

(١) «ابن كثير» فى الأصل وهو خطأ . والصحيح ما أثبتناه بين الحاصرتين . لأن ابن الجوزى هو الذى ذكر هذه العبارة تحديدًا . أما ابن كثير فإنه لم يذكر سوى أن وفاته فى ربيع الآخر من هذه السنة . انظر : المنتظم ، جـ ١٨ ، ص٢٤٥ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص ٣١٩ .

(٢) انظر ترجمته فى المنتظم ، جـ ١٨ ، ص ٢٤٦ . حيث ينقل العينى عنه .

(٣) طوس : هى مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور عشرة فراسخ . معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص٥٦٠ .

(٤) الخلاف : يقصد المسائل الخلافية المختلف عليها . انظر : المنجد ، مادة خلف ، ص ١٨٩ .

(٥) انظر ترجمته فى المنتظم ، جـ ١٨ ، ص٢٤٧ حيث ينقل عنه العينى .

(٦) انظر ترجمته فى المنتظم ، جـ١٨ ، ص٢٤٧ .

(٧) نهر معلى : من أنهار بغداد . وينسب إلى المُعلى من كبار قواد الرشيد . انظر : تاريخ بغداد ، جـ ١ ، ص ٩٦ .

(٨) انظر ترجمته فى المنتظم ، جـ ١٨ ، ص ٢٤٦ .

(٩) سِمْنَان : بلدة بين الرى ودامغان . معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص١٤١ .

السمنانى ، وأبى نصر أحمد بن الحسين بن رجب السمرقندى ، سمع منه عمر بن على القرشى ، وكان مولده فى سنة أربع وتسعين وأربعمائة بسمنان ، وتوفى يوم السبت الحادى عشر من جمادى الأولى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، ودفن بمقبرة الخيزران[١] . ومن إنشاده :

يا أَيُّها الباحثُ عن مقْصِدِى لِيَقْتَدِى فيه بمِنْهَاجِى
مِنهاجِى العقْلُ وقمْعُ الهوَى فَهَلْ لمِنْهَاجِى مِنْ هَاجِ

عَضُدُ الدولة أبو الفرج الوزير محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر [ابن][٢] رئيس الرؤساءِ ، أبى القاسم بن المسلمة[٣] ؛ وزير الخليفة المستضىء ، ولد فى جمادى الآخرة سنة أربع عشرة وخمسمائة ، وكان أبوه أستاذ دار[٤] المقتفى ، وتولى المستنجد فأقره على ذلك ، فلما آلت الخلافة إلى المستضىء بأمر الله استوزره ، وكان يحفظ القرآن ، وسمع الحديث ، وله مروءة وإكرام للعلماءِ والفقراءِ ، خرج من بيته إلى الحج يوم الثلاثاءِ رابع ذى القعدة ، فضربه الباطنية[٥] [٢١٢و] أربع ضربات على باب قطفتا[٦] ، فحمل إلى داره هناك ، ولم يتكلم إلا أنه قال : الله الله . وقال : ادفنونى عند أبى ، ثم مات بعد الظهر ، ودفن عند أبيه بمقبرة الرباط عند الجامع .

وفى المرآة[٧] : لما ولى المستضىء استوزره ، وشرع ظهير الدين أبو بكر صاحب المخزن فى عداوته ، فغير قلب الخليفة عليه ، فطلب الحج فى هذه السنة ، فأذن له ، فتجهز جهازا عظيما ؛ اشترى ستمائة جمل لحمل المنقطعين وزادهم ، وحمل معه

---

(١) مقبرة الخيزران : من أقدم المقابر التى بالجانب الشرقى من بغداد . وتنسب إلى الخيزران أم موسى وهارون ابنى المهدى . وبها قبر أبى حنيفة . انظر : تاريخ بغداد ، جـ ١ ، ص١٢٥ .

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة لازمة من الكامل ، جـ١٠ ، ص ٨٨ ؛ وفيات الأعيان ، جـ ٦ ، ص٢٤١ .

(٣) انظر ترجمته فى المنتظم ، جـ١٨ ، ص ٢٤٦ـ ٢٤٧ ؛ الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٨٨ ـ ٨٩ .

(٤) أستاذ دار : وظيفة من وظائف أرباب السيوف ، يتولى صاحبها شئون بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان ، وله مطلق التصرف فى استدعاء ما يحتاجه كل من فى بيت السلطان من النفقات والكسوة . انظر : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص٢٠ ؛ جـ ٥ ، ص٤٥٧ .

(٥) الباطنية : فرقة من فرق الشيعة . وقد لقبوا بكلمة الباطنية لأنهم قالوا بأن للقرآن ظواهر وبواطن تجرى من الأخبار مجرى اللب من القشر . انظر : أبو حامد الغزالى : فضائح الباطنية ، الباب الثانى ، ص١١ ، ط . الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩١٤م .

(٦) «قطعنا» فى نسخة ب . وقطفتا : محلة كبيرة بها أسواق بالجانب الغربى من بغداد ، بجوار قبر الشيخ معروف الكرخى بمقبرة الدير . انظر : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص٣٧٤ . (ط . دار صادر) .

(٧) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٢٠ـ ٢٢١ .

جماعةً من العلماءِ والزهاد ، ومارستانا فيه جميع ما يحتاج إليه ، ومن الروايا والقرب والزاد وغيره ما لم يحمله وزير . فلما كان يوم الأربعاءِ رابع ذى القعدة ركب فى شبارة[١] وعبر فى دجلة إلى الجانب الغربى ، وجميع أهل بغداد من الجانبين يدعون له ويبكون عليه ؛ لأنه كان محسنًا إليهم بماله وجاهه ومروءته ، قريبا من الناس ، ولما صعد من الشبارة عند [القلعة][٢] ركب وأرباب الدولة بين يديه ، وخدم الخاصة ، والنقيبان[٣] ، وقاضى القضاة ، ما عدا ظهير الدين بن العطار ، فإنه لم يودعه . فلما ركب ضُرب البوق على عادة الوزراء ، فلما وصل إلى باب قطفتا خرج عليه رجل صوفى وبيده قصة[٤] ، فقال : مظلوم ، فقال الغلمان : هات قصتك ، فقال : ما أسلمها إلا إلى الوزير ، فقال : دعوه تعال . فجاءَ إليه ، فوثب عليه وضربه بسكين فى خاصرته ، فصاح الوزير : قتلنى ، وسقط من دابته ، وانكشف رأسه ، فغطاه بكمه ، وبقى على قارعة الطريق ملقى ، وتفرق من كان معه إلا حاجب الباب ابن المعوج ، «فإنه»[٥] رمى بنفسه عليه ، فضربه الباطنى بسكين فجرحه ، وظهر له رفيقان ، فقتلوا وأحرقوا ، وحمل الوزير إلى داره بقطفتا وحمل الحاجب إلى داره . وكان الوزير قد رأى فى تلك الليلة فى منامه كأنه يعانق عثمان بن عفان(رضي الله عنه) وكان قد اغتسل قبل أن يخرج من داره ، وقال : هذا [غسل][٦] الإسلام ، وأنا مقتول بغير شك . ولم يسمع منه لما جُرِح غير قوله : الله الله ، ادفنونى عند أبى . وكانت وفاته يوم الخميس ، فغسل وكفن وحمل إلى جامع المنصور[٧] ، «وصلى عليه ولده الأكبر ، ودفن

---

(١) شبارة : ج . شبارات . وهى سفينة نهرية صغيرة . أكثر ما تستعمل فى العراق بنهر دجلة . انظر : السفن الإسلامية ، ص٧٢ ـ ٧٣ .

(٢) «القرية» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٢٠ . حيث ينقل عنه العينى .

(٣) النقباء : جمع نقيب ، وهو ممن يعملون عند السلطان أو الأمير ، ويقوم بتأدية الخدمات الصغيرة لسيده . صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص٢١ ـ ٢٢ ؛ السلوك ، جـ ١ ق٣ ، ص٨٣٧ ، حاشية ٢ .

(٤) القصة : هى طلب أو التماس ، يقدمه صاحب الحاجة أو الشكوى إلى السلطان عن طريق موظف خاص اسمه قصه دار . انظر : صبح الأعشى ، جـ ٢ ، ص٣٥٢ ، جـ ١٣ ، ص١٥٤ ؛ سنا البرق الشامى ، ص٢٨٥ ، تحقيق رمضان ششن .

(٥) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٦) «رسل» فى نسختى المخطوطة أ ، ب ؛ ومرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٢٠ . وهو خطأ فى النسخ ، والمثبت بين الحاصرتين هو الأقرب للسياق .

(٧) جامع المنصور : ينسب إلى مشيده أبو جعفر المنصور بناه بجوار قصره المعروف بقصر الذهب ، انظر : تاريخ بغداد ، جـ١ ، ص١٠٧ .

عند أبيه ، مقابل جامع المنصور»[١] . وحضر أرباب الدولة بأسرهم ، وابن العطار صاحب المخزن ، وجلس أولاده للعزاء يوم الجمعة . واختلفوا فى سبب قتله ، فقال قوم : أن يتامش واطأ[٢] الإسماعيلية على قتله لِما كان بينهما ، فبعث الخليفة فقبض على يتامش ، وأخذ أمواله وحبسه فى التاج[٣] . وقال آخرون : إنما وضع الإسماعيلية عليه ابن العطار صاحب المخزن وهو الظاهر ، أسند الوزير الحديث عن أبى القاسم بن الحصين[٤] وغيره . وكان فاضلاً عادلا ، وخرج ولده إلى الشام ، وهو على بن محمد ، فأحسن إليه صلاح الدين .

الأمير شهابُ الدين محمود بن تكش الحارمى ؛ خال السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . كان من خيار الأمراء وشجعانهم ، وقد أقطعه ابن أخته حماة حين فتحها ، وقد حاصره الفرنج هناك وهو مريض ، وكادوا يأخذون البلد ، ولكن هزمهم الله بعد أربعة أيام ـ كما ذكرنا ـ فانصرفوا خائبين[٥] ، وتوفى شهاب الدين المذكور بعد ذلك فى هذه السنة ، وأعطى صلاح الدين حماة لناصر الدين منكورش بن خمارتكين صاحب صهيون[٦] ، وقيل : إنما أعطاها لتقى الدين عمر ، وكان ناصر الدين نائبا عنه ، والله أعلم .

كمشتكين الخادم ؛ خادم نور الدين محمود بن زنكى ، وكان من [٢١٢ظ] أكابر خدامه ، ولاه قلعة الموصل نيابة عنه ، فلما مات نور الدين هرب إلى حلب ، وأقطعه الملك الصالح حَارِمَ ، وأقام بها وعصى عليه ، فلما حصره الفرنج صالحه ـ كما ذكرناه ـ ثم قتله الملك الصالح كما ذكرناه .

فاطِمَةُ بنت نصر بن العطار[٧] ؛ توفيت يوم الأربعاء السادس عشر من رمضان منها ، ودفنت عند أبيها ، وشاع عنها الذكر الجميل والزهد فى الدنيا ، ما خرجت من بيتها فى عمرها إلا ثلاث مرات لضرورة ، وما كانت تلتفت إلى زينة الدنيا ، رحمها الله .

---

(١) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٢) واطأ : بمعنى وافق . انظر : المصباح المنير ، مادة «وطىء» .
(٣) التاج : اسم لدار مشهورة ببغداد ، وضع أساسها وسماها بهذه التسمية الخليفة المعتضد . معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٨٠٦ ـ ٨٠٩ .
(٤) عن أبى القاسم بن الحصين . انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٦ ، ص١٧١ ، ضمن ترجمة ابن سعدون القرطبى .
(٥) ورد هذا النص بتصرف فى البداية و النهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣١٩ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٢٢ .
(٦) صهيون : حصن حصين من أعمال حمص . انظر : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٤٣٨ .
(٧) انظر : ترجمتها فى المنتظم ، جـ ١٨ ، ص٢٤٥ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣١٩ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الرابعة والسبعين بعد الخمسمائة★

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضىء بأمر الله ، والسلطان صلاح الدين بالشام ، وجاءه كتاب من القاضى الفاضل وهو بالديار المصرية ؛ يهنئه بوجود مولود له ، وهو أبو سليمان داود ، وهو مُوَّفٍ لاثنى عشر ولدا ، وقد ولد «له»[١] بعده عدة ذكور أيضا ، فإنه توفى[٢] عن سبعة عشر ولدًا ذكرًا وابنة صغيرة ، وهى مؤنسة خاتون ، التى تزوجها ابن عمها الملك الكامل محمد ابن الملك العادل ، كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى ، وذكر هذا فى تاريخ الدولتين[٣] فى السنة الماضية نقلا عن عماد الكاتب .

وفى رمضان وصلت الخلع السنية من الخليفة إلى السلطان صلاح الدين وهو بدمشق ، وزيد فى ألقابه معز أمير المؤمنين ، وخلع أيضا على أخيه توران شاه ، ولقب بمصطفى أمير المؤمنين[٤] .

وفى هذه السنة أسقط صلاح الدين المكوس والضرائب عن الحجاج بمكة ، وقد كان يؤخذ منهم[٥] شىء كثير ، ومَنْ عجز عن أدائه حبس ، وربما فاته الوقوف بعرفة ، وعوض السلطان أميرها بمال يُحمل إليه من مصر ، وبغلال فى كل سنة ثمانية آلاف إردب ، ليكون عونًا له ولأتباعه ، وقرر أيضا قدر ذلك للمجاورين ، يحمل إليهم كل سنة .

ذكر عِصيَان ابن المقدم على صلاح الدين رحمه الله

وفيها عصى شمس الدين بن المقدم[٦] ببعلبك ، وكان صلاح الدين قد أعطاه إياها ، وقدم صلاح الدين إلى دمشق ، فأرسل إليه يطلبه ، فاعتذر خوفا من شمس

★ يوافق أولها ١٩ يونيو ١١٧٨م .

(١) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٢) يقصد بذلك وفاة صلاح الدين الأيوبى .

(٣) انظر : الروضتين ، جـ ١ ق٢ ، ص ٧٠٩ ؛ انظر أيضا : البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣١٨ .

(٤) انظر : البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٠ .

(٥) يقصد بذلك حجاج المغرب ولمعرفة المزيد انظر : البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٠ ؛ الروضتين ، جـ٢ ق١ ، ص٧ .

(٦) انظر : تفاصيل هذه الحادثة فى الروضتين ، جـ٢ ق١ ، ص٣ ؛ الكامل ، جـ١٠ ، ص٩١-٩٢ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣٢٠ .

الدولة ؛ لأنه طلب منه بعلبك فامتنع ، فخرج صلاح الدين من دمشق ، ونزل على بعلبك ، وأقام سبعة أشهر يحاصرها ، فنفذ ما عنده ، فأرسل إلى السلطان يطلب العوض ، فأعطاه بَارين(١) وكفر طاب(٢) ، وخرج شمس الدين بن المقدم إليها ، وسَلَّمَ صلاح الدين بعلبك إلى أخيه شمس الدولة .

وقال ابن كثير(٣) : وكان صلاح الدين نازلا على ظاهر حمص ، ولم يجىء إلى خدمته ابن المقدم المذكور ؛ لأنه بلغه أن أخاه توران شاه طلب بعلبك منه فأطلقها له ، فامتنع ابن المقدم من الخروج إليه لذلك . وجاء السلطان إلى دمشق ، ثم حضر إلى بعلبك بنفسه ، فحصره فيها من غير قتال ، حتى جاءت الأمطار والثلوج والبرد ، فعاد إلى دمشق فى رجب ، ووكل بالبلد من يحصره بغير قتال ، ثم حصل التعويض ، فخرج كما ذكرنا .

ذكر تجهيز صلاح الدين ابن أخيه فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب لغزو الإفرنج

وفى هذه السنة جهز صلاح الدين المذكورَ بين يديه ؛ لقتال الفرنج الذين قد عزموا على قتال المسلمين ، وعاثوا فى نواحى دمشق وقراها بالفساد ، وأمره أن يداريهم حتى يتوسطوا البلاد ، ولا يقاتلهم حتى يقدم عليه ، فلما التقوا عاجلوه بالقتال ، فكسرهم وقتل من ملوكهم صاحب الناصرة(٤) ، وهو [الهنفرى](٥) [٢١٣و] ، وكان من أكابر ملوكهم ، وركب صلاح الدين (رحمه الله) فى إثر ابن أخيه ، فما وصل إلى الكسوة حتى تلقته الرؤوس على الرماح والغنائم والأسرى .

---

(١) بارين هى بعرين : مدينة حسنة بين حلب وحماة من جهة الغرب . معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٤٦٦ .

(٢) كفر طاب : بلدة بين المعرة ومدينة حلب . معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٢٨٩ .

(٣) انظر : البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٠ .

(٤) الناصرة : قرية بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلاً ، ولد فيها السيد المسيح عيسى بن مريم ، ومنها اشتق اسم النصارى . معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٧٢٩ .

(٥) «الكنفرى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، جـ٢ ق١ ، ص١٥ ؛ الكامل ، جـ ١٠ ، ص٩٣ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٠ .
والهنفرى هو (Honfroi) صاحب حصن بانياس جنوب غربى دمشق . انظر : السلوك ، جـ ١ ، ص٦٧ حاشية ٢ ؛ كذلك انظر Lane- Poole, Saladin, p. 157 حيث ورد الاسم : (Humphrey of Toron) .

وفى المرآة :[١] بلغ صلاح الدين أن الهنفرى يريد أن يغير على دمشق ، فبعث عز الدين فرخشاه ابن أخيه بعساكر دمشق ، [إلى قرن الحرة](٢) وقال له يقيم عند مرج عيون(٣) ، فإن جاؤوك فارسل كتب الطيور إلىّ ، ولا تواقعهم[٤] حتى آتيك ، فسار ونزل مرج عيون ، فلم يشعر إلا بطلائع الهنفرى قد خالطته ، ووقع القتال ، فلم يقدر فرخشاه على إعلام صلاح الدين ، فقاتلهم بنفسه ، وجرح الهنفرى جراحة موثقة[٥] ، فأخذوه وانهزموا ، وغنمهم فرخشاه ، ومات الهنفرى بعد أيام ، وجاء صلاح الدين فنزل قصر يعقوب[٦] ، وبعث السرايا والغلات إلى بلد الإفرنج .

ذكر بناء الإفرنج قلعة عند بيت الأحزان[٧]

وفى هذه السنة بنت الإفرنج ـ لعنهم الله ـ قلعة عند بيت الأحزان للداوية[٨] ، فجعلوه مرصادًا لحرب المسلمين وقطع طرقاتهم عليهم ، ونقضت ملوكهم العهد التى كانت بينهم وبين صلاح الدين ، وأغاروا على نواحى البلدان من كل جانب ؛ ليشغلوا المسلمين عنهم وتتفرق جيوشهم ، فلا تجتمع فى بقعة واحدة . فرتب السلطان ابن أخيه تقى الدين عمر بثغر حماة ، ومعه شمس الدين بن المقدم ، وسيف الدين على بن أحمد المشطوب . وبثغر حمص ابن عمه ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ، وبعث

---

(١) انظر هذا النص فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٢٣ .

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٢٣ ، حيث ينقل العينى عنه .

(٣) مرج عيون : بسواحل الشام قريبة من شقيف أرنون ، انظر : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٤٨٨ ؛ زبدة الحلب ، جـ ٣ ، ص ١٠٨ .

(٤) «توافيهم» فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٢٣ ، والمثبت من نسختى أ ، ب . حيث يتناسب مع السياق .

(٥)عن اصابات الهنفرى بالتفصيل . انظر : الروضتين ، جـ ٢ ق١ ، ص١٥ .

(٦) «بيت يعقوب» فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص٩٥ ؛ «مشهد يعقوب» فى البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٤ .

(٧) بيت الأحزان : بلد بين دمشق والساحل ، سميت بذلك لاعتقادهم أنه كان مسكن يعقوب عندما فارق يوسف (عليه السلام) . انظر : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٧٧٥ .

(٨) الداوية : تطلق على جمعية فرسان المعبد Templiers وقد أسسها Hugh de Payns عام ١١١٩م وذلك لحماية طريق الحجاج المسيحيين بين يافا وبيت المقدس . King: Knight Hospitallers.PP. 1- 33.

إلى أخيه سيف الدين أبى بكر ، وهو الملك العادل نائب مصر[١] ، يأمره أن يرسل إليه بألف وخمسمائة فارس يستعين بهم على قتال الإفرنج . وكتب إلى الإفرنج يأمرهم بتخريب هذا الحصن الذى بنوه للداوية ، فامتنعوا إلا أن يبذل لهم ما غرموه عليه ، فبذل لهم [ستين][٢] ألف دينار ، فلم يقبلوا ، فوصَّلهم إلى مائة ألف دينار ، فأبوا ، فقال له ابن أخيه تقى الدين عمر : ابذل هذه فى أجناد المسلمين ، وسر إلى هذا الحصن ، ففعل ذلك[٣] .

ثم استهلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، وكان السلطان صلاح الدين نازلا بجيشه على تل [القاضى[٤]] ببَانِياس ، ثم قصده الإفرنج بقضهم وقضيضهم ، فنهض إليهم فالتقاهم ، فما هو إلا أن تواجه الفريقان حتى أنزل الله تعالى نصره ، فانهزمت الإفرنج وقتل منهم خلق كثير ، وأسر منهم جماعة من ملوكهم ، منهم : مقدم الداوية ، ومقدم الاستبارية ، وصاحب الرملة ، وصاحب طبرية ، وقسطلان[٥] يافا ، وآخرون من ملوكهم ، وخلق من شجعانهم وأبطالهم ، ومن فرسان القدس جماعة كثيرون قريبًا من ثلثمائة أسير[٦] من أشراف[٧] النصارى .

وفى تاريخ بيبرس : وكان فيمن أسر بادين بن بارْزان[٨] ، وأود[٩] ، [و][١٠] ابن القمصية[١١] ، وأخو صاحب جبيل[١٢] ، فحملوا إلى قلعة دمشق ، فاعتقلوا بها . فأما ابن بارزان فاستفك نفسه بجملة عظيمة وبألف أسير ، واستفك ابن القومَصية أيضًا ، ومات أُوْد فى السجن[١٣] .

---

(١) ورد هذا الحدث فى سنا البرق الشامى ، ص٣٢٢ .

(٢) «بستين» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين ، جـ ٢ ق١ ، ص٢١ .

(٣) ورد هذا النص بتصرف فى البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢١ ؛ الروضتين ، جـ٢ ق١ ، ص٢١ .

(٤) «تل العاصى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٣ ؛ الروضتين ، جـ ٢ ق١ ، ص٢٢ .

(٥) قسطلان : معرب اللفظ اللاتينى (Castellanus) ومعناه مستحفظ القلعة ويقابله فى الفرنسية Châtelain والمقصود بالقسطلان هنا : صاحب المكان . السلوك . جـ١ ق٢ ، ص٥٢٤ حاشية ٣ .

(٦) لمعرفة المزيد من التفاصيل انظر : الكامل ، جـ ١٠ ، ص٩٥- ٩٦ ؛ الروضتين ، جـ ٢ ق١ ، ص٢١ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٢١ . ومن الجدير بالملاحظة أن العينى أثناء حديثه عن بيت الأحزان خلط بين أحداث ٥٧٤هـ ، ٥٧٥هـ نتيجة لنقله من مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٢٥ .

(٧) «فرسان» فى نسخة ب .

(٨) بادين بن بارزان ، هو باليان إبلين ، انظر الروضتين ، جـ ٢ ق١ ، ص٢٢ .

(٩) أودو سانت أماند . انظر رانسمان : تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٢ ، ص ٦٧٨ .

(١٠) ما بين الحاصرتين إضافة ضرورية من الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٢٢ .

(١١) هو ريموند الثالث Raymond III .

(١٢) جبيل : بلد فى سواحل دمشق شرقى بيروت . انظر : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص٣٢ .

(١٣) لمعرفة المزيد عن هذا الحدث انظر : الروضتين ، جـ ٢ ق١ ، ص٢٣ ؛ السلوك : جـ ١ ق١ ، ص ٦٨ .

وقال العماد الكاتب : لما أُسِرَ هؤلاءِ استعرضهم السلطان فى الليل ، حتى أضاءَ الفجر ، وصلى يومئذ الصبح [٢١٣ ظ] بوضوءِ العشاءِ . وقد كان السلطان جالسًا ليلتئذ[١] فى نحو العشرين ، وهم فى هذه العدة ، فسلمه الله منهم ، ثم أرسلهم[٢] إلى دمشق ، ليُعْتَقَلوا[٣] بقلعتها ، فافتدى ابن بارزان صاحبِ الرملة نفسه بعد سنة بمائة ألف دينار ، وخمسين ألف دينار صورية[٤] ، وإطلاق ألف أسير من بلاده . وكذا افتديِ جماعة منهم أنفسهم بأموال جزيلة وتحف جليلة . ومنهم من مات فى السجن فانتقل منه إلى سجِّين[٥] . واتفق أنه فى اليوم الذى ظفر فيه السلطان على الفرنج بمرج عيون هذا ، ظفر الأصطول على بَطسَة[٦] للإفرنج فى البحر وأخرى معها ، فغنموا منها ألف أسير من السبى ، وعاد إلى الساحل مؤيدًا منصورًا .

وقد امتدح الشعراء السلطانِ فى هذه الغزوة بمدائح كثيرة ، وكتب بذلك إلى بغداد ، فدقت البشائر بها فرحًا وسرورًا . وقد كان الملك المظفر تقى الدين عمر غائبا عن هذه الوقعة ، مشتغلا بما هو أعجب منها ؛ وذلك أن ملك الروم قليج أرسلان بعث يطلب حصن رَعْبَان[٧] ، وزعم أن نور الدين محمود اغتصبه منه ، وأن ولده قد أغضى[٨] له عنه ، فلم يجبه إلى ذلك السلطان . فبعث صاحب الروم عشرين ألف مقاتل يحصرونه ، فأرسل السلطان تقى الدين عمر فى ثمانمائة[٩] فارس ، منهم سيف الدين على بن أحمد

---

(١) تقديم وتأخير فى نسخة ب .

(٢) «أرسله» فى نسخة ب .

(٣) «ليعتقل» فى نسخة ب .

(٤) الدنانير الصورية أو المشخصة أو الإفرنتية ، هى الإفرنجية وتتميز عن الدنانير المصرية الإسلامية ، فى العصور الوسطى ، أن صور ملوكها منقوشة على وجوهها . انظر : صبح الأعشى ، جـ ٣ ، ص٤٤١ .

(٥) سجِّين : واد فى جهنم . انظر : المعجم الوسيط ، جـ١ ، ص٤٢٠ .

(٦) بطسة : يطلق عليها كذلك بطشة ، وهى مركب حربية كبيرة . راجع درويش النخيلي : معجم السفن الإسلامية ، ص١٤ ـ ١٧ ، القاهرة ١٩٧٩م .

(٧) حصن رَعْبَانُ : مدينة بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات معدودة فى العواصم ، وهى قلعة تحت جبل . معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص٧٩١ .

(٨) أى أنعم به عليه . انظر : الروضتين ، جـ٢ ق١ ، ص٢٥ .

(٩) فى الروضتين نقلاً عن العماد «فى ألف مقاتل» ، وقد حدد العينى قبل قليل أنه ينقل عن العماد . أما الذى ذكر أن السلطان أرسل ثمانمائة فارس فهو ابن أبى طى ، ولكن العينى لم يستكمل قول ابن أبى طى حيث ذكر أن تقى الدين عمر عندما قارب حصن رعبان «أخذ معه جماعة من أصحابه مقدار مائتى فارس» وهكذا يصبح مجموع العسكر الذى قاتل به تقى الدين عمر «ألف مقاتل» . انظر تفصيل قول كل من العماد وابن أبى طى فى الروضتين ، جـ ٢ ق١ ، ص٢٥ ؛ الكامل ، جـ ١٠ ، ص٩٧ . حيث يؤيد ما ذكره العماد «ألف فارس» .

المشطوب ، فالتقوا بهم ، فهزموهم بإذن الله . فاستقرت يد الملك الناصر صلاح الدين على حصن رعبان ، وقد كان مما عُوِّضَ به ابن المقدم عن بعلبك . وكان تقى الدين عمر يفتخر بهذه الوقعة ، ويرى أنه قد هزم عشرين ألفا ، وقيل : ثلاثين ألفا بثمانمائة . وكان السبب فى ذلك أنه بَيَّتَهُم وأغار عليهم وهم غارّون[١] ، فما لبثوا أمامَه ، بل فروا منهزمين عن آخرهم ، فأكثر فيهم القتلى ، واستحوذ على جميع ما تركوه فى خيامهم .

ثم ركب صلاح الدين فى جحافله إلى الحصن الذى كانت الفرنج قد بنوه فى سنة أربع وسبعين وخمسمائة ، وحفروا فيه بئرًا ، وسلموه إلى الداوية ، فقصده السلطان فحاصره ونقبه من جميع جهاته ، وألقى فيه النيران ، فجعله دكًا وخربه إلى الأساس ، وغنم ما فيه من الحواصل ، فكان فيه مائة ألف قطعة من السلاح ومن المأكل كل شىء ، وأخذ منه سبعمائة أسير ، فقتل بعضا ، وأرسل إلى دمشق الباقين ، ثم عاد إلى دمشق مؤيدا منصورا . غير أنه مات من أمرائه عشرة ؛ بسبب ما نالهم من الحر والوباء فى مدة الحصار ، وكانت أربعة وعشرين يومًا[٢] .

وعاد الناس إلى زيارة مشهد يعقوب (عليه السلام) على العادة القديمة ، وكان الحصن المذكور الذى بناه الإفرنج قريبا من صفد ، وكان عرض سوره عشرة أذرع ، وارتفاعه أربعون ذراعا[٣] ، وكان بيت الأحزان - الذى يزعمون أن يعقوب - (عليه السلام) - كان - ينفرد فيه ويبكى على يوسف[٤] - كنيسةً ، فجعله السلطان مسجدًا . وقد امتدحه الشعراء ، فقال بعضهم وهو أحمد بن نقادة الدمشقى :

هَلاكُ الفرنجِ أَتَى عاجِلاً وَقَدْ آنَ تَكْسِيرُ صُلْبانِها
ولو لم يكُنْ قدْ دَنا حَتْفُها لما عمَّرَتْ بيتَ أحْزانِها[٥]

---

(١) «قارون» فى الروضتين ، جـ ٢ ق ١ ، ص٢٦ .

(٢) ورد فى الروضتين ، والبداية والنهاية ، والسلوك أن مدة مقام السلطان على الحصن من حصاره إلى فتحه «أربعة عشر يومًا» . انظر : الروضتين ، جـ٢ ق١ ، ص٣٠ـ ٣١ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٤ ؛ السلوك ، جـ ١ ق١ ، ص٦٧ (طبعة ١٩٣٤) .

(٣) انظر تفصيل وصف الحصن فى الروضتين ، جـ ٢ ق ١ ، ص٣٥ .

(٤) توجد كلمة «عليه» فى الأصل وقد حذفت لاستقامة النص . وتوجد تخريجة فى هامش نسخة أ ولكنها غير واضحة القراءة .

(٥) انظر : تفاصيل تخريب هذا الحصن فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص٩٦ .

ذكر الأمور المزعجة

منها كان غلاء شديد بسبب قلة المطر(١) ، وعَمَّ العراق والشام وديار مصر ، واستمر إلى سنة خمس وسبعين ، فجاءَ المطر ، ورخصت الأسعار ، ولكن تعقب ذلك وباء شديد ، وعم البلاد مرض واحد هو [السرسام](٢) ، فما ارتفع إلا فى سنة ست وسبعين ، فمات فى ذلك الوباء خلق كثير ، وأمم لا يعلم عددهم إلا الله عز وجل .

وفى المرآة(٣) : وفى هذه السنة [٢١٤و] وقع الغلاء ببغداد والوباء ، فأكل الناس أولادهم ، وماتوا على الطرق .

ومنها أنه زلزلت أرمينية وبلاد إربل ، وتصادمت الجبال بحيث كان بين الجبلين مسافة ، فتقلعهما الزلزلة فيصطدمان ، ثم يعودان إلى مكانهما .

ومنها أنه انكسف القمر بعد ثلث الليل الأخير ، ليلة النصف من ربيع الأول(٤) ، فبقى على حاله إلى أن غاب بعد طلوع الشمس .

وانكسفت الشمس يوم الأربعاء التاسع والعشرين من ربيع الأول وقت العصر ، فبقيت إلى وقت الغروب .

وقال ابن الجوزى(٥) : وحكى لى ثقات أن الأرض زلزلت بعد العصر يوم السبت ثانى عشر ذى القعدة أربع مرات ، ولم أحس أنا بذلك .

ومنها أن امرأة ولدت فى بطن واحد ثلاثة أولاد ، ابن وبنتان ، فعاشوا بعض يوم ، وذلك فى جمادى الأولى ، قاله ابن الجوزى(٦) ، وذكر أنها فى جيرانهم .

---

(١) انظر تفاصيل هذا الغلاء فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص٩٢ .

(٢) «البرسام» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الكامل ، جـ ١٠ ، ص٩٢ ؛ الروضتين ، جـ٢ ق١ ، ص١٣ . والسرسام :ورم فى حجاب الدماغ تحدث عنه حمى دائمة . وتتبعها أعراض رديئة كالسهر واختلاط الذهن . ويبدو أنه الحمى الشوكية . انظر : المعجم الوسيط ، جـ١ ، ص ٤٢٨ .

(٣) انظر هذه الأحداث فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٢٤ .

(٤) «ربيع الآخر» فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص٩٣ .

(٥) انظر المنتظم ، جـ ١٨ ، ص٢٥٢ .

(٦) المنتظم ، جـ ١٨ ، ص ٢٤٨ .

ذكر بقية الحوادث

منها أن تاريخ ابن الجوزى انتهى فى هذه السنة ، وهو الذى سماه «كتاب المنتظم فى تاريخ الأمم» .

ومنها أن الفرنج قصدوا مدينة حماة ، وكثر جمعهم من الفرسان والرجالة ، طمعا فى النهب والغارة ، فشنوا الغارة ونهبوا وأحرقوا وأسروا وقتلوا . فلما سمع العسكر المقيمون بحماة ساروا إليهم ، متوكلين على الله تعالى لأنهم كانوا عدة قليلة ، وصدقوا القتال ، فنصرهم الله ، وانهزمت الإفرنج ، وكثر القتل والأسر ، واستردوا منهم ما غنموه . ووصل صلاح الدين إلى حماة ، وأمر بإحضار الأسارى وقتلهم ، فأحضروا وقتلوا[١] .

ومنها أن فى سلخ ذى القعدة خطب المستضىء لولده أبى العباس أحمد الناصر بإشارة جهة الخليفة بنفشة ، وكان الخليفة قد مرض فى شوال .

ومنها أن السلطان ختن ولده الملك العزيز عثمان ، فاتخذ له يوسف بن الحسين ـ ويعرف بابن المجاور ـ معلما[٢] ، وتسلم فرخشاه بعلبك .

. . . .[٣]

وفيها حج بالناس من العراق طاشتكين ، ومن الشام صفى الدين بن القايض ، وزير صلاح الدين الملك .

ذكر من توفى فى هذه السنة من الأعيان

أحمد بن عيسى بن أبى غالب أبو العباس الأبروزى الضرير[٤] ؛ قرأ القرآن ، وسمع الحديث ، وتفقه ، وناظر ، وكان فيه دين ، توفى يوم الجمعة عاشر رجب ، ودفن بمقبرة أحمد بن حنبل ـ (رضي الله عنه) ـ .

---

(١) انظر تفاصيل هذا الخبر فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص٩١ ؛ السلوك ، جـ١ ق١ ، ص٦٦ .
(٢) أورد المقريزى هذه المناسبة فى أحداث سنة ٥٧٥هـ . انظر : السلوك جـ١ ق١ ، ص٧٠ .
(٣) بياض بمقدار سطر وكلمة فى نسختى المخطوطة أ ، ب .
(٤) انظر ترجمته فى المنتظم ، جـ ١٨ ، ص٢٥٣ .

أسعد بن بلدرك[(١)] **أبو أحمد الجبريلى** ؛ سمع الحديث ، وكان شيخًا ظريفا حسن الذاكرة ، جيد البادرة ، سريع المبادرة ، توفى فى هذه السنة عن مائة سنة وأربع سنين .

محمد بن نسيم بن عبد الله أبو عبد الله الخياط ؛ عتيق الرئيس أبو الفضل بن [عبسون][(٢)] ، سمع الحديث ، وقارب الثمانين ، سقط من درجة ، فمات ، رحمه الله .

أبو الحسن على ، الملقب جلال الدين[(٣)] **بن أبى جعفر محمد** ، الملقب جمال الدين بن على بن منصور ، وكان جمال الدين هذا وزير صاحب الموصل . وقد ذكرنا ترجمته فى سنة تسع [(٤)] وخمسين وخمسمائة . وأما جلال الدين أُبو الحسن هذا فهو ابن جمال الدين ، كان من الأدباء والفضلاء البلغاء الكرماء ، وله ديوان رسائل أجاد فيه ، جمعه ابن الأثير الجزرى صاحب «جامع الأصول» ، وسماه «كتاب الجواهر واللآلىء من الإملاء المولوى الوزيرى الجلالى» . وكان ابن الأثير فى أول أمره كاتبا بين يديه ، يملى رسائله وإنشاءه[٢١٤ظ] عليه ، وقد أشار إلى ذلك فى أول كتابه هذا ، وبالغ فى وصف جلال الدين المذكور ، وفَضَّلَهُ على من تقدمه من الفصحاء ، وكان جلال الدين وزير سيف الدين غازى بن قطب الدين[مودود[(٥)]] بن عماد الدين زنكى ، وتوفى فى هذه السنة بمدينة دنيسر ، وحمل إلى الموصل ، ثم نقل إلى المدنية النبوية ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ ودفن فى تربة والده . ودُنَيْسَر بضم الدال المهملة وفتح النون وسكون الياء آخر الحروف ، وفتح السين المهملة وفى آخره راء . وهى مدينة بالجزيرة الفراتية بين نصيبين ورأس عين ، يطرقها التجار من جميع الجهات وهى مجمع[(٦)] الطرقات ، ولهذا قيل لها دُنيسَر ، وهو لفظ مركب عجمى ، وأصله دُنْياسر ، ومعناه رأس الدنيا ، وعادة العجم فى الأسماء المضافة أن يؤخروا المضاف عن المضاف إليه ، وسَرْ بالعجمى «رأس» [(٧)] .

---

(١) انظر ترجمته فى البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢١ .

(٢) «ابن عبشون» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . وما أثبتناه بين الحاصرتين من البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٢ .

(٣) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص١٤٣ـ ١٤٧ .

(٤) «سبع» فى نسخة ب .

(٥) «ممدود» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الباهر ، ص١٨٠ ؛ وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص٤ .

(٦) «ومجمع» فى نسخة ب .

(٧) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

حَيصَ بَيصَ [١] **الشاعر؛ أبو الفوارس سعد بن محمد بن سعد بن الصيفى** التميمى، الملقب شهاب الدين، المعروف بحيص بيص الشاعر المشهور، وكان فقيها شافعى المذهب، تفقه بالرى على القاضى محمد بن عبد الكريم الوزان، وتكلم فى مسائل الخلاف، إلا أنه غلب عليه الأدب ونظم الشعر، وأجاد فيه مع جزالة لفظه، وله رسائل فصيحة بليغة. ذكره الحافظ أبو سعد بن السَّمعانى فى كتاب «الذيل»، وأثنى عليه، وحدث بشىء من مسموعاته، وقرىء عليه ديوانه ورسائله، وأخذ عنه الناس أدباً وفضلا كثيرا، وكان من أخبر الناس بأشعار العرب واختلاف لغاتهم، ويقال إنه كان فيه تيه وتعاظم، ولا يخاطب أحدا إلا بالكلام العربى، وكان يلبس زى العرب ويتقلد سيفاً، وكان يزعم أنه من تميم، فسُئل أبوه عن ذلك، فقال: ماسمعته إلا منه، فقال بعض الشعراء يهجوه فيما ادعاه من ذلك:

كم تُطيلُ الطَّراطِيرَ وما … فيك شَعْرةٌ من تميم [٢]
فكُل الضَّبَّ وابلع [٣] الحنْظلَ اليا … بِسَ واشرَبْ إن [٤] شِئْتَ بَولَ الظَّليم [٥]
ليسَ ذا وجهُ مَنْ يُضيفُ ولايُقْ … ـرِى ولا يدْفَع الأَذَى عن حريمِ

ومن شعر حيص بيص المستجاد:

سلامةُ المرءِ سَاعةً عجبُ … وكل شىء [لِحَتْفِهِ] [٦] سبَبُ
يَفِرُّ والحادثاتُ تَطلبُهُ … يَفرُّ مِنْها ونحوَها الهربُ
وكيفَ يبْقَى على تَقلبِهِ … مسَلَّمًا مَنْ حياتُه عطبُ [٧]

---

(١) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان، جـ٢، ص٣٦٢ - ٣٦٥؛ الكامل، جـ ١٠، ص٩٣؛ البداية والنهاية، جـ١٢، ص٣٢١ - ٣٢٢.

(٢) كم تبادى وكم تطول طرطو … رك؟ ما فيك شعره من تميم
هكذا ورد البيت الأول فى وفيات الأعيان، جـ٢، ص٣٦٤؛ البداية والنهاية، جـ١٢، ص٣٤١.

(٣) «واقْرطِ» فى وفيات الأعيان، جـ٢، ص٣٦٤.

(٤) «ما» فى وفيات الأعيان، ج٢، ص٣٦٤.

(٥) الظليم: ذكر النعام. والجمع ظُلمان. انظر: المعجم الوسيط، جـ٢، ص٥٨٣.

(٦) «لحقه» فى نسختى المخطوطة أ، ب. والمثبت من البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٢٢.

(٧) «العطَب» فى البداية والنهاية، جـ١٢، ص٣٢٢.

ومن شعره أيضا :

لا تلبس الدهرَ على غِرَّةٍ	فيها[1] لموتِ الحيِّ مِن بُدِّ
ولا يُخادعْكَ طويلُ البَقاَ	فتحسبَ الطولَ من الخُلدِ
يقرُبُ ما كانَ لهُ آخرٌ	ما أقْربَ المهْدَ مِنَ اللَّحْدِ

وقال ابن خلكان[2] : وإنما قيل له حيص بَيْص لأنه رأى الناس يوما فى حركة مزعجة وأمر شديد ، فقال : ما للناس فى حيص بيص ، فبقى عليه هذا اللقب ، ومعنى هاتين الكلمتين الشدة والاختلاط . تقول العرب : وقع الناس فى حيص بيص ، أى فى شدة واختلاط . وتوفى ليلة الأربعاء سادس عشر شعبان سنة أربع وسبعين وخمسمائة ببغداد ، ودفن فى مقابر قريش .

شُهْدَة بنت أحمد بن الفرج بن عمر الإبرى[3] ؛يقال لها فخر النساء الكاتبة[٢١٥و] سمعت الحديث الكثير ، وكتبت الخط الحسن ، وكانت مخالطة لدار الخلافة ، وكان لها برٌّ ومعروف وصدقات ، وكانت جليلة القدر ، توفيت ليلة الاثنين الرابع عشر من محرم هذه السَّنة ، وصلى عليها بجامع المنصور ، وأزيل الشباك الذى فى مقصورة الخطابة ، فيقال أن الخليفةصلى عليها وشهدها أرباب الدولة ، ودفنت بباب أبرز ، سمعت مشايخ العراق وجعفر بن أحمد السراج ، وروت عنه مصارع العشاق ، وسمعت من طراد الزينبى وغيرهما ، وقرىء عليها الحديث سنين ، وعمّرت حتى قاربت المائة ، وذكرها ابن الجوزى[4] فى مشيخته وقال : أخبرتنا شُهدة الكاتبة بقراءتى عليها فى صفر سنة سبع وخمسين وخمسمائة . وقال السبط[5] : وروى لنا عنها جماعة ، وكانت صالحة ثقة .

---

(١) «فما» فى البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٢ .
(٢) انظر وفيات الأعيان ، جـ ٢ ، ص٣٦٥ .
(٣) وردت ترجمتها فى المنتظم ، جـ ١٨ ، ص٢٥٤ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٢٤ ؛ وفيات الأعيان ، جـ ٢ ، ص٤٧٧ ـ ٤٧٨ .
(٤) انظر : المنتظم ، جـ ١٨ ، ص٢٥٤ .
(٥) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٢٤ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الخامسة والسبعين بعد الخمسمائة★

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستضىء ، ولكنه توفى فى هذه السنة .

ذكر وفاة الخليفة

والكلام فيه على أنواع :

الأول فى ترجمته : هو أمير المؤمنين أبو محمد الحسن بن أمير المؤمنين ، يوسف المستنجد بالله بن أمير المؤمنين ، أبى عبد الله محمد المقتفى لأمر الله[1] ، وباقى النسب قد ذكرناه غير مرة ، وأمُّه أم ولد تدعى خاتون ـ كذا فى عيون المعارف .

وقال ابن كثير[2] : وأمُّه أرمنيَّة تدعى غضة[3] ، وكان مولده فى شعبان سنة ست وثلاثين وخمسمائة . بويع له بالخلافة يوم مات أبوه ، وجلس بكرة يوم الأحد تاسع ربيع الآخر سنة ستين وخمسمائة .

الثانى فى سيرته : كان جوادا عادلا ، شريف النفس ، حسن السيرة ، ليس للمال عنده قدر ، حليمًا مشفقًا على الرعيَّة ، أسقط المكوس والضرائب ، وكان متواضعا .

وقال ابن كثير[4] : وكان من خيار الخلفاء ، أمَّارًا بالمعروف ، نَهَّاءً عن المنكر ، دَرَّاءً عن الناس البِدعَ والمصائب ، وكان حليما وقورا كريما .

وفى تاريخ ابن العميد : كان عادلا جوادا مؤثرًا للخير ، أكثر من الخير والعدل ببغداد مالم يُرَ مثله فى الزمن المتطاول ، ونادى برفع المكوس والمظالم ، وردَّ أملاكا كثيرة كانت قد اغتصبت ، وفرق أموالا جزيلةً على بنى هاشم والفقهاء والصوفيّة وغيرهم ، خطب له بالديار المصرية والشامية واليمن .

★ يوافق أولها ٨ يونيو ١١٧٩م .

(١) انظر ترجمته فى شذرات الذهب ، جـ ٤ ، ص٢٥٠ .

(٢) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٢٨١ ؛ الكامل ، جـ ١٠ ، ص٩٧ ؛ تاريخ الخلفاء ، ص٤٤٤ .

(٣) «عصمت» فى البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٢٨١ .

(٤) انظر البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣٢٥ .

الثالث فى وفاته : توفى ليلة الأحد ثانى ذى القعدة من هذه السَّنة . وقال ابن كثير(١) : ولما كان يوم السَّبت سلخ شوال من هذه السنة مات الخليفة المستضىء بأمر الله ، وكان مرضه بالحمّى ، ابتدأ بها فى يوم عيد الفطر ، ولم يزل الأمر يتزايد به حتى استكمل فى مرضه شهراً ، فمات فى سلخ شوال ، وله من العمر تسع وثلاثون سنة .

وكانت مدة خلافته تسع سنين وثلاثة أشهر(٢) وسبعة عشر يوماً ، وغُسل وصلى عليه من الغد ، ودفن بدار القصر التى بناها ، وذلك عن وصيته التى أوصى بها ، وترك من بعده ولدين ، أحدهما : ولىُّ العهد عدة الدين والدنيا أبو العباس أحمد الناصر لدين الله ، والآخر : أبو منصور هاشم .

وفى تاريخ ابن العميد : وفى سنة خمس وسبعين لثلاثة مضين من جمادى الآخرة كانت وفاة المستضىء بأمر الله ، فكانت مدة خلافته تسع سنين وثمانية أيام ، أولها [٢١٥ظ] يوم الجمعة وآخرها يوم السبت ، لتتمة خمسمائة وأربع وسبعين سنة وتسعة أشهر وستة وعشرين يوما للهجرة ، ولتمام ست آلاف وستمائة وإحدى وسبعين سنة وسبعة أشهر وثلاثة أيام للعالم شمسية .

وفى المرآة(٣) : وتوفى المستضىء فى ثانى ذى القعدة عن ست وثلاثين سنة ، وكانت خلافته تسع سنين وستة أشهر وعشرين يوما ، ودفن فى داره ، ثم نقل بعد ذلك إلى تربته المجاورة لجامع عز الدولة ، وقد وزِّر له جماعة من الرؤساء .

ذكر خلافة الناصر لدين الله

أبى العباس أحمد بن المستضىء بأمر الله ، وهو الرابع والثلاثون من خلفاء بنى العباس ، بويع له يوم توفى أبوه فى سلخ شوال منها ، بايعه الأمراء والوزراء والخاصة والعامة ، وكان قد خُطب له فى حياة أبيه على المنابر قبل موته بيسير ، فقيل إنما عهد إليه قبل موته بيوم . وقيل بأسبوع ، ولكن قدَّر الله عز وجل أنه لم يختلف عليه اثنان ، ولقب بالخليفة الناصر لدين الله .

---

(١) انظر : البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٥ .

(٢) ذكر ابن الأثير أن مدة خلافته «نحو تسع سنين وسبعة أشهر» ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص٩٧ ؛ وسبط ابن الجوزى ذكرها «تسع سنين وستة أشهر وعشرين يومًا» مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٢٦ .

(٣) انظر : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٢٦ .

وقال ابن كثير[١] : ولما توفى المستضىء أرادت زوجته الجهة بنفشا أن تكتم ذلك ، فلم تُمكَّن منه ، ووقعت فتنة كبيرة ببغداد ، ونهبت العامة دورا كثيرة وأموالاً جزيلة ، فلما كان يوم الجمعة الثانى والعشرين من شوال خطب لولى العهد أبى العباس أحمد بن المستضىء ، وهو الخليفة الناصر لدين الله ، وكان يوما مشهودا ، نثر الذهب على الخطباء والمؤذنين ومن حضر ذلك عند ذكره على المنبر والتنويه باسمه .

وفى المرآة :[٢] وكانت بيعته يوم الاثنين ثانى ذى القعدة وله ثلاث أو اثنان وعشرون سنة ، وتولى أخذ البيعة له ظهير الدين بن العطار[٣] صاحب المخزن على الرغم منه ؛ لأنه كان يميل إلى أخيه الأمين أبى منصور ، خائفا من أبى العباس ، وحضر القضاة والأشراف وبنو هاشم وغيرهم ، وأخوه أبو منصور ، وضياءُ الدين بن الشهرزورى ، رسول السلطان صلاح الدين ، وبايعوه . وقبض فى ذلك اليوم على سعد الشرابى ، وكان المستضىء أراد أن يعهد إلى الأمير أبى منصور ، فقالت له بنفشا : الله الله أن تعدل عن أبى العباس ، فرأى لها ذلك ، وبعث شيخ الشيوخ عبد الرحيم وصندل الخادم إلى صلاح الدين بالبيعة . وفى يوم الجمعة سابع ذى القعدة قبض على ظهير الدين بن العطار صاحب المخزن ، وعلى مسعود النقيب .

وفى تاريخ المؤيد[٤] : وكان قد حكم فى دولة المستضىء ظهير الدين أبو بكر منصور ابن نصر المعروف بابن العطار بعد قتل عضد الدين الوزير ، فلما مات المستضىء قام ظهير الدين بن العطار وأخذ البيعة لولده الإمام الناصر لدين الله . ولما استقرت البيعة للناصر حكم أستاذ الدار مجد الدين أبو الفضل ، فقبض فى سابع ذى القعدة على ظهير الدين بن العطار ، ونُقل إلى التاج ، وأُخرج ميتا على رأس حمال ليلة الأربعاء [ثانى عشر ذى القعدة][٥] ، فثارت به العامَّة وألقوه عن رأس الحمال ، وشدُّوا فى ذكره حبلا وسحبوه

---

(١) انظر : البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٥-٣٢٦ .

(٢) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٢٥ ـ ص٢٢٦ .

(٣) هو : ظهير الدين أبو بكر منصور بن نصر ـ المعروف بابن العطار ـ المتوفى سنة ٥٧٥هـ/١١٧٩م . وسترد ترجمته بعد قليل .

(٤) انظر : المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ٦٢ .

(٥) «الثانى والعشرين من ذى القعدة» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص٦٢ ؛ أما ابن الأثير فيذكر أنها «ليلة الأربعاء ثامن عشر ذى القعدة» . انظر : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٩٨ .

فى البلد ، وكانوا يضعون فى يده مغرفة ، يعنى أنها قلم ، وقد غَمَس تلك المغرفة فى العذرة ،ويقولون : وقِّعْ لنا يامولانا ، هذا فعلهم به مع حسن سيرته فيهم ، وكفه عن أموالهم ، ثم خلص منهم ودُفِن .[٢١٦و]

وفى المرآة(١) : ابن العطار هو صاحب المخزن ، ونائب الوزارة ، واسمه منصور بن نصر بن الحسين أبوبكر ، ويلقب بظهير الدين ، وكان هو الذى تسبب(٢) لقتل الوزير ابن رئيس الرؤساء ، وكان فى عزمه أن يولى الخلافة أبا منصور ، فانخرمت عليه القاعدة ، فلما بويع الإمام الناصر لم يحضر واعتذر بالمرض ، وإنما كان به مرض القلب ، حيث تيقن الهلاك ، وقبض عليه الخليفة فى السابع من يوم بيعته ، ووكل به فى حجرة فى داره ، وقبض على أصحابه ، ونهبت دورهم ، ونهبت العامة داره وأحرقوا سقوفها ، وكانت على دجلة . فلما كانت ليلة السبت ثامن ذى القعدة نُقل إلى التاج وقُيِّد ، وأُخرج ليلة الأربعاء حادى عشر ذى القعدة ميتا ، وفيه آثار الضرب ، فسلم إلى [أخيه فغسله وكفنه](٣) . فلما كان وقت الفجر من يوم الأربعاء أخرج فى تابوت على رؤوس الحمالين ؛ ليذهبوا به إلى قبر أحمد بن حنبل ، وبلغ التابوت إلى [عقد](٤) الحديد ، فصاح بعض الناس ياعوام هذا ابن العطار الذى سلط عليكم مسعود النقيب ، فأخذ أموالكم وفعل وفعل ، ورجمه بآجُرَّة وتتابع الآجُر ، فرمى الحمالون وانهزموا ، فجردوه من الكفن ، وجعلوا فى رجله شريطا وشحطوه(٥) فى دروب بغداد ، وصاحوا عليه ياعجيل بن عجيل ، وشوهوا به(٦) ومثلوا به أقبح مثله ، وكان مسيئا إلى الخلق الخاص والعام والعسكر والرعية ، ثم أنهم جمعوا له حطباً ليحرقوه ، بعد أن قطعوه قطعا قطعا ، فركب فطرس شحنة بغداد وأراد أن يخلصه منهم ، فرجموه وقاتلوه إلى الليل ، فحجز الليل بينهم(٧) ، وبقى من لحمه قطعة ، فجاء [الناس](٨) فحملوها إلى مقابر أحمد ، فدفنوها بها .

---

(١) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٢٨ ؛ انظر أيضًا : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص٨٥ .
(٢) «سببًا لقتل» فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٢٨ .
(٣) «أخته فغسلته وكفنته» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٢٨ .
(٤) «عند» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٢٨ حيث ينقل العينى عنه .
(٥) «فشحططوه» فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٢٩ .
(٦) «وشبهوا» فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٢٩ .
(٧) «فحجز بينهم الليل» فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٢٩ .
(٨) «ناس» فى نسخة أ ؛ «وأناس» فى نسخة ب ، والمثبت بين الحاصرتين من مرآة الزمان حيث ينقل العينى عنه ، جـ٨ ، ص ٢٢٩ .

وظهير الدين[هذا][١] هو ابن الشيخ نصر بن العطار الحرانى[٢] صاحب الصدقات، والمعروف بالبر والصلات والفضائل والكرامات.

ذكر بقية الحوادث

منها أن فى ذى القعدة نزل توران شاه أخو السلطان صلاح الدين عن بعلبك، وطلب عوضها الإسكندرية، فأجابه السلطان صلاح الدين إلى ذلك، وأقطع بعلبك لعز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب، فسار إليها فرخشاه، وسار شمس الدولة توران شاه إلى الإسكندرية، وأقام بها إلى أن مات بها [٣].

ومنها أنه كانت زلزلة عظيمة انهدم بسببها قلاع كثيرة وقرى، ومات خلق كثير، وسقط من رؤوس الجبال صخور كبار، وصارت بين الجبال فى البرية مع بعد مابينها من الأقطار[٤]

ومنها أنه أصاب الناس غلاء شديد وفناء عظيم، فلله الأمر من قبل ومن بعد . . . . [٥]

وفيها حج بالناس طاشتكين من العراق، ومن الشام صفى الدين بن القايض وزير صلاح الدين [٦].

ذكر من توفى فيها من الأعيان

إبراهيم بن على أبو إسحق السلمى؛ الفقيه الشافعى المعروف بابن الفراء الآمدى[٧] ثم البغدادى، كان فقيها بارعا فاضلا مناظرا فصيحا بليغا شاعرا مطبقا، مات فى هذه السنة عن أربع وسبعين[٢١٦ظ] سنة، وصلى عليه أبو الحسن القزوينى مدرس النظامية[٨].

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من نسختى المخطوطة أ، ب. والمثبت من مرآة الزمان، جـ ٨، ص ٢٢٩، حيث ينقل العينى عنه.

(٢) هو: أبو بكر منصور بن نصر المعروف بابن العطار، لمعرفة المزيدعنه انظر: الكامل، جـ ١٠، ص٩٧- ٩٨.

(٣) نقل العينى هذا الخبر عن: المختصر، جـ ٣، ص٦٢؛ انظر أيضًا الكامل، جـ ١٠، ص ٩٨ - ٩٩؛ البداية والنهاية، جـ ١٢، ص٣٢٤.

(٤) انظر: البداية والنهاية، جـ ١٢، ص٣٢٥، حيث نقل العينى هذا الخبر عنه بتصرف.

(٥) بياض بمقدار سطر ونصف فى النسختين.

(٦) «صفى الدين بن القابض» فى الروضتين، جـ ٢ ق١ ص٤٢.

(٧) «الأموى» فى البداية والنهاية، جـ ١٢، ص٣٢٥.

(٨) عن المدرسة النظامية ببغداد، انظر السبكى: طبقات الشافعية، جـ ٣، ص ١٣٦.

إسحق وإسماعيل ابنا أبى منصور موهوب بن الجواليقى ؛ فأما إسحق ، فكنيته أبو طاهر ، ولد فى سنة تسع عشرة وخمسمائة ، وقرأ عليه ابنه الأدب والحديث ، وسمع من [ابن][1] الحصين وغيره ، ومات فى رجب ، ودفن فى باب حرب . وأما إسماعيل : فكنيته أبومحمد ، ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، وقرأ عليه ابنه الأدب ، وبرع فيه ، وسمع من [ابن][1] الحصين ، وابن السمرقندى وغيرهما ، وأقرأ الأدب بعد أبيه ، وروى عنه جماعة منهم عبد العزيز بن الأخضر ، وكان يثنى عليه ويقول : هو فى النسك والعبادة أبلغ من أبيه .

وقال ابن كثير[2] : لقب إسماعيل المذكور حجة الإسلام ، أحد أئمة اللغة فى زمانه ، والمشار إليه من بين أقرانه بحسن الدين ، وقوة اليقين ، وعلم اللغةوالنحو ، وصِدْق اللهجة ، وخلوص النية ، وحسن السيرة .

المبارك بن على بن الحسين[3] بن عبد الله بن محمد أبو محمد بن الطباخ البغدادى ؛ نزيل مكة ومجاورها ، وحافظ الحديث بها ، والمشار إليه بالعلم فيها ، مات فى هذه السنة ، وكان يوم جنازته يوما مشهودا .

محمد بن الحسين أبو الفرج الهيتى ؛ وُلد بهيت[4] سنة خمس وتسعين وأربعمائة ، وسكن بغداد ، وكان فاضلا ، له نظم ونثر ، فمن النظم :

يارَاقِداً أَسْهَرَ لى مُقلةً [عَزِيزةً][5]عندى وأبْكاها
ماآَن للهجران أَنْ ينقَضىِ عن مُهْجةٍ هَجْرُكَ أضنَاها
إنْ كُنتَ ماترحَمنى فَارتَقِبْ ياقَاتِلى فى قَتْلِى اللَّهَ

---

(١) (١) «أبى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٢٦ .

(٢) البداية والنهاية ، جـ ١١ ، ص٣٢٥ ؛ شذرات الذهب ، جـ ٤ ، ص ٢٤٩ـ ٢٥٠ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٢٦ .

(٣) «الحسن» فى البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٢٦ ؛ انظر ترجمته أيضًا فى الشذرات ، جـ ٤ ، ص٢٥٣ـ ٢٥٤ ؛ الذهبى : العبر ، جـ ٤ ، ص ٢٢٦ .

(٤) هِيتُ : سميت هيت لأنها فى هوة من الأرض . وهى بلدة على الفرات من نواحى بغداد فوق الأنبار . وبها قبر عبدالله بن المبارك . انظر : معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص٤٢٠ ـ ٤٢١ (ط بيروت ـ دار صادر) .

(٥) «غريرة» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٢٧ .

ومن النثر : من كان الصمت شجرته ، كانت السلامة ثمرته . فى احتراز اللبيب مايغنيه عن الطبيب . من ترك المِرا استمال الورى . وكانت وفاته فى شعبان ، ودفن بباب حرب ، سمع عبد الوهاب الأنماطي وغيره ، وروى عنه مشايخ السبط(١) .

محمد بن محمد بن عبد الكريم أبو الفرج بن الأنبارى ؛ كاتب الإنشاء بديوان الخليفة ، ولد سنة سبع وخمسمائة ، وهو من بيت الرئاسة والكتابة ، ناب فى الديوان من حين توفى والده سديد الدولة سنة ثمان وخمسين وخمسمائة إلى هذه السنة ، وكانت وفاته فى ذى القعدة ، وصلى عليه بجامع القصر ، ودفن عند والده بمقابر قريش ، سمع أبامحمد بن أحمد السمرقندى وطبقته ، وكان فاضلا عاقلا نزها عفيفا .

محمد بن على بن أحمد بن على بن محمد أبو الفتح الدامغانى بن قاضى القضاة [أبى الحسن](٢) ؛ من بيت الرئاسة والفضل والقضاء ، استنابه أبوه فى القضاء ، وكان فاضلاً نزها عفيفاً ، توفى وهو شاب فى شوال ، ودفن بنهر القلائين ، وبها كانت منازلهم .

علم بنت عبد الله بن المبارك ؛ زوجة الزبيدى شيخ الوزير ابن هبيرة ، كانت تضاهى رابعة العدوية ، تقرأ القرآن ، ولاتفتر من الذكر ، ولم يكن فى زمانها مثلها ، وكانت صابرة على الفقر ورعة ، توفيت ببغداد ، وعمرها(٣) مائة سنة وست سنين ، لم يتغير عليها من حواسها شىء ، بل كأنها يوم ولدت . وفى المرآة(٤) : مرض ولدها أحمد بن الزبيدى ، فاحتضر ، وجاء وقت الصلاة فقالت : يابنى ادخل فى الصلاة ، فدخل وكبر فمات ، فخرجت إلى النساء وقالت : هنيننى . قلن : بماذا؟ قالت : مات ولدى فى الصلاة ، رضى الله عنها وعن ولدها .

---

(١) نقل العينى هذه الترجمة من مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص٢٢٧ .
(٢) ما بين الحاصرتين إضافة للإيضاح من مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٢٨ .
(٣) «لها» فى نسخة ب .
(٤) انظر مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص٢٢٧ ؛ النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص٨٥ .

[٢١٧و] فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة السادسة والسبعين بعد الخمسمائة★

استهلت هذه السنة والخليفة هو الإمام الناصر لدين الله العباسى ، وسلطان مصر والشام الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وصاحب حلب الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود ، وصاحب الروم - صاحب قونية وأقصراى - قليج[١] أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان ، وصاحب مملكة العجم ابن بهلوان ، وصاحب الغورية ابن سام ، وصاحب الموصل والجزيرة غازى بن مودود ، وصاحب خلاط شاهرمَنْ ، وصاحب ماردين أيلغازى بن نجم الدين إلبى ، وصاحب حصن كيفا وآمد نور الدين محمد بن قرا أرسلان ، وصاحب إربل زين الدين يوسف بن على كوجك ، وصاحب مكة الأمير داود بن عيسى بن محمد بن أبى هاشم ، وصاحب الغرب أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، وصاحب غزنة شهاب الدين الغورى .

ذكر ماجريات صلاح الدين رحمه الله

منها أنه سار بعساكره إلى أن وصل [إلى][٢] رَعْبَانَ ؛ منجداً نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا على قليج أرسلان «بن»[٣] مسعود ملك الروم ، وسبب ذلك أن نور الدين بن قرا أرسلان تزوج بابنة قليج أرسلان ، ثم أحب مغنية وتركها[٤] نسيا منسيا ، فشكت حالها إلى أبيها ، فعزم على قصد بلاده ، فأرسل نور الدين إلى صلاح الدين ؛ يستنجده ويسأله كف يد قليج أرسلان ، فأرسل صلاح الدين إلى قليج أرسلان فى ذلك ، فأعاد الجواب : إننى كنت عند تزويجه ابنتى دفعت إليه عدة حصون ، ولابد من إعادتها إلىَّ . وكان صلاح الدين قد هادن الفرنج ، فسار فى عساكره نحو بلاد قليج أرسلان ، وهى ملطية وسيواس وقونية ومابينها ، فلما سمع قليج أرسلان بقربه منه ، أرسل

★ يوافق أولها ٢٨ مايو ١١٨٠م .

(١) «قلج» فى الكامل ، جـ١٠ ، ص١٠١ .

(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من نسخة أ . والمثبت من نسخة ب .

(٣) ما بين الأقواس ساقط من ب .

(٤) يذكر ابن الأثير : «أنه أحب مغنية فتزوجها ، ومال إليها ، وحكمت فى بلاده وخزائنه ، وأعرض عن ابنة قلج أرسلان ، وتركها نسيًا منسيًا» . الكامل ، جـ١٠ ، ص١٠١ .

إلى بعض أمرائه ، وذكر له بعض الحديث الذى جرى منه ، فقال صلاح الدين للرسول : قل لصاحبك : لئن لم يرجع عن بلاده ، لأسيرن إلى ملطية ، ولا أنزل عن فرسى إلا فى البلد[١] . وكان الرسول قد عاين جيشا عظيما ، وكان عاقلا أديبًا ، فقال لصلاح الدين : أريد أقول للسلطان كلاما لم يرسلنى به أستاذى ، فقال له : قل ، فقال : تعطينى الأمان . فقال : قل وأنت آمن . فقال : يامولانا أمَا هو قبيح بمثلك ، وأنت أعظم السلاطين قدرًا وأكبرهم شأنًا ، أن يسمع الناس عنك أنك صالحت الفرنج ، وتركت الغزو ومصالح المملكة ، وأعرضت عن كل مافيه صلاح لك ولرعيتك وللمسلمين عامة ، وخسرتَ أنت وعسكرك الأموال العظيمة ؛ لأجل قحبة مغنية ، مايكون عذرك عند الله تعالى ، ثم عند الخليفة وملوك الإسلام وكافة العالم؟ وهَبْ أن أحداً مايواجهك بهذا ، أمَا يعلمون أن الأمر كذا ، ثم احسب أن قليج أرسلان مات ، وهذه ابنته قد أرسلتنى إليك ؛ تستجيرُك وتسألك أن تنصفها من زوجها ، فإن فعلتَ فهو الظن ، وإن لم يكن أفيَحْسُنُ بك أن تردَّها . [٢١٧ظ] فقال صلاح الدين : الحق بيدك ، وإن الأمر لكما تقول ، ولكن هذا الرجل دخل على ، واستجار بى ، ويقبح بى تركه ، ولكنى أجتمع به وأصلح الحال بينكم على ماتحبون ، وأعينكم عليه[٢] ، ووعد من نفسه بكل جميل . واجتمع الرسول بنور الدين بن قرا أرسلان ، وتردد القول بينهم ، فاستقر له أنه يخرج المغنية بعد سنة ، وإن لم يفعل ينزل صلاح الدين عن نصرته ، ويكون هو وقليج أرسلان عليه .

ولما تقرر الحال على ذلك قصد صلاح الدين بلاد ابن لاون ، وذلك أنه كان قد استمال قوماً من التركمان ، وبذل لهم الأمان[٣] ، وأمرهُم أن يرعوا مواشيهم فى بلاده ، وهى بلاد حصينة منيعة كثيرة الوعر ، ثم غدر بهم ، وسبى حريمهم ، وأخذ أموالهم ، وأسر رجالهم ، وقتل منهم جماعة ، فنزل صلاح الدين على النهر الأسود[٤] ، وبث بلاده ، فخاف ابن لاون على حصن له على رأس جبل أن يؤخذ ، فخرّبه وأحرقه ، وهو يسمى

---

(١) «الباب» فى نسخة ب .

(٢) ورد هذا النص بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٠١-١٠٢ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٤٧ ؛ سنا البرق الشامى ، ص٣٤٥-٣٤٦ .

(٣) «الأموال» فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص١٠٣ .

(٤) النهر الأسود : هو نهر قريب من النهر الأزرق فى طرف بلاد المصيصة وطرسوس . معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص٨٣٢ .

حصن النِّقير(١) ، وسمع صلاح الدين بذلك فأسرع السير ، فأدركه قبل أن ينقل مافيه من ذخائر وأقوات فغنمها ، وانتفع المسلمون بما غنموه ، فأطلق ابن لاون من عنده من أسرى التركمان ، وأعاد السبى والأموال .

وعاد صلاح الدين وتوجه إلى مصر ومعه الملك الظاهر غازى والملك العزيز ولداه ، واستخلف على الشام ودمشق عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أخيه (٢) .

ومنها أن فى رجب قدمت رسل الخليفة الناصر لدين الله ومعهم خلع وهدايا إلى الملك الناصر صلاح الدين ، فلبس السلطان خلع الخليفة بدمشق ، وزينت له البلاد ، وكان يوما مشهودًا(٣) .

وفى المرآة(٤) : وفيها وصل شيخ الشيوخ وصحبته رسول الخليفة إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ومعهما خلع وهدايا فلبس السلطان الخلع بدمشق ، وزينت له المدينة ، وكان يوماً مشهودا .

ومنها أن السلطان سار من الشام إلى الديار المصرية ، لينظر فى أحوالها وأمورها ، ويصوم بها رمضان ، ومن عزمه أن يحج عامه ذلك إلى بيت الله الحرام ، واستناب على الشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب . وكتب القاضى الفاضل عن الملك العادل أبى بكر نائب مصر إلى أهل اليمن ومكة ؛ يعلمهم بعزم السلطان على الحج فى هذا العام إلى المسجد الحرام ، ليتأهبوا للملك ، ويهتموا به . واستصحب السلطان معه صدر الدين أبا القاسم عبد الرحيم شيخ الشيوخ ببغداد ، الذى قدم فى الرسلية من جهة الخليفة ؛ ليكون فى خدمته إلى الديار المصرية ، وفى صحبته إلى الحجاز الشريف ، فدخل السلطان مصر ، وتلقاه الجيش ، وكان يوما مشهودا . وأما صدر الدين فإنه لم يقم بها إلا قليلا ، حتى توجهه إلى الحجاز الشريف فى البحر ، فأدرك الصيام بالمسجد الحرام(٥) .

---

(١) «قلعة شامخة تعرف بالمانقير» فى الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص ٤٨ . وبالرجوع إلى القواميس الجغرافية لم نعثر له على ذكر سواء تحت لفظ النقير أو المانقير .
(٢) ورد هذا النص بتصرف فى الروضتين ، جـ ٢ ق١ ، ص٥٩ ؛ النوادر السلطانية ، ص٥٤ .
(٣) انظر : البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣٢٧ .
(٤) انظر : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٢٩ .
(٥) ورد هذا النص بتصرف فى الروضتين ، جـ ٢ ق١ ، ص ٥٨ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٧ـ ٣٢٨ .

وفى المرآة[١] : وإنما ركب شيخ الشيوخ البحر من مصر ، ومضى إلى مكة ؛ لنذر كان عليه ، وأقام إلى أيام الموسم ، وحج وعاد إلى بغداد[٢] .

ذكر بقية الحوادث

منها أن عرب سُليم[٣] نافقت [٢١٨و] بالبحيرة ، واجتمعوا فى ستة آلاف فارس ، فخرج إليهم أبو الهيجاء السمين فى ألفى فارس ، فكسرهم ونهبهم .

ومنها أن أبا يعقوب يوسف بن عبد المؤمن[٤] سار إلى إفريقية ، وملك قَفْصَة[٥] ، وكان سبب ذلك أن صاحبها على بن المعز بن المعتز لما رأى دخول الترك إلى إفريقية واستيلاءهم على بعضها ، وانقياد العرب [إليهم][٦] ، طمع فى الانفراد عن يوسف ، والاستبداد دونه ؛ لأنه كان فى طاعته ، فأظهر ما فى نفسه وخالفه ، وأظهر العصيان ، ووافقه أهل قفصَة ، فقتلوا كل من كان عندهم من الموحدين أصحاب أبى يعقوب ، وكان ذلك فى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، [فأرسل والى بجاية][٧] إلى يوسف[٨] بن عبد المؤمن [يخبره][٩] باضطراب أمور البلاد واجتماع العربان إلى قراقوش التركى ، ودخوله إفريقية ، واستيلائه ، فشرع يوسف[١٠] فى سَد الثغور التى يخافها بعد مسيره ، ثم تجهز وجمع العساكر ، وسار إلى إفريقية ، ونزل على مدينة قفصة وحصرها ثلاثة أشهر ؛ لأنها مدينة حصينة ، وأهلها أنجاد ، وقطع أشجارها . ولما اشتد على صاحبها على بن المعتز الأمر ، خرج منها مختفيا لم يدر به أحد من أهل البلد ، وسار إلى خيمة يوسف ، وعرَّف

---

(١) مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٢٩ .

(٢) مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٢٩ .

(٣) عرب سُلَيْم : بطن من جُذام ، من القحطانية ، انظر عمر كحالة : معجم قبائل العرب ، ج٢ ، ص٥٤٠ .

(٤) هو أبو يعقوب يوسف بن أبى محمد عبد المؤمن بن على القيسى الكومى صاحب المغرب ، تولى زعامة الدولة الموحدية من سنة ٥٥٨هـ - ٥٨٠هـ/١١٦٣-١١٨٤م ، توفى سنة ٥٨٠هـ . وفيات الأعيان ، ج ٧ ، ص١٣٠-١٣٨ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص٣٧١ حاشية ٤ .

(٥) قفصة : بلدة صغيرة فى طرف إفريقيا من ناحية المغرب من عمل الذاب الكبير ، بينها وبين القيروان ثلاثة أيام . معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص١٥١ .

(٦) «إليها» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الكامل ، ج١٠ ، ص١٠٣ .

(٧) «فأرسلوا إلى بجاية» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والتصحيح من الكامل ، ج١٠ ، ص١٠٣ ، وهذا يتسق مع النص التاريخى .

(٨) «أبى يوسف» فى نسخة ب .

(٩) «يخبرونه» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الكامل ، ج١٠ ، ص١٠٣ .

(١٠) «أبو يوسف» فى نسخة ب .

الحاجب أنه قد حضر إلى أمير المؤمنين ، فدخل الحاجب وأعلم يوسف به ، فعجب منه كيف أقدم على الحضور عنده بغير عهد ! ، وأمر بإدخاله عليه ، فدخل وقبَّل يده ، وقال : قد حضرت إلى أمير المؤمنين ؛ أطلب العفو عنى وعن أهل بلدى ، وأن يفعل ماهو أهله ، واعتذر إليه ، فَرَقَّ له وعفا عنه وعن أهل البلد ، وتسلمها أول سنة ست وسبعين ، وسير على بن المعز صاحبها إلى بلاد المغرب ، فكان فيها مكرماً عزيزاً ، وأقطعه ولاية كبيرة ، ورتب يوسف بقفصة طَائفة كبيرة من أصحابه ، وحضر مسعود بن زمام أمير العرب إليه ، فعفا عنه وسيره إلى مراكش[1] ، وسار يوسف إلى المهدية[2] ، فأتاه بها رسول صاحب صقلية ؛ يلتمس الصلح منه ، وهادنه عشر سنين ، وعاد يوسف إلى المغرب مسرعاً ، لأن بلاد إفريقية كانت مجدبة ، فتعذر القوت والعلف على عسكره ، فرحل عنها[3] .

ومنها أن امرأة قدمت إلى القاهرة وهي عديمة اليدين ، وكانت تكتب برجليها كتابة حسنة ، فحصل لها مال جزيل من الملوك والخواتين[4] ، فقال العماد الكاتب :

أُخْمِلتُ[5] فى مِصر ومَنْ يلتمسْ　　غِناهُ فى غربتِه يخْمُلِ
كتابتى قَدْ كَسَدتْ سُوقها　　وحِيلَتى بارَتْ ولم أعْطُلِ[6]
كيف يَبِينُ الفضْلُ فى بلدةٍ　　نِساؤُها يكتُبْن بالأَرْجُلِ

ومنها أن قراقوش التقوى سار إلى بلاد المغرب ، فحاصر قابس[7] وقلاعا كثيرة حولها ، واستحوذ على أكثرها ، فاتفق أنه أسر من بعض الحصون غلاماً أمرد[8] ، فأراد

---

(١) مَرّاكُشُ : أعظم مدينة بالمغرب ، فى وسط بلاد البربر ، أول من اختطها يوسف بن تاشفين من الملثمين فى حدود سنة ٤٧٠هـ/١٠٧٧م ، بينها وبين جبل دَرَن ثلاثة فراسخ ، وهو فى جنوبها . معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٤٧٨ .

(٢) المَهْدِيّة : فى موضعين ، إحداهما بإفريقية والأخرى اختطها عبد المؤمن بن علىّ قرب سلا ، والتى بإفريقية منسوبة إلى المهدى ، وبينها وبين القيروان مرحلتان ، والقيروان فى جنوبها على ساحل البحر المتوسط ، معجم البلدان ، ج٤ ، ص٦٩٣ .

(٣) نقل العينى هذا النص بتصرف من الكامل ، ج١٠ ، ص١٠٤ .

(٤) نقل العينى هذا النص بتصرف من النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٨٦ .

(٥) خمل : أى لم يعرف أو يذكر ، انظر مادة «خمل» ، المعجم الوسيط ، ج١ ، ص٢٥٦ .

(٦) «أغطل» فى نسخة ب .

(٧) قابسُ : مدينة بين طرابلس وصفاقص ثم المهدية ، على ساحل البحر من أعمال إفريقية . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣ .

(٨) كذا فى الأصل والروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٦٣ ؛ «أسود» فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ٣٢٨ .

قتله ، فقال له أهل الحصن : لا تقتله ، وخذ لك عشرة آلاف دينار ، فأبى ، فوصَّلوه إلى مائة ألف دينار ، فأبى إلاقتله فقتله ، فلما قتله نزل صاحب الحصن وهو شيخ كبير «ومعه مفاتيح ذلك الحصن ، فقال له : خذ هذه فإنى شيخ كبير»[١] وإنما كنت أحفظه لأجل هذا الصبى الذى قتلته ، ولى أولاد أخى أكره أن يملكوه بعدى ، فأقره فيه ، وأخذ أموالا كثيرة[٢] .

ومنها أن الخليفة ابتدأ فى هذه السنة بعمارة المسناة [٣] فى الجانب الغربى من بغداد ، وهى قائمة إلى هلم جرا .

ومنها أنه ابتدأ بعمارة تربة المستضىء المجاورة لجامع فخر الدولة . وتولى عمارتها ابن الصاحب أستاذ الدار ، ونقل تابوته إليها .

وفيها . . . .[٤] .

وفيها حج بالناس من العراق طاشتكين ، ومن الشام سيف الدين على المشطوب .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

مبارك بن على بن الحسين بن الطباخ أبو محمد البغدادى[٥] ؛ نزيل مكة ، أقام بها أربعين سنة يؤم الناس ، حطيم لا يراه أحد فى غير المحرم ، ويعتمر كل يوم ويتعبد ولايراه أحد ، فتوفى فيها بشوال ، ودفن بالمعلى ، سمع أبا القاسم بن الحصين وطبقته ، وكان صالحاً ثقة .

[**سعيد**][٦] **بن عبد الله بن القاسم** : أخو كمال الدين الشهرزورى قاضى الشام ، وهذا أصغر أخوة كمال الدين ، ولد سنة ست وخمسمائة ، وكنيته أبو الرضى ، قدم بغداد وتفقه بها ، وسمع شيوخها ، وخرج إلى خراسان ، فأقام عند محمد بن يحيى النيسابورى[٧] مدة

---

(١) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٢) ورد هذا النص فى الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٦٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص ٣٢٨ .

(٣) «المسماة » فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٢٩ . وقال السبط أنها تسمى دار بير .

(٤) بياض بمقدار سطر .

(٥) انظر ترجمته فى شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٥٣ ـ ٢٥٤ ، فى وفيات سنة ٥٧٥هـ .

(٦) «سعد» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص٨٥ ، ص٣١٢ ؛ طبقات الشافعية ، ج٤ ، ص٤١ ، ط . المطبعة الحسينية المصرية . وهو القاضى فخر الدين أبو الرضى سعيد بن عبد الله بن القاسم ابن المظفر الشهرزورى .

(٧) هو : أبو سعد محمد بن يحيى بن أبى منصور النيسابورى الملقب محى الدين الفقيه الشافعى ، توفى فى رمضان سنة ٥٤٨هـ/١٠٥٦م . وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٢٢٣ـ ص٢٢٤ .

فكان يحترمه ويقول : هذا من بيت الرياسة والفضل ، ثم عاد إلى الموصل ، وقد برع وصار أَوجَهَ أهل بيته ، وقدم رسولا من الموصل إلى بغداد مراراً ، وتوفى بالموصل ، وكان ثقة جليلا نبيلا .

أحمد بن محمد أبو المظفر البغدادى ؛ ولد سنة عشر وخمسمائة فى شعبان ، وسمع الحديث الكثير ورواه ، وبنى مسجدا ببغداد فى درب الرياحين يعرف به ، وهو قائم إلى هلم جرًّا ، وتوفى بالمخزن محبوسا بعدما ذهب بصره ، ودفن بباب حرب ، سمع أبا القاسم بن الحصين ، وابن السَّمرقندى ، وقاضى المارستان ، وغيرهم ، وكان صالحاً ثقة .

السِّلَفى أحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم سِلَفة الأصفهانى ، الملقب صدر الدين أبو الطاهر السلفى[١] ؛ أحد الحفاظ المكثرين ، رحل فى طلب الحديث ، ولقى أعيان المشايخ ، وكان شافعى المذهب ، ورد بغداد واشتغل بها على الكيَا أبى الحسن «على»[٢] الهراسى[٣] فى الفقه ، وعلى الفقيه الخطيب أبى زكريا يحيى بن على التبريزى اللغوى فى اللغة ، وروى عن أبى محمد جعفر بن السراج وغيره من الأئمة الأماثل ، وجاب البلاد ، وطاف الآفاق ، ودخل ثغر الإسكندرية فى ذى القعدة سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، وكان قدومه إليها فى البحر من مدينة صُور ، وأقام بها ، وقصده الناس من الأماكن البعيدة ، وسمعوا عليه وانتفعوا به ، ولم يكن له مثل فى آخر عمره فى عصره ، وبنى له العادل أبو الحسن على بن سلار - وزير الظافر العبيدى صاحب مصر - فى سنة ست وأربعين وخمسمائة مدرسة بالثغر المحروس المذكور ، وفوضها إليه ، وهى معروفة به إلى الآن[٤] .

وقال ابن خلكان[٥] : أدركتُ جماعة من أصحابه بالشام والديار المصرية ، وسمعت عليهم وأجازونى ، وكان كتب الكثير ، ونقلتُ من خطه فوائد جَمة ، ومن جملة مانقلت من خطه لأبى عبد الله محمد بن عبد الجبار الأندلسى [٢١٩و] عن قصيدة :

---

(١) هو أبو طاهر السلفى الحافظ أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم الأصبهانى الحروانى ، وحروان محلة بأصبهان . وسِلفة بكسر السين المهملة لقب جده أحمد ومعناه شقوق الشفة . وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص١٠٥ - ١٠٧ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٢٨- ٣٢٩ ؛ شذرات الذهب ، جـ ٤ ، ص٢٥٥ .

(٢) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٣) انظر ترجمته فى وفيات٨ الأعيان ، جـ ٣ ، ص٢٨٦ .

(٤) ينقل العينى هنا عن وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص١٠٥ .

(٥) وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص١٠٥ .

لَوْلا اشْتغالى بالأميرِ ومَدْحِه لأَطلْتُ فى ذاك الغزالِ تَغَزُّلِى
لَكنَّ أَوصافَ الجلالِ عَذُبْنَ لِى فَتَركتُ أوصافَ الجمالِ بمَعْزِلِ

وكان كثيراً [ما][1] ينشد :

قالوا نفوسُ الدَّارِ سكانُها وأنتم عندى نفوسُ النُفوسِ[2]

وأماليه وتعاليقه كثيرة ، وكانت ولادته سنة اثنتين وسبعين وأربعمائة تقريبا بأصفهان ، ويقال : مولده سنة ثمان وسبعين . والله أعلم ، وتوفى ضحوة نهار الجمعة ، وقيل : ليلة الجمعة خامس شهر ربيع الآخر سنة ست وسبعين وخمسمائة بثغر الإسكندرية ، ودفن فى وَعْلة[3] ، وهى مقبرة داخلِ السور عند الباب الأخضر ، فيها جماعه من الصالحين كالطرطوشى وغيره (رضى الله عنهم) . وقد ترجمه الحافظ ابن عساكر فى تاريخه ترجمةً حسنةَ وإن كان قد مات قبله بخمس سنين ، فذكر رحلته فى طلب الحديث ، ودورانه للأقاليم ، وأنه كان يتصوف أولا ، ثم أقام بالإسكندرية ، وتزوج امرأة ذات يسار ، فحسنت حاله ، ووقفت عليه مدرسة هنالك[4] ، وذكر طرفاً من أشعاره ، منها قوله :

أَتأْمنُ إلمامَ المنيةِ بغْتةً وأمْنُ الفَتَى جُهلٌ ولو[5]خَبَرَ الدَّهرَا
وليسَ يحُابِى الدَّهرُ فى دَوَرَانهِ أراذِلَ أهليهِ ولا السادةُ الزُّهْرا
وكيفَ وقد ماَت النبى[ﷺ] وصَحبُه وأزواجُه طرًا وفاطمةُ الزهْرَا

ومن شعره الذى أورده ابن عساكر قوله :

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٠٦ ، حيث ينقل العينى عنه .
(٢) أورد ابن خلكان هذه الأبيات فى وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٠٦ .
(٣) وَعْلة : بفتح الواو وسكون العين المهملة وبعدها لام ثم هاء ، ويقال إن هذه المقبرة منسوبة إلى عبد الرحمن ابن وعلة السَّبَئِيِّ المصرى صاحب ابن عباس . انظر : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٠٦ .
(٤) راجع ترجمته فى : شذرات الذهب ، ج ٤ ، ص ٢٥٥ .
(٥) «وأمن الفتى جهلها وخبر الدهرا» كذا فى نسخة ب .

ياقـاصِـدًا علمَ الحـديثِ يَذُمُّـهُ		إِذْ ضَلَّ عن طُرْقِ الهـدايةِ وَهْمُـهُ
إِنَّ العلومَ كـمـا عَلِمْتَ كـثـيـرةٌ		وأجَلُّهَـا فِـقْـهُ الحـديثِ وعِلْمُـهُ
مَنْ كـانَ طالِبُـه وفـيـه تيَـقُّظٌ		فـأتمُّ سَهْمٍ فى المعانى سَهْمُهُ
لَوْلاَ الحـديثُ وأهلُه لم يسْتَـقِمْ		دينُ النبىِّ وَشَـذَّ عَنَّا حُكْمُـهُ
وإذا اسْتَـرابَ بقـولِنا مُـتَحَـذْلِقٌ		فَأَكَلٌّ[1] فَهْمٍ فى البسيطةِ فَهْمُهُ

والسِّلَفِىّ بكسر السين المهملة وفتح اللام وكسر الفاء ، نسبة إلى سلفة ، لقب جده إبراهيم . وفى المرآة[2] : لقب جده أحمد كان يعرف به ، ويلقب به ؛ وذلك لأن شفته الواحدة كانت مشقوقة ، فصارت مثل الشفتين ، غير الأخرى الأصلية ، فقالوا له بالعجمية : سِه لَبَهْ ، فلفظ سه هو الثلاثة بالعَجمى ، ولب هو الشفة ، فلما عربوه قالوا : سِلفَة . أسقطوا الهاء من سه ، وأبدلوا الباء فى لبه فاءً ، فقالوا : سلفة . والنسبة إليه السلفى[3] . وَوَعْلَة بفتح الواو وسكون العين المهملة وبعدها لام وفى آخرها هاء ، وهى مقبرة منسوبة إلى عبد الرحمن بن وَعْلة السبئى المصرى صاحب ابن عباس ، وقيل غير ذلك .

سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى بن آقسنقر ؛ صاحب الموصل ، تقلد المملكة بعد وفاة أبيه مودود ، وهو والد سنجر شاه ، صاحب جزيرة ابن عمر[4] ، أقام فى الملك عشر سنين وشهوراً ، وأصابه مرض مزمن ، وتوفى يوم الأحد ثالث صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة ، وتولى بعده أخوه عز الدين مسعود[5] .

---

(١) «فاء كل» فى نسخة ب .
(٢) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٣٠ .
(٣) ورد هذا النص بتصرف فى وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص ١٠٧ .
(٤) جزيرة ابن عمر : مدينة صغيرة على دجلة من غربيها وشمالى الموصل . انظر : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٧٩ ؛ تقويم البلدان ، ص٢٨٣ .
(٥) ورد هذا النص بتصرف فى الروضتين ، جـ٢ ق١ ، ص٥٢ ـ ٥٥ ؛ الباهر ، ص١٨٠ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٣١-٢٣٢ .

[٢١٩ظ] وقال ابن كثير(١) : وكان سيف الدين غازى المذكور شابا حسنًا مليح الشكل تام القامة ، مدور اللحية ، مكث فى الملك عشر سنين ، ومات عن ثلاثين سنة ، وكان عفيفا فى نفسه ، مهيبا وقوراً ، لا يلتفت إذا ركب ولا إذا جلس ، غيوراً لا يدع أحداً من الخدام يدخل على النساء ، وكان لا يقدم على سفك الدماء ، وينسب إلى شىء من البخل ، فأجلس مكانه فى المملكة أخاه عز الدين مسعود ، وجعل مجاهد الدين قيماز نائبه ومدبر مملكته . وجاءت رسل الخليفة يلتمسون من صلاح الدين أن يبقى سروج(٢) والرها والرقة ، وحران والخابور ونصيبين فى يده ، كما كانت فى يد أخيه ، فامتنع السلطان من ذلك ، وقال : هذه البلاد هى حفظ [ثغور](٣) الإسلام ، وإنما كنت تركتها فى يده ؛ ليساعدنا على غزو الإفرنج ، فلم يكن يفعل ذلك ، وكتب إلى الخليفة يعرفه بذلك .

وفى تاريخ بيبرس : وكان مرض غازى السل ، وأراد أن يعهد بالملك إلى ابنه الأكبر معز الدين سنجرشاه ، وكان عمره حينئذ اثنتى عشرة سنة ، فخاف من صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ولم يجبه أخوه مسعود إلى ذلك ، فأشار عليه أكابر دولته بأن يجعل الملك فى أخيه عز الدين مسعود ، وأن يجعل لولديه بعض البلاد ، وأن يكون مرجعهما إلى عز الدين عمهما ، والمتولى لأمرهما مجاهد الدين قيماز ، ففعل ذلك ، وأعطى جزيرة ابن عمر وقلاعها لولده سنجر شاه ، وقلعة الحميدية(٤) لولده الصغير ناصر الدين ، وكان مجاهد الدين قيماز الحاكم فى الجميع .

وقال ابن الأثير(٥) : كان قد علق به سل ، وطالت علته ، وأجدبت البلاد قبل موته ، وخرج الناس يستسقون ، وخرج سيف الدين معهم ، فاستغاث إليه الناس ، وقالوا : كيف يستجاب لنا والخمور والخواطىء والمظالم بيننا؟! فقال : قد أبطلتها . ورجعوا إلى البلد

---

(١) ورد هذا النص بتصرف فى البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٦ ؛ الباهر ، ص١٨٠ ؛ الروضتين جـ ٢ ق١ ، ص٥٤ ـ ٥٥ .
(٢) سروج : بلدة قريبة من حران من ديار مضر . معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٨٥ .
(٣) «ثغر» فى نسخة أ ، والمثبت من نسخة ب .
(٤) قلعة الحميدية : قلعة حصينة فى جبال الموصل ، أهلها أكراد ، وتقع شرقى الموصل . انظر : معجم البلدان جـ ٣ ، ص٦٩٦ ؛ تقويم البلدان ، ص٢٧٤ ؛ الباهر ص ٤٨ حاشية (٥) .
(٥) انظر : الباهر ، ص١٨٠ ـ ١٨١ ؛ كما ورد النص بتصرف فى الروضتين ، جـ ٢ ق١ ، ص٥٣ ـ ٥٤ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٣١ ـ ٢٣٢ .

وفيهم رجل صالح يقال له : أبو الفرج الدقاق ، فأحرق الخمور لاغير ، ونهب العوام دكاكين الخمارين ، فاستدعى الدقاق والى القلعة ، وقال له : أنت جَرَّأْتَ العوام على السلطان . وضرب على رأسه ، فانكشفت رأسه ، وأطلق ونزل مكشوف الرأس ، فقيل له : غطى رأسك ، فقال : لا والله لا غطيتها حتى يُنتقم لى ممن ظلمنى . فمات الدزدار[١] والذى ضربه بعد قليل ، ومرض سيف الدين وتوفى .

ذكر حكايته مع الشيخ أبى أحمد الحداد الزاهد :

كان أبو أحمد قد انقطع فى قرية من بلد الموصل ، يقال لها الفضلية[٢] ، ومنها أصله ، وهى على فراسخ من الموصل .

قال السبط[٣] : حدثنى أبوبكر القديمى وإسماعيل الشعار ، وكانا قد صحبا الشيخ أبا أحمد ، « قالا : كان سيف الدين يزور الشيخ أبا أحمد»[٤] ، فقال له يوما : «يا» [٥] سيف الدين أى فائدة فى زيارتك وأنت تشرب الخمر ، وتبيح المحرمات ، وتمكس[٦] المسلمين؟ فإن كنت تدع هذا وإلا فلا تجىء إلى عندى . فقال : ياسيدى أنا تائب إلى الله من جميع ماقلت ، وترك الجميع وعاد إلى ماكان عليه . وكان للشيخ طاقة على باب الزاوية ، ينظر من يجىء من دمشق ، قال : فبينما نحن عنده يوما ، إذا بسيف الدين قد أقبل ، وصعد على الدرج ، فقال : ياأبابكر أغلق الباب فى وجهه وقل له مالك عندى شغل ، وادفعه إلى أسفل الدرج . قال أبو بكر القديمى : فخرجت فاستحييت منه ، فقال لى سيف الدين[٢٢٠و] : ياشيخ أفعل بى ما أمرك الشيخ وأدار ظهره إلىَّ ، فدفعت فى ظهره ، حتى أنزلته إلى أسفل الدرج ، فقعد يبكى ، وصاح الجند بأسرهم ، فأشار لهم[٧] أن

---

(١) الدزدار : هو حافظ القلعة ، أى والى القلعة ، ودز بالعجمى القلعة ، ودار الحافظ أى حافظ القلعة ، انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٧ ، ص١٤٢ .
(٢) الفضلية : قرية كبيرة كالمدينة من نواحى شرقى الموصل وأعمال نينوى . معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص٩٠٣ .
(٣) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٣٢ .
(٤) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٥) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب
(٦) المكس : جمعها المكوس . وهى الضريبة غير الشرعية .
(٧) «إليهم» فى نسخة ب .

اسكتوا ، ثم قال لى : ياشيخ أبو بكر اصعد إلى الشيخ ، وقل له : فما لى توبة؟ قال : فصعدت إليه وأخبرته ، فقال : قل له يجوز ، قد أذنت له . قال : فخرجت وقلت له : بسم الله ، فدخل على الشيخ ، فبكى وقبّل يده ، وتاب إلى الله تعالى ، وعاد إلى الموصل ، وأقام مدة يسيرة ، ومات يوم الأحد ثالث صفر ، ولم يبلغ ثلاثين سنة ، وكانت ولايته عشر سنين وشهوراً . وأراد أن يعهد إلى ابنه سنجر شاه ، فامتنع أخوه عز الدين مسعود من ذلك ، وقال له مجاهد الدين قيماز وأكابر الأمراء : قد علمت استيلاء صلاح الدين على البلاد وقربه منا ، وسنجر شاه صبى لا رأى له ، وأخوك عز الدين كبير السن ، صاحب رأى وشجاعة ، فاعهد إليه واجعله وصياً على أولادك ، ففعل . وكانت الرعية قد خافت من عز الدين مسعود ؛ لإقدامه على سفك الدماء وحدّته . فلما ولى تغيرت أخلاقه ، فصار رفيقاً بالرعية ، قريبًا منهم ، محسنا إليهم . ولما مات سيف الدين كان صلاح الدين فى حدود الروم ، فأرسل إليه مجاهد الدين قيماز الفقيه أبا شجاع بن الدهان البغدادى[1] ، فطلب منه أن يكون مع عز الدين ، كما كان مع أخيه سيف الدين ، ويبقى عليه الجزيرة ومابيده من حران والرها والرقة وخابور ونصيبين وقاطع الفرات ، فقال صلاح الدين : أما ماخلف له من بلاد الموصل فهو باق على حاله ، وأما ماذكره من بلاد الجزيرة فإنما كانت بيده بشفاعة الخليفة ، على شرط أن يقوى ثغور المسلمين بالمال والعساكر ، أما الآن فالخليفة قد فوّض أمرها إلىّ ، لا أفعل «فيها»[2] إلا ماأراه من المصلحة .

الملك المعظم توران شاه ؛ مات فى هذه السنة . وقال ابن كثير[3] : السلطان الأكبر الملك المعظم شمس الدولة[4] توران شاه بن أيوب ، الذى افتتح بلاد اليمن عند أمر أخيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، فمكث فيها حينًا ، واقتنى

(١) أبو شجاع بن الدهان : هو أبو شجاع محمد بن على بن شعيب المعروف بابن الدهان ، والملقب فخر الدين ، البغدادى الفرضى ، توفى سنة ٥٩٠هـ/١١٩٤م . انظر : وفيات الأعيان جـ ٥ ، ص١٢-١٣ .

(٢) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٣) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٧ .

(٤) « شمس الدين توران شاه» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص٣٠٦ ؛ البداية والنهاية جـ ١٢ ، ص ٣٢٧ ؛ الروضتين جـ٢ ق١ ، ص٥٦ - ٥٨ ؛ زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، جـ١ ، ص ١٥٨ .

منها أموالا جزيلة ، ثم استناب فيها ، وأقبل نحو أخيه إلى الشام ؛ شوقا إليه . وكان قدومه إليه فى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة كما ذكرنا ، فشهد معه مواقف مشهودة وغزوات محمودة ، واستنابه على دمشق مدّة ، ثم سار إلى مصر فاستنابه على الإسكندرية[١] فلم توافقه ، وكان يعتريه القُولَنج[٢] فمات بها فى هذه السنة ، فدفن فيها . ثم نقلته أخته ست الشام بنت أيوب فدفنته بتربتها التى بالشامية البرانية[٣] بدمشق ، فقبره القبلىّ ، والوسطانى قبر زوجها ابن عمها ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ، صاحب حمص والرحبة ، والمؤخر قبرها ، رحمها الله . والتربة الحسامية منسوبة إلى ولدها حسام الدين عمر بن لاجين ، وهى إلى جانب المدرسة من غربيّها ، وقد كان الملك تورانشاه كريما جوادا ممدَّحا شجاعا باسلاً ، عظيم [الهيبة][٤] ، كبير النفس واسع الصدر . وقال فيه ابن سعدان الحلبى :

هو المَلكُ إنْ تَسْمَع بكسرى وقيصر ... فإنهما فى الجودِ والبأسِ عَبْدَاهُ/ [٢٢٠ظ]
وماحاتمٌ[٥] مِمَّن يُقاسُ بمثلِه ... فخُذْ مارأيناه ودَعْ مارويناهُ
ولُذْ بِذُرَاهُ مستجيراً فإنَّه ... يجُيرُكَ مِنْ جَوْرِ الزمانِ وعَدْواهُ
ولا[٦] تتحَمَّلْ للسحائبِ مِنَّةً ... إذا هطلت[٧] جُوداً سَحَائبُ جَدْواهُ
ويُرسِلُ كَفَّيْه بما اشْتُق منْهُما ... فَلليُمْنْ يمناه[٨] ولِلْيُسْرِ يُسْراهُ

ولما بلغ خبر موته إلى أخيه السلطان صلاح الدين ، وهو مخيم بظاهر حمص ، حزن حزنا شديدًا عليه ، وجعل ينشد باب المراثى من الحماسة ، وكانت محفوظته .

---

(١) «إسكندرية» فى نسخة ب .
(٢) القولنج : مرض وصفة الخوارزمى بأنه اعتقال الطبيعة لانسداد المعى المسمى قولون . انظر : النوادر السلطانية ، ص٥٥ ، حاشية ٣ .
(٣) هذه المدرسة توجد بالعقيبة بدمشق ، وقد بنتها ست الشام بنت نجم الدين أيوب بن شاذى بن مروان ، أخت الملك الناصر صلاح الدين ، وهى من أكبر المدارس وأعظمها وأكثرها أوقافًا . انظر الدارس ، جـ ١ ، ص٢٧٧-٢٧٩ .
(٤) «الهيئة» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من البداية والنهاية ،جـ ١٢ ، ص٣٢٧ حيث ينقل العينى عنه هذا النص .
(٥) «حتم» فى البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٢٧ .
(٦) «فلا» فى الروضتين ، جـ٢ ق١ ، ص٥٦ .
(٧) «هللت» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الروضتين جـ ٢ ق١ ، ص٥٦ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣٢٧ .
(٨) «يملاه» فى نسخة ب .

وقال ابن خلكان[(١)] : وكانت وفاة تورانشاه يوم الخميس مستهل صفر ، ويقال : خامس صفر سنة ست وسبعين وخمسمائة . وتورانشاه بضم التاء المثناة من فوقها[(٢)] وسكون الواو وبعدها راء مهملة ، ثم بعد الألف نون ساكنة ، وبعدها شين معجمة وألف ساكنة وهاء ، ومعناه ملك الشرق ، وشاه لفظ أعجمى ومعناه الملك . وتوران اسم لبلاد الترك ، والعجم يسمون الترك تركان ، ثم حرفوه[(٣)] فقالوا : توران . وقد علم أن المضاف إليه يقدم على المضاف فى لغتهم . فافهم .

(١) انظر : وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص٣٠٦ـ ٣٠٩ .
(٢) « فوق» فى نسخة ب .
(٣) «خرموه» فى نسخة ب .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة السابعة والسبعين بعد الخمسمائة★

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله ، وأصحاب البلاد على حالهم ، غير أن الملك الصالح بن نور الدين محمود مات فى هذه السنة .

ذكر وفاة الملك الصالح بن نور الدين صاحب حلب

والكلام فيه على أنواع :

الأول فى ترجمته : هو السلطان الملك الصالح إسماعيل ابن السلطان الملك العادل نور الدين محمود بن عماد الدين زنكى ، صاحب حلب وماوالاها ، وكان أبوه نور الدين - رحمه الله - قد عهد بالملك له ، وعمره يوم مات أبوه إحدى عشرة سنة ، وكان مولده فى سنة ثمان وخمسين وخمسمائة ، وقد ذكرنا أنه انتقل من دمشق إلى حلب ، ودخل قلعتها يوم الجمعة مستهل المحرم سنة سبعين وخمسمائة ، وخرج السلطان صلاح الدين من مصر ، وملك دمشق وغيرها من بلاد الشام ، ولم يبق عليه سوى مدينة حلب .

الثانى فى سيرته : قال ابن خلكان[1] : كان محسنا محمود السيرة . وقال النويرى[2] : وكان من أعف الملوك ، ومن يشابه أباه فما ظلم . وصف له الأطباء فى مرضه شرب الخمر ، فاستفتى بعض الفقهاء فى شربها تداويا فأفتاه بذلك ، فقال له : أيزيد مشربها فى أجلى أوينقص منه شيئا؟ قال : لا . قال : فوالله لا أشربها وألقى الله وقد شربتُ ماحرمه علىَّ . وفى تاريخ بيبرس[3] : أفتاه بذلك فقيه من مدرسى الحنفية ، فقال : أرأيت إن قَدَّر اللهُ قرب الأجل ، أيؤخره شرب الخمر؟ فقال الفقيه : لا . فقال له ماذكرنا .

★ يوافق أولها ١٧ مايو ١١٨١م .

(١) انظر : وفيات الأعيان ، ج ٥ ، ص ١٨٨ .

(٢) انظر : نهاية الأرب ، ج٢٧ ، ص١٧١ - ١٧٢ .

(٣) اتفقت معظم المصادر فى ذكر هذه القصة . انظر : الروضتين ، ج٢ ق١ ص ٦٦ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٢٩ .

وذكر ابن الأثير[١] : أنه لما اشتد به المرض وضعف ، وصف له الأطباء قليل خمر ، فقال : لا أفعل حتى أسأل الشافعية . فأفتوه بالجواز ، وسأل العلاء الكاشانى فأفتاه أيضا ، فلم يفعل . وقال السّبط[٢] : أخطأ الكاشانى فإن الخمر لا يباح عند أبى حنيفة - رضي الله عنه - وجميع أصحابنا للتداوى ، وكذا عند مالك وأحمد[٢٢١ و] ، وعند الشافعى يجوز للضرورة ، وعندنا أن الله لم يجعل شفاء الأمة فيما حُرِّم عليها .

وفى تاريخ المؤيد[٣] : وكان حليما عفيف اليد والفرج واللسان ، ملازما لأمور الدين ، لا يعرف له شىء مما يتعاطاه الشباب .

الثالث فى وفاته : وقال ابن خلكان[٤] : توفى يوم الجمعة الخامس والعشرين من رجب سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، وذكروا أنه لم يبلغ عشرين سنة ، ودفن فى المقام الذى بالقلعة ، ثم نقل إلى رباطه المعروف به تحت القلعة ، وهو مشهور هناك .

وفى المرآة[٥] : وكان مرضه القولنج ، بدأ به فى تاسع رجب . وقال المؤيد فى تاريخه[٦] : فى رجب توفى الملك الصالح وعمره تسع عشرة سنة ، ولما اشتد به مرض القولنج وصف له الأطباء الخمر ، فمات ولم يستعمله .

وفى تاريخ ابن كثير[٧] : وكانت وفاته بقلعة حلب ، ودفن بها ، وكان سبب وفاته فيما قيل أن الأمير علم الدين سليمان بن جندر سقاه سُما فى عنقود عنب فى الصيد . وقيل : بل سقاه ياقوت الأسدى فى شراب . وقيل : فى خشكنانكة[٨] فاعتراه قولنج فمازال كذلك حتى مات . وهو شاب حسن الصورة بهى المنظر ، ولم يبلغ عشرين سنة ،

(١) انظر : الباهر ، ص١٨٢ ؛ الكامل ، ج ١٠ ، ص ١٠٦-١٠٧ .
(٢) مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص٢٣٣ .
(٣) انظر : المختصر ، ج ٣ ، ص٦٣ .
(٤) نقل العينى قول ابن خلكان بتصرف . انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص ١٨٨ .
(٥) انظر : المرآة ، ج ٨ ، ص٢٣٣ .
(٦) انظر : المختصر ، ج ٣ ، ص٦٣ .
(٧) البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ٣٢٩-٣٣٠ .
(٨) خشكنانكة : نوع من الفطير المصنوع من الزبد والسكر والجوز أو الفستق . انظر : التاريخ الباهر ، ص ٧٩ ، حاشية ٦ ؛ مفرج الكروب ، ج١ ، ص١٠٢ ، حاشية ٣ .

ولما يئس من نفسه استدعى الأمراء فحلفهم لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل ؛ لقوة سلطانه وتمكنه ، ليمنعها من صلاح الدين . وخشى أن يبايع لابن عمه الآخر عماد الدين زنكى صاحب سنجار - وهو زوج أخته وتربية والده - فلايمكنه حفظها من صلاح الدين .

فلما مات استدعى الحلبيون عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود صاحب الموصل ، فجاء إليهم فدخل حلب فى أبهة عظيمة ، وكان يوما مشهودا ، وذلك فى العشرين من شعبان من هذه السنة ، فتسلم خزائنها وحواصلها ومافيها من السلاح .

وكان تقى الدين عمر بمدينة منبج ، فهرب إلى حماة ، فوجد أهلها قد نادوا بشعار عز الدين صاحب الموصل . وأطمع الحلبيون عز الدين مسعود فى أخذ دمشق لغيبة صلاح الدين بالديار المصرية ، وأعلموه بمحبة أهل الشام لهذا البيت الأتابكى ، فقال : بيننا وبينه أيمان وعهود ، وأنا [لا](١) أغدر به . فأقام بحلب شهورا ، وتزوج بأم الملك الصالح فى شوال ، ثم سار الى الرقة فنزلها ، وجاءته رسل أخيه عماد الدين ؛ يطلب منه أن يقايضه من حلب إلى سنجار ، وألح فى ذلك ، وتمنّع أخوه ثم رضى على كره منه ، فسلم إليه حلب ، وسلمه عماد الدين سنجار والخابور والرقة وسروج ، وغير ذلك من البلاد .

وعاد عز الدين مسعود إلى حلب(٢) ، ولما سمع السلطان صلاح الدين بهذه الأمور ركب من الديار المصرية فى عساكره ، فسار حتى أتى (٣) الفرات .

وفى تاريخ بيبرس : تسلم عماد الدين ، صاحب سنجار ، حلب عوضا عن سنجار ، وذلك أنه لما رحل عز الدين مسعود إلى الرقة جاءته رسل أخيه عماد الدين ؛ يطلب أن يسلم إليه حلب ، ويأخذ عوضا عنها سنجار ، فلم يجبه إلى ذلك . فقال : إن لم تسلموا إلىّ حلب ، وإلا سلمت أنا سنجار إلى صلاح الدين . فأشار الأمراء على عز الدين بتسليم حلب إليه ، فاستقر الأمر على تسليمها لعماد الدين ، وأخذ سنجار عوضا عنها . وبلغ

(١) ما بين الحاصرتين إضافة لتوضيح المعنى من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٠ .
(٢) إلى هنا توقف العينى عن النقل من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٠ .
(٣) «إلى» فى نسخة ب .

ذلك صلاح الدين ، فخاف على دمشق ، وبرز من مصر وسار إلى الشام فى محرم السنة الآتية ، على مانذكره إن شاء الله تعالى (١) .

ذكر ماجريات صلاح الدين

منها أنه لما استهلت هذه السنة كان صلاح الدين مقيما بالقاهرة ، مواظبا على سماع الأحاديث ، وجاء كتاب من نائبه[٢٢١ظ] بالشام عز الدين فرخشاه ؛ يهنئه بما مَنَّ الله تعالى به على الناس من كثرة ولادة النساء من التوأم ، جبراً لما كان أصابهم فى العام الماضى من الوباء والفناء ، وبأن الشام مخصب بإذن الله ، جبراً من الله تعالى لما كان أصابهم فى العام الماضي من الجدب والغلاء(٢) .

ومنها أن فى شوال منها توجه صلاح الدين إلى الإسكندرية ، و[خيم بظاهرها عند عمود السوارى](٣) ، فشاهد ما أمر به من تحصين سورها وعمارة أبراجها وقصورها ، وسمع موطأ الإمام مالك(رحمه الله) على الشيخ أبى طاهر بن عوف عن الطرطوشى ، وسمع ذلك معه العماد الكاتب ، وأرسل القاضى الفاضل إلى السلطان صلاح الدين رسالة ؛ يهنئه بهذا السماع(٤) .

ومنها أن صلاح الدين ولى أخاه سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب نيابة اليمن ، فملَّكه عليها وأرسله إليها ؛ وذلك لاختلاف نوابها واضطراب أصحابها بعد وفاة الملك المعظم توران شاه أخى السلطان صلاح الدين ، الذى كان افتتحها ، فسار طغتكين إليها فوصلها فى سنة ثمان وسبعين ، فسار فيها أحسن سيرة ، وأكمل بها المعدلة والسريرة ، فاحتاط على أموال [حِطَّان](٥) بن منقذ [الكنانى](٦) نائب زَبيد ، وكانت

(١) ورد هذا الحدث بتصرف فى الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٦٧- ٦٨ ؛ البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص٣٣٠ .
(٢) ورد هذا النص بتصرف فى الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٦٤ ؛ البداية والنهاية ، ج٢ ، ص ٣٢٩ .
(٣) ما بين الحاصرتين ساقط من نسخة أ . ومثبت فى ب ، وهو عمود أحمر منقط من الصوان ، كان حوله ٤٠٠ عمود كسرها قراجا والى الإسكندرية فى أيام السلطان صلاح الدين . ولمعرفة المزيد عن هذا الموضوع انظر المقريزى : الخطط ، ج١ ، ص٢٥٧- ٢٦١ ، طبعة (مكتبة الآداب) .
(٤) الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٧٦ .
(٥) «خطاب» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الكامل ج١٠ ، ص ١٠٦ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٧٩ ؛ وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص١٤٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٠ .
(٦) ما بين الحاصرتين إضافة من الكامل ، ج١٠ ، ص١٠٥ .

تقارب ألف ألف دينار . وأما نائب عدن فخر الدين عثمان الزنجيلى[١] ؛ فإنه خرج من اليمن قبل قدوم طغتكين فسكن الشام ، وله أوقاف مشهورة باليمن ومكة ، وإليه تنسب المدرسة الزنجيلية[٢] ، خارج باب توما ، تجاه الطعم[٣] ، وكان قد حصل منها أموالا [جزيلة][٤] . وفى تاريخ بيبرس : وفيها سير صلاح الدين[٥] جماعة من أمرائه منهم صارم الدين خُتْلُجُ[٦] وغيره إلى اليمن ؛ لاختلاف نواب شمس الدولة بها ، وكان الاختلاف بين عز الدين عثمان الزنجيلى وحطان بن منقذ ، وجرت بينهما حرب ، ورام كل واحد منهما أن يتغلب على مابيد الآخر ، فاتفقت وفاة ختلج ، وتولى[٧] حطان بن منقذ إمارة زبيد ، وأطاعه الناس لجوده وشجاعته ، وقبض صلاح الدين على سيف الدولة مبارك بن منقذ الكنانى ؛ لأنه كان نائبا عن شمس الدولة باليمن ، فترك أخاه حطانًا بها ، وجاء إلى شمس الدولة إلى مصر . فلما اتفقت وفاة شمس الدولة صار إلى صلاح الدين ، فقيل له أنه أخذ مال اليمن وأدخل ، فاعتقله صلاح الدين ، ثم صالحه على ثمانين ألف دينار ، فأخذها منه وأطلقه . قلت : حطان المذكور هو ابن كامل بن منقذ الكنانى من بيت صاحب شيزر .

ومنها أنه ولد لصلاح الدين ولدان وهما : الملك المعظم توران شاه ، والملك المحسن أحمد ، وكان بين ميلادهما سبعة أيام ، فزينت البلاد واستمر الفرح والسرور[٨] .

وفى تاريخ الدولتين[٩] : الملك المحسن أبو العباس أحمد ظهير الدين ولد بمصر فى ربيع الأول من هذه السنة ، وهو لأم الأشرف . والملك المعظم أبو منصور توران شاه فخر

---

(١) « الزنجبيلى» الكامل ، جـ ١٠ ، ص١٠٦ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٠ ؛ النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٩١ . وقد أجمعت المصادر على أنه «عز الدين» بينما انفرد ابن كثير بذكره «فخر الدين» .

(٢) المدرسة الزنجيلية : ويقال المدرسة الزنجارية أنشأها الأمير عز الدين أبو عمرو عثمان بن على الزنجيلى سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٩م خارج باب توما أحد أبواب مدينة دمشق . الدارس فى تاريخ المدارس ، ج١ ، ص٥٢٦ - ٥٢٩ .

(٣) «المطعم» كذا ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٠ .

(٤) ما بين الحاصرتين ساقط من نسخة أ ومثبت فى نسخة ب .

(٥) انظر الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٨٠ .

(٦) «صارم الدين قطلغ أبه» فى الكامل ، ج١٠ ، ص١١١-١١٢ ؛ وذكره أبو شامة «صارم الدين خطلبا» فى الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٨٠ .

(٧) «تولى» مكررة فى نسخة ب .

(٨) انظر الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٨٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣١ .

(٩) الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٨٤ .

الدين ، ولد فى مصر في ربيع الأول من هذه السنة ، ومات سنة ثمان وخمسين وستمائة ، وهي السنة التى أخرب العدو ـ من التتار ـ مدينة حلب وغيرها .

ذكر بقية الحوادث

منها [١] أن الإفرنج غدرت ونقضت عهودهم ، وقطعوا السبل على المسلمين برا وبحرا ، سرا وجهرا ، فأمكن الله من بطسة عظيمة ، لهم فيها نحو من ألفين وخمسمائة نفس من رجالهم المعدودين ، منهم من ألقاهم الموج إلى ثغر دمياط قبل خروج السلطان صلاح الدين من مصر ، فأحيط بها ، فغرق بعضهم ، وحصل فى الأسر [نحو][٢] ألف وسبعمائة منهم[٣] .

ومنها أن قراقوش سار إلى بلاد إفريقية ففتح بلاداً كثيرة ، وقاتل عسكر[ابن] [٤]عبد المؤمن ، واستفحل أمره هنالك ، وهو من جملة مماليك تقى الدين عمر ابن أخى السلطان صلاح الدين ، ثم عاد إلى الديار المصرية فأمره صلاح الدين بأن يتمم السور المحيط بالقاهرة ومصر ، وذلك قبل خروجه منها فى هذه السنة ، وكان ذلك آخر عهده بها حتى توفاه الله ـ عز وجل ـ وذلك بعد أن أراه بلوغ مناه قبل حلول[٢٢٢و] الوفاة ، فأقر عينه من أعدائه ، وفتح على يديه بيت المقدس وماحوله وماحواه . ولما خيم بارزاً من مصر أحضر أولاده حوله فجعل يشمهم ويقبلهم ويضمهم ، فأنشد بعضهم :

تَمَتَّعْ من شَمِيم[عُرَارِ نَجْدٍ[٥]] فما بعدَ العَشِيَّة من عُرارِ

فكان الأمر كما قال ؛ لم يعد إلى مصر بعد هذا العام ، بل كان مقامه بالشام .

---

(١) ورد هذا النص فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٠- ٣٣١ ؛ أيضا : راجع الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٨٤ .
(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣١ .
(٣) نقل العينى عدد الأسرى من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣١ ؛ أما الكامل والروضتين فقد ذكرا أن عدد الأسرى «ألفا وستمائة وستة وسبعين» . انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص١١٢ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٨٤ .
(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣١ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٨٤ .
(٥) «عن أرض نجد» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣١ ؛ المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص٦٤ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٨٧ ؛ زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٥٥ .

ومنها[١] أن فرخشاه بن أخى السلطان صلاح الدين ونائبه بدمشق سار إلى أعمال كرك ونهبها ؛ لما بلغه أن الفرنج تطرقوا لأن يسيروا إلى مكة وإلى المدينة ـ على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ـ فجمع العساكر الدمشقية ، وسار إلى بلدهم ونهبه وخَرَّبه ، وعاد إلى طرف بلاد الإسلام ، وأقام بها ليمنع البرنس[٢] من التعرض إلى المسلمين . وأما الذين سيرهم الفرنج إلى الحجاز ؛ فأهلك اللّه تعالى جميع من سيروا ، وقتلوا وأسروا .

ومنها أنه تواصف الناس كثرة الفأر ، وشكى أهل الزراعات جائحتهم[٣] به ، وأنه كان يرحل من بقعة إلى بقعة ، فيغطى الأرض ويجور على مواضع مملوءة زروعاً[٤] ، فلا يترك منها شيئا ، ويمر بأخرى فيتركها قاعا صفصفاً .

ومنها أنه استوت عدة جيش صلاح الدين على ثمانية آلاف وستمائة وأربعين طواشية ، وقرا غلامية[٥] .

ومنها أن صاحب ماردين حصر قلعة البيَرة ، وكانت لشهاب الدين الأرتقى[٦] ، وهو ابن عم قطب الدين إيلغازى بن ألبى بن تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق صاحب ماردين[٧] ، وكان فى طاعة نور الدين محمود بن زنكى ، فمات شهاب الدين الأرتقى ، وملك القلعة بعده ولده ، وصار فى طاعة عز الدين مسعود صاحب الموصل ، فلما كان فى هذه السنة أرسل صاحب ماردين إلى عز الدين[مسعود][٨] يستأذنه فى حصر البيرة وأخذها ، فأذن له ، فسار ، فنزل سُمَيْسَاط[٩] وكانت له ، وأرسل عسكره[إلى البيرة][١٠] فحصرها ، فسير

---

(١) ورد هذا النص فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٠٤ .

(٢) يقصد الأمير أرناط . انظر هذه الأحداث فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٠٥ .

(٣) الجائحة : لغة هى إهلاك المال واستئصاله . انظر : المعجم الوسيط ، مادة «جوح» ، ج١ ، ص١٤٥ .

(٤) «زرعا» فى نسخة ب .

(٥) القرا غلامية : هم جماعات الضبطية ، وعملهم مراقبة الطرق أثناء سير الجيوش . انظر : السلوك ، ج١ ق٢ ، ص٧٥ ، حاشية ٣ (ط . أولى ١٩٣٤) .

(٦) هو : شهاب الدين محمود بن إلياس بن إيلغازى بن أرتق . انظر : التاريخ الباهر ، ص١٤٥ .

(٧) انظر : تفصيل هذا الخبر فى الكامل ، ج١٠ ، ص ١٠٨ .

(٨) ما بين الحاصرتين ساقط من نسخة أ . ومثبت من نسخة ب .

(٩) «شميصاط» كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب ، وقد فضلنا ما اتفقت عليه المصادر الجغرافية فى رسم اسمها «سُمَيْسَاط» وقد سبق التعريف بها . راجع معجم البلدان ، ج٣ ، ص١٥١ـ١٥٢ .

(١٠) «إليها» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الكامل ، ج١٠ ، ص ١٠٨ لتصحيح النص .

صاحبها إلى صلاح الدين ، يطلب منه أن ينجده ، «فسير رسولا فشفع فيه»[١] ، فرحل صاحب ماردين عن البيرة .

ومنها[٢] أن المسلمين فتحوا الشقيف[٣] من الفرنج ، وذلك أن الفرنج لما بلغهم مسير صلاح الدين من مصر إلى الشام ، جمعوا له ، وحشدوا الفارس والراجل ، واجتمعوا بالكرك بالقرب من الطريق لعلهم يظفرون منه بفرصة ، فخلت بلادهم من ناحية الشام ، فسمع فرخشاه الخبر ، فجمع عساكر الشام ، ثم قصد بلاد الفرنج ، وأغار عليها ، ونهب دَبُّورِية[٤] ومايجاورها من القرى ، وأسر الرجال وسبى النساء وغنم الأموال ، وفتح منهم الشقيف ، وأرسل إلى صلاح الدين بالبشارة .

ومنها أن رباط المأمونية[٥] ببغداد فتحت فى هذه السنة ، [وكانت] [٦] دار سنقر المستنجدى[٧] ، قُبض عليه وأخذ منه من العين مائة ألف دينار ، ومن المتاع والخيل والأثاث ماقيمته أكثر من ذلك وعُملت رباطا للصوفية .

ومنها[٨] أنه كان بالمِزة [٩]خطيب يقال[٢٢٢ظ] له العالم . زَوَّرَ على صلاح الدين خطاً بزيادة فى جامكيته ، ووقف عليه فرخشاه ، فهَّم بالإيقاع به فهرب إلى القاهرة ، واستجار بالسلطان فأجاره ، وقال : ما أخيب قصدك . وكتب له توقيعا بما طلب .

---

(١) العبارة بين الأقواس بها لبس من العينى . ولإيضاح المقصود نذكر ما أورده ابن الأثير فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٠٨ : «ويُرَحّل العسكر الماردانى عنه ، ويكون هو فى خدمته كما كان أبوه فى خدمة نور الدين ، فأجابه إلى ذلك ، وأرسل رسولاً إلى صاحب ماردين يشفع فيه ، ويطلب منه أن يرحّل عسكره عنه ، فلم يقبل شفاعته» .

(٢) نقل العينى هذا النص بتصرف من الكامل ، ج١٠ ، ص١١٠ - ١١١ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٧١ - ٧٢ .

(٣) الشقيف يقصد بها شقيف أرنون ، وهى بين دمشق والساحل بالقرب من بانياس . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٣٠٩ ؛ تقويم البلدان ، ص٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٤) دَبُّورِيَةُ : بليد قرب طبرية من أعمال الأردن . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥٤٦ .

(٥) المأمونية : منسوبة إلى المأمون أمير المؤمنين عبد الله بن هارون الرشيد ، وهى محلة كبيرة طويلة عريضة ببغداد بين نهر المعلى وباب الأزج . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٣٩٨ .

(٦) «كان» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت هو الصحيح .

(٧) «المستنجد» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٣٣ .

(٨) ورد هذا الخبر فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٣٣ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٨٣ .

(٩) المِزَّةُ : قرية كبيرة غناء فى وسط بساتين دمشق ، بينها وبين دمشق نصف فرسخ . انظر : معجم البلدان ، ج ٤ ، ص٥٢٢ .

ومنها[١] أن البرنس صاحب الكرك ـ لعنه الله ـ عزم على قصد تيماء من أرض الحجاز ؛ ليتوصل منها إلى المدينة النبوية ـ على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ـ فجهزت له سرية من دمشق تكون حاجزة بينه وبين أرض الحجاز ، فصده ذلك عن قصده ، لعنه الله .

وفيها ....[٢]

وفيها حج بالناس طاشتكين .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

أبو البركات عبد الرحمن[٣] بن أبى الوفاء محمد بن[عبيد[٤]] الله بن محمد ابن [عبيد الله][٥] بن أبى سعيد بن الحسن [بن سليمان الأنبارى][٦] ، الملقب كمال الدين ، النحوى ؛ كان من الأئمة المشار إليهم فى علم النحو ، وسكن بغداد من صباه إلى أن مات ، وتفقه على مذهب الإمام الشافعى ، بالمدرسة النظامية ببغداد ، وتصدر لإقراء النحو على أبى منصور الجواليقى ، وصحب أبا السعادات هبة الله بن الشَّجرى ، وأخذ عنه وانتفع بصحبته ، وتبحر فى علم الأدب ، واشتغل عليه خلق كثير وصاروا علماء . وصنف فى النحو كتاب« أسرار العربية» ، وله كتاب« الميزان» فى النحو أيضا ، وله كتاب فى «طبقات الأدباء» ، جمع فيه المتقدمين والمتأخرين مع صغر حجمه ، وكُتُبه كلها نافعة . «وكانت نَفْسُه مباركة»[٧] مايقرأ[٨] عليه أحد إلا تميز[٩] . وانقطع فى آخر عمره فى بيته مشتغلا بالعلم والعبادة ، وترك الدنيا ومجالسة أهلها ، ولم يزل على سيرة جيدة[١٠] ،

---

(١) انظر هذه الحادثة بالتفصيل فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٠٥ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٠ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٧١ .
(٢) بياض بمقدار سطر فى النسختين أ ، ب .
(٣) انظر : ترجمته فى طبقات الشافعية ، ج٤ ، ص ٢٤٨ ؛ وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص ١٣٩ـ ١٤٠ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣١ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٣٤ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص ٢٥٨ـ ٢٥٩ .
(٤) «عبد» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص ١٣٩ .
(٥) «عبد بن أبى سعيد» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص ١٣٩ .
(٦) «بن سليمان بن الأنبارى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والصحيح ما أثبتناه من وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص ١٣٩ .
(٧) كذا فى نسختى المخطوطة أ ، ب . أما فى وفيات الأعيان فقد وردت العبارة «وكان نَفَسه مباركًا» . انظر : ج٣ ، ص ١٣٩ .
(٨) «ما قرأ» فى وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص ١٣٩ .
(٩) «وتميز» فى وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص ١٣٩ .
(١٠) «حميدة» فى وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص ١٣٩ .

وتوفى فى تاسع[1] شعبان من سنة سبع وسبعين وخمسمائة ببغداد ، ودفن بباب أبرز بتربة الشيخ أبى إسحق الشيرازى ، وخلت بغداد عن مثله .

وفى المرآة [2] : وكان إماما فى كل فن مع الزهد والورع والعبادة ، والصبر على الفقر مع القدرة ، ولا يقبل بر أحد ، وكان يحضر دعوة الخليفة فى كل سنة مرة ، فيبعث إليه بالخلع والذهب ، فيرد الجميع ، وكان [يستديم][3] الصوم ويفطر على أى شىء كان ، وبابه مفتوح لطلاب العلم لايرد أحدا ، رحمه الله تعالى .

(١) انفرد أبو شامة بذكر وفاته فى الثامن من شعبان . انظر : الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٨٤ ـ ٨٥ .

(٢) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٣٤ .

(٣) «يسرد» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٣٤ . حيث ينقل عنه العينى .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الثامنة والسبعين بعد الخمسمائة★

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله ، وأصحاب البلاد على حالهم ، والسلطان صلاح الدين خرج من مصر إلى الشام فى خامس المحرم من هذه السنة ، وكان ذلك آخر عهده بمصر ، لم يعد إليها بعد ذلك .

وفى تاريخ المؤيد[١] : وفى خامس المحرم سار السلطان صلاح الدين من مصر إلى الشام ، ومن عجيب الاتفاق أنه لما برز من القاهرة وخرجت أعيان الناس لوداعه ، أخذ كل منهم يقول شيئا فى الوداع وفراقه ، وفى الحاضرين[٢٢٣و] معلمٌ لبعض أولاد السلطان ، فأخرج رأسه من بين الحاضرين وأنشد :

تَمتَّعْ من شَمِيمِ عُرارِ نجد　　فما بعدَ العشِيَّة من عُرارِ

فتطيَّر صلاح الدين وانقبض بعد انبساطه ، وتنكد المجلس على الحاضرين ، فلم يعد صلاح الدين «بعدها» [٢] إلى مصر مع طول المدة ، وسار السلطان وأغار فى طريقه على بلاد الفرنج ، وغنم ووصل إلى دمشق فى حادى عشر صفر من هذه السنة[٣] .

وفى المرآة [٤] : وفى خامس المحرم من هذه السنة خرج صلاح الدين من مصر ، ونزل البِرْكة قاصداً إلى الشام ، وخرج أرباب الدولة لوداعه ، وأنشد الشعراء أبياتا فى الوداع ، فسمع قائلا يقول فى ظاهر الخيم : تمتع[٥] إلى آخره . وطلب القائل ، فلم يوجد ، فوجم السلطان وتَطَيَّر الحاضرون ، فكان كما قال اشتغل السلطان بالشرق والإفرنج ، ولم يعد بعدها إلى مصر .

★ يوافق أولها ٧ مايو ١١٨٢م .

(١) المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص٦٣- ٦٤ .

(٢) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٣) إلى هنا توقف العينى عن النقل من المختصر ، جـ ٣ ، ص٦٣- ٦٤ .

(٤) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٣٥ ؛ راجع أيضا هذا النص فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص١١٠- ١١١ ؛ الروضتين ، جـ ٢ ق١ ، ص ٢٨ .

(٥) «تسمَّع» فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٣٥ . وهو خطأ فى النسخ .

وسار السلطان على أيلة والحسا[١] ووادى موسى[٢] ، وكان فرخشاه بدمشق ، فبلغه أن الفرنج قد اجتمعوا عند الكرك ؛ لقصد السلطان ، فخرج من دمشق فنزل طبرية وعكا ودَبُّورية ، فقصدوه فالتقاهم وكسرهم ، وقتل منهم ألوفًا ، وأسر وساق عشرين ألفا من الأنعام وغيرها ، وفتح حصنا مشرفًا على السواد على شقيف ، يقال له حصن جلدك ، وقتل من فيه ، وأسكنه المسلمين وجعلهم طلائع ، وساق إلى بُصْرى ، فالتقى السلطان عندها فسُرَّ به ، ودخلا دمشق فى صفر .

وفى تاريخ ابن كثير[٣] : أغار صلاح الدين فى طريقه على أطراف بلاد الفرنج بأرض الكرك ، وجعل أخاه تاج الملوك[٤] بورى بن أيوب على الميمنة يسير ناحية عنه ، ليتمكنوا من بلاد العدو ، فالتقوا على الأزرق [٥] بعد سبعة أيام ، ووصل السلطان إلى دمشق فى حادى عشر صفر منها ، وقيل فى سابع [عشر][٦] .

ذكر ماجريات صلاح الدين من الغزوات وغيرها بعد دخوله دمشق

منها أنه خرج من دمشق فى العشر الأول من ربيع الأول ، ونزل قرب طبرية ، وشن الإغارة على بلاد الإفرنج مثل بيسان [٧] وجينين[٨] والغور [٩] ، فغنم منها وقتل جماعة . وقال ابن كثير[١٠] : واقتتل مع الفرنج تحت حصن كوكب [١١] ، فقتل خلق من الفريقين ،

(١) الحسا : موضع بالشام . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٠٢ .

(٢) وادى موسى : ينسب إلى موسى بن عمران ، وهو واد فى قبلى بيت المقدس بينه وبين أرض الحجاز . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٨٧٩ .

(٣) انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ٣٣١ . حيث نقل العينى هذا النص عنه بتصرف .

(٤) «تاج الدين» فى نسخة ب .

(٥) يقصد به «النهر الأزرق» وهو أحد نهيرات الفرات الأعلى ، ويجرى بين بَهَسْنا وحصن منصور فى طرق بلاد الروم من جهة حلب . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٨٣٤ ؛ السلوك ، ج١ ، ص٢٤٨ ؛ زبدة الحلب ، ج٣ ، ص٢١٧ .

(٦) «عشرة» كذا فى الأصل . والصحيح ما أثبتناه .

(٧) بَيْسَان : مدينة بالأردن بالغور الشامى وهى بين حوران وفلسطين . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص ٧٨٨ .

(٨) جينين : بليدة حسنة بين نابلس وبيسان من أرض الأردن . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٨٠ .

(٩) الغور : هو غور الأردن بالشام بين بيت المقدس ودمشق ، وهو منخفض عن أرض دمشق وأرض بيت المقدس ، ولذلك سمى الغور وفيه نهر الأردن ، انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٨٢٢ .

(١٠) نقل العينى هذا النص من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣١ .

(١١) حصن كوكب : اسم قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية تشرف على الأردن . انظر : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص٣٢٨ .

ولكن كانت الدائرة للمسلمين ، ثم رجع مؤيدا منصورا إلى دمشق ، ثم سار إلى بيروت وحصرها وأغار على بلادها ، ثم عاد إلى دمشق .

وفى تاريخ بيبرس : وفيها سار صلاح الدين من دمشق إلى بيروت فحاصرها ونهب ماوجد ، وأمر أسطول مصر أن ينزلوا عليها ويحاصروها ، فكان وصوله لها قبل وصولهم ، وكان عازما علي حصارها إلى أن يفتحها ، وأتاه الخبر بأن بُطسةً عظيمة ألقاها البحر إلى دمياط ، خرج مَن فيها من الفرنج للحج إلى بيت المقدس ، فأسروا من بها ، فكانت[1] عدة الأسرى ألفا وستمائة وستة [وسبعين][2] أسيراً ، فضربت بذلك البشائر .

ومنها أنه سار إلى البلاد الحلبية والجزرية ؛ [٢٢٣ظ] ليأخذها ، وذلك أن المواصلة والحلبية قد كاتبوا الفرنج حتى تغزوا على أطراف البلاد ؛ ليشغلوا السلطان صلاح الدين بنفسه عنهم ، فكان سَيْرُه على بلاد البقاع ، ثم إلى حماة ثم إلى حلب ، فحاصرها ثلاثاً ، ورأى أن العدول إلى غيرها أولى به ، فسار حتى قطع الفرات من البيرة ، وصار معه مظفر الدين كوكبورى صاحب حران . وكاتب ملوك تلك الأطراف واستمالهم ، فأجابه نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا ، وصار معه ، ونازل السلطان مدينة الرُّها وحاصرها وملكها وسلمها إلى مظفر الدين كوكبورى .

ثم سار إلى الرقة وأخذها من قطب الدين ينال بن حسان المنبجى ، فسار هو إلى عز الدين مسعود صاحب الموصل ، ثم سار صلاح الدين إلى خابور وملكها ، وملك أيضا قرقيسيا [3] ، وماكسين[4] ، وعربان [5] ، واستولى على الخابور جميعها ، ثم سار إلى نصيبين وحاصرها وملك المدينة ، ثم ملك القلعة وأقطعها أميراً كان معه يقال له أبو الهيجاء السمين .

(١) «كان» فى نسخة ب . وقد ورد هذا الخبر بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص١١٢ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٩٣ .
(٢) «سبعون» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والصحيح ما أثبتناه .
(٣) قرقيسيا : بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ ، وعندها مصب الخابور فى الفرات . معجم البلدان ، ج٤ ، ص ٩٦ .
(٤) ماكسين : بلد بالخابور قريب من رحبة مالك بن طوق من ديار ربيعة . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣٩٦ .
(٥) عَرَبَانَ : بليدة بالخابور من أرض الجزيرة . معجم البلدان ، ج٣ ، ص٦٣٢ .

ثم سار عن نصيبين وقصد الموصل ، وقد استعد صاحبها مسعود ومجاهد الدين قيماز للحصار ، فأقام عليها منجنيقا ، وأقاموا عليه من داخل المدينة مجانيق ، وضايق الموصل ، فلما رأى طول الحصار رحل عنها إلى سنجار وحاصرها وملكها ، واستناب بها سعد الدين بن معين الدين ، وكان من أكبر الأمراء .

ثم سار صلاح الدين إلى حران ، وعزل عن نصيبين فى ـ طريقه ـ أبا الهيجاء السمين ، ثم عاد إلى حلب وقد استحوذ على بلاد الجزيرة كلها ، وخضعت له الملوك هناك .

ولما وصل إلى حلب تسلمها من صاحبها عماد الدين زنكى ، وقد كان قايض أخاه عز الدين مسعود بها إلى سنجار كما ذكرنا فى العام الماضى ، فاستوسقت [١] له الممالك شرقا وغربا وبُعدا وقربا ، وتمكن حينئذ من قتال أعدائه من الفرنج ـ لعنهم الله ـ وتملكه حلب وغيرها إنما كان فى السنة الآتية على مانذكره إن شاء الله تعالى [٢] .

وفى تاريخ بيبرس : عبر صلاح الدين الفرات وملك الديار الجزرية ، وسبب ذلك أن مظفر الدين كوكبورى بن زين الدين على بن بكتكين ـ مقطع حران ـ أرسل إلى صلاح الدين ؛ يعلمه أنه معه وأنه محب لدولته ، ووعده النصر ، وأنه إذا عبر الفرات يعينه ويعرفه أخذ البلاد ، فرحل عن بيروت ، وَرُسُل مظفر الدين متواترة إليه ؛ تحثه على القدوم ، فجدَّ السير يُظهر أنه يريد حصر حلب . ولما قارب الفرات سار إليه مظفر الدين واجتمع به ، فقصد البيرة ، وكان صاحبها مع صلاح الدين وفى طاعته ، فعبر هو وأصحابه من الجسر الذي عند البيرة .

وكان عز الدين مسعود ومجاهد الدين قايماز ، لما بلغهما وصول صلاح الدين إلى الشام ، قد جمعا العسكر وسارا إلى نصيبين ، ليكوناً على أهبة لئلا يتعرض صلاح الدين إلى حلب ، ثم تقدما إلى دارا [٣] فنزلا [٢٢٤و] عندها ، فجاءهما أمر لم يكن فى

(١) استوسق الأمر : انتظم . المعجم الوجيز ، ص ٦٦٩ ، مادة «وسق» .

(٢) وردت هذه الأحداث بتصرف فى زبدة الحلب ، ج ٣ ، ص ٥٩ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٢ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص١١٢ ـ ١١٤ .

(٣) دارا : بلدة فى لحف جبل بين نصيبين وماردين ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٥١٦ .

الحساب ، فلما بلغهما عبور الفرات عادا إلى الموصل ، وأرسلا إلى الرها عسكرا يحميها ويمنعها ، فلما سمع صلاح الدين ذلك قوى طمعه فى البلاد ، وكاتب الملوك أصحاب الأطراف ووعدهم وبذل لهم البذول على نصرته ، فأجابه نور الدين بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا ؛ لقاعدة كانت بينهما لما كان عنده بالشام ، فقصد آمد وحصرها وقاتلها أشد القتال ، وكان بها مقطعها الأمير فخر الدين «مسعود»[١] الزعفرانى ، فطلب الأمان وسلم البلد ، وصار فى خدمة صلاح الدين ، ولما ملك المدينة زحف إلى القلعة ، فسلمها إليه الدزدار الذى بها على مال أخذه . ولما ملكها صلاح الدين سلمها إلى مظفر الدين كوكبورى مع حران .

ثم سار إلى الرقة وبها مقطعها قطب الدين ينال المنبجى ، فسار عنها إلى عز الدين مسعود وملكها صلاح الدين ، وسار إلى الخابور ، وقرقيسيا ، وماكسين ، وعربان ، فملك جميع ذلك . فلما استولى على الخابور جميعه سار إلى نصيبين فملك المدينةلوقتها ، وحصر القلعة أياما ، فملكها وأقام بها ؛ ليصلح شأنها ، ثم أقطعها أبا الهيجاء السمين ، وسار عنها .

ومنها أنه لما ملك نصيبين جمع أمراءه وأرباب المشورة ، فاستشارهم بأى البلاد يبدأ ، بالموصل أو بسنجار أو بجزيرة ابن عمر؟ [٢] فاختلفت آراؤهم ، فقال له مظفر الدين : لاينبغى أن نبدأ بغير الموصل ، فإنها فى أيدينا لامانع لها ، وأن عز الدين مسعود ومجاهد الدين قيماز متى سمعا بمسيرنا إليها تركاها وسارا عنها إلى بعض القلاع [الجبلية][٣] ، ووافقه ناصر الدين محمد بن شيركوه ، وكان قد بذل لصلاح الدين مالا كثيرا ؛ ليقطعه الموصل إذا ملكها ، فأجابه صلاح الدين إلى ذلك ، فأشار بهذا الرأى لما فى نفسه ، وسار صلاح الدين إلى الموصل ، وكان عز الدين صاحبها ومجاهد الدين نائبه قد جمعا عسكرا كثيرا من فارس وراجل ، وأظهرا من آلات الحصار ماحارت له الأبصار ،

---

(١) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٢) ورد هذا الحدث بالنص فى ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص١١٤ ؛ وذكره بتصرف ابن العديم فى زبدة الحلب ، ج٣ ، ص ٥٩ - ٦٠ ؛ أيضا ذكره أبو شامة بتصرف فى الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص١٠٣ - ١٠٤ .

(٣) «الحلبية» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من الكامل ، ج١٠ ، ص١١٤ حيث ينقل العينى عنه هذا النص حرفيًا .

وبذلا الأموال الكثيرة ، وشحنا مابقى بأيديهم من البلاد كالجزيرة ، وسنجار ، وغيرها ، بالرجال والسلاح والأموال ، ولما قارب صلاح الدين الموصل ترك عسكره ، وانفرد هو ومظفر الدين وناصر الدين ابن عمه ، ومعهم نفر من أعيان دولته ، وقربوا من البلد ، فرأى ماهاله من عظم البلد ، ورأى السور قد مُلِيء من الرجال ، وليس فيه شُرافة إلا وعليها مقاتل سوى من عليه من عامة البلد ، فعلم أنه لا يقدر عليه ، وأنه متى نازله وعاد عنه انكسر ناموسه ، ثم رجع إلى معسكره وصبح البلد ، فنازله وضايقه ، ونزل محاذيا باب كندة ، وأنزل صاحب الحصن بباب الجسر ، وأنزل أخاه تاج الملوك عند الباب العمادى ، وأنشب القتال ، فلم يظفر ، وأقام أياما ولم ينل منها شيئاً .

[٢٢٤ظ] وترددت الرسل إلى عز الدين مسعود ومجاهد الدين فى الصلح ، فطلب عز الدين إعادة البلاد التى أخذت منهم ، فأجاب صلاح الدين إلى ذلك بشرط تسليم حلب إليه ، فامتنع عز الدين ومجاهد الدين ، ولم ينتظم صلح ولا تم أمره ، فلما رأى صلاح الدين أنه لاينال من الموصل غرضا ، وأن من بسنجار من العساكر الموصلية يقطعون طريق من يقصده من عساكره وأصحابه ، سار عن الموصل إليها ، وسنذكر ماجرى بعد ذلك فى السنة الآتية إن شاء الله تعالى[١] .

ذكر بقية الحوادث

منها أن البرنس صاحب الكرك ، عليه اللعنة ، عمل مراكب فى بحر القلزم ؛ ليقطعوا الطريق على التجار والحجاج ، وذلك لما عجز عن إيصال المسلمين الأذى فى البر ، فوصلت أذيتهم إلى عيذاب ، وخاف أهل المدنية النبوية من شرهم ، فأمر العادل أبو بكر ابن أيوب ـ أخو صلاح الدين ـ نائب مصر ، الأمير حسام الدين لؤلؤ صاحب الأسطول ، أن يعمل مراكب فى بحر القلزم ، لمحاربة برنس ، ففعل ذلك ، فظفروا بهم فى كل موطن ، قتلوا منهم وحرّقوا وغرّقوا وسبوا وقهروا وأسروا فى مواطن كثيرة ومواقف هائلة ، وأمن البر والبحر بإذن الله[٢] . وأرسل صلاح الدين إلى أخيه العادل أبى بكر يشكر من مساعيه ، وأرسل إلى ديوان الخليفة يعرفهم بما أنعم الله به عليهم من الفتوحات برًا وبحرًا .

---

(١) أورد ابن الأثير هذه الأحداث بالتفصيل فى الكامل ، ج١٠ ، ص١١٤ ـ ١١٥ .

(٢) ورد هذا النص بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص١١٧ ـ ١١٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٢ ؛ الروضتين ، ج٢ق١ ، ص١١٣ ـ ١١٤ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٣٥ .

وفى المرآة(١) : فى هذه السنة كانت وقعة الحاجب لؤلؤ مع الفرنج ، خرج إبرنس صاحب الكرك إلى أيلة ، فأقام بها ومعه الأخشاب على الجمال والصناع ، فعمل المراكب ، وكان قصده مكة والمدينة والغارات فى البحر ، فلما تم عملها ركب فيها ووصل إلى عيذاب فى بحر القلزم ، فأخذ مراكب التجار ، ونهب وقتل وأسر ، وسار يريد جدة . وبلغ الخبر إلى سيف الدين العادل أخى السلطان ، فأمر [الحاجب حسام الدين لؤلؤا](٢) فركب فى بحر القلزم ، وسار خلفهم ، وساعده الريح فأدركهم وقد أشرفوا على مدينة النبى (ﷺ) ، فهرب بعضهم فى البر ، وأسر الباقين ، فأخذ مائة وسبعين أسيرا ، وخَلَّصَ أموال التجار وردها عليهم ، واستولى على مراكبهم ، وعاد إلى القاهرة . وكتبوا إلى صلاح الدين بذلك ، فقال : تُضرب رقاب الأسرى بعضهم بالقاهرة ، وبعضهم بمكة ، وبعضهم بالمدينة ، ففعلوا . وكتبوا بذلك إلى الخليفة .

وفى تاريخ المؤيد(٣) : وكان حسام الدين لؤلؤ مُظَفَّرًا فيه شجاعة ، فسار فى طلبهم مُجِداً وأوقع بالذين يحاصرون أيلة ، فقتلهم وأسرهم ، ثم سار فى طلب الفرقة الثانية ، وكانوا قد عزموا على الدخول إلى الحجاز ومكة والمدينة ، وسار «لؤلؤ» (٤) يقفو أثرهم فبلغ رابغ(٥) فأدركهم بساحل الحوراء(٦) ، وتقاتلوا أشد القتال ، فَظَفَّرَهُ الله بهم وقتل لؤلؤ أكثرهم وأخذ الباقين أسرى ، وأرسل بعضهم إلى منى لينحروا بها ، وعاد بالباقين إلى مصر فقتلوا عن آخرهم .[٢٢٥و]

وفى تاريخ بيبرس : قال ابن [الذروى](٧) يمدح لؤلؤ بأبيات منها :

مَرَّيومٌ من(٨) الزمانِ عجيبٌ ... كاد يُبْدِى فيه السُّرورَ الجمادُ

قُلتُ بعدَ التكبيرِ لما تَبدَّى ... هَكَذَا هَكَذَا يكونُ الجهادُ!!

---

(١) مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص٢٣٥ ؛ كما ورد النص فى الروضتين ج٢ ق١ ، ص١١٤ .

(٢) «حسام الدين الحاجب لؤلؤ» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الروضتين ، ج٢ق١ ، ص١١٣ وهو الصحيح .

(٣) المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص ٦٥ .

(٤) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٥) رَابغ : واد يقطعه الحاج بين البزواء والجُحْفة . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٧٢٧ .

(٦) حَوْرَاء : كورة من كُوَر مصر القبلية فى آخر حدودها ، من جهة الحجاز ، وهى على البحر فى شرقى القلزم . معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٣٥٦ .

(٧) «الدورى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من خريده القصر ، قسم شعراء مصر ، ج١ ، ص١٨٧ . وهو الوجيه بن الذروى أبو الحسن على بن يحيى المتوفى سنة ٥٧٧هـ/١١٨١م . انظر أيضا الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص١١٤ .

(٨) «فى» كذا فى نسخة ب .

ومنها[١] أن عز الدين صاحب الموصل اجتمع هو [وشاه أرمن][٢] صاحب خلاط على قتال صلاح الدين ؛ وسبب ذلك أن رسل عز الدين ترددت إلى شاه أرمن تستنجده وتستنصره على صلاح الدين ، فأرسل شاه أرمن إلى صلاح الدين عدة رسل فى الشفاعة بالكفِّ عن الموصل ، ومايتعلق بعز الدين ، فلم يجبه إلى ذلك ، وغالطه ، فأرسل إليه أخيراً مملوكا له ، يقال له سيف الدين بكتمر الذى ملك خلاط بعده[٣] ، فأتاه وهو يحاصر سنجار يطلب إليه أن يتركها ويرحل عنها ، وقال له : إن رحل عنها وإلا فتهدده بقصده ومحاربته ، فأبلغه بكتمر الشفاعة ، فَسَوَّفَ فى الإجابة رجاء أن يفتحها ، فلما رأى بكتمر ذلك أبلغه الرسالة بالتهديد ، وفارقه غضبان ، ولم يقبل منه خلعة ولاصلة ، وأخبر[٤] صاحبه الخبر ، فسار إلى ماردين ، وصاحبها قطب الدين بن ألبى ، وهو ابن أخت شاه أرمن ، وابن خال عز الدين وحموه ، وحضر صحبة شاه أرمن دولة شاه صاحب بَدْليس[٥] وأرزن[٦] ، وسار عز الدين من الموصل فى عسكره جريدة من الأثقال . فلما سمع صلاح الدين باجتماعهم سير إلى ابن أخيه تقى الدين وهو بحماة يستدعيه ، ورحل إلى رأس عين ، فلما سمعوا برحيله تفرقوا ، فعاد شاه أرمن إلى خلاط ، واعتذر بأنه يجمع العساكر ويعود ، وعاد عز الدين إلى الموصل ، وأقام قطب الدين بماردين ، وسار صلاح الدين فأقام تحت ماردين أياما [٧] .

وفيها ....[٨] .

وفيها : حج بالناس من العراق طاشتكين [٩] .

---

(١) ورد هذا النص فى الكامل ، ج١٠ ، ص١١٦ـ ١١٧ .

(٢) «ساهر من » فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت من الكامل ، ج١٠ ، ص١١٦ ، كذلك مما ورد من أحداث بعد ذلك فى نص العينى الذى بين أيدينا .

(٣) يقصد هنا أن سيف الدين بكتمر ملك خلاط بعد شاه أرمن . الكامل ، ج١٠ ، ص١١٧ .

(٤) «أبلغ» فى نسخة ب .

(٥) بدليس : بلدة من نواحى أرمينية قرب خلاط . معجم البلدان ، ج١ ، ص ٥٢٦ .

(٦) أرزن : مدينة مشهورة قرب خلاط ولها قلعة حصينة وكانت من أعمر نواحى أرمينية . معجم البلدان ، ج١ ، ص٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

(٧) إلى هنا توقف العينى عن النقل من الكامل ، ج١٠ ، ص١١٦ ـ ١١٧ .

(٨) بياض بمقدار سطر ونصف فى النسختين .

(٩) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٣٧ .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

أحمد بن محمد بن على أبو طالب الفقيه الحنفى المعروف بابن الكجلو[1] ؛ من أهل المدائن . قال ابن النجار : كان يتولى الخطابة بها مدة ، ثم قدم بغداد واستوطنها ، وكان يسكن بمدرسة سعادة على شاطىء دجلة ، وكان أديبا فاضلا له شعر حسن ، وحدَّث عن أبى غالب محمد بن الحسن الماوردى بيسير ، وتوفى يوم الخميس لسبعة عشر خلت من ذى الحجة من هذه السنة ، ومن أشعاره من قصيدة :

لَهِيبُ فُؤادٍ حَرُّه ليس يَبْرُدُ	وذائِبُ دمْع بالأسى ليس يَجْمُدُ
وماكُلُّ مرتاحٍ إلى المجدِ ماجدٌ	ولا كُلُّ من يهوَى السيادَة سَيِّدُ
وَمَنْ يزرع المَعْروفَ بَذْرًا فإنَّه	على قدْر ماقَدْ قَدَّمَ البذْرَ يحْصُدُ

والكُجْلُو بضم الكاف وسكون الجيم وضم اللام وبعدها واو .

القطب النيسابورى ، واسمه مسعود بن محمد بن مسعود أبو المعالى الفقيه الشافعى[2] ؛ ولد سنة خمس وخمسمائة بنيسابور ، وأبوه من طُرَيْثيث[3] ، وتفقه القطب بنيسابور ، وسمع الحديث ، ودرَّس[٢٢٥ظ] بالنظامية« التى بنيسابور»[4] نيابة عن [الجُوينى][5] ، وقدم دمشق فى سنة أربعين وخمسمائة ، ووعظ بها ، وما كان الوعظ من فنه ، وحضر نور الدين مجلسه ، ودرَّس بالمجاهدية[6] ، ثم بالزاوية الغربية فى الجامع بعد وفاه نصر المقدسى[7] ، ثم سافر إلى حلب ودرس بالمدرستين اللتين لنور الدين وأسد الدين ، ثم عاد إلى دمشق فحَّدث ودرَّس بها ، فتوفى يوم عيد الفطر ، وصلى عليه بجامع

---

(١) انظر ترجمته فى الجواهر المضية فى طبقات الحنفية ، ج١ ، ص١١٢ ، طبعة أولى ، حيدر آباد ، د .ت .
(٢) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص١٩٦ ـ ١٩٧ ؛ شذرات الذهب ، جـ ٤ ، ص٢٦٣ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٣٧ـ ٢٣٨ ؛ الدارس ، جـ ١ ، ص١٨٣ـ ١٨٤ .
(٣) طريثيث : ناحية بنيسابور . انظر : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص٥٣٤ .
(٤) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٥) «ابن بنت الجوينى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص١٩٦ .
(٦) المجاهدية : هى المدرسة المجاهدية الجوانية ، وقفها الأمير مجاهد الدين أبو الفوارس بزان بن يامين الكردى أحد مقدمى الجيش بالشام فى دولة نور الدين . انظر : الدارس ، جـ ١ ، ص٤٥١ .
(٧) يقصد أبا الفتح نصر الله المصيصى . انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص ١٩٦ .

دمشق ، وكان «يوما» [١] مشهودًا ، ودفن بمقابر الصوفية عند المنيبع[٢] ، وتزوج الفخر بن عساكر بنته ، وذكره ابن عساكر وأثنى عليه ، وقال[٣] : إنه رأى أبا نصر بن القشيرى والمشايخ .

ممدود الذهبى البغدادى[٤] ؛كان مجاب الدعوة ، اتهم بسرقة ، وأتى به إلى باب النوبى ، ومُد ليضرب ، فرفع النقيب يده ليضربه ، فيبست يده ، فقال له حاجب الباب : مالك؟ فقال : قد يبست يدى ، فرفعوه من الأرض ، فعادت يده صحيحة ، فمدوه ، وعاد النقيب ليضربه ، فيبست يده ، فعلوا به ذلك ثلاث مرات ، فلما كان فى المرة الثالثة بكى حاجب الباب ، وقام له وأجلسه إلى جانبه واعتذر له ، وكتب إلى الخليفة فأخبره ، فأمره أن يحسن إليه ، وكانت وفاته فى هذه السنة .

أبو منصور هاشم بن المستضىء[٥] ، **أخو الإمام الناصر لدين الله** ؛ مات فى هذه السنة ، وكان شابا حسنا دينًا ، وأشار ابن العطار بتوليته الخلافة ، فلم يتم ذلك ، فتوفى فى شعبان ، ودفن عند أبيه المستضىء .

فخر الدولة بن الحسن بن هبة الله بن محمد بن على بن المطلب أبو المظفر ؛ وكان أبوه أبو المعالي وزيرا ، وأخوه أبو المكارم على أستاذ الدار ، وكان فخر الدولة فاضلا سديد الرأى ، كثير الصدقات دائم المعروف سخيا ، ذا مروءة ظاهرة ، وله ببغداد آثار جميلة منها ؛ جامعهُ المعروف بفخر الدولة غربى بغداد ، غرم عليه أموالاً عظيمة ، ومنها رباطه شرقى بغداد عند عقد المصطنع عند دار الذهب ، ووقف عليهما أوقافا كثيرة . وكانت وفاته فى شوال ، ودفن بجامعه غربى بغداد ، وله شباك يشرف على دجلة[٦] . وقال السبط[٧] : قد رأيت هذا الجامع فى سنة خمس وأربعين وخمسمائة ، وقد استولت دجلة عليه ، فأخربت بعضه والظاهر أنها تخرب الباقى .

---

(١) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .

(٢) المنيبع : محلة غربى دمشق . انظر : الدارس ، ج١ ، ص٣٥٥ ، حاشية «٥» .

(٣) «قيل» فى نسخة ب .

(٤) انظر ترجمته فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص ٢٣٨ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٦٣ .

(٥) انظر ترجمته فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص ٢٣٨ .

(٦) نقل العينى هذه الترجمة بتصرف من مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص٢٣٧ . انظر أيضًا : الكامل ، ج١٠ ، ص ١١٨ .

(٧) مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص٢٣٧ .

ابن بَشْكُوال، أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى بن بشكوال[1] بن يوسف بن داحَة بن داكة بن نصر بن عبد الكريم بن وافد الخزرجى القرطبى ؛ كان من علماء الأندلس، وله التصانيف المفيدة، منها «كتاب الصلة» الذى جعله ذيلا على «تاريخ علماء الأندلس» تصنيف القاضى أبى الوليد عبد الله المعروف بابن الفرضى[2]، وقد جمع فيه خلقا كثيرا . وله تاريخ صغير فى أحوال الأندلس، وما أقْصَر فيه، وكتاب «الغوامض والمبهمات» ذكر فيه من جاء ذكره فى الحديث مبهماً وعينه، ونسج فيه على منوال الخطيب البغدادى فى كتابه الذى وضعه على هذا الأسلوب، وجزء لطيف ذكر فيه من روى «الموطأ» عن مالك بن أنس - رحمه الله - ورتب أسماءهم على حروف المعجم، فبلغت عدتهم ثلاثة[3] وسبعين رجلا، ومجلد لطيف سماه «[كتاب][4] المستغيثين بالله تعالى عند [المهمات][5] والحاجات»، وغير ذلك من المصنفات . وتوفى ليلة الأربعاء لثمانية خلون من شهر رمضان من هذه السنة [٢٢٦و] بقرطبة، ودفن يوم الأربعاء بعد صلاة الظهر بمقبرة ابن عباس، بالقرب من قبر يحيى بن يحيى .

وداحة : بفتح الدال المهملة وبعد الألف حاء مهملة أيضا مفتوحة ثم هاء ساكنة .

وداكة : مثلها إلا أن عوض الحاء كاف .

وبشكوال : بفتح الباء الموحدة وسكون الشين المعجمة وضم الكاف وبعد الواو ألف ولام .

وتوفى والده أبو مروان عبد الملك بن مسعود صبيحة يوم الأحد، ودفن عشاء يوم الاثنين لأربعة بقين من جمادى الآخرة سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائه، وعمره نحو ثمانين سنة .

---

(١) انظر : ترجمته فى وفيات الأعيان، ج٢، ص٢٤٠ - ٢٤١ ؛ البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٣٣ ؛ المختصر، ج٣، ص٦٦ .
(٢) انظر : ترجمته فى وفيات الأعيان، ج٣، ص١٠٥ - ١٠٦ .
(٣) «ثلاثا» فى نسختى المخطوطة أ، ب والصحيح ما أثبتناه .
(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من وفيات الأعيان، ج٢، ص٢٤٠ حيث ينقل العينى عنه .
(٥) «الملمات» فى نسختى المخطوطة أ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من وفيات الأعيان، ج٢، ص٢٤٠ ؛ كشف الظنون، ج٢، ص١٦٧٤ .

الشيخ أحمد بن الرفاعى ؛ هو أبو العباس أحمد بن أبى الحسن على بن أبى العباس أحمد المعروف بابن الرفاعى ، كان رجلا صالحا شافعى المذهب ، وكان متواضعًا سليم الصدر ، مجرداً من الدنيا ، وماادخر شيئا قط . وقال ابن خلكان(١) : أصله من العرب ، وسكن فى البطائح(٢) ، بقرية يقال لها أم عبيدة ، وتبعه خلق كثير من الفقراء ، فتسموا بالرفاعية البطائحية ، ولأتباعه أحوال عجيبة ؛ من أكل الحيات وهى حية ، والنزول إلى التنانير وهى تتضرم بالنار فيطفئونها . ويقال : إنهم فى بلادهم يركبون الأسود وغير ذلك . ولم يكن له عقِب وإنما العقب لأخيه ، وأولاده يتوارثون المشيخة .

وفى المرآة(٣) : ويتسلق أحدهم فى أطول(٤) النخل ، ثم يلقى نفسه إلى الأرض ولا يتألم ، ويجتمع عنده فى كل سنة فى المواسم خلق عظيم . حكى لى بعض أشياخنا قال : حضرت عنده ليلة نصف شعبان وعنده نحو من مائة ألف إنسان .

وقال ابن خلكان(٥) : ولهم مواسم يجتمع عندهم من الفقراء عالم لايعد ولايحصى ، ويقومون بكفاية الكل .

قلت : ولطائفتهم موسم عظيم فى كل سنة يسمونه المحَيى ، بموضع يقال له تريب ، بين عينتاب والبيرة التى على الفرات ، يجتمع هناك كل سنة أمم لا يحصون ، وينضم إليهم من أهل تلك البلاد أناس كثيرون ، فتقام هناك أسواق عظيمة فيها بيع وشراء ، وينصبون الخيام والأخصاص ونحوها ، فأخبرنى أناس أن طائفة منهم يأكلون الحيات وهى حية ، ويأكلون جمرات النار ، ويحمون الصفائح الحديد ويقعدون عليها ، ويجعلون فى أعناقهم أطواقًا من حديد محماة مثل النار ، ونحو ذلك من الأشياء الخارقة للعادة ، ويقيمون هناك سماعاً ورقصا بأنواع الشهيق والزفير والبعبعة ، مع [تزبد](٦) أفواههم ، ونحو ذلك من الأشياء المنكرة المبتدعة .

---

(١) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٧١ ـ ١٧٢ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٣ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٣٦ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص ٢٥٩ ـ ٢٦٠ .
(٢) البطائح : أرض واسعة بين واسط والبصرة ، وهى مجموعة قرى متصلة . معجم البلدان ، ج١ ، ص ٦٦٨ـ ٦٧٠ .
(٣) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٣٦ .
(٤) «أصول» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٣٦ .
(٥) وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٧٢ .
(٦) «تزيد» فى نسخة أ . والمثبت من نسخة ب ، حيث يتفق مع السياق .

وقال ابن خلكان[١] : وكان للشيخ - مع ماكان «عليه»[٢] من الاشتغال بعبادته - شعر ، فمنه :

إذا جَنَّ ليلى هامَ قلبى بذكْـرِكُمُ	أنُوح كما ناحَ الحمـامُ المطَوَّقُ
وفَوْقى سحابٌ يمطر الهمَّ والأسَى	وتحتى بحارٌ [بالأسى][٣] تتدفَّقُ
سَلُوا أمَّ عمرو كيف بات أسيرُها	تُفَكُّ الأسارى دونَه وهو مُوثَقُ
فَلاَ هُوَ مَقْتُولٌ فَفى القَتْل راحَةٌ	ولاهُوَ ممنونٌ عليـهِ فَيُطْلَقُ

وفى المرآة[٤] : وكان سبب وفاته أن عبد الغنى بن محمد بن نقطة[٥] الزاهد مضى إلى [٢٢٦ظ] زيارته ، فأنشده أبياتاً منها : إذا جن ليلى هام قلبى بذكركم . إلى آخر ماذكرناه ، فبكى الشيخ ومرض ، وكانت وفاته يوم الخميس ثانى عشر جمادى الأولى ، وقد جاوز تسعين سنة[٦] ، وكانت وفاته بأم عبيدة بفتح العين المهملة وكسر الباء الموحدة وسكون الياء آخر الحروف وبعد الدال المهملة المفتوحة هاء .

والبطائح : بفتح الباء الموحدة ، عدة قرى مجتمعة فى وسط الماء بين واسط والبصرة ، ولها شهرة بالعراق .

والرِفاعى : بكسر الراء نسبة إلى رِفاعة[٧] ، إما إلى أجداده ، وإما إلى رفاعة اسم قبيلة . فافهم .

الملك المنصور عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ؛ صاحب بعلبك ، ونائب السلطان صلاح الدين على دمشق ، وهو عمه ، ووالد الملك الأمجد[٨] بهرام شاه ،

(١) وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٧٢ .
(٢) ما بين الأقواس ساقط من نسخة ب .
(٣) «للأسى» فى نسختى المخطوطة أ ، ب . والمثبت بين الحاصرتين من وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص١٧٢ ، حيث ينقل العينى عنه .
(٤) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص ٢٣٦ .
(٥) هو : عبد الغنى بن شجاع ، أبو بكر البغدادى الحنبلى المعروف بابن نقطة ، توفى سنة ٥٨٣هـ/١١٨٧م . انظر : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٣٩٣ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص ٢٧٨ .
(٦) إلى هنا توقف العينى عن النقل من مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص ٢٣٦- ٢٣٧ .
(٧) وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٧٢ .
(٨) الملك الأمجد مجد الدين أبو المظفر بهرام شاه بن فروخ شاه ، توفى مقتولاً بيد أحد مماليكه فى داره بدمشق سنة ٦٢٨هـ/١٢٣١م . انظر : وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٤٥٣ .

صاحب بعلبك أيضا بعد أبيه ، وإليه تنسب المدرسة الفرخشاهية[١] بالشرف[٢] الشمالى ، وإلى جانبها التربة الأمجدية لولده ، وهما للحنفية والشافعية ، وقد كان فرخشاه شهماً شجاعا بطلا ذكيا فاضلا كريما ممدّحاً ، امتدحه الشعراء لجوده وفضله وإحسانه ، وكان من أكبر أصحاب الشيخ تاج الدين أبى اليمن الكندى ، عرفه من مجلس القاضى الفاضل . ومن محاسنه صحبته لتاج الدين المذكور ، وله فيه مدائح ، ومن شعره قوله :

أنا فى أسْـرِ السَّـقَـامِ ... مِنْ هَوَى[٣] هذا الغـلامِ
رَشَـأٌ ترشقُ عَـيْنـا ... هُ فُـؤادى بسِـهَـامِ
كُلَّمَـا أَرْشَـفنى فَـا ... هُ علـى حَـرِّ الأوامِ
ذُقْتُ منه الشَّـهْـدَ ... فى الثَّلْجِ المُصَفَّى بالمُدامِ

وكان ابنه الأمجد شاعرا جيدا ، وقد ولاه عم أبيه ـ صلاح الدين ـ بعلبك بعد موت أبيه ، واستمر فيها مدة طويلة[٤] .

وفى المرآة [٥] : وكان فرخشاه من الأفاضل الأماثل ، كثير الصدقات متواضعا سخيا جوادا مقداما متنصلا من المظالم ، وكان شاعرا فصيحا . قال العماد : أنشدنى فى قلعة دمشق ، ونحن بين يدى صلاح الدين :

إذَا شِئْتَ أن تُعطِى الأمُور حُقوقَها ... وَتُوقِع حُكْمَ العَدْلِ أحْسَن موقِعهْ
فَلاَ تَصْنَع المعروفَ مَعَ غَيْر أهْلِه ... فَظُلْمُك وضعُ الشىء فى غيرِ مَوْضِعِهْ[٦]

وقال فى وصف دمشق :

---

(١) المدرسة الفرخشاهية : وقفتها حظ الخير خاتون ابنة إبراهيم بن عبد الله والدة عز الدين فرخشاه . وهى زوجة شاهنشاه بن أيوب أخى صلاح الدين ، وذلك فى سنة ٥٧٨هـ/١١٩١م ، وهذه المدرسة فى زقاق الصخر عند مدخل دمشق الغربى . انظر : الدارس ، جـ ١ ، ص٥٦١ ـ ٥٦٤ .

(٢) الشرف : هو المكان العالى ، والمشارف من قرى العرب ما دنا من الريف وواحدها شرف . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٢٧٧ .

(٣) «هذى» فى نسخة ب .

(٤) ورد هذا النص بتصرف فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٢ ـ ٣٣٣ .

(٥) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٣٧ .

(٦) وردت هذه الأبيات فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٣٧ .

دِمشقُ سقاكِ الله صوبَ غمامةٍ ... فما غائِبٌ عنها لدىَّ رشيدُ
عسى مُسْعِدًا لى أَنْ أبيتَ بأرضِها ... ألاَ إنَّنى لوصَحَّ لى لَسَعِيْدُ(١)

وله أشعار كثيرة مدونة . وكانت وفاته بدمشق فى جمادى الأولى من هذه السنة ، ودفن بقبته على الميدان فى الشرف الشمالى .

[قال المؤلف(٢)] : انتجز توريق هذا الجزء على يد مُسَطِّره ، ومؤلفه العبد الفقير إلى رحمة ربه الغنى أبى محمد محمود بن أحمد العينى يوم الاثنين الثامن من شهر رمضان عام إحدى وثلاثين وثمانمائة بالقاهرة المحروسة ، بداره المجاورة لمدرسته البدرية بحارة كتامة ، بالقرب من الجامع الأزهر ، يتلوه الجزء الذى أوله : (فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة التاسعة والسبعين بعد الخمسمائة من الهجرة النبوية) ، على يد أفقر عبيد الله وأحوجهم إلى عفوه ومغفرته محمد بن أحمد بن محمد الأخميمى الأنصارى الخزرجى الحنفى ، عامله الله والمسلمون بلطفه الجَلىّ والخفىّ ، فى يوم الثلاثاء المبارك السابع والعشرين من شهر صفر الأغر ، ختم بالنصر والظفر سنة ثمان وتسعين وثمانمائة ، حامدا لله تعالى ، ومصليا على رسوله ومسلماً ومحمدلاً ومحسبلاً ومحوقلاً .

(١) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٣٧ .
(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من نسخة أ ومثبت من نسخة ب .

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

رأيت أن أكتب هذه التوطئة للسفر الثانى من مخطوط عقد الجمان الخاص بالعصر الأيوبى والذى يغطى الفترة التى تبدأ من عام ٥٧٩ هـ إلى عام ٥٨٩ هـ .

ورؤيتى هذه راجعة إلى ما يلى :

أولاً : إن غالبية المحققين قد اعتادوا على كتابة مقدمة ودراسة أحياناً فى بداية الجزء الأول فقط ، ثم يعرضون بقية الأجزاء تباعاً ، دون أن يخط قلمهم بشىء يتصل بهذه الأجزاء إلا أننى رأيت أنه من الأوفق كتابة هذه التوطئة لأن نسخة المخطوط الرئيسة التى اعتمدت عليها فى تحقيق الجزء الأول تنتهى عند سنة ٥٧٨ هـ ، بينما النسخة الأخرى أى غير الرئيسة رقم ١٥٨٤ تاريخ تتناول السفر الثانى الذى يبدأ بسنة ٥٧٩هـ وينتهى فى سنة ٥٨٩هـ/ ١١٨٣م ــ ١١٩٣م . ولذلك اعتبرتها هى النسخة الرئيسة .

ثانياً : إن هذه الفترة لها من الأهمية ما ليس لغيرها نظراً لشهودها أحداثاً جساماً ومعالم يتميز بها تاريخ المسلمين ، بسبب ما حدث فيها من صد هجمة شرسة استهدفت قلب العالم الإسلامى مستتره وراء شعار الصليب والصليب منها براء .

ثالثاً : تميزت هذه الفترة بأخطر ما تعرض له العالم الإسلامى على المستويين الداخلى والخارجى ، وإن كان الجانب الخارجى غير مقطوع الصلة بتداعيات الجانب الداخلى .

فالجانب الداخلى اتسم بالضعف والتفكك فى العالم الإسلامى نتيجة لوجود خلافتين عباسية فى بغداد ، وفاطمية فى القاهرة ، مما أشعل الصراع بينهما فكرياً وعسكرياً ، فالخلافة العباسية كانت تعتنق المذهب السنى ، والخلافه الفاطمية كانت تعتنق المذهب الشيعى الباطنى . وكما هو واضح كان البون بين الجانبين شاسعاً ، إذ لم يقتصر الصراع على الجانب الفكرى بل تعداه إلى الجانب العسكرى والسياسى ، مما أدى إلى إضعاف كلا الجانبين ، وأصبح العالم الإسلامى بذلك مهيئاً لتلقى الكوارث التى جاءت من قبل جيوش أوربا الطامعة فى الثروة واغتصاب الأرض وانتهاك العرض .

رابعاً : بناء على ما تقدم نجد أن هذا السفر يتحدث عن البطل الذى كان العالم الإسلامى فى انتظاره ليرأب الصدع الداخلى والخارجى فى آن واحد خاصة أننا ألمحنا

إلى أن الجانبين غير مبتوتين عن بعضهما البعض ، فكان صلاح الدين الأيوبى هو البطل الذى انفرد دون كثير من الأبطال بأنه كان ضروره عصره إذ جاء فى الوقت المناسب الذى يتطلبه العالم الإسلامى حينئذ .

فأول هدف حققه هو رأب الصدع الفكرى بالقضاء على الخلافة الفاطمية ، وبذلك أعاد للعالم الإسلامى وحدته الفكرية متمثلة فى إعادة السيادة إلى المذهب السنى . كما تمثلت فى إعادة الوحدة السياسية لشرق العالم الإسلامى بقضائه على الحكام الصغار للدويلات المنفصلة عن بعضها البعض ، بل التى كان يناوىء بعضها البعض .

وبتحقيق ذلك أصبح الجو مهيئاً لخوض معارك الجهاد ضد الغزاة الصليبيين ، تلك المعارك التى انتهت بكسر شوكة الغزاة وبإعادة الهيبة والكرامة إلى المسلمين بفضل الجهاد الذى أوقف صلاح الدين حياته عليه ، فلم يره الناس طوال حياته إلا راكباً سرج فرسه ، وقد لبس ملابس الجندية ، التى لم يخلعها إلا مرة واحدة قبيل وفاته فى دمشق .

والآن أترك للقارىء أن يرى ما سجله العينى المؤرخ فى هذا السفر الذى بين أيدينا ، وما به من أحداث عظام رواها المؤرخ عن شهود عيان لهذه الحقبة أو عن كتب ألفت فى هذه الفترة ، وسجل أحداثها ، وبذلك يكون العينى أقرب إلى الصواب فيما سجله .

ولا يفوتنى أن أتقدم بالشكر للزميلات الباحثات الفضليات بلجنة التاريخ بمركز تحقيق التراث اللاتى شاركن فى إنجاز هذا العمل بكل إخلاص وتفان . وهن :

د . لبيبة إبراهيم مصطفى محمد　　أ . نعمات عباس محمد

أ . نفيسة محمد محمد صميدة　　أ . المرحومة/ تماضر زكريا غنام

والسيدة/ إيزيس سامح زكى التى قامت بالنسخ وشاركت فى الفهارس .

والله من وراء القصد .

المحقق

دكتور/ محمود رزق محمود

فى ٨ ذو القعدة ١٤٢٤هـ

الموافق ٢٠٠٤/١/١

الهرم ــ الأريزونا

بسم الله الرحمن الرحيم

[(1)فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة التاسعة والسبعين بعد الخمسمائة](*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله العباسى ، والسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب فى الشرق ؛ لأجل فتح البلاد التى ليست تحت يده .

ذكر فتوحات صلاح الدين (رحمه الله) فى هذه السنة

منها فتح [آمد](2) :

قال ابن كثير(3) : فى الرابع عشر من محرم هذه السنة ، تسلم السلطان صلاح الدين مدينة آمد وحِصْنَها صلحاً بعد قتال وحصار شديد ، من يد صاحبها [ابن نيسان](4) ، بعد ما حمل ما أمكنه من حواصله وأمواله وأثقاله مدة ثلاثة أيام . ولما تسلم السلطان البلد وجد فيه شيئًا كثيراً من الحواصل وآلات الحرب والسلاح ، حتى قيل إنه وجد برجاً مملوءاً بنصول النشاب ، وبرجاً آخر فيه مائة ألف شمعة وأشياء يطول شرحها ، ووجد فيها خزانة فيها ألف ألف مجلد ، وأربعون ألف مجلد ، فوهبها كلها للقاضى الفاضل ، فانتخب منها حمل سبعين حماراً . ثم وهب السلطانُ البلد بما فيه لنورالدين محمد بن قرا أرسلان ، وكان قد وعده بها ، فقيل له : إن الحواصل لم تدخل فى وعدك ، فقال : لا نبخل بها عليه وقد صار من أصحابنا وأنصارنا ، وكان فى خزانتها ثلاثة آلاف ألف دينار(5) ، فامتدحه الشعراء على ذلك وعلى حسن صنيعه الجميل . ومن أحسن ما قاله بعضهم فى ذلك من جملة قصيدة له فى السلطان :

(*) يوافق أولها ٢٦ إبريل ١١٨٣م .
(١) ما بين الحاصرتين تالف من أثر الرطوبة فى نسخة أ ، والمثبت من نسخة «ب» .
(٢) المثبت من نسخة «ب» ، وغير واضح فى نسخة «أ» . .
(٣) البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٤٤ ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت د . ت .
(٤) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل . والمثبت من أبى شامة : الروضتين ، ج٢ق١ ، ص١٢٥ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص١١٩ . أما ابن كثير فقد ذكر أن اسمه «ابن بيسان» ، ج١٢ ، ص٣٣٤ .
(٥) اتفق العينى مع الروضتين فى صحة الرقم ، ج٢ ق١ ، ص١٢٦ ، بينما ذكر ابن الأثير أنه «ما يزيد على ألف ألف دينار» الكامل ، ج١٠ ، ص١٢٠ ؛ وقد ذكره ابن كثير «ثلاثة آلاف» البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٤ .

قل للملوك تنحوا عن ممالككم فقد أتى آخذ الدنيا ومعطيها

وفى المرآة[١] : وفى يوم الأحد عاشر المحرم تسلم السلطان آمد ودخل إليها ، وجلس فى دار الإمارة ثم سلمها وأعمالها إلى نورالدين محمد بن قرا أرسلان ، وكان قد وعده بها لما جاء إلى خدمته ، ولما أخذها صلاح الدين خرج الرئيس محمود بن على ، ومحمد بن كيكلدى منها بأموالهما وحريمهما إلى الموصل ، وأعانهما صلاح الدين بدواب تنقل بعض قماشهما ، فحملا ما خف حمله ، وعجزا عن حمل كثير من الذخائر والأسلحة .

وفى تاريخ المؤيد[٢] : فى العشر الأول من محرم هذه السنة ، ملك صلاح الدين آمد بعد حصار وقتال ، وسلمها إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق صاحب حصن كيفا .

وفى تاريخ ابن العميد[٣] : وفى سنة تسع وسبعين وخمسمائة سار السلطان الملك الناصر صلاح الدين من مصر إلى الرها ففتحها ، ثم سار إلى الموصل فنازلها ، واستشفع صاحبها عزالدين مسعود بن مودود من الخليفة الناصر لدين الله ، فشفع فيه الخليفة ، فرحل صلاح الدين عن الموصل ، ونزل على سنجار[٣] فحاصرها ، ثم تسلمها وأحسن إلى رعيتها ، ثم توجه إلى حرزم[٤] فأخربها ، ثم كتب إلى الخليفة يطلب منه آمد . فأجابه الخليفة وبعث إليه بتقليدها ، فوصل إليه التقليد فى ذى الحجة من هذه السنة . ثم سار السلطان إلى آمد فنازلها لثلاث بقين من ذى الحجة ، وفتحها بالأمان فى العشر الأول من محرم سنة ثمانين وخمسمائة ، وسلمها إلى نورالدين بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا[٥] .

ومنها فتح عينتاب :

ولما فرغ صلاح الدين من أمر آمد ، سار وقطع الفرات قاصداً حلب ، واجتاز فى طريقه بعينتاب وبها ناصح[٦] الدين محمد بن خمارتكين ، فنزل إليه وقام بالضيافة ،

(١) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٣٩ .
(٢) أبو الفدا : المختصر ، ج٣ ، ص٦٦ .
(٣) ورد هذا النص بتصرف فى النويرى : نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص٣٨٢- ص٣٨٣ .
(٤) حَرْزَمْ : بليدة بن ماردين ودنيسر من أعمال الجزيرة . ياقوت : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٣٩ .
(٥) ورد هذا الحدث بتصرف فى الروضتين ، ج٢ق١ ، ص١٢٥ــ ص١٣٠ .
(٦) «ناصر الدين» فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٢٠ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص٦٦ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص٣٨٤ .

فأبقاها عليه . وجاءه ابن الساعاتى[1] الشاعر فأنشده هذه القصيدة :

ما بعد لقياك للعافين من أمل ملك الملوك وهذى دولة الدول[2]
من حاتم عندما كفَّاك واهبة حتى غدا مثلاً ناهيك من مثل
من يطلق الألف بعد الألف فى طلق كم بين طل الندى والوابل الهطل
ذر الصوارم فى أغمادها فلقد جلوتها من برود الهام فى حُلَل
ما خفت ، مذ كنت ، غير الله من أحد لذاك خافك حتى النوم فى المقل
فلو توخيت هدم السد معتزماً لزال خوفاً وطوعاً أن تقول زل
فانهض[3] إلى حلب فى كل سابغة سروحها قلل تغنى عن القلل
بكر المعاقل ما خطبها مكاثرة بكل أصمى أصم الكعب معتدل
فما سواك لها بعل وقد عطلت فحلها وتلافيها من العطل

ومنها :

فليعلم القدس أى الفتح منتظر حلوله وعلى الآفاق فليطل
وافاك يوسف يا بيت الخليل فلا تأيس وأمل فيه صادق الأمل

وفى تاريخ المؤيد[4] : لما فتح صلاح الدين آمد ، سار إلى الشام وقصد تل خالد ، من أعمال حلب ، وملكها ، ثم سار إلى عينتاب وحصرها وبها [ناصرالدين][5] محمد ، أخو الشيخ إسماعيل ، الذى كان خازن نورالدين محمود بن زنكى وصاحبه ، وكان قد تسلم عينتاب من نورالدين ، فبقيت معه إلى الآن ، فحاصرها السلطان ودخلها بتسليم صاحبها إليه ، فأقره السلطان عليها ، وبقى فى خدمة السلطان ، ومن جملة أمرائه ، ثم سار السلطان إلى حلب .

---

(١) ابن الساعاتى ، هو أبو الحسن على بن رستم بن هردوز الملقب بهاء الدين ، توفى فى القاهرة سنة ٦٠٤هـ . انظر وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٣٩٥- ص٣٩٦ ترجمة رقم ٤٧٨ ؛ شذرات الذهب ، ج٦ ، ص١٣ .
(٢) وردت بعض هذه الأبيات فى الروضتين ، ج٢ق١ ، ص١٤٠ .
(٣) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٣٩ .
(٤) المختصر ، ، ج٣ ، ص٦٦ .
(٥) «ناصر» فى المختصر ، ج٣ ، ص٦٦ . والصحيح ما أثبتناه .
حيث يلقب محمد بن خمارتكين بناصح الدين أو بدر الدين كما ورد فى زامباور : معجم الأسرات ، ج١ ، ص١٦٠- ١٦١ . أما ناصر الدين فهو لقب منكورس بن خمارتكين .

ومنها فتح حلب :

ولما فرغ السلطان من أمر عينتاب سار إلى حلب وحصرها ، وبها صاحبها عماد الدين زنكى بن مودود [٤] .

وقال ابن كثير[١] : سار السلطان في بقية المحرم إلى مدينة حلب فنازلها وحاصرها ، وقاتله أهلها قتالاً [شديداً][٢] ، وجرح أخو السلطان تاج الملوك بورى بن أيوب جرحاً بليغاً فمات منه بعد أيام ، ثم اتفق الحال بين السلطان وبين صاحبها عمادالدين زنكى بن مودود بن زنكى بن آقسنقر على عوض أطلقه السلطان ، وهو أن يرد عليه سنجار ويسلمه [حلب][٣] ، فخرج عماد الدين زنكى وجاء إلى خدمة السلطان وعزاه فى أخيه ونزل عنده فى المخيم ، ونقل أثقاله إلى سنجار ، وزاده السلطان [الخابور][٤] والرقة ونصيبين وسروج[٥] ، واشترط عليه إرسال العسكر فى الخدمة للغزاة ، وودعه السلطان . وكان أهل حلب ينادون على عمادالدين زنكى : «ياحمار بعت حلب بسنجار[٦]» . وكان تسلم السلطان حلب فى صفر ، وصعد إلى قلعتها يوم الاثنين السابع والعشرين من صفر ، وعمل له الأمير طمان[٧] وليمة عظيمة وكان يوماً مشهوداً ، ثم أن السلطان (رحمه الله) أسقط عن حلب وعن سائر بلاد الجزيرة المكوس والضرائب ، وكذلك عن بلاد الشام ومصر ، ثم أرسل إلى عساكره ليجتمعوا إليه ؛ ليتصدى لقتال الفرنج الملاعين ؛ لأنهم عاثوا فى البلاد يميناً وشمالاً فى غيبة السلطان واشتغاله ببلاد الجزيرة . وكان السلطان قد بشر بفتح بيت المقدس حين فتح حلب ، وذلك أن الفقيه مجدالدين بن جهبل الشافعى[٨] رأى فى تفسير أبى الحكم العربى عند قوله تعالى : ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ الرُّومُ ② فِي أَدْنَى الْأَرْضِ﴾ الآية[٩] ، البشارة بفتح بيت المقدس فى سنة ثلاث وثمانين

(١) البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٤ .
(٢) «جيداً» فى الأصل . والمثبت من ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٤ حيث ينقل العينى عنه .
(٣) «البلد» فى الأصل . والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٤ الذى ينقل العينى عنه .
(٤) «خابور» فى الأصل والمثبت من البداية والنهايه ، ج١٢ ، ص٣٣٤ وهو الصحيح .
(٥) سَرُوجُ : بلدة قريبة من حران من ديار مضر . ياقوت : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٨٥ .
(٦) ورد هذا القول فى المختصر ، ج٣ ، ص٦٦ .
(٧) «طهمان» فى البداية والنهاية أما باقى المصادر فتذكر أنه طمان . وهو الأمير حسام الدين بن غازى بن يلمى بن تنجول من جبل سلور بحلب ، توفى سنة٥٨٥هـ . انظر : ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٧٠ ، ص١٩٤ ؛ أبو المحاسن : النجوم ، ج٦ ، ص١٠٩ .
(٨) مجد الدين بن جهبل ، هو طاهر بن نصر الله بن جهبل الكلابى ، توفى بالقدس سنة ٥٩٦هـ ؛ الذهبى : العبر ، ج٤ ، ص٢٩٢ ؛ الإسنوى : طبقات الشافعية ، ج١ ، ص١٨١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٨٧ ؛ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص٣٤٣ ، ابن العماد الحنبلى ، الشذرات ، ج٤ ، ص٣٢٤ .
(٩) سورة الروم ، آية رقم ١-٢ .

وخمسمائة ، واستدل على ذلك بأشياء ، فكتب فى ورقة وأعطاها للفقيه عيسى الهكارى ؛ ليبشر بها السلطان ، فلم يتجاسر على ذلك ؛ خوفاً من عدم المطابقة ، فأعلم بذلك القاضى [محيى الدين بن الزكى][١] فنظم معناها فى قصيدة يقول فيها :

وفتحكم حلب الشهباء فى صَفَرٍ ... قضى لكم بافتتاح القُدس فى رَجَب

وقدمها للسلطان فتشوقت همة السلطان إلى ذلك ، فلما افتتحها كما سيأتى - إن شاء الله تعالى - أمر القاضى فخطب يومئذ وكان يوم الجمعة ، ولما بلغه أن ابن جهبل هو الذى اطلع على ذلك أولاً ، أمره أن يُدَرِّس فدَرَّس على الصخرة درساً عظيماً ، وأجزل له العطاء وأحسن عليه الثناء[٢] .

وفى تاريخ بيبرس : وفى هذه السنة سار صلاح الدين من تل خالد إلى حلب ، واستدعى إليها العساكر من جميع الجهات ، فاجتمع عليها خلق عظيم وتحقق عماد الدين أنه ليس له به قبل ، فأشار إلى حسام الدين طمان أن يسفِّر له مع صلاح الدين فى إعادة بلاده إليه وتسليم حلب منه ، فرفع الحديث ، وتقررت القاعدة . ولم يشعر أحد من[٥] العسكر ولا من الرعية حتى تم الأمر واستعاض ، فاستعلم العسكر من عماد الدين فأعلمهم وأذن لهم فى تدبير أنفسهم ، فأرسلوا عنهم وعن الرعية عزالدين جرديك ، وزين الدين بلك ، فاستحلفوا صلاح الدين على العسكر وعلى أهل البلد ، وخرجت العساكر إلى خدمته بالميدان الأخضر فخلع عليهم ، ونقل عماد الدين أقمشته وآلاته من القلعة ، ثم نزل إلى السلطان ، وسير معه فى الميدان وأنزله عنده فى الخيمة ، وقدم له تقدمة سنية وخيلاً ، وخلع على جماعة من أصحابه ، وسار يومه إلى سنجار . وطلع صلاح الدين القلعة وتسلمها فى صفر من هذه السنة[٣] . ومدحه السعيد بن سناء الملك بقصيدة أولها[٤] :

---

(١) «فخر الدين بن الولى» فى الأصل . والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٤- ص٣٣٥ حيث ينقل العينى عنه ، ومحيى الدين بن الزكى : هو أبو المعالى محمد بن أبى الحسن على بن محمد بن يحيى القرشى الملقب بمحى الدين توفى سنة ٥٩٨هـ بدمشق ودفن بسفح جبل قاسيون . ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٢٢٩- ص٢٣٦ ترجمة رقم ٥٩٤ .

(٢) ورد هذا النص بتصرف فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٥ .

(٣) ورد هذا النص بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٢١ - ص١٢٢ ؛ زبدة الحلب ، ج٣ ، ص٦٩ ؛ النوادر السلطانية ، ص٥٩ ؛ الروضتين ، ج٢ق١ ، ص١٣٧- ص١٣٨ .

(٤) السعيد بن سناء الملك ، هو السعيد أبو القاسم هبة الله بن الرشيد جعفر بن سناء الملك توفى سنة ٦٠٨هـ ؛ العماد ، الخريدة ، قسم مصر ، ج١ ، ص٦٤- ص٩٩ ؛ وفيات الأعيان ، ج٦ ، ص٦١ ترجمة رقم ٧٧٧ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص٣٥ .

بدولة الترك عزت [ملة][1] العرب وبابن أيوب ذلت شيعة الصُلب
[وافخر ففتحك][2] ذا فخر لمفتخر ذخرُ لمدخر كسب لمكتسب
بك العواصم طابت بعد ما خبثت [بمالكيها][3] ولولا أنت لم تطب

ومنها :

وافى الفرات فألقى فيه ذا لُجب [يظل][4] يهزأ من تياره اللجب
إلى بلاد أجابت قبل أن دعيت للخاطبين ولولا الخوف لم تُجب
ثم استجابت فلا حصن بممتنعٍ منها عليه ولا ملك بمحتجب

ومنها :

أتى إليها يقود البحر ملتطماً [والبيض كالموج والبيضات كالحبب][5]

ومنها :

ولابن أيوب دانت كل مملكة بالصفح والصلح أو بالحرب والحُرب

ومنها :

ففتحكم حلباً بالسيف فى صفر مبشر بفتوح القدس فى رجب

وكان هذا الفأل صادقاً ، واتفق فتوح القدس فى شهر رجب على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وقيل إن هذه القصيدة للقاضى محيى الدين ابن القاضى زكى الدين قاضى القضاة بدمشق[6] .

---

(١) «دولة» فى الأصل ؛ وفى الروضتين ،ج٢ ق١ ، ص١٤١ . والمثبت بين الحاصرتين من ديوان ابن سناء الملك ، ج١ ، ص٩ ، طبعة أولى حيدر آباد ١٩٥٨ .
(٢) «فافخر ففخرك» كذا فى الأصل . والمثبت بين الحاصرتين من ديوان ابن سناء الملك ، ج١ ، ص١٥ .
(٣) «لمالكيها» كذا فى الأصل . وما بين الحاصرتين من ديوان ابن سناء الملك ، ج١ ، ص١٥ .
(٤) «فظل» كذا فى الأصل . وما بين الحاصرتين من ديوان ابن سناء الملك ، ج١ ، ص١٢ .
(٥) «فالبيض أمواجه والبيض كالخيم» كذا فى الأصل . وما بين الحاصرتين من ديوان ابن سناء الملك ، ج١ ، ص١١ .
(٦) هذا الشعر ورد فى ديوان ابن سناء الملك ماعدا البيت الأخير ، فقد ذكر ابن الأثير أن هذا البيت لمحى الدين بن الزكى ، انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص١٢٢ .

وفى المرآة(١) : نازل صلاح الدين حلب فى سادس عشر المحرم ، ونزل بالميدان الأخضر ، وباشر القتال بكرة وعشيا ، وزحف يوماً أخوه تاج الملوك بورى فجاءه سهم فى عينه فوقع مريضاً ، فمات فى الثالث والعشرين من صفر . ثم علم عماد الدين زنكى أنه لا طاقة له به ، وقال لحسام الدين طُمان : أخرج إلى صلاح الدين وسله فى الصلح . فخرج سراً ولم يعلم به أحد ، فقرر الصلح وأن يرد عليه سنجار وأعمالها والخابور ونصيبين ، وأنه يسلم إليه قلعة حلب ، وعلم الناس ، فأصبح ، وخرجوا إلى صلاح الدين فخلع عليهم . وجعل أهل حلب تحت القلعة إجَّانة(٢) وثياباً وصابوناً ، وصاحوا على عماد الدين[٦] :

يا فاعل يا صانع انزل فاغسل الثياب مثل [المخانيث](٣) ما يصلح لك غير هذا ، وعملوا فيه الأشعار وغنوا بها فى الأسواق :

وبعتَ بسنجارَ خيرَ القلاع ... ثَكَلْتُكَ من بائعٍ مشترِى(٤) .

فلما كان اليوم الثالث والعشرون(٥) من صفر توفى تاج الملوك أخو السلطان فحزن عليه حزنًا عظيماً وجلس للعزاء وكان يبكى ويقول : «ما وفَّت حلب بشعرة من أخى» ، وقيل إنه قال : «ما غلت حلب ببورى» . والأول أليق بالسلطان ؛ لأنه ما كان فى البيت مثل بورى . وسار عماد الدين إلى سنجار وأقام السلطان بالمخيم غير مكترث بحلب ؛ لما جرى عليه من وفاة أخيه ، ثم صعد القلعة سلخ صفر فأنشده القاضى زكى الدين محمد ابن على القرشى قاضى قضاة دمشق أبياتاً منها :

[وفتحكم](٦) حلباً بالسيف فى صفر ... مبشر بفتوح القدس فى رجب

فعجب الناس من رمية من غير رام ، فكان كما قال ولكن بعد أربع سنين . وهو الذى خطب بالقدس لما فتحه السلطان . وولى السلطان القضاء بحلب محيى الدين بن زكى الدين ، والقلعة سيف الدين أركس ، والديوان ناصح الدين إسماعيل بن العميد ، وأعطى

---

(١) نقل العينى هذا النص بتصرف من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٣٩ .
(٢) الإجَّانة : المركَن وهو شبه لقن تُغسل أو تقصر فيه الثياب . والجمع : أجاجين . انظر : محيط المحيط .
(٣) «المخانثة» كذا فى الأصل . والمثبت من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٠ حيث ينقل العينى عنه .
(٤) «كتلتك» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٠ . وقد اتفق نص العينى مع ماورد فى النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٩٥ .
(٥) ذكر سبط ابن الجوزى أن تاج الملوك توفى فى العشرين من صفر سنة ٥٧٩هـ ، بيد أن بقية المصادر ذكرت أنه توفى يوم ٢٣ صفر ، انظر : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢٩٢ ؛ النوادر السلطانية ، ص٥٩-٦٠ ؛ مفرج الكروب ، ج٢ ، ص١٤٣-١٤٦ .
(٦) «وفتحه» كذا فى الأصل . والمثبت من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٠ .

تل باشر وتل خالد لبدر الدين دُلدُرُمْ بن بهاء الدين بن ياروق، وأعطى قلعة أعزاز لعلم الدين سليمان بن [جَنْدَر][٢]، ثم رحل عن حلب يوم السبت الثانى والعشرين من ربيع الآخر، ودخل دمشق ثالث جمادى الأولى[٣].

وفى تاريخ المؤيد[٤]: لما استقر الصلح بين صلاح الدين وعماد الدين عمل عماد الدين دعوة للسلطان واحتفل، فبينما هم فى سرورهم إذ جاء إنسان فَأَسَرَّ إلى السلطان بموت أخيه بورى فوجد عليه فى قلبه وجداً عظيماً وأمر بتجهيزه [سراً][٥]. ولم يعلم السلطان فى ذلك الوقت أحداً ممن كان فى الدعوة بذلك لئلا يتنكد عليهم ما هم فيه، وكان يقول: «ما وقعت علينا حلب رخيصة بموت بورى». وكان هذا من السلطان من الصبر العظيم[٦].

ومنها فتح حارم:

ولما ملك السلطان حلب أرسل إلى حارم وبها سُرْخك الذى ولاه الملك الصالح بن نور الدين محمود فى تسليم حارم، وجرت بينهما مراسلات فلم ينتظم بينهما حال، وكاتب سُرْخك الفرنج، فوثب عليه أهل القلعة وقبضوا عليه، وسلموا حارم إلى السلطان فتسلمها.

وفى تاريخ بيبرس: وكان السلطان قد أنفذ إلى حارم من يتسلمها، فدافع الوالى الذى بها، فسار بنفسه إليها فتسلمها وعاد إلى حلب.[٧]

---

(١) فى ابن الأثير، «وأقطع تل خالد لأمير يقال له داروم الياروقى، وهو صاحب تل باشر»، انظر: الكامل، ج١٠، ص١٢٣.

(٢) «حيدر» كذا فى الأصل، والمثبت من: الكامل، ج١٠، ص١٢٣؛ وفيات الأعيان، ج٧، ص١٧١؛ مرآة الزمان، ج٨، ص٢٤٠.

(٣) ورد هذا النص بتصرف فى: الكامل، ج١٠، ص١٢٣؛ زبدة الحلب، ج٣، ص٧١؛ مرآة الزمان، ج٨، ص٢٤٠.

(٤) المختصر، ج٣، ص٦٦-٦٧.

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من المختصر، ج٣، ص٦٦.

(٦) انظر: المختصر، ج٣، ص٦٦؛ كما ورد هذا النص بتصرف فى: الكامل، ج١٠، ص١٢٢.

(٧) انظر هذا الخبر فى النوادر السلطانية، ص٦٠؛ الروضتين، ج٢ق١، ص١٥٣؛ زبدة الحلب، ج٣، ص٧٠-٧١؛ الكامل، ج١٠، ص١٢٢-١٢٣.

ذكر مسير السلطان صلاح الدين إلى دمشق

ولما أخذ السلطان حارم وعاد إلى حلب ، رتب فيها ولده الظاهر غازى ومعه الأمير سيف الدين يزكج[1] ، ثم رحل عنها وسار نحو دمشق .

وقال ابن كثير[2] : رحل السلطان من حلب[٧] فى أواخر ربيع الآخر بجيوشه وعساكره ، وقد جعل فيها ولده الملك الظاهر غازى ، وولى قضاءها لمحيى الدين بن الزكى ، فاستناب له فيها نائباً[3] ، ورجع هو مع السلطان فى خدمته ، فاجتاز بحماة ثم بحمص ثم على بعلبك ، ثم دخل دمشق فى ثالث جمادى الأولى فى أبهة عظيمة ، [وفى][4] نيته الخروج سريعاً إلى قتال الإفرنج .

ذكر ما فعل السلطان صلاح الدين بعد دخوله دمشق

ولما دخل السلطان دمشق فى التاريخ المذكور وأقام أياماً برز منها فى أول جمادى الآخرة فى جحافل قاصداً نحو القدس الشريف ، فانتهى إلى بَيْسان[5] فنهبها وخربها وشن الإغارات على تلك النواحى ، ثم سار ونزل على عين جالوت[6] وأرسل بين يديه سرية هائلة ، فيها الأمير جرديك النورى فى طائفة من النورية ، وجاولى مملوك عمه أسد الدين شيركوه ، فوجدوا جيش الكرك من الفرنج قاصدين إلى أصحابهم نجدة لهم ، [فالتقوا][7] معهم ، فقتلوا من الإفرنج خلقاً كثيراً وأسروا مائة أسير ولم يفقد من المسلمين سوى شخص واحد ، ثم عادوا فى آخر ذلك اليوم .[8]

وبلغ السلطان أن الإفرنج قد اجتمعوا لقتاله وتصدى لهم [فنكصوا[9]] عنه ، فقتل منهم خلقاً كثيراً ، وجرح[10] مثلهم ، فرجعوا ناكصين على أعقابهم خائفين منه غاية المخافة .

---

(١) «يازكوج» ورد بهذا الرسم فى : زبدة الحلب ، ج٣ ، ص٧١ ، ص٧٢ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص٢٠٤ ؛ وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٧٠-١٧١ ؛ الروضتين ، ج٢ق١ ، ص١٥١ ؛ أما النوادر السلطانية فقد ورد الاسم فيه «يازكج» .
(٢) نقل العينى هذا النص بتصرف من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٥ .
(٣) هو زين الدين نبأ بن الفضل بن سليمان المعروف بابن البانياسى . انظر : الروضتين ، ج٢ق١ ، ص١٥١ .
(٤) «ومن» فى الأصل . والمثبت هو الصحيح .
(٥) بيسان : مدينة بالأردن بين حوران وفلسطين . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٧٨٨ .
(٦) عين جالوت : بليدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٧٦٠ .
(٧) «فاتفقوا» : فى الأصل وهو خطأ . والمثبت هو الصحيح وفقاً للسياق .
(٨) وردت هذه الأحداث فى الكامل ج١٠ ، ص١٢٤ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص٦٧ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٥ .
(٩) «فنكلوا» : فى الأصل والمثبت من النوادر السلطانية ، ص٦٣ ؛ الروضتين ، ج٢ق١ ، ص١٦٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٥ .
(١٠) توجد كلمتان غير مقروءتين قبل هذه الجملة . والنص بدونهما صحيح كما فى المصادر السابقة .

وفى تاريخ بيبرس : لما خرج السلطان من دمشق عبر نهر الأردن ورأى أهل تلك النواحى قد فارقوها خوفاً ، فقصد بيسان فأخربها وأغار على ما هناك ، فاجتمع الفرنج وجاءوا إلى قبالته فلما رأوا كثرة من معه من العسكر لم يقدموا عليه ، فأقام عليهم وأحاطت بهم عساكره ترميهم بالسهام وتناوشهم القتال فلم يخرجوا ، وأغار المسلمون على تلك الأعمال ونالوا منها ما لم يكونوا يطمعون فيه من الغنائم والنهب وعادوا ، فأعطاهم دستوراً ليستريحوا ، ودخل دمشق فأقام بها إلى شهر رجب من هذه السنة[١] .

وفى المرآة[٢] : لما وصل السلطان إلى بيسان هرب أهلها ، فقدم بين يديه جرديك النورى وجاولى الأسدى وجماعة من النورية ، فجاءوا إلى عين جالوت والفرنج على الفولة[٣] وصادفوا على عين جالوت طائفة من الإفرنج ، فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا مائة فارس . ورحل السلطان إلى الفولة يطلب المصاف ، فتحصن الفرنج بالداخل[٤] ولم يخرج منهم أحد ، فرحل السلطان إلى الطور[٥] لعله أن يخرج منهم أحد ، فلما كان فى الليل ساروا طالبين عكا ، ورحل السلطان خلفهم يقاتل الساقة[٦] ، فقتل منهم جماعة ، فدخلوا عكا وعاد السلطان على صعب[٧] فنهب وأحرق وعاد إلى دمشق .

ذكر مسير السلطان إلى الكرك

وفى رجب من هذه السنة ، سار السلطان إلى الكرك فحاصرها ، وفى صحبته تقى الدين عمر ابن أخيه ، وقد كتب إلى أخيه الملك العادل أبى بكر [٨] ليحضر إليه ؛ ليوليه حلب وأعمالها وفق ما كان طلبه منه ، فحضر العادل إليه . واستمر الحصار على كرك مدة شهر رجب فلم يظفر منها بطلب ، وبلغه أن الإفرنج كلهم اجتمعوا ؛ ليمنعوا منه

(١) انظر هذه الأحداث بالتفصيل فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٢٤ ؛ النوادر السلطانية ، ص٦٣ ؛ الروضتين ، ج٢ق١ ، ص١٦٣ .

(٢) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٠ .

(٣) الفُولة : بلدة بفلسطين من نواحى الشام . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٩٢٤ .

(٤) «الراحل» فى الأصل . والمثبت من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٠ . حيث ينقل العينى عنه .

(٥) الطور : جبل مشرف على نابلس بفلسطين . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٥٥٧ .

(٦) الساقة : جماعة كبيرة من العسكر ، وراء العسكر الذى يقف فيه السلطان ويسمى الساقة أو الخلف . انظر : نظير سعداوى : جيش مصر فى أيام صلاح الدين ، ص٤٠ .

(٧) «صيب» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٠ .

الكرك ، فكر راجعاً إلى دمشق فى منتصف شعبان ، وسار معه أخوه العادل ، وأرسل ابن أخيه الملك المظفر تقى الدين عمر إلى مصر ، نائباً عنه ، وفى صحبته القاضى الفاضل .

ووصل السلطان إلى دمشق وبعث أخاه العادل على مملكة حلب وأعمالها ، واستقدم ولده الملك الظاهر إليه وكذلك نوابه ومن يعز عليه . وإنما أعطى السلطان صلاح الدين أخاه العادل حلب ؛ ليكون قريباً منه فإنه كان لا يقطع أمراً دون مشورته ، واقترض[١] السلطان صلاح الدين من أخيه العادل مائة ألف دينار ، وتألم الظاهر على مفارقة حلب ، وكانت إقامته فى حلب ستة أشهر ، ولكنه لا يظهر ما فى نفسه ، ولكن يظهر ذلك على صفحات وجهه وفلتات لسانه .[٢]

وفى تاريخ بيبرس : لما توجه صلاح الدين إلى الكرك استدعى أخاه العادل أبابكر من مصر ، وكان قد أرسل إليه يطلب منه مدينة حلب وقلعتها فأجابه إلى ذلك وأمره أن يخرج معه بأهله وماله ، فوافاه إلى الكرك فى العسكر المصرى ، فكثر جمعه وحصر الحصن من الربض[٣] ونصب عليه المجانيق ، ثم رحل عنه وعاد إلى دمشق واستصحب أخاه العادل معه ، وسير ابن أخيه تقى الدين إلى مصر نائباً عنه ، وأعطى أخاه العادل حلب وقلعتها وأعمالها ومنبج وأعمالها وسيره إليها ، وأحضر ولده الظاهر منها إلى دمشق .

ذكر بقية الحوادث

منها : أن عز الدين مسعود صاحب الموصل قبض على نائبه مجاهد الدين قايماز وكان إليه الحكم فى جميع البلاد ، وكان الذى أشار عليه بذلك عز الدين محمود وشرف الدين [أحمد][٤] بن أبى الخير وهما من أكابر أمرائه لهوى أنفسهما ، ولما أراد القبض عليه لم يقدم على ذلك لقوة مجاهد الدين ، فأظهر أنه مريض وانقطع عن الركوب عدة

---

(١) يذكر ابن العديم أن هذا المال الذى أخذه السلطان صلاح الدين من العادل هو ثمناً لحلب وذلك لحاجة السلطان للأموال من أجل إعداد وتجهيز الجيش . كما يذكر أن قيمته تبلغ ثلاثمائة ألف دينار مصرية . انظر : زبدة الحلب ، ج٣ ، ص٧٥ .

(٢) انظر تفاصيل هذا الخبر فى : الكامل ، ج١٠ ، ص١٢٤- ص١٢٥ ، طبعة بيروت ؛ النوادر السلطانية ، ص٦٣-٦٤ ؛ الروضتين ، ج٢ق١ ، ص١٦٦ وما بعدها ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٦ .

(٣) الربض : ما حول المدينة من الخارج . ويذكر ياقوت أنه «قل ما تخلو مدينة من ربض» . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٧٥٠ .

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من التاريخ الباهر ، ص١٨٣ .

أيام فدخل إليه مجاهد الدين وحده ، وكان لا يُمنع فى الدخول عليه ولا على النساء ، فلما دخل عليه قبض عليه وركب لوقته إلى القلعة واحتوى على الأموال التى لمجاهد الدين وخزائنه ، وولى عز الدين محمود القلعة وجعل ابن صاحب العراق أمير حاجب ، وكان تحت مجاهد الدين إربل وأعمالها ، ومعه فيها يوسف بن زين الدين على ، وهو صبى صغير ليس له من الحكم شىء ، والحكم والعسكر إلى مجاهد الدين ، وتحت حكمه أيضاً جزيرة ابن عمر ، وهى لمعز الدين سنجر شاه بن غازى بن مودود ، صبى صغير ، وبيده أيضاً شهرزور[٩] وأعمالها وبها نوابه ، ودقوقا[١] وبها نائبه ، وقلعة عقر الحميدية[٢] ونائبه فيها ، ولم يكن بقى لعز الدين صاحب الموصل بعد أن أخذ صلاح الدين البلاد الجزرية سوى الموصل ، وكانت قلعتها بيد مجاهد الدين وهو على الحقيقة الملك ، فلما قبض عليه عز الدين امتنع صاحب إربل والجزيرة من طاعته ، وأرسل الخليفة[٣] إلى دقوقا من حاصرها وأخذها ، ولم يحصل لعز الدين مسعود مما كان بيد المجاهد قايماز غير شهرزور ، وصارت إربل وجزيرة ابن عمر أضر شىء على صاحب الموصل ، وأرسل صاحبها إلى صلاح الدين بالطاعة له والكون فى خدمته .

وكان الخليفة الناصر لدين الله قد سير صدر الدين شيخ الشيوخ[٤] ومعه بشير الخادم إلى صلاح الدين فى الصلح مع عز الدين صاحب الموصل ، فأجاب صلاح الدين إلى الصلح على أن تكون إربل والجزيرة معه ، وتقرر الصلح . وإنما قوى طمع صلاح الدين فى الموصل ، لقبض صاحبها على مجاهد الدين ، فلما تبين لعز الدين مسعود الضرر الذى ترتب على إمساك المجاهد قايماز ، أمسك الذين أشاروا عليه باعتقاله ، وأفرج عنه من الاعتقال ، ثم رحل صلاح الدين عن الموصل[٥] ، ونازل سنجار على ما ذكرناه عن قريب .[٦]

---

(١) دقوقاء : مدينة بين إربل وبغداد . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥٨ .

(٢) عَقْر الحميدية : قلعة حصينة بالموصل . أبو الفدا : تقويم البلدان ، ص٢٧٤ .

(٣) يقصد بالخليفة «الناصر لدين الله» .

(٤) شيخ الشيوخ : هو عبدالرحيم بن إسماعيل بن أبى سعد أحمد بن محمد النيسابورى ، توفى سنة ٥٨٠هـ ؛ انظر : الروضتين ، ج٢ق١ ، ص١٣٥ ؛ النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٩٨ ؛ مفرج الكروب ، ج٢ ، ص١٦٢ .

(٥) وردت هذه الأحداث بتصرف فى الباهر ، ص١٨٣- ص١٨٤ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص١٢٦- ص١٢٨ ؛ زبدة الحلب ، ج٣ ، ص٧٦- ص٧٧ ؛ النوادر السلطانية ، ص٦٤- ص٦٥ .

(٦) وقد كان ابن شداد شاهد عيان للأحداث سابقة الذكر ويؤيد هذا قوله : «وكنا قد توسلنا إلى الخليفة الناصر لدين الله . . . . وكنت مع القوم» . انظر : النوادر السلطانية ، ص٦٤ - ص٦٥ .

ومنها : أنه سار أسطول من مصر فى البحر ، فلقوا بطسه فيها نحو من ثلاثمائة من الفرنج نجدة لفرنج الساحل ، فقاتلوهم ، فظفر بهم المسلمون وأخذوهم أسرى ، فقتلوا بعضهم ، وأبقوا بعضهم أسرى ، وغنموا ما معهم وعادوا إلى مصر سالمين .

ومنها : أنه سارت جماعة كبيرة من الفرنج من نواحى الداروم(١) إلى نواحى مصر ، ليغيروا وينهبوا ، فسمع بهم المسلمون فخرجوا إليهم على طريق صدر(٢) وأيلة ، فانتزح الفرنج من بين أيديهم على ماء يقال له العُسيلة(٣) وسبقوا المسلمين إليه ، فأتاهم المسلمون وهم عطاش قد أشرفوا على الهلاك ، فرأوا الفرنج قد ملكوا الماء ، فأنشأ الله سحابة عظيمة بلطفه فمطروا منها حتى رَوُوا - وكان الزمان قيظًا والحر شديداً - وقاتلوا الفرنج فنصرهم الله عليهم ، فقتلوهم ولم يسلم منهم إلا الشريد ، وغنم المسلمون ما معهم من سلاح ودواب وعادوا منصورين قاهرين بفضل الله ورحمته .(٤)

ومنها : أن الخليفة أمر فى ذى الحجة أن لا يستخدم فى الديوان يهودى ولا نصرانى ، ولا يستعمل بهم فى عمل من الأعمال ، فأنهى إليه أن ابن رُطينا ليس له نظير فى الكتابة ، فكتب على المطالعة «مات ابن رطينا إيش نعمل نبطل الديوان» فأسلم ابن رطينا يومئذ .(٥)

وفيها [١٠] حج بالناس ....(٦)

ذكر من توفى فيها من الأعيان

الأبله الشاعر(٧) : **أبو عبد الله محمد بن بختيار بن عبد الله ، المولّد ، المعروف بالأبله البغدادى** ، الشاعر المشهور ، أحد المتأخرين المجيدين ، جمع فى شعره بين الصناعة والرقة ، وله ديوان شعر بأيدى الناس كثير الوجود ، ومن شعره :

---

(١) الداروم ، قلعة بعد غزة للقاصد إلى مصر ، الواقف فيها يرى البحر . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥٢٥ .
(٢) صدر : قلعة خراب بين القاهرة وأيلة . ياقوت : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٧٥ .
(٣) العُسيلة : ماء فى جبل القنان شرقى سميراء . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٦٧٨ .
(٤) انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص١٢٠ - ص١٢١ .
(٥) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤١ .
(٦) بياض فى الأصل بمقدار نصف سطر .
(٧) الأبله الشاعر : هو أبو عبدالله محمد بن بختيار بن عبدالله المولّد المعروف بالمولد الأبله البغدادى ، توفى سنة٥٧٩هـ وقيل٥٨٠هـ . انظر : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٤٦٣ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٦٦ ؛ النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٩٥ .

زار من أحـيـا بـزَوْرَته والـدجـى فـى لـون طـرتـه
قـمـرٌ يَثْنى مـعـانقُـهُ بـانـة فـى ثـنـى بُـرْدِتـه
بتُّ استجلى المُدام علَى غِـرّة الواشى وغُـرَّتـه
يا لـهـا من زَوْرةٍ قـصُـرت فـأمـاتت طول جَـفْـوَتِه
حـين حلت عـقـد مصطبرى عـقـدت من سـحـر مـقلتـه
آه من خـصـرٍ لـه وعلى خـصـرٍ[1] من برْد ريقـتـه
يـاله فى الحـسـن من صنم كلُّنا فى جـاهليَّـتـه[2]

وفى المرآة[3] : وكان الأبله يصحب حاجب الباب ابن الدوامى ويمدحه ، خرج معه بستان بباب محول[4] ، وكانت ليلة مقمرة فأخذ ينشد لابن الدوامى قصائد منها : زار من أحيى إلى آخره . فلما أنهاها قال له ابن الدوامى : يا حجة العرب هذه القصيدة لك . فقال : نعم . فصاح صائح من داخل البستان : يكذب ما هى له . فخاف ابن الدوامى وغلمانه وقاموا إلى الباب وهو مغلق فطافوا البستان فلم يروا أحداً فعادوا وجلسوا ، فقال له ابن الدوامى : أنشدنا أخرى ، فأنشده ، فقال : هذه لك؟ قال : نعم . فصاح ذلك الصوت بعينه : يكذب ما هى له . فقاموا وفتشوا فلم يجدوا[5] أحدًا . فقال : أنشدنا أخرى ، فأنشده ثالثة ، فقال : هذه لك؟ قال : نعم . فصاح ذلك الصوت بعينه : يكذب ما هى له . فقال الأبله : خبره ما هى لى ، فلمن هى؟ فقال : لى . قال : ومن أنت؟ قال : شيطانك الذى أعلمك قول الشعر . فقال له : صدقت ، والله يحفظك علىَّ ولا يفرق بينى وبينك .

قال : ابن الرومى الشاعر[6] : مرض الأبله ، فدخلت عليه أعوده ، فقال : ما بقيت أقدر أنظم شيئاً . قال : فقلت فما سببه؟ قال : إن تابعى قد مات . وتوفى بعد ذلك فى جمادى الآخرة وترك ثلاثة آلاف دينار .

---

(١) «رشفة» فى وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٤٦٣ .
(٢) انظر هذه الأبيات فى : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٤٦٣ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٢ .
(٣) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٢ - ص٢٤٣ .
(٤) باب محول : محلة كبيرة من محال بغداد كانت متصلة بالكرخ . معجم البلدان ، ج١ ، ص٤٥١ .
(٥) «يروا» فى الأصل . والمثبت من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٣ حيث ينقل العينى عنه .
(٦) هو ياقوت بن عبد الله الرومى ، أبو الدر ، الملقب مهذب الدين ، من أهل بغداد . توفى فى بغداد سنة ٦٢٢هـ . انظر : الزركلى : الأعلام ، ج٩ ، ص١٥٧ .

قال السبط[١] : والدليل على صحة هذه الحكاية قول الشاعر :

إنى وكل شاعر من البشر		شيطانه أنثى وشيطانى ذَكَر

ومن أبياته السائرة قوله :

لا يَعرف الشوق إلا من يكابده		ولا الصبابة إلا من يعانيها[٢] .

وفى تاريخ ابن كثير[٣] : وكانت [وفاته][٤] فى سنة تسع وسبعين وخمسمائة ببغداد ، ودفن بباب أبرز محاذى التاجية ، وقيل فى سنة ثمانين وخمسمائة . وكان له ميل إلى بعض أبناء البغاددة ، فعبر على بابه [فوجد[٥]] خلوة ، فكتب على الباب : قال العماد الكاتب[١١] أنشدينها :

دارك يابدر الدجى جنة		بغيرها نفسى ما تلهو
وقد رُوِيْ فى خبرٍ أنَّه		أكثر أهل الجنة البُلْهُ

وإنما قيل له أبله ؛ لأنه كان فيه طرف بَلهٍ ، وقيل لأنه كان فى غاية الذكاء ، وهو من أسماء الأضداد . كما قيل للأسود : كافور .[٦] وكان يتزيا بزى الجند .

الأمير شاهرمن : اسمه سقمان بن ظهير الدين بن إبراهيم بن سقمان القطبى ، صاحب [خلاط][٧] ، توفى فى هذه السنة[٨] وعمره أربع وستون سنة ، وكان ملكه لها فى سنة إحدى وعشرين وخمسمائة . وكان بكتمر[٩] مملوك أبيه بميافارقين لما مات شاهرمن ، فلما سمع بموته سار من ميافارقين ووصل إلى خلاط ، وكان أكثر أهلها

---

(١) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٢ – ص٢٤٣ .
(٢) وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٤٦٤ .
(٣) لم يرد هذا النص فى ابن كثير كما أشار العينى ، وإنما ورد فى ابن الأثير ، الكامل ، ص١٢٥ ؛ وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٤٦٥ .
(٤) ما بين الحاصرتين إضافة لتوضيح المعنى .
(٥) «فوجده» فى الأصل . والمثبت من وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٤٦٥ .
(٦) ورد هذا النص بتصرف فى وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٤٦٥ .
(٧) أخلاط فى الأصل . والمثبت من : النوادر السلطانية ، ص٦٩ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص٦٧ . وخِلاط : بلدة عامرة وهى قصبة أرمينية الوسطى . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٥٧ .
(٨) أورد هذ الأحداث كل من ابن شداد ، وأبو شامة ، وابن واصل فى حوادث سنة ٥٨١هـ . انظر النوادر السلطانية ، ص٦٩ ؛ مفرج الكروب ، ج٢ ، ص١٦٨ ؛ الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٢٠٤ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص١٣١ .
(٩) بكتمر يسمى «سيف الدين بكتمر» . انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص٢٠٩ ؛ مفرج الكروب ، ج٢ ، ص١٦٨ .

يريدونه ، وكانت مماليك شاهرمن متفقين معه ، فأول وصوله استولى على خلاط وملكها ، وجلس على كرسى شاهرمن ، واستقر فى ملكه حتى قتل فى سنة تسع وثمانين وخمسمائة كما سنذكره إن شاء الله[١] تعالى .

تاج الملوك بورى بن أيوب ، أخو السلطان صلاح الدين يوسف أيوب ، وكنيته أبو سعيد ، ولد فى ذى الحجة سنة ست وخمسين وخمسمائة ، وكان الله تعالى قد جمع فيه مكارم الأخلاق ، ولطف طباع ، وكرماً وشجاعة ، وفضلاً وفصاحة . وكان أديباً شاعراً مترسلاً . وله ديوان شعر ذكره العماد فى الخريدة وأثنى عليه وأنشد مقطعات من شعره .

منها : فى شهر رمضان :-

رمضان بل مرضان إلا أنهم ... غلطوا إذن فى قولهم وأساؤا
مرضان فيه تخالف فنهاره ... سيل[٢] وأما ليله استسقاء

وقال :

شربت من الفراتْ ونيل مصر ... أحب إلىَّ من شط الفرات
ولى فى مصر من أصبو إليه ... ومن فى قربه أبداً حياتى
فقلت وقد ذكرت زمان وصلٍ ... تمادى بعده روح الحياةِ
أرى ما أشتهيه يَفِرُّ منى ... ومَنْ لا أشتهيه إلىَّ ياتى

وقال وقد بالغ :

يا غزالاً يميت طوراً ويحيى ... وهو برء السقام سقم الصحيح
هذه المعجزات ليست لظبى ... إنما هذه فعال المسيح[٣]

وقال ابن خلكان[٤] : وكان بورى أصغر أولاد أبيه ، كانت فيه فضيلة ، وله ديوان شعر ، فيه الغث والسمين ، لكنه بالنسبة إلى مثله جيد .

---

(١) ورد هذا النص بتصرف فى المختصر ، ج٣ ، ص٦٧ .
(٢) وردت هذه الأبيات فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤١ .
(٣) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤١ - ٢٤٢ .
(٤) وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢٩٠ - ص٢٩١ ترجمة رقم ١٢١ .

وله فى أحد مماليكه وقد أقبل من جهة الغرب راكباً فرساً أشهب :-

أقبَلَ منْ أعشقهُ راكباً — من [جهة(١)] الغرب على أشهبِ
فقلتُ سبحانَك يا ذا العُلى — أشرقَتِ الشمسُ من المغربِ

[١٢] وله :

يا حياتى حين تَرْضى — ومَماتِى حين تَسْخَطْ
آهِ من وردٍ على [خدّ — يك(٢)] بالمِسْكِ مُنَقّط
بين أجفانك سُلْطا — ن على ضَعْفى مُسَلّط
قد تصبرت وإن بَرّ — حَ بى الشوق وأَفْرط
فلعل الدهْرَ يَوْماً — بالتلاقى منكَ يَغْلَط

وله أشياء حسنة ، وتوفى يوم الخميس الثالث والعشرين من صفر من هذه السنة على مدينة حلب ، من جراحة أصابته ، لما حاصرها أخوه السلطان صلاح الدين يوسف كما ذكرناه ، وعمره ثلاث وعشرون سنة .

بُورى بضم الباء الموحدة ، وسكون الواو ، وكسر الراء وفى آخره ياء ساكنة ، وهو اسم للذئب بلغة الترك .(٣) *

(١) «جانب» فى الأصل . المثبت من ابن خلكان ، وفيات الأعيان . ج١ ، ص٢٩١ حيث ينقل العينى عنه .
(٢) «خدك» فى نسخة أ ، ب . والمثبت من ابن خلكان حيث ينقل العينى عنه ، وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢٩١ .
(٣) ورد هذا النص بتصرف فى ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢٩٠-٢٩٢ ترجمة ١٢١ ؛ انظر : سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤١-٢٤٢ ؛ ابن العماد : الشذرات ، ج٤ ، ص٢٦٥ ؛ ابن كثير : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٣ .
(*) ويوجد بهامش الورقة ١٢ تعليق لعبدالله الحنفى نصه :
والصواب أن بورى بباء موحدة مفخمة تنقط على طريقة اللغة التركية بثلاث نقط من تحتها فهى به علم ، فإن التلفظ بها غير التلفظ ببورى الذى ضبطه هو . ومن يعرف لسان الترك يتأمل هذا فيفهمه .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الثمانين بعد الخمسمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله ، وأصحاب البلاد على حالهم غير أن صاحب ماردين وصاحب الغرب ماتا فى هذه السنة .

ذكر وفاة صاحب ماردين

وهو قطب الدين إيلغازى(١) بن نجم الدين ألبى بن تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق صاحب ماردين ، وكان ملكاً جواداً شجاعاً عادلاً منصفاً عاقلاً ، توفى فى جمادى الآخرة من هذه السنة . وكان(٢) والده ألبى قد ملك فى سنة سبع وأربعين وخمسمائة وبقى فى ملك ماردين إلى مدة لم نقف على انتهائها ، وملك بعده ابنه إيلغازى المذكور ، واستمر فيها إلى أن مات فى هذه السنة ، وخلف أولاداً أطفالاً ، فأقيم فى الملك بعده ولده حسام الدين بولق أرسلان ، وقام بتدبير المملكة وترتيبها مملوك والده نظام الدين ألبقش حتى كبر بولق أرسلان وكان به هوج وخبط ، فمات . وأقام ألبقش بعده أخاه الأصغر ناصر الدين ارتق أرسلان بن إيلغازى ولم يكن له حكم بل الحكم إلى ألبقش وإلى مملوك لألبقش اسمه لؤلؤ ، وكان قد تغلب على أستاذه ألبقش ، بحيث كان لا يخرج ألبقش عن رأى لؤلؤ المذكور . ولم يكن لناصر الدين أرتق أرسلان صاحب ماردين فى الحكم شىء ، وبقى الأمر كذلك إلى سنة إحدى وستمائة فمرض ألبقش وأتاه ناصر الدين يعوده ، فلما خرج من عنده خرج معه لؤلؤ فضربه ناصر الدين بسكين فقتله ، ثم عاد إلى ألبقش فقتله وهو مريض ، واستقل ناصر الدين ارتق أرسلان بملك ماردين من غير منازع .

وفى تاريخ بيبرس : لما مات قطب الدين إيلغازى ، ملك بعده ابنه حسام الدين بولق(٣) أرسلان وهو طفل ، وقام بتربيته وتدبير ملكه نظام الدين ألبقش مملوك أبيه . وكان شاه أرمن ـ صاحب خلاط ـ خال قطب الدين فحكم فى دولته ، وأحسن ألبقش تربية الولد ، وتزوج بأمه ، فلما كبر الولد لم يمكنه ألبقش من المملكة لأنه كان أهوج . ولم يزل

(*) يوافق أولها ١٤ إبريل ١١٨٤م .
(١) انظر : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٦٨ ، حوادث سنة ٥٨٠هـ ؛ النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٩٧ .
(٢) وردت هذه الأحداث فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٢٩ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص٦٨ .
(٣) «يولق» كذا فى زبدة الحلب ، ج٣ ، ص٨٢ ؛ مفرج الكروب ، ج٢ ، ص١٦٥ .

الحال كذلك إلى أن مات الولد المذكور ، وكان له أخ صغير أصغر منه اسمه قطب الدين ، فرتبه ألبقش مكانه والله أعلم .(١)

ذكر وفاة صاحب الغرب

هو أبو يعقوب يوسف ابن السلطان عبدالمؤمن [١٣] بن على القيسى الكومى(٢) ، توفى فى هذه السنة ، وذلك أنه سار فى هذه السنة إلى بلاد الأندلس ، وعبر البحر فى جمع عظيم من عساكره وقصد بلاد الإفرنج ، فحصر شنترين(٣) من غرب الأندلس ، وأصابه مرض فمات منه فى ربيع الأول من هذه السنة ، وحمل فى تابوت إلى مدينة إشبيلية(٤) وكانت مدة مملكته اثنتين وعشرين سنة وشهوراً(٥) . وكان فقيهاً حافظاً متفنناً(٦) ، لأن أباه هذبه وقرن به وبإخوته أكمل رجال الحرب والمعارف ، فنشأوا فى ظهور الخيل بين أبطال الفرسان ، وفى قراءة العلم بين أفاضل العلماء . وكان ميله إلى الحكمة والفلسفة أكثر من ميله إلى الأدب وبقية العلوم ، وكان جمّاعاً منّاعاً ضابطاً لخراج مملكته ، عارفاً بسياسة رعيته . وكان ربما يحضر حتى لا يكاد يغيب ، ويغيب حتى لايكاد يحضر ، وله فى غيبته نواب وخلفاء وحكام قد كان يفوِّض الأمور إليهم لما علم من صلاحهم لذلك . والدنانير اليوسفية المغربية منسوبة إليه .

ثم إنه لما تمهدت له الأمور واستقرت قواعد ملكه ، استرجع بلاد المسلمين من أيدى الإفرنج ، لعنهم الله ، وكانوا قد استولوا عليها . فاتسعت مملكته بالأندلس ، وصارت سراياه تصل مغيرة إلى باب طليطلة(٧) ، وهى كرسى بلادهم وأعظم قواعدهم ، ثم إنه حاصرها ، فاجتمع الإفرنج كافة عليه ، واشتد الغلاء فى عسكره ، فرجع عنها ، وعاد

---

(١) ورد هذا الحدث بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٢٩ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص٦٨ .

(٢) هو أبو يعقوب يوسف بن أبى محمد عبدالمؤمن بن على القيسى الكومى صاحب المغرب . انظر : وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٣٠-ص١٣٨ .

(٣) شنترين : كلمتان مركبة من شنت كلمة ورين كلمة . مدينة متصلة الأعمال بأعمال باجة فى غربى الأندلس ثم غربى قرطبه وعلى نهر تاجة . ياقوت : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٣٢٧ .

(٤) إشبيلية : مدينة كبيرة ، بها قاعدة ملك الأندلس وسريره وهى غربى قرطبة . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٢٧٥ .

(٥) «وشهرا» فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٢٧ .

(٦) «متقنناً» كذا فى وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٣٠ .

(٧) طليطلة : مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس ، وكانت قاعدة ملوك القرطبيين وكرسى بلادهم وموضع قرارهم . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٥٤٥ ؛ وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٣١ .

إلى مراكش[١] . وفى سنة خمس وسبعين قصد بلاد إفريقية وفتح مدينة قفصه ، ثم دخل جزيرة الأندلس فحاصر مدينة شنترين شهراً وذلك فى سنة ثمانين وخمسمائة ، وكان معه جمع كثيف ، فأصابه مرض فمات منه فى ربيع الأول كما ذكرنا . وشَنْتَرين بفتح الشين المعجمه وسكون النون وفتح التاء المثناة من فوق وكسر الراء وسكون الياء آخر الحروف وفى آخره نون ، وهى مدينة فى غرب الأندلس[٢] . قال ابن حوقل فى كتاب المسالك والممالك : إن شنترين على البحر المحيط وبها يقع العنبر ، ولا يعلم ببلد الروم والمحيط عنبر يقع فى غير هذا الموضع . ويقع بشنترين فى وقت من السنة دابة تحك الحجارة فى وسط البحر ، فيقع بها وبره فى لين الخز ولون الذهب ، فيجمع منه ما يُغْزَل وينسج ثياباً ، ويتلون الثوب ألواناً . وكان ملوك بنى أمية بالأندلس يحجرون عليه فلا ينقل ولا يشترى ، ويزيد الثوب على ألف دينار لعزته وحسنه .[٣]

وقال ابن خلكان[٤] : حكى لى بعض الفضلاء من أهل الأندلس أنه رأى قطعة من هذه الثياب هناك ، وأراد أن يصفها لى فما قدر [أن][٥] يعبر عنها ، ثم قال : لكنها أرفع وأنعم من نسج العنكبوت .

ذكر تولية ابنه يعقوب

ولما مات أبو يعقوب يوسف[٦] المذكور ، مات من غير وصية بالملك لأحد من أولاده ، فاتفق رأى الموحدين على تمليك يعقوب ولده فملكوه ، فقام بالملك أحسن قيام ، وأقام راية الجهاد ، وأحسن السيرة فى الناس ، وكان ديناً مقيماً للحدود ، فاستقامت له الأحوال وانقادت إليه الأندلس بأسرها مع سعة أقطارها ، وشَحَن ثغورها بالرجال ،

---

(١) مرَّاكُشُ : مدينة بالمغرب وأجلها ، وبها سرير ملك بنى عبدالمؤمن ، وهى فى البر الأعظم بينها وبين البحر عشرة أيام فى وسط بلاد البربر . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٤٧٨ .
(٢) ورد هذا النص بتصرف فى وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٣١-ص١٣٨ .
(٣) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض ، ص١١٠ ، ط . ليدن ١٩٢٨م . كما ورد هذا النص فى وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٣٨ .
(٤) وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٣٨ .
(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٣٨ .
(٦) هو أبو يوسف يعقوب بن أبى يعقوب يوسف بن أبى محمد عبدالمؤمن بن على القيسى الكومى صاحب بلاد المغرب توفى سنة ٥٩٥هـ . انظر : وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص٣ - ص١٩ .

وأصلح أحوالها [١٤] وعاد إلى مراكش . وكان عادلاً ديناً محباً للعلماء ، فاستقامت له الأحوال إلى أن توفاه الله تعالى ، وكانت كنيته أبا يوسف .(١)

قال ابن كثير : ملكوه فى الوقت الذى مات فيه أبوه ، لئلا يكونوا بغير ملك يجمع كلمتهم لقربهم من العدو ، فقام بالملك أحسن قيام .(٢)

ذكر غزوة صلاح الدين يوسف الكرك مرة أخرى ثانية

وذلك لأنه رأى أن فتحها الآن أنفع للمسلمين ؛ فإن الفرنج الذين فيها يقطعون الطريق على الحجيج والتجار فى البرارى والبحار ، فأرسل إلى العساكر الحلبية والجزرية والمصرية . فقدم تقى الدين عمر من مصر ، وكان نائبه فيها كما ذكرنا ، ومعه القاضى الفاضل . وجاء من حلب الملك العادل أبو بكر أخوه . وقدمت ملوك الجزيرة وسنجار وتلك النواحى والأقطار[كلها](٣) وأخذها كلها مع جيشه ، فسار بهم إلى الكرك فأحدقوا بها فى رابع عشر جمادى الأولى من هذه السنة ، وركّب عليها المجانيق وكانت تسعة ، وأخذ فى حصارها وضيق على أهلها ، واشتد القتال فملك المسلمون الربض وبقى الحصن ، وله خندق عمقه ستون ذراعاً ، فألقى فيه الأحجار والأخشاب والأتربة . ورأى الفرنج شدة القتال وعرفوا عجزهم عن حفظ الحصن ، فأرسلوا إلى ملكهم وفرسانهم يستمدونهم فاجتمعوا من كل مكان . فلما بلغ صلاح الدين خبر مسيرهم رحل عن الكرك إلى طريقهم ، ليقاتلهم ويعود بعد أن يهزمهم إلى الكرك ، فقرب منهم ولم يمكنه الدنو منهم لضيق الأرض وصعوبتها ، وانتظر خروجهم من ذلك المكان فلم يخرجوا . فرحل وسار إلى مدينة نابلس ، ونهب كل ما على طريقه من البلاد ، فلما وصل إلى نابلس أحرقها وأخربها ، وقتل وأسر وسبى(٤) . وسار إلى سبسطية(٥) ، وبها مشهد

---

(١) ورد هذا النص بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٢٩ .

(٢) نقل العينى هذا النص بتصرف من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٦ .

(٣) «كله» فى الأصل .

(٤) الكامل ، ج١٠ ، ص١٢٧ - ص١٢٨ ؛ كما ورد هذا النص بإطناب فى الروضتين نقلاً عن العماد الأصفهانى ، انظر : الروضتين ، ج٢ق١ ، ص١٧٨ - ص١٨٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٦ .

(٥) سبسطية : بلدة من نواحى فلسطين بينها وبين البيت المقدس يومان وبها قبر زكريا ويحيى عليهما السلام . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٣٣ .

زكريا عليه السلام ، وكان فيها جماعة أسرى من المسلمين فاستنقذهم ، وكان بها الأقساء[١] والرهبان وعندهم الودائع ، فطلبوا الأمان ، فأمَّنهم على أن يطلقوا من عندهم من الأسرى ، ثم سلك الغور وطلع على عقبة فيق[٢] ، وعاد على دمشق .

وفى تاريخ بيبرس : لما فرغ من سبسطية رحل إلى جينين[٣] ، فنهبها وعاد إلى دمشق ، وبث سراياه يميناً وشمالاً يغنمون ويخربون .[٤]

وفى تاريخ ابن كثير[٥] : لما كان صلاح الدين على الكرك ، بلغه أن الفرنج قد اجتمعوا له كلهم فارسهم وراجلهم ، ليمنعوا منه الكرك ، فانشمر عنها ، وقصدهم ونزل على حُسبان[٦] تجاههم ، ثم صار إلى ماء عين ، فانهزمت الفرنج قاصدين إلى الكرك فأرسل وراءهم من قتل منهم مقتلة عظيمة . وأمر السلطان للجيوش بالإغارة على السواحل لخلوها من المقاتلة ، فنهبوا نابلس وما حولها من القرى[٧] والرساتيق[٨] ، ثم عاد السلطان إلى دمشق وأذن للعساكر بالانصراف إلى بلدانهم . وأمر ابن أخيه تقى الدين عمر - الملك المظفر - أن يعود إلى مصر بعسكره ، وكذلك أمر لأخيه العادل أن يعود إلى حلب . وأقام السلطان بدمشق ليؤدى فرض الصيام ، وقدمت على السلطان خلع الخليفة فلبسها ، وألبس أخاه الملك العادل ، وابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه ، [١٥] ثم خلع السلطان خلعة على نور الدين بن قرا أرسلان[٩] صاحب حصن كيفا وخِرْت برْت وآمد التى أطلقها له السلطان .

---

(١) الأقساء : جمع قس . الفيروزبادى ، القاموس المحيط مادة «قسيس» .

(٢) عقبة فيق ، ينحدر جزء منها إلى غور الأردن ، وجزء آخر يشرف على طبرية وبحيرتها . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٩٣٢ .

(٣) جينين : بلدة حسنة بين نابلس وبيسان من أرض الأردن بها عيون ومياة . معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٨٠ .

(٤) ورد هذا النص بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٢٨ .

(٥) البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٦ .

(٦) حُسبان : بضم الحاء وسكون السين المهملتين وفتح الباء الموحدة ، قاعدة البلقاء ، وهى بلدة صغيرة ولها واد به أشجار . أبو الفدا : تقويم البلدان ، ص٢٢٧ـ ص٢٢٨ .

(٧) «القرايا» فى الأصل . والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٦ .

(٨) الرساتيق ، القرى والمزارع .

(٩) «ناصر الدين بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا وآمد» ، فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٦ . والصحيح ما ذكره أبو شامة «نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سليمان بن أرتق صاحب حصن كيفا وخرت برت . انظر : الروضتين ، ج٢ق١ ، ص١٩٧ ؛ النوادر السلطانية ، ص٦٧ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٤ .

وفى المرآة[١] : وكان عند صلاح الدين رسل الخليفة ؛ شيخ الشيوخ عبدالرحيم ، وبشير الخادم ، وكانا مريضين فطلبا العود إلى بغداد فأذن لهما ، فمات بشير [بالسخنة][٢] وشيخ الشيوخ بالرحبة .

وذكر فى النوادر السلطانية[٣] : أن دخول السلطان صلاح الدين إلى دمشق كان يوم السبت سابع جمادى الأخرى من سنة ثمانين وخمسمائة . وفى هذا الشهر وصل رسل الخليفة ومعهم الخلع . وفيه أيضاً وصلت رسل ابن زين الدين مستصرخاً إلى السلطان ، يخبرون أن عسكر الموصل وعسكر قزل نزلوا على إربل مع مجاهد الدين قايماز ، وأنهم نهبوا وأحرقوا ، وأنه نصر عليهم وكسرهم .

ذكر بقية الحوادث

ومنها أنه وقع الصلح بين صلاح الدين وصاحب طرابلس ، وذلك قبل مسيره إلى الكرك .

ومنها أنه خرج على بن إسحاق[٤] المعروف بابن [غانية][٥] وهو من أعيان الملثمين الذين كانوا ملوك المغرب ، وهو حينئذ صاحب جزيرة ميورقة[٦] إلى بجاية فملكها . وسبب ذلك أنه لما سمع بوفاة يوسف بن عبدالمؤمن عمَّر أسطوله فكان عشرين قطعة ، فسار فى جموعه فأرسى فى ساحل بجاية ، وخرجت خيله ورجاله من الشوانى ، وكانوا نحو مائتى فارس من الملثمين وأربعة آلاف راجل ، فدخل بجاية بغير قتال لأن واليها كان قد سار قبل ذلك بأيام إلى مراكش ، ولم يترك فيها جيشاً ولا ممانعًا لعدم عدو يحفظها منه . فجاءها الملثم ولم يكن فى حسابهم أنه يُحَدِّث نفسه بذلك ، فأرسى بها ووافقه جماعة من بقايا دولة بنى حماد وصاروا معه وقويت نفسه بهم ، فسمع به والى بجاية ، فعاد من طريقه ومعه من الموحدين ثلاثمائة نفر ، وجمع من العربان التى فى

---

(١) أوجز العينى كتابة هذا النص من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٤ ، إلا أن النص ورد مفصلاً فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٢٩ - ص١٣٠ .

(٢) «بالسبخة» فى الأصل . والمثبت من الروضتين ، ج٢ق١ ، ص١٨٥ . والسُّخْنَة بلدة فى برية الشام بين تدمر وعُرض . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٥٢ .

(٣) نقل العينى هذا النص بتصرف من النوادر السلطانية ، ص٦٦ - ص٦٧ .

(٤) هو على بن سحق بن حَمّو الميورقى بن على ، ويعرف بابن غانية الصنهاجى صاحب ميورقة ، منورقة ، ويابسة ، توفى سنة ٥٨٠هـ . انظر : وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٨ .

(٥) «عائشة» كذا فى الأصل وما بين الحاصرتين من الكامل ، ج١٠ ، ص١٢٨ .

(٦) ميورقه : جزيرة فى شرقى الأندلس . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٧٢٠ .

تلك الجهات نحو ألف فارس والتقوا فهزمهم الملثم ، فساروا إلى مراكش ، واستقر الملثم فى بجاية ، وجمع جيشه وخرج إلى أعمال بجاية ، فأطاعه جميعها إلا [قسنطينية][1] الهواء فحاصرها ، وجاء جيش من الموحدين من مراكش إلى بجاية فى البر والبحر ، وكان بها يحيى وعبدالله أخوا على ابن إسحاق الملثم ، فخرجا منها هاربين ولحقا بأخيهما فرحل [عن قسنطينية][2] وسار إلى إفريقية . وكان سبب إرسال الجيش من مراكش أن والى بجاية وصل إلى يعقوب بن يوسف صاحب الغرب ، وعرَّفه ما جرى ببجاية واستيلاء الملثمين عليها وخوفه عاقبة التوانى ، فجهز العساكر فى البر فى عشرين ألف فارس ، والأسطول فى البحر فى خلق عظيم ، فاستعادوها[3] .

ومنها أن فى هذه السنة كتب زين الدين بن نجية الواعظ كتاباً من مصر إلى صلاح الدين يشوقه إليها ، وكان السلطان بدمشق . قال : «أدام الله أيام مولانا السلطان الملك الناصر ، وقرنها بالتأييد والنصر والتسديد ، أقوى ما يشتاق مولانا إلى مصر ونيلها [١٦] وخيرها وسلسبيلها ، ودار ملكه ودارة فلكه ، وبحرها وخليجها ، ونشرها وأريجها ، ومقسم مقاسمها وأنيس إيناسها ، وقصور معزها ومنازل عزها ، وجيزتها وجزيرتها ، وبركها وبركتها ، وتعلق القلوب بقَلْيوبها ، واستلاب النفوس لأسلوبها ، وملتقى البحرين ومرتقى الهرمين ، وروضة جنانها وجنة رضوانها ، ومشاهدها ومجامعها ، ومساجدها وجوامعها ، ونواظر بساتينها ، ومناظر ميادينها ، وساحات سواحلها ، وآيات فضائلها»[4] .

وذكر ابن نجية كلاماً طويلاً من هذا الجنس . فكتب إليه السلطان : «ورد كتاب الفقيه زين الدين أدام الله توفيقه ، لاريب أن الشام أفضل ، وأن أجر ساكنه أجزل ، وأن القلوب إليه أميل ، وأن زلاله البارد [أَعَلُّ][5] وأنهل ، وأن الهواء فى صيفه وشتائه أعدل ،

(١) «قسطينة» فى الأصل . والمثبت هو الصحيح . وقسنطينية هى آخر مملكة بجاية وأول مملكة إفريقيا ويقال لها قسنطينية الهواء . انظر أبو الفدا : تقويم البلدان ، ص١٣٨ - ص١٣٩ ؛ معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣٤٩ ، ط . دار صادر ، بيروت .

(٢) «إلى قسطينة» كذا فى الأصل . والمثبت من الكامل ، ج١٠ ، ص١٢٩ ؛ معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣٤٩ . .

(٣) ابن الأثير ، الكامل ، ج١٠ ، ص١٢٨- ص١٢٩ .

(٤) يشير العماد الأصفهانى إلى أن خطاب زين الدين الواعظ وقع فى يده ولكن فقد منه ، بدليل قوله «ولو ظفرت به لأوردته بلفظه وجلوته بوعظه لكننى فقدته فعزمت معانيه وأحكمت مبانيه» انظر : الروضتين ، ج٢ق١ ، ص١٨٩ ؛ كما وردت هذه الرواية بتصرف فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٣ .

(٥) «أعلا» فى الأصل . والمثبت من الروضتين ، ج٢ق١ ، ص١٩٠ .

وأن الجمال فيه أجمل والجمال به أكمل[١] ، وأن القلب به أروح والروح به أقبل . ودمشق فعاشقها مستهام ، وما على محبّها ملام ، وما فى ربوتها ريبة ، ولكل نور فيها شيبه[٢] ، . وساجعاتها على منابر الورق خطباء تطرب ، وهزاراتها وبلابلها تُعجم وتُعرب ، وكم فيها من جوارى ساقيات وسواقى جاريات ، وثمار بلا أثمان ، وروح وريحان ، وفاكهة ورمان ، وخيرات حسان ، وكون الله أقسم به فقال ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ﴾[٣] يدل على فضله المكنون . وقال ﷺ «الشام صفوة الله من بلاده فشوق إليها خيرته من عباده»[٤] . وعامة الصحابة رضى الله عنهم اختاروا المقام بالشام . وفتح دمشق بكر الإسلام ، وما نُنكر أن الله ذكر مصر ولكن على لسان فرعون بقوله «أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ[٥]» لكن خرج هذا مخرج العتب له والذم ، ألا ترى أن يوسف عليه السلام نقل منها إلى الشام ، ثم المقام بدمشق أقرب إلى الرباط ، وأوجب للنشاط . وأين قطوم المقطم من سناء سنير[وأين ذرا منف من ذروة الشرف المنيف][٦] ، وأين لبانة[٧] لبنان من الهرمين ، وهل هما إلا مثل السلعتين . وهل للنيل من طول نيله وطول ذيله برد [بردى][٨] فى نفع الغليل ، وما لذاك الكثير طلاوة هذا القليل . وإن فاخرنا بالجامع وقبة النسر ظهر بذلك قِصَرُ القصر ، ولو كان لهم مثل [باناس][٩] لما احتاجوا إلى قياس المقياس .

ونحن لا نجفو الوطن كما جفاه ، ولا نأبى فضله كما أباه ، وحب الوطن من الإيمان . ونحن لا ننكر أن إقليم مصر إقليم عظيم الشان ، ولكن نقول كما قال المجلس الفاضلى : دمشق تصلح أن تكون بستاناً لمصر ، ولا يُشك أن أحسن ما فى البلاد

(١) «وأن الجمال فيه أكمل ، والكمال فيه أجمل» فى الروضتين ج٢ق١ ، ص١٩٠ .

(٢) «شبيبته» فى الروضتين ، ج٢ق١ ، ص١٩٠ .

(٣) سورة التين ، آية رقم (١) .

(٤) انظر : مسند أحمد بن حنبل ، ج٢ ، ص٩٠ ، ص١١٨ ، ص١٢٤ ، ص١٢٦ .

(٥) سورة الزخرف ، آية رقم (٥١) .

(٦) «واين دار منف من ذروة الشرف المتين» كذا فى الأصل . والمثبت من الروضتين ، ج٢ق١ ، ص١٩١ .

(٧) البَانُ : ضرب من الشجر سَبْط القوام ، واحدته بانة ، وتُشَبَّهُ به الحِسان فى الطول واللين . المعجم الوجيز ، مادة (البان) .

(٨) «بردا» فى الأصل .

(٩) «بانياس» فى الأصل . والمثبت من الروضتين ، ج٢ق١ ، ص١٩١ . وباناس : من أنهار دمشق ، وهو أحد أفرع نهر بردى . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٣٣٠ ، ص٣٧٨ ، ط . دار صادر .

البستان . ولعل زين الدين يرجع إلى الحق ويوافق على ما هو الأحق[١] . وقال السبط[٢] : عاتب السلطان على ابن نجية كون أصله ومنشأه بدمشق وفضل عليها مصر ، [١٧] وليست من طارفه ولا من بلاده ، وقد كان أولى أن يتشوق إلى السلطان من غير وصف لما فيه مضاهاة لوطنه وبلاده[٣] .

وفيها[٤] ....

وفيها حج بالناس الأمير طاشتكين أميراً على الركب العراقى من دار الخلافة .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

شيخ الشيوخ صدر الدين [عبدالرحيم][٥] بن إسماعيل بن أبى [سعد][٦] أحمد ، كان قد سافر من عند الخليفة إلى السلطان صلاح الدين يوسف فى رسالة ومعه بشير الخادم ، ليصلحا بين السلطان صلاح الدين وبين عز الدين مسعود صاحب الموصل ، فلم ينتظم حال ، فاتفق أنهما مرضا بدمشق وطلبا المسير إلى العراق وسارا فى الحر ، فمات بشير الخادم بالسخنة ، ومات صدر الدين بالرحبة بمشهد البوق[٧] . وكان أوحد زمانه جمع بين رئاستى الدين والدنيا .

شهاب الدين بشير الخادم مات فى هذه السنة على ما ذكرناه الآن .

[قطب الدين][٨] إيلغازى صاحب ماردين ، وقد مر ذكره عن قريب .

السلطان أبو يعقوب صاحب المغرب وقد ذكرناه أيضاً [......][٩] والله أعلم .

(١) ورد هذا النص مفصلاً فى الروضتين ، ج٢ق١ ، ص١٨٧ – ص١٩٢ .
(٢) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٤ .
(٣) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٤ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٩٧ .
(٤) بياض فى الأصل بمقدار سطر .
(٥) «عبد الرحمن» فى الأصل والكامل ، والمثبت من الروضتين ، ج٢ق١ ، ص١٨٥ . وعبدالرحيم هو شيخ الشيخ : صدر الدين عبدالرحيم بن اسماعيل بن أبى سعد أحمد بن محمد النيسابورى ؛ ولد سنة ٥٠٨هـ ، وتوفى سنة ٥٨٠ ، وانظر أيضاً : النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٩٧ .
(٦) «سعيد» فى الأصل . والمثبت من الروضتين ، ج٢ق١ ، ص١٨٥ ، والنجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٩٧ .
(٧) «النوق» فى الأصل . والمثبت من الكامل ، ج١٠ ، ص١٣٠ ؛ مفرج الكروب ، ج٢ ، ص١٦٣ ؛ ويذكر أبو شامة عن ابن القادسى أنه «دفن فى قبة إلى جنب قبر الشيخ موفق الدين محمد بن المتقنة «الرحبى» انظر : الروضتين ج٢ق١ ، ص١٨٥ .
(٨) هو قطب الدين إيلغازى الثانى بن ألبى ، تولى حكم ماردين من ٥٧٥ – ٥٨٠هـ انظر زامباور ، معجم الأنساب ، ج٢ ، ص٣٤٥ .
(٩) بياض فى نسختى المخطوطة بمقدار كلمة واحدة .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الحادية والثمانين بعد الخمسمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله ، والسلطان صلاح الدين مخيم بظاهر حماة ، وكان بلغه فى أواخر السنة الماضية أن صاحب الموصل نازل إربل ، فبعث صاحبها يستصرخ بالسلطان ، فركب من فوره إليه فى جنوده وعساكره ، فسار إلى بعلبك ، ثم إلى حمص ، ثم إلى حماة ، فأقام بها أياماً ثم سار إلى حلب وتلقاه أخوه العادل ، واجتمعت إليه العساكر فخرج منها فى صفر لقصد الموصل ، فقطع الفرات من البيرة ، وجاء إلى حران ، فقبض على صاحبها مظفر الدين [كوكبرى](1) بن زين الدين ، وهو أخو زين الدين [يوسف](2) صاحب إربل . وكان وصول السلطان إلى حران فى الثانى والعشرين من صفر ، وكان أمر لسيف الدين المشطوب(3) أن يسير فى مقدمة العسكر إلى رأس عين ، وكان قَبضُه على صاحب حران فى السادس والعشرين من صفر ، وذلك لشىء كان جرى منه وحديث كان بلَّغه عنه رسوله ، فأنكر عليه وأخذ منه قلعة حران والرُها ، ثم اعتقله تأديباً له إلى مستهل ربيع الأول ، ثم أخرجه وخلع عليه وطيب قلبه ، وأعاد عليه قلعة حران وبلاده التى كانت بيده ، ولم يتخلف له سوى قلعة الرها ووعده بها .(4)

وفى تاريخ ابن العميد : وكان صاحب حران مظفر الدين قد بذل خطه بخمسين ألف دينار يوم وصول السلطان إلى حران ، فلم ير السلطان لذلك أثراً فغضب عليه وقبض عليه واعتقله . ثم سار السلطان من حران فى ثانى ربيع الأول إلى رأس عين ، ووصل إليه فى ذلك[اليوم](5) رسول قليج أرسلان صاحب الروم يخبره بأن ملوك الشرق بأسرهم قد اتفقت كلمتهم على قصد السلطان إن لم يَعد [١٨] عن الموصل وماردين ، وأنهم على

(*) يوافق أولها ٤ إبريل ١١٨٥م .
(١) ما بين الحاصرتين إضافة من الكامل ، ج١٠ ، ص١٣١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص١٦٥ للتوضيح .
(٢) ما بين الحاصرتين إضافه من الروضتين ، ج٢ق١ ، ص١٩٨ للتوضيح .
(٣) سيف الدين المشطوب ، هو على بن أحمد بن أبى الهيجاء بن عبدالله الهكارى ، توفى بنابلس سنة ٥٨٨هـ . انظر : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٨٢- ص١٨٣ ، الشذرات ، ج٤ ، ص٢٩٤ .
(٤) ورد هذا النص بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٣١ ؛ ابن العديم : زبده الحلب ، ج٣ ، ص٨٠ - ص٨١ ؛ ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص٦٧ـ ص٦٨ ؛ الروضتين ، ج٢ق١ ، ١٩٨ .
(٥) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل . والمثبت من الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٢٠٠ .

عزم ضرب المصاف معه إن أصر على ذلك . فرحل السلطان يطلب دُنَيْسِر[١] ، فوصلها يوم السبت الثامن من ربيع الأول ، وجاء إليه عماد الدين بن قرا أرسلان ومعه عسكر نور الدين صاحب ماردين ، فالتقاهم السلطان وأكرمهم .[٢]

وقال ابن كثير[٣] : فتلقاه الملوك من كل ناحية ، وجاء إليه عماد الدين أبو بكر بن قرا أرسلان صاحب بلاد بكر وآمد ، ثم بلغه موت أخيه ابن قرا أرسلان ، فطلب دستوراً ليأخذ مملكته فأعطاه . ثم سار السلطان فنزل على الإسماعيليات قريباً من الموصل ، وذلك يوم الثلاثاء الحادى عشر من ربيع الأول ، وكان يصل من العسكر كل يوم نوبة جريدة تحاصر الموصل ، وجاء إليه هناك صاحب إربل زين الدين . وأرسل السلطان ضياء الدين بن كمال الدين الشهرزورى[٤] إلى الخليفة ، يعلمه بما عزم عليه من حصار الموصل ، وإنما مقصوده ردّهم إلى طاعة الخليفة[٥] ونصرة الإسلام . ثم سار السلطان ونزل على الموصل وهو نزوله الثانى عليها ، فحاصرها وكان القتال يعمل كل يوم ، ويخرج المواصلة إليه غزاة يقاتلون . وأرسل عز الدين مسعود صاحب الموصل والدته وابنة عمه نور الدين محمود بن زنكى ، وغيرهما من النساء الأتابكيات وجماعه معهن ، يطلبون منه ترك الموصل وما بأيديهم ، فردّهم خائبين . واستقبح الناس ذلك من صلاح الدين لاسيما وفيهن بنت نور الدين ، وضايق على أهل الموصل . فبينما هم فى ذلك إذ بلغه وفاة شاهرمن صاحب خلاط ، وجاءته كتب مقدميها يطلبونه ، فشاور الأمراء ، فأشاروا عليه بقصد أخلاط لما رأوا أنهم لا طمع لهم فى الموصل وقالوا : ما يفوت الموصل . فسار إلى خلاط وفى مقدمته ناصر الدين محمد بن شيركوه ، وتقى الدين عمر ، فوصلوا ميافارقين وبها بَرُنقش[٦] مملوك صاحب آمد ، فامتنع عليهم ، وقال : أنا وصى يتامى أستاذى قطب الدين ، وبعد هذا ، فالأمر للخاتون والدتهم . فأرسل إليها صلاح الدين

(١) «دُنَيْسِر» بلدة مشهورة من نواحى الجزيرة قرب مَاردين ، ولها اسم آخر يقال لها «قوچ حصار» انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٦١٢ .
(٢) ورد هذا الحدث فى النوادر السلطانية ، ص٦٨ ؛ الروضتين ، ج٢ق١ ص١٩٩ .
(٣) البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٧ طبعة بيروت .
(٤) هو القاسم بن يحيى بن عبدالله الشهرزورى ، توفى سنة ٥٩٩هـ ، انظر : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٢٤٤ ـ ص٢٤٥ .
(٥) الإمام» كذا فى الأصل . والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٧ حيث ينقل العينى عنه .
(٦) «برنقش» فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٣٤ .

خادماً ، ووعدها أن يتزوجها ويزوج ابنه إحدى بناتها ، فأجابت وسلمت إليه ميا فارقين ، وأعطاها الهتَّاخ(١) ، وأعطى برنقش جبل جور(٢) .

وكان الحاكم على خلاط الوزير مجد الدين بن الموفق(٣) ، وهو الذى كاتب السلطان ، فبعث إليه الفقيه عيسى ليكشف الحال فغالطه ، وقال : فى القلعة سيف الدين بكتمر وبها ابنة البهلوان زوجة شاهرمن ، وربما جاء البهلوان ، فعاد الفقيه إلى السلطان بغير شىء . وجاء البهلوان بعساكر أذربيجان وهمدان فنزل قريباً من خلاط ، وأرسل إلى السلطان يقول : هذه البلاد لإبنتى ، وهى فى القلعة ، والمصلحة أن تُبقى المودة بيننا ودوام الصداقة(٤) . فرجع السلطان إلى الجزيرة ، ورجع البهلوان إلى بلاده بعد أن حمل إليه سيف الدين بكتمر أموالاً وهدايا . وولى السلطان على ميا فارقين وديار بكر مملوكه سنقر الخلاطى ، وعاد إلى الموصل ، وهذه المرة الثالثة وهى الأخيرة ، فنزل الإسماعيلية ، [١٩] وقيل نزل على [كفر زَمَّار](٥) بدجلة ، وكان الحر شديداً ، فأقام مدة ، وعزم على أن يُشتى بذلك المكان . وفى هذه المنزلة أتاه سنجرشاه من الجزيرة ، واستعد المواصلة للحصار ، ومرض السلطان مرضاً شديداً خِيفَ من غائلته ، فرحل طالباً حران وهو مريض ، وكان يتجلد ، ولم يركب فى محفة ، فوصل حران وهو شديد المرض ، وبلغ غاية الضعف حتى أُيس منه ورُجِفَ بموته . وكان رحيله من كفر زَمَّار فى مستهل شوال من هذه السنة . فوصل إليه أخوه الملك العادل من حلب ومعه أطباؤها .

وفى المرآة(٦) : ولما كان السلطان على كفر زمار أشار أمراء عز الدين مسعود عليه بأن يُخرج إليه النساء الأتابكيات يتشفعن(٧) إليه ، فخرجن ومعهن والدة عز الدين مسعود فأكرمهن ووعدهن الإحسان ، وقرر عماد الدين الصلح وخطب للسلطان بالموصل ، وأعطى

(١) الهتَّاخ : قلعة حصينة فى ديار بكر قرب ميافارقين . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٩٥٢ . .
(٢) جبل جور : اسم لكورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحى أرمينية وفيها قلاع وقرى . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٠ .
(٣) هو مجد الدين بن الموفق بن رشيق . انظر : الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٢٠٥ .
(٤) «الصدقه» كذا فى الأصل . والمثبت من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٥ .
(٥) «كفر رمان» كذا فى الأصل . والمثبت من الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٢٠٧ ؛ النوادر السلطانية ، ص٧٠ ؛ مفرج الكروب ، ج٢ ، ص١٧٠ .
كفر زَمَّار : قرية من قرى الموصل . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣٨٨ .
(٦) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٥ .
(٧) «يشفعن» كذا فى الأصل . والمثبت من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٥ حيث ينقل العينى عنه .

لعز الدين شهرزور والبوازيج[١] ، ووقف عليها قرية تعرف بباقيلا[٢] . ورحل عن الموصل يريد الجزيرة . .

وقال العماد الكاتب[٣] : وكان السلطان قد لازم قراءة القرآن فى شهر رمضان ، واشتد الحر ، فمرض مرضاً شديداً فتناثر رأسه ولحيته وقيل إنه شفى ، وضعف ضعفاً خيف عليه منه وأرجف بموته ، وأقام على نصيبين وقد آيسنا منه ، ثم حُمل فى محفة إلى حران فنزل بظاهرها ، وبنى داراً أسماها دار العافية .

وفى تاريخ النويرى[٤] : وجاءت رسل صاحب الموصل إلى السلطان وهو بحران بالإجابة إلى ما طلب ؛ وهو أن يسلم صاحب الموصل إلى السلطان شهرزور وأعمالها ، وولاية القرابلى ، وجميع ماوراء الزاب ، وأن يخطب للسلطان على جميع منابر الموصل وما بيده ، وأن يضرب اسمه على الدراهم والدنانير . ورضى السلطان بذلك ، وتقرر الصلح وأمنت البلاد . ثم رحل السلطان من حران وقد عوفى ، وعاد إلى دمشق فى السنة الآتية .

وقال ابن كثير[٥] : ولما استقر الصلح بين صلاح الدين وبين المواصلة ـ كما ذكرنا ـ انقطعت خطبة السلاجقة والأرتقية بتلك البلاد كلها . قال : ولما جاء إليه أخوه العادل من حلب ورآه فى غاية الضعف ، أشار عليه بأن يوصى ويعهد ، فقال : ما أبالى وأنا أترك من بعدى أبا بكر وعمر وعثمان وعليا ، وأراد بأبى بكر أخاه العادل صاحب حلب ، وأراد بعمر تقى الدين عمر صاحب حماة وهو إذ ذاك نائب[٦] مصر وبها يقيم ، وأراد بعثمان وعلى ابنيه الملك العزيز عثمان والملك الأفضل على . ونذر السلطان فى ضعفه لئن شفاه الله تعالى من مرضه هذا ليصرفن همته كلها إلى قتال الفرنج الكفار ، ولا يقاتل بعد ذلك مسلماً ، وليجعلن أكبر همته فتح بيت المقدس ، ولو صرف فى ذلك جميع ما

---

(١) البوازيج : بلد قرب تكريت على فم الزاب الأسفل حيث يصب فى دجلة ، ثم أصبحت بعد ذلك من أعمال الموصل . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٧٥٠ .

(٢) «بباقيلا» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٥ .

(٣) انظر قول العماد فى الروضتين ، ج٢ق١ ص٢٠٨ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٣ ، ص٨٣ .

(٤) نقل العينى هذا النص بتصرف من النويرى ، نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص٣٨٨ ، تحقيق محمد أمين ، ومحمد حلمى أحمد ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٢٠٨ .

(٥) نقل العينى هذا النص بتصرف من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٧ .

(٦) «صاحب» كذا فى الأصل . والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٧ حيث ينقل العينى عنه .

يملكه من الأموال والذخائر ، وليقتلن البرنس صاحب الكرك[١] بيده ؛ وذلك لأنه نقض العهد الذى عاهد السلطان عليه فغدر بقافلة تجار من مصر ، فأخذ أموالهم وضرب رقابهم بين يديه صبراً ، وهو يقول : أين محمدكم ينصركم؟ . وكان هذا النذر كله بإشارة القاضى الفاضل . ثم أن الله عز وجل بكرمه [٢٠] وفضله عافاه مما كان ابتلاه به ، فسارت البشائر بذلك فى كل ناحية ودقت البشائر وزينت البلاد .

قال ابن كثير[٢] : ثم ركب السلطان من حران بعد العافية فدخل حلب ، ثم اجتاز بحماة وحمص حتى دخل دمشق ، وكان دخوله حلب يوم الأحد الرابع عشر من المحرم سنة ثنتين وثمانين ، وكان يوماً مشهوداً[٣] ؛ لشدة فرح الناس بعافيته ولقائه . فأقام بها أربعة أيام ، ثم رحل فى ثامن عشره نحو دمشق ، فلقيه أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه بتل السلطان ومعه أخته ومعه خدمة عظيمة ، ومَنَّ عليه بحمص ـ موضع والده بحكم وفاته ـ ثم سار إلى دمشق فدخلها فى الثانى من ربيع الأول من سنة ثنتين وثمانين وخمسمائة ، وكان يوماً مشهوداً وصباحاً محموداً[٤] .

وفيها كان المنجمون بدمشق قد حكموا بأن يهب هواء مزعج برمل يهلك الناس ، فحفروا أسراباً واختفوا فيها ، فظهر كذب المنجمين[٥] .

وفيها[٦] ....

وفيها حج بالناس الأمير طاشتكين[٧] .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

السهيلى[٨] أبو القاسم وأبو زيد عبدالرحمن ابن الخطيب أبى محمد عبدالله ابن الخطيب أبى عمر أحمد بن أبى الحسن أصبغ بن حسين بن سعدون بن رضوان بن

---

(١) يقصد بذلك أرناط صاحب حصن الكرك .
(٢) نقل العينى هذا النص بتصرف من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٧ – ص٣٣٨ .
(٣) إلى هنا انتهى العينى من النقل عن البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٨ .
(٤) ورد هذا النص بتصرف فى الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٢٢٤ فى حوادث سنة ٥٨٢هـ .
(٥) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٦ .
(٦) بياض فى الأصل بمقدار نصف سطر .
(٧) انظر : النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٩٧ .
(٨) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص١٤٣-١٤٤ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٧١-٢٧٢ .

فتوح ، وهو الداخل إلى الأندلس ، الخثعمى السهيلى الإمام المشهور صاحب كتاب «الروض الأنف» فى شرح السيرة لابن هشام ، وله كتاب «التعريف والإعلام فيما أُبهم من القرآن من الأسماء والأعلام» ، وله كتاب «نتائج الفكر» بمسألة رؤية الله فى المنام ، رؤية النبى ﷺ ، وغير ذلك . وقال ابن دحية أنشدنى وقال له : ما سأل الله بها حاجة إلاَّ أعطاها له ، وكذلك من استعمل إنشادها .

يا من يرى ما فى الضمير ويسمعُ انت المُعَدّ لكل ما يُتَوَقَعُ
يا من يُرجَىًّ للشدائد كلها يا من إليه المُشْتكى والمفْزَع
يا من خزائن رزقه فى قول كُنْ أُمْنُنْ فإنَّ الخير عندك أجمع
مالى سوى فَقْرِى إليك وسيلةٌ فبالافتقار إليك فَقرى أدفع
مالى سوى قَرْعى لبابك حيلةٌ فلئن رَدَدْتَ فأىَّ باب أقرَع؟
ومن الذى أدعو[1] وأهتف باسمه إن كان فضلك عن فقيرك يمنع؟
حاشى لمجْدِك أن يُقَنِّط عاصياً الفضلُ أجزلُ والمواهِبُ أوْسع[2]

وأشعاره كثيرة وتصانيفه ممتعة . وكان ببلده يتسَّوغ بالعفاف ويتبلغ بالكفاف ، حتى نمى خبره إلى صاحب مراكش فطلبه إليها وأحسن إليه ، وأقبل بوجه الإقبال [عليه][3] إليه ، وأقام بها نحو ثلاثة أعوام . ومولده سنة ثمان وخمسمائة بمدينة مالقَة ، وتوفى بحضرة مراكش يوم الخميس ودفن وقت الظهر السادس[٢١] والعشرين من شعبان سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ، وكان مكفوفاً .

والخَثْعَمى : نسبة إلى خثعم بن أنمار ، وهى قبيلة كبيرة . والسهيلى : بضم السين المهملة نسبة إلى سُهَيل ، قرية بالقرب من مالَقة ، سميت باسم الكوكب لأنه لا يُرى فى جميع الأندلس إلا من جبل مطل عليها .

ومالقة : بفتح اللام مدينة كبيرة بالأندلس ، وقال السمعانى : بكسر اللام ، وهو غلط .

---

(١) «أرجو» فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٤٠ .
(٢) وردت هذه الأبيات فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٤٠ ؛ وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٣٧١ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٧١- ص٢٧٢ .
(٣) «إليه» فى الأصل . والمثبت من وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص١٤٤ .

الحافظ الأصبهانى[١] ، **أبو موسى محمد بن أبى بكر عمر بن أبى عيسى أحمد** ابن عمر بن محمد بن أبى عيسى الأصبهانى المدينى الحافظ المشهور ؛ كان إمام عصره فى الحفظ والمعرفة ، وله فى الحديث وعلومه تواليف مفيدة ، وصنف كتاب «المغيث» فى مجلد ، كَمَّل به كتاب الغريبين للهروى ، واستدرك عليه ، وهو كتاب نافع ، وله كتاب «الزيادات» فى جزء لطيف جعله ذيلاً على كتاب شيخه أبى الفضل محمد بن طاهر المقدسى الذى سماه كتاب «الأنساب» وذكر من أهمله وما أقصر فيه . ورحل عن أصبهان فى طلب الحديث ثم رجع إليها وأقام [بها][٢] . وكانت ولادته فى ذى القعدة سنة إحدى وخمسمائة . وتوفى ليلة الأربعاء تاسع جمادى الأولى من هذه السنة . وولادته ووفاته بأصفهان .

والمَدِيْنى بفتح الميم وكسر الدال نسبة إلى مدينة أصفهان ، وقد ذكر السمعانى هذه النسبة إلى عدة مدن : أولهن مدينة الرسول ﷺ ، والثانية مرو ، والثالثة نيسابور ، والرابعة أصفهان ، والخامسة مدينة المبارك بقزوين ، والسادسة بخارى ، والسابعة سمرقند ، والثامنة نَسَف ، وذكر أن النسبة إلى هذه المدن [كلها][٣] المدينى . وقال : أكثر ما ينسب إلى مدينة الرسول ﷺ «المدنى» .

الفقيه مهذب الدين عبدالله بن أسعد الموصلى ، مدرس حمص ، وكان بارعاً فى فنون ولاسيما فى الشعر والأدب . مات فى هذه السنة ، كذا ذكره ابن كثير[٤] .

وقال ابن خلكان[٥] : **هو أبو الفرج عبد الله بن أسعد بن على بن عيسى المعروف بابن الدهان الموصلى ويعرف بالحمصى أيضاً ، الفقيه الشافعى المنعوت بالمهذب** ، كان فقيهاً فاضلاً ، أديباً شاعراً ، لطيف الشعر مليح السبك حسن المقاصد ، غلب عليه الشعر فاشتهر به ، وله ديوان صغير وكله جيد . وهو من أهل الموصل . ولما ضاقت به

---

(١) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٢٨٦ ؛ النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص١٠١ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٧٣ .
(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من وفيات الأعيان ج٤ ، ص٢٨٦ لتوضيح المعنى .
(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٢٨٦ .
(٤) البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٨ .
(٥) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٥٧-٦١ .

الحال قصد الصالح بن رزيك وزير مصر ومدحه بالقصيدة الكافية ، ثم تقلبت به الأحوال وتولى التدريس بمدينة حمص وأقام بها ، فلهذا نسب إليها[(١)] .

وقال العماد الكاتب[(٢)] : ولما وصل السلطان صلاح الدين إلى حمص وخيم بظاهرها ، خرج إلينا أبو الفرج المذكور فقدمته إلى السلطان وقلت له : هو الذى يقول فى قصيدته الكافية التى فى ابن رزيك ....[(٣)] .

[٢٢] أَأَمدحُ التُّركَ أَبغى الفضلَ عِندهُمُ والشعرُ مازال عندَ التّركِ متروكا[(٤)]

قال : فأعطاه السلطان وقال : حتى لا يقول أنه متروك . ثم مدح السلطان بقصيدته العينية التى يقول فيها :

قل للبخيلة بالسلام تورعاً كيف استبحتِ دمى ولم تتورَّعى
وزعمتِ أن تصلى بعام قابل هيهاتِ أن أبقى إلى أن ترجعى
أبديعةَ الحسن التى فى وجهها دونَ الوجوه عناية[(٥)] للمبدع
ما كان ضَرَّكِ لو غمزتِ بحاجبٍ يومَ التفرقِ أو أشرتِ بأصبع
وتَيَقّنى أنى بحبِّكِ مغرم ثم اصنعى ما شئت بى أن تصنعى

وله فى غلام لسعته نحلة فى شفته :

بأبى من لسعته[(٦)] نحلة آلمت أكرمَ شىء وأجلّ
أَثّرَتْ لسعتها[(٦)] فى شفةٍ ما براها الله إلا للقُبَلْ
حسبتْ أن بفيه بَيْتَها إذ رأت ريقَتَهُ مثلَ العسَلْ[(٧)]

وتوفى بمدينة حمص فى شعبان سنة إحدى ، وقيل اثنتين وثمانين وخمسمائة ، والأول أصح[(٨)] .

---

(١) وردت هذه الترجمة بتصرف فى وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٥٧ – ص٦١ ؛ الخريدة ، قسم الشام ، ج٢ ، ص٢٧٩ – ص٢٩٤ ؛ السبكى : طبقات الشافعية ، ج٤ ، ص٢٣٣ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٧٠ .
(٢) انظر هذ القول فى الخريدة ، قسم الشام ، ج٢ ، ص٢٨٤ .
(٣) بياض فى الأصل بمقدار خمس كلمات .
(٤) ورد هذا البيت فى وفيات الأعيان ج٣ ، ص٥٨ .
(٥) «علامة» فى وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٥٩ .
(٦) «لَسَبَتْهُ» فى وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٦٠ . وهى مرادف لكلمة «لسعته» .
(٧) انظر وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٦٠ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٧١ .
(٨) انظر وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٦٠ .

[ابن الصابونى][1] **أبو الثناء محمود بن أحمد بن على بن إسماعيل بن عبدالرحمن الملقب بجمال الدين المحمودى بن الصابونى**[2] لأن جد أبيه [لأمه][3] الشيخ أبا عثمان الصابونى كان أحد الأئمة المشاهير، وإنما يقال له المحمودى لصحبة جده للسلطان نور الدين محمود بن زنكى[4] . سار إلى مصر فنزلها، وكان السلطان صلاح الدين يكرمه وأوقف عليه وعلى ذريته أرضاً فهى لهم الآن . ذكر ابن كثير[5] وفاته فى هذه السنة، رحمه الله .

الأمير ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، صاحب حمص والرحبة، وهو ابن عم السلطان صلاح الدين، وزوج اخته ست الشام بنت أيوب . توفى بحمص، نقلته زوجته ست الشام إلى تربتها بالمدرسة الشامية البرانية، فقبره هو الأوسط بينها وبين أخيها الملك المعظم تورانشاه صاحب اليمن . وقد خلف ناصر الدين محمد من الأموال والذخائر شيئاً كثيراً ينيف على ألف ألف دينار، وكانت وفاته يوم عرفة فجأة .

وقال النويرى[6] : وفى هذه السنة ليلة عيد الأضحى، شرب بحمص صاحبها ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شاذى فأصبح ميتاً . قيل إن السلطان دَسَّ عليه مَنْ سقاه سماً، لما بلغه مكاتبته أهل دمشق فى مرضه . ولما مات أقر السلطان حمص وما كان بيد محمد على ولده شيركوه بن محمد بن شيركوه، وعمره اثنتا[7] عشرة سنة . وخلّف ناصر الدين محمد شيئاً كثيراً من الدواب والآلات وغيرها، فاستعرضها السلطان عند نزوله بحمص فى عودته من حران، وأخذ أكثرها [٢٣] ولم يترك إلا ما لا خير فيه .

---

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل . والمثبت من الروضتين، ج٢ق١، ص٢٢١ .

(٢) ابن الصابونى : هو محمود بن أحمد بن على بن أحمد بن على بن أحمد بن المحمودى، المعروف بابن الصابونى . الروضتين، ج٢ق١، ص٢٢١ ؛ البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٣٨ .

(٣) ما بين الحاصرتين مثبت من الروضتين، ج٢ق١، ص٢٢١ للتوضيح .

(٤) هنا تضارب بين ما ورد فى العينى الذى نقل عن ابن كثير، وبين ما ورد فى الروضتين : «وكان جده صحب السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه ونسبته بالمحمودى إليه، ودخل ابن الصابونى هذا دمشق زمن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى . . . .» . أبو شامة : الروضتين، ج٢ ق١، ص٢٢١ .

(٥) البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٣٨ ؛ النجوم الزاهرة، ج٦، ص٩٩ـ ص١٠٠ .

(٦) نقل العينى هذا النص بتصرف من نهاية الأرب، ج٢٨، ص٣٨٨، ص٣٨٩ ؛ انظر أيضًا، الروضتين، ج٢ق١، ص٢١٧ ؛ النجوم الزاهرة، ج٦، ص٩٨ .

(٧) اثنى عشر كذا فى الأصل والمثبت هو الصحيح .

وفى المرآة[١] : وكان السلطان صلاح الدين يخافه ، لأنه كان يدعى أنه أحق بالملك منه ، وكان بلغ السلطان عنه هذا ، وكان قد فارق السلطان فى حران وجاء إلى حمص وتوفى يوم عرفة . بقى يتناثر لحمه ، وقيل إنه سُمَّ ، وقيل مات فجأة .

نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود ، صاحب حصن كيفا وآمد ، مات فى هذه السنة ، وملك بعده ولده سقمان ، ولقبه قطب الدين ، وكان صغيراً فقام بتدبير دولته وزيره القوام ابن سُماقا[٢] الأسْعردى .

وفى تاريخ بيبرس : مات نور الدين محمد المذكور لما كان صلاح الدين محاصراً للموصل ، وخلف ولدين ، فملك الأكبر منهما واسمه سقمان ولقبه قطب الدين ، فلما بلغ أخاه وفاته سار ليملك بلاده فتعذر عليه أمرها ، فسار إلى خِرْت بِرْت فملكها وهى بيد أولاده ، ورجع صلاح الدين إلى ميافارقين فحضر إليه ولد نور الدين فأقره على ملك أبيه ومن جملته آمد . وكانوا خافوا أن يأخذها منهم فلم يفعل ، وردهم إلى بلادهم وشرط عليهم أن يكونوا تحت أمره وطاعته ، وجعل معهم من جهته أميراً لقبه صلاح الدين من أصحاب والده .

الأمير الكبير سعد الدين مسعود بن معين الدين أنر ، وكان من الأمراء الكبار أيام نور الدين محمود ، وصلاح الدين يوسف ، وهو أخو الست خاتون التى كان تزوجها نور الدين محمود ، ثم تزوجها السلطان صلاح الدين يوسف ، كما ذكرنا . توفى فى دمشق فى جمادى الأخرى من هذه السنة ، من جرح أصابه وهو فى حصار ميافارقين[٣] .

الست خاتون عصمة الدين بنت معين الدين أنر ، نائب دمشق وأتابك عساكرها من قِبَل نور الدين محمود كما تقدم . وقد كانت زوجة نور الدين كما تقدم ، ثم خلف عليها من بعده صلاح الدين فى سنة ثنتين وسبعين وخمسمائة ، توفيت فى هذه السنة ، وكانت من أحسن النساء وأعفهن وأكثرهن صدقة ؛ وهى واقفة الخاتونية الجوانية[٤]

---

(١) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٦ .

(٢) هو قوام الدين أبو محمد عبدالله بن سماقة ، انظر : الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٢١٩ .

(٣) انظر : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص١١٥ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٢١٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٨ – ص٣٣٩ .

(٤) المدرسة الخاتونية الجوانية بمحلة حجر الذهب : أنشأتها خاتون بنت معين الدين أنر (عصمة) سنة ٥٨١هـ بقرب حمام الشركسى ، والرباط خارج باب النصر على نهر باناس . انظر : النعيمى : الدارس فى أخبار المدارس ، ج١ ، ص٥٠٧ ـ ص٥١١ .

بمحلة حجر الذهب ، وخانقاه خاتون ظاهر باب النصر ، فى أول الشرف القبلى على [باناس][(١)] ودفنت بتربتها فى سفح قاسيون قريباً من قبات الشركسية . ولها أوقاف كثيره . فأما الخاتونية البرانية[(٢)] التى هى على القنوات بمحلة صنعاء الشام ، ويعرف ذلك المكان الذى هى فيه بتل الثعالب ، فهى من إنشاء الست زمرد خاتون بنت جاولى ، وهى أخت الملك دُقاق لأمه ، وكانت زوجة زنكى والد نور الدين صاحب حلب ، وقد ماتت قبل هذا الحين كما تقدم[(٣)] .

وفى المرآة[(٤)] : ولها صدقات كثيرة ، وبر عظيم بَنت بدمشق مدرسة لأصحاب أبى حنيفه رضي الله عنه فى حجر الذهب ، قريبة من حمام زَرْكش وتعرف بمدرسة خاتون ، وكانت وفاتها فى رجب ، وبلغ السلطان صلاح الدين [٢٤] وفاتها وهو مريض بحران ؛ فتزايد مرضه ، وحزن عليها وتأسف ، وكان يُصْدِرِ عن رأيها .

---

(١) «بانياس» فى الأصل . والمثبت من الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٢١٦ . وانظر ما سبق ص٣١ ، حاشية (٧) .

(٢) توجد المدرسة الخاتونية البرانية فى غربى دمشق ، بينها وبين قرية المزة ، وقد بنيت سنة ٥٥٧هـ . انظر : الدارس ، ج١ ، ص٥٠٢ ـ ٥٠٦ .

(٣) انظر : الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٢١٦ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٩ ؛ النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٩٩ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٧٢ .

(٤) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٦ ؛ الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٢١٦ .

فصل فيما وقع من الحوادث
فى السنة الثانية والثمانين بعد الخمسمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله ، والسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ـ صاحب مصر والشام وغيرهما ـ كان قد تعافى من مرضه ووجد نشاطاً ، ورحل من البلاد الفراتية ووصل إلى حلب يوم الأحد الرابع عشر من محرم هذه السنة[١] . وكان يوماً مشهوداً لشدة فرح الناس بعافيته ولقائه ، فأقام بها أربعة أيام ، ثم رحل فى ثامن عشر المحرم نحو دمشق . فلقيه أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه بتل السلطان[٢] ، ومعه أخته ومعه هدية هائلة ، ومَنَّ عليه بحمص . فقام أياماً يَعْتبر تركة أبيه ، وكان قد خَلَّفَ أموالاً عظيمة وجواهر ، ومناطق الذهب والفضة ، فكان مبلغ التركة ألف ألف دينار . وكان القاضى نجم الدين بن عيسى حاضر القسمة ، فقام يوماً فوقعت من تحت ذيله منطقة مجوهرة ، فنسبه العادل إلى مالا يليق به . وكان نجم الدين منزهاً عن ذلك لأنه كان غنياً جواداً شريف النفس ، فحلف للعادل إننى ما علمت بها ، وصدق ، وإنما الحُساد وجدوا طريقاً للقول[٣] .

ثم سار يطلب جهة دمشق ، وكان دخوله إليها فى ثانى ربيع الأول ، وكان يوماً لم ير مثله فرحاً وسروراً ، ثم قرر فى ملك دمشق ولده الأفضل عليا . ونزل العادل أبو بكر عن حلب لصهره زوج ابنته الملك الظاهر غازى ابن السلطان صلاح الدين ، وأرسل السلطان أخاه العادل صحبة ولده عماد الدين عثمان ، الملقب بالملك العزيز ، على ملك مصر ، ويكون العادل أتابكه ، وله إقطاع عظيمة جداً . وعزل عن نيابتها تقى الدين عمرُ ، فعزم عمرُ على الدخول إلى بلاد إفريقية ، فلم يزل السلطان يكاتبه ويتلطف به ويترفق له حتى أقبل بجنوده نحوه ، فأكرمه وأقطعه حماة وبلاداً كثيرة معها ، وقد كانت له قبل ذلك بسنين ، وزاده على ذلك مدينة ميافارقين[٤] .

(*) يوافق أولها ٢٤ مارس ١١٨٦م .
(١) انظر زبدة الحلب ، ج٣ ، ص٨٤ .
(٢) تل السلطان : موضع بينه وبين حلب مرحلة نحو دمشق . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٨٦٧ . .
(٣) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٨ .
(٤) ورد هذا النص بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٣٩-ص١٤٠ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٤٠ ، الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٢٢٩ ـ ص٢٣٠ ؛ المقريزى : السلوك ، ج١ق١ ، ص٩١ ـ ص٩٢ .

وقال النويرى[١] : ولما بعث السلطان ولده الملك العزيز صحبة العادل إلى مصر ، استدعى تقى الدين من مصر ، بسبب أن السلطان تغيَّر عليه فى الباطن ؛ فإنه ظن أنه إنما أخرج ولده من مصر ليتملك مصر إذا مات السلطان . وقيل إنه توقف عن الحضور وقصد اللحوق بمملوكه قراقوش المستولى على بعض بلاد إفريقية وبرقه من المغرب ، وبلغ السلطان ذلك فساءه ، وأرسل يستدعيه ويلاطفه فحضر إليه ، ولما حضر إليه زاده على حماة منبج ، ومعرة النعمان ، وكفر طاب ، وميافارقين ، وجبل جور بجميع أعمالها . واستقر الملك العادل أبو بكر والملك العزيز عثمان بمصر . ولما أخذ السلطان حلب من أخيه العادل أقطعه عوضها حران والرها[٢] .

وفى تاريخ بيبرس[٣] : سير السلطان صلاح الدين إلى ابن أخيه تقى الدين عمر يستدعيه من مصر إلى الشام ، والسبب فى ذلك أن صلاح الدين لما استنابه بمصر ضم إليه ولده الأفضل وكان أكبر ولده ، فخاف صلاح الدين فى مرضه أن يتولى تقى الدين البلاد ويحبس ولده الأفضل . [٢٥] فأرسل فى طلبه لهذا السبب ، وأشار عليه بعض أمرائه أن يعزل العادل من حلب ، فوقعت هذه الاشارة من نفسه موقعاً موافقاً لغرضه . فلما حضر أخوه العادل إليه أوصى صلاح الدين ولده الظاهر غازى أن يلتمس من عمه حلب ليهبها له ، فسأله ذلك فأجابه عمه العادل لوقته ، وكتب له بها فتسلمها واستقر بها وأولاده من بعده . وكان تقى الدين يومئذ بمصر ، فبلغه أن صلاح الدين يريد عزله عنها ، فأراد أن يهرب إلى الغرب فإن قراقوش فتح بالمغرب مدناً كثيرة ، فأشار عليه أمراء مصر أن لا يروح إلى الغرب ، وأن يمضى إلى أخيه ويستعطفه ، فتجهز وخرج من مصر . وسير صلاح الدين ولده العزيز صحبة عمه العادل إلى مصر ، ورتب ولده الظاهر غازى بحلب عوضاً عن عمه العادل . ولما وصل تقى الدين إلى صلاح الدين أنعم عليه بميافارقين .

وفى النوادر السلطانية[٤] : ولما تقرر الأمر المذكور بين هؤلاء الملوك قال العادل : «اجتمعت بالملك العزيز والملك الظاهر وجلست بينهما وقلت للملك العزيز : اعلم

(١) بالبحث لم نجد هذا القول فى نهاية الأرب .
(٢) انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص١٣٩ ـ ١٤٠ ؛ كما ورد هذا النص بتصرف فى النوادر السلطانية ، ص٧٣ ـ ٧٤ ؛ زبدة الحلب ، ج٣ ، ص٨٩ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص٧٠ . وقد ورد بالتفصيل فى الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٢٣٠ .
(٣) انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص١٣٩ ؛ الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٢٢٨ – ص٢٢٩ .
(٤) انظر : النوادر ، ص٧٢ – ص٧٣ .

ياMولاى أن السلطان قد أمرنى أن أسير فى خدمتك إلى مصر ، وأنا أعلم أن المفسدين كثير ، ولا يخلو غداً ممن يقول عنى ما لا يجوز ويخوفك منى ، فإن كان لك عزم تسمع فقل لى حتى لا أجىء . فقال : لا أسمع . وكيف يكون ذلك؟ ثم التفتُ وقلتُ للملك الظاهر : أنا لا أعرفُ أن أخاك ربما يسمع[1] فىَّ أقوال المفسدين ، وأنا فمالى إلا أنت ، وقد قنعت منك بمنبج متى ضاق صدرى من جانبه . فقال : مبارك ، وذكر كل خير .

وذكر في النوادر أيضاً : أن الملك الظاهر سار إلى حلب حتى أتى العين المباركة ، وسيَّر في خدمته شحنةً حسام الدين بشارة ، ووالياً عيسى بن بلاشوا[2] ، فنزل فى يوم الجمعة بعين المباركة ، وخرج الناس إلى لقائه فى بكرة السبت تاسع جمادى الآخرة من هذه السنة ، وصعد القلعة المحروسة صحوة النهار ، وفرح الناس به فرحاً شديداً[3] .

وأما تقى الدين ، فإنه لما وصل سار السلطان إلى لقائه ، فلقيه بمرج الصُفَّر فى ثالث عشرى[4] شعبان من هذه السنة ، وأعطاه حماة ، وسار إليها ، وكان قد عُقد بين الملك الظاهر وبعض بنات الملك العادل عقد نكاح فتمم ذلك ودخل بها يوم الأربعاء السادس والعشرين من شهر رمضان . ودخل الملك الأفضل على زوجته بنت ناصر الدين بن أسد الدين فى شوال من هذه السنة .

وفيها حضر القمص[5] صاحب طرابلس إلى الملك الناصر صلاح الدين واتفق معه أن يفتح له جميع الساحل ، وأطلق له الملك الناصر جميع الأسرى الذين كانوا عنده ، وجرّد معه عسكراً إلى الساحل ، وفتح الطريق [٢٦] من مصر إلى الشام وسار فيها التجار . ثم إن القمص المذكور نافق وأخذ قافلة من التجار ودخل بلاد الإفرنج ، فحلف الملك الناصر لئن ظفر به ليقتلنّه بيده . وكان ذلك سبب فتوح الساحل[6] .

---

(١) «سمع» كذا فى الأصل . والمثبت عن النوادر السلطانية ، ص٧٣ حيث ينقل عنه العينى .

(٢) «بلاشو» كذا فى الأصل . والمثبت من النوادر السلطانية ، ص٧٣ حيث ينقل العينى عنه ؛ كذا فى زبدة الحلب ، ج٣ ، ص٨٩ ؛ أما ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص١٧٩ فقد ذكره «بلاشق» .

(٣) إلى هنا توقف العينى عن النقل من النوادر السلطانية ، ص٧٢ - ص٧٣ .

(٤) «الثلاث عشر» فى النوادر السلطانية ، ص٧٤ ؛ واتفق مع العينى أبو شامة : الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٢٣٢ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص١٨٢ .

(٥) القمص : يقصد به : ريموند بن ريمند الصنجيلى . انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص١٤١ .

(٦) ورد هذا النص بالتفصيل فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٤١ - ص١٤٢ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٢٤٤ .

وفيها كانت فتنة بين التركمان والأكراد ببلاد الجزيرة ، والموصل ، وديار بكر ، وخلاط ، والشام ، وشهرزور ، وأذربيجان ، وقتل فيها من الخلق ما لا يحصى ، ودامت عدة سنين ، وانقطعت الطرق ونهبت الأموال وأريقت الدماء . ثم إن مجاهد الدين قايماز نائب صاحب الموصل ، جمع عنده رؤساء الأكراد والتركمان وأصلح بينهم ، وخلع عليهم ، وانقطعت الفتنة(١) .

وفيها دخل سيف الإسلام إلى مكة ومنع من الأذان بحى على خير العمل ، وقتل جماعه من العبيد . كانوا يؤذون الناس ، وأغلق أمير مكة باب البيت ، وصعدوا إلى أبى قبيس ، فأرسل إليه وطلب المفتاح من صاحب مكة ، فأبى من انفاذه ، فقال سيف الإسلام لرسوله : قل لصاحبك إن الله نهانا عن أشياء فارتكبناها ، وقال النبى ﷺ «لاتأخذوا المفتاح من بنو شيبة»(٢) ، فنأخذه ونستغفر الله تعالى ، فبعث إليه المفتاح(٣) .

وفيها قسم السلطان صلاح الدين البلاد بين أولاده وأهله برأى القاضى الفاضل ، فإنه لما مرض أشاروا عليه بذلك .

وفيها ظهر الخلاف بين الإفرنج وتفرقت كلمتهم . وكان ذلك سبباً لسعادة الإسلام .

وفيها غدر إبرنس الكرك واسمه أرناط ، وكان أخبث الإفرنج وأشرّهم ، فقطع الطريق على قافلة جاءت من مصر إلى الشام وفيها خلق عظيم ومال كثير ، فاستولى على الجميع قتلاً وأسراً ونهباً ، فأرسل إليه السلطان يوبخه على ما فعل ويقول : أين العهود والمواثيق! رُدَّ ما أخذت . فلم يلتفت وشنّ الغارات على المسلمين وقتل منهم ، فنذر السلطان دمه . وأقام السلطان بدمشق يجهز للقاء العدو ، واستدعى العساكر من المشرق والمغرب .

وفيها فى يوم عاشوراء فرش الرماد فى الأسواق وعلقت المسوح ، وناح أهل الكرخ ، وخرج النساء حاسرات يلطمن وينحن من باب البدرية(٤) إلى باب حجرة الخليفة ، والخلع

---

(١) ورد هذا النص باختصار فى النوادر السلطانية ، ص٧١ ، وقد وردت هذه الفتنة بالتفصيل فى الكامل فى سنة ٥٨١هـ ، ج١٠ ، ص١٣٦ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٢٤١ - ص٢٤٢ .

(٢) لم نجد الحديث بهذا اللفظ . وورد فى تفسير ابن كثير ج١/ص٥١٥ - ص٥١٦ ، طبعة الحلبى - تفسير آية : (**إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها**) . . . ثم جلس رسول الله ﷺ فى المسجد فقام إليه على بن أبى طالب ومفتاح الكعبة فى يده فقال : يا رسول الله اجمع لنا الحجابة مع السقاية صلى الله عليك . فقال رسول الله ﷺ : أين عثمان بن طلحة؟ فدعى له ، فقال له : «هاك مفتاحك يا عثمان ، اليوم يوم وفاء وبر» .

(٣) ورد هذا النص بتصرف فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٨ ؛ الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٢٤٢ .

(٤) باب البدرية ببغداد : يقع فى السوق الأعظم ويسمى «الحريمى» يعنى حريم دار الخلافة وهى قريب من ثلث الجانب الشرقى ، وله أبواب كثيرة منها باب البدرية . انظر : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٣٣٠ ، ص٣٣١ .

تُفاض عليهن وعلى المنشدين من الرجال . وتعدى الأمر إلى سبّ الصحابة أبى بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وعائشة رضى الله عنهم . وكان أهل الكرخ يصيحون ما بقى كتمان ، وأقاموا امرأة يقال لها آمنة[١] من أهل الكرخ وكان ظهير الدين بن العطار قد كبس دار أبيها فأخرج منها كُتبًا فى سب الصحابة ، فقطع يديه ورجليه ، ورجمه العوام حتى قتلوه . فقامت هذه المرأة على دكة تحت منظرة الخليفة فى الريحانيين ، وحولها ألوف من الرجال والنساء وهى تنشد أشعار العونى وغيرها ، وتسب عائشة وتقول : العنوا راكبة الجمل ، وتذكر حديث الإفك والنبىﷺ بأقبح الشناعات[٢] ، وكان كل ذلك منسوباً إلى أستاذ الدار ابن الصاحب[٢٧][٣] .

وفيها : حكم المنجمون فى الآفاق بخراب العالم فى جمادى الآخرة ، وقالوا [تقترن][٤] الكواكب السيارة الشمس والقمر وزحل والمريخ والزهرة وعطارد والمشترى فى برج الميزان أو السرطان ، وتؤثر تأثيراً يضمحل به العالم ، وتهب سموم محرقة تحمل رملاً أحمر . فاستعد الناس وحفروا السراديب وجمعوا فيها الزاد . وقد انقضت المدة ولم يحدث شىء ، وظهر كذب المنجمين[٥] .

وقال العماد الكاتب : وكان المنجمون فى جميع البلاد حكموا بخراب العالم فى شعبان عند اجتماع الكواكب السبعة فى الميزان بطوفان الريح فى سائر البلاد ، وذكر أن ناساً من الجهلة تأهبوا لذلك بحفر مغارات وأسراب فى الأرض خوفاً من ذلك .

قال العماد[٦] : فلما كانت تلك الليلة التى أشاروا إليها وأجمعوا عليها ، لم تر ليلة مثلها فى ركودها وهدّوها . وقد نظم الشعراء فى تكذيب المنجمين فى هذه الوقعة وغيرها أشعاراً حسنة ؛ من ذلك قول عيسى بن مودود[٧] :

---

(١) «ابنة قرايا» كذا فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٧ .

(٢) ورد هذا النص بتصرف فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٦ - ص٢٤٧ .

(٣) استاذ الدار ابن الصاحب : هو مجد الدين أبو الفضل هبة الله بن على بن هبة الله بن محمد بن الحسن المعروف بابن الصاحب ، قتل سنة ٥٨٣هـ . انظر : وفيات الأعيان ، ج٦ ، ص٢٤٥ .

(٤) «يقترن» فى الأصل . والمثبت هو الصحيح ، وهو كما فى الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٢٣٦ .

(٥) ورد هذا النص بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٤٢ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٤٠ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٧ ؛ الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٢٣٦ - ص٢٣٧ .

(٦) ورد هذا الحدث بتصرف فى الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٢٣٦ نقلاً عن العماد ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٤٠- ص٣٤١ .

(٧) هو : عيسى بن مودود بن على بن عبدالملك بن شعيب ، الملقب فخر الدين صاحب تكريت . انظر : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٩٨ - ص٥٠٠ .

مــزق التــقــويم والزّيـ ـج ، فــقــد بان الخطا(١)
إنمــا التــقــويم والزّيـ ـج هَبـــــــاءٌ وهــوا
قلت : لـلســبــعــة إبرا مٌ ، ومــنـــعٌ ، وعــطـــا
ومــتى ينزلْن فى المــيـ ـزان يستـــولى الهـــوا
وتثــيـــر الرمل حــتّى يمــتلى منه الفــضـــا(٢)
ويــعــمّ الأرضَ جــفٌ(٣) وخـــــرابٌ ، وبــلا
ويصــيــر القــاع كــالقُفّ(٤) وكــالطّود القَـــوَا(٥)
[وحكمـتم](٦) ، فـأبى الحا كـم إلاّ مـــا يشـــا
مــا أتى الشــرع ولا جــا ءت بهـــذا الأنبــيــا
فــبــقــيــتم ضــحكةً يضــ ـحك منهــا العلمـــا
حــســبكم خــزياً وعــاراً مــا تقــول الشــعــراء(٧)
فــعلى اصطرلاب [بطليـ ـموس](٨) والزيج العـفـا(٩)
وعليــه الخــزى مــا جــا دت(١٠) على الأرض السـما

(١) «الخفا» فى الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٢٣٨ .
(٢) «الصفا» فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٤٠ - ص٣٤١ ، حوادث سنة ٥٨٢هـ .
(٣) «خسف» فى الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٢٣٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٤١ .
(٤) القُفُّ : ما ارتفع من الأرض وغلظ وهو دون الجبل - وجمعها قِفَاف . انظر : المصباح المنير : ج١ ، مادة «قفف» . الطبعة الثانية - بولاق ١٩٠٦م .
(٥) «العراء» فى أبى شامة ، الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٢٣٨ ؛ «العدا» فى : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٩ . والقَوَاء : بالفتح والمد القفر . انظر : المصباح المنير ، ج١ ، مادة «قوى» .
(٦) «حكم» فى الأصل والمثبت من الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٢٣٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٩ .
(٧) ثبت العينى الهمزة فى كلمة «الشعراء» ولم يثبتها فى القوافى السابقة أو اللاحقة .
(٧) «بطلميوس» كذا فى الأصل . والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣١٩ ؛ الروضتين ، ج٢ق١ ص٢٣٨ .
(٩) لفق العينى هذا البيت من بين بيتين من الشعر أثبتهما كل من ابن كثير فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٧٣ ؛ أبو شامة فى الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٢٣٨ والبيتان هما :

حسبكم خزياً وعاراً ما تقول الشعرا ما أطمعكم فى الحكم إلا الأمراء
ليت إذ لم يحسنوا فى الدين طغاماً أسا فعلى اصطرلاب بطليموس والزيج العفاء

(١٠) «جاءت فى الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٢٣٨ .

وقال أبو الغنائم[(١)] محمد بن المعلم الشاعر، فى أبى الفضل المنجم وكان رئيس القوم :ـ

قل لأبى الفضل قولا يَعْرُب[(٢)] مضى جمادى وجاءنا رجب
وما جرت زعزعة[(٣)] كما حكموا ولابدا كوكب له ذنب
كلا ، ولا أظلمت ذُكَاءُ ولا أبدت أذىً فى قِرانها الشهب
يقضى عليها من ليس يعلم ما يقضى عليه ، هذا هو العجب!
قد بان كذب المنجمين ، وفى أى مقال قالوا [فما][(٤)] كذبوا
مدبر الأمر واحدٌ ، وليس للسبـ ـعة فى كل حادث سبب
لا المشترى سالم ، ولا زحل باق ، ولا زهرة ، ولا قُطُبُ
تبارك الله ؛ حصحص الحق وانجا ب التمادى وزالت الرِّيب [٢٨]
فليُبْطل المُدَّعون ما وضعوا فى كتبهم ولتُحَرّق الكتبُ[(٥)]

وفيها سار على بن إسحاق الملثم[(٦)] إلى إفريقية بعد خروجه من بجاية ، واجتمع إليه جماعة من العرب ، وانضاف إليهم الترك الذين كانوا قد دخلوا من مصر مع شرف الدين قراقوش[(٧)] ، ودخل أيضاً من أتراك مصر مملوك لتقى الدين ابن أخى صلاح الدين اسمه بُوزابه ، وكثر جمعهم وقويت شوكتهم . فلما اجتمعوا بلغت عدتهم مبلغاً كثيراً ، وكلهم كاره لدولة الموحدين ، فاتبعوا جميعهم على بن إسحاق الملثم ؛ لأنه من بيت المملكة والرئاسة القديمة ، ولقبوه أمير المسلمين . وقصدوا بلاد إفريقية فملكوها جميعاً شرقاً وغرباً ، إلا مدينتين ؛ تونس والمهدية ، فإن الموحدين أقاموا بها ، وحفظوها على خوف وضيق وشدة .

---

(١) هو نجم الدين أبو الغنائم محمد بن على بن فارس ، المعروف بابن المعلم ، الواسطى الهرثى . توفى سنة ٥٩٢هـ بالهُرث وهى قرية من أعمال نهر جعفر بينها وبين واسط نحو عشرة فراسخ . انظر : العماد : الخريدة ، ج٢ ، قسم شعراء الشام ، ص١٣٤ ؛ وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٥-٩ .
(٢) «معترف» كذا فى الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٢٣٧ .
(٣) «زعزعاً» فى الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٢٣٧ .
(٤) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل . ومثبت من الروضتين ج٢ق١ ، ص٢٣٧ .
(٥) وردت هذه الأبيات فى كل من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٧-٢٤٨ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٢٣٧ـ ص٢٣٨ ؛ النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص١٠٢ .
(٦) ورد هذا الحدث فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٣٦ـ ١٣٨ فى سنة ٥٨١هـ .
(٧) شرف الدين قراقوش ، هو أحد أصحاب تقى الدين عمر . انظر : المقريزى : السلوك ، ج١ق١ ، ص٨٢ .

وانضاف إلى الملثم كل مفسد فى تلك الأرض ، ومن يريد الفتنة والنهب والشر . فخرَّبوا البلاد والحصون والقرى ، وهتكوا الحُرَم ، وقطعوا الأشجار . وكان الوالى على إفريقية عبدالواحد [بن عبدالله الهنتاتى][1] ، وهو بمدينة تونس ، فأرسل إلى يعقوب صاحب المغرب وهو بمراكش يعلمه الحال .

وقصد الملثم جزيرة باشَّو[2] ، وهى بقرب تونس ، تشتمل على قرى كثيرة فنازلها وأحاط بها ، وطلب أهلها منه الأمان فأمنهم ، فلما دخلها العسكر نهبوا ما فيها من الأموال والغلات والدواب ، وسلبوا الناس حتى ثيابهم ، وامتدت أيديهم إلى النسوان والصبيان ، فقصدوا لضرورتهم مدينة تونس . فأما الضعفاء ، فكانوا يستعطفون من الناس ، وأما الأقوياء ، فكانوا يخدمون ويعملون بما يقتاتون . ودخل عليهم الشتاء فأهلكهم البرد ، ووقع فيهم الفناء ، فمات منهم اثنى عشر ألفاً ، هذا من موضع واحد ، فما الظن بالباقى؟ .

ولما استولى الملثم على إفريقية قطع خطبة عبدالمؤمن وأولاده وخطب للإمام الناصر لدين الله[3] ، وأرسل إليه يطلب الخلع والأعلام السود . وقصد فى هذه السنة مدينة قفصة فحصرها ، فأخرج أهلها من بها من الموحدين ، [من عساكر][4] ولد عبدالمؤمن ، وسلموها إلى الملثم ، ورتب فيها جنداً من الملثمين والأتراك ، وحصنها بالرجال . وأما يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن فإنه لما وصله الخبر اختار من عسكره عشرين ألف فارس من الموحدين ، وقصد قلة العسكر لقلة القوت فى البلاد ، ولما جرى فيها من التخريب وكان ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفيها ....[5]

وفيها حج بالناس من العراق طاشتكين ، ومن الشام ست الشام وولدها حسام الدين ابن لاجين وجماعة[6] من المعتبرين .

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من الكامل ، ج١٠ ، ص١٣٦ للتوضيح . وهو عبدالواحد بن عبدالله أبو محمد المعروف بوامَجّورُ توفى سنة ٥٨٣هـ . انظر : ابن الأبار : الحلة السيراء ، ج٢ ، ص٢٧٦ - ص٢٧٧ ، تحقيق حسين مؤنس ، الطبعة الأولى سنة ١٩٦٣ .

(٢) باشو : مدينة : ضمن إقليم جزيرة شريك بالقرب من القيروان . ياقوت : معجم البلدان ، ج١ ، ص٤٧٠ .

(٣) الناصر لدين الله : هو أحمد بن العباس بن المستضىء بأمر الله ، ولد سنة ٥٥٣هـ ، وتولى الحكم سنة٥٧٥هـ وتوفى سنة ٦٢٢هـ .

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من الكامل ، ج١٠ ، ص١٣٧ ، للتوضيح .

(٥) بياض فى الأصل بمقدار نصف سطر .

(٦) ورد هذا النص بالتفصيل فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٣٦ - ص١٣٨ .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

أبو محمد[١] عبدالله بن أبى الوحش بَرّى بن عبدالجبار بن بَرّى المقدسى ثم المصرى ؛ أحد أئمة اللغة [٢٩] والنحو فى زمانه ، وعليه كان تعرض المسائل بعد ابن بابشاذ[٢] ، وكان كثير الاطلاع عالماً بهذا الشأن ، مطرحاً للتكلف فى كلامه ، لا يعرج على الإعراب فيه إذا خاطب الناس ، وله التصانيف المفيدة منها : الحواشى الفائقة على كتاب صحاح الجوهرى ، أتى فيها بالعجائب والغرائب ، واستدرك عليه فيها مواضع كثيرة ، وهى دالة على سعة علمه وغزارة مادته وعظم اطلاعه . واشتغل عليه خلق كثير منهم : أبو موسى الجزُولى صاحب المقدمة فى النحو . وكان عارفاً بكتاب سيبويه وعلله ، وإليه كان التصفح فى ديوان الإنشاء ، لا يصدر كتاب من الدولة إلى ملك من ملوك النواحى إلا بعد أن يتصفحه ويصلح ما لعله فيه من خلل خفى . وهذه كانت وظيفة ابن بابشاذ . وولد بمصر فى الخامس من رجب سنة تسع وتسعين وأربعمائة ، وتوفى بها ليلة السبت السابعة والعشرين من شوال سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة . وبَرى بفتح الباء الموحدة وتشديد الراء المكسورة وبعدها ياء وهو اسم علم يشبه النسبة .

أبو السعود الحريمى الطاهرى[٣] ؛ كان عطاراً فأقامه الله تعالى فانقطع إليه ، وصحب الشيخ عبدالقادر وأخذ عنه الطريق ، وصار المشار إليه بعده . وكانت له كرامات وإشارات وقبول قائم عند الخاص والعام ، وكان طريقته الفناء لا يأكل حتى يُطعم ، ولا يشرب حتى يُسقى ، ولا يلبس ثوباً حتى يجعل فى عنقه . وكان بين يدى الله عز وجل بمنزلة الميت بين يدى الغاسل ، لا يزال مستقبل القبلة على طهارة ، لا يتكلم إلا جواباً . وكان حسن الأخلاق ، كريم الطباع متواضعاً ، توفى ليلة الأربعاء عاشر شوال ، ودفن بمقابر باب حرب ، وبنوا عليه قبة عالية ، وقبره ظاهر يُزار . سمع الشيخ [عبدالقادر][٤] وطبقته ، وحَدَّث بشىء يسير ، واشتغل بحاله عن الرواية رحمه الله رحمة واسعة .

---

(١) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص١٠٨ ـ ١٠٩ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٤١ ؛ النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص١٠٣ ـ ١٠٤ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٧٣ ـ ٢٧٤ .

(٢) ابن بابشاذ/ هو أبو الحسن طاهر بن أحمد بن بابشاذ النحوى توفى سنة ٤٦٩هـ . وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٥١٥ – ٥١٧ ترجمة رقم ٣٠٨ .

(٣) انظر ترجمته فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٩ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٧٤ .

(٤) «عبدالقاهر» فى الأصل . والمثبت من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٩ .

الحسن[١] **بن على بن بركة بن عَبِيده بفتح العين ، أبو محمد المُقْرِىء الكرخى النحوى** ؛ قرأ القرآن على أبى محمد النحوى ، والنحو على أبى السعادات بن الشجرى ، وسمع الحديث على قاضى المارستان وغيره ، واستفاد منه خلق كثير ، وكانت وفاته فى شوال :

وله شعر جيد منه فى وصف المشيب هذه الأبيات :

وما شنآن الشيب من أجل لونه ... ولكنه داع إلى الموتِ مسرعُ
إذا ما بدت منه الطليعة آذنت ... بأن المنايا بعدها تتطلعُ
فإن قصها المقراض جاءت بأختها ... وتطلع يتلوها ثلاثٌ وأربعُ
وإن خُضبت خال الخضاب لأنه ... يغالب صنع الله واللهُ أصنعُ
ويضحى كريش الديك فيه تَلَمُّعٌ ... وأفظع ما يُكساه ثوبٌ ملمعُ[٢]

ابن رئيس الرؤساء[٣] ، **واسمه على بن محمد بن عبدالله بن هبة الله بن المظفر** ابن رئيس الرؤساء ، أبى القاسم على بن الحسن ، ابن المسلمة ، أبو نصر ، ابن الوزير أبى الفرج الذى قتلته الباطنية/ [٣٠] فى أيام المستضىء وهو خارج إلى مكة . ولما قُتِل أبوه دخل فى طريقة التصوف ، وبنى رباطاً بالقصر من دار الخلافة للصوفية ، ورتب فيه جماعة منهم ، ولم يدخل فى شىء من الولايات . وكان قد سمع ببغداد أبا الوقت ، وأبا الفضل الأرموى وغيرهما ، وسمع منه أبو القاسم البَندنجى وغيره . وخرج من بغداد ولم يعلم به أحد ، فوصل إلى دمشق ، فأكرمه صلاح الدين واحترمه ، بحيث أن صلاح الدين كان إذا أكل طعاماً وأكل ابن الوزير معه غسل يده معه فى الطشت ، فحسده شمس الدين بن هبيرة ، وبلغ السلطان فقال : هذا وزير ابن وزير ابن وزير - إلى أن انقطع نَفَسُهُ - مع الدين المتين والزهد فى الدنيا وغيره . وأقام عند السلطان محترماً إلى أن توفى فى جمادى الآخرة ، ودفن بقاسيون ، وصلى السلطان عليه ، وقد بلغ أربعاً وأربعين سنة .

(١) انظر ترجمته فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٩ ؛ النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص١٠٤ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٤٩ - ص٢٥٠ .
(٣) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج٦ ، ص٢٤١-٢٤٢ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٥٠ .

البهلوان محمد بن أيلدكز[1] ، الملقب شمس الدين ، وكان حاكماً على العراق وأذربيجان والرى وأصفهان ، وكان اسم الملك واقعاً على [طغرلبك][2] بن أرسلان بن [طغرلبك][3] بن ملكشاه ، ولكنه كان تحت حِجْر البهلوان ، ويأكل البلاد باسمه ، وكان ظالماً فاتكاً . ولما احتضر أوصى إلى أخيه لأمه قِزل ، ومات بهمذان ، وخَلَّفَ ما لم يخلفه أحد من الأموال مما لا يحصى ، وترك خمسة آلاف مملوك ، وثلاثين ألف فرس وبغل و[جمل][4] . وأقام أخاه مقامه .

وفى تاريخ بيبرس[5] : وفى أول هذه السنة توفى شمس الدين محمد البهلوان ، وملك أخوه لأمه مظفر الدين قِزل . وكان البهلوان صاحب بلد الجبل وهمذان والرى وأصفهان وأذربيجان وأرَّان[6] وغيرها من البلاد ، وكان عادلاً حسن السيرة ذا سياسة حسنة ، وكانت تلك البلاد فى أيامه آمنة والرعايا مطمئنة .

وكان السلطان طغرل بك بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه معه ليس له إلا الخطبة فقط ، وليس له من الأمر شىء ، فلما مات البهلوان وملك أخوه قِزل أرسلان ، كره طغرل مكان الحجر عليه ، وخرج عن حكمه ، وانضم إليه جماعة من الأمراء والجند البهلوانية ، فاستولى على بعض البلاد ، وجرت بينه وبين قِزل خطوب ، ثم اتهم الأمراء البهلوانية بمباطنة قِزل أرسلان ، فجمعهم وقتلهم ، وقتل وزيره عز الدين ، وأخاه صبرا ، فنفرت منه قلوب خواصه ، وانحازوا إلى قِزل أرسلان ، وكان ذلك من أَكَدِّ أسباب استيلاء قِزل أرسلان وتمكنه .

قلت : قد اختلف كلام المؤرخين فى سيرة البهلوان ؛ فذكر صاحب المرآة[7] أنه كان ظالماً فاتكاً كما ذكرنا . وذكر بيبرس أنه كان عادلاً حسن السيرة . وكذلك ذكر المؤيد فى

---

(١) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٥٠ .

(٢ ، ٣) «طغريل» فى الأصل . والمثبت بين الحاصرتين كما ورد فى وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٢٠٨ ، ٢٠٩ فى اسم أرسلان شاه بن طغرلبك بن محمد بن ملكشاه .

(٤) «جمال» فى الأصل . والمثبت بين الحاصرتين من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٥٠ .

(٥) ورد هذا النص بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٤٠ - ص١٤١ .

(٦) أرَّان : ولاية واسعة من أصقاع أرمينيا ، بها بلاد كثيرة منها جَنْزة ، وبَرْذعَة ، وشمكور ، وبيلقان ، وبين أذربيجان وآران نهر يقال له الرس . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص١٨٣ .

(٧) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٥٠ .

تاريخه[١] . وابن كثير[٢] أيضاً فى تاريخه . وقِزل أرسلان اسمه عثمان ، وهو بكسر القاف والزاى المعجمه ، وفى آخره لام ، ومعناه الأحمر . وأرسلان معناه الأسد ، والبهلوان بفتح الباء الموحدة .

(١) المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص٧٠-ص٧١ .

(٢) لم ترد أخبار قزل فى البداية والنهاية وإنما وردت فى الكامل ج١٠ ، ص١٤٠ - ص١٤١ .

[٣١] [فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الثالثة والثمانين بعد الخمسمائة(*)](١)

استهلت هذه السنة وكان أولها يوم السبت ، وكان يوم النيروز(٢) ، وذلك أول سنة الفرس ، واتفق أنه أول سنة الروم أيضاً ، وهذا اليوم الذى نزلت فيه الشمس برج الحمل ، وكذلك كان القمر فى برج الحمل أيضاً .

قال ابن الأثير(٣) : وهذا شىء يبعد وقوع مثله .

[ذكر غزوات صلاح الدين وفتوحاته](٤)

كان السلطان ـ رحمه الله ـ قد جمع عساكره فى آخر السنة الماضية ، ولما استهلت هذه السنة – التى أولها يوم السبت – برز السلطان من دمشق فى هذا اليوم ، وقيل برز فى أثناء الشهر ، أعنى محرم هذه السنة ، فسار إلى رأس الماء(٥) ، فنزل ولده الأفضل هناك فى طائفة من الجيش ، وتقدم السلطان ببقية الجيش إلى بُصْرى ، ثم خيم على قصر أبى سلامة ينتظر قدوم الحاج ، وفيهم أخته ست الشام وابنها حسام الدين محمد بن عمر بن لاچين ، ليَسلَموا من معرة إبرنس الكرك(٦) .

وفى تاريخ بيبرس : وفى هذه السنة تقدم أمر صلاح الدين إلى جميع البلاد بأن يحضروا للغزاة فى سبيل الله ، فحضر من النجدات عسكر الموصل وعسكر ديار بكر مقدمهم الأمير زين الدين(٧) صاحب حران ، وعسكر الشام مقدمهم ابن دُلْدُرم ، وعسكر

(*) يوافق أولها ١٣ مارس ١١٨٧م .

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من نسخة أ ، بسبب الرطوبة ومثبت فى نسخة ب .

(٢) النيروز : كان النيروز القبطى من جملة المواسم ، تعطل فيه الأسواق وتفرق فيه الكسوة لرجال الدولة وأسرهم ، وأول من اتخذ النيروز خمشيد أحد ملوك الفرس الأول ، ومعنى النيروز اليوم الجديد . المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص٣٩٤-٣٩٥ .

(٣) ورد هذا النص بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٤٣ .

(٤) ما بين الحاصرتين ساقط من نسخة أ بسبب الرطوبة . والمثبت من نسخة ب .

(٥) رأس الماء : ميدان فسيح للحرب فى حوران على بعد نحو ٢٠ ميلاً شمالى درعا . انظر : العماد الأصفهانى : الفتح القسى ، تحقيق محمد محمود صبح ، ص٥٩ ، حاشية ٥ ، القاهرة د . ت .

(٦) ورد هذا النص بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٤٣ ؛ الفتح القسى ، ص٥٩ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٤١ .

(٧) هو زين الدين أبو المظفر يوسف . انظر : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص١١٤-١١٥ .

مصر وحلب وغيرها . وخرج من دمشق وقصد الكرك على ما نذكره عن قريب إن شاء الله[١] .

وفى المرآة[٢] : خرج السلطان من دمشق غرّة المحرم بعساكر الشام ، ونزل بُصرى يرتقب وصول الحاج ، وقد كان بلغه أن إبرنس يرتقب وصولهم ، فخاف من غدره ، ووصل الحاج فى أواخر المحرم ، وخلا سرّ السلطان منهم ، فسار إلى الكرك على ما نذكره .

وذكر صاحب النوادر السلطانية[٣] : لما كان المحرم سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة عزم صلاح الدين على قصد الكرك ، فسير إلى حلب من يستحضر العسكر ، وبرز من دمشق فى منتصف المحرم ، فسار حتى نزل بأرض منيطرا[٤] لاجتماع العساكر المصرية والشامية . وأمر العساكر المتواصلة إليه بشن الغارة على ما فى طريقهم من البلاد الساحلية ، ففعلوا ذلك ، وأقام رحمه الله بأرض الكرك حتى وصل الحاج الشامى إلى الشام ، وأمنوا غائلة العدو . ووصل قَفْل مصر الشتوى ، ووصل معهم بيت الملك المظفر ، وما كان له بالديار المصرية . وتأخرت عنه العساكر الحلبية بسبب اشتغالهم بالفرنج بأرض أنطاكية ، وبلاد ابن لاون[٥] ؛ وذلك أنه كان قد مات - لعنه الله - ووصى لابن أخيه بالملك . وكان الملك المظفر بحماة ، وبلغ الخبر السلطان ، فأمرهم بالدخول إلى بلاد العدو وإخماد ثائرته ، وكان وصول تقى الدين إلى حلب فى [سابع عشر][٦] من محرم هذه السنة ، فنزل دار عفيف الدين بن زريق وأقام بها إلى ثالث صفر ، ثم انتقل [٣٢] إلى دار طمان[٧] . وفى تاسع صفر سار الملك المظفر بعسكر حلب إلى حارم وأقام بها ، ليعلم العدو أن هذا الجانب ليس بمهمل . وعاد السلطان إلى الشام ، وكان وصوله إلى السواد فى خامس عشر ربيع الأول من هذه السنة .

---

(١) ورد هذا النص بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٤٤ ؛ الفتح القسى ، ص٦١ ؛ النوادر السلطانية ، ص٧٥ ؛ مفرج الكروب ، ج٢ ، ص١٨٧ .

(٢) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٥٠-٢٥١ .

(٣) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص٧٤ - ص٧٥ .

(٤) «نيطرا» كذا فى النوادر السلطانية . والمثبت من الأصل ومن معجم البلدان ، ج٤ ، ص٦٧٣ . وهو حصن بالشام قريب من طرابلس .

(٥) «ليون» كذا فى الأصل . والمثبت من النوادر السلطانية ، ص٧٤ حيث ينقل العينى عنه .

(٦) «السابع والعشرين» كذا فى الأصل . والمثبت من النوادر السلطانية ، ص٧٤ حيث ينقل العينى عنه .

(٧) «طمان» فى الأصل ؛ زبدة الحلب ، ج٣ ، ص٩١ ؛ مفرج الكروب ، ج٢ ، ص١٨٧ ، وفى النوادر السلطانية ، ص٧٤ «كلمات» ويبدو أن هذا الخطأ مطبعى .

وفى يوم الخميس سابع عشره نزل بعشترا ، ولقيه ولده الملك الأفضل ومظفر الدين وجميع العساكر .

وفى منتصف ربيع الآخر عرض السلطان العساكر على تل يعرف بتل تسيل ، وتقدم إلى أرباب الميمنة بحفظ موضعهم ، وإلى أصحاب الميسرة كذلك ، وإلى أصحاب القلب بمثله . ثم ذكر صاحب هذا التاريخ[١] وقعة حطين ، ولم يذكر ما جرى قبل هذه الوقعة من الأمور ، ونحن نذكرها مفصلة بعون الله ولطفه .

ذكر محاصرة الكرك

لما قدم الحاج فى أواخر صفر ، نزل السلطان على الكرك ، وقطع ما حوله من الأشجار ورعى الزروع وأكلوا الثمار ، وجاءته العساكر المصرية فتلقاهم بالقريتين ، واجتمع عنده خلق كثير من العرب والترك والكرد وغيرهم . وكذلك فعل بشوبك ما فعل بالكرك من المضايقة والمحاصرة ، وإذهاب ضياء تلك الضياع ، وإزالة نقاء تلك البقاع . وأقام على هذه الحالة فى ذلك الجانب شهرين ، والملك الأفضل ولده مقيم برأس الماء فى جمع عظيم من العسكر ، وتوافت الجيوش الشرقية فنزلوا عند الأفضل ، وقعدوا ينتظرون الإشارة من السلطان[٢] .

ذكر بعث الأفضل إلى أعمال طبرية سرية

ثم إن الملك الأفضل بعث سرية[٣] نحو أعمال طبرية وأمرهم بالغارة على الغِرَّة ، وجعل مقدمهم مظفر الدين بن زين الدين على كوجك ، وجعل على عسكر دمشق قايماز النجمى ، وعلى عسكر حلب دُلْدُرم الياروقى ، فساروا وصَبَّحوا صفورية[٤] ، فخرج إليهم الفرنج فى جمع عظيم من الداوية . والإستبارية وغيرهما ، فوقع حرب عظيم وكاد المسلمون أن ينهزموا وينفلوا ، فثبت قايماز النجمى فى صدورهم ، وكذلك مظفر الدين

---

(١) ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص٧٥ .

(٢) ورد هذا النص بتصرف فى كل من : الكامل ، ج١٠ ، ص١٤٣-ص١٤٥ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٢٤٧ - ص٢٤٨ .

(٣) سرية : السرية قطعة من الجيش ما بين خمسة أنفس إلى ثلاثمائة أو هى من الخيل نحو أربعمائة ، وجمعها سرايا . انظر : المعجم الوسيط مادة «سرى» .

(٤) صفورية : بلدة من نواحى الأردن بالشام ، وهى قرب طبرية . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٤٠٢ .

حمل عليهم من ناحية ، ودُلدروم من ناحية ، فقتلوا وغنموا وأسروا وسبوا ورجعوا سالمين غانمين . وجاء الخبر بالفتح والظفر للسلطان صلاح الدين وهو بالكرك ، وكان هذا مقدمةً للفتح[1] .

وفى تاريخ بيبرس : ندب السلطان ولده الأفضل للغارة على عكا والسواحل ، وسير صحبته مظفر الدين كوكبرى ، فلما وصلوا صفورية التقوا الفرنج ووقع القتال ، فهزم الله عز وجل الإفرنج وقتلوا منهم جماعة كثيرة ؛ منهم مقدم الإستبارية ، وأسر الباقون . وسُيِّرت البشائر إلى البلاد ، ولما انتهى الخبر إلى السلطان ، رجع عن الكرك ولحق بالعسكر الذى مع ولده الأفضل وقد تلاحقت إليه العساكر والنجدات .

وفى المرآة[2] : كان السلطان صلاح الدين قد أَمر ولده الأفضل عند مسيره إلى الكرك أن ينزل على رأس الماء بطائفة من العسكر ، [٣٣] ينتظر باقى العساكر الشرقية ، فأنهض الأفضل منهم طائفة للغارة على طبرية ، وجعل مقدم العساكر الشرقية مظفر الدين ، وعلى عسكر الشام صارم الدين قايماز النجمى ، فنازلوا طبرية ، وتقدم بدر الدين دُلْدُرم مقدم عسكر حلب إلى طبرية ، فخرج إليه مقدم الداوية والإستبارية ومعهم جماعة فقاتلوهم ، فقتلهم دلدرم وأسر بعضهم ، وسار إلى صفورية ففعل كذلك ، وعاد بالأسارى إلى الأفضل وهو على شعب الشقيفات[3] . وجاء السلطان تسيل ، قرية غربى نوى ، وصعد على تلها ، وعرض العساكر وسُرَّ بما رأى ، واندفع يوم الجمعة السابع والعشرين من ربيع الأول نحو «فيق»[4] . ورحل الأفضل بالعساكر معه ، فالتقوا على الأقحوانة ، وكان يقصد المسير إلى العدو يوم الجمعة تبركاً بأدعية الخطباء ، وخيم على ساحل البحيرة فى اثنى عشر ألفاً من الفرسان ، وأما الرجالة فيقال أنهم كانوا فى ثمانين ألفاً ما بين فارس وراجل ، فنزلوا صفورية ، وتقدم السلطان إلى طبرية .

---

(١) ورد هذا النص بالتفصيل فى الفتح القسى ، ص٦١- ص٦٤ ؛ كما ورد هذا النص بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٤٥ - ص١٤٦ ؛ زبدة الحلب ، ج٣ ، ص٩٣ - ص٩٥ ؛ النوادر السلطانية ، ص٧٧- ٧٨ ؛ مفرج الكروب ، ج٢ ، ص١٨٨ .

(٢) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٥١ .

(٣) «شعب الشهاب» في مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٥١ .

(٤) فيق : مدينة بالشام بين دمشق وطبرية ، ويقال أفيق . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٩٣٢ ؛ تقويم البلدان ، ص٢٣٦ .

ذكر محاصرة طبرية وفتحها

لما تقدم السلطان إلى طبرية نصب عليها المجانيق ونقب أسوارها ، ففتحها يوم الخميس «الرابع عشر»[١] من ربيع الآخر ، وتمنعت القلعة عليه وبها زوجة القومص ، وتقدم الفرنج فنزلوا لُوبيه[٢] يوم الجمعة عند طلوع الشمس ، وملك المسلمون عليهم الماء ، وكان يوماً حاراً ، والتهب الغور عليهم ، وأضرم مظفر الدين النار فى الزرع ، وباتوا طول الليل والمسلمون حولهم . فلما طلع الفجر يوم السبت ، قاتلوا إلى الظهر ، ثم صعدوا[٣] إلى تل حطين[٤] على ما نذكر الآن .

وقعة حطين

وقال ابن كثير[٥] : لما سار السلطان إلى طبرية فتحها ، وقد كانت طبرية تقاسم بلاد حوران[٦] والبلقاء وما حولها من الجولان[٧] ، وتلك الأراضى كلها بالنصف ، فأراح الله المسلمين من تلك المقاسمة وتوفرت عليهم .

وقال العماد[٨] : وكانت الست صاحبة طبرية قد حمتها ، ونقلت إليها كل ما ملكته وحوته ، فلما جاء إليها السلطان أمنها على أصحابها وأموالها ، وخرجت بنسائها ورجالها ، وسارت الست إلى طرابلس - بلد زوجها القومص - بمالها وحالها ، وعادت طبرية آهلة آمنة بأهل الإيمان ، ثم عين السلطان لولايتها صارم الدين قايماز النجمى وهو من أعيان الأمراء .

---

(١) اتفق العينى مع سبط ابن الجوزى فى تاريخ فتح طبرية . انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٥١ ؛ أما ابن شداد ، وابن العديم فقد ذكرا أن فتح طبرية كان يوم السبت الرابع والعشرين من ربيع الآخر ، و أن تسلم قلعة طبرية كان يوم الأحد الخامس والعشرين من الشهر نفسه . انظر : النوادر السلطانية ، ص٧٦ ، ص٧٩ ؛ زبدة الحلب ، ج٣ ، ص٩٧ .

(٢) لوبية : أرض بالقرب من طبرية . الفتح القسى ، ص٨٨ ، حاشية ٦ .

(٣) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٥١ .

(٤) حطين : قرية بين أرسوف وقيسارية وبها قبر شعيب عليه السلام وهى بين طبرية وعكا . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٩١ .

(٥) البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٤٣ .

(٦) حوران : كورة واسعة من أعمال دمشق من جهة القبلة ذات قرى كثيرة ومزارع . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٥٨ .

(٧) الجولان : قرية ، وقيل : جبل من نواحى دمشق ثم من عمل حوران . معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٥٩ .

(٨) الفتح القسى ، ص٨٥ .

وقال ابن كثير[١] : ولما اجتمع السلطان بولده الأفضل خيم على عشترا ، وسمع الفرنج بذلك ، فاجتمعوا كلهم وتصالحوا فيما بينهم ، ودخل بينهم قومص صاحب طرابلس الذى نقض العهد ، وإبرنس الكرك فى جمع عظيم ، قيل : كانوا خمسين ألفاً . وقيل : ثلاثاً وستين ألفاً ، وقد خوفهم القومص بأس المسلمين ، فاعترض عليه إبرنس الكرك ، فقال له : [لا أشك][٢] إنك تحب المسلمين وتخوفنا من كثرتهم ، والنار لاتخاف من كثرة الحطب . فقال القومص لهم : ما أنا إلا واحد منكم ، وسترون غب ما أقول لكم . وكانت طبرية لقومص ، وكان قد هادن السلطان ودخل فى طاعته ـ كما ذكرنا ـ فأرسلت الفرنج إليه والقسوس والبطرك ينهونه عن [٣٤] موافقة السلطان .

وأصل ملك قومص طبرية أنه كان لطبرية ملك يقال له أمارى بن فلك ، هلك فى آخر سنة تسع وستين وخمسمائة ، وخلف ولداً مجذوماً قد سقطت أعضاؤه ، فوضع الفرنج التاج على رأسه ، ورضوا به مع عيبه ، حتى لا يخرج الملك من بيتهم ، فبقى بينهم زهاء عشر سنين ملكاً مطاعاً[٣] ، فلما أحس بهلاكه أحضر البطريق والقسوس وأكابر دولته ، وكان له ابن أخت صغير ، وقال لهم : يكون هذا ملكاً ولكن القومص يكفله إلى أن يكبر ، فإذا كبر يستقل بالملك دونه . فلما سمع قومص الوصية بذلك قبلها وسكن بطبرية ، وتزوجت أم الصغير بقومص ، فأراد قومص أن يستبد بالملك فلم يوافقه الداوية ، وقالوا يلزمك العمل بشروط الوصية ، فكفل بالأمر وهو مغلوب ، ورغب فى مقاربة السلطان ومهادنته ؛ ليتقوى بذلك على المُلك . فاشتد أمره إلى أن مات الصغير ، فانتقل المُلك منه إلى أمه ، وبطل ما كان فى نية قومص من استبداده بالملك ، فانتقل المُلك إليها واجتمع الفرنج عليها ، فقالت لهم : زوجى أقدر على الملك وهو أحق به . وأخذت التاج من رأسها فوضعته على رأسه ، ثم إن الملك الكبير طالب قومص بحساب ما تولاه ، فاستنصر قومص عليه بالسلطان صلاح الدين ، فهادنه وتقرب منه . ثم لما اجتمعت العساكر الإسلامية من الشامية والمصرية والجزرية ، جاء الملك إلى قومص بنفسه وقبح له رأيه فى مهادنته مع السلطان ، ورجَّعه عن ذلك ، حتى اتفقت الإفرنج كلهم على المسلمين[٤] .

(١) نقل العينى هذا النص بتصرف من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٤١ – ص٣٤٢ .
(٢) «لاشك» فى الأصل . والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٤٢ ، حيث ينقل العينى عنه .
(٣) ورد هذا النص بتصرف فى الفتح القسى ، ص٦٧ – ص٦٨ .
(٤) ورد هذا النص بتصرف فى الفتح القسى ، ص٦٧ – ص٦٨ .

ذكر وقعة حطين

ولما اجتمع الفرنج لملتقى السلطان بفارسهم وراجلهم وساروا إلى السلطان ، ركب السلطان من عند طبرية وسار إليهم يوم السبت لخمس بقين من ربيع الآخر ، والتقى الجمعان واشتد القتال ، ولما رأى القومص شدة الأمر حمل على من قدامه من المسلمين ، وكان هناك تقى الدين صاحب حماه فأخرج له وعطف عليهم ، فنجا القومص ووصل إلى طرابلس وبقى مدة ومات غُبنًا لعنه الله . وأخذ المسلمون بالفرنج من كل ناحية وأبادوهم قتلاً وأسراً ، وكان فى جملة من أسر ملك الفرنج الكبير والبرنس أرناط صاحب الكرك وصاحب جُبيل وابن الهنفرى ومقدم الداويه وجماعة من الاستباريه[1] ، وما أصيب الفرنج من حين خرجوا إلى الشام وهى سنة إحدى وتسعين وأربعمائة إلى الآن بمصيبة مثل هذه الوقعة ، وهى الوقعة العظيمة التى فتح الله بها الساحل وبيت المقدس .

وقال ابن الأثير[2] : وكان فى جملة الأسارى جميع ملوكهم سوى قومص صاحب طرابلس فإنه انهزم فى أول الوقعة وأخذ صليبهم الأعظم عندهم ، وهو الذى يزعمون أنه هو الذى صُلب عليه المصلوب ، وقد غلفوه بالذهب ورصعوه باللآلى والجواهر النفيسة ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾[3] .

وقال ابن واصل[4] : ذكر العماد أن السلطان الملك [٣٥] الناصر خلص فى هذه النوبة ثلاثين ألف أسير من المسلمين ، وأسر من الكفار مائة ألف أسير ، وكان يوماً عظيماً حتى إنه ذكر أن بعض الفلاحين رآه بعضهم وهو يقود نيفاً وثلاثين أسيراً من الفرنج ، قد ربطهم بطنب خيمة ، وباع بعضهم أسيراً بنعل لبسها فى رجله .

وفى المرآة[5] : ولما فتح الله للمسلمين ونصرهم على الإفرنج جىء إلى السلطان بصليب الصلبوت ، وهو مرصع بالجواهر واليواقيت فى غلاف من ذهب ، وهو عند

---

(١) ورد هذا النص بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٤٦- ص١٤٨ ؛ الفتح القسى ، ص٧٧ - ص٨٣ ؛ النوادر السلطانية ، ص٧٥ - ص٧٨ ؛ الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٢٥٤ - ص٢٥٦ .

(٢) نقل العينى هذا النص بتصرف من الكامل ، ج١٠ ، ص١٤٧ - ص١٤٨ .

(٣) «سورة الفرقان» ، آية رقم (٢٦) .

(٤) نقل العينى هذا النص بتصرف من مفرج الكروب ، ج٢ ، ص١٩٢ ، انظر : هذا الحدث بالتفصيل فى الفتح القسى ، ص٨٠- ص٨٤ ؛ النوادر السلطانية ، ص٧٧ - ص٧٨ .

(٥) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٥١ ؛ الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٢٥٨ .

النصارى مثل المسيح . والذى أسر الملك درباس الكردى ، والذى أسر إبرنس إبراهيم غلام المهرانى ، فلما رآهم السلطان نزل وسجد شكراً لله تعالى ، وجاء إلى خيمته فاستدعاهم فجلس الملك عن يمينه وإبرنس الكرك إلى جانب الملك ، ونظر السلطان إلى الملك وهو يلهث عطشاً ، فأمر له بقدح من ثلج وماء فشربه وسقى الإبرنس . فقال السلطان : ما أذنت لك بسقيه فلم سقيته؟ وكان السلطان قد نذر أن يقتل الإبرنس بيده ، فقال له : يا ملعون يا غدار حلفت وغدرت ونكثت ، وجعل يعدد عليه غدراته ، ثم قام إليه فضربه بالسيف حلَّ كتفه ، وتقدم المماليك وقطعوا رأسه وأطعموا جثته للكلاب ، فلما رآه الملك قتيلاً خاف وطار عقله ، فأمنه السلطان وقال : هذا غدار وكذاب غدر غير مرة[١] .

وقال ابن كثير[٢] : ولما تمت الوقعة أمر السلطان بضرب مخيم عظيم وجلس فيه على سرير المملكة ، وعن يمينه أسرّة وعن يساره مثلها ، وجىء بالأسارى يسحبون فى قيودهم فضربت أعناقهم ، فيهم جماعة من مقدمى الداوية والإستبارية بين يديه صبراً ولم يترك منهم من كان يذكر الناس عنه ذكراً ، ثم جىء بالملوك فأجلسوا عن يمينه ويساره على مراتبهم ؛ فأجلس ملكهم الكبير عن يمينه ، وتحته أرناط برنس الكرك ، وبقية الملوك عن يساره . فجىء [إلى][٣] السلطان بشراب من الجلاب[٤] مثلوج فشرب ، ثم ناول الملك فشرب ، ثم ناول أرناط فشرب ، فغضب السلطان وقال : أنا سقيتك ولم آمرك أن تسقيه هذا لا عهد له عندى . ثم تحول السلطان إلى خيمة داخل الخيمة واستدعى أرناط ، فلما أوقف بين يديه قام إليه بالسيف وقال : أنا أنوب عن رسول الله ﷺ ثم دعاه إلى الإسلام ، فامتنع ، فقتله وأرسل برأسه إلى الملوك وقال إنَّ هذا تعرض لسب رسول الله ﷺ فقتلته[٥] . وقال العماد : قام السلطان فضرب عنقه بيده . قلت : إنما فعل ذلك بيده إقامة لنذره الذى نذر حين مرض كما ذكرناه ، ثم قتل السلطان جميع من كان فى

---

(١) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٥٢ - ص٢٦١ .

(٢) نقل العينى هذا النص بتصرف من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٤٢ .

(٣) ما بين الحاصرتين مثبت من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٤٣ .

(٤) الجلاب : ماء الورد ، وهو فارسى معرب وفى Dozy أنه الماء ينقع فيه الزبيب .Dozy: Supp. Dict. Ar. T. I., P. 204.

(٥) نقل العينى هذا النص بتصرف من الفتح القسى ، ص٨٦ -ص٨٧ .

الأسرى من الداوية والإستبارية صبراً ، وأراح الله المسلمين من هذين الجنسين النجسين ، ولم يُسلم ممن عرض عليه الإسلام منهم إلا القليل فيقال : إنه بلغ القتلى ثلاثين ألفاً ، وكذلك الأسرى كانوا ثلاثين ألفاً ، وكان جيش الإفرنج ثلاثة وستين ألفاً ، فقتلهم ومن سلم منهم مع قلتهم [٣٦] أكثرهم جرحى ، فماتوا ببلادهم بعد رجوعهم ، ثم أرسل برؤوس الأسرى ورؤوس أعيان القتلى وصليب الصلبوت صحبة القاضى ابن أبى عصرون إلى دمشق ؛ ليُودعوا فى قلعتها ، فدخل بالصليب منكوساً بين يدى القاضى إلى دمشق ، وكان يوماً مشهوداً[١] .

وذكر فى النوادر[٢] ما ملخصه : أن صلاح الدين اندفع قاصداً نحو بلاد العدو فى وسط نهار الجمعة السابع عشر من ربيع الآخر من هذه السنة ، وكان بلغه أنهم اجتمعوا بأسرهم فى مرج صفورية بأرض عكا ، فقصدوا نحو المصاف معهم ، فسار ونزل من يومه على بحيرة طبرية عند قرية تسمى الصنبرة[٣] ، ورحل من هناك ونزل غربى طبرية على سطح الجبل ، وكان نزوله يوم الأربعاء الحادى والعشرين من ربيع الآخر ، ولما رآهم لا يتحركون نزل جريدة على طبرية ، وترك الأطلاب على حالها قبالة وجه العدو . وزحف على طبرية فأخذها فى ساعة من النهار ، ثم التقى العسكران على سطح جبل طبرية الغربى منها ، وذلك فى آخر الخميس الثانى والعشرين من ربيع الآخر . وحال الليل بين الفريقين ، فتبايتا على مصاف شاكين فى السلاح إلى صبيحة الجمعة الثالث والعشرين منه ، فركب العسكران وتصادما وذلك بأرض قرية تسمى اللوُبيا ، فحال الليل بينهما أيضاً . ولما كان صباح السبت الرابع والعشرين منه ، ووقع القتال نصرالله المسلمين بعونه ولطفه ، فلم ينج منهم واحداً ، واعتصمت طائفة أخرى بتل يقال له : تل حطين - وهى قرية - عنده قبر شعيب عليه السلام ، ثم ذكر مثل ما ذكرنا . ثم قال : ولما كان يوم الأحد الخامس والعشرين من ربيع الآخر نزل السلطان على طبرية ، وتسلم فى بقية ذلك اليوم قلعتها وأقام بها إلى يوم الثلاثاء[٤] .

وقال ابن الساعاتى الشاعر يمدح السلطان ، ويذكر وقعة حطين وغيرها وهى هذه :

---

(١) يبدو أن العينى كتب هذا الحدث بالنص من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٤٢ - ص٣٤٣ .

(٢) النوادر السلطانية ، ص٧٥ - ص٧٦ .

(٣) الصنبرة : موضع بالأردن مقابل لعقبة أفيق بينه وبين طبرية ثلاثة أميال . معجم البلدان ، ج٣ ، ص٤١٩ .

(٤) ورد هذا النص بتصرف فى النوادر السلطانية ، ص٧٥ - ص٧٩ .

جَلتْ عَزماتُك الفتحَ المُبِينَا ... فَقَدْ قَرّتْ عُيونُ المؤْمنينا[1]
رددْتَ أخِيذَةَ الإسلام لَمّا ... غدا صَرفُ الْقَضاء بها ضمينا[2]
وهانَ بِكَ الصليبُ وكان قِدْماً ... يَعِزُّ على العَوالى أنْ يَهُونَا

ومنها :

وصرتَ بوجْنَةِ الأيام خَالاً ... وفى جِيد العُلا عِقْداً ثميناً
وما طبرِيةٌ إلا هَدىٌّ ... ترفَّعَ عَنْ أكُفٍّ اللامِسِينا
فَضضت خِتَامَها قَسْراً ومَنْ ذَا ... يَصُدُّ الليثَ أنْ يَلجَ[3] العَرِينا
لقد أنكَحتها سُمْرَ المعالى[4] ... فكانَ نتاجها الحربَ الزَّبُونا
قستْ حتى رأتْ كُفْؤا فلانَتْ ... وغايةُ كُلِّ قاس أنْ يَلِينَا

ومنها

يهُزّ مَعَاطفَ القُدْسِ ابتِهَاجاً ... ويَرْضَى عَنْك مكَّةُ والْحُجُونا
[٣٧] فلَو أنَّ الجمادَ يُطِيقُ نُطْقًا ... لنادَتْك ادخُلُوها آمِنِينَا

ومنها :

ففى بَيسان ذا قُوامنْكَ بُؤْسَا ... وفى صَفَد أَتوْكَ مُصَفَّدينا[5]
لقد جَاءتْهُمُ الأحْداثُ جَمعاً ... كأنّ صروفَها كانَت كَمِينَا

ومنها :

وقَد جرَّدتَ عَزْماً نَاصِرياً ... يُحدِّثُ عن سَنَاهُ طُور سِينَا
وأذْعَن كَوْكَب لَمَّا تَهَاوَتْ ... نجومُ مُلُوكِها لَك مُذْعِنِينَا
فكنت كيوسفَ الصديق لما ... له هوت الكواكب ساجدينا
لقد فَضَلتَ قَوافِيكَ القَوافى ... كما فضَلَ العبيرُ الياسَمِينا
فأحْسِنْ واثقا بالله صُنْعاً ... فليسَ يضيعُ أجرُ المحْسِنِينا
لقد أتْعَبْتَ مَن طَلَبَ المَعَالى ... وحَاولَ أن يَسُوسَ المُسْلِمينا

---

(١) «المِيننا» فى الأصل . والمثبت من الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٢٧٥ .
(٢) «سنينا» فى الأصل . والمثبت من الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٢٧٥ .
(٣) «يرد» فى الأصل . والمثبت من الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٢٧٥ .
(٤) «صُمَّ العوالى» فى الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٢٧٥ .
(٥) انظر هذه الأبيات فى : الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٢٧٥ - ص٢٧٧ .

ذكر فتح عكا

وفيها لغتان المد والنسبة إليها : عكّاوى وعكة بالهاء .

ولما فرغ السلطان من أمر طبرية سار إلى عكا ، فنزل عليها يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر ففتحها صلحاً يوم الجمعة ، وأخذ ما كان بها من حواصل وأموال وذخائر ومتاجر ، واستنقذ من كان بها من المسلمين فوجدوا بها أربعة آلاف أسير منهم ، ففرج الله عنهم ، وأمر بإقامة الجمعة بعكا فكانت أول جمعة أقيمت بالساحل بعد أن أخذه الفرنج من نحو تسعين سنة .

وقال العماد الكاتب : وكان السلطان جعل للفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى كل ما يتعلق بالداوية من منازل وضياع ، فأخذها بما فيها من غلال(1) ومتاع ، ووهب عكا لولده [الملك](2) الأفضل . وقال : ودخلناها يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى فأقمنا بها الجمعة ، وأعدنا الكنيسة العظمى [مسجداً](3) جامعاً . وخطب جمال الدين عبداللطيف ، ابن الشيخ أبى النجيب السهروردى(4) ، فإنه تولى بها القضاء والخطبة .

وفى المرآة(5) : نازل السلطان صلاح الدين عكا يوم الأربعاء سلخ ربيع الآخر وليس بها من يحميها ؛ لأن وقعة حطين أبادتهم ، وكانوا ثلاثين ألفاً فطلبوا منه الأمان على نفوسهم وما يقدرون على حمله فأمنهم ، فدخلها يوم الجمعة غرة جمادى الأولى ، وغنم المسلمون أموالاً لا تحصى . ولما دخلوا عكا ركز كل واحد رمحه على دار فأخذها وما فيها ، ولم يحضر هذا الفتوح العادل سيف الدين(6) أخو السلطان ، وكان بمصر ، فجاء

(١) «غلات» فى الأصل . والمثبت من الفتح القسى ، ص٩٠ ، حيث ينقل العينى عنه .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من الفتح القسى ، ص٩٠ ، حيث ينقل العينى عنه .

(٣) ما بين حاصرتين ساقط من الأصل . والمثبت من الفتح القسى ، ص٩٠ ، حيث ينقل العينى عنه .

(٤) السهروردى : وهو عبداللطيف بن الشيخ أبى النجيب عبدالقاهر بن عبدالله بن محمد بن عمويه . والسهروردى نسبة إلى سُهْرَورد وهى بليدة عند زنجان من عراق العجم . انظر : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٢٠٤- ٢٠٥ ؛ الشذرات ، ج٤ ، ص٢٠٨ .

(٥) نقل العينى هذا النص بتصرف من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٥٢ .

(٦) هو الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن أبى الشكر أيوب بن شاذى بن مروان - أخو السلطان صلاح الدين . توفى سنة ٦١٥هـ . انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٧٤-٧٩ .

ففتح فى طريقه مجدل يابا[١] ويافا على ما نذكره ، وحضره الملك العزيز[٢] لأنه مقدم مع العسكر المصرى ، ومضى إلى مصر وما عاد ، اجتمع بأبيه وفارق أباه فى شعبان والسلطان على صور[٣] .

وكتب العماد الكاتب إلى بغداد كتاباً أوله ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ [٣٨] يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[٤] .

والحمد لله على إنجاز هذا الوعد ، وعلى نصرته لهذا الدين الحنيف من قبل ومن بعد ، وجعل من بعد عسر يسرا ، وأحدث [من][٥] بعد أمر أمراً ، وهوَّن الأمر الذى ما كان الإسلام يستطيع عليه صبراً ، وخوطب [النبى][٦] بقوله : ﴿وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ﴾[٧] فالأولى فى عصر النبى ﷺ والصحابة ، والأخرى فى هذه الدولة التى عتق فيها من رق الكتابة والزمان كهيئته قد استدار ، والحق ببهجته قد استنار ، والكفر قد ردَّ ما عنده من الشعار ، والخادم ينشرح[٨] فى هذا الفتح العظيم والنصر الكريم ما يشرح صدر المؤمنين ، ويسوء وجوه الكافرين ، ويورد من البشرى ما أنعم الله به من يوم الخميس الثالث والعشرين من ربيع الآخر سلخه ، وتلك سبعة أيام وثمانية أيام حسوما ، عدموا فيها نفوسا وجسوما ، فأصبحوا وقد هَوَوْا فى الهاوية كأنهم أعجاز نخل خاوية ، وأصبحت البلاد إلى الإسلام ضاحكة كما كانت بالكفر باكية .

ففى يوم الخميس فتحت طبرية ويوم الجمعة والسبت كانت الكسرة التى ما أبقت منهم بقية ، لايقوم لهم بعدها قائمة ، ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ﴾[٩] وهى أم البلاد وأخت إرم ذات العماد ، إلى غير ذلك من الكلمات .

---

(١) مَجْدَل يَابَا : أو مجدل يابه ، قرية قرب الرملة بفلسطين ، بها حصن محكم . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٤١٨-٤١٩ .
(٢) الملك العزيز : هو عماد الدين أبو الفتح عثمان ، ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ؛ كان نائباً عن أبيه فى الديار المصرية لما كان أبوه بالشام ، ولما توفى أبوه بدمشق استقل بملكتها باتفاق من الأمراء . توفى سنة ٥٩٥هـ . انظر : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٢٥١-٢٥٣ .
(٣) صور : بلد مشرف على البحر المتوسط ، يحيط بها البحر من جميع جوانبها إلا الرابع ، وتقع إلى جهة الشرق من عكا . معجم البلدان ، ج٣ ، ص٤٣٣-٤٣٤ .
(٤) سورة الأنبياء ، آية رقم ١٠٥ .
(٥) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل . والمثبت من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٥٣ ، حيث ينقل العينى عنه .
(٦) «الدين» كذا فى الأصل . والمثبت من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٥٣ .
(٧) سورة طه ، آية رقم ٣٧ .
(٨) «ينشرح» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٥٣ .
(٩) سورة هود ، آية رقم ١٠٢ .

ذكر فتح مجدل يابا

ثم إن السلطان ـ رحمه الله ـ أرسل أخاه الملك العادل فنازل مجدل يابا وفتحه عنوة بالسيف .

وقال ابن كثير(١) : وجاء العادل إلى السلطان بعد وقعة حطين وفتح عكا ، ففتح بنفسه حصوناً كثيرة .

وقال العماد الكاتب(٢) : ولما فتح السلطان مدينة عكا ، أقام ببابها مخيماً ، وعلى فتح سائر بلاد الساحل مصمماً ، وقد كان كتب إلى أخيه الملك العادل سيف الدين أبى بكر وهو بمصر بما فتح الله له ، فوصلت البشرى بوصوله ــ أى بوصول العادل ــ باشراً ، وللواء الحمد ناشراً ، وأنه فتح حصن مجدل يابا ومدينة يافا عنوة ، واغتنمها غزوة ، ثم إن السلطان فرق أمراءه إلى فتح بلاد ، ففتح كل واحد منهم حصناً أو قلعة على ما نذكره الآن إن شاء الله .

ذكر فتح ناصرة وصفورية

أرسل السلطان مظفر الدين كوكبورى إلى الناصرة [وصفورية]،(٣) ومعه حسام الدين طمان ، فاستباحا حماها واستبى دماءهما ، ففتحهما وغنم ما فيهما من الأموال والذخائر ، وجاء إلى السلطان والأسارى بين يديه مقرنين فى الأصفاد ، مقادين فى الأقياد .

وفى تاريخ المؤيد(٤) : وفرق السلطان عسكره ففتحوا الناصرة وقيسارية وهيفا(٥) وصفورية ومعليا(٦) والفولة وغيرها من البلاد المجاورة لعكا بالسيف ، وغنموا وقتلوا وأسروا أهل هذه الأماكن(٧) .

---

(١) البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٤٣ - ص٣٤٤ .
(٢) الفتح القسى ، ص٩٠-ص٩١ .
(٣) ما بين الحاصرتين إضافة لاستقامة النص .
(٤) المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص٧٢ .
(٥) هيفا : ويقصد بها حيفا . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٨١ . كذا فى المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص٧٢ . ولعله يقصد حصن حيفا الواقع على ساحل البحر المتوسط قرب يافا . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٨١ .
(٦) «معلثا» فى الأصل ، والمختصر ج٣ ، ص٧٢ . والمثبت من الفتح القسى ، ص٩٨ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص١٥٠ ، ومعليا ، إحدى نواحى الأردن ببلاد الشام ؛ معجم البلدان ، ج٤ ، ص٥٧٨ .
(٧) المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص٧٢ .

ذكر فتح قيسارية

أرسل السلطان بدر الدين دلدروم الياروقى وغرس الدين قليج وجماعة من الأمراء إلى قيسارية ، فافتتحوها بالسيف ، وغنموا وأسروا وسبوا(١) .

ذكر فتح نابلس

أرسل السلطان حسام الدين محمد بن عمر بن لاچين على سمت نابلس ، ووصل إلى سبسطية(٢) [٣٩] فتسلمها وتعجل مغنمها ، فوجد مشهد زكريا النبى عليه السلام قد اتخذه القسوس كنيسة ، وأعاده مشهداً ، ورده مسجداً ، ووضع فيه منبراً ، ثم أناخ على نابلس وحاصرها وطال عليه حصارها ، ولم يزل عليها مقيماً ولقتالها مديماً ، إلى أن استأمنوا منه فأمنهم ، ففتحوا له القلعة ، وملكها حسام الدين . ثم إن السلطان استنابه على نابلس ومعاملتها(٣) .

ذكر فتح الفُولة(٤) وغيرها من البلاد

وكانت الفولة أحسن القلاع وأحصنها وأملأها بالرجال والعدد ، وهى للداوية حصن حصين ومكان مكين ، وكان فيها مشتاهم ومصيفهم ، ومقراهم ومضِيفهم . فلما اتفق يوم المصاف خرجوا بأجمعهم إلى مصرعهم ، فلما كسروا وأسروا وخسروا ، أسلموا الحصن بما فيه إلى السلطان ، وكانت فيه ذخائر عظيمة ، ثم تسلم السلطان جميع ما كان فى تلك الناحية من البلاد مثل : دبورية(٥) وجينين(٦) وذَرْعين(٧) والطور واللجون(٨) وبَيْسان

---

(١) ورد هذا النص بتصرف فى الفتح القسى ، ص٩٤ .

(٢) سبسطية : بلدة من نواحى فلسطين بينها وبين البيت المقدس يومان وهى من أعمال نابلس . معجم البلدان ، ج٣ ، ص٣٣ .

(٣) الفتح القسى ، ص٩٥ - ص٩٦ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٢٨٥ - ص٢٨٦ .

(٤) والفُولة : بالضم بلفظ واحدة الفول ، وهى الباقلا بلدة بفلسطين من نواحى الشام . معجم البلدان ، ج٣ ، ص٩٢٤ .

(٥) تل دبورية : دبورية بليد قرب طبرية من أعمال الأردن . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥٤٦ .

(٦) جينين : بكسر الجيم وسكون ثانيه ونون مكسورة أيضًا وياء أخرى ساكنة أيضًا ونون أخرى ، بليدة حسنة بين نابلس وبيسان من أرض الأردن بها عيون ومياه . معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٨٠ .

(٧) زرعين : موضع من نواحى الأردن . الفتح القسى ، ص٩٧ ، حاشية ٧ .

(٨) اللجون : بلد بالأردن بينه وبين طبرية عشرون ميلاً . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣٥١ .

والقيمون[١] وجميع ما للطبرية وعكا من الولايات ، والزيب[٢] والبعنة وإسكندرونة[٣] ومنوات[٤] وغير ذلك .

ذكر فتح تبنين

ولما خلصت تلك الممالك والأعمال للسلطان ، رسم لابن أخيه الملك المظفر عمر ابن شاهنشاه بقصد حصن تبنين ، وأن يتوكل على الله ويستعين .

قال العماد[٥] : فوصلنا إلى تبنين فى ثلاث مراحل ، ونزلنا عليها بالنوازل وبسطنا من المجانيق عليها أيدى الغوائل . فلما آيسوا من الحياة وعاينوا الممات سألوا الأمان من السلطان ، واستمهلوا خمسة أيام لينزلوا بأموالهم فأمهلوا ، وأطلقوا أسارى المسلمين ، فلما جلوا البقعة وأخلوا القلعة ، سيرهم السلطان ومعهم من العسكر المنصور من أوصلهم إلى صور[٦] ، ورتب فى الموضع مملوكه سنقر ، ووصاه بتأنيس النافر ، وتعكيس الكافر ، وأن يصلح خندقها وسورها[٧] .

وفى النوادر[٨] : نزل السلطان عليها يوم الأحد حادى عشر جمادى الأولى ، وهى قلعة منيعة ، وكان بها رجال أبطال شديدون فى دينهم ، فاحتاجوا إلى معاناة شديدة ، ونصره الله عليهم ، وتسلمها يوم الأحد ثامن عشر الشهر المذكور عنوة ، وأسر من بقى بها بعد القتل ، ثم رحل منها إلى مدينة صيدا متوكلاً على الله[٩] .

---

(١) القيمون : حصن قرب الرملة من أعمال فلسطين . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٢١٨ .
(٢) الزيب : قرية كبيرة على ساحل بحر الشام قرب عكا . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٩٦٤ - ص٩٦٥ .
(٣) إسكندرونة : مدينة فى شرقى أنطاكية على ساحل البحر المتوسط . معجم البلدان ، ج١ ، ص٢٥٤ .
(٤) منوات : بليدة بسواحل الشام قرب عكا . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٦٧٢ .
(٥) الفتح القسى ، ص١٠٠ .
(٦) «الصُور» فى الأصل . والمثبت من الفتح القسى ، ص١٠١ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٢٩٠ - ص٢٩١ .
(٧) نقل العينى هذا النص بتصرف من الفتح القسى ، ص١٠٠-١٠١ ؛ انظر أيضًا : الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٢٩١ ؛ مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٢٠٥-٢٠٦ .
(٨) النوادر السلطانية ، ص٨٠ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٢٩١ .
(٩) انظر : الفتح القسى ، ص١٠١ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٢٩١ . بينما يذكر ابن العديم أن السلطان تسلم صيدا يوم الأربعاء العشرين منه . انظر : زبدة الحلب ، ج٣ ، ص٩٧ .

ذكر فتح صيدا

نزل عليها السلطان بعسكره يوم الأربعاء الحادى والعشرين من جمادى الأولى ، فجاء رسل صاحبها بمفاتيحها وفتحت أبوابها ، ودخل فيها المسلمون ، وأقيمت بها الجمعة والجماعة .

[ذكر فتح بيروت][1]

ثم رحل السلطان من صيدا إلى بيروت ، فنزل عليها يوم الخميس الثانى والعشرين من جمادى الأولى ، وتسلمها يوم الخميس التاسع والعشرين منه ، وذلك بعد قتال عظيم وحصار شديد ونقب لأسوارها . وظهر فى تلك الأيام خراب شديد من الداوية ، فأخر الأمر [٤٠] لما اشتد بهم الحال خرج أحد المقدمين يستدعى الأمان ، فأمّنهم السلطان فنزلوا على الطاعة ، وسلّموا البلد فى التاريخ المذكور .

وفى النوادر[2] : لما فرغ بال السلطان من هذا الجانب رأى قصد عسقلان[3] ، ولم ير الاشتغال بصور بعد أن نزل عليها ومارسها فى هذا الوقت ؛ لأن العسكر كانوا تفرقوا فى الساحل ، وذهب كل إنسان يأخذ لنفسه شيئًا ، وكانوا قد ضرسوا من القتال وملازمة الحرب ، وكان قد اجتمع فى صور كل فرنجى بقى فى الساحل فرأى قصد عسقلان لأن أمرها كان أيسر[4] .

وكان السلطان فتح جُبيل[4] يوم الثلاثاء السابع عشر[5] من جمادى الأولى ، وكان صاحب جبيل اسمه أوْك وهو الذى سلم جبيل إلى السلطان وهو على بيروت .

---

(١) انظر : الفتح القسى ، ص١٠٤ - ١٠٦ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص١٥١-١٥٢ ؛ النوادر السلطانية ، ص٨٠ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٢٩٢ ؛ مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٢٠٦ .

(٢) النوادر السلطانية ، ص٨٠ .

(٣) عسقلان : هى مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر بين غزة وبيت جبرين - يقال لها : عروس الشام . معجم البلدان ، ج٣ ، ص٦٧٣ -٦٧٤ .

(٤) جُبَيل : بلد مشهور فى شرقى بيروت . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٢ .

(٥) «سابع عشرى» فى الفتح القسى ، ص١٠٨ .

ذكر فتح عسقلان وغزة والداروم

نزل السلطان عليها يوم الأحد السادس عشر من جمادى الآخرة، واجتمع السلطان بأخيه العادل عليها، وامتنع أهلها أشد الامتناع، وقاتلوا قتالاً عظيماً. فضيق السلطان عليها بالرجال والقتال، ونصب المجانيق ونقب الأسوار، فلما ضاق عليهم الحال راسلهم الملك المأسور وقال: قد بان عُذركم حين نقب السور. فترددت بينهم الرسالات، فقال لهم الملك المأسور: [لا تخالفوا ما به][1] أشير عليكم من الأمر، فاسمعونى وأطيعونى، واحفظوا رأسى فهو رأس مالكم، فإنى إذا تخلّصت خلّصت، وإذا استُنقذت أنْقذت[2]. وخرج المقدمون منهم وشاوروا الملك، فسلموا عسقلان على خروجهم بأموالهم سالمين، وذلك يوم السبت لانسلاخ جمادى الآخرة[3].

وممن استشهد على عسقلان من الأمراء الكبار إبراهيم بن حسين المهرانى[4]، وهو أول أمير افتتح بالشهادة، وختم بالسعادة. وكان السلطان قد أخذ فى طريقه إلى عسقلان الرملة، ويُبْنى[5]، وبيت لحم[6]، والخليل[7]، وأقام بها حتى تسلم حصون الداوية، وغزة، والنطرون[8]، وبيت جبريل[9]. وكان قد استصحب معه مقدم الداوية، وشرط أنه إذا سَلَّمَ معاقلهم أطلقه، فسلم هذه المواضع الوثيقة.

ثم اجتمع بالسلطان ابنه الملك العزيز عثمان صاحب مصر على عسقلان، فقرت عينه بولده، واعتضد بعضده، وكان قد استدعى الأساطيل المنصورة فوافت، والحاجب

---

(١) «لا تخافوا بما» كذا فى الأصل. والمثبت بين الحاصرتين من الفتح القسى، ص١١٣.

(٢) انظر: الفتح القسى، ص١١٣.

(٣) ورد هذا النص بتصرف فى الفتح القسى، ص١١٣؛ الكامل، ج١٠، ص١٥٣-ص١٥٤؛ النوادر السلطانية، ص٨٠؛ الروضتين، ج١ ق٢، ص٢٩٦- ص٢٩٧.

(٤) «الهمدانى» فى الأصل. والمثبت من الفتح القسى، ص١١٣؛ الكامل، ج١٠، ص١٥٤؛ الروضتين، ج١ ق٢، ص٢٩٧؛ مفرج الكروب، ج٢، ص٢١٠.

(٥) يُبْنَى: بليد قرب الرملة. انظر: معجم البلدان، ج٤، ١٠٠٧.

(٦) بيت لَحْم: بليد عامر قرب البيت المقدس، مكانها مهد عيسى عليه السلام. معجم البلدان، ج١، ص٧٧٩.

(٧) الخَليلُ: اسم موضع وبلدة فيها حصن وعمارة وسوق بقرب البيت المقدس. معجم البلدان، ج٢، ص٤٦٨.

(٨) النطرون: اسم محرف للماطِرُون وهو موضع بالشام قرب دمشق. معجم البلدان، ج٤، ص٣٩٥؛ الفتح القسى، ص١١٤، حاشية(٥).

(٩) بيت جبريل: أو بيت جبرين، بليد بين بيت المقدس وغزة، بينه وبين القدس مرحلتان، كانت فيه قلعة حصينة خربها صلاح الدين لما استنقذ بيت المقدس من الإفرنج. معجم البلدان، ج١، ص٧٧٦.

لؤلؤ[1] المقدم فيها، وغنم الجيش والمسلمون من هذه الأماكن، وسبوا شيئاً كثيراً لا يُحَد ولا يوصف، واستبشر الإسلام وأهله شرقاً وغرباً بهذا النصر العظيم والفتوحات الهائلة. وترك السلطان جيوشه ترتع فى هذه الفتوحات والغنائم الكثيرة مدة شهور؛ ليستريحوا ويجمعوا أنفسهم وخيولهم؛ ليتأهبوا لفتح بيت المقدس الشريف، وأشاع فى الناس أن السلطان على عزم فتح بيت المقدس، فقصده العلماء والصلحاء والمتطوعة من كل فج عميق، فعند ذلك قصد السلطان بيت المقدس بمن معه على[2] [٤١] ما نذكره إن شاء الله تعالى.

وفى تاريخ بيبرس: ولما فتح السلطان عكا فرق عساكره إلى جميع الحصون الساحلية، فتسلموها أولاً فأول[3]، ولم يعد للفرنج قدرة على الدفاع، ولا سبيل إلى الاجتماع. فتسلموا نابلس[4] وقيسارية[5] وصفورية[6] والناصرة[7]، واستخلف فى عكا ولده الأفضل، ثم رحل فنزل على تبنين فحاصرها إلى أن تسلمها، ثم نزل على صيدا فتسلمها، ثم سار إلى بيروت فتسلمها، وتسلم أصحابه جبيل، ورحل إلى عسقلان فنازلها وتسلمها، ثم تسلم الرملة ثم الداروم[8]. ووصل إليه ولده العزيز من مصر وهو على عسقلان مهنئاً بالفتح، فأقام عليها إلى أن تسلم أصحابه غزة وبيت جبريل والنطرون بغير قتال، وكان بين فتوح عسقلان وبين أخذ الفرنج لها ثمان وأربعون[9] سنة.

---

(١) الحاجب لؤلؤ: من كبار رجال الدولة الصلاحية، كان مقدم العسكر ضد الفرنج الذين أرسلهم أرناط صاحب حصن الكرك لحرب مكة والمدينة فى البحر، وكان لؤلؤ شيخًا أرمنياً من خدام القصر، خدم مع صلاح الدين، وأخلص له، مات سنة ٥٩٨هـ. الشذرات، ج٤، ص٣٣٦-٣٣٧؛ الفتح القسى، ص١١٥.

(٢) نقل العينى هذا النص بتصرف من الفتح القسى، ص١١٤ - ١١٥.

(٣) «فأولاً» كذا فى الأصل. والمثبت هو الصواب.

(٤) نابلس: مدينة مشهورة بأرض فلسطين بين جبلين. وبينها وبين بيت المقدس عشرة فراسخ. معجم البلدان، ج٤، ص٧٢٤.

(٥) قيسارية: بلد على ساحل بحر الشام تُعَدُّ فى أعمال فلسطين، بينها وبين طبرية ثلاثة أيام. معجم البلدان، ج٤، ص٢١٤.

(٦) صَفُّورية: كورة وبلدة من نواحى الأردن بالشام وهى قرب طبرية. معجم البلدان، ج٣، ص٤٠٢.

(٧) الناصرة: قرية بينها وبين طبرية ثلاثة عشر ميلاً. معجم البلدان، ج٤، ص٧٢٩.

(٨) الداروم: بليدة بينها وبين غزة أربعة فراسخ. معجم البلدان، ج٢، ص٥٣٧.

(٩) فى نهاية الأرب، ج٢٨، ص٤٠٢، «خمس وثلاثون سنة. فإن العدو استولى عليها فى السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة». انظر أيضًا: مفرج الكروب، ج٢، ص٢١٠.

وفى المرآة : وكان بين أخذ الفرنج وبين خلاصها منهم خمس[(١)] وثلاثون سنة ، لأنهم ملكوها فى جمادى الآخرة سنة ثمان وأربعين وخمسمائة . وفوض السلطان القضاء والخطابة إلى جمال الدين عبدالله بن عمر قاضى اليمن ، وتسلم[(٢)] السلطان هذه الأماكن المذكورة فى أربعين يوماً ، أولها ثامن عشرين جمادى الأولى ، وآخرها ثامن رجب[(٣)] .

وفى تاريخ المؤيد[(٤)] : وفيها حضر المركيس فى سفينة إلى عكا ، ولم يعلم المركيس بذلك ، واتفق هجوم الهواء ، فراسل المركيس الملك الأفضل وهو بعكا ، يقترح أمراً بعد آخر ، والملك الأفضل يجيب المركيس إلى ذلك ، إلى أن هب الهواء فأقلع المركيس إلى صور ، واجتمع عليه الفرنج الذين بها ، وملك صوراً . وكان وصول المركيس إلى صور ، وإطلاق الفرنج الذين أخذ السلطان بلادهم بالأمان ، وحملهم إلى صور ، من أعظم أسباب الضرر التى حصلت حتى راحت عكا وقوى الفرنج بذلك .

ذكر فتح بيت المقدس شرفه الله
واستنقاذه من أيدى النصارى بعد ثنتين وتسعين سنة

ولما فتح السلطان صلاح الدين رحمه الله ما حول بيت المقدس من الأماكن المباركة ، أمر العساكر فاجتمعت والجيوش المتفرقة فى البلدان للمغانم فائتلفت ، وسار نحو البيت المقدس بتلك العساكر ، فنزل غربى بيت المقدس يوم الأحد الخامس عشر من شهر رجب من هذه السنة ، أعنى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وقد حصنت الفرنج - لعنهم الله - الأسوار بالمقاتلة ، وكانوا ستين ألف مقاتل دون بيت المقدس أو يزيدون ، وكان صاحب البلد يومئذ رجلاً[(٥)] يقال له : بالْيان بن بارزان[(٦)] ، ومعه من سلم من وقعة حطين من الداوية والإستبارية ، فأقام السلطان بنزله المذكور خمسة أيام ، ثم سلم إلى كل طائفة من الجيش المنصور ناحية من أبرجة السور ، ثم تحول إلى ناحية الشمال ؛

(١) فى الأصل ومرآة الزمان «خمسة» . والصواب ما أثبتناه .
(٢) «سلم» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٥٣ .
(٣) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٥٣ .
(٤) المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص٧٢ .
(٥) «رجل» فى الأصل . والمثبت هو الصواب .
(٦) «بازرانى» فى الأصل . والمثبت من الفتح القسى ، ص١١٧ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص٤٠٣ ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٢١٤ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٣٠٣ .

لأنه رآها أوسع وأنسب للمجال ، وقاتل الفرنج دون البلد قتالاً هائلاً ، واستشهد بعض أمراء المسلمين ، فحنق عند ذلك كثير من أمراء الإسلام [ص٤٢] واجتهدوا فى القتال ، وقد نصب المجانيق والعرادات(١) ، فبادر السلطان - رحمه الله - بأصحابه إلى الزاوية الشرقية الشمالية من السور فنقبها ، فسقط ذلك الجانب وخَرَّ البرج برمته(٢) .

وفى المرآة(٣) : وكان المنجمون قد قالوا للسلطان تفتح القدس وتذهب عينك الواحدة فقال : رضيت أن أفتحه وأعمى . وكان قد نزل على غربيه أولاً ، ثم انتقل إلى شماليه من باب العمود إلى برج الزاوية ، ومن هذا المكان أخذه الفرنج وكان مشحوناً بالبطارقة من الخيالة والرجالة ، بما يزيد على ستين ألفاً غير النساء والذرية ، وقاتلوا قتالاً شديداً .

وفى تاريخ بيبرس : قتل فى أول يوم عز الدين عيسى بن مالك(٤) - [كان أبوه](٥) صاحب قلعة جعبر(٦) - فحزن السلطان عليه .

وفى النوادر(٧) : وكان نزول السلطان على القدس يوم الأحد الخامس عشر من رجب ، فنزل بالجانب الغربى ، ثم انتقل - لمصلحة رآها - إلى الجانب الشمالى ، وكان انتقاله يوم الجمعة العشرين من رجب ، ونصب عليه المنجنيقات وضايقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة ، حتى أخذ النقب فى السور مما يلى وادى جهنم فى قرية شمالية(٨) . ولما شاهد الفرنج ذلك ، قصد أكابرهم السلطان وتشفعوا إليه أن يعطيهم

---

(١) العرادات : جمع عرادة وهى من آلات الحرب ، وهى أصغر من المنجانيق ، ترمى بالحجارة المرمى البعيد . انظر : محيط المحيط .

(٢) لمعرفة المزيد عن فتح بيت المقدس ، انظر : الفتح القسى ، ص١١٦ - ص١٢٩ ؛ الروضتين ج٢ق١ ، ص٣٠٠ - ص٣٠٢ ، مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٢١١ - ص٢١٧ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص٤٠٣- ص٤٠٥ .

(٣) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٥٤ .

(٤) «موسى» فى الأصل . والمثبت من الكامل ، ج١٠ ، ص١٥٥ ؛ وانظر : الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٣٠٩ ؛ مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٢١٣ . وهو عز الدين عيسى بن شهاب الدين بن مالك العقيلى .

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من الكامل ، ج١٠ ، ص١٥٥ ، الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٣٠٩ ، «نقلاً عن الفتح القسى» .

(٦) قلعة جَعْبَر : قلعة على الفرات مقابل صفين . وكانت تعرف أولاً بدوسر فتملكها رجل من بنى نمير يقال له جعبر ابن مالك فنسبت إليه . معجم البلدان ، ج٤ ، ص١٦٤ .

(٧) النوادر السلطانية ، ص٨١ .

(٨) إلى هنا توقف العينى عن النقل من النوادر السلطانية ، ص٨١ .

الأمان، فامتنع وقال: لاأفتحها إلاّ بالسيف عنوة، كما فتحتموها عنوة، ولا أترك بها أحداً من النصارى إلا قتلته كما قتلتم أنتم من المسلمين. فطلب صاحبها باليان بن بارزان من السلطان الأمان ليحضر عنده فأمنه، فلما حضر ترفق له وتشفع إليه بكل ممكن، فلم يجبه إلى الأمان لهم. فقالوا: لئن لم تعط الأمان رجعنا فقتلنا كل أسير من المسلمين بأيدينا، وهم قريب من أربعة آلاف أسير، وقتلنا زرارينا وخربنا الدور والأماكن الحسنة، وأتلفنا ما بأيدينا من الأموال، وألقينا قبة الصخرة، وبعد ذلك نقاتل قتال الموت فلا يقتل واحد منا حتى نقتل أعداداً منكم. فماذا يرتجى بعد هذا من الخير؟.

فلما سمع السلطان ذلك أجاب إلى الصلح، على أن يبذل كل رجل منهم عن نفسه عشرة دنانير، وعن المرأة خمسة دنانير، وعن كل صغير وصغيرة دينارين، وأن تكون الغلات والأسلحة والدور للمسلمين ويتحولوا منها إلى مأمنهم وهو مدينة صور، فكتب الصلح على ذلك، ومن لا يبذل ما شرط عليه إلى أربعين يوماً فهو أسير، فكان من أسر بهذا الشرط ستة عشر ألف إنسان من الرجال والنساء والولدان. ودخل السلطان والمسلمون البلد يوم الجمعة قبل وقت الصلاة بقليل، وذلك يوم السابع والعشرين من رجب[١].

قال العماد[٢]: وهو ليلة الإسراء برسول الله ﷺ من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى إلى السموات العلى.

وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة[٣]: وهذا أحد الأقوال فى الإسراء والله أعلم. وكان فى القدس بعض نساء الملوك من الروم، قد ترهبت ومعها من الأموال والجواهر والعبيد والخدم شىء كثير، فطلبت [٤٣] الأمان لنفسها ولمن معها، فأمنها السلطان وسيرها إلى مأمنها. وخرجت زوجة الملك المأسور [كى][٤]، وهى ابنة الملك أمارى، وكانت الأخرى قد ترهبت وتزهدت، ومعها من الأموال والجواهر والخيول والخدم شىء كثير[٥]. فخرجت واستأذنت السلطان فى اجتماعها بزوجها، وكان محبوساً فى برج نابلس، فأذن لها وسارت وأقامت عند زوجها حتى تخلّص.

(١) البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٤٥؛ كما ورد بتصرف فى الروضتين، ج٢ق١، ص٣١٠؛ النوادر السلطانية، ص٨١- ص٨٢؛ مفرج الكروب، ج٢، ص٢١٤؛ الفتح القسى، ص١٢٧- ص١٢٨.

(٢) نقل العينى هذا النص بتصرف من الفتح القسى، ص١٣٠.

(٣) انظر: الروضتين، ج٢ق١، ص٣٠١ ـ ص٣١٢.

(٤) ما بين الحاصرتين زيادة من الروضتين للتوضيح. الروضتين، ج٢ ق١، ص٣١٢.

(٥) نقل العينى هذه العبارة بتصرف من الروضتين، ج٢ق١، ص٣١٢؛ انظر أيضًا: الفتح القسى، ص١٢٨-ص١٢٩.

وكان على رأس قبة الصخرة صليب كبير من الذهب ، فتسلق المسلمون وقلعوه ، والفرنج ينظرون إليهم ، فصاح الناس كلهم صيحة كادت الأرض أن تميد بهم ، أما المسلمون فصاحوا سروراً بالتكبير والتهليل ، وأما الفرنج فصاحوا تغبناً وتوجعاً[1] .

وقال ابن كثير (رحمه الله) : ولم تتفق صلاة الجمعة يومئذ ، يعنى يوم دخولهم ، خلافاً لبعضهم ممن زعم[2] أنها أقيمت يومئذ ، وأن السلطان خطب بنفسه بالسواد يومئذ ، والصحيح أن الجمعة لم يتمكن إقامتها[3] يومئذ لضيق الوقت ، وإنما أقيمت فى الجمعة المقبلة ، وكان الخطيب القاضى محيى الدين بن على القرشى المعروف بابن الزكى كما نذكره قريباً .

ونظف المسجد الأقصى يومئذ مما كان فيه من الصلبان والرهبان والخنازير ، وخربت دور الداوية كانوا قد ابتنوها غربى المحراب الكبير ، وكانوا اتخذوا المحراب سرابا[4] ومستراحا[5] ، فنظف المسجد من ذلك كله ، وأعيد إلى ما كان عليه فى الأيام الإسلامية والدولة المحمدية . وغسلت الصخرة بالماء الطاهر . وأعيد غسلها بماء الورد الفاخر ، وأبرزت للناظرين ، وقد كانت مستورة محجوبة[6] عن الزائرين[7] . وفى المرآة : ودخل السلطان الصخرة وغسلها بماء الورد ، وقيل : غسلها بلحيته وهو يبكى . ومحى الصور منها .

وقد كان الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى ـ رحمه الله ـ قد عمل منبراً بحلب وتعب عليه مدة ، وقال : هذا لأجل القدس الشريف ، فأرسل السلطان صلاح الدين وأحضره من حلب ، وجعله فى الجامع الأقصى .

ولما كان فى الجمعة الثانية ، وأرادوا أن يقيموا به الجمعة ، حضر المسلمون بالحرم الشريف من كل فج عميق ، فاجتمع من الأعمال الإسلامية عدد لايحصى ، فلما أذن

---

(١) فى مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٢١٧ .
(٢) «خلافاً لمن زعم» فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٤٥ .
(٣) «لم يتمكنوا من إقامتها» فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٤٥ .
(٤) لم ترد كلمة سرابًا فى المصادر المعاصرة التى بين أيدينا .
(٥) «مشتا» فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٤٥ ، والمثبت كما فى الفتح القسى ، ص١٣٧ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص١٥٨ .
(٦) «مخبوءة» فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٤٥ .
(٧) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٥٤ .

الظهر حضر السلطان بقبة الصخرة ، وكان جماعة من الأكابر والعلماء قد رشحوا أنفسهم للخطبة فى ذلك اليوم ، وألفوا خطباً يخطبون بها ، فلما كان وقت الخطبة رسم السلطان للقاضى محيى الدين بن زكى الدين أن يخطب ، فرقى المنبر بأهبة السواد العباسية ، وخطب خطبة بديعة ، ثم أن السلطان ـ رحمه الله ـ أقام حرمته فوق ما كانت[١] .

وفى المرآة[٢] : وكان حضر مع السلطان هذا الفتح زهاء على عشرة آلاف عمامة من جميع الأجناس ، وتطاول جماعة من الأعيان إلى الخطابة ، فتذكر السلطان قول ابن زكى الدين :

وفتحه حلباً بالسيف فى صفر مبشر بفتوح القدس فى رجب

قال القاضى الفاضل :

فقد أنطق الله السلطان بالغيب ، فأعطاه الخطابة . وابن زكى الدين قاضى القضاة بدمشق .

وقال ابن القادسى فى ذيله : إن صلاح الدين خطب بالبيت المقدس . وهو وَهْم منه .

ثم إن السلطان [٤٤] فرق الأموال التى أخذها من الإفرنج ، وكانت نيفاً وثلاثمائة ألف دينار ، على العلماء والفقهاء والصوفية[٣] .

ذكر ما فعله السلطان صلاح الدين بعد فتحه القدس

فمن ذلك تفرقته الأموال التى أخذها من الإفرنج كما ذكرنا ، ومن ذلك أنه جلس بعد صلاة الجمعة بعد أن خطب الخطيب ودعى للخليفة العباسى وللسلطان الملك الناصر صلاح الدين ، وسمع وعظ الشيخ زين الدين أبو الحسن على بن نجا المصرى[٤] ،

(١) انظر تفصيل ذلك فى مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٢١٨ - ٢٢٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٤٦ .

(٢) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٥٤ .

(٣) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٥٤ .

(٤) زين الدين أبو الحسن على بن إبراهيم بن نجا ، ويعرف بابن نجية الفقيه الحنبلى ، توفى سنة ٥٩٩هـ . انظر : الشذرات ، ج٤ ، ص٣٤٠ - ص٣٤١ ؛ النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص١٨٣ .

لأنه بعد صلاة الجمعة جلس على كرسى للوعظ بإذن السلطان ، فوعظ الناس وكان وقتاً مشهوداً ، واستمر القاضى محيى الدين بن زكى الدين يخطب بالناس فى أيام الجمع أربع جمع ، ثم قرر السلطان للقدس خطيباً مستقراً . وأمر الفقيه ضياء الدين عيسى الهكارى فعمل حول الصخرة شبابيك من حديد ، ورتب لها إماماً وراتباً ، ووقف عليه رزقاً جيداً ، وكذلك على إمام محراب الأقصى . وعمل للشافعية المدرسة الصلاحية[1] ، ويقال لها الناصرية أيضاً ، وكان موضعها كنيسة حنة[2] أم مريم عليها السلام ، ووقف على الصوفية رباطاً كان دار البترك إلى جانب القمامة ، وأجرى على الفقهاء والفقراء الجامكيات والجرايات . وأرصد الختم والربعات فى أرجاء المسجد الأقصى ، لمن يقرأ أو ينظر فيها من المقيمين والزائرين . وتنافس بنو أيوب فيما يفعلونه من الخيرات بالقدس الشريف للقادمين والظاعنين والقاطنين ، وعزم السلطان على هدم قمامة ، وجعلها دكاً لتنحسم مادة النصارى عن بيت المقدس ، فقيل له : إن هؤلاء لايتركون الحج إلى هذه البقعة ولو تركتها قاعاً صفصفاً ، وقد فتح أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه القدس وترك القمامة على حالها . فتركها صلاح الدين أيضاً تأسياً بأمير المؤمنين ، أحد الخلفاء الراشدين ، ولم يترك بها من النصارى سوى أربعة أنفس يخدمونها ، وحال بين النصارى وبينها ، وهدم المقابر التى كانت لهم عند باب الرحمة[3] وعَفّى آثارها ، وهدم ما كان هناك من القباب وعجل دمارها[4] .

ومن ذلك أن السلطان أمر للعماد الكاتب أن يكتب كتاباً إلى بغداد بالفتح ، وكان القاضى الفاضل بدمشق مريضاً لم يحضر هذا الفتح ، فكتب فى أوله : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ

---

(١) المدرسة الصلاحية (الناصرية) : تقع بالقرب من البيمارستان النورى ، بناها نور الدين محمود بن زنكى ، ونسبت إلى الملك صلاح الدين ، فاتح بيت المقدس فى سنة ٥٦٩هـ . انظر : الدارس ، جـ١ ، ص٣٣١ .

(٢) كنيسة صند حنة : هذه الكنيسة يقال : إن فيها قبر حنا أم مريم عليها السلام ، وقد صارت مدرسة أقامها صلاح الدين . انظر : المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص٨٣ ، ويبدو أن كلمة صند هى تحريف للكلمة الفرنسيةSaint بمعنى قديسة ، انظر : الفتح القسى ، ص١٤٥ ، حاشية ٣ .

(٣) باب الرحمة : أحد أبواب المسجد الأقصى التى يدخل الناس منها وعددها عشرون باباً . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٥٩٨ ، [انظر المقدس] .

(٤) نقل العينى هذا النص بتصرف من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٤٧ ــ ص٣٤٨ ، الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٣٤٥ ــ ص٣٤٦ .

آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ﴾[١] إلى قوله : ﴿ مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا ﴾[٢] الحمد لله الذى أنجز لعباده الصالحين وعد الاستخلاف ، وقهر بأهل التوحيد أهل الشرك والخلاف ، وخص سلطان الديوان العزيز بهذه الخلافة ، وبدل الأمن به من المخافة ، وادخر هذا الفتح الأسنى والنصر الأهنى لخادم المقام النبوى ، ومنحه أخلص أوليائه وأخص أصفيائه بعد أن انقرض من الملوك الماضية والقرون الخالية على حسرة تمنيه وفوات ترجيه ، وتقاصرت عنه الهمم وتخاذلت عنه ملوك الأمم . فلله الحمد الذى حقق بفتحه ما كان فى النفس ، وبدل وحشة الكفر فيه [٤٥] من الإسلام بالأنس ، وجعل عز يومه ماحياً ذل أمسه ، وأسكنه العالم والفقيه ، بعد البطرك والقس وعباد الصليب والشمس ، وأخرج أهل يوم الجمعة من أهل يوم الأحد ، وقمع من كان يقول بالتثليث أهل قل هو الله أحد . وقد فتح الخادم بأمر الله من الداروم إلى طرابلس ، وجميع ما حوت مملكة الفرنج إلى نابلس ، وغسلت الصخرة بدموع الباكين من المؤمنين ، ونزع لباس البأس عنها بإفاضة ثواب المحسنين ، ورجع الإسلام الغريب منه إلى داره ، وطلع قمر الهدى من سراره ، وعادت الأرض المقدسة إلى ما كانت عليه من التقديس ، وأمنت المخاوف بها وفيها فصارت صباح السُّرَى ومناخ التعريس[٣] ، وأقصى عن المسجد الأقصى الأقصون من الله الأبعدون ، وتوافد إليه المصطفون المقربون ، وخرس الناقوس برحيل المسيحيين ، وخرج المفسدون بدخول المصلحين ، وقال المحراب لأهله : مرحباً وأهلاً ، وشمل جماعة المسلمين ما جمع الله لهم فيه شملاً ، ورفعت الأعلام الإسلامية على منبره ، فأخذت من بِرِّه أوفى نصيب ، وتلت بألسنة عربها (نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ)[٤] ، وغسلت الصخرة بدموع المتقين من دنس الكافرين ، وبَعُد أهل الإلحاد من قربها بقرب الموحدين ، وذكر بها ما نسى من عهد المعراج النبوى والإعجاز المحمدى ، وعاد الإسلام بإسلام البيت المقدس إلى تقديسه ، ورجع ببنائه من التقوى إلى تأسيسه ، وذكر العماد فصولاً فى هذا المعنى[٥] .

(١) سورة النور . آية رقم٥٥ .
(٢) سورة النور ، آية رقم٥٥ .
(٣) «العريس» كذا فى الأصل ، والمثبت من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٥٥ ؛ الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٣٢٤ .
(٤) سورة الصف ، آية ١٣ .
(٥) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٥٥ - ص٢٥٦ .

نكتة غريبة

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة فى الروضتين[١] : وقد تكلم شيخنا أبو الحسن على بن محمد السخاوى فى تفسيره فقال : وقع فى تفسير أبى الحكم الأندلسى يعنى ابن بَرّجان ــ فى أول سورة الروم أخباراً عن فتح بيت المقدس وأنه يُنزع من أيدى النصارى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة . قال السخاوىّ : ولم أره أخذ ذلك من علم الحروف ، وإنما أخذه فيما زعم من قوله [تعالى][٢] : ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ ۝٢ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ۝٣ فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾[٣] فبنى الأمر على التاريخ كما يفعله المنجمون ، ثم ذكر أنهم يُغلبون فى سنة كذا ، ويَغلبون فى سنة كذا على ما تقتضيه دوائر التقدير ، ثم قال : وهذه نجابة وافقت إصابة إن صح أنه قال قبل وقوعه وكان فى كتابه قبل حدوثه . قال : وليس هذا من قبيل علم الحروف ولا من باب الكرامات لأنها لا تنال بحساب . قال : وقد ذكر فى تفسير سورة القدر إنه لو علم الوقت الذى نزل فيه القرآن لعلم الوقت الذى يرفع فيه[٤] .

ذكر رحيل السلطان من القدس طالباً صُور

لما قرر السلطان صلاح الدين أمور القدس الشريف ، انفصل عنه فى الخامس والعشرين من شعبان ، وسار حتى أتى على عكا ثم سار منها إلى صُور ، وكانت قد تأخرت[٤٦] من بين تلك النواحى ، وقد استحوذ عليها من بعد وقعة حطين رجل من التجار يقال مركيس ، فحصنها وضبط أمرها وحفر حولها خندقاً من البحر إلى البحر ، وجاء السلطان بجيشه فحاصرها مدةً واستدعى بالأسطول من الديار المصرية فى البحر فاحتاط بها براً وبحراً ، فعدت الإفرنج فى بعض الليالى على خمس شوانى من الأسطول ، فملكتها ، فأصبح المسلمون واجمين ، وقد دخل البرد ، وقلّت الأزواد ، وكثرت الجراحات ، وكَلَّ الأمراء من الحصارات ، فسألوا من السلطان أن ينصرف بهم إلى

(١) نقل العينى هذا النص حرفيًا من ابن كثير ، عن أبى شامة على الرغم من أنه لم يذكر ابن كثير ، يؤكد هذا أن ابن كثير هو الذى ذكر عبارة «نكتة غريبة» ولم ترد فى الروضتين . انظر : البداية والنهايه ، ج١٢ ، ص٣٤٧ ـ ص٣٤٨ ؛ الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٣٥٧ – ص٣٥٨ .
(٢) ما بين الحاصرتين مثبت من الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٣٥٨ .
(٣) سورة الروم ، آية رقم ١–٤ .
(٤) ورد هذا النص بتصرف فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٤٧ـ ص٣٤٨ .

دمشق فى هذا الوقت ، حتى يستريحوا ثم يغدوا إليها بعد هذا الحين ، فأجابهم على تمنع منه ، وذلك أن السُور من الصور كان قد هدم أكثره ، ولم يبق إلا الفرج والنجح ، فتوجه إلى دمشق[١] .

وفى المرآة[٢] : وفى شعبان سار السلطان إلى صور فوصلها غرة رمضان فوجدها مدينة حصينة ، وهى فى البحر مثل السفينة ، والبحر المحيط بها من جوانبها ، وليس لها طريق فى البر إلا من مكان واحد فيه سبعة أبراج ، وبها المركيس وكان شجاعاً حازماً ، وقد انضم إليه جميع من كان بالقدس والساحل من الفرنج[٣] .

وفى النوادر[٤] : قدم الملك الظاهر غازى ابن السلطان صلاح الدين صاحب حلب على أبيه ، وهو على صور ، فى الثامن عشر من شهر رمضان ، وسرّ بوصوله إليه سروراً عظيماً ، وكان قد تركه بحلب ليسدّ ذلك الجانب لاشتغاله هو بأمر الساحل ، وكان السلطان خلّف أخاه العادل فى القدس ؛ لتقرير قواعده ، فاستدعاه ، فوصل إليه فى خامس شوال . وسيرَ من حاصر هُونين[٥] ، فسلمت بأمان فى الثالث والعشرين من شوال ، وكان السلطان قد قدّم على الأصطول إنساناً يقال له الفارس بدران ، وكان ناهضاً جلداً فى البحر . وكان ريس البحريين يقال له : عبدالمحسن ، وكان قد أكد الوصية فى أخذ الحذر منهم ، فغفلوا عن أنفسهم فى الليل ، فخرج أصطول الكفار من صُور فكبسهم وأخذ المقدمين ، وأخذوا منهم خمس قطع وقتلوا خلقاً كثيراً من الأصطول الإسلامى ، وذلك فى السابع والعشرين من شوال ، فلما علم السلطان ما تم على المسلمين ضاق صدره وأشار بالرحيل ، ليأخذ العسكر جزءاً من الراحة ويستعدوا لهذا الأمر استعداداً جديداً ، فرحل عنها بعد أن رمى المنجنيقات وسيرها وأحرق ما لا يمكن نقله ، وكان رحيله يوم الأحد ثانى ذى القعدة ، ففرّق العساكر وأعطاهم دستوراً ، وسار كل قوم إلى بلادهم ، وأقام هو مع جماعة من خواصه بعكا حتى دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة[٦] .

---

(١) ورد هذا النص بتصرف فى الفتح القسى ، ص١٥٣ - ص١٥٩ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص١٥٩ - ص١٦٠ .
(٢) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٥٦ .
(٣) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٥٦ ؛ زبدة الحلب ، ج٣ ، ص١٠٠ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٤٩ .
(٤) النوادر السلطانية ، ص٨٣ .
(٥) فى الأصل «هورين» والتصحيح من النوادر السلطانية ، ص٨٣ ؛ زبدة الحلب ، ج٣ ، ص١٠١ ؛ الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٣٧٦ . وهُونين : بلد فى جبال عاملة تطل على نواحى مصر . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٩٩٦ .
(٦) نقل العينى هذا النص بتصرف من النوادر السلطانية ، ص٨٣ - ٨٤ .

وقال ابن كثير[١] : ولما وصل السلطان إلى عكا نزل بقلعتها ، وأسكن ولده الأفضل برج الداوية ، وولى نيابتها عز الدين جرديك ، وقد أشار بعضهم على السلطان بتخريب عكا ؛ خوفاً من عود الفرنج إليها ، فكاد أن يفعل ولم يفعل ، فليته فعل ، بل وكل بعمارتها وتجديد محاسنها بهاء الدين قراقوش التقوى ، ووقف دار الإستبار نصفين على الفقراء والفقهاء ، [٤٧] وجعل دار الأسقف مارستانا ، ووقف على ذلك كله أوقافاً دارّة ، وولى نظر ذلك لقاضيها جمال الدين ابن الشيخ أبى النجيب ، وعاد إلى دمشق مؤيداً منصوراً رحمه الله[٢] .

ذكر ما جرى بعد دخول السلطان دمشق

ولما انفصل السلطان عن عكا وتوجه إلى دمشق ، جاءته رسل الملوك بالتهانى من سائر الأقطار والأمصار بالتحف والهدايا[٣] .

وفى المرآة[٤] : ووصل إلى السلطان من بغداد تاج الدين أبو بكر أخو العماد الكاتب ، فالتقاه السلطان وأكرمه ، وكان معه رسالة تذكرة ، مشحونة بالعتاب على أسباب منها : أن الخليفة عتبه لأجل ابن البوشنجى ويلقب بالرشيد ، وكان صبياً لا يؤبه إليه ، فخرج إلى الشام واتصل بصلاح الدين ، وقيل له : هذا من بيت كبير[٥] ، وكان أديباً فأعجب السلطان ، فسأله أن يبعثه إلى بغداد فى رسالة ، فبعثه ، فشق على الخليفة وقال : ما كان عنده غير هذا ، وقصر فى حقه . فلما عاد إلى السلطان تكلم بكلمات وقال : ما التفت علىّ .

ومنها أن كل من هرب من بغداد ولجأ إلى السلطان يقبل عليه مثل : ميرك ، وابن رئيس الرؤساء ، وابن هبيرة ، وابن أبى النجيب ، وأمثالهم .

---

(١) البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٤٩ .

(٢) البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٤٩ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٣٧٦ ـ ص٣٧٧ .

(٣) لمعرفة المزيد من التفاصيل انظر : الفتح القسى ، ص١٨١ ـ ص١٨٢ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٤٩ ؛ الروضتين ، ج٢ ق١ ، ص٣٧٨ .

(٤) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٥٦ .

(٥) إلى هنا توقف العينى عن النقل من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٥٦ ، وقد وجد تعليق فى نسخة شيكاغو المطبوعة سنة ١٩٠٧ أن هناك «سقط» سنتين . انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٥٦ ؛ كذلك وجد هذا «السقط» فى نسخة حيدر أباد المطبوعة ١٣٧٠هـ/١٩٥١ ، الطبعة الأولى ، ج٨ ، ص٤٠٠ . ومن الملاحظ أن العماد الأصفهانى ذكر سبب سفارة أخيه إلى السلطان بالتفصيل . انظر : الفتح القسى ، ص١٨٣ - ص١٨٩ .

ومنها مشاركته فى لقب الخليفة بالناصر ، وأشياء من هذا الجنس ، ثم قال فى آخره : «يمنّ علينا بفتح القدس ، وهل فتحها إلا بعساكر الديوان وتحت راياته!» . فاستشاط السلطان غضباً ، وقد كان يرجو أن يأتيه كتاب الخليفة يشكره على ما فعل . ثم قال السلطان لأخى العماد : أما ابن البوشنجى فمن عندكم جاء ، وقيل لى : إنه من بيت كبير . وصحبنى وسألنى إنفاذه إلى بغداد ليمَّن على أهله ويتجمل بكم ، فما أمكننى رد سؤاله ، وأما الذين التجؤا إلىَّ من أرباب البيوت فإن الإنسان قد يلتجىء إلى كوخ عجوز فى البرية فتجيره من القتل ، فأنا فعلت فعل العرب ، وحفظت الذمام ، وعرفت حق من قصدنى ولجأ إلى ، وصنتهم أيضاً عن ألسن الناس ، فيصير ذلك عاراً عليكم . وأما مشاركتى فى اللقب فوالله إننى ما اخترته ولا اقترحته ، ولكن لما أَزلتُ دولة عدوّه القائمة من مائتى سنة[1] ويسير ، وفعلت ما فعلت ، لقبنى المستضىء بهذا اللقب ، وكتبَ من بغداد إلى نور الدين بذلك ، ولم يكن فى زمانكم ، ثم لو وقع هذا ففى عسكرى عشرة آلاف تركمانى وكردى لقب كل واحد صلاح الدين ، فلمَ لا أُنكر عليه . وأما قوله : إننى فتحت القدسَ تحت راياته وعسكره ، فأين راياته وعسكره! والله ما فتحته إلا بعساكرى وتحت راياتى . وأرعد السلطانُ وأبرق ، وتأكدت الوحشة بَينه وبين الخليفة باطناً ، وأمسك السلطان نفسه ظاهراً ، فكتب كتاباً إلى الخليفة يقول فيه : المحاققة توجب المفارقة ، وإغلاق هذا الباب خير من فتحه ، واندمال هذا الجرح خير وأولى من اتساعه وخرقه .

وقال السبط : وقد ذكر محمد بن القادسى قصة ابن البوشنجى فقال : كان [٤٨] أمرد فى دروب بغداد ، فطلعت لحيته فخرج إلى الشام ، فخدم يوسف بن أيوب ، وسأله أن يرسله إلى الديوان فى رسالة فأرسله ، فقامت القيامة على الديوان ، فلما عاد ابن البوشنجى إلى الشام أكثر كلامه ، فما مضى إلا أسبوع حتى جاءته نشابة فذبحته ، وكان ذلك عقوبة لما بسط به لسانه . قلت : وهذه من هنات ابن القادسىّ ، فإنه كان عامياً يتعمد المثالب ، وقد أساء الأدبَ فى مواضع منها قوله : كان أمرد فى دروب بغداد .

ومنها قوله على السلطان يوسف بن أيوب ، وما ذكره ببعض ألقابه .

---

(١) من المعروف أن الدولة الفاطمية قامت فى بلاد المغرب فى ذى الحجة سنة تسع وتسعين ومائتين ٢٩٩هـ ، وقد استمر مقامهم بمصر مائتى سنة وثمانى سنين . انظر : الباهر ، ص١٥٧ ؛ وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٥٨ .

ومنها قوله : جاءته نشابة فذبحته . جعل الشهادة فى سبيل الله عقوبة . وهذه الواقعة كانت فى هذه السنة . وابن البوشنجى استشهد فى سنة ست وثمانين وخمسمائة بعد أخذ الفرنج عكا من السلطان . ومن العجائب فى هذه الواقعة أننى اجتمعت بشيخ دار الحديث المظفريّة بالموصل فى سنة خمس وستمائة ، وجرت مذاكرة فى غزوات صلاح الدين ، فقال : حضرت معه فى مرج عكا والفرنج قد أخذوا عكا ، فبينما أنا قاعد فى سوق العسكر وإذا شابٌ من أحسن الشباب قد جلس إلى جانبى ، فذاكرته فوجدته فاضلاً فصيحاً من أهل بغداد من بيت البوشنجى ، قلت : فما اللقب؟ قال : يَقْبح بى أن ألقب نفسى ، فأقسمت عليه فقال : يقال : الرشيد . فقلت : وما الذى جاء بك إلى هاهنا؟ فقال : سمعت أن السلطان يعرف أقدار أولاد الناس ويحسن إليهم ، ورغبت أيضاً فى الشهادة ، فأتيت إليه فأحسن إلىَّ وأكرمنى وأعطانى ، ثم قال : أخاف أن تنقضى هذه الغزوات وما تحصل لى شهادة ، فأسأل الله تعالى أن يرزقنى الشهادة ، فقد تاقت نفسى إليها . قال : فدعوت الله أن يختار له ما فيه الخيرة ، ثم قلت : يا سيّدى أنشدنى شيئاً من شعرك ، فقال : نعم . وأنشد هذه الأبيات :

قِفوا فاسألوا عن حال قلبى وضَعْفِه ... فقد زاده الشوق الأسى فوق ضعفه
وقولوا لمن أجرى الشِفاءَ بوَصله ... مريضك قد أشفى على الموت فاشْفِه
أخو سقم أجفاه إخفاؤه الهوى ... نحولا ومَن يُخفِى المحبّةَ تُجفِه
وما شغفى بالدار إلاّ لأهلها ... وما جزعى بالجزع إلا لخشفه
يَعِزُّ على قلبى المقام بذِى النقا ... إذا لم يقم ذاك الغزالُ بحقْفِه
وما أمّ رِيم أشفقت منه فالتجت ... إلى شامخ نادر من نحو كهفه
تَغارُ عليه من نسيم ومَرّة ... وتُشْفِقُ من إيماض برقٍ وخطفِه
بأوجع منى قوم بَانوا ورُبّما ... يوجع يومَ البَين إلفٌ لإلفِه

ثم قام من عندى باكياً وقصد الفرنج فاستشهد ، رحمه الله تعالى .

ذكرُ بَقِية الحَوادِث

منها إنه كانت وقعة عظيمة ببلاد الهند بين الملك شهاب الدين الغورى[1] صاحب [٤٩] غَزْنَة[2] ، وبين ملك الهند الكبير واسمُه كَولَة[3] وكان شجاعاً شهماً ، فاقتتلوا والهند فى عدد كثير ، وكان معهم أربعة عشر فيلاً ، فانهزمت ميمنة المسلمين ومَيسرتهم ، فقيل للملك : انج بنفسك . فما زاده إلا إقداماً ، فحمل على الفِيلة فجرح بعضها ، وجرح الفيل لا يندمل ، فرماه بعض الفيّالة بحربة فى ساعده ، فخرجت من الجانب الآخر ، فخرّ صريعاً ، فحملت الهنود عليه ليأخذوه ، فجاحف عنه أصحابه ليَحموه ، فجرت عنده حرب لم يسمع بشدتها فى حَرْب ، فغلب المسلمون فخلّصوا ملكهم ، واحتملوه على كواهلهم فى محفّة عشرين فرسخاً[4] ، وقد نزف الدم ، فلما تراجع إليه جيشه ، أخذ فى تأنيب الأمراء ، وحلف ليأكلن كل أمير عليقة فرسه ، وما أدخلهم غزنة إلا حُفَاة مُشَاةً[5] .

وفى تاريخ بيبرس : وفى هذه السنة سارَ شهاب الدين الغُورى ملك غزنة إلى بلاد الهند ، وقصد ولاية السوالك[6] ، واسم ملكهم كَولة ، فلما دخل المسلمون بلاده ملكوا مدينة تَبْرنده ، وَسَرستى[7] وكوُه رام ، فلما سمع ملكهم جمع العساكر وسار إلى المسلمين ، فالتقوا وقامت الحرب على ساق ، ثم ذكر مثل ما ذكرنا ، إلى أن قال : فلما وصل إلى لَهَاوُور[8] أخذ الأمراء الغُوريةَ وحَمَّلَهم الشعير على ظهورهم ؛ نكالاً بما تخاذلوا وانهزموا ، وقال لهم : ما أنتم أمراء ، بل أنتم حمير ، وأقام بها ليستريح الناس[9] .

---

(١) الملك شهاب الدين الغورى : هو محمد غورى بن سام بن حسين . ت سنة٦٠٢هـ . انظر أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ، ص٥٩٤ – ٥٩٧ . القاهرة ١٩٦٩م .

(٢) غَزْنَة : مدينة عظيمة وولاية واسعة فى طرف خراسان وهى الحد بين خراسان والهند . معجم البلدان ، ج٣ ، ص٧٩٨ .

(٣) كولة توفى سنة ٥٨٨هـ ، انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص٢٢٢ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٧٤ .

(٤) فى الكامل «أربعة وعشرين» فرسخًا . ج١٠ ، ص١٦٤ ، والفرسخ ثلاثة أميال والميل أربعة آلاف ذراع . معجم البلدان ، ج١ ، ص٣٨ .

(٥) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٤٩ ـ ص٣٥٠ ؛ الكامل ، ج١٠ ، أحداث ٥٨٣هـ ، ص١٦٤ ـ ٢٣٠ ؛ وفى أحداث سنة ٥٨٨هـ ، ص٢٢١ – ٢٢٢ .

(٦) ذكر ابن الأثير أن السوالك هى بلاد أجمير وبالبحث فى المصادر التى بين أيدينا لم نعثر لها على تعريف . انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص١٦٤ . وأجمير : مدينة فى إقليم راجبوتانا فى شمال غربى الهند . راجع موقعها فى إطلس تاريخ الإسلام ، ط . الزهراء للإعلام العربى ، الخرائط ١١١ ، ١٢١ ، ١٢٢ .

(٧) فى الأصل «سرشتى» والتصحيح من ابن بطوطة الرحلة : ص٢٨٥ . وسرسَتى : مدينة كبيرة بالهند كثيرة الأرز وأرزها طيب ، ومنها يُحمل إلى حضرة دهلى ، ولها مجبى كثير جدًا . ابن بطوطة : الرحلة ، تحقيق طلال حرب ، ص٢٨٥ ، طبعة دار الكتب العلمية – بيروت ١٩٨٧م .

(٨ لَهاوُور : مدينة كبيرة من بلاد الهند كثيرة الخيرات ، ويقال لها أيضًا «لَوْهُور» . تقويم البلدان ، ص٣٥٨ ، ص٣٥٩ .

(٩) ورد هذا النص بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٦٤ .

ومنها أنه قوى أمر السلطان طغرل بن أرسلان شاه بن طغرل بك ابن السلطان محمد ابن السلطان ملكشاه ابن السلطان ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق ، وكثر جمعُه ومَلك كثيراً من البلاد ، وأرسل قزل أرسلان بن إلدِكز إلى الخليفة يستنجده ويخوفه من طغرل ، ويبذل من نفسه الطاعة والتصرف على ما يختار الخليفة ، وأرسل طغرل رسولاً إلى بغداديقول : أريد أن يتقدم الديوان بعمارة دار السلطان لأسكنها إذا نزلت . فأكرم الإمام الناصر رسول قزل أرسلان ، ووعده بالنجدة ، ورَدّ رسول طغرل بغير جواب وأمر بنقض دار السلطنة ، فهدمت إلى الأرض وعُفِىّ أثرها . وفى المرآة[١] : وفيها أخرب الخليفة دار السلطنة ببغداد التى عمرّها الديالمة والسلجوقية ، وإنما قصد قطع الأطماع عنها .

ومنها أنه وصل يعقوب بن يوسف صاحب الغرب إلى مدينة تُونُسَ فى العسكر الذى انتخبه ، فأرسل ستة آلاف فارس مع ابن أخيه[٢] إلى علىّ بن إسحق الملثم ؛ ليقاتله ، وكان بقَفصة ، فساروا إليه فوافوه ومعهم المُوحّدون وهو فى جماعة من الترك ، فلما التقوا انهزم الموحدون وقتل جماعة من مقدّميهم ، فلما سمع يعقوب الخبر أقام بمدينة تونس إلى نصف رجب ، ثم خرج فيمن معه من العساكر يطلب الملثم والأتراك ، فوصل إليهم ، فالتقوا بالقرب [من مدينة[٣]] قابس ، فاقتتلوا [٥٠] فانهزم الملثم ومن معه ، وأكثر الموحدون فيهم القتل حتى كادوا يفنونهم ، فلم ينج منهم إلا القليل ، فقصدوا البرّ . ورجع يعقوب من يومه إلى قابس ففتحها ، وأخذ أهل قراقوش وأولاده وحملهم إلى مدينة مراكش ، وتوجه إلى مدينة قفصة ، فحصرها ثلاثة أشهر ، وقطع أشجارها ، وخرّب ما حولها ، فسير إليه الترك الذين فيها يطلبون الأمان لأنفسهم ولأهل البلد ، فأجابهم إلى ذلك وأخرجهم منها سالمين ، وسيرهم إلى الثغور لما رأى من شجاعتهم[٤] ونكايتهم فى العدو ، وتسلم البلد وقتل من فيه من الملثمين ، وهدم أسوارَه . وظهر ما أنذر به المهدى بن تومرت ، فإنه قال : إنها تخرب أسوارُها ، وتقطع أشجارها .

(١) ضمن السنتين الساقطتين من المتن .
(٢) ورد هذا النص بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٣٧ ، أحداث ٥٨١هـ .
(٣) «بمدينة» كذا فى الأصل . والمثبت من الكامل ، ج١٠ ، ص١٣٧ .
(٤) ورد هذا النص فى الكامل ضمن أحداث سنة ٥٨١هـ ، ج١٠ ، ص١٣٦ - ص١٣٨ ، كما ورد هذا النص بتصرف فى نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص٣٧٢ .

فلما فرغ يعقوب من أمر قفصة ، واستقامت إفريقية ، عادوا إلى مراكش ، فكان وصوله إليها فى سنة أربع وثمانين وخمسمائة[١] .

ومنها أنه وقعت فتنة بعرفات يوم عرفة ، وقتل شمس الدين محمد بن المقدم ، أحد أكابر الأمراء الصلاحية ، فإنه لما فتح القدس طلب دستوراً[٢] ليحج ويُحرم من القدس ، ويجمع فى سنة بين الجهاد والحج وزيارة الخليل والنبى صلى الله عليهما وسلم ، فأذن له . وكان قد اجتمع فى تلك السنة حاج عظيم بالشام ، فأراد المذكور الرحيل قبل أمير الحاج العراقى ، فضرب كؤساته[٣] قبله ، فسير له ينهاه عن الرحيل قبله ، وكان أمير الركب العراقىّ طاشتكين[٤] ، فقال له : أنت ليس لك تعلّق معى ، أنت أمير الحاج العراقى ، وأنا أمير الحاج الشامى ، وكل منّا يفعل ما يراه . وسار ولم يقف ولم يسمع قوله ، فركب طاشتكين فى أصحابه ، وتبعه من غوغاء الحاج العراقىّ خلق كثير ، فلما قربوا منهم خرج الأمر عن الضبط وعجزوا عن تلافيه ، فهجم العراقيون على الشاميين وفتكوا بهم ونهبوا أموالهم ، وخرج ابن المقدم ليكف أصحابه عن القتال ، ولو أذن لهم لانتصف منهم ، لكنه راقب الله تعالى ، فجرح وأثخن بالجراحة ، فأخذه طاشتكين إلى خيمته ليمرّضه ويَسْتدركَ الفارط ، وسار من ليلته ، فلما كان الغد مات بمنى ودفن بمقبرة المعلى[٥] .

ومنها أن امرأة من سواد بغداد ولدت بنتاً لها أسنان[٦] .

ومنها أن الخليفة الناصر قتل أستاداره مجد الدين أبا الفضل بن الصاحب ، ولم يكن للخليفة معه حكم ، وظهرت له أموال عظيمة فأخذ جميعها ، واستوزر الخليفة أبا المظفر[٧] عبيدالله بن يونس ولقبه جلال الدين ، ومشى أرباب الدولة فى ركابه حتى

---

(١) الكامل ، ج١٠ ، ص١٣٨ .
(٢) يقصد بالدستور الإذن . انظر Dozy: Supp. Dict. Ar.
(٣) الكوسات : مفردها كوسة . وهى صنجة من نحاس تشبه الترس الصغير يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص ، والكوسى هو الذى يضرب بالكوسات . القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٩ ، ص١٣ .
(٤) هو مجير الدين طاشتكين . الكامل ، ج١٠ ، ص١٦٢– ص١٦٣ ؛ الروضتين ، ج٢ق١ ، ص٣٨٦ ـ ص٣٨٧ .
(٥) المعلى (المعلاة) موضع بين مكة وبدر . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٥٧٧ .
(٦) البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٥٠ .
(٧) «المطهر» فى الأصل . والمثبت من زامباور : معجم الأسرات الحاكمة ، ج١ ، ص١٠ .

قاضى القضاة[1] ، وكان ابن يونس من جهلة الناس ، وكان يمشى ويقول : لعن الله طول العمر[2] .

وفيها مدح العماد الكاتب السلطان صلاح الدين ، وذكر فتحه القدس بقصيدة ، أولها قوله :

أطيب بأنفاس تطيب لكم نفساً ... وتعتاض من ذكراكُمُ وَحْشتى أُنساً
وأسأل عنكم عافيات دَوارسَا ... غدت بلسانِ الحال ناطقةً خَرسَا [٥١]
أرى حدثان الدهر ينسى حديثُه ... وأما حديثُ الغَدْر منكم فلا يُنْسَا
تزول الجبال الراسيات وثابتٌ ... رَسيسُ غرامٍ فى فؤادى لكم أَرْسا
بكيت على مستودعات قلوبكم ... كما قد بكتْ قدماً على صَخْرِها الخنسا

ومنها :

فلا تحبسوا عنى الجميل فإننى ... جعلت على حُبِّى لكم مُهْجتى حَبَسا
رأيت صلاح الدين أشرفَ مَنْ غدا ... وأفضل مَنْ أضحى وأكرم من أمسا[3]
سجيته الحُسنى وشيمته الرِضى ... وبَطشتُه الكُبرى وعزته[4] القعسا

ومنها :

جنودُك أملاكُ السماء تَظنُّهم ... عُداتك جِنّ الأرض فى القتل لا الإنْسا

ومنها :

ولا يَستحق القُدس غيرُك فى الوَرى ... فأنت الذى منْ دونهم فتح القُدسا
ومن قبل فتح القدس كنت مقدساً ... فلا عدمت أَخلاقك الطهرَ والقدسا
وطهّرته من رجسهم بدمائهم ... فأذهبتَ بالرجس الذى ذهب الرجسا

---

(١) قاضى القضاة : على بن أحمد بن على بن محمد أبو الحسن بن الدامغانى الحنفى ، قاضى القضاة ببغداد ، ولد سنة ٥١٣هـ ، توفى سنة ٥٨٣هـ . ابن العماد : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٧٦ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٥١ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص١٠٤ــ ص١٠٥ .
(٢) انظر أبو الفداء : المختصر ، ج٣ ، ص٧٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٥٠ .
(٣) تقديم وتأخير فى كلمتى «أشرف ، وأفضل» انظر : الروضتين ، ج٢ ، ص١٠١ طبعة وادى النيل ١٢٨٧هـ .
(٤) «عزمته» فى الروضتين ، ج٢ ، ص١٠١ .

وعـــادَت ببَـــيتِ الله أحكامُ دينه فـلا بَطركـا أبقَيْتَ فيـه ولا قَسّـا
فَـدمِّرْ على البـاقين واجتثّ أصلهم فـإنك قـد صـيّرت دينارَهـم فلسـا
وبعـد الفـرنج الكُرجَ[1] فاقـصِد بلادَهم بعَـزمِك وامْـلأ من دمـائهم الرسَّـا

وفيها : ....[2]

وفيها حج بالناس من العراق طاشتكين ، وكان أمير الركب الشامى شمس الدين محمد ابن المقدّم ، وقُتل كما ذكرناه مفصلا ، وكان فى الحاج[3] القاضى بهاء الدين بن شدّاد ، ولما عاد اتصل بخدمة السلطان صلاح الدين .

ذكرُ مَن تُوفِى فيها منَ الأَعْيان

الشيخ عبد المغيث[4] بن زهير الحَرْبى ، كان من صلحاء الحنابلة ، وكان يُزار ، وله مصنف فى فضل يزيد بن معاوية أتى فيه بعجائب وغرائب ، وقد ردّ عليه ابن الجوزى فى هذا الكتاب ، فأصاب وأجاد ، ومن أحسن ما اتفق لعبد المغيث هذا أن بعض الخلفاء وأظنه الناصر[5] جاءه للزيارة مختفياً ، فعرفه الشيخ ولم يُعلمه أنه قد عرفه ، فسأله الخليفة عن يَزيد أيُلعَنُ أم لا؟ فقال : لا أُسوِّغ لعنته ؛ لأنى لو فتحت هذا الباب لَلَعن الناسُ خليفتنا ، قال : ولم؟ قال : لأنه يفعل أشياء منكرة منها كذا وكذا ، ثم شرع يعدّ على الخليفة ما يقع منه من المنكرات لينزجر عنها ، فتركه الخليفة وخرج من عنده ، وقد أثّر كلامه له ، ثم كانت وفاته فى المحرم من هذه السنة[6] .

الشيخ على بن خطاب بن طغر ، الناسك ، أحد الزهاد ذوى الكرامات ، وكان مقامه بجزيرة ابن عمر[7] . قال ابن الأثير[8] : لم أر مثله فى حسن[٥٢] خلقه وسمته وكرمه وعبادته .

---

(١) «الكرك» كذا فى الروضتين ، ج٢ ، ص١٠٢ .
(٢) فراغ بمقدار سطر فى الأصل .
(٣) ذكر ابن شداد أنه حج فى هذه السنة ، انظر : النوادر السلطانية ، ص٨٥ .
(٤) انظر ترجمته فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٥٠ ؛ الذهبى ، العبر فى خبر من غبر ، ج٤ ، ص٢٤٩ .
(٥) يقصد الخليفة الناصر لدين الله أحمد بن المستضىء بأمر الله ، المتوفى عام ٦٢٢هـ . وقد سبق التعريف به فى حاشية سابقة . انظر : السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص٤٤٨ - ٤٥٢ .
(٦) شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٧٥ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص١٦٥ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٥٠ ؛ النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص١٠٦ .
(٧) جزيرة ابن عمر : بلدة فوق الموصل ، بينهما ثلاثة أيام . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٧٩ .
(٨) نقل العينى هذا النص بتصرف من الكامل ، ج١٠ ، ص١٦٥ .

قاضى القُضَاة ببغداد أبو الحسن على[١] **بن أحمد بن على بن محمد الدامغانى الحنفى** ، كان عالماً فاضلاً صائناً كامل العقل عفيفاً نزِها جميل السيرة ، محمود الأفعال ، حسن المعرفة بالقضاء والأحكام ، كريم الأخلاق ، مهيباً ، وقوراً ، جميلاً . سمع الحديث من أبى القاسم هبة الله ، والأنماطى وغيرهما ، وحدّث باليسير ، وولى القضاء بربْع الكَرْخ[٢] بعد وفاة والده يوم الأحد منتصف جمادى الأولى سنة أربعين وخمسمائة ، ولم يزل على ذلك إلى أن تولى قضاء القضاة يوم الاثنين منتصف ذى الحجة سنة ثلاث وأربعين ، وخلع عليه بالديوان ، وشافهه الخليفة بالولاية عوضاً عن قاضى القضاة أبى القاسم على بن الحسن الزينبى بحكم وفاته ، وعمره إذ ذاك ثلاثون سنة ، فلم يزل على قضاء القضاة إلى أن عزله المستنجد يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من جمادى الأخرى سنة خمس وخمسين وخمسمائة . فكانت مدة ولايته إحدى عشرة سنة وستة أشهر ، فلزم بيته بنهر القلائين[٣] ، منعكفاً على الاشتغال بالعلم ، وكان يقول : أنا على ولايتى وكل القضاة نوابى ، لأن القاضى إذا لم يظهر فسقه لا يجوز عزله . ثم أعيد بولاية جديدة يوم الأحد لثلاث عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة سبعين وخمسمائة ، واستمر على ذلك إلى أن توفى عشية يوم السبت الثامن والعشرين من ذى القعدة سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وصلى عليه يوم الأحد بجامع القصر ، وحمل إلى مقبرة الشوينزِيَّة[٤] ، فدفن عند جده لأمّه أبى الفتح ، وكان مولده فى سنة ثلاث عشرة وخمسمائة[٥] .

---

(١) انظر ترجمته فى العبر فى خبر من غبر ، ج١٠ ، ص٢٤٩ .

(٢) ربع الكرخ : المقصود السوق الموجود بالكرخ . وهذه السوق قديمة حيث نقل أبو جعفر الأسواق من بغداد إلى باب الكرخ فى سنة ١٥٧هـ ، وقد أمر ببنائها من ماله على يدى الربيع مولاه . انظر تفصيل ذلك فى : الخطيب البغدادى ، تاريخ بغداد ، المجلد الأول ، ص٧٩ ؛ معجم البلدان ، ج٤ ، ص٢٥٤ - ٢٥٥ . والرَّبع - جمعها رِباع بكسر أوله وآخره عين مهمله .

(٣) نهرُ القَلائين : جمع قَلاَّء ، وهى محلة كبيرة ببغداد فى شرقى الكرخْ ، وفى غربيه الشونيزية ، وفى قبليه نهر طابق . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٨٤٣ ؛ الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ، ج١ ، ص٧٩ .

(٤) مقبرة الشُونيزية : وراء المحلة المعروفة بالتوثة بالقرب من نهر عيسى بن على الهاشمى ، وهى مقبرة الصالحية ببغداد . تاريخ بغداد ، المجلد الأول ، ص١٢٢ ؛ معجم البلدان ، ج٤ ، ص٨٤٣ .

(٥) راجع ترجمته فى شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٧٦ ؛ النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص١٠٤ - ١٠٥ .

الفقيه أبو الفتح نصر بن فتيان بن مطر الحنبلى المعروف بابن المَنِّى[١] ، كان زاهداً عالماً ، عابداً ، مولده سنة إحدى وخمسمائة ، وتوفى فى خامس رمضان منها . وممن تفقه عليه من المشاهير : الشيخ موفق الدين بن قدامة ، والحافظ عبدالغنى ، ومحمد بن خلف بن راجح ، والناصح عبدالرحمن بن النجم بن عبدالوهاب ، وعبدالقادر ابن الشيخ عبد القادر وغيرهم[٢] .

شيخ الفتيان ببغداد عبدالجبار بن صالح ، من أهل باب الأزج[٣] ، لبس منه الإمام الناصر سراويل الفتوة[٤] ، وكان شيخاً صالحاً يعمل فى البساتين ، وكانت له صومعة بباب كلواذا[٥] يَتعبّد فيها ، وحج فى هذه السنة ، وتوفى بمكة ، فدفن بالمعلى[٦] .

ابن نقطة[٧] **عبدالغنى بن أبى بكر بن شجاع الزاهد** ، كانت له زاوية ببغداد يأوى إليها الفقراء ، وكان ديّنا جواداً ، لم يكن ببغداد فى عصره مَن يقاومه فى التجريد ، كان يفتح عليه قبل غروب الشمس بألف دينار ، فيفرقها والفقراء صيام ، فلا يدخر لهم منها شيئاً ، ويقول : نحن لا نعمل بأجرة . يعنى لا نصوم وندخر ما نفطر عليه ، وكانت والدة[٨] الخليفة الناصر تحسن الظن به ، زوَّجته جارية من خواصها ، ونقلت معها جهازاً يُساوى عشرة آلاف دينار ، فما حال الحول وعنده منها سوى هاون[٩] ، فجاء فقير فوقف على الباب ، وقال : لى ثلاثة أيام ما أكلت شيئاً . فأخرج إليه الهاون وقال : لا تشنع على الله ،

---

(١) «المثنى» كذا فى الأصل ، والمثبت من وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٢٩٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٥١ .

(٢) شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٧٦ - ٢٧٧ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٥١ ؛ الذهبى : العبر ، ج٤ ، ص٢٥١ .

(٣) باب الأزج : محلة كبيرة ، ذات أسواق كثيرة ، ومحال كبار فى شرقى بغداد . معجم البلدان ، ج١ ، ٢٣٢ .

(٤) الفتوة : فى اللغة صفة الفتى ، واشتقت من الفتى ، ومن مظاهرها الشجاعة والصبر عند الأزمات ، وتغلب القوى الروحانية على الجسمانية ، ومن مظاهرها أيضًا الكرم والسخاء والمروءة . . . وقد ارتبطت فتوة القرن السادس الهجرى بالخليفة العباسى الناصر لدين الله الذى رأى أن العالم الإسلامى يحتاج إلى تجديد قوته لمقاومة الصليبيين ، ومن ثم أخذ الخليفة الناصر بمبدأ القوة واستقى فتوته من رئيس الفتيان فى عصره الشيخ عبدالجبار يوسف المذكور فى هذا النص . انظر : ابن المعمار البغدادى ، كتاب الفتوة ، ص٥ ، تحقيق مصطفى جواد ، طبعة ١٩٥٨ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٣٦ ؛ ابن خلدون ، كتاب العبر ، طبعة ١٩٧١ ، ج٣ ، ص٥٣٥ .

(٥) كلواذا : ناحية بالجانب الشرقى من بغداد ، ويقال : إنها سميت بذلك لأن الكلواذ هو تابوت تورية موسى عليه السلام ، وأنه مدفون فى هذا الموضع ، ولذلك سميت كلواذا . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣٠١ - ص٣٠٢ .

(٦) الذهبى : العبر ، ج٤ ، ص٢٤٩ .

(٧) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٣٩٢ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٧٨ - ٢٧٩ .

(٨) هى أم ولد تركية اسمها زمرد - انظر : السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص٤٤٨ .

(٩) الهاون : وعاء مجوف من الحديد أو النحاس يدق فيه . انظر : المعجم الوسيط .

كُلْ بهذا ثلاثين يوماً ، وكان له أخ يقال له : أبو منصور بن نقطة مُزَكلِشْ ينشد فى الأسواق ويُسحّر[٥٣] الناس فى رمضان ، فقيل له : ألا تستحى؟! أخوك زاهد العراق وأنت تُزكلش فى الأسواق . فقال مواليا :

قد خاب من شبه الجزعة إلى درة		وسَامَ قحبةً إلى مستحسنة حرّة

أنا مــغنى وخى زاهد إلى مَــرّة		فى الدار بيرين ذى حلوة وذى مُرة

وكانت وفاته يوم الثلاثاء الرابع من جمادى الآخرة ، ودفن بزاويته .

ابن التعاويذى[١] الشاعر ، أبو الفتح محمد بن عبيد الله بن عبد الله الكاتب المعروف بابْن التعاويذى ، الشاعر المشهور ، وكان أبوه مولى لابن[٢] المظفر واسمه نُشتكين[٣] ، فسمي والده عبيدالله ، وهو سبط أبى محمد المبارك بن المبارك بن على بن نصر السراج الجوهرى الملقب جمال الدين ، وإنما نسب إلى جده المذكور لأنه كفله صغيراً ، ونشأ فى حجره فنسب إليه .

وكان أبو الفتح[٤] المذكور شاعر وقته ، لم يكن فيه مثله ، جمع شعره بين جزالة الألفاظ وعذوبتها ، ورقة المعانى ودقتها ، وكان كاتباً بديوان المقاطعات[٥] ببغداد ، وعمى فى آخر عمره سنة تسع وسبعين ، وله فى عَماه أشعار كثيرة ، يرثى عينيه ، ويندب زمان شبابه وتصرفه ، وكان قد جمع ديوانه بنفسه قبل العمى ، وصنف كتاباً سماه «الحجبة والحجاب» وهو قليل الوجود . وكانت ولادته فى العاشر من رجب يوم الجمعة سنة تسع عشرة وخمسمائة ، وتوفى فى ثانى شوال سنة ثلاث أو أربع وثمانين وخمسمائة ببغداد ، ودفن فى باب أبرز . والتعاويذى نسبة إلى كتبه التعاويذ ، وهى الحُروز[٦] ، واشتهر[٧] بها أبو محمد المبارك بن المبارك المذكور[٨] .

---

(١) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٤٦٦ - ص٤٧٣ .

(٢) «لبنى» كذا فى الأصل . والمثبت من وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٤٦٦ .

(٣) نُشْتكينْ : هو اسم أعجمى تسمى به المماليك . وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٤٧٣ .

(٤) فى الأصل أبو الشيخ . والتصحيح من وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٤٦٦ .

(٥) ديوان المقاطعات : كان فى العصر العباسى ، وقد اختص بالإقطاعات الزراعية التى كان يوزعها الخليفة ، وقد حل محله فى العصر الأيوبى والمملوكى ديوان الإقطاع . انظر : المقريزى ، السلوك ، ج١ ق٣ ، ص٨٤١ ، ص٨٤٢ ، حاشية٨ .

(٦) الحروز : مفرد الحِرْز ، وهو العُوذة التى يتعوذ بها . المعجم الوجيز مادة حَرَزَ ، ص١٤٤ .

(٧) «وأشهر» فى الأصل . والتصحيح من وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٤٧٣ .

(٨) ورد هذا النص بتصرف فى ابن خلكان ، كما وردت به ترجمة لأبى محمد المبارك : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٤٦٦ - ٤٧٣ . انظر أيضًا : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٨١ ؛ الروضتين ، ج٢ ، ص١٢٣ .

أبو الفضل[١] **أستادار بن الصاحب**، واسمه هبةُ الله بن علىّ بن هبة الله الملقب بمجد الدين . ولاه المستضىء أستاذ الدار ، وأقره الناصر وقربه تقريباً زائداً ، فبسط يده فى الأموال وسفك الدماء ، وسبّ الصحابة ظاهراً ، وبطر بطراً شديدًا ، وكثرت السعايات فيه إلى الخليفة ، وأشير عليه بقتله ، فاستدعى يوم السبت تاسع عشر ربيع الأول إلى دار الخلافة ، فعلم أنه مقتول ، فاغتسل غسل الميت وودّع أهله ، وخرج فمر على دار الطبل[٢] قبيل الظهر ، فقال لعريف الطبالين : دخل الوقت . فقال : قد قرب . فتطيّر ، فلما حُصّل فى بعض الدهاليز[٣] وثب عليه ياقوت شحنة بغداد فقتله ، وماجت بغداد ، فأخرج رأسه فعلّق على باب النوبى ، فسكن الناس . وعمره إحدى وأربعون سنة ، ووجد فى داره مالم يُوجد فى دور الخلفاء ، فمن العين ألف ألف دينار وخمسمائة دينار ، ومن الخيل والبغال [المماليك][٤] والجواهر والثياب مثل ذلك .

الأمير شمس الدين[٥] **بن محمد بن عبد الملك بن المقدم** ، أحد نواب السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب قتل فى مكة فى هذه السنة ، وكان أمير الحاج على ما ذكرناه مفصلا .

وفى المرآة[٦] : وهو الذى سلم سنجار إلى نور الدين ، وصلاح الدين أعطاه بعلبك ثم عوضه عنها ببارين وغيرها ، وصلاح الدين لما توجه إلى الشرق استنابه بالشام ، وله المواقف المشهورة فى الغزوات ، وحضر حطين والقدس وعكا وفتوح الساحل ، ولما حج وقع الحربُ [٥٤] بينه وبين طاشتكين أمير حاج العراق ، وقتل من الفريقين جماعة ، ورماه مملوك طاشتكين بسهم فوقع فى عينه فخرّ صريعاً ، وجاء طاشتكين فحمله إلى

---

(١) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج٦ ، ص٢٤٥ ؛ الذهبى ، العبر فى خبر من غبر ، ج٤ ، ص٢٥١ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص١٦٤ .

(٢) دار الطبل : هى مكان الطبل . انظر : السلوك ، ج١ ق١ ، ص٤٦ ؛ القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٨-ص٩ .

(٣) الدهليز : المدخل بين الباب والدار . المعجم الوجيز ، ص٢٣٦ .

(٤) «المماليك» كذا فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه .

(٥) انظر ترجمته فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٦٢ - ص١٦٣ ؛ العبر فى خبر من غبر ، ج٤ ، ص٢٥٠ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٧٦ .

(٦) هذه الفقرة من السنتين الساقطتين من سبط ابن الجوزى ، وقد وردت هذه الأحداث فى الكامل ، ج١٠ ، ص٩١ ، حوادث سنة ٥٧٤هـ .

منى ، فتوفى يوم الخميس ، يوم عيد الله الأكبر ، وصلى عليه[(١)] بمسجد الخيف[(٢)] ، ودفن بالمعلى . ولما بلغ السلطان صلاح الدين خبره بكى بكاء عظيماً ، وحزن حزناً كبيرا ، وقال : قتلنى الله إن لم أنتصر له ، وتأكدت الوحشة بينه وبين الخليفة ، فقال : أنا الجواب ، ثم استعد للجواب .

الأميرُ محمود أخو جاولى ، استشهد فى هذه السنة ، وسبب ذلك أن السلطان وكله بحصر قلعة كوكب[(٣)] التى على الغور ، وكانت فيها الإستبارية ، وقد كانوا تمنعوا بشدتهم ومنعتهم ، وكانت قلعتهم هذه منيعةً عاليةً مرتفعةً ، ولما ملك صلاح الدين الساحل ، وهلك الباطل ، وافتتحت طبريّة وأعمالها ، تمنعت من ذلك قلعتان : قلعة صفد[(٤)] بالداوْية ، وقلعة كوكب بالإستبارية ، وتعذر فتحهما ، ورتّب السلطان على صفد جماعة يعرفون بالناصريّة ومقدمتهم مسعود الصلتى ، ورتب على كوكب هذه محموداً المذكور ، وكان ديّنا صالحاً مشكور السيرة ، فأقام بحصنٍ قريب من كوكب يُقال له : [عفربلا[(٥)]] ، وكان يَسْهر أكثر ليله متهجداً ، وقد جعل منزله مَسجدا . فلما كان آخر ليلة من شوال وكانت ليلة مظلمة مدلهمة ، خرج أهل كوكب وقت السحر ، ومضوا إليه والناسُ رقود والحراسُ هجُود ، فما أحس محمود إلا وقد هجم الفرنج عليهم ، فجاءتهم الشهادة ، وبقى الأميرُ حتى استشهد محصوراً . وكان أمر الله قدراً مقدورا ، ونقلوا إلى القلعة ما وجدوه من سلاح ومتاع وخيل وكراع[(٦)] ، فلما عرف السلطان ما أصابهم ندب إلى الكوكب صارم الدين قايْماز النجْمى ، فضايقها وحصرها ، ولم يزل عليها مقيماً إلى أن يسّر الله بفتحها كما نذكره إن شاء الله تعالى[(٧)] .

---

(١) الكامل ، ج١٠ ، ص١٦٢- ص١٦٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٥٠ ؛ كما ورد هذا النص بالتفصيل فى الروضتين ، ج٢ ، ص١٢٣ ؛ العبر فى خبر من غبر ، ج٤ ، ص٢٥٠ ؛ الفتح القسى ، ص١٨٨ ، ص١٨٩ .

(٢) الخيف : مسجد بمنى . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥٠٨ .

(٣) كَوْكَب : اسم قلعة على الجبل المطل على مدينة طبرية ، حصينة رصينة تشرف على الأردن . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣٢٨ .

(٤) كانت صفد إحدى معاقل هيئة الفرسان الداوية ، وهى مدينة فى جبال عاملة المطلة على حمص بالشام وهى من جبال لبنان . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٣٩٩ ؛ السلوك ، ج١ق٣ ، ص٥٤٥ ، حاشية ٦ .

(٥) «عقر بلاّ» فى الأصل . والتصحيح من ياقوت ، و عَفْر بَلا : بلدة بغور الأردن ، قرب بيسان وطبرية . معجم البلدان ، ج٣ ، ص٦٨٨ .

(٦) الكُرَاع : الخيل والبغال والحمير . محيط المحيط ، مادة (كرع) .

(٧) ورد هذا النص بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٦٢ ؛ الفتح القسى ، ص١٧٧ – ص١٧٩ ؛ الروضتين ، ج٢ ، ص١٢٠ .

فَصْلٌ فيما وقعَ من الحَوادِثِ فى السنة الرابعة والثمانين بعد الخمسمائة(*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة هو الناصر لدين الله ، والسلطان صلاح الدين مقيم على عكا .

ذكر غزوات صلاح الدين وفتوحاته فى هذه السنة

وسار السلطان من عكا فى المحرم ، وحاصر حصن كوكب ، فرآه منيعاً صعباً ، ووقته مشغول بغيره ، فوكل به الأمير قايماز النجمى فى خمسمائة فارس يُضيّقون عليه المسالك ، وكذلك بصفد ، وكانت الداوية خمسمائة فارس مع طغرل الجاندار(١) ، يمنعون وصول الميرة والتقاوى . وبعث إلى الكرك والشوبك جيشاً آخر يُحاصِرونهما ، ويضيقون على أهليهما ليتفرّغ من أموره لقتال هذه الأماكن(٢) وحصارها . وسار منها فى ربيع الأول ودخل دمشق ، ففرح الناس به ، وكتب إلى ملوك الأطراف باجتماع العساكر ، وأقام فى دمشق خمسة أيام ثم خرج على ما نذكره ، وفى المرآة(٣) : وكان الذى أرسله صلاح الدين إلى الكرك والشوبك صهره ، يُقال له [٥٥] كوحَبًا . وفى النوادر : ولما خرج السلطان من دمشق نزل على بُحيرَة قَدَس غربىّ حمص ، وأتته العساكر بها ، وأولهم عماد الدين زنكى ابن مودود بن زنكى صاحب سنجار ونصيبين . ولما تكامل عسكره رحل ونزل تحت حصن الأكراد ، وشنّ الغارات على بلاد الإفرنج ، وسار من حصن الأكراد ، فنزل على أنطرسوس(٤) سادس جمادى الأولى ، فوجد الفرنج قد أخلوا أنطرطوس ، فسار إلى مرقب(٥) ، فوجدهم قد أخلوها أيضاً ، فسار إلى صَوْب جبَلَة(٦) وأخذها فى الثامن عشر من جمادى الأولى حال وصوله على ما نذكره(٧) .

(*) يوافق أولها ٢ مارس ١١٨٨م .

(١) الجاندار : كلمة فارسية مكونة من مقطعين «جان» بمعنى سلاح و«دار» معناه ممسك . انظر : السلوك ، ج١ ق١ ، ص١٦٢ ، حاشية ٣ ، الطبعة الثانية .

(٢) ورد هذا النص بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٦٦ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٥١ ؛ الروضتين ، ج٢ ، ص١٢٤ .

(٣) هذا النص من السنتين الساقطتين فى المرآة .

(٤) أنطرسوس : بلد من سواحل بحر الشام ، وهى آخر أعمال دمشق من البلاد الساحلية وأول أعمال حمص . معجم البلدان ، ج١ ، ص٣٨٨ .

(٥) المرقب : قلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة بلنياس . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٥٠٠ .

(٦) جبلة : قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب قرب اللاذقية . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٥ .

(٧) ورد هذا النص بتصرف فى البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٥٢ .

وقال العماد الكاتب : وأشرفنا على جبلة يوم الجمعة[١] الثامن عشر ، وتسلمنا الحصن فى ذلك اليوم ، وأقام السلطان بها أياماً . وفى النوادر[٢] : ولما كان مستهل ربيع الآخر نزل السلطان على تل قبالة حصن الأكراد ، ثم سيّر إلى الملك الظاهر ولده ، والملك المظفر بأن يجتمعا وينزلا على تيزِينَ قبالة أنطاكية لحفظ ذلك الجانب ، فسارا حتى نزلا تيزين فى هذا التاريخ ، وسَارت عساكر الشرق حتى اجتمعت بالسلطان فى هذه المنزلة[٣] ، فأقام فى منزلته هذه ربيع الآخر أجمع ، وصعد فى أثنائه إلى حصن الأكراد ، وحاصرها يوماً يحبسها به ، فما رأى الوقت يحتمل حصاره . واجتمعت العساكر من الجوانب ، وأغارَ على بلد طرابلس فى هذا الشهر دفعتين ، ودخل البلادُ مغيراً ومختبراً لمن بها من العساكر ، وتقوية العساكر . ولما كان يوم الجمعة الرابع من جمادى الأولى ، رحل على تعبية لقاء العدو ، ورتّب الأطلاب وسارت الميمنة أولاً ، ومقدّمها عماد الدين زنكى ، والقلب فى الوسط ، والميسرة فى الأخير ومقدّمها مظفر الدين بن زين الدين ، وسار الثقل فى وسط القلب حتى أتى المنزل ، ثم رحل فى صبيحة السبت ، ونزل على العُريمة[٤] فلم يقاتلها ولم يعرض لها ، ولكن أقام عليها بقية يوم السبت ، ورحل عنها يوم الأحد ، ووصل إلى أنطرسوس[٥] ضحوة نهار الأحد السادس من جمادى الأولى .

ذكر فتح أنطرسوس

ولما وصل إلى أنطرسوس فى التاريخ المذكور ، فوقف قبالتها ينظر إليها . وكان فى عزمه الاجتياز ، ثم اختار النزول ، فأمر الميمنة والميسرة بالنزول على البحر من الجانبين ، ونزل هو أيضاً فى جانب آخر ، فأحدقتها العساكر من البحر إلى البحر ، وهى مدينة راكبة على البحر ولها بُرجان حصينان كالقلعتين ، ثم أمر الناس بالزحف والقتال وشدّوا عليها جداً ، وما استتم نصب الخيم حتى صعد الناسُ السُورَ وأخذوها عنوة ، وغنم العسكر جميع ما فيها ، وخرج الناس والأسرى بأيديهم وأموالهم . وترك الغلمان نصب الخيم ،

(١) «الخميس» كذا فى الأصل . والمثبت من الفتح القسى ، ص٢٣٣ ، حيث ينقل العينى عنه ؛ النوادر السلطانية ، ص٨٩ ؛ الروضتين ، ج٢ ، ص١٢٧ .
(٢) النوادر السلطانية ، ص٨٦ .
(٣) النوادر السلطانية ، ص٨٦ .
(٤) العريمة : بلد تتاخم الدهناء ، وكان حصنًا قويًا من الحصون التى دخلت فى نطاق نفوذ إمارة طرابلس اللاتينية . انظر : الفتح القسى ، ص٢٢٧ ، حاشية ٢ .
(٥) النوادر السلطانية ، ص٨٧ .

واشتغلوا بالنهب والكسب ، ووفى السلطان بقوله ؛ فإنه كان قد عرض عليه الغداء فقال : نتغدى بأنطرسوس إن شاء الله . وعاد إلى خيمته فرحاً مسروراً ، ثم أمر بتخريب سُور البلد وتخريب بيعة عظيمة عندهم [٥٦] كانوا يحجون إليها من أقطار بلادهم ، وأمر بوضع النار فى البلد فأحرق جميعه ، فأقام عليها إلى الرابع عشر من جمادى الأولى . ثم سار يريد جبلة ، وكان وصوله إليها فى الثامن عشر من جمادى الأولى ، الجمعة[١] .

ذكرُ فتح جبلة يوم الجمعة

ولما وصل السلطان إلى جبلة فى التاريخ المذكور ، أخذ البلد يوم وصوله ، وكان فيها مسلمون يقيمون فيها ، وقاض يحكم بينهم[٢] .

وفى المرآة[٣] : وكان قاضيها منصور بن ثبيل ، فأرسل إلى السلطان يُشير عليه بقصدها ، وقيل : إن القاضى والأعيان خرجوا إليه وهونوا عليه أمرها ، وأخذ القاضى من السلطان أماناً لأهل جبلة ، وكان إبرنس[٤] أنطاكية قد سلمها إلى القاضى ووثق به فى حفظها ، فنازلها وفتحها فى التاريخ المذكور ، وامتنع الحصن عليه يوماً ، ثم سلموه إليه يوم السبت بالأمان بعون الله وفضله ، وأقامَ عليها إلى الثالث والعشرين من الشهر المذكور . ثم سارَ عنها فَطلب اللاذقية .

ذكر فتح اللاذقية[٥]

نزل السلطان عليها يوم الخميس الرابع والعشرين من جمادى الأولى ، وهى بلدة لها مينا وقلعتان متصلتان على تَل يشرف على البلد ، فنزل ـ رحمه الله ـ مُحدقاً بالبلد ، وأخذت العساكر منازلهم مستديرين على القلعتين من جميع نواحيها إلا من ناحية البلد ، واشتدّ القتال وعظم الزحف ، وأخذوا البلد دون القلعتين ، وغنم الناس منه غنيمةً

---

(١) ورد هذا النص بتصرف فى النوادر السلطانية ، ص٨٧–ص٨٨ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص١٦٧ ؛ الفتح القسى ، ص٢٣٠ .
(٢) النوادر السلطانية ، ص٨٦ – ص٨٩ .
(٣) من السنتين الساقطتين من المرآه .
(٤) يقصد بإبرنس أنطاكية فى هذا الحدث «بيمند» انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص١٦٧ ؛ مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٢٥٦ ؛ الروضتين ، ج٢ ، ص١٢٧ .
(٥) اللاَّذقيَّةُ : مدينة فى ساحل بحر الشام تعد فى أعمال حمص ، وهى غربى جبلة . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣٣٨ .

عظيمةً ، فإنه كان بلد التجار . وفرق بين الناس الليل ، وأصبحوا يوم الجمعة مقاتلين مجتهدين فى النقوب من شمالىّ القلاع ، وتمكن منها النقب حتى بلغ طوله ستين ذراعاً وعرضه أربعة أذرع ، واشتد الزحف عليهم حتى صعدوا الجبلَ وقاربوا السُورَ ، وتواصل القتال حتى صاروا يتحاذفون بالحجارة بالأيدى ، فلما رأوا ذلك استغاثوا وطلبوا الأمان عشيّة الجمعة الخامس [والعشرين][1] من الشهر المذكور ، وطلبوا قاضى جَبلَة ، فدخل إليهم ليقررّ لهم قاعدة الأمان ، فأجيبوا إلى ذلك ، فدخل القاضى وقرر الحال معهم على أنهم يُطلَقُون بنفوسهم ونسائهم وذراريهم وأموالهم ، عدا الغلال والذخائر وآلات السلاح والدواب ، وأطلق لهم السلطان دواباً يركبونها إلى مأمنهم . ثم رقى عليها العَلَم الإسلامى المنصور فى بقية السبت السادس [والعشرين][2] منه ، وأقاموا عليها إلى يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الأولى[3] .

وقال العمادُ[4] رحمه الله : ولما رحل السلطان من جبلة أتى اللاذقية وفتحها فى الرابع والعشرين من جمادى الأولى ، وهى ثلاث قلاع متلاصقات على طول التل ، فلما عرفوا أنهم مُدركون طلبوا الأمان ، وذلك يوم الجمعة الخامس والعشرين عشيةً ، ودخل جماعة منهم فى عقد الذمة ، وانتقل الباقون إلى أنطاكية . ثم رتب السلطان جماعةً من خواص مماليكه ، وأخرج من القلاع أهل الكفر وأسكنها أهل التوحيد ، وولى بها سنقر الخِلاطى مملوكه ، ثم ركب السلطان إلى البلد [٥٧] وطافه ، وهزّ إلى إحسانه أعطافه ، ثم رحل نحو صهيون[5] .

ذكر فَتح صَهْيُون

ولما سار السلطان راحلاً من اللاذقية نزل على صهيون يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من جمادى الأولى ، واستدار العسكر بها من سائر نواحيها بكرة الأربعاء ، ونصب عليها ستة مناجيق ، وهى قلعة حصينة منيعة فى طَرف جبل ، خنادقها أودية هائلة واسعة

(١) «عشر» كذا فى الأصل . والمثبت من النوادر السلطانية ، ص٨٩ ؛ الفتح القسى ، ص٢٣٧ .
(٢) «عشر» كذا فى الأصل . والمثبت من النوادر السلطانية ، ص٨٩ ؛ الفتح القسى ، ص٢٣٧ .
(٣) انظر : الفتح القسى ، ص٢٣٥ – ص٢٤٠ ؛ النوادر السلطانية ، ص٨٩ – ص٩٠ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص١٦٧ .
(٤) نقل العينى هذا النص بتصرف من الفتح القسى ، ص٢٣٦ – ٢٣٨ .
(٥) صَهْيُون : حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام ، من أعمال حمص . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٤٣٨ .

عميقة ، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد ، مقدار طوله ستون ذراعاً ، وهى نَقْر فى صَخر ، ولها ثلاثة[١] أسوار : سوران دون رَبضها ، وسورٌ دون القُلة[٢] ، وكان على قلتها علم طويل منصوب ، فحين أقبل العسكر الإسلامى وقع . قال صاحب النوادر[٣] : شاهدت ذلك حين وقع ، فاستبشر المسلمون بذلك وعلموا أنه النصر والفتح ، واشتد القتال عليها من سائر الجوانب ، فضربها منجنيق ولده الملك الظاهر صاحب حلب ، وكان قد لحقه قبيل فتح جَبَلة بجفله وعسكره ، وحضر فتوحها . ولما كان بكرة الجمعة ، ثانى جمادى الآخرة ، عزم السلطان على الزحف ، وركب وتقدم وأمرَ المنجنيقات بتواتر الضربات ، وما كان ساعة إلا وقد رقى المسلمون على أسوار الربض ، واشتد الزحف وهجم المسلمون الرَبض . وانضم من كان فيه إلى القلعة ، واستدار المقاتلة حول أسوار القلعة ، فلما عاينوا الهلاك طلبوا الأمان ، فبذل لهم السلطان الأمان ، على أن يسلموا بأنفسهم وأموالهم ويؤخذ من الرجل منهم عشرة دنانير ، وعن المرأة خمسة دنانير ، وعن الصغير ديناران ، وسلّمت القلعة . وأقام السلطان حتى تسلم قلاعاً غيرها ، وهى بلاطنس[٤] ، وعيذو[٥] ، وقلعة الجماهر[٦] وغير ذلك . وقال العماد[٧] : وكان تسلم قلعة عيذو يوم السبت ، وقلعة بلاطنس يوم الاثنين ، وقرر فى كل حصن من تسلمه ، وما مكنوا من الخروج حتى أحضروا ما قرّر عليهم ، وتولى جباية ذلك شجاع الدين طُغرل الجاندار . وقال العماد[٨] : ثم سُلِّم حصْن صَهْيُون بجميع أعماله وسائر ما حواه من ذخائره وأمواله إلى الأمير ناصر الدين مَنكورسْ بن خُمارْتكين[٩] .

---

(١) ورد فى الفتح القسى ، ص٢٤١ ، إنها ذات أسوار خمسة ، وكذا فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٦٩ .
(٢) القلة : هى رأس الجبل ، وأعلى كل شىء . محيط المحيط ، مادة (قَلَلَ) .
(٣) نقل العينى هذا النص بتصرف من النوادر السلطانية ، ص٩٠ ــ ص٩١ .
(٤) بلاطُنُسُ : حصن منيع بسواحل الشام ، مقابل اللاذقية من أعمال حلب . معجم البلدان ، ج١ ، ص٧١٠ .
(٥) العِيذو أو العيذ أو عيذون : قلعة بنواحى حلب . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٧٥١ .
(٦) الجماهر : ذكرها ياقوت الجماهرية . وهى حصن قرب جبلة من سواحل الشام . وجماهر الشىء معظمه . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص١١٤ .
(٧) الفتح القسى ، ص٢٤٤ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص١٦٩ - ص١٧٠ .
(٨) انظر : الفتح القسى ، ص٢٤٣ .
(٩) ناصر الدين منكورس بن خمارتكين : كان صاحب قلعة أبى قبيس ، وكان أحد أصحاب صلاح الدين ، سلمه صلاح الدين قلعة صهيون سنة ٥٨٤هـ وكذلك حصن برزية . المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص٧٤ ؛ الروضتين ، ج٢ ، ص١٣٠ .

ذكر فتح بكَاس[1]

ولما رحل السلطان من صهيون ثالث جمادى الآخرة ، وصل إلى قلعة بَكاس سادس جمادى الآخرة ، وهى قلعة حصينة عَلى جانب العاصى ، ولا نهر يخرج من تحتها ، ونزل السلطان على العاصى[2] . قال النويرى[3] : تسلمها يوم الجمعة تاسع الشهر المذكور ، وكان أهلها [أخلوها[4]] قبل وصول السلطان وتحصّنوا بقلعة شُغْر[5] .

وفى النوادر[6] : صعد السلطان جريدة إلى القلعة ، وهى على جبل مطل على العاصى ، فأحدق بها من كل جانب ، وقاتلها قتالاً شديدا بالمنجنيقات والزحف إلى يوم الجمعة ، ثم يسر الله فتحها عنوة ، وأُسِر مَن فيها بعد قتل من قُتل منهم ، وغنم جميع ما كان فيها .

ذكرُ فتْح شغْر

ولما تحصنت الفرنج بقلعة شغر ، وهى قلعة شامخة منيفة ، خيّم السلطان بخيمة خفيفة إلى الجبل لحصار القلعة ، فحاصرها وأخذها بالأمان [٥٨] فى الثالث عشر من جمادى الآخرة يوم الثلاثاء ، ثم سلّم السلطان حصْن بَكاس وحصن شُغْر إلى غرس الدين قلج الساقى .

وفى النوادر[7] : وكان لبَكَاس قُلَيعةٌ تسمى الشُغر ، قريباً منها يعبر إليها بجسرٍ ، وهى فى غاية المنَعة ليس إليها طريق ، فسلطت عليها المنجنيقات من الجوانب ، ورأوا أنهم لا ناصر لهم ، فطلبوا الأمان وذلك فى يوم الثلاثاء ، وسألوا أن يؤخروا ثلاثة أيام لاستئذان مَنْ بأنطاكية ، فأذن السلطان فى ذلك ، وكان تمام فتحها وصعود العلم السلطانى على قلتها يوم الجمعة السادس عشر منه بعون الله وفضله[8] .

---

(١) وعَن بَكّاس انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٧٠٤ .

(٢) الفتح القسى ، ص٢٤٥ ؛ النوادر السلطانية ، ص٩١ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، ج٣ ، ص١٠٤ ؛ الروضتين ، ج٢ ، ص١٣٠ .

(٣) النويرى : ذكر محقق النويرى أن الكلام غير متصل ، وأن هذا الحدث لم يرد فى الأحداث التى حققها . نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص٤٠٧ ، حاشية ٣ .

(٤) فى الأصل «أخلاها» . والمثبت لتصحيح المعنى .

(٥) الشُغْر : قلعة حصينة مقابل قلعة بكاس على رأس جبلين بينهما واد كالخندق لهما . معجم البلدان ، ج٣ ، ص٣٠٣ .

(٦) النوادر السلطانية ، ص٩١ .

(٧) «قليعة» كذا فى الأصل . والمثبت من النوادر السلطانية ، ص٩١ ، حيث ينقل العينى عنه ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص١٧٠ ؛ الفتح القسى ، ص٢٤٥-٢٤٦ ؛ الروضتين ، ج٢ ، ص١٣٠ .

(٨) ورد هذا النص فى الفتح القسى ، ص٢٤٥ - ٢٤٦ ؛ النوادر السلطانية ، ص٩١ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص١٧٠ ؛ الروضتين ، ج٢ ، ص١٣٠ .

ذكر فتح سَرْمانية

ولما فتح السلطان حصن شغر أرسل ولده الملك الظاهر صاحب حلب فحاصر سرمانية وأخذها بالأمان، وهدمَ الحصن وعفّى أثره .

وفى النوادر[١] : أرسل صلاح الدين ولده المذكور إلى قلعة تسمى سَرْمانية يوم السبت سابع عشر جمادى الأخرى ، فقاتلها قتالاً شديداً ، وضايقها مضايقةً عظيمةً ، وتسلمها يوم الجمعة الثالث والعشرين من الشهر المذكور ، [فاتفقت][٢] فتوحات الساحل من جبلة إلى سرمانية فى أيام الجُمع ، وهى علامة قبول دعاء خطباء المسلمين ، وسعادة السلطان رحمه الله ، حيث يسّر له الفتوح فى اليوم الذى يضاعف فيه ثواب الحسنات ، وهذا من نوادر الفتوحات فى الجُمع المتوالية ، ولم يتفق مثلها فى تاريخ . وكان فى هذه الحصون المذكورة من أسرى المسلمين عدد لا يحصى ، فأطلقوا وأعطوا النفقة والكسوة[٣] .

ذكرُ فتح حِصْن بُرْزِيَة[٤]

ثم سار السلطان من شغر إلى بُرزية ، وهى قلعة حصينة فى غاية القوة والمنعة على سن جبل شاهق ، يضرب بها المثل فى جميع بلاد الإفرنج والمسلمين ، يحيط بها أودية من سائر جوانبها وذرع عُلُوِّ تَلها[٥] ، فكان خمسمائة ذراع ونيفاً وسبعين ذراعاً[٦] .

وقال العماد[٧] : وكان وصول السلطان إليها يوم السبت الرابع والعشرين من جمادى الآخرة ، وملكها يوم الثلاثاء السابع والعشرين منه ، قال : فأحدقنا بها وبالجبل ونصبنا عليها المجانيق فى سفحها ، ولما رأى السلطان أنه لا وصول إليها بالمجانيق ، وأن الاشتغال به يُطيل الزمان مال إلى الزَحْف ، فقسم الناسَ ثلاثة أقسام ، وجعل النوبة

---

(١) النوادر السلطانية ، ص٩٢ .
(٢) «فاتفق» كذا فى الأصل . والمثبت من النوادر السلطانية ، ص٩٢ .
(٣) ورد هذا النص بتصرف فى النوادر السلطانية ، ص٩٢ ؛ الفتح القسى ، ص٢٤٧ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص١٧١ ؛ الروضتين ، ج٢ ، ص١٣٠ ؛ مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٢٦٤ - ٢٦٥ .
(٤) ذكر ياقوت أن هذا الحصن يسمى بَرْزُويَة بالفتح وضم الزاء وسكون الواو وفتح الياء والعامة تقول بَرْزَيَة . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٥٦٥ .
(٥) «علوها» كذا فى النوادر ، ص٩٢ ؛ أما الفتح القسى ، ص٢٤٨ ؛ فقد ورد فيه النص كالآتى : «وقيل قدر علو ثلثه» .
(٦) النوادر السلطانيه ، ص٩٢ .
(٧) الفتح القسى ، ص٢٤٨ .

الأولى لعماد الدين زنكى صاحب سنجار والملك العادل ، وتقدم السلطان بنفسه فى النوبة الثانية ، واشتد القتال وضاق بها الحال ، ولما أيقنوا بأنهم مُلِكُوا طلبوا الأمان وكفّوا عنهم . وكانت زوجة صاحب حصن بُرزية أختَ زوجة الإبرنس صاحب أنطاكية ، وقد سُبيَت وخُبّيَت ، فما زال السلطان يطلبُها حتى أظهروها وأحضروها ، فمنَّ عليها بالإعتاق ، وحل عنها وعَن زوجها قيد الوثاق ، وأحضر أيضاً ابنةً لهما وزوجها وعدّةً من أصحابهم ، وأدخلهم معها فى الإطلاق ، وسَيّرَ معهم إلى أنطاكية مَنْ أوفدهم على أهلهم ، فسرت بأختها زوجة البرنس . وأنعم السلطان [٥٩] بهذا الحصن على عز الدين المذكور عن قريب .

ذكْر فَتح قَلْعَة دَرْبِسَاك(١)

ولمّا رحل السلطان من حصن برزية عبَر من عند شقيف دركوش(٢) إلى شرقى العاصى ، وجاء إلى جسر الحديد(٣) وأقام هناك أياماً حتى تلاحق به العسكر ، ثم سار إلى دربساك ونزل عليها يوم الجمعة الثامن من شهر رجب ، وهى قلعة منيعة مرتفعة ، وهى عُش الداوية ، وقاتلها قتالاً شديداً وضايَقها مضايقةً عظيمةً ، وأمر بالنقب تحت برج ، وتمكن النقب منها حتى وقع ، وحمَوه بالرجال المقاتلة ، ووقف فى الثغرة رجال يحمونها عن من يصعد فيها(٤) . قال صاحب النوادر(٥) : ولقد شاهدتهم وكلما قتل منهم رجل قام غيره مقامه ، وهم قيام عوض الجدار مكشوفين ، إلى أن اشتدّ بهم الأمرُ حتى طلبوا الأمان ، فأمنهم السلطان وشرط عليهم أن ينزلوا بأنفسهم وبثياب أبدانهم لا غير . فعند ذلك رقى عليها العلم الإسلامىّ يوم الجمعة أيضاً الثانى والعشرين من رجب ، وأعطاها لعلم الدين سليمان بن جندر(٦) ، ثم سار عنها بكرة السبت الثالث والعشرين(٧) من رجب متوجهاً إلى بُغَراس .

---

(١) دربساك : حصن قرب أنطاكية من أعمال حلب . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٦٤٧ ؛ السلوك ، ج١ق٢ ، ص٥٥١ ؛ زبدة الحلب ، ج٣ ، ص٤٨ ، حاشية ٤ .

(٢) شقيف دَرْكُوش : قلعة من نواحى حلب قبلى حارم . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٣٠٩ .

(٣) جسر الحديد : على نهر العاصى بالقرب من أنطاكية . انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص١٧٣ .

(٤) وردت هذه الأحداث بتصرف فى الفتح القسى ، ص٢٥٥ - ص٢٥٦ ؛ النوادر السلطانية ، ص٩٣ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص١٧٣ - ص١٧٤ ؛ الروضتين ، ج٢ ، ص١٣٣ .

(٥) هنا يعتبر ابن شداد شاهد عيان على الأحداث بدليل قوله «شاهدتهم» .

(٦) «ابن حيدر» كذا فى الأصل . والمثبت من النوادر السلطانية ، ص٩٣ ، وهو علم الدين سليمان بن جندر ، كان من أكابر أمراء حلب ومن مشايخ الدولتين النورية والصلاحية توفى سنة ٥٧٨هـ . النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص١١٣ .

(٧) نقل العينى هذا النص بتصرف من النوادر السلطانية ، ص٩٣ .

ذِكرُ فَتح قلعةِ بُغرَاس

وهى قلعة منيعة على رأس جبل شامخ ، قريبة من أنطاكية ، كثيرة العُدّة والرجال ، فنزل العسكرُ فى مرج لها ، وصعد السلطان فى جريدة عسكره إلى الجبل ، ووقف بإزاء الحصن ينصب عليه المجانيق من جميع جهاته ، وعين يَزَكا[1] لجانب أنطاكية كيلا يحصل تشويش من جهة أنطاكية ، فضرب اليَزك على باب أنطاكية بحيث لا يقدر أحد أن يخرج منها .

قال صاحب النوادر[2] : وأنا كنت فى اليَزك فى بعض الأيام ولم يزل السلطان يقاتل أهل بغراس مقاتلة شديدة[3] حتى ضاق بهم الحال ، فخرج مقدم الداوية يستأذن فى الحضور ، فأذن له ، ولما حضر طلب الأمان فأمنهم السلطان على حكم دَربساك ، ورقى العلم السلطانى عليها فى الثانى من شعبان ، ثم سلّم السلطان قلعة بغراس لعلم الدين سليمان آنفاً ، فتسلّم الحصنين دربساك وبغراس ، وكان علم الدين هذا صاحب أعزاز ، وتسلمهما بذخائرهما ، ووجد فى بغراس خاصةً من الغلّة اثنى عشر ألف غرارة[4] سوى ما فيها من سائر الأقوات[5] .

ذِكرُ مُهادَنة صاحب أَنطاكِية

ولما فرغ السلطان من أمر بغراس عزم على التوجه إلى أنطاكية ، وكان الإبرنس[6] صاحبها عجل بإرسال أخى زوجته يَسأل من السلطان الهدنة والصلح على أن يطلق كل أسير عنده ، فأجابه السلطان إلى ذلك ، ووقع الصلح إلى ثمانية أشهر ، وكان الإبرنس هذا من أعظم ملوك الإفرنج فى هذه البلاد ، وكان أهل طرابلس سلموا إليه طرابلس أيضاً بعد مَوت قومص صاحبها ، وجعل الإبرنس ابنه فى طرابلس[7] ، وقال صاحب النوادر[8] :

---

(١) يَزَكَ : لفظ فارسى معناه الطلائع . انظر Dozy: supp. Dict. Ar.
وانظر : السلوك ، ج١ق١ ، ص١٠٥ ، حاشية ٣ .
(٢) يؤكد هنا ابن شداد على أنه ممن شارك فى حصار قلعة بغراس بدليل قوله : «وأنا كنت فى اليزك» .
(٣) إلى هنا توقف العينى عن النقل من النوادر السلطانية ، ص٩٣ .
(٤) الغرارة تساوى اثنى عشر ديناراً حينئذ . انظر : الفتح القسى ، ص٢٥٩ .
(٥) ورد هذا النص بتصرف فى الفتح القسى ، ص٢٥٧ - ص٢٥٩ .
(٦) المقصود بالإبرنس هنا «بيمند» ، الكامل ، ج١٠ ، ص١٧٤ .
(٧) ورد هذا النص بتصرف فى الفتح القسى ، ص٢٦٠ -ص٢٦١ ؛ كما ذكر ابن الأثير هذه الأحداث بالتفصيل ، الكامل ، ج١٠ ، ص١٧٤ ، ص١٧٥ ؛ وانظر أيضًا : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٢٦٩-ص٢٧٠ .
(٨) النوادر السلطانية ، ص٩٤ .

وكانت هدنتهم إلى سبعة أشهر على أنه إن جاءهم من ينصرهم [٦٠] وإلا سلّموا(١) البلد إلى السلطان رحمه الله .

ذكرُ رحيل السّلْطَان مُتَوجّهًا إلى دمشْقَ

لما فرغ السلطان من أمْرِ بُغراس ومُهادنة صاحب أنطاكية ، رحل قاصدًا الشامَ ، فأتى حلب ودخلها فى حادى عشر شعبان ، ثم أعطى دستوراً للعسكر ، وودع عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى بعد أن أنعم عليه بأنواع التحف والأمتعة والدواب ، ويقال : إنما دخل السلطان حلب لأن ولده الملك الظاهر سأله ذلك ، فأتاها وأقامَ بقلعتها ثلاثة أيام ، وولده يقوم بالضيافة حق القيام ، ولم يبق فى العسكر إلا من ناله شىء من نعمته ، وبالغ فى ذلك حتى أشفق عليه والده ، ثم سار السلطان من حلب فى الرابع عشر من شعبان قاصداً دمشق فاعترضه ابن أخيه الملك المظفر تقى الدين وأصعده إلى قلعة حماة ، واصطنع له طعامًا حسناً وأحضر له سماع الصوفية ، وبات فيها ليلةً واحدة ، وأعطاه السلطان جبلة واللاذقية ، ثم سار على طريق بعلبك حتى أتاها وأقام بمرجها يوماً ، ودخل إلى حمامها ، ثم سار منها حتى أتى دمشق قبل دخول رمضان بأيام يَسيرة فأقام بها حتى دخل رمضان ، وما كان يرى بتبطيل وقته عن الجهاد مهما أمكنه ، وكان قد بقى له من القلاع القريبة من حوران التى يخاف عليها من جانبها صَفد وكوكب ، فرأى أن يُشغل الزمان بفتح المكانين فى الصوم(٢) . وقال ابن كثير(٣) : ولما دخل السلطان دمشق أشاروا عليه بتفريق العسكر ليُريحوا ويَستريحوا . فقال السلطان : إن العمر قصير ، والأجل غير مأمون ، فخرج من دمشق لغزوته فى أوائل رمضان يريد صفَد(٤) .

ذكر فتح صَفد

ولما خرج من دمشق أتى على صفد فى أثناء شهر رمضان ، وهى قلعة منيعة قد تقاطع حولها بالأودية ، فأحدق العسكر بها ، ونصَب عليها المجانيق ، ولم يزل القتال متواصلاً بالنُوَب مع الصوم حتى سلموها بالأمان فى الرابع عشر من شوال من هذه

(١) «أسلموا» كذا فى الأصل . والمثبت من النوادر السلطانية ، ص٩٤ . حيث ينقل العينى عنه .
(٢) ورد هذا النص بتصرف فى النوادر السلطانية ، ص٩٤ ؛ الفتح القسى ، ص٢٦٣ - ص٢٦٥ .
(٣) القول هنا لابن الأثير وليس لابن كثير . انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص١٧٥ .
(٤) الكامل ، ج١٠ ، ص١٧٥ .

السنة[١] . وقال ابن كثير[٢] : مازال السلطان عليها بالقتال والمضايقة حتى فتحها صلحاً فى الثامن من شوال . ثم سلّمت القلعة إلى شجاع الدين طغرل الجاندار .

ذكر فتح قلعة كوكب

ولما فرغ السلطان من أمر صفد سار إلى كوكب وعليها الأمير قايماز النجمى ، وقد ذكرنا أن السلطان خلاه عليها يُحاصرها ، ونزل السلطان على سطح الجبل ، وجرّد العسكر وأحدقوا بالقلعة وضايقوها بالكلية ، وكانت الأمطار متوالية ، والوحول كثيرةً بحيث تمنع الماشى والراكب إلا بمشقة كبيرة ، وعانى السلطان شدائدَ وأهوالاً من شدّة الرياح وتراكم الأمطار ، وكون العدو متسلطاً عليهم بعلوّ مكانه ، وجرح خلق من العسكر ، وقتل جماعة ولم يزل السلطان راكباً مركب الجد حتى تمكن النقب [من][٣] سورها ، ولما أحسّوا بالنقب وقد تمكن [من السور][٤] علموا أنهم مأخذون ، فطلبوا الأمان ، فأجابهم إلى ذلك وآمنهم وتسلمها [٦١] فى منتصف ذى القعدة وسيَّر أهلها إلى صُورَ ، وكان اجتماع هذه القلاع كلها فى صور[٥] . وقال ابن كثير : وكان حصن كوكب [معقل][٦] الإستبارية ، كما أن صفد معقل[٧] الداوية ، وكانوا أبغض أجناس الإفرنج إلى السلطان ، لايكاد يترك منهم أحدا [إلا قتله][٨] إذا وقع من المأسورين[٩] . ولما فتحت قلعة كوكب عرضها السلطان على جماعة فلم يقبلوها ، فولاها قايماز النجمى عن كراهة[١٠] .

ذكر فتح الكرك

لما كان السلطان سار إلى البلاد الشمالية جعل على الكرك وغيرها مَنْ يحاصرها ، وخلّى أخاه الملك العادل فى تلك البلاد يُباشر ذلك ، فأرسل أهل الكرك يطلبون الأمان ،

(١) نقل العينى هذا النص بتصرف من النوادر السلطانية ، ص٩٥ ؛ الروضتين ، ج٢ ، ص١٣٥ .
(٢) البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٥٢ .
(٣) «على» كذا فى الأصل . والمثبت من النوادر السلطانية ، ص٩٦ .
(٤) ما بين حاصرتين إضافة من النوادر السلطانية ، ص٩٦ .
(٥) ورد هذا الحدث بتصرف فى الفتح القسى ، ص٢٧٣ - ٢٧٥ ؛ النوادر السلطانية ، ص٩٦ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص١٧٦- ص١٧٧ .
(٦) «معدن» كذا فى الأصل . والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٥٢ .
(٧) «معدن» كذا فى الأصل . والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٥٢ .
(٨) ما بين حاصرتين إضافة من ابن كثير الذى ينقل عنه العينى . انظر : البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٥٢ .
(٩) إلى هنا توقف العينى عن النقل من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٥٢ .
(١٠) الفتح القسى ، ص٢٧٤ .

فأمر العادل المباشرين لحصارها بأن يَتسلّموها ، فتسلموا الكرك والشّوبك وغيرهما مما فى تلك الجهات[(١)] . وقال العماد[(٢)] : وكان الملك العادل مقيماً بتبنين[(٣)] بالعسكر ، محترزاً على البلاد من غائلة الفرنج ، مُقويا للأمراء المرتّبين على الحصون ، وكَان صهره سَعد الدين كُمشْبَه [الأسدى][(٤)] بالكرك موكلاً ، وبأهله مُنكلاً ، فتوسلوا بالملك العادل حتى دخلوا فى الحكم ، وخرجوا على السّلْم[(٥)] .

وكان فتح الكرك فى أثناء شهر رمضان[(٦)] .

وفى تاريخ بيبرس[(٧)] . قد كان الملك الناصر صلاح الدين رتب على الكرك العساكر صحبة سَعد الدين كمشبه صهر الملك العادل ، فحصروها ليلاً ونهاراً مدة حتى فنيت منها الأزواد ، وأكل أهلها جميع الحيوان الذى عندهم ، فأذعنوا للتسليم وسلّموا ، وكفى الله المسلمين شرهم .

ذكر ما فعَل صَلاح الدّين بَعد هَذه الفتوحات فى هذه السنة

قد ذكرنا أنه لما فرغ من أمر بغراس ومُهادنة صاحب أنطاكية ، توجه إلى دمشق ، وجعل طريقه على حلب ، كان معه الأمير مهنىّ أمير المدينة وكُنيته أبو فليته الحُسَينى ، وكان ميمون النقيبة مبارك الطلعة ، وكان السلطان قد تيمّن بطلعته فما حضر معه بلداً إلا فتحه ، ثم جعل السلطان طريقه على المعرّة ، فزار عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه ، والشيخ أبا زكرياء[(٨)] المغربى .

---

(١) تاريخ حلب ، ج٣ ، ص١٠٧ .

(٢) الفتح القسى ، ص٢٦٦ .

(٣) تبنين : بلدة فى جبال بنى عامر ، المطلة على بانياس ، بين دمشق وصور . معجم البلدان ، ج١ ، ص٨٢٤ .

(٤) ما بين الحاصرتين مثبت للتوضيح . الفتح القسى ، ص٢٦٦ .

(٥) ورد هذا النص بتصرف فى الفتح القسى ، ص٢٦٦-٢٦٧ ؛ ولمزيد من التفاصيل راجع : النوادر السلطانية ، ص١٠٣ ـ ١١٥ .

(٦) انظر : النوادر السلطانية ، ص٩٥ ؛ الروضتين ، ج٢ ، ص١٣٤ ؛ السلوك ، ج١ق٢ ، ص١٠١ .

(٧) نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص٤١٠ – ص٤١١ .

(٨) هكذا رسمها العينى ، أما فى المصادر المعاصرة فرسمت «زكريا» . انظر : الفتح القسى ، ص٢٦٣ ؛ وأبو زكريا المغربى هو الفقيه الصالح ، كان مقيمًا عند قبر الخليفة عمر بن عبدالعزيز وقد زاره السلطان سنة ٥٨٤هـ بعد مغادرته لحلب ، وله كرامات ظاهرة ، وكان مع صلاح الدين فى الزيارة الأمير أبو فليتة قاسم بن المهنا الحسينى أمير المدينة المنورة . انظر : المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص٧٥ ؛ الفتح القسى ، ص٢٦٣ ، حاشية ٣ .

وقال العماد الكاتب[١] : ولما خرجنا من حلب قصد السلطان زيارة الشيخ الفقيه الزاهد التقى أبى زكرياء المغربى ، وهو فى مسجده عند قبر عمر بن عبدالعزيز ومَشهده .

وفى تاريخ المؤيد[٢] : جعل السلطان طريقه لما رحل من حلب على قبر عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه ، فزاره وزار الشيخ الصالح أبا زكرياء المغربى ، وكان مقيماً هناك ، وكان من عباد الله الصالحين ، وله كرامات ظاهرة .

وكان القاضى الفاضل مع السلطان فى هذه المواقف المذكورة ، فكتب عن السلطان إلى أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن يَسْتدعيه إلى الشام لنصرة أهل الإسلام ، فإنه قد عزم على حصار أنطاكية بنفسه ، ويكون تقى الدين محاصراً طرابلس إذا انسلخ هذا العام . ثم عزم القاضى الفاضل على الدخول إلى الديار المصريّة ، فسَار السلطان معه لتوديعه ، ثم عدل السلطان إلى القدس الشريف[٣] ، فصلّى فيه الجمعة وعيّد فيه عيد الأضحى . ثم سار ومعه أخوه الملك العادل إلى عسقلان ، ثم أقطع أخاه الكرك عوضاً عن عسقلان ، وأمره بالانصراف ليكون عوناً لابنه الملك العزيز فى الديار المصريّة على حوادث الزمان ، ثم عاد السلطان فأقام بمدينة [٦٢] عكا حتى انسلخت هذه السَّنة .

وفى النوادر[٤] : وكان دخول السلطان بيت المقدس وصحبته أخوه الملك العادل فى ثامن ذى الحجة من هذه السنة ، وصلّينا الجمعة فى قبة الصخرة الشريفة ، وصلينا صلاة العيد بها يوم الأحد ، ثم عاد السلطان إلى خيمته وأقام بقية يومه . ثم سار يوم الاثنين الحادى عشر من ذى الحجة طالباً عسقلان ؛ لينظر فى أحوالها ويودّع أخاه ، فأقام بها أياماً يَلُمّ شعثها ويصلح أحوالها ، وودع أخاه العادل وأعطاه الكرك وأخذ منه عَسقلان ، ثم عاد يَطلبُ عكا على طريق السّاحِل ، فأقامَ بها إلى أن مضى أكثر المحرّم من السنة الآتية[٥] ، ورتّب بها بهاء الدين قراقوش والياً ، وأمره بعمارة السُّور والإطناب فيه ، ومعه حسام الدين بشارة ، ثم سار يُريد دمشق بعد وصول طائفة من عسكر مصر أودعهم فى عكا بصدد

---

(١) الفتح القسى ، ص٢٦٣ .
(٢) انظر : المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص٧٥ .
(٣) انظر هذه الأحداث فى الفتح القسى ، ص٢٧٤-٢٧٥ .
(٤) انظر : النوادر السلطانية ، ص٩٦ ؛ الفتح القسى ، ص٢٧٥ ؛ الروضتين ، ج٢ ، ص١٣٧ .
(٥) أى سنة ٥٨٥هـ . انظر : الروضتين ، ج٢ ، ص١٣٧ .

حفظها ، ودخل دمشق في مستهل صفر من السنة الآتية على ما نذكره إن شاء الله تعالى[١] .

ذكرُ بقية الحَوادث

منها أن طائفة من الرافضة بمصر[٢] خرجت ، يريدون أن يُعيدوا دولة الفاطميين الذين حكموا فى الديار المصرية والشامية وغيرهما ، واغتنموا غيبة الملك العادل عن مصر ، واستخفوا أمر الملك العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين ، فبعثوا اثنى عشر رجلاً ينادون فى الليل : يا آل علىّ ، [بنياتهم][٣] أن العامّة تجيبهم إلى ما عزموا عليه ، فلم يلتفت إليهم أحد ، فلما رأوا ذلك انهزموا فأُدركوا ، وأخذوا ، وقُيّدوا ، وحُبسوا . ولما بلغ أمرهم إلى السلطان ساءه ذلك . وكان القاضى الفاضل عنده بَعد ولم يفارقه لأجل سفره إلى مصر ، فقال له : أيها الملك ينبغى أن تفرح ولا تحزن ، فإنه لم يصغ إلى دعوة هؤلاء الجَهلة أحدٌ من رعيتك ، ولا التفتوا إليهم ، ولو أنك بعثتَ من قِبلك جواسيس يختبرون رعيتك لسرّك ما بلغك عنهم ، فسرّى به عنه ذلك ورجع إلى قوله ، ولهذا أرسله إلى مصر ليكون له عَينا وعوناً معيناً[٤] .

ومنها أن فى الثامن والعشرين من رمضان عزل إسفنديار عن كتابة الإنشاء ، ورتب مكانه أبو الفضل بن القصاب ، وخلع عليه ولقّب مؤيد الدين . قال ابن القادسى : كان إسفنديار من أهل الدين والعلم ، فلما ولى لبس الحرير وتختم بالذهب ، وكان يركب فى غير شىء ، ويدخل فى دَرب دَرب ليصاح بين يديه ، بسم الله ، بسم الله .

ومنها أن فى شوال جلس ابن الجوزى فى دار الوزير ابن حديدة ونسَبه إلى الأنصار ، وقال فى حديث السقيفة : إن أبا بكر رضي الله عنه قال للأنصار يوم السقيفة : «نحن الأمراء وأنتم الوزراء» ثم قال : «وما يصلح لدولة الإمام الناصر إلا الأنصار» . وقرئ بين يديه فى ذلك اليوم : «والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار» . وقال كلاماً آخر فى هذا المعنى .

---

(١) انظر هذا الخبر فى الفتح القسى ، ص٢٠٩ - ٢١٠ ، ص٢٧٥ - ٢٧٦ ؛ النوادر السلطانية ، ص٩٦ .

(٢) وردت أخبار خروج هذه الجماعة فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٧٧-١٧٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣١ حيث ينقل العينى هذا الخبر عن ابن كثير بتصرف ؛ وكذا الروضتين ، ج٢ ، ص١٣٧-١٣٨ .

(٣) «بناء على» فى الأصل . والتصحيح من البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٥٣ .

(٤) انظر تفاصيل هذا الخبر فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٧٧ - ص١٧٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٥٣ ؛ الروضتين ، ج٢ ، ص١٣٧ - ١٣٨ .

ومنها أن الخليفة جهز ابن يونس ، وكان استوزره إلى همذان ، فخرج نصف الليل ليلة الثلاثاء الثامن والعشرين من المحرّم من هذه السنة ، قالوا : القمر بربع المريخ . وساق العساكر للقاء السلطان طغريل بن أرسلان بن طغريل السلجوقى [٦٣] بالقرب من همذان ، وكان طغريل قد بعث إلى الخليفة يَطلب السلطنة ، فأخرج الأموال وجهز جيشًا عظيمًا ، وقدم عليهم ابن يونس جلال الدين عبدالله ، وكان فى جملة الأمراء طغريل صاحب البصرة وأمير الحاج طاشتكين ، فأنفا من تقديم ابن يونس عليهما ، ولم يُقراه . فقال ابن يونس : والله لأرمينَّهم فى المهالك . وسار إلى باب همذان ، والتقوا هناك فقَصَّر طغريل وطاشتكين ، والتقاهم السلطان فكسَرهم ومزقهم كل ممزّق ، وقتلوا وأسروا ، وأخذ الوزيرُ ابنُ يونس وكان محلوق الرأس ، فأحضر بين يدى السلطان ، فألبَسه طرطوراً أحمر فيه جلاجلَ وجَعل يَضحك عليه ، ولم يصل إلى بغداد من العسكر إلا القليل ؛ تقطعوا فى الجبال وماتوا عطشاً وجوعاً[١] .

وفى تاريخ المؤيد[٢] : وكانت ملاقاتهم بقرب همذان فى الثامن من ربيع الأول . وفى تاريخ بيبرس : وأقبل طغريل فالتقاهم بمَرْج عند همذان ، فلم يثبت له عسكر بغداد ، فانهزموا .

وفيها ....[٣] .

....

وفيها حج بالناس من العراق طاشتكين .

ذِكر مَنْ تُوفى فى هذه السّنة من الأعيان

الحافظ أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان بن حَازم الحازمى الهمذانى ، صَاحب التصانيف على صغر سنه . منها : «العجالة فى النسب»[٤] ، و«الناسخ والمنسوخ»[٥] وغيرهما ، وكان مولده سنة ثمان أو تسع وأربعين وخمسمائة ، وتوفى فى الثامن والعشرين

---

(١) لمعرفة تفاصيل هذا الحدث انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص١٧٨ .
(٢) المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص٧٦ .
(٣) بياض فى المخطوطة بمقدار كلمتين ثم نصف سطر بعدها فى لوحه ٦٣ من النسخة المعتمد عليها كأصل فى التحقيق .
(٤) «عجالة المبتدى فى الأنساب» . انظر : حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج٢ ، ص١١٢٥ .
(٥) الناسخ والمنسوخ . انظر : حاجى خليفة ، كشف الظنون ، ج٢ ، ص١٩٢٠ .

من جمادى الأولى من هذه السنة ببغداد ، ودفن فى الشونيزية إلى جانب سمنون بن حمزة مقابل قبر جنيد رحمه الله ، وفرّق كتبه على أصحاب الحديث ، ونسبته إلى جدّه حازم بالحاء المهملة والزاى المعجمة[١] .

الشيخ محمد بن قائد الزاهد[٢] ، من أهل أَوَانا[٣] قرية بالدُجَيْل[٤] ، وكان صاحب كرامات وإشارات ومجاهدات ورياضات وكلام على الخواطر وبيان عما فى الضمائر ، وكان يجتمعُ عنده فى المواسم خلق عظيم ، وكان قد أُقعِد زماناً ، وكان يُحمل فى محفة إلى الجامع يوم الجمعة ، واستشهد فى هذه السنة على يدى اثنين من الإسماعيلية أرسلهما سِنان[٥] إليه فى زىّ الصُوفية ، وقتلا معه تلميذه عبدالحميد ، وكان سبب ذلك أن شخصاً يُقال له زَرزُور أتى إلى جامع أُوانا فوعظ فيه وسبّ الصحابة ، فبلغ الشيخ ذلك فأمر العوام فرجموه ، وهرب إلى سنان مقدّم الإسماعيلية وحكى له ذلك ، فأرسل سنان اثنين وأتيا وأقاما عند الشيخ بالرباط[٦] تسعة أشهر يَصُومان ويصليان وهو لا يعرفهما ، وكانا يتوقعان فرصةً ، وقال الشيخ لأصحابه : يوم الأربعاء تَحْدُثُ ها هنا حادثة عظيمة . وكان عنده ودائع الناس فردّها على أصحابها ، وقال لخادمه عبدالحميد : لك فيما يجرى ها هنا نصيب .

ولما كان يوم الجمعة جاء أحد الاثنين إلى الرباط فأغلق بابه ، وجاء الآخر إلى الشيخ فقال : يا سيدى ناولنى يدك لأقبلها ، فأعطاه يده فصافحه باليسار ، فقال : ويحك أين اليمين؟! . فقال : هو ذا ، فأخرج يده اليمنى وفيها السكين فضربه بها فى جوفه ،

---

(١) انظر ترجمته في : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٢٩٤ - ٢٩٥ ؛ الروضتين ، ج٢ ، ص١٣٧ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٨٢ ؛ العبر فى خبر من غبر ، ج٤ ، ص٢٥٤ .

(٢) هو محمد بن يوسف بن محمد بن قائد الملقب موفق الدين الإربلى . انظر ترجمته فى المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص٧٧ - ص٧٨ .

(٣) أَوَانَا : بليدة كثيرة البساتين والشجر ، نزهة من نواحى دُجَيْل بغداد ، بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من جهة تكريت . معجم البلدان ، ج١ ، ص٣٩٥ .

(٤) دُجَيْلُ : اسم نهر فى موضعين ، أحدهما مخرجه من أعلى بغداد ، بين تكريت وبينها ، مقابل القادسية دون سامرًا ، فيسقى كورة واسعة وبلاداً كثيرة منها ، أوانا وعُكبْرا والحظيرة وصريفين ، ثم تصبُّ فضلته فى دجلة أيضًا . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥٥٥ .

(٥) هو راشد الدين أبو الحسن سنان بن سليمان مقدم الإسماعيلية ت سنة ٥٨٨هـ . انظر ترجمته فى شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٩٤- ٢٩٥ .

(٦) الرباط : جمعها ربط . وهو دار يسكنها أهل طريق الله ، وهو بيت الصوفية ومنزلهم ، والمقيم فى الرباط على طاعة الله ينتظر الصلاة بعد الصلاة ، فالرباط جهاد النفس ، والمقيم فى الرباط مرابط مجاهد نفسه . انظر المقريزى : الخطط ، ج٢ ، ص٤٢٧ (ط . بولاق) .

وسقط ما فى بطنه بين يديه ومات ، وضرب الآخر عبدالحميد فقتله ، فوقع الصائح وهربا ، ومرابين البساتين على فلاح يسقى بُستاناً وبيده مَرٌّ[١] يعدل به [٦٤] الماء . فرآهما مُريبين ، فحمل على أحدهما فضربه بالمرّ ، ففلق رأسه فوقع ميتاً ، وحمل الآخر على الفلاّح فاتقاه بالمَرّ فقتله ، ثم وقف الفلاح يفكر ويقول : لم قتلت هذين وعليهما زىّ الفقر؟! ثم أنه لما سمع الصياح والصراخ جاء إلى الرباط فسأل ، مَن قتل الشيخَ ؟ قالوا : كان عنده فقيران من صفتهما كذا وكذا ، فقال : تعالوا فجاؤا ، فرأوهما مقتولين ، فتعجبوا وقالوا له : علمت الغيب . قال : لا والله ، بل أُلهمت إلهاماً . فأحرقوهما . وكان والى «أُوانا» شخصاً يقال له : مسعود الخادم ، غضب عليه الخليفة ، فاستصفى أمواله ومات تحت الضرب ، وألقى فى دجلة ، وكان عمر الشيخ حين قُتل قد جاوز التسعين والله أعلم .

خالص بن عبد الله ، خادم الإمام الناصر ولقبه مجاهد الدين ، مات فى هذه السنة ، وكان قريباً من الخليفة ، فسلم إليه مماليكه الخواص ، وكان سليم الصدر ديّنا[٢] .

صاحب تكريت عيسى بن مودود[٣] ، ويلقب بفخر الدين ، كانت له أخوة على وأرغش وغيرهما ، فاغتاله على فقتله ، وأظهر أن غلمانه قتلوه ، وكان حسَن السيرة جواداً لا يدخر شيئاً ، ولا يرد سائلاً ، ولا يخيب قاصداً ، وكان فاضلاً ، ومن شعره :

أرى الأيامَ محكوم عليها ... ولا حكم لها فعلامَ عَتبُ
فلا تتوهمن الأمر سهلاً ... والله إن الأمرَ صعب
قضاءُ اللّه مقدورٌ علينا ... ولكن فيه للإنسان كسبُ

أُسَامَةُ بن مُنْقِذ[٤] ، وهو أبو المظفر أسامة بن مُرشد بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى الكلبى الشّيْزرى ، الملقب مؤيد الدولة مجد الدين ، من أكابر بنى منقذ أصحاب قلعة شيزر وعلمائهم وشجعانهم ، له تصانيف عديدة فى فنون الأدب ، وله ديوان

(١) المَرُّ : آلة يعمل به الطين ، وتقلب به الأرض . محيط المحيط ، ج٢ ، ص١٩٦٥ ، مادة «مرر» .
(٢) النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص١٠٧ - ١٠٨ .
(٣) عيسى بن مودود هو : عيسى بن مودود بن على بن عبدالملك بن شعيب ، ويلقب بفخر الدين صاحب تكريت . انظر وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٩٨ - ص٥٠٠ .
(٤) وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٩٥ - ١٩٩ ، ترجمة ٨٤ ؛ النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص١٠٧ ؛ الروضتين ، ج٢ ، ص١٣٧ .

شعر فى جزءين ذكره ابن المستوفى[1] وأثنى عليه ، وعدّه فى جملة من ورد عليه وأورد له مقاطيع من شعره . وذكره العماد فى الخريدة[2] ، وقال بعد الثناء عليه سكن دمشق ثم انتقل إلى مصر ، فبقى بها مؤمراً يشار إليه بالتعظيم إلى أيام الصالح بن رُزيك ، ثم عاد إلى الشام ، وسكن دمشق ، ثم رماه الزمان إلى حصن كيفا ، فأقام بها حتى ملك السلطان صلاح الدين دمشق ، فاستدعاه وقد شيّخ فجاوز الثمانين .

وقال العماد[3] : وقد كنت أتمنى أبداً لقياه ، حتى لقيته فى صفر سنة إحدى وسبعين وسألته عن مولده ، فقال : يوم الأحد السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثمان وثمانين وأربع مائة بقلعة شيزر . وتوفى ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر رمضان سنة أربع وثمانين وخمسمائة بدمشق ، ودفن من الغد بجبل قاسيون . وتوفى والده أبو أسامة مرشد سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة .

وقال ابن خلكان[4] : ورأيت ديوانه بخطه ، ونقلت منه[5] :

لا تَستعرْ جَلَدا على هجرانهم	فقُواكَ تضعفُ[6] عن صُدودٍ دائمِ
واعلم بأنكَ إنْ رَجَعتَ إليهمُ	طوعاً وإلا عُدْتَ عَوْدَةَ رَاغمِ [٦٥]

وقال : ونقلت من خطه لنفسه ، وقد قلع ضرسه ، وقال : عملتهما ونحن بظاهر أخلاط ، وهو معنى غريب يصلح أن يكون لغزاً فى الضرس :

وصاحب لا أَملّ الدهْرَ صُحْبتَه	يَشْقى لِنفْعي ويَسعى سعى مُجتهدِ
لم أَلْقَه مُذ تَصاحَبْنا فحين بَدا	لناظِرَيّ افترقنا فُرقةَ الأَبدِ

ورُوى : مذ وقعَت عَيْنى عليه افترقنا فرقة الأبد[7] .

أبو محمد عبد الله بن على بن عبد الله بن سويدة التكرِيتى[8] : كان عالماً

(١) ابن المستوفى هو صاحب كتاب «تاريخ إربل» انظر : المختصر فى تاريخ البشر ، ج٣ ، ص٧٧ .
(٢) خريدة القصر وجريدة العصر ، ج١ ، ص٤٩٨ - ص٥٤٧ ، شعراء الشام .
(٣) خريدة القصر ، ج١ ، ص٤٩٩ ، شعراء الشام .
(٤) وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٩٩ .
(٥) وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٩٥-١٩٩ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٧٩-٢٨٠ .
(٦) «يضعف» كذا فى الأصل . والمثبت من وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٩٦ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٥٤ .
(٧) وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٩٥-ص١٩٩ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٧٩ - ٢٨٠ .
(٨) الكامل ، ج١٠ ، ص١٧٩ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٢ .

بالحديث وله تصانيف حسنة ، وهو شيخ ابن الأثير ، وقد ذكره فى هذه السنة وقال : توفى فيها شيخنا أبو محمد المذكور[١] .

علاء الدين يُتامِش[٢] : توفى بمصر ، وحمل تابوته إلى مشهد الحسين[٣] بن على رضى الله عنهما .

الأخلاطيّة زوجة الإمام الناصر : توفيت فى هذه السنة واسمها سلجوقى[٤] خاتون بنت قليج أرسلان بن مسعود صاحب الروم[٥] . وفى المرآة[٦] : قدمت بغداد فى سنة ثلاث وثمانين ، وحجت وعادت إلى حصن كيفا ، ومات زوجها فعادت إلى بغداد فى سنة أربع[٧] وثمانين ، فتزوجها الخليفة[٨] فحظيت عنده ، فحكَّمها فى داره ، وفى الحرائر والدولة . فتوفيت يوم الاثنين ثانى ربيع الأول فجأة ، وحزن عليها الخليفة حزناً لم يحزن رجل على امرأته مثله ، بحيث أقامت دورها ومقاصيرها سنين لم تفتح . وكانت كثيرة الصدقات والمعروف ، وبنت تربةً عند عون ومعين الدين[٩] ، ودفنت بها ، فبنى الخليفة إلى جانبها رباطاً للصوفية ، ووقف على التربة وعليه أوقافاً عظيمةً ، ونقل إلى التربة الكُتُب النفيسةَ ، وأمر الناسَ بالتردد إلى تربتها فى كل ليلة رجب ونصف شعبان ، ويحضر الوزير وأرباب الدولة والوُعاظ والفقهاء والقراء ، ويحضر الخليفة مختفياً فيجلس فى شباك ، ويتكلم الوُعاظ وينشد الشعراء من وقت العصر إلى غروب الشمس ، ويمضى الوزير وأرباب الدولة ، ويبقى الوعاظ والقراء يعظون بطول الليل ، فإذا كان وقت السحر فرقت فيهم الحلاوات الكثيرة ، والخشانك[١٠] وغير ذلك . وعمل لها سبيلاً يخرج عنها فى كل سنة تنفق فيه أموال كثيرة[١١] .

---

(١) انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص١٧٩ .
(٢) «تنامش» فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٧٩ .
(٣) الحسن» فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٧٩ . وهو خطأ .
(٤) «سلجوقة» فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٧٩ .
(٥) انظر ترجمتها فى ابن الساعى الخازن البغدادى ، نساء الخلفاء ، دار المعارف بمصر (مجموعة ذخائر العرب ٢٨) ، (بدون) ص١٧ ، ص١١٥ - ص١١٩ .
(٦) هذا الخبر من أحداث السنتين الساقطتين من مرآة الزمان .
(٧) «أربعة» كذا فى الأصل . والصحيح ما أثبتناه .
٨) المقصود «الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد» .
(٩) المقصود مشهد «عون ومعين» ولدا على بن أبى طالب ﷺ » انظر : ابن الساعى ، نساء الخلفاء ، ص١١٧ .
(١٠) الخشانك : انظر ما سبق ج١ ، ص١١٥ ، حاشية (٦) .
(١١) ابن الساعى ، نساء الخلفاء ، ص١١٥ - ص١١٩ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الخامسة والثمانين بعد الخمسمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة الناصر لدين الله ، والسلطان صلاح الدين يوسف مقيم على عكّا ، والأمر مستقيم . فوصل إليه جماعة من مصر ، فأمرهم بالإقامة فيها محافظة على الحماية ، وأمر بهاء الدين قراقوش بإتمام بناء السور ، وولى الأمير حسام الدين بشارة بعكا والياً ، ثم خرج السلطان وسار على طبريّة ودخل دمشق مستهل صفر من هذه السنة[1] .

وفى تاريخ بيبرس[2] أن السلطان قدم عكا فى أول هذه السنة ، والصحيح أن السنة دخلت وهو مقيم على عكا .

وذكر صاحب النوادر[3] أنه كان مع السلطان ، وأنه وصل إلى عكا فى أواخر ذى الحجة من السنة الماضية ، [٦٦] وأنه أقام بعكا معظم المحرم من سنة خمس وثمانين وخمسمائة . ثم سار حتى دخل دمشق فى مستهل صفر منها ، وأقام حتى دخل ربيع الأول ، وفيه جاء رسل الخليفة إليه كما نذكره إن شاء الله تعالى[4] .

ذكر خروج السُّلطان صَلاح الدين لأهل شقيف أرنون

قال ابن كثير[5] : أقام السلطان شهر صفر فى دمشق ، ثم خرج منها فى ثالث ربيع الأول يوم الجمعة ، وأتى مرج برغوث[6] وأقام به إلى يوم السبت حادى عشر الشهر ، ثم رحل على سَمْت بَانياس[7] ، وأتى مرج عيون وخيّم بقرب الشقيف ، وذلك يوم الجمعة

(*) يوافق أولها ١٩ فبراير ١١٨٩م .

(١) الفتح القسى ، ص٢٧٦ ؛ النوادر السلطانية ، ص٩٦ .

(٢) ورد هذا النص بتصرف فى الفتح القسى ، ص٢٧٦ ؛ الروضتين ، ج٢ ، ص١٣٨ .

(٣) يعتبر ابن شداد شاهد عيان لهذا الحدث .

(٤) نقل العينى هذا النص بتصرف من النوادر السلطانية ، ص٩٦ - ص٩٧ .

(٥) لم يرد هذا النص فى البداية والنهاية فى أحداث سنة ٥٨٥ وإنما ورد بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص١٨٠ ؛ النوادر السلطانية ، ص٩٧ ؛ الفتح القسى ، ص٢٨٥ ؛ الروضتين ، ج٢ ، ص١٣٩ ؛ مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٢٨٢ - ص٢٨٣ ؛ زبدة الحلب ، ج٣ ، ص١٠٨ - ص١١٠ .

(٦) مرج برغوث : هى جهة على الطريق بين دمشق وجسر يعقوب . انظر : السلوك ، ج١ق٢ ، ص٥٨٥ ، حاشية ٣ .

(٧) ينقل العينى هذا النص بتصرف من الفتح القسى ، ص٢٨٥ .

سابع عشر ربيع الأول ، وكان الشقيف فى يد صاحب صيدا «أرناط»[(١)] ، فنزل إلى خدمة السلطان وبذل له تسليم الشقيف بعد مدة ضربها ، خديعةً منه . فلما بقى للمدة ثلاثة أيام استحضره السلطان ، فقال له فى التسليم ، فقال : لا يوافقنى عليه أهل الحصن ، فأمسكه السلطان وبعث به إلى دمشق فحبس به ، ثم تحول السلطان من مخيّمه إلى أعلى الجبل يوم الأربعاء الثامن من رجب لمحاصرة الحصن ، ورتّب لها عدة من الأمراء وأمرهم بملازمته فى الصيف والشتاء إلى أن تسلمه بعد سنة بحكم السَلْم ، وأطلق صاحبه وأجرى عليه حكم الحِلْم .

وفى تاريخ بيبرس :[(٢)] لما نزل إلى السلطان صاحب الشقيف ، وهو أرناط صاحب صيدا ، أظهر الطاعة والمودة وقال : أنا محبّ لك ومعترف بإحسانك ، وأخاف أن يعرف المَركيسُ صاحب صُورَ ما بينى وبينك ، فينال أولادى وأهلى منه أذىً فإنهم عنده ، وأشتهى أن تمهلنى حتى أتوصل إلى تخليصهم ، وحينئذ أحضر أنا وإياهم إلى خدمتك ونسلم الحصنَ ، وأكون فى خدمتك ونقنع بما تعطنا من إقطاع ، فظن صدقه فأجابه إلى ما سأل . وأقام بمرج عيون ينتظر الميعاد وهو قلق مُفكرٌ لقرب المدة - أعنى مدة المهادنة - التى بينه وبين صاحب أنطاكية ، فأمر تقى الدين ابن أخيه أن يسير فيمن معه من عساكره وعساكر الشرق ، ويكون مقابل أنطاكية لئلا يغير صاحبها على بلاد الإسلام عند انقضاء مدّة الهدنة ، وكان بلغه أن الفرنج اجتمعوا بمدينة صُور ، وما يتصل بهم من الأمداد فى البحر ، وأن صاحب عَسقلان الذى كان أسَره ومَنّ عليه اجتمع مع المركيس بصُور ، وأنهم خرجوا فى خلق لايحصى ، وكان يخشى أن يترك الشقيف وراء ظهره ويتقدم إلى صور ، وفيها الجموع المتوفرة فتقطع الميرة عنه ، وكان أرناط صاحب الشقيف مجتهداً فى تحصينه وتحصيل ما يُقويه من الأقوات والسلاح ، وبلغ ذلك الناصر ، فأحضره قبل انقضاء المدة ، فقال له : تُسَلم الحصن . فاعتذر ، وذكر ما ذكرناه الآن[(٣)] .

---

(١) هو أرناط صاحب صيدا . انظر :

Reynold Garnier : Lord of Sidon and Beaufort

وعن سياسته لعقد هذه الهدنة راجع مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٢٨٢ ؛ وانظر

Runciman: History of the Crusades, v.2, p. 469-470

وهو رينالد ويعرف بريجنالد صاحب صيدا . انظر : الباز العرينى الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، ص٨٧٠ ، القاهرة ، ١٩٦٣ .

(٢) من الملاحظ أننا لم نحصل على تاريخ بيبرس ، لهذا استعنا بالمصادر الأخرى وخاصة النويرى ، نهاية الأرب فى فنون الأدب ، ج٢٨ ، ص٤١٣ ، حيث ينقل عن بيبرس فى أغلب الأحيان .

(٣) الكامل ، ج١٠ ، ص١٨٠ - ص١٨١ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص٤١٣ -ص٤١٤ ؛ الروضتين ، ج٢ ، ص١٤٠ .

وقال صاحب النوادر[١] : نزل صاحب الشقيف بنفسه ، فما حسسنا به إلا وهو قائم على باب خيمة السلطان ، فأذن له ، فدخل واحترمه وأكرمه ، وكان من كبار الإفرنج وعقلائها ، وكان يعرف بالعربية وعنده [٦٧] إطلاع على شىء من التواريخ والأحاديث . قال : وبلغنى أنه كان عنده مسلم يقرأ له ويُفهمه ، وكان عنده تَأتَ[٢] ، فحضر بين يدى السلطان ، وأكل معه الطعام ، ثم خلابه وذكر أنه مملوكه ، وأنه تحت طاعته وأنه يُسلم المكان إليه من غير تعب ، واشترط أن يعطى موضعاً يسكنه بدمشق ، فإنه بعد ذلك لايقدر على مساكنة الإفرنج ، وكان قد تردد إلى الخدمة ثلاثة أشهر من تاريخ اليوم الذى أتى إليه ، وكان كل وقت يناظرنا فى دينه ، ونناظره فى بطلانه ، وكان حسن المحاورة ، متأدباً فى كلامه .

ذكرُ مَا تجدَّد للسُلطان مُدّة إقامته بمرج العُيُون من الأحوال

وبلغه أنه اجتمع مَن كان سلم من الإفرنج على ملكهم الذى خلص من الأسر ، وقالوا : نحن فى جمع خارج عن الحصر ، وقد تواصلت إلينا أمداد البحر ، فانهض بنا إلى إزالة هؤلاء عنّا ، وجاء من كان بطرابلس وخيّموا على صُور ، وجرت بين المركيس المقيم بها وبين الملك مراسلات ، فلم يمكنه من دخول البلد ثم احتج بأنه من قَبَل الملوك الذين من وراء البحر ، وأنه منتظر لما تُبرمونه من الأمر ، ثم اتفقوا على أن يقيم المركيس بصور ، وأنهم يجتمعون على حرب المسلمين ، وقتالهم ، ويتساعدون على رَمّ ما تشعث من أحوالهم ، ويقصدون بلداً إسلامياً من الساحل ، والمركيسُ يَمدهم من صُور بالمدَد بَعد المدَد ، وبجميع ما يحتاجون إليه من الميرة والأسلحة والعُدَد ، ووصل هذا الخبر يوم الاثنين السابع عشر من جمادى الأولى من اليزك ، قالوا أن جمع الفرنج قد نهض كاليل المعتكر ، وأنهم على قصد صيدا للحصر ، فركب السلطان فى الحال ، فقبل وصول السلطان ، اتقعت اليزكية بهم ، فكسرتهم وأسروا منهم سبعة من سباعهم ، واستشهد من المماليك الخواص أيبك الأخرش[٣] ، وقد كان شجاعاً شهماً ، وانفصلت الحرب قبل وصول السلطان .

---

(١) النوادر السلطانية ، ص٩٧ ويستشف من هذا النص أن بعض الأمراء الصليبيين فى بلاد الشام قد تأثروا بالثقافة العربية الإسلامية ، فأصبحوا بعضهم يحاول التحدث باللغة العربيه .
(٢) تَأتَ : كرر التَّاءَ إذا تكلم ، لعيب فى نطقه . المعجم الوجيز ، ص٧١ .
(٣) «الأخرس» فى الأصل والمثبت من الفتح القسى ، ص٢٩٠ ؛ النوادر السلطانية ، ص٩٨ .

وعاد السلطان إلى خيم ضربت له بقرب اليزك ، وأقام إلى يوم الأربعاء تاسع [عشر][١] الشهر ، وركب فى ذلك اليوم ليطلع من الجبل على القوم ، ولم يكن له نية القتال ، فلم يستصحب معه من يستظهر به من الرجال ، وتبعه خلق كثير من غزاة البلاد بغير علمه ، وظنوا أن السلطان إنما ركب للقتال وعلى عزمه ، وكان الفرنج قد بصروا بالقوم ، فطمعوا فيهم ، [وأنفذ][٢] السلطان بعض الأمراء إلى الغزاة الرجالة ليعودوا ، فما قبلوا ، وحمل عليهم العدو فأسروهم وقتلوهم ، وختم الله لهم بالشهادة ، وحمل الحاضرون من الأمراء والعسكر على الإفرنج حملةً واحدةً ، وتزاحموا على الجسر ، فغرق منهم زهاء ثمانين فى النهر . والحرب سجال ، فيوم لنا ، ويوم علينا ، ولم يكن لأولئك الغرقاء[٣] بقتال الفرنج دُرْبة . وممن لقى الله بالشهادة ، وختم له بالسعادة ، الأمير غازى بن سعد الدولة بن مسعود بن البَصّار[٤] [٦٨] وكان شاباً شجاعاً ، فلم يُصِب الكفار من المسلمين منذ أصيبوا غير هذه الكرّة[٥] .

وفى النوادر[٦] : لما كان يوم الاثنين السَابع عشر من جمادى الأولى بلغ السلطان من جانب اليَزك أن الفرنج قد قطعوا الجسر الفاصل بين أرض صور وأرض صيدا ، وهى الأرض التى نحن عليها ، فركب السلطان وصاح الجاووش بالناس ، فركب العسكر يُريدون نحو اليَزك ، فوصل العسكر وقد انفصلت الوقعة ، وذلك أن الفرنج عبر منهم جماعة الجسر ، فنهض لهم اليزك الإسلامىّ ، وكانوا فى عدة وقوة ، فقاتلوهم قتالاً شديداً ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وجرحّوا أضعاف ما قتلوا ، ورموا فى النهر جماعة ، فغرقوا ، ولم يقتل من المسلمين إلا مملوك السلطان ، يعرف بأيبك الأخرش ، وكان شجاعاً باسلاً ، مجرباً للحرب [فارسا][٧] ، تقنطر به فرسُه ، فلجأ إلى صخرة ، فقاتل بالنشاب حتى فنى ، ثم

(١) ما بين الحاصرتين مثبت من الفتح القسى ، ص٢٩٠ ؛ النوادر السلطانية ، ص٩٩ .
(٢) «ونفذ» فى الأصل والمثبت من الفتح القسى ، ص٢٩٠ .
(٣) «الغرباء» فى الفتح القسى ، ص٢٩١ .
(٤) «ابن البيطار» فى الروضتين ، ج٢ ، ص١٤١ ، أما بقية المصادر فقد اتفقت مع ماورد فى المتن .
(٥) نقل العينى هذه الأحداث من ، الفتح القسى ، ص٢٨٩ - ص٢٩١ .
(٦) النوادر السلطانية ، ص٩٨ - ٩٩ .
(٧) «ممارسا» كذا فى الأصل والمثبت من النوادر ، ص٩٩ .

بالسيف حتى قتل جماعةً ، ثم تكاثروا عليه فقتلوه ، وَوَجَدَ السلطان عليه لمكان شجاعته ، وعاد السلطان من الوقعة إلى مخيّم ضرب له قريب المكان ، وأقام هناك إلى يوم الأربعاء تاسع عشر جمادى الأولى المذكور ، وركب يتشوف على القوم ــ على عادته ــ فتبعه خلق عظيم من الرجّالة والغزاة والسُوقة ، وأمرَ السلطان بردهم ، فلم يرتدوا ، وذلك لأن المكان كان صعباً ليس للرجالة فيه ملجأ ، ثم هجم الرجالة على الجسر ، وناوشوا العدوّ ، وعبر منهم جماعة إليهم ، وجرى بينهم قتال شديد ، واجتمع من الفرنج خلق كثير ، فحملوا عليهم حملة واحدةً على غِرةً من السلطان ، فإنه كان بعيداً منهم ، ولم يكن معه عسكر ، وأسروا من المسلمين جماعةً وقتلوا جماعةً ، وعُدّ من كان قتل من الرجالة فى ذلك اليوم ، فكانوا مائة وثمانين نفراً ، وقتل من الفرنج أيضاً عدّة عظيمة ، وغرق أيضًا منهم عدة ، وكان ممن قتل منهم مقدّم الألمانية(١) ، وكان عندهم عظيماً .

ذكر مسير السُلطان جريدة إلى عكا

ولما رأى السلطان ما حلّ بالمسلمين فى تلك الوقعة النادرة ، جمع أصحابه وشاورهم وقرّر معهم أن يهجم على الفرنج ، ويعبُر الجسر ويقاتلهم ويستأصل شأفتهم ، وكان الفرنج قد رحلوا عن صُور ، ونزلوا قريب الجسر ، وبين الجسر وصور مقدار فرسخ أو أزيد منه بشىء يسير ، فلما صمم العزم على ذلك ، أصبح فى يوم الخميس السابع والعشرين من جمادى الأولى على ذلك ، وركب وسار وتبعه الناس والمقاتلة والعساكر ، ولما وصل أواخر الناس إلى أوائلهم وجدوا اليزك عائدا ، وخيامهم قد قلعت ، فسئلوا عن سبب ذلك ، فذكروا أن الإفرنج رحلوا راجعين إلى صُور ملتجئين إلى سورها ، معتصمين بقربها ، ولما رأى السلطان ذلك منهم رأى أن يسير إلى عكا ليلحظ ما بُنى من سورها ، ويحث على الباقى ، ويعود فراح على تبنين ولم يرجع على مرج عيون ، فمضى إلى عكا ورتب أحوالها ، وأمر بتتمة[٦٩] عمارة سورها ، وأمر بالاحتياط ، ثم عاد إلى العسكر المنصور إلى مرج عيون ، وأقام منتظرًا مهلة صاحب الشقيف(٢) .

---

(١) المقصود بمقدم الألمانية فى هذا الحدث فردريك برباروسا إمبراطور الدولة الغربيه . انظر المقريزى ، السلوك ، ج١ق١ ، ص١٢٩ ، حاشية٥ .

(٢) انظر النوادر السلطانية ، ص١٠٠ .

ذكر وقعة أخرى

ولما كان يوم السبت السادس من جمادى الآخرة بلغ السلطان أن جماعةً من رجَّالة العدو يتبسطون ويَصلون إلى تبنين[1] يحتطبون ، وفى قلبه من ما جرى على رجالة المسلمين شيء عظيم ، فرأى أن يقرر قاعدة وكمين يرتبه لهم ويأخذهم فيه ، ثم بلغه أن وراءهم خيل يحفظونهم ، فعمل كمينا يصلح للقاء الجميع ، ثم أنفذ إلى عسكر تبنين وتقدم إليهم أن يخرجوا فى نفر يسير مُتغيرين على تلك الرجالة ، وأن خيل العدو إذا تبعتهم ينهزمون إلى جهة عيّنها لهم ، وأن يكون ذلك صبيحة يوم الاثنين الثامن من جمادى الأخرى ، وأرسل إلى عسكر عكا أن يسيروا حتى يكونوا وراء عسكر العدوّ حتى إن تحركوا فى نصرة أصحابهم قصدوا خيمهم ، وركب هو وجحفله سحر يوم الاثنين شاكين فى السلاح متجردين ، ليس معهم خيمة إلى الجهة التى عينها لهزيمة عسكر تبنين ، وسار حتى قطع تبنين ، ورتب العسكر ثمانية أطلاب ، واستخرج من كل طُلْب عشرين فارسًا من الشجعان الجياد الخيل ، وأمرهم أن يتراءوا للعدو حتى يظهروا إليهم ويُناوشوهم وينهزمون بين أيديهم حتى يصلوا إلى الكمين ، ففعلوا ذلك ، وظهر لهم من الفرنج معظم عسكرهم مقدّمهم الملك ، [وكان][2] قد بلغهم الخبرُ ، فتعبوا تعبية القتال ، وجرى بينهم وبين هذه السريّة اليَسيرة قتال شديد ، والتزمت السرية القتال ، وأنفوا عن الانهزام بين أيديهم ، وحملتهم الحميّة على مخالفة السلطان ، واتصل الحرب بينهم إلى آخر النهار ، ولم يرجع منهم أحد إلى العسكر ليخبرهم بما جرى .

واتصل الخبر بالسلطان فى آخر الأمر وقد هجم الليل ، فبعث إليهم بعوثا كثيرة ، ولما علم الفرنج بأوائل المدد عادوا منهزمين ناكصين على أعقابهم بعد أن جرت مقتلة عظيمة من الجانبين ، وكان القتلى من الفرنج على ما ذكر من حضر زهاء عشرة أنفس ، ومن المسلمين ستة نفر اثنان من اليزك وأربعة من العرب ، منهم الأمير زامل[3] ،وكان شابا حسنًا ، مقدِّم عشيرته ، وكان سبب قتله أنه تقنطرت به فرسه ، ففداه ابن عمه بفرسه ، فتقنطرت به أيضا فرسُه ، وأسر هو وثلاثة من أهله .

---

(١) تبنين : بلدة فى جبال بنى عامر المطله على بانياس ، بين دمشق وصور . معجم البلدان ، جـ١ ، ص٨٢٤ .

(٢) «وكأنهم» كذا فى الأصل والمثبت من النوادر السلطانية ، ص١٠١ .

(٣) زامل : هو زامل بن تبَل بن مرّ بن ربيعة أمير النقرة . انظر الفتح القسى ، ص٢٩٤ .

فلما بَصَر الفرنج بمدد العسكر قتلوهم خشية الاستنقاذ، وجرح خلق كثير من الطائفتين وخيل كثيرة، وكان للسلطان مملوك يسمّى أيبك [الساقى][1] أثخن بالجراح حتى اندسّ بين القتلى وجراحاته تشخب دمًا، وبات ليلته أجمع على تلك الحالة إلى صبيحة يوم الثلاثاء، فتفقده أصحابُه فلم يجدوه، فَعرَّفوا السلطان فأنفذ من يكشف خبره، فوجدوه بين القتلى، فحملوه إلى المخيَّم، وعافاه الله، وعاد السلطان إلى المخيَّم يوم الأربعاء عاشر الشهر المذكور منصورا، فرحا مسرورا، جزاه الله خيرا[2] [٧٠] .

وقال ابن كثير[3] : وقتل مع زامل أمير العرب، الأمير حجىّ بن منصور بن ربيعة، والأمير مُطرف بن رفيع بن مُرّ بن ربيعة وآخر معهم[4] .

ذكر مسير الإفرنج إلى عكا والنزول عليها ورحيل السلطان إلى قِبَالتِهم

ولما وصل الخبر إلى السلطان أن العدو قد ركب نحو عكا، وذلك يوم الأربعاء ثامن رجب، وكان قد اجتمع بصور من أهل البلاد، التى أخذها السلطان بالأمان، خلق عظيم حتى صاروا فى عالم لا يحصون كثرة، وأرسلوا إلى البحر يبكون ويستنجدون وصوّروا صورة المسيح وصورة عربىّ يضرب المسيح وقد أدماه، وقالوا : هذا نبى العرب يضرب المسيح، فخرجت النساء من بيوتهن ووصل من الفرنج فى البحر عالم لا يحصون كثرة، وساروا إلى عكا من صور ونازلوها فى منتصف رجب، وضايقوا عكا، وأحاطوا بسورها من البحر إلى البحر، ولم يبق للمسلمين إليها طريق فسار إليهم السلطان[ونزل][5] قريبا من الإفرنج بمرج عكا على تل كيسان[6] .

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة من الفتح القسى، ص٢٩٥ .

(٢) ورد هذا النص فى النوادر السلطانية، ص١٠٠ـ ١٠١ ؛ الروضتين، جـ٢، ص١٤١ .

(٣) بالبحث فى البداية والنهاية لابن كثير لم نجد النص الذى ذكره العينى . ويبدو أن العينى أخطأ فى نسبة النص إلى ابن كثير . فالنص من الفتح القسى، ص٢٩٤ .

(٤) نقل العينى هذا النص بتصرف من الفتح القسى، ص٢٩٤ .

(٥) «ونازل» فى الأصل . والمثبت من النوادر السلطانية، ص١٠٤ .

(٦) انظر هذه الأحداث فى الفتح القسى، ص٢٩٦ ؛ النوادر السلطانية، ص١٠٤ ؛ ابن العديم : الزبدة، ج٣، ص١١٠ ؛ مفرج الكروب، ج٢، ص٢٨٨ ـ ٢٨٩ ؛ نهاية الأرب، ج٢٨، ص٤١٦ .

وقال صاحب النوادر(١) : كتب السلطان إلى سائر أرباب الأطراف بأن يتقدموا إلى العساكر الإسلامية بالمسير إلى المخيّم ، وقال : سار السلطان بالليل وأصبح صبيحة يوم الاثنين الثالث عشر من رجب سائرا إلى عكا من طبرية ، إذ لم يكن ثمة طريق يتسع العسكر إلا هو ، وسيّر جماعةً على طريق تبنين يَستشرفون العدو ، ويواصلون بأخبارهم ، قال : وسرنا حتى أتينا الحُولة(٢) منتصف النهار ، فنزل بها ساعة ثم رحل ، وسار طول الليل حتى أتى موضعا يقال له : مُنْية صَباح يوم الثلاثاء الرابع عشر من رجب .

وفيه بلغنا أن الإفرنج نزلوا على عكا يوم الاثنين ثالث عشر من رجب .

وسار هو جريدة من المنية حتى اجتمع ببقية العسكر الذين كان أنفذهم على طريق تبنين بمرج صَفُورية ، فإنه كان واعدهم إليه ، ولم يزل حتى شارف العدوّ من الخروبة(٣) وبعث بعض العسكر ، فدخل عكا على غرة من العدو تقوية لمن فيها ، ولم يزل يبعث [إليها](٤) بعثا بعد بعث حتى حَصَّل [فيها](٥) خلق كثير ، وعدد وافر ، ورتب العسكر ، ميمنةً وميسرة وقلبا ، وسار من الخروبة ، وقد كان نزل عليها يوم الأربعاء خامس عشر الشهر ، فسار منها حتى أتى تلا يقال له : تل كيسان فى أوائل مرج عكا ، فنزل عليه وأمر الناس أن ينزلوا على هذه التعبئة ، وكان آخر الميسرة على طرف النهر الحلو ، وآخر الميمنة يقارب تل العياضية(٦) ، واحتاط العسكر الإسلامى المنصور بالعدو المخذول ، وأخذوا عليهم الطرق من الجوانب ، وتلاحقت العساكر الإسلامية واجتمعت ، ورتب اليزك الدائم والجاليش(٧) فى كل يوم مع العدو ، وحُصر العدو فى خِيامهم من كل جانب ، بحيث لا يقدر أن يخرج منها واحد إلا ويجرح أو يقتل .

---

(١) النوادر السلطانية ، ص١٠٤ .

(٢) الحُولَة : اسم لناحيتين بالشام ، إحداهما من أعمال حمص ثم من أعمال بَارين بين حمص وطرابلس . والأخرى كورة بين بانياس وصور من أعمال دمشق . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٦٦ .

(٣) الخَرُّوبة : حصن بساحل الشام مشرف على عكا . معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٤٢٨ .

(٤) ما بين الحاصرتين مثبت من النوادر ، ص١٠٤ .

(٥) فى الأصل «فيه» والتصحيح من النوادر السلطانية ، ص١٠٤ .

(٦) تل العياضية : هو تل قبالة تل المصلبين ، مشرف على عكا . النوادر السلطانية ، ص١٠٨ .

(٧) الجاليش : راية عيمة فى رأسها خصلة من الشعر تحمل فى مواكب السلطان لا سيما المواكب الخاصة بالحرب . السلوك ، ج١ق٢ ، ص٦٢٨ ، النجوم الزاهرة ، ج٧ ، ١٠١ .

وكان معسكر العدوّ المخذول على شطر من عكا، وخيمة ملكهم على تل المصلبين[١] قريبا من باب البلد، وكان عدد راكبهم ألفى فارس، وعدد راجلهم ثلاثين ألفا، ومددهم من البحر لا ينقطع، وجرى بينهم وبَيْن اليزك مقاتلات عظيمة متواترة، والبُعوث تتواصل من المسلمين والملوك والأمراء من الأقطار متتابعة، فأول[٧١] من نزل واصلا الأمير الأجل الكبير [مظفر الدين بن زين الدين، ثم قدم بعده الملك المظفر][٢] تقى الدين صاحب حماة فى جحفله، وتتابعت الأمراء والعساكر الإسلامية.

وفى أثناء هذا الحال توفى حسام الدين سنقر الخلاطى بإسهال شديد، فأسف عليه المسلمون أسفا شديدًا، فإنه كان شجاعا ديّنا، ثم أن الفرنج تكاثروا، واستفحل أمرهم واستداروا بعكا بحيث منعوا من الدخول والخروج منها، وذلك يوم الخميس سلخ رجب.

فلما رأى السلطان ذلك ضاق صدره، وثارت همته العالية لفتح الطريق إلى عكا؛ ليستمر السابلة[٣] إليها بالميرة والنجدة، فاستحضر أمراءه وأصحاب الرأى، وشاورهم فى مضايقة القوم، واتفقوا على أن يضايقوا بحيث ينفصل الأمر بالكلية، أويفتح الطريق إلى عكا[٤].

ذِكرُ قيام الحرب لأجل فتح الطريق

ولما أصبح نهار الجمعة مستهل شعبان من هذه السنة، أصبح السلطان على عزم القتال، فرتب عسكره ميمنةً وميسرة وقلبا، واتفقوا على أن تكون الملاقاة وقت الصلاة والخطباء تخطب، وهو وقت قبول الدعوات، فحملوا حملات عظيمة، وهم كالسَور المحيط ما عليه متسلق، والمسلمون كالبنيان المرصوص ما فيه خلل، وكالحلقة المفرغة ما إليها مدخل، فلم يتحرك الملاعين من موضعهم، ودامت الحرب بينهم، وكلما قتل واحد وقف آخر مكانه، حتى دخل الليل وحجز بينهم، فأصبحوا يوم السبت على الحرب كما أمسوا، واشتدت الحرب أكثر مما كان، وأنفذ السلطان طائفة من شجعان المسلمين إلى البحر من شمالى عكا، فلم يكن هناك [للعدو][٥] خيم، لكن

(١) «تل المصْلبة» فى الفتح القسى، ص٣٠٥.
(٢) ما بين حاصرتين إضافة للإيضاح من: النوادر السلطانية، ص١٠٥؛ الفتح القسى، ص٢٩٩.
(٣) السَّابلة: فى اللغة الطريق المسلوك و المارُّون عليه. المعجم الوسيط، مادة س. ب. ل، ص٤٣٠.
(٤) ينقل العينى هذا النص بتصرف من النوادر، ص١٠٣ - ١٠٥؛ انظر أيضا، الفتح القسى، ص٢٩٦ - ٣٠٣.
(٥) ما بين الحاصرتين مثبت من النوادر السلطانية، ص١٠٦.

عسكرهم ممتدة من كل ناحية ، فحمل المسلمون عليهم حملة صادقةً ، فانهزموا إلى تَلّ المصلّبين نحو القبة ، وأخلوا ذلك الجانب ، وانفتح الطريق إلى عكا من [باب][(١)] القلعة المسماة بقلعة الملك إلى باب قراقوش الذى جدده . وصار الطريق مهيعا[(٢)] يمرّ فيه السوقى ومعه الحوائج ، ويمر به الرجل الواحد والمرأة ، واليزك بين الطريق وبين العدو .

ودخل السلطان ـ رحمه الله ـ فى ذلك اليوم عكا ، ورقى على السُور ، ونظر إلى عسكر العدو ، وفرح المسلمون بنصر الله ، وخرج العسكر الذين كانوا بها إلى خدمة السلطان ، ثم استدار العسكر الإسلامى حول العسكر الإفرنجى ، وأحدقوا بهم من كل جانب[(٣)] .

ذِكرُ الوقعة العُظمى

ولما كان يوم الأربعاء العشرين من شعبان[(٤)] من هذه السنة ، برزت الإفرنج بأجمعهم ، وضربوا مع السلطان مصافًا ، وحملوا على القلب ، فأزالوه وأخذوا يقتلون فى المسلمين إلى أن بلغوا خيمة السلطان ، فانحاز السلطان إلى جانب ، وانضاف إلى جماعة ، وانقطع مدد الفرنج ، واشتغلوا بقتال الميمنة ، فصاح السلطان : يآل الإسلام ، فركبت الناس بأجمعهم ، وحمل السلطان على الفرنج الذين خرقوا القلب ، وانعطف عليهم العسكر ، فأفنوهم قتلاً ، وكان كل واحد من المسلمين قتل أربعين أو خمسين من الفرنج ، وكان قتلى الفرنج تقدير عشرة آلاف ، ووصل المنهزمون من المسلمين بعضهم إلى طبرية ، وبعضهم وصل إلى دمشق ، ولم يكن وقف من المسلمين ثابتين غير نحو ألف نفس ، فردّت مائة ألف . وجافت الأرض بعد هذه[٧٢] الوقعة من قتلى الفرنج ، فلحق السلطان مرض وحدث له قولنج ، فأشار عليه الأمراء بالانتقال من ذلك الموضع ، فوافقهم ورحل عن عكا رابع عشر رمضان إلى الخروبة ، فلما رحل السلطان تمكن الفرنج حينئذ من حصار عكا ، وانبسطوا فى تلك الأرض ، ولم يعلم السلطان أن ذلك كان من

---

(١) «بين» كذا فى الأصل والمثبت من النوادر السلطانية ، ص١٠٦ .

(٢) مهيع : واسع . انظر ابن منظور : لسان العرب ، مادة «هيع» . جـ١٠ ، ص٢٥٨ .

(٣) ورد هذا النص بتصرف فى النوادر السلطانية ، ص١٠٦ ؛ الفتح القسى ، ص٣٠٠ ـ ص٣٠٣ ، الروضتين ، جـ٢ ، ص١٤٢ ـ ص١٤٣ .

(٤) اختلفت المصادر فى تحديد تاريخ الوقعة ، فقد ذكر ابن شداد أن الوقعة حدثت يوم الأربعاء الحادى والعشرون ، كما ذكر ابن العديم أن الوقعة حدثت يوم الجمعة الثالث والعشرين ، كما يبدو أن العينى هو أقرب إلى الصواب ، فهو يتفق فى التاريخ مع ابن الأثير والعماد الذى كان شاهد عيان على هذه الوقعة .
انظر النوادر السلطانية ، ص١٠٩ ؛ زبدة الحلب ، جـ٣ ، ص٨٥٧ ؛ الكامل جـ١٠ ، ص١٨٦ ؛ الفتح القسى ، ص٣٠٨ .

أكبر المصالح للعدو المخذول ، فإنهم اغتنموا هذه الفترة ، فحفروا حول مخيّمهم خندقا يجمعُ جيشهم من البحر إلى البحر محدقًا ، واتخذوا من ترابه سورًا شاهقًا ، وجعلوا له أبوابا يخرجون منها إذا أرادوا ، وتمكن الأمر وقوى الخطب[1] .

وقال صاحب النوادر[2] : مشاهدة عن أخبار هذه الوقعة العظيمة وملخصه أنه لما كان يوم الأربعاء الحادى والعشرين من شعبان تحركت عساكر الإفرنج ، واصطفوا خارج خيامهم : قلبًا وميمنة وميسرةً ، وفى القلب الملك وبين يديه الانجيل محمولا مستورًا بثوب أطلس مغطى ، يمسكه[3] أربعة أنفس أربعة أطرافه ، يسيرون بين يدى الملك .

وامتدت الميمنة فى مقابلة الميسرة التى لعسكر الإسلام من أولها إلى آخرها ، وكذا امتدت ميسرتهم فى مقابلة ميمنة المسلمين إلى آخره ، وملكوا رؤوس التلال ، وكان طرف ميمنتهم إلى النهر ، وطرف ميسرتهم إلى البحر . والسلطان رحمه الله رتب عسكره فى مقابلتهم ، فوقف هو فى القلب ، وفى الميمنة ولده الملك الأفضل ، ثم ولده الملك الظافر ، ثم عسكر المواصلة يقدمهم ظهير الدين بن البلنكرى[4] ، ثم عسكر ديار بكر فى خدمة قطب الدين بن نور الدين صاحب الحصن ، ثم حسام الدين بن لاچين صاحب نابلس ، ثم الطواشى قايماز النجمى ، وجموع عظيمة متصلين بطرف الميمنة ، وكان فى طرفها الملك المظفر تقى الدين بجحفله وعسكره ، وهو يطل على البحر .

وأما أوائل الميسرة : فكان مما يلى القلب سيف الدين على [بن أحمد][5] المشطوب من كبار ملوك الأكراد ومقدميهم ، والأمير مجلى وجماعة المهرانية والهكّارية ، ومجاهد الدين يرنقش[6] مقدم عسكر سنجار ــ وجماعة من المماليك ، ثم مظفر الدين بن زين الدين بجحفله وعسكره .

وأواخر الميسرة : كبار المماليك الأسدية ، كسيف الدين يازكج ، ورسلان بغا ، وجماعة الأسدية الذين يُضرب بهم المثل .

---

(١) ورد هذا النص بتصرف فى الفتح القسى ، ص٣١١ـ ص٣٢٤ ؛ الكامل ، جـ١٠ ، ص١٨٦ـ ص١٨٧ .
(٢) النوادر السلطانية ، ص١٠٩ .
(٣) «يمسك» كذا فى الأصل .والمثبت من النوادر السلطانية ، ص١٠٩ .
(٤) «البكنكرى» فى الروضتين ، جـ٢ ، ص١٤٤ ؛ «البلتكرى» فى مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٢٩٥ .
(٥) «سيف الدين على المشطوب على بن أحمد» كذا فى الأصل . والمثبت من النوادر السلطانية ، ص١١٠ .
(٦) «برنقش» كذا فى الأصل . والمثبت من النوادر السلطانية ، ص١١٠ .

وفى مقدم القلب الفقيه عيسى وجمعُه هذا ، والسلطان يطوف على الأطلاب بنفسه يحثهم على القتال ، ويدعوهم إلى النزال ، ويرغبهم فى نصرة دين الله .

ولم يزل القوم يتقدمون ، والمسلمون يقدمون حتى علا النهار ، ومضى منه مقدار أربع ساعات ، وعند ذلك تحركت ميسرة العدو على ميمنة المسلمين ، وأخرج لهم الملك المظفر الجاليش ، وجرى بينهم قلبات كثيرة ، وتكاثروا على الملك المظفر ـ وكان فى طرف الميمنة على البحر ـ فتراجع عنهم شيئا ، إطماعًا لهم لعلهم يبعدون عن أصحابهم ، فينال منهم غرضا ، فلما رآه السلطان قد تأخر ظن به ضعفا ، فأمده بأطلابٍ عدةٍ من القلب حتى قوى جانبه ، وتراجعت ميسرة العدو[٧٣] واجتمعت على تَلٍّ مشرف على البحر .

ثم جاءت منهم حملة على عسكر ديار بكر ، وكانت بهم غرة عن الحرب ، فلم يصبروا وانكسروا كسرةً عظيمة ، وسرى كسرهم إلى انكسار معظم الميمنة ، واتبع العدو المنهزمين إلى العياضيّة ، وصعدت طائفة منهم إلى خيم السلطان ، فقتلوا طشت دار[١] كان هناك . وفى هذا اليوم استشهد إسماعيل المكبِّس[٢] وابن رواحة[٣] . وأما الميسرة فإنها ثبتت ، فإن الحملة لم تصادمها .

وأما السلطان فإنه أخذ يطوف الأطلاب يُنهضهم ويحثهم على الجهاد ، وينادى فيهم «يآل الإسلام» ، ولم يبق معه إلا خمسة أنفس ، وهو يطوف على الأطلاب ، ويتخارق الصفوف ، ثم أوى إلى تحت التل الذى كان عليه الخيام . وأما المنهزمون ، فإنهم بلغوا إلى الأُقحوانة[٤] ، فقطعوا جسر طبريّة ، وقوم وصلوا إلى دمشق .

وأما المُتبعون فاتبعوهم إلى العياضيّة ، ثم رجعوا عنهم ، وقتلوا فى الطريق جماعة من الغلمان والخاربنديّة[٥] والساسة المنهزمين ، ثم جاءوا على رأس السوق ، فقتلوا

---

(١) الطشت دار : هو غلام الطشت خاناه ، والطشت خاناه هى بيت الطشت ، وهى لفظه عامية وصوابه الطست . وهى كلمة معرفة عن الفارسية ، وهى كل أنواع الأوانى الخاصة بالسلطان .انظر القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص١٠ ـ ص١١ .

(٢) هو : إسماعيل الصوفى الأرموى المكبس . الفتح القسى ، ص٣١٨ .

(٣) هو : الحسين بن عبدالله بن رواحة بن إبراهيم بن عبدالله بن رواحة أبو على الأنصارى الحموى ولد بحماة انظر ، ياقوت : معجم الأدباء ، جـ١٠ ، ص٣١٨ ، تحقيق ، فريد رفاعى .

(٤) الأقحوانة : موضع بالأردن من أرض دمشق على شاطئ بحيرة طبرية . انظر : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٣٣٤ .

(٥) الخاربنديّة : لفظ فارسى يعنى الحمّار أو المكارى .

جماعةً وقتل منهم جماعة أيضا فإن السوق كان فيه خلق عظيم ، ولهم سلاح . ثم لما رأوا أن الميسرة الإسلامية ثابتة علموا أن الكسرة لم تتم ، فعادوا منحدرين من التل يطلبون عسكرهم .

وأما السلطان فإنه كان واقفا تحت التلّ ومعه نفر يسير ، وهو يجمع الناس ليعُودوا إلى الحملة على العدو ، ولما رآهم نازلين من التل أرادُوا لقاءهم ، فصبّرهم السُلطان إلى أن ولّوا ظهورهم ، فحملوا عليهم ، وعاد الملك المظفر بجمعه من الميمنة ، وتراجع الناس من كل جانب ، فنصر الله الإسلام ، وظل الناس فى قتل وضرب وجرح ، إلى أن اتصل المنهزمون السالمون إلى عسكر العدو ، ثم رجع الناس عنهم بعد صلاة العصر ، يخوضون فى القتلى وهم فرحون مسرورون . وعاد السلطان إلى خيمته فى ذلك اليوم فرحا مسرورا ، فافتقدوا المسلمين ، فكان مقدارُ ما فقد من الغلمان والمجهولين مائة وخمسين نفرا ، ومن المعروفين استشهد ظهير الدين ـ أخو الفقيه عيسى ـ وكان قد وقع من فرسه ، وقتل عليه جماعة من أقاربه ، وقتل أيضا الأمير مجليّ ، هذا الذى قتل من المسلمين .

وأما من العدو فحرز سبعة آلاف نفر . قال الراوى[1] : ورأيتهم وقد حملوا إلى شاطئ النهر ليلقوا فيه ، فحرزتهم دون سبعة آلاف .

ثم أن السلطان سارع فى الكتب والرسل فى رَدّ المنهزمين من المسلمين ، حتى ردّوا البعض من عقبة فيق[2] . وكان الغلمان والحواشى نهبوا أموال الناس ، فأمر السلطان بجمع ذلك كله ، وأمر بالنداء بالوعيد والتهديد ، فأحضروا شيئا كثيرا حتى صار بين يدى السلطان مثل التل ، ثم أمر بردها على أصحابها ، وصار مَن عرف شيئا وأعطى علامته أعطاه ، وكان ذلك يوم الجمعة الثالث والعشرين من شعبان .

ثم تحول السلطان إلى موضع يقال له الخروبة ، وهو موضع قريب من مكان الوقعة ، ونزل هناك يوم السبت الرابع والعشرين منه ، ثم فى سلخ الشهر[٧٤] جمع أعيان عسكره وقال : إن هؤلاء الكفار قد نزلوا فى بلادنا ، ووطئوا أرض الإسلام ، ولابد من الاهتمام بقلع هؤلاء ، والله قد وجب علينا ذلك ، وأنتم تعلمون أن هذه عساكرنا وليس وراءنا نجدة

---

(١) يقصد بالراوى هنا ابن شداد .

(٢) عقبة أفيق ، والعامة تقول فيق ، وهذه العقبة ينزل منها إلى الأردن ، وهى عقبة طويلة . معجم البلدان ، ج١ ، ص٣٣٢ ـ ٣٣٣ .

ننتظرها سوى الملك العادل ، وهو واصل إن شاء الله ، وهذا العدو إن بقى وطال أمره إلى أن ينفتح البحر جاءهم مدد عظيم ، والرأى كل الرأى عندى مناجزتهم ، فليتكلم كل منكم ما عنده فى ذلك ، وكان ذلك فى ثالث عشر تشرين من الشهور الشمسية ، فامتخضت الآراء ، ثم اتفقت أن المصلحة تأخير العسكر إلى الخروبة لتتراجع أنفسهم إليهم ، فقد أخذ منهم التعب ، واستولى على نفوسهم الضجر ، ولهم خمسون يوما تحت السلاح وفوق الخيل ، والخيل قد ضجرت من عَرْك اللُّجم ، وسئمت نفوسها ذلك ، ويصل الملك العادل ويشاركنا فى الرأى ، فوافقهم السلطان على ذلك لكونه قد حصل له مرض من كثرة ما حمل على قلبه ، وما عاناه من التعب وحمل السلاح ، فأقام هناك منتظرا أخاه الملك العادل إلى يوم الاثنين عاشر رمضان[(١)] .

ثم أن السلطان أرسل إلى مصر يطلب أخاه العادل ، ويستعجل الأصطول ، فوصل إليه الأسطول فى خمسين قطعة مع الأمير حسام الدين لؤلؤ ، وكان مظفرا شجاعا ، وظفر ببُطسة للفرنج ، فأخذها ودخل بها إلى عكار ، فقويت قلوب المسلمين لذلك ، وكذلك وصل الملك العادل بعسكر مصر فى منتصف شهر شوال[(٢)] .

وقال العماد : وكان وصول الأصطول المنصور من مصر يوم الثلاثاء السادس عشر من ذى القعدة فى المراكب المستعدة بالبأس والشدّة ، وكانت عدته خمسين شينيًا ، فأول ما ظفر الأسطول المنصور بشينىّ للفرنج عظيم الشأن ، فقتل مقاتليه ، فوقعت بُطسته الكبرى ببطسة كبيرة ، تشتمل على ميرة لهم وذخيرة واسعة . وتفرقت سُفن الفرنج أيدى سبأ . وفى مدة هذا الحصار وصل إلى الإفرنج فى مراكب ثلاثمائة امرأة إفرنجية مستحسنات الوجوه ، اجتمعن من الجزائر ، [وسبَّلن][(٣)] أنفسهنّ لله تعالى بزعمهن ، والتزمن أن لا يمنعن أنفسهن ممن أرادَ وطأهن من مقاتلى الفرنج ، وزعمن أن هذه قرْبة للمسيح ما فوقها قربة ، لاسيما إذا أمكن ممن اجتمعت فيه عزيمة مع إقدام على القتال[(٤)] .

---

(١) ورد هذا النص بتصرف فى النوادر السلطانية ، ص١٠٩ـ ١١٥ ؛ الفتح القسى ، ص٣٢٢ـ ص٣٢٦ ؛ الروضتين جـ٢ ، ص١٤٦ ؛ مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٣٠٥ .

(٢) زبدة الحلب ، ج٣ ، ص١١٦ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص١٨٩ .

(٣) «سيّبن» فى الأصل . والمثبت من الفتح القسى ، ص٣٤٧ .

(٤) ورد هذا النص مفصل فى الفتح القسى ، ص٣٤٠ـ ٣٤١ ، ٣٤٧ـ ٣٤٩ ؛ الروضتين ، جـ٢ ، ص١٤٩ ؛ مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٣٠٨ .

ذكر وُصُول خبر ملك الألمان لعنه الله

وفى رمضان من هذه السنة وصل من حلب كتب من ولده الملك الظاهر غازى[١] ، يخبر فيها أنه قد صح أن ملك الألمان قد خرج إلى القسطنطينية فى عدّة عظيمة ، قيل : مائتا ألف ، وقيل : مائتان وستون ألفا ، يريدون البلاد الإسلامية[٢] وقيل : أنهم فى ثلثمائة ألف مقاتل ، وفيهم ستون ألف فارس مدرع مقنع ، وجاءت كتب أيضا من صاحب قلعة الروم مقدّم الأرمن ، يبدى نصيحة وإشفاقا وتخوفا على البلاد ، واحتراما ، ويقطع أن الواصلين فى كثرة ، وأن الناهضين إلى طريقهم فى عشرة ، وأبرق فى كتبه وأرعد ، وأبدع بخطابه[٧٥] وأبعد[٣] . ولا شك أنه إلى جنسه النجس مائل ، وبملاءة أهل ملته قائل .

ولما وصل هذا الخبر كاد الناس يضطربون على أنهم يصدقون أو يكذبون ، واشتد ذلك على السلطان وعظم عليه ، ورأى استنفار الناس للجهاد ، وإعلام الخليفة بذلك .

قال قاضى القضاه بهاء الدين أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم صاحب النوادر : استندبنى السلطان لذلك ، وأمرنى بالمسير إلى صاحب سنجار ، وصاحب الجزيرة ، وصاحب الموصل ، وصاحب إربل ، واستدعائهم إلى الجهاد بأنفسهم وعساكرهم . وأمرنى بالمسير إلى بغداد لإعلام الخليفة الناصر لدين الله . قال : وكان مسيرى فى الحادى عشر من رمضان من هذه السنة ، ويسّر الله الوصول إلى الجماعة المذكورين ، فأجابوا . وسار عماد الدين زنكى ـ صاحب سنجار ـ بعسكره وجمعه فى تلك السنة[٤] . وسار ابن أخيه ـ سنجر شاه ـ صاحب الجزيرة ـ بنفسه يجرّ عسكره . وسير صاحب الموصل عز الدين ابنه علاء الدين خُرّم شاه بمعظم عسكره ، وسار صاحب إربل بنفسه وعسكره ، قال : وحضرت الديوان [العزيز][٥] ببغداد ، وأعلمت الخليفة بذلك ، ووعد بكل جميل ، ثم عدت إلى خدمة السلطان ، وكان وصولى[٦] إليه يوم الخميس خامس

---

(١) هو : الملك الظاهر غياث الدين غازى بن السلطان الناصر صلاح الدين يوسف الأيوبى وكان نائبًا لأبيه فى حلب . الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٢٥ .
(٢) النوادر السلطانية ، ص١١٥ .
(٣) الفتح القسى ، ص٣٣١ .
(٤) عماد الدين زنكى بن مودود الذى ولى سنجار فى الفترة من ٥٦٦هـ - ٥٩٤هـ/ ١١٧٠- ١١٩٧م . أحمد السعيد سليمان ، تاريخ الدول الإسلامية ، ص٣٤٧ .
(٥) «الديوان السعيد» كذا فى العينى والمثبت من النوادر السلطانية ، ص١١٥ ؛ الروضتين ، جـ٢ ، ص١٠٥ ؛ نهاية الارب ، جـ٢٨ ، ص٤٢١ ؛ الفتح القسى ، ص٣٣٢ - ص٣٣٧ .
(٦) يعود الضمير هنا على ابن شداد .

ربيع الأول من سنة ست وثمانين وخمسماية ، وكانت العساكر قد تجهزت فسبقتُهم وعرفته بأجابتهم بالسمع والطاعة ، وتأهبهم للمسير ، فسُرّ بذلك وفرح فرحا شديدا[١] . وانسلخت هذه السنة ، والحال على ما هو عليه ، ولا ملجأ من الله إلا إليه .

ذكر بقية الحوادث

منها أن فى المحرّم أمر الخليفة أن يعهد إلى ولده أبى نصر محمد[٢] ، وأن أمير المؤمنين أنعم النظر للمسلمين بتفويض عهده والإمامة من بعده إلى ولده عُدة الدنيا والدين أبى نصر محمد ، لِما علم من عقله الراجح ، وهديه الواضح ، وبعث الخليفة ضياء الدين عبد الوهاب بن على الصوفى ، ويعرف بابن سكينة ، نسخًا إلى صلاح الدين فى الخطبة ، وبعث إلى جميع الآفاق ، فالتقاه السلطان وخطب له على المنابر ، وكان الخطيب بدمشق عبدالملك بن زيد [الدولعى][٣] ، وبعث السلطان جواب الرسالة مع ضياء الدين بن الشهروزى ، وبعث معه بصليب كان على صخرة بيت المقدس ، فجُعِلَ فى باب النوبى تطأه الأقدام ويُهان وهو بحاله إلى هلم جرا .

وقال ابن كثير[٤] : وفى صفر قدم من جهة الخليفة رسل يعلمون صلاح الدين بولاية العهد إلى عدّة الدين الملقب بالظاهر ابن الامام الناصر لدين الله ، فأمر السلطان لخطيب دمشق أن يخطب له بعد الخليفة ، فخطب يوم الجمعة ثالث صفر ، ونثر عليه الدنانير والدراهم ، ثم جهز السلطان مع الرسل تحفا عظيمة وهدايا سنية ، وأرسل بأسارى من الفرنج على هيئتهم فى حال حربهم ، وأرسل بصليب الصلبوت فدفن تحت عتبة باب النوبى فى دار الخلافة ، فكان يُداس بعدما كان يقبل ويُباس ، وصار يُبصق عليه بعدما كان يسجد عليه[٧٦] ، وكان هذا الصليب من نحاس مطلياً بالذهب .

ومنها أن الخليفة بنى داره التى استجدها إلى جانب التاج ، وسماها الدار البيضاء .

ومنها أنه تسلم نواب الخليفة قلعة تكريت ، وكان قد حصرها العسكر مدة ، ومات صاحبها عيسى بن مودود وولى مكانه أخوه أرغش ، فقتله إخوته .

---

(١) إلى هنا توقف العينى عن النقل من النوادر السلطانية ص١١٥ .
(٢) هو : الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله . ت سنة٦٢٣هـ . انظر ترجمته فى السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص٤٥٨ ـ ٤٦٠ .
(٣) «الدولى» فى الأصل ، والمثبت من وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص٢٠٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٥٤ .
(٤) ورد هذا النص بتصرف فى البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣٥٤ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص١٨٩ .

ومنها أن السلطان صلاح الدين ولى دمشق بدر الدين مودود ـ أخا العادل لأمّه ـ شحنكيةَ دمشق .

ومنها أن فى جمادى الأولى ولد للملك العزيز ولد سماه محمدًا ، ولقبه ناصر الدين ، وهو الذى اجتمع عليه أصحاب العزيز عند موته فى سنة خمس وتسعين وخمسمائة .

ومنها أنه وصل إلى حضرة السلطان صلاح الدين من عند سلطان العجم ركن الدنيا والدين طُغْرل بن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه ، أمير من خواصه يقال له أيلْدُكز أمير العلم . وضرب له من الخيم الخاصة سرادق ، وقدمت إليه الضيافات ، ومضمون رسالته : أنه خانته من أمرائه ومماليكه العامة والخاصة ، وأن عمه ـ أخا أبيه من أمه ـ قد استولى على ممالكه ، وضيّق عليه سعة مسالكه ، وقد وصل إلى قرب إربل حد مملكتهم ، وأراد الوصول إلى الموصل ، لكنه نزل فى بيوت عز الدين حسن بن يعقوب بن قفجاق ، ينتظر منكم الإشفاق ، وعز الدين حسن من خدم دولتكم الكريمة ، والمستمسكين بعصمتكم الجسيمة . وأنا عنده مقيم ، وعلى سنن الأمل مستقيم ، فإن استقدمتْنى إليك قدمت ، وإن أمرت أمرآء الأطراف بمشايعتى وجدت من النصر ما عدمت . وأردف رسولا برسول ، وكررّ سؤالاً فيما التمسه من سؤل .

فاعتذر السلطان بما هو فيه من شغل الجهاد ، فكتب إلى [زين](١) الدين يوسف صاحب إربل(٢) ، وإلى حسين بن قفجاق ، وإلى نائبه بشهرزور ، بالتوفر على خدمته والارتياد لمصلحته وإشاعة معونته .

ثم ندب كبيرًا للسفارة بينه وبين مظفر الدين قزل أرسلان ، وهو جمال الدين أبو الفتح إسمعيل بن محمد بن عبدكوُيه . ويسعى بينهما فى المصلحة والمصالحة ، فلم يزل إلى أن سهل الأمر فيما بينهما وكاد الصلح أن ينتظم ، فعَنّ للسلطان طغرل أن ركب وقصد عمه قِزل بهمذان ، من غير استيثاق بعهد ، إخماداً لنار الفتنة ، فلما وصل إليه قبض عليه واعتقله ، واستبد قزل بأمر الملك . وسيأتى ما جرى عليهما فى موضعه إن شاء الله تعالى .

---

(١) «بدر» فى الأصل ، والمثبت بين الحاصرتين من الفتح القسى ، ص٣٥٤ .

(٢) «زين بن يوسف بن على بن بكتكين» فى الفتح القسى ، ص٣٥٤ ـ ص٣٥٥ ؛ العبر فى خبر من غبر ، جـ٤ ، ص٢٦٠ .

وفيها . . . .

. . . .(١)

وفيها حج بالناس طاشتكين ، وحجت فيها أيضا والدة الخليفة الناصر ، ومعها ألف وثمانمائة جمل عليها الزاد والماء والمال والثياب ، وسار فى خدمتها الخادم صندل وطاشكين وطغرل صاحب البصرة ، وفعلت خيرًا كثيرًا .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

أحمد بن عبد الرحمن بن وهبان ، أبو العباس المعروف بابن أفضل الزمان . قال ابن الأثير(٢) : وكان عالما متبحرًا فى علوم كثيرة ، فى الفقه والأصول ، والحساب ،[٧٧] والفرائض والنجوم والهيئة والمنطق وغيرها ، وقد جاور بمكة وأقام بها إلى أن مات رحمه الله ، وكان من أحسن الناس صحبة وخلقًا .

ابن أبى عصرون(٣) هو : **القاضى شرف الدين أبو سعد عبدالله بن محمد بن هبة الله ابن أبى عصرون** . قال ابن خلكان : عبدالله بن أبى السرى محمد بن هبة الله بن مطهر ابن على بن أبى عُصْرون بن أبى السرى التميمى الحديثى ثم الموصلى ، الفقيه الشافعى الملقب شرف الدين ، كان من أعيان الفقهاء وفضلاء عصره ، وممن سار ذكره وانتشر أمره . وتفقه أولاً على القاضى المرتضى أبى محمد عبدالله بن القاسم الشهرزورى ، وعلى أبى عبدالله الحسين بن خميس الموصلى ، ثم على [أسعد](٤) الميهنى وأخذ الأصول عن أبى الفتح بن برهان الأصولى ، وقرأ الخلاف وغيره وتوجه إلى مدينة واسط وقرأ على قاضيها الشيخ أبى على الفارقى ، وأخذ عنه فوائد (المهذب) ، ودرس بالموصل فى سنة ثلاث وعشرين وخمسمائه ، وأقام بسنجار مدة ثم انتقل إلى حلب فى سنة خمس وأربعين . ثم قدم دمشق إلى ملكها العادل نور الدين محمود بن زنكى فى صفر سنة تسع وأربعين وخمسمائة ، ودرس بالزاوية الغربية من جامع دمشق ،

---

(١) بياض بمقدار كلمتين وسطر .

(٢) الكامل ، جـ١٠ ، ص١٩٠ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣٥٦ .

(٣) انظر ترجمته فى الكامل ، جـ١٠ ، ص١٨٩ ـ ص١٩٠ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣٥٥ـ ٣٥٦ ؛ وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٥٣ـ ص٥٧ ، العبر ، جـ٤ ، ص٢٥٦ .

(٤) «أبى سعيد» كذا فى الأصل ، والمثبت من وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٥٣ .

وتولى أوقاف المساجد . ثم رجع إلى حلب وأقام بها . وصنف كتبًا كثيرة فى المذهب منها : «صفوة المذهب فى نهاية المطلب» فى سبع مجلدات ، و«كتاب الانتصار» فى أربع مجلدات ، وكتاب «المرشد» فى مجلدين ، وكتاب «الذريعة فى معرفة الشريعة» ، وصنف «التيسير» فى الخلاف أربع مجلدات ، وكتابا سماه «ما أخذ النظر» ، و«مختصرًا فى الفرائض» ، وكتابا كبيرا سماه «المُغْرب فى نصرة المذهب»[1] ، ولم يكمله ، ونهب فيما نهب له بحلب . فاشتغل عليه خلق كثير وانتفعوا به ، وتعين بالشام وتقدم عند نور الدين صاحب الشام ، وبنى له مدرسة بحلب ، ومدارس بحماة وحمص وبعلبك وغيرها ، وتولى القضاء بسنجار ونصيبين وحران وغيرها من ديار بكر ، ثم عاد إلى الشام - إلى دمشق - فى سنة سبعين وخمسمائة ، وتولى القضاء بها فى سنة ثلاث وسبعين عقيب انفصال القاضى ضياء الدين أبى الفضائل القاسم بن تاج الدين يحيى بن عبدالله بن القاسم الشهرزورى . ثم عَمِىَ فى آخر عمره قبل موته بعشر سنين ، وابنه محمد ينوب عنه وهو باق على القضاَء ، وصنف جزءاً لطيفا فى جواز قضاَء الأعمى ، وهو على خلاف مذهب الشافعى .

وقال ابن خلكان : ورأيت فى كتاب «الزوائد» تأليف أبى الحسين العمرانى صاحب كتاب «البيان» وجها أنه يجوز وهو غريب ، ولم أره فى غير هذا الكتاب . وقد ذكره ابن عساكر فى «تاريخ دمشق» ، وذكره العماد فى «الخريدة» وأثنى عليه ، وأورد له شيئًا من شعره : -

أؤمِّل أن أحيا ففى كل ساعة … تمرّ بى الموتى تهزّ نعوشها
وهل أنا إلا مثلهم غير أن لى … بقايا ليالٍ فى الزمان أعيشها

وأورد له أيضا :

يا سائلى كيف حالى بعد فرقته قد … حاشاك مما بقلبى فى تناسيكا[2]
[٧٨]قدأقسم الدمع لا يجفو الجفون أسى … والنوم لا زارها حتى ألاقيكا

وكانت ولادته ليلة الاثنين [الثانى والعشرين][3] من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة بالموصل . وتوفى ليلة الثلاثاء الحادية عشرة من شهر رمضان سنة خمس وثمانين وخمسمائة بمدينة دمشق ، ودفن بمدرسته التى أنشأها داخل البلد ،

---

(١) «الإرشاد المغرب فى نصرة المذهب» ورد بهذا الاسم فى وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٥٤ .
(٢) «تناثيكا» فى وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٥٥ .
(٣) الحادى عشر» كذا فى الأصل ، والمثبت من وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٥٥ .

وهى معروفة به ، والحديثى : نسبة إلى حديثة الموصل ، وهى بليدة على دجلة بالجانب الشرقى قرب الزاب الأعلى ، وهى غير الحديثة التى فى الفرات التى يقال لها حديثة النوُّرة ، وهى قلعة حصينة على فراسخ من الأنبار فى وسط الفرات ، والماء محيط بها .

الفقيه[١] **ضياء الدين عيسى الهكارى** ، من أصحاب أسد الدين شيركوه ، دخل معه إلى مصر وحظى عنده ، ثم كان ملازمًا للسلطان صلاح الدين يوسف حتى توفى فى ركابه ، وكان ممن تفقه على الشيخ أبى القاسم البرزى الجذرى . وكان الفقيه عيسى من الفضلاء النبلاء والأمراء الكبراء . وقال العماد[٢] : توفى الفقيه عيسى بمنزلة الخروبة ، سحرة يوم الثلاثاء تاسع ذى القعدة سنة خمس وثمانين وخمسمائه ، وحمل من يومه إلى القدس ، فدفن به ، وكان من الأعيان ومن مقربى السلطان . وفى المرآة[٣] : وكان لقبه ضياء الدين وحضر فتوح القدس والغزوات وكان صلاح الدين يحبه ويحسن الظن به ويستشيره ، وكان الله قد أقامه لقضاء حوائج الناس ويفرج عن المكروبين مع الورع والعفة .

المبارك بن المبارك بن المبارك ـ ثلاث مرات ـ أبو طالب الكرجى[٤] بالجيم صاحب الفقيه أبى الحسن بن الخلّ ، قرأ القرآن وسمع الحديث وتفقه على شيخه ابن الخل ، وكتب فأحسن وخلف أبى الحسن ابن البواب ، وكان يُعلم أولاد الخليفة الخط ـ محمدًا ولى العهد ، وعليًا ـ وخلف شيخه أبا الحسن ابن الخلّ فى مدرسته بباب العامة التى بناها كمال الدين أبى طلحة ، وأضيف إليه تدريس النظامية ، وولى رباط الأخلاطية ، وبنى له إلى جانبه دار فسكنها ، وكان زاهدا عابدا ورعا ، وكان الخليفة يدين له ويحسن الظن به ، وكان يؤم برباط الأخلاطية ، خرج من داره فى ذى القعدة ، فدخل الرباط ليصلى بهم العصر ، فلما وقف فى المحراب عرضت له سُعلة فتغير فحمل إلى داره ، فتوفى وله نيف وثمانون سنة ، وحضر جنازته جميع أرباب الدولة ولم يتخلف سوى الخليفة ، وجاء الخليفة فى آخر النهار فصلى عليه .

---

(١) انظر ترجمته فى الكامل ، جـ١٠ ، ص١٩٠ ؛ الفتح القسى ، ص٣٥٥ ؛ النوادر ، ص١١٦ ؛ وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٩٧ ـ ٤٩٨ .

(٢) الفتح القسى ، ص٣٥٥ .

(٣) هذه السنة ساقطة من مرآة الزمان ، جـ٨ .

(٤) «الكَرْخى» فى الكامل ، جـ١٠ ، ص١٩٠ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ٣٥٦ ؛ العبر ، جـ٤ ، ص٢٥٧ ؛ النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص١١١ .

الأمير(١) **موسك بن جَكو** والد الأمير عماد الدين داود بن موسك ، ابن خال السلطان صلاح الدين ، حفظ القرآن وسمع الحديث ، وكان محسناً إلى الناس يقضى حوائجهم ويتلطف بهم وكان ملازما للسلطان فى غزواته لم يتخلف عنه فى شىء منها وكان دينا صالحا جوادا مرض بمرج عكا مرضًا شديدا فأمره السلطان أن يمضى إلى دمشق يتطب فجاء إلى دمشق ، فتوفى بها ودفن بقاسيون رحمه الله ، وكانت وفاته فى شعبان من هذه السنة .

الأمير(٢) **حسام الدين طُمان صاحب الرقة**[٧٩] النورى ، كان شجاعا جوادا محسنا محبا للخير كثير الصدقات مائلا إلى العلماء والفقهاء ، بنى مدرسة بحلب لأصحاب أبى حنيفة رضى الله عنه . وكان السلطان صلاح الدين يحبه ويعتمد عليه ، ولما احتضر والسلطان فى مقابلة الإفرنج طلب حصانه وزرديته ليركب ويشهد من حرصه على الغزاة ، فلم يقدر لضعفه ، فجعل يبكى ويتأسف على موته على فراشه ، وكان من شجعان المسلمين . توفى فى ليلة النصف من شعبان ، ودفن فى تل العياضية وحزن السلطان والمسلمون عليه .

الأمير سنُقر الخلاطى ، توفى ليلة الاثنين السابع والعشرين من رجب من هذه السنة ، وذلك أيضًا حين كان السلطان على عكا رحمه الله .

أبو طالب(٣) **محمود بن على ابن أبى طالب بن عبدالله ابن أبى الرجا التميمى** الأصبهانى ، المعروف بالقاضى ، صاحب الطريقة فى الخلاف ، وصنف فيه التعليقة التى شهدت بفضله وتبريزه على أكثر نظرائه ، وجمع فيها بين الفقه والتحقيق ، وكان عمدة المدرسين فى إلقاء الدروس عليها ، ومن لم يذكرها [فإنما](٤) كان لقصور فهمه عن إدراك دقائقها ، واشتغل عليه خلق كثير وانتفعوا به ، وصاروا علماء ومشاهير . وكان له فى الوعظ اليد الطولى ، وكان متفننًا فى العلوم ، ودرس بأصبهان مدة ، وتوفى فى شوال من هذه السنة .

---

(١) الفتح القسى ، ص٣٥٥ ـ ص٣٥٦ ؛ السلوك ، جـ١ ، ص١٠٣ حاشية٥ .
ويذكر المقريزى أنه صاحب قنطرة الموسكى على الخليج الكبير بالقاهرة ، انظر : الخطط ، ج٣ ، ص٣٨ ، ط الساحل ، لبنان ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص١١٠ .
(٢) وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٧٠ ـ ص١٩٤ ؛ النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص١٠٩ .
(٣) وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص١٧٤ ؛ شذرات الذهب ، جـ٥ ، ص٢٨٤ ؛ طبقات الشافعية ، جـ٤ ، ص٣٠٤ .
(٤) «إنما» : كذا فى الأصل والمثبت من وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص١٧٤ .

الإربلى[١] **الشاعر وهو : محمد بن يوسف بن محمد بن قائد** ، الملقب موفق الدين الإربلى الشاعر المشهور ، وكان إماما مقدمًا فى علم العربية ، ومن أعلم الناس بالعروض وأحذقهم بنقد الشعر وأعرفهم بجيده من رديئه . واشتغل بعلوم الأوائل ، وحل كتاب إقليدس ، وهو شيخ أبى البركات ابن المستّوفى صاحب «تاريخ إربل» ، أقام بشهرزُور مدة ثم رحل إلى دمشق ، ومدح السلطان صلاح الدين ، رحمه الله ، ذكر النويرى وغيره وفاته فى هذه السنة ، وكان أبوه محمد تاجرًا يتردد إلى البحرين[٢] لتحصيل اللآلئ من المغاصات .

(١) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص٩ - ص١٢ .
(٢) البحرين : اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند ، بين البصرة وعمان ، قيل هى قصبة هَجَرَ ، وقيل هَجَر قصبة البحرين . انظر : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٥٠٦-٥٠٧ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة السادسة والثمانين بعد الخمسمائة

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله ، السلطان صلاح الدين مقيم بعسكره بمنزلة الخروبة ، وكل من الملك العادل والملك الأفضل والملك المظفر فى خيمته المضروبة ، وعكا محصورة ، وجموع الفرنج على[1] حصارها محشورة ، وهلك من الفرنج المحاصرين فى الوقائع خلق كثير لأن القتال لم ينقطع والتواقع لم يرتفع .

ذكر وقعة الرمل[2]

كان السلطان صلاح الدين ـ رحمه الله ـ يركب أحيانا للصيد ، ولكن لا يبعد من المخيّم ، وركب يوما فى صفر على عادته ، فتصيد وطال له الصيد فأبعد . واليزك على الرمل وساحل البحر من الميسرة ، على حذرهم واحتياطهم ، فإذا الفرنج خرجوا فى عدد لا يحصى وقت العصر ، فتسامع المسلمون بهم فزحفوا إليهم ، وحملوا عليهم ، وطردوهم إلى خيامهم من خلفهم وأمامهم . ولم يزل بينهم حملة وردة ورمية حتى فنى النشاب ، فلما علم الفرنج بذلك حملوا حملة واحدة ردوا بها المسلمين إلى النهر ، فثبت من العادلية[٨٠] فى وجوه القوم صف مرصوص البنيان ، فوقع بينهم قتال عظيم ، واستشهد جماعة من الشجعان ، وذلك لأنهم ردّوا الفرنج إليهم فلقوا فرسانا ، وصرعوا شجعانا[3]» ، ونزلوا واشتغلوا بالغنيمة ، فحملت الفرنج عليهم حملة منكرة فأشغفتهم عن الوثوب والانتهاض ، وأظلم الليل ، وافترق الفريقان عن قتلى ، وكان ممن استشهد من المسلمين الحاجب أيدغمش المجدى ـ رحمه الله ـ ومملوك للسلطان كان يدعى أرغش وكان خيرًا صالحًا . ومن عجائب هذه الوقعة أن مملوكًا للسلطان يسمى سراسنقر كان من الأبطال المشهورين ، عثر به جواده فصار راجلاً ، فقبض عليه من أسره وسحبه من شعره ، وجاء آخر وسَلّ سيفه عليه ليضربه ، فضرب يد قابض شعره فسيّبه . واشتدّ يعدو وهم يعدون وراءه ليقتلوه ، وفاتهم بعون الله تعالى[4]

---

(١) «الى» فى الفتح القسى ، ص٣٥٦ .

(٢) عن وقعة الرملة انظر : الفتح القسى ، ص٣٥٧ ـ ٣٥٨ ؛ النوادر السلطانية ، ص١١٦ ؛ الكامل ، جـ١٠ ، ص١٩١ ؛ ابن واصل : مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٣١١ـ ٣١٢ ؛ الروضتين ، جـ٢ ، ص١٥١ـ ١٥٢ .

(٣) «قلعوا فرسانا وصرعوا أقرانا» فى الفتح القسى ، ص٣٥٧ ؛ الروضتين ، ج٢ ، ص١٥٢ .

(٤) ينقل العينى هذه الحادثة بتصرف عن الفتح القسى ، ص٣٥٧ـ ٣٥٨ ؛ النوادر ، ص١١٧ .

ذكر فتح شقيف أرنون[1]

وفى يوم الأحد خامس عشر ربيع الأول تَسَلَّم صلاح الدين بالأمان شقيف أرنون ، وكان الحصار مستمرًا عليه من السنة الماضية ، وكان السلطان حَبس صاحبها أرناط فى دمشق على ما فصلناه . فلما تسلَّم السلطان شقيف أرنون أفرج عن أرناط ، وصار إلى صور وكان هذا من أدهى الإفرنج ، وأخبرهم بأيام الناس ، وربما قرأ فى كتب الحديث وتفسير القرآن ، ومع هذا كان غليظ الجلد كافر القلب ، قبحه الله .

وفى النوادر[2] : لما كان التاريخ المذكور علم الفرنج المستحفظون بالشقيف أنه لاعاصم لهم من أمر الله ، وأنهم [إن][2] أخذوا عنوة [ضُربت رقابهم][2] ، [فطلبوا][3] الأمان . وكانوا علموا من حال صاحبهم أنه قد عُذِّب أشد العذاب ، فاستقرت القاعدة على أن [الشقيف يُسلَّم][4] ، [و][4] يطلق صاحبهم وجميع من فيه من الفرنج ، ويترك ما فيه من أنواع المال والذخائر ، فأمنهم السلطان على ذلك ، وسَلَّموا الشقيف ، وعاد صاحبهم والفرنج الذين كانوا به إلى صور .

ذكر حال عكا وكيفية الوصول إليها

كان السلطان قد قوّى عكا بتسيير الغلات والأقوات إليها ، وملأها بالذخائر والأسلحة . ثم انقضى الشتاء ، وانفتح البحر ، وحان زمان القتال ، كتب السلطان إلى العساكر يستدعيهم من الأطراف ، ولما تواصل أوائل العساكر وقوى جيش الإسلام ، رحل السلطان ـ رحمه الله ـ نحو العدو فنزل بتل كيسان ، وذلك فى الثامن عشر من ربيع الأول من هذه السنة ، ورتب عساكره[5] .

وكان خبر البلد قد انقطع من السلطان وامتنع عليه دخول البلد والمدد ، فعند ذلك انتدب العوّامون بالسباحة ، وكانوا يحملون نفقات الأجناد على أوساطهم ، ويخاطرون

---

(١) عن فتح شقيف أرنون انظر : الفتح ، ص٣٥٩ ؛ النوادر ، ص١١٧ـ ١١٨ ؛ الروضتين ، ج٢ ، ص١٥٢ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٥٧ .
(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من النوادر ، ص١١٧ . حيث ينقل العينى عنه .
(٣) «طلبوا» فى الأصل . والمثبت من النوادر السلطانية ، ص١١٧ .
(٤) ما بين الحاصرتين مثبت من النوادر السلطانية ، ص١١٧ .
(٥) نقل العينى هذا الخبر بتصرف عن الفتح القسى ، ص٣٦٠ ؛ النوادر ، ص١١٨ .

بأنفسهم ، ويحملون كتبًا وطيورًا ، ويعودون بكتب وطيور . وكان أهل عكا يكتبون إلى السلطان ويكتب السلطان إليهم على أجنحة الحمام . وتعرف الأحوال بذلك[١] .

وقال ابن كثير[٢] : فلما انحسر الشتاء ، وانكسر البرد ، وانتشى الربيع ، أمر السلطان باجتماع العساكر ، وكانوا قد تفرقوا فتوافوا ، فكان أول من وصل الملك المجاهد [٨١] أسد الدين شيركوه[٣] بن محمد بن شيركوه صاحب حمص والرحبة ، وسابق الدين عثمان[٤] صاحب شيزر ، وعز الدين إبراهيم[بن المقدم][٥] . ووفد معهم جموع من الأجناد والأعيان وحشود من العرب والتركمان . ثم رحل السلطان ونزل على تل كيسان فى التاريخ المذكور ، وترتبوا فى النزول ميمنة وميسرة وقلبًا ، وكان الملك الأفضل فى أول الميمنة ، وأخوه الملك الظافر[٦] فى أول الميسرة .

ذكر وصول رسول الخليفة

لما كان يوم الاثنين السادس عشر من ربيع الأول من هذه السنة وصل رسول من بغداد من عند الخليفة الناصر ، وهو الشريف فخر الدين نقيب مشهد باب التين ببغداد ، وذلك فى جواب رسالته مع ضياء الدين الشهرزورى ، وأرسل الخليفة معه أحمالا من النفط والرماح الخطية ومعه نفاطة متقنون لهذه الصناعة غاية الإتقان ، ومرسوم بعشرين ألف دينار وذلك فى رفقة من الديوان العزيز يتضمن الإذن للسلطان فى أن يقترض عشرين ألف دينار ، ينفقها فى الجهاد ، ويحيل بها على الديوان العزيز ، فقبل السلطان جميع ما وصل مع الرسول ، واستعفى عن الرقعة . وفى المرآة[٧] : ومع الرسول توقيع بعشرين ألف دينار تقترض من التجار على الخليفة ، فشق على السلطان وقال : أنا فى يوم واحد أخرج

---

(١) نقل العينى هذا الخبر بتصرف عن الفتح القسى ، ص٢٦٠ .

(٢) البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣٥٧ .

(٣) هو : شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص ، أعطاه صلاح الدين حمص بعد وفاة والده محمد بن شيركوه سنة ٥٨١ هـ . فأقام بها وحفظ المسلمين من الفرنج وخونة العرب . ومات بها سنة ٦٣٧هـ . انظر : وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٤٨٠ـ ٤٨١ .

(٤) هو الأمير عثمان بن الداية ، صاحب شيزر وقلعة جعبر ، وتل باشر .

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من الفتح القسى ، ص٣٦٢ .

(٦) هو : خضر بن صلاح الدين الأيوبى ، ولد بالقاهرة سنة ٥٦٨هـ وتوفى بحران ٦٢٧هـ . انظر : وفيات الأعيان ، جـ٦ ، ص٢٠٤ـ ص٢٠٦ .

(٧) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٥٧ .

مثل هذا وأضعافه وما أنا مضرور ، ورد عليه جميع ما جاء به ، فأشار عليه بعض أصحابه بأخذ النفط للغزاة ، فأخذه ورد التوقيع وقال : يرحم الله العاضد وصل إلىَّ منه فى عشرين يوم بمقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار ومثلها عروض .

ذكر وصول الأمراء

وفى يوم الثلاثاء [ثانى عشرين][١] من ربيع الآخر قدم عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى ، صاحب سنجار بمن استنهضه من العساكر فى جمع عظيم ، ولقيه السلطان وأكرمه غاية الإكرام ، ورتب له العسكر فى لقائه ، فكان أول من لقيه من العسكر المنصور قضاته وكتابه ، ثم لقيه أولاده بعد ذلك ، ثم لقيه السلطان ، ثم سار به حتى أوقفه على العدو ، ثم عاد معه إلى خيمته ، وأنزله عنده ، وكان صنع له سماطا لأتعابه ، فحضر هو وجميع أصحابه ، وكان قد بالغ فى إكرامه حتى بسط له طراحة مستقلة إلى جانبه ، وبسط له ثوبا أطلس عند دخوله ، ثم ضربت له خيمته على طرف الميسرة عند جانب النهر . وقدَّم إليه عشرة من الخيول العربية ، وخمسة عشر بقجة قماش ، ثم وصل من بعده ابن أخيه معز الدين سنجر شاه بن غازى بن مودود صاحب الجزيرة بعساكره الكثيرة ، وذلك يوم الأربعاء سابع جمادى [الأول][٢] . ولقيه السلطان وأكرمه وأنزله فى خيمة ضرِّبت له إلى جانب عمه عماد الدين .

ثم وصل الملك السعيد علاء الدين خرمّ شاه ابن صاحب الموصل عز الدين مسعود ابن مودود ، وذلك يوم الجمعة تاسع جمادى الأولى . وكان أبوه أرسله نائباً عنه مقدما على عسكره ، ففرح السلطان بقدومه ، وتلقاه من بُعد ، وأنزله عنده فى خيمة ضُربت له بين خيام ولديه الملك الأفضل والملك الظاهر ، وقدّم له تحفًا سنية[٣] .

وكان ابنه الملك الظاهر غازى صاحب حلب ، والملك مظفر الدين بن على كوجك صاحب حران ، قدما قبل احتراق الأبراج التى صنعتها الإفرنج .

---

(١) «الثانى عشرة» كذا فى الأصل والمثبت من النوادر السلطانية ص١٢١ ؛ الروضتين ، جـ٢ ، ص١٥٣ .

(٢) «الأخرى» كذا فى الأصل والمثبت من النوادر السلطانية ، ص١٢١ ؛ الفتح القسى ، ص٣٨١ ؛ الروضتين ، جـ٢ ، ص١٥٣ .

(٣) الفتح القسى ، ص٣٨١-٣٨٢ ؛ النوادر السلطانية ، ص١٢٢ .

وقضيتها أن البحر لما انفتح تواترت الإفرنج والنصارى من كل جزيرة ، ينصرون أصحابهم ، ويمدّونهم بالقوة والميرة ، وعملت الإفرنج ثلاثة أبرجة من خشب وحديد ، عليها جلود مسقاة[٨٢] بالخل والخمر ، لئلا يعمل فيها النفط والنار ، وطموا خندق عكا ، وسحبوا الأبراج على العجل إلى السور ، فأقبلت أمثال الجبال فأشرفت على البلد ، وفى كل برج خمسمائة مقاتل ، فأيس المسلمون من البلد وقد حيل بينهم وبين السلطان ، وركب السلطان والعساكر واجتهدوا فى الوصول إلى البلد فلم يقدروا ورماهم الزراقون الذين فى البلد بالنفط فلم يحترق منها شيء[١] . فأهم أمرها المسلمين وكانوا عليها حنقين ، فأعمل السلطان حيلةُ وفكره فى إحراقها وإهلاكها فاستحضر النفاطين ووعدهم الأموال الجزيلة ، فانتدب شاب نحاس من دمشق يعرف بعلى [ابن][٢] عريف[٣] النحاسين ، والتزم بإحراقها وإهلاكها ، فأخذ النفط الأبيض وخلط إليه أدوية عرفها ، وغلاه فى ثلاثة قدور من النحاس حتى صار نارا تأجج ، ورمى كل برج منها بقدر من تلك القدور بالمنجنيق من داخل عكا ، فأحرق الأبراج الثلاثة ـ بإذن الله تعالى ـ حتى صارت نارًا لها ألسنة فى الجو متصاعدة ، فصرخ المسلمون صرخة واحدة بالتهليل والتكبير ، واحترق فى كل برج من مقاتليهم سبعون[٤] كفورا . ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾[٥] وذلك يوم الاثنين [الثانى] والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة[٦] . وكانت الفرنج قد تعبوا فيها سبعة أشهر ، فاحترقت فى يوم واحد .

وفى المرآة[٧] : وكان هذا الشاب بعكا ليس له فى الديوان اسم ، وكان عارفا بالنفط والحريق ، وقال لقراقوش انصب لى منجنيقًا فأنا أحرق هذه الأبراج . وقال له : قد عجز الصُناع فمن أنت؟ فقال : انظروا [قد عملت قدور الله تعالى][٨] وأنا وما أريد منكم

---

(١) نقل العينى هذا النص عن مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٥٧ ؛ الفتح القسى ، ص٣٧٠ـ ٣٧٢ ؛ زبدة الحلب ، جـ٣ ، ص١١٧ ؛ مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٣١٥ـ ٣١٦ .
(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من الفتح القسى ، ص٣٧٠ .
(٣) العريف : هو : النقيب ، وهو دون الرئيس .
(٤) «سبعين» كذا فى الأصل .
(٥) سورة : الفرقان الآية : رقم ٢٦ .
(٦) تفصيل هذا الخبر فى الفتح القسى ، ص٣٧٠ـ ٣٧٥ ؛ انظر أيضًا البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣٥٧ـ ص٣٥٨ .
(٧) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٥٧ .
(٨) ما بين الحاصرتين إضافة من المرآة لسياق الكلام ، جـ٨ ، ص٢٥٧ .

شىء ، وما يضركم أن أرمى بها فى سبيل الله ، فإن نفعت وإلا فاحسبنى واحدًا منهم . فقال قراقوش : ما يضرنا ذلك ، ثم نصب له المنجنيق وكان قد هيأ تلك القدور فرمى قدرة واحدة فى برج فاحترق بمن فيه ، ثم فعل ذلك بالثانى ، والثالث ، «فكبر المسلمون وسمع السلطان وكبروا العساكر»[١] وفرح قراقوش والأمراء وطموه بالخلع والأموال ، فلم يأخذ شيئًا وقال : أنا فعلت هذا لله تعالى ولم آخذ عليه شيئًا فى الدنيا ، وكان السلطان أيضًا قد عرض عليه العطيّة السنية فامتنع من قبولها ، وقال إنما عملت هذا ابتغاء وجه الله تعالى فلا أريد منكم جزاًء ولا شكورا .

ذكر وصول الأصطول من مصر

كان السلطان قد أمر بتعمير أصطول آخر من مصر ، تصل فيه الميرة ، والذخيرة والعدد الكثيرة . فلما كان ظهر يوم الخميس ثامن جمادى الأول ، ظهر الأصطول فركب السلطان فى جحافله ليُشغل الفرنج عن قتال الأصطول ، وعمّر الفرنج ايضا أصطولا ، وصفّ شوانيه على البحر عرضا وطولا ، وأرادوا أن يلاقوا الأصطول المنصور ، فجاءت مراكب الموحدين ونطحت مراكبهم وطحنتها ، وأخذ المسلمون لهم مركب وأخذ الإفرنج للمسلمين مركبًا وكان التقصير من الرؤسآء . واتصل الحرب فى البرّ إلى حين غروب الشمس ، وعاد المسلمون مسرورين وقتل من الإفرنج عدد كثير لعنهم الله .

وقال القاضى بهاء الدين[٢][٨٣] رحمه الله : التقى الأصطولان فى البحر والعسكران فى البرّ ، واضطرمت نار الحرب ، وباع كل فريق روحه براحته الأخروية ، ورجح حياته الأبدية على حياته الدنياوية ، وجرى بين الأصطولين قتال شديد ، انقشع عن نصرة الأصطول الإسلامى وأخذ منه شينى ، وقتل من فيه ونهب جميع ما فيه وظفر [من][٣] العدو أيضا بمركب كان واصلا من قسطنطينية ، ودخل الأصطول [المنصور][٤] إلى عكا واتصل القتال بين العسكرين من خارج البلد إلى أن حجز بينهما الليل ، وقد قتلوا من الإفرنج خلقاً كثيرا ، لأنهم قاتلوا فى ثلاثة مواضع فى البحر والبر من داخل عكا .

---

(١) عن تفاصيل هذه الأبراج انظر مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٥٧ـ٢٥٨ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص١٩٢ـ١٩٣ .

(٢) النوادر السلطانية ، ص١٢٢ ـ ١٢٣ ؛ الفتح القسى ، ص٣٨٥ ؛ الروضتين جـ٢ ، ص١٥٤ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣٣٦ ؛ مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٣١٧ .

(٣) ما بين الحاصرتين مثبت من النوادر السلطانية ، ص١٢٢ .

(٤) «المصرى» كذا فى الأصل والمثبت من النوادر ، ص١٢٢ ؛ الروضتين ، ص١٥٤ .

ذكر قصة ملك الألمان

صح الخبر أن ملك الألمان عبر من قسطنطينية الخليج ، وأنه وصل بجمعه إلى مضايق صعب عليه العبور ، فقيل إنهم أقاموا فى قفار ومواضع صعبة شهرًا ، عدموا فيها الطعام ولم يجدوا بها إلا ضُرًا ، وكان التركمان الأوجية[1] على طريقهم يمنعون من تشريقهم ، فاضطروا إلى المقام بغير زاد ، فصاروا يذبحون خيولهم ويأكلونها ، ويكسرون قنطارياتهم لفقدان الحطب ويشعلونها ، فترجلت منهم ألوف ، وكان ذلك فى البرد الشديد وزمان الثلج والجليد ، وعدموا دواب لحمل الأثقال ، ونقل عُدد الرجال فدفنوا من ذلك شيئا كثيرا ، وأحرقوا منها ، وكان ظنهم أنهم إذا عادوا أخذوا ما دفنوه ، فأخذ المسلمون ما دفنوه وكانوا فى عدد كثير ، فما أثر فيهم ذلك ولا صدهم عن مقصدهم ، وما زالو يسيرون حتى بلغوا إلى بلاد صاحب الروم قوُنية وغيرها . وهو قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن قتلمش بن سلجوق[2] .

وفى المرآة[3] : وكانوا فى ستمائة ألف مقاتل جاءوا من إفرنجة ، فخاف منهم ملك القسطنطينية ، فقالوا له لا تخف نحن ما جينا إلا لنخلص القدس وصليب الصلبوت ونهلك بلاد المسلمين[4] .

وكان بين السلطان صلاح الدين وبين ملك قسطنطينية مراسلة ومكاتبة ، وكان وصل منه رسول إلى السلطان بمرج عيون فى رجب سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، فى جواب رسول كان أنفذه السلطان إليه بعد تقرير القواعد وإقامة قانون الخطبة فى جامع فى قسطنطينية ، وكانت الخطبة أقيمت وأكرم الرسول إكرامًا زائداً ، وكان السلطان قد أنفذ مع الرسول خطيبًا ومنبرًا وجمعا من المؤذنين والقرآء ، وكان يوم دخولهم القسطنطينية يوما عظيمًا ، ولما رقى الخطيب المنبر ، حضر هناك جمع كثير من التجار والمسلمين المقيمين بها ، وأقام الخطيب الدعوة العباسيّة ، وبعد ذلك كله جآء رسول صاحب القسطنطينية

(١) التركمان الأُوجيُّة أو الأوج : صنف من الأتراك الخزلجية فيما وراء سيحون يسكنون قرية صغيرة ، انظر معجم البلدان ، جـ١ ، ص٣٩٧ .

(٢) نقل العينى هذا النص بتصرف من النوادر السلطانية ص١٢٣ـ ص١٢٤ ؛ الفتح القسى ص٣٨٩ ؛ الكامل ، جـ١٠ ، ص١٩٣-١٩٤ ؛ الروضتين ، جـ٢ ، ص١٥٤ـ ص١٥٥ ؛ مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٣١٨ .

(٣) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٥٨ .

(٤) انظر النوادر السلطانية ، ص١٣٢ ــ ١٣٣ .

الذى ذكرناه الآن ، ومعه ترجمان يترجم [عنه] وهو شيخ[٨٤] حسّن الوجه وعليه زيّهم الذى يختص بهم ، ومعه كتاب مختوم بالذهب ، دون عرض كتاب بغداد ، مترجماً فى ظاهره وباطنه بسطرين ، بينهما فرجة(١) ، وضع فيها الختم من الذهب المطبوع كما يطبع الخاتم فى الشمع ، وعلى الختم صورة الملك وصورة السطرين المذكورين : «من إيثاكيوس الملك المؤمن بالمسيح الإله المتوج من الله المنصور العالى أبدا ، أقعقوس المدبر من الله القاهر الذى لا يغلب ، ضابط الروم بذاته أنكليوس إلى النسيب سلطان مصر صلاح الدين» .

وأما الذى فى باطن الكتاب ، فإنه كان يتضمن إظهار المحبة والمودة ، ثم ذكر خبر ملك الألمان وقال : «لا تحمل على قلبك منهم ، فإن إدبارهم على قدر نيتهم وآرائهم . وأنهم قد خسروا كثيرا من الأموال والدواب والرجال ، وبلغوا بالشدة وقد تخلصوا من أيدى أجناد بلادى بالغضب ، وقد ضعفوا بحيث أنهم لا يصلون إلى بلادك ، وإن وصلوا كانوا ضعافًا فى شدة بعد شدة» . وأكرم السلطان رسوله ، وأقام بحقه كما هو العادة بين الملوك(٢) .

ووصل أيضا كتاب إلى السلطان من مقدم الأرمن ، وهو صاحب قلعة الروم التى على طرف الفرات . وصورته : «الكتاب الداعى المخلص[الكاغيكوس](٣) : مما أطالع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الناصر جامع كلمة الإيمان ، رافع علم العدل والإحسان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، أدام الله إقباله ، وضاعف جلاله ، وصان مهجته وكماله ، وبلغه نهاية آماله بعظمته وجلاله : [من](٤) أمر ملك الألمان فإنه دخل بلاد الهنكر(٥) غضبًا ، وأذعن له ملك الهنكر ، ودخل تحت طاعته ، وأخذ من ماله ورجاله ما اختار ، ثم إنه دخل أرض مقدم الروم ، وفتح البلاد ونهبها ، وأقام بها وأخلاها ، وأحوج ملك الروم إلى أن أطاعه وأخذ رهائنه ، ولده وأخاه وأربعين نفراً من خلصائه وأخذ

---

(١) الفرجة : الخلل بين الشيئين . والفرجة بضم الفاء ، الخصاصة بين الشيئين . انظر : ابن منظور : لسان العرب ، جـ٣ ، ص١٦٥ ، ص١٦٦ مادة «فرج» .

(٢) انظر النوادر السلطانية ، ص١٣٢ـ ص١٣٣ .

(٣) «الكاغيوس» كذا فى الأصل والمثبت من النوادر السلطانية ، ص١٢٤ ؛ الروضتين جـ٢ ، ص١٥٥ .

(٤) «ما» كذا فى الأصل والمثبت بين الحاصرتين من النوادر السلطانية ، ص١٢٤ .

(٥) بلاد الهنكر : هى بلاد هنغريا أو المجر الحالية ؛ مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٣٢٠ ، حاشية ٣ .

منه خمسين قنطارا ذهبا ، وخمسين قنطارًا فضة ، وثيابًا طُلسًا مبلغًا عظيما ، واغتصب المراكب وعاد بها إلى هذا الجانب ، وصحبته الرهائن إلى أن دخل حدود بلاد الملك قليج أرسلان ، ورد الرهائن ، وبقى سائرًا ثلاثة أيام وتركمان الأوج يلقونه بالأغنام والأبقار والخيل والبضائع ، فداخلهم الطمع ، وجمعوا من جميع البلاد ، ووقع بينهم وبين التركمان ، وضايقهم التركمان ثلاثة وثلاثين يوما ، ثم ذكر ما وقع بينه وبين قليج أرسلان على ما نذكره إن شاء الله . تعالى[(١)] .

ذكر ما جرى بينهم وبين قليج أرسلان

ولما وصلوا إلى بلاد قليج أرسلان وكان محكومًا عليه من ولده قطب الدين ملكشاه ، وهو يدبر أمره ، عارضهم وتعرض لقتالهم وطاردهم ليضيق عليهم ، ثم اندفع من بين أيديهم ودخلوا قونية واعتصم قليج أرسلان بقلعتها ، وتراسل هو وملك الألمان ، [٨٥] واتفقا بالمواثيق والأيمان على أن يُوافقه على العبور إلى الأقاليم الشامية والبلاد الإسلامية ، وعلى أن يسير من بلاده إلى بلاد لافون ملك الأرمن ، وأعطاه عشرين مقدمًا من أكابر أمرائه ليكونوا معه حتى يصل إلى المأء ، وأمر الناس بمبايعتهم على ما يسومونه ، وأقام لهم الأسواق فساروا فى رفق ورفاهية ، ولما وصل الملعون إلى بلاد الأرمن غدر بالرهائن وساقهم محمولين مع الظعائن[(٢)] ، واحتج عليهم بأن التركمان سرقوا منهم فى طريقه[(٣)] .

وفى تاريخ بيبرس : ولما قربوا من قونية خرج إليهم قطب الدين ملكشاه بن قليج أرسلان ليمنعهم ، فلم يمكنه ذلك لكثرتهم ، فراسله ملك الألمان فأرسل إليه هدية وهادنه وطلب منه من يسير معه إلى بيت المقدس ، ثم سار إلى بلاد الأرمن[(٤)] . وفى المرآة[(٥)] : ولما دخلوا بلاد قليج أرسلان لم يكن لديهم طاقة ، فاحتاج إلى مسالمتهم وكتب إلى السلطان يعتذر بالعجز عنهم ، وساروا طالبين الشام ووقع فيهم الوباء وبدوابهم .

---

(١) النوادر السلطانية ، ص١٢٤ـ ص١٢٥ ؛ الروضتين ، جـ٢ ، ص١٥٥ .
(٢) الظعائن : جمع ظعينة وهى الراحلة يرتحل عليها ، والهودج . انظر : المعجم الوسيط .
(٣) النوادر السلطانية ص١٢٥ـ ص١٢٦ ؛ مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٣٢٠ ؛ الروضتين ، جـ٢ ، ص١٥٥ .
(٤) الكامل ، جـ١٠ ، ص١٩٤ ـ ١٩٥ ؛ نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤٢٣ .
(٥) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٥٨ .

وذكر فى النوادر[١] : ولما قربوا من قونية جمع قطب الدين بن قليج أرسلان العساكر وقصده وضرب معه مصافًا عظيمًا ، فظفر به الملك[٢] وكسره كسرة عظيمة ، وسار حتى أشرف على قونية ، فخرج إليه جموع كثيرة من المسلمين ، فردّهم مكسورين وهجم قونية بالسيف ، وقتل منهم عالمًا عظيما من المسلمين ، وأقام بها خمسة أيام ، فطلب منه قليج أرسلان الأمان ، فأمّنه واستقرت بينهم قاعدة أكيدة ، وأخذ منه [رهائن][٣] ، عشرين من أكابر دولته . وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة ، ففعل ذلك وقبل منه[٤] .

ذكر وصول ملك الألمان إلى بلاد الأرمن

وصل إلى الأرمن وملكها يومئذ لافون بن اصطفان بن ليفون[٥] فأظهر له الطاعة ، ومشى فى خدمته إلى أن قرب من طرسوس . وفى المرآة[٦] : ووصلوا إلى نهر طرسوس فتحصن منه ابن ليفون بقلعة من قلاعه لأنه أرمنى وهم روم . قلت التوفيق بين الكلامين ، إنه تحصن منه أولا ، خوفًا ، ثم طلب منه الأمان فأمنه ، ونزل إلى خدمته وأقام بواجبه .[٧]

ذكر هلاك ملك الألمان

لما وصل ملك الألمان إلى طرسوس اجتاز هناك بنهر شديد الجرية ، فدعته نفسه الخبيثة أن يسبح فيه ، فنزله وصار فيه ، فحمله الماء إلى جذم شجرة هناك ، ففشخت[٨] رأسه ، وأخذت أنفاسه وراحت روحه إلى الهاوية ، وأراح الله المسلمين منه ، وكان شيخًا مسنًا .

(١) النوادر السلطانية ، ص١٢٥ .
(٢) يقصد به ملك الألمان .
(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من ابن شداد لاستقامة النص . انظر النوادر السلطانية ، ص١٢٥ .
(٤) النوادر السلطانية ، ص١٢٥ .
(٥) ليفون بن اصطفان بن ليفون : هو ليو الثانى بن ستيفان بن ليو الأول . انظر رنسمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، ص٢٣٨ - ص٨٣٩ ، ترجمة السيد الباز العرينى .
(٦) النوادر السلطانية ، ص١٢٣ .
(٧) ورد هذا النص بتصرف فى مرآة الزمان جـ٨ ، ص٢٥٨ .
(٨) ورد هذا الحدث بتصرف فى النوادر السلطانية ، ص١٢٣ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣٣٦ ؛ مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٣١٩ .

وفى تاريخ بيبرس[١] : ثم سار إلى أنطاكية ، وكان فى طريقهم نهر فنزلوا عنده ، فعبر الملك النهر ليغتسل ، فمرض فمات وكفى الله شره[٨٦] .

وفى المرآة : أراد الملك أن يسبح فى نهر طرسوس وكان ماؤه باردا ، فنهره وقالوا لاتفعل ، فأنت متعوب ، فقال لابدّ من ذلك ، فسبح فيه ، فأخذته الحمى ، فأقاموا على النهر بسببه ، فأوصى إلى ولده الذى كان فى صحبته ، ومات ، فسلقوه فى خلّ وحملوا[٢] عظامه ليدفنوها فى القدس . وذكر صاحب النوادر[٣] . نزل على شط بعض الأنهار ، فأكل خبزاً ونام ساعة ، وانتبه ، فتاقت نفسه إلى الاستحمام فى الماء البارد ، ففعل ذلك وخرج ، وكان من أمر الله أن تحرك عليه مرض عظيم من الماء البارد فمكث أياما قلائل ومات ، ولما شاهد لافون ملك الأرمن هذا ، هرب وتحصّن فى بعض حصونه واحتمى هناك .

ذكر إقامة ابن المَلك مقامَه

ولما هلك اللعين المذكور أقيم ولده الأصغر فى الملك بعده ، وقد تمزق شملهم وتفرق جمعهم[٤] .

وفى المرآة[٥] : ولما مات اختلفوا على ولده ، لأنه كان له أخ أكبر منه ، وكانوا يميلون إليه ، فتأخر عنه أكثرهم ، ودخل أنطاكية فى جيش قليل . وفى تاريخ بيبرس[٦] : وكان معهم ولده فصيروه ملكا عليهم ، فاختلفوا عليه ومال بعضهم إلى أخيه ، فسار فيمن بقى معه وعرض جماعته ، فكانوا نيفا وأربعين ألفا ، ووقع فيهم الوباء ، وتخطفهم عسكر حلب وغيرهم ، ثم ساروا إلى طرابلس ، فلم يبق منهم سوى ألف ، ثم ركبوا البحر وقصدوا عكا ، ثم أجمعوا على العود إلى بلادهم فى البحر ، فغرق بهم المركب ولم ينج منهم أحد . وأرسل قليج أرسلان صاحب الروم يُعلم السلطان صلاح الدين بذلك ، وبلغ الفرنج هلاكه فأشعلوا النيران حزنا عليه[٧] .

---

(١) ورد هذا النص فى الكامل ، جـ١٠ ، ص١٩٤ ؛ وانظر أيضًا نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤٢٤ .
(٢) «جعلوا» فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٥٨ .
(٣) النوادر السلطانية ، ص١٢٥ .
(٤) ورد هذا النص بتصرف فى النوادر السلطانية ، ص١٢٤ ، الروضتين ، جـ٢ ، ص١٥٥ .
(٥) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٥٨ .
(٦) ورد هذا النص فى الكامل ، جـ١٠ ، ص١٩٤ - ص١٩٥ .
(٧) لمعرفة المزيد من التفاصيل عن هذا الحدث انظر : الكامل ، جـ١٠ ، ص١٩٤- ١٩٥ .

وفى تاريخ ابن كثير[١] : وأما ولد ملك الألمان ، فإنه مرض أيامًا فى بلد الأرمن ، وهلك أصحابه جوعا ووقع الموت فى خيلهم ، وحُمل الملك وهو مريض ، وساروا أمامه فى ثلاث نوب لكثرتهم ، ومعظم رجّالتهم حاملون العِصَىّ وركاب حمير ، وهم غير عارفين بالطريق ، والناسُ يلتقطونهم ويتخطفونهم ، ووصلوا إلى أنطاكية ، وضاق بالإبرنس صاحب أنطاكية ذرعا ، فلم يجد عندهم مرعى ، وطلب منه القلعة ، فأخلاها له ، ونقل ماله إليها ، وسأله أن يجعل طريقه على حلب ، فخاف وأبدى الخلاف ، وقبل وصوله إلى أنطاكية فلّت جموعه وجنوده ، وبليت بحشد التركمان حشوده ، واجتازت الفرقة الأولى منهم على بغراس من تحت قلعتها ، فخرج رجالها عليهم ، على قلتهم ، فأسروا منهم أكثر من مائتى أسير وقيل أنهم حسبوا ، أن بغراس باقية على حالها مع الداوية ، فجاؤا إليها سحرا بأحمالهم وأموالهم السنيّة ، فلم يشعر وَاليها إلا بالبغال على الباب واقفة ، فخرج إليها وتسلمها بغير طعن ولا ضرب ، وتخلى عنها أصحابها لما عرفوا الحال ، ولم يعرّجوا على حرب .

وهلك بأنطاكية الكُند الكبير[٨٧] ، مقدم العسكر ، وحصل للإبرنس صاحب أنطاكية أموال كثيرة من الذخائر المودعة وغيرها ، ثم سار هؤلاء الملاعين على طريق الساحل ، فخرجت عليهم خيل اللاذقية وجبلة وسقتهم أنواع العذاب ، فجدّوا فى السير حتى وصلوا إلى طرابلس ، وقد نقص نصفهم ، وخاف الملك من المسير على الطريق ، لما افترق جموعه ، فركب البحر فى عدد يسير لايزيد على ألف ، واختلط مع الإفرنج على عكا ، فسقط اسمه وبطل حكمه ، وكذلك شأن من يكفر بالله . وقال ابن كثير : وصل ملك الألمان فى [خمسة آلاف][٢] مقاتل ، وإن ملوك الإفرنج كلهم كرهوا قدومه عليهم ، لما يخافون من سطوته وزوال دولتهم بدولته ، ولم يفرح به إلا المركيس صاحب صور الذى [أنشأ][٣] هذه الفتنه ، وأثار هذه المحنة لعنه الله ، فإنه تقوى به وبكيده ، وكان خبيرا

---

(١) انظر البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣٦٣ ؛ الفتح القسى ، ص٣٩٥ ؛ زبده الحلب ؛ جـ٣ ، ص١١٥ ، مفرج الكروب ، ص٣٢٣- ص٣٢٤ .

(٢) «خمسمائة ألف» كذا فى الأصل ، والمثبت من البداية والنهاية جـ١٢ ، ٣٥٨ ؛ كما ذكر العماد فى نصه «وحذرهم من شاهدهم فى الطريق بخمسة عشر ألفًا ، وسمعنا فى حذرهم بالقليل والكثير خلقًا» انظر : الفتح القسى ، ص٤٢٤ .

(٣) «حرك» كذا فى الأصل والمثبت من البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣٥٨ حيث ينقل عنه .

بالحروب والقتال ، وقد أحدث[1] أشياء كثيرة من آلات الحرب ، لم تخطر ببال أحد ، منها أنه نصب دبابات أمثال الجبال تسير بعجل ، ولها زلوم من حديد ينطح السور ، فيكسر ويلثم جوانبه ، فمَّن الله العظيم بإحراقها وإتلافها وأراح الله المسلمين من[1] شرها .

ذكر مسير العساكر إلى أطراف البلاد التى فى طريق ملك الألمان

لما تحقق السلطان صلاح الدين ـ رحمه الله ـ وصول ملك الألمان إلى بلاد لاڤون ـ ملك الأرمن ـ وقربه من البلاد الإسلامية ، جمع أمراء دولته وأرباب الآراء ، وشاورهم فى ماذا يصنع ، فاتفق الرأى على أن بعض العسكر يسير إلى البلاد المتاخمة لطريق عسكر العدو الواصل ، وأن يقيم هو ـ رحمه الله ـ على منازلة العدو بباقى العسكر المنصور . فكان أول من سار صاحب منبج ، وهو ناصر الدين بن تقى الدين ، ثم عز الدين بن المقدم ، صاحب كفرطاب وبعرين وغيرهما ، ثم مجد الدين صاحب بعلبك ، ثم سابق الدين صاحب شيزر ، ثم اليَارُوقية من جملة عسكر حلب ، ثم عسكر حماة ، وسار ولده الملك الأفضل إلى دمشق لمرض عرض له ، ثم بدر الدين شحنة دمشق لمرض عرض له أيضًا ، وسار بعد ذلك ولده الملك الظاهر إلى حلب لحفظ الطرق وكشف الأخبار ، وسار بعد ذلك الملك المظفر لحفظ ما يليه من البلاد[2] ، وكان آخر من سافر ليلة السبت [التاسع][3] من جمادى الأخرى من سنة ست وثمانين وخمسمآئة .

ولما سارت هذه العساكر خفَّتْ ميمنة السلطان ، فإن معظم من سار كانوا منها . فأمر السلطان أخاه الملك العادل أن ينتقل إلى منزلة تقى الدين فى طرف الميمنة ، وكان عماد الدين زنكى فى طرف [الميسرة][4] ، ووقع فى العسكر مرض عظيم ، فمرض مظفر الدين ابن زين الدين صاحب حران وشفى ، ومرض بعده الملك الظافر ولد السلطان وشفى ، ومرض خلق كثير من الأكابر وغيرهم ، [٨٨] إلا أن المرض كان سليمًا بحمد الله ، وكان

---

(١) البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣٥٨ .

(٢) النوادر السلطانية ، ص١٢٦ ؛ الروضتين ، جـ٢ ، ص١٥٧

(٣) «التاسع عشر» كذا فى الأصل . والمثبت من الفتح القسى ، ص٣٩٤ ؛ النوادر السلطانية ، ص١٢٦ ـ ص١٢٧ .

(٤) «الميمنة» كذا فى الأصل . والمثبت من النوادر السلطانية ، ص١٢٧ ؛ الروضتين ، جـ٢ ، ص١٥٧ ؛ مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٣٢٤ .

المرض عند العدوّ أكثر وأعظم مع كونه مقرونا بموتان عظيم ، وأقام السلطان رحمه الله مصابرًا على ذلك ، مرابطًا للعدو .

وفى تاريخ ابن كثير[١] : عزم السلطان على استقبالهم بالردّ ، وصدّهم عن القصر ، ثم ثبت عزمه على أن يعود الذين لهم بلاد على طريق هؤلاء الملاعين ، فأول من سار ناصر الدين محمد والد الملك المظفر صاحب منبج ، ثم فلان وفلان على ما ذكرنا الآن . ثم رحل الملك المظفر تقى الدين لحفظ ثغر اللاذقية وجبلة ، وكان هو آخر من سَار ليلة السبت التاسع من جمادى الآخرة ، ورتب السلطان منازل العساكر الحاضرة على ما ذكرنا ، وتقدم بهدم سُور طبرية ، وهدم يافا وأرسوف وقيسارية ، وهدم سُور صيدا وجُبيل[٢] ، ونقل أهلها إلى بيروت .

وفى المرآة[٣] : وانقطعت أخبار عكا عن السلطان ، فندب أقوامًا للسباحة وأعطاهم المال فى أوساطهم والطيور فى أعناقهم ليردوا الأخبار ، فعلم بذلك الفرنج ، فاحترزوا بشباك نصبوها فى المينا ، فإذا جاء سابح وقع فيها ، فامتنع الناس . وبعث قراقوش يشكو قلة الميرة ، فرتب لهم السلطان بُطسة كبيرة ، وجعل فيها نصارى من أهل بيروت كانوا قد أسلموا ، فقال لهم ارفعوا الصلبان على البطسة كأنكم قاصدون الفرنج ، ففعلوا ذلك ، فخرج إليهم الإفرنج فى الشوانى ، فقالوا : نراكم قاصدين البلد ، فقالوا : وما أخذتموه بعد؟ قالوا : لا . فقالوا : وراءنا بطسة أخرى ردوها عن البلد ، فذهبوا عنهم ، فردوا القلوع إلى البلد ودخلوا إلى المينا[٤] ، وكبر المسلمون وامتاروا أياما[٥] .

ذكر الوقعة العادلية

ولما كان يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة ، علم عدو الله أن العساكر تفرقت فى أطراف البلاد للعدو ، وأن ميمنة السلطان قد خفت ، أجمع رأيهم على أنهم يهجمون على طرف الميمنة بغتة . فخرجوا ظهيرة يوم الأربعاء ، وامتدوا ميمنة

---

(١) بالبحث ثبت أن العينى لم ينقل هذا الحدث عن ابن كثير ، وإنما نقله بتصرف من الفتح القسى ، ص٣٩٣ـ ص٣٩٤ .

(٢) جُبيل : بلد مشهور فى شرقى بيروت . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٢ .

(٣) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٥٨ ؛ الفتح القسى ، ٣٩٣ .

(٤) «المينى» فى الأصل ، والتصحيح من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٥٨ .

(٥) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٥٨ـ ٢٥٩ .

وميسرة وقلبا ، وانبثوا فى الأرض ، وكانوا عددا عظيماً ، واستخفوا طرف الميمنة ، وكان فى طرفها مخيم الملك العادل ، فلما بصر الناس بهم خرجوا من خيامهم كالأسود من آجامها ، وركب السلطان صلاح الدين ـ رحمه الله ـ ونادى مناديه : يآل الإسلام ، وركبت الجيوش وطلبت الأطلاب ، وكان السلطان أول راكب . وقال قاضى القضاة بهاء الدين : ولقد رأيته وقد ركب من خيمته وحوله نفر يسير من خواصه ، والناس لم يستتم ركبوهم ، وهو كالفاقدة ولدها الثاكلة ، ثم ضرب الكوس ، فأجابته كوسات الأمراء من أماكنها ، وركب الناس .

وأما الفرنج ـ لعنهم الله ـ فإنهم سارعوا فى القصد إلى الميمنة ، حتى وصلوا قبل استتمام العساكر حتى وصلوا إلى مخيم الملك العادل ، ودخلوا فى وطاقه[(١)] ، وامتدت أيديهم فى السوق[٨٩] وأطراف الخيم بالنهب والغارة ، وقيل وصلوا إلى الخيمة الخاص وأخذوا من شرابخاناته[(٢)] شيئا .

وأما الملك العادل فإنه لما علم بذلك ، ركب وخرج من خيمته ، واستركب من يليه من الميمنة ، كالطواشى قايماز النجمى ، ومن يجرى مجراه من أسود الإسلام ، ووقف وقوف مخادع حتى يوغل بهم طمعهم فى [المخيم][(٣)] ، واشتغلوا بالنهب فى الأقمشة والفواكه والمطاعم ، فعند ذلك صاح العادل بالناس ، وحمل بنفسه يقدمه ولده الكبير شمس الدين ، وحمل بحملته ، وهجموا على العدو هجمة الأسود على فرائسها ، وأمكنهم الله منهم ، ووقعت الكسرة ، فعادوا يشتدون نحو خيامهم ، هاربين على أعقابهم ، [وسيف الله][(٤)] يلتقط الأرواح من الأشباح ، ويفصل بين الأجساد والرؤوس ، ويفرق بين الأبدان والنفوس . ولما بصر السلطان بذلك ، نادى فى الناس : يآل الإسلام وأبطال الموحدين ، هذا عدو الله قد أمكن الله منه ، وقد داخلهم الطمع حتى غشوا خيامكم ، فكان من المبادرين إلى إجابته جماعة من مماليكه وخاصته ، ثم طُلب عسكر الموصل يقدمهم علاء الدين ولد عز الدين ، ثم عسكر مصر يقدمهم سنقر الحلبى ،

---

(١) الوطاق : لفظ معرب ، وأصله بالتركية أوتاق أو أطاق أو أوتاع ، ومعناها الخيمة أو مجموعة الخيام ، أو العسكر أو الفرقة . انظر : Dozy: Supp. Dict. Ar.

(٢) الشرابخاناه : بيت الشراب ، ويحوى مختلف أنواع الأشربة ـ ومنها الأدوية ـ التى يحتاج إليها السلطان ، فضلاً عن الأوانى النفيسة المصنوعة من الصينى الفاخر . القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص١٠ .

(٣) «الخيم» كذا فى الأصل . والمثبت من النوادر السلطانية ، ص١٢٩ .

(٤) «سيف الإسلام» كذا فى الأصل . والمثبت من النوادر السلطانية ، ص١٢٩ .

وتتابعت العساكر ، وتجاوبت الأبطال ، ووقف السلطان فى القلب ، فعند ذلك قامت الحرب على سوقها[١] . قال الراوى[٢] : فلم يكن [إلا][٣] ساعة حتى رأينا القوم صرعى ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾[٤] ، وامتدوا مطرحين ، أولهم من خيام الملك العادل ، وآخرهم عند خيامهم ، وكانت المسافة بين المضربين فرسخًا ، وربما زادوا على ذلك ، وقتلى الإفرنج مطروحون فيها ولم ينج منهم إلا النادر .

قال قاضى القضاة بهاء الدين : ولقد خُضتُ فى تلك الدماء بدابتى ، فاجتهدتُ أن أعُدَّهم فما قدرت على ذلك لكثرتهم ، وشاهدت فيهم امرأتين مقتولتين . وحكى لى من شاهد منهم أربع نسوة يقاتلن وأسرت منهم اثنتان . وأسر من الرجال فى ذلك اليوم نفر يسير ، فإن السلطان [كان][٥] أمر [الناس][٥] أن [لا يستبقوا أحدًا][٦] ، هذا كله فى الميمنة وبعض القلب .

وأما الميسرة فما اتصل الصائح بهم إلا وقد نجز الأمر . وكانت هذه الوقعة فيما بين الظهر والعصر ، وانفصلت الحرب بعد العصر ، ولم يفقد من المسلمين فى هذا اليوم سوى عشرة أنفس ، غير معروفين . وأما أهل عكا فإنهم كانوا يشاهدون الوقعة من أعالى السور ، فخرجوا إلى مخيم العدو ، وجرى بينهم مقتلة عظيمة ، وكانت النصرة للمسلمين ، فأخذوا جمعا من النسوان والأقمشة حتى القدور وفيها الطعام . واختلف الناس فى عدد القتلى منهم ، فقيل : كانوا ثمانية آلاف ، وقيل : سبعة آلاف .

وقال قاضى القضاة بهاء الدين : ولقد شاهدتُ منهم خمسة صفوف أولها عند خيمة العادل ، وآخرها[٩٠] عند خيامهم . ولقد رأيتُ إنسانا عاقلاً جنديا «يسعى»[٧] بين الصفوف من القتلى ويعدهم ، فقلت له : كم عددت؟ فقال : إلى ههنا أربعة آلاف ونيفا وستين قتيلاً . وكان قد عدَّ صفين ، وهو فى الصف الثالث ، لكن ما مضى من الصفوف كان أكثر عددا من الباقى .

---

(١) «وقامت سوق الحرب» فى النوادر السلطانية ، ص١٣٠ .
(٢) يقصد ابن شداد .
(٣) ما بين حاصرتين إضافة من النوادر السلطانية ، ص١٣٠ .
(٤) سورة الحاقة ، آية رقم ٧ .
(٥) ما بين الحاصرتين إضافة من النوادر السلطانية ، ص١٣٠ .
(٦) فى الأصل «لا يستبقى أحد» ، والمثبت من النوادر ، ص١٣٠ .
(٧) ما بين الحاصرتين إضافة من النوادر السلطانية ، ص١٣١ لتوضيح المعنى .

ولما كان يوم الخميس الحادى والعشرين من جمادى الآخرة ، ورد فى عصره نجّاب من حلب ، ومعه كتاب يتضمن أن جماعة عظيمة من العدو الشمالى ، خرجوا لنهب أطراف البلاد الإسلامية ، ونهض العسكر الإسلامى فى حلب ، وأخذوا عليهم الطريق ، فلم ينج منهم أحد إلا من شاء الله عز وجل ، فضربت البشائر ، ولم يُر يوم أحسن منه . وجاَء فى بقية ليلة ذلك اليوم من اليزك قايماز الحرَّانى ، وذكر أن العدو قد سأل [من جانب السلطان][1] مَنْ يصل إليهم ، ليسمع منهم حديثا فى سؤال الصلح ، لضعفٍ حلَّ بهم ، ولم يزل أعداء الله من ذلك الوقت مكسورين الجناح ، منهاضين الجانب ، حتى وصل إليهم كُنْد يقال له : كُنْدهِرى .

ذكر وصول الكُنْدهُرِى

هذا كان ملكا من ملوك الفرنج ومن أعيانهم ، وصل فى البحر فى مراكب عدة ، ومعه من الأموال والذخائر والمير والأسلحة والرجال عدد عظيم ، فقوى بوصوله جأش الإفرنج ، وحدثتهم نفوسهم بكبس العسكر الإسلامى ليلاً ، وكثر هذا الحديث على ألسنة المستأمنين والجواسيس . فجمع السلطان الأمراء وأرباب الرأى واستشارهم فيما يفعل ، وكان آخر الرأى أنهم يوسعون الحلقة ، ويتأخرون عن العدو ، رجاء أن يخرجوا ويبعدوا عن خيامهم فيُمكِّن الله منهم ، ووافقهم السلطان على ذلك . فرحل إلى جبل الخَروبّة بالعساكر بأسرها ، وذلك فى يوم الأربعاء السابع والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة ، وترك بقية من العسكر فى تلك المنزلة كاليَزَك ، مقدار ألف فارس ، يتناوبون لحفظ النوبة . هذا والكتب متواصلة من عكا على أجنحة الطيور وأيدى السُّبَاح ، والمراكب اللطاف تخرج ليلاً وتدخل سرقة منهم .

وكان الكندهرى المذكور ، قد أنفق على منجنيق كبير عظيم الشكل ــ على ما نقل الجواسيس والمستأمنون ــ ألفًا وخمسمائة دينار ، وأعدَّه ليقدمه على البلد . ولما رأى المسلمون أنهم سلطوا على البلد المنجنيقات من كل جانب ، وتناوبوا عليها بحيث لايتعطل رميُها لا ليلا ولا نهارا ، وذلك فى أثناء رجب من هذه السنة ، «وضايقوا على البلد ، حركتهم النخوة الإسلامية»[1] . واتفقوا على أنهم يخرجون فارسهم وراجلهم على

(١) الجملة بين الأقواس وردت فى النوادر السلطانية ، ص١٣٤ كالآتى :

«ولما رأى أهل البلد ما نزل بهم من مضايقة العدو وتعلق طمعه بهم ، حركتهم النخوة الإسلامية» .

غرة وغفلة منهم . وكان مقدم العسكر الأسفهسلار[1] الكبير حسام[٩١] الدين أبو الهيجاء المقدم فى الكرم والشجاعة ، ووالى البلد وحارسه الأمير الكبير بهاء الدين قراقوش ، وفتحوا الأبواب وخرجوا دفعة واحدة من كل جانب . ولم يشعر الفرنج إلا والسيف فيهم حاكم ، وسهم قضاء الله فيهم نافذ . وتقدموا إلى أن ولجوا فى خيامهم ، ولما رأوهم كذلك ذهلوا عن المنجنيقات وحراستها ، فوصلت إليها شهب الزّراقين والنفاطين ، حتى اضطرمت فيها النيران ، وأحرقت منها ما شيدته الأعداء فى المدة الطويلة فى أقرب آن . وقتل منهم فى ذلك اليوم سبعون فارسا ، وأسر خلق عظيم ، وكان فى جملة الأسرى رجل مذكور فيهم ، ظفر به شخص من آحاد الناس ولم يعلم بمكانته ، ولما انفصل الحرب سأل الفرنج عليه هل هو حىّ أم لا؟ فعرف الذى [هو][2] عنده أنه رجل كبير ، وخاف أن يُغلب عليه ويؤخذ منه ، فسارع إلى قتله ، فقتله ، وبذل الفرنج فيه أموالاً عظيمة ، ولم يزالوا يسألون ذلك حتى رموا إليهم رأسه[3] ، فضربوا بنفوسهم الأرض ، وحثوا على رؤوسهم ووجوههم التراب ، ووقعت عليهم بسبب ذلك خمدة عظيمة ، واستخفّهم المسلمون بعد ذلك ، فهجموا عليهم من كل جانب ، ولاسيما العرب ، فإنهم يدقون فيهم من كل ناحية يسرقون وينهبون ويأسرون ويقتلون ، فانحلت عزيمتهم وضعفت قواهم ، ولاسيما لما أحرق المسلمون ذلك المنجنيق العظيم ، الذى صنعه الكندهرى كما ذكرنا .

ذكر وصول البُطَسَ من مصر

كتب الأمير بهاء الدين قراقوش متولى عكا إلى السلطان فى العشر الأول[4] من شعبان من هذه السنة ، أنه لم يبق عندهم من المؤنة إلا ما يكفيهم إلى ليلة النصف ، فلما وصل الكتاب إلى السلطان أسّره فى نفسه ، ولم يُبده لأحد خوفا من شيوع ذلك ، فيبلغ إلى العدو ، فيقفوا على المسلمين وتضعف القلوب . وكان قد كتب إلى أمير الأسطول بالديار المصرية ليتقدم بميرة إلى عكا ، فوصلت ثلاث بُطَس ليلة النصف ، فيها من الميرة ما يكفى أهل البلد طول الشتاء ، وهى فى صحبة الأمير لؤلؤ الحاجب ، فلما

(١) الأسفهسلار : هو مقدم العساكر . انظر : صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص٤٨٣ ، جـ٦ ، ص٧ـ ص٨ .
(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من ابن شداد حيث ينقل العينى عنه . انظر : النوادر السلطانية ، ص١٣٤ .
(٣) «جثته» فى النوادر السلطانية ، ص١٣٤ .
(٤) «الأوسط» فى النوادر السلطانية ، ص١٣٨ .

أشرفت على الناس ، تقدم إليها أسطول الفرنج ليحاجز عن البلد ويُتلف البُطَسَ ، فاقتتلوا فى البحر قتالا عظيما ، والمسلمون فى البر يبتهلون إلى الله تعالى عز وجل ، والفرنج أيضا يصرخون فى البر والبحر ، وقد ارتفع الضجيج ، فنصر الله المسلمين وسلمت مراكبهم ، وطابت الريح للبُطَس فسارت ، فأحرقت المراكب الإفرنجية المحيطة بالميناء[1] ، ودخلت البلد سالمة وفرح بها أهل البلد والجيش فرحا عظيما . وكان السلطان رحمه الله قد جهز قبل هذه الثلاث بُطَسٍ المصريات بُطْسةً عظيمة من بيروت ، فيها أربعمائة غرارة[٩٢] قمح ، وشىء كثير من الجبن والبصل والشحم والقديد والنُشّاب والنفط ، وكانت هذه البطسة من بُطَسِ الفرنج المغنومة ، وأمر من فيها من التجار أن [يتزيوا][2] بزى الفرنج ، حتى أنهم حلقوا لحاهم وشدّوا الزنانير ، واستصحبوا معهم فى البطسة شيئا من الخنازير ، وقدموا بها على مراكب الفرنج ، فاعتقدوا أنهم منهم ، وهى سائرة كأنها السهم إذا خرج من الرميّة ، فحذرهم الفرنج غائلة المِينَاء من ناحية المسلمين ، فاعتذروا بأنهم مغلوبون معها ، والريح قوية لايمكنهم أن يقفوا ولا ينصرفوا ، وما زالوا كذلك حتى ولجوا الميناء وأفرغوا ما كان معهم من الميرة ، والحرب خُدْعَة . قال صاحب النوادر[3] : وكان ذلك فى العشر الأخير من رجب .

ذكر احتراق بُطسَة عظيمة للفرنج

كان ميناء عكا يكتنفها بُرجان ، يقال لأحدهما برج الذُّبّان ، فاتخذ الفرنج بطسةً عظيمة لها خرطوم وفيه حركات ، إذا أرادوا أن يضعوه على شىء من الأسوار أو الأبرجة ، كلبوه فيصل إلى ما أرادوه ، فعظم أمر هذه البطسة على المسلمين ، ولم يزالوا فى أمرها محتالين حتى أرسل اللهُ عليها شواظًا من نار فأحرقها وغَرّقها ، وذلك أن الافرنج أعدُّوا فيها نفطا كثيرا وحطبا جزلا ، وأخرى خلفها فيها حطب محض ، حتى إذا أراد المسلمون المجاحفة[4] عن الميناء بمراكبهم ، أرسلوا النفط على تلك البُطسة الحطبية ، فاحترقت وهى سائرة بين بُطس المسلمين ، فتحرقها ، وبُطسةً أخرى لهم فيها مقاتلةٌ تحت قبو قد

---

(١) «المينى» كذا فى الأصل والصحيح هو المثبت .
(٢) «يتزايوا» كذا فى الأصل والمثبت من النوادر ، ص١٣٥ .
(٣) النوادر السلطانية ، ص١٣٥ .
(٤) المجاحفة : جحف بمعنى مال . انظر المعجم الوسيط ، مادة «جحف» .

أحكموه فيها ، فلما أرسلوا النفط على برج الذُبّان انعكس الأمر عليهم ـ بقدرة الرحمن ـ وذلك لشدة الهواء تلك الليلة ، فما تعدت النار بطستهم ، فاحترقت ، وتعدى الحريق إلى الأخرى ، فغرقت ، ووصل إلى بُطسة المقاتلة ، فتلفت وهلكت بمن فيها ، فأشبهوا بمن سلف من الكفار(١) . كما قال تعالى ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾(٢) .

ذكرُ قصة عيسى العوَّام رحمه الله

وكان عوام قيم فى العوم ، يقال له عيسى ، وكان يدخل إلى عكا بالكتب والنفقات على وسطه ليلا ، على غرةٍ من الإفرنج ، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو ، وكان ذات ليلة شدّ على وسطه ثلاثة أكياس ، فيها ألف دينار وكُتب مشمعة للعسكر ، فنزل فى البحر ، فجرى عليه أمر أهلكه ، وأبطأ خبره عن المسلمين ، وذلك لأن عادته أنه إذا دخل البلد أرسلوا طيرا يُعرف بوصوله ، فلم يجئ الطير فتحققوا أنه هلك . ولما كان بعد أيام بينما الناس على طرف البحر فى البلد ، إذا البحر قد قذف إليهم ميتًا غريقا ، فتسارعوا إليه ، فأخرجوه ، فوجدوه عيسى العوام ، ووجدوا على وسطه الذهب[٩٣] والكتب المشمّعة ، وكان الذهب نفقة المجاهدين ، فما رُؤى مَن أدّى الأمانة فى حال حياته وقدر اللهُ له أداءها بعد وفاته إلا هذا الرجل ، وكان ذلك فى العشر الأخير من رجب من هذه السنة(٣) .

ذكر اشتداد الحصار على عكا

وفى ثالث رمضان من هذه السنة ، اشتد الحصار من الإفرنج للبلد حتى نزلوا إلى الخندق ، فبرز إليهم أهل البلد ، فقتلوا منهم خلقا كثيرا ، وتمكنوا من حريق الكبش الذى اتخذوه لحصار الأسوار ، وسرى حريقه إلى السَقُّود(٤) ، فارتفعت له لهبة عظيمة فى عنان

---

(١) ورد هذا الخبر فى النوادر السلطانية ، ص١٣٨ـ ١٣٩ ؛ الفتح القسى ، ص٤١٩ ـ ٤٢٠ ، ص٤٢٧ ـ ٤٢٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٢ ، ص٣٣٨ ؛ مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٣٣٤ .

(٢) سورة «الحشر» الآية ٢ .

(٣) ورد هذا النص بتصرف فى النوادر السلطانية ، ص١٣٥ـ ص١٣٦ ؛ الفتح القسى ، ص٤٢٣ ؛ الروضتين ، جـ٢ ، ص١٦٢ ، نسخة وادى النيل ١٢٨٧هـ .

(٤) السَقُّود : حديدة ذات شُعَب معقفة . انظر ابن منظور : لسان العرب ، مادة «سفد» .

السماء ، ثم اجتذبه المسلمون إليهم بكلاليب من حديد فى سلاسل ، فحصَّلوه عندهم . وألقوا عليه الماء البارد فبرد بعد أيام ، فكان فيه من الحديد مائة قنطار بالدمشقى[1] .

وقال العماد[2] الكاتب رحمه الله : وعمل الفرنج دبابةً هائلة ، فى رأسها شكل عظيم يقال له الكبش ، وله قرنان فى طول رمحين كالعمودين العظيمين الغليظين . وهذه الدبابة فى هيئة الخربشت[3] الكبير ، وقد سقفوها مع كبشها بأعمدة الحديد ، ولبَّسوا رأس الكبش بعد الحديد بالنحاس . فحاصل الكلام أبطل المسلمون سعيهم فى ذلك ، وأحرقوها كما ذكرنا ، ولله الحمد .

وفى أثناء ذلك حصل للسلطان سوء مزاج من كثرة ما يكابده من الأمور التى هى أَمَرُّ من الأُجاج ، فطمع العدو المخذول فى الإسلام ، فتجرد منهم جماعة للقتال ، وثبت آخرون على الحصار ، وأقبلوا فى عُدَد كثير وعدد غزير ، وكانوا صوروا القدس فى ورقة عظيمة ، وصوّروا فيه صورة القمامة التى إليها يحجون ويُعظمون شأنها ، وفيها قبر المسيح الذى دفن فيه بعد صلبه على زعمهم الفاسد ، وذلك القبر أصل حجهم وهو الذى يعتقدون نزول النور عليه فى كل سنة فى عيد من أعيادهم ، فصوروا القبر ، وصوروا عليه فرسًا عليه فارس مسلم راكب عليه وقد وطئ قبر المسيح ، وقد بال الفرسُ على القبر ، وأظهروا هذه الصورة وراء البحر فى الأسواق والمجامع ، والقسوس يحملونها رؤوسهم مكشفة وعليهم المسُوح ، وينادون بالويل والثبور ، فهاج بذلك خلائق لا يحصون ، ولما كثروا على المسلمين ، رتّب السلطان الجيش ميمنة وميسرة وقلبا وجناحين .

فلما رأى الفرنج ذلك فروا من موقف الحرب ، فقتل منهم خلق كثير وجمّ غفير ، ولما دخل فصل الشتاء وانشمرت مراكبُ الإفرنج عن البلد ، خوفا من الهلاك ؛ بسبب اغتلام البحر ، سأل من فى البلد من المسلمين السلطان ، أن لا يخرجهم ويريحهم مما هم فيه من الحصر العظيم ، والمقاتلة ليلا ونهاراً ، وأن يرسل إلى البلد بدلهم ، فَرقّ لهم السلطان ، وعزم على ذلك . وكانوا قريبا من عشرين ألف مسلم ما بين أمير ومأمور ، فجهز

(١) ورد هذا النص بتصرف فى كل من النوادر السلطانية ، ص١٤٢ ؛ الروضتين ، جـ٢ ، ص١٦٣ ؛ البداية والنهاية ، ص٣٣٨ . والقنطار الدمشقى مائة رطل . انظر الروضتين ، جـ٢ ، ص١٦٣ طبعة وادى النيل .

(٢) الفتح القسى ، ص٤٣٢ ـ ص٤٣٥ .

(٣) الخربشت : بمعنى الخيمة وهى كلمة فارسية . انظر : محمد التونجى ، المعجم الذهبى ، ص٢٣٥ .

جيشا آخر غيرهم ، قالوا : ولم يكن ذلك[٩٤] برأى جيد ، ولكن ما قصد السلطان إلا خيرًا ، لأن هؤلاء الذين يدخلون البلد جُدد الهّم ، ولهم قوة العزم ، وكانوا فى راحة بالنسبة إلى أولئك ، ولكن أولئك كانت لهم خبرة بالبلد والقتال ، وكانوا قد تمرنوا على ما هم فيه من المصابرة للأعداء برًا وبحرًا . وجهزت لهؤلاء الداخلين سبع بُطَسٍ فيها ميرة تكفيهم سنة كاملة ، فقدر الله تعالى أنها لما توسطت البحر واقتربت من ميناها ، هاجت ريح عظيمة فى البحر ، فتلعبت بتلك البطس على عظمها ، فاختبطت واضطربت وتصادمت ، وغرقت وغرق من فيها من البحارة جميعهم وما فيها من الميرة ، فدخل بسبب ذلك وهن عظيم على المسلمين ، واحتدّ مرض السلطان ، وازداد مرضا إلى مرضه ، وكان ذلك عنوانًا على أخذ البلد ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، وذلك فى ذى الحجة من هذه السنة ، وكان المقدم على الداخلين إلى عكا الأمير سيف الدين على بن أحمد بن المشطوب[١] .

وذكر صاحب[٢] النوادر : أن دخوله كان يوم الأربعاء السادس عشر من محرم سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، وفى ذلك اليوم خرج المقدم الذى كان بها ، وهو الأمير حسام الدين أبو الهيجاء وأصحابه ومَنْ كان بها من الأمراء ، ودخل مع المشطوب خلق كثير من الأمراء وأعيان الناس .

ذكر بقية الحوادث فى هذه السنة

منها أن فى يوم الخميس السادس عشر من رمضان من هذه السنة ، وصل كتاب على جناح طير من حماة ، وكان قد جاء إليها من حلب ، يذكر فيه أن الإبرُنس - صاحب أنطاكية - خرج بعسكره نحو القرى الإسلامية ، لشن الغارة عليها ، فبصرت به العساكر ونواب الملك الظاهر غازى ــ ولد السلطان ــ فكمنت الكمناء ، وخرجوا عليهم ، فلم يشعر الإبرنس بهم إلا والسيف قد وقع ، فقُتل من عسكره خمسة وسبعون نفرًا ، وأُسر خلق كثير ، واستعصم هو بنفسه فى موضع يسمى شيحا ، حتى اندفعوا وساروا إلى بلدهم[٣] .

(١) ورد هذا النص بتصرف فى الفتح القسى ص٤٥٨- ص٤٥٩ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣٥٦- ص٣٥٧ .
(٢) النوادر السلطانية ، ص١٥٢- ص١٥٣ .
(٣) ود هذا النص بتصرف فى النوادر السلطانية ، ص١٤٣ - ١٤٤ ؛ الفتح القسى ، ص٤٣٦ ؛ الروضتين ، جـ٢ ، ص١٦٤ ؛ مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٣٣٧ .

ومنها أن فى أثناء العشر الأخير(١) من رمضان ، ألقت الريح بطستين فيهما رجال وصبيان ونساء وميرة عظيمة وغنم كثيرة ، وكانوا قاصدين نحو العدو ، فغنمها المسلمون ، وكانوا قد ظفروا ببركوس(٢) للمسلمين ، فيه نفقة ورجال ، أرادوا الدخول إلى البلد ، فأخذوه ، فوقع الظفر بهاتين [البطستين](٣) جبرًا عن ذلك .

ومنها أنه قوى عزم الإفرنج على الخروج إلى جهة المسلمين ، وتغيّر مزاج السلطان بحمى صفراوية ، فاقتضى الحال أن انتقلوا فى عشية الاثنين تاسع رمضان من هذه السنة فنزلوا على أعلى جبل شفرعم(٤) و رؤوس التلال ، للاستعداد للشتاء ، والراحة والاستراحة عن الرحل .

وفى ذلك الزمان مرض زين الدين يوسف بن زين الدين ــ صاحب إربل ــ مرضا شديدا بحُمتين مختلفتين(٥) ، واستأذن فى الرواح ، فلم يؤذن [٩٥] له ، ثم استأذن فى الانتقال إلى الناصرة فأذن له فى ذلك ، وأقام بالناصرة أيامًا وهو مريض ، فاشتد به الأمر إلى ليلة الثلاثاء الثامن والعشرين(٦) من رمضان من هذه السنة ، ثم توفى إلى ــ رحمة الله ــ وعنده أخوه مظفر الدين ، وحزن الناس عليه لشبابه وغربته . وأنعم السلطان على أخيه مظفر الدين ببلدة إربل ، واستنزله على بلاده التى كانت فى يده ، وهى حران والرها وما يتبعهما من البلاد والأعمال ، وضم إليه شهرزور أيضا ، واستدعى الملك المظفر تقى الدين عمر ابن أخيه شاهنشاه ليكون نازلا مكانه ، وأقام مظفر الدين كوكبورى بن زين الدين على بالمعسكر المنصور إلى قدوم تقى الدين ، وقدم ضاحى النهار الثالث من شوال من هذه السنة ، وفى صحبته مُعزّ الدين سنجرشاه بن سيف الدين غازى بن مودود

(١) «الأوسط» فى النوادر السلطانية ، ص١٤٣ ؛ الروضتين ، جـ٢ ، ص١٦٤ ؛ مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٣٣٧ .

(٢) بركوس : جمعها براكيس ، وهى نوع من السفن التى كانت تستخدم فى الحروب فى العصور الوسطى ، وهى أصغر حجما من البطسة ، انظر محيط المحيط ، جـ١ ، ص٨٧ ؛ النوادر السلطانية ، ص١٤٣ ، حاشية ٦ ؛ الروضتين ، جـ٢ ، ص١٨٧ ، ابن مماتى ، قوانين الدواوين ص٣٤٠ .

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من النوادر السلطانية ، ص١٤٤ ، لاستقامة النص ؛ الروضتين ، جـ٢ ، ص١٦٤ ؛ مفرج الكروب جـ٢ ، ص٣٣٧ .

(٤) شفرعم : قرية كبيرة بينها وبين عكا بساحل الشام ثلاثة أميال وكان بها منزل صلاح الدين يوسف بن أيوب ، انظر : معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٣٠٤ ، ص٣٠٥ .

(٥) «مختلفتى الأوقات» كذا فى النوادر السلطانية ، ص١٤٤ .

(٦) «الثامن عشر» فى النوادر السلطانية ، ص١٤٤ ؛ الكامل ، جـ١٠ ، ص١٩٩ .

ابن زنكى صاحب الجزيرة(١) إذ ذاك . ثم تكرر سؤال معز الدين هذا فى طلب الدستور ، والسلطان يعتذر إليه بأن رسل العدو متكررة فى معنى الصلح ، فلا يجوز أن تنقض العساكر حتى يتبين على ماذا ينفصل الحال من سلم أو حرب ، وهو لا يألو جهدا فى طلب الدستور إلى أن كان يوم عيد الفطر من هذه السنة ، وحضر سحرة ذاك اليوم فى باب خيمة السلطان ، فاستأذن فى الدخول ، فلم يؤذن له ، وكرر الاستئذان ، فأذن له ، فدخل ، واستأذن فى الرواح شفاها ، فذكر له السلطان وجوها تمنع من الرواح ، فانكب على يده وقبلها كالمودع له ونهض من ساعته وسار ، وأمر أصحابه أن أكفئوا القدور وفيها الطعام ، وأقلعوا الخيام ، وتبعوه على ذلك ، فلما بلغ السلطان ذلك ، كتب إليه : إنك قد قصدت الانتماء إلىَّ ابتداءً ، وراجعتنى فى ذلك مرارًا ، وأظهرت الخيفة على نفسك وبلدك من أهلك ، فقبلتك وآويتك ونصرتك ، فبسطت يدك فى أموال الناس ودمائهم وأعراضهم ، فنفذت إليك ونهيتك عن ذلك مرارا ، فلم تنته ، فاتفق وقوع هذه الواقعة للإسلام ، فدعوناك ، فأتيت بعسكر قد عرفته وعرفه الناس ، وأقمت هذه المدة وقلقت هذا القلق ، وانصرفت عن غير طيب نفس ، وغير فصل حال مع العدو ، فانظر لنفسك وانظر(٢) ـ من تنتمى إليه غيرى ، احفظ نفسك ممن يقصدك فما بقى لى إلى جانبك التفات وسَلَّم الكتاب إلى نجاب ، فلحقه قريبًا من طبرية ، فقرأ الكتاب ولم يلتفت إليه ، وسار على وجهه .

وكان الملك المظفر تقى الدين قد استدعى إلى الغزاة ـ كما ذكرنا الآن ـ فلقيه فى عقبة فيق ، وهو مُجِثٌّ وليست عليه أمارات حسنة ، وسأله عن حاله ، ففهم من كلامه أنه سار والسلطان غير راض عليه ، فقال له : «المصلحة أن ترجع(٣)[٩٦] إلى الخدمة وتلازمها إلى أن يأذن لك السلطان ، فأنت صبىّ لا تعلم غائلة هذا الأمر» فلم يلتفت إليه ، وأصر على الرواح ، فخشن عليه الملك المظفر وقال : «ترجع من غير اختيار» . وكان تقى الدين شديد البأس ، مقداما على الأمور ، فلما علم معز الدين أنه قابضه إن لم يرجع

---

(١) الجزيرة يقصد بها جزيرة ابن عمر .

(٢) «أبصر» كذا فى النوادر السلطانية ، ص١٤٥ .

(٣) ورد هذا النص بتصرف فى الفتح القسى ، ص٤٣٩ ؛ النوادر السلطانية ، ص١٤٥ـ ص١٤٦ ؛ مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٣٤٠ـ ص٣٤١ ؛ الروضتين ، جـ٢ ، ص١٦٥ .

باختياره ، رجع معه حتى أتى العسكر ، وخرج الملك العادل إلى لقاء الملك المظفر ، فدخلا على السلطان ، وسألاه الصفح عنه ، فعفى عنه ، وطلب أن يقيم فى جوار تقى الدين ، خشية على نفسه ، فأذن له فى ذلك وأقام فى جواره إلى حين ذهابه .

وكذلك عماد الدين صاحب سنجار كان قد أصر على الرحيل ، ودخل على السلطان فقبل يده ، وسار من ساعته ، فكتب السلطان وراءه كتابا وكتب بيده فى ظهره :

«من ضـــاع مـــثلى من يديـــ ـه فليت شـعرى مـا اسـتـفـادا»

فوقف عماد الدين عليه ، وانقطعت مراجعته بالكلية .

ومنها أنه تواصلت الأخبار بضعف العدو المخذول ، ووقع الغلاء فى بلادهم وعسكرهم ، حتى أن الغرارة من القمح بلغت فى أنطاكية ستة وتسعين دينارا صورية ، ولا يزيدهم ذلك إلا صبرا وإصرارا وعنادا .

ومنها أنهم لما ضاق بهم الأمر وعظم الغلاء ، خرج منهم خلق عظيم مستأمنين من شدة الجوع[1] ، وقد ذكرنا أن السلطان كان قد عرض له مرض فطمعوا بذلك ، وظنوا أنه لا يستطيع النهوض ، فخرجوا يوم الاثنين الحادى عشر من شوال من هذه السنة ، بخيلهم ورجلهم متحملين أزوادًا وخيما ، وكان خروجهم إلى الآبار التى استحدثها المسلمون تحت تل العجول[2] لما كانوا نازلين عليه ، فأخذوا معهم عليق أربعة أيام ، فأخبر السلطان بخروجهم على هذا الوجه ، فأمر اليزك أن ينزاحوا من بين أيديهم إلى تل كيسان ، وكان اليزك على تل العياضية ، وكان نزول العدو على الآبار بعد صلاة العصر من اليوم المذكور ، وباتوا تلك الليلة واليزك حولهم جميع الليل ، فلما طلع الصبح جاء من أخبره السلطان - رحمه الله - بأنهم قد تحركوا للركوب ، وكان - رحمه الله - قد أمر الثقل فى أول الليل أن يسيروا إلى الناصرة والقيمون[3] ، فرحل الثقل وبقى الناس ، وأمر العساكر أن يركبوا ميمنة وميسرة وقلبا تعبئة للقتال ، وركب السلطان وصاح الجاووش بالناس ، فركبوا

---

(١) انظر تفاصيل هذا الحدث فى النوادر السلطانية ، ص١٤٦- ١٤٧ ؛ الروضتين ، ج٢ ، ص١٦٥ .

(٢) «تل العجل» كذا فى الأصل . والمثبت من الكامل ، جـ١٠ ، ص٤٧٩ ؛ ابن العديم : زبدة الحلب ، جـ٣ ، ص٢٠٢ ، حاشية٥ ، حيث ذكر أن تل العجول واقع بين عكا والعائدية .

(٣) القيمون : حصن قرب الرملة من أعمال فلسطين . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٢١٨ .

وساروا حتى وقف بتل من جبال الخروبة ، وابتدأت الميمنة بالمسير فساروا حتى بلغ آخرها الجبل ، وسارت الميسرة حتى بلغ آخرها إلى النهر وقرب البحر(١) .

وكان فى الميمنة ولده الملك الأفضل صاحب دمشق ، وولده الملك الظاهر غازى صاحب حلب ، وولده الملك الظافر صاحب بصرى ، وولد عز الدين صاحب الموصل ، علاء الدين خرم شاه ، ثم الملك العادل أخوه فى طرفها ، ويليه قريب منه حسام الدين بن لاچين ، والطواشى قايماز النجمى ، وعز الدين جُرديك النورى[٩٧] ، وحسام الدين بشارة صاحب «بانياس»(٢) ، وبدر الدين دُلْدَروم ــ صاحب تل باشر ــ اليارُوقى ، وجمع كثير من الأمراء ، وكان فى الميسرة عماد الدين زنكى صاحب سنجار ، وابن أخيه مُعز الدين صاحب الجزيرة ، وفى طرفها الملك المظفر تقى الدين ابن أخيه ، وسيف الدين على بن المشطوب وجميع المهرانية ، والهكارية ، وخُشْتَرين وغيرهم من الأمراء الأكراد ، وفى القلب الحلقة السلطانية . وأمر السلطان أن يخرج من كل عسكر جمع من الجاليش ، ليدوروا حول العدو واليزك معهم ، وأخفى بعض الأطلاب وراء التلال عساهم يجدون غرة من العدو ، ولم يزل عدو الله يسير والناس يقاتلونهم من جميع جوانبهم . ولم يزالوا سائرين حتى نزلوا على تل هناك ، وضربوا خيامهم ممتدة منه إلى النهر ، وجرح منهم فى ذلك اليوم خلق عظيم ، وقتل أيضا خلق ، وكانوا إذا جرح واحد منهم حملوه ، وإذا قتل واحد منهم دفنوه وهم سائرون ، حتى لا يظهر قتيل ولا جريح .

وكان نزولهم يوم الثلاثاء بعد الظهر ، وتراجعت العساكر عنهم إلى مواطن المصابرة ومواقف الحراسة ، وتقدم السلطان إلى الميسرة أن تستدير بهم بحيث يقع آخرهم على البحر ، والميمنة تستدير بالنهر من الجانب الشرقى ، والجاليش يقاتلونهم ويرمونهم بالنشاب ، بحيث لا ينقطع النشاب عنهم أصلا . وبات الناس تلك الليلة على هذا المثال . وسار السلطان إلى رأس جبل الخروبة الذى كان نازلا عليها فى العام الماضى ، فنزل فى خيمة لطيفة والناس حوله فى خيم لطاف بمرأى [من](٣) العدو ، وأخبارهم تتواصل إليه فى كل ساعة إلى الصبح .

(١) يتفق وصف العينى للميمنة والميسرة مع العماد فى الفتح القسى ، ص٤٤٢ . أما ابن شداد فى النوادر السلطانية ، ص١٤٧ ، فيذكر «أن الميسرة آخرها الجبل ، والميمنة آخرها النهر وقريب البحر» .

(٢) «نابلس» فى الأصل . والمثبت من النوادر السلطانية ، ص١٤٧ ؛ الفتح القسى ، ص٤٤٢ .

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من النوادر السلطانية ، ص١٤٨ .

ولما كان الصبح يوم الأربعاء وصل من خَبَّرهم أنهم تحركوا للركوب عند الصبح ، فركب السلطان وذلك فى صبيحة يوم الأربعاء الثالث عشر من شوال ، ورتب الأطلاب وسار حتى أتى أقرب جبال الخروبة إليهم ، بحيث يشاهد جميع أحوالهم ، وكان السلطان ـ رحمه الله ـ ملتاث(١) المزاج ، ضعيف القوة ، قوى القلب . ثم بعث إلى العساكر وأمرهم بالمقاتلة والمضايقة والحملة عليهم من كل جانب ، وأمر الأطلاب أن تحتاط بهم بحيث أن لا تكون قريبة ولا بعيدة ، ليكونوا ردءاً للمقاتلة إلى أن تضاحى النهار . وسار العدو على شاطئ النهر من الجانب الغربى يطلبون جهة خيمهم ، والقتال يشتد عليهم من كل جانب ، فاشتدوا فى قتالهم من سائر الجوانب إلا من جانب النهر ، والتحم القتال ، فصرع منهم خلق عظيم ، وهو يدفنون قتلاهم ويحملون جرحاهم ، وقد جعلوا راجلهم سورًا لهم ، فضرب الناس بالزنبورك(٢) والنشاب حتى لا يتركون أحدا يصل إليهم ، وخيالتهم[٩٨] يسيرون فى وسطهم ، بحيث لم يظهر منهم أحد فى ذلك اليوم أصلا ، والكوسات تخفق ، والبوقات تنعر ، والأصوات بالتهليل والتكبير [ترتفع](٣) ، هذا والسلطان يمد الجاليش بالأطلاب والعساكر التى عنده ، حتى لم يبق معه إلا نفر يسير ، وَعَلَمُ الفرنج مرتفع على عجلة هو مغروس فيها ، وهى تسحب بالبغال ، وهم يَذبون عن العَلَم ، وهو عال جدًا كالمنارة ، خرقته بياض مُلمّع بحمرة على شكل الصلبان ، ولم يزالوا سائرين على هذا الوجه حتى وصلوا وقت الظهيرة إلى قبالة جسر دَعّوق ، وقد ألجمهم العطش ، وأخذ منهم التعب وأثخنتهم الجراح ، واشتد بهم الأمر . ولقد قاتل المسلمون فى ذلك اليوم قتالا شديدا ، وأعطوا الجهاد حقه ، وهجموا عليهم هجوما عظيما ، واستداروا بهم كالحلقة ، وهم لا يظهرون من رجالتهم ، ولا يحملون ، وجُرح فى ذلك اليوم جماعة منهم إيَاز الطويل ، رحمه الله ، وجرح جراحات متعددة ، وهو من فرسان الإسلام وشجعانه ، ولم يزل الناس حولهم فى ذلك اليوم حتى نزلوا ظهيرة ذلك النهار عند جسر دَعوق ، وقطعوا الجسر وأخربوه ، خوفا من عبور الناس إليهم ، ورجع السلطان إلى تل الخروبة ، وأقام عليهم يزكًا يحرسهم ، وبات وأخبارهم تتواتر عليه حتى الصباح ، وعزم فى

---

(١) ملتاث : الالتياث ، الاختلاط والالتفاف . انظر ابن منظور : لسان العرب ، ج٣ ، ص٨ - ٩ . مادة «ليث» .

(٢) الزنبورك : جمعها زنبوركات . لعلها السهام أو نوع منها .

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من النوادر السلطانية ، ص١٤٩ حيث ينقل العينى عنه .

تلك الليلة على كبس بقيتهم فى الخيم ، وكتب إلى البلد ـ أعنى عكا ـ يعرّفهم بذلك حتى يخرجوا هم من جانب ، وعسكر السلطان من جانب ، فلم يصل من أهل البلد كتاب ، فرجع عن ذلك العزم بسبب تأخير الكتاب .

ولما كان صباح الخميس رابع عشر شهر شوال ، وصل من أخبر أن العدو فى الحركة للرحيل ، فركب السلطان وطلّب الأطلاب ، وكفّ الناس عن القتال خشية أن يغتالوا ، وأوقف الأطلاب فى الجانب الشرقى من النهر يسيرون قبالة العدو . وكان ممن جرح من مُقَدّميهم فى هذه السرية الكُنْدُهْرِى ، والمركيس ، وتخلّف ابنُ ملكِ الألمان فى الخيم مع جمع كثير منهم ، ولما دخل العدو إلى خيمهم كان لهم بها أطلاب مستريحة ، فخرجت على اليزك الإسلامى وحملت عليهم ، وانتشب القتال بين اليزك وبينهم ، وجرى فيه قتال عظيم قتل فيه من العدو وجُرح خلق عظيم ، وقتل من المسلمين ثلاثة نفر ، وقتل منهم شخص كبير فيهم مقدّم عندهم ، وكان على حصان عظيم ملبس بالزرد إلى حافره ، وكان عليه لُبْس لم يُر مثله ، وطلبوه من السلطان بعد انفصال الحرب فدفع إليهم جثته ، وطلب رأسه فلم يُوجد . وعاد السلطان إلى مخيّمة ، وأعيد الثقل إلى مكانه ، وعاد كل قوم إلى منزلتهم .

ولما كان[٩٩] يوم الجمعة الثانى والعشرين من شوال من هذه السنة ، رأى السلطان أن يضع للعدو كمينا ، فأخرج جمعا من كماة العسكر وشجعانهم وأبطالهم ، وأمرهم أن يسيروا فى الليل ويكمنوا فى سفح تل شمالى عكا بعيداً من عسكر العدو ، وأمرهم أن يظهر منهم نفر يسير ، ويقصدونهم فى خيمهم حتى إذا خرجوا انهزموا بين يديهم نحو الكمين ، ففعلوا ذلك ، وساروا حتى أتوا التل المذكور ليلا ، فكمنوا تحته ، ولما علا نهار السبت الثالث والعشرين من شوال ، خرج منهم نفر يسير على خيل جياد ، وساروا حتى أتوا مخيّم العدو ورموهم بالنشاب ، فانتحى منهم مقدار مائتى فارس ، وخرجوا إليهم شاكين فى السلاح على خيل جياد ، بعُدّة تامّة وليس معهم راجل واحد ، وداخلهم الطمع فيهم لقلتهم فانهزموا بين أيديهم ، وهم يقاتلونهم حتى أتوا موضع الكمين ، فخرج عليهم أبطال الموحدين ، وصاحوا فيهم صيحة رجل واحد ، وهجموا عليهم هجوم الأُسْد على فريستها ، فثبتوا وصبروا وقاتلوا قتالا شديدا ، ثم ولوا منهزمين ، فمكّن الله

المسلمين منهم ، ووقعوا فيهم ضربًا بالسيف حتى هلك منهم جمع عظيم ، واستسلم الباقون للأسر فأسروهم ، وأخذوا خيلهم وعُدَدهم . وجاء البشير إلى السلطان ، فارتفعت الأصوات بالتهليل والتكبير ، وركب[السلطان][١] لملاقاتهم .

قال قاضى القضاة بهاء الدين[٢] : وكنت فى خدمته حتى أتى تل كيسان ، واعتبر الأسارى ، وكان فيهم مقدم عسكر الإفرنسيس ، وخازن الملك أيضا ، ثم نزل السلطان فى مخيمه فرحا مسرورا ، وأمر مناديا فنادى : «ألا من كان عنده أسير فليحضر به» ، فأحضر الناس أسراهم ، وأكرم المقدمين منهم ، وألبس مقدم عسكر الإفرنسيس فروة خاصًا ، وأمر لكل واحد من الباقين بفروة خرجية ، فإن البرد كان شديدًا وكانوا عرايا موتى من البرد ، وأحضر لهم طعاما فأكلوه ، وأمر لهم بخيمة نصبت قريبا من خيمته ، وكان يكارمهم فى كل وقت ويحضر المقدم على الخوان فى بعض الأوقات ، ثم أمر بتقييدهم وحملهم إلى دمشق ، وأذن لهم أن يُراسلوا أصحابهم ، وأن يُحضروا لهم من عسكرهم ما يحتاجون إليه من الثياب وغيرها ، ففعلوا ذلك وساروا إلى دمشق وحُبسوا هناك .

ومنها أن فى اليوم السابع من ذى الحجة من هذه السنة سقطت قطعة من سور عكا ، وهى قطعة عظيمة . وفى النوادر[٣] : كان ذلك ليلة السبت السابع من ذى الحجة ، فوقعت بثقلها على الباشورة[٤] فهدمت أيضا منها قطعة عظيمة ، فداخل العدو الطمع ، وجاؤا إلى البلد كقطعة الليل المدلهم من كل جانب ، فقام أهل البلد[١٠٠] بهمم عالية فقتلوا منهم جماعة ، وجرحوا خلقا عظيما حتى آيسوا من أن ينالوا شيئا من البلد ، ووقف المسلمون فى موضع القطع كالسَّد ، وجمعوا جميع مَنْ فى البلد من البنائين والصناع ، ووضعوهم فى ذلك المكان وحموهم بالنشاب والجُروخ[٥] والمناجيق ، فما مرت إلا ليال يسيرة حتى فرغوا من بنائها بأحسن مما كان .

---

(١) ما بين الحاصرتين مثبت من النوادر السلطانية ، ص١٥١ .

(٢) نقل العينى هذا النص بتصرف من النوادر السلطانية ، ص١٥١ .

(٣) ورد هذا الحدث فى النوادر ، ص١٥٣ ؛ الروضتين ج٢ ، ص١٨١ .

(٤) الباشورة جمع بواشير ـ الحائط الظاهرى من الحصن يختفى وراءه الجند عند القتال . النوادر السلطانية ، ص١٥٣ حاشية ٣ .

(٥) الجروخ جمع جرخ ، وهى آلة حادة حربية تستعمل لرمى السهام والنفوط والحجارة ، ويقال لمستخدمها من الجند «جرخى» انظر المقريزى : السلوك ، جـ١ ، ص١٠٠٣ ، حاشية ١ .

ومنها أنه وقع وباء عظيم فى الجيشين ، المسلمين والكافرين ، وكان السلطان يقول فى ذلك :

اقتلونـــى ومالكــــا واقتلوا مالكـــا معى

ومنها أن فى شهر ذى الحجة قدم القاضى الفاضل من الديار المصرية على السلطان ، وكان قد طال شوق كل منهما إلى صاحبه ، فأفضى كل واحد منهما إلى الآخر ما كان يُسره ويكتمه من الآراء التى فيها مصالح المسلمين . وقدم وزير الصدق على السلطان الموفق قدس الله روحهما .

ومنها أن فى يوم الاثنين الثانى والعشرين من ذى الحجة عاد المستأمنون من الفرنج الذين أنهضهم السلطان فى براكيس ، ليغزوا فى البحر ويكونوا أيضا جواسيس للمسلمين ، فرجعوا وقد غنموا ، وذكروا أنهم وقعوا بحراقة كبيرة ومعها براكيس وفيها تجار معهم أموال لا تحصى ، فأسروا التجار وأخذوا الأموال وجذبوها إلى الساحل ، فأنعم السلطان عليهم بهذه الأكساب ، فلما رأوا ذلك من السلطان أسلم أكثرهم ، وكانوا قد أحضروا برسم الهدية مائدة فضة عظيمة ، وعليها مكبة بقيمة غالية ، ومعها طبق يماثلها فى الوزن ، وكل فضتها قاربت قنطارا ، فقال السلطان : خذوها فأنتم بها أولى[(١)] .

وقال صاحب النوادر : وكان قد استأمن من الفرنج خلق عظيم أخرجهم الجوع إلينا ، وقالوا للسلطان : «نحن نخوض البحر فى براكيس ، ونكسب من العدو ، فيكون المكسب بيننا وبين المسلمين» فأذن لهم فى ذلك ، وأعطاهم براكيس ، فساروا ، ثم ذكر البقية مثل ما ذكرنا . قلت : البراكيس جمع بركُوس ، وهو المركب الصغير[(٢)] .

ومنها أن فى الرابع والعشرين من ذى الحجة أخذ من الفرنج بَركُوسان فيهما نيف وخمسون نفرا . وفى الخامس والعشرين منه أخذ أيضا بركوس ، وأخذ فيها من الفرنج مقدمون ورؤوس وهم نيف وعشرون ، منهم أربعة خيالة ، ومعهم ملوطة مكللة باللؤلؤ بأزرار من الجواهر قيل أنها من ثياب ملك الألمان ، وأسر فيها رجل كبير قيل أنه [ابن اخته][(٣)] وهو كبير الشأن .

---

(١) ورد هذا النص بتصرف فى الفتح القسى ، ص٤٦٠- ص٤٦١ .

(٢) ورد هذا النص بتصرف فى النوادر السلطانية ، ص١٥٤ .

(٣) «اخيه» كذا فى الأصل والتصحيح من الفتح القسى ، ص٤٦١ ؛ النوادر السلطانية ، ص١٥٤ .

ومنها أنه لما هجم الشتاء ، وهاج البحر ، آمنت أهل عكا من أن يبالغ فى الحصار ، وذلك من شدة الأمطار وتواترها ، فعند ذلك أذن السلطان ـ رحمه الله ـ للعساكر الإسلامية فى العود إلى بلادهم ، ليستريحوا ويُريحوا خيولهم إلى وقت العمل ، فكان أول من سار عماد الدين صاحب سنجار ، لما كان عنده من القلق فى طلب الدستور ، وكان مسيره يوم الاثنين الخامس عشر من شوال ، وسار عقيبه فى ذلك اليوم ابن أخيه سنجر شاه[١٠١] صاحب الجزيرة ، وذلك بعد أن أُفيض عليهما من التشريف والأنعام والتحف بما لم ينعم بها على غيرهما .

وسار علاء الدين ابن صاحب الموصل فى مستهل ذى القعدة من هذه السنة[١] مشرّفا مكرما ، معه التحف والطرائف . وتأخر من العساكر الملك المظفر تقى الدين إلى أن دخلت سنة سبع وثمانين ، وتأخر أيضا ولد السلطان الملك الظاهر غازى صاحب حلب ، إلى أن سار إلى حلب ضاحى نهار الأربعاء تاسع المحرم فى السنة الآتية ، وسار الملك المظفر فى ثالث صفر من السنة الآتية ، وهى سنة سبع وثمانين .

ثم اشتغل السلطان بإدخال البدل فى البلد[٢] ،وأخرج من كان بها من الأمراء الذين طال شكواهم إلى السلطان من طول الحصار ، وملازمة القتال ليلا ونهارا ، وأمر السلطان بإدخال المير والذخائر والنفقات والعُدَد إليها ، وكان المقدم بها يومئذ الأمير حسام الدين أبو الهيجاء ، فخرج هو وأصحابه ومن كان بها من الأمراء ، وكان مقدم الداخلين من الأمراء الأمير سيف الدين على [بن][٣] المشطوب ، وكان دخولهم فى يوم الأربعاء السادس عشر من المحرم من السنة الآتية ، وأخذ كل أمير معه ميرة سنة كاملة . وانتقل الملك العادل بعسكره إلى حَيْفا على شاطئ النهر ، وهو الموضع الذى تحمل منه المراكب وتدخل إلى البلد وإذا خرجت تخرج إليه ، فأقام ثمة يحث الناس على الدخول ويحرس المير والذخائر ، لئلا يتطرق إليها من العدو من يتعرض لها ، وكان مما دخل إليها سبع بُطس مملوءة ميرةً وذخائر ونفقات ، كانت وصلت من مصر ، وكان السلطان قد عبأها فى مدة مديدة ، وكان دخولها يوم الاثنين الثانى من ذى الحجة من هذه السنة أعنى ست وثمانين .

---

(١) ورد هذا الخبر فى النوادر السلطانية ، ص١٥٢-١٥٣ .
(٢) يقصد بالبلد هنا إمارة عكا .
(٣) ما بين حاصرتين مثبت من الكامل ، جـ١٠ ، ص١٩٩ .

ولما علم العدو بذلك وهم المقاتلون من جانب البحر ، اجتمعوا فى خلق عظيم ، وزحفوا على البلد من جانب البر زحفةً عظيمةً ، وقاربوا الأسوار ، وصعدوا فى سلم واحد ، فاندق بهم السلم ، فتداركهم أهل البلد ، فقتلوا منهم خلقا عظيما ، وعادت بقيتهم خائبين خاسرين . وأما البطس فإن البحر هاج هيجا عظيما ، فضرب بعضها ببعض على الصخر ، فهلكت وهلك جميع ما كان فيها ، وهلك فيها خلق كثير ، قيل : كانت عدتهم ستين نفرا ، وكانت فيها ميرة عظيمة لو سلمت لكانت كفت البلد سنة كاملة ، ودخل على المسلمين بذلك وهن عظيم ، وخزى السلطان خزيًا شديدا ، وكان ذلك أول علامة أخذ البلد والظفر به .

ذكر الحوادث التى وقعت فى بلاد الشرق[١]

منها أنه كانت الحرب بين غياث الدين وسلطان شاه أخى خوارزم شاه ، فإن سلطان شاه كان قد تعرض إلى بلاد غياث الدين[١٠٢] ومعز الدين ملكى الغورية ، [فتجهز][٢] غياث الدين ، وخرج من فيروزكوه[٣] إلى خراسان ، وبقى يتردد بين بلادها ، فتصافا واقتتلا ، فانهزم سلطان شاه ، وأخذ غياث الدين بعض بلاده ، وعاد إلى غزنة[٤] .

ومنها أن عسكر الخليفة الناصر لدين الله تسلموا حديثة عانة[٥] ، بعد حصار شديد[٦] .

ومنها أن عز الدين[٧] صاحب الموصل حصر الجزيرة[٨] أربعة أشهر ، فاستقر الصلح على أن يكون لعز الدين نصف الجزيرة وأعمالها ، ويكون لسنجر شاه نصفها[٩] .

---

(١) وردت هذه الأحداث فى الكامل ، انظر جـ١٠ ، ص٢٠٠ .
(٢) «فتهجرا» فى الأصل والمثبت من الكامل جـ١٠ ، ص٢٠٠ .
(٣) فيروزكوه أو بيروزكوه : هى قاعدة جبال الغور ، وهى قلعة حصينة دار مملكة الغور ، والغور بلاد بين هراة وغزنة . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٩٣٠ ؛ أبو الفدا : تقويم البلدان ، ص٤٦٧ .
(٤) ورد هذا الحدث بتصرف فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٠٠ .
(٥) حديثةُ عانة : هى الحديثة التى تقع على الفرات تحت عانة وهى من بلاد الجزيرة . أبو الفدا : تقويم البلدان ، ص٨٦ ـ ص٨٧ .
(٦) الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٠٠ .
(٧) هو/ عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى . الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٠٢ .
(٨) يقصد بالجزيرة هنا «جزيرة ابن عمر» انظر الكامل ، جـ١٢ ، ص٢٥ ، ومن الملاحظ أن هذا الحدث ذكره ابن الأثير فى حوادث عام ٥٨٧هـ ، وهو من المعاصرين لهذه الأحداث فى الزمان والمكان .
(٩) نقل العينى هذا النص بتصرف من الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٠٢ـ ص٢٠٣ .

ومنها أنه كان عبور تقى الدين الفرات وملكه حران وغيرها من البلاد الجزرية ومسيرة إلى خلاط وموتة . وذلك أن صلاح الدين عمه أقطعه إياها بعد أخذها من مظفر الدين ، مضافا إلى ما كان بيده من الشام ، وقرر معه أن يقطعه للجند ليتقوى على الإفرنج ، فلما عبر الفرات سار إلى ميافارقين ، وكانت له ، فتجدد طمعه إلى غيرها من البلاد المجاورة لها ، فقصد مدينة حانى[١] من ديار بكر ، فحصرها وملكها ، فلما سمع سيف الدين بكتمر صاحب خلاط جمع عسكره ، فكانت أربعة آلاف نفس من الفرسان ، فاقتتلوا ، فلم تقف عسكر خلاط لتقى الدين بل انهزموا قدامه ، فتبعهم ، فسار إلى خلاط فحاصرها ، ولم يبلغ منها غرضا ، فعاد عنها وقصد مَنازكرْد[٢] ، وضيق على أهلها ، فمرض تقى الدين ، فمات ، واستقر ولده بحماة ، ورجع عسكره إلى ميافارقين ، وعاد بكتمر إليها ، وقوى أمره وانتزح عنه ضده[٣] .

ومنها أن فى سابع المحرم منها دخل ألب أرسلان ابن السلطان طغريل إلى بغداد ، وهو صبى صغير وعليه كفن وبيده سيف مشهور كأنه يطلب عفو الخليفة ، وجاء فنزل بباب النوبى وباس العتبة ، فبكى أهل بغداد ورق له الخليفة وأنزله دار ابن العطار مقابل المخزن ، وأكرمه وأحسن نُزله وعفى عن جرائم أبيه وما فعل بابن يونس ، واستدعاه إلى باب الحجرة وخلع عليه خلعه السلطنة وطوقه بطوق من ذهب ، واجتمع بولى العهد أبى نصر محمد .

ومنها أن الخليفة بنى دار الفلك ، ورتب فيها ابنه السيد العلوى ، ويقال لها بيت الجدود .

وفيها حج بالناس من بغداد طاشتكين[٤] .

---

(١) «جانى» فى الأصل والتصحيح من أبى الفدا ، تقويم البلدان ، ص٢٧٤ ، وهى مدينة من مدن ديار بكر .

(٢) مَنازكرْد أو منازجرد أو ملازجرد أو ملازكرت بلدة مشهورة بين خلاط وبلاد الروم ، انظر : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٦٤٨ ؛ تقويم البلدان ، ص٣٩٤ـ ص٣٩٥ .

(٣) ورد هذا النص فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٠٣ ــ ٢٠٤ . أحداث سنة ٥٨٧هـ .

(٤) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٦٣ .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

قاضى القضاة محى الدين محمد بن محمد بن عبد الله ، أبو حامد قاضى القضاة بالموصل ابن قاضى القضاة كمال الدين الشهرزورى الشافعى(١) دخل بغداد للاشتغال فتفقه على الفقيه أبى منصور بن الرزاز وتميز ، ثم أصعد إلى الشام ، وولى قضاء دمشق نيابة عن والده ، ثم انتقل إلى حلب وحكم بها نيابة عن أبيه أيضا فى شهر رمضان سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، وبه عزل ابن أبى جرادة المعروف بابن العديم[١٠٣] ، وبعد وفاة والده انتقل إلى الموصل وتولى قضاءها ، ودرس بمدرسة والده ، وبالمدرسة النظامية بالموصل ، وتمكن عند صاحب الموصل عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن زنكى ، واستولى على جميع الأمور ، وتوجه من جهته رسولا إلى بغداد مرارا ، وكان محيى الدين جواداً سرياً ، قيل إنه أنعم فى بعض رسالته إلى بغداد بعشرة آلاف دينار أميرية ، على الفقهاء والأدباء والشعراء والمحاويج . ويقال إنه فى مدة حكمه بالموصل لم يعتقل غريما على دينارين فما دونهما ، بل كان يوفيهما عنه ، ويحكى عنه مكارم كثيرة ورئاسة ضخمة ، وكان من النجباء عريقا فى النجابة تام الرئاسة ، كريم الأخلاق رقيق الحاشية ، له فى الأدب مشاركة حسنة ، وله أشعار جيدة ، فمن ذلك ما قاله فى وصف جرادة وهو تشبيه غريب :

لها فخذا بَكرٍ وسَاقا نعامةٍ ... وقادمتا نسرٍ وجؤجؤ(٢) ضَيْغمِ
حبتها أفاعى الرمل بطناً وأنعمت ... عليها جياد الخيل بالرأس والفمِ(٣)

وله فى وصف نزول الثلج من الغيم :

ولما شاب رأس الدهر غيظًا ... لما قاساه من فقد الكرام
أقام يُميط عنه الشيب غيظا ... ويَنشُر ما أماط على الأنام(٤)

---

(١) العماد الأصفهانى ، الخريدة ، جـ٢ ، ص٣٢٩- ص٣٣٦ ؛ الذهبى ، العبر ، جـ٤ ، ص٢٥٩ ؛ وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٢٤٦- ص٢٤٨ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣٤١ .

(٢) الجُؤجُؤ : مجتمع رؤوس عظام الصدور ، وصدر السفينة والجمع جَاجئ . المعجم الوجيز ، ص٩٥ .

(٣) وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٢٤٦- ص٢٤٧ .

(٤) ذكر ابن خلكان بيت الشعر هكذا

أقام يميط هذا الشيب عنه ... وينشر ما أماط على الأنام

انظر ، وفيات الأعيان جـ٤ ، ص٢٤٧

وكانت ولادته سنة عشر وخمسمائة تقريبا ، وقال العماد الكاتب فى الخريدة مولده سنة تسع عشرة من شعبان وتوفى سحرة يوم الأربعاء رابع عشر جمادى الأولى سنة [ستة و](١) ثمانين وخمسمائة بالموصل ودفن بداره بمحلة القلعة ثم نقل إلى مدينة الرسول عليه السلام . وذكر ابن الدُبَيْثى(٢) فى تاريخه : أنه نقل إلى تربة عملت له ظاهر البلد . وقال ابن خلكان : حققت ذلك فوجدتُه كما قال ابن الدُبيثى وتربته خارج باب الميدان ، بالقرب من تربة قضيب البان صاحب الكرامات .

أبو نصر العتابى ، صاحب الزيادات ، أحمد بن محمد بن عُمر أبو نصر العتابى البخارى وقيل أبو القاسم الإمام العلامة الزاهد ، من أكابر الحنفية الذين سار ذكرهم ، وله تصانيف منها ، الزيادات الكتاب المشهور ، رواها عنه جماعة منهم ، حافظ الدين وشمس الأئمة الكَرْدَرى وغيرهما ، وله جوامع الفقه أربع مجلدات ، وشرح الجامع الكبير وشرح الجامع الصغير وغيرها ، توفى يوم الأحد وقت الظهر . . . .(٣) سنة ست وثمانين وخمسمائة ببخارى ، ودفن بكلاباذ(٤) بمقبرة القضاة السبعة ، أحدهم أبو زيد الدَبُوسى . والعتابى نسبة إلى أشياء منها إلى عتَّاب بن أسيد ، ومنها إلى العتابيين محلة ببغداد ، ومنها إلى محلة يقال لها دار عتاب كذا قاله السمعانى](٥) .

مسعود بن على بن عبيد الله أبو الفضل بن نادر(٦) الصفار الأديب الفاضل ، ولد سنة خمسة عشر وخمسمائة ، وبرع فى الأدب وكتب خطا حسنا نحو من مائة ربعة ومصحف[١٠٤] ، وأخذ اللغة عن ابن الجو اليقى وغيره ، ومن شعره :

تولوا فأولوا الجسم من بعدهم ضنا	وحرّا شديدا فى الحشا يَتزايَد
وزاد بلائى بالذين أحبهم	وللناس فيما يدّعون مقاصد

وسمع قاضى المارستان وغيره وكان ثقة ، توفى فى المحرم ودفن بباب حرب(٧) .

---

(١) ما بين الحاصرتين سقط من الناسخ ، والاضافة من وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٢٤٧ .
(٢) ابن الدبيثى : هو أبو عبد محمد بن ابى المعالى سعيدى ابى طالب يحيى بن ابى الحسن على الحجاج . الفقيه الشافعى المؤرخ الواسطى ، وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٣٩٤- ص٦٦١ .
(٣) بياض فى الأصل بمقدار كلمتين .
(٤) كلاباذ : محلة ببخارى . معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٢٩٣ .
(٥) انظر وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٣٨٩ .
(٦) «نادب» كذا فى الأصل والتصحيح من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٦٠ ؛ النجوم ، جـ٦ ، ص١١١ ؛ العبر ، جـ٤ ، ص٢٦٠ .
(٧) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٦٠ ؛ النجوم ، جـ٦ ، ص١١١ ؛ العبر ، جـ٤ ، ص٢٦٠ ؛ شذرات الذهب ، جـ٤ ، ٢٨٧ .

الأمير زين الدين يوسف بن زين الدين على كوُجك بن بكتكين صاحب أربل ، وهو أخو مظفر الدين بن زين الدين ، كان عند السلطان صلاح الدين فى هذه السنة على الخروبة ، فمرض فى رمضان فارتحل من الخروبة إلى الناصرة ، فأقام يمرّض نفسه ، وكان عنده أخوه مظفر الدين يمرضه ، فيقال أنه سقاه سما فمات ، وظهرت على مظفر الدين أمارات ذلك ، فإنه لم يكترث لموته ولا تأسف عليه ، وبلغ السلطان فحزن عليه وبكى لأنه كان صاحبه ومصافيه وشاكره وداعيه ، وحزن المسلمون عليه لمكان عفته وشبابه وغربته . وقال العماد[1] : أتينا مظفر الدين نعزيه ظنا منا أنه قد حزن الأخ على أخيه ، فكأننا جئنا نهنيه ، وإذا به مشغول عن العزاء بحيازة أمواله وأسبابه والقبض على عماله وكتابه ، ثم أرسل مظفر الدين إلى السلطان يطلب منه إربل وينزل عن حران والرّها ، فأجابه إلى ذلك وسأله كتابا إلى صاحب إربل فى هذا المعنى وأضاف إليه شهرزور وأعمالها[2] .

قال ابن كثير[3] : وارتجع ما كان بيد مظفر الدين ، وهو حران والرها وشُميساط وأعطاها الملك المظفر تقى الدين عُمر زيادة على ما بيده وهو ميّافارقين ، ومن الشام حماة ومَعرّة النعمان وسليمة ومنيج وقلعة نجم وجبلة واللاذقية وبلاطنس بكسرأئيل[4] .

الأمير سوار استشهد على عكا فى هذه السنة ، وكان من مماليك السلطان الخواص ، وقال العماد[5] : استشهد على عكا سبعة من الأمراء من جملتهم سوار المذكور ، وكذلك استشهد عدة من الأكراد الشجعان ، وقال استشهد فى اليوم التاسع من جمادى الأولى من هذه السنة القاضى المرتضى بن قريش الكاتب ، وكان قاضيا بنابلس حاكما حاذقا فاضلا ورعا رحمه الله .

---

(١) انظر قول العماد فى ابى شامه ، الروضتين ، جـ٢ ، ص١٦٤ .
(٢) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص ٢٦٠ـ ص٢٦١ .
(٣) ورد هذا النص بتصرف فى البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣٦١ .
(٤) «بكراسك» كذا فى الأصل ، ويبدو أنها خطأ من الناسخ ، والتصحيح من معجم البلدان ، جـ١ ، ص٧٠٦ .
(٥) الفتح القسى ، ص٤٦٣ ، ص٤٦٤ ، ولمعرفة المزيد عن وفاة القاضى المرتضى ، انظر الروضتين ، جـ٢ ، ص١٨٢ .

الأمير قزل بن ألدكز[1] صاحب العراق ، أخو البهلوان كان قد استولى على أذربيجان وغيرها ، وهو الذى حجز على طغريل السلجوقى ، وكان فاسقا فاتكا ، نام ليلة وهو سكران فأصبح مذبوحا ، وقيل قتلته خاتون زوجته .

ملك الألمان الذى أقبل فى مائتى ألف مقاتل ، وقيل فى ثلاثمائة ألف مقاتل كما ذكرنا ، وقد أهلكه الله بالغرق كفرعون كما ذكرناه مفصلا[2] .

ابن ملك الألمان الذى تولى بعد هلاك أبيه على طرسوس ، هلك فى آخر هذه السنة لعنه الله .

وقال العماد[3] : هلك ابن ملك الألمان بعلة الخوف ، ولعله من [عرض][4] الجوف فى ثانى عشر ذى الحجة من هذه السنة ، وأدرك أباه فى الدرك الأسفل من النار وأبصر[١٠٥] فى جهنم مصائر أمثاله من الكفار ، وزاد بهلاكه ألم الألمانية ، وانسد بموته فرج الافرنجية ، وتبعه فى السفر إلى سقر كندُكبيرٌ يقال له كُند «تيباط»[5] دافع القدر فما قدر . وهلك منهم بالأمراض المختلفة العدد الكثير لعنهم الله تعالى .

---

(١) ومن الملاحظ أن كلاً من ابن خلكان والذهبى وابن العماد الحنبلى ذكروا وفاة قزل هذا فى أوائل شعبان سنة سبع وثمانين ، وفيات الأعيان جـ٥ ، ص٢٠٩ ، ترجمة رقم ٢٥٥ ؛ العبر ، جـ٤ ص٢٧٢ ؛ شذرات الذهب ؛ جـ٤ ، ص٢٨٩ـ ص٢٩٠ .
أما العينى فقد اعتمد على سبط ابن الجوزى الذى ذكره فى وفيات سنة ٥٨٦هـ انظر مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٦٠ .

(٢) البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣٦٣ .

(٣) الفتح القسى ، ص٤٦٠ .

(٤) «مرض» كذا فى الأصل والمثبت من فتح الفتح القسى ، ص٤٦٠ .

(٥) الفتح القسى ، ص٤٥٩ـ ٤٦٠ ؛ الروضتين ، جـ٢ ، ص١٨١ـ ص١٨٢ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة السابعة والثمانين بعد الخمسمائة

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله ، والسلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب مقيم على عكا ، والحصار مستمر على حاله من الجانبين ، وقد استكمل دخول البدل إلى البلد ، والملك العادل أخو السلطان مخيم إلى جانب البحر ليتكامل دخولهم ودخول ميرتهم .

ذكر وقعات متعددة فى هذه السنة بين المسلمين والإفرنج

الأولى : وقعت فى مستهل ربيع الأول منها ، خرج المسلمون من عكا فهجموا على مخيم الإفرنج فقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، ونهبوا شيئاً كثيراً ، وسبُوا اثنتى عشرة امرأة .

الثانية : وقعت فى ثالث ربيع الأول بينهم وبين يزك السلطان . وذلك أنه خرج إليهم من الإفرنج خلق عظيم ، وجرى بينهم وقعة شنيعة قتل فيها من الإفرنج جماعة ، وقتل منهم رجل كبير على ما قيل ، ولم يُفقد من المسلمين إلا خادم كان للسلطان ، سمى قراقوش ، وكان شجاعاً عظيماً له وقعات كثيرة عظيمة ، استشهد فى ذلك اليوم . وفى بعض التواريخ ولم يقتل من المسلمين فى هذه الوقعة سوى طواشى صغير عثر به فرسُه[1] .

الثالثة : وقعة أسد الدين شيركوه[2] بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير ، صاحب حمص . وكان من حديثه أن السلطان ــ رحمه الله ــ كان قد رسم له أن يأخذ حذره من الفرنج بطرابلس ، ويأخذ بحراسة المسلمين والفلاحين من تلك الناحية ، وأنه قيل له أن أهل طرابلس قد أخرجوا دشارهم[3] وخيلهم وأبقارهم إلى مرج هناك ،

---

(١) نقل العينى هذا الخبر بتصرف عن الفتح القسى ، ص ٤٧٠ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٦٤ .

(٢) أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه ، توفى بحمص سنة ٦٣٧ هـ ، ودفن فى تربته داخل البلد .انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٢ ، ص ٤٨ .

(٣) الدشار : ويقال الجشار . وهى جشارات ، وجشير ، وهى الخيل والأبقار التى تساق مع الجيش ، وهو أيضا مكان رعى الماشية من خيل وغيرها . السلوك ، جـ ١ق ٢ ، ص٤٩٠ ، حاشية ٢ ؛ جـ ١ق٣ ، ص٩٠٩ ، حاشية ١ ؛ Dozy: Supp. Dict. Ar.

فخرج أسد الدين على غرة منهم ، وهجم على دشارهم ، فأخذ منها أربع مائة رأس من الخيل ، ومائة رأس من البقر ، فهلك من الخيل أربعون ، وسلم الباقى ، وعاد إلى البلد ولم يفقد من أصحابه أحد ، ولكن قتل منهم جماعة . ووصل الكتاب بذلك إلى السلطان فى الرابع من صفر من هذه السنة .

وفى ليلة هذا اليوم ألقت الريح مركباً لهم على الساحل فكسرته ، وكان فيه خلق كثير منهم ، فبصر بهم المسلمون ، فوثبوا عليهم وأخذوهم على آخرهم(١) .

وقال القاضى بهاء الدين(٢) : ولقد حضرت وقد عرض منهم على السلطان خمسة عشر نفراً .

الرابعة : وقعة الملك العادل أخى السلطان . وذلك أنه بلغ السلطان يوم السبت تاسع ربيع الأول منها ، أن العدو يخرجون طائفة بعد طائفة ويتفسحون لبعد المسلمين عنهم ، فاقتضى رأيه أن أنفذ أخاه الملك العادل ، وفى خدمته خلق كثير من العساكر ، وأمره أن يكمن [للعدو](٣) وراء التل الذى كانت فيه [١٠٦] الوقعة المعروفة به ، وسار هو فكمن وراء تل العياضية . وكان معه من كبار أهله : الملك المظفر(٤) تقى الدين ، وابنه ناصر الدين(٥) محمد ، والملك الأفضل ولده . ومعه من صغار أولاده : الملك الأشرف محمد ، والملك المعظم تورانشاه(٦) ، والملك الصالح إسماعيل . وكان من المعممين(٧) : القاضى الفاضل ، والديوان ، وقاضى القضاة بهاء الدين(٨) .

---

(١) النوادر السلطانية ، ص١٥٥ ؛ الفتح القسى ، ص ٤٦٩ ؛ الروضتين ، جـ ٢ ، ص١٨٢ ـ ١٨٣ .

(٢) هنا يؤكد ابن شداد على أنه شاهد عيان على هذا الحدث .انظر : النوادر السلطانية ، ص١٥٥ .

(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من ابن شداد لاستقامة النص . انظر : النوادر السلطانية ، ص١٥٥ .

(٤) الملك المظفر تقى الدين عمر بن نور الدولة شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة ، ابن أخى السلطان صلاح الدين . توفى سنة ٥٨٧ هـ . انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص ٤٥٦ ـ ٤٥٨ .

(٥) الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالى محمد بن عمر ، توفى بحماة سنة ٦١٧ هـ . انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص ٤٥٧ .

(٦) هو الملك المعظم أبو منصور تورانشاه ، فخر الدين ، ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ولد فى مصر فى ربيع الأول سنة ٥٧٧ هـ ، ومات سنة ٦٥٨ هـ . راجع ما سبق فى عقد الجمان ، جـ ١ ، ص ٣٠٩ ـ ٣١٠ .

(٧) «المتعممين» فى الأصل . والتصحيح من النوادر السلطانية ، ص ١٥٥ .

(٨) ذكر ابن شداد أنه كان فى الصحبة فى ذلك اليوم . انظر النوادر السلطانية ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ .

وركب جماعة من الشجعان على الخيول الجياد وناوشوا العدو وباسطوه ، فلم يخرج فى ذلك اليوم أحد ، وكأنه كان قد وشى إليهم بجلية الأمر . إلا أنه حصل فى ذلك اليوم نوع نصرة للمسلمين ، فإنه وصل فى أثناء ذلك اليوم خمسة وأربعون نفراً من أسارى الإفرنج ، فإنهم كانوا قد أسروا فى بيروت وسُيّروا إلى السلطان ـ رحمه الله ـ .

قال قاضى القضاة بهاء الدين ـ رحمه الله : ولقد شاهدتُ من السلطان فى ذلك اليوم رقة قلب ورحمة لم يُر أعظم منها ؛ وذلك أنه كان فى الأسرى شيخ كبير طاعن فى السن ، لم يبق فى فمه ضِرس ، ولا له قوة إلا مقدار ما يتحرك بها لاغير ، فقال للترجمان : سَلْه ما الذى حمله على المجىء وأنت فى هذا السن؟ وكم من ههنا إلى بلاده؟ فقال : أما بلادى فبينى وبينها مسيرة عدة أشهر ، وأما مجيئى فإنما كان للحج إلى القمامة . فَرَقَّ له السلطان ومَنَّ عليه ، وأطلقه وأعاده راكباً على فرس إلى عسكر العدو . ولقد سأل من السلطان أولاده الصغار ، أن يأذن لهم من قبل فى قتل الأسرى ، فلم يأذن لهم . قال القاضى بهاء الدين : فسألتُه عن سبب المنع ، وكنتُ حاجبهم فيما طلبوه ، فقال : لأن[1] لا يعتادوا من الصغر سفك الدماء . ولقد جرت وقعات أخرى فى هذه الأيام إلى أن أخذوا عكا من المسلمين ، ولا حول ولا قوة إلا بالله[2] .

ذكر وصول ملك الإفرنسيس

واسمه فيليب[3] ، وكان وصوله فى الثانى عشر[4] من ربيع الأول يوم السبت فى ستّ بُطْشٍ ملعونة مشحونة بعبدة الصليب ، وحين وصل إليهم لم يبق لأحد من ملوكهم حكم ، وذلك لعظمته عندهم . وكان الإفرنج كل وقت يتواعدون المسلمين بقدومه ، ولاسيما لليزك ومن يقاربهم من المسلمين ، وكان هذا الملعون من كبار ملوكهم لا يتقدم عليه أحد .

---

(١) «لئلا» فى النوادر السلطانية ، ص ١٥٦ ؛ الفتح القسى ، ص ٤٧١ .

(٢) ورد هذا النص بتصرف فى النوادر السلطانية ، ص ١٥٥ ـ ١٥٦ ؛ الفتح القسى ، ص ٤٧٠ ـ ٤٧١ ؛ الروضتين ، جـ٢ ، ص ١٨٢ ـ ١٨٣ .

(٣) الملك فيليب أغسطس ملك فرنسا . انظر : السيد الباز العرينى : الشرق الأوسط والحروب الصليبية ، ص ٩٢٢ ، القاهرة ١٩٦٣م .

(٤) «الثامن عشر» فى الأصل والتصحيح من الفتح القسى ، ص ٤٧٤ ؛ الروضتين ، جـ ٢ ، ص١٨٣ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ، ص ٤٣٠ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص ٣٤٢ .

ولما قدم ، كان معه من الميرة ما يحتاج إليه هو وأصحابه ، وكذلك من الخيل والسلاح . وكان قد صحب معه من بلاده بازًا(١) عظيما عنده ، هائل الخلقة أبيض اللون ، نادر الجنس ، وكان يعزه ويحبه حباً عظيمًا ، فانفلت من يده وطار ، وهو يدعوه فلا يجيب حتى سقط على سور عكًا ، فأمسكه أهلها وأرسلوه إلى السلطان ـ رحمه الله ـ وكان لقدومه استبشار عظيم بالظفر به ، وتفاءلوا بذلك وبذل الفرنج فيه ألف دينار فلم يجابوا(٢) .

ذكر قدوم كند فرند(٣)

قدم هذا اللعين بعد ملك الإفرنسيس [١٠٧] وهو أيضًا من أكابر ملوكهم ، وكان مقدماً عظيماً عندهم مذكوراً ، وكان حاصر حماة وحارم فى عام الرملة(٤) .

ثم وصلت سفن من ملك الإنكتار ـ لعنه الله ـ واسمه جبلرت ، ولم يجىء هو لاشتغاله بجزيرة قبرس .

وقال العماد الكاتب : وصل الخبر أن ملك الإنكتار(٥) وصل إلى جزيرة قبرس فى السادس والعشرين من ربيع الآخر فى جمع عظيم ، وتقدمته إلى الجزيرة مراكب وشوانى على قصد الجزيرة ، فخرج صاحب قبرس إليها واستولى عليها ، وغنم أموالها ، وصدم رجالها .

فلما وصل مكث متحيرا واشتغل بالقتال ، وأنفذ إلى الإفرنج الذين على عكا يطلب منهم نجدة ، فأنفذوا له جفرى ـ أخا الملك العتيق(٦) ـ فى جموع كثيرة ، وامتدت

---

(١) الباز : جمع أبواز نوع من الصقور ، ينتمى إلى الفصيلة الصقرية ، وله مهارة فائقة فى الصيد . انظر : المعجم الوسيط ، ص ٧٩ .

(٢) انظر : النوادر السلطانية ، ص ١٥٦ ـ ١٥٧ ؛ الفتح القسى ، ص ٤٧٤ ـ ٤٧٥ ؛ الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٨٣ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ، ص ٤٣٠ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٤٢ .

(٣) «كند فرير» فى النوادر السلطانية ، ١٥٧ ؛ الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٨٣ .

(٤) كانت وقعة الرملة عام ٥٧٣ هـ .

(٥) الإنكتير فى الفتح القسى ، ص ٤٧٧ ، وملك الإنكتير ليجرت هو Richard قلب الأسد ملك انكلترا ابن هنرى الثامن ، وقد تم الصلح بينه وبين صلاح الدين سنة ١١٨٩م بعد مراسلات عدة . انظر : رانسمان ، تاريخ الحروب الصليبية ، جـ ٣ ، ص٨٩ وما بعدها .

(٦) الملك العتيق هو : «كى» كما جاء فى كتب المؤرخين العرب وهوGuy of Lusignan king of Jerusalem وقد أسره صلاح الدين يوم حطين وفك أسره بعد أن أقسم أن لا يحاربه . الفتح القسى ، ص٤٧٧ ، حاشية ٤ .

الحروب بينهم ، ثم تراسلوا فى الصلح . واجتمع صاحب الجزيرة بملك الإنكتار ، وحمل له هدايا وتحفاً . ووسع له الأزواد وبذل له الأمداد[١] .

وقال صاحب النوادر[٢] : وكان ملك الإنكتار هذا شديد البأس بينهم ، عظيم الشجاعة ، قوى الهمة ، له وقعات عظيمة ، وجسارة على الحرب ، ولكنه دون ملك الإفرنسيس فى الملك والمرتبة ، ولكنه أكثر مالاً منه ، وأشهر فى الحرب والشجاعة ، وكان الفرنج على عكا منتظرين ما يكون بين الطائفتين منهم .

ولما كان يوم الأحد سلخ ربيع الآخرمن هذه السنة ، وصلت كتب من بيروت تخبر أنه قد أخذ من مراكب الإنكتار ، القاصدة نحو عسكر العدو ، خمس مراكب وطرادة ، فيها خلق كثير من الرجال والنساء والميرة والأخشاب والآلات وغير ذلك ، وفيها أربعون فرساً . وكان ذلك فتحاً عظيما ، استبشر به المسلمون .

ذكر وصول العساكر الإسلامية

لما انفتح البحر وطاب الزمان ، وجاء أوان عود العساكر إلى الجهاد من الطائفتين ، قدم من العساكر الإسلامية خلق كثير ، فكان أول من قدم علم الدين سليمان بن جندر ، من أمراء الملك الظاهر غازى[٣] ولد السلطان صاحب حلب ، وكان شيخاً كبيراً مذكوراً ، له وقائع ، ذو رأى حسن ، والسلطان يحترمه ويكرمه لقدم صحبته . ثم قدم بعده مجد الدين بن عز الدين فروخشاه بن شاهنشاه صاحب بعلبك ، وتتابعت بعد ذلك العساكر الإسلامية من كل صوب[٤] .

ذكر زحف العدو إلى عكا

لما كان يوم الخميس الرابع من جُمادى الأولى من هذه السنة ، زحف العدو إلى البلد ونصبوا عليه مناجيق سبعًا[٥] . ووصلت كتب عكا بالاستنفار العظيم ، والتماس شغل العدو عنهم .

---

(١) ينقل العينى بتصرف من الفتح القسى ، ص ٤٧٧ - ٤٧٨ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٦٤ .
(٢) ينقل العينى بتصرف من النوادر السلطانية ، ص ١٥٧ - ١٥٨ ؛ الفتح القسى ، ص ٤٧٨ .
(٣) هو أبو الفتح غازى ابن السلطان صلاح الدين الملقب الملك الظاهر غياث الدين صاحب حلب ، كانت ولادته بالقاهرة سنة ٥٦٨ هـ ، وتوفى بقلعة حلب سنة ٦١٣ هـ .انظر : وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٦ - ١٠ .
(٤) ينقل العينى هذا النص بتصرف من النوادر السلطانية ، ص١٥٦ .
(٥) النويرى : نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص ٤٣٠ .

فأعلم السلطان العساكر بالعزم على الرحيل إلى مضايقة العدو ، فسار حتى وقف على الخروبة ، ورتب العساكر ميمنة وميسرة وقلباً ، ثم أنفذ من كشف حال العدو وحال خنادقهم ، هل فيها كمين لهم أم لا؟ فعادوا وأخبروا بخلوها عن الكمين . فسار بنفسه ومعه نفر يسير من مماليكه حتى أتى خنادقهم ، وصعد تلاً كان يعرف بتل الفضول ، وهو قُريب العدو مشرف على خيامهم ، وشاهد المنجنيقات وما يعمل منها وما هو بطال ، ثم عاد سائرا إلى مخيمه(١)[١٠٨] .

قال قاضى القضاة بهاء الدين : وأنا فى خدمته وفى صبيحة هذه الليلة ، أتاه اللصوص برضيع له ثلاثة أشهر ، قد أخذوه من أمه وسرقوه(٢) .

ذكر قضية الرضيع

وذلك أنه كان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام العدو فيسرقون منهم ما قد روا عليه ، وكان من قضيتهم أنهم أخذوا ذات ليلة طفلاً رضيعاً له ثلاثة أشهر ، وكانوا سرقوه من مهده وعرضوه على السلطان ، وكانوا كل ما يأخذونه يعرضونه عليه ، فيخلع عليهم ويعطيهم ما أخذوه . ولما علمت أمه بذلك وجدت عليه وجداً شديداً ، وباتت تلك الليلة مستغيثة بالويل والثبور ، حتى وصل خبرها إلى ملوكهم فقالوا لها : «إن سلطان المسلمين رحيم القلب ، وقد أذنا لك فى الخروج إليه ، فاخرجى واطلبيه منه ، فإنه يرده عليك» . فخرجت وهى تستغيث إلى يزك المسلمين ، فأخبرتهم بواقعتها بترجمان كان يترجم عنها ، فأطلقوها وأنفذوها إلى السلطان ، فأتته وهو راكب على تل الخروبة .

قال قاضى القضاة بهاء الدين(٣) : وأنا فى خدمته ، وفى خدمته خلق عظيم ، فبكت بكاء شديداً ومرغت وجهها فى التراب ، فسأل عن قصتها ، فأخبروه ، فرقّ لها ودمعت عينه ، وأمر بإحضار الرضيع ، فمضوا فوجدوه قد بيع فى السوق ، فأمر بدفع ثمنه إلى

---

(١) انظر : الفتح القسى ، ص ٤٧٨ - ٤٧٩ ؛ الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٨٤ .
(٢) انظر : النوادر السلطانية ، ص ١٥٨ .
(٣) انظر : النوادر السلطانية ، ص ١٥٨ - ١٥٩ ؛ الفتح القسى ، ص ٤٨٠ - ٤٨١ ؛ الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٨٤ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٤٢ .

المشترى ، وأخذه منه ، ولم يزل واقفاً حتى أحضر الطفل ، وسلّم إليها ، فأخذته وبكت بكاء شديدا وضمته إلى صدرها ، والناس ينظرون إليها ويبكون ، فأرضعته ساعة . ثم أمر بها السلطان فحُملت على فرس ، وألحقت بعسكرهم . فانظر إلى هذه الرحمة الشاملة والشفقة الكاملة ، وانظر إلى شهادة الأعداء له بالرقة والكرم والرأفة والرحمة .

ومليحة شهدتْ لها ضرَّاتها والحسن ليس لحقه من ناكرٍ

قال قاضى القضاة بهاء الدين : وفى ذلك اليوم وصل ظهير الدين بن البلنكرى ، وكان مقدماً من أمراء الموصل ، وصل مفارقاً لهم طالباً خدمة السلطان . ولما عاد السلطان إلى مخيمه ، لم يمكث إلا ساعة حتى وصل إليه الخبر بتجديد الزحف على عكا ، فعاد وركب من ساعته وسار نحو البلد ، فوصل وقد انفصل الحرب بدخول الليل بين الطائفتين[١] .

ذكر كيفية أخذ العدو مدينة عكا من يد السلطان قسراً

لما كان صبيحة يوم الثلاثاء التاسع من جمادى الأولى ، بلغ السلطان أن الإفرنج قد ضايقوا البلد ، وركَّبوا عليه المناجيق ، فأمر الجاووش أن يصيح بالناس ، وركب وركب لركوبه العسكر فارسهم وراجلهم ، وسار حتى أتى الخروبة .

وقوى اليزك بتسيير جماعة من العسكر إليهم ، فلم يخرج العدوّ ، واشتد زحفهم على البلد ، فضايقهم السلطان مضايقة عظيمة حتى قاتلهم قتالاً شديداً . وهجم عليهم فى خنادقهم ، ولم يزل كذلك حتى عادوا عن الزحف ظهيرة نهار [١٠٩] الثلاثاء المذكور . وعاد السلطان إلى خيمة لطيفة ضربت له هناك يستظل بها من الشمس ، فنزل لصلاة الظهر والاستراحة ساعة ، وقوّىَ اليزك ، وأمر الناس بالعود إلى المخيم لأخذ شىء من الراحة . فبينما هو كذلك إذ وصل من اليزك من أخبر أن القوم قد عادوا إلى الزحف ، لما أحسوا بانصراف السلطان عنهم ، أشد ما كانوا أولاً ، فأمر العسكر بالعود إلى جهة العدو أطلابا أطلابا . وبات هو ـ رحمه الله ـ وجميع العسكر على تعبئة القتال .

(١) ورد هذا النص بتصرف فى النوادر السلطانية ، ص ١٥٨ ـ ١٥٩ .

ثم سار العسكر فى أواخر ليلة الأربعاء عاشر جمادى الأولى ، إلى تل العياضية قبالة العدو ، وضربت له خيمة لطيفة ، وأمر الناس أنْ ينزلوا على التل حوله على العادة فى منازلهم العام الماضى ، لكن جرائد ، مع بقاء الثقل على الخروبة ، ونازل العدو فى ذلك اليوم مُجمعين على القتال الشديد على البلد من جميع جوانبه ، والسلطان يدور بين الأطلاب ويحثهم على الجهاد ويرغبهم فيه .

ولما رأى العدوّ تلك المنازلة خافوا من الهجوم على خيمهم ، فتراجعوا عن الزحف ، واشتغلوا بحفظ الخنادق ، وحراسة الخيام . ولما رأى السلطان فتورهم عن الزحف ، عاد إلى خيمته فى تل العياضية ، ورتب على خنادقهم من يخبر بحالهم ساعة فساعة . ثم أنهم بالغوا فى مضايقة البلد ، ومبالغتهم فى طم خندقه بالأتربة وغير ذلك ، حتى بموتى دوابهم ، ونصبوا المجانيق والدبابات والسلالم ، وجُلّ همتهم فى طم خندق البلد ، ألقوا فيه كل شىء حتى آل أمرهم أنهم كانوا يلقون فيه موتاهم ، وكان إذا جرح منهم واحد جراحة مثخنة مؤيسة ألقوه فيه .

وأما أهل البلد فإنهم انقسموا أقساماً ؛ قسم ينزلون إلى الخندق ويقطِّعون الموتى والدواب التى يلقونها فيه [قطعاً ، ليسهل نقلها][(١)] ، وقسم ينقلون ما يقطعون إلى البحر ويلقونه فيه ، وقسم يَذُبُّون عنهم ويدافعون حتى يتمكنوا من ذلك ، وقسم فى المنجنيقات وحراسة الأسوار ، ومع هذا يداخلهم التعب والنصب ، وتكاثرت شكايتهم من ذلك ، وقد ابتلوا ببلية لم يبل بمثلها أحد . هذا والسلطان ـ رحمه الله ـ لا يقطع الزحف عنهم ، والمضايقة على خنادقهم بنفسه وخواصه وأولاده ليلاً ونهاراً ، فحصلت هذه الأمور الشديدة ليلاً ونهاراً إلى أن وصل ملك الإنكتار[(٢)] .

ذكر وصول ملك الإنكتار

وقد وصل هذا اللعين يوم السبت الثالث عشر من جمادى الأولى ، بعد مصالحته لصاحب قبرس كما ذكرنا . وكان فى جمع عظيم فى خمسة وعشرين شينيا ، مملوءة بالرجال والسلاح والعدو ، وأظهر الإفرنج بقدومه سروراً عظيماً وفرحوا فرحاً شديداً ، حتى

---

(١) ما بين الحاصرتين مثبت من الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٨٤ لتوضيح المعنى .

(٢) ورد هذا النص بتصرف فى النوادر السلطانية ، ص ١٥٩ ـ ١٦١ ؛ الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٨٤ .

أنهم أوقدوا تلك الليلة نيراناً عظيمة فى خيامهم(١) ، وبلى الثغر منه بلاء لا يشبه ما قبله . فعند ذلك حركت الكوسات(٢) فى البلد ، وكانت علامة بينهم وبين السلطان ، فحرك السلطان أيضاً كوساته ، واقترب من البلد ليشغلهم عنه ، وقد أحاطوا به من كل مكان ونصبوا عليه سبع مجانيق وهى تضرب البلد [١١٠] ليلاً ونهاراً ، ولاسيما على برج من جهة البر ، حتى أثرت فيه أثراً بيناً . وشرعوا فى ردم الخندق ، بما أمكنهم من دواب ميتة ومن قتل منهم ومن مات أيضًا . وقاتلهم أهل البلد وهم ينقلون ما ألقوا فيه إلى البحر(٣) .

ذكر ما جرى على البطسة الإسلامية

ولما كان السادس عشر من جمادى الأولى من هذه السنة ، وصلت بطسة عظيمة للمسلمين من بيروت ، مشحونة بالآلات والأسلحة ، والمير والرجال ، والأبطال المقاتلة . وكان السلطان قد أمر بتعبئتها فى بيروت وتسييرها ، ووضع فيها من المقاتلة خلقاً عظيمًا ، حتى تدخل البلد مراغمة للعدو ، وكانت عدة رجالها ستمائة وخمسين(٤) رجلاً ، فاعترضها ملك الإنكتار اللعين فى عدة[شوان](٥) . وكان الملعون واقفاً فى البحر فى أربعين مركباً لا يترك شيئاً يصل إلى البلد بالكلية ، فاحتاطوا بتلك البطسة من جميع جوانبها ، واشتدوا فى قتالها .

وجرى القضاء والقدر بأن وقف الهواء ، فقاتلوا قتالاً شديداً ، وقتل من العدو خلق عظيم ، وأحرقوا من شوانيهم شينياً كبيراً فيه خلق كثير ، فهلكوا عن آخرهم ، وتكاثروا على أهل البطسة ، وكان مقدمهم رجلاً جيداً شجاعاً مجرباً فى الحرب . فلما رأى أمارات الغلبة عليهم ، ورأى أنهم لابد أن يقتلوا ، قال : «والله لا نُقْتَل فى أيديهم ولا نموت إلا عن عز ، ولا نسلم إليهم من هذه البطسة شيئاً» . فوقعوا فى البطسة من جوانبها

---

(١) ورد هذا النص بتصرف فى النوادر السلطانية ، ص ١٦١ ؛ الفتح القسى ، ٤٨٤ ـ ٤٨٥ .

(٢) الكوسات مفرد كوسه ، من رسوم السلطان وآلاته ، وهى صنوجات من نحاس شبه الترس الصغير ، يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص ، ويتولى ذلك الكوسى . انظر : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٩ ، ١٣ .

(٣) ورد هذا النص بتصرف فى البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٤٢ ؛ النوادر السلطانية ، ص ١٦١ ؛ الفتح القسى ، ص٤٨٤ ـ ٤٨٥ ؛ النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ، ص ٤٣١ ـ ٤٣٢ .

(٤) اختلفت المصادر فى ذكر عدد رجال البطسة : «سبعمائة» فى الفتح القسى ، ص ٤٨٦ ؛ الكامل ، جـ ١٠ ، ص٢٠٤ . «ستمائة مقاتل» فى البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٤٢ .

(٥) «شوانى» فى الأصل . والمثبت هو الأصح لغة ، وهو كما فى النوادر السلطانية ، ص ١٦١ .

بالمعاول[١] ولم يزالوا كذلك حتى فتحوا فيها من كل جانب مثل الأبواب ، فامتلأت ماءً ، وغرق كل مَنْ فيها وما فيها [مِنَ][٢] الالآت والمير وغير ذلك . ولم يظفر العدو منها بشيء أصلاً ، وكان اسم المقدم يعقوب ، من أهل حلب .

وتلقف العدو بعض من كان فيها ، وخلَّصوه من الغرق ، ومثلوا به وأنفذوه إلى البلد ، ليخبروهم بالواقعة . وحزن الناس لذلك حزناً شديداً ، فإنا لله وإنا إليه راجعون[٣] .

ذكر حريق الدبابة الكُفْرية

وكان من لطف الله تعالى ، أنه جبر المسلمين بأن مكنهم ــ فى اليوم الذى جرى على البطسة الإسلامية ما ذكرناه ــ على حريق دبابة ، كان الفرنج قد اصطنعوها ، وكانت هائلة عظيمة أربع طبقات : الأولى من الخشب ، والثانية من الرصاص ، والثالثة من الحديد ، والرابعة من النحاس ، وكانت مشرفة على السور وفيها المقاتلة . وقد قلق أهل البلد منها وخافوا خوفاً شديداً ، بحيث أن أنفسهم حدثتهم من خوفهم من شرها أن يطلبوا الأمان من الفرنج ويُسلموا البلد ، وكانوا قد قرَّبوها من السور بحيث لم يبق بينها وبين السور إلا مقدار خمسة أذرع ، على ما يشاهد برأى العين .

وأخذ أهل البلد بتواتر ضربها بالنفط ليلاً ونهاراً ، حتى قدر الله حريقها واشتعال النار فيها ، وظهرت لها ذؤابة نار نحو السماء ، وارتفعت الأصوات بالتكبير والتهليل ، ورأى [١١١] المسلمون ذلك جبراً لذلك الوهن ، ونعمة بعد نقمة[٤] .

ذكر عدّة وقعات بينهم وبين المسلمين من داخل وخارج

الأولى : كانت يوم الجمعة[٥] التاسع عشر من جمادى الأولى ، فإنهم زحفوا على البلد زحفاً عظيماً ، وضايقوه مضايقة شديدة ، وكان قد استقر بينهم وبين المسلمين أن متى زحف العدو عليهم دقوا كوسهم ، فضربوا كوسهم ، فأجابه كُوس السلطان ـ رحمه الله

---

(١) المعاول : ومفردها مِعْول ، وهو آلة من الحديد ينقر بها الصخر ، انظر : المعجم الوجيز ، ص ٤٤٢ .

(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من النوادر السلطانية ، ١٦١ لتوضيح النص .

(٣) ينقل العينى هذا النص بتصرف من النوادر السلطانية ، ص١٦١ ـ ١٦٢ ؛ الفتح القسى ، ص٤٨٦ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٤٣ .

(٤) نقل العينى هذا النص من النوادر السلطانية ، ص١٦٢ ؛ الفتح القسى ، ص٤٨٧ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٤٣ .

(٥) «يوم السبت» فى الفتح القسى ؛ ص ٤٨٨ .

ـ وركب العساكر ، وضايقهم السلطان من خارج ، وزحف عليهم حتى هجم المسلمون عليهم فى خيامهم ، وتجاوزوا خنادقهم ، وأخذوا القدور من أثافيها[١] . وحضر من الغنيمة المأخوذة عند السلطان شىء .

ولم يزل القتال يعمل حتى أيقن العدو أنهم قد هُجم عليهم وأُخذوا ، فتراجعوا عن قتال البلد ، وشرعوا فى قتال العسكر ، وانتشب الحرب بينهم ، ولم تزل حتى قام قائم الظهيرة ، وغشى الناس من الحر أمرٌ عظيم من الجانبين ، فتراجعت الطائفتان إلى خيامهم ، وقد أخذ منهم التعب والحر ، وانقضى القتال فى ذلك اليوم[٢] .

الثانية : كانت يوم الاثنين الثالث والعشرين من جمادى الأولى ، فدقوا الكوس على عادتهم ، فجاوبه كوس السلطان ، وثار القتال بين الطائفتين ، ولَجّ العدوّ فى مضايقة البلد ثقةً منهم أن المسلمين لا يهجمون على خيامهم ، وأنهم يهابونهم . فكذّب العسكر ظنونهم وهجموا على الخيام أيضًا ونهبوا منها ، فتراجعوا إلى قتال المسلمين ، ولُحق من المسلمين جماعة عظيمة داخل خنادقهم وأسوارهم ، وجرت بينهم وقعة عظيمة قتل فيها اثنان من المسلمين ، وجرحت جماعة ، وقتل جماعة من الإفرنج .

وقال قاضى القضاة بهاء الدين : أعجب ما فى هذه الوقعة أنه كان وصل ذلك [اليوم][٣] رجل كبير مذكور من أهل مازندران[٤] يُريد الغزاة ، فوصل والحرب قائمة ، فلقى السلطان واستأذنه فى الجهاد ، وحمل حملة عظيمة استشهد فيها فى تلك الساعة . ولما رأى الإفرنج دخول المسلمين إلى خنادقهم وتوغلهم إلى داخل أسوارهم ، حركتهم الحمية ، وبعثتهم النخوة ، فخرجوا إلى ظاهر أسوارهم ، وحملوا على المسلمين حملة الرجل الواحد فثبت المسلمون لهم ثباتاً[٥] عظيماً ، لم يتحركوا عن أماكنهم . والتحم القتال من الجانبين ، وصبر المسلمون صبر الكرام ، ودخلوا فى الحرب بالاقتحام .

---

(١) أثافيها : جمع أثفية ، وهى الحجر يوضع عليها القدر . انظر : المعجم الوجيز ، ص ٦ .
(٢) انظر : النوادر السلطانية ، ص ١٦٢ ؛ الفتح القسى ، ص ٤٨٨ ـ ٤٨٩ .
(٣) ما بين الحاصرتين مثبت من النوادر السلطانية ، ص ١٦٣ لاستقامة المعنى .
(٤) مَازَنْدَرَان : اسم لولاية طبرستان ، وذكر ياقوت أنه اسم محدث لها وأنه لم يره مذكورًا فى كتب الأوائل . انظر : معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ٤١ . ط . دار صادر . بيروت .
(٥) «ثبوتًا» فى النوادر السلطانية ، ص ١٦٣ .

ولما رأى الإفرنج صبرهم وثباتهم، أنفذوا رسولاً فى غضون ذلك، فبلغ الرسول أولاً إلى الملك العادل، فأخذه وأتى به إلى خدمة السلطان ومعه الملك الأفضل أيضًا. ومضمون رسالته: أن ملك الإنكتار يطلب الاجتماع بالسلطان، فأجاب السلطان فى الحال بأن الملوك لا يجتمعون إلا عن قاعدة، ولا تحسن الحرب بعد الاجتماع والمؤاكلة، وإذا أراد ذلك فلابد من تقرير قاعدة قبل هذه الحالة، بترجمان يوثق به فى الوسط، فإذا استقرت القاعدة وقع الاجتماع بعد ذلك إن شاء الله تعالى وتعظم(١).

[١١٢]الثالثة: كانت يوم السبت الثامن والعشرين من جمادى الأولى، فخرج فارسهم وراجلهم على المسلمين من جانب البحر شمالى البلد، ولما علم السلطان ذلك ركب، وركب العسكر وانتشب القتال بينهم، وقُتل من المسلمين بدوىّ وكردىّ، وقتل من العدو جماعة وأسر آخرون(٢)، منهم واحد بلبسه وفرسه، ومثل بين يدى السلطان، ولم يزل القتال يعمل إلى أن حجز الليل بينهم(٣).

الرابعة: كانت يوم الأحد التاسع والعشرين من جمادى الأولى، فخرج منهم رجالة كثيرة على شاطىء النهر الحلو، فلقيهم طائفة من اليزَك وجرى بينهم قتال عظيم، ووصلت رجالة المسلمين، والتحم الحرب فأسروا مسلماً وقتلوه وحرقوه، وأسر المسلمون منهم واحداً فقتلوه وحرقوه.

قال القاضى بهاء الدين(٤): ولقد رأيت النارين تشتعلان فى زمان واحد. ثم مرض ملك الإنكتار مرضاً شديداً أشفى فيه على الهلاك، وجُرح الإفرنسيس. وفارقهم المركيس وسار إلى بلده صُورَ خوفاً منهم أن يخرجوا مُلكها من يده، وبعث ملك الإنكتار إلى السلطان ــ رحمه الله ــ يذكر أن عنده جوارح قد جاء بها من البحر، وهو على نيّة إرسالها إليه، ولكنها قد ضعفت وهو يطلب لها دجاجاً وطيراً ليتقوى بذلك. فعرف السلطان أنه إنما يطلب ذلك لنفسه بتلطف وحيلة، فأرسل إليه بشىء كثير من ذلك، كرماً منه وسجية وحشمة. ثم أرسل يطلب فاكهة وثَلْجاً، فأرسل إليه أيضاً، فلم يُفِد معه

(١) نقل العينى هذا الحدث من النوادر السلطانية، ص ١٦٣؛ الفتح القسى، ص ٤٩٠.
(٢) «وأسر واحد بلبسه وفرسه» فى النوادر السلطانية، ص ١٦٣؛ الفتح القسى، ص ٤٩٣.
(٣) نقل العينى هذا النص من النوادر السلطانية، ١٦٣؛ الفتح القسى، ص ٤٩٢ ـ ٤٩٣.
(٤) لمزيد من التفاصيل عن هذا الخبر انظر: النوادر السلطانية، ص ١٦٣ ـ ١٦٤؛ الفتح القسى، ص ٤٩٣ ـ ٤٩٤.

الإحسان ، بل لما عوفى عاد إلى شر مما كان عليه ، واشتد الحصار ليلاً ونهارا(١) ، وأرسل مَنْ بالبلد يقولون : «إن لم تعملوا معنا شيئاً غداً ، وإلا طلبنا من الإفرنج أماناً» ، فشق ذلك على السلطان أمراً عظيماً ، وذلك لأنه قد سَيّر إليها أسلحة الشام والديار المصرية وسائر السواحل ، وما كان من غنيمة وقعة حطين ، ومن بيت المقدس وهى مشحونة بذلك ، فعزم السلطان على مهاجمة العدو . فلما أصبح ركب فى جيشه ، وهذه هى الوقعة الخامسة ، ورأى السلطان أن الإفرنج قد ركبوا من وراء خندقهم ، والرجالة منهم قد ضربوا سوراً حول الفرسان وهم قطعة من حديد لا ينفذها شىء ، فأحجم عنهم لما يعلم من نكول جيشه ، ولكنه ما رجع إلا عن قتال إلى أن حجز الليل(٢) .

ذِكرُ قدُوم بقية عسكر المسلمين

ولما كان يوم الثلاثاء(٣) سلخ جمادى الأولى ، قدم من عسكر سنجار مقدّمهم مجاهد الدين بُرُنقش(٤) ، فلقيه السلطان ، فاحترمه وأكرمه ، وكان ديناً عاقلاً محباً للغزو . وأنزله السلطان فى الميسرة ، وذلك بعد أن أنزله فى خيمته ، وفرح بقدومه فرحاً شديداً ، ثم قدم بعد ذلك قطعة عظيمة من عسكر مصر وفيهم : علم الدين كُرجى ، وسيف[١١٣] الدين سنقر(٥) الدوادار . ثم قدم بعد ذلك علاء الدين ابن صاحب الموصل فى عسكرهم ، فلقيه السلطان بالخروبة ، ونزلوا هناك إلى بكرة الغد من اليوم الثانى من شهر جمادى الأخرى ، ثم أصبح سائراً حتى أتى بجحفله قبالة العدو ، [فعرض](٦) عسكره هناك ، وأنزله السلطان فى خيمته ، وحمل له من التحف ما يليق بكرمه ، وأنزله فى الميمنة . وفى يوم الجمعة ثالث جمادى الأخرى(٧) قدمت طائفة من عسكر مصر أيضاً ، واشتد مرض ملك الإنكتار بحيث شغل الفرنج مرضه ، وكان ذلك جبراً عظيماً ولطفاً جسيماً من الله تعالى ، فإن البلد ضعف من كان فيه ضعفاً عظيماً ، واشتد بهم الخناق

---

(١) ورد هذا النص بتصرف فى النوادر السلطانية ، ص ١٦٥ ـ ١٦٦ ؛ مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٣٥٥ ؛ نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ، ص ٤٣١ ـ ٤٣٢ .

(٢) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٤٣ ؛ النوادر السلطانية ، ١٦٥ ـ ١٦٦ .

(٣) «يوم الاثنين»فى الفتح القسى ، ص ٤٩٥ .

(٤) «مجاهد الدين يرنقش» فى النوادر السلطانية ، ص ١٦٤ ؛ الفتح القسى ، ص ٤٩٥ .

(٥) «سيف الدين سنقر الدورى» فى الفتح القسى ، ص ٤٩٥ ؛ الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٨٦ .

(٦) «فأعرض» كذا فى الأصل والتصحيح من النوادر السلطانية ، ص ١٦٤ .

(٧) «يوم الجمعة رابع جمادى الأخرة» فى الفتح القسى ، ص ٤٩٦ .

شدة عظيمة ، وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة الرجل ، ومع هذا فاللصوص يدخلون عليهم فى خيامهم ، ويسرقون أقمشتهم ونفوسهم ، ويأخذون الرجال بأن يجىء جماعة إلى واحد منهم وهو نائم ، ويضعون على حلقه السكين ثم يوقظونه ، ويقولون له بالإشارة : «إن تكلمت ذبحناك» ويحملونه ويخرجون به إلى عسكر المسلمين ، وجرى ذلك مراراً عديدة[1] .

ذكر قوة زحفهم على البلد لعنهم الله

ولم يزالوا يُوالون على الأسوار بالمنجنيقات المتواصلة الضرب ، بتثقيل أحجارها حتى خلخلوا أسوار البلد وأضعفوا بنيانها ، وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم ، وكثرة الأعمال عليهم ، حتى إن جماعة منهم [بقوا][2] ليالى عدة لا ينامون أصلاً ، لا ليلاً ولا نهاراً ، والخلق الذين عليهم عدد كثير يتناوبون على القتال . ولما أحسوا بضعف المسلمين ، شرعوا فى الزحف من كل جانب ، وانقسموا أقساماً ، وتناوبوا فرقاً ، كلما تعبت طائفة استراحت وقام غيرهم مقامهم ، وشرعوا فى ذلك شروعاً عظيماً براجلهم وفارسهم ، وذلك فى اليوم السابع من جمادى الآخرة من هذه السنة ، هذا مع عمارتهم أسوارهم الدائرة على خنادقهم بالرجالة والمقاتلة ليلاً ونهاراً .

فلما علم السلطان بذلك ، ركب ، وركب العسكر بأسرهم ، وجمع الراجل والفارس ، ووعدهم ، ورغبهم ، وزحف على خنادق القوم حتى دخل فيها العسكر عليهم ، وجرى فى ذلك اليوم قتال عظيم من الجانبين ، والسلطان ـ رحمه الله ـ كالوالدة الثكلى ، [يتحرك][3] بفرسه من طُلْب إلى طُلْب ، ويحثُّ الناس على الجهاد . والملك العادل ـ رحمه الله ـ حمل بنفسه فى ذلك اليوم مرتين ، والسلطان يطوف بين الأطلاب ، وينادى بنفسه : يا آل الإسلام ، وعيناه تذرفان بالدمع ، وكلما نظر إلى عكا ، وما حلَّ بها من البلاء ، وما يجرى على ساكنيها من المصاب العظيم ، اشتدَّ فى الزحف ، والحث على القتال ، ولم يطعم فى ذلك اليوم طعاماً ألبتة ، وإنما شرب بعض شروب كان يشير بها الطبيب .

---

(١) ورد هذا النص بتصرف فى النوادر السلطانية ، ص ١٦٤ ـ ١٦٥ ؛ الفتح القسى ، ص ٤٩٥ ـ ٤٩٦ .
(٢) «بَلوْا» كذا فى الأصل . والتصحيح من النوادر السلطانية ، ص ١٦٦ .
(٣) «يحرك» كذا فى الأصل والتصحيح من النوادر السلطانية ، ص ١٦٦ .

وقال قاضى [١١٤] القضاة بهاء الدين - رحمه الله - : وتأخرتُ عن حضور هذا الزحف لما عرانى مرض مشوَّش لمزاجى ، وكنت فى الخيمة المضروبة فى تل العياضية وأنا أشاهد الجميع ، ولما هجم الليل عاد السلطان إلى الخيمة بعد عشاء الآخرة ، وقد أخذ منه التعب والحزن ، فنام لا عن غفو ، ولما كان وقت السحر أمر بدق الكوسات فركب وركبت العساكر من كل جانب ، وأصبحوا على ما أمسوا عليه .

وفى هذا اليوم وصلت مطالعة من البلد يقولون فيها : «إنا قد بلغ بنا العجز إلى غاية فما بعدها إلا التسليم ، ونحن فى الغد - يعنى يوم الأربعاء الثامن من جمادى الآخرة - إن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان ونسلم البلد ، ونشترى مجرد رقابنا» . وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكاه فى قلوبهم ، فإن عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر وجميع البلاد الإسلامية ، واحتوت على كبار من أمراء الإسلام وشجعانهم ، كسيف الدين المشطوب ، وبهاء الدين قراقوش ، وغيرهما . وكان قراقوش [ملزماً] بحراستها[١] منذ نزل العدو المخذول عليها ، وحصل للسلطان من ذلك أمر عظيم ، وخيف على مزاجه التشوش ، وهو لا يقطع ذكر الله والرجوع إليه فى جميع ذلك ، وهو صابر محتسب ملازم مجتهد . ثم صاح فى العسكر منادى فى جهته ، فركبت الأطلاب واجتمع الراجل والفارس ، واشتد الزحف فى ذلك اليوم ، ولم يساعده العسكر فى ذلك اليوم على الهجوم عليهم ، فإن الرجالة من الإفرنج وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك[٢] ، والنشاب من وراء أسوارهم ، وهجم عليهم بعضهم من بعض الأطراف ، فثبت المسلمون وذبّوا غاية الذب . ولم يزل الحرب يعمل بينهم بقتل وجرح حتى حجز الليل بين الطائفتين[٣] .

ومن الغرائب أن امرأة منهم واقفة داخل سورهم عليها ملوطة[٤] خضراء ، ولم تزل ترمى المسلمين بقوس من خشب حتى خرجت جماعة منهم ، فتكاثرت عليها

---

(١) «ملازما» كذا فى الأصل ، والمثبت من النوادر السلطانية ، ١٦٧ .

(٢) الزنبورك - ج : زنبوركات - قد يعنى نوعا من القسى التى ترمى عنها السهام ؛ وقد تعنى نوعا من السهام ذاتها . عن هذه الاختلافات ، راجع : الفتح القسى ، ص ١٦٨ ؛ الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١١٩ ؛ النوادر السلطانية ، ص ١٤٨ - ١٤٩ ؛ حاشية ١ .

(٣) ورد هذا النص بتصرف فى النوادر السلطانية ، ص ١٦٦ - ١٦٧ ؛ الفتح القسى ، ٤٩٥ - ٥٩٧ ؛ الروضتين ، جـ ٢ ، ص١٨٦ .

(٤) ملوطة : وجمعها ملاليط ، وهى الجبة الحرير . Dozy. Supp. Dict. Arabe vetements, P. 412.

المسلمون الذين دخلوا أسوارهم ، فقتلوها وأخذوا قوسها ، وحملوه إلى السلطان ، فتعجب من ذلك عجباً عظيماً[١] . وكذلك كان هناك إفرنجى راجل صعد سور خندقهم ، وإلى جانبه جماعة يناولونه الحجارة ، وهو يرميها على المسلمين الذين يلاصقون سور خندقهم ، ولقد حكى من كان من الداخلين سورهم ، أنه وقع فيه زهاء خمسين سهماً وحجراً ، وهو يتلقاها ، ولايمنعه ذلك عما هو بصدده من الذبِّ والقتال ، حتى ضربه مسلم زَرَّاق بقارورة نفط فأحرقه[٢]» .

ولما اشتد زحفهم على البلد ، وتكاثروا عليه من كل جانب ، وقلت رجال البلد ، ضعفت نفوسهم لما رأوا الهلاك حقيقة ، واستشعروا الضعف والخذلان ، وتمكن العدو من الخنادق فملأوها ، وتمكنوا من سور البلد الباشورة ، فنقبوا وأشعلوا فيه النار ، ووقعت بَدَنَة[٣] من الباشورة ، ودخلوا فيها وقتل منهم فيها زهاء مائة وخمسين نفساً ؛ وكان منهم ستة أنفس من كبارهم ، فقال لهم واحد منهم : «لا تقتلونى [١١٥] حتى أُرحِّل الفرنج عنكم بالكلية» ، فبادر رجل من الأكراد فقتله ، وقتل الخمسة الباقية . وفى غد ذلك اليوم نادى الفرنج : «احفظوا هؤلاء الستة فإنا نُطلقكم كلُّكم بهم» فقالوا : «قد قتلناهم» ، فحزنوا لذلك حزناً عظيماً ، وبطلوا عن الزحف بعد ذلك ثلاثة أيام .

ذكر خروج سيف الدين المشطوب إليهم

ولما قتل المسلمون الستة المذكورين ، اشتد حنق الفرنج عليهم جداً ، وجاء الليل فحال بين الفريقين ، ولما أصبح الصباح خرج أمير المسلمين بالبلد سيف الدين أحمد ابن على المشطوب ، فاجتمع بملك الإفرنج الافرنسيس وطلب منه الأمان على أنفسهم ويتسلمون منه البلد ، فلم يجبه إلى ذلك ، وقال : بعدما سقط السور جئت تطلب الأمان . فأغلظ له الأمير سيف الدين فى الكلام ، ورجع إلى البلد فى حالٍ الله بها عليم . ولما أخبر أهل البلد بذلك خافوا خوفاً شديداً ، وأرسلوا إلى السلطان يُعلمونه[٤] بذلك ، وقال

(١) ورد هذا النص بتصرف فى النوادر السلطانية ، ص ١٦٧ ؛ الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٨٦ .
(٢) الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٨٦ .
(٣) بدَنة : اصطلاح معمارى وهو ما يعبر عنه بكتف البناء . الفتح القسى ، ص ٥٠٥ ، حاشية ١ .
(٤) ورد هذا النص بتصرف فى النوادر السلطانية ، ١٦٨ ؛ الفتح القسى ، ص٥٠٥ ؛ الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٨٦ ؛ نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ، ٤٣٢ - ٤٣٣ .

صاحب النوادر(١) : ولما جرى ذلك أخذ جماعة من أهل البلد بَركُوسًا ، وهو مركب صغير ، وركبوا فيه ليلاً خارجين إلى العسكر الإسلامى ، وذلك فى ليلة الخميس التاسع من جمادى الآخرة من هذه السنة ، وكان فيهم من المعروفين [عز الدين](٢) أَرْسل ، وابنُ الجاولى الكبير ، وسنقر الوُشاقى ؛ فأما أَرْسل وسنقر فإنهما لمّا وصلا العسكر تغيّبا ولم يُعرف لهما مكان ، خشيةً من نقمة السلطان ـ رحمه الله ـ ، وأما ابن الجاولى فإنه ظفر به ورُمى فى الزَرْدخاناه .

وفى سحرة تلك الليلة ، ركب السلطان مُشعرًا أنه يريد [كبس](٣) القوم ، ومعه المساحى وآلات طمّ الخنادق ، فما ساعده العسكر على ذلك ، وتخاذلوا عن ذلك ، وقالوا : «تخاطر بأهل الإسلام كلهم ، ولا مَصلحةَ فى ذلك» . وفى ذلك اليوم خرج من ملك الإنكتار ثلاثة رسل فطلبوا فاكهة وثلجاً ، وذكروا أن مقدم الإستبارية يخرج فى الغد ـ يعنى يوم الجمعة ـ فيتحدث معكم فى الصلح ، فأكرمهم السلطان . ودخلوا سوق العسكر ، وتفرجوا فيه ، وعادوا تلك الليلة إلى عسكرهم . وفى ذلك اليوم تقدم صارم الدين قايماز النجمى حتى يدخل هو وأصحابه إلى أسوارهم عليهم ، وترجّل جماعة من أمراء الأكراد كالجناح وأصحابه ، وهو أخو المشطوب ، وزحفوا حتى بلغوا أسوار الفرنج ، ونصب قايماز [النجمى](٥) علمهُ بنفسه على سورهم ، وقاتل قطعةً من النهار . وفى ذلك اليوم وصل عز الدين جُرْديك النورى ، وسوق الزحف قائم ، فترجّل هو وجماعته ، وقاتل قتالاً شديداً ، واجتهد الناس فى ذلك اليوم اجتهاداً عظيماً .

ولما كان يوم الجمعة العاشر من جمادى الآخرة ، خرج منهم ثلاثة رسل واجتمعوا بالملك العادل ، وتحدثوا معه ساعةً زمانيةً ، وعادوا إلى أصحابهم ، ولم ينفصل الحال فى ذلك اليوم .

ولما كان يوم السبت الحادى عشر من جمادى الآخرة ، لبست الإفرنج بأسرهم لباس الحرب ، وتحركوا حركة عظيمةً واصطفوا ، وتصرّم هذا النهار [١١٦] ولم ينفصل الحال .

---

(١) ورد هذا النص بتصرف فى الفتح القسى ، ص٥٠٥ ، النوادر السلطانية ، ص١٦٨ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣٤٣ .

(٢) ما بين الحاصرتين مثبت من الروضتين ، جـ٢ ، ص ١٨٧ لتوضيح النص .

(٣) كبسة : فى الأصل والتصحيح من النوادر السلطانية ، ص ١٦٨ .

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من النوادر ، ص ١٦٩ .

ولما كان يوم الأحد الثانى عشر من جمادى الآخرة، وصل من البلد كتب يقولون فيها: «إنا قد [تبايعنا][١] على الموت، فلا نزال نقاتل حتى نقتل، ولا نسلّم هذا البلد ونحن أحياء، فانظروا أنتم كيف تصنعون فى شغل العدو عنا، ولا تخضعوا لهؤلاء الملاعين، وبالله المستعان. فلما سمع السلطان هذا الخبر حطّ منديله على عينيه وبكى بكاء شديداً. وقال إنا لله وإنا إليه راجعون. وفى يوم الثلاثاء الرابع عشر من جمادى الآخرة قدمَ الأمير سابق الدين صاحب شيزر. وفى يوم الأربعاء خامس عشره قدم بدر الدين دُلدرم ومعه تركمان كثير، وكان السلطان قد أنفذ إليه ذهباً كثيراً أنفق فيهم. وقدم فى يوم الخميس سادس عشر أسد الدين شيركوه[٢]، ومع هذا اشتد الحال على أهل البلد، فأرسل السلطان إليهم أن يخرجوا من البلد فى البحر، ولا يتأخروا من هذه الليلة، فتشاغل كثير منهم فى جمع الأمتعة والأسلحة، وتأخروا عن المسير فى تلك الليلة. فما أصبح الخبر إلا عند الإفرنج من مملوكين صغيرين، سمعا بما رسم به السلطان، فهربا إليهم، فأخبراهم بذلك، فاحتفظوا على البحر احتفاظاً عظيماً، فلم يتمكن أحد من أهل البلد أن يتحرك بحركة ولا خرج منها شىء بالكلية. فلما أصبح السلطان بعث إلى ملوك الإفرنج يطلب منهم الأمان لأهل البلد، على أن يُطلق عدتهم من الأسرى الذين تحت يده من النصارى، ويزيدهم على ذلك صليب الصلبوت[٣]. فأبوا إلا أن يُطلق كل أسير تحت يده، ويُعيد إليهم جميع البلاد الساحلية التى أخذت منهم، وبيت المقدس. فأبى السلطان من ذلك. وترددت المراسلات فى ذلك والحصار يتزايد على أسوار البلد، وقد تهدّم شىء كثير منها، وكلما يتهدم شىء يُعيد المسلمون عوضَه، وصَبروا على ذلك صبراً عظيماً.

ولما كان يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الآخرة، صالحهم أهل البلد على أنهم يُسلمون البلد وجميع ما فيه من العدد والآلات والمراكب، ومائتى ألف دينار، وألف وخمسمائة أسير مجاهيل الأحوال، ومائة أسير معيّنين، وصليب الصلبوت، على أن يخرجوا بأنفسهم سالمين، وما معهم من الأموال والأقمشة المختصة بهم وذراريهم ونساءهم، وضمنوا للمركيس اللعين بعشرة آلاف دينار لأنه كان واسطةً، ولأصحابه أربعة

---

(١) «بايعنا» كذا فى الأصل والتصحيح من النوادر السلطانية، ص ١٦٩.

(٢) النوادر السلطانية، ص ١٦٩ - ١٧٠.

(٣) البداية والنهاية، جـ ١٢، ص ٣٤٤.

آلاف دينار . واستقرت القاعدة على ذلك بينهم وبين الإفرنج . ولما وقف السلطان على ذلك أنكر إنكاراً عظيماً ، وجمع أرباب المشورة من أرباب دولته ، وعرّفهم بذلك ، وعزم على أن يكتب فى تلك الليلة مع القوّام وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه ، فما أحسوا بذلك إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر وصلبانه على أسوار البلد ، وذلك فى ظهيرة يوم الجمعة المذكور الآن . وصاح الإفرنج[١١٧] صيحة واحدةً ، وعظمت المصيبة على المسلمين ، واشتدّ حرب الموحدين ، ووقع فى العسكر الصياح والعويل والبكاء والنحيب ، ودخل المركيسُ اللعينُ البلد ومعه أربعة أعلام للملوك ، فنصب علماً على القلعة ، وعلما على مئذنة الجامع ، وعلماً على برج الداويّة ، وعلماً على برج القتال عوضاً عن علم الإسلام . وتحيّز المسلمون الذين بها إلى ناحية من البلد معتقلين مضيقاً عليهم ، وقد أسرت النساء والأبناء وغنمت منهم الأموال ، وقيدّت الأبطال ، وأهينت الرجال . ولما رأى السلطان ذلك رأى أن التأخر عن تلك المنزلة التى هو فيها مصلحة ، فإنه لم يبق وجه فى المضايقة ، فأمر بنقل الأثقال ليلاً إلى المنزلة التى كان عليها أولاً بشفرعم(١) ، وأقامَ هو جريدة فى مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدوّ وحال أهل البلد ، فانتقل الناس فى تلك الليلة إلى الصباح . وفى ذلك اليوم خرج ثلاثة نفر ومعهم [أقوش](٢) حاجب بهاء الدين قراقوش ـ وكان لسانه ـ مستنجزين ما وقع عليه [عهد](٣) الصلح من المال والأسرى ، فأقاموا ليلةً ثم ساروا إلى دمشق يبصرون الأسرى ، وكان مسيرهم يوم الثلاثاء الحادى والعشرين من جمادى الآخرة .

ولما كان يوم الخميس سلخ جمادى الآخرة ، خرج الفرنج من جانب البحر شمالى البلد ، ومن جانب القبة ، وانتشروا انتشاراً عظيمًا راجلهم وفارسهم ، وضربوا أطلاباً للقتال ، فأخبر اليَزك بذلك للسلطان ، فدقوا الكوسات وركب السلطان وأنفذ إلى اليزك [وقواه](٤)برجال كثيرة ، وتوقف هو حتى ركبت العساكر الإسلاميّة واجتمعوا ، فوقع بين اليَزك وبين الإفرنج وقعة عظيمة وقتال شديد قبل اتصال العساكر باليَزك ، فقتل اليزك منهم زهاء خمسين نفراً وجرح خلق عظيم . وفى ذلك اليوم وصل رسل الإفرنج الذين

---

(١) شفرعم : قرية كبيرة بينها وبين عكا بساحل الشام ثلاثة أميال . معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٣٠٤ ـ ٣٠٥ .
(٢) «أقواس» كذا فى الأصل . والمثبت من النوادر السلطانية ، ص ١٧٢ .
(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من النوادر السلطانية ، ص ١٧٢ .
(٤) «وقواهم» فى الأصل . والمثبت من النوادر السلطانية ، ص ١٧٢ .

مضوا إلى دمشق لتفقد حال أسراهم ، ووصل معهم من أعيان أسراهم أربعة نفر ، ثم لم تزل الرسل تتردد بين الطائفتين حتى كان يوم الجمعة تاسع رجب من هذه السنة .

وفى ذلك اليوم خرج حسام الدين حسين بن باريك المهرانى ، ومعه اثنان من أصحاب ملك الإنكتار ، فأخبر أن ملك الفرنسيس سَار إلى صُور ، وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصلبوت ، وأنه هل هو فى العسكر أو حُمل إلى بغداد؟ فأحضر صليب الصلبوت ، فلما رأوه سجدوا له ، وألقوا أنفسهم إلى الأرض ، ومرغوا وجوههم فى التراب ، وبعثوا يطلبون من السلطان ما أحضره من المال والأسرى والصليب ، فامتنع السلطان إلا أن يُرسلوا إليه مَنْ بأيديهم من الأسارى أو يبعثوا إليه برهائن عنده على ذلك ، فقالوا : لا ، ولكن ترسل ذلك وترضى بأمانتنا ، ففهم منهم أنهم يريدون الغدر والمكر ، فلم يرسل ذلك إليهم . وأمر برد الأسارى إلى دمشق [١١٨] وبالصليب معهم مهاناً ، ولما رأوا ذلك أخرجوا خيامهم إلى ظاهر خنادقهم مُبرزّين ، وذلك فى نهار الأربعاء الحادى والعشرين من رجب من هذه السنة ، وكان الذى برز ملك الإنكتار ومعه خلق عظيم من الخيّالة والرجّالة ، وأحضروا ثلاثة آلاف من المسلمين فى صعيد واحد ، فأوقفوهم وهم موثوقون فى الحبال وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد ، فقتلوهم صبراً ضرباً وطعناً ، وذلك يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب[١] .

وقال صاحب النوادر : وكانوا قدموا خيامهم حتى توسطوا المرج بين تل كيسان وتل العياضية ، وكان اليزك الإسلامى قد تأخر[٢] إلى تل كيسان ، ولما كان يوم الخميس التاسع والعشرين من رجب ركبت الإفرنج بأسرهم وقلعوا خيامهم ، وحملوها على دوابهم ، وساروا حتى قطعوا النهر إلى الجانب الغربى وضربوا الخيام على طريق عسقلان ، وأظهروا العزم على المسير على شاطىء البحر ، ولم يستبقوا من المسلمين إلا من كان أميراً أو سريّاً ، أو من كان له صنعة وهم يحتاجون إليها ، أو امرأة أو صبياً ، ثم رحلوا نحو عسقلان[٣] .

---

(١) ورد هذا النص بتصرف فى النوادر السلطانية ، ص ١٧٠ ـ ١٧٤ ؛ الروضتين ، جـ ٢ ، ص١٨٩ .

(٢) «تأخروا» كذا فى الأصل والتصحيح من النوادر السلطانية ، ص ١٧٤ .

(٣) ورد هذا النص بتصرف فى ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ١٧٤ ـ ١٧٥ .

ذكر رحيل الإفرنج صَوْب عَسْقلان

لما كان يوم الأحد مستهل شعبان من هذه السنة ، اشتعلت نيران الإفرنج فى سُحرة ذلك اليوم ، وكانت عادتهم أنهم إذا أرادوا الرحيل أشعلوا النيران ، ولما أخبر السلطان بذلك أمر أن لا يبقى أحد إلا على ظهر مركبه ، فهلك من الناس فى ذلك اليوم قماش كثير ولاسيما من السوقة لقلّة الظهر . ثم سارت الإفرنج فى ذلك اليوم قاصدين عسقلان ، وركب السلطان أيضاً بعساكره وهم يُسايرونهم ويُعارضونهم منزلة منزلة ومرحلةً مرحلةً ، وكانت مدة إقامة السلطان على عكا صابراً مرابطاً سبعةً وثلاثين شهراً ، وجملة من قتل من الفرنج فى هذه المدة خمسون ألفاً ، وسَار السلطان حتى أتى القيمون[١] عصر ذلك النهار ، فنزل وقد ضرب له دهليز وشقة دائرة حوله لاغير ، واستحضر الجماعة وأكلوا شيئاً ، واستشارهم فيما يفعل ، فاتفقوا على أنهم يرحلون بكرة غد ، وقد رتّب حول الفرنج يَزَكا يبيتون حولهم ويرتبون أمرهم . ولما كان صباح الاثنين الثانى من شعبان أرحل السلطان الثقل وأقام هو يترصد أخبار العدو ، فلم يصل إليه شىء من خبرهم حتى [علا][٢] النهار ، ثم سار فى إثر الثقل حتى أتى قريةً يقال لها الصبّاغين ، فجلس ساعةً يترقب أخبارهم فلم يأت خبرٌ ، فسار حتى أتى منزلة يقال لها عيون الأساود .

قال قاضى القضاة بهاء الدين[٣] رحمه الله : ولما بلغنا المنزل رأى السلطان خيماً فسأل عنها ، فقيل أنها خيم الملك العادل ، فعدل إليه ، فأقام عنده ساعةً ثم أتى خيمته ، وفُقِدَ الخبز فى هذا المنزل بالكلية . وغلا الشعير حتى بلغ الربع بدرهم ، وبلغ الرطل من البقسماط بدرهمين . ثم ركب السلطان وسار إلى موضع يسمى الملاحة يكون منزلاً [١١٩] للعدو إذا رحلوا من حَيْفا ، وكان السلطان قد سبق لتفقد المكان ، وأنه هل يصلح للمصاف أم لا ، وتفقد أراضى قيسارية بأسرها إلى الشعراء ، وعاد إلى المنزل بعد دخول وقت العشاء .

---

(١) القيمون : حصن قرب الرملة من أعمال فلسطين ، انظر : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٢١٨ .
(٢) «على» فى الأصل . والمثبت هو الصحيح .
(٣) انظر : النوادر السلطانية ، ص ١٧٦ .

قال قاضى القضاة بهاء الدين[(١)] : وكنت فى خدمته وسألته عما بلغه من خبر العدو ، فقال : وصل إلينا من أخبرنا من أصحابنا أنهم ما رحلوا من حَيفا إلى عصر يومنا هذا ـ يعنى يوم الاثنين ثانى شعبان . وبات تلك الليلة وأصبح مقيماً بتل الزلزلة ينتظر العدو ، ونادى بالعرض ، فركب الناس على ترتيب المصاف ميمنةً وميسرة وقلباً ، ثم عاد إلى الخيمة ، وعاد الناس وقد علا النهارُ ، ثم صلى السلطان الظهر ، وجلس يُطلق أثمان الخيول المجروحة وغيرها إلى عشاء الآخرة ؛ من مائة دينار إلى مائة وخمسين وزائداً وناقصاً ، ثم اتفق الرأى على رحيل الثقل فى عصر ذلك اليوم إلى مجدل يابا[(٢)] . ونزل الثقل بالمجدل بكرة النهار ، وأقام هو بالمنزل جريدة إلى الصباح ، ثم رحلوا إلى جهة العدو ، فرحل الثقل من وقت العشاء ولم يبق مع السلطان إلا خفٌ من الأقمشة ، وبات فى منزله إلى الصباح يوم الأربعاء الرابع من شعبان .

ثم ركب وسار إلى رأس النهر الجارى إلى قيسارية[(٣)] ، ونزل جريدة هناك . وبلغ الرطل من البقسماط إلى أربعة دراهم ، والربع من الشعير إلى درهمين ونصف ، ولم يوجد الخبز أصلاً ، ونزل فى خيمته قريب صلاة الظهر ، وأكل شيئاً وصلى الظهر ، وركب إلى طريق العدو ، فلم يعد إلى أن دخل وقت العصر ، فجلس ساعةً ثم ركب فى آخر نهار الأربعاء المذكور ، ولما نزل أتى باثنين من الفرنج قد أخذهما اليزك ، فأمر بضرب رقابهما ، وأصبح مقيماً بتلك المنزلة ثم ركب فى وقت عادته ، وأشرف على قيسارية وقد وصله الخبر بأن العدو لم يرحل بعد من الملاّحة ، وأحضر عنده اثنان أيضاً . فقُتلا أشر قتلة . ثم أحضر بين يديه منهم فارس مذكور ، وسأل عنه عن أحوال القوم وعن السعر ، فأخبر بالترجمان أن أول يوم من رحيلنا من عكا كان الإنسان يشبع بستة قراطيس[(٤)] ، فلم يزل السعر يَغلو حتى صار يشبع بثمانية قراطيس . وسأله عن سبب تأخرهم فى المنازل فقال : لانتظارهم وصول المراكب بالرجال والميرة . وسأل عن القتلى والجرحى فى يوم رحيلهم ، فقال : كثير . وسأل عن الخيل التى هلكت فى ذلك ، فقال : مقدار أربع مائة فرس . ثم أمر بضرب عنقه .

---

(١) انظر : النوادر السلطانية ، ص ١٥٤ ـ ١٧٦ .

(٢) مجدل يابا أو مجدليابة : قرية من قرى الرملة . انظر : معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ٥٧ (ط دار صادر ـ بيروت) .

(٣) قيسارية : بلد على ساحل بحر الشام تعد من أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام . انظر : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٤٢١ ـ ٤٢٢ (دار صادر ـ بيروت) .

(٤) قراطيس : جمع قرطاس ، وهى ورقة تلف على هيئة القمع ليوضع فيها الحَبُّ ونحوه . المعجم الوجيز ، ص ٤٩٨ .

ثم ركب السلطان بعد صلاة العصر يوم الخميس خامس شعبان إلى أن نزل وأتى باثنين ، فأمر بقتلهما ، وذكر له فى وقت السحر أن العدو تحركوا نحو قيسارية وقارب أوائلهم البلد ، فرحل إلى تلّ قريب من التلّ الذى كانوا عليه ، وضربت الخيام ، ومضى السلطان يرتاد الأراضى الكائنة فى طريق العدو لينظر أيها تصلح للمصاف ، ونزل قريب الظهر ، واستدعى أخاه الملك العادل ، وعلم الدين سليمان[١٢٠] بن جندر ، وأخذ رأيهما . ثم صلى الظهر ، وركب للتشوف على العدو وتنسم أخبارهم ، وأتاه اثنان منهم قد أُخِذا ، فأمر بقتلهما ، ثم باثنين آخرين كذلك ، وذلك فى يوم الجمعة سادس شعبان . وجىء باثنين آخرين فى آخر النهار فقتلا أيضاً ، ثم لما أصبح نادى الجاووش[1] لعرض أجناد الحلقة[2] لاغير . فركب إلى جهة العدو ، ووقف على تلول مُشرفة على قيسارية ، وكان الإفرنج قد وصلوا إليها يوم الجمعة ، ولم يزل يعرض هناك إلى أن علا النهار ، ثم نزل وأكل شيئاً ثم ركب إلى أخيه وعاد بعد صلاة الظهر ، فصلى الظهر ثم أتى بأربعة عشر من الإفرنج وامرأة فرنجّية بينهم أسيرة ، وهى بنت فارس مشهور ، ومعها أسيرة مسلمة قد أخذتها فأُطلقت المسلمة ، ودفع الباقون إلى الزرْدخاناه[3] ، وهؤلاء أوتى بهم من بيروت ، أخذوا فى مركب من جملة عدد كثير ، فقتلوا فى نهار السبت سابع شعبان .

ولما كان صبيح يوم الأحد الثامن من شعبان ، ركب السلطان على عادته ثم نزل ، فجاء من أخبر أن العدوّ على حركة ، وأتى ثانى آخر وأخبر أنهم ساروا ، فأمر بالكوس فَدُقّ ، وركب وركب الناس معه وساروا .

---

(١) الجاووش : هو الجاويش . وجمعها الجاوشية . ويقال له أيضا الشاويش . وهى لفظ تركى . وكان الجاويشية فى نظام دولة المماليك بمصر أربعة من جند الحلقة ، ووظيفتهم السير أمام السلطان أو النائب فى مواكبه للنداء وتنبيه المارة . انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٤٧ ، ٤٨ ، ٢٣٩ .

(٢) أجناد الحلقة : هم فرقة من الجيوش النظامية وكانت تتكون من محترفى الجندية من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم . وهى أقرب الفئات إلى نظام الجيش الثابت فى العصور الحديثة ومرتباتها كانت تصرف من ديوان الجيش . وكانت عدتهم قديما أربعة وعشرين ألف جنديًا .
انظر : خليل بن شاهين الظاهرى : زبدة كشف الممالك ، ص ١١٦ ؛ محمد قنديل البقلى : التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ، ص ١٦ .

(٣) الزردخاناه : دار السلاح ، وهى كلمة فارسية مركبة . وهى تشتمل على أنواع السلاح من السيوف والقسى والنشاب والرياح والدروع . وتعنى أيضا السجن المخصص للمجرمين من الأمراء وأصحاب الرواتب . والمعنى الثانى هو المقصود هنا فى النص . انظر القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١١ ؛ Dozy: Supp. Dict. Arab.

قال القاضى بهاء الدين(١) : وكنتُ فى خدمته حتى أتى بمن معه إلى عسكر العدو ، فصف الأطلاب حوله ، وأمر بقتالهم ، وأخرج الجاليش ، وكان النشاب بينهم كالمطر ، وكان على الفرنج الكبورة(٢) الثخينة والزرديات السابغة المحكمة ، بحيث يقع النشاب ولايؤثر ، وهم يرمون بالزَنبورك فتجرح خيول المسلمين .

قال القاضى : ولقد شاهدتهم وينغرز نشابة فى ظهر واحد منهم ونشابتان وثلاثة إلى عشرة وأكثر ، وهو يسير على هيئته من غير انزعاج . وكانوا قد انقسموا ثلاثة أقسام : الأول الملك العتيق جُفرى وأهل الساحل معه فى المقدمة ، والإنكتارُ والفرنسيسيّة معه فى الوسط ، وأصحاب طبرية وطائفة أخرى فى الساقة ، وفى وسط القوم برج على عجلة كالمنارة عليها علمهم ، وسوق الحرب قائمة بين الطائفتين ، وهم يسيرون سيراً [رفقاً](٣) ، ومراكبهم تسير فى مقابلتهم فى البحر إلى أن أتوا المنزل ونزلوا ، وكانت منازلهم قريبة لأجل رجالتهم ، فإن المستريحين منهم كانوا يحملون أثقالهم وخيمهم على ظهورهم لقلة الظهر بينهم . فانظر إلى هؤلاء الأشقياء وإلى صبرهم على هذه الأعمال من غير أجر ومن غير دنيا ودين ، وكان منزلهم ذلك قاطع نهر قيسارية(٤) .

ولما كانت صبيحة الاثنين التاسع من شعبان وصل من أخبر أنهم ركبوا سائرين ، فركب السلطان أول الصبح وطلب الأطلاب وأخرج من كل طلب جاليشاً ، وسار يطلب القوم وهم سائرون على عادتهم ثلاثة أطلاب ، ثم لم يزل المسلمون يعكرون عليهم ويحملون عليهم إلى أن أتوا إلى نهر يقال له نهر[١٢١] القصب(٥) ، فنزلوا عليه وقد قام قائم الظهيرة . وفى ذلك اليوم قتل من فرسان الإسلام وشجعانهم أياز الطويل من مماليك السلطان ، ودفن على تل مشرف على البركة ، ونزل السلطان بالثقل على البركة ، وهو

(١) انظر : النوادر السلطانية ، ص ١٧٩ .
(٢) الكبورة : عباءة خشنة بيضاء اللون غالبًا ، يلبسها رجال الدين والعسكريون على السواء . انظر : ماير : الملابس المملوكية ، ٩٥ .
(٣) «رفيعًا» كذا فى الأصل والمثبت من النوادر السلطانية ، ص ١٧٩ حيث ينقل العينى عنه .
(٤) نهر قيسارية : أحد أفرع نهر الأردن وتعتبر قيسارية نقطة مصبه فى البحر المتوسط .
انظر حسين مؤنس : أطلس تاريخ الإسلام ، خريطة ١٣٢ ، ص ٢٦٦ .
(٥) نهر القصب : لم نعثر عليه فى المصادر التى بين أيدينا .

موضع تجتمع فيه مياه كثيرة ، وأقام هناك إلى بعد صلاة العصر ، ثم رحل وأتى نهر القصب فنزل عليه ، وكان المسلمون يشربون من أعلاه والإفرنج من أسفله ، وليس بينهم إلا مسافة يسيرة . وبلغ الربع من الشعير فى هذه المنزلة إلى أربعة دراهم ، والخبز كثير موجود ، والرطل منه بنصف درهم . وأقام السلطان ينتظر رحيل الفرنج حتى يرحل فى مقابلتهم ، وباتوا تلك الليلة هناك ، ووقع حرب بين طائفتين منهم ومن المسلمين ، فقتل من الفرنج جماعة ، ومن المسلمين اثنان ، وأسر منهم ثلاثة ، فسأل السلطان عنهم ، فأخبروا أن ملك الإنكتار كان قد حضر عنده بعكا اثنان بدويان ، فأخبرا بقلة عدد العسكر الإسلامى ، ولما جرى بالأمس ما جرى طلب البدويين فضرب أعناقهما ، وأخبروا أن المجروحين منهم كانوا زهاء ألف نفس والمقتولين جماعة .

ولما كان ظهر يوم الثلاثاء العاشر من شعبان رأى السلطان التقدم على العدوّ ، فدق الكوس ، ورحل ودخل فى شعرا أرسوف[١] حتى توسطها إلى تل عند قرية تسمى دير الراهب[٢] ، فنزل هناك ، وأقام ينتظر بقية العساكر إلى صباح الأربعاء الحادى عشر من شعبان ، وجاء من أخبار العدو أنهم مقيمون على نهر القصب ، وأنه لحقهم نجدة من عكا فى ثمانى بُطس كبار ، ويزك الإسلام حولهم يواصلون بالأخبار التى تتجدد ، وجرى بين اليزك وحَشّاشة الإفرنج قتال ، وجرحت جماعة من الطائفتين .

وكان مقدم اليزك علم الدين سليمان بن جندر ، فأرسلوا[٣] إليه من يسمع كلامه[٤] ، وحاصل سؤالهم الاستئذان بالاجتماع بالملك العادل ، فأذن له السلطان فى المضى إليهم ، فجاء إلى اليزك ، وبلغ الخبر إلى ملك الإنكتار فاجتمعا بنجوة من أصحابهما ، وكان يترجم بينهما ابن الهَنفرى ، وهو من فرنج الساحل ، من كبارهم .

---

(١) أرسوف : مدينة على ساحل بحر الشام بين قيسارية ويافا . ياقوت : معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ١٥١ ـ ١٥٢ (ط دار صادر ـ بيروت) .

(٢) دير الراهب : قرية من قرى أرسوف كما يفهم من سياق النص .

(٣) الضمير هنا عائد على المسلمين الموجودين باليزك .

(٤) الضمير هنا عائد على العدو . وقد اختصر العينى عبارة ابن شداد اختصارًا أضر بسياق المعنى . أما عبارة ابن شداد فهى أكثر وضوحًا «أن العدو طلب من اليزك من يتحدث معه ، وكان مقدم اليزك علم الدين سليمان ، فإنها كانت نوبته ، فلما مضى إليهم من سمع كلامهم ، كان كلامهم طلب الملك العادل حتى يتحدثوا معه» . ابن شداد : النوادر السلطانية ، ص ١٦٠ (دار الفرجانى) .

قال قاضى القضاة[١] : ورأيته يوم الصلح وهو شاب حسن ، إلا أنه محلوق اللحية على شعارهم . وكان كلام الرسول فى الصلح طلبُ عَودِ البلاد إليهم كما كانت ، وأن المسلمين ينصرفون إلى بلادهم ، فلما سمع العادل هذا الكلام أغلظ فى الجواب ، وجرت منافرة اقتضت أنهم رحلوا .

أما الإفرنج فإنهم نزلوا على موضع يسمى البركة ، مشرف على البحر . و أصبح السلطان فى صبيحة يوم الجمعة الثالث عشر من شعبان فى قرية تسمى بركة ، وأقام مُطَلِّب الأطلاب متطلعاً إلى أخبار الإفرنج ، فأحضر عنده اثنان منهم قد مسكهما اليَزك ، فأمر بضرب أعناقهما .

ذكر وقعة أرسُوف

ولما كان يوم السبت الرابع عشر من شعبان ، [١٢٢] بلغ السلطان أنهم قد تحركوا للرحيل نحو أرسوف ، فركب ورتّب الأطلاب للقتال ، وعزم فى ذلك اليوم على مصافة القوم ، وأخرج من كل طُلب جاليشاً ، وسار الإفرنج حتى قاربوا شعراء أرسوف وبَساتينها ، وأطلق عليهم الجاليش النشاب ، ولزّتهم الأطلاب من كل جانب ، والتحم القتال ، واضطرمت نارها من الجانبين ، وقتل منهم طائفة وجرح آخرون ، واشتدوا فى السير لعلهم يبلغون المنزلة فينزلون ، واشتد بهم الأمرُ ، والسلطان ــ رحمه الله ــ يطوف من الميمنة إلى الميسرة ويحث الناس على الجهاد .

وقال قاضى القضاة بهاء الدين[٢] : لقيتُه مراراً وليس معه إلا صَبِيَّان بجنيبين[٣] لاغير ، ولقيتُ أخاه وهو على مثل حاله والنشاب يتجاوزهما . ولم يزل الأمر يشتد بالإفرنج ، وطمع فيهم المسلمون طمعاً عظيمًا ، حتى وصل أوائل راجلهم إلى بساتين أرسوف ، ثم اجتمعت الخيالة وتواضعوا على الحملة ، فحملوا حملةً واحدة من الجوانب كلها ؛ فحملت طائفة على الميمنة ، وطائفة على الميسرة ، وطائفة على القلب ، فاندفع الناس بين أيديهم .

---

(١) انظر النوادر السلطانية ، ص ١٦٠ .

(٢) نقل العينى هذا الحدث من النوادر السلطانية ، ص ١٨٣ ـ ١٨٥ .

(٣) الجَنِيبُ : جمعها جُنُبٌ . وهو المَقُودُ إلى الجَنْب من الخيل . المعجم الوجيز ، ص ١١٩ .

قال قاضى القضاة[١] : واتفق أنى كنتُ فى القلب ، ففرّ القلب فراراً عظيماً ، فنويت التحيز إلى الميسرة ، وكانت أقرب إلىَّ ، فوصلتها وقد انكسرت كسرةً عظيمةً ، ثم نويت التحيز إلى الميمنة ، فرأيتها وقد فرت أشدّ فراراً من الكل ، ثم نويت التحيّز إلى [طُلُب][٢] السلطان ، وكان ردْءًا[٣] للأطلاب كلها كما جَرت عادته بذلك ، فأتيتُه ولم يبق معه إلا سبعة عشر مقاتلاً لاغير ، لكن الأعلام كلها باقية والكُوساتُ تدق لاتفتر . ثم وقف الإفرنج خوفاً من الكمين ، وقاتلوا وهم واقفون ، ثم حملوا[٤] حملة ثانية ، ففروا[٥] وهم يقاتلون فى فرارهم ، ثم وقفوا وحملوا حملة ثالثة حتى بلغوا إلى [رؤوس][٦] روابى هناك وأعالى تلول ، ووقفوا هناك .

وأما المسلمون بعد أن فرّوا ، فكان كل من رأى طُلب السلطان واقفاً والكوسات تدق ، يستحى أن يتجاوزه ، ويخاف غائلة ذلك ويعود إلى الطُلب ، فاجتمع عند الطلب خلق عظيم ، ووقف الإفرنج قبالتهم على [رؤوس][٧] التلال والرّوابى ، والسلطان ـ رحمه الله ـ واقف فى طلبه لا يتحرك ، حتى رجعت الناس بأسرهم . وخاف الإفرنج أن يكون فى الشعراء كمين ، فتراجعوا يطلبون المنزلة ، وعاد السلطان إلى تل فى أوائل الشعراء ، ونزل عليه بلا خيمة .

وقال قاضى القضاة : ولقد كنتُ فى خدمته وأسلّيه وهو لا يقبل ، وظللت عليه بشىء[٨] ، وأُحضر بين يديه شىء من الطعام ، فتناول شيئاً يسيرا ، وبعث الناس خيولهم للسقى ، فإن الماء كان بعيداً ، وجلس ينتظر الناس حتى يعودوا من السقى ، والجرحى يحضرون[١٢٣] بين يديه وهو يداويهم ويحملهم . وقتل فى ذلك اليوم رجّالة كثيرة ، وجرحت جماعة من الطائفتين . وكان ممن ثبت فى هذه الوقعة الملك العادل ، والطواشى قايماز النجمى ، والملك الأفضل ـ ولد السلطان ـ صدم فى ذلك اليوم وانفتح دمل كان فى وجهه ، وسال منه دم كثير على وجهه وهو صابر محتسب . وثبت أيضًا فى

(١) انظر النوادر السلطانية ، ص١٨٣ ـ ١٨٤ .
(٢) ما بين الحاصرتين مثبت من النوادر السلطانية ، ص١٨٤ .
(٣) ردْءًا : دَعَمه وقوّاه . المعجم الوجيز ، ص ٢٦٠ .
(٤) الضمير هنا عائد على الإفرنج .
(٥) الضمير هنا عائد على المسلمين .
(٦) ، (٧) فى الأصل «رؤس» .
(٨) يذكر ابن شداد إنه منديل . انظر النوادر السلطانية ، ص ١٨٤ .

ذلك اليوم طُلب الموصل ومقدمه علاء الدين ، وشكره السلطان على ذلك . وتفقد الناس بعضهم بعضا ، فَوُجد وقد استشهد جماعة من العسكر عرف منهم : أمير شكار مُوَسّك ، وكان رجلاً شجاعاً معروفاً ، وقايماز العادلى وكان مذكوراً ، وأبغوش وكان شجاعاً ، أسف السلطان عليه . وجرح خلق كثير وخيول كثيرة ، وقتل من العدو جماعة وأسر واحد فَأُحضِر ، فأمر السلطان بضرب عنقه ، وأخذت منهم خيول أربعة ، ثم أمر السلطان أن يتقدم الثقل إلى العوجاء[1] ، وكان الإفرنج نزلوا على قبلى أرسوف ، ونزل الثقل قاطع النهر المعروف بالعوجاء فى منزلة خضرة على جانب النهر .

ووصل السلطان فى آخر النهار ، وازدحم الناس على القنطرة ، ونزل السلطان على تل مشرف على النهر ولم يعبر الخيمة ، وأقام السلطان إلى سحرة ليلة الأحد الخامس عشر من شعبان من هذه السنة ، ثم دَقّ الكوس وركب ، وركب الناس ، وسار راجعاً إلى جهة العدو حتى وصل إلى أرسوف ، وصَفّ الأطلاب للقتال رجاء خروج الإفرنج ومسيرهم حتى يصادمهم ، فلم يرحل الملاعين فى ذلك اليوم لما نالهم من التعب والجراحات ، فأقام السلطان قبالتهم إلى آخر النهار ، ثم عاد إلى منزلته التى بات بها ، فبات بها ليلة الاثنين السادس عشر .

ولما كان يوم الاثنين دَقّ الكوس وركب ، وركبت الناس ، وسار نحوهم . وبلغ إليه خبرهم أنهم رحلوا طالبين جهة يافا ، وسار حتى قاربهم جداً ، ورتب الأطلاب ترتيب القتال ، وأخرج الجاليش ، وأحدق العسكر الإسلامى بالقوم ، وألقوا عليهم من النشاب ما كاد أن يسد الأفق ، وقاتلوهم قتالاً عظيماً ، والملاعين لم يحملوا بل حفظوا نفوسهم وساروا مصطفين على عادتهم حتى أتوا نهر العوجاء ، وهو النهر الذى كان منزل المسلمين أعلاه ، فنزلوا فى أسفله ، وعبر بعضهم النهر ، وأقام الباقون من الجانب الشرقى .

وعاد السلطان أيضًا إلى الثقل ، ونزل فى خيمته وأكل الطعام ، ثم أتى بأربعة من الإفرنج وقد أخذتهم العرب ، ومعهم امرأة ، [فدفعوا][2] إلى الزردخاناه ، وأقام السلطان

---

(١) العوجاء : نهر بين أرسوف والرملة من أرض فلسطين من السواحل . انظر : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ١٦٧ ، (ط . دار صادر ـ بيروت) .

(٢) «فرفعوا» كذا فى الأصل . والمثبت بين الحاصرتين من النوادر السلطانية ، ص ١٨٥ .

بقية اليوم فى تلك المنزلة، وكتب الكتب إلى الأطراف باستحضار بقية العساكر، وحَضَرَ من أخبره أنه قتل من الإفرنج يوم أرسوف خيول كثيرة، وأن العرب تتبعوها فعدوها فزادت على مائة، وجرح أيضاً من خيل المسلمين شىء كثير، ثم أمر السلطان برحيل[١٢٤] الجمال إلى الرملة، وبات فى تلك المنزلة.

ولما كان يوم الثلاثاء السابع عشر من شعبان، صلى الصبح ورحل، ورحل معه الثقل الصغير، وسار يريد الرملة، وأتى باثنين من الإفرنج فأمر بضرب أعناقهما. وجاء خبر من اليزك بأن الإفرنج رحلوا قاصدين يافا، وسار السلطان إلى الرملة ونزل فى الثقل الكبير، وأتى باثنين من الإفرنج أيضًا فسألهما عن أحوال القوم، فذكرا أنهم ربما يقيمون فى يافا أياماً، وفى أنفسهم عمارتها وإشحانها بالرجال والعُدَد(١).

فأحضر السلطان أرباب المشورة وشاورهم فى أمر عسقلان، هل تخرب أم تبقى؟ واتفق الرأى على أن يتخلف الملك العادل ومعه طائفة من العسكر قريباً من العدو لأجل الأخبار، وأن يسير السلطان إلى عسقلان ويخرِّبها خشية من أن يتولاها الإفرنج فيأخذوا من بها من المسلمين، ويأخذوا بها القدس الشريف، ويقطعوا بها طريق مصر. فعند ذلك أمر السلطان برحيل الثقل الجمالى من أول الليل، وأمر ولده الملك الأفضل أن يسير عقيب الثقل فى نصف الليل.

ثم سار السلطان فى سحرة يوم الأربعاء الثامن عشر من شعبان، ووصل إلى يُبْنَى(٢) فنزل بها، وأخذ الناس راحة، ثم رحل وسار حتى أتى أرض عسقلان بعد صلاة العصر، وقد ضربت خيمته بعيداً منها شمالى البلد فى أرض طيبة، فبات بها مهموماً بسبب تخريب عسقلان، وما نام تلك الليلة إلا قليلاً(٣).

قال قاضى القضاة بهاء الدين: فطلبنى فى تلك الليلة وقت السحر، وشرع فى حديث عسقلان وتخريبها، وأحضر ولده الملك الأفضل وشاوره فى ذلك وقال: والله لإن أفقد أولادى بأسرهم أَحبّ إلىّ من أن أهدم منها حجراً واحداً، ولكن إذا قضى الله بذلك وعيّنه لحفظ مصلحة المسلمين فكيف أصنع(٤)؟.

(١) النوادر السلطانية، ص ١٨٦.
(٢) يُبْنَى: بليد قرب الرملة. انظر: معجم البلدان، جـ ٥، ص ٤٢٨ (ط دار صادر ـ بيروت).
(٣) انظر أخبار تخريب عسقلان فى الكامل جـ١٠، ص ٢٠٧ ـ ٢٠٩.
(٤) نقل العينى هذا الخبر من الروضتين، جـ ٢، ص ١٩٢.

ذكر تخريب عسقلان(١)

ثم استخار السلطان ، فأوقع الله فى قلبه أن المصلحة فى تخريبها لعجز المسلمين عن حفظها عن الإفرنج ، فاستحضر الوالى بها - يُدْعى قيصر - من كبار مماليكه وذوى الآراء منهم ، فأمره أن يضع فيها المعاول ، وذلك فى سحرة ليلة الخميس التاسع عشر من شعبان ، وقسم السور على الناس ، وجعل لكل أمير وطائفة من العسكر بدنة معلومة ، وبرجًا معلوماً يخربونه ، ودخل الناس البلد ووقع فيه الضجيج والبكاء ، وكانت بلدة نضرة حسنة خفيفة على القلب ، محكمة الأسوار ، عظيمة البناء ، مرغوباً فى سكنها ، فلحق الناس حزن عظيم ، وعظم عويل أهلها وبكاؤهم على مفارقة أوطانهم ، وشرعوا فى بيع ما لا يمكن حمله ، وبيع ما يساوى عشرة دراهم بدرهم واحد ، ورمى الناس أقمشتهم بالثمن البخس حتى بيع [اثنا](٢) عشر طيراً من الدجاج بدرهم واحد . واختبط البلد ، وخرج أهله إلى العسكر بذراريهم ونسائهم خشية [١٢٥] أن يهجم الإفرنج البلد ، وبذلوا فى الكرى أضعاف ما يُساوى ، فقوم إلى مصر ، وقوم إلى الشام ، وقوم يمشون لم يقع لهم كراء ، وجرت أمور كثيرة وبليَّة عظيمة لعلها لم يكن مثلها . وكان السلطان بنفسه وولده الملك الأفضل يستعملان الناس فى التخريب والحث عليه ، خشية أن يسمع الإفرنج فيحضرون ولا يمكن تخريبها ، وبات الناس على أشد حال من التعب والنصب .

وفى تلك الليلة ، حضر من الملك العادل مَنْ أخبر أن الإفرنج تحدثوا معه فى الصلح ، وأن ابن الهنفرى جاء إليه وتحدث معه فى ذلك . فرأى السلطان أن ذلك مصلحة لِما رأى فى أنفس الناس من الضجر والملالة من القتال والمصابرة ، وكثرة ما علاهم من الديون ، وكتب إليه يسمح له فى الحديث فى ذلك ، وفوَّض أمر ذلك إليه . وأصبح يوم الجمعة العشرين من شعبان على الإصرار على التخريب واستعمال الناس فيها . وأباح لهم الهُرْى(٣) الذى كان ذخيرة فى البلد ، للعجز عن نقله وضيق الوقت والخوف من لحوق الإفرنج . وأمر بتحريق البلد ، فأضرمت النيران فى البيوت والآدر ، فاضطرمت النيران فيها ، وأرمى الناس غالب أقمشتهم للعجز عن نقلها .

---

(١) عن تخريب عسقلان انظر : النوادر ، ص ١٨٧ - ١٨٨ ؛ الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٠٧ - ٢٠٩ ؛ النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ٤٦ - ٤٧ .

(٢) «اثنى» كذا فى الأصل . والصحيح لغوياً ما أثبتناه .

(٣) الهُرْى : جمع الأهراء ، وهى حواصل لخزن أنواع الغلال المتنوعة . وتعرف الأهراء فى مصطلحنا الحديث بالشونة . انظر : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٣٣ ؛ ابن مماتى : قوانين الدواوين ، ص ٣٥٠ .

وفى أثناء ذلك الأخبار تتواتر من جانب الإفرنج بعمارة يافا ، وأن كل وقت يجرى بينهم وبين اليزك وقعات .

قال قاضى القضاة بهاء الدين : ولم يزل التخريب والتحريق يعملان فى عسقلان وأسوارها إلى سلخ شعبان من هذه السنة ، وكانت عظيمة البناء بحيث أن بعض سوره كان عرضه تسعة أذرع ، وفى مواضع عشرة أذرع ، وذكر بعض الحجارين للسلطان ـ وأنا حاضرٌ ـ أن عرض السور الذى ينقبون فيه مقدار رمح . قال القاضى : ووصل فى أثناء ذلك جرديك بكتاب فيه أن الإفرنج قد تفسحوا وصاروا يخرجون من يافا ويغيرون على البلاد القريبة منها ، فلو تحرك السلطان لعله يبلغ غرضه منهم فى غِرّتهم ، فعزم السلطان على الرحيل ، وعلى أن يُخَلِّف حجارين فى عسقلان . ومعهم مَنْ يحميهم حتى يستقصوا فى التخريب . ثم رأى أن يتأخر إلى أن يحرق البُرج المعروف بالإستبار ، وكان برجاً مشرفاً على البحر كالقلعة المنيعة .

ثم أصبح السلطان يوم الاثنين مستهل رمضان من هذه السنة ، أمر ولده الملك الأفضل أن يُباشر ذلك بنفسه وخواصه . قال القاضى : ولقد رأيته يحمل الخشب هو وخواصه لتحريق البرج ، ولم يزل الناس ينقلون الأخشاب ويحشونها فى البرج حتى امتلأ ، ثم أطلقت فيها النار ، وبقيت النار تشتعل فيها يومين وليلتين .

ثم[١] رحل السلطان ليلة الثلاثاء الثانى من رمضان من نصف الليل ، ووصل إلى يُبْنَى ضحوة نهار الثلاثاء ، ونزل فى خيمة أخيه الملك العادل واستخبر منه الأخبار ، ثم قام ونزل فى خيمته ،[١٢٦] وبات تلك الليلة فى تلك المنزلة .

ذكر رحيل السلطان إلى الرملة

ولما أصبح السلطان يوم الأربعاء الثالث من رمضان[٢] ، رحل إلى جهة الرملة ، فسار حتى أتاها ضحوة النهار ونزل بالثقل الكبير هناك نزول إقامة ، ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلباً ، ومد السماط للناس ، ثم أخذ بعض راحة . ثم ركب بين الصلاتين[٣] وسار إلى لدّ ، فرآها ورأى بيعتها وعِظَم بنائها ، فأمر بتخريبها وتخريب قلعة الرملة أيضًا ، ووقع

(١) انظر : النوادر السلطانية ، ص ١٨٩ .

(٢) انظر تفاصيل ذلك الخبر فى الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٩٢ ؛ الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٠٩ .

(٣) «الصلوتين» فى الأصل . و فى النوادر السلطانية ، ص ١٨٩ «صلاتى الظهر والعصر» .

الخراب فى الموضعين فى ذلك اليوم ، وفرق الناس لتخريب المكانين ، وأباح ما فيهما من التبن والشعير فى الأهراء[١] السلطانية ، وأمر من كان بهما من المقيمين بالانتقال إلى المواضع العامرة ، وما كان بقى فى المكانين إلا نفر يسير ، ثم عاد السلطان إلى خيمته .

ولما أصبح يوم الخميس الرابع من رمضان ، أقام [الحجارون][٢] فى المكانين ، ورتب عندهم من يستخدمهم فى ذلك ، وهو يتردد إليهم فى الأصائل ، ثم وقع له أن يسير خفية فى نفر يسير ليشاهد أحوال القدس الشريف ، وخلف أخاه العادل فى العسكر يحث الناس على الخراب ، فسار من أول الليل حتى أتى بيت نوبة فبات بها حتى أتى الصبح وصلى ، وسار حتى أتى القدس الشريف فى يوم الجمعة خامس رمضان المذكور ، وصلى الجمعة . وأقام ذلك اليوم يتفقد أحوال الناس وأحوال القدس فى عمارته وميرته وعدته وغير ذلك ، وظفر بنفر من النصارى معهم كتب إلى الإفرنج ، فضرب أعناقهم . ولم يزل مقيماً فى القدس إلى يوم الاثنين الثامن من رمضان . ولما كان يوم الاثنين خرج قاصداً العسكر بعد صلاة الظهر ، فبات فى بيت نوبة[٣] .

ذكر مجيء معز الدين صاحب ملطية

وفى يوم الاثنين المذكور وصل صاحب ملطية معز الدين قيصر شاه بن قليج أرسلان وافداً على السلطان ، مستنصراً [به][٤] على إخوته وأبيه ؛ لأنهم كانوا قصدوا أخذ بلده منه ، فلقيه الملك العادل عند لُدّ ، واحترمه وأكرمه ، ثم لقيه بعده الملك الأفضل ولد السلطان ، وضربت خيمتُه قريباً من لُدّ .

وفى تاريخ النويرى[٥] : وسبب قدومه أن والده فرّق مملكته على أولاده وأعطى ولده هذا ملطية ، ثم تغلب بعض إخوته على أبيه وألزمه أن يأخذ ملطية من أخيه المذكور ، فخاف من ذلك ، فسار إلى السلطان ملتجئاً إليه فأكرمه السلطان وزوجه بابنة أخيه الملك العادل . وعاد معز الدين إلى ملطية فى ذى القعدة وقد انقطع طمع أخيه فيه .

---

(١) الأهراء السلطانية : هى الأماكن التى تخزن بها الغلال والأتبان الخاصة بالسلطان ، احتياطًا لحالات الطوارئ . انظر : خليل بن شاهين الظاهرى ، زبدة كشف الممالك ، ١٢٢ - ١٢٣ .

(٢) «الحجارين» كذا فى الأصل . والصحيح لغوياً ما أثبتناه .

(٣) انظر تفاصيل ذلك فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص٢١٢ ؛ الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٩٢ .

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من النوادر السلطانية ، ص١٩٠ ، للإيضاح .

(٥) ورد هذا الخبر فى الكامل ، ج١٠ ، ص٢١٢ .

وقال ابن الأثير[١] : ولما ركب السلطان صلاح الدين ليُودع معزّ الدين قيصرشاه المذكور، ترّجل معز الدين له، فترجّل السلطان صلاح الدين رحمه الله، ولما ركب عضده قيصر شاه وركبه، وكان علاء الدين [خرمشاه][٢] بن عز الدين مسعود صاحب الموصل مع السلطان إذ ذاك، فسوى ثياب السلطان، فقال بعض الحاضرين فى نفسه : ما بقيت تبالى يا ابن أيوب بأى موتة تموت، يُركِبكَ مَلكٌ سجلوقى، ويُصلح قماشك مَلِكٌ أتابكيٌ زنكى[٣] .[١٢٧]

وفى يوم قدوم معز الدين وصل الخبر إلى العسكر أن جماعة من الحشاشين من الإفرنج خرجوا يحشّون، فحمل عليهم اليزك الإسلامى، ووصل الخبر إلى عسكرهم فخرجت فى نصرتهم جماعة، وجرى بينهم وبين اليزك قتال، وذكر بعض الأسرى أنه كان معهم ملك الإنكتار، وأن شخصًا من المسلمين قصد طعنه ، فحال بينه وبينه فرنجى، فَقُتِلَ الفرنجى وجرح هو[٤] .

ذكر عود السلطان إلى العسكر

ولما كان يوم الثلاثاء تاسع رمضان المذكور، وصل السلطان إلى العسكر، ولقيه الناس مستبشرين بقدومه، وأقام يحثُّ على الخراب . ولم تزل أخبار العدو عنده، ولم تزل تقع بين اليزك وبين الإفرنج وقعات، ويسرق العرب من خيولهم وبغالهم ورجالهم[٥] . وفى أثناء ذلك اليوم وصل رسول من المركيس، يذكر أنه يصالحهم بشرط أن يعطى صيدا وبيروت، على أن يجاهر الفرنج بالعداوة، ويقصد عكا ويحاصرها ويأخذها منهم . فأجاب السلطان وسير إليه العدل النجيب، وكان المركيس هذا خبيثًا ملعوناً، وكان لما استشعر من الإفرنج أَخْذِ بلده صور منه، استعصم بها وانحاز عن الفرنج، ولذلك أجاب السلطان إلى كلامه وسير العدل النجيب مع رسوله يوم الجمعة ثانى عشر رمضان، واشترط عليه أن يبدأ بمجاهرة عداوة القوم، وحصار عكا وأخذها، وإطلاق مَنْ بها من الأسرى، وكذلك مَنْ كان بصور من الأسرى، فإذا فعل ذلك يُسَلِّم إليه صيدا وبيروت[٦] .

(١) انظر : الكامل، جـ ١٠، ص ٢١٢ .
(٢) ما بين الحاصرتين إضافة من الكامل، جـ ١٠، ص ٢١٢ .
(٣) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من الكامل، جـ١٠، ص ٢١٢ .
(٤) نقل العينى هذا الخبر من النوادر السلطانية، ص ١٩٠ .
(٥) نقل العينى هذا الخبر من النوادر السلطانية، ص ١٩٠ .
(٦) نقل العينى هذا الخبر من النوادر السلطانية، ص ١٩٠ .

ولما كان يوم السبت الثالث عشر من رمضان ، تأخر السلطان بالعسكر إلى الجبل ليتمكن الناس من إنفاد دوابهم إلى العلوفة ، فإنهم كانوا على الرملة قريبين من الإفرنج ، فنزل السلطان على تل بجبل النطرون[١] بالثقل الكبير وجميع العسكر ماعدا اليزك ، وذلك بعد خراب الرملة ولُدّ ، ويوم نزوله هناك أمر بتخريب النطرون ، وكانت قلعة منيعة[٢] .

وفى السابع عشر من رمضان جاء الخبر من اليزك بأخبار طيبة ؛ منها خبر هلاك الإفرنسيس ، وكان موته فى أنطاكية عن مرض عرض له .

ومنها أن ملك الإنكتار عاد إلى عكا ، وذلك لما صح عنده مراسلة المركيس إلى السلطان فيما ذكرنا[٣] .

ذكر مسير الملك العادل إلى القدس

وفى يوم الجمعة التاسع عشر من رمضان ، اقتضى الحال تَفَقُّد أحوال القدس والنظر فى عمائره ، فتعين لذلك الملك العادل ، فسار إليه وعاد منه إلى العسكر يوم الأحد الحادى والعشرين من رمضان .

وفى أثناء هذه الأيام وصل كتاب من الملك المظفر تقى الدين ، يخبر أن قزل أرسلان صاحب ديار العجم قفز عليه أصحابه فقتلوه ، وكان قتله فى أوائل شعبان من هذه السنة[٤] .

وفى هذا اليوم وصلت مراكب للعدو ، قيل : إنها وصلت من عكا ، وإن ملك الإنكتار فيها بجماعة عظيمة[١٢٨] وقصده عمارة عسقلان ، وقيل : قصده أخذ القدس[٥] .

ووصل جماعة من الأسارى كانوا فى عكا أخذهم اليزك فى موضع يقال له : الزيب[٦] . ووصل رسول قزل أرسلان ، كان قد سيره قبل موته ، ورسول ابن أخيه أينانج ،

(١) النطرون : مدينة قرب الرملة بجنوب فلسطين ، واسمها أيضًا «أطرون» . معجم البلدان ، جـ١ ، ص٣١٠ .
(٢) نقل العينى هذا الخبر من النوادر السلطانية ، ص١٩١ .
(٣) انظر هذه الأخبار فى : النوادر السلطانية ، ص ١٩٠ حيث نقل العينى عنه .
(٤) لمزيد من التفاصيل عن هذا الخبر ، انظر : النوادر السلطانية ، ص ١٩٢ .
(٥) انظر هذا الخبر فى : النوادر السلطانية ، ص ١٩٢ ـ ١٩٣ .
(٦) الزيب : مكان شمال عكا . انظر : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٣٤٩ .

ورسول من ملك الإنكتار ، ومعه حصان إلى الملك العادل فى مقابل هدية كان أحضرها إليه . ووصل خبر وفاة حسام الدين بن لاجين بدمشق بسبب مرض عرض عليه ، فحزن عليه السلطان . ووصل كتاب من سامه يذكر فيه أن الإبرنس صاحب أنطاكية ـ لعنه الله ـ أغار على جبلة واللاذقية ، وأنه كسر كسرة عظيمة ، وقتل منه جماعة وعاد إلى أنطاكية مخذولاً[١] .

ووصل رسول من ملك الإنكتار يقول : «خربت البلاد وهلك المسلمون والإفرنج ، وتلفت الأموال ، وقد بلغ الأمر غايته وما تم شىء من الوسط سوى القدس والصليب والبلاد . أما القدس فإنه متعبدنا ما تفرغ[٢] عنه ولو لم يبق منا أحد . وأما البلاد فيعاد إلينا من حد الأردن ، وأما الصليب فإنه خشبة ، لا مقدار لها عندكم وهو عندنا عظيم ، فيمّن السلطان بهذه الأشياء علينا ، ونصطلح ونستريح من هذا العناء الدائم .

ولما وقف السلطان على هذا أجاب بأن القدس لنا كما هو لكم ، بل هو أعظم عندنا مما هو عندكم ، فإنه مَسْرى نبينا ﷺ ، ومجمعُ الملائكة ، فلا يُتصور أن نتركه ، ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين . وأما البلاد فهى لنا فى الأصل واستيلاؤكم عليها طارئٌ لضَعْفِ مَنْ كان بها من المسلمين فى ذلك الوقت ، وأما الصليب فحرقه عندنا قربة عظيمة لا يجوز لنا أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام[٣] .

ذكر هروب شيركوه بن باخل الكردى من عكا

وكان أسيراً فيها ، ووصل إلى عسكر الإسلام فى أواخر يوم الجمعة السادس والعشرين من رمضان ، وكان من الأمراء ، من الأكراد الزرزارين[٤] ، وأخبر أنه هرب ليلة الأحد الحادى والعشرين من رمضان ، وكان ادّخر له حبلاً فى مخدة ، وكان الأمير حسين بن باريك ادخر له حبلاً فى بيت الطهارة ، فاتفقا على الهروب ، ونزلا من طاقة كانت فى

(١) نقل العينى هذه الأخبار من النوادر السلطانية ، ص ١٩٣ .
(٢) فى النوادر ، ص ١٩٤ (ما نتنزل عنه) .
وتَفَرَّغَ عنه تعنى تَخَلّى عنه . انظر : المعجم الوجيز ، ص ٤٦٨ مادة (فرغ) .
(٣) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من النوادر السلطانية ، ص ١٩٤ .
(٤) الأكراد الزرزارية : يسكنون فى ملازكرد والرستاق ، ومرت ، وجبل جنجرين المشرف على أُشْنُه من ذات اليمين من جبال الأكراد . وهؤلاء الأكراد ممن تَكَرَّدَ من العجم ، ولهم عدد جَمٌّ . وجبلهم فى غاية العلوّ والشهوق فى الهواء ، شديد البرد . انظر مزيد من التفاصيل عنهم فى القلقشندى : صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٣٧٦ .

بيت الطهارة ، وانحدرا من السور الأول ، وعَبَر شيركوه من الباشورة[١] ، وكان ابن باريك حالة نزوله انقطع به الحبل ، ونزل شيركوه سليماً ، وأنه أتى إليه وحركه فلم يتحرك ، فخاف إنْ مكث أُخذ ، فتركه وانصرف واشتد هرباً فى قيوده حتى أتى تل العياضية وقد طلع الصبح ، فكمن فى الجبل حتى علا النهار وكسر قيوده ، وسار فستر الله عليه حتى أتى العسكر فى الوقت المذكور ، وأخبر أن سيف الدين بن المشطوب[٢] ضُيِّق عليه ، وقطعوا عليه قطيعة عظيمة من خيل وبغال وأموال ، وأن ملك الإنكتار أتى عكا وأخذ كل مَنْ كان له بها ؛ مِنْ خَدَمِه ومماليكه وأقمشته ، ولم يَخَلِّ له فيها شيئاً . وأن فلاحى الجبل يُمدّونه بالميرة مَدّاً عظيماً . وأن طغرل [١٢٩] السلاحدار أخذ خواصّ مماليك السلطان ، فهربوا قبل هروب شيركوه[٣] .

ذكر بقية الأخبار

منها أن يوم الاثنين التاسع والعشرين من رمضان ، استدعى الملك العادل قاضى القضاة بهاء الدين وأحضر جماعة من الأمراء ؛ علم الدين سليمان ، وسابق الدين ، وعز الدين بن المقدم ، وحسام الدين بشارة ، وقال لهم : إن ملك الإنكتار أرسل إليه يقول له : إن العادل يتزّوج بأخته ، وكان قد استصحبها معه من صقلية ، وكانت زوجة صاحبها ومات عنها ، وأن يكون مستقرها بالقدس ، وإن أخاها يُعطيها بلاد الساحل التى فى يده من عكا إلى يافا وعسقلان وغير ذلك ، ويَجعلها ملكة الساحل ، وإن السلطان يُعطى الملك العادل جميع ما فى يده من بلاد الساحل ، ويجعله ملك الساحل ، ويكون ذلك مضافاً إلى ما فى يده من البلاد والإقطاعات ، وإنه يسلم إليهم صليب الصلبوت ، وتكون القرايا للداوية والإستبار ، وأنا أفك أساراكم وأنتم تفكون أسارانا ، فإذا استقر الصلح على هذا يرحل ملك الإنكتار إلى بلاده فى البحر ، وينفصل الأمر[٤] . قال القاضى : حمل الملك العادل هذه الرسالة علينا ، وجعلنى المتكلم فيها .

---

(١) الباشورة : جمعها بواشير : وهو الحائط الظاهرى ، أو مايُرى منه . انظر : محيط المحيط ؛ Dozy : Supp. Dict. Arab

(٢) فى الأصل «سيف الدين بن المشطوب» وهو خطأ . فهو الأمير سيف الدين على بن أحمد الهكارى ، المعروف بالمشطوب . انظر : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ ، ط دار صادر ـ بيروت ؛ النوادر ، ص١٩٥ .

(٣) نقل العينى هذا الحدث بتصرف من النوادر السلطانية ، ص ١٩٥ .

(٤) نقل العينى هذا الحدث بتصرف من النوادر السلطانية ، ص ١٩٥ .

قال القاضى : فلما حضرنا عند السلطان عرضت عليه هذا الحديث ، فبادر إلى الرضى بهذه القاعدة معتقداً أن ملك الإنكتار لا يوافق على ذلك أصلاً ، وأن هذا منه هُزْؤٌ ومكر . قال : ثم عدنا إلى الملك العادل وعَرَّفناه بذلك[١] .

ولما كان يوم الأربعاء الثانى من شوال ، سار ابن النحّال رسولاً من جانب العادل والسلطان أيضًا إلى ملك الإنكتار ، فلما عُرِّفَ بقدومه أنفذ إليه من قال له : إن الملكة أخت الملك عرض عليها أخوها حديث النكاح ، فسخطت من ذلك وغضبت ، وأنكرت أن يكون ذلك إنكاراً شديداً ، وحلفت أنه لا يكون أصلاً . ثم قال أخوها : إن كان الملك العادل يتنصّرُ فأنا أتمم ذلك . فعاد الرسول بذلك وأخبر العادل والسلطان به ، وتحقق ما قاله السلطان[٢] .

ومنها أن فى يوم السبت خامس شوال وصل الخبر من الأصطول الإسلامى أنه استولى على مراكب الإفرنج ، وفيها مركب يعرف بالمسطح ، قيل : إنه كان فيه خمسمائة نفر وأكثر ، وإنه قتل منهم خلق عظيم ، واستبقى منهم أربعة أنفس وهم كبار مذكورون ، فسُرَّ المسلمون بذلك وضربت البشائر[٣] .

ومنها أن فى يوم الأحد سادس شوال جمع السلطان أكابر الأمراء وأرباب الآراء من دولته وشاورهم فى أن الإفرنج قد أجمعوا على الخروج ، وأنه كيف يصنع فى ذلك؟ فاتفقت آراؤهم على الإقامة فى منزلتهم بعد تخفيف الأثقال ، فإن خرجوا لاقوهم .

وفى عشية هذا اليوم استأمن من الإفرنج اثنان فارسان ، وأخبرا أنهم على عزم الخروج يوم الثلاثاء ، وأنهم زهاء عشرة آلاف فارس ، ولكن لا يُعرف قصدهم . ثم جاء أسير مسلم هرب منهم وأخبر أنهم قد أظهروا الخروج إلى الرملة ، ثم يتفقون فيها على موضع يقصدونه . ولما تحقق السلطان ذلك[١٣٠] أمر بتجهّز العسكر وشدّ الرايات ، وإنه يقف قبالتهم إن خرجوا . وسار يوم الاثنين[٤] حتى أتى قِبلى كنيسه الرملة ، فخيم هناك

(١) نقل العينى هذا الحدث بتصرف من النوادر السلطانية ، ص ١٩٥ .
(٢) نقل العينى هذا الحدث بتصرف من النوادر السلطانية ، ص ١٩٦ .
(٣) نقل العينى هذا الحدث بتصرف من النوادر السلطانية ، ص ١٩٦ .
(٤) الموافق السابع من شوال . انظر : النوادر السلطانية ، ص ١٩٦ــ ١٩٧ .

وبات ليلته . ولما كانت صبيحة يوم الثلاثاء [الثامن][1] من شوال رتب الأطلاب للقتال ، وسلّم اليزك للملك العادل ، وتبعه مَنْ يُريد الغزاة ، وكان وصل جماعة من الروم يريدون الغزاة فخرجوا فى جملة من خرج ، فلما وصلوا إلى خيام الإفرنج هجم عليهم المماليك السلطانية[2] ، ورموا عليهم النشاب ، وقامت الإفرنج وركبوا وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، وحملوا فى جمع كثير ، [فنجا][3] من سبق به جواده ، وظفروا بجماعة قتلوا منهم ثلاثة نفر على ما قيل ، ونقلوا خيامهم إلى يازور[4] ، وأقام السلطان بلقاء منازلهم إلى الصباح[5] .

ولما كان يوم الجمعة الحادى عشر من شوال ، ركب السلطان نحوهم فأشرف عليهم ثم عاد . قال القاضى : ثم استدعانى وجماعة من الأمراء ، وأمر الناس بإبعادهم عن الخيمة ، فأخرج كتاباً من قبائه وفضّه ، ووقف عليه ، وبدرت[6] دموعه وغلبه البكاء والنحيب حتى وافقه الآخرون على ذلك ، مِنْ غير علم السبب . ثم ذكر أن الملك المظفر قد توفى إلى رحمة الله ، وأمر بكتم ذلك عن الناس ؛ لئلا يصل الخبر إلى العدو ، وكانت وفاته فى تاسع عشر رمضان يوم الجمعة على ما نذكره إن شاء الله[7] .

ومنها أن فى يوم السبت الثانى عشر من شوال ، وصل من دمشق كتاب من النواب بها ، وفى طيِّه كتاب من بغداد من الديوان العزيز النبوى ، يتضمن فصولاً ثلاثة : الأول : الإنكار على الملك المظفر فى مسيره إلى بكتمر . والثانى : الإنكار على مظفر الدين فى مسك حسن بن قفجاق ، والأمر بإعادته إلى الكرخانى[8] . والثالث : فيه الأمر بإحضار

---

(١) ما بين الحاصرتين إضافة للإيضاح .

(٢) المماليك السلطانية : هم مماليك السلاطين السابقين ، وفى عصر صلاح الدين كانت المماليك السلطانية تتكون من بقايا المماليك النورية المنسوبة إلى نور الدين محمود ، والمماليك الأسدية المنسوبة إلى أسد الدين شيركوه عم صلاح الدين . وهؤلاء التفوا حول صلاح الدين وأصبحوا هم والمماليك الصلاحية المنسوبة إلى صلاح الدين الأيوبى ـ عصب الجيش الأيوبى وقوته الثابتة زمن صلاح الدين . انظر : نظير سعداوى : جيش مصر فى أيام صلاح الدين ، ص ٢٤ ـ ٢٦ .

(٣) فى الأصل «فنجى» . والمثبت بين الحاصرتين هو الصحيح .

(٤) يازُور : بليدة بسواحل الرملة من أعمال فلسطين بالشام . انظر : معجم البلدان ، جـ ٥ ، ص ٤٢٥ ، طبعة دار صادر ـ بيروت .

(٥) نقل العينى هذه الأحداث بتصرف من النوادر السلطانية ، ص ١٩٧ .

(٦) بدرت : أى سالت . انظر : المعجم الوجيز ، ص ٤٠ .

(٧) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من النوادر السلطانية ، ص ١٩٧ـ ١٩٨ .

(٨) عن تفاصيل ما حدث بين مظفر الدين والكرخانى ، انظر : النوادر السلطانية ، ص ١٩٨ .

القاضى الفاضل إليهم[١] ليُقال له أشياء . فأجاب السلطان عن الأول بأنا لم نأمره بذلك . وعن الثانى بأن ابن قفجاق لا يخفى ما تصدى له من الفساد فى الأرض . وعن الثالث بأنه[٢] كثير الأمراض وقوته تضعف عن الحركة[٣] .

ومنها أن فى السادس عشر من شوال أمر السلطان للحلقة بالكمين للعدّو فى بطون أودية هناك ، واستصحبوا جمعاً من العرب ، فلما استقر الكمين فى موضعه ظهرت العرب فى مناوشتهم ، وكان منهم جماعة تخرج للاحتشاش والاحتطاب فنزل عليهم العرب ، ووقع الحرب وقام الصياح ، فركب جماعة من خيّالة الإفرنج وانهزمت العرب بين أيديهم إلى جهة الكمين ، فخرج الكمين ووقع الصياح وانهزموا بين أيديهم نحو خيامهم ، ثم ركب منهم خلق عظيم فالتحم القتال ، وقتل جمع من الطائفتين ، وأُسرت جماعة من العدو وأُخذت منهم خيول كثيرة ، وانفصل الحرب قبيل الظهر من نهار الأربعاء السادس عشر من شوال . واستشهد فى هذه الوقعة أبان المهرانى وكان شجاعاً معروفاً ، وجاولى غلام الغيدى ، وصرع أياز المعظمى ، وجرح عدّة جماعة ، وقتل من العدو زهاء ستين نفراً ، وأسر فارسان معروفان ، واستأمن اثنان بخيولهما وعدتهما .

ومنها أنه وصل فى بقية هذا اليوم رسول من عند ملك الإنكتار إلى الملك العادل يعتب عليه من جهة الكمين ، وأنه[١٣١] يطلب الاجتماع به فأذن له[٤] .

ولما كان يوم الجمعة الثامن عشر من شوال ، سار الملك العادل ومعه من الأطعمة والتجملات والتحف مما تحمل من ملك إلى ملك ، وجاء إليه ملك الإنكتار فى خيمته فأكرمه العادل واحترمه ، ووصل معه أيضًا من طعامهم الذين يختصون به ، فأتحف به الملك العادل على وجه المطايبة ، فتناول منه العادل ، وتناول هو وأصحابه من طعام العادل ، وقدَّم إليه ما كان حمله معه ، وتحادثا معظم ذلك النهار ، وتفاصلا عن تواد ومطايبة .

---

(١) أى إلى الديوان العزيز ببغداد .

(٢) الضمير عائد على القاضى الفاضل .

(٣) نقل العينى تفاصيل رد السلطان على كتاب الخليفة بتصرف من النوادر السلطانية ، ص ١٩٨ - ١٩٩ .

(٤) نقل العينى هذه الأحداث بتصرف من النوادر السلطانية ، ص ٢٠٠ .

ومنها أن فى يوم السبت التاسع عشر من شوال ، حضر صاحب صيدا بين يدى السلطان ومعه جماعة ، وأكرمه السلطان إكراماً عظيمًا ، وقدّمَ بين يديه طعامًا ، ولما رفع الطعام «خلا»[١] بهم ، وكان من حديثه أن السلطان يصالح المركيس صاحب صور ، وقد انضم إليه جماعة من أكابر الإفرنج ، وكان من شرط الصلح معه إظهار عداوته للإفرنج البحريّة ، وبذل له السلطان موافقةً على ذلك .

ومنها أن فى عشية ذلك اليوم ، وصل رسول ملك الإنكتار وهو ابن الهنفرى ، وهو من أكابرهم وملوكهم ، ومن أولاد ملوكهم ، وفى صحبته شيخ كبير ذكروا أن عمره مائة وعشرون سنة ، فأحضره السلطان ، وكانت رسالته أن الملك يقول : «إنى أحب صداقتك ومودّتك ، وأنت قد ذكرت أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك ، فأريد أن تكون حكماً بينى وبينه ، وتقسم البلاد بينى وبينه ، ولابد أن يكون لنا علقة بالقدس ، ومقصودى أن تقسم البلاد بحيث لا يكون عليك لوم من المسلمين ، ولا علىَّ لوم من الإفرنج» ، فأجابه فى الحال بوعد جميل ، ثم أذن لهم بالعود فى الحال .

قال قاضى القضاة بهاء الدين ــ رحمه الله ــ : ثم التفتَ إلىَّ السلطانُ فى المجلس وقال لى : «متى صالحناهم لم نأمن غائلتهم ، فإنى لو حَدث بى حادث الموت لا تكاد تجتمع هذه العساكر ، وتقوى الإفرنج ، والمصلحة الثبات على الجهاد حتى نخرجهم من الساحل أو يأتينا الموت» . هذا كان رأيه وغرضه ــ رحمه الله[٢] .

ولما كان يوم الاثنين «الحادى والعشرين[٣]» من شوال ، جمع السلطان الأمراء الكبار وأرباب المشورة فى الدولة ، وذكر لهم القاعدة التى التمسها المركيس واستقر الأمر من جانبه عليها ؛ وهى أخذ صيدا ، وأن يكون معنا على الفرنج ، ويقاتلهم ويجاهرهم بالعداوة ، وذكر لهم القاعدة التى التمسها ملك الإنكتار ؛ وهى أن يكون له من القرايا الساحلية مواضع معيّنة ، وتكون لنا الجبليات بأسرها ، وتكون القرى كلها مناصفة ، وعلى

---

(١) فى الأصل «خلى» ، والتصحيح من النوادر السلطانية ، ص ٢٠٢ .
(٢) نقل العينى هذا القول بتصرف من النوادر السلطانية ، ص ٢٠٢ - ٢٠٣ .
(٣) «حادى عشر» فى النوادر السلطانية ، ص٢٠٣ . وهو سهو من الناسخ .

هذين القسمين يكون لهما «قُسوس[١]» فى «بيع[٢]» القدس الشريف وكنائسه ، وشرح لهم السلطان هاتين القاعدتين ، وأخذ رأيهم فى ترجيح أحد القسمين وهما من جانب ملك الإنكتار ومن جانب المركيس . فرأى أرباب الرأى أنه إن كان صلح فليكن مع ملك الإنكتار ، فإن مصافاة الفرنج للمسلمين بحيث يخالطونهم بعيدة[١٣٢] ، وصحبتهم غير مأمونة . وانفض الناس ، وبقى الأمر متردّداً فى الصلح ، والرسل تتواصل فى تقرير قواعد الصلح ؛ وهى أن ملك الإنكتار كان قد بذل أخته للملك العادل بطريق التزويج ، وأن تكون البلاد الساحلية والفرنجية لهما ، أما الفرنجية فلها من جانب الملك ، وأما الإسلامية فللملك العادل من جانب السلطان . وكان آخر رسائلهم من الملك أن قال : «إن معاشر دين النصرانية أنكروا علىَّ كون أختى تحت مسلم بدون مشاورة الباب ، وهو كبير دين النصرانية ومقدمه ، وها أنا أُسَيِّرُ إليه رسولاً يعود فى ستة أشهر ، فإن أذن فى ذلك فبها ونعمت ، وإلا زوجتك ابنة أختى ، وما أحتاج فى ذلك إلى إذن الباب» .

هذا كله وسوق الحرب قائم والقتال عَمَّال ، وصاحب صيدا يركب مع الملك العادل فى الأحيان ، ويشرف على الإفرنج وقتال المسلمين لهم ، وكلما رآه الإفرنج مع الملك العادل تحركوا للصلح ؛ خوفاً من انكسار الشوكة لهم . ولم يزل الحال كذلك إلى يوم الجمعة الخامس والعشرين من شوال ، ففى يوم الجمعة أصبح السلطان عازماً على الرحيل ، وسار إلى تل الجزر لارتياد المنزل ، فنزلت الناس كلهم مع السلطان ، ولما عرف الإفرنج بعَود السلطان رحلوا عائدين ، وأقام السلطان بتل الجزر ، ثم وصل إلى جهة القدس الشريف ، ورحل الإفرنج إلى بلادهم . واشتد الشتاء وعظمت الأمطار ، وأعطى السلطان دستوراً للعسكر ، وأقام بالقدس فى هذا الشتاء أجمع ، ونزل السلطان فى دار القساقس قريباً من القمامة ، وكان نزوله فى ذى القعدة من هذه السنة ، وشرع فى تحصينه وتعميق خنادقه ، وعمل فيه بنفسه وأولاده وأمرائه ، وعمل القضاة والعلماء والصوفية بأنفسهم ، وكان وقتاً مشهوداً ، واليزك حول البلد من ناحية الإفرنج ، وفى كل وقت يستظهرون على الإفرنج ويقتلون منهم ويأسرون ويغنمون . وانقضت السنة والأمر على ذلك ، وأرصد ملك الإنكتار فى يافا عساكر ، ثم عاد إلى عكا لينظر فى أحوالها وأقام مدة .

(١) فى الأصل «أقساء» . والمثبت هو الصحيح لأن القس جمعها قسوس .
انظر : المنجد ، مادة «قس» .
(٢) البِيعَةُ : معبد النصارى وجمعها بِيَعٌ . انظر : المعجم الوجيز ، مادة «بيع» .

ذكر بقية الحوادث فى هذه السنة

منها أنه استقر الحال مع الملك المظفر تقى الدين صاحب حماة أن يأخذ الرها وحران وشميساط ، وينزل عن خبزه الذى بالشام ، بُصرى وعمان والبلقاء ، ومن حلب المعرّة ومنبج ، والمستقر بيده حماة وسلمّية واللاذقية وجبلة وبلاطنس وبك اسرائيل ، ثم لم يلبث أن أدركته الوفاة على ما نذكره فى الوفيات إن شاء الله تعالى .

ومنها أن السلطان صلاح الدين أرسل إلى ولده الظاهر أن يخرّب حصن بُغراس ، فبلغ ذلك ابن ليفون صاحب سيس ، فسار إليها فأخذها بغير قتال .

ومنها أن السلطان أخرب عسقلان كما ذكرنا ، وأخرب غزة والداروم أيضًا ، واهتم بعمارة القدس الشريف[١٣٣] .

ومنها أن السلطان عزل أبا حامد محمد بن عبدالله بن أبى عصرون عن قضاء دمشق ، وولى محيى الدين بن زكى الدين ، قالوا : وسبب عزل ابن أبى عصرون مداخلته الجند ، واشتغاله بما يشتغل به الأمراء ؛ من اتخاذ الخيول والمماليك والترك ، ومباشرة الحروب ، ومعاملة الأمراء ومدانيتهم ، فتهزم السلطان منه وعزله .

ومنها أن أمير مكة داود بن عيسى بن فليتة بن قاسم بن محمد بن أبى هاشم الحسَنى تعدّى ، فأخذ أموال الكعبة حتى انتزع طوقاً من فضة كان على دارة الحجر الأسود ، وقد لَمّ شعثه به حين ضربه ذلك القرمطى بالدبوس ، فلما بلغ السلطان خبره من الحجيج حين رجعوا عزله وولى أخاه مكثراً ، ونقض القلعة التى كان أخوه بناها على جبل أبى قبيس ، فأقام داود بنخلة حتى توفى بها .

وفيها حج بالناس من العراق طاشتكين .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

الخبوشانى ، أبو البركات محمد بن الموفق بن سعيد بن على بن الحسن بن عبدالله الخبوشانى الملقب نجم الدين ، الفقيه الشافعى ، قال ابن خلكان[1] : كان فقيهاً

(١) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ٢٣٩ - ص ٢٤٥ .

فاضلاً كثير الورع ، تفقه على محمد بن يحيى بن منصورالنيسابورى الشافعى ، أستاذ المتأخرين الذى تفقه على الإمام الغزالى ، وكان الخبوشانى يستحضر كتاب «المحيط فى شرح الوسيط» تصنيف شيخه النيسابورى المذكور ، حتى نقل عنه أنه عدم الكتاب فأملاه من خاطره . وله كتاب «تحقيق المحيط» وهو كبير . قال القاضى : رأيته فى ستة عشر مجلداً . ولما استقر السلطان صلاح الدين ـ رحمه الله ـ بملك الديار المصرية قرّبه وأكرمه ، وكان يعتقد فى علمه ودينه ، ويقال : إنه أشار بعمارة المدرسة المجاورة لضريح الإمام الشافعى ـ رحمه الله ـ وعَمَّرها فى سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة . وفى هذه السنة أيضاً بنى المارستان الذى فى القصر بالقاهرة ، فلما عمَّرها فوض تدريسها إليه . وكانت ولادته فى الثالث عشر من رجب سنة عشر وخمسمائة من الهجرة بأستوا خبوشان .

وفى المرآة : كان الخبوشانى يلقب بالنجم ، قدم الديار المصرية وأظهر الناموس وتزّهد ، وكان يركب الحمار فنفق[1] على السلطان وأهله ، وأعطاه السلطان مالاً فبنى به المدرسة التى إلى جانب الشافعى . وكان كثير الفتن ، منذ دخل مصر إلى أن مات مازالت الفتن قائمة بينه وبين الحنابلة ، وابن الصابونى ، وزين الدين بن نجيّة ، ويكفّروه ويكفرهم . وكان طائشاً متهوراً ، نبش ابن الكيزانى وأخرج عظامه من عند الشافعى ، وكان يصوم ويفطر على خبز الشعير ، فلما مات وجدوا له ألوف دنانير ، وبلغ صلاح الدين فقال : ياخيبة المَسْعى ، وكان يبعث إليه بالصدقات فيأخذها لنفسه ، ولما توجه سيف الإسلام إلى اليمن جاء إليه يُودعه ويستقصى حوائجه ، فقال له الخبوشانى : لى إليك حاجة ، قال : ما هى؟ قال : تضرب رقبة كل مَنْ فى المدينة ومكة ، وتأخذ أموالهم وتسبى نساءهم ، وقد أبحت لك ذلك ، فقام سيف الإسلام من عنده وهو يسبه ، وقال : انظروا إلى هذا الرقيع يبيح دماء جيران الله ودماء أهل[١٣٤] بيت رسول الله ﷺ . وكانت وفاته فى صفر ، وسكنت الفتن واصطلح الناس ، وقالوا : هذا فتوح ثانى . وكان سيء الأخلاق قبيح العشرة . وقال ابن خلكان : وكانت وفاته يوم الأربعاء الثانى والعشرين من ذى القعدة من سنة سبع وثمانين وخمسمائة بالمدرسة المذكورة ، ودفن فى قُبّة تحت رجلى الشافعى رضي الله عنه وبينهما شباك .

(١) لعله يقصد النفاق فى الدين . انظر : القاموس المحيط . مادة «نفق» وقد وردت الكلمة فى النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص١١٥ «فيقف» .

والخُبوشانى نسبة إلى خُبوشان بضم الخاء المعجمة والباء الموحدة وسكون الواو وبعد الشين المعجمة ألف ونون ، وهى بليدة بناحية نَيسابور ، وأُسْتوا بضم الهمزة وسكون السين المهملة وفتح التاء المثناة من فوق أو ضمها ، ناحية كثيرة القرى من أعمال نيسابور .

وقال ابن كثير[١] : ولما توفى الخبوشانى طلب التدريس جماعة ، فشفع الملك العادل عند أخيه السلطان صلاح الدين فى شيخ الشيوخ أبى الحسن على بن حَمُويه ، فولاه إياها ثم عزل عنها بعد موت السلطان . واستمرت عليها أيدى بنى السلطان واحداً بعد واحد ، ثم خَلُصت بعد ذلك وعادت إليها الفقهاء والمدرسون .

شهاب الدين المَقْتُول[٢] ، **أبو الفتوح يحيى بن حَبَش بن أميرك** ، الملقب شهاب الدين السُهْرَوردى الحكيم ، المقتول بحلب ، وقيل : اسمه أحمد . وقيل : كنيته اسمه ، وهو أبو الفتوح . وذكر أبو العباس أحمد الخزرجى الحكيم فى كتاب «طبقات الأطباء» أن اسم السهروردى المذكور عمر ، ولم يذكر اسم أبيه ، والصحيح الذى ذكرناه أولاً . قاله ابن خلكان : وكان من علماء عصره ، قرأ الحكمة وأصول الفقه على الشيخ مجد الدين الجبلى بمدينة مَراغة ، من أعمال أذربيجان ، إلى أن برع فيهما . وهذا مجد الدين هو شيخ فخر الدين الرازى ، وعليه تخرج وبصحبته انتفع ، وكان إماماً فى فنون . وقال فى «طبقات الأطباء» : وكان السهروردى أوحد أهل زمانه فى العلوم الحكمية ، جامعاً للفنون الفلسفية ، بارعاً فى الأصول الفقهية ، مفرط الذكاء ، فصيح العبارة ، وكان علمه أكثر من عقله ، ويقال : إنه كان يعرف علم السيمياء[٣] ، وحكى بعض فقهاء العجم أنه كان فى صحبته وقد خرجوا من دمشق ، قال : فلما وصلنا إلى القابون ـ وهى القرية التى على باب دمشق فى طريق من يتوجه إلى حلب ـ لقينا قطيع غنم مع التركمان ، فقلنا للشيخ : يا مولانا نريد من هذا الغنم رأساً نأكله ، فقال : معى عشرة دراهم خذوها واشتروا بها رأس غنم ، وكان هناك تركمانى فاشترينا منه رأساً بها ، ومضينا قليلاً فلحقنا رفيق له وقال :

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٧٠ .

(٢) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ ٦ ، ص ٢٦٨ ـ ٢٧٤ ؛النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص ١١٤ .

(٣) السيمياء : ضرب من السحر يقوم على إحداث مثالات خيالية لا وجود لها فى الحس . المعجم الوجيز ، مادة (سيم) .

رُدّوا الرأس وخذوا أصغر منه ، فإن هذا ما عرف يبيعكم ، يساوى هذا الرأس أكثر من هذا . فتقاولنا نحن وإياه ، فلما عرف الشيخ ذلك قال لنا : خُذوا الرأس وامشوا وأنا أقفُ معه وأُرْضيه ، فتقدّمنا نحن وبقى شيخنا يتحدث معه ويُطيب قلبه ، فلما أبعدنا قليلاً تركه وتبعنا ، وبقى التركمانى يمشى خلفه ويصيح به وهو لا يلتفت عليه ، ولما لم يكلمه لحقه تغيظ ، وجذب يده اليسرى وقال : أين تروح وتخلينى؟ وإذا بيد الشيخ قد انخلعت من عند كتفه وبقيت[١٣٥] فى يد التركمانى ودمهما يجرى ، فبهت التركمانى ، وتحيّر فى أمره ورمى اليد وخاف ، فرجع الشيخ وأخذ تلك اليد بيده اليمنى ولحقنا ، وبقى التركمانى راجعاً وهو يلتفت إليه حتى غاب عنه ، ولما وصل الشيخ إلينا رأينا فى يده اليمنى منديلاً لا غير . وقال ابن خلكان : ويحكى عنه مثل هذا أشياء كثيرة ، والله أعلم بصحتها . وله تصانيف ، من ذلك كتاب «التنقيحات فى أصول الفقه» ، وكتاب «التلويحات» ، وكتاب «الهياكل» ، وكتاب «حكمة الإشراق» وغير ذلك ، وتنسب إليه أشعار ، ومن شعره المذكور ما يستعمله المنشدون فى المجالس وهو قوله :

أبداً تَحِنُّ إليكم الأرواحُ ووصالكُم ريحانُها والرَّاحُ
وقلوبُ أهلِ ودادِكم تشتاقكم وإلى لذيذ لقائكُم[1] ترتاحُ
وارَحْمتا للعاشقين تَكَلّفوا سَتْرَ المحبّة والهوى فَضَّاحُ
بالسِّر إن باحُوا تُباحُ دِماؤهم وكذا دماءُ البائحين تُباحُ
وإذا هُم كتموا تحدّث عَنهُم عِند الوُشاةِ المدمَعُ السفّاحُ
وَبَدَت شواهِدُ للسِّقام عليهم فيها لِمُشكل أمرهم إيضاحُ
خفض الجناح لكُم وليس عليكُم للصَبِّ فى خَفْضِ الجَنَاحُ جُنَاحُ
فإلى لقاكم نفسُه مرتاحةٌ وإلى رضاكُم طَرْفُه طَماحُ
عودوا بنور الوَصل من غَسَقِ الجوى فالهَجرُ لَيْلٌ والوِصالُ صَباحُ
صافاهُمُ فصفوا له فقلوبُهم فى نورها المِشكاةُ والمِصْبَاحُ
وتمتعوا فالوقت طابَ بقربكم رَاقَ الشَّرابُ ورَقّت الأقداحُ

(١) «لقياكم» كذا فى الأصل . والمثبت من وفيات الأعيان ، جـ ٦ ، ص ٢٧١ .

يا صَاحِ ليس على المُحِبِّ ملامةٌ	إن لاحَ فى أُفقِ الوصالِ صَباحُ
لا ذَنْبَ لِلْعُشاق إن غلب الهوى	كتمانَهُم [فنما][1] ننمى الغرام وباحُوا
سَمحُوا بأنفسهم وما بخلوا بها	لمّا دَرَوا أن السّماح رَباحُ
ودَعاهُم داعى الحقائق دعوة	فغدوا بها مستأنسين وراحُوا
ركبوا على سُفن الوَفا فدموعُهم	بَحرٌ وشدة شوقهم مَلاّحُ
والله ما طلبوا الوقوف ببابه	حتى دُعوا وأتاهُمُ المُفتاحُ
لا يطربون بغير ذكر حبيبهم	أبدًا فكل زمانهم أفراحُ
حضروا وقد غابت شواهدُ ذاتهم	فتهتكوا لما رأوه وَصاحوا
أفناهمُ عنهم وقد كشفت لهم	حجبُ البقا فتلاشت الأرواح
[١٣٦] فتشبّهوا إن لم تكونوا مثلَهم	إن التشبهَ بالكرام فَلاحُ
قم يا نديمى إلى المدام فهاتها	فى كأسها [قد][2] دارت الأقداح
من كرم إكرام بِدنّ ديانة	لها خمرة قد داسَها الفَلاّحُ

وقال ابن خلكان، رحمه الله : وله فى النظم والنثر أشياء لطيفة لا حاجة إلى الإطالة بذكرها . وكان شافعى المذهب، ويلقب بالمؤيد بالملكوت، وكان يُتهم بانحلال العقيدة والتعطيل، [ويعتقد][3] مذهب الحكماء المتقدمين، واشتهر ذلك عنه، فلما وصل إلى حلب أفتى علماؤها بإباحة قتله بسبب اعتقاده وما ظهر لهم من سوء مذهبه، وكان أشد الجماعة عليه [الشيخين][4] ؛ زين الدين ومجد الدين ابنا جَهْبَلْ .

وقال الشيخ سيف الدين الآمدى : اجتمعتُ بالسُهْروردى فى حلب، فقال لى : «لابد أن أملك الأرض»، فقلتُ له : من أين لك هذا؟ قال : «رأيت فى المنام كأنّى شربت ماء البحر» . فقلتُ : لعل هذا يكون اشتهار العلم أو ما يناسب هذا . فرأيته لايرجع عما وقع فى نفسه، ورأيته كثير العلم قليل العقل . ويقال : إنه لما تحقق القتل كان كثيراً ما ينشد :

---

(١) «فنمى» فى الأصل . والمثبت من وفيات الأعيان، جـ ٦، ص ٢٧١ .
(٢) «حين» كذا فى الأصل . والمثبت بين الحاصرتين من وفيات الأعيان، جـ ٦، ص ٢٧٢ .
(٣) «ويعتمد» فى الأصل . والتصحيح من وفيات الأعيان، جـ ٦، ص ٢٧٢ .
(٤) «الشيخان» فى الأصل وهو خطأ . والتصويب من وفيات الأعيان، جـ ٦، ص ٢٧٢ .

أرى قـــــــدمى أَراقَ دَمِـى وهانَ دَمِى فـــهــــا ندمى

والأول مأخوذ من قول أبى الفتح على بن محمد البُسْتى :

إلى حتــفى مــشى قــدمى أرى قـــــــدمى أراق دمــى

فـلــم [أنـفـك](١) مــن نــدم ولـيـس بنـافـــعى نـدمـى

وكان ذلك فى دولة الملك الظاهر غازى ابن السلطان صلاح الدين يوسف ، فحبسه ثم خنقه بإشارة والده صلاح الدين ، وكان ذلك فى خامس رجب سنة سبع وثمانين وخمسمائة بقلعة حلب ، وعمره ثمان وثلاثون سنة . ويقال : إن صلاح الدين أمر بقتله فقتل وصلب أياماً .

وقال ابن خلكان : وأقمتُ بحلب سنين للاشتغال بالعلم الشريف ، ورأيت أهلها مختلفين فى أمره ، وكل واحد يتكلم على قدر هواه ؛ فمنهم من ينسبه إلى الزندقة والإلحاد ، ومنهم من يعتقد فيه الصلاح وأنه من أهل الكرامات ، ويقولون : ظهر له بعد قتله ما يشهد له بذلك . وأكثر الناس على أنّه كان ملحداً لا يعتقد شيئاً . نسأل الله العفو والعافية .

وحَبَش بفتح الحاء المهملة والباء الموحدة وبالشين المعجمة . وأَمِيرَكْ معناه أُمَيِّر تصغير أمير ، والعجم تلحق الكاف فى آخر الاسم للتصغير .

القاضى أبو القاسم قاضى حماة ، واسمه الحسين بن حمزة بن الحسين ، كان فاضلاً جواداً سمحاً ، لا يُنزل قِدْرَهُ من النار ، يُضَيِّفُ الخلائق من الخاص والعام ، وما اجتمع أحد بحماة من الأكابر إلا وأضافه . وكان السلطان صلاح الدين يحبه ويحترمه ، كذا أخوه الملك العادل ، وتقى الدين صاحب حماة .

قال صاحب المرآة(٢) : وبلغنى أن العادل اجتاز بحماة فأرسل إلى القاضى يقول : «أريد الحمام خلوة» ، فأخلاه ، فما خرج العادل من الحمام إلا وقد جهز له من الفواكه والأطعمة والحلاوات[١٣٧] فأكفاه وأصحابه . وما كان يقبل برّ أحد لا من صلاح الدين ولا غيره ، ومات بحماة فى هذه السنة وخلف ولدًا ذكراً وللولد أولاد .

---

(١) «أفتد» فى الأصل . والمثبت بين الحاصرتين من وفيات الأعيان ، جـ ٦ ، ص ٢٧٣ .

(٢) انظر : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٦٤ ــ ٢٦٥ .

أسعد بن المَطْران الطبيب ، ويُلقب بالموفق ، وكان نصرانياً أسلم على يد السلطان ، وكان غزير المروءة ، حسن الأخلاق ، كريم العشرة ، جواداً متعصبًا للناس عند السلطان ويقضى حوائجهم ، وكان صحبه صبّى من المسلمين اسمه عمر ، وكان حسن الصورة فأحسن إليه ، وكان الموفق يحب أهل البيت ويبغض ابن عُنَين الشاعر لخبث لسانه ، وقبح هجائه ، وثلبه لأعراض الناس ، ويحرّض السلطان على نفيه من البلاد . وقال : أليس هو القائل :

سلطاننا أعرج وكاتبه | أعمش والوزير منجذب

فهجاه ابن عنين وقال :

قالوا الموفقُ شيعىٌ فقلت لهم | هذا خلاف الذّى للناس منه ظهر
وكيف يجعل دين الرفضِ مذهبه | وما دعا إلى الإسلام غيرُ عُمر

وكان الموفق يعود الفقراء المرضى ، ويحمل إليهم من عنده الأشربة والأدوية حتى أجرة الحمام ، وزَوَّجهُ السلطانُ بجارية له يقال لها جوزة ، وكانت من حظايا السلطان ، ونقل معها جهازاً عظيماً . ومات فى ربيع الأول بدمشق ، ودفن بقاسيون على قارعة الطريق عند دار زوجته جوزة . ولما مات اشترت زوجته داراً وبنت إلى جانبها مسجدًا وبنت له تربة ، وهى تعرف اليوم بدار جوزة . وقال السبط : ولما قدمت الشام فى سنة ثلاث وستمائة كانت جوزة باقية ، وكانت صالحة زاهدة عابدة .

الأمير سليمان بن جندر ، من أكابر أمراء حلب ، ومشايخ الدولتين النورّية والصلاحية ، وهو والد علم الدين بن سليمان ، وشهد سليمان مع صلاح الدين حروبه ، وهو الذى أشار بخراب عسقلان لتتوفر العناية على حفظ القدس ، ولما صعد السلطان إلى القدس مرض سليمان ، فطلب المسير إلى حلب ، فأذن له السلطان فسار ، فتوفى بغباغب[1] فى أواخر ذى الحجة ، وحُمِلَ إلى حلب فدفن بها .

الأمير حسام الدين محمد بن عمر بن لاچين ، صاحب نابلس ، وأمه ست الشام بنت أيوب ، أخت السلطان صلاح الدين ، واقفة الشاميتين بدمشق ، توفى ليلة الجمعة

---

(١) غَباغب : قرية من أول عمل حوران من نواحى دمشق . معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٧٧١ .

تاسع عشر رمضان ، ففجع السلطان به وبابن أخيه تقى الدين عمر ، لأنهما ماتا فى ليلة واحدة ، وقد كان له من أكبر الأعوان وأعز الإخوان ، ودفن حسام الدين فى التربة الحساميّة ، وهى التى أنشأتها له بمحلة العونية ، وهى الشامية البرانية[1] . وكانت وفاته بدمشق ، وكان شجاعاً مقدامًا .

الأمير الكبير الصَفِّى بن الفائض ، نائب دمشق ، وكان من أكبر أصحاب السلطان صلاح الدين قبيل المُلك ، ثم استنابه على دمشق .

وفى المرآة : الصفى بن الفائض ، وزير صلاح الدين واسمه نصر الله ، وكان خدم السلطان لما كان شحنة دمشق وأمده بالمال ، فرأى له ذلك ، فلما ملك استوزره ، وكان شجاعاً ثقة دينًا أمينًا ، ولما نزل الفرنج دَاريا [١٣٨] والسلطان فى الشرق ، جمع من أهل دمشق سوادًا عظيمًا ، وجمع إلى ظاهر البلد ، فظنوهم عسكرًا فرحلوا . وكان كثير المعروف ، وكتب أملاكه لمماليكه ؛ لأنه لم يكن له ولد ، وبنى بالعقيلة مسجدًا ودفن به فى رجب ، ويعرف اليوم بمسجد الصَفى . وكانت وفاته فى الثالث والعشرين من رجب ، رحمه الله .

الملك مظفر الدين قزل أرسلان ، واسمه عثمان بن أيلدكز ، قتل فى شعبان من هذه السنة ، وهو الذى ملك أذربيجان وهمذان وأصفهان والرى بعد أخيه محمد البهلوان ، وكان قد قوى عليه السلطان طغريل السلجوقى وهزم عسكر بغداد ـ كما ذكرنا ـ ثم أن قزل أرسلان هذا تغلّب واعتقل السلطان طغريل بن أرسلان بن طغريل فى بعض البلاد ، وسافر قزل أرسلان بعد ذلك إلى أصفهان ، وتعصب على الشافعية ، وأخذ جماعة من أعيانهم فصلبهم ، وعاد إلى همذان وخطب لنفسه بالسلطنة ، ودخل لينام على فراشه ، وتفرق عنه أصحابه ، فدخل إليه من قتله على فراشه ، ولم يُعرف قاتله ، والله أعلم . ويقال : نُسب قتله إلى الإسماعيلية . ويقال : إلى غيرهم . ولما أصبحوا قتلوا صاحب بابه ، وجلس قُتلغ أينانج بن البهلوان موضعه ، ومضى أخوه نصرة الدين أبو بكر إلى أذربيجان وأران[2] ، واستولى عليهما ، ثم جمع ومضى على سَمت همذان فلقى قتلغ

(١) عن الشامية البرانية . انظر : الدارس ، جـ١ ، ص ٢٧٧ ـ ٢٧٨ .

(٢) أرّان : ولاية واسعة وبلاد كثيرة منها : كنجة وبرذعة وشمكور وبيلقان ، وبين أذربيجان وأران نهر . انظر : معجم البلدان ، جـ١ ، ص ١٨٣ .

أينانج وعسكره بين أَبْهَرْ[١] وزنجان[٢] فَكَسره وهزمه ، ومضى إلى همذان وجلس على سرير ملكه ، وذلك فى سنة ثمان وثمانين على ما سيأتى إن شاء الله تعالى .

الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، كان عزيزًا عند عمّه السلطان صلاح الدين ، استنابه بمصر وغيرها من البلاد ، ثم أقطعه حماة ومُدنًا كثيرة معها حولها ، ومن بلاد الجزيرة ، وكان مع عمه على عكا ، ثم استأذنه فى الإشراف على بلاده المجاورة للفرات ، فلما صار إليها اشتغل بها ، وامتدت عينه إلى أخذ غيرها من أيدى الملوك الذين يجاورونه فقاتلهم ، فاتفق موته وهو على ذلك ، والسلطان صلاح الدين متغضب عليه بسبب اشتغاله بذلك عنه .

وقال العماد الكاتب[٣] : توفى الملك المظفر تقى الدين عمر يوم الجمعة التاسع عشر من شهر رمضان ، وهو على محاصرة ملازكرد من عمل أرمينية ، وكتم ولدُه الملك المنصور ناصر الدين محمد وفاته إلى أن خرج من ذلك الإقليم سالماً ، وبعث إلى السلطان يسأله فى إبقاء بلاد أبيه بيده ، فلم يجب السلطان إليه .

وقال النويرى : قد سار الملك المظفر تقى الدين عمر إلى البلاد المرتجعة من كُوكبُورى ، التى زاده إياها عمّه السلطان من وراء الفرات ، وهى حرّان وغيرها ، فامتدت عين الملك المظفر إلى بلاد مجاورة ، واستولى على سويداء[٤] وحانى[٥] ، واتقع مع بكتمر صاحب أخلاط ، فكسره وحصره فى أخلاط ، وتملك معظم البلاد ثم رحل عنها ، ونزل ملازكرد ـ وهى لبكتمر ـ وضايقها ، وكان [١٣٩] فى صحبته ولده الملك المنصور محمد ، فعرض للملك المظفر مرضٌ شديد وتزايد به ، حتى توفى يوم الجمعة لإحدى عشرة ليلة بقيت من رمضان ، فأخفى الملك المنصور وفاته ، ورحل عن ملازكرد ، ووصل به إلى حماة ، فدفن بها بظاهرها ، وبنى إلى جانب التربة مدرسة مشهورة هناك .

---

(١) أبهر : مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمذان من نواحى الجبل ، والعجم يسمونها أَوْهَر . معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ١٠٤ ـ ١٠٦ .

(٢) زَنْجَان : بلد كبير مشهور من نواحى الجبال بين أذربيجان وبينها ، وهى قريبة من أَبْهَر وقزوين . والعجم يقولون زنكان . معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٩٤٨ .

(٣) الفتح القسى ، ص ٥٦٦ .

(٤) سويداء بلدة مشكورة فى ديار مضر قرب حران بينها وبين الروم ، وأهلها نصارى أرمن فى الغالب . معجم البلدان ، ج٣ ، ص١٩٧ .

(٥) حانى : مدينة بديار بكر . معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ١٨٨ .

وكان الملك المظفر شجاعًا شديد البأس ، ركنًا عظيمًا من أركان البيت الأيوبى ، وكان عنده فضل وأدب ، وله شعر حسن . ثم أرسل الملك المنصور إلى السلطان صلاح الدين واشترط عليه شروطاً نسبهُ السلطانُ فيها إلى العصيان ، وكان أمره مضطرباً[1] بالكلية ، فراسل الملك المنصور عمّه الملك العادل فى استعطاف خاطر السلطان ، فما برح العادل بأخيه السلطان يراجعه ويشفع فى الملك المنصور حتى أجابه السلطان ، وقرر للملك المنصور حماة وسلمّية والمعرة ومنبج وقلعة نجم . وارتجع السلطان البلاد الشرقية وما معها وأقطعها أخاه الملك العادل ، بعد أن شرط السلطان أن الملك العادل ينزل عما له من الإقطاع بالشام ، خلا الكرك والشوبك والصّلت والبلقاء إلى القدس ، شرفه اللّه .

ولما استقر ذلك سار الملك العادل إلى البلاد الشرقية لتقرير أمورها فقررها ، وعاد إلى خدمة السلطان فى آخر جمادى الآخرة من السنة القابلة . ولما قدم العادل على السلطان صلاح الدين كان الملك المنصور صاحب حماة صحبته ، فلما رأى السلطان الملك المنصور بن تقى الدين عمر نهض واعتنقه وبكى ، وأكرمه وأنزله فى مقدمة عسكره . وقال بيبرس فى تاريخه : توفى الملك المظفر تقى الدين المذكور بأرض أخلاط فى حصار ملازكرد ، ودفن بميافارقين ثم نقل إلى حماة ، رحمه الله .

(١) فى الأصل «مضطرب» . والصحيح لغوياً ما أثبتناه .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الثامنة والثمانين بعد الخمسمائة

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله العباسى ، وصاحب مصر والشام وغيرها من البلاد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وهو مقيم فى القدس الشريف فى دار الأقِسَّاء بجوار قمامة ، وقد قسم السور بين أولاده وأجناده وهو يعمل فيه بنفسه ، ويحمل الحجر بينه وبين قربوس[(١)] سرجه ، والناس يقتدون به ، والعلماء والفقراء يعملون بأنفسهم . والإفرنج لعنهم الله حول البلد من ناحية عسقلان ، حول القدس وما والاها ، لايتجاسرون أن يتقدموا من اليزك والحرس الذين للسلطان حول القدس ، إلا أنهم على نية محاصرة القدس مصممون ، ولكيد الإسلام مجمعون ، وهم والحرس تارة يَغلبون وتارة يُغلبون ، وتارة يَنهبون وتارة يُنهبون[(٢)] .

ذكر رحيل الفرنج إلى عسقلان

قال العماد الكاتب رحمه الله : رحل الإفرنج يوم الثلاثاء ثالث المحرم من الرملة إلى عسقلان ، ونزلوا يوم الأربعاء بظاهرها وتشاوروا فى إعادة عمائرها . وكان سيف الدين يازكوج[(٣)] وعلم الدين قيصر والأسدية[١٤٠] نازلين فى بعض أعمالها ، مجدين فى نقل غلالها . وركب ملك الإنكتار عصر يوم الخميس ومعه حزبه من جند إبليس ، فشاهد دخانًا على البعد ، فساق متوجهًا إلى تلك الجهة ، وتبعه عسكره . فما شعر أصحابنا إلا بالكبسة بغتة ، وذلك وقت المغرب وهم مجتمعون على الإفطار ، وكانوا نازلين فى موضعين ، فلم ير العدو إلا أحد القسمين فقصده بحزبه ، فعرف القسم الآخر هجوم العدو ، فركبوا إلى العدو فدفعوه حتى ركب رفقاؤهم المقصودين ، واجتمعوا وردوا العدو ، ثم تكاثر الفرنج عليهم فاندفعوا من بين أيديهم وساقوا أثقالهم قدامهم ، وما فقد من المسلمين إلا أربعة أنفس ونجا الباقون . وكانت نوبة عظيمة رفع الله خطرها[(٤)] .

---

(١) القربوس : هى الخشبة الصغيرة القائمة فى مقدم السرج . انظر : محيط المحيط ، جـ٢ ، ص١٦٨٤ .

(٢) ورد هذا النص بتصرف فى الفتح القسى ، ص ٥٨١ ـ ٥٨٢ ؛ الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٩٦ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص ٣٤٧ .

(٣) عن سيف الدين يازكوج الأسدى ، انظر : وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص١٧٠ ـ ١٧١ .

(٤) انظر : الفتح القسى ، ص ٥٨٣ ؛ الروضتين ، جـ ٢ ، ص ١٩٦ .

ذكر السرايا الثلاث

بتاريخ يوم الثلاثاء عاشر المحرم ، ركب السلطان صلاح الدين من القدس على عادته فى نقل الحجارة والجد فى العمارة ، ومعه أولاده الملوك والأمراء والقضاة والعلماء والصوفية والزهاد والأولياء ، ولما دخل وقت الظهر نزل فى خيمة ضربها ولده الملك الظاهر بالصحراء ، وأحضر فيها السماط ، ورعى ناساً من الأمراء فحضروا وأكلوا ، وصلى السلطان الظهر هناك وركب عائداً إلى داره ، وأمر بتجهيز السرايا . فتجرد عز الدين جرديك فى سرية فأغار بهم يوم الأربعاء الحادى عشر من المحرم على يُبنى(١) ، وفيها الإفرنج بنية السكنى ، فغنموا اثنى عشر أسيراً وخيلاً ودواباً كثيرة .

وفى يوم الثلاثاء ثانى صفر ، أغارت السرية ، وفيها عز الدين جرديك وعسكر القدس وجماعة من المماليك ، على ظاهر عسقلان ، وغنموا ثلاثين أسيراً وخيولاً وبغالاً . وفى ليلة الأحد رابع عشر صفر ، باتت سرية فيها فارس الدين ميمون(٢) القصرى بتل الجَزَر(٣) ، وساروا حتى أصبحوا على يُبنى ، وكمنوا وصبروا إلى أن استرسل الإفرنج إلى الطريق وأمنت ، ثم ظهرت السرية على قافلة الإفرنج فكبسوها وأخذوها بأسرها مع رجالها وأحمالها وبغالها وأثقالها . ثم أغاروا على يافا ، فقتلوا وهتكوا وغنموا وعادوا بالغنيمة والسبايا ، وعجزت جماعة من المشى فضربوا أعناقهم صبرا(٤) .

ذكر خروج على بن أحمد المعروف بالمشطوب من الأسر

وفى ربيع الآخر وصل الأمير سيف الدين على المذكور إلى السلطان بالقدس الشريف وقد خلص من الأسر ، وكان أسيراً حين كان نائباً على عكا ، فافتدى نفسه منهم بخمسين ألف دينار ، فأعطاه شيئًا كثيراً منها ، ثم استنابه على نابلس فتوفى بها فى شوال منها(٥) .

---

(١) يُبْنى : بليدة قرب الرملة . انظر : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ١٠٠٧ .

(٢) فارس الدين ميمون القصرى : أحد الأمراء بدولة الظاهر غازى بن صلاح الدين ، كما كان أميرًا من أمراء العزيز عثمان بن صلاح الدين ، توفى بحلب سنة ٦١٠ هـ . انظر : المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ١١٥ .

(٣) تل الجزر : حصن من أعمال فلسطين . انظر ، معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٨٦٦ .

(٤) انظر الفتح القسى ، ص ٥٨٦ .

(٥) انظر الفتح القسى ، ص ٥٨٧ ؛ مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٣٨١ .

وقال العماد الكاتب : قرر سيف الدين على المذكور قطيعة خمسين ألف دينار ، فأدى منها ثلاثين ، وأعطى رهائن على عشرين ، ووصل إلى القدس واجتمع بالسلطان يوم الخميس مستهل شهر ربيع الآخر ، فقام إليه واعتنقه وأقطعه نابلس وأعمالها ، ثم عيَّن السلطان ثلث نابلس لمصالح للبيت المقدس وتشييد سوره[1] .

ذكر عصيان الملك المنصور ابن الملك المظفر تقى الدين وما جرى له وعليه فى ذلك

وفى النوادر : ويوم وصول المشطوب ، كتب السلطان إلى ولده الملك الأفضل بأن يسير إلى الفرات ويتسلم البلاد من الملك المنصور ابن الملك المظفر تقى الدين ، وكان قد أظهر العصيان بسبب الخوف على نفسه من السلطان[١٤١] وأظهر ذلك ، وكتب إلى الملك الظاهر بحلب ـ وكان قد سافر إليها ـ أنه إن احتاج أخوك إلى معونة أعنه . وجهز السلطان صلاح الدين ولده الأفضل بحملة كبيرة ، وسار باحترام عظيم حتى وصل إلى حلب ، وأكرمه أخوه الملك الظاهر إكرامًا عظيمًا ، وعمل له ضيافة تامة ، وقدم بين يديه تقدمة سنية[2] . وأما الملك المنصور فإنه لما بلغه موجدة[3] السلطان عليه ، أرسل إلى الملك العادل رسولاً يستشفع به ليطيب قلب السلطان ، ويعطيه إما حران والرها وشميساط ، وإما حماة ومنبج وسلمية والمعرة ، فراجع الملك العادل السلطان مراراً بسببه فلم يفعل ذلك ثم كثرت الشفاعة إليه من جميع الأمراء ، وهزت له شجرة الكرم ، فرجع إلى خُلقه الحسن وحلف له على حران والرها وشميساط ، على أنه إذا عبر الفرات أعطى المواضع المذكورة ويتخلى عن البلاد التى فى يده ، ودخل فى هذا الضمان الملك العادل ، ثم التمس العادل خط السلطان فأبى ، وألح عليه ، فمزق نسخة اليمين فى التاسع والعشرين من ربيع الآخر ، وانفصل الحال وانقطع الحديث .

---

(١) انظر : الفتح القسى ، ص ٥٨٧ ؛ مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٣٨١ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص ٣٤٨ .

(٢) إلى هنا توقف العينى عن النقل من النوادر السلطانية ، ص ٢٠٧ .

(٣) الموجدة : الغضب . انظر : القاموس المحيط ، مادة «وجِد» ، جـ١ ، ص ٣٥٦ .

وقال قاضى القضاة بهاء الدين : كنت المتردد بينهما فى ذلك ، وأخذ من السلطان الغيظ ، كيف يُخاطب بمثل ذلك من جانب بعض أولاد أولاده[1]؟ قال القاضى : ثم أرسلنى السلطان إلى العادل والأمراء بأن يتشاوروا فى أمر الملك المنصور ، فاجتمعوا فى خدمة العادل ، فانتدب الأمير حسام الدين أبو الهجاء وقال : نحن عبيد السلطان ومماليكه وذاك صبى ، وربما حمله خوفه حتي انضاف إلى جانب آخر ، ونحن ما نقدر على الجمع بين قتال المسلمين والكفار ، فإن أراد السلطان قتال المسلمين يصالح الكفار ونسير نحن إلى ذلك الجانب ونقاتل بين يديه ، وإن أراد ملازمة الغزاة صالح المسلمين ويسامحهم . فاتفق الجميع على هذا الكلام . فعند ذلك دق قلب السلطان ، وجُددت نسخة يمين لابن تقى الدين وحلف له بها ، وأعطى خطه بما استقر من الأمر . ثم أن العادل طلب من سلطان البلاد التى كانت بيد ابن تقى الدين ، وتكررت مراجعات العادل فى ذلك . قال القاضى : وكنت الرسول بينهما ، وكان آخر ما استقر أنه يتسلم تلك البلاد وينزل عن كل ماهو شامى الفرات ، ماعدا الكرك والشوبك والصلت[2] والبلقاء ، وخاصّته بمصر ، وذلك بعد أن قرر على نفسه فى كل سنة ستة آلاف غرارة غلة ، تحمل للسلطان من الصلت والبلقاء إلى القدس ، وأخذ خط السلطان بذلك . ثم سار بنفسه ليصلح ابن تقى الدين ويطيب قلبه ، وكان مسيره فى الثامن من جمادى الأولى من هذه السنة[3] .

ثم أن السلطان سير إلى الملك الأفضل يأمره بالعود من قصد تلك البلاد ، وكان قد وصل إلى حلب ــ كما ذكرناه ــ فعاد مع انكسار فى قلبه وتشوش فى باطنه ، فوصل إلى دمشق معتباً ولم يحضر إلى خدمة السلطان ، فلما اشتد خبر الإفرنج سير إليه وطلبه ، فما وسعه التأخر ، فسار مع من وصل من العساكر الشرقية إلى دمشق ، وكان وصوله يوم الخميس التاسع عشر من جمادى الآخر ، فلقيه السلطان قريب العازرية[4] وترجل له جبراً لقلبه[١٤٢] وتعظيمًا لأمره ، وساروا فى خدمته ، وكان فيهم أخواه الملك الظافر وقطب الدين فى ظاهر القدس من جهة العدو[5] .

---

(١) نقل العينى هذا الحدث بتصرف من ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢٠٨ ؛ مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص٣٨٥ــ ٣٨٦ .

(٢) الصلت : بليدة وقلعة من جند الأردن فى جبل الغور الشرقى جنوبى عجلون . انظر : تقويم البلدان ، ص٢٤٥ .

(٣) إلى هنا توقف العينى عن النقل من النوادر السلطانية ، ص ٢٠٩ .

(٤) العازريّه : قرية ببيت المقدس بها قبر العازر . انظر : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٥٨٦ .

(٥) انظر : النوادر السلطانية ، ص ٢١٥ .

وأما الملك المنصور ، فإنه قد تسلم البلاد التى عينها له السلطان ، ووصل إلى خدمة الملك العادل يوم السبت الحادى عشر من شعبان ، فنزل عنده ، ثم ركب العادل إلى السلطان يخبره بوصوله ، وسأله فى احترامه وإكرامه وطلاقه الوجه له . ثم أن المنصور لما قرب من السلطان استأذن ولده الظاهر فى لُقائه فأذن له فى ذلك ، فلقاه فى بيت نوبة[١] ، فنزل عنده وفرح بلقائه ، وأقام عنده إلى العصر وذلك فى يوم الأحد ، ثم أخذه وسار به جريدة حتى أتى خيمة السلطان ، فدخل عليه واحترمه واعتنقه وضمه إلى صدره ، ثم غشيه البكاء فبكى بكاء كثيراً حتى بكى الناس لبكائه ، ثم باسطه وسأله عن الطريق ، ثم قام وبات فى خيمة ولده الملك الظاهر إلى صبيحة يوم الاثنين ، ثم ركب وعاد إلى عسكره ، ونشروا الأعلام والبيارق[٢] . وكان معه عسكر جميل ، فقرت عين السلطان بذلك ، وكان ذلك فى صبيحة يوم الاثنين الثالث عشر من شعبان ، ونزل فى مقدمة العسكر مما يلى الرملة[٣] . وكان قدوم الملك الظاهر إلى خدمة والده السلطان يوم السبت الخامس من رجب فى هذه السنة ، ونزل فى دار الإستبار وفرح السلطان به .

ذكر هلاك مركيس ـ لعنه الله ـ صاحب صور

وفى ثالث عشر ربيع الآخر يوم الثلاثاء ، قتل مركيس لعنه الله ؛ أرسل إليه ملك الإنكتار اثنين من [الفداوية][٤] فأظهرا [التنصر][٥] ولزما الكنيسة حتى ظفرا بالمركيس فقتلاه .[٦] وقال العماد الكاتب : فمسكهما الفرنج فوجدوهما من الفداوية[٧] الإسماعيلية مرتدين ، فسألوهما : «من وضعكما على هذا التدبير؟ فقالا ملك الإنكتار ، وذكرا أنهما تنصرا منذ ستة أشهر ، وكان خدم أحدهما ابن بارزان ، والآخر صاحب صيدا ، لقربهما من المركيس ، فبهذا الطريق وصلا إلى المركيس فقتلاه ، ثم قتلهما الإفرنج أشد قتلة .

---

(١) بيت نوبة : أو نوبا ، بليدة من نواحى فلسطين . انظر : معجم البلدان ، جـ١ ، ص ٧٨١ .

(٢) البيرق : معرب اللفظ الفارسى بيراق ومعناها الراية والعلم واللواء . انظر : القس طوبيا «الغيسى الحلبى» : تفسير الألفاظ الدخيلة فى اللغة العربية مع ذكر أصلها ، ص ١٥ ، القاهرة ١٩٣٢ .

(٣) انظر : النوادر السلطانية ، ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ .

(٤) «الداوية» فى الأصل . والمثبت هو الصحيح .

(٥) «النصر» كذا فى الأصل . والمثبت هو الصحيح من الفتح القسى ، ص ٥٨٩ .

(٦) النص الذى أورده العينى مضطرب ولا يتسق مع سياق الحدث ويتضح ذلك مما أورده العماد فى الفتح القسى ، ص٥٨٩ .

(٧) الفداوية : إحدى فرق الإسماعيلية ، وقد سمتها العامة باسم الفداوية . انظر : خطط الشام ، جـ٦ ، ص٢٦٣ .

ثم لما قتل المركيس وذهبت روحه إلى الهاوية ، استناب ملك الإنكتار على صور ابن أخته الكندهرى ، وهو ابن أخت ملك الإفرنسيس لأبيه فهما خالاه ، ولما سار إلى صور ابتنى بزوجة المركيس ـ بعد موته بليلة واحدة ـ وهى حبلى أيضاً ، وذلك لشدة العداوة التى كانت بين ملك الإنكتار وبينه(١) .

وفى النوادر : وكان المركيس تغدى يوم الثلاثاء المذكور عند الأسقف ثم خرج ، فقفز عليه اثنان من أصحابه بالسكاكين ، وكان خفيفا من الرجال ، فما زالا يضربان حتى عجل الله بروحه إلى النار ، وقام بالأمر اثنان فحفظا القلعة إلى أن اتصل الخبر بالملوك واعتمدوا الأمر وتدبير المكان(٢) .

وفى تاريخ ابن كثير(٣) : وكان ملك الإنكتار يراسل السلطان صلاح الدين فى المصالحة[١٤٣] والمسالمة ، كلما كان يرى أن المركيس يراسله ويهادنه ، ثم لما هلك المركيس ـ لعنه الله ـ طاب قلب ملك الإنكتار وذهب خوفه وقوى عزمه ، [وأرسل](٤) إلى السلطان فى طلب المناصفة على البلاد ، سوى القدس فإنه يكون للمسلمين سوى القمامة ، فلم يجب السلطان إلى ذلك .

ذكر استيلاء الفرنج على قلعة داروم

وفى تاسع جمادى الأولى استولى الإفرنج لعنهم الله على قلعة الداروم فخربوها ، وقتلوا خلقًا كثيرًا من أهلها ، وأسروا طائفة من الداوية بها . وقال العماد : وكانت قلعة داروم ضرراً عظيما لما كانت مع الفرنج ، فلما فتحها المسلمون تركوها وأملوها بالذخائر والرجال ، وخربوا عسقلان وغزة دون داروم ، وتسلمها علم الدين قيصر(٥) على أن يحفظها ، فلما شرع الإفرنج فى إعادة عمارة عسقلان تردّدوا إليها مرارا وأشرفوا عليها ،

---

(١) انظر : الفتح القسى ، ص٥٨٩ ـ ص٥٩٠ ؛ النوادر السلطانية ، ص٢٨٠ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٧٢ ؛ مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٣٨٢ .

(٢) النوادر السلطانية ، ص ٢٨٠ .

(٣) البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣٧٢ . أما تفاصيل هذا الخبر فوردت فى الفتح القسى ، ص٥٩٠ ؛ النوادر السلطانية ، ص ٢٠٣ ـ ٢٠٥ حيث وردت فى أحداث سنة ٥٨٧ هـ .

(٤) «وراسل» فى الأصل . والمثبت هو الصحيح من البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣٧٢ .

(٥) علم الدين قيصر : هو الشيخ الفقيه الرياضى علم الدين قيصر بن أبى القاسم عبدالغنى بن مسافر الحنفى المصرى المعروف بتعاسيف ، كان إمامًا فى علوم الرياضة فى مصر ودمشق ، ولد فى سنة ٥٧٤هـ بأصفون من شرقى صعيد مصر ، توفى يوم الأحد ثالث عشر رجب عام ٦٤٩ هـ بدمشق ، انظر : الإدفوى : الطالع السعيد ، ص٤٦٩ ؛ المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ١٨٦ ؛ وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص٣١٥ ـ ٣١٨ ؛ السلوك ، جـ١ق٢ ، ص٣٨٢ .

وأنفق السلطان على جماعة وقواها بهم . ثم نزل الفرنج عليها بقضهم وقضيضهم ، واشتد زحفهم عليها عشية السبت تاسع جمادى الأولى ، بعد أن أخذوا فيها نقبا ، فطلب أهلها الأمان فلم يجابوا ، وطلبوا من قيصر وجماعته النجدة فلم ينجدوا . ولما عرف الوالى أنهم مأخوذون ، عمد إلى الخيل والجمال والدواب فعرقبها ، وإلى الذخائر فأحرقها . وفتحوها بالسيف وأسروا منها عدة يسيرة ، ثم لم يلبثوا بها ولم يرغبوا فيها . ورحلوا عنها ونزلوا على ماء يقال له الحسيُ ، وهو قريب من جبل الخليل عليه السلام ، وذلك فى يوم الخميس رابع عشر الشهر المذكور . ثم تركوا خيامهم وساروا وقصدهم قلعة هناك يقال لها مجدل حباب ، فخرجت عليهم أسد اليزكية المكمنة من الغاب فقاتلوهم قتالاً شديدًا ، وقتل منهم من جملة من قتل كندٌ كبير ، وعادوا مغلولين مخذولين مهزومين ، ثم رحل الإفرنج من الحسى يوم الأحد سابع عشر الشهر المذكور ، وتفرقوا فرقتين بعضهم عادت إلى عسقلان ، وبعضهم جاؤا إلى بيت جبرين[١] .

ذكر قصد الإفرنج بيت المقدس شرفه الله

وفى يوم السبت الثالث والعشرين من الشهر المذكور ، نزلت الإفرنج بجموعهم الوافرة بتل الصافية ، ونزلوا يوم الثلاثاء السادس والعشرين بالنطرون[٢] ، فأرجفت الألسن بأنهم على قصد بيت المقدس ، ثم ضربوا خيامهم يوم الأربعاء على بيت نوبة . وأمر السلطان صلاح الدين رحمه الله بنقل الأزواد ، وفرق الأبراج على الأمراء والأجناد . وكان قد سار من عرب الإسلام جماعة للغارة على يافا ، فوصلوا عائدين من غير علم بحركة العدو ، فنزلوا فى بعض الطريق يقتسمون ، فوقعت عليهم عسكر للعدو وأخذوهم ، وهرب منهم ستة نفر فوصلوا إلى السلطان وأخبروه الخبر ، ووصلت الجواسيس وأصحاب الأخبار من جانب العدو ، أنهم مقيمون بالنطرون لنقل[١٤٤] الأزواد والآلات التى تدعو الحاجة إليها فى الحرب ، فإذا حصل عندهم ما يحتاجون إليه قصدوا القدس[٣] . وكان السلطان رحمه الله قد سير إلى العساكر من سائر الأطراف أن سابقوا إلى الحضور ، وكان أول من قدم بدر الدين دلدروم مع خلق كثير من التركمان ، ولقيه السلطان وأكرمه . ثم وصل بعده

---

(١) انظر : الفتح القسى ، ص ٥٩١ ـ ص ٥٩٢ .

(٢) النطرون : حصن كان للداوية قرب الرملة بجنوب فلسطين واسمه أيضا «أطرون» . انظر : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٣١٠ .

(٣) إلى هنا ينقل العينى من ابن شداد ، النوادر السلطانية ، ص ٢١٢ .

عزالدين بن المقدم بعسكر حسن وأطلاب جيدة ، ثم أمر السلطان بخروج العسكر إلى العدو[1] ، فخرجوا إلى خيامهم يتخطفوهم وجرت واقعة بعد وقعة وكبسوهم كبسة بعد كبسة . وكان الأمير دلدروم صاحب تل باشر فى اليزك ليلة الجمعة التاسع والعشرين ، فبعث من أصحابه إلى طريقهم من يافا ، فجازت بهم فرسان من الفرنج ، فخرجوا عليهم وقتلوا وأسروا . وفى يوم السبت سلخ الشهر نزلت الناس إليهم وقاتلوهم فى خيامهم ، وركب العدو وساقوا إلى قلونية ، وهى ضيعة من ضياع القدس على فرسخين ، ثم عادوا بائدى الشأن بادين الشين ، وعساكر الموحدين قد ركبوا أكتافهم وغنموا ورجعوا سالمين[2] .

وفى النوادر : وكان طريق يافا سابلة لمن ينقل الميرة إلى العدو ، فأمر السلطان مَنْ فى اليزك أن يعملوا معهم ما يمكنهم ، وكان فى اليزك بدر الدين دلدروم ، فكَمَّن حول الطريق كمينا فيه جماعة جيدة ، فمر بهم جمع من خيالة العدو [يحمون][3] قافلة تحمل ميرة ، فحمل عليهم وجرى قتال عظيم ، فقتلوا منهم ثلاثين نفرا ، وأسروا جماعة . ووصل الأسرى يوم السبت تاسع عشرى جمادى الأولى إلى القدس ، وكان يوم دخولهم يومًا مشهودا . وفى يوم الثلاثاء ثالث جمادى الآخرة خرجت الأتراك على جماعة منهم ، فأخذوا منهم وقتلوا ، وجرحت من الأتراك جماعة[4] .

ذكر كبسة الإفرنج على عسكر مصر الواصلين

كان السلطان صلاح الدين - رحمه الله - يستحث عسكر مصر بكتبه ورسله ، يدعوهم نجدة لأهل القدس على أهل الكفر ، فضرب العسكر خيامهم على بلبيس[5] مدة حتى اجتمع الرفاق ، وانضم إليهم التجار ، وللفرنج جواسيس يجسون الأخبار ويُعَرِّفون ملكهم بذلك . وجاء الخبر من اليزكية إلى السلطان ليلة الاثنين التاسع من جمادى الآخرة ، أن العدو ملك الإنكتار ركب فى سبعمائة فارس مردفين بألف راجل ، وسار عصر

(١) «البدو» كذا فى الأصل والمثبت هو الصحيح .
(٢) انظر : الفتح القسى ، ص ٥٩٢ .
(٣) «يحملون» فى الأصل . والتصحيح من النوادر السلطانية ، ص٢١٢ .
(٤) ورد هذا النص بتصرف فى النوادر السلطانية ، ص ٢١٢ - ص٢١٣ .
(٥) بلبيس : إحدى مدن محافظة الشرقية ، ذكر المقريزى أنها تبعد عن الفسطاط ٢٤ ميلا ، وهى على طريق الشام . انظر : الخطط ، جـ٣ ، ص ٣٢٣ - ص٣٢٤ . ولمزيد من التفاصيل ، انظر : القاموس الجغرافى ، ق٢ جـ١ ، ص١٠٠ - ١٠١ .

يوم الأحد ، ولا يدرى أى جانب قصدوا . فجرد السلطان أميرًا ومعه عدة من العادلية ، وأمرهم بأن يأخذوا فى طريق البرية ، فعبروا على ماء الحسُى قبل وصول العدو إليه .

وكان مقدم العسكر المصرى فلك الدين [سليمان][١] أخو العادل لأمه ، ولم يسأل عن المنازل والمراحل ، وقصد أقرب الطرق ، وترك الأحمال على طريق أخرى سائرة ، وجاء ونزل على ماء تعرف بالخُوَيلفة[٢] ، ونادى تلك الليلة : أنا جزنا مكان المحافة فلا رحيل إلى الصباح . [١٤٥] فاغتر الناس بذلك وناموا مغفلين ، فصبَّحهم العدو عند انشقاق الصبح بالصدمة الشاقة ، وبغتوهم بغتة ، فركب كل منهم إلى وجهة ، ومنهم من ركب فرسه عريانا ، فتفرقوا فى البرية وعاد معظمهم إلى مصر ، ومنهم من عاج[٣] إلى طريق الكرك . فأخذ الكفار جمالا لاتعد ، وأحمالا لا تحد[٤] .

وقال ابن كثير : فكبسوهم ليلا وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، وأسروا منهم خمسمائة أسير ، وغنموا شيئا كثيرًا من الأموال والجمال والبغال والخيل ، فكانت جملة الجمال ثلاثة آلاف بعير ، والتجار الذين معهم نهبت كلهم ، فتقوى الفرنج بذلك شيئا كثيرًا[٥] .

وفى النوادر : وكان السلطان قد أوصى عسكر مصر بالاحتراز عند مقاربة العدو ، وكانت معهم قوافل كثيرة ، واتصل خبرهم إلى العدو من العرب المفسودين ، وركب اللعين ملك الإنكتار فى ألف راكب مردفين بألف راجل ، وسار حتى أتى تل الصافية فبات وعلّق[٦] على خيله فيه ، ثم سار حتى أتى ماء يقال له الحسىُ ، وكان السلطان قد أرسل جماعة وصلوا إلى الماء المذكور قبل العدو ، ولكن لم يقيموا عليها ، وساروا حتى اتصلوا بالعسكر المصرى والقوافل ، ثم قصدوا قُرب الطريق ؛ فساروا إلى أن وصلوا إلى ماء يقال له الخويلفة ، وتفرق الناس لأجل الماء ، فأخبرت العربُ العدو بذلك وهم نازلون برأس الحسى ، فقاموا من وقتهم وسَرَوْا حتى أتوهم قبيل الصبح فكبسوا عليهم ، وكان

---

(١) ما بين الحاصرين إضافة من الكامل ، جـ١٢ ، ص ٣٩ ، المطبعة الأزهرية .

(٢) الخُويلفة : موضع بنواحى فلسطين . انظر : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٥٠١ .

(٣) عاج إلى : مَالَ وانعطف . انظر : لسان العرب ، مادة «عوج» .

(٤) نقل العينى هذا النص بتصرف من الفتح القسى ، ص ٥٩٣ - ص٥٩٤ .

(٥) نقل العينى هذا النص بتصرف من البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٧٠ - ٣٧١ ؛ الكامل ، جـ١٢ ، ص ٣٩ ، المطبعة الأزهرية .

(٦) «علّف» فى النوادر السلطانية ، ص٢١٣ .

الشجاع القوى الذى ركب فرسه ونجى بنفسه . وانقسم القفل ثلاثة أقسام ؛ قسم قصدوا الكرك مع جماعة من العرب وعسكر الملك العادل ، وقسم أوغلوا فى البرية مع جماعة من العرب ، وقسم استولى عليهم العدو فساقوهم بجمالهم وأحمالها وجميع ما معهم . وكان فى العسكر المصرى جماعة من المذكورين كحسين الجراحى ، وفلك الدين ، وبنى الجاولى ، وآخرين . وقتل من العدو زهاء مائة فارس ، وقيل لم يقتل سوى عشرة أنفس ، ولم يقتل من المسلمين المعروفين سوى الحاجب يوسف ، وابن الجاولى الصغير . وتفرق الناس فى البرية ورموا أموالهم . وجمع العدو ما أمكنهم[١] جمعه من الخيل والبغال والجمال والأقمشة وسائر أنواع الأموال . وكلف ملك الإنكتار الجماليين بخدمة الجمال ، والخربندية[٢] بخدمة البغال ، والساسة بخدمة الخيل ، وسار فى جحفل من غنيمته ، فطلب عسكره فنزل على الخويلفة وسقى منها دوابه ، ثم سار حتى أتى الحسىُ ، فكانت هذه الوقعة[٣] صبيحة يوم الثلاثاء الحادى عشر من جمادى الآخرة من هذه السنة[٤] .

قال القاضى بهاء الدين : ووصل الخبر إلى السلطان فى عشية ذلك اليوم بعد عشاء الآخرة ، وكنت جالسا فى خدمته ، فما مر بالسلطان خبر أنكى منه فى قلبه[١٤٦] ، ولا أكثر تشويشاً منه لباطنه ، وأخذتُ فى تسكينه وتسليته وهو لايقبل ذلك ولكن يقول : الأمر لله ، ويكرر ذلك . قال : وكان وصول العدو إلى مخيمهم فى سادس عشر جمادى الآخرة ، وكان يوما عظيمًا عندهم ، أظهروا فيه السرور والفرح ما لا يمكن وصفه ، وأعادوا خيامهم إلى الموطاة[٥] على بيت نوبة ، وصح عزمهم على القدس ، وقويت نفوسهم بما حصل لهم من الغنائم والأشياء الواصلة من مصر ، ورتبوا جماعة على لُدّ[٦] ، يحفظون الطريق على من ينقل الميرة ، وأنفذوا الكندهرى إلى صور وطرابلس وعكا يستحضر من فيها من المقاتلة ليصعدوا إلى القدس .

---

(١) «أمكنه» فى النوادر السلطانية ، ص٢١٤ .

(٢) الخربندة : كلمة فارسة تعنى خادم مطبع حسن مجيب . المعجم الفارسى العربى الجامع ، ص١٣٢ ، القاهرة ١٩٨٤ .

(٣) عن هذه الوقعة ، انظر : النوادر السلطانية ، ص ٢١٤ .

(٤) ورد هذا النص بتصرف فى النوادر السلطانية ، ص٢١٤ .

(٥) «الوطاه» كذا فى الأصل . والتصحيح من النوادر السلطانية ، ص ٢١٤ .

(٦) لُدّ : قرية قرب بيت المقدس من نواحى فلسطين . انظر : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٣٥٤ .

وفى[1] المرآة : وكانوا قد قصدوا أن يسيروا إلى مصر ثم [عدلوا][2] عن ذلك ، وقووا عزمهم على القدس ، واستدعوا الفارس والراجل ، فاجتمع عندهم خلق عظيم ، فساروا من الرملة إلى بيت نُوبة .

ذكر تصميم الفرنج على محاصرة القدس

ولما جرى ما ذكرنا ، شاور السلطان الأمراء فى القدس وقال لهم : أنتم جند الإسلام ومنعته ، ودماء المسلمين وأموالهم وأهاليهم متعلقة بكم ، فإن جبنتم طووا البلاد طيًا وكنتم المطالبين بذاك . فقالوا : نحن مماليكك وما تطير رؤوسنا إلا بين يديك . وافترقوا على هذا[3] . ثم تهيأ السلطان لذلك وأكمل السور وعمق الخنادق ونصب الآلات والمجانيق ، وأمر بتغوير ما حول القدس من المياه ، ثم أحضر الأمراء ليلة الجمعة التاسع عشر من جمادى الآخرة وفيهم أبو الهيجاء السمين ، والمشطوب ، والأسدية بكمالهم ، فاستشارهم السلطان فيما قد دهم من الأمر الفظيع ، فأفاضوا فى الكلام[4] وأشار كل برأى . وأشار العماد الكاتب بأن يتحالفوا على الموت عند الصخرة ، كما كانت الصحابة رضى الله عنهم يفعلون ، فأجابوا إلى ذلك كلهم .

هذا كله والسلطان ساكت واجم مفكر ، فسكت القوم حتى كأن على رؤوسهم الطير ، ثم قال : الحمد لله والصلاة على رسول الله ، اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم ، وليس لهذا العدو من يلقاه غيركم ، فإن طويتم أعِنَّتكم ـ والعياذ بالله ـ طووا البلاد كطى السجل للكتاب . وقال : ذلك فى ذمتكم ، وأكلتم مال بيت مال المسلمين ، فالمسلمون فى سائر البلاد متعلقون بكم . فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال : يا مولانا نحن مماليكك وعبيدك وأنت الذى أنعمت علينا وأعطيتنا وأغنيتنا ، وليس لنا إلا رقابنا وهى بين يديك ، والله ما يرجع أحد منا عن نصرتك إلى أن نموت بين يديك . فقال بقية

(١) نقل العينى هذا النص بتصرف من النوادر السلطانية ، ص٢١٥ .

(٢) «عادوا» كذا فى الأصل . والتصحيح من مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٦٧ .

(٣) إلى هنا توقف العينى عن النقل من مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٦٧ . ولمعرفة المزيد عن هذا الحدث انظر : النوادر السلطانية ، ص ٢١٦ .

(٤) انظر : البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٤٨ ؛ النوادر السلطانية ، ص٢١٦ .

القوم مثل ما قال . ففرح السلطان وطاب قلبه ومد لهم سماطا حافلاً ، وانصرفوا من بين يديه على ذلك . ثم بلغه بعد ذلك عن بعض الأمراء أنه قال : إنا نخاف أن يجرى علينا فى هذه البلدة كما جرى فى عكا ، ثم يأخذون بلاد الإسلام بلدا بلدا ، والمصلحة أن نلقاهم بظاهر البلد ، فإن هزمناهم أخذنا بقية بلادهم ، [١٤٧] وأن تكن الأخرى سَلَّمَ الله العسكر ، ومضى القدس ، وقد انحفظت بلاد الإسلام بدون القدس مدة طويلة .

وكان مما بعثوا إلى السلطان يقولون : أن كُنت تريدنا نقيم بالقدس تحت حصر الإفرنج فكُن أنت معنا ، أو بعض أهلك ، حتى يكون الجيش تحت أَمْرِهِ ، فإن الأكراد لايطيعون الترك ، والترك لا يطيعون الأكراد .

فلما بلغه ذلك شق عليه مشقة عظيمة ، وبات ليلة ذلك أجمع مهموماً كئيبا ، مفكراً فيما قالوا ، ثم انجلى الأمر ، واتفق الحال على أن يكون الملك الأمجد صاحب بعلبك مقيما عندهم نائبا عنه بالقدس الشريف ، وكان ذلك نهار الجمعة ، فلما حضرت صلاة الجمعة وأذَّن المؤذنون قام فصلى ركعتين بعد الأذانين ، وسجد وابتهل إلى الله تعالى ابتهالاً عظيما ، وتضرع لديه وتمسكن ، وسأله فيما بينه وبينه فى كشف هذه الضائقة العظيمة(١) .

وفى المرآة : وبعد افتراق الأمراء من عند السلطان بعد المشاورة ، اختلفت الأمراء فى الليل ، فقال بعضهم : ما نقيم حتى يكون السلطان معنا ، نخاف أن يجرى علينا ما جرى على أهل عكا . وبلغ السلطان ذلك ، فبعث إليهم يقول : هذا مجد الدين بن فرخشاه ابن أخى يكون عندكم ، وأكون أنا من برّا أَذُبُّ عنكم ، فقالوا : ما هذا برأى ، وإنما نخرج ونصدقهم الحملة ، فإن قهرناهم وإلا سلم العسكر ونمضى إلى دمشق . فعز عليه ذلك خوفا على القدس ومن فيه من المسلمين ، وبات ليلة الجمعة ساهرا باكيا متضرعا ، وبعث بالصدقات إلى الفقراء . وطلع الفجر ، فجلس إلى الضحى يدعو ، ومضى إلى المسجد الأقصى فدخل المقصورة وسجد وبكى وتضرع إلى الله تعالى . وكان جرديك فى اليزك فجاءت منه رقعة يقول : قد ركبوا بأسرهم .

---

(١) انظر : البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٤٩ ؛ النوادر السلطانية ، ص ٢١٧ ؛ مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص ٣٨٧ ــ ٣٨٨ .

وبات السلطان ليلة السبت قلقا ما عرف المنام ، فلما طلع الصباح جاء جرديك مسرعا فقال للسلطان : نهنيك ، رحلوا نحو الرملة ، فسجد السلطان ، وانكشفت أخبارهم . وسبب رحيلهم أن السلطان كان قد أمر بِطَمِّ الصهاريج والآبار التى كانت حول القدس ، فقال لهم ملك الإنكتار : من أين نشرب؟ قالوا : من العيون التى حول القدس ، قالوا : يتخطفوننا[١] .

وقال صاحب النوادر : فقالوا : نشرب من ماء[٢] نقوع بينه وبين القدس مقدار فرسخ . فقال الملك : كيف نذهب إلى السقى؟ فقالوا : ننقسم قسمين ؛ قسم يركب إلى السقى مع الدواب ، وقسم يبقى على البلد فى المنزلة ، ويكون الشرب فى اليوم مرة . فقال الملك : إذًا يأخذ العسكر البرانى الذى يذهب مع الدواب ، ويخرج عسكر البلد على الباقين ، ويذهب دين النصرانية ، فانفصل الحال على أنهم حكَّموا ثلاثمائة من أعيانهم ، وحكَّموا الثلاثمائة اثنى عشر منهم[١٤٨] ، وحَكَّم الاثنى عشر ثلاثة منهم على عادتهم فى النوازل ، فباتوا يتشاورون ، فترجح عندهم الرحيل ، وقالوا : السلطان حاضر ومعه العساكر فارحلوا ، فرحلوا[٣] .

وفى تاريخ ابن كثير : ولما كان يوم السبت الحادى والعشرين من جمادى الآخرة ، جاءت الكتب من الحرس حول البلد ، بأن الإفرنج اختلفوا فيما بينهم فى محاصرة القدس . فقال ملك الإفرنسيس : إنما جئنا من البلاد البعيدة وأنفقنا الأموال العديدة فى تخليص بيت المقدس ، وقد بقى بيننا وبينه مرحلة . وقال ملك الإنكتار : أن هذا البلد يشق علينا حصاره ؛ لأن المياه قد عدمت ، ومتى بعثنا من يأتينا بالماء تعطل أمر الحصار . ثم اتفق الحال بينهم على أن حكَّموا إلى آخر ما ذكرناه ، فرحلوا صوب الرملة[٤] .

قال فى النوادر : وأصبحوا فى بكرة الحادى والعشرين من جمادى الآخرة راحلين إلى نحو الرملة ، وعلى أعقابهم ناكصين ، ووقف عسكرهم شاكِّين فى السلاح إلى أن لم يبق فى المنزلة إلا الآثار ، ثم نزلوا بالرملة . وتواتر الخبر بذلك ، وركب السلطان والناس ، وكان يوم سرور وفرح[٥] .

---

(١) نقل العينى هذا النص بتصرف من مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٦٧ ؛ مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص٣٨٩ ــ ٣٩٠ .
(٢) «نهر» فى الأصل .والتصحيح من النوادر السلطانية ، ص٢١٧ .
(٣) نقل العينى هذا النص بتصرف من النوادر السلطانية ، ص ٢١٨ ؛ الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٢٩٩ ؛ مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٣٩٠ .
(٤) نقل العينى هذا النص بتصرف من البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٤٩ .
(٥) النوادر السلطانية ، ص ٢١٨ .

ذكر بروز السلطان بجيشه إلى خارج البلد

وبرز السلطان بجيشه إلى خارج القدس ، وسار نحوهم خوفا من أن يسيروا إلى الديار المصرية لكثرة ما معهم من الظهر والأموال ، وكان ملك الإنكتار ـ لعنه الله ـ يلهج بذلك كثيرا ، فخذلهم الله عن ذلك .

وترددت الرسل من ملك الإنكتار إلى السلطان فى طلب الصلح ، ووضع الحرب بينهم ثلاث سنين وستة أشهر ، على أن يعيد إليهم السلطان عسقلان ، ويهب له أكبر كنيسة ببيت المقدس وهى القمامة ، وأن يمكن الزوار من النصارى والحجاج إليها بلاشىء . فامتنع السلطان من إعادة عسقلان ، وأطلق لهم قمامة ، ولكن فرض على الزوار مالاً يُؤخذ من كل منهم . فامتنع ملك الإنكتار إلا أن يعاد إليهم عسقلان ويعمر سورها كما كان . وصمم السلطان على عدم الإجابة[١] .

وقال صحاب النوادر : ولما فرغ بال السلطان برحيل العدو ، حضر رسول الكندهرى فقال : إن ملك الإنكتار قد أعطانى البلاد الساحلية ، وهى الآن لى قاعدة على بلادى حتى أصالحك ، وأكون أحد أولادك . فغضب السلطان لذلك غضبا شديدا ، بحيث أنه أراد أن يبطش بالرسول ، فأقيم من بين يديه . ولما كان يوم الثالث والعشرين من جمادى الآخرة استحضر الرسول ، وكان جوابه بأن يكون الحديث بيننا فى صور وعكا ، على ما كان مع المركيس[٢] .

ذكر فتح السلطان مدينة يافا

ثم ركب السلطان فى جيشه العرمرم حتى وافى يافا ، فحاصرها حصارا شديدا فافتتحها ، وغنم جيشه منها شيئا كثيرا ، وامتنعت القلعة ، فبالغ فى أمرها حتى هانت ولانت ودانت ، وكادوا أن يبعثوا إليه بأقاليدها ، ويأخذون الأمان لكبيرها ووليدها ، إذ أشرفت عليهم مراكب الإنكتار على وجه البحر ، فقويت رؤوسهم واستصعبت نفوسهم ، وهجم اللعين ملك الإنكتار فاستعاد البلد إليه ، وقتل من تأخر بها من المسلمين[١٤٩]

(١) انظر : الكامل فى التاريخ ، جـ ١٢ ، ص ٤٠ ـ ص ٤١ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٤٩ ـ ص ٣٥٠ ؛ مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٣٩٢ ـ ٣٩٣ .

(٢) انظر : النوادر السلطانية ، ص ٢١٨ .

صبرا بين يديه . وتقهقر السلطان من منزلة الحصار إلى ما ورائها ، خوفا على الجيش من معرّة الفرنج . فجعل ملك الإنكتار يتعجب من شدة سطوة السلطان ! كيف فتح مثل هذا البلد العظيم فى يومين ، وغيره لا يمكنه فتحه فى عامين . ثم ألح فى طلب الصلح ، على أن تكون عسقلان داخلة فى الصلح ، فامتنع السلطان فى ذلك أشد الامتناع[١] .

وفى المرآة : أقام السلطان بالقدس حتى تيقن وصولهم إلى عكا ، وخرج فنزل على يافا وحاصرها ، وتعلق النقابون فى الأسوار ، وملك المدينة وأشرفوا على أخذ القلعة ، فصاح أهلها الأمان ، ونهب المسلحون البلد . فوقف مماليك السلطان على الأبواب ، كل من خرج ومعه شىء أخذوه ، وعز ذلك على الأمراء والأكراد وسلموا القلعة ، وبعث السلطان إليها جماعة من أصحابه ، وبقى فيها من الفرنج أربعون رجلاً . وبينما هم كذلك إذ لاحت مراكب كثيرة فتوقفوا ، وقويت نفوس الإفرنج الذين فى القلعة ، وعلموا أنها مراكب الإنكتار ، فرمى واحد نفسه فى الماء وسبح إليهم ، وقال : تقدموا فارسوا إلى الميناء ــ وكانت خمسة وثلاثين مركبًا ــ فهرب المسلمون من البلد .

وتأخر السلطان إلى يازُور[٢] ، وجاء ملك الإنكتار فنزل فى منزلة السلطان ، ولم يكن معه سوى عشرين فارسًا ، وثلاثمائة راجل ، وعشرين خيمة ، والسلطان فى ألوف . فبعث إلى السلطان يقول : أنت سلطان عظيم ، ومعك هذا الجيش الكثير ، ومعظم عساكر المسلمين ، فكيف رحلت عن منزلتك عند وصولى وليس معى[٣] واحد؟ فغضب السلطان وبات على غضب ، فلما أصبح ركب وركبت العساكر ، وملك الإنكتار ما زال على حاله لم يصل إليه من الإفرنج أحد ، فحمل إليه المسلمون وهو فى عشرين فارسا وثلاثمائة راجل ، فلم يتحرك . فعظم على السلطان وصاح بالأطلاب : ويحكم ، وكم معه وأنتم عشرة آلاف وزيادة . فلم يجبه أحد ، وقال له الجُناح[٤] : قل لعلوقك الذين ضربوا الناس بالأمس وأخذوا كسبهم . ويقال إن ملك الإنكتار أخذ رُمحه وحمل من طرف

---

(١) نقل العينى هذا النص باختصار شديد من النوادر السلطانية ، ص٢٢٢ ــ ٢٢٧ ؛ الفتح القسى ، ص٥٩٨ ـ ٦٠٠ ، ص ٦٠٨ ؛ مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٣٩٤ .

(٢) يا زُور : بليدة بسواحل الرملة من أعمال فلسطين الشام . انظر : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ١٠٠٢ .

(٣) «عندى أحد» فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٦٧ .

(٤) الجُناح : ذكر ابن الأثير أن الجناح أخو عماد الدين بن المشطوب بن على بن أحمد الهكارى . انظر : الكامل ، جـ١٢ ، ص٣٦ .

الميمنة إلى طرف الميسرة ، فلم يُعْرِض أحد . وساق السلطان من غَبنة إلى النطرون ، ونزل فى خيمة صغيرة وحده وانفرد ، فلم يتجاسر أحد أن يكلمه . وجاءت رسل الملك فى طلب الصلح .

وفى تاريخ ابن كثير : لما كان ملك الإنكتار نازلاً فى منزلة السلطان ـ على ما ذكرنا ـ كبس فى بعض الليالى ملك الإنكتار وهو فى سبعة عشر فارساً وقليل من الرجالة ، فأوكب السلطان بجيشه حوله ، وحصره حصراً لم يبق له منه نجاة لو صمم معه الجيش ، ولكن هم نكلوا عن الحملة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله . وجعل السلطان يحرضهم غاية التحريض ، فكلهم يمتنع كما يمتنع المريض من شرب الدواء . هذا وملك الإنكتار ـ لعنه الله ـ قد ركب فى أصحابه وأخذ عدة قتاله وحرابه ، واستعرض الميمنة من أولها إلى آخر الميسرة . فلا يتقدم إليه منهم أحد من الفرسان ، ولا يهش فى وجهه بطل من الشجعان ، فعند ذلك كرّ السلطان راجعًا . ثم حصل لملك الإنكتار[١٥٠] بعد ذلك مرض شديد ، وبعث إلى السلطان يطلب منه فاكهة وثلجًا ، فأمَدَّه السلطان بذلك فتوة وكرمًا ، ثم عوفى ـ لعنه الله ـ وتكررت رُسله إلى السلطان لأجل الصلح ، وذلك لكثرة شوقه إلى بلاده ، وعن قريب نذكر المراسلات واستقرار الصلح إن شاء الله تعالى(١) .

وذكر فى النوادر فى فتح يافا ملخصه : أن السلطان رحمه الله بلغه فى عاشر من رجب أن الإفرنج قد رحلوا طالبين نحو بيروت ، فبرز من القدس إلى منزلة يقال لها الجيْب ، وكان ولده الملك الظاهر غازى ـ صاحب حلب ـ قد قدم إليه يوم السبت الخامس من رجب ، ثم رحل السلطان من الجيب إلى بيت نوبة ، ثم رحل يوم الأحد ثالث عشر رجب إلى الرملة ، فنزل بها ضحوة النهار على تلال بين الرملة ولد ، وأقام بها بقية يوم الأحد .

ولما كانت صبيحة يوم الاثنين الرابع عشر من رجب ، ركب جريدة حتى أتى يازُور وبيت دجُن وأشرف على يافا ، ثم عاد إلى منزلته وأقام بها بقية يومه .

ولما كان صباح يوم الثلاثاء خامس عشره رحل إلى نحو يافا فخيم عليها ، ورتب العسكر ميمنة وميسرة وقلبا ، وكان صاحب الميمنة ولده الملك الظاهر ، وصاحب الميسرة أخوه الملك العادل ، والعساكر فيما بينهما . وزحفوا يوم السادس عشر ، وأخذ

---

(١) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص٣٥٠ .

النقابون النقب من شمالى الباب الشرقى فى الزاوية طول البدنة ، وكان المسلمون قد هدوا ذلك المكان فى الحصار الأول وبناه الإفرنج ، ودخل النقابون فيه .

وكان الملك فى عكا قد توجه إلى نحو بيروت ، وهذا الذى حمل السلطان على نزوله على يافا ، وأقام السلطان تلك الليلة هناك إلى أن مضى من الليل مقدار ثلثه ، وعاد إلى المنزلة . . ولما أصبح السلطان عزم على القتال ، فقاتلوا ، وجرح من المسلمين جماعة بالنشاب والزنبورك من البلد ، فيهم الحاجب أبو بكر ، وختلخ والى بعلبك وأصيب بعينه ، وطغرل التاجى ، وسراسنقر فى وجهه ، وهما من خواص المماليك ، وأياز جركس فى يده ، وهو من كبارهم .

ولما رأى العدو المخذول ما حل بهم ، أرسلوا رسولين نصرانيا و فرنجيا يطلبان الصلح ، فطلب السلطان منهم قاعدة القدس وقطيعته ، فأجابوا إلى ذلك ، ولكن اشترطوا أن ينظروا إلى يوم السبت التاسع عشر من رجب ، فإن جاءتهم نجدة وإلا تمت القاعدة على ما استقر ، فأبى السلطان الانتظار ، وصمم على القتال والمضايقة . ولم يزالوا يقاتلون فى ذلك اليوم إلى أن فصل الليل بينهم ، ولم يقدر السلطان على البلد فى ذلك اليوم ، بعد خرق النقوب من البدنة ، وضاق صدره وندم على عدم إصابته للصلح .

ولما كان يوم الجمعة الثامن عشر من رجب ، زحف السلطان وزحف ولده الظاهر زحفا شديدا ، وزحف العادل من المسيرة ، فإنه كان مريضا ، وارتفعت الأصوات وضربت الكوسات ، [وخفقت البوقات][(١)] ، ورمت المنجنيقات ، ووقعت تلك البدنة وانفتح الطريق . ولما رأى العدو ذلك أرسلوا رسولين إلى السلطان يطلبان الأمان ، فقال السلطان قولا لهم : ينحازون إلى القلعة ويتركون البلد . فدخل الناس البلد[١٥١] ، ونهبوا منه أقمشة عظيمة ، وغلالا كثيرة ، وأثاثا وبقايا قماش من نهبهم من القافلة المصرية .

ولما كان عصر يوم الجمعة جاء إلى السلطان كتاب من قايماز النجمى ، وكان فى طريق[(٢)] الغور لحمايته من العدو الذى فى عكا ، يخبر فيه : أن ملك الإنكتار لما سمع خبر [يافا][(٣)] أعرض عن قصد بيروت وعاد إلى قصد يافا . ولما كان سحر تلك الليلة ،

(١) ما بين الحاصرتين مثبت من النوادر السلطانية ، ص٢٢ ، لتصحيح المعنى .
(٢) «طرف» فى الأصل والتصحيح من النوادر السلطانية ، ص ٢٢٥ ؛ مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٣٩٥ .
(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من النوادر السلطانية ، ص٢٢٥ ؛ مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٣٩٥ .

سمع المسلمون بوق الفرنج وقد نعق ، عَلِمُوا بوصول النجدة ، وكانوا نيفًا وخمسين مركباً ؛ منها خمسة عشر شينى ، فوهب رجل من أهل القلعة نفسه للمسيح وقفز من القلعة إلى الميناء ، وكان رملاً فلم يصبه شىء ، واشتد عدوًا حتى أتى البحر ، فجاء له شينى فأخذه إلى شينى الملك فأخبره بالخبر .

ولما تيقن الملك أن القلعة ما أُخِذَتْ ، اندفع يطلب الساحل ، وكان أول شينى ألقى من فيه إلى البر شينى الملك ، وكان أحمر ، وقبته حمراء ، وبيرقة أحمر ، وكان رنكه[١] ، ثم نزل كل من فى الشوانى إلى الميناء .

قال القاضى بهاء الدين : هذا كله وأنا شاهد ذلك ، وكان تحتى فرس ، فَسُقْتُ حتى أتيت إلى السلطان وبين يديه الرسولان ، وقد أخذ القلم حتى يكتب لهما الأمان ، فعرَّفته فى أذنه ما جرى ، فامتنع من الكتابة وشغلهم بالحديث ، فما كان إلا ساعة حتى فر المسلمون نحو السلطان ، فصاح فى الناس فركبوا ، وقبض على الرسل ، وأمر بتأخر الثقل والإسواق إلى يازور ، وبقى السلطان جريدة فى الليل ، وبات فى ليلته هناك . وخرج ملك الإنكتار إلى موضع السلطان الذى كان فيه لمضايقة البلد ، ثم طلب الحاجب أبا بكر العادلى ، وأيبك العزيزى ، وسنقر المشطوب ، وبدر الدين دلدروم وغيرهم ، وكان قد صادقهم فقال لهم : إن هذا السلطان عظيم ، وما فى الأرض من الإسلام أكبر منه ولا أعظم ، كيف رحل عن مكانه بمجرد وصولى ، والله ما لبست لأمة[٢] حربى ، وليس فى رجلى إلا [زربول][٣] البحر . ثم قال لأبى بكر : «بالله عليك سلم على السلطان وقل له يجيب إلى صلحى ، فهذا أمر لابد له فى الأخير ، وقد هلكت بلادى وراء البحر . وما دوام هذا مصلحة لا لنا ولا لكم» . وجاء أبو بكر وعرَّف السلطان بذلك ، وكان ذلك فى آخر يوم السبت التاسع عشر من رجب . فلما سمع السلطان أحضر أرباب المشورة ، وانفصل الحال على كون الجواب : «إنك كنت طلبت الصلح أولا على قاعدة ، وكان الحديث فى يافا

---

(١) الرنك : جمعها رنوك ، وهو لفظ فارسى معناه اللون ، وقد استعمل فى مصطلح المؤرخين بمعنى الشعار الذى يتخذه الأمير . انظر : السلوك ، جـ ١ ق ٣ ، ص ٦٧٢ ، حاشية ٤ .

(٢) لأمة : معناها الدرع وقيل السلاح وقيل الدرع الحصينة ، سميت لأمة لإحكامها وجودة حلقاتها . انظر : لسان العرب ، مادة «لأم» .

(٣) «زلبور» فى الأصل . والمثبت من النوادر السلطانية ، ص٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

والزربول : جمعها زرابيل ويقال زربون والجمع زرابين ، كلمة يونانية ومعناه نوع من الحذاء يلبسه العبيد . انظر : مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٣٩٨ ، حاشية ٥ .

وعسقلان ، والآن فقد خربت عسقلان ، وهذه يافا ، يكون لك من قيسارية إلى صور» . فمضى إليه وعرَّفه ما قال . فردَّه إليه ومعه رسول فرنجى وقال : «يقول الملك : إن قاعدة الفرنج أنه إذا أعطى واحد لواحد بلدًا صار تابعا له وغلامه ، وأنا أطلب منك [هذين][1] البلدين : يافا وعسقلان ، وتكون عساكرهما فى خدمتك دائما ، وإذا احتجت إلىَّ وصلتُ إليك فى أسرع وقت ، وخدمتك كما تعلم خدمتى» .

وكان جواب السلطان ــ رحمه الله ــ : «حيث دخلت هذا المدخل فأنا أجيبك إلى أن نجعل البلدين قسمين ؛ أحدهما لك[١٥٢] وهو يافا وما وراءها ، والثانى لى وهو عسقلان وما وراءها» . ثم سار الرسولان . ورحل السلطان وكان بيازور ، ورتب اليزك بها ، وأمر بخرابها وخراب بيت دجن . وسار حتى أتى الرملة فخيم بها يوم الأحد العشرين من رجب ، ووصل إليه الرسول مع الحاجب أبى بكر ، فأمر بإكرامه . وكانت الرسالة الشكر من الملك على إعطائه يافا ، وتجديد السؤال فى عسقلان ، ويقول له : «إن وقع الصلح فى هذه الأيام الستة سار إلى بلاده ، وإلا احتاج أن يشتى ههنا» . فأجاب السلطان : «أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه ، وأما تشتيتُه فلا بد منها ، لأنه قد استولى على هذه البلاد ، ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت بالضرورة ، وإذا سهل عليه إن يشتى ههنا ، وهو بعيد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين ، وهو شاب فى عنفوان شبابه ووقت اقتناص لذاته ، ما يسهل علىَّ أن أُشَتى وأُصَيف وأنا فى وسط بلادى ، وعندى أهلى وأولادى ، ويحضر إلى ما أُريده ، ومَنْ أريده ، وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا وشبعت منها ونفضتها عنى ، والعسكر الذى عندى فى الشتاء يكون غير العسكر الذى يكون فى الصيف ، ومع هذا أنا أعتقد أنى فى أعظم العبادات ، ولا أزال كذلك حتى يعطى الله النصر لمن يشاء» .

فلما سمع الرسول ذلك ، طلب أن يجتمع بالملك العادل ، فأذن له فى ذلك ، فسار إلى خيمته ، وكان قد تأخر بسبب مرض اعتراه على موضع يقال له مارضوان[2] . ثم بلغ السلطان أن عسكر العدو قد رحل من عكا قاصدًا يافا للإنجاد ، فجمع أرباب الرأى للمشورة ، فوقع الاتفاق على قصدهم جريدة ، ويرحل الثقل إلى الجبل ، فأمر الثقل بالرحيل فى عشية يوم الاثنين الحادى والعشرين من رجب ، وسار هو ــ رحمه الله ــ

(١) «هاذين» فى الأصل . والمثبت هو الصحيح .

(٢) كذا فى الأصل . وفى النوادر السلطانية ، النوادر ص ٢٢٨ «مارصموال» .

جريدة فى صبيحة يوم الثلاثاء ، حتى نزل على العوجاء[1] ، ووصل إليه من أخبره أن عسكر العدو قد وصل قيسارية ودخل إليها ، وأن الملك قد نزل خارج يافا بنفر يسير وخيم قليلة ، فوقع له أن يكبس عليه ، وسار من أول الليل ، والأدلة من العرب تتقدمه إلى أن أتى وقت الصباح إلى خيام العدو فوجدها يسيرة ، مقدار عشر خيم[2] ، فداخله الطمع وحمل عليهم ، فلم يتحركوا من أماكنهم ، ودار السلطان على الأطلاب بنفسه يحثهم ، فلم يجب إليه أحد سوى ولده الملك الظاهر ، فإنه تأهب للحملة ، فمنعه .

فلما رأى السلطان ذلك ، رأى أن وقوفه وحده خسارة ، فأعرض عن القتال ، وسار حتى أتى يازور وهو مغضب ، فنزل بها ، وذلك يوم الأربعاء الثالث والعشرين من رجب . ثم أصبح يوم الخميس سار إلى النطرون فنزل به ، فأرسل إلى العسكر فحضروا عنده يوم الخميس الرابع والعشرين من رجب ، فبات به . ثم أصبح يوم الجمعة وسار إلى الملك العادل يفتقده ، ودخل القدس وصلى ، ونظر إلى العمائر ورتبها ، ثم عاد من يومه إلى الثقل ، وبات فيه على النطرون .

وقدمت[١٥٣] إليه العساكر ، فأول من وصل علاء الدين ابن أتابك صاحب الموصل ، فلقاه السلطان ضحوة نهار السبت السادس والعشرين من رجب ، فأكرمه وأنزله عنده فى الخيمة ، وقدَّم له تقدمة جليلة ، ثم سار إلى خيمته ، وأقام السلطان بالنطرون .

ولما كان يوم الخميس التاسع من شعبان ، قدم عسكر مصر ، فخرج السلطان إلى لقائهم ، وكان فيهم مجد الدين هلدرى ، وسيف الدين يازكج وجماعة من الأسدية ، وكان فى خدمة ولده الملك المؤيد مسعود ، وكان يوما مشهودا ، ثم أنزلهم عنده ومد الخوان[3] ، ثم ساروا إلى منازلهم .

ثم قدم الملك المنصور بن تقى الدين فى صبيحة يوم الاثنين ثالث عشر شعبان ، ونزل فى مقدمة العسكر . ولما رأى السلطان أن العساكر قد تجمعت ، جمع أرباب الرأى وقال : «إن ملك الإنكتار مرض مرضا شديدًا والإفرنسيسية قد رجعوا إلى بلادهم ، ونفقاتهم قد قلت» . وأصبح يوم الخميس راحلاً إلى جهة[4] الرملة .

---

(١) العوجاء : نهر بين أرسوف والرملة من أرض فلسطين من السواحل . انظر : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٧٤٤ .
(٢) «خيمة» فى الأصل وما أثبتناه هو الصحيح .
(٣) الخوان : ذكر القلقشندى أن المائدة لا يقال لها مائدة بدون طعام وإلا فهى خوان . انظر :صبح الأعشى ، جـ ١ ، ص١٥٨ .
(٤) نقل العينى هذا النص بتصرف من النوادر السلطانية ، ص ٢٢٧ ـ ٢٣٢ ؛ مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص٤٠١ ـ ٤٠٢ .

ذكر كتاب الصلح

لما رضى ملك الإنكتار بما رسم به السلطان صلاح الدين ، كُتب كتاب الصلح فى الثامن عشر من شعبان ، وأُكدت العهود والمواثيق من كل ملك من ملوكهم وأسقف وجاثليق[١] ، وحلف الأمراء من المسلمين وكتبوا خطوطهم ، واكتفى من السلطان بالقول المجرد ، كما جرت به عادة السلاطين ، وفرح كل من الفريقين فرحًا عظيما .

وفى تاريخ النويرى : واستقر أمر الهدنة يوم السبت الثامن عشر من شعبان ، وتحالفوا على ذلك يوم الأربعاء [الحادى والعشرين][٢] من شعبان . ولم يحلف ملك الإنكتار ، بل أخذوا يده وعاهدوه ، واعتذروا بأن الملوك لايحلفون ، وقنع السلطان بذلك ، وحلف الكندهرى ابن أخته . وخليفته على الساحل ، وكذلك حلف غيره من عظماء الإفرنج .

ووصل ابن الهنفرى وباليان إلى خدمة السلطان ، ومعهما جماعة من المقدمين ، وأخذوا يد السلطان على الصلح ، واستحلفوا الملك العادل ، والملكين الأفضل والظاهر ابنى السلطان صلاح الدين ، والملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبك ، والأمير بدر الدين دلدُروم الياروقى صاحب تل باشر ، والأمير سابق الدين عثمان صاحب شيزر ، والأمير سيف الدين على بن أحمد المشطوب ، وغيرهم من المقدمين الكبار . وعقدت هدنة عامة فى البر والبحر ، وجعلت مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر ، أولها أيلول الموافق الحادى عشرى شعبان .

وكانت الهدنة على أن يستقر بيد الإفرنج يافا وعملها ، وقيسارية الشام وعملها ، وأرسوف وعملها ، وحيفا وعملها ، وعكا وعملها ، وأن تكون عسقلان خرابًا ، واشترط السلطان دخول بلاد الإسماعيلية فى عقد هدنته ، واشترط الإفرنج دخول بلاد أنطاكية وطرابلس فى عقد هدنتهم ، وأن تكون لدُّ والرملة مناصفة بينهم وبين المسلمين ، واستقرت القاعدة على ذلك . وأرسل السلطان مائة نَقَّاب صحبة أمير لتخريب سور عسقلان ، وإخراج من بها من الإفرنج والألمان[٣] .

---

(١) الجاثليق : أحد الوظائف الكهنوتية ، ويقال أن صاحبها إمام النصارى وصاحب الصلاة عندهم . انظر : صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٧٤ ؛ جـ ١٣ ، ص ٢٧٤ .

(٢) «الثانى والعشرين» كذا فى الأصل ، والتصحيح من نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ، ص ٤٣٦ .

(٣) ورد هذا النص بتصرف فى نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص٤٣٦ ، كما نقل العينى هذا النص بتصرف من النوادر السلطانية ، ص٢٣٤-٢٣٦ ؛ الفتح القسى ، ص٦٠٣-٦٠٥ ، ص٦٠٦-٦٠٩ ؛ مفرج الكروب ، ج٢ ، ص٤٠٢-٤٠٦ .

ذكر توجه السلطان إلى القدس

ثم لما تم هذا الأمر، رحل السلطان إلى القدس فى اليوم الرابع من شهر رمضان، وأمر بتشييد أسواره، وزاد فى وقف المدرسة التى عملها بالقدس، وهذه المدرسة كانت قبل الإسلام تعرف بصند حنة[١]، يذكرون أن فيها قبر حنة أم مريم عليها السلام، ثم صارت فى الإسلام دار علم، قبل أن يملك الإفرنج القدس، ثم لما ملك الإفرنج القدس سنة اثنتين وتسعين وأربع مائة أعادوها كنيسة كما كانت قبل الإسلام، فلما فتح السلطان القدس أعادها مدرسة، فَوَّضَ تدريسها إلى القاضى بهاء الدين بن شداد رحمه الله. وأمر بأن يجعل الكنيسة المجاورة لدار الإستبار بقرب قمامة مارستانًا للمرضى، ووقف عليها مواضع، وسير أدوية وعقاقير عزيزة. فَوَّض القضاء والنظر فى هذه الوقوف[٢] إلى القاضى بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم المذكور. ثم عزم السلطان ــ رحمه الله ــ على أن يحج عامه هذا من القدس، فكتب إلى الحجاز واليمن والديار المصرية والشامية ليعلموا ذلك ويتأهبون له. وكان أخوه سيف الإسلام فى اليمن، وكتب إليه أيضا بذلك، ثم فنّد الأمراء.

وكتب إليه القاضى الفاضل ينهاه عن ذلك، خوفا على البلاد من استيلاء الإفرنج عليها، ومن كثرة المظالم بها والفساد، وذكر أن النظر فى أحوال المسلمين وإصلاح أمرهم، ومصابرة عدوهم، أفضل مما نوى، والعدو المخذول مخيم بعد فى الشام. فسمع السلطان منه وشكره على نصحه، وعزم على ترك الحج عامه ذلك، وكتب إلى سائر الممالك.

واستمر السلطان مقيما بالقدس جميع شهر رمضان، وكلما وفد أحد من رؤساء النصارى للزيارة أولاه غاية الإكرام والإحسان، تأليفًا لقلوبهم، وتأكيدًا لما حلفوه من الأيمان، ورغبة أن يدخل فى قلوبهم شىء من الإيمان، ولم يبق أحد من ملوكهم إلا جاء لزيارة قمامة متنكرا، ويحضر سماط السلطان فيمن يحضر من جمهورهم، بحيث لايُرى، والسلطان يعلم ذلك جملةً لا تفصيلاً، ولهذا يعاملهم بالإكرام والإحسان[٣].

---

(١) «Sainte Anne» القديسة حنة، وقد ذكره محمد كرد على فى خطط الشام، جـ٦، ص١٢٢ ــ ١٢٣ أن هذه المدرسة كانت تعرف بالمدرسة الصلاحية.

(٢) ينقل العينى هذا النص بتصرف من الفتح القسى، ص ٦١٢.

(٣) ينقل العينى هذه الأحداث بتصرف من الفتح القسى، ص ٦١١ ــ ٦١٢؛ مفرج الكروب، جـ ٢، ص ٤٠٧ ــ ٤٠٨.

ذكر خروج السلطان من القدس على عزم دمشق

ثم أن السلطان ــ رحمه الله ــ فَوَّضَ ولاية القدس الشريف إلى عز الدين جرديك ، ووصاه بتهذيب الأمور والأخذ بالحزم فى كل شىء ، وكان فيه كفاية وشهامة وديانة ، وكان الوالى قبله حسام الدين سياروخ ، وكان فيه دين ولين . وولى علم الدين قيصر أعمال الخليل وعسقلان وغزة والداروم وما والاها ، وأمر بنقل الغلات من البلقاء لتقوية الفلاحين ، كذلك أمر بنقل الغلات من مصر إلى أعمال عسقلان ، ليعيد إليها الزراعة والعمران . وكان السلطان قد أعطى دستورًا للعسكر حين تم أمر الصلح ، فكان أول من سار عسكر إربل ، فإنهم ساروا فى مستهل شهر رمضان ، ثم سار بعده فى ثانِيْهِ عسكر الموصل وسنجار والحصن .

وفى يوم الجمعة الثالث والعشرين من شهر رمضان ، [١٥٥] صلى الملك العادل الجمعة ، ثم انصرف عائدا إلى الكرك لينظر فى أحواله ، ثم يعود إلى البلاد الشرقية ليدبِّرها ، فإنه كان أخذها من السلطان ، وودع السلطان ، فلما وصل إلى العازرية[١] ونزل بها ، أتى إليه من أخبره أن رسولاً من بغداد واصل إليه ، فأنفذ إلى السلطان وعرَّفه ، وذكر أنه يجتمع به . ثم جاء إليه يوم السبت الرابع والعشرين منه ، وذكر أن الرسول وصل إليه من جانب ابن النافذ بعد أن ولى نيابة وزارة بغداد . ومضمون كتابه ؛ أنه يستعطف قلب السلطان إلى الخدمة الشريفة ، والإنكار عليه فى تأخر رسله عن العتبة الشريفة ، وأنه يُسيِّر القاضى الفاضل إلى الديوان فى تقرير قواعد بينه وبين السلطان ، ووعد للعادل شىء كثير إذا قرر ذلك .

ولما سمع السلطان ذلك ، كره إنفاذ رسول يسمع كلام الديوان . ووقع كلام كثير بين السلطان والعادل ، ثم قوى عزم السلطان على إنفاذ الضياء الشهرزورى . وعاد العادل إلى مخيمه بالعازرية ، وعَرَّفَ الرسول بما وقع عند السلطان ، ومن إجابته إلى إنفاذ الرسول . ثم سار العادل يوم الاثنين طالبا جهة الكرك ، وسار الضياء متوجها إلى بغداد يوم الثلاثاء سادس عشرى رمضان .

---

(١) العازرية : قرية بالبيت المقدس بها قبر العازر . انظر : معجم البلدان ، جـ٣ ، ص ٥٨٦ .

وفى يوم الأربعاء السابع والعشرين منه ، توجه الملك الظاهر ابن السلطان إلى جهة حلب ، بعد أن أوصى له السلطان بالتقوى فإنه رأس كل خير ، وبالبعد عن سفك الدماء ومظالم الناس .

وفى الليلة الخامسة من شوال من هذه السنة ، سار الملك الأفضل ابن السلطان متوجها إلى دمشق ، ثم أن السلطان ـ رحمة الله عليه ـ لم يزل ينظر فى أحوال الناس ، ويعطى إقطاعات لأناس ، ودستورًا لآخرين ، ولم يزل كذلك حتى صح عنده إقلاع مركب ملك الإنكتار متوجها إلى بلاده مستهل شوال ، فعند ذلك حرر عزمه على أن يدخل الساحل جريدة ، ويتفقد القلاع البحرية إلى بانياس ، ثم يدخل دمشق ويقيم بها أياما قلائل ، ثم يعود إلى القدس ويزوره ، ثم يسير إلى الديار المصرية ليتفقد أحوالها ، ويقرر قواعدها ، وينظر فى مصالحها .(١)

قال القاضى بهاء الدين : وأمرنى بالمقام بالقدس لعمارة مارستان أنشأه فيه ، وإدارة المدرسة التى أنشأها إلى حين عوده ، ثم خرج السلطان من القدس ضحوة نهار الخميس ، السادس من شوال من هذه السنة(٢) . قال القاضى : وودعته إلى البيرة ، وهى قرية بين القدس ونابلس ، ونزل بها وأكل فيها الطعام ، ثم رحل منها وبات على بركة الداوية ، ثم نزل على نابلس ضحوة نهار الجمعة السابع من شوال ، وكثرت الاستغاثات على سيف الدين على المشطوب صاحبها ، وأنه زاد فى رسومها ونوابها ، فأقام بها السلطان إلى ظهر يوم السبت الثامن من شوال حتى كشف مظالمها ، وأسقط رسومها الجائرة ، ثم رحل بعد الظهر ونزل بسفسطية(٣) وتفقد أحوالها(٤) .

قال ابن كثير :[١٥٦] وبات ليلة الأحد عند عقبة ظهر حمار(٥) ، بموضع يعرف بالفريديسة ، وأصبح راحلاً ، ونزل ضحوة نهار الأحد على جينين ، وهناك ودعه المشطوب وداع الأبد ، فإنه توفى بعد أيام . ثم رحل يوم الاثنين وجاء ضحوة إلى بيسان ، وصعد إلى

---

(١) نقل العينى هذا النص بتصرف من النوادر السلطانية ، ص ٢٣٧ـ ٢٣٩ .
(٢) انظر : النوادر السلطانية ، ص ٢٣٩ .
(٣) سفسطية : يبدو أن العينى يقصد سبسطية وهى بلدة من نواحى فلسطين بينها وبين البيت المقدس يومان ، وبها قبر زكريا ويحيى بن زكريا عليهما السلام . وهى من أعمال نابلس .انظر : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٣٣ .
(٤) نقل العينى هذا النص بتصرف من النوادر السلطانية ، ٢٣٩ .
(٥) ظهر حمار : قرية بين نابلس وبيسان بها قبر بنيامين أخو يوسف الصديق . انظر : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص٥٨٢ .

قلعتها المهجورة الخالية فقال : الصواب بناء هذه وتخريب قلعة كوكب ، ولم يزل حتى بَيَّن كيفية بنائها . ثم رحل الظهر وبات على قلعة كوكب ، ورحل عنها ضحوة الثلاثاء ونزل بطبرية وقت العشاء ، وهناك جاء إليه بهاء الدين قراقوش وقد خرج من الأسر ، وكان قد أسر فيمن أسر بعكا ، وكان انفكاكه من الأسر يوم الثلاثاء الحادى عشر من شوال ، ففرح السلطان به فرحًا شديدًا ؛ لأنه كانت له حقوق كثيرة على السلطان وعلى الإسلام(١) .
وأقام السلطان بطبرية يوم الأربعاء ، ورحل بكرة الخميس ونزل بقرب صفد تحت الجبل ، وصعد السلطان إليها وأمر بتسديد(٢) ما فيها من الخلل . ثم سار يوم الجمعة على طريق جبل عاملة(٣) ، ونزل ضحوة بضيعة يقال لها الجش(٤) وهى عامرة ، وسار منها وخيم على مرج تبْنين ، ووصى الوالى بعمارة قلعتها . ثم رحل بكرة السبت وجاء على قلعة هونين ، ونزل من الجبل وبات على عين الذهب . ورحل يوم الأحد وخيم بمرج عيون ، ورحل عصر يوم الاثنين وعبر من على صيدا يُسْرة ، وعمل وادى تيم يمنة(٥) على الضياع والقرى ، وعرس على مرج تلفياثًا(٦) مقابل مرج القنعبة ، ثم أصبح يوم الثلاثاء على الرحيل إلى البقاع من تلفياثا ، فخيم على جسر كامد(٧) ، ثم غدا يوم الأربعاء وخيم بناحية قب إلياس ، ثم دخل يوم الخميس إلى بيروت ، ونزلت الأثقال على مرج قلميطية بالبقاع ، وأقام خمسة أيام على الاستراحة(٨) .

ولما وصل السلطان إلى بيروت تلقاه واليها عز الدين أسامه ، بكل ما توفرت به الكرامة ، وأحضر للسلطان ولكل من كان معه من أنواع التحف وأقسام الطرف . ولما أراد السلطان أن يرحل عن بيروت ــ وذلك فى يوم السبت الحادى والعشرين من شوال ــ قيل

---

(١) انظر هذا الخبر بالتفصيل فى الفتح القسى ، ص٦١٤ ؛ النوادر السلطانية ، ص ٢٣٩ ـ ٢٤٠ .
(٢) «بتشييد» كذا فى الأصل والتصحيح من الفتح القسى ، ص ٦١٤ ؛ النوادر السلطانية ، ص٢٤٠ .
(٣) جبل عاملة : أحد الأماكن المشهورة بالشام ، وهو ممتد فى شرقى الساحل وجنوبه حتى يقرب من صور وعليه قلعة الشقيف . انظر : تقويم البلدان ، ص ٢٢٨ .
(٤) الجش : بلد بين صور وطبرية على سمت البحر . انظر : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص ٨٣ .
(٥) وادى التيم : بلبنان وهو المنطقة التى ينتهى إليها جبل الشيخ منحدرًا إليها انحدارًا لطيفًا . انظر : المنجد : باب الأعلام والبلدان .
(٦) تلفياثا : من قرى غوطة دمشق . انظر : ، معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٨٦٨ .
(٧) جسر كامد : يقع بالقرب من صيدا ، وكامد مدينة قديمة تقع على بعد ثمانية عشر ميلاً من عين الجر . انظر : تقويم البلدان ، ص ٢٤٩ .
(٨) إلى هنا توقف العينى عن النقل بتصرف من الفتح القسى ، ص ٦١٣ ــ ٦١٥ .

له إن الإبرنس الأنطاكى قد وصل إلى الخدمة ، مستمسكًا بحبل العصمة ، داخلا فى حكم الذمة ، فثنى السلطان عنانه ونزل وأقام ، وأذن للإبرنس فى الدخول عليه ، فدخل عليه وقربه منه ورفع مجلسه ، وكان معه من مقدمى فرسانه أربعة عشر بارونيا ، ووهب السلطان كلاً منهم تشريفا سريا ، وكتب له من مناصفات أنطاكية بمبلغ عشرين ألف دينار ، ثم ودعه يوم الأحد وفارقه(١) .

وفى النوادر : وأنعم عليه بالعمق(٢) وأرزغان ومزارع تفل [خمسة](٣) عشرة آلاف دينار(٤) . ثم خرج السلطان يوم الأحد وبات بالمخيم على البقاع ، ورحل يوم الاثنين وعبر عين الجسر ، وبات على مرج يبوس(٥) ، ووصل هناك من أعيان دمشق من تلقاه بأنواع التحف من الفواكه وغيرها . ورحل يوم الثلاثاء[١٥٧] وبات بالعرادة(٦) ، وأصبح يوم الأربعاء السادس والعشرين من شوال ، ودخل دمشق ، وخرج كل مَنْ بالمدينة ، وحشر الناس ضحى ، وكان يومًا مشهودا . وكانت غيبة السلطان عن دمشق أربع سنين(٧) وهو فى الجهاد . وكان فى دمشق أولاده الملك الأفضل ، والملك الظاهر ، والملك الظافر ، وأولاده الصغار . وكان يحبُّ البلد ويؤثر الإقامة فيه على سائر البلاد ، وجلس الناس بكرة يوم الخميس السابع والعشرين منه ، وحضر الناس عنده وتملوا برؤيته وطلعته المباركة ، وأنشده الشعراء ، وعمَّ ذلك المجلس الخاص والعام ، وأقام ينشر جناح عدله ، ويهطل سحاب أنعامه وفضله ، ويكشف مظالم الرعايا .

وفى يوم الاثنين مستهل ذى القعدة ، أعد الملك الأفضل دعوة للملك الظاهر ، وأظهر فيها من بديع التجمل وغريبه ما يليق بهمته ، وكأنه أراد بذلك مجازاته عما كان خدمه به حين وصوله إلى حلب ، وسأل السلطان الحضور فى دعوته فحضر ، وكان يوما مشهودا .

(١) نقل العينى هذا النص بتصرف من الفتح القسى ، ص ٦١٦ـ ٦١٨ .
(٢) العَمْق : كورة بنواحى حلب بالشام ، وكانت سابقًا من نواحى أنطاكية . انظر : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٧٢٧ .
(٣) ما بين الحاصرتين إضافة من النوادر السلطانية ، ص ٢٤٠ .
(٤) إلى هنا توقف العينى عن النقل من النوادر السلطانية ، ص ٢٤٠ .
(٥) مرج يبوس : يبوس اسم جبل بالشام بوادى التيم من دمشق . انظر : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ١٠٠٧ .
(٦) العرادة : قرية على رأس تل شبه القلعة بين رأس على نصيبين تنزلها القوافل . انظر : معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٦٢٧ .
(٧) نقل العينى هذه الفقرة بتصرف من الفتح القسى ، ص ٦١٩ .

وفى يوم الأربعاء السابع والعشرين[(١)] من ذى القعدة ، قدم الملك العادل من الكرك ، وخرج السلطان إلى لقائه ، وقام يتصيد حول غباغب[(٢)] إلى الكُسوة[(٣)] حتى لقيه ، وسارا جميعًا يتصيدان . وكان دخولهما إلى دمشق آخر نهار الأحد مستهل ذى الحجة من هذه السنة ، وأقام السلطان بدمشق يتصيد هو وأخوه وأولاده ، ويتفرجون[(٤)] فى أراضى دمشق ، وما كان ذلك إلا للوداع[(٥)] لأولاده وهو لا يشعر . ثم أذن السلطان لولده الملك الظاهر لسفره إلى حلب محل ولايته ، فودعه وداعا لا لقاء بعده[(٦)] ، وسار إلى حلب ، وبقى عند السلطان ولده الملك الأفضل وأخوه وبقية أهله ، وخرجت السنة والأمر على هذا .

ذكر بقية الحوادث

منها أنه كانت غزوة عظيمة بين صاحب غزنة[(٧)] شهاب الدين الغورى السَبُكتكينى ، وبين الهند الذين كانوا كسروه فى سنة ثلاث وثمانين[(٨)] ، فأظفره الله بهم فى هذه السنة وكسرهم ، وقتل خلقا منهم وأسر آخرين . ومن جملة المأسورين ملكهم الأعظم ، وأخذ ثمانية[(٩)] عشر فيلا من جملتها [الفيل][(١٠)] الذى كان جرحه[(١١)] ، فأحضر الملك بين يديه فأهانه ولم يكرمه ، واستحوذ على حصنه أجمير بما كان فيه من جليل وحقير ، ثم قتله بعد ذلك . واقتلع بلادًا كثيرة وأموالاً لا تحصى ، وأقطع البلاد التى صارت إليه لمملوكه قطب الدين أيبك ، وعاد إلى غزنة مؤيدًا منصورًا .

---

(١) ذكر ابن شداد أنه وصل دمشق يوم الأربعاء سابع عشر ذى القعدة . انظر : النوادر السلطانية ، ص٢٤١ ؛ كذا ابن واصل فى مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٤١٠ ؛ أما الروضتين ، جـ ٢ ، ص ٢٠٨ ، فقد اتفق مع العينى .

(٢) غباغب : قرية فى أول عمل حوران من نواحى دمشق . انظر : معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٧٧١ .

(٣) الكُسوة : قرية وهى أول منزل تنزله القوافل إذا خرجت من دمشق إلى مصر .انظر : معجم البلدان ، جـ٤ ، ٢٧٥ .

(٤) «يتفرجون» فى النوادر السلطانية ، ص٢٤١ .

(٥) نقل العينى هذا الخبرمن النوادر السلطانية ، ص ٢٤٠ - ٢٤١ .

(٦) انظر : النوادر السلطانية ، ص٢٣٨ ؛ زبدة الحلب ، جـ ٣ ، ص١٢٣ ؛ مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص٤٠٩ - ٤١٠ .

(٧) غَزْنة : مدينة عظيمة وولاية واسعة في طرف خراسان ، وهى الحد بين خراسان والهند . انظر : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٢٠١ ، ط . دار صادر ، بيروت .

(٨) عن تفاصيل هزيمة الغورى سنة ٥٨٣ هـ ، انظر : الكامل ، ج١١ ، ص٢٥٥ ، المطبعة الأزهرية .

(٩) «أربعة عشر» فى الكامل ، جـ ١٢ ، ص٤٤ ، ط . المطبعة الأزهرية ؛ أما ابن كثير فيتفق مع العينى ، انظر : البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص٣٥٢ .

(١٠) ما بين الحاصرتين إضافة لتوضيح المعنى من الكامل ، جـ ١٢ ، ص٤٤ . المطبعة الأزهرية .

(١١) أى الذى جرح شهاب الدين الغورى . انظر : الكامل ، جـ ١٢ ، ص ٤٤ . المطبعة الأزهرية .

ومنها أن السلطان طغريل بن أرسلان بن طغريل خرج من الحبس بعد قتل قزل أرسلان بن ألدكز، وكان قزل أرسلان قد اعتقله ـ كما ذكرنا ـ فى سنة سبع وثمانين وخمسمائة .

ومنها : أنه اتهم أمير الحجيج ببغداد وهو طاشتكين، وقد كان باشر إمرة الحجيج من مدة عشرين سنة فى غاية حسن السيرة، بأنه يكاتب السلطان صلاح الدين بن أيوب بالقدوم إلى العراق ليأخذها، فإنه ليس يمنعه أحد، وقد كان مكذوبا عليه[١٥٨] فى ذلك، ومع هذا حُبس وأُهين وصودر .

وفى المرآة : اعتقله الخليفة تحت التاج وأخفى خبره، بحيث أقام سنين لم يطلع له على خبر[١] .

ومنها أن ابن الجوزى فى ربيع الأول منها، ولى مدرسة الشيخ[٢] عبدالقادر، فذكر الدرس بها . وقال ابن القادسى : وفى جمادى الأولى جلس الشيخ أبو الفرج بن الجوزى عند تربة أم الخليفة المجاورة لمعروف الكرخى، فتاب مائة وثلاثون شخصًا، ومات فى المجلس ثلاثة مِنْ وَجْدِهِم[٣] .

ومنها أنه وصل كتاب إلى السلطان من اليمن، أن ثلاثة أنهار بالحبشة تغيرت، كانت عذبة فصار الواحد أجاجا، والآخر لبنا، والثالث دمًا[٤] .

ومنها أنه هربت جماعة من العرب ودخلوا مع الفرنج، ثم أرسلوا يطلبون الأمان من السلطان، على أن يسوقوا ما قدروا عليه من خيل الفرنج، فساقوا خمسمائة فرس .

ومنها : أن ملك الإنكتار جهز من عُدد المسلمين وأسلحتهم ـ التى نهبوها ـ شيئا كثيرا فى مركب وسفرها فى البحر، فأرسل الله تعالى عليها ريحا عاصفًا، فغرق المركب بما فيه ومَنْ فيه .

---

(١) انظر : مرآة الزمان، جـ ٨، ص ٢٦٦ .

(٢) مدرسة الشيخ عبدالقادر فى بغداد .

(٣) نقل العينى هذه الحوادث من مرآة الزمان، جـ ٨، ص ٢٦٦ .

(٤) انظر هذا الخبر فى مرآة الزمان، جـ ٨، ص ٢٦٨ ـ ٢٦٩

وفيها[١] ....

....

وفيها : حج بالناس من بغداد فلك الدين إيلبا ، ومن الشام درباس الكردى[٢] .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

الصّابُونى ، أحمد بن محمود بن أبى بكر ، أبو محمد الصابونى ، الملقب نور الدين ، أحد أعيان الأئمة الحنفية ، صاحب «البداية فى أصول الدين» . توفى وقت صلاة المغرب ، ليلة الثلاثاء السادس عشر من صفر سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، ودفن بمقبرة القضاة السبعة ، تفقه على شمس الأئمة الكردى .

أبو المرهف الشاعر ، نصر بن منصور النميرى ، سمع الحديث واشتغل بالأدب ، وكان قد أصابه جدرى وهو ابن أربع عشرة سنة ، فنقص بصره جدًا ، فكان لايبصر الأشياء البعيدة ويرى القريبة منه[٣] ، ولكنه لايحتاج إلى قائد ، فارتحل إلى العراق لمداواة عينيه ، فأيسه الأطباء من ذلك ، فاشتغل بحفظ القرآن ومصاحبة الصالحين والزهاد فأفلح ، وله ديوان شعر كبير حسن ، وقد سئل مرة عن مذهبه واعتقاد ، فأنشأ يقول :

أُحِبُّ عليا والبَتُول وولدها		ولا أجحد الشيخين فضل التقدم
وأبرأ ممن نال عثمان بالأذى		كما أتبرأ من ولاء ابن ملجم
ويعجبنى أهل الحديث لصدقهم		فلست إلى أقوام سواهم أنتمى[٤]

توفى فى ربيع الآخر منها ببغداد ، ودفن بمقابر الشهداء بباب حرب ببغداد .

وفى المرآة : منسوب إلى نمير[٥] بن عامر بن صعصعة من هوزان ، ولد ببرقة الشام ، وأمه بنت سالم بن مالك صاحب رحبة الشام ، ورُبّى بالشام ، وعاشر الأدباء ، وقال الشعر

---

(١) بياض فى الأصل بمقدار سطر وكلمتين .
(٢) «ورماس الكردى» فى الأصل . والتصحيح من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٦٩ ، حيث ينقل العينى عنه .
(٣) «عنه» فى الأصل وهو خطأ . والتصحيح من البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص ٣٥٣ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص ٢٧٠ ؛ وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص ٣٨٣ ـ ٣٨٤ .
(٤) وردت هذه الأبيات باختلاف فى الروضتين ، جـ٢ ، ص ٢١١ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص ٣٥٣ ؛ شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص ٢٩٦ .
(٥) «بشر بن عامر» فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص ٢٧٠ . أما فى بقية كتب التراجم فقد ذكر الاسم كما أورده العينى . ولعل الناسخ لنسخة المرآة قد وقع فى خطأ .

وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، وتفقه على مذهب أحمد ، وقرأ اللغة على[١٥٩] ابن الجواليقى . وكان طاهر اللسان نزهًا عفيفا دينا ، وكان من أعيان شعراء الوزير يحيى بن هبيرة ، وله فيه المدائح الكثيرة . وفى المقتفى ، وصلاح الدين وغيرهما . سمع قاضى المارستان ، وابن الحصين وغيرهما[١] .

ابن الفراش ، **القاضى شمس الدين محمد بن محمد بن موسى ، المعروف بابن الفراش**[٢] . كان قاضى العساكر بدمشق ، ويرسله السلطان فى الرسالات إلى ملوك الآفاق ، وتوفى بملطية عائدا من عند بنى قليج أرسلان . وقال العماد الكاتب : أرسله السلطان إلى قليج أرسلان وأولاده ليصلح بينهم ، فتردد بينهم سنةً وعاد ، ووصل إلى ملطية وتوفى بها فى شهر ربيع الآخر من هذه السنة .

الأمير سيف الدين على بن أحمد المشطوب ، كان من أصحاب أسد الدين شيركوه ، حضر معه فى الوقعات الثلاث بديار مصر ، ثم صار من أكابر أمراء السلطان صلاح الدين . وهو الذى كان على نيابة عكا حين أخذها الإفرنج ، فافتدى منهم بخمسين ألف دينار وتخلّص ، إلى أن خلص إلى السلطان وهو بالقدس الشريف ، كما ذكرناه ، فولاه نيابة نابلس . وكانت وفاته يوم الأحد[٣] الثالث والعشرين من شوال بالقدس الشريف ، ودفن فى داره . وقال العماد : وكانت وفاته يوم الخميس السادس والعشرين من شوال[٤] . قال المؤيد[٥] : وكانت نابلس إقطاعه ، وتوفى فيها ، فوقف السلطان ثلث نابلس على مصالح القدس ، وأقطع الباقى للأمير عماد الدين أحمد بن سيف الدين على وأميرين معه .

وفى المرآة[٦] : سيف الدين المشطوب ملك الهكاريّة ، واسمه على بن أحمد الهكارى ، كان شجاعا صابرًا فى الحرب ، مطاعا فى قبيلته ، دخل مع أسد الدين شيركوه إلى مصر فى المرات الثلاث ، وشهد فتح مصر ، ولزم خدمة السلطان . واتفق أن السلطان

---

(١) نقل العينى هذا النص بتصرف من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٧٠ .

(٢) انظر ترجمته فى الفتح القسى ، ص ٦٢٥ ؛ مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٤١٣ ، الروضتين ، جـ ١ ، ص ٢٧٢ ، جـ٢ ، ص ٢٤٢ - ٢٤١ ؛ الأعلام ، جـ ٧ ، ص ٢٦ .

(٣) النوادر السلطانية ، ص ٢٤٠ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٢ ، ص ٣٥٢ .

(٤) انظر : الفتح القسى ، ص٦١٣ .

(٥) انظر : المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ٨٣ .

(٦) انظر : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٦٩ .

اجتاز بنابلس فى عوده إلى دمشق ، فاجتمع أهلها وشكوا إلى السلطان واستغاثوا ، فقال : ما لهؤلاء؟ قالوا : يتظلمون من المشطوب ، وهو راكب بين يديه ، فقال : يا عَلِيّ لو كان هؤلاء يدعون لك هيهات حتى يسمع الله ، فكيف وهم يدعون عليك؟ . واختلفوا فى وفاته ؛ فقال العماد : مات المشطوب فى نابلس فى آخر شوال . وقال القاضى ابن شداد : مات بالقدس وصلى عليه فى المسجد الأقصى ودفن بداره .

راشد الدين سنان بن سليمان بن محمد ، وكنيته أبو الحسن ، صاحب دعوة الإسماعيلية بقلاع الشام ، وأصله من البصرة ، توفى فى هذه السنة . قال بيبرس عن مايملكه : كان عالما فاضلاً أدب ، وكانت له معرفة وسياسة ، وحذق فى إقامة الدعوة ، واستجلاب للقلوب ، ولم يقم أحد بعده مقامه .

وفى المرآة : وكان فى حصن ألموت[١] ، فرأى منه صاحب الأمر فى تلك البلاد نجابة وشهامة ويقظة ، فسيَّره إلى حصون الشام ، وكان مجيئه إلى الشام فى أيام نور الدين محمود ، فأقام واليا ثلاثين سنة ، وجرت له مع السلطان قصص ، وبعث إليه جماعة فوثبوا عليه ، وكان فى عزم السلطان قصده ، ولم يعطه طاعة قط . ولما صالح السلطان الإفرنج وعزم على قصده توفى ، ويحكى عنه العجائب والغرائب[٢] .

السلطان عز الدين قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان بيغو بن سلجوق ، صاحب بلاد الروم[١٦٠] ، توفى يوم السبت منتصف شعبان من هذه السنة . وكان ملكه فى سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وكان ذا سياسة حسنة ، وهيبة عظيمة ، وعدل وافر ، وغزوات كثيرة . وكان له عشر بنين ، قد وَلَّى كل واحد منهم قطرًا من بلاد الروم ، وأكبرهم قطب الدين ملكشاه بن قليج أرسلان المذكور ، وكان أبوه قد أعطاه سيواس ، فسولت له نفسه القبض على أبيه وإخوته والانفراد بالسلطنة ، وساعده على ذلك صاحب أرزنكان[٣] .

---

(١) حصن ألموت : قلعة على جبل شاهق من حدود الديلم . راجع : الكامل ، جـ ٨ ، ص ١٤٠ .
(٢) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٦٩ ؛ شذرات الذهب ، جـ ٤ ، ص٢٩٤ .
(٣) أرزنكان أو أرزنجان : من بلاد أرمينيا بين بلاد الروم وخلاط وغالب أهلها أرمن . انظر : معجم البلدان ، جـ ١ ، ص٢٠٥ .

فسار قطب الدين ملكشاه وهجم على والده قليج أرسلان بمدينة قونية وقبض عليه ، وقال لوالده وهو فى قبضته : أنا بين يديك أنفذ أمرك ، ثم أنه أشهد على والده بأنه قد جعله ولى عهده . ثم مضى ملكشاه المذكور إلى حرب أخيه نور الدين سلطان شاه صاحب قيسارية ، ووالده فى القبضة معه ، وهو يُظهر أنما يفعله بأمر والده . فخرج عسكر قيسارية لحربه ، فوجد أبوه عز الدين قليج أرسلان ـ عند اشتغال العسكر بالقتال ـ فرصة ، فهرب إلى ولده سلطان شاه صاحب قيسارية ، فأكرمه وعظمة كما يجب عليه ، فرجع قطب الدين ملكشاه إلى قونية وخطب لنفسه بالسلطنة ، وبقى أبوه قليج أرسلان يتردّد فى بلاده بين أولاده ، كلما ضجر منه واحد منهم انتقل إلى الآخر ، حتى حصل عند ولده غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان صاحب بُرغلو ، فقوىّ أباه قليج أرسلان وأعطاه وجمع معه وحشد ، وسار معه إلى قونية وملكها ، وأخذها من ابنه ملكشاه . ثم سار إلى آقْصرا(١) ، فاتفق أن عز الدين قليج أرسلان مرض ومات فى التاريخ المذكور ، وأخذه ولده كيخسرو وعاد به إلى قونية فدفنه بها .

واتفق موت ملكشاه بعد أبيه قليج أرسلان بقليل ، فاستقر كيخسرو فى ملك قونية ، وأثبت أنه ولىّ عهد أبيه قليج أرسلان . ثم أن ركن الدين سليمان ، أخا غياث الدين كيخسرو ، قوى على أخيه كيخسرو وأخذ منه قونية ، فهرب كيخسرو إلى الشام مستجيرًا بالملك الظاهر صاحب حلب . ثم مات ركن الدين سليمان سنة ستمائة ، وملك بعده ولده قليج أرسلان بن سليمان ، فرجع غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان إلى بلاد الروم ، وأزال ملك قليج أرسلان بن سليمان ، وملك بلاد الروم جميعا ، واستقرت له السلطنة ببلاد الروم وبقى كذلك إلى أن قتل . وملك بعده ابنه عز الدين كيكاوس بن كيخسرو ، ثم توفى كيكاوس وملك بعده أخوه السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو . ثم توفى علاء الدين كيقباذ سنة أربع وثلاثين وستمائة ، وملك بعده ولده غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو ، وكسره التتار سنة إحدى وأربعين وستمائة . وتضعضع حينئذ ملك السلاطين السلجوقية ببلاد الروم ، ثم مات غياث الدين كيخسرو بن كيقباذ ابن كيخسرو بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش[١٦١] بن أرسلان بن سلجوق .

(١) آقصْرًا : يطلق عليها آق سراى ، وهى قرب قونية ، وهى من أحسن بلاد الروم وأتقنها . انظر : رحلة ابن بطوطة ، ص٣١٠ ، تحقيق طلال حرب ، ط . بيروت ١٩٨٧م ؛ السلوك ، جـ ١ ق١ ، ص١١٢ ، حاشية ١ ؛ تقويم البلدان ، ص٣٨٢ .

وانقضى بموت كيخسرو المذكور سلاطين بلاد الروم فى الحقيقة ، لأن من صار بعده لم يكن له من السلطنة غير مجرد الاسم . وخلف كيخسرو المذكور صبيين هما : ركن الدين ، وعز الدين ، فملكا معًا مديدة ، ثم انفرد ركن الدين بالسلطنة ، وهرب أخوه عز الدين إلى قسطنطينية . وتغلب على ركن الدين المذكور معين الدين البرواناه ، والبلاد فى الحقيقة للتتر ، ثم إن البرواناه قَتَلَ ركن الدين ، وأقام ابنا[١] لركن الدين يخطب له بالسلطنة والحكم للبرواناه ، وهو نائب التتر كما سنذكره إن شاء الله تعالى[٢] .

وفى تاريخ بيبرس : والذى كان قليج أرسلان فرقه لأولاده من بلاده : ركن الدين سليمان توقات[٣] وأعمالها . غياث الدين كيخسرو قونية وأعمالها . محيى الدين أنكورة[٤] وأعمالها . معز الدين قيصر شاه ملطية وأعمالها . مغيث الدين [أبلستين][٥] وأعمالها . نور الدين محمود قيسارية وأعمالها . قطب الدين سيواس وأعمالها ، وأقصرا وأعمالها . فلما مات اختلفت الأخوة وتحاربوا ، واتفقت وفاة ولده قطب الدين على أثره ، فقوى ركن الدين سليمان على إخوته ، وملك هذه الممالك جميعها منهم[٦] .

---

(١) المقصود بهذا الابن هو غياث الدين كيخسرو الثالث ، ولى الحكم سنة ٦٦٣ هـ وعمره سنتان ونصف . انظر : مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٤١٣ ، حاشية ٢ .

(٢) نقل العينى هذا النص من المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص ٨٤ - ٨٥ ؛ وراجع أيضا : الكامل ، جـ ١٢ ، ص٣٧ - ٣٨ ، ط . المطبعة الأزهرية ؛ مفرج الكروب ، جـ ٢ ، ص ٤١٣ .

(٣) تَوْقات : بلدة فى أرض الروم بين قونية وسيواس ذات قلعة حصينة . انظر : معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٨٩٥ .

(٤) أنكورة (أنكورية) : هى أنقرة الحالية ، وهى بلدة من بلاد الروم . انظر : معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٣٩١ ؛ تقويم البلدان ، ص ٣٨١ ؛ الكامل ، جـ١٢ ، ص٣٧ .

(٥) أبلستان : كذا فى الأصل ، والصحيح هو المثبت . وأبلستين بلدة مشهورة ببلاد الروم قريبة من أبسيس مدينة أصحاب الكهف . انظر ، معجم البلدان ، جـ١ ، ص ٩٣ - ٩٤ .

(٦) ورد هذا الحدث بتصرف فى الكامل ، جـ١٢ ، ص٣٧ ، ط . المطبعة الأزهرية .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة التاسعة والثمانين بعد الخمسمائة

استهلّت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله ويقال لها سنة الملوك ، لأنه مات فيها ملوك كثيرة ، وأعظمهم وأجلهم السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، والأتابك عز الدين مسعود صاحب الموصل ، وسيف الدين بكتمر صاحب خلاط ، وسلطان شاه بن ألب أرسلان صاحب خراسان ، وقيطرمش [بن عبدالله][1] المستَنجدى شحنة[2] بغداد ، والأمير داود صاحب مكة[3] ، ونذكر تراجمهم واحداً بعد واحد بعون الله . ونذكر أولاً ترجمة السلطان صلاح الدين قدس الله روحه[4] .

ذكر وفاة السلطان صلاح الدين

والكلام فيه على أنواع :

الأول فى ترجمته :

هو يوسف بن أيوب بن شاذى بن مروان . وقال ابن خلكان : ولقد تتبعت [نسبتهم][5] كثيراً ، فلم أجد أحداً ذكر بعد شاذى أبا آخر ، حتى أنى وقفت على كتب كثيرة بأوقاف وأملاك باسم شيركوه وأيوب فلم أر فيها سوى شيركوه وأيوب بن شاذى لاغير ، ويقال : شاذى بن مروان . قال : ورأيت مُدرَجا رتبة الحسن بن [غريب][6] بن عمران الحرشى ، يتضمن أن : أيوب بن شاذى بن مروان بن أبى على بن [عنترة][7] بن الحسن بن على بن أحمد بن أبى على بن عبدالعزيز بن هدبة بن الحُصَين بن الحارث بن سنان بن عمرو بن مرة بن عوف بن أسامة بن بيهس بن الحارث صاحب الحمالة ابن عوف بن أبى حارثة بن مرة بن نُشْبة بن غيظ بن مرة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من مرآة الزمان للتوضيح ، جـ٨ ، ص٢٧١ .

(٢) شحنه جمع شحانى ، أى رئاسة الشرطة ، ويسمى متولها صاحب الشحنة   Lane Poole, Saladin, p.5

(٣) الأمير داود : هو داود بن عيسى بن فليته بن أبى هاشم العلوى الحسينى توفى سنة ٥٨٩هـ .
انظر : شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص٢٩٧ .

(٤) نقل العينى هذا الحدث بتصرف من مرآة الزمان جـ٨ ،ص٢٧١ .

(٥) «نسبهم» فى الأصل ، والتصحيح من وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص١٤٠ .

(٦) «عرب» فى الأصل ، والتصحيح من وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص١٤٠ .

(٧) «عنتر» فى الأصل ، والتصحيح من وفيات الأعيان ، ص١٤٠ .

بغيض بن رَيْث بن غطفان بن سعد بن قيس عيلان[١٦٢] بن أَلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، ثم رفع بعد هذا فى النسب حتى انتهى إلى آدم عليه الصلاة والسلام .

ثم ذكر بعد ذلك أن على بن أحمد بن أبى على بن عبدالعزيز يقال : إنه ممدوح المتنبى . وفيه يقول من جملة قصيدته :

شرَقَ الجو بالغبارِ إذا سا　　　رعلىّ بن أحمد القمقامُ

وأما حارثة بن عوف بن أبى حارثة صاحب الحمالة ، فهو الذى حمل الدماء بين عبس وذبيان ، وشاركه فى الحمالة خارجه ابن سنان أخو هَرم بن سنان[١] . وكان قدمهُ إلى الملك المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل[٢] صاحب دمشق ، وسمعه عليه هو وولده الملك الناصر صالح الدين أبو المفاخر داود بن الملك المعظم[٣] ، وكتب لهما بسماعهما عليه فى آخر رجب سنة تسع عشرة وستمائة . ورأيت[٤] فى تاريخ حلب الذى جمعه القاضى كمال الدين أبو القاسم عمر بن أحمد المعروف بابن العديم الحلبى ، بعد أن ذكر الاختلاف فى نسبهم ، فقال : وقد كان المعز إسماعيل بن سيف الإسلام بن أيوب ملك اليمن ادعى نسباً فى بنى أمية وادعى الخلافة .

وقال ابن خلكان : وسمعت شيخنا القاضى بهاء الدين بن شداد يحكى عن السلطان صلاح الدين أنه أنكر ذلك ، وقال : ليس هذا أصلى[٥] . وذكر ابن القادسى ، وقال : كان شاذى مملوك بهروز الخادم . وقال السبط فى المرآة[٦] : وهذه من هنات ابن القادسى ما كان شاذى مملوكاً قط ، ولا جرى على أحد من بنى أيوب رق ، وإنما شاذى خدم بهروز الخادم فى قلعة تكريت استنابه فيها ، وكان صلاح الدين يوسف المذكور يقال له : السلطان الأعظم أبو المظفر الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الأمير نجم الدين أيوب صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية والفراتية واليمنية .

---

(١) ورد هذا النص فى وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٤٠ .
(٢) شرف الدين عيسى بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب صاحب دمشق ، توفى ٦٢٤هـ . انظر وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٤٩٤ ـ ص٤٩٦ ، جـ٧ ، ص١٤١ .
(٣) الناصر صلاح الدين أبو المفاخر داود . انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٤٩٦ .
(٤) إلى هنا توقف العينى عن النقل من وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص١٤٠ ـ ص١٤١ .
(٥) نقل العينى هذا النص بتصرف من وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٤١ .
(٦) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٧٢ ـ ص٢٧٣ .

الثانى : فى بيان ميلاده وبلده وأصله .

ولد صلاح الدين بقلعة تكريت لما كان أبوه وعمه بها فى سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة ، واتفق أهل التاريخ على أن أباه وأهله من دُوين[1] بضم الدال المهملة وكسر الواو وسكون الياء آخر الحروف وفى آخرها نون . وهى بلدة فى آخر أعمال أذربيجان من جهة أران وبلاد الكرج . وإنهم أكراد رَوَادّية بفتح الراء والواو وبعد الألف دال مهملة ثم ياء آخر الحروف مشددة وبعدها هاء . والروادية بطن من الهدبانية بفتح الهاء والدال المهملة والباء الموحدة وبعد الألف نون مكسورة ثم ياء آخر الحروف مشددة وبعدها هاء ، وهى قبيلة من الأكراد .

وقال ابن خلكان[2] : قال لى رجل فقيه عارف بما يقول وهو من أهل دوين ، إن على باب دوين قرية يقال لها أَجْدَ أتقَان[3] بفتح الهمزة وسكون الجيم وفتح الدال المهملة وبعد الألف نون مفتوحة وقاف مفتوحة وبعد الألف الثانية نون أخرى ، وجميع أهلها أكراد روادية ، ومولد أيوب والد صلاح الدين بها ، وشاذى أخذ ولديه أسد الدين شيركوه ونجم الدين أيوب وخرج بهما إلى بغداد ، ومن هناك نزلوا تكريت ومات شاذى بها ، وعلى قبره قبّة داخل البلد . وكان شيركوه وأيوب ــ لما كانا فى بغداد ــ خدما مجاهد الدين بهروز شحنة [١٦٣] العراق ، ورأى مجاهد الدين فى نجم الدين أيوب عقلاً ورأيا حسناً وحُسن سيرة ، فجعله دزدار تكريت إذ هى له . ودزدار بضم الدال المهملة وسكون الزاى المعجمة وفتح الدال المهملة وبعد الألف راء ، وهو لفظ أعجمى ، ومعناه حافظ القلعة ، وهو الوالى ، ودُز بالعجمى القلعة ، ودار الحافظ . فسار إليها ومعه أخوه أسد الدين .

ثم إن أسد الدين قتل إنساناً بتكريت لكلام جرى بينهما ، فأرسل مجاهد الدين إليهما ، فأخرجهما من تكريت ، ثم إنهما قصدا عماد الدين زنكى وكان إذ ذاك صاحب الموصل ، فأحسن عماد الدين إليهما وأقطعهما إقطاعاً حسنًا وصارا من جملة جنده ، ولما فتح عماد الدين زنكى بعلبك جعل نجم الدين دزدارها وقد ذكرنا ذلك كله مفصلاً[4] ،

---

(١) دُوين : بلدة من نواحى أرّان فى آخر حدود أذربيجان بالقرب من تفليس . معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٦٣٢ ؛ ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص١٣٩ .

(٢) وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص١٣٩ .

(٣) أجد أتقان : لم يذكرها سوى العينى ، وهى القرية التى ولد بها صلاح الدين .

(٤) نقل العينى هذا الحدث من ابن خلكان بتصرف . انظر : وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص١٤٢ ــ ص١٤٥ .

ويقال : إن الأخوين خرجا من تكريت فى الليلة التى ولد فيها صلاح الدين فتشاءموا به وتطيروا منه ، فقال بعضهم : لعل فيه الخيرة وما تعلمون . فكان كما قال ويقال ما خرجا من تكريت إلا ــ بعد ولادة صلاح الدين مدة يسيرة ، أما فى بقية السنة التى ولد فيها صلاح الدين أو فى سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة والله أعلم .

الثالث فى بيان منشأه :

ولم يزل صلاح الدين فى كنف أبيه حتى ترعرع ، ولما ملك نور الدين محمود الشهيد بن عماد الدين زنكى دمشق فى التاريخ الذى ذكرناه ، لازم نجم الدين أيوب خدمته ، وكذلك ولده صلاح الدين يوسف ، وكانت مخايل السعادة عليه لائحة ، والنجابة تقدمه من حالة إلى حالة ، ونور الدين الشهيد يرى له ويؤثره ، ومنه تعلم صلاح الدين طرائق الخير وفعل المعروف والاجتهاد فى أمر الجهاد ، حتى تجهز مع عمه شيركوه إلى الديار المصرية كما ذكرناه مفصلاً ، ثم لم يزل يتقلب به الحال إلى أن صار سلطانًا ، وخطب باسمه فى الديار المصرية والشامية والفراتية وأرض اليمن ومكة والمدينة ، ولم يزل مرابطاً مجاهداً فى سبيل الله عز وجل حتى أتاه اليقين[١] .

الرابع فى سيرته :

قال العماد[٢] وغيره : قد كان السلطان صلاح الدين متشرعاً فى ملبسه ومأكله ومشربه ومركبه ، فلا يلبس إلا الكتان والقطن والصوف ، ولا يعرف أنه تخطى مكروهاً بعد أن أنعم الله عليه بالملك ، بل كان همه الأكبر ومقصوده الأعظم نصر الإسلام وكسر الأعداء اللئام ، ويعمل فكره فى ذلك وآراءه وحده ومع من يثق برأيه ليلاً ونهاراً وسراً وجهاراً ، هذا مع ما لديه من الفضائل والفواضل والفوائد الفرائد فى اللغه والأدب وأيام الناس حتى قيل : إنه كان يحفظ الحماسة بتمامها وكان مواظباً على الصلوات [الخمس][٣] فى أوقاتها فى جماعة ، ويقال : إنه لم تفته الجماعة فى صلاة قبل وفاته بدهر طويل حتى فى مرض موته ، كان يدخل الإمام فيصلى به ، ويتجشم القيام مع ضعفه ، وكان يفهم ما يقال بين يديه من البحث والمناظرة ، ويشارك فى ذلك مشاركة

(١) نقل العينى هذا النص بتصرف من وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٤٥ .
(٢) نقل العينى هذا النص بتصرف من الفتح القسى ، ص٦٥٦ ــ ص٦٦٠ .
(٣) «الخمسة» كذا فى الأصل . والصواب ما أثبتناه .

قريبة حسنة وإن لم يكن بالعبارة المصطلح عليها[١] . وقال العماد : ورأى يوماً دواتى محلاة بالفضة ، فأنكر على وقال : هذا حرام . فقلتُ له على سبيل[١٦٤] المداعبة : وليس تحل حُلية السلاح واستصحابه فى الكفاح ، ودواتى هذه أشجع ومدادها أنقع ويراع براعتى القصير أطول ، وسنان قناتى أحد وأقتل . فقال : ليس هذا دليل صالح . قلت : ما جمعت هذه العساكر الإسلامية إلا بقلمى ، ولا تفرقت جموع الكفر إلا بكلامى . فقال : والله إن هذا ما يعجبنى . فلم أعد أكتب بتلك الدواة بين يديه .

وكان طاهر المجلس لايذكر أحدا فى مجلسه إلا بالخير ، وكان طاهر اللسان لايذكر أحداً بسوء ولا يشتم أحداً قط ، وكان مع هذه المملكة المتسعة والسلطنة العظيمة كثير التواضع واللطف ، قريباً من الناس رحيم القلب كثير الاحتمال والمداراة ، وكان يحب العلماء وأهل الخير ويقربهم ويحسن إليهم ، وكانت مجالسه منزهة عن الهزء والهراء ، ومجافله حافلة بأهل العلم والفضل ، وما سمع منه كلمة فُحش قط ، وكان يلين للمؤمنين ويغلظ على الكافرين ، ومن جالسه لا يعلم أنه جالس سلطاناً بل يعتقد أنه أخ من الإخوان ، وكان شديد الحياء خاشع الطرف ، رقيق القلب سريع الدمعة شديد الرغبة فى سماع الحديث ، وإذا بلغه عن شيخ رواية عالية ــ وكان ممن يحضر عند الناس ــ استحضره وسمع عليه وأسمع أولاده ومماليكه ، وأمرهم بالقعود عن سماع الحديث إجلالاً له ، وإن لم يكن ممن يحضر عند الناس ولا يطرق أبواب الملوك سعى إليه وسمع منه وروى عنه وتردد إليه ، ولم يكن فى عمره كَتَبَ بيده ما فيه أذى مسلم ، وما حضر بين يديه يتيم إلا وترحم على مخلفه وجبر قلبه وأعطاه ما يكفيه ، فإن كان له كافل وإلا كفله ، وإنه مات ولم تجب عليه زكاة[٢] .

الخامس فى حسن عقيدته :

كان متوكلاً على الله فى كل أمره ، ولا يلتفت إلى قول منجم ، وكان حسن العقيدة كثير الذكر لله تعالى ، وكان قد قرأ عقيدة القطب النيسابورى وعلمها أولاده الصغار ؛ لترسخ فى أذهانهم من الصغر ، وكان يأخذها عليهم .

---

(١) نقل العينى هذا النص من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥ ، وإن كان قد ذكر أنه نقله من العماد الأصفهانى ، الفتح القسى ، ص٦٥٦ .

(٢) نقل العينى هذا النص بتصرف من الفتح القسى ، ص٦٥٦ ــ ص٦٦١ ؛ النوادر السلطانية ، ص٩ ؛ الروضتين ، جـ٢ ، ص٢١٩ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٧٤ .

وقال ابن كثير : وكان القطب النيسابورى جمع هذه العقيدة لأهله ، وكان يَحْفَظُهَا ويُحَفِّظُهَا مَنْ عَقِلَ مِنْ أولاده ، وكان يحب سماع القرآن العظيم ويواظب على سماع الحديث ، حتى أنه سمع فى بعض المصافات جزءاً ، وهو بين الصفين ، ويتبجبح بذلك ويقول : هذا موقف لم يسمع فيه أحد حديثًا ، وكان ذلك بإشارة العماد [الكاتب](١) . وكان رقيق القلب سريع الدمعة عند سماع الحديث ، كثير التعظيم لشعائر الدين ، وكان قد لجأ إلى ولده الظاهر ـ وهو بحلب ـ شاب يقال له الشهاب ، يعرف الكيمياء وشيئًا من الشعبذة والأبواب النيرنجيات ، فافتتن به ولده وقربه وأحبه وخالف فيه حملة الشرع ، وبلغ ذلك أباه السلطان ، فكتب إليه أن اقتله لا محالة ، فصلبه ولدُه عن أمر والده كما ذكرناه(٢) فى سنة [ست](٣) وثمانين وخمسمائه ، ومن شدة محبته لسماع الحديث مضى إلى الإسكندرية ، وسمع الحديث الكثير من الحافظ[١٦٥] السلَفِى ومن ابن عوف الموطأ ، وكان مبغضاً لكتب الفلاسفة وأرباب المنطق ومن يُعَانِد الشريعة ، وقال ابن كثير : وكان رحمه الله قرأ مختصراً فى الفقه تصنيف سُليم الرازى .

السادس فى حلمه وأخلاقه الحسنة :

وكان حليماً كثير العفو والتجاوز عن أصحاب الذنوب ، حسن الخلق صبوراً على ما يكره ، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه ، يسمع من أحدهم ما يكره ولا يعلمه بذلك ولا يتغير عليه ، وكان يوماً جالساً فرمى بعض المماليك بعضاً بسَرْموزة ، فأخطأته ، ووصلت إلى السلطان ووقعت بالقرب منه ، فالتفت إلى الجهة الأخرى ليتغافل عنها . وقال القاضى بهاء الدين(٤) : نفرت(٥) بغلتى يوماً من الجمال وأنا راكب فى خدمته ، فزحمت وركه حتى أقلقته من الوجع وهو يبتسم ، وبُذلت فى خزانته كيسان من الذهب المصرى بكيسين من الفلوس(٦) . [فما عمل](٧) للمباشرين شيئاً سوى صرفهم(٨) .

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من ابن كثير للتوضيح ، البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٦ .
(٢) نقل العينى هذا النص بتصرف من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥ .
(٣) «سبع» كذا فى الأصل . والمثبت من ابن كثير الذى ينقل العينى عنه ، البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٦ .
(٤) «شهاب الدين» كذا فى الأصل . والمثبت هو الصحيح .
(٥) انظر : النوادر السلطانية ، ص٢٩ .
(٦) المراد بالفلوس : النقود النحاسية ، انظر : انستاس الكرملى ، النقود العربية وعلم النميات ، ص٦٢ ــ ٧٣ ، المطبعة العصرية ، القاهرة ، سنة ١٩٣٩م .
(٧) «فلم يعلم» كذا فى الأصل . والتصحيح من النوادر ، ص٣٣ .
(٨) نقل العينى هذا الحدث بتصرف من النوادر ، ص٣٣ .

وقال القاضى بهاء الدين : كنت يوماً عند مجلس الحُكم بالقدس الشريف ، إذ دخل رجل حَسن الهيئة ومعه مكتوب حكمى وقال لى : يا أيها القاضى خصمى السلطان ، وهذا بساط الشرع ، فقال له القاضى : بأى سبب؟ قال : إن سُنقر الخلاطى مملوكى ولم يزل على ملكى إلى أن مات ، وكان فى يده أموال عظيمة ، كلها لى ، فاستولى عليها السلطان ، وأخرج المكتوب فتصفحتُه ، فوجدته يتضمن جلية سنقر الخلاطى ، وأنه اشتراه من فلان التاجر فى الوقت الفلانى ولم يزل فى ملكه إلى أن نّد[١] عنه فى سنة كذا ، قلت له : فما أخرك إلى هذا الوقت؟ فقال : الحقوق لا تبطل بالتأخير . قال القاضى : فأعلمت السلطان ، فأحضره واستوى معه فى المجلس حتى ساواه ، وادعى الرجل وأظهر كتابه ، فقال السلطان (رحمه الله) : إن لى من يشهد أن هذا سنقر فى هذا التاريخ كان ملكى بمصر ، وإنى اشتريته مع ثمانية أنفس ، ولم يزل فى ملكى حتى أعتقته ، ثم أحضر السلطان جماعة من أعيان الأمراء فشهدوا بذلك ، فأنكر الرجل ، فقلت للسلطان : يا مولانا ما فعل هذا إلا يطلب صدقة السلطان ، فما يحسن أن يرجع خائب الأمل . فقال : هذا باب آخر ، وأمر له [بخلعة[٢]] ونفقة جيدة[٣] وبغلة[٤] .

قال : وكان الحجاب يزدحمون على طراحته ، فجاء سنقر الخلاطى ومعه قصص ، فقدم له قصة ، وكان السلطان قد مد يده اليمنى على الأرض ليستريح ، فداسها سنقر الخلاطى ولم يعلم وقال له : علِّم عليها ، فلم يجبه ، فكرر عليه القول ، فقال له : يا طواشى أُعلِّم بيدى أو برجلى ، فنظر سنقر فرأى يد السلطان تحت رجله فخجل ، وتعجب الحاضرون من هذا الحلم ، ثم قال السلطان : هات القصة فعلَّم عليها . ومازال السلطان على هذه الأخلاق حتى توفاه الله ــ عز وجل ــ إلى مقر رحمته ورضوانه[٥] .

وقدم إليه يوماً مملوك له قصة فقال : أنا الساعة ضجر ، فأخرها ساعةً ، فلم يؤخرها وقدمها إلى وجهه ، فلما قرأ اسم صاحبها قال : أى والله رجل مستحق . قال : فوقع له . قال : ماثم دواة . ثم نظر فإذا الدواة [١٦٦] بعيدة عنه ، فامتد على يده اليسرى حتى أخذ

(١) ندّ : بمعنى نفر وذهب على وجهه شارداً . انظر : محيط المحيط مادة «ندد» ، جـ٢ ، ص٢٠٥٥ .
(٢) «بخلع» كذا فى الأصل والمثبت من النوادر ، ص١٦ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٧٥ .
(٣) نقل العينى هذا النص بتصرف من النوادر ، ص١٦ .
(٤) بغلة : نقلها العينى عن مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٧٥ ؛ أما فى النوادر فقد ورد النص هكذا «وتقدم له بخلعة ونفقة بالغة» . انظر : النوادر ، ص١٦ .
(٥) نقل العينى هذا الحدث بتصرف من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٧٥ ، ص٢٧٦ .

الدواة ووقع له[١] . قال القاضى : ولقد واجهه الجناح على يافا بالكلام القبيح ، فما قال له كلمة واستدعاه ، فأيقن بالهلاك . وارتقب الناس أن يضرب رقبته ، فأطعمه فاكهة جاءته من دمشق ، وسقاه ماء وثلجاً[٢] .

السابع فى شجاعته :

وكان ــ رحمه الله ــ من أشجع الناس وأقواهم بدناً وقلباً مع ما كان يعترى جسمه من الأمراض والأسقام ولاسيما وهو مرابط مصابر مثاغر عند عكا ، فإنهم كانوا كلما كثرت جموعهم وتراكمت أمدادهم لا يزيده ذلك إلا قوة وشهامة ، وقد بلغت جموعهم خمسمائة ألف مقاتل ويقال ستمائة ألف مقاتل ، وكان جملة من قتل منهم مائة ألف مقاتل ، وكان يوم المصَاف يَدور على الأطلاب ويقول : وهل أنا إلا واحد منكم . وكان فى الشتاء يعطى العساكر دستوراً وهو نازل على مرج عكا ، ويقيم طول الشتاء فى نفر يسير .

وفى المرآة[٣] : وكان شجاعاً شهماً جواداً مجاهداً فى سبيل الله ، وأقام على عكا مجاهداً مرابطاً قريباً من أربع سنين .

الثامن فى كرمه وجُوده :

وفى المرآة[٤] : وكان يجود بالمال قبل الوصول إليه ويحيل به ، ومتى عرف وصول حمل وقع عليه بأضعافه ، وما خيب أحداً بالرد ، وإن لم يكن عنده شئ لطف به كأنه غريم يستمهله ، وكان مغرمًا بالإنفاق فى سبيل الله ، ووهب مدة مقامه على عكا مرابطاً للفرنج من رجب سنة خمس وثمانين وخمسمائة إلى يوم انفصاله عنها فى شعبان سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، مدة ثلاث سنين وكسر ، فكان اثنى عشر ألف رأس من الخيل العراب والأكاديش[٥] الجياد للحاضرين معه فى الجهاد والقادمين عليه من البلاد ، غير ما أطلقه من الأموال فى أثمان الخيل المُصابة فى القتال[٦] .

(١) نقل العينى هذا الحدث بتصرف من النوادر ، ص٢٨ ، ص٢٩ .
(٢) نقل العينى هذا الحدث بتصرف من مرآة الزمان ، ص٢٧٥ .
(٣) نقل العينى هذا النص بتصرف من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٧٣ .
(٤) نقل العينى هذا النص بتصرف من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٧٣ .
(٥) الأكاديش : جمع اكديش ، وهو يطلق على الحصان الخليط أوغير الأصيل والصغير غير الجيد ، وقد كان سلاطين المماليك يقدمونها هدايا للأمراء ، الفتح القسى ، ص٦٠ ، حاشية ١٠ ؛ ابن واصل ، فرج الكروب ، ج٢ ، ص٤٢٧ .
(٦) إلى هنا توقف العينى عن النقل من مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٧٣ .

وقال العماد : ولم يكن له فرس يركبه إلا وهو موهوب ، ولا جاءه قود إلا وهو مطلوب ، ولا ردّ سائلاً ولا أخجل ماثلاً ولا خيب آملاً . قال : شكى إليه أيوب بن كنان[١] ديناً مبلغه اثنا عشر ألف دينار فقضاه عنه . قال : وكتب إليه سيف[٢] الدوله بن منقذ نائبه بمصر إن بعض الضُّمان انكسر عليه مال كثير وربما وصل إلى الباب وعجل ، فلما كان بعد أيام وصل ذلك الرجل إلى الباب وتمحل ، وبلغ السلطان فأرسل إليه يقول : احذر احذر أن تقع فى عين ابن مُنقذ[٣] .

قال : وفتح آمد ووهبها لابن قرا أرسلان ، واجتمع عنده وفود بالقدس ، ولم يكن عنده مال فباع ضيعة من بيت المال وفرق ثمنها فيهم . وإنه ــ رحمه الله ــ لم يخلف فى خزانته إلا سبعة وأربعين [درهماً ناصرية][٤] وديناراً واحداً صورياً ، ولم يخلف عقاراً ولا بستاناً ولا قرية ولا شيئاً من الأملاك[٥] ، وحوسب صاحب ديوانه فخرج عليه تسعون ألف دينار بإقراره ، فما طلبها ولا أراه أنه عرفها ، ولم يرض له بعد هذا بالعُطلة فولاه ديوان جيشه ، وكان إذا فتح بلداً أو أخذ إقليماً وهبه لبعض أقاربه أو امرائه أو أتباعه .

التاسع فى معروفه :

قال ابن خلكان : ولما ملك السلطان صلاح الدين الديار المصرية لم يكن بها شىء من المدارس ، فإن الدولة المصرية كان[١٦٧] مذهبها مذهب الإمامية[٦] ، فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء ، فعمر بالقرافة الصغرى المدرسة[٧] المجاورة لضريح الإمام الشافعى ــ رحمه الله ــ ، وبنى مدرسته بالقاهرة فى جوار المشهد المنسوب إلى الحسين رضي الله عنه

---

(١) «كيان» فى الأصل . والمثبت من الفتح القسى ، ص٦٥٧ ؛ مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٤٣٧ .

(٢) سيف الدوله هو : أبو الميمون المبارك بن كامل بن على بن مقلد بن نصر بن منقذ الكنانى ، الملقب سيف الدولة محب الدين ، من أمراء الدولة الصالحية ، ولد سنة ٥٢٦هـ ، وتوفى سنة ٥٨٩هـ . وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص١٤٦ .

(٣) ينقل العينى هذا النص بتصرف من الفتح القسى ، ص٦٥٦ ــ ٦٥٧ ، وإن كان قد نقله بالنص من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٧٣ .

(٤) ما بين حاصرتين إضافة من النوادر ، ص١٧ ؛ الروضتين ، جـ٢ ، ص٢١٧ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٤ .

(٥) الروضتين ، جـ٢ ، ص٢١٧ .

(٦) مذهب الإمامية : هم القائلون بإمامة على ــ رضي الله عنه ــ بعد النبى ﷺ نصاً ظاهراً ويقيناً صادقاً . انظر الشهرستانى ، الملل والنحل ، جـ١ ، ص١٦٢ .

(٧) المدرسة الشافعية هى : المدرسة الناصرية ، كان حبس للشحن يعرف بدار المعونة لإقامة العقوبات وسفك الدماء ، فأعادها صلاح الدين مدرسة للشافعية وعمرها فى أوائل سنة ٥٦٦هـ ، وكان صلاح الدين حينئذ يتولى وزارة مصر للخليفة العاضد الفاطمى ، انظر : البندارى ، سنا البرق الشامى ، قسم١ ، ص١٠٧ ؛ المقريزى ، الخطط ، جـ٢ ، ص٣٤٥ ـ ص٣٤٦ .

وجعل عليه وقفاً كثيراً طائلاً ، وجعل دار عباس(١) ـ المذكور فى ترجمة الظافر العبيدى(٢) ، والعادل ابن السلار(٣) ـ مدرسة للحنفية وعليها وقف جيد أيضًا ، والمدرسة التى بمصر المعروفة بزين التجار جعلها وقفاً على الشافعية ووقفها جيد أيضًا ، وبنى بالقاهرة داخل القصر مارستاناً(٤) وله وقف جيد ، وله بالقدس مدرسة أيضًا ووقفها كثير وخانقاه بها أيضًا ، وله بمصر مدرسة للمالكية(٥) .

ولقد أفكرت فى نفسى فى أمور هذا الرجل ، وقلت : إنه سعيد فى الدنيا والآخرة ، فإنه فعل فى الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها ، ورتب هذه الأوقاف العظيمة وليس فيها شئ منسوب إليه فى الظاهر ، فإن المدرسة التى فى القرافة ما يسميها الناس إلا للشافعى ـ رحمه الله ـ ، والمجاورة للمشهد لا يقولون إلا للمشهد ، والخانقاه التى بالقاهرة لا يقولون إلا خانقاه سعيد السعداء ، والمدرسة التى للحنفية لايقولون إلا مدرسة السيوفية ، والتى بمصر لا يقولون إلا مدرسة زين التجار ، والتى بمصر أيضًا مدرسة المالكية ، وهذه صدقة السر على الحقيقة والعجب أن له بدمشق فى جوار المارستان النورى مدرسة يقال لها الصلاحية(٦) ، فهى منسوبه إليه وليس لها وقف ، وله بها مدرسة أيضًا للمالكية ولا تعرف به ، وهذه النعم من ألطاف الله تعالى(٧) .

---

(١) دار عباس : تعرف بدار المأمون بن البطائحى ، وهى اليوم مدرسة للطائفة الحنفية ، وتعرف بالسيوفية . انظر : وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٤٩٣ .

(٢) الظافر العبيدى : هو أبو القاسم عيسى الملقب الفائز بن الحافظ بن محمد ويرجع نسبه إلى المهدى بن عبيد الله توفى ٥٥٥هـ . وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٤٩١ .

(٣) العادل بن السلار : هو أبو الحسن على بن السلار المنعوت بالملك العادل سيف الدين عرف بابن السلار ، وزير الظافر العبيدى صاحب مصر ؛ وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٤١٦ ـ ص٤١٧ .

(٤) يقصد بهذا المارستان ، المارستان العتيق بنى سنة ٥٧٧هـ ضمن متجددات العصر . الخطط ، جـ٢ ، ص٢٥٠ ، طبعة مصر .

(٥) المدرسة المالكية : وهى دار الغزل لأنها كانت قيسارية يباع فيها الغزل ، هدمها صلاح الدين وبنى مكانها مدرسة للمالكية ومكانها اليوم أرض فضاء من الجهة الشرقية من جامع عمرو بن العاص ، انظر : البندارى ، سنا البرق الشامى ، قسم١ ، ص١٠٧ ؛ ابن دقماق ، الانتصار ، جـ٤ ، ص٩٥ ؛ مفرج الكروب ، جـ١ ، ص١٩٨ ، حاشية١ .

(٦) المدرسة الصلاحية : بدمشق بالقرب من البيمارستان النورى وهى من إنشاء نور الدين محمود بن زنكى ، ومنسوبة للسلطان صلاح الدين ، انظر محمد كرد على ، خطط الشام ، جـ٦ ، ص٨٢ .

(٧) إلى هنا توقف العينى عن النقل من وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص٢٠٦ ، ص٢٠٧ .

العاشر فى فتوحاته وهى على أنواع :

الأول فى البلاد الإسلامية وهى : الديار المصرية والحجاز ومكة والمدينة من زبيد إلى حضرموت ، متصلاً بالهند ودمشق وبعلبك وحمص وحماة وحلب وأعمال هذه البلاد[١] .

الثانى فى البلاد الإسلامية الفراتية وهى : حران والرها والرقة ورأس عين وسنجار ونصيبين وجملين وسروج وديار بكر وميا فارقين وآمد وحصونها وشهرزور والبوازيج[٢] ، وخطب له على المنابر من باب همذان إلى الفرات ومن الفرات إلى حضرموت ومن الغرب إلى إفريقية . وفى المرآة[٣] : أول ما فتح الديار المصرية .

الثالث فى البلاد التى أخذها من الإفرنج وغيرهم ، وهى : طبرية وعكا ، أما طبرية فهى على نهر الأردن ، فتحها بالسيف ، وأما عكا فهى مدينة على البحر المالح ، فتحها بالصلح . والزيب[٤] ومعليا[٥] وإسكندرونة[٦] بين صور وعكا وقلعة أبى الحسن بأرض صيدا وحصن يحمور[٧] بالأمان ، وتبنين بجبل عاملة بالتسليم ، وهونين[٨] غربى بانياس بالأمان ، والناصرة التى ينسب إليها النصارى والطور قبلى صفورية بالتسليم ، وصفورية غربى طبرية بالسيف ، والفُولة قبلى الناصرة بالتسليم ، وچينين قبلى عقربلا بالتسليم ، وزرعين ودبورية[٩] متاخمة صفورية بالسيف ، وعقربلا قبلى الطور بالتسليم ، وبيسان بالغور ، وسبسطية من عمل نابلس بالتسليم ، [١٦٨]ونابلس مدينة مشهورة ، واللَجّون[١٠] ، وريحا[١١] ، وسنجل[١٢] والبيرة بأرض القدس ، ويافا بالسيف ، وأرسوف بالأمان ، وقيسارية

---

(١) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٧٨ .
(٢) البوازيج : بلدة قرب تكريت . معجم البلدان ، جـ١ ، ص٧٥٠ .
(٣) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٧٨ .
(٤) الزيب : قرية كبيرة على ساحل بحر الشام قرب عكا . معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٩٩٤ .
(٥) مَعْلَيَا : من نواحى الأردن بالشام . معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٥٧٨ .
(٦) إسكندرونة : هى مدينة فى شرقى أنطاكية على ساحل الشام . معجم البلدان ، ص٢٥٣ .
(٧) يحمور : بلد شمالى العرينة ، انظر خريطة القسم الشمالى من الشام .
(٨) هونين : بلد فى جبال عاملة مطلة على نواحى مصر ؛ معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٩٩٩ .
(٩) دبورية : بليدة قرب طبرية من أعمال الأردن . معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٥٤٦ .
(١٠) اللجون : بلد بالأردن بينه وبين طبرية عشرون ميلاً . انظر : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٣٥١ .
(١١) ريحا : يقال لها أريحة أيضًا : مدينة قرب بيت المقدس من أعمال الأردن . معجم البلدان ، جـ١ ، ص١٢٧ ــ ص٢٢٨ .
(١٢) سنجل : بليدة من نواحى فلسطين وعندها جب يوسف الصديق عليه السلام . معجم البلدان ، جـ٣ ، ص١٩٢ .

بالسيف ، وحيفا وصرفند[١] بأرض بيروت ، وصيدا على البحر ، وقلعة أبى الحسن بأرض صيدا فى جبل جليل ، وببيروت على البحر ، وجبيل ومجدل يافا بأرض الرملة ، ومجدل حباب[٢] والداروم وغزة وعسقلان بالأمان ، وتل الصافية والبرج الأحمر بساحل الرملة بالسيف ، وحصن النطرون غربى القدس بالأمان ، وبيت جبريل بأرض الخليل بالتسليم ، وجبل خليل بالأمان ، وبيت اللحم ـ مولد المسيح عليه السلام ـ واللد بأرض الرملة بالسيف ، والرملة بالسيف ، وقلعة السلع والوعيرة وقلعة الجمع وقلعة الطفيلة وقلعة الهرمز جميع ذلك فى وادى موسى عليه السلام ، وقلعة الكرك بعد حصار سنة ونصف ، وقلعة الشوبك بالأمان ، وقلعة صفد بعد حصار مدة ، وحصن يازور غربى الرملة بالتسليم ، وقلعة هونين غربى بانياس بالأمان ، وحصن كوكب قبلى طبرية بالتسليم ، وحصن عَفرى شمالى القدس بالأمان ، وحصن العازرية شرقى القدس بالتسليم ، وحصن قرية أيَا بأرض عسقلان بالأمان ، قلعة الجيب الفوقانى بالأمان ، وحصن الجيب التحتانى شمالى القدس بالأمان . حصن قلنسوة شمالى لد بغير قتال ، وحصن القاقون بغير قتال ، وحصن القيمون شرقى حيفا بالسيف ، وحصن يُبنى قريب الرملة بالأمان ، وحصن يازور غربى الرملة بالتسليم ، وقلعة الفُولة قبلى الناصرية بالتسليم ، وشقيف أرنون بالأمان ، وحصن بلدة وحصن بلنياس ـ بين جبلة والمرقب ـ وحصن صهيون وربضة بالسيف ، وقلعة بلاطنس من عمل صهيون وحصن الجُماهرية شمالى صهيون وقلعة فيذُو غربى جبل البرزين وقلعة بكاس وقلعة الشغر من أنطاكية وبك إسرائيل وقلعة السردانية وقلعة البرزين ودرسباك وبغراس[٣] وحصن الدامور[٤] وأنطرسوس وجبلة واللاذقية بالسيف ، وقلعة برزية[٥] والبيت المقدس وغير ذلك من القرى والمعاقل التى لم تذكر[٦] .

---

(١) صرفندة : قرية من قرى صور من سواحل بحر الشام . معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٣٨٢ .

(٢) مجدل حباب : ورد لها ذكر فى كرد على . خطط الشام ، جـ٢ ، ص٥٩ .

(٣) بغراس : مدينة من لحف جبل اللكام بينها وبينه أربعة فراسخ ، معجم البلدان ، جـ١ ، ص٦٩٣ .

(٤) «الدانور» فى النوادر السلطانية ، ص٢٤٨ .

(٥) برزوية والعامة تقول برزية ، وهى حصن قرب السواحل الشامية على سن جبل شاهق ، فتحها صلاح الدين سنة ٥٨٤هـ . انظر : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٥٦٥ . أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص٣٤٠ .

(٦) عن هذه الفتوحات انظر : النوادر السلطانية ، ص٢٤٨ .

وفى المرآة : ويقال : إنه فتح ستين حصناً وزاد على نور الدين مصر والحجاز والمغرب واليمن والقدس والساحل وبلاد الفرنج وديار بكر ، ولوعاش لفتح الدنيا شرقا وغرباً وبعداً وقرباً ، وإن كان مبدأ فتوحاته[1] بمصر بهمة نور الدين وأمواله وعساكره ورجاله وبينهما مقاربة فى السيرة والعدل والأيام واجتناب الآثام ، وكلاهما لم يبلغ ستين سنة والله أعلم[2] .

الحادى عشر فى مرضه :

استهلت هذه السنة وهو فى غاية الصحة والسلامة ، وخرج هو وأخوه الملك العادل أبو بكر إلى الصيد فى شرقي دمشق ، وقد اتفق الحال بينه وبين أخيه أنه بعد ما يفرغ من أمر الفرنج هذه المرة [١٦٩] يسير هو إلى بلاد الروم ويبعث أخاه العادل إلى خلاط ، فإذا فرغا من شأنهما سارا جميعاً إلى بلاد أذربيجان وبلاد العجم ، ولما قدم الحجيج من الحجاز الشريف يوم الاثنين حادى عشر صفر خرج لتلقيهم وقدم معهم ولد أخيه سيف الإسلام صاحب اليمن ، فأكرمه واحترمه وعاد إلى القلعة فدخلها من باب الجديد ، فكان ذلك آخر ما ركب فى هذه الدنيا ، وذلك أنه اعتراه حمى صفراوية ليلة السبت السادس عشر من صفر ، فلما أصبح دخل عليه القاضى الفاضل وابن شداد وابنه الأفضل فأخذ يشكو إليهم قلقه البارحة وأطال الحديث وطال مجلسهم عنده ، ثم تزايد به المرض واستمر ، وقصده الأطباء فى اليوم الرابع ، فاعتراه يبس وحصل له عرق شديد بحيث نفذ إلى الأرض ، فقوى اليبس أيضًا ، فأحضر الأمراء والأكابر والرؤساء فبويع لولده الأفضل نور الدين على نائباً على ملك دمشق ، وكان الذين يدخلون عليه فى هذه الحال القاضى الفاضل وابن شداد وقاضى البلد ابن الزكى ، وتفاقم به الحال ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر ، واستدعى الشيخ أبو جعفر إمام الكلاسه[3] ليبيت عنده يقرأ القرآن ويلقنه الشهادة إذا جدَّ به الأمر ، فذكر أنه كان يقرأ عنده وهو فى الغمرات فقرأ «**هُوَ اللَّهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ**»[4] فقال : هو كذلك صحيح فلما أُذِن للصبح جاء

(١) «ميدانه» فى الأصل والتصحيح من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٧٨ .

(٢) انظر مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٧٨ .

(٣) الكلاسيه : مدرسة بناها نور الدين محمود سنة ٥٥٥هـ متصلة بالجامع الأموى من شماله وسميت كذلك لأنها كانت موضع عمل الكلس أيام بناء الجامع وقد أمر بتجديدها السلطان صلاح الدين الأيوبى . انظر : كرد على ، خطط الشام ، جـ٦ ، ص٨٩ . .

(٤) سورة الحشر ، آية رقم ٢٢ .

القاضى الفاضل فدخل عليه وهو بآخر رمق ، فلما قرأ القارئ «لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ»[١] تبسم وتهلل وجهه وتوفى إلى رحمة الله تعالى[٢] .

وقال العماد[٣] : جلس السلطان ليلة السبت السادس عشر من صفر فى مجلس عادته ومحلى سعادته ، ونحن عنده فى أتم اغتباط وأتم نشاط حتى مضى من الليل ثلثه وهو يحدثنا ونحن نحدثه ثم صلى به وبنا إمامه ، وحان قيامه وانفصلنا بإحسانه مغتبطين وبامتنانه مرتبطين ، وأصبحنا يوم السبت وجلسنا فى الإيوان ننتظر خروجه لوضع الخوان ، فخرج بعض الخدام وأمر الملك الأفضل أن يجلس موضعه على الطعام ، فجاء وتربع فى دسته وجلس بسِمته وسمَتْه ، وتطيرنا بتلك الحال [وتفللنا[٤]] بذلك الفال ، ودخلنا إليه ليلة الأحد للعيادة ومرضه فى الزيادة ، وتوفى إلى رحمة الله تعالى[٥] .

وقال النويرى[٦] : خرج السلطان إلى شرقى دمشق متصيداً ، فغاب خمسة عشر يوماً وصحبته أخوه الملك العادل ، ثم عاد إلى دمشق وودعه أخوه العادل وداعاً لالقاء بعده ، ومضى إلى الكرك وأقام السلطان بدمشق ، ثم ركب يوم الجمعة خامس عشر صفر ولقى الحجاج وبكى كيف فاته الحج معهم ، ثم عاد إلى القلعة فلحقه تلك الليلة كسل عظيم وغشيته حمى وأخذ المرض فى التزايد ، ثم حدثت به رعشة وغاب ذهنه واشتد الإرجاف بموته ، وحزن أهل دمشق حزناً عظيماً لذلك .

وقال القاضى بهاء الدين[٧] : لما كان يوم الأربعاء ثالث عشر صفر طلبنى فحضرت عنده ، فسألني عمن في الإيوان ، فقلت : الملك الأفضل جالس فى الخدمة والأمراء والناس فى خدمته ، فاعتذر إليهم على لسان جمال الدولة إقبال . ولما كانت بكرة يوم الخميس استحضرنى فحضرت عنده ، [١٧٠] وهو فى صفة البستان وعنده أولاده الصغار ، وقال لى : أكلت شيئًا اليوم؟ وكانت عادته المباسطة ، ثم قال : أحضروا لنا ما تيسر .

---

(١) سورة التوبة ، آية ١٢٩ . ﴿فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ .

(٢) البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢ ـ ص٣ ؛ النوادر السلطانيه ، ص٢٤٦ ؛ الروضتين ، جـ٢ ، ص٢١٣ ؛ مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٤١٦ ـ ص٤٢٠ .

(٣) انظر : الفتح القسى ، ص٦٢٧ .

(٤) «وتفاءلنا» كذا فى الأصل . والمثبت من الفتح القسى ، ص٦٢٧ .

(٥) الفتح القسى ، ص٦٢٧ .

(٦) نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤٣٧ ـ ص٤٣٨ .

(٧) النوادر السلطانية ، ص٢٤٢ ـ ص٢٤٣ .

فأحضروا رزاً بلبن وما يشبه ذلك ، فأكل ، وكنت أظن أن ما عنده شهوة ؛ لأن بدنه كان ممتلئاً ، فلما فرغنا قال : ما الذى عندك من خبر الحاج ، فقلت : قد اجتمعت بجماعة منهم فى الطريق ولولا كثرة الوحل لدخلوا اليوم ولكنهم فى غد يدخلون . فقال : نخرج إن شاء الله إلى لقائهم . فقمت من عنده ولم أجد عنده من النشاط ما أعرفه منه ، ثم بكر يوم الجمعة فركب للقاء الحاج وكان فيهم [سابق الدين ، وقرالا الياروقى][1] ، وكان كثير الاحترام للمشايخ ، ثم لحقه ولده الملك الأفضل ، ثم رد إلى القلعة وكان آخر ركوبه رحمه الله .

ولما كانت ليلة السبت وجد كسلاً عظيماً ، فما نصّف الليل حتى غشيته حمى صفراوية ، وأصبح فى يوم السبت السادس عشر من صفر وعليه أثر الحمى ولم يظهر ذلك للناس ، فدخلت أنا والقاضى الفاضل وولده الأفضل عنده وطال الحديث بيننا وأخذ يشكو من قلقه بالليل ، وطاب له الحديث إلى قريب الظهر ثم انصرفنا والقلوب عنده . ومدَّ الطعام فى الإيوان وجلس الأفضل فى موضعه ، وبكى فى ذلك اليوم جماعة لما رأوا موضعه خالياً وولده فيه ، ثم أخذه مرضه يتزايد ونحن نلازم التردد فى طرفى النهار ، وأدخل أنا والقاضى الفاضل فى النهار مراراً وكان طبيبه الذى ألف مزاجه به غائباً ، وحضرت الأطباء فقصدوه فاشتد مرضه وقلت رطوبات بدنه ، ولم يزل المرض يتزايد فاشتد فى السادس والسابع والثامن ، ولما كان التاسع حدثت به رعشة وامتنع من تناول المشروب واشتد الرجيف فى البلد وخاف الناس ونقلوا الأقمشة من الأسواق وغشى الناس من الكآبه والحزن ما لايوصف ، ولما كان العاشر من مرضه حقن دفعتين وتناول من ماء الشعير مقدارا صالحاً ، وفرح الناس فرحاً شديداً وأقمنا على العادة نتردد ، ثم أصبحنا فى الحادى عشر من مرضه وهو يوم الثلاثاء السادس والعشرين من صفر حضرنا الباب وسألنا عن حاله ، فأخبر جمال الدولة إقبال أنه عرق حتى نفذ عرقه إلى الفرش ثم إلى الحصر ثم إلى الأرض ، وإن اليبس قد تزايد عظيماً وضعفت قوته ، ولما رأى ولده الأفضل ما حل به وتحقق اليأس منه شرع فى تحليف الناس ، فجلس فى دار رضوان[2] المعروفة بسكنه ، واستحضر القضاة فعملوا نسخة يمين مختصرة تتضمن الحلف

---

(١) «سابق الدين الياروقى» كذا فى الأصل . والتصحيح من النوادر ، ص٢٤٢ .

(٢) نقل العينى هذه الأحداث بتصرف من النوادر ، ص٢٤٢ ـ ص٢٤٥ ؛ الروضتين ، جـ٢ ، ص٢١٢ ـ ص٢١٣ ؛ مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٤١٤ ـ ص٤١٩ .

للسلطان مدة حياته ، ثم للأفضل بعد وفاته ، فأول من استحضر للحلف سعد الدين مسعود الشحنة أخو بدر الدين مودود ، ثم ناصر الدين صاحب صهيون ، فحلف وزاد أن الحصن الذى فى يده له ، ثم سابق الدين[١٧١] [عثمان بن الداية][١] صاحب شيزر فحلف ولم يذكر الطلاق واعتذر بأنه قط ما حلف به ، ثم خُشْتَرِين الهكارى[٢] ، ثم نوشروان الزرزارى ، واشترط أن يكون له خبز يُرضيه ، ثم حلف علكان ومنكلان ، ثم مد الخوان فأكلوا . ولما كان العصر أعيد مجلس التحليف ، فأُحضر ميمون القصرى وشمس الدين سنقر الكبير ، وقالا : نحن نحلف بشرط أن لا نسل سيفاً فى وجه أحد من أخوتك ، وحضر سامة وقال : ليس لى خبز فعلى أى شيء أحلف؟! فروجع فحلف بشرط أن يُعطى خبزاً يُرضيه ، وحضر سنقر المشطوب ، والبكى الفارس ، وأيبك الأفطس ولم يحلف بالطلاق ، وحضر أخو [الأميرّ][٣] سياروخ وحلف واشترط رضاه ، وحضر حسام الدين بشارة وحلف وكان مقدماً على هؤلاء ، ولم يحضر أحد من الأمراء المصريين[٤] .

ونسخة اليمين : «إننى من وقتى هذا قد أصفيت نيتى وأخلصت طويتى للملك الناصر مدة حياته ، وإنى لا أزال بازلاً جهدى فى الذب عن دولته بنفسى ومالى وسيفى ورجالى ، ممتثلاً أمره واقفاً عند مراضيه ، ثم من بعده لولده الملك الأفضل على ، ووالله إننى فى طاعته ، وأذب عن دولته وبلاده بنفسى ومالى وسيفى ورجالى ، وأمتثل أمره ونهيه وباطنى وظاهرى فى ذلك سواء ، والله على ما أقول وكيل» .

ثم لما كانت ليلة الأربعاء السابع والعشرين من صفر وهى ليلة الثانى عشر من مرضه اشتد مرضه وحال بيننا وبينه النساء ، واستحضرت أنا والقاضى الفاضل وابن الزكى فى تلك الليلة ، وعرض علينا الملك الأفضل أن نبيت عنده ، فلم ير الفاضل ذلك وقال : المصلحة نزولنا واستحضار الشيخ أبى جعفر إمام الكلاسة ، فإنه رجل صالح يبيت بالقلعة حتى إذا استحضر السلطان بالليل يحضر عنده ، ونحول بينه وبين النساء ويذكره بالشهادة ، ففعلوا ذلك ، وكان ذهن السلطان غائباً من ليلة التاسع لا يكاد يفيق إلا فى

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من سبط ابن الجوزى لتوضيح النص ، انظر : مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٧٦ ؛ مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٤١٩ .
(٢) خشترين الهكارى هو : جمال الدين خُشترين الهكارى ، وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٢٤٢ .
(٣) ما بين حاصرتين إضافة من أبى شامة لتوضيح النص ، انظر : الروضتين ، جـ٢ ، ص٢١٣ ؛ مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٤١٩ .
(٤) ينقل العينى هذا الحدث بتصرف من النوادر ، ص٢٤٤ ـ ص٢٤٥ .

الأحيان، وبات فى تلك الليلة على الانتقال، والشيخ أبو جعفر عنده يقرأ القرآن ويذكره بالله إلى أن توفى رحمه الله(١).

الثانى عشر فى تاريخ وفاته :

قال القاضى بهاء الدين : كانت وفاته بعد صلاة الصبح فى يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر من سنة تسع وثمانين وخمسمائة(٢). وفى تاريخ بيبرس وقيل : توفى فى الخامس والعشرين من صفر. وفى المرآة : وكانت وفاته يوم الأربعاء بعد صلاة الفجر السابع والعشرين من صفر(٣). وفى تاريخ ابن العميد : وكانت وفاته بكرة يوم الأربعاء لثلاث بقين من صفر. وكلام الكل قريب بعضه من بعض. وفى المرآه : وغسله الخطيب الدولعى(٤)، وصلى عليه القاضى محيى الدين بن الزكى، وبعث له القاضى الفاضل الأكفان والحنوط من أجل الجهات، ودفن بدار البستان موضع جلوسه فى قلعة دمشق(٥).

وقال ابن خلكان(٦) : كان يوم موته يوماً لم يصب الإسلام والمسلمين مثله منذ فقد الخلفاء الراشدون، وغسله الدولعى وهو ضياء الدين [١٧٢] أبو القاسم عبد الملك بن زيد بن ياسين بن زيد بن قائد بن جميل التعلبى الأرقمى الدولعى الشافعى خطيب جامع دمشق، توفى فى ثانى عشر ربيع الأول من سنة ثمانى وتسعين وخمسمائه، ودفن بمقابر الشهداء بباب الصغير. قال : ثم أخرج تابوت السلطان بعد صلاة الظهر مسجى بثوب [فوط(٧)]، فارتفعت الأصوات عند مشاهدته، وعظم الضجيج وأخذ الناس فى البكاء والعويل وصلوا عليه أرسالاً، ثم أعيد إلى الدار التى فى البستان وهى التى كان متمرضاً بها، ودفن فى الصُفه الغربية منها، وكان نزوله فى حضرته قريباً من صلاة العصر.

---

(١) ينقل العينى هذا الحدث بتصرف من النوادر السلطانية، ص٢٤٦ ؛ الروضتين، جـ٢، ص١١٢ - ص٢١٣ ؛ مفرج الكروب، جـ٢، ص٤١٩، ص٤٢٠.

(٢) النوادر، ص٢٤٦.

(٣) مرآة الزمان، جـ٨، ص٢٧٦.

(٤) الخطيب الدولعى هو : ضياء الدين أبو القاسم عبد الملك بن زيد بن ياسين بن زيد بن قائد بن جميل التعلبى الأرقمى الدولعى الشافعى خطيب جامع دمشق، توفى سنة ٥٩٨هـ. وفيات الأعيان، جـ٧، ص٢٠٣.

(٥) مرآة الزمان، جـ٨، ص٢٧٦.

(٦) وفيات الأعيان، جـ٧، ص١٣٩ - ص٢١٨.

(٧) «فقط» فى الأصل. والمثبت من النوادر، ص٢٤٧ ؛ وفيات الأعيان، جـ٧، ص٢٠٣ ؛ الروضتين، جـ٢، ص٢١٣.

ثم انقضت تلك السنون وأهلها	فكأنها وكأنهم أحلام[١] .

ثم إنه بقى مدفوناً بقلعة دمشق إلى أن بنيت له قبة فى شمالى الكلاسة ، التى هى شمالى جامع دمشق ، ولها بابان أحدهما إلى الكلاسة والأخرى من زقاق غير نافذ ، وهو مجاور[٢] المدرسة العزيزية . وقال ابن خلكان رحمه الله : ولقد دخلت إلى هذه القبة من الباب الذى فى الكلاسة ، وقرأت عنده وترحمت عليه ، وأحضر لى قيم القبة ومتولى أمرها بقجة فيها ملبوس بدنه ، وكان فى جملته ، قباء أصفر قصير ، ورأس كُميه بأسود فتبركت به[٣] . وقال ابن القادسى : ودفن معه سيفه . وقال القاضى الفاضل : هذا يتوكأ عليه فى الجنة . وقال السبط فى المرآة : هذا وهم من ابن القادسى لأن سيفه بعث به ولده الأفضل إلى بغداد[٤] .

الثالث عشر : فى مدة سلطنته ومدة عمره :

وكان عمره قريباً من سبع وخمسين سنة ، وقد ذكرنا أن مولده كان فى سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة . وفى تاريخ ابن العميد : وكان عمره ستاً وخمسين سنة وشهوراً وكانت مدة مملكته للديار المصرية نحو أربع وعشرين سنة ، وللشام قريباً من تسع عشرة سنة . قال ابن كثير[٥] : وفى تاريخ ابن العميد وكانت مملكته اثنتين وعشرين سنة وسبعة وأربعين يوماً ، أولها يوم الاثنين وآخرها يوم الأربعاء لتتمة خمسمائة وثمان وثمانين سنة وسبعة وخمسين يوماً للهجرة ، ولتمام ست آلاف سنة وستمائة سنة وأربع وثمانين سنة وستة أشهر وسبعة أيام للعالم شمسية .

الرابع عشر : فيما جرى يوم وفاته :

قال ابن كثير : وجلس الملك الأفضل للعزاء فى القلعة ، وأرسل الكتب بوفاة والده إلى أخيه الملك العزيز عثمان بمصر ، وإلى الملك الظاهر غازى بحلب ، وإلى عمه الملك العادل بالكرك ، وقد ذكرنا أنه كان سافر إلى الكرك قبل موت أخيه السلطان لينظر فى

(١) وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص٢٠٣ ؛ النوادر ، ص٢٤٧ ، وقد ذكر ابن خلكان أن هذا البيت لأبى تمام الطائى .
(٢) مجاوز» فى الأصل . والمثبت من وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص٢٠٦ .
(٣) وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص٢٠٦ .
(٤) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٧٦ .
(٥) البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٣ .

أمرها[١] . وقال المؤيد فى تاريخه : ولما نقل الأفضل والده السلطان من القلعة حين بنى له تربة مشى بين يدى تابوته ، وأخرج من باب القلعة على دار الحديث إلى باب البريد وأدخل الجامع ، ووضع قدام النسر وصلى عليه القاضى محيى الدين ابن القاضى زكى الدين ، ثم دفن . وجلس ابنه للعزاء ثلاثة أيام فى الجامع ، وأنفقت ست الشام بنت أيوب[٢] فى هذه النوبة أموالاً عظيمة[٣] .

فى المرآة[٤] : وكتب الفاضل إلى الظاهر وهو بحلب كتاب التعزية يقول فيه : «(**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ**)[٥] الآية ، أحسن الله عزاه فى مصابه وجعل الخلف فيه لمماليك المرحوم وأصحابه ، كتبت والدموع [١٧٣] قد حضرت النواظر والقلوب قد بلغت الحناجر ، وإنى ودعت أباك مخدومى وداعاً لا نلتقى بعده ، وأسلمته إلى الله طالباً فضله ورفده ، ولم تدفع عنه جنوده المجندة القضاء ، ولا ردت عنه الأسلحة والخزائن البلاء ، فالعين تدمع والقلب يخشع ولانقول ما يسخط الرب ، وإنا عليك يا يوسف لمحزونون» . وفى آخر الكتاب «فإن اتفقتم ما عدمتم إلا شخصه الكريم ، وإن اختلفتم فالمصائب المستقبله هولها عظيم» .

وقال السبط فى المرآة : وقد فات الفاضل شيئان أحدهما عند قوله : ودعته وداعاً لا نلتقى بعده ، وكان الأولى أن يقول : إلا فى جنات النعيم . والثانى عند قوله : هولها عظيم ، كان ينبغى أن يقول : ذلك تقدير العزيز العليم . وفى المرآة : وكان أخوه العادل ــ لما توفى السلطان ــ بالكرك فقدم دمشق معزياً للأفضل ، فأقام أيامًا ثم رحل إلى الجزيرة إلى البلاد التى أعطاها إياه السلطان ، وهى حران والرها وسميساط والرقة وقلعة جعبر وميافارقين وديار بكر ، وكان له بالشام الكرك والشوبك ، وبعث الأفضل القاضى ضياء الدين الشهرزورى رسولاً إلى الخليفة ومعه زردية السلطان وسيفه وحصانه وكذاغَنده ودبوسه وتحفاً كثيرة ، وعاب الناس عليه حيث بعث بعدة السلطان إلى بغداد ، وكتب كتاباً فمنه :

---

(١) يذكر العينى أنه نقل هذا الخبر عن ابن كثير ، إلا أنه بالرجوع إلى المصدر المذكور ، لم نجد ذكراً له ، وإنما نقله العينى عن المختصر ، جـ٣ ، ص٨٦ .

(٢) ست الشام بنت أيوب : هى زُمرُّد خاتون بنت أيوب شقيقة شمس الدولة توران شاه بن أيوب . تزوجت ناصر الدين أبى عبدالله محمد بن أسد الدين شيركوه صاحب حمص بعد زوجها الأول عمر بن لاجين وقد توفيت سنة ٦١٦هـ . انظر وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص٣٠٧ .

(٣) نقل العينى هذا الحدث من المختصر ، جـ٣ ، ص٨٦ .

(٤) سبط ابن الجوزى ، جـ٨ ، ص٢٧٧ .

(٥) سورة الأحزاب ، آية رقم ٢١ .

«أصدر خدمته هذه وصدره معمور بالولاء ، وقلبه مغمور بالصفاء . وذكر كلاماً طويلاً . وأما العادل فإن المشارقة ثاروا عليه واستشاروا عز الدين صاحب الموصل ، واستشار هو أصحابه ، فأشار عليه المجد ابن الأثير بالخروج ، وأشار عليه مجاهد الدين قايماز بالمقام لتظهر حقائق الأمور ، وتراسل جيرانه ابن زين الدين صاحب إربل ، وسنجر شاه صاحب الجزيرة ، وعماد الدين صاحب سنجار ، وخرج عز الدين من الموصل واجتمعا على حران ، فاستنجد العادل بأولاد أخيه ، فجاءته عساكر الشام ومصر ، ومرض عز الدين على نصيبين بالإسهال وترك العساكر مع أخيه عماد الدين ، ورجع إلى الموصل جريدة فمات بها على ما نذكره عن قريب إن شاء الله تعالى . ثم إن الملك العزيز قدم إلى الشام وقدمت معه العساكر على الأفضل ، وبعث إليه العادل : ارحل إلى مرج صفر ، فرحل وهو مريض ، وكان قصد العادل أن يبعده عن البلد ليصل العساكر ، فوصل الظاهر من حلب والمنصور من حماة وشيركوه من حمص والأمجد من بعلبك فى نجدة ، فقال العادل : إنه يرجع إلى مصر ويقع الاتفاق وتعود الأمور إلى ما كانت عليه . واشتد مرض العزيز ولولا مرضه لما صالح . فأرسل العزيز كبراء دولته فخر الدين سركس وغيره فحلف الملوك ، وطلب مصاهرة العادل فزوجه ابنته خاتون ، ورجع كل واحد إلى بلده وذلك فى شعبان(١) ، وتمام هذا يأتى فى السنة الآتيه إن شاء الله تعالى .

وقال العماد الكاتب : ولما انفصلت العساكر عن دمشق شرع الأفضل فى اللهو واللعب ، واحتجب عن الرعية وانقطع إلى لذاته ، وفوض الأمر إلى وزيره الجزرى(٢) وحاجبه الجمال محاسن بن العجمى ، [١٧٤] فأفسدا عليه الأحوال ، وكانا سبباً لزوال دولته واستبدلا بكبراء الأمراء والأجناد أراذل الناس ففسدت أمور العباد(٣) .

الخامس عشر : فى من خلفه من الأولاد :

قال العماد الكاتب(٤) : خلف السلطان سبعة عشر ولداً ذكراً وابنة صغيرة . **الأول :** الملك الأفضل نور الدين على ، وهو أكبرهم ، ولد بمصر سنة خمس وستين وخمسمائة

---

(١) إلى هنا توقف العينى عن النقل من مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٧٧ـ ص٢٨٠ .

(٢) الوزير الجزرى هو : ضياء الدين نصر الله بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيبانى المعروف بابن الأثير الجزرى ، توفى سنة ٦٣٧هـ ببغداد ، انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص٣٨٩ ــ ص٣٩٧ .

(٣) بالرغم من أن العينى يذكر أنه ينقل من العماد إلا أنه لم يرد هذا الحدث فى الفتح القسى ، وإنما ورد فى مرآة الزمان ، وقد نقله عن بعض كتب العماد ، المرآة ، جـ٨ ، ص٢٨٠ .

(٤) الفتح القسى ، ص٦٢٩ .

ليلة عيد الفطر . **الثانى** : الملك العزيز عماد الدين عثمان أبو الفتح ، ولد بمصر أيضًا فى جمادى الأولى سنة سبع وستين . **الثالث** : الملك الظافر أبو العباس مظفر الدين خضر ، ولد بمصر فى شعبان سنة ثمان وستين وهو شقيق الأفضل[١] .

وقال ابن خلكان : وكنيته أبو الدوام وأبو العباس الخضر ، ويقال له المشمر لأن أباه لما قسم البلاد بين أولاده الكبار قال : وأنا مشمر . فغلب عليه هذا اللقب ، وكان مولده فى القاهرة فى خامس شعبان سنة ثمان وستين وخمسمائة ، وتوفى فى جمادى الأولى سنة سبع وعشرين وستمائه بحران عند ابن عمه الملك الأشرف ابن الملك العادل[٢] . **الرابع** : الملك الظاهر أبو منصور غياث الدين غازى ، ولد بمصر فى نصف رمضان سنة ثمان وستين . **الخامس** : الملك المعز فتح الدين أبو يعقوب إسحق[٣] ، ولد بدمشق[٤] فى ربيع الأول سنة سبعين وخمسمائه . **السادس** : الملك المؤيد نجم الدين أبو الفتح مسعود ، ولد بدمشق سنة إحدى وسبعين وهو شقيق العزيز[٥] . **السابع** : الملك الأعز شرف الدين أبو يوسف يعقوب ، ولد بمصر سنة ثنتين وسبعين وهو شقيق العزيز أيضًا . **الثامن** : الملك الزاهر مجير الدين أبو سليمان داود ، ولد بمصرسنة ثلاث وسبعين وهو شقيق الظاهر . **التاسع** : الملك المفضل قطب الدين موسى ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين ، وهو شقيق الأفضل . **العاشر** : الملك الأشرف أبو عبدالله عز الدين محمد[٦] ولد بالشام سنة خمس وسبعين . **الحادى عشر** : الملك المحسن ظهير الدين أبو العباس أحمد ، ولد بمصر فى ربيع الأول سنة سبع وسبعين وهو شقيق الأشرف المذكور . **الثانى عشر** : الملك المعظم فخر الدين أبو منصور توران شاه ، ولد بمصر فى ربيع الأول سنة

---

(١) نقل العينى هذه الأحداث من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٤ ؛ الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٢٤ـ ص٢٢٥ ؛ مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٤٢٣ ـ ص٤٢٤ ؛ نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤٣٩ .

(٢) وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص٢٠٥ .

(٣) اتفقت المصادر التى بين أيدينا مع العينى فى ذكر اسمه «المعُز» انظر : مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٤٢٥ ؛ الروضتين ، ج١ ق٢ ، ص٧١٠ ؛ نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤٣٩ ، وتفرد ابن كثير بذكر اسمه «العزيز» انظر : البداية والنهاية ، جـ٣ ، ص٤ .

(٤) ذكر ابن واصل ، مفرج الكروب ، أن مولد المعز كان بمصر . جـ٢ ، ص٤٢٥ .

(٥) «الأعز» كذا فى الأصل والنويرى . نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤٣٩ . أما ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٤ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٤٢٤ فقد ذكرا أن اسمه «الأغر» .

(٦) «الأشرف أبو عبدالله عز الدين محمد» كذا فى الأصل . أما ابن كثير فقد ذكر اسمه «الأشرف معز الدين أبو محمد» البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٤ ، أما أبو شامه فقد ذكر أن اسمه «الملك الأشرف عزيز الدين ، الروضتين ، جـ١ ، ص٧١٠ ، أما ابن واصل فقد ذكر أن اسمه «الملك الأشرف نصير الدين محمد» ، مفرج الكروب ، جـ٢ ، ص٤٢٥ .

سبع وسبعين ، وتأخرت وفاته إلى سنة ثمان وخمسين وستمائه ، وهى السنة التى أخرب العدو ـ من التتار ـ مدينة حلب وغيرها . **الثالث عشر** : الملك الجواد ركن الدين أبو سعيد أيوب ، ولد فى ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وهو شقيق المعز . **الرابع عشر** : الملك الغالب نصر الدين أبو الفتح ملكشاه ، ولد فى رجب سنة ثمان وسبعين ، وهو شقيق المعظم . **الخامس عشر** : الملك المنصور أبو بكر أخو المعظم لأبويه ، ولد بحران بعد وفاة السلطان . **السادس عشر** : عماد الدين شادى ، لأم ولد . **السابع عشر** : نصرة الدين مروان ، لأم ولد أيضًا . وأما البنت فهى مؤنسة خاتون ، تزوجها ابن عمها الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب[١] وللسلطان غير هؤلاء الأولاد ممن درج فى حيوته ، كالملك المنصور حسن والأمير أحمد وهو الذى رثاه العرقلة بقوله : [١٧٥]

أىُّ هلال كُسِفا … وأى غصن قصفا
كان سراجاً قد طغى … على الورى ثم انطفى
لم يركب الخيلَ ولم … يُقلّدوه مرهفا
قل للنحاة ويحكم … أحمد لم قد صُرفا
صبراً صلاح الدين … يارب السماح والوفا

السادس عشر : فيما استقر عليه الحال بعد وفاة السلطان :

لما توفى السلطان ـ رحمه الله ـ استقر فى الملك بدمشق وبلادها المنسوبة إليها ولده الملك[٢] الأفضل نور الدين على ، وبالديار المصرية الملك العزيز عثمان ، وبحلب وبلادها الملك الظاهر غازى ، وبالكرك والشوبك والبلاد الشرقية الفراتية الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب أخو السلطان ، وبحماه وسلمية والمعرة ومنبج وقلعة نجم الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقى الدين عمر ، وببعلبك الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، وبحمص والرحبة وتدمر شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذى ، وبيد الملك خضر بن السلطان صلاح

(١) إلى هنا توقف العينى على الأخذ من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥ .
(٢) النويرى ، ج٢٨ ، ص٤٤٠ .

الدين بصرى ، وهو فى خدمة أخيه الملك الأفضل ، وبيد جماعة من أمراء الدولة بلادٌ وحصون ، منهم : سابق الدين عثمان بن الداية بيده شيزر وأبو قبيس ، وناصر الدين منكورس بن خمارتكين بيده صهيون وحصن برزية ، وبدر الدين دلدورم بن بهاء الدين ياروق بيده تل باشر ، وعز الدين أسامه بيده كوكب وعجلون ، وعز الدين إبراهيم بن شمس الدين المقدم بيده بعرين وكفر طاب وأفامية ، والملك الأفضل هو الأكبر من أولاد السلطان والمعهود إليه بالسلطنة ، واستوزر الملك الأفضل ضياء الدين نصر الله بن محمد ابن الأثير مصنف المثل السائر ، وهو أخو عز الدين بن الأثير مؤلف التاريخ المسمى بالكامل ، فحسن للملك الأفضل طرد أمراء أبيه ففارقوه إلى أخويه العزيز والظاهر ، ولما اجتمعت الأمراء بمصر حسنوا للملك العزيز الانفراد بالسلطنة ، ووقعوا فى أخيه الأفضل فمال إلى ذلك وحصلت الوحشة بين الأخوين الأفضل والعزيز ، وكان اليمن بمعاقله ومخاليفه جميعها فى قبضة السلطان ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخى السلطان صلاح الدين ، ثم بعد ذلك شرعت الأمور تضطرب وتختلف وتفاقمت الأحوال حتى آل الأمر إلى ما إليه آل ، واستقرت الممالك واجتمعت المحافل على أخى السلطان صلاح الدين وهو الملك العادل ، وصارت الممالك فى أولاده الأماجد الأفاضل كما سنوضحه إن شاء الله تعالى[١] .

السابع عشر : فى مراثى السلطان صلاح الدين

وقد عمل فيه الشعراء المراثى الكثيرة من أحسنها ما عمل فيه العماد الكاتب فى آخر الكتاب البرق الشامى ، وهى مائتان وثلاثون بيتاً وقد سردها الشيخ شهاب الدين فى الروضتين فمنها قوله فى أولها : [١٧٦]

شملُ الهدى والمُلْكِ عمَّ شتاتُه ... والدهرُ ساء وأقلعَت حسناته
أين الذى كانت له طاعاتنا[٢] ... مبذولة ، ولربه طاعاته
بالله أين الناصرُ الملكُ الذى ... لله خالصةً صفت نياتُه

(١) نقل العينى هذه الأحداث بتصرف من نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤٤٠ ـ ص٤٤١ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٦ ؛ وقد أورد أبو شامة هذا التقسيم بالتفصيل ، انظر : الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٢٤ ـ ص٢٢٦ .
(٢) «طاعَتنا» كذا فى الأصل . والتصحيح من الروضتين ، جـ٢ ، ص٢١٥ .

أين الذى مـــازال سلطاناً لنا	يرجى نداه وتُتَــقَى سَطواتُه
أغـلال أعناق العـدا[١] أسـيـافه	أطواق أجـيـاد الورى منَّاتهُ
لم يُجد تدبير الطبيب وكم وكم	أخـذت[٢] لطب الدهر تدبيـراته
من فى الجهاد صفاحه ما أغمدت	بالنصر حتى أغمدت صفحاته
من فى صـدور الكفر صدر قناته	حـتى توارت بالصـفـيح[٣] قناته
منصـورة غـدواته مـحـمـودة	روحـاته مـيـمـونه صـحـواته
لا تحسبوه مات شخصاً واحدا	فـمـمات كل العالمين مماته
ملك عن الإسلام كان محامياً	أبداً لمـاذا[٤] أسلمـتـه حُـمـاته
قد أظلمت مذ غاب عنَّا[٥] دُورُه	لمـــا خلت من بدره داراته
دُفن السماح فليس تُنْشَرُ[٦] بعدما	أودى إلى يوم النشــور رفـــاته
مـا كنت أعلم أن طوداً شامخا	يهوى ولا تهـوى بنا مـهـواته
ما كنت أعلم أن بحراً طامياً فينا	يُطم وتنتــهى زخــراته
الدين بعـد أبى المظفر يوسف	أقـوت قراه وأقـفرت ساحاته
من لليــتـامى والأرامل راحم	متعطف مفضوضه صدقاته
لو كـان فى عـصـر النبى لأنزلت	من ذكــره فى ذكــره آياته
بكت الصواهل والصوارم إذ خلت	من سلهـا وركـوبهـا عـزمـاته[٧]
يا وحشة الإسلام حين[٨] تمكنت	من كل قلب مـؤمن روَعـاته
ما كان أسرع عصره لما انقضى	فكأنمـا سنواته ســاعــاته
يا راعـيـاً للدين حـين تمكنت	منه الذئاب وأسلمـتـه رعـاته

---

(١) «العدى» كذا فى الأصل . والتصحيح من الروضتين ، جـ٢ ، ص٢١٥ .
(٢) «أُخذت» فى الأصل . والتصحيح من الروضتين ، جـ٢ ، ص٢١٥ .
(٣) «الصِّباح» كذا فى الروضتين ، جـ٢ ، ص٢١٥ .
(٤) «إذا» كذا فى الروضتين ، جـ٢ ، ص٢١٥ .
(٥) «عنها» كذا فى الروضتين ، جـ٢ ، ص٢١٥ .
(٦) «تنبش» كذا فى الروضتين ، جـ٢ ، ص٢١٥ .
(٧) بكت الصوارم والصواهل إذ خلت	من سبلها وركوبها غزواته . كذا فى الروضتين ، جـ٢ ، ص٢١٦ .
(٨) «يوم» فى الروضتين ، جـ٢ ، ص٢١٦ .

ما كان ضرك لو أقمت مراعيا ... ديناً تولى منذ رحلت ولاته
فارقت ملكا غير باق متعبا ... ووصلت ملكاً باقياً راحاته
فعلى صلاح الدين يوسف دايما ... رضوان رب العرش بل صلواته[١٧٧][١]

ورثاه الأمير مجد الملك جعفر بن شمس[٢] الخلافة بمرثية . أولها قوله :

هو الدهر فاعلم ما على الدهر من عَتْب ... يشوب الرضى بالسخط والسلم بالحرب
يغص ولم يُشبع بأطيب مطعم ويشرق ... قبل الرِىّ بالبارد العذب
وإن هو أعطى أو كسى متكلف ... فلابد من أخذ ولابد من سلب
فلا تأمنن الموت شيخاً ويافعاً ... فللموت مَنْ رَبَّى وللموت مَنْ رُبّىِ
بكيت من الأيام لو نفع البكاء ... وعاتبتُ دهرى لو غدا مجدياً عتبى
فيأمرنى بالصبر والصبرُ معوذ ... إليك فما سمعى إلى ولا قلبى
ألست ترى كيف انبرى الخطب ثائراً ... ومد يداً منه إلى دافع الخطب
إلى الناصر الملك الذى ملئت به ... قلوب البرايا من رجاء ومن رعب
كريم أتاه الموت ضيفاً فلم يكن ... لينزله إلا على السهل والرحب
ولو خاب منه قبل ذلك سائل ... لخاب وليس البخل من شيم السُحب
قضى فما انقضى المعروف وانقرض الندى ... وحُطت رحال الوفد فى الشرق والغرب
فلم يخل قلب من هموم ومن أسى ... ولم يخل طرف من سهاد ومن سكب
أفاض على الدنيا سجال نواله ... ففاضت[٣] عليه أعين العجم والعرب
ولو أنه يُبكَى على قدر حقه ... لسالت[٤] دموع المزن من أعين الشهب
وأصبح للبيت المقدس منقذاً ... بأصلب عزم من مقارنة الصلب
وإن هو أوصى للعزيز بملكه ... فمن ما جد نَدبٌ إلى ما جد ندبِ

---

(١) نقل العينى من الروضتين ، جـ٢ ، ص٢١٥ ـ ص٢١٦ .
(٢) هو : أبو الفضل جعفر بن شمس الخلافة أبى عبد الله محمد بن شمس الخلافه مختار الأفضلى الملقب مجد الملك الشاعر المشهور ، توفى سنة ٦٢٢هـ بالكوم الأحمر ظاهر مصر . انظر : وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص٣٦٢ ـ ص٣٦٣ وقد أورد أبو شامة بعض أبيات هذه القصيدة فى الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٢٤ .
(٣) «فغاضت» فى الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٢٤ .
(٤) «أسال» فى الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٢٤ .

وقال ابن الساعاتى[1] يرثيه ويمدح العزيز عماد الدين عثمان ولده منها هو قوله :

لإن كان ليل الحرب عرى غياهبهُ … فقد بان عن بدر السماء كواكبهُ
وإن كان ليث الغاب خلّى عينه … وغاب فهذا شبله وكتايبهُ
وإن فارق الغِمدُ المحلّى حسامه … فهذا حسام لا تقل مضاربه
وإن أقفر الفسطاط منه … فإنه منازله مأهولة وملاعبه
أقام عماد الدين رفع بنائه … فما ظل مسعاه ولا ذلَّ جانبه[١٧٨]
يرد العيون الشرس عنه كليلة … من الحق نور ليس يعدوه لازبه
كأن شعاع الشمس يلقاك دونه … ولم نر ملكاً حاجب الشمسَ حاجبه
ومن كان فى المسعى أبوه دليله … تدانت له أسبابه وسباسبه
هو البحر حدث عنه غير مكذّبٍ … فما تنقضى آياته وعجائبه

الثامن عشر : فى مدائحه

وقد مدحه جماعة من الشعراء منهم ابن قُلاطس[2] وابن الذروى[3] وابن المنجم[4] وابن سنا الملك[5] وابن الساعاتى والبحرانى الإربلى[6] وابن دهن الحصى الموصلى[7]

---

(١) ابن الساعاتى هو : أبو الحسن على بن رستم بن هردوز ، المعروف بابن الساعاتى ، توفى سنة ٦٠٤هـ ، القاهرة . انظر : وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٣٩٥ ــ ص٣٩٧ .

(٢) ابن قلاطس : ويبدو أنه هو ابن قلاقس : هو أبو الفتوح نصر الله بن عبدالله بن مخلوف بن على بن عبد القوى ابن قلاقس اللخمى الأزهرى الاسكندرى الملقب بالقاضى الأعز الشاعر المشهور ، توفى سنة ٥٦٧هـ بعيذاب . انظر : وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص٣٨٥ ــ ص٣٨٩ ؛ الخريده ، جـ١ ، قسم شعراء مصر ، ص١٤٥ ــ ص١٦٥ .

(٣) ابن الذروى : هو على بن يحيى القاضى الوجيه ؛ رضى الدين ، والذروى نسبة إلى ذروى ، وهى قرية بصعيد مصر ، انظر : وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص١٤٦ ؛ الخريده ، جـ١ ، قسم شعراء مصر ، ص١٨٧ ــ ص١٨٨ .

(٤) ابن المنجم : هو نشو الملك أبو الحسن على بن مفرج المعرى الأصل المصرى الدار والوفاة المعروف بابن المنجم الشاعر ، توفى سنة ٦٢٠هـ ، وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص١٩٧ ، جـ٦ ، ص٦٤ ؛ فى الخريدة نشو الدولة ، قسم شعراء مصر ، جـ١ ، ص١٦٩ .

(٥) ابن سناء الملك : هو القاضى السعيد أبو القاسم هبة الله بن القاضى الرشيد أبى الفضل جعفر بن المعتمد سناء الملك أبى عبدالله محمد بن هبة الله بن محمد السعدى الشاعر المشهور المصرى ، توفى سنة ٦٠٨هـ ، انظر : وفيات الأعيان ، جـ٦ ، ص٦١ــ ص٦٦ .

(٦) البحرانى الإربلى : هو أبو عبدالله محمد بن يوسف بن محمد بن قائد الملقب بموفق الدين الإربلى ، توفى سنة ٥٨٥هـ ، انظر : وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص٩ ــ ص١١ .

(٧) ابن دهن الحصى الموصلى : هو الحسن بن هبة الله بن دهن الحصى الموصلى ، كان يجيد قرض الشعر ، توفى سنة ٦٠٣هـ . انظر : وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص٢١٢ .

ومحمد بن إسماعيل بن حمدان [الحَيْزانى][(١)] وغيرهم ، ومدحه العماد الكاتب فى غالب أحواله من غزواته وفتوحاته وغير ذلك . ومدحه فى فتح القدس بقصيدة هائلة ذكرناها فى موضعه ، ومدحه القاضى رشيد الدين بن النابلسى بقصيدة أنشده إياها بمرج عكا أولها :

حدق الغانيات فى القلب أنكى ... من شِغار الظُبَى وأَعظمُ فتكا

ومنها :

ويك يا قلب إن هفا بك وجد ... فهو أمضى حكماً وأعظم مُلكاً
أو تبدلتَ بالوصال حدوداً ... طالما أضحك الزمان وأبكى
وعسى فى لقائك الملك الناصر ... رَوْحٌ يُفَرّج الهَمَّ عَنْكا
أشرف العالمين حَضَراً وبدواً ... وأبر الأنام عُجْماً وتُرْكاً
خَيرُ مَن طبَّقَ البَريّة مُلْكاً ... واستَرَق الأحرارَ بالجود ملكاً
ناصر الحق فهو ينقض ما ... تبرم أيدى عِداه شَزْراً وحَبْكا
ذو السطا ترعب الأسود ... تحامت والنَدا يُخجل العِهاد أَرَكا
من صلاح الأنام والدين والدنيا ... بقاه فطال عُمراً ومُلْكا
أيها الناصر الذى خذل الشرك ... فما يستفيقُ بؤساً وخنكا
والذى مده الإله بقدس ... نهكت قوة الضلالة نهكا
ما تراه العَضُب[(٢)] المهند حداً ... أنت أمضى شبا وأسرع بتكا
ما عساه الطود الأشم ثباتاً ... أنت أسمى هضباً وأمتن سمكا
قد قتلت الزمان يا مَلْكُ خبرا ... وعركت الأيام بالرأى عركا
وأنارت لك السُعودُ فلو رُمْت ... اعتلاقا بنجمها لم يفتكا
ليس ينفك عن رضى الله إن زحزح ... ملك عنه العرى وانفكا
[١٧٩]طاب فيك الثناء والناس لاشك ... دماء من بينها كنت مِسْكا
يا مميت الأمحال[(٣)] يا محيى الآ ... مال يا أطهر ابن أنثى وأزكا

(١) ما بين حاصرتين إضافة من وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص٢١٢ .
(٢) العضُب : بمعنى السيف القاطع . انظر : المعجم الوسيط ، جـ٢ ، ص٦١٢ .
(٣) المحل : هو انقطاع المطر ويبس الأرض من الكلأ ، ويقال أرض محل لا مرعى بها ، ورجل محل أى لا ينتفع به ، انظر : المعجم الوسيط ، جـ٢ ، ص٨٦٣ .

مـا لجـيش الضـلال فى بحـر هُلكْ　　لا يحـــيلون للنجـــا منه فُلْكا
صـــاح فـــيـــهم داعى البـــوار　　فللأعين أقـذى وللمسـامع سَكّا(١)
فـتـراهم من التـضـاؤل كـالوهم　　وكـــانوا تلْع(٢) المناكـب تُمكا(٣)
بعـيــون بيض يرون بهـا الأيام　　مـــســـــودة اللـون حلـكـا
بهم يا همـام قـد ضـاقت الأرض　　فـــأوســـعـــهم بوارا و هلكا
أيقنوا بـالبـــلاء منك وقــــد　　كـان يقين الأوغـاد من قـبل سكا
وعـــدتهم بل أوعـــدتهم نفـوس　　كـــان مـيـعـــادها غـــرورا وأفكا
ولبـيض الهند الرقـاق وسـمر الخط　　أتـت رؤســــــهـم دون عـكـا
فـقـتـيل مـعـفـر ليس يودى　　وأســـيـــر مكبل لن يُفكا
أنجـــاة وقـــد طرحت عليـــهم　　كلكلاً يهـدم الجـبـال وبركـا
وتوخـيـتـهم ببـيض ظبـاة كلهـا　　يهـــتك الصـــرائر هتـكا
ظللتـهم سـمـاء جـيـشك تظليـلاً　　فـــدكت عليـــهم الأرض دكـــاً

وقال أيضاً يمدحه ويهنيه بما أوتى من الفتوح :

هذا الذى كـــانت الآمـــال تنتظر　　فَلْيُـــوفِ لله أَقْـــوام بمـــا نَذرُوا
هذا الفـتـوح الذى جـاء الزمـان به　　إليك من هفـوات الدهر يعـتـذر
تَجِلّ عَليـاه عن مـدح يحـيط به　　وصَـفـاً وإن نظم المـداح أو نثـروا
يا نعـمـة كـبرت عند الأنام له قـدرا　　فـفى كل شكر عندها صـــغـــر
لا تروين لفـتـوح بعـدها قـصـصـا　　وإن تعـاظم منه الخُـبْـرُ والخَـبَـرُ

ومنها :

يوضح الـدهر عن يوم أَغــــرَّبه　　تزهى وتفـتـخـر الآصـال والبكر
يوم تعـالـى مـجـلاً واسـتنار سنا　　فـدون مـرتبـتــه الأنجم الزُهُر

(١) السك : هو لؤم الطبع . انظر : المعجم الوسيط ، جـ١ ، ص٤٤٢ .
(٢) التلع : هو إطالة القامة والعنق . انظر : المعجم الوسيط ، جـ١ ، ص٨٦ .
(٣) تمك : بمعنى طال وارتفع وامتلأ . انظر : المعجم الوسيط ، جـ١ ، ص٨٨ .

يوم به التــأم الكفــار فى عــدد ... جم ولكن لكسر ليس ينجبر[١٨٠]
فـالروع مـتـصل والصـبـر منفـصل ... والنفع مـرتفع والنصـر منحـدر
جـاؤا كـمـا أقـبل الطود الأشم له ... من حيث ما سرت فيه مسلك وعر
وجئتهم مثل ما انقضّ القضاء فلا ... والله لـم يغـنـهـم بـأس ولا وزر
بنَفَس حـانٍ على الإسـلام ... محتمل الآلام لم يثنه خوف ولا خور
حسنى إلى الخلق أهداها مَليكهم ... نُعمى من الله مرحوماً بها البشر
وعصـبـة من بنى أيوب كـاشـفـة ... الكروب ساعة وجه النصر مستتر
مدوا كمـا مُدّ فيضُ البحر مُلتطم ... الأمـواج حتى إذا قـابلتـهم جـزروا
لقـد فـتـحت عـصامـاً من ثغورهم ... لولاك مـا هُد من أركـانهـا حـجـر
تركت أرضـهم من طول مـا عـمرت ... منهم بلاقع لا أنثى ولا ذكـر
نقضت مـا أبرموا أبرمت مـا نقضوا ... عمرت ما هدموا هدمت ما عمروا
الآن قـرت جنوب فى مـضـاجـعـهـا ... ونام من لم يزل حلفـاً له السـهـر
الآن طابت إلى البيت المقدس كـ ... ـالبيت المحرم إحـرام ومعتـمـر
يا بهجة القدس أن أضحى به علم ... الإيمان من بَعد طى وهو منتشر
يا نور مسجده الأقصى وقد رفعت ... بعـد الصليب به الآيات والسور
يا مالك الأرض مهدها فما أحد ... سـواك من قـائم للهـدْى ينتظر
أضحى بنو الأصفر الأنكاس موعظة ... فـيـهـا لأعـدائك الآيات والنذر
صاروا حديثاً وكانوا قبل حادثة ... على الورى يتقيها البدو والحضر
هذا الهمامُ صلاح الدين أشرف من ... به المـمـالك والأمـلاك تفـتـخـر
دانت ودامت لك الدنيا فما أحد ... فى الأرض إلا إلى نعماك مفتقر
يا خـاطباً جنة الفـردوس ممـهـرها ... إجرا الجياد[١] لنعم الصِهْرُ والمَهَرُ

ومدحه العلم الشاتانى واسمه الحسن بقصيدته الرائية التى أولها :

أرى النصر مقروناً برايتك الصفرا ... فسر واملك الدنيا فأنت بها أحرى

(١) إجرا الجياد : وتعنى الجهاد .

قال ابن خلكان : العلم الشاتانى[١] أبو على الحسن بن سعيد[٢] بن عبد الله بن بندار بن إبراهيم الشاتانى ، الملقب علم الدين ، كان فقيهاً غلب عليه الشعر وأجاد فيه واشتهر به ، ومولده فى سنة عشر وخمسمائة ، وتوفى فى شعبان سنة تسع وتسعين وخمسمائة بالموصل . ونسبته إلى شاتان بالشين المعجمة وبعد الألف تاء مثناه من فوق وبعدها ألف ثم نون [١٨١] ، وهى بلد بنواحى ديار بكر .

ومدحه المهذب أبو حفص عمر بن محمد بن على بن أبى نصر المعروف بابن الشحنة الموصلى ، الشاعر المشهور بقصيدته التى أولها :

سلام مشوق قد براه الشوق　　على جيرة الحى الذين تفرقوا

وعدد أبياتها مائة وثلاثة عشر بيتاً وفيها البيتان السائران

وإنى امرىء أحببتكم لمكارم　　سمعت بها والأذن كالعين تعشق

وقد أخذه من قول بشار بن برد وهو :

يا قوم أذْنى لبعض الحىِّ عاشِقةٌ　　والأذنُ تعشقُ قبلَ العينِ أحيانا

والبيت التالى من قصيدة ابن الشحنة وهو قوله :

وقالت لى الآمال إن كُنت لاحقا　　بأبناء أيوبَ فأنت المُوَفَّقُ

التاسع عشر : فى قضاته ووزرائه وكُتابه :

أما قضاته :

كمال الدين بن الشهرزورى[٣] ، وشرف الدين بن أبى عصرون[٤] ، وولده أبو حامد ، ومحيى الدين بن زين الدين[٥] ، وهؤلاء كانوا فى الشام وحلب . وأما قضاته فى مصر فكان القاضى جلال الدين أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل بن عبد الكريم الصُورى ،

---

(١) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص١١٣ ـ ص١١٤ .
(٢) «ابن سعد» كذا فى الأصل . والمثبت من وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص١١٣ .
(٣) انظر ما سبق .
(٤) انظر ما سبق .
(٥) ورد هذا النص فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٧٩ .

وكان تولى فى ذى الحجة سنة خمس وستين وخمسمائة ، ثم صرف فى السادس عشر من جمادى الأولى سنة ست وستين وخمسمائة ، وتولى القاضى صدر الدين عبد الملك ابن عيسى بن دِرْباس بن مبشر بن عبدوس الهمذانى المارانى الكُردى الموصلى[١] ، وكان قدم من الشرق فولاه السلطان صلاح الدين وكان عنده بمكانة ، وصُرف بعد وفاة صلاح الدين ، وولى مكانه القاضى زين الدين على بن يوسف الدمشقى يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة تسعين وخمسمائة وأما وزيره فكان صفى الدين بن القايد ، وأما كاتبه فكان القاضى الفاضل ، والعماد الكاتب ، وكان الفاضل حاكماً على الجميع وهو المشار إليه بالسيف والقلم ، لا يصدر السلطان إلا عن رأيه ولايمضى فى الأمور إلا بمراجعته[٢] . وقال ابن خلكان : كان القاضى الفاضل تعلق بالخدم فى ثغر الإسكندرية وأقام به مدة[٣] ، ثم آل أمره إلى أن وزرَ للسلطان صلاح الدين وترقى منزلته عنده على ما نذكره فى ترجمته إن شاء الله تعالى .

العشرون : فى ذكر من كان فى البلاد من ولاة الأمور فى سنة وفاته

كان فى دمشق الملك الأفضل ، وكان فى حلب الملك الظاهر ، وكان فى مصر الملك العزيز ، كل هؤلاء أولاد السلطان صلاح الدين ، رحمه الله[٤] .

وكان فى القدس عز الدين جُرديك النورى ، ولما بلغ العزيز وفاة والده صلاح الدين أرسل عشرة آلاف دينار إلى القدس الشريف لينفق فى العسكر المقيم به ، فخطب له عز الدين جرديك بالقدس ، وخشى من نقض الهدنة بينه وبين الإفرنج ، فأرسل إلى القدس عسكراً احترازاً من الإفرنج[٥] .

وكان فى الروم ركن الدين سليمان بن عز الدين قليج أرسلان السلجوقى ، وكان فى الموصل عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى بن آقسنقر ، وكان فى أخلاط وماوالاها بكتمر ، وكان فى مرو وغيرها سلطان شاه . وكان فى همذان وغيرها السلطان طغرل شاه

---

(١) الروضتين ، جـ١ ، ص١٩١ (أحداث ٥٦٦هـ) .
(٢) ورد هذا النص فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٧٩ .
(٣) وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص١٦٢ .
(٤) نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤٤٠ .
(٥) نقل العينى هذا النص بتصرف من الفتح القسى ، ص٦٣٠ ؛ الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٢٥ .

السلجوقى ، وكان فى غزنة [١٨٢] وما والاها شهاب الدين الغورى ، وكان فى بلاد سمرقند وغيرها خوارزم شاه ، وكان فى اليمن سيف الإسلام طغتكين بن أيوب ، وكان فى مكة الأمير داود ، وكان فى بلاد الغرب يعقوب بن عبد المؤمن ، رحمهم الله . وهذا آخر ما انتهينا من ترجمة السلطان صلاح الدين ، رحمه الله .

ذكر وفاة الأتابك عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود ابن عماد الدين زنكى بن آقسنقر صاحب الموصل

توفى فى السابع والعشرين من شعبان من هذه السنة ، وكانت مدة ما بين وفاته ووفاة السلطان صلاح الدين نصف سنة ، وكانت مدة ملك عز الدين مسعود الموصلى ثلاث عشرة سنة وستة أشهر . وكان ديناً خيراً كثير الإحسان ، وكان أسمر مليح الوجه خفيف العارضين يشبه جده عماد الدين زنكى .

وقال ابن كثير[١] : وكان عز الدين مسعود يُشَبَّهُ فى السيرة بالملك العادل نور الدين محمود عمه ، ودفن بتربته عند مدرسته التى أنشأها بالموصل ، واستقر فى الملك بعده ولده أرسلان شاه ، وكان القائم بأمره مجاهد الدين قايماز .

وفى تاريخ بيبرس : ولما بلغه موت السلطان صلاح الدين استشار أرباب دولته فأشاروا عليه بالخروج إلى جهة الشام ؛ ليأخذ البلاد إن أطاعه إخوته[٢] ، فلما وصل إلى تل موزن[٣] مرض بالإسهال ، فأقام أياماً فضعف عن الحركة ، فخاف الهلاك وترك العساكر مع أخيه عماد الدين صاحب سنجار ، ورجع إلى الموصل جريدة ، فمات بها فى رجب من هذه السنة .

وفى المرآة :[٤] وكان قد خرج من الموصل فى جمادى ؛ لقتال الملك العادل سيف الدين بن أيوب ، وكان على حران بعد موت صلاح الدين ثم عاد فى السابع والعشرين من

---

(١) نقل العينى هذا النص بتصرف من ابن الأثير ، الباهر ، ص١٨٦ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٧ ؛ الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٢٧ ؛ المختصر ، جـ٣ ، ص٨٨ .

(٢) لمعرفة المزيد عن أخوة عز الدين مسعود ، انظر : ابن الأثير ، الباهر ، ص١٨٥ .

(٣) تل مَوْزَن : بلد قديم بين رأس عين وسَرُوج . انظر : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٨٧٢ .

(٤) انظر ترجمة عز الدين مسعود بالتفصيل فى ابن الأثير ، الباهر ، ص١٨٥ ـ ص١٨٩ ؛ وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص٢٠٣ ـ ص٢٠٨ .

شعبان مريضًا ، فمات ودفن بمدرسته التى أنشأها بالموصل مقابل دار السلطنة ، وأوصى بالملك لولده الأكبر نور الدين أرسلان شاه ، وكان أخوه شرف الدين مودود يروم السلطنة فصرفها عنه أخوه عز الدين إلى ولده نور الدين أرسلان شاه ، وقام بالأمور مجاهد الدين قايماز أحسن قيام . وكان عز الدين عادلاً منصفاً محسناً عاقلاً جواداً ، صبر على حصار صلاح الدين الموصل ثلاث مرات ، وحفظ البلاد وفرق الأموال ودارى حتى سلم له الملك ، وكان قد بنى فى داره مسجداً يخرج إليه فى الليل ويصلى فيه أوراداً كانت له ، ويلبس فرجية أهداها له الشيخ عمر الصوفى فيصلى فيها(١) .

ذكر وفاة سيف الدين بكتمر صاحب أخلاط

قتل فى أول جمادى الأولى من هذه السنة ، وكان بين قتله وبين وفاة السلطان صلاح الدين يوسف شهران ، ولما بلغ بكتمر موت صلاح الدين أسرف فى إظهار الشماتة بموت السلطان ، وضرب البشائر ببلاده ، وفرح فرحاً عظيماً ، وعمل تختاً فجلس عليه ولقب نفسه السلطان المعظم صلاح الدين ، وكان اسمه بكتمر فسمى نفسه عبد العزيز ، فلم يمهل الله تعالى عليه ، وكان بكتمر هذا من مماليك ظهير الدين شاهرمن وكان له خشداش(٢) اسمه هزار دينارى ، وكان قد قوى وتزوج بابنة بكتمر ، فطمع فى الملك فوضع على بكتمر من قتله ، ولما قتل ملك بعده هزار دينارى أخلاط وأعمالها . واسم هزار دينارى المذكور آقسنقر ، ولقبه بدر الدين ، جلبه تاجر جرجانى ــ يسمى على ــ إلى أخلاط فاشتراه(٣) [١٨٣] منه شاهرمن وأعجب به ، فجعله ساقياً له ولقبه هزار دينارى ، وبقى على ذلك برهة من الزمان ، فلما تولى بكتمر على مملكة أخلاط بقى هزار دينارى من أكبر الأمراء وتزوج بابنة بكتمر عينا خاتون ، ولما قتل بكتمر خلف ولداً فأخذ هزار

(١) لم يرد هذا النص بالتفصيل فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٨٠ ؛ وإنما ورد بالتفصيل فى الباهر ، ص١٨٥ ــ ص١٨٩ .

(٢) من الواضح أن العينى تأثر بلغة عصره ، ومن ثم فقد استخدم كلمة «خشداش» بالرغم من أنها لم تستخدم فى العصر الأيوبى من قبل ، وكلمة خشداش وهى معرب اللفظ الفارسى خواجا تاش أى الزميل فى الخدمة . وتجمع خشداسية أو الخوشداشية أو الخوجداشية أو الخجداشية فى اصطلاح عصر المماليك بمصر . انظر : المقريزى ، السلوك ، جـ١ ، ص٣٨٨ ، حاشية٣ .

(٣) الكامل ، جـ١٢ ، ص٤٣ ؛ المختصر ، جـ٣ ، ص٨٨ ــ ص٨٩ .

دينارى ولد بكتمر وأمه فاعتقلهما بقلعة أزراش بموش[١] ، وكان عمر ولد بكتمر إذ ذاك نحو سبع سنين ، واستمر بدر الدين آقسنقر هزار دينارى فى مملكة أخلاط حتى توفى فى سنة أربع وتسعين وخمسمائة على ما نذكره إن شاء الله تعالى[٢] .

وفى تاريخ بيبرس : ولما بلغ الملك العادل موت بكتمر أرسل إلى الملك الأفضل يطلب نجدة ، فأرسل إليه الأفضل أخاه الملك المظفر خضراً والأمير شهاب الدين أحمد بن المشطوب ، فلما ساروا إليه إلى الفرات وعولوا على العبور طلبوا منه نفقة ، فأرسل إليهم شيئًا ، فاستغلوه ورجعوا عنه إلى دمشق بغير دستور ، وبقى الظافر فى فئة قليلة على جانب الفرات ، فتركه العادل وسار ومعه عسكر حلب وتوجه نحو سروج وتسلمها من نواب عماد الدين زنكى ، وانتقل إلى الرقة وحاصرها ، ولما تسلمها أعطاها للملك الظافر ابن صلاح الدين ، ثم نزل على نصيبين وأخذها ، فراسله عماد الدين زنكى وبذل له مالاً وصالحه ، فدفع له نصيبين والخابور ووعده أنه إذا ملك خلاط يعيد إليه الرقة وسروج ، ووصل زين الدين صاحب إربل إلى العادل وسار صحبته إلى خلاط ، فلما وصلها وجد عسكرها وأهلها قد اتفقوا مع صاحبهم هزار دينارى صهر بكتمر النورى المتوفى ، وهو الذى دس على بكتمر من قتله ، فاجتمعوا وقاتلوا الملك العادل وصدوه عنها ولم ينل منها غرضاً ، فعاد إلى الرها وأعطى العساكر دستوراً ، فتوجه كل منهم إلى مكانه .

وفى المرآة : توفى بكتمر بن عبدالله مملوك شاه أرمن بن سكمان صاحب أخلاط ، ولما مات شاه أرمن لم يخلف ولداً فاتفق خواصه على بكتمر ، فضبط الأمور وأحسن إلى الرعية وعدل فيهم وصاحب العلماء والصوفية ، وكان حسن السيرة متصدقاً ديناً صالحاً وكان لايمتنع من صوفى ، فتقدم إليه واحد فمنعه الجاندارية[٣] ، فقال دعوه ، فتقدم وبيده قصة ، فأخذها منه ، فضربه بسكين ، فشق جوفه ، فمات من ساعته ، فأخذوه [وقرروه][٤] ، فقال : نحن من الإسماعيلية وكانوا قد شفعوا إليه فى أمر لا يليق ، فلم يقبل شفاعتهم فعملوا هذا ، فأحرقوه وذلك فى جمادى الأولى[٥] .

---

(١) أزراش موش : موش بلدة من ناحية خلاط بأرمينية . معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٤٨٣ ؛ أما عن القلعة أزراش ، فلم نستدل عليها من المصادر التى وقعت بين أيدينا .

(٢) المختصر ، جـ٣ ، ص٨٨ ، ص٨٩ .

(٣) الخازندارية كذا فى المرآة ، جـ٨ ، ص٢٧١ .

(٤) «قرروا» كذا فى الأصل . والصحيح ما أثبتناه .

(٥) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٧١ .

ذكر وفاة سلطان شاه بن ألب أرسلان صاحب خراسان

مات فى هذه السنة وكان قد ملك مرو وخراسان ، ولما مات انفرد أخوه [تَكِش][١] بالمملكة . وقال المؤيد فى تاريخه[٢] : وفى سنة تسع وثمانين وخمسمائة توفى سلطان شاه بن ألب أرسلان بن أطسز بن محمد بن أنوش تكين ، وتولى بعده أخوه[٣] تكش والله أعلم[٤] .

ذكر وفاة قيطرمش بن عبد الله المستنجدى شحنة بغداد من أيام المستضىء إلى هذه السنة

مات فى هذه السنة ، وكان شجاعاً مهيبًا وله هيبة عظيمة على المفسدين ، وله معهم حكايات ، وكانت بغداد فى أيامه مثل المهد من الجانبين[٥] . وقيطرمش بفتح القاف[١٨٤] وسكون الياء آخر الحروف وفتح الطاء المهملة وسكون الراء وكسر الميم وفى آخره شين معجمة ، وهو اسم تركى .

ذكر وفاة الأمير داود بن عيسى بن محمد ابن أبى هاشم أمير مكة

مات فى هذه السنة ، وما زالت إمارة مكة له تارة ولأخيه مكثر تارة أخرى حتى مات[٦] .

ذكر بقية الحوادث فى هذه السنة

منها أن الخليفة الناصر لدين الله جدد خزانة كتب للمدرسة النظامية ببغداد ، ونقل إليها ألوفاً من الكتب الثمينة الحسنة[٧] . وفى المرآة : نقل إليها الخليفة عشر آلاف مجلدة فيها الخطوط المنسوبة .

---

(١) «بكش» كذا فى الأصل . والمثبت من الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٢٩ .
(٢) المختصر ، جـ٣ ، ص٨٩ .
(٣) ورد فى أبو الفدا «ابنه» ، المختصر ، جـ٣ ، ص٩٨ .
(٤) المختصر ، جـ٣ ، ص٩٨ .
(٥) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٧١ .
(٦) الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٢٩ .
(٧) الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٢٩ .

ومنها أنه تم بناء دار الحريم الظاهرى[١] والرباط ، ونقل إليها الخطوط المنسوبة ، ورتب فى الرباط عشرة من الصوفية الأخيار أرباب المجاهدات ، ورتب فيها طعاماً كل يوم خارجاً عن راتب الصوفية ، وكان الخليفة يتردد كل يوم إلى الرباط المذكور ، فيوماً لايحضر يحمل راتبه إلى الصوفية ، وولى الرباط بهاء الدين أحمد الميهنى شيخ رباط الأخلاطية .

ومنها أنه فتحت المدرسة التى إلى جانب تربة والدة الخليفة عند معروف الكرخى ، وحضر أرباب الدولة وعمل سماط عظيم ، وسلمت إلى الشيخ أبى على النوقانى ــ رحمه الله ــ فدرس بها[٢] .

ومنها أن فى ليلة عيد النحر ظهرت ببغداد نجمة عظيمة من جانب الشرق فأضاء منها الأفق وبهر ضوؤها وأقامت طول الليل ، وظهر عمود من السماء إلى الأرض عرضه مقدار ثلاثة[٣] رماح .

ومنها أن امرأة بحلب ولدت أربعة أولاد فى بطن واحد[٤] .

ومنها أن خوارزم شاه تكش خرج لقصد بلاد طغرل السلجوقى ، وأخذ فى الاستيلاء عليها أولاً فأول ، وأرسل أينانج خان إلى الرى وما والاها ، فملكها واستقر بها .

ومنها أن شهاب الدين الغورى شتى فى بَرْشاوور ، وجهز مملوكه أيبك فى عساكر كثيرة إلى بلاد الهند ، ففتح وغَنَم وعاد منصوراً مؤيداً[٥] .

ومنها أن الخليفة الناصر لدين الله بعث إلى ابن الجوزى يسأل منه أن يزيد على أبيات عدىّ بن زيد المشهورة ما يناسبها من الأشعار ولو بلغ ذلك عشر مجلدات وهى هذه :

أيها الشامت المغتر بالدهـ ـر[أأنت][٦] المبرأ الموفور؟

---

(١) الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٢٩ .
(٢) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٧٠ ــ ص٢٧١ .
(٣) «ثلاث» فى الأصل . والمثبت هو الصحيح .
(٤) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٧١ .
(٥) الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٢٩ .
(٦) [أأنت] إضافة من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٩ .

أم لديك العهد الوثيق من الـ أيام بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلدت أم دا م عليه من أن يضام خفير
أين كسرى الملوك أبو ساسان أم أين قبله سابور
وبنو الأصفر الكرام ملوك الر وم لم يبق منهم مذكور
وأخو الخضر اذ بنى وادى دجلة تجبى إليه والخابور
شاده مرمراً وجلله كلسا فللطير فى داره وكور
لم تهبه أيدى المنون فزا ل الملك عنه فبابه مهجور
وتذكر رب الخورنق إذا أشرف يوماً وللهدى تبكير
سره حاله وكثرة ما يملك والبحر معرضاً والسدير[١٨٥]
فارعوى قلبه ومال وما غبطه حى إلى الممات يصير
ثم بعد الفلاح والملك والأمـ ـر وارتهم هناك قبور
ثم أضحوا كأنهم ورق جف فألوت به الصبا والدبور
غير أن الأيام [تختص بالمرء وفيها لعمرى العظات والتفكير][١]

وفيها حج بالناس من العراق قطب الدين سنجر الخليفتى ووقف ومكس الحاج ، ومن الشام حصن الدولة إبراهيم بن السلار .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

جعفر[٢] بن محمد بن قطرا ، أبو الحسن ، أحد الكتاب بالعراق ، وكان ينسب إلى التشيع ، جاءه رجل ذات يوم فقال له : رأيت البارحة أمير المؤمنين على بن أبى طالب ﷺ وهو يقول : إذهب إلى ابن قطرا فقل له يعطيك عشرة دنانير . فقال له ابن قطرا متى رأيته؟ قال : أول الليل . قال : فأنا رأيته فى آخره وقال لى : إذا جاءك رجل من صفته كذا وكذا فطلب منك شيئًا فلا تعطيه . فأدبر الرجل مولياً فاستدعاه ووهبه شيئًا . ومن شعره فيما أورده ابن الساعى :

(١) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل ، والإضافة من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٠ .
(٢) «جعفر بن محمد بن فطيرا» كذا فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٨ .

ولما سبرت الناس أطلب منهم أخا ثقة عند اعتراض الشدائد
وفكرت فى يومى سرورى وشدتى وناديت فى الأحياء هل من مساعد؟
فلم أر فيما ساءنى غير شامت ولم أر فيما سرنى غير حاسد[١]

ذكر ابن كثير وفاته فى هذه السنة

يحيى بن سعيد بن فارس أبو العباس البصرى النصرانى[٢] ، صاحب المقامات ، كان شاعراً أديباً فاضلاً له اليد الطولى فى اللغة والنظم ، توفى فى هذه السنة .

جرادة الواعظ ، واسمه المنصور بن المبارك بن الفضل أبو المظفر الواسطى ، قدم بغداد واستوطنها وكان يعظ فى المساجد وعظاً مطبوعاً ، وكان كيساً ظريفاً وله واقعات عجيبة ، جلس يوماً بمسجد باب أبرز وذكر حديث النبى ﷺ «من قتل حية كان له قيراطان من الأجر ، ومن قتل عقرباً كان له قيراط» . فقام واحد وقال : ياسيدنا ومن قتل جرادة . قال : يصلب على باب المسجد[٣] . وسأله رجل يوماً فى المجلس فقال : أين يقف جبريل من العرش؟ وأين يقف ميكائيل وإسرافيل وعزرائيل؟ فكاسر[٤] ساعة ، ووقع فى المحلة خباط فقال لبعض الناس : قم واخرج واكشف لنا ما هذا . فخرج الرجل وعاد فقال : إنسان قد ضرب زوجته فقوى الصراخ . فقال لآخر : قم أنت واكشف الخبر . فقام وخرج وعاد فقال : رجل قد مات والورثة يتضاربون على التركة . فقال : «يا فعلة يا صنعة ، بينكم وبين باب المسجد خطوات وما فيكم من يخبر بما فيه على الحقيقة ، من أين أعلم أنا أين يقف جبريل وأين يقف ميكائيل والملائكة» فضحك الناس .

وله فصول ومواعظ وكان يزعم أنه قرأ المقامات على الحريرى ، وقد سمع أبا الوقت[٥] وطبقته ، وكان صدوقاً [١٨٦] .

السيدة زبيدة بنت الإمام المقتفى[٦] **بأمر الله** ، أخت المستنجد وعمه المستضىء ، كانت قد عمرت دهراً طويلاً ، ولها صدقات كثيرة ، وقد تزوجها فى وقت السلطان مسعود

---

(١) وردت هذه الأبيات فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٧ .
(٢) «النجرانى» كذا فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٧ .
(٣) ورد هذا الخبر فى شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص٣٠٠ .
(٤) كاسر : كاسر الرجل عن مراده أى صرفه . انظر : المعجم الوسيط ، جـ٢ ، ص٧٩٣ .
(٥) أبو الوقت : هو أبو الوقت عبد الأول بن أبى عبد الله عيسى بن شعيب بن إبراهيم بن إسحاق السجزى ، كان شيخًا صالحًا ولد بمدينة هراة ، وتوفى سنة ٥٥٣هـ ، انظر : وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٢٢٦ ــ ص٢٢٧ .
(٦) انظر ترجمتها فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٧ .

على صداق مائة ألف دينار ، فتوفى قبل أن يدخل بها وقد كانت كارهة [لذلك][1] فحصل مقصودها . ماتت فى هذه السنة[2] .

الشيخة فاطمة خاتون[3] **بنت محمد بن الحسن العميد** ، كانت صالحة عابدة زاهدة ، عمرت مائة سنة وست سنين ، وكان قد تزوجها فى وقت أمير الجيوش قطر وهى بكر ، فبقيت عنده إلى أن توفى ولم تتزوج بعده بل اشتغلت بذكر الله والعبادة إلى أن توفيت فى هذه السنة .

(١) ما بين حاصرتين إضافة من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٧ .

(٣) انظر ترجمتها فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

لم أكن أنوى القيام بكتابة توطئة لهذا الجزء الذى بين أيدينا وهو الجزء الثالث من هذا السفر الضخم (عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان) للمؤرخ الكبير «بدر الدين محمود العينى» ، وذلك لأننى سبق أن قدمت للكتاب عموماً فى افتتاحية الجزء الأول .

ولكن حدثت أمور تتصل بهذا الجزء تطلبت منى أن أسطر هذه التوطئة ، وذلك لعدة أسباب :

من هذه الأسباب ما يرجع إلى المخطوطات المعتمدة فى هذا التحقيق ، إذ فوجئت بسقوط سنتين من الكتاب هما سنة «٦٠٠هـ وسنة ٦٠١هـ» . وقد أشرت إلى ذلك فى الحاشية المختصة بسنة ٦٠٢هـ . ومن هذه الأسباب كذلك ما حفل به هذا الجزء من أحداث تاريخية بعد وفاة السلطان « الناصر صلاح الدين» ، الذى تقاسم أولاده الملك من بعده ، وكان للعادل أخيه نصيب فى ذلك ، حيث تولى ولاية الكرك والشوبك ، غير أن العادل أخذ يؤلب أبناء صلاح الدين على بعضهم البعض حتى صفا له الجو فانفرد بالسلطة كلها ، ولم يكتف بذلك بل نقل ولاية العهد من أبناء أخيه إلى أبنائه هو ، مما كان له الأثر البعيد على مصير دولة بنى أيوب كلها . لذلك كان لابد لى من الإشارة إلى ذلك .

والسبب الأخير لهذه التوطئة هو أننى يجب أن أُذَكِّر القارىء الكريم أن العينى لم يقسم كتابه إلى أجزاء ، وإنما تناوله من حيث العصور الإسلامية المتعاقبة . وبالنسبة للعصر الأيوبى فقد أخذت على عاتقى تقسيمه إلى أجزاء ، وحاولت أن أوجد توازناً بينها من حيث الحجم ، إلا أننى وجدت نفسى مضطراً إلى أن يكون هذا الجزء أكبر حجماً من

سابقيه ، نظراً لأننا أردنا أن نجمع الأحداث التاريخية كاملة فى عصر السلطان العادل الأيوبى حتى وفاته فى سنة ٦١٥هـ .

ولا يفوتنى فى هذا المقام أن أتقدم بالشكر للزميلات الباحثات الفضليات بلجنة التاريخ بمركز تحقيق التراث اللاتى شاركن معى فى إنجاز هذا الجزء بكل تفان وإخلاص وهن :

د . لبيبة إبراهيم مصطفى محمد   الأستاذة/ نفيسة محمد محمد صميدة

الأستاذة/ نعمات عباس محمد ، التى شاءت ظروفها ألا تكمل معنا هذا العمل .

السيدة/ إيزيس سامح زكى

والله من وراء القصد ، وبه التوفيق والسداد .

المحقق

دكتور/ محمود رزق محمود

الهرم- الأريزونا

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة التسعين بعد الخمسمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين[1] الله العباسى ، وصاحب مصر الملك العزيز ابن السلطان صلاح الدين ، وصاحب الشام الملك الأفضل بن صلاح الدين ، وصاحب حلب الملك الظاهر بن صلاح الدين ، والملك العادل أخو صلاح الدين فى الشرق ، ووقعت الوحشة بين الأخوين الأفضل والعزيز إلى أن أدت إلى قدوم العزيز إلى دمشق .[2]

ذكر توجه العزيز إلى الشام لأخذها من أخيه الأفضل

وفى شهر جمادى [الأولى][3] قدم العزيز إلى دمشق ليأخذها من أخيه الأفضل ، فخيم علي الكسوة[4] يوم السبت سادس جمادى و حاصر البلد فمانعه أخوه ، ودافعه ، وقطعت الأنهار ، ونهبت الثمار ، ولم يزل الأمر كذلك حتى قدم الملك العادل عمهما من الشرق فأصلح بين الأخوين ورد الألفة بعد البين ، على أن يكون للعزيز البيت المقدس وما جاوز[5] فلسطين من ناحيته أيضًا ، وعلى أن تكون جبلة[6] واللاذقية[7] للملك الظاهر صاحب حلب ، وأن يكون للعادل إقطاعه الأول ببلاد مصر مضافاً إلى ما بيده من مملكة الكرك[8] والشوبك[9] وبلاد الجزيرة كحران[10] والرها[11] وجعبر[12] وما جاور تلك

(*) يوافق أولها ٢٧ ديسمبر سنة ١١٩٣م .
(١) انظر ما سبق ، ج١ ، ص٢١٣ ، حاشية ١ .
(٢) مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص١٤ - ص١٥ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٨ - ص٩ .
(٣) ما بين حاصرتين إضافة من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٨ .
(٤) الكسوة : انظر ما سبق ، جـ١ ، ص١٠٦ ، حاشية ٣ .
(٥) «جاور» فى الكامل ، جـ١٢ ، ص٤٦ ؛ نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ، ص٤٤٥ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٩ .
(٦) جبلة : انظر ما سبق ، جـ١ ، ص٤٤ ، حاشية٤ .
(٧) اللاذقية : انظر ما سبق ، جـ١ ، ص٤٤ ، حاشية٤ .
(٨) الكرك : انظر ما سبق ، جـ١ ، ص٣٤ ، حاشية٥ .
(٩) الشوبك : قلعة حصينة فى أطراف الشام بين عَمّان وأَيْله والقُلْزُم قرب الكرك . انظر : معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٣٣٢ .
(١٠) حَرَّان : انظر ما سبق ، جـ١ ، ص٤٤ ، حاشية ١٠ .
(١١) الرها : انظر ما سبق ، جـ١ ، ص٤٤ ، حاشية٩ .
(١٢) قلعة جعبر : انظر ما سبق ، جـ١ ، ص٤٩ ، حاشية ٣ .

النواحى ، فاتفق الحال على ذلك وتزوج الملك العزيز بابنة عمّه الملك العادل ، ومرض ثم عُوفى وهو مخيّم بمرج الصُّفر[١] ، وخرجت الملوك لتهنئته بالعافية والتزويج والصلح ، ثم كَرَّ راجعاً إلى بلاده . وكان الأفضل قد أساء السيرة والتدبير فأبعد أمراء أبيه وخواصه ، وقرب الأجانب ، وأقبل على شرب المسكر واللهو واللعب ، واستحوذ عليه وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزرى وهو الذى كان يحدوه على ذلك ، فتلف وأتلفه وزالت النعمة عنهما كما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى[٢] .

وفى تاريخ المؤيد[٣] : وفى هذه السنة أعنى سنة تسعين استحكمت الوحشة بين الأخوين العزيز والأفضل ابنى السلطان صلاح الدين ، فسار [العزيز][٤] فى عسكر مصر وحصر أخاه الأفضل بدمشق ، وأرسل الأفضل إلى عمه العادل وأخيه الظاهر وابن عمه المنصور[٥] صاحب حماة ؛ يستنجدهم ، فساروا إلى دمشق وأصلحوا بين الأخوين ، ورجع العزيز إلى مصر ورجع كل ملك إلى بلده ، وأقبل الأفضل بدمشق على الشرب وسماع الأغانى [١٨٧] والأوتار ليله ونهاره ، وأشاع ندماؤه أن عمه العادل حَسَّنَ له ذلك ، وكان يعمله بالخفية . فأنشد العادل :

فلا خير فى اللذات من دونها سِترُ

فقبل وصية عمه وتظاهر بذلك ، وفوض أمر المملكة إلى وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزرى يدبرها برأيه الفاسد ، ثم إن الملك الأفضل أظهر التوبة عن ذلك ، وأزال المنكرات ، وواظب على الصلوات ، وشرع فى نسخ مصحف بيده .[٦] وفى تاريخ ابن العميد وفى سنة تسعين : عزم الملك العزيز على أخذ دمشق من أخيه فبلغه الخبر ، فخرج إلى رأس الماء[٧] وخيم به ليقابله ، واستشار أصحابه فاختلفت آراؤهم ، وفارقه

---

(١) مرج الصُّفر : من نواحى دمشق إلى الجنوب الغربى منها . انظر : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٤٨٨ ؛ نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤٤٥ .

(٢) ورد هذا الخبر بتصرف فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٩ ؛ مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص١٢-ص١٣ .

(٣) انظر : المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص٨٨ .

(٤) «العسكر» كذا فى الأصل والمثبت من المختصر ، جـ٣ ، ص٩٠- ص٩١ .

(٥) هو الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالى محمد بن تقى الدين عمر الأيوبى صاحب حماة . توفى سنة ٦١٧هـ ، انظر : وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٤٥٧ .

(٦) المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص٩٠-ص٩١ .

(٧) رأس الماء : انظر ما سبق ، جـ٢ ، ص٥٦ ، حاشية ٥ .

الأمير صارم الدين قايماز النجمى[١] ، ومضى إلى الملك العزيز فجعله من أكبر أمرائه ، فكاتب الأفضل أخاه الظاهر صاحب حلب ، وسأله الاتفاق والمعاضدة ، فأجابه إلى ذلك وتحالفا عليه ، وكتب إلى عمه العادل يستنجده ويستصرخ به ، وسار العزيز إلى الشام ووصل إلى الفوار[٢] ، وكان أخوه الأفضل نازلاً بها ، فخالطت مقدمته ساقة عساكر دمشق ، فولوا منهزمين ، ودخل الأفضل إلى دمشق ، ونزل العزيز الكسوة لست مضين من جمادى الآخرة ، ثم نزل فى السابع منه على دمشق وحاصرها ، والأفضل يُدافع ويمانع إلى أن وصل العادل وكتب إلى ابن أخيه العزيز يسأله الاجتماع به ، فاجتمعا راكبين بصحراء المِزّة[٣] ، فسأله الإقلاع عن قتال أخيه ، فأجاب إلى ذلك ، ثم تأخر العزيز مرحلة[٤] إلى صوب داريا[٥] والأعوج ، وكان بدمشق عند الأفضل الملك المنصور صاحب حماة ، والملك المجاهد[٦] صاحب حمص ، والملك الأمجد[٧] صاحب بعلبك ، ثم وصل الملك الظاهر صاحب حلب ، ووقع الاتفاق بين الجميع ، ورحل العزيز إلى مرج الصفر وكتب نسخة مضمونها أن يكون كل واحد من الظاهر والأفضل والعادل ببلاده بعساكره آمناً من أن يقصده صاحبه ، وأن يكون الملك المجاهد صاحب حمص ، والملك الأمجد صاحب بعلبك مع الملك الأفضل مُؤازراً له ، وأن الملك المنصور صاحب حماة يكون مع الظاهر صاحب حلب مُؤازِرا له ، وحلف الملك العزيز بهذا وزال الخلاف ، وسكنت الدهماء ، وخطب العزيز ابنة عمه العادل ، فأجابه إلى ذلك وعقد عقد النكاح ، وكان متوليه القاضى محيى الدين بن زكى الدين قاضى القضاة بدمشق ، وحلفت الملوك ، ورجع العزيز إلى مصر فى مستهل شعبان ، ورجع العادل إلى بلاده

---

(١) صارم الدين قايماز بن عبدالله النجمى : من أكبر أمراء الدولة الصلاحية وهو مملوك نجم الدين أيوب بن شاذى والد الملوك ، توفى فى سنة ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م . انظر : مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٢٧ ؛ نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤١١ .

(٢) الفوَّار : بالشام من أرض السواد ، انظر : زبدة الحلب ، جـ٣ ، ص١٣٤ ، حاشية٢ ؛ العماد الأصفهانى : خريدة القصر ، قسم شعراء مصر ، جـ١ ، ص٧ ، حاشية ٣ .

(٣) المزة : انظر ما سبق ، جـ١ ، ص٣١٢ ، حاشية ٩ .

(٤) المرحلة : المسافة التى يقطعها المسافر فى نحو يوم . انظر : محيط المحيط ، مادة «رحل» .

(٥) داريا : انظر ما سبق ، جـ١ ، ص٤١ ، حاشية ٣ .

(٦) الملك المجاهد : أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه ومولده فى سنة تسع وستين وخمسمائة وتوفى يوم الثلاثاء تاسع عشر شهر رجب سنة سبع وثلاثين وستمائة بحمص . وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص٤٨٠ .

(٧) الملك الأمجد : انظر ما سبق ، جـ١ ، ص٣٢٧ ، حاشية ٨ .

الشرقية ، وأقبل الأفضل على اللهو والشرب وأعرض عن مصالح الرعية ، والأمور كلها بيد وزيره الجزرى ، وكان الجزرى سيء التدبير ، ناقص الرأى ، رديء السيرة ، ففسدت الأمور بسببه ، وفارق الأفضل عز الدين سامه ، والأمير شمس الدين إبراهيم بن السلار[١] ، ومن الأعيان جمال الدين بن أبى الحصين والقاضى[٢] محيى الدين لما شاهدوا من الأحوال الردية . وعرض الأمير عز الدين سامه وابن السلار وغيرهما على الملك العزيز على أن يحارب أخاه الأفضل ويسير إلى الشام والأفضل غافل عن مصالحه ، مُستهم بلهوه ، فبينما هو كذلك إذ أصبح الأفضل ذات يوم مظهراً للتوبة ، ونادى فى الناس بإراقة الخمور ولازم [١٨٨] الاعتكاف والصلاة والعبادة والصدقات ، ولبس القطن ونهى عن المنكر وأمر بالمعروف وجالس الفقراء[٣] ، وواكلهم وبالغ فى قهر النفس إلى أن صار يصوم النهار ويقوم الليل .

وفى المرآة[٤] : وفيها أى فى سنة تسعين عاد الاختلاف بين العزيز والأفضل ، وقد ذكر العماد القصه فقال : لما كان العزيز نازلاً على الفوار رحل أبو الهيجاء والأسدية عشية الاثنين رابع شوال ، وكانوا أكثر العسكر ، وأخبر العزيز[٥] بهم فما بالى بانصرافهم . وقال : صفونا من أكدارهم ولم يأمر أصحابه باتباعهم ، وبقى فى خواص نفسه تلك الليلة ورحل ، واتفق العادل والأفضل على أن يكون ثلث البلاد للعادل والثلثان للأفضل وهو السلطان ، واستناب الأفضل بدمشق أخاه قطب الدين موسى ، وخاف العزيز من الأسدية الذين بالقاهرة أن يفعلوا كما فعل إخوانهم ويمنعوه من دخولها ، وكان قد استناب بها بهاء الدين قراقوش ثقة بمودته ، فلما وصل إلى القاهرة خرج قراقوش والأسدية إلى لقائه

---

(١) نقل العينى هذه الأحداث بتصرف من مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٢٨-ص٣٤ ؛ السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص١١٦-ص١١٧ .

(٢) القاضى محيى الدين :
أبو المعالى محمد بن أبى الحسن على بن محمد بن يحيى بن على بن عبدالعزيز بن على بن الحسين بن محمد بن عبدالرحمن بن القاسم بن الوليد بن القاسم بن عبدالرحمن بن أبان بن أمير المؤمنين عثمان بن عفان (رضى الله عنه) القرشى ، الملقب محيى الدين المعروف بابن زكى الدين الدمشقى ، الفقيه الشافعى ، ولد سنة خمسين وخمسمائة بدمشق ، وتوفى فى سابع شعبان سنة ثمان وتسعين وخمسمائة بدمشق .
انظر : وفيات الأعيان ، ص٢٢٩-٢٣٦ .

(٣) يقصد بالفقراء هنا المتصوفة .

(٤) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٨٢-٢٨٣ ؛ نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤٤٧ ؛ الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٣٠ .

(٥) «العدو» فى المرآة وهو خطأ ، إذ ذكرها أبو شامة «العزيز» ؛ الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٣٠ .

فأكرمهم وأحسن إليهم . وفى تاريخ بيبرس : وفى صفر من سنة تسعين حلف العزيز لعمه العادل على أنه يصافيه ويوادّه ويبقى له ما بيده من الضياع والقلاع بالشام ومصر ، واستشعر ميمون القصرى ، وألبكى الفارسى ، وسنقر الكبير تغيّر الأفضل عليهم لأنهم كانوا انفصلوا عن العادل وعادوا بغير إذنه ، فكتب يشير على الأفضل بأخذ أخبازهم[١] ، فلما أحسوا بذلك تسحبوا إلى مصر ، وركب الجيش فلم يدركوهم ، فأخذوا نساءهم فوضعوهن فى الشقيف ، وأعطى الأفضل إقطاعاتهم لمماليكه وخواصه ، ووصل رسول الملك العادل إلى العزيز وكتابه يخبره أن الهدنة قد انفسخت مع الإفرنج بسبب تعديهم وأخذهم جُبَيل[٢] ، وكانوا قد أخذوها على ما نذكره عن قريب إن شاء الله ، وإن اجتمعت العساكر بمصر والشام فلا قبل للإفرنج بهم . وقال فى آخر كلامه : إن العادل يحضر ومعه عشرة آلاف فارس للمعونه على الإفرنج[٣] . وعند ذلك تجهز العزيز وخرج إلى المخيم ، وندب العسكر للخروج وضيق عليهم فى التأخير ، وأقام بالقاهرة بهاء الدين قراقوش ، وصيرم ، وسيف الدين يازكوج ، وخطلخ ، وجماعه من الأمراء عدتهم تسعمائه فارس[٤] ، واحتاط على القصبيات بالغور وهى جارية فى إقطاع الأفضل ، وخرج أخوه الأفضل من دمشق لتخريب حصن كوكب ، ونزل على رأس الماء فى سبعمائة فارس ، وراسل الظاهر فى الصلح ، فتم الصلح بين الظاهر والأفضل على أن ينزل له الأفضل عن اللاذقية وجبلة ، وشرط عليه الأفضل أن ينجده ، وتوجه العزيز بعسكره إلى نحو دمشق واستولى على ميدان الحصى ، وأقطع بلد دمشق وشرع فى جمع الرجال وبين يديه قايماز النجمى متولى جميع الأمور ، وكتب العزيز كتاباً إلى العادل يقول فيه : إنا ما خرجنا من القاهرة إلا لخلاص جبيل من الإفرنج ، فبلغنى أن الأفضل قد حالف علينا وأراد تسليم البلاد للكفار فأحوجت الضرورة إلى أن شقت إليه وقد بلغنى أنك تدخل بينى وبينه ، وحاشاك من ذلك وأنا خير لك منه ، وإن أردت أن تكون أنت السلطان ورئيس [١٨٩] الجماعة فأنا راض بذلك ومبلغ غرضك[٥] .

---

(١) مفردها خبز . ومعناه الإقطاع من الأرض ، وهى كلمة مشتقة من اللغة اللاتينية . انظر Dozy: Supp.Dict.Arab ؛ السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص٦٥ ، حاشية ٧ .

(٢) جبيل : انظر ما سبق ، جـ١ ، ص٢٧٤ ، حاشية ١٢ .

(٣) ورد هذا الخبر فى السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص١٢١ ؛ زبدة الحلب ، جـ٣ ، ص١٣٠ .

(٤) ذكر النويرى أن عدد الأمراء كان ألفى فارس . نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ، ص٤٤٤ .

(٥) نقل العينى هذا الحدث بتصرف من السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص١١٦ ؛ نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤٤٤-٤٤٥ .

وكتب عدة كتب للظاهر ولغيره من ملوك الأطراف ، وترددت الرسل من الأفضل إلى العزيز فى طلب الصلح ، وبذل كل مراد من سِكّة وخطبة وطاعة فامتنع إلا بتسليم دمشق ، فأرسل الأفضل نجابيه يستحث العادل والظاهر والمنصور صاحب حماة ليستنجدوه ، ولما بلغ العادل نزول العزيز على دمشق وحصاره أخاه الأفضل عبر الفرات واجتمع بالملك الظاهر وشفع فى دلدروم الياروقى والياروقية[١] . فخلع عليهم وطيب قلوبهم ورحلوا جميعاً فنزلوا حماة وأتت رسل العادل إلى العزيز ، يذكر أن وصوله للإصلاح بين الأخوة ، فكتب إليه العزيز كتاباً بخطه بالابتهاج بمقدمه ، وبذل الرجوع إلى رأيه ، وجهز فخر الدين أياز جهاركس[٢] فى عدة وعدة مجملة للقاء الملك العادل ، وحلف لرسوله على الوفاء به والرجوع إلى رأيه ، فلما وصل العادل إلى العزيز سفر بالصلح بينه وبين الأفضل ، فكتب العزيز كتاباً إلى نوابه بأن لا يمنعوا نواب الأفضل شيئاً من إقطاعاته ويبسطوا أيديهم . ورحل العزيز عن دمشق عائداً إلى ديار مصر بعد الصلح على أن يكون للعادل الخبز العادلى الذى كان له بمصر وحران والرها بالجزيرة والشوبك والكرك بالشام ، وأن يكون للأفضل دمشق وأعمالها ، وأن العادل يقرر الخطبة للعزيز ويضرب السكة باسمه ، وأن ينجده العزيز بألف فارس ليفتح خلاط[٣] .

ولما توجه العزيز إلى مصر خرج الأفضل والظاهر لوداعه ، ورحل العادل إلى حلب ، فسير الظاهر أخاه الزاهر[٤] لتلقيه ، فلما وصل نزل الظاهر إليه وتلقاه وأصعده إلى القلعة[٥] ونزل منها وحلف أنه لا يطلع إليها إلا بعد أن يهبها له العادل هبة جديدة ، ففعل كل منهما ما ظنه الآخر فيه ، فقال الرشيد النابلسى[٦] يذكر الصلح ويمدح الظاهر :

---

(١) عن هذا الخبر راجع ، مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٢٩ .

(٢) فخر الدين أياز جهاركس : هو أبو المنصور جهاركس بن عبدالله الناصرى الصلاحى الملقب بفخر الدين ، كان من أمراء الصلاحية ، وتوفى فى سنة ٦٠٨هـ . انظر : مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص١١ .

(٣) ذكر هذا الخبر بتصرف فى السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص١١٦- ص١١٧ ؛ نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤٤٧-٤٤٨ .

(٤) الزاهر : أبو سليمان داود الملقب الملك الزاهر مجير الدين بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ولد بمدينة القاهرة لسبع بقين من ذى الحجة ، وقيل ذى القعدة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وتوفى فى البيرة فى ليلة التاسع من صفر سنة اثنتين وثلاثين وستمائة . وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص٢٥٧-٢٥٨ .

(٥) عن هذا الخبر بالتفصيل انظر : مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٣٦ ؛ نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤٤٥ ؛ السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص١١٧ ، ١١٨ .

(٦) الرشيد النابلسى : أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن بدر بن الحسن بن بكار الشاعر المعروف بابن النابلسى ، توفى بدمشق ٦١٩هـ ، ودفن بباب الصغير . انظر : وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص٢٦٦ ، جـ٧ ، ص٣٤١ ، ترجمة٢٦٣ .

أنجزَ الدهرُ فيكُم معادى ... بعدَ طُول الإبراقِ والإرْعادِ
ورجعتم إلى مكارمِ كانت ... لعُلاكم مُذ كنتم خيرَ عادِ
وتعاهدتُم عهودَ وفاءٍ ... جمعَتْ شملَكُم لكَبْتِ الأعادِ
وتسنمتُم من العزِّ هَضْبا ... يَنظُر النجمَ أَوْجه منْ بِعَادِ
لم يَكْن لايقاً بنجلِ صلاح ... الدين حالُ معذوقة بفسَادِ
حاش لله ما عهدنا النُجومَ ... الزُهْرَ يُدعَى من شَملِها ببِدادِ[١٩٠]
أرأيتَ الأشْبالَ يَخرجُ يومًا ... خُلْقُها عن خَلائقِ الآسَادِ
أيُّما والدٍ به رحِمَ اللّهُ ... البرَايَا وأيُّما أَوْلاد
بَدأ الخيرَ للعِبادِ وما منهمْ ... سوى عايدٍ بما هُو بَادِ
بِأَبى من عليه أجمعت الآ ... راءُ إذ صحّ فيه كلٌّ اعتقادِ
لهو الظاهرُ الذى أظهر اللهُ ... به مُعجزَ النُهَى والسَّدادِ
والذِّى حَلَّ من مَكارمه الذرْوة ... فالناسُ حَولَه كالوِهَادِ
مرضَ الحقُ ثم صَحَّ فقد قَرّت ... عيُونُ الأسَاةِ(١) والقوادِ
خَلةٌ(٢) ساء صُنعُها فاسْتحَالت ... خُلةً(٣) ذات صفوةٍ ووداد
كدرت بعض ما صَفا مِن قلُوبٍ ... زَال ما اسْتَشعَرَت من الأحقادِ
دولةٌ ألفَ المودة فيها ... رَأيُك الجَزلُ بعدَ طول شِرَادِ
حَالَ قوم أنّى يمخُضُوا زُبدةَ ... القصد بها فانثنَوْا عنِ الأقصادِ
يالها من غوايةٍ لم يكن ... إلاك فيها الهادى إلى الإرشادِ
كُنت فيها الغِياثَ كاسْمِك ... للإسلامِ بين الإسعافِ والإسعادِ
فليغردْ بحمدِك الملكُ الأفضلُ ... مع رائحٍ إليه وغادِ
آل أيوب طال باعُ المعالى ... إن جنحتم لرقة الأكبادِ
شِدتم ذروةَ العُلى ... بعدما أشفت وزالت أركانُها لانهداد
فرق ما بينكم وبينَ ملوكِ الأرضِ ... فرقُ الأرواحِ والأجسادِ

---

(١) الأُسَاة : الآسى الجراح والطبيب والجمع أُسَاة . مجمع اللغة العربية : المعجم الوجيز ، ص١٨ .
(٢) خَلَّة : الثقبة الصغيرة والحاجة والفقر والخَصْلة . المعجم الوجيز ، ص٢١٠ .
(٣) خُلَّة : كل نبت حلو ، والصداقة والمحبة التى تخللت القلب فصارت خِلاله فى باطنه . المعجم الوجيز ، ص٢١٠ .

لو تصورتم بحوراً لكانوا كسواقٍ فى لُجّكم وثماد[١]
بذلوا طارفَ الندى وبذلتم ما وجدتم من طارفٍ[٢] وتلاد[٣]
أيْقظُوا رقدَة النُّهى للأمانى وافتحوا مقلة الوغى للجهادِ
جردوا عزايماً قاطعات ليس تمضى السيوفُ فى الأغمادِ
قلما يرتقى السُعُود صُعُوداً بسوى البيضِ أو بسمرِ الصعادِ
فابثوها مثل الجرادِ جيوشا تحجبُ الأرضَ عن جيوشِ الجرادِ
ليس فيها الأجوادُ من الأبطال مُستوطَنٌ لظهرِ جوادِ [١٩١]
لا تتوافى رعاية الدينِ والدنيا بذَبٍ عن الهُدَى وَذِيَادِ
أيّها المالكُ المكارمَ رقا أَنتَ أولى الورى بملكِ البلادِ
لك منها إن شئت أعلا محل غير مستبعدٍ وأوطى مهادِ
ومتى دانَ للفتى العدلُ والإحسانُ دانت له رقابُ العبادِ
أنت نجمٌ رجم لماردة الإنس وللطالبِ الهُدَى منك هَادِ
أنت يا خَيرَ مَنْ مضى خير آتٍ أنت يا خيرَ حاضرٍ خيرُ بادِ
لستُ أبغى لك المزيدَ من اللهِ فما فى عُلاك من مُستزادِ

ذكر بقية الحوادث

منها أن الخليفة الناصر لدين الله أرسل عسكراً مع وزيره مؤيد الدين[٤] محمد بن على المعروف بابن القصاب إلى خوزستان[٥] وملكوا مدينة تُسْتر[٦] فى المحرم سنة إحدى وتسعين وخمسمائة وغيرها من البلاد ، وكذلك ملكوا مدينة الناظر وقلعة كاكر

(١) الثماد : الماء القليل . انظر : الفيروزآبادى ، القاموس المحيط ، جـ١ ، ص٢٩٠ ، مادة «ثمد» .
(٢) طارف : المستطرف والمستفاد حديثاً من المال وهو خلاف التالد . المعجم الوجيز ، ص٣٨٩ .
(٣) تلاد والتليد : المال الأصلى القديم . المعجم الوجيز ، ص٧٦ .
(٤) مؤيد الدين محمد بن على المعروف بأبى القصاب : هو محمد بن على بن أحمد بن القصاب أصله من شيراز ، وكان أبوه يبيع اللحم فى بعض أسواق بغداد فتقدم ابنه وساد أهل زمانه ، توفى بهمدان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة .
انظر : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٢ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص١٣٩ ؛ ذكر ابن الأثير أنه توفى فى أوائل شعبان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ، الكامل ، جـ١٢ ، ص٤٧ .
(٥) خُوزِسْتان : انظر ما سبق ، جـ١ ، ص١٨٠ ، حاشية ١ .
(٦) تُسْتَر : انظر ما سبق ، جـ١ ، ص١١٧ ، حاشية ٥ .

وقلعة لاموج وغيرها من الحصون والقلاع ، وأنفذوا بنى شملة أصحاب بلاد خوزستان إلى بغداد . وقال بيبرس : وإنما أرسل الخليفة ابن القصاب لأنه أولاً خدم فيها وولى الأعمال بها وصار له بها أصحاب وأصدقاء ، وعرفها وخبر بلادها ومن أى وجه يمكن الدخول إليها والاستيلاء عليها ، فلما ولى ببغداد نيابة الوزارة أشار على الخليفة بأن يُرسله فى عسكر إليها ليملكها له ، فاتفق أن صاحبها ابن شملة توفى واختلفت أولاده بعده ، فراسل بعضهم مؤيد الدين المذكور ؛ يستنجده لما بينهم من الصحبه ، فقويت أطماعه فى البلاد فجهزت العساكر صحبته ، وجرت بينهم أمور ، ثم ملك تستر والقلاع المذكورة وأنفذ أولاد شملة أصحاب خوزستان إلى بغداد ، فوصلوا فى ربيع الأول[(١)] منها .

وفى المرآة ، وفى سنة تسعين وخمسمائة قدم ابن القصاب الوزير من العجم ، وخلع عليه الخليفة وأمر أرباب الدولة أن يمشوا بين يديه ، منهم أستاذ الدار ابن يونس[(٢)] ، وكان وزيراً قبل هذا ، فامتنع ابن يونس من المشى بين يديه ، فقال ابن القصاب : هذا ظاهَرَ الخوارج على الخليفة ، وكسر عسكره بحماقته ، وشَنَّع على الخليفة أنه مات ، وكتب محضراً بذلك ، واشتبه على القضاه ، وعرضه على الخليفة ، فأمر بالقبض على ابن يونس ، فأخذ أخذة بشعة ، وقتل ورُمى تحت التاج[(٣)] ، وكان آخر العهد به[(٤)] .

ومنها أنه كانت وقعة عظيمة بين شهاب الدين[(٥)] ملك غزنة وبين الهند من الكفار ، وكانوا فى ألف ألف مقاتل ومعهم سبعمائة فيل منها فيل أبيض لم يُر مثله ، فهزمهم شهاب الدين عند نهر عظيم يقال له اللاهُوز[(٦)] ، وقتل ملكهم واستحوذ على حواصلهم

---

(١) وردت هذه الأحداث بتصرف فى الكامل ، جـ١٢ ، ص٤٥-ص٤٦ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١١ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٨٥-٢٨٦ ؛ المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص٩٠ .

(٢) ابن يونس : عبيد الله بن يونس بن أحمد الوزير جلال الدين أبو المظفر الحنبلى ولى حجابة الديوان ثم استوزره الخليفة وتوفى سنة ٥٩٣هـ . انظر : النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص٥٩٣ .

(٣) التاج : اسم دار مشهورة جليلة المقدار ببغداد من دور الخلافة . معجم البلدان ، جـ١ ، ص٨٠٦ .

(٤) ورد هذا الخبر بتصرف فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٨١ .

(٥) شهاب الدين : هو شهاب الدين محمد بن سام الغورى ملك غزنة وخراسان المتغلب على الملك إبراهيم بن محمود بن سبكتكين الذى ابتدأ فتح الهند . انظر : ابن بطوطة : الرحلة ، ص٤٢١ ، دار صادر بيروت .

(٦) ذكر ابن كثير أن النهر العظيم يقال له : «الملاحون» . البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٩ ؛ كما ذكر ابن الأثير أن اسم النهر «ماخون» . الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٣١ .

وفيَلتهم ، ودخل بلد الملك فحمل من خزانته على ألف وأربعمائة جمل ثم عاد سالماً منصوراً إلى غزنة[١] .

[١٩٢] وفى تاريخ بيبرس ، وفى سنة تسعين وخمسمائة كانت الحرب بين شهاب الدين الغُورى والملك يَنَارسَ الهندى ، وذلك أن شهاب الدين سير مملوكه قطب الدين أيبك فى السنة التى خلت ؛ للإغارة على بلاد الهند ، فلما بلغ الخبر ملك الهند المذكور جمع جيوشه وسار طالباً بلاد الإسلام ، فسار شهاب الدين الغورى إلى نحوه من غزنة بعساكره فالتقيا ، وكان مع الهندى سبعمائة فيل وألف ألف رجل لأنه ذو مملكة وسيعة ، فكانت الكرة عليه وكسر المسلمون وقتل فى المعركة ولم يعرفه أحد ، فإنه كان شيخاً كبيراً ، وكان يشد أسنانه بشريط الذهب ووجد فى المعركة قتيلاً وانهزمت عساكره ، ثم ذكر نحو ما ذكرنا غير أنه قال : فأمر الفيالين[٢] الذين لهم أن يخدموا بين يديه فخدموا جميعاً إلا الفيل الأبيض فإنه أبى أن يخدم[٣] .

ومنها أن الإفرنج ملكوا قلعة جُبيل وذلك أنه كان فيها شخص يسمى بدر الدين الشحنة نائباً فباعها للإفرنج بخمسة آلاف دينار صوريّة ، وقيل : إن القلعة المذكورة لم يكن فيها من الرجال إلا خمسة عشر نفراً وأن والى البلد أخذ منهم عشرة نفر لجباية الجزية ، واتفق أن خرج والى القلعة إلى الحمام ومعه واحد من الرجالة الخمسة ، فبقى فى القلعة أربعة أكراد فأغلقوا باب الحصن وسيروا واحداً منهم يخبر الإفرنج بخلوه ، وطلعوا إلى أعلى الحصن وأغلقوه ، فلما جاء الوالى ليدخل منعوه فكلمهم وبذل لهم مالاً فلم يجيبوه ، فصاح فى الجبل فاجتمعوا إليه ووقفوا تحت القلعة ، فرمى الأكراد الوالى بحجر فكسر يده ، ووصل الإفرنج فى الليل فطردوا المسلمين عن الباشورة وحصلوا بها ، ووصل ابن [ريمون][٤] أخو صاحب جبيل وأولاد صاحبها وصاحب طبرية ودخلوا الباشورة وتحدثوا مع الأكراد وحلفوا لهم ، وقرروا أن يعطوهم نصف ما يحصل من كل شيء وثلاث ضياع ملكاً من عمل طرابلس ، وفتحوا لهم الحصن فتسلموه ورتبوا فيه ألفاً وخمسين

---

(١) وردت هذه الوقعة بتصرف فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٩ ؛ الكامل ، جـ١٢ ، ص٤٤ .

(٢) يقصد القائمين على خدمة الفيلة .

(٣) وردت هذه الأحداث فى الكامل ، جـ١٢ ، ص٤٤ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٩ .

(٤) «ميمون» كذا فى الأصل والتصحيح من نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤٤٣ .

راجلاً جرخية[١] ، وعادوا إلى طرابلس ، وكان دخولهم إليها يوم الأربعاء مستهل صفر من هذه السنة[٢] .

وفيها وصل إلى مصر - إلى العزيز - بدر الدين لؤلؤ ومعه كتاب من الأفضل يشكو إليه الحال فى جبيل وأنه لما بلغه أمرُها نهض بنفسه واستنهض العسكر ، وكان قد ندب إليها عسكراً من الحلقة فكبسوا مدينتها وقتلوا بها من الإفرنج قريب مائة رجل وأسروا مثلها وأسروا ابن [ريمون][٣] صاحب بَيْسان وابن أخت صاحب جُبَيل[٤] .

ومنها أنه وصل قسيسٌ من القسطنطينية[٥] إلى مصر يطلب صليب الصلبوت ، فأحضر من القدس وكان مرصعاً بالياقوت والجوهر ، وكان النصارى الذين بالقدس يفسح لهم فى أعيادهم فى التبرك به ، وسُلم إلى المذكور على أن تعاد جبيل من الفرنج ، وأرسل الأمير مجد الدين بن شمس الخلافة إلى [١٩٣] الفرنج بسبب إعادة جبيل . هذا الذى ذكره بيبرس فى أمر صليب الصلبوت .[٦]

وقال غيرُه : لما استقر الملك الأفضل مكان أبيه صلاح الدين فى ملك دمشق بعث بهدايا سنية فيها تحف إلى باب الخلافة من ذلك سلاح أبيه وحصانه الذى كان يحضر عليه الغزاة وأشياء كثيرة ، منها صليب الصلبوت الذى سلبه يوم حطين من الإفرنج ، وفيه من الذهب ما ينيف على عشرين رطلاً ، وهو مرصع بالجواهر الثمينة وأربع جوارى من بنات ملوك الإفرنج ، وأنشأ له العماد كتاباً حافلاً يذكر فيه التعزية بأبيه والسؤال - من الخليفة - أن يكون فى ملكه من بعده ، فأُجيب إلى ذلك[٧] .

ومنها أنه ولد للملك الظاهر غياث الدين غازى مولوداً سماه باسم جده الناصر صلاح الدين يوسف ، فقال الرشيد النابلسى يُهنيه به من قصيدة اختصرناها هنا على بعضها وهى :

---

(١) الجرخية : جمع جرخى أى رامى الجرخ ويقابل الجرخ فى الفرنسية (arbatéte) أى البندق . انظر : *Dozy: Supp.Dict .Ar.*

(٢) ورد هذا الحدث فى نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤٤٢-ص٤٤٣ .

(٣) «ميمون» فى الأصل ، والتصحيح من نهاية الأرب ، ج٢٨ ، ص٤٤٣ .

(٤) وردت هذه الأحداث فى السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص١٢١ .

(٥) كان هذا القسيس مبعوثاً من قبل الإمبراطور البيزنطى (إسحاق الثانى) (١١٨٥-١١٩٥) .

(٦) ورد هذا الخبر بتصرف فى السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص١٢٠ - ص١٢١ ؛ نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤٤٣ .

(٧) ورد هذا الخبر بتصرف فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٨ .

أضاءَ لكَ الاقبالُ واتَّسَقَ السعدُ وأنجزَ ما كنتَ آمِلَهُ الوَعدُ
وجادَتْ لك الدنيا بما أنت أهلُهُ فجاد لكَ الإقبالُ واقتبل الجدُّ
تأرجَ عَرف الدهرِ للزهرِ عندما تبلّج وجهُ الجُودِ وابتسمَ المَجْدُ
وأَصبح قلبُ الوفرِ وَلْهانَ خائفًا وَبشّر وَفداً بالغَنى والمُنَى وَفدُ
وقُمِّصَ أَثوابَ الرَّدَى كلُّ قُومَصٍ وأَضحى كَنُودًا كلُّ مَن وَسْمُه كُنْدُ
وَصُبَّ على الأعداء سوطُ مَذلَّةٍ فأنفهم رُغْمٌ وأَوجُهُهم رُبْدُ
فلو نَامَ فى أرضِ الفَرنْجه فارسٌ لما كان رُؤياه والقَدُ القيد
تَباشَرت الدُّنيا بمَولدِ يُوسفٍ فركبٌ به يَحدُو وسُفْرٌ به يَشْدُو
فللّه نجمٌ منك أَشرق زاهرًا فَباتَ لبدرِ التمِّ من وَجده وَجْدُ
كفلَت بردِّ الناصرِ المَلكِ للوَرَى وغادرتَه حَيًّا وقد ضَمَّه لحدُ
وما كانت الأيامُ تَسخُو بمثلِه فأعجزْتَ حتى صَار منك لهُ نِدُّ
خلفتَ صلاحَ الدين بابنك يا ابْنَه فَقَامَ مَقَامَ البحرِ مُنهمرٌ بمدُّ
أَرَاكم كعقد الدُّريا آلَ يُوسفٍ وَواسطةٌ ما ضُمَّ من مَجْدِكَ العقدُ
يَقولُ الذى يُتْلَى عَليه ثناكمُ وقد نَدَّمْنه ما يَغَارُ له النَّدُّ
وحدثتنى يا سَعدُ عنهُم فزدْتَنى جُنوناً فزدْنى من حديثك يا سَعدُ
ألا هكذا تسمُو البُدور بنُورها ألا هكذا تُزْهَى بأشبَالها الأُسْدُ
قَدُمتَ غياثَ الدين فى ظِلِّ دَولةٍ يَدينُ لها شِيبُ الممالك والمُردُ
قَرِينَ التَّهانى ما حَييتَ مُبَوّءاً منازلَ عِزٍ مِلؤُها المَدحُ والحَمدُ [١٩٤]

ومنها أن دجلة زادت ووصل الماءُ إلى سور بغداد العتيق الغربى الذى بناه المنصور فأبان الماء عن تل قريب من السُّور، وفى التل ميت قد بلى وعظامه مسداة، وهو مُسمَّر بمسامير الحديد وعليه ضباب من الحديد وفى وجهه ضبّه فيها مسمار كبير وآخر فى سرّته.(١)

ومنها ما ذكره محمد بن القادسى أن الخليفة أمر بذبح الطيور العتق ومحو أثرها وعمد إلى فراخ ذبح آباءها وأمهاتها واستفرخ الأولاد وأرسلها إلى المشاهد لتطير إلى

(١) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من مرآة الزمان، جـ٨، ص٢٨٠.

بغداد ، وفوض أمرها إلى قاضى القضاة ابن البخارى ويوسف العقاب مقدم الفتيان ، وجعلها اثنى عشر صنفا باسم الأئمة الاثنى عشر ، ثم سمّاها فقال : العلويات ، والحسَنيات ، والحُسَينيّات ، والمحمديات ، والكاظميات ، والهاشميّات ، والباقريّات ، والصدوديات ، والزيديّات ، والمهديات ، والصادقيات ، والعابديات . وأرسلها إلى المشاهد فطارت منها إلى بغداد .(١)

ومنها أن الخليفة نقم على الشيخ أبى الفرج بن الجوزى(٢) وتعضب(٣) عليه ونفاه إلى واسط ، فمكث خمسة أيام لم يستطعم بطعام ، وأقام بها خمسة أعوام يخدم نفسه ويستقى من بئر عميقة لنفسه الماء . وكان شيخاً كبيراً قد بلغ الثمانين عاماً وكان يتلو فى كل يوم وليلة ختمةً . قال : ولم أقرأ فيها سورة يوسف لوجدى على ولدى يوسف ، ثم فرج الله بعد ذلك على ما سنبينه إن شاء الله تعالى .(٤)

وقال سبطه فى المرآة : لما قبض ابن يونس تتبع ابن القصاب أصحابه فقال الركن عبد السلام بن عبدالوهاب بن الشيخ عبدالقادر : أين أنت وابن الجوزى؟ وهو كان من أكابر أصحاب ابن يونس وأعطاه مدرسة جَدّى وأحرق كتبى بمشورته ، وهو ناصبى من أولاد أبى بكر . وكان ابن القصاب متشيعاً فكتب إلى الخليفة ، وساعده جماعة من أهل مذهبه ولبسّوا على الخليفة ، وأمر بتسليمه إلى عبد السلام .

قال السبط : وكان جَدّى يسكن بباب الأزج بدار بَنفْشا ، وكان الزمان صيفا وجدّى - رحمه الله - جالس فى السرداب يكتب وأنا صبى صغير ، ما حسينا إلا بعبد السلام وإذا به قد هجم على جدى فى السرداب ، وأسمعه غليظ الكلام ، وختم على كتبه وداره

---

(١) نقل العينى هذا الخبر من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٨٠ .

(٢) أبو الفرج بن الجوزى : أبو الفرج عبدالرحمن بن أبى الحسن على بن محمد بن على بن عبيدالله بن عبدالله بن حمادى بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزى بن عبدالله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبدالله ابن عبدالرحمن بن القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق ﷺ وبقية النسب معروف القرشى التيمى البكرى البغدادى الفقيه الحنبلى الواعظ الملقب جمال الدين الحافظ كان علامة عصره ، وإمام وقته فى الحديث وصناعة الوعظ وكانت ولادته بطريق التقريب سنة ثمان وقيل عشرة وخمسمائة ، وتوفى ليلة الجمعة ثانى عشر شهر رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة ببغداد ، ودفن بباب حرب .
انظر : وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص١٤٠ : ص١٤٢ .

(٣) تعضب : العَضْبُ القطع والشتم والتناول والضرب والطعن . الفيروز آبادى ، القاموس المحيط ، جـ١ ، ص١٠٩ .

(٤) ورد هذا الخبر بتصرف فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٩ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٨١ .

وسيّب عياله ، وجرى عليهم ما لم يجر على أقل الناس ، فلما كان فى أول الليل حملوا جدى إلى سفينة فأنزلوه فيها ونزل معه عبدالسلام لاغير ، وعلى جدى غلالة بغير سراويل وعلى رأسه تخفيفة[1] ، وحدّرة إلى واسط ، وكان ناظرها العميد ابن أمسيا ، وكان متشيعاً ، فقال له الركن : حرس الله أيامك ، مكنى من عدوى لأرميه فى المطمورة . فعز عليه وزيره وقال : يا زنديق أرمى ابن الجوزى فى المطمورة بقولك! هات خط الخليفة والله لو كان من مذهبى لخدمته وبذلت مالى وروحى فى خدمته ، فعاد عبد السلام إلى بغداد وأقام جدى فى دار بدرب الديوان وعلى بابه بواب [١٩٥] لا غير . وكان قد قارب ثمانين سنة فكان يخدم نفسه ويغسل ثوبه ويطبخ ويستقى الماء من البئر ، ولم يدخل الحمام مدة خمس سنين مقامه بواسط .[2]

وكتب إلى بغداد أشعاراً كثيرة منها هذه الأبيات :

أحــبَّــةُ قلبى لو يُبــاعُ رجُــوعُكم عليـنا لكنا بالنفـوس فـديناكُمُ
فـلا تحسـبوا أنى نسيتُ وِدَادَكُم وإنِّى وإن طال المدى لست أنساكُمُ
وأســـأل أنفـــاسَ الرياحِ لأنهـــا تمــرُّ على أطلالِكُم وتَلقـــاكُمُ
قضى اللهُ بالتفريق بينى وبينكم فياليتنا من جملة ما عرفناكمُ[3]

وكتب من كان وكان ، ومن المواليا .

ثم قال السبْط : واختلفت الناس فى كيفية محنة جدى والظاهر بن يونس ، وما فعل ببيت عبدالقادر ، فأخذوا بالثأر من جدى وأهل بغداد يقولون شيئاً آخر والله أعلم .[4]

وفيها ....[5]

وفيها حج بالناس ....[6]

(١) التخفيفة : هى عمامة صغيرة على الرأس . انظر : ماير : الملابس المملوكية ، ص٣١-٣٢ ، ٤٥-٥٥ .
(٢) نقل العينى هذه الأحداث من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٨١ .
(٣) نقل العينى هذه الأبيات من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٨١ ، ص٢٨٢ .
(٤) نقل العينى هذا القول من مرآة الزمان ، جـ٨ .
(٥) سقط فى الأصل بمقدار سطر .
(٦) سقط فى الأصل بمقدار نصف سطر .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

القزوينى الواعظ أحمد بن إسماعيل بن يوسف ، أبو الخير القزوينى الشافعى . المفسّر ، قدم بغداد ووعظ بالنظامية ، وكان يذهب إلى قول الأشعرى فى الأصول ، وحبس فى يوم عاشوراء فقيل له : الْعن يزيد بن معاوية . فقال : ذاك إمام مجتهد ، فرماه الناس بالآجر ، فاختفى ثم هرب إلى قزوين ومات فى هذه السنة .(١)

وفى المرآة : تفقه بنيسابور على محمد بن يحيى الغزالى ، وسمع بها الحديث وبغيرها ، وكان عالماً بالتفاسير والفقه متعبداً ، مولده بقزوين سنة اثنتى عشرة وخمسمائة ، وكان يختم القرآن كل ليلة ، وقدم بغداد حاجّاً سنة خمس وخمسين وخمسمائة فجلس بالنظامية ووعظ ومال إلى الأشعرى ، فوقعت الفتن وجلس يوم عاشوراء بالنظامية فقيل له : العن يزيد بن معاوية . فقال : ذاك إمام مجتهد . فجاءه الآجر وكاد يقتل ، وكان ابنه جالساً بين يديه على المنبر فقال له : الْعَنْه وإلا قُتلنا فلطمه على رأسه ، ألقى عمامته بين يديه ، وكثر الرجم فسقط من المنبر فأدخل إلى بيت فى النظامية وأغلق عليه الباب وإلا قتل ، وأُخذت فتاوى الفقهاء بتعزيره فقال بعضهم : يُضرَب عشرون سوطاً قيل له : من أين لك؟ فقال : من عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه سمع قائلاً يقول : قال أمير المؤمنين يزيد بن معاوية فضربه عشرين سوطاً ، ثم إن جماعة تعصبوا للقزوينى وقالوا : شيخٌ وغريب وأخرجوه ، فمضى إلى قزوين فتوفى بها فى المحرم من هذه السنة .(٢)

الإمام الشاطبىُّ أبو محمد القاسم بن فيرة بن أبى القاسم خلف بن أحمد الرعينى الشاطبى الضرير(٣) المقرى ، صاحب القصيدة التى سماها حرز الأمانى ووجه التهانى فى القراءات ، وعدتها ألف ومائة وثلاثة وسبعون بيتاً ، ولقد أبدع فيها كل الإبداع ، وهى عمدة قراء هذا الزمان فى نقلهم [١٩٦] فقلّ من يشتغل بالقراءات إلا ويقدم حفظها ومعرفتها ، وهى مشتملة على رموز عجيبة وإشارات خفية لطيفة ، وقد روى عنه أنه كان

---

(١) ورد هذا الخبر بتصرف فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٩-١٠ ؛ النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص١٣٤ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٨٤ .

(٢) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٨٤ .

(٣) وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٧١-ص٧٢ ، ترجمة رقم ٥٣٧ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٠ ؛ ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص٣٠١-ص٣٠٣ .

يقول لا يقرأ أحد قصيدتى هذه إلا وينفعه الله عز وجل ؛ لأنى نظمتها لله عز وجل مخلصاً فى ذلك . ونظم قصيدة دالية فى خمسمائة بيت من حفظها أحاط علماً «بكتاب التمهيد» لابن عبد البر - رحمه الله - وكان عالماً بكتاب الله قراءة وتفسيراً وبحديث رسول الله -صلى الله عليه وسلم - مُبرزا فيه وكان إذا قرئ عليه صحيح البخارى ومسلم والموطأ تصحح النسخ من حفظه ، ويُملى النكت على المواضع المحتاج إليها ، وكان أوحداً فى علم النحو واللغة عارفاً بعلم الرؤيا ، حسن المقاصد مخلصاً فيها بقول وفعل . قرأ القرآن العظيم بالروايات على أبى عبد الله محمد بن على بن محمد بن أبى القاص النفزى المقرى[١] ، وأبى الحسن على بن محمد بن هذيل الأندلسى ، وسَمع الحديث من أبى عبدالله محمد بن يوسف بن سعادة ، وأبى عبدالله محمد بن عبدالرحيم الخزرجى[٢] ، وأبى الحسن بن هذيل ، والحافظ بن أبى الحسن[٣] بن النعمه ، وانتفع به خلق كثير . وقال ابن خلكان : وأدركت من أصحابه جمعاً كثيراً بالديار المصرية وكان يجتنب فضول الكلام ولا ينطق فى سائر أوقاته إلا بما تدعو إليه ضرورة ، ولا يجلس للإقراء إلا على طهارة ، فى هيئة حسنة وتخشع واستكانة ، وكان يعتل العلة الشديدة فلا يشتكى ولا يتأوه ، وإذا سئل عن حاله قال : العافية . لا يزيد على ذلك ، وقال : أنشدنى بعض أصحابه قال : كان الشيخ كثيراً ما ينشد هذا اللغز وهو فى نعش الموتى ، فقلت له : فهل هو له؟ فقال : لا أعلم ، ثم إنى وجدته بعد ذلك فى ديوان الخطيب أبى زكريا يحيى بن سلامه الحصكفى[٤] وهو :

أتْعرِفُ شيئا فى السماء نظيره[٥]   إذا سار صاح الناسُ حيث يسيرُ
فتلقاه مركوباً وتلقاه راكباً   وكلُّ أميرٍ يعتليه أسيرُ
يحُضُّ على التقوى ويَكره قُربه   وينفر منه النفسُ وهو نَذيرُ
ولم يستزر عن رغبة فى زيارةٍ   ولكن على رغم المَزُور يَزُورُ

(١) محمد بن على بن محمد بن أبى العاصى النفزى المقرى : وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٧١-٧٣ ، ترجمة ٥٣٧ .
(٢) «الجزجرى» كذا فى الأصل والمثبت من وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٧١ ، ترجمة ٥٣٧ .
(٣) «الحسين» كذا فى الأصل والمثبت من وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٧١ ، ترجمة ٥٣٧ .
(٤) الخطيب الحصكفى : هو أبو الفضل يحيى بن سلامة بن الحسين بن محمد الملقب معين الدين المعروف بالخطيب الحصكفى ، ولد بطَنْزه ونشأ بحصن كيفا ، توفى سنة إحدى وقيل ثلاث وخمسون وخمسمائة وكانت ولادته فى حدود سنة ستين وأربعمائة . وفيات الأعيان ، جـ٦ ، ص٢٠٥ - ٢١٠ .
(٥) «يطير» فى وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٧٢ ، ترجمة ٥٣٧ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٠ .

وكانت ولادته فى آخر سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة بشاطبة وهى بلدة شرقى الأندلس ، استولى عليها الإفرنج فى العشر الأخير من شهر رمضان سنة خمس وأربعين وستمائة ، وكان فقيراً ، وقد أريد أن يلى خطابة بلده فامتنع لما يبالغ الخطباء فى وصف الملوك . وخرج إلى الحج فقدم إسكندرية سنة ثنتين وسبعين وخمسمائة ، وسمع على الحافظ السِلفى ، وولاه القاضى الفاضل مشيخة الإقراء بمدرسته[1] ، وزار القدس الشريف وصلى به شهر رمضان ، ثم رجع إلى مصر ، وتوفى يوم الأحد بعد صلاة العصر الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة تسعين وخمسمائة ، ودفن يوم الاثنين فى تربة القاضى الفاضل بالقرافة الصغرى ، وصلى عليه الخطيب أبو إسحاق العراقى خطيب جامع مصر وقال ابن خلكان : ودخل مصر سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، وكان يقال عند دخوله إليها : إنه يحفظ وِقْرَ بَعيرٍ من العلوم بحيث لو نزل عليه ورقه لما احتملها[١٩٧] . وكان نزيل القاضى الفاضل ورتَّبه بمدرسته بالقاهرة متصدرًا لإقراء القرآن الكريم وقراءاته والنحو واللغة .

وفيرة بكسر الفاء وسكون الياء آخر الحروف وبعدها راء مضمومه ثم هاء . والرُعينى نسبة إلى ذى رُعَين بضم العين ، ، وهو أحد أقيال اليمن نُسب إليه خلق كثير .[2]

السلطان طغريل شاه بن أرسلان شاه بن طغريل شاه بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق السلجوقى[3] ، قتل فى هذه السنة ، وكان قزل أرسلان بن ألدكز حبَسَه ثم خرج من الحبس فى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، وملك همذان وغيرها وجرت حرب بينه وبين مظفر الدين أزبك بن البهلوان محمد بن ألدكز . وقيل : بل هو قطلغ إينانج أخو أزبك المذكور فانهزم ابن البهلوان ثم بعد هزيمته استنجد بخوارزم شاه علاء الدين تكش ، وخاف منه ، فلم يجتمع بخوارزم شاه ، فسار خوارزم شاه وملك الرى وذلك فى سنة ثمان وثمانين ، وبلغ تكش أن أخاه سلطان شاه قد قصد خوارزم فصالح طغريل السلجوقى ، وعاد تكش إلى خوارزم وبقى الأمر كذلك حتى

---

(١) مدرسة القاضى الفاضل : هى بدرب ملوخيا من القاهرة ، بناها القاضى الفاضل سنة ٥٨٠هـ ووقفها على الفقهاء الشافعية والمالكية . انظر : المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص٣٦٦-ص٣٦٧ .

(٢) نقل العينى هذا الخبر من وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٧١ ، ٧٢ ؛ كما ذكر بتصرف فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٠ ؛ شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص٣٠١- ص٣٠٣ .

(٣) الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٣٢-ص٢٣٣ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٩ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٨٤-ص٢٨٥ ؛ السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص١١٤ ؛ شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص٣٠١ ؛ النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص١٣٤- ص١٣٥ .

مات سلطان شاه فى سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، فتسلم تكش مملكة أخيه سلطان شاه وخزائنه ، وولى ابنه محمد بن تكش نيسابور ، وولى ابنه الأكبر ملكشاه بن تكش مرو . ولما دخلت سنة تسعين سار تكش إلى حرب طغريل السلجوقى فسار طغريل إلى لقائه قبل أن يجمع عساكره ، فالتقى العسكران بالقرب من الرى ، وحمل طغريل بنفسه ، فقتل وكان قتله فى الرابع والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة . وحمل رأس طغريل إلى تكش فأرسله إلى بغداد ، فنصب بها عدة أيام وسار تكش وملك همذان وملك البلاد جميعها[١] . وسلم بعضها إلى ابن البهلوان وأقطع بعضها لمماليكه ورجع إلى خوارزم ، وهذا طغريل بن أرسلان شاه آخر السلاطين السلجوقية الذين ملكوا بلاد العجم . وقد تقدم ابتداء الدولة السلجوقية فى سنة اثنتين وثلاثين وأربع مائة ، وأول من ملك منهم العراق وأزال دولة بنى بُوَيه طغريل بن ميكائيل بن سلجوق ، ثم ملك بعده ابن أخيه ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل ثم ابنه ملكشاه بن ألب أرسلان ثم ابنه محمود بن ملكشاه وكان طفلاً ، وقامت بتدبير المملكة أم محمود تركان خاتون ، ومات محمود وهو ابن سبع سنين ، وملك أخوه بَركياروق بن ملكشاه ثم أخوه محمد بن ملكشاه ثم ابنه محمود بن محمد المذكور ، ثم ابنه داود بن محمد بن محمود بن محمد المذكور مدة يسيرة ، ثم عمه طغريل بن محمد[٢] ثم أخوه مسعود بن محمد ثم ابن أخيه ملكشاه بن محمود بن محمد أياماً يسيرة ثم أخوه محمد بن محمود[٣] ، ثم بعد محمد المذكور اختلفت العساكر وقام من بنى سلجوق ثلاثة أحدهم ملكشاه بن محمود أخو محمد المذكور ،[١٩٨] والثانى سليمان شاه بن محمد بن السلطان ملكشاه وهو عم محمد المذكور ، والثالث أرسلان شاه بن طغريل بن محمد بن السلطان ملكشاه وكان ألدكز مزوجاً بأم أرسلان شاه المذكور فقوى عليهما سليمان شاه واستقر فى همذان فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة[٤] ثم قبض سليمان شاه وقتل ، وكذلك سُمَّ ملكشاه بن محمود المذكور ومات بأصبهان فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة وانفرد بالسلطنة[٥] أرسلان شاه بن

(١) ورد هذا الخبر بتصرف فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٩ ؛ الكامل ، جـ١٢ ، ص٤٤ ، ٤٥ .
(٢) «أحمد» فى الأصل ، والمثبت من المختصر ، جـ٣ ، ص٩٠ .
(٣) ورد هذا الخبر بتصرف فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٨٤ ، ٢٨٥ .
(٤) لمعرفة المزيد عن هذه الفترة راجع الكامل ، جـ١١ ، ص١١٣-ص١١٤ ، الطبعة الأزهرية ، ١٣٠١هـ .
(٥) راجع هذه الأحداث فى الكامل ، جـ٩ ، ص٤٣٧ .

طغريل ربيب ألدكز ثم ملك بعده ابنه طغريل بن أرسلان شاه بن طغريل المذكور فى سنة[١] ثلاث وسبعين وخمسمائة ، وجرى له ما ذكرناه حتى قتله تكش فى هذه السنة أعنى سنة تسعين وخمسمائة وانقرضت به الدولة السلچوقية من تلك البلاد[٢] . وختمت الدولة السلچوقية بطغرل كما افتتحت بطغرل وكانت مدة دولتهم مائة وأربعين عاما[٣] وعدة ملوكهم أربعة عشر ملكاً . وقال أبو شامة : وعدة ملوكهم نيف وعشرون ملكاً ، ومدة ملكهم مائة وستون سنة ثم انتقل الملك إلى خوارزم شاه لأنه بعد قتل طغريل سار إلى همذان وهى كرسى المملكة فملكها وما حولها ، فأرسل إليه الإمام الناصر وزيره مؤيد الدين بن القصاب وصحبته التقليد والخلع ، فنفر خاطر خوارزم شاه منه وأراد القبض عليه ، فهرب الوزير إلى بعض القلاع التى فى الجبال وتحصن بها . ولما ملك خوارزم شاه همذان سلمها إلى قتلغ خان بن إينانج خان وأقطع كثيراً من بلادها لمماليكه ورتبهم فيها وجعل عليهم مياجق[٤] مقدّماً وعاد إلى خوارزم[٥] . وقال أبو شامة[٦] : وطغريل شاه هذا الذى قتل هو آخر الملوك السلچوقية سوى صاحب الروم ، وهو الذى كان كسر عسكر الخليفة على همذان ، وكان طغريل قد بعث إلى الخليفة يطلب السلطنة فأرسل إليه جيشاً مقّدمه وزيره ابن يونس فكسرهم طغريل ومزّقهم كل ممزق[٧] ، وأخذ ابن يونس وكان محلوق الرأس فأحضروه بين يديه وألبسوه طرطوراً أحمر فيه جلاجل وجعل السلطان يضحك عليه وذلك فى سنة أربع وثمانين وخمسمائة ، فهان الملوك ، ثم إن خوارزم شاه لما قتله كما ذكرنا قطع رأسه وبعث به إلى بغداد[٨] ، فدخلوا به فى جمادى الأولى على خشبة وكوساته مشقّقةٌ وسنجقُه وراءه مكسور منكس ، وكان من أحسن الناس صورةً ثم رُدّ إلى خزانة الرؤوس فجاءت فأرة فأكلت أنفه وأذنَه وبقى الرأس إلى سنة إحدى وستمائة ، فوقع حريق فى خزانة الرؤوس ، فاحترق الجميع ، ولله الأمر كله .

---

(١) راجع هذه الأحداث فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٨٨ .
(٢) نقل العينى هذا الخبر من المختصر ، جـ٣ ، ص٨٩- ص٩٠ .
(٣) ذكر المقريزى أن مدة دولتهم مائة سنة وثمان وخمسون سنة . السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص١١٤ ؛ أما ابن العماد ، شذرات الذهب ، فقد ذكر أن مدة ملكهم مائة وستون سنة ، جـ٤ ، ص٣٠١ .
(٤) «مناجق» كذا فى الأصل والمثبت من الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٣٣ .
(٥) ورد هذا الخبر بتصرف فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٣٣ .
(٦) انظر : الذيل على الروضتين ، ص٦ .
(٧) ذكرت هذه الأحداث بتصرف فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٣٢-ص٢٣٣ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٨٤ ، ٢٨٥ ؛ السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص١١٤ ؛ البداية والنهاية ، جـ٣ ، ص٩ ؛ النجوم الزاهرة ، جـ ٥ ، ص١٣٤ ، ١٣٥ .
(٨) الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٣٢-ص٢٣٣ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الحادية والتسعين بعد الخمسمائة(*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة هو الناصر لدين الله[1] ، وأصحاب البلاد على حالهم[١٩٩] ، غير أن الملك العزيز صاحب مصر قد توجه إلى الشام وقدمها مرةً ثانيةً ، وكان السبب فى ذلك أن أمرآء دمشق قد تغيرت قلوبهم على الملك الأفضل ، ففارقه بعضهم وتوجهوا إلى مصر ، وهم : عز الدين أسامة ، وعز الدين بن السلاّر ، وابن الحصين ، وغيرهم[2] ، ولما اتصلوا بالملك العزيز حرضوه على قصد دمشق ؛ فخرج إليها فى قوة عظيمة جداً ، فاستنجد الأفضل عمة العادل ، وتوجه إلى أخيه الظاهر بحلب وسأله إنجاده فوعده خيراً ، وجَدّ العادل السَّير إلى دمشق ، فسبق العزيز إليها . وكاتب الأمراء المصريين وحذرهم من العزيز ، وحذّر العزيز منهم ، واستمالهم فمالوا إليه ، وفارقوا العزيز ، وتوجهوا إلى دمشق وهم : أبو الهيْجاء السّمين ، وإياز[3] جهاركس[4] . ولما وصلوا إلى دمشق جدد العادل والأفضل اليمين ، وتحالَفَا على أن يكون ثلث ديار مصر له إقطاعاً ، والثلثان للأفضل . وساروا طالبين لقاء العزيز ، فعاد العزيز مسرعاً إلى مصر[5] ، ثم إن العادل والأفضل أرسلا إلى القدس وتسلماها من نواب العزيز ، واتفقا إنهما يسيران إلى مصر ويملك الأفضل مصر ، ويعطى العادل دمشق ، وأرسل العادل إلى العزيز خفية أن يثبت ولا يُسَلِّم ، وإنما أشار إليه بذلك مخافة أن لا يُسَلِّم إليه الأفضل دمشق ، ويكفّل أنه يكفيه مؤنة قتال عسكر الأفضل ، ولما رجع العزيز إلى مصر جهز عسكرًا ورتبه على بلبيس ، ولما وصلها عسكر العادل والأفضل استظهر العزيز عليهم ، فندموا على فعلهم ،

(*) يوافق أولها ١٦ ديسمبر سنة ١١٩٤م .

(١) الناصر لدين الله : أبو العباس أحمد بن المستضىء بأمر الله ، أبو المظفر يوسف بن المقتفى أمير المؤمنين العباسى ، ولى الخلافة سنة ٥٧٥هـ ، توفى ٦٢٢هـ . وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص١٠٩ ، ص٣١٨ ؛ لمزيد من التفاصيل راجع البداية والنهاية ، جـ٧ ، ص٧١-٧٢ ، طبعة الغد العربى ، ط . الأولى - ١٩٩٢ .

(٢) ذكر النويرى الأمراء الذين فارقوا خدمة الأفضل : «فارس الدين ميمون القصرى ، وشمس الدين ، وسنقر الكبير ، وعز الدين سامة ، وغيرهم .» نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤٤٦ .

(٣) إياز : لفظ فارسى ، ذُكر فى الشعر الفارسى بمعنى محبوب ومعشوق . راجع ، حسين مجيب المصرى : المعجم الفارسى العربى الجامع ، ص٤٢ .

(٤) جهاركس : أبو المنصور جهاركس بن عبدالله الناصرى الصّلاحى الملقب فخر الدين ، كان من كبراء أمراء الدولة الصلاحية ، توفى سنة ٦٠٨هـ بدمشق ، ودفن فى جبل الصالحية ، وجهاركس لفظ عجمى معرب . وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص٣٨١ ، ترجمة ١٤٦ .

(٥) الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٢٩-ص٢٣٠ ؛ وانظر تفصيل ذلك أيضاً فى مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٤٦-٤٩ ؛ نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤٤٧ .

وكتب إلى الأمراء المقيمين ببلبيس بأن يرحلوه عنها ، واختار العادل إصلاح الأمر وتردد القاضى الفاضل بينهم فى الترسل ، واستقر الأمر على أن يكون للعادل إقطاعه بمصر على ما كان له قديماً ، وأن يكون مقيماً عنده ، وأن يعفو عن الأسَديّة والأكراد . وحسّن العادل للأفضل المضى إلى دمشق ، فعاد إليها وقد تقرر أن يكون له القدس وجميع بلاد الساحل والغور إلى ما كان بيده أولا .[١]

وفى تاريخ ابن كثير : وفى هذه السنة خرج العزيز[٢] من مصر قاصداً دمشق ليأخذها من أخيه الأفضل ، وكان الأفضل قد تاب وأناب وأقلع عما كان فيه من الشرب واللهو واللعب ، وأقبل على الصيام والصلاة كما ذكرنا ، وحسنت طريقته ، غير أن الوزير الضياء الجزرى[٣] يفسد عليه دولته ، ويكدّر عليه صفوته ، فلما بلغ الأفضل إقبال أخيه نحوه بعساكره[٤] سار سريعاً إلى عمه العادل وهو بجعبر فاستنجده فسار معه وسبقه إلى دمشق ، وراح الأفضل إلى أخيه الظاهر بحلب ، فساروا جميعًا نحو دمشق[٥] وقد اضطرب بعض عسكر العزيز عليه ، وهم طائفة من الأمراء الأسدية وفارقوه ، فلما سمع العزيز بذلك وقد اقترب من دمشق ، كرّ راجعاً مسرعاً إلى مصر ، وركب وراءه العادل والأفضل ، ثم بَدا للعادل فى ذلك فأرسل إلى العزيز يثبته ، وأقبل على الأفضل يثبطه ، وأقاما على بلبيس أياماً حتى خرج القاضى الفاضل من جهة[٢٠٠] [العزيز][٦]

فوقع الصلح بينهم على أن يرجع القدس ومعاملتها إلى الأفضل ويستقر العادل مقيماً بمصر على إقطاعه القديمة ، فأقام بها طمعاً فيها ، ورجع الأفضل إلى بلاده بعد ما خرج العزيز لتوديعه وتشييعه ، وهى هُدنة على أقذاء وصلح على دخن[٧] .

---

(١) ورد هذا الخبر بتصرف فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٣٤ ؛ نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤٤٧-٤٤٨ ؛ المختصر ، جـ٣ ، ص٩١ .

(٢) «الأفضل» كذا فى الأصل والمثبت من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٠ .

(٣) الوزير الضياء الجزرى : هو أبو الفتح نصر الله بن أبى الكرم الملقب ضياء الدين محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبدالواحد الشيبانى ، المعروف بابن الأثير الجزرى ، ولد سنة ٥٥٨هـ وتوفى سنة ٦٣٧ ببغداد . وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص٣٨٩-٣٩٧ . ترجمة ٧٦٣ .

(٤) «بعساكره» لم يذكرها ابن كثير ، والغالب أنها إضافة من العينى .

(٥) إلى هنا توقف العينى عن النقل من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٠ .

(٦) ما بين حاصرتين إضافة من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١١ .

(٧) ينقل العينى هذا الحدث بتصرف من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١١ . والدخن : هنا يقصد به «صلح على فساد باطن» المعجم الوسيط ، ص٢٨٥ ، مادة «دخن» .

وفى تاريخ المؤيد[١] : وكان العزيز لما خرج من مصر نزل الغوار من أرض السواد ، ثم ذكر قريباً مما ذكرناه ، غير أنه قال[١] : لما وصل العادل والأفضل إلى بلبيس ، بعدما رجع العزيز إلى مصر قصد الأفضل مناجزته بالقتال فمنعه عمه العادل عن ذلك ، وقصد الأفضل المسير إلى مصر والاستيلاء عليها فمنعه عمه من ذلك أيضاً ، وقال : «مصرُ لك متى شئت» . وكاتب العادل العزيز فى الباطن ، وأمره بإرسال القاضى الفاضل ليصلح بين الأخوين وكان الأفضل قد اعتزل عن ملابستهم لما رأى من فساد أحوالهم ، فدخل عليه العزيز وسأله ، فتوجه الفاضل من القاهرة إلى الملك العادل ، واجتمع به واتفقا على أن يصلحا بين الأخوين ، فأصلحا بينهما ، فأقام العادل بمصر عند العزيز ابن أخيه ، ليقرر أمور مملكته ، وعاد الأفضل إلى دمشق[٢] .

وفى تاريخ ابن العميد : وفى هذه السنة عزم السلطان الملك العزيز على قصد دمشق وحصارها ، فأشار الأكابر على الأفضل بأن يُراسل العزيز أخاه ويلاطفه ويستعطفه ، وأشار عليه وزيره الجزرى بأن يتوجه إلى عمه العادل ويستنصره على أخيه العزيز ، فأصغى إليه ، ومال إلى قوله ، ورحل من دمشق لأربع عشرة[٣] ليلة مضت من جمادى الأولى ، متوجهاً إلى الرَّقة ، فتلقاه العادل عمه ، فسأله النصرة فأجاب إليه فذهب الأفضل إلى حلب إلى أخيه الظاهر ، وجاء العادل إلى دمشق ، فدخلها فى آخر جمادى الآخرة ، ثم قدم الأفضل ودخل دمشق ، وصار تحت يد العادل وأمره ونهيه ونفذت سهام العادل وعلم أن ملكه صائر إليه ، وأما الملك العزيز فإنه لما عَيّد عيد الفطر خرج متوجهاً لحصار دمشق ، فحين بَعُدَ عن الديار المصرية فارقه [أبو] الهيجاء السمين والأكراد ، وكان المقدّم عليهم ، والمهرانية والأسدية لأربع خلون من شوال ، ولحقوا بالملك العادل ، وأصبح العزيز فى قلة من العدد ، فرجع إلى مصر ، وكان الملك الظاهر صاحب حلب قد اعتقل بدر الدين دُلْدُروم الياروقى ؛ لذنب نسبه إليه ، واعتقل معه جماعة من أهل بيته ، ومضى إلى تل باشر ، فحاصرها ولم يقدر عليها ، فلما اجتمع بالعادل عند مسيره إلى دمشق ، شفع العادل فيهم وضمن له أن يكونوا فى خدمته ، فقبل شفاعته فيهم وأفرج عنهم وعاد إلى حصار تل

(١) يقصد العينى هناأبو الفدا صاحب تاريخ المختصر حيث ينقل عنه تلك الأحداث .
(٢) ينقل العينى هذا الحدث بتصرف من المختصر ، جـ٣ ، ص٩١ .
(٣) «أربعة عشر» فى الأصل والصحيح ما أثبتناه .

باشر ، فلم يقدر عليها ، واستصحبهم العادل ليكونوا فى خدمته فاستخدمهم ، وكتب المنصور صاحب حماة[١] ، والأمير عز الدين بن المقدم إلى العادل بالدخول فى طاعته ، وفارقا الظاهر وتحالفوا على ذلك ، ولما رأى الظاهر ذلك كاتب أخاه العزيز يستحثه على محاربة العادل والأفضل ، ثم ذكر نحواً مما ذكرناه ، وذكر أن الأفضل لما خرج من دمشق استخلف أخاه قطب الدين موسى[٢] بدمشق ، وذكر أيضاً أن العادل والأفضل نزلا على بلبيس ، وكان فى وقت [٢٠١] زيادة النيل ، وكانت الأسعار غالية والعلف معدوم ، ومنع النيل من نقل العلف إليهم فغلت الأسعار ، وبذل العزيز الأموال واستخدم الرجال وحصن البلاد ، ثم ندم العادل على ما فعل وكذلك الأسدية ، وأخذوا فى إصلاح الأمر وتلافيه وآخر الأمر اصطلحوا ، وعفى العزيز عن الأمراء الأسدية وطيّب قلوبهم ، ورد إليهم إقطاعهم وحلف لهم وحلفوا له ، وحلف الملوك الثلاثة كل منهم لصاحبه وتوثقوا بالأيمان ، وعادت الأسدية إلى خدمة العزيز ، وعاد الأفضل إلى دمشق ، ومعه أبو الهيجاء السمين وكان قد ولاه بيت المقدس ، وأقام العادل بمصر ، واستوطن القصر ، وأخذ فى إصلاح الديار المصرية وضياعها ورباعها ، وأظهر من محبته لابن أخيه العزيز شيئاً كثيراً ، وأقاموا على ذلك إلى السنة الآتية ثم أحدث الله بقدرته ما سنذكره إن شاء الله[٣] .

ذكر وقعة الزلاقة[٤] بالأندلس

وفى شعبان من هذه السنة كانت وقعة عظمة بالأندلس شمالى قرطبة بمرج الحديد[٥] ، وذلك أن الأذفونش بن فرذلند[٦] ملك الافرنج بالأندلس ، ومقره بمدينة طليطلة[٧] ، كتب إلى الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن[٨] ملك المغرب من

(١) انظر تفصيل هذا الحدث فى زبدة الحلب ، جـ٣ ، ص١٣٢-ص١٣٣ .
(٢) فى المقريزى استخلف أخاه الملك الظافر خضر صاحب بصرى . السلوك ، جـ١/ق١ ، ص١٢٥-١٢٦ . أما أبو شامة ، فقد اتفق مع العينى فى الاسم . انظر : الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٣٠ .
(٣) ورد هذا الحدث بالتفصيل فى السلوك ، جـ١/ق١ ، ص١٢٣-١٢٦ ، ص١٢٨-١٢٩ .
(٤) الزلاقة : أرض بالأندلس بقرب قرطبة . معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٩٣٩ .
(٥) مرج الحديد : بالقرب من قلعة رباح . الكامل ، جـ٩ ، ص٢٣٣ .
(٦) الأذفونش ابن فرذلند : يقصد به ألفونسو السادس بن فرناندو الأول ملك ليون . ابن الأبار : الحلة السيراء ، جـ٢ ، ص١٤٢ ، حاشية ١ ؛ ص١٤٥ ، حاشية ٢ .
(٧) طليْطِلَة : ناحية بالأندلس من أعمال أستجة قريبة من قرطبة . معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٥٤٥-٥٤٦ .
(٨) يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن : انظر ما سبق ، جـ٢ ، ص٢٦ .

العدوة يستحثه ويستدعيه إلى قتاله ، فى كلام طويل فيه تأديب وتهديد ووعيد[١] . وذكر بيبرس أنه كتاب نسخته[٢]«باسمك اللهم فاطر السموات والأرض ، أما بعد : أيها الأمير فإنه لا يخفى على كل ذى عقل ولبّ وذكاء ثاقب أنك أمير الملّة الحنيفية كما أنا أمير الملة النصرانية ، وأنه لا يخفى عليك [ما هو عليه][٣] رؤساء الأندلس وما هم عليه من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية ، وطلب الراحة ، وأنا أسومهم الخسف وأخلى الديار وأسبى الذرارى وأمثل بالكهول وأقتل الشباب ، ولا عذر لك فى التخلف عن نصرتهم وقد أمكنتك يد القدرة ، وإنكم تعتقدون أن الله تعالى فرض عليكم قتال العشرة منا بواحد منكم ، والآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً[٤] ، وقد فرض عليكم اثنين منا بواحد منكم ونحن الآن نقاتل عدداً منكم بواحد منا ولا تقدرون دفاعاً ولا تستطيعون امتناعاً ، ثم حُكى لى عنك أنك أخذت فى الاحتفال ثم تمطل نفسك عاماً بعد عام ، تقدّم رجلاً وتؤخر أخرى ، ثم حكى لى عنك أنك لا تجد سبيلاً للحرب لعلك ما يسوغ لك التقحم فيها ، وأنا أقول لك ما فيه مصلحتك وأعتذر عنك ولك ، أن توفينى العهود والمواثيق والأيمان أن تتوجه بجملة من عندك فى المراكب وأجوز إليك بجملتى ، وأبارزك فى أعز الأماكن عندك فإن كانت لك فغنيمة عظيمة جاءت إليك وهدية مثلت بين يديك ، وإن كانت لى فتكون يدى العليا عليك واستحققت إمارة الملتين والتقدم على الفئتين ، والله يسهل الإرادة ويوفق السعادة»[٥] .

فلما وصل كتابه وقرأه يعقوب كتب إليه فى أعلاه هذه الآية : ﴿ ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لاَ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾[٦] . وأعاده إليه وجمع عساكره من المسلمين وسار بهم حتى قطع الزقاق[٧] إلى الأندلس ، حتى التقوا

---

(١) انظر : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٠ .

(٢) ذكر ابن خلكان أن هذه الرسالة من إنشاء ابن الفخار وزير الأذفونش . انظر : وفيات الأعيان ، جـ٢٧ ، ص٦ .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل لتوضيح المعنى ، جـ٩ ، ص٢٣٢ .

(٤) «الآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا» . سورة الأنفال ، آية : ٦٦ .

(٥) انظر تفاصيل ذلك فى أمين توفيق الطيبى ، دراسات وبحوث فى تاريخ المغرب والأندلس ، ص١٥٦ – ص١٧١ .

(٦) سورة النمل ، آية : ٣٧ .

(٧) الزُّقَاقُ : مجاز البحر بين طنجة بالمغرب على البحر المتصل بالإسكندرية والجزيرة الخضراء فى الأندلس وبينهما اثنا عشر ميلاً . معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٩٣٦ .

بالمكان المتقدم ذكره ، فكانت الدائرة أولاً على المسلمين ، فقتل منهم عشرون ألفاً ، ثم كانت آخرًا على الكافرين فهزمهم الله وكسرهم أقبح هزيمة وأشنعها ، فقتل منهم مائة ألف وثلاثة وأربعون ألفاً[١] ، وأسر منهم ثلاثة عشر ألفاً ، وغنم المسلمون منهم شيئاً كثيراً ، من ذلك : مائة ألف خيمة وثلاثة وأربعون ألفاً ، ومن الخيل ستة وأربعون ألفاً ، ومن البغال مائة ألف ، ومن الحُمر مثلها ، ومن السلاح التام سبعون ألفاً ، وملك شيئاً كثيراً من حصونهم ، وحاصر مدينتهم طليطلة مدة ، ثم لم يفتحها فانفصل عنها .

وفى المرآة[٢] : وكان كتاب ألفنش ملك الإفرنج بخط وزيره ، وكان نصرانياً قد قرأ العربية ، فلما قرأ يعقوب كتابه استشاط غضباً ، وأدركته حمية الإسلام والغيرة على الإيمان ، وكتب على رأس الكتاب بخطه «ارجع إليهم» . الآية[٣] . وكتب تحت الآية

ولا كُتْبَ إلا المشرقية عندنا[٤]	ولا رسُلٌ إلا الخميس[٥] العرمرمُ[٦]

ثم قام من ساعته فشدّ ذنب فرسه بيده ، ولبس سلاحه وسار إلى زقاق سبتة[٧] ، فنزل عليه وجمع الشوانى والمراكب وعرض جنده فكانوا مائتى ألف مقاتل ، مائة ألف يأكلون الديوان ، ومائة ألف مطوعة ، وعَبَر الزقاق إلى مكان يقال له الزلاقة ، وجاءه ألفنش فى مائتى ألف [فارس][٨] وأربعين ألفاً من أعيان الإفرنج والمقاتلة ، والتقوا فجرى بينهم قتال لم يجر فى جاهلية ولا إسلام ، ثم أنزل الله نصره على المسلمين ، فهرب ألفنش فى نفر يسير إلى طليطلة ، وغنم المسلمون ما كان فى عسكره ، فكان عدة من قتل من الإفرنج

---

(١) فى ابن الأثير ، وسبط ابن الجوزى ، قتل من الإفرنج مائة وستة وأربعين ألفاً ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٣٦ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٨٦ ، وانظر هذا الحدث فى الكامل أحداث ٥٩١هـ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، جـ٨ ، ص٢٨٧ .

(٣) سورة النمل - آية ٣٧ .

(٤) فى وفيات الأعيان «عنده» جـ٧ ، ص٧ ؛ أما العينى فنقلها من مرآة الزمان «عندنا» ، جـ٨ ، ص٢٨٧ .

(٥) فى المرآة «بالخميس» . انظر جـ٨ ، ص٢٨٧ .

(٦) هذ الشعر لأبى الطيبى المتنبى . وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص٧ .

(٧) سَبْتَة : بلدة مشهورة ، من قواعد بلاد المغرب ، على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس على طرف الزقاق ، وهى سبعة جبال صغار متصلة بعضها ببعض ، وسميت بذلك لأنها جزيرة منقطعة ، والبحر يطيف بها من جميع جهاتها .
الإدريسى : نزهة المشتاق ، ص ٥٢٩-٥٣٠ ؛ معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٣٠ ؛ القزوينى : آثار البلاد وأخبار العباد . بيروت - ١٩٦٠ ، ص٥٣٣ .

(٨) ما بين حاصرتين إضافة من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٢٨٧ .

مائة ألف وستة وأربعين ألفاً ، وعدة الأسارى ثلاثون ألفا ، ومن الخيام مائة ألف خيمة وخمسون ألفا ، ومن الخيل ثمانون ألفاً ، ومن البغال مائة ألف ، ومن الحمير أربعمائة ألف حمار - تحمل أثقالهم ؛ لأنهم لا جمال لهم - ومن الجواهر والثياب والأموال ما لا يحد ولا يحصى .[1]

ولما انهزم الأذفونش حلق رأسه ولحيته ، وكسر حليته ، وركب حماراً وحلف لا يركب فرساً ولا يتلذذ بمطعم حتى ينصر النصرانية ، وجمع من الجنود ما لا يعلمه إلا الله عز وجل . فاستعد له السلطان يعقوب والتقيا فاقتتلا قتالاً عظيماً ، فانهزم الفرنج أقبح من هزيمتهم الأولى ، وغنموا منهم نظير ما تقدم ذكره وأكثر ، واستحوذ يعقوب على كثير من معاقلهم وحصونهم ، ومن كثرة السبى والغنائم أبيع الأسير بدرهم ، والسيف بنصف درهم ، والحمار بدرهم ، والحصان بخمسة دراهم ، وقسَّم يعقوب الغنائم على الوجه الشرعى ، فاستغنى المجاهدون إلى الأبد ، ثم طلب منه الإفرنج الأمان ، فهادنهم على وضع الحرب خمس سنين ، وإنما حمله على ذلك أن رجلاً يقال له على بن إسحاق المَيُرقى الملثم ظهر ببلاد أفريقية ، فأحدث أموراً فظيعة فى غيبة السلطان يعقوب واشتغاله[٢٠٣] بالإفرنج مدة ثلاث سنين ، وظهر هذا المارق الميورقى[2] بالبادية وعاث فى الأرض فساداً ، و[قتل[3]] خلقاً كثيراً ، وأهلك[4] بلاداً .[5]

وقيل إنما كانت هذه الوقعة فى سنة تسعين وخمسمائة .

وأُذفونش[6] : بضم الهمزة وسكون الذال المعجمة وضم الفاء وسكون الواو وبعدها نون ثم شين معجمة ، اسم لأكبر ملوك الإفرنج ، وهذا كان صاحب طليطلة على ما ذكرنا ، وضبط بعضهم أَلفنش بفتح الهمزة وسكون اللام وفتح الفاء والنون وفى آخره شين معجمة والأول أظهر .

---

(١) نقل العينى هذا الخبر من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٨٧ .

(٢) رسم العينى الاسم بالشكلين المَيُرقى ، الميورقى . والرسمان صحيحان .

(٣) فى الأصل لم يظهر من الكلمة غير حرف واحد . وما بين الحاصرتين إضافة من النسخة المساعدة ومن ابن كثير حيث ينقل العينى عنه . انظر البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١١ .

(٤) فى ابن كثير «تملك» ، البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١١ .

(٥) ورد هذا الخبر فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١١ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٨٧-٢٨٨ .

(٦) نقل العينى هذا التشكيل من وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص١٩ .

ذكر بقية الحوادث

منها أنه ورد كتاب من ملك[١] الروم مضمونه الإعلام بأن كلمة الروم اجتمعت على تقديمه ، [وأنه][٢] أحسن[٣] إلى المسلمين [وأمرهم بإقامة الجامع][٤] والتمس فى الكتاب الوصية بالبطرك العائد والنصاري الملكية ، وسأل إخراج موتاهم بالشمع الموقد ، وإظهار شعائرهم فى كنائسهم ، وأن يُفرج عن أسارى الروم الذين بمصر . ويذكر أن المسجد الذى بها كان الملك الناصر جدّد عمارته فى القسطنطينية[٥] ، وأقيمت الصلاة فيه والخطبة ، وأن جانباً منه انهدم فعمره من ماله ، وأنه محافظ على صيانته ، وتمكين مَنْ بالقسطنطينية من المسلمين من إقامة الصلوات والخطبة يوم الجمعة[٦] .

ووصل كتاب من البنادقة على يد رسولهم ، يتضمن شكراً للسلطان على ما أنعم به فى أساراهم ، وأنهم ارتبطوا بخدمته وامتنعوا عن الخروج من طاعته .

ومنها أنه ورد كتاب يتضمن أن سيف الإسلام طُغتكين خرج من اليمن يريد مصر فخرج عليه رجل شريف مجاور صنعاء فأشير عليه أنك تخرج لبلاد لا تعلم تحَصَّلُ لك أم لا . فتدبير بلادك بك أولى .

ومنها أن مؤيد [الدين[٧]] بن القصاب نائب الوزارة ، مَلَكَ همذان وغيرها من بلاد العجم ، وذلك أنه لما ملك خوزستان من أولاد شملة التركماني[٨] ، سار منها إلى ميسان[٩] فوصل إليه قتلغ بن أينانج بن البهلوان صاحب البلاد ، وقد ذكرنا تغلب خوارزم

---

(١) هو إمبراطور الدولة البيزنطية إسحاق الثانى ، ISaac II [من١١٨٥-١١٩٥م] انظر : السلوك ، جـ١/ق١ ، ص١٢٠ ، حاشية١ .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من المقريزى للتوضيح ، السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص١٢٩ .

(٣) «وأحسن» فى الأصل والتصحيح من السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص١٢٩ .

(٤) ما بين الحاصرتين إضافة من السلوك لتوضيح المعنى . انظر : السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص١٢٩ .

(٥) القُسطَنْطِينيّة : ويقال قسطنطينة ، وهى إسطنبول اليوم ، كانت دار ملك الروم ، بينها وبين بلاد المسلمين البحر المالح ، والبحر يطيف بها من وجهين مما يلى الشرق والشمال وجانباها الغربى والجنوبى فى البر . ياقوت : معجم البلدان ، جـ٤ ، ٩٥-٩٦ .

(٦) نقل العينى هذا الحدث بتصرف من السلوك ، جـ١/ق١ ، ص١٢٩ .

(٧) «الملك» كذا فى الأصل والتصحيح من الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٣٥ ؛ المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص٩٠ .

(٨) ورد هذا الخبر فى المختصر ، ج٣ ، ص٩٠ .

(٩) فى الأصل «ديسنا» والتصحيح من ابن الأثير حيث ينقل العينى عنه هذا الخبر . الكامل ، ج١٠ ، ص٢٣٥ . وميسان اسم كورة واسعة كثيرة القرى والنخل بين البصرة وواسط ، قصبتها ميسان . انظر : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٧١٤ .

شاه عليها وترتيبه المذكور فيها ، وكان سبب مجيئه أنه جرى بينه وبين مقدم العسكر الذى لخوارزم المسمى مَياجُق مَصافٌ عند زنجان[١] فاقتتلوا فانكسر عسكره ، وحضر المذكور[٢] ومعه جماعة من الأمراء إلى الوزير فأكرمهم ، وخلع عليهم وأعطاهم ما يحتاجون إليه من خيل وخيام وغير ذلك ، وساروا إلى همذان وبها ولد لخوارزم شاه صحبة مياجق ، فلما قاربهم عسكر الخليفة فارقها الخوارزمية ، وتوجهوا صحبة مياجق إلى الرىّ ، فاستولى الوزير عليها ، ورحل هو وقتلغ بن إينانج خلفهم ، فاستولوا على كل بلد جازوا به[٣] [وساروا][٤] إلى الرى فلما وصلوها فارقها الخوارزمية ، فسير الوزير خلفهم عسكراً ، فأتبعهم إلى دامغان وبسطام وجرجان ، فلم يدركهم ، فعاد العسكر إلى الرىّ ، فأقاموا بها ثم اتفق قتلغ بن إينانج ومن معه على خلاف الوزير لما رأوا البلاد قد خلت من الخوارزمية ، فساروا وانضم إليهم عسكر ، وقصدوا مدينة كرج وقد نزلوا على دربند[٥] هناك[٢٠٤] فطلبهم الوزير بعساكره واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم قتلغ بن إينانج ونجى بنفسه ، ورحل الوزير إلى همذان ونزل بظاهرها فأقام نحو ثلاثة أشهر ، ثم أدركته الوفاة بها ، فسار خوارزم شاه إلى همذان فأدرك عسكر الخليفة فصافّه فى نصف شهر رمضان[٦] ، فانهزم عسكر الخليفة ، وغنم خوارزم شاه ما كان لهم من العدد والخيل ، وقتل منهم خلقاً كثيراً ، واسترجع همذان ، ونُبِشَ الوزير من قبره ، وقطع رأسه وسيّره إلى خوارزم[٧] .

ومنها أن الخليفة الناصر لدين الله جهز عسكراً مع مملوك له يقال له سيف الدين طغريل ، فاستولوا على أصفهان .

---

(١) فى الأصل «بخارى» ، والتصحيح من الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٣٥ ، حيث ينقل عنه العينى . وزنجان : بلد كبير مشهور ، من نواحى الجبال بين أذربيجان وبينها ؛ وهى قريبة من أبهر وقزوين ، والعجم يقولون زنكان بالكاف . معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٩٤٨-٩٤٩ .

(٢) يقصد به قتلغ بن أينانج . انظر : الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٣٥ .

(٣) ذكر ابن الأثير البلاد التى استولوا عايها ، وهى : خراقان ، ومزدعان ، وساوة ، وآوة . الكامل ، جـ١٢ ، ص٤٦ .

(٤) ما بين حاصرتين إضافة من ابن الأثير للتوضيح ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٣٥ .

(٥) دربند : هو باب الأبواب . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥٦٤ .

(٦) فى ابن الأثير : «فوقع بينه وبين عسكر الخليفة مصاف نصف شعبان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة» انظر الكامل : ج١٠ ، ص٢٣٥ .

(٧) نقل العينى هذا الحدث من الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٣٥-ص٢٣٦ .

ومنها أن مماليك البهلوان قَدَّموا عليهم مملوكاً من البهلوانية يقال له كُكجا فعظم أمر كُكجَا واستولى على الرِى وهمذان[١] . وفيها ....[٢]

وفيها حج بالناس من بغداد قطب الدين سنجر الخليفتى ، ومن الشام سَرا سُنقر وأيْبك فطيس الصلاحيّان ، ومن مصر الشريف إسماعيل بن ثعلب الجعفرى - من ولد جعفر بن أبى طالب .[٣]

ذكر من توفى فيها من الأعيان

الشيخ عبد الله[٤] بن محمد بن عبدالله الصوفى ، أبو القاسم ، شيخ رباط المأمونية ببغداد .

على بن حسان بن مسافر[٥] ، أبو الحسن الكاتب البغدادى ، كان أديباً شاعراً ، فمن شعره قوله .

نفى رقادى ومَضى	بَرْقٌ بِسلع ومضا
لاحَ كما سُلَّت يد الـ	أسود عضًبا[٦] أبيضا
كأنه الأشهبُ فى	النقع إذا ما ركَضا
يبدو كما تختلفُ الر	يحُ على جمر الغضا
فتحسبُ الزنجىَّ أبا	دى نظرا وغمّضا
أو شعلة النار علا	لهيبُها وانخفضا
آه له من بارق	ضاء على ذات الأضا[٧]
أذْكَرَنى عهدًا مَضى	على الغُوير[٨] وانقضى

(١) الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٣٩ .
(٢) بياض بمقدار ثلاث كلمات ثم بياض بمقدار سطر كامل فى الأصل .
(٣) فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٨٨ .
(٤) انظر ترجمته فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٨٨ .
(٥) «مسافر» كذا فى الأصل ، والتصحيح من البداية والنهاية ، جـ١٢ ، ص١١ .
(٦) عضباً : العَضْب ، القطع والشتم والتناول والضرب والطعن . انظر : الفيروزآبادى ، القاموس المحيط ، مادة «عضب» ، جـ١ ، ص١٠٩ .
(٧) الأضا : الأضاه المستنقع من سيل وغيره . الفيروزآبادى ، القاموس المحيط ، مادة «أضى» ، جـ٤ ، ص٣٠١ .
(٨) الغُوير : تصغير غار ، والغار البيت فى الجبل أو المنخفض أو الحجر يأوى إليه الوحش . انظر الفيروزآبادى ، مادة «غور» ، القاموس المحيط ، جـ٢ ، ص١٠٩ . انظر : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٢ .

فـــــقـــــال لى قلبى الر ضى حـــاجـــة وأعـــرضـــا
يَطلبُ مَن أمــــرَضــــه فـــديت ذاك المُـــمْــرضَـــا
يا غـــرض القلب لقـــد غـــادرت قلبى غـــرضـــا
لأســـــهم كـــــأنمـــــا مُـــرْسلهـــا صـــرف القـــضـــا
فـــــــبتّ لا أرتـاب فـى أن رُقـــادى قـــد مـــضـى
حـــتى صـــغى النجم وكـــاد الـليـل أن يعــــرُضـــا
وأقـــبـل الصـــبح لأطـ ـراف الدجى مـــغـــضـــضـــا
وسَلّ فى الشـــرق على الغَـــر ب ضـــيـــاء وانقـــضـى
كـــالبـــاز هَبّ ســـحـــرا من نومـــه فـــانتـــفـــضـــا

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الثانية والتسعين بعد الخمسمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله وأصحاب البلاد على حالهم ، ونقل الأفضل صاحب دمشق أباه السلطان صلاح الدين من قلعة دمشق إلى التربة بالمدينة(١) وذلك فى شهر صفر منها ، وكانت مدة لبثه فى القلعة ثلاث سنين ، ولزم الأفضل الزهد والقناعة وأموره مُفوّضه إلى وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزرى ، وقد اختلفت الأحوال به وكثر شاكوه وقل شاكروه .(٢)

ذكر انتزاع(٣) دمشق من الملك الأفضل

قال المؤيد(٤) فى تاريخه : ولما بلغ الملك العادل - فى مصر - والملك العزيز[٢٠٥] اضطراب الأمور على الملك الأفضل اتفق العادل مع العزيز على أن يأخذا دمشق وأن يسلمها العزيز إلى العادل لتكون الخطبة والسكة فى سائر البلاد للعزيز كما كانت لأبيه السلطان صلاح الدين ، فخرجا وسارا من مصر فأرسل الأفضل إليهما فلك الدين وهو أحد أمرائه وهو أخو العادل لأمه ، واجتمع فلك الدين بالعادل فأكرمه وأظهر الإجابة إلى ما طلبه ، ولم يزل العادل والعزيز سائرين حتى نزلا على دمشق وقد حصنها الأفضل ، فكاتب بعض الأمراء من داخل البلد الملك العادل بأنهم معه وأنهم يسلمون البلد إليه ، فزحف العادل والعزيز ضحى يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب من هذه السنة ، فدخل العزيز من باب الفرج(٥) والعادل من باب توما(٦) ، فأجاب الأفضل إلى تسليم القلعة وانتقل منها بأهله وأصحابه ، وأخرج وزيره ضياء الدين الجزرى مختفياً فى صندوق خوفاً عليه من القتل ، وكان الملك الظافر خضر ابن السلطان صلاح الدين صاحب بصرى

(*) يوافق أولها ٦ ديسمبر سنة ١١٩٥م .

(١) يقصد بالمدينة هنا مدينة الكلاسة التى تقع شمالى جامع دمشق ، وقد بنى بها الأفضل قبة ونقل جثة والده صلاح الدين من القلعة إلى هذه القبة . انظر : وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص٢٠٦ ، ترجمة ٨٤٦ .

(٢) ورد هذا النص فى المختصر ، جـ٣ ، ص٩١-٩٢ .

(٣) «نتزاع» فى الأصل ، وهذا خطأ من الناسخ والصحيح ما أثبتناه .

(٤) البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٢ .

(٥) باب الفرج : أحدثه الملك العادل نور الدين وسماه بهذا الاسم تفاؤلاً لما وجد من التفريج بفتحه وكان بقربه باب يسمى باب العمارة فتح عند عمارة القلعة ثم سد . ابن شداد ، الأعلاق الخطيرة ، ص٣٦ .

(٦) باب توما : أحد أبواب مدينة دمشق . معجم البلدان ، جـ١ ، ص٤٤٣ .

مع أخيه الأفضل ومعاضدًا له ، فأخذت منه بصرى ولحق هو بأخيه الظاهر صاحب حلب ، فأقام عنده ، وأعطى الأفضل صرخد فسار إليها بأهله واستوطنها ، ودخل العزيز إلى دمشق يوم الأربعاء رابع شعبان منها ، ثم سلم دمشق إلى عمه العادل ، ثم رحل العزيز من دمشق عشية يوم الاثنين التاسع من شعبان ، فكانت مدة الأفضل فى دمشق ثلاث سنين وشهراً ، وأبقى العادل السكة والخطبة بدمشق للعزيز(١) . وقال ابن كثير فى تاريخه : وفى رجب من هذه السنة أقبل العزيز من مصر صحبة عمه العادل فى العساكر ، فدخلا دمشق قهراً وأخرجا منها الأفضل ووزيره الذى أساء تدبيره ، وصلى العزيز الجمعة عند تربة والده صلاح الدين وخطب له بدمشق ، ودخل فى هذا اليوم القلعة وجلس فى دار العدل للحكم والفصل ، كل هذا وأخوه الأفضل حاضر عنده فى الخدمة ، وأمر القاضى محيى الدين بن الزكى بتأسيس المدرسة العزيزية إلى جانب تربة أبيه ، وكان داراً للأمير عز الدين أسامة ثم استناب على دمشق عمه العادل وانشمر إلى الديار المصرية يوم الاثنين تاسع شعبان(٢) ، والسكة والخطبة له ، وصولح الأفضل عن دمشق على مدينة صرخد ، وهرب وزيره الجزرى إلى جزيرته وأتلف ملكه ونفسه بجزيرته ، وانتقل الأفضل إلى صرخد بأهله وأولاده وأخيه قطب الدين .(٣)

وقال صاحب المرآة : لما ازداد من ابن الأثير الجزرى وزير الأفضل الأفعال القبيحة وأذاه لأكابر الدولة من أهل الشام والأفضل يسمع منه ولا يخالفه ، كتب قيماز النجمى وأعيان الدولة إلى العادل فى مصر يشكونه ، فأرسل العادل إلى الأفضل يقول : ارفع يد هذا الأحمق السىء التدبير القليل التوفيق فلم يلتفت إليه ، فاتفق العادل مع العزيز على النزول إلى الشام ، فسار إلى الشام فاستشار الأفضل أصحابه وكل أشار عليه أن يلتقى عمه وأخاه ولا يخالفهما إلا الجزرى فإنه أشار عليه بالعصيان ، فاستعد للحصار ، وحلّف الأمراء والمقدمين وفرقهم فى الأبراج وعلى الأسوار فراسلوا العزيز والعادل وأصلحوا أمرهم فى الباطن ، واتفق العادل مع عز الدين بن الحمص على فتح الباب الشرقى - وكان[٢٠٦]

---

(١) نقل العينى هذا الحدث من المختصر ، جـ٣ ، ص٩٢ .
(٢) اتفق العينى مع أبى شامة وابن واصل فى هذا التاريخ ، انظر الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٣١ ؛ مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٦٨ ؛ وقد اختلف معهم ابن كثير الذى ينقل عنه العينى حيث ذكر أنه «يوم الاثنين تاسع شوال» انظر البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٢ .
(٣) نقل العينى هذا النص من ابن كثير بتصرف ، البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٢ .

مسلماً إليه فلما كان يوم الأربعاء السادس والعشرين من رجب ركب العادل والعزيز وجاءا إلى الباب الشرقى ، ففتحه ابن الحمص فدخلا البلد من غير قتال ، فنزل العزيز دار عمته ست الشام ونزل العادل دار العقيقى[١] ونزل الأفضل إليهما وهما فى دار العقيقى ، فدخل عليهما وبكى بكاء شديداً ، فأمره العزيز بالانتقال إلى صرخد ، فأخرج وزيره الجزرى فى الليل فى جملة الصناديق خوفاً عليه من القتل ، فأخذ أموالاً عظيمة وهرب إلى بلاده ، وكان العزيز قد قرر مع العادل أن يكون نائبه بمصر ، ويقيم العزيز بدمشق ، ثم ندم فأرسل إلى الأفضل وسأله فيها صلاح حاله فأذاعها ، ووصلت إلى العادل فغضب العزيز ورسم عليه بالخروج ، فخرج إلى مسجد خاتون بأهله وعياله ، وسلم العزيز بصرى إلى العادل وكان بها الظافر ، وأقام العزيز بدمشق أربعة أيام وصلى الجمعة عند مكان قبر والده بالكلاسة ، وأمر ببناء القبة والمدرسة إلى جانبها ، وأمر محيى الدين بن زكى الدين بعمارة المدرسة العزيزية ، وكان الأفضل قد شرع فى بناء تربة عند مشهد القدم[٢] بوصية من السلطان ، فإنه قال : تكون تربتى على الجادة ليمر بها الصادر والوارد فيترحمون على . فارتفع منها فأمه ، ولما جاء العزيز إلى دمشق أخربها ، وكان العزيز إذا جلس فى مجالس لهوه جلس العادل على بابه كأنه برددار[٣] ، ولما كان آخر ليلة من مقامه بدمشق وكانت ليلة الاثنين تاسع شعبان قال العادل لولده الملك المعظم : ادخل . فقبّل يده واطلب منه دمشق ، وكان المعظم قد راهق الحلم فدخل فقبل يده وطلب دمشق فدفعها إليه وأعطاه سنجقه[٤] ، وقيل : بل استناب العادل فيها وأعطاها للمعظم عيسى بن العادل[٥] فى سنة أربع وتسعين وخمسمائة ثم رحل العزيز إلى مصر فى تاسع شعبان ومضى الأفضل إلى

---

(١) دار العقيقى : داخل باب الفرج تجاه المدرسة العادلية بدمشق . السلوك ، جـ١ ، ق٢ ، ص٦٤٦ ، وقد ذكرها سامى الدهان بقوله «دار العقيقى هى القسم الكبير من الظاهرية اليوم . انظر : زبدة الحلب ، جـ٣ ، ص٢٠ ، حاشية ١ .

(٢) مشهد القدم : هو من الآثار التى فى دمشق وغوطتها مما يرجى فيه إجابة الدعاء . انظر : النجوم الزاهرة ، جـ٥ ، ص١٢٦ ، حاشية ١ .

(٣) البرددار : لقب لأرباب الوظائف من الأتباع والحواشى والخدم ويكون البرددار فى خدمة مباشر الديوان فى الجملة متحدثاً على أعوانه والمتصرفين فيه ، وأصل الكلمة فردادار وهى كلمة فارسية من لفظين أحدهما فردا ومعناها الستارة والثانى دار ومعناه ممسك أى ممسك الستارة ، السلوك جـ١ ، ق٢ ، ص٥٣٤ ، حاشية ٦ .

(٤) سنجقه : السنجق لفظ تركى يطلق على الرمح ، والمراد به الراية التى تربط به ، والجمع سناجق وهى رايات صفر صغار ، يحملها السنجقدار زمن السلم .

انظر : صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص٤٨ ؛ جـ٥ ، ص٤٥٦ ، ص٤٥٨ ؛ السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص١٢٤ ، حاشية ١ .

(٥) المعظم عيسى بن العادل : هو شرف الدين عيسى بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب صاحب دمشق ولد سنة ٥٧٨هـ ، وتوفى ٦٢٤هـ ، وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٤٩٤-ص٤٩٥ .

صرخد ، ونفى العادلُ ابنَ الحمصى الذى فتح له الباب الشرقى ، وكان قد أعطاه عشرة آلاف دينار فاستردها منه واجتاز العزيز فى طريقه إلى مصر بالقدس ، فعزل أبا الهيجاء السمين عنه ، وولاه سنقر الكبير[1] ومضى أبو الهيجاء إلى بغداد على ما سنذكره[2] إن شاء الله . وقال بيبرس فى تاريخه : وفى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة تحدّد للعادل سوء رأى فى الأفضل واغتاظ منه لأمور بلغته عنه ، فاتفق مع العزيز على أخذ دمشق منه وأخذ حلب من الظاهر فخرجا ، ولما وصلا إلى غزة أرسل الأفضل كتاباً ؛ يستعطف العادل ، فسيرا إليه أنه لابد من اجتماع الكلمة وخدمة العزيز والعزم على قصد دمشق ، وقد كان الظاهر[3] قد أرسل إلى أخيه الأفضل يقول له : أخرج عمنا من بيننا ونحن ندخل تحت كلّ ما تريد ، فأنا أعرف منك به ، وأقرب إليه ، فإنه عمى كما هو عمك ، وأنا زوج ابنته ، ولو علمتُ أن لنا فى دخوله بيننا خير لكنت أولى به منك ، وقال له الأفضل : أنت سيء الظن فى كل أحد أتى مصلحة لعمنا فى أذيتنا ، ونحن إذا اجتمعت كلمتنا سيّرنا معه العساكر من عندنا فملك من البلاد أكثر من بلادنا ونربح حسن الذكر . ثم ذكر بيبرس نحواً مما ذكرنا إلى أن قال : إنهم استمالوا أميراً من أمراء الأفضل يسمى العزيز أبو غالب بن[٢٠٧] الحمصى وكان الأفضل يعتمد عليه ويكثر الإحسان إليه ، ففتح له الباب الشرقى فى السابع والعشرين من رجب وأدخل العادل منه ومعه جماعة من أصحابه ، وركب العزيز ووقف بالميدان الأخضر غربى البلد ، ولم يشعر الأفضل إلا وعمه معه فى البلد وقد ملكت عليه[4] فركب لوقته وتوجه إلى أخيه العزيز ، واجتمع معه ودخل البلد ومضيا إلى عمهما العادل ، وكان قد نزل فى دار أسد الدين شيركوه ، فاتفق العادل والعزيز على أن يبقيا على الأفضل البلد خوفاً أن تجمع عليهما العساكر ، وعاد الأفضل إلى مكانه وبات العادل بدار شيركوه وخرج العزيز إلى خيمته ثم خرج العادل من الغد إلى جوسقه[5] ، وبقى الأفضل يتردد إليهما كل يوم ثم استقر الحال على أن يخرج الأفضل من دمشق ويأخذ صرخد فيسلم العزيز قلعة دمشق ، وسار الأفضل إلى صرخد ،

---

(١) يقصد العينى هنا تولية العزيز القدس لسنقر .
(٢) نقل العينى هذا الحدث بتصرف من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٨٣-ص٢٨٤ .
(٣) الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٤٢ .
(٤) الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٤٣ .
(٥) جوسقه : كلمه فارسية مصرية وأصلها كوسك ومعناها القصر . انظر محيط المحيط ، جـ١ ، ص٣١٨ .

ثم خرج العزيز من دمشق عائداً إلى مصر ، وجدد بينه وبين العادل إيماناً ، ونزل عن خبزه بمصر فكان دخوله مصر رابع شهر رمضان من هذه السنة(١) . وفى تاريخ النويرى(٢) : ولما استقر الأفضل بصرخد كتب إلى الخليفة الناصر لدين الله يشكو من عمه أبى بكر وأخيه العزيز عثمان بقوله فى أول الكتاب :

مولاى إن أبا بكر وصاحبه　　عثمان قد غصباً بالسيف حق على
فانظر إلى حظ هذا الاسم كيف لقى　　من الأواخر ما لاقى من الأول
وهو الذى كان قد ولاه والده　　عليهما واستقام الأمر حين ولى
فخالفاه وحلا عقد بيعته　　والأمر بينهما والنص فيه جلى

فكتب الخليفة الناصر إليه جواب كتابه وفى أوله :

وافي كتابك يا ابن يوسف معلنا　　بالود يخبر أن أصلك طاهر
غصبوا عليا حقه إذ لم يكن　　بعد النبى له بيثرب ناصر
فابشر فإن غدا عليه حسابهم　　واصبر فناصرك الإمام الناصر(٣)

ذكر غزوة صاحب غزنة

وفى هذه السنة سار شهاب الدين أحمد الغورى(٤) صاحب غزنة إلى بلاد الهند ، ففتح قلعة عظيمة تسمى بهنكر بالأمان ثم سار إلى قلعة كواكير وبينهما خمسة أيام ، فصالحه أهلها على مال حملوه إليه ، ثم سار إلى بلاد الهند فغنم وأسر شيئاً كثيراً ثم عاد إلى غزنة ، مؤيداً منصوراً .(٥) وقال بيبرس : لما سار شهاب الدين بن سام الغورى إلى بلاد الهند فتح قلعة بهنكر بالأمان ثم سار إلى قلعة كواكير وهى قلعة منيعة على جبل لايصل

(١) ورد هذا الحدث بتصرف فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٤٣ ؛ نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤٤٨ ، ص٤٤٩ .

(٢) بالرغم من أن العينى يذكر هنا أنه ينقل عن النويرى إلا أنه أخطأ فى هذا إذ ينقل هذا الحدث عن المؤيد ، المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص٩٢-ص٩٣ .

(٣) نقل العينى هذا الحدث بتصرف من المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص٩٢-ص٩٣ ، أيضاً راجع مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٦٩ .

(٤) شهاب الدين أحمد الغورى : انظر ما سبق ، جـ٢ ، ص٨٦ .

(٥) نقل العينى هذا الحدث بتصرف من الكامل ، جـ١٢ ، ص٥٠-ص٥١ .

إليها نشاب ولا منجنيق ، فأقام عليها شهر صفر فلم يبلغ منها غرضاً ، فراسله من بها فى الصلح على مال يحملونه فأجابهم ورحل عنها . فأغار(١) ونهب وسبى وغنم شيئاً عظيماً ثم عاد إلى غزنة سالماً .

ذكر وقعة أخرى بين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن وبين ألفنش ملك الإفرنج

وكان ألفنش قد جند وجمع جمعاً أكثر من الأول ، والتقوا فهزمه يعقوب وساق خلفه إلى طليطلة ، وضربها بالمجانيق وضيق عليها ولم يبق إلا فتحها ، فخرجت إليه والدة ألفنش وبناته ونساؤه [٢٠٨] وأهله وبكين بين يديه وسألنه إبقاء البلد عليهن ، فَرَقَّ لهن ومنَّ عليهن به ، ووهب لهن المال والجواهر ، وردهن مكرمات بعد القدرة .(٢) ولو فتح طليطلة لفتح إلى مدينة النحاس(٣) وعاد إلى قرطبة فأقام شهراً يقسم الغنائم ، وجاءته رسل ألفنش تسأله الصلح فصالحه مدة وأمن أهل الأندلس .(٤)

وفى تاريخ بيبرس : فصالحهم مدة خمس سنين ثم عاد إلى مراكش(٥) ، وقيل : إن هذه الوقعة كانت فى سنة إحدى وتسعين وخمسمائة .

ذكر مُلك عسكر الخليفة أصفهان

وفى هذه السنة ملك عسكر الخليفة أصفهان ، وسبب ذلك كان بأصفهان ولد خوارزم شاه ، وكان أهلها يكرهونه ، فكاتبوا الخليفة الناصر سيبذلون له تسليم البلد إلى من يصل من الديوان من العساكر ، فجهز الخليفة جيشاً صحبة سيف الدين طغرل مقطع بلد اللحف(٦) من العراق ، فساروا إليها ونزلوا بظاهرها ، ففارقها عسكر خوارزم شاه ودخلها عسكر الخليفة وخطب له فيها .(٧)

---

(١) ذكر ابن الأثير أن شهاب الدين الغورى أغار على «آى وصور» الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٤٢ .
(٢) شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص٣٠٧-ص٣٠٨ .
(٣) مدينة النحاس : يقال لها مدينة الصُّفر ، وهى فى بعض مفاوز الأندلس . عنها انظر بالتفصيل : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٤٥٥-ص٤٥٨ .
(٤) نقل العينى هذا الحدث بالنص من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٨٨ .
(٥) ورد هذا الخبر فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٣٦-ص٢٣٧ ؛ حوادث سنة ٥٩١هـ .
(٦) اللحف : صقع معروف من نواحى بغداد سمى بذلك لأنه فى لحف جبال همذان ونهاوند . معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٣٥٣ .
(٧) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٣٨-ص٢٣٩ ، وقد ذكرها ضمن أحداث سنة ٥٩١هـ .

وفيها عاد خوارزمشاه إلى خراسان فاتفق الأمراء البهلوانية والمماليك وقدّموا عليهم شخصاً من أعيانهم يسمى كوكجا ، واستولوا على الرى وما جاورها من البلاد ، وسار إلى أصفهان لإخراج الخوارزمية منها ، فلما قاربها بلغه أن عسكر الخليفة عندها فأرسل إلى سيف الدين طغرل مقدم عسكر الخليفة يعرض نفسه على خدمة الديوان ، ويكون له من الإقطاع الرى وساوة وزنجان وقاشان(١) وما ينضم إليها من حدود مزدقان(٢) ويكون للديوان أصفهان وهمذان وقزوين فأجيب إلى ذلك وكتب له منشوراً وأرسلت له الخلع ، فعظم شأنه وقوى أمره .(٣)

ذكر بقية الحوادث

منها أنه هبت ريح شديدة مظلمة مدلهمة بأرض العراق ومعها رمل أحمر حتى احتاج الناس إلى إشعال الأضواء بالنهار(٤) ، ووقع من الركن اليمانى قطعة وتحرك البيت الحرام مرارًا ، وهذا شىء لم يعهد(٥) منذ بناه ابن الزبير وأعاده الحجاج وإلى هلم جرا .

ومنها أنه ظهر ببوصير(٦) - قرية بصعيد مصر وهى التى قتل فيها مروان الجعدى آخر خلفاء بنى أمية - بيت هرمس الحكيم وفيه أمثلة كباش وضفادع وقوارير كلها نحاس وفيه أموات لم تبل ثيابهم .(٧)

ومنها أنه ولى قوام الدين أبو طالب يحيى بن سعيد بن - زبادة(٨) كتابة الإنشاء ببغداد ، وكان فاضلاً بليغاً ولكن لا كالفاضل .

---

(١) قاشان : مدينة قرب أصفهان تذكر مع قُم . انظر : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص١٥ .
(٢) «مردغان» كذا فى الأصل والتصحيح من معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٥٢٠ .
(٣) نقل العينى هذا الحدث بتصرف من الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٣٩ .
(٤) البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٢ ؛ الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٤٣ .
(٥) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٨٨ ؛ شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص٣٠٨ .
(٦) «بوصير» : إحدى قرى الجيزة . راجع معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٧٦٠ .
(٧) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٨٨ .
(٨) «زيادة» كذا فى الأصل والتصحيح من ابن خلكان .
هو أبو طالب يحيى بن أبى الفرج سعيد بن أبى القاسم هبة الله بن على بن فرغلى بن زباد الشيبانى توفى سنة٥٩٢هـ . وفيات الأعيان ، جـ٦ ، ص٢٤٤-ص٢٤٩ .

ومنها أن مجير الدين[١] أبا القاسم محمود بن المبارك البغدادى ، درس بالمدرسة النظامية ، وكان فاضلاً بارعاً مناظراً .[٢] وفيها ....[٣]

وفيها حج بالناس من العراق ألب قرا مملوك طاشتكين ، وكان الخليفة قد أفرج عن طاشتكين من الحبس فى هذه السنة ، وحج من مصر[٤] الشريف إسماعيل بن ثعلب الجعفرى أيضاً .[٥]

ذكر من توفى فيها من الأعيان

صدر الدين محمود بن عبداللطيف بن محمد بن ثابت الخجندى رئيس الشافعية[٦] بأصفهان ، قتله فلك الدين سنقر الطويل شحنه أصفهان[٧] وكان ذلك سنة زوال ملك أصفهان عن الديوان العزيز .

فخر الدين محمود بن على[٢٠٩] **النَّوقانى**[٨] **الشافعى** ، توفى فى هذه السنة عائداً من الحج .

أبو الغنائم محمد بن على بن فارس الشاعر الهرثى ، والهرث[٩] قرية تحت واسط فى نهر جعفر بينها وبين واسط عشرة فراسخ . كان رقيق الشعر مليح المعانى ، أكثر فى الغزل ووصف المحبة والشوق والصبابة فمالت القلوب إليه ، ومولده سنة إحدى

(١) «محيى الدين» كذا فى الأصل والمثبت هو الصحيح ، وهو المجير البغدادى محمود بن المبارك بن على الواسطى توفى سنة ٥٩٢هـ . انظر : الإسنوى ، طبقات الشافعية ، جـ١ ، ص١٣٠ ، ترجمة ٢٤٩ .

(٢) نقل العينى هذا النص بتصرف من ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٢ ؛ ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٢ ، ص٥٢ .

(٣) بياض فى الأصل بمقدار سطر وكلمتين .

(٤) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٨٨ .

(٥) إسماعيل بن ثعلب الجعفرى من أغنياء الصعيد أقام ببلدة ديروط- سربان بالصعيد . معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٥٧٠ .

(٦) صدر الدين محمود بن عبداللطيف بن محمد بن ثابت الخجندى ، يبدو أنه هو أبو بكر محمد بن عبداللطيف بن محمد بن عبداللطيف الخجندى توفى مقتولاً عام ٥٩٢هـ . انظر : الإسنوى . طبقات الشافعية ، جـ١ ، ص٢٣٦ ، ترجمة رقم ٤٤٦ .

(٧) نقل العينى هذا الخبر من المختصر ، جـ٣ ، ص٩٢ .

(٨) فخر الدين أبو عبدالله محمد بن أبى على بن أبى نصر النوقانى ولد بنوقا سنة ٥١٦هـ ، مات بالكوفة سنة ٥٩٢هـ . انظر : الإسنوى ، طبقات الشافعية ، جـ٢ ، ص٢٨٠ ، ترجمة١١٩٥ .

(٩) عنها انظر : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٦-٩ .

وخمسمائة ، ومدح الأمراء والرؤساء والأعيان ، وكانت وفاته فى رجب منها بالهرث ، وديوانه مشهور وفضله مذكور ، ومن شعره قصيدة أولها :[١]

أجيراننا إن الدموع التى جرت ... رخاصاً على أيدى النَوى لغَوالِ
صحبناكم والعمر غض وحُبّنا جديدٌ ... وميدان الصبّابة خال
فقد رق جلباب الشباب وما الصبا ... بباق ولا برد الغرام ببال
وحبكم حب يقوم بنفسه ... ترفع عن شِبْه له ومثال
حماه حفاظى أن يلم بخاطرى ... وأخفاه صونى أن يدور ببال
يقر بعينى أن أرى من دياركم ... مع الفجر ومض البارق المتعالى
أداوى على بعد المزار بذكركم ... عقائيل داءٍ فى الفؤاد عُضَال

إبراهيم بن أحمد بن محمد أبو[٢] طاهر العكبرى ، ولد سنة خمس عشرة وخمسمائة ، وسمع الحديث ، ورأى فى منامه فى هذه السنة كأنه يقرأ «سورة يس» وهى اثنان وثمانون آية ، ويقال : إن من قرأها يعيش بعدد آياتها سنين ، فمات فى صفر وله اثنان وثمانون سنة ، وكذا يقال : إن من قرأ سورة من أول ما نزل القرآن طال عمُره ، ومن آخر ما نزل قصر عمر ، سمع القاسم[٣] بن حصين ، وقاضى المارستان ، وابن السمرقندى وغيرهم .[٤]

عبد الخالق بن عبد الوهاب بن محمد : ويعرف بابن الصابونى ، من أولاد المشايخ ، سمع الحديث ورواه ، وتوفى فى شوال ودفن عند معروف الكرخى ، وقد أناف على الثمانين سنة ، سمع أبا القاسم بن الحصين وطبقته .[٥]

الفقيه أبو الحسن على بن سعيد بن الحسن البغدادى المعروف بابن العريف ، ويلقب بالبيع الفاسد ، كان حنبلياً ثم اشتغل شافعياً على أبى القاسم بن فضلان ، وهو

---

(١) ورد هذا النص فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٨٩-٢٩٠ ، انظر أيضاً البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص١٣ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص١٣٩ ، شذرات الذهب ، جـ ٤ ، ص٣١٠ .
(٢) فى مرآة الزمان «ابن» ، جـ٨ ، ص٢٨٨ .
(٣) فى مرآة الزمان «القسم» ، جـ٨ ، ص٢٨٨ .
(٤) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٨٨ .
(٥) نقل العينى هذا الخبر من مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٨٨ . انظر أيضاً ترجمته فى : شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص٣٠٩ .

الذى لقبه بذلك لكثرة تكراره على هذه المسألة - الخلافية-[١] بين الشافعية والحنفية ، ويقال : إنه صار بعد هذا كله إلى مذهب الإمامية والله أعلم ، مات فى هذه السنة .[٢]

الشيخ أبو شجاع محمد بن على بن شعيب بن الدهان الفرضى الحاسب المؤرخ البغدادى[٣] ، وقدم دمشق وامتدح الشيخ أبا اليمن الكندى زيد بن الحسن ، فقال :

يا زيد زادك ربى من مواهبه نعماً يقصر عن إدراكها الأمل
لا بدل الله حالاً قد حباك بها ما دار بين النحاة الحال والبدل
النحو أنت أحق العالمين به أليس باسمك فيه يضرب المثل[٤]

محمد بن أحمد أبو منصور ويعرف بابن باقه . كوفى ولد بالكوفة سنة ثلاثين وخمسمائة ، واشتغل بالأدب ، وكان أبوه فاضلاً أيضاً ، ومات محمد ببغداد ونقل إلى الكوفة رحمه الله .[٥][٢١٠]

الوزير ابن القصاب : واسمه محمد بن على بن محمد أبو الفضل ، ولقبه مؤيد الدين ، وأصله من شيراز[٦] ، قدم بغداد فى سنة أربع وثمانين وخمسمائة وأول خدمته أنه استخدم فى ديوان الإنشاء ثم ترقى إلى الوزارة ، وقرأ الأدب على أبى السعادات بن الشجرى[٧] وغيره ، وكان داهية ردىء الاعتقاد وهو الذى أعان ابن الشيخ عبدالقادر على تمكنه من ابن الجوزى كما ذكرنا إلا أنه كان له خبرة بأمور الحرب وفتح البلاد ، وكان الخليفة [الناصر][٨] يثنى عليه ، ويقول : لو قبلوا من رأيه ما جرى ما جرى . ولقد أتعب

---

(١) نقل العينى هذا الخبر من البداية والنهاية مع إضافة كلمة «الخلافية» ، جـ١٣ ، ص١٣ .
(٢) نقل العينى هذا الخبر من البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص١٣ .
(٣) النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص١٣٠ ؛ الزركلى ، الأعلام ، جـ٧ ، ص١٢٧ .
(٤) ورد هذا الخبر فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٣ .
(٥) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٨٩ .
(٦) نقل العينى هذا الخبر من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٨٩ . وعن ترجمته راجع البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٢ ؛ شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص٣١١ .
(٧) أبو السعادات بن الشجرى : هو أبو السعادات هبة الله بن على بن محمد بن حمزة الحسنى المعروف بابن الشجرى البغدادى نسبة إلى شجرة وهى قرية من أعمال المدينة ، برع فى النحو واللغة وأشعار العرب ، توفى سنة ٥٤٢هـ فى بغداد . وفيات الأعيان ، جـ ٦ ، ص٤٥-٥٠ ترجمة رقم ٧٧٤ .
(٨) ما بين حاصرتين إضافة من مرآة الزمان لتوضيح الخبر ، جـ ٨ ، ص ٢٨٩ .

الوزراء بعده[١] . وقال ابن كثير : وكان أبوه يبيع اللحم ببعض أسواق بغداد ، فتقدم[ابنه][٢] وساد أهل زمانه ، وكانت وفاته بهمذان ، وقد أعاد رساتيق كثيرة من بلاد العراق وخراسان وخوزستان إلى ديوان الخليفة ، وكان ناهضاً وله صرامة وشهامة وشعر[٣] جيد .

الوزير عبيد الله بن المظفر بن هبة الله ابن رئيس الرؤساء : ويلقب بالأثير ، وجده وهو الوزير الذى قتله الباطنية وهو خارج إلى الحج فى أيام المستضىء . وكان عبيدالله فاضلاً عاقلاً ، ومن شعره :

إن حاول الدهر إخفائى فإن له	فى حسبى ، الآن سراً سوف يبديه
أعدّنى للعُلى ذخراً ومن ذخرت	يداه فى الدهر شيئاً فهو يُخفيه

زعيم الدين بن الناقد : واسمه نصر بن على بن محمد أبو طالب ، ولى حجبة الباب ثم ولى حاجب ديوان الإنشاء ، ثم ولى المخزن ، **وهو الملقب بقنبر** ، لقب به لأنه صاد ولده قنبراً وخبأه إلى جانب مسنده فخرج القنبر فصاح قنبر قنبر ، فلقب به ؛ وكان إذا بلغه أن أحدًا لقبه قنبر يسعى فى هلاكه . وقيل : إنه كان يتشيع ، وكانت عمامته طويلة ، ولقبه أهل باب الأزج قنبر ، وهو ذكر العصافير ، توفى فى هذه السنة .

سابق الدين عثمان صاحب شيراز ، مات فى هذه السنة بشيزر ، وعمل عزاؤه بالكلاسة بدمشق ، وهو أحد أولاد الداية الأربعة ، وأمهم داية نور الدين محمود بن زنكى رحمه الله .

(١) نقل العينى هذا الخبر من مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٨٩ .
(٢) ما بين حاصرتين إضافة من ابن كثير حيث ينقل العينى عنه ، البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٤ .
(٣) «سعى» هكذا فى الأصل والتصحيح من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٤ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الثالثة والتسعين بعد الخمسمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله ، وصاحب مصر هو الملك العزيز ابن السلطان صلاح الدين ، واستولى على دمشق أيضاً كما ذكرنا ، وسير الملك الأفضل أخاه الذى كان صاحب دمشق إلى صرخد ، وصاحب حلب هو الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين رحمه الله .

ذكر غزوات الملك العادل

وفى هذه السنة انقضت مدة الهدنة التى كان عقدها الملك الناصر صلاح الدين للإفرنج ، فأقبلوا بقضهم وقضيضهم فالتقاهم الملك العادل بمرج عكا ، فكسرهم وغنمهم وفتح يافا عنوة ، وقد كانوا كتبوا إلى ملك الألمان يستنهضونه لفتح بيت المقدس فقدر الله هلاكه سريعاً ، وكفى الله المؤمنين شره وشر أهل الكفر .

وفى تاريخ بيبرس : وفى هذه السنة خرج العادل إلى خربة اللصوص(1) لحرب الفرنج ، وجاءه الأفضل من صرخد ، وقدم أسد الدين شيركوه من حمص ، ووصل عز الدين بن المقدم ونزلوا على عين جالوت[٢١١] وأخذ العادل يافا منهم بالسيف ، وقتل جماعة كثيرة وبيع الأسير بثمن بخس ، وكان السبب فى ذلك ما جرى منهم فى الغدر فراسل الإفرنج ملك الألمان ، وكان قد ملك صقلية وعرّفوه أن المسلمين اشتغلوا بحرب بعضهم بعضا فأقبل فى مراكبه إلى عكا ، واتفق هلاك الكندهرى ساقطا من شباك له ، فتملك الألمانى مكانه وسارا إلى بيروت فملكها من المسلمين ، وكان بها عز الدين أسامة .(2)
قال بيبرس : وفيها ملك العادل بيروت من الفرنج ، وذلك أنها كانت بيد المسلمين وكان بها أمير يعرف بأسامة ، وكان بطلاً شجاعاً يجهز المراكب فى كل وقت على الإفرنج ، فشكوا ذلك إلى الملك العادل بدمشق وإلى العزيز بمصر ، فلم يزيلوا شكايتهم ، فصار يقطع عليهم الطريق ويأخذ أموالهم ، فشكوا ذلك إلى ملوك الفرنج الذين داخل البحر وقالوا لهم : إن لم تنجدونا أخذ المسلمون البلاد فأمدّهم الفرنج بالعساكر الكثيرة وكان

(*) يوافق أولها ٢٤ نوفمبر سنة ١١٩٦م .
(1) خربة اللصوص : بلدة واقعة على الطريق بين دمشق وبيسان . السلوك ، جـ١ ، ق٢ ، ص٢١١ ، حاشية ١ .
(2) ورد هذا الحدث بتصرف فى الكامل ، جـ١٢ ، ص٥٣ ؛ الروضتين ، جـ ٢ ، ص٢٣٣ ؛ نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ، ص٤٥٣– ص٤٥٤ .

أكثرهم من جهة ملك الألمان وكان المقدم عليهم قساً يعرف بالحصكير[١] ، فلما سمع العادل أرسل إلى العزيز بمصر يطلب [العساكر ، وأرسل إلى ديار الجزيرة والموصل يطلب العساكر][٢] أيضاً ، فجاءه الأمراء ، واجتمعوا على عين جالوت ، فأقاموا شهر رمضان وبعض شوال ، ودخلوا إلى يافا وملكوا المدينة ، وامتنع من بها بالقلعة التى لها ، فخرب المسلمون القلعة وملكوها عنوة بالسيف ، وأُخذ كل ما بها[٣] غنيمة وأسراً وسبياً ، ووصل الفرنج من عكا إلى قيسارية ليمنعوا المسلمين عن يافا فوصلهم الخبر بأن المسلمين ملكوها ثم سار المسلمون إلى عين جالوت ، فوصل الخبر أن الإفرنج على قصد بيروت ، فرحل العادل والعسكر فى ذى القعدة إلى مرج العيون وعزم على تخريب بيروت ، فسير إليها جمعاً من العسكر وهدموا سور المدينة وشرعوا فى تخريب دورها وتخريب القلعة ، فمنعهم أسامة من ذلك وتكفل بحفظها ، ورحل الفرنج من عكا إلى صيدا ، وعاد عسكر المسلمين عن بيروت فلقوا الفرنج بنواحى صيدا ، وتقابلوا فقتل منهم جماعة وحجز بينهم الليل ، فوصلوا إلى بيروت فلما قاربوها هرب منها أسامة ومن معه من المسلمين فملكوها عفواً صفواً بغير حرب ولا قتال ، فكانت غنيمة باردة ، فأرسل العادل إلى صيدا من خرب ما كان بقى منها ، فإن صلاح الدين كان قد خرب أكثرها وسافرت العساكر الإسلامية إلى صور فقطعوا أشجارها وخربوا مالها من قرى وأبراج ، فلما سمع الفرنج بذلك رحلوا عن بيروت إلى صور وأقاموا عليها ونزل المسلمون عند قلعة هونين ، وأذن العادل للعساكر الشرقية فى العود إلى بلادهم ظناً منه أن الإفرنج يقيمون ببلادهم ، وأراد أن يعطى العساكر المصرية دستوراً فأتاه الخبر أن الإفرنج يريدون يحصرون حصن تبنين ، فسير إليه عسكراً يحمونه ويمنعون عنه ، ورحل الفرنج من صور ونازلوا تبنين[٤] ، ولما أخذت الفرنج بيروت من يد صاحبها عز الدين سامه من غير قتال ولا نزال ، قال بعض الشعراء فى الأمير سامه :

سلم الحصن ما عليك ملامة		ما يلام الذى يروم السلامة
إنّ أخذ الحصون[٥] من غير حرب		سنة سنها ببيروت سامة[٢١٢]

---

(١) «خنصلير» كذا فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٤٦ ، وقد أبقينا على ما ذكره العينى .
(٢) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل . والمثبت من الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٤٦ .
(٣) «كلما» كذا فى الأصل والتصحيح من الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٤٦ .
(٤) نقل العينى هذا الحدث بتصرف من الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٤٥-ص٢٤٧ .
(٥) ورد هذا الشعر فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٩١- ولكن ورد مختلفاً فى الروضتين ، جـ ٢ ، ص٢٣٣ ؛ والبداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٥ .

وقال أبو شامة : ومن عجيب ما بلغنى أنه لما كان الملك العادل فتح يافا بالسيف كان فى قلعتها من الخيالة أربعون فارساً من الفرنج العُزّب البحرية ، فلما تحققوا نقب القلعة وأخذها دخلوا إلى كنيستها وأغلقوا عليهم بابها ، وتجالدوا بسيوفهم بعضهم لبعض إلى أن هلكوا جميعاً وكسر المسلمون الباب وهم يرون أن الفرنج ممتنعون فوجدوهم قتلى عن آخرهم ، فعجبوا من حالهم .[١]

ذكر تسَحُّب أبى الهيجاء إلى بغداد

وفى هذه السنة تسحب أبو الهيجاء السمين إلى بغداد ، وكان من أمراء مصر المشهورين ، وكان من جملة إقطاعه القدس وغيره مما يجاوره ، فلما ملك العزيز والعادل أخذا القدس منه كما ذكرنا ، فتوجه إلى بغداد فأكرم الخليفة الناصر مثواه فأمره بالمسير إلى همذان مقدماً على الجيوش البغدادية ، فلما وصلها حضر إليه أزبك بن البهلوان صاحبها وأمير علم [وابنه][٢] وابن سطمش وغيرهم ، وكانوا قد كاتبوا الخليفة بالطاعة ، فلما اجتمعوا بأبى الهيجاء ووثقوا إليه ولم يحذروه قبض على أزبك بن البهلوان وابن سطمش وابن قرا بموافقة أمير علم ، فلما وصل الخبر بذلك إلى بغداد أنكرت هذه الحال على أبى الهيجاء وأمر بالإفراج عن الجماعة ، وسيرت لهم الخلع من بغداد تطييباً لقلوبهم ، فلم يسكنوا لهذه الحادثة ولا أمنوا بعدها ، ففارقوا أبا الهيجاء فخاف الديوان فلم يرجع إليه ولم يمكنه المقام فعاد يريد إربل فمات قبل أن يصل إليها[٣] . وفى المرآة[٤] : وفى هذه السنة قدم حسام الدين أبو الهيجاء السمين بغداد وخرج الموكب للقائه فى زى عظيم ، ورتب الأطلاب على ترتيب الشام وكان فى خدمته عدة من الأمراء ، وكان معه ولدا أخيه عز الدين كر والغرز[٥] ، وأول ما تقدم طُلب كر ثم الغرز ثم أمير أمير ، وجاء هو بعد الكل فى العُدد الكامل والسلاح التام ، وخرج جميع من ببغداد للقائه ، وكان رأسه صغيراً وبطنه كبيراً جداً بحيث كان على رقبة البغلة وكان قد رآه عند الحربية رجل كواز فعمل فى ساعة كوزاً من طين وسبقه فعلقه فى السوق ، فلما اجتاز به ضحك وعمل أهل

---

(١) لم يرد هذا التعقيب فى الروضتين ، جـ ٢ ، ص٢٣٢-ص٢٣٣ ؛ ورد بتصرف فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٤٥-ص٢٤٦ .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٤٥ .

(٣) ورد هذا الخبر بتصرف فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص٢٤٥ .

(٤) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٩٠ .

(٥) «العرس» فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٩٠ .

بغداد بعده كيزاناً وسموها أبا الهيجاء السمين على صورته ، وأنزله الخليفة بدار العميد غربى بغداد بعد أن عبر إلى الجانب الشرقى ، وقبل عتبة باب النوبى وقام له الخليفة وأكرمه بالضيافات ، ثم أمره أن يجرد جماعة من أصحابه مع عسكر الخليفة إلى همذان ، فجرد جماعة فلما بعدوا من بغداد نهبوا خزانة الخليفة وقتلوا جماعة من عسكره ومضوا إلى الموصل والجزيرة ، وعاد عسكر الخليفة إلى بغداد وقد خرجوا ، فنقله الخليفة إلى الجانب الشرقى إلى دار عند النظامية كانت لسلطان دمشق مجير الدين أبق ، ووكل به ثم خلع عليه بعد ذلك الجبة والفرجية(١) والعمامة السوداء والقباء الأسود وبين يديه الخيل بمراكب الذهب . قال السبط : وقد شاهدته وأنا صغير فى هذه السنة[٢١٣] وأعطاه الأموال والرجال ، وسار إلى همذان(٢) فلم يتم له أمر واختلف الأمراء عليه وتفرق عنه أصحابه ، فخاف من الخوارزمى واستحى أن يعود إلى بغداد فسار يطلب الشام على دقوقا ، فلما وصل إليها مرض وأقام بها أياماً فتوفى . قال السبط : وبلغنى أنه كان نازلاً على تل فقال ادفنونى فيه ، فحفروا له قبراً على رأس التل(٣) فظهرت بلاطة عليها اسم أبيه فدفنوه عليه . وذكر السبط وفاته فى سنة أربع وتسعين ، وذكر غيره أنه توفى فى هذه السنة أعنى سنة ثلاث وتسعين(٤) والله أعلم . وكان كردياً من أكابر أمراء الناصر صلاح الدين يوسف ، وهو الذى كان نائباً على عكا وهى محاصرة ، ثم خرج منها ودخلها سيف الدين على بن أحمد المشطوب ، ثم استنابه صلاح الدين على بيت المقدس ، ثم لما أخذها العزيز عزل عنها ثم ذهب إلى بغداد كما ذكرنا .

ذكر بقية الحوادث

منها أن فى ليلة الجمعة التاسع من جمادى الآخرة أظلمت الدنيا بسحاب متكاثف وظهرت رعود وبروق كثيرة شديدة وهبت رياح عاصفة بحيث ارتجت لها الحيطان والجدران ، وثار بين السماء والأرض عجاج ، وخاف الناس الرجال والنساء فاعتصموا

---

(١) «الفرجية» : قميص فوقانى يُرتدى فوق الملابس ، وجمعها فراجى ، وفرجيات ، ماير ، الملابس المملوكية ، ص٩٥ .

(٢) نقل العينى هذا الحدث بتصرف من مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٩٠-ص٢٩١ .

(٣) «النهر» كذا فى الأصل ، والمثبت من مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٩٤-ص٢٩٥ .

(٤) اتفق سبط ابن الجوزى فى وفاة أبى الهيجاء أنه عام ٥٩٤هـ مع كل من ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص١٤٥ ، وابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص٣١٧ وممن اختلفوا معهم وقالوا بأن الوفاة كانت عام ٥٩٣هـ كل من : ابن الأثير ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٤٥ ؛ ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٥ .

بالمساجد الجامعة بحيث أيسوا من الحياة وترقبوا الهلاك ، وما حسبوا ذلك إلا قيام الساعة ، وكان ذلك أمراً عظيماً . وفى عقيب ذلك وردت الأخبار بأن مراكب كثيرة غرقت فى البحر ، وانفلقت أشجار كثيرة فى البرارى ، وهلك ناس كثير فى الأسفار[١] ، وكتب بذلك القاضى الفاضل إلى القاضى محيى الدين بن الزكى وأخبره بذلك فى كتابه بعبارات فائقة وإشارات[٢] رائقة .

ومنها أنه خرجت المراكب الحربية من مصر للغارة فوجدوا بطساً للفرنج فملكوها وأصابوا فيها أموالاً[٣] وغير ذلك . وكان فيها سبعون فارساً فبذل أحدهم فى فدائه ثمانين ألف دينار .[٤]

ومنها أن الأمير فخر الدين إياز جهاركس الناصرى بنى القيسارية[٥] المعروفة به بالقاهرة .[٦]

ومنها أنه وقعت الزلزلة بمصر .

وفيها ....[٧]

وفيها حج بالناس من بغداد شمس الدين أصبيه ، ومن الشام سيف الدين محمد بن نميرك ، وحج من الشام أيضاً عز الدين سامه ، وله آثار بالمدينة النبوية من القناة وعمارة القبة على قبر أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه .[٨]

---

(١) ورد هذا الخبر بتصرف فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٣-ص١٤ ؛ الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٤٣ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٨٨ .

(٢) ورد نص هذا الكتاب فى الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٣٢ .

(٣) ورد هذا الحدث بتصرف فى نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤٥٣-ص٤٥٤ .

(٤) السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص١٣٩ .

(٥) عن قيسارية جهاركس . انظر . الخطط ، جـ٢ ، ص٨٧ ؛ السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص١٣٩ .

(٦) نهاية الأرب ، جـ ٢٨ ، ص٤٥٤ .

(٧) بياض فى الأصل بمقدار سطر .

(٨) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٩١ .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

قاضى القضاة ببغداد أبو طالب على بن على بن هبة الله بن محمد البخارى[١] سمع الحديث على أبى الوقت وغيره، وتفقه على أبى القاسم بن الفضلان، وتولى نيابة الحكم ببغداد ثم استقل بالمنصب وأضيف إليه فى وقت نيابة الوزارة، ثم عزل عن القضاء ثم أعيد، ومات فى هذه السنة وهو حاكم، وكان فاضلاً بارعاً من بيت الفقه والعدالة، وله شعر حسن، فمنه قوله:

تنح عن القبيح ولاترده ... ومن أوليته حسناً فزده
كفى بك من عدوك كل كيد ... إذا كاد العدو ولم[٢] تكده[٣]

نقيب الطالبين ببغداد أبو محمد الحسن بن على بن حمزة بن محمد بن الحسن بن محمد بن الحسن بن محمد بن على بن محمد بن يحيى بن الحسين بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب العلوى الحسينى المعروف بابن الأقساسى الكوفى مولداً ومنشأ، مات فى هذه السنة وكان شاعراً فطيناً[٢١٤] امتدح الخلفاء والوزراء، وهو من بيت مشهور بالأدب والرئاسة والمروءة، وقدم بغداد فامتدح المقتدى وابنه المستنجد وابنه المستضىء وابنه الناصر، وهو الذى ولاه نقابة الطالبين، وكان شيخاً مهيباً جاوز الثمانين، وقد أورد له ابن الساعاتى[٤] قصائد كثيرة فمنه قوله:

اصبر على كيد الزما ... ن فما يدوم على طريقهْ
سبق القضاء فكن به ... راضٍ ولا تطلب حقيقهْ
كم قد تقلب مرة ... وأراك من سعةٍ وضيقهْ
مازال فى أولاه ... والأخرى على هذى الخليقهْ[٥]

---

(١) انظر ترجمته فى الكامل، جـ١٠، ص٢٤٨؛ الشذرات، جـ٤، ص٣١٥.
(٢) «لم» كذا فى الأصل والتصحيح من ابن كثير حيث ينقل العينى منه، انظر: البداية والنهاية، جـ١٣، ص١٥.
(٣) ورد هذا الخبر فى البداية والنهاية، جـ١٣، ص١٥.
(٤) «الساعى» فى البداية والنهاية، جـ١٣، ص١٨.
(٥) ورد هذا الخبر فى ابن كثير مع اختلاف فى البيت الأخير، البداية والنهاية، جـ١٣، ص١٥-ص١٦.

الغزنوى[١] **الحنفى أحمد بن محمد بن محمود بن سعيد الغزنوى معيد** درس الإمام الكاشانى صاحب «البديع» ، تفقه على أحمد بن يوسف الحسينى العلوى ، وانتفع به جماعة من الفقهاء وتفقهوا به ، وصنف فى الفقه والأصول كتباً حسنة مفيدة منها : كتاب «روضة اختلاف العلماء» ، ومقدمته المختصرة المشهورة فى الفقه ، وكتاب فى أصول الفقه ، وكتاب فى أصول الدين ووسمه «بروضة المتكلمين» ، واختصره ووسمه «بالمنتقى من روضة المتكلمين» . توفى بحلب بعد سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ، ودفن بمقابر الفقهاء الحنفية قبل مقام إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام .

صاحب الهداية الإمام برهان[٢] **الدين على بن أبى بكر بن عبد الجليل الفرغانى المرغينانى** ، شيخ الإسلام العلامة المحقق محيى مذهب أبى حنيفة رضي الله عنه ، أقر له أهل عصره بالفضل والتقدم كالإمام فخر الدين قاضى خان والإمام زين الدين العتابى ، تفقه على جماعة منهم : الإمام نجم الدين أبو حفص عمر بن محمد بن أحمد النسفى[٣] وفاق شيوخه وأقرانه وأذعنوا له كلهم ولاسيما بعد تصنيفه كتاب الهداية[٤] وكفاية المنتهى[٥] ، ونشر المذهب وتفقه عليه الجم الغفير ، وممن انتفع به كثيراً وتخرج به ، وروى الهداية للناس عنه شمس الأئمة محمد بن عبد الستار الكردرى ، مات فى هذه السنة . والفرغانى نسبة إلى فرغانة بفتح الفاء مدينة وراء الشاش وراء سيحون . وفرغانة أيضاً قرية من قرى فارس وإلى الأولى ينسب صاحب الهداية ، والمرغينانى نسبة إلى مرغينان بفتح الميم وسكون الراء وكسر الغين المعجمة وسكون الياء آخر الحروف وفتح النون وبعدها ألف ساكنة بعدها نون ، وهى مدينة من بلاد فرغانة والله أعلم .

الإمام قاضى خان : أحد السادات الحنفية ، اسمه الحسن بن منصور بن أبى القاسم ، محمود بن عبد العزيز الأوزجندى الفرغانى ، الملقب بقاضى خان ، الإمام

---

(١) انظر : هداية العارفين ، جـ١ ، ص٨٩ .

(٢) برهان الدين على بن أبى بكر بن عبد الجليل الفرغانى المرغينانى ، توفى٥٩٣هـ . انظر ترجمته فى إسماعيل البغدادى ، هداية العارفين ، جـ١ ، ص٧٠٢ .

(٣) هو عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن لقمان النسفى الإمام نجم الدين أبو حفص السمرقندى الفقيه الحنفى ، توفى ٥٣٧هـ . انظر : شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص١١٥ ، إسماعيل البغدادى ، هداية العارفين ، جـ١ ، ص٧٨٣ .

(٤) «هداية لشرح بداية المبتدى فى الفروع» . انظر : البغدادى ، هداية العارفين ، جـ١ ، ص٧٠٢ .

(٥) «كفاية المنتهى فى شرح بداية المبتدى» البغدادى ، هداية العارفين ، جـ١ ، ص٧٠٢ .

العلامة فخر الدين ، تفقه على الإمام أبى إسحاق إبراهيم بن إسماعيل بن أبى نصر الصفارى الأنصارى ، والإمام ظهير الدين أبى الحسن على بن عبدالعزيز المرغينانى ، ونظام الدين أبى إسحق إبراهيم بن على المرغينانى ، مات فى هذه السنة ، والأصح ما ذكره صاحب طبقات الحنفية أنه توفى ليلة الاثنين الخامس عشر من رمضان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ، ودفن عند القضاة السبعة .

ابن الباقلانى(١) **المقرى** : اسمه **عبدالله بن منصور بن عمران أبو بكر** ، ولد سنة خمسمائة ، وقرأ بواسط على أبى العز محمد بن الحسين بن بندار القلانسى وغيره ، وانفرد بالرواية فى القراءات العشر عن القلانسى ، وقدم بغداد فقرأ على أبى محمد عبدالله[٢١٥] بن على سبط أبى منصور الخياط وغيره ، وكان قدومه إلى بغداد سنة ست وسبعين وخمسمائة ، وتوفى بواسط سلخ ربيع الآخر فى هذه السنة ، ودفن عند أبيه بمقبرة المصلى ، وكان يوماً مشهوداً ، ورآه بعض الأعيان فى المنام فقال له : ما فعل الله بك؟ فقال : صلى على سبعون ألف من الأبدال .

عبد الوهاب(٢) **بن الشيخ عبد القادر الجيلى** : مات فى هذه السنة فى شوال ودفن بالحلة ، وكان مولده فى سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ، وتفقه ووعظ وكان ذكياً ، وولاه الخليفة المظالم وتربة الخلاطية ، وكانت مجالس وعظه تمضى فى الهزل والمجون ، قيل له يوماً : ما تقول فى أهل البيت؟ فقال : قد أعمونى ، وكان أعمش ، والسائل إنما سأل عن فضل بيت رسول الله ﷺ ، فأجاب عن بيت نفسه ، وقيل له : بأى شئ يتبين المحق من المبطل؟ فقال : بليمونة أراد من يخضب يزول خضابه بليمونة .

يحيى(٣) **بن أسعد بن يحيى بن بُوش ، أبو القاسم الخباز البغدادى** ، سمع الكثير ، وكان قد افتقر فى آخر عمره ، فكان يأخذ على التسميع أجره ، جلس ليلة الأربعاء ثالث ذى القعدة يأكل خبزاً فغص بلقمة فمات فجأة فى هذه السنة ، سمع

---

(١) نقل العينى هذه الترجمة عن سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٩١ . انظر أيضاً : الكامل ، جـ١٢ ، ص٥٤ ؛ وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٢٦٩-٢٧٠ (ترجمة ٦٠٨) ؛ شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص٣١٤ .

(٢) نقل العينى هذه الترجمة باختصار من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٩١-٢٩٢ ؛ انظر أيضاً : شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص٣١٤ .

(٣) نقل العينى هذه الترجمة عن مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٩٢ . انظر أيضاً : شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص٣١٥ .

قاضى المارستان ، وأبا العز بن كادش ، وابن الطيورى ، وأبا طالب بن يوسف وهو آخر من روى عن أبى طالب ، وكان ثقة .

الوزير أبو المظفر عبيدالله بن يونس بن أحمد الحنبلى : ولقبه جلال الدين[1] ، كان فى بدء أمره أحد العدول ببغداد ، ثم خدم فى ديوان الأبنية ، ولما مات أبوه يونس توكل لأم الخليفة ، ثم ولى صاحب ديوان ، ثم استوزره الخليفة وبعثه إلى طغريل فكسر وعاد إلى بغداد ، فولاه الخليفة الديوان والمخزن ، ثم ولاه أستاذ الدار ، ثم عزله ، وكان قد قرأ القرآن على صدقة بن الحداد وغيره ، وتفقه على ابن حكيم النهروانى ، وسمع أبا الوقت وغيره ، ولما سافر إلى همذان سمع من أبى العلاء الحافظ الهمذانى ، وكان فاضلاً فى الأصولين والحساب والهندسة ، وله تصنيف فى الأصول غير أنه شان فضله بمقاصده السيئة ورأيه الفاسد وحقده وحسده ولجاجته ، وكسر عسكر الخليفة بمخالفته للأمراء ولجاجته وكونه استعجل على لقاء طغريل ، وأخرب بيت الشيخ عبدالقادر وشتت أولاده ، ويقال : إنه بعث فى الليل من نبش الشيخ عبد القادر ورمى عظامه فى اللجة . وقال : هذا وقف ما يحل أن يدفن فيه أحد ، ولما اعتقله الخليفة كُتِبَتْ فتوى بأنه كان سبب هزيمة عسكر الخليفة وذكروا أشياء أخر ، فأفتوا بإباحة دمه ، فسلم إلى أحمد بن الوزير بن القصاب ، فبقى فى داره ، فلما مات ابن القصاب اعتقل فى التاج وأخرج فى سابع عشر صفر ميتاً ودفن بالسرداب .

وأما **صدقه بن الحداد** الذى قرأ عليه ابن يونس القرآن فهو صدقة بن الحسين بن الحسن أبو الفتح الناسخ الحنبلى يعرف بابن الحداد ، حفظ القرآن وتفقه وأفتى وناظر لكنه قرأ الشفاء[٢١٦] لابن سينا ، وكتب الفلاسفة فتغير اعتقاده ، وكان يبدر من فلتات لسانه ما يدل على سوء عقيدته ، وتارة يسقف[2] من جنس ابن الراوندى ، وتارة يشير إلى عدم بعث الأجساد ، وتارة يعترض على القضاء والقدر ، وله أشعار تتضمن شيئاً من ذلك ، فمات فى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة .

---

(١) شذرات الذهب ، جـ ٥ ، ص٣١٣- ص٣١٤ .

(٢) يسقف : سقف البناء أو البيت ؛ طول فى أنحاء والمقصود أنه جعل ابن الراوندى سقفاً له أى تبعه . لسان العرب ، جـ٣ ، مادة «سقف» .

صَنْدَل بن عبدالله الخادم(١) **المقتفوى ، ويلقب عماد الدين** ، كان أكبر الخدم وأعقلهم ، أرسله الخليفة الناصر إلى السلطان صلاح الدين مراراً ، وكان كثير الصدقات والخير ، ولى ناظراً بواسط ، ومدحه ابن المعلم الشاعر بقصائد . مات فى هذه السنة ، ودفن بالتربة التى أنشأها عند الجامع غربى بغداد .

ابن الغريق الشاعر : هو أحمد بن عيسى الهاشمى من ولد الواثق بالله ويعرف بابن الغريق من أهل الحريم الظاهرى ، وكان شاعراً ناظماً من شعره ما اعتذر به عن الاكتحال يوم عاشوراء :

لم أكتحل فى صباح يوم أريق فيه دم الحسين

إلا لحزنى وذاك أنى سودت حتى بياض عينى

وكانت وفاته فى ذى القعدة عن ثمانين سنة ، ودفن بباب حرب .

سيف(٢) **الإسلام طغتكين بن نجم الدين أيوب : أخو السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ويلقب بظهير الدين** ، ملك اليمن ، توفى فى شوال من هذه السنة بمدينة زبيد . وكان قد جمع أموالاً جزيلة جداً ، وكان يسبك الذهب مثل الطواحين . ويدخره كذلك . فقام فى الملك بعده ولده إسماعيل ، ويلقب بالملك المعز ، وكان إذ ذاك بالسيرين(٣) فبعث إليه جمال الدولة كافور جماعة من الجند فعرفوه بوفاة أبيه ، ومضوا به إلى ممالك أبيه ، فسلموها إليه .

وفى تاريخ بيبرس : وفى(٤) سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة توفى الملك العزيز سيف الإسلام طغتكين باليمن بالمنصورة التى أنشأها وكان قد طرد ولده المعز شمس الملوك إسماعيل إلى الحجاز لأمر نقمه عليه ، فلما سمع بوفاة والده عاد إلى اليمن وملك بعده .(٥)

---

(١) انظر ترجمته فى الذيل على الروضتين ، ص١١ .

(٢) انظر : مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٢٩١ ؛ الكامل ، جـ١٢ ، ص٥٤ ؛ شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص٣١٢ ؛ المختصر ، جـ٣ ، ص٩٣ .

(٣) فى أبى الفداء «السمرين» المختصر ، جـ ٣ ، ص٩٣ ؛ وفى ابن واصل «السرين» مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٧٣ . وسرين : بلدتان ، إحداهما بليد قريب من مكة على ساحل البحر بينها وبين مكة أربعة أيام أو خمسة قرب جدة ، والثانية فى أعمال صنعاء قوية . معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٨٩ .

(٤) نقل العينى هذا الحدث بتصرف عن مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٧٣ .

(٥) ورد هذا الخبر بتصرف فى نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤٥٤ .

وكان شمس الملوك المذكور قد عزم على قصد الديار المصرية وادعى الخلافة وتلقب بالهادى ، فكتب إليه عمه يوبخه ويقبح عليه فعله ويأمره بالرجوع إلى نسبه ، وكان قد أساء السيرة مع أمرائه وجنده فوثبوا عليه وقتلوه[١] . وقال ابن كثير : وكان إسماعيل هذا أهوج قليل التدبير ، فحمله جهله على أنه ادعى أنه قرشى أموى وتلقب بالهادى ، فكتب إليه عمه [العادل][٢] ينهاه عن ذلك فلم يقبل منه بل تمادى فى ذلك وأساء إلى الأمراء والرعية ، فقتل وولى بعده مملوك من مماليك أبيه[٣] . وكان سيف الإسلام طغتكين شجاعاً شهماً شديد السيرة مضيقاً على رعيته ، يشترى أموال التجار لنفسه ويبيعها كيف شاء ، فجمع من الأموال ما لا يحصى ، وكانت مدة ملكه اليمن ست عشرة سنة .

ملكشاه ابن تكش : مات فى هذه السنة بنيسابور ، وكان أبوه خوارزم شاه تكش قد جعل له الحكم على ملك البلاد وجعله ولى عهده ، وخلف[٢١٧] ملكشاه ولداً اسمه هندوخان ، فلما مات ملكشاه جعل خوارزم شاه تكش فيها عوضه ولده الآخر قطب الدين محمد ، وهو الذى ملك بعد أبيه وغير لقبه من قطب الدين إلى علاء الدين وكان بين الأخوين ملكشاه ومحمد عداوة[٤] مستحكمة .

الست عذراء بنت شاهنشاه بن أيوب : توفيت فى هذه السنة ودفنت فى مدرستها التى داخل باب النصر[٥] . وقال أبو شامة[٦] : وفى عاشر المحرم توفيت الست عذراء بنت شاهنشاه أخت عز الدين فرخشاه ، وهى التى نسبت إليها المدرسة العذراوية بدمشق بحضرة باب النصر .

وفيها دفنت **الست خاتون والدة الملك العادل** ، توفيت فى هذه السنة ودفنت بدارها بدمشق المجاورة لدار أسد الدين شيركوه ، وقال أبو شامة : كانت وفاتها فى سادس عشر ذى الحجة فى هذه السنة ، رحمها الله .[٧]

---

(١) ورد هذا الخبر بتصرف فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٤٨ .
(٢) ما بين حاصرتين إضافة من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٧ .
(٣) انظر : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٥ .
(٤) الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٤٨ .
(٥) نقل العينى هذه الترجمة من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٨ .
(٦) الذيل على الروضتين ، ص١١ .
(٧) نقل العينى هذه الترجمة عن البداية والنهاية ، ص١٣ ، ص١٨ ؛ الذيل على الروضتين ، ص١١ .

كندهرى ملك الإفرنج - لعنه الله - هلك فى هذه السنة فسقط من شاهق فراح روحه إلى الهاوية ، وبقيت الإفرنج كالغنم بلا راع حتى ملكوا عليهم صاحب قبرس وزوجوه بالملكة امرأة كندهرى ، وجرت خطوب كثيرة بينهم وبين الملك العادل أبى بكر ابن أيوب ففى كلها يستظهر عليهم ويكسرهم ويقتل خلقاً من المقاتله ولم يزالوا معه كذلك حتى طلبوا منه الصلح والمهادنة فعاقدهم على ذلك فى السنة الآتية على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .(١)

ملك الألمان - لعنه الله - هلك فى هذه السنة وانقطع رجاء الإفرنج فى بلاد المسلمين بموته .

---

(١) إلى هنا توقف العينى عن النقل عن ابن كثير : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٨ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الرابعة والتسعين بعد الخمسمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله ، وصاحب مصر والشام الملك العزيز بن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ونائبه بدمشق الملك العادل عمه ، وصاحب حلب أخوه الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين ، وهم مشغولون بالجهاد مع الإفرنج فإنه وصل جمع عظيم منهم إلى الساحل واستولوا على قلعة بيروت ، فسار الملك العادل ونزل بتل العجول[1] وأتته النجدة فى مصر ، ووصل إليه سنقر الكبير صاحب القدس وميمون القصرى صاحب نابلس ، ثم سار الملك العادل إلى يافا وهجمها بالسيف وملكها وقتل الرجال المقاتله بها ، وكان هذا الفتح ثالث فتح لها ، ونازلت الإفرنج تبنين فأرسل الملك العادل إلى الملك العزيز صاحب مصر ، فسار الملك العزيز بنفسه بمن بقى عنده من عساكر مصر واجتمع بعمه الملك العادل على تبنين ، فرحل الإفرنج على أعقابهم إلى صور خائبين ، ثم عاد الملك العزيز إلى مصر وترك غالب العسكر مع عمه العادل وجعل إليه أمر الحرب والصلح ، ومات فى هذه المدة سنقر الكبير فجعل الملك العزيز أمر القدس إلى صارم الدين قطلق مملوك عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، ولما عاد الملك العزيز إلى مصر فى هذه المدة مدحه القاضى ابن سناء الملك بقصيدة منها :

أغــثت تبنين وخلصــتــهــا ... فــريســة من مــاضــغى ضـيـغم
قــدمت [بالنصـر[2]] وبالمـغنم ... [كذاك[3]] قدوم الملك [الأكرم[4]][٢١٨]
قـمـيـصك المـوروث عن يوسف ... مــا جــاء إلا صــادقــاً فى الدم
شنشنة[5] تعــــرف مـن يوسف ... فى الحرب[6] لا تعرف من أخذم[7]
مــقــدمــه صــار جــمــادى به ... كـمـثل ذى الحـجـة ذا مـوسم[8]

(*) يوافق أولها ١٣ نوفمبر ١١٩٧م .
(١) تل العجول : بين عكا والعائدية . انظر : ابن شداد : النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص١٥٣ ، حاشية١ ، فى Rec. Hist.or.III .
(٢) «بالسعد» كذا فى الأصل ، والتصحيح من ديوان ابن سناء الملك ، جـ٢ ، ص٢٩٤ .
(٣) «كذا» فى الأصل ، والتصحيح من ديوان ابن سناء الملك ، جـ٢ ، ص٢٩٤ .
(٤) «المقدم» كذا فى الأصل والتصحيح من ديوان ابن سناء الملك ، جـ٢ . ص٢٩٤ .
(٥) شنشنة : هى الطبيعة والعادة . انظر : الفيروزأبادى ، القاموس المحيط ، مادة شنشن .
(٦) «فى النصر» كذا فى الأصل والتصحيح من ديوان ابن سناء الملك ، جـ٢ ، ص٢٩٥ .
(٧) أخزم : يقال كان لأبى أخذم الطائى جد حاتم المشهور بالكرم ابن يسمى أخزم . انظر : ابن سناء الملك ، ديوانه ، جـ٢ ، ص٢٩٥ ، حاشية ٢٥ .
(٨) انظر : ابن سناء الملك ، جـ٢ ، ص٢٩٤-٢٩٥ ؛ كما وردت هذه الأشعار فى مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٧٧ .

ثم طاول الملك العادل الإفرنج فطلبوا الهدنة واستقرت بينهم ثلاث سنين ، ورجع الملك العادل إلى دمشق ثم سار من دمشق إلى ماردين وحصرها ، وصاحبها يومئذ يولق بن أرسلان بن إيلغازى بن ألبى بن تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق[١] ، وليس ليولق بن أرسلان من الحكم شيء وإنما الحكم إلى مملوك والده البقش[٢] . وقال ابن كثير[٣] : ولما توجه الملك العادل إلى ماردين استناب ولده الملك المعظم عيسى بن العادل على دمشق ، ولما وصل إلى ماردين حاصرها فى شهر رمضان واستولى على ربضها ومعاملتها وأعجزته قلعتها فصيف عليها وشتى وما شك أحد أنه سيملكها حتى هنته الشعراء بذلك ولكن لم يكن ذلك مكتوباً ولا مقدراً ، وفى تاريخ بيبرس : وفى سنة أربع وتسعين وخمسمائة أحاط الإفرنج بتبنين وحاصروه من جميع جهاته ، فلما علم العادل بذلك أرسل عز الدين أسامة إلى العزيز يعلمه بالحال ويستدعى حضوره بنفسه ويعرفه أنه إن لم يسر إلى البلاد بنفسه ما يمكن حفظها ، فسار مجداً فيمن بقى عنده من العساكر بمصر .

وأما أهل تبنين فلما اشتد عليهم الأمر ورأوا النقوب قد أخذت ونفذت ولم يبق إلا أن يملكها الإفرنج بالسيف ، نزل بعضهم إلى الإفرنج يطلبون الأمان لأنفسهم ، فقال لهم بعض الإفرنج الذين من ساحل الشام : إن أنتم سلّمتُم الحصن لهذا القسيس استأسركم وقتلكم ، فاحفظوا نفوسكم ، وكان ذلك القسيس من أصحاب ملك الألمان يسمى الخنصلير فعاد المسلمون كأنهم يراجعون من فى القلعة ليسلموا ، فلما صعدوا عليها أصروا على الامتناع وقاتلوا قتال من يحمى نفسه فحموها ، فلما وصل العزيز إلى عسقلان وسمع الإفرنج بوصوله واجتماع المسلمين ولم يكن لهم ملك يجمعهم وأمرهم إلى امرأة هى الملكة فاتفقوا وأرسلوا إلى هنفرى ملك قبرس فأحضروه ، وهو أخو الملك الذى أسر بحطين ، فزوجوه بزوجة الكندهرى وكان رجلاً عاقلاً ، فلما ملكهم لم يعد إلى الزحف على الحصن ولا القتال ، واتفق وصول العزيز فرحل هو والعساكر إلى جبل الخليل عليه السلام وهو جبل عامله فأقاموا أياماً والأمطار[٤] متداركة ، ثم سار العزيز إلى الإفرنج ورتب

---

(١) يولق بن أرسلان هو حسام الدين بولق أرسلان بن إيلغازى بن ألبى بن تمرتاش بن إيلغازى ابن أرتَق . انظر : الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٦٠-٢٦١ ، أحداث ٥٩٥هـ .

(٢) «برتقش» فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٥ ؛ المختصر ، جـ٣ ، ص٩٧ .

(٣) البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٨ .

(٤) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٩٢-ص٢٩٣ .

العساكر للزحف على الإفرنج ، فرحلوا إلى صور ومنها توجهوا إلى عكا ، فعاد العزيز إلى مصر قبل انفصال الحال ، وسبب رحيله أن جماعة من الأمراء عزموا على قتله وهم : ميمون القصرى ، وأسامة ، وسرا سنقر ، والجحاف ، وابن المشطوب ، وترددت الرسل إلى عكا بين الإفرنج والعادل إلى أن تقرر الصلح ، ورحل العادل إلى دمشق ثم سار [٢١٩] منها إلى قلعة وكتب إلى العزيز يخبره بذلك وبوصول ولده الكامل من حران ، مخبراً بأن صاحب الموصل قد حلف للعزيز على الطاعة والموالاة وأنه يخطب له ببلاده ويضرب السكة باسمه وينجده بعسكره كما كان مع أبيه ، وذلك بتوسط الظاهر صاحب حلب ، وكان الواصل فى هذه الرسالة صدر الدين شيخ الشيوخ .

وفى المرآة : وفى هذه السنة نزلت الفرنج فى المحرم على تبنين ، فأرسل العادل محيى الدين بن زكى الدين إلى العزيز إلى مصر يستنجده ، فخرج بجيوشه إلى الشام فوصل ثالث ربيع الأول ، وكانوا قد ضايقوا الحصن ونقبوه من كل جانب ، وأشرف على الأخذ وهدّه بالمجانيق ونقبوه سرباً سرباً ، وكانوا يستظلون من المطر وجعلوا النقوب بيوتاً يسكنوها ، وكان الإفرنج يحدقون[١] المسلمين من النقوب ويحدثونهم[٢] وكان العادل نازلاً عند هونين ومعه شيركوه صاحب حمص ، والأمجد صاحب بعلبك ، وعز الدين بن المقدم ودلدروم صاحب تل باشر ، وجاءهم العزيز فساروا جميعاً إلى هونين ، فلو تأخر يوماً لأخذت تبنين وقتل من فيها ، وأرسل الله فى تلك الليلة مطراً عظيماً وريحاً شديدة وأوقع في قلوب الإفرنج الرعب ، وقيل : جاءكم سلطان مصر والعساكر . فتركوا المناجيق والدبابات والآلات بحالها والخيام وما فيها وهربوا فى الليل إلى صور ، ثم بعثوا يطلبون الصلح فصالحهم العزيز على قاعدة صلح صلاح الدين ، وخلع العزيز على المعظم عيسى ابن العادل وأعطاه سنجقاً ومنشوراً بدمشق وعاد إلى مصر ، ومضى العادل إلى ماردين فحصرها فى رمضان وملك الربض ولم يبق سوى القلعة .[٣]

---

(١) «يحدثون» كذا فى الأصل والمثبت من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٩٢ .

(٢) «ويحدثهم» كذا فى الأصل والمثبت من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٩٢ .

(٣) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٩٢– ٢٩٣ .

قال بيبرس فى تاريخه : وفيها أخبر العزيز بأن ميموناً القصرى والى نابلس أخرج مالاً واستخدم رجالاً لقصد بلاد اليمن ، واستقصد سنقر الحلبى ليسير معه وأعطاه عشرين ألف درهم ، واستقصد ألطنبغا الجوكندار وأسامه وعمر بن جكو وذلك لما قتل شمس الملوك بن طغتكين باليمن ، فانزعج العزيز لذلك وخاف وسير إلى ميمون عز الدين أيبك فطيس أمير جاندار[1] ليثنيه عن طريقه ويصرفه عن قصده ويبذل له ما يريده ، ثم بلغه قوة أمره ووصله الخبر بأنه أنفق من ماله لمن تابعه على قصده سبعين ألف دينار ، فلاطفه وأرسل إليه فخر الدين أياز جهركس وأسد الدين سرا سنقر والمخلص قايماز ، وزاده مائة فارس على عدته ، وأقطعه غزة وغيرها ، وأقطع عز الدين أسامة الناصر .

وفيها وصل فارس الدين ميمون القصرى إلى العزيز ، فأمر الأمراء والأعيان بتلقيه وأكرم مثواه ومنزله وزاده فى إقطاعه ووجهه إلى نابلس وبيسان والطبرية والحصون التى استقرت بيده ويد عز الدين أسامة واستقر لميمون أربعمائة ألف دينار ولأسامة ثلثمائة ألف دينار .

ذكر استيلاء صاحب الموصل على نصيبين

وفى جمادى الآخرة سار نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكى صاحب الموصل إلى نصيبين واستولى عليها وأخذها من ابن عمه قطب الدين[٢٢٠] محمد بن زنكى فأرسل قطب الدين محمد واستنجد بالملك العادل ، فسار الملك العادل إلى البلاد الجزرية ففارق نور الدين أرسلان شاه نصيبين وعاد إلى الموصل ، فعاد قطب الدين محمد بن زنكى وتسلم نصيبين .[2] وقال بيبرس : وسبب ذلك أن عمه عماد الدين كانت له نصيبين ، فتطاول نوابه بها واستولوا على عدة قرى من أعمال بين النهرين من ولاية الموصل المجاورة لنصيبين ، فبلغ الخبر مجاهد الدين قايماز القائم بتدبير مملكة نور الدين بالموصل كلها ، فأرسل إلى عماد الدين وقبح عليه الفعل الذى فعله نوابه بغير أمره ، فأجاب بأن هذه القرى من أعمال نصيبين فترددت الرسل بينهم فلم يرجع عن رأيه ، فعند ذلك أعلم مجاهد الدين نور الدين بذلك ولم يكن أعلمه بذلك قبل هذا ، فأرسل نور الدين إليه فلم يلتفت إليه وحذره الرسول من عاقبة هذا ، فأغلظ عليه عماد

---

(١)الجاندار : هو الأمير الذى يستأذن على دخول الأمراء للخدمة السلطانية ويدخل أمامه إلى الديوان . القلقشندى ، صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص٢٠ ؛ جـ٥ ، ص٤٥٩ .

(٢) ورد هذا الحدث بالتفصيل فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٥٠–ص٢٥١ ؛ مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٧٨– ص٧٩ .

الدين القول وعرض بذم نور الدين وعزم على المسير إلى نصيبين وأخذها من عمه ، فاتفق أن عمه مات وملك بعده ابنه ، فقوى طمعه فمنعه مجاهد الدين فلم يمتنع فسار إليها ، ولما سمع قطب الدين صاحبها سار إليها من سنجار بعسكره ونزل عليها ليمنع نور الدين منها ، فوصل نور الدين وتقدم إلى البلد ، وكان بينهما نهر فجازه بعض أمرائه وقاتل من بإزائه فلم يثبتوا له ، فعبر جميع العسكر النورى وتمت الهزيمة على قطب الدين ، وصعد هو ونائبه برنقش إلى قلعة نصيبين ، وأدركهم الليل فخرجوا منها هاربين إلي حران وراسلوا الملك العادل أبابكر بن أيوب وهو بدمشق ، وبذلوا له الأموال الكثيرة لينجدهم ويعيد نصيبين إليهم ، وأقام نور الدين بنصيبين مالكاً لها فتضعضع عسكره بكثرة المرض ومات كثير منهم وعاد إلى الموصل[١] ، فلما فارق نصيبين تسلمها قطب الدين ووصل العادل إلى الديار الجزرية وقصد قلعة ماردين فحصرها وضيق على أهلها وأقطع أعمالها .

ذكر تملك ملك الغورية مدينة بلخ[٢] وعبور الخطا[٣] نهر جيحون

وفى هذه السنة ملك [ملك][٤] الغورية مدينة بلخ من الخطا ، وكان يملكها تركياً اسمه أزبه ، فسار إليها بهاء الدين سام بن محمد بن مسعود وهو ابن أخت غياث الدين فملكها وتمكن منها ، وقطع الحمل إلى الخطا وخُطب لغياث الدين وصارت من جملة بلاد الإسلام .

وفيها عبر الخطا نهر جيحون إلى ناحية خراسان فأفسدوا فى البلاد ، فلقيهم عسكر غياث الدين [الغورى][٥] وقاتلوهم فانهزم الخطا وسبب ذلك أن خوارزم شاه تكش كان قد سار إلى همذان وأصفهان والرى وغيرها ، واستولى على تلك البلاد وتعرض إلى عساكر الخليفة وأظهر طلب السلطنة والخطبة له ببغداد ، فأرسل الإمام الناصر إلى غياث الدين ملك الغور وغزنة بقصد بلاد خوارزم شاه ليمنعه من قصد العراق ، وكان خوارزم شاه قد

(١) نقل العينى هذا الحدث من الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٥٠-ص٢٥١ .

(٢) بلخ : مدينة مشهورة بخراسان ، معجم البلدان ، جـ١ ، ص١٣ .

(٣) الخطا : بكسر الخاء المعجمة وفتح الطاء المهملة وألف فى الآخر وهم جنس من الترك بلادهم فى متاخمة بلاد الصين ، جـ٤/٤٨٣ وما يليها .

(٤) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٥١ . والملك هو بهاء الدين سام بن محمد بن مسعود . انظر : الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٥١ .

(٥) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٥١ ، لتوضيح المعنى .

عاد إلى بلاده فراسله غياث الدين يقبح فعله ويتهدده بقصد بلاده وأخذها ، فأرسل خوارزم شاه إلى الخطا[٢٢١] يشكو إليهم من غياث الدين ويطلب منهم أن يدركوه بإرسال العساكر لإنجاده لئلا يأخذ غياث الدين البلاد كما أخذ مدينة بلخ ، ثم يتطاول إلى قصد بلادهم ويتعذر عليهم منعه ويعجزون عن رده عما وراء النهر ، فجهز ملك الخطا جيشاً كثيفاً وجعل على مقدمتهم شخصاً معروفاً بطاينكو وهو كالوزير ، فساروا وعبروا جيحون وكان ذلك فى الشتاء ، وكان شهاب الدين الغورى أخو غياث الدين ببلاد الهند وغياث الدين مريض بالنقرس بما يمنعه من الحركة وإنما يحملونه فى محفه ، والذى يقود الجيش ويباشر العساكر والحروب أخوه شهاب الدين ، فلما وصل الخطا إلى جيحون ، سار خوارزم شاه تكش إلى طوس(١) عازماً على قصد هراة ومحاصرتها ، وعبر الخطا النهر ووصلوا إلى بلاد الغور مثل كرزبان(٢) وغيرها ، وقتلوا وأسروا وسبوا شيئاً كثيراً ، فاستغاث الناس بغياث الدين فلم يكن عنده من العساكر ما يلقاهم بها ، فراسل الخطا بهاء الدين سام وأمروه بالإفراج عن بلخ أو أنه يحمل ما كان من قبله يحمله من المال ، وعظمت المصيبة على المسلمين بما فعله الخطا فانتدب الأمير محمد الغورى وهو مقطع الطالقان من قبل غياث الدين وكان شجاعاً ، وجمع معه جمعاً وبيت الخطا ليلاً وكبسهم ، ومن عادتهم أنهم لا يخرجون من خيامهم فى الليل ، فأتاهم هؤلاء الغورية وهم غافلون فقاتلوهم وأكثروا القتل فيهم ، وانهزم من سلم منهم ، وأين ينهزمون ، والعسكر الغورى خلفهم . وجيحون بين أيديهم؟ وظنوا أن غياث الدين قد قصدهم فى عساكره فلما أصبحوا وعرفوا من قاتلهم وعلموا أن غياث الدين بمكانه قويت قلوبهم وثبتوا عامة نهارهم ، فقتل من الفريقين خلق عظيم ولحقت المتطوعة بالغوريين وأتاهم مدد من غياث الدين وهم فى الحرب ، فثبتوا وعظمت نكايتهم فى الكفار(٣) وألحقوهم بجيحون ، فمن صبر منهم قتل ومن ألقى بنفسه فى الماء غرق ، ووصل الخبر إلى ملك الخطا فعظم عليه وأرسل إلى خوارزم شاه يقول له : أنت قتلت رجالى وأريد عن كل قتيل عشرة آلاف دينار ، وكانت القتلى اثنى عشر ألف قتيل وأنفذ إليه من يردّه إلى خوارزم شاه ويلزمه بالحضور

---

(١) طوس : مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ .
معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٥٦٠ .

(٢) كرزبان : كزبان وتسمى كرزوان وهى بلدة فى الجبل الطالقان ، جبلها متصل بجبال الغور ، وتكتب أيضاً جرزبان ، معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٢٥٨-ص٢٥٩ .

(٣) نقل العينى هذا الخبر من الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٥٢-ص٢٥٣ .

عنده ، فأرسل حينئذ خوارزم شاه إلى غياث الدين يعرفه حاله مع الخطا ويشكو إليه ويستعطفه غير مرة ، فأعاد الجواب يأمره بطاعة الخليفة وإعادة ما أخذه الخطا من بلاد الإسلام فلم ينفصل بينهما حال .

وفى تاريخ ابن كثير[(١)] : وفى هذه السنة سار خوارزم شاه تكش إلى بخارى وهى للخطا وحاصرها وملكها ، وكان تكش أعور ، فأخذ أهل بخارى فى مدة الحصار كلباً أعور وألبسوه قباء وقالوا للخوارزمية : هذا سلطانكم . ورموه بالمجنيق إليهم ، فلما ملك خوارزمشاه تكش بخارى أحسن إلى أهلها وفرق فيهم أموالاً عظيمة[(٢)] ولم يود أخذهم بما فعلوه فى حقه جزاه الله خيراً[(٣)] . ومن الحوادث أنه وصل رسول المايرقى المستولى على القيروان يريد الحج وأهدى إلى العزيز خيلاً[٢٢٢] ووجهه مكرماً .

وفيها عاد الأسطول المصرى من الغُرَيْزُ[(٤)] بعد أن اجتاز ببلاد ابن لاون ووصل معه إلى مصر من السبى أربعمائة وخمسون أسيراً .

وفيها ....[(٥)]

وفيها حج بالناس من العراق إيليا ، ومن الشام زين الدين قراجا مملوك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

العوام[(٦)] بن زيادة كاتب الإنشاء ببغداد بباب الخلافة وهو أبو طالب يحيى بن سعيد بن هبة الله بن على بن زيادة قوام الدين ، انتهت إليه رئاسة التوسل والإنشاء والبلاغة والفصاحة فى زمانه بالعراق ، وله علوم كثيرة غير ذلك من الفقه على مذهب

---

(١) نقل العينى هذا الحدث بالنص من المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص٩٣ ، أما نص الحدث فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٧ فهو مختصر . انظر تفاصيل هذا الحدث فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٥٣-٢٥٤ .

(٢) فى الأصل «عظيما»

(٣) إلى هنا انتهى نقل هذا الحدث من المختصر ، جـ٣ ، ص٩٣ .

(٤) الغُرَيْزُ : ماء وضريه . وضرية قرية عامرة قديمة فى طريق مكة من البصرة . انظر معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٤٧١ ، ص٧٩٥-٧٩٦ .

(٥) يوجد بياض بالأصل بمقدار سطر .

(٦) العوام بن زيادة : هو قوام الدين بن زيادة يحيى بن سعيد بن هبة الله الواسطى . شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص٣١٨ ؛ وفيات الأعيان ، جـ٦ ، ص٢٤٤-٢٤٩ ، ترجمة رقم ٨٠٨ .

الشافعى أخذه عن فضلات ، وله معرفة جيدة بالأصلين والحساب واللغة وله شعر جيد ، وقد ولى عدة مناصب وكان مشكوراً فى جميعها ، ومن مستجاد شعره :

لا تحقرن[1] عدوا تزدريه فكم		قد أتعس الدهر جد الجد باللعب
فهذه الشمس يعروها[2] الكسوف لها		على جلالتها بالراس والذنب
باضطراب[3] وبه : الزمان يرفع الأنذال		فيه حتى يعم البلاءُ
وكذا الماء راكدُ[4] فإذا حُرك		ثارتْ من قعره الأقذاءُ

توفى فى ذى الحجة من هذه السنة وله ثنتان وسبعون سنة وحضر جنازته خلق كثير ودفن عند موسى بن جعفر .

القاضى أبو الحسن على بن جابر بن زهير[5] بن على البطايحى ، قدم بغداد فتفقه بها وسمع الحديث وأقام برحبة مالك بن طوق مدة يشتغل على أبى عبدالله بن البقية[6] القرضى ، ثم ولى قضاء العراق مدة ، وكان فقيهاً أديباً ، وقد سمع من شيخه أبى عبدالله بن البقية ينشد لنفسه معارضاً للحريرى فى بَيْتَيه اللذين زعم أنهما لا يعززان بثالث لهما وهما قوله :

سِمْ سِمَةً تحمد أثارُها		واشكر لمن أعطى ولو سمسمة
والمنكر مهما اسطعت لا تأته		لتقتنى السّؤدد والمكرمة

فقال ابن البقية :

ما الأمة الوكفاء بين الورى		أخسّ من حُر أتى ملامة[7]
فمه إذا استجديت عن قول لا		فالحر لا يملأ منها فمه

(١) «لاتحقرنى» : كذا فى الأصل والتصحيح من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٧ .
(٢) «يعنى» : كذا فى الأصل والمثبت من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٧ .
(٣) ورد هذا البيت فى ابن خلكان بالصيغة الآتية :
باضطراب الزمان ترتفع		الأنذال فيه حتي يعم البلاءُ
(٤) ورد هذا البيت فى ابن خلكان بالصيغة الآتية
وكذا الماء ساكنا فإذا		حُرك ثارت من قعره الأقذاء
(٥) «ابن رجاء» فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٧ .
(٦) «ابن النبيه» فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٧ .
(٧) «ما الأمة الوكساء بين الورى أحسن من حر أتى ملامة» كذا ورد البيت فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٧ .

الشيخ حسن بن مسلم بن أبى الحسن ، أبو على الزاهد الحنبلى الفارسى ، من قرية نهر عيسى يقال لها الفارسية[١] ، كان من الأبدال[٢] لازماً لطريق السلف ، أقام أربعين سنة لم يُكلم أحداً من الناس ، وكان صائم الدهر ، قائم الليل ، يقرأ كل يوم وليلة ختمة . وذكره الشيخ أبو الفرج بن الجوزى فى «صفوة الصفوة» وقال : «كان زاهد زمانه . وكانت السباع تأوى إلى زاويته وكان الخليفة وأرباب الدولة يمشون إلى زيارته . وتوفى يوم عاشوراء ، ودفن فى رباطه بالقادسية .

قال السبط :[٣] وحكى لى جماعة من مشايخ القرية ؛ أن السباع كانت تنام طول الليل حول زاويته ، وإذا خرج أحد طول الليل من القرية إلى نهر عيسى لم تتعرض له ، وأن فقيراً نام فى الزاوية فى ليلة باردة فاحتلم فنزل إلى النهر ليغتسل[٢٢٣] فجاء السبع فنام على جبته ، فكاد الفقير يهلك من البَرد والخوف ، فخرج الشيخ حسن وجاء إلى السبع وضربه بكمه وقال : يا مبارك ما قلنا لك أن لا تتعرض لضيفنا ، فقام السبع يهرول . ذكره فى المرآة .

أبو الحسن على بن جابر بن زهير قاضى البطائح ، ولد سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، وقدم بغداد فسمع بها الحديث من أبى الوقت وابن ناصر وابن الجواليقى وغيرهم ، وخرج إلى رحبة مالك بن طوق فقرأ الفقه والأدب على أبى عبدالله بن البقيه وعاد إلى البطايح فولى القضاء بالعراق ثم عاد إلى بغداد فأقام بها ، ثم انحدر إلى البطايح فتوفى بطريق واسط ، وكان ثقة صالحاً ، وقال أنشدنى الحريرى صاحب المقامات لنفسه :

لا تخطون إلى خط ولا خطأ ... من بعد ما الشيب فى فؤديك قد وخطا
فأى عذر لمن شابت ذوائبه ... إذا سعى فى ميادين الصبى وخطا

أبو المجد على بن على بن ناصر السيد العلوى مدرس الحنفية ببغداد ، ولد سنة خمس عشرة وخمسمائة ، وتفقه وأفتى وناظر ، وكان المستنجد الخليفة قد حبسه وطالبه بمال ، فرأى النبى ﷺ فى المنام وقال له : يا يوسف استوص بولدى خيراً فهو

---

(١) الفارسية : قرية على ضفة نهر عيسى بعد المحول من قرى بغداد . انظر : معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٨٣٨ .
(٢) الأبدال : قوم بهم يقيم الله عز وجل الأرض وهم سبعون ؛ أربعون بالشام ، وثلاثون بغيرها ، لا يموت أحدهم إلا قام مكانه آخر من سائر الناس . انظر : الفيروزآبادى : القاموس المحيط ، جـ٣ ، ص٣٤٤ . (مادة بدل) .
(٣) نقل العينى هذا الخبر عن مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٩٣ .

وديعتى عندك ، فانتبه الخليفة مرعوباً وأحضره وخاطبه وقال : اجعلنى فى حل فقد شفع فيك من لا يمكننى رده فأحسن إليه . وكانت وفاته فى ربيع الأول من هذه السنة ، ودفن عند مشهد عبيدالله شرقى بغداد ، وكان صالحاً شريفاً على الحنفية ، سمع ابن الحصين ، وقاضى المارستان وابن السمرقندى وآخرين .

يحيى بن سعيد[١] **بن هبة الله بن زيادة ، أبو طالب الواسطى**[٢] ، ولد سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة ، وقدم بغداد واشتغل بالأدب فبرع فى الإنشاء والكتابة ، وانتهت إليه الرئاسة فيهما ، مع تخصصه بفنون العلم كالفقه ، وعلم الكلام ، والأصول ، والحساب ، والشعر ، جالس أبا منصور بن الجواليقى[٣] ، وقرأ عليه وسمع أبا القاسم الصباغ وغيره ، وولى للخليفة عدة وظائف ، خدم حُجبة الباب ، ثم أستاذ الدار ، ثم كتابة الإنشاء فى آخر أمره ، وكانت وفاته فى ذى الحجة ودفن فى مقابر قريش ومن شعره :

قد سلوت الدهر[٤] ولم يسلها		من علقت فى أماله والأراجى
«وإذا»[٥] ما صرفت وجهى عنها		«قذفتنى»[٦] فى بحرها العجاج
يستضيئون بى وأهلك وحدى		فكأنى ذبالة فى سراج

الأمير عز الدين جرديك : كان من أكابر الأمراء فى زمن نور الدين محمود وكان ممن شارك فى قتل شاور ، وحظى عند الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، وقد استنابه على القدس حين افتتحها ، وكان يستند به للمهمات الكبار فيسدها بنهضته وشجاعته ، ولما ولى الأفضل عزله عن بيت المقدس ، فترك بلاد الشام ثم انتقل إلى بلد الموصل فمات بها فى هذه السنة ، وكان شجاعاً جواداً ، وفى حلب مدرسة للحنفية[٧] تنسب إليه[٢٢٤] .

---

(١) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ٦ ، ص٢٤٤-٢٤٩ ؛ شذرات الذهب ، جـ٤ ، ٣١٨ .
(٢) نقل العينى هذه الترجمة عن البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٩ .
(٣) أبو منصور الجواليقى : هو موهوب بن أحمد أبو منصور . انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص٣٤٢-ص٣٤٤ .
(٤) «الدنيا» فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٩ .
(٥) «فإذا» ، «قذفتنى» فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٧-ص١٩ .
(٦) نقل العينى هذا الحدث من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٧-ص١٩ ؛ وانظر ترجمته فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٩٣ ؛ شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص٣١٦ .
(٧) المدرسة الحنفية بحلب هى الجردكية ، أنشأها الأمير جورديك النورى بسوق البلاط كملت سنة ٦٠١هـ . انظر : محمد كرد على ، خطط الشام ، جـ٦ ، ص١١٠ .

السلطان عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى بن آقسنقر صاحب سنجار والخابور والرقة ، توفى فى المحرم من هذه السنة وكان حسن السيرة متواضعاً محباً لأهل العلم إلا أنه كان شديد البخل . وقال ابن كثير : وكان محباً للعلماء شديد المحبه ولاسيما للحنفية من بينهم ، وقد ابتنى لهم مدرسة بسنجار وشرط لهم طعاماً يطبخ لكل واحد منهم فى كل يوم[١] ، ولما توفى ملك بعده ولده قطب الدين محمد بن زنكى[٢] وتولى تدبير دولته مجاهد الدين برتقش مملوك والده ، وكان ديناً عادلاً كثير البر والإحسان إلى الرعية كافة والفقراء خاصة .[٣] وفى المرآة : وهو ابن أخى نور الدين محمود ، وهو الذى قايض حلب بسنجار لم يزل مع صلاح الدين فى غزواته مجاهدا ، وكان ميمون النقيبة[٤] وكان السلطان يحترمه مثل ما كان يحترم نور الدين ويعطيه الأموال والهدايا والتحف الكثيرة ، ولما احتضر أوصى إلى أكبر أولاده وهو قطب الدين محمد ويلقب بالملك المنصور .[٥]

الملك بدر الدين آقسنقر هزار دينارى صاحب خلاط : مات فى هذه السنة ، وقد تقدم ذكر ملكه لأخلاط فى سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، ولما توفى استولى على أخلاط بعده خشداشه قطلغ ، وكان مملوكاً أرمنياً فملك أخلاط نحو سبعة أيام ثم اجتمع عليه الناس وأنزلوه من القلعة ثم وثبوا عليه فقتلوه ، فلما قتل قتلغ اتفق كبراء الدولة وأحضروا محمد بن بكتمر من القلعة التى كان معتقلاً فيها واسمها أرجّاس فأقاموه فى المملكة ولقبوه بالملك المنصور ، وقام بتدبير أمره شجاع الدين قتلغ الدوادار . وكان دوادار شاهر من بن سقمان بن إبراهيم وكان قبحاقى الجنس ، واستمر محمد بن بكتمر كذلك إلى سنة اثنتين وستمائة فقبض على أتابكه قتلغ المذكور وحبسه ثم قتله ، فخرج عليه مملوك لشاهر من يقال له عز الدين بلبان ، واتفق العسكر مع بلبان هذا وقبضوا على محمد المذكور وحبسوه ثم خنقوه ورموه من سور القلعة إلى أسفل وقالوا قد وقع واستمر

---

(١) إلى هنا توقف العينى عن النقل من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٨ ، كما ذكر هذا الخبر بتصرف فى كل من مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٧٨ ، ص٧٩ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٩٣-ص٢٩٤ .

(٢) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص٣٣١ ، ترجمة رقم ٤٢ .

(٣) لمعرفة المزيد من التفاصيل عن هذه الترجمة . انظر : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٨ .

(٤) النقيبة : النفس والعقل والمشورة ونفاذ الرأى والطبيعة . انظر الفيروزآبادى ، القاموس المحيط «مادة «النقب» جـ١ ، ص١٣٩ .

(٥) مرآة الزمان ، جـ٨ ،ص٢٩٣- ٢٩٤ .

بلبان المذكور فى مملكة أخلاط دون سنة ، وقتله بعض أصحاب طغريل بن قليج أرسلان صاحب أرزن[١] الروم وقصد طغريل المذكور أن يتسلم أخلاط فلم يُجِبْهُ أهله إلى ذلك وعصوا عليه ، فعاد إلى أرزن الروم ، ثم وصل الملك الأوحد أيوب ابن الملك العادل أبى بكر بن أيوب وتسلم أخلاط وملكها قريب ثمانى سنين والله أعلم .[٢]

(١) أرزن : أرزن الروم بلدة من بلاد أرمينيا . انظر معجم البلدان ، جـ١ ، ص٢٠٦ .

(٢) نقل العينى هذا الحدث بالتفصيل من المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص٩٤ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الخامسة والتسعين بعد الخمسمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله وأمراء البلاد على حالهم، غير أنه مات فى هذه السنة الملك العزيز صاحب مصر والشام، والسلطان الكبير صاحب بلاد المغرب(١)، والأمير الكبير مجاهد الدين قيماز على ما نبين الجميع إن شاء الله تعالى.

ذكر وفاة السلطان الملك العزيز

الكلام فيه على أنواع:

الأول فى ترجمته: هو عماد الدين عثمان ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الأمير نجم الدين أيوب الملقب بالملك العزيز، قد ذكرنا أنه ولد فى سنة سبع وستين وخمسمائة، وكانت ولادته فى القاهرة، وكان نائباً عن أبيه فى الديار المصرية لما كان أبوه بالشام، وتوفى أبوه بدمشق فاستقل[٢٢٥] بمملكتها باتفاق من الأمراء، وكانت مملكته خمس سنين وأشهراً.(٢)

وفى تاريخ ابن العميد: وكانت مدة مملكته أربع سنين وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوماً.(٣)

الثانى فى سيرته: قال ابن خلكان: كان ملكاً مباركاً كثير الخير واسع الكرم محسناً إلى الناس معتقداً فى أرباب الخير والصلاح، وسمع بالإسكندرية الحديث من الحافظ السِّلَفى والفقيه أبى طاهر بن عوف الزهرى، وسمع بمصر من العلامة أبى محمد بن برى النحوى وغيرهم(٤). وفى تاريخ المؤيد: وكان فى غاية السماحة والكرم والعدل والرفق بالرعية والإحسان إليهم، ففجعت الرعية بموته فجعة عظيمة(٥)

(*) يوافق أولها: ٣ نوفمبر سنة ١١٩٨م.

(١) السلطان الكبير: يقصد به الملك المنصور أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن. انظر: شذرات الذهب، جـ٤، ص٣٢١-٣٢٣.

(٢) وفيات الأعيان، جـ٣، ص٢٥١-٢٥٣، ترجمة رقم ٤١٤.

(٣) ذكر ابن واصل أن مدة ملك السلطان عماد الدين عثمان ست سنوات إلا شهراً. انظر مفرج الكروب، جـ٣، ص٨٣؛ أما المقريزى، فذكر أن مدة ملكه ست سنين تنقص شهراً وستة أيام، السلوك، جـ١، ق١، ص١٤٤.

(٤) وفيات الأعيان، جـ٣، ص٢٥١.

وفى تاريخ ابن العميد : كان ملكاً عادلاً كريماً رحيماً حسن الأخلاق طيب الأعراق شجاعاً حسن العقيدة جميل الطوية شديد الخوف من الله تعالى ، سريع الانقياد إلى الخير كثير البذل مفرطاً فى السخاء[١] . وفى المرآة : وكان لطيفاً كثير الخير رفيقاً بالرعية حليماً . حكى لى المبارز سنقر الحلبى قال[٢] : نفد ما بيده بمصر فلم يبق فى الخزانة درهم ولا دينار ، فجاء رجل من أهل الصعيد إلى سيف الدين أُزكش[٣] ، فقال : عندى للسلطان عشرة آلاف دينار ولك ألف دينار ، وتولينى قضاء الصعيد ، فدخل أزكش على العزيز فأخبره فقال : والله لا بعت دماء المسلمين وأموالهم بملك الأرض ، وكتب ورقة لأزكش بألف دينار وقال : اخرج فاطرد هذا المُدْبر ولولاك لأدبته . قال : وقد ذكرنا أنه وهب دمشق للملك المعظم ، وكان يطلق عشرة آلاف دينار وعشرين ألف دينار .[٤]

الثالث فى وفاته : قال ابن خلكان : وكان قد توجّه إلى الفيوم فطرد فرسه وراء صيد فتقنطر به فأصابته الحمى من ذلك ، وحمل إلى القاهرة فتوفى بها فى الساعة السابعة من ليلة الأربعاء الحادى والعشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة ،.ودفن بالقرافة الصغرى فى قبة الإمام الشافعى رحمه الله ، وقبره معروف هناك .[٥]

وفى تاريخ بيبرس : وفى سنة أربع وتسعين وخمسمائة ابتدأ بالعزيز بن الناصر المرض ، وفى سنة خمس وتسعين أخذ مرضه فى التزايد وكان قد توجه إلى الفيوم وركب من ذات الصفا عائداً إلى مصر ، فسقطت شهوته فلم يأكل شيئاً ، ووصل الجيزة وقد تزّيدت به الحمى ، فتحامل وركب إلى داره ، واشتد به الكرب فتوفى ليلة الأحد العشرين من المحرم ، ونقل من دار الوزارة ، ودفن بالقرافة بجوار قبر الشافعى رحمه الله .[٦]

وفى تاريخ المؤيد : وكان قد طلع إلى الصيد ، فركض خلف ذئب فتقنطر وحُمّ فى سابع المحرم ، وكان فى جهة الفيوم فعاد إلى الأهرام وقد اشتدت به حمّاه ، ثم توجه إلى

(٥) المختصر ، جـ٣ ، ص٩٥ .

(١) وردت هذه الفقرة بتصرف فى السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص١٤٤ .

(٢) «قَلّ» كذا فى الأصل والمثبت من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٩٥ .

(٣) «يازكش» كذا فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ق٢ ، ص٤٦٠ ، طبعة حيدرأباد ١٩٥٢ ، «باركيس» فى طبعة شيكاغو ، جـ٨ ، ص٢٩٥ .

(٤) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٩٦ .

(٥) وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٢٥١-ص٢٥٣ . ترجمة رقم ٤١٤ .

القاهرة فدخلها يوم عاشوراء ، وحدث به يرقان وقرحة فى المعا ، واحتبس طبعه ، فمات فى منتصف ليلة السابع والعشرين من المحرم[١] . وفى المرآة : وكان سبب وفاته أنه خرج إلى الفيوم متصيداً فلاح له ظبى فركض خلفه فكبى به الفرس فدخل قربوس السرج فى فؤاده فحمل إلى القاهرة فمات فى العشرين من المحرم ، ودفن عند الشافعى[٢] . وقال ابن القادسى : كان قد ركب وتبع غزالة فوقع فاندقت عنقه وبقى أربعة أيام ومات . قال السبط : وهذه من هنات ابن القادسى فإن الملك العزيز ما اندقت عنقه وإنما دخل قربوس السرج فى[٢٢٦] فؤاده وأقام بالقاهرة أسبوعين ومات .[٣]

الرابع فيمن خلّف من الأولاد : قال بيبرس : وخلف من الأولاد محمداً وهو القائم بعهده وعليا وعمر وإبراهيم وعيسى ومحموداً وفرخشاه ويوسف ويونس وآخران صغيران وثلاث إناث .[٤]

الخامس فى مراثيه : ورثاه جماعة من الشعراء منهم الشهاب بن الساعاتى[٥] فقال :

خلا الدست من ذاك الجناب الممّنع ... فسلم على الدنيا سلام مودع
مضى بعدما عمت سراياه والندى ... وسار مسير الشمس فى كل موضع
فُجعنا بأندى من بنان سحابة ... وأجرأ من ليث العرين وأشجع
هو الخطب لا المرء الفصيح بمدرة ... لديه ولا الحبر الخطيب بمصقع
ثوى الجود والملك العزيز بحفرة ... ومالهما من فرقه وتجمع
فمن ذا يرد الخطب تدمى شباته ... برأى جميع أو بقلب مشيع

ورثاه آخر بقصيدة منها قوله :

بعد فقد الملك العزيز عماد ... الدين عثمان لن ترانى سال
كان جيد الزمان حالى فأضحى ... ولآلئه لونها كالليال

(٦) ورد هذا الخبر بتصرف فى نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤٥٥ .
(١) المختصر ، جـ٣ ، ص٩٥ .
(٢) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٩٦ .
(٣) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٩٦ .
(٤) نهاية الأرب ، جـ٨ ، ص٤٥٥-٤٥٦ .
(٥) الشهاب بن الساعاتى ، بالرجوع إلى كتب التراجم اتضح أن ابن الساعاتى الشاعر هو أبو الحسن على بن رستم بن هردوز ، الملقب بهاء الدين وليس شهاب الدين ، وكانت وفاته بالقاهرة سنة ٦٠٤هـ . انظر : وفيات الأعيان جـ٣ ، ص٣٩٥-٣٩٧ ؛ شذرات الذهب ، جـ٥ ، ص١٣-ص١٤ .

ذكر سلطنة الملك المنصور ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك العزيز عماد الدين عثمان ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بمصر

لما توفى العزيز فى التاريخ المذكور أقام فخر الدين جهاركس- وكان هو الغالب على دولة العزيز – ولد العزيز محمد وكان صغيراً مقام والده فى السلطنة ، وقال بيبرس : وركب بشعار السلطنة يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من المحرم سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، ولقب أولاً بالناصر فكره مواطأة اسم الخليفة فغيره بالمنصور ، وشق القاهرة راكباً فى دسته ، وكتب كتاباً إلى عمه يعزيه ويخبره بانتصاب الولد منصب أبيه وأنه ومَنْ عنده من جماعته مستمرون على طاعته .[١]

وفى المرآة : كان الملك العزيز نص على ولده ناصر الدين محمد وكان أكبر أولاده[٢] ، وكان عمره عشر سنين ، وقيل : تسع سنين وأشهراً ، وكان مقدم الصلاحية فخر الدين جهركس وأسد الدين سرا سنقر وزين الدين قراجا فاتفقوا على ناصر الدين محمد وحلّفوا له الأمراء ، وكان سيف الدين أزكش مقدم الأسدية غائباً بأسوان فقدم فصوّب رأيهم وما فعلوه ، إلا أنه قال : هو صغير السن لا ينهض بأعباء الملك ولابد من تدبير كبير يحسم الفساد[٣] ويقيم الأمور ، والعادل مشغول فى الشرق بماردين ، وما ثم أقرب من الأفضل فجعله أتابك العساكر فلم يمكن الصلاحية مخالفة الأسدية وقالوا : افعلوا ، فكتب أزكش إلى الأفضل يستدعيه وهو بصرخد وكتبت الصلاحية إلى من فى دمشق من أصحابهم يقولون : قد اتفقت الأسدية على الأفضل وإن مَلَكَ حكموا علينا فامنعوه من المجىء ، فركّبوا عسكر دمشق ليمنعوا الأفضل ففاتهم ، وكان قد التقى نجاباً من عند جهركس إلى من فى دمشق بهذا المعنى ومعه كتب فأخذها منه [وقال ارجع فرجع إلى مصر][٤] ، ولما وصل الأفضل إلى مصر التقاه الأسدية ورأى جهركس النجاب فقال : ما أسرع ما عدت .

---

(١) ورد هذا الحدث بتصرف فى نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤٥٦ .

(٢) إلى هنا توقف العينى عن النقل من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٩٦ .

(٣) «المواد» فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٩٦ .

(٤) ما بين حاصرتين ساقط من العينى . انظر : مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٩٦ .

فأخبره الخبر فساق هو وقراجا إلى القدس فتحصنا به ، ثم أشارت الأسدية على الأفضل بقصد دمشق وأن العادل مشغول بماردين فيكتب إلى الظاهر صاحب حلب ، فأجابه وقال : أقدم حتى أساعدك[1] . وقال ابن كثير[2] : لما أقام فخر الدين جهركس الملك المنصور محمداً موضع أبيه العزيز اتفقت الأمراء على إحضار أحد من بنى أيوب ليقوم بالملك ، واستشاروا القاضى الفاضل فأشار بالملك الأفضل وهو حينئذ بصرخد ، فأرسلوا إليه فسار محثاً ووصل إلى مصر على أنه أتابك الملك المنصور ابن الملك العزيز ، وكان عمر المنصور يومئذ تسع سنين وشهوراً ، وكان مسير الأفضل من صرخد لليلتين بقيتا من صفر فى تسعة عشر نفراً متنكراً خوفاً من أصحاب عمه الملك العادل ، فإن غالب تلك البلاد كانت له ، ووصل إلى بلبيس خامس ربيع الأول ثم سار إلى القاهرة فخرج الملك المنصور ابن العزيز للقائه ، وترجل له عمه الأفضل ودخل بين يديه إلى دار الوزارة وهى كانت مقر السلطنة ، ولما وصل الأفضل إلى بلبيس والتقاه العسكر تنكر منه فخر الدين جهركس وفارقه وتبعه عدة من العسكر وساروا إلى الشام ، فكاتبوا الملك العادل وهو محاصر ماردين .[3]

ذكر توجه العادل من ماردين والأفضل من مصر وحصار دمشق

لما أشارت الأسدية على الأفضل بقصد دمشق نهض وسار بالعساكر إلى الشام واستناب بمصر سيف الدين أزكش ، ووصل إلى دمشق فى شعبان فأحدق بدمشق ، وبلغ العادل وهو على ماردين كما ذكرناه ؛ وكان أقام عليها عشرة أشهر فلم يبق إلا تسليمها ، وصعدت أعلامه إلى القلعة ، وسمعوا بوفاة العزيز فتوقفوا فرحل عنها ، وترك ولده الكامل محمداً عليها ، وجاء العادل ومعه دلدروم الياروقى وابن المقدم وجماعة من الأمراء ، وكان الأفضل نازلاً فى الميدان الأخضر ، فأشار عليه جماعة من الأمراء أن يتأخر إلى مشهد القدم حتى يصل الظاهر ، وصاحب حمص ، والأمراء ، وكان مكيدة منهم ، فتأخر

(١) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٩٦-ص٢٩٧ .

(٢) نقل العينى هنا عن أبى الفدا المختصر على الرغم من أنه ذكر أنه نقل عن ابن كثير . انظر : المختصر ، جـ٣ ، ص٩٥ .

(٣) المختصر ، جـ٣ ، ص٩٥ .

إلى مشهد القدم ، ودخل العادل ومن معه من العسكر إلى دمشق ، وجاء الظاهر بعسكر حلب ، وجاء عسكر حماه وحمص وبشاره من بانياس ، وعسكر الحصون ، وسعد الدين مسعود صاحب صفد ، وضايقوا البلد وكسروا باب السلامة ، وجاء آخرون إلى باب الفراديس ، فيقال : إن الناصح بن الحنبلى وأخاه الشهاب وأصحابهما كسروا باب الفراديس .

وكان العادل فى القلعة قد استأمن إليه جماعة من المصريين مثل ابن كهدان ، ومثقال الجمدار[٢٢٨] الخادم ، وبلغ العادل فركب وخرج إليهم ، وجاء إليه جيرون[١] والمجد[٢] أخو الفقيه عيسى قائم على فرسه يشرب الفقاع فصاح العادل : «يا مغلة ، يا صنعة ، إلى ها هنا» . فخرجوا ، وأغلق باب السلامة ، وجاء إلى باب الفراديس فوجدهم قد كسروا الأقفال بالمرزبات ، فقال : «من فعل هذا؟» قالوا : الحنابلة . فسكت ولم يقل شيئاً .

قال : السبط : وحكى لى الملك المعظم عيسى رحمه الله قال : لما رجعنا من باب الفراديس ، ووصلنا إلى باب مدرسة الحنابلة ، أُرمى على رأس أبى جب الزيت فأخطاه ، ووقع فى رقبة الحصان فوقع الحصان ميتاً ، فنزل أبى وركب غيره ولم ينطق بكلمة ، وجاء جهاركس وقراجا فى الليل من جبل سنير فدخلا دمشق . وأما المواصلة فساقوا على الملك الكامل ، فرحَّلوه من ماردين ، فجاء يقصد دمشق ، وجمع التركمان .

وأما دمشق فإنه لما اشتد الحصار عليها ، وقطعوا أشجارها ومياهها الداخله إليها ، انقطعت عن أهلها الميرة وضجوا ، فبعث العادل إلى الظاهر يقول : «أنا أسلم إليك دمشق على أن تكون أنت السلطان ، وتكون دمشق لك ولا للأفضل» فطمع الظاهر وأرسل إلى الأفضل يقول : «أنت صاحب مصر فأثرنى بدمشق» فقال : «دمشق لى من أبى ، وإنما أُخذت منى غصباً ، فلا أعطيها لأحد» . فوقع الخلف بينهما ، ووقع التقاعد وخرجت السنة على هذا .[٣]

---

(١) جيرون : ورد فى معجم البلدان أن أحد أبواب الجامع بدمشق سمى باب جيرون نسبة إلى جيرون بن سعد بن عاد بن إرم بن سام بن نوح– وهو أول من بنى دمشق . وقيل أيضاً : إن حصن جيرون بدمشق بناه رجل من الجبابرة يقال له جيرون . ويذكر ياقوت أنه باب من أبواب الجامع بدمشق ، وهوبابه الشرقى . انظر : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص١٧٥-١٧٦ .

(٢) المجد أخو الفقيه عيسى : هو مجد الدين عمر بن محمد بن عيسى الهكارى . ولد سنة ٥٠٦هـ وتوفى سنة ٦٣٦هـ بالقاهرة ودفن بسفح المقطم . انظر : وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٤٩٨ ، ترجمة (743) .

(٣) إلى هنا توقف العينى عن النقل من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٩٧ ، ٢٩٨ .

وقال أبو الفدا[١] : لما سار العادل من ماردين ، وسار الأفضل من مصر ، سبق [العادل][٢] الأفضل ودخل دمشق قبل نزول الأفضل بيومين ، ونزل الأفضل على دمشق فى ثالث عشر شعبان . وزحف من الغد على البلد ، وجرى بينهم قتال ، وهجم بعض عسكره المدينة حتى وصل إلى باب[٣] البريد ، ولم يمدهم العسكر ، فتكاثر أصحاب الملك العادل ، وأخرجوهم من البلد ، ثم تخاذل العسكر ، فتأخر الأفضل إلى ذيل عقبة[٤] الكسوة ، ثم وصل إلى الأفضل أخوه الملك الظاهر صاحب حلب ، فعاد إلى مضايقة دمشق ، ودام الحصار عليها ، وقلت الأقوات عند العادل وعند أهل البلد . وأشرف الأفضل والظاهر على ملك دمشق ، وعزم أهل البلد[٥] على تسليم البلد لولا ما حصل بين الأخوين الأفضل والظاهر من الخلف وخرجت السنة وهم على ذلك .[٦]

وفى تاريخ بيبرس : لما ولوا الملك المنصور محمدا عوض أبيه العزيز لم يلبث إلا هنيهة يسيرة حتى تحركت جماعة من الناصرية والأسدية وقالوا : لابد من مدبر يقوم بالأمر ، فإن ولد العزيز صغير ، والأولاد الناصرية ما فيهم من يدبر نفسه ، فضلاً عن غيره ، ولابد من العادل . واتصل بالأمراء أن العادل حالف بعض المماليك والحلقة على أن يكون الأمر له ، وتحدث يازكج مع الأمراء فيما هموا به من تسليم الأمر إلى العادل ، وقال لهم : الأولى أن لا يخرج الأمر عن بيت الملك الناصر ، فلم يوافق ذلك رأى كرجى ودرباس . ثم تقرر أن يولى الملك الأفضل بن الناصر أتابكية ابن أخيه العزيز ، وينوب عن الأفضل أخوه الظافر مظفر الدين خضر ، وكتبوا إلى الأفضل يستدعونه من صرخد ، وامتدت أطماع الأمراء والجند ، واستمر الظافر فى تنفيذ الأشغال وتدبير الأحوال ، إلى حين وصل الأفضل إلى بلبيس[٧] ، وتلقاه المؤيد أخوه وفخر الدين إياز جهركس ، واهتم كل منهما بعمل ضيافة واسعة ، وقصد جهركس أن يكون نزوله أولاً فى خيمته وحضوره

---

(١) فى الأصل «ابن كثير» وما أثبتناه هو الصحيح .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح ، تنظر : المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص٩٥ .

(٣) باب البريد : أحد أبواب مدينة دمشق . ويقع فى غربى المسجد الأموى . انظر : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٥٩١ .

(٤) عقبة الكسوة : العقبة هو الجبل الطويل يعرض للطريق فيأخذ فيه وهو طويل صعب إلى صعود الجبل . معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٦٩٢ . أما الكسوة فقد سبق التعريف بها .

(٥) فى المختصر : «وعزم العادل على تسليم البلد» . انظر : المختصر ، جـ٣ ، ص٩٦ .

(٦) نقل العينى هذا الحدث من المختصر ، جـ٣ ، ص٩٥-٩٦ .

(٧) ذكرت هذه الأحداث بتصرف فى نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤٥٦ ، ٤٥٧ .

بداً إلى ضيافته ، فنزل فى خيمة أخيه المؤيد لأنه أقسم عليه بالطلاق أنه لا يبدأ إلا به ، فأبر قسمه ونزل عنده أولاً ، وعند جهركس ثانياً . فغضب جهركس لذلك ، واستشعر سوء رأى فيه ، فأخذ دستوراً من الأفضل أن يتأخر بالشرقية ليصلح بين مختلفين من العرب . فلما انفصل من الأفضل ركب هو وزين الدين قراجا من فورهما ، ودخلا البرية فى عدة قليلة .(١)

وأما الأفضل فإنه وصل إلى ظاهر القاهرة ، فخرج إليه أهلها وتلقوه بالاحتفال ، وزينت البلد ، ودخل دار الوزارة ، ونزل بدار البستان التى كان العزيز عمّرها .(٢) وخرج سراسنقر من باب البرقية(٣) بخيله ورَجْله لاحقاً برفيقيه جهاركس وقراجا ، وشرع الأفضل فى الإطلاقات(٤) والحوالات واستكثر منها ، وجهز شمس الدولة عبدالرحمن بن منقذ(٥) رسولاً إلى عمه العادل ببذل الطاعة وأرسل صحبته جاولى المعظمى وخطب باسم الأفضل ، وحذف من الخطبة الترحم على الناصر والعزيز ، وامتدحه شعراء النصر(٦) وأدباء المصر ، فمما مدح به من أشعار الرشيد النابلسى قصيدة مطلعها :

رُويدَكم إن الهوى مسلكٍ وعر	يُضَلُّ به الهادى ويُستعبد الحرُّ
أثير الغوانى ليس بعد بمُفْتَدى	ومقتولها فى دينها دمُه هَدْرُ
وما هى إلا نظرةٌ سفكت دمى	وحاذرتها لو أنه نفع الحَذْرُ
وما كان لولا أن يظاهرها الهوى	لغانيه نهى على ولا أمرُ
فلله بالفُسطاط أرغدُ عيشة	حظيتُ بها لو عاد يوماً بها العمرُ
فيا حبذا مقر وساكنَ أرضِها	وساحتُها فالتحلُ فالنيلُ فالقصرُ

(١) وردت هذه الأحداث بتصرف فى نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤٥٦-٤٥٧ ؛ مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٩١-٩٢ .
(٢) وردت هذه الأحداث بتصرف فى نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٢٥٧ ، ٢٥٨ . انظر أيضاً : مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٩١ ، ٩٢ .
(٣) باب البرقية : هذا الباب على حارة البرقية التى تنسب إلى قوم من أهل برقة قدموا صحبة جوهر الصقلى فعرفت بهم . صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص٣٥٨ .
(٤) الإطلاقات : جمع إطلاق ، ومعناه إما تقرير عدل لما قرره أحد الملوك السالفة أو ابتداء فى معروف أو زيادة فى إحسان على ما كان مقرراً . ومن معانيه أيضاً قطعة أرض تمنح وتعفى من جميع أنواع الضرائب .
انظر : صبح الأعشى ، جـ١٣ ، ص٤١ ؛ Dozy:Supp.Dict.Ar
(٥) هو شمس الدولة أبو الحارث ، عبدالرحمن بن محمد بن مرشد بن منقذ . ت٦٠٠هـ بالقاهرة . ومولده فى شيزر سنة ٥٢٣هـ . وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص١٢ . ترجمة رقم (355) .
(٦) فى د «العصر» .

وليلة زارت والنجومُ كأنما على روضةٍ خضراءِ من زهرها زَهْرُ
وعقد الثريا فى أنيق نظامه يطابقه من أنجم النُّثْرة النَّثْرُ
وللزهرة الغراء[1] فى الغرب رجفةٌ مخافة أن ينقض مُنْقَضَّها النَسرُ
وجنح الدُجى فى عُنفوان شبابه فما كذَّبَت عيناى أن طلع الفجرُ
أو الملكُ نورُ الدين أشْرق قادماً يُصاحبهُ الإقبال والفتح والنصرُ
طوى من أعالى مصرَ عِشْرين رحْلَةً فكان لِموتى الفَقر طيُّها نَشْرُ
فوافى إليها وهى ترقبُ قربَه وليسَ لها عن أن يُواصلها صَبرُ
وفى طرفِها إلا إلى وَجهِه قذىً وفى سَمعها إلا إلى ذكره وَقرُ[٢٣٠]
فَشَرّفها منه أَغر مُتوجٌ به تَشْرفُ الأمصارُ جَمْعاء لا مِصْرُ
وقلدها سيفاً من العزِّ صارماً به حُقّ لو تاهَت لها التيه والفخرُ
وكانت عروسُ الدهرِ تطلب كُفؤَها فزُفّ إليها الأمجدُ الأفضلُ الغمرُ
هو الغَيثُ وافاها على ظمأ بها فبَشّرها بالغَوثِ من وجهه البَشْرُ
حليمٌ عن الجانى وطوراً مُعاقِبٌ وخيرُ فتى من عنده الخيرُ والشرُ
تفرق طعماه لدى السخط والرضى فذا سائغ حُلو وذا سائغٌ مُرُ
يلين ويقسو للعُفاة وللعدى ففى راحتيه النفع للناس والضر
بليغ بقول الفصل ناطق فضله فمعروفه درٌ ومنطقه دُرٌّ
رحيب الذرى والباع والباس والندى وأرحب منها فضله الجمُ والصَدْرُ
يجود ولا وعدٌ فأما وعوده فحاشى وَفيًا من مَواقيتها غدر
ضلالاً لمن بالبحر قاس يمينه ومن جوده فى كل أنملة بحر
إليه بنى الآمال فى كل وجهه فإحسانه المد الذى ماله جذر
فتى يهب الجم الغفير وَظَنُّه بأن كثيراً من مواهبه نَزْرُ
هو الغَمْرُ قد أفنى الكنوزَ مواهباً أفى قلبه حقد على المال أو غِمْرُ
يميناً لو أنّ الدهر ملك يمينه لأصبح موهوباً وإن عظمُ الدهْرُ
أنجلَى صلاح الدين والملك الذى زكى[2] النحلُ من أولاده وزكا النِجْرُ

---

(١) فى د «الزهراء» .

(٢) فى د «زكا» .

عدلت فلا جورٌ وصُلْت فلا أذَى　　وقمتَ فلا زَيغٌ وجُدْتَ فلا فَقْرُ
ففى غضب الشيطانِ بَاسُك والندى　　وفى طاعةِ الرحمن سِرُّك والجَهْرُ
لأ نتمُ بَنى أيوب خَيرُ عصابةٍ　　لها الحمدُ بعدَ الله والمَدحُ[1] والذكرُ
سماءُ عُلىً تَهْدى مَصابيحُ أُفقِها　　وتُهْدَى[2] لنا من سُحبها النّايل الدَّثْرُ

وقال يمدحه أيضاً بقصيدة منها :

الأفضلَ ابن أبيه أفضَلُ ذو نَدى　　نسخت وُعودَ الجود منه نُقُودُ
مَلِكٌ إذا وقف الملوكُ بِبَابه　　لعايَنْت مولىً والملوكُ عَبِيدُ
غَيْثٌ إذا سحَّت سحايبُ جُوده　　جَزرَ الحَيا ولِراحَتيْه مُدُودُ
للبشر فى قسماته نُورٌ إلى　　ما يَرتجى الراجون منه بَريدُ
يَقظ تَنَبُّه للثناءِ وكسبه　　حين الملوكِ عن الثناء رُقُودُ
فإذا[3] اقتنى المَلْكُ الكنوز رأيتَه　　خِرْقًا بِما ملكَتْ يَداه يَجُودُ [٢٣١]
مَهلاً عَلىٌّ علوتَ حتى ما لِذى　　شرف إلى حيثُ ارتقَيْت صُعُودُ
كم لج جيش للفرنج فخضنته　　والدّارعون بحافتيه وُرُودُ
فنظمته بالرُمح وهو مُبدَّدٌ　　ونَثرتَه[4] بالسيف وهو عُقُودُ
صلّت سيوفَك حين صَلّتْ رُكعا　　فيهم فهامُهم إليك سُجُودُ
أشْرَفتَ فى الزمن البهيم كما بدا　　للصُبح من غسق الظلام عمُودُ
فأَلِيّة بِكَ يا ابن من لسيوفُه　　أبدا رِقابُ المشركين حَصِيدُ
لو كان حِلمُكَ للجبال مُوَطِّداً　　لم تُلْفَ بالزلزال وهى تميدُ
أو كانَ جُودكَ للسَّحاب مُظاهِرا　　ما زالت الأنواءُ وهى تَجُودُ
أو كان[5] عزمك للصَّوارم لم تُحطْ　　يوما بهن ولو أحَطْنَ غَمُودُ

---

(١) فى د «والحمد» .
(٢) فى د «وتهدى» .
(٣) فى د «وإذا» .
(٤) فى د «ونشرته» .
(٥) فى د «ولو كان» .

أو كان باسُك للأسُود لما احتمت ... من خوف باسُك بالعَرين أُسُودُ
فتَملَّ منِّى كل بكرٍ طائرُ ... المعنى لها أنَّى شذا غريدُ
شعر يَصُوغُ ثناك فى أثنائه ... عَبَقًا وخُفَّاقُ النسيم رُكُودُ
يُكْسى على مَرِّ الزمانِ طلاوةً ... وتُمَزَّقُ الأيامُ وهو جَديدُ
دُرٌّ تنظَّم من عُلاك فَريدُهُ ... فَمِنَ العجايب أن يُقال قَصيدُ
لا تَحسِبَنَّ لك فى الكمال مشاركاً ... ما عن صِفَاتِكَ للكمالِ مَجِيدُ

قال بيبرس : وفيها شرع الأفضل فى تجريد العساكر إلى القدس الشريف مع الظافر أخيه ، واجتمع جهاركس بميمون القصرى وأسامة ، ثم كتبوا إلى الأفضل كتاباً مضمونُه ؛ إنا مجتمعون على طاعة ولد الملك العزيز ، وإن استقر الملك العادل كنا فى طاعته ، وأما أنت فقد غررت بنفسك ، فلا تطمع فى مُلك مصر ؛ وأكثروا من هذا الخطاب ومثله .

وفيها وصل إلى الأفضل رسول أخيه الظاهر صاحب حلب ، ورسل ابن عمه أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه صاحب حمص يحثانه على الخروج إلى دمشق ليغتنم الفرصة بغيبة العادل عنها ، فإن العادل قد سار لحصار ماردين ، فخرج الأفضل على عزم المسير إلى دمشق وتعوق بظاهر القاهرة وتشبط فى مسيرة ، ولو بادر وعجل المسير لربما كان قد ملكها لكنه تأخر ، ولما وصل نزل عند جسر الخشب على فرسخ ونصف من دمشق ، وكان نواب العادل قد أرسلوا إليه يخبرونه قصد الأفضل لهم ، ففارق ماردين وخلف ولده الكامل عليها ، وحضر جريدة فسبق الأفضل ودخل دمشق قبل وصوله بيومين ، وأما الأفضل فإنه تقدم إلى دمشق من الغد وهو رابع عشر شعبان ، فاجتمع الأمير مجد الدين أخو الفقيه عيسى الهكارى ببعض الأجناد[٢٣٢] الذين على أحد الأبواب ، واتفقوا معه على أنهم يفتحونه له وهو الباب الذى يسمى باب السلامة[١] ففتحوه ، ودخل مجد الدين وبعض من معه إلى المدينة ، فلما رآهم العامة والجند استسلموا ونزلوا عن الأسوار .[٢]

---

(١) باب السلامة : سمى بهذا الاسم تفاؤلاً لأنه لا يتهيأ القتال على البلد من ناحيته لما دونه من الأنهار والأشجار . انظر ابن شداد ، تاريخ مدينة دمشق ، ص٣٥ .

(٢) ورد هذا الحدث بتصرف فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٥٧-ص٢٥٨ . طبع المطبعة الأزهرية ؛ مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٩٢-٩٦ ؛ نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤٥٨-٤٥٩ .

وبلغ الخبر الملك العادل فكاد يسلم لكنه تماسك ، وبلغ عسكر الأفضل باب البريد فلما رأى عسكر العادل قلة عسكر المصريين وثبوا عليهم فأخرجوهم ، وكان الأفضل قد نصب خيامه بالميدان الأخضر فأشير عليه بالانتقال إلى ميدان الحصى[١] ففعل ، وقويت نفوس الدمشقيين وضعفت نفوس المصريين ، وتعصبت الأكراد وصاروا شيئاً واحداً . فتأخر الأفضل قليلاً ، ثم وصل أسد الدين شيركوه صاحب حمص إلى الأفضل ، ووصل بعده الملك الظاهر صاحب حلب ، وأرادوا الزحف على دمشق فمنعهم الظاهر مكراً بأخيه الأفضل وحسداً له ، ولم يشعر أخوه بذلك منه ، ولما رأى العادل كثرة العساكر وتتابع الأمداد ، عظم عليه ذلك وأرسل إلى المماليك الناصرية الذين بالقدس يستدعيهم إليه ، وبلغ الأفضل أنهم ساروا إلى العادل ، فسير أسد الدين شيركوه صاحب حمص ومعه جماعة من الأمراء إلى طريقهم ليمنعوهم ، فساروا فى غير الجادة وعبروا دمشق ، فقوى العادل بهم وآيس الأفضل من دمشق ، ثم إن العادل سير خلف ابنه الكامل ليحضر إليه ، وكان على ماردين فسار على طريق البر ودخل دمشق ، وانقضت السنة والحال على مثل ذلك .[٢]

ذكر وفاة صاحب الغرب

والكلام فيه على أنواع :

هو السلطان الكبير أبو يوسف يعقوب بن أبى يعقوب يوسف بن أبى محمد عبد المؤمن بن على القيسى الكومى ، صاحب بلاد الغرب الملقب بالملك المنصور . ولد ليلة الأربعاء رابع شهر [ربيع][٣] الأول سنة أربع وخمسين وخمسمائة ، ولما مات أبوه فى سنة ثمانين وخمسمائة على ما ذكرناه اجتمع رأى أشياخ الموحدين وبنى عبدالمؤمن على تقديمه ، فبايعوه وعقدوا له الولاية ودعوه أمير المؤمنين كأبيه وجدّه ، ولقبوه المنصور .[٤]

(١) ميدان الحصى : قبلى دمشق . معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٥٩٥ .

(٢) ورد هذا الحدث بتصرف فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٥٧-ص٢٥٨ .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من النسخة د .

(٤) أبو يوسف يعقوب بن أبى يعقوب يوسف بن أبى محمد عبد المؤمن صاحب الغرب . وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص١٣٠-ص١٣٨ ، وقد ذكر أن مولده فى سنة ثمان عشر وخمسمائة . المرجع السابق .

الثانى فى صفته :

كان أسمر[١] صافى السمرة جداً إلى الطول ، جميل الوجه ، أفوه ، أعين ، شديد الكحل ، ضخم الأعضاء جهورى الصوت ، جزل الأعضاء ، من أصدق الناس لهجة وأحسنهم حديثاً وأكثرهم أصابه بالظن ، مجرباً للأمور ، ولى وزارة أبيه فبحث عن الأحوال بحثاً شافياً وطالع مقاصد العمال والولاة وغيرهم مطالعة حسنة .

الثالث فى سيرته :

لما ولى قام بالأمر أحسن قيام ، وهو الذى أظهر أبهة ملكهم ورفع راية الجهاد ونصب ميزان العدل ، وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع ، ونظر فى أمور الدين والورع والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وأقام الحدود حتى فى أهله وعشيرته والأقربين ، كما أقامها فى سائر الناس أجمعين ، فاستقامت الأحوال فى أيامه ، وعظمت الفتوحات وغزا غزوات كثيرة ، وجال فى البلاد لأجل الجهاد .[٢]

وقال أبو شامة صاحب الذيل : كان ملكاً جواداً سمحاً عادلاً ، يكرم العلماء متمسكاً بالشرع ، يصلى بالناس الصلوات الخمس ، فيلبس الصوف ، ويقف للمرأة[٣][٢٣٣] والضعيف ويأخذ لهم بالحق ، حافظاً للسانه .

وقال ابن خلكان : وكان يشدد فى إلزام الرعية بإقامة الصلوات الخمس ، وقتل فى بعض الأحيان على شراب الخمر ، وقتل العمال الذين شكوا الرعايا منهم ، وكان محسناً محباً للعلماء ، مقرباً للأدباء ، مصغياً إلى المدح ، مثيباً عليه ، وله أَلَّفَ أبو العباس أحمد ابن عبد السلام الجراوى[٤] كتابه الذى سماه «صفوة الأدب وديوان العرب فى مختار الشعر» ، وهو مجموع مليح أحسن فى اختياره كل إحسان ، وإليه تنسب الدنانير اليعقوبية المغربية .

---

(١) ذكر ابن خلكان أنه كان «أبيض تعلوه حمرة» ، وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص١٣٤ .

(٢) ورد هذا الحدث بتصرف فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٩٨ .

(٣) ورد هذا الحدث فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٩ .

(٤) أحمد بن عبد السلام الجراوى : ويقال له الكواريى ، وكورايا قبيلة من البربر منازلهم بضواحى مدينة فاس ، توفى آخر أيام الأمير يعقوب بن الأمير يوسف . وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص٦٣٧ .

وفى المرآة : وهو الذى كسر ألفنش ملك الإفرنج على الزلاقة . ولم تكن للألفنش مع كثرة جيوشه طاقة ، ولم يكن فى ولاة المغرب من له سيرة كسيرته ، وقد أثنى عليه أرباب السير ، وذكره عبدالمنعم بن عمر فى تاريخه وأثنى عليه وقال : «لما توفى أبوه يوسف قام بالأمر أحسن قيام ، فأقر العيون بما قرر من قواعد الإسلام ، ونشر كلمة التوحيد ، وأذل من أهل الكفر كل جبار عنيد ، ورفع غاية الاجتهاد ، فتضرع باجتهاده كل نادْ ، وأمر بالمعروف ، ونهى عن المنكر ، ونشر نشره أذكى من العنبر ، وضوءُ كرمه أعلى من ضوء القمر الأنور . وأقام الحدود على العالمين . وخصوصاً على أهله وعشيرته الأقربين ، فاستقامت الأمور ببركاته ، وظهرت الفتوح العظيمة بعزماته ، وانتشرت الخيرات بكراماته» .

وقال السبط : حكى لى الشيخ الصالح الفاضل أبو العباس بن تامتنب المغربى اللواتى بالديار المصرية بالقرافة فى سنة أربعين وستمائة من فضائل الملك المنصور يعقوب بن يوسف المذكور ، وكان أبو العباس قد صحبه زماناً وانتفع به واستفاد منه ، قال : وكلما أحكيته عنه فهو على المشاهدة والعيان لا عن فلان وفلان . قال فى ذلك : إنه قدم بلدة فاس رجل شريف ، وكان فاضلاً لطيفاً ، وكان يعظ بصوت طيب ، فجلس بها فمال الناس إليه ، وأرادوا أن يبايعوه ، وبلغ خبره إلى يعقوب ، فكتب إليه كتاباً يقول فيه : «قد بلغنا قدومك البلاد ووصول بركتك إلى أهلها ، ونحن نسألك أن تقدم علينا لنأخذ حظنا منك ، كما أخذ أهل البلاد حظهم . وبعث إليه بعشرة آلاف دينار ، فخاف الشريف ، واجتمع إليه أهل البلاد ، وقالوا : متى وقعت فى يده قتلك ، فأظْهِر العصيان ، ونحن وأهل الجبال معك . فقال الشريف : معاذ الله أن أكون سبباً لإراقة دم مسلم ، ولكنى أسير إليه ، وأستعين بالله عليه . وبلغ يعقوب قوله ، فلما قرب من مراكش خرج يعقوب فاستقبله وأنزله معه فى قصره ، وحمل إليه المال والتحف ، وجلس يسمع كلامه ، وكان يجالسه . واتفق عبور يعقوب للقاء ألفنش ، ومن عادتهم يوم المصاف أن يصلى الخليفة بالناس الفجر ، ويركب معه خمسة آلاف من القراء مُلبسين الدروع ، حاملين الأسلحة ، فيقرءون سُبْعاً من القرآن ، ويدعو الخليفة ، لايدعو غيره ، وكان له طبال اسمه حماد – مقدم الطبّالين – وخلفه مائة كوس ، وليس فى العسكر من له طبل

سوى الخليفة ، فإذا فرغ من الدعاء بعد القراءة قال : يا حمّاد ، فيقول : لبيك ، فيقول : اضرب الطبل ، فيدق الكوسات ، وتحمل العساكر[٢٣٤] وهاتان الخصلتان لا يشارك الخليفة فيهما أحد الرعاء ، وقوله يا حمّاد اضرب الطبل . فلما كان فى هذا اليوم الذى التقى فيه يعقوب بألفنش ، صلى الخليفة بالناس ، وركب والشريف عن يمينه ، ولما فرغ من قراءة السبع ، التفت إلى الشريف وقال : يا شريف ادعُ ، فقال : الله الله يا أمير المؤمنين ، العفو ، هذه وظيفة أمير المؤمنين . فقال : لابد . فما أمكنه مخالفته ، خوفاً منه ، فمد يديه ودعى ، وعجب الناسُ ، ولما فرغ من الدعاء قال له : يا شريف قل لحمّاد يضرب الطبل . فقال : العفو يا أمير المؤمنين . فقال : لابد ، فقال : يا حماد اضرب الطبل ، فضرب ، وحملوا . ثم التفت إلى الشريف وقال : يا شريف إن كان خطر ببالك أنك تحكم فى البلاد ، وأطمعك أهل فاس والجبال فى هذا الأمر ، أو رأيت مناماً فهو هذا الذى رأيت ما يجعل لك من الخلافة سواه ، فنزل وقبل الأرض ، وكسر الله عز وجل ألفنش وأقام الشريف عنده فى أرغد عيش إلى أن توفى ، وما ظن أحد أنه يسلم منه ، فلله دَرّ هذه المكارم لو كان غير يعقوب لحل بالشريف العظائم .

ومنها ما حكاه لى أبو العباس أيضاً قال : كان ليعقوب ابن أُخت لم يكن بمراكش أحسن صورة منه ، له ثمان عشرة سنة ، فقدم مراكش رجل يُرقّصُ الدُبَّ ومعه امرأته ، فرآها ابن أخت يعقوب فأعجبته ، فأرسل إليها فأخذها ، فوقف زوجها ليعقوب فقال : يا أمير المؤمنين إنى رجل غريب وقد غصبنى ابن أختك وأخذ زوجتى . فقال له : اتبعنى . وجاء إلى قصر ابن أخته وقال للرجل قف ههنا ، ثم دخل القصر واستدعى ابن أخته وقال له : لِمَ أخذت زوجة هذا الرجل؟ فأنكر . فدعى بالرجل وقال له : قد أنكر . وقال : يا أمير المؤمنين لى كليبة قد ربتها المرأة تحضر كل امرأة فى القصر وأحضر الكلبة فهى تعرفها من بين ألف امرأة ، فإن وقفت عندها وإلا فاقتلنى . فقال للرجل : اخرج ، ثم قال لابن أخته : لا تَبقى امرأة فى القصر إلا وتخرج ، فأخرج النساء وخرجت المرأة بينهن وقد غير زيها وألبسها الحلى والجواهر والثياب الفاخرة ، وأطلق الكلبة فجاءت ووقفت عندها ، فاستدعى الرجل وقال : خذ زوجتك بما عليها . ثم التفت إلى ابن أخته وقال : قصرك مملوء بالجوارى المستحسنات وأنت تمد عينيك إلى امرأة رجل غريب جاء من بلاد بعيدة فتأخذها غصباً . ثم قال لغلمانه : اعطوه الرماح . وهذه قِتْلة المغاربة ، فخرجت أمه حاسرة فبكت بين يديه وقالت : مالى غيره . فقال : لأهذِّبن ملوك الغرب وغيرهم ، فقتله .

ومنها ما حكاه لى أبو العباس أيضاً قال : اشتهرت امرأة بالزهد وأنها ما تأكل الخبز ، فبعث إليها يعقوب وقال : أقيمى عندى فى القصر أياماً لأتبارك بك ، فأقامت عنده مدة ، فدخلت بعض جواريه السقاية يوماً فرأت الزاهدة تأكل الخبز فى بيت الماء ، فبهتت وجاءت إليه فأخبرته فقال لها : والله لئن سمع هذا غيرى منك لأقتلنك ، ثم بحث عن ذلك فوجده صحيحاً ، فأرسل إلى الزاهدة خمسمائة دينار وثياباً ، وقال لها : قد حصلت لنا البركة بمقامك عندنا ، وقد سألنى بنو عمى أن تقيمى عندهم فى قصرهم[٢٣٥] لتصل إليهم بركتك . فانتقلت إليهم ولم يظهر أمر المرأة . قال : وكان جواداً سمحاً يهب مائة ألف دينار وخمسين ألفاً ، رحمه الله .

قال السبط : ويعقوب هذا هو الذى راسله السلطان صلاح الدين بشمس الدين بن منقذ يستنجد به فى سنة سبع وثمانين وخمسمائة . ومدحه ابن منقذ بأبيات من الشعر ، فأعطاه لكل بيت ألف دينار .(١)

قال ابن خلكان : وكان قد أرسل إليه السلطان صلاح الدين يوسف رسولاً من بنى منقذ فى سنة سبع وثمانين وخمسمائة يستنجده على الإفرنج الواصلين من بلاد المغرب إلى الديار المصرية وساحل الشام ، ولم يخاطبه بأمير المؤمنين بل خاطبه بأمير المسلمين ، فعز ذلك عليه ولم يجبه إلى ما طلب منه ، والرسول المذكور هو شمس الدولة أبو الحارث عبدالرحمن بن نجم الدولة أبى عبدالله محمد بن مرشد والله أعلم .(٢)

الرابع فى سريرته :

قال ابن كثير : قد كان ديناً حسن السيرة ، صحيح السريرة ، وكان مالكى المذهب ، ثم صار ظاهرياً خرمياً ، ثم مال إلى مذهب الشافعى ، واستقضى فى بلاده منهم .(٣) وقال ابن خلكان : أمر برفض فروع الفقه وأن العلماء لا يفتون إلا بالكتاب العزيز والسنة النبوية ، ولا يقلدون أحداً من الأئمة المجتهدين المتقدمين بل تكون أحكامهم بما يؤدى إليه اجتهادهم من استنباطهم القضايا من الكتاب والسنة والإجماع والقياس .(٤)

---

(١) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من مراة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٩٨-٣٠١ .
(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص١٢ ، ترجمة رقم ٨٢٩ .
(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٩ .
(٤) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص١١ .

وقال المؤيد فى تاريخه : وكان يتظاهر بمذهب الظاهرية ، وأعرض عن مذهب مالك رحمه الله .[١]

الخامس فى وفاته :

قال علماء الأندلس : مرض يعقوب مرضاً أشفى منه على الموت ، فأوصى إلى ولده أبى عبدالله محمد[٢] ، وأن لا يخفوا موته ، وأن يصلى عليه المسلمون ويدفن على قارعة الطريق ، ليترحّم عليه من يمر به ، وتوفى فى ربيع الأول ، فكانت مدة أيامه خمس عشرة سنة ، وبايع الناس ولده محمداً ، واستمر على سيرة أبيه ، ثم اختلفت الأهواء ودخل النقص على البيت بموت يعقوب .[٣]

وقال ابن كثير : توفى السلطان أبو محمد يعقوب بن يوسف صاحب بلاد المغرب والأندلس بمدينة سلا[٤] . وكان قد ابتنى عندها مدينة[٥] مليحة سماها المهدية . وقال غيره من علماء التاريخ : لما فرغ من غزواته رجع إلى مراكش ، ثم اختلفت الروايات فى أمره ، فمنهم من يقول : إنه ترك ما كان فيه وتجرد وساح فى الأرض حتى انتهى إلى بلاد الشرق وهو مستخف لا يُعْرف ، ومات خاملا .

ومنهم من يقول : إنه لما رجع إلى مراكش توفى فى غُرّة سنة خمس وتسعين وخمسمائة . وقيل : فى شهر ربيع الآخر فى سابع عشره ، وقيل : فى غرة صفر .

وفى تاريخ المؤيد : توفى يعقوب صاحب المغرب والأندلس وعمره ثمان وأربعون سنة ، وملك بعده ابنه محمد بن يعقوب وتلقب بالملك الناصر ، ومولده فى سنة ست وسبعين وخمسمائة . وعبد المؤمن وبنوه جميعهم كانوا يسمون بأمير المؤمنين .[٦]

(١) المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص٩٦ .
(٢) عن ترجمته راجع وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص١٥ (351) .
(٣) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠١ .
(٤) مدينة سلا : مدينة بأقصى المغرب . معجم البلدان ، جـ٣ ، ص١٠٩ .
(٥) «مدرسة» كذا فى الأصل والتصحيح من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٩ .
(٦) أبو الفدا ، المختصر ، جـ٣ ، ص٩٦ .

وقال ابن خلكان : وكان يعقوب قد عظم ملكه واتسعت دائرة سلطنته ، حتى أنه لم يبق بجميع أقطار بلاد المغرب من البحر المحيط إلى برقة إلا من أطاعه ودخل فى ولايته إلى غير ذلك من جزيرة الأندلس .[١]

ذكر وفاة مجاهد الدين

هو الأمير الكبير مجاهد الدين قايماز الزينى نائب الموصل والمستولى على مملكتها[٢٣٦] فى أيام ابن أستاذه نور الدين أرسلان . وكان عاقلاً ذكياً فقيهاً حنفياً ، وقيل شافعياً ، يحفظ شيئاً كثيراً من التواريخ والحكايات ، وقد ابتنى عدة جوامع ، ومدارس ، وربط ، وخانات ، وله صدقات كثيرة دايرة .

وقال ابن الأثير : «وقد كان من محاسن الدنيا» .[٢] توفى فى ربيع الأول منها بقلعة الموصل .

وقال ابن خلكان : هو أبو منصور قايماز بن عبدالله الزينى ، الملقب مجاهد الدين الخادم ، كان عتيق زين الدين أبى سعيد على بن بكتكين ، والد الملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل ، وهو من أهل شبختان[٣] ، أخذ منها صغيراً ، وكان أبيض اللون ، وكانت[٤] مخايل النجابة لائحة عليه ، فقدمه معتقه وجعله أتابك أولاده ، وفوض إليه أمور إربل فى خامس شهر رمضان سنة تسع وخمسين وخمسمائة ، فأحسن السيرة ، وعدل فى الرعية ، وكان كثير الخير والصلاح ، بنى بإربل مدرسة وخانقاه ، وأكثر وقفهما .

ثم انتقل إلى الموصل فى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ، وسكن قلعتها ، وتولى أمور تدبيرها ، وراسل الملوك وراسلوه ، وكان يبلغ منهم بكتبه مالا يبلغ سواه . وفوض إليه الأتابك سيف الدين غازى بن مودود - صاحب الموصل - الحكم فى سائر بلاده ، لما رأى منه من حسن مقاصده ، واعتمد عليه فى جميع أحواله ، وكان نائبه وهو السلطان فى الحقيقة ، وكان يحمل إليه أكثر أموال إربل ، وأثر بالموصل أثارًا جميلة[٥] ؛ منها أنه بنى

(١) وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص١٢ .
(٢) وردت هذه العبارة فى الكامل ، جـ١٢ ، ص٧٢ .
(٣) يقصد بها سجستان ، وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٨٢ ، حاشية٢ .
(٤) «وكان» فى الأصل والتصحيح من وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٨٢ ، ترجمة رقم ٥٤٠ .
(٥) «جملة» كذا فى الأصل والتصحيح من وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٨٢ .

بظاهرها جامعاً كبيراً ومدرسة وخانقاه والجميع متجاور ، ووقف أملاكاً كثيرة على خبز الصدقات ، وأنشأ مكتباً للأيتام ، وأجرى لهم جميع ما يحتاجون إليه ، ومد على شط الموصل جسراً غير الجسر الأصلى ، ووجد الناس به رفقًا كثيراً ، وله شيء كثير من وجوه البر ، ومدحه جماعة من الشعراء منهم حيص بيص سبط ابن التعاويذى بقصيدته التى أولها :

عليل الشوق فيك متى يَصحُّ ... وسكرانٌ بحبك كيف يَصْحو
وبين القلب والسلوان حَرْبٌ ... وبين الجفن والعبرات صلحُ

وسيرها إليه من بغداد فأجازه جائزة سنية وسير له معها بغلة ، فوصلت إليه وقد هزلت من تعب الطريق ، فكتب إليه :

مجاهد الدين دمت زخراً ... لكل ذى فاقة وكنزاً
بعثت لى بغلة ولكن ... قد مسخت فى الطريق عنزاً[1]

وكان مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير الجزرى صاحب جامع الأصول كاتباً بين يديه ومنشئاً عنه إلى الملوك . ولما مات الأتابك سيف الدين وتولى أخوه عز الدين مسعود سعى أهل الفساد إليه فى حقه وكثر ذلك منهم ، فقبض عليه سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، ثم ظهر له فساد رأيه فى ذلك فأطلقه وأعاده إلى ما كان عليه ، واستمر على ذلك إلى أن توفى فى نصف ربيع الأول وقيل فى سادسه . وقال ابن المستوفى فى تاريخ إربل : توفى فى صفر سنة خمس وتسعين وخمسمائة بقلعة الموصل ، والله أعلم .[2]

ذكر بقية الحوادث

منها أنه شرع فى بناء سور لبغداد من الآجر والكلس ، وفرق على الأمراء فكملت عمارته بعد هذه السنة ، فأمنت بغداد من الغرق والحصار[٢٣٧] ولم يكن لها سور قبل ذلك .[3]

(١) وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٨٢-ص٨٣ .
(٢) وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٨٤ .
(٣) البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٩ .

ومنها أن الملك الأفضل بن صلاح الدين يوسف أشهد على نفسه فى هذه السنة بوقف المطرية ومنية[١] الباسك والرباع المسوغة وغيرها على سور القاهرة ومصر والمارستان بالقاهرة .

ومنها أنه حضر إلى الأفضل رسل الموصل ، وسنجار ، والجزيرة ، وماردين ، ووصل صحبتهم ضياء الدين بن الأثير .

ومنها أنه سار خوارزم شاه علاء الدين تكش إلى الرىّ وغيرها من بلاد الجبل ، لأنه بلغه أن نائبه مياجق قد تغيرت نيته وجعل يفر بين يديه وهو فى طلبه ، فحصل بقلعة من أعمال مازندران فحصره بها وأخذه فأمر بحبسه .[٢]

ومنها أن ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان مَلَكَ مدينة ملطية ، وكانت بيد أخيه معز الدين قيصر شاه ، ثم سار منها إلى أرزن الروم ، فخرج إليه صاحبها على قاعدة أن يقرر الصلح ، فقبض عليه وتسلم البلد ، وهو من أولاد الملك محمد بن صرطن ، وهم ببيت قديم كانوا يملكون هذا البلد ، فكان هذا آخرهم .

منها أنه حضر التقليد من عند الخليفة الناصر ، والمنشور والخلع لخوارزم شاه بما بيده من البلاد ، فلبس الخلع ، واشتغل بقتال الملاحدة ، فافتتح منهم قلاعاً ، وقتل عليها صدر الدين محمد بن الوزان رئيس الشافعية . ثم عاد إلى خوارزم ، فوثب الملاحدة على وزيره نظام الملك مسعود بن على فقتلوه ، فسير ولده قطب الدين لحصار الملاحدة فحاصرهم ، فلما بلغه مرض والده تكش صالحهم على مائة ألف دينار وفارقهم .[٣]

ومنها أن الخليفة استدعى قاضى الموصل ضياء الدين بن الشهرزورى ، فولاه قضاء قضاة بغداد .[٤]

---

(١) منية الباسك أو منية الباساك أو منية الباسل ؛ من الأعمال الأطفيحية . وهى حالياً تابعة لمركز الصف بمحافظة الجيزة . انظر ابن الجيعان : التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية ، ص١٥٠ ؛ رمزى : القاموس الجغرافى ، جـ٣ق٢ ، ص٣١ .

(٢) ورد هذا الحدث فى الكامل ، جـ١٢ ، ص٧١ .

(٣) نقل العينى هذا الحدث بتصرف من الكامل ، جـ١٢ ، ص٧١-٧٢ .

(٤) ورد هذا الخبر فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٩٥ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٠ .

ومنها أنه وقع الرضى عن الشيخ جمال الدين أبى الفرج بن الجوزى، شيخ الوعاظ فى زمانه وبعده، وقد كان أخرج من بغداد إلى واسط، فأقام بها خمس سنين، فانتفع به أهلها واستفادوا. ولما عاد إلى بغداد خلع عليه، وأذن له فى الجلوس[(١)] على عادته عند التربة الشريفة المجاورة لقبر معروف الكرخى، رضى الله عنه، فكثر الجمع جدّا، وأخذ فى الرياب[(٢)] يومئذ فيها قال يخاطب الخليفة :

لا تُعطش الروض الذى نبته ... بصَوب إنعامك قد روضا
لا تبر عوداً أنت رَيَّشْتَه ... حاشى لبانى المجد أن يَنقضا
إن كان لى ذنب «تجرمته»[(٣)] ... فاستأنف العفو «وهب ما مضى»[(٤)]
قد كنت أرجوك لنيل المنى ... فاليوم لا أطلب إلا الرضى[(٥)]

وقال السبط : وفى هذه السنة وقف خالى محيى الدين أبو محمد يوسف للخليفة فى رجب ومعه قصته ببستان يقال له دولاب البقل، فذكر فيها ما نال جدى وأهله من الضرر، وكان نجاح الشرابى بين يدى الخليفة، فجاء فأخذ الورقة وقال له الشرابى : تعال إلى باب البدرية ووقعوا له بالإفراج عنه، فقدم جدى ببغداد فى شعبان، وخلع عليه وجلس عند تربة أم الخليفة، وكانت تتعصب له وساعدت فى خلاصه، وأنشد جدى رحمه الله :[٢٣٨]

إن كان لى ذنب ولم آته ... فاستأنف العفو وهَب ما مضى

وهذا الشعر للرضى الموسوى وقد ذكرناه فى ترجمته. وأنشد أيضاً :

سقينا[(٦)] بالنوى زمناً فلما ... تلاقينا كأنا ما سقينا[(٧)]
سخطنا[(٨)] عندما جنت الليالى ... فما زالت بِنَا حتى رضينا

(١) «الوعظ» فى البداية والنهاية، جـ١٣، ص٢٠.
(٢) كلمة غير مقروءة فى الأصل، ولعلها ما أثبتناه.
(٣) «قد جنيته» فى البداية والنهاية، جـ١٣، ص٢٠.
(٤) «وهب لى الرضا» فى البداية والنهاية، جـ١٣، ص٢٠.
(٥) ورد هذا الحدث فى البداية والنهاية، جـ١٣، ص٢٠.
(٦)، (٧) شقينا في نسخة دار الكتب.
(٨) «شطحنا» فى مرآة الزمان، جـ٨، ص٢٩٥.

سعدنا بالوصال وكم[(١)] شقينا	بكاسات الصدود وكم ضنينا
فمن لم يحى بعد الموت يوما	فإنا بعد ما مُتنا حيينا

ومنها أنه وقعت بدمشق فتنة بسبب الحافظ عبدالغنى المقدسى[(٢)] ، وذلك أنه كان يتكلم فى مقصورة الحنابلة بالجامع الأموى فذكر يوماً شيئاً من العقائد ، فاجتمع القاضى محى الدين بن الزكى ، وضياء الدين الخَطيب الدولعى بالسلطان الملك المعظم ابن الملك العادل ، والأمير صارم الدين بُرغش ، فعقد له مجلس فيما يتعلق بمسألة الاستواء[(٣)] والنزول ومسألة الحرف والصوت ، فوافق بنو النجم الحنبلى بقية الفقهاء . واستمر الحافظ عبدالغنى على ما يقوله ، واجتمع بقية الفقهاء على خلافه وألزموه بإلزامات شنيعة حتى قال الأمير بُرغش : كل هؤلاء على الضلالة وأنت على الحق . قال : نعم . فغضب الأمير عند ذلك وأمر بنفيه من البلد ، فاستنظر ثلاثة أيام فأنظر . وأرسل بُرغش مَن كسر منبر الحافظ وتعطلت صلاة الظهر يومئذ فى محراب الحنابلة ، وأخرجت الخزائن والصناديق التى هناك ، وجرت خبطة شديدة ، وكان عقد المجلس فى يوم الاثنين الرابع والعشرين من ذى الحجة ، فارتحل الحافظ عبد الغنى إلى بعلبك ، ثم سار إلى ديار مصر فأواه الطحانون فحنوا عليه وأكرموه .[(٤)]

وقال أبو شامة : كانت فتنة عبدالغنى الحافظ الحنبلى يوم الاثنين الرابع والعشرين من ذى القعدة[(٥)] . ذكر العز بن تاج الأمناء أنه اجتمع الشافعية والحنفية والمالكية عند المعظم عيسى والصارم بُرغش والى القلعة ، وكانا يجلسان بدار العدل للنظر فى المظالم ، فكان ما اشتهر من إحضار اعتقاد الحنابلة وموافقة أولاد الفقيه نجم الدين الحنبلى الجماعة ، وإصرار عبدالغنى على لزوم ما ظهر من اعتقاده ؛ وهو الجهة ، والاستواء ، والحروف ، وإجماع الفقهاء على الفتيا بكفره ، وأنه مبتدع لا يجوز أن يُترك بين المسلمين ، ولا يحل لولى الأمر أن يمكنه من المقام معهم . ثم ذكر مثل ما ذكرنا .

(١) «لم سقينا» فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٩٥ .
(٢) وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص١٠٧ ، وانظر ترجمته فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٣٨- ص٣٩ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٣٨-ص٣٤٠ .
(٣) «العلو» فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٣٩ .
(٤) ورد هذا الخبر فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٠-ص٢١ .
(٥) ذكر ابن كثير أن الفتنة كانت يوم الاثنين الرابع والعشرين من ذى الحجة ، البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢١ .

ومنها أنه كانت فتنة عظيمة فى عسكر غياث الدين ملك الغورية وهو بفيروزكوه[١] ، وسببها أن الإمام فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازى المعروف بابن الخطيب ، الإمام المشهور ، كان قد قدم إلى غياث الدين ، فبالغ غياث الدين فى إكرامه واحترامه ، وبنى له مدرسة بهراة بالقرب من الجامع ، فعظم ذلك على الكرامية[٢] ، وهم كثيرون بهراة ، ومذهبهم التجسيم والتشبيه . وكانت الغورية كلهم كرامية ، فكرهوا الإمام فخر الدين لأنه شافعى ، فاتفق أن فقهاء الكرامية ، وفقهاء الحنفية ، وفقهاء الشافعية ، حضروا بفيروزكوه عند غياث الدين للمناظرة ، وحضر فخر الدين الرازى ، والقاضى عبدالمجيد بن عمر المعروف بابن القدوة[٢٣٩] وهو من الكرامية الهيصمية[٣] ، وله عندهم محل كبير لتزهده وعلمه . فتكلم الرازى فاعترض عليه ابن القدوة وطال الكلام ، فقام غياث الدين واستطال فخر الدين الرازى على ابن القدوة وشتمه ، وبالغ فى أذاه ، وابن القدوة لا يزيد على أن يقول : لا يفعل مولانا ، لا وأخذك الله .[٤] فغضب على فخر الدين الملك ضياء الدين ، وهو ابن عم غياث الدين ، وزوج ابنته ، وشكى إلى غياث الدين ، وذم فخر الدين الرازى ، ونسبه إلى الزندقة ومذهب الفلاسفة ، فلم يصغ إليه غياث الدين . فلما كان من الغد وعظ الناس ابن عمر القدوة بالجامع ، وقال : بعد حمد الله ، والصلاة على رسول الله ﷺ ؛ ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول ، أيها الناس إنا لا نقول إلا ما صح عندنا عن رسول الله ﷺ ، وأما علم أرسطو وكفريات ابن سينا ، وفلسفة الفارابى فلا نعلمها ، فلأى حال يشتم بالأمس شيخ من شيوخ الإسلام يذب عن دين الله ، وسنة نبيه عليه السلام ، وبكى ، وبكى الكرامية فاستغاثوا ، وثار الناس فى كل جانب ، وامتلأ البلد فتنة . فبلغ السلطان غياث الدين ، فأرسل جماعة سكّنوا الفتنة ، ووعدهم إخراج فخر الدين الرازى من عندهم . وتقدم إليه بالعود إلى هراة[٥] . وأمر الملك بإخراج فخر الدين الرازى من البلد .

---

(١) فيروزكوه : هى قلعة حصينة فى جبال غورشستان بين هراة وغزنة وهى دار مملكة من يتملك تلك النواحى . وهى بلد شهاب الدين بن سام الذى ملك غزنة وخراسان وبلاد الهند ، وأخوه غياث الدين أكبر منه . معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٩٣٠ .

(٢) الكرامية : نسبة إلى ابن كرام . البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٩ .

(٣) الهيصمية : نسبة إلى ابن الهيصم . البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٩ .

(٤) كذا فى الأصل وابن الأثير : الكامل ، جـ١٢ ، ص٧١ . أما نص العبارة في المختصر ، جـ٣ ، ص٩٦ فهو «لا يفعل مولانا إلا وأخذ الله» .

(٥) نقل العينى هذا الخبر من أبى الفدا : المختصر ، جـ٣ ، ص٩٦-٩٧ على الرغم من أنه لم يذكر ذلك . والنص موجود باختلاف بسيط فى الكامل ، جـ١٢ ، ص٧٠-٧١ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٩-٢٠ .

ولم يكن الملك مختاراً لذلك ، فعاد إلى هراة . فلهذا أشرب قلب الرازى بغض الكرامية فهو يلهج بهم فى كل أمة فى كل موطن[١] ، وكلما هبت الصبا .

وقال ابن الأثير[٢] : ومنها فارق غياث الدين ملك الغورية مذهب الكرامية وصار شافعى المذهب .

ومنها أن فى شهر رمضان قصد الملك المنصور صاحب حماة وبارين ، وبها نواب عز الدين إبراهيم بن شمس الدين محمد بن عبدالملك بن المقدم وحاصرها ، وكان عز الدين إبراهيم مع الملك العادل محصوراً معه بدمشق ، ونصب الملك المنصور عليها المجانيق ، وجرح الملك المنصور فى حالة الزحف ، وفتحها فى التاسع والعشرين من ذى القعدة ، وأقام ببارين مدة حتى أصلح أمورها .[٣]

وفيها ....[٤]

وفيها حج بالناس من بغداد مظفر الدين وجه السبع أميراً على الركب العراقى .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

أبو الحسن محمد بن جعفر بن أحمد بن محمد بن عبد العزيز بن إسماعيل بن على بن سليمان بن يعقوب بن إبراهيم بن إسماعيل بن على بن عبد الله بن العباس الهاشمى ، قاضى القضاة ببغداد بعد ابن النجارى . وقد كان من أعيان الشافعية ، تفقه على أبى الحسن بن الخل وغيره . وقد كان ولى القضاء والخطابة بمكة شرفها الله تعالى ، وأصله منها ، ولكن ارتحل إلى بغداد فنال بها ما نال ، وآل من أمره بها ما آل ، ثم أنه عُزل عن القضاء بسبب محضر رقم خطه عليه ، وكان فيما قيل مزوراً والله أعلم ، وجلس فى منزله حتى مات فى هذه السنة .[٥]

---

(١) ورد هذا النص بتصرف فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٠ .

(٢) فى الأصل «النويرى» . والصحيح ما أثبتناه حيث نقل العينى هذا الخبر من الكامل ، جـ١٢ ، ص٧٢ .

(٣) نقل العينى هذا الخبر من المختصر ، جـ٣ ، ص٩٦ . مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص١٠١ .

(٤) بياض بمقدار سطر وكلمتين .

(٥) نقل العينى هذه الترجمة من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢١ . انظر أيضاً : ابن الساعى : الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٩-١٠ (بغداد ١٩٣٤م) .

الشيخ جمال الدين أبو القاسم يحيى بن على بن الفضل بن بركة بن فضلان ، شيخ الشافعية ببغداد ، تفقه أولاً على سعيد بن محمد الرازى[١] مدرس النظامية ، ثم ارتحل إلى خراسان فأخذ عن الشيخ محمد بن يحيى الزبيدى تلميذ الغزالى ، وعاد إلى بغداد وقد أتقن علم المناظرة والأصلين ، فساد أهل بغداد ، وانتفع به الطلبة والفقهاء ، وبنيت له مدرسة ، فَدَرّسَ فيها ، وبَعُدَ صيته ، وكثرت تلامذته . وكان كثير التلاوة ، وإسماع الحديث ، وكان حسناً لطيفاً ظريفاً[٢٤٠] ومن شعره :

وإذا أردت منازل الأشـــراف فعليك بالإسعاف والإنصاف
وإذا بغى باغٍ عليك فخلّه والدهر فهو له مكاف كاف[٢]

وكان مولده سنة خمس عشرة وخمسمائة ، وكان مقطوع اليد ، وقع من الجمل فعملت يده ، فخيف عليه فقطعت . وكانت وفاته فى شعبان منها ، وحمل الفقهاء جنازته إلى الورديّة .

تقى الدين طرخان بن ماضى بن جوشن بن على بن معافى الضرير الشاغورى الشافعى ، مات فى ذى الحجة ، ومولده بدمشق سنة ثمان عشرة وخمسمائة . وكان إماماً للملك العادل نور الدين محمود بن زنكى ، رحمه الله .

ابنُ زُهْر[٣] الشاعر ، أبو بكر محمد بن مروان بن عبدالملك بن أبى العلاء زهر بن أبى مروان عبدالملك بن أبى بكر بن محمد بن مروان بن زهر الأيادى الأندلسى الأشبيلى ، هو من أهل بيت كلهم علماء رؤساء حكماء وزراء ، نالوا المراتب العلية ، وتقدموا عند الملوك ، ونفذت أوامرهم ، وكان أبو بكر محمد المذكور فكان من اللغة مكين ، وكان يحفظ شعر ذى الرُمَّة وهو ثلث لغة العرب ، مع الإشراف على جميع أقوال أهل الطب ، والمنزلة العليا عند أصحاب المغرب ، مع سمو النسب وكثرة الأموال ، ذكره

---

(١) فى البداية والنهاية «الزار» ، وفى الجامع المختصر «الرزار» . انظر : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢١ ؛ ابن الساعى : الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص١١ .

(٢) نقل العينى هذه الترجمة إلى نهاية الشعر من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢١ . انظر أيضًا : الجامع المختصر ، جـ٩ ، ١١-١٣ .

(٤) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٤٣٤-٤٣٧ .

ابن دحية فى كتابه المسمى «المطرب من أشعار أهل المغرب» وقال : صحبته زماناً طويلاً ، واستفدت منه أدباً جليلاً ، وأنشد من شعره ، رحمه الله :

ومُوَسَّدين على الأكُفِّ خدودَهم ... قد غَالهم نوم الصباح وغالنى
ما زلتُ أسقيهم وأشربُ فضلهُم ... حتى سكرتُ ونالهم ما نالنى
والخمرُ تعلم كيف[1] تأخذ ثأرها ... أنى أمَلْتُ إناءها فأمالنى

ثم سألت عن مولده فقال : ولدتُ سنة سبع وخمسمائة ، وبلغتنى وفاته آخر سنة خمس وتسعين وخمسمائة .

وقال ابن خلكان[2] : وأوصى أنه إذا مات ، يُكتبُ على قبره هذه الأبيات ، وفيها إشارة إلى طبّه ومعالجته الناس .

تأمل بحقك يا واقفاً ... ولاحظ مكاناً دُفِعنا إليه
تراب الضريح على وجنتى ... كأنى لم أمش يوماً عليه
أداوى الأنام حذار المنون ... وها أنا قد صرتُ [رهنا][3] لديه

وله وقد شاخ وغلب عليه الشيب :

إنى نظرتُ إلى المرآة إذ جُليت ... فأنكرت مُقلتاى كلَّ ما رَأتا
رأيتُ فيها شيخاً لست أعرفه ... وكنت أعهده من قبل ذاك فتى
فقلت أين الذى بالأمس كان هنا ... متى تَرحّل عن هذا المكان متى؟
فاستضحكت ثم قالت وهى معجبة ... إن الذى أنكرته مقلتاك أتى
كانت سليمى تنادى يا أُخىَّ وقد ... صارت سليمى تنادى اليومَ يا أبتا

وقال ابن دحية فى جده أبى العلاء زُهْر : إنه كان وزيراً وفيلسوف عصره . وتوفى فى سنة خمس وعشرين وخمسمائة بمدينة قرطبة . وقال فى حق جد أبيه عبد الملك ، إنه

(١) «حين» فى وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٤٣٤ .
(٢) انظر وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٤٣٤-٤٣٧ .
(٣) كذا فى وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٤٣٦ . وفى الأصل [رهينا] .

رحل إلى المشرق ، وبه تُطبب زماناً طويلاً ، وتولى رئاسة الطب ببغداد ، ثم بمصر ، ثم بالقيروان ، ثم استوطن مدينة دانية[1] . وطار ذِكره منها إلى أقطار الأندلس والمغرب . وتوفى بدانية . وقال فى حق[٢٤١] جد جده محمد بن مروان أنه كان بالرى حافظاً للأدب فقيهاً حاذقاً بالفتوى ، مقدماً فى الشورى ، متقناً فى العلوم . وتوفى بطليطلة سنة اثنتين وعشرين وأربع مائة ، وهو ابن ست وثمانين سنة ، حَدَّثَ عن جماعة من علماء الأندلس ، ووصفوه بالدين والفضل والجود والبذل . وزُهْر بضم الراء وسكون الهاء وبعدها راء . وذكر عماد الكاتب فى الخريدة لأبى الطيب بن القزاز فى بعض بنى زُهر :

قُلْ للوبا أنت وابن زُهر قد جزتما الحدَّ فى النكاية
ترفقا بالوَرى قليلا فى واحدٍ منكما كفاية

(١) دانية : مدينة بالأندلس من أعمال بلنسية على ضفة البحر شرقا . معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٥٤٠ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة السادسة والتسعين بعد الخمسمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة الناصر لدين الله ، والملكان الأخوان الأفضل والظاهر – ابنا السلطان صلاح الدين – محاصران لمدينة دمشق ، وفيها عمهما الملك العادل ، وقد قطعت عنها الأنهار والميرة ، فلا يوجد خبز ولا ماء إلا قليلاً ، وقد تطاول الحال ، وقد خندقوا من أرض اللوان[١] إلى يلداً[٢] خندقاً لئلا يصل إليهم جيش دمشق ، وجاء فصل الشتاء ، وكثرت الأمطار والأوحال ، ولما دخل شهر صفر قدم الملك الكامل محمد بن الملك العادل[٣] من الشرق على أبيه ومعه خلق من التركمان ، وعساكر من بلاد الجزيرة والرُها وحران ، فعند ذلك انصرفت العساكر المصرية ، وتفرقوا أيادى سَبَا[٤] ، فرجع الملك الظاهر إلى حلب ، وأسد الدين إلى حمص ، والملك الأفضل إلى الديار المصرية ، وسَلَّمَ الملك العادل من كيد الأعادى ، بعد ما كان قد عزم على تسليم البلد[٥] واستسلم ، ولكن الله سلم .

وفى تاريخ أبى الفدا[٦] : ولما كان الأخوان الأفضل والظاهر محاصرين دمشق اتفق وقوع الخلف بينهما ، وسببه ؛ أنه كان للملك الظاهر مملوك يحبه اسمه أَيْبَك ، ففقده ووجد عليه الملك الظاهر وجداً عظيماً ، وتوهم أنه دخل دمشق ، فأرسل يكشف خبره ،

(*) يوافق أولها ٢٣ أكتوبر ١١٩٩م .

(١) أرض اللوّان : فى الغرب الجنوبى من دمشق .
الذهبى : العبر ، جـ٤ ، ص٢٩٠ ، حاشية١ ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، الكويت ، ١٩٦٣ .

(٢) اتفق الذهبى مع العينى فى أنها «يلدا» . العبر ، جـ٤ ، ص٢٩٠ ؛ ويلدا : قرية على بعد ثلاثة أميال من دمشق . معجم البلدان ، جـ٤ ، ص١٠٢٥ . أما ابن كثير الذى نقل العينى عنه هذا الخبر فقد وردت «اللد» . انظر البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢١ .

٣) الملك الكامل محمد : هو أبو المعالى محمد ابن الملك العادل ، توفى سنة ٦٣٥هـ ، ودفن بالقلعة بمدينة دمشق . وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص٧٩-٨٣ ، ترجمة ٦٩٤ .

(٤) أيادى سَبَا : العرب تقول تفرقوا كأيدى سَبَا ، وأيادى سَبَا نصبا على الحال . ولما كان سَيلُ العرم ، تفرق أهل هذه الأرض فى البلاد ، وسار كل طائفة منهم إلى جهة ، فضربت العرب بهم المثل ، فقيل : ذهب القوم أيادى سبا ، أى متفرقين ، فشبهوا بأهل سبا لما مزقهم الله تعالى كل ممزق فأخذت كل طائفة منهم طريقاً . والعرب لا تهمز سبا فى هذا الموضع لأنه كثر فى كلامهم . معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٢٧-٢٨ .

(٥) نقل العينى هذا الخبر من ابن كثير إلى كلمة البلد . انظر البداية والنهاية ، جـ٣ ، ص٢١-٢٢ .

(٦) «النويرى» كذا فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه .

وأطلع الملك العادل- وهو محصور- على القضية ، فأرسل إلى الظاهر يقول له : «إن محمود بن الشكرى أفسد مملوكك ، وحمله إلى الملك الأفضل أخيك» ، فقبض الظاهر على ابن الشكرى ، فظهر المملوك عنده ، فتغير [الظاهر][1] على أخيه الأفضل ، وترك قتال العادل ، وظهر الفشل فى العسكر ، فتأخر الأفضل والظاهر عن دمشق ، وأقاما بمرج الصفر إلى أواخر صفر ، ثم سارا إلى رأس الماء[2] ليقيما به إلى أن ينسلخ الشتاء ، ثم انثنى عزمهما وسار الأفضل إلى مصر ، والظاهر إلى حلب ، على القريتين .[3]

وفى تاريخ بيبرس : وفى هذه السنة كان الحصار مستمراً على دمشق ، وغلت الأسعار ، وقلت الأقوات ، فوقع الحديث فى الصلح بين العادل والأفضل ، وقوى الشتاء ، فعاد الظاهر إلى بلاده ، وكره الأسدية عوده ، وهطلت الأمطار ؛ وصعب المقام ، وتفلل بعض العسكر المصرى إلى الديار المصرية بغير دستور ، وكان قصد العادل المماطلة والمطاولة إلى أن يضجر العسكر ، ويتوسط الشتاء فلا يمكن المقام ، ولما عظم الشتاء انتقل الأفضل إلى جسر الخشب وضاق[٢٤٢] على العادل الحال وهو يتجلد ، ثم أرسل إلى الأفضل يذكر له وصول ولده الكامل بمن معه من الجنود ، وأنه يشفق على المسلمين من استمرار الحصار ووقوع النفار ، وأشار عليه بالتأخير منزلة لئلا يَتَّقعَ العسكران ، فرحل الأفضل إلى مَرج الصَفرُ ، ثم عاد هو وأخوه الظاهر ومن معه من العسكر إلى الديار المصرية ؛ لصعوبة المقام بالشام ، ولما بلغ الرملة وصل إليه رسول عمّه العادل يلتمس الصلح ، فأكرمه وأجابه ، وأعاده مكرما . ولما تحقق العسكر الدمشقى عود العسكر المصرى إلى مصر ، خرج قراجا وسنقر ومَيمون القصرى وأياز جهركس فى أتباعهم ، فلحقوا غَزّه ، منصرف الأفضل عنها ، فتوجهوا إلى القدس .[4]

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة لتوضيح المعنى من المختصر ، جـ٣ ، ص٩٧ .

(٢) رأس الماء : ميدان فسيح للحرب فى حوران على بعد نحو عشرين ميلاً شمالى درعا . الفتح القسى ، ص٥٩ ، حاشية ٥ .

(٣) نقل العينى هذا الخبرمن المختصر ، جـ٣ ، ص٩٧ ؛ راجع أيضاً ، السلوك ، جـ١ ق١ ، ص١٥٠ . والقريتين : قرية كبيرة من أعمال حمص فى طريق البرية . انظر : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٧٧ .

(٤) ورد هذا الخبر بتصرف فى نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤٦١-٤٦٢ .

وفى المرآة : ودخلت هذه السنة والحصار على دمشق ، وكان أتابك رسلان شاه صاحب الموصل قد رَحَّل الملك الكامل من ماردين ، فقدم دمشق ومعه خلق كثير من التركمان ، وعسكر الرُها وحران ، فتأخر الأفضل بالعساكر إلى عقبة شحورا[١] سابع عشر صفر ، ووصل الكامل تاسع عشر صفر ، فنزل بجوسق[٢] أبيه على الشرف ، ورحل الأفضل إلى مرج الصفّر ، ورحل الظاهر إلى حلب ، وأحرقوا ما عجزوا عن حمله ، وسار الأفضل إلى مصر ، وأحضر العادل ابنى الحنبلى الناصح وأخاه شهاب[٣] الدين وغيرهما ، وكان الأفضل قد وعد الناصح بقضاء دمشق ، وأخاه بالحسبة ، فقال لهم العادل : «ما الذى دعاكم إلى كسر باب الفراديس ، ومظاهرة أعدائى علىَّ ، وسفك دمى؟ فقال له الناصح : «أخطأنا وما ثم إلا عفو السلطان» . فقال العادل : فما بدا منى إليكم ما يوجب ذلك ، ولولا أن يقال عنى إنى شنقت فقيها ما أبقيت منكم أحداً ، ولكن البلد لكم هَبُوه لى» . فأخرجهم إلى حلب . وجرت بعد هذا واقعة عجيبة ، شفع فى الشهاب الحنبلى إلى العادل فردّه ، وكان يذكر الدرس فى حلقة الحنابلة ، ويأخذ مغلِ[٤] الوقف ، وكان فى الحنابلة رجل مصرى يقال له نصر ، يخدم الشيخ العماد ، فأقام الشهاب سنين لا يعطيهم شيئاً ، فاستغاثوا إلى العادل وهو فى دار العدل ، وكان الملك الأشرف والمعظم ابنا العادل وبقية أولاده وقوفاً فى الخدمة ، فقال نصرُ يا سلطان المسلمين[٥] ، هذا الرجل للوقف معه مدة «طويلة»[٦] ، يأكله ولا يوصل إلينا شيئاً ، وكان ذلك فى حدود سنة عشر وستمائة ، فقال العادل : كم له معه؟ سنة . فقال نصر : متى كسر باب الفراديس؟ فقال الملك الأشرف : «ذا تاريخ مشؤوم» . فضحك العادل والجماعة .

---

(١) «عقبة شحرورا» كذا فى الأصل ، والتصحيح من ابن عساكر : تاريخ دمشق ، المجلد الثانى ، ق١ ، ص١٤٣ . وأيضاً : السلوك ، جـ١ ، ق٣ ، ص٩٣٢ . وكذا : Le Strange Palst. Under Moslems, P.488.
أما سبط ابن الجوزى الذى ينقل عنه العينى هذه الفقرة فقد أوردها «شيزورا» . انظر مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٢ .
وعقبة شحورا : منزلة قبلى دمشق ، فى الطريق بين دمشق والكسوة .

(٢) جَوْسَق : جمع جواسق . وهو لفظ معرب من الفارسى على كلمة «كوسك» ، ومعناه القصر الصغير . المعجم الوسيط ، ص١٥٢-١٥٣ .

(٣) «شمس الدين» فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٢ . وهو خطأ . وقد صحح السبط هذا الاسم بعد قليل .

(٤) مغل : حاصل ما يغله الوقف .

(٥) «العالمين» فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٢ .

(٦) «طويلة» غير موجودة فى مرآة الزمان .

وأما الأفضل فإنه لما سار إلى مصر أرسل العادل وراءه أبا محمد نجيب الدين[١] ، وقال له : «قل للأفضل ترفق فأنا لك مثل الوالد ، وعندى كلما تريد ، فقال الأفضل : «قل له إن صح ما قلت ، فابعد عنك أعدائى الصلاحية ، وبلغ «ذلك»[٢] الصلاحية . فقالوا للعادل : «إش قعودنا ، قم بنا ، وساروا خلف الأفضل .[٣]

ذكر مسير العادل وراء الأفضل إلى مصر

قال السبط : ساروا وراءه مرحلة ، فنزل الأفضل بلبيس ، ونزل العادل السائح ، فرجع الأفضل وضرب معهم المصاف ، فكسروه وتفرق عنه أصحابه .

ودخل القاهرة وأغلق أبوابها ، وجاء العادل فنزل البركة[٤] ، ودخل سيف الدين أزكش بين العادل والأفضل واتفقوا على أن يعطيه[٢٤٣] العادل ميافارقين وجبل جور[٥] ، وديار بكر[٦] ، ويأخذ منه مصر . ورحل الأفضل من مصر في ربيع الآخر ودخل العادل القاهرة .[٧]

وفى تاريخ أبى الفدا[٨] : سار العادل فى إثر الملك الأفضل إلى مصر ، وتفرقت عساكر الأفضل فى بلادهم لأجل الربيع ، فأدركه عمه العادل ، فخرج الأفضل بمن بقى عنده من العسكر وضرب معه مصافاً بالسايح ، فانكسر الأفضل وانهزم إلى القاهرة ، وحاصر[٩] الملك العادل القاهرة ثمانية أيام ، فأجاب الأفضل إلى تسليمها على أن يُعوَّض عنها ميافارقين وحَانى[١٠] وشُمَيساط ، فأجابه العادل إلى ذلك ، ولم يَف له به .

---

(١) «نجيب الدين عدل» فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٢ .

(٢) «ذلك» غير موجودة فى مرآة الزمان .

(٣) نقل العينى هذا الخبر من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٢ .

(٤) البركة : هى بركة الجب ، وهى من النواحى القديمة ، اسمها القديم جب عميرة . ويقال لها بركة الجب أوبركة الحجاج وهى من ضواحى القاهرة من أعمال الشرقية . رمزى : القاموس الجغرافى ، ق٣/جـ٢ ، ص٣١ .

(٥) جبل جور : انظر ما سبق ، جـ١ ، ص١٢٣ ، حاشية (٩) .

(٦) ديار بكر : انظر ما سبق ، جـ١ ، ص٢١٩ ، حاشية (٣) .

(٧) نقل العينى هذا الخبر من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٢-٣٠٣ .

(٨) «النويرى» كذا فى الأصل ، والتصحيح ما أثبتناه . حيث نقل العينى هذا الخبر عن المختصر ، جـ٣ ، ص٩٨ . أما النويرى فقد أورد هذا الخبر بصورة مختلفة : انظر : نهاية الأرب ، جـ٢٨ ، ص٤٦٢ .

(٩) «نازل» فى المختصر ، جـ٣ ، ص٩٨ .

(١٠) حانى : انظر ما سبق ، جـ٢ ، ص٢٢٣ ، حاشية (٥) .

وكان دخول العادل فى القاهرة فى الحادى والعشرين من ربيع الآخر . ثم سار الأفضل إلى صرخد .

وفى تاريخ بيبرس : ولما سار العادل وراء الأفضل إلى مصر ، رتب بدمشق ولده المعظم عيسى وبعض الأمراء ، وَجّد نحو مصر ، فإن الأمراء الأسدّية والصلاحيّة الناصرية أشاروا عليه بقصدها ، وأن يكون ابن العزيز[١] مستمرًا فى السلطنة ، وهو المدبر له والمشير إلى أن يكبر ، فسار ووصل إلى قطيا[٢] ، وقد أخذ أمر الأفضل فى الضعف والتخاذل ، ولم يبق معه من العسكر إلا القليل ، وشرع فى الاستعانة بالعربان وأصلح قلوبهم ، ورتب الحرس على قلعة الجبل ، وانزعج الناس لذلك ، ورحل العادل من قطيا إلى العباسة[٣] وبها سيف الدين يَازكج[٤] ، فوقع المصاف ، فانكسر يازكج عليها ، وخرج الأفضل إلى بلبيس ، وتقاعد الجند عن الخروج معه ، فوعد العُربان بالنفقات وأعطاهم الإقطاعات . ولما اتفقت كسرة يازكج عاد الأفضل فدخل القاهرة ، وسار العادل إليها فنازلها وأغلقت أبوابها ، وترددت الرسل بينه وبين الأفضل فى الصلح ، فسأله الأفضل دمشق ، فلم يجبه ، فطلب حرَّان والرُها فلم يعطه ، فطلب ميافارقين وما حولها فأجابه ، وتحالفا على ذلك ، فخرج حينئذ الأفضل إليه ، واجتمع به فى ظاهر القاهرة ، وسارا إلى صرخد يوم السبت ثانى عشر ربيع الآخر منها ، ولم يعد بعدها إلى الديار المصرية إلى يوم وفاته ، ولما مضى إلى صرخد سير إلى ميا فارقين من يتسلمها له ، فامتنع صاحبها نجم الدين أيوب بن الملك العادل من تسليمها ، ولم يسلم إليه إلا حَانِى وجبل جور ، وأرسل الأفضل إلى العادل بسببها فاعتذر ، وزعم أن ولده نجم الدين عصاه بامتناعه عن تسليمها .

---

(١) ابن العزيز : الملك المنصور محمد بن الملك العزيز عثمان بن الملك الناصر يوسف بن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص١٥٧ .

(٢) قطيا : وتكتب أيضاً : «قَطَيه» وهى قرية من نواحى الجفار فى الطريق بين مصر والشام وفى وسط الرمل قرب الفرما ، وقد اندثرت هذه القرية ولم يبق إلا أطلالها فى الطريق بين القنطرة والعريش فى الجنوب الشرقى من محطة الرمانة .

رمزى : القاموس الجغرافى ، القسم الأول ، ٣٥٠-٣٥١ .

(٣) العباسة : هى بليدة من الديار المصرية أول ما يلقى القاصد لمصر من الشام بينها وبين القاهره خمسة عشر فرسخاً ، سميت بعباسة بنت أحمد بن طولون . انظر : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٨٤-٨٥ ؛ رمزى : القاموس الجغرافى ، ق١ ، جـ١ ، ص٦٩-٧٠ .

(٤) سيف الدين يازكج : انظر ما سبق ، جـ٢ ، ص١٥ ، حاشية (١) .

ذكر دخول العادل إلى الديار المصرية واستقراره سلطانا

كان دخوله القاهرة يوم السبت الثامن عشر من ربيع الآخر، وأقام بها، والخطبة باسم الملك المنصور بن الملك العزيز بن السلطان صلاح الدين يوسف.(١)

قال بيبرس: واستمر ذلك إلى أن اتفق وصول ولده الكامل إليه، فقطع خطبة المنصور في شهر شوال من هذه السنة، وخطب لنفسه ولولده الكامل بولاية العهد بعده، وزالت دولة صلاح الدين من مصر، واستوزر العادل الصاحب صفى الدين عبدالله بن على بن(٢) شكر، وكان قد حلف له بالقدس أنه إذا ملك مصر يُمكّنه من المصريين ويبسط يده فيهم لأنهم كانوا ينتقصونه.

وفى تاريخ ابن كثير: استقر العادل فى سلطنة الديار المصرية[٢٤٤] وأعاد القضاء إلى صدر الدين عبدالملك بن درباس الماردانى(٣) الكردى، واستوزر صفى الدين بن شكر لصرامته وشهامته، وسيادته وديانته، ثم كتب إلى ولده الكامل يستدعيه من بلاد الجزيرة ليملكه على الديار المصرية، فقدم عليه وأكرمه وعانقه والتزمه، فخطب الخطباء بعد الخليفة للملك العادل، ثم بعده للملك الكامل، وضربت السكة باسمهما، واستقرت دمشق باسم الملك المعظم عيسى بن الملك العادل، كما أن مصر استقرت للكامل.(٤)

ولما استقرت المملكة للعادل، أرسل إليه الملك المنصور - صاحب حماة - يعتذر إليه مما وقع منه بسبب أخذه بَارين من ابن المقدم(٥)، فقبل العادل عذره، وأمره بردّ بارين إلى ابن المقدم، فاعتذر الملك المنصور عنها بقربها من حماه، ونزل عن منبج وقلعة نجم الدين المقدم عوضاً عن بارين، فرضى ابن المقدم بذلك، لأنهما خير من

---

(١) لمزيد من التفاصيل راجع الكامل جـ١٢، ص٧٢-٧٣.

(٢) الصاحب صفى الدين أبو محمد عبدالله بن المخلص أبى الحسن على، بن الحسين بن عبدالخالق، بن الحسين بن منصور الشَّيْبى القرشى المالكى، المعروف بابن شكر مولده بالدَّمِيرة: بلدة من الأعمال الغَرْبيَّة بالديار المصرية ٥٤٨هـ، وزير الملك العادل توفى سنة ٦٢١هـ.
النويرى: نهاية الأرب، جـ ٢٩، ص١٣٠.

(٣) «المارانى» كذا فى الأصل والتصحيح من ابن كثير حيث نقل العينى هذا الخبر عنه. البداية والنهاية، جـ١٣، ص٢٢.

(٤) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من البداية والنهاية، جـ١٣، ص٢٢.

(٥) هو عز الدين إبراهيم بن محمد بن عبدالملك بن المقدم. المختصر، جـ٣، ص٨٩.

بارين بكثير ، وتسلمهما ، وكان له أيضاً أفامية[١] ، وكفر طاب[٢] وخمس وعشرون ضيعة من المعرة ، وكذلك كاتَبَ الملك الظاهر - صاحب حلب - عمه الملك العادل وصالحه وخطب له بحلب وبلادها ، وضرب السكة باسمه ، وشرط العادل على الظاهر أن يكون خمسمائة فارس من خيار عسكر حلب فى خدمة الملك العادل ، كلما خرج إلى البيكار[٣] ، والتزم صاحب حلب بذلك .[٤]

وفى تاريخ السبط : لما استقر العادل فى مصر أحسن إلى أزكش وقدمه وحكمه فى البلاد ، وردّ القضاء إلى صدر الدين عبدالملك ، وشيخ الشيوخ ابن حمويه[٥] التدريس بالشافعى ومشهد الحسين والنظر فى خانقاه الصوفية ، وجلس أبو زيد صفى الدين فى دار السلطنة فى حجرة الفاضل ونظر فى الدواوين .[٦]

قال العماد : أعطى القوس باريها وأجرى الأمور على أحسن مجاريها ، وسار الأفضل إلى ميافارقين ، واستدعى العادل ولده الكامل إلى مصر ، فخرج من دمشق فى ثالث شعبان وودعه أخوه عيسى المعظم إلى رأس الماء .

قال العماد : وسرت معه إلى مصر وأنشدته هذه الأبيات :

دعتك مصر إلى سلطانها فأجبْ ... دُعاءها فهو حقّ غير مكذوب
قد كان يَهيضُنى[٧] دهرى فأدركنى ... محمد بن أبى بكر بن أيوب

ووصل الكامل إلى مصر فى عاشر رمضان[٨] والتقاه العادل من العباسة وأنزله دار الوزارة ، وكان قد زوجه العادل بنت أخيه صلاح الدين فدخل بها ، ولم يقطع العادل

(١) أفامية : ويسميها بعضهم فامية بغير همزة ، مدينة حصينة على سواحل الشام ، وكورة من كور حمص . معجم البلدان ، جـ١ ، ص٢٦٩ .
(٢) كفر طاب : انظر ما سبق ، جـ١ ، ص٢٠١ ، حاشية (٣) .
(٣) البيكار : لفظ فارسى معناه الحرب عامة : انظر Dozy: Supp. Dict. Ar. السلوك ، جـ١ ق١ ، ص١٣١ ، حاشية ٨ .
(٤) ورد هذا الخبر فى المختصر ، جـ٣ ، ص٨٩ .
(٥) ابن حَمُّويَه : صدر الدين بن حمويه . وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص٨٨ . .
(٦) ورد هذا الخبر فى الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٣٧-٢٣٨ . .
(٧) فى سبط ابن الجوزى «قد كان ينهضنى دهرى فيوهمه» مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٣ ؛ وفى أبى شامة «يهضمنى» ، الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٣٨ .
(٨) فى أبى شامة «الحادى والعشرين من رمضان» الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٣٨ .

الخطبة لولد العزيز ، ثم أنه جمع الفقهاء وقال : هل يجوز ولاية الصغير على الكبير؟ فقالوا : الصغير مولىّ عليه . قال : فهل يجوز للكبير أن ينوب عنه؟ قالوا : لا ، لأن الولاية في الأصل إذا كانت غير صحيحة فكيف تصح النيابة؟! فقطع خطبة [ابن](١) العزيز وخطب لنفسه ولولده الكامل محمد بن بعده(٢) ، وخرجت السنة والأمر على ما ذكرنا .

ذكر بقية الحوادث

منها أنه كان بديار مصر غلاء شديد ، فهلك الغنى والفقير ، وغم الجليل والحقير ، وهرب الناس منها نحو الشام ولم يصل منهم إلا القليل من الفئام وتخطفتهم الفرنج من الطرقات ، وأما بلاد العراق فكان مرخصا رخيًا هنيئاً مريئاً .(٣)

وفى تاريخ بيبرس : حصل الغلاء[٢٤٥] بالديار المصرية ، بسبب نقص النيل ، وتشريق البلاد ، وعدمت الأقوات وأكلت الناس الميتات ، وتبع ذلك الوباء ، فمات خلق كثير .(٤)

ومنها أنه باض ديك ببغداد ، قالهُ ابن الساعى فى تاريخه .(٥)

ومنها أنه ولد بالقاهرة مولود له جسد واحد ، ورأس فيه وجهان ، فى كل وجه منهما عينان ، وأذنان وأنفان وحاجبان .(٦)

وولد فيها أيضاً مولود له غُرّة بيضاء كغرة الفرس ، ويداه ورجلاه محجلتان ، وإليته ملمعّة ، وولد أيضاً مولود أشيب الرأس .(٧)

ومنها أنه ظهر عجمى بدمشق ، داع ادعى أنه عيسى بن مريم ، فأفسد جمعاً من العوام ، فقبض عليه صارم الدين برغش العادلى ، وصلبه بعد استفتاء الفقهاء فى أمره ، وكان صلبه ظاهر باب الفرج على الصفصاف المجاور لحمام العماد الكاتب ، على حافة

---

(١) ما بين حاصرين إضافة من سبط ابن الجوزى لتوضيح المعنى ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٣ .
(٢) ورد هذا الخبر فى سبط ابن الجوزى نقلاً عن العماد : مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٣ ؛ أيضاً راجع أبو شامة : الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٣٨-٢٣٩ .
(٣) ورد هذا الخبر بتصرف فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٢ .
(٤) ذكر النويرى أن الغلاء كان ابتداء من استقبال شوال - وقيل ذى القعدة سنة ست وتسعين وخمسمائة . لمزيد من التفاصيل راجع نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص١٢-١٣ ؛ مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص١١٥ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٣ .
(٥) انظر ابن الساعى : الجامع المختصر فى عنوان التواريخ وعيون السير ، جـ٩ ، ص٢١ .
(٦) فى المقريزى « . . . وأنف وحاجب» السلوك ، جـ١/ق١ ، ص١٨٥ .
(٧) ورد هذا الخبر فى السلوك ، جـ١/ق١ ، ص١٨٥ .

بَرَدا[١] ، وقد خُرِّب الحمام وما يجاوره من العمران فى هذا الزمان ، وكان غربى جسر الصّفى ، مقابل الطاحونة المستجدة ، خارج باب الفرج ، بين البابين .

ومنها أنه كان قيام العامة على الشيعة ، وخروجهم إلى باب الصغير[٢] ونبشهم وثاب المرحّل من قبره وتعليقهم رأسه مع كلبين ميتين وذلك فى ثالث عشر ربيع الآخر بعد صلب العجمى بيومين .[٣]

وفيها قُصر النيل تقصيراً عظيماً حتى أنه لم يبلغ أربعة عشر ذراعاً .[٤]

وفى تاريخ بيبرس : كانت غايته اثنى عشر ذراعاً واحداً وعشرين إصبعاً ، وشرقت البلاد وحصل الغلاء .[٥]

وفيها حج بالناس من العراق سُنقر[٦] المسمى بوجه السبع ، ومن الشام أسامة الجبلى .[٧]

ذكر من توفى فيها من الأعيان

الشيخ المسند المعمّر رحلة الوقت أبو الفرج عبدالمنعم بن عبدالوهاب بن صَدَقَة بن الخضر بن كُلَيْب ، الحرّانى الأصل ، البغدادى المولد والدار والوفاة ، عن ست وتسعين سنة ، سمع الكثير وأسمع ، وتفرد بالرواية عن جماعة من المشايخ ، وكان من أعيان التجار وذوى الثروة[٨] ، وكانت وفاته فى ربيع الأول ، ودفن بباب حرب ، وكان ثقة صحيح السماع ، وكان يأخذ على إسماعه جزء ابن عرفة ديناراً ، وهو آخر من حدّث عنه .[٩]

---

(١) بردا : انظر ما سبق ، جـ٢ ، ص٣١ ، حاشية ٨ ، ٩ .
(٢) باب الصغير : بظاهر دمشق ، وهو أحد أبواب دمشق . انظر : صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص٩٢ ؛ وفيات الأعيان ، جـ٦ ، ص٢٩٥ .
(٣) نقل العينى هذا الحدث من أحداث سنة ٥٩٥هـ فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص١٩ .
(٤) فى النويرى : ..... وبلغ غايته إلى اثنى عشر ذراعاً وإحدى وعشرين إصبعاً» ، نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص١٢ ؛ وفى سبط ابن الجوزى «فلم يبلغ ثلاثة عشر ذراعاً» مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٣ .
(٥) ورد هذا الخبر فى نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص١٢ .
(٦) فى سبط ابن الجوزى «اسقنقر» ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٣ .
(٧) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٣ .
(٨) ورد هذا الخبر فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٣ .
(٩) وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٢٢٧–٢٢٨ ، ترجمة ٤٠٤ ؛ راجع الذهبى : العبر ، جـ٤ ، ص٢٩٣ .

الفقيه مجد الدين أبو محمد طاهر بن نصر الله بن جَهْبل[١] ، مدرس القدس الشريف ، وهو أول من درَّس بالصلاحية ، وهو أبو الفقهاء بنى الجهبل ، الذين كانوا بالمدرسة الجاروخية[٢] ، ثم صاروا إلى العمادية[٣] والدماغية[٤] فى هذا الزمان ، ثم ماتوا ولم يبق إلا شرحهم . ومولد مجد الدين بحلب فى نَيِّف وثلاثين وخمسمائة .

قلت : بنو الجهبل هم بهاء الدين نصر الله ، وتاج الدين إسماعيل ، وقطب الدين . والمدرسة الجاروجية بدمشق مشهورة ، وكان مجد الدين فاضلاً فى علم الوصايا والفرائض ، رحمه الله .[٥]

الشيخ الإمام الفقيه العلامة شهاب الدين أحمد الطوسى ، شيخ الشافعية بديار مصر ، وشيخ المدرسة المنسوبة إلى تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب التى يقال لها منازل[٦] العز ، وهو من أصحاب محمد بن يحيى تلميذ الغزالى ، وكان له قدر ومنزلة عند ملوك مصر ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر إلى أن توفى فى هذه السنة .[٧]

وقال سبط ابن الجوزى[٨] : قيل : كان لما قدم بغداد يركب بالسنجق والسيوف المسلله والغاشية[٩] المرفوعة والطوق فى عنق البغلة ، فمنع من ذلك ، فسافر إلى مصر

(١) فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٣ «جميل» وهو خطأ .

(٢) المدرسة الجاروخية : داخل بابى الفرج والفراديس . بانيها جاروخ التركمانى . انظر النعيمى : الدارس ، جـ١ ، ص٢٢٥-٢٣٢ .

(٣) المدرسة العمادية : داخل بابى الفرج ، بانيها عماد الدين إسماعيل بن نور الدين ، والواقف عليها صلاح الدين ، وأول من درس بها عماد الدين الكاتب الأصبهانى . انظر : النعيمى : الدارس ، جـ١ ، ص٤٠٦-٤١٣ .

(٤) المدرسة الدماغية : داخل باب الفرج غربى الباب الثانى الذى قبلى باب الطاحون ، تنسب إلى شجاع الدين محمود بن الدماغ العادلى . وابن الدماغ هذا كان من أصدقاء العادل ، فلما توفى بدمشق جعلت زوجته داره مدرسة للشافعية والحنفية . انظر النعيمى : الدارس ، جـ١ ، ص٢٣٦-٢٤٢ .

(٥) انظر ترجمته فى الذهبى : العبر ، جـ٤ ، ص٢٩٢ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٣ .

(٦) منازل العز : انظر ما سبق ، جـ١ ، ص٦٣ ، حاشية (٣) .

(٧) نقل العينى هذا الخبر من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ٢٤ ؛ كما وردت هذه الترجمة فى الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٤٠ ؛ وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٢٢٤ ، ترجمة (169) ؛ العبر : الذهبى ، جـ٤ ، ص٢٩٤ .

(٨) «أبو شامة» فى الأصل والصحيح ما أثبتناه ، حيث نقل العينى هذا الحدث من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٧ .

(٩) الغاشية : أصل الغاشية الجل والغطاء يوضع على ظهر الفرس . انظر (Dozy: Sup.aux.Dict.Arab) وكان سلاطين الأيوبيين يخرجون فى الموكب وبين أيديهم غاشية سرج من أديم مخزوزة بالذهب . صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص٧ .

ووعظ وأظهر مذهب الأشعرى ، وثارت[عليه][١] الحنابلة ، وكان يجرى بينه وبين الزين بن نجية[٢] العجائب فى السباب والتكفير .

قال السبط[٣][٢٤٦] وبلغنى أنه سئل أيما أفضل دم الحسين أم دم الحلاج؟ فاستعظم ذلك ، وقال : كيف يجوز أن يقال هذا؟! قطرة من دم الحسين رضي الله عنه أفضل من مائة ألف دم مثل دم الحلاج . فقال السائل : دم[٤] الحلاج كتب على الأرض الله ، ولا كذلك دم الحسين . فقال الطوسى : المبهم يحتاج إلى التزكية . قلت : وهذا جواب فى غاية الحسن فى مثل هذا الوضع ، على أنه لم يصح ما ذكر عن دم الحلاج . وكانت وفاته فى الحادى والعشرين من ذى القعدة .[٥] وكان يوماً مشهوداً ركب فيه الملك العادل وكبراء الدولة ، وخرج أهل مصر والقاهرة جميعاً مشيّعين جنازته إلى حيث دفن فى القرافة .

الشيخ ظهير الدين عبد السلام الفارسى شيخ الشافعية[٦] بحلب ، أخذ الفقه عن محمد بن يحيى وتلّمذ للفخر الرازى ، وقد رحل إلى مصر فعرض عليه أن يدرس بتربة الشافعى فلم يقبل ، وصار إلى حلب فأقام بها إلى أن توفى فى هذه السنة .[٧]

الشيخ العلامة بدر الدين بن عسكر مدرس الحنفية بدمشق . قال أبو شامة : يعرف بابن [العقادة] .[٨]

محمد بن عبد المنعم بن أبى الفضائل الصوفى الميهنى ، شيخ رباط البسطامى ويلقب بالركن[٩] ، كان جواداً سمحاً ، لم يكن من أبناء جنسه من يضاهيه فى الكرم ؛

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٧ .

(٢) فى الأصل «نجيبة» وما أثبتناه هو الصحيح . وهو زين الدين على بن إبراهيم بن نجا الأنصارى . وفيات الأعيان ، جـ٢ ، ص٥٢٧ (530) .

(٣)«أبو شامة» كذا فى الأصل والصحيح ما أثبتناه حيث نقل العينى هذا الحدث من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٧ .

(٤) «قدم» فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٧ .

(٥) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٧ .

(٦) انظر ترجمته فى السبكى ، طبقات الشافعية ، جـ٤ ، ص٢٥٤ طبعة الحسينية المصرية .

(٧) نقل العينى هذا الحدث بتصرف من الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٤٠ .

(٨) «العاقدة» فى الأصل والتصحيح من الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٤٠ ؛ أيضاً البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٤ .

(٩) انظر ترجمته فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٦-٣٠٧ ؛ الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٣٧-ص٣٨ .

ماطلب منه أحد شيئاً فمنعه حتى كان يخرج وفى رجلة مداس فيرجع حافياً ، ويخرج وعليه ثوبان فيرجع عرياناً ، وكانت له خلوات ومحاضرات ، وسمع الحديث من شهدة[١] وغيرها . وتوفى فى ذى الحجة ودفن فى الشونيزية عند والده أبى الفضائل .

البلخى الواعظ ، واسمه محمد بن عبد الله ، ويلقب بالنظام وبابن الظريف . ولد ببلخ سنة ست وعشرين وخمسمائة ، وقدم بغداد فوعظ بها فى النظامية وباب بدر وجامع القصر ومدرسة أبى النجيب ودار ابن حديدة الوزير ، وكان فصيحاً مليح الصوت ، وكان متشيعاً ، وأنشد يوما فى النظامية :

سقاهم الليل كاسات الثُّرى فغدت[٢] منه سَكَارى كأن الليل خمارُ
وصيّر[٣] الشوق أطواقاً عمائمهم لا يعقلون أقام الحى أم ساروا
ونسمة الفجر إن[٤] مرّت بهم سحرا تمايلوا وبدا للسُكر آثار[٥]

فلم يبق فى المجلس إلا من قام ، وصاح وتواجد ، وأنشد أيضاً :

مددت يدى فى الحب نحوك سائلا وقلت لجفنى أدر دمعك[٦] سائلا
تفقهت فى علم الصبابة والهوى فمن شاء فليلق علىَّ المسائلا

وحكى أنه نقل إلى الخليفة عنه أنه يعاشر النساء ويرتكب المحرمات . فأرسل إليه الوزير وهو على المنبر فقال : قد رسم أن تخرج من البلد فأنشد :

أبابك لا واديك بالجود مُفعم لدى ولا ناديك بالرفد آهل
لئن ضقت عنى والبلاد فسيحةً وحسبك عاراً أننى عنك راحلُ
وإن كنت بالسحر الحرام مُدَلّه فعندى من السحر الحلال دلائل
فواف بغير الأعين النُجل حُسنها فأى مكان خيمت فهو بابلُ

---

(١) شهدة بنت أحمد بن الفرج بن عمر الإبرى ، انظر ما سبق ، جـ١ ، ص٢٨١ .
(٢) «فغدوا» فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٦ .
(٣) «وسيروا» فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٦ .
(٤) «الشوق إذ» فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٦ .
(٥) «أوتار» فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٦ .
(٦) «الدمع» فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٦ .

وأخرج إلى الجانب الغربى من بغداد فمات ، ودفن فى مقابر قريش فى صفر من هذه السنة ، رحمه الله .(١)

عبداللطيف بن(٢) **إسماعيل بن شيخ الشيوخ أبى سعد** ، وعبداللطيف أخو أبى القاسم عبدالرحيم شيخ الشيوخ ، وكنيته عبداللطيف أبو الحسن ، ولقبه صفى الدين ، ولد سنة ثلاث وعشرين وخمسائة ، وسمع الحديث ، وكان شيخ الرباط الذى بالمشرعة شرقى بغداد ، خرج حاجاً من بغداد ثم ركب البحر إلى مصر فتاه بهم المركب أياماً ثم أرسى بالعيذاب ، فزار الشافعى ثم زار الخليل[٢٤٧] عليه السلام والقدس ، وقدم دمشق فتوفى بها فى ذى القعدة ودفن بمقابر الصوفية .(٣)

كامل بن الفتح أبو تمام الضرير ويلقب بالظهير النحوى ، بغدادىّ اشتغل بالأدب والشعر فبرع فيهما ومن شعره :

وفى الأوانس من بغداد(٤) آنسة ... ولها من القلب ما تهوى وتختار
ساومتها نفثة من ريقها بدمى ... وليس إلا خفى الطرف سمَسار
عند العذول اعتراضات ولائمة ... وعند قلبى جـوابات وأعـذار

وكانت وفاته فى جمادى الآخر ، ودفن بباب حرب .

الشيخ أبو جعفر(٥) **أحمد بن على بن أبى بكر بن إسماعيل القرطبى** ، إمام الكلاسّة الزاهد العابد ، توفى يوم الإثنين تاسع عشر رمضان ، قرأ بالموصل القرآن بالروايات على يحيى بن سَعدون القرطبى(٦) .

---

(١) نقل العينى هذا الخبر من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٦ ؛ أيضاً راجع ابن الساعى : الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٢٥ .
(٢) «ابن» فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٥ .
(٣) نقل العينى هذا الخبر من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٥ ؛ راجع أيضاً الذهبى : العبر ، جـ٤ ، ص٢٩٣ ، كذا ترجمته فى ابن الساعى ، الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٣٧ .
(٤) «نعمان» كذا فى الأصل والتصحيح من ابن الساعى ، الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٣٠ .
(٥) انظر ترجمته فى ابن الساعى ، الجامع المختصر ، ج٩ ، ص٣٠-ص٣١ .
(٦) انظر ترجمته فى الذهبى ، العبر ، جـ٤ ، ص٢٩١ .

العَبْدىّ الشاعر الهمام[١] **أبو الحسن على بن نصر بن عَقيل بن أحمد بن على ابن عبد القيس بن ربيعة بغدادىّ** ، قدم دمشق سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، ومعه ديوان شعر له فيه درر حِسان ، وفرائد وعقيان ، وقد تصدى لمدح الملك الأمجد صاحب بَعلْبكّ ، ومن شعره :

وما الناسُ إلا كاملُ الحظِّ ناقصُ   وآخر منهم ناقصُ الحظِّ كاملُ
وإنىِّ لَمُـثْـرٍ من حيـاءٍ وعِفّـةٍ   وإن لم يكن عِندى من المالِ طائلُ[٢]

وذكر القوصى فى معجمه أنه دخل على قاضى القضاة محيى الدين محمد بن على القرشى وهو يملى رسالته المحيوية فى التعزية الفاضلية فأنشده :

ألا قل لنا عن الفاضل أقصر فإننّى   تيـقنت حـقـاً أن نعْـتك باطل
إذا كان محيى الدين فى الدست[٣] جالساً   فما مات فى الدنيا من الناس فاضل

القاضى الفاضل ، والكلام فيه على أنواع :

(الأول) فى ترجمته :

هو أبو على عبد الرحيم بن القاضى الأشرف بهاء الدين [أبى][٤] **المجد على بن القاضى السعيد أبى محمد الحسن [بن الحسن بن أحمد]**[٥] **بن الفرج بن أحمد اللخمى العسقلانى المولد المصرى الدار ، المعروف بالقاضى الفاضل مجير الدين ؛ وزير السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب**[٦] . وكانت ولادته يوم

---

(١) «الماهر» فى الأصل . والتصحيح طبقاً لما ورد فى ترجمته بالمصادر التالية : الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٤٠ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٥ ؛ ابن تغرى بردى : النجوم ، جـ٦ ، ص١٥٨ .

(٢) نقل العينى هذا الشعر من الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٤١ . وقد ورد هذا الشعر فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٤ مع اختلاف فى البيت الثانى كالآتى :

وإنى لمثر من خيار أعفة   وإن لم يكن عندى من المال كامل

(٣) الدست : هى مرتبة جلوس السلطان . صبح الأعشى ، جـ١ ، ص١٣٧-١٣٨ .

(٤) ما بين حاصرتين إضافة من وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص١٥٨ ترجمة ٣٧٤ .

(٥) ما بين حاصرتين إضافة من وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص١٥٨ .

(٦) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان جـ٣ ، ص١٥٨ ترجمة رقم ٣٧٤ .

الإثنين خامس عشر جمادى الآخرة سنة تسع وعشرين وخمسمائة[١] بمدينة عسقلان ، وتولى أبوه القضاء ببيسان أيضاً فلهذا نُسِبوا إليها .

وفى المرآة : ولد القاضى ببَيسْان ونشأ بمصر .[٢]

(الثانى) فى بدء أمره ونشأته :

قدم الديار المصرّية واشتغل على الموفق يوسف بن الخلال فى صناعة الإنشاء . ثم تعلق بالخِرَم فى ثغر الإسكندرية وأقام به مدة[٣] ، ثم خدم شاور الوزير ، وكان يكتب له ثم كتب فى ديوان المكاتبات العاضدية ، ولما وصل أسد الدين شيركوه إلى مصر اتخذه كاتباً ، ثم خدم الملك الناصر صلاح الدين يوسف .

وقال ابن كثير[٤] : وآل به الأمر إلى أن وزّر لصلاح الدين يوسف بن أيوب ، وتمكن عنده غاية التمكن حتى [أن][٥] صلاح الدين رحمه الله كان يقول فى ملأ من الناس : «لا تظنوا أنى ملكتُ البلاد بسيوفكم ، بل بقلم الفاضل» .[٦] وكان يستشيره فى أموره ، وكان كاتبه وصاحبه ووزيره ومشيره وجليسه وأنيسه ، وكان أعز عليه من أهله وأولاده ، وأكرم عليه من طرفه[٧] وتلاده[٨][٢٤٨] . وتساعدا على فتح الأقاليم والبلدان ، والحصون والمعاقل ، هذا بحسامه وسنانه ، وهذا بلسانه وقلمه وبنانه . وبعد وفاة صلاح الدين رحمه الله استمر على ما كان عليه عند ولده الملك العزيز فى المكانة والرفعة ونفاذ الأمر ، ولما توفى العزيز وقام ولده الملك المنصور بالملك - بتدبير عمه الملك الأفضل نور الدين - كان أيضاً على حاله . ولم يزل كذلك إلى أن وصل الملك العادل وأخذ الديار المصرية ، وعند دخوله القاهرة توفى الفاضل[٩] على ما نبينه إن شاء الله تعالى .

---

(١) ذكر ابن كثير أن مولد القاضى الفاضل كان سنة ٥٠٢ .

(٢) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٤ .

(٣) الموفق يوسف بن الخلال : أبو الحجاج يوسف بن محمد المعروف بابن الخلال ، الملقب بالموفق ، صاحب ديوان الإنشاء بمصر ، توفى سنة ٥٤٦ . انظر وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص٢١٩-٢٢٥ ، ترجمة ٨٤٧ .

(٤) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٤ ، ص٢٥ .

(٥) ما بين الحاصرتين إضافة يتطلبها السياق .

(٦) نقل العينى هذا الخبر من سبط بن الجوزى ولم ينقله من ابن كثير . انظر مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٤ .

(٧) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٤-ص٢٥ .

(٨) التلاد : المال الأصلى القديم . انظر ، المعجم الوجيز ، ص٧٦ .

(٩) وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص١٦٢ ترجمة رقم ٣٧٤ .

(الثالث) : فى سيرته :

كان الفاضل رحمه الله مع كثرة أمواله وجاهه ورئاسته كثير الصدقات والصلات والصيام والصلاة ، مواظباً كل يوم وليلة على ختمة كاملة ، مع ما يزيد عليها من نافلة ، رحيم القلب حسن السيرة ، طاهر الظاهر والباطن والسريرة .[١] وفى المرآة : وكان كثير العبادة تالياً للقرآن .[٢] وله مدرسة بديار مصر على الشافعية والمالكية وأوقاف على تخليص الأسارى من النصارى .[٣]

وقال ابن خلكان : وبنى بالقاهرة مدرسة بدرب ملوخيا . رأيت بخطه أنه استفتح التدريس بها يوم السبت مستهلَّ المحرم سنة ثمانين وخمسمائة .[٤]

ومنها قيسارية تنسب إليه ، و[هى][٥] داخل باب زويلة يُسْرة الخارج منها . واليوم هى وقف على المارستان المنصورى بالقاهرة وبحذاها حمام للرجال ، وحمام للنساء ينسبان إليه أيضا[٦] ، وقد اقتنى من الكتب نحواً من مائة ألف كتاب ، وهذا شىء لم يفرح به أحد من الوزراء ولا العلماء ولا الملوك ، ولا الكتاب .

(الرابع) فى فضائله :

برز فى صناعة الإنشاء ، وفاق المتقدمين ، وله فيه الغرائب مع الأكبار .

وقال ابن خلكان[٧] : أخبرنى شخص من الفضلاء الثقات المطلعين عليه وعلى حقيقة أمره أن مسودَّات الفاضل إذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد ، وله تعليقات فى الأوراق .

وقال ابن كثير[٨] : كان والده[٩] قاضياً بعسقلان فأرسل ولده فى الدولة الفاطمية إلى الديار المصرية ، فاشتغل بها بكتابة الإنشاء على الشيخ أبى الفتح بن قادوس وغيره ، فساد أهل البلاد حتى بغداد ، شرقاً وغرباً وبعداً وقرباً .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٤ .
(٢) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٤ .
(٣) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٥٦ .
(٤) وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص١٦٢ .
(٥) ما بين الحاصرتين فى الأصل «على» . وهو خطأ .
(٦) نقل العينى هذا الخبر عن البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٤ .
(٧) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص١٥٨-١٥٩ .
(٨) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٤ .
(٩) «أبوه» فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٤ .

ولم يكن له فى زمانه نظير ، ولا عديل ، ولا فيما بعده إلى وقتنا هذا مماثل ، ولا مناظر ولا نديد .

وفى المرآة[١] : وقد استعان بآيات الكتاب فى كثير من رسائله ، ورسائله عشر مجلدات . وسمع قائلاً يقول بيت شعر وهو هذا البيت :

لقد ضاع شعرى على بابكم	كما ضاع در على خالِصه[٢]

فقال : لو فعلت عَينا هذا البيت ، لأَبْصر ، وقال العماد : كان الفاضل ممّدحا مدح بمائة ألف بيت من الشعر .

وقال ابن كثير : امتدحه الشعراء فأكثروا . وله أشعار كثيرة جداً ، فمن ذلك قوله :

سبقتم بإسداء الجميل تكرّماً	وما مثلكم فيمن تحدّث أو حكى[٣]
وقد كان ظنى أن أسابقكم به	ولكن بكت[٤] قبلى فهيج لى البكا

وله فى بدء أمره :

أرى الكتاب كلهم جميعاً	بأرزاق تعمّهم سنيناً
ومالى بينهم رزق كأنى	خلقت من الكرام الكاتبينا

وسأل الملك العزيز عثمان بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف عن جارية من حظاياه أرسلت[٢٤٩] زراً من ذهب مغلف بعنبر أسود فأنشأ الفاضل يقول :

أهدت لك فى العنبر فى وسطه	زرٌ من التبر خفى[٥] اللحام
الزرّ[٦] فى العنبر معناهما	زُرْ هكذا مختفيا[٧] فى الظلام

فعلم العزيز أنها أرادت زيارته فى الليل .

(١) نقل العينى هذا الخبر من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٤ .
(٢) «صالحه» فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٤ .
(٣) «فيمن يحدث أو يحكى» كذا فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٥ .
(٤) «بكت» كذا فى الأصل ، البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٥ .
(٥) «رقيق» فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٦ ؛ «دقيق» فى وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص١٦١ .
(٦) «فالزر» فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٦ ؛ وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص١٦١ .
(٧) «مستتراً» فى وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٢٦١ .

وقال ابن كثير : والعجب أن القاضى الفاضل مع براعته وفصاحته التى لا تدانى ولا تجازى ، لا تعرف له قصيدة طويلة طنانة ، بل له ما بين بيت وبيتين فى أثناء الرسائل وغيرها شئ كثير جداً . قلت : والعجب من غفلة ابن كثير عن البرق الشامى للعماد الكاتب ، مع أنه ينقل منه وأن فيه من القصائد الطنانة من نظم القاضى الفاضل ما يُسْحر العقول ويُزرى بكل مقول ، وقد جمع ديوان نظمه القاضى محيى الدين بن عبدالظاهر ، ثم اختار منه كتاباً سمّاه «الدر النظيم من شعر القاضى الفاضل عبدالرحيم» ، وذكر له صلاح الدين الصفدى فى تذكرته من القصائد ما يخجل الدُرَر الفرائد . وقال بيبرس فى تاريخه : وكان الفاضل فريد الزمان ، ومالك أزمّة البيان ، وله الرسائل المعجزة والمكاتبات البليغة الموجزة ، والنظم البديع والشعر المجيد ، فمن شعره قصيده قالها متمدّحاً للملك العزيز ابن صلاح الدين .

الحُسنُ جاد على الأحباب فازدادُوا ... لكن أحبَابنا فى الحسن ما جادوا
فيهن من شبه الغزلان أربعةٌ ... ثغر[1] وطيب وأحداق وأجيادُ
وقد بكت لضنى العُشاق أربعةٌ ... طب وفرش وسُمَّار وعُوادُ
همىّ بهم زائد زادته أربعةٌ ... ينمى ويهنى ويستشرى ويزدادُ
وكيف تبقى على العينين أربعةٌ ... عدى ودمع وأطراف وسهادِ
هيهات يصدق منك الصَبُّ أربعةٌ ... عهد ووُدّ وأقوال وميعاد
له من الغصن الريان أربعةٌ ... عال وبَاه وميال ومَيَّاد
له من الكوكب الدرى أربعةٌ ... نشر وسُكر وإصدار وإيراد
له إذا سُل سيف المزح أربعةٌ ... غيظ ووَثب وإيقاد وإزباد
ولى من الدهر عما رمت أربعةٌ ... كدٌّ وردّ وإقصاءٌ وإقصادُ
ولى عن السعى فى المرجوّ أربَعةٌ ... يَأسٌ وبأسٌ وإخلالٌ وإخلادُ
وللعزيز من الملوك أربعةٌ ... قلبٌ ونطق وأخلاق وإحمادُ
تجمعت فى مديحى فيه أربعةٌ ... سَبكٌ ونظمٌ وإنشاء وإنشادُ
حرابُ راوى ثنائى فيه أربعةُ ... نسخ ودَرسٌ وتكرير وإيرادُ
أيامنا والليالى فيه أربعةُ ... نسك[٢٥٠] وأنس وإعراسٌ وأعْياد
فلم يُطِف باعتقاد الخلق أربعةٌ ... نصب ورفض وإشراك وإلحاد

(١) «نفر» كذا فى الأصل وهو خطأ ، والتصحيح من نسخة دار الكتب ص٣٢٩ .

الأمن ما سُلكت فى الأرض أربعةٌ		بَرٌ وبحرٌ وأغوارٌ وأنْجادُ
مادون منقطع فى الأرض أربعةٌ		ليث وذئب وقطاع ومُرّاد
تُحْمَى به من بلاد الله أربعةٌ		مصر وشام خراسان وبغداد
إن تبق فيها بقايا فهى أربعةٌ		عزم وحزمٌ وأفكارٌ وأرْصاد
يثنى عليه من الأوقات أربعةٌ		يوم وشهر وأعوام وآبَادُ
تندى بجودك عام المحل أربعةٌ		أفق وأرض وأنفاس وأكباد
وفيه من صادقات السحب أربعةٌ		فيض وسيل وإبراق وإبراد
أوصاف إنعامه الموصوف أربعةٌ		سَار وثاوٍ ومنفض ومعتاد
أعطى العزيز عزيزُ النصر أربعة		عدل وبأس وإرفاق وإرفاد
وبشرت عزمَهُ بالنصر أربعةٌ		سعى وسَعد ورايات وأعواد
به لنار العدى فى الحرب أربعةٌ		رفع وخفض وإطفاء وإيقاد
أما الملوك لمولانا فأربعةٌ		رق وجُند وأنصار وأعضادُ
هذا وفيك لهم بالحق أربعةٌ		لطف وعطف وتثقيف وإرشاد
لك الرعية يوم العَرض أربعةٌ		راءٍ وراوٍ وَمُدّاحٌ وأشهاد
كما هم بك فى دنياك أربعةٌ		راض وَراج وقوام وسجّادُ
وعندهم من ندى نُعماك أربعةٌ		كنز وحرز وأبزَال وأمداد
فما يصيبهم ما عشت أربعةٌ		همٌ وغمّ وأوجال وأنْكاد
يأوى إلى بابك المفتوح أربعةٌ		ضعفى ولهفى ورواد وورادُ
قَلّتْ عُدَاتك فهى اليوم أربعةٌ		قتلى وأسرى وهراب وحُيّاد
يشقى بساعدك المسعود أربعةٌ		هام وأيْد وأسياف وأغماد
وحُكمت بك فى الكفَّار أربعةٌ		بيض وسمر وأغلال وأصفاد
لله فى الأرض من ذا البيت أربعةٌ		سحب وروض وأقمار وأطوادُ
توارثت منك مُلك الأرض أربعةٌ		نجل وصنو وآباء وأجداد
سيماء حال بنى أيوب أربعةٌ		بيضٌ وسمرٌ وأمجادٌ وأنْجادٌ
وفيهم من خلال الأسد أربعةٌ		وثب وضخم وإعجال وإلباد[٢٥١]
يا من تحدث عن جدواه أربعةٌ		نطق وحال وأرواح وأجساد
يسرنى ويسوء القوم أربعةٌ		أهل وصحب وأعداء وحُسّاد

الخامس وفى وفاته :

قال السبط : لما تيقن الفاضل استيلاء الملك العادل على القاهرة ، دعى على نفسه بالموت ؛ خوفاً من ابن شكر وزير العادل ، فإنه كانت بينه وبينه وحشة ، فخاف أن يستدعيه ويهينه ، فقام تلك الليلة يبكى ويتضرع ويُصلى فأصبح ميتاً . وحكى عن الملك المحسن بن صلاح الدين [أنه](١) قال : اتفق يوم وفاة الفاضل يوم دخول العادل إلى القاهرة ، فإنه دخل من باب النصر وخرجنا بجنازته من باب زويلة ، ودفن بتربته فى القرافة .(٢)

وقال ابن كثير : وقد كانت وفاته يوم دخل العادل إلى قصر مصر بمدرسته فجأة ، يوم الثلاثاء سادس ربيع الآخر ، واحتفل الناس بجنازته ، وزار قبره فى اليوم الثانى الملك العادل وتأسف عليه .(٣) ويقال : توفى ليلة الأربعاء سابع شهر ربيع الآخر سنة ست وتسعين وخمسمائة بالقاهرة فجأة ، ودفن فى تربته من الغد بسفح المقطم فى القرافة الصغرى ، رحمه الله رحمة واسعة .

السلطان علاء الدين خُوَارَزْم شاه تكش بن أرسلان بن أتسِز بن محمد بن أنوشتكين ، من ولد طاهر بن الحسين ، صاحب خوارزم وبعض خراسان والرىّ وغيرها من البلاد الجبليّة . توفى فى العشرين من رمضان من هذه السنة ، ودفن بتربة بناها له بخوارزم .(٤)

وفى تاريخ بيبرس : وكان قد سار من خوارزم طالباً خراسان ، وكان به خوانيق ، فأشار عليه الأطباء بترك الحركة ، فلما قارب شهرستانه اشتّد مرضه ، فمات وحمل إلى خوارزم ، فدفن بها ، وهو الذى قطع دولة السلاجقة من هذه البلاد . وكان عادلاً حسن السيرة ، له معرفة جيدة بالموسيقى ، حسن المعاشرة ، فقيهاً على مذهب أبى حنيفة رضي الله عنه ، ويعرف الأصول ، وبنى مدرسة عظيمة للحنفية .(٥)

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٥ .

(٢) نقل العينى هذا الخبر من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٥ ؛ أيضاً راجع الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٤٤ .

(٣) نقل العينى هذا الخبر من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٤-٢٥ .

(٤) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٢٣ ، راجع أيضاً الخبر فى الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٣٤-٣٥ ؛ النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص١٥٥ .

(٥) ورد هذا الخبر بالتفصيل فى الكامل ، جـ١٢ ، ص٧٣ ؛ كذا راجع البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٢-٢٣ ؛ الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٣٥ ؛ العبر فى خبر من غبر ، جـ٤ ، ص٢٩٢ ؛ النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص١٥٥ .

وفى المرآة : كان شجاعاً ، ملك الدنيا من الصين والهند وما وراء النهر إلى خراسان إلى باب بغداد . كان نوابه فى حلوان ، وكان ديوانه مائة ألف مقاتل ، وهو الذى كسر مملوكه مَيانجق عسكر الخليفة ، وأزال دولة بنى سلجوق . وكان حاذقاً بعلم الموسيقى ؛ لم يكن فى زمانه ألعب منه بالعود ، وحكى أن الباطنية جهزوا إليه رجلاً ليقتله ، وكان محترزاً كثيراً ، فجلس ليلة يلعب بالعُود وشَرَّع الخيمة ، فاتفق أنه غَنَّى بيتاً بالعجمية وفيه تزاد يذم[١] ومعناه قد أبصرتك ، فخاف الباطنى منه وارتعد وهرب ، فأُخذ وحمل إليه ، فقرره ، فأمر بقتله . وكان يباشر الحروب بنفسه حتى ذهبت إحدى عينيه فى الحرب ، وكان يقول : المَلك إذا لم يباشر الحرب بنفسه لا يصلح للمُلك ، لأنه يكون مثل المرأة . وكان قد عزم على قصد بغداد ، فجمع وحشد ، فوصل إلى دِهسْتان[٢] فتوفى بها فى رمضان ، فحمل تابوته إلى خوارزم فدفن عند أهله .[٣]

ذكر تولية ولده قطب الدين محمد بن علاء الدين تكش

لما مات علاء الدين خوارزم شاه المذكور أرسلوا إلى قطب الدين محمد ولده يستدعونه ، فحضر فملّكوه ، ولقب علاء الدين محمد بن تكش بن أرسلان ، وكان على شاه بن تِكش بأصبهان ، فأرسل إليه خوارزم شاه محمد أخوه يستدعيه ، فلما وصل إليه[٢٥٢] ولاه حرب خراسان وسلم إليه نيسابور ، وكان هندوخان بن ملكشاه بن خوارزم شاه تكش يخاف عمّه محمداً فهرب منه إلى جِدّه ، وكان معه عند موته ، ونهب كثيراً من خزائن جده ، ثم أنه جمع جمعًا كثيراً بخراسان ، وسيَّر إلى عمه جيشًا مقدمهم جَقر التركى فدخل مدينَة مرو ، وبها والدة هندوخان وأولاده ، فأمر بإرسالهم إلى خوارزم ، ولحق هندوخان بغياث الدين صاحب غزنة فأكرمه ووعده النصرة ، وأرسل إلى محمد بن جبريل[٤] صاحب الطالقان يأمره بالمسير إلى مرو الروذ[٥] فسار إليها فأخذها ، ثم أرسل إلى جَفر بأمره بإقامة الخطبة بمرو لغياث الدين أو يفارق البلد ، فكتب إليه يسأله أن

(١) «تنسم» فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٤ ؛ «بَبيتَم» فى النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص١٥٥ .
(٢) دهسْتَان : بلد مشهور فى طرف مازندان قرب خوارزم . معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٥٥٩ .
(٣) نقل العينى هذا الخبر من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٣-٣٠٤ .
(٤) «جربك» فى الكامل ، جـ١٢ ، ص٧٤ .
(٥) مرو الروذ : مدينة قريبة من مرو الشاهجان ، وهى على نهر عظيم ، فلهذا سميت بذلك . معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٥٠٦ .

يأخذ له أماناً من غياث الدين ليحضر إلى خدمته ، فلما قرأ كتابه كتب إلى شهاب الدين أخيه يأمره بالخروج إلى خراسان ؛ ليتفقا على أخذ البلاد التى بيد علاء الدين محمد بن تكش .(١)

الأمير صارم الدين قايماز بن عبدالله النجمى ، من أكابر الدولة الصلاحية ، توفى فى هذه السنة ، وكان عند السلطان صلاح الدين بمنزلة الأستاذ دار ، وهو الذى تَسَلَّم القصر حين مات العاضد ، آخر خلفاء الفاطميين ، فحصل له أموال جزيلة جداً ، وكان كثير الصدقات والأوقاف ، وقد تصدق فى يوم بسبعة آلاف دينار عينا ، وهو واقف المدرسة القيمازية ، شرقى القلعة بدمشق ، وقد كانت دار الحديث الأشرفية داراً لهذا الأمير ، وله بها حمام ، فاشترى ذلك فيما بعد الملكُ الأشرف موسى بن الملك العادل ، وبناها دار حديث ، وأخرب الحمام وبناه مسكناً للشيخ المدرس بها ، ولما توفى الأمير قايماز فى هذه السنة ودفن فى قبره نبشت دورُه وحواصله ، وكان متهماً بمال جزيل ، فكان متحصل ما جمع من ذلك مائة ألف دينار ، وكان يظن أن عنده أكثر من ذلك ، ولكن كان يدفن أمواله فى الخرائب من أرض ضياعه وقراه .(٢)

وقال بيبرس : وكان لقب قايماز المذكور صارم الدين ، وكان من أكابر مماليك نجم الدين أيوب والد صلاح الدين ، وكان عظيم القدر عند صلاح الدين ؛ إذا فتح بلداً سلمه إليه واستأمنه عليه ، وكان كثير الصدقات وأفعال الخير ، بنى القنطرة بين خسقين ونوى وغيرها ، والمدرسة المجاورة لداره بدمشق عند باب القلعة . وكان الملك العادل قد جعله بدمشق مع ولده الملك المعظم عيسى ثقةً به ، فتوفى بدمشق فى جمادى الأولى من هذه السنة . وظهرت له أموال عظيمة ؛ فيقال : إنه وجد له فى أسفل البركة مائة ألف دينار .(٣)

الأمير الكبير لؤلؤ : أحد الحجاب بالديار المصرية ، ومن أكابر الأمراء فى الدولة الصلاحية ، وهو الذى كان يتسلم الأصطول فى البحر ، فيكون كالشجى فى حلوق

---

(١) ورد هذا الخبر فى الكامل ، جـ١٢ ، ص٧٤ .

(٢) نقل العينى هذا الخبر من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٣ ؛ أيضاً راجع بالتفاصيل ، الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٣٩-٢٤٠ .

(٣) نقل العينى هذا الخبر من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٥-٣٠٦ ؛ راجع أيضاً الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٣٩-٢٤٠ .

الإفرنج فى البحر ، وقد كان مع كثرة جهاده كثير الصدقات ، والنفقات ، وكان بديار مصر غلاء شديد(١) وكان يتصدق فى كل يوم باثنى عشر ألف(٢) رغيفاً(٣) ، لاثنى عشر ألف فقير ، وتوفى فى هذه السنة .(٤)

وفى المرآة : قال العماد : وقع الغلاء بمصر فى السنة الماضية وهذه ، ، فكان يخبز كل يوم أربعة وعشرين ألف رغيف يفرقها على الفقراء ، وفى غير الغلاء كان يخبز كل يوم اثنى عشر ألف رغيف ، وكان صائماً قائماً متعبداً ، وكانت وفاته بالقاهرة[٢٥٣] فى جمادى الأولى من هذه السنة .(٥)

الوزير نظام الدين(٦) **مسعود** بن على وزير السلطان خوارزم شاه ، قتل فى هذه السنة ، وكان حسن السيرة ، شافعى المذهب ، له مدرسة عظيمة بخوارزم ، وجامع هائل ، وبنى بمرو جامعاً عظيماً للشافعية ، فحسدتهم الحنابلة ، وشيخهم يقال له : شيخ الإسلام ، فيقال : إنهم أحرقوه فأغرمهم السلطان خوارزم شاه ما عزم الوزير عليه والله أعلم .(٧)



(١) ذكر أبو شامة نقلاً عن العماد أن القحط والغلاء الشديد وقع بمصر سنة ٥٩١هـ . راجع الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٤٠ .
(٢) «أربعة وعشرين ألف رغيف» فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٦ .
(٣) «رغيف» كذا فى الأصل والتصحيح من الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٤٠ . .
(٤) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٣-٢٤ ؛ الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٤٠ .
(٥) نقل العينى هذا الخبر من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٦ .
(٦) «الملك» فى الكامل ، جـ١٢ ، ص٧٤ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٣ .
(٧) نقل العينى هذا الخبر من الكامل ، جـ١٢ ، ص٧٤ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٣ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة السابعة والتسعين بعد الخمسمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله ، وسلطان مصر والشام الملك العادل أبوبكر بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين ، ونائبه بالديار المصرية ابنه الملك الكامل محمد بن العادل ، ونائبه بدمشق ابنه الملك المعظم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل ، وسلطان حلب الملك الظاهر غازى ابن السلطان صلاح الدين ، وهو مجد فى تحصين حلب خوفاً من عمه الملك العادل ، ونائب الملك العادل بالشرق ابنه الملك الفائز إبراهيم(١) ، وبميافارقين ابنه الملك الأوحد نجم الدين أيوب ابن الملك العادل ، وصاحب الروم السلطان ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان السلجوقى ، وصاحب آمد وحصن كيفا سقمان بن محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق ، ولكنه مات فى هذه السنة ، وملك الغورية سلطان غزنة وغيرها غياث الدين . وصاحب خوارزم وغيرها الملك علاء الدين محمد بن تكش ، وصاحب أذربيجان وبلادها وغيرها الأمير أبو بكر ابن البهلوان ، وصاحب مكة قتادة الحسنى ، وصاحب المدينة سالم بن قاسم ، وصاحب المغرب السلطان محمد الناصر بن السلطان يعقوب المنصور بن يوسف بن عبدالمؤمن بن على القيسى الكومى ، وصاحب اليمن سيف الإسلام ، وصاحب الموصل وغيرها السلطان الملك العادل نور الدين أبو الحارث أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى ، وصاحب جزيرة ابن عمر معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازى بن مودود بن زنكى ، ابن عم نور الدين المذكور .

ذكر ماجريات الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب

وفى هذه السنة سار الملك الظاهر إلى منبج وبها شمس الدين عبدالملك بن محمد ابن عبدالملك بن المقدم(٢) ، وكان ملكها بعد موت أخيه عز الدين إبراهيم بن محمد فى هذه السنة ، كما نذكره عن قريب إن شاء الله تعالى . ولما أتى الملك الظاهر إلى منبج

(*) يوافق أولها ١٢ أكتوبر ١٢٠٠م .
(١) الملك الفائز إبراهيم : هو الملك الفائز سابق الدين إبراهيم ابن الملك العادل الأيوبى . وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص١٨٥ ، ص٤٠٨ .
(٢) انظر أبو الفدا ، المختصر ، جـ٣ ، ص٩٩ .

حاصرها وملكها وعصى عبدالملك بالقلعة فحصره، فنزل عبد الملك بالأمان، فاعتقله الملك الظاهر بقلعة حلب، وملك قلعة منبج، ثم سار إلى قلعة نجم، وبها نائب ابن عبدالمقدم، فحصرها وملكها فى آخر رجب، ثم أرسل إلى الملك المنصور صاحب حماة يبذل له منبج، وقلعة نجم، على أن يصير معه على عمه العادل، فاعتذر صاحب حماة باليمين التى فى عنقه للعادل، ولما أيس الظاهر منه سار إلى المعرة وأقطع بلادها، واستولى على كفر طاب، وكانت لابن المقدم ثم سار إلى أفامية وبها قراقوش نائب ابن المقدم، فامتنع من[٢٥٤] تسليمها فأرسل الظاهر إلى حلب وأحضر عبدالملك بن المقدم من حلب وكان معتقلاً بها كما ذكرنا، وأحضر معه أصحابه الذين اعتقلهم وضربهم قدام قراقوش ليسلم أفامية فامتنع من ذلك، فأمر الظاهر بضرب عبدالملك بن المقدم فضرب ضرباً شديداً وبقى يستغيث، فأمر قراقوش بضرب النقارات على قلعة أفامية لئلا يسمع أهل البلد صراخه، ولم يسلم القلعة فرحل عنها الظاهر وتوجه إلى حماة وحاصرها لثلاثة بقين من شعبان، ونزل شمالى البلد، وزحف[1] من جهة الباب الغربى، وقاتل قتالاً شديداً، ثم زحف فى آخر شعبان من الباب الغربى، والباب القبلى وباب العُميان، وجرى قتال شديد وجرح الملك الظاهر بسهم فى ساقه واستمرت الحرب إلى أيام من رمضان، فلما لم يحصل على غرض، صالح الملك المنصور على مال يحمله إليه، قيل: إنه ثلاثون ألف دينار[2] صورية[3].

وقال بيبرس: وكان الظاهر قد أرسل رسلاً إلى عمه العادل فى الصلح قبل أن يجرى ما ذكرنا، فلما وصلت رسله إلى بلبيس رسم العادل أن لا يدخلوا إلى القاهرة فرجعوا ولم يقض لهم شغلا، فوجدوا ميمون القَصْرِىَّ نازلاً على باب بلبيس فاجتمعوا به ورغبوه فى الخدمة الظاهرية، ومضى إلى صرخد وبها الظافر أخو الأفضل، ولحق به جماعة من الأمراء الصلاحية ووافقوه على رأيه، واعتزل عنه فخر الدين جهركس فى قلاعه، وكان بيده بانياس وهونين وتبنين وشقيف أرنون، ووافقه على الاعتزال زين الدين قراجا، وكان باطنهما مع الملك العادل.

---

(١) «زحف» كذا فى الأصل والمثبت من المختصر، جـ٣، ص٩٩؛ مفرج الكروب، جـ٣، ص١٢٢، ص١٢٣.

(٢) ذكر المقريزى «خمسين ألف دينار» السلوك، جـ١، ص١٨٧.

(٣) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من المختصر، جـ٣، ص٩٩.

ولما وصلت مكاتبات ميمون إلى الظاهر والأفضل وهو يحرضها على المجيء ، ويبذل لهما من نفسه المواثيق والعهود على المناصرة والمظافرة ، خرج الظاهر من حلب وقدم عليه أخوه الأفضل ، وسارا إلى أن نزلا أفامية وبها قراقوش مملوك عز الدين بن المقدم[١] فامتنع من تسليم البلد كما ذكرناه الآن ، ثم إن الظاهر لما انفصل أمره من جهة حماة بالمصالحة على المال كما ذكرناه ، رحل إلى دمشق ومعه أخوه الأفضل ، وحضر إليهما ميمون القصرى صاحب نابلس ومن كان اجتمع إليه من عساكر مصر ، واتفقوا جميعاً ، وجاءوا إلى دمشق وبها الملك المعظم عيسى بن الملك العادل وهو صبى صغير ، والقيم بأمره فلك الدين سليمان أخو العادل لأمه ، وعز الدين أسامة ، فلما اجتمعوا عليها حاصروها حصاراً شديداً ، واستقرت القاعدة بين الأخوين الظاهر والأفضل أنهما متى ملكا دمشق يتسلمها الملك الأفضل ، ثم يسيران ويأخذان مصر من العادل ويتسلمها الأفضل وتسلم دمشق حينئذ إلى الظاهر ، بحيث تبقى مصر للأفضل ، ويصير الشام جميعه للظاهر ، وكان قد تخلف من أكابر الأمراء الصلاحية عنهما فخر الدين جهركس وزين الدين قراجا ، فأرسل الأفضل ، وسلم صرخد إلى زين الدين قراجا ، ونقل الأفضل ، والدته وأهله إلى حمص عند شيركوه ، ولما بلغ العادل حصار الأخوين دمشق خرج بعساكر مصر وجاء إلى نابلس وأقام بها ولم يجسر على قتالهما . واشتدت مضايقة الأخوين الأفضل والظاهر لدمشق وتعلق النقابون[٢٥٥] بأسوارها .[٢]

وفى المرآة[٣] : فوصلوا إلى باب الفراديس وأحرقوا فندق تقى الدين ، وقاتلهم المعظم وحفظ البلد فأقاموا شهرين وقيل شهر ذى القعدة ، واختلف أصحاب التواريخ فى أمرهم بعد ذلك .

فقال صاحب المرآة : بعث الملك العادل إلى الأخوين الأفضل والظاهر فأوقع بينهما الخلف فرحلوا سلخ ذى القعدة[٤] ، وجاء العادل فدخل دمشق ومضى المعظم وجهركس

---

(١) «شمس الدين المقدم» فى النويرى وهو خطأ إذ أن شمس الدين بن المقدم توفى عام ٥٨٣هـ انظر نهاية الأرب جـ٢٩ ، ص٢٢ .

(٢) ورد هذا الخبر بتصرف فى نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص١٩–ص٢٤ ، مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص١٢٣– ص١٢٥ .

(٣) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٩ .

(٤) «ذى الحجة» كذا فى الأصل والتصحيح من سبط ابن الجوزى حيث ينقل العينى عنه ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٩ . أيضاً راجع الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٧٠ .

وقراجا فحاصروا بانياس وبها حسام الدين بشارة فقاتلهم فقتل ولده وأخرجوه من البلاد وتسلمها جهركس وتسلم قراجا صرخد .(١)

وفى تاريخ بيبرس : لما جاء العادل إلى نابلس خاف العاقبة وجعل يعمل الحيل والمكائد فى التفريق بين الظاهر والأفضل ، ويستفسد قلوب الأمراء الذين معهما ، ووعد الظاهر إن هو فارق أخاه أن يملكه قطعة من بلاد الشرق التى بيده ، وكاتب الظاهر زين الدين قراجا ، وفخر الدين جهركس ، واستمالهما وأرغبهما ، واستقر الأمر أن يسلم الأفضل إلى قراجا صرخد وعشرة آلاف دينار وأن يعطى الأمير فخر الدين إياز [جهركس](٢) عشرين ألف دينار ، فسلم الأفضل صرخد إليهما كما تقرر ، فغضب الظافر على أخيه الأفضل ، وجرت بينهما بسببها منازعات اقتضت مفارقته وانفصاله عن الأفضل والظاهر .

وأما فخر الدين جهركس وزين الدين قراجا ، فإنهما لما تسلما حصن صرخد سارا إلى الظاهر والأفضل وانحازا إليهما ، فطابت قلوبهما وقوى عزمهما على فتح دمشق ، فأخذ حينئذ فخر الدين جهركس ، وقراجا ، فى التفنيد والتوقيف عن قتال دمشق ، وظهر للظاهر والأفضل ذلك منهما ، وهما أيضاً علما أن الظاهر والأفضل اطلعا على ذلك فهربا بالليل ، وتوجها إلى بانياس فأرسل الظاهر إليهما وقبح فعلهما ، فأعادا جوابه بأنه متى فتح دمشق كانا فى خدمته . ثم إن الظاهر جد فى حصار دمشق وقاتل بنفسه وأصابه فى رجله سهم ، وخرج جماعة من عسكره فانحل عزمه عن دمشق ، ورجع إلى بلاده والأفضل معه ولم ينالا غرضا ، ثم إن الأفضل أرسل إلى عمه العادل فطلب منه شميساط وسروج ورأس العين ، فأنعم له بها . وحلف له عليها . وأرسل الظاهر إليه يطلب منه منبج وأفامية وكفر طاب ، فأنعم له بها أيضاً ، فمضى الأفضل إلى شميساط وتسلمها وبقى بها إلى أن مات .(٣)

وأما ميمون القصرى صاحب نابلس فإن العادل كان قد لاطفه قبل خروجه من مصر ، فلم يلتفت إليه ولا أجابه وصار مع الظاهر ، ولما رحل الظاهر عن دمشق رحل فى

(١) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٩ .
(٢) [جهركس] ما بين حاصرتين إضافة من الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٤٤ .
(٣) ورد هذا الخبر بالتفصيل فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٧١ ؛ نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص٢٣-ص٢٥ .

خدمته ، فأكرمه وأقطعه إقطاعاً عظيماً ، وهو أعزاز وقلعتها ، ونهر الجوز[١] وبلاده وجسر الحديد وبلادها وأماكن أخر متفرقة ، وأعطاه مالاً وخلعاً وبقى فى خدمته إلى أن مات فى ستة عشر وستمائة .

وسار الملك العادل إلى دمشق وتقرر الصلح بينه وبين المنصور صاحب حماه وزوجه[٢] ابنته ، وأقطع الأمير فخر الدين جهركس بلاد حسام الدين بشارة تبنين وهونين ، فامتنع بشارة من تسليمها[٢٥٦] وكاتب الملك الظاهر يستنجده ، فأجابه وأرسل إليه نجدة الأمير عز الدين كرز أخا أبى الهيجاء السمين ، وبلغ ذلك العادل ، فجهز صحبة جهركس عسكراً وافراً لحصار تبنين ، فساروا إليها وحاصروها مدةً ثم عجزوا وتركوها .

وفى تاريخ المؤيد وغيره : لما اشتدت مضايقة الأخوين الأفضل والظاهر لدمشق وتعلق النقابون بأسوارها ، حسد الظاهر أخاه الأفضل على ملك دمشق وقال له : أريد أن تسلم إلىَّ دمشق الآن ، فقال له الأفضل : إن حريمى مثل حريمك وهم على الأرض وليس لنا موضع نقيم فيه ، فهب هذه البلدة لى حتى تملك مصر وتأخذها ، فامتنع الظاهر من ذلك ، وكان قتال العسكر والأمراء الصالحية إنما كان لأجل الأفضل ، فقال لهم الأفضل : إن كان قتالكم لأجلى فاتركوا القتال وصالحوا الملك العادل ، وإن كان قتالكم لأجل أخى الظاهر فأنتم وإياه . فقالوا : إنما قتالنا لأجلك . وتخلوا عن القتال وأرسلوا وصالحوا الملك العادل ، وخرجت السنة وهم محاصرون دمشق ، وقد تفرقت العساكر ، فرحل الظاهر عن دمشق فى أول المحرم سنة ثمانى وتسعين وخمسمائة ، وسار الأفضل إلى حمص .[٣]

وفى تاريخ ابن كثير : وقد كان الظاهر وأخوه الأفضل كتبا إلى صاحب الموصل نور الدين أرسلان الأتابك أن يحاصر مدن الجزيرة التى مع عمهما الملك العادل ، فركب فى جيشه وأرسل إلى ابن عمه قطب الدين صاحب سنجار ، واجتمع معهما صاحب ماردين الذى كان العادل قد حاصره وضيق عليه مدة طويلة - كما ذكرنا - فقصدت العساكر

(١) نهر الجوز : ناحية ذات قرى وبساتين ومياه بين حلب والبيرة التى على الفرات ، ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٣ ، ص١٦٨ .

(٢) نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص٢٥-ص٢٦ .

(٣) نقل العينى هذا النص بتصرف من المؤيد ، المختصر ، ج٣ ، ص١٠٠ .

حرّان وبها الملك الفائز بن العادل فحاصروه مدة ، ثم لما بلغهم وقوع الصلح بين العادل وبين ابنى أخيه الأفضل والظاهر عدلوا إلى المصالحة أيضاً ، وذلك بعد طلب الفائز ذلك منهم ، وتمهدت الأمور واستقرت على ما كانوا عليه .(١)

وفى هذه السنة اعتقل الملك العادل المؤيد والمعز ولدى أخيه الناصر صلاح الدين(٢) ، ونفى من مصر عز الدين أيبك فطيس ، والبِكْى الفارسى ، وخزبك الفارسى ، فمضوا إلى حلب .

ذكر مسير غياث الدين ملك الغورية
من غزنة إلى هراة

لما سار من غزنة فى عساكره وجنوده ووصل إلى هراة وكان بها نائبه الأمير عمر بن محمد المرغنى ، استشاره فأشار عليه بالكف عن قصد البلاد ، ثم حضرا أخوه شهاب الدين وصحبته عساكر سجستان وغيرها وقصدوا مرو ، فخرج إليهم جقر وفتح البلد وسلمها إلى هندوخان بن ملكشاه بن تكش ، ثم سار إلى مدينة سرخس فتملكها صلحا وسلمها إلى الأمير زنكى بن مسعود ، وأقطعه معها نسا(٣) وأبيورد(٤) ، ثم سار بالعساكر إلى طوس فأخذها صلحاً ، وخرج إليه مستحفظها فخلع عليه ، ثم أرسل إلى على شاه بن خوارزم شاه وهو إذ ذاك بنيسابور فأمّره على صاحب أمد ، وكانت فى مُلك أخيه محمود - ولقبه قطب الدين واسمه سقمان بن محمد بن قرا أرسلان بن داود ، وكان صاحب آمد وحصن كيفا فسقط من سطح جوسق عال بحصن كيفا فمات ، وكان شديد الكراهية لأخيه محمود فأبعده وأنزله حصن منصور[٢٥٧](٥) آخر بلاده ، واتخذ مملوكاً اسمه أياس وكان يحبه حباً شديداً ، فزوجه أخته وجعله ولى عهده . فلما اتفقت وفاته ملك أياس بعده أياماً يسيرة ، فوقعت الوحشة بينه وبين وزير سقمان ، فسير استدعى محموداً سراً فملكه وقبض على أياس ثم أطلقه فسارا إلى بلاد الروم وأقام بها .(٦)

---

(١) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٧ .

(٢) المؤيد مسعود ، والمعز إسحاق ولدا صلاح الدين . انظر : الروضتين ، جـ٢ ، ص٢٤٤ .

(٣) نسا : مدينة بخراسان بينها وبين سرخس يومان أو سبعة . معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٧٧٦-٧٧٨ .

(٤) أبيورد : مدينة بخراسان بين سرخس ونسا . معجم البلدان ، جـ١ ، ص١١١ .

(٥) ورد هذا الخبر بالتفصيل فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٧١-٢٧٣ ؛ الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٥١-٥٢ ؛ المختصر ، جـ٣ ، ص١٠٠-١٠١ .

(٦) ورد هذا الخبر بتصرف فى المختصر ، جـ٣ ، ص١٠١ ؛ الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٧٥ .

وفى تاريخ ابن الأثير[١] : وفى رمضان من هذه السنة ملك ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم مدينة ملطية ، وكانت لأخيه معز الدين قيصر شاه بن قليج أرسلان ، ثم سار ركن الدين إلى أرزن الروم وكانت للملك محمد بن صلتق وهو من بيت قديم ملكوا أرزن الروم مدة طويلة ، فطلع صاحب أرزن الروم ليصالح ركن الدين فقبض عليه وأخذ البلد منه وكان هذا محمد آخر الملوك من أهل بيته .[٢]

ذكر ما وقع من الأمور المزعجة الغريبة

منها أنه كانت زلزلة عظيمة امتدت من بلاد الشام إلى الجزيرة وبلاد الروم والعراق ، وكان جمهورها وعظيمها بالشام ، تهدمت منها دور كثيرة ، وقرية من أرض بصرى ، وأما السواحل فهلك منها شىء كثير ، وخربت محال كثيرة من طرابلس وصور وعكا ونابلس ، ولم يبق بنابلس سوى حارة السامرة ومات بها ثلاثون ألفاً تحت الردم ، وسقطت طائفة كبيرة من المنارة الشرقية بجامع دمشق وأربع عشرة شرفة وغالب الكلاسة والمارستان النورى ، وخرج الناس إلى الميادين يستغيثون ، وسقط غالب قلعة بعلبك مع وثاقة بنيانها[٣] ، وانفرق البحر إلى قبرس وقذف بالمراكب إلى ساحله ، وتعدت الزلزلة إلى ناحية الشرق فسقطت بسببها دور كثيرة ومات أمم لا يحصون كثرة[٤] . وفى مرآة الزمان : جاءت فى شعبان زلزلة عظيمة من الصعيد فعمت الدنيا فى ساعة واحدة ، فهدمت بنيان مصر ، فمات تحت الردم خلق كثير ، ثم امتدت إلى الشام والساحل فهدمت مدينة نابلس فلم يبق بها جداراً قائماً إلا حارة السمرة ، ومات تحت الهدم ثلاثون ألفا ، وهدمت جميع قلاع الساحل وامتدت إلى دمشق فرمت بعض المنارة الشرقية بجامع دمشق وأكثر الكلاسة والمارستان النورى وعامة دور دمشق إلا القليل ، وسقط من الجامع ست عشرة شرفة وشققت قبة النسر وخسف بالكلاسة ، وتهدمت بانياس وهونين وتبنين ، وخرج قوم

---

(١) لم يذكر ابن الأثير هذا الحدث وإنما نقل العينى هذا الحدث من ابن الأثير ، وذكر لابن كثير كان على سبيل الخطأ ، والصحيح ما أثبتناه فى المتن . انظر : الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٧٥ .

(٢) الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٧٥ ؛ المختصر ، جـ٣ ، ص١٠٠-ص١٠١ ، الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٥٣ .

(٣) «بابها» كذا فى الأصل والتصحيح من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، جـ٢٨ .

(٤) البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٧-ص٢٨ .

من بعلبك بجنون الربياس من جبل لبنان ، فالتقى عليهم الجبلان وماتوا[١] بأسرهم ، وهدمت قلعة بعلبك مع عظيم حجارتها ووثيق عمارتها وامتدت إلى حمص وحماة وحلب والعواصم ، وقطعت البحر إلى قبرس وانفرق البحر فصار أطواداً وقذف بالمراكب إلى الساحل ، فتكسرت ثم امتدت إلى خلاط وأرمينية وأذربيجان والجزيرة ، وأحصى من هلك فى هذه السنة على وجه التقريب فكان ألف ألف إنسان ومائة ألف إنسان ، وكانت قوة الزلزلة فى مبدأ الأمر بمقدار ما يقرأ الإنسان سورة الكهف ثم دامت بعد ذلك أياماً .[٢]

ومنها هبوط النيل ولم يعهد ذلك فى الإسلام إلا مرة واحدة فإنه بقى منه شىء يسير فوقع[٣] بسببه غلاء عظيم على ما نذكره .

ومنها وقوع غلاء عظيم بالديار المصرية[٢٥٨] فهرب الناس إلى المغرب والحجاز واليمن والشام ، وتفرقوا تفرق أيدى سبأ ، ومزقوا كل ممزق أعظم من سنة اثنتين وستين وأربع مائة فى أيام المستنصر[٤] ، فإنه كان الناس فى هذه السنة فى أمر عظيم كان الرجل يذبح ولده الصغير وتساعده أمه على طبخه وتشويه ، وأحرق السلطان جماعة فعلوا ذلك ولم ينتهوا ، وكان الرجل يدعو صديقه وأعز الناس عليه إلى منزله ليضيفه فيذبحه ويأكله ، وفعلوا بالأطباء كذلك وكانوا يدعونهم ليبصروا المرضى فيقتلونهم ويأكلونهم ، ونفذت الميتات والجيف من كثرة ما أكلوها ، وكانوا يخطفون الصبيان من الشوارع فيأكلونهم ، ثم وقع فناء عظيم على ما نذكره .[٥]

وحكى أبو شامة أنه أُكلت الكلاب فى هذه السنة والميتات بمصر ، وأكل من الأطفال والصغار خلق كثير ، يشوى الصغير والداه ويأكلانه ، وكثر هذا فى الناس حتى صار لا ينكر بينهم ، ثم صاروا يحتالون على بعضهم بعضاً فيأكلون من يقدرون عليه . ومن غلب من قوى ضعيفاً ذبحه وأكله ، ووجد عند رجل أربعة مائة رأس من بنى آدم وهلك كثير من الأطباء الذين يستدعون إلى المرضى ، فيذبحون ويؤكلون وقد استدعى رجل

---

(١) «واتوا» كذا فى الأصل والتصحيح من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٨ .

(٢) إلى هنا وقف العينى عن النقل من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٨-ص٣٠٩ .

(٣) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٧ .

(٤) «المنتصر» كذا فى الأصل والصحيح ما أثبتناه .

(٥) ورد هذا الخبر بتصرف فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٧٥ ؛ الجامع المختصر ، جـ٤٧-ص٥٠ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٦ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٨-ص٣٠٩ .

طبيب فخاف الطبيب وذهب معه على وجل ، فجعل الرجل يتصدق على من وجده فى الطريق ويذكر ويسبح ويكثر من ذلك ، فارتاب به الطبيب وتحيل ، ومع هذا حمله الطمع على الاستمرار معه فلما وصلا إلى الدار إذا هى خربة ، فارتاب أيضاً فخرج رجل من الدار فقال لصاحبه : ما هذا البُطؤ جئت لنا بصيد؟ فلما سمعه الطبيب هرب فما خلص إلا بعد جهد جهيد .(١)

وقال الشيخ موفق الدين عبد اللطيف فى كتاب أخبار مصر : ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة وقد يئس الناس من زيادة النيل وارتفعت الأسعار وقحط الناس ، وخرجوا من خوف الجوع ، وانكرش أهل السواد والريف إلى أمهات البلاد ، وانجلى كثير منهم إلى الشام ، ودخل إلى القاهرة ومصر منهم خلق كثير ، واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموت وعند نزول الشمس الحمل وبئ الهواء ووقع المرض والموتات ، واشتد بهم الجوع حتى أكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والروث ، ثم تعدوا ذلك إلى أن أكلوا صغار بنى آدم ، فكثيراً ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون ومطبوخون فيأمر السلطان بإحراق الفاعل لذلك . قال : ورأيت صغيراً مشوياً فى زنبيل وقد أحضر إلى دار السلطان مع رجل وامرأة زعم الناس أنهما أبواه ، فأمر بإحراقهما . ووجد بمصر فى رمضان رجل وقد جردت عظامه عن اللحم وأكل كما يفعل الطباخون بالغنم .

وأما الأعمال الغريبة فأخبرنى الثقة أن أكل بنى آدم قد استفاض فيها . وأما أهل الصعيد فإنه استفاض فيهم بيع الأحرار بالثمن البخس حتى تباع الجارية الحسناء بالدراهم النزر .

وقال أيضاً : وأحرق فى مصر وحدها من الآكلين لبنى آدم رجال كثيرة ، وإن[٢٥٩] الآكلين إذا أحرقوا أصبحوا وقد أكلوا لأنهم يصيرون شواءً ، وأحرقت من النساء الآكلات نحوٌ من ثلاثين امرأة ، وكل امرأة من هؤلاء تقر عندما تؤخذ أنها أكلت جماعة كثيرة . وكان قوم من الفقراء قد آووا قرب الجزيرة وتستروا ببيوت من طين ، فاطلع عليهم وطلب قتلهم ، فهربوا فوجدوا فى بيوتهم من عظام بنى آدم شيئاً كثيراً . وأخبرنى الثقة أنهم وجدوا فى بيوتهم أربع مائة جمجمة ، ثم وجد بعد هذا كثيرٌ من المساتير يأكلون بنى آدم

---

(١) انظر الذيل على الروضتين كما أورد هذا الخبر ، ابن كثير نقلاً عن الذيل على الروضتين ، راجع البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٦ .

للتشهى لا للضرورة ، وأعجبُ ما شاهدتُ من ذلك أن الرعاع والصبيان ظفروا بامرأة قد شوت صغيراً فحملوه على أيديهم فى السوق والمرأة معهم مسحوبة مشجّجة والناس فى غفلة ذاهلون ، وأهل السوق مقبلون على شؤونهم لم أر فيهم مَنْ يتعجب لذلك ولا ينكر عليه ، وما ذلك إلا لشدة أنسهم به وألفتهم لأمثاله وخروجه عندهم عن حد العجب ، وربما نبشوا القبور وأكلوا الموتى الطرية ، وشهد جماعة أنهم عاينوا حمالين الموتى يبيعون الميت بدرهم ودرهمين ونحو ذلك لقوم يتسترون فى المقابر ويختفون فى المغائر ، وأحضر بين يدى الوالى فى بعض الأيام قِدْر كبير وفيها عشرة أيدى مطبوخة كما يفعل بالأكارع من الغنم ، وأحضر يوماً آخر قِدْر فيها عدة رؤوس من بنى آدم مطبوخة بقمح .

وقد شاع ذلك فى جميع بلاد مصر حتى فى الإسكندرية ؛ فإنه من جملة ما روى أنهم وجدوا فيها قدراً فيها خمسة صغار ، وقد ظفر بجماعة فى نواحيها وعندهم من لحوم الآدميين قديد مُدّخر ، وبعضه فى خوابى مملح ، وبعضه طبخ وبعضه طرى .

قال : وقد استفاض بيع الأحرار بالصعيد كما ذكرنا ، ثم إنه سرى إلى مصر والقاهرة وحلب منها خلق عظيم ، امتلأت بهم أسواق النَّخْس تباع الجارية منهم بدينار ونصف وبربع ، ولقد عرضت على جاريتان حسناوتان[١] مراهقتان أحدهما بكر فَسِيمَ فيهما دينار واحد ، وأوسقت بهم المراكب والجمال ، وسار[٢] بهم التجار بحراً وبراً إلى الشام وبلاد الروم والإفرنج وغيرها من البلاد المتاخمة .

وأهل المحرّم من سنة ثمان وتسعين وخمسمائة والأمر باق على ما ذكر ، والناس مستمرون على هذه الحالة ، وبالله المستعان .

ومنها وقوع فناء عظيم فى الديار المصرية حتى حكى الشيخ أبو شامة فى الذيل أن السلطان الملك العادل كَفَّنَ من ماله فى مدة يسيرة فى هذه السنة نحواً من مائتى ألف وعشرين ألف ميت ، وكثر موت الفقراء بمصر والقاهرة وسائر النواحى ، وكثرت الطرحاء ، وكان بطرفى القاهرة ميضأتان يحمل إليهما من مات بها ، فكان عدد من أحصى بالميضأتين فى شهر شعبان خاصة ست[٣] آلاف وثلثمائة نفس سوى من مات منهم بمصر والجزيرة والجيزة والمَقس والقرافتين والطرقات وسائرِ النواحى ، وسوى من أكلته

(١) «حسنا آن» فى الأصل والصحيح ما أثبتناه .
(٢) «وساروا» فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه .
(٣) «ستة» فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه .

الكلاب والناس ، ومن لم يشعر به فى أصول الحيطان ، وكان فى شهر رمضان نحواً من ذلك ، وفى شوال تسعة آلاف ، وفى ذى القعدة اثنا[١] عشر ألفاً ، وفى ذى الحجة[٢٦٠] نحوٌ منه . وكان ووقوع الموتان فيهم منذ شوال من سنة ست وتسعين وخمسمائة .[٢]

وقال ابن كثير : وفى هذه السنة وقع وباء شديد ببلاد عنزة بين الحجاز واليمن ، وكانوا يسكنون فى عشرين قرية ، فبادت ثمانى عشرة قرية لم يبق فيها ديار ولا نافخ نار ، وبقيت أنعامهم وأموالهم لاقانى لها ، ولا يستطيع أحد أن يَسكن تلك [القرى][٣] ولا يدخلها بل كان من اقترب إلى شيء من هذه [القرى] هلك من ساعته . وأما القريتان الباقيتان فإنه لم يمت [منهما][٤] أحد ولا عندهم شعور بما جرى على ما حولهم من القرى ، بل هم على ما كانوا عليه لم يفقد منهم أحد .

وفى المرآة[٥] : وصلى إمام جامع الإسكندرية فى يوم على سبع مائة جنازة . وقال العماد الكاتب : وفى سنة سبع وتسعين وخمسمائة اشتد الغلاء والبلاء وخرج الناس حذر الموت من الديار ، وتفرق فريق مصر فى الأمصار . ولقد رأيت الأرامل على الرمال والجمال باركة تحت الأحمال ومراكب الفرنج واقفة بساحل البحر على اللقم يَسترق الجياع باللقم[٦] ، وقالوا : إن الغلاء والفناء [اللذين][٧] وقعا فى هذه السنة لم يقعْ مثلهما فى السنين الماضية فى الإسلام إلا ما وقع فى أيام المستنصر العلوى العبيدى .

قال ابن كثير[٨] : ونهاية ما بلغ القمح فى هذه السنة أعنى سنة سبع وتسعين وخمسمائة إلى سلخها الإردب بستة دنانير . وقال العز بن تاج الأمناء : كان اشتداد الغلاء والوباء بالديار المصرية بحيث بلغ ثمن الإردب ستة دنانير مصرية ، وخلا أهل الأعمال المصرية عنها فتفرقوا فى البلاد ، وصار إلى بلاد الفرنج منهم جمعٌ حُملوا إلى

(١) «اثنى» فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه .
(٢) ورد الخبر بتصرف فى السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص١٨٨ ؛ ابن تغرى بردى ، النجوم ، جـ٦ ، ص١٧٣-ص١٧٤ .
(٣) «القرايا» كذا فى الأصل ، والتصحيح من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٦ .
(٤) «فيها» كذا فى الأصل ، والتصحيح من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٦ .
(٥) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من البداية والنهاية ، جـ٣ ، ص٢٦ ، الكامل ، جـ١٢ ، ص٨٠ .
(٦) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٨ .
(٧) «الذى» كذا فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه .
(٨) ورد هذا الخبر بتصرف فى السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص١٩٠ ، ولم يرد فى سنة ٥٩٧ هـ فى ابن كثير كما ذكر العينى . انظر : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٦-ص٣٢ .

الجزائر البحرية ، وأقر كثير ممن تفرق فى البلاد الإسلامية بالعبودية لمن يؤويه ويطعمه ، وأشرفت الأعمال المصرية على الخراب الكلى لولا تدارك لطف الله تعالى بما جرى فيها ، والإسعاد بما كان للملك العادل فيها من الغلال التى صرفها فى تقاوى البلاد ومؤن أهلها إعانةً لهم ممن كان مُقراً بها ، وتراجع إليها مَنْ قدر على الرجوع من أهلها .

ومنها من الأمور العجيبة كائنة غريبة جداً وقعت فى اليمن ، وهى أن رجلاً يقال له عبدالله بن حمزة العلوى كان قد تغلب على كثير من بلدان اليمن وجمع نحواً من اثنى عشر ألف فارس ، ومن الرجالة جمعاً كثيراً ، وخافه ملك اليمن المعز إسماعيل بن سيف الإسلام طغتكين بن أيوب ، وغلب على ظنه زوال ملكه على يدى هذا المتغلب ، وأيقن بالهلكة لضعفه عن مقاومته واختلاف أمرائه عليه ، وميلهم إلى هذا العلوى خوفاً منه ، فقصده العلوى المذكور ، فلما كان بينهم مراحل اجتمع خاصة أمرائه معه فى المشورة ، فأرسل الله تعالى صاعقة فنزلت عليهم فلم يبق منهم واحداً ، فاضطرب الجيش فيما بينهم ، وأقبل المعز بعسكره فغشيهم وقتل منهم ستة آلاف قتيل ، واستقر فى ملكه آمناً .(١)

ذكر بقية الحوادث

منها أن الخليفة استناب نصير الدين ناصر بن مهدى فى الوزارة ، وأذن للقاضى ابن الشهرزورى فى الخروج من بغداد .

ومنها أنه حصل فساد الأمراء الصلاحية على الملك العادل ، وكان السبب[٢٦١] فى ذلك أنه لما دخل مصر شدّد عليهم وناقشهم على ما بأيديهم ، فساءت فيه ظنونهم وتغيرت قلوبهم . ثم إن فارس الدين ميمون القصرى عظم عليه استيلاء العادل على ديار مصر وعزل المنصور بن العزيز منها ، وأنكر ذلك ، وكان حينئذ مقيماً بنابلس ، فكتب إلى العادل : إنا إنما دخلنا فى طاعتك ونصرناك على موالينا أولاد الملك الناصر صلاح الدين لأجل الملك العزيز وولده ؛ لكيلا يتطرق إليه ضرر ، ولا يزول عنه ملكه ، ولابد أن نعيده إلى حاله وإلا فسدت بواطن الأجناد ودخل الوهن ، فأجابه العادل جواب مغالط .(٢)

وفيها كان النيل فى نقص عظيم كما ذكرنا .(٣)

---

(١) ابن الساعى ، الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٥٤ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٧ .
(٢) ورد هذا الخبر بتصرف فى السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص١٨٦ .
(٣) النجوم ، جـ٦ ، ص١٧٣ .

وفيها حج بالناس طاشتكين . وكان الخليفة قد حبسه ثم أطلقه ورد إليه إقطاعه وماله .(١)

ذكر من توفى فى هذه السنة من الأعيان

أبو طاهر بركات بن طاهر الخشوعى ، سند الشام ، شارك بن عساكر فى كثير من مشايخه ، وطالت حيوته بعد وفاته بسبع وعشرين سنة ، فألحق الأحفاد بالأجداد .(٢)

توفى فى هذه السنة عمر بن على بن عمر الواعظ الحربى(٣) ، ولد سنة أربع عشرة وخمسمائة ، وسمع الحديث الكثير ، وتوفى فى شوال بالحربية ، ودفن بباب حرب ، وكان بين وفاته وبين وفاة ابن الجوزى شهر ، سمع ابن الحصين ، وقاضى المارستان ، وابن السمرقندى وغيرهم .

قال أبو المظفر السبط : وفيها توفى عمر بن على شيخنا ، وكان صالحاً ثقة ، وأنشدنا لنفسه :

من داوَم العزلة(٤) فى دهره ، كان له تصحيفها دائماً

فجانب الخلق جميعاً «وثق(٥) ، بخالق» الخلق تعش سالما

الشيخ أبو الفرج بن الجوزى ، والكلام فيه على أنواع :

(الأول) فى ترجمته : هو عبدالرحمن بن على بن محمد بن على بن عبيدالله بن حمادى بن أحمد بن محمد بن جعفر بن عبدالله بن عبدالرحمن بن النصر بن القاسم ابن عبدالله بن عبدالرحمن بن القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضي الله عنه ، أبو الفرج بن أبى الحسن القرشى التيمى .

قال السبط : ورأيت [بخط](٦) ابن دحية المغربى قال : وجعفر هو الجوزى منسوب إلى فرضة من فُرَض البصرة يقال لها جوزة . وقال الجوهرى فُرضة النهر ثلمته التى يُستقى منها ، وفُرضة البحر مَحطّ السُفن ، والجمع : الفِراض .

(١) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٠٩-ص٣١٠ .
(٢) البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٣٢ .
(٣) عمر بن على بن عمر الواعظ الحربى . انظر الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٧٠ .
(٤) فى الأصل «العزّله» والتصحيح من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٢٦ .
(٥) فى سبط ابن الجوزى «وثق وخالف» ، جـ٨ ، ص٣٢٦ .
(٦) فى الأصل «بخطه» وهو خطأ فى النسخ . والمثبت هو الأصح للسياق .

قال السبط : ولد جَدّى ببغداد بدرب حبيب فى سنة عشر وخمسمائة ، وتوفى أبوه وله ثلاث سنين ، وكانت له عمة صالحة ، وكان أهله تجاراً فى النحاس ولهذا رأيت فى بعض سماعاته .

وكتب عبدالرحمن الصَفّار ، فلما ترعرع حملته عمته إلى مسجد أبى الفضل بن ناصر فاعتنى به وأسمعه الحديث ، وقرأ القرآن وتفقه . وقد ذكر من مشايخه فى المشيخة نيفاً وثمانين شيخاً ، وعنى بأمره شيخه ابن الزاغونى وعلمه الوعظ ، واشتغل بفنون العلوم وأخذ اللغة عن أبى منصور الجواليقى ، وصنف الكتب فى فنون ، قيل بلغت مصنفاته نحو ثلثمائة مصنف ، وقال ابن كثير : نحوًا من أربعمائة[١] مصنف على ما نذكره إن شا ءالله . وحضر مجالسه الخلفاء والوزراء والعلماء والأعيان[٢٦٢] وأقل ما كان يحضر مجلسه عشرة آلاف ، وربما حضر عنده مائة ألف ، وأوقع الله له فى القلوب القبول والهيبة ، وكان يجلس بجامع القصر والرصافة والمنصور وباب بدر وتربة الخليفة وغيرها . وقال ابن كثير : وربما تكلم من خاطره على البديهة نظماً ونثراً ، وقد كان فيه تيه[٢] وترفع فى نفسه ويسمو بنفسه أكثر من مقامه ، وذلك ظاهر فى نثره ونظمه فمن ذلك قوله :

ما زلت أدرك ماغلا بل ما علا		وأكابد النهج القويم[٣] الأطولا
وتجر[٤] بى الآمال فى حلباته		جرى السعيد مدى ما أملا[٥]
يقضى بى التوفيق فيه إلى الذى		أعيا[٦] سواى توصلا وتغلغلا
لو كان هذا العلم شخصاً ناطقاً		وسألته هل زُرت مثلى قال لا

(الثانى) فى سيرته : قال ابن كثير : كان صيّنا دينا مجموعاً على نفسه ، لا يخالط أحداً ، ولا يأكل ما فيه شبهة ، ولا يخرج من بيته إلا للجمعة .[٧]

---

(١) فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٨ «ثلاثمائة» .
(٢) فى الأصل «تاه» والصحيح ما أثبتناه أما العبارة فى ابن كثير «كان فيه بهاء وترفع» . . . . . .
(٣) العسير» فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٩ ؛ الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٦٧ .
(٤) «تجرى» فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٩ ؛ الجامع المختصر ، جـ٣ ، ص٦٧ .
(٥) «طلق السعيد جرى أبداً ما أملا» كذا فى الأصل والمثبت من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٩ .
(٦) «أعمى» كذا فى الأصل والمثبت من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٩ .
(٧) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٩ .

وقال السبط : كان زاهداً فى الدنيا متقللاً منها ، وكان يختم القرآن فى كل سبعة أيام . وما مازح أحداً ، ولا لعب مع صبى ، ولا أكل من جهة لا يتيقن حلّها ، وما زال على ذلك الأسلوب حتى توفاه الله عز وجل . وقد امتحن بما زاحم بها الأنبياء والعلماء والفضلاء والأولياء ، وتلقى ذلك بالصبر والحمد والشكر ، وقد أثنى عليه العلماء ؛ فذكره أبو محمد بن الدبيثى فى «الذيل» الذى ذيله على «ذيل ابن السمعانى» فقال شيخنا الإمام جمال الدين بن الجوزى صاحب التصانيف فى فنون العلوم فى التفاسير والفقه والحديث والتواريخ وغير ذلك : وإليه انتهت معرفة الحديث وعلومه ، والوقوف على صحيحه و [سقيمه][١] ، وله من المصنفات فى المسانيد ، والأبواب ، والرجال ، ومعرفة الأحاديث الواهية والموضوعة ، والانقطاع والاتصال ، وكان من أحسن الناس كلاماً ، وأتمهم نظاماً ، وأعذبهم لساناً ، وأجودهم بياناً . تفقه على أبى بكر الدنيورى ، وقرأ الوعظ على الشريف أبى القاسم العلوى ، وأبى الحسن بن الزاغونى ، وبورك له فى عمره وعلمه ، فروى الكثير وسمع الناس منه أكثر من أربعين سنة ، وحدَّث بمصنفاته مراراً .[٢]

وقال ابن كثير : أحد أفراد العلماء ، برز فى كثير من العلوم ، وجمع المصنفات الكبار والصغار نحواً من [ثلاثمائة[٣]] مصنف ، وكتب بيده نحوا من [مائتى[٤]] مجلدة ، وتفرد بفن الوعظ الذى لم يسبق إلى مثله ، ولا يلحق شأوه [فيه][٥] وفى طريقته وشكله ، [و] فى فصاحته وبلاغته ، وعذوبة لفظه ، وحلاوة ترصيعه ، ونفوذ وعظه ، وغوصه على المعانى البديعة ، وتقريب الأشياء البعيدة الغريبة بما يشاهد من الأمور الحسنة بعبارة وجيزة سريعة [الفهم والإدراك][٦] ، وله فى غيره من العلوم اليد الطولى جداً ، والمشاركات فى سائر أنواع العلوم فى التفسير ، والتاريخ ، والحساب ، والنظر فى النجوم .[٧]

وقال السبط : وسمعته يقول على المنبر فى آخر عمره : كتبت بإصبعىَّ هاتين ألفى مجلدة ، وتاب على يدى مائة ألف ، وأسلم على يدى ألف يهودى ونصرانى .

---

(١) فى الأصل «ومن سقيمه» . والتصحيح من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣١١ .
(٢) نقل العينى هذا الخبر من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣١١ .
(٣) انظر ما سبق حاشية رقم (١) ، ص١٧٢٥ .
(٤) فى الأصل «ألفى» . والمثبت من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٨ . حيث ينقل عنه العينى .
(٥) ما بين الحاصرتين زيادة من ابن كثير لتوضيح المعنى . انظر : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٨ .
(٦) ما بين الحاصرتين إضافة من ابن كثير لتوضيح المعنى . انظر : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٨ .
(٧) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٨ .

(الثالث) فى ذكر مصنفاته : التى اشتهرت وعرضت فى فنون العلوم فى علم التفسير كتاب «العين» بخطه أحد وثمانون جزءاً ، إلا أنه لم يُبَيضه ولم يشتهر كتاب «زاد المسير [فى علم التفسير]»[1] أربع مجلدات ، كتاب «التلخيص» مجلد ، كتاب «تذكرة الأديب فى علم الغريب» – مجلدة ، كتاب تيسير البيان فى تفسير القرآن – مجلد ، كتاب ناسخ القرآن ومنسوخه – مجلد ، ومختصره جزء – كتاب فنون الأفنان فى علوم القرآن[2] مجلد- [٢٦٣] كتاب الوجوه والنظائر مجلد ، ومختصره[3] مجلد ، كتاب السبعة فى القراءات السبعة أربعة أجزاء ، كتاب الإشارة فى القراءات المختارة جزء ، كتاب تذكرة المتنبه فى عيون المشتبه جزء ، كتاب غريب الحديث أربعة أجزاء ، فذلك خمسة عشر كتاباً ، وفى علم الحديث كتاب جامع المسانيد [بالحصى الأسانيد][4] سبع مجلدات ، كتاب غرز الأثر خمس مجلدات ، كتاب الكشف عن معانى الصحيحين أربع مجلدات ، كتاب غريب الحديث مجلدان ، كتاب الحدائق مجلدان ، كتاب الضعفاء والمتروكين مجلدان ، كتاب الصلف فى المؤتلف والمختلف مجلدان ، كتاب العلل المتناهية فى الأحاديث الواهية مجلدان ، كتاب الموضوعات مجلدان ، كتاب الخطأ والصواب من أحاديث الشهاب مجلدان ، كتاب تلقيح فهوم أهل الأثر فى علم التواريخ والسير مجلد ، كتاب الفوائد المنتقاة مجلدان ومختصره مجلد ، كتاب نفى النقل ستة وخمسون جزءاً مجلدة ، كتاب ناسخ الحديث ومنسوخه مجلدة ومختصره جزء ، كتاب أسود الغابة فى معرفة الصحابة مجلدة ، كتاب النقاب عن الأسماء والألقاب مجلد ، كتاب المحتسب فى النسب مجلد ، كتاب المديح مجلد ، كتاب السلسلات مجلد ، كتاب أخاير الذخائر مجلد ، كتاب المجتبى مجلد ، كتاب المشيخة جزءان ، كتاب روضة النائل جزء ، كتاب تنوير السدف فى المؤتلف والمختلف جزء ، كتاب آفة أصحاب الحديث جزء ، كتاب المغلق أربعة أجزاء ، فذلك ثمانية وعشرون كتاباً ، وفى علم التواريخ كتاب المنتظم فى تواريخ الملوك والأمم عشر مجلدات ، كتاب سلوة المحزون مجلدان ، كتاب مناقب بغداد مجلد ، كتاب المجد العضدى مجلد ، كتاب الطرائف مجلد ، كتاب المفاخر فى أيام الناصر مجلد ، كتاب شذور العقود مجلد ، كتاب المصباح المضىء بفضائل المستضىء

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣١٢ ؛ الزركلى : كشف الظنون ، جـ٢ ، ص٩٤٧ ، ط١٩٤٣ .
(٢) حاجى خليفة : كشف الظنون ، جـ٢ ، ١٢٩٢ .
(٣) حاجى خليفة : كشف الظنون ، جـ٢ ، ٢٠٠١ .
(٤) ما بين حاصرتين إضافة من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣١٢ ؛ كشف الظنون جـ٥ ، ص٥٢١ .

مجلد ، كتاب الأعاصر فى ذكر الإمام الناصر مجلد ، كتاب الفخر النورى مجلد ، كتاب المجد الصلاحى مجلد ، فذلك اثنا عشر كتاباً .

وفى علم العربية : كتاب فضائل العرب مجلد ، وكتاب الأمثال مجلد ، كتاب تقويم اللسان جزءان ، كتاب ملح الأعاريب جزءان ، كتاب فتوى فقيه العرب جزء ، كتاب نزهة أهل الأدب جزء ، كتاب المألوف [دون الغريب](١) جزء ، فذلك تسعة كتب .

وفى علم الأصول : كتاب منهاج الوصول إلى علم الأصول مجلد ، كتاب دفع التشبيه بألف التنزيه أربعة أجزاء ، كتاب البدائع الدالة على وجود الصائغ أربعة أجزاء ، كتاب منتقد المعتقد جزء ، كتاب شرف الإسلام جزء ، كتاب ما لا يسع الإنسان جهله جزء ، كتاب السر المصون والغوامض ، وشفاء علل الأمراض ، ومسلك العقلاء ، ومنهاج أهل الإصابة فى محبة القرابة والصحابة كل واحد جزء جزء ، فذلك اثنا عشر كتاباً .

وفى علم الفقه : كتاب المُذهب فى المذهب جزءان ، كتاب التحقيق فى أحاديث التعليق مجلدان ، كتاب الدلائل فى مشهور المسائل مجلدان ، كتاب مسبوك الذهب مجلد ، كتاب التلخيص مجلد ، كتاب البلغة مجلد ، كتاب الأنصاف فى مسائل الخلاف ، كتاب البازى الأشهب مجلد ، كتاب لفظه[٢٦٤] العجلان مجلد ، كتاب كشف الظلمة عن الضياء فى الرد على الكيا مجلد ، كتاب تهيئة العمل فى الجدل ثلاثة أجزاء ، كتاب در اللوم والضيم فى تحريم الصوم يوم الغيم جزء ، كتاب مناسك الحج جزء ، كتاب تعظيم الفتوى جزء ، كتاب الرد على القائلين بجواز المتعة جزء ، كتاب المسائل المفردة جزء ، كتاب العدة فى أصول الفقه جزء ، كتاب الفرائض للوازم الفقيه جزء ، فذلك عشرون كتاباً .

وفى المناقب : كتاب الوفا فى فضائل المصطفى مجلدان ، كتاب مناقب عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - مجلد ، كتاب مناقب عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - مجلد ، كتاب مناقب ابن المسيب مجلد ، كتاب مناقب الحسن البصرى - رحمه الله - مجلد ، كتاب مناقب سفيان الثورى مجلد ، كتاب مناقب إبراهيم بن أدهم مجلد ، كتاب مناقب الفضيل بن عياض مجلد ، كتاب مناقب بشر الحافى مجلد ، كتاب مناقب أحمد بن حنبل مجلد ، كتاب شرف أصحاب الحديث مجلد ، كتاب فضائل معروف الكرخى

(١) ما بين حاصرتين إضافة من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣١٣ .

جزءان ، كتاب مناقب رابعة - رضى الله عنها - جزءان ، كتاب فضائل الفقه جزء ، كتاب فضائل القدس جزء ، كتاب فضائل ليلة الجمعة جزء ، كتاب النساء مجلد ، كتاب تقريب الطريق الأبعد بفضل مغفرة أحمد[١] جزءان ، كتاب تنوير الغبّش فى فضل السود والحبش مجلد ، كتاب قيام الليلة ثلاثة أجزاء ، كتاب الستر الرفيع جزء ، كتاب أسرار الموالى جزء ، كتاب مناجزة العمر جزء ، فذلك ثلاثة وعشرون كتاباً .

وفى الرقائق : كتاب صفوة الصفوة أربع مجلدات ، كتاب عيون الحكايات مجلدان ، كتاب ملتقط الحكايات مجلد ، كتاب أسباب الهداية مجلد ، وصولة العقل مجلد ، والعزلة جزء ، والصلوات والأدعية جزء ، والبر والصلة جزء ، والأنس والمحبة جزء ، والوصية جزء ، وذم الحسد جزء ، والرياضة جزء ، وذم المسكر جزء ، والمحاضرات جزء ، فذلك أربعة عشر كتاباً .

وفى الرياضيات : كتاب ذم الهوى مجلدان ، كتاب صيد المخاطر ثلاث مجلدات ، كتاب القصاص مجلد ، كتاب مثير العزم الساكن مجلد ، كتاب الأذكياء مجلد ، كتاب المصلين مجلد ، كتاب المختار من كلام ابن العقيل ثلاث مجلدات ، كتاب الحفاظ مجلد ، كتاب الآثار العلوية مجلد ، كتاب الظراف والمتماجنين مجلد ، كتاب السهم المصيب جزءان ، كتاب عجالة المنتظر فى الحضر جزءان ، كتاب الثبات عند الممات جزءان ، كتاب أعمار الأعيان جزءان ، كتاب الطب الروحانى جزءان ، كتاب عطف الأمراء على العلماء جزءان ، كتاب فتوح الفتوح ثلاثة أجزاء ، كتاب إعلام الأحياء بأغلاط الأحياء جزءان ، كتاب الحث على طلب العلم مجلد ، كتاب فى الحلاج ، وتنبيه النائم ، العمر على مواسم العمر ، والحث على طلب الأولاد ، والوداع والمقاسم لأبى القاسم ، والمستدرك على ابن عقيل ، ولعنة الكند ، والنصر على مصر ، والعبيده[٢] والعبيد ، والعطف والأخذ على ابن نباته . هذه كلها جزء جزء ، فذلك اثنان وثلاثون مصنفاً .

وفى علم الطب : كتاب لقط المنافع مجلدان ، ومختصره فى جزءان ، كتاب الشيب والخضاب مجلد ، كتاب الحقير النافع جزءان ، وطب الأسباخ جزء ، والباه جزء ، فذلك ستة كتب .

---

(١) مغفرة أحمد : كشف الظنون جـ٥ ، ص٥٢١ .

(٢) هكذا فى الأصل وفى مرآة الزمان . وهى غير مقروءة ، جـ٨/٣١٥ .

وفى الأشعار : كتاب أحكام الأشعار بإحكام الأشعار مجلدان ، والمختار من الأشعار[٢٦٥] عشر مجلدات .

وفى الوعظ : كتاب التبصرة ثلاث مجلدات ، كتاب المنتخب مجلدان ، كتاب المنتجب مجلد ، كتاب الذخيرة ثلاثون جزءاً ، كتاب المستنجد والمستنجد مجلدان ، كتاب روس القوارير مجلدان ، كتاب الدين من روس القوارير مجلد ، كتاب المُدهش مجلد ، كتاب مواقف المرافق مجلد ، كتاب المقتبس مجلد ، كتاب نسيم الرياض مجلد ، كتاب محض المحض مجلد ، كتاب منتهى المشتهى مجلد ، كتاب المرتجل مجلد ، كتاب زين القصص مجلدان ، كتاب اللطائف مجلد ، كتاب اللطف مجلد ، كتاب الوعظ النفيس مجلد ، كتاب النور مجلد ، كتاب المقامات مجلد ، كتاب مجالس اليوسيفيه مجلد ، كتاب احتباس المجالس مجلد ، كتاب المقعد المقيم مجلد ، كتاب شاهد ومشهود مجلد ، كتاب الأرواح أربعة أجزاء ، كتاب نسيم السحر ثلاثة أجزاء ، كتاب صبا نجد جزءان ، كتاب الملهب جزءان ، كتاب الزند المورى فى الوعظ الناصرى ثلاثة أجزاء ، كتاب المعلق ثلاثة أجزاء ، كتاب الفصول الوعظية على حروف المعجم ثلاثة أجزاء ، كتاب مغانى المعانى ثلاثة أجزاء ، كتاب الوعظ العنوى جزءان ، كتاب لقط[١] الجمان جزءان ، كتاب زاهر الجواهر[٢] أربعة أجزاء ، كتاب الخواتيم جزءان ، كتاب المجالس البدرية أربعة أجزاء ، كتاب اليواقيت فى الخطب جزءان ، كتاب اللآلى فى الخطب جزءان ، كتاب المقتضب جزءان ، كتاب شعب اللمع فى خطب الجمع ثلاثة أجزاء ، كتاب إيقاظ الوسنان فى الرقدات بأحوال الحيوان والنبات والزهر المحوف والطرب والوعظ الملوكى جزءان ، وأغانى مغانى المعانى ، والمواعظ السلجوقية ، ومختصر لقط الجمان ، وواسطات العقود ، والمحادثة والمناجاة ، واللؤلؤة والملح والياقوتة ، والتصديقات لرمضان ، وكنز المذكر ، والتعازى الملوكية ، وروح الروح ، والمقاطع ، وكنوز الرموز ، كل واحد من هذه فى جزء جزء ، فذلك نيف وستون كتاباً ، ومجموعاته يعنى مجموعات تصانيفه مائتان ونيف وخمسون كتاباً .

(الرابع) فيما جرى فى مجالسه من النوادر المستطرفة والجوابات المستملحة : ومن ذلك قال يوماً فى مجلس وعظه : الدنيا نهر طالوت فاعبروها ولا تعمروها ، فقام سائل

(١) لقط الجمان : كشف الظنون جـ٥ ، ص٥٢٢ .
(٢) زاهر الجواهر : كشف الظنون جـ٥ ، ص٥٢١ .

فقال : كيف أصنع وحبها مجبول[١] فى طباعى فى يوم زين للناس حب الشهوات؟ فقال الشيخ : إلا من اغترف معى قطرة من القطرات ، وقال : والله ما اجتمع لأحد أمله إلا سعى فى تفريقه أجله ، وقال : عقارب المنايا تلسع وخدران جسم الأمل يمنع الإحساس ، وقال : الرواحل فى ضى المراحل والأنام نيام ، وقال : ماء الحياة فى أناء العمر ترشح بالأنفاس .[٢]

وقرأ بين يديه قارىء حسن الصوت فأطرب الجماعة ، ثم قرأ بعده آخر مزعج الصوت فنغص الجماعة ، فقال الشيخ : كان لبعضهم جاريتان مغنيتان إحداهما تغنى طيباً والأخرى مزعجاً ، فكان إذا غنت الطيبة الصوت يمزق ثيابه ، وإذا غنت القبيحة الصوت يقعد يخيط ما مزّق . قال السبط : حضر مجلسى بجامع دمشق فى سنة عشر وخمسمائة القضاة والأشراف والأعيان ، والملك المعظم عيسى - رحمه الله - وشيوخنا جمال الدين الخضرى ، وتاج الدين الكندى ، والقاضى شمس الدين[٢٦٦] بن سنا الدولة ، وكان مجلساً عظيماً احتوى على عشرة آلاف وزيادة على باب مشهد على (رضي الله عنه) . وكان بدمشق قارئان أحدهما يقال له النجيب البغدادى صوته طيب ، والاخر يقال له الشرف بن محى صوته مزعج ، فكان النجيب إذا قرأ طربنا ، وابن محى إذا قرأ تنغصنا ، فحكت الجماعة حكاية الجاريتين المغنيتين ، وكان تاج الدين [الكندى][٣] قاعداً فى القمة التى فى وسط المجلس فصاح : يا ابنى كلنا اليوم نخيط ، وقال رجل لابن الجوزى : إن فلاناً أوصى عند الموت فقال : طين سطوحه فى كانون . وقال له قائل : أنا أفضل أسبح وأستغفر . فقال : الثياب الوسخة أحوج إلى الصابون من البخور . وقال : من قنع طاب عيشه ، ومن طمع طال طيشه . وقال : الطاعة تبسط اللسان والمعاصى تذل الإنسان . ووعظ الخليفة يوماً وقال : يا أمير المؤمنين إن تكلمت خفت منك ، وإن سكت خفت عليك ، فأنا أقدم خوفى عليك على خوفى منك لمحبتى لدوام أيامك ، إن قول القائل : اتق الله خير من قول القائل : إنكم أهل بيت مغفور لكم . وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه - يقول : إذا بلغنى عن عامل ظالم أنه قد ظلم الرعية ولم أغيره فأنا الظالم يا أمير المؤمنين . كان يوسف عليه السلام لايشبع فى زمان القحط لئلا ينسى الجياع ، وكان عمر- رضي الله عنه - يضرب

---

(١) «مطبوع» فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣١٦ .
(٢) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣١٢-٣١٦ .
(٣) ما بين حاصرتين إضافة من سبط ابن الجوزى لتوضيح الخبر ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣١٧ .

بطنه عام الرمادة ويقول : قرقر أو لا تقرقر ، فوالله لا شبعت والمسلمون جياع . فتصدق الخليفة ، وكان المستضىء يتصدق بصدقات كثيرة ويشبع الجياع ويطلق الحبوس .[١]

قال ابن خلكان : فى مجالس وعظة أجوبة نادرة ، فمن أحسن ما يحكى عنه ، أنه وقع النزاع ببغداد بين أهل السُنة والشيعة فى المفاضلة[٢] بين أبى بكر وعلى- رضى الله عنهما- فرضى الكل بما يجيب به الشيخ أبو الفرج ، فأقاما شخصاً وسأله عن ذلك وهو على الكرسى فى مجلس وعظه ، فقال : أفضلهما من كانت ابنته تحته ، ونزل فى الحال حتى لا يراجع فى ذلك ، فقالت السنة [هو][٣] أبو بكر -رضي الله عنه- فإن ابنته عائشة -رضى الله عنها- تحت رسول الله(ﷺ) . وقالت الشيعة : هو على -رضي الله عنه- لأن فاطمة ابنة رسول الله -عليه السلام- تحته ، وهذا من لطائف الأجوبة[٤] ، وقال فى قصة الذين عبدوا العجل : لو أن الله خاذلهم ، ما خاذلهم ، وما يعبد العجل إلا الثور . وقال يوماً وقد طرب أهل المجلس : فَهِمْتم فهمتم .[٥] وقال : قال جبريل للرسول ، عليهما السلام : سلم على عائشة ، ولم يواجهها بالخطاب احتراماً لزوجها ، وواجه مريم لأنه ما كان لها زوج ، فمن يحترمها جبريل -عليه السلام- كيف يجوز فى حقها الأباطيل؟!

وسئل عن لعنة يزيد بن معاوية ، فقال : قد أجاز أحمد بن حنبل لعنته ، ونحن نقول : ما نحبه لما فعل بابن بنت نبينا عليه السلام ، وحمله آل رسول الله-عليه السلام- سبايا إلى الشام على أقتاب الجمال ، وتجرئه على الله ورسوله ، فإن رضيتم بهذه المصالحة فى قولنا ما نحبه ، وإلا رجعنا إلى أصل الدعوى ، يعنى جواز لعنته . ثم قال : أما أبوه ففى خفارة الصحبة فدعوه من أيديكم ، وأنتم فى حل من الابن .[٦] وذكر يوماً حديث داودعليه السلام- ووهبه آدم له من عمره ستين سنة . وأن الله أتم لداود مائة ، ولآدم عليه السلام ألفا ، ثم قال : المتوسط بين اثنين ، إذا كان كريماً غُرِم . وله أشعار كثيرة[٧] قيل : إنها نحو عشر[٢٦٧] مجلدات فمن الأشعار المنسوبة إليه قوله :

---

(١) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣١٧- ٣١٨ .
(٢) الفاضليه فى الأصل وما أثبتناه من ابن خلكان حيث ينقل عنه ، وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص١٤١ .
(٣) ما بين حاصرتين إضافة من ابن خلكان لتوضيح الخبر ، وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص١٤١ . .
(٤) إلى هنا توقف العينى عن النقل من وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص١٤١ ، ص١٤٢ .
(٥) نقل العينى هذا الخبر من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣١٩ .
(٦) الذيل على الروضتين ، ص٢٣ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٢٣١ .
(٧) القصد هنا أشعار أبو الفرج بن الجوزى .

يا صاحبى إن كنت لى أو معى | فعج على وادى الحمى نرتع
وسل عن الوادى وسُكانه | وأنشِد فؤادى من زبى المجمع
حى كُثيب الرمل رمل الحمى | وقف وسلم لى على لعلع
واسمع حديثاً قد روته الصَّبا | تَسنُده عن بانه الأجرع
وابك فما فى العين من فضلة | وَنب فدتك النفس عن مدمعى
وانزل على الشيخ بواديهم | وقل ديار الظاعنين اسمعى
رفقاً بنضو قد براه الأسى | يا عاذلى لو كان قلبى معى
لهفى على طول[١] ليال خلت | عودى تعودى مدنفاً قد نعى
إذا تذكرت زماناً مضى | فويح أجفانى من أدمعى[٢]
يا نفس كم أتلو حديث المنى | ضاع زمانى بالمنى فاقطعى

ومن أشعاره :

تملكوا واحتكموا وصار قلبى لهم | تصرفوا فى ملكهم فلا يقال ظلموا
إن واصلوا مجيهم أو قطعوا فهم هم | أصبر لما شاؤا وإن شاء الذى حكموا[٣]
يا أرض سِلْع[٤] خبرى وحدثينى عنهم | يا ليت شعرى اذغدوا انجدوا أم اتهموا

تشتاقهم أرض منى وتشكيهم زمزمُ[٥]

(الخامس) فى وفاته : توفى ليلة الجمعة بين العشاءين ثانى عشر شهر رمضان ، فى سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، وله سبع وثمانون سنة ، وحملت[٦] جنازته على رؤوس الناس ، ودفن بباب حرب عند أبيه بالقرب من قبر الإمام أحمد - رضي الله عنه - وكان يوماً

---

(١) «طيب» فى الذيل على الروضتين ، ص٢٤ .
(٢) «مدمعى» فى الذيل على الروضتين ، ص٢٤ .
(٣) ورد نص البيت هكذا فى أبى شامة :
«اصبر على ما شاءوا | شاء الذى قد حكموا
انظر الذيل على الروضتين ، ص٢٤ .
(٤) أرض سلع : واد فى ديار باهلة ، وهناك سلع الكلدية وهو واد أو جبل . معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٢٣٧ . طبعة بيروت (بدون) .
(٥) ورد نص البيت هكذا فى أبى شامة :
«تشتاقهم أرض منى ومكه وزمزم»
انظر ، الذيل على الروضتين ، ص٢٥ .
(٦) «وحمل» كذا فى الأصل والمثبت عن البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢٩ .

مشهوداً حتى قيل : إنه أفطر جماعة من الناس بسبب شدة الحر وكثرة الزحام[١] وقال : السبط : جلس جدى يوم السبت سابع شهر رمضان تحت تربة الخليفة المجاورة لمعروف الكرخى ، وكنت حاضراً ، فأنشد أبياتاً قطع عليها المجلس ولكن :

الله أســـأل أن يطول مـــدتى وأطال بالإنعـام مـا فى نيـتى[٢]

من أبيات ونزل عن المنبر فمرض خمسة[٣] أيام وتوفى ليلة الجمعة المذكورة فى داره بقطعنا ، وحضر غسله شيخنا ضياء الدين بن سكنه ، وضياء الدين بن الخبير وقت السحر ، فاجتمع أهل بغداد ، وغلقت الأسواق ، وجاء أهل المحال وشددنا التابوت بالحبال ، وسلمناه إليهم فذهبوا به إلى تحت التربة مكان جلوسه ، فصلى عليه ابنه أبو القاسم على اتفاقاً لأن الأعيان لم يقدروا على الوصول إليه ، ثم ذهبوا به إلى جامع المنصور فصلوا عليه ، وضاق بالناس وكان يوماً مشهوداً[٤] ، ونزل فى الحفرة والمؤذن يقول : الله أكبر . وحزن الناس عليه حزناً كبيراً ، وبكوا بكاءً شديداً ، وباتوا عند قبره طول شهر رمضان يختمون الختمات بالشموع والقناديل والجماعة ، وزاره فى تلك الليلة رجل من أهل الحربية محدث اسمه أحمد بن سليمان ويلقب بالسكر ، فرآه فى منامه ، وهو على منبر من ياقوت مرصع بالجواهر وهو جالس فى مقعد صدق ، والملائكة جلوس بين يديه ، والحق سبحانه وتعالى حاضر يسمع كلامه ، قال : وأصبحنا يوم السبت[٢٦٨] وعملنا عزاء وتكلمت فيه ، وحضر خلق عظيم ، وقام الناصر العلوى الموسوى من مشهد موسى بن جعفر -رضى الله عنهما - فأنشد :

الدهر عن طمع يغـــر ويخـــدع وزخـارف الدنيـا الدنيـة تُطمع
وأعنة الآمـال يطلقـهـا الرجـا طمـعـاً وأسـياف المنيـة تُقطع
والمـرء مع علم بهـا مـتـشـوف أبداً إلـى نيل المُنى مُـــتطلع
يا لاهيـــاً أمن الحـــوادث غِـرة تعـدو بصـفـو زمـانه تتـمـتع

(١) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٣٠ .
(٢) «الله أسأل أن تَطُول مدتى ولطال بالإنعام ما فى نيتى»
كذا فى الأصل والتصحيح من سبط ابن الجوزى حيث ينقل عنه ، العينى عنه . انظر مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٤٣ ، وقد ورد هذا البيت فى الذيل على الروضتين مع اختلاف فى بعض الألفاظ ، انظر أبى شامة ، الذيل ، ص٢٥ .
(٣) ذكر أنه توفى بعد خمسة أيام إلا أن هذا ليس بالشيء الذى يوافق الواقع أو أن عدد الأيام ستة .
(٤) إلى هنا توقف العينى عن النقل من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٢٤ .

ألست يا مــغــرور يا ثقــة الردى	أأمنت من حــدثانه مــا تفــزع؟
والمــوت آت والحــيــاة مــريرة	والناس بعــضــهــم لبـعض تتــبع
وأخــو البـصـيـرة من لخـيـر زارع	والمـرء يحـصـد فى غـدٍ ما يزرعُ
واعلـم بأنك عـن قليـل صـــائرٌ	خبراً فكـن خبراً لخير تسمع[1]
لعـلا أبى الفرج الذى بعد التقى	والعلم يوم حَـواه هذا المـضـجع

من أبيات ومنها :

قد كنت كهفاً للشريعة والهدى	خـــيـــراً بأنوار الهـــداية تلمع
يا قبره جازتك كل غمامة هطالة	رَكـــــــــــانــة لا تـقــلـع

الأبيات . قال السبط : وأوصى جدى أن يكتب على قبره :

يا كـــثـــيـــر العـــفـــو عـــمن	كـــــثـــــر الذنوب لديه
جـــاءك المُـــذنب يرجـــو	الصـــفح عن جـــرم يديه
أنـا ضـــــيـف وجـــــزاء	الضـــيف إحـــســـانٌ إليـــه

وكان له من الأولاد الذكور ثلاثة : عبدالعزيز وهو أول أولاده وكنيته أبو بكر ، تفقه على مذهب أحمد ، وسمع أبا الوقت وابن ناصر وآخرين من مشايخ والده ، وسافر إلى الموصل ووعظ وحصل له القبول التام . فيقال : إن بنى الشهرزورى حسدوه فدسوا إليه من سقاه السم ، فمات شاباً بالموصل سنة أربع وخمسين وخمسمائة[2] .

(والثانى) أبو القاسم على وقد كتب كثيراً وسمع الحديث ، وهو الذى أظهر مصنفات والده وباعها بيع العبيد ، ولما مضى أبوه إلى واسط كانت كتبه فى داره بدرب دينار[3] ، فتحيل عليها بالليل والنهار حتى أخذ منها ما أراد وباعها ولا بثمن المداد . وكان أبوه قد هجره مدة سنين ، وتوفى فى سنة ثلاثين وستمائة ، وله ثمانون سنة .

---

(١) وردت هذه الأبيات فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٢٤ .
(٢) نقل العينى هذا الحدث بتصرف من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٢٥ .
(٣) درب دينار : من دروب باب الجابية بدمشق . انظر : تاريخ دمشق ، ص٥٩ ، المجلدة الثانية ، ق١ (خطط دمشق) .

(والثالث) أبو محمد يوسف ولقبه محيى الدين ولد فى سنة ثمانين وخمسمائة ، وسمع الحديث الكثير وتفقه وناظر ، ونشأ على الطريق الرشيدة والخلائق الحميدة ، وهو كان السبب فى خلاص والده من واسط ، ووعظ بعد وفاة أبيه تحت تربة والدة [الخليفة][1] وقامت بأمره أحسن قيام ، وولى حسبة بغداد ، وسلك طريق العقل والسداد ، وترسل عن الخلفاء إلى الملوك وتقلبت به الأحوال إلى سنة أربعين إلى أن ولى أستاذ دارته الإمام المعتصم بالله أمير المؤمنين وأول ترسله عن الملك الظاهر فى سنة ثلاث وعشرين وستمائة إلى أولاد العادل : الأشرف ، والمعظم ، والكامل ، وآخر ما انفصل عن الشام فى سنة خمس وثلاثين وستمائة إلى بغداد .

وفى تلك السنة توفى صاحب الروم ، والكامل ، والأشرف ، وكان للشيخ أبى الفرج عدة بنات منهن : والدة أبى المظفر صاحب مرآة الزمان واسمها رابعة ، وشرف النساء ، وزينب ، وجوهرة ، وست العلماء الكبرى ، وست العلماء الصغرى ، وكلهن[٢٦٩] سمعن الحديث من والدهن أبى الفرج وغيره .[2]

العماد الكاتب : أبو عبدالله محمد بن صفى الدين أبى الفرج محمد بن نفيس الدين ، أبو الرجاء حامد بن محمد بن عبدالله بن على بن محمود بن هبة الله ، المعروف بأَلُهْ الملقب عماد الدين الكاتب الأصفهانى ، المعروف بابن أخى العزيز[3] ، وكان فقيهاً شافعى المذهب ، تفقه بالمدرسة النظامية زماناً ، وأتقن الخلاف وفنون الأدب ، وله من الشعر والرسائل ما يغنى عن الإطالة فى شرحه ، وكان قد نشأ بأصبهان ، وقدم بغداد فى حداثته ، وتفقه على الشيخ أبى منصور سعيد بن محمد بن الرزاز ، مدرس النظامية ، وسمع بها الحديث من بنى[4] أبى الحسن على بن هبة الله بن عبدالسلام ، وأبى منصور محمد بن عبدالملك بن جيرون ، وأبى المكارم المبارك بن على السمرقندى ، وأبى بكر أحمد بن على بن الأشقر ، وغيرهم ، وأقام بها مدة .

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من أبى شامة لاستقامة المعنى . الذيل على الروضتين ، ص٢٦ .
(٢) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٢٥-٣٢٦ .
(٣) وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص١٤٧ ، ص١٥٢ .
(٤) ذكر ابن خلكان أن العماد الكاتب سمع الحديث من الشيخ أبى الحسن على بن هبة الله بن عبد السلام وليس من بنيه . انظر ، وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص١٤٨ .

ولما تخرج ومهر تعلق بالوزير عون الدين يحيى بن هبيرة ببغداد ، فولاه النظر بالبصرة ، ثم بواسط ، ولم يزل ماشى الحال مدة حيوته ، فلما توفى تشتت شمل أتباعه والمنتسبين إليه ، ونال المكروه [بعضهم][(١)] وأقام العماد مدة فى عيش منكر ، وجفن مسهد ، ثم انتقل إلى مدينة دمشق فوصلها فى شعبان سنة اثنتين وستين وخمسمائة ، وسلطانها يومئذ الملك العادل نور الدين محمود الشهيد ، وحاكمها ومتولى أمورها ومدبر دولتها القاضى كمال الدين أبو الفضل محمد بن الشهرزورى ، فتعرف به وحضر مجالسه ، وذكر لديه مسألة فى الخلاف ، وعرفه الأمير الكبير نجم الدين أيوب والد السلطان صلاح الدين يوسف ، وكان يعرف عمه العزيز من قلعة تكريت ، فأحسن إليه وأكرمه وميزه عند الأعيان والأماثل ، وعرّفه السلطان صلاح الدين من جهة والده ، ومدحه فى ذلك الوقت بدمشق ، وذكر العماد ذلك فى كتابه «البرق الشامى» وأورد القصيدة التى مدحه بها يومئذ ، ثم إن القاضى كمال الدين نوّه بذكره عند السلطان نور الدين الشهيد ، وعدد عليه فضائله ، وأهله لكتابة الإنشاء . قال العماد : فبقيت متحيراً فى الدخول فيما ليس من شأنى ولا وظيفتى ، ولا تقدمت لى به دربة[(٢)] ، ولقد كانت مواد هذه الصناعة عقيدة[(٣)] عنده لكنه لم يكن قد مارسها ، فجبن عنها فى الابتداء ، فلما باشرها هانت عليه وأجاد فيها وأتى فيها بالغرائب ، وكان ينشىء الرسائل باللغة العجمية أيضاً ، وحصل بينه وبين صلاح الدين فى تلك المدة مودة أكيدة ، وامتزاج تام ، وعلت منزلته عند نور الدين - رحمه الله- وصار صاحب سره ، وسيّره إلى بغداد رسولاً فى أيام المستنجد ، ولما عاد فوض إليه تدريس المدرسة المعروفة بدمشق بالعمادية ، وذلك فى رجب سنة سبع وستين وخمسمائة ، ثم رتبه فى أشراف الديوان فى سنة ثمان وستين ، ولم يزل مستقيم الحال رضىّ البال إلى أن توفى نور الدين الشهيد ، وقام ولده الملك الصالح مقامه ، وكان صغيراً ، فاستولى عليه جماعة كانوا يكرهون العماد ، فضايقوه وأخافوه إلى أن ترك جميع ما هو فيه ، وسافر قاصداً بغداد فوصل إلى الموصل ، ومرض بها مرضاً شديداً .

---

(١) ما بين حاصرتين إضافة من وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص١٤٨ ، لتوضيح المعنى .

(٢) دربة : الدربة عادة وجراءة على الحرب . انظر الرازى ، مختار الصحاح ، ص٢٠١-٢٠٢ .

(٣) «عقيدة» كذا فى الأصل والتصحيح من وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص١٤٨ ، حيث يتسق مع السياق .

ثم بلغه خروج السلطان صلاح الدين يوسف من الديار المصرية لأخذ دمشق ، فانثنى عزمه عن قصد العراق ، وعزم على العود إلى الشام ، وخرج من الموصل رابع جمادى الأولى سنة سبعين وخمسمائة ، وسلك[٢٧٠] طريق البرية ، فدخل دمشق ثامن جمادى الآخرة ، وصلاح الدين يومئذ نازل على حلب ، ثم قصد خدمته وقد تسلم قلعة حمص فى شعبان من السنة المذكورة ، فحضر بين يديه ، وأنشد قصيدته أطال فيها ، ثم لزم الباب ، فرحل لرحيل السلطان ، وينزل لنزوله ، واستمر على عطلته مُديدة ، وهو يغشى مجالس السلطان ، وينشده فى كل وقت ، ويعرض بصحبته القديمة ، ولم يزل على ذلك حتى نظمه فى سلك جماعته واستكتبه واعتمد عليه وقرب منه ، وصار من جملة الصدور المعدودين ، الأماثل المشهورين ، يضاهى الوزراء ، ويجرى فى مضامرهم . وكان القاضى الفاضل فى أكثر الأوقات ينقطع عن خدمة السلطان ، ويتوفر على مصالح الديار المصرية ، وكان العماد يلازم الباب بالشام وغيره ، وهو صاحب السر المكتوم ، وصنف التصانيف النافعة من ذلك : كتاب «خريدة القصر وجريدة العصر» ، جعله ذيلاً على «زينة الدهر» تأليف «أبى المعالى سعد بن على الوراق الخطيرى» والخطيرى جعله ذيلاً على دمية القصر وعصره أهل العصر» للباخرزى ، جعله ذيلاً على «يتيمة الدهر للثعالبى ، والثعالبى جعل كتابه ذيلاً على كتاب «البارع» لهارون بن على المنجم . وقد ذكر العماد الشعراء الذين كانوا بعد المائة الخامسة إلى سنة اثنتين [وسبعين][1] وخمسمائة ، وجمع شعراء العراق والعجم والشام والجزيرة ومصر والمغرب ولم يترك إلا النادر الخامل ، وأحسن فى هذا الكتاب وهو فى عشر مجلدات ، وصنف كتاب «البرق الشامى» فى سبع مجلدات ، وهو مجموع تاريخ ، وبدأ فيه بذكر نفسه وصورة انتقاله من العراق إلى الشام ، وما جرى له فى خدمة السلطان نور الدين محمود بن زنكى ، وكيفية تعلقه بخدمة السلطان صلاح الدين يوسف ، وذكر شىء من الفتوحات بالشام ، وهو من الكتب الممتعة ، وإنما سماه البرق الشامى لأنه شبه أوقاته فى تلك الأيام بالبرق الخاطف ؛ لطيبها وسرعة انقضائها ، وصنف كتاب «الفتح القسى فى الفتح القدسى» فى مجلدين يتضمن كيفية فتح البيت المقدس ، وصنف كتاب «السيل على الذيل» جعله ذيلاً على الذيل لابن السمعانى الذى ذيل به «تاريخ بغداد» تأليف الخطيب البغدادى الحافظ ،

(١) ما بين حاصرتين إضافة من وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص١٥٠ .

وصنف كتاب «نصرة الفطرة وعصرة الفطرة فى أخبار الدولة السلجوقية» وله ديوان رسائل وديوان شعر فى أربع مجلدات ، ونفسه فى قصائده طويل ، له ديوان صغير جمعه دوبيت .

وكان بينه وبين القاضى الفاضل مكاتبات ومحاورات لطاف ، فمن ذلك ما يحكى عنه أنه لقيه يوماً وهو راكب على فرس فقال له : سر فلا كبى بك الفرس . فقال له الفاضل : دام علا العمادُ . وهذا مما يقرأ مقلوباً وصحيحاً سواء . واجتمعا يوماً فى موكب السلطان وقد انتشر من الغبار لكثرة الفرسان ما سد الفضاء[1] ، فتعجبا من ذلك ، فأنشده العماد فى الحال :

أما الغبار فإنه — مما أثارته السنابك
والجو منه مظلم — لكن أنارته السنابك
يا دهر لى عبد الرحيم — فلست أخشى مسّ نابك

قد اتفق له الجناس فى الأبيات الثلاثة ، وهو فى غاية الحسن ، ولم يزل العماد على مكانته ورفعته إلى أن توفى صلاح الدين ، فاختلت أحواله وتقطعت أوصاله ، ولم يجد فى وجهه باباً مفتوحاً فلزم بيته ، وأقبل على الاشتغال بالتصانيف إلى أن توفى يوم الإثنين مستهل رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة بدمشق ، ودفن بمقابر الصوفية خارج[٢٧١] باب النصر – رحمه الله– وكان مولده يوم الإثنين ثانى جمادى الآخر ، وقيل : فى شعبان تسع عشرة وخمسمائة بأصفهان . وألُهْ : بفتح الهمزة ، وضم اللام ، وسكون الهاء ، اسم عجمى معتاد بالعربى ، العقاب وهو الطائر المعروف ، وقد قيل : إن العقاب لا يوجد فيه ذكر بل جميعه أنثى ، وإن الذى يسافده طائراً آخر من غير جنسه ، وقد قيل : إن الثعلب يسافده ، وهذا من العجائب ، ولابن عنين الشاعر فى هجو شخص يقال له ابن سيده :

ما أنت كالعقاب فأمه — معروفة وله أب مجهول

وهذا إشارة إلى ما نحن فيه .[2]

---

(١) إلى هنا نقل العينى بتصرف من وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص١٤٧–ص١٥١ .

(٢) نقل العينى هذه الترجمة بتصرف من وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص١٤٧– ص١٥٣ .

مكلبة بن عبدالله المستنجدى ، كان تركيا زاهداً عابداً ، سمع المؤذن وقت السحر وهو ينشد على المنارة :

يا رجـال الليل جـدوا ... رب صـوت لا يُـردَ

مـا يقـوم الليـل إلا من ... لـه عـزم وجـدُ

فبكى مكلبة وقال للمؤذن : زدنى . فقال المؤذن :

قد مضى الليل وولى وحبيبى قد تجلى

وصرخ مُكلبة صرخة كان فيها حتفه ، فأصبح أهل البلد قد اجتمعوا على بابه ، فالسعيد من وصل إلى نعشه . وكان يوماً عظيماً لم تر بغداد مثله[1] . وفى المرآه : وكان مكلبة خازناً بدرب دينار الكبير ، وكان صالحاً يقوم الليل ، ودفن بالورديه .[2]

أبو منصور بن أبى بكر بن شجاع المزكلش ببغداد : ويعرف بابن نقطة[3] . كان يدور فى أسواق بغداد بالنهار ينشد ، كان ، وكان المواليا ، ويُسحّر الناس فى ليالى رمضان ، وكان مطبوعاً ظريفاً خليعاً ، وكان أخوه الشيخ عبد الغنى الزاهد من أكابر الصالحين ، له زاوية ببغداد يزار فيها ، وكان له أتباع ومريدون ، ولا يدخر شيئاً يحصل له من الفتوح ، تصدق فى ليلة بألف دينار ، وأصحابه صيام لم يدخر لهم شيئاً ولا عشاء ، وزوّجته أم الخليفة بجارية من خواصّها ، وجهزتها بعشرة آلاف دينار ، فما جاء الحول وعندهم من شىء بل جميع ذلك يؤثر به ويتصدق به حتى لم يبق عندهم منه شىء سوى هاون ، فوقف سائل فلح فى الطلب على الباب ، فأخرج إليه الهاون ، وقال : خذ هذا وكُل به فى ثلاثين يوماً ولا تشنع على الله عز وجل . وكان من خيار الصالحين ، والمقصود أنه قيل لأخيه أبى منصور هذا : ويحك أنت تدور فى الأسواق وتنشد الأشعار وأخوك من قد عرفته . فأنشأ يقول فى جواب ذلك بيتين مواليا :

---

(١) البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٣١ .

(٢) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٣٠ .

(٣) انظر ترجمته ، الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٦٨ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٢٨ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٣٠ .

قد خاب من شبه الجزعة إلى درة   وسام قحبة إلى مستحسنة حرة[١]
أنا مــغنى وأخى زاهد إلى عــرة   فى الدار بثران[٢] ذى حلوة وذى مرة

وكـان منحـرفـاً ، عن علـى - رضي الله عنه - ، جرى حـديث قـتل عـثمـان ، وأن عليـا كـان بالمـدينة ، ولم يقدر على الوصـول إليـه ، فـقـال ابن نقطة : ومن قـتل فى جواره مـثل ابن عـفـان ، واعتـذر يجب عليه أن يقبـل فـى الشـام عـذر يزيد ، فـأراد الشيعـة قـتله .[٣] وقال السبط : قبحه الله وأين وجه المشابهة بين الحالين! وابن زياد إنما أقدم بكتاب يزيد على قتل الحسين - رضي الله عنه - وقد خرج على رضي الله عنه يوم الدار ؛ لنصرة عثمان وفعل ما استطاع بقدر الإمكان ، وقد كان يسحر الناس فى رمضان ، فوثبوا عليه ليلة ، وكان الإمام الناصر فى المنظرة وهو واقف يسحر ، فعطس الخليفة[٢٧٢] فشمته ابن نقطة ، فبعث له الخليفة مائة دينار ، وحماه من الشيعة ، فمات بعد قليل من هذه السنة .[٤]

قراقوش بن عبدالله الفحل الخصى الأسدى الملقب ببهاء الدين المكنى بأبى سعيد . كان خادم السلطان صلاح الدين ، وقيل : خادم أسد الدين شيركوه عم السلطان صلاح الدين ، فأعتقه . وقيل : من خدام العاضد آخر خلفاء العبيديين ، ولما استقل صلاح الدين بالديار المصرية جعله زمام القصر ، ثم ناب مدة بالديار المصرية وفوض أمورها إليه واعتمد فى تدبير أحوالها عليه ، وكان رجلاً مسعوداً ، وصاحب همة عالية ، وهو الذى بنى السور المحيط بالقاهرة ومصر وما بينهما ، وبنى قلعة الجبل ، وبنى القناطر التى بالجيزة على طريق الأهرام ، وهى آثار دالة على علو الهمة ، وعمر بالمقْس[٥] رباطاً

---

(١) ورد هذا البيت فى أبى شامة كالآتى :
قد خاب من شبه الجزعة إلى الدرة
وشابه قحبة إلى مستجنة حرة
انظر الذيل على الروضتين ، ص٢٨ .
كما ورد فى ابن كثير الشطرة الثانية كالآتى :
وقاسى قحبة إلى مستحيية حرة
البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٣٢ .

(٢) «بثرين» فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه .

(٣) نقل العينى هذا النص بتصرف من الذيل على الروضتين ، ص٢٨ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٣١-ص٣٢ .

(٤) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٣١ .

(٥) المقْسْ : أحد الموانئ على النيل ، وكان يسمى أم دنين ، فيه حصن ومدينة قبل بناء الفسطاط . ياقوت ، معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٦٠٦ .

وعلى باب الفتوح بظاهر القاهرة خان السبيل ، وله وقف كثير لا يعرف مصرفه ، وكان حسن المقاصد جميل النية ، ولما أخذ السلطان صلاح الدين مدينة عكا من الفرنج سلمها إليه ، ثم استولى الفرنج عليها ، ووقع أسيرا[١] فى أيديهم ، يقال : إنه أفتك نفسه بعشرة آلاف درهم . وقيل : أفتكه صلاح الدين بستين ألف دينار . وكانت له حقوق كثيرة على السلطان صلاح الدين وعلى الإسلام والمسلمين .[٢] وقال ابن خلكان : والناس ينسبون إليه أحكاماً عجيبة فى ولايته ، وأن كاتباً يقال له الأسعد المماتى له جزء لطيف سماه «كتاب الفاشوش فى أحكام قراقوش» وفيه أشياء يبعد وقوعها منه ، والظاهر أنها موضوعه ، فإن صلاح الدين كان معتمداً فى أحوال المملكه عليه ، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ما فوضها إليه ، وكانت وفاته فى مستهل رجب من هذه السنة بالقاهرة ، ودفن فى تربته المعروفة به بسفح المقطم ، بقرب البئر والحوض اللذين أنشأهما على شفير الخندق .[٣] وقال ابن كثير : ولما توفى احتاط الملك العادل على تركته ، وصارت أملاكه وإقطاعه للملك الكامل محمد بن الملك العادل ، وفى القاهرة داخل باب الفتوح الحارة المسماة بحارة بهاء الدين منسوبة إليه ، وقراقوش لفظ تركى ومعناه بالعربى العقاب الطائر المعروف ، وسمى به لشهامته وشجاعته .[٤]

عز الدين إبراهيم بن محمد بن عبد الملك بن المقدم ، صاحب بلاد منبج ، وقلعة نجم ، وأفامية ، وكفر طاب ، وغيرها ، توفى فى هذه السنة وصارت البلاد بعده لأخيه شمس الدين عبدالملك بن محمد بن عبدالملك .[٥] وقال السبط : وأبوه محمد المقتول بعرفات ، وكان إبراهيم شجاعاً عاقلاً ، وله قلعة بارين ، وأفامية ، ومنبج ، والراوندان ، وعدة حصون . وكانت وفاته بدمشق[٦] فى العقيبة .

---

(١) «أسير» فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه .

(٢) ورد هذا الخبر بتصرف فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٣١ ، راجع أيضاً ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٩١-ص٩٢ .

(٣) وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٩٢ .

(٤) البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٣١ ؛ نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص٣٠-ص٣١ .

(٥) الذيل على الروضتين ، ص٢٠ .

(٦) ورد هذا الخبر بالتفصيل فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣١٠ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الثامنة والتسعين بعد الخمسمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله ، وقد استقرت الممالك الشامية والشرقية والديار المصرية كلها للملك العادل[1] ، وانتظم جميعها فى سلك مُلكه ، وخطب له على منابرها ، وضربت السكة فيها باسمه ، وكان العادل قد قدم دمشق فى هذه السنة بعد رحيل الملكين الأخوين الأفضل والظاهر ، ابنا السلطان صلاح الدين ، وكان الميمون[2] القَصَّرى قد سار مع الظاهر كما ذكرنا ، فأقطعه أعزاز[3] ، ثم سار الملك العادل من دمشق إلى حماه ونزل على تل صفرون[٢٧٣] ونزل إليه صاحبها الملك المنصور وقام بجميع وظائفه وكلفه ، وبلغ الظاهر صاحب حلب وصول عمه إلى حماه بنية قصده ومحاصرته ، فاستعد للحصار بحلب وراسل عمّه ولاطفه وأهدى إليه ، ووقعت بينهما مراسلات ، ووقع الصلح ، وأخذ من الملك الظاهر قلعة نجم[4] وأعطاها للملك الأفضل ، وكانت له سروج ، وشميساط وكان الأفضل حينئذ بحمص [عند][5] شيركوه فجاء إلى عمه العادل [فالتقاه عند[6] ثنيه] العقاب وأكرمه ، ثم سلم العادل حران وما معها لولده الملك الأشرف مظفر الدين موسى[7] ، وسيّره إلى الشرق ، وكان بميافارقين الملك الأوحد ابن العادل[8] ، وكان بجعبر الملك الحافظ نور الدين أرسلان شاه بن العادل ، ثم لما استقر الصلح بين العادل والظاهر رجع العادل إلى دمشق[9] ، وأقام بها وأرسل الظاهر إلى قلعة منبج ، وأخربها خوفاً من انتزاعها منه ، وأقطع منبج بعد ذلك عماد

(★) يوافق أولها ١ أكتوبر ١٢٠١م

(١) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص٧٤ .

(٢) الميمون القصرى : كان من زعماء الأمراء الصالحية . انظر : نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص١٩ ، حاشية ٢ .

(٣) أعزاز : حصن مشهور وقلعة بالقرب من حلب . انظر أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص٢٣١ .

(٤) قلعة النجم ، قلعة جبلية مطلة على الفرات عندها جسر تعبر عليه القوافل من حران إلى الشام ، وكانت تعرف قبل ذلك بقلعة منبج ، وعرفت كذلك بجسر منبج . معجم البلدان ، جـ٤ ، ص١٦٥ .

(٥) ما بين حاصرتين فراغ بالمخطوطة بمقدار كلمة . أكمل من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٣١ .

(٦) ما بين حاصرتين فراغ بمقدار ثلاث كلمات بالمخطوط أكمل من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٣١ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٢٩ .

(٧) الأشرف مظفر الدين موسى : هو أبو الفتح موسى بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب ، ملك الرها ٥٩٨هـ ثم أضيف له حران ، وتوفى بدمشق ٦٣٥هـ . وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص٣٣٣ . .

(٨) الملك الأوحد : هو نجم الدين أيوب صاحب خلاط وميافارقين ، توفى فى شهر ربيع الأول سنة ٦٠٩هـ بملازكرد من أعمال خلاط . وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص١٢١ ؛ جـ٥ ، ص٧٦ ، ٣٣٠ .

(٩) ورد هذا الحدث بتصرف فى السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص١٩٢ .

الدين بن سيف الدين على بن أحمد المشطوب[١] وأرسل قراقوش نائب عبدالملك بن محمد بن عبدالملك المقدم بأفاميه إلى الظاهر يبذل له أفاميه بشرط أن يعطيه أقطاعاً يرضاها، فأقطعه الظاهر الراوندان وكفر طاب، ومفردة المعرّة، وهى عشرون ضيعة معّينة من بلاد معرة النعمان، وتسلم أفاميه، ثم أن عبدالملك المذكور عصى بالراوندان فسار إليه الظاهر واستنزله منها وأبعده، فلحق عبدالملك بعد ذلك بالملك العادل فأحسن إليه.[٢]

ذكر أمر خوارزم شاه

وفيها ملك خوارزمشاه ما كان أخذه الغورّيه من بلاده، وقد ذكرنا أن غياث الدين وأخاه شهاب الدين استوليا على خراسان ومرو ونيسابور وغيرها من بلاد خوارزم شاه، فلما اتصل الخبر بالسلطان محمد بن تكش سيّر إلى غياث الدين يعاتبه ويقول له : كنت أعتقد أنك تحلف علىَّ بعد أبى وتنصرنى على الخطا، فحيث لم تفعل فلا أقل من أن لا تؤذينى ولا تأخذ بلادى فإن لم تعد إلى ما أخذت منها وإلا انتصرت عليك بالخطا وغيرهم من الأتراك إن عجزت عن أخذ بلادي. فغالطه غياث الدين بالجواب والمراسلات حتى يخرج أخوه من الهند بالعسكر، فجمع خوارزم شاه عساكره وسار إلى خوارزم نصف ذى الحجة سنة سبع وتسعين، فلما قارب نسا هرب هندوخان ابن أخى ملكشاه[٣] من مرو إلى غياث الدين، فملك خوارزم شاه مرو وسار إلى نيسابور وبها علاء الدين نائب غياث الدين فحصره مدة شهرين، ثم نزل بالأمان، فأرسله إلى غياث الدين بسبب الصلح والاتفاق، وأحسن إلى أمراء الغورية، وسار إلى سرخس وبها الأمير زنكى فحصره أربعين يوماً ثم رحل عنها، فلما بلغه اجتماع الغورية أرسل إليهم عسكراً مع خاله فلقيهم عسكر الغورية ومقدمهم محمد بن حَرْبك، فهزم عسكر خوارزم شاه، فعادوا إلى خوارزم ثم أرسل إلى غياث الدين فى الصلح فأجابه عن رسالته صحبه الأمير الحسن بن محمد المرغنى، فلما وصله قبض عليه وسار إلى هراة، وبلغ غياث الدين فسار بعساكره ونزل برباط رزين بالقرب من هراة ولم يقدم على خوارزم شاه لقلة ما معه من العسكر ؛ فإن

---

(١) هو أبو العباس أحمد بن سيف الدين أبى الحسن على بن أحمد بن أبى الهيجاء بن عبدالله بن أبى الخليل بن مارزبان الهكارى المعروف بابن المشطوب. وفيات الأعيان، جـ١، ص١٨٠.

(٢) المختصر فى أخبار البشر، جـ٣، ص١٠١.

(٣) ورد هذا الحدث بتصرف فى المختصر فى أخبار البشر، جـ٣، ص١٠٠.

أكثر عساكره مع أخيه شهاب الدين بالهند ، فأرسل خوارزم شاه[٢٧٤] إلى أمير البلد فصالحه على مال حمله إليه ، فرحل عن هراه ، ولما بلغ شهاب الدين بن خوارزم شاه عاد إلى البلاد وأخذها سار من غزنة إلى خراسان ، ومنها إلى بلخ ، ومنها إلى باميان ، ومنها إلى مرو ، عازماً على حرب خوارزم شاه ، والتقت أوائل عسكريهما فقتل بينهما جماعة ، ثم ارتحل خوارزم شاه وقطع القناطر وقتل الأمير سنجر صاحب نيسابور ، وتوجه شهاب الدين إلى طوس فأقام بها تلك الشتوة على عزم المسير إلى خوارزم شاه فأتاه الخبر بوفاة أخيه غياث الدين ، فقصد هراة وترك العزم .[١]

ذكر بقية الحوادث

منها أن الخليفة ولىّ عبداللطيف بن نصر الكيال الواسطى قضاء واسط[٢] ، وخلع على أبى الربيع الواسطى ، ودرس بالنظامية .

ومنها أن السعايات قد كثرت ببغداد ففسدت الأمور ، فنادى الخليفة من سعى بأحد أبيح ماله ودمه ، فصلحت الأحوال .

ومنها أنه جاءت زلزلة عظيمة فى شعبان وشقت قلعة حمص ورمت المنظرة التى على القلعة ، وأخربت حصن الأكراد ، وتعدت إلى جزيرة قبرس ، وامتدت إلى نابلس فأخربت ما بقى[٣] . وقال العز بن تاج الأمناء : هذه الزلزلة العظمى التى هدمت بلاد الساحل صُور وطرابلس وعَرقة ، وشعثت كثيراً من البلاد الإسلامية الشاملية ، ورميت بدمشق رؤس منابر الجامع وبعض شرافيه من شماله ، فقتلت رجلاً مغربياً بالكلاسة ، ومملوكاً تركياً لرجل صيرفى ساكناً فى درب الشمَيساطى عند تنفس الصبح فى يوم الإثنين السادس والعشرين من شعبان الموافق للعشرين من آب ، فأعقبها زلزلة حقيفة فى صحوة الغد .[٤]

ومنها أن هذه السنة استهلت والغلاء مستمر فى تناقص لاستقبال جمادى الآخرة لما ظهر من زيادة نيلها وأقلع فى آخرها .[٥]

---

(١) ورد هذا الحدث مفصلاً فى الكامل ، جـ١٢ ، ص٧٦- ص٧٨ .
(٢) الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٨٠ .
(٣) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٣١ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٢٨ .
(٤) الذيل على الروضتين ، ص٢٩ .
(٥) الذيل على الروضتين ، ص٢٩ .

ومنها أنه ولى قضاء القضاة ببغداد أبو الحسن على بن سليمان الحلى ، وخلع عليه .[١]

ومنها أن الشيخ أبا عمر محمد بن قدامة المقدسى شرع فى بناء المسجد الجامع بجبل قاسيون ، فأنفق عليه رجل يقال له الشيخ أبو داود محاسن الغامى حتى بلغ البناء إلى قامته ونفذ ما كان معه ، فأرسل الملك المظفر كوكبرى بن زين الدين صاحب إربل مالاً جزيلاً لتتميمه فكمل ، وأرسل ألف دينار ليساق إليه الماء من برزة ، فلم يمكّن ذلك الملك المعظم بن العادل صاحب دمشق ، واعتذر بأن هذا يشوش قبوراً كثيرة للمسلمين ، فصنع له بئرا وبغلا[٢] يدور وأوقف عليه .

وفيها حج بالناس من العراق وجه السبع ومن الشام خشتر بن الهكارى .[٣]

ذكر من توفى فيها من الأعيان

الإمام حسام الدين على بن أحمد بن مكى الرازى الفقيه الحنفى ، ذكره بن عساكر فى تاريخه ، وقال : قدم دمشق وسكنها ، وكان يدرس بالمدرسة الصادرية[٤] ، ويفتى على مذهب أبى حنيفة ﷺ ويناظر فى مسائل الخلاف . قال : وما أظنه حدث . وقال ابن عديم فى تاريخه : لما قدم حلب عقدوا له مجلساً للمناظرة فجعل يذكر مسألة مسألة من مسائل الخلاف ، ويذكر أدلة كل فريق ويجيب عنها فأذعنوا له ، وتفقه بحلب عليه أبو غانم وجماعة[٢٧٥] وله مصنفات منها : خلاصة الدلائل فى تنقيح المسائل][٥] ، ومنها «سلوة الهموم[٦]» جمعه . وقد مات له ولد . وكان وروده إلى حلب فى أيام نور الدين الشهيد وأقام بالمدرسة النورية فى أيام العلاء الغزنوى ، فلما توفى الغزنوى وولى المدرسة بعده ابنه محمود ، وكان أبو الحسن الرازى يدبر حاله وتوفى سنة ثمان وتسعين وخمسمائة بدمشق ، ودفن خارج باب الفراديس .

---

(١) الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٨٠ . ولمعرفة المزيد . راجع ترجمته فى كتاب إنسان العيون ، ص١٢٨ .

(٢) «بئر وبغل» فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه .

(٣) الذيل على الروضتين ، ص٢٩ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٣١ ؛ نهاية الأرب ، ص٣٢ .

(٤) المدرسة الصادرية : هى بدمشق داخل باب البريد على باب الجامع الأموى الغربى أنشأها شجاع الدولة صادر بن عبدالله سنة ٤٩١هـ انظر النعيمى ، الدارس فى تاريخ المدارس ، تحقيق جعفر الحسنى ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ١٩٨٨ ، جـ١ ، ص٥٣٧-ص٥٣٩ ترجمة رقم ١١١ .

(٥) حاجى خليفة ، كشف الظنون ، مجلد١ ، ص٧١٨ .

(٦) حاجى خليفة ، كشف الظنون ، مجلد٢ ، ص٩٩٩ .

القاضى ابن الزكى محمد بن على بن محمد بن يحيى بن على بن عبد العزيز أبو المعالى القرشى محيى الدين[١] **قاضى قضاة دمشق** ، وكذا كان أبوه وجدّه يحيى بن على المذكور ، وهو أول من ولى دمشق منهم ، وكان جد الحافظ أبى القاسم بن عساكر لأمه ، وقد ترجمه فى تاريخه ولم يزد على القرشى . وقال أبو شامة : ولو كان أموياً عثمانياً كما يزعمون لذكر ذلك ابن عساكر ، وكان فيه شرف لجده وخاليه محمد وسلطان ، ولو كان ذلك صحيحاً لما خفى عليه[٢] . اشتغل [ابن زنكى][٣] على القاضى شرف الدين أبى سعد عبدالله بن محمد بن أبى عصرون وناب عنه فى الحكم ثم ترك النيابة . وهو أول من خطب بالقدس لما فتحه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب كما ذكرنا فى سنة ثلاث وثمانين ، ثم ولاه قضاء دمشق وأضاف إليه قضاء حلب أيضاً ، وكان ناظر أوقاف الجامع ثم عزل عنها قبل وفاته بشهر ووليها شمس الدين ابن التبنينى ضماناً .[٤] وقد كان القاضى محيى الدين بن الزكى ينهى الطلبه عن الاشتغال بالمنطق والكلام ويحرق كُتب من كان عنده شيء من ذلك بالمدرسة التقوية[٥] ، وكان يحفظ العقيدة المسماة بالمصباح[٦] للغزالى[٧] ويحفظها أولاده أيضاً ، وكان له درس فى التفسير يذكره الكلاسية تجاه تربة الملك الناصر صلاح الدين يوسف ، وقد كان وقع بينه وبين الإسماعيلية فاتخذ له باباً من داره إلى الجامع ليخرج إلى الصلاة منه ، ثم خولط فى عقله فكان يعتريه شبه الصرع إلى أن توفى فى سابع شعبان من هذه السنة ، ودفن بتربته فى سفح قاسيون[٨] . وقال ابن خلكان : أبو المعالى محمد بن أبى الحسن على بن محمد بن يحيى بن عبدالعزيز بن على بن الحسين بن محمد بن عبدالرحمن بن القاسم بن عبدالعزيز بن أبان بن عثمان بن عفان القرشى ، الملقب محيى الدين المعروف بابن زكى

---

(١) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٢٢٩-ص٢٣٦ .

(٢) يقصد هنا ابن عساكر . البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٣٣ .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٣٣ ، لتوضيح الخبر .

(٤) «شمس الدين بن الليثى» ، كذا ورد فى البداية والنهاية . جـ١٣ ، ص٣٣ .

(٥) المدرسة التقوية : إحدى مدارس دمشق داخل باب الفراديس شمال شرقى الظاهرية والإقباليتين بناها تقى الدين عمر بن شاهنشاه ٥٧٤هـ ، النعيمى ، الدارس فى تاريخ المدارس ، جـ١ ، ص٢١٦-ص٢٢٥ .

(٦) عن «المصباح» للغزالى ، انظر السبكى ، طبقات الشافعية الكبرى ، جـ٤ ، ص١١٦ .

(٧) انظر ترجمة الغزالى فى وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٢١٦-ص٢٢٨ ، ترجمة رقم ٥٨٨ .

(٨) وردت هذه الترجمة بتصرف فى الذيل على الروضتين ، ص٣٢ .

الدين الدمشقى الفقيه الشافعى ، كان ذا فضائل عديدة فى الفقه والأدب وغيرهما ، وله النظم المليح والخطب والرسائل ، وتولى القضاء بدمشق فى شهر ربيع الأول سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، يوم الأربعاء العشرين من الشهر المذكور ، وكذلك أبوه وجده وولداه كانوا قضاتها ، وكانت له عند السلطان صلاح الدين المنزلة العالية والمكانة المكينة ، ولما فتح السلطان صلاح الدين حلب يوم السبت ثامن عشر صفر ، سنة تسع وسبعين وخمسمائة أنشده القاضى محيى الدين المذكور قصيدة بائيه ، أجاد فيها كل الإجادة ، وكان من جملتها بيت هو متداول بين الناس وهو :

وفتحك القلعة الشهباء فى صفر مبشرة بفتوح القُدس فى رجب

فكان كما قال ، وقد ذكرنا هذا فى موضعه ، وكانت ولادته فى سنة خمسين وخمسمائة بدمشق ، وتوفى فى التاريخ المذكور .[١]

وكان والده أبو الحسن على الملقب زكى الدين على القضاء بدمشق . وكان كثير الخير والدين ، فاستعفى من القضاء فأعفى ، فخرج إلى مكة حاجاً ، وعاد إلى بغداد فى صفر سنة ثلاث وستين وخمسمائة فأقام بها ، وكان عالى الطبقة فى سماع الحديث . سمع خلقاً كثيراً ، ولم يزل بها إلى أن توفى يوم الخميس الثامن والعشرين من شوال سنة أربع وستين وخمسمائة ، ودفن بمقبرة الإمام أحمد ﷺ .[٢] ثم فى صفر من سنة أربع وستمائة عزل الشمس بن التبنينى عنها وتولاها الرشيد ابن أخته ضماناً بزيادة ثلاثة آلاف دينار ، ثم فى تاسع شعبان من سنة أربع وستمائة أبطل ضمانها وتولاها المعتمد والى دمشق[٢٧٦] .

الخطيب الدولعى ضياء الدين أبو القاسم عبدالملك بن زيد بن ياسين التغلبى الدولعى ، نسبة إلى قرية بالموصل يقال لها الدولعية ، ولد بها سنة ثمان عشرة وخمسمائة[٣] ، وتفقه ببغداد على مذهب الشافعى ، وسمع الحديث ، ثم قدم دمشق فولى بها الخطابة وتدريس الغزالية ، وكان زاهداً متورعاً حسن الطريقة مهيباً فى الحق ،

(١) وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٢٢٩ ، ص٢٣٦ .
(٢) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٢٣٦ . ترجمة عارضة (171) فى نفس ترجمة ابن الزكى ، الذهبى ، العبر ، جـ٤ ، ص٣٠٣-ص٣٠٤ .
(٣) أشار سبط بن الجوزى أنه الخطيب الدولعى ، ولد سنة ٥٠٧هـ ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٣٢ .

وكانت وفاته يوم الثلاثاء ثانى عشر ربيع الأول من هذه السنة[١] ، ودفن بمقبرة باب الصغير عند قبور الشهداء ، وتولى بعده الخطابة ولده كمال الدين محمد[٢] سبعاً وثلاثين سنة . وقال أبو شامة : سمع جامع الترمذى من أبى الفتح الكروخى ، وكتاب السنين للنسائى من أبى الحسن على بن أحمد اليزدى ، وسمع من الحافظ أبى القاسم بن عساكر والقاضى أبى سعد بن أبى عصرون ، وقرأ عليه الفقه[٣] ، وطلبه شرف الدين بن عصرون أن ينوب عنه فى القضاء فأبى فاستناب جمال الدين أبى الحرستانى . وقال فى ترجمته : ابن الزكى ابن أبى عصرون طلب من يستنيبه فأشير عليه بالخطيب ضياء الدين الدولعى ، فأرسل إليه خلعة مع البدر بن يونس الفارقى فرده وشتمه ورمى الخلعة ، فأرسل إلى جمال الدين أبى الحرستانى فناب عنه وعن ابنه المحيى إلى أن عزل .

ابن غليس الزاهد الشيخ على بن محمد بن غليس اليمنى ، العابد الزاهد ، كان مقيماً بشرقى الكلاسة ، وكانت له أحوال ومقامات نقلها الشيخ علم الدين السخاوى عنه ، وساقها عنه أبو شامة فى الذيل . منها أنه قال : سمعت أبا[٤] غليس يقول : كنت مسافراً مع قافلة فرأيت فى المنام كأن سبعاً اعترضهم فقطع الطريق عليهم ، فوقفوا حائرين فتقدمت إليه وقلت له : يا كلب الله أنت كلب «الله»[٥] وأنا عبدالله فاخضع وارجع[٦] لمن سكن له ما فى السموات والأرض وهو السميع العليم ، فذهب وانفتحت الطريق للقافلة ، ثم انبهت فسرنا قليلاً وإذا بالقافلة قد وقفت ، فسألته ما الخبر؟ فقيل : السبع على الطريق . فتقدمت إليه وهو مقع على ذنبه ، فقلت ذلك الكلام وتقدمت إليه ، فأدخلت يدى فى فمه وقلبت أسنانه وشممت من فيه رائحه كريهه[٧] . قال الشيخ السخاوى : أنه يأكل اللحم وما يتخلل . قال : وأدخلت يدى بين أفخاذه فقلبت خصيته

---

(١) الذيل على الروضتين ، ص٣١ ، وفيات الأعيان ، جـ٧ ، ص٢٠٣ ، ترجمة عارضة ٣٩١ . أما ابن كثير فقد أشار إلى أن وفاته كانت تاسع عشر ربيع الأول . انظر البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٣٣ .

(٢) ذكر أبو شامة أن الذى تولى الخطابة ابن أخيه «جمال الدين محمد» الذيل على الروضتين ، ص٣١ ، أما ابن كثير ، فذكر أن الذى تولى الخطابة بعده ولد أخيه «محمد بن أبى الفضل بن زيد وقيل ولده جمال الدين محمد . انظر البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٣٣ .

(٣) إلى هنا توقف العينى عن النقل من الذيل على الروضتين ، ص٣١ .

(٤) «أبى» فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه .

(٥) «الله» لم يرد اسم الجلالة هنا ، أبو شامة ، الذيل ، ص٣٠ .

(٦) «اخنع» كذا فى الأصل والتصحيح من الذيل ، ص٣٠ .

(٧) «نتنه» كذا فى الأصل والتصحيح من الذيل ، ص٣٠ .

وإذا هما مثل خصيتى القط . قال أبو شامة : وكان يقول عن نفسه : ابن غليس ما يسوى ، فليس رحمه الله .[١]

الصدر الحرانى أبو الثناء حماد بن هبة الله بن حماد الحرانى التاجر . ولد سنة إحدى عشرة وخمسمائة ، عام ولد نور الدين الشهيد ، وسمع الحديث ببغداد ومصر وغيرهما من البلدان ، وحدث ، وتوفى بحران فى ذى الحجة من هذه السنة ، ومن شعره قوله :

تنقل المرء فى الآفاق يكسبه … محاسناً لم يكن فيها ببلدته
أما ترى بيدق الشطرنج أكسبه … حُسنُ التنقل فيها فوق رتبته[٢]

وفى المرآة : سمع بمصر أبا محمد بن رفاعة السعدى ، وبالإسكندرية الحافظ السلفى ، وببغداد ابن السمرقندى وغيرهم[٣] ، وأثنى عليه الموفق الحرانى .

أبو الشكر[٤] محمود بن سليمان بن سعيد الموصلى ويعرف بابن المحتسب ، تفقه ببغداد ثم سافر إلى البلاد ، وصحب ابن الشهرزورى ، وقدم معه حتى ولى قضاء بغداد ، فولاه نظر أوقاف النظامية ، وكان فاضلاً ، يقول الشعر الرائق ، فمن ذلك قوله :

أسلف لنا فى سلافة العِنب … جميع ما يقْتَنى من الذهب[٢٧٧]
وانشب مع النفس[٥] فى معاملة … فيها بما عندنا من النشب
جميع ما فى الهميان يحقره الـ … ـعاقل فى لثم ثغرها النشب[٦]
لاسيما إن أتتك كالذهب … قد قلدوها عقداً من الحَبَب
تُحرق كف المدير إن وقف الرو … ربها ساعة من اللهب
إذا بدا ههنا ليسرق السمع … برفق اللهو واللعب[٧]

(١) نقل العينى هذه الترجمة بتصرف من الذيل على الروضتين ، ص٣٠-ص٣١ .
(٢) الذيل على الروضتين ، ص٢٩-٣٠ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٣٢ .
(٣) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٣٢ .
(٤) عن ترجمة أبى الشكر راجع الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٩٠-٩٢ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٣٤ .
(٥) «القس» كذا فى الأصل والتصحيح من الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٩١ .
(٦) «جميع ما فى الوجود يحتقر العا … قل فى لثم ريقه الشنب»
هكذا ورد البيت فى الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٩١ .
(٧) إذا بدا ههنا ليسترق السمـ … ـع برفق اللهو واللعب
هكذا ورد هذا البيت فى الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٩١ .

يتبعها[1] من سماء راؤوقها　　الرائق رجماً بالأنجم الشهب
ما قط تبت يد لشاربها　　وحق تبت يدا أبى لهب
أمر بالكرم خلف حائطه　　تأخذنى نشوة من الطرب
أسكر بالأمس إن[2] عزمت على الشر　　ب غدا أن ذا من العجب
جنبها سكرها وصحبتها　　تحريم شرع لسيد العرب
تركتها جانباً ولذت إلى　　ظل أمام ينجى من النوب
الطاهر الطهر وابن خير فتى　　وطاهر الخلق طاهر النسب
ماذا يقول المداح فى رجل　　خليفة الله وابن عم النبى[3]

هبة الله بن الحسن بن المظفر أبو القاسم الهمذانى[4] ويقال له : ابن السبط والسبط . هوجد المظفر ، كان سبطاً لأحمد بن على بن لال الفقيه الهمذانى ، ولد هبة الله فى سنة عشر وخمسمائة ، وهو محدث ابن محدث ابن محدث ، وكانت وفاته بباب المراتب ببغداد فى المحرم ، ودفن بالريان[5] ، سمع أبا القاسم بن الحصين وقاضى المارستان وابن السمرقندى . قال صاحب المرآة : وسمعنا عليه بباب المراتب . وأنشدنا لغيره :

إذا الفتى ذمّ عيشًا فى شبيبته　　فما يقول إذا عصر الشباب مضى
وقد تعوضت عن كل بمشبهه　　فما وجدت لأيام الصبا عوضا[6]

هبة الله بن على بن مسعود بن ثابت المنستيرى[7] ، بضم الميم وفتح النون وسكون السين المهملة وكسر الياء المثناه من فوق وسكون الياء آخر الحروف وبعدها راء ، ومنستير بليدة بإفريقية ، وكان هبة الله المذكور عالى الإسناد ، ولم يكن فى عصره من هو فى درجته ، سمع إبراهيم بن حاتم الأسدى ، وسمع جماعة من الأكابر ، وسمع الناس

---

(١) «تتبعه» هكذا وردت الكلمة عند ابن الساعى ، الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٩١ .
(٢) «إذ» الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٩١ .
(٣) ورد هذا الشعر مع شىء من الاختلاف فى الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٩١ .
(٤) الذيل على الروضتين ، ص٣٠ ؛ مرآة الزمان . جـ٨ ، ص٣٣٣ .
(٥) الريان : محلة مشهورة ببغداد . انظر معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٨٨٢ .
(٦) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٣٣ .
(٧) وفيات الأعيان ، جـ٦ ، ص٦٧-٦٨ ؛ شذرات الذهب ، جـ٤ ، ص٣٣٨ .

على هبة الله المذكور وسافروا إليه من البلاد لعلو إسناده ، وكان جده مسعود قد قدم من منستير إلى بوصير فعرف هبة الله المذكور بالبوصيرى ، وكانت ولادته سنة ست وخمسمائة ، وتوفى فى هذه السنة رحمه الله .[1]

الست الجليلة المصونة بنفشا بنت عبدالله عتيقة الإمام ، المستضىء ، وكانت من أكبر خطاياه ، ثم كانت بعده من أكثر النساء صدقة ، وإحساناً إلى العلماء والفقهاء[2] ولها بطريق الحجاز معروف كثير ، ووقفت على الحنابلة مدرسة وأوقافاً دارة ، توفيت فى هذه السنة ودفنت فى تربة لها ببغداد عند قبر معروف الكرخى ﷺ . وفى المرآة : عمرت الرُبُط والمساجد والجسر ببغداد ، وهى التى اشترت دار الوزير بن جهبر بباب الأزج ووقفتها على الحنابلة .

(١) المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص١٠٢ .

(٢) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٣٢ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة التاسعة والتسعين بعد الخمسمائة[★]

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله ، والسلطان الملك العادل أبو بكر بن أيوب أخو السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب مقيم فى دمشق ، وأرسل إلى ولده الملك الأشرف ، وأمره بمحاصرة ماردين ، فحاصرها وضايقها ، ثم سعى الملك الظاهر صاحب حلب إلى العادل فى الصلح ، فأجاب على أن يحمل إليه صاحب ماردين مائة ألف وخمسين ألف دينار ، ويخطب له ببلاده ويضرب السكة باسمه ويكون بخدمته متى طلبه ، فأجيب إلى ذلك واستقر الصلح عليه ، وأرسل العادل وانتزع ما كان بيد الملك الأفضل ، وهى رأس عين ، وسروج ، وقلعة نجم[١] ، ولم يترك بيده غير شميساط[٢] فقط ، فأرسل الأفضل والدته ودخلت على الملك المنصور صاحب حماه ليرسل معها من يشفع فى الأفضل عند الملك العادل فى إبقاء ما كان بيده ، وتوجهت أم الأفضل وتوجه معها من حماه القاضى زين الدين بن هندى إلى الملك العادل ، فلم يجبها العادل ورجعت خائبة ، وقال ابن الأثير مؤلف الكامل : وقد عوقب البيت الصلاحى مثل ما فعله والدهم السلطان صلاح الدين لما خرجت إليه نساء الأتابكى وفى جملتهن بنت نور الدين الشهيد يشفعن فى إبقاء الموصل على عز الدين مسعود فردهن ولم يجب إلى سؤالهن ، ثم ندم رحمه الله على ردهن ، فجرى للأفضل بن صلاح الدين مع عمه العادل مثل ذلك ، ولما جرى ذلك أقام الأفضل بشميساط وقطع خطبة عمه الملك العادل ، وخطب للسلطان ركن الدين سليمان بن قليج أرسلان بن مسعود السلجوقى صاحب الروم .[٣]

وفيها أخرج الملك العادل الملك المنصور محمد بن العزيز بن صلاح الدين من مصر إلى الشام فسار بوالدته وأقام بحلب عند عمه الملك الظاهر[٤] . وقال ابن كثير :

(★) يوافق أولها ٢٠ سبتمبر ١٢٠٢م .

(١) قلعة النجم : قلعة حصينة مطلة على الفرات على جبل تحتها ربض عامر وعندها جسر يسمى جسر منبج ، انظر معجم البلدان ، جـ٤ ، ص١٦٥ .

(٢) ورد هذا الخبر بتصرف فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٨١ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٣٤ ؛ نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص٣٦ .

(٤) ورد هذا الحدث باقتضاب فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٨٣ . ولمعرفة المزيد من التفصيل ارجع إلى المختصر ، جـ٣ ، ص١٠٤ .

(٥) ورد هذا الحدث باقتضاب فى نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص٣٥ .

وفيها احتجز الملك العادل على محمد بن الملك العزيز وأخوته وسيرهم إلى الرها خوفاً من إقامتهم بالديار المصرية .[١]

وفيها بعث الخليفة الخلع وسراويلات الفتوة[٢] إلى الملك العادل وأولاده ، فلبسوها فى شهر رمضان ، وأمر العادل بعمارة قلعة دمشق وابتدئ ببرج الزاوية الغربية والقبلية المجاورة لباب الصغير .[٣]

ذكر غزوة الملك المنصور صاحب حماه

وفيها سار الملك المنصور إلى بعرين مرابطاً للإفرنج وأقام بها ، وكتب الملك العادل إلى صاحب بعلبك وإلى صاحب حمص بأنجاده ، فاجتمعت الإفرنج من حصن الأكراد وطرابلس وغيرهما ، وقصدوا الملك المنصور ببعرين واتفقوا معه فى ثالث شهر رمضان ، فانهزمت الإفرنج وقتل منهم جماعة ، وأسر[٤] آخرون ، وكان يوماً مشهوداً ، وفى ذلك يقول بهاء الدين أسعد بن يحيى السنجارى قصيدة[٥] :

ما لذة العيش إلا صوت معمعة ... يُنال فيها المُنَى بالبيض والأسلِ
يا أيها الملك المنصور نصح فتى ... لم يلوه عن ما جاء[٦] كثرة العذل
أعزم ولا تترك الدنيا بلا ملك ... وجد فالملك محتاج إلى رجل
يا أوحد العصر ياخير الملوك ومن ... فاق البرية من حاف ومنتعل

ثم خرج من حصن الأكراد والمرقب الاستبار والإفرنج وانضم إليهم جموع من السواحل ، واتقعوا مع الملك المنصور صاحب حماه وهو نازل ببارين فى الحادى والعشرين من رمضان[٢٧٩] بعد الوقعة الأولى بثمانية عشر يوماً فانتصر ثانياً ، وانهزمت الإفرنج هزيمة قبيحة ، وقتل المنصور منهم عدة وأسر جماعة .[٧]

(١) البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٣٨ .
(٢) الفتوة : نظام رياضى شبه عسكرى ، وجده الخليفة الناصر وله ملابس خاصة به . نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص٣٦ ، حاشية١ .
(٣) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٣٣ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٣٣ ، نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص٣٦ .
(٤) «وأسرت» فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه .
(٥) راجع ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص٢١٤-ص٢١٧ ، الخريدة ، قسم الشام ، جـ٢ ، ص٤٠١ .
(٦) فى أبى الفدا «لم ينوه عن فاء» .
(٧) المختصر ، جـ٣ ، ص١٠٣ ؛ السلوك ، جـ١ ق١ ، ص١٩٤ .

وفيها استولت الكرج على مدينة دوين من أذربيجان ونهبوها وقتلوا أهلها ، وكانت هى وجميع أذربيجان للأمير أبى بكر بن البهلوان ، وكان مشغولاً ليلاً ونهاراً بشرب الخمر ولا يلتفت إلى تدبير مملكته ، ووبخه أمراؤه ونوابه على ذلك فلم يلتفت .[١]

ذكر ما جرى فى اليمن

وفى هذه السنة جرى خباط عظيم فى اليمن ، وذلك أنه كان قد ملك اليمن المعز إسماعيل شمس الإسلام بن سيف الإسلام طغتكين بن أيوب كما ذكرنا ، وكان فيه هوج وخبط فادعى أنه قرشى وأنه من بنى أمية ولبس الحضرة ، وخطب لنفسه بالخلافة ، وخطب بنفسه ، ولبس ثياب الخلافة فى ذلك الزمان - وكان طول الكم نحو عشرين شبراً ، وخرج عن طاعته جماعة من مماليك أبيه واقتتلوا معه فانتصر عليهم ، ثم اتفق معهم جماعة من الأكراد وقتلوا المعز إسماعيل ، وأقاموا فى مملكة اليمن أخاً له صغيراً ، وسموه الناصر ، وأقام بأتابكيته مملوك والده سيف الدين سنقر ، وأقام مدة ثم مات سيف الدين سنقر بعد أربع سنين ، وتزوج بأم الناصر أمير من أمراء الدولة يقال له غازى بن جبريل وأقام بأتابكية الناصر ، ثم سم الناصر فى كوز فقاع على ما قيل وبقى غازى متملكاً للبلاد ثم قتله جماعة من العرب بسبب قتله للناصر ، فغلبت أم الناصر المذكور على زبيد وأحرزت عندها الأموال ، وكانت تنتظر وصول أحد من بنى أيوب فتتزوج به وتملكه البلاد ، وكان للملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ولد اسمه سعد الدين شاهنشاه ، وكان له ابن اسمه سليمان فخرج سليمان بن شاهنشاه بن عمر فى صورة فقير يحمل الرَكوة[٢] على كتفه وينتقل من مكان إلى مكان ، وكانت أم الناصر قد أرسلت بعض غلمانها إلى مكة - شرفها الله- فى موسم الحاج ليأتيها بأخبار مصر والشام ، فوجد سليمان المذكور فأحضره إلى اليمن ، فاستحضرته أم الناصر وخلعت عليه وتزوجت به وملكته اليمن فملأ اليمن ، ظلماً وجوراً وأطرح ، زوجته التى ملكته البلاد وأعرض عنها ، وكتب إلى السلطان الملك العادل وهو عم جده كتاباً جعل فيه من أوله :

---

(١) الكامل ، جـ١٠ ، ص٢٨٣-ص٢٨٤ .

(٢) الركوة : هى دلو صغير ، والجمع ركاء ، المصباح المنير ، ص٢٨٢ مادة (ركو) .

«إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم» فاستقل العادل عقله ثم كان من سليمان المذكور ما سنذكره إن شاء الله .[١] تعالى .

ذكر ابتداء ملك جنكيز خان ملك التتار[٢]

وفى هذه السنة كان ابتداء ملكه وهو صاحب اليسق[٣] ، وضمها لتحاكم التتار ومن تبعهم من أمراء الترك ومن يتبع حكم الجاهلية وهو والد طولى[٤] وجد هلاون الذى قتل الخليفة المستعصم بالله[٥] وأهل بغداد فى سنة ست وخمسين وستمائة على ما سنذكره إن شاء الله . واعلم أنى أبين لك أصل هذا اللعين ، وكيف ملك التتار ، وكان مُلك الصين مُلكاً عظيماً ، دوره ستة أشهر ، وقد قيل : إنه يحويه سور واحد لم ينقطع إلا عند الجبال المنيعة والأنهار الواسعة ، وكان فى قديم الزمان ستة أجزاء ، كل جزء منها مسيرة شهر ، وكان يتولى كل جزء خان بعد خان أى سلطان بعد سلطان ، نيابة عن خانهم الأعظم وهو الطون خان ، توارث المملكة كابراً عن كابر ، بل كافراً عن كافر ، وكان هو عاصر السلطان[٢٨٠] الأعظم علاء الدين أبا الفتح محمد بن تكش بن أرسلان بن أتسر بن محمد أنوشتكين الخوارزمى[٦] ، الذى كان كرسى مملكته خوارزم ، وكانت عادة هؤلاء الملوك الستة الإقامة بطوغاج ، وهى واسطة الصين ونواحيها منتقلين من مصيف إلى مصيف ومن ريف إلى ريف ، وكان فى زمرتهم شخص يسمى دوشى خان ، وكان قد تزوج بعمة جنكيزخان ، وهى من قبيلة معروفة بتمرجى سكان البرارى ، منشأهم موضع يسمى

---

(١) ورد هذا الخبر بتصرف فى المختصر ، جـ٣ ، ص١٠٢ ، ١٠٣ .

(٢) لمعرفة المزيد عن حياة جنكيز خان ، انظر نهاية الأرب ، جـ٢٧ ، ص٣٠١- ص٣٠٦ . توفى عام ٦٢٤ ، زانباور ، معجم الأسرات الحاكمة ، جـ٢ ، ص٣٦٠ .

(٣) «الباسق» كذا فى الأصل والمثبت من أبى المحاسن ، النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص٢٦٨ «أن جنكيزخان هو صاحب التوراه واليسق والتوراة باللغة التركية هو المذهب واليسق هو الترتيب وأصل كلمة اليسق سى ياسا وهو لفظ مركب من أعجمى وتركى ومعناها التراتيب الثلاثة والثلاثون لأن «سى» كلمة فارسية بمعنى العدد ثلاثين . انظر أيضاً السلوك ، جـ٢ ، ص٢٢٠ تحت عنوان ذكر أحكام السياسة . انظر نهاية الأرب ، جـ٢٧ ، ص٣٣٧ حاشية (١) .

(٤) طولى : ونكتب تولوى وهو الابن الرابع لجنكيز خان . انظر الهمذانى . مؤرخ المغول الكبير ، تحقيق فؤاد عبد المعطى الصياد ، القاهرة ، ١٩٦٧ ، ص٣٥٩ ، وقد أورد هذه الأحداث فى سنة ٦١٦هـ . راجع ص٣٥٩ .

(٥) لمعرفة المزيد من التفاصيل عن هذا الحدث ، راجع البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٢١٣-ص٢١٧- طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط٣ ، ص١٩٨٧ .

(٦) زانباور ، معجم الأسرات الحاكمة ، جـ٢ ، ص٣١٧ .

أرغون وهم مشهورون بالشر والغدر ، فاتفق أنه مات دوشى خان زوج عمة جنكيز خان ، والطون خان غائب فى مشتاه وقد حضرها جنكيز خان معزياً ، فبعثت إلى كشلوخان ودوشى خان وهما متاخمان لأعمال المتوفى من الجهتين تنعى إليهما زوجها ، وتعلم أنه لم يخلف ولداً وأن جنكيز خان يقوم مقامه ويكون فى معاضدتهما ، فاستصوبا رأيها وأشار عليها بتقليد الأمر إلى جنكيز خان ، ثم لما عاد الطون خان إلى مدينة طوغاج شرع يستعرض من حجابه القضايا التى وقعت مدة غيبته إلى أن جاءت تقدمة جنكيز خان وخبره بتوليته موضع دوشى خان ، فغضب غضباً شديداً حيث تولى بغير أمره ، وأمر بقطع أذناب الخيل التى أرسلها جنكيز خان فى جملة التقدمة ويردها إليه فلما بلغ ذلك جنكيز خان استظهر بمن انضم إليه من عشيرته ، وخرج عن الطاعة ، فلما سمع بذلك الطونى خان أرسل إليهم يعتذر لهم مما صدر منه فلم يزدهم ذلك إلا نفوراً ، فحين جرى ذلك وآيس منهم جمع عسكره وسار إليهم ، فالتقى هو وإياهم فكسروه أقبح كسرة وقتلوا من عسكره مقتلة عظيمة ، ونجى الطون خان بنفسه وهرب إلى ما وراء كنك[1] وأخلى لهم البلاد ، فتمكنوا فيها وتملكوها وانضم إليهم من الترك وأوباشها كل طامع فى مال ، وأخذ أمر الطون خان يتضاعف ضعفاً إلى أن راسلهم قانعاً بما تحت يده من الملك الحقير ، فأجابوه إلى ما سأل إلى أن مات كشلوخان وقام ابنه مقامه ، فاستحقره جنكيز خان ، لصغر سنه ، وأخل بالقواعد التى المقررة بينه وبين أبيه ، ثم لم يزل يشتد أمره ويكثر جيشه إلى أن ملك البلاد وخضعت له قبائل الترك ببلاد طمغاج[2] كلها حتى صار يركب فى نحو ثمان مائة ألف مقاتل ، ويقال : كان فى ابتداء أمره خصيصاً عند ملك من ملوك بلاد طمغاج يسمى أوبك خان ، وكان إذ ذاك شاباً حسناً وكان اسمه أولاً تمرجى ، ثم لما عظم سمى نفسه جنكيز خان ، وكان هذا الملك قربه وأدناه ، فحسده عظماء الملك ووشوا به إليه حتى أخرجوه عليه ، ولم يقتله ، ولم يجد له طريقاً فى ذنب يتسلط عليه ، فهو فى ذلك إذ تغضب الملك على مملوكين صغيرين فهربا منه ولجآ إلى جنكيز خان ، فأكرمهما وأحسن إليهما ، فأخبراه بما أضمر الملك من أوبك خان من القتل والهم به ، فأخذ حذره وتحيز إلى مكان واتبعه طوائف من التتار ، ثم صار كثير من أصحاب أوبك خان منفرون

---

(١) «كِنْك» بالكسر ثم السكون وآخره كاف أيضاً اسم واد فى بلاد الهند ، معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٣١٢ . .

(٢) طمغاج : كذا فى الأصل والنسوى ، سيرة جلال الدين منكوبرتى ، تحقيق حمدى حافظ ، ص٣٣ ، وتكتب فى بعض المصادر طوغاج ، انظر نهاية الأرب ، جـ٢٧ ، ص٢٤٠ .

إليه ، فيكرمهم ويعطيهم حتى قويت شوكته وكثرت جنوده ، ثم حارب بعد ذلك أوبك خان فظفر به وقتله واستحوذ على مملكته وملكه ، وانضاف إليه عَدَده وعُدَده وعظم[٢٨١] جارياته

أمزج بمسبوك اللجين ذهبا حكته دموع عيني
لما نعى ناعى الفراق بين من أهوى وبيني
خفقت لنا شمسان من لآلاتها فى الخافقين
وبدت لنا فى كأسها من لونها فى حلتين

وشميم على وزن فعيل مصغر من الشم .

أبو نصر محمد بن سعدالله بن نصر بن سعيد الدجاجى[١] ، كان شيخاً بهياً واعظاً حنبلياً فاضلاً شاعراً ، فمن شعره قوله :

نفس الفتى إن أصلحت أحوالها كان إلى نيل المنى أحوى لها
وإن ترى[٢] سددت أقوالها كان على حمل العلى أقوى لها
فإن تبدت حال من لهالها فى قبره عند البلى لها لها

ومولده سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، ومات فى ربيع الأول ، ودفن بباب حرب ، سمع أبا منصور القزاز وغيره .[٣]

أبو العباس أحمد بن مسعود بن محمد القرطبى الخزرجى ، كان إماماً فى التفسير ، والفقه ، والحساب ، والفرائض ، والنحو ، واللغة ، والعروض ، والطب ، وله تصانيف حسان وشعر رائق ، فمنه قوله :

وفى الوجنات ما فى الروض لكن لرونق زهرها معنى عجيب
وأعجب ما التعجب عنه أنى أرى البستان يحمله قضيب[٤]

---

(١) الذيل على الروضتين ، ص٥٢ ؛ الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص١٥٥-ص١٥٦ ، النجوم ، جـ٦ ، ص١٨٧ .
(٢) «تراها» فى الذيل ص٥٢ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٤٢ .
(٣) البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٤٢ ، الذيل ، ص٥٢ .
(٤) الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٦٠٠- ص٦٠١ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٤٢ .

أبو الفدا إسماعيل بن بُرُتقش السنجارى مولى عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى ، كان جندياً حسن الصورة مليح النظم كثير الأدب .(١)

توفى فى هذه السنة أبو الفضل إلياس بن جامع بن على الإربلى(٢) ، تفقه بالنظامية ، وسمع الحديث ، وصنف التاريخ وغيره ، وتفرد بحسن كتابة الشروط ، وله فضل ونظم حسن ، فمنه قوله :

أممرض قلبى ما لهجرك آخر	ومسهر طرفى هل خيالك زائر
ومستعذب التعذيب جوراً بصده	أمالك فى شرع المحبة زاجر
هنيئاً لك القلب الذى قد وقفته	على ذكر أيامى وأنت مسافر
فلا فارق الحزن المبرح خاطرى	لبعدك حتى يجمع الشمل قادر
فإن مت فالتسليم منى عليكم	يعاودكم ما كبر الله ذاكر(٣)

أبو السعادات التاجر البغدادى الرافض ، كان فى كل جمعة يلبس لأمة الحرب ويقف خلف باب داره وهو مجاف عليه والناس فى صلاة الجمعة ، وهو ينتظر أن يخرج صاحب الزمان من سرداب سامرا يعنى محمد بن الحسن العسكرى ليميل بسيفه فى الناس نصرة للمهدى .(٤)

القاضى أبو محمد مختار المعروف بابن قاضى داراً(٥) ، قتل فى الرابع والعشرين من ذى القعدة فى هذه السنة ، وسببه أنه كان وزير الملك الكامل بمصر حين كان ينوب عن والده الملك العادل ، وكان ابن شكر وزير العادل يبغضه ، فقرح فيه عند العادل فخاف عليه الكامل ، فأمره بالخروج من مصر ، فخرج هو [وولداه](٦) فخر الدين وشهاب

---

(١) وردت هذه الترجمة فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٤٢ ؛ الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص١٦٤-ص١٦٥ .
(٢) الجامع المختصر . جـ٩ ، ص١٦٥ .
(٣) ورد هذا الخبر فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٤٢-ص٤٣ .
(٤) ورد هذا الخبر فى البداية والنهاية ، جـ٢٣ ، ص٤٣ ؛ وانظر ترجمته فى الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص١٦٢ .
(٥) الذيل على الروضتين ، ص٥٢ .
(٦) [ووالداه] كذا فى الأصل .

الدين ، وساروا إلى حلب ، فأكرمهم الملك الظاهر صاحب حلب ، ثم ورد مرسوم الملك العادل يطلبه ، فخرج من حلب يريد التوجه إلى مصر[٢٨٢] وبات بعين المباركة[١] وإذا [بخمسين][٢] فارساً قد أحاطوا بخيمته ليلاً وقالوا : نريد القاضى . فخرج إليهم فنزل منهم ثلاثة فقتلوه وقالوا لغلمانه : أحبطوا متاعكم فما كان لنا غرض سواه . واتصل الخبر بالملك الظاهر فخرج وفرق الرجال فى الطرقات فلم يقع لهم خبر ، وكان كما قيل هرب من القتل إلى القتل .[٣]

أبو العباس الحربى أحمد بن سلمان ويلقب بالسكر ، قرأ القرآن بالروايات وسمع الحديث الكثير ، ومولده سنة أربعين وخمسمائة ، وكان صالحاً زاهداً عابداً ، أقام فى الحربية[٤] ، يختم القرآن كل ليلة فى صلاة التراويح . قال السبط : وكنت أصلى خلفه[٥] ، وكان قنوعاً صبوراً على الفقر ، وتوفى فى صفر ، ودفن بباب حرب ، سمع أبا الوقت وابن البطى وغيرهما ، وسمعنا عليه الحديث وكان ثقة صدوقاً .[٦]

أبو محمد الحرانى عبدالمنعم بن على بن الصيقل ولقبه نجم الدين ، قدم بغداد أول مرة فى سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، وتفقه على أبى الفتح بن المنى وسمع الحديث الكثير من أبى الفتح بن الشاتل وأبى السعدات بن زريق وابن الجوزى وغيرهم ، وعاد إلى حران ووعظ بها وحصل له القبول التام ، وعاد إلى بغداد فاستوطنها ووعظ بها . قال السبط : وحضرت مجلسه بمسجد باب المشرعة وسمعته ينشد :

واشتاقكم يا أهل ودى وبيننا كما زعم البينُ المشت فراسخ
فأما الكرى عن ناظرى فمشرد وأما هواكم فى فؤادى فراسخ

---

(١) عين المباركة : مكان ظاهر حلب ، راجع السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص١٩٧ .
(٢) «بخمسون» كذا فى الأصل .
(٣) ورد هذا الخبر بتصرف فى السلوك ، جـ١ ، ق١ ، ص١٩٨ .
(٤) الحربية : محلة كبيرة مشهورة ببغداد ، عند باب حرب تنسب إلى حرب بن عبدالله البلخى . انظر معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٢٣٤ .
(٥) «وراءه» كذا فى الأصل والتصحيح من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٤١ حيث ينقل عنه .
(٦) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٤١ ؛ وانظر ترجمته فى ابن عماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ٥ ، ص٢ .

وكان صالحاً ديناً نزهاً عفيفاً كيساً لطيفاً متواضعاً كثير الحياء . قال السبط : وكان يزور جدى وسمع معنا الحديث وكانت وفاته يوم الخميس سادس عشر ربيع الأول[١] ، وصلى عليه بالنظامية ، ودفن بباب حرب ، وخلف ولدين النجيب عبداللطيف ، والمعز عبدالعزيز ، فأما عبداللطيف فكان يسمع معنا الحديث على جدى بقطفتا[٢] وأما المعز فكان صغيراً ، ثم تقلبت بهما الأحوال حتى أفضى أمرهما إلى أن صارا تاجرين لديوان الخليفة ، وظهر منهما الثقة والأمانة والعفة والديانة والنهضة والصيانة .[٣]

أبو غالب بن كمونة اليهودى الكاتب ، كان يزوِّر على خط ابن مقلة من قوة خطه ، توفى لعنه الله فى هذه السنة بمطمورة بواسط .[٤]

أبو غالب بن أبى طاهر بن شبّر ، كان عاملاً على دار الضرب ببغداد ، توفى فى هذه السنة «ذكره ابن الساعى الخازن فى تاريخه .[٥]

الأمير علم [الدين][٦] الكرجى الأسدى ، مات بدمشق فى الثالث عشر من ربيع الآخر ، وصلى عليه الملك العادل بمرج باب الحديد ، ودفن بالجبل .

بوريا التقوى ، مات فى هذه السنة غريقاً ببلاد المغرب فى خدمة بنى عبد المؤمن .[٧]

الملك ابن بكتمر صاحب خلاط ، كان شاباً لم يكن فى الدنيا أحسن منه ، ولم يبلغ عشرين سنة ، قتله الهزار دينارى ، وقيل : بل غرقه فى بحر خلاط ثم قتل الهزار دينارى بعده .[٨]

---

(١) اتفقت المصادر التى وقعت بين أيدينا على أن الوفاة كانت فى ربيع الأول ، وهو الأقرب إلى الصواب ، إلا أن سبط ابن الجوزى ذكر أن الوفاة كانت فى ربيع الآخر ، راجع الذيل على الروضتين ، ص٥٢ ، الشذرات ، جـ٥ ، ص٤ ؛ الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص١٥٧ .

(٢) قطفتا : محلة كبيرة ذات أسواق بالجانب الغربى من بغداد مجاورة لمقبرة الشيخ معروف الكرخى ، معجم البلدان ، جـ٤ ، ص١٣٧ .

(٣) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٤١-ص٣٤٢ .

(٤) الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص١٦٥ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٤٧ .

(٥) الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص١٦٦ .

(٦) [ ] ما بين حاصرتين إضافة من الذيل على الروضتين ، ص٥٢ .

(٧) الذيل على الروضتين ، ص٥٢ .

(٨) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٤٢ ، النجوم الزاهرة ، جـ٦٧ ، ص١٨٨ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الثانية بعد الستمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله ، وأصحاب البلاد على حالهم[٢٨٣] غير أن صاحب غزنة وغيرها توفى فى هذه السنة قتيلاً وهو الملك أبو المظفر شهاب الدين محمد بن سام بن الحسن الغورى ، وذلك أنه لما كان قد اتقع مع الخطا ونال منهم كروا عليه فهزموه ، وبقى فى نفر يسير فدخل إلى خوىّ(١) فيمن معه ، فحصره الكفار ونهبوا خزائنه ، وشاع الخبر فى جميع بلاده أنه عدم ، ثم وصل إلى الطالقان(٢) فى سبعة نفر فأخرج له الحسين بن حرميل صاحب الطالقان الخيام وجميع ما يحتاج إليه ، فسار إلى غزنة وسار معه ابن حرميل فى صحبته وجعله أمير حاجب .

ولما اشتهر خبر عدمه فى البلاد ثار المفسدون فى كل الأطراف ، فكان ممن ثار بَنُو [كوكر](٣) فقطعوا الطريق وخرجوا عن الطاعة ، فعند ذلك تجهز شهاب الدين وسار بعساكره إليهم ، ولقيهم وهزمهم وغنم المسلمون منهم خلقاً كثيراً حتى بيع كل خمسة نفر بدينار ، وهرب بن كوكر بعد أن قتل أخوته وأهله ، وفتح شهاب الدين قلعة جودى(٤) فلما فرغ منهم سار نحو لهاور(٥) وأمر الناس بالرجوع إلى بلادهم ، ثم عاد إلى غزنة ، وكان من جملة الخارجين البراهنة(٦) فإنهم خرجوا إلى حدود سوران(٧) ومكران(٨) للإغارة على الإسلام ، فأوقع بهم [نائب](٩) تاج الدين يلدز وقتل منهم خلقاً كثيراً ، وحملت رؤسهم فعلقت ببلاد الإسلام .

(*) يوافق أولها ١٨ أغسطس سنة ١٢٠٥م .

(**) السنتان ٦٠٠ ، ٦٠١هـ ساقطتان من نسخ المخطوط .

(١) خُوَيٌّ : بلد مشهور من أعمال أذربيجان كثيرة الخير والفواكه . معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٥٠٢ .

(٢) طالقان : بلده بخراسان بين مرو الروذ ، وبلخ ، معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٤٩١-ص٤٩٣ .

(٣) «كولر» فى الأصل . والمثبت من الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٠٠ ؛ الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص١٦٩ .

(٤) لهاور : إحدى المدن المشهورة بالهند . معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٣٧١ .

(٥) «التيراهية» فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٠٢ .

(٦) سوران = صبران : بليدة بها قلعة عالية . وراء نهر سيحون ، فى طرف البرية . انظر : معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٣٦٦ ؛ بلدان الخلافة الشرقية ، ص٥٢٩ .

(٧) مكران : ولاية بين كرمان من غربيها وسجستان شماليها والبحر جنوبيها والهند شرقيها ، معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٦١٤ .

(٨) [ ] ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح . الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٠٢ .

ثم إن شهاب الدين لما عاد من لهاور قتل بمنزل يقال له : دميك[١] وقت[٢] صلاة العشاء فى أول ليلة من شعبان من هذه السنة ، وكان سبب قتله أن نفراً من الكوكرية لزموا عسكره عازمين على قتله لمّا فعل بهم من القتل والسبى ، فلما كانت الليلة التى قتل فيها تفرق عنه أصحابه ، وبقى وحده ، فهجموا عليه وهو من الخركاه[٣] فضربوه بالسكاكين اثنتين وعشرين ضربة فقتلوه . وبنو كوكر طائفة من [أهل][٤] الجبال مفسدون ، ولما قتل اجتمع الأمراء عند الوزير مؤيد الملك[٥] بن خواجا [سجستان][٦] فتحالفوا على حفظ الخزانة والملك لزوم السكينة إلى أن يظهر من يتولى الملك ، فأجلسوا شهاب الدين وخيطوا جراحه ، وأشاعوا أنه حيٌّ وجعلوه فى محفة وساروا به ، وسكن الناس ، وكانت الخزانة التى فى صحبته ألفين ومائتى جمل ، وعرفوا أنه سيكون بين غياث الدين محمود ابن أخى شهاب الدين وبين بهاء الدين سام ابن أخته وهو صاحب باميان[٧] حروب على الملك ، وكان ميل الوزير والأتراك إلى غياث الدين محمود ، والأمراء الغورية يميلون إلى بهاء الدين سام ، فأرسلت كل طائفة منهما إلى الذين يميلون إليه يخبرونه بقتل شهاب الدين ، فلما وصل العسكر والوزير إلى فرشابور[٨] اختلفوا ، فقالت طائفة : نسير إلى غزنة على طريق مكران . وقال الأتراك : نسير على طريق سوران . وكان مقصودهم أن يكونوا قريباً من تاج الدين وهو مملوك شهاب الدين[٢٨٤] وكرمان أقطاعه ، ومقصودهم أن يحفظ تاج الدين الخزانة فى البلد ، ويراسلوا من كرمان إلى غياث الدين يستدعونه إلى غزنة فيُملّكونه ، فلما وصلوا إلى كرمان بعد مشقة قاسوها فى طريق الجبال خرج إليهم تاج ، وفى نيته أن يملك غزنة ، فسأل الوزير عن الأموال فأخبره بما معه ، وقال له الوزير : إن الغورية قد كاتبوا غياث الدين محموداً وبهاء الدين سام صاحب باميان . ثم قال للوزير : إنهم أمرونى أن أتسلم الخزانة منك ، فلم يقدر على الامتناع وساروا بالمحفة والمماليك

(١) «دمبل» المختصر ، جـ٣ ، ص١٠٦ .

(٢) «قبل صلاة العشاء» فى المختصر ، جـ٣ ، ص١٠٦ ؛ ويبدو أن العينى نقل هذا الخبر من الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٠٣ ، حيث أن الخبر يتفق مع ما ورد فى الكامل .

(٣) الخركاة : (خيمة) انظر السلوك ، جـ١ ، ص٣٢ .

(٤) [ ] ما بين حاصرتين إضافة من المختصر ، جـ٣ ، ص١٠٦ .

(٥) «مولد الدين» فى الأصل ، والمثبت من الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٠٣ .

(٦) ما بين حاصرتين إضافة للتوضيح من الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٠٣ .

(٧) باميان : بلده وكوره فى الجبال بين بلخ وهراة وغزنة بها قلعة حصينة ، معجم البلدان ، جـ١ ، ص٤٨١ .

(٨) فرشابور : يطلق عليها عامة تلك البلاد «برشاوور» وهى مدينة وولاية واسعة من أعمال لهاور . معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٨٧٤ .

والوزير إلى غزنة ، فدفن شهاب الدين بالتربة ، فى المدرسة التى أنشأها ، ولما بلغ الخبر بهاء الدين سام كتب إلى من بغزنة من الأمراء الغورية يأمرهم بحفظ البلد وأنه سائر إليهم عن قريب ، وكان مستحفظ قلعتها يعرف بأمير دار[١] ، وقد سير ولده إلى بهاء الدين سام يستدعيه إلى غزنة ثم كتب بهاء الدين إلى علاء الدين محمد بن أبى على ملك الغور يستدعيه إليه وإلى غياث الدين محمود وإلى أبى خرميل ، وإلى هراة[٢] يأمرهما بإقامة الخطبة له ، وحفظ ما بأيديهما من الأعمال ، ولم يظن أن أحدا يخالفه ، فسار من باميان برحلتين فوجد صداعاً فى رأسه ، فنزل ليستريح فعظم الأمر عليه ، فأيقن بالموت ، فأحضر ولديه وعهد إلى علاء الدين وأمرهما بقصد غزنة ، وأن يصالحا غياث الدين على أن يكون له خراسان وبلاد الغور ويكون لهما غزنة وبلاد الهند ، ولما فرغ بهاء الدين من الوصية توفى ، فسار ولداه إلى غزنة ودخلا البلد وملكاه ، فلما بلغ ذلك تاج الدين يلدز سار بعساكره وجموعه ، وسير إلى علاء الدين وجلال الدين أن أخرجا من غزنة وعودا إلى باميان على عادة أبيكما ، فإن غياث الدين أمرنى بالمسير إلى غزنة وإنما أراد أن يجعل طريقاً إلى ملك غزنة لنفسه ، ثم سار إلى غزنة فحاصرها ، فترددت الرسل بينه وبين ولدى بهاء الدين سام ، ففارقا غزنة ولحقا بباميان ، فدخل تاج الدين يلدز إلى غزنة وقعد فيها أربعة أيام ، فعند ذلك طلب القضاه والأمراء والأتراك وقبض على أميردار والى غزنة ، ودخل إلى دار السلطان وجلس فيها على مرتبته ، فتغيرت لذلك نيات الأتراك وغيرهم لأنهم كانوا يظنون أنه يُملك غياث الدين ، فأرسل إليه غياث الدين الخلع وطلب منه الخطبة له ، فغالطه ولم يفعل ، فطلب منه أن يخاطبه بالملك وأن يتزوج ابنه من ابنته ، فلم يُجبه ، وامتنع عن الخِطْبَه كامتناعه عن الخُطْبَه ، وأجرى يلدز بغزنة رسوم شهاب الدين ، وفرق فى أهلها أموالاً جليلة المقدار وألزم مؤيد الملك بالوزارة . فامتنع وأكره على ذلك .

وأما غياث الدين فإنه بمدينة بست[٣] لم يتحرك فى شىء انتظاراً لما يكون من أمر صاحب باميان لأنهما كانا تعاهدا فى أيام شهاب الدين أن تكون خراسان لغياث الدين ،

---

(١) أمير دار : هو أمير المظالم عند الروم . صبح الأعشى ، جـ١٤ ، ص١٦٠ .

(٢) هراة : مدينة كبيرة مشهورة بين أمهات مدن خراسان . انظر : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٩٥٨-٩٥٩ ؛ رحلة بن بطوطة ، ص١٧٩ ؛ بلدان الخلافة الشرقية ، ص٥٧١ .

(٣) بُسْت : مدينة بين سجستان وغزنين وهراة ، معجم البلدان ، جـ١ ، ص٦١٢ .

وغزنة والهند لصاحب باميان ، فلما بلغه موت بهاء الدين جلس على التخت وخطب لنفسه[٢٨٥] بالسلطنة ، وحلف للأمراء الذين قصدوه ، وهم : إسماعيل الخلجى وسونج أمير شكار[١] وغيرهما ، وتلقب بألقاب أبيه غياث الدين ، وكتب إلى علاء الدين محمد بن أبى على وهو بفيروزكوه يستدعيه إليه ، ثم رحل غياث الدين إلى فيروزكوه فملكها وقبض على جماعة من أصحاب علاء الدين محمد ، فنجا علاء الدين هرباً ودخل دار أبيه فسكنها ، واستوزر عبد الجبار بن محمد الكيزانى وزير أبيه ، وسلك طريق والده فى الإحسان والعدل ، ولما فرغ غياث الدين من علاء الدين محمد ، ولم يكن له همه إلا ابن خرميل صاحب هراة واجتذابه إلى طاعته ، فراسله وكاتبه ، فلما وصله كتابه خاف ميل الناس إليه فغالطه فى الجواب وكاتب خوارزم شاه وطلب منه أن يرسل إليه عسكراً ليكون فى طاعته ، ويمتنع به من الغورية ، فكتب خوارزم شاه إلى عسكره الذى بنيسابور وغيرها من بلاد خراسان بالتوجه إلى هراة ، وأن يمتثلوا أمر ابن خرميل ، فلما وصل عسكر خوارزم شاه أنزلهم ابن خرميل على باب هراة ، وبلغ ذلك غياث الدين فبرز عن فيروزكوه نحو هراة وأقر عسكره بالتقدم إلى هراة ، وجعل المقدم عليهم على بن أبى على ، وبلغه أن خوارزم شاه على بلخ[٢] فسار وكان على يزكه صاحب الطالقان ، وكان منحرفاً على غياث الدين ، فأرسل إلى ابن خرميل يعرفه أنه على اليزك ويأمره بالمجىء إليه وأنه لا يمنعه ، فسار ابن خرميل فى عسكره فكبس عسكر غياث الدين على غرة منهم فهزمهم ، وغنم أموالهم وأسر ابن إسماعيل الخلجى ، وأرسل عسكره فشنوا الغارة على البلاد ، وعظم الأمر على غياث الدين فأزمع المسير إلى هراة فأتاه الخبر أن علاء الدين صاحب باميان قد عاد إلى غزنة ، فأقام ينتظر ما يكون منهم ومن يلدز ، وأما خوارزم شاه فاستمر على حصار بلخ حتى فتحها وسلمها إلى جغر التركى ، وسار مجدا إلى مدينة ترمذ[٣] وبها ولد عماد الدين صاحب بلخ فسير إليه ، أماناً فسلمها إليه فلما تسلمها منه سلمها إلى الخطا ، وإنما أعطاهم ذلك ليتمكن من ملك خراسان ، وأما يلدز فإنه أقام فى

---

(١) أمير شكار : يتحدث صاحب هذه الوظيفة على الجوارح السلطانية من الطيور وغيرها ، وعلى سائر أمور الصيد . وشكار لفظ فارسى معناه الصيد ، فيكون المراد أمير الصيد . انظر : صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص٢٢ ، جـ٥ ، ص٤٦١ .

(٢) بَلْخُ : مدينة مشهورة بإقليم خراسان ، معجم البلدان ، جـ١ ، ص٧١٣ .

(٣) تَرْمِذُ : مدينة مشهورة من أمهات المدن ، تقع على الجانب الشرقى من نهر جيحون . معجم البلدان ، جـ١ ، ص٨٤٣ .

غزنة كما ذكرنا ولم يخطب لأحد إلا لنفسه ، وكان يعد الناس أن رسولى عند غياث الدين فإذا عاد خطبت له ، وكان يفعل ذلك مكراً فإنه لو لم يظهر ذلك لفارقه أكثر الأتراك وسائر الرعايا ، فجمع علاء الدين وجلال الدين ولدا بهاء الدين سام جيشاً وسارا إليه طالبى غزنة فلما بلغ يلدز مسيرهما جهز من عسكره طائفة فالتقوا هم وعسكرهما ، فانهزم عسكر يلدز من بين أيديهم إلى غزنة فساروا فى أثره ، فلما قاربوا البلد انهزم يلدز أيضاً فتبعوه إلى كرمان وملكوها وعاد المذكوران إلى غزنة ومعهما الخزانة التى أخذها يلدز ، وقبضا على مؤيد الملك الوزير ، وقسما الخزانة بينهما ، وسار جلال الدين إلى باميان وبقى علاء الدين بغزنة فاستوزر عماد الملك ، فأساء السيرة مع الجند والرعية ونهب أموال الأتراك حتى أنهم باعوا أمهات أولادهم وهن يبكين وهو لا يلتفت إليهم ، ثم أن يلدز جمع جموعاً من الأتراك وغيرهم وعاد إلى غزنة فوصلوا إلى كلوا[1][٢٨٦] فملكوها وقتلوا جماعة من الغورية ووصل المنهزمون إلى كرمان ، فسار يلدز إليهم وجعل على مقدمته مملوكاً كبيراً من مماليك شهاب الدين اسمه إيدكز الشرقى فى ألفى فارس من الخليج والأتراك والغز والغورية وغيرهم ، وكان بكرمان عسكر لعلاء الدين مع أمير يقال له ابن المؤيد ، ومعه جماعه من الأمراء منهم أبو على بن سليمان ، وهو وأبوه عن أعيان الغورية ، وكانا مشتغلين باللهو والشرب لا يفتران عنه ، فهجم عليهم إيدكز ومن معه من الأتراك وعاجلوهم عن ركوب خيلهم فتقلوهم عن آخره ، فمنهم من قتل فى المعركة ومنهم من قتل صبراً ، ولم ينج إلا من تركه الأتراك عمداً . ولما وصل يلدز ورأى أمراء الغورية كلهم قتلى لام إيدكز ووبخه وأحضر رأس ابن المؤيد بين يديه ، فسجد شكراً لله تعالى . وأمر بالمقتولين فغسلوا ودفنوا . وكان من القتلى أبو على بن سليمان بن شيْشر[1] . ووصل الخبر إلى غزنة فى العشرين من ذى الحجة من هذه السنة ، فصلب علاء الدين الذى جاء بالخبر ، فمطر الناس مطراً شديداً حتى خرب بعض غزنة وجاء بعده بردٌ كبار مثل بيض الدجاج ، فضج الناس إلى علاء الدين بإنزال المصلوب فأنزله آخر النهار فانكشفت الظلمة وسكن ما كانوا فيه .

---

(١) «سيسر» كذا فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٣١٦ .

وملك يلدز كرمان وأحسن إلى أهلها ، وكانوا فى ضر شديد مع أولئك ولما صح الخبر عند علاء الدين أرسل وزيره إلى أخيه جلال الدين فى باميان يخبره بحال يلدز ويستنجده ، وكان قد أعد العساكر ليسير إلى بلخ ليُرحل عنها خوارزم شاه ، فلما أتاه هذا الخبر ترك بلخ وسارا إلى غزنة وكان أكثر عسكره من الغورية قد فارقوه وفارقوا أخاه وقصدوا غياث الدين ، فلما كان أواخر ذى الحجة وصل يلدز إلى غزنة ونزل هو وعسكره بإزاء قلعتها وحضر علاء الدين وجرى بينهم قتال شديد ، وأمر يلدز فنودى فى البلد بالأمان وتسكين الناس ، وحاصر يلدز القلعة فوصل جلال الدين فى أربعة آلاف من عسكر باميان وغيرهم ، فرحل يلدز إلى طريقهم وكان فى مقامه إلى أن سار إليهم أربعين يوماً ، فلما سار أرسل علاء الدين من كان عنده من العسكر وأمرهم أن يأتوا يلدز من خلفه ويكون أخوه من بين يديه ، فلما خرجوا من القلعة سار سليمان بن على الغورى إلى غياث الدين بفيروزكوه ، فأكرمه وجعله بها أمير دار ، وساريلدز فى طريق جلال الدين فالتقوا واقتتلوا قتالاً شديداً صبروا فيه ، فانهزم جلال الدين وعسكره وأخذ أسيراً وأتى به إلى يلدز ، فرحل إلى غزنة وهو معه وأرسل إلى علاء الدين أن سلم القلعة وإلا قتلت من معى من الأسرى ، فلم يسلمها فقتل منهم أربع مائة أسير بإزاء القلعة ، فأرسل علاء الدين يطلب الأمان فأمنه فلما خرج إليه قبض عليه ووكل به وبأخيه من يحفظهما وقبض على وزيره عماد الملك لسوء سيرته ، وكان هندوخان[1] ملكشاه بن خوارزمشاه تكش مع علاء الدين بن سام بقلعة غزنة ، فلما قبض عليه أمسكه معه وكتب إلى غياث الدين[٢٨٧] بالفتح وأرسل إليه الأعلام وبعض الأسرى .

ذكر ترجمة شهاب الدين المذكور

كان شجاعاً كثير الغزو ، عادلاً فى الرعية ، وكان الإمام فخر الدين الرازى رحمه الله يعظُه فى داره ، فحضر يوماً ووعظه وقال فى آخر كلامه : يا سلطان لا سلطانك يبقى ولا تلبيس الرازى . فبكى شهاب الدين حتى رحمه الناس ، وكان فخر الدين الرازى فى صحبته حين قتل ، فاتهمه بعض الخاصكين بقتله ، فخاف من ذلك والتجأ إلى الوزير مؤيد الملك بن خواجا ، فسيره إلى حيث يأمن .

---

(١) فى الأصل : هندوخان بن ملكشاه . والصحيح ما أثبتناه من الكامل ، جـ١٠ ، ص٥٠٣ . وهو ناصر الدين ملكشاه بن تكش ، المتوفى سنة ٥٩٣هـ بخراسان . انظر : أحمد السعيد سليمان : تاريخ الدول الإسلامية ومعجم الأسرات الحاكمة ، ص٣٧٦ .

ذكر اتفاق مظفر الدين كوكبرى وصاحب مراغة على قصد أذربيجان

وفى هذه السنة اتفق كوكبُرى صاحب إربل مع صاحب مراغة على قصد أذربيجان وأخذها من صاحبها أبى بكر بن البهلوان لاشتغاله بالشرب ليلاً ونهاراً ، وتركه النظر فى أحوال المملكة وتركه حفظ العساكر والرعايا ، فسار صاحب إربل إلى مراغة واجتمع هو وصاحبها علاء الدين وتقدما نحو تبريز ، فلما علم صاحبها أبو بكر أرسل إلى أيتغمش صاحب بلاد الجبل همذان وأصفهان والرى وما بينهما من البلاد ، وهو مملوك أبيه البهلوان ، وهو فى طاعة أبى بكر ، فأرسل إليه أبو بكر يستنجده ويعرفه الأحوال وكان ببلاد الإسماعيلية ، فلما أتاه الخبر سار إليه فى العساكر الكثيرة ، فلما حضر عنده أرسل إلى صاحب إربل يقول له : إنا كنا نسمع عنك أنك تحب أهل العلم والخير وتحسن إليهم فكنا نعتقد فيك الخير والدين ، والآن ظهر لنا منك ضد ذلك لقصدك بلاد المسلمين وقتالهم ونهب أموالهم وإثارة الفتنة ، فإذا كنت كذلك فلا عقل لك إذ تجىء إلينا وأنت صاحب قرية ونحن لنا من باب خراسان وإلى خلاط وإلى إربل ، وأحسب أنك هزمت السلطان أما تعلم أن له مماليك أنا أحدهم ، ولو أخذ من كل قرية شحنة ومن كل مدينة عشرة رجال لاجتمع له أضعاف عسكرك ، فالمصلحة أنك ترجع إلى بلدك ، وإنما أقول لك هذا إبقاء عليك . ثم سار إليه عقيب هذه الرسالة ، فلما سمع رسالته وبلغه مسيره عزم على العود ، فألزمه صاحب مراغة أنه يقيم بمكانه ويسلم إليه عسكره ، وقال : إن جميع أمرائه قد كاتبنى ، ليكونوا معى إذا قصدتهم . فلم يقتل مظفر الدين من قوله وعاد إلى بلده ثم إن أبا بكر وأيتغمش قصداً مراغة وحاصروها ، فصالحهم صاحبها على تسليم قلعة من حصونه إلى أبى بكر ، فأقطعه أبو بكر مدينتى أستوا(١) وأرميه(٢) وعاد عنه ، وكان أيتغمش قد سار إلى بلاد الإسماعيلية المجاورة لقزوين فقتل منهم مقتلة عظيمة ونهب وأسر وسبى وحاصر قلاعهم ، ففتح منها خمس قلاع وصمم العزم على حصر الموت واستئصال أهلها ، فاتفق ما ذكرنا من حركة صاحب إربل وصاحب مراغة فاستدعاه الأمير أبو بكر ففارق بلادهم وسار إليه كما ذكرنا .

---

(١) أُسْتُوَا : كورة من نواحى نيسابور ، وقصبتها خبوشان . معجم البلدان ، جـ١ ، ص٢٤٣ .

(٢) أُرْمِيَة : مدينة كبيرة قديمة بأذربيجان . معجم البلدان ، جـ١ ، ص٢١٨-٢١٩ .

وفى هذه السنة[١] سار من عسكر خوارزم شاه عشرة آلاف فارس بأهليهم وأولادهم إلى بلاد الجبل فوصلوا إلى زنكان[٢] ، وكان أيتغمش صاحبها مشغولاً مع صاحب إربل وصاحب مراغة ، واغتنموا خلو البلاد ، فلما عاد مظفر الدين إلى بلده وانفصل الحال بين أيتغمش وصاحب مراغة سار أيتغمش نحو الخوارزمية[٢٨٨] فلقيهم وقاتلهم فاشتد القتال بين الطائفتين ، وانهزم الخوارزميون وأخذهم السيف ، فقتل منهم وأسر خلق كثير ، ولم ينج منهم إلا الشريد .

ذكر غارة ابن لاون على أعمال حلب

وفى هذه السنة[٣] توالت الغارة من ابن لاون الأرمنى صاحب الدروب على ولاية حلب ، فنهب وحرق وسبى وأسر ، فجمع الملك الظاهر غازى صاحب حلب عساكره ، واستنجد غيره من الملوك وجمع كثيراً من الفارس والراجل ، وسار عن حلب نحو بلد ابن لاون ، وقد نزل المذكور من طرف بلاده مما يلى بلد حلب ، وليس إليه طريق لأن جميع بلاده لا طريق إليها ، إلا من جبال وعرة ، ومضايق صعبة ، والطريق متعذر ، فنزل الظاهر على خمسة فراسخ من حلب ، وجعل على مقدمته جماعة من عسكره مع أمير كبير من مماليك أبيه يعرف بميمون القصرى ، وأنفذ ميرة وسلاحاً إلى حصن له مجاور لبلاد ابن لاون اسمه دربساك ، وأنفذ إلى ميمون ليرسل طائفة من العسكر الذين عنده إلى طريق هذه الذخيرة ليسيروا معها إلى دربساك ، ففعل ذلك وسير جماعة كثيرة من عسكره وبقى فى قلة ، فبلغ الخبر ابن لاون فجد نحوه ، فوافاه وهو مخف فى العسكر فاشتد القتال بينهم ، فأرسل ميمون إلى الظاهر يعرفه وكان بعيداً عنه فطالت الحرب بينهم ، وحمى ميمون نفسه وأثقاله على قلة من المسلمين وكثرة من الأرمن ، فانهزم المسلمون ونال العدو منهم ونالوا من العدو ، وعاد العدو إلى بلادهم واعتصموا بجبالهم وحصونهم .

---

(١) نقل العينى هذا الخبر من الكامل ، جـ١٠ ، ص٣١٩ .

(٢) زَنْكان =زَنْجان : بلد كبير مشهور من نواحى الجبال ، بين أذربيجان وبينها . وهى قريبة من أَبْهَر وقزوين . والعجم يقولون : زنكان . معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٩٤٨ ؛ بلدان الخلافة الشرقية ، ص٢٥٦ .

(٣) نقل العينى هذا الخبر بتصرف من الكامل ، جـ١٠ ، ص٣١٩-٣٢٠ .

وفى المرآة[1] : وفى هذه السنة أغار ابن لاون على بلد حلب وأخذ الجشار[2] من نواحى حلب ، فبعث الملك الظاهر فارس الدين ميمون القصرى ، وأيبك فطيس ، وحسام الدين بن أمير تركمان ، فنزلوا على حارم فقال لميمون : كن على حذر ، فتهاون ، فكبسهم ابن لاون وقتل جماعة من المسلمين ، وثبت أيبك فطيس وابن تركمان وقاتلا قتالاً شديداً ، ولولاهما لأخذ ميمون ، وبلغ الظاهر فخرج من حلب ونزل مرج دابق[3] وجاء إلى حارم ، فهرب[4] ابن لاون إلى بلاده وكان قد بنى قلعة فوق دربساك فأخربها الظاهر ، وعاد إلى حلب .

ذكر قصد الكرج بلاد الإسلام

وفى هذه السنة[5] قصدت الكرج فى جموعها ولاية خلاط من أرض أرمينية ، ونهبوا وقتلوا وسبوا من أهلها كثيراً وجاسوا خلال الديار آمنين ، ولم يخرج إليهم من خلاط من يمنعهم ، فبقوا متصرفين فى النهب والسبى ، والبلاد شاغرة لا مانع لها ، لأن صاحبها صبى والمدبر لدولته ليست له تلك الطاعة من الجند ، فلما اشتد البلاء على الناس تذامروا وحرض بعضهم بعضا ، واجتمعت العساكر الإسلامية من تلك البلاد جميعها ، وانضاف إليهم من المتطوعة كثير ، فساروا جميعهم نحو الكرج وهم خائفون ، فرأى بعض الصوفية الأخيار الشيخ محمد البُستى وكان من أكابر الصالحين ، وكان قد مات ، فقال له ذلك الصوفى : أراك ههنا . فقال : جئت لمساعدة[٢٨٩] المسلمين على عدوهم . فاستيقظ فرحاً لمحل البستى من الإسلام ، وأتى إلى مدبر العسكر وقص عليه رؤياه ، ففرح بذلك وقوى عزمه على قصد الكرج ، وسار بالعساكر إليهم ، ونزل منزلاً قريباً منهم فوصلت الأخبار إلى الكرج فعزموا على كبس المسلمين ، فانتقلوا من موضعهم بالوادى إلى أعلاه ليكبسوا المسلمين إذا أظلم الليل ، فأتى المسلمين الخبر فقصدوا الكرج ، وأمسكوا عليهم رأس الوادى وأسفله وهو واد ليست له طريق غير هذين الطريقين ، فلما

(١) نقل العينى هذا الخبر من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٤٢-٣٤٣ .

(٢) الجشار ، جمعها : الجشارات والجشير ، ويقال الدشار أيضاً . وهى الخيل والأبقار التى تساق مع الجيش . انظر : السلوك ، جـ١ق٢ ، ص٤٩٠ ، جـ١ق٣ ، ص٩٠٩ .

(٣) مرج دابق : هو مرج بقرية دابق بالقرب من حلب ، من أعمال عزاز ، معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٥١٣ .

(٤) «فهزم» كذا فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٤٣ .

(٥) نقل العينى هذا الخبر من الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٢٠-ص٣٢١ .

رأى الكرج ذلك أيقنوا بالهلاك وسُقط فى أيديهم ، وطمع المسلمون فيهم وقاتلوهم أشد قتال ، فقتلوا كثيراً وأسروا مثلهم ولم يفلت من الكرج إلا القليل .

وفى هذه السنة(١) تزوج أبو بكر بن البهلوان صاحب أذربيجان [وأرّان](٢) بابنة ملك الكرج ، وسبب ذلك أن الكرج كثرت غاراتهم على بلاده لما رأوا من عجزه وانهماكه فى الشرب واللعب وتغفله عن تدبير الملك وحفظ البلاد ، فلما رأى الحال قد تزايدت من جهة الكرج ، وأنه لا يقدر على الذب عن البلاد ، خطب ابنة ملكهم فتزوجها ، فكف الكرج عن الغارة والنهب والقتل . وقال ابن الأثير :(٣) فكان كما يقال : أغمد سيفه وسل إيره .

ذكر بقية الحوادث

منها أن الخليفة استوزر نصير الدين ناصر بن مهدى العلوى الحسنى ، وخلع عليه للوزارة ، وضربت الطبول بين يديه وعلى بابه فى أوقات الصلوات : الفجر والمغرب والعشاء .

وفى المرآة(٤) خلع عليه خلعة الوزارة القميص والدراعة(٥) والعمامة والسيف ، وخرج من باب الحجرة فقدم له فرساً من خيل الخليفة ، وبين يديه دواة فيها ألف مثقال(٦) ذهب ، ووراءه المهد الأصغر وألوية الجند وطبول النوبة ، والكوسات تخفق والعهد منشور بين يديه ، وجميع أرباب الدولة مشاة بين يديه ، وضربت الطبول والبوقات له بالرحبة فى أوقات الصلوات الثلاث المغرب والعشاء والفجر ، فقال الناس : ياليت شعرنا ماذا أبقى الخليفة لنفسه؟!

---

(١) نقل العينى هذا الخبر من الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٢٢ .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٢٢ ، وأرّان : ولاية واسعة وبلاد كثيرة منها جنزة ، وهى التى تسميها العامة كنجة وبرذعة وشمكور وبيلقان ، وبين أذربيجان وأرّان نهر الرس . انظر : معجم البلدان ، جـ١ ، ص١٨٣ .

(٣) الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٢٢ .

(٤) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٤٢ .

(٥) الدراعة : هى الفرجية ، أى الجُبة . انظر : الملابس المملوكية ، ص٢٩-٣٠ .

(٦) المثقال : أساس نظام الأوزان الإسلامية عامة هو الدرهم ، الذى يرجع أصله إلى الدراخمة اليونانية ، وكان من الفضة ، وتسكه فارس ، والمثقال الذى يرجع إلى السوليدوس (Solidus) الرومى البيزنطى ، وكان من الذهب ، وتسكة بيزنطة . ونسبة وزن المثقال إلى الدرهم من الوجهة الشرعية كنسبة (٧ : ١٠) ، بينما وصلت فى بعض الأحيان من الوجهة العملية (٢ :٣) . انظر : على جمعة : المكاييل والموازين الشرعية ، ص٧ ، ط . الأولى ، دار الرسالة ، القاهرة ٢٠٠٢م .

ومنها أنه هرب أبو جعفر محمد بن حديدة الوزير الأنصارى من دار الوزارة - دار ابن المهدى - وكان محبوساً بدرب المطبخ عند ابن مهدى ليعذبه ، فحلق ابن حديدة رأسه ولحيته وخرج فلم يظهر خبره إلا من مراغة بعد مدة وعاد إلى بغداد .

ومنها أن ناصر الدين صاحب ماردين توجه إلى خلاط بمكاتبة أهلها ، فجاء الملك الأشرف ونزل على دنيسر[(١)] وأقطع بلاد ماردين ، فعاد ناصر الدين إلى بلده بعد أن غرم مائة ألف دينار ولم يسلموا إليه خلاط .

ومنها أن فى شعبان هدمت القنطرة الرومانية التى كانت عند الباب الشرقى ونشرت حجارتها ليبلط بها الجامع الأموى بسفارة الوزير صفى الدين بن شكر وزير الملك العادل ، فكمل تبليطه[(٢)] فى سنة أربع وستمائة . وفى أول شوال غيروا من قبة الجامع عدة أضلاع من شماليها ، وفى يوم الجمعة سابع ذى القعدة وجد التقى الأعمى مشنوقاً بالمئذنة الغربية . قال أبو شامة[(٣)] : هذا التقى اسمه عيسى بن يوسف بن أحمد الغرافى ولد بالغراف من أرض العراق ، وكان ضريراً عفيفاً فقيهاً ، مفتياً شافعياً مدرساً بالمدرسة الأمينية[(٤)] خارج باب الجامع القبلى ، وكان يسكن [٢٩٠] فى أحد بيوت منارة الجامع الغربية ، وكان ابتلى بأخذ مال له من بيته واتهم به شخصاً كان يقرأ عليه ويطلع معه إلى البيت يقضى حاجته ، ويقوده من المدرسة إلى البيت ، ومن البيت إلى المدرسة ، فأنكر الشخص المتهم ذلك وتعصب له أقوام عند والى المدينة ، فوقع الناس فى عرضه من اتهامه من ليس من أهل التهم ، ومن كونه جمع ذلك المال وهو وحيد غريب ، ونسبوه إلى أنه غير صادق فيما ادعاه . فزاد عليه الهم من ضياع ماله والوقوع فى عرضه ، ففعل بنفسه ما فعل . قال : وبلغنى أن جماعة من المتفقهة امتنعوا من الصلاة عليه وقالوا : قتل نفسه ، فتقدم شيخنا فخر الدين أبو منصور[(٥)] عبدالرحمن بن عساكر فصلى عليه ، فاقتدى الناس به .

(١) دنيسر : انظر ما سبق ، جـ١ ، ص٢٣٠ .
(٢) أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص٥٤ .
(٣) انظر الذيل على الروضتين ، ص٥٤-ص٥٥ .
(٤) المدرسة الأمينية : هى أول مدرسة بنيت بدمشق للشافعية ، بناها أتابك العساكر بدمشق ، أمين الدولة كمشتكين والى صرخد وبصرى . انظر : الدارس ، جـ١ ، ص١٧٧-١٧٨ .
(٥) هو فخر الدين أبو منصور عبدالرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبدالله بن الحسين الدمشقى ، المعروف بابن عساكر ، الفقيه الشافعى ، وهو ابن أخى الحافظ أبى القاسم على بن عساكر صاحب «تاريخ دمشق» . توفى سنة ٦٢٠هـ بدمشق . انظر : وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص١٣٥ .

ودرس بالأمينية بعده الجمال المصرى وكيل بيت المال ، قلت : مذهب أبى يوسف رحمه الله من أصحابنا أن لا نصلى على قاتل النفس .

وفيها . . . .[١]

وفيها حج بالناس من العراق مظفر الدين وجه السبع ، ومن الشام الشجاع على بن السلار كذا فى المرآة .[٢]

وذكر ابن تاج الأمناء قال : وفى السابع والعشرين من رمضان سنة اثنتين وستمائة نادوا الحج على أيلة صحبة ابن الجراحى .[٣]

ذكر من توفى فيها من الأعيان

شرف الدين أبو الحسن على بن محمد بن على ، جمال الإسلام بن الشهرزورى[٤] ، توفى فى هذه السنة بمدينة حمص ، وقد كان أخرج إليها من دمشق ، وكان قبل ذلك مدرساً بالأمينية والحلقة بالجامع تجاه البرادة ، وكان لديه علم جيد بالمذهب والخلاف وكانت وفاته فى رابع عشر جمادى الآخرة .

أبو الحسن على بن على بن سعادة الفارقى[٥] ، تفقه ببغداد وأعاد بالنظامية وناب فى تدريسها واستقل بتدريس المدرسة التى أنشأتها أم الخليفة ، وأزيد على نيابة القضاء عن أبى طالب على بن على البخارى فامتنع من ذلك فألزم به فباشره قليلاً ، ثم دخل يوماً إلى المسجد فلبس على رأسه مئزر[٦] صوف وأمر الوكلاء والجلاوزة[٧] أن ينصرفوا عنه ، وشهد على نفسه بعزلها عن نيابة القضاء ، واستمر على التدريس والإعادة .

(١) بياض بمقدار نصف سطر .
(٢) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٤٣ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٥٣ .
(٣) الخزاعى ، كذا فى الذيل على الروضتين ، ص٥٣ .
(٤) البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٤٨ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٥٤ .
(٥) أبو الحسن على بن على بن سعادة الفارقى ، انظر الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٢٢ .
(٦) المئزر : هو القميص القصير يرتديه الرجال . انظر : ماير : الملابس المملوكية ، ص١٢٤ حاشية (٤) .
(٧) الجلواز : الشرطى . والجلواز عند الفقهاء أمين القاضى أو الذى يقال له صاحب المجلس . انظر : محيط المحيط ، مادة «جلز» ؛ انظر أيضاً : لسان العرب ، جـ١ ، ص٤٤٤ .

حمزة بن على بن حمزة ، أبو يعلى الحرانى المقرى ، ويعرف بابن القبيطى[(١)] ، ولد سنة أربع وعشرين وخمسمائة ببغداد ، وقرأ القرآن بالروايات على الشيخ أبى محمد سبط الشيخ أبى منصور الخياط وغيره ، وسمع الحديث ، وكان حسن الصوت بالقراءة ، يصلى إماماً بالمسجد الذى بجانب البدرية[(٢)] فكان الناس يأتون إليه من أقطار بغداد ويسمعون قراءته وتوفى فى ذى الحجة وصلى عليه بالنظامية ، ودفن بباب حرب ، وكان صالحاً عفيفاً زاهداً ثقة .

مسعود وممدود ابنا الحاجب مبارك بن عبدالله . فمسعود لقبه سعد الدين صاحب صفد ، وممدود لقبه بدر الدين شحنة دمشق ، وأمهما أم فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، وأصل أمهما من المنظرة[(٣)] ففرخشاه أخوهما لأمهما ، وأختهما لأمهما الست عذراء صاحبة المدرسة[(٤)] المجاورة لقلعة دمشق ، وكانا أميرين كبيرين لهما مواقف كثيرة مع السلطان صلاح الدين . وتقدمت وفاة بدر الدين ممدود فإنه توفى بدمشق يوم الأحد خامس شهر رمضان . وتوفى سعد الدين بصفد يوم الإثنين خامس شوال ، بينهما شهر واحد .[(٥)]

وقال أبو شامة : وكانت دار مسعود مجاورة لرباط[(٦)] زهرا خاتون قريب حمام جاروخ[(٧)] ، هى الآن لجمال الدين موسى بن يغمور . ودار ممدود بحارة[٢٩١] البلاطة[(٨)] هى الآن لنجم الدين بن الجوهرى .

(١) انظر الذيل على الروضتين ، ص٥٤ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٤٣ .

(٢) المدرسة البدرية : انظر ما سبق ، جـ١ ، ص٣٢٩ .

(٣) المنظرة : ذكر ياقوت أنه يوجد منظرتان ببغداد : منظرة الحلبة فى وسط السوق فى آخر محلة المأمونية ببغداد ، ومنظرة الريحانيين فى السوق الذى يباع فيه الريحان والفواكه وتشرف على سوق الصرف ببغداد . انظر : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٦٦٥-٦٦٦ .

(٤) المدرسة العذراوية : هذه المدرسة بحارة الغرباء بباب دار السعادة بدمشق . انظر : الدارس ، جـ١ ، ص٣٧٣-٣٨٢ .

(٥) انظر الذيل على الروضتين ص٥٤ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٤٤ .

(٦) انظر : الدارس ، جـ٢ ، ص١٩٣ .

(٧) حمام جاروخ : هذا الحمام ينسب إلى سيف الدين جاروخ التركمانى ، انظر الدارس ، جـ١ ، ص٢٢٥ ، ص٣٧٥ .

(٨) حارة البلاطة بدمشق ، وتعرف فى وقتنا الحالى بزقاق المحكمة . انظر : الدارس ، جـ١ ، ص٤٩٨ ، حاشية (٦) .

الأمير مجير الدين طاشتكين[١] **المستنجدى** ، أمير الحاج وزعيم بلاد خراسان ، وكان شيخاً خيراً حسن السيرة كثير العبادة غالياً فى التشيع ، توفى بتستر[٢] فى ثانى جمادى الآخرة من هذه السنة ، وحمل تابوته إلى الكوفة فدفن بمشهد على رضي الله عنه بوصية منه ، هكذا ترجمه ابن الساعى فى تاريخه . وذكر أبو شامة فى الذيل : مجير الدين طاشتكين بن عبدالله المقتفوى أمير الحاج ، حج بالناس ستاً وعشرين سنة وكان يكون فى طريق الحج مثل الملوك ، فحسده ابن يونس الوزير ، وقال للخليفة : إنه يكاتب صلاح الدين وزور عليه كتاباً فحبسه الخليفة مدة ، ثم تبين له أنه برىء من ذلك فأطلق وأعطاه خوزستان ثم أعاده إلى أمره الحج . وكانت الحله [الشيعية][٣] أقطاعه ، وكان شجاعاً جواداً سمحاً قليل الكلام يمضى عليه الأسبوع ولا يتكلم ، استغاث إليه رجل يوماً فلم يكلمه ، فقال الرجل : الله كلم موسى . فقال : وأنت موسى!! فقال الرجل : وأنت الله!! فقضى حاجته ، وكان حليماً ، التقاه رجل فاستغاث إليه من نوابه فلم يجبه ، فقال له الرجل : أحمار أنت؟ فقال طاشتكين : لا . وفى قلة كلامه يقول ابن التعاويذى :

وأميـــر على البـــلاد مـــولى　　لا يجب الشاكى بغير سكوت
كلمـــا زاد رفـــعـــةً حطناً　　الله بتغفيله إلى البهـموت

وقام يوماً إلى الوضوء فحل حياصته وتركها موضعه ودخل ليتوضأ ، وكانت الحياصة تساوى خمسمائة دينار ، فسرقها الفراش وهو يشاهده ، فلما خرج طلبها فلم يجدها ، فقال أستاذ داره : أجمعوا الفراشين وأحضروا المعاصير[٤] . فقال له طاشتكين : لا تضرب أحداً فالذى أخذها ما يردها والذى رآه ما يعمز عليه . فلما كان بعد مدة رأى على الفراش الذى سرق الحياصة[٥] ثياباً جميلة وبزة ظاهرة . فاستدعاه سراً وقال له بحياتى هذه من زيك

---

(١) البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٤٩–ص٥٠ ؛ الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٢٠ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٤٣ .
(٢) تستر : انظر ما سبق ، جـ١ ، ص١١٧ .
(٣) «السيفية» كذا فى الأصل ، ومرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٤٣ . والمثبت بين الحاصرتين من الذيل على الروضتين ، ص٥٣ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٤٩ .
(٤) المعاصير أو المعاصر ، مفردها المعصرة . وهى آلة من آلات التعذيب وتتكون من خشبتين موبوطتين بجبل ، ويوضع بينهما وجه المعاقب أو رأسه أو رجلاه أو عقباه ، ثم تشد الخشبتان شداً وثيقاً مما يؤدى فى كثير من الأحيان إلى كسر العظام المعصورة بين الخشبتين . انظر عاشور ، المجتمع المصرى ، ص٩٩ .
(٥) الحياصة : تعنى حزام العسكريين ، وكان يطلق عليها أولاً المِنْطَقة ، ثم أطلق عليها فيما بعد الحياصة ، وتصنع من معدن ثمين ، وأفخمها ما كان من الفضة المطلية بالذهب ، وأحيانا من الذهب الخالص المرصع بالأحجار الكريمة . انظر : الملابس المملوكية ، ص٤٧–٤٨ .

فخجل ، فقال : لابأس عليك . فاعترف فلم يعارضه ، وكان طاشتكين قد جاوز تسعين سنة ، فاستأجر أرضاً وقفاً ثلثمائة سنة على جانب دجلة ليعمرها داراً ، وكان ببغداد رجل محدث فى الخلق يقال له فتيحة المحدث ، فقال : يا أصحابنا نهنئكم مات ملك الموت . قالوا : وكيف؟ قال طاشتكين . عمره مقدار تسعين سنة وقد استأجر أرضاً ثلثمائة سنة فلو لم يعلم أن ملك الموت قد مات ما فعل هذا فتضاحك الناس .

الست خاتون أم السلطان الملك المعظم ابن السلطان الملك العادل ، توفيت يوم الجمعة العشرين من ربيع الأول من هذه السنة ، ودفنت فى القبة التى بالمدرسة المعظمية[1] سفح قاسيون ، وفى تلك القبة معها ابناها المعظم عيسى والعزيز عثمان ، ابنا الملك العادل ، وأخوهما المتوفى قبلهما الملك المغيث عمر بن الملك العادل .

(١) المدرسة المعظمية : تقع بالصالحية بسفح قاسيون الغربى جوار المدرسة العزيزية . أنشئت سنة ٦٢١هـ . أنشأها الملك المعظم عيسى بن العادل ، الفقيه الأديب . انظر : الدارس ، جـ١ ، ص٥٧٩-٥٨٧ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الثالثة بعد الستمائة[*]

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله ، والسلطان الملك العادل سار من مصر إلى الشام ، ونازل فى طريقه عكا وصالحه أهلها على إطلاق جمع من الأسرى[1] ، ثم وصل إلى دمشق ثم سار عنها ، ونزل بظاهر حمص على بحيرة قدس[2] ، واستدعى[٢٩٢] بالعساكر فأتته من كل جهة ، وأقام على البحيرة حتى خرج رمضان . ثم سار ونازل حصن الأكراد ، وفتح برج أغياز وأخذ منه سلاحاً ومالاً وخمسمائة رجل ثم سار ونازل طرابلس ، ونصب عليها المجانيق ، وغار العسكر فى بلادها وقطع قناتها ، ثم عاد فى أواخر ذى الحجة إلى بحيرة قدس فظاهر حمص ، وخرجت السنة وهو مقيم هناك .

وفى تاريخ بيبرس : وفى هذه السنة خرج العادل بعساكره لقصد مدينة عكا فصالحه أهلها ، وجرت بينه وبين الظاهر صاحب حلب - ابن أخيه - أمور اقتضت تغيّر البواطن واستشعار كل منهما من الآخر . وحصر ناصر الدين الملك المنصور صاحب حماة إلى خدمة العادل ، واجتمع به وشكى إليه سوء معاملة الظاهر له . فكان ذلك مما زاده تغيّراً .

واتفق خروج الفرنج من طرابلس وقصدوا حمص وأغاروا عليها فعظم ذلك على العادل وسار من دمشق ونزل بظاهر حمص وحضرت إليه عساكر البلاد ، وأقام إلى آخر شهر رمضان ، وعيّد فى مكانه وسار متوجهاً إلى حصن الأكراد ، وذكر إلى آخر ما ذكرنا .

وقال أبو شامة[3] : وفيها نزلت الفرنج على حمص ، وكان الظاهر بعث إليها المبارز يوسف بن خطلج الحلبى نجدة لأسد الدين شيركوه الأصغر ، وأُسِر فى هذه السنة الصمصام بن العلائى وخادم صاحب حمص .

ذكر ماجريات ملوك البلاد

منها أن[4] غياث الدين محمود بن غياث الدين محمد ملك الغورية أرسل يستميل يلدز مملوك أبيه المستولى على غزنة فلم يجبه يلدز إلى ذلك ، وطلب يلدز من غياث

(★) يوافق أولها ٨ أغسطس سنة ١٢٠٦م .

(١) ورد هذا النص فى المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص١٠٧-١٠٨ .

(٢) بحيرة قَدَسَ : قرب حمص ، بينها وبين جبل لبنان ، يخرج منها نهر العاصى ، انظر معجم البلدان ، جـ١ ، ص٥١٦ .

(٣) الذيل على الروضتين ، ص٥٧ .

(٤) نقل العينى هذا الخبر من الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٢٥ .

الدين أن يعتقه ، فأحضر الشهود وأعتقه ، وأرسل مع عتاقته هدية عظيمة ، وكذلك عتق أيبك المستولى على الهند ، وأرسل إليه نحو ذلك فقبل كل منهما ذلك ، وخطب له أيبك ببلاد الهند التى تحت يده ، وأما يلدز فلم يخطب له ، وخرج بعض العساكر عن طاعة يلدز لعدم طاعته لغياث الدين مولاه .

وفى تاريخ بيبرس : لما أرسل غياث الدين إلى يلدز وطالبه بالخطبة ولم يجب إليه أعاد عليه الرسالة وقال : إما أن تخطب لنا وإما أن تعرفنا ما فى نفسك . فلما وصل الرسول بهذا أحضر يلدز الخطيب وأمره أن يخطب له ، ويترحم على شهاب الدين ، فَخُطِبَ ليلدز بغزنة ، فلما رأى الناس ذلك ساءهم إسقاط اسم غياث الدين ، وتغيرت نياتهم ليلدز ونيات الأتراك الذين معه ، ولم يروه أهلاً أن يخدموه ، وإنما كان يطيعونه لما كانوا يرون أنه يقيم دولة غياث الدين . فلما خطب لنفسه ، أرسل إلى غياث الدين يقول له : إنه قد اجتمع عندك الذين هم أساس الفتنة وأقطعتهم الإقطاعات ، ووعدتنى أموراً لم تقف[1] عندها ، فإن أنت عتقتنى خطبتُ لك وحَلَتْ إلىَّ خدمتك . فأجابه غياث الدين إلى ذلك وأشهد عليه بعتقه ، وعتق قطب الدين أيبك نائبه ببلاد الهند ، وأرسل إليهما تشاريف ومناطق ذهب وستراً . فقبل يلدز الخلع والمناطق ، ورد الستر وقال : نحن عبيد ومماليك ، والجتر[2] له أصحاب .

وسار رسول غياث الدين إلى أيبك وكان ببلاد الهند ، فلما علم قرب الرسول لقيه على بعد وقَبّل حافر الفرس ولبس الخلعة ، وقال : أما الجتر فلا يصلح للمماليك ، وأما العتق فمقبول ، وسوف أجازيه[٢٩٣] بعبودية الأبد .

ومنها[3] أن خوارزم شاه ملك طالقان ، وذلك أنه لما سَلَّم ترمذ إلى الخطا سار عنها ، فأرسل إلى سونج أمير شكار نائب غياث الدين محمود بالطالقان رسولاً يستميله إليه ، فلم يجبه سونج وعاد الرسول خائباً ، وجمع سونج عساكره وخرج لمحاربة خوارزم شاه فالتقوا بالقرب من طالقان ، فلما تقابل العسكران حمل سونج وحده مجداً حتى قارب عسكر خوارزم شاه وألقى نفسه إلى الأرض ورمى سلاحه وقبل الأرض وسأل العفو ، فظن

---

(١) تعنى فى الكامل جـ١٠ ، ص٣٢٥ .
(٢) جتر ، جمع جتور ، وهو المظلة ، ويطلق عليها أيضاً الستر . صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص٤٦٩ ، ص٥٠٢ .
(٣) ورد هذا الخبر فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٢٣-٣٢٤ .

خوارزم شاه أنه سكران ، فلما علم أنه صاح ذَمّه وسَبّه ولم يلتفت إليه ، وأخذ بالطالقان من سلاح ومال ودواب وأنفذه إلى غياث الدين مع رسول برسالة تتضمن التقرب إليه والملاطفة له ، واستناب بالطالقان بعض أصحابه وسار إلى قلاع كالوين[١] وبَيْوَار[٢] ، فخرج إليه حسام الدين على صاحب كالوين وقابله على رؤوس الجبال ، فأرسل إليه خوارزم شاه يتهدده إن لم يسلم إليه فقال : أما أنا فمملوك وهذه الحصون بيدى أمانة ولا أسلمها إلا إلى صاحبها . فاستحسن خوارزم شاه ذلك منه وذم سونج . ولما بلغ غياث الدين خبر سونج وتسليمه الطالقان إلى خوارزم شاه عظم ذلك عنده وشق عليه كثيراً ، فهوَّن الأمر عليه أصحابه .

ولما فرغ خوارزم شاه من الطالقان سار إلى هراة فنزل بظاهرها ، ولم يمكن ابن خرميل من هراة أحداً من الخوارزميين أن يتطرق إلى أحد من أهلها ، وإنما كانوا يقطعون الطريق وهذه عادة الخوارزميين . ووصل رسول غياث الدين إلى خوارزم شاه بالهدايا ، ورأى الناس ذلك عجباً لما كان بينهما من التباين ، وسار ابن خرميل من هراة فى جمع من عساكر خوارزم شاه ، فنزل على أسفزار[٣] فحاصرها وأخاف أهلها فسلموها ولم يعرض لهم بسوء ، ولما أخذها أرسل إلى محمد بن حرب صاحب سجستان يدعوه إلى طاعة خوارزم شاه والخطبة له ببلاده ، فأجابه إلى ذلك ، وكان خوارزم شاه يطالبه بذلك مدة ولم يجبه إليه .

ولما سمع يلدز بالصلح مع خوارزم شاه أرسل إلى غياث الدين أن ما الذى حملك على هذا؟ فقال : عصيانك لى وخلافك على . فجمع يلدز عساكره وسار إلى تكيا باذ وإلى بُست فملكهما وقطع خطبة غياث الدين منها ، وأرسل إلى صاحب سجستان يأمره بإعادة الترحم على شهاب الدين وقطع خطبة خوارزم شاه . وأرسل إلى ابن خرميل صاحب هراة بذلك ، ويتهددهما بقصد بلادهما إن لم يفعلا ، فخافوه . ثم إنه أخرج جلال الدين بن بهاء الدين سام من الأسر ، وذلك أنه لما هزم عسكر باميان أسر جلال

---

(١) قلعة كالوين : ذكرها ياقوت «كالوان» وهى قلعة حصينة بين باذغيش وهراة بين الجبال . معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٢٢٩ .

(٢) بَيْوَار ، مدينة قصبة غرشستان ، ولاية بين غزنة وهراة ومرو الروذ والغور فى وسط الجبال ، معجم البلدان ، جـ١ ، ص٨٠٣ .

(٣) أَسْفُزَار : مدينة من نواحى سجستان من جهة هراة . انظر معجم البلدان ، جـ١ ، ص٢٤٨ .

الدين وأخاه علاء الدين أيضاً . ثم إنه لما أخرج جلال الدين من الأسر سير معه خمسة آلاف فارس ، وقدّم عليهم أيدكز التترى مملوك شهاب الدين ليعيدوا جلال الدين إلى باميان ، ويزيلوا ابن عمه عباس ، وكان قد ملك باميان لما رأى خلوها من ابنى أخيه جلال الدين وعلاء الدين ، وزوج يلدز ابنته من جلال الدين ، وخلع عليه فسار هو ومن معه . ولما خلا به أيدكز قال له : عزّ على لبسك خلعة يلدز ، وكيف وأنتم ما رضيتم تلبسون خلعة غياث الدين وهو أكبر سناً منكم وأشرف بيتاً[٢٩٤] وتلبس خلعة هذا المأبون – يعنى يلدز– ودعاه إلى العود معه إلى غزنة ، وأعلمه أن الأتراك كلهم يجمعون على خلاف يلدز ، فلم يجبه إلى ذلك . فقال أيدكز : إننى لا أسير معك . وعاد إلى كابُل وهى إقطاعه . فلما وصل إليها لقّبه رسول قطب الدين أيبك إلى يلدز يقبح فعله ، ويأمره بإقامة خطبة غياث الدين ، ويخبره أنه قد خطب له فى بلاده . [فلما][1] علم أيدكز قويت نفسه على محاربة يلدز ، وصمم على قصد غزنة ووصل رسول أيبك إلى غياث الدين بالهدايا والتحف ويشير عليه بإجابة خوارزم شاه إلى ما طلب الآن ، وعند الفراغ ، من غزنة تسهل أمور خوارزم شاه .

فسار أيدكز إلى غزنة ، وكان جلال الدين قد كتب إلى يلدز يخبره بخبر أيدكز وما عزم عليه ، فكتب يلدز إلى نوابه بغزنة يأمرهم بالاحتياط منه . فلما وصلها أيدكز أمر أصحابه بنهب البلد ، فتوسط القاضى الحال بأن يَحْمِل إليه خمسين ألف دينار ، وخطب أيدكز لغياث الدين ، وقطع خطبة يلدز ، ففرح الناس بذلك . وسير المال إلى غياث الدين ، ولقب بملك الأمراء .

ومنها أن فى ثالث شعبان ملك غياث الدين كيخسرو صاحب بلاد الروم أنطالية[2] باللام وهى مدينة للروم على ساحل البحر ، وكان قد حاصرها قبل هذا الوقت فأرسل صاحبها إلى الفرنج الذين بجزيرة قبرس ، فاستنجدهم فأرسلوا إليه جماعة منهم ، فرحل كيخسرو وترك طائفة من عسكره بالقرب منها مع الجبال ، فلما رحل اختلف الروم والفرنج فتسلمها وقتل من كان بها من الفرنج الذين جاءوا للنجدة .[3]

---

(١) «فلم» فى الأصل . والصحيح ما أثبتناه . انظر : الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٢٦ .

(٢) أنطَالِية : بلد كبير من مشاهير بلاد الروم ، وهى حصن للروم على شاطىء البحر . انظر : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٣٨٨ ؛ بلدان الخلافة الشرقية ، ص١٨٣–١٨٤ .

(٣) ورد هذا الخبر فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٢٨–٣٢٩ .

ومنها أنه قبض عسكر خلاط على صاحبها ولد بكتمر ، وملّكوها لبلبان مملوك شاهرمن بن سكمان ، وكتب قوم من الجند إلى ناصر الدولة أرتق بن إيلغازى يستدعونه . وسبب ذلك أن ولد بكتمر كان جاهلاً ، فلما ملك بعد أبيه قبض على الأمير شجاع الدين قتلغ ، وكان أتابكه ومدبر بلاده ، فقتله . واختلفت الكلمة عليه من الجند والعامة ، واشتغل باللهو وإدمان الشرب . فساءت نياتهم له ، وسار بلبان إلى ملاذكرد[1] وملكها ، واجتمع أكثر الجند إليه ، وسار راجعاً إلى خلاط . واتفق وصول صاحب ماردين إلى خلاط معتقداً أن أحداً لا يمتنع عليه ، فنزل قريباً منها ، فأرسل إليه بلبان يقول له : إن أهل خلاط قد اتهمونى بالميل إليك ، والرأى أنك ترحل [عائداً][2] مرحلة ، فإذا تسلمت البلد سلمته إليك . فرحل صاحب ماردين راجعاً ، فلما أبعد عن خلاط ، وكان فى قلة من الجند ، أرسل إليه بلبان أن تعود إلى بلدك ، وإلا جئت أوقعت بك . فعاد إلى ماردين .

وأما بلبان فإنه حاصر خلاط ، وضيق على أهلها ، فقبضوا على ابن بكتمر وسلموها إليه .

ومنها[3] أنه كانت الحرب بين عسكر الخليفة وبين صاحب كرّستان مع مملوكه سنجر ، وكان المتولى لتلك الأعمال ، وصاحب كرّستان يعرف بأبى طاهر ، وهى جبال منيعة بين فارس وأصفهان وخوزستان ، فقاتلوا أهلها وعادوا منهزمين . وسبب ذلك أن مملوكاً للخليفة الناصر لدين الله يسمى قشتمر من أكبر مماليكه ، كان قد فارق الخدمة لتقصير رآه فى حقه من الوزير نصير الدين العلوى ، فاجتاز بخوزستان وأخذ ما[٢٩٥] أمكنه ولحق بأبى طاهر صاحب كرّستان ، فأكرمه وزوجه ابنته ، ثم توفى أبو طاهر فقوى أمر قشتمر الناصرى ، وأطاعه أهل تلك الولاية ، فأمر الخليفة سنجر بجمع العساكر وقتال قشتمر ، ففعل سنجر ما أُمر به وجمع العساكر وسار إليه ، فأرسل قشتمر يعتذر ويسأل أن لا يُقصد ، ويُحْوَج إلى الخروج عن الطاعة والعبودية ، فلم يقبل عذره . فجمع أهل تلك الأعمال ونزل إلى العسكر الذين مع سنجر ، فلقيهم وهزمهم ، وأرسل إلى أيتغمش

---

(١) ملازكرت = منازكرد : انظر ما سبق ، جـ٢ ، ص١٦٩ .

(٢) ما بين الحاصرتين مثبت من الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٢٩ .

(٣) ورد هذا النص فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٣٠-٣٣١ .

صاحب أصفهان والرى وإلى صاحب [فارس][١] يعرفهما الحال ، ويقول : إننى لاقوة لى بعسكر الخليفة ، وقد أضيف إليهم عساكر أخرى ، وعادوا إلى حربى ولا أقدر لهم . وطلب منهما النجدة ، فأجاباه إلى ما طلب ، فاستمر على حاله وقوى جنانه .

ذكر بقية الحوادث

منها أن الخليفة ولّى قضاء القضاه ببغداد لعماد الدين بن أبى القاسم عبدالله بن الدامغانى .

ومنها أن[٢] الخليفة قبض على عبدالسلام بن عبدالوهاب بن الشيخ عبدالقادر الكيلانى[٣] بسبب فسقه وفجوره ، وقد احترقت كتبه وأمواله قبل ذلك لما فيها من كتب الفلاسفة وعلوم الأوائل ، وأصبح يستعطى من الناس ، وهذا بخطيئة قيامه على الشيخ أبى الفرج بن الجوزى فإنه هو الذى كان وشى به إلى الوزير ابن القصاب حتى أحرق بعض كتب ابن الجوزى ، وختم ببقيتها ونفى إلى واسط خمس سنين كما تقدم بيان ذلك ، والناس يقولون : فى الله كفاية وفى القرآن ، وجزاء سيئة سيئة مثلها ، والصوفية يقولون : الطريقة بأخذ حقها . والأطباء يقولون : الطبيعة مكافئة .[٤]

وقال أبو شامة[٥] : وكان إحراق كتب عبدالسلام المذكور فى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، وسببه أنه كان بين ابن يونس الوزير وبين أولاد الشيخ عبدالقادر عداوة قديمة ؛ لأنه كان جارهم بباب الأزج فى حال خموله وفقره ، وكانوا يؤذونه بحيث أنهم ربوا كلباً ولقبوه جُليل يعنون جلال الدين وهو لقب ابن يونس ، وكان لابن يونس أخ صالح يقال له العماد فسموا بغلاً للطحن العماد ، وكان للشيخ عبدالقادر ولد لصلبه طحان اسمه سليمان ، كان أشر خلق الله وهو الذى فعل هذه الأفاعيل ، فلما ولى ابن يونس الوزارة ثم أستاذية الدار ، أظهر ما كان فى قلبه منهم ، فبدد شملهم وبعث ببعضهم إلى

---

(١) بياض فى الأصل . والمثبت بين الحاصرتين من الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٣١ .

(٢) انظر مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٤٤ ؛ كما ورد فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥٠ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٥٥- ص٥٧ .

(٣) الجيلانى فى البداية والنهاية جـ١٣ ، ص٥٠ ؛ شذرات الذهب ، جـ٥ ، ص١١ ؛ وهى نسبة إلى «جيلان» أو «كيلان» معجم البلدان ، جـ٢ ، ص١١ .

(٤) نقل العينى هذا الخبر من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥٠ . .

(٥) الذيل على الروضتين ، ص٥٦ .

المطامير إلى واسط ، فماتوا بها ، وكان عبدالسلام المذكور مداخلاً للدولة ، وكانت عنده كتب كثيرة ، فبعث ابن يونس فكبس داره وأخرج منها كتباً فى فنون منها : «الشفا» لابن سينا ، والنجاة ، ورسائل إخوان الصفا ، وكتب الفلاسفة والمنطق ، وتسخير الكواكب ، والنارنجيات ، والسحر . فاستدعى ابن يونس - وهو يومئذ أستاذ الدار للخليفة - ، العلماء والفقهاء والقضاة والأعيان ، وكان جد السبط الشيخ أبو الفرج بن الجوزى منهم وقرئ من بعضها مخاطبة زحل يقول : أيها الكوكب المضئ المنير الفرد أنت تدير الأفلاك وتحيى وتميت وأنت إلهنا ، وفى حق المريخ من هذا الجنس ، وكان عبد السلام حاضراً فقال له ابن يونس : هذا خطك؟ قال : نعم . قال : لم كتبته؟ قال لأرد على قائله ومن يعتقده . فسألوه فيه فقال : لابد من حريق الكتب . فلما كان يوم الجمعة ثانى عشر صفر جلس قاضى القضاة[٢٩٦] والعلماء وفيهم ابن الجوزى على سطح المسجد المجاور لجامع الخليفة وأضرموا تحت المسجد ناراً عظيمة ، وخرج الناس من الجامع فوقفوا على طبقاتهم والكتب على سطح المسجد بين أيديهم ، فقام رجل يقال له ابن المارستانية فجعل يقرأ كتاباً كتاباً ويقول : العنوا من كتبه ومن يعتقده . فضج العوام باللعن وعبدالسلام حاضر ، وتعدى اللعن إلى الشيخ عبدالقادر وأحمد بن حنبل فظهرت الأحقاد البدرية . وقال الخصوم أشعاراً منها قول المهذب الرومى ساكن النظامية :

لى شعر رق من دين ركن الد ... ين عبدالسلام لفظاً ومعنى
زحلياً يشنا عليًّا ويهوى ... آل حرب حقدا عليه وضغنا
منحته النجوم إذ رام سعداً ... وسروراً نحسا وهما وحُزنا
سار إحراق كتبه سير شعرى ... فى جميع الأقطار سهلاً وحَزْناً
أيها الجاهل الذى جهل الحـ ... ـق ضلالاً وضيع العُمر غبناً
رمت جهلاً من الكواكب بالتبخـ ... ـير عزاً فنلت ذلاً وسجناً
ما زحل وما عطارد والمر ... يخ والمشترى ترى يا مُعَنَّى
كل شىء يؤدى ويفنى سوى اللـ ... ـه إلهى فإنه ليس يفنى(١)

(١) وردت هذه الأبيات فى الذيل على الروضتين ، ص٥٦-ص٥٧ .

ثم حكم القاضى بتفسيق عبدالسلام ، ورمى طيلسانه ، وولى ابن الجوزى مدرسة الشيخ عبدالقادر ، فذكر التدريس بها فى ربيع الأول .

ومنها(١) أنه قدم البرهان محمد بن عمر بن مازه البخارى ويلقب بصدر جهان حاجاً إلى بغداد ، وتلقاه جميع من ببغداد ماعدا الخليفة والوزير ، وأنزل فى دار زبيدة على نهر عيسى ، وحمل إليه الإقامات والضيافات ، وكان معه ثلاثمائة من الفقهاء ، وجرى له فى حجه ما سنذكره فى السنة الآتية إن شاء الله تعالى .

ومنها أنه قال السبط فى المرآة(٢) : وفى هذه السنة فارقت دمشق قاصداً إلى حلب وجلست بقاسيون وودعت الناس فلم يتخلف بدمشق إلا اليسير ، وامتلأ جامع الجبل بالناس فصاحوا علينا من الشبابيك والأبواب لالالا ، يعنى قوموا فاخرجوا فخرجنا إلى المصلى ، وكان شيخنا تاج الدين الكندى حاضراً ، فلما خرج من الباب رجموه فانكشف رأسه ، ووقعت عمامته ، فعز علىّ وسألته أن يمضى إلى دمشق ، ولا يحضر فى المصلى ، فامتنع فقال : لا والله حتى يتم المجلس . وتاب فى ذلك اليوم زيادة على خمسمائة شاب وقطعوا شعورهم ، وكان سيف الدين بن ميرك حاضراً وجرى الكلام فى المغناطيس وأنه يعشق الحديد ، قلت : والحبارى(٣) يعشق الشمس ، ولهذا كلما مالت الشمس إلى جهة مال الحبارى إليها ، فصاح شمس الدين بن ميرك كلنا اليوم حبارى .

قال : ووصلت إلى حلب فى ذى الحجة واجتمعت بالنقاش الحلبى ولقبه تاج الدين واسمه مسعود بن أبى الفضل أبو الفتح ، فأنشدنى مقطعات من شعره وكتبها لى بخطه . ومولده سنة أربعين وخمسمائة ، ومدح الملك الأمجد صاحب بعلبك ، وهجى مسعوداً صاحب شيزر ببيتين هما عينا الذم ، وسبب ذلك أنه حكى عن نفسه قال : اشتريت من دمشق[٢٩٧] فاكهة بأربعين درهماً وقوسين بأربعين درهماً ، وقصدت شيزر فنزلت بخان فى الربض ، وأُخبر مسعود صاحبها بى فاستدعانى ، فدخلت عليه وقدمت له الهدية وأنشدته أبياتاً غزلاً ومديحاً ، فلما انتهينا أخرج من تحت طراحته خمسة دراهم وقال : أنفق عليك هذه الليلة فطباخنا مريض ، فنزلت إلى الخان .

---

(١) انظر : الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٣١ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٤٤-ص٣٤٥ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٥٧ .

(٢) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٤٥-ص٣٤٦ .

(٣) الحُبَارَى : طائر يقع على الذكور والأنثى ، وجمعها حُباريات ، ويقال للحبارى بالفارسية جوز ، يضرب بها المثل فى البلاهة والحمق . انظر محيط المحيط ، جـ١ ، ص٣٣٢ مادة «حَبَرَ» .

فلما كان صبيحة ذلك اليوم جاءنى أستاذ داره وقال : الأمير يسلم عليك ويقول لك : كم ثمن الفاكهة والقوسين؟ فقلت : معاذ الله أن أذكر لهما ثمناً وإنما أهديتهما للأمير . فقال : لابد . فقلت : اشتريتهما من دمشق بثمانين درهماً ، واكتريت لى ولها بغلاً بعشرين درهماً ، فمضى وعاد ومعه مائة درهم ، فقال : هو يعتذر إليك وما فى الخزانة شىء . فامتنعت من أخذها وخرجت من شيزر ولم أبت بها . وقال :

ما أليق البخس بمسعودكم ... على الورى يا ساكنى شيزر
فيا ملوك الأرض هموا به ... فإنه والله شىء زرى

قال : وعهدى بالنقاش فى سنة ثمان وستمائة فى الحياة ، وقدم دمشق فى سنة تسع وستمائة ، وأنشد للجماعة قطعاً من قصائده وأفادهم من فرائد فوائده ، إلا أنه كان باطنه كالزناد الوقاد ، وظاهره كالجليد والجماد ، ومن رآه نسبه إلى البلاهة وعدم الذكاء والفقاهه ، فإذا أنشد تساقط من ألفاظه مثل الجمان . وقد شاهدته وليس الخبر كالعيان ، ولم أقف على تاريخ وفاته .

وذكر أبو شامة[1] من قصائده قطعاً منها :

مالى سوى حبكم مذهب ... ولا إلى غيركم مذهب
ناشدتك الله نسيم الصبا ... من أين هذا النفس الطيب
أأودعت برداك وقت الضحى ... مكان ألقت عقدها زينب
أم باسمت رياك روض الحمى ... وذيلها من فوقه يسحب
فهات أتحفنى بأخبارها ... فعهدك اليوم بها أقرب

ومنها :

أى يد عندى وأى مِنَّة ... للركب أن بشرنى بهنة
صاحوا الرحيل فظلت والها ... أنشد قلبى بين عيسهنة
كأننى بالحى قد شدوا العرى ... لبيتهم وأرخوا الأعنة
وما سمعت قبل أن ترحلوا ... بمطلع الشهب من الأسنة
يا حادى الأظعان رب فرح ... أحدثه طيب حد بثهنة
فاسلم وقل للراحلين إن ... يكن بين فرقا بقتيلكن

(١) الذيل على الروضتين ، ص٥٧ .

ومنها قصيدة فى مدح صاحب بعلبك الأمجد بن فرخشاه :

زار وطرف النجم لم يرقد مؤتزر من حسنه مرتد[٢٩٨]
أحور يحكى الخال فى خده نُقطةُ نَد فوقَ ورد نَدِ
يا حسنه من زائر مابدا إلا وأنسى قمرُ الأسعد
ويا ضلالى فيه من بعد ما كنت بمرأى وجهه اهتدى
فيا لها من ليلة لم يفز بمثلها الهادى ولا المهتدى
إذا اجتلى فى ليل أصداغه من وجهه شمس صباح الغد
وعاذل عنف فيه ومن ينادم البدر ولم يحسد
ظن خلاصى فى يدى فاعتدى وقال يهوى قاتلاً لا يدى
فقلت لا ترح سلوى فقد خلعت سُلوانى على عُودِّى
أأهجر العيش بهجرى له وأخرج الفوز به عن يدى
وأنثنى عنه إلى غيره لا وحياة الملك الأمجد

ومنها :[١] أعنى من الحوادث ، أنه اجتمع شابان ببغداد على شرب ، فضرب أحدهما الآخر بسكين فقتله ، وهرب فأُخذ فقتل ، فوجد معه رقعة فيها بيتان من نظمه ، أمر أن يُجعلا بين أكفانه ، وهما قوله :

قدمت على الكريم بغير زاد من الأعمال بالقلب السليم
وسوء الظن أن تعتدَّ زاداً إذا كان القدوم على كريم

وفى تاريخ بيبرس :

وفيها توفى أبو القاسم [أحمد][٢] بن المقرى صاحب الديوان ، كان شاباً حسناً يعاشر ابن الأمير أَصُبَه فداعبه يوماً فرماه بسكين صغيرة فوقعت فى فؤاده فقتله ، فسلمه الخليفة إلى أخوته أولاد أصُبَه ، فلما خرجوا به ليقتل أنشد : قدمت على الإله ، البيتين . وفى روايته : بَلْ قلب سليم ، وسوء الظن أن نَعتد .

(١) الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٣١ .

(٢) ما بين حاصرتين إضافة من الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص١٩٩ ، كما وردت ترجمته فى النجوم الزاهرة ، جـ٦ ، ص١٩٢ .

ومنها أنه فارق وجه السبع حاج العراق وقصد الشام ، وكان فى الحاج العراقى جماعة من الأعيان فبكوا وضجوا ، وسألوه فقال : مولاى أمير المؤمنين محسن إلىَّ ، وما أشكو إلا من الوزير ابن مهدى ، فإنه يقصدنى لقربى من مولاى ، وما عن الروح عوض . وسار إلى الشام ودخل الحاج بغداد وعليهم وحشة وكآبة ، وأمر الخليفة أن لا يخرج الموكب إلى لقائهم ، ولا يخرج إليهم أحد ، وأدخل الكوسى والعلم والمهد فى الليل ، وأقام الخليفة حزيناً أياماً . وأما وجه السبع فوصل إلى دمشق ، فالتقاه العادل وأولاده وخدموه وأحسنوا إليه .

وفيها (بياض بالأصل بمقدار سطر) .

وفيها حج بالناس من العراق مظفر الدين وجه السبع ، لكنه فارق الحج كما ذكرناه الآن . وحج بالناس من الشام مجاهد الدين ياقوت ، وهى أول حجة حجها ، وحج صدر جهان أيضاً .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

الفقيه[١] العالم أبو منصور عبد الرحمن بن الحسين بن عبد الله بن النعمان النيلى ، الملقب بالقاضى شريح لذكائه وفضله وبراعته وعقله وكمال أخلاقه . ولى قضاء بلدة النِيْل[٢] بكسر النون وسكون الياء آخر الحروف وفى آخره لام . ثم قدم بغداد فندب إلى المناصب الكبار فأباها ، فحلف عليه الأمير طاشتكين أن يعمل عنده الكتابة ، فخدمه عشرين عاماً ، ثم وشى به الوزير ابن مهدى إلى الخليفة فحبسه فى دار طاشتكين إلى أن توفى فيها فى هذه السنة ، ثم أن الوزير حُبس بها أيضاً عن قريب ، ومات فيها . وهذا من العجائب .

وفى المرآة : ومات طاشتكين وهو محبوس ، وتوفى شريح فى ربيع الأول فى[٣] دار طاشتكين[٢٩٩] وأخرج منها ميتاً ، ودفن بداره فى القُبَيْبات .[٤]

---

(١) انظر ترجمته فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥١ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٤٦ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٥٨ .

(٢) النيل : بليدة فى سواد الكوفة قرب حلة بن مَزْيَد يخترقها خليج كبير يتخلخ من الفرات الكبير . انظر : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٨٦١ .

(٣) «بدار» فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٤٦ .

(٤) القُبَيْبات : محلة ببغداد . انظر : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٣٤ .

قال السبط : ورأيت القاضى شريحاً وكان ألطف العالم وأذكاهم ، وكان فاضلاً مترسلاً بليغاً ، جواداً سمحاً حسن الصورة ، فصيح اللسان ، متواضعاً لطيفاً ، يصلح للوزارة وغيرها .

أبو الحرم مكى[1] **بن ريّان بن شَبّه بن صالح الماكسينى** ، من أعمال سنجار ، ثم الموصلى النحوى ، قدم بغداد وأخذ عن ابن الخشاب ، وابن العطار ، والكمال الأنبارى ، وقدم الشام فانتفع به خلق عظيم منهم ؛ الشيخ علم الدين السخاوى وغيره . وكان ضرير البصر ، يتعصب لأبى العلاء المعرى لما بينهما من القدر المشترك فى الأدب والعمى . ومن شعره :

إذا احتاج النوال إلى شفيع ... فلا تقبله تَضْح قرير عين
إذا عيف النوالُ لفَرد مَنٍّ ... فأوْلى أن يُعاف لمنّتين

ومن شعره أيضاً فى ألغاز اسم دَعْد :

اسم التى أنا عبدها ... يأيها الرجل الحكيمُ
تُلفيه معكوساً كما ... تلفيه إذ هو مستقيم

قال أبو شامة[2] : ويكفى من ذلك أن نقول :

اسمها إن عكسته ... مثله إن تركته

وتوفى أبو الحرم بالموصل فى شوال من هذه السنة ، وقال : قرأ عليه شيخنا أبو الحسن السخاوى كتاب أسرار العربية للأنبارى ، وربما يقع تصحيف فى اسم أبيه وجده ، فاعلم أن اسم أبيه أوله راء مهملة بعدها ياء آخر الحروف وآخره نون ، واسم جده أوله سين معجمة بعدها باء موحدة على وزن حبة ، وبدأ بذكره شرف الدين بن المستوفى فى تاريخ إربل لأنه شيخه ووصفه وأثنى عليه .

عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر الجيلى ، كان زاهداً عابداً ، ورعاً لم يكن فى أولاد الشيخ مثله ، ولد سنة ثمان وعشرين وخمسمائة ، وسمع الحديث الكثير ، وكان مقتنعاً

---

(١) انظر ترجمته فى الذيل على الروضتين ، ص٥٨-٥٩ ؛ شذرات الذهب ، جـ٥ ، ص١١ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥١ .

(٢) الذيل على الروضتين ، ص٥٩ .

من الدنيا باليسير ، وكانت وفاته فى شوال ، ودفن بباب حرب ، وكان صالحاً ثقة لم يدخل فيما دخل فيه من أخوته .

إسماعيل بن على أبو محمد الحُطيرى ، من حطُيره الدُجيل[1] ، كان أديباً فاضلاً شاعراً أنشد لنفسه :

لا عــالم يبــقى ولا جــاهل	ولا نبــيــه [لا][2] ولا خــامل
على ســبــيل مُــهَــيع لا حب	يُؤدى أخــو اليــقظة والغــافل

جمال الدولة[3] إقبال الخادم ، أحد خدام صلاح الدين يوسف بن أيوب ، واقف الإقباليتين الشافعية والحنيفية ، وكانتا دارين له فوقف عليهما وجعلهما مدرستين : الكُبرى للشافعية والصغرى للحنيفية ، وجعل ثلثي أوقافه للشافعية والثلث الباقى للحنيفية ، وهما مشهورتان بدمشق . مات إقبال المذكور بالبيت المقدس فى الرابع عشر من ذى القعدة من هذه السنة .

حسام الدين أردشير صاحب مازندران ، مات فى هذه السنة وخلّف ثلاثة أولاد ، فملك ابنه الأكبر بعده وأخرج أخاه الأوسط من البلاد ، فقصد جُرجان[4] وبها الملك على شاه بن خوارزم شاه تكش أخو خوارزم شاه محمد ، وهو ينوب عن أخيه فيها ، فشكى إليه ما صنع به أخوه من إخراجه من البلاد ، وطلب منه[٣٠٠] أن ينجده عليه ويأخذ له البلاد ليكون فى طاعته ، فكتب على شاه إلى أخيه خوارزم شاه بذلك ، فأمره بالمسير معه إلى مازندران ، وأخذ البلاد له ، وإقامة الخطبة لخوارزم شاه فيها ، فساروا من جرجان ، فاتفق أن ابن حسام الدين أردشير صاحب مازندران مات فى ذلك الوقت وملك البلاد بعده أخوه الأصغر ، واستولى على البلاد والقلاع والأموال ، فوصل على شاه البلاد ومعه ابن صاحب مازندران فنهبوها وخربوها ، فامتنع منهم الأخ الصغير بالقلاع وأقام

(١) الحَطيرَة : قرية كبيرة من أعمال بغداد من جهة تكريت من ناحية دُجَيل . انظر : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٢٩٢ .
(٢) ما بين حاصرتين ساقط من الأصل والمثبت من الذيل على الروضتين ، ص٥٨ .
(٣) انظر ترجمته فى الذيل على الروضتين ، ص٥٩ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥١ .
(٤) جرجان : مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان ، معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٣٨-ص٥٤ .

بقلعة كوزا[١] وهى التى فيها الأموال والذخائر ، وحصره فيها بعد أن ملكوا ساوة[٢] وآمل[٣] وغيرهما من البلاد والحصون ، وخطب لخوارزم شاه فيها جميعها فصارت فى طاعته وعاد على شاه إلى جرجان وأقام ابن أزدشير بمازندران مالكاً لبلادها جميعها سوى القلعة التى فيها أخوه الأصغر ، وهو يراسله ويستميله ويستعطفه وأخوه لا يرد جواباً ولا ينزل عن حصنه .

(١) قلعة كُوزَا : قلعة بطبرستان . انظر : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٣٢٠ .

(٢) ساوة : مدينة حسنة بين الرى وهمذان فى الوسط بينهما . معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٢٤ ؛ بلدان الخلافة الشرقية ، ص٢٤٦ .

(٣) آمُل : أكبر مدينة بسهل طبرستان . معجم البلدان ، جـ١ ، ص٦٨-ص٧٠ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة
الرابعة بعد الستمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله والسلطان الملك العادل نازل على بحيرة قدس بظاهر حمص ، ثم وقعت الهدنة بينه وبين صاحب طرابلس ، وعاد الملك العادل إلى دمشق وأقام بها ، كذا ذكره المؤيد فى تاريخه[١] وغيره . وقال بيبرس فى تاريخه :[٢] وفيها خرج العادل إلى الشام وكان سبب خروجه أن الفرنج أهل قبرس أخذوا عدة قطع من أسطول مصر ونهبوا من فيها وأسروهم ، فأرسل العادل إلى صاحب عكا وقال له : نحن وأنتم صُلُح ، فلم غدرتم؟ فاعتذر له أنه ليس حكم أهل قبرس إليه ، وأن مرجعهم إلى القسطنطينية ثم إن أهل قبرس حدث عندهم غلاء فساروا إلى القسطنطينية ، وعاد الحكم إلى صاحب عكا ، فأطلق أسارى المسلمين .

ذكر مجئ الخلعة من الخليفة
إلى الملك العادل وأولاده[٣]

وفى سابع عشر رمضان من هذه السنة وصل الشيخ شهاب الدين السُهْرَوَرْدى ونور الدين التركى الخليفتى وسنقر السلحدار رُسلاً من الإمام الناصر لدين الله إلى دمشق ، وصحبتهم خلعة للسلطان الملك العادل ، فبالغ العادل فى إكرام الشيخ ومن معه والتقاهم إلى القُصير[٤] ، ولبس السلطان الخلعة من القصير إلى القلعة ، وكذلك لبس ولداه الملك المعظم والملك الأشرف ، والوزير صفى الدين بن شكر ، وأستاذ الدار شمس الدين إلدكز العادلى ، الخلع . وكان الأمير دلدروم حاملاً التقليد على رأس نفسه ، بين يدى السلطان ، ودخل جميعهم من باب الحديد عند أذان الظهر ، وأنزلت الرسل بدار عز الدين فرخشاه ورباط خاتون . وقرأ الوزير التقليد قائماً بمحضر من القضاة وبياض البلد بإيوان القلعة . ولم يزل السلطان وأولاده وجميع الحاضرين قياماً إلى أن فرغ الوزير من قراءته .

(*) يوافق أولها ٢٨ يوليو سنة ١٢٠٧م .
(١) انظر المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص١٠٨–ص١٠٩ .
(٢) انظر ، الكامل فى التاريخ ، جـ١٠ ، ص٣٤١–ص٣٤٢ .
(٣) انظر الذيل على الروضتين ، ص٦٠ .
(٤) القُصير : مدينة بمنطقة القور من أعمال الأردن ، معجم البلدان ، جـ٤ ، ص١٢٦ .

واتفق حضور بهاء الدين[٣٠١] بن شداد قاضى حلب رسولاً من الملك الظاهر غازى صاحب حلب ، وعلى يده ألفا دينار للنثار ، فلم يأذن له العادل بنثارها ، وأمره بعد ذلك بحملها للرسل فحُملت .

وفى تاريخ ابن كثير[١] : وصل من [صاحبى][٢] حماة وحلب ذهب وجوهر لينثر على الملك العادل إذا لبس الخلعة ، فلبسها العادل ونثر ذلك الذهب عليه ، وكان يوماً مشهوداً .

وفى تاريخ المؤيد :[٣] وكذلك وصل إلى الملك العادل مع الخلعة تقليد بالبلاد التى تحت حكمه ، وخوطب الملك العادل فيه شاهنشاه ملك الملوك ، خليل أمير المؤمنين .

ثم توجه الشيخ شهاب الدين إلى مصر ، فخلع على الملك الكامل بن العادل بها ، وجرى فيها نظير ما جرى فى دمشق من الاحتفال . ثم عاد الشيخ إلى بغداد مكرماً معظماً .

وقال أبو شامة :[٤] ثم عادت رسل الخليفة إلى بغداد ، وصحبتهم قاضى العسكر خليل الحنفى ، وشمس الدين إلدكز أستاذ الدار بهدايا سنية ، وودعهم العادل إلى القُصير .

وصفة الخلعة جُبّة أطلس سوداء بطراز ذهب ، وعمامة سوداء بطراز ذهب ، وطوق ذهب بجوهر ، وسيف بقراب مُذَهَّب ، وحصان أشهب بمركب ذهب ، وعلم أسود خليفتى نشر على رأس العادل .

وقال بيبرس : وقصبة ذهب عليها علم أسود ، مكتوب بالبياض اسم الخليفة .

وقال المؤيد :[٥] وطوق ذهب مجوهر تَطَوَّق به الملك العادل .

وفى المرآة : وكان فى خلعة العادل الطوق والمِسوَاران .

---

(١) بالبحث فى البداية والنهاية لم نجد هذا الخبر . والخبر نقله العينى من المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص١٠٩ .
(٢) «صاحب» فى الأصل . والصحيح ما أثبتناه من المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص١٠٩ .
(٣) انظر : المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص١٠٩ .
(٤) انظر : الذيل على الروضتين ، ص٦٠ .
(٥) انظر : المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص١٠٩ .

وفى تاريخ بيبرس : لما جاءت الرسل من بغداد من عند الخليفة نهض الملك العادل للقائهم على الغَسُولة[١] فى جميع عساكره ، وعاد بهم إلى دمشق وقد اجتمع أهلها جميعاً ، ولبس الخلعة ، وزينت دمشق سبعة أيام ، وقرئ سجل الخليفة بتفويض أمور البلاد إليه ، وهى ديار مصر والساحل ودمشق والشرق وخلاط ، وحضر وزير الظاهر ووزير صاحب حماة ووزير صاحب حمص للهناء بالخلعة الخليفتية ، وكل منهم نثر الدنانير على الملك العادل ، وخوطب بشاهنشاه ملك الملوك ، سيد السلاطين ، خليل أمير المؤمنين . وسار الرسول بخلعة الملك الكامل إلى مصر فزينت له مصر والقاهرة .

ذكر ماجريات ملوك البلاد

منها[٢] أن الملك الأوحد ابن الملك العادل صاحب ميافارقين مَلَكَ مدينة خلاط بعد قتل صاحبها ابن بكتمر ، وكان شاباً جميل الصورة ، قتله بعض مماليكه ثم قُتل القاتل أيضاً ، فخلا البلد عن ملك ، فأخذها الأوحد بن العادل .

وفى تاريخ النويرى :[٣] وفيها ملك الأوحد أيوب بن العادل مدينة خلاط ، وكان صاحبها بلبان – على ما ذكرنا فى سنة أربع وتسعين – فسار الأوحد من ميافارقين وملك مدينة مُوش[٤] ثم اقتتل هو وبلبان صاحب خلاط فانهزم بلبان واستنجد بصاحب أرزن الروم ، وهو مغيث الدين طغريل شاه بن قليج أرسلان السلجوقى ، فسار طغريل شاه واجتمع إليه بلبان ، فهزما الملك الأوحد ، ثم غدر طغريل شاه ببلبان فقتله غدراً ليملك بلاده . وقصد خلاط فلم يسلموها إليه ، وقصد ملاذكرد فلم يسلموها إليه ، فرجع طغريل شاه إلى بلاده .[٥]

وكاتب أهل خلاط الملك الأوحد فسار[٣٠٢] إليهم وتسلم خلاط وبلادها بعد أياسه منها واستقر ملكه بها ، وفى تاريخ بيبرس : قصد الأوحد مدينة موش وحصرها

(١) الغَسُولَة : قرية من قرى دمشق . معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٨٠٢-٨٠٣ .
(٢) انظر : الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٤٠-٣٤١ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٦٠-٦١ ؛ المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص١٠٨ .
(٣) انظر : نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص٤٣-٤٤ ، الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٤٠-٣٤١ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٦١ .
(٤) مُوش : بلدة من ناحية خلاط بأرمينية . معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٦٨٢ .
(٥) ورد هذا النص بتصرف فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٤٠ ، ص٣٤١ ؛ نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص٤٣-ص٤٤ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٦٠ ، ص٦١ .

وأخذ ما يجاورها من البلاد ، ولم يتمكن بلبان صاحب خلاط على منعه ، ولما ملك الأوحد تلك البلاد طمع فى خلاط ، فسار إليها فهزمه بلبان ، فعاد إلى بلده ، وجمع وحشد وسير إليه أبوه العادل جيشا فقصد خلاط ، فسار إليه بلبان فتصافا واقتتلا وانهزم بلبان ، وتمكن الأوحد من البلاد ودخل بلبان خلاط واعتصم بها وأرسل رسولاً إلى مغيث الدين طغريل شاه صاحب أرزن الروم يستنجده على نجم الدين الأوحد ، فحضر بنفسه ومعه عسكره فاجتمعا وهزما الأوحد ، وحصرا موش وأشرفا على أخذها فغدر طغريل شاه بصاحب خلاط وقتله طمعاً فى البلاد ، ثم جرى منه ماذكرنا إلى أن ملك الأوحد أخلاط وأعمالها سوى اليسير منها ، وكره الملوك المجاورون له ملكه ، خوفاً من أبيه ، وكذلك أيضاً خافه الكرج وكرهوه فتابعوا الغارات على أعمال خلاط وبلادها ، والأوحد مقيم بخلاط لايقدر على مفارقتها ، فلقى المسلمون من ذلك أذى شديداً واعتزل جماعه من العسكر واستولوا على حصن أوان وهو من أعظم حصونهم ، وعصوا على الأوحد نجم الدين واجتمع إليهم جمع كبير من مدينة أرجيشا[١] فأرسل الأوحد إلى أبيه العادل ، فأرسل إليه ابنه الأشرف موسى أخا الأوحد ، فاجتمعا فى عسكر كبير وحصرا قلعة أوان وبها الخلاطية فجدوا فى قتالهم فضعف أولئك عن مقاومتهم فسلموها صلحا وخرجوا منها وتسلمها نجم الدين الأوحد واستقر ملكه بخلاط ، وعاد أخوه الأشرف إلى حران والرها .

ومنها[٢] أن خوارزم شاه محمد بن تكش ملك بلاد ما وراء النهر من الخطا بعد حروب طويلة ، اتفق فى بعض الأيام أمر عجيب ، وهو أن المسلمين انهزموا عن السلطان خوارزم شاه فى بعض المواقف وبقى هو ومعه عصابة قليلة من أصحابه فقتل منهم الكفار من الخطا من قتلوا وأسروا خلقاً منهم ، وكان السلطان خوارزم شاه فى جملة من أسر ، أسره رجل وهو لا يشعر به ولايدرى أنه الملك ، وأسر معه أميراً يقال له ابن مسعود ، فلما وقع ذلك وتراجعت العساكر الإسلامية إلى مقرها فقدوا من بينهم السلطان فاختبطوا فيما بينهم واختلفوا اختلافاً كثيراً ، وانزعجت خراسان بكمالها وظنوا أن السلطان قد قتل .

(١) أرجيش : مدينة قديمة من نواحى أرمينية الكبرى قرب خلاط وأكثر أهلها أرمن نصارى . انظر معجم البلدان ، جـ١ ، ص١٩٦ .

(٢) ورد هذا الخبر فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥٢-ص٥٣ ؛ الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٣٤-ص٣٣٧ .

وأما ما كان من السلطان وذاك الأمير فإن الأمير قال للسلطان : إنى أرى من المصلحة أن تترك الملك عنك فى هذه الحالة وتظهر أنك غلام لى . فقبل منه ما أشار إليه وجعل يخدمه يُلبّسه ثيابه ويسقيه ويضع الطعام بين يديه ولا يألو جهداً فى خدمته . فقال الذى أسرهما : إنى أرى هذا يخدمك فمن أنت؟ فقال : أنا ابن مسعود الأمير وهذا غلامى . فقال : والله لولا علم الأمراء بأنى قد أسرت أميراً لأطلقتك . فقال : إنى إنما أخشى على أهلى فإنهم يظنون أنى قد قتلت ويقيمون المأتم ، فإن رأيت أن تفادينى على مال وترسل من يقبضه منهم فعلتَ خيراً فقال : نعم[٣٠٣] فعين رجلاً من أصحابه ، فقال ابن مسعود : إنهم لا يعرفون هذا ولكن إنى رأيت أن أرسل معه غلامى هذا ليبشرهم بحياتى ويأمرهم بتحصيل المال . فقال : نعم . فجهز معهما من يحفظهما إلى مدينة خوارزم فلما اقتربوا من خوارزم سبق الملك إليها ، فلما رآه الناس فرحوا فرحاً شديداً جداً ودقت البشائر فى سائر بلاده وعاد الملك إلى نصابه .

واستقر السرور بأيامه وأصلح ما كان وَهِىَ من مملكته بسبب ما كان اشتهر من عدمه ، وحاصر هراة وأخذها عنوة ، وأما الذى أسره فإنه قال يوماً لابن مسعود : إن الناس متفرحون أن خوارزم شاه قد عدم . فقال : لا هو الذى كان فى أسرك . فقال له : فهلا أعلمتنى به حتى كنت أرده موقراً معظماً ، فقال : خفتكم عليه . فقال : سر بنا إليه ، فسارا إليه فأكرمهما إكراماً زائداً وأحسن إليهما . وذكر بيبرس هذه القصة وملخصها أن الخطا كانت قد طالت أيامهم ببلاد كورستان وما وراء النهر وثقلت وطائهم على أهلها ، ولهم فى كل مدينة نائب يجىء إليهم الأموال ، وقبل أن يملكوا كان مقامهم بنواحى أوركند وبلاساقول[١] وكاشغر[٢] فى تلك النواحى ، فاتفق أن سلطان سمرقند أو بخارى[٣] ولقبه جان خانان يعنى سلطان السلاطين ، وهو من أولاد الحانية عريق النسب فى الإسلام والملك ، أنف وضجر من مَحكم الكفار على المسلمين ، فأرسل إلى خوارزم شاه يقول

---

(١) بلاساغون : كذا فى ياقوت ، وهى بلد عظيم من ثغور الترك وراء نهر سيحون قريب من كاشغر ، معجم البلدان ، جـ١ ، ص٧٠٨ .

(٢) كاشغر : مدينة وسط بلاد الترك ، معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٢٢٧ .

(٣) بخارى من أعظم مدن ما وراء النهر ، معجم البلدان ، جـ١ ، ص٥١٧-ص٥٢٢ .

له : إن الله قد أوجب عليك بما أعطاك فى سعة المال والملك وكثرة الجنود أن تستنقذ المسلمين وبلادهم من أيدى الكفار وتخليصهم مما يجرى عليهم من الحكم فى الأنفس والأموال ، ونحن نتفق معك على محاربة الخطا ونحمل إليك ما كنا نحمل إليهم ، ونذكر اسمك فى الخطبة وعلى السكة . فأجابهم خوارزم شاه محمد إلى ذلك وقال : أخاف أنكم لا تفون لى . فسير إليه أهل سمرقند وجوه أهل بخارى وسمرقند بعد أن حلّفوا صاحبهم على الوفاء بما تضمنه وضمنوا عنه الصدق والوفاء بما بذل وجعلوا عنده رهائن .

فشرع فى إصلاح أمر خراسان ، وتقرير قواعدها ، فولى أخاه على شاه طبرستان مضافة إلى جرجان ، وأمره بالحفظ والاحتياط ، وولى الأمير كزلك خان وهو من أقاربه لأمه وأعيان دولته نيسابور ، وجعل معه عسكراً ، وولى الأمير جلدك مدينة الحمام وولى أمين الدين مدينة زوزن[1] وهذا الأمين كان حمالاً وعاد من أكبر الأمراء وملك بعد ذلك كرمان . وأقر الحسين بن خرميل على هراة وجعل معه فيها ألف فارس من الخوارزمية ، وصالح غياث الدين محموداً على ما بيده من بلاد الغور ، واستناب نوايا فى مرو وسرخس وغيرهما من خراسان وأمرهم بحسن السيرة والحفظ والاحتياط وجمع عساكره جميعها وسار خوارزم شاه وعبر جيحون واجتمع بسلطان سمرقند وسمع به الخطا فحشدوا وجاءوا إليه وجرت بينهم وقعات كثيرة ومغاورات فتارة له وتارة عليه . وفيها قتل حسين بن حزميل وحوصرت هراة وذلك أن ابن حزميل رأى سوء معاملة عسكر خوارزم شاه الذى رتبه عنده بهراة للرعية وتعديهم إلى الأموال ، فقبض عليهم وحبسهم[٣٠٤] وبعث رسولاً إلى خوارزم شاه يعتذر ويعرفه ما صنعوا وما صنع بهم ، فعظم عليه ولم يمكنه محاققته لاشتغاله بقتال الخطا ، فكتب إليه يستحسن فعله ويأمره بإنفاذ الجند الذين قبض عليهم لحاجته إليهم ، وقال : إنى أمرت عز الدين جلدك صاحب الحمام أن يكون عندك لما أعلمه من عقله وحسن سيرته وأرسل إلى جلدك بالمسير إلى هراة وأسرّ إليه أن يحتال فى القبض على ابن خرميل ولو أول ساعة يلقاه ، فسار جلدك فى ألفى فارس وكان أبوه طغرل أيام السلطان سنجر والياً بهراة وكان يختارها على جميع خراسان ، فلما قاربها وعزم ابن حزميل على الخروج للقائه ، قال له وزيره وكان يعرف بخواجا الصاحب : لا تخرج إليه ودعه يدخل إليك منفرداً فإنى أخاف أن يغدر بك وأن يكون خوارزم شاه قد أمره بذلك .

(١) زُوزَن : كوره واسعة بين نيسابور وهران ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص٩٥٨ .

فخالفه وراح إليه فقبضه وانهزم أصحابه ، فدخلوا المدينة وأخبروا الوزير بالحال فأمر بغلق الأبواب والقتال من على الأسوار ، وأرسل جلدك إلى الوزير الأمان ويتهدده إن لم يسلم البلد ، فقال الوزير : هذا البلد لغياث الدين ولأبيه من قبله . فقدم ابن حزميل إلى السور فقال للوزير ، افتح لهم البلد . فقال : لا . فقتل ابن حزميل وأرسل إلى خوارزم شاه يخبره بجلية الحال ، فأرسل خوارزم شاه إلى كذلك خان والى نيسابور ، وإلى أمين الدين أبى بكر صاحب زوزن يأمرهما بالمسير إلى هراة وحصارها وأخذها فسارا فى عشرة آلاف فارس فنزلوا على هراة وراسلوا الوزير فى تسليمها ، فامتنع وقال : ليس لكم من المحل ما يقتضى أن نسلم لكم مثل هراة ، لكن إذا وصل السلطان خوارزم شاه سلمناها إليه ، فقاتلوه وجدوا فى قتاله فلم يقدروا عليه ، ثم جمعوا المياه أياماً ثم أرسلوها فأحاطت بالسور فلم يقدروا على أن يدنوا من السور ، فانتقل العسكر من المدينة وما أمكنهم القتال لبعدهم عن السور ، وأما خوارزم شاه فإنه دام القتال بينه وبين الخطا ، ففى بعض الأيام اقتتلوا قتالاً شديداً ثم انهزم المسلمون هزيمة كبيرة ودام القتال بينهم ، وقتل كثير وأسر كثير وأسر السلطان خوارزم شاه وأمير كبير من أمرائه يقال له شهاب الدين بن مسعود ، ووصلت العساكر الإسلامية إلى خوارزم ولم يروا السلطان فأرسلوا إلى كزلك خان والى نيسابور وهو يحاصر هراة فأعلموه الحال ، فحين سمع سار عن هراة ليلاً إلى نيسابور ، ولما وصل إليها شرع فى عماره سورها وكان خوارزم شاه قد خربه لما ملكها من الغورية ، وأدخل كزلك خان إليها الميره واستكثر من الجند وعزم على الاستيلاء على خراسان إن صح فقد السلطان ، وبلغ خبر عدم السلطان إلى أخيه على شاه وهو يومئذ بطبرستان ، فدعى إلى نفسه وقطع خطبه أخيه واستعد لطلب السلطنة ، واختلطت خراسان اختلاطاً عظيماً ثم ذكر ما جرى بين السلطان خوارزم شاه وبين ابن مسعود وهما فى الأسر كما ذكرناه عن قريب .

وحاصل الكلام لما وصل خوارزم شاه إلى خوارزم ضربت له البشائر وزينوا البلد وأتته الأخبار بما صنع كزلك بنيسابور وبما صنع أخوه على شاه بطبرستان ، وبلغ كزلك خان وصوله فأخذ أمواله وعسكره[٣٠٥] وهرب نحو العراق ، وبلغ أخوه على شاه وصول أخيه فخافه وسار إلى غياث الدين محمود الغورى ، فلقاه وأكرمه وأنزله عنده ، وأما خوارزم شاه فإنه دخل نيسابور وأصلح أمرها وسار إلى هراة وجعل فيها نائباً مع عسكره الذى يحاصرها وأحسن إلى أولئك الأمراء ووثق بهم لأنهم صبروا على تلك الحال ولم يتغيروا ولم يبلغوا

من هراة غرضاً بِحُسْن تدبير ذلك الوزير ، وأرسل إليه خوارزم شاه يقول له : إنك كنت وعدت أنى إذا حضرت تسلم البلد وأنا قد حضرت ، فسلم فقال : لا أفعل ، لأنى أعلم أنكم غدارون لاتبقون على أحد ولا أسلم إلا إلى غياث الدين محمود . فغضب خوارزم شاه وزحف إليه بعساكره فلم يكن له فيه حيلة ، فاختلف أهل هراة على الوزير فأراد أن يستدركهم فحمل خوارزم إلى البلد ، فأخذ برجاً فدخل منه هو وعسكره وأخذ الوزير فقتله ، وتسلم البلد ، وأصلح حاله وسلّمه إلى خاله أمير ملك وهو من أعيان أمرائه ، ولم تزل هراة بيده حتى هلك خوارزم شاه ولما سلم خوارزم شاه هراة إلى خاله أمير ملك سار إلى خوارزم وأمره أن يقصد غياث الدين محمود صاحب الغور وفيروزكوه ، فسار أمير ملك إليه فلما بلغ ذلك محموداً أرسل يبذل له الطاعة ويسأله الأمان فأعطاه ذلك ، فلما نزل إليه قبض عليه وعلى على شاه أخى خوارزم شاه فسألا أن يُحملا إلى خوارزم شاه ليرى فيهما رأيه فأرسل أمير ملك إلى خوارزم شاه يعرفه الخبر فأمره بقتلهما فقتلا فى يوم واحد واستقامت خراسان كلها لخوارزم شاه.[1] ثم عاد خوارزم شاه إلى الخطا فعبر نهر جيحون فجمع له الخطا جمعاً عظيماً وساروا إليه والمقدم عليهم شيخ دولتهم القائم مقام ملكهم المعروف بطاينكوه ، وكان عمره قد جاوز مائة سنة ، وكان كثير التجارب حسن التدبير جيد التعقل ، واجتمع خوارزم شاه وصاحب سمرقند وتصافوا هم والخطا سنة ست وستمائة ، فجرت حروب لم يكن مثلها شدة وصبرا فانهزم الخطا وقتل منهم وأسر فى هذه المدة خلق لايحصى عددهم إلا الله ، وكان فيمن أسر طانيكوه مقدمهم وجىء به إلى خوارزم شاه فأكرمه وأجلسه على سريره وسيره إلى خوارزم ، ثم قصد خوارزم شاه بلاد ما وراء النهر فملكها مدينة مدينة وناحية ناحية حتى بلغ أوركند وجعل نوابه فيها وعاد إلى خوارزم ومعه صاحب سمرقند ، ثم بعث معه شحنة تكون بسمرقند ، ولما عاد صاحب سمرقند إليها ومعه شحنة لخوارزم شاه أقام معه نحو سنة فرأى من سوء سيرة الخوارزميين وقبح معاملتهم ما ندم على مفارقة الخطا ، فأرسل إلى ملكهم يدعوه إلى سمرقند ليسلمها إليه ويبذل له الطاعة وأمر بقتل كل من فى سمرقند من الخوارزمية ممن سكنها قديماً وحديثاً ، وقطّع أصحاب خوارزم شاه قطعاً وعلقهم فى الأسواق ومضى إلى القلعة ليقتل زوجته ابنة خوارزم شاه ، فغلقت الأبواب[٣٠٦] ووقفت بجواريها تمنعه وأرسلت إليه

---

(١) انظر الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٣٧-ص٣٣٩ .

تقول : إنى امرأة وقتل مثلى قبيح ولم يكن منى إليك سوء ولا ما استوجب به هذا منك ، ولعل تركى أحمد عاقبة فاتق الله فيَّ . فتركها ووكل بها من يمنعها من التصرف ، وبلغ الخبر خوارزم شاه فقامت قيامته وأراد قتل الغرباء الذين فى بلده ، فمنعته أمه من ذلك وأمر بقتل أهل سمرقند فنهته عن ذلك ، وأمر بتجهيز العساكر إلى ما وراء النهر وجهز جماعة ليعبروا جيحون فعبر منهم خلق لايحصى عددهم ، ثم عبر هو بنفسه فى آخرهم ونزل على سمرقند وأرسل يقول لصاحبها : قد فعلت مالم يفعله مسلم واستحليت من دماء المسلمين ما لم يستحله مسلم ولا كافر ، وغفر الله عما سلف فاخرج الآن من البلاد . فقال له : افعل مابدا لك فأمر عساكره بالزحف ، فأشار إليه بعض من معه بأن يأمر بعض الأمراء إذا فتحوا البلد أن يصير إلى الدرب الذى يسكنه التجار فيمنع من به ولا يمكن أحد من التطرق إليهم بسوء ، فإنهم غرباء وكلهم كارهون لهذا الفعل ، فأمر بعض الأمراء بذلك ونصب السلاليم على البلد فلم يكن بأسرع من أن أخذها وأذن لعسكره بالنهب وقتل من يجدونه من أهل سمرقند ، فنهبوا وقتلوا ثلاثة أيام فيقال : إنهم قتلوا مائتى ألف إنسان وسلم الدرب الذى فيه الغرباء فلم يعدم منهم الرجل الواحد ، ثم كف عنهم وأرسل صاحب القلعة يطلب الأمان بعد أن حاصروها ، فقال : لا أمان لك عندى فملكوها وأسروا صاحبها وأحضروه عند خوارزم شاه . فقبل الأرض وطلب العفو فلم يعف عنه وقتل صبراً وقتل كل من ينسب إلى الخانية ورتب فيها وفى سائر البلاد نُوابه ولم يبق لأحد معه فى البلاد ذكر .

ومنها أنه تحارب الخطا وملك التتار كشلى خان المتاخم لمملكة الصين ، فكتب الخطا إلى خوارزم شاه يستنجدونه على التتار ويقول : متى غلبونا خلصوا إلى بلادك ، وكذا وقع ، وكتب إليه التتار يستنصرون به على الخطا ويقولون : هؤلاء أعداؤنا وأعداؤك فكن معنا عليهم فكتب خوارزم شاه إلى كل من الفريقين يطيب قلبه ، وحضر الوقعه بينهم وهو متحيز عن الفريقين فكانت الدائرة على الخطا فهلكوا إلا القليل منهم ، وغدر التتار ما كانوا وافقوا عليه الملك خوارزم شاه فوقعت بينهما الوحشه الأكيدة وتواعدوا اللقاء وخاف منه خوارزم شاه وخرب بلداً كبيرة متاخمة لبلاد كشلى خان خوفا عليها أن يملكها ، ثم أن جنكيز خان خرج على كشلى خان فاشتغل بمحاربته عن محاربة خوارزم شاه ثم وقع من الأمور الغريبة ما سنذكره إن شاء الله تعالى .(١)

---

(١) ورد هذا الخبر بتصرف فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٣٩-ص٣٤٠ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥٣ .

وفى تاريخ بيبرس :[١] ما نلخصه أنه كانت وقعه عظيمة بين التتار والخطا وذلك أنه لما فعل خوارزم شاه ما ذكرناه أولا مضى مَنْ سلم من الخطا إلى ملكهم فاجتمعوا عنده ، وكانت طائفة عظيمة من التتار قد خرجوا من بلادهم من حدود الصين ونزلوا تركستان ، وكان بينهم وبين الخطا عداوة وحروب فلما سمعوا ما فعله خوارزم شاه بالخطا قصدوهم مع ملكهم كشلى خان ، فلما رأى ملك الخطا ذلك أرسل إلى خوارزم شاه يقول له : أما ما كان منك من أخذ بلادنا[٣٠٧] وقتل رجالنا فمعفو عنه وقد أتانا من هذا العدو مالا قبل لنا به وأنهم إن انتصروا علينا وملكونا فلا دافع لهم عنك والمصلحة أن تسير إلينا بعساكرك وتنصرنا على قتالهم ، ونحن نحلف لك أنا إذا ظفرنا بهم لا نقرب بلادك ونقنع بالمواقع التى تتركونها . فأجاب إنى معك ومعاضدك على خصمك ، فسار بعساكره حتى نزل قريباً من الموضع الذى تصافوا فيه فلم يخالطهم مخالطة من يعلم أنه معه وكانت كل طائفة تظن أنه معها ، وانهزم الخطا من التتار هزيمة عظيمة ، فمال خوارزم شاه على الخطا وجعل يقتل ويأسر فلم يترك أحداً ينجو منهم فلم يسلم منهم إلا طائفة يسيرة مع ملكهم فى ناحية من نواحى الترك ليس إليها طريق[٢] فتحصنوا فيها وانضم إلى خوارزم شاه منهم طائفة ، وأنفذ خوارزم شاه إلى كشلى خان ملك التتار يمنّ عليه أنه لم يحضر إلا لمعاضدته ولولاه ما انهزم الخطا ، فاعترف له كشلى خان بذلك مدة ، ثم أرسل إليه يطلب مقاسمة بلاد الخطا ويقول له : إنا اتفقنا على إبادتهم فنقسم بلادهم لنا ولك . فأجابه بأنه ليس لك عندى إلا السيف ولستم أقوى من الخطا شوكة ، قال : قنعت بالمساكته[٣] ، وإلا سرت إليك وفعلت بك أكثر مما فعلتُ بالخطا .

وتجهز كشلى خان وسار حتى نزل قريباً منهم ، وعلم خوارزم شاه أنه لا طاقة له به فكان يراوغه فإذا سار إلى موضع قصد خوارزم شاه أهله وأثقاله فنهبها ، وإذا سمع أن طائفة سارت عن مقطنهم[٤] سار إليها فأوقع بها ، فأرسل إليه كشلى خان يقول له : هذا فعل الملوك! هذا فعل اللصوص . فإن كنت سلطاناً فألقنى فإما أن تهزمنى وتأخذ بلادى

---

(١) ورد هذا الخبر فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٣٩-ص٣٤٠ .
(٢) «إلا من جهة واحدة» كذا فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٤٠ .
(٣) «المساكنه» كذا فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٤٠ .
(٤) «موطنهم» كذا فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٤٠ .

وإما أن أهزمك ، فكان يغالطه ولا يجيبه إلى ما طلب ، لكنه أمر أهل الشاش[١] وفرغانه[٢] وأسبيجاب[٣] وكاسان[٤] وما حولها من المدن- التى لم يكن فى الدنيا أنزه منها ولا أحسن عمارة - بالجلاء منها واللحاق ببلاد الإسلام ثم خربها جمعياً خوفاً من التتار أن يملكوها ، ثم اتفق خروج چنكيز خان على كشلى خان فاشتغل به عن خوارزم شاه فعبر النهر إلى خراسان .

ومنها أن الملك العادل قصد مدينة عكا بعساكره الكثيره فصالحه صاحبها الفرنجى على إطلاق الأسرى من المسلمين وغير ذلك ، ثم سار إلى بحيرة قدس وجاءته عساكر الشرق وديار الجزيرة ودخل بلاد طرابلس وحاصر موضعاً يسمى القليعات وأخذه صلحاً وأطلق صاحبه وغنم ما فيه من دواب وسلاح وخرّبه ، وتقدم إلى طرابلس فنهب وأحرق وغنم فكانت مدة مقامه فى بلد الفرنج اثنى عشر يوماً ، وعاد إلى بحيرة قَدَس وترددت الرسل بينه وبين الفرنج فى الصلح فلم تستقر قاعدة ، ودخل الشتاء وطلب العساكر الشرقية العود إلى بلادهم فترك طائفة من العسكر بحمص عند صاحبها وعاد إلى دمشق فشتى بها ، وعادت عساكر الجزيرة إلى أماكنها . وقال الرشيد النابلسى يمدحه .

خشعت لهيئة مجدك الأبصار ... وعنت لدولة ملكك الأمصار
ودنا لك الغرض البعيد وأصحب ... الجد السعيد وواتت الأوطار[٣٠٨]
وتظافرت لك بالظهور على العدى ... همم بها تتخاذل الأنصار
أمِنَ الحوادث مَنْ بساحتك احتمى ... فكان جارك للمجرة جار
ووفى بذمتك الزمان وصَرْفُه ... وهو المضيع زمامه الغدار
دانت لك السبع الشداد كأنما ... بمرادك الفلك العَلِىُّ يُدار
فإذا رماح الخط نحوك أشرعت ... فطوالها عما تروم قصار
وإذا الجياد ثنت إليك شكيمها ... غلبت عليها كبوة وعثار

(١) الشاش : بلدة وراء النهر ، ثم ما وراء نهر سيحون متآخمه لبلاد الترك ، معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٢٣٣ .

(٢) فرغانة : مدينة وكورة واسعه بما وراء النهر متآخمة لبلاد تركستان . انظر ، معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٨٧٨ ، ص٨٨٠ ، بلدان الخلافة ، ص٥٢٠ .

(٣) اسبيجاب : إقليم وقصبه من أقاليم نهر سيحون ، انظر بلدان الخلافه ، ص٥٢٧ . .

(٤) كاسان : مدينة كبيرة فى أول بلاد تركستان وراء نهر سيحون وراء الشاش . انظر معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٢٢٧ .

وإذا غضبت على الملوك فإنه هُلكٌ دنى منها وحان بوار
ولأنت سيف الدين والدنيا الذى فى الشرك أرهف حدَّهُ الجبار
مَلِكٌ ملائكهُ السماءِ جنوده وعبيده الأيام والأقدار
خطبته آفاق البلاد لملكها وترقبته العُونُ والأبكار
وقضت له السبع الكواكب بالذى تهواه منها والذى تختار
رب الجحافل زلزلت من وطئها لما سرى وارتجت الأقطار
مثل البحور الزاخرات يُمدها من حيث شاء من الجيوش بحار
طاشت عقول المارقين لهول منـ ـظره وحارت منهم الأفكار
فاستعصموا بالعفو منه ولم يكن توب ليعصمهم ولا استغفار
حتى غدوا خُضُعَ الرقاب منكسى الـ أعناق فى جبهها تهم آثار

ومنها :

فى كل يوم غارة شعواء لا تألو ونقع للهياج مثار
فمعاقل مهجومة ومنازل مهدومة بعد الأنيس قفار

ومنها :

قَلَدَ الزمانَ بشاشةٌ وطلاوةٌ وعلى البلاد وأهلها أنوار
بالعادل الملك الذى لعداته ذُلٌّ على طول المدى وصَغارُ
المانح الأبصار ما طمحت ومَنْ يعطى مدى ما تطمع الأبصار
الساتر العورات عن أعدائه تزوى السعود وتكشف الأستار
الخاشع الصوام والمتهجد الـ قوام والمتبتل الصبار
الخارق العادات بالجود الذى فى الخافقين لعرفه إنكار
المُلْقِحُ الحرب العوانِ وقاعُها فتح الممالك كلها أبكارُ

الضارب الشوهاء[١] إثر الطعنة الـ		ـفوهاء[٢] فيها يغرق المسبار[٣]
نشوان من خمر المكارم والعُلَى		عطفاً وما دارت عليه عُقَّارُ[٤]
يَسقى ذوابله الدماء فمالها		إلا رؤوس المارقين ثِمارُ[٣٠٩]
وهى الممالك لم يُشِدْ إركانها		إلا الصوارم والقنى الخَطّارُ

ومنها :

يا آل أيوب الأولى لولاهم		عَفَتْ العُلوم وعِيْفَت الأشعارُ
يا أعدل الأملاك ليس لدهرنا		إلاك نهاءٌ ولا أمارُ
أنت الذى ما للنجوم الزهر فى		عالى المحل بحيث طار مطارُ
تتراجع الأبصار عنك حسيرة		وتعوم فيها فتغرق الأفكارُ
لا مجد يخطر فى رداء جلالة		ذو المجد إلا وهو منك معارُ
أيام دولتك الربيع وما سوى		أفعالك الحسنى بها أزهارُ
ما حاجة الدنيا وَجُودُكَ هاطلٌ		أن تَستهلّ بوَبلها الأَمطارُ
لا يُستطاع مداك فى شرف ولا		لك يوم حلْبته يشق غبارُ
سبحان معطيك الذى لم يعطه		بشر تعالى الواحد القهارُ

ومنها : أنه[٥] وقعت الفتنة بخلاط ، وقتل كثير من أهلها لما تم مُلكُ الملك الأوحد نجم الدين بن الملك العادل ، سار عنها إلى ملازكرد ليقرر قواعدها ويفعل ما ينبغى أن يفعله فيها . فلما فارق خلاط وثب أهلها على مَنْ بِها من العسكر ، فأخرجوه من عندهم ، وعصوا وحصروا القلعة وبها أصحاب الأوحد ، ونادوا بشعار شاهرمن ، وكان ميتاً ، يعنون

---

(١) الشوهاء : من الخيل الحديدة الفؤاد ، والفرس الحديدة البصر وتقال للأنثى ، ولا تقال للذكر ، وهى الفرس التى فى رأسها طول وفى منخريها وفمها سعة . انظر لسان العرب مادة «شوه» .
(٢) الفوهاء : بمعنى الواسعة . انظر محيط المحيط «مادة «فوه» .
(٣) المسبار : ماسبر به وقُدِّر به غور الجراحات وهو فتيلة تجعل فى الجرح ليعرف عمقه وجمعها مسابير . انظر ، لسان العرب ، مادة «سبر» .
(٤) العُقَّار : العاقبة . انظر : محيط المحيط ، جـ٢ ، ص١٤٤٠ مادة «عقر» .
(٥) ورد هذا الخبر فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٤٢ ؛ نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص٤٣-٤٤ .

بذلك رد المُلْك إلى أصحابه ومماليكه . فبلغ الخبر الملك الأوحد ، وقد وافاه عسكر من الجزيرة ، فقوى بهم وحصر خلاط ، فاختلف أهلها ، فمال إليه بعضهم حسداً للآخرين ، فملكها وقتل بها خلقاً كثيراً من أهلها ، وأسر منهم جماعة ، فلم يَسلم إلا القليل ، فسير الأسارى إلى ميافارقين . وكان كل يوم يرسل إليهم يقتل جماعة ، وذل أهل خلاط بعد هذه الوقعة .

ومنها أنه ملك أبو بكر بن البهلوان[١] مراغة وسببه أن صاحبها علاء الدين بن قرا سنقر مات فى هذه السنة وولى بعده ابن له طفل ، وقام بتدبير دولته خادم من مماليك أبيه فعصى عليه أمير كان مع أبيه ، وجمع جمعاً كثيراً فأرسل إليه الخادم من عنده من العسكر ، فقاتلهم ذلك الأمير فانهزموا واستقر [ملك][٢] ولد علاء الدين إلا أنه لم تطل أيامه ، وحانت وفاته فمات أول سنة خمس وستمائة وانقرض أهل بيته ولم يبق منهم أحد ، فلما توفى سار نصرة الدين أبو بكر بن البهلوان من تبريز إلى مراغة فملكها واستولى على جميع مملكة آل قراسنقر ما خلا قلعة روندور[٣] فإن الخادم اعتصم بها وعنده الخزائن والذخائر ، فامتنع على الأمير أبى بكر بن البهلوان .

ذكر بقية الحوادث

منها أن الملك العادل أمر بتجديد قلعة دمشق ، ووظف على كل ملك من أهل بيته وأمير من أكابر أمرائه برجاً من أبراجها فعمروها من أموالهم خدمة له .

ومنها أنه كمل الملك الكامل بناء قلعة الجبل المطلة على القاهرة وتحول إليها من دار الوزارة . قال بيبرس[٤] : وعدة من سكنها من الملوك - إلى حين تسطير[٣١٠] هذا المصنف المبارك - أربعة عشر ملكاً ، من الملوك الأيوبية ثلاثة ، ومن ابتداء الدولة التركية إلى الآن أحد عشر ملكاً يأتى ذكرهم واحداً فواحدا ، ولما سكن الكامل القلعة المذكورة نقل أولاد العاضد من القصر إليها ، وبنى لهم بها صورة اعتقال ولم يزالوا به إلى

(١) انظر معجم الأنساب ، جـ٢ ، ص٣٤٩ ؛ وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص٢٠٨ .
(٢) ما بين حاصرتين إضافة من الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٤٣ .
(٣) روين كذا فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٤٣ ، وهى قلعة من أعمال أذربيجان قرب تبريز . انظر ، معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٨٧٥ .
(٤) ورد هذا الخبر فى نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص٤١ .

أن حُولوا فى سنة إحدى وسبعين وستمائة ، وبنى الاعتقال داراً ، قلت : كانت إحدى وسبعين وستمائة من أيام السلطان الملك الظاهر بيبرس رحمه الله ، والثلاثه من الملوك الأيوبية هم : الملك الكامل محمد وابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب .[١]

ومنها[٢] أنه رُكبت الساعات بمئذنة العروس فى الجامع الأموى وشرعوا فى بناء البرج الذى تجاه المدرسة القيمرية .[٣]

ومنها[٤] أن فى غرة ذى القعدة شهد محيى الدين أبو محمد يوسف بن الشيخ أبى الفرج بن الجوزى عند قاضى القضاة أبى القاسم الدامغانى ، فقبله وولاه حسبة[٥] جانبى بغداد وخلع عليه خلعة سوداء بطرحة[٦] كحلية ، وبعد عشرة أيام جلس للوعظ وحضر عنده خلق كثير ، وبعد أربعة أيام من يومئذ درس بمشهد الإمام أبى حنيفة رضي الله عنه ضياء الدين أحمد بن مسعود المركستانى الحنفى وحضر عنده الأعيان والأكابر .

ومنها أن الخليفة قبض على وزيره ابن المهدى العلوى وذلك لأنه نسب إلى أنه يروم الخلافة وقيل غير ذلك من الأسباب ، والمقصود أنه حبس بدار طاشتكين الأمير حتى مات بها ، وكان جباراً عنيداً فذمه الشعراء حتى قال بعضهم فيه :

خليلى قولا للخليفة أحمد ... توقّ وقيت السوء ما أنت صانعُ
وزيرك هذا بين أمرين منهما ... صنيعك ياخير البرية ضائع
فإن كان حقاً من سلالة حيدر ... فهذا وزير فى الخلافة طامعُ
وإن كان فيما يدعى غير صادق ... فأضيع ما كانت لديه الودائع

وقد قيل : إنه كان عفيفاً عن الأموال ، حسن السيرة ، جيد المباشرة والله أعلم .

---

(١) فراغ بمقدار ثلاث كلمات ، والملك الثالث من الملوك الأيوبية هو الملك المعظم توران شاه .
(٢) ورد هذا الخبر فى نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص٤١ .
(٣) المدرسة القيمرية : أنشأها مقدم الجيوش ناصر الدين القيمرى حسين بن عبدالعزيز ، بسوق الحريميين . انظر النعيمى ، الدارس ، جـ١ ، ص٤٤١ .
(٤) انظر البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥٤ .
(٥) الحسبة : من الوظائف الدينية ، ومن يقوم بها يطلق عليه اسم المحتسب ، ومن أهم أعماله الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ومن أعماله مراقبة الأسواق والتعيين على البيمارستانات والكتاتيب . . الخ . صبح الأعشى ، جـ٣ ، ص٤٨٧ .
(٦) الطرحة : غطاء للرأس ، وهو كساء يلقى على الكتف أيضاً . المعجم الوجيز ، مادة «طرح» .

وفى المرآة[١] : قبض الخليفة على الوزير المذكور ليلاً ، بعث إليه رجلاً من أهل باب الأزج يقال له ابن دُكاله ، فأغلق بابه وأقام أياماً ثم نقله إلى دار طاشتكين بالصاغة فى دار الخليفة التى مات فيها القاضى شريح ، ونقل أهله وأولاده وأمواله وذخائره ، ووجدوا له من الأموال والذخائر مالم يوجد فى خزائن الخلفاء ، وفوض الأمر إلى المكين[٢] محمد القمى كاتب الإنشاء بين يدى ابن مهدى ، وناب القمى بعد ذلك فى الوزارة إلى أيام المستنصر فقبض عليه ، واختلفوا فى سبب عزل الوزير ابن مهدى ، فقال قوم : كان ظالماً جباراً قاسياً متكبراً قليل الرحمه قَلَّ إن حبس أحداً فتخلص منه . قال السبط : وحكى لى خالى أبو محمد يوسف قال : شفعت يوماً إليه فى محبوس ، فقال : وكم له فى الحبس؟ قلت : خمس سنين . فقال : هذا ليس بمحبوس المحبوس عندنا فى العجم من يمضى عليه خمسون سنة . وقال آخرون : إن المكين القمى سعى به إلى الخليفة ، وقال : إنه طمع فى الخلافة ويقول أنا علوى ونحن أحق وأنه ينفذ الأموال إلى العجم من قواصر[٣] التمر إلى أهله ليجندوا[٤] العساكر ويقيموا ملكاً ويقصدوا بغداد . وقال آخرون : إنه اتفق[٣١١] مع ابن الساوا[٥] النصرانى على قتل علاء الدين يتامش مملوك الخليفة ، وسنذكره إن شاء الله تعالى .

ومنها أن الحجاج رجعوا إلى العراق وهم يدعون إلى الله ويشكون إلى الناس مالقوا من صدر جهان البخارى الحنفى[٦] الذى كان قدم بغداد فى رسالة فاحتفل به الخليفة ، وخرج إلى الحج فى هذه السنة فضيق على الناس فى المياه والميرة ، فمات نحو من ستة آلاف من الحجيج العراقى فى هذه السنة ، وكان غلمانه تسبق إلى المناهل فيحجزون على الماء ويأخذونه فيرشونه حول خيمة مخدومهم فى قيظ الحجاز ، ويسقونه البقولات

---

(١) نقل العينى هذا الخبر من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٤٧-٣٤٨ .

(٢) هو المكين أبو الحسن محمد بن محمد القُمّى . الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٢٢٢ .

(٣) قواصر التمر : مفردها القوصرة ، وهى وعاء التمر يتخذ من قصب . انظر المصباح المنير ، مادة قصر ؛ لسان العرب .

(٤) ليجيدوا : كذا فى الأصل ، والمثبت من المرآة ، جـ٨ ، ص٣٤٨ حيث ينقل العينى عنه ؛ وكذا فى الذيل على الروضتين ، ص٥٩-ص٦٠ .

(٥) «السارى» كذا فى الأصل ، ومرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٤٨ ، والتصحيح من الذيل على الروضتين ، ص٦٠ ؛ الجامع المختصر ، ص٢٢٠ .

(٦) هو محمد بن أحمد بن عبدالعزيز البخارى . انظر الذيل على الروضتين ، ص٥٩ .

التى تحمل معه فى ترابها ، ويمنعون منه ابن السبيل إلى المسجد الحرام حتى مات خلق كثير بسبب ذلك ، فلما رجع مع الناس لعنته العامة ولم يحتفل به الخاصة ولا أرسل إليه الخليفة أحداً ، وخرج والعامة وراه يرجمونه ويلعنونه ، وسماه الحاج فى هذه السنة صدر جهنم .(١)

وفى المرآة : وقدم الحاج من مكة فى صفر وحكوا ما لقوا من صدر جهان ، وشدة العطش ولم يخرج أحد إلى لقائه ولعنوه فى وجهه وسبوه فى الأسواق ، وكتبوا لعنته على المساجد والجوامع ، [وكان](٢) النساء يخرجن صارخات [منشرات](٣) الشعور يلطمن على موتاهن ويقلن : العنوا صدر جهنم .

* قال السبط : وحججت أنا فى هذه السنة ورأيت من الموتى ما أذهلنى وخصوصاً فى النقرة(٤) والعُسَيلة(٥) ، فإنى رأيت فيها ما يزيد على خمسة آلاف ميت ، ومشينا ثلاثة أيام فى الأموات .

ومنها أن الخليفة رتب فى رمضان دور [المضيف(٦)] ببغداد من الجانبين عشرين داراً ، فى كل دار فى كل ليلة خمسمائة قدح وألف رطل من الطبيخ الخاص والجنز النقى والحلواء وغير ذلك مستمر فى كل رمضان .

وفيها (....)(٧)

وفيها حج بالناس من العراق مجاهد الدين ياقوت ، وقال السبط ابن الجوزى(٨) : وحججت معه وهى أول حجاتى ، وكانت الوقفه يوم الأربعاء وعدتُ إلى العراق . وحج

---

(١) ورد هذا الخبر فى مرآة الزمان جـ٨ ، ص٣٤٧ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٥٩ ، كما ورد مختصراً فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٣١ .
(٢) كن : كذا فى الأصل والمثبت هو الصحيح .
(٣) منتشرات : كذا فى الأصل . والمثبت هو الصحيح . انظر : مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٤٧ .
(٤) مكان بطريق مكة وهو من منازل حاج الكوفة . معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٨٠٤ .
(٥) العُسيلة ، ماء فى جبل القَنَان ، شرقى سميراء وهو منزل بطريق مكه . انظر ، معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٦٧٨ .
(٦) الضيف كذا فى الأصل ، والمثبت فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٤٨ .
(٧) فراغ فى الأصل بمقدار سطر .
(٨) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٤٨ .

بالناس من الشام بدر الدين دلدروم ، ورحل من الشام فى الثامن عشر من شوال وصحبته الملك المحسن ابن السلطان صلاح الدين وجاور فى تلك السنة ، وودعهم السلطان الملك العادل إلى الكسوة ، وحج معه تلك السنة شيخ الشيوخ صدر الدين بن حمويه وأولاده وشبل الدولة الحسامى وخلق كثير .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

حنبل بن عبدالله بن الفرج بن سعادة الرصافى الحنبلى ، راوى مسند الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ عن أبى الحصين عن ابن المهذب عن ابن مالك عن عبدالله بن أحمد عن أبيه . عمّر تسعين سنة ، وخرج من بغداد فأسمعه بإربل واستقدمته ملوك دمشق إليها ، فسمع الناس عليه بها المسند ، وكان الملك المعظم يكرمه ويأكل عنده على السماط من الطيبات فتصيبه التخمه كثيراً لأنه كان ضيق الحال خشن العيش ببغداد . وكان الكندى إذا دخل على المعظم يسأل عن[٣١٢] حنبل[١] فيقول : هو متخوم . فيقول : أطعمة العدس . فيضحك المعظم ، ثم أعطاه مالاً جزيلاً ورده إلى بغداد فتوفى بها فى هذه السنة ، وكان مولده سنة عشر وخمسمائة . وقال أبو شامة : مات فى رابع عشر محرم سنة أربع وستمائة ودفن بباب حرب .

عبدالرحمن بن عيسى بن أبى الحسن البزورى الواعظ البغدادى ، سمع من أبى الوقت وغيره واشتغل على ابن الجوزى فى الوعظ ، ثم حدثته نفسه بمضاهاته وشمخت نفسه واجتمع عليه طائفة من أهل باب البصرة ، وتزوج فى آخر عمره وقد قارب السبعين بصبية ، فاغتسل فى يوم بارد فانتفخ ذكره فمات فى هذه السنة ، وكان مولده فى سنة تسع وثلاثين وخمسمائة . وفى المرآة[٢] : وكانت وفاته فى صفر فى هذه السنة .

أبو محمد جعفر بن محمد بن محمود بن هبة الله بن أحمد بن يوسف الإربلى ، كان فاضلاً فى علوم كثيرة فى الفقه على مذهب الشافعى ، والحساب والفرائض والهندسة والأدب والنحو وما يتعلق بالقرآن العزيز ، ومن شعره الحسن الجيد :

(١) ورد هذا الخبر بتصرف فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥٥ .

(٢) السبط ، جـ٨ ، ص٣٥٠ ، الذيل على الروضتين ، ص٦٤ .

لا يدفع المرءُ ما يأتى به القدرُ	وفى الخطوب إذا فكرت معتبرُ
وليس يُنجى من الأقدار إن نزلت	رأى وحزم ولا خوف ولا حذر
فاستعمل الصبر فى كل الأمور ولا	تجزع لشىء فعقبى صبرك الظفرُ
كم مسنا مرة عسر فصرّفه	صرف الزمان ووالى بعده يُسُرُ
لا ييأس المرء من روح الإله فما	ييأس منه إلا عصبة كفروا
إنى لأعلم أن الدهر ذو دول	وأن يوميه ذا أمن وذا خطر .[١]

عبد المجيد[٢] **بن أبى القاسم عبدالله بن زهير أبو محمد الحربى ابن أخى عبدالمغيث الحربى** . ولد سنة سبع وعشرين وخمسمائة ، وسمع الحديث الكثير ، وكان يتردد من عند الخليفة إلى العادل فى أمور خفية فخرج فى السنة الماضية فاجتمع بالعادل ، وعاد فى هذه السنة فتوفى بحماة وكان صالحاً ثقة .

أبو الثناء محمود[٣] **بن هبة الله بن أبى القاسم الحلى البزاز** ، قرأ القرآن على ابن عساكر البطائحى ، والأدب على أبى محمد بن الخشاب ، وسمع الحديث على أبى الوقت ، وحكى عن إسماعيل بن موهوب ابن الجواليقى قال : كنت فى حلقة والدى أبى منصور موهوب يوم جمعة بعد الصلاة بجامع القصر والناس يقرؤون عليه فوقف عليه شاب فقال : ياسيدى ما معنى قول القائل :

وصل الحبيب جنان الخلد أسكنها	وهجره النار يصْلينى به النارا
فالشمس بالقوس أمست وهى نازلة	إن لم يزرنى وبالجوزاء إن زارا

فقال له والدى : يا بنى هذا شىء يتعلق بسير الشمس فى البروج وما يتعلق بعلم الأدب ، ثم قام والدى وآلى على نفسه أن لا يعود إلى مكانه ، ذلك حتى ينظر فى علم النجوم ويعرف تسيير الشمس والقمر فنظر فيه وعلمه بحيث إذا سئل عن شىء منه أجاب . ومعنى الشعر أن الشمس إذا نزلت القوس يكون الليل فى غاية الطول ، وإذا كانت فى الجوزاء كان الليل فى غاية القصر . مات أبو الثناء محمود فى هذه السنة .[٤]

---

(١) وردت هذه الأبيات فى الجامع المختصر ، ص٢٤٤ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥٦ .
(٢) انظر ترجمته بالتفصيل ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٥١ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٦٢ ، الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٢٥٤ .
(٣) انظر ترجمته فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٣٥١ ؛ الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٢٥٥ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٦٣ .
(٤) الذيل على الروضتين ، ص٦٣ ، البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥٥ .

عبد العزيز الطبيب مات[٣١٣] فجأة فى ذى القعدة فى هذه السنة ، وهو والد سعد الدين الطبيب الأشرفى ، وهو الذى عناه القائل أظنه ابن عينين بقوله :

فرادى ولا خلف الخطيب جماعة   وموت ولا عبد العزيز طبيب

شرف الدين بن الناقد بن قنبر واسمه الحسن بن أبى طالب[١] ، ولاه الخليفة حجبة الباب وناب فى الوزارة ، ثم ولاه صاحب المخزن فتجبر وطغى ، وبنى بدرب المطبخ داراً تناهى فى بنائها فلم يكن ببغداد مثلها ، وشرع فى الظلم والفسق وتجاهر به ومد عينه إلى أولاد الناس ، وكان قبيح السيرة فرفع أمره إلى الخليفة ، فأخذه أخذ عزيز مقتدر ، وقبض عليه واستأصله ، ونقض داره إلى الأساس ، وحبسه فأخرج فى رمضان ميتاً فدفن بمشهد باب التبن[٢] .

الأمير زين الدين قراجا الصلاحى[٣] **صاحب مدينة صرخد** ، توفى بدمشق ودفن بقاسيون ، كانت له دار عند باب الصغير[٤] بدمشق عند قناة الزلاقة ، وتربته فى السفح فى قبة على جادة الطريق عند تربة ابن تميرك[٥] ، وأقر السلطان الملك العادل ولده يعقوب على صرخد ، وكان قراجا شجاعاً جواداً .

الأمير الكبير يتامش بن عبد الله[٦] **أحد أمراء الخليفة الناصر لدين الله** ، وكان من سادات الأمراء ، ديناً عاقلاً نزيهاً عفيفاً ، سقاه بعض الكتاب من النصارى سما فمات ، وكان اسمه ابن ساوا ، ولما مات تقدم الخليفة بأن يفتح له باب جامع القصر ولا يتخلف عن جنازته أحد من أرباب الدولة إلا الخليفة والوزير ، وحمل إلى مشهد موسى ابن جعفر فدفن هناك ، وعلم الخليفة بباطن الحال فأمر أن يسلم ابن ساوى إلى غلمان

---

(١) الذيل على الروضتين ، ص٦١ ، ص٦٢ ، الجامع المختصر ، ص٢٥٠-ص٢٥١ .

(٢) مشهد باب التبن : هو قبر موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين ابن الإمام الحسين بن الإمام على بن أبى طالب (رضى الله عنهم) . وباب التبن اسم لمحلة كبيرة كانت ببغداد على الخندق . انظر : معجم البلدان ، جـ١ ، ص٤٤٣ .

(٣) الذيل على الروضتين ، ص٦٢-ص٦٣ ، البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥٥ .

(٤) باب الصغير : انظر ما سبق فى عقد الجمان ، جـ١ ، ص١٣٣ ، حاشية(١) .

(٥) تربة ابن تميرك : هذه التربة بسفح جبل قاسيون . انظر : الدارس ، جـ٢ ، ص٢٢٦ .

(٦) الذيل على الروضتين ، ص٦١ .

يتامش ، فكتب ابن المهدى إلى الخليفة يقول : إن النصارى قد بذلوا فى ابن ساوى خمسين ألف دينار ولا يقتل ، فكتب الخليفة على رأس الورقة :

إن الأسود أسود الغاب همتها	يوم الكريهة فى المسلوب لا السلب[١]

فسلم ابن ساوى إلى مماليك علاء الدين يتامش ، فأخرج من دار الوزير وفى رقبته حبل وهو مكتوف فقتلوه وأحرقوه ، وكان لابن المهدى مملوك عاقل يقال له أقسنقر الدوادار ، كان يطالع الخليفة بأخبار ابن المهدى وأنه يكاتب الأعاجم ويسعى فى فساد الدولة ، وعلم الوزير فسقاه السم فمات فى ربيع الآخر هو وعلاء الدين يتامش فى أيام قريبة ، وقبض الخليفة على ابن مهدى فى جمادى الأولى .

السلطان[٢] غياث الدين محمود بن سام بن الحسين ملك الغورية ، قتل فى هذه السنة وقد ذكرناه عن قريب ، وكان غياث الدين محمود هذا آخر الملوك الغورية ، وكانت دولتهم من أحسن الدول ، وكان محمود كريماً عادلاً محسناً إلى الرعية حليماً شفوقاً ، رحمه الله .

ست الكتبة واسمها نعمة بنت على بن يحيى بن محمد بن الطراح ، توفيت فى ربيع الأول بدمشق ودفنت بباب الفراديس ، وكانت صالحة زاهدة عابدة راوية للحديث ، روت كتاب الشمائل للترمذى عن أبى شجاع عمر بن أبى الحسن البسطامى وعن جدها أبى محمد بن يحيى بن محمد بن الطراح وغيرهما . وقال السبط[٣] : سمعت عليها الحديث بدمشق فى سنة ستمائة . ولما ذكرها السبط فى تاريخه قال : وفى هذه السنة توفيت شيختنا ست الكتبة نعمة بنت على ، رحمها الله[٣١٤]

---

(١) «فى السلب» كذا فى العينى ، والمثبت من الذيل على الروضتين لاستقامة وزن البيت .
(٢) انظر الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٣٧ ، الذيل على الروضتين ، ص٦٣ .
(٣) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٥١ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الخامسة بعد الستمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله والسلطان الملك العادل فى دمشق وعنده ولداه الأشرف والمعظم كذا قال المؤيد(١) فى تاريخه . وقال بيبرس(٢) فى تاريخه : ومنها خرج العادل من مصر إلى الشام وكان أكبر البواعث على خروجه ما حصل من الوحشة بينه وبين الظاهر ابن أخيه صاحب حلب ، وقال المؤيد(٣) : وفيها توجه الملك الأشرف موسى بن الملك العادل من دمشق راجعاً إلى بلاده الشرقية ، وكان عند والده العادل فى دمشق ولما وصل إلى حلب تلقاه صاحبها الملك الظاهر وأنزله بالقلعة ، وبالغ فى إكرامه وقام [للأشرف(٤)] و[لجميع](٥) عسكره بجميع ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب والحلواء والعلوفات ، وكان يحمل إليه فى كل يوم خلقة كاملة وهى غلالة وسراويل وقباء وكمة وفروة ومنطقة وسيف ومنديل وسكين ودلكش وحصان وخمس خلع لأصحابه ، وأقام على ذلك خمسة وعشرين يوماً ، وقدم له تقدمة جليلة وهى مائة ألف ألف درهم ومائة بقجة مع مائة مملوك ، منها عشر بقجج فى كل واحدة منها ثلاثة أثواب أطلس وثوبان خطاى ، وعلى كل بقجة جلد قندس(٦) كبير ، ومنها عشرة فى كل واحدة منها(٧) خمسة أثواب عتّابى بغدادى وموصلى ، وعلى كل بقجة جلد قندس صغير ومنها عشرون بقجة فى كل واحدة منها خمس قطع سوسى(٨) وديبقى ومنها أربعون بقجة فى كل واحدة منها خمسة أقبية وخمس كمام ، وحمل إليه خمس حُصُن عربية بعدتها وعشرين أكديشا وأربع قطر بغال وخمس بغلات فائقات بالسروج واللجم المكفتة وقطارين من الجمال . وخلع على أصحابه مائة وخمسين خلعة ، وقاد إلى أكثرهم بغلات وأكاديش ، ثم سار الملك الأشرف إلى بلاده .

(*) يوافق أولها ١٦ يوليو ١٢٠٨م .
(١) انظر المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص١١٠ .
(٢) انظر النويرى، نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص٤٦ .
(٣) المختصر ، جـ٣ ، ص١١٠ .
(٤) «بالأشرف» كذا فى الأصل والمثبت من المختصر ، جـ٣ ، ص١١٠ .
(٥) «بجميع» كذا فى الأصل والمثبت من المختصر ، جـ٣ ، ص١١٠ .
(٦) القندس : كلب الماء . انظر : محيط المحيط ، مادة (قندس) .
(٧) «عشرة أثواب عتابى خوارزمى ، وعلى كل بقجة جلد قندس كبير ومنها عشر فى كل واحده» ما بين الأقواس ساقط من العينى ، ومثبت فى المختصر ، جـ٣ ، ص١١١ ، حيث ينقل عنه العينى .
(٨) مرسوسى كذا فى المختصر ، جـ٣ ، ص١١١ .

ذكر ماجريات الملوك

منها أن الفرنج قصدوا مدينة حمص وعبروا على العاصى بجسر اتخذوه فى بلادهم ، فلما أحست بهم العساكر المنصورة ركبوا فى آثارهم فهربوا منهم وقتل منهم خلق وغنم المسلمون منهم غنيمة جيدة .

وقال أبو شامة[١] : وفى هذه السنة أغارت الفرنج ووصلوا إلى باب تدمر من حمص بعد أن مدوا على نهر العاصى جسراً من خشب كانوا صنعوا آلته ببلادهم وحملوها معهم وعبروا العاصى عليه ثم رفعوه على جمالهم ، وقصدوا حمص فقصدتهم العساكر الإسلامية ، فهربوا على طريق قدس وحاز المسلمون أخشابهم وأثقالهم ومن انقطع منهم .

ومنها[٢] أن غياث الدين كيخسرو بن قليج أرسلان السلجوقى صاحب بلاد الروم وصل إلى مرعش لقصد بلاد ابن لاون الأرمنى ، وأرسل إليه الملك الظاهر صاحب حلب نجدة ، فدخل كيخسرو إلى بلاد ابن لاون وعاث فيها ونهب وفتح حصناً يعرف بقرقوس .

ومنها أن الكرج ملكت أرجيش[٣] عنوة ونهبوا جميع ما بها من الأموال والأمتعة وغيرها ، وأسروا وسبوا أهلها وأحرقوها وخربوها ولم يبق بها أحد من أهلها ، فأصبحت خاوية على عروشها كأن لم تغن بالأمس ، ولم يقدم الملك الأوحد بن العادل عليهم لأسباب منها : كثرتهم ، وخوفه من أهل خلاط لما كان أسلف إليهم من القتل والأذى ، فخاف[٣١٥] أن يخرج منها فلا يُمكن من العود إليها ، فلما لم يخرج إلى قتالهم عادوا إلى بلادهم سالمين بما غنموا .

ذكر بقية الحوادث

منها أن الملك الظاهر صاحب حلب أمر أن يجيبوا الماء من حيلان[٤] ، وغرم على ذلك أموالاً كثيرة وبقى البلد يجرى فيه الماء . وحيلان بفتح الحاء المهملة وسكون الياء آخر الحروف وبعدها لام ألف وفى آخره نون . وهى قرية معمورة بشمالى حلب مسافة بعد بريد .

---

(١) الذيل على الروضتين ، ص٦٧ .
(٢) ورد هذا الحدث فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٤٥ .
(٣) أرجيش : هى مدينة قديمة من نواحى أرمينية الكبرى قرب خلاط ، معجم البلدان ، جـ١ ، ص١٩٦ .
(٤) انظر : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٣٨٢ .

ومنها[1] أن الشيخ شهاب الدين السُهّروردى عاد من دمشق بهدايا الملك العادل إلى بغداد ومعه شمس الدين الدكز أستاذ الدار للعادل ، فتلقى الموكب الدكز ، وأعرض عن الشيخ شهاب الدين ونقم عليه ، حيث مد يده إلى الأموال بالشام وحضر دعوات الأمراء أسامة وغيره . وقد كان قبل الرسالة زاهداً فقيراً ، وحصل أموالاً جزيلة ، وأخذ منه الربُط التى كانت بيده ، منها رباط الزوزنى ، ومنها المرزبانيه ، ومُنع من الوعظ ، وقال : ما قبلت هذه الأموال إلا لأفرقها فى فقهاء بغداد . وشرع يفرق المال والثياب فى الزوايا والرُبُط ، وقد أغنى خلقاً كثيراً من فقراء الشام والعراق . قال أبو شامة[2] : ثم خلع الخليفة على الدكز الأستاذ دار ، وعاد إلى الشام بالهدايا والتحف . ومنها[3] أن نيسابور زلزلت زلزلة عظيمة ودامت عشرة أيام ، فمات تحت الهدم خلق كثير .

ومنها[4] أن فى المحرم منها تكامل بناء دار الضيافة التى أنشأها الخليفة بالجانب الغربى من بغداد للحاج والمارة ، لهم الضيافة ما داموا نازلين بها ، فإذا عزم أحدهم على السفر زود وكسى وأعطى بعد ذلك كله ديناراً للسفرة ، وكان ابتداء ترتيبه لذلك فى رمضان من السنة الماضية .

ومنها أن[5] فخر الدين بن تيمية خطيب حران عاد من الحج إلى بغداد وجلس بباب بدر للوعظ ، وحضر محيى الدين يوسف بن الشيخ أبى الفرج بن الجوزى ، فشرع ابن تيمية فى الوعظ ، ومدح الخليفة ، وأنشد فى أثناء كلامه .

وابن اللبون إذا ما لز فى قرن لم يستطع صولة البُزل القناعيس[6]

فقالت الناس : ما قصد إلا محيى الدين لكونه شاباً ابن خمس وعشرين سنة .

(١) ورد هذا الخبر فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥٧ ، الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٢٥٩ ، الذيل على الروضتين ، ص٦٤ .

(٢) الذيل على الروضتين ، ص٦٥ .

(٣) الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٤٧ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٦٥ ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٥١ .

(٤) ورد هذا الخبر بتصرف فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥٦ ؛ الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٢٥٨–ص٢٥٩ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٦٤ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٥١ .

(٥) البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥٦ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٦٥ .

(٦) القناعيس : هى النوق القوية ، والرجل الشديد المنيع ، والمفرد «قِنْعاس» . القاموس المحيط ، مادة «قنس» .

ومنها[١] أن فى يوم الجمعة تاسع المحرم دخل مملوك إفرنجى من باب مقصورة جامع دمشق وهو سكران، وفى يده سيف مسلول والناس جلوس ينتظرون صلاة الفجر، فمال فى الناس يضربهم بسيفه ذلك، فقتل اثنين أو ثلاثة، وضرب المنبر بسيفه فانكسر، فأخذ وأودع بالمارستان وشنق فى يومه ذلك على جسر اللبّادين.

ومنها أن الحافظ أباالخطاب عمر بن دحية لما عاد من رحلته الخراسانية قصد مجلس الوزير صفى الدين عبدالله بن على المعروف بابن شكر، وزير الملك العادل، وكان الشيخ العلامة تاج الدين الكندى جالساً إلى جانبه، فأجلس ابن دحية من الجانب الآخر، فشرع ابن دحية يُورد حديث الشفاعة، فلما وصل إلى قول إبراهيم الخليل عليه السلام أيما كنت خليلاً من وراء وراء، لَفَظَ باللفظتين بفتح الهمزة، فقال الكندى: وراء وراء بالضم، فعز ذلك على ابن دحية، وكان جريئاً ذا أنفة من الرد عليه، فقال للوزير: من ذا الشيخ؟ قال: هذا تاج الدين الكندى، فتسمج ابن دحية فى حقه بكلمات، فلم يُسمع من الكندى إلا قوله: هو من كلب فنبح، وهذه تورية حسنة بلفظ حلو، وذلك أن دحية كان[٣١٦] ينتسب إلى بنى كلب من العرب، وهى قبيلة دحية بن خليفة الصحابى - رضى الله عليه- وفى صحة الانتساب إليهم كلام ونظر، فإن جماعة من العلماء المتقدمين قالوا: إنه لم يعقب، ووقع الناس فى أبى الخطاب بسبب ذلك حتى قال بعضهم:

دحية لم يعقب فلا تنتسب	إليه بالبهتان والإفك
ما صح عند الناس شىء سوى	أنك من كلب بلا شك

فأخذ هذا الشاعر المعنى الذى أشار إليه الكندى بذلك اللفظ الوجيز.

قال أبو شامة[٢]: وأم اللفظتان المتنازع فيهما فرأيت فى أمالى أحمد بن يحيى ثعلب جوازاً لأمرين فيهما والجر أيضاً.

وفيها ....[٣]

(١) البداية والنهاية، جـ١٣، ص٥٦؛ الذيل على الروضتين، ص٦٤.
(٢) الذيل على الروضتين، ص٦٥.
(٣) فراغ بمقدار سطر.

وفيها[١] حج بالناس من العراق مجاهد الدين ياقوت ، ومن الشام حسام الدين قايماز والى القدس .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

أبو الفتح[٢] **محمد بن أحمد بن بختيار بن على بن محمد بن إبراهيم بن جعفر الواسطى المعروف بابن الميدانى**[٣] ، آخر من روى مسند الإمام أحمد -رحمه الله- عن أبى الحصين ، وكان من بيت فقه وقضاء وديانة ، وكان ثقة عدلاً متورعاً فى النقل ، ومما أنشده من حفظه :

ولو أن ليلى مطلع الشمس دونها ... وكنت وراء الشمس حين تغيب
لحدثت نفسى بانتظارى نوالها ... وقال المنى لى إنها لقريب

وقال أبو شامة[٤] وأنشد لغيره :

أراك إذا نأيت بعين قلبى ... كأنك نصب عينى عن قريب
لئن بعدت معاينة التلاقى ... فما بعدت معاينة القلوب[٥]

وقال : ولد بواسط سنة سبع عشرة وخمسمائة ، وولى أبوه قضاء الكوفة ، فسمع من شيوخها ، وتفقه على أبى منصور بن الرزار ، وعاد إلى واسط فأقام بها يسمع الحديث والفقه حتى توفى بداره ، ودفن بها ، سمع بالكوفة من الشريف أبى البركات عمر بن إبراهيم النحوى شارح لمع ابن جنى وغيره ، وببغداد أبا القاسم بن الحصين وابن الجواليقى وابن السمرقندى والبارع وغيرهم ، وولى قضاء واسط ، وكان صالحاً ثقة صدوقاً .[٦]

---

(١) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٥١-ص٣٥٢ ، الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٢٧٠ .
(٢) البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥٧ .
(٣) «المندای» كذا فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٤٧ ، أما ابن الساعى فقد ذكرها «بالمندائى» أما ابن كثير ، فقد ذكره «السندى» البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥٧ . والمثبت يتفق مع ابن العماد الحنبلى ، شذرات الذهب ، جـ٥ ، ص١٧ .
(٤) الذيل على الروضتين ، ص٦٦ .
(٥) وردت هذه الأبيات فى الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٦٠٥ .
(٦) انظر : الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٤٧ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥٧ ؛ والجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٢٧٨ .

أبو العباس[١] **الخضر بن محمد بن على الجزرى** ، ولد بجزيرة ابن عمر فى سنة خمس وعشرين وخمسمائة ، وتوفى فى هذه السنة ، وقدم بغداد ، وله فى تعبير الرؤيا يد ، وأنشد لنفسه :

أنست بوحدتى حتى لو أنى	رأيت الأنس لاستوحشت منه
وما ظفرت يدى بصديق صدق	أخاف عليه إلا خفت منه
وما نزل التجاوب لى حبيباً	أميل إليه إلا ملت عنه

الشيخ أبو[٢] **الخير مصدق بن شبيب بن الحسين النحوى الصِلْحى** ، من أهل قم الصلح ، ولد سنة خمس وثلاثين وخمسمائة ، وصحب الشيخ صدقة الزاهد ، وقرأ عليه القراءات والنحو ، وقرأ عليه ابن الخشاب وابن العصار والكمال الأنبارى ، وسمع الحديث من أبى الفتح بن البطى ، مات فى هذه السنة ، ودفن مع الشيخ صدقة فى ضريحه ، وكان على طريقة فى الزهد والعبادة ، منقطعاً عن الناس .

صدر الدين[٣] **عبد الملك بن درباس المارانى الكردى** ، قاضى[٣١٧] القضاة بالديار المصرية ، وكان قاضى الغربية ، قدم من الشرق إلى مصر فولاه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكان عنده بمكانة ، وقال ابن ميسر : تولى صدر الدين فى الثانى والعشرين من جمادى الأخرى من سنة ست وخمسين وخمسمائة إلى أن صرف بعد وفاة صلاح الدين ، وولى مكانه القاضى زين الدين على بن يوسف الدمشقى يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الأول من سنة تسعين وخمسائة ، وتوفى صدر الدين فى هذه السنة ، وقبره بتربته المجاورة للرباط المشهور بخط روز بهار العجمى .

محمد بن[٤] **بختيار بن عبد الله أخو أستاذ دار الخليفة** ، كان فاضلاً أديباً أنشد يوماً :

قسماً بمن سكن الفؤاد وإنه	قسم به لو تعلمون عظيم

(١) انظر ، الذيل على الروضتين ، ص٦٦ .
(٢) الذيل على الروضتين ، ص٦٦ .
(٣) انظر الذيل على الروضتين ، ص٦٧ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥٧ .
(٤) الذيل على الروضتين ، ص٦٦ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥٧ ؛ المرآة ، جـ٨ ، ص٣٥٢ ؛ الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٢٧٧ ، ص٢٧٨ .

فأجاب بديهاً :

إنى به صَب كـئـيـب مـدنف قلق الفـؤاد مـوله مـهـمـوم
لا أســتطيع مع التنائى سلوة حـتى المـمـات وإننى لسليم
فـتـعطفـوا بالوصل بعـد تهـاجـر فـالصـبـر ينفـد والرجـاء مـقـيم

الأمير سراسنقر الصلاحى : مات فى رابع عشر محرم من هذه السنة بحلب ، وكان أحد الأمراء المذكورين المجاهدين .

الأمير المعروف بالجناح الكردى : واسمه إبراهيم[١] بن أحمد ، مات فى السابع والعشرين من ذى القعدة بدمشق ، ودفن بالجبل ، وخرج السلطان فى جنازته ، وفى الغد عمل عزاؤه بالجامع ، وحضر جميع أمراء الأكراد بالجوخ ومناديل على رؤوسهم ، وهو أخو المشطوب وكبير أمراء الأكراد .

الأشرف[٢] غرس الدين محمد بن السلطان صلاح الدين ، مات فى هذه السنة بحلب .

الأمجد[٣] حسن بن السلطان الملك العادل ، شقيق الملك المعظم والعزيز ، مات فى هذه السنة بالقدس الشريف .

الشرف[٤] الفلكى وزير الملك الأوحد ، أخو الصفى الأسود واسمه عبد المحسن بن إسماعيل بن محمود الحُلى[٥] ، وكان قد ناب بديوان دمشق عن صفى الدين بن شكر الوزير فى الدولة العادلية ، ثم وزر لأخى العادل لأمير فلك الدين فنسب إليه ، ثم اشتغل وزيراً بخلاط للملك الأوحد بن العادل إلى أن قتله مملوكه بها ليلة عيد الفطر من هذه السنة ، وحمل من خلاط إلى دمشق . وقال أبو شامة : وجد مذبوحاً فى فراشه ، ذبحهُ غلام له ليلة عيد الفطر .

---

(١) الذيل على الروضتين ، ص٦٦ .
(٢) «عز الدين» كذا فى الذيل على الروضتين ، ص٦٧ .
(٣) الذيل على الروضتين ، ص٦٧ .
(٤) انظر ترجمته فى الذيل على الروضتين ، ص٦٦ .
(٥) «المحلى» كذا فى الذيل على الروضتين ، ص٦٦ .

السلطان[1] **معز الدين سنجر شاه بن سيف الدين غازى بن مودود بن عماد الدين زنكى بن آقسنقر**، صاحب جزيرة ابن عمر، وهو ابن عم نور الدين صاحب الموصل، قتله ابنه غازى فى هذه السنة، وكانت ولايته فى سنة ست وتسعين وخمسمائة، وكان سنجر شاه ظالماً قبيح السيرة وقحاً، لا يمتنع من قبيح يفعله من: القتل، وقطع الألسنة، والأنوف، والأذن، وحلق اللحى، وتعدى ظلمه إلى أولاده وحريمه، فبعث ابنيه محموداً وممدوداً إلى قلعة فحبسهما فيها، وحبس ابنه الغازى المذكور فى المدينة وضيق عليه، وكان بتلك الدار هوام كثيرة، فاصطاد غازى المذكور حية وسيرها إلى أبيه فى منديل لعله يرق له، فلم يزده إلا قساوة عليه، فأعمل الحيلة حتى هرب، وكان عنده أحد يخدمه فقرر معه أن يسافر ويظهر[٣١٨] أنه غازى بن معز الدين سنجر شاه؛ ليأمنه أبوه، فمضى ذلك الإنسان إلى الموصل فأعطى شيئاً وسافر منها، واتصل ذلك بسنجر شاه فاطمأن، وترجل ابنه غازى حتى دخل إلى دار أبيه، واختفى عند بعض سرارى أبيه، وعلم به جماعة منهم وكتموا ذلك عن سنجر شاه لبغضهم فيه، واتفق أن سنجر شاه شرب يوماً بظاهر البلد وشرع يقترح على المغنيين الأشعار الفراقية وهو يبكى، ودخل داره سكراناً إلى عند الحظية التى ابنه مختف عندها، ثم قام معز الدين سنجر شاه ودخل الخلاء، فهجم عليه ابنه غازى فضربه أربع عشرة ضربة بالسكين، ثم ذبحه وتركه ملقى، ودخل غازى الحمام وقعد يلعب مع الجوارى، فلو أحضر الجند واستحلفهم فى ذلك الوقت لتم أمره وملك البلاد، ولكنه سكر واطمأن فخرج بعض الخدم وأعلم أستاذ الدار، فجمع الناس وهجم على غازى وقتله، وحلف العسكر لأخيه محمود بن سنجر شاه، واستقر ملكه بالجزيرة، وقبض على جوارى أبيه فغرقهن فى دجلة، ثم قتل محمود بعد ذلك أخاه مودوداً.

---

(١) انظر ترجمته، الكامل فى التاريخ، جـ١٠، ص٣٤٥-٣٤٧؛ الذيل على الروضتين، ص٦٧؛ الجامع المختصر، جـ٩، ص٢٦٩-٢٧٠، البداية والنهاية، جـ١٣، ص٥٧.

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة السادسة بعد الستمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله ، وملوك البلاد والأطراف على حالهم .

ذكر ماجريات الملك العادل

وفى ربيع الأول[١] من هذه السنة سار الملك العادل من دمشق وقطع الفرات ، وجمع الملوك من أولاده الأوحد وغيره ، وعساكر مصر والشام وحلب وديار بكر . ونزل على حران ووصل إليه بها الملك الصالح محمد بن محمد بن قرا أرسلان الأرتقى صاحب آمد وحصن كيفا ، ثم سار من حران ونازل سنجار وبها صاحبها قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى ، فحاصرها ونصب عليها المجانيق إلى رمضان ، ولم يبق إلا تسليمها . فأرسل الملك الظاهر من حلب أخاه المؤيد يشفع فى السناجرة وصاحبها يومئذ قطب الدين -كما ذكرنا- وهو من بقية بيت زنكى والد نور الدين محمود الشهيد ، فلم يُشفعه ، ومات المؤيد فى هذه السنة كما نذكره إن شاء الله تعالى . وكره المشارقة مجاورة العادل فاتفقوا عليه مع صاحب إربل . وأرسل الخليفة[٢] ابن الضحاك الأستاذ دار وأقباش الناصرى يشفع إلى العادل فيهم ، فرحل بعد أن أخذ نصيبين والخابور ونزل على حران وفرق العساكر . وصالح المشارقة صاحب إربل والموصل والجزيرة وماردين وحلب .

وفى تاريخ بيبرس[٣] : وسبب ذلك أن قطب الدين المذكور كان بينه وبين ابن عمه نور الدين شاه بن مسعود بن مودود صاحب الموصل عداوة مستحكمة يقدم ذكرها ، ثم تصاهر نور الدين والعادل ؛ فإن ولد العادل تزوج بابنة نور الدين ، وحسنوا لنور الدين مراسلة العادل والاتفاق معه على أن يقتسما البلاد التى لقطب الدين بن زنكى والولاية التى لمحمود بن سنجر شاه ، وهى جزيرة ابن عمر وأعمالها ، فيكون ذلك لقطب الدين بن العادل ، وتكون الجزيرة لنور الدين ، فوافق هذا القول هوى نور الدين فأرسل إلى العادل

(*) يوافق أولها ٦ يوليو سنة ١٢٠٩م .

(١) الذيل على الروضتين ، ص٦٧ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٥٢ ، ص٣٥٣ .

(٢) انظر : نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص٤٩ .

(٣) ورد هذا الخبر بالتفصيل فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٤٨-٣٥٠ .

فى هذا المعنى فأجابه إلى ذلك ، وأطمعه أن يُعطَى هذه البلاد إذا مَلَّكها لولده الذى هو زوج[٣١٩] ابنة نور الدين ، ويكون مقامه فى خدمته بالموصل .

واستقرت الحال على ذلك وتحالفا عليها ، فبادر العادل إلى المسير إلى الفرات فى عساكره وقصد الخابور فأخذه ، فلما سمع نور الدين بوصوله خاف واستشعر ، فأحضر من يَرجع إلى قولهم ورأيهم وعرفهم وصول العادل ، واستشارهم فيما يفعله . فبينوا له فساد رأيه فى اتفاقه مع العادل على ابن عمه وما يترتب على ذلك من الضرر له ، وقالوا : أما الآن فقد فات الأمر ، وليس إلا أن تقف معه على ما استقر بينكما ، لئلا يجعل حجة ويبتدىء بك .

هذا والعادل قد ملك الخابور ونصيبين ، وسار إلى سنجار فحصرها ، وكان عزم صاحبها أن يسلمها إلى العادل بعوضٍ يأخذه عنها ، فمنعه من ذلك أمير كان معه اسمه أحمد بن بُرنقش – مملوك أبيه زنكى – فقام بحفظ المدينة والذب عنها .

وجهز نور الدين عسكراً مع ولده الملك القاهر ليسيروا إلى العادل ، فبينما الأمر كذلك إذ جاءهم أمر لم يكن فى حسابهم ، وهو أن مظفر الدين كوكبورى صاحب إربل أرسل وزيره إلى نور الدين يبذل من نفسه المساعدة على منع العادل عن سنجار ، والاتفاق معه على ما يريده . فوصل الرسول ليلاً فوقف مقابل دار نور الدين وصاح ، فَعُبِّرت إليه سفينة عَبَرَ فيها ، واجتمع بنور الدين ليلاً وأبلغه الرسالة . فأجاب نور الدين إلى ما طلب من الموافقة وحلف له على ذلك ، وعاد الوزير من ليلته . فسار مظفر الدين واجتمع هو ونور الدين ونزلا بعساكرهما بظاهر الموصل ، وكان سبب ما فعله مظفر الدين أن صاحب سنجار أرسل ولده إلى مظفر الدين يستشفع به إلى العادل ليبقى عليه سنجار ، وكان مظفر الدين يظن أنه لو شفع فى نصف ملك العادل لَشَفَّعَه ، لأثره الجميل فى خدمته وقيامه فى الذب عن ملكه غير مرة ، فَشَفَعَ إليه فلم يشفعه العادل ظناً منه أنه بعد اتفاقه مع نور الدين لا يبالى بمظفر الدين . فلما رده فى شفاعته راسل نور الدين فى الموافقة عليه . ولما وصل إلى الموصل واجتمع بنور الدين أرسل إلى الظاهر غازى صاحب حلب وإلى كيخسرو بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم بالاتفاق معهما ، فكلاهما أجاب إلى ذلك ، وتداعوا على الحركة وقصد بلاد العادل إن امتنع من الصلح ، والإبقاء على صاحب سنجار . وأرسلا أيضاً إلى الخليفة الناصر لدين الله ليرسل رسولاً إلى العادل فى الصلح ، فقويت نفس صاحب سنجار على الامتناع .

ووصل رسول الخليفة ، وهو أبو نصر هبة الله بن الضحاك أستاذ الدار ، والأمير أقباش ، وهو من خواص مماليك الخليفة ، [فوصلا][1] إلى الموصل ، [وسارا][2] منها إلى العادل وهو يحاصر سنجار وكان [مَنْ][3] معه من العساكر لا يناصحونه فى القتال لاسيما أسد الدين شيركوه صاحب حمص والرحبة ، فإنه كان يُدخل إليها الأغنام والأقوات ظاهراً ، ولا يقاتل عليها رفقاً بصاحبها وإبقاءً عليه ، وكذلك غيره .

فلما وصل رسول الخليفة إلى العادل أجاب أولاً إلى الرحيل ثم امتنع عن ذلك وغالط ، وطال الأمر لعله يبلغ منها غرضاً . فلما لم ينل منها ما أمَّله أجاب إلى الصلح على أن يكون له ما أخذ وتبقى سنجار لصاحبها ، واستقر الأمر على ذلك وتحالفوا[٣٢٠] عليه كلهم وعلى أن يكونوا يداً واحدة على الناكث منهم . ورحل العادل عن سنجار إلى حران ، وعاد مظفر الدين إلى إربل ، وبقى كل واحد من الملوك فى بلده ، وانفصلوا على ذلك .

وفيها حصل التغيّر بين العادل والظاهر وتأكد ، وبرز من حلب لقتاله عند وصوله من سنجار ، ثم حصل الصلح بينهما فى أول السنة الآتية ، وعاد العادل إلى الشام .

ذكر بقية الحوادث

منها أن فى المحرم وصل نجم الدين خليل شيخ الحنفية من دمشق إلى بغداد فى الرسالة عن الملك العادل ومعه هدايا كثيرة ، وتناظر هو والشيخ مجد الدين يحيى بن الربيع شيخ النظامية فى مسألة وجوب الزكاة[4] فى ماله اليتيم والمجنون ، فأخذ الحنفى يستدل على عدم وجوبها ويعترض عليه الشافعى ، فأجاد كل منهما فى الذى أورده .[5] ثم خلع على الحنفى وأصحابه بسبب الرسالة ، وكانت المناظرة بحضرة نائب الوزير ابن أمَسْيَنا .

ومنها أن فى يوم السبت خامس جمادى الآخرة وصل الجمال يونس بن بدران المصرى رئيس الشافعية بدمشق إلى بغداد فى الرُسلية عن الملك العادل فتلقاه الجيش

(١) «فوصل» فى الأصل . والمثبت من الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٥٠ وهو المتفق مع السياق .

(٢) «وسار» فى الأصل . والمثبت من الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٥٠ وهو المتفق مع السياق .

(٣) ما بين الحاصرتين ساقط من الأصل . والمثبت لإيضاح المعنى .

(٤) «الزكوه» كذا فى الأصل والصحيح هو المثبت .

(٥) ورد هذا الخبر فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥٧-ص٥٨ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٦٩ ؛ الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٥٠ .

مع حاجب الحجاب ، ودخل معه ابن أخى صاحب إربل مظفر الدين كوكبورى ، والرسالة تتضمن الاعتذار عن صاحب إربل والسؤال فى الرضى عنه ، فأجيب إلى ذلك .[١]

وفيها ....[٢]

وفيها حج بالناس من العراق ياقوت ، ومن الشام فخر الدين إياس الشامى .[٣]

ذكر من توفى فيها من الأعيان

القاضى الأسعد أبو المكارم أسعد بن [الخطير][٤] ، **أبى سعيد مهذب ابن مينا ابن زكرياء بن أبى قدامة بن قليج بن مَماتى المصرى** ، الكاتب الشاعر ، وكان ناظر الدواوين بالديار المصرية ، وفيه فضائل وله مصنفات عديدة ، ونظم سيرة صلاح الدين ، ونظم كتاب كليلة ودمنة ، وله ديوان شعر ، وله فى غلام نحوىّ .

وأهيف أحْدَثَ لِى نَحوُهُ	تعجبًا يُعربُ عن ظَرْفِه
علامَةُ التأنيث فى لفظه	وأحرفُ العِلَةِ فى طَرْفِهِ

وله فى شخص ثقيل رآه بدمشق :

[حكى[٥]] نهرين ما فى الأر	ض مَنْ يحكيهما أبدا
حكى فى خلقه ثورا	وفى ألفاظه[٦] بردَا

وقال ابن كثير :[٧] أسلم فى الدولة الصلاحية ، وتولى نظر الدواوين بمصر مدة ، ولما تولى الوزير ابن شكر هرب منه إلى حلب لائذاً بالملك الظاهر ، فمات بها فى هذه السنة ، وله ثنتان وستون سنة .

(١) ورد هذا الخبر فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥٨ .
(٢) بياض فى الأصل بمقدار كلمتين .
(٣) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٥٣ .
(٤) الخطيرى كذا فى الأصل والمثبت من وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص٢١٠ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥٨ ؛ نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص٥١ .
(٥) «يحكى» كذا فى الأصل والمثبت من وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص٢١٠ .
(٦) «أخلاقه» فى وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص٢٦٠ .
(٧) البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥٨ .

وقال ابن خلكان[١] : توفى فى سلخ جمادى الأولى منها يوم الأحد ، ودفن فى المقبرة المعروفة بالمقام على جانب الطريق بالقرب من مشهد على الهروى ، وتوفى أبوه [الخطير][٢] يوم الأربعاء سادس شهر رمضان فى سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، ومنها بكسر الميم وسكون الياء آخر الحروف وفتح النون وبعدها ألف ، ومماتى بفتح الميمين والثانية مشددة وبعد الألف تاء مثناة من فوق مكسورة وبعدها ياء آخر الحروف ، وهو لقب أبى مليح المذكور ، وكان نصرانيا ، وإنما قيل له مماتى ؛ لأنه وقع فى مصر غلاء عظيم ، وكان كثير الصدقة والإطعام خصوصاً لصغار المسلمين ، فكانوا إذا رأوه نادوه كل واحد منهم مماتى ، فاشتهر به والله أعلم .

اللمعانى[٣] **أبو يعقوب يوسف بن إسماعيل بن عبد الرحمن**[٣٢١] **بن عبد السلام اللمعانى** ، أحد الأعيان الحنفية ببغداد ، سمع الحديث ودرس بجامع السلطان ، وكان معتزلياً فى الأصول ، بارعاً فى الفروع ، اشتغل على أبيه وعمه وأتقن الخلاف ، وعلم المناظرة ، وقارب التسعين ، وتوفى ليلة الجمعة ، وصلى عليه من الغد بمشهد الإمام أبى حنيفة رضي الله عنه وقال ابن النجار : وكتبنا عنه ، وكان صدوقا .

ابن الخراسانى[٤] **أبو عبد الله محمد بن محمد بن الحسين المعروف بابن الخراسانى** ، المحدث الناسخ ، كتب كثيراً من الحديث وغيره ، وخطه جيد مشهور .

أبو المواهب معتوق بن منيع بن مواهب الخطيب البغدادى ، قرأ النحو واللغة على ابن الخشاب ، وجمع خطباً كان يخطب منها ، وكان شيخاً فاضلاً أديباً ، وله ديوان شعر ، فمن قوله :

ولا ترجو الصداقة من عدو   يعادى نفسه سراً وجهراً
فلو أخذت مودَته انتفاعاً   لكان النفع منه إليه أخْرى

---

(١) وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص٢١٢ .
(٢) «الخطيرى» كذا فى الأصل والمثبت من وفيات الأعيان ، جـ١ ، ص٢١٠ ؛ نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص٥١-ص٥٢ .
(٣) انظر ترجمته فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥٨ .
(٤) انظر ترجمته فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥٨ .

ابن خروف النحوى على بن محمد بن [على الحضرمى][1] **أبو الحسن بن** خروف ، الأندلسى النحوى شارح كتاب سيبويه ، شرحه وقدمه إلى صاحب المغرب ، فأعطاه ألف دينار ، وشرح جمل الزجاجى ، وكان يتنقل فى البلاد ولا يسكن إلا فى الخانات[2] ، ولم يتزوج قط ، ولا تسرى ، وقد تغير عقله فى آخر عمره ، فكان يمشى فى الأسواق مكشوف الرأس ، وتوفى فى هذه السنة عن خمس وثمانين سنة بمدينة أشبيلية . وقال ابن خلكان[3] : توفى فى سنة عشر وستمائة . وقيل : فى تسع وستمائة وخروف بفتح الخاء المعجمة وهو غير ابن خروف الشاعر .

أبو على الواسطى[4] **يحيى بن الربيع بن سليمان بن حراز الواسطى ثم البغدادى** ، اشتغل بالنظامية على ابن فضلان وأعاد عنده ، وسافر إلى محمد بن يحيى ثم عاد إلى بغداد ، ثم صار مدرساً بالنظامية ونظر فى أوقافها ، وكانت لديه علوم كثيرة ومعرفة حسنة بالمذاهب ، وله تفسير فى أربع مجلدات كان يدرس منه ، واختصر تاريخ الخطيب والذيل عليه لابن السمعانى وقارب الثمانين .

ابن الأثير[5] **: مصنف جامع الأصول والنهاية ، واسمه المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد مجد الدين أبو السعادات الشيبانى** ، الجزرى الشافعى المعروف بابن الأثير ، وهو أخو الوزير للملك الأفضل بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وهو ضياء الدين نصر الله صاحب المثل السائر ، ولهما أخ آخر وهو الحافظ عز الدين أبو الحسن على بن محمد صاحب الكامل فى التاريخ ، ولد أبو السعادات المبارك فى أحد الربيعين سنة أربع وأربعين وخمسمائة بجزيرة ابن عمر ،

---

(١) خلط العينى بين اسم ابن خروف النحوى وابن خروف الشاعر . فأثبت اسم النحوى على بن محمد بن يوسف والمثبت بين الحاصرتين هو الصحيح . وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٣٣٥ .

(٢) الخان : هو مكان يشبه الفندق المعد لاستقبال التجار وبضائعهم ودوابهم وغيرهم من المسافرين والحجاج ويوجد به اسطبل دواب وفى أعلاه طباق ومساكن للنازلين به تطل على حوش أو ساحة تتوسط الخان وأيضاً يوجد بالخان بئر ماء ومنصاه ومسجد صغير . انظر سعيد عاشور ، العصر المماليكى ، ص٤١١ .

(٣) وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٣٣٥ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥٩ .

(٤) انظر ترجمة السبكى ، طبقات الشافعية ، جـ٥ ، ص١٦٥ ؛ الجامع المختصر ، جـ٩ ، ص٢٧٩ ؛ الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٥٠ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥٩ .

(٥) وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص١٤١–ص١٤٣ ؛ الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٥٠–ص٣٥١ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٦٨ ؛ جـ٩ ، ص٢٩٩ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٥٩ .

وسمع الحديث الكثير وقرأ القرآن الكريم ، وأتقن علومه وحرر علوماً جمة ، وكان مقامه بالموصل ، وقد جمع فى سائر الفنون كتباً مفيدة منها : جامع الأصول الستة ، الموطأ ، والصحيحان ، وسنن أبى دواد ، والنسائى ، والترمذى ، ولم يذكر ابن ماجة فيها . وله كتاب النهاية فى غريب الحديث ، وله شرح مسند الشافعى ، وله التفسير فى أربع مجلدات وغير ذلك فى فنون شتى . وكان - رحمه الله - معظماً عند ملوك الموصل ، ولما آل الملك إلى نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكى أرسل إليه مملوكه لؤلؤ فعرض عليه أن يستوزره فأبى ، فركب السلطان إليه بنفسه فامتنع أيضاً ، وقال : قد كبرت واشتهرت بنشر العلم ولا يصلح هذا الأمر إلا بشىء من العسف[٣٢٢] ، ولا يليق بى ذلك فأعفاه . وقال أبو السعادات : كنت أقرأ علم العربية على الشيخ سعيد بن الدهان ، فكان يأمرنى بصنعة الشعر ، فكنت لا أقدر عليه ، فلما توفى الشيخ رأيته فى بعض الليالى يأمرنى بذلك ، فقلت : ضَعْ لى مثالاً أعمل عليه فقال :

جُبْ الفلا مدْمنا إن فاتك الظفر   وخُدِّ خَدَ الثرى والليل معتكر

فقلت أنا :

والعز فى صهوات الخيل تركبه   والمجد ينتجه الإسراء والسهر

فقال لى : أحسنت . ثم استيقظت فأتممت عليها نحواً من عشرين بيتاً . وقال ابن خلكان[١] : وله المصنفات البديعة والرسائل الوسيعة منها : جامع الأصول وهو على وضع كتاب رُزَين إلا أن فيه زيادات كثيرة عليه ، ومنها كتاب النهاية فى خمس مجلدات ، وكتاب الإنصاف فى الجمع بين الكشف والكشاف فى تفسير القرآن ، أخذه من تفسير الثعلبى والزمخشرى ، وله كتاب المصطفى والمختار فى الأدعية والأذكار ، وله كتاب طيف فى صنعة الكتابة ، وكتاب البديع فى شرح الفصول فى النحو لابن الدهان ، وله ديوان رسائل[٢] ، وكتاب الشافى فى شرح مسند الإمام الشافعى ، وغير ذلك فى المصنفات .

(١) وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص١٤١-ص١٤٢ .

(٢) «ديوان ورسائل» كذا فى الأصل والمثبت هو الصحيح . انظر : وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص١٤١ .

كانت ولادته بجزيرة ابن عمر فى أحد الربيعين سنة أربع وأربعين وخمسمائة ، ونشأ بها ثم انتقل إلى الموصل فى سنة خمس وستين وخمسمائة ، ثم عاد إلى الجزيرة ثم عاد إلى الموصل وتنقل فى الولايات بها ، واتصل بخدمة الأمير مجاهد الدين قايماز بن عبدالله الخادم الزينى المقدم ذكره ، وكان نائب المملكة فكتب بين يديه منشئاً إلى أن قبض عليه كما ذكرنا ، فاتصل بخدمة عز الدين مسعود بن مودود صاحب الموصل ، وتولى ديوان رسائله وكتب له إلى أن توفى ، ثم اتصل بولده نور الدين أرسلان شاه فحظى عنده ، وتوفرت حرمته لديه وكتب له مدة ، ثم عرض له مرض كف يديه ورجليه فمنعه من الكتابة مطلقاً ، وأقام فى داره يغشاه الأكابر والعلماء ، وأنشأ رباطاً بقرية من قرى الموصل تسمى قصر حرب ووقف أملاكه عليها وعلى داره التى كان يسكنها بالموصل . وقال ابن خلكان : وبلغنى أنه صنف هذه الكتب كلها فى مدة العطلة فإنه تفرغ لها ، وكان عنده جماعة يعينونه عليها فى الاختيار والكتابة ، وكانت وفاته بالموصل يوم الخميس سلخ ذى الحجة من هذه السنة ، ودفن برباطه بدرب دراج داخل الموصل . قلت : ترجمة أخوه عز الدين فى الكامل(١) ، فقال : كان عالماً فى عدة علوم منها : الفقه ، وعلم الأصولين ، والنحو ، والحديث ، واللغة . وله تصانيف مشهورة ، وكان كاتباً مغلقاً يضرب به المثل ، ذا دين ولزوم طريق مستقيم ، فلقد كان من محاسن الزمان . وقال أبو شامة(٢) : كان به نقرس ، يحمل فى محفة ، رحمه الله .

الفخر الرازى(٣) صاحب التفسير الكبير ، محمد بن عمر بن الحسين بن على القرشى التيمى البكرى ، العلامة أبو عبدالله وأبو المعالى ، المعروف بالفخر الرازى ، ويقال له ابن خطيب الرىّ ، الفقيه الشافعى ، أحد المشاهير بالتصانيف الكبار والصغار نحو من مائتى مصنف منها : تفسير القرآن الكريم : جمع فيه كل غريب وغريبه ، وهو كبير جداً لكنه لم يكمله ، وشرح سورة الفاتحة فى مجلد . ومنها فى علم الكلام[٣٢٣] . المطالب العالية ، ونهاية العقول ، وكتاب الأربعين ، والمحصّل ، والمعالم ، وكتاب البيان والبرهان فى الرد على أهل الزيغ والطغيان ، وكتاب المباحث العمادية فى

(١) انظر ابن الأثير ، جـ١٠ ، ص٣٥٠-ص٣٥١ .
(٢) الذيل على الروضتين ، ص٦٨ .
(٣) الذيل على الروضتين ، ص٦٨ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٦٠-ص٦١ .

المطالب المعادية ، وكتاب تهذيب الدلائل وعيون المسائل ، وكتاب إرشاد النظار إلى لطائف الأسرار ، وكتاب أجوبة المسائل التجارية ، وكتاب تحصيل الحق ، وكتاب الزبدة وغير ذلك .

وفى أصول الفقه : المحصول والمعالم . وفى الحكمة : الملخص ، وشرح الإشارات لابن سينا ، وشرح عيون الحكمة ، وغير ذلك . وفى الطلسمات : السر المكتوم وشرح أسماء الله الحسنى . ويقال : إن له شرح المفصل فى النحو للزمخشرى ، وشرح الوجيز فى الفقه للغزالى ، وشرح سقط الزند للمعرى ، وله مختصر فى الإعجاز ، ومؤاخذة جيدة على النحاة ، وله طريقة فى الخلاف . وله فى الطب : شرح الكليات للقانون . وصنف فى علم الفراسة ، وصنف فى مناقب الشافعى رحمه الله ، وكل كتبه ممتعة ، وانتشرت تصانيفه فى البلاد ، ورزق فيها سعادة عظيمة فإن الناس اشتغلوا بها ورفضوا كتب المتقدمين ، وهو أول من اخترع هذا الترتيب فى كتبه وأتى فيها بما لم يُسبق إليه ، وكان له فى الوعظ اليد البيضاء ، ويعظ باللسانين العربى والعجمى ، وكان يلحقه الوجد حال الوعظ ويكثر البكاء ، وكان يحضر مجلسه بمدينة هراة أرباب المذاهب والمقالات ، ويسألونه وهو يجيب كل سائل بأحسن إجابة ، ورجع بسببه خلق كثير من الطائفة الكرامية وغيرهم إلى مذهب أهل السنة ، وكان يلقب بهراة شيخ الإسلام ، وكان مبدأ أشغاله على والده إلى أن مات ، ثم قصد الكمال السمنانى واشتغل عليه مدة ، ثم عاد إلى الرى واشتغل على المجد الجيلى وهو أحد أصحاب محمد بن يحيى ، ولما طلب المجد الجيلى إلى مراغة ليدرس بها صحبة فخر الدين المذكور إليها وقرأ عليه مدة طويلة علم الكلام والحكمة . ويقال : إنه كان يحفظ الشامل لإمام الحرمين فى علم الكلام ، ثم قصد خوارزم وقد تمهر فى العلوم وجرى بينه وبين أهلها كلام فيما يرجع إلى المذهب والاعتقاد ، فأخرج من البلد ، فقصد ما وراء النهر فجرى له أيضاً هناك ما جرى له فى الخوارزم ، فعاد إلى الرى ، وكان بها طبيب حاذق له ثروة ونعمة ، وكان للطبيب ابنتان ولفخر الدين ابنان ، فمرض الطبيب وأيقن بالموت فزوج ابنتيه لولدى فخر الدين ، ومات الطبيب فاستولى فخر الدين على جميع أمواله ، فمن ثم كانت له النعمة ولازم الأسفار ، وعامل شهاب الدين الغورى صاحب غزنة فى جملة من الأموال ، ثم مضى إليه فى استيفاء حقه منه فبالغ فى إكرامه والإنعام وحصل له من جهته مال طائل ، وعاد إلى خراسان واتصل بالسلطان محمد بن تكش المعروف بخوارزم شاه ، وحظى عنده ونال

أسمى المراتب ، ولم يبلغ أحد منزلته عنده ، ومناقبه أكثر من أن تعد ، وفضائله لا تحصى ولا تحد ، وكان مع هذه العلوم له شىء من النظم فمن ذلك قوله :

نهاية إقدام العقول عقال　　وأكثر سعى العالمين ضلال
وأرواحنا فى وحشة من جسومنا　　وحاصل دنيانا أذى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا　　سوى أن جمعنا فيه قيل وقال[٣٢٤]
وكم قد رأينا من رجال ودولة　　فبادوا جميعاً مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها　　رجال فزالوا والجبال جبال

وكان العلماء يقصدونه من البلاد ويشد إليه الرحال من الأقطار . وذكر فخر الدين فى كتابه الذى سماه «تحصيل الحق» أنه اشتغل فى علم الأصول على والده ضياء الدين عمر ، ووالده على ابن القاسم سليمان بن ناصر الأنصارى ، وهو على أيام الحرمين ، وهو على الأستاذ أبى إسحاق الإسفرابينى ، وهو على الشيخ أبى الحسن الباهلى ، وهو على شيخ السنة أبى على بن إسماعيل الأشعرى ، وهو على أبى على الجبائى أولا ، ثم رجع عن مذهبه ونصر مذهب أهل السنة والجماعة .

وأما اشتغاله فى المذهب فإنه اشتغل على والده ، ووالده على أبى محمد الحسين بن مسعود الفراء البغوى ، وهو على القاضى الحسين المروزى ، وهو على أبى العباس بن شريح ، وهو على أبى القاسم الأنماطى ، وهو على أبى إبراهيم المزنى ، وهو على الإمام الشافعى ﷺ . وقال ابن كثير[١] : وقد كان فخر الدين معظماً عند الملوك الخوارزمية وغيرهم ، وبنيت له مدارس كثيرة فى بلدان شتى ، وملك من الذهب العين ثمانين ألف دينار وغير ذلك من الأمتعة والمراكب والملابس ، وكان له خمسون مملوكاً من الترك ، وكان يعقد مجلس الوعظ فيحضر عنده الملوك والوزراء والعلماء والأمراء والفقراء والعامة والغوغاء ، وكانت له عبادات وأوراد ، وقد وقع بينه وبين الكرامية فى أوقات شتى ، وكان يبغضهم وكانوا يبغضونه ، ويبالغ فى ذمهم ويبالغون فى الحط عليه ، وقد ذكرنا طرفاً من ذلك فيما تقدم . وكان مع غزارة علمه وتبحره فى فن الكلام يقول : من التزم مذهب

(١) البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٦٠ .

العجائز[١] كان هو الفائز . وقال الشيخ شهاب الدين فى الذيل[٢] فى ترجمته : وكان يعظ وينال من الكرامية وينالون منه سباً وتكفيراً ، وقيل : إنهم دسوا عليه من سقاه السم فمات ، ففرحوا بموته ، وكانوا يرمونه بالكبائر ، ولا كلام فى فضله وإنما الشناعات عليه قائمة بأشياء منها : إنه كان يقول : قال : محمد التازى يعنى العربى[٣] ، وقال محمد الرازى يعنى نفسه .

ومنها : إنه كان يقرر الشُّبَه فى جهة الخصوم بعبارات كثيرة ويجيب عن ذلك بأدنى إشارة . قال : وبلغنى إنه خلَّف من الذهب العين ثمانين ألف دينار غير ما كان يملكه من الدواب والثياب والعقار والآلات ، وخلف ولدين أخذ كل واحد منهما أربعين ألف دينار ، وكان ابنه الأكبر قد تجند فى حياته وخدم السلطان محمد بن تكش ، وقال ابن خلكان[٤] : وكانت ولادة فخر الدين فى الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة أربع وأربعين ، وقيل سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة بالرِّىّ ، وتوفى يوم الإثنين ، وكان عيد الفطر سنة ست وستمائة بمدينة هراة ، ودفن آخر النهار فى الجبل المصاقب لقرية مزداخان ، بضم الميم وسكون الزاى وفتح الدال المهملة وبعد الألف خاء معجمة مفتوحة وبعد الألف نون ، وهى قرية بالقرب من هراة .

الإمام فخر الدين أبو الفضائل محمد بن عمر الرازى ، أحد الأعيان الحنفية ، مات فى هذه السنة فإنه وافق فخر الدين الرازى الشافعى فى الاسم واسم الأب والنسبة والمعاصرة والوفاة .

المجد المطرّزى النحوى الخوارزمى ، كان إماماً فى النحو ، وله فيه تصانيف حسنة . قال ابن الأثير[٥] : مات فى هذه السنة .

الملك المؤيد نجم الدين مسعود بن السلطان صلاح الدين يوسف ، توفى فى هذه السنة بمدينة رأس عين ، فحمل إلى حلب ودفن بها . وفى تاريخ بيبرس[٦] : وهو

---

(١) يقصد بمذهب العجائز مذهب الفطرة .
(٢) انظر أبو شامة ، الذيل على الروضتين ، ص٦٨ .
(٣) ذكر أبو شامة أنه يريد النبى ﷺ . انظر الذيل على الروضتين ، ص٦٨ .
(٤) وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٢٥٢ .
(٥) انظر الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٥١ .
(٦) ورد هذا الخبر فى نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص٥٠ .

أخو الظاهر غازى صاحب حلب شقيقه ، مات فجأة برأس العين وحمل إلى حلب ، وقال أبو شامة[1] : توفى برأس عين عند منصرفه من رسالة[٣٢٥] أخيه الظاهر إلى عمه العادل فى أمر سنجار فى النصف من شعبان ، وكان قد نام فى بيت مع ثلاثة وعندهم منقل[2] فيه نار ، ولا منفذ فى البيت ، فانعكس البخار فأخذ على أنفاسهم فماتوا جميعاً ، فحمل المؤيد فى محفة إلى حلب فدفن بها ، وقال ابن الحلى يرثيه فى قصيدة :

ترى من على نفس العلى جار واعتدى ... وفَوَّق نحو الملك سهماً مسدداً
ومن هَدّ ركن المجد بعد بنائه ... ومد إلى تشتيت شمل الهدى يدا
من دكدك الطود الأشم وقد رسى ... وطار إلى أن جاز نسراً وفرقداً
ومن حجب البدرَ الذى كان مشرقا ... ومن غَيّض البحر الذى كان مزبداً
ومن حبس الغيث الذى كان نوؤه ... إذا عم جدباً لا تقب له يدا
فيا مانع الإسلام صبراً فإنما ... بصبرك فى كل المواطن يقتدى
ولو كان غير الموت دافعت دونه ... بطعن يردّ السمهرى مقصداً
وغادرت جفن الأفق بالسمر أو طفا ... وحد المواضى بالنجيع مزرّدا
ولكنه دهر إذا ما نعيمه تحول ... بأساً هدّ ما كان شيدا

وهى قصيدة طويلة .

الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك العادل . مات فى هذه السنة ، ودفن بتربة أخيه الملك المعظم بسفح قاسيون .

(١) الذيل على الروضتين ، ص٦٧ .

(٢) منقل : كانون النار . انظر محيط المحيط مادة «نقل» .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة السابعة بعد الستمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله ، والسلطان الملك العادل فى الشرق ، وتمالت[1] عليه ملوك الجزيرة صاحب الموصل ، وصاحب سنجار ، وصاحب إربل ، وكذا الملك الظاهر صاحب حلب ، وملك الروم أيضاً وغيرهم ، على مخالفة الملك العادل ومنابذته ومعاملته وإقلاع المُلك من يده ، وأن تكون الخطبة فى بلادهم بدله للملك كيخسرو شاه بن قليج أرسلان السلجوقى صاحب الروم .

وأرسلوا إلى الكرج لِيَقْدموا لحصار خلاط وأخذها من يد الملك الأوحد نجم الدين أيوب بن الملك العادل ، ووعدوه النصر والمعاونة عليه . فأقبلت الكرج مع ملكهم على ماتذكره عن قريب ، وخرج كل واحد من الملوك المذكورين بعساكره إلى حدود بلاده ، مُجمعاً على الاجتماع بصاحبه على قصد الملك العادل ، وإيجافهم عليه بخيلهم ورجلهم وكتبهم ورسلهم ، والملك العادل مقيم ثابت بظاهر حران ، وعنده صهره صاحب آمد بن قرا أرسلان .

ونزل الكرج على خلاط سابع عشر ربيع الآخر ، وجرى عليهم ما نذكره من الكسر والانهزام ، فلما عَلِمَ بذلك هؤلاء الملوك تفرقت آراؤهم وبادر كل منهم بالرسل إلى الملك العادل يتنصل مما يُنسَب إليه وتحيل على غيره ، ويبذل الطاعة . فقبل أعذارهم وعقد معهم صلحاً فى جمادى الأولى ، ثم عاد الملك العادل من البلاد الشرقية إلى دمشق . وتقرر الصلح أيضاً بينه وبين ابن أخيه الملك الظاهر صاحب حلب .

وفى ثانى شعبان كان إملاك نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل على ابنة الملك العادل ، وعُقد العقد بقلعة دمشق ، على صداق ثلاثين ألف دينار . ثم وصل الخبر بوفاة نور الدين هذا بالموصل فى آخر رجب ، وقام ولده عز الدين مسعود بالأمر ، وكان العقد مع وكيله بعد موته ولم يعلم بذلك ، ثم سار[٣٢٦] الملك العادل إلى الديار المصرية وأقام بدار الوزارة .

(*) يوافق أولها ٢٥ يونيو ١٢١٠م .

(١) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص٧٥ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٦٢ .

ذكر مجيء الكرج إلى خلاط

قد ذكرنا أن ملوك[1] الجزيرة لما اتفقوا على العصيان على الملك العادل أرسلوا إلى الكرج ليتقدموا ويحاصروا خلاط ويأخذوها من الملك الأوحد بن العادل ، وكان قصدهم إشغال العادل وتفريق شمله ، فأقبلت الكرج مع ملكهم إيوانى[2] فحاصروا خلاط فضاق بهم ذرعاً ، وقدر الله عز وجل أن فى يوم الإثنين تاسع عشر ربيع الآخر اشتد حصارهم للبلد ، وأقبل ملكهم إيوانى وهو راكب على جواده ، وهو سكران ، فسقط به جواده فى بعض الحفر التى عُملت مكيدة حول البلد ، فبادر إليه رجال من البلد فأخذوه أسيراً حقيراً ، فأسقط فى أيدى الكرج . فلما أوقف بين يدى الملك الأوحد أطلقه وَمَنَّ عليه وأكرمه وأحسن إليه ، وفاداه على مائتى[3] ألف دينار وألفى أسير من المسلمين ، وتسليم إحدى وعشرين قلعة متاخمة لبلاد الأوحد . وأن يزوج ابنته من أخيه الملك الأشرف موسى وأن يكونوا عوناً له على مَنْ حاربه . فأجابه إلى ذلك كله ، وأُخذَتْ الأيمان منه بذلك .

فبعث الأوحد إلى أبيه العادل يستأذنه فى ذلك كله ، والعادل نازل بأرض حران - كما ذكرنا - وهو فى أشد حيرة فيما قد دهمه من الأمر الفظيع ، فبينما هو كذلك إذ أتاه هذا الأمر الهائل والتدبير من عزيز حكيم لم يكن فى باله ولا فى حسابه ، فكاد يذهل فرحاً وسروراً ، وأجاز جميع ما فعله ولده .

وطارت الأخبار بما وقع بين الملوك ، فخضعوا وذُلوا كما ذكرنا الآن . ووفى ملك الكرج للملك الأوحد بجميع ما شارطه عليه ، وتزوج الأشرف بابنته . وقال أبو شامة[4] : وخفت الكرج على خلاط بين الصلاتين من يوم الإثنين تاسع عشر ربيع الآخر ، وقدر الله وقوع مقدمهم إيوانى بفرسه فى حفرة بالربض وهو سكران فأُخِذَ أسيراً ، وعَرَفَه ياقوت الخادم الملطى فحمله إلى الأوحد ، فأكرمه وخلع عليه ، وأمر الكرج بالرحيل عن خلاط فرحلوا من ساعتهم نحو بلادهم ، ولم يجسروا على مخالفته ، ولا تعرضوا لقرية من عملها

(١) ورد هذا الخبر فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٦٢ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٧٥ .
(٢) «إيواى» فى الذيل على الروضتين ، ص٧٥ . وهكذا كلما تكرر الاسم .
(٣) «ثمانين» فى الذيل على الروضتين ، ص٧٥ .
(٤) انظر : الذيل على الروضتين ، ص٧٥ .

بإذنه . وقد كان مَنْ بخلاط أيقن بذهاب الأنفس والأموال ، فدفع الله عنهم ، ثم جرى ما ذكرنا حتى أَطْلَقَ الأوحدُ ملك الكرج فى ثانى عشر جمادى الأخرى .

قال ابن تاج الأمناء : ومن أعجب ما سمعته فى هذه القصة أن إيوانى لما نزل بخلاط قال له منجمه فى بكرة يومه : إنك ستدخل إلى قلعة خلاط قريب العصر من يومك فى زى غير زيك ، فتخيل قوله فى نفسه وشرب ، فلما سكر ذكر قول المنجم وكان قسيسه ، فركب لوقته وزحف ، فكان من أمره ما قدر الله تعالى ، وأدخل القلعة وقت العصر أسيراً لابساً خلعة الأوحد .

وفى تاريخ المؤيد[١] : واتفق أن ملك الكرج شرب وسكر ، فَحَسَّن له السكر أن تقدم إلى خلاط فى عشرين فارساً ، وخرج[٢] إليه المسلمون فتقنطر وأخذ أسيراً وحمل إلى الأوحد ، فَرَدَّ عليه عدة قلاع ، وبذل إطلاق خمسة آلاف أسير ، ومائة ألف دينار ، وعقد الهدنة مع المسلمين ثلاثين سنة . فتسلم ذلك كله منه ، وأقام وتحالفاً ، ثم أطلقه فخرج .

ذكر عصيان سنجر الخليفتى بخوزستان[٣]

وذلك أن الخليفة الناصر لدين الله كان قد ولاه إياها بعد طاشتكين أمير الحاج فتغير عن الطاعة ، وأبطن التغلب على البلاد[٣٢٧] ، وبقى الأمر كذلك ، فأمر الخليفة مؤيد الدين نائب الوزارة وعز الدين نجاح الشرابى بالمسير إليه بالعساكر وإخراجه عن خوزستان ، فسارا فى عسكر كثيرة ، فلما تحقق سنجر قصدهم إليه لحق بصاحب شيراز وهو سعد بن دكلا ملتجئاً إليه فأكرمه وقام دونه ، ووصل عسكر الخليفة إلى خوزستان بغير ممانعة فلما استقروا فى البلاد راسلوا سنجرا يدعونه إلى الطاعة فلم يجب ، فساروا إلى أرجان[٤] عازمين على قصد صاحب شيراز فأدركهم الشتاء وأقاموا شهوراً والرسل متردده بينهم فلم يجبهم . فلما دخل شهر شوال رحلوا يريدون شيراز ، فحينئذ أرسل صاحبها إلى الوزير والشرابى يشفع فيه ويطلب العهد له على أن لا يؤذى فأجاباه إلى ذلك وسلمه إليهما هو

---

(١) انظر : المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص١١٣ .

(٢) «وخرجت» فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه .

(٣) ورد هذا الخبر بالتفصيل فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٥٢ ، ص٣٥٣ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٥٤ ، ص٣٥٥ .

(٤) أَرَّجَان : هى كورة من كور فارس ، وهى مدينة كبيرة ، بينها وبين شيراز مائة وثمانون ميلاً ، وبينها وبين الأهواز مائة وثمانون ميلاً ، معجم البلدان ، جـ١ ، ص١٩٤ .

وماله وأهله ، فعادوا إلى بغداد والوزير والشرابى وسنجر معهم تحت الاستظهار ، وولى الخليفة بلاد خوزستان مملوكه ياقوت ، وخرج أهل بغداد إلى تلقى الوزير والشرابى وأدخل سنجر راكباً بغلاً بإلحاف وفى رجله سلسلتان ، ثم أن الناصر لدين الله عفى عنه وأمر له بالخلع فلبسها وعاد إلى داره . ونهب سعد صاحب شيراز أموال سنجر وخزائنه ودوابه وكل ماله وما لأصحابه ، وطلب الوزير والشرابى ماله منه فأرسل شيئاً يسيراً والله أعلم .[١]

ذكر فساد الفرنج ببلاد القدس

خرجت جماعة بينهم وعاثوا بنواحى القدس الشريف ، فبرز إليهم الملك المعظم ابن الملك العادل فى عساكره ، فقتل منهم خلقاً كثيراً وخرب من بلادهم أماكن كثيرة ، وغنمت العساكر غنيمة وافرة ، وعادوا سالمين ، وشرع المعظم فى تحصين جبل الطور وبناء قلعة فيه ليكون ثغراً على الفرنج ، فغرم أموالاً كثيرة فى ذلك وبعث الفرنج إلى الملك العادل وطلبوا منه الأمان والمصالحة فهادنهم ، وبطلت تلك العمارة وضاع ما كان غرم عليها . وقال السبط[٢] فى المرآة : وفى هذه السنة خرجت من دمشق إلى نابلس إلى الغزاة ، وكان الملك المعظم عيسى - رحمه الله- بها فجلست بجامع دمشق يوم السبت خامس ربيع الأول ، وكان الناس من باب المشهد الذى لزين العابدين إلى باب الناطفانيين وإلى باب الساعات ، وكان القيام فى الصحن أكثر بحيث امتلأ جامع دمشق وحزروا ثلاثين ألفاً ، وكان يوماً لم ير بدمشق مثله ولا بغيرها ، وكان قد اجتمع عندى شعور كثيرة ، وقد وقفت على حكاية أبى قدامة الشامى مع تلك المرأة التى قطعت شعرها وبعثت به إليه ، وقالت : اجعله قيداً لفرسك فى سبيل الله ، فعملتُ من الشعور التى اجتمعت عندى شُكْلاً للخيل المرصدة للمجاهدين وكَرْفَسارات[٣] ولما صعدت المنبر أمرت بإحضارها ، فحملت على أعناق الرجال ، وكانت ثلثمائة شكال ، فلما رآها الناس صاحوا صيحة عظيمة وقطعوا مثلها وقامت القيامة ، وكان المُبارز المعتمد إبراهيم -رحمه

---

(١) ورد هذا الخبر فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٦٣ .

(٢) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٥٥ .

(٣) كرْفَسارات : قيود للخيل أو البعير . المنجد ، مادة (كرفس) ، ص٧٢٢ .

الله- والى دمشق حاضراً وجميع الأعيان . فلما نزلت من المنبر [قام المبارز][1] يطرق لى ويمشى بين يدى إلى باب الناطفانيين[2] ، فتقدم إلى فرسى فأمسك بركابى وأركبنى وخرجنا من باب الفرج إلى المصلى ، وجميع من كان بالجامع بين يدى ، وسرنا من الغد إلى الكسوة ومعنا خلق مثل التراب ، وكان معنا من قرية واحدة يقال لها زملكاً من قرى[٣٢٨] دمشق نحو ثلثمائة رجل بالعدد والسلاح ، وأما من غيرها فخلق كثير ، والكل خرجوا احتساباً ، وجئنا إلى عقبة فيق والطير لا تقدر أن تطير من خوف الفرنج ، فسرنا على الجادة إلى نابلس ووصلت أخبارنا إلى عكا ، وخرج المعظم فالتقانا وسر بنا ، وجلست بجامع نابلس وحضروا وأحضرنا الشعور أيضاً فأخذها وجعلها على [صدره][3] ووجهه وجعل يبكى ، وكان يوماً عظيماً ، ولم أكن اجتمعت به قبل ذلك اليوم ، وخدمنا وأكرمنا وخرجنا إلى نحو بلاد الإفرنج ، فخربنا وقطعنا أشجارهم وأسرنا جماعة وقتلنا جماعة ولم يتجاسروا أن يخرجوا من عكا ، فأقمنا أياماً ثم عدنا سالمين غانمين إلى الطور المطل على الناصرة والمعظم معنا ، فقال : أريد أن أبنى عليه قلعة . وطلب أخاه الملك الأشرف وعساكر الشرق وحلب وشرع فى عمارة الطور ، وأقام العسكر تحته من ذى الحجة من هذه السنة إلى سنة ثمان وستمائة ، فكمل سوره ودار واستوى ، وخاف الفرنج فأرسلوا إلى العادل فصالحهم وأعطى للعساكر دستورا فتفرقوا ، وأقام المعظم يعمر الطور إلى قبيل وفاة العادل ولا يحصى ما عزم عليه .[4]

ذكر بقية الحوادث

منها : إنه وردت رسل الخليفة الناصر لدين الله إلى ملوك الأطراف أن يشربوا له كأس الفتوة ويلبسوا لها سراويلها ، وأن ينتسبوا إليه فى رمى البندق[5] ويجعلوه قدوتهم

(١) ما بين حاصرتين إضافة من مرآة الزمان الذى ينقل عنه . جـ٨ ، ص٣٥٥ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٦٩ .

(٢) باب الناطفانيين ، أحد الأبواب الأربعة للجامع الأموى بدمشق ، انظر : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٥٩١ ؛ الدارس ، جـ٢ ، ص٣٨٦ .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من المرآة ، جـ٨ ، ص٣٥٥ حيث ينقل عنه .

(٤) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٥٥-ص٣٥٦ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٦٩-ص٧٠ .

(٥) رمى البندق : من الألعاب الرياضية ، والبندق : كُرات تصنع من الطين أو الحجارة أو الرصاص ، أو غيرها . وترمى به الطيور . انظر : عاشور ، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ، ص٧٣ .

فيه ، وكلهم فعل ذلك إلا رجلاً واحداً وخرج من البلاد لأجل ذلك .[١] وقال أبو شامة[٢] : وفيها أظهر الخليفة الأجازة التى أخذت له من الشيوخ وذكرهم فى كتاب روح العارفين ، ودفع إلى كل أهل مذهب أجازة عليها مكتوب بخطه أمرنا لهم ما سألوه على شرط الأجازة الصحيحة ، وكتب العبد الفقير إلى الله تعالى أبو العباس أحمد أمير المؤمنين ، وسلمت أجازة أصحاب الشافعى إلى ضياء الدين عبدالوهاب بن سكينة ؛ وأجازة أصحاب أبى حنيفة ﷺ إلى الضياء أحمد بن مسعود التركستانى ، وأجازة أصحاب أحمد إلى أبى صالح نصر بن عبدالرزاق بن الشيخ عبدالقادر ، وأجازة أصحاب مالك إلى التقى على ابن جابر التاجر المغربى .

ومنها :[٣] إن فى حادى عشر شوال جددت أبواب الجامع من ناحية باب البريد بالنحاس الأصفر وركبت فى أماكنها . وفى شوال أيضاً شرع فى إصلاح الفوارة والشاذروان والبركة وعمل عندها مسجداً وجعل له إمام راتب ، وأول من تولاه رجل يقال له النفيس المصرى ، وكان يقال له بوق الجامع لطيب صوته ، وكان إذا قرأ على الشيخ أبى منصور الضرير المُصدّر يجتمع عليه الناس .

ومنها[٤] : إن فى العشر الأخير من ذى الحجة توجه البال القبرسى لعنه الله فى مراكب من عكا إلى الديار المصرية ، فوصل إلى ساحل دمياط ليلاً فأرسى غربيّها ، وسلك فى البر بخيله ورجله إلى القرية المعروفة ببورة ، وهى على ساحل النيل ، فكبسها سحراً وسبى أهلها وحاز ذخائرها ، وعاد على أثره فى بقية يومه إلى مراكبه ، وبلغ والى دمياط خبره فبادر الرجال إليه ، فالتقاه قد حصل بظهر البحر فى مراكبه وامتنع على طالبه ووصل بالأسرى والغنائم إلى عكا ، وقد نال بفعلته هذه والتى قبلها نوبة فوه من الديار المصرية فى سنة ستمائة ما لم ينله أحد من الفرنج قبله ولا أقدم إقدامه .

وفيها ....[٥]

---

(١) انظر المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص١١٣ .
(٢) الذيل على الروضتين ، ص٦٩ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٥٤ .
(٣) الذيل على الروضتين ، ص٧٦ .
(٤) انظر : الذيل على الروضتين ، ص٧٧ .
(٥) بياض فى الأصل بمقدار سطر .

وفيها حج بالناس من العراق محمد بن ياقوت نيابة عن والده ياقوت ، وكان صبياً ومعه ابن أبى الجيلى[١] ، وحج بالناس من الشام سيف الدين على بن علم الدين سليمان ابن جندر ، وكان قدم من حلب لذلك ، واحتفل الناس له .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

الشيخ أبو عمر[٢] **محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة** ، بانى المدرسة التى يقرأ فيها القرآن بسفح جبل قاسيون ، وهو أخو الإمام العلامة موفق الدين عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة . وكان الشيخ أبو عمر أسن منه لأنه ولد سنة ثمان وعشرين وخمسمائة بقرية السَّاوِيا من أعمال نابلس ، وقيل : بجماعيل[٣] ، وهو الذى ربى الشيخ الموفق وأحسن إليه وزوجه ، وكان يقوم بمصالحه ، وهو الذى قدم به وبأهله من تلك البلاد ، فنزلوا بمسجد أبى صالح بالباب الشرقى من دمشق ، فأقاموا به مدة ثم انتقلوا منه إلى سفح قاسيون ، وليس به من العمارة سوى دير الحورانى وأماكن يسيرة . قال الشيخ : فقيل لنا الصالحية فنسبونا إلى مسجد أبى صالح لأننا صالحون . وقال سبط[٤] ابن الجوزى فى تاريخه المرآة : وكان الشيخ معتدل القامة ، حسن الوجه ، عليه أنوار العبادة ، لايزال متبسماً ، نحيل الجسم من كثرة الصيام والقيام ، قرأ القرآن بحرف أبى عمرو ، وحفظ مختصر الخرقى فى الفقه ، وقرأ النحو على ابن برى بمصر ، وسمع الحديث بدمشق ومصر ، واشتغل بالعبادة عن الرواية ، وكتب الحلية لأبى نعيم ، وتفسير البغوى والمغنى لأخيه الموفق ، والإبانة لابن بطة ، ومصاحف كثيرة للناس ولأهله وكتباً كثيرة ، والكل بغير أجرة ، وكان يصوم الدهر إلا من عذر ، ويقوم الليل من صغره ، ويحافظ على الصلوات فى الجماعات ، ويخرج من ثلث الليل إلى المسجد فى الظلمة فيصلى إلى الفجر ، ويقرأ فى كل يوم سُبعاً من القرآن بين الظهر والعصر ، ويقرأ بعد العشاء الآخرة آيات الحرس ، ويس ، وتبارك والواقعة ، والمعوذتين ، وقل هو الله أحد . وإذا ارتفعت الشمس لقنّ الناس القرآن إلى وقت الضحى ، ثم يقوم فيصلى الضحى ثمان ركعات ويقرأ قل هو الله أحد

(١) «الحلى» كذا فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٥٦ .

(٢) البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٦٤-٦٥ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٧١ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٥٦ .

(٣) جمَّاعيل : قرية بجبل نابلس من أرض فلسطين ، معجم البلدان ، جـ٢ ، ص١١٣ .

(٤) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٥٦-٣٥٧ .

ألف مرة ، ويزور المقابر بعد العصر فى كل جمعة ، ويصعد يوم الإثنين والخميس إلى مغارة الدم(١) ماشياً بالقبقاب(٢) فيصلى فيها ما بين الظهر والعصر ، وإذا نزل جمع الشيح(٣) من الجبل وربطه بحبل وحمله إلى بيوت الأرامل واليتامى ، ويحمل فى الليل إليهم الدراهم والدقيق ولا يعرفونه ، ولا ينام إلا على طهارة ، ومتى فتح له شىء من الدنيا آثر به أقاربه وغيرهم ، ويتصدق بثيابه ، وربما خرج فى الشتاء وعلى جسده جبة بغير ثوب ، ويبقى مدة طويلة بغير سراويل وعمامته قطعة من بطانة ، فإن احتاج أحد إلى خرقة أو مات صغير يحتاج إلى كفن قطع له منها قطعة ، وكان ينام على الحصير ويأكل خبز الشعير وثوبه خام إلى أنصاف ساقية ، وما نهى أحداً ولا أوجع قلب أحد . ولما نزل صلاح الدين على القدس كان هو وأخوه الموفق والجماعة فى خيمته ، فجاء العادل إلى زيارته وهو فى الصلاة فما قطعها ولا التفت ولا نزل ورده ، وكان يصعد المنبر فى الجبل وعليه ثوب خام مهدول الجيب وفى يده عصى ، والمنبر[٣٣٠] يومئذ ثلاث مراقى . وكان هو وأخوه وابن خالهم عبدالغنى ، وأخوه الشيخ عماد لا ينقطعون عن غزاة يخرج فيها السلطان صلاح الدين إلى بلاد الإفرنج . وقد حضروا معه فتح القدس الشريف . وهو الذى شرع فى بناء الجامع أولاً ، بناه رجل من الناس ، فنفذ ما كان بيده ، وقد ارتفع البناء قامة ، فبعث صاحب إربل الملك المظفر مالاً فكمل به ، وولى خطابته الشيخ أبو عمر . وقد حكى السبط(٤) : إنه حضر يوماً عنده الجمعة ، وكان الشيخ عبدالله اليونانى(٥) حاضراً هناك . فلما انتهى الشيخ أبو عمر إلى الدعاء للسلطان قال : اللهم أصلح عبدك الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب . نهض الشيخ عبدالله وترك الجمعة . قال : فلما فرغنا ذهبت إليه فقلت : ماذا نقمت عليه؟ فقال : يقول لهذا الظالم العادل . ولا تحل خلفه الصلاة . فقلت فى نفسى : إذا كانت الصلاة خلف أبى عمر لا تصح فياليت شعرى خلف من تصح! قال : فبينما نحن فى الحديث إذ أقبل الشيخ أبو عمر ومعه رغيف

(١) مغارة الدم : توجد فى جبل قاسيون المشرف على مدينة دمشق ، ويقال إن فى هذه المغارة قتل قابيل أخاه هابيل وهناك شبيه بالدم يزعمون أنه دمه باق إلى الآن . معجم البلدان ، جـ٤ ، ص١٤ .

(٢) القبقاب : الحذاء من خشب والجمع قباقيب . المنجد ، مادة قبق ، ص٦٣٨ .

(٣) الشيح : نبت سهلى من الفصيلة المركبة ، رائحته طيبة قوية . المعجم الوجيز ، مادة «شيح» .

(٤) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٥٨ .

(٥) كذا فى الأصل ، ومرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٥٨ ، وفى حاشية الذيل على الروضتين ، ص٧٢ حاشية رقم١ ذكر أنه يقال له أيضاً «اليونينى» نسبة إلى بلد فى بعلبك .

وخيارتان فكسر ذلك وقال الصلاة ، ثم قال : قال النبى ﷺ : بعثت[١] فى زمن الملك العادل كسرى ، فتبسم الشيخ عبدالله ومد يده فأكل ، فلما قام الشيخ أبو عمر قال لى : ياسيدى ماذا إلا رجل صالح .

وقال أبو شامة[٢] : كان الشيخ عبدالله من الصالحين الكبار ، وقد رأيته ، وكانت وفاته بعد أبى عمر بعشر سنين ، فلم يسامح الشيخ أبا عمر فى تساهله مع ورعه ، ولعله كان مسافراً [فلم تكن الجمعة واجبة عليه][٣] ، وعذر الشيخ أبى عمر أن هذا جرى مجرى الأعلام العادل ، الكامل ، الأشرف كما يقال سالم وغانم ومسعود ومحمود ، وقد يكون المسمى بذلك على الضد من هذه الأسماء ، وكذلك إطلاق العادل ونحوه على أنه قد جاء إطلاقة على الشرك فهذا أولى .[٤] وقال ابن كثير :[٥] هذا الحديث الذى احتج به الشيخ أبو عمر لا أصل له وليس هو فى شىء من الكتب المشهورة ، وعجباً له ولأبى المظفر يعنى سبط ابن الجوزى ثم لأبى شامة فى قبول مثل هذا الحديث ، وأخذه منه مسلماً .

وقال السبط : مرض الشيخ أبو عمر أياماً فلم يترك شيئاً مما كان يعمله من الأوراد حتى كانت وفاته وقت السحر ليلة الثلاثاء التاسع والعشرين من ربيع الأول ، فغسل بالدير وحمل إلى مقبرته فى خلق كثير لا يعلمهم إلا الله عز وجل ، ولم يبق أحد من الدولة والأمراء والعلماء والقضاة وغيرهم إلا حضر ، وكان يوماً مشهوداً ، وكان الحر شديداً فأظلت الناس سحابة من الحر كان يسمع منها كدوى النحل ، وكاد الناس ينتهبون أكفانه لولا أن الوالى وأصحابه بالسيوف المسلولة والدبابيس دونه لأخذ الناس أكفانه . وقال أبو شامة[٦] : ومن وصل إلى الماء الذى غسل به نشف به النساء مقانعهن والرجال عمائمهم . قال : ولما دفن رأى بعض الصالحين فى منامه تلك الليلة النبى ﷺ وهو يقول : من زار أبا عمر

---

(١) «ولدت» كذا فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٥٨ ، الذيل على الروضتين ، ص٧٢ . والحديث من الأحاديث الموضوعة .
(٢) الذيل على الروضتين ، ص٧٢ .
(٣) «إلا جمعه عليه» كذا فى الأصل ، والمثبت بين الحاصرتين من الذيل على الروضتين ، ص٧٢ ، الذى ينقل عنه العينى .
(٤) نقل العينى هذا الخبر من ابن كثير . انظر البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٦٥ ؛ ولمعرفة المزيد من تفاصيل هذه الرواية . انظر الذيل على الروضتين ، ص٧٢ .
(٥) البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٦٥ .
(٦) الذيل على الروضتين ، ص٧٣-ص٧٥ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٦٦ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٦٠-ص٣٦١ .

ليلة الجمعة فكأنما رأى الكعبة ، فاخلعوا نعالكم قبل أن تصلوا إليه . ومات عن ثمانين سنة ، ولم يخلف ديناراً ولا درهماً ولا قليلاً ولا كثيراً ، وكان له من الأولاد الذكور : عمر والد أحمد بن عمر وبه كنى أبو عمر ، والشرف عبدالله والد العز ، وأحمد ، وعبدالرحمن . قال : وكانت له بنات تائبات عابدات سائحات . وقال : وقبره فى طريق مغارة الجوع فى الزقاق المقابل لدير الحورانى على يمين المار إلى المغارة ، وإلى جانبه قبر أبيه الشيخ[٣٣١] أحمد (رحمه الله) . وما رثى به قول محمد بن سعد المقدسى :

أبعد أن فقدت عينى أبا عمر	يضمنى فى بقايا العمر عمران
ما للمساجد منه اليوم مقفرة	كأنها بعد ذاك الجمع قيعان
ما للمحاريب بعد الأنس مُوحَشَة	كأن لم يُتل فيها الدهر قرآنُ
تبكى عليه عيون الناس قاطبة	إذ كان فى كل عين منه إنسان
وكان فى كل قلب منه نور هدى	فصار فى كل قلب منه نيرانُ
وكل حى رأينا فهو ذو أسف	وكل ميت رآه فهو فرحانُ
لازال تَسْقى ضريحاً أنت ساكنه	سحائب غيثها عفو وغفرانُ
كم ميت ذكره حى ومتصف	بالحى ميت له الأثواب أكفانُ

وقال السبط :(١) وروى لنا الحديث وعلمنى دعاء السنة ، فقال : مازال مشايخنا يواظبون على هذا الدعاء فى أول كل سنة وآخرها ، فأما أول السنة فإنك تقول : اللهم أنت الأبدى القديم ، وهذه سنة جديدة أسألك فيها العصمة من الشيطان وأوليائه ، والعون على هذه النفس الأمارة بالسوء والاشتغال بما يقربنى إليك يا ذا الجلال والإكرام . فإن الشيطان يقول : قد أيسنا من نفسه فيما بقى ، ويوكل الله به ملكين يحرسانه . وأما دعاء آخر السنة فإنك تقول فى آخر يوم من أيام السنة : اللهم ما عملت فى هذه السنة مما نهيتنى عنه ولم ترضه ولم تنسه ، وحَمَلتَ عنى بعد قدرتك على عقوبتى ، ودعوتنى إلى التوبة من بعد جرأتى على معصيتك ، فإنى أستغفرك فاغفر لى ، وما عملت فيها مما ترضاه ووعدتنى عليه الثواب فأسألك أن تتقبله منى ، ولا تقطع رجائى منك يا كريم . فإن الشيطان يقول : تعبنا معه طول السنة فأفسد فعلنا فى ساعة .

---

(١) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٦٠-ص٣٦١ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٧٤ .

قال السبط : وأنشدنى أبو عمر لنفسه .

ألم يك ملهاة عن اللهو[١] أننى ... بدا لى شيب الرأس والضعف والألم
أَلَمَّ بى الخطب الذى لو بكيته ... حياتى حتى ينفد الدمع لم ألم

وأنشدنى لغيره :

لى حيلة فيمن ينم ... وليس فى الكذاب حيلة
من كان يخلق ما يقول ... فحيلتى فيه قليلة

ابن طبرزد شيخ الحديث : عمر بن محمد بن معمر بن يحيى ، المعروف بأبى حفص بن طبرزد البغدادى الدارقَزِّى ، ولد سنة عشر وخمسمائة ، وسمع الكثير وأسمع ، وكان [خليعا][٢] ظريفاً ماجناً ، وكان يؤدب الصبيان ، وكان يُعلم الصبيان بدار القز[٣] ، قدم مع حنبل بن عبدالله المكبر إلى دمشق فسمع أهلها عليهما وحصل لهما أموال ، وعاد إلى بغداد ، فمات حنبل فى سنة ثلاث وستمائة وتأخر هو إلى هذه السنة فمات فيها ، وله سبع وتسعون سنة ، وترك مالاً جيداً ، ولم يكن له وارث إلا بيت المال ، ودفن بباب حرب ببغداد .

ابن سكينة عبدالوهاب[٤] بن على بن على بن ضياء الدين أبو محمد : المعروف بابن سكينة الصوفى البغدادى ، كان يعد من الأبدال ، سمع الكثير وأسمعه ببلاد شتى ، وكان مولده فى سنة تسع عشرة وخمسمائة ، وكان صاحباً للشيخ أبى الفرج بن الجوزى ، ملازماً لمجلسه ، وكان يوم جنازته مشهوداً لكثرة الخاصة والعامة ، وكانت وفاته فى ربيع الآخر ، وصلى عليه بجامع [القصر][٥] ودفن إلى جانب رباط الزوزنى .

---

(١) «الزهد» فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٦١ .
(٢) «هليعا» كذا فى الأصل والمثبت من البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٦٧ .
(٣) دار القز : محلة كبيرة فى طرف الصحراء بين البلد وبينها فرسخ . انظر : معجم البلدان ، جـ٢ ، ص٥٢٢ .
(٤) انظر ترجمته فى الذيل على الروضتين ، ص٧٠ ، البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٦٧ ؛ شذرات الذهب ، جـ٥ ، ص٢٥-ص٢٦ .
(٥) «العصر» كذا فى الأصل والمثبت من الذيل على الروضتين ، ص٧٠ .

[٣٣٢] **مظفر**[١] **بن شاشير الواعظ الصوفى البغدادى** : ولد سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة ، وسمع الحديث وكان يعظ فى الأعزية ، والمساجد والقرى ، وكان ظريفاً مطبوعاً ، وكان يسكن دار العميد عند الصوفية ، فتوفى فى محرم هذه السنة ، ودفن عند قبر معروف الكرخى (رحمه الله) ، سمع أبا الوقت[٢] وطبقته ، واجتاز يوماً على قصاب يبيع لحماً هزيلاً والقصاب ينادى أين من حلف لا يغبن ، فقال له ابن شاشير حتى تحنثه . وقال : خرجت يوماً إلى بعقوبا[٣] فتكلمت بها فى الليل فى جامعها ، فقام واحد فقال : عندى نصفيه . وقال آخر : وعندى نصفيه . فعدوا نحو خمسين نصفيه . فقلت فى نفسى : استغنيت الليلة . فلما أصبحنا وإذا فى زاوية المسجد مقدار كارة شعير ، فقلت : ماهذا؟ قالوا : النصافى كل كيل شعير نِصفيّة . قال : وجلست يوماً بباب جسرا فجمعوا شيئاً ما أعلم ما هو ، فلما أصبحنا إذا فى جانب المسجد صوف الجاموس وقرونه ، فقام واحد ينادى عليه ويقول : من يشترى صوف الشيخ وقرونه؟ فقلت : ردوا صوفكم وقرونكم إليكم مالى بها حاجة .[٤]

يحيى[٥] **بن أبى الفتح بن الطباخ الحرانى الضرير** : قدم بغداد وأقام بها مدة يتفقه على مذهب أحمد بن حنبل (رحمه الله) ، وسمع الحديث ، وقرأ النحو على أبى البقاء العكبرى وغيره ، وعاد إلى حران فأقام بها إلى أن توفى ، سمع شهدة وعبد الحق بن يوسف وابن الخشاب وغيرهم ، وكان فقيراً صبوراً صالحاً .

قال السبط : واجتزت بحران فى سنة ثلاث وستمائة ، وسمعت عليه الحديث .

---

(١) انظر ترجمته فى الذيل على الروضتين ، ص٧٧ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٦١-ص٣٦٢ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٦٧ .

(٢) أبو الوقت : هو عبد الأول بن أبى عبدالله عيسى بن شعيب بن إبراهيم بن إسحاق السِّجزى ، من رواة الحديث ، عالى الإسناد . توفى سنة ٥٥٣ . وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٢٢٦-ص٢٢٧ .

(٣) بعقوبا : قرية كبيرة كالمدينة بينها وبين بغداد عشرة فراسخ ، من أعمال طريق خراسان . معجم البلدان ، جـ١ ، ص٦٧٢ .

(٤) انظر ترجمته فى المرآة ، جـ٨ ، ص٣٦٢ ، الذيل على الروضتين ، ص٧٧ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٦٧ .

(٥) انظر ترجمته فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٦٢ .

الأمير فخر الدين جهاركس[١] : مقدم الصلاحية وكبيرهم ، توفى فى هذه السنة بدمشق ، ودفن بجبل الصالحية ، وتربته مشهورة هناك ، وهو الذى بنى القيسارية[٢] المعروفة به بالقاهرة . وقال ابن خلكان : جهاركس بن عبدالله الناصرى الصلاحى الملقب فخر الدين كان من كبراء أمراء الدولة الصلاحية ، وكان كريماً نبيلاً رفيع القدر عالى الهمة ، بنى بالقاهرة القيسارية الكبيرة المنسوبة إليه ، رأيت جماعة من التجار الذين طافوا البلاد يقولون : لم ير مثلها فى شىء من البلاد فى حسنها وعظمها وإحكام بنائها . وبنى بأعلاها مسجداً كبيراً وربعاً معلقاً . وجهاركس بكسر الجيم وفتح الهاء بعد الألف راء مهملة ثم كاف مفتوحة ثم سين مهملة ، ومعناه بالعربى أربع أنفس .

الملك الأوحد نجم الدين أيوب ابن الملك العادل بن أيوب صاحب أخلاط : توفى فى هذه السنة ، فسار أخوه الملك الأشرف وملك أخلاط ، واستقل بملكها مضافاً إلى ما بيده من البلاد الشرقية ، فعظم بشأنه ولقب شاهرمن .

السلطان غياث الدين[٣] **كيخسرو ابن قليج أرسلان السلجوقى** : قتل فى هذه السنة ، قتله الملك الأشكرى وملك بعده ابنه كيكاوس بن كيخسرو وقد تقدم الكلام فيه مستوفى فى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، فلينظر هناك .

السلطان الملك العادل[٤] **نور الدين أبو الحارث أرسلان شاه** بن عز الدين مسعود ابن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى ، صاحب الموصل ، و هو ابن أخ الملك العادل نور الدين محمود الشهيد ، وكان ملكاً شهماً عارفاً بالأمور ، وانتقل إلى مذهب الإمام الشافعى (رحمه الله) ، ولم يكن فى بيته شافعى سواه ، وبنى مدرسة للشافعية بالموصل قَلّ أن توجد مدرسة مثلها فى حسنها ، وتوفى ليلة الأحد التاسع والعشرين من رجب سنة سبع وستمائة فى شبارة[٥] بالشط ظاهر الموصل . والشبارة عندهم هى الحراقة

---

(١) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ٣ ، ص٣٨١ .

(٢) تسمى قيسارية جهاركس بناها الأمير جهاركس سنة ٥٩٢هـ وكانت قبل ذلك يعرف مكانها بفندق الفراخ بالقاهرة . انظر الخطط ، جـ٢ ، ص٨٧-ص٨٩ .

(٣) انظر ، العينى ، عقد الجمان ، جـ٢ ، ص٢٥٦ .

(٤) انظر ترجمة الملك العادل نور الدين أرسلان شاه فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٥٣-ص٣٥٥ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٦٧ .

(٥) عن الشبارة ، انظر ما سبق جـ١ ، ص٢٦٩ .

بمصر ، وكتم موته حتى دخل به إلى دار السلطنة بالموصل ، ودفن بتربته[٣٣٣] التى بمدرسته المذكورة ، وخلف ولدين : هما الملك القاهر عز الدين مسعود ، والملك المنصور عماد الدين زنكى ، وقام بالمملكة بعده ولده الملك القاهر ، وهو أستاذ الأمير بدر الدين أبى الفضائل لؤلؤ الذى تغلب على الموصل فى سنة ثلاثين وستمائة ، فى أواخر شهر رمضان كما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وفى تاريخ النويرى : ملك السلطان أرسلان شاه المذكور الموصل سبع عشرة[١] سنة وأحد عشر شهراً ، ولما مرض طال مرضه وانحدر إلى العين القيارة[٢] ليستحم بها ، وعاد إلى الموصل فى شَبَّارة ، فتوفى فى الطريق ليلاً . وقال بيبرس : مزاجه فسد بمرض طالت مدته ، وكان شجاعاً ذا سياسة للرعايا ، شديداً على أصحابه ، فكانوا يخافونه خوفاً شديداً ، مانعاً من تعدى بعضهم على بعض ، وكان له عزم وسرعة حركة فى طلب المقاصد إلا أنه لم يكن له صبر . وكان القيم بأمر مجاهد الدين قايماز وإليه تدبير دولته . وقال النويرى : وكان أسمر حسن الوجه قد أسرع إليه الشيب ، وكان كثير المروة شجاعاً مهيباً ، ولم يكن فيه ما يعاب به إلا قلة صبره فى أموره ، ولما توفى استقر فى ملكه بعده ولده الملك القاهر عز الدين مسعود ، وكان عمره عشر سنين ، وقام بتدبير مملكته بدر الدين لؤلؤ مملوك والده أرسلان شاه ، وكان أستاذ داره . وقال بيبرس : وحلف له الأمراء والجند ، وأعطى أخاه عماد الدين زنكى بن نور الدين قلعة عقر الحميدية وقلعة شوش[٣] وولايتها ، وكان نور الدين أوصى ولده وأمره أن يتولى تدبير أمره فتاه بدر الدين لؤلؤ لما رأى من عقله وسداده وحسن سياسته .[٤]

---

(١) «سبعة عشر» كذا فى الأصل والصحيح هو المثبت .

(٢) «العيارة» كذا فى الأصل ، والصحيح القيارة كما فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٣٥٤ . وعين القيارة : بالموصل ، ينبع منها القار ، وهى حمّة يقصدها أهل الموصل ويستحمون فيها ، ويستشفون بمائها . انظر : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٢١١ .

(٣) قلعة شوش : قلعة عظيمة عالية جداً ، قرب عقر الحُمَيْدية من أعمال الموصل . انظر : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٣٣٤ .

(٤) ورد هذا الخبر بتصرف فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٥٣-ص٣٥٥ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٧٧ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الثامنة بعد الستمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله ، والسلطان الملك العادل مخيم بعساكره على الطور ، وابنه الملك المعظم مباشر لعمارة حصنه مجتهد فى إدارته حوشاً ، كذا قاله أبو شامة . وفى تاريخ ابن كثير :[1] وفيها عاد الملك العادل إلى الشام ، وأعطى ولده المظفر غازى الرها مع ميافارقين .

وفيها أرسل الملك الظاهر صاحب حلب بهاء الدين بن شداد إلى الملك العادل فاستعطف خاطره وخطب ابنته صفية خاتون ابنة الملك العادل ، فزوجها من الملك الظاهر ، وزال ما كان بينهما من الوحشة . وقال بيبرس : وفيها عاد الملك العادل من الشام إلى الديار المصرية وأرسل ابنته إلى الظاهر غازى إلى حلب صحبة القاضى شمس الدين بن المتنبى .

وفيها قبض الملك المعظم عيسى بن العادل على ابن عز الدين أسامة صاحب قلعة كوكب وقلعة عجلون بأمر أبيه العادل ، وحبسه بالكرك إلى أن مات بها ، وحاصر الحصنين المذكورين وتسلمهما من غلمان أسامة ، وأمر الملك العادل بتخريب كوكب وتعفية أثرها ، فخربت وبقيت خراباً وأبقى عجلون ، ومَلّك المعظم بلاد جهاركس وهى بانياس وتبنين والشقيف وهونين وقلعة أبى الحسن لأخيه الملك العزيز عماد الدين عثمان بن الملك العادل ، وأعطى صرخد لمملوكه عز الدين أيبك المعظمى .

وفيها ابتاع الملك الأشرف جوسق[2] الرئيس بالنيرب[3] من ابن عمه الظافر خضر بن صلاح الدين ، وبناه بناء حسناً وهو المسمى فى زماننا بالدهشة .

وفيها أظهر الكيا جلال الدين حسن صاحب الألموت وهو ولد ابن الصباح شعائر الإسلام ، وكتب به إلى جميع القلاع الإسماعيلية بالعجم والشام ، فأقيمت فيها شعائر الإسلام[4][٣٣٤] .

(*) يوافق أولها ١٥ يونيو سنة ١٢١١م .

(١) لم يرد هذا الخبر فى البداية والنهاية ، وإنما ورد هذا المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص١١٤ .

(٢) الجوسق : القصر الصغير والحصن ، والجمع «جواسق» . المعجم الوجيز ، مادة «جوسق» .

(٣) النيرب : قرية مشهورة بدمشق انظر معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٨٥٥ .

(٤) ورد هذا الخبر بتصرف فى المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص١١٤ .

وقال ابن كثير[(١)] : وفيها أظهرت الباطنية الإسلام وإقامة الحدود على من يتعاطى الحرام ، وبنوا الجوامع والمساجد ، وكتبوا إلى إخوانهم بالشام فى مصيات وأمثالها بذلك ، وكتب زعيمهم جلال الدين إلى الخليفة يعلمه بذلك ، وقدمت أمه إلى بغداد حاجّةً فأكرمت وعظمت بسبب ذلك ، ولكن لما كان الناس بعرفات ظفر واحد منهم على قريب لأمير مكة قتادة الحسنى فقتله ظاناً أنه قتادة ، فثارت فتنة عظيمة بين سُودان مكة وركب العراق ، ونهب الركب وقتل منهم خلق كثير .

وقال أبو شامة[(٢)] : وفى هذه السنة نهب الحاج العراقى ، وكانت ربيعة خاتون أخت الملك العادل فى الحج ، فلما كان يوم النحر بمنى بعد ما رمى الناس الجمرة وثب شخص من الإسماعيلية على رجل شريف من بنى عم قتادة أشبه الناس به وظن أنه إياه فقتله عند الجمرة ، ويقال : إن الذى [كان][(٣)] قتله مع أم جلال الدين وثار عبيد مكة [و][(٤)] الأشراف وصعدوا على الجبلين وهللوا وكبروا وضربوا الناس بالحجارة والمقاليع والنشاب ونهبوا الناس يوم العيد والليلة واليوم الثانى ، وقتل من الفريقين جماعة . وقال ابن أبى فراس لمحمد بن ياقوت أمير حاج العراق ارحلوا بنا إلى الزاهر منزلة الشاميين ، فلما حصلت الأثقال على الجمال حمل قتادة أمير مكة والعبيد فأخذوا الجميع إلا القليل . وقال قتادة : ما كان المقصود إلا أنا . والله لا أبقيت من حاج العراق أحداً .

وكانت ربيعة خاتون بالزاهر ومعها ابن السلار وأخو سياروج وحاج الشام ، فجاء محمد بن ياقوت أمير الحاج العراقى فدخل خيمة ربيعة خاتون مستجيراً بها . ومعه خاتون أم جلال الدين ، فبعثت ربيعة خاتون مع ابن السلار إلى قتادة تقول له : ما ذنب الناس ، قد قتلت القاتل وجعلت ذلك وسيلة إلى نهب المسلمين واستحللت الدماء فى الشهر الحرام فى الحرم والمال ، وقد عرفت من نحن ، والله لئن لم تنته لأفعلن ولأفعلن . فجاء إليه ابن السلار فخوفه وهدده ، وقال : ارجع عن هذا وإلا قصدك الخليفة من العراق ونحن من الشام فكف عنهم ، وطلب مائة ألف دينار ، فجمعوا له ثلاثين ألفاً من أمير

---

(١) البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٦٨ ؛ الكامل ، جـ١٣ ، ص٣٥٦-ص٣٥٧ .

(٢) الذيل على الروضتين ، ص٧٨ .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من الذيل على الروضتين ، ص٧٨ ؛ المرآة ، جـ٨ ، ص٣٦٣-٣٦٤ .

(٤) «فى» كذا فى الأصل والمثبت من الذيل على الروضتين ، ص٧٨ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٦١ .

الحاج العراقى ومن خاتون أم جلال الدين ، وأقام الناس ثلاثة أيام حول خيمة ربيعة خاتون بين قتيل وجريح ومسلوب وجائع وعريان : وقال قتادة : ما فعل هذا إلا الخليفة ، ولئن عاد قرب أحد من بغداد إلى ههنا لأقتلن الجميع . ويقال : إنه أخذ من المال والمتاع وغيره ما قيمته ألف ألف دينار ، وأذن للناس فى الدخول إلى مكة ، فدخل الأصحاء الأقوياء فطافوا وأى طواف ، ومعظم الناس ما دخل ورحلوا إلى المدينة ، ودخلوا بغداد على غاية من الفقر والذل والهوان ، ولم ينتطح فيها عنزان .(١)

وفيها كانت زلزلة شديدة هدمت بمصر والقاهرة دوراً كثيرة وكذلك بمدينة الكرك والشوبك ، وهدمت من قلعتها أبراجاً ، ومات خلق كثير من الصبيان والنسوان تحت الهدم ، ورؤى دخان نازل من السماء إلى الأرض فيما بين المغرب والعشاء بنواحى أرض عاتكة ظاهر دمشق .

وقال أبو شامة : كان ذلك فى خامس عشر رمضان ، وقال : كانت قوة الزلزلة من جهة أيلة مما يلى البحر ، وقيل : إنه تقدمها بيوم ريح سوداء وتساقطت نجوم كثيرة . وقال أيضاً : كانت الزلزلة المذكورة فى ليلة السابع والعشرين من ذى القعدة من هذه السنة .(٢)

وفيها أمر الخليفة أن يقرأ مسند أحمد[٣٣٥] بن حنبل - رحمه الله- بمشهد موسى بن جعفر بحضرة صفى الدين محمد بن سعد الموسوى بالإجازة عن الخليفة ، وأول ما قرئ منه مسند أبى بكر الصديق رضي الله عنه وحديث فدك(٣) وما جرى فيها .(٤)

وفيها بعث الخليفة خاتمه إلى وجه السبع بالشام ، وقد ذكرنا أنه قد كان هرب من بغداد إلى الشام ، وبعث معه الملك العادل رسولاً ، فأكرمه الخليفة وولى وجه السبع الكوفة أقطاعاً .(٥)

---

(١) ورد هذا الحدث فى الذيل على الروضتين ، ص٧٨ ، ص٧٩ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٦٣-٣٦٤ .
(٢) ورد هذا الخبر بتصرف فى الذيل على الروضتين ، ص٧٨ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٦٨ .
(٣) فدك : قرية بالحجاز بينها وبين المدينة يومان . انظر : معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٨٥٥ .
(٤) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص٧٨ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٦٣ .
(٥) ورد هذا الخبر فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٦٣ .

وفيها فى شعبان قدم أيدغمش[١] من همذان إلى بغداد ، وكان منكلى مملوك أزبك قد طرده من همذان ، فاحتفل له الخليفة وأخرج جميع أرباب الدولة للقائه ، وأقام له بالضيافات العظيمة . وقال بيبرس : وفيها قدم أيدغمش صاحب همذان وأصفهان والرى وما بينهما من البلاد هارباً من منكلى ؛ وسبب ذلك أن أيدغمش كان قد تمكن من البلاد وعظم شأنه وكثر عسكره حتى أنه حصر صاحبه أبا بكر بن البهلوان ، فخرج عليه مملوك اسمه منكلى ونازعه فى البلاد ، وكثر أتباعه وأطاعه المماليك البهلوانية ، وهرب منه أيدغمش إلى بغداد وأقام فى بغداد إلى سنة عشر فسار عنها .[٢]

وفيها[٣] توفيت والدة الملك الكامل ودفنت بجوار ضريح الإمام الشافعى ، وبنى عليها القبة التى هى الآن معروفة بالشافعى (رحمه الله) . وأجرى إلى المكان المذكور الماء من بركة الحبش[٤] بقناطر متصلة منها إليه ، وأنفق على ذلك جملة كثيرة ، ونقل الناس الأبنية من تلك القرافة [الكبرى][٥] إلى هذه القرافة منذ ذلك الوقت .[٦]

وفيها ....[٧]

وفيها حج بالناس من العراق محمد بن ياقوت نيابة عن أبيه ومعه ابن أبى فراس يثقفه ويديره . وحج من الشام الصمصام إسماعيل أخو سياروخ النجمى على حاج دمشق وعلى حاج القدس الشجاع على بن السلار . وكانت ربيعة خاتون أخت الملك العادل قد حجت أيضاً فى هذه السنة كما قد ذكرنا عن قريب .[٨]

ذكر من توفى فيها من الأعيان

ابن يونس : الشيخ عماد الدين محمد بن يونس ، الفقيه الشافعى الموصلى ، صاحب التصانيف والفنون الكثيرة ، وكان رئيس الشافعية بالموصل ، وبعث رسولاً إلى

---

(١) ورد هذا الخبر بتصرف فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٥٦ ، وقد جاء رسم الكلمة كالآتى «أيتغمش» .
(٢) ورد هذا الحدث فى الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٥٦ .
(٣) ورد هذا الحدث فى السلوك ، جـ١ق١ ، ص٢٠٨ .
(٤) بركة الحبش : كانت من أكبر متنزهات مصر ، وموقعها بظاهر مدينة الفسطاط من قبليها ، فيما بين الجبل والنيل . وكانت من قبل تسمى ببركة المغافر أو بركة حمير ، وماء النيل يدخل إليها . انظر : المقريزى : الخطط ، جـ٢ ، ص١٥٢ .
(٥) ما بين حاصرتين إضافة من السلوك ، جـ١ق١ ، ص٢٠٨ ، للتوضيح .
(٦) ورد هذا الحدث فى نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص٥٣-ص٥٤ .
(٧) بياض فى الأصل بمقدار نصف سطر .
(٨) ورد هذا الحدث فى الذيل على الروضتين ، ص٧٨-ص٧٩ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٦٣ .

بغداد بعد موت نور الدين أرسلان شاه، وكان عنده وسوسة كثيرة، ويقال: إنه كان يعامل فى الأموال بمسألة العين[١] فلقيه قضيب البان فقال له: يا شيخ بلغنى أنك تغسل أعضاءك بأباريق من الماء فلم لا تنظف اللقمة التى تأكلها؟! ففهم الشيخ ما أشار به إليه وترك المعاملة. وكانت وفاته بالموصل فى رجب عن ثلاث وسبعين سنة.[٢]

ابن حمدون[٣] **تاج الدين أبو سعد الحسن بن محمد حمدون**، صاحب التذكرة الحمدونية، كان فاضلاً بارعاً، اعتنى بجميع الكتب بالخطوط المنسوبة وغيرها، وولاه الخليفة المارستان العضدى، وكانت وفاته بالمدائن، وحمل إلى مقابر قريش.

البراوى الشيخ الكبير المعمر الرحلة أبو القاسم أبو بكر أبو الفتح منصور بن عبدالمنعم بن عبدالله بن محمد بن الفضل البراوى النيسابورى، سمع أباه وجد أبيه وغيرهما وعن ابن الصلاح. وقال أبو شامة[٤]: هو من أهل بيت الحديث رواية ودراية، ولد سنة اثنتين وعشرين وخمسمائة فى رمضان، وقدم بغداد حاجاً فى سنة تسع وسبعين، وتوفى بنيسابور فى شعبان من هذه السنة[٣٣٦] عن خمس وثمانين سنة.

ابن سناء الملك[٥] **القاضى السعيد أبو القاسم هبة الله بن القاضى الرشيد أبى الفضل جعفر بن سناء الملك، أبى عبدالله محمد بن هبة الله بن محمد السعدى**، أحد الفضلاء الرؤساء، أخذ الحديث عن الحافظ أبى طاهر أحمد بن محمد بن أحمد السلفى الأصبهانى، وكان كثير التخصص والتنعم وافر السعادة، محظوظاً من الدنيا، اختصر كتاب الحيوان للجاحظ وسماه روح الحيوان، وله ديوان جميعه موشحات سماه دار الطراز. ومن محاسن شعره بيتان من جملة قصيدة يمدح بها القاضى الفاضل. وهما بيتان:

ولو أبصر النظام جوهر ثغرها ... لما شك فى أنه الجوهر الفرد
ومن قال إن الجيزرانة قدها ... فقولوا له إياك أن يسمع القد

---

(١) «الغنيمة» كذا فى الأصل، والمثبت من البداية والنهاية، جـ١٣، ص٦٨؛ الذيل على الروضتين، ص٨٠، ومعناها «الربا» وهذا يتسق مع المعنى. انظر محيط المحيط مادة «عين»، ص١٥٠٩.
(٢) انظر ترجمة ابن يونس فى الذيل على الروضتين، ص٨٠؛ مرآة الزمان، جـ٨، ص٣٦٥؛ الكامل، جـ١٠، ص٣٥٧؛ البداية والنهاية، جـ١٣، ص٦٨.
(٣) انظر ترجمته فى البداية والنهاية، جـ١٣، ص٦٨؛ الذيل على الروضتين، ص٧٩؛ الكامل، جـ١٠، ص٣٥٨؛ البداية والنهاية، جـ١٣، ص٦٨.
(٤) الذيل على الروضتبن، ص٨٠.
(٥) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان، جـ٦، ص٦١-ص٦٦.

ومن شعره :

لا الغصن يحكيك ولا الجؤذرُ　　حُسْنُكَ مما كثروا أكثرُ
يا باسماً أبدى لنا ثغره　　عقداً ولكن كلّه جوهرُ
قال لى اللاحى : أما تسمعُ　　فقلت : يا لاحى أما تبصر

وله فى غلام ضرب ثم حُبس :

بنفسىَ من لم يضربوه لريبة　　ولكن ليبدو الورد فى سائر الغصنِ
ولم يُودِعوه السجن إلا مخافة　　من العين أن تعدو على ذلك الحسن
وقالوا له شاركتَ فى الحسن يوسفا　　فشاركهُ أيضاً فى الدخول إلى السجن

وله أيضاً :

وما كان تركى حبه عن ملامة[٢]　　ولكن لقول[٣] يوجب القول بالترك
أراد شريكاً فى الذى هو بيننا　　وإيمان قلبى قد نهانى عن الشرك

وقال المؤيد : مدح توران شاه أخا السلطان صلاح الدين بقصيدة مطلعها :

تقنعت لكن بالحبيب المعمم　　وفارقت [لكن][٤] كل عيش مذمم

نصحن الفضلاء هذا المطلع وعابوه .

وقال ابن خلكان[٥] : توفى ابن سناء الملك فى العشر الأول من رمضان من سنة ثمان وستمائة بالقاهرة ، ومولده على التقدير فى حدود سنة خمسين وخمسمائة . وتوفى والده جعفر يوم الثلاثاء خامس ذى الحجة من سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ، ومولده منتصف شعبان سنة خمس وعشرين وخمسمائة .

مظفر[٦] البغدادى : كان يقول كان وكان . ومن قوله فى امرأة عجوز :

---

(١) الجؤذر : ولد البقرة الوحشية . الجمع : جآذر . المعجم االوجيز . ص٩٠ .
(٢) «ملالة» فى وفيات الأعيان ، جـ٦ ، ص٦٣ .
(٣) «الأمر» فى وفيات الأعيان ، جـ٦ ، ص٦٣ .
(٤) ما بين حاصرتين إضافة من وفيات الأعيان ، جـ٦ ، ص٦٥ .
(٥) وفيات الأعيان ، جـ٦ ، ص٦٥ .
(٦) انظر : مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٦٥ .

مع[١] الكبر ما تقلع ضرس الصبا من ضرسها وكل ضرس فيها[٢] من الكبر مقلوع
وقد عزل ناظرها وقد علقنا بأنها وصار ذاك الراتب من جانبى مقطوع
قولوا لها لا تسألى طبيباً عن مرض الكبر ذى علة ضاع فيها علاج بختيشوع

المعين[٣] عبدالواحد بن الشيخ عبدالوهاب بن على بن سكينة ، مولده سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة ، وسافر إلى الشام فى أيام الملك الأفضل على بن السلطان صلاح الدين يوسف ، وبسط لسانه فى الدولة فأرسل إليه من بغداد ابن التكريتى لقتله فوثب عليه مراراً بدمشق فلم يقدر عليه ، وكتب إلى الخليفة كتاباً يتنصل فيه مما قيل عنه[٣٣٧] ويعتذر ويسأله العفو ، فعفا عنه وكتب له كتاب أمان ، فقدم بغداد فولاه مشيخة الشيوخ ، وأُعطى رباط المشرعة ، ثم بعثه فى رسالة إلى جزيرة كيش[٤] ومعه جماعة من الصوفية فغرق فى البحر ومن معه . سمع جده لأمه أبا القاسم عبدالرحيم شيخ الشيوخ ، وأبا الفتح ابن البطى ، وأبا زرعة وغيرهم .

حاجب الباب كمال الدين محمد بن الناعم[٥] ، كان حسن الصورة قبيح الفعال ، صادر جماعة وماتوا تحت الضرب ، فلما قبض عليه ضرب ضرباً مُبرحاً فلم يقر بشىء ، فمات تحت الضرب ورمى به فى دجلة- كما كان يفعل بالناس- وظهر له بعد ذلك أموال عظيمة ودفائن كثيرة .

صارم[٦] الدين بزغش العادلى نائب القلعة بدمشق ، توفى فى صفر منها ودفن بتربته غربى الجامع المظفرى ، وهو الذى نفى الحافظ عبدالغنى المقدسى إلى مصر ، وبين يديه كان عقد المجلس كما ذكرناه .

أيبك[٧] فُطَيس الأمير المعروف ، قتله مملوك له تركى بظاهر حلب فى حمام فى خامس عشر رجب من هذه السنة .

---

(١) «من» فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٦٥ .
(٢) «منها» فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٦٥ .
(٣) انظر ترجمته فى الذيل على الروضتين ، ص٧٩ ؛ الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٥٧ .
(٤) جزيرة كيش : جزيرة فى وسط بحر عمان تعد من أعمال فارس . انظر : معجم البلدان ، جـ٤ ، ص٢١٥ ، ص٣٣٣ .
(٥) انظر ترجمته فى الذيل على الروضتين ، ص٧٩-ص٨٠ ، وأيضاً فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٦٥ .
(٦) انظر ترجمته فى الذيل على الروضتين ، ص٨٠ .
(٧) انظر : الذيل على الروضتين ، ص٨٠ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة التاسعة بعد الستمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله ، وسلطان مصر والشام الملك العادل أبو بكر بن أيوب ، ونائبه فى دمشق الملك المعظم ، وفى مصر الملك الكامل ، فاجتمعوا فى هذه السنة على دمياط لمقابلة الفرنج . وكان سامة الجبلى صاحب دار سامة داخل باب السلامة ، التى هى الآن مدرسة للشافعية ، قد استوحش من هؤلاء الملوك المذكورين وهم اتهموه بمكاتبة الظاهر صاحب حلب .(1)

قال السبط(2) : وجد له كتب إليه وأجوبة ، فخرج سامة من القاهرة كأنه يتصيد ، واغتنم اجتماع الملوك بدمياط وساق إلى الشام فى مماليكه ، بطلب قلاعه وهى كوكب وعجلون وذلك يوم الإثنين سلخ جمادى الآخرة فأرسل والى بلبيس الحمام إلى دمياط يخبرهم بذلك ، فقال العادل : من ساق خلقه فله أمواله وقلاعه . فقال الملك المعظم : أنا . وركب من دمياط يوم الثلاثاء غرة رجب . قال السبط : وكنت معه فقال لى : أنا أريد أن أسوق فسق أنت مع قماشى(3) ، ودفع لى بغلة ، فساق ومعه نفر يسير وعلى يده حصان ، فكان صباح يوم الجمعة فى غزة . ساق مسير ثمانية أيام فى ثلاثة أيام ، فسبق سامه ، وأما سامة فإنه تقطع(4) عنه مماليكه ومن كان معه وبقى وحده وبه نقرس فجاء إلى بلد الداروم ، وكان المعظم قد أمسك عليه من البحر إلى الزرقاء ، فرآه بعض الصيادين فى برية الداروم ، فعرفه فقال له : انزل . فقال له : هذه ألف دينار وأوصلنى إلى الشام . فأخذها الصياد وجاء رفاقه فعرفوه أيضاً فأخذوه على طريق الخليل عليه السلام ، ليحملوه إلى عجلون فدخلوا به القدس يوم الأحد سادس رجب . جاء بعد المعظم بثلاثة أيام فقال لى المعظم رحمه الله ما كنت خائفاً إلا أن يصادفنى فى الطريق غلمانه فيقتلونى لو رمانى أيدكين بسهم قتلنى ، فملّكه الله أيدكين والجميع ، فأنزل سامه فى صهيون وبعث إليه

(*) يوافق أولها ٣ يونيو سنة ١٢١٢م .

(١) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص٨٠ .

(٢) مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٦٦-ص٣٦٧ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٨٠-ص٨١ .

(٣) القَمَّاش : من يبيع الأمتعة ، انظر مادة «قمش» المنجد .

(٤) «فانقطع» كذا فى المرآة ، جـ٨ ، ص٣٦٦ .

بثياب وطعام ولاطفه وراسله وقال له[٣٣٨] [أنت][1] شيخ كبير وبك نقرس وما يصلح لك قلعة ، سلّم إلى كوكب وعجلون ، وأنا أحلف لك على مالك وملكك وجميع أسبابك وتعيش بيننا مثل الوالد . فامتنع وشتم المعظم ، فلما يئس المعظم منه بعث به إلى الكرك ، فاعتقله واستولى على قلاعه وأمواله ، وذخائره ، وخيله . فكان قيمة ما أخذ منه ألف ألف دينار .[2] من ذلك داره وحمامه داخل باب السلامة ، ثم إن المعظم خرب حصن كوكب ، ونقل حواصله إلى حصن الطور ، الذى استنجده كما ذكرنا .

وفى تاريخ[3] بيبرس : كتب العادل إلى ولده المعظم بالقبض على سامة فأمسكه وقبض على ابن فخر الدين جهاركس وأخذ معاقله التى كانت بيده .

وفيها توجه العادل إلى كوكب وحاصرها حصاراً شديداً وأخذها وأخذ منها أموالاً عظيمة وهدمها وعفى أثرها . فقال الرشيد النابلسى يمتدحه ويذكر الحال :

وفّى لك المسعدان النصر والظفر ... وطاوع العاصيان الدهر والقدر
بغير بدع وقد جدّت سعودك أن ... دانت لك الأُمّتان البدو والحضر
أشرقت فى ظلم الأيام مزدهرا ... فأبلس النيران الشمس والقمر
قسوت بل لنت بل مازجت ... ذاك بذا فافتّن فى راحتيك النفع والضرر
مازلت تصدر بالآمال ساعةَ لا ... وردٌ يسوغ ولا عن مورد صدر
لله ما أنت سيف الدين من بشر ... لا يستطيع الذى يَستطيعه بشر
خطبٌ طوى وطغى حتى نَهَدْت له ... فلان جامحه إذ يسهل الوعر
وشامخان رفيعا الأوج يحسر عن ... أن يستطيعهما التأميل والنظرُ
فى ذروتى مشمخر العز دونهما ... من أن يُنالا تنال الأنجم الزهر
أوردت حُصّنك من تلك الحصون مُنىً ... لولاك عز على وُرّادها الصَّدَرُ
وكان أهلاهما قد أكدا حَلفا ... أن ليس يُنْقَضُ من أمريهما المرَرُ
يا ويحهم أوغرتهم بُنىً شمخت ... مع اغترامك واستغوتهم حذر

(١) ما بين حاصرتين إضافة من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٦٧ .
(٢) إلى هنا توقف العينى عن النقل من مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٦٦-ص٣٦٧ ومن الجدير بالذكر أن صاحب الذيل على الروضتين ذكر أن قيمة ما أخذ منه ألف دينار . ص١٠-٨١ .
(٣) انظر هذا الخبر فى النويرى ، نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص٥٩-ص٦١ .

ولو صدمت به السُّد الذى أطادت	قُطراه لاندكّ منه القِطر والزَبر
أورام شامخه الأهرام حل بها	ما ليس تبقى غواديه ولا تذر
بل لو دعوت النجوم الزهر لابتدرت	إليك من جنبات الأفق تبتدر
لقد رأى كوكب فى نفسه عجباً	وكاد كوكبه الدُّرى ينكدر
أضرمت جذوة باس فى جوانبه	أنفاسها فى نفوس الشرك تزدفر
طوقته بمجانيق يلين لها	قلب الحديد ولا يستمسك الحجر
أقمت عليه بمثل الشهب قاذفة	فخده بصعيد الأرض منعفر[٣٣٩]
أضحت مخانق فى أعناق هضبته	عقود خيلك مسدوداً بها الثغر
بادرتهم برجال لا ينهنههم من	من رأيك الحزم أو من كفك البذر
مُعَرّدِينَ قراع الموت قد ألفوا	أن لا يروعهم خوف ولا ذعر
جيش إذا جاش طامى لُجَّة غرقت	فى جنب تياره الأفهام والفكرُ

ومنها :

لقد بطشت بهم بطشاً لو أنهم	صرف المقادير أو أحداثها فَتَروا
واستشعروا الذل جلباباً وقادهم	قسراً إليك سُطى للأسد تقتسِرُ
لله صدرك ما أقضى وعزمك ما	أمضى وقد كلت الهندية البتر
يا دوحه للعلى شماء باسقة	لا يُجتنى للعَنَى من غيرها ثمر

ومنها :

يا راجح الحلم يعفو وهو مقتدر	ومانح النجم يعطى وهو معتذر

ومنها :

صلى الإله على علياك وافتتحت	تتلى على مجدك الآيات والسور
ودمت تخدمك الدنيا ودولتها	ما غنت الورق أو ما أورق الشجر

ذكر استيلاء صاحب قبرس على أنطاكية

وفى هذه السنة[1] استولى صاحب قبرس لعنه الله على مدينة أنطاكية فحصل بسببه شر عظيم ، وتمكن من الغارات على بلاد المسلمين لاسيما على التراكمين الذين حول أنطاكيه ، فقتل منهم خلقاً كثيراً وغنم من أغنامهم شيئاً كثيراً ، فقدر الله عز وجل أن أمكنهم منه فى بعض الأوديه فقتلوه وطافوا برأسه فى تلك البلاد كلها ثم أرسلوه إلى الملك العادل بالديار المصرية ، فطيف به هنالك وهو الذى كان قد أغار على بلاد مصر من ثغر دمياط مرتين فقتل وسبى ونهب بلاده فوّه أيضاً ، وكان اسمه البال لعنه الله .

ذكر محاصرة طغريل شاه كيكاوس سلطان الروم

وفى هذه السنة سار طغريل شاه بن قليج أرسلان صاحب أرزن الروم وحاصر ابن أخيه سلطان الروم كيكاوس بمدينة سيواس ، واستنجد كيكاوس بالملك الأشرف[2] بن الملك العادل ، فخاف عمّه طغريل شاه ورحل عنه ، وكان لكيكاوس أخ اسمه كيقباذ فلما جرى ما ذكرناه سار كيقباذ واستولى على أنكورية[3] من بلاد أخيه كيكاوس ، وسار كيكاوس وحصره وفتح أنكورية وقبض على أخيه كيقباذ وحبسه وقبض على أمرائه وحلق رؤوسهم ولحاهم وأركب كل واحد منهم فرساً وأركب خلفه وقدامه قحبتين[4] وبيد كل واحد منهما مغلاق تصفعه به وبين أيديهم منادٍ ينادى هذا جزاء من خان سلطانه .

ذكر بقية الحوادث

منها أن الوزير صفى الدين بن شكر عُزل واحتيط على أمواله ونفى إلى الشرق وهو الذى كان قد كتب إلى الديار المصرية بنفى الحافظ عبدالغنى إلى الغرب ، فتوفى الحافظ قبل أن يصل كتابه ، وكتب الله نفيه[5] إلى الشرق . قال بيبرس[6] : عزل صفى الدين وزير العادل عن الوزارة ورفعت يده ولزم داره . وقال مظفر الأعمى[7] فيه :

---

(١) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص٨١ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٧٠ .
(٢) وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص٣٣١ .
(٣) أنكورية : تقع فى آسيا الصغرى فى بلاد الروم ، وتسمى حالياً «أنقره» . انظر بلدان الخلافة الشرقية ، ص١٧٤ .
(٤) «خاطيتين» فى مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٢١٨ .
(٥) نفيه : الضمير هنا يعود على الوزير ابن شكر .
(٦) انظر نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص٥٥-ص٥٩ .
(٧) مظفر الأعمى هو مظفر بن إبراهيم بن جماعة بن على بن الشامى بن أحمد بن ناهض بن عبدالرزاق العيلانى ، توفى سنة ٦٢٣هـ . انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ٥ ، ص٢١٣-ص٢١٧ .

أين حجابك المطيفون بالبغلة ... والرافعون فضل الثياب
[٣٤٠]ردك البغى كالنداء على ... بلا حاجب ولا بواب

ومنها : فى المحرم عقد عقد الملك الظاهر صاحب حلب على صفية خاتون بنت الملك العادل وكان المهر خمسين ألف دينار ، وتوجهت من دمشق فى المحرم فاحتفل لها الملك الظاهر احتفالاً عظيماً وقدم لها تقاديم جليلة منها خمسة وخمسون عقداً من جوهر قيمتها مائتا ألف وستون ألف درهم ، ومنهم عصابة بجوهر وعشر قلائد من العنبر المذهب ، وخمس عشرة مذهبة ومائة وخمسون قطعه من الذهب والفضة ، وعشرون بختاً من الثياب الفاخر وعشر خدام وعشرون جارية . وورد معها من القماش والآلات وأنواع المصاغ ما يحمله خمسون بغلا ومائة بختى وثلاثمائة جمل . ومن الجوارى والوصائف والخدام والكجلوات ما يحمله مائة جمل ، وكانت فى خدمتها مائة جارية كلهن مطربات بأنواع الملاهى ومائة جارية أخرى يعملن أنواع الصنايع البديعة . وقد ذكرنا طرفاً من ذلك فيما مضى .

ومنها أنه كانت وقعة بين المسلمين والفرنج بالأندلس تسمى وقعة العُقاب . وكان يوسف بن يعقوب بن عبدالمؤمن قد جمع عساكر المغرب وعدى لغزاة الفرنج ، فكسره الفرنج وهزموه وقتلوا من المسلمين خلقاً عظيماً وعاد المذكور هزيماً .

ومنها[1] أن الخليفة خلع على أيدغمش الفرجية والعمامة وخلعاً تقارب خلع السلطنة وأعطاه مالاً وأمره أن يبرز خيامه ليسير إلى همذان وأعطاه الكوسات والأعلام .

ومنها[2] أن أبا محمد يوسف بن الشيخ أبى الفرج بن الجوزى صرف عن الحسبة والنظر فى الوقف العام ببغداد ورد ذلك إلى شرف الدين بن البخارى ، فولى أبا البركات يوسف بن المبارك بن هبة الله الحسبة والوقف العام .

وفيها ....[3]

---

(١) ورد هذا الخبر فى مرآة الزمان جـ٨ ، ص٣٦٦ .
(٢) ورد هذا الخبر فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٦٦ .
(٣) بياض فى الأصل بمقدار أربع كلمات .

وفيها[١] حج بالناس من العراق حسام الدين بن أبى فراس نيابة عن محمد بن ياقوت ، وكان معه مال وخلع لقتادة أمير مكة حتى سكت عنهم . ومن الشام شجاع الدين ابن محارب على أيلة .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

محمد[٢] **بن إسماعيل بن أبى الضيف** ، اليمنى فقيه الحرم الشريف بمكه شرفها الله توفى فى هذه السنة .

أبو إسحق[٣] **إبراهيم بن محمد بن أبى بكر القفصى** ، المقرى المحدث كتب كثيراً وسمع الكثير مات فى هذه السنة بدمشق ودفن فى مقابر الصوفية .

أبو الفتح[٤] **محمد بن سعد بن محمد الديباجى** ، من أهل مرو ، له كتاب المحصل فى شرح المفصل للزمخشرى فى النحو ، وكان عالماً ثقة سمع الحديث ، مات فى هذه السنة عن ثنتين وتسعين سنة .

الشيخ[٥] **الصالح الزاهد العابد أبو البقاء محمود بن عثمان بن مكارم النعال** ، الحنبلى ، كانت له عبادات ومجاهدات وسياحات ، وبنى رباطاً بباب الأزج يأوى إليه أهل العلم من المقادسة وغيرهم ، وكان يؤثرهم ويحسن إليهم وقد سمع الحديث وقرأ القرآن ، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وتوفى فى هذه السنة وقد جاوز الثمانين سنة . وقال أبو شامة : وكان لا يأكل إلا مِنْ غزل عمته .

---

(١) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص٨١ ، مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٦٧ .

(٢) الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٥٩ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٧٠ .

(٣) الذيل على الروضتين ، ص٨٢ .

(٤) الذيل على الروضتين ، ص٨٢ ، البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٧٠ .

(٥) الذيل على الروضتين ، ص٨٢ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٧٠ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٦٧ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة العاشرة بعد الستمائة(★)

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله ، وسلطان مصر والشام الملك العادل أبو بكر بن أيوب ، ونائبه بمصر ولده الملك الكامل محمد . وفى دمشق ولده المعظم عيسى ، وصاحب بلاد الروم عز الدين كيكاوس السلجوقى ، وقد ظفر بعمه طغريل شاه وأخذ[٣٤١] بلاده وقتله وذبح أكثر أمرائه وقصد ذبح أخيه علاء الدين كيقباذ ، فشفع فيه أصحابه[١] فعفى عنه . وصاحب حلب وما والاها الملك الظاهر غازى بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب . وولد له فى خامس ذى الحجه ولد سماه محمداً ولقبه الملك العزيز غياث الدين من صفية خاتون ابنه السلطان الملك العادل ، واحتفل الظاهر لمولده احتفالاً عظيماً ، فمن ذلك أنه أمر الصياغ فصاغوا من الذهب والفضة طيوراً ووحوشاً على صيغة[٢] مايعرفونه من الطير والوحوش وعملوا عشر مهود من الذهب والفضة ، سوى ماعملوا من الأبنوس والعود والصندل ونسج للطفل ثلاث فرجيات من اللؤلؤ فى كل فرجية أربعون حبة من الياقوت والبلخش والزمرد ، وعمل له ثلاثة سيوف غُلفها[وقبضاتها[٤]] مرصع بالجوهر النفيس ، وثلاثة[٥] رماح من ذهب أسنتها جوهر . وهذا الصبى الذى لقب بالملك العزيز هو والد الملك الناصر صاحب دمشق واقف الناصرتين[٥] وهو الذى أسره هلاون ملك التتار على ماسنذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر ماجرى فى اليمن

قد ذكرنا فى سنة تسع وتسعين وخمسمائة أن المالك على اليمن كان المعز إسماعيل بن سيف الإسلام طغتكين بن أيوب ثم أنه قتل وأقيم أخوه الناصر وهو صغير ،

(★) يوافق أولها ٢٣ مايو سنة ١٢١٣م .

(١) ورد هذا الخبر فى المختصر ، جـ٣ ، ص١١٥ ؛ مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٢١٩ .

(٢) لمعرفة المزيد من التفاصيل عن هذا الحدث . انظر ، السلوك ، جـ١ ق١ ، ص٢١١-ص٢١٢ . ط الثانية ، مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٢٢٠-ص٢٢١ .

(٣) «ثلاث» فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه .

(٤) «قضبانها» كذا فى الأصل وهو تحريف والمثبت كما فى مفرج الكروب ، جـ ٣ ، ص٢٢١ ؛ السلوك جـ١ ، ق ١ ، ص٢١٢ .

(٥) «ثلاث» فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه .

وكان القائم بتدبير دولته مملوك والده سيف الدين سنقر ، ثم مات سنقر بعد أربع سنين ، وقام بأتابكيته أمير من أمراء الدولة يقال له غازى ، ثم مات الناصر مسموماً فملك غازى البلاد ثم قتل على أيدى جماعه من العرب فتغلبت أم الناصر على زبيد ، وبقيت اليمن خاليةمن السلطان إلى أن قدم سليمان بن شاهنشاه بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب اليمن فى صورة فقير وملك اليمن بواسطة أم الناصر المذكورة . فلما ملك اليمن ملأها ظلما وجوراً واستمر على ذلك إلى هذه السنة فأزاله الله تعالى فى هذه السنة عن اليمن ، وقيل فى السنه الآتية . وذلك أن الملك الكامل ابن الملك العادل أرسل ابنه الملك المسعود يوسف المعروف بأتسيز[(١)] إلى اليمن ومعه جيش ، فاستولى الملك المسعود على اليمن فظفر بسليمان المذكور صاحب اليمن وبعث به معتقلا إلى مصر فأجرى له الملك الكامل ما يقوم به ، ولم يزل مقيما بالقاهرة إلى سنة سبع وأربعين وستمائه[(٢)] فخرج إلى المنصورة غازيا فقتل شهيداً . وفى تاريخ بيبرس : وفى هذه السنة أعنى سنة عشر وستمائة بدأ الخلف بين الناصر أيوب بن طغتكين بن أيوب صاحب اليمن وبين أمرائه ، وكان منشأ الخلاف من فخر الدين بكتمر فإنه أفسد المماليك وانحاز إلى الجزوز محالفا وقصدهم السلطان ، فانهزموا وتفرقوا ، وتقرر خروجهم من البلاد وأن يبيعوا عقارهم ويستصحبوا موجودهم ، ففعلوا وتوجه فخر الدين بكتمر إلى الحجاز بما جمعه من المال واستلبه أهل مكة ، ثم إن أهل اليمن ملكوا عليهم قطب الدين سليمان شاه بن سعد الدين شاهنشاه بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب فجلس على التخت فى السادس من شهر ربيع الأول من هذه السنة ، واتفق أن أهل جبل صبر[(٣)] خالفوا عليه وقصدوا تعز فنهد إليهم وقاتلهم وهزمهم . وفى أثناء ذلك انتهى إليه الخبر بوصول الملك مسعود بن الملك الكامل إلى[٣٤٢] مكة قاصداً اليمن فهرب منها ووصل الملك المسعود إلى مكة ودخلها فى ثالث ذى القعدة من هذه السنة وقيل من السنة الآتية ، وخطب له فى مكة ونثر الناس ألف دينار وحمل إلى أمير مكة ألف دينار وقماشا بألف دينار ، وأقام المسعود بمكة ستة أيام وخشى تفرق الأجناد إذا جاء الموسم فرحل

---

(١) تعددت طريقه كتابه اسم الملك المسعود يوسف فى المصادر ولعل من أهمها « الأقسيس ؛ أطسيس ؛ أتسز ؛ أتسيز ، انظر مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص ٢٢٧ وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ١٧٠ .

(٢) مفرج الكروب ، جـ ٣ ، ص ٢٢٧ ؛ وقد ذكر ابن واصل هذه الاحداث فى سنة ٦١٢هـ .

(٣) جبل صبر : جبل شامخ يطل على قلعة تعز باليمن ، وفيه عدة حصون وقرى ، معجم البلدان ، جـ٣ ، ص٣٦٦ .

عنها فى العشر الثانى من ذى القعدة ووصلته الأخبار بأن المعظم سليمان شاه بن شاهنشاه هرب من زبيد وأن المدينة نهبت بأيدى الأجناد وأن الخطبة المسعودية أقيمت بزبيد يوم الجمعة لسبع بقين من ذى الحجة من هذه السنة . وفى تاريخ بيبرس من سنة إحدى عشرة وستمائة . وقال بيبرس[١] : وفى أول يوم من المحرم من سنة اثنتى عشرة وستمائة دخل المسعود زبيد وملكها من غير قتال ، فقال فى ذلك بعض الشعراء من قصيدة :

ليهنك الفتح ياذا الفضل والمنن	بشارة الملك قد جاءت من اليمن
فالآن من لفظ مسعود ومن يَمَنٍ	فالسعد واليمُن مقرونان فى قرن

وسلمت له ثمانية[٢] حصون من تهامة وحاصر قلعة تعز ، وكان سليمان بن شاهنشاه تحصن بها ونزل العسكر إلى أن فتح له الحصن المذكور وأمسك سليمان المذكور واعتقل به .

واتفق[٣] أن فى هذه السنة أعنى سنة عشر وستمائه قدم الملك الظافر خضر[٤] بن السلطان صلاح الدين من حلب بعزم التوجه إلى الحج إلى دمشق فنزل بالقابون[٥] يوم الأحد رابع شوال ثم انتقل إلى مسجد القدم[٦] خامسه ، ووصل ابن عمه المعظم من حيث كان بنواحى حوران واجتمع به على جسر الخشب سادسه ، وعمل له دعوة بداره تاسعه ، ودعتهما جميعاً ست الشام إلى دارها ثامن عشرة ، ورحل من دمشق متوجها إلى الحج فى جمع من الحجاج تاسع عشر شوال ، وخرج معه المعظم وودعه وتوجه نحو الجابية ، واجتمع الحجاج ببصرى ، فرحل بهم الظافر منها ضحوة يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شوال الموافق الثانى عشر آذار ، فسلكوا طريق تيما إلى مدينة النبى ﷺ فحصل على الزيارة ثم أحرم بالحج فلما وصل إلى بدر رد من الطريق .

---

(١) انظر النويرى ، نهاية الأرب ، جـ ٢٩ ، ص٦٦ .
(٢) «ثمانى» فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه .
(٣) ورد هذا الخبر فى مرآه الزمان ، جـ ٨ ، ص٣٦٩ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص٧١ ؛ نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص٦٣ .
(٤) الذيل على الروضتين ، ص٨٣ .
(٥) موضع بينه وبن دمشق ميل واحد فى طريق القاصد إلى العراق وسط البساتين ، انظر معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص٥ .
(٦) مسجد القدم : مسجد بدمشق ، وأصله مشهد القدم وهو من الآثار فى مدينة دمشق وغوطتها ويقال إن هناك قبر موسى بن عمران .
انظر : نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص٦٣ ، حاشية (٣) .

وقال السبط صاحب المرآة[١] : وكان حج معه يعقوب الخياط المغازى وكان مقيما بمغارة الجوع بقاسيون ، وكان صديق الظافر فلما وصل الظافر إلى بدر وجد عسكر الكامل ابن عمه العادل صاحب مصر قد سبقه خوفا منه على اليمن ، فقالوا : ترجع . فقال : قد بقى بينى وبين مكة مسافة يسيرة ، ووالله ماقصدى اليمن وإنما أريد الحج ، فقيدونى واحتاطوا بى حتى أقضى المناسك وأعود إلى الشام فلم يلتفتوا إليه ، فرجع إلى الشام وعاد يعقوب الخياط معه ولم يحج . وقال أبو شامه[٢] : وحكى لى والدى وكان ممن حج معه فى تلك السنة أنه شق على الناس ماجرى عليه وأراد كثير منهم أن يقاتلوا الذين صدوه عن المضى فى حجه فنهاهم عن ذلك واختار الرجوع على الفتنة وفعل مافعله النبى ﷺ عام الحديبية حتى صده الكفار عن البيت فقصر من شعره وذبح ماتيسر ، وكان محرماً من ذى الحليفة ولبس ثيابه وودع الناس ورجع ، وعيون الناس باكية عليه ولهم ضجيج وعويل ولحقهم عليه حزن طويل من جهة صده عن مشاعر[٣٤٣] الدين وهو أتى مثل صلاح الدين .

ذكر مقتل أيدغمش

قد ذكرنا[٣] أن الخليفة قد خلع عليه وأعطاه الكوسات وسيره إلى همذان فوصل إلى بلاد ابن ترجمَ وأقام ينتظر وصول عساكر بغداد إليه لتسير معه ما اتفق عليه الخليفة معه ، وكان الخليفة قد عزل سليمان بن تَرْجَم عن الإمارة على عشيرته من التركمان وولى أخاه الأصغر ، فأرسل سليمان إلى منكلى يعرّفه بحال أيدغمش فسير منكلى جيشاً إليه ليقتلوه فخرج على وجهه فقتل أيدغمش وحمل رأسه إلى منكلى وتفرق من معه فى البلاد ووصل الخبر بقتله إلى بغداد فعظم على الخليفة وأرسل إلى منكلى ينكر عليه مافعل ، فأجاب بجواب شديد وتمكن من البلاد وقوى أمره وكثرت عساكره . قلت : أيدغمش هذا مملوك البهلوان وكان قد غلب على همذان والجبال كما ذكرناه ، وكان قد هرب من منكلى وهو خشداشه والتجئ إلى الخليفة فى سنة ثمان وستمائة ثم رجع فى

(١) انظر المرآه ، جـ ٨ ، ص٣٦٩ ؛ البدايه والنهاية ، جـ ١٣ ، ص٧١ .
(٢) انظر : الذيل على الروضتين ، ص٨٣ .
(٣) ورد هذا الحدث فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص٣٦٠ .

هذه السنه إلى جهة همذان فقتل واستقل منكلى بالمملكه . وفى المرآه[١] : وكان أيدغمش رجلا صالحا كثير الصدقات ديناً صائما عادلاً .

ذكر بقيه الحوادث

منها[٢] أنه وصل كتاب من بعض فقهاء الحنفية بخراسان إلى الشيخ تاج الدين الكندى يخبر فيه أن السلطان خوارزم شاه محمد بن تكش تنكر فى ثلاثة نفر ودخل بلاد التتار ليكشف أخبارهم بنفسه فأنكروهم فقبضوا عليهم فضربوا اثنين حتى ماتا ولم يقرا بما جاءا إليه واستوثقوا من الملك ، فلما كان فى بعض الليالى هرب وسلم ورجع إلى معسكره وعاد إلى مملكته .

وقال ابن كثير[٣] : وهذه الكائنة غير ما تقدم من أسره من المعركة مع ابن مسعود على ماذكرناه .

ومنها[٤] أنه ظهرت بلاطة وهم يحفرون فى خندق حلب فوجد تحتها من الذهب خمسة وسبعون رطلا ومن الفضة خمسة وعشرون بالرطل الحلبى .

ومنها أنه ورد شمس الدين بن[التبتى][٥] رسولاً من الملك العادل إلى بغداد وكان الملك العادل لما حوصر بدمشق اقترض له أموالا من التجار وضمها فرأى العادل له ذلك فأحبه وقربه ، وحسده الوزير صفى الدين بن شكر فأبعده عنه بتسفيره إلى بغداد ، وكان شمس الدين سيد الأجواد وسند الأمجاد والأولى عند ذكره طى ذكر خاتم طيّ .

ومنها[٦] أن الملك العادل أمر بإحداث تركيب سلاسل على أفواه السلك المجاورة للجامع ومدها فى أيام الجمع ليمنع الخيل من قرب أبواب الجامع وذلك لما كان ينال الناس من المشقة من زحمه الخيل التى يركبها بعض المصلين إلى الجامع فحصل

---

(١) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٣٧١ .
(٢) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص٨٣ ـ ٨٤ .
(٣) انظر البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص٧١ .
(٤) الذيل على الروضتين ، ص٨٤ ، البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص٧١ .
(٥) «السى» كذا فى الاصل بدون تنقيط ، والمثبت من الذيل على الروضتين ص٨٣ ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٣٦٨ .
(٦) الذيل على الروضتين ، ص٨٢ ، البداية والنهاية ، جـ ١٠ ، ص٧٠ .

للناس بذلك رفق عظيم ، ثم ترك ذلك بعد زمان وعاد الأمر إلى ما كان إلى الآن . وعمل بعض المتفرغين فى ذلك نظما كان يغنى به فى الأسواق أوله :

إن ذا عـــــام جـــــديـد … إن ذا يوم ســـــعـــيـــد
والـمــــديـنـة هـاربـة … قـــيـــدوها[1] بالحـــديد
كل جـــمـــعـــة يســـجنوها … كـــأنهم مـــايعـــرفـــوها
والـنـبـى لـو أطـلـقـــــوهـا … مـــــابرح باب البـــــريـد

وفيها ....[2]

وفيها حج بالناس من العراق ابن أبى فراس نيابة عن محمد بن ياقوت ومن الشام صديق بن تمرتاش ، ولقيه الغرز التركمانى على أيلة ومعه حاج الكرك [والقدس][3] .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

التركستّانى الشيخ أبو الفضل أحمد بن مسعود بن على التركستانى شيخ الحنفية ، ومدرس[٣٤٤] مشهد أبى حنيفة رضي الله عنه ببغداد . وكان إليه المظالم ، مات فى هذه السنة ودفن بالمشهد المذكور ، وكان قد تفقه وبرع فى علم النظر وانتهت إليه الرئاسة فى مذهب أبى حنيفة رضي الله عنه ، وولاه الوزير ابن المهدى المظالم والتدريس بمشهد أبى حنيفة[4] ، وأرسله إلى الأطراف ، وكان عفيفا نزها ، وقال ابن النجار : توفى ليلة السبت السادس والعشرين من ربيع الآخر من سنة عشر وستمائه وصلى عليه من الغد بالمدرسة النظامية ودفن بمقبرة الخيزران المجاورة لمشهد أبى حنيفة رحمه الله وكان شابا .

ابن الماشطة[5] ، **الشيخ أبو محمد إسماعيل بن على بن الحسين فخر الدين الحنبلى ، ويعرف بابن الماشطة** ، ويقال له الفخر غلام بن المنى . له تعليقه فى

(١) «قد قيدوها» كذا فى الأصل والمثبت من الذيل على الروضتين ، ص٨٢ .
(٢) بياض فى الأصل بمقدار سطر .
(٣) «قدس» كذا فى الأصل والمثبت من الذيل على الروضتين ، ص٨٣ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٣٦٨ ، ص٣٦٩ ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص٣٦٠ .
(٤) الى هنا توقف العين عن النقل من الذيل على الروضتين ، ص٨٤ ، والكامل ، جـ ١٠ ، ص٣٦١ .
(٥) انظر ترجمته فى البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص٧١ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٨٤ .

الخلاف ، وكانت له حلقة بجامع الخليفة ، وكان يلى النظر فى قرايا الخاص للخليفة ، ثم عزله فلزم بيته فقيراً لاشئ له إلى أن مات فى هذه السنة . وكان ولده محمد مدبراً شيطاناً مريداً كثير الهجاء والسعاية بالناس إلى أولياء الأمر بالباطل ، فقطع لسانه وحبس إلى أن مات .

وفى المرأة :[1] وكان فصيحا وله عبارة جيدة وصوت رفيع ، وكانت له حلقة بجامع الخليفة ، يجتمع إليه الفقهاء ويناظرهم ، وولاه الخليفة ضياع الخاص فظلم الرعية ، وجبى الأموال من غير حلها فشكوه إلى الخليفة فسخط عليه وعزله ، فأقام فى بيته خاملاً فقيرا يعيش من صدقات الناس ، إلى أن توفى فى ربيع الأول ودفن فى داره بدرب الجب ، ثم نقل بعد مدة إلى باب حرب وبيعت الدار ، وولده محمد بن إسماعيل الملقب بالشمس قدم الشام بعد سنة عشرين وستمائة ، وتعانى الوعظ ، وكان فاسقا مجاهراً هجاءً خبيث اللسان ، وكان معه جماعة من المردان من أبناء الناس ، ويقول إنهم مماليكه ، وبدت منه بدمشق ومصر هنات قبيحة ، وكان يضرب الزغل[2] مع هذه الهنات سامحه الله .

ظهير الدين[3] **أبو إسحق إبراهيم بن منصور بن عسكر** ، الفقيه الشافعى الأديب ، قاضى السَّلامية ، تفقه على القاضى أبى عبد الله الحسين بن نصر بن خميس الموصلى بالموصل ، وسمع منه ، وقدم بغداد وسمع بها من جماعة ، وعاد إلى بلده الموصل ، وتولى قضاء السَّلامية ، إحدى قرى الموصل .

وكان فقيها فاضلا ، وغلب عليه النظم ، ونظمه رائق . ومنه قوله :

لاتنسبُونى ياثقاتى إلى غَدْرٍ فليس الغدر من شيمتى
أقسمتُ بالذاهب من عَيْشنا وبالمسرات التى وَلّت
أنىّ على عَهْدِكُم لم أزل[4] وعقدة الميثاق ما حُلّت

(١) سبط ابن الجوزى ، جـ ٨ ، ص٣٦٩ ــ ص ٣٧٠ .
(٢) ضرب الزغل : هو غش الفلوس ، إما بتغيير نسب المعادن المكونة منها ، أو بإنقاص وزنها عن الحد المعروف .
(٣) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص٣٧ ـ ٣٨ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص٧٢ .
(٤) «أحُلْ» فى وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص ٣٧ .

ومن شعره أيضا :

جُودُ الكريم إذا ما كان عن عدة ٍ وقد تأخَّر لم يَسلمْ من الكدَرِ
إن السحائب لاتُجَدى بَوارِقها نفعا إن[1] هى لم تمطر على الأثر
[وماطلُ[2]] الوعد مذمومٌ وإن سمحت يداه من بعد طول المطل بالبِدَر
يادوحة الجود لاعَتْبٌ على رجُلٍ يهُزُّها وهو محتاجٌ إلى الثمَر

وقال ابن خلكان : توفى يوم الخميس ثالث شهر ربيع الآخر سنة عشر وستماتة بالسَّلاَّمية ؛ وهى بفتح السين المهملة وتشديد اللام وبعد الميم ياء آخر الحروف ثم هاء ، وهى بليدة على شط الموصل من الجانب الشرقى أسفل الموصل ، بينهما مسافة يوم ، وقد خربت[٣٤٥] هى ، [وأنشئت][3] بالقرب منها بليدة أخرى سموها السَّلاَّمية أيضا .

تاج الأمناء[4] أبو الفضل أحمد بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عساكر ، من بيت الحديث والرواية ، وهو أكبر من أخوَيْه زين الأمناء ، والفخر عبد الرحمن ، سمع عميه الحافظ أبا القاسم ، والصائن ، وكان صديقا للشيخ تاج الدين الكندى . وكانت وفاته يوم الأحد ثانى رجب منها ، ودفن قبلى محراب مسجد[5] القدم .

تاج العلماء[6] النسابة الحلبى الحسنى ، اجتمع بآمد بالشيخ أبى الخطاب بن دِحية ، وكان ينسب إلى دِحية [الكلبى][7] فقال له تاج العلماء : إنَّ دحية لم يعقب ، فرماه ابن دحِية بالكذب فى مسائله الموصلية . وتوفى فى هذه السنة . وقال أبو شامة[8] : رماه ابن دحية بالكفر فى مسائله الموصلية .

(١) «إذا» فى وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص ٣٧ .
(٢) «وباطل» كذا فى الأصل ، وهو خطأ فى النسخ ، والمثبت من وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص٣٧ .
(٣) «وانتشت» كذا فى الأصل ، وهو تحريف . والمثبت من وفيات الأعيان ، جـ ١ ، ص٣٨ .
(٤) انظر ترجمته فى البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص٧٢ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٨٦ .
(٥) مسجد القدم : أصله مشهد القدم ، وهو من الآثار التى فى مدينة دمشق وغوطتها . ويقال : إن هناك قبر موسى بن عمران . انظر : النجوم الزاهرة ، جـ ٦ ، ص١٢٦ ، حاشية (١) .
(٦) انظر ترجمته فى البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٧٢ - ٧٣ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٨٦ .
(٧) مابين الحاصرتين إضافة لازمة للتوضيح من البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص٧٢ .
(٨) انظر : الذيل على الروضتين ، ص٨٦ .

المهذب[١] **الطبيب المشهور ، وهو على بن أحمد بن مقبل الموصلى** ، سمع الحديث ، وكان أعلم أهل زمانه بالطب ، وله فيه تصنيف حسن ، وكان كثير الصدقة حسن الأخلاق . وقال ابن كثير فى الكامل : توفى المهذب المذكور فى المحرم من سنة عشر وستمائة .

الجزولى[٢] أبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجَزُولى اليَزْدكِتنى[٣] النحوى المغربى[٤] ، مصنف المقدمة[٥] المشهورة البديعة ، وقد شرحها هو وتلامذته من بعده ، وكلهم معترفون بتقصيرهم عن فهم مواده فى أماكن كثيرة منها . قدم مصر فأخذ عن ابن برى ، ثم عاد إلى بلاده وولى خطابة مراكش ، وتوفى فى هذه السنة ، وقيل قبلها .

وقال ابن خلكان[٦] : أبو موسى عيسى بن عبد العزيز بن يَلَلْبَخْت بن عيسى بن يُوما ريلى الجزولى اليزدكتنى ، كان إماما فى علم النحو ، كثير الاطلاع على دقائقه وغرائبه وشاذه ، وصنف فيه المقدمه التى سماها القانون ، ولقد أتى فيها بالعجائب ، وهى فى غاية الإيجاز مع الاشتمال على شئ كثير من النحو ، ولم يُسْبَق الى مثلها ، واعتنى بها جماعة من الفضلاء فشرحوها ، ومنهم من وضع لها أمثلة ، ومع هذا كله فلا تفهم حقيقتها ، فإنها كلها رموز وإشارات . ويقال : إنه كان يدرى شيئا من المنطق . وأقام بمدينة بجاية مدة ، والناس يشتغلون عليه ، وتوفى سنة عشر وستمائة بمدينة مراكش ، وقيل سنة ست أو سبع وستمائة .

ويللبخت : بفتح الياء[المثناه من تحتها][٧] واللام وسكون اللام الثانية وفتح الباء الموحدة وسكون الخاء المعجمة وبعدها تاء مثناة من فوق ، وهو اسم بربرى .

---

(١) انظر ترجمته فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص٣٦٠ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص٧٣ .
(٢) انظر ترجمته فى البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص٧٣ ؛ وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص ٤٨٨ ـ ٤٩١ .
(٣) «البردكينى» فى البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص٧٣ .
(٤) «المصرى» فى البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص٧٣ .
(٥) هذه المقدمة سماها الجزولى «القانون» . انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص ٤٨٨ .
(٦) انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص ٤٨٨ ـ ٤٩١ .
(٧) «بفتح الياء آخر الحروف» كذا فى الأصل . وهو خطأ . والمثبت كما فى وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص ٤٩٠ ، حيث ينقل العينى عنه .

ويوما ريلى : بضم الياء[المثناه من تحتها][١] وسكون الواو وفتح الميم وبعد الألف راء مكسورة ثم ياء [٢]ساكنة وبعدها لام ثم ياء ، وهو اسم بربرى أيضا .

والجُزُوْلى نسبة إلى جُزولة بضم الجيم والزاى وسكون الواو[وبعدها لام][٣] ويقال لها كزولة أيضا ــ بالكاف ـ وهى بطن من البربر .

واليَزْدكتنى : بفتح الياء [المثناه من تحتها][٤] وسكون الزاى وفتح الدال المهملة وسكون الكاف وفتح التاء المثناة من فوق وبعدها نون ، نسبة إلى فخذ من جزولة . وقبيلة جزولة من الرَّحالة يكونون بصحارى بلاد السوس فى المغرب الأقصى .

ابن[٥]حديدة الوزير ، واسمه سعيد بن على بن أحمد أبو المعالى ، ولقبه معز الدين ، وهو من ولد قطبة بن عامر بن حديدة الأنصارى الصحابى ـ رضى الله عنه . ولد بكرخ سامرّا سنة ست وثلاثين وخمسمائة ، ونشأ ببغداد ، وكان أحد الموسرين له مال كثير وجاه عريض ، واستوزره الإمام الناصر لدين الله فى سنة أربع وثمانين وخمسمائه ، وخلع عليه خلعة الوزارة الكاملة[٣٤٦] ، القميص الأطلس ، والفرجية المفرّج ، والعمامة القصب الكحلية بأعلام الذهب ، وقلّد سيفا محلّى ، وقُدّم له فرس من خيل الخليفة فركبه ، وخرج وأرباب الدولة يمشون بين يديه من باب حجرة الخليفة إلى دار الوزارة . ولم يزل على الوزارة حتى ولى ابن مهدى نقابة العلويّن ، فشرع فيه ومازال بالخليفة حتى عزله واعتقله وطالبه بمال ، فالتجأ إلى التربة الأخلاطية فلم تنفعه ، وأدى المال وأقام فى بيته إلى أن ولى ابن مهدى الوزارة فَسلِّم إليه ، فاعتقله فى داره بدرب البطيخ ، وعزم على تعذيبه ، فواطأ الموكلين به وحلق رأس نفسه ولحيته ، وخرج فى زى النساء إلى مراغة[٦] ،

---

(١) «بضم الياء آخر الحروف» كذا فى الأصل . وهو خطأ . والمثبت كما فى وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص ٤٩٠ ، حيث ينقل العينى عنه .

(٢) «ياء آخر الحروف» كذا فى الأصل . وهو خطأ .

(٣) «وفتح اللام» كذا فى الأصل . والمثبت من وفيات الأعيان حيث ينقل العينى عنه .

(٤) «الياء آخر الحروف» كذا فى الأصل . وهو خطأ . والمثبت كما فى وفيات الأعيان ، جـ ٣ ، ص٤٩٠ . حيث ينقل العينى عنه .

(٥) انظر ترجمته فى البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص٧١ ـ ص ٧٢ ؛ الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٦١ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٨٥ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٧١ ، ص٢٧٢ .

(٦) مراغة : انظر ماسبق جـ ١ ، ص٢١٠ .

فأقام بها حتى توفى فى جمادى الأولى وحمل إلى الكوفة فدفن بمشهد أمير المؤمنين . وكان جوادًا سمحًا كثير الصدقات والمعروف متواضعا .

الموفق(١) **أحمد بن محمد بن عمر الأزجى ، ويعرف بالموفق** ، نشأ بباب الأزج ، وسمع الحديث من ابن كليب ، وابن بُوش ، وابن طبرزد وغيرهم . وكان فقيراً ، خرج إلى الشام واجتمع بالملك الظاهر صاحب حلب وقال له : قد بعث لك الخليفة معى إجازة ، وتَقَوَّل على الخليفة ، فخلع عليه وأعطاه خمسين ديناراً ، ودار على ملوك البلاد ، فحصل له منهم ثلثمائه دينار . قال السبط(٢) : واجتمعت به فى دمشق وقد رجع من زيارة القدس فقلت له : إلى أين انتهت زيارتك؟ فقال : إلى لوط . وكان مطبوعا وبلغنى حديثه فقلت له : قد فعلت مافعلت فلانقرب بغداد . فقال : أتتك بخائن رجلاه . فقلت : ما أخوفنى أن يصح المثل فيك . فكان كما قلت نزل إلى بغداد فى سفينة من الموصل وصعد بباب الأزج إلى بيت أخته وقت المغرب ، فلما كان بعد العشاء الآخرة طرق الباب طارق فقال : من هذا؟ فقال : كلّم من يطلبك . فخرج وإذا برجل فسحبه عن الباب وضربه بسكين حتى قتله ، ثم صاح على الباب اخرجى خذى أخاك وما معه ، فخرجت أخته وإذا به مقتول . فأخذت المال ودفنته فى الليل .

الأمير سنجر(٣) **بن عبد الله الناصرى الخليفتى** ، كانت له أموال كثيرة وأملاك وإقطاعات متسعة ، وكان مع ذلك بخيلاً ذليلاً ساقط النفس ، اتفق أنه خرج أمير الحاج فى سنة تسع وثمانين وخمسمائه فاعترضه بعض الأعراب فى نفر يسير ومع سنجر خمسمائه فارس فذل عن الأعراب فطلب منه كبيرهم خمسين ألف دينار فجباها سنجر من الحجيج ودفعها إليه . فلما عاد إلى بغداد أخذ منه الخليفة خمسين ألف دينار وردّها إلى أصحابها وعزله وولى طاشتكين .

(١) انظر ترجمته فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٣٦٩ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٨٤ .
(٢) انظر المرآة ، جـ ٨ ، ص٣٦٩ .
(٣) انظر ترجمته فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٣٧٢ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٨٥ - ٨٦ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص٧٢ .

وفى تاريخ بيبرس : وكان سنجر هذا صهر طاشتكين ، وتوفى فى هذه السنة . وفى المرأة[١] : وتوفى فى شوال وفتح له جامع القصر وصلى عليه قاضى القضاة ابن الدامغانى ومشى أرباب الدولة فى جنازته ودفن بالشونيزية . وكان كبير الأعراب الذى طلب المال من سنجر من غُزَيّة[٢] اسمه دهمش .

فارس[٣] الدين ميمون القَصْرى ، آخر من بقى من كبراء الأمراء الصلاحية مات بحلب فى رمضان من هذه السنة ، وهو منسوب إلى قصر الخلفاء الفاطميين بمصر ، وكان السلطان صلاح الدين رحمه الله أخذه من هناك .

أيدغمش[٤] مملوك البهلوان ، قتله خشداشه منكلى وقد ذكرناه عن قريب مفصلا .

سلطان المغرب محمد[٥] بن السلطان يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن على القيسى الكومى الملقب بالناصر ، صاحب بلاد الغرب توفى لعشر خلون من شعبان من سنة عشر وستمائة وكانت مدة مملكته نحو ست عشرة[٦] سنة ، وكان أشقر دائم الإطراق كثير الصمت ، وكان فى لسانه لثغة ، وكانت ولايته فى سنة خمس وتسعين وخمسمائه ، وقد ذكرنا ترجمة أبيه وجده وأب جده .

وقال ابن خلكان[٧] وكان مولد السلطان محمد المذكور فى سنة ست وسبعين وخمسمائه . قال والمغاربة يقولون : إن محمد بن يعقوب المذكور أوصى عبيده المشتغلين بحراسة بستانه بمراكش أن كل من ظهر لهم بالليل فهو مباح الدم ، ثم أراد أن يختبر قدر أمره لهم فتنكر وجعل يمشى فى البستان ليلاً فعندما رأوه جعلوه غرضاً لرماحهم ، فجعل يقول : أنا الخليفة . فما تحققوا حتى هلك والله أعلم بصحة ذلك . ثم ولى بعده ولده [أبويعقوب يوسف][٨] بن محمد وتلقب بالمستنصر بالله ، ومولده أول شعبان سنة أربع وتسعين وخمسمائه ولم يكن من بنى عبد المؤمن أحسن وجها منه .

---

(١) سبط ابن الجوزى ، جـ ٨ ، ص٣٧٢ .
(٢) غُزَيّة ، موضع قرب فَيْد بطريق مكة ، وفيد فى منتصف طريق الحاج من الكوفة إلى مكة ، انظر ، معجم البلدان ، جـ٣ ، ص ٨٠٠ - ص ٨٠١ ، ص٩٢٧ .
(٣) انظر ترجمته فى مفرج الكروب ، جـ ٣ ، ص ٢٢٠ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص ٦٤ .
(٤) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٧١ ؛ الكامل ، ج١٠ ، ص٣٦٠ .
(٥) انظر ترجمته فى المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ١١٥ .
(٦) «ستة عشر» فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه .
(٧) انظر وفيات الأعيان ، جـ ٧ ، ص١٥ .
(٨) « أبو يوسف يعقوب بن محمد» كذا فى الأصل وهو خطأ والصحيح ما أثبتناه من ، وفيات الأعيان ، جـ ٧ ، ص١٥ ؛ زامباور : معجم الأسرات ، جـ ١ ، ص١١٣ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الحادية عشرة بعد الستمائة(★)

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله ، وسلطان مصر والشام الملك العادل أبو بكر بن أيوب ، وكان فى دمشق وسار إلى الديار المصرية فى هذه السنة ، وولده الملك الكامل محمد بن العادل نائبه فى مصر ، وأرسل الكامل ولده الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الكامل إلى الحجاز متوجها إلى اليمن وجهز صحبته ألف فارس من الجند والجاندارية[1] والرماة خمسمائة .

وقال بيبرس : وكان الملك العادل قد رتب أولاده فى كل إقليم ملكه ، وقصد أن يُسَيَّر ولده الفائز إلى اليمن ليملكه فاتفق أن الصاحب صفى الدين بن شكر قال للكامل : مصر لك وينبغى أن يكون اليمن لك ظهراً ، والفائز أخوك كريم فاركب إليه واسأله أن يكون ولدك المسعود نائبا عنه . ففعل الكامل ذلك ، فأجابه إليه الفائز ، فجهز المسعود وأرسله فدخل مكة ثالث ذى القعدة من هذه السنة ، وحج وخطب له وأقام بمكة ستة أيام ثم رحل عنها فى العشر الثانى من ذى القعدة . وفى أول يوم من المحرم من سنة اثنتى عشرة وستمائة دخل زبيد وملكها من غير قتال . وقد ذكرناه مفصلا فى السنة الماضية .

وقال أبو شامة[2] : وفى سنة إحدى عشرة وستمائة تملك أتسيز بن الكامل بن العادل اليمن وتلقب بالمسعود وكان جباراً فاتكًا ، قيل : إنه قتل باليمن ثمانى مائة شريف وخلقا من الأكابر والعظماء . وقال بيبرس[3] : كان والد الملك المسعود هذا يسميه أتسيز ولكن اسمه يوسف كما ذكرنا ، ولكنه اشتهر باسم أتسز ، ومنهم من يقول : أطسز بالطاء المهملة موضع الياء المثناة من فوق ، وأتسس بسينين مهملتين يجعل موضع الزاى المعجمة فى آخره سيناً ، والكل يعنى واحد فافهم .

وفيها[4] أخذ الملك المعظم قلعة صرخد من ابن قراجا وعوضه عنها مالاً وإقطاعاً .

(★) يوافق أولها ١٣ مايو سنة ١٢١٤م .

(١) الجاندارية : فئة من المماليك السلطانية كانوا من خواص السلطان الملازمين له من حرسه أو حاشية قصره ، وواحدهم جاندار ـ انظر صبح الأعشى ، جـ٤ ، ص ٢٠ .

(٢) الذيل على الروضتين ، ص٨٦ ؛ وقد ذكرها ابن واصل فى حوادث سنة ٦١٢هـ . انظر مفرج الكروب ، جـ٣ ، ص٢٢٧ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٧٢ ؛ نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص٦٥-ص٦٦ .

(٣) نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص٦٥-ص٦٦ .

(٤) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص٨٦ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٧٢ ؛ نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص٦٦ .

ذكر تملك خوارزم شاه كرمان وغيرها

وفى هذه السنة أرسل السلطان[٣٤٨] علاء الدين خوارزم شاه محمد بن تكش أميراً من أخصاء أمرائه عنده ، وكان قبل ذلك سيرواناً فصار أميراً خاصاً فى جيش ، ففتح له كرمان ومكران والسند وخطب لخوارزم شاه بتلك النواحى . وكان خوارزم شاه لايصيف إلا بنواحى سمرقند خوفاً من التتار أصحاب كشلى خان أن يثوروا على أطراف بلاده التى تتاخم بلادهم . وقال بيبرس[١] : كان فى جملة أمراء والد خوارزم شاه أمير يسمى أبوبكر[٢] وتلقب تاج الدين ، وكان ذا عقل وحزم ورأى وشجاعة ، وكان قد ولاه مدينة زوزن[٣] ووثق به أكثر من جميع أمرائه فقال له : إن بلاد كرمان مجاورة لبلادى فلو أرسلت معى عسكراً لملكتها فسير معه عسكراً كثيراً ، وكان صاحب كرمان اسمه حرب بن محمد بن أبى الفضل فقاتله فضعف عنه فملك بلاده ، وسار منها إلى نواحى مكران فملكها كلها إلى السند من حدود كابل ، وسار إلى هرمز مدينة على ساحل بحر مكران فأطاعه صاحبها وخطب بها لخوارزم شاه ، وحمل له عنها مالاً وخطب له بقلهات[٤] وبعض عُمان ، لأن أصحابها كانوا يطيعون صاحب هرمز .

ذكر حج الملك المعظم

وفى هذه السنة[٥] حج الملك المعظم ابن الملك العادل فى ركب من الكرك على الهجن فى حادى عشر ذى القعدة ومعه ابن مُوسَك ومملوكه أيبك عز الدين أستاذ داره وخلق ، فساروا على طريق تبوك والعلى ، وبنى المعظم البركة المنسوبة إليه ومصانع أخرى ، وأثر فى هذه السنة بطريق الحجاز آثاراً حسنة ، وفرق صدقات كثيرة على المجاورين بالحرمين الشريفين .

---

(١) أورد هذا الخبر فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص٣٦٢ – ص٣٦٣ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص٧٣ـ ص ٧٤ .
(٢)«أبا» كذا فى الأصل والصحيح ما أثبتناه .
(٣) زُوزَن : كورة واسعة بين نيسابور وهراة ويحسبونها من أعمال نيسابور ، كانت تعرف بالبصرة الصغرى ، انظر : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٩٥٨ .
(٤) قلهات : مدينة بعُمان على ساحل البحر ، انظر : معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ١٦٨ .
(٥) ورد هذا الخبر فى ، البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص٧٣ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٨٧ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٣٧٢ ، ص٣٧٣ .

وقال أبو شامة[١] : حج المعظم فى هذه السنة ومعه عز الدين أيبك وعماد الدين ابن موسك والظهير بن سنقر الحلبى وغيرهم ، وتلقاه سالم أمير المدينة وَخَدَمَهُ وقَدَّم له الخيل والهدايا ، وسلم إليه مفاتيح المدينة ، وفتح الأهراء وأنزله فى داره وخَدَمَهُ خِدْمةً عظيمة ، ثم سار إلى مكة فوصلها يوم الثلاثاء سادس ذى الحجه فكانت وقفة تلك السنة يوم الجمعة ، وانفصل عن مكة بعد أداء الفرض يوم الثلاثاء ثالث عشر الشهر وقدم المدنية فأقام بها ثم انفصل عنها عائدا إلى الشام وصحبته الأمير سالم[٢] فى الخامس والعشرين منه . وقال السبط فى[٣] المرآة : والتقاه قتادة [٤] أبو عزيز أمير مكة وحضر فى خدمته ، وحكى لى المعظم قال : قلت : أين تنزل؟ فأشار إلى الأبطح مبسوطة ، وقال : هناك منزلنا بالأبطح ، وبعث لنا هدايا يسيرة .

وحج السلطان على مذهب أبى حنيفة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأتى بجميع المناسك وأحيى السُنة ، أحرم قارنًا ، وبات بمنى ليلة عرفة ، وصلى بها الصلوات الخمس ، وسار إلى عرفة وقضى نُسكه كما أمر الله تعالى . قال ولقد رأيت كتفه بعد ما عاد وقد أكلته الشمس وانكشط وقيح . فقلت : ماهذا؟ قال : ما غطيت رأسى ولاكتفى مذ ثلاثة عشر يوما ، قلت : لم يكن له حاجة إلى كشف كتفه فإنه لايستحب إلا حالة الاضطباع فى طواف القدوم . قال السبط[٥] : ولما رجع كنت مقيما بالكرك فخرجت للقائه مع جماعة من الأعيان والأمراء والفقراء والفقهاء ، فما التفت إلى أحد منهم ، ولما رآنى ترجل عن ناقته وعانقنى وسقنا إلى زيزا [٦] . وكان لقاؤنا له على غدير الظرفاء فى البرية ، وشرع يحكى له صفة حجه ومافعل . وكان والده[٣٤٩] الملك نازلاً على خربة[٧] اللصوص ، فقال : أريد أن أنعته

---

(١) الذيل على الروضتين ، ص٨٧ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٧٣ .

(٢) هو سالم بن قاسم بن مهند من الأشراف ، من بنى الحسن الذين كانوا أمراء المدينة ، وكان الشريف سالم مع السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فى فتوحاته : انظر صبح الأعشى جـ ٤ ، ص٣٠٠ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٧٣ ؛ مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٧٣ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٨٧ .

(٣) انظر مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٧٣ .

(٤) هو قتادة بنى إدريس من الأشراف من ذرية الحسن بن على . وهو أول أمراء مكة من فرعه ، أخذها من الهواشم وهو فرع آخر من بنى الحسن سنة ٥٩٩هـ وتوفى سنة ٦١٧هـ ، وقد بقيت مكة فى أيدى أسرته حتى عهد الوهابيين ، صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص٢٧٢ ؛ نهاية الأرب ، جـ ٢٩ ، ص ٦٨ ، حاشية (٢) .

(٥) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٣٧٣ .

(٦) زيزا وهى زَيْزَاء وهى من قرى البلقاء ، يطأها الحاج . انظر : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٩٦٦ .

(٧) خربة اللصوص : واقعة على الطريق بين بيسان ودمشق . انظر : نهاية الأرب ، جـ ٢٩ ، ص٦٨ حاشية ١ .

حتى لايلتقينى أحد ، وسار إليه واجتمع به وحكى له خدمة سالم ، وتقصير قتادة ، فجهز جيشا مع الناهض بن الجرحى إلى المدينة والتقاهم سالم فأكرمهم ، وقصدوا مكة فانهزم قتادة منهم إلى البرية ، ولم يقف بين أيديهم .

ذكر بقية الحوادث

منها[١] أنه شرع فى تبليط داخل الجامع بدمشق وبدأوا بناحية السبع الكبير ، وكان أرض الجامع قبل ذلك حُفراً وجوراً فاستراح الناس بتبليطه .

ومنها[٢] أنه هدمت الدور والحوانيت المجاورة للقلعة ليوسع الخندق ، ومن جملة ماهدم حمام قايماز النجمى ، ووقف دار الحديث النورية ، وكان فرناً وحوانيت مقابل المار من جهة دار الحديث إلى القلعة .

ومنها[٣] أن المعظم بنى الفندق المنسوب إليه بناحية قبرعاتكة ظاهر باب الجابية بدمشق .

ومنها [٤] أنه تعامل أهل دمشق بالقراطيس[٥] السود العادلية ثم بعد ذلك بطلت وفنيت .

ومنها[٦] أن التركمان أسروا الملك الأشكرى[٧] وهو قاتل غياث الدين كيخسرو وحملوه إلى ابنه كيكاوس بن كيخسرو ، فأراد قتله فبذل له فى نفسه أموالاً عظيمة وسلم إلى كيكاوس قلاعاً وبلاداً لم يملكها المسلمون قط فأطلقه وخلى سبيله .

---

(١) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص٨٦ ؛ البداية والنهاية جـ ١٣ ، ص٧٣ ، السلوك ، جـ ١ ، ق١ ، ص٢١٤ .

(٢) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص٨٧ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص٧٣ .

(٣) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص٨٧ ، البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص٧٣ .

(٤) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص٨٦ ، البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٧٤ ، نهاية الأرب ، جـ٢٩ ، ص٦٧ ؛ السلوك ، جـ ١ ، ق١ ، ص٢١٤ .

(٥) القراطيس السود : هى الفضة النقرة وهى عبارة عن سبيكة من الفضة والنحاس الأحمر بنسبه ثلثين من الفضة وثلث من النحاس الأحمر ومنها كانت الدراهم النقرة ، غير أن وصف القراطيس بالسود يدل على أنها من النحاس . صبح الاعشى ، جـ ٣ ، ص٤٤٣ ، ص٤٦٦ - ص ٤٦٧ ، Dozy,suppDict.Ar.

(٦) ورد هذا الخبر فى المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ص١١٦ ، مفرج الكروب ، جـ ٣ ، ص٢٢٥ .

(٧) يطلق المتأخرون من مؤرخى المسلمين هذا الاسم على أباطرة الدولة البيزنطية منذ أوائل القرن السابع الهجرى . السلوك ، جـ ١ ، ق١ ، ص٢١٣ - ص ٢١٤ حاشية ٦ .

ومنها [١] أن الخليفة عزل قاضى القضاة عماد الدين بن الدامغانى وولى الزنجارى القضاء .

ومنها[٢] أنه قدم من حران إلى حلب الملك المنصور ناصر الدين محمد بن العزيز ابن صلاح الدين وإخوته وكان معتقلا بحران ، ثم رسّم عليه فهرب من الترسيم وأعطاه الظاهر إقطاعاً بحلب .

ومنها أن[٣] فى الثامن والعشرين من ذى القعدة الموافق لآخر آذار على إحدى عشرة ساعة منه أظلم الجو ووقع شعثة بالرمل إلى بعد المغرب ، ثم ارتفع ذلك من لطف الله عز وجل .

وفيها ....[٤]

وفيها[٥] حج بالناس من العراق أبو فراس نائباً عن محمد بن ياقوت ، ومن الشام علم الدين الفقية نصر الله الجعبرى أمام الملك المعظم عيسى بن الملك العادل .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

إبراهيم[٦] بن على بن محمد بن على بن محمد بن بكروس ، الفقيه الحنبلى ، أفتى وناظر وعدّل عند الحكام ، ثم انسلخ من هذا كله وصار شرطياً بباب [٧] النوبى ، فيضرب الناس ويؤذيهم غاية الأذى ثم بعد ذلك كله ضرب إلى أن مات فى هذه السنة ، وألقى فى دجلة وفرح الناس بموته ، وقد كان أبوه رجلا صالحا .

الركن[٨] عبد السلام بن عبد الوهاب ابن الشيخ عبد القادر ، الذى أحرقت كتبه بالرحبة ، وحكم القاضى بتفسيقه ، وكان متهما بالفلسفة ومخاطبة النجوم ، وولى عدة

(١) انظر مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٣٧٢ .
(٢) انظر مفرج الكروب ، جـ ٣ ، ص٢٢٣ .
(٣) الذيل على الروضتين ، ص٨٧ .
(٤) بياض بمقدار سطر .
(٥) الذيل على الروضتين ، ص٨٦ .
(٦) انظر الذيل على الروضتين ، ص٨٧ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص٧٤ .
(٧) انظر عقد الجمان ، جـ ١ ، ص١٨٠ ، حاشية ٣ .
(٨) الذيل على الروضتين ، ص٨٨ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٧٤ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص٧٤ ، شذرات الذهب ، جـ ٥ ، ص٤٥ .

ولايات ، وكان مصاحبا لأبى القاسم بن الشيخ أبى الفرج بن الجوزى ، وكان الآخر مدبرا يجتمعان على الشراب والمردان ، ومرض عبد السلام بعلة البطن فرمى كبده قطعاً ومات فى هذه السنة سامحه الله .

أبو محمد عبد العزيز[١] **بن محمود بن المبارك البزار المعروف بابن الأخضر** ، ولد سنة ست وعشرين وخمسمائة ، وقيل : فى سنة أربع وعشرين . وقيل : هو جنابذى الأصل بغدادى الدار والمولد ، سمع الحديث الكثير وصنف الكتب الحسان من الأبواب والشيوخ والفضائل ، وأول سماعه سنة ثلاثين وخمسمائة ، وكانت له حلقة بجامع القصر يقرأ فيها الحديث[٣٥٠] ويقرأ عليه ، وتصانيفه تدل على فهمه وضبطه وحسن معرفته ، وكانت له دكان بَزّفى الريحانيين ، وتوفى فى شوال وصلى عليه بجامع القصر وحضر جنازته العلماء والأعيان ، ودفن بباب حرب ، وكان فاضلا صالحا دينا عفيفا لطيفا .

محمد بن[٢] **على بن نصر الحنبلى** ، الواعظ الدورى أصله من الدورقريه بدجيل ، سمع ابن ناصر وأبا الوقت وغيرهما وتعانى[٣] الوعظ ولم يكن من صنعته ، وكان يضاهى ابن الجوزى حتى قيل له : أيما أعلم أنت أم أبو الفرج؟ فقال : ما أرضاه يقرأ على الفاتحه ، وبلغ ذلك أبا الفرج فقال : ما أقرأ عليه الفاتحة بل أقرأ عليه قل هو الله أحد ، وكان يتعصب له حاكة قطفتا[٤] ، مات فى شعبان ، ودفن فى رباطه بقطفتا ، وكان ينتحل أشعار الناس ، ادعى يوما بيتين وأنشدهما على المنبر مشيرا إلى الخليفة وهما لأبى الفتح البُسْتى وهما :

علم فى دجى الدجى وشهاب كلنا فى ضيائه واقتباسه
متلف الأموال فى وقت بؤس وجواد بالعفو فى وقت باسه

---

(١) الذيل على الروضتين ، ص٨٨ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص٧٤ ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص٣٦٣ .
(٢) الذيل على الروضتين ، ص٨٨ .
(٣) «تعاطى» فى الذيل على الروضتين ، ص٨٨ .
(٤) قطفتا : محلة كبيرة ذات أسواق بالجانب الغربى من بغدادد مجاورة لمقبرة الدير التى فيها قبر الشيخ معروف الكرخى انظر ، معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص١٣٧ .

الشيخ[١] **على بن أبى بكر الهروى** ، مات فى هذه السنة وله التربة المعروفة قبلى حلب ، وكان عارفاً بأنواع الحيل والشعبذة والسيماوية وتقدم عند الملك الظاهر غازى صاحب حلب وتغرب فى البلاد ، ودار غالب المعمورة .

الأمير دلدروم[٢] **بن ياروق** ، صاحب تل باشر ، توفى فى هذه السنة وولى تل باشر بعده ابنه فتح الدين .

---

(١) انظر مفرج الكروب ، جـ ٣ ، ص ٢٢٤ .

(٢) انظر مفرج الكروب ، جـ ٣ ، ص٢٢٤ ؛ المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ١١٥ - ١١٦ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الثانية عشرة بعد الستمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله ، والملك العادل توجه إلى الإسكندرية لأنه كان قد اجتمع بالإسكندرية من تجار الفرنج نحو ثلاثة آلاف رجل ووصلت بُطسة إلى الميناء فيها ملكان من ملوك الفرنج ، فبلغه أن الفرنج صمموا على أن يثوروا بأهل الإسكندرية فيقتلونهم ويأخذون البلد ، فأمسك التجار الذين بالثغر والواصلين فى البطسة واستصفى أموالهم واعتقلهم ، واعتقل الملكين وجرت خطوب مع العادل من الفرنج حتى أطلق النسوة التى لهم وعاد إلى القاهرة . وفى تاريخ ابن العميد : وفى هذه السنة كشف السلطان الملك العادل عن الأموال التى أنفقت فى تجهيز الملك المسعود إلى اليمن فكانت جملة عظيمة ، فأنكر على القاضى الأعز فخر الدين بن شكر وضربه وقيده وحمله إلى قلعة بصرى واعتقله بها .

ذكر حصر قتادة أمير مكة المدينة النبوية

وفى هذه السنة حاصر(١) الأمير قتادة الحسنى المدينة النبوية وقطع فيها نخلا كثيراً فقاتله أهلها فَكَرَّ خائبا خاسرا ، وكان سالم صاحب المدينة بالشام فى خدمة العادل يطلب منه النجدة على قتادة ، فأرسل معه جيشا فأسرع الأوبة فمات فى أثناء الطريق ، فاجتمع شمل الجيش على ابن أخيه جماز فقصد مكة فالتقاه أميرها بالصفراء(٢) فاقتتلوا قتالا كثيرا ، فهزم المكيون وغنم منهم الأمير جاز شيئا كثيراً ، وهرب قتادة إلى الينبع فساروا إليه فحاصروه بها وضيقوا عليه بها . وقال أبو شامة(٣) : وفى ثالث شعبان سار الأمير سالم صاحب المدينة بمن استخدمه من التركمان وغيرهم من المخيم السلطانى بالكسوة ثم توفى بالطريق قبل[٣٥١] وصوله إلى المدينة ، وقام ولد أخيه جماز بالأمر بعده ، واجتمع أهله على طاعته ، فمضى بمن كان طلع مع عمه لقصد قتادة صاحب

(*) يوافق أولها ٢ مايو سنة ١٢١٥م .

(١) ورد هذا الخبر فى البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٧٥ ؛ نهاية الأرب ، جـ ٢٩ ، ص٦٧ ـ ٦٨ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٨٩ .

(٢) الصفراء : وادى بناحية المدينة كثير النخل والزرع فى طريق الحاج بينه وبين بدر مرحلة انظر ، معجم البلدان ، جـ٣ ، ص ٣٩٩ .

(٣) الذيل على الروضتين ، ص٨٩ -ص٩٠ .

مكة ، فجمع قتادة عسكره وأصحابه والتقوا بوادى الصفراء ، فكانت الغلبة لعسكر المدينة فاستولوا على عسكر قتادة قتلا ونهباً ، ومضى قتادة منهزماً إلى الينبع فتبعوه وحصروه بقلعته وحصل لحميد بن راجب من الغنيمة مايزيد على مائة فرس ، وهو واحد من جماعة كثيرة من العرب الطائيين ، وعاد الأجناد الذين كانوا مضوا مع الأمير سالم من الشام من التركمان وغيرهم صحبة الناهض بن الجرخى[خادم][1] المعتمد ، وفى صحبتهم كثير مما غنموه من أعمال قتادة ومن وقعة وادى الصفراء من نساء وصبيان ، فظهر فيهم أشراف حَسنيون وحُسينيون فاستعيدوا منهم وسلموا إلى المعروفين من أشراف دمشق ليكفلوهم ويشاركوهم فى قسمهم من وقفهم .

ذكر تملك خوارزم شاه غزنة

وفى هذه السنة ملك السلطان خوارزم شاه محمد بن تكش غزنه بغير قتال . وفى تاريخ النويرى [2] : ملك غزنة وأعمالها وأخذها من يلدز مملوك شهاب الدين أحمد الغورى فهرب يلدز إلى لهاور[3] من الهند ، واستولى عليها ، ثم سار يلدز عن لهاور ليستولى على بعض بلاد الهند الداخله تحت يد قطب الدين أيبك خشداش يلدز المذكور فجرى بينه وبين مملوك قطب الدين أيبك مصاف قتل فيه يلدز ، وكان يلدز حسن السيرة محسنا إلى الرعية كثير المعروف . وقال بيبرس فى تاريخه : وكان بغزنة نائب عن يلدز يسمى قتلغ تكين مملوك شهاب الدين الغورى فسير إليه خوارزم شاه فطلب منه أن يخطب له فيها فترجح عنده الخطبة له فيها والراحة من القتال . واستشار أهل البلد فأشاروا عليه بذلك فسير إلى خوارزم شاه أن أحضر لأخذ البلد فحضر وسلم إليه البلد ، فبلغ ذلك يلدز فعز عليه وقال : كيف تسلمها خوارزم شاه وقتلغ تكين فيها؟ فقيل له : إنه الذى سلمها . ثم إن خوارزم شاه استدعى قتلغ تكين وقال له : كيف كنت مع يلدز؟ قال : كنت الحاكم فى غزنة ، فقال : إذا كنت الحاكم فيها وهو خشداشك[4] وهذه

---

(١)« صارم» كذا فى الأصل والمثبت بين الحاصرتين من الذيل على الروضتين ، ص٩٠ .

(٢) المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ص١١٦ ، ولمعرفة المزيد من التفاصيل انظر الكامل ، جـ ١٠ ، ص٣٦٧ ؛ الذيل على الروضتين ، ص٩٠ .

(٣) انظر ما سبق ، جـ ٢ ، ص٨٦ ، حاشية ٨ .

(٤) »ضشداش ، انظر ما سبق ، جـ ٢ ، ص ٢٩٠ ، حاشية ٢ .

معاملتك معه فكيف يكون حالك مع ولدى ، ثم أنه قبض عليه وأخذ منه أربع مائة مملوك وأموالاً جمة وذخائر عظيمة وأمتعة جليلة وقتله وسلم البلد إلى ولده جلال الدين .

وفيها[١] هرب يلدز إلى لهاور فلقيه صاحبها جلال الدين قباجة وهو من مماليك شهاب الدين الغورى ومعه خمسة عشر ألف فارس ومع يلدز ألف وخمسمائة فارس ، فالتقيا فانهزم أكثر عسكر يلدز وأخذت الفيلة التى معه ولم يبق معه غير فيلين ، فقال للفيال : أحمل واقصد العَلَمَ الذى على رأس الملك ، وقال بالعجمية : إما أن أملك أو أموت وحمل فانهزم قباجة وملك يلدز لهاور ، وملك دهلة[٢] وكان صاحبها الترمش من مماليك شهاب الدين الغورى ، وقد ملكها بعد سيده فلما سمع بيلدز سار إليه فى عساكره فالتقوا فانهزم يلدز وأخذ فقتل ، وكان عادلاً محسنا إلى الغرباء والتجار .

ذكر قتل منكلى

سبب [٣]ذلك[٣٥٢] أنه قتل أيدغمش كما ذكرنا فأرسل الخليفة ينكر عليه ذلك ، وأرسل الخليفة إلى الأمير أزبك بن البهلوان صاحب أذربيجان يحرضه على منكلى ويعده النصرة ، وأرسل إلى جلال الدين الإسماعيلى صاحب قلاع الإسماعيلية ببلاد العجم بأمره بمساعدة أزبك على قتال منكلى ، واستقرت القواعد بينهم على أن يكون للخليفة بعض البلاد ولأزبك بعضها ويعطى بعضها لجلال الدين ، فلما استقرت القواعد على ذلك جهز الخليفة عسكراً كثيرا وجعل مقدمهم مظفر الدين سنقر الملقب بوجه السبع صاحب إربل وشهرزور وأعمالها يأمره أن يحضر بعساكره ويكون مقدم العساكر جميعها وإليه المرجع فى الحرب ، فحضر وحضر معه عسكر الموصل وبلاد الجزيرة وساروا إلى همذان ، فاجتمعت العساكر فانزاح منكلى من بين أيديهم وتعلق بالجبال وتبعوه إلى أن نزلوا بسفح جبل هو فى أعلاه بالقرب من مدينة كرج[٤] وضاقت الميرة والأقوات على العسكر الخليفى فالتقوا هم ومنكلى فى يومهم ذلك وثانيه فهرب ليلا فى نفر يسير من

(١) انظر الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٦٧ .
(٢) دهلة ، هى دلهى الحالية فى الهند .
(٣) لمعرفة المزيد من التفاصيل عن هذه الحادثة انظر الكامل ، جـ١٠ ، ص٣٦٤ - ص٣٦٥ .
(٤) كرج : مدينة من همذان ، وأصبهان فى نصف الطريق وإلى همذان أقرب ، انظر : معجم البلدان جـ ٤ ، ص٢٥٠- ص ٢٥١ .

عسكره وفارقه الباقون ، فأعطى جلال الدين ملك الإسماعيلية من البلاد ما كان استقر له ، وأخذ الباقى أزبك فسلمه إلى أغلمش مملوك أخيه وعادت كل طائفة من العسكر إلى بلادهم ومضى منكلى منهزماً إلى مدينة ساوة(١) وبها شحنة هو صديق له ، فأرسل إليه يستأذنه فى الدخول إلى البلد ، فأذن له وخرج إليه وتلقاه وقبل الأرض بين يديه ، وأدخله البلد ، ثم أخذ سلاحه وأراد أن يقيده ويسُيره إلى أغلمش ، فسأله أن يقتله ولا يرسله إليه ، فقتله ، وأرسل رأسه إلى أزبك وأرسله أزبك إلى بغداد ، وكان يوم دخوله بغداد يوما مشهوداً .

واتفق(٢) موت ولد الخليفة فى ذلك اليوم وهو أبو الحسن على ابن الخليفة الناصر وكان يلقب بالملك المعظم ، وكان جواداً سمحا وافر المعروف حسن العشرة ، وأمر الخليفة بالنياحة عليه فى أقطار بغداد وكان الخليفة قد جعله ولى عهده من بعده ، وعزل عن ذلك أخاه الأكبر ، وكانت وفاته يوم الجمعة العشرين من ذى القعدة منها ، ودفن عند جدته بالقرب من قبر معروف الكرخى رحمه الله ، فحزن عليه الخليفة حزنا شديدا وكذلك الخاصة والعامة لكثرة صدقاته وإحسانه إليهم ورثاه شرف الدين بن الحلى من قصيدة .

أكـذا يَهُـدُّ الدهر أطواد الهـدى	ويرد بالنكبـات شـاردة الردى
أكذا تغيب[النيرات](٣) وينطفى	مـاكـان من أنوارها مـتـوقـدا
يالـلرجـال لـنكبـة نبـوية	طوت العلا(٤) قلبا عليها مُكمدًا

وهذه قصيدة طويلة ورثاه القاضى بهاء الدين بن النبيه المصرى من قصيدة :

الناس للمـوت كَـخَـيْلِ الطِرَاد	[فالسابقُ](٥) السابقُ منها الجواد
والـلـه لايـدعـو إلـى داره	إلا من اسَـتـصْلَحَ من ذا العبـاد

---

(١) ساوة : مدينة بين الرى وهمذان فى وسط بينهما . انظر معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص٢٤ .
(٢) لمعرفة المزيد من التفاصيل انظر الكامل ، جـ ١٠ ، ص٣٦٥ - ص ٣٦٦ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص٧٥ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٣٧٥ ؛ الذيل على الروضين ، ص٩١ - ص ٩٢ ؛ مفرج الكروب ، جـ ٣ ، ص٢٢٩ - ص٢٣٢ .
(٣) «النيران» كذا فى الأصل والمثبت من مفرج الكروب ، جـ ٣ ، ص٢٣٠ .
(٤) «العلى» فى مفرج الكروب ، جـ ٣ ، ص٢٣٠ .
(٥) مابين الحاصرتين ساقط من الأصل . والمثبت من مفرج الكروب ، جـ ٣ ، ص ٢٣١ .

وفى[١] المرآة : ومن العجائب أنه دخل يوم الجمعة رأس منكلى على خشبة وقد زينت بغداد وأظهر السرور والفرح فلما وصل الرأس إلى درب حبيب وافق فى تلك الساعة[٣٥٣] وفاة ابن الخليفة فرد الرأس ورمى فى بيت فى خان . وكوسات منكلى مستققة وأعلامه منكسة ، وانقلب ذلك السرور حزنا وأمر الخليفة بالنياحة عليه فى أقطار بغداد ، ففرشوا البوارى والرماد وخرجت العواتق من خدورهن ونشرن شعورهن ولطمن ، وقام النوايح فى كل ناحية وعظم حزن الخليفة بحيث أنه امتنع من الطعام والشراب وغلقت الأسواق ، وعطلت الحمامات ، وبطل البيع والشرى ، وجرى فى بغداد مالم يجر فى بلد آخر ، وخلف الميت ولدين أبا عبدالله الحسين ولقبه المؤيد ، ويحيى ولقبه الموفق .

ذكر بقية الحوادث

منها أنه شرع فى هذه السنة بناء المدرسة العادلية الكبيرة بدمشق المقابلة لدار العقيقى من الغرب . وحضر السلطان لترتيب وضعها بين الصلاتين يوم السبت الرابع عشر من جمادى الآخرة ، ثم احترقت فى شهر رمضان سنة أربع عشرة وستمائة .

ومنها[٢] أنه عزل القاضى الزكى بن محيى الدين بن الزكى وفوض الحكم إلى القاضى كمال الدين بن الجرستانى وهو ابن ثنتين وتسعين سنة ، فحكم بالعدل وقضى بالحق ويقال : إنه كان يحكم بالمدرسة المجاهدة التى عند القواسين بدمشق .

ومنها[٣] أن الملك العادل أبطل ضمان الخمر والقيان .

ومنها[٤] أن الفرنج أغارت على بلاد الإسماعيلية فقتلوا ونهبوا وسبوا نحو ثلثمائة أسير .

ومنها [٥] أن ملك الروم كيكاوس أخذ مدينة أنطاكية من أيدى الإفرنج ثم أخذها منه ابن لاون ملك الأرمن ، ثم أخذها منه إبرنس طرابلس ، وقال السبط[٦] : أخذ ابن لاون أنطاكية من الإفرنج يوم الأحد الرابع والعشرين من شوال وكنت فى ذلك اليوم قد جلست

(١) انظر مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٣٧٥ .
(٢) الذيل على الروضين ، ص٨٩ .
(٣) الذيل على الروضين ، ص٨٩ .
(٤) الذيل على الروضين ، ص٨٩ .
(٥) الذيل على الروضين ، ص٨٩ .
(٦) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٣٧٤ .

عند الملك الظاهر بحلب فى دار العدل ، فلما انقضى المجلس نزلت من المنبر فقام الظاهر والتقانى وأجلسنى إلى جانبه ، ودفع إلى بطاقة جاءته من حارم يخبره بذلك ثم عاد إبرنس طرابلس بعد ذلك أخذها من ابن لاون .

ومنها أن مسعود[١] الجوادى قدم رسولاً من الملك الأشرف إلى الخليفة فالتقاه الموكب ، وكان معه نسر رماه الملك الأشرف للخليفة ، وعلق النسر بباب البدرية[٢] ونثروا عليه دنانير .

ومنها[٣] أن رسول الخليفة وصل من بغداد إلى دمشق وهو الشيخ شهاب الدين السهروردى ، ونزل بجوسق العادل فى رمضان وسار إلى لحاق السلطان بالقدس وعاد راجلا إلى بغداد فى خامس عشر شوال .

ومنها أن الكرج أغاروا على أذربيجان فحازوا ذخائرها ومايزيد على مائة ألف أسير كذا قاله أبو شامة .[٤]

ومنها [٥] أنه وصل الصلاح بن شعبان الإربلى من مصر مبشرا بفتوح اليمن واستيلاء ولد الكامل عليه وطاعة من به من العسكر له بغير حرب .

وفيها ....[٦]

وفيها حج بالناس من العراق ابن أبى الفراس[٧] .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

الحافظ عبد القادر[٨] بن عبد الرحمن أبو محمد ، المحدث الكبير المخرّج المفيد المحرر المتقن البارع المصنف المعيد ، كان مولى لبعض المواصلة . وقيل لبعض

---

(١) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٣٧٤ .
(٢) انظر عقد الجمان ، جـ ٢ ، ص٤٧ ، حاشيه ٤ .
(٣) الذيل على الروضتين ، ص٨٩ ؛ نهاية الأرب ، جـ ٢٩ ، ص٧٠ .
(٤) الذيل على الروضين ، ص٨٩ .
(٥) الذيل على الروضين ، ص٨٩ .
(٦) فراغ بمقدار سطر .
(٧) «فراس» فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٣٧٥ .
(٨) البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص٧٥ ـ ص ٧٦ .

الحرانيين ، اشتغل بدار الحديث بالموصل ، ثم انتقل إلى حران ، ثم رحل إلى بلاد شتى ، وسمع الكثير من المشايخ شرقاً وغرباً وأقام بحران إلى أن توفى بها فى هذه السنة ، وكان مولده بالرها من سنة ست وثلاثين وخمسمائة وكان ديناً صالحا .

وقال أبو شامة[1] : كانت وفاته يوم السبت الثانى من جمادى الأخرى ، سمع بمصر الحافظ السلفى وببغداد ابن الخشاب وشهدة وبأصبهان أبا عبد الله الرسمتى[٣٥٤] وغيرهم وكان صدوقا ورعاً .

الشيخ الفقيه كمال الدين[2] مودود بن الشاغورى الشافعى ، كان فقيها صالحاً دينا خيراً متواضعا زاهدا ، وكان يقرئ الناس الفقه بالجامع قبالة مقصورة الخطابة احتساباً ، ويشرح التنبيه للطلبة ويطول روحه على تعليمهم ، مات فى العشرين من المحرم ودفن بمقابر باب الصغير شمالى الحظيرة التى فيها قبر معاوية وغيرهم من الصحابة - رضى الله عنهم - وكتب على حجر على قبره أبيات حسنة من نظم الشهاب فتيان الشاغورى :

كم ضم قبرك يامودود من دين ... ومن عفاف ومن بر ومن لين
ماكنت تقرب سلطانا لتخدمه ... لكن غنيت بسلطان السلاطين
نبكى عليك وعنا أنت فى شغل ... برد تسليم حُور خرّد[3] عين
سقى الإله ضريحا أنت ساكنه ... حتى ترى منبتا خضر الرياحين

الوجيه[4] الأعمى أبوبكر المبارك بن أبى طالب المبارك بن أبى الأزهر سعيد بن الدهان ، النحوى الواسطى الملقب بالوجيه . ولد بواسط وقدم بغداد فاشتغل بعلم العربية والنحو ، فأتقن ذلك وحفظ شيئا كثيراً من أشعار العرب وسمع الحديث وكان حنبليا ، فانتقل إلى مذهب أبى حنيفة - رضى الله عنه - ثم صار شافعيا وولى تدريس النحو بالنظامية ، وفيه يقول الشاعر :

---

(١) الذيل على الروضتين ، ص٩٠ .
(٢) الذيل على الروضتين ، ص٩٠ ، البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٧٧ .
(٣) «فرد» كذا فى الذيل على الروضتين ، ص٩٠ .
(٤) انظر ترجمته فى مرآة الزمان ، جـ٨ ، ص٣٧٥ ؛ الكامل جـ١٠ ، ص٣٦٧ ، البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٧٦ ، المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص١١٦ ، الذيل على الروضتين ص٩٠ - ص ٩١ .

ألا[١] مبلغٌ عنى الوجيه رسالة	وإن كان لاتجدى إليه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل	وذلك لما أعوزتك المآكل
وما اخترت رأى الشافعى ديانة	ولكنما تهوى الذى هو حاصلُ
وعما قليل أنت لاشك صائرٌ	إلى مالك فافطن[٢] لما أنا قايل

وكان يحفظ شيئا كثيرا من الحكايات والأمثال والملحُ ، ويعرف العربية والتركية والعجمية والرومية والحبشية والزنجية ، وكانت له يد طولى فى نظم الشعر فمن ذلك قوله :

ولو وَقَعَتْ فى لجة البحر قطرةٌ	من المزن يوماً ثم شاء لمازها
ولو ملك الدنيا فأضحى ملوكها	عبيداً له فى الشرق والغرب مازها

الأول من الميز وهو البيان والتفرقة ، والثانى بمعنى الزهو والعجب .

وله فى التجنيس أيضا قوله :

أطلت ملامى فى اجتنابى لمعشر	طعام لئام جودهم غير مرتجا
ترى بابهم لابارك الله فيهم	على طالب المعروف أن جاء مرتجا
حموا مالهم والدين والعرض منهم	مباح فما أيخشون من هجو من هجا
إذا شرع الأجواد فى الجود منهجا	فهم شرعوا فى البخل سبعين منهجاً

الأول من الرجا ، والثانى من الأرتاج وهو الإغلاق ، والثالث من الهجو ، والرابع من النهج وهو الطريق . وله مدائح حسنة وأشعار رائقة ويبتكر معانى فائقة وربما عارض شعر البحترى بما يقاربه ويدانيه ، قالوا : وكان لايغضب قط . تراهن جماعة مع واحد إن أغضبه ، فجاء إليه فسأله عن مسألة[فى[٣]] النحو[٤] فأجابه فيها فقال له السائل : أخطأت[٣٥٥] أيها الشيخ . فأعاد عليه الجواب بعبارة أخرى فقال له : أخطأت أيضاً .

---

(١) «فمن» كذا فى الذيل على الروضتين ، ص٩١ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص ٧٦ .
(٢) «فانظر» كذا فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص ٧٦ .
(٣) «من» كذا فى الأصل والمثبت من البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص٧٦ .
(٤) «العربية» كذا فى البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٧٦ .

فأعاد ثالثة فقال : كذبت فكأنك قد نسيت النحو . فقال له الوجيه : فلعلك لم تفهم ما أقول لك . فقال : بلى ولكنك تخطئ . فقال له : فقل ما عندك لنستفيده منك . فأغلظ له السائل فقال الوجيه : إن كنت راهنت فقد غلبت إنما مثلك فى هذا المثل البقة يعنى الناموسة سقطت على الفيل فلما أرادت الطيران قالت له : استمسك فإنى أريد أن أطير . فقال لها : ما أحسست [بك[1]] حين سقطت فما أحتاج أن أستمسك إذا طرت . ولد سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائه بواسط ، وتوفى ليلة الأحد الثانى والعشرين من شعبان من هذه السنة ببغداد ودفن من الغد بالوردية[2] عند ابن فضلان ومن إنشاده :

لاخير فى الخمر فمن شأنها | إفقادها العقل وجلب الجنون
وأن تُرِى الأقبح مستحسنا | وتظهر السر الخفى المصون

(١) «بأنك» فى الأصل . والمثبت من البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٧٧ .
(٢) «الوزيرية» فى الذيل على الروضين ، ص٩١ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الثالثة عشرة بعد الستمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله وملوك البلاد . غير أن الملك الظاهر غازى توفى فى هذه السنة .

ذكر وفاة الملك الظاهر

والكلام فيه على أنواع :

(الأول) فى ترجمته : هو السلطان الملك[1] الظاهر أبو الفتح وأبو منصور غياث الدين غازى ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب صاحب حلب وكانت ولادته بالقاهرة فى منتصف رمضان سنة ثمان وستين وخمسمائة ، وهى السنة الثانية من استقلال أبيه بمملكة الديار المصرية ، وأعطاه والده مملكة حلب فى سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة بعد أن كانت لعمه الملك العادل فنزل عنها ، وتعوض غيرها وكان عمره حين تولى حلب أربع عشرة سنة .

(الثانى) فى سيرته :

كان ملكا مهيبا حازمًا متيقظًا كثير الإطلاع على أحوال رعيته وأخبار الملوك عالى الهمة ، حسن التدبير والسياسة باسط العدل محبا للعلماء ، مجيزا للشعراء . وقال السبط[2] : كانت دولته معمورة بالعلماء والفضلاء مزينة بالملوك والأمراء ، وكان محسنا إلى الرعية وإلى الوافدين عليه وحضر معظم غزوات والده . ولما استقر العادل بدمشق ضم الظاهر إليه الأمراء الصلاحية ، كميمون القصرى والمبارزين يوسف بن خطلج الحلبى ، وسنقر الحلبى ، وسرا سنقر وأيبك فطيس وغيرهم ، وكان فى دولته من أرباب العمائم القاضى بهاء الدين بن شداد ، والشريف الافتخارى ، والشريف والنسابة ، وبنو العجمى والقيسرانى ، وبنو الخشاب وغيرهم ، وكان ملجأ للغرباء ، وكهفًا للفقراء ، يزور الصالحين ويعتقدهم ويغيث المهلوفين ويرفدهم ، وكان يتوقد ذكاء وفطنة سريع الإدراك . قال ابن[3] خلكان : ويحكى عن سرعة إدراكه أشياء حسنة منها : أنه جلس يومًا لعرض

(*) يوافق أولها ٢٠ إبريل سنة ١٢١٦م .

(١) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ٤ ، ص٦ – ص١٠ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص٧٧ –ص٧٨ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٧٩ ـ ص٣٨٠ .

(٢) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٧٩ ، الذيل على الروضتين ، ص ٩٤ .

(٣) وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ٦ .

العسكر وديوان الجيش بين يديه فكان كلها حضر واحد من الأجناد سأله الديوان عن اسمه ليزكوه[١] ، حتى حضر واحد فسألوه فقبل الأرض فلم يفطن أحد من أرباب الديوان لما أراد فأعادوا سؤاله ، فقال الملك الظاهر : اسمه غازى . وكان كذلك وتأدب الجندى أن يذكر اسمه[٣٥٦] لما كان موافقا لاسم السلطان ، وعرف هو مقصوده ، وله من هذا الجنس شىء كثير . وكان فيه بطش كبير وإقدام على سفك الدماء ثم أقصر عن ذلك ، وهو الذى جمع شمل البيت الصلاحى .

(الثالث) فى تاريخ وفاته :

توفى بقلعة حلب ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة وستمائة . قال النويرى[٢] : وابتدأ به المرض فى الخامس والعشرين من جمادى الأولى وتوفى فى التاريخ المذكور . وفى المرآة[٣] : مات بعلة الذرب ولما اشتد به المرض أحضر القضاة والأكابر وكتب نسخة يمين أن يكون المُلك بعده لولده الملك العزيز الصغير ، ثم من بعده لولده الكبير الملك الصالح صلاح الدين أحمد بن غازى ، وبعدهما لابن عمهما الملك المنصور عمر بن العزيز عثمان بن السلطان صلاح الدين يوسف . وحلف الأمراء والأكابر على ذلك .

وقال ابن كثير[٤] : وكان للملك الظاهر أولاد كبار ، ولكنه عهد إلى الملك العزيز هذا من بينهم ، لأنه كان من بنت عمه الملك العادل ، وأخواله الأشرف والمعظم والكامل وجده العادل لا ينازعونه ، وهكذا وقع سواء بايع له جده العادل وخاله الأشرف صاحب حران والرها وخلاط ، وهمّ المعظم بنقض ذلك فلم يتفق له ، ولما كان الظاهر دفن بالقلعة ، ثم عمر الطواشى طغريل الخادم الرومى الأبيض أتابك ولده الملك العزيز مدرسة تحت القلعة ، وعمر فيها تربة ، ونقله إليها . وقال المؤيد[٥] : لما كانت صبيحة يوم السبت الخامس والعشرين من جمادى الأولى من هذه السنة ابتدئ بالملك الظاهر حُمى حادة ،

---

(١) «ليتزلوه» كذا فى وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ٦ .
(٢) نهاية الأرب ، جـ ٢٩ ، ص ٧٥ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، جـ ٨ ، ص ٣٨٠ .
(٤) البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٧٧ ـ ص ٧٨ .
(٥) المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ١١٧ .

ولما اشتد مرضه أحضر القضاة فذكر نحو ما ذكرناه ، ثم قال : وجعل الحكم فى الأموال والقلاع إلى شهاب الدين طغريل الخادم غدق به جميع أمور الدولة ، وفى الثالث عشر من جمادى الآخرة أقطع الملك الظافر خضر [كفر سودا][1] وأخرج من حلب فى ليلته بالتوكيل ، وأخرج علم الدين قيصر ملوك الظاهر إلى حارم نائبًا .

وفى خامس [عشر][2] جمادى الآخرة اشتد به المرض ومُنع الناس من الدخول إليه ، وتوفى فى التاريخ المذكور ، وكان عمره حين توفى أربعًا وأربعين سنة وشهورًا ، وكانت مدة ملكه لحلب من حين وهبها له أبوه إحدى وثلاثين سنة .

(الرابع) فيما رثى به : وقال ابن الحِلِّى يرثيه ويمدح ولديه الملك العزيز والملك الصالح أحمد صاحب عنيتاب بقصيدة طويلة ، أولها هو قوله :

سل الخطب إن أصغى إلى من يخاطبه　　بمن علقت أنيابه ومخالبه
نشدتك عاتبه على نائياته　　وإن كان نابى السمع عمن يعاتبه
لى اللهُ كم أرمى بطرفى خلاله　　إلى أفق مجد قد تهاوت كواكبه
فمالى أرى الشهباء قد حال صبحها　　علىَّ دجى لا يستنير غياهبه
أحقًا حِمَى الغازى الغياث بن يوسف　　أُبيح وعادت خابيات مواكبه
نعم كُوِّرت شمس المدائح وانطوت　　سماء العُلى والنجح ضاقت مذاهبه
فمن لليتامى يا غياث يغيثهم　　إذا الغيث[3] لم ينفع صدى العام ساكبه[٣٥٧]
فإن يك نور من شهابك قد خبى　　فيا طالما جَلَّى دجى الليل ثاقبه[4]
فقد لاح بالملك العزيز محمد　　صباح هدى كنا زمانا نراقبه
فتى لم يفته من أبيه وجده　　إباء وجَدٌّ غالبًا يغالبه

---

(١) «كفر سورا» كذا فى الأصل والمثبت من المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ١١٧ ، زبدة الحلب ، جـ ٣ ، ص١٧٠ ؛ مفرج الكروب ، جـ ٣ ، ص٢٤٠ . ومن الجدير بالملاحظة أن كفر سوذ من أعمال حلب قرب بهسنا وتكتب أيضا «كفر سُوت» انظر معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٢٨٨ .

(٢) ما بين حاصرتين ساقط من الأصل والمثبت من المختصر ، جـ ٣ ، ص١١٧ ، مفرج الكروب ، جـ ٣ ، ص٢٤٠ .

(٣) «ينقع» فى وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ٨ .

(٤) «ثاقب» كذا فى الأصل والمثبت من وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص٩ ؛ مفرج الكروب ، جـ ٣ ، ص ٢٤٦ .

ذكر تولية الملك العزيز

قد ذكرنا أن الملك الظاهر أوصى بمملكته من بعده لولده الملك العزيز محمد بن غازى وكان عمره لما قرر فى المملكة سنتين وأشهُرا وكان عمر أخيه الملك الصالح أحمد اثنتى عشرة[١] سنة ، ولقد ذكرنا أن الظاهر اختار هذا الصغير لأنه كان من صفية خاتون بنت الملك العادل ، وأخواله ، الأشرف والمعظم والكامل ، ولما تمت المبايعة له صار مرجع الأمور كلها إلى شهاب الدين طغريل الخادم الرومى الأبيض ، فدبر الأمور وأحسن السياسة وكان دينا عاقلا . وقال بيبرس[٢] فى تاريخه : توفى الظاهر بحلب وعهد بالملك بعده لولده محمد ، وجعل تدبير دولته إلى مملوك له رومى اسمه طغرل ، ولقب بشهاب الدين ، فأحسن السيرة وأحسن تربية الطفل ، واستقامت البلاد والعباد له ، وملك بسياسته أماكن يتعذر على الظاهر ملكها ، ومنها تل باشر ، ولم يقدر الظاهر عليه ، وحفظ مملكة حلب على ولد الظاهر بحسن تدبيره إلى أن كبر واستقل به . وقال أبو شامة[٣] : وفوض الظاهر ولاية القلعة إلى خادم أبيض يعرف بالشهاب طغرل كان وصل إلى خدمته من بلاد الروم ، وكان مشتهرا بالزهد فصار له عنده مكانة . وقال السبط[٤] : وصل أبو العباس عبد السلام بن عصرون رسولا من حلب من الملك العزيز محمد إلى الخليفة ، وسأل تقريره على ما كان عليه أبوه .

ذكر بقية الحوادث

فى هذه السنة منها أن السبط[٥] ذكر فى المرآه أن الأشرف ابن العادل نزل من خلاط إلى حران فى شعبان وسألنى الجلوس بجامع حران وقال : إلى الآن ما دخلت حران . فضربت له حركاة فى الجامع ، وحضر يومًا مشهودا ، وجلس فى الحركاة وجاء الفخر بن السميّة الخطيب فقعد عنده وكتبوا إلىَّ رقاعًا كثيرة فجمعتها وقلت : اتركوا هذه إلى يوم مجلس شيخكم يجيب عنها فهو يطول روحه عليكم ، أما هذا اليوم فالوقت ما يحتمل . فأعجب الأشرف وانقضى المجلس . فقلت للأشرف : لابد لى فى هذه السنة

(١) «اثنى عشر» فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه .
(٢) انظر نهاية الأرب ، جـ ٢٩ ، ص ٧٥ .
(٣) الذيل على الروضتين ، ص ٩٤ .
(٤) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٧٦ .
(٥) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٧٦ .

من شيئين : الحج على بغداد ، والثانى الاعتكاف بالرقة . فقال مبارك : وخرجت من حران فى آخر شعبان أريد الرقة وبينما أنا بين مكة والرقة وإذا بنجابين بينهم رجل عليه بغلطاق أحمر ، فقلت لأصحابى : هذه شمائل الملك المعظم . فقالوا : المعظم فى دمشق إش جابه إلى ههنا . فلما قربوا منا إذا به المعظم وقد أعيت ناقته فنزل وتحدثنا وأكلنا شيئا كان معنا وأعطانا ناقته وأخذ فرسى وقال : أين أخى؟ فقلت : فى الزراعة ، وساق واجتمعا ، وفاوضه فى أمر حلب ، وكان الأشرف قد حلف لشهاب الدين طغريل الخادم وأنه أتابك محمد العزيز ولد الظاهر ، فشق على المعظم ولم يقل شيئا وجاء إلى الرقة وأنا معتكف بالخانكاة وحضرا عندى وسار المعظم إلى دمشق وجهزنى الأشرف إلى الحج وعمل [لى][1] سبيلا مثل سبيله ، وتوجهت إلى بغداد . قال : ثم حجيت[٣٥٨] وعدت من الحج على تبوك والعلى وجمعت بين زيارة النبى صلى الله عليه وسلم وبين زيارة الخليل عليه السلام فى المحرم ولله[2] المنة . وفى الحديث : من زارنى وزار إبراهيم[3] عليه السلام فى عام واحد ضمنت له على الله الجنة . وإن لم يتفق على نقل هذا الحديث الثقات ، والأعمال بالنيات .

وقال أبو[4] شامة : وكان المعظم سار من قرية العبادية[5] بالمرج إلى أخيه الأشرف على الهجن فى البرية ، واجتمع به على مسألة[6] بظاهر حران بعد أن كان ضلّ فى سيره ، ففاوضته فى أمر حلب وذلك حين بلغه موت صاحبها ابن عمه الظاهر غازى بن صلاح الدين ، وكان قد سبق من الأشرف الاتفاق مع القائم بأمرها ، فرجع إلى العبادية بعد سبعة عشر يوما ولم يظهر للناس إلا أنه كان متصيدا .

ومنها[7] أنه أحضرت الأوتاد الخشب لأجل نسر قبة الجامع بدمشق ، وعدتها أربعة أعواد ، طول كل واحد منها اثنان وثلاثون ذراعا بذراع البحار ، كانت قطعت من الغوطة

(١) ما بين حاصرتين ساقط من الأصل والمثبت من الذيل على الروضتين ، ص ٩٣ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٧٦ .
(٢) انظر مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٧٧ .
(٣) «أبى إبراهيم» فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٧٧ .
(٤) الذيل على الروضتين ، ص ٩٢ .
(٥) العبادية بالمرج : لم يذكر ياقوت سوى أنها قرية من قرى المرج .
(٦) «مسلة» كذا فى الذيل على الروضتين ، ص ٩٢ .
(٧) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص ٩٢ .

وأدخلت من باب الفرج إلى المدرسة العادلية إلى باب الناطفانيين . وأقيم هناك لها صوارى ورفعت ثم وضعت .

ومنها[١] أن فى المحرم شرع فى تحرير خندق باب السر ، وهو المقابل لدار الطعم العتيقة المجاورة لنهر بانياس ، وكان المعظم ومماليكه وعسكره ينقلون التراب ، كل واحد يأخذ قفة يجعلها على قربوس سرجه ويمضون جميعا مع المعظم نحو الميدان الأخضر يفرغون القفاف ويرجعون يفعلون ذلك كل يوم . ثم انقسموا فرقتين ؛ فكان المعظم وعسكره ينقلون يوما ، وكان أخوه الصالح إسماعيل مع من انضم إليه من العسكر ينقلون يوما ، والناس فى الخندق يعملون ، وكثير منهم يتفرجون ، وكان كل يوم عمل الخندق على طائفة من أهل البلد ، وعمل فيه الفقهاء والصوفية ، ولم يبق أحد ونظم فى ذلك أشعار كان يُغنى بها فى الأسواق وتحت القلعة .

ومنها[٢] أنه وقعت فتنة عظيمة بين أهل الشاغور[٣] وأهل العقيبة[٤] واقتتلوا بالرحبة والصيارف ، فركب الجيش مُلَبَّسين ، وجاء السلطان المعظم بنفسه فحبس رؤسهم وسكتت الفتنة .

قال أبو شامة[٥] : قبض على جماعة من مقدمى الحارات فيهم رئيس الشاغور ، وأودعوا فى السجن فى السادس والعشرين من ربيع الأول .

ومنها[٦] أنه امتنع تجار الفرنج من الوصول إلى الإسكندرية وصار وصولهم إلى عكا بالبضائع وبيعهم بها ، فحصل لملك عكا جملة وافرة وبلغ ضمان قصبها مائة وعشرين ألف دينار . وكانت سنة قليلة الأمطار غالية الأسعار .

ومنها أنه رتب بالمصلى بدمشق خطيب مستقل ، وأول من باشرها الصدر مُعيد الفلكية[٧] ، ثم خطب بعده بهاء الدين بن أبى البُسْر ، ثم بنو حسان إلى الآن .

---

(١) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص ٩٢ .

(٢) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص٩٢ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٧٧ ؛ نهاية الأرب ، جـ ٢٩ ، ص٧١ .

(٣) الشاغور : انظر ما سبق ، ج١ ، ص ١٤٩ .

(٤) العقيبة : انظر ما سبق ، ج١ ، ص ١٤٩ .

(٥) الذيل على الروضتين ، ص ٩٢ .

(٦) الذيل على الروضتين ، ص ٩٣ .

(٧) المدرسة الفلكية : داخل باب الفراديس أنشأها فلك الدين سليمان أخو الملك العادل سيف الدين أبى بكر . الدارس ، جـ ١ ، ص ٤٣١ ـ ٤٣٣ .

وفيها ....[١]

وفيها[٢] حج بالناس من العراق ابن أبى فراس ، ومن الشام الفقيه علم الدين الجعبرى .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

العز[٣] محمد بن الحافظ عبد الغنى المقدسى ؛ ولد سنة ست وستين وخمسمائة ورحل إلى بغداد وقرأ بها مسند أحمد رحمه الله . وكانت له حلقة بجامع دمشق ، وكان من أصحاب الملك المعظم ، وكان صالحا دينا ، وتوفى فى هذه السنة ودفن بقاسيون رحمه الله . [٣٥٩]

أبو الفتوح[٤] محمد بن على بن المبارك بن الجلاجلى البغدادى التاجر ، ويلقب بالكمال . ولد سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، وقرأ القرآن وسافر إلى الأقطار وسمع الشيوخ ، وكان يتردد من الخليفة إلى الأشرف فى رسائل خفيَّة . سمع ببغداد أبا السعادات المبارك بن على الوكيل ، وابن النظر وغيرهما . وبالإسكندرية الحافظ أبا طاهر السلفى وغيرهم ، وكان عاقلا دينا صالحا ، ثقة صدوقا ، بساما متواضعا ، مات بالقدس فى هذه السنة .

الشريف أبو جعفر يحيى بن محمد [بن محمد بن محمد][٥] بن محمد بن على بن زيد العلوى الحسنى نقيب الطالبيين بالبصرة بعد أبيه . كان شيخا أديبا فاضلا ، عالما بفنون كثيرة ، لا سيما بالأنساب وأيام العرب وأشعارها ، يحفظ كثيرا [منها][٦] ، وكان من جلساء الخليفة الناصر .

ومن لطيف شعره قوله :

---

(١) بياض بالأصل حوالى نصف سطر .

(٢) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص ٩٣ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٧٦ .

(٣) انظر ترجمته فى البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٨١ ؛ الذيل على الروضتين ، ص ٩٩ .

(٤) انظر ترجمته فى الذيل على الروضتين ، ص ٩٩ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٨١ وقد ذكره ابن كثير «الخلاخلى» .

(٥) فى الأصل : «ابن يحيى» . والمثبت من الذيل على الروضتين ، ص ١٠٠ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٨١ .

(٦) ما بين الحاصرتين مثبت من البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٨١ . وذلك لاستقامة المعنى .

ليهنكَ سمعٌ لا يلائمه العذلُ وقلبٌ قريحٌ لا يملُ ولا يسلو
كأنَّ علىَّ الحبَّ أمسى[١] فريضةً فليس لقلبى غيرَهُ أبدًا شغلُ
وإنى لأهوى الهجرَ ما كان أصلهُ دلالا ولولا الهجرُ ما عذُبَ الوَصلُ
وأما إذا كان الصدودُ ملالةً فأيسر ما همَّ الحبيب به القتلُ

وقال السبط فى المرآة[٢] : يحيى بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد أربع مرات ، أبو جعفر العلوى الحسنى البصرى ، ويعرف بابن أبى زيد ، ومولده سنة ثمان وأربعين وخمسمائة ، وقدم بغداد ومدح الإمام الناصر بقصائد ، وكان رقيق الشعر مليح النظم ، وهو القائل :

هذا العقيق وهذا الجزعُ والبانُ فاحبس فَلى فيه أوطارٌ وأوطان
آليتُ والحرّ لا يلوى أليته أن لا يلذّ بطيب النوم أجفان
حتى تعود [ليالينا][٣]التى سلفت بالأجرعين وجيرانى كما كانوا
أيام أغصان وصلى غيرُ ذاوية وروضها خَضِلٌ والعمرُ رَيْعانُ
يا حبذا شجر الجرعاء من شجر وحبذا روضُه المخضل والبانُ
إذا النسيم سرى مالت ذوائبه كأنما الغصن الممطور سكرانُ
فللنسيم على الأغصان هينمة وللحمام على الأفنان ألحانُ
وبارق لاح والظلماء دَاجيَة والنجمُ فى الأفق الغربى حَيرانُ
كتمت حُبَك والأجفان تُظهرُه وليس للحبّ عند العين كتمانُ
غادرت بالغدْر فى الأحشاءِ نار جوى ومذ هجرت ففيض العين غِدرانُ

وكانت وفاته ببغداد فى رمضان ، ودفن بمقابر قريش ، وكان سمع الحديث من أبيه وغيره .

---

(١) «أضحى» فى البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٨١ .
(٢) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٨١ .
(٣) «الليالى» فى الأصل . والمثبت من الذيل على الروضتين ، ص ١٠٠ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٨١ .

أبو[1] **على مزيد بن على بن مزيد المعروف بابن الخشكرى** ، الشاعر المشهور من أهل النعمانية ، جمع لنفسه ديوانا ، أورد له ابن الساعى قطعة من شعره . فمن ذلك قوله :

سألتكِ يومَ النوى نظرةً ... فلم تسمحى خفرا[2] لاسلم
وأعجبُ كيف تقولين لا ... ووجهك قد خُطّ فيه نعم
أما النونُ يا هذه حاجبٌ ... أما العينُ عينٌ أما الميم فَم

أبو الفضل[3] ، **وسران[4] بن منصور [٣٦٠] بن وسران الكردى المعروف بالمثقف[5]** ، ولد بإربل وخدم جنديا ، وكان أديبا شاعرا ثم خدم الملك العادل ، ومن شعره قوله :

سلا عنى الصوارم والرماحا ... وخيلاً تسبق الهوج الرياحا
وأسدًا جيشها سمر العَوالى[6] ... إذا ما الأسد حاولت الكفاحا
فإنى ثابتُ عقلا ولبًّا ... إذا ما صائح فى الحرب صاحا
وكم ليلٍ سهرت وبتُّ فيه ... أراعى النجمَ أرتقب الصباحا
وكم من فدفد[7] فرسى ونضوى[8] ... بقائلة الهجير غدا وراحا
لعينك فى العجاجة[9] ما ألاقى ... وأثبت فى الكريهة لا براحا

أبو نصر[10] **النحاس محمد بن يحيى بن هبة الله** ، الواسطى الأديب بواسط كتب من واسط إلى ابن المظفر سبط ابن الجوزى رحمه الله .

---

(١) انظر ترجمته فى البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٨١ - ٨٢ .
(٢) «فعز» فى البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٨٢ .
(٣) انظر ترجمته فى البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص٨٢ .
(٤) «رشوان» فى البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص٨٢ .
(٥) المثقف : تعنى الرمح فى عرف الشعراء ، وهذا يتمشى من سياق النص ، المنجد ، مادة ثقف ؛ أما فى البداية والنهاية فقد وردت «بالنقف» جـ ١٣ ، ص٨٢ .
(٦) عوالى الرماح : أسنتها . واحدتها : عالية . لسان العرب ، مادة «علا» .
(٧) الفدفد : هى الأرض المرتفعة ذات الحصى .
(٨) نضوًا : أى التقدم .
(٩) العجاجة : الغبار والدخان .
(١٠) انظر ترجمته فى : البداية والنهاية جـ ١٣ ، ٨٢ ، والذيل على الروضتين ، ص ٩٩ - ص١٠٠ .

وقـائلة لمـا عـمـرتُ وصـار لى ثمانون عاما عش كذا وابق واسلمِ
ودم وانتـشق رُوح الحـيـاة فـإنه بلا طب من بيت بصَعـدة مظلم
فقلت لما عـذرى لديك ممـهـد ببـيت زهيـر فـاعلمى وتعلمى
سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمـانين حـولا لا مـحـالة يسـأم

توفى فى هذه السنة .

أبو الغنائم[١] **سعيد بن حمزة بن أحمد ويقال له ابن ساروح**، الكاتب النيلى العراقى ولد بالنيل[٢] سنة ثمانى عشرة وخمس مائه ، وسمع شيوخ ذلك العصر ، وسافر إلى الشام والروم ومدح الملوك والأمراء ، وذكره العماد فى الخريدة وقال : قدم دمشق ومدح أمراءها وعاد إلى بغداد فكبر ، وأسنّ وانقطع فى بيته إلى آخر عمره ، وكان بارعا وله رسائل ومكاتبات وأشعار رائقة ، وألفاظ فائقة شائقة .

فمن شعره :

يا شايم البرق من نجدى كاظمة يبـدو مـرارًا وتخـفـيـه الدياجـيـر
إذا سقيت الحيا من كل معصرة وعـاد مـغناك خـصبا وهو مـمطور
سلم على الدوحة الغناء من سلم وعـفّـر الخَـدَّ إن لاح التـعـافـيـر
أحن شوقا إلى تلك الرياض وقد ضـاهى بنفـسـجُـهـا وردٌ ومنثـور
ومالت السرو فى خضر الثياب كما تمايلن فى الحرير الأخضر الحور
والغـصن سكران من طللِ الندى فإذا دعى ابن ورقاء أضحى وهو مخمور
وهاتفات على الأغصان قد رقدت عنهن فى غسق الداجى النواظيرُ
فظلن يسجعن حتى كدت من ولهى أقضى ولكنما فى العمر تأخيـر
لكن وجدى بترجيع الهُديل وما غـردن باق إلى أن يفـتح الصـور

وكانت وفاته ببغداد فى رمضان من هذه السنة .

---

(١) انظر مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٧٩ ؛ الذيل على الروضتين ، ص ٩٩ .
(٢) النيل : بليدة فى سواد الكوفة قرب حلة بنى مزيد يخترقها خليج كبير يتخلّج من الفرات الكبير حفره الحجاج بن يوسف وسماه بنيل مصر . انظر معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٨٦١ .

الشيخ[1] تاج الدين الكندى ، زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد بن عصمة بن حمير بن الحارث بن ذى رعين أبو اليمن ، البغدادى المولد والمنشأ الدمشقى الدار ، الشيخ الإمام العالم العلامة وحيد عصره ونسيج وحده .

ولد ببغداد ونشأ بها واشتغل وحصل ثم قدم دمشق ففاق أهل زمانه شرقا[٣٦١] وغربا فى النحو والعربية وغير ذلك من فنون العلوم وعلو الإسناد ، وحسن الطريقة والسيرة وصحة العقيدة والسريرة ، انتفع به علماء عصره وخضعوا له وأثنوا عليه ، وكان حنبليا ثم صار حنفيا ، وكان مولده فى اليوم الخامس والعشرين من شعبان سنة عشرين وخمسمائة ، فقرأ القرآن بالروايات وله عشر سنين وسمع الحديث على الشيوخ الثقات وعنى بذلك وتعلم العربية واللغة واشتهر بذلك ، ثم صار إلى الشام فسكن بدمشق بدرب العجم وحظى عند الملوك والوزراء والأمراء وتردد إليه العلماء والكبراء والملوك وأبناؤهم ، وكان الأفضل ابن السلطان صلاح الدين وهو صاحب دمشق يتردد إليه وأخوه المحسن وكذلك المعظم فى أيامه على ملك الشام ، فنزل إليه إلى درب العجم فقرأ عليه فى المفصل . وكان المعظم يعطى لمن حفظ المفصل ثلاثين ديناراً جائزة ، وكان يحضر مجلسه بدرب العجم جميع المصدرين بالجامع كالشيخ علم الدين السنجاوى ، ويحيى ابن معطى ، والوجيه البُونى والفخر التركى وغيرهم . وكان القاضى الفاضل فى أيامه يثنى عليه . قال السخاوى : كان عنده من العلوم ما لا يوجد عند غيره . ومن العجيب أن سيبويه قد شرح عليه كتابه ، وكان اسمه عمرو واسم الشيخ أبى اليمن زيد ، فقلت فى ذلك :

لم يكن فى عهد عمرو مثله	وكذا الكندى فى آخر عصره
وهما زيد وعمرو وإنما	بنى النحو على زيد وعمر

وأثنى عليه غير واحد من العلماء ، منهم أبو المظفر سبط ابن الجوزى وقال[2] : قرأت عليه وكان حسن العقيدة ظريف الخلق لا يسأم الإنسان من مجالسته ، وله النوادر العجيبة والخط المليح والشعر الرائق ، وله ديوان كبير ، وقال السبط فى المرآة[3] : وفى هذه السنة

(١) انظر الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٧٠ ؛ الذيل على الروضتين ، ص ٩٥ - ص ٩٩ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص ٧٨ - ص ٨١ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٧٧ ؛ المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ١١٧ .
(٢) انظر قول السبط فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٧٧ .
(٣) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٧٧ .

توفى شيخنا تاج الدين الكندى أبو اليمن البغدادى المولد والمنشأ الدمشقى الدار ، قرأ القرآن بالروايات ، وله عشر سنين على الشيخ أبى محمد عبدالله بن على سبط الشيخ أبى منصور الخياط وهو الذى رباه ، وكان خصيصًا به وقرأ عليه كتاب المنهج والكامل تأليف أبى محمد ، وكتاب الحجة فى القراءات لأبى على الفارسى وقرأ على أبى محمد من كتب العربية كتاب سيبويه والمقتضب والإيضاح والتكملة ، وقرأ العربية أيضا على أبى السعادات بن الشجرى واللغة على أبى منصور بن الجواليقى ، وسمع الحديث الكثير من شيوخ جدى وغيرهم ، وفارق بغداد فى سنة ثلاث وستين وخمسمائة وأقام بدمشق ، واختص بعز الدين فرخشاه ابن أخى صلاح الدين وبولده الملك الأمجد صاحب بعلبك ، وانتهت إليه القراءات والروايات وعلم النحو واللغات ، وقرأت عليه من كتاب الصحاح للجوهرى ، وكان يحضر مجالسى بجامع دمشق وقاسيون ويقول : أنا قد صرت من زبون المجلس ، ولما خرجت فى سنة سبع وستمائة إلى الغزاة كتب إلى نابلس كتابًا بخطه ، وكان يكتب مثل الدّر :

جزى الله بالحسنى ليالى أحسنت ... إلينا بإيناس الحبيب المسافر
ليالى كانت بالسرور قصيرة ... ولم تك لولا طيبها بالقصاير
[٣٦٢]فيا لك وصلا كان وشكُ ... كزورة طيف أو كنعبة[1] طاير

قال وله ديوان شعر وحكى لى قال : كتبت إلى الملك الأمجد إلى بعلبك :

لا تضجرنكم كتبى إذا كثرت ... فإن شوقى أضعاف الذى فيها
والله لو ملكت كفى مهادنة ... من الليالى التى يخشى تعاديها
لما تصرم لى فى غير داركم ... عُمرٌ ولا متُّ إلا فى نواحيها
عدُّوا احتمالكم لى حين أضجركم ... من الصلات التى منكم أرجيها

قال : فكتب إلى بخطه وهى له :

إنا ليتحفنا بالشوق كتبكم ... وإن بعدتم فإن الشوق يدنيها
وكيف تضجر منها وهى مذهبةٌ ... من وحشة الشوق لوعات نعانيها

(١) نعبة : أى صوت الغراب وهو صوت ينذر بالبين على زعمهم . انظر المنجد مادة «نعب» .

وإن ذكـرتم لنا فـيهـا اشـتـيـاقكم	فـبعـدنا منكم أضعـاف ما فـيـهـا
سلوا نسيم الصبـا يهدى تحيتنا	إليكم فهى تدرى كيف تهديها

قال : وكان الملك المعظم عيسى رحمه الله يقرأ عليه دائما ، قرأ عليه كتاب سيبويه نصًا وشرحًا ، والإيضاح والحماسة وشيئا كثيرا ، وكان يمشى من القلعة راجلا إلى دار تاج الدين الكندى والكتاب تحت إبطه ، ثم توفى يوم الإثنين سادس شوال وأنا يومئذ متوجه إلى الحج على بغداد وصلى عليه بجامع دمشق ، وحمل إلى قاسيون فدفن به ولم يتخلف عن جنازته أحد من الأعيان ، وعمره ثلاث وتسعون سنة وشهر وستة عشر يوما ، وكان صدوقا ثقة .

وقال ابن كثير : وكان قد وقف كتبًا نفيسة وهى سبع مائة وواحد وستون مجلدا ، على معتقه نجيب الدين ياقوت ، ثم على ولده من بعده ، ثم على العلماء فى الحديث والفقه واللغة وغير ذلك . وجعلت فى خزانة كبيرة بمقصورة ابن سنان[1] المجاورة لمشهد على زين العابدين رضى الله عنه . ثم إن هذه الكتب تفرقت وأبيع كثير منها ولم يبق بالخزانة المشار إليها إلا القليل ، وهى مقصورة الخليفة ، وكانت قديما يقال لها : مقصورة ابن سنان . وقد ترك الشيخ تاج الدين نعمة وافرة وأموالا جزيلة ومماليك متعددة من الترك . وقد كان رقيق الحاشية حسن الأخلاق يعامل الطلبة معاملة حسنة فلما كبر ترك القيام لهم وأنشأ اعتذارا :

تركت قيامى للصديق يزورنى	ولا ذنب لى إلا الإطالة فى عمرى
فإن بلغوا من عشر تسعين نصفها	يبين فى ترك القيام لهم عذرى

(١) «ابن سنان الحلبية» كذا فى البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٧٩ ؛ أما فى الذيل على الروضتين ، ص ٩٨ ، ذكرها : «ابن سنان الحنفية» .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الرابعة عشرة بعد الستمائة(*)

استهلت[1] هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله والسلطان الملك العادل فى الديار المصرية ، وقد وقع فى هذه السنة أمور عظيمة منها قضية السلطان علاء الدين خوارزم شاه ، ومنها قضية الملك العادل بالفرنج ، ومنها قضية جنكيزخان ، فلنبين كل ذلك مفصلا بعون الله ولطفه .

ذكر قضية السلطان علاء الدين خوارزم شاه

محمد[2] بن تكش بن أرسلان بن أتسز بن محمد أنو شتكين صاحب خوارزم وغيرها[٣٦٣] نحو خراسان وبلادها وغير ذلك من البلاد . قال أبو الفتح[3] المنشىء النسائى[4] : لما عظم شأن السلطان علاء الدين خوارزم شاه وفخم أمره ، وتجلت له الدنيا فى ملابسها وأشرقت شمس دولته من أكرم مطالعها ، واشتملت جريدة ديوان الجيش على أربع مائة ألف فارس عزم على ما كان لبنى سلجوق من الحكم والملك ببغداد ، وكان المحرك له فى ذلك أمور منها أنه أرسل إلى الخليفة فطلب منه أن يخطب له ببغداد فلم يجب الخليفة إلى ذلك . وكان الرسول فى ذلك القاضى مجير الدين عمر بن سعد الخورازمى ، وكان عند السلطان من ذوى الاختصاص التام . قال أبو الفتح : وكان السلطان أرسله مرارا إلى الخليفة فلم يعد بجواب تام .

ومنها أنهم استهانوا بسبيله الذى أمر به فى سبيل مكة ، حتى قدّموا سَبيل صاحب الإسماعيلية جلال الدين على سبيل السلطان ، فانتكى منه نكاية شديدة .

ومنها أن الإسماعيلية قتلوا أغلمش الأتابكى ، وقد كان نائب السلطان بالعراق ، قال أبو الفتح : وكان أغلمش ركب يلتقى الحاج منصرفهم من بيت الله الحرام ، فقفزوا عليه فى زى الحاج وقتلوه ، وانقطعت خطبة السلطان من تلك البلاد فحركه ذلك لإعادة

(*) يوافق أولها ١٠ إبريل سنة ١٢١٧م .

(١) مفرج الكروب ، جـ ٣ ، ص ٢٥٤ ؛ المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ١١٧ .

(٢) الكامل ، جـ ١٠ ، ص٣٧١ -٣٧٣ ؛ الذيل على الروضتين ، ص١٠٠-ص١٠١ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص٨٣ .

(٣) أبو الفتح المنشىء النسائى : هو محمد بن أحمد النسوى ، صاحب كتاب وقائع التتار مع علاء الدين محمد خوارزم شاه .
لمعرفة المزيد انظر الذيل على الروضتين ، ص ١٠١ .

(٤) الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٧١ ؛ الذيل على الروضتين ، ص١٠٠ ، ١٠١ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٨٣ .

الخطبة ، ولما قتل أغلمش طمع الأتابك أزبك بن محمد صاحب أران[١] وأذربيجان والأتابك سعد بن زنكى صاحب فارس فى بلاده لبعد السلطان عنهم وانشغاله بحرب الترك فرحل أزبك إلى العراق ، فدخل أصبهان على مواطأة من أهلها ، وجاء سعد إلى الرى فملكها وملك معها قزوين ، وسمنان[٢] وخوار[٣] ، وما يتاخمها وتطايرت الأخبار بها إلى السلطان علاء الدين وهو بسمرقند ، فحركته همته واختار من عسكره مائة ألف فارس وترك معظم عسكره مع أكابر أمرائه وذوى الصيت من كبرائه ببلاد ما وراء النهر وثغور الترك ، فلما وصل إلى قومس[٤] اختار من المستصحبين اختيارا ثانيا فى اثنى عشر ألف فارس ، وخلى ثمانية وثمانين ألفًا فى قومس ورحل إلى جبل بُزرك مخفا مستعجلا ، وهو كورة من كور الرى محدثة ، وسعد بن زنكى بظاهرها فلما رأى سعد أوائل الجيش مشرفة عليه ظن أنهم من الأزبكية المنازعين فى ملك العراق ، ركب بنفسه وعسكره ، وصدق القتال وتوالت عليهم الحملات ، فحين شاهد السلطان علاء الدين خوارزم شاه الجد أمر بنشر الجتر[٥] والأعلام السلطانية ، فعند ذلك تحقق سعد أنه السلطان فنزل وقبل الأرض فأخذه بعض من وصل إليه فكتفه وأحضره بين يدى السلطان ، فأمر بالاحتياط عليه إلى أن يرى فيه رأيه فبقى مكتوفا وعلى البغل محمولا إلى أن وصل السلطان إلى همذان ، وقضى فيها وطره ، وكل يوم يلعب السلطان بالأكره بميدان همذان ، فيحضرون سعدا ويقيمونه هناك إذلالاً به ومعه ملك يقال له نصرة الدين محمد بن بشتكين والصدر رتبة الدين أبو القاسم بن على وزير أزبك بن البهلوان ، وكان أسر أيضًا فلم يزل هؤلاء فى الوثاق بذلة وإهانة إلى أن مَنّ السلطان عليهم وأطلقهم . ولما سمع أزبك بن البهلوان[٣٦٤] المذكور وهو بأصفهان ما حل بسعد بن زنكى أخذ به القيام والقعود وركب مسرعا وسار إلى أن قارب همذان معتقدًا أن السلطان مقيم بالرى فأخبر أن السلطان فى همذان فسقط

(١) انظر جـ ٢ ، ص ٥٤ ، حاشية ٦ .
(٢) انظر جـ ١ ، ص ٢٦٧ ، حاشية ٩ .
(٣) خوار : مدينة كبيرة من أعمال الرى . انظر معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٤٧٩ .
(٤) قومس : كورة كبيرة ، تشمل على مدن وقرى ومزارع وهى فى ذيل جبال طبرستان وهى بين الرى ونيسابور . معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٢٠٣ .
(٥) الجتر : هى المظلة ، وهى قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب ، تحمل على رأسه فى العيدين .
صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ٧ ، ٨ .

قلبه ، فاستشار أصحابه فأشار بعضهم بالعود إلى أصفهان وبعضهم بالعود إلى أذربيجان مخفّين تاركين الأثقال وبعضهم أشار بالتحصين فى قلعة قزوين وكانت قريبة ، فقال أخاف من الحصار واتفقوا على أن يرَوح معظم جيشه مع نصرة الدين محمد بن بشتكين . وكان قد حضر إليه بعد خلاصه من الأسر إلى صوب تبريز ، ويروح أزبك مع مائتى فارس من خواصه فى طريق آخر قريبة إلى تبريز ولكنه مسالك وعرة فأرسل أزبك وزيره وهو أيضا حضر إليه بعد خلاصه من أسر السلطان علاء الدين كما قد ذكرناه إلى السلطان يعتذر عما صدر منه فلما ساروا على هذا الوجه وقع بالوزير المذكور الأمير دكجك السلحدار فى نواحى مازندران ليلاً فتبعه إلى موضع يقال له ميانج ، وهى كورة من كور أذربيجان على حافة النهر الأبيض ، ثم أسره وأسر من معه ، وكان السلطان فى همذان كما ذكرنا ولم يزل الوزير فى أسر السلطان إلى أن رجع نصير الدين دولت يار من عند أزبك ، وكان يتولى منصب الطغرا[1] للسلطان وهو من المناصب الجليلة عندهم ولكنه دون كتابة الإنشاء ، وكان السلطان أرسله إلى أزبك وأمره بإقامة الخطبة باسمه فى سائر مملكته ، وأن يحمل كل سنة إلى الخزانة السلطانية مالا معينًا عيّنه السلطان وأن تكون السكة باسم السلطان ، وأجاب أزبك إلى ذلك وخطب السلطان على منابر أرّان وأذربيجان إلى ما يلى دربند الشروان ، ونصير الدين المذكور حاضر ثم أرسل إلى السلطان هدايا وتحفًا وسلم قلعة قزوين إليه خدمة ، واعتذر فى أمر حمل المال بأن الكرج استضعفوا جانبه واستولوا على أطراف بلاده ولا يحصِّل من بلاده إلا ما يقوم بحاله بعد جهد عظيم ، فصدّقه السلطان على ذلك وعفى عنه المال ثم وجه السلطان رسولا إلى الكرج وحذرهم من الغارة على بلاد أزبك ومن التعرض إليه بالكلية ، فإن بلاده صارت من جملة مماليك السلطان ، وعاد رسول السلطان من عند الكرج ومعه رسولهم بتقادم من طرائف تلك البلاد ، وبالسمع والطاعة ولكن الرسول ما أدرك السلطان إلا بعد عبوره نهر جيحون[2] .

وأما سعد بن زنكى صاحب فارس فإنه لما أسره السلطان كما ذكرنا انتصب مكانه ابنه نصرة الدين أبو بكر بالبذل فاستمال قلوب الأمراء بالبذل والإحسان فأذعنوا له

(١) الطغرا : ذكر الدكتور حسن الباشا أن الطغرى عبارة عن وصل كان يوضع فى عصر المماليك البحرية فى مناشير الاقطاعات بين وصل الطرة والبسملة وترد فيه ألقاب السلطان . انظر الألقاب السلطانية ، ص٣٣ .

(٢) نهر جيحون : نهر جيحون يقع فى إقليم خوراسان ويصب هذا النهر فى بحر آرال (قديما بحيرة خوارزم) والبلاد الواقعة بين هذا النهر ونهر سيحون يطلق عليها بلاد ما وراء النهر . انظر بلدان الخلافة الشرقية ، ص٢١ –ص٢٢ .

بالطاعة ولما أطلقه السلطان كما ذكرنا بعد أن تسلم منه قلعة[(١)] أصطخر وأسكبناد وهما على شواهق الجبال وسلمها إلى المؤيد الحاجب ، وبعد أن شرط عليه أن تحمل كل سنة إلى الخزانة السلطانية من بلاده ثلث الخراج عاد بالخلع والتشريفات . ولما وصل إلى كرسى ملكه وهى مدينة شيراز امتنع عليه ابنه أبو بكر المذكور إلى أن فتح الباب على غفلة منه حسام الدين تكين باش ، وكان أكبر مماليك سعد المذكور[٣٦٥] ومقدم دولته ولم يرع أبو بكر إلا دخول أبيه عليه ، وكان بيده سيف مجرد فضرب به وجه أبيه ضربة أثرت فيه ، وحجز بينهما الذين كانوا حاضرين ، فأمر سعد بالقبض على ابنه ، وأودع بالسجن مدة إلى أن رضى عنه ، وعظم حال حسام الدين عنده إلى أن توفى سعد وقام ابنه أبو بكر المذكور مقامه فخاف حسام الدين وهرب تحت الليل ، وخلّى أمواله وأثقاله مما لا تحمله الظهور وجاء إلى خدمة جلال الدين ، فأعطاه جلال الدين خلخال[(٢)] بقلاعها وأعمالها فأقام بها إلى أن قتل بعد خروج التتار فى سنة ثمان[(٣)] وعشرين وستمائة ثم إن السلطان خوارزم شاه بعد ما ذكرنا من الأمور سار إلى ساوة[(٤)] فملكها وأقطعها لعماد الملك الساوى ، عارض جيشه وهو من أهلها ثم سار إلى قزوين وزنجان[(٥)] وأبهر فملكها بغير ممانع ولا مدافع ، ثم سار إلى همذان فملكها وأقطع بلادها لأصحابه وملك أصفهان وقم[(٦)] وقاشان[(٧)] واستوعب ملك جميع تلك البلاد ، ثم إنه أرسل إلى الخليفة يطلب أن يخطب له ببغداد فلم تقع الإجابة إلى ذلك فعزم على المسير إلى بغداد فقدم بين يديه أميرا كبيرا فى خمسة آلاف فارس وأقطعه حلوان[(٨)] فسار حتى وصل إليها ، فلما سار عن

---

(١) قلعة أصطخر : من أهم الحصون فى بلاد فارس . انظر معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٢٩٩ .

(٢) خلخال : مدينة وولاية فى طرف أذربيجان بها قلاع حصينة . انظر ، معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٤٥٩ .

(٣) «ثمانية» فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه .

(٤) ساوة : مدينة ساوة فى منتصف المسافة بين همذان والرى على طريق القوافل التى تقطع بلاد فارس . انظر ، معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٢٤ ؛ بلدان الخلافة ، ص ٢٤٦ - ص ٢٤٧ .

(٥) أبهر وزنجان : مدينتان يقترن ذكرهما معًا فى الغالب على الطريق غرب قزوين وقد اشتهرتا منذ قديم الزمان . انظر بلدان الخلافة ، ص ٢٥٦ - ص ٢٥٧ .

(٦) «قم» مدينة تذكر مع قاشان وهى مدينة مستحدثة إسلامية تقع فى إقليم الجبال وبها مشهد فاطمة أخت على الرضا الإمام السادس الذى عاش فى أيام هارون الرشيد . معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ١٧٥ ؛ بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢٤٥ .

(٧) قاشان : تقع فى إقليم الجبال وبين قم وقاشان اثنا عشر فرسخا . انظر معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ١٥ ؛ وبلدان الخلافة ، ص ٢٤٤ .

(٨) حلوان : مدينة كبيرة عامرة ، ليس بأرض العراق بعد الكوفة والبصرة وواسط بغداد وسر من رأى أكبر منها وهى بقرب الجبل وليس للعراق مدينة بقرب الجبل غيرها انظر ، معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٣١٧ .

همذان يومين أو ثلاثة سقط عليهم من الثلج ما لم يسمع بمثله حتى عطّب الخراكى[١] والخيام واستمر وقوع الثلج ثلاثة أيام بلياليها ، فهلكت دوابهم وتلفت أيدى الرجال وأرجلهم وطمع فيهم الأكراد فتخطفوهم ، فلم يرجع منهم إلى خوارزم شاه إلا اليسير فتطير من ذلك الطريق وعزم على العود إلى خراسان خوفا من التتار لأنه ظن أنه يقضى حاجته فى المدة اليسيرة فخاب ظنه ، ورأى البيكار بين يديه طويلا فعزم على العود فولى همذان أميرا من أقاربه من جهة والده تكش يسمى طايْسِين ، وجعل فى البلاد جميعها ابنه زكى الدين غور صانجتى ، وجعل معه عماد الملك الساوى متوليًا لأمر دولته ، وكان عظيم القدر عنده ، وعاد خوارزم شاه إلى خراسان ووصل إلى مرو ، وسار إلى ما وراء النهر ، ولما قدم نيسابور جلس يوم الجمعة عند المنبر وأمر الخطيب بترك الخطبة للخليفة الناصر وقال : إنه قد مات . وقطع خطبته من مرو وبلخ وبخارى وسرخس وبقى خوارزم وسمرقند وهراة لم تقطع الخطبة منها ، لا عن قصد لتركها إلا أن هذه البلاد كانت لا تعارض فى أشباه هذا إن أحبوا خطبوا وإن أرادوا قطعوا .

وأما خوارزم شاه فإنه لما عزم على قصد العراق وأظهر للخليفة الناصر ما أظهر من الشقاق وصل إليه من عنده الشيخ شهاب الدين السهروردى رسولا فوعظه وحذره البغى على هذا البيت وكان قد ضرب نوبة ذى القرنين تعاظما ، وكان من قبل تضرب له النوب الخمس فى أوقات الصلوات الخمس ، ففوضها لأولاده يضربونها فى الأقاليم التى سماها لهم على أبواب دور السلطنة التى لكل منهم ، وكان قد قسم[٣٦٦] المماليك لأولاده فعين خوارزم وخراسان وما زندران لولده قطب الدين أبى المظفر أزلاغ شاه وجعله ولى عهده وسبب تخصيصه بولاية العهد دون أخوته وهو أصغرهما أتباع خوارزم شاه رأى والدته تركان خاتون . وعين غزنه وباميان والغور ونكباياذ[٢] ، وزمندور[٣] ، وما يليها من الهند إلى جلال الدين منكبرى ، ولم ير انفصاله عنه فاستناب عنه بها كرز ملك ، وعين

(١) الخراكى : جمع خركاة ، وهو لفظ فارسى معناه الخيمة الكبيرة ، كان يستعملها الملوك والأمراء فى الأسفار . وقد ذكر القلقشندى فى صبح الأعشى ، جـ ٢ ، ص ١٣٨ وصفًا للخركاة نصه : «الخركاة بيت من خشب مصنوع على هيئة مخصوصة ، ويغشى بالجرخ ونحوه ، تحمل فى السفر لتكون فى الخيمة للمبيت فى الشتاء لوقاية البرد» . انظر أيضا : السلوك ، جـ ٢ ق ١ ، ص ٢٠٧ ، حاشية (٤) .

(٢) وردت فى معجم البلدان «بكراباذ» وهى مدينة كبيرة بإقليم سجستان ، وقد أشار إليها الأصطخرى وابن حوقل باسم «تكى ناباذ» ، انظر معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٧٠٥ ؛ بلدان الخلافة ، ص ٣٨٦ .

(٣) زمنداور : ولاية واسعة بين سجستان والغور ، وهى المسمى بالداور . انظر ، معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٩٤٦ . وقد وردت فى خريطة سجستان الملحقة بكتاب بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٣٧٢ ، «زمين داور» .

كرمان وكيش ومكران لولده غياث الدين تتر شاه ، وسلم مُلك العراق إلى ولده ركن الدين أبى الحارث غورصانجتى ، وكان أحسن أولاده خلقًا وخُلقا وحظا ، وكانت نوبة ذى القرنين تضرب له وقتى طلوع الشمس وغروبها ، وكانت دَبادبها وآلاتها ذهبا ، وأول يوم ضربها اختير لها سبعة وعشرون ملكا من أكابر الملوك وأولاد السلاطين ، منهم ابن طغرل بك السلجوقى ، وابن غياث الدين بن سام الغورى ، وعلاء الدين صاحب باميان ، وتاج الدين صاحب بلخ ، وولده الأعظم صاحب ترمذ[١] ، والملك سنجر صاحب بخارى وأمثالهم ، وأعوزه اثنان لتمام العدة ، فكمّلهم بابن أخيه أربوزخان والوزير نظام الملك .

وقال أبو الفتح المنشىء : استعمل السلطان خوارزم شاه لنوبة ذى القرنين التى تضرب سبع[٢] وعشرين دبدبة من الذهب ، قد رصعت بأنواع الجواهر . وقال أبو الفتح : ومن جملة ما فعل خوارزم شاه بعد وصوله إلى ما وراء النهر أنه سير الملك تاج الدين ملكا خان صاحب أترار[٣] إلى مدينة نسا[٤] ، ليقيم بها ، وملكا خان هو أول من مال من الخطائية إليه ، وكان ذا جمال ، وقد قصد بتسييره إلى نسا دون سائر البلاد حتى يهلك فيها ، لأنها وخيمة شديدة الأمراض ولم تزل الأنفس بها شاكية ولم يعش الترك بها إلا أدنى مدة فى أنكد عيش ، فأقام المذكور بها سنة أو أكثر مصابرًا للدهر على تصاريفه وأحسن إلى كل من ورد عليه ، وأحبه أهل البلاد ومع هذا وافقه هواء نسا وماؤها خرقًا للعادة حتى ازداد حسنا بها . ولما بلغ ذلك خوارزم شاه وعلم أنه لم يبلغ غرضه سير إليه من حز رأسه .

وقال أبو الفتح : أخبره من حضر ذلك قال : كنا جلوسا عند ظهر الدين مسعود الشاشى وزير السلطان خوارزم شاه بنسا إذا أتاه آت وأخبره بأن جهان بهلوان قد نزل بدار السلطنة وكان أحد الطشتدارية[٥] عند السلطان ورفع قدره وأعطاه أمره ، وعينه لحزّ

---

(١) ترمذ : مدينة مشهورة من أمهات المدن التى تقع على نهر جيحون من جانبه الشرقى . انظر معجم البلدان ، جـ ١ ، ص٨٤٣ .

(٢) «سبعة» فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه .

(٣) أنزار ، وتكتب أُطْرار وهى مدينة حصينة وولاية واسعة فى أول حدود الترك بما وراء النهر على نهر سيحون قرب فاراب . انظر معجم البلدان جـ ١ ، ص ٣١٠ .

(٤) نسا : مدينة بخراسان بينها وبين سرخس يومان ، وبينها وبين مرو خمسة أيام . انظر معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص٧٧٦ .

(٥) انظر صبح الأعشى ، جـ ٤ ، ص ١٠ ـ ص١١ ؛ وانظر ما سبق جـ ١ ، ص ١٢٦ .

الرؤوس ، ولما نزل طلب ظهير الدين والأعيان فركب إليه ظهير الدين فناوله جهان بهلوان توقيعا فلما قرأه أرسلوا وراء تاج الدين ملكا خان ، وقيل له : قد ورد من الأبواب السلطانية توقيع يحتاج فيه إلى حضورك ، فحضر فى طائفة من خواصة فأدخل إلى بعض المخازن فإذا ببعض الزنود قد خرج ورأس تاج الدين بيده فوضعه جهان بهلوان فى مخلاة ورجع للوقت وحمل إلى خزانة السلطان من خزائنه جواهر لم يسمع بمثلها قال[٣٦٧] أبو الفتح : ومن جملة ما فعل السلطان أنه سير إلى خوارزم برهان الدين محمد البخارى المعروف بصدر جهان رئيس الحنفية ببخارى وخطيبها ، وكان عظيم الشأن يعيش تحت كنفه وإدرارات سلفه ما يقارب ستة آلاف فقيه ، وكان كريما عالى الهمّة فأقام بخوارزم ممنوعًا من الإصدار والإيراد إلى أن تقاضاه الزمان بدَينه فجرعه كأس حتفه ، فقتل عند أحفال تركان خاتون وأقام السلطان مقامه ببخارى فى رئاسة الحنفية مجد الدين مسعود ابن صالح الفراوى أخا نظام الملك . ومن جملة ما فعل السلطان أنه سير شيوخ الإسلام بسمرقند إلى البلاد وهم : جلال الدين وابنه شمس الدين وأخوه أوحد الدين وكانوا سادات تلك البقاع ، وكان أوحد الدين آية فى علم الجدل يناظر العميدى ، مات بنسا وانتقل جلال الدين إلى دِهِسْتان[١] . وقال بيبرس فى تاريخه : ولما عاد خوارزم شاه من العراق ووصل نيسابور ورد الخبر بموت مؤيد الملك قوام الدين والى كرمان فأضافها إلى غياث الدين تترشاه ابنه على ما فوضه إليه .

وقال أبو الفتح : وكان مؤيد الملك من جملة الرعاع فرفعه السلطان وساعده الزمان حتى بلغ إلى رتبة الملوك ، وكان مبدأ أمره أنه كان ابن داية نصرة الدين محمد بن أنز صاحب زوزن فاختاره رسولا إلى الأبواب السلطانية فى مهماته ، فنصحه فى الرسالة عدة مرات ثم سولت له نفسه تقبيح حال مرسله طمعا فيما كان يتولاه فقال للسلطان : إن الذى أرسلنى فاسد العقيدة له باطن مع الباطنية . ولما رجع إلى مرسله قال له : إن السلطان يعتقد فيك أنك باطنى وإنى لأخشى عليك منه فخاف وانقطع إلى الإسماعيلية ببعض قلاعه المتاخمة لزوزن ، ثم كتب قوام الدين المذكور إلى السلطان بصُورة الحال فأرسل السلطان إليه بأن يكون وزيرًا فى زوزن ، ويجبى أموالها إلى الخزانة السلطانية ،

(١) دِهستان : بلد مشهور فى طرف مازندران قرب خوارزم وجرجان . انظر معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٦٣٣ .

ففعل واستمر الأمر على ذلك ثم طمع فى مغالبة صاحب كرمان، وانتزاع الملك من يده، وكان من بقية الملك دينار[١]، فكاتب السلطان فى ذلك وأطمعه فى ملكها واستنجد بمن تجاوز زوزن من عساكر خراسان، فاستنجد بعز الدين جلدك وطائفة أخرى فاستولى على كرمان فى أقرب مدة وحمل إلى السلطان ما وجد لهم بها. فأعجب السلطان ذلك ولقبه بمؤيد الملك، وأجراها فى إقطاعه، ولما رجع السلطان من العراق وقد تفانت جماله قدم مؤيد الملك إلى السلطان أربعة آلاف من النجاتى ومن الذهب سبعين حملا.

وفى المرآة[٢]: وفى سنة أربع عشرة وستمائة قدم السلطان خوارزم شاه محمد بن تكش إلى همذان على قصد بغداد فى أربع مائة ألف، وقيل: ستمائة ألف. واستعد له الخليفة وفرق الأموال وأرسل إليه الشيخ شهاب الدين السهروردى فى رسالة فأهانه واستدعاه وأوقفه إلى جانب تخته ولم يأذن له فى القعود. فحكى الشهاب قال: استدعانى فأتيت إلى خيمة عظيمة لها دهليز لم أر فى الدنيا مثله والدهليز والشقة أطلس والأطناب حرير، وفى الدهليز ملوك العجم على اختلاف طبقاتهم: صاحب همذان وأصفهان والرى[٣٦٨] وغيرها، فدخلنا إلى خيمة أخرى أبرسم وفى دهليزها ملوك خراسان ومرو ونيسابور وبلخ وغيرهم، ثم دخلنا خيمة أخرى وملوك ما وراء النهر فى دهليزها كذلك ثلاث خيام، ثم دخلنا عليه وهو فى خركاة عظيمة من ذهب وعليها سجاف مرصع بالجواهر وهو صبى له شعرات قاعد على تخت ساذج وعليه قباء بخارى يساوى خمسة دراهم وعلى رأسه قطعة من جلد تساوى درهما، فسلمت عليه فلم يرد ولا أمرنى بالجلوس، فشرعت خطبت خطبة بليغة ذكرت فيها فضل بنى العباس ووصفت الخليفة بالزهد والورع والتقى والدين والترجمان يعيد عليه قولى، فلما فرغت قال للترجمان: قل له هذا الذى تصفه ما هو فى بغداد بلى أنا آجى وأقيم خليفة يكون بهذه الأوصاف. ثم ردّنا بغير جواب ونزل الثلج عليهم فهلكت دوابهم، وركب خوارزم شاه يوما فعثر به فرسه فتطير ووقع الفساد فى عسكره وقلّت الميرة وكان معه سبعون ألفا من الخطا فرده الله ونكب تلك النكبة العظيمة، وسنذكرها إن شاء الله تعالى.

---

(١) دينار: بلدة بالرى. انظر معجم البلدان، جـ٢، ص ٧١٣.

(٢) انظر مرآة الزمان، جـ٨، ص ٣٨٢؛ الذيل على الروضتين، ص ١٠٠ ـ ١٠١؛ البداية والنهاية، جـ١٣، ص٨٣.

ذكر قضية الملك العادل مع الفرنج

وفى هذه السنة[١] انفسخت الهدنة بين المسلمين والفرنج ، وجاء الملك العادل من مصر بالعساكر فنزل على بيسان والمعظم عنده فى العساكر الشامية ، وخرج الفرنج من عكا ومقدمهم الملك الهنكر فنزلوا عين الجالوت فى خمسة عشر ألفا ، وكان شجاعا مقداما ، ومعه جميع ملوك الساحل ، فلما أضحوا ركب الهنكر فى أوائلهم وقصد العادل ، وكان العادل على تل بيسان فنظر فرأى أنه لا قِبل له بهم فتأخر . وقال له المعظم : إلى أين؟ فشتمه بالعجمية وقال : بمن أقاتل؟ أقطعت الشام مماليكك وتركت أولاد الناس الذين يرجعون إلى الأصول . وذكر كلامًا فى هذا المعنى ، وساق فعبر الشريعة[٢] عند برقاء[٣] وجاء الهنكر إلى بيسان وبها الأسواق والغلال والمواشى شىء لا يعلمه إلا الله فأخذ الجميع . وارتفع العادل إلى عجلون ومضى المعظم فنزل بين نابلس والقدس على عقبة اللين[٤] خوفا على القدس ، وأقام الفرنج على بيسان ثلاثة أيام ورحلوا طالبين قصر ابن معين الدين ، وسار العادل فنزل رأس الماء وصعد الفرنج عقبة[٥] الكرسى إلى خربة اللصوص ، والجولان ، وأقاموا ثلاثة أيام ينهبون ويقتلون ويأسرون ثم عادوا ونزلوا الغور ، وبعث العادل أثقاله إلى بصرى ونسائه وأقام على رأس الماء جريدة ، ولما نزل الفرنج الغور جاء العادل فنزل عالقين[٦] ثم نزل الفرنج تحت الطور يوم الأربعاء الثامن والعشرين[٧] من شعبان وأقاموا إلى يوم الأحد ثانى رمضان ، وكان يوما كثير الضباب فما أحس بهم أهل الطور إلا وهم عند الباب قد ألصقوا رماحهم بالسور ، ففتح المسلمون الباب وأخرج إليهم ألف فارس والراجل وقاتلوهم حتى رموهم أسفل الطور .

---

(١) الذيل على الروضتين ، ص١٠٢-١٠٣ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٣٨٢ - ٣٨٣ ؛ البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص٨٣-٨٤ .
(٢) الشريعة : هو نهر الأردن ، ويقال له نهر الشريعة . انظر :
أبو الفدا : تقويم البلدان ، ص ٣٩ .
(٣) برقاء : كل موضع فيه حجارة مختلفة الألوان .
تقويم البلدان ، ص ١٢٧ .
(٤) اللين : بحثنا ووجدنا اللين فى أماكن أخرى وليست ما نريد .
(٥) الكُرْسِىّ : قرية بطبرية . معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٢٦٠ .
(٦) عالقين : قرية بظاهر دمشق من الجيدور .
وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص ٧٨ .
(٧) «ثامن عشر» فى الذيل على الروضتين ، ص ١٠٤ .

فلما كان يوم الثلاثاء رابع رمضان طلعوا بأسرهم ومعهم سلم عظيم فزحفوا من ناحية باب دمشق وألصقوا السلم بالسور ، فقاتلهم المسلمون ودخلت رماح الفرنج من المرامى من كل ناحية فضرب بعض الزراقين السلم بالنفط فأحرقه وقتل عنده جماعة من أعيان الفرنج ، منهم كند كبير فلما رأوه مقتولا صاحوا وبكوا وكسروا عليه رماحهم . واستشهد[٣٦٩] فى ذلك اليوم من أبطال المسلمين الأمير بدر الدين محمد بن أبى القاسم ، وسيف الدين بن المرزبان وكانا من الصالحين الأجواد ، وأغلق المسلمون باب الطور وباتوا يداوون الجرحى واتفقوا على أنهم يقاتلون قتال الموت ولا يسلمون أنفسهم لئلا يجرى عليهم ما جرى على أهل عكا ، وكان فى الطور أبطال المسلمين وخيار عسكر الشام ، وأوقد الفرنج حول الطور النيران ، فلما كان وقت السحر يوم الخميس سادس رمضان رحلوا طالبين عكا ، وجاء المعظم فصعد إلى الطور وأطلق المال والخلع وطيب قلوب الناس ، ثم اتفق العادل والمعظم على حراب الطور وقيل : إن المعظم أنفد كتابا إلى الخليفة وفى أوله بيتان هما [للأمير][1] عبدالمحسن الحلبى الكاتب :

قل للخليفة لا زالت عساكره	لها إلى النصر إصدارٌ وإيرادُ
إن الفرنج بحصن الطور قد نزلوا	لا تغفلن فحصن الطور بغداد

وقال السبط[2] : أنشدنى [الأمير][3] الحلبى هذين البيتين .

ولما انفصل الفرنج عن الطور قصد ابن أخت الهنكر جبل صيدا وقال : لا بد لى من أهل هذا الجبل . فنهاه ، صاحب صيدا وقال : هؤلاء رماة وبلدهم وعر فلم يقبل وصعد فى خمسمائة من أبطال الفرنج إلى حزيز[4] ضيعة الميادنة قريبا من مشعراً فأخلاها أهلها وجاء الفرنج فنزلوا بها وترجلوا عن خيولهم ليستريحوا ، فتحدرت عليهم الميادنة من الجبال فأخذوا خيولهم وقتلوا عامتهم وأسروا ابن أخت الهنكر وهرب من بقى منهم نحو صيدا ، وكان معهم رجل من المسلمين يقال له الجاموس ، فقال لهم : أنا أوصلكم إليها فقالوا : إن فعلت أغنيناك . فسلك بهم أودية وعرة والمسلمون خلفهم يقتلون ويأسرون ، ففهموا أن الجاموس غرّهم فقتلوه . ولم يفلت إلى صيدا سوى ثلاثة أنفس بعد أن كانوا خمسمائة . وجاءوا إلى دمشق بالأسارى وكان يوما عظيما .

---

(١) الأمين كذا فى الأصل والمثبت من مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٨٣ ؛ والذيل على الروضتين ، ص ١٠٣ .
(٢) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٨٣ .
(٣) «الأمين» كذا فى الأصل . والمثبت من المرآة ، جـ ٨ ، ص٨٣ .
(٤) حَزِيزٌ : موضع قريب من جيلة . معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٢٦٣- ص ٢٦٤ .

وأما ما كان من أمر العادل فإنه لما فر من الإفرنج لكثرتهم وقلة من كان معه توجه إلى دمشق وكتب إلى واليها المعتمد ليحصنها من الإفرنج وينقل الغلات من داريا إلى القلعة ويرسل الماء على أراضى داريا وأراضى قصر حجاج والشاغور، ففزع الناس من ذلك وابتهلوا إلى الله بالدعاء وكثر ضجيجهم بالجامع وأقبل العادل فنزل بمرج الصفر وأرسل إلى ملوك الشرق ليقدموا إلى قتال الإفرنج، فكان أول من ورد صاحب حمص أسد الدين شيركوه، فتلقاه الناس فدخل من باب الفرج وجاء وسلم على ست الشام بدارها عند المارستان ثم عاد إلى داره، ولما قدم أسد الدين سرّى عن الناس وأَمِنُوا وانقضت السنة وجموع الفرنج على عكا، ثم اتفق الملك العادل والمعظم ولده على هدنة كما سيأتى إن شاء الله تعالى.

ذكر قضية جنكزخان

ولما عاد السلطان علاء الدين خوارزم شاه من بلاد العراق وصل إليه رسل جنكزخان وهم: محمود الخوارزمى، وعلى حجا البخارى، ويوسف الأترارى مصحوبين بما يجلبه الترك من نقر المعادن[٣٧٠] ونوافح المسك واليشب وثياب الطرق والتى تتخذ من صوف الحمل الأبيض، وأبلغوه سلام الخان الكبير وأنه يطلب منه المهادنة وفتح الطريق للتجار إلى بلاد مملكته، فأجاب السلطان إلى ذلك وعاد الرسل إلى جنكزخان وأعلموه بإجابته فسر بها وترددت التجار. وقال أبو الفتح: وكان يباع الثوب من طرقو بخمسين دينارا. وذكر أيضا أن من جملة رسالة جنكزخان: إنه غير خاف عليك أنى ملكت الصين وما يليها من بلاد الترك وقد أذعنت لى قبائلهم وأنت أخبر الناس بأن بلادى مثارات العساكر ومعادن الفضة وأن فيها الغنية عن طلب غيرها، وأحضر السلطان علاء الدين محمود الخوارزمى أحد الرسل المذكورين ليلا، وقال له: إنك رجل خوارزمى ولابد لك من موالاة فينا وميل إلينا ووعده الإحسان إن صدقه فيما يسأله وأعطاه من معضدته جوهرة نفيسة علامة للوفاء بما وعده وشرط عليه أن يكون عينا على جنكزخان فأجابه إلى ما سأل رغبة ورهبة، ثم قال: أصدقنى فيما يقول جنكزخان إنه مَلَكَ الصين واستولى على مدينة طوغاج[1] هل هو صادق أم كاذب. فقال: بل صادق ثم نذكر إن شاء الله ما وقع من جنكزخان.

---

(١) مدينة طوغاج: هى قاعدة ملك التتار بالصين. تقويم البلدان، ص ٣٦٥.

ذكر بقية الحوادث

منها أن[١] شيخ الشيوخ صدر الدين بن حموية قدم إلى بغداد رسولا من الملك العادل وقدم بعده ولده فخر الدين رسولا من الكامل إلى أخيه المعظم فى خطبة بنته لابنه وخلع عليه خلعة بطيلسان .

ومنها أن[٢] محيى الدين محمد بن يحيى بن فضلان ذكر الدرس فى النظامية .

ومنها أن[٣] دجلة زادت زيادة عظيمة وركب الخليفة فى شبارة[٤] وخاطب الناس وجعل يتأوه لهم ويقول : لو كان هذا الماء يُردّ بمال أو حرب دفعته عنكم ولكن أمر الله ما لأحد فيه حيلة ، وانهدمت بغداد بأسرها والمحالّ ، ووصل الماء إلى رأس السور وبقى مقدار إصبعين حتى يطفح على السور وأيقن الناس بالهلاك ، ودام «سبع[٥] ليال وثمانية أيام حسوما» ثم نقص الماء وبقيت بغداد من الجانبين تلولا لا أثر لها .

ومنها[٦] . . . .

وفيها حج بالناس من العراق ابن أبى فراس[٧] .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

بهاء الدين[٨] أحمد بن أبى الفضائل الميهنى ، شيخ رباط الخلاطية من بيت التصوف ، وكان أبوه أبو الفضائل عبدالمنعم شيخ المشايخ وسيد الصوفية ، وكان الخليفة قد سَلَّم إلى بهاء الدين رباط الخلاطية وأوقافها ثقةً به من غير مُشرف ولا عمل حساب ، فأقام مدة يقصده الناس من البلاد وأطراف بغداد وأرباب البيوت والفقراء والفقهاء والأعيان ، فما رَدَّ قاصدا ولا منع سائلا ، وكان له الجاه العظيم والذكر الجميل . وكان له

(١) الذيل على الروضتين ، ص ١٠٠ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٨١ .
(٢) الذيل على الروضتين ، ص ١٠٠ .
(٣) الذيل على الروضتين ، ص ١٠٠ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٨١ ؛ الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٨١ .
(٤) شبارة انظر السفن : انظر عقد الجمان ، جـ ١ ، ص ٢٦٩ .
(٥) سورة الحاقة آية ٧ .
(٦) بياض بمقدار نصف سطر .
(٧) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٨٤ .
(٨) انظر ترجمته فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٨٤ ؛ الذيل على الروضتين ، ص ١٠٣ .

مملوك عبد أسود اسمه ريحان، فخان فى الأموال، وبلغ الخليفة فأخذه فأقرَّ وقال: المال عند أخت بهاء الدين، فعزل بهاء الدين عما كان إليه، فرأى الذل والهوان بعد العز والإمكان. ومرض بهاء الدين فى تلك الحال، فولى الخليفة القاضى الزنجانى[1] أمر الرباط، وحمل بهاء الدين إلى بيت أخته على نهر عيسى، فتوفى ثامن رجب ودفن فى الشونيزية فى صُفَّة[2] الجنيد (رضى الله عنه) عند أبيه، سمع شهدة[٣٧١] الكاتبة وابن البَطِّى وغيرهما، وصحب أباه وأخذ عنه طريقة التصوف.

أبو اسحاق[3] **إبراهيم بن عبدالواحد بن على بن سُرور، الشيخ عماد الدين المقدسى**، وكان أصغر من أخيه الحافظ عبدالغنى بسنتين، وقدم معه إلى دمشق سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، ورحل إلى بغداد مرتين، وسمع الحديث، وكان عابدًا زاهدًا ورعا، كثير الصلاة كثير الصيام يصوم يوما ويفطر يوما، وكان فقيها مفتيا حنبليا له كتاب الفروع، وصَنَّف أحكاما ولم يتمه. صلى المغرب ذات ليلة وكان صائما، ثم رجع إلى بيته بدمشق فأفطر، ثم مات فجأة عشية الأربعاء سادس عشر ذى القعدة[4] من هذه السنة، فغسل وقت السحر وأخرجت جنازته إلى جامع دمشق، فما وسع الناس الجامع وصلى عليه الموفق.

وقال أبو شامة[5]: كان يوما لم ير فى الإسلام مثله، كان أول الناس عند مغارة الدم ورأس الجبل إلى الكهف، وآخرهم بباب الفراديس، ولولا المبارز المعتمد وأصحابه لقطعوا أكفانه وما وصل إلى الجبل إلى آخر النهار.

وقال السبط[6]: ولما رجعت من جنازته فَكرتُ فيه فقلت: هذا كان رجلا صالحا، وربما إنه نظر إلى ربه حتى وضع فى لحده، ومر بذهنى أبيات [سفيان][7] الثورى التى سمع ينشدها فى المنام:

---

(١) «الريحانى» فى الذيل على الروضتين، ص ١٠٣؛ «التريحانى» فى مرآة الزمان، جـ ٨، ص ٣٨٤.

(٢) «صفط» فى الذيل على الروضتين، ص ١٠٣.

(٣) انظر ترجمته فى مرآة الزمان، جـ ٨، ص ٣٨٥ - ٣٨٦؛ الذيل على الروضتين، ص ١٠٤ - ١٠٦.

(٤) «ذى الحجة» فى مرآة الزمان، جـ ٨، ص٣٨٦. بينما يتفق العينى مع أبى شامة، انظر الذيل على الروضتين، ص١٠٤.

(٥) الذيل على الروضتين، ص ١٠٤.

(٦) مرآة الزمان، جـ ٨، ص ٣٨٦.

(٧) «سفين» فى الأصل. والمثبت من مرآة الزمان، جـ ٨، ص ٣٨٦.

نظرتُ إلى ربى كفاحًا وقال لى هنيئا رضائى عنك يابن سعيد
فقد كنت قواما إذا أقبل الدجى بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أى قصر أردته فزرنى فإنى منك غير بعيد

وقلت : أرجو أن العماد يرى ربه كما رآه سفين عند نزول حفرته . ونمت فرأيت العماد فى النوم وعليه حلة خضراء وعمامة خضراء وهو فى مكان متسع كأنه روضة وهو يرقى فى درج مرتفعة فقلت : يا عماد الدين كيف بتّ ؟! فإنى والله مفكر فيك . فنظر إلى وتبسم على عادته وقال :

رأيت إلاهى حين أنزلت حفرتى وفارقت أصحابى من أهلى وجيرتى
فقال جزيت الخير عنى فإننى رضيت فها عفوى لديك ورحمتى
دأبت زمانا تأمل الفوز والرضى فوقيت نيرانى ولقيت جنتى

فانتبهت مرعوبًا وكتب الأبيات .

قال : وكان الشيخ الموفق يثنى عليه وكان يقول : أعرف العماد من صغره وما عرفت أنه عصى الله تعالى قط وما رأيت أشد خوفا منه لله تعالى . قال السبط[1] : وكان يحضر مجالسى دائما بجامع دمشق وقاسيون لا ينقطع إلا من عذر . ويقول صلاح الدين يوسف : فتح الساحل وأظهر الإسلام وأنت يوسف أحييت السنة بالشام . وكان يزورنى وينبسط إلى ويحبّنى ويفرح بمجالستى . ورثاه جماعة منهم الصلاح موسى بن الشهاب فقال : وأنشدنى إياها :

الحمد لله فى كل الأمور فما يقضى الإله علينا فهو مقبول
نرضى بما جاءنا منه ونشكره على الرؤوس قضاء الله محمول[٣٧٢]
يا شيخنا[2] يا عماد الدين قد قرحت عينى وقلبى منك اليوم متبول
أوحشت والله ربعا كنت تسكنه لكنه الآن بالأحزان مأهول
كم ليلة بت تحييها وتسهرها والدمع من خشية الله مسبول

(١) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٨٥ .
(٢) الذيل على الروضتين ، ص ١٠٥ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٨٧ .

وسجدة طال ما طال القنوت بها قد زانها منك تكبير وتهليل
فاليوم بعدك ركن الدين[١] منهدم وطالب العلم حيران ومخذول
قد كنت للسنة الغراء تنصرها إذ أنت سيف على الأعداء مسلول
يا ذا الذى كان للدنيا يزينها كأنه فى جبين الدهر إكليل
وما يدوم سوى وجه الإله وقد جاءت بذلك أثار وتنزيل

القاضى جمال الدين بن الحرستانى[٢] **عبدالصمد بن محمد بن أبى الفضل أبو القاسم الأنصارى بن الحرستانى** ، شيخ القضاة العالم العادل المعمر الزاهد ولد بدمشق سنة عشرين وخمسمائة وشارك الحافظ أبا القاسم على بن الحسن فى كثير من مشايخه الدمشقيين سماعا وفى الغرباء أجازة ، وكان أبوه من أهل حرستان فنزل داخل باب توما وأمّ بمسجد الزينبى ، ونشأ ولده هذا نشأة حسنة ، سمع الحديث الكثير وكان يجلس لسماع الحديث بمقصورة الخضر وعندها كان يصلى دائما لا تفوته الجماعة بالجامع ، وكان منزله بالحُوَيْزَة[٣] ودرس بالمجاهدية[٤] ، وعمر دهرًا طويلا على هذا القدم الصالح وناب فى الحكم عن ابن أبى عصرون ثم ترك ذلك ولزم بيته وصلاته بالجامع ، ثم عزل السلطان الملك العادل القاضى زكى الدين أبا العباس الظاهر ابن قاضى القضاة محيى الدين وأخذ منه مدرستين العزيزية[٥] والتقوى[٦] وأعطى التقوية للشيخ فخر الدين بن

---

(١) «وركين» كذا فى سبط ابن الجوزى ؛ مراة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٨٧ .

(٢) الذيل على الروضتين ، ص ١٠٦ - ص ١٠٨ .

(٣) الحُوَيْزَة : موضع بين واسط والبصرة وجورستان ، معجم البلدان جـ ٢ ، ص ٣٧١ - ص ٣٧٢ .

(٤) المجاهدية : هناك مدرستان المجاهدية الجوانية ، والمجاهدية البرانية فالجوانية بالقرب من باب الخواصن واقفها الأمير الكبير مجاهد الدين أبو الفوارس بزان بن يامين بن على الجلالى الكروى أحد مقدمى الجيش بالشام فى دولة نور الدين .
أما المدرسة البرانية ، فهى بين بابى الفراديس . انظر الدارس فى تاريخ المدارس ، جـ ١ ، ص ٤٥١ - ص ٤٥٥ .

(٥) العزيزية : أسسها الملك العزيز عثمان ، فهناك عزيزية حنفية بجوار المدرسة المعظمية بالصالحية انظر الدارس ، جـ١ ، ص ٥٤٩ ، أما العزيزية الشافعية ، فهى تقع شرقى التربة الصلاحية وغربى التربة الأشرفية وشمال الفاضلية بالكلاسة لضيق الجامع الأموى ، أسست فى سنة ٥٩١ هـ . انظر الدارس جـ ١ ، ص ٣٨٢ .

(٦) التقوية : من المدارس الشافعية ، وهى من أَجَلِّ مدارس دمشق داخل باب الفراديس ، شمالى الجامع ، شرقى الظاهرية والإقباليتين ، بانيها فى سنة أربع وسبعين وخمسمائة الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب .
الدارس فى تاريخ المدارس ، جـ ١ ، ص ٢١٦ .

عساكر وأعطى العزيزية مع القضاء لجمال الدين بن الحرستانى ، واعتنى به الملك العادل اعتناء كثيرا وأقبل عليه وأكرمه بحيث أرسل له ما يفرش تحته فى مجلس الحكم لضعفه وكبره وما يستند إليه ، وكان يجلس للحكم بمدرسته المجاهدية وناب عنه بها ابنه عماد الدين عبدالكريم ، وكان يجلس بين يديه فإذا قام الشيخ يستبد مكانه ثم أنه منعه ذلك لشيء بلغه عنه وناب عنه أيضا أكابر شيوخ القضاة يومئذ شمس الدين الشيرازى فكان يجلس قبالته فى إيوان المجاهدية وشمس الدين بن سنى الدولة وشرف الدين بن الموصلى الحنفى بمجلس المحراب بها وبقى فى القضاء نحوا من سنتين وسبعة أشهر ، وتوفى يوم السبت رابع ذى الحجة ودفن بجبل قاسيون ، وكان عمره خمسا وتسعين سنة .

قال ابن كثير[1] : وكان يحفظ الوسيط للغزالى (رحمه الله) قال ابن عبدالسلام : ما رأيت أحدا أفقه من ابن الحرستانى ، وكان من أعدل القضاة وأقومهم بالحق لا يأخذه فيه لومة لائم . وقال أبو شامة[2] : ولغرابة ولاية القضاء لمن هو فى هذا السن قال فيه شاعر الشام الشاغورى هذين البيتين :

يا من تدرع فى خمل الخمول	وما معانق الهم فى سر وإعلان
[٣٧٣]لا تيأسن روح من نادى	قاضى القضاة الجمال بن الحرستانى

على أنه امتنع من الولاية لما طلب لها حتى ألح عليه فيها . وقال السبط : حكى لى ولد القاضى قال : كان أحد بنى قوام يعامل الملك المعظم عيسى فى السكر ويتجر له فمات ابن قوام فطرح ديوان المعظم يده على تركة ابن قوام ، وبعث المعظم إلى القاضى يقول له : هذا الرجل كان يتاجر لى بمالى والتركة لى وأريد تسلمها فأبى عليه إلا بثبوت شرعى قال : وحكى لى جماعة من الدماشقة أن الملك العادل سيف الدين كتب لبعض خواصه كتابًا يوصيه به فى حكومة بينه وبين رجل فجاء إليه ودفع إليه الكتاب فقال : إش فيه؟ قال : وصية لى . قال : أحضر خصمك . فأحضره والكتاب بيده لم يفتحه وادعى على الرجل ، فظهر الرجل على حامل الكتاب ، فقضى عليه ثم فتح الكتاب وقرأه ورمى به إلى حامله وقال : كتاب الله قد حكم على هذا الكتاب ، فمضى الرجل إلى

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٨٥ .
(٢) الذيل على الروضتين ، ص ١٠٧ .

العادل وبكى بين يديه وأخبره بما قال . فقال : العادل صدق كتاب الله أولى من كتابى . وكان يقول للعادل : ما أحكم إلا بالكتاب والسنة وأنا فما سألتك القضاء فإن شئت وإلا فأبصر غيرى . ثم لما مات تولى القضاء بعده زكى الدين أبو العباس الظاهر بن يحيى الدين الذى كان قاضيا قبله ، وعزل به الأمير الكبير بدر الدين محمد بن أبى القاسم بن محمد الهكارى بانى المدرسة التى بالقدس الشريف ، كان من خيار الأمراء يتمنى الشهادة أبدا فقتله الفرنج فى حصن الطور فى هذه السنة ، ونقل إلى القدس الشريف ودفن بتربته بها وتربته مزار إلى الآن ، وكان من المجاهدين وله المواقف المشهورة فى قتال الفرنج وكان من أكابر أمراء المعظم يستشيره ويصدر عن رأيه ويثق به لصلاحه ودينه وكان سمحا لطيفا ، دينا ، عابدا ، ورعا ، بارا بأهله وبالفقراء والمساكين ، كثير الصدقات دائم الصلات ، بنى بالقدس مدرسة للشافعية ووقف عليها الأوقاف وبنى مسجدا قريبا من الخليل عليه السلام عند يونس على قارعة الطريق رحمه الله .

الشجاع[١] **محمود المعروف ابن الدباغ**[٢] توفى فى ذى القعدة ، وكان من أصحاب العادل من زمن الشبيبة وبقى معه فى زمن السلطنة مضحكا له ، وحصلت له ثروة عظيمة ، وداره بدمشق جعلتها زوجته عائشة مدرسة للفريقين ، الحنفية والشافعية بخطيرة باب الفرج ، ووقفت عليها أوقافا دارة .

الشيخة العالمة الزاهدة شيخة العالمات بدمشق وتلقب بدهن اللوز ، ماتت فى هذه السنة .

---

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٨٥ ؛ الذيل على الروضتين ، ص ١٠٨ .

(٢) «الدماغ» كذا فى ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٨٥ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الخامسة عشرة بعد الستمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة الناصر لدين الله ، ولكن وقعت فى هذه السنة أمور عظيمة منها قضية الفرنج ، ومنها وفاة السلطان الملك العادل ، ووفاة الملك القاهر صاحب الموصل ، ووفاة نور الدين أرسلان شاه بن القاهر المذكور ، ومنها خروج التتار إلى بلاد الإسلام وظهورهم فى هذه الأيام ، فلنتبين ذلك مفصلا بعون الله وتوفيقه إن شاء الله .

ذكر قضايا الفرنج

منها(١) نزول الفرنج على ثغر دمياط المحروس وهى النوبة المعروفة بالمنصورة الأوّلة . قال بيبرس : لما كان يوم الثلاثاء[٣٧٤] الثالث من ربيع الأول من هذه السنة نزل الفرنج على دمياط فى جمع كثير وجم غفير ونازلوها ، وكان الملك الكامل قد سار إليها بعساكر الديار المصرية فاتصل القتال بين الفئتين أيامًا ويحيل الفرنج على برج السلسلة فعملوا برجًا من الصوارى على بطسة كبيرة ، وأقلعوا بها حتى أسندوها على البرج وقاتلوا المسلمين الذين فيه إلى أن ملكوه منهم ، ولما اشتدّ أمر الفرنج بثغر دمياط توجه الملك العادل إلى دمشق ليمد ولده الكامل بالعساكر . وقال ابن كثير(٢) : استهلت هذه السنة والملك العادل نازل بمرج الصفر . لمحاصرة الفرنج ، وأمر ولده المعظم بتخريب حصن الطور فخربه ونقل ما فيه من الآلات والأشياء المعدة للحرب إلى البلدان خوفا عليها من الفرنج ، وكان جموع الفرنج بمرج عكا ثم ساروا منها إلى الديار المصرية ونزلوا على دمياط وسار الملك الكامل بن العادل من مصر ونزل قبالتهم ، واستمر الحال كذلك أربعة أشهر ، وأرسل الملك العادل العساكر التى عنده إلى عند ابنه الكامل فوصلت إليه أولاً فأول ، ولما اجتمعت العساكر عند الملك الكامل أخذ فى قتال الفرنج ودفعهم عند دمياط وكان نزول الفرنج على دمياط ، فى ربيع الأول وأخذوا برج السلسلة فى جمادى الأولى ، وكان حصنا منيعًا وهو كالقفل على ديار مصر ، وصفته أنه فى وسط جزيرة فى النيل عند انتهائه إلى البحر ومن هذا البرج إلى دمياط وهى على شاطئ البحر وحافة النيل سلسلة ومنه إلى الجانب الآخر ، فلما ملكت الفرنج هذا البرج شق ذلك على المسلمين

(★) يوافق أولها ٣٠ مارس سنة ١٢١٨م .

(١) ورد هذا الخبر فى البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٨٦ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٨٩ ؛ الذيل على الروضتين ، ص١٠٨ .

(٢) البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٨٦ .

بديار مصر وغيرها ، وحين وصل الخبر إلى الملك العادل وهو بمرج الصفر تأوه شديدا ودق بيده على صدره أسفًا وحزنا ومرض من ساعته مرض الموت لأمر يريده الله تعالى ، وتوفى يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة . كما نذكره عن قريب إن شاء الله تعالى[١] .

ولما انتهى الخبر بموته إلى ابنه الكامل وهو مثاغر تجاه الفرنج بدمياط فتَّ ذلك فى أعضاد المسلمين وضعفوا ، ثم بلغه خبر آخر إن الأمير عماد الدين أحمد بن سيف الدين على بن أحمد المشطوب وكان مقدما عظيما فى الأكراد الهكارية وكان أكبر أمير فى مصر قد أراد أن يبايع للفائز عوضا عن الكامل ، فساق وحده جريدة من دمياط قاصدًا إلى مصر لاستدراك هذا الخطب الجسيم ، ولما فقده الجيش من بينهم اختل نظامهم واعتقدوا أن قد حدث أمر أكثر مما قد بلغهم فركبوا وراءه فدخلت الفرنج حينئذ بالأمان إلى الديار المصرية واستحوذوا على معسكر الكامل وأثقاله وحواصله وحواصل الجيش ، فوقع أمر عظيم جدًا ودخل الكامل إلى مصر فلم يقع مما ظنه شيء وهرب منه ابن المشطوب إلى الشام ، ثم ركب فى الجيش إلى الفرنج فإذا الأمر قد تزايد وقد تمكنوا هناك من البلاد وقتلوا خلقا وغنموا شيئا كثيرا ، وعاثت هنالك أعراب على أموال الناس ببلاد دمياط فكانوا أضر على المسلمين من الفرنج فنزل الكامل تجاههم يمانعهم عن الدخول إلى القاهرة ومصر بعد أن كان يمانعهم عن الدخول إلى الثغر ، وكتب إلى أخوته يستحثهم ويستنجدهم ويقول الوحا الوحا ، العجل العجل ، أدركوا المسلمين وألحقونا قبل أن يملك الإفرنج جميع الديار المصرية ، فأقبلت العساكر[٣٧٥] الإسلامية عند ذلك من كل مكان . فكان أول من قدم عليه أخوه الملك الأشرف موسى صاحب الجزيرة ، ثم الملك المعظم ، فكان من أمرهم مع الفرنج ما سنذكره إن شاء الله[٢] تعالى .

ومن قضايا الفرنج أن الملك المعظم التقى بهم على القيمون[٣] فكسرهم وقتل منهم خلقًا كثيرًا وأسر من الداوية مائة فأدخلهم فى القدس منكسة أعلامهم[٤] .

ذكر وفاة الملك العادل رحمه الله

والكلام فيه على أنواع :

(١) البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٨٦ ؛ الذيل على الروضتين ، ص ١٠٩ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٨٩ .
(٢) ورد هذا الخبر فى البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٨٧ ، ص ٨٨ .
(٣) القَيْمُون : انظر ما سبق ، جـ ٢ ، ص ٧٠ ، حاشية (١) .
(٤) انظر : الذيل على الروضتين ، ص ١٠٩ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٢٨٩ .

(الأول) فى ترجمته :

هو السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب ، وكنيته أشهر من اسمه . سُئل عن مولده فقال : فتوح الرها . يعنى لما فتحها أتابك زنكى والد نور الدين الشهيد سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، فيكون عمره ستا وسبعين سنة . وقيل : كانت ولادته ببعلبك لما كان والده نجم الدين أيوب واليها من قِبَل زنكى[١] .

وفى تاريخ ابن كثير[٢] : وكان مولده سنة أربعين وخمسمائة . وكذا فى تاريخ المؤيد[٣] .

وقال ابن خلكان[٤] : وكانت ولادته فى المحرم سنة أربعين ، وقيل : ثمان وثلاثين وخمسمائة ، ونشأ فى خدمة نور الدين الشهيد مع أبيه وإخوته ، وحضر مع أخيه صلاح الدين فى فتوحاته وغزواته ، وقام أحسن قيام فى الهدنة مع الإنكتار ملك الفرنج بعد أخذهم عكا ، وكان صلاح الدين (رحمه الله) يعول عليه كثيرًا فاستنابه بالديار المصرية مدة ، ثم أعطاه حلب ، ثم الكرك وأعماله ؛ وحران وما يتعلق بها . ثم جرى بعد وفاة أخيه بينه وبين أولاد أخيه أمور سبق ذكرها ، إلى أن استقر له الملك[٥] .

(الثانى) فى سيرته :

كان حازما متيقظا غزير العقل ، سَديد الآراء ذا مكر وخديعة ، صبورا حليما ، يسمع ما يكره ويغضى عنه ، صفوحًا صبورا على الأذى ، عادلا مجاهدا ، عفيفا دينا متصدقا ، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر ، طهر جميع ولاياته من الخمور والخواطئ والقمار والمخانيث ، والمكوس والمظالم . وكان الحاصل من هذه الجهات بدمشق على الخصوص مائة ألف دينار ، فأبطل الجميع لله تعالى . وكان واليه المبارز المعتمد (رحمه الله) أعانه على ذلك ، وأقام رجالا على [عقبان][٦] قاسيون ، وجبل الثلج وحوالى دمشق

---

(١) انظر : الذيل على الروضتين ، ص ١١١ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٩٠ .

(٢) بالبحث تبين أن المقصود ابن الأثير فى كتابه الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٩٣ .
أما البداية والنهاية فلم ترد فيها هذه الجملة .

(٣) المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ١١٩ .

(٤) وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص ٧٨ .

(٥) انظر تفصيل ذلك فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٩٣ ـ ٣٩٤ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٩٠ .

(٦) فى الأصل «عقبات» . والتصحيح من الذيل على الروضتين ، ص١١١ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٩١ .
والعُقاب : الصخرة العظيمة فى عُرْض الجبل . انظر : لسان العرب ، مادة عقب ؛ معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص٦٩٠ .

بالجامكية والجراية ، يُحَرِّمون أحدا يدخل دمشق بمنكر ، فكان أهل الفساد يتحيلون ويجعلون زقاق الخمر فى الطبول ويدخلون بها إلى دمشق ، فمنع من ذلك .

وقال السبط[١] : وبلغنى أن بعض المغنيات دخلت على العادل فى عرس ، فقال لها : أين كنت؟ قالت : ما قدرتُ أجئ حتى وَفَّيْتُ ما عَلىَّ للضامن . فقال : وأى ضَامنٍ؟ قالت : ضامن القِيان ، فقامت عليه القيامة ، وطلب المعتمد فأنكر عليه فقال : والله لئن عاد ما بلغنى مثل هذا لأفعلن ولأصنعن .

وفى تاريخ ابن كثير[٢] : وكان العادل ماسك اليد لكنه أنفق فى أيام الغلاء بمصر أموالا عظيمة جدًا ، وتصدق على أهل الحاجة من أبناء الناس وغيرهم شيئا كثيرًا ، ثم فى العام [الذى][٣] بعده فى الفناء كَفَّنَ ثلاثمائة ألف إنسان من الغرباء . وكان كثير الصدقة فى أيام مرضه ؛ يخلعُ جميع ما عليه ويتصدق به ، وبمركوبه وما يحبه من أمواله .

وقال السبط[٤] : ولقد فعل العادل فى غلاء مصر عقيب[٣٧٦] موت العزيز ما لم يفعله غيره ؛ كان يخرجُ فى الليل بنفسه ومعه الأموال يفرِّقها فى أرباب البيوتات والمساكين ، ولولاه لمات الناس كلهم .

وقال ابن خلكان[٥] : وكان العادل ملكا عظيما ذا رأى ومعرفة تامة قد حنكته التجارب ، حسن السيرة ، جميل الطوية ، وافر العقل ، حازمًا فى الأمور ، صالحا محافظا على الصلوات فى أوقاتها ، متبعا لأرباب السنة ، مائلا إلى العلماء ، حتى صَنَّف له فخر الدين الرازى كتاب «تأسيس التقديس» وذكر اسمه فى خطبته ، وسيره إليه من بلاد خراسان . وبالجملة فإنه كان رجلا مسعودًا حتى فى أولاده ، فإنهم كانوا نجباء على ما نذكرهم عن قريب .

وفى تاريخ ابن العميد : كان جميل السيرة حسن العقيدة ، كبير السياسة حازم الرأى ، ذا معرفة بدقائق الأمور ، وكان مسعودا فى جميع أموره ، وعاش عيشا رغدًا .

---

(١) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٩١ ؛ الذيل على الروضتين ، ص ١١١ .
(٢) البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٨٧ .
(٣) ما بين الحاصرتين إضافة لاستقامة المعنى .
(٤) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٩١ ؛ الذيل على الروضتين ، ص ١١١ .
(٥) وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص ٧٦ .

(الثالث) فى وفاته :

قد ذكرنا أنه كان نازلا بمرج الصُّفر ، وقد أرسل العساكر إلى ولده الملك الكامل ، لأجل الفرنج الذين اجتمعوا على دمياط ، ثم رحل من مرج الصفر إلى عالقين بفتح العين المهملة وبعد الألف لام مكسورة ثم قاف مكسورة ثم ياء آخر الحروف ساكنة ثم نون ، وهى قرية بظاهر دمشق ، قاله ابن خلكان[١] ، وقال غيره : هى قرية عند عقبة فيق فنزل بها ومرض واشتد مرضه ، ثم توفى هناك فى سابع جمادى الآخرة من هذه السنة .

وفى المرآة[٢] : وسبب موته انزعاجه من الخبر الذى جاءه من دمياط ؛ أن الفرنج استولوا على بُرج السلسلة ، فَدَقَّ بيده على صدره وأقام مريضا إلى يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة ، فتوفى بعالقين .

ولما توفى لم يعلم بموته غير كريم الدين الأخلاطى ، فأرسل الطير إلى الملك المعظم بنابلس ، فجاء المعظم يوم السبت إلى عالقين فاحتاط على الخزائن وصَبَّر العادل وجعله فى محفة وعنده خادم يروِّح عليه ، وقد رفع طرف سجافها وأظهر أنه مريض ، ودخلوا به دمشق يوم الأحد والناس يُسَلِّمون على الخادم وهو يُومىء إلى ناحية العادل ، أى أنه يُعلمُه بمن يُسلم . ودخلوا به إلى القلعة وكتموا موته . قال السبط : ومن العجائب أنهم طلبوا له كفنا فلم يقدروا عليه ، فأخذوا عمامة الفقيه النجيب ابن فارس فكفنوه بها ، وأخرجوا قطنا من مخدة فلفوه به ، ولم يقدروا على فأس فسرق كريم الدين فأسًا من الخندق فحفروا له به فى القلعة ، وصلى عليه وزيره ابن فارس ودفنوه فى القلعة . قال السبط : وكنت قاعدًا إلى جانب المعظم عند باب الدار التى فيها الإيوان وهو واجم ولم أعلم بحاله ، فلما دفن أبوه قام قائما وشق ثيابه ولطم على رأسه ووجهه ، وكان يوما عظيما وعمل له العزاء ثلاثة أيام بالإيوان الشمالى ، وعمل له العزاء فى جميع البلاد ، ونودى فى بغداد من أراد الصلاة على الملك العادل الغازى المجاهد فى سبيل الله فليحضر إلى جامع القصر ، فحضر الناس ولم يتخلف سوى الخليفة ، وصلوا عليه صلاة الغائب وترحموا عليه ، وتقدموا إلى خطباء الجوامع بأسرهم ففعلوا ذلك بعد صلاة الجمعة .

---

(١) وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص ٧٨ .

(٢) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٩١ - ٣٩٢ ؛ الذيل على الروضتين ، ص ١١٢ .

قال السبط[١] : فوضَّ إلى الملك المعظم تربة بدر الدين حسن فى اليوم الثالث . وقال أبو شامة[٢] : هو بدر الدين حسن أحد أولاد الداية هو وأخوته من أكابر أمراء نور الدين بن زنكى رحمه الله ، وتربته هى التى على نهر ثورا[٣] عند جسر كحيل فى طريق الجبل قرب المدرسة الشبلية[٤] ، فكان أبو المظفر يعنى السبط[٣٧٧] (رحمه الله) يسكنها ويدرس بالمدرسة الشبلية ، ومنها يصعد إلى الجبل وينزل إلى دمشق كل يوم سبت[٥] لمجلس الوعظ ، وما أكثر ما كنت أراه جالسا فى شباك التربة أو فى الصفّة الخارجة فى النهر ومعه كتاب يطالع فيه أو ينسخ منه ، فما أطيب ما كانت تلك الأيام وما أرغد عيش تلك الأعوام . وقال السبط[٦] : وأقام العادل بالقلعة إلى سنة تسع عشرة وستمائة ثم نقل إلى تربته التى أنشأها عند دار العقيقى ومدرسته .

وفى تاريخ ابن العميد : وفى سنة أربع عشرة وستمائة خرج الملك العادل من الديار المصرية إلى الشام بأمواله وذخائره فمضى إلى قلعة الكرك وأقام بها مدة ، وجعل أمواله التى خرجت معه من مصر فيها . وفى سنة خمس عشرة بلغه أن الفرنج قد نزلوا على دمياط ، فجهز العساكر التى كانت معه جميعها إلى الديار المصرية وخرج من الكرك على عزم المسير إلى دمشق ، فمرض فى الطريق فنزل على عالقين قريبا من دمشق وأقام بها مدة ، ومات بها وذلك فى آخر نهار الخميس السابع من جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة ، وكتموا موته وقالوا : لقد أشار الطبيب بأن يعبر إلى دمشق فيداوى ، فحملوه فى محفة وعنده خادم والطبيب راكب إلى جانب المحفة ، والشراب دار[٧] يصلح الأشربة ويحملها إلى الخادم فيشربها ويتوهم أن السلطان يشرب إلى أن دخلوا إلى قلعة دمشق بالخزائن والحزم وجميع البيوتات ، ثم أظهروا موته فاختبط الناس وصاحوا ، فركب

(١) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٩٢ .
(٢) الذيل على الروضتين ، ص ١١٣ .
(٣) نهر ثوراً : نهر عظيم بدمشق . انظر معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٩٣٨ .
(٤) المدرسة الشبلية بدمشق : من المدارس الحنفية ، وهى التى يطلق عليها الشبلية البرانية أو الشبلية الحسامية ، وبانيها هو الطواشى شبل الدولة كافور الحسامى .
انظر : الدارس فى تاريخ المدارس ، جـ ١ ، ص ٥٣٠ .
(٥) «بسبب مجلس الوعظ» الذيل على الروضتين ، ص ١١٣ .
(٦) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٩٢ .
(٧) الشراب دار : هو لقب على الذى يتصدى للخدمة بالشراب خاناه . انظر : صبح الأعشى ، جـ ٥ ، ص ٤٦٩ .

ولده الملك المعظم شرف الدين عيسى صاحب دمشق وهدأ الناس وسكنهم ، ونادى المنادى ترحموا على السلطان الملك العادل وادعوا لسلطانكم الملك المعظم ، فبكت الناس وحزنوا عليه .

(الرابع) فى ذكر ما يتعلق به :

وكانت مدة مملكته لمصر نحو تسع[1] عشرة سنة ، ولدمشق ثلاثا وعشرين سنة .

وقال ابن خلكان[2] : كان الملك العادل سيف الدين أخو السلطان صلاح الدين (رحمه الله) وصل إلى الديار المصرية صحبة أخيه وعمه أسد الدين شيركوه ، ولما ملك صلاح الدين الديار المصرية كان ينوب عنه فى حال غيبته بالشام ، ويستدعى منه الأموال للإنفاق فى الجند وغيرهم . ولما ملك صلاح الدين مدينة حلب فى صفر سنة تسع وسبعين وخمسمائة أعطاها لولده الملك الظاهر غازى ، ثم أخذها منه وأعطاها للملك العادل فانتقل إليها وصعد قلعتها يوم الجمعة الثانى والعشرين من رمضان من السنة المذكورة ، ثم نزل عنها للملك الظاهر غازى بن صلاح الدين لمصلحة وقع الاتفاق عليها بينه وبين أخيه صلاح الدين ، وخرج منها فى سنة اثنتين وثمانين وخمسمائة ليلة السبت الرابع والعشرين من ربيع الأول منها ، ثم أعطاه السلطان صلاح الدين قلعة كرك وتنقل فى الممالك فى حياة أخيه صلاح الدين وبعد وفاته إلى أن استقل بمملكة الديار المصرية ، واستقرت له القواعد وخطب له بمصر والقاهرة وبحلب أيضا . وملك بعدها البلاد الشامية والشرقيةَ وصَفَتْ له الدنيا ، ثم ملك بلاد اليمن فى سنة اثنتى عشرة وستمائة وسيّر إليها ولد ولده الملك المسعود صلاح الدين أبا المظفر يوسف المنعوت بأطسز ابن الملك الكامل . وأطسيز بفتح الهمزة وسكون الطّاء المهملة وكسر السين المهملة وبعدها باء آخر الحروف ثم زاى معجمة . وهى كلمة تركية وتفسيرها بالعربى ما له اسم . وقد يقال أطسيس بسينين مهملتين[٣٧٨] والعامة يقولون : أقسيس بالقاف . وصوابه بالطاء وإنما سمى بذلك لأن الملك الكامل ما كان يعيش له ولد ، فلما ولد المسعود المذكور قال بعض الحاضرين فى مجلسه من الأتراك : فى بلادنا إذا كان الإنسان لا يعيش له ابن سماه أطسيس .

---

(١) «تسعة عشر» فى الأصل .

(٢) وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص ٧٤ ـ ص ٧٩ .

وقال ابن كثير[١] : وأتت الملك العادل السعادة واتسعت مملكته ، وكثرت أولاده ورأى فيهم ما يحب ، ولم ير أحد من الملوك الذين اشتهرت أخبارهم فى أولادهم من المُلْكِ والظفر ما رآه العادل فى أولاده .

وقد كانت ممالكه ممهدة من أقصى بلاد مصر واليمن والشام والجزيرة إلى همذان كلها ، أخذها بعد أخيه السلطان صلاح الدين يوسف (رحمه الله) سوى حلب فإنه أقرها بيد ابن أخيه السلطان غازى بن صلاح الدين لأنه كان زوج ابنته صفية خاتون كما ذكرنا[٢] .

وكان الملك العادل كثير الأكل ممتعا بصحته وعافيته مع كثرة صيامه ، يأكل فى اليوم الواحد أكلات جيدة ، ثم بعد كل حال يأكل وقت النوم رطلا بالدمشقى من الحلواء السكرية اليابسة ، وكان يعتريه مرض فى أنفه فى زمان الورد فكان لا يقدر على الإقامة بدمشق حتى يفرغ زمن الورد ، يضرب له الوطاق بمرج الصفر ثم يدخل البلد بعد ذلك[٣] .

وكان عنده عند موته بعض مماليكه ، ولم يكن عنده أحد من أولاده حاضرا ، فحضر إليه ابنه الملك المعظم عيسى بعد وفاته وكان بنابلس كما ذكرنا ، واحتوى المعظم على جميع ما كان مع أبيه من الجواهر والأموال والسلاح والخيول وغير ذلك ، وكان فى خزانته لما توفى سبع مائة ألف دينار عينيا[٤] .

وقال ابن خلكان : (رحمه الله) ولما قسم العادل البلاد بين أولاده كان يتردد بينهم ويتنقل من مملكة إلى أخرى ، وكان فى الغالب يصيف بالشام لأجل الفواكه والثلج والمياة الباردة ، ويشتى فى الديار المصرية لاعتدال الوقت فيها وقلة البرد ، وعاش فى أرغد عيش ، وكان يأكل كثيرا خارجا عن المعتاد ، يقال : كان يأكل وحده خروفا لطيفا مشويا ، وكان له من النكاح نصيب وافر ، وحاصل الأمر أنه كان ممتعا فى دنياه[٥] .

---

(١) بالبحث فى البداية والنهاية لم نجد هذا الخبر ، ولكن ذكر هذا الخبر بالتفصيل فى المختصر فى أخبار البشر ، جـ٣ ، ص ١١٩ ، وورد بتصرف فى وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص ٧٦ ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٩٤ .

(٢) ورد هذا الخبر فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٩٠ ، الذيل على الروضتين ، ص ١١١ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٨٦ .

(٣) ورد هذا الخبر بالتفصيل فى البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٨٦ ؛ وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص ٧٨ .

(٤) ورد هذا الخبر فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٩١ ؛ الذيل على الروضتين ، ص ١١٢ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص٨٦ ؛ المختصر ، جـ ٣ ، ص ١٢٠ .

(٥) وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص ٧٨ .

(الخامس) فى ذكر أولاده :

خلف أولادا لم يخلف أحد من الملوك أمثالهم فى نجابتهم وبسالتهم ومعرفتهم وعلو هممهم ، ودانت لهم العباد وملكوا خيار البلاد[١] ، وخلف تسعة عشر ولدا[٢] ذكرا سوى البنات كلهم نجباء . (الأول) الملك الأوحد نجم الدين أيوب صاحب أخلاط وغيرها ، مات فى حياة والده كما ذكرنا . (الثانى) الملك المغيث عمر توفى فى حياة والده ، وخلف ولدا صغيرا ، ولقبوه بلقب أبيه . (الثالث) الملك الكامل ناصر الدين محمد صاحب الديار المصرية والسكة والخطبة له فى جميع الممالك الأيوبية . (الرابع) الملك المعظم شرف الدين عيسى صاحب دمشق وأعمالها . (الخامس) الملك العزيز عماد الدين عثمان صاحب بانياس . (السادس) الملك الأمجد مجد الدين حسن توفى فى حياة والده . (السابع) الملك الأشرف مظفر الدين موسى صاحب حران والرها وغيرهما وصاحب أخلاط بعد موت أخيه الملك الأوحد . (الثامن) الملك المظفر شهاب الدين غازى صاحب ميا فارقين . (التاسع) الملك المعز مجير الدين يعقوب . (العاشر) الملك القاهر إسحاق ويلقب ببهاء الدين . (الحادى عشر) الملك الصالح عماد الدين إسماعيل[٣٧٩] . (الثانى عشر) الملك الأفضل قطب الدين أحمد ، توفى بمصر أيام أخيه الملك الكامل . (الثالث عشر) الملك الفائز إبراهيم ويلقب بسابق الدين . (الرابع عشر) الملك الحافظ نور الدين على أرسلان شاه صاحب قلعة جعبر . (الخامس عشر) الملك الأمجد تقى الدين عباس وهو آخرهم وفاة . (السادس عشر) الملك المغيث شهاب الدين محمود . (السابع عشر) الملك الناصر صلاح الدين خليل وهو أصغرهم . (الثامن عشر) الملك المعظم شمس الدين مودود . (التاسع عشر) الملك القاهر بهاء الدين الخضر[٣] .

وفى المرآة[٤] : وكان العزيز عثمان والأمجد شقيقى الملك المعظم ، وكان مجير الدين يعقوب والقاهر إسحاق شقيقى[٥] شهاب الدين غازى .

---

(١) ورد هذا الخبر فى وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص ٧٦ .
(٢) فى المختصر فى أخبار البشر أن الملك العادل خلف ستة عشر ولدا ذكرا . جـ ٣ ، ص ١٢٠ .
(٣) ورد هذا الخبر فى المرآة ، جـ ٨ ، ص ٣٩٢ ؛ الذيل على الروضتين ص ١١٣ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٧٨ .
(٤) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٩٢ .
(٥) «شقيقا» فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه .

وقال أبو شامة[١] : تقى الدين عباس كان حيا بدمشق فى سنة تسع وخمسين وستمائة ، وهو آخر من بقى منهم .

وقال السبط[٢] : وكان الصالح إسماعيل وقطب الدين أحمد بدمشق لما مات العادل ، فأمر المعظمُ الصالحَ فتوجه إلى بُصرى ، وأحمد إلى مصر .

وكانت للعادل بنات أجلّهن صفية خاتون زوجة الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف صاحب حلب ، أم الملك العزيز والد الملك الناصر يوسف الذى أسره هلاون[٣] . كما سنذكره إن شاء الله .

قال شرف الدين ابن عنين يمدح الملك العادل ويذكر أولاده بقصيدته التى أولها[٤] .

ماذا على طيف الأحبة لو سرى   وعليهم لو سامحونى بالكرى
العادل الملك الذى أسماؤه   فى كل ناحية تُشرف منبرا
مافى أبى بكر لمعتقد الهدى   شك يريب بأنه خير الورى
بين الملوك الغابرين وبينه   فى الفضل ما بين الثريا والثرى
نسخت خلائقه الحميدة ما أتى   فى الكُتب عن كسرى الملوك وقيصرا
لا تسمعن حديث ملك غيره   يروى فكل الصيد فى جوف الفرا
وله الملوك[٥] بكل أرض منهم   ملك يجر[٦] إلى الأعادى عسكرا
من كل وضاح الجبين تخاله   بدرًا فإن شهد الوغى فغضنفرا

(السادس) فيما تجدد بعد وفاته :

لما دخل[٧] شهر رجب رد الملك المعظم المكوس والخمور وما كان أبوه أبطله . قال السبط : فقلت له : قد خلفت سيف الدين غازى ابن أخى نور الدين فإنه كذا فعل لما

(١) الذيل على الروضتين ، ص ١١٣ .
(٢) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٩٢ ؛ البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٨٧ ؛ الذيل على الروضتين ، ص ١١٣ .
(٣) هلاون = هولاكو .
(٤) ورد هذا الشعر فى : وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص ٧٦ - ٧٧ ؛ المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ١٢٠ .
(٥) «البنون» فى وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص ٧٦ .
(٦) «يقود» فى وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص ٧٦ .
(٧) ورد هذا الخبر فى مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٩٢ ؛ الذيل على الروضتين ، ص ١١٣ .

مات نور الدين ، فاعتذر بقلة المال والفرنج . قلت : هذا عذر غير مقبول عند الله وعند الناس . ثم سار المعظم إلى بانياس وراسل الصارم التبنينى وهو بتبنين[١] فى تسليم الحصون فأجابه به ، فأخرب بانياس وسار إلى تبنين فأخربها وهدمها ، وكانت قفل البلاد وملجأ العباد ، وأعطى بلاد جهاركس لأخيه العزيز وزوّجه ببنت جهاركس ، وبعث إليه الكامل بالخلع ، وقال : أدركنى . وقد جاءت الفرنج فنزلوا سرمساح ، وأخلى لهم المسلمون الخيام فطمعوا ، ثم رجع عليهم الكامل فكسرهم وقتل منهم خلقًا كثيرًا وعادوا إلى دمياط . ونزل الصارم وولده ناصر الدين وأصحابه من الحصون فأكرمهم المعظم وخلع عليهم وأحسن إليهم ، وأظهر أنه ما أخرب بانياس وتبنين إلا خوفًا من استيلاء[٣٨٠] الفرنج عليها[٢] .

(السابع) فى دولة الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب استقلالا بالديار المصرية بعد والده فى جمادى الآخرة سنة خمس عشرة وستمائة .

ولما توفى والده ووصل الخبر بوفاته عمل له العزاء بدار الوزارة بالقاهرة ، وكان نازلا بدمياط مشغولا بالفرنج ـ كما ذكرنا ـ وعنده أخوة الفائز ، وجرت بين المسلمين والفرنج وقائع كثيرة وحروب ، وثارت الفتن من الغرباء بالديار المصرية ، فكانوا أشد بلاءً من الفرنج . واتفق مع ذلك أن عماد الدين بن المشطوب – أحد الأمراء العادلية – كان يكره الكامل فأراد القبض عليه وإقامة أخيه الفائز عوضا عنه ، فأُعلم الكامل بهذه الحالة فارتحل عن دمياط ، وقصد التوجه إلى مصر لهذه الحادثة ، فأشار عليه بعض الأمراء بالمقام على المنصورة ، وهى قرية أنشأها الكامل على بحر أشموم لأجل مقابلة الفرنج ومقاتلتهم ، فأقام بها وأصبح الفرنج فلم يروا من العسكر الإسلامى أحدًا بالبر الشرقى ، فظنوا أنها مكيدة عملت عليهم ، فارتابوا إلى أن تحققوا رحيل السلطان ، فعدوا وكسبوا وغنموا ما ترك المسلمون وأحاطوا بدمياط من البر والبحر ، وضايقوها مضايقة كثيرة .

---

(١) بلدة فى جبال بنى عامر المطلة على بانياس ، بين دمشق وصور . معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٨٢٤ .

(٢) ورد هذا الحدث فى الذيل على الروضتين ، ص ١١٣ .

ووصل الملك المعظم شرف الدين عيسى أخو الكامل من دمشق إليه ، فشكا له حاله وما أراد ابن المشطوب أن يعمله معه ، فقال : أنا أكفيك أمره . وركب المعظم وجاء حتى وقف بفرسه على باب خيمة ابن المشطوب ، فجرى إليه وتلقاه ، فقال له : يقوم الأمير عماد الدين لنتفق على نصب المنجنيقات على أطراف البحر ، وترتيب اليزك ومصلحة المسلمين فركب مسرعا ، فلما سار معه قليلا واستدرجه المعظم حتى أخرجه عن الخيام ، أحاط به عسكر المعظم وأنزلوه عن جواده وركّبوه بغلة وسُيِّر إلى الشام . فقصد الأشرف مظفر الدين موسى وأقام فى خدمته ، وتوجه الفائز إلى الشرق ، واستقر حال الكامل وأعاد الصاحب صفى الدين بن شكر إلى الوزارة ليحصل الانتفاع به فى استخراج الأموال ، وتحصيل ما ينفق فى الغزاة إعانة لهم على ما هم بصدده من القتال . وكان المذكور قد نفى إلى الشام عند عزله فأعيد ، وَجَبَى من التجار وأرباب الأموال شيئا[١] يقال له التبرع .

وقال ابن كثير[٢] : وأعيد الوزير صفى الدين عبدالله بن على بن شكر من بلاد الشرق من آمد إلى دمشق بعد موت العادل ، وكان العادل قد نفاه كما ذكرنا .

وفى المرآة[٣] وفيها قدم الصاحب صفى الدين بن شكر وزير العادل وكان العادل قد نقم عليه فنفاه إلى الشرق ، فمضى إلى آمد فأقام بها ، فلما مات العادل كتب ابنه الكامل من مصر إليه يطلبه ، فقدم دمشق فى هذه السنة ونزل بظاهرها ببيت [أرانس][٤] فى دار المؤيد العقوبانى فخدمه المؤيد ، وكان قد قَلّ نظره فأقام أياما ثم توجه إلى مصر .

وقال أبو شامة : وقيل : إن قدومه من الشرق[٥] كان بعد هذه السنة . وقرأ بهاء الدين بن أبى اليسر بين يديه ببيت [أَرَانِس] مقامة فى مدحه من إنشاد الشيخ أبى الحسن السخاوى[٦] ، سماها «محاضرة العلماء ومحاورة الفقهاء فى أوحد الكبراء وسيد الوزراء» ،

---

(١) «شىء» فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه .
(٢) انظر البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٨٧ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٩٣ ؛ الذيل على الروضتين ، ص ١١٤ - ١١٥ .
(٣) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٩٣ .
(٤) «رانس» فى الأصل ، وفى مرآة الزمان «برانس» ، وفى الذيل على الروضتين ، ص ١١٤ «دانس» . والمثبت من ياقوت . معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٧٧٥ .
وبيت أَرَانِس : من قرى الغوطة بدمشق .
(٥) «المشرق» فى الذيل على الروضتين ، ص ١١٤ .
(٦) «البخارى» فى الذيل على الروضتين ، ص ١١٤ .

وهى مقامة جليلة حسنة لفظا ومعنى . وكان خليقا بالوزارة لم يأت بعده فيها مثله ، وكان متواضعا يُسلم على الناس الذين يمر بهم وهو راكب ، ويكرم الفقهاء ويحترمهم[٣٨١] ويعمر أوقافهم ويثمرها ، ويوسع لهم فى الجامكيات . وفى أيامه بنيت العمارة بغوارة[١] جيرون والمسجد والبركة والشادروان وغير ذلك .

قال أبو شامة[٢] : قال السبط : توفى فى سنة ثلاثين وستمائة وهو وهم ، وإنما توفى فى سنة ثنتين وعشرين وستمائة كما سنذكره إن شاء الله .

ذكر وفاة الملك القاهر صاحب الموصل وهو عز الدين مسعود بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكى بن أقسنقر

مات لثلاث بقين من ربيع الأول من هذه السنة[٣] ، وكانت مدة ملكه تسع سنين وسبعة أشهر ، وانقرض بموته ملك البيت الأتابكى . وكان قليل الطمع فى أموال الرعية ، كافًا عن أذىً يُوصله إليهم ، مقبلا على لذاته ينهبها نهبًا .

وقال ابن خلكان[٤] : لما مات نور الدين أرسلان شاه خَلّف ولدين أحدهما : الملك القاهر عز الدين أبو الفتح مسعود ، والآخر الملك المنصور عماد الدين زنكى ، ولما حضرته الوفاة قَسَّم البلاد بينهما ، فأعطى للملك القاهر ـ وهو الأكبر ـ الموصل وأعمالها وأعطى عماد الدين شوش والعَقْر وتلك النواحى . فأما الملك القاهر فكانت ولادته فى سنة تسعين وخمسمائة بالموصل ، وتوفى بها فجأة ليلة الإثنين لثلاث بقين من شهر ربيع الآخر سنة خمس عشرة وستمائة ، وكان قد بنى مدرسة فدفن فيها .

وفى تاريخ بيبرس : وأوصى الملك القاهر بالملك بعده لولده الكبير أرسلان شاه وعمره نحو من عشر سنين ، وجعل المدبر لدولته بدر الدين لؤلؤ وهو كان يتولى دولة والده القاهر ، ويقوم بتدبيرها وتدبير جده نور الدين أيضا . فلما توفى القاهر أجلس بدر الدين لؤلؤ ولده أرسلان شاه مكانه ، وأرسل إلى الخليفة يطلب منه التقليد والتشريف ، وأرسل

(١) جيرون باب من أبواب الجامع الأموى بدمشق ، وهو الباب الشرقى ، وفيه فوّارة يُنْزَلُ عليها بدرج كثيرة فى حوض من رخام وقُبَّة خشب يعلو ماؤها نحو الرمح . انظر : معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ١٧٦ .

(٢) انظر : الذيل على الروضتين ، ص ١١٥ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٤٤٨ وفيات سنة ٦٣٠ هـ .

(٣) انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص ٢٠٨ .

(٤) انظر : وفيات الأعيان ، جـ ٥ ، ص ٢٠٨ .

إلى الملوك وأصحاب الأطراف المجاورين لهم يطلب تجديد العهود لنور الدين على القاعدة التى كانت بينهم وبين أبيه ، فلم يُصبح إلا وقد فرغ من كل ما يحتاج إليه وجلس للعزاء ، وحَلّفَ الجُند والرعايا ، وضبط المملكة مع صغر السلطان وكثرة الطامعين فى المُلْك ، فإنه كان معه فى البلد أعمام أبيه ، وكان عمه عماد الدين زنكى بن أرسلان شاه بقلعة عقر الحميدية ، يُحدث نفسه بالملك ، لا يشك أن الملك يصير إليه بعد أخيه . فرقّع بدر الدين لؤلؤ ذلك الخرق وأحسن إلى الناس عامة وخلع عليهم ، وأحسن السيرة وكشف الظلامات وأنصف بعضهم من بعض .

وبعد أيام وصل التقليد من الخليفة إلى نور الدين بالولاية ، ولبدر الدين لؤلؤ بالنظر فى أمر دولته ، والتشريفات لهما ، وأتتهم رسل الملوك بالتعزية وبذل ما طلب منهم من العهود ، واستقرت القاعدة لهما .

وقال ابن كثير(١) : ولما أُجلس أرسلان شاه بن القاهر فى المملكة وكان به قروح وأمراض ، تحرك عمه عماد الدين زنكى بن أرسلان شاه وقصد العمادية واستولى عليها ، ثم استولى على قلاع الهكارية والزوزان(٢) ، واستنجد بدر الدين لؤلؤ المتولى على ملك الموصل ومدبر أرسلان شاه بالملك الأشرف ابن الملك العادل ودخل فى طاعته ، فأنجده الملك الأشرف بعسكر وساروا إلى عماد الدين زنكى بن أرسلان شاه وهزمه ، وكان زنكى متزوجا ببنت مظفر الدين كوكبورى صاحب إربل ، وأم البيت ربيعة خاتون بنت أيوب أخت الملك العادل . وكان مظفر الدين لا يترك ممكنا فى نجدة صهره[٣٨٢] زنكى المذكور ويبالغ فى عداوة بدر الدين لؤلؤ لأجل صهره .

ذكر وفاة نور الدين أرسلان شاه ابن الملك القاهر عز الدين مسعود صاحب الموصل

وذكر بيبرس(٣) فى تاريخه وفاته فى هذه السنة ، وذكره المؤيد(٤) فى السنة الآتية .

---

(١) ورد هذا الحدث فى الكامل لابن الأثير ، جـ ١٠ ، ص ٣٨٣ - ٣٨٤ . ولم نجده فى البداية والنهاية كما ورد بالأصل .

(٢) زوزان : ناحية واسعة فى شرقى دجلة من جزيرة ابن عمر . وهى بين الموصل وخلاط وأذربيجان .
معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٩٥٧ .

(٣) انظر : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٨٦ .

(٤) المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ١٢١ .

وقال بيبرس لما تقرر الصلح بينه وبين عماد الدين زنكى كان متمرضا ولم يلبث أن مات على فراشه ، فرتب بدر الدين لؤلؤ أخاه ناصر الدين محمود وله من العمر ثلاث سنين ، ولم يكن للملك القاهر ولد غيره ، وحلّف له الجند فركّبه وطابت نفوس الناس لأن نور الدين كان لا يقدر على الركوب لكثرة أمراضه فلما ركب أخوه علموا أن لهم سلطانًا من البيت الأتابكى ، فاستقروا واطمأنوا وسكنوا .

ولما ملك ناصر الدين المذكور تجدد لمظفر الدين صاحب إربل وعماد الدين زنكى طمعُ لصغر سن ناصر الدين ، فجمعا الرجال وتجهزا للحركة وقصدوا أطراف بلاد الموصل بالنهب والفساد ، وكان بدر الدين قد سير ولده الكبير فى جمع كثير من العسكر إلى الملك الأشرف ؛ نجدة له بسبب اجتماع الفرنج بمصر وهو يريد أن يدخل بلاد الفرنج التى بالشام ، ينهبها ويخزنها ليعود بعض الفرنج الذين بدمياط إلى بلادهم فيخف الأمر على الملك الكامل . فلما تحرك مظفر الدين وعماد الدين على بدر الدين لؤلؤ أرسل يستنجد بعسكر الأشرف الذين بنصيبين ويستدعيهم ليعتضد بهم ، وكان المقدم عليهم مملوكا للأشرف يسمى أيبك ، فساروا إلى الموصل فلما رآهم بدر الدين استقلّهم لأنهم كانوا أقل من العسكر الذى أرسله إلى الشام أو مثلهم ، وألحّ أيبك الأشرفى على عبور دجلة وقصد بلاد إربل ، فمنعه بدر الدين لؤلؤ من ذلك ، فنزل بظاهر الموصل شرقى دجلة ، فلما سمع مظفر الدين ذلك جمع عسكره وسار إليهم ومعه عماد الدين زنكى ، فعبر الزاب فسمع به بدر الدين فعبّى أصحابه وجعل أميرا كبيرا فى الميمنة ، فلما كان الليل أراد الانتقال إلى الميسرة فقال له بدر الدين لا يفعل لئلا ينهزم العسكر فإن العدو قريب منكم ، فلم يقبل منه وسار إلى الميسرة لجهله بالحرب واضطر الناس لاتباعه فتقطعوا من الليل والظلمة والتقوا هم والخصم على ثلاثة فراسخ من الموصل . فأما أيبك الأشرفى فإنه لحق بالميمنة وحمل هو وأصحابه على ميمنة مظفر الدين فهزمها وبها زنكى ، وتقدم إليه مظفر الدين فيمن معه من القلب فلم يمكنه الوقوف ، فعاد إلى الموصل وعبر دجلة ونزل البلد ، فلما رآه الناس فرحوا به ، ونزل مظفر الدين فيمن سلم معه من عسكره وراء تل حصن نينوى فأقام ثلاثة أيام ، فلما رأى اجتماع العسكر البدرى بالموصل وأنهم لم يفقد منهم إلا اليسير ، وبلغه الخبر أن بدر الدين يريد العبور إليه ليلا بالفارس والراجل على الجسور وفى السفن ويكبسه ، فرحل ليلا من غير أن يضرب كوسًا ،

وعاد نحو إربل فلما عبروا الزاب نزلوا ، ثم جاءت الرسل وسعوا فى الصلح على أن كل من بيده شيء هو له وتقررت العهود والأيمان على ذلك(١) .

وفى تاريخ المؤيد(٢) : مات نور الدين أرسلان شاه فى سنة ست عشرة وستمائة فأقام بدر الدين لؤلؤ بعده أخاه ناصر الدين محمود وعمره يومئذ نحو ثلاث سنين ، وهو آخر من خطب له من بيت أتابك بالسلطنة ، وكان أبوه القاهر آخر من[٣٨٣] كان له استقلال بالملك منهم ، ثم [إن](٣) هذا الصبى مات بعد مدة واستقر بدر الدين لؤلؤ بالملك وأتته السعادة ، وطالت مدة ملكه إلى أن توفى بالموصل بعد أخذ التتار بغداد على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وقال أبو(٤) شامة : ثبت ملك بلاد الموصل لبدر الدين لؤلؤ فسمى بالملك الرحيم ، ثم لأولاده من بعده إلى الآن ، وبلغنى أن لؤلؤ كان سقى القاهر سمًا فمات ، ثم أدخل ابنه محمودا بعد ذلك حماما حاميا وأغلق عليه الباب فاشتد كربه وعطشه ، فاستغاث أخرجونى واسقونى ماء ثم اقتلونى ، وقد تغيرت خلقته وكان من أحسن الناس صورة ، فأسقى ماء ثم حنق بوتر .

ذكر خروج التتار إلى بلاد الإسلام وظهورهم فى هذه الأيام

قال بيبرس(٥) فى تاريخه : وفى هذه السنة أعنى سنة خمس عشرة وستمائة توالت الجوائح على البلاد الإسلامية وتواترت النوائب على الأمة المحمدية ، ووافق حركة الفرنج من المغرب خروج التتار من أقصى المشرق واستيلائهم على ما يليهم من ممالك الخطائية ، وامتدادهم إلى الممالك الإسلامية وانتزاعهم مدائن العجم من يد السلطان خوارزم شاه علاء الدين محمد بن تكش بن أيل أرسلان بن إتسز المستولى على الممالك السلجوقية ، وذكر غيره خروج التتار إلى بلاد الإسلام فى سنة ست عشرة

(١) ورد هذا الحدث بتصرف فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٨٦ ـ ص ٣٨٧ ؛ المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ص١٢٠- ص١٢١ .

(٢) المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ١٢١ .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من المختصر ، جـ ٣ ، ص ١٢١ . وذلك لاستقامة المعنى .

(٤) الذيل على الروضتين ، ص ١١٤ .

(٥) الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٩٩ ـ وما بعدها حوادث سنة ٦١٧ هـ .

وستمائة وذلك أنهم عبروا نهر جيحون صحبة ملكهم جنكيز خان من بلادهم ، وكانوا يسكنون جبال طمغاج[١] من أرض الصين ولغتهم مخالفة للغة سائر التتار وهم من أشجعهم وأصبرهم على القتال ، وسبب دخولهم أن جنكيز خان بعث تجارا له مع أموال كثيرة إلى بلاد خوارزم شاه يشترون له ثيابا للكسوة فكتب نائب خوارزم شاه إليه يخبره بهم وبما معهم من الأموال الكثيرة فأرسل خوارزم شاه إليه يأمره بقتلهم وأخذ أموالهم ففعل ذلك ، فبلغ جنكيز خان فغضب عند ذلك غضبا شديدا وأرسل يتهدد خوارزم شاه ، فأشار من أشار على خوارزم شاه بالمسير إليهم فسار إليهم فأقبل وهم فى شغل بقتال كشلى خان ، فنهب خوارزم شاه أموالهم وسبى ذراريهم وذلك بعد أن اقتتلوا أربعة أيام قتالا لم نسمع بمثله ؛ أولئك يقاتلون على حريمهم والمسلمون يقاتلون عن أنفسهم يعلمون أنهم متى ولوا استأصلوهم ، فقتل من الفريقين خلق كثير حتى أن الخيول كانت تزلق فى الدماء ، وكان جملة من قتل من المسلمين نحو من عشرين ألفًا ، ومن التتار أضعاف ذلك . ثم تحاجز الفريقان وولى كل منهم إلى بلاده .

وقال أبو الفتح المنشىء : لما انصرف السلطان خوارزم شاه من العراق واستقر بما وراء النهر وافته رسل جنكيز خان وهم محمود الخوارزمى ، وعلى خواجه البخارى ويوسف كنكا الأترارى ومعهم من نَقَر المعادن ونواقح المسك وأحجار اليشم والثياب التى تسمى طرقو ، وقد ذكرنا هذا أنه كان فى سنة أربع عشرة وستمائة وأن خوارزم شاه أكرم رسله وخلع عليهم وأظهر المسالمة مع جنكيز خان ، ولما ردوا إلى جنكيز خان وأخبروه بذلك سر وفرح على هذا واستمر الحال على المسالمة إلى أن وصل من بلاد جنكيز خان تجار إلى أترار وهم خواجه عمر الأترارى والجمال المراغى وفخر الدين البخارى وأمين الهروى ، وكان ينال خان ابن خال السلطان فى عشرين ألف فارس ينوب عن السلطان خوارزم شاه فى مدينة أترار[١] .

ولما وصلت التجار إلى أترار شرهت نفسه الدنيّة فى أموالهم واحتاط[٣٨٤] عليهم وخفّى أثرهم وتفرد بتلك الأموال بغير علم السلطان[٢] . فبلغ ذلك جنكيز خان ، فأرسل

---

(١) أُترار = أُطرار : مدينة حصينة وولاية واسعة فى أول حدود الترك بما وراء النهر على نهر سيحون قرب فاراب . معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٣١٠ .

(٢) ورد هذا الحدث بتصرف فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٤٠١ ـ ٤٠٢ .

إلى خوارزم شاه شخصا يقال به كرُجْ بُغْرا ، وكان أبوه من أمراء السلطان تكش والد خوارزم شاه ، ومعه اثنان من التتار ، ومضمون الرسالة بأنك قد أعطيت خط يدك بالأمان للتجار ، وأن لا يتعرض إليهم أحد ، فغدرت ونكثت ، والغدر فى نفسه قبيح ، ومن سلطان الإسلام أقبح ، فإن كنت تزعم أن الذى فعله ينال خان من غير أمرك فسلمه إلىَّ لأجازيه على ما فعل ، وإلا فأذن بحربٍ تَرْخُصُ فيها غوالى الأرواح ، وتقصف معها عوالى الرماح .

فأمسك السلطان عن تسييرينال خان إليه ، على رعب خامر قلبه ، وخَوفُ سلب لُبه ، وذلك لأنه عُمْدَة عساكره ، ومن أقاربه ، وكان أكثر أمرائه من أقاربه ، وطُرُر مملكته والمتحكمين فى دولته . ثم اعتقد السلطان أنه إذا لاطف جنكيز خان فى الجواب لم يزده ذلك إلا طمعًا فيه ، فأغلظ فى الجواب وأمر بقتل أولئك الرسل فقتلوا فيا لها من قتلة هدرت دماء المسلمين والإسلام ، وأجرت بكل نقطة سيلا من الدم الحرام ، ولما بلغ ذلك جنكيز خان عزم على المسير إليه ، واجتهد فى الحوطة عليه وبلغ ذلك السلطان خوارزم شاه فأول ما اعتمده من التدبير الخطأ أنه عزم على أن يبنى سورا على سمرقند ودوربها على ما قيل اثنى عشر فرسخًا ثم شحنها بالرجال ليكون ردا بينه وبين الترك ، وسدًا دونهم ، ثم سير عماله وجباته إلى جميع البلاد وأمرهم أن يستخرجوا خراج سنتين . وأعجله التتار عن عمارة السور . ومن جملة خطئه فى تدبيره أنه لما سمع بقرب جنكيز خان فرق عساكره فى مدن ما وراء النهر وبلاد الترك ، فترك ينال خان فى عشرين ألف فارس فى أترار وقيلغ خان فى عشرة آلاف فارس فى شهر كند[1] والأمير اختيار الدين كشلى أمير آخور وأغلى حاجب الملقب بانبانجخان فى ثلاثين ألف فارس ببخارى وطغان جَان خَالَهُ وأمراء الغور مثل حرمنج وخرزوام وابن عزالدين وحسام الدين مسعود وغيرهم فى أربعين ألف فارس بسمرقند ، وفخر الدين المعروف باعيار النسوى وعسكر سجستان بترمذ وملخودْخان بوخش وأبا محمد خال أبيه فى جماعة كثيرة ببلخ وأسرك بهلوان بجند وعجلق بختلان ، وبالجملة لم يترك بلدًا من البلاد بما وراء النهر خاليا من عسكره وقد أخطأ فى ذلك ، فلو التقى التتار بعساكره قبل أن يفرقهم لاختطفهم خطفًا ولكن أمر الله غالب ، ثم إن جنكيز خان لما شارف تخوم البلاد السلطانية تياسر صوب أترار وداوم

---

(١) فى الأصل «شهركنت» والصحيح ما أثبتناه . وهى شَهْدكنْد : مدينة فى طرف تركستان قريبة من الجَنْد بينها وبين مدينة خوارزم نحو عشرة أيام . معجم البلدان ، جـ ٣ ، ص ٣٤٤ .

القتال عليها ليلا ونهارا حتى استولى عليها ، وأحضر ينال خان بين يديه فأمر بسبك الفضة وقلبها فى أذنيه وعينيه فقتل تعذيبًا جزاء عن فعله الشنيع عن قتله التجار وأخذ أموالهم ، ثم أحضر جنكيز خان نائب الوزارة بأترار وهو بدر الدين العميد فاتفق معه على أن زوّر كتبًا عن لسان الأمراء قرابة والدة السلطان إلى جنكيز خان يبذلون له الدخول فى طاعته والرجوع عن مناصرة السلطان ومعاضدته ، وأرسل هذه الكتب على يد بعض خواصه فلما وقف عليها السلطان نفر منهم ونأى عنهم وأخذ يبدد شملهم ويفرق جمعهم[٣٨٥] ثم سير جنكيز خان دانشمند الحاجب وهو من خواصه إلى تُركان خاتون والدة السلطان بخوارزم . يقول : قد عرفت مقابلة ابنك وحقوقك بالعقوق وها أنا قد قصدته ولست بمتعرض إلى ما تحت يدك من البلاد فإن أردتِ ذلك ابعثى إلى من تثقى به حتى أحلف لك وأسلم لك خوارزم وخراسان ، وما يتاخمها من قاطع جيحون .

فكان جوابها عن هذه الرسالة أنها تخرج عن خوارزم وتتركها وراءها ، فعند ذلك خرجت تركان خاتون من خوارزم واستصحبت معها ما أمكنها من حرم السلطان وصغار أولاده ونفائس خزائنه ، وأمرت بقتل من كان بخوارزم من الملوك الأسارى وأبناء الملوك وكبار الصدور ، فقتل زهاء اثنين وعشرين نفسًا محرمة منهم ابنا السلطان غياث الدين الغورى وابن طغرل السلجوقى ، وعماد الدين صاحب بلخ[١] . وابنه بهرام شاه صاحب ترمذ[٢] ، وعلاء الدين صاحب باميان[٣] وجمال الدين عمر صاحب وخش[٤] وابنا[٥] صاحب سغناق[٦] من بلاد الترك ، وصدر جهان وافتخار جهان وابْناه ملك الإسلام وعزيز الإسلام . واستصحبت عمر خان ابن صاحب بازر وكان معوقًا بها لخبرته بالطرق المفضية إلى بلاده ، فخرج معها وخدمها تلك المدة أتم خدمة حتى إذا قاربت تخوم بازر خافت أن يفارقها ، فأمرت بضرب عنقه فقتل صبرًا وسارت بمن معها من الحرم والخزائن

---

(١) بَلْخ : مدينة مشهورة بخراسان .
معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٧١٣ .

(٢) ترمذ : مدينة مشهورة من أمهات المدن تقع على الجانب الشرقى لنهر جيحون . معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٨٤٣ .

(٣) باميان : بلدة وكورة فى الجبال بين بلخ وهراة وغزنة . معجم البلدان ، جـ ١ ، ص ٤٨١ .

(٤) وَخْشى : بلده من نواحى بلخ وهى على نهر جيحون . معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٩٠٩ .

(٥) «وابنى» فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه .

(٦) سغناق : تقع على نهر سيحون ويقال إنها قصبة قبجاق وهى على ٢٤ فرسخًا من شمال إترار وتعتبر من مدن الإسلام الكبرى فى تركستان فى ما وراء النهر . انظر بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٥٢٩ .

فصعدت قلعة إيلال من قلاع مازندران فأقامت بها إلى أن كان منها ما سنذكره إن شاء الله تعالى[١] .

وذكر بيبرس فى تاريخه خروج تركان خاتون المذكور من خوارزم فى هذه السنة ، وذكر أبو الفتح المنشيء أنه كان خروجها فى أواخر سنة ست عشرة وستمائة ، وسنذكر ما جرى بعد ذلك بين جنكزخان والسلطان خوارزم شاه وما جرى على تركان خاتون إن شاء الله تعالى .

ذكر بقية الحوادث فى هذه السنة

منها[٢] أن كيكاوس بن كيخسرو ملك الروم قصد حلب لما مات الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين ، وأجلس ابنه الملك العزيز فى مملكته ، وكان طفلا كما ذكرنا ، وطمع كيكاوس فى الاستيلاء على حلب فاستدعى الملك الأفضل بن صلاح الدين صاحب شميساط واتفق معه كيكاوس على أن يفتح حلب وبلادها ويسلمها إلى الملك الأفضل ثم يفتح البلاد الشرقية التى بيد الملك الأشرف ابن الملك العادل ويتسلمها كيكاوس وتحالفا على ذلك ، وسار كيكاوس إلى جهة حلب ومعه الملك الأفضل ووصلا إلى رعيان واستولى عليها كيكاوس وسلمها إلى الملك الأفضل فمالت إليه قلوب أهل البلاد لذلك ، ثم سار إلى تل باشر وبها فتح الدين بن دلدروم ففتحها ولم يسلمها للملك الأفضل بل أخذها كيكاوس لنفسه ، فنفر خاطر الملك الأفضل وخواطر أهل البلاد بسبب ذلك ووصل الملك الأشرف إلى حلب ليدفع كيكاوس عن البلاد ، ووصل إليه الأمير مانع بن جدمه أمير العرب فى جمع عظيم وكان قد سار كيكاوس إلى منبج وتسلمها لنفسه أيضا ، وسار الملك الأشرف بالجموع التى معه ونزل وادى بزاعا واتقع بعض العسكر مع مقدمة عسكر كيكاوس فانهزمت مقدمة عسكر كيكاوس وأخذت منهم عدة أسرى فأرسلوا إلى حلب ودقت البشائر بها ، ولما[٣٨٦] بلغ ذلك كيكاوس وهو بمنبج ولى منهزمًا مرعوبا ، وتبعه الملك الأشرف يتخطف أطراف عسكره ، ثم حاصر الملك الأشرف تل باشر واسترجعها ، وكذلك استرجع رعبان وغيرها .

---

(١) ورد هذا الحدث بتصرف فى الكامل ، جـ ١ ، ص ٤٠٨ حوادث سنة ٦١٧هـ ؛ البداية والنهاية جـ ١٣ ، ص٩٤-ص٩٩ .

(٢) ورد هذا الحدث فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٩١ ـ ص ٣٩٣ ؛ المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ١١٩ ؛ الذيل على الروضتين ، ص ١١٣ .

وتوجه الملك الأفضل إلى شميساط ولم يتحرك بعدها فى طلب مُلك إلى أن مات سنة اثنتين وعشرين وستمائة ـ كما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وعاد الملك الأشرف إلى حلب وبلغه وفاة أبيه العادل .

وفى تاريخ[١] بيبرس : وفى هذه السنة سار عز الدين كيكاوس ملك الروم إلى ولاية حلب قصدا للتغلب عليها ، ومعه الأفضل بن صلاح الدين ، وسبب ذلك أنه كان بحلب رجلان شريران ساعيان فى أذية الناس ، فكرههما الناس ، فخرجا من حلب وتوجها إلى كيكاوس وحسنا له أخذ حلب وبلادها ، وأنه لن يقوم فى وجهه أحد ، فأشير عليه إن لم يكن معه أحد من بيت أيوب لم يصل إلى شيء من البلاد . وكان الأفضل بن صلاح الدين بن أيوب فى طاعته ، فأرسل إليه وطلب حضوره معه ليفتح به البلاد ، ويكون له جميع ما يفتحانه منها ، ولا يكون لكيكاوس سوى الخطبة . وحسّن هذا الأمر للأفضل ، وصاحب حلب ملازم القلعة لا ينزل منها ساعة ، وقد جمع العساكر والعرب وخاف من أهل البلد أن يخرجوا إلى الأفضل ويصيروا معه ، فأرسل العزيز صاحب حلب إلى الأشرف بن العادل يستدعيه ويستنجده .

وأما كيكاوس فإنه سار إلى أن أخذ قلعة رعبان ، ولم يعط الأفضل منها شيئا ، ففترت نيته عن قصد البلاد وأخذها ، وسير كيكاوس جاليشه إلى حلب فكسره جاليش العزيز ، فمضى على وجهه من هناك ، وأسرت العرب من خيالتهم ورجالتهم كثيرًا وغنموا أكثر قماشهم . وكان كيكاوس صغير السن قليل الخبرة بالحرب ، فوصل إليه بعض جيوشه المنهزمين فأغلق عليهم دارا فأحرقها ثم اتفق أنه هلك واستعاد الأشرف تل باشر وجميع القلاع التى أخذها . وقال أبو شامة[٢] : لما عاد كيكاوس إلى بلده من كسر الأشرف له بحلب اتهم أقوامًا من أمراء دولته أنهم قصروا فى قتال الحلبيين فسلق بعضهم فى القدور وجعل آخرين فى بيت وأحرقهم فأخذه الله بغتة فمات فجأة سكرانا . وقيل : ابتلى فى بدنه فتقطع . وكان أخوه علاء الدين كيقباذ محبوسا فى قلعة وقد أمر بقتله فبادر الأمراء فأخرجوه وأقاموه فى الملك . وكانت وفاة كيكاوس فى شوال من هذه السنة ، وهو الذى أطمع الفرنج فى دمياط .

---

(١) ورد هذا الخبر فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٩١ ـ ص ٣٩٣ ؛ الذيل على الروضتين ، ص ١١٣ ؛ المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ١١٩ .

(٢) الذيل على الروضتين ، ص ١١٣ .

وفى تاريخ المؤيد[١] وفى سنة ست عشرة وستمائة توفى الملك الغالب عز الدين كيكاوس بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان صاحب بلاد الروم ، وكانت ولايته فى سنة سبع وستمائة ، وكان قد تعلق به مرض السل واشتد مرضه ومات ، فملك بعده أخوه كيقباذ .

وفى المرآة[٢] : وكان كيكاوس جبارا ظالما فاسقا سفاكا للدماء .

ومنها أنه ولى حسبة بغداد الصاحب محيى الدين يوسف ابن الشيخ أبى الفرج بن الجوزى وهو مع ذلك يذكر ميعاد الوعظ على قاعدة أبيه وشكرت مباشرته للحسبة .

وقال السبط فى المرآة : وفيها أعيد خالى أبو محمد يوسف[٣٨٧] إلى الحسبة وأفرج الخليفة عن ولده أبى نصر محمد وأذن له فى الركوب حيث شاء .

ومنها أنه وصل رسول خوارزم شاه إلى الملك العادل وهو بمرج الصفر ، فبعث فى الجواب الخطيب الدولعى والنجم خليل قاضى العسكر فوصلا إلى همذان فوجدا خوارزم شاه قد اندفع من بين يدى الخطا وقد خامر عليه عسكره فسار إلى حدّ بخارى ، فاجتمعا بولده جلال الدين فأخبرهما بوفاة العادل فرجعا إلى دمشق .

ومنها أن عماد الدين زنكى بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكى بن آقسنقر استولى على بعض القلاع المضافة إلى مملكة الموصل وقد تقدم فى سنة سبع وستمائة[٣] أن أرسلان شاه عند وفاته جعل مملكة الموصل لولده القاهر مسعود ، وأعطى ولده الأصغر عماد الدين زنكى المذكور قلعتى العقر وشوش . فلما مات أخوه القاهر وأجلس ولده أرسلان شاه بن القاهر فى المملكة . وكان به قروح وأمراض تحرك عماد الدين زنكى وقصد العمادية واستولى عليها ، ثم استولى على قلاع الهكارية والزوزان ، فاستنجد بدر الدين لؤلؤ المستولى على ملك الموصل وتدبير أرسلان شاه بالملك الأشرف بن العادل ودخل فى طاعته ، فأنجده الأشرف بعسكر وساروا إلى زنكى بن أرسلان شاه فهزموه ، وكان زنكى متزوجا ببنت مظفر الدين كوكبورى صاحب إربل ، وأم

(١) المختصر فى أخبار البشر ، جـ ٣ ، ص ١٢٤ (وقد أورد هذا الحدث فى وفيات سنة ٦١٦ هـ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، جـ ٨ ، ص ٣٩٣ .
(٣) المختصر ، جـ ٣ ، ص ١٢١ .

البنت ربيعة خاتون بنت أيوب أخت الملك العادل زوجة مظفر الدين . فكان مظفر الدين لا يترك ممكنا فى نجدة صهره زنكى المذكور . ويبالغ فى عداوة بدر الدين لؤلؤ لأجل صهره .

وفى تاريخ بيبرس[1] : ولما رأى بدر الدين لؤلؤ خروج القلاع من يده واتفاق مظفر الدين وعماد الدين عليه أرسل إلى الملك الأشرف ابن الملك العادل وهو صاحب ديار الجزيرة وخلاط ، يطلب منه المعاضدة وانتمى إليه وصار فى طاعته ، فأجاب الأشرف بالقبول والفرح به والاستبشار ، وبذل له المساعدة والمحاربة دونه واستعادة ما أخذ من القلاع التى كانت له . وكان الملك الأشرف حينئذ نازلا بظاهر حلب لما ذكرناه من تعرض كيكاوس ملك بلاد الروم إلى أعمالها ، وملكوا بعض قلاعها ، فأرسل الأشرف إلى مظفر الدين يقبح هذه الحالة ويقول له : إن هذه القاعدة تقررت بين جميعنا بحضور رُسلك وإنا نكون على الثالث إلى أن يرجع إلى الحق ، ولا بد من إعادة ما أُخذ من بلاد الموصل لنَدوُم على اليمين التى استقرت بيننا ، فإن امتنعت وأصررت على معاضدة زنكى ونصرته ، فأنا أجىء بنفسى وعساكرى وأقصد بلادك وغيرها وأسترد ما أخذتموه وأعيده إلى أصحابه . والمصلحة أنك توافق وتعود إلى الحق لنجعل شغلنا جمع العساكر وقصد الديار المصرية ، وإجلاء الفرنج عنها قبل أن يعظم خطبهم ويستطير شرهم . فلم تحصل الإجابة منه إلى شىء من ذلك . وكان ناصر الدين محمود صاحب حصن كيفا وآمد قد امتنع عن موافقة الأشرف وقصد بعض بلاده ونهبها ، وكذلك صاحب ماردين ، واتفقا مع مظفر الدين[٣٨٨] فلما رأى الأشرف ذلك جهز عسكرًا وسيره إلى نصيبين نجدة لبدر الدين إن احتاج إليهم .

ولما عاد[2] العسكر البدرى من حصار العمادية خرج منها عماد الدين زنكى وتوجه إلى قلعة العَقر التى له ليتسلط على أعمال الموصل التى بالصحراء ، فإن بلد الجبل كان قد فرغ منه وأمره مظفر الدين بطائفة كثيرة من العسكر ، فلما اتصل الخبر ببدر الدين سير طائفة من عسكره إلى أطراف بلاد الموصل يحمونها ، فأقاموا على أربعة فراسخ من الموصل ، ثم اتفقوا فيما بينهم على أن يسيروا إلى زنكى ويحاربوه وهو عند العقر فى

---

(١) ورد هذا الخبر فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٨٤ - ص ٣٨٥ .

(٢) ورد هذا الخبر فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٨٥ .

عسكره ، ففعلوا ذلك ولم يأخذوا أمر بدر الدين ، وساروا جريدة ليس معهم إلا سلاحهم ودواب يقاتلون عليها ، وسَرَوْا ليلتهم جمعاء فصبحوا عماد الدين زنكى فالتقوا تحت العقر ، وعظم الخطب فأنزل الله نصره على العسكر البدرى ، فانهزم زنكى وعسكره وسار إلى إربل منهزمًا ، وعاد العسكر البدرى إلى منزلته التى كان بها وحضرت رسل الخليفة فى الصلح فاصطلحوا .

ومنها أن عماد الدين زنكى ملك قلعة كواشى[١] ، وملك بدر الدين لؤلؤ تلعفر[٢] ، وملك الأشرف[٣] سنجار .

وهذه كواشى من أحصن قلاع الموصل وأعلاها وأمنعها ، وكان أهلها يظهرون لبدر الدين الطاعة ويبطنون الطاعة لزنكى ، فراسلوا زنكى فى المجىء إليهم وأخرجوا نواب بدر الدين عنهم وامتنعوا بها ، وكانت رهائنهم بالموصل ، فسار إليهم وتسلم القلعة ، فراسل مظفر الدين بإعادة كواشى ويُذَكِّره الإيمان والعهود القريبة ، فلم يجب . وأرسل حينئذ بدر الدين إلى الملك الأشرف وهو بحلب يستنجده ، فسار وعبر الفرات إلى حران ، فاختلفت عليه الأمور من عدة جهات منعته من المسير . وسبب هذا الاختلاف أن مظفر الدين كان يُراسل أصحاب الأطراف يستميلهم ويُحَسِّن لهم الخروج على الأشرف ويخوفهم منه إن خلا وجهه ، فأجابه إلى ذلك عز الدين كيكاوس صاحب بلاد الروم ، وكان مظفر الدين قد راسل جماعة من الأمراء الذين مع الأشرف واستمالهم فأجابوه منهم : أحمد بن المشطوب الذى ذكرنا أنه فعل على دمياط ما فعل وهو أكبر أمير كان معه ووافقه غيره وفارقوا الأشرف ونزلوا بدنسير تحت ماردين ليجتمعوا مع صاحب آمد ويمنعوا الأشرف من العبور إلى الموصل لمساعدة بدر الدين ، فلما اجتمعوا هناك عاد صاحب آمد إلى موافقة الأشرف وفارقهم وسلم إليه الأشرف مدينة حانى وجبل جور ، فلما فارقهم صاحب آمد انحل أمرهم واضطر بعض الأمراء الذين فارقوا الأشرف إلى العود إلى طاعة

---

(١) قلعة كواشى : قلعة حصينة فى الجبال التى فى شرقى الموصل ، وكانت تسمى قديمًا أَرْدُمُشت ، وكواشى اسم لها مُحْدَثٌ . معجم البلدان ، جـ ٤ ، ص ٣١٥ .

(٢) تلعفر = تل أعفر = تل يعفر : قلعة بين سنجار وبين الموصل وهى إلى سنجار أقرب . انظر أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ٢٨٤ ـ ص ٢٨٥ ؛ وقد ذكر ابن الأثير أن الخاصة تطلق عليها تل يعفر ، أما العامة فتطلق عليها تل أعفر . انظر : الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٨٨ .

(٣) المقصود الملك الأشرف موسى بن الملك العادل .

الأشرف ، وبقى ابن المشطوب وحده فعاد إلى نصيبين ليسير إلى إربل ، فخرج إليه شحنة نصيبين فيمن عنده من الجند فقاتله وهزمه ، وتفرق من معه . ومضى ابن المشطوب منهزما ، فلما اجتاز بطرف بلد سنجار سير إليه صاحبها فرخشاه بن زنكى بن مودود عسكرا فهزموه وأخذ أسيرًا وحُمل إلى سنجار ، وكان صاحبها موافقًا للأشرف وبدر الدين ، فلما صار عنده ابن المشطوب حَسَّن له مخالفة الأشرف فأجابه إلى ذلك وأطلقه ، فاجتمع معه من يريد الفساد[٣٨٩] وقصدوا البقعاء[١] - من أعمال الموصل- ونهبوها وعدة قرى ، وعادوا إلى سنجار ثم ساروا إلى تل أعفر ليقصدوا بلد الموصل وينهبوا تلك الناحية[٢] .

فلما سمع بدر الدين بذلك سير إليه عسكرًا فقاتلهم فهزموه فمضى منهزمًا وصعد إلى تل أعفر واحتمى بها ، فنازلوه وحصروه فيها ، وسار بدر الدين من الموصل إليه ، وزحف عليه وأخذه وأحضره إلى الموصل فسجنه بها ، ثم أخذه منه الأشرف فسجنه بحران إلى أن مات .

وأما الأشرف فإنه لما أطاعه صاحب الحصن وآمد وتفرق الأمراء رحل من حران فنزل على دنيسر واستولى على بلد ماردين ومنعه الميرة ، فاصطلح معه على أن يُسلم إليه رأس[٣] العين ويقطعها لصاحب ماردين ، ورحل يريد الموصل ، فلقيه صاحب سنجار فطلب منه أن يأخذها ويعوّضه عنها الرقة ، وذلك لأن عسكره بها خذلوه فإنهم خافوا على أنفسهم منه ، فتسلم الأشرف بن العادل سنجار من صاحبها فرخشاه بن زنكى ، وعوضه الرقة ، وهذا آخر ملوك البيت الأتابكى بسنجار[٤] .

ومنها أن الملك الأشرف وصل إلى الموصل وكان يوم نزوله بها يوما مشهودا ، ووافقه وصول رسل الخليفة إليه بالصلح بينه وبين مظفر الدين لتزول الفتن وتعاد القلاع إلى بدر

---

(١) البقعاء : كورة كبيرة من أرض الموصل وهى بين الموصل ونصيبين قصبتها برقعيد . انظر معجم البلدان ، جـ ١ ، ص٧٠١ .

(٢)ورد هذا الخبر فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص٣٨٧ - ص٣٨٨ ؛ مفرج الكروب ، جـ ٤ ، ص٢١ - ص٢٢ .

(٣) رأس العين = رأس عين : مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر ، وبها عيون كثيرة عجيبة صافية تجتمع كلها فى موضع فتصير نهر الخابور .
معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٧٣١ ؛ تقويم البلدان ، ص ٢٧٨ .

(٤) ورد هذا الخبر فى الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٨٩ .

الدين ما عدا قلعة العمادية[١] ، فإنها تبقى بيد زنكى . وكان الجند قد ضجروا من طول البيكار فحلفوا على هذا وتقرر الحال ، ورحل الأشرف عن الموصل ، وأرسلوا إلى القلاع التى تقرر تسليمها إلى بدر الدين ، فلم يسلم منهم إلا قلعة واحدة وامتنع باقى القلاع من التسليم لبدر الدين .

وفيها[٢] ....

وفيها حج بالناس من العراق أقباش الناصرى بالباء الموحدة من تحتها .

ذكر من توفى فيها من الأعيان .

القاضى شرف الدين أبو طالب عبدالله بن زين القضاه عبدالرحمن بن سلطان بن يحيى بن على ، القرشى الدمشقى من بنى عم ابن الزكى وكان أول من درس بالشامية[٣] البرانية وبالرواحية[٤] أيضا ، وناب فى الحكم عن ابن عمه محيى الدين ابن الزنكى ، مات فى شعبان من هذه السنة ودفن عند مسجد القدم . قال أبو شامة[٥] : كانت وفاته يوم الأحد ثالث عشر شعبان ، وصلى عليه بجامع دمشق ، وكان فقيهًا فاضلا نزها لطيفا عفيفا .

أبو سليمان[٦] داود بن أبى الغنائم أحمد بن يحيى العزيز البغدادى ، كان ينسب إلى علم الأوائل ، ولكنه كان يتستر بمذهب الظاهرية ، ولهذا قال فيه ابن الساعى الداودى مذهبا المعرى أدبًا واعتقادًا . ومن شعره قوله :

إلى الرحمن أشكو ما ألاقى غداة غدوا على هوج النياق
سألتكم بمن ذم المطايا أَمَرَّ بكم أمرُّ من الفراق
وهل داءٌ أَشَدُّ من التنائى وهل عيشٌ أَلَذُّ من التلاقى

---

(١) قلعة العمادية : هى قلعة شمالى الموصل بناها عماد الدين زنكى سنة ٥٣٧ هـ مكان قلعة خربة من قلاع الأكراد تسمى قلعة الشعبانى . انظر ابن الأثير ، التاريخ الباهر ، ص ٦٤ ؛ تقويم البلدان ص ٢٧٥ .

(٢) بياض فى الأصل بمقدار نصف سطر .

(٣) المدرسة الشامية البرانية : أنشأتها ست الشام بنت نجم الدين أيوب بن شاذى بن مروات ، أخت الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب . انظر الدارس ، جـ ١ ، ص ٢٧٧ ، ٣٠٠ .

(٤) المدرسة الرواحية : شرقى مسجد ابن عروة بالجامع الأموى ولصيقة شمالى جيرون وغربى الدولعية ، وقبلى الشريفية الحنبلية ، وبانيها زكى الدين أبو القاسم التاجر المعروف بابن رواقه . الدارس ، جـ ١ ، ص ٢٦٥ ـ ٢٦٨ .

(٥) الذيل على الروضتين ، ص١١٠ ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٩٠ .

(٦) الذيل على الروضتين ، ص١١٠ ، مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٩٠ .

قال فى المرآة[١] : أبو سلمان الملهمى من بنى ملهم الضرير ، كان يسكن رباط المأمونية ، وكان على رأى الأوائل ، وكان فاضلا إلا أنه كان يسقف من جنس ابن الراوندى . قال لى يوما : قد بلغنى أنك جميل الصورة فصيح اللسان ، فلا تضيع عمرك فيما ضيع جدك فيه عمره ، واشتغل بعلوم الأوائل . فقلت له : حتى أتمم قراءة القرآن بالروايات . فقال : هم كذا ، وذكر ألفاظا عاب بها[٣٩٠] القرآن ، قرأ المعوذتين ثم قال : حجنجلة بحجنجلة . وكانت وفاته فى المحرم ، ودفن بالشونيزية وقد جاوز سبعين سنة .

أبو المظفر[٢] **محمد بن علوان بن مهاجر بن على بن مهاجر الموصلى** ، تفقه بالنظامية وسمع الحديث ، ثم عاد إلى الموصل فساد أهل وقته ، وتقدم فى الفتوى والتدريس بمدرسة بدر الدين لؤلؤ وغيرها ، وكان صالحا دينًا .

أبو الطيب رزق الله[٣] **بن يحيى بن رزق الله بن يحيى بن خليفة بن سلطان**[٤] **بن رزق الله بن غانم بن غنام الباخرزى** ، المحدث الجوال الرحال الثقة الحافظ الأديب الشاعر ، توفى فى هذه السنة .

الحُجة على بن نصر[٥] **بن هرون النحوى الحلى ، الملقب بالحجة** ، قرأ على ابن الخشاب وغيره . مات فى هذه السنة .

العميدى[٦] **أبو حامد محمد بن محمد بن محمد وقيل : أحمد بن محمد العميدى** الفقيه الحنفى المذهب السمرقندى الملقب ركن الدين . كان إماما فى فن الخلاف خصوصا الجَسْتُ[٧] ، وهو أول من أفرده بالتصنيف ، ومن تقدمه كان يمزجه بخلاف المتقدمين ، وكان اشتغاله فيه على رضى الدين النيسابورى وهو أحد الأركان الأربعة ، فإنه كان من جملة المشتغلين على رضى الدين أربعة أشخاص تميزوا وتبحروا

---

(١) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٩٠ ، الذيل على الروضتين ، ص ١١٠ .
(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٨٩ .
(٣) البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٨٩ .
(٤) «سليمان» كذا فى البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٨٩ .
(٥) الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٩٥ .
(٦) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ٢٥٧ - ص ٢٥٩ .
(٧) الجَسْتُ : لفظة فارسية معناها البحث . وقد أصبحت تطلق على نوع من فروع الخلاف . انظر وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ٢٥٧ .

فى هذا الفن ، وكل واحد منهم ينعت بالركن ، وهم : ركن الدين الطاوسى ، وركن الدين السمرقندى العميدى المذكور ، وركن الدين إمام زاده ، والرابع شُذّ عنه . وصنف العميدى فى هذا الفن طريقة وهى مشهورة بأيدى الفقهاء ، وصنف الإرشاد واعتنى بشرحها جماعة من أرباب هذا الشأن منهم : القاضى شمس الدين أبو العباس أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر بن عيسى ، الفقيه الشافعى الخُوىّ قاضى دمشق ، والقاضى أوحد الدين الدونى قاضى منبج ، ونجم الدين المرندى ، وبدر الدين محمود المراغى وغيرهم ، وصنف أيضا كتاب النفائس واختصره شمس الدين الخُوّى المذكور وسماه عرائس النفائس ، وصنف أشياء مستملحة على هذا الأسلوب . واشتغل عليه خلق كثير وانتفعوا به من جملتهم نظام الدين أحمد ابن الشيخ جمال الدين أبى المجاهد محمود بن أحمد بن عبدالسيد ابن عثمان بن نصر بن عبدالملك البخارى الحنفى المعروف بالحصيرى ، صاحب الطريقة المشهورة ، وغيره . وكان كريم الأخلاق كثير التواضع طيب المعاشرة ، توفى ليلة الأربعاء تاسع جمادى الآخر سنة خمس عشرة وستمائة ببخارى .

والعميدى : بفتح العين المهملة وكسر الميم وسكون التاء آخر الحروف ، وفى آخره دال مهملة . قال ابن خلكان(١) : ولا أعرف هذه السنة إلى ماذا ولا ذكرها السمعانى .

أبو العباس أحمد بن برنقش بن عبدالله العمادى ، كان من أمراء سنجار وكان أبوه من موالى الملك عماد الدين زنكى صاحبها ، وكان أحمد هذا شاعرًا ذا مال جزيل وأملاك كثيرة ، وقد احتاط على أموال قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى وأودعه سجنا فَنُسِىَ فيه ومات كمدًا . ومن شعره :

تقول وقد ودعتها ودموعها ... على نحرها من خشية البين تلتقى
مضى أكثر العمر الذى كان نافعا ... رويدك فاعمل صالحا فى الدين تقى

ابن الدامغانى(٢) ، **القاضى عماد الدين قاضى القضاة ببغداد واسمه أبو القاسم عبدالله بن**[٣٩١] **أبى الحسين** ، ولد فى رجب سنة أربع وستين وخمسمائة وتفقه على مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه ، وعرف الفرائض والحساب وقسمة التركات مع

---

(١) انظر وفيات الأعيان ، جـ ٤ ، ص ٢٥٨ .

(٢) البداية والنهاية ، جـ ١٣ ، ص ٨٩ .

السمت والوقار والدين والفقة ، وأول ولايته القضاء فى سنة ست وثمانين وخمسمائة ، وعزل فى رجب سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، فأقام ثمانى سنين قاضيًا ثم أعاده ابن مهدى فى سنة ثلاث وستمائة ، ثم عزل فى سنة إحدى عشرة وستمائة ، فكانت ولايته الأخيرة تسع سنين وشهور ، وتوفى فى ذى القعدة وصلى عليه بالنظامية ودفن بالشونيزية . سمع الحديث من أبيه أبى المظفر الحسين بن أبى الحسين أحمد قاضى القضاة ، ومن عمه أبى الحسن على قاضى القضاة ، ومن أبى الفتح بن الميدانى وغيرهم .

ابن العتبرى(١) ، **أبو الحسن على بن أحمد بن روح** ، القاضى المعروف بابن العتبرى ، كان نائبًا عن القضاة ببغداد ، وصحب أبا النجيب السهروردى وتفقه عليه ، وقرأ العربية على ابن القصار ، وكان شيخا كيسًا فاضلا متواضعًا ، وكانت وفاته فى رمضان . ومن شعره :

وقد كنت أشكوك الحوادث بُرهة		واستمرض الأيام وهى صحائح
إلى أن تغشتنى وقيت حوادث		تحقق أنّ السالفات مَنائح

نجاح بن عبد الله(٢) ، **شرابى الخليفة** ، **ويلقب نجم الدولة** مملوك الإمام الناصر ، مات فى هذه السنة وكان جوادًا سمحا عاقلا دينًا ، كثير الصدقات حسن المحضر ، محسنًا إلى العلماء محبًا للمساكين ، معظما لأهل الدين ، وكان يأخذ للضعيف من القوى . وكان يسمى سلمان دار الخلافة ، وكان ملازمًا للخليفة لا يغيب عنه ساعة واحدة ، وكان أسمر اللون جميل الصورة فحلاً . ولما توفى فى هذه السنة أمر الخليفة أن لا يتخلف عن جنازته أحد لا وزير ولا غيره ، وصلى الخليفة عليه تحت التاج وحزن عليه حزنًا كبيرًا ، وأخرج تابوته من باب البدرية ، ومشى العالم بين يديه إلى جامع القصر ، وكان بين يدى جنازته مائة بقرة ، وألف شاة ، ومائة قوصرة تمر ، ومائة جمل على رؤوسهم الخبز ، وعشرون حمالا على رؤوسهم ماء الورد ، ومماليكه قد حزّوا شعورهم ولبسوا المسوح ، والضجيج والبكاء قد ملأ بغداد ، ولم ير فى الإسلام مثل ذلك اليوم ،

---

(١) الذيل على الروضتين ، ص ١١٠ .
(٢) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥ ، الكامل ، جـ ١٠ ، ص ٣٩٤ .

وعَبروا به إلى الجانب الغربى إلى تربة أم الخليفة ، ودفن بين يدى القبة التى فيها أم الخليفة ، وتصدق عنه الخليفة من مال نجاح بعشرة آلاف دينار على المشاهد ؛ مشهد على رضى الله عنه ، والحسين ، وموسى بن جعفر رضى الله عنهم ، وبعث بمثلها إلى مكة والمدينة ، وأعتق الخليفة مماليكه .

وكانت له كتب خمس مائة مجلدة أوقفها فى تربة أم الخليفة ، وكتب عليها اسم الشرابى .

قال السبط[١] فى المرآة : ومن العجائب أنه توفى فى هذه السنة ثلاثة من الملوك الأكابر : الملك العادل ، وخوارزم شاه ، وصاحب الروم .

وتوفى أيضا ببغداد ثلاثة من نواب القضاة نزل بهم القضاء المحتوم : ابن الرطبى المحتسب ، وابن البندنجى العدل ، وابن العنبرى ، الكل فى شهر واحد . فابن الرطبى مات يوم الإثنين ثالث عشر رمضان ، وابن البندنجى فى رابع عشر[٢] ، وابن العنبرى فى خامس عشر[٣] . فقلت : ذكر أبو الفتح المنشىء وفاة خوارزم شاه فى سنة سبع عشرة وستمائة ، وتبعه فى هذا بيبرس ، وقال وهو الصحيح .

---

(١) مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص ٣٩٥ .

(٢) «عشرة» فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه .

(٣) «عشرة» فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه .

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

بعون من الله وتوفيقه تم تحقيق ونشر ثلاثة أسفار من مخطوط عقد الجمان ، العصر الأيوبى ، والآن أضع بين يدى القراء والباحثين السفر الرابع من هذا المخطوط الذى يبدأ من سنة (٦١٦هـ - ٦٢٨هـ) (١٢١٩م - ١٢٣٠م) ، وهى فترة من أخطر فترات التاريخ الأيوبى بسبب أن كثيرا من أحداثها تتسم بالغموض وعدم وضوح الرؤيا ، وذلك لسرعة الأحداث وكثرتها وتضارب أسبابها ، ويبدو أن هذا الأمر جعل كثيرا من المؤرخين الذين تناولوا هذه الفترة يكتبون تفسيرات متباينة قد لاتتسق بعضها مع الواقع التاريخى المعاش لهذه الفترة ، والبعض الآخر تناولها فى عجالة دون تعليق أو تفسير ، ولكل عذره ، فكثير من الوثائق والمخطوطات التى تناولت هذه الفترة لم تصل إلى أيديهم بسبب فقدانها أو عدم العثور عليها حتى الآن ، وبذلك أصبحت فى حكم المفقودة حتى أن ماوقع بين أيديهم يمثل أحيانا نظرة أحادية قد تكون بعيدة عن الموضوعية فى بعض الأحيان . لهذا كان العبء ثقيلا على من يتناول هذه الفترة محققا أو مؤلفا أو دارسا ، فإماطة اللثام عن صحة الأحداث ليست بالأمر السهل ، وإنما يتطلب صبرا وجهدا صعبا ، واستخدام جميع أدوات البحث العلمى التى تناسب العمل الذى يقوم به ، فإن كان محققا فعليه إثبات صحة النص ، ومقابلته ووضع الحواشى والتعليقات التى تتضمن تحليل النصوص وصحتها ، ومثال على ذلك إستيلاء الصليبيين على دمياط الذى أدى إلى موت الملك العادل أخى صلاح الدين كمدا ، وتولى ابنه الكامل بدلا منه ، فكان آخر سلاطين بنى أيوب العظام ، ولم تتم توليته فى سهولة ويسر كما كان يحدث فى السابق ، على الرغم من أنه حكم مصر نيابة عن أبيه قبل وفاته إلا أن الصراع الأسرى على الحكم بين الأخوة مالبث أن أطل برأسه بين الكامل والفائز والأشرف والمعظم عيسى وابنه الناصر ، وقد

حسم الصراع فى النهاية لصالح الكامل بعد أن كلفه الكثير من الجهود والمال ، وأوجد شرخا عميقا فى كيان الأسرة الأيوبية ، ولم تتوقف مشاكل الكامل عند هذا الحد بل واجه كثيرا من المخاطر الخارجية منها استيلاء الفرنجة على دمياط وظهور الخطر التتارى فى الجناح الشرقى بعد استيلاء جنكيزخان على خوارزم وبلاد ماوراء النهر ، فكان هذا بمثابة تهديد للقوى الإسلامية ، ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل واجه المسلمون خطرا جديدا هو تحول الخوارزمية بعد هزيمتهم من جنكيزخان إلى مهاجمة المسلمين وتوغلهم فى بلاد الإسلام ، وبذلك حاقت بالعالم الإسلامى أخطار عدة ، كان أخطرها وأكثرها إيلاما على نفسية العالم الإسلامى ماقام به السلطان الكامل من استنجاده بالامبراطور فردريك الثانى صاحب صقلية وامبراطور الدولة الرومانية المقدسة فى غرب أوروبا فى مساعدته ضد أخوته وأعدائه نظير تنازله عن بيت المقدس والأراضى التى حررها صلاح الدين من الصليبيين ، فكان هذا بداية النهاية بالنسبة للدولة الأيوبية ، ولقد كثرت الآراء وتباينت الأسباب والدوافع التى دفعت الكامل إلى ماقام به . وإن كنا نرجح أن قيامه بهذا راجع إلى طبيعته الشخصية وتكوينه النفسى الذى غلب عليه روح التسامح قبل روح القتال ، فانفرد برأيه دون أخوته ، فأضاع على الأيوبيين بوجه خاص والمسلمين بوجه عام مازرعه أسلافه .

بقى على أن أشير هنا إلى أمرين كبيرين هما :

أولا : إن هذا السفر تضمن الكثير من الأحداث السياسية والتراجم الشخصية ووفيات بعض الأعيان . . . الخ .

ثانياً : اعتمدت فى تحقيق هذا الجزء على القسمين الثانى من الجزء السابع عشر (ميكروفيلم ٣٧٦٦٦) ويشتمل على السنوات من ٦١٦هـ / ٦٢٠هـ ، والقسم الأول من الجزء الثامن عشر (ميكروفيلم ٣٥٧٥٦) ويشتمل على السنوات من ٦٢١هـ / ٦٢٨هـ وهما من نسخة دار الكتب المصرية الورقية رقم ١٥٨٤ / تاريخ ، والتى تتكون من ٣٦ جزءاً .

والشكر موصول ودائم للزميلات من أعضاء اللجنة ممن كان لهن الفضل فى مساعدتى بكل تفان وإخلاص فى إخراج هذا العمل العلمى وأخص بالذكر :

الأستاذة/ نفيسة محمد محمد صميدة

الأستاذة/ سهير عبد العاطى يوسف

السيدة/ إيزيس سامح زكى

كما قامت الأستاذة/ نفيسة محمد محمد صميدة بعمل كشاف الأعلام وكشاف المصطلحات ، والأستاذة/ سهير عبد العاطى يوسف بعمل كشاف الأمم والشعوب وكشاف أسماء الكتب الواردة فى النص ، و السيدة/ إيزيس سامح زكى بعمل كشاف الأماكن .

والله من وراء القصد ، وبه التوفيق والسداد .

المحقق

دكتور/ محمود رزق محمود

الهرم ــ الأريزونا

[illegible] ترجمته [illegible] بكر بن الرحبة الغزال وقال ابن خلكان والطايفة المالكية بمصر
[illegible] كان مدرسا بمصر وتوفي بها ما كان هاد في الاقف [illegible]
[illegible] منبه [illegible] النبج وشاس بالشام [illegible]
[illegible] الدين [illegible] ابن عبد الله الزواوي امام المالكية بدمشق
[illegible] وكان عالما بالاصول والفروع والعربية
[illegible] ناصر الدين منصور [illegible] توفي [illegible]
[illegible] الكشميهني [illegible] وكان [illegible]
٧٩٩ [illegible] عبد البيت [illegible] الاطلاع [illegible]
فاذا انتهى اليكم بلغني طيبكم فيطيب
[illegible] الملك [illegible] الفاضل العلوي [illegible] المدرس [illegible]
[illegible] وشرح [illegible] الكبير
[illegible] وكان [illegible] فاضلا ورعا دينا
[illegible] ببغداد ومولده [illegible] وكان فاضلا بارعا [illegible]
[illegible] الدين [illegible] الدين [illegible] الله [illegible] اليه [illegible]
[illegible] الاشرف [illegible] وكان [illegible] له مال عظيم [illegible]
[illegible] سنة [illegible] دينار [illegible]
[illegible] الرماثة [illegible]
[illegible] مجيث [illegible]
[illegible] وقيل [illegible] صلب وقيل [illegible]
[illegible] وقال [illegible]
[illegible] شيخ السبط كان [illegible]
[illegible] الناس [illegible] وكان من الابدال [illegible] السبط [illegible]
[illegible] ومائة [illegible] ودفن [illegible]
[illegible] المنصور [illegible] عماد الدين زنكي [illegible]
[illegible] نور الدين محمود [illegible] زنكي [illegible] المنصور
[illegible] الملك العادل [illegible] ايوب [illegible]
[illegible] اولاد [illegible] شاه [illegible] زنكي [illegible]
[illegible] الشام [illegible]
[illegible] الملك العادل والمعظم تورانشاه [illegible] المعظم
[illegible] منهم الملك المعظم تورانشاه [illegible]
[illegible]

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة السادسة عشر بعد الستمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين[1] الله ، وصاحب مصر هو السلطان الملك الكامل[2] بن السلطان الملك العادل بن أيوب ، وصاحب دمشق هو السلطان الملك المعظم[3] بن العادل ، وصاحب حلب هو الملك العزيز[4] بن الملك الظاهر غازى ابن السلطان صلاح الدين ، وصاحب بلاد الروم هو السلطان علاء[5] الدين كيقباذ ابن كيخسرو السلجوقى ، وصاحب البلاد الشرقية مثل حران[6] والرها[7] وغيرها الملك الأشرف موسى[8] بن الملك العادل ، وصاحب الموصل ناصر

(*) يوافق أوله ١٩ مارس سنة ١٢١٩م .

(١) الناصر لدين الله : هو أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله ، ولد ببغداد سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، وبويع له بالخلافة بعد موت أبيه سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، وتوفى سنة ٦٢٢ هـ . لمعرفة المزيد من ترجمته انظر : البداية والنهاية ، جـ١٣ ، ص ١١٤ - ص١١٥ ؛ الشذرات ، جـ ٥ ، ص ٩٧ .

(٢) الملك الكامل بن السلطان العادل : هو أبو المعالى محمد بن الملك العادل أبى بكر الملقب الملك الكامل ناصر الدين صاحب الديار المصرية ، توفى بدمشق يوم الأربعاء ، ودفن يوم الخميس ، وذلك لتسع بقين من شهر رجب سنة ٦٣٥هـ بالكلاسة . وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص ٧٩ -ص ٩٢ ؛ البداية والنهاية ،ج١٣ ، ص ١٥٩ - ص١٦٠ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص ١٧١ - ص١٧٣ .

(٣) الملك المعظم بن العادل : هو شرف الدين عيسى بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب صاحب دمشق ، ولد سنة ٥٧٨هـ ، وتوفى يوم الجمعة مستهل ذى الحجة سنة ٦٢٤هـ بدمشق ، ودفن بقلعتها . وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٩٤ - ص٤٩٥ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص ١١٥ - ص١١٦ .

(٤) الملك العزيز بن الملك الظاهر غازى : هو محمد بن غازى بن يوسف بن أيوب بن شاذى ، الملك العزيز غياث الدين بن الملك الظاهر بن الناصر ، صاحب حلب ، ولد خامس ذى الحجة سنة ٦١٠ هـ من ضيفة خاتون بنت الملك العادل بن أيوب ، ولى السلطنة وعمره أربع سنين ، وجعلوا طغريل الخادم أتابكه يسوس الأمور ، توفى سنة ٦٣٤هـ ، ودفن بالقلعة ، وكان عمره ثلاث وعشرين سنة وشهور ، ومدة ملكه قريب العشرين سنة ، وأقيم بعده ولده الملك الناصر يوسف ، وهو طفل أيضا .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٩ - ص١٠ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ١٥٦ ؛ شفاء القلوب ، ص ٣٠٨ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص١٦٨ ؛ ترويح القلوب ؛ ص٩٥ .

(٥) السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قيليج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقى صاحب الروم ، توفى سنة ٦٣٤هـ .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٨٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ١٥٦ .

(٦) حران : مدينة عظيمة مشهورة على طريق الموصل والشام . معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٣٣٢ -ص ٣٣٣ .

(٧) الرها : مدينة بالجزيزة بين الموصل والشام . معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٨٧٦ .

(٨) الملك الأشرف : أبو الفتح موسى بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب الملقب الملك الأشرف مظفر الدين ، ولدسنة ٥٧٨هـ بالديار المصرية بالقاهرة ، وقيل : بقلعة الكرك ، وتوفى يوم الخميس رابع المحرم سنة ٦٣٥هـ بدمشق . انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ١٥٧- ص١٥٨ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص ١٧٥ - ص١٧٦ .

الدين[١] محمود بن القاهر بن أرسلان شاه ، والمدبر لمملكته بدر الدين لؤلؤ[٢] ، وصاحب أمد ناصر[٣] الدين محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن أرتق ، وصاحب خوارزم وسمرقند وبلاد تركستان وخراسان إلى بلاد العراق السلطان علاء[٤] الدين خوارزم شاه محمد بن تكش ، ولكنه فى أمور عظيمة وحروب شديدة ، بسبب ظهور جنكزخان ومشيه إلى بلاد الإسلام ، وصاحب مكة الأمير قتادة[٥] بن إدريس الحسنى الزيدى ، وصاحب بلاد الغرب السلطان المستنصر يوسف[٦] بن السلطان الناصر محمد بن السلطان يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ، وكان الملك الأشرف بن العادل مقيمًا بظاهر حلب يدبر أمر جندها وإقطاعها ، والملك الكامل بمصر فى مقابلة الفرنج ، وهم محدقون محاصرون لثغر[٧] دمياط[٨] .

---

(١) ناصر الدين محمود : ابن عز الدين مسعود بن نور الدين أرسلان شاه بن قطب الدين مودود بن عماد الدين بن زنكى بن آقسنقر صاحب الموصل ، كان مولده فى سنة ثلاث عشرة وستمائة ، وقد أقامه بدر الدين لؤلؤ صورة حتى تمكن أمره وقويت شوكته ، ثم حجر عليه ومنعه من الطعام والشراب ثلاثة عشر يوما حتى مات كمدا وجوعا وعطشا عام ٦٣٠هـ ، وهو آخر ملوك الموصل من بيت الأتابكى .
انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٤٦ .

(٢) بدر الدين لؤلؤ : الملقب بالملك الرحيم ، توفى فى شعبان عن مائة سنة ، وقد ملك الموصل نحوا من خمسين سنة ، وكان ذا عقل ودهاء ومكر ، لم يزل يعمل على أولاد أستاذه حتى أبادهم ، وأزال الدولة الأتابكية عن الموصل ، وتوفى سنة ٦٥٦هـ .
انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٢٢٧ .

(٣) ناصر الدين محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن داود بن سقمان بن أرتق الملك الصالح صاحب أمد وحصن كيفا ، توفى بالقولنج سنة ٦١٨هـ ، وكان قبيح السيرة ظالما ، وقد أورد ابن الأثير ، الكامل وفاته فى سنة ٦١٩هـ ، ج١٢ ، ص٤١٢ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٣٠ ، وأورد ابن كثير وفاته سنة ٦١٧هـ ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٠ .

(٤) السلطان علاء الدين خوارزم شاه محمد بن تكش : كانت مدة ملكة إحدى وعشرين سنة وشهورا تقريبا ، واتسع ملكه ، وأطاعة العالم بأسره ، ولم يملك بعد السلجوقية أحد مثل ملكه ، فإنه ملك من حد العراق إلى تركستان ، وبلاد غزنه وبعض الهند ، وسجستان وكرمان وطبرستان وجرجان وبلاد الجبال وخراسان وبعض فارس ، توفى سنة ٦١٧هـ . لمعرفة المزيد عنه . انظر : الكامل ، ج١٢ ، ص٣٧١ ـ ص٣٧٢ ؛ الذيل على الروضتين ، ص١٢٢ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٢٧ - ص١٢٨ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص٧٦ .

(٥) قتادة بن إدريس الحسنى الزيدى : هو قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى العلوى الحسينى صاحب مكة أبو عزيز ، عاش أكثر من ثمانين سنة ، وكان عادلا منصفا ، توفى سنة ٦١٧هـ .
انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٢٣ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص ٧٦ .

(٦) السلطان المستنصر يوسف بن السلطان الناصر محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن : ولد أول شوال سنة ٥٩٤هـ ، ولم يكن فى بنى عبد المؤمن أحسن وجها منه ولا أبلغ فى المخاطبة ، إلا أنه كان مشغوفا براحته ، فضعفت الدولة فى أيامه ، ومات فى شوال أو ذى القعدة سنة ٦٢٠هـ ولم يخلف ولدا .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص ١٥ - ص١٦ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص٩٤ .

(٧) ثغر : كل موضع قريب من أرض العدو . معجم البلدان ، ج١ ، ص٩٢٧ .

(٨) ورد هذا الخبر بتصرف فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٣ .

ذكر استيلاء الفرنج على دمياط

قال بيبرس : وفى هذه السنة استولى الفرنج على دمياط ، واشتدت نكايتهم على أهلها(١) ، وكان الأمير جمال الدين الكنانى قد كتب قصيدة على لسان دمياط وسيَّرها إلى الملك الكامل فى سهم نشاب حال الحصار قبل أن يتسلم الفرنج الثغر وهى قوله :

يامالكى دمياط ثغر هُدمِّت ... شرفاته وكان تُجَثُّ أُصُولُه
بقربك من أذكى السلام تحية ... كالمسك طاب دقيقُه وجليلُه
ويقول عن بُعْد وإنك سامعٌ ... حى كأنك جارُه ونَزيلهُ
يأيها الملك الذى ما أن يرعى ... بين الملوك شبيهه وعديله
هذا كتاب موضح من حالتى ... ماليس يمكنُنِى لديك أقوله
أشكو إليك عدو سوء أحدقت ... بجميعه فرسانه وخيوله
كالبر قد مُنِعَت إليه طريقُه ... والبحرُ عَنَّ لنصرِه أسطوله
فخضوعه باد على أبراجه ... وحنينُه وبكاؤه وعويله
ولو استطاع لأَمّ بابك ... لائذا لكنه سُدَّت عليه سبيله
ورسوله فى أن تجيب سؤاله ... دين الإله وخُلقُه ورسوله
فقد انتهت أدواؤه ... وتحكمت علاته ونحى عليه نُحوله
وبقى له رُمْقٌ يسيرٌ يرتجى ... أن يشتفى لما دعاك عليله [٣٩٣]
فاحرُس حماهُ بعزْمة يُشْفَى بها ... داءٌ فمثلك يُرْتجَى تَعْليله
فالله أعطاك الكثير بفضله ... ورضاه من هذا الكثير قليلة
فالعُذر عن نصر الإله ودينه ... ماساغ عند المسلمين قبوله
فالدين ناظره إليك مُحَدِّق ... ما أن يمل من الدموع هُمولُه
ولئن قعدت عن القيام بنصره ... جَفَّت نضارته وبان ذُبولُه
ووهت قوى القرآن فيه ورُمّغت ... صُلبانُه وتُلِى به إنجيلُه
وَعلا صَدَا الناقوسِ فى أرجائه ... وخفى على سمع الورى تهليلُه

(١) ورد هذا الخبر بتصرف فى الذيل على الروضتين ، ص١١٦ - ص١١٧ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٣٢ -ص٣٣ ؛ المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص١٢٢ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩١ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٣٩٦ - ص٣٩٧ .

هذا وحقك وصف صورة حاله حقا وحملتُه وذا تفصيلُه
وكفاك ياابن الأكرمين بأنه أضحى عليك من الورى تعويلُه
حقِّق رجاه فيك يامن لم يخب أبدا لراجى جوده تأميله
واذخر ليوم البعث فعلاً صالح الله ضامنُ أجرِه وكفيلُه

فأمر الكامل أهل مصر والقاهرة بالخروج إلى المنصورة فخرجوا ، وأرسل إلى أخيه الأشرف مظفر الدين موسى يستدعيه لنصرته على الفرنج وتابع إليه الكتب[1] . وكان فيما كتب له به هذه الأبيات :

يامسعفى إن كنت حقاً مسعفى فارجل بغير تلبث وتوقف
واحثث قلوصك مرقلا أوموجعا بتجشم فى سيرها وتعسف
واطو المنازل ما استطعت ولاتنخ إلا على باب المليك الأشرف
وأقر السلام عليه من عبد له متوقع لقدومه متشوف
وإذا وصلت حماه فقل له عنى بحسن توصل وتلطف
أن تأت عبدك عن قليل تلقه مابين كل مهند ومثقف
أو تبطء عن إنجاده فلقاؤه بك فى القيامة فى عراص الموقف

وقال ابن كثير[2] : ولم يزل الفرنج مضايقين دمياط حتى هجموها فى عاشر رمضان من هذه السنة ، فقتلوا وأسروا من بها ، وجعلوا الجامع كنيسة ، واشتد طمع الفرنج فى الديار المصرية ، وحين أُخذت دمياط ابتنى الملك الكامل مدينة سماها المنصورة عند مفترق البحرين الآخذ أحدهما إلى دمياط والآخر إلى أشمون طناح [3]ونزل بها بعساكره .

وفى المرآة[4] : وفى شعبان أخذت الفرنج دمياط ، وكان المعظم قد جهز إليها ابن الجرحى ومن معه ، وصفوا رؤوس القتلى على الخنادق ، وكانوا قد طموا الخنادق ،

(١) ورد هذا الخبر فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٣٣ ؛ المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص١٢٢ .
(٢) البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩١ .
(٣) أشمون طناح : أو أشموم من أقدم المدن المصرية واسمها القبطى Chemoum Ermam وسماها العرب أشمون الرمان نسبة إلى اسمها القبطى ، وسميت أيضا أشمون طناح نسبة إلى طناح التى كانت معها فى كورة واحدة ، وأشمون الرمان هى الآن قرية عادية من قرى مركز دكرنس محافظة الدقهلية .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٢٨٢ .
(٤) سبط ابن الجوزى ، ج٨ ، ص٣٩٦ .

وضعف أهل دمياط وأكلوا الميتات ، وعجز الكامل عن نصرتهم ، ووقع فيهم الفناء والوباء ، فراسلوا الفرنج على أن يسلموا إليهم البلد ويخرجون منه بأهليهم وأموالهم ، واجتمع الأقساء وحلَّفوهم على ذلك ، فركبوا فى المراكب وزحفوا فى البحر والبر ، وفتح لهم أهل دمياط الأبواب ، فدخلوا ورفعوا أعلامهم على السور[٣٩٤] ، وغدروا بأهله ووضعوا فيهم السيف قتلاً وأسرا ، وباتوا تلك الليلة فى الجامع يفجرون بالنساء ويفضحون البنات ، وأخذوا المنبر والمصاحف ورؤوس القتلى وبعثوا بها إلى الخزائن ، وجعلوا الجامع كنيسة ، وكان أبو الحسن بن قفل بدمياط ، فسألوا عنه فقيل : هذا رجل صالح من مشايخ المسلمين تأوى إليه الفقراء ، فما تعرضوا له ، ووقع على الإسلام كآبة عظيمة ، وبكى الكامل والمعظم بكاء شديدا ، ثم تأخرت العساكر عن تلك المنزلة ، وكان المعظم يقول لى بعد ذلك : لو كان الدعاء يسمع لَسُمعَ دعاء أهل دمياط ، فإن الله تعالى قد أخبرنا أنه يستجيب دعانا فى عدة مواضع من كتابه ، وأما أهل دمياط لما كثر فسقهم وفجورهم سلَّط الله عليهم من انتقم منهم ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً﴾[1]الآية ، ثم قال الكامل للمعظم وقد سقط فى يده : قد مات ماذُبح وجرى المقدور بما هو كائن ، وما فى بقائك ها هنا فائدة ، والمصلحة أن تنزل إلى الشام وتشغل خواطر الفرنج ، وتستجلب العساكر من الشرق .

وقال السبط[2] : كتب المعظم إلىَّ وأنا بدمشق كتاباً بخطه يقول فى أوله أخوه عيسى الكاملى : قد علم الأخ العزيز ـ وذكر ألقابًا كثيرة ـ وقال : قد جرى على دمياط ماجرى ، وأريد أن تُحرض الناس على الجهاد ، وتعرفهم ماجرى على إخوانهم أهل دمياط من الكفرة أهل العناد ، وأنى كشفت الضِّياع المتعلقة بالشام فوجدتها ألفى قرية ، منها ألف وستمائة أملاك لأهلها ، وأربع مائة سلطانية ، وكم مقدار ماتقوم هذه الأربعمائة من العساكر؟وأريد أن تخرج الدماشقِّية ليذبوا عن أملاكهم الأصاغرة بينهم والأكابر ، ويكون لقاؤنا وهم فى صحبتك إلى نابلس[3] فى وقت سماه . فجلست بجامع دمشق ، وقرأت

(١) اقتباس من القرآن الكريم ، سورة الإسراء ، آية(١٦) وهى : ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ .
(٢) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٣٩٧ .
(٣) نابلس : مدينة مشهورة بأرض فلسطين . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٧٣٤ .

كتابه عليهم ، فأجابوا بالسمع والطاعة ، وقالوا : نتمثل أمره بحسب الاستطاعة . وتجهزوا ، فلما حل ركابه بالساحل ووقع التقاعد عن الأماثل ، وكانوا معذورين لأن لكل مقام مقالاً ، وللحرب رجالاً ، وكان تقاعدهم سببا لأخذه الثُمنْ والخمس من أموالهم[٣٩٤] ، والمؤاخذة على أفعالهم ، وكتب إلى : إذا لم يخرجوا فسر أنت إلىّ وأقدم علينا . فخرجت إلى الساحل وهو نازل على قيسارية[١] ، فأقمنا حتى فتحها عنوة ، ثم سرنا إلى النهر[٢] ففتحه وهدمه ، وعاد إلى دمشق بعد أن أخرب بلاد الفرنج[٣] .

وفى تاريخ[٤] ابن العميد : وفى سنة خمس عشرة وستمائة نزلت الفرنج على دمياط فى حياة الملك العادل فى ثالث ربيع الأول ، وأقاموا فى بر الجيزة مقابل دمياط ، فخرج الملك الكامل إليهم بعساكره ، ونزل فى بر دمياط قِبالتهم ، وبحر النيل بين الفريقين ، وجرت وقائع وحروب كثيرة فى البر والبحر ، ثم دخلت سنة ست عشرة وستمائة وهم فى بر الجيزة ، وفيها خرجت الفرنج بجموعهم ورجعت على دمياط وحاصروها أشد حصار ، وملكوا بر دمياط ، فرحل الكامل ونزل قريبا منهم ، وجرت وقائع وحروب شديدة ، وركبت الفرنج لِقتال المسلمين ، فتلقاهم الكامل بعساكره وكسرهم وأسرهم جماعة كثيرة من ملوكهم وكنودهم[٥] ، وقتل منهم مقتلة عظيمة ، وبعث الملوك والكنود والأسرى مكبلين بالحديد إلى القاهرة [٣٩٥] ثم بعد ذلك استولوا على دمياط وأحدقوا بها برا وبحرا ، ومنعوا عنها الميرة ، وهلك أهلها من الجوع والوباء ، ووقع فيهم الفناء ، ومات أكثر أهلها ، ولم يبق بها من المقاتلة إلا قليلا ، فزحف الفرنج عليها وملكوها وأسروا من وجدوه بها ، وذلك يوم الثلاثاء لخمس بقين من شعبان من سنة ست عشرة وستمائة . وكانت مدة الحصار عليها ستة عشر شهراً واثنين وعشرين يوما . ولما ملكت الإفرنج دمياط تأخر

(١) قيسارية : بلد على ساحل بحر الشام تعد فى أعمال فلسطين ، وقيسارية أيضاً مدينة كبيرة عظيمة فى بلاد الروم ، معجم البلدان ، ج٤ ، ص٢١٤ .

(٢) النقر : كذا فى الأصل ، والمثبت من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٣٩٧ ، حيث ينقل عنه العينى .

(٣) إلى هنا توقف العينى عن النقل من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٣٩٧ .

(٤) أخبار الأيوبيين ، ص١٠ –ص١١ .

(٥) كنود ــ كنت : مفردها كند وهو كبير الفرنج لغناه وأملاكه الواسعة . معجم الألفاظ التاريخية فى العصر المملوكى ، ص ١٣١ .

الكامل بعساكره ورحل إلى أشمون طناح ، فأقام بها مديدة ، ثم رحل إلى المنزلة التى قبالة طلخا[(١)] على رأس بحر أشمون ورأس بحر دمياط ، وخيم هنالك وبنى الناس الآدر[(٢)] والفنادق والحمامات والأسواق ، وسميت المنصورة وكان كذلك .

ولما استولى الفرنج على دمياط سيروا كل من وجدوه فيها إلى عكا فى المراكب ، ورحلوا ونزلوا قبالة المنصورة ، ونازلوا الكامل وبينهم بحر أشمون وبحر دمياط[(٣)] .

وقال ابن[(٤)]كثير : وفى هذه السنة توجه الملك المظفر محمود صاحب حماة إلى مصر ومعه الطواشى[(٥)] مرشد المنصورى بعسكر نجدة الملك الكامل بمصر ، وذلك بعد أن حَلَّف والده الملك المنصور الناس بأن يكون الملك المظفر ولى عهده ، فسار الملك المظفر بإذن والده الملك المنصور فوصل إلى الكامل ، وأكرمه وأنزله فى ميمنة عسكره ، وهى منزلة أبيه وجده فى الأيام الصلاحية ، وبعد أن توجه الملك المظفر ماتت والدته ملكة خاتون بنت الملك العادل . قال القاضى جمال الدين بن واصل : وحضرت العزاء وكان عمرى اثنتى[(٦)]عشرة سنة ، ورأيت الملك المنصور وهو لابس الحداد على زوجته المذكوره ، وهو ثوب أزرق وعمامة زرقاء ، وأنشدته الشعراء المراثى ، فمن ذلك قصيدة قالها حسام الدين الكردى ، منها فى لبس الملك المنصور الحداد :

ماكنت أعلم أن الشمس قد غربت حتى رأيت الدجى مُلْقَى على القمر
لو كان من مات يُفْدى قبلها لَفدَى أم المظفر آلاف من البشر[(٧)]

(١) طلخا : وتكتب طلخاء ، وهى موضع بمصر على النيل المفضى إلى دمياط ، معجم البلدان ، ج٣ ، ص٥٤٣ .

(٢) الأدر : جمع دور وهى مساكن الحريم السلطانية ، وهى ذوات بساتين ومناخات للحيوانات البديعة والأبقار والأغنام والطيور . انظر : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٣٧١ – ص٣٧٢ .

(٣) وردت هذه الأحداث بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص٣٧٥ ـ ص٣٧٧ ؛ الذيل على الروضتين ، ص١١٦ ـ ص١١٧ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٣٢ ـ ص٣٣ ؛ المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص١٢٢ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص٨٧ ـ ص٨٩ ، ص٩٤ ـ ص٩٥ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩١ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٣٩٦ .

(٤) بالبحث فى ابن كثير ، البداية والنهاية لم تجد هذا الخبر ، وإنما ورد فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٦٤ ـ ص٦٥ .

(٥) الطواشى : والجمع طواشية ، وهم خدام السلطان . انظر : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٤٥٦ .

(٦) «اثنى» كذا فى الأصل ، وما أثبتناه هو الصحيح لغة .

(٧) ورد هذان البيتان فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٦٦ ـ ص٦٧ .

ذكر تخريب سور القدس الشريف

وفى أول المحرم وقيل فى سابع المحرم أخرب الملك المعظم أبراج القدس وسوره خوفاً من استيلاء الفرنج عليه ، فاضطرب الناس وخرجوا منه متفرقين فى البلاد ، وهان عليهم مفارقة ديارهم وضياع أموالهم ، وقد كان القدس يومئذ على أتم الأحوال من العمارة وكثرة السكان[١] . وفى المرآة[٢] : كان المعظم قد توجه إلى أخيه الكامل إلى دمياط ، وبلغه أن طائفة من الفرنج على عزم القدس ، فاتفق الأمراء على خرابه ، وقالوا : قد خلا الشام من العساكر فلو أخذه الفرنج حكموا على الشام . وكان بالقدس أخوه العزيز عثمان وعز الدين أيبك الأستاذ دار[٣] ، فكتب المعظم إليهما بحران فتوقفا . وقالا : نحن نحفظه . فكتب إليهما المعظم : لو أخذوه لقتلوا كل من فيه وحكموا على دمشق وبلاد الإسلام . فألجأت الضرورة إلى خرابه ، فشرعوا فى السور أول يوم من المحرم ، ووقعت فى البلد ضجة مثل يوم القيامة وخرجت[٤] النساء «المخدرات»[٥] والبنات والشيوخ والعجائز والشبان والصبيان إلى الصخرة والأقصى ، فقطعوا شعورهم ومزقوا ثيابهم ، بحيث امتلأت الصخرة ومحراب الأقصى من الشعور ، وخرجوا هاربين وتركوا [٣٩٦] أموالهم وأثقالهم ومما شكوا أن الفرنج تصبحهم ، وامتلأت بهم الطرقات ، فبعضهم ذهب إلى مصر وبعضهم إلى الكرك وبعضهم إلى دمشق ، وكانت البنات المخدرات يمزقن ثيابهن ويربطنها على أرجلهن من الحفا ، ومات خلق كثير من الجوع والعطش ، وكانت نوبة لم يكن فى الإسلام مثلها ، ونهبت الأموال التى كانت لهم فى القدس ، وبلغ قنطار الزيت عشرة دراهم ، ورطل النحاس نصف درهم ، وأكثر الشعراء فى ذم دولة المعظم ودعوا عليها ، فقال بعضهم :

فى رجب حلل المحرم وخرب القدس فى المحرم

---

(١) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص١١٥ - ١١٦ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٣٢ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٢٢ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩٠ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٣٩٥ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، ج٨ ، ص٣٩٥ .

(٣) الأستاذ دار : وظيفة من وظائف أرباب السيوف ، يتولى صاحبها شؤون بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب والحاشية والغلمان ، وله مطلق التصرف فى استدعاء مايحتاجه كل من فى بيت السلطان من النفقات والكسوة . انظر : صبح الأعشى ج٤ ، ص٢٠ ، ج٥ ، ص٤٥٧ .

(٤) «وخرج» كذا فى الأصل ، والمثبت هو الصحيح لغة .

(٥) للمخدرات» كذا فى الأصل ، والمثبت من الذيل على الروضتين ، ص١١٥ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٣٩٥ ، ص ٣٩٦ .

قال السبط[١] : وأنشدنى قاضى الطور مجد الدين محمد بن عبد الله الحنفى لنفسه :

مررت على القدس الشريف مُسلماً على ماتبقى من ربوع كأنجم
ففاضت دموع العين منى صبابة على مامضى من عصرنا المتقدم
وقد رام علج أن يعفى رُسومه وشمر عن كفى لئيم منمم
فقلت له شلت يمينك خلها لمعتبر أو سائل أو مُسلّم
فلو كان يُفدى بالنفوس فديته بنفسى وهذا الظن فى كل مسلم

ذكر حصار التتار خوارزم

وفى هذه السنة كان حصار التتار خوارزم ، وذلك أنه لما انفصلت عنها تركان خاتون والدة السلطان علاء الدين خوارزم شاه محمد بن تكش ومن معها من أولاد ولدها وحريمه كما ذكرنا ، وافى التتار إليها ، فأول من وصل تاجى بك ، وبعده أنطاى بن جنكيزخان ثم حقطاى بن جنكيزخان ثم دوشى خان بن جنكيزخان ، وتتابعت إليهم الأمداد صحبة بقرجن نُوين ، وطُلُن ، وأشتون نُوين ، وقصان نُوين ، فى مائة ألف أويزيدون ، ونصبوا عليها المجانيق والمتاريس والدبابات ، ورؤوا أن بلد خوارزم خالية من حجارة يرمون بها فى المجانيق ، فوجدوا هناك من أصول التُوت العظيمة شيئا غليظاً جداً ، فصاروا يقطعونه قطعا مدورة ويرمون به بعد وضعه فى الماء يوما وليلة ، ثم أن دوشى خان عرض عليهم أن يسلموها بالأمان ، وقال : إن أباه أنعم بها عليه ، ومنع العسكر من التعرض إليها منتظراً تسليمها له ، فمال كُبراؤها إلى مسالمته وسفهاؤها إلى حربه ، وخرج الأمر من أيدى الأعيان . فساق دوشى خان فى ذلك الجيش العظيم ، فأخذوها فى جملة واحدة ، وصار الناس يذبّون عن أنفسهم وحريمهم ، فحين أعضل الأمر أرسلوا إلى دوشى خان العقبة علاء الدين محتسب[٢] خوارزم ، فأكرمه دوشى خان ، فقال له : إنّا قد رأينا هيبة الخان ، وقد آن أن نشاهد مرحمته ، فاغتاظ ، وقال : ماذا

(١) بالبحث لم نجد هذه الأبيات فى مرآة الزمان ووجدت فى الذيل على الروضتين ، ص١١٦ .
(٢) المحتسب : من وجوه العدول وأعيانهم ، ويده مطلقة فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على قاعدة الحسبة ، ويتحدث فى أمر المكاييل والموازين ، ولايحال بينه وبين مصحة إذا رآها .
انظر : مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص٣٠٢ .

رأيتم من هيبتى؟ وقد أفنى عسكرى هؤلاء الرجال وطاولوا معهم القتال ، وأنا الذى شاهدت هيبتهم وسأريهم هيبتى . وأمر بإخراج الناس فرادى ومثنى وجموعا ، ونودى بانعزال أرباب الصنائع ، فمنهم من فعل ونجا ، ومنهم من اعتقد أن أرباب الحرف يساقون إلى بلاد التتار ويقيم من سواهم بالديار فلم ينعزل ، فناله خسار ياله من خسار ، ووضع[٣٩٧] السيف فيهم فأهلكوا عن آخرهم[١] .

ذكر بقية الحوادث

منها أن الشيخ محيى الدين بن الجوزى محتسب بغداد أمر بإزالة المنكرات وكسر الملاهى ببغداد ، ذلك فى مستهل هذه السنة[٢] .

ومنها أن المعظم ألبس قاضى القضاة زكى الدين أبا العباس الطاهر بن محيى الدين القباء[٣] والكلوتة[٤] بمجلس الحكم من داره بباب[٥] البريد[٦] .

وقال السبط[٧] : كان فى قلبه منه حزازات كان يمنعه من إظهارها حياؤه من والده العادل ، وخوفه من الشناعات ، وكان يشكو إلىّ من القاضى مرارًا ويقول : إنه لاينفذ الأحكام ولايقيم معالم الإسلام . واتفق موت العادل ومرض أخته ست الشام عمة المعظم ، وكانت قد أوصت بدارها مدرسة ، وأحضرت القاضى الزكى والشهود ، وأشهدتهم عليها ، وأوصت إلى القاضى ، وبلغ المعظم فعز عليه وقال : يحضر إلى دار عمتى من غير إذنى ويسمع كلامها هو والشهود . ثم اتفق أن القاضى أحضر جابى

(١) وردت هذه الأحداث بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص٤٢١ - ص٤٢٢ ؛ سيرة منكبرتى ، ص٩٤ ، ص١٧٠ - ص١٧٣ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٦١ .

(٢) ورد هذا الحدث فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩٠ .

(٣) قباء : هو ثوب له أكمام ضيقة .
انظر : ماير : الملابس المملوكية ، ص٢٥ .

(٤) الكلوتة : غطاء للرأس ، ولمعرفة المزيد
انظر : ماير ، الملابس المملوكية ، ص٥٨ ، ص٥٩ ، ص١٠٥ ، ص١٠٦ .

(٥) باب البريد : يوجد داخل دمشق .
انظر : الدارس ، ج١ ، ص٥٣٧ .

(٦) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص١١٧ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩١ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٣٩٧ .

(٧) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٣٩٧ - ص٣٩٨ .

المدرسة العزيزية[١] وطلب حسابها ، فأغلظ له فى القول ، فأمر بضربه فضرب بين يديه كما يفعل الولاة ، فوجد المعظم سبيلاً إلى إظهار ما كان فى نفسه ، وكان الجمال المصرى وكيل بيت المال عدواً للقاضى ، فجاء فجلس عند القاضى فى مجلس الحكم ، والشهود حاضرون والناس ، فبعث المعظم ببقجة فيها قباء وكلوتة ، وأمره أن يحكم بين الناس وهما عليه ، وقام من خوفه فلبسهما وحكم بين اثنين . قال أبو شامه[٢] : جابى المدرسة المضروب هو السديد خطيب عقربا[٣] ، واسمه سالم بن عبد الرزاق بن يحيى ابن عمر بن كامل أخو الجمال والمؤيد العقربانى ، وكانت الخلعة إشارة إلى أنك تفعل فعل والى الشرطة فالبس لبس من يفعل ذلك ، قال : ومن لطف الله تعالى أن كان مجلس الحكم بداره ، وإلا والعياذ بالله لو كان فى مكان آخر لتكلف المرور فى الطرقات بذلك الزى الشنيع فى حق مثله إلى بيته . ثم أن القاضى لزم بيته بعدها ، ولم تَطل مدة حياته ، فمرض مرضة رَمَى كَبده فيها قطعًا ، ومات فى صفر سنة سبع عشرة وستمائة على مانذكره إن شاء الله تعالى .

وقال السبط[٤] : وكانت حركة شنيعة وواقعة قبيحة لم يجر فى الإسلام أقبح منها ، وكانت من غلطات المعظم . ولقد قلت له : مافعلت إلا بصاحب الشرع ، ولقد وجبت عليك دية القاضى . فقال : هو الذى أحوجنى إلى هذا ، ولقد ندمت[٥] .

واتفق أن المعظم بعث إلى الشرف[٦] بن عنين الشاعر حين تزهد خمراً ونرداً وقال : سبح بهذا ، إشارة إلى أن زهده ليس له صحة ، فكتب إليه ابن عنين :

يأيها الملك المعظم سنة ... أحدثتها تبقى على الآباد
تجرى الملوك على طريقك بعدها ... خلع القضاة وتحفة الزهاد[٧]

(١) المدرسة العزيزية : جوار المدرسة المعظمية بالصالحية ، أنشأها الملك العزيز عثمان بن الملك العادل أخو الملك المعظم ، توفى سنة ٦٣٠هـ . انظر : الدارس ، ج١ ، ص٥٤٩ - ص٥٥٠ .
(٢) الذيل على الروضتين ، ص١١٧ - ص١١٨ .
(٣) عقربا : كذا فى الأصل ، وفى ياقوت «عَقْربلا» : وهى بلدة بغور الأردن ، قرب بيسان وطبرية . معجم البلدان ، ج٣ ، ص٦٨٨ .
(٤) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٣٩٨ .
(٥) إلى هنا توقف العينى من النقل عن سبط ابن الجوزى .
(٦) الشرف بن عنين : هو أبو المحاسن محمد بن نصر بن الحسين بن عنين الأنصارى الملقب شرف الدين الكوفى الأصل الدمشقى المولد الشاعر المشهور ، ولد بدمشق تاسع شعبان سنة تسع وأربعين وخمسمائة . وتوفى فى شهر ربيع الأول سنة ثلاثين وستمائة بدمشق ، وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص١٤ - ١٩ .
(٧) وردت هذه الأحداث فى الذيل على الروضتين . ص١١٨ .

وفيها ....(١)

وفيها حج بالناس من العراق أقباش الناصرى ، ومن الشام مملوك المعظم ، ويقال له : شقيقات(٢) .

قال السبط(٣) : وكنت فى الحج ومعنا عز الدين بن القيسرانى من حلب ، والصفى ابن مرزوق .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

أبو البقاء صاحب(٤) الأعراب عبد الله بن الحسين بن عبد الله بن الحسين ، العكبرى الأصل ، البغدادى المولد والدار ، الفقيه الحنبلى ، الحاسب[٣٩٨] الفَرَضِى النحوى الضرير ، الملقب محب الدين ، أخذ النحو عن أبى محمد بن الخشاب ، وأخذ عن مشايخ عصره ببغداد ، وسمع الحديث من ابن البطى وغيره ، ولم يكن فى آخر عمره فى عصره مثله فى فنونه . وكان الغالب عليه النحو ، وصنف فيه مصنفات مفيدة منها : شرح كتاب «الإيضاح» لأبى على الفارسى ، وشرح ديوان المتنبى ، وله «إعراب القرآن» فى مجلد ، وكتاب «إعراب الحديث» ، وكتاب «شرح اللمع» لابن جنى ، وكتاب «اللباب فى علل النحو» ، وكتاب «إعراب شعر الحماسة» ، وشرح «المفصل» للزمخشرى شرحاً مستوفى ، وشرح «الخطب النباتية» و«مقامات الحريرى» ، وصنف فى الحساب أيضا ، واشتغل عليه خلق كثير وانتفعوا به ، واشتهر اسمه فى البلاد وهو حىّ ، وبَعُد صيته ، وكانت ولادته سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة ؛ وتوفى يوم الأحد ثامن شهر ربيع الآخر ، سنة ست عشرة وستمائة ، ودفن بباب حرب(٥) وكان صالحاً ديناً .

---

(١) بياض بالأصل بمقدار سطر .

(٢) ورد هذا الخبر فى ، الذيل على الروضتين ، ص١١٩ .

(٣) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٣٩٨ .

(٤) الكامل ، ج١٠ ، ص٣٩٨ ؛ الذيل على الروضتين ، ص١١٩ ـ ص١٢٠ ؛ وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص١٠٠ ـ ص١٠٢ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩٢ ـ ص٩٣ .

(٥) باب حرب : أحد أبواب بغداد ، وينسب إلى حرب بن عبد الله أحد أصحاب أبى جعفر المنصور ، وينسب إلى حرب المحلة المعروفة بالحربية ، وبها قبر أحمد بن حنبل . انظر : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٦٤ ـ ص٦٥ .

الحافظ عماد[١] **الدين أبو القاسم على بن الحافظ بهاء الدين أبى محمد قاسم بن الحافظ الكبير أبى القاسم على بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقى**، سمع الكثير، ورحل، فمات ببغداد فى هذه السنة، ومن لطيف شعره قوله فى المروحة :

ومـــروحـــةٍ تروحُ كلَّ همٍّ   ثلاثةُ أشـــهـــرٍ لابد منهـــا
حُـــزَيـران وتـمـــوزُ وآبُ   وفى أيلولَ يُغنى الله عنهـــا

أبو سعيد[٢] **محمد بن محمود بن محمد بن عبد الرحمن**، المروزى الأصل، الهمذانى المولد، البغدادى المنشأ والوفاة، كان حسن الشكل كامل الأوصاف، له خط حسن، وكان يعرف فنونا كثيرة من العلوم، شافعى المذهب، ويتكلم فى مسائل الخلاف، حسن الأخلاق، ومن شعره :

أرى قسم الأرزاق أعجب قسمة   لذى دعةٍ مُثر ومكدّ به الكدُّ
وأحمقُ ذومالٍ وأحمقُ معدمٌ   وعقلٌ بلاحظٍ وعقلٌ له جُدُّ
يعمّ الغنى والفقر ذا الجهل والحجَى   ولله من قبلُ الأمورِ ومن بعدُ

أبو زكرياء يحيى[٣] **بن القاسم بن درع بن الخضر، الشيخ تاج التكريتى**، قاضيها، ثم درس بالنظامية ببغداد[٤]، وكان مُتْقِنًا لعلوم كثيرة منها : التفسير، والفقة، والأدب، والنحو، واللغة، وله مصنفات فى ذلك كله، وجمع لنفسه تاريخًا، ومن شعره قوله :

لابد للمرء من ضيق ومن سعة   ومن سرور يوافيه ومن حزنِ
والله يطلب منه شكر نعمته   مادام فيها ويبغى الصبر فى المحنِ
فكن مع الله فى الحالين معتنقًا   فرضيْكَ هذين فى سر وفى علن
فما على شدةٍ يبقى الزمانُ يكنْ   ولا على نعمةٍ تبقى على الزمنِ

ومن شعره قوله :

لو كان قاضى الهوى علىّ ولى   ماجارَ فى الحكمِ مَنْ علىَّ ولى
يايوسفى الجمال عندك لم   تبقَ له حيلة من الحيلِ
إن كان قُدَّ القميصُ من دبرٍ   ففيك قُدَّ الفؤادُ من قُبُلِ

(١) انظر : الذيل على الروضتين، ص١٢٠ ؛ البداية والنهاية، ج١٣، ص٩٢ - جـ٩٣ ؛ شذرات الذهب، ج٥، ص٦٩ - ص٧٠.
(٢) البداية والنهاية، ج١٣، ص٩٣.
(٣) انظر : الذيل على الروضتين، ص١٢٠ ؛ البداية والنهاية، جـ١٣، ص٩٣ ؛ مرآة الزمان، جـ٨، ص٤٠٠.
(٤) المدرسة النظامية ببغداد : بناها الوزير نظام الملك أبو على الحسن بن على، سنة ٤٥٧هـ، ودرس بها الشيخ أبو إسحق الشيرازى. وفيات الأعيان، ج٢، ص١٢٩.

مات فى رمضان من هذه السنة ، ودفن بالشونيزية[١] .

الشيخ الإمام العلامة[٢] **جمال الدين**[٣] **أبو محمد عبد الله بن نجم بن شاس بن نزار بن عشائر بن عبد الله بن محمد بن شاس ، الجذامى** السعدى ، الفقية المالكى ، مصنف كتاب «الجواهر الثمينة فى مذهب عالم المدينة» ، وهو من أكثر[٣٩٩] الكتب فوائد فى الفروع رتَّبة على طريق« الوجيز للغزالى» . وقال ابن خلكان : والطائفة المالكية بمصر ، عاكفة عليه لحسنه وكثرة فوائده ، وكان مدرساً بمصر ، وتوفى بدمياط فى جمادى الآخرة ، وقيل : فى رجب من هذه السنة . وكان قد توجه إليها بنية الجهاد لمَّا أخذها الفرنج . وشاس بالشين المعجمة والسين المهملة بينهما ألف .

برهان الدين على[٤] **بن علوش بن عبد الله المغربى** ، إمام المالكية بدمشق ، توفى يوم الأحد ثانى شعبان ، ودفن بجبل قاسيون[٥] ، وكان عالمًا بالأصول والفروع والعربية ، ونشأ له ابن فاضل فى علم الطب يلقب بناصر الدين منصور بن على ، توفى أيضًا وهو شاب(رحمهما الله) .

محمد[٦] **بن محمد بن محمود الكشميهنى**[٧] ، توفى فى هذه السنة ، وكان صالحًا صاحب مجاهدات ورياضات ، وأوصى أن يكتب على كفنه هذا البيت طلباً لإصلاح حاله :

يكون أجاجا دونكم فإذا انتهى إليكم يلقى طيبكم فيطيب

الشريف[٨] **افتخار**[٩] **الدين عبد المطلب بن الفضل** ، العلوى ، البلخى ، المدرس بمدرسة الحلاويين بحلب ، مات فى حلب فى هذه السنة ، وكان عارفًا بمذهب

---

(١) الشُونيزية : مقبرة ببغداد بالجانب الغربى . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٣٣٨ .
(٢) انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩٣ ـ ص٩٤ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٦٩ .
(٣)«جلال الدين» كذا فى الأصل والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩٣ ـ ٩٤ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٦٩ .
(٤) انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٢١ .
(٥) قاسيون : هو الجبل المشرف على مدينة دمشق . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص١٣ .
(٦)انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٢٠ .
(٧) «الكشمينى» كذا فى الذيل على الروضتين ، ص١٢٠ .
(٨) انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٢٠ ؛ شذرات الذهب ، جـ٥ ، ص٦٩ .
(٩) «مختار الدين» كذا فى الذيل على الروضتين ، ص١٢٠ .

أبى حنيفة ـ رضى الله عنه ـ وشرح «الجامع الكبير» وغيره ، وكان يروى كتاب «الشمائل» للترمذى وغيره ، وكان سيدا عاقلاً فاضلاً ورعاً دينا .

محمد[١] بن جميل ، صاحب مخزن الخليفة ، مات ببغداد ، ومولده بهيت[٢] ، وكان فاضلاً بارعاً .

محمد سبط[٣] العقاب ، ولقبه بدر الدين ، وهو الذى ضم إليه الخليفة ولدى ولده إليه لما خرجا إلى شستر[٤] ، وأرسله الخليفة إلى الأشرف مراراً ، وكان فقيرًا فحصل له مال عظيم ، فبعثه الخليفة إلى الأشرف فى هذه السنة ، فبدا منه عند الأشرف دناءة نفس وسقوط هِمَّة ، وبلغ الخليفة ، وكان قد حظى عنده وبلغ أعلى المراتب ، فلما عاد من الرسالة اعتقله فى داره ، وقيل له : بعثناك إلى شستر فخُنت فى المال ، فاعمل حسابك . فأصبح فى داره مصلوبًا . فقيل : إنه صلب نفسه . وقيل : بل غلمانه صلبوه . وقيل : بل الموكلون به . ولم يغسل ولم يكفن ولم يصل عليه ، وحُمِل إلى مقابر المُقَتَّلين ، فدفن بها . وقال الناس : إن فى ذلك لعبرة .

ريحان[٥] بن تكان بن موسك أبو الخير ، المقرى ، شيخ السبط ، كان صالحا سليم الصدر ، أقام بالحربية سبعين سنة ، يُقرىء الناس القرآن ، فختم ألوفاً ، وكان من الأبدال . وقال السبط[٦] : قرأت عليه القرآن ، وسمعت الحديث ، وأُضر فى آخر عمره ، وكانت وفاته فى صفر ، ودفن بمقابر أحمد ، روى عن أبى الوقت وغيره .

صاحب سنجار المنصور[٧] محمد بن عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى ، مات فى هذه السنة ، وأبوه كان ختن نور الدين محمود بن زنكى على ابنته ، وكان المنصور هذا

---

(١) انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٢٠ .

(٢) هيت : سميت هيت لأنها فى هوة من الأرض . وهى بلدة على الفرات من نواحى بغداد فوق الأنبار . انظر : معجم البلدان ، ج٥ ، ص٤٢٠ ـ ص٤٢١ .

(٣) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٠٠ .

(٤) شستر : ويقال لها تُسْتَر وهو تعريب شستر ، وهى أعظم مدينة بخوزستان . معجم البلدان ، ج١ ، ص٨٤٧ ـ ص٨٤٨ .

(٥) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٣٩٨ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٦٧ .

(٦) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٣٩٨ .

(٧) انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٢٠ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٣١ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٢٢ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٣٩٩ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص٧٠ .

ملكاً عادلاً ، وهو الذى حصره الملك العادل أبو بكر بن أيوب ، ثم رحل عنه بشفاعة الخليفة الإمام الناصر لدين الله ، وخلف عدة أولاد : سلطان شاه ، وزنكى ، ومظفر الدين وغيرهم .

الخاتون الجليلة المصونة ست[(١)] الشام ، بنت أيوب بن شاذى ، أخت الملوك : السلطان صلاح الدين ، والسلطان الملك العادل ، والمعظم تورانشاه ، وكانت شقيقة المعظم ، كان لها من الملوك محارم خمسة وثلاثون ملكاً منهم الملك المعظم تورانشاه صاحب اليمن ، وهو مدفون عندها فى تربتها فى القبر القبلى من الثلاثة ، وفى الأوسط منها زوجها [٤٠٠] وابن عمها ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شاذى صاحب حمص ، وكانت قد تزوجته بعد أبى ابنها حسام الدين عمر بن لاجين ، وهى وابنها حسام الدين عمر فى القبر الثالث . ويقال للمدرسة والتربة : الحسامية[(٢)] نسبة إلى ابنها هذا حسام الدين عمر بن لاجين ، وكان من أكابر الأمراء عند خاله صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وكانت ست الشام من أكثر النساء خدمة وإحسانا إلى الفقراء والمحاويج ، وتعمل فى كل سنة فى دارها بألوف من الذهب أشربة وأدوية وعقاقير وغير ذلك ، فتفرق على الناس ، وكانت وفاتها يوم الجمعة آخر النهار ، السادس عشر من ذى القعدة من هذه السنة ، فى دارها التى جعلتها مدرسة ، وهى الشامية الجوانية ، ونقلت منها إلى تربتها بالشامية البرانية ، وكانت جنازتها عظيمة حافلة جدا(رحمها الله تعالى) .

---

(١) الذيل على الروضتين ، ص١١٩ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩٢ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٣٩٨ـ ص٣٩٩ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٦٧ .

(٢) المدرسة والتربة الحسامية : بالعونية على الشرف الشمالى من دمشق وأنشأتها أم الأمير حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ، وهى الشامية البرانية ونسبت إليه .
انظر : الذيل على الروضتين ، ص١١٩ ؛ الدارس فى تاريخ المدارس ، ج٢ ، ص١٤٣ ، ص١٤٤ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٦٧ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة السابعة عشر بعد الستمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله ، والمسلمون فى كرب شديد من أمور : (الأول) : من جهة الفرنج وهم متملكون دمياط ، والسلطان الملك الكامل مقيم فى المنصورة لأجلهم ، مرابط للجهاد .(الثانى) وهو معظمها خروج التتار من بلادهم واستيلاؤهم[١] على بلاد المسلمين وفسادهم . و(الثالث) وقوع الفتن فى أطراف البلاد : من ذلك أن الملك الأشرف كان قد أقطع عماد[٢] الدين أحمد بن سيف الدين على المشطوب رأس عين[٣] فخرج عليه ، وجمع جمعا ، وحسن لصاحب سنجار[٤] محمود بن قطب الدين الخروج عن طاعة الأشرف ، فخرج بدر الدين لؤلؤ من الموصل ، وحضر ابن المشطوب بتل أعفر[٥] وأخذه بالأمان ، ثم قبض عليه ، وأعلم الملك الأشرف بذلك ، فسر به غاية السرور ، واستمر ابن المشطوب فى الحبس ، ثم سار الأشرف من حران واستولى على دنيسر[٦] ، وقصد سنجار ، فأتته رسل صاحبها محمود بن قطب الدين يسأل أن يعطى الرقه عوضا عن سنجار ليسلم سنجار إلى الأشرف ، فأجاب الأشرف إلى ذلك وتسلم سنجار فى مستهل جمادى الأولى ، وسلم إليه الرقة[٧] وهذا كان من سعادة الأشرف فإن أباه الملك العادل نازل سنجار فى جموع كثيرة ، وطال مقامه عليها ولم يملكها ، وملكها ابنهُ الأشرف بأهون سعى . وبعد أن فرغ الأشرف من سنجار سار إلى

(*) يوافق أوله ٨ مارس سنة ١٢٢٠م .

(١) «استيلائهم» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .

(٢) عماد الدين أحمد : هو أبو العباس أحمد بن سيف الدين أبى الحسن على بن أحمدبن أبى الهيجاء بن عبد الله بن أبى الخليل بن مرزبان الهكارى المعروف بابن المشطوب الملقب عماد الدين ، والمشطوب لقب والده ، وولد عماد الدين سنة ٥٧٥هـ تقديرا ، وتوفى فى شهر ربيع الآخر سنة ٦١٩هـ .
انظر : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٨٠ - ١٨٤ .

(٣) رأس عين : مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودونيسر .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٧٣١ .

(٤) سنجار : مدينة مشهورة من نواحى الجزيرة ، بينها وبين الموصل ثلاثة أيام .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٥٨ - ١٦٠ .

(٥) تل أعفر : يقال عنه أيضاً يعفر ، وهو اسم قلعة وربض بن سنجار والموصل فى وسط واد فيه نهر جارى .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٨٦٣ .

(٦) دُنَيْسر : بلدة عظيمة مشهورة من نواحى الجزيرة قرب ماردين ، ولها اسم آخر يقال لها : قوچ حصار .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٦١٢ .

(٧) الرقة : مدينة مشهورة على الفرات ، وهى فى بلادة الجزيرة بالعراق .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٨٠٢ - ٨٠٤ .

الموصل[١] ، ووصل إليها فى تاسع عشر جمادى الأولى ، وكان يوم وصوله إليها يوماً مشهوداً ، وكتب إلى مظفر الدين[٢] صاحب إربل يأمره أن يعيد صهره عماد الدين[٣] زنكى بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود عَلَى بدر الدين لؤلؤ القلاع التى استولى عليها ، فأعادها جميعها ، وترك فى يده منها العمادية[٤] ، واستقر الصلح بين الأشرف وبين مظفر الدين صاحب إربل وعماد الدين زنكى صاحب العقر[٥] وشوش[٦] ، وكذلك استقر الصلح بينهما وبين صاحب الموصل بدر الدين لؤلؤ ، ولما استقر ذلك رحل الملك الأشرف من الموصل ثانى عشر رمضان وعاد إلى سنجار ، وسلم بدر الدين لؤلؤ قلعة تل أعفر إلى الملك الأشرف ، ونقل الملك الأشرف ابن المشطوب من حبس الموصل وجعله مقيداً فى جب بمدينة حران حتى مات سنة تسع عشرة وستمائة ، ولقى بغيه وخروجه مرة بعد أخرى[٧] .

ذكر مجىء جنكزخان إلى بخارى وغيرها من بلاد المسلمين وحربه مع السلطان علاء الدين خوارزم شاه

[٤٠١] قال ابن كثير[٨] : وفى هذه السنة عم البلاء وعظم العزاء بجنكزخان المسمى بتموجين ـ لعنه الله ـ ومن معه من التتار المفسدين ، واستفحل أمرهم وامتد فسادهم من أقصى بلاد الصين إلى أن وصلوا إلى بلاد العراق وماحولها ، حتى انتهوا إلى إربل وأعمالها ، فملكوا فى سنة واحدة وهى هذه السنة سائر الممالك إلا العراق والجزيرة

(١) الموصل : مدينة مشهورة عظيمة ، وهى باب العراق ومفتاح خراسان ، وهى مدينة قديمة على طريق دجلة ، ومقابلها من الجانب الشرقى نينوى . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٦٨٢ .

(٢) مظفر الدين صاحب إربل : أبو سعيد كوكبورى بن أبى الحسن على بن بكتكين بن محمد ، الملقب الملك المعظم مظفر الدين ، ووالده زين الدين على المعروف بكجك صاحب إربل ، ولد بقلعة الموصل سنة ٥٤٩هـ ، وتوفى ليلة الجمعة رابع عشر رمضان سنة ٦٣٠هـ بداره ثم نقل إلى قلعة إربل ، ودفن بها .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص١١٣ ـ ص١٢١ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص١٣٨ .

(٣) عماد الدين زنكى بن أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن عماد الدين زنكى آقسنقر ، توفى فى حدود سنة ٦٣٠هـ .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٢٠٨ .

(٤) العمادية : قلعة حصينة فى شمال الموصل ، عَمَّرها عماد الدين زنكى بن آقسنقر فى سنة ٥٣٧هـ ، وكانت قبل ذلك حصنا للأكراد .
انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٧١٧ .

(٥) عقر : حصن من أعمال فلسطين قرب بيت المقدس .
انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٦٨٨ .

(٦) شوش : موضع قرب جزيرة ابن عمر من نواحى الجزيرة ، وهى قلعة عظيمة قرب عقر الحميدية من أعمال الموصل . معجم البلدان ، ج٣ ، ص٣٣٤ .

(٧) وردت هذه الأحداث فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٧٠ ـ ص ٧٦ ؛ المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص١٢٤ ـ ص١٢٥ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٠٠ .

(٨) البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩٤ .

والشام ومصر، وقهروا جميع الطوائف التى بتلك النواحى الخوارزمية والقفجاق والكرج واللان والخزر وغيرهم، وقتلوا فى هذه السنة من المسلمين فى بلدان متعددة كبار ما لايحد ولا يوصف. وبالجملة فلم يدخلوا بلدًا إلا قتلوا جميع من فيه من المقاتله والرجال، وكثيرا من النساء والصبيان، وأتلفوا ما فيه بالنهب إن احتاجوا إليه، وبالحريق إن لم يحتاجوا إليه، حتى أنهم كانوا يجمعون الحرير الكثير الذى يعجزون عن حمله فيطلقون فيه النار وهم ينظرون إليه، ويخربون المنازل، وما عجزوا عن تخريبه أحرقوه، وأكثر ما يحرقون المساجد والجوامع ـ لعنهم الله ـ وكانوا يأخذون الأسارى من المسلمين فيقاتلون بهم ويحاصرون بهم وإن لم ينصحوا فى القتال قتلوهم.

وقال ابن الأثير[١] (رحمه الله): لو قال قائل: إن العالم منذ خلق الله آدم (عليه السلام) وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقًا، فإن التواريخ لم تتضمن مايقاربها ولا مايدانيها، ومن أعظم مايذكرون من الحوادث ما فعل بخت نصر ببنى إسرائيل من القتل وتخريب بيت المقدس. وما البيت المقدس بالنسبة إلى ماخرب هؤلاء الملاعين من البلاد التى كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس[٢]؟! وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى «من»[٣] قتلوا؟! فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعل الخلائق لايرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم وتفنى الدنيا إلا يأجوج ومأجوج، وأما الدجال فإنه يبقى على من اتبعه ويهلك من خالفه، وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا الرجال والنساء والأطفال، وشقوا بطون النساء الحوامل وقتلوا الأجنة[٤]. وقتلوا الصلحاء والعلماء والزهاد والعباد، وأخربوا الجوامع والمساجد، وأحرقوا المصاحف، ورمى الله الخذلان فى المسلمين حتى أن امرأة من التتار دخلت دارا وفيها جماعة من المسلمين فقتلت البعض وأسرت الباقين، وهم يظنون أنها رجل، ولما وضعت السلاح وجدوها امرأة فقتلها بعض من أسراها[٥].

(١) الكامل، ج١٠، ص٣٩٩.

(٢) «فى ما البيت المقدس» كذا فى الأصل والمثبت من الكامل، ج١٠، ص٣٩٩، حيث ينقل منه العينى.

(٣) «ما»، كذا فى الأصل والمثبت من الكامل، ج١٠، ص٣٩٩.

(٤) إلى هنا توقف العينى عن النقل من الكامل، ج١، ص٣٩٩، وورد هذا الحدث أيضا فى البداية والنهاية، ج١٣، ص٩٤.

(٥) وردت هذه الأحداث بتصرف فى الكامل، ج١٠، ص٤١٢؛ البداية والنهاية، ج١٣، ص٩٧.

وحكى أن رجلا من التتار دخل دارا وفيها مائة رجل فقتلهم واحداً بعد واحد حتى أفناهم ، ولم يمد واحد منهم يده إليه ، وكان الواحد منهم يدخل الدرب وفيه جماعة فيقتلهم كلهم وحده . قلت : قد جاء هلاون بعده وفعل بين المسلمين أقبح منه ، ثم فى آخر الأمر جاء تمرلنك فى سنة ثلاث وثمان مائة وأفسد وأخرب وحرق وقتل أكثر من جنكيز خان وغيره ، لأن تمرلنك دخل الروم والشام والعراق وقتل فيها ما لايعد ولايحصى ، ثم إن علاء الدين خوارزم شاه لما فرق عساكره فى البلاد ودهمته عساكر التتار وأخذوا مدينة أوترار[1] وأفسدوا فيها ، رجع خوارزم شاه بالمسلمين إلى بخارى ورتب بها الاستعداد للحصار لعلمه بالعجز عن المواجهة والمقاومة ، ورتب فيها عشرين ألف فارس ، وجعل فى سمرقند خمسين ألفا يحمونها ، وقال لهم : إنى أسير إلى بلاد خوارزم وخراسان لأجمع العساكر وأعود إليكم ، ثم رحل عائدًا فعبر نهر جيحون ، فنزل بالقرب من بلخ فعسكر هناك ، وأقام ينتظر اجتماع عساكره ، [٤٠٢] فساق جنكيزخان إلى بخارى ليحاصرها ويقطع بين السلطان وبين عساكره المتفرقة ، فحاصرها ثلاثة أيام ، فانهزم عسكر المسلمين ، وضعفت قلوب أهل البلد وطلبوا الأمان فأعطاهم أمانا ، ففتحوا البلد ، وتحصن فى القلعة طائفة من الجند ، فأمر جنكيزخان المسلمين بأن يحفروا جميعا ويطموا الخندق بالأخشاب والتراب ، ففعلوا حتى إن الكفار كانوا يأخذون المنابر والربعات فيلقونها فى الخندق ، ثم تابعوا الزحف ، وكان بها نحو من أربع مائة فارس من المسلمين ، فبذلوا جهدهم اثنى عشر يومًا ، وقاتلوا حتى قتلوا عن آخرهم . فلما فرغ من القلعة أمر بإحضار رؤساء البلد وأمرهم بإحضار موجودهم ، فأحضر كل ماعنده ، ثم أمرهم بالخروج من البلد مجردين من أموالهم ليس معهم سوى الثياب التى عليهم ، ودخل التتار البلد فنهبوه وقتلوا كل من وجدوه فيه ، ثم أحاطوا بالمسلمين ، فأمر أصحابه أن يقتسموهم ، وكان يوما شديدا من بكاء الرجال والنسوان وعجيج الأطفال والولدان ، وأخذ كل من استسلم منهم أسيراً ، ومنهم أقوام اختاروا الموت على الأسر فقاتلوا حتى قتلوا . وممن اختار القتل وقاتل حتى قُتل الإمام ركن الدين إمام زاده ، والقاضى صدر الدين خان ، وألقت التتار فى البلد النار ، وأحرقوا المساجد والمدارس والربط[2] .

---

(١) مدينة من بلاد الترك . انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص٤٠١ .

(٢) وردت هذه الأحداث بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص٣٩٩ - ص٤٠٥ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩٠ .

ثم ساروا إلى سمرقند[1] وقد تحققوا عجز السلطان خوارزم شاه عنهم ، واستصحبوا معهم من أسروا من أهل بخارى[2] مشاة على أقبح صور الأسارى ، وكل من عجز عن المشى قتلوه ، فلما قاربوا سمرقند قدموا الخيالة وتركوا الرجالة والأسرى والأثقال وراءهم ، فلما رأى أهل البلاد سوادهم استعظموهم . فلما كان اليوم الثانى وصل الأسارى والرجالة والأثقال وأحاطوا بالبلد ، وكان فيه خمسون ألف مقاتل من الخوارزمية ، وأما عامة أهل البلاد المجتمعين إليها فلايحصون كثرة ، فخرج اليهم الشجعان وأهل الجلد والقوة رجّالة ، ولم يخرج إليهم أحد من الخوارزمية لما فى قلوبهم من خوف التتار ، فقاتلهم الرجّالة بظاهر البلد يتبعونهم ويطمعون فيهم ، وكان التتار قد كمنوا لهم كمينا ، فلما استجروا أهل البلد إلى أن تعدوا الكمين خرجوا عليهم وحالوا بينهم وبين البلد ، فبقوا فى الوسط وأخذتهم السيوف من كل جانب ، فقُتلوا عن آخرهم شهداء ـ رضى الله عنهم ـ وكانوا سبعين ألف على ماقيل ، فلما رأى الباقون من العامة والجند ذلك ضعفت قلوبهم وأيقنوا بالهلاك ، فقال الجند : نحن أتراك من جنس هؤلاء ولايقتلوننا ، وطلبوا الأمان فأجابوهم إلى ذلك ، ففتحوا أبواب البلد ، وخرجوا إلى الكفار بأهلهم وأموالهم ، فقالوا لهم : ادفعوا إلينا أسلحتكم ، ففعلوا ، فلما أخذوا أسلحتهم وضعوا السيوف فيهم فقتلوهم عن آخرهم ، وأخذوا أموالهم ودوابهم ونساءهم وأولادهم ، ولما كان اليوم الرابع نادوا فى البلد أن اخرجوا ومن تأخر قتل ، فخرج جميع من فى البلد من الرجال والنساء والأطفال ، ففعلوا بهم كما فعلوا بأهل بخارى من السبى والنهب والقتل ، ثم دخلوا البلد فنهبوا ماكان فيها ، وكان خوارزمشاه بمنزله مقيما ، وكلما اجتمع [٤٠٣] إليه عسكر سيَّره إلى سمرقند ، فيرجعون ولايقدمون على الوصول إليهم ، فنعوذ بالله من الخذلان . فلما فرغ جنكيزخان من سمرقند سير من عساكره عشرين ألفا فى طلب خوارزم شاه[3] .

---

(١) سمرقند : إحدى بلاد ماوراء النهر مبنية جنوب وادى الصغد . معجم البلدان ج٣ ، ص١٣٣ .

(٢) بخارى : إحدى بلاد ماوراء النهر بينها وبين جيحون يومان .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٥١٧ .

(٣) وردت هذه الأحداث بالتفصيل فى الكامل ، ج١٠ ، ص٤٠٥ ـ ص٤٠٦ .

ذكر إرسال جنكزخان عسكراً وراء خوارزم شاه

ولما فرغ جنكزخان من سمرقند أقام هناك وأرسل السرايا إلى البلدان ، فبعث سرية إلى بلاد خراسان ، وسرية وراء خوارزم شاه ، وهم عشرون ألف ، وقال لهم : اطلبوه فأدركوه ولو تعلق بالسماء[١] .

وقال أبو الفتح : كان خوارزم شاه مقيما بحدود كتلف[٢] وأندخوذ[٣] ، ولما سمع بذلك ضعف قلبه واضطرب حاله ، ورحل فى وقته ، وعدّا جيحون ، وفارقه سبعة آلاف من الخطائية[٤] ، واتصل علاء الدين صاحب قُندَز[٥] بجنكزخان مظاهراً ، وبمغادرة السلطان مجاهراً ، وانقطع إليه الأمير ماه[٦] ، وأخذ الناس فى التخاذل والتسلل إلى جنكزخان . وفى تاريخ بيبرس : لما اتصل بجنكز خان حال السلطان ووجله جرد إليه مقدمين فى ثلاثين ألف من عسكره ، وهما يمه نوين وسبطى بهاد[٧] حتى عبروا النهر صوب خراسان ، فعاثوا وأفسدوا وأبادوا من وجدوا[٨] .

وكان السلطان خوارزم شاه نازلاً بمرج دولة أباد وهى من أعمال همذان[٩] ، وليس معه إلا عشرون ألف فارس فلم ترعة إلا صيحة[١٠] الغارة وإحداق خيل العدو به ، فنجا بنفسه وفاتهم فى نفر يسير من خواصه ، وقُتل جُلُّ أصحابه ، وانتهى إلى حافة البحر

---

(١) ورد هذا الخبر فى الكامل ، ج١٠ ، ص٤٠٦ .

(٢) كيلف فى الأصل والصحيح ما أثبتناه ، وهى بلدة فى خراسان بين مدينتى بلخ ومرو . سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص١٠٠ .

(٣) أندخوذ : إحدى مدن خراسان ، بين بلخ ومرو .
معجم البلدان ، ج١ ، ص٣٧٢ ؛ سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص٦٧ ، حاشية(١) .

(٤) الخطائية : نسبة إلى قبائل الخطا الذين أسسوا دولة لهم فى إقليم التركستان فى مستهل القرن السادس الهجرى (الثانى الميلادى) على يد(ابى لوتاشى) سيرة جلال الدين ، ص٣٦ ، حاشية ٣ .

(٥) قيدر فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه . سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص١٠١ .

(٦) «الأمير جاه ررى» : كذا فى سيرة منكبرتى ، وهو من قدماء بلخ ، ص١٠١ .

(٧) هما القائدان المغوليان شبى ، وسوبوتاى ، أرسلهما جنكزخان فى إثر علاء الدين محمد خوارزم شاه على رأس جيشين يتكون كل منهما من ألف فارس ، وقد طارداه حتى اضطراه إلى الاعتصام بإحدى جزر بحر قزوين . انظر : سيرة منكبرتى ، ص١٠٢ ، حاشية (١) .

(٨) وردت هذه الأحداث بتصرف فى سيرة منكبرتى ، ص١٠٠ - ص١٠٢ .

(٩) همذان : مدينة عتيقة بالجبال بأرض فارس بجوار أذربيجان والموصل والرى . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٩٨١ .

(١٠) فى الأصل ضمة ، والصحيح ما أثبتناه ، سيرة منكبرتى ، ص١٠٥ .

وأقام عند الفرضة[١] يبكى وينذر النذور، ويصلى الصلوات الخمس، ويعاهد الله بإقامة العدل إن كتب سلامته، فكبسه التتار، فركب مركبا هو وأولاده الحاضرون معه وهم: جلال الدين منكبرتى خوارزم شاه، وقطب الدين أزلاغ شاه، وناصر الدين آق شاه، ولم يكن معه سواهم لأن أولاده كانوا متفرقين فى الممالك، وسار فى البحر فوصل إلى الجزيرة فريدًا طريدًا، لايملك طارفا ولاتليدًا، وكان قد اعتراه مرض ذات الجنب فازداد به مرضه، وكان فى أهل مازندران[٢] ناس يتقربون إليه بالمأكول والمشروب، فقال: فى بعض الأيام أشتهى أن يكون عندى فرس يرعى حول خيمتى هذه، وقد ضربت له خيمة صغيرة، فأحضر إليه تاج الدين حسن أحد سرهنكيته[٣] فرساً. هذا ما آل إليه وجرت به المقادير عليه[٤].

وفى تاريخ ابن كثير[٥]: ولما ساق التتار وراء خوارزم شاه أدركوه وبينه وبينهم نهر جيحون، وهو آمن بسببه، فلم يجدوا سفناً، فعملوا لهم أحواضا يحملون عليها الأسلحة، ويرسل أحدهم فرسه ويأخذ بذنبه، فيجره الفرس فى الماء، وهو يجر الحوض الذى فيه سلاحه حتى صاروا كلهم فى الجانب الآخر، فلم يشعر بهم خوارزم شاه إلا وقد خالطوه، فهرب منهم إلى نيسابور[٦]، ثم منها إلى غيرها، وهم فى أثره لايمهلونه يجمع لهم،[٧] فصار كلما أتى بلدًا ليجتمع فيه عساكره يدركونه فيهرب منهم، حتى ركب فى بحر طبرستان، وسار إلى قلعة فى جزيرة فيه، فكانت وفاته فيها. وقيل: إنه لايعرف بعد ركوبه فى البحر ما كان من أمره بل ذهب فلا يدرى أين ذهب[٨].

---

(١) الفرضة: هى الثغر أو الميناء، سيرة منكبرتى، ص١٠٦، حاشية ٣.
(٢) مازندران: اسم لولاية طبرستان. انظر: معجم البلدان، ج٤، ص٣٩٢.
(٣) سرهنكيته: أى أحد قواده. سيرة منكبرتى، ص١٠٧، حاشية١.
(٤) وردت هذه الأحداث بتصرف فى سيرة منكبرتى، ص١٠٥ ـ ص١٠٧.
(٥) البداية والنهاية، ج١٣، ص٩٥ ـ ص٩٦.
(٦) نيسابور: من أعظم مدن إقليم خراسان.
انظر: معجم البلدان، ج٤، ص٨٥٧.
(٧) «له» كذا فى الأصل، والمثبت من البداية والنهاية، ج١٣، ص٩٦، حيث ينقل عنه العينى.
(٨) إلى هنا توقف العينى عن النقل من البداية والنهاية، ج١٣، ص٩٥ ـ ص٩٦.

وقال أبو الفتح المنشىء : قاسى السلطان خوارزم شاه من الشدائد والجفلات إلى أن مات بالجزيرة فى بحر قلزم ، ولما عبر نهر جيحون وصل إليه[٤٠٤] عماد الملك محمد بن السديد الساوى وزير ابنه ركن الدين صاحب العراق ، وقد كان ركن الدين وجهه إلى باب السلطان لقضاء أشغاله ، ثم رحل السلطان من حافة جيحون إلى نيسابور ، ولم يقم بها الإ ساعة من نهار من رعب تمكن فى صدره ، وسار إلى جهة العراق ، ونزل بمرج دولة أباد وهى من أعمال همذان ، وأقام بها أيامًا يسيرة ومعه من عسكره مقدار عشرين ألف فارس ، فلم يدر الإ صبيحة الغارة ، فهرب هو بنفسه ، وشمل القتل جل أصحابه ، وقُتِل عماد الملك الوزير ، وجاء السلطان إلى بلد الجبل ثم منها إلى حافة البحر ، وأقام عند الفرضُة بقرية من قراها ، فيحضر المسجد ويصلى به إمام الفريضة فى القرية ، فأقام بها إلى أن كبسه التتار بها ومعهم ركن الدين كبود خانه ، وكان السلطان قد قتل عمه نصرة الدين[وابن عمه][١] عز الدين كيخسرو ، فانتهز ركن الدين الفرصة فى هذا الوقت ، ولكنه فاتهم حيث ركب المركب ، ووقعت منهم سهام فى المركب ، وخاض خلفه طائفة من التتار حرصًا على أخذ السلطان[٢] .

ذكر مافعل هؤلاء السرايا فى بلاد الإسلام

ولما فاتهم السلطان خوارزم شاه بركوبه البحر توجهوا إلى نهب البلاد وأخذها ، فقصدوا الرى فدخلوها على حين غفلة من أهلها ، فقتلوهم وسبوهم وأسروهم ، ثم صاروا إلى همذان فملكوها ثم إلى زنجان[٣] فقتلوا وأسروا وسبوا ، ثم قصدوا قزوين[٤] فنهبوها وقتلوا من أهلها نحوًا من أربعين ألفا ، ثم قصدوا بلاد أذربيجان ، فصالحهم ملكها أزبك ابن البهلوان[٥] على مال حمله إليهم لشغله بما هو فيه من السكر وارتكاب السيئات

---

(١) [وابن عمه] مابين حاصرتين إضافة من سيرة منكبرتى لاستقامة المعنى ، ص١٠٦ .

(٢) وردت هذه الأحداث فى سيرة منكبرتى ، ص١٠٤ - ص١٠٦ .

(٣) زنجان : بلد كبير من نواصى الجبال بين أذربيجان وبينها (الجبال) وهى قريبة من أبهر وقزوين . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٩٤٨ .

(٤) قزوين : مدينة مشهورة بينها وبين الرى سبعة وعشرن فرسخاً . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٨٨ .

(٥) أزبك بن البهلوان : هو أحد غلمان السلجوقية ، وصاحب إقليم أذربيجان وآرّان ، تزوج بابنة السلطان طغرل السلجوقى انظر : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٤٧ ، ص٥٢ ، ص١٥٥ .

والانهماك على الشهوات ، فتركوه وساروا إلى موقان[١] فقاتلهم الكرج[٢] فى عشرة آلاف مقاتل ، فلم يقفوا بين أيديهم طرفة عين حتى انهزمت الكرج ، وأقبلوا إليهم بجدهم وجديدهم ، فكسرهم التتار مرة أخرى أقبح هزيمة وأشنعها[٣] .

ثم ساروا إلى مراغة[٤] فحصروها ونصبوا عليها المجانيق ، وتترسوا بالأسارى من المسلمين ، وعلى البلد امرأة - ولن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة - ففتحوا البلد بعد أيام ، وقتلوا من خلقه ما لايعلم عددهم إلا الله تعالى ، وغنموا منه شيئًا كثيرا ، وسبوا وأسروا على عادتهم ، ثم قصدوا مدينة إربل[٥] فضاق المسلمون لذلك ذرعاً فصالحهم أهلها ، وترك التتار عندهم شحنة ، فذهبوا ثم اتفق أهل إربل على قتل شحنتهم ، فرجعوا إليهم فحاصروهم حتى فتحوها قسراً ، فقتلوا أهلها عن آخرهم ، ثم سارا إلى أردبيل[٦] ثم إلى تبريز[٧] ثم إلى بيلقان[٨] فقتلوا من أهلها خلقا كثيرا وحرقوها ، وكانوا يفجرون بالنساء ثم يقتلونهن ويشقون بطونهن عن الأجنة ، ثم عادوا إلى بلاد الكرج وقد استعدت لهم الكرج فاقتتلوا معهم فكسروهم أيضاً كسرة فظيعة ، ثم فتحوا بلداناً كثيرة يقتلون أهلها ويسبون ويأسرون من الرجال مايقاتلون به الحصون ، يجعلونهم بين أيديهم ترساً يتقون بهم الرمى

(١) موقان : ولاية بأذربيجان فى الجبال . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٦٨٦ .

(٢) الكرج : أمة من المسيحيين كانت مساكنها بجبال القوقاز المجاورة لتفليس ، ثم استولوا على تفليس من المسلمين سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م ، ولم يزالوا متملكين لها حتى أغار عليهم جلال الدين خوارزم شاه سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٢٥١ - ص٢٥٢ ؛ مفرج الكروب ، ج١ ، ص١٩٢ .

(٣) وردت هذه الأحداث فى الكامل ، ج١٠ ، ص٤٠٩ - ص٤١١ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩٦ .

(٤) مراغة : بلدة مشهورة بأذربيجان - معجم البلدان ، ج٤ ، ص٤٧٦ .

(٥) إربل : مدينة كبيرة من أعمال الموصل ، وأكثر أهلها أكراد وقد استعربوا .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص١٨٩ .

(٦) أردبيل : من أشهر مدن أذربيجان .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص١٩٧ .

(٧) تبريز : من مدن أذربيجان وهى مدينة عامرة .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٨٣٢ .

(٨) بيلقان : مدينة قرب الدربند الذى يقال له باب الأبواب تعد فى أرمينية الكبرى قريبة من شروان .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٧٩٧ - ص٧٩٨ .

وغيره ، ومن سلم منهم قتلوه بعد انقضاء الحرب ثم ساروا إلى بلاد اللان[١] والقفجاق[٢] فاقتتلوا معهم قتالاً عظيما فكسروهم ، وقصدوا أكبر مدائن القفجاق ، وهى مدينة سوداق[٣] ، وفيها من الأمتعة والثياب والقندس والسنجاب شىء كثير جدًا ، ولجأت القفجاق إلى بلاد الروس ، وكانوا [٤٠٥] نصارى ، فاتفقوا معهم على قتال التتار ، فالتقوا معهم فكسرتهم التتار كسرة فظيعة جداً ، ثم صاروا نحو بُلْغَار[٤] فى حدود العشرين وستمائة ، ففرغوا من ذلك كله وعادوا نحو ملكهم جنكز[٥]خان[٦] .

وكان جنكزخان يسمى هؤلاء السرية المغرّبة ، وكان قد أرسل سرية أخرى فى هذه السنة إلى ترمذ[٧] فأخذتها وأخرى إلى فرغانة[٨] فملكوها ، وجهز جيشا آخر نحو خراسان ، فحاصروا بلخ[٩] فصالحهم أهلها ، وكذلك صالحوا مدنًا كثيرة أخرى حتى انتهوا إلى الطالقان[١٠] فأعجزتهم قلعتها وكانت حصينة ، فحاصروها ستة أشهر حتى عجزوا ، فكتبوا إلى جنكزخان فقدم بنفسه فحاصرها أربعة أشهر أخرى حتى فتحها قهرًا ، ثم قتل

---

(١) اللان : بلاد واسعة فى طرف أرمينية .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣٤٣ .

(٢) القفجاق : فى إقليم خوارزم ، ويسكنه جنس من الترك يسكنون صحارى الدّشْت وهم أهل حل وترحال على عادة البدو . صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٤٥٦ .

(٣) «سرداق» كذا فى الأصل والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩٧ ، وتكتب أيضا «صوداق» ، والعامة يقولون : سُرْداق . (سوداق) . وهى فرضة للتجار فى ذيل جبل على شط بحر القرم ، ويقابلها من البر الآخر مدينة سامسون من سواحل بلاد الروم ، وأهلها مسلمون . صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٤٦٠ .

(٤) بُلْغَار : هى مدينة الصقالبة ضاربة فى الشمال ، ومن بلغار إلى أول حد الروم نحو عشرين يومًا ، معجم البلدان ، ج١ ، ص٧٢٣ .

(٥) لمعرفة المزيد عن هذه الأحداث انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص٤١١ ـ ص٤١٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩٧ .

(٦) جنكيز خان : كان اسمه «تموجين» ثم اتخذ لنفسه هذا الاسم ومعناه أعظم الحكام بعد أن نجح فى تزعم القبائل المغولية فى شرق آسيا ، وبعد أن انتخب فى خاقانا عليها سنة ٦٠٣هـ (١٢٠٦م) . ولد سنة ٥٤٩ / ٥٥٠ هـ (١١٥٤ / ١١٥٥م) ، وتوفى سنة ٦٢٤هـ (١٢٢٧م) .
انظر : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، محمد بن أحمد النسوى ، دار الفكر العربى ١٩٥٣ ، حاشية(٤) ، ص٣٩ -٤٠ .

(٧) ترمذ : مدينة مشهورة من أمهات المدن على نهر جيحون من جانبه الشرقى . معجم البلدان ، ج١ ،ص٨٤٣ .

(٨) فرغانة : مدينة واسعة وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان . معجم البلدان ، ج٣ ، ص٨٧٩ .

(٩) بلخ : مدينة مشهورة بخراسان .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٧١٣ .

(١٠) الطالقان : بلدتان إحداهما بخراسان بين مرو الروذ وبلخ والأخرى بلدة وكورة من قزوين وأبهر ، وهى أكبر مدينة بطخارستان .
انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٤٩١ .

من فيها ومن فى البلد بكماله من الخاصة والعامة ، ثم قصدوا مدينة مرو[١] مع جنكزخان وقد عسكر بظاهرها نحو من مائتى ألف مقاتل من العرب وغيرهم ، فاقتتلوا معهم قتالاً عظيما حتى انكسر المسلمون . فإنا لله وإنا إليه راجعون[٢] . ثم حصروا البلد خمسة أيام واستنزلوا نائبها خديعة ثم غدروا به وبأهل البلد فقتلوهم وغنموهم وسبوهم وعاقبوهم بأنوع المذلات حتى إنهم قتلوا فى يوم واحد سبع مائة ألف إنسان فلاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، ثم ساروا إلى نيسابور ففعلوا فيها مافعلوا بأهل مرو ، ثم إلى طوس[٣] فقتلوا وخربوا مشهد على بن موسى الرضى وتربه الرشيد الخليفة ، فتركوه خرابا ، ثم ساروا إلى هراة[٤] ، فقتلوا خلقها واستنابوا عليها ، ثم ساروا إلى غزنة[٥] وبها جلال الدين بن السلطان خوارزم شاه[٦] .

ذكر ماجرى بين التتار وبين جلال الدين بن خوارزم شاه على غزنة

أرسل جنكيزخان طائفة كبيرة من التتار إلى غزنة ، وكان بها جلال الدين منكبرتى ابن السلطان علاء الدين خوارزم شاه ، فوقع بينهم قتال شديد ، فكسرهم جلال الدين ، وكان مجىء جلال الدين إلى غزنة بعد أمور كثيرة بينه وبين التتار على ماتذكره . وأصل ذلك أن جلال الدين لما كسر التتار على غزنة عادوا إلى هراة فإذا أهلها قد نقضوا ، فقتلوهم عن آخرهم ، ثم عادوا إلى ملكهم جنكيزخان فأرسل جنكيزخان طائفة أخرى إلى خوارزم فحاصروها حتى فتحوها قهراً فقتلوا أهلها قتلاً ذريعاً ونهبوها ، وأرسلوا الجسر الذى يمنع ماء جيحون منها فغرقت دورها وهلك جميع أهلها ، ثم عادوا إلى ملكهم

---

(١) مرو : هى مرو الروذ وهى مدينة قريبة من مرو الشاهجان وهى على نهر عظيم فلهذا سميت بذلك . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٥٠٦ .

(٢) ورد هذا الحدث بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص٤١٩- ص٤٢٠ .

(٣) طوس : مدينة بخراسان بينها وبين نيسابور نحو عشرة فراسخ .
انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٥٦٠ - ص٥٦٣ .

(٤) هَرَاةُ : مدينة عظيمة مشهورة من أمهات مدن خراسان .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٩٥٨ .

(٥) غزنة : من طرف خراسان وأول بلاد الهند .
انظر : تقويم البلدان ، ج٣ ، ص٤٦٦ - ص٤٦٧ .

(٦) وردت هذه الأحداث فى الكامل ، ج١٠ ، ص٤١٨ - ص٤٢١ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩٧ - ص ٩٨ .

جنكيزخان وهو مخيمّ على الطالقان ، فجهز منهم طائفة إلى غزنة ، فاقتتل معهم جلال الدين المذكور فكسرهم كسرة عظيمة على ماذكرنا ، واستنقذ منهم خلقاً من أسارى المسلمين ، ثم كتب إلى جنكيزخان يطلب منه أن يبرز بنفسه لقتاله ، فقصده جنكيزخان فتواجها ، وقد مزق جلال الدين بعض جيشه ولم يبق له بُدّ من القتال ، فاقتتلوا ثلاثة أيام لم يعهد مثلها قبلها من قتال ، ثم ضعف أصحاب جلال الدين فذهبوا فركبوا فى البحر يعنى بحر الهند ، فسارت التتار إلى غزنة فأخذوها بلا كلفة ولا ممانعة[١] .

وفى تاريخ النويرى[٢] : ولما فرغ التتار من خراسان عادوا إلى ملكهم جنكيزخان ، فجهز جيشا كثيفا الى غزنة[٣] وبها جلال الدين منكبرتى بن خوارزم شاه مالكا لها ، وقد اجتمع إليه كثير من عسكر أبيه . قيل : كانوا ستين ألفا مقاتلين ، وكان الجيش الذى أرسله جنكيزخان اثنى عشر ألفا[٤٠٦] فالتقوا مع جلال الدين واقتتلوا ، فانتصر المسلمون وانهزمت التتار ، وتبعهم المسلمون يقتلونهم كيف شاؤوا ، ثم أرسل جنكيزخان جيشا آخر أكثر من الأول مع بعض أولاده ، فوصلوا إلى كابل[٤] واقتتلوا مع المسلمين فانهزم التتار أيضا وقتل المسلمون منهم خلقا كثيرا وغنموا شيئا كثيرا ، وكان فى عسكر جلال الدين أمير كبير مقدام هو الذى كسر التتار على الحقيقة يقال له : بغراق فوقع بينه وبين أمير آخر كبير يقال له : ملك خان صاحب هراة وله نسب إلى خوارزم شاه ، وكان سبب الوقوع المكسب قتل فيه أخو بغراق ، فغضب بغراق وفارق جلال الدين ، وسار إلى الهند وتبعه ثلاثون ألف فارس ، ولحقه جلال الدين واستعطفه ، فلم يرجع ، فضعف عسكر جلال الدين بسبب ذلك ، ثم وصل جنكيزخان بنفسه فى جيوشه ، وقد ضعف جلال الدين بما نقص من عسكره بسبب بغراق ، فلم يكن له بجنكيزخان قدرة ، فترك جلال الدين البلاد وسار إلى الهند ، وتبعه جنكيزخان حتى أدركه على ماء عظيم وهو نهر السند ، ولم يلحق جلال الدين ومن معه أن يعبروا النهر فاضطر إلى القتال ، وجرى بينهم وبين جنكيزخان

---

(١) ورد هذا الحدث بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص٤٢٢ ـ ص٤٢٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩٨ .

(٢) لم يرد هذا الخبر فى النويرى ، وإنما ورد فى الكامل ، ج١٠ ، ص٤٢٢ ـ ص٤٢٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩٨ .

(٣) غزنة : مدينة عظيمة وولاية واسعة فى طرف خراسان وهى الحد بين خراسان والهند .
انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٧٩٨ .

(٤) كابل : تقع بين الهند وغزنة ونواحى سجستان فى ظهر الغور .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٢٣٠ .

قتال عظيم لم يسمع قبله مثله ، وصبر الفريقان وأقاموا ثلاثة أيام على ذلك ، فقتل من الفريقين خلق عظيم ، وذلك يوم الأربعاء لثمان بقين من شوال سنة ثمانى عشرة وستمائة ، وكانت الكرة أولا على جنكيزخان ثم عادت على جلال الدين ، وكان القتل والجرح فى التتار أكثر ، ثم تأخر كل منهما عن صاحبه[١] .

فعبر جلال الدين ذلك النهر إلى جهة الهند ، وأسر التتار ولد جلال الدين ابن سبع سنين ، وقتل بين يدى جنكيزخان صبرا ، ثم إن جلال الدين لما أراد عبور النهر رأى والدته وأم ولده وجماعة من خدمه يصحن ويبكين ، ويقلن : بالله اقتلنا وخلصنا من الأسر ، فأمر بهن فغرقن فى النهر ، وهذا من أعظم البلايا ونوادر المصائب والرزايا . ثم اقتحم جلال الدين وعسكره ذلك النهر العظيم ، فنجا منهم الى ذلك البر تقدير أربعة آلاف رجل حفاة عراة ، وأرمى الموج جلال الدين مع ثلاثة من خواصه إلى موضع بعيد ، وقعد أصحابه ثلاثة أيام ، فبقوا حائرين إلى أن اتصل بهم جلال الدين فاتخذوا بمقدمه عيداً ، ثم جرى بين جلال الدين وبين أهل تلك البلاد وقائع انتصر فيها جلال الدين ، ووصل إلى لهاور من الهند وأقام بها ، ثم إن جنكيزخان لما أيس من جلال الدين عاد إلى غزنة واستولى عليها وقتل أهلها ، ونهب أموالها[٢] . وسنذكر بقية ماجريات جلال الدين وماجريات أخوته أولاد علاء الدين خوارزم شاه فى أثناء السنين الآتية إن شاء الله .

ذكر بقيه الحوادث

منها أن الملك المظفر شهاب الدين غازى بن الملك العادل استولى على أخلاط[٣] وميافارقين[٤] ، وذلك أنه كانت بيده الرها[٥] وسروج[٦] ، وكانت ميافارقين وأخلاط بيد

(١) وردت هذه الأحداث بتصرف فى الكامل ، ج١٠ ، ص٤٢٢ - ص٤٢٣ ؛ سيرة منكبرتى ، ص١٥٤ - ص١٥٧ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ٩٨ .

(٢) وردت هذه الأحداث بتصرف فى سيرة منكبرتى ص١٥٨ - ص١٦٢ .

(٣) أخلاط : من أجَلّ مدن أرمينية تحف بها البساتين وعليها حصن .
انظر : ليسترينج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص٢١٧ ، ص٢١٨ ، معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٥٧ .

(٤) ميافارقين : بلد طيب حصين من أرض الجزيرة بالعراق ، وميافارقين العربية تحريف Mayphark eth ميفركت الأرامى أو موفركن Moufargin الأرمنى .
انظر : ليسترينج ، بلدان الخلافة الشرقية ، ص١٤٣ - ص١٤٤ .

(٥) الرها : مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٨٧٦ .

(٦) سروج : بلدة قريبة من حران من ديار مصر .
انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٨٥ .

الملك الأشرف ، ولم يكن للأشرف ولد فجعل أخاه المظفر المذكور ولى عهده ، وأعطاه ميافارقين وأخلاط وبلادها ، وهى إقليم عظيم يضاهى ديار مصر ، وأخذ الأشرف منه الرها وسروج[(١)] .

ومنها أن الملك المعظم عزل المعتمد مبارز[(٢)] [٤٠٧] الدين إبراهيم عن ولاية دمشق وولاها العزيز خليل[(٣)] .

ومنها أن فى المحرم هبت رياح ببغداد ، وجاءت بروق ، وسمعت رعود شديدة ، وسقطت صاعقة بالجانب الغربى على المنارة المجاورة لعُوق[(٤)] ومُعِين[(٥)] فثلمتها ، ثم أصلحت وغارت الصاعقة فى الأرض[(٦)] .

ومنها أن صاحب سنجار قتل أخاه ، فسار الأشرف إليها فأخذها ، وعوض صاحب سنجار الرقة[(٧)] .

وفيها أن ابن المشطوب نافق على الأشرف ، وعاث فى أرض سنجار ، وساعده صاحب ماردين[(٨)] ، وكان نجم الدين بن عصرون مع ابن المشطوب قدوزّر له ، فسار الأشرف ونزل على دنيسير ، وجاء الملك الصالح فأصلح بين صاحب ماردين والأشرف ، ودخل ابن مشطوب إلى تل أعفر[(٩)] ، وسار إليه فارس الدين بن صبرة من نصيبين ، وبدر الدين لؤلؤ من الموصل وحصراه فى تل أعفر ، فأنزله بدر الدين لؤلؤ بالأمان وحمله معه إلى الموصل ، ثم قيّده وبعث به إلى الأشرف ، فألقاه الحاجب عَلِي فى الجب ، فمات

(١) انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص٤٢٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩٨ .
(٢) مبارز الدين ابراهيم : هو مبارز الدين سنقر الصلاحى ، كان مقيما بحلب ثم انتقل إلى ماردين ، ومات غبنا سنة ٦٢٠هـ ، وكان محببا إلى الناس ، ولم يكن فى زمنه أكرم منه .
انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٣٤ - ص١٣٥ ؛ المرآة ، ج٨ ، ص٤١٢ - ص٤١٣ ، الشذرات ، ج٥ ، ص٩٣ .
(٣) انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩٩ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٠١ .
(٤) «عُون» : كذا فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه حيث أن «عُوق» حى من اليمن .
انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٧٤٦ .
(٥) مُعِين : قرية باليمن . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٥٨١ .
(٦) انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩٨ .
(٧) انظر : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٧٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩٨ .
(٨) انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٢١ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩٨ .
(٩) تل أعفر : اسم قلعة بين سنجار والموصل فى وسط واد فيه نهر جار ، ويقال عنها أيضا تل يعفر ، وتليعفر .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٥٦٣ ؛ بلدان الخلافة الشرقية ، ص١٣٠ ، حاشية ٣٩ .

بالقمل والجوع ، وكان نور الدين بن عماد الدين صاحب قرقيسيا[١] مع الأشرف وقد كاتب عليه ، واتفق مع ابن المشطوب ، فاعتقله الأشرف وبعث به مع العلم تعاسيف إلى قرقيسيا وعانه ، وعلق نور الدين برجليه تحت القلعتين وعذبه ، فسُلمت إلى تعاسيف جميع بلاده ، وأراد الأشرف أن يرميه فى الجب فتشفع إلى الملك المعظم ، فشفع فيه إلى الأشرف فأطلقه ، وسار نور الدين إلى دمشق وأحسن المعظم إليه ، فاشترى فى العقيبة بستان ابن جيوش وأقام به . قلت : العلم تعاسيف اسمه قيصر ، وتعاسيف لقبه[٢] .

ومنها أنه كانت فى رجب وقعة بين الملك الكامل وبين الإفرنج فى أرض البرلس[٣] ، وكانت وقعة عظيمة ، قتل الكامل منهم عشرة آلاف ، وغنم خيولهم وسلاحهم ، ورجعوا إلى دمياط مهزومين[٤] .

وفيها (. . . . .)[٥]

وفيها حج بالناس من العراق أقباش[٦] الناصرى ، ولكنه قتل كما نذكره فى الوفيات . ومن الشام المعتمد مبارز الدين إبراهيم ، ولم يحج أحد من العجم بسبب خروج التتار فى البلاد وفسادهم[٧] .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

شيخ[٨] الشيوخ صدر الدين أبو الحسن محمد بن شيخ الشيوخ عماد الدين محمود بن حمويه من بيت رئاسة وإمرة عند بنى أيوب ، وكان شيخ الشيوخ هذا فقيهاً فاضلاً ، درس بتربة الشافعى بمصر وبمشهد الحسين وولى مشيخة سعيد السعداء والنظر فيها ، وكانت له حرمة وافرة عند الملوك ، وأرسله الملك الكامل إلى الخليفة يستنصره على الفرنج فمات بالموصل بالإسهال ، ودفن بها عند قضيب البان عن ثلاث وسبعين سنة .

---

(١) قرقيسا : بلد على نهر الخابور . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٦٥ ـ ص٦٦ .
(٢) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص١٢١ ـ ص ١٢٢ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٠٠ .
(٣) البَرَلُّس : بليدة على شاطئ نيل مصر ، قرب البحر من جهة الاسكندرية . معجم البلدان ، ج١ ، ص٥٩٣ .
(٤) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص١٢٢ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٠١ .
(٥) بياض فى الأصل بمقدار نصف سطر .
(٦) لمعرفة المزيد من التفاصيل عن الحدث وأقباش .
انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٢٢ ـ ص١٢٣ .
(٧) انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٢٢ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٠١ .
(٨) انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص٤٢٥ ؛ الذيل على الروضتين ، ص١٢٥ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٩١ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٠ .

وقال أبو شامة[1] :

وصل إلى الموصل فى منتصف جمادى الآخرة فتوفى بها بعلة الذرب فى الرابع والعشرين منه .

ابن الجهنى[2] أبو عبد الله الحسين بن محمد بن أبى بكر بن المجلى الموصلى ، ويعرف بابن الجهنى ، كان شاباً فاضلاً ، ولى كتابة الإنشاء لبدر الدين لؤلؤ زعيم الموصل ، ومن شعره : [٤٠٨]

نفسى فداءُ الذى فكرتُ فيه وقد   غدوتُ أغرق فى بحر العجبِ
يبدو بليل على صبح على قمر   على قضيب على وهم على كثب

رضى[3] الدين المؤيد بن محمد بن على الطوسى الأصل النيسابورى الدار ؛ المحدث ، مات فى هذه السنة ، وكان أعلى المتأخرين إسنادا ، سمع كتاب مسلم من الفقيه أبى عبد الله محمد بن الفضل الفراوى وكان الفراوى فاضلا ، قرأ الأصول على إمام الحرمين ، وسمع الفراوى صحيح مسلم على عبد الغافر فى سنة تسع وعشرين وخمسمائة ، وكانت ولادة رضى الدين فى سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، ومات فى شوال من هذه السنة .

الشيخ[4] عبد الله اليونينى ؛ أسد الشام ، من قرية يقال لها : يونين . من بعلبك ، وكانت له زاوية يقصد فيها للزيارة ، وكان من الصالحين الكبار المشهورين بالعبادة والرياضة والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، له همة عالية فى الزهد والورع بحيث أنه كان لايقتنى شيئا ولا يملك مالا ولاثيابا ، ولايتجاوز قميصا فى الصيف وفروة فوقه فى الشتاء ، وعلى رأسه قبع من جلد الماعز ، شعره إلى ظاهره ، وكان لاينقطع عن غزاة من الغزوات ، ويرمى عن قوس زنته ثمانون رطلاً بالدمشقى ، وكان يجاور فى بعض الأحيان بجبل لبنان ، ويأتى فى الشتاء إلى عيون العاسريا التى فى سفح الجبل المطل على قرية دومة ، شرقى دمشق ، لأجل سخونة الماء فيقصد بالزيارة هنالك ، ويجئ تارة إلى دمشق فينزل بسفح قاسيون عند القادسية ، وكانت له أحوال ومكاشفات صالحة .

(١) انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٢٥.
(٢)انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠١ ـ ص١٠٢ .
(٣)انظر : الشذرات ، ج٥ ، ص٧٨ .
(٤)انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٢٥ـ ص١٢٦ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٠ ـ ص١٠١ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٠٢ ـ ص٤٠٧ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٧٣ ـ ص٧٤ .

وحكى السبط[١] عن القاضى جمال الدين يعقوب الحاكم بكرك البقاع أنه شاهده مرة وهو يتوضأ من ثورا[٢] عند الجسر الأبيض ، إذمر نصرانى ومعه حمل بغل خمرا[٣] ، فعثرت الدابة عند الجسر ، فسقط الحمل ، فرأى الشيخ وقد فرغ من وضوئه ولايعرفه ، فاستعان به على رفع الحمل ، فاستدعانى الشيخ ، فقال : تعال يافقيه ساعدنا على تحميل هذا[٤] الحمل على الدابة فتساعدنا عليه ، وذهب النصرانى فتعجبت من ذلك ، وتبعت الحمل وأنا ذاهب إلى المدينة ، فانتهى به إلى العقيبة[٥] فأورده إلى الخَمّار بها فإذا هو خل ، فقال له الخمار : ويحك ذا خل . فقال النصرانى : أنا والله أعرف من أين أتيت . ثم ربط الدابة فى خان ، ورجع إلى الصالحية . فسأل عن الشيخ فعرفه ، فجاء إليه فأسلم على يديه . وكان لايقوم لأحد يدخل إليه ، ويقول : إنما يقوم الناس لرب العالمين . وكان يدخل إليه الملك الأمجد صاحب بعلبك ويجلس بين يديه ، فيقول له الشيخ : يامجيد فعلت كذا وكذا ، ويأمره بما يأمره وينهاه بما ينهاه عنه ، وهو يمتثل جميع مايقوله ، وماذاك إلا لصدقه فى زهده وورعه ، وكان يقبل الفتوح ولكن لايدخر منه شيئاً لغد ، وإذا اشتد جوعه أخذ من ورق اللوز فيفركه ويستفه ويشرب فوقه الماء البارد ، وذكروا أنه كان يحج فى بعض السنين فى الهواء ، وقد وقع هذا لطائفة كبيرة[٦] من الزهاد وصالح العباد[٧] .

وقال ابن كثير[٨] : ولم يبلغنا هذا عن أحد من أكابر العلماء وأول من يذكر عنه هذا حبيب العجمى من أصحاب الحسن البصرى ثم من[٩] بعده من الصالحين . وقال السبط[١٠] : كنت قد اجتمعت به فى الشام من سنة ستمائة إلى سنة ثلاث وستمائة ، وكان له تلميذ اسمه توبة ، وكان من الصالحين الأجواد ، وسافرت إلى العراق فى سنة

---

(١) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٠٣ ـ ص٤٠٤ .
(٢) ثورا : اسم نهر عظيم بدمشق .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٩٣٨ .
(٣) «خمر» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .
(٤) «هذا هذا» كذا فى الأصل ، والصحيح هو المثبت لاستقامة المعنى .
(٥) العُقَيْبَة : مدينة تقع فى الجانب الشمالى من دمشق ، وهى مستقلة بذاتها .
انظر : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٩٤ .
(٦) «كثيرة» كذا فى الأصل ، والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠١ ، لاستقامة المعنى .
(٧) البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٠ ـ ص١٠١ .
(٨) البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠١ .
(٩) «عمر» كذا فى الأصل ، والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠١ ، حيث ينقل عنه العينى .
(١٠) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٠٣ .

أربع وستمائة ، وحججت ، فلما كان[٤٠٩] يوم عرفة صعدت جبل عرفات وإذا بالشيخ عبد الله قاعد على رأس الجبل مستقبل الكعبة ، وعليه الثوب الخام ، وعلى رأسه القلنسوة[١] السوداء ، فسلمت عليه ، فرحب بى وسألنى عن طريقى ، وقعدت عنده[٢] إلى قريب الغروب ، ثم قلت له : ماتقوم تروح إلى المزدلفة . قال : اسبقنى أنت على رفاق . فنزلت من الجبل وأتيت المزدلفة ، ووقفت بها ، وجئت إلى منى فدخلت مسجد الحنيف ، وإذا بالشيخ توبة خارج من المسجد ، فسلم على ، فقلت له :أين نزل الشيخ؟ ظناً منى أنه قد حج معه ، فقال : أيما شيخ؟ قلت : الشيخ عبد الله . قال : خلفته ببعلبك . ففطنت ، فقلت : مبارك . ففهم فلزم بيدى وبكى . وقال : بالله حدثنى إيش معنى هذا؟ فقلت : رأيته البارحة على عرفات وحدثته الحديث ورجعت أنا على بغداد ، وجاء توبة إلى دمشق ، وحدّث الشيخ عبد الله الحديث ، فحدثنى توبة قال : قال لى الشيخ : ماهو صحيح منك ، فلان فتى ، والفتى مايكون غمازاً . فلما عدت إلى الشام عتبنى الشيخ فقلت : توبة تلميذك . فقال : لا تعد إلى مثلها . كأنه كره أن يتحدث له بكرامة فى حال حيوته . وقال ابن كثير[٣] ناقلا عن السبط[٤] قال : حكى لى عبد الصمد خادمه قال : لما كان يوم الجمعة من العشر الأول من ذى الحجة نزل فصلى الجمعة بجامع بعلبك وهو صحيح ليس به شىء ، ودخل الحمام قبل الصلاة ، واغتسل ، وكان عليه ثوبان قد سماهما لامرأتين[٥] ، وجاءه داود المؤذن وكان يغسل الموتى ، فقال له : ويحك ياداود انظر كيف تكون غدا؟ فما فهم داود . وقال : ياسيدى كلنا غدا فى غفارتك . ثم صعد الشيخ إلى المغارة ، وكان قد أمر الفقراء أن يقطعوا صخرة عند اللوزة التى كان ينام تحتها ويقعد عندها ، وعندها قبر ، وكان فى نهار الجمعة ، قد نُحرت الصخرة وبقى منها مقدار نصف ذراع . فقال لهم : لاتطلع الشمس إلا وقد فرغتم منها . قال : وبات طول

---

(١) قلنسوة : جمعها قلانس وهى كلوتة مطرزة أى زركش .
انظر : الملابس المملوكية ، ص٤٢ .

(٢) «عنه» كذا فى الأصل ، والمثبت من مرآة الزمان حيث ينقل عنها العينى ، ج٨ ، ص٤٠٣ .

(٣) البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠١ .

(٤) مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص٤٠٥ - ص٤٠٦ .

(٥) ذكر سبط ابن الجوزى ان المرأتين هما أم أيدمر ، والأخرى أم مهجة ، ولم يذكر صنعتهما له . ج٨ ، ص٤٠٥ .

الليل يذكر أصحابه ومعارفه ويدعو لهم ، وطلع الصبح فصلى بى ، وخرج إلى صخرة كان يجلس عليها ، فجلس عليها وبيده سبحته ، وقام الفقراء يتممون الصخرة ، وطلعت الشمس وقد فرغوا منها ، والشيخ قاعد نائم والسبحة بيده . وجاء خادم من القلعة إليه فى شغل ، فرآه نائماً قاعدا ، فما تجاسر أن يوقظه ، فقعد ساعة ، فطال عليه ، فقال : ياعبد الصمد ما أقدر أقعد أكثر من هذا . قال : فتقدمت إليه وقلت : سيدى سيدى فما تكلم ، فحركته فإذا به ميتٌ ، وقد فرغوا من الصخرة ، وعملوا فيها ساعة ، وهو ميت ، وارتفع الصياح ، وكان صاحب بعلبك فى الصيد ، فأرسلوا وراءه فجاء ، فرآه على تلك الحال لاوقع ولا وقعت السبحة من يده ، وهو كأنه نائم ، فقال : دعونا نبنى عليه بنياناً وهو على حاله ليكون أعجوبة الدنيا أن الإنسان يموت وهو قاعد ولايتغير . فقالوا : اتباع السنة أولى ، وطلع داود فغسله ، ودفع الثوبين الى المرأتين . ولما ألحدوه قال له الحفار : ياشيخ عبد الله اذكر ما عاهدتنا عليه . قال : ففتح عينيه ونظر إلىَّ شزرا . ودفن عند اللوزة يوم السبت ، وقد جاوز ثمانين سنة - رضى الله عنه ورحمه . وكان الشيخ محمد الفقيه اليونينى من جملة تلامذته ومن يلوذ به . وهو جد هؤلاء المشايخ بمدينة بعلبك[١] .

الملك[٢] المنصور محمد بن الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة [٤١٠] توفى فى ذى القعدة منها بقلعة حماة ، وكانت مدة مرضه أحداً وعشرين يوما ، وورم دماغة قبل موته ، وكان شجاعا عالما محبا للعلماء ، ورد إليه منهم جماعة كثيرة ، قيل : الشيخ سيف الدين الآمدى ، وكان فى خدمة المنصور قريب من مائتى متعمم من النحاة والعلماء والمشتغلين بغير ذلك ، وصنف المنصور عدة مصنفات مثل : المضمار فى التاريخ فى عشر مجلدات ، وطبقات الشعراء ، وكان معتنيا بعمارة بلده والنظر فى مصالحه ، وهو الذى بنى الجسر الذى خارج باب حمص ، واستقر له بعد وفاة والده من البلاد : حماة ، والمعرة[٣] ، وسلمية[٤] ، ومنبج[٥] ، وقلعة نجم[٦] ، فلما فتح

---

(١) لمعرفة المزيد عن الشيخ عبد الله اليونينى .
انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٢٥ - ١٢٨ .

(٢) انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٢٤ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٧٧ - ص٨٩ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٠ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص٧٧ - ٧٨ .

(٣) المعرة : هى مدينة كبيرة قديمة من أعمال حمص بين حلب وحماة .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٥٧٥ .

(٤) سلمية : بليدة من ناحية البرية من أعمال حماة بينهما مسيرة يومين وكانت تعد من أعمال حمص .
انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص١٢٣ .

(٥) منبج : بلد قديم بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ وبينها وبين حلب عشرة فراسخ .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٦٥٤ - ٦٥٦ .

(٦) قلعة نجم : قلعة حصينة تطل على الفرات على جبل ، وهى المعروفة «بجسر منبج» معجم البلدان ، ج٣ ، ص١٦٥ .

بارين[1] وكان بيد ابراهيم بن المقدم ، ألزمه عمه السلطان الملك العادل أن يردها عليه ، فأجاب إلى تسليم منبج وقلعة نجم عوضا عنها ، وهما خير من بارين بكثير ، ولكنه اختار ذلك لقرب بارين من بلده ، وجرت له حروب مع الفرنج وانتصر فيها ، وكان ينظم الشعر ، ولما توفى الملك المنصور كان ولده الملك المظفر المعهود إليه بالسلطنة عند خالة الملك الكامل بديار مصر فى مقابلة الفرنج ، وكان ولده الآخر الملك الناصر صلاح الدين قليج أرسلان عند خاله الآخر الملك المعظم بدمشق ، وهو فى الساحل فى الجهاد وقد فتح قيسارية وهدمها ، وسار إلى عثليث[2] ونازلها ، وكان الوزير بحماة زين الدين بن فريج ، فاتفق هو وأكابر الدولة على استدعاء الملك الناصر صلاح الدين لعلمهم بلين عريكته وشدة بأس الملك المظفر ، فأرسلوا إلى الملك الناصر وهو مع الملك المعظم كما ذكرنا ، فمنعه الملك المعظم من التوجه إلا بتقرير مالى عليه يحمله إلى الملك المعظم فى كل سنة ، قيل : إن مبلغه أربع مائة ألف درهم . فلما أجاب الملك الناصر إلى ذلك وحلف عليه ، أطلقه الملك المعظم . فقدم الملك الناصر إلى حماة ، واجتمع بالوزير زين الدين بن فريج وبالجماعة الذين كاتبوه ، واستحلفوه على ما أرادوا ، وأصعدوه إلى القلعة ، ثم ركب من القلعة بالصناجق السلطانية ، وكان عمره إذ ذاك سبع عشرة سنة لأن مولده سنة ستمائة . ولما استقر الملك الناصر فى حماة وبلغ أخاه الملك المظفر ذلك استأذن الملك الكامل فى المضى إلى حماة ظنا منه أنه إذا وصل إليها يسلمونها له بحكم العهد الذى كان له فى أعناقهم ، فأعطاه الملك الكامل الدستور ، وسار حتى وصل إلى الغور ، فوجد خاله المعظم صاحب دمشق هناك ، فأخبره ابن أخيه[3] الناصر قد تملك حماة ، ويخشى عليه أنه إن وصل إليه يعتقله ، فسار الملك المظفر إلى دمشق وأقام بداره المعروفة بالزنجيلى ، وكتب الملك المعظم والملك المظفر إلى أكابر حماة فى تسليمها إلى الملك المظفر ، فلم يحصل منهم إجابة ، فعاد الملك المظفر إلى مصر وأقام فى خدمة الملك الكامل ، وأقطعه إقطاعا بمصر . وكان منه ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) بارين : مدينة بين حلب وحماة من جهة الغرب . معجم البلدان ، ج١ ، ص٤٦٦ .

(٢) عثليث : اسم حصن بسواحل الشام ويعرف الحصن الأحمر ، فتحه الملك الناصر يوسف بن أيوب سنة ٥٨٣هـ . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٦١٦ .

(٣) «أخاه» كذا فى الأصل والصحيح لغة ما أثبتناه .

الملك[١] **الصالح ناصر الدين محمود بن قرا أرسلان بن أرتق**، صاحب آمد، توفى فى هذه السنة فى صفربآمد، وكان شجاعا عاقلا جوادا محبا للعلماء، وكان مصاحباً للملك الأشرف موسى بن السلطان الملك العادل، يجىء إلى خدمته مرارا، وملك بعده ولده الملك المسعود، وكان بخيلا فاسقاً، فأخذه الملك الكامل وحبسه بمصر ثم أطلقه، فأخذ أمواله التتار. قال أبو شامة[٢] : أخذ الملك الكامل منه آمد وحمله إلى مصر، فحبسه فى الجب مدة ثم أطلقه، فمضى إلى التتار[٤١١] ومعه أموال فأخذت منه.

الملك[٣] **الفائز غياث الدين ابراهيم بن الملك العادل**، كان قد انتظم له الأمر فى الملك بعد أبيه على الديار المصرية على يدى الأمير عماد الدين أحمد بن المشطوب كما ذكرنا، لولا أن الملك الكامل تدارك ذلك سريعا، ثم أرسله أخوه فى هذه السنة إلى أخيهما الملك الأشرف موسى يستحثه فى سرعة المسير إليهم بسبب الفرنج، فمات بين سنجار والموصل، وقد ذُكِر أنه سُمَّ فَرُدَّ إلى سنجار فدفن بها عند تربة عماد الدين زنكى.

الأمير[٤] **أبو عزيز قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم العلوى الحسنى الزيدى**؛ صاحب مكة شرفها الله تعالى، مات فى جمادى الأولى من هذه السنة، وقد بلغ من السن سبعين سنة. وذكر ابن الأثير[٥] وفاته فى سنة ثمانى عشرة وستمائة، وكان شيخا طويلا مهيبا لايخاف من أحد من الخلفاء ولا الملوك، ويرى أنه أحق بالأمر من كل أحد، وكان الخليفة يود أن لو حضر عنده فيكرمه، وكان يأبى من ذلك ويمتنع منه أشد الامتناع، ولم يفد إلى أحد قط ولاذل لخليفة ولا ملك : قد كتب إليه الخليفة مرة يستدعيه فكتب إليه :

---

(١) انظر : الذيل على الروضتين، ص١٢٤ ؛ البداية والنهاية، ج١٣، ص١٠٠.

(٢) الذيل على الروضتين، ص١٢٤.

(٣) البداية والنهاية، ج١٣، ص٩٩، ص١٠٠ ؛ مرآة الزمان، ج٨، ص٤٠١.

(٤) الكامل، ج١٠، ص٤٢٦ ـ ص٤٢٧ ؛ الذيل على الروضتين، ص١٢٣ ؛ البداية والنهاية، ج١٣، ص٩٩ ؛ مرآة الزمان، ج٨، ص٤٠١ ؛ شذرات الذهب؛ ج٥، ص٧٦.

(٥) الكامل فى التاريخ، ج١٠، ص٤٢٦ ـ ص٤٢٧.

ولى كفُّ ضرغام أَذِلُّ ببطشها   وأَشرى بها بين الورى وأبيع
وكل[1] ملوكِ الأرضِ تلثمُ ظَهرَهَا   وفى وسطها[2] للمجدبين ربيع
أأجعَلُها تحت الرحا ثم أبتغى   خلاصاً لها إنى إذا لرقيع
وما أنا إلا المسكُ فى كل بقعة[3]   يَضُوُع وأما عندكم فيضيعُ[4]

وقال أبو شامة[5] : ولما كتب إليه الخليفة ، قال : أنت ابن العم والصاحب ، وقد بلغنى شهامتك وحفظك للحاج وعدلك ، وشرف نفسك وعفتك ونزاهتك ، وقد أحببت أن أراك وأشاهدك وأحسن إليك ، فكتب إليه هذه الأبيات ، وقال أيضا : ولم يرتكب كبيرة على ماقالوا ، وكان فى زمانه يؤذن فى الحرم بحى على خير العمل على مذهب الزيدية ، وكان عادلا منصفا نقمة على عبيد مكة والمفسدين ، والحاج فى أيامه مطمئنون آمنون على أنفسهم وأموالهم .

وفى تاريخ النويرى[6] : وكانت ولايته قد اتسعت إلى نواحى اليمن ، وكان حسن السيرة فى مبدء أمره ، ثم أساء السيرة وجدد المظالم والمكوس[7] وصورة ماجرى له أن قتادة كان مريضا فأرسل عسكرا مع أخيه ومع ابنه الحسن بن قتادة للاستيلاء على مدينة النبى ﷺ وأخذها من صاحبها ، فوثب الحسن بن قتادة فى أثناء الطريق على عمه فقتله ، وعاد إلى أبيه قتادة بمكة فخنقه ، وكان له أخ نائب[8] بقلعة ينبع[9] فأرسل إليه الحسن فحضر إلى مكة فقتله أيضا ، وارتكب من ذلك أمراً عظيما فى قتل أبيه وعمه

(١) «تظل» كذا فى الكامل ، ج١٠ ، ص٤٢٧ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩٩ .
(٢) «سطحها» كذا فى الكامل ، ج١٠ ، ص٤٢٧ .
(٣) «بلدة» كذا فى الكامل ، ج١٠ ، ص٤٢٧ .
(٤) وردت هذه الأبيات فى الكامل ، ج١٠ ، ص٤٢٧ ؛ الذيل على الروضتين ، ص١٢٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩٩ .
(٥) الذيل على الروضتين ، ص١٢٣ .
(٦) نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١١٠ .
(٧) المكوس : مفردها مكس ، وهى ضريبة تفرض على الإنتاج وعلى السلع الواردة والصادرة الموجودة فى الموانى ، وكانت المكوس فى عهد المماليك مقررة على البيوت والحوانيت والخانات والحمامات والأفران والطواحين وغيرها ، وهى ضريبة جائرة وغير شرعية .
انظر : مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص٣٢٥ .
(٨) «نائبا» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .
(٩) ينبع : هى قرية غَنَّاء بين مكة والمدينة ، وهى قريبة من طريق الحاج الشامى .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص١٠٣٩ .

وأخيه فى أيام يسيرة ، ولم يمهل الله حسنا أيضا بل سلبه الملك وشرده فى البلاد ، وقيل : بل قتل . وذلك أن الأمير أقباش أمير حاج العراق قدم مكة فى هذه السنة ومعه خلع للأمير حسن بن قتادة المذكور بولايته لإمرة مكة بعد أبيه ، فنازع فى ذلك راجح وهو أكبر أولاد قتادة ، وقال : لايؤمر عليها غيرى . فوقعت فتنة أفضت إلى قتل أقباش غلطا ، وتشتت حال حسن المذكور وشرد فى البلاد وقيل : بل قتل كما ذكرنا[١] .

الأمير[٢] أقباش بن عبد الله الناصرى ؛ اشتراه الخليفة وهو ابن خمس عشرة سنة بخمسة آلاف دينار ، ولم يكن بالعراق أجمل صورة منه ، ثم قربه[٤١٢] الخليفة إليه ولم يكن يفارقه ، فلما ترعرع ولاه إمرة الحج والحرمين ، وكان عاقلا متواضعا محبوبا إلى القلوب ، حج ومعه خلع للتقليد لحسن بن قتادة ، كان قتادة قد مات فلما وصل أقباش إلى عرفات جاءه راجح بن قتادة أخو حسن بن قتادة وسأله أن يوليه إمارة مكة وقال : أنا أكبر ولد قتادة . فلم يجبه ، وظن حسن أن أقباش قد ولاه فأغلق أبواب مكة ، وجاء أقباش فنزل بالشبيكة[٣] بعد أيام مِنى ، ووقعت الفتنة بين حسن وأخيه ، ومنع حسن الناس من الدخول إلى مكة ، فركب أقباش ليسكن الفتنة ويصلح بين الأخوين ، فخرج عبيد مكة وأصحاب حسن من باب المعلى يقاتلونه ، فقال : ماقصدى القتال . فلم يلتفتوا عليه ، وانهزم أصحابه وبقى هو وحده ، وجاء عبد فعرقب فرسه فوقع إلى الأرض ، فقتلوه وحملوا رأسه إلى حسن بن قتادة على رمح ، فنصبه بالمسعى عند دار العباس ، ثم رد إلى جسده ودفن بالمعلى[٤] ، وأراد حسن نهب الحاج العراقى فمنعه المبارز المعتمد وخوفه الكامل والمعظم ، فأجابه ، ووصل الخبر إلى بغداد فحزن الخليفة حزنا عظيما ، ولم يخرج الموكب للقاء الحاج ، وأدخل الكوس والعَلَمُ فى الليل ، ولم ينتطح فيه عنزان فى قتل أقباش ، وقد كان أولى أن يتناطح الكباش ، وكان قتله فى سادس عشر ذى الحجة .

---

(١) وردت هذه الأحداث فى الكامل ، ج١٠ ، ص٤٢٦ ـ ص٤٢٧ ؛ مفرج الكروب فى سنة ٦١٩هـ ، ج٤ ، ص١٢١ـ ص١٢٥ .

(٢) انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٢٣ـ ص١٢٤ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٠١ .

(٣) الشُّبَيْكَة : واد قرب العرجاء ، بين مكة والزاهر على طريق التنعيم ، ومنزل من منازل حاج البصرة . والشبيكة ماء لبنى سلول . معجم البلدان ، ج٣ ، ص٢٥٩ .

(٤) المعلى : وتكتب أيضا المعلا ، وهو موضع بالحجاز . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٥٧٧ .

السلطان[١] علاء الدين خوارزم شاه :والكلام فيه على أنواع : (الأول) فى ترجمته : هو السلطان محمد بن علاء الدين تكش بن أرسلان بن أطسِز بن محمد بن أنوشتكين . وخوارزم شاه لقبه ، سمى بذلك لأن كرسىّ مملكته كانت خوارزم ، وكذلك كل من لقب بذلك كان لهذا المعنى ، وكانت كُنتُه أبا الفتح ، ورث المملكة عن أبيه علاء الدين تكش ، وقد ذكرنا أن جده أرسلان بن أطسز توفى فى سنة ثمان وستين وخمسمائة ، وملك بعده ابنه الصغير سلطان شاه محمود ، ودبّرت والدته مملكته . وكان علاء الدين تكش مقيما بخندق أقطعه أبوه إياه[٢] ، ولما مات سلطان شاه فى سنة تسع وثمانين وخمسمائة استقر فى مملكة خوارزم أخوه علاء الدين تكش بن أرسلان والد السلطان علاء الدين محمد خوارزم شاه ، وفى أيامه انقرضت دولة بنى سلجوق ، وكان أعورا ، ملك بخارى فى سنة أربع وتسعين وخمسمائة ، وكانت للخطا[٣] ، ثم مات تكش فى سنة ست وتسعين وخمسمائة ، وملك بعده علاء الدين محمد بن تكش الملقب بخوارزم شاه المذكور .

وكان ملوك التتار فى أيامه ست أنفس ، كل واحد منهم سُمِّى خان[٤] ، وكان خانهم الأعظم الكبير الذى عاصر السلطان علاء الدين المذكور ألطون خان[٥] توارث المملكة كابرا عن كابر بل كافراً عن كافر ، وكانوا مقيمين بطوغاج ، وهى واسطة الصين ، وكان من جملتهم فى عصره ملك سمى دوشى خان ، وكان قد تزوج بعمة جنكيزخان ، وهى من قبيلة معروفة بالتمرجى سكان البرارى ، ومنشأهم موضع يسمى أرغون[٦] ، وكانوا

(١) انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص٤٠٦ ـ ص ٤٠٨ ؛ الذيل على الروضتين ، ص١٢٢ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩٥ ـ ص٩٦ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص٧٦ .

(٢) «إياها» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ماأثبتناه .

(٣) الخطا : هم قبائل أسسوا دولة لهم فى إقليم التركستان فى مستهل القرن السادس الهجرى على يد «بى لوتاشى» ، وقامت دولتهم على الحدود الشرقية للأقاليم الإسلامية ، فاشتبكوا مع المسلمين فى صراع طويل .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٣٦ ، حاشية (٣) .

(٤) «خانا» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه . وخان : لقب أطلقه المغول على رؤسائهم الذين يتولون جزءا من الامبراطورية المغولية ، وهو يختلف عن لقب «خاقان» الذى أطلقوه على الرئيس الأعلى لدولتهم ومعناه الخان الأعظم . وقد استعمل المغول لقب «خان» أيضا بمعنى «خاقان» من باب الاختصار .
سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، محمد أحمد النسوى ، ص٣٨ ، حاشية(٤) .

(٥) ألطون خان : وتكتب أيضا «ألتون» وهى كلمة تركية معناها ذهب ، وألتون خان لقب كان يطلقه المغول على حكام إمبراطورية كين الصينية ، وكانت تسكن فى الأصل بالقرب من نهر آمور .
سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص٣٨ ، حاشية(٦) .

(٦) أرغون : الراجح أنه مكان يقع بين الجبال الواقعة فى جنوب بحيرة بيكال .
سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص٣٩ ، حاشية(٥) .

مشهورين بالشر والغدر ، واتفق أن دوشى خان مات فجاء إليها جنكيزخان معزيا ، ولم يخلف ولدا فتولى عوض دوشى خان ، فلما سمع بذلك ألطون خان الذى هو أكبر الخانات غضب غضبا شديدا حيث ولى جنكيزخان بغير أمره ، فأخر الأمر بعد ماجريات كثيرة قوى جنكيزخان وملك البلاد [٤١٣] ثم قصد بلاد المسلمين ، وجرى بين عسكره وعسكر خوارزم شاه ماجريات كثيرة قد ذكرناها فى أثناء السنين المتقدمة ، فآل آخر الأمر إلى أن تشتت حال خوارزم شاه ، وتوفى فى هذه السنة على مانذكره إن شاء الله تعالى[١] .

(الثانى) فى سيرته : كان فاضلا عالما بالفقه والأصول وغيرهما ، وكان صبوراً على التعب وإدمان السير[٢] . وقال ابن كثير[٣] : وقد كان السلطان خوارزم شاه محمد فقيها حنيفا فاضلا ، له مشاركات فى فنون من العلم ، يفهم جيدا ولم يكن بعد ملوك بنى سلجوق أكثر حرمة ولا أعظم ملكا منه ، لأنه إنما كانت همته فى الملك لا فى اللذات والشهوات ، ولهذا قهر الملوك بتلك الأراضى ، وأحل بالخطا بأسا شديدا حتى لم يبق ببلاد خراسان وماوراء النهر وكذلك عراق العجم وغيرها من البلاد والمماليك سلطان سواه ، وجميع البلاد تحت أيدى نوابه ، وكان قد اتسع ملكه وعظم محله ، مَلَكَ من حد العراق إلى تركستان ، وملك بلاد غزنة ، وبعض الهند وسجستان وملك بلاد غزنة وكرمان وطبرستان وجرجان وبلاد الجبل وخراسان وبعض فارس .

وفى المرآة[٤] : قصد العراق فى أربع مائة ألف ، ووصل إلى همذان يريد بغداد ، وقيل : كان معه ستمائة جتر[٥] تحت كل جتر ألف ، وكان قد أفنى ملوك خراسان وماوراء النهر ، وقتل صاحب سمرقند وأخلى البلاد من الملوك واستقل بها فكان ذلك سببا لهلاكه . قال : وكان لما نزل همذان سبعون ألفا من الخطا فى عسكره فكاتب القمى يعنى وزير بغداد عساكره ووعدهم بالبلاد ، فاتفقوا مع الخطا على قتله ، وبعث القمى إليهم بالأموال والخيول والخلع سراً ، فكان ذلك سببا لوهنه ، ولما علم خوارزم شاه بذلك

(١) ورد هذا الخبر فى سيرة منكبرتى ، ص٣٨ ـ ٤٠ .
(٢) ورد هذا الخبر بتصرف فى الكامل ، ج١٢ ، ص٣٧١ .
(٣) البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩٦ .
(٤) سبط ابن الجوزى ، ج٨ ، ص٣٩٣ ـ ص٣٩٤ .
(٥) الجتر : مظلة أوقبة من حرير أصفر مزركش من الذهب على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب حيث كانت تحمل على رأس السلطان فى العيدين .
انظر : القلقشندى ، صبح الاعشى ، ج٤ ، ص٧ ـ ص ٨ .

سار من همذان طالبا خراسان ، فنزل مرو والتقى فى طريقه الخيل والخلع والكتب المنفذة إلى الخطا فلم يمكنه الرجوع لفساد عسكره .

(الثالث) فيما يختص به دون سائر الملوك لايشاركه فيها غيره . منها الجتر منشوراً على رأسه إذا ركب . ومنها الككج وهى أنبوبة تتخذ من الذهب الأحمر بين أدنى مركوبة تخرج منها المغرفة وتشد إلى طرف اللجام . ومنها الأعلام السذج السرد محمولة . ومنها أن جنائبه[١] كانت تجر قدامه وجنائب الملوك كانت من ورائهم . ومنها أن أذناب خيله تلف من أوساطها مقدار شبرين ولو فعل ذلك غيره قطع ذنب فرسه ، ومنها الجلوس بين يديه على الركبتين لمن يريد مخاطبته .

وقال أبو الفتح : من أراد أن يقضى شغلا لشخص عنده كان يبرك على ركبتيه بين يديه ثم يكلمه ، وليس لأحد أن يقف حذاه ولو أنه كان ملكا أو وزيرا كبيرا .

ومنها أنه كانت[٢] تحمل البقج[٣] السود على أكتاف الجمدارية[٤] ولاتحمل لغيره على الكتف . ومنها أن نوبة[٥] كانت خمس[٦] ، وعادة النوب للأمراء أصحاب السناجق[٧] كانت ثلاث[٨] ، وكانت دبادبه[٩] سبعا وعشرين دبدبة من الذهب الأحمر قد رصعت

---

(١) الجنائب : جمع جنب وهى الخيول التى كانت تسير وراء السلطان فى الحروب لاحتمال الحاجة إليها .
انظر : مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص٩٢ .

(٢) «كان تحمل» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .

(٣) البقجة : الصرة من الثياب وغيرها . المنجد ، ص٤١ .

(٤) الجمدارية : هو لقب فارسى مركب من لفظين : جاما ، وهى الثياب ، ودار ، ومعناها صاحب . فالجمدار هو صاحب الثياب أى المشرف على خزائن الملابس السلطانية ومايتعلق بها . نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص٤٢٩ .

(٥) النوبة : لها معان اصطلاحية كثيرة ، أحدها فرق الجند التى تتناوب الوقوف لحراسة شخص السلطان ، وهى خمس نوبات ويكون تغييرها فى الظهر والعصر والعشاء ونصف الليل وعند الصباح ، والنوبة أيضا عند المغنيين اسم لآلات الطرب إذا أخذت معا ، وربما أطلقت على المطربين معا إذا اجتمعوا ، ويقال : ضربت النوبة بمعنى صدر الأمر للعسكر بالتقهقر ، والنوبة أيضا بمعنى الوقعة الحربية .
انظر : مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص٣٥٣ .

(٦) «خمسة» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .

(٧) السناجق : السنجق لفظ تركى استعمل بمعنى القلم أو الراية وبمعنى الرمح الذى يطعن به أو اللواء . والسناجق رايات صُفر صغار تُحْمَل على رؤوس الملوك فى ركوبهم .
صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٨ ؛ ج٥ ، ص٤٥٨ ؛ معجم الألفاظ التاريخية فى العصر المملوكى ، محمد أحمد دهمان ، ص ٩٣ .

(٨) «ثلاثة» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .

(٩) دبادب : الدبادب هى الطبول التى تستخدم لتوصيل الأخبار للسلطان ، وهى تُدَق عند ركوب السلطان فى المواكب أو السفر أو الأعياد ، وغير ذلك ، ولها أشكال وأسماء مختلفة مثل : الوَطْواط ، والشَبّابة ، والبوق ، وبوق الجنبا . . .الخ
انظر : صبح الأعشى ، ج٢ ، ص١٣٤ ؛ ج٥ ، ص٩٨ ، ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٦ ، ٢٠٧ ، ٢٠٨ ، ٣٠١ ، ٣٣٤ ؛ ج١٤ ، ص١٦٨ ، ص٢٠٣ .

بأنواع الجواهر ، وكذا باقى آلات النوبتية ، وجعل سبعة وعشرين ملكا يضربونها فى أول يوم مرفسيه ، وكانوا من أكابر الملوك أولاد السلاطين منهم : ابن طغربل أرسلان السلچوقى ، وأولاد غياث الدين صاحب الغور ، والملك علاء الدين صاحب باميان ، والملك تاج الدين صاحب بلخ ، وولده الملك الأعظم صاحب ترمذ ، والملك سنجر صاحب بخارى وأشباهم[1] [٤١٤] . وكان يمد السماط بين يدى السلطان علاء الدين خوارزم شاه فى أوانى الذهب والفضة ليس فيها شئ غير ذلك .

(الرابع) فى عاداته وخاصة نفسه : كان يختص به فى المراتب التى لايشاركه فيها غيره ، حيث صار بابه مُزْدَحم ملوك الأرض وعظمائها ، وكانوا يفاخرون بلثم ترابه ، وقل من نجا منهم من نقمته ، ورَقى إلى درجة الملوكية جماعة من مماليكه ، فصار طشتداره[2] ملكا ، وركبداره[3] ملكا ، وسلحداره[4] ملكا ، وجماعة من أمراء أخوريته[5] ملوكا ، ومع هذا لم يُعطلوا ما كان من وظائفهم من خدمة الطشت والركاب[6] . وكان بختيار الرومى الركبدار يقف بفرس النوبة على الباب ، وجهان بهلوان الطشتدار كذلك يقف فى نوبته ، وكان لكل طائفة من الحاشية أعلام سود تعرف بها ، فعلامة الدوادارية[7]

---

(١) ورد هذا الخبر فى نهاية الأرب ، ج٢٧ ، ص٢٠٧ ـ ص ٢٠٨ .

(٢) طشتدار : الطشتدار هو لقب على بعض رجال الطشت خاناه ، وهو مركب من لفظين إحدهما طشت وهو الذى يغسل فيه ، والثانى دار ومعناه ممسك الطشت .
انظر : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٤٦٩ .

(٣) ركبدار : الركبدارية هم الذين يحملون على أيديهم عند الركوب فى المواكب والميادين والأعياد ونحوها الغاشية ، وهى سرج من أديم مخروزة بالذهب فيرفعونها على أيديهم ، ويلفتونها يمينا وشمالاً ، وهى من خواص المملكة .
انظر : صبح الأعشى ج٤ ، ص٧ .

(٤) سلحدار : هو لقب على الذى يحمل سلاح السلطان أو الأمير ويتولى أمر السلاح خاناه وما هو من توابع ذلك وهو مركب من لفظين أحدهما عربى وهو السلاح والثانى فارسى وهو دار ومعناه ممسك فيكون المعنى ممسك السلاح
انظر : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٤٦٢ .

(٥) الأمير أخورية : هو الذى يتحدث على أسطبل السلطان أو الأمير ويتولى أمر ما فيه من الخيل والإبل وغيرهما مما هو داخل فى حكم الاصطبلات ، وهو مركب من لفظين إحدهما عربى وهو أمير والثانى فارسى وهو آخور ومعناه أمير المعلف . صبح الأعشى ج٥ ، ص٤٦١ .

(٦) الركاب : هو موكب السلطان .
انظر : مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص١٦١ .

(٧) الدوادار : لقب يطلق على من يحمل دواة السلطان أو الأمير وهى وظيفة تبليغ الرسائل عن السلطان وإبلاغ عامة الأمور وتقديم القصص إليه وتقديم البريد .
انظر : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص١٩ ؛ ج ٥ ، ص٤٦٢ .

الدواة ، وعلامة السلحدارية القوس ، وعلامة الطشدارية الطشت والإبريق ، وعلامة الجمدارية البقج ، وعلامة الأمير أخورية البغل ، وعلامة البهلوانية الدبوس ، وعلامة الجاندارية الحربة ، وعلامة الجاوشية قبة من الذهب مضروبة بخيط على قلانسهم تعرف من بعيد فَيُحْتَرز منهم ، وكانوا يطردون الناس ضربا من غير احتراز ، وكان حجاب[1] الميمنة غير حجاب الميسرة ، ولكل فرقة منهم كبير يعرف بخاص حاجب ، وهكذا البهلوانية ، والجاويشية ، والملوك ، والخانات[2] ، والأمراء أصحاب الميمنة والميسرة ، وإذا حضروا مجلس السلطان لاتقف كل فرقة إلا عن جهتها .

وأما السماط فكانوا يمدوه والناس وقوف ، ولايقدر أحد أن يجلس ولا يمد يده إلى لقمة حتى يأكل السلطان لقمة من الخونجات[3] التى بين يديه ، ثم يؤمر الناس بالجلوس للأكل فتحمل الخونجات الخاص إلى الجهتين برسم الملوك والخانات ، ويجلس سائر الناس على السماط العام ، والزبادى كلها ذهبية وفضية . ومن عادته إذا عاد من سيره لم يخاطب إلا بالحجاب .

(الخامس) فى وفاته : قد ذكرنا ماجرى بينه وبين جنكيزخان ، وآخر الأمر لما هرب من التتار دخل قلعته التى فى وسط بحر طبرستان وهم يسمونه بحر القلزم وليس كذلك ، ويحصن بها من التتار ، وحصل له مرض ذات الجنب[4] ، وأقام هناك فريدا وحيدا طريدا لايملك طارفا ولاتليدا ، والمرض يزداد به ، وكان فى أهل مازندران أناس يتقربون إليه بالمأكول ومايشتهيه ، وكان إذا أهدى إليه شئ وهو فى تلك الحالة يطلق لمن أهدى إليه بشئ ، ولم يكن عنده من يكتب فتولى ذلك بنفسه ، وكان يعطى مثل السكين والمنديل

---

(١) الحُجَّاب : الحاجب هو الشخص الذى يقف على باب الخليفة أو السلطان ، وقد تطورت وظيفته حتى أصبح ينظر فى الشكاوى بين الأمراء والجند ، أما حاجب الميمنة فهو أمير عشرة أو أمير خمسة ، وحاجب الميسرة جندى من أجناد الخليفة ، وكان هذا فى العصرين الأيوبى والمملوكى .
انظر : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص١٩ - ص٢٠ ، ص٢١٨ .

(٢) الخانات : هم أعلى عساكر المملكة .
انظر : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٩١ .

(٣) الخوان : ذكر القلقشندى أن المائدة لايقال لها مائدة بدون طعام وإلا فهى خوان .
انظر : صبح الأعشى ، ج١ ، ص١٥٨ .

(٤) مرض ذات الجنب ، يبدو أنه مرض الشلل النصفى .

علامة بإطلاق البلاد والأموال ، ثم أدركته المنية وهو بالجزيرة على تلك الحالة فى هذه السنة ، وغسلة شمس الدين محمود بن بلاغ الجاويش ومقرب الدين مقدم الفراشين ، ولم يكن عنده مايكفن به ، فكفن فى قميصه ، ودفن بالجزيرة فى هذه السنة على سنة سبع عشرة وستمائة[١] . وذكر فى المرآة[٢] وفاته فى سنة خمس عشرة وستمائة والصحيح ماذكرناه ، لأن أبا الفتح المنشىء النسائى كاتب إنشائه ذكر وفاته فى هذه السنة والعمدة عليه فى هذا ، وكانت مدة مملكته إحدى وعشرين سنة وشهورا . وفى المرآة[٣] : ولما نزل خوارزم شاه همذان كان فى عسكره[٤١٥] سبعون ألفا من الخطا وكانوا اتفقوا على قتله ، ولما علم بذلك سار من همذان طالبا خراسان ، فنزل مرو وكان خاله من الخطا وكانوا قد حلفوه أن لا يطلعه على مادبروا عليه ، فجاء إليه فى الليل وكتب فى يده صورة الحال ، ووقف بإزائه فنظر إلى السطور وفهمها وهو يقول : خذ لنفسك فالساعة تُقْتَل ، فقام وخرج من تحت ذيل الشقة ومعه ولداه جلال الدين وآخر ، فركب وسار بهما ، ولما خرج من الخيمة دخل الخطا والعساكر من بابها ظنا منهم أنه فيها ، فلم يجدوه فنهبوا الخزائن والخيول والخيام والجوارى ، وأما خوارزم شاه فإنه هرب إلى البحر وركب فى مركب صغير إلى جزيرة ، وهرب ولده جلال الدين إلى الهند ومعه أخوه ، وصعد خوارزم شاه إلى الجزيرة وبها قلعة ليتحصن بها ، فأدركه الموت دون صعود القلعة ، فدفنوه على ساحل البحر ، وجاء الخطا فدلوا عليه ، فنبشوه وقطعوا رأسه ، وأخذوه وعادوا ، وتفرقت الممالك بعده ، وظهر التتار على الخطا بعد سنتين ، وصار الخطا تبعا لهم وأخذوا البلاد .

(السادس) فى خزائنه وأمواله : وفى المرآة[٤] : لما نهب الخطا خزائنه فى الليلة قصدوا قتله كما ذكرناه الآن ، كان فى خزائنه عشرة[٥] ألف ألف دينار ، وألف حمل قماش أطلس وغيره ، وكان له عشرون ألف فرس وبغل ، وكان له عشرة آلاف مملوك مثل الملوك ،

---

(١) انظر وفاته فى الكامل ، ج١٢ ، ص٣٧٠ ؛ سيرة منكبرتى ، ص١٠٤ ـ ١٠٨ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٧ ، ص٢٤٨ ـ ص٢٥١ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، ج٨ ، ص٣٩٤ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، ج٨ ، ص ٣٩٣ ـ ص٣٩٤ .
(٤) سبط ابن الجوزى ، ج٨ ، ص٣٩٤ .
(٥) «ألف ألف دينار» كذا فى الأصل ، والمثبت من مرآة الزمان حيث ينقل عنه العينى ، ج٨ ، ص٣٩٤ .

فتمزق الجميع ونهب . وفى تاريخ بيبرس : وقد كانت جُشارات[١] خيله تنيف على ثلاثين ألف جشار متفرقة فى البلاد ، وقال أبو الفتح المنشىء كاتب إنشاء خوارزم شاه : حكى لى الأمير تاج الدين عمر البسطامى وكان من جملة الكتاب للدرج[٢] ، قال : وصل السلطان فى مسيرة إلى العراق فاستحضرنى وأحضر عشرة صناديق ، ثم قال : هل تعلم ما فيها؟ قلت : السلطان أخبر بها . قال : هذه كلها جواهر لاتعرف قيمتها غير أن هذين - وأشار إلى صندوقين منها - فيهما من الجواهر ما يساوى خراج الأرض بأسرها ، فأمرنى بحملها إلى قلعة أَرْدَهَن[٣] ، وهى من أحصن قلاع الأرض فحملتها إليها ، وأخذت خط الوالى بها وبوصولها مختومة ، ولما انتشر التتار فى الأقطار ، وأمنوا جانب السلطان خوارزم شاه حاصروا القلعة المذكورة إلى أن صالحهم الوالى بها على تسليم الصناديق إليهم ، فتسلموها بختومها وحملت إلى جنكيزخان ، فسبحان الملك القهار ، وما الدنيا لساكنها بدار ، ولا الركون إليها إلا انخداع واغترار .

(السابع) فى أولاده : قال بيبرس فى تاريخه : وكان له من الأولاد خمسة وهم : جلال الدين منكبرتى ، ومظفر الدين أزلاغ شاه ، وآق شاه ، وهؤلاء الثلاثة كانوا معه وكانت ولاية العهد لأزلاغ شاه ، ولما مرض وهو فى الحالة المذكورة نقل ولاية العهد من أزلاغ شاه إلى جلال الدين منكبرتى ، وقال : إن عرى السلطنة قد انفصمت ، والدولة قد وهنت وانهزمت ، وهذا العدو قد قويت شوكته ، وما يأخذ ثأرى منه إلا جلال الدين منكبرتى ، وشد بيده سيفه على وسطه ، وأوصى أخوته بطاعته ، ولم يلبث بعد ذلك إلا أياما قلائل حتى مات (رحمه الله) ، وابنه الرابع ركن الدين غور صانجتى ، وكان بالعراق يوم مات أبوه ، والخامس غياث الدين تترشاه وكان بكرمان . وقال أبو الفتح المنشئ : إن السلطان علاء الدين خوارزم شاه محمد[٤١٦] قسم الملك بين أولاده ، وكان ذلك فى

(١) الجشار : هو مكان رعى الماشية من خيل وغيره . انظر : المقريزى ، السلوك ، ج١ ، ص٤٩٠ ، حاشية (٢) .

(٢) كُتَّاب الدرج : هم الطبقة الثانية من موظفى ديوان الإنشاء ، وهم الذين يكتبون ما يوقع به كاتب السر أو كتاب الدست أو إشارة النائب أو الوزير أو رسالة الدوادار ونحو ذلك ، وسموا كتاب الدرج لكتابتهم هذه المكتوبات فى دروج الورق . انظر : مصطلحات صبح الأعشى ، جـ ١٥ ، ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .

(٣) قلعة أردهن : قلعة حصينة من أعمال الرى ، بين دنباوند وطبرستان . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٢٠٤ .

قوة سلطنته ، فعين لكل واحد منهم بلادا ، ففوض خوارزم وخراسان ومازندران إلى ولى عهده قطب الدين أزلاغ شاه ، وفوض ملك غزنة ، وباميان[١] ، والغور ، وبُست[٢] ، وبكباذ ، وزمين دور[٣] ومايليها من بلاد الهند إلى ولده الكبير جلال الدين منكبرتى ، واستوزر له الصدر شمس الملك شهاب الدين الهروى ، وحيث كان لم ير انفصال جلال الدين عن خدمته لمحبته له ، واعتقاده ببسالته استناب عنه ببلاد الهند كُرْبُز ملك ، فنهض إليها وضبطها فحسنت فى السياسة سيرته ، وأذعنت له من الملوك جيرته ، وأقام بها إلى أن سار إليها جلال الدين بعد خروج التتار على مايأتى شرحه . ونصَّ ملك كرمان وكيش[٤] ومكران على ولده غياث الدين تترشاه ، واستوزر له الصدر تاج الدين بن كريم الشرق النيسابورى ، فسار تترشاه إليها بعد ظهور التتار ، فملكها إلى أن خلت العراق ممن يقوم بضبطها بعد وفاة السلطان وتسحب جلال الدين إلى الهند . ولما سار تترشاه إلى العراق وملكها استناب الحاجب براق بكرمان ، وسنذكر باقى أحواله فى موضعه إن شاء الله تعالى ، وسلم ملك العراق إلى ولده ركن الدين غورشاه ، وكان أحسن أولاده ، واستوزر له عماد الملك محمد بن سديد الساوى ، وقد ناب المذكور عن نظام الملك فى الوزارة عدة سنين ، ونال فيها رتبة لم ينلها من قبل هؤلاء . وسبب تسميته بغور شاه أنه ولد يوم وردت البشارة على السلطان بالتملك للغور ، وزوجه السلطان بابنة هزار رَسف ملك الجبال ، وكان سبب تزويجه أنه كان ملكه مجاورا[٥] بلاده[٦] .

---

(١) باميان : بلدة وكورة فى الجبال بين بلخ وهراة وغزنة .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٤٨١ .

(٢) بُست : مدينة بين سجستان وغزنين وهراة .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٦١٢ .

(٣) زمين دور : وتكتب أيضا «زمين داور» وهى بلدة بين سجستان والغور .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٧٢ ، حاشية (١) .

(٤) كيش : جزيرة فى وسط البحر تعد من أعمال فارس وتعد من أعمال عُمان .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣٣٣ .

(٥) «مجاور» : كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .

(٦) انظر : سيرة منكبرتى ، ص٧١ - ٧٣ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٧ ، ص٢٥٢ - ص٢٥٤ .

الست الجليلة تركان خاتون[١] والدة السلطان علاء الدين خوارزم شاه محمد المذكور ، وكانت من قبيلة بياورت ، وهى فرع من فروع يمك[٢] ، وهى فرع من فروع الحطابية ، وكانت بنت ملك من ملوكهم ، تزوج بها السلطان تكش بن أرسلان والد السلطان خوارزم شاه ، ولما صار الملك إلى ولده محمد المذكور قدم إلى والدته قبائل يمك من الترك ، فعظم شأن ابنها السلطان محمد ، وتحكمت هى أيضا فى الملك بسببهم ، فلم يملك ابنها إقليما إلا وأفرد لخاصها منه ناحية جليلة ، وكانت ذات مهابة ورأى ، وكانت تنصف المظلوم من الظالم ، وكانت جسورة على القتل ، وعظم شأنها بحيث أنه إذا ورد توقيعان عنها وعن ولدها السلطان محمد ينظر إلى تاريخهما فيعمل بالأخير منهما ، وكان طغراء توقيعها عصمة الدنيا والدين ألغ تركان خاتون ملكة نساء العالمين ، وعلامتها اعتصمت بالله وحده ، وكانت تكتبها بقلم غليظ ، وتجود الكتابة بحيث يعسر أن يزور عليها علامتها . وكان لها من كتاب الإنشاء سبعة من مشاهير الفضلاء وسادات الكبراء[٣] .

قال أبو الفتح : وكان لها خيرات وسبلات[٤] فى البلاد ، ولو أتينا بما شاهدناه من عظم شأنها لطال الكلام ، وكان خروجها من خوارزم فى أواخر سنة ست عشرة وستمائة على ماذكرنا ، وذلك عند وصول رسول جنكيزخان إلى خوارزم ، وورد الخبر بإجفال[٥] ابنها السلطان خوارزم شاه[٤١٧] عن حافة جيحون ، فقلقت لذلك قلقا عظيما ، فاستصحبت معها ما أمكنها استصحابه من حرم السلطان وصغار أولاده ونفائس خزائنه ، وقد ذكرنا أنها أمرت بقتل من كان بخوارزم من الملوك والأسارى وأبناء الملوك ، وهم اثنان وعشرون نفسا ، واستصحبت معها أمير خان ابن صاحب يازر لأجل معرفته بالطرقات ،

---

(١) تركان خاتون : هى زوجة علاء الدين تكش خوارزم شاه وتنتسب إلى قبيلة كانكالى التى كانت تسكن فى شمالى إقليم خوارزم ، وقد أنجبت له علاء الدين محمد . وكان لهذه المصاهرة أثر كبير فى سياسة الدولة الخوارزمية الداخلية بوجه خاص فى عهد علاء الدين محمد .
انظر : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، محمد أحمد النسوى ، ص٦٢ ، حاشية (٣) ، دار الفكر العربى ١٩٥٣ .
(٢) لعل المقصود بكلمة «يمك» قبائل كانكالى .
انظر : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص٩٩ ، حاشية(٢) .
(٣) وردت ترجمة تركان خاتون بالتفصيل فى سيرة منكبرتى ، ص٩٩ .
(٤) السابلة : لغة هى الطريق المسلوك والمارون عليه .
انظر : المعجم الوسيط ماده «سبل» .
(٥) جفل : بمعنى ألقى ونفر وشرد وهرب .
انظر : المنجد مادة جفل .

فلما قاربت تخوم يازر خافت أن يفارقها المذكور فأمرت بضرب عنقه فقتل صبرا ، وصعدت قلعة إيلال من أمهات قلاع مازندران ، فأقامت بها إلى أن فرغ التتار من إجلاء السلطان وإلجائه إلى الجزيرة التى مات بها ، وحوصرت إيلال أربعة أشهر ، وبنى حولها سور ، وعملت على السور أبواب تغلق بالليل وتفتح بالنهار ، وهذه[1] عادتهم فى حصار القلاع المنيعة إلى أن يخلص الحصار ، ثم أُسرت تركان خاتون وحملت إلى جنكيزخان قال أبو الفتح : حدثنى بدر الدين هلال الخادم ـ وكان من جملة خدامها ـ وذلك حين نجى بنفسه هاربا ، أنى قلت لها : هلمى نهرب إلى جلال الدين منكبرتى ولد ولدك وفلذة كبدك فإن الأخبار تواترت بشوكته واتساع مملكته . فقالت : بُعدا وسحقا ، وكيف يهون على أن أكون فى نعمة ابن جيجاك بعد ولدى أزلاغ شاه؟! وجيجاك هى أم جلال الدين . قالت : والأسر عند جنكيزخان بما أنا فيه من الذل والهوان أحب إلى من ذلك . وكانت تبغض جلال الدين بغضا شديدا ، وسبب ذلك أن ولدها السلطان خوارزم شاه كان يهوى جارية مغنية اسمها جيجاك ، وكانت جميلة غاية الجمال ، وكان السلطان يحبها محبة شديدة إلى أن ملكت قياده وسلبت فؤاده ، وكان لتركان خاتون والدته قرابة ، وكان قصدها أن تزوجه بها فتمنع السلطان من ذلك بسبب جيجاك ، فلما سمعت جيجاك أن والدة السلطان قصدت تزويجه بقرابتها منعته نفسها أياما ، وبقى السلطان كلما يدخل عليها لم ينل منها مراما ، وقالت له فى بعض الأيام : إن كنت تحبنى وتختارنى فاكتب كتابى . فحملته محبتها على أن كتب كتابها وتبع إرادتها ودخل عليها ، فحملت بجلال الدين من وقته وساعته ، فحصلت البغضة عند ذلك من تركان خاتون لجيجاك المذكورة ، ثم لازالت على السلطان حتى تزوج بقرابتها ، فحملت منه بأزلاغ شاه ، فبهذا السبب حصلت بغضتها لجلال الدين بسبب والدته جيجاك والمحبة لأزلاغ شاه بسبب قرابتها . قال أبو الفتح : وحكى لى الخادم المذكور فقال : آل أمر تركان خاتون فى الأسر من العسر أنها كانت تحضر سماط جنكيزخان فتحمل منه[2] مايقوتها أياما ، وكان حكمها ينفذ فى أكثر أقاليم الأرض ، فسبحان المغير من حال إلى حال ! وأما صغار أولاد السلطان الذين كانوا معها فقتلوا جميعا إلا أصغرهم سناً ، وهو كماجى شاه ، وكانت هى تستأنس به ،

---

(١) «هذا» : كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .

(٢) «منها» : كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .

وكانت يوما تسرح رأسها وتقول : عندى من ضيق الصدر مالم أكن أجده قبل ذلك إذ أتاها بعض سرهنكية جنكيزخان فأخذ الصبى من عندها ، وكان آخر عهدها به ، فلما حضر بين يديه أمر بخنقه فخنق ، فقد جوزيت فى الدنيا بما ارتكبت من إهلاك بنى الملوك [٤١٨] الذين ذكرناهم .

وأما بنات السلطان اللاتى[١] كن معها فقد تزوج بكل واحدة منهن شخص من المزندة ، ماخلا بنت كانت تسمى خان سلطان وكانت مزوجة بالسلطان عثمان صاحب سمرقند ، فإن دوشيخان بن جنكيزخان استخصها لنفسه ، وتزوج بتركان سلطان وهى شقيقة أزلاغ شاه دا نشمند الحاجب الذى ورد رسولا إلى تركان خاتون ، وحملت إلى جنكيزخان مغنيات خوارزم شاه وفيهن بنت زنجية ذات حسن وجمال ، وكان عند جنكيزخان كَحَّال يسمى زين السمرقندى ، وكان قد داوى عين جنكيزخان من الرمد ، فطلب تلك المغنية فوهبها له ، وكان الكحال مفرطاً فى قبح الصورة وسوء العشرة ، فأبغضته هى ، وحق لها ذلك حيث تكون فراشا لكحال قبيح الصورة بعد السطان خوارزم شاه الذى كان أحسن الناس وجها ، وكانت بعد أن وهبها له أقامت عند الوزير نظام الملك وهو يدافع عنها ، ولم يسلمها إلى الكحال ، فاشتكى الكحال إلى جنكيزخان ، فغضب وأمر بإحضار الوزير ، وأمر بقتله ، وكان هو وزير السلطان خوارزم شاه ، وكان أسر فيمن جملة من أسر ، ولما قتل جنكيزخان الأسرى أبقى هذا لكونه قد عزله خوارزم شاه ، وكان معزولا بطالا ، وأيضا أبقاه لاسترفاع حَسْبانات بعض البلاد ، فلما شكاه الكحال أمر بقتله[٢] .

وأما تركان خاتون فإنها قتلت أيضا بسمرقند . قال ابن كثير[٣] : وكان التتار أسروها كما ذكرنا ، وأرسلوها بما معها من الجواهر النفيسة والذهب والفضة إلى ملكهم جنكيزخان وهو نازل بسمرقند ، وكان آخر العهد بها . والملك لله الواحد القهار .

---

(١) «التى كانت» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .

(٢) ورد هذا الخبر بالتفصيل فى سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص٩٤ - ص٩٨ .

(٣) بالبحث لم يرد هذا الخبر فى ابن كثير ، البداية والنهاية .
انظر : هذا الخبر فى سيرة منكبرتى ، ص٩٦ ، الحاشيتين (٣) ، (٤) .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الثامنة عشر بعد الستمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله ، والدنيا مكدرة ، والبلاد مخبطة ، بسبب الفرنج المتملكين دمياط ، وبسبب استيلاء جنكيزخان على البلاد .

ذكر ماجريات الفرنج

وفى هذه السنة قوى طمع الفرنج المتملكين لدمياط فى الديار المصرية ، وتقدموا عن دمياط إلى جهة مصر ، ووصلوا إلى المنصورة ، واشتد القتال بين الفريقين براً وبحراً ، وكتُب السلطان الملك الكامل متواترة إلى أخوته وأهل بيته يستحثهم على إنجاده ، فسار الملك المعظم عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق إلى أخيه الملك الأشرف ، وهو ببلاده الشرقية ، واستنجده وطلب منه المسير إلى أخيهما الملك الكامل ، فجمع الملك الأشرف عساكره واستصحب عسكر حلب معه ، وكذلك استصحب معه الملك الناصر قليج أرسلان بن الملك المنصور صاحب حماة ، وكان الملك الناصر خائفا من السلطان الملك الكامل من التعرض إليه فسار معه بعسكر حماة ، وكذلك سار صحبة الملك الأشرف كل من صاحب بعلبك الملك الأمجد بهرام شاه بن الملك فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب ، وصاحب حمص الملك المجاهد شيركوه ، وسار الملك المعظم عيسى بعسكر دمشق ووصلوا إلى الملك الكامل ، وهو فى القتال مع الفرنج على المنصورة ، فركب والتقى أخويه ومن فى صحبتهما من الملوك وأكرمهم ، وقويت نفوس المسلمين وضعفت نفوس الفرنج بما شاهدوه من كثرة عساكر الإسلام وتجملهم ، واشتد القتال بين الفريقين ورُسُل الملك الكامل وأخوته مترددة إلى الفرنج[٤١٩] بسبب الصلح وبذل المسلمون لهم تسليم القدس الشريف ، وعسقلان وطبرية ، واللاذقية ، وجبلة ، وجميع مافتحه السلطان صلاح الدين (رحمه الله) من الساحل ، ماعدا الكرك والشوبك ، على أن يجيبوا إلى الصلح ويسلموا دمياط إلى المسلمين ، فلم يرض الفرنج بذلك ، وطلبوا ثلثمائة ألف دينار عوضا عن تخريب أسوار القدس ، فإن الملك المعظم خربها كما ذكرنا . وقالوا : لابد من تسليم الكرك والشوبك . وبينما الأمر متردد فى الصلح والفرنج متمنعون ، إذ عبر جماعة من عسكر المسلمين فى بحر المحلة إلى الأرض التى عليها

(*) يوافق أوله : ٢٥ فبراير ١٢٢١م .

الفرنج من بر دمياط ، ففجروا فجرة عظيمة فى النيل ، وكان ذلك فى قوة زيادة النيل ، والفرنج لا خبرة لهم بأمر النيل ، فركب الماء تلك الأرض ، وصار حائلا بين الفرنج وبين دمياط ، وانقطعت عنهم الميرة والمدد ، فهلكوا جوعاً ، وبعثوا يطلبون الأمان على أن ينزلوا عن جميع مابذله المسلمون لهم ويسلموا دمياط ، ويعقدوا مدة الصلح[١] .

وكان فيهم عدة ملوك كبار نحو عشرين ملكا فاختلفت الآراء بين يدى السلطان الملك الكامل فى أمرهم ، فبعضهم قال : لانعطيهم أمانا ونأخذهم ونتسلم منهم مابقى بأيديهم من الساحل من عكا وغيرها ، ثم اتفقت آراؤهم على إجابتهم إلى الأمان لطول مدة البيكار[٢] ، وتضجر العسكر لأنهم كان لهم ثلاث سنين وشهور فى القتال معهم ، فأجابهم الملك الكامل إلى ذلك ، وطلب الفرنج رهينة من الملك الكامل ، فبعث ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وعمره يومئذ خمس عشرة سنة إلى الفرنج رهينة ، وحضر من الإفرنج رهينة على ذلك ملك عكا ونائب الباب صاحب رومية[٣] الكبرى وكندريس[٤] وغيرهم من الملوك ، وكان ذلك فى سابع رجب من هذه السنة ، واستحضر الملك الكامل ملوك الفرنج المذكورين ، وجلس لهم مجلسا عظيما ، ووقفت بين يديه الملوك من أخوته وأهل بيته جميعهم ، وسلمت دمياط إلى المسلمين فى تاسع عشر رجب من هذه السنة ، وقد حصنها الفرنج إلى غاية مايكون ، وولاها السلطان الملك الكامل الأمير شجاع الدين جلدك التقوى وهو من مماليك الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، وهَنَّت الشعراء الملك الكامل بهذا الفتح العظيم[٥] . من ذلك ماقاله الراجح الحلى الشاعر وهو :

هنيئا فإن السعد راح مخلدا وقد أنجز الرحمن بالنصر موعداً
حبانا إله الخلق فتحا بدا لنا مبينا وإنعاما وعزاً مؤيدا
تهلل وجهُ الدهر بعد قطوبه وأصبح وجه الشرك بالظلم أسودا

---

(١) وردت هذه الأحداث بالتفصيل فى الكامل ج١٠ ، ص٣٧٧ - ص٣٨٠ ، أحداث ٦١٤هـ ؛ الذيل على الروضتين ، ص١٢٨ - ١٢٩ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٩٢ - ص٩٦ .

(٢) البيكار : لفظ فارسى معناه الحرب عامة .مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص٧٠ .

(٣) رومية : هما روميتان ، إحداهما بالروم والأخرى بالمداين ، وتقع شمالى وغربى القسطنطينية بينهما مسيرة خمسين يوما أو أكثر . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٨٦٧ .

(٤) كُندريس : يقصد بكلمة «كند» الكلمة الإنجليزية Count ، «كونت» ولعله يعنى لويس دوق بافاريا الذى كان أحد رهائن الصليبيين . انظر : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٩٨ ، حاشية(٣) .

(٥) وردت هذه الأحداث فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٩٧ - ص١٠٠ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٢ .

ولما طغى البحر الخضم بأهله الـــ طغاة وأضحى بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سل عزمهُ صقيلا كما سلَّ الحسام مجردا
فلم ينج إلا كل شلو مُجدّلِ ثوى منهم أو من تراه مقيدا
ونادى لسانُ الكون فى الأرض رافعا عقيرته فى الخافقين وتمنشدا
أَعُبَّادَ عيسى إن عيسى وحزبَه وموسى جميعا يخدمون[1] محمدا[2]

قال أبو شامه[3] : وبلغنى أنه أشار عند ذلك إلى الملك المعظم عيسى ، والملك الأشرف موسى ، والملك الكامل محمد . قال : وهذا من أحسن شىء اتفق . قلت : قول الشاعر راح مخلدا غير وجه ، والصواب[٤٢٠] دام مخلدا على مالا يخفى .

وفى تاريخ بيبرس : وأنشد الشعراء قصائد التهانى ، وفرحوا بانتزاح العدو وبلوغ الأمانى . فمنها ما قاله شرف الدين بن جبارة من قصيدة أولها :

أبىَ الوجدُ إلا أن أبيت مسهدا

ومنها :

لقد حمل الإفرنج موضعه الذى سقاهم كؤوس الحتف ملئ من الرَّدى
وكل شجاع كان يحكى عطارداً ذكاء فلمــــا أن رآه تبلّداً

أعباد عيسى إلى آخره .

وقال غيره يمتدح فيها الكامل ، أولها :

لواء نصرك فى الهيجاء منشور .

ومنها :

به غدا الثغرُ للإسلام مبتسما بعد العبوس وفيه اللهُ مذكورُ
بعد الأناجيل آيات القرآن به تُتْلَى وقد نسخ الناقوس تكبيرُ
يقول محرابُه لو كان يسمعنا محمدٌ ناصرٌ والشرعُ منصور

(١) «ينصران» كذا فى الذيل على الروضتين ، ص١٣٠ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٠٥ .
(٢) وردت هذه الأبيات فى الذيل على الروضتين ، ص١٢٩ـ ص١٣٠ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٢ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٠٩ .
(٣) الذيل على الروضتين ، ص١٣٠ .

وقال ابن عنين يمدح الملك الأشرف :

قسما بما ضمت أباطح مكة ... وبمن حواه من الحجيج الموقف
لو لم يقم موسى بنصر محمد ... لرقى على درج الخطيب الأسقف
لولاه ماذل الطيب وأهلُه ... فى ثغر دمياط وعز المصحف

وقال أيضاً يمتدحه ويذكر مناصرته بقصيدة طويلة أولها :

يأيها الملك الذى إنعامه ... لم يبق فى الدنيا فقيرا مرملا
لقد اتقيت الله حق تقاته ... ونهجت للناس الطريق الأمثلا
لولاك لانقصمت[1]عرى الإسلام ... فى مصر وأهمل[2] ذكره وتبدلا
وتحكمت فيها الفرنج وغادرت ... أعلاجُها محرابَ عمرو هيكلا[3]

وقال ابن كثير[4] : فوقع الصلح على ما أراد الملك الكامل ، وملوك الفرنج والعساكر كلها واقفه بين يديه ، ومَدَّ سماطا عظيما ، فاجتمع عليه المؤمن والكافر ، وكان ذلك يوم الأربعاء تاسع عشر رجب من هذه السنة ، وتراجعت الفرنج إلى عكا وغيرها من البلدان ، ورجع الملك المعظم إلى الشام ، واصطلح الأشرف والكامل على أخيهما الملك المعظم . وفى تاريخ بيبرس : فى المحرم من هذه السنة وصل الملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن العادل منجدا لأخيه الكامل إلى المنصورة وتتابعت نجدات المسلمين[5] .

وفيها كسر مشايخ الغربية جسر البرمون[6] ، وأطلقوا النيل على الفرنج الذين كانوا نازلين مقابل المنصورة ، فأحاط الماء بهم ، وثارت الشوانى الإسلامية لمحاربة مراكب الفرنج التى فى البحر ليشغلوهم عن نصرة الفرنج المقيمين بالبر ، فلما رأى الفرنج ذلك والماء قد أحاط بهم وغرق أكثرهم ، صاحوا بالأمان فأمنّوهم ، وأحضروا ملوكهم إلى

(١)« لانفضت» كذا فى الأصل ، والمثبت من مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٠٢ .
(٢) «وأخل» كذا فى الأصل ، والمثبت من مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٠٢ .
(٣) ورد البيتان الثالث والرابع فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٠٢ .
(٤) البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٢ - ص١٠٣ .
(٥) ورد هذا الخبر بتصرف فى المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص١٢٩ .
(٦) البرمون : بلد فى محافظة الدقهلية ، بالقرب من المنصورة .
انظر : نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١١٦ ، حاشية(٢) .

المخيم السلطانى وسدوا عنهم الجسر بعد أن استقرت القاعدة على تسليم دمياط ، وأنهم لايقصدون الديار المصرية مدة أربعين سنة ، وتحالفوا على ذلك ، وتسلم المسلمون دمياط فى تاسع عشر شعبان منها ، وسافر الفرنج إلى بلادهم ، فكانت مدة مقامهم بالديار المصرية أربعين شهرا وتسعة عشر يوما ، واستبشر المسلمون بنصر الله عز وجل[١] . وفى المرآة[٢] : وفى هذه السنة توجه الملك المعظم عيسى إلى أخيه الملك الأشرف واجتمعا [٤٢١] على حران ، وكتب صاحب ماردين ناصر الدين إلى الأشرف يسأله أن يصعد المعظم إليه ، فسأله الأشرف ، فسار إلى ماردين ونزل صاحب ماردين والتقاه فى دنيسر ، وأصعده إلى القلعة وخدمه خدمة عظيمة ، وقدم له التحف والجواهر وتحالفا واتفقا على ما أرادا ، وزوج المعظم إحدى بناته ناصر الدين صاحب ماردين ، وزوج ابن ناصر الدين ابنته الأخرى ، وخلع على جميع أصحابه وأعطاهم الأموال ، ورجع المعظم إلى حران ، ووصلت الأخبار بوصول التتار إلى كرماشاهان[٣] قريبا من بغداد ، فانزعج الخليفة وأمر الناس بالقنوت فى الصلوات ، وحصن بغداد واستخدم العساكر . وفى جمادى الآخرة فتحت دمياط ، وكان المعظم من أحرص الناس على خلاص دمياط ، وكان مصافيا لأخيه الكامل ، وكان الأشرف مقَصِّرا فى حق الكامل ، وكان مباينًا له فى الباطن ، فلما اجتمعت العساكر على حران قطع بهم المعظم الفرات ، وسار الأشرف فى آثارة ، وجاء المعظم فنزل حمص ونزل الأشرف سلمية[٤] . قال السبط[٥] : وكنت قد خرجت من دمشق إلى حمص لطلب الغزاة ، فإنهم كانوا على عزم الدخول إلى طرابلس ، فاجتمعت بالمعظم على حمص فى ربيع الآخر ، فقال لى : قد سحبت الأشرف إلىّ ههنا بأسنانى[٦] وهو كاره ، وكل يوم أعتبه فى تأخره وهو يكاسر وأخاف من الفرنج أن يستولوا

---

(١) ورد هذا الخبر بتصرف فى الكامل ، ج١٢ ، ص٣٢٨ - ص٣٣٠ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٩٦ - ص٩٧ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٢٩ - ص١٣٠ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١١٦ - ص١١٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٢ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، ج٨ ، ص٤٠٧ .

(٣) كرماشاهان : مدينة فى عراق العجم .
انظر : بلدان الخلافة الشرقية ، ص٢٢٢ .

(٤) سَلَمْية : بليدة من أعمال حماة .
انظر : معجم البلدان ؛ ج٣ ، ص١٢٣ .

(٥) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٠٧ - ص ٤٠٨ .

(٦) «بلسانى» كذا فى الأصل ، والمثبت من مرآة الزمان حيث ينقل عنه العينى ، ج٨ ، ص٤٠٧ .

على مصر ، وهو صديقك فأشتهى تقوم وتروح إليه فقد سألنى عنك مرارا ، ثم كتب إلى أخيه كتابا بخطه يجيء ثمانين سطرا ، وأخذتها ومضيت إلى سلميَّة ، وبلغ الأشرف وصولى فخرج من الخيمة والتقانى ، وعاتبنى على انقطاعى عنه ، وجرى بينى وبينه فصول ، وقلت له : المسلمون فى ضائقة وإذا أخذ الفرنج الديار المصرية ملكوا إلى حضرموت ، وعفوا آثار مكة والمدينة والشام ، وأنت تلعب ، قُم الساعة وارحل . فقال : ارموا الخيام والدهليز وسبقته إلى حمص ، والمعظم عينه إلى الطريق ، فلما قيل له : قد وصل رَكَبَ فالتقانى ، وقال : مانمت البارحة ولا أكلت اليوم شيئاً . فقلت : غدا بكرة يصبح أخوك [على][١] حمص . فدعانى ، ولما كان الغد أقبلت الأطلاب ، وجاء طلب الأشرف ، والله ما رأيت أجمل منه ولا أحسن رجالا ولا أكمل عدة ، وسرُّ المعظم سرورا عظيما ، وجلسوا تلك الليلة يتشاورون ، فاتفقوا على الدخول فى السحر إلى طرابلس ، ويشوشوا على الإفرنج ، وكانوا على حال ، فأنطق الله الأشرف من غير قصد وقال للمعظم : ياخوند عوض ماندخل الساحل ونضعف خيلنا وعساكرنا ونضيع الزمان ماتروح إلى دمياط ونستريح . فقال له المعظم : قول رماة البندق[٢] . قال : نعم . فَقَبَّل المعظم قدمه ، ونام الأشرف ، فخرج المعظم من الخيمة كالأسد الضارى يصيح : الرحيل الرحيل إلى دمياط ، وما كان يظن أن الأشرف يسمح بذلك ، وساق المعظم إلى دمشق[٣] . وتبعته العساكر ، ونام الأشرف فى خيمته إلى قريب الظهر ، وانتبه فدخل الحمام فلم يرحول خيمته أحداً ، فقال : وأين العساكر؟ فأخبروه الخبر ، فسكت وساق إلى دمشق ، فنزل القصر يوم الثلاثاء رابع عشر جمادى الأولى ، فأقام إلى سلخ جمادى ، وعرض العساكر تحت قلعة دمشق ، وكان هو وأخوه المعظم فى الطيارة فى القلعة[٤٢٢] ثم ساروا إلى مصر غرة جمادى الأخرى[٤] .

---

(١) مابين حاصرتين إضافة من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٠٨ ، حيث ينقل عنه العينى .

(٢) رماة البندق : هم أهل الفتوة ، الأعضاء فى ذلك النظام الذى كان شائعا فى عهد الخليفة الناصر ، وهو نظام شبيه بالفروسية .

انظر : نهاية الأرب ؛ ج٢٩ ، ص١١٥ ، حاشية(٤) .

(٣) إلى هنا توقف العينى عن النقل من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٠٨ .

(٤) ورد هذا الحدث بتصرف فى الذيل على الروضتين ص١٢٨- ص١٢٩ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١١٤ - ص١١٦ .

وأما الإفرنج فإنهم خرجوا بالفارس والراجل ، وكان البحر زائدا ، فجاؤا إلى ترعة فأرسوا إليها ، وفتح المسلمون عليهم الترع من كل مكان ، وأحدقت بهم عساكر الكامل فلم يبق لهم وصول إلى دمياط ، وجاء أصطول المسلمين فأخذوا مراكبهم ومنعوهم أن يصل إليهم ميرة من دمياط ، وكانوا خلقا عظيما وانقطعت أخبارهم عن دمياط ، وكان فيهم مائة كند وثمانى مائة من الخيالة المعروفين ، وملك عكا والدرك[١] ، واللوكان[٢] نائب البابا ، ومن الرجالة مالايحصى ، فلما عاينوا الهلاك أرسلوا إلى الملك الكامل يطلبون الصلح والرهائن ويسلمون دمياط ، فمن حرص الكامل على خلاص دمياط أجابهم ، ولو أقاموا يومين أخذوا برقابهم ، فبعث إليه الكامل ابنه الصالح نجم الدين أيوب وابن أخيه شمس الملوك ، وجاء ملوكهم إلى الكامل ممن سمناهم ، فالتقاهم وأنعم عليهم ، وضرب لهم الخيام ، ووصل المعظم والأشرف فى تلك الحال إلى المنصورة فى ثالث رجب ، ووقع الصلح بين الكامل والفرنج يوم الأربعاء تاسع عشر رجب ، وسار بعض الفرنج فى البر وبعضهم فى البحر إلى عكا ، وكتب إلى الآفاق بذلك ، وعاد المعظم إلى الشام ، وأقام الأشرف بمصر عند الكامل ، فغير الله القلوب وصارا متصافيين واتفقا على المعظم[٣] .

وفى تاريخ ابن العميد : وفى سنة ثمانى عشرة وستمائة وصل الملك الأشرف صاحب أخلاط بعساكره والملك المظفر بن الملك المنصور صاحب حماة ومعه عساكر والده ، ولم يتأخر أحد من ملوك الشام والشرق عن نجدته ، واستقر القتال بينهم وبين الفرنج بحرا وبرا ، وطلع النيل طلوعا كثيرا وجرى الماء فى بحر المحلة ، فرتب السلطان مراكب الأصطول فى بحر المحلة ليدخل منه إلى بحر دمياط ويمنع الميرة عن الفرنج ،

---

(١) «الدوك» : كذا فى الذيل على الروضتين ، ص١٢٩ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١١٦ ، حاشية (٤) ، ويقصد به الدوق ، وهو من ألقاب ملوك البندقية وحكام جنوة فى عصر المماليك . انظر : مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص١٤٠ .

(٢) اللوكان : معناه غير ظاهر ، وربما يكون تحريفا للقب «الكاردينال» .
انظر : نهاية الأرب ؛ ج٢٩ ، ص١١٦ ، حاشية(٥) .

(٣) وردت هذه الأحداث فى الكامل ، فى أحداث عام ٦١٤هـ ؛ ج١٠ ، ص٣٧٨ - ٣٨٠ ؛ الذيل على الروضتين ، ص١٢٩ - ص١٣٠ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٩٣ - ص٩٩ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١١٦ - ص١١٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٢ - ص١٠٣ .

فاشتد ضررهم لذلك وعدموا القوت وانقطعت عنهم مراكبهم ، فعزموا على الرجوع إلى دمياط ، فأحرقوا أثقالهم وهربوا فى الليل ، وكانت ليلة عيد يوحنا وهو أول يوم من تَوْتَ ، فبلغ السلطان هزيمتهم ، فرسم بأن يقطع الجسور ، وأحاط بهم النيل من كل جانب ولم يقدروا على الوصول إلى دمياط ، فالتجؤا إلى تل كبير بظاهر البرمون[١] ، وأحاطت بهم العساكر من كل جانب فأيقنوا الهلكة ، وسألوا السلطان وبذلوا له أن ينزلوا عن دمياط ويؤمنهم على أنفسهم وأموالهم ، فأجابهم إلى ذلك ، وتقررت الهدنة ثمانى سنين وأن يطلقوا الأسرى من المسلمين ، والمسلمون أيضا يطلقون الأسرى من الفرنج[٢] .

وقصد السلطان أن يجتمع بالملك يوحنا صاحب عكا ونائب البابا ، فطلبوا رهائن تكون فى مراكبهم إلى أن يعودوا ، فسير السلطان ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وأخاه الملك المفضل قطب الدين ومعهما جماعة من أولاد الأمراء ، وحضر الملك يوحنا وغيره إلى خدمة الكامل بظاهر البَرمون ، وحَلف لهم الملك الكامل وأخواه الأشرف والمعظم واستحلفهم ، وذلك يوم الأربعاء لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رجب من سنة ثمانى عشرة وستمائة ، وتسلم السلطان دمياط ، وكانت مدة إقامة الفرنج بدمياط سنة واحدة وعشرة أشهر وعشرين يوما ، ورجع الفرنج إلى بلادهم ، ودخل السلطان مصر وأطلق الأسرى من الجهتين[٤٢٣] فى زمان السلطان صلاح الدين(رحمه الله)[٣] .

وقال النويرى[٤] : توجه الأشرف إلى الشرق وانتزع الرقة من محمود ، وقيل : اسمه عمر بن قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكى بن مودود بن زنكى بن آقسنقر ، ولقى بغيه على أخيه كما ذكرنا كيف وثب على أخيه فقتله وأخذ سنجار ، ثم أقام الأشرف بالرقة ، وورد إليه الملك الناصر صاحب حماة وأقام عنده مدة ثم عاد إلى بلده .

---

(١) البَرَمُون : بلد فى محافظة الدقهلية ، بالقرب من المنصورة .
انظر : نهاية الأرب ؛ ج٢٩ ، ص١١٦ ، حاشية(٢) .

(٢) ورد هذا الخبر فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٩٤ - ص٩٥ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١١٦ - ص١١٧ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٢ - ص١٠٣ ؛ مراة الزمان ، ج٨ ، ص٤٠٨ - ص٤٠٩ .

(٣) ورد هذا الحدث فى نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١١٧- ص ١١٨ .

(٤) ورد هذا الخبر فى مفرج الكروب ولم يرد فى نهاية الأرب كما ذكر العينى ، ج٤ ، ص١٠٥ .

ذكر ماجريات جنكيز خان اللعين

لما انبسطت يده واشتد ساعده وعضده ، وخلت البلاد قدامه ، واتسعت الأقاليم أمامه ، فرق أولاده إلى الآفاق ليملكوا ماتيسر لهم امتلاكه ، ويهلكوا من الأمم من يمكنهم إهلاكه ، وكان له من الأولاد : أوكديه خان ، وجقطاى خان ، ودوشى خان ، وطولى خان ، فأول من توجه منهم إلى البلاد الشمالية باطوخان بن دوشى خان ، ويسمى صائن خان ومُغلى وبُورى قدان ومن معهم ، ولما دخلوا تلك البلاد استولوا على من كان بها من طوائف الأتراك وقبائل القفجاق والعلان والآص والأولاق والجركس والروس وساكنى تلك الآفاق ، وتمكنوا منهم قتلا وسبيا وأسرا ونهبا ، وجلبت سبايا هذه الأجناس إلى البلاد الشامية والمصرية ، فمنهم المماليك العادلية والكاملية والأشرفية والمعظمية والناصرية والعزيزية ، وحسنت آثارهم فى الممالك الإسلامية .

وكان جنكيزخان قد جرد إلى خراسان صهره تفجار نوين[1] وأميراً من قواده اسمه يزكانوين فى عشرة آلاف فارس لنهب نسا وإحراقها ، فوصلت طائفة منهم إلى نسا مقدمهم أمير يعرف ببيك كوش ، فخرج الناس إليهم مقابلين فوقعت نشابة فى صدر بيك كوش فخر ميتا ، فنقموا بذلك على أهل نسا ، وقدّموا حصارها على حصار سائر البلاد بخراسان ، فساقوا إليها من الرجالة التى جمعت من أطراف خراسان ، وحوصرت قلعتها خمسة عشر يوما لم يفتروا عن القتال ليلا ولا نهارا ، ونصب عليها عشرون منجنيقا تخدمها الرجالة المجتمعة ، وكانوا يسوقون الأسارى تحت الخركات[2] وهى بيوت على وضع الجملون اتخذت من الخشب ولبست بالجلود ، وإن لم يوصلوها إلى السور ضربت رقابهم ، فكان هذا دأبهم إلى أن ثلموا فيها ثلمة لاتنسد ، ثم لبس التتار بأجمعهم لأمة حربهم وزحفوا عليها ليلا ، فملكوا السور وانتشروا عليه ، والناس فى بيوتهم إلى أن أضاء النهار ، فنزلوا إليهم من السور ، فساقوهم إلى فضاء وراء البساتين كأنهم قطيع غنم ثم

(١) تفجار نوين : لفظ نوين معناه أمير أو سيد أو قائد ، ولعل المقصود بتفجار نوين القائد Togatcher .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص١١٣ ، حاشية(٤) .

(٢) الخركات : لعل المقصود بها الدبابات جمع دبابة وكانت أشبه ماتكون بالبرج المتحرك له أحيانا أربعة أدوار ، أولها من الخشب ، وثانيها من الرصاص ، وثالثها من الحديد ، ورابعها من النحاس الأصفر ، ويتحرك هذا البرج الهائل على عجلات ، وتصعد إلى طبقاته الجنود لمهاجمة الحصون وتسلق الأسوار وتتصل بكل دبابة آلة تسمى كبش ، لها رأس ضخم وقرنان تدفعها الجنود نحو الأسوار لتهديمها .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص١١٤ ، حاشية(٤) .

قتلوهم عن آخرهم ، وكان عدة من قتل بنسا من أهلها ومن انضم إليها تقدير سبعين ألفا ، وهى كورة من كور خراسان ، ثم لم يزالوا يفسدون فى تلك البلاد ويقتلون وينهبون إلى أن كنسوا خراسان عن آخرها[١] .

ثم قصدوا نيسابور ليذيقوا أهلها نكال العذاب ، فلما قاربوها خرج أهلها مناوشين فأصابت صدر تُفْجار نوين نشابة فانتقل إلى نار الجحيم ، فلما رأوا ذلك تأخروا وكاتبوا جنكيزخان مستمدين ، فأمدهم بخمسين ألفا ، فلما قاربوها أقاموا شرقيها بقرية تعرف بشونجنان ، وهى ذات أشجار كثيرة ومياه غزيرة ، ثم ساقوا إليها مائتى منجنيق ، فرموا بها واستولوا عليها بعد ثلاثة أيام ، فألحقوها بسائر المدن ، ثم أمروا الأسارى فبسطوها بالمجاريف حتى صارت أرضا ملساء ، [٤٢٤] فلعبوا فيها بالأكرة ، ومات أكثر أهلها تحت الأرض[٢] .

ولما طلع جلال الدين من الهند على مانذكره إن شاء الله ، وملك إقليم خراسان وماكان من بلاد العراق ومازندران ، ورأى خراب هذه البلاد ، ضمنوا له الدفائن بها كل سنة بثلاثين ألف دينار ، وربما كان الضامن يأخذ هذا المقدار فى يوم واحد ، إذ كانت الأموال مدفونة فى السراديب والجباب والمطامير ونحوها[٣] .

وتوجهت طائفة إلى همذان وأخذوها وقتلوا من فيها ، ثم أحرقوا المدينة ، ورحلوا عنها إلى أردويل[٤] فملكوها وقتلوا من كان فيها وخربوا ، ثم ساروا إلى تبريز وكان قد قام بأمرها شمس الدين الطغرائى ، وجمع كلمة أهلها لأن صاحبها أزبك بن البهلوان كان قد فارقها ، وكان أميراً متخلفاً ، منهمكا على الخمر ، محتجباً عن الناس ، غير مفكر فى تدبير البلاد التى فى يده ، وكان فى يده أذربيجان وأران ، فلما سمع بمسير التتر من همذان فارق تبريز وقصد نقجوان[٥] ، وسير نساءه وأولاده إلى خوى[٦] ، وسار التتار إلى بَيْلقان[٧] فنهبوا وقتلوا كل أهل القرى ، ولما وصلوا المدينة حصروها ، فطلب أهلها رسولا يقررون معه الصلح ، فلما دخلها رسولهم قتله أهلها ، فزحف التتار عليهم وقاتلوهم أشد قتال ، ثم

---

(١) ورد هذا الخبر فى سيرة منكبرتى ، ص١١٣ ـ ص١١٥ .
(٢) ورد هذا الخبر فى سيرة منكبرتى ، ص١١٨ ـ ص١١٩ .
(٣) ورد هذا الخبر بالتفصيل فى سيرة منكبرتى ، ص١١٩ .
(٤) أردويل : وتسمى أيضا أردبيل ، وهى من أشهر مدن أذربيجان وهى مدينة كبيرة جدا وبينها وبين تبريز سبعة أيام . معجم البلدان ، ج١ ، ص١٩٧ـ ص١٩٨ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٥١ ، حاشية(٩) .
(٥) نقجوان : بلد من نواحي أران . انظر : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٥٢ ، حاشية(١) .
(٦) خُوَى : بلد مشهور من أعمال أذربيجان ، وينسب إليها الثياب الخوية . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥٠٢ .
(٧) بيلقان : مدينة بأرمينية الكبرى ، وتعد من أعمال أران . معجم البلدان ، ج١ ، ص٧٩٧ـ ص٧٩٨ .

إنهم ملكوا البلد عنوة فى شهر رمضان ، ووضعوا فيهم السيف فلم يبقوا على كبير ولا صغير ، حتى أنهم شقوا أجواف النساء وأخرجوا الأجنة من بطون أمهاتهم وقتلوهم ، ولما فرغوا من نهبها وتخريبها ساروا إلى مدينة كنجة[1] وهى أم بلاد أران ، ولما وصلوا إليها علموا بكثرة أهلها وشجاعتهم لدربتهم بقتال الكرج فلم يقدموا عليها ، فأرسلوا إلى أهلها يطلبون منهم المال والثياب ، فحملوا إليهم ماطلبوا فساروا عنهم[2] .

ولما فرغوا من بلاد المسلمين بأذربيجان وأران ساروا إلى بلاد الكرج[3] ، وكانوا قد استعدوا لهم وسيروا جيشا إلى أطراف بلادهم ليمنعوهم ، فالتقوا فكسروهم ، وقتلوا من الكرج نحو ثلاثين ألفا ، فلما وصل المنهزمون إلى تفليس[4] وبها ملك الكرج انهزم منها وأخلاها ، ففعل التتار فيها ما أرادوا من القتل والسبى وعادوا عنها[5] .

ثم قصدوا دربند شروان[6] فحصروا مدينة شماجى[7] وقاتلوا أهلها ، فصبروا ثلاثة أيام ، ثم ملكوها عليهم وقتلوا من بها من المقاتلة ، وسبوا الذريّة ، ونهبوا الأموال ، فلما فرغوا منها أرادوا عبور الدربند ، فلم يقدروا فأرسلوا رسولا إلى شروان ، أن تجهزوا إلينا أقواما من أعيان من عندكم لنتحدث معهم فى الصلح ، فسَيَّروا عشرة أنفار ، فقبضوا عليهم وقتلوا واحدا منهم ، وقالوا للباقين تعرفونا الطريق وإلا قتلناكم مثل هذا ، فعند ذلك ساروا بهم ودلوهم على طريق يتوصلون منها إلى بلاد الترك ، ففعلوا فيها ماقدمنا ذكره ، واستولوا على بلادهم وسكنوها ، وتراجع من بقى من القَفجاق ، واجتمعوا مع التتار لقرب الجنسية ، وتصاهروا والتحموا ، وسنذكر أحوال كل ملك صار الملك إليه منهم حيث يرد ذكره إن شاء الله تعالى[8] .

---

(١) كَنْجَة : مدينة عظيمة وهى قصبة بلاد أران ، وهى بين خوزستان ، وأصبهان . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣٠٨ .

(٢)وردت هذه الأحداث بالتفصيل فى الكامل ، ج١٠ ، ص٤١٣ - ص٤١٥ .

(٣) بلاد الكرج : فى القوقاز ، والكرج جماعة من المسيحيين كانوا يسكنون فى جبال القبق (القوقاز) . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٢٥١ .

(٤) تفليس : بلد فى أرمينية الأولى ، والبعض يقول بأران . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٨٥٧ - ص٨٥٩ .

(٥)وردت هذه الأحداث بالتفصيل فى الكامل ، ج١٢ ، ص٢٨٣ - ص٢٨٤ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٥٣ .

(٦) دربند شروان : مدينة من نواحى باب الأبواب الذى يسمونه الفرس الدربند ، بناها أنوشروان فسميت باسمه . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٢٨٢ .

(٧)شماجى ، كذا فى الأصل ، أما معجم البلدان ، فقد ذكر أنها «شماخى» وهى قصبة بلاد شروان فى طرف أران . ج٣ ، ص٣٢٧ .

(٨)وردت هذه الأحداث بالتفصيل فى الكامل ، ج١٢ ، ص٣٨٤ - ص٣٨٥ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٥٤ - ص ٥٥ ؛ ومن الجدير بالملاحظة أن هذه الأحداث ذكرها ابن واصل فى حوادث سنة ٦١٦هـ .

ذكر سلطنة جلال الدين خوارزم شاه منكبرتى بن السلطان علاء الدين خوارزم شاه محمد بن تكش

ولما مات السلطان علاء الدين[٤٢٥] فى السنة الماضية ركب جلال الدين منكبرتى البحر إلى خوارزم بأخويه أزلاغ شاه وآق شاه ومعهم زهاء سبعين نفسا، فلما قاربوها التقوهم فيها بالدواب والأسلحة والأعلام، وتباشر الناس بقدومهم واجتمع عندهم من العساكر السلطانية بخوارزم زهاء سبعة آلاف فارس أكثرهم البياووتية[١]، تقدمهم توجى بهلوان الملقب قتلغ خان، فمالوا إلى أزلاغ شاه للحمة والقرابة وتواطؤا على أن يقبضوا على جلال الدين فيسلمونه أو يقتلونه، وأحس أينانج خان بما دبّر عليه فأعلمه بذلك، وأشار عليه بالرحيل، فرحل صاعدا نحو خراسان فى ثلثمائة فارس مقدمهم دَمُرْ ملك، وأقام أخواه أزلاغ شاه وآقْ شاه بخوارزم بعده ثلاثة أيام، ثم وفاهم الخبر بقصد التتار وحركتهم نحو خوارزم من جهة ماوراء النهر، فرحلوا على إثر جلال الدين صوب خراسان[٢].

ولما تحقق جنكيزخان مسيرهم سير إليهم طائفة من أصحابه، فلما قطعوا المفازة التى بين خوارزم ونيسابور خرج عليهم التتار فقاتلوهم، فهزمهم جلال الدين منكبرتى، وهذه أول وقعاته مع التتار، وكانت الوقعة بقرب مدينة نسا[٣]، وحصّل صاحب نسا إقامة يقدمها لجلال الدين فلم يُقِم بل سار إلى أن وصل نيسابور منصوراً، وبعد ثلاثة أيام وصل أخواه أزلاغ شاه وآق شاه مجفلين من التتار، فوجدا[٤] الإقامة التى جهزها صاحب نسا مجهزة فقدمها إليهما، فأمر أزلاغ شاه لصاحب نسا بزيادة على إقطاعه، فبينما هم فى تقرير الإقطاع إذ أتاهم الخبر بأن عسكراً من التتار قد وصل إلى قلعة نسا لكشف أخبار جلال الدين ومقصده، ومن وصل معه من العساكر السلطانية، ولم يعلموا بوصول أزلاغ شاه وآق شاه، فعند ذلك ركب أزلاغ شاه وآق شاه ورحلا لوقتهما

---

(١) البياووتية : نسبة إلى قبيلة بياووت وهى فرع من قبائل كانكالى Cancalis التى كانت تقيم فى السهول الواقعة فى شمال خوارزم والشمال الشرقى من بحر قزوين.
انظر : D'ohssom, op. cit, t. i, P. 196. ؛ سيرة جلال الدين ص ١٢٢، حاشية (٣).

(٢) وردت هذه الأحداث فى سيرة جلال الدين، ص١٢٢ .

(٣) نسا : مدينة بخراسان بينها وبين سرخس يومان وبينها وبين نيسابور ستة أو سبعة أيام.
انظر : معجم البلدان، ج٤، ص٧٧٦ .

(٤) «فوجدوا» كذا فى الأصل والصحيح لغة ما أثبتناه.

وتبعهما التتار إلى بلد خبوشان[١] ولحقوهما بقرية تسمى وست، فوقف لهم أزلاغ شاه واصطف حذاءهم، وجد الفريقان فى القتال، فانجلت الحرب عن هزيمة الكفار واتقائهم بجنة الفرار، وجد أزلاغ شاه فى طلبهم فلم ينج منهم إلا راكب جواد، أو مختبئ فى واد، واغتر أزلاغ شاه ومن معه بما تيسر لهم من الانتصار، وظنوا أنه لم يبق بنواحى خراسان أحد من التتار، فلم يرعهم إلا إحاطة الأطلاب بهم إحاطة الأطواق بالأعناق، واستشهد أزلاغ شاه وآق شاه وجماعة ممن معهم، وعاد التتار برأسيهما وقد نصبا على الرماح يدورون بهما البلاد، وكان مع أولئك الذين قتلوا جواهر نفيسة ولم يفتش التتار أحداً منهم، فخرج عوام تلك القرية فأخذوها وباعوها بأبخس الأثمان[٢].

وأما جلال الدين فأقام بنيسابور عازماً على الجهاد، فكاتب الأمراء وأصحاب الأطراف بسرعة الوصول واستجاشة الجمهور، وكان اختيار الدين زنكى بن محمد بن حمزة قد عاد إلى نسا فملكها، ولم يجسر أن يظهر الاستقلال خوفا من السلطان وأولاده، فلما بلغ جلال الدين كتب له [٤٢٦] توقيعا بكل ماتمكنت منه يده، فلما استقر جلال الدين بنيسابور علم به التتار فأسرعوا فى طلبه، فخرج من نيسابور فيمن انضوى إليه من العساكر إلى أن وصل إلى [القلعة][٣] القاهرة التى بناها مؤيد الملك صاحب كرمان، وهَمَّ أن يتحصن بها، فوجه إليه عين الملك خَتَن مؤيد الملك يحذره ذلك، ويقول له: إن مثلك لايحسن به أن يتحصن بقلعة، فإن حصون الملوك متون الخيول، فأمر جلال الدين بإحضار مافى الخزانة من الذهب، وفرق على أصحابه وخواصه، وانفصل عن القاهرة، وجد إلى تخوم بُسْت[٤] فأخبر أن جنكيزخان مقيم بالطالقان، فسير إلى أمين ملك صاحب هراة، وهو ابن خال السلطان جلال الدين ومعه نحو عشرة آلاف فارس، فحضر إليه واتفقا على كبس التتار المحاصرين لقلعة قُنْدهار[٥]، فنهضا إليهم فكبسوهم وقتلوهم فلم يفلت منهم إلا نفر يسير وتوجهوا مخبرين ملكهم جنكيزخان بما تم عليهم، وساق جلال الدين إلى غزنه، ودخلها منصوراً فى سنة سبع عشرة وستمائة[٦].

---

(١) خَبُوشان: بليدة بناحية نيسابور. انظر: معجم البلدان، ج٢، ص٤٠٠.

(٢) لمعرفة المزيد عن هذه الاحداث. انظر: سيرة منكبرتى، ص ١٢٦ ـ ص١٣١.

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى، ص١٣٢، لتوضيح المعنى.

(٤) بُسْت: مدينة بين سجستان وغزنين وهراة، وهى من أعمال كابل. معجم البلدان، ج١، ص٤١٢.

(٥) قندهار: قلعة من بلاد السند أو الهند. انظر: معجم البلدان، ج٤، ص ١٨٣ ـ ص١٨٤.

(٦) لمعرفة المزيد عن هذه الأحداث. انظر: سيرة منكبرتى، ص١٣٢ ـ ص١٣٤.

ذكر بقية الحوادث

منها أن الملك المعظم ولّى قضاء دمشق كمال الدين المصرى[١] الذى كان وكيل بيت المال بها ، وكان فاضلا بارعا ، وقرأ منشوره بهاء الدين بن أبى اليسر فى رجب[٢] .

ومنها أن الملك الكامل لما رجع إلى القاهرة بعد فراغه من أمر الفرنج ركب من قلعة الجبل ، وجاء إلى منظرة الصاحب صفى الدين بن شكر التى على رأس الخليج بمصر ، وذلك فى شهر ذى القعدة من هذه السنة ، وطلع إليه وتحدث معه بسبب الأمراء الذين كانوا مع الأمير عماد الدين بن المشطوب فى نوبة الملك الفائز ، وقد ذكرنا أن جماعة من الأمراء اتفقوا على أن يخلعوا الكامل من السلطنة ويولوها الملك الفائز أخاه ، وكان سبب اجتماعهم هو الأمير عماد الدين بن المشطوب ، فإنه كان أساس هذه الفتنة ، ووافقه الأمير عز الدين الحميرى ، والأمير أسد الدين الهكارى ، والأمير مجاهد الدين ، وجماعة من الأمراء غيرهم ، وآخر الأمر انتقض عليهم ما أبرموه . وجاء الملك الكامل إلى الوزير المذكور يستشيره فى أمر هؤلاء المذكورين ، فاتفق رأيهما على نفى هؤلاء المذكورين من البلاد ، وكانوا فى الجسر الذى قبالة دمياط يعمرونه ، فكتب لهم بأن ينصرفوا من ذلك ويخرجوا من ديار مصر إلى الشام ، فمضى جميعهم إلى الشام ولم يتعرض الكامل إلى شئ من موجودهم وأعطى أخبازهم[٣] لمماليكه[٤] .

وفيها . . . .[٥]

وفيها حج بالناس من العراق ابن أبى فراس ، ومعه كتاب إلى مكة والمدينة بإعادة ولى العهد أبى نصر إلى العهد وكتب من الديوان إلى الآفاق بذلك[٦] .

وحج بالناس من الشام أمير يقال له شقيقات[٧] .

---

(١) «المهرى» كذا فى الأصل ، والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٣ .

(٢) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص١٣٠ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٣ .

(٣) الأخباز : هى الإقطاعات من الأراضى أو الإيرادات منها ، وهى جمع خبز وهو الإقطاع للجند أو إيراده كما كان يفهم فى ذلك الزمان . انظر : نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١١٩ ، حاشية(١) .

(٤) ورد هذا الخبر فى نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١١٨ - ص١١٩ .

(٥) بياض بمقدار ست كلمات .

(٦) الذيل على الروضتين ، ص١٣٠ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٠٩ .

(٧) الذيل على الروضتين ، ص١٣٠ .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

الشيخ الصالح شهاب(١) **الدين محمد بن خلف بن راجح المقدسى الحنبلى** الزاهد العابد الناسك، كان يقرأ على الناس يوم الجمعة الحديث النبوى وهو جالس على أسفل منبر الخطابة بالجامع المظفرى، وقد سمع الحديث الكثير، ورحل وحفظ مقامات الحريرى فى خمسين ليلة، وكانت له فنون كثيرة، وكان ظريفا مطبوعاً، وكانت وفاته يوم الأحد سلخ صفر، ودفن بقاسيون عند أهله.

الشيخ موفق(٢) **الدين أبو عبد الله عمر بن يوسف بن يحيى بن عمر بن كامل المقدسى** خطيب بيت الأبار، كان شيخا صالحا، وخطب على منبر دمشق مدة غيبة جمال الدين محمد الدولعى فى الرسالة العادلية إلى بلاد الشرق، [٤٢٧] مات فى ليلة الجمعة الحادى والعشرين من رجب من هذه السنة.

المحدث البارع تقى(٣) **الدين أبو طاهر إسماعيل بن عبد الله بن عبد المحسن بن الأنماطى** قرأ الحديث، ورحل وكتبه، وكان حسن الخط متقنا فى علم الحديث حافظاً له، وكان الشيخ تقى الدين بن صلاح يثنى عليه ويمدحه، ويتأسف لفقده على فوائد كانت تحصل من عنده. وقال أبو شامة(٤) : وقرأ على الشيخ تاج الدين الكندى بدمشق تاريخ الخطيب، وطبقات ابن سعد، وشيئا كثيرا، وكان ثقة، وتوفى بدمشق، ودفن بمقابر الصوفية فى طريق المنيبع، وصلى عليه الموفق الحنبلى بجامع دمشق، والفخر ابن عساكر بباب النصر، والجمال المصرى قاضى القضاة عند قبره.

أبو الغيث(٥) **شعيب بن أبى طاهر بن كليب بن مقبل الضرير البصرى**، الفقيه الشافعى، أقام ببغداد إلى أن توفى بها، وكان لديه فضائل، وله وسائل، ومن شعره قوله :

إذا كنتم للناس أهل سياسة … فسوسوا كرام الناس بالجود والبذل
وسوسوا لئام الناس بالذل يصلحوا … عليه فإن الذل أصلح للنذل

---

(١) انظر ترجمته فى الذيل على الروضتين، ص١٣٠ ؛ البداية والنهاية ج١٣، ص١٠٣ ؛ مرآة الزمان، ج٨، ص٤١٠ ؛ شذرات الذهب، ج٥، ص٨٢ .
(٢) انظر ترجمته فى الذيل على الروضتين، ص١٣١ ؛ البداية والنهاية، ج١٣، ص١٠٤ .
(٣) انظر ترجمته فى الذيل على الروضتين، ص١٣١ ؛ البداية والنهاية، ج١٣، ص١٠٤ ؛ مرآة الزمان، ج٨، ص٤٠٩ .
(٤) الذيل على الروضتين، ص١٣١ .
(٥) انظر ترجمته والبيتين فى البداية والنهاية، ج١٣، ص١٠٤ .

أبو العز[١] شرف بن على بن أبى جعفر بن كامل ، المقرى الضرير الفقيه الشافعى ، تفقه بالنظامية ، وسمع الحديث ، ورواه ، وأنشد عن الحسن بن عمرو الحلبى :

تمثلتم لى والديار بعيدة فخيل لى أن الفؤاد لكم مغنى
وناجاكم قلبى على البعد بيننا فأوحشتم لفظا وآنستم معنى

أبو سليمان[٢] داود بن ابراهيم بن منذار الجيلى ، أحد المعيدين بالمدرسة النظامية ، ومما أنشده :

أيا جامعاً أمسك عنانك مقصرا فإن مطايا الدهر تكبو وتقصر
ستقرع سنا أو تعض ندامة يديك إذا خان الزمان وتقصر
ويلقاك رشد بعد غيك واعظ ولكنه يلقاك والأمر مدبر

أبو المظفر[٣] عبد الودود بن محمود بن المبارك بن على بن المبارك بن الحسن ، الواسطى الأصل البغدادى الدار والمولد ، كمال الدين ، المعروف والده بالمجير[٤] ، تفقه على أبيه وقرأ عليه علم الكلام ، ودرس بمدرسته عند باب الأزج ، ووكله الخليفة الناصر ، واشتهر بالديانة والأمانة ، وباشر مناصب كباراً ، وحج مراراً عديدة ، وكان متواضعاً حسن الأخلاق ، وكان يقول :

وماتركت ست وستون حجة لنا حجة أن يركب اللهو مركبا

جلال الدين[٥] الحسن ، من أولاد الحسن بن الصباح مقدم الإسماعيلية ، وكان قد أظهر فى قومه شعائر الإسلام ، وحفظ الحدود المحرمات ، والقيام فيها بالزواجر الشرعية ، مات فى هذه السنة ، وتولى بعده ابنه .

---

(١) انظر ترجمته والبيتين فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٤ .
(٢) انظر ترجمته والأبيات فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٤ ـ ص١٠٥ .
(٣) انظر ترجمته فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٥ .
(٤) «بالمجيد» كذا فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٥ .
(٥) انظر ترجمته فى الكامل ، ج١٠ ، ص٤٢٩ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٣ .

أبو الدر[1] ياقوت بن عبد الله الموصلى الكاتب، الملقب أمين الدولة، المعروف بالملكى نسبة إلى السلطان أبى الفتح ملكشاه بن سلجوق بن محمد بن ملكشاه الأكبر، نزل الموصل وأخذ النحو عن أبى محمد سعيد بن المبارك المعروف بابن الدهان، النحوى، وقرأ عليه من تصانيفه جملة، وكان يلازمه، وقرأ عليه ديوان المتنبى والمقامات للحريرى[٤٢٨] وغير ذلك، وكتب الكثير وانتشر خطه فى الآفاق، وكان فى نهاية الحسن، ولم يكن فى آخر زمانه من يقاربه من حسن الخط، ولا يؤدى طريقة ابن البواب فى النسخ مثله، مع فضل غزير ونباهة تامة، وكان مُغْرى بنقل صحاح الجوهرى، فكتب منها نسخا كثيرة، كل نسخة فى مجلد واحد. وقال ابن خلكان[2]: رأيت منها عدة نسخ، وكل نسخة تباع بمائة دينار، وكتب عليه خلق كثير، وانتفعوا به، وكانت له سمعة كبيرة فى زمانه وقصده الناس من البلاد، مات بالموصل فى هذه السنة، وقد أسن وتغير خطه من الكبر.

---

(١) الكامل، ج١٠، ص٤٢٨؛ نهاية الأرب، ج٢٩، ص١١٩؛ البداية والنهاية، ج١٣، ص١٠٣؛ شذرات الذهب، ج٥، ص٨٣.

(٢) وفيات الأعيان، ج٦، ص١١٩- ص١٢٢.

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة التاسعة عشر بعد الستمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة الناصر لدين الله ، والشرور قائمة فى البلاد الخراسانية ومايتاخمها بسبب جنكيزخان ، وقد ذكرنا أن جلال الدين بن السلطان علاء الدين دخل غزنة منصورا فى السنة الماضية . وقال أبو الفتح المنشئ : وصل جلال الدين إلى غزنة فى سنة ثمانى[1] عشرة وستمائة ، وتباشر الناس بوصوله ، واتصل بخدمته سيف الدين بغراق الخلنجى[2] وأعظم ملك صاحب بلخ ، ومظفر ملك صاحب الأفغانية ، والحسن قزلق ، [كل][3] هؤلاء فى ثلاثين ألف فارس ، ومعه من عسكره وعسكر أمين الملك مثلها ، ولما بلغ جنكيزخان ماحل بعسكره من النقمة بقندهار جرد إليه ابنه طولى خان فى عسكر كثير ، واستقبله جلال الدين بنفسه ، فالتقيا ، وحمل جلال الدين على قلب عسكر طولى خان ، فأنزل الله نصره عليه ، وكانت الكسرة على التتار فولوا مدبرين ، وركب جلال الدين مع عسكره فى طلبهم ، وكيف لايركب أقفيتهم وقد أفجعوه بأخوته وأبيه ، وقتل طولى خان المذكور فى معركة القتال ، وكثر الأسر حتى كان الفراشون يحضرون أساراهم إلى بين يدى جلال الدين ، فيدقون الأوتاد فى آذانهم تشفيا منهم ، وجلال الدين يتفرج ووجهه بالبشاشة يتبلج ، وقد عذبوهم فى الحياة الدنيا ، ﴿ولعذاب الآخرة أشد وأبقى﴾[4] . ولما وصل الخبر إلى جنكيزخان قام وجمع عساكره ورحل إلى ملتقى جلال الدين فى ذلك الوقت ، واتفق أن العسكر الخلجية[5] قد فارقوا جلال الدين صحبة سيف الدين بغراق غضاباً ، وسبب ذلك أنهم لما كسروا ابن جنكيزخان ببيروان[6] زاحمتهم الأتراك فى المكاسب ، وكان الأتراك ينفرون ويأخذون المكاسب منهم ، فاشمأذت لذلك نفوسهم ، ونفرت قلوبهم ، ووقع الخلف بينهم ، وكلما اجتهد جلال

(*) يوافق أوله : ١٥ فبراير١٢٢٢م .

(١) «ثمان» كذا فى الأصل ، والمثبت هو الصحيح لغة .

(٢)«الخلجى» فى سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص١٥٤ .

(٣) مابين حاصرتين إضافة من سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص١٥٤ لاستقامة المعنى .

(٤) سورة طه ، آية ١٢٧ .

(٥) الخلنجية : كذا فى الأصل ، والمثبت من سيرة منكبرتى ، ص١٥٥ ، والخلجية نسبة إلى خلج ، وهو موضع قرب مدينة غزنة . انظر : سيرة منكبرتى ، ص١٥٥ ، حاشية (٦) .

(٦) بيروان : فى الشمال الشرقى من مدينة غزنة . انظر : سيرة منكبرتى ، ص١٦ .

الدين فى إرضائهم زادت الأتراك عصبية وشرا ، ثم لما بلغ جلال الدين نهوض عدو الله إليه فى معظم جيوشه وقد فارقه الأمراء وقع فى قلبه الخوف حيث علم أنه لاطاقة له بهم ، فرأى أن يتأخر إلى حافة ماء السند ، ثم يكاتب لهؤلاء المفارقين له ، فإن أجابوا ، يلتقى جنكيزخان [بهم مبكراً](١) فعاجله جنكيزخان ، وكان جلال الدين قد ثاربه قولنج شديد عند خروجه من غزنة ، ولم يرمع ذلك الجلوس فى المحفة ، وكان يركب الفرس تجلداً على مابه من الألم إلى أن من الله عليه بالعافية[٤٢٩] وقد ورد الخبر فى أثناء هذه الحالة أن مقدمة جنكيز خان قد نزلت بجردير(٢) ، فركب جلال الدين وكبسهم وقتل منهم جمعا كثيرا ، ولم يفلت منهم إلا القليل ، ولما بلغ جنكيزخان ذلك هاله ، ثم رجع جلال الدين إلى مخيمه بحافة ماء السند ، وضاق الوقت عما كان يأمله فى جمع المراكب ، ورجوع الأمراء الذين كانوا فارقوه ، ووصل مركب واحد فأمر بتعبير والدته وحرمه ، فانكسر المركب ، وتعذر العبور ، ووصل جنكيزخان ، ﴿وَإِذَا(٣) أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ ﴾(٤) .

ذكر المصاف بين جلال الدين وجنكيزخان على حافة ماء السند

وكان مع جلال الدين مقدار ثلاثين ألف راكب ، ومع جنكيزخان مقدار مائة ألف ، ثم تصافوا نهار الأربعاء لثمان خلون من هذه السنة(٥) . فلما تلاقى الفريقان حمل جلال الدين بنفسه على قلب عسكر جنكيزخان ، وولى جنكيزخان بنفسه هزيما ، وكادت الدائرة تدور على الكفار ، وكان جنكيزخان قد أفرد الكمين عشرة آلاف نفس من الفرسان الأبطال ، فخرجوا على ميمنة جلال الدين ، فكسروها وقلبوها على القلب فتبدّد نظامه ، ونزعت من الثبات أقدامه ، وانجلت المعركة عن قتلى مطروحين ، ورجع جنكيزخان على جلال الدين وحشرهم إلى ماء السند ، وكان الرجل منهم يأتى النهر فيهوى بنفسه فى تياره مع علمه بأنه غريق ، وليس له إلى الخلاص طريق ، وأسر ولد جلال الدين وعمره

(١) مابين حاصرتين إضافة من سيرة جلال الدين منكبرتى لاستقامة المعنى ، ص١٥٧ .

(٢)جردان : بلدة بين غزنة وكابل . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥٦ ، وقد كتبت فى الأصل جردير ؛ سيرة منكبرتى ، ص٤١٨ .

(٣) سورة الرعد ، آية(١١) .

(٤) لمعرفة المزيد عن هذه الأحداث . انظر : سيرة جلال الدين منكبرتى ، ص١٥٤ ـ ص١٥٧ .

(٥) المقصود أن الحدث تم فى سنة ثمانى عشرة وستمائة .

انظر : سيرة جلال الدين منكبرتى ، ص١٥٨ . مع أن العينى ذكرها فى سنة٦١٩هـ .

تسع سنين فى الوقعة ، وقتل[١] بين يدى جنكيزخان . ولما جاء جلال الدين إلى حافة ماء السند كسيرا رأى والدته وحرمه يصحن بأعلى[٢] صوتهن : بالله عليك اقتلنا ، والقتل أحب إلينا من الأسر فى أيدى هؤلاء الكفار . فأمر بضرب رقابهن وألقى[٣] بهن فى الماء ، وهذا من أعظم المصائب والبلايا ، وأشد المحن والرزايا . وأما عسكر جلال الدين تشتتوا وتفرقوا ، فإن عسكر جنكيزخان تتبعوهم ولقطوهم من الأودية ورؤوس[٤] الجبال وبطون الغابات ، وتحصن أعظم ملك بقلعة دروذة ، فحوصرت إلى أن أخذ ، فضرب رقبته ، ورقاب خلق كثير من الذين حصلوهم . وقال أبو الفتح المنشئ : حدثنى ضياء الملك علاء الدين محمد بن مودود العارض النسوى قال : أهويت بنفسى إلى الماء ولا أعرف السباحة ، فغطست وأشرفت على الهلاك ، فإذا أنا بصبى ومعه زق منفوخ ، فمددت يدى وهممت بتغريقه وأخذ الزق منه ، فقال : إن كنت ترضى بخلاصك دون هلاكى شاركنى فيه أوصلك إلى الساحل . ففعلت وسلمنا ، وقد طلبته بعد ذلك أشد طلب لأجَازِيه على صنيعه ، فلم أجِده على قلة عدد الناجين[٥] .

ذكر عبور جلال الدين ماء السند

ولما وصل جلال الدين إلى حافة ماء السند وقد سدت دونه المهارب ، وبين يديه تيار النهر الغالب رفس فرسه فى الماء وهو لابس عدته ، فعبر به الفرس فى ذلك الماء الذى هو كالبحر العظيم وتياره أشد من الريح العقيم ، فلطف الله عز وجل به إلى أن أرماه إلى ذلك[٤٣٠] الجانب ، وقد تخلص أيضاً من عسكره أربعة آلاف رجل حفاة عراة ، وفيهم ثلاثمائة[٦] فارس ، ولايدرون ما حال جلال الدين؟ هل هو تخلص أم غرق؟ وكان جلال الدين قد رماه الموج ومعه ثلاثة من مماليكه وهم : قلبرس بهادر ، وقانقج ، وسعد الدين على الشربدار[٧] . ثم إنهم تلاقوا بعد ثلاثة أيام ، واتخذوا يوم ملاقاتهم عيداً وظنوا

(١) «ووسط» كذا فى الأصل ، والمثبت من سيرة منكبرتى ، ص١٢٩ ، حيث يتفق مع المعنى .
(٢) «بأعلا» كذا فى الأصل ، والمثبت هو الصحيح لغة .
(٣) «وألقا» كذا فى الأصل ، والمثبت هو الصحيح لغة .
(٤) «وروٌس» كذا فى الأصل ، والمثبت هو الصحيح لغة .
(٥) لمعرفة المزيد عن هذه الأحداث . انظر : سيرة جلال الدين منكبرتى ، ص١٥٨ ، ص١٥٩ .
(٦) «ثلثمائة» كذا فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه من سيرة منكبرتى ، ص١٦٠ .
(٧) الشربدار : المقصود بها الخدمة بشرابخاناه السلطان أو الأمير .
انظر : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٤٥٤ ، ص٤٦٧ ، ص٤٦٩ .

أنهم أنشئوا خلقا جديدا ، وليس عندهم شىء يؤكل ولاشىء يلبس ، وكان فى زردخانة[١] جلال الدين شخص يعرف بجمال الزّراد ، وكان قد جمع شيئا كثيرا من المأكول والملبوس بعد الوقعه ، ولم يظفر به أحد فحماه الله تعالى بلطفه حتى حصل مركبا وملأه من ذلك ، وعبر إلى ذلك الجانب ، وجلال الدين ومن معه حائرون ثائرون ، وليس عندهم شىء فإذا بجمال الزراد قد جاء إليه بالمركب المشحون بالخيرات ، فوقع هذا عند جلال الدين فى موقع عظيم ، ففى الحال ولاه الأستاذ دارية ، ولقبه باختيار الدين ، وكان هناك ملك اسمه شنطره[٢] سمع بخبر جلال الدين وأنه خلص من الأسر والغرق ، وأنه فى عدد يسير قام وجمع ألف فارس وخمسة آلاف راجل ليستأصل جلال الدين ، وبلغ خبره لجلال الدين ، ورأى الموت قد جاءه من كل جهة وليس معه إلا نفر يسير ، وغالبتهم جرحى بلا استعداد ، وتحقق أن الهنود إذا ظفروا بهم يقتلونهم بأشد قتله ، واتفقوا على أن يعبروا النهر أيضا ويختفوا فى بعض الآجام المختلفة ، ويعيشوا بما تنال أيديهم من الغارات ، فحين تآمروا على ذلك وتوجهوا صوب مقصدهم ، وتأخر عنهم جلال الدين بمن معه من أصحاب الخيل على رسم اليزك[٣] ، فإذا براية شنطرة تحتها عسكره ، فحرض جلال الدين أصحابه ، وقال : لاينجينا إلا الثبات ، والنصر من الله تعالى . فوقف إلى أن جاؤوا بقضهم وقضيضهم ، فعند ذلك تقدم جلال الدين وأوتر قوسه ورمى صوب شنطره ، فأصابت نشابته بإذن الله صدر شنطره ، وهتكت حجاب قلبه ، فخر ميتا ، وانهزم عسكره ، وتقوى جلال الدين ومن معه بخيلهم وسلبهم[٤] .

وكان هنا ملك آخر يسمى قباجه ، وله نائب فى بلدة ، يسمى قمر الدين ، ولما سمع بذلك تقرب إلى جلال الدين ، وقدم له دهليزا وغيره ، فوقع ذلك منه موقعا مشكورا محمودا[٥] .

---

(١) الزردخاناه : دار السلاح ، وهى كلمة فارسية مركبة ، أطلقها المقريزى على السلاح نفسه ، ومن معانى الزردخاناه السجن المخصص للمجرمين من الأمراء وأصحاب الرتب .
انظر : المقريزى ، السلوك ، ج١ ق٢ ، ص٣٠٦ ، حاشية(١) .

(٢) «شنطرة» : كذا فى الأصل ، أما فى سيرة جلال الدين منكبرتى «زانه شتره» وهو صاحب جبل الجودى .
انظر : ص١٦١ .

(٣) اليزك : لفظ فارسى معناه الطلائع . انظر : مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص٣٦٤ .

(٤) لمعرفة المزيد عن هذه الأحداث . انظر : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص١٦٠- ص١٦٢ .

(٥) انظر : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص١٦٢ .

ذكر ما كان بين جلال الدين وقباجة

ولما استراح جلال الدين من ثقل هذه الوطئات بلغه أن بنت أمين الملك سلمت من الغرق ، وجاءت إلى أوجا[١] وهى مدينة من مدن قباجة ، فأرسل إلى قباجة يقول : إن بنت أمين الملك تنتمى[٢] إلى بقرابة فليجهزها إليه صحبة الرسول . فامتثل قباجة كلامه وأرسلها إليه ، مع تقادم جليلة فى جملتها فيل ، فقبل ذلك جلال الدين وتأكدت المودة بينهما إلى أن قضت الأيام بالبين والفرقة لأسباب ، منها : أن شمس الملك شهاب الدين كان وزير جلال الدين ، استوزره له أبوه السلطان علاء الدين ، فقدر الله تعالى أن الوقعة رمته إلى قباجة ، فأواه وأكرم مثواه ، فأرسل جلال الدين إلى قباجة واستدعى شمس الملك ، فتوهم شمس الملك أنه إنما [٤٣١] يطلبه لإيقاع أمر فيه فامتنع قباجة من إرساله . ومنها أن قزل خان[٣] بن أمين الملك كانت الوقعة أرمته إلى مدينة كلور[٤] من مدن قباجة ، وكان شابا طريا حسنا جميلا ، وكانت فى أذنه درة ثمينة ، فشرهت نفوس من أووه عندهم فقتلوه ، وحملوا الدرة إلى قباجة فشكرهم على ذلك ، وأقطع لقاتله ضيعة ، ولما سمع جلال الدين بذلك حقد عليه ، وصبر على ذلك إلى أن جاء إليه الأمراء المنفصلون من أخيه غياث الدين بيرشاه وهم : سنجق خان ، وإيلجى بهلول ، وأرخان سلحدار السلطان ، وبكتيارق جنكشين ، فقوى بهم جلال الدين وقصد مدينة كلور فحاصرها ، ودام القتال عليها ، وباشر الزحف بنفسه ، فأصابته نشابه فى يده فأصبح كالأسد ، ولم يفتر عن القتال ليلا ونهارا إلى أن استولى عليها وأخذ مافيها ، ثم انتقل منها إلى قلعة برنوزج وزحف عليها وباشر القتال بنفسه ، وأصابته نشابة أخرى هناك ، وتأكدت الوحشة بهذه الأمور بينه وبين قباجة ، ولما رأى قباجة أن بلاده تطوى شيئا فشيئا ، حشد وجمع وركب فى عشرة آلاف نفس من الفرسان ، وأنجده شمس الدين إيلتمش[٥] ببعض عسكره وعزم على المصاف ، فعاجله جلال الدين والتقى معه

---

(١) «أوجاهى» كذا فى سيرة منكبرتى ، ص١٦٣ .

(٢) «تمت» كذا فى سيرة منكبرتى ، ص١٦٣ .

(٣)«قرن خان» كذا فى سيرة منكبرتى ، ص١٦٤ .

(٤) كلور : من مدن إقليم البنجاب . انظر : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص١٦٤ ، حاشية(٢) .

(٥) شمس الدين إيلتمش : أحد أرقاء الترك فى الدولة الغورية ، وسار إلى بلاد الهند بعد سقوط هذه الدولة ، وأسس إمارة فى الجزء الشمالى من هذه البلاد ، وحكم مدينة دهلى ٦٠٨ / ٦٣٤هـ (١٢١١ / ١٢٣٦ م) .
انظر : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص١٦٥ ، حاشية(١) .

وكسره ، وغنم مامعه من الأثقال وغيرها ، ولما فرغ جلال الدين من كسر قباجة نزل على لهاوور(١) ، وكان بها ابن قباجة ، وكان قد عصى على أبيه قباجة ، فرأى جلال الدين أن يقُره عليها على مال يحمله إليه ، ثم رحل منها إلى صوب سيستان(٢) ، وبها فخر الدين السلاوى واليا عليها من قبل قباجة ، فتلقاه بالطاعة ، وسلم مفاتيحها إليه ، فجبى المال وأرضى الرجال ، ثم رحل عنها صوب أَوْجَا(٣) فحاصرها أياما ، وقتل من الفريقين خلق كثير ، ثم صالحوه على مال ، فحمل إليه ، ثم رحل صوب جانسير(٤) ، وكان رأيُها يعنى ملكها ، والرأى هو الملك بلغة الهند من أتباع أيلتمش وأنصاره ، فخرج طائعا إليه وحضر إلى خدمته ، ثم أتى الخبر إلى جلال الدين بأن إيلتمش قاصد له فى ثلاثين ألفا من الفرسان ومائة ألف راجل وثلاث مائة فيل ، فتجرد نحوه جلال الدين وقدم قدامه جهان بهلوان أزبك ، وهو من حماة الأبطال برسم اليزك ، فساق وخالفه يزك إيلتمش فى الطريق ، وتوسط أزبك عسكر شمس الدين إيلتمش ، فقتل منهم جماعة وخرج آخرين ، ثم ورد عقيب ذلك رسول إيلتمش فى طلب الموادعة ويقول : ليس يخفى عليك ماوراك من عدو الدين ، وأنت اليوم سلطان المسلمين وابن سلطانهم ، ولست أستحل أن أكون عونا عليك ، ولايليق بمثلى أن يجرد السيف فى وجه مثلك ، وإن رأيت زَوَّجْتُك بابنتى لتستحكم الثقة وتزول الوحشة . فمال جلال الدين إلى ما قال ، وأصحب رسوله باثنين من أصحابه ، وهما : برذنك بهلوان وسنقرجق طايسى ، فمضيا إليه واختاراه عليه ، ثم ترادفت الأخبار بأن إيلتمش وقباجة وسائر ملوك الهند وعامة أمرائها وكبرائها قد اتفقوا على قلع جلال الدين من إقليمهم ، واستشار جلال نصحاءه(٥) فى تدبير هذا الأمر ، واتفقت آراؤهم على الخروج [٤٣٢] إلى العراق وأشار عليه جهان بهلوان أزبك بلزوم بلاد

(١) لهاور (لوهور) : مدينة كبيرة من بلاد الهند . انظر : أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص٣٥٨ .

(٢) سيستان : وتطلق المراجع العربية القديمة عليها سجستان ، وهى تقع فى جنوب خراسان .
انظر : بلدان الخلافة الشرقية ، ص٣٧٢ .

(٣) أَوْجَا : لعل المقصود بها «أوج» وهى قرية صغيرة للخَرْلَخية ، وهم صنف من الأتراك بما وراء سيحون .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٣٩٧ .

(٤) «جانسير» كذا فى الأصل ، أما بلدان الخلافة الشرقية فذكرها «خانسار» وهى منطقة تقع بين قم وأصفهان .
انظر : بلدان الخلافة الشرقية ، ص٢٤٥ .

(٥) « نصحائه» كذا فى الأصل ، والمثبت هو الصحيح لغة .

الهند خوفا من جنكيزخان ، واستهوانا بمن فى الهند من الملوك ، فحمله شغفه وحبه بتملك الممالك الموروثة والحكم فيها ، فخف للنهوض إليها ، واستناب جهان بهلوان أزبك على ماكان ملكه من بلاد الهند الحسن قزلق ، ولقبه بوفا ملك ، واستمر وفا ملك بها وبالغور وغزنة إلى آخر أيامه ، فوصل إلى العراق ، وسيأتى ماجرى له وعليه مفصلا إن شاء الله تعالى[1] .

ذكر ما جريات ملوك الشرق والشام

منها أن بدر الدين لؤلؤ تملك الموصل فى هذه السنة ، واستقل بملكها وسمى نفسه الملك الرحيم ، وذلك بعد وفاة الطفل الذى كان نصبه فى المملكة وهو ناصر الدين محمود بن الملك القاهر مسعود بن نور الدين أرسلان شاه بن مسعود بن مودود بن زنكى ابن أقسنقر ، وكان لؤلؤ قد اعتضد بالملك الأشرف بن العادل فدافع عنه ونصره ، وخلع لؤلؤ البيت الأتابكى بالكلية واستمر مالكا للموصل نيفا وأربعين سنة ، سوى ماتقدم له من الاستيلاء والتحكم فى أيام أستاذه نور الدين أرسلان شاه وابنه الملك القاهر مسعود[2] .

ومنها أن الملك المعظم قصد حماة لأن الملك الناصر صاحب حماة كان قد التزم له بمال يحمله إليه فى كل سنة إذا ملك حماة ، فلم يف له فقصد المعظم حماة ، وجرى بينهم قتال قليل ، ثم ارتحل الملك المعظم إلى سلمية[3] واستولى على حواصلها وولى عليها ، ثم توجه إلى معرة النعمان[4] فاستولى عليها وقرر أمورها ، وأقام فيها واليا من جهته ، ثم عاد إلى سلمية وأقام بها حتى خرجت السنة على قصد منازلة حماة[5] .

(١) لمعرفة المزيد من هذه الأحداث . انظر : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص١٦٣- ص١٦٩ .
(٢) انظر : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١١٤ - ص ١١٥ .
(٣) سَلَمْية : بليدة من أعمال حماة . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص١٢٣ .
(٤) معرة النعمان : مدينة كبيرة قديمة من أعمال حمص ، بين حلب وحماة .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٥٧٤ - ص٥٧٥ .
(٥) انظر : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١١٧ - ص١١٨ .

ومنها أن الأتابكى طغريل الخادم مدبر مملكة حلب فوض إلى الملك الصالح أحمد ابن الظاهر أمر الشغر وبكاس[١] ، فسار الملك الصالح من حلب واستولى عليهما وأضاف إليه معرة مِصْرين[٢] وغيرها[٣] .

ذكر بقية الحوادث

منها أنه نقل تابوت الملك العادل من القلعة إلى تربتة بالمدرسة[٤] العادلية الكبيرة ، وصلى عليه أولا تحت النسر بالجامع الأموى ، ثم جاؤوا به إلى التربة المذكورة فدفن فيها ، ولم تكن المدرسة كملت بعد ، وقد تكامل بناؤها فى هذه السنة أيضا ، وقد درس بها القاضى جمال الدين المصرى ، وحضر عنده السلطان الملك المعظم ، فجلس فى الصدر وعن شماله القاضى وعن يمينه صدر الدين الحُصيرى شيخ الحنفية ، وكان فى المجلس الشيخ تقى الدين بن الصلاح إمام السلطان ، والشيخ سيف الدين الآمدى[٥] إلى جانب المدرس ، وإلى جانبه شمس الدين بن سنى الدولة ، ويليه النجم خليل قاضى العسكر وتحت الحُصَيرى شمس الدين بن الشيرازى ، وتحته محيى الدين بن الزكى ، وحضر فيه خلق من الأعيان والأكابر ، وفيهم فخر الدين[٦] بن عساكر(رحمهم الله)[٧] .

(١) الشغر وبكاس : بكاس قلعة من نواحى حلب على شاطئ العاصى ، تقابلها قلعة الشغر بينهما واد كالخندق ، وهما قرب أنطاكية . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٧٠٤ .

(٢) معرة مِصْرين : بليدة وكورة من نواحى حلب . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٥٧٤ .

(٣) ورد هذا الحدث فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١١٦ .

(٤) المدرسة العادلية الكبيرة (الكبرى) : داخل دمشق شمالى الجامع بغرب وشرقى الخانقاه الشهابية وقبلى الجاروخية بغرب وتجاه باب الظاهرية يفصل بينهما طريق ، وأول من أنشأها نور الدين محمود بن زنكى ، وتوفى ولم تتم ، ثم بنى بعضها الملك العادل سيف الدين ثم توفى ولم تتم ، فتممها ولده الملك المعظم ودفن فيها والده ونسبها إليه . انظر : الدارس ، ج١ ، ص٣٥٩ .

(٥) الشيخ سيف الدين الآمدى : هو أبو الحسن على بن أبى على بن محمد بن سالم التغلبى الفقيه الأصولى الملقب سيف الدين الآمدى ، كان فى أول اشتغاله حنبلى المذهب ثم انتقل إلى مذهب الإمام الشافعى ، وتوفى فى رابع صفر يوم الثلاثاء سنة ٦٣١هـ ، ودفن بسفح جبل قاسيون ، وكانت ولادته فى سنة ٥٥١ هـ .
وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٢٩٣ ـ ص٢٩٤ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١٤٤ ـ ص١٤٥ .

(٦) فخر الدين بن عساكر : هو أبو منصور عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين الدمشقى الملقب بفخر الدين المعروف بابن عساكر الفقيه الشافعى . ولد سنة خمسين وخمسمائة ، وتوفى فى العاشر من رجب يوم الأربعاء سنة عشرين وستمائة بدمشق ، ودفن بمقابر الصوفية بظاهر دمشق .
وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص١٣٥ .

(٧) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص ١٣٢ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٢٠ ، ص١٢١ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٥ .

ومنها أن الملك المعظم أرسل الصدر البكرى[١] محتسب دمشق إلى جلال الدين ابن خوارزم شاه يستعينه على أخويه الكامل والأشرف اللذين قد تمالآ عليه ، فأجابه إلى ذلك بالسمع والطاعة ، ولما عاد البكرى أضاف إليه مشيخة[٢] الشيوخ مضافا إلى الحسبة[٣] .

ومنها أنه وقعت حروب كثيرة بين القفجاق والكرج ، وقتال كثير بسبب ضيق بلاد القفجاق عليهم[٤] .

ومنها أن الملك الأشرف سار إلى خدمة أخيه الملك الكامل وأقام عنده بمصر متنزها [٤٣٣] إلى أن خرجت هذه السنة[٥] .

ومنها أنه ولى قضاء القضاة ببغداد أبو عبد الملك محمد بن فضلان[٦] .

ومنها أن الكرج خرجوا ونهبوا بيلقان[٧] فى هذه السنة ، وذلك أن التتار لما أخربوها وساروا عنها ، وتراجع من سلم من أهلها وعمروها ما أمنكهم ، فبينما هم كذلك إذ هجم عليهم الكرج ووضعوا السيف فى أهلها ، وجرى هذا جميعه وصاحب بلاد أذربيجان أزبك بن البهلوان بتبريز لايتحرك له همة ، بل قد قنعت همته بالأكل والشرب والفساد[٨] .

ومنها أن بدر الدين لؤلؤ مَلَكَ قلعة شوش من أعمال الحميدية ؛ وسبب ذلكَ أن صاحبها زنكى ابن أرسلان سار إلى أذربيجان ليخدم عند صاحبها أزبك ، وأقطعه إقطاعا عنده فبقى هناك ، فسير بدر الدين عسكرا إليها فحاصرها وأخذها من نوابه[٩] .

ومنها أن الملك المسعود يوسف الملقب بأُطْسِزْ والعامة يسمونه أَقْسِسْ ، وهو ابن الملك الكامل بن الملك العادل ، حج بالناس من اليمن ، وكان قد استولى على اليمن

---

(١) الصدر الكشهنى فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٥ وهو صدر الدين أبو الحسن محمد بن أبى الفتح .
(٢) مشيخة الشيوخ : يراد بها الإشراف على دور الصوفية (الخانقاهات) . نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٢٠ ، حاشية (١) .
(٣) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ؛ ص١٣١ ، نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٢٠ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٥ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١٠ .
(٤) ورد هذا الخبر فى الكامل ، ج١٠ ، ص٤٣٠ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٠٨ - ١٠٩ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٦ .
(٥) ورد هذا الخبر فى نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١١٩ .
(٦) «محمد بن فلان» فى البداية والنهاية ، كما ورد هذا الحدث فيه ، ج١٣ ، ص١٠٦ .
(٧) بيلقان : مدينة قرب الدربند ، وتُعَد فى أرمينية الكبرى قريبة من شروان . معجم البلدان ، ج١ ، ص٧٩٧ - ص٧٩٨
(٨) ورد هذا الخبر فى الكامل ، ج١٠ ، ص٤٣٢ - ص٤٣٣ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١١٣ - ص١١٤
(٩) ورد هذا الخبر فى الكامل ، ج١٠ ، ص ٤٣٣ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١١٥ .

من سنة اثنتى عشرة وستمائة ، وقبض على سليمان شاه بن شاهنشاه بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب كما ذكرنا ، فلما وقف بعرفة وتقدمت أعلام الخليفة الإمام الناصر لدين الله لترفع على الجبل ، تقدم الملك المسعود بعساكره ومنع من ذلك ، وأمر بتقديم أعلام أبيه السلطان الملك الكامل على أعلام الخليفة ، فلم يقدر أصحاب الخليفة على منعه من ذلك ، ثم عاد الملك المسعود إلى اليمن ، وبلغ ذلك الخليفة فغضب وعظم عليه ، وأرسل إلى الملك الكامل يشكو ، فاعتذر الكامل عن ذلك ، فقبل عذره ، وأقام الملك المسعود فى اليمن مدة يسيرة ، ثم عاد إلى مكة ليستولى عليها ، فقاتله حسن بن قتادة ، فانتصر الملك المسعود وانهزم حسن بن قتادة ، واستقرت مكة فى ملك الملك المسعود وولى عليها نائبا ، وذلك فى ربيع الأول من سنة عشرين ثم عاد إلى اليمن[١] .

وقال ابن كثير[٢] : ولما حج الملك المسعود المذكور فى هذه السنة بدت منه أفعال ناقصة بالحرم الشريف من سكر ، ورشق حمام المسجد بالبندق من أعلى قبة زمزم ، وكان إذا نام فى دار الإمارة يضرب الطائفون بالمسعى بأطراف السيوف لئلا يشوشوا عليه وهو فى نوم سكره ، قبحه الله ، ولكنه كان مع هذا كله مهيبا محترما ، والبلاد آمنة مطمئنة .

وقال أبو شامة[٣] : استولى أقسس على مكة وأعمالها ، وأذل المفسدين فيها وشتت شملهم ، وهو الذى بنى القبة على مقام إبراهيم عليه السلام ، وكثر الجلب إلى مكة من مصر واليمن فى أيامه ، فرخصت الأسعار ، ولعظم هيبته قلت الأشرار وأمنت الطرق والديار .

ومنها أنه كان بالشام جراد كثير أكل الزرع والثمار والأشجار ، ولم يعهد مثله فى الشام ، فأظهر المعظم أن ببلاد العجم طيراً يقال له السمرمر يأكل الجراد ، فأرسل الصدر البكرى محتسب دمشق ، ورتب معه صوفية ، وقال : تمضى إلى بلاد العجم فهناك عين يجتمع فيها السمرمر ، فتأخذ من مائها فى قوارير وتعلقها على رؤوس الرماح ، فكلما رآه

---

(١) وردت هذه الأحداث فى الكامل ، ج١٠ ، ص٤٣٥ ؛ الذيل على الروضتين ، ص١٣٢ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٢٤ ـ ص١٢٥ ؛ المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص١٣١ ـ ص١٣٢ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٢٥ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٥ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١١ .

(٢) البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٥ .

(٣) الذيل على الروضتين ، ص١٣٢ .

السمرمر تبعك ، وما كان مقصوده إلا أن يبعث البكرى إلى جلال الدين بن السلطان علاء الدين ليتفق معه لما بلغه اتفاق أخويه الكامل والأشرف عليه ، فاجتمع البكرى بجلال الدين كما ذكرنا ، وكان الجراد قد قل فلما عاد البكرى كثر الجراد[١] .

ومنها . . . . . .[٢]

ومنها حج بالناس من العراق ابن أبى فراس ، ومن الشام كريم الدين الأخلاطى ومعه الركن الفلكى وخلق كثير ، وكانت وقفة الجمعة ، وازدحم الناس فى المسعى فمات جماعة[٣] .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

عبد[٤] القادر بن داود أبو محمد الواسطى ، الشافعى ، الملقب بالمحب ، اشتغل بالنظامية ، وكان فاضلا دينا صالحا . ومما أنشده من الشعر :

الفرقدان[٥] كلاهما شهدا له ... والبدرُ ليلةَ تَمِّـهِ بسهادِهِ
دَنِفٌ[٦] إذا أعشى[٧] الظلام تضرمت ... نارُ الجوى فى صدره وفؤاده
فجرَتْ مدامع جفنه فى خده ... مثل المياه[٨] تسيل من أطواده[٩]
شوقا إلى مُضْنِيه لم أَرَ هكذا ... مشتاق مضنى جسمه ببعاده
ليت الذى أضناهُ سحرَجفونِه ... قبل المماتِ يكونُ من عوادِه[١٠]

---

(١) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ؛ ص١٣١ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٦ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١٠ .
(٢) بياض بالأصل بمقدار نصف سطر .
(٣) ورد هذا الخبر بتصرف فى الذيل على الروضتين ؛ ص١٣٢ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١٠ .
(٤) انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٦ .
(٥) الفرقدان : نجمان قرب القطب . البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٦ .
(٦) الدنف : المريض من العشق ، أو الذى يلازمه المرض . البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٦ .
(٧) «أعشى» فى الأصل ، «اعتبق» فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٦ .
(٨) «المياه» فى الأصل ، «المسيل» فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٦ .
(٩) «أطواده» فى الأصل ، «أطواره» فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٦ .
(١٠) وردت هذه الأبيات فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٦ .

أبو طالب[١] **يحيى بن على الباعقوبى** ، الفقيه الشافعى ، أحد المعدلين ببغداد ، كان شيخا مليح الشيبة ، جميل الوجه ، كان يلى بعض الأوقاف ، ومما أنشده لبعض الفضلاء :

لحملُ تهامةٍ وجبال أحْد ومـاءُ البحر ينقل بالزبيلِ
ونقل الصخر فوق الظهر يوما لأهون من مجالسة الثقيل

اتفق أنه طولب بشىء من المال فلم يقدر عليه ، فاستعمل شيئا من الأفيون المصرى ، فمات من يومه ، ودفن بالوردية[٢] .

إمام الحنابلة بمكة الشيخ نصر[٣] **بن أبى الفرج المعروف بابن الحصرى** ، جاور بمكة مدة ، ثم ساقته المنية إلى اليمن ، فمات بها فى هذه السنة ، وقد سمع الحديث من جماعة من المشايخ .

وقال السبط[٤] : سمعت منه الحديث بمكة فى سنة أربع وستمائة ، وكان متعبدا ، لايفتر من الطواف ، صالحا ثقة .

الشهاب عبد[٥] **الكريم بن نجم الحنبلى** ، أخو البهاء ، والناصح ، كان فقيها مناظرا ، بصيرا بالمحاكمات ، وهو الذى أخرج مسجد الوزير من يد الشيخ علم الدين السخاوى ، توفى فى ربيع الأول منها فى دمشق .

قطب الدين[٦] **بن العادل** ، توفى فى هذه السنة بالفيوم ، ونقل إلى القاهرة .

---

(١) انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٦ - ١٠٧ .
(٢) الوَرْدِية : مقبرة ببغداد بعد باب أبرز من الجانب الشرقى قريبة من باب الظفرية . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٩٢٠ .
(٣) انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٣٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٧ .
(٤) بالبحث لم نجد هذا الخبر فى مرآة الزمان ، ولكن وجد بالتفصيل فى الذيل على الروضتين ، ص١٣٣ .
(٥) انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٣٣ .
(٦) انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٣٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٧ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١١ .

الملك ناصر[١] **الدين محمود بن الملك القاهر مسعود صاحب الموصل** ، مات فى هذه السنة ، وكان ظالما[٢] ، وقد ذكرناه عن قريب .

الشيخ يونس[٣] **بن يوسف بن مساعد**[٤] ، شيخ الفقراء المعروفين باليونسية ، كان رجلا صالحا وله كرامات مشهورة ، وكانت وفاته فى هذه السنة بقرية القنية[٥] من أعمال دارا ، وقد ناهز تسعين سنة ، وقبره مشهور هناك .

(١) انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص٤٣٤ ؛ وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص ٢٥٦ - ص٢٥٧ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٣٠ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٨٧ .
(٢) «ظطا» هكذا كتبت فى الأصل ، وما أثبتناه من الكامل ، ج١٠ ، ص٤٣٤ .
(٣) انظر : المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص١٣٢ .
(٤) «ساعد» فى الأصل ، والمثبت من المختصر ، ج٣ ، ص١٣٢ .
(٥) القُنَيَّة : قرية من نواحى ماردين . شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٨٧ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة العشرين بعد الستمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله ، وصاحب مصر السلطان الملك الكامل بن الملك العادل ، وصاحب دمشق الملك المعظم بن العادل ، وصاحب حلب الملك العزيز بن الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وصاحب الروم الملك علاء الدين كيقباذ(١) ، وصاحب البلاد الشرقية الملك الأشرف بن العادل ، وصاحب الموصل وغيرها الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ ، وصاحب أذربيجان وغيرها أزبك ابن البهلوان(٢) ، وصاحب سمرقند وخوارزم وماوراء النهر كلها جنكيزخان ، وعساكره تعبث فى البلاد الإسلامية ، وصاحب [٤٣٥] عراق العجم غياث الدين تترشاه بن السلطان خوارزم شاه ، وصاحب مكة واليمن الملك المسعود بن الملك الكامل ، وصاحب الغرب الملك المستنصر ، ولكنه مات فى هذه السنة على مانذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر ماجريات ملوك بنى أيوب

استهلت هذه السنة والملك الأشرف بديار مصر عند أخيه الملك الكامل ، وأخوهما المعظم بسلمية مستول عليها وعلى المعرة ، عازم على حصار حماة ، وبلغ الأشرف ما فعله المعظم بصاحب حماة ، فعظم عليه واتفق مع أخيه الكامل على الإنكار على المعظم ، فأرسل إليه الكامل ناصح الدين الفارسى ، فوصل إلى المعظم وهو بسلمية ، وقال له : السلطان يأمرك بالرحيل . فقال : السمع والطاعة . وكانت أطماعه قد قويت على الاستيلاء على حماة ، فرحل مغضبا على أخويه الكامل والأشرف ، ورجعت المعرة وسلمية للناصر صاحب حماة(٣) . وكان الملك المظفر محمود بن الملك المنصور محمد بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب أخو الملك الناصر مقيما عند الكامل

(*) يوافق أوله ٤ فبراير ١٢٢٣م .

(١) علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو أحد سلاطين السلاجقة الروم . (٦١٦ ــ ٦٣٤هـ) ــ (١٢١٩ - ١٢٣٦ م) .
انظر : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص٢٦١ ، حاشية(١) .

(٢) أزبك بن البهلوان : يلقب أزبك بن محمد بمظفر الدين ، حكم من سنة (٦٠٧ ــ ٦٢٢هـ) ــ (١٢١٠ - ١٢٢٥ م) .
انظر : سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، ص٣٧ ، حاشية(٢) .

(٣) حماة : مدينة كبيرة يجرى بها نهر العاصى ، بينها وبين شيزر نصف يوم ، وبينها وبين دمشق خمسة أيام للقوافل ، وبينها وبين حلب أربعة أيام .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٣١ - ص٣٣٢ .

بديار مصر كما ذكرناه ، وكان الكامل يؤثره بِمُلك حماة ، لكن الأشرف غير مجيب إلى ذلك ؛ لانتماء الملك الناصر صاحب حماة إليه ، وجرى بين الأشرف والكامل فى ذلك مراجعات كثيرة آخرها أنهما اتفقا على نزع سلمية من يد الناصر وتسليمها إلى الملك المظفر ، فتسلمها المظفر ، وأرسل إليها وهو بمصر نائبا من جهته حسام الدين أبا على بن محمد بن على الهذبانى ، واستقر بيد الناصر حماة والمعرة وبعرين[١] ثم سار الأشرف من مصر واستصحب معه خلعة وسناجق سلطانية[٢] من أخيه الكامل للملك العزيز صاحب حلب[٣] ، وعمره يومئذ عشر سنين ، ووصل الأشرف بذلك إلى حلب ، وأركب العزيز فى دست السلطنة[٤] . ثم اتفق مع الأشرف كبراء الدولة الحلبية على تخريب قلعة اللاذقية[٥] فأرسلوا عسكرا وهدموها إلى الأرض[٦] .

وقال ابن كثير[٧] : وكان الملك الأشرف لما عاد من عند أخيه الكامل صاحب مصر إلى الشام تلقاه أخوه المعظم ، وقد فهم أنهما تماليا عليه ، فبات بدمشق ليلة ، وسار من آخر الليل ولم يشعر أخوه بذلك ، ثم إن الأشرف لما سار إلى بلاده وجد أخاه الشهاب غازى الذى استنابه على خلاط[٨] وميافارقين[٩] قد قوى رأسه ، وكاتبه المعظم صاحب

---

(١) بعرين (بارين) : بليدة بين حمص والساحل . معجم البلدان ، ج١ ، ص٦٧٢ .
(٢) السناجق السلطانية : مفردها سنجق وهو الرمح ، وهو لفظ تركى المقصود به الأعلام السلطانية .
صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٤٥٨ ؛ عقد الجمان العصر المملوكى ، ج٢ ، ص٢٠ ، حاشية (١) .
(٣) حلب : مدينة عظيمة ، وهى قصبة جند قنّسرين ، ومنها إلى قنسرين يوم ، وإلى المعرة يومان ، وإلى أنطاكية ثلاثة أيام ، وإلى الرقة أربعة أيام . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٠٨ .
(٤) دست السلطنة : وظيفة من أجَلّ الوظائف وأسناها وأنفسها وأعلاها والقائم بها سفيرا لرعية إلى الملك فى حاجتهم ؛ وترجمان معرب عن شكايتهم ، وكاشف أحسن ناشر عن ظلامتهم ؛ جالس على بساط الأنس بقرب الحضرة ؛ منفذ نهى مليكه وأمره ؛ مبلغ الحاجة من أنعامه جوده وبره . ويتولى هذه الوظيفة كاتب الدست .
القلقشندى :صبح الاعشى ج١ ، ص ٢٣٥ ـ ص ٢٣٦ .
(٥) قلعة اللاذقية : اللاذقية مدينة فى ساحل بحر الشام تعد من أعمال حمص وهى غربى جبلة وهى الآن من أعمال حلب وبها قلعتان متصلتان . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣٣٨ ـ ص ٣٣٩ .
(٦) وردت هذه الأحداث فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٢٦ ـ ص ١٢٩ ؛ المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص١٣٢ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٢٦ ـ ص١٢٧ .
(٧) البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٧ .
(٨) خلاط : بلدة عامرة مشهورة ، وهى قصبة أرمينية الوسطى . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٥٧ ـ ص ٣٥٨ .
(٩) ميافارقين : أشهر مدينة بديار بكر . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٧٠٣ .

إربل[١] ، وحسنوا له مخالفة أخيه الأشرف ، فكتب إليه الأشرف ينهاه عن ذلك فلم يقبل ، فجمع له العساكر ليقاتله .

وفى تاريخ بيبرس : لما قدم الأشرف إلى حلب من الديار المصرية ومعه الخلع السلطانية والتقليد بالسلطنة لغياث الدين محمد بن الظاهر ، التقاه محمد المذكور ودخل هو والعساكر الحلبية الخيمة فى خدمة الأشرف ، ومد السماط[٢] ، ولما رفع أفيضت الخلع الكاملية على العزيز محمد ، ووقف الملك الأشرف[٣] قائما فى خدمته ، ثم أحضر له الركوب فركبه ، وحمل الملك الأشرف الغاشية[٤] بين يديه حتى خرج من الخيمة وركب إلى القلعة ، وأقام الأشرف بحلب عشرة أيام ، ثم توجه إلى حران ، وبلغه أن المظفر شهاب الدين غازى بن العادل عصى عليه بخلاط ، وذلك أنه كان قد أنعم بها عليه ، وهى مملكة عظيمة جدا وسمى إقليمها بأرمينية ، وأضاف إليه ميافارقين وحانى[٥] وجبل جور[٦] ولم يقنع بذلك حتى جعله ولى عهده فى جميع بلاده ، وحلف له العساكر وجميع النواب[٤٣٦] بالبلاد إذ لم يكن للأشرف ولد ذكرٌ ، وكان قد وقعت الوحشة بين المعظم وأخويه الكامل والأشرف كما ذكرنا بسبب ترحيلهما إياه عن حماة ، وتوهم منهما أنهما يقصدان أخذ بلاده منه ، فأرسل إلى مظفر الدين كوكبورى بن زين الدين على كوجك

---

(١) فى الأصل «وصاحب إربل» والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٧ .

(٢) السماط أو الخوان : كلمة فارسية معناها سفرة الطعام .
انظر : محمود التونجى ، المعجم الذهبى ، ص٢٤٥ .

(٣) هو الملك الأشرف موسى بن العادل أبو بكر بن أيوب . مَلَكَ دمشق بعد ابن أخيه الناصر داود سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م . وذلك بالاتفاق مع أخيه الملك الكامل محمد ، توفى سنة ٦٣٥ هـ / ١٢٣٨م .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٣٣٠ - ص ٣٣٦ .

(٤) الغاشية : أصل الغاشية السرج أو الغطاء المزركش الذى يوضع على ظهر الفرس وفوق البرذعة . وكان سلاطين الأيوبيين والمماليك من بعدهم يخرجون فى المواكب وبين أيديهم غاشية . ويقول القلقشندى : «وهى غاشية سرج من أديم مخرزوة بالذهب يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب تحمل بين يدى السلطان عند الركوب فى المواكب الحفلة كالميادين والأعياد ونحوها ، يحملها الركابدارية ، رافعا على يديه ، يلفتها يمينا وشمالا وهى من خواص هذه المملكة .
مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص٢٥٤ .

(٥) حانى : مدينة بديار بكر . معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٨٨ .

(٦) جبل جور : اسم لكورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحى أرمينية وفيها قلاع وقرى .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٠ .

صاحب إربل يدعوه إلى الإتفاق معه ، ويأمره أن يقصد مملكته بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، ويحضره ، وكان بدر الدين لؤلؤ منتميا إلى الأشرف ، وكان مظفر الدين كوكبورى يعاديه ويكرهه لقلعه البيت الأتابكى ، واستيلائه على ولدى القاهر ، وهما ابنا ابنته ، وأخذه من زوج ابنته الأخرى عماد الدين زنكى بن نور الدين أرسلان شاه بلاده ، فأجاب مظفر الدين الملك المعظم إلى ذلك ، وتجهز لقصد الموصل[1] وحصارها وكاتب أخاه المظفر غازى يحسن له الخروج عن أخيه الأشرف ، ويأمره أن يعصى بخلاط وينزع يده من الطاعة ، ووعدهما من نفسه أنه يخرج من دمشق فى عساكره ويقصد البلاد الشرقية وينزعها من يد الأشرف ، فأجابه المظفر إلى ذلك وعصى بخلاط على أخيه الأشرف ، وأظهر مغاضبته والتجنى عليه ، فراسله الأشرف واستماله وعاتبه على مافعل ، فلم يَرْعو إلى ذلك وأصر على خلافه ، واتفق المعظم والمظفر صاحب إربل على مخالفة الأشرف ومحاربته ، ورحل المعظم عن دمشق فى عساكره ، ونزل بمكان يسمى القطنة[2] فى البرية على نية قصد الأشرف أخيه ، ثم إن الأشرف انتصر على أخيه المظفر فى السنة الآتية وأخذ خلاط منه ثم عفى عنه وأقره على ميافارقين ، وكان الأشرف أرسل إلى أخيه الكامل وعرفه بصورة الحال ، فأرسل الكامل إلى أخيه المعظم يقول له : إن تحركت من بلدك سرت إليه وأخذته منك . فخافه المعظم ، وعاد إلى دمشق . وبقية الكلام يأتى فى السنة الآتية إن شاء الله تعالى[3] .

---

(١) الموصل : هى المدينة المشهورة العظيمة ، وهى مدينة قديمة على طرف دجلة ويقابلها من الجانب الشرقى نينوى ، وهى باب العراق ومفتاح خراسان ومنها يقصد إلى أذربيجان .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٦٨٣ .

(٢) القطنة : وتكتب أيضا «قطنا» وهى من قرى دمشق . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص١٣٧ .

(٣) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص١٣٣ - ص١٣٤ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٢٩ - ص١٣٠ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٢٦ - ص١٢٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٧ .

ذكر ماجريات بني خوارزم شاه

وفى هذه السنة خرج على غياث تترشاه بن السلطان خوارزم شاه صاحب بلاد الجبال خاله يغان طايسى ، وكان من أكبر أمرائه وأقربهم إليه ، فاقتتل مع غياث الدين ، فانهزم يغان طايسى(١) ومن معه ، وأقام غياث الدين فى بلاده ، وكان غياث الدين قد ملك كرمان(٢) «ولما توجه(٣) جلال الدين منكبرتى إلى الهند»فى سنة سبع عشرة وستمائة كما ذكرنا تغلب غياث الدين على الرى وأصفهان وهمذان وغيرها من عراق العجم ، وهى البلاد المعروفة ببلاد الجبل ، فخرج على غياث الدين خاله يغان طايسى كما ذكرنا(٤) .

وقال أبو الفتح المنشئ : وكان السلطان خوارزم شاه قد نصّ على ولده غياث الدين تترشاه بملك كرمان ، ولم يتفق مسيره إليها حتى جرى بقزوين من الكبسة [ماسبق شرحه](٥) ، وقصد قلعة قارون ، وخدمة الأمير تاج الدين صاحبها إلى أن عاد ركن الدين غورشاه من كرمان إلى أصفهان ، فبعث إليه يحرضه على المسير إلى كرمان ، يُعْلمه بأنها خالية عمن يمانع ، صافية عمن يحامى ، فسار إلى أصفهان وبها ركن الدين ، فأكرمه أتم الإكرام ، فنهض إلى كرمان بعد ثلاثة أيام فملكها ، وزاد أمره بهاء ونوراً ، وأَمْر ركن الدين وهناً وفتورا إلى أن تم عليه من القتلة بقلعة(٦) [٤٣٧] آوند ، وعاد إلى العراق ، وخرج الأتابك يغان طايسى عن الحبس بقلعة(٧) سرجهان ، وكان سبب حبسه بها أن

---

(١)«إيغان طائسى» كذا فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤١٥ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٣٢ - ص١٣٣ .

(٢) كرمان : مدينة بين غزنة وبلاد الهند ، وهى من أعمال غزنة . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣٦٦ .

(٣) «ولما توجه جلال الدين منكبرتى أخوه إلى الهند» هكذا وردت الجملة فى الأصل ، والصحيح هو ما أثبتناه من مفرج الكروب لاستقامة المعنى ، ج٤ ، ص١٣٢ .

(٤) ورد هذا الخبر فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤١٥ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٣٢ - ص١٣٣ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٣٢ - ص١٣٣ .

(٥) مابين حاصرتين إضافة من سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، لاستقامة المعنى ، ص١٤٤ .

(٦) قلعة آوند : أستون آوند ، وهى إحدى القلاع القريبة من الرى . انظر : سيرة منكبرتى ، ص١٤١ ، حاشية(٦) .

(٧) قلعة سرجهان : تقع فوق قلة الجبل فى نصف الطريق بين صاين قلعة والسلطانية وتشرف على السهول الواسعة شرقا إلى أبهروقزوين . .
انظر : بلدان الخلافة الشرقية ، ص٢٥٨ .

السلطان خوارزم شاه كان قد رتبه فى خدمة ولده ركن الدين غورشاه حين ملكه العراق ليكون أتابكا لديه وردءا بين يديه ، فشكى ركن الدين إلى أبيه منه ، فأذن له فى القبض عليه فقبضه ، وحبسه بقلعة سرجهان إلى أن خلت العراق من الفتن ، ثم أخرجه والى القلعة أسد الدين الجوينى ، فاجتمعت عليه طوائف من العراقية والخوارزمية واشتد بهم أمره . فمن جملة من انضوى إليه بهاء الدين شكر مقطع ساوة[١] ، وجمال الدين عمر بن يزدار ، والأمير كيخسرو ، ونور الدين جبريل مقطع قاشان[٢] ، وابن نور الدين قيران خوان ، وأيدمر الشامى ، وكتك مقطع سمنان[٣] وأيدغدى كله[٤] ، وطغربل الأعسر ، وسيف الدين كيتارق مقطع كرخ[٥] وكان أدك خان قد استولى على أصفهان فى هذه الفترة ، وأراد غياث الدين استمالة قلبه ، وأن يجعله من حزبه ، فزوّجة بأخته أيسى خاتون ، تثبيتًا له على الطاعة ، ودافعه فى زفافها إليه إلى أن يبدو له ماينكشف عنه الوحشة القائمة بين المذكور والأتابك يغان طايسى ، إذ كانا[٦] قد استوليا على طرف العراق ، واستحوذ عليهما الشيطان ، فصمد الأتابك نحوه وهو بأصفهان فى سبعة آلاف فارس من نخب الأتراك العراقية والخوارزمية ، وحين أحسّ أدك خان برحيله صوبه ، راسل غياث الدين مستنجداً ، فأنجده بدولة ملك فى ألف فارس ، وعجله الأتابك عن وصول المدد ، فالتقيا بظاهر أصفهان ، وأُدَك خان فى خفّ من العدد ، وانجلت المعركة عن أَسْر أُدَك خان ، فكف الأتابك عن قتله لقرابته من السلطان ، غير أنه أجلسه دون بعض العراقية ، فغاظه ذلك وحمله الإدلال بقربه من السلطان على أن سافهه بأغلظ الكلام ، فأمر بخنقه ، ثم ندم الأتابك على مافعل ، فلما بلغ ذلك دولة ملك ، وكان قد جرد من كرمان نجدة لأدك

---

(١) ساوة : مدينة حسنة بين الرى وهمذان . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٢٤ .

(٢) قاشال فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه من سيرة منكبرتى ، ص١٤٥ . وهى مدينة قرب أصبهان ، ومنها تجلب الغضائر القيشانى ، وأهلها من الشيعة الإمامية . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص١٥ .

(٣) سمنان : مدينة بين الرى ودامغان .
انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص١٤١ .

(٤) «أيدعدى» كذا فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه من سيرة منكبرتى ص١٤٥ .

(٥) «كرج» كذا فى الأصل ، والمثبت من سيرة منكبرتى ، ص١٤٥ ، والكرخ عدة مواضع وكلها بالعراق .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٢٥٢ .

(٦) «كان» كذا فى الأصل ، والمثبت هو الصحيح لغة .

خان على الأتابك ، رجع وكاتب غياث الدين يخبره بذلك ، فلحقه غياث الدين طالباً للثأر ، وقصد أصفهان ويغان طايسى بها ، وصبّحه بظاهرها ، فلم يريغان طايسى بداً عن الخدمة ولا خروجا عن الطاعة ، فقبل الأرض حين رآه ، وعفّر وجهه فى التراب ، فزال مافى قلب غياث الدين من الوحشة بمواطأته على قتل أُدك خان ، وزوّجه بأخته أيسى خاتون ، وزفت إليه ، واستوحش لذلك رفقاؤه من الأمراء ، ففارقوا مخيمه ، وأقاموا مجفلين إلى أن ترددت الرسل من غياث الدين إليهم فى الإصلاح ، فزال عنهم ماتوهموا ، وعادوا إلى الخدمة ، ماخلا أيدمر الشامى ، فإنه توجه إلى الأتابك أزبك صاحب أذربيجان فقتل هناك ، وتمكن غياث الدين من العراق ونفذت أوامره فى مازندران وخراسان ، فأقطع دولة ملك مازندران بأسرها فقوى على أمرها ، ويغان طايسى همذان بأعمالها ونواحيها . ولما رجع دولة ملك إلى الخدمة قويت شوكة غياث الدين ، فقصد أذربيجان وبها الأتابك أزبك ، وشن الغارة على بلد مراغة ومايلى العراق من سائر أعماله ، وأقام بأوجان[1] ، وترددت رسل أزبك إليه ، وزوّجه[2] [٤٣٨] بأخته الملكة الجلالية صاحبة نخجوان[3] ، وعاد غياث الدين إلى العراق بعد تأكد أسباب الاتفاق[4] .

كان غياث الدين بالعراق يدارى جيرانه من الملوك إلى أن قويت شوكته ، وانضم إليه أُناس من العسكر السلطانية ، واتفق إفلات أينانج إليه من حرب جرت بينه وبين التتار بظاهر جرجان[5] ، فأحسن إليه غاية الإحسان ، وبالغ فى إكرامه حتى نافسه فى ذلك خالاه دولة ملك ، وبلتى[6] ملك ،[وجنبه الأتابك][7] يغان طايسى ، وهَمُّوا بقتله بغياً وحسدًا على منزلته ، وحين علم غياث الدين بما أضمروا له من الشر والغدر ،

(١) أوجان : إحدى مدن أذربيجان . سيرة منكبرتى ، ص١٤٧ ، حاشية (٥) .
(٢) «زوج» كذا فى الأصل والمثبت من سيرة منكبرتى ، ص١٤٧ .
(٣) نخجوان : بلد بأقصى أذربيجان ، وبعضهم يقول : نقجوان . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٧٦٧ .
(٤) وردت هذه الأحداث فى سيرة منكبرتى ، ص١٤٤ - ١٤٧ .
(٥) جرجان : مدينة عظيمة بين طبرسان وخراسان . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٩ .
(٦) «تقى» كذا فى الأصل والمثبت من سيرة منكبرتى ، ص١٤٨ .
(٧) مابين حاصرتين إضافة من سيرة منكبرتى ، ص١٤٨ لاستقامة المعنى .

حذَّرهم من ذلك ، فتسحب كل واحد منهم إلى جهة ، فاتفق حينئذ عود التتار ثالثا ، وكان عودهم فى هذه السنة إلى العراق وقد وجدوا شملهم مبدّد النظام ، فوقعوا بدولة ملك بحدود زنجان[١] ، فقتله شخص يسمى قذاق ، ثم وقع التتار بيغان طايسى[عند][٢] منصرفهم من زنجان ، فنهبوا وقتلوا . ونجى بنفسه إلى حدود طارم[٣] وعاد التتار فعبروا جيحون منتصرين ، وعاد من نجا منهم إلى غياث الدين فقوى بهم ، ثم سار إلى أصطخر[٤] فملكها عنوة وأخربها ، ثم ارتحل عنها إلى شيراز فدخلها عنوة ، ثم صالح أهلها على مال وآمّنهم ، ومات أينانج خان هناك فدفن بشعب سلمان[٥] . ثم سار غياث الدين إلى حدود رامه[٦] من بلاد بغداد فأخلاها علم الدين قيصر نائب الديوان العزيز[٧] .

وفى تاريخ بيبرس : وفى هذه السنة عاد التتار ثالثة إلى العراق فوجدوا الأمراء العراقية على غير اتفاق ، فوقعوا بدولة ملك بحدود زنجان فقتلوه ، وحاق به شر غدره بابن أخته غياث الدين ، وتسحب ولده بركة خان وكان طفلاً على جادة أذربيجان إلى أن وصل إلى تبريز ، فأقام عند الأتابك أزبك ، فعطف به وأحسن إليه ، وأقام عنده إلى أن عاد السلطان جلال الدين خوارزم شاه من الهند ، ، وملك تبريز ، فلحق بركة خان بن دولة ملك بخدمته . وأما أيغان طايسى فإن التتار وقعوا به عند منصرفه من زنجان ، فنهبوا جلة سواده ، ونجا بنفسه وعرسه إلى حدود طارم ، وعاد التتار فعبروا جيحون ، وعاد من نجا من الأمراء إلى غياث الدين بوجوه سوّدها العصيان[٨] .

---

(١) زَنْجان : إحدى المدن الكبرى فى أقصى شمال بلاد الجبل ، وعلى الحدود الجنوبية لأذربيجان ، وتنتسب إليها جبال زنجان ، والعجم يقولون زنكان .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٩٤٨ ؛ القلقشندى ، صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٣٦٩ .
(٢) مابين حاصرتين إضافة من سيرة منكبرتى لاستقامة المعنى ، ص١٤٩ .
(٣) طارم : أحد الأقاليم الجبلية المشرفة على مدينة قزوين .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص١٤٩ ، حاشية(٤) .
(٤) «اصطخر» من أهم وأقدم مدن فارس وحصونها . معجم البلدان ، ج١ ، ص٢٩٩ .
(٥) شعب سلمان ، طريق فى الجبل من بلاد فارس .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص١٥٠ ، حاشية(٣) .
(٦) «أمهر» كذا فى سيرة منكبرتى ، ص١٥٠ .
(٧) وردت هذه الأحداث فى سيرة منكبرتى ، ص١٤٨ ـ ص١٥٠ .
(٨) ورد هذا الخبر بتصرف فى سيرة منكبرتى ، ص١٤٨ ـ ص١٤٩ .

ذكر ما اتفق فى الكرج

وفى هذه السنة مات ملك الكرج ولم يبق أحد من بيت المُلك غير امرأة فملّكوها ، وطلبوا رجلاً يتزوّجها ويقوم بالمُلك ويكون من بيت أهل المملكة ، فلم يجدوا من يصلح لذلك ، وكان صاحب أرزن الروم مغيث الدين طغريل شاه بن قليج أرسلان السلچوقى من بيت كبير مشهور ، فأرسل يخطب الملكة [لولده][1] ليتزوجها ، فامتنعوا من إجابته إلا أن يتنصّر ، فأمر ولده فتنصّر ، وسار إلى الكرج وتزوج الملكة ، وكانت هذه الملكة تهوى مملوكاً لها ، وكان ابن طغريل شاه يعلم بذلك ويكاسر ، فدخل يومًا إلى البيت فوجد المملوك نائمًا معها فى الفراش ، فلم يصبر على ذلك ، فأنكر عليها ، فأخذته زوجته واعتقلته فى بعض القلاع ، ثم أحضرت رجلين كان قد وُصِفا لها بحسن الصورة ، فتزوجت أحدهما ثم فارقته ، وأحضرت إنسانًا من كَنْجَة[2] مسلما وهوته وسألته أن يتنصر ، فلم يجب إلى ذلك ، فترددت الرسل بينهما فى ذلك مدة ، فلم يجبها إلى التنصر[3] .

وفيها ......[4] [٤٣٩]

وفيها حج بالناس من العراق ابن أبى فراس ، ومن الشام الشرف[5] يعقوب بن محمد صاحب جركس[6] .

---

(١) [لولده] مابين حاصرتين إضافة من الكامل لتوضيح المعنى .
انظر : الكامل ، ج١٢ ، ص٤١٧ .

(٢) كَنْجة : مدينة عظيمة وهى قصبة بلاد آران . وأهل الأدب يسمونها جنزه ، وهى من نواحى كرستان وهى بين خوزستان وأصبهان . معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣٠٨ .

(٣) ورد هذا الخبر فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤١٦ - ص٤١٧ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٣٣ .

(٤) بياض فى الأصل بمقدار ربع سطر .

(٥) «الشرف يعقوب صاحب جركس بن محمد» كذا فى الأصل ، والمثبت من الكامل ، ج١٢ ، ص٤١٨ لاستقامة المعنى .

(٦) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص١٣٤ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١٢ .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

الشيخ أبو[١] **الحسن الروزبهارى** ، مات فى هذه السنة ، ودفن فى المكان المنسوب إليه بين السورين عند باب الفراديس .

الشيخ عبد[٢] **الرحمن اليمنى** ، كان مقيما بالمنارة الشرقية ، وكان شيخًا صالحاً زاهدًا ورعًا ، مات فى هذه السنة ، ودفن فى مقابر الصوفية .

الرئيس عز الدين[٣] **مظفر بن الأسعد بن حمزة التميمى القلانسى** ، أحد رؤساء دمشق وكبرائها ، وجده أبو يعلى حمزة ، له تاريخ ذيل به على تاريخ ابن عساكر ، وقد سمع عز الدين هذا الحديث من الحافظ أبى القاسم بن عساكر وغيره ، ولزم مجالسة الكندى وانتفع به ، مات فى شهر رمضان منها ، ودفن بجبل قاسيون .

أبو على[٤] **الحسن بن أبى المحاسن زهرة بن على بن زهرة العلوى الحسينى الحلبى** ، نقيب الأشراف بها ، كان لديه فضل وعلم بالأدب وأخبار الناس والتواريخ والحديث والسير ، حافظ للقرآن المجيد ، وله شعر جيد . فمنه قوله :

قد رأيت المعشوق وهو من الـ ... الهجر بحال ينبو النواظر عنه
أثَّر الدهر فيه آثار سوء ... وأدالت يدُ الحوادث منه
عاد مستبدلا ومستبدلاً عزّاً ... بذلٍ كأنه لم يُصبه[٥]

أبوعلى[٦] **يحيى بن المبارك بن الجلاجلى** ، من أبناء التجار ، سمع الحديث ، وكان جميل الهيئة ، سكن بدار الخلافة ، وكان عنده فضل وأدب ، وله شعر حسن ، منه

---

(١) انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٣٦ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٠ .
(٢) انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٣٦ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٠ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١٥ .
(٣) انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٣٥ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٠ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١٦ .
(٤) انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ١١١ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص٨٧ .
(٥) وردت هذه الأبيات فى البداية والنهاية بهذه الصورة :

لقد رأيت المعشوق وهو من الـ ... الهجر تنبو النواظر عنه
أثَّر الدهر فيه آثار سوء ... وأدالت يدُ الحوادث منه
عاد مستذلاً ومستبدلاً ... عزاً بذلٍ كأنه لم يصنه

انظر : ابن كثير ، ج١٣ ، ص١١١ .
(٦) انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١١ .

قوله :

خير إخوانك المشارك فى المرِّ ... وأين الشريكُ فى المرِّ أينا
الذى إن شهدتَ سرّكَ فى القوم ... وإن غبت كان أذنًا وعينا
مثل سر العقبان إن مسّهُ النارُ ... جَلاهُ الجلاءَ فازداد زَينا
وأخو السوءِ إن يغبْ عنك يشنئك[١] ... وإن يحتضرْ يكن ذاك شينا[٢]

ابن قدامه[٣] الشيخ موفق الدين عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسى ، إمام عالم بارع . لم يكن فى عصره بل ولا قبل دهره بمدة أفقه منه ، ولد بجماعيل[٤] فى شعبان سنة إحدى وأربعين وخمسمائة ، وقدم مع أهله إلى دمشق فى سنة إحدى وخمسين ، وقرأ القرآن ، وسمع الحديث الكثير ، ورحل مرتين إلى العراق ، إحداهما فى سنة إحدى وستين مع ابن عمته[٥] الحافظ عبد الغنى ، والأخرى سنة سبع وستين ، وحج فى سنة ثلاث وسبعين ، وتفقه ببغداد على مذهب الإمام أحمد (رضى الله عنه) ، وبرع وأفتى وناظر وتبحر فى فنون كثيرة ، مع زهد وعبادة وورع ، وتواضع ، وحسن أخلاق ، وجود وحياء ، وحسن سمت ونور وبهاء ، وكثرة تلاوة وصلاة وصيام وقيام ، وطريقة حسنة واتباع للسلف الصالح ، وكانت له أحوال ومكاشفات . وقد قال الشافعى(رضى الله عنه) : إن لم يكن العلماء العالمون أولياء الله فلا أعلم لله ولياً . وله مصنفات عديدة مشهورة منها : المغنى فى شرح[مختصر][٦] الخرقى ، عشر مجلدات ، والشافى فى مجلدين ، والمقنع [فى الفروع][٧] والروضة فى أصول الفقه ، وغير ذلك . وقال أبو شامة[٨] : كان إماماً من أئمة المسلمين ، وعلماً من أعلام الدين فى العلم والعمل ، صنف كتبًا كثيرة

---

(١) «تستغبك» كذا فى الأصل ، والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١١ .
(٢) ورد هذا الشعر فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١١ .
(٣) انظر الذيل على الروضتين ، ص١٣٩ ـ ١٤٢ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٧ ـ ١٠٨ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١٣ ـ ص٤١٥ .
(٤) جماعيل : قرية فى جبل نابلس من أرض فلسطين . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص١١٣ .
(٥) «عمه» فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٨ .
(٦)ما بين حاصرتين إضافة من هداية العارفين ، ص٤٥١ .
(٧)ما بين حاصرتين إضافة من هداية العارفين ، ص٤٥١ .
(٨) الذيل على الروضتين ص ١٣٩ ـ ١٤٠ .

حسانًا فى الفقه وغيره ، ولكن كلامه فيما يتعلق بالعقائد فى مسائل الصفات والكلام على الطريقة المشهورة عن أهل مذهبه ، فسبحان من لم يوضح له الأمر ، له فيها على جلالته فى العلم ومعرفته [٤٤٠] بمعانى الأخبار والآثار ، سمعت عليه مسند الإمام الشافعى ، وفاتنى منه نحو ورقتين عند باب استقبال القبلة بسماعه من أبى زرعة ، وسمعت عليه كتاب النصيحة لابن شاهين وغير ذلك ، ومولده فى شعبان سنة إحدى وأربعين وخمسمائة بأرض نابلس . وقال السبط[١] : كان يحضر مجالسى دائما فى جامع دمشق وقاسيون . وقال أبو شامة[٢] : كان الموفق بعد موت أخيه أبى عمر هو الذى يَؤُم الجامع المظفرى ، ويخطب يوم الجمعة إذا حضر ، فإن لم يحضر فابنه عبد الله بن أبى عمر هو الخطيب والإمام ، وكانت وفاته يوم السبت يوم عيد الفطر ، أول شوال ، ودفن من الغد بجبل قاسيون خلف الجامع المظفرى فى مقبرتهم المشهورة ، وكانت له جنازة عظيمة .

وقال السبط[٣] : وأنشدنى لنفسه :

أَبَعْدَ بياضِ الشعر أعمرُ سكنًا ... سوى القبر إنى [إن][٤] فعلتُ لأحمقُ
يخبّرنى شيبى بأنّى ميتٌ ... وشيكًا فينعانى إلىّ فيصدقُ
يخرق عمرى كلّ يوم وليلةٍ ... فهل مستطيعٌ رقع مايتخرقُ
كأنى بجسمى فوق نعشى ممددا ... فمنْ ساكتٍ أو معولٍ يتحرق
إذا سئلوا عنى أجابوا وأعوْلوا ... وأدمعهم تنهلُّ هذا الموفقُ
وغيبت فى صدعٍ من الأرض ضيقٍ ... وأودعتُ لحداً فوقهُ الصخر مطبقُ
ويحثو على التربَ أوثقْ صاحبٍ ... ويسلمنى للقبر من هو مشفقُ
فياربُّ كنْ لى مؤنساً يوم وحشتى ... فإنى بما أنزلته لمصدِّقُ
وماضرّنى أنى إلى الله صائرٌ ... ومن هو من أهلى[٥] أبرُّ وأرفق[٦]

(١) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١٤ .
(٢) الذيل على الروضتين ، ص١٤٠ - ص١٤١ .
(٣) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١٥ .
(٤) ما بين حاصرتين إضافة من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٨ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ٤١٥ .
(٥) «أهل» كذا فى الأصل ، والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٩ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١٥ .
(٦) «أوثق» كذا فى الأصل ، والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٩ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١٥ .

وكان له أولاد : أبو الفضل محمد ، وأبو العز يحيى ، وأبو المجد عيسى ، ماتوا كلهم فى حياته . وقال ابن كثير(١) : وكان له أولاد ذكور وإناث ماتوا فى حياته ، ولم يعقب منهم سوى ابنين ، ثم ماتا وانقطع نسله .

ابن عساكر(٢) ، الشيخ فخر الدين عبد الرحمن بن الحسن بن هبة الله بن عساكر ، أبو منصور الدمشقى ، شيخ الشافعية بها ، وليس فى أجداده من اسمه عساكر ، وإنما هى تسمية اشتهرت فى بيتهم ، ولعله من قبل أمهات بعضهم ، وهذا البيت بيت جليل كبير من الدمشقيين ، كثير الفضلاء والحفاظ والأمناء ، جمع هذا البيت رئاسة الدين والدنيا ، وأجلّهم فى زماننا ديناً وعلماً ، هذا الفخر ابن عساكر ، وفى القرن الذى قبله عمّاه صائن الدين هبة الله ، والحافظ أبو القاسم [ثم](٣) ابن عمه الحافظ أبو محمد بن أبى القاسم وابنه العماد بن القاسم ، وأخو الفخر تاج الأمناء أحمد ، وزين الأمناء الحسن ، واشتغل الشيخ فخر الدين من صغره بالعلم ، فاشتغل بالفقه على شيخة قطب الدين مسعود النيسابورى حتى برع فى ذلك ، وانفرد بعلم الفتوى ، كانت الفتاوى ترسل إليه من الأقطار . وقال السبط(٤) : ولد فخر الدين فى سنة خمس وخمسمائة ، وكان زاهداً عابداً ورعاً ، منقطعاً إلى العلم والعبادة ، شيخاً حسن الأخلاق قليل الرغبة فى الدنيا ، وكانت وفاته يوم الأحد(٥) عاشر رجب ، ودفن على الشرف القبلى عند مقابر الصوفية ، وكانت له جنازة عظيمة ، وقبره ظاهر يُزار ، وصلى عليه الملك العزيز بن العادل . وقال ابن كثير(٦) : اشتغل بالعلم الشريف على شيخه قطب الدين مسعود النيسابورى ، وتزوج بابنته ، ودرس مكانه بالجاروخية(٧) ، وبها كان يسكن فى إحدى القاعتين اللتين أنشأهما ، وبها توفى

---

(١) البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٨ .

(٢) انظر : الكامل ، ج١٢ ، ص٤١٨ ؛ الذيل على الروضتين ، ص١٣٦ - ص١٣٧ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٩ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١٥ .

(٣) ما بين حاصرتين إضافة من الذيل على الروضتين ، ص١٣٦ .

(٤) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١٥ .

(٥) «الأربعاء» فى الذيل على الروضتين ، ص١٣٩ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٩ .

(٦) البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٩ .

(٧) المدرسة الجاروخية : داخل بابى الفرج والفراديس لصيقة الإقبالية الحنفية شمالى الجامع الأموى والظاهرية الجوانية . بانيها جاروخ التركمانى يلقب بسيف الدين .
الدارس فى تاريخ المدارس ، ج١ ، ص٢٢٥ .

غربى الإيوان ، ثم ولى تدريس الصلاحية[١] الناصرية بالقدس الشريف ، ثم ولاه الملك العادل[٤٤١] تدريس التقوية[٢] ، وكان عنده أعيان فضلاء ، ثم تفرغ فلزم المجاورة بالجامع فى البيت الصغير إلى جانب محراب الصحابة ، يخلو فيه للعبادة والمطالعة والفتاوى ، رحمه الله .

الأمير الكبير أحد حجاب الخليفة محمد[٣] بن سليمان بن قتلمش بن تركانشاه أبومنصور السمرقندى ، وكان من أولاد الأمراء ، وولى حاجب الحجاب بالديوان العزيز الخليفتى ، وكان يكتب جيداً جداً ، وله معرفة حسنة كثيرة منها : الأدب ، والعلوم الرياضية ، وعَمَّر دهرًا ، وله شعر حسن ، ولما توفى فى هذه السنة صلى عليه بالنظامية ، ودفن بالشونيزية ، ورآه بعضهم فى المنام ، فقال : ما فعل بك ربك؟ فقال :

تجافيت[٤] اللقاءَ لسوءِ فعلى ... وخوفاً فى المعادِ من الندامة
فلما أن قدمتُ على إلهى ... وحاقق فى الحساب على قلامة[٥]
وكان العدلُ أن أصلى جحيما ... تعطّف بالمكارم والكرامة
ونادانى لسانَ العفو منه ... ألا ياعبدُ يهنيك السلامة[٦]

السلطان الملك[٧] المستنصر ، ملك المغرب ، يوسف بن السلطان الناصر محمد بن السلطان المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، وقد تولى فى سنة عشر وستمائة ،

(١) الصلاحية الناصرية (بالقدس) : بالقرب من البيمارستان النورى ، بانيها نور الدين محمود بن زنكى الشهيد ، ونسبت إلى الملك الناصر صلاح الدين فاتح بيت المقدس . قال الذهبى فى العبر فى سنة تسع وستين وخمسمائة ، وقال الحافظ ابن كثير فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، وعمل للشافعية المدرسة الصلاحية ويقال لها الناصرية . الدارس فى تاريخ المدارس ، ج١ ، ص٣٣١ .

(٢) التقوية : هى من أجل مدارس دمشق داخل باب الفراديس شمالى الجامع شرقى الظاهرية والإقباليتين ، بانيها فى سنة أربع وسبعين وخمسمائة الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب .
الدارس فى تاريخ المدارس ، ج١ ، ص٢١٦ .

(٣) الذيل على الروضتين ، ص١٣٥ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٠ .

(٤) «تحاشيت» فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١١ .

(٥) قلامة : هى المقلومة من طرف الظفر . لسان العرب ، ص٣١٥ ، مادة «قلم ؛ المصباح المنير ، ص٦٢٢ . والقلامة هى القليل القليل من الشئ . البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١١ ، حاشية (١)

(٦) وردت هذه الأبيات فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١١ .

(٧) انظر : الشذرات ، ج٥ ، ص٩٥ .

وكان منهمكاً فى اللذات ، فدخل الوهن على الدولة بسبب ذلك ، ولم يخلف يوسف المذكور ولدًا ، فاجتمع كبراء الدولة وأقاموا عم أبيه ، وهو عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن ولقبوه المستضيء ، وكان عبد الواحد المذكور قد صار فقيرا بمراكش وقاسى شدائد الدهر ، فلما تولى اشتغل باللذات والنعيم فى المآكل والملابس من غير أن يشرب خمراً ، ثم خلع عبد الواحد المذكور بعد تسعة أشهر من ولايته وقُتل ، وملك بعده ابن أخيه عبد الله ، ويلقب بالعادل ، وهو عبد الله بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن . نُجز تحرير هذا الجزء صبيحة يوم الأحد الثامن والعشرين من شهر الله المحرم اثنين وثلاثين وثمانمائة فى المنزل ، بحذاء المدرسة البدرية[1] بالقرب من الجامع الأزهر على يد جَامِعَةُ ومؤلفه فقير رحمة ربه ، الغنى ، أبو محمد محمود بن أحمد العينى ، عامله ربه ووالديه بلطفه الجلى والخفى . ويتلوه الجزء الذى أوله .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الحادية والعشرين بعد الستمائة

الحمد لله جميع الجزء المبارك بخط المصنف المرحوم المذكور ، رحمه الله وترحم عليه وأموات المسلمين ، كتبه الفقير طوغان شيخ المحمدى الأشرفى ناظر الحرم الشريف ، كان الله له فى الدنيا والآخرة بمحمد وآله . ٨٦١ هـ

---

(١) المدرسة البدرية : تقع قبالة الشبلية التى بالجبل عند جسر كحيل ويعرف الآن بجسر الشبلية ، بانيها الأمير بدر الدين المعروف بلالا فى سنة ثمان وثلاثين وستمائة .
انظر : الدارس فى تاريخ المدارس ، ج١ ، ص٤٧٧ .

«بسم الله الرحمن الرحيم»

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الحادية والعشرين بعد الستمائة

[٢] استهلت هذه السنة والخليفة هو الناصر لدين الله ، وأصحاب جنكيزخان دائرون فى البلاد بالفساد بين العباد ، ووصلت سرية منهم إلى الرى ، وكانت قد عمرت قليلا فقتلوا أهلها أيضا ، وكانوا قد وردوا إليها قبل هذه المرة مرتين ، ثم لما فرغوا منه ساروا إلى ساوة[١] ثم إلى قم[٢] وقاشان[٣] ، ولم يكونا طرقا[٤] إلا هذه المرة ، ففعلوا بهما مثلما تقدم من القتل والسبى ، ثم ساروا إلى همذان فقتلوا أيضا وسبوا ، ثم ساروا خلف الخوارزمية إلى أذربيجان فكسروهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، فهزموهم إلى تبريز فلحقوهم ، وكتبوا إلى أزبك بن البهلوان صاحب تبريز : إن كنت مصالحًا لنا فابعث إلينا بالخوارزمية وإلا فأنت مثلهم ، فقتل منهم خلقا كثيرا وأرسل برؤوسهم إليهم مع تحف وهدايا كثيرة ، هذا كله والسرية ثلاثة آلاف ، والخوارزمية وأصحاب ابن البهلوان أضعاف أضعافهم ، ولكن الله ألقى عليهم الخذلان والفشل ، فإنا لله وإنا إليه راجعون[٥] .

ذكر ماجريات بنى خوارزم شاه

قال ابن كثير[٦] : وفى هذه السنة استولى غياث الدين تترشاه أخو جلال الدين بن خوارزم شاه محمد بن تكش على غالب مملكة فارس ، وكان صاحب الفارس يقال له : الأتابك سعد بن دكلا ، وأقام غياث الدين بشيراز وهى كرسى مملكة فارس ولم يبق مع الأتابك سعد من فارس غير الحصون المنيعة ، ثم اصطلح غياث الدين مع أتابك سعد على أن يكون لسعد بعض بلاد فارس ولغياث الدين الباقى[٧] .

(*) يوافق أوله : ٢٤ يناير ١٢٢٤ م .

(١) ساوه : مدينة بين الرى وهمذان ، كان بها دار كتب حرقها التتر . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٢٤ .

(٢) قم : مدينة كبيرة من بلاد الجبل بين ساوة وأصبهان ، وتذكر عادة مع مدينة قاشان .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص١٧٥ - ص١٧٧ .

(٣) قاشان : مدينة قرب أصبهان تذكر مع قُمّ ، أغلب أهلها شيعة .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص١٥ .

(٤) «طرقتا» كذا فى الأصل ، والمثبت هو الصحيح لغة .

(٥) لمعرفة المزيد عن هذه الأحداث . انظر : الكامل ، ج١٢ ، ص٤١٩ ؛ الذيل على الروضتين ، ص١٣٤ - ص١٣٥ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٢ .

(٦) ذكر هذا الحدث فى ابن الأثير ولم يذكر فى ابن كثير ، ولعله خطأ من الناسخ .
انظر : الكامل ، ج١٢ ، ص٤٢٠ - ص ٤٢١ .

(٧) انظر : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٣٦ .

وفى تاريخ بيبرس : وفى هذه السنة وصل جلال الدين خوارزم شاه إلى كرمان بعد مكابدة العناء والشدائد هو وأصحابه ، وقطع المفاوز المهلكة المعطشة ، وكان بكرمان براق الحاجب ينوب عن أخيه غياث الدين تترشاه ، وبراق هذا كان حاجب الكور[٣] خان(١) ملك الخطائية ، وورد رسولاً على السلطان منذ المكاشفة التى كانت بينهما ، فمنعه أن يعود إلى مراسلته رغبة فيه ، فبقى محصوراً بخوارزم إلى أن أورث الله السلطان أرضهم وبلادهم وأمصارهم ، فأحضره ورتبه فى جملة حجابه وآواه وأكرمه وأفاض عليه فضله وكرمه ، وظن أن فيه وفاء وإذا به بخلافه ، فلما دخل جلال الدين كرمان وجده فى ظاهر الأمر وفياً وفى باطن الأمر بضد ذلك ، فشاور أصحابه فيه فأشاروا بالقبض عليه واستصفاء مملكة كرمان منه ، والاستظهار بها على سائر الممالك ، ولم يوافقه على هذا الرأى شرف الملك المعروف بخواجاجهان(٢) وقال : هذا أول من بذل الطاعة من ولاة البلاد وزعماء الأطراف ، وليس كل أحد يتحقق غدره ومكيدته . فرحل جلال الدين صوب شيراز ، وورد عليه الأتابك علاء الدولة صاحب يَزْد(٣) مطيعا ، وأحضر من الخدم والتقادم ماعزت به منزلته ، فلقبه آتاخان وكتب له توقيعا بتقرير بلاده ، وكان الأتابك سعد صاحب فارس قد استوحش من غياث الدين تترشاه ، فرغب جلال الدين فى إصلاحه لنفسه ، وسير إليه الوزير شرف الملك خاطبا ، فأسرع إلى الإجابة ورجع منشرحا ، فاستظهر جلال الدين به ورحل من شيراز إلى أصفهان ، فخرج إليه القاضى ركن الدين مسعود بن صاعد فرحا به مسرورا بمقدمه ، وقدموا إليه كثيرا من العدد الحربية والملابيس ، ولما سمع به غياث الدين أنه قد توسط البلاد وملك كثيرا ركب إليه فى جمع من خاصته من بقايا العساكر السلطانية زهاء ثلاثين ألف فارس لطرده عمارامه ، فحزن جلال الدين لما سمع بقربه وأيس مما طمحت إليه نفسه ، وسير إلى

(١) الكورخان : لقب اتخذه ملوك دول الخطا لأنفسهم ومعناه خان خانان أى ملك الملوك أو سلطان السلاطين .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٤٣ ، حاشية(٤) .
(٢) خواجاجهان : عبارة فارسية معناها سيد العالم .
انظر : سيرة جلال الدين منكبرتى ، ص٨٢ ، حاشية(٣) .
(٣) يَزْد : إحدى مدن فارس وتقع على بعد سبعين فرسخا من شيراز .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص ١٠١٧ ؛ سيرة جلال الدين منكبرتى ، ص١٧٦ ، حاشية(٢) .

غياث الدين أدك أمير آخور[1] وكان من دهاة خواصه . يقول : إن الذى قاسيته بعد السلطان[2] من الشدائد الفادحة لو عرضت على الجبال لأشفقن منها أن يحملنها واستثقلنها فأبين أن يحملنها[3] ، «وحين ضاقت على الأرض بما رحبت[4]» قصدتك لأستريح عندك أياما ، فما رأيت عندك للضيف إلا ظبى السيف ، فرجعت بظمائى ، وسير إليه سلب[٤] طولى خان بن جنكيزخان وفرسه وسيفه ، فلما سمع غياث الدين بالرسالة انصرف منعطفا وتفرقت عساكره ، وكان جلال الدين سير صحبة رسوله عدة خواتيم ، وأمر بإيصالها إلى جماعة من الأمراء السلطانية يمنيهم الإحسان ويستميلهم عن أخيه ، فمنهم من أخذ الخاتم وسكت ، وأجاب إلى الانقطاع إليه والتقاعد عن نصرة غياث الدين ، ومنهم من أخذه وحمله إلى غياث الدين ، فعند ذلك أمر غياث الدين بالقبض على الرسول المذكور ، وبادر إلى خدمة جلال الدين أبو بكر ملك ، وهو من بنى أخواله والمحثين على قتاله ، وذكر له أن القلوب مشتاقة إلى لقائه ، فركب جلال الدين فى ثلاثة آلاف ضعاف إلا أنهم رجال قد أحكمتهم التجارب ، ولم يزالوا حتى أحاطوا بغياث الدين ، فعوجل عن التدبير ، وفوجئ عن النفير ، فركب فرس النوبة إلى قلعة سلوقان ، ودخل جلال الدين خيمته وبها بكلواى والدة غياث الدين ، فاستوفى لها فى الإكرام أدب الخدمة ، وأنكر انزعاج غياث الدين وأخلائه مكانه ، قال : إنه لم يبق لى من ولد أبى سواه وأنه عندى بمنزلة العين للناظر . فأرسلت والدة غياث الدين إليه من سكن روعه ، فعاد إلى الخدمة وترك منزلة السلطان ، وجاءت الخانات والأكفان فى رقابهم يعفرون وجوههم فى التراب ويقفون بين يديه استغفاراً ، وهو يسمعهم من العفو والكلام اللين

---

(١) أمير آخور : هو المشرف على الإصطبلات السلطانية وما فيها من الخيل والبغال والجمال وغيرها ، وهى كلمة مركبة من لفظين أحدهما عربى وهو أمير ، والثانى فارسى وهو آخور ومعناه مكان العلف (أمير العلف لأنه متولى الدواب) . انظر : سيرة جلال الدين منكبرتى ، ص٩٠ ، حاشية(٣) .

(٢) المقصود بالسلطان هو علاء الدين محمد خوارزم شاه .

(٣) تأثر العينى بالنص القرآنى ونص الآية ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان ..﴾ سورة الأحزاب ، آية(٧٢) .

(٤) تأثر العينى بالنص القرآنى ، ونص الآية :﴿وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم ..﴾ انظر : سورة التوبة ، آية(١١٨) .

ماشرح صدورهم ، ولم يمض أدنى مدة حتى حضر بابه من كان بخراسان والعراق ومازندران من المتغلبين هيبة وإجلالا مثل نواب القلاع والجند من غير استدعاء ، فمنهم من حسنت فى أيام الفترة سيرته ، ومنهم من ساءت فى الخدمة طريقته ، فأذيق وبال طغيانه ، وبقوا يمنون على غياث الدين بالخطبة المجردة ، وتفرقت الوزراء والعمال فى الأطراف بالتواقيع السلطانية ، ثم أعلم أن الخطبة أقيمت لغياث الدين بخراسان والعراق ومازندران ، لما كان جلال الدين بالهند وانضوى إليه تقرير من عسكر أبيه[1] .

وكان[٥] كل واحد من نوابه متغلبا على مكانه لايحمل أتاوه ولايظهر بالقول طاعة ، فاستولى تاج الدين قُمِرَ على نيسابور وماحولها من أعمالها على شعث حالها ، وتغلب إلجى بهلوان على شيراز وبيهق[2] واستولى شخص من الاسفهسلارية[3] وقد يلقب بنظام الدين على أسفرايين[4] ، وبندوار[5] ومايليهما وآخر ، وكان اسفهسلار أيام السلطان الكبير يعرف بشمس الدين عمر على قلعة صلول ، واستولى تاج الدين عمر بن مسعود وكان من التركمان على أبيْوَرْد[6] وخَرَقَان[7] إلى مايلى مرو ، وبالجملة فإن كل من كان فى جهة من هذه الجهات بخراسان والعراق ومازندران استولى عليها ، وقعد بها ، هذا وغياث الدين منعكف على لذاته ، منهمك فى أهويته وشهواته ، لايشهد مقاما محمودا ، ولايشهر حساما مغموراً ، فتجرد إليه من التتار أثناء ذلك عشرة آلاف فارس فلم يثبت لهم ، وحين سمع بهم تسحب إلى الجبال ، فقتلوا وسبوا وأحرقوا وأخربوا ، ولما رأى الأتراك وهنه فى

---

(١) لمعرفة المزيد عن هذه الأحداث انظر : سيرة منكبرتى ، ص١٧٤ - ١٧٩ .

(٢) بيهق : ومعناها بالفارسية الأجود ، وهى ناحية كبيرة وكورة واسعة كثيرة البلدان والعمارة من نواحى نيسابور .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص١٠٤ .

(٣) الاسفهسلار : اسم لوظيفة من وظائف أرباب السيوف وعامة الجند ، وصاحبها زمام كل زمام وإليه أمر الأجناد والتحدث فيهم وفى خدمته وخدمة صاحب الباب ، تقف الحجاب على اختلاف طبقاتهم ، وهى كلمة أعجمية معناها قائد الجيش .
انظر : مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص٣٢ .

(٤) اسفرايين : بليدة حصينة من نواحى نيسابور على منتصف الطريق من جرجان واسمها القديم مهرجان .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٢٥٦ .

(٥) بندوار : مدينة قريبة من أسفرايين . انظر : سير جلال الدين منكبرتى ، ص١٨٠ ، حاشية(٨) .

(٦) أبيورد : مدينة بخراسان بين سرخس ونسا . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص١١١ .

(٧) خَرَقَان : قرية من قرى بسطام على طريق استراباذ
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٢٤ ؛ سيرة منكبرتى ، ص١٨١ ، حاشية(٣) .

السياسة أظهروا الفساد وخربوا البلاد ، وأفسدوا ما أبقته الأتراك من بلاد العراق ، فكانوا يأتون الضيعة فيمكثون حولها حتى تصبح ، فيخرج[١] الرعاء بمواشيهم ، فيسوقونها إلى المدينة والرعاة تستغيث فلا تغاث ، وكان ذلك كله بحكم انقطاع مواد الأموال عن خزانته ، فاضطر إلى إسكات الأتراك ، فكان إذا ألح أحدهم فى الطلب يرضيه بزيادة فى لقبه ، فإن كان أميراً لقبه ملكاً ، وإن كان ملكا لقبه خاناً ، وتحكمت والدته فيما كان تحت يد ابنه ، وتلقبت بخواندجهان[٢] ، وكان الناس فى ضنك عظيم بولاية غياث الدين ، فلما طلع السلطان جلال الدين من بلاد الهند صلح مُفسدُ الزمان وانزجر أولو العدوان[٣] .

ولما تمكن من أخيه وصار معه كأحد أمرائه ، يتصرف على حكم آرائه ، سار نحو خوزستان وأقام بها مشتيا ، وسير من هناك ضياء الملك علاء الدين محمد بن مودود رسولا إلى الديوان العزيز ، وكانت رسالته تتضمن تعنتا وتعتبا ، [٦] وكان من قبل جردجهان بهلوان إلجى برسم اليزك[٤] ، فصادم المذكور عسكرا من عساكر الديوان وعربًا من خفاجة ، فأوقع بهم وخرق الهيبة ، فعادوا إلى بغداد على وجه غير مرض[٥] ، وأحضرت منهم طائفة إلى السلطان فأطلقهم ، ووصل ضياء الملك بعد الحادثة إلى بغداد ، وطالت مدة المقام إلى أن ملك السلطان مراغة[٦] ، فأذن لضياء الملك فى العود ، ثم سار السلطان إلى دقوقا[٧] ، فلما أشرف عليها خرج أهلها إليه وشكوا من الإغارة التى اتفقت على بلاد الديوان ، فغاظة ذلك فأمر بالزحف عليها ، فطلعوا ووضعوا السيف فى أهلها ، ثم سار نحو أذربيجان ، فلما قاربها ساق إليها ودخلها وأقام بها أياما ، ووجه من هناك القاضى مجير الدين عمر بن سعد الخوارزمى رسولا إلى ملك الروم وملوك الشام ومصر بكتب تتضمن تملكه بلاد أذربيجان ، ثم رحل من مراغة نحو عوجان[٨] ، والناس يمتارون من تبريز وبها

(١) «تتخرج» : كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .
(٢) خواندجهان : أى سيدة العالم . انظر : سيرة منكبرتى ، ص١٨٢ ، حاشية (٤) .
(٣) لمعرفة المزيد عن هذا الحدث . انظر : سيرة منكبرتى ، ص١٨٠-١٨٢ .
(٤) اليزك : لفظ فارسى معناه الطلائع .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص١٦٢ ، حاشية (٢) ؛ السلوك ، ج١ق١ ، ص١٠٥ .
(٥) «مرضى» كذا فى الأصل ، وماأثبتناه هو الصحيح لغة .
(٦) مراغة : أعظم وأشهر بلاد أذربيجان .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٤٧٦ .
(٧) دقوقا : وتكتب «دقوقاء» وهى مدينة بين إربل وبغداد .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥٨١ .
(٨) عوجان : «أوجان» فى سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى ، وهى إحدى مدن أذربيجان . ص١٩٥ ، حاشية (٤) .

بنت طغرل[١] بن أرسلان زوجة الأتابك ، ثم سار السلطان فنزل عليها فملكها ، فسألته بنت السلطان طغرل أن يصونها ويعطيها مدينة خوى[٢] فأمر لها بها ، ونزل السلطان بدار السلطنة وتولى الرئيس نظام الملك رياستها[٣] .

ذكر ماجريات بنى أيوب

قد ذكرنا فى السنة الماضية عصيان الملك المظفر[٤] على أخيه الملك الأشرف[٥] بأخلاط ، وفى هذه السنة انتصر الأشرف عليه ، وذلك أنه لما أتى إلى أخلاط وحصرها وكان أهلها يحبونه لعدله وحسن سيرته ، وسوء سيرة أخيه المظفر شهاب الدين ، فلما نازلها سلمها أهلها إليه يوم الاثنين ثانى عشر جمادى الأخرى منها ، وامتنع المظفر فى القلعة ، فلما جن الليل نزل إلى أخيه الأشرف معتذرا إليه ، فقبله وصفح عن ذنبه ولم يعاقبه على ما ارتكب من عصيانه ، وأبقى عليه ميافارقين ، وعاد الأشرف وشتى بسنجار ، وهذه من مكارم البيت العادلى ومحاسن اتفاقه[٦] .

وفى هذه السنة سيرّ الملك المعظم[٧] [٧] ولده الناصر[٨] داود إلى إربل ، ليكون عند عمته[٩] زوجة مظفر الدين كوكبورى بن زين الدين ، وقصد بذلك توفيق الحال بينه وبين

---

(١) طفرك : كذا فى الأصل ، والمثبت من نهاية الأرب ، ج٢٧ ، ص٢٦٨ ؛ سيرة منكبرتى ، ص١٩٥ .

(٢) خوى : بلد مشهور من أعمال أذربيجان .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥٠٢ .

(٣) وردت هذه الأحداث بالتفصيل فى نهاية الأرب ، ج٢٧ ، ص٢٦٧ - ٢٦٨ ؛ سيرة منكبرتى ص١٩٢ - ص١٩٦ .

(٤) الملك المظفر : هو شهاب الدين غازى بن الملك العادل صاحب ميافارقين ، توفى فى رجب سنة ٦٤٥هـ بميافارقين انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٣٣٣ .

(٥) الملك الأشرف : أبو الفتح موسى بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب ، الملقب الملك الأشرف مظفر الدين . ولد سنة ٥٧٨هـ بالديار المصرية بالقاهرة ، وقيل بقلعة الكرك ، وتوفى يوم الخميس رابع المحرم سنة ٦٣٥هـ بدمشق . انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٥٧ - ص١٥٨ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص١٧٥ - ص١٧٦ .

(٦) وردت هذه الأحداث فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٢٢ ؛ الذيل على الروضتين ، ص١٤٢ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٤٠ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٣٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٢ .

(٧) الملك المعظم : هو شرف الدين عيسى ، ابن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب صاحب دمشق ، ولد سنة ٥٧٨هـ ، وتوفى يوم الجمعة مستهل ذى الحجة سنة ٦٢٤هـ بدمشق ودفن بقلعتها .
وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٩٤ - ٤٩٥ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص١١٥ - ص١١٦ .

(٨) الملك الناصر صلاح الدين داود ، ابن الملك المعظم شرف الدين عيسى ، توفى سنة ٦٥٦هـ فى السابع والعشرين من جمادى الأولى فى قرية يقال لها البويضاء على باب دمشق ، وكانت ولادته يوم السبت سابع عشر جمادى الأولى سنة ٦٠٣هـ بدمشق . وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٩٦ .

(٩) هى ربيعة خاتون بنت أيوب ، توفيت فى شعبان سنة ٦٤٣ هـ بدمشق ، وجاوزت الثمانين سنة ، ودفنت فى مدرستها الموقوفة على الحنابلة بسفح قاسيون .
وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص١٢٠ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٤٢ .

مظفر الدين ، وذلك بعد اتفاقهما على المعاضدة والتظاهر والتوازر ، وأن يكونا يدا واحدة[١] .

وفى تاريخ ابن كثير[٢] : وفى هذه السنة أرسل المعظم ولده الناصر إلى صاحب إربل[٣] تقوية على مخالفة الملك الأشرف ، وأرسل صوفيا من الشُمَيْسَاطِيَّة يقال له : الملق إلى جلال الدين بن خوارزم شاه ـ وكان قد أخذ أذربيجان فى هذه السنة وقوى جأشه ـ يتفق معه على أخيه الأشرف فوعده جلال الدين النصر والرفادة . وفى المرآة[٤] : وفى هذه السنة ظهر جلال الدين فى أذربيجان واستولى عليها ، فبعث المعظم إليه رجلا صوفيا فى رسالة ، واتفق المعظم وابن زين الدين صاحب إربل مع جلال الدين على الأشرف ، وبعث المعظم ولده الناصر داود إلى ابن زين الدين رهينة وعبر الفرات عند الحديثة[٥] ، ومضى إلى إربل ، واستولى بدر الدين لؤلؤ على الموصل ، وأظهر أن محمود ابن القاهر مات ، وكان قد أمر بخنقه على ماسبق .

وفى هذه السنة قدم الملك المسعود[٦] أقسس صاحب اليمن على أبيه السلطان الملك الكامل بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب بالديار المصرية ، ومعه شىء كثير من الهدايا والتحف ، من ذلك : مائتا خادم وثلاثة أفيلة هائلة ، وأحمال عود ، وند ، ومسك ، وعنبر ، وخرج أبوه الكامل لتلقيه ، ومن نية الأقسيس أن ينزع الشام من يد عمه الملك المعظم[٧] . وقال أبو شامة[٨] : وكان أحد الأفيلة كبيرا وعليه محفة بدرابزين ، يصعد فيها عشرة أنفس فياله ، راكب على رقبته ، وبيده كلاب حديد يضربه به كيفما أراد ، وخرج

(١) ورد هذا الخبر فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٤٢ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٢ ، مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١٧

(٢) البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٢ .

(٣) صاحب إربل هو مظفر الدين كوكبورى بن زين الدين على كوجك .
انظر : الكامل ، ج١٢ ، ص٤٢٣ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٣٧ .

(٤) سبط ابن الجوزى ، ج٨ ، ص٤١٦ ـ ٤١٧ ؛ وانظر أيضا : الذيل على الروضتين ص١٤٢ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٢ .

(٥) الحديثة : هى الحديثة التى على الفرات وتعرف بحديثة النورة وهى على فراسخ من الأنبار وبها قلعة حصينة فى وسط الفرات والماء يحيط بها . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٣٣ .

(٦) الملك المسعود أقسيس : هو الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الملك الكامل أبو المعالى محمد بن الملك العادل الأيوبى ، ويقال له أيضا «أطسيس» ومولده فى سنة ٥٩٧هـ ، توفى بمكة فى ثالث عشر جمادى الأولى سنة ٦٢٦هـ .
انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٥٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٤ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص١٢٠ .

(٧) ورد هذا الحدث فى الذيل على الروضتين ، ص١٤٢ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٢٨ ـ ١٢٩ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٢ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١٧ .

(٨) الذيل على الروضتين ، ص١٤٢ .

الملك الكامل للقاء ولده ، فلما قربت الفيلة من الكامل أمرها سُوَّاسُها فوضعت رؤُسُها على الأرض بين يدى الكامل خدمه له .

ذكر بقية الحوادث

منها أنه كمل عمارة دار الحديث(١) ، التى بناها الملك الكامل بين القصرين ، وولى مشيختها الحافظ(٢) أبى الخطاب بن دحية الكلبى ، وكان مكثرا كثير الفنون ، وعنده فوائد وغرائب وعجائب(٣) .

ومنها أن ببغداد[٨] قرية يقال لها بعقوبا ، فيها نخل كثير ، وليها ناظر متشيع ، وكان بها رجل من أهلها له نخل ، فصادره الناظر وأخذ منه ألفى نخلة ، فجعل يسب الناظر ويدعو عليه ، وبلغ الناظر فأحضره وأمر بضربه ، فقال له : بالله عليك أنصفنى . فقال : قل . قال : أنتم تسبون أبا بكر (رضى الله عنه) وتقولون أخذ فدك من فاطمة عليها السلام ، وإنما فى فدك نخيلات يسيرة تأخذ أنت منى ألفى نخلة ، وأسكت . فضحك الناظر ورد إليه نخله(٤) .

ومنها أن الملك الكامل قد أرضى بنى شيبة سدنة الكعبة بمال أطلقه لهم ، عوضا عما كانوا يأخذونه «بإغلاق(٥) الباب وفتحه لمن أرادوا» ، وكان الناس ينالون من ذلك شدة ، ويزدحمون عند فتح الباب ، ويتسلق بعضهم على رقاب بعض ، فينكسر بعض ويشرخ بعض ، فأزال ذلك عن الناس فى هذه السنة وما بعدها مدة بقائه فى المملكة(٦) .

---

(١) دار الحديث : ليس بمصر دار حديث غيرها ، وغير دار الحديث بالشيخونية . قال المقريزى : وهى ثانى دار عملت للحديث ، فإن أول من بنى دار حديث على وجه الأرض الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بدمشق ثم بنى الكامل هذه الدار ، وقد وليها بعد الحافظ ابن دحية الكلبى أخوه أبو عمرو عثمان ، ثم الحافظ زكى الدين عبد العظيم المنذرى . نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٢٩ ، حاشية(٢) .

(٢) الحافظ أبى الخطاب بن دحية الكلبى : هو أبو الخطاب عمر بن الحسن بن على بن محمد الجُمَيِّل بن فَرْح بن خلف بن قُويس بن مَزْلال بن مَلَّال بن بدر بن أحمد بن دِحْية بن خليفة بن فروة الكلبى ، المعروف بذى النسبين ، الأندلسى البلنسى الحافظ ، وهو من أعيان العلماء ومشاهير الفضلاء ، متقنا لعلم الحديث النبوى ، عارفا بالنحو واللغة وأيام العرب ، وكانت ولادته فى مستهل ذى القعدة سنة ٥٤٤هـ . وتوفى يوم الثلاثاء الرابع عشر من ربيع الأول سنة ٦٣٣هـ بالقاهرة ، ودفن بسفح المقطم .
وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٤٨ - ص٤٥٠ .

(٣) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص١٤٢ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٢٨ - ص١٢٩ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٢ - ١١٣ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١٧ .

(٤) ورد هذا الخبر فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٢٤ ؛ الذيل على الروضتين ، ص١٤٢ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١٧ .

(٥) «بإغلاق الباب وفتحه لمن أرادوا» تكررت هذه الجملة خطأ فى الأصل ، وتم حذف الجملة المكررة لاستقامة المعنى .

(٦) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص١٤٢ - ص١٤٣ .

وفيها حج بالناس من بغداد ابن أبى فراس ، ومن الشام شجاع الدين على بن السلار ، وكان أبو شامة حج فى هذه السنة مع والده ، وذكر أنه اجتمع بمكة بالشيخ المقرئ عثمان بن أحمد الإربلى الحنبلى ، وأنه أنشده بالمسجد الحرام :

أيا نائما فى ظلام الدجى تيقظ فصبح الدجا قد أضاء
أتاك المشيب ولوعاته وولى شبابك ثم انقضى
فلو كنتَ تذكر ما قد جنيت لضاق عليك اتساع الفضا

قال : ونظمت فى طريقى تلك السنة قصيدة ميمية ، ذكرت فيها المنازل من دمشق إلى عرفات ، ووصفت فيها ما أمكن من أماكن الزيارات . أولها :

مازلت أشتاق حج البيت والحرم وأن أزور رسول الله ذا الكرم

وهى طويلة . قال : أقول فيها تعبيرا عن فتح باب الكعبة للحجيج مطلقا :

وأسرعوا نحو ذاك البيت حاسرة رؤوسهم بين مطواف ومستلم
والباب قد أطلقوه للحجيج فلم يروا به مانعا طولُ مقامهم[1]

ذكر من توفى فيها من الأعيان

أحمد[2] بن محمد بن على القادسى : الضرير الحنبلى والد صاحب الذيل على تاريخ ابن الجوزى ، وكان القادسى هذا يلازم حضور مجلس ابن الجوزى ويزهزه لما سمعه من الغرائب . ويقول : والله[٩] إن ذا مليح . فاستقرض منه ابن الجوزى مرة عشرة دنانير فلم يعطه ، وصار يحضر ولايتكلم . فقال الشيخ ابن الجوزى مرة : هذا القادسى لايقرضنا شيئا ، ولايقول : والله إن هذا لمليح . توفى فى هذه السنة .

أبو الكرم[3] المظفر بن المبارك بن أحمد بن محمد البغدادى الحنفى ، شيخ مشهد أبى حنيفة (رضى الله عنه) وغيره ، وولى الحسبة[4] بالجانب الغربى من بغداد ، وكان فاضلا دينا شاعرا ، مات فى هذه السنة .

---

(١) ورد هذا الخبر والشعر فى الذيل على الروضتين ، ص١٤٢ ـ ص١٤٣ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١٧ .
(٢) انظر : الذيل على الروضتين ص١٤٣ ـ ١٤٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٣ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص٩٤ .
(٣) انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٣ .
(٤) الحسبة : هى وظيفة شرعية من واجبات صاحبها «المحتسب» أن يراقب الآداب العامة ، وتنفيذ الأحكام الدينية ، من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ويجلس فى دار العدل أيام المواكب السلطانية .
صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٣٧ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١١٩ ، حاشية(٣) .

محمد[١] بن أبى الفرج بن بركة ، فخر الدين أبو المعالى الموصلى ، قدم بغداد ، واشتغل بالنظامية[٢] وإعادتها ، وكانت له معرفة بالقراآت ، وصنف كتابا فى مخارج الحروف ، وأسند الحديث ، وله شعر لطيف .

أبو بكر[٣] بن حلبة الموازينى البغدادى : كان فردا فى علم الهندسة وصناعة الموازين ، يخترع أشياء غريبة عجيبة ، من ذلك : أنه ثقب حبة خشخاش سبعة ثقوب ، وجعل فى كل ثقب شعره ، وكانت له حظوة عند الدولة . مات فى هذه السنة .

أحمد[٤] بن جعفر بن أحمد بن محمد أبو العباس الدثينى البيع الواسطى ، شيخ أديب فاضل ، له نظم ونثر ، عارف بالأخبار والسير ، وعنده كتب جيدة كثيرة ، وله شرح قصيدة لأبى العلاء المعرى فى ثلاثة مجلدات . مات فى هذه السنة ، والله أعلم .

---

(١) انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٣ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص٩٦ .

(٢) النظامية : هى المدرسة التى بناها الوزير نظام الملك أبو على الحسن بن على بن إسحاق بن العباس ، وزير السلطان ملكشاه السلجوقى ، وهو أول من أنشأ المدارس فاقتدى به الناس ، وقد شرع فى عمارة هذه المدرسة ببغداد سنة ٤٥٧هـ / ١٠٦٥م . وفرغت عمارتها فى سنة ٤٥٩هـ / ١٠٦٧م .
انظر : الكامل ، ج١٠ ، ص٤٩ ، ص٥٥ ؛ وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص١٢٨ ـ ص١٢٩ .

(٣) انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٣ .

(٤) انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٤ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الثانية والعشرين بعد الستمائة

استهلت هذه السنة والخليفة توفى فيها وبقية أصحاب البلاد على حالهم ، ولكن أهل ماوراء النهر وخراسان وغيرها فى تشويش عظيم من جهة جنكيزخان وأصحابه الأشقياء .

ذكر وفاة الخليفة الناصر لدين الله

والكلام فيه على أنواع :

(الأول) فى ترجمته : هو أبو العباس أحمد الملقب بالناصر لدين الله بن المستضئ بأمر الله ، أبو[١] المظفر يوسف بن المقتفى لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله ، أبو العباس أحمد بن المقتدى بأمر الله أبو القاسم عبد الله بن الذخيرة ، محمد بن القائم بأمر الله ، أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله ، أبو العباس أحمد ابن اسحاق بن المقتدر بالله أبو الفضل ،[١٠] جعفر بن المعتضد بالله أبو العباس أحمد ابن الموفق ، أبو أحمد بن المتوكل على الله ، جعفر بن المعتصم بالله أبو اسحاق محمد ابن هارون الرشيد بن المهدى ، محمد بن عبد الله أبو جعفر المنصور بن محمد بن على ابن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمى العباسى أمير المؤمنين ، وأمه أم ولد تدعى زُمرد ، ومولده يوم الاثنين عاشر شهر رجب سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، وبويع بالخلافة بعد موت أبيه سنة خمس وسبعين وخمسمائة[٢] .

(الثانى) فى سيرته :

قال ابن الأثير[٣] : كان قبيح السيرة فى رعيته ، ظالما لهم ، فخرب فى أيامه العراق ، وتفرق أهله فى البلاد ، وأخذ أموالهم وأملاكهم ، وكان يفعل الشيء وضده ، فمن ذلك أنه عمل دورا للإفطار فى رمضان ، ودورًا لضيافة الحجاج ، ثم أبطل ذلك . وكان قد أسقط

(*) يوافق أوله ١٣يناير ١٢٢٥ م

(١) «أبى» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ماأثبتناه .

(٢) ورد هذا الخبر فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٣٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٤ ـ ص١١٥ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١٨ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص٩٧ ـ ص٩٨ .

(٣) الكامل ، ج١٢ ، ص٤٤٠ ؛ وورد هذا الخبر أيضا فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٦٣ـ ص١٦٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٥ .

مكوساً ثم أعادها ، وجعل جل همته فى رمى البندق والطيور المناسيب وسرا ويلات الفتوة . وقال ابن الأثير[١] : وإن كان ماينسب العجم إليه صحيحا من أنه هو الذى أطمع التتار فى البلاد وراسلهم ، فهو الطامة الكبرى التى يصغر عندها كل ذنب عظيم . وقال ابن كثير[٢] : وقد ذكر عنه أشياء غريبة ، من ذلك أنه كان يقول للرسل الوافدين عليه فعلتم فى مكان كذا وكذا وكذا ، وفى الموضع الفلانى كذا حتى ظن بعض الناس أو كثير منهم أو أكثرهم أنه كان يكاشف له ، أو أن جنيا يأتيه بذلك والله أعلم .

وقال النويرى[٣] : كان قبيح السيرة ، ظالما للرعية ، وكان يتشيع ، وكان منصرف الهمة إلى رمى البندق والطيور المناسيب ويلبس سرا ويلات الفتوة ، ومَنعَ من رمى البندق إلا من ينسب إليه ، فأجابه الناس إلى ذلك إلا رجلا واحداً ، يقال له ابن السنة ، فهرب من بغداد إلى الشام .

وكان ذا هيبة عظيمة ، وكان له أصحاب فى العراق كلها يأتونه بأخبار الناس ، ويطالعونه بها ، حتى كان الرجل يخشى أن يتحدث مع زوجته إذا خليا . وذكر أن رجلا من أهل بغداد عمل دعوة فغسل يده قبل إضيافه فطالع [١١] أصحاب الأخبار الخليفة بذلك ، فكتب : سوء أدب من صاحب الدار ، وفضول من كاتب المطالعة[٤] .

وبلغه أن شخصا من أهل بغداد يرى صحة خلافة يزيد بن معاوية فأحضره ليعاقبه على هذا القول ، فكان جوابه : أنا أقول : إن الإمام[٥] لاينعزل عن الإمامة بارتكاب الفسق . فأعرض الخليفة عنه ، وأطلقه ، إذ لايمكن مخالفته فى ذلك[٦] .

وفى عيون المعارف : وكان الخليفة الناصر لدين الله بصيرا بالأمور مجربا ، سائساً مهيباً ، مقداما ، عارفاً ، شجاعا ، متأيدا ، حاد الخاطر ، متوقد الذكاء والفطنة ، بليغا ، غير مدافع عن فضلية علم ولا بادرة فهم ، يفاوض العلماء مفاوضة خبير ، ويمارس الأمور

---

(١) الكامل ، ج١٢ ، ص٤٤٠ ؛ وورد هذا الخبر أيضا فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٥ .
(٢) البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٥ .
(٣) بالبحث لم يرد هذا الخبر فى النويرى ، نهاية الأرب ، ولكنه ورد بتصرف فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٤٠ ، مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٦٣ ـ ص١٦٥ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٥ .
(٤) ورد هذا الخبر فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٦٣ .
(٥) «إن الإمام لاينعزل بالفسق عن الإمامة بارتكاب» كذا وردت هذه الجملة فى الأصل ، والمثبت من مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٦٦ ، لاستقامة المعنى .
(٦) ورد هذا الخبر فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٦٦ .

السلطانية ممارسة بصير ، يرى رأى الإمامية(١) الإثنى عشر ، وكان عاكفا على جمع المال والتولية والعزل والمصادرة ، قوى النفس فيما يحاوله ، شديد الفتك والانتقام ، ولم ينقطع الحج فى أيامه أبدا(٢) .

وعمر عمارات كثيرة ، ووقف عليها وقوفاً كرباط الحريم ورباط المرزبانية ، وتربة والدته ، وتربة زوجته سلجوقى خاتون ، ابنة السلطان أرسلان بن سليمان بن قتلمش ملك الروم ، وغير ذلك مما هو أشهر أن يذكره . ودفع مرارا كثيرة إلى ثقات من خواصه أموالا كثيرة يقضى بها ديون المحبوسين وفاء ومصالحه(٣) .

وصفى له الملك ومعاناة أمور رعيته بنفسه حتى كان يمشى فى الليل فى دُرُب بغداد ليعرف أخبار الرعية ومايدور بينهم ، وُيثُيب ويعاقب على مايشاهده ويسمعه . وكان كل واحد من أرباب المناصب العالية والرعايا يخافه ، بحيث كأنه يطلع عليه فى داره ، وكثرت جواسيسه وأصحاب أخباره عند السلاطين فى أطراف البلاد ، وله مثل هذه قضايا غريبة(٤) .

وصنف كتاباً فى الأحاديث النبوية سماه «روح العارفين» ، وقرئ عليه وأسنده عن مشايخه الذين روى عنهم مافيه ، وكان تاريخ نقله لما رواه عن شيوخه سنة سبعين وخمسمائة ، وأمر الناس أن يسمعوه فى العراق وفى سائر [١٢] الآفاق(٥) .

وفى تاريخ بيبرس : وكان يفعل أفعالا متضادة ، وأطلق بعض المكوس التى جددها ببغداد خاصة ثم أعادها . وكان ذا فكرة صائبة وعقل رصين ودهاء ومكر ، وكانت هيبته عظيمة ، وسطوته شديدة(٦) . وله شعر مشهور ، منه أنه اعتقل بعض أرباب دولته فكتب إليه المعتقل ، وهو نصير الدين العجمى وزيره :

---

(١) الإمامية : هم القائلون بإمامة على (رضى الله عنه) بعد النبى ﷺ نصا ظاهرا وتعيينا صادقا غير تعريض بالوصف بل إشارة إليه بالعين . الشهر ستانى ، الملل والنحل ، تحقيق محمد سيد كيلانى ، ج١ ، ص١٦٢ - ص١٧٣ ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ١٩٧٦ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٦٦ ، حاشية(٢) .

(٢) لمعرفة المزيد من صفات الخليفة الناصر لدين الله . انظر : شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٩٧ - ص٩٨ .

(٣) ورد هذا الخبر فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١٩ .

(٤) ورد هذا الخبر باختصار فى شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٩٧ .

(٥) ورد هذا الخبر فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٦٥ .

(٦)ورد هذا الخبر فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٤٠ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٦٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٥ .

ألقنى فى لظى فإن غيرتنى فتيقن أن لستُ بالياقوت
عَرَفَ النَّسْجُ كُلٌّ من حاكَ لكن نَسْجُ داود ليس كالعنكبوت

فكتب الخليفة فى جوابها :

نَسْجُ داود لم يُفد صاحب الـ غار وكان الفخار للعنكبوت
وبقاء السمند[1] فى لهب النـ ار يزيلُ فضيلة الياقوت[2]

وفى تاريخ ابن[3] العميد : وسيرته أنه كان فاضلا أديباً ذا رأى وتمييز[4] وحزم وسياسة ، وفكرة جيدة وبديهة حاضرة ، إلا أنه كان محبا لجمع المال ، وظلم الرعايا والتجار والمترددين إلى بغداد ، وأخذ أموالهم ، وكان يباشر الأمور بنفسه[5] .

(الثالث) فى وفاته : توفى ليلة الأحد سلخ رمضان سنة اثنتين وعشرين وستمائة ، وكان مرضه قد طال به وجمهوره من عسار البول ، مع أنه كان يجلب له الماء من مراحل عن بغداد ليكون أصفى ، وشق ذَكَره مرات بسبب ذلك ، ولم يغن عنه هذا الحذر شيئا[6] . وفى عيون المعارف : وتوالت عليه فى آخر عمره أمراض ذهبت إحدى عينيه ، وأصابه الحصى.وعسر البول .

وقال ابن الأثير[7] : وبقى الناصر لدين الله ثلاث سنين عاطلا عن الحركة بالكلية ، وقد ذهبت إحدى عينيه والأخرى يبصر بها إبصارا ضعيفا ، وآخر الأمر أصابه دوسنطارية عشرين يوما ومات ، ولم يطلق فى أيام مرضه ما كان أحدثه من الرسوم الجائرة .

---

(١) السمند : يقال أن السمند لدابة دون الثعلب ذات ذنب طويل ينسج من وبرها مناديل إذا اتسخت ألقيت فى النار فلاتحترق ، كما يقال أن السمند لطائر ببلاد الهند لاتؤثر فيه النار ، ويعمل من ريشه مناديل تحمل إلى بلاد الشام ، فإذا اتسخ بعضها طرح فى النار فتأكل النار وسخه ولا يحترق المنديل .
مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٦٨ ، حاشية(٣) .

(٢) وردت هذه الأشعار فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٦٨ .

(٣) أخبار الأيوبيين ، ص١٣ ، مكتبة الثقافة الدينية ، الظاهر .

(٤) «وتدبير» كذا فى الأصل ، والمثبت من أخبار الأيوبيين حيث ينقل عنه العينى ، ص١٣ .

(٥) ورد هذا الخبر بتصرف فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٦٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٥ .

(٦) الذيل على الروضتين ، ص١٤٥ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٥٩ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٥ ، مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١٨ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٩٨ - ص٩٩ .

(٧) الكامل ، ج١٢ ، ص٤٤٠ .

وفى تاريخ بيبرس : وكان الإمام الناصر قد عمى فى آخر عمره ، وقيل : بل ذهبت إحدى عينيه . وكان موته بالدوسنطارية بأمراض به عشرين يوما ، وتوفى فى أول شوال من هذه السنة[١] .

وفى المرآة[٢] : وكان قد قل بصره ، وقيل : ذهب بصره ، وكانت[١٣] به أمراض مختلفة منها : عسر البول والحصى ،ولقى منه شدة ، وشُقَّ ذَكَرُه مراراً ومازال يعتريه مرارا حتى قتله .

قال السبط[٣] : وغسله خالى أبوجعفر محمد بن يوسف ، وكان قد عمل له ضريحا عند موسى بن جعفر ، فأمر الظاهر بحمله إلى الرصافة ، فحمل فى تابوت ودفن عند أهله ، وقيل : توفى فى سابع عشرين رمضان .

وفى عيون المعارف : وكان الذى ولى غسله محيى الدين يوسف بن الجوزى بن الشيخ أبى الفرج ، وصلى عليه ودفن فى دار الخلافة ، ثم نقل إلى الترب فى الرصافة فى ثانى ذى الحجة من هذه السنة ، وكان يوما مشهوداً عظيما .

(الرابع) فى ذكر مايتعلق به : كان عمره يوم مات تسعا وستين سنة وشهرين وعشرين يوما ، وكانت مدة خلافته سبعاً وأربعين سنة إلا شهراً ، ولم يقم أحد من الخلفاء العباسيين قبله فى الخلافة هذه المدة الطويلة ، ولم تطل مدة أحد من الخلفاء مطلقا أكثر من المستنصر العبيدى الفاطمى ، أقام بمصر حاكماً ستين سنة ، وقد انتظم فى نسبه أربعة عشر خليفة وولى[٤] عهد على مارأيت ، وبقية الخلفاء العباسيين كلهم من بنى عمه وعماته[٥] .

وفى تاريخ بيبرس : لم يبلغ مدة أحد من الخلفاء إلى هذا الحد فى الخلافة ، وأما من دعى له فى الأطراف وكانوا فى حكم الخوارج فمنهم من زادت مدته على مدة الإمام

(١) ورد هذا الخبر بتصرف فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٤٠ ؛المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص١٣٥ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٥ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، ج٨ ، ص٤١٨ .
(٣) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١٨ - ص٤١٩ .
(٤) «ووليا» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .
(٥) ورد هذا الخبر بتصرف فى الذيل على الروضتين ، ص١٤٥ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٥ .

الناصر ، فإن عبد الرحمن الأموى صاحب الأندلس الملقب أيضا بالناصر لدين الله ولى نحوا من خمسين سنة ، والمستنصر بالله أبو تميم معد بن الظاهر بأمر الله صاحب مصر ولى نحوا من ستين سنة(١) .

وفى تاريخ ابن(٢) العميد : وكانت مدة خلافته ست(٣) وأربعين سنة وعشرة أشهر وأربعة وعشرين يوما ، أولها يوم الأحد ، وآخرها يوم السبت ، وذلك لتتمة ستمائة وإحدى وعشرين سنة ، وثمانية أشهر ، وستة وعشرين يوما للهجرة ، ولتمام ست(٤) آلاف سنة وسبع مائة سنة ، وسبع عشرة سنة ، وسبعة وثلاثين يوماً [١٤] للعالم شمسية .

وقال أبو شامة(٥) : ووزر له عدة وزراء ، وكان له خادم اسمه رشيق ، قد استولى على الخلافة ، وأقام مدة فوقع عن الخليفة .

ذكر خلافة الظاهر بأمر الله

وهو الخامس والثلاثون من خلفاء بنى العباس . لما توفى الإمام الناصر لدين الله فى التاريخ المذكور بوُيع لولده الظاهر بأمر الله أبى نصر محمد ، فأظهر العدل ، وأزال المكوس ، وأفرج عن المحبوسين ، وظهر للناس ، وكان الناصر ومن قبله من الخلفاء لايظهرون إلا نادرا . ولم تطل مدة إقامته فى الخلافة(٦) إلا أشهر(٧) .

وقال ابن كثير(٨) : ولما توفى الخليفة الناصر لدين الله كان قد عهد لابنه أبى نصر محمد عهدا ولقبه بالظاهر ، وخطب له على المنابر ، ثم عزله عن ذلك بأخيه على ، فتوفى فى حياة أبيه سنة ثنتى عشرة وستمائة ، فاحتاج إلى إعادته إلى ولاية العهد ، فخطب له ثانيا ، فحين توفى بويع له وعمره يومئذ ثنتان وخمسون سنة ، ولم يل الخلافة

(١) انظر : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٥٨ - ص١٥٩ .
(٢) أخبار الأيوبيين ، ص١٣ .
(٣) «ستة» كذا فى الأصل ، وما أثبتناه هو الصحيح لغة .
(٤) «ستة» كذا فى الأصل ، وما أثبتناه هو الصحيح لغة .
(٥) الذيل على الروضتين ، ص١٤٥ ؛ وورد أيضا هذا الخبر فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٤٠ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٥ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١٨ .
(٦) «إلا مدته أثام» كذا فى الأصل ، والمثبت من مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٧١ .
(٧) ورد هذا الخبر فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٤١ ، ص٤٤٤ ؛ الذيل على الروضتين ، ص١٤٥ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٧١ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٥ - ص١١٦ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١٩ .
(٨) البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٥ - ١١٦ .

من بنى العباس أسن منه . وكان عاقلا وقورا دينا عادلا محسنا ، رد مظالم كثيرة وأسقط مكوساً كان قد أحدثها أبوه ، وسار فى الناس حسناً حتى قيل : إنه لم يكن بعد عمر بن العزيز (رضى الله عنه) أعدل منه لو طالت مدته . لكنه لم يحل عليه الحول ، بل كانت مدته تسعة أشهر . أسقط الخراج الماضى عن الأراضى التى قد تعطلت ، ووضع عن أهل بلدة واحدة وهى باعقوبا[١] سبعين ألف دينار ، وكان أبوه قد زادها عليهم فى الخراج وكانت صنجة[٢] المخزن تزيد عن صنجة البلد نصف دينار فى كل مائة ، إذا قبضوا وإذا أقبضوا دفعوا بصنجة البلد . فكتب إلى الديوان ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ﴾ إلى قوله : ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٣] فكتب إليه بعض الكتاب يقول : يا أمير المؤمنين إن تفاوت هذا كان فى العام الماضى خمسة وثلاثون[٤] ألفا . فأرسل ينكر عليه ويقول : هذا يترك وإن كان تفاوته ثلثمائة ألف وخمسين ألفا . وأمر القاضى أن كل من ثبت له حق بطريق شرعى فوصل إليه بلا مراجعة ، وأقام فى النظر على الأموال الجردة رجلا صالحا ، واستخلف على القضاء الشيخ العلامة [١٥] عماد الدين أبا صالح نصر بن عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر الجيلى ، فى يوم الأربعاء ثامن ذى الحجة ، وكان من خيار المسلمين ومن القضاة العادلين ، ولما عرض عليه القضاء لم يقبل إلا بشرط أن يورث ذوى الأرحام . فقال : اعط كل ذى حق حقه واتق الله ولاتتق سواه ، وكان من عادة أبيه أن يرفع إليه حراس الدروب «فى[٥] كل صباح» بما كان عندهم فى المحال من الاجتماعات الصالحة والطالحة ، فلما ولى الظاهر الأمر[٦] شطب ذلك كله . وقال : أى فائدة فى كشف أحوال الناس وهتك أستارهم . فقيل له : إن ترك ذلك يفسد الرعية . فقال : نحن ندعو الله لهم أن يصلحهم . وأطلق كل من كان فى السجون معتقلا على

(١) باعقوبا : قرية كبيرة كان بينها وبين بغداد عشرة فراسخ من أعمال طريق خراسان . معجم البلدان ، ج١ ، ص٤٧٢ .
(٢) صَنْجَة : جمعها صنوج وهى صنجة الميزان كالمكيال ومكيالاتها معتبرة بالمكوك ، وصنجة دمشق وحلب وطرابلس تنقص عن الصنجة المصرية .
صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٢٣٦ - ٢٣٧ ؛ لسان العرب ، مادة «صنج» .
(٣) سورة المطففين ، آية رقم(٨٣) .
(٤) «وثلاثين» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .
(٥) « فى كل ليلة صبيحة » فى الأصل ، والتصحيح من البداية والنهاية حيث ينقل عنه العينى ، ج١٣ ، ص١١٦ .
(٦) «أمر» كذا فى الأصل ، والمثبت هو الصحيح لاستقامة المعنى .

الأموال الديوانية ، ورد عليهم ما كان استخرج منهم قبل ذلك من المظالم ، وأرسل إلى القاضى عشرة آلاف دينار يوفى بها ديون من فى سجونه من المدينين الذين لا يجدون وفاء ، وفرق على العلماء بقية المائة ألف . وقد لامه بعض الناس فى هذه التصرفات . فقال : إنما فتحت الدكان بعد العصر ، فما قدر ما أكسب؟ وأفعل الخير ، وكم مقدار ما أعيش؟ ولم تزل هذه سيرته حتى توفى (رضى الله عنه) فى العام الآتى[١] على ماسنذكره إن شاء الله تعالى . ورخصت الأسعار فى أيامه ، وقد كان قبل ذلك فى غاية الغلاء . حتى حكى ابن الأثير ، أنه أكلت الكلاب والسنانير[٢] ببلاد الجزيرة والموصل ، فزال ذلك . وكان الظاهر حسن الشكل ، مليح الوجه ، أبيض مشربا حمرة ، حلو الشمائل ، شديد القوى[٣] .

وفى تاريخ بيبرس : بويع له فى الثانى من شوال من هذه السنة عند وفاة والده ، وهو شيخ متقدم فى العمر فقال : متى يستفتح من يفتح دكانه بعد العصر؟ وفى المرآة[٤] : كان الإمام الناصر خطب لابنه الظاهر بولاية العهد فى سنة خمس وثمانين وخمس مائة ، وعمره إذ ذاك أربع عشرة سنة ، لأنه ولد فى المحرم سنة سبعين وخمسمائة ، وخطب له على المنابر ، وعزله فى سنة إحدى وستمائة ، ثم أعيد إلى العهد فى سنة ثمانى عشرة وستمائة ، ولما مات أبوه استدعى القمى تقى الوزير وقشتمر والأعيان إلى البدرية[٥] فشاهدوا الناصر ميتاً مسجى فبايعوا أبا[١٦] نصر محمدا ولقبوه بالظاهر بأمر الله ، وهذه البيعة الخاصة ثم بويع البيعة العامة ، حضر القضاة والأعيان فبايعوه وصلى على أبيه بالتاج ، وعمل العزاء ثلاثة أيام وفرق الأموال وأبطل المكوس وأزال المظالم[٦] .

---

(١) «الماضى» فى الأصل والتصحيح من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٦ . حيث ينقل عنه العينى .

(٢) السنانير : المفرد «السِّنور» وهو الهِّر ، والأنثى سنورة .
صبح الأعشى ، ج٢ ، ص٥٠ ـ ص٥١ ؛ المصّباح المنير ، مادة «سَنَر» .

(٣) إلى هنا توقف العينى عن النقل من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٥ ـ ص١١٦ .

(٤) سبط ابن الجوزى ، ج٨ ، ص٤١٩ .

(٥) البدرية : إحدى مدارس الحنفية قبالة الشبلية ، بالجبل عند جسر كحيل ، وقد بناها الأمير بدر الدين حسن بن الداية المعروف بلالاسنة ٦٣٨هـ . انظر : الدارس فى تاريخ المدارس ، ج١ ، ص٤٧٧ .

(٦) إلى هنا توقف العينى عن النقل من سبط ابن الجوزى ، ج٨ ، ص٤١٩ .

ذكر ماجريات جلال الدين بن خوارزم شاه

قدم من بلاد الهند إلى كرمان فى هذه السنة ، وقد ذكرنا أنه هرب من غزنة لما قصده جنكيزخان فى سنة سبع عشرة وستمائة ، ثم بعد قدومه إلى كرمان قدم إلى أصفهان واستولى عليها وعلى باقى عراق العجم ، ثم سار إلى فارس وانتزعها من أخيه غياث الدين تترشاه وأعادها إلى صاحبها سعد بن دكلا صاحب بلاد فارس وصار سعد وغياث الدين المذكوران[١] تحت حكم جلال الدين وفى طاعته ، ثم استولى على خوزستان[٢] ، وكانت للخليفة الناصر لدين الله ، ثم سار حتى قارب بغداد ووصل إلى باعقوبا ، وخاف أهل بغداد منه واستعدوا للحصار ، ونهبت الخوارزمية البلاد ، وامتلأت أيديهم من الغنائم ، وقوى جلال الدين وجمع عسكره الخوارزمية ثم سار إلى قريب إربل ، فصالحه صاحبها مظفر الدين ودخل فى طاعته ، ثم سار إلى أذربيجان ، وكرسى مملكتها تبريز ، واستولى على تبريز ، وهرب صاحب أذربيجان وهو أزبك بن البهلوان بن الدكز ، وكان أزّبك قد قوى أمره لما قتل طغريل آخر الملوك السلجوقية ببلاد العجم ، فاستقل أزبك المذكور فى المملكة . وكان أزبك لايزال مشغولا بشرب الخمر وليس له التفات إلى تدبير المملكة ، فلما استولى جلال الدين على تبريز هرب أزبك إلى كنجة ، وهى من بلاد أران قريب بردعة ، متاخمة لبلاد الكرج ، واستقل السلطان جلال الدين بملك أذربيجان ، وكثرت عساكره ، واستفحل أمره ، ثم جرى بينه وبين الكرج قتال شديد ، انهزمت فيه الكرج وتبعهم الخوارزمية يقتلونهم كيف شاءوا ، واتفق أنه ثبت على[١٧] قاضى تبريز وقوع الطلاق من أزبك بن البهلوان على زوجته بنت السلطان طغريل آخر الملوك السلجوقية الذى ذكرناه ، فتزوج جلال الدين بنت طغريل المذكور ، وأرسل جيشا إلى مدينة كنجة ففتحوها وهرب مظفر الدين أزبك بن البهلوان من كنجة إلى قلعة هناك ، ثم هلك وتلاشى أمره[٣] .

---

(١) «المذكورين» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .

(٢) خوزستان : اسم لجميع بلاد الخوز متاخم نواحى تستر وجنديسابور ، وناحية أيدج وأصفهان .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٩٤ .

(٣) لمعرفة المزيد عن هذا الحدث .
انظر : الكامل فى التاريخ ، ج١٢ ، ص٤٢٥ ـ ص٤٢٨ ؛ سيرة جلال الدين منكبرتى ، ص١٧٤ ، ص٢١٢ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٥٢ ـ ١٥٥ ؛ المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص١٣٤ ـ ص١٣٥ .

وقال ابن كثير[١] : لما استحوذ جلال الدين على بلاد أذربيجان استحوذ على مال كثير من بلاد الكرج ، فإنه كسر الكرج ، وهم سبعون ألف مقاتل فقتل منهم عشرين ألفا ، وفتح تفَلِيْس[٢] فقتل منها ثلاثين ألفا . وزعم أبو شامة[٣] : أنه قتل من الكرج سبعين ألفا فى المعركة وقتل من تفليس تمام المائة ألف ، وقد اشتغل بهذه الغزوة عن قصد بغداد[٤] .

وفى المرآة[٥] : وفى ربيع الأول وصل خوارزم شاه جلال الدين إلى دقوقا[٦] فافتتحها عنوة ، وأوقع السيف فى أهلها ، ونهب أموالهم ، وسبى حريمهم ، وهتك نساءهم ، وأحرق البلد وهدم سوره ، وكانوا قد عصوا عليه وسبُّوه من الأسوار ، وبالغوا فى شتمه ، وعزم على قصد بغداد ، فانزعج الخليفة وأخرج المال ، وفرق فى العساكر ألف ألف دينار ، ونصب المجانيق على الأسوار ، وفرق السلاح ، وفتح الأهراء[٧] . وقال السبط[٨] : حكى لى المعظم (رحمه الله) قال : كتب إلى جلال الدين يقول : تحضر أنت ومن عاهدنى واتفق معى حتى نقصد الخليفة فإنه كان السبب فى هلاك أبى ومجئ الكفار إلى البلاد ، ووجدنا كتبه إلى الخطا[٩] وتواقيعه لهم بالبلاد والخيل والخلع . وقال المعظم : فكتبت إليه : أنا معك على كل أحد إلا على الخليفة فإنه إمام المسلمين . قال : وبينما هو على عزم بغداد ، وكان قد جهز جيشا إلى الكرج إلى تفليس ، فكتبوا إليه : أدركنا فما لنا بالكرج طاقة ، وبغداد ماتفوت . فسار إلى تفليس فخرج إليه الكرج ، فضرب معهم

---

(١) البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٤ .

(٢) تفليس : بلد بأرمينيا الأولى ، وهى قصبة ناحية جرزان قرب باب الأبواب ، وتقع على نهر أرس .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٨٥٧ - ص٨٥٩ .

(٣) الذيل على الروضتين ، ص١٤٤ .

(٤) سيرة جلال الدين منكبرتى ، ص٢١١ - ص٢١٢ ؛ الذيل على الروضتين ص١٤٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٤ .

(٥) سبط ابن الجوزى ، ج٨ ، ص٤١٧ .

(٦) دقوقا : مدينة بين أربل وبغداد . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥٨١ .

(٧) الأهراء : هى حواصل لخزن أنواع الغلال المتنوعة وتحمل إليها من جهات مختلفة ولاتفتح إلا عند الضرورة . وللأهراء ديوان له ناظر ، وتعرف الأهراء فى مصطلحنا الحديث بالشونة .
انظر : مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص٥٢ .

(٨) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١٧ - ص٤١٨ .

(٩) الخطا : هم قبائل أسسوا دوله لهم فى إقليم التركستان فى مستهل القرن السادس الهجرى ، الثانى عشر الميلادى على يد« بى لوتاشى» ، وقامت هذه الدولة على الحدود الشرقية للأقاليم الإسلامية .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٣٦ ، حاشية(٣) .

مصافا ، فقتل منهم سبعين ألفا ، وفتح تفليس عنوة ، وقتل منها ثلاثين ألفا فصاروا مائة ألف ، وذلك فى سلخ ذى الحجة[١] .

ذكر الحرب الواقعة بين المسلمين والكرج

وفى هذه السنة اتفقت الحرب بين المسلمين والكرج وذلك [١٨] أن شروان شاه رشيد صاحب الدربند[٢] كان سئ السيرة ، كثير الفساد والظلم لرعيته ، فاشتدت وطأته عليهم ، فاتفق بعض العسكر مع ولده عليه ، فأخرجوه من البلاد ، وملكوا ولده أغا ، فأحسن السيرة فأحبته العساكر والرعية ، وأرسل إلى والده يقول له : المصلحة أنك تكون فى بعض القلاع ، وأجرى لك مايقوم بك . فلما سمع رسالة ابنه سار إلى الكرج ، واستنصر بهم ، وطلب منهم أن يسيروا معه عسكرا إعانه له على استيعاده البلاد إلى نفسه من ولده ، فسيروا معه عسكراً كثيرا ، فسار بهم وسار ابنه إليه فى عسكره ، وكانوا نحو ألف فارس ، ولقى أباه والكرج وهم نحو ثلاثة آلاف فارس ، واقتتلوا قتالا شديداً فانهزمت الكرج ، وقتل منهم وأسر خلق كثير ، وعادوا بأسوأ حال ، وقالوا لشروان شاه المخلوع : إنا لم نلق بسببك خيرا ، فلا تقم ببلادنا . ففارق بلادهم وبقى مترددا لايأوى إلى أحد ، واستقر ولده فى الملك ، ورد إلى الرعية ما اغتصبه أبوه من أملاكهم ، وما أخذ منهم[٣] .

وفيها سار جمع من الكرج[٤] من تفليس يقصدون بلاد أذربيجان ، وهى بيد مظفر الدين أزبك بن البهلوان ، ونزلوا وراء مضيق فى الجبال لايسلكه إلا الفارس بعد الفارس ، فأقاموا به آمنين من المسلمين اغترارا بحصانته ، وأنه لاطريق إليهم ، فركبت طائفة من العساكر الإسلامية وقصد وهم فى ذلك المضيق ، فلم يشعروا إلا وقد كبسهم المسلمون ، وبذلوا فيهم السيف فقتلوهم كيف شاءوا ، وولى الباقون منهزمين ، فعظم ذلك على الكرج ، وعزموا على قصد أذربيجان للأخذ بثأرهم ، وبينما هم كذلك إذ وصل

(١) إلى هنا توقف العينى عن النقل من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١٧ - ص٤١٨ ؛ وانظر أيضا الذيل على الروضتين ، ص١٤٤ .

(٢) دربند : هى باب الأبواب ، وهى مدينة على الشاطئ الغربى لبحر قزوين قبالة تفليس وتسمى أحيانا بباب الحديد ، وهى كلمة فارسية معناها فى الأصل سنبلة من حديد ، يقفل بها باب الدكان وتستعمل أيضا بمعنى المضايق والطرقات .
معجم البلدان ، ج١ ، ص ٤٣٧ - ص٤٤٢ ، ج٢ ، ص٥٦٤ .

(٣) الكامل ، ج١٢ ، ص٤٣٠ - ص٤٣١ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٤٦ - ص١٤٧ .

(٤) فى الأصل : «الكرد» والصحيح ما أثبتناه . الكامل ، ج١٢ ، ص٤٣١ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٤٧ .

إليهم الخبر بوصول السلطان جلال الدين خوارزم شاه إلى مراغة ، فراسلوا أزبك بن البهلوان يدعونه إلى الصلح والاتفاق معهم على رد جلال الدين ، فعاجلهم جلال الدين قبل اتفاقهم ووصل إلى مراغة فملكها(١) .

وأتاه الخبر أن[١٩] يغان طايسى وهو خال غياث الدين تترشاه وزوج أخت جلال الدين سار إلى همذان ومعه من العساكر نحو خمسة آلاف فارس ، ليملكها ويستولى على عراق العجم ، وكان سبب قصده هذه الناحية أن الخليفة الإمام الناصر لدين الله كتب إليه يطمعه فيها ويقطعه إياها ، فسار إلى تلك الناحية ليستولى عليها ، ولما بلغ ذلك السلطان جلال الدين سار إليه جريدة(٢) ، فوصل إليه ليلاً فأحاط به وبما غنمه من أذربيجان وأران من خيل وبغال وبقر وغنم ، فلما أصبح يغان طايسى ورأى العسكر والجتر(٣) الذى يكون على رأس جلال الدين علم أنه هو ، فسقط فى يده ، فأرسل زوجته وهى أخت السلطان إليه ؛ يطلب منه الأمان ، فأمنه وأحضره عنده ، وانضاف عسكره إلى عسكر جلال الدين ، وبقى وحده ، فأضاف إليه جلال الدين عسكراً غير عسكره ، وعاد إلى مراغة ، وأعجبه المقام بها ، وكان أزبك صاحب أذربيجان قد سار من تبريز إلى كنجة خوفا من جلال الدين ، فسار جلال الدين إلى تبريز وحصرها وقاتل أهلها قتالا شديدا وزحف عليها ، فأذعن أهلها بالطاعة وطلبوا من جلال الدين الأمان ، فذكر لهم فعلهم بالخوارزمية وقتلهم إياهم ، فاعتذروا بأنهم لم يفعلوا شيئا من ذلك ، وإنما فعله صاحبهم أزبك بن البهلوان ، ولم يكن لهم قدرة على منعه من ذلك ، فقبل عذرهم وأمنهم ، وأمن زوجة أزبك وهى بنت السلطان طغريل على نفسها ومالها من البلاد ، وملك مدينة تبريز وسير زوجة أزبك إلى خوى ، وحضر الجامع بتبريز يوم الجمعة ، فلما خطب الخطيب ودعا للخليفة الإمام الناصر لدين الله ، قام السلطان قائما حتى فرغ من الدعاء وجلس(٤) .

---

(١) وردت هذه الأحداث فى الكامل ، ج١٢ ، ص ٤٣١ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٤٧ ـ ص ١٤٨ .

(٢) جريدة : الفرقة من العسكر الخيالة لا رجالة فيها ، ويقصد بها فى كثير من الأحيان سير السلطان على وجه السرعة دون أن يأخذ معه أثقالا أو حشدا .

انظر : سيرة منكبرتى ، ص٢١٣ ، حاشية(٦) ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص٢٣٢ ، حاشية (٢) .

(٣) الجتر : عبارة عن مظلة أوقبة من حرير أصفر مزركش بالذهب على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب ، وعرف الجتر فى مصر زمن الفاطميين واستخدم أيضا زمن الأيوبيين والمماليك حيث كان يحمل على رأس السلطان فى العيدين . مفرج الكروب ، ج٤ ، ص ١٤٩ ، حاشية(١) .

(٤) انظر الكامل ، ج١٢ ، ص٤٣٢ ـ ص٤٣٤ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٤٨ .

ولما ملك بلاد أذربيجان أرسل إلى الكرج يؤذنهم بالحرب ، فشرعوا فى جمع عساكرهم ، فجمعوا مايزيد على ستين ألفا ، فسار إليهم جلال الدين ونازل مدينة دوين[١] وهى من بلادهم ، وكانت قبل ذلك للمسلمين ، ثم سار منها إليهم ، وضرب معهم مصافا ، فانهزمت الكرج أقبح هزيمة[٢٠] فأمر جلال الدين أن يقتلوا بكل طريق ولا يبقى على أحد منهم ، فبلغت عدة القتلى منهم عشرين ألفا ، وقيل : أكثر من ذلك . وأسر كثير من أعيانهم ، ومضى إيوانى مقدمهم منهزما ، فأدركه الطُّلب ، فصعد قلعة لهم على طريقه ، فاحتمى بها ، فرتب السلطان عليها من يحصرها ويمنعه من النزول منها ، ثم فرق عساكره فى بلاد الكرج ينهبون ويقتلون ويأسرون ويخربون البلاد ، وأمر العساكر بالمقام فيها مع أخيه غياث الدين تترشاه ، وعاد إلى تبريز وقبض على رئيسها وأمر بقتله ، وعلى مقدميها وأمر بحبسهم ، لأنه كان قد بلغه عنهم أنهم تحالفوا وتعاقدوا على العصيان عليه ، وإعادة البلاد إلى أزبك بن البهلوان ، ثم تزوج امرأة أزبك على ماذكرناه[٢] .

ذكر بقية الحوادث

منها أنه كان غلاء شديد بالعراق والشام وبسبب قلة الأمطار وانتشار الجراد ، ثم جاء عقيب ذلك فناء كثير بالعراق والشام أيضا ، فمات بسببه خلق كثير فى البلاد[٣] .

ومنها أن الملك الكامل جدد عرض عساكره بمصر ، وبرز وأقام فى الخيام بباب النصر لما عزم أخوه الأشرف على المسير إلى أخيه المعظم ليصالحه .

ومنها أن المعظم صَلَب فى سوق الغنم العتيق فى طريق الميدان الأخضر شمس الدين بن الكعكى ورفيقا له ، مُنَكَّسَيْن على رأسيهما[٤] ، وكان ابن الكعكى رأس حرب[٥] ومعه جماعة ، فكانوا ينزلون على الناس فى البساتين ، ويقتلون وينهبون ، والمعظم فى الكرك ، وبلغه أن ابن الكعكى قال لأخى المعظم : الصالح اسماعيل كان بِبُصْرَى[٦] أنا آخذ لك دمشق . فكتب إلى والى دمشق بأن يصلب ابن الكعكى ورفيقه

(١) دوين : بلدة من نواحى أران فى آخر حدود أذربيجان بقرب تفليس . معجم البلدان ، ج٢ ، ص٦٣٢ .
(٢) انظر : الكامل ، ج١٢ ، ص٤٣٤ ـ ص٤٣٦ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٥٢ ـ ص١٥٥ .
(٣) الكامل ، ج١٢ ، ص٤٤٧ ـ ص٤٤٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٤ .
(٤) «رؤُسُهما» كذا فى الأصل والصحيح لغة ما أثبتناه .
(٥) رأس حرب : أى رأس عصابة مسلحة . نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٣٢ .
(٦) فى الأصل : «كان بصرى» والتصحيح من نهاية الأرب لاستقامة المعنى ، ج٢٩ ، ص١٣٢ .

منكسين ، فصلبهما فى العشر الأواخر من رمضان ، فأقاما أياما فى حر الشمس ، يسفى الريح التراب على «وجهيهما[١] ورأسيهما» ، ولايقدران على طعام وشراب ، إلى أن مات ابن الكعكى أولا ، وكان[٢١] يستغيث كثيرا ويتعلق ، وكان رفيقه أجلد منه وأصبر ، وكان رجلاً خياطا آدم[٢] اللون ، وقيل : إنه برئ مما رمى به ، فمات وله أملاك كثيرة ظاهر باب الجابية[٣] وغيرها[٤] .

وفيها ....[٥]

وفيها حج بالناس من العراق ابن أبى فراس ، ومن الشام الشجاع بن السَّلاَّر[٦] .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

الفخر[٧] بن تيمية ، محمد بن أبى القاسم بن محمد بن الشيخ فخر الدين أبو عبد الله بن تيمية الحرانى ، عالمها وخطيبها وواعظها ، اشتغل على مذهب الإمام أحمد (رحمه الله) وبرع فيه ، وبرز وحصل وجمع تفسيراً حافلاً فى مجلدات كثيرة ، وله الخطب المشهورة المنسوبة إليه ، وهو عم الشيخ مجد الدين صاحب[المنتقى فى][٨] الأحكام . وقال السبط[٩] : سمعته يوم الجمعة بعد الصلاة وهو يعظ الناس وينشد :

أحـبـابنا قـد نَدرَتْ مـقلتى   لاتلتـقى بالنوم أو نلتـقى
رفـقـا بقلب مـغـرم واعطِفـوا   على سقام الجسد المحـرقِ
كم تمطلونى بليـالى اللقـا   قـد ذهب العمـرُ ولم نلتقِ

(١) «وجوههما ورؤسهما» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .
(٢) آدم اللون : هو الأبيض ، الأسود المقلتين . لسان العرب ، ماده «أدم» .
(٣) باب الجابية : بقرية الجابية من أعمال دمشق .معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣ .
(٤) الذيل على الروضتين ، ص١٤٤ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٣٢ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١٨ .
(٥) بياض بمقدار نصف سطر .
(٦) الذيل على الروضتين ، ص١٤٤ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١٨ .
(٧) الذيل على الروضتين ، ص١١٦ ؛ وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٣٨٦ - ص٣٨٨ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص١٠٢ .
(٨) مابين حاصرتين إضافة من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٧ ، لاستقامة المعنى .
(٩) يقصد «أبو المظفر سبط ابن الجوزى» ولم يرد هذا النص فى «مرآة الزمان» ولكنه ورد فى وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٣٨٧ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٧ .

وقال ابن خلكان(١) : ومولده فى اليوم الثامن والعشرين من شعبان ، سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة بمدينة حران ، وتوفى بها فى «حادى عشر من صفر سنة إحدى وعشرين وستمائة» . وقال السبط(٢) : مات فى خامس صفر من هذه السنة . وذكره أبويوسف محاسن بن سلامة الحرانى فى «تاريخ حران» وأثنى عليه ، ثم قال : توفى يوم الخميس بعد العصر عاشر صفر ، سنة اثنتين وعشرين وستمائة . وذكره أبو البركات بن المستوفى فى «تاريخ إربل» فقال : ورد إربل حاجاً فى سنة أربع وستمائة ، وذكر فضله ، وقال : سألته عن اسم تيمية مامعناه؟ فقال : حج أبى أو جدى ، أنا أشك أيهما قال : وكانت امرأته حاملا ، فلما كان بتيما رأى جُوَيرية(٣) قد خرجت من خباء ، فلما رجع إلى حران وجد امرأته قد وضعَت جارية ، فلما رفعوها إليه قال : ياتيميه ، ياتيمية ، معنى أنها تشبه التى رآها بتيما ، فَسُمِّى بها ، أو كلاماً هذا معناه . وتيماء : بفتح التاء المثناة من فوق وسكون الياء آخر الحروف ، وفتح الميم بعدها همزة ممدودة ، وهى بليدة فى بادية تبوك إذا خرج [٢٢] الإنسان من خيبر إليها يكون على منتصف طريق الشام ، وتيميه منسوبة إلى هذه البليدة ، وكان ينبغى أن يقال : تيماوية لأن النسبة إلى تيماتيماوى ، لكنه هكذا اشتهر(٤) .

الوزير ابن شكر(٥) صفى الدين أبو محمد عبد الله بن على بن عبد الخالق بن شكر ، ولد بالدميرة ، بلدة «بين مصر والإسكندرية» سنة أربعين وخمسمائة ، ومات فى هذه السنة فى شعبان ودفن بتربته عند مدرسته بمصر ، وقد وُزر للملك العادل ، وعمل أشياء فى أيامه منها : تبليط جامع دمشق ، وإحاطة سور المصلى عليه ، وعمل الفوارة(٦) ومسجدها ، وعمارة جامع المِزّة(٧) ، وقد نكب وعزل فى سنة خمس عشرة وستمائة ،

(١) وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٣٨٧ ، ولكن ابن خلكان ذكر أن وفاته فى عاشر صفر سنة اثنتين وعشرين وستمائة .
(٢) يقصد «أبو المظفر سبط ابن الجوزى» ولم يرد هذا القول فى «مرآة الزمان» ولكنه ورد فى وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٣٨٧ - ص٣٨٨ .
(٣) جويرية : تصغير جارية .
(٤) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص١١٦ ؛ وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٣٨٦ - ص٣٨٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٧ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١٠٢ .
(٥) انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٤٧ ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٨ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١٠٠ ، ص١٠٥ .
(٦) الفوارة : هى البِرْكَة ، أو فوارة الماء أى منبعه . لسان العرب ، مادة «فور» .
(٧) جامع المِزّة : يوجد فى قرية المزة ، وهى قرية كبيرة فى وسط بساتين دمشق ، كان بينها وبين دمشق نصف فرسخ ، والمزة أصبحت الآن من ضواحى دمشق .
معجم البلدان ، ج٤ ، ص٥٣٢ .

وبقى معزولا فى هذه السنة ، فتوفى فيها وكان مشكور السيرة . وقال السبط[١] : وكان وزيراً مهيبا عالما فاضلا له معرفة بقوانين الوزارة ، وكان مالكى المذهب ، محبا لمن فى العلم يرغب ، وصنف كتابا سماه «البصائرُ» برواية الأوائل والأواخر ، وله فى القاهرة مدرسة مشهورة وآثار مأثورة ، ومنهم من يقول : كان ظالما . وقال : أنشدنا الحافظ السلفى لنفسه :

مـهـمـا تهـاون فى أمـرى أمـروُ ... وغدا مصارما لا أرى إلا مبجله
فـإن أسـاء مـسئ فـوق طاقـتـه ... أحسنت مجتهدا حتى أخجله[٢]

وقال : أنشدنا الحافظ السلفى لابن رشيق وقد قيل له : لم لا تركب البحر للحج؟ فقال معتذرا :

البـحـر صـعـب المـرام هول ... لاجـعلتُ حـاجـتى إليـه
«ألـيـس[٣] مـــاء وطـيـن» ... فـهل ترى صـبـرنا عليـه[٤]

ولعبد الجبار الكاتب :

لا أركب البـحـر خـوفـا ... علىّ منه المـعـاطب
طـيـن أنـا وهـو مـــاءٌ ... والطين فى المـاء ذايب[٥]

أبو اسحاق[٦] ابراهيم بن المظفر بن ابراهيم بن على ، المعروف بابن البدى[٧] ، الواعظ البغدادى ، أخذ الفن عن شيخه ابن الجوزى ، وسمع الحديث الكثير ، مات فى هذه السنة .

أبو الحسن[٨] على بن الحسن الرازى ثم البغدادى الواعظ ، عنده فضائل وله شعر حسن ، توفى فى هذه السنة .

---

(١) لم يرد هذا القول فى سبط ابن الجوزى ، مراة الزمان .
(٢) ورد هذان البيتان فى الذيل على الروضتين ، ص١٤٧ .
(٣) «السر ماء وطين طين» كذا فى الأصل ، والمثبت من الذيل على الروضتين ، ص١٤٧ ، لاستقامة المعنى .
(٤) ورد هذان البيتان فى الذيل على الروضتين ، ص١٤٧ .
(٥) ورد هذان البيتان فى الذيل على الروضتين ، ص١٤٧ .
(٦) البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٨ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٩٩ .
(٧) «ابن البذى» فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٨ .
(٨) البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٨ .

البها السنجاري[١] أبو السعادات ، أسعد بن يحيى بن موسى بن منصور بن عبد العزيز بن وهيب بن وهبان بن سرد[٢] بن عبد الله بن رُفَيْع بن [٢٣] ربيعة بن هبار[٣] ، السلمى السنجارى ، الفقيه الشافعى ، الشاعر المنعوت بالبها ، وكان فقيها فاضلا وتكلم فى الخلاف ، إلا أنه غلب عليه الشعر وأجاد فيه ، واشتهر به ، وخدم الملوك به ، وأخذ جوائزهم ، وطاف البلاد ، ومدح الأكابر ، وشعره كثير فى أيادى الناس ، يوجد قصائد ومقاطيع . قال ابن خلكان[٤] : لم أدر هل دَوَّن شعره أم لا ، ثم وجدت فى كتب التربة الأشرفية بدمشق له ديوانا فى مجلد كبير . وله من جملة قصيدة :

كَتَبَ العذَارُ على صحيفة[٥] خده نُونا وأعجَمَها بنُقطةِ خالهِ
فسَوادُ طُرَّتِه كليل[٦] صُدُودِهِ وبياضُ غُرَّته كيوم[٧] وصالهِ

وله أيضا :

ومُهَفْهَفٍ حُلْو الشمائلِ فاتر الألحاظِ فيه طاعَةٌ وعقوقُ
وقفَ الرَّحيقُ على مراشف ثغره فجَرَى من خدِّه راوُوقُ
سدّت محاسنُهُ على عُشّاقِه سُبلَ[٨] السلوِّ فما إليه طريق

وكان للبهاء المذكور صاحب ، وبينهما مودة أكيدة واجتماع كثير ، ثم جرى بينهما فى بعض الأيام عِتَاب[٩] وانقطاع ، وانقطع ذلك الصاحب ، فسير إليه يعتبه لانقطاعه ، فكتب إليه بيتى الحريرى اللذين[١٠] ذكرهما فى المقامة الخامسة عشرة[١١] . وهما :

لاتَزُرْ مَنْ تحبُّ فى كلِّ شهر غير يوم ولاتزدْهُ علَيه
فاجتِلاء الهلال فى الشهر يوم ثم لاتنظر العُيون إليه

(١) انظر : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢١٤ ، ص٢١٧ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٩ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١٠٤ ، ص١٠٥ .
(٢) «ابن هبان بن سوار» فى وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢١٤ .
(٣) «ابن هبان» فى وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢١٤ .
(٤) وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢١٤ .
(٥) «صفيحة» فى الأصل ، والتصحيح من وفيات الأعيان حيث ينقل عنه العينى ، ج١ ، ص٢١٥ .
(٦) «كيوم» فى الأصل ، والتصحيح من وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢١٥ .
(٧) «كليل» فى الأصل ، والتصحيح من وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢١٥ .
(٨) «شمل» فى الأصل ، والتصحيح من وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢١٥ .
(٩) «عياب» فى الأصل ، والتصحيح من وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢١٦ .
(١٠) «الذى» فى الأصل ، والتصحيح من وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢١٦ .
(١١) «عشر» فى الأصل ، والتصحيح من وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢١٦ .

فكتب إليه البهاء من نظمه :

إذا حـــقـــقت من خِلٍّ[١] ودادًا ... فـــزُره ولا تخفْ منه مَـــلالا
وكن كـالشـــمس تطلع كل يوم ... ولا تـكُ فـي[٢] زيـارتـه هـلالا

وكانت ولادته سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة ، وتوفى فى أوائل هذه السنة بمدينة سنجار .

عثمان بن[٣] عيسى بن درباس بن جهم بن عبدوس ، الهذبانى المارانى ، ضياء الدين أخو القاضى صدر الدين عبد الملك ، الحاكم بالديار المصرية فى الدولة الصلاحية . وضياء الدين هذا هو «شارح المهذب» إلى «كتاب الشهادات» فى نحو من عشرين مجلدا ، وشرح «اللمع فى أصول الفقه» للشيرازى ، وكان بارعا عالما بالمذهب ، توفى فى هذه السنة .

أبو محمد[٤] عبد الله بن أحمد[٢٤] البوازيجى ، ثم البغدادى ، شيخ فاضل ، له رواية ، ومما أنشده :

ضـيق العُـذرَ فى الضـراعـة أنَّا ... لو قنعنا بقـــســمنا لكفــانا
مـالنا نعـبـد العـبـاد إذا كـان ... إلى الله فـــقـــرنا وغنانا

أبو الفضل[٥] عبد الرحيم بن نصر الله بن على بن منصور بن الكيال الواسطى [من][٦] بيت الفقه والقضاء ، وكان أحد المعدلين ببغداد ومن شعره :

فـتبا لدنيـا لايدوم نعـيـمـهـا ... تسرُّ يسيرا ثم تُبْدى المساويا
تريك رياء[٧] فى النقاب وزخرفا ... وتســـفـــر عن شـــوهاء . . .[٨]

---

(١) «رجل» فى الأصل ، والتصحيح من وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢١٦ .
(٢) «تكن من» فى الأصل ، والتصحيح من وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢١٦ .
(٣) انظر : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٢٤٢ - ص٢٤٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٩ .
(٤) انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٩ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١٠٣ .
(٥) انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٠ .
(٦) مابين حاصرتين إضافة من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٠ .
(٧) «رواء» كذا فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٠ .
(٨) بياض بمقدار كلمتين ذكرها ابن كثير وهما «طحياء عاميا» ومعنى طحياء مبسوطة . انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٠ .

أبو على الحسن[١] بن على بن الحسن بن على بن عمار بن مهدى[٢] بن وقاح الياسرى نسبة إلى عمار بن ياسر ، شيخ بغدادى فاضل ، له مصنفات فى التفسير والفرائض ، وله خطب ورسائل وأشعار حسنة ، وكان مقبول الشهادة عند الحكام .

أبو بكر[٣] **محمد بن يوسف بن الطباخ** ، الواسطى البغدادى الصوفى ، باشر بعض الولايات ببغداد ، ومما أنشده :

مـــاوهب الله لامـــرىء هبـــة ... أحـــسن من عـــقله ومن أدبه

نعـمـا جـمـال الفـتى فـإن فـقـدا ... فـفـقـده للحـيـاة أجـملُ به

ابن يونس[٤] **شارح التنبيه ، أبو الفضل أحمد بن الشيخ العلامة كمال الدين أبى الفتح موسى بن يونس بن محمد بن منعة بن مالك بن محمد بن سعد بن سعيد بن عاصم بن عائد بن كعب بن قيس بن إبراهيم الإربلى الأصل ثم الموصلى** ، من بيت العلم بها والرئاسة ، اشتغل على أبيه فى فنونه وعلومه ، فبرع وتقدم ودرس ، وشرح كتاب «التنبيه» ، واختصر «إحياء علوم الدين» للغزالى مرتين صغيراً وكبيرا .

وقال ابن خلكان[٥] : وقد ولى بإربل مدرسة الملك المظفر بعد موت والديه فى سنة عشر وستمائة ، وكنت أحضر عنده وأنا صغير ، ولم أر أحدا يُدَرِّس مثله ، ثم صار إلى بلده فى سنة سبع عشرة ، ومات يوم الاثنين الرابع والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة[٢٥] عن سبع وأربعين سنة .

أبو الدرياقوت[٦] **بن عبد الله الرومى** الملقب مهذب الدين الشاعر المشهور ، مولى أبى منصور الجيلى ، التاجر ، اشتغل بالعلم وأكثر من الأدب ، واستعمل قريحته فى الشعر والنظم فأجاد فيه ، ولما تميز ومهر سمى نفسه عبد الرحمن ، وكان مقيما بالمدرسة النظامية ببغداد ، وأكثر نظمه فى التصابى والغزل وذكر المحبة ، وراق شعره ، وتحفظه الناس ، وله ديوان شعر ، وشعره متداول بالعراق وبلاد الشرق والشام .

---

(١) انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٠ .
(٢) «ابن فهر» كذا فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٠ .
(٣) انظر ترجمته وشعره فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٠ .
(٤) انظر : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٠٨ - ص ١٠٩ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٠ـ ص١٢١ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٩٩ .
(٥) انظر : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٠٨ - ص١٠٩ .
(٦) انظر : وفيات الأعيان ، ج٦ ، ص١٢٢ - ص١٢٦ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١٠٥ - ص١٠٦ .

وقال ابن خلكان[١] : رأيت فى بعض التواريخ أن أبا الدُر المذكور وجد ميتا بمنزله ببغداد فى الثانى عشر من جمادى الأولى ، وقيل : الآخرة من هذه السنة . وقال الناس : إنه توفى قبل ذلك بأيام .

الشيخ على[٢] بن عبد الله الكردى الموله ، المقيم بظاهر باب الجابية ، قال أبو شامة[٣] : وقد اختلفوا فيه ، فبعض الدماشقة يزعم أنه صاحب الكرامات ، وأنكر ذلك آخرون ، وقالوا : ماراَه أحد يصلى ولايصوم ، ولا لبس مداسا بل كان يدوس النجاسات ، ويدخل المسجد على حاله ، وقال آخرون : كان له تابع من الجن يتحدث على لسانه . وحكى السبط[٤] عن امرأة قالت : جاء خبر بموت أمى باللاذقية أنها ماتت . وقال لى بعضهم : لم تمت . قالت : فمررت به وهو قاعد عند المقابر ، فوقفت عنده ، فرفع رأسه وقال لى : ماتت ماتت إش تعملين؟ فكان كما قال ، ومثل ذلك كثير .

الأمير سيف[٥] الدين على بن الأمير علم الدين سليمان بن جندر ، مات فى هذه السنة فى أواخر جمادى الآخرة بحلب ، وكان من أكابر الأمراء بحلب ، وله الصدقات الكثيرة ، وقف بها مدرستين ، إحداهما على الشافعية والأخرى على الحنفية ، وبنى الخانات والقناطر وغير ذلك من سبل الخيرات .

الأمير عز[٦] الدين خضر بن ابراهيم بن أبى بكر بن قرا أرسلان ، صاحب خرت برت[٧] ، مات فى هذه السنة ، وملك بعده ابنه نور الدين أرتق شاه .

الملك الأفضل[٨] نور الدين على بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب [٢٦] ، كان ولى عهد أبيه ، وقد ملك دمشق بعده مدة سنتين ، ثم أخذها منه

---

(١) انظر : وفيات الأعيان ، ج٦ ، ص١٢٥ .

(٢) انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٤٦ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٧ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٢٠ .

(٣) الذيل على الروضتين ، ص١٤٦ .

(٤) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٢٠ .

(٥) انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٤٥ ــ ص١٤٦ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١١٧ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤١٩ ــ ص٤٢٠ .

(٦) انظر : الكامل ، ج١٢ ، ص٤٢٩ .

(٧) خرت برت : هو اسم أرمنى ، وهو الحصن المعروف بحصن زياد فى أقصى ديار بكر من بلاد الروم . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤١٧ .

(٨) انظر : الكامل ، ج١٢ ، ص٤٢٨ ـ ص٤٢٩ ؛ الذيل على الروضتين ، ص١٤٥ ؛ وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤١٩ ـ ص٤٢١ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٥٥ ـ ص١٥٨ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٣٥ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٣٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ١١٦ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٢٠ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١٠١ .

الملك العادل عمه ، ثم كان ملك الديار المصرية بعد أخيه العزيز عثمان ، فأخذها منه عمه العادل أيضا ، ثم اقتصر على ملك صرخد[١] فأخذها منه العادل ، ثم آل به الحال أن كان ملك شميساط ، وبها توفى فى هذه السنة . وكان موته فجاءة فى شهر صفر وعمره سبع وخمسون سنة ، ونقل إلى حلب ودفن بتربته بظاهر حلب بالقرب من مشهد الهروى[٢] ، وملك البلده بعده أخوه المفضل قطب الدين موسى بن صلاح الدين ، وهو شقيقه ، وكان الأفضل فاضلا متأدبا حليما عادلا جامعا للفضائل والمناقب ، إلا أنه كان قليل الحظ والسعادة ، ولم ينتظم له حال منذ توفى والده صلاح الدين ، وكان جيد الشعر ، فمن شعره قوله فى خضاب الشعر ، وتعرض فيه بسوء حظه :

يامن يسود شعره بخضابه ... لعساه من أهل الشبيبة يحصل
ها فاختضب بسواد حظى مرة ... ولك الأمان بأنه لاينصل[٣]

وله أيضا :

أما آن للسعد الذى أنا طالب ... لإدراكه يوما يرى وهو طالبى
ترى هل يرينى الدهر أيدى شيعتى ... تمكن يوما من تواصى النواصب

وقال ابن خلكان[٤] : كانت ولادته يوم عيد الفطر وقت العصر ، سنة ست ، وقيل : خمس وستين وخمسمائة بالقاهرة ، ووالده صلاح الدين يومئذ وزير المصريين ، وشميساط بضم الشين المعجمة ، وفتح الميم ، وسكون الياء آخر الحروف ، وفتح السين المهملة ، وبعد الألف طاء مهملة ، وهى قلعة فى بر الشام على الفرات من ناحية بلاد الروم بين قلعة الروم وملطية .

---

(١) صرخد : بلد ملاصق لبلاد حوْران من أعمال دمشق ، وهى قلعة حصينة ، وولايه حسنة . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٣٨٠ .

(٢) مشهد الهروى : هو مشهد الشيخ على الهروى بالقرب من المقبرة المعروفة بالمقام على جانب الطريق فى مدينة حلب . وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢١٢ .

(٣) ورد هذان البيتان فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٥٧ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٣٥ .

(٤) وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٢١ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الثالثة والعشرين بعد الستمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو الظاهر بأمر الله ، ولكنه مات فى هذه السنة [٢٧] ولم ينتفع بخلافته .

ذكر وفاة الظاهر

هو أمير المؤمنين الظاهر بأمر الله ، أبو نصر محمد بن أمير المؤمنين الناصر لدين الله ، أبى العباس أحمد ، وليس فى الخلفاء من يكنى أبا نصر غيره ، وأمه أم ولد يدعى الطُنْ ، بويع له يوم الأحد سلخ رمضان من السنة الماضية ، وتوفى يوم الجمعة الثانى عشر من رجب من هذه السنة ، وكانت مدة خلافته تسعة أشهر وأربعة عشر يوما ، ولا يعلم أنه ولى من بنى العباس أقصر مدة منه ، كما أنه لم يل منهم أطول مدة من أبيه . وكان إماما عادلا متواضعا محسنا إلى الرعية جدا ، وكان من أجود بنى العباس سيرة ، وأحسنهم سريرة ، وأكثرهم عطاء ، وأحسنهم منظراً ورواء ، ولو طالت مدته لصلحت الأمة صلاحاً كثيراً على يديه ، ولكن الله أحب تقريبه وإزلافه لديه ، فاختار له ماعنده ، وأجزل له إحسانه ورفده ، وقد ذكرنا ما اعتمده فى أول ولايته من إطلاق الأموال الديوانية ، ورد المظالم ، وإسقاط المكوس ، وتخفيف الخراج عن الناس ، وأداء الديون عمن عجز عن قضائها ، والإحسان إلى العلماء والفقراء ، وتولية ذوى الديانة والأمانة . وكان قبل وفاته قد أخرج توقيعا إلى الوزير بخطه ليقرأه على أرباب الدولة ، وقال الرسول : أمير المؤمنين يقول : ليس غرضنا أن يقال : برز مرسوم أو نفذ مثال ولا يبين له أثر ، بل أنتم إلى إمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوال . ثم قُرِئ عليهم التوقيع ونسخته : «بسم الله الرحمن الرحيم اعلموا أنه ليس إمهالنا إهمالا ، ولا إغضاؤنا إغفالا ، ولكن «لنبلوكم أيكم أحسن عملاً»(١) ، وقد غفرنا لكم ماقد سلف من خراب البلاد ، وتشريد الرعايا ، وتقبيح السمعة ، وإظهار الباطل الجلىّ فى صورة الحق الخفى ، حيلة ومكيدة ، وتسمية الاستيصال والاجتياح استيفاء واستدراكا لأغراض انتهزتم فرصتها مختلسة من براثن

(*) يوافق أوله : ٢ يناير ١٢٢٦م .

(١) اقتباس من القرآن الكريم ، سورة الملك ، آية(٢) .

ليث باسل ، وأنياب أسد مهيب ، تتفقون بألفاظ مختلفة على معنى واحد ، وأنتم أمناؤه وثقاته ، فتميلون رأيه إلى هواكم[٢٨] وتمزجون باطلكم بحقه ، فيطيعكم وأنتم له عاصون ، ويوافقكم وأنتم له مخالفون ، والآن فقد بدل الله سبحانه بخوفكم أمنا ، وبفقركم غنى ، وبباطلكم حقا ، ورزقكم سلطانا يُقيل العثرة ويقبل المعذرة ، ولا يؤاخذ إلا من أصر ، ولا ينتقم إلا ممن استمر ، يأمركم بالعدل وهو يريده منكم ، وينهاكم عن الجور وهو يكرهه لكم ، يخاف الله تعالى ويخوفكم مَكْرَه ، ويرجوا الله تعالى ويرغبكم فى طاعته ، فإن سلكتم مسالك خلفاء الله فى أرضه ، وأمنائه على خلقه ، وإلا [هلكتم][١] والسلام .

ولما مات وجد فى بيت داره رقاع مختومة كلها لم يفتحها ، وقال : لاحاجة لنا فيها ، كلها سعايات بالناس ، وقد ذكرنا نبذا من سيرته الجميلة فى السنة الماضية (رحمه الله)[٢] .

وقد خلف من الأولاد عشرة ذكورا وإناثا ، منهم ابنه الأكبر الذى بويع له بالخلافة من بعده أبو جعفر المنصور ، ولقب بالمستنصر بالله[٣] .

ذكر خلافة المستنصر بالله

وهو السادس والثلاثون من خلفاء بنى العباس ، وهو أمير المؤمنين أبوجعفر منصور بن أمير المؤمنين الظاهر بالله ، محمد بن الناصر أحمد ، بويع له بالخلافة يوم مات أبوه ، استدعوا به من التاج[٤] ، فبايعه الخاصة والعامة من أهل الحل والعقد ، وكان يوما مشهودا ، وكان عمره يومئذ خمسا وثلاثين سنة ، وخمسة أشهر ، وأحد عشر يوما ، وكان من أحسن الناس شكلا وأبهاهم منظراً[٥] . وهو كما قال القائل :

كأن الثريا علقت فى جبينه ... وفى خده الشعرى وفى وجهه القمر[٦]

(١) مابين حاصرتين إضافة من الكامل ، ج١٢ ، ص٤٥٧ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٢ لاستقامة المعنى .
(٢) انظر : الكامل ، ج١٢ ، ص٤٥٦ - ص٤٥٧ ؛ الذيل على الروضتين ، ص١٤٩ - ص١٥٠ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٩١ - ص١٩٦ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ١٢١ - ص١٢٢ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١٠٩ - ص١١٠ .
(٣) انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٢ .
(٤) التاج : دار مشهورة جليلة من دور الخلافة ببغداد ، كان أول من وضع أساسة وسماه بهذه التسمية أمير المؤمنين المعتضد وأتمه ابنه المقتضى . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٨٠٦ .
(٥) الكامل ، ج١٢ ، ص٤٥٨ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٩٦ - ص٢٠١ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ١٢٢ - ص١٢٣ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٢٤ .
(٦) ورد هذا البيت فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٢ .

وفى نسبه الشريف خمسة عشر خليفة ، منهم خمسة من آبائه وُلُّوا نسقاً واحداً ، وتلقى هو الخلافة عنهم وراثة كابراً عن كابر ، وهذا شئ لم يتفق لأحد من الخلفاء قبله ، وسار فى الناس كسيرة أبيه الظاهر فى الجودة وحسن السيرة والإحسان إلى الرعية ، وبنى المدرسة المستنصرية التى لم يبن مدرسة مثلها فى الدنيا وسيأتى بيان ذلك إن شاء الله تعالى ، واستمر بأرباب الولايات الذين كانوا فى عهد أبيه على ما كانوا عليه[١] .

وقدم رسول من صاحب الموصل[٢٩] بدر الدين يوم غرة شعبان مع الوزير ضياء الدين أبى الفتح نصر الله بن الأثير الجزرى برسالة فيها التعزية والتهنئة بعبارة فصيحه بليغة[٢] .

وفى تاريخ بيبرس : وكان ابن الأثير قد اتصل بخدمته لما فارق الملك الأفضل ، ولما حضر الديوان قال : «ما لليل والنهار لايعتذران وقد عظم حادثهما ، والشمس والقمر لايخسفان وقد فقد ثالثهما»؟

فياوحشة الدنيا وكانت أنيسة ووحشة من فيها لمصرع واحد

وذلك الواحد هو سيدنا ومولانا الإمام الظاهر بأمر الله أمير المؤمنين ، الذى كانت ولايته رحمة للعالم ، واختير من أرومة النبى الذى هو سيد ولد آدم ، فذمته موصوله بذمته ، وهو شقيقه فى نسبه وخليفته فى أمته ، ولقد وقف على السنن ، وأتانا بالحسن ، وحمدت الأيام فى زمنه ، فلم يشك مر الزمن ، ومما عظم الرزية به أنه أتى عقيب رُزء ، وصَل فجعُة بفَجعةِ ، وكان يستهول أحدهما وهو وتر ، فشفع الوتر بشفعه ، فياويح الإسلام فجع فيما مضى بناصره ، وفجع الآن بظاهره ، وقرب الوقت بينهما حتى كاد يعثر أوله بآخره ، فلم تفق النفوس من برحائها حتى وافت ماطوى مضضا على مضض ، ووقع ذلك موقع نكسة عطفت على مرض ، ونكأ القرح بالقرح أوجع ، وذهاب فرع العلياء بعد أصله ذهاب بالعلياء أجمع ، وكلا هذين الرزءين رمى الناس بسهم غائر ، ليس عليه من صابر ، وما كان الله ليسوء دينه بمصاب خليفتين ، ولايجلو ظلمته بصباح سافر ، وقد جاء بسيدنا ومولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين ، فأرضى به كل قلب سخط ولم يرض ، وقيل : هذا بدل الكل من الكل ، لابدل البعض من البعض ، وكان الناس على خطر من

(١) ورد هذا الخبر بالتفصيل فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٥٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ١٢٢ - ص١٢٣ .

(٢) ورد هذا الخبر فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٩٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ١٢٣ .

انتقاض أمرهم ، فأبيح لهم[١] إبرام ذلك النقض ، ونسى ماتقدم من البرح ، ودمل ما أعضل من القرح . ولئن عظم الأسف على ليلتين نقضتا برامة لقد أسلت عنهما ليلة السفح ، والعبد قائم بهذا المقام وقلبه مقسم[٣٠] للعزاء شطراً وللهناء شطرا ، فإذا نطق بهذا أسبل دمعاً ، وإذا نطق بهذا أبدى ثغرا ، وهو نائب عن مرسله فى أخذ البيعة التى يد الله فوق يدها ، والسابق إلى يومها أفضل من المتأخر إلى غدها ، وهى التى تجملت بحسنها أقلام الكرام السفرة ، وجعلها الله معدودة فى بيعة العقبة ، وبيعة الشجرة ، ولها يصح قول القائل :

وبيعة من قلوب غير شاردة ما كان فى عودها ضعفٌ ولاخور
لو أنها لعتيق لم يمت حسرا سعد ولا قال كانت فلتة عمر

وكذلك فإن العبد ينهى طاعة مرسله التى جعل يومه فيها كأمسه ، وزاد فى مبانى الإسلام فهو يبنى بها على ستة لا على خمسة ، وقد أعدها فى الدنيا معقلاً يكن فى داره ، وفى الآخرة عتاداً صالحا يسره أن يراه[٢] .

قال بيبرس : وكان الإمام المستنصر يسمى أبو[٣] جعفر القاضى ، ولما ولى سلك فى العدل والإحسان مسلك أبيه الظاهر ، وأمر فنودى ببغداد بإفاضة العدل ، وأن من كانت له حاجة أو مظلمة يطالع بها ، تقضى حاجته وتكشف مظلمته . فلما كانت أول جمعة أتت على خلافته أراد أن يصلى الجمعة فى المقصورة التى جرت عادة الخلفاء بالصلاة فيها ، فقيل له : إن المطبق الذى تسلك إليه فيها خراب ، فركب فرسا وسار إلى جامع القصر ، ظاهراً بحيث يراه الناس ، ولم يترك أحداً يمشى معه ، بل أمر كل من أراد المشى معه من أصحابه بالصلاة فى مكانه[٤] .

ولما ولى وردت إليه رسل ملوك الأطراف بالهنا بخلافته ، والعزاء عن والده[٥] . وفى تاريخ ابن كثير[٦] : ثم إن المستنصر بالله كان يواظب حضور الجماعة راكبا ظاهرا

(١) «لها» فى الأصل ، والتصحيح من مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٩٩ .
(٢) ورد هذا الخبر بالتفصيل فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٩٨ - ص٢٠٠ .
(٣) «أبا» فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .
(٤) ورد هذا الخبر فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٥٨ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٩٧ ؛ تاريخ الخلفاء ، ص٤٦٠ - ص٤٦٣ .
(٥) ورد هذا الخبر فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٩٨ .
(٦) البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٣ .

للناس ، وإنما معه خادمان وركبدار(١) ، وخرج مرة وهو راكب فسمع ضجة عظيمة ، فقال : ماهذا؟ فقيل : التَّأْذِين(٢) ، فترجل عن مركوبه وسعى ماشيا ، ثم صار يدمن المشى إلى الجمعة رغبة فى التواضع والخشوع ، ويجلس قريبا من الإمام ويستمع [٣١] الخطبة ، ثم أصلح له المطبق فكان يمشى فيه إلى الجمعة ، وركب فى الثانى والعشرين من شعبان ركوبا ظاهرا للناس عامة ، ثم تصدق بصدقات عظيمة كثيرة من سائر الأصناف على سائر الأصناف من الخلائق .

ذكر ماجريات جلال الدين بن خوارزم شاه

وفى هذه السنة التقى جلال الدين مع الكرج فكسرهم كسرة عظيمة ، وصمد إلى أكبر معاملتهم تفليس ففتحها عنوة ، وقتل من فيها من الكفرة ، وسبى ذراريهم ، ولم يتعرض لأحد من المسلمين الذين كانوا بها ، واستقر ملكه عليها ، وقد كان الكُرْج أخذوها من المسلمين فى سنة خمس عشرة وخمسمائة ، وهى بأيديهم إلى الآن حتى استنفذها منهم جلال الدين ، فكان هذا فتحا عظيما ، ولم يقدر الملوك الأول الذين هم بجوارها أن يملكوها(٣) .

وفيها عصى على جلال الدين بَراق الحاجب ، وطمع فى البلاد أن يتملكها لبُعْده عنها ، واشتغاله بأمر الكُرج ، وأرسل إلى التتار يعرفهم بما اجتمع عليه من العساكر ، وأخذه بعض البلاد ، ومتى أخذ الباقى عظمت مملكته ، وكثرت عساكره ، وسار إليكم لقصدكم ، فلما سمع جلال الدين ذلك ترك قصد خلاط وسار إلى كرمان يطوى المراحل ، فلما سمع براق بقرب السلطان أخذ معه ما يعز عليه ، وتحصن ببعض القلاع ، فَسَيَّر إليه رسولا يطيب قلبه ، فأبى أن ينزل فأقرّه جلال الدين على ما بيده ، ثم وصل الخبر من تفليس أن عسكر الأشرف الذى بخلاط هزموا بعض عسكره ، وأوقعوا بهم ويحثه على العود ، فعاد إليها مسرعا(٤) .

---

(١) ركبدار : وجمعها الركبدارية وهم الذين يحملون الغاشية فى المواكب الكبيرة رافعين لها يلفتونها يمينا وشمالا . صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٧ ، ص١٢ .

(٢) «السقاين» فى الأصل ، والتصحيح من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٣ ، حيث ينقل عنه العينى .

(٣) انظر : الكامل ، ج١٢ ، ص٤٥٠ - ص٤٥١ ؛ سيرة منكبرتى ، ص٢١١ - ص٢١٢ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٨١ - ص١٨٥ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢١ .

(٤) انظر : الكامل ، ج١٢ ، ص٤٥٤ - ص٤٥٥ ؛ سيرة منكبرتى ، ص٢١٣ - ص٢١٤ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٨٦ - ص١٨٧ .

وذلك أن جلال الدين لما سار إلى كرمان ترك عسكراً صحبة وزيره شرف الملك ، فَقَلَّت عليهم الميرة ، فساروا إلى أعمال أرزن الروم[١] وشنوا الإغارة عليهم ، وأخذوا شيئاً من الغنائم وعادوا ، وكان طريقهم على أطراف ولاية خلاط ، فبلغ النائب بها عن الأشرف ابن العادل وهو حسام الدين على الحاجب ، فجمع عسكراً ، فأوقع بهم واستنقذ مامعهم ، فلما جرى الأمر على هذه الصورة سيَّر شرف الملك الوزير أعلم السلطان بالحال ، وكان جلال الدين والملك المعظم صاحب الشام ، وناصر الدين[٣٢] صاحب ماردين ، ومظفر الدين صاحب إربل اتفقوا على أخذ الموصل ، وأن يتغلبوا عليها ، ويكون لكل منهم نصيب ، واستقرت القاعدة على ذلك ، فبادر مظفر الدين صاحب إربل إلى الموصل ، وسار جلال الدين من تفليس يريد أخلاط ، فأتاه الخبر أن نائبه ببلاد كرمان وهو براق الحاجب قد شق العصى ، فلما علم ترك قصد خلاط وانفسخ جميع ما كانوا عزموا عليه ، إلا مظفر الدين فإنه سار من إربل ونزل على جانب الزّاب[٢] ، ولم يمكنه العبور ، وكان بدر الدين صاحب الموصل سير إلى الأشرف يستنجده ، ليدفعوا مظفر الدين عن الموصل ، فسار منها إلى حران[٣] ودنيسر[٤] ، فخرب بلاد ماردين ، وأما المعظم فإنه قصد حماة وحمص ، وأرسل إلى أخيه الأشرف يقول : إن رحلت عن ماردين رحلنا عن حمص وحماة . فرحل الأشرف عن ماردين ، وعاد كل منهم إلى بلاده ، وخربت أعمال ماردين وبلاد الموصل ، وصار الغلاء بهذه الأقاليم[٥] .

وفى تاريخ النويرى : وكان نزول جلال الدين على أخلاط ثالث عشر ذى القعدة من هذه السنة ، ورحل عنها لسبع بقين من ذى الحجة بسبب كثرة الثلوج ، وكانت هى منازلته الأولى ، وفى الخامس والعشرين من ذى الحجة نازل جلال الدين خلاط أيضا وهى منازلته الثانية ، وجرى بينهم قتال شديد ، وأدركه البرد فرحل عنها فى هذه السنة[٦] .

---

(١) أرزن الروم : بلدة من بلاد أرمينية أهلها أرمن . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٣٠٦ .
(٢) الزاب : المقصود به الزاب الأعلى ، وهو نهر بين الموصل واربل .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٩٠٢ .
(٣) حران : مدينة عظيمة مشهورة على طريق الموصل والشام .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٣٢ - ص٣٣٣ .
(٤) دُنَيْسَر :بلدة عظيمة مشهورة من نواحى الجزيرة قرب ماردين ، ولها اسم آخر يقال لها قوج حصار .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٦١٢ .
(٥) انظر : الكامل ، ج١٢ ، ص٤٥٥ - ص٤٥٦ ؛ سيرة منكبرتى ، ص٢١٤ - ص٢١٥ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٨٧ - ص١٨٩ .
(٦) انظر : الكامل ، ج١٢ ، ص٤٦٠ - ص٤٦١ ؛ سيرة منكبرتى ، ص٢٩٧ - ص٢٩٩ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٩٠ - ص١٩١ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ١٢١ ، ولم يرد هذا الحدث فى النويرى ؛ نهاية الأرب .

وفيها أوقع السلطان جلال الدين بالتركمان الإيوانية[١] بأسا شديدا ، وكانوا يقطعون الطريق على المسلمين ، ويشوشون عليهم[٢] .

ذكر ماجريات بنى أيوب

وفى تاريخ بيبرس : ولما اتفق الملك المعظم ، والسلطان جلال الدين ، ومظفر الدين ابن زين الدين ، وصاروا يداً واحدة ، وقع الاتفاق بينهم على أن يقصد مظفر الدين صاحب إربل بدر الدين صاحب الموصل ، ويحصر بلاده ؛ ويقصد جلال الدين خلاط وأعمال الملك الأشرف ليشتغل كل منهما بنفسه ، ويقصد الملك المعظم حمص وحماة ويحاصرهما ، ، وكان الملك المجاهد أسد الدين[٣٣] شيركوه صاحب حمص والملك الناصر قليج أرسلان بن الملك المنصور صاحب حماة والحلبيون كلهم منتمون[٣] إلى خدمة الملك الأشرف ، ولم يكن أحد من البيت الأيوبى منتميا إلى الملك المعظم إلا الملك الأمجد بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك[٤] ، والملك الصالح عماد الدين اسماعيل صاحب بصرى[٥] والسواد[٦] ، والملك العزيز عثمان ابنا الملك العادل ، وكان هذان ملازمين خدمة أخيهما لايفارقانه ، والذى قوى طمع المعظم أن أخاه الملك الكامل كان خائفاً من جنده إذا خرج من مصر بعساكره ، وأرسل إليه الملك المعظم مرارًا يقول له : إن قصدتنى لم آخذك إلا بعسكرك . فوقع عند الملك

---

(١) التركمان الإيوانية : التركمان من عشائر قضاء الرقة بمحافظة الفرات بسورية . تعد ٣٠٠ بيت ، وحوالى ١٥٠ خيمة ، منازلها على الضفة الشرقية للبليخ ، جنوبى عشيرة المشهور ، وبين قريتى تل حمام وسلوك ، وهذه العشيرة وإن كانت تركمانية اللحم والدم ، لكنها مستعربة تماما ، وتعد من العشائر التى تتعاطى الزراعة ألف شاة وألف ومائتان . والتركمان أيضا من قبائل الجولان أحد أقضية محافظة دمشق ، جاءت من بلاد التركمان إلى سورية فى أوائل القرن السابع عشر ، وتعد ٣٠٠ خيمة ولديها ١٥٠٠٠ من الغنم ، وتقيم فى القرى الآتية : خربة ، حفر ، عين عيش ، حسينى ، كافر ، سنديانة ، غديرى ، مُغير ، وغيرها ، والإيوانية :نسبة إلى إيوان كسرى .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٤٢٥ ؛ معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، عمر رضا كحّالة ، ج١ ، ص١١٧- ص١١٨ .

(٢) انظر : الكامل ، ج١٢ ، ص٤٦٢ - ص٤٦٣ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٠٢ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢١ .

(٣) «منتمين» كذا فى الأصل ، وما أثبتناه هو الصحيح لغة .

(٤) بعلبك : مدينة قديمة بينها وبين دمشق ثلاثة أيام ، وقيل : اثنا عشر فرسخا من جهة الساحل .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٦٧٣ .

(٥) بُصْرَى :فى موضعين ، إحداهما بالشام من أعمال دمشق وهى قصبة كورة حَوْران ، والثانية بصرى من قرى بغداد قرب عُكْبرَاء .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٦٥٤ .

(٦) السواد : موضعان أحدهما نواحى قرب البلقاء ، والثانى يراد به رستاق العراق وضياعها التى افتتحها المسلمون فى عهد عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) .
انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص١٧٤ .

الكامل وهم من ذلك ، ولم يجسر على الخروج من مصر ، وصمم المعظم على قصد حماة وحمص ، ورأى البداية بحمص فسير أولا جماعة من عرب دمشق ، فأغاروا على قرى حمص ، فنهبوها وأخربوها ، ووصل من جهة الملك الأشرف الأمير مانع بن حُدَيثةَ أميرآل فضل[١] فى جموع كثيرة من العرب ، لإنجاد الملك المجاهد أسد الدين شيركوه[٢] ، فانتهبوا قرى المعرة[٣] وحماة ، وقسموا البيادر[٤] ، ثم خرج الملك المعظم من دمشق فى عساكره ، ولما وصل إلى حمص اندفع مانع وعربُ حلبَ والجزيرة إلى قنسرين ، ثم نزلوا قراحصار[٥] ، ثم تركوا أظعانهم بمرج دابق[٦] ، وساروا جريدة إلى أرض حمص ، فوقعت بين عرب مانع وعرب دمشق عدة وقعات . وجرَّد الأتابك شهاب الدين طغريل عسكراً من حلب نجدةً لصاحب حمص ، فوصلوا إليها قبل أن ينازلها المعظم ، واتفق أن توافى العسكران ، فتواقعوا واقتتلوا ، ثم دخلوا إلى حمص ، وكان الملك الأشرف نازلا بالرقَّة[٧] ، وجاءه الخبر بحركة السلطان علاء[٨] الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان السلجوقى - صاحب بلاد الروم - إلى جهة آمد ، وصاحبها الملك المسعود بن

---

(١) آل فضل : هم بنو فضل بن ربيعة وهم عدة بطون من طى من القحطانية ، ومنازلهم من حمص إلى قلعة جعبر إلى الرحبة آخذين على شقى الفرات وأطراف العراق إلى البصرة .
انظر : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٧٧ ، حاشية(٣) .

(٢) أسد الدين شيركوه : هو أسد الدين شيركوه بن الملك المنصور ، أبو الحارث شيركوه بن شاذى بن مروان ، وُلد سنة تسع وستين وخمسمائة ، وتوفى يوم الثلاثاء تاسع عشر شهر رجب سنة سبع وثلاثين وستمائة بحمص ، ودفن فى تربته داخل البلد .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٤٨٠ .

(٣) المعرة : هى معرة مصريين وهى بليدة وكورة بنواحى حلب
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٥٧٤ .

(٤) البيادر : جمع بيدر وهو الموضع الذى تدرس فيه الغلال . لسان العرب ، مادة (بدر) .

(٥) قراحصار أو (قرى حصار) :
(الحصن الأسود) وهو اسم يطلق على أماكن كثيرة مختلفة بآسيا الصغرى مثل قرى حصار صاحب ، وقرى حصار شرقى ، وقرى حصار بهرامشاه ، وكل هذه الأماكن من الصعب الوصول إليها أحيانا ، ويحتمل أن تكون قد شيدت كمأوى لبعض جماعات السكان وقت الحروب فى آسيا الصغرى .
انظر : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٧٧ ، حاشية(٦) .

(٦) مرج دابق : المرج هو الأرض الواسعة فيها نبت كثير تُمْرَج فيها الدواب ، وأصل المرج الفلق ، ودابق قرية قرب حلب من أعمال عَزَاز بينها وبين حلب أربعة فراسخ .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٤٨٧ ، ج٢ ، ص٥١٣ .

(٧) الرقة : مدينة مشهورة على الفرات وهى فى بلاد الجزيرة بالعراق .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٨٠٢ - ٨٠٤ .

(٨) علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق بن دقاق السلجوقى صاحب الروم ، توفى سنة ٦٣٤هـ .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٨٣ ؛ عقد الجمان (العصر الأيوبى) ، ج٢ ، ص٢٥٦ .

الملك الصالح محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن سقمان بن أرتق ، وأنه استولى من بلاده على حصن منصور[١] والكختين[٢] . فسيرَّ الملك الأشرف نجدة إلى صاحب[٣٤] آمد فالتقاهم عسكر السلطان علاء الدين فهزمهم ، فرحل الملك الأشرف إلى حران وخرج من بقى من عسكر حلب إلى حاضر قنسرين[٣] لإنجاد الملك المجاهد صاحب حمص . وأخرب الملك المعظم قرايا حمص ومزارعها ، وامتدَّت غاراته إلى سلميَّة[٤] ، وهى للملك المظفر بن المنصور وهو عند الملك الكامل بمصر . وطال مقام الملك المعظم على حمص ، ولم ينل من قلعتها ومدينتها غرضاً ، ووقع الفناء فى عسكره ، وماتت دوابّهم ، وكثر المرض فيهم ، فرحل عن حمص فى شهر رمضان من هذه السنة[٥] .

وفيها قدم الملك الأشرف إلى أخيه المعظم جريدةً قصداً لقطع مادة الشرّ ، فالتقاه أخوه المعظم وأظهر السرور به ، وضربت البشائر لمقدمه ، وأظهر الابتهاج العظيم به ، وحكَّمه فى خزائنه ، وحاله فى الباطن يُخالف ما أظهر ، والرُّسل متردّدة بينه وبين السلطان جلال الدين خوارزم شاه ، ووصل إليه رسوله وصحبته خلعة للمعظم فلبسها ، ولما انقضى شهر رمضان خرج المعظم والأشرف إلى المرج متنزهين ، وورد إليهما من حلب القاضى بهاء الدين بن شداد[٦] ، ومظفر الدين بن جرديك فى طلب تجديد الأيمان للملك العزيز بن الملك الظاهر ولأتابكه شهاب الدين طغريل ، ولما وصلا وجدا

---

(١) حصن منصور : من أعمال ديار مُضَر فى غرب الفرات قرب سميساط وهو منسوب إلى منصور بن جعونة بن الحارث العامرى القيسى . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٧٨ .

(٢) حصن الكختين أوكختا : وهو قلعة عالية البناء حصينة بينها وبين ملطية مسيرة يومين فى طرف الحد الشمالى للشام على مرحلة من حصن منصور .
انظر : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٧٨ ، حاشية(٧) .

(٣) حاضر قنسرين : كان لتنوخ ـ وهم أصناف من العرب ـ منذ أول نزولهم بالشام ، ولما فتح أبو عبيدة قنسرين دعا أهل حاضرها إلى الإسلام ، فأسلم بعضهم ، وأقام بعضهم على النصرانية فصالحهم على الجزية ، وأن جماعة من أهلها أسلم فى خلافة المهدى .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٨٥ .

(٤) سَلَميَّة : بليدة فى ناحية البرية من أعمال حماة بينهما مسيرة يومين ، وكانت تعد من أعمال حمص .
انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص١٢٣ .

(٥) ورد هذا الحدث بالتفصيل فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٥٣ ـ ص٤٥٤ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٧٦ ـ ص١٧٩ ؛ المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص١٣٧ .

(٦) بهاء الدين بن شداد : أبو المحاسن يوسف بن رافع بن تميم بن عُتبة بن محمد بن عتَّاب الأسدى ، قاضى حلب ، المعروف بابن شداد ، الملقب بهاء الدين ، الفقيه الشافعى ، ولد بالموصل ليلة العاشر من رمضان سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، وتوفى يوم الأربعاء رابع عشر صفر ، سنة ٦٣٢هـ .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص٨٤ ـ ص١٠٠ .

الملك الأشرف عند الملك المعظم لاينفردُ عنه بأمر ولايتجاسر ـ لكونه فى قبضته ـ على مخالفته فى قليل ولاكثير ، ولا يتأتّى له الانفرادُ عنه ، فدامت المراجعات بينهما وبين الأتابك مستمرة مدة شهرين إلى أن ورد خبر نزول السلطان على خلاط ، ثم استدعيا رسولى صاحب حلب وحلفا لهما ، ورجعا إلى حلب ، ثم انتقل الأشرف والمعظم إلى البلاد الغورية[(١)] يُشتّيان بها[(٢)] .

ذكر بقية الحوادث

منها أنه وصلت الخلع من الخليفة الظاهر[(٣)] بأمر الله والتقليد إلى السلطان الملك الكامل[(٤)] وأولاده الملك المسعود[(٥)] والملك الصالح نجم الدين أيوب ، وخلعة لوزيره الصاحب[(٦)] صفى الدين ، وكان السلطان[(٧)] قد توفى فأمر السلطان أن يلبسها الفخر سليمان كاتب الإنشاء ، ولبس السلطان وأولاده الخلع ، وعبروا من باب [٣٥] النصر[(٨)] ، وشقوا

(١) البلاد الغورية : يقصد غور الأردن أى القرى والأماكن الواقعة بين بيت المقدس ودمشق
انظر : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٨١ ، حاشية(١) .

(٢) ورد هذا الحدث بالتفصيل فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٦٣ ـ ص٤٦٤ ؛ الذيل على الروضتين ، ص١٤٨ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٧٩ ـ ص١٨١ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢١ .

(٣) الظاهر بأمر الله : هو الخليفة الظاهر بأمر الله بن الناصر ، تولى الخلافة عقب وفاة والده سنة (٦٢٢هـ) ، لكن خلافة الظاهر لم تكمل السنة فقد توفى سنة ٦٢٣هـ .
انظر : نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٣٥ ، حاشية(٢) .

(٤) الملك الكامل : أبو المعالى محمد بن الملك العادل أبى بكر الملقب الملك الكامل ناصر الدين صاحب الديار المصرية ، توفى بدمشق يوم الأربعاء ، ودفن يوم الخميس ، وذلك لتسع بقين من شهر رجب سنة ٦٣٥هـ بالكلاسة .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٧٩ ـ ص٩٢ ، الشذرات ، ج٥ ، ص١٧١ ـ ١٧٣ .

(٥) الملك المسعود صلاح الدين يوسف بن الملك الكامل (أطسيس) . توفى بمكة فى ثالث عشر جمادى الأولى سنة ٦٢٦هـ ، ومولده فى سنة ٥٩٧هـ . انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٨٣ .

(٦) الوزير الصاحب صفى الدين عبد الله بن أبى الحسن على بن الحسين بن عبد الخالق بن الحسين بن الحسن بن منصور بن إبراهيم بن عمار بن منصور بن على الشيبى أبو محمد المعروف بابن شكر الفقيه الدُّميرى المالكى ، توفى يوم الجمعة ثامن شعبان وقيل شوال بالقاهرة سنة ٦٢٢هـ ، ودفن برباطه ، وكان مولده بدَمِيْرَة إحدى قرى مصر البحرية فى تاسع صفر سنة ٥٤٨هـ . انظر : السلوك لمعرفة دول الملوك ، المقريزى ، ج١ق١ ، ص٢١٩ .

(٧) ذكر العينى أن السلطان كان قد توفى ، وهذا خطأ ، الصحيح أن الصاحب صفى الدين الوزير هو الذى كان توفى فى ذلك الوقت . انظر : نهاية الأرب ج٢٩ ، ص١٣٥ ؛ السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ق١ ، ص٢١٩ .

(٨) باب النصر : هو شارع الجمالية بحرى القاهرة وينتهى إلى السكة الجديدة تجاه الحسين ، وهو أحد أبواب القاهرة التى وضعها جوهر القائد .
انظر : الخطط التوفيقية ، ج٢ ، ص١٩٥ .

القاهرة ، وخرجوا من باب زويلة[١] ، وطلعوا إلى قلعة الجبل[٢] وكان يوما مشهودا[٣] .

ومنها أن الملك المسعود بن الملك الكامل سافر إلى اليمن بعد أن سأل من أبيه أن يقيم بمصر فى خدمته ، ويُسلم اليمن لمن يأمر السلطان ، فلم يوافقه الكامل على ذلك[٤] .

وقال بيبرس فى تاريخه : وفى سنة ثلاث وعشرين وستمائة قدم الملك المسعود بن الملك الكامل من الحجاز إلى مصر ، ثم عاد إليها ، وخرج والده الكامل لوداعه[٥] ، ومضى على طريق السُوَيْس[٦] إلى قلعة صدر[٧] ، وعيَّد الكامل على الخضراء[٨] بالقرب من الخَشَبِى[٩] .

ومنها أنه كان قتال عظيم بين إبْرَنْس أنطاكية وبين الأرمن ، وجرت خطوبٌ كثيرة بينهم[١٠] .

---

(١) باب زويلة : نسبة إلى قبيلة زويلة وهى من قبائل البربر الواصلين مع جوهر القائد ، وكان هناك بابان : باب زويلة الأول ، وموضعه عند مسجد ابن البناء الذى كان تسميه العامة مسجد سام بن نوح - وهو زاوية صغيرة ، وموضع هذه الزاوية مجاور لسبيل محمد على والمعروف باسم سبيل العقادين بشارع المناخلية ، وباب زويلة الكبير بناه أمير الجيوش بدر الجمالى فى سنة ٤٨٥هـ ، وهو باقى إلى اليوم ، وبينه وبين موقع الباب القديم نحو ١٣٠ مترا . انظر : أخبار مصر ، المسبحى ، ج٤٠ ، ص٨٨ ، حاشية (٢) .

(٢) قلعة الجبل : على تل كبير متصل بجبل المقطم ، وهى مطلة على ظاهر القاهرة ، وظاهر الفسطاط ، وَسَوّرَ الكامل هذا القلعة .

انظر : النجوم الزاهرة فى حُلَى حضرة القاهرة ، تحقيق دكتور حسين نصار ، مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، طبعة ثانية سنة ٢٠٠٠م ، ص٣٩٠ .

(٣) ورد هذا الخبر بالتفصيل فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٧٥ - ص١٧٦ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٣٥ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢١ .

(٤) ورد هذا الخبر فى نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٣٦ .

(٥) وردت كلمة «الوداعه» فى المخطوط مكررة .

(٦) السُوَيْسُ : بليد على ساحل بحر القلزم من نواحى مصر ، وهو مينا أهل مصر اليوم إلى مكة والمدينة ، بينه وبين الفسطاط سبعة أيام . معجم البلدان ، ج٣ ، ص١٩٨ .

(٧) قلعة صُدَرُ : قلعة خراب بين القاهرة وأيلة .
معجم البلدان ، ج٣ ، ص٣٧٥ .

(٨) الخضراء : موضع باليمامة وهى نخيلات . معجم البلدان ، جـ ٢ ، ص ٤٥١ .
معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٥١ .

(٩) الخَشَبِى : بينه وبين الفسطاط ثلاث مراحل ، وهو أول الجفَار من ناحية مصر ، وآخرها من ناحية الشام .
معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٤٥ .

(١٠) ورد هذا الخبر فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٦٤ - ص٤٦٦ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٣٥ - ص١٣٦ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢١ .

ومنها أنه قدم الشيخ محيى[١] الدين يوسف بن الشيخ جمال[٢] الدين بن الجوزى من بغداد فى الرسليَّة إلى الملك المعظم بدمشق، ومعه الخلع والتشاريف لأولاد العادل من الخليفة الظاهر بأمر الله، ومضمون الرسالة نهْيُه عن موالاة جلال الدين خوارزم شاه، فإنه خارجىٌ من عزمه قتال الخليفة وأخذ بغداد منه، فأجابه إلى ذلك، ثم ركب محيى الدين المذكور إلى الملك الكامل بالديار المصرية كما ذكرناه الآن، وكان ذلك أوَّل قدومه إلى الشام ومصر، وحصل له جوائز كثيرة من الملوك منها : كان بناء المدرسة الجوزية[٣] بالنشابين فى دمشق[٤] .

ومنها أن السبط صاحب المرآة ولاه الملك المعظم تدريس الشّبْلية[٥] بالسفح، وحضر عنده يوم الأجلاس القضاة والأعيان[٦] .

ومنها أنه كانت زلزلة عظيمة هدمت شيئًا كثيرًا من القرى والقلاع، ذكره ابن الأثير، وذكر أيضا أنه ذُبِحَتْ شاة ببلدهم فوجدوا لحمها مُرَّاحتى رأسها وأكارعها[٧] .

ومنها ....[٨]

وفيها حج بالناس من العراق ابن أبى فراس، ومن الشام على بن السلار[٩] .

(١) الشيخ محيى الدين بن الجوزى الصاحب العلامة سفير الخلافة أبو المحاسن يوسف بن الشيخ أبى الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد التيمى البكرى البغدادى الحنبلى أستاذ دار المستعصم بالله آخر خلفاء بغداد، ووزر للظاهر، ولد سنة ٥٨٠هـ، وتوفى سنة ٦٥٦هـ شهيدا عند دخول هولاكو إلى بغداد بظاهر سور كلواذا .
انظر : الدارس، ج٢، ص٢٩ - ص٣٠ ؛ الشذرات، ج٥، ص٢٨٦ .

(٢) جمال الدين بن الجوزى : هو أبو الفرج عبد الرحمن بن أبى الحسن على بن محمد بن على بن عبيد الله بن عبد الله بن حمَّادى بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزى بن عبد الله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - القرشى التيمى البكرى البغدادى الفقيه الحنبلى الواعظ الملقب جمال الدين الحافظ، وكانت ولادته تقريبا سنة ثمان وقيل عشر وخمسمائة، وتوفى ليلة الجمعة ثانى عشر رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة ببغداد، ودفن بباب حرب .
انظر : وفيات الأعيان، ج٣، ص١٤١ - ص١٤٢ .

(٣) المدرسة الجوزية : بسوق القمح بالقرب من الجامع أنشأها محيى الدين بن الشيخ جمال الدين أبى الفرج بن الجوزى بعد الثلاثين فى أيام الملك الصالح عماد الدين .
انظر : الدارس فى تاريخ المدارس، ج٢، ص٢٩ .

(٤) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين، ص١٤٧ ؛ مفرج الكروب، ج٤، ص١٧٥ - ص١٧٦ ؛ البداية والنهاية، ج١٣، ص١٢١ ؛ الدارس فى تاريخ المدارس، ج٢، ص٣٠ .

(٥) الشبلية : هى المدرسة الشبلية البرانية بسفح جبل قاسيون بالقرب من جسر ثورى، بانيها الطواشى شبل الدولة الحسامى سنة ٦١٦هـ، وتوفى سنة ٦٢٣هـ .
انظر : الدارس، ج١، ص٥٣٠ - ص٥٣١ .

(٦) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين، ص١٤٨ ؛ البداية والنهاية، ج١٣، ص١٢١ ؛ المرآة، ج٨، ص٤٢١ .

(٧) وردت هذه الأخبار فى الكامل، ج١٢، ص٤٦٧ - ص٤٦٨ ؛ البداية والنهاية، ج١٣، ص١٢٣ .

(٨) بياض بالأصل بمقدار نصف سطر .

(٩) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين، ص١٤٨ .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

قاضى القضاة جمال[(١)] الدين يونس بن بدران بن فيروز المصرى ، قاضى القضاة بدمشق ، كان فقيها كثير الاشتغال ، واختصر[٣٦] كتاب «الأم» للشافعى (رحمه الله) وله كتاب مطول فى الفرائض ، وولى تدريس الأمينية[(٢)] بعد التقى الضرير الذى قتل نفسه ، ولاه إياها الوزير صفى الدين بن شكر ، وكان معتنيا بأمره ، ثم ولاه وكالة بيت المال بدمشق ، وترسل إلى الملوك والخلفاء عن صاحب دمشق ، ثم ولاه الملك المعظم قضاء القضاة بدمشق ، بعد عزله الركن[(٣)] الطاهر ، وولاه تدريس العادلية الكبيرة[(٤)] ، حتى كمل بناؤها ، فكان أول من درس بها ، وحضر عنده الأعيان كما ذكرنا ، وكان يقول أولا درسا فى التفسير حتى أكمل التفسير إلى آخره ، ثم توفى عقيب ذلك .

وقال أبو شامة[(٥)] : كان حسن الطريقة ، لم ينقل عنه ماينقم عليه بأنه أخذ شيئا لأحد ، وإنما كان ينقم عليه بعض الورثة بمصالحة بيت المال ، وأنه استناب ولده التاج محمد ، ولم يكن يرضى الطريقة ، وأما هو فكان عفيفا فى نفسه ، نزها مهيبا . وقال أبوشامة : وكان يدعى أنه قرشى شيبنى ، فتكلم الناس فيه بسبب ذلك ، وكانت وفاته فى آخر ربيع الأول من هذه السنة ، وتولى بعده شمس[(٦)] الدين أحمد بن خليل الخُويى[(٧)] .

---

(١) انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٤٨ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٣٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٣ - ص١٢٤ ؛ المرآة ، ج٨ ، ص٤٢٤ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص١١٢ .

(٢) المدرسة الأمينية : قبلى باب الزيادة من أبواب الجامع الأموى المسمى قديما بباب الساعات ، وهى شرقى المجاهدية جوار قاسارية القواسين بظهر سوق السلاح ، وكان به بابها ، وتعرف هذه المحلة قديما بحارة القباب ، وقيل إنها أول مدرسة بنيت بدمشق للشافعية ، بناها أتابك العساكر بدمشق ، ويقال له أمين الدولة سنة ثلاثين وخمسمائة .
انظر : الدارس فى تاريخ المدارس ، ج١ ، ص١٧٧ - ص ١٧٨ .

(٣) «الركن الظاهر» فى الأصل ، والتصحيح من الذيل على الروضتين ، ص١٤٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٣ .

(٤) العادلية الكبيرة : هى المدرسة العادلية الكبرى داخل دمشق شمالى الجامع بغربى وشرقى الخانقاه الشهابية ، وقبلى الجاروخية ، وتجاه باب الظاهرية يفصل بينهما طريق ، أول من أنشأها نور الدين محمود بن زنكى وتوفى ولم تتم ، ثم بنى بعضها الملك العادل سيف الدين ، ثم توفى ولم تتم أيضا ، فتممها ولده الملك المعظم ، وأزال الملك العادل مابناه نور الدين وعمل مدرسة عظيمة سميت العادلية سنة ٦١٥هـ .
انظر : الدارس فى تاريخ المدارس ، ج١ ، ص٣٥٩ .

(٥) الذيل على الروضتين ، ص١٤٨ .

(٦) القاضى شمس الدين أبو العباس أحمد بن الخليل بن سعادة بن جعفر بن عيسى الفقيه الشافعى الخويى قاضى دمشق ، توفى يوم السبت سابع شعبان سنة ٦٣٧هـ بمدينة دمشق ، ودفن بسفح جبل قاسيون ، ومولده فى شوال سنة ٥٨٣هـ .
الذيل على الروضتين ، ص١٤٨ ؛ وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٢٥٧ - ٢٥٨ .

(٧) الخُرَمِىّ فى الأصل ، والتصحيح من الذيل على الروضتين ، ص١٤٨ ؛ وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٢٥٧ - ص ٢٥٨ .

وقال ابن كثير[١] : ودفن بداره التى فى رأس درب الريحان[٢] ، من ناحية الجامع ، ولتربته شباك شرقى المدرسة الصدرية[٣] اليوم ، وقد قال فيه ابن عنين[٤] الشاعر ، وكان هجاء :

ما أقصر المصرى فى فعله ... إذ جعل التربةَ فى داره
أراح للأحياء من رحمه ... وأبعد الأمواتَ من ناره

البُلْدَجى[٥] الحنفى مصنف «المختار» فى مذهب أبى حنيفة (رضى الله عنه) .

وهو الشيخ الإمام أبو محمد محمود بن مودود بن محمود بن بلدجى الحنفى الموصلى ، وله[٦] بها مدرسة تعرف به ، وكان من أبناء الترك ، وصار من مشايخ العلماء الحنفية ، وله دين متين وشعر حسن ، وكانت وفاته بالموصل فى السادس والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة ، وله نحو من ثمانين سنة ، أقول : ومن تصانيفه المشهورة : كتاب المختار وشرحه الاختيار ، ونسبته إلى بلدجى أحد أجداده ، وهو[٣٧] اسم تركى بضم الباء الموحدة ، وسكون اللام ، وفتح الدال المهملة ، وكسر الجيم ، وفى آخره ياء آخر الحروف ساكنة .

المعتمد[٧] والى دمشق ، «مبارز»[٨] الدين ابراهيم بن موسى ، ولد بالموصل ، وقدم الشام فخدم فرخشاه بن شاهشاه بن أيوب ، وتقلبت به الأحوال ، واستنابه أخو فرخشاه لأمه بدر الدين مودود الشحنة بدمشق ، ثم ولاه العادل الشحنكية[٩] استقلالا ، فأحسن

(١) البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٤ .
(٢) درب الريحان : من ناحية الجامع المبرور ، وهو الجامع الأموى .
انظر : الدارس فى تاريخ المدارس ، ج٢ ، ص٨٧ .
(٣) المدرسة الصدرية : أنشأها صدر الدين أبى الفتح أسعد المنجا التنوخى العدل سنة ٦٣٠هـ ، وكانت بجوار الجامع فى زقاق الريحان .
انظر : خطط الشام ، كرد على ، ج٦ ، ص٩٩ .
(٤) ابن عنين الشاعر : هو أبو المحاسن محمد بن نصر الله بن الحسين بن عُنَينْ الأنصارى الملقب شرف الدين ، الكوفى الأصل ، الدمشقى المولد الشاعر المشهور ، كان خاتمة الشعراء لم يأت بعده مثله ، ولد يوم الاثنين تاسع شعبان سنة ٥٤٩هـ ، وتوفى عشية نهار الأثنين لعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٥٦٣هـ ، ودفن بمسجده الذى أنشأه بأرض المِزّة .
وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص١٧ - ص ١٨ .
(٥) انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٥ - ص١٢٦ .
(٦) «وتم» فى الأصل ، والتصحيح من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٥ .
(٧) انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٥٠ ، ص١٥١ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٤ ؛ المرآة ، ج٨ ، ص٤٢١ ، ص٤٢٢ .
(٨) «المبارك» فى الذيل على الروضتين ، ص١٥٠ .
(٩) الشحنكية : يقال لها الشحنة ، وصاحب الشحنة هو متولى رئاسة الشرطة .
انظر : سعيد عاشور : العصر المماليكى ، ص٤٢٧ . Dozy: Supp. Dict. Ar

السياسة ، ولطف بالرعية ، وكان بين يديه نقيب له يعرف بسويد ، من أصدق الناس وأعرفهم بتدبير وقائع الولاية ، وكان المعتمد دينا ورعا عفيفا نزها ، اصطنع عالما عظيما من النساء والرجال ، وستر عليهم كبائر الأحوال ، وكانت دمشق وأعمالها فى أيام ولايته لها حرمة ظاهرة ، وهى حرة طاهرة .

وفى المرآة[١] : ومما جرى له أنه كان فى دمشق رجل فاتك ، وإلى جانب بيته قوم لهم ولد صغير ، فى أذنيه[٢] حلق من ذهب ، فاغتاله الرجل يوما فخنقه ، وأخذ الحلق من أذنه ، وأخرجه فى قفة ودفنه بالباب الصغير[٣] ، وفقدته أمه ، فاتهمت الرجل ، فعذبه المبارز عذابا أليما فلم يقر ، فأطلق ، وفى قلب المرأة النار من ولدها ، فطلقها زوجها ، وتزوجت الرجل القاتل وأقامت معه مدة ، فقالت له يوما وهى تداعبه : قد مضى الابن وأبوه ، وكان منهما ما كان وكان الزوج قد مات ، أنت قتلت الصغير . فقال : نعم ، وأخذت الحلق ودفنته بالباب الصغير . فقالت : قم فأرنى قبره . فأخذها وخرج بها إلى المقابر ، وحفر القبر ، فرأت ولدها فلم تتمالك وضربت القاتل بسكين أعدتها له ، فشقت بطنه ، ودفعته فألقته فى القبر ، وجاءت إلى المبارز فحكت له الحكاية فقام وخرج معها إلى القبر ، فكشفته له ، قال لها : أحسنت والله ، ينبغى لنا كلنا أن نشرب لك فتوة .

قال السبط[٤] : وكان لداره بابان ، الكبير عليه الغلمان والنواب ، وباب السر فى زقاق آخر ، فكان «البوابون»[٥] إذا مسكوا فى الليل امرأة من بيت معروف وحملوها إليه على حالها ، يقول لهم [٣٨] أنزلوا[٦] حتى أقررها ، ثم يقول لها : يابنتى ، أنت من بيت كبير ، وأهلك رجال معروفون ، فما الذى جرأك على هذا؟ فتقول : ياسيدى قضاء الله . فيقول لها :ستر الله عليك ، ويبعث[٧] معها الخادم من باب السر إلى بيتها ، فأقام على هذا نحو من أربعين سنة .

---

(١) سبط ابن الجوزى ، ج٨ ، ص٤٢١ ـ ص٤٢٢ .
(٢) «أذانه» فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .
(٣) الباب الصغير : بدمشق قبلى جامع جراح .
انظر : الدارس فى تاريخ المدارس ، ج١ ، ص١٦ ، ص١٦٣ .
(٤) المرآة ، ج٨ ، ص٤٢٢ .
(٥) «النواب» كذا فى الأصل ، والمثبت من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٢٢ ، حيث ينقل عنه العينى .
(٦) «اتركوا» كذا فى الأصل ، والمثبت من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٢٢ ، حيث ينقل عنه العينى .
(٧) «ونبعث» فى الأصل ، والمثبت من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٢٢ ، حيث ينقل عنه العينى .

قال السبط(١) : وكان فى قلب المعظم له شحناء لأنه كان يشفق عليه ويحفظه فى أماكن يدخل إليها بدمشق فى الليل وهو شاب ، فيأمر غلمانه أن يتبعوه من بعيد ، وكان العادل فى مصر يكتب إليه بذلك ، فلما مات العادل أظهر ما كان فى قلبه منه ، فاعتقله مدة فى القلعة ، فلم يظهر عليه ولا على أحد من أولاده وحاشيته أنه أخذ من الرعية ماقدره مثقال حبة من خردل ، ولاغَيَّرَ ما كان عليه من العفة والأمانة والصلاح والديانة ، ثم أنزله من القلعة إلى داره وحجز عليه فيها ، وبالغ فى التشديد عليه ، وكانت وفاته يوم السبت الحادى والعشرين من ذى القعدة ، عن ثمانين سنة ، ودفن بجبل قاسيون(٢) فى التربة التى أنشأها بالجبل .

قال السبط(٣) : وحكى لى أنه ولى دمشق نيابة عن بدر الدين الشحنة أول ولاية صلاح الدين ، ثم استقل بالولاية إلى أن عزل فى سنة سبع عشرة وستمائة ، فكانت ولايته نيابة واستقلالا قريبا من خمسين سنة ، قالوا : ولم يوجد على المبارز شىء إلا أنه كان يحبس وينسى ، فعوقب بمثل ذلك ، أقام محبوسا خمس سنين إلا أياما .

قال ابن كثير(٤) : وتربته مجاورة لمدرسة أبى عمر(٥) قبلى السوق ، وله عند تربته مسجد يعرف به .

شبل(٦) الدولة كافور الحسامى ، نسبة إلى حسام الدين محمد بن لاجين ، وَلَد ست الشام ، وهو الذى كان مستحثا على عمارة الشامية البرانية(٧) لمولاته ست الشام(٨) ،

(١) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٢٢ .

(٢) جبل قاسيون : جبل مشرف على مدينة دمشق ، وهو جبل معظم يروى فيه آثار للصالحين .
معجم البلدان ، ج٤ ، ص١٣ .

(٣) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٢٢ .

(٤) البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٤ .

(٥) مدرسة أبى عمر : هى المدرسة العمرية الشيخية أى مدرسة الشيخ أبى عمر بالجبل فى وسط دير الحنابلة ، بصالحية دمشق ، واقفها وبانيها الشيخ أبو عمر الكبير والد قاضى القضاة شمس الدين الحنبلى فى سنة سبع وستمائة .
انظر : الدارس فى تاريخ المدارس ، ج١ ، ص٥٠١ ؛ ج٢ ، ص١٠٠ .

(٦) انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٥٠ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٥ ؛ المرآة ، ج٨ ، ص٤٢٣ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص١٠٩ .

(٧) المدرسة الشامية البرانية : بالعقيبة بمحلة العونية وهى من مدارس الشافعية ، بانيها والدة الملك الصالح اسماعيل ، وقيل فى موضع : إن الذى أنشأها ست الشام ابنة نجم الدين أيوب بن شادى بن مروان أخت الملك الناصر صلاح الدين ، وهى من أكبر المدارس وأعظمها وأكثرها فقها وأوقافا ، وتعرف هذه المدرسة أيضا بالحسامية نسبة إلى حسام الدين بن لاجين المدفون فيها مع والدته ست الشام .
انظر : الدارس فى تاريخ المدارس ، ج١ ، ص٢٧٧ .

(٨)ست الشام : الخاتون ست الشام بنت نجم الدين الأيوبى بن شادى بن مروان ، وأخت الملك الناصر صلاح الدين والعادل ، توفيت يوم الجمعة سادس عشرين ذى القعدة سنة ٦١٦هـ ، ودفنت بتربتها التى بمدرستها الشامية .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٢٤٥ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٩٢ ؛ الدارس ، ج١ ، ص٢٧٧ - ص ٢٧٨ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص٦٧ .

وهو الذى بنى المدرسة الشبلية للحنفية ، والخانقاة[١] للصوفية إلى جانبها ، وكانت منزله ، وأوقف عليها أوقافا جليلة ، وبنى القناة والمصنع والساباط ، وفتح للناس طريقا [٣٩] من عند المقبرة غربى الشامية البرانية إلى طريق عين الكرش ، ولم يكن للناس لهم طريق إلى الجبل من هناك ، إنما كانوا يسلكون من عند مسجد الصفى[٢] بالعُقَيْبة[٣] وكان خادما عاقلا دينا صالحا مهيبا ، له حرمة وافرة فى الدولة ، ومنزلة عالية عند الملوك ، وكان حنفى المذهب ، وله صدقات دارة وإحسان كبير ، ودفن بتربته إلى جانب مدرسته المذكورة ، وكانت وفاته فى رجب من هذه السنة ، وقد سمع الحديث من الشيخ تاج[٤] الدين الكندى وغيره .

البَدْرُ الجَعْبرى[٥] ، والى قلعة دمشق ، مات فى هذه السنة ، أقام واليا بها مدة فى أيام المعظم ، وخدم الظاهر بحلب وغيره ، فحمل إلى بالس[٦] فدفن عند أهله .

واقف الرواحية[٧] بدمشق وحلب ، **أبو القاسم هبة الله المعروف بابن رواحة** ، من أكابر العدول والتجار أولى الثروة ، وبنى بحلب مدرسة[٨] للشافعية وبدمشق مثلها داخل باب الفراديس[٩] ، ووقف عليها أوقافا حسنة ، وقنع بعد ذلك باليسير ، وكان يسكن فى

---

(١) الخانقاه : جمعها خانقاوات وخنقاهات وهى منزل للصوفية . العصر المملوكى ، ص٤١١ .

(٢) «مسجد الصفر» كذا فى الأصل وهو خطأ ، والتصحيح من الذيل على الروضتين ، ص١٥٠ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٥ ، الدارس ، ج١ ، ص٥٣١ .

(٣) العُقَيْبَة : تقع فى الجانب الشمالى من دمشق ، وهى مدينة مستقلة بذاتها ، ذات أبنية جليلة وعمائر ضخمة . صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٩٤ .

(٤) تاج الدين الكندى : هو الشيخ العلامة تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد الكندى المقرىء النحوى الأديب ، توفى سنة ٦١٣هـ / ١٢١٦م .

(٥) انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٥١ ؛ المرآة ، ج٨ ، ص٤٢٣ .

(٦) بالس : بلدة بالشام بين حلب والرقة .
معجم البلدان ، ج١ ، ص٤٧٧ .

(٧) انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٤٩ ؛ وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٢٤٥ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٥ ؛ الدارس ، ج١ ، ص٢٦٦ - ص٢٦٧ .

(٨) هى المدرسة الرواحية شرقى مسجد ابن عروة بالجامع الأموى ولصيقه ، شمالى جيرون وغربى الدولة وقبلى الشريفية الحنبلية بانيها زكى الدين أبو القاسم التاجر المعروف بابن رواحة وهما مدرستان واحدة بدمشق والأخرى بحلب .
الدارس ، ج١ ، ص٢٦٥ - ص٢٦٨ .

(٩) باب الفراديس : من أبواب دمشق .
معجم البلدان ، ج٣ ، ص٨٦٢ .

بيت بالمدرسة الدمشقية ، وهو الذى فى إيوانها من الشرق ، ويقابله من الغرب خزانة الكتب التى وقفها ، وهى كتب جليلة ، وكان (رحمه الله) تام الخلقة طولا وعرضا ، إلا أنه كان لا لحية له أصلا ، وكان مبجلا عند القضاة ، توفى[١] فى هذه السنة فى رجب ، ودفن بمقابر الصوفية ، وكان فوض تدريس مدرسته التى بدمشق والنظر عليها إلى الشيخ تقى الدين بن الصلاح الشهرزورى ، وبعد وفاته شهد محيى[٢] الدين بن عربى الطائى ، وتقى الدين خزعل[٣] النحوى المصرى ، ثم المقدسى ، ثم الدمشقى ، إمام مشهد على بن رواحة بأنه قد عزل الشيخ تقى الدين عن هذه المدرسة ، فجرت خطوب طويلة ، ولم ينتظم ماراموه من الأمر . وقال أبو شامة[٤] : وكان ابن الصلاح أسند النظر إلى شخص أسنده ذلك الشخص إلى ولد له ، فغلب على وقف المدرسة وتدريسها بغير أهليَّة ، ولا استحقاق ، ولا أمانة ، ولا[٤٠] عدل ، ولا اشفاق ، والأمر على ذلك إلى الآن ، والله المستعان .

قلت : تقى[٥] الدين خزعل بن عسكر بن خليل الثنائى[٦] المصرى النحوى ، مات أيضا فى رجب أو شعبان من هذه السنة ، ودفن بباب الصغير ، وكان شيخا حسنا فاضلا مفتيا[٧] متواضعا .

---

(١) ذكر النعيمى فى الدارس فى تاريخ المدارس أن الذهبى فى تاريخه العبر أن الزكى بن رواحه توفى سنة٦٢٢هـ ، ج١ ، ص٢٦٦ ؛ وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٢٤٥ .

(٢) محيى الدين بن عربى الطائى : هو العارف بالله محمد بن على بن محمد الحاتمى الطائى الأندلسى ، ولد سنة ٥٦٠هـ ، وتوفى سنة ٦٣٨هـ .

الدارسى فى تاريخ المدارس ، ج١ ، ص٢٦٦ .

(٣) «خزعلى» فى الأصل ، والتصحيح من الذيل على الروضتين ، ص١٤٩ .

(٤) الذيل على الروضتين ، ص١٤٩ .

(٥) انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٤٩ ؛ الدارس ، ج١ ، ص٢٦٦ .

(٦) «السنائى» فى الأصل ، والتصحيح من الذيل على الروضتين ، ص١٤٩ .

(٧) «متقنا» فى الأصل ، والتصحيح من الذيل على الروضتين ، ص١٤٩ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الرابعة والعشرين بعد الستمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستنصر بالله ، وصاحب مصر السلطان الملك الكامل بن الملك العادل ، وصاحب دمشق الملك المعظم عيسى بن الملك العادل ، ولكنه مات فى هذه السنة على مانذكره ، وصاحب حلب الملك العزيز[١] بن الظاهر صلاح الدين ، وصاحب الروم السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو ، وصاحب البلاد الشرقية الملك الأشرف ، ولكنه عند أخيه المعظم على مانذكره ، وصاحب أذربيجان وبعض بلاد الكرج وعراق العجم[٢] وغيرها السلطان جلال الدين خوارزم شاه بن السلطان علاء الدين[٣] خوارزم شاه بن تكش ، وسلطان الغرب الملك العادل عبد الله بن المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، ولكنه مات فى هذه السنة ، وسلطان البلاد السمرقندية والخوارزمية وماوراء ذلك ومادون ذلك إلى بلاد عراق العجم جنكيزخان ، ولكنه «مات فى هذه السنة»[٤] .

فلنذكر أولا ماجريات بنى أيوب ثم ماجريات جلال الدين خوارزم شاه ، ثم نذكر وفيات هؤلاء المذكورين .

ذكر ماجريات بنى أيوب

قد ذكرنا الآن أن الملك الأشرف عند أخيه المعظم ، ورأى أنه لاخلاص له منه إلا بإجابته إلى مايريده أخوه المعظم ، فأجابه مكرها على ما طلبه منه ، وحلف له أن يعاضده ويكون معه على أخيهما الملك الكامل ، وأن يكون معه على صاحبى حماه

(*) يوافق أوله : ٢٢ ديسمبر ١٢٢٦م .

(١) الملك العزيز بن الظاهر صلاح الدين : هو غياث الدين أبو المظفر محمد بن الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين صاحب حلب وسبط الملك العادل ، توفى رابع ربيع الأول ٦٣٤هـ ودفن بالقلعة ، ومولده يوم الخميس خامس ذى الحجة سنة ٦١٠هـ .

وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص١٠ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١٦٨ .

(٢) عراق العجم : هى بلاد خراسان وبلاد الجبل وأصبهان وهمذان والرى وما معهم من البلاد .

انظر : سيرة جلال الدين منكبرتى ص٣٣٥ ، حاشية (١) ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٣٥ .

(٣) علائى فى الأصل ، والتصحيح من الشذرات ، ج٥ ، ص١٣٠ .

(٤) «ولكنه - فى هـ» كذا فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٧ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١١٣ ، لاستقامة المعنى .

وحمص ، فلما حلف له على ذلك أطلقه المعظم ، فرحل الملك الأشرف فى جمادى الآخرة من هذه السنة ، وكانت مدة مقامه عند المعظم نحو عشرة أشهر ، ولما استقر الأشرف ببلاده رجع عن جميع ماتقرر بينه وبين أخيه المعظم ، وتأول فى ذلك فى [٤١] أيمانه التى حلفها[١] أنه كان مكرها عليها ، فندم المعظم لتمكينه من الانفصال عنه وسير العرب إلى بلد حمص وحماة فعاثوا فيها[٢] .

وفى هذه السنة حصلت الوحشة بين الملك الكامل صاحب مصر وبين أخيه الملك المعظم صاحب دمشق لأمور بلغت الكامل عنه ، فكتب الكامل إلى الأنبرور[٣] ملك الألمان بأن يحضر إلى الشام والساحل ، ويعطيه البيت المقدس وجميع فتوح صلاح الدين بالساحل ، وكتب الملك المعظم إلى جلال الدين خوارزم شاه - وكان قد ملك أخلاط وبلاد أرمينية[٤] مضافا إلى مابيده من بلاد العجم المجاورة لأخلاط - يسأله أن ينجده على أخيه الكامل ، ويكون هو من جملة المنتمين إليه ، ويخطب له ، ويضرب له الدنانير والدراهم باسمه ، فأجابه إلى ذلك ، وسير إليه خلعة لبسها ، وشق بها مدينة دمشق ، وقطع خطبة الملك الكامل . وبلغ ذلك الكامل فتجهز وخرج بعساكره ليأخذ دمشق من أخيه المعظم ، فنزل بلبيس[٥] والعباسة[٦] فى شهر رمضان من هذه السنة ، فسير إليه المعظم يقول : إننى قد نذرت نذرا لله تعالى أن كل مرحلة ترحل إليها لقصدى أتصدق بألف دينار ، فإن جميع عسكرك معى وكتبهم عندى ، وأنا ما آخذك إلا بعسكرك ، هذا كان فى الباطن ، وأما فى الظاهر فقال : أنا مملوكك وماخرجت عن

---

(١) «حلفها عليها» كذا فى الأصل ، والمثبت من مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٠٦ لاستقامة المعنى .

(٢) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص١٥١ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٠٤ - ص٢٠٦ ؛ المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص١٣٧ .

(٣) هو الإمبراطور فردريك الثانى . نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٣٩ ، حاشية(١) .

(٤) بلاد أرمينية : اسم لصقيع عظيم واسع من جهة الشمال ، وقيل هما أرمينيتان الكبرى والصغرى ، وحَدُّهما من بَرْذَعة إلى باب الأبواب ، ومن الجهة الأخرى إلى بلاد الروم وجبل القَبْق وصاحب السرير ، وقيل أرمينية الكبرى خلاط ونواحيها ، وأرمينية الصغرى تفليس ونواحيها .
معجم البلدان ، ج١ ، ص٢٢٩ - ص٢٣٠ .

(٥) بلبيس : مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام .
معجم البلدان ، ج١ ، ص٧١٢ .

(٦) العباسة : هى بليدة أول مايلقى القاصد لمصر من الشام من الديار المصرية ، بينها وبين القاهرة خمسة عشر فرسخا .
معجم البلدان ، ج٣ ، ص٦٠٠ .

محبتك ولا عن طاعتك، وحاشاك أن تخرج لأجلى لتقاتلنى، وأنا أول من ينجدك ويحضر إلى خدمتك من جميع ملوك الشام والشرق، فأظهر الكامل هذا القول بين الأمراء وعاد الى مستقر ملكه، ثم بلغ الكامل أن المعظم قد نزل على حمص وحاصرها، وأشرف على أخذها، فسير إليه بأن يرحل عنها فرحل عنها، ثم أن الملك الكامل فى هذه السنة قبض على جماعة من الأمراء مماليك أبيه الذين توهم منهم أنهم كاتبوا المعظم، من جملتهم: فخر الدين الطنبا[1]، وفخر الدين الفيومى وكان أمير جنداره[2] وعشرة أمراء من البحرية العادلية، واعتقلهم وأخذ جميع أموالهم وموجودهم[3].

وفى تاريخ ابن كثير[4]: ولما تحقق الملك الكامل اعتضاد[5] أخيه المعظم بجلال الدين خوارزم شاه خاف من ذلك، وكاتب الأنبرور ملك الإفرنج فى أن [٤٢] يقدم إلى عكا ليشغل سر أخيه المعظم عما هو فيه، ووعد الأنبرور بأن يعطيه القدس، فسار الأنبرور إلى عكا، وبلغ المعظم ذلك فكاتب أخاه الأشرف واستعطف خاطره.

وقال ابن كثير[6]: وقدم رسول الأنبرور عليه اللعنة إلى المعظم يطلب منه ما كان فتحه السلطان صلاح الدين يوسف من بلاد السواحل، فأغلظ له المعظم فى الجواب وقال: قل لصاحبك ما عندى إلا السيف.

وقال أبو شامة[7]: قدم رسول الأنبرور ملك الإفرنج البحرية على المعظم بعد اجتماعه بالكامل يطلب منه البلاد التى فتحها عمه صلاح الدين، فأغلظ له، وقال: قل لصاحبك ما أنا مثل الغير[8]، ماله عندى سوى السيف.

---

(١) «الطينا» فى الأصل، والصحيح ما أثبتناه من نهاية الأرب، ج٢٩، ص١٤١.
(٢) أميرجندار: هو الأمير الذى يستأذن على دخول الأمراء للخدمة السلطانية ويدخل أمامه إلى الديوان. صبح الأعشى، ج٤، ص٢٠؛ العصر المماليكى، ص٤٠٤.
(٣) وردت هذه الأحداث فى نهاية الأرب، ج٢٩، ص١٤٠ - ص١٤١.
(٤) بالبحث لم نجد هذا الحدث فى ابن كثير وإنما وجدناه فى مفرج الكروب، ج٤، ص٢٠٦ - ص٢٠٧؛ المختصر فى أخبار البشر، ج٣، ص١٣٧ - ص ١٣٨.
(٥) «اعتقاد» فى الأصل، والصحيح ما أثبتناه من المختصر فى أخبار البشر، ج٣، ص١٣٧.
(٦) البداية والنهاية، ج١٣، ص١٢٦.
(٧) الذيل على الروضتين، ص١٥١.
(٨) «العزيز» فى الذيل على الروضتين، ص١٥١.

وفى تاريخ بيبرس : وفى هذه السنة رجع الملك الناصر داود بن المعظم إلى أبيه من إربل[١] صحبة الشيخ شمس الدين الخسرو شاهى تلميذ الإمام فخر الدين[٢] بن الخطيب الرازى ، وكان الناصر يقرأ عليه العلوم العقلية ، ولما تأكدت الوحشة بين المعظم وأخويه[٣] الكامل والأشرف ، وعلم الكامل انتماءه إلى جلال الدين خوارزم شاه ، خاف أن يكون اتفاقهما سببا لزوال الدولة الأيوبية ووبالها ، فأرسل الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ إلى الانبرطور فَرْدريك وطلب منه القدوم إلى عكا ، ووعده أن يعطيه بعض الفتوح الصلاحى بالساحل ليشتغل بذلك سر المعظم ، ويضطر إلى موافقته والدخول فى طاعته ، فتجهز الأنبرطور لقصد الساحل ، وبلغ المعظم ذلك فكاتب الأشرف ولاطفه وراسله فى الموافقة ، فعاتبه الأشرف على أفعاله التى فعلها معه ، وقرعه على ما اعتمد فى حق أهله فعاجله قاطع الآجال ومحترم الرجال ، ومات المعظم على مانذكره عن قريب إن شاء الله تعالى[٤] .

وفيها دخلت عساكر الملك الأشرف إلى أذربيجان ، فملكوا منها مدنا كثيرة ، وغنموا أموالا جزيلة ، وخرجوا معهم بزوجة الملك جلال الدين بنت طغريل ، وكانت تبغضه وتعاديه ، فأنزلوها مدينة أخلاط ، وسيأتى ما كان من خبرهم فى السنة الآتية إن شاء الله تعالى[٥] .

---

(١) إربل : قلعة حصينة ومدينة كبيرة من أعمال الموصل . وأكثر أهلها أكراد وقد استعربوا .
انظر : معجم البلدان ، ج ١ ، ص١٨٩ .

(٢) الإمام فخر الدين بن الخطيب الرازى : هو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن على التيمى البكرى الطبرستانى الأصل الرازى المولد ، الملقب فخر الدين ، المعروف بابن الخطيب الفقيه الشافعى ، كانت ولادته فى ٢٥ رمضان سنة ٥٤٤هـ وقيل ٥٤٣هـ بالرى ، وتوفى يوم الاثنين سنة ٦٠٦هـ بمدينة هراة ، ودفن آخر النهار فى الجبل المصاقب لقرية مزداخان
وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٢٤٨ ـ ص٢٥٢ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٠٦ ؛ حاشية(٣) ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٢١ ـ ص ٢٢ .

(٣) «وأخوته» فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه من مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٠٦ .

(٤) ورد هذا الحدث فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٠٦ ـ ص ٢٠٧ .

(٥) ورد هذا الخبر فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٧١ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٠٧ ـ ص٢٠٨ ؛ المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص١٣٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٦ .

وفيها جهز الملك الأشرف أخاه شهاب الدين غازى[١] إلى الحج فى محمل عظيم يحمل ثقله ستمائة جمل ومعه خمسون هجينا على كل[٤٣] هجين مملوك ، فسار من ناحية العراق ، وجاءته هدايا الخليفة إلى أثناء الطريق ، وعاد على طريقه التى حج منها[٢] .

وفى المرآة[٣] : وجهز الأشرف جهازا عظيما وسار غربى الفرات على قرقيسيا[٤] ، والرحبة[٥] ، وعانة[٦] ، والكيسات ، والغمر[٧] ، والعين[٨] ، وسقايا[٩] ، وكلها قرى فيها عيون جارية ، ونخل كثير ومنها يجلب التمر إلى الشام ، وعبر على كربلاء فزار المشهد ، ثم دخل الكوفة وزار مشهد أمير المؤمنين . وبعث إليه الخليفة فرسين وبغلة وألفى دينار ، وقال : هذه من ملكى أنفقها فى طريق الحج ، وأوصى أمير الحاج بخدمته ، وتصدق فى مكة والمدينة ، وعاد إلى[١٠] العراق ولم يصل الكوفة ، بل سار غربى الطريق التى سلكها فكاد يهلك هو ومن معه عطشا حتى وصل إلى حران .

---

(١) شهاب الدين غازى : هو الملك المظفر شهاب الدين غازى بن العادل ، كان فارسا شجاعا وشهما مهيبا وملكا جوادا ، وكان صاحب ميافارقين وخلاط وحصن منصور وغير ذلك ، توفى سنة ٦٤٥هـ .
البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٨٦ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٢٣٣ .
(٢) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص١٥١ ؛ البداية والنهاية ؛ ج١٣ ، ص١٢٦ ؛ مرآة الزمان ، جـ ٨ ، ص٤٢٤ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، ج٨ ، ص٤٢٤ .
(٤) قرقيسيا : بلد على نهر الخابور قرب رحبة مالك بن طوق على ستة فراسخ .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٦٦ .
(٥) الرحبة : قرية من قرى الشام . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٧٦٢ .
(٦) عانة : بلد مشهور بين الرقة وهيت تعد من أعمال الجزيرة ، وهى مشرفة على الفرات قرب حديثة النورة ، وبها قلعة حصينة .
انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٥٩٤ ـ ص٥٩٥ .
(٧) الغمر : قرية ببلاد الشام . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٨١٣ .
(٨) العين : قرية تحت جبل اللكام قرب مرعش .
انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٧٥٦ .
(٩) سقايا : وردت فى معجم البلدان «السقيا» وهى قرية بينها وبين سميراء أربعة أميال ، وهى قرية على باب منبج ذات بساتين كثيرة ومياه جارية . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص١٠٤ .
(١٠) «على» فى الأصل والصحيح ما أثبتناه من الذيل على الروضتين ، ص١٥١ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٢٤ .

ذكر ماجريات جلال الدين خوارزم شاه بن علاء الدين

وفيها ملك جلال الدين خوارزم شاه مدينتى بيلقان[١] وأردويل[٢] بأعمالهما ، وذلك أنه لما قدم من العراق وجدهما خرابا ، فبنى عليهما سورا من آجر ترغيبا للرعية فى عمارتهما وسكناهما ، فعاد أحسن مايكون من العمارة[٣] .

وفيها سار جلال إلى العراق والتقى به التتار بظاهر أصفهان[٤] ، وذلك أنه سار إلى تبريز وأقام بها مدة استجماما ، فورد الخبرأن التتار على أهبة العبور ، فأجمع أمره على العبور إلى أصفهان ، وأن لقاءهم أصوب ومن الاحتياط والحزم أقرب ، لما فيها من العدة والعديد ، فوصلها وجرد معه أربعة آلاف فارس صوب الرى ودامغان[٥] برسم اليزك[٦] ، وكانت الأخبار ترد من جهتهم يوما بعد يوم فهم يتأخرون والتتار يتقدمون[٧] إلى أن عادوا إلى جلال الدين سالمين ، وحضر إلى جلال الدين من أعلمه بها فى عسكر التتار من المقدمين وهم : تاجن نوين ، وتاتاك نوين ، وياقو نوين ، وأسن طُغان نوين ، وياسور نوين ، وغيرهم[٨] ، فنزل التتار شرقى أصفهان على مسيرة يوم على قرية تسمى السِّين[٩] وأشار المنجمون على جلال الدين بمصابرتهم ثلاثة أيام والتقائهم ، فلزم المكان يرتقب اليوم الموعود والميقات المضروب ، ولما سمع جميع الأمراء والخانات بقرب التتار لجأوا إلى باب السلطان جلال الدين ، فدخلوا عليه وهو فى صحن الدار ، فتحدث معهم فى غير

---

(١) بيلقان : إحدى مدن أرمينية وهى قرية من شروان .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٧١٧ - ص٧١٨ .
(٢) أردويل أو أردبيل : إحدى مدن أذربيجان بينها وبين تبريز سبعة أيام .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص١٩٧ .
(٣) انظر : سيرة جلال الدين منكبرتى ، ص٢٢٢ .
(٤) أصفهان : مدينة بأرض فارس . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٢٩٢ .
(٥) دامغان : مدينة على الطريق بين الرى ونيسابور . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥٣٩ .
(٦) اليزك : لفظ فارسى معناه الطلائع .
انظر : Dozy:supp. Dict. Ar ؛ السلوك ، ج١ق١ ، ص١٠٥ ، حاشية(٣) .
(٧) «يتقدم» فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه من سيرة السلطان منكبرتى ، ص٢٣٢ .
(٨) جاءت معظم هذه الأسماء بدون نقط ولذا فإنها تحتمل عدة قراءات كما أن لفظ نوين مغولى ومعناه «الأمير» .
انظر : سيرة جلال الدين منكبرتى ، ص٢٣٢ ، حاشية(٦) ؛ صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٤٢٥ .
(٩) السِّين : قرية بينها وبين أصفهان أربعة فراسخ .
انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٣٣٢ .

حديث التتار استخفافا بهم[٤٤] واستحقارا لأمرهم وتسكينا لقلوب الخانات ، وشاورهم فيما يقع عليه الاتفاق من ترتيب المصاف ، واستحلفهم أن لايهربوا ولايختاروا الحياة على الموت ، ثم حلف لهم بذلك من غير استدعاء منهم ، وعين لهم يوم المصاف ، وأمر باستعراض الرجالة فى سلاحهم ، وتأهب ، وقال أبو الفتح : وأحضر قاضى أصفهان ورئيسها وأمرهما باستعراض الرجالة فى السلاح ، وعامة أصفهان لاتقاس بعامة سائر البلاد فى هذا الباب إذ كانوا يبرزون إلى ظاهرها فى الأعياد والنياريز[١] بكازَغَنْدات[٢] من الأطلس مختلفة الأصباغ ، ولما رأت التتار أن السلطان جلال الدين أبطأ فى الخروج ظنوا أنه خاف وجردوا ألفى فارس إلى جبال اللر[٣] ليجمعوا من الغارات مايقوتهم[٤] مدة الحصار ولما سمع جلال الدين جرد إليهم من عسكره مقدار ثلاثة آلاف فارس فأخذوا عليهم المضايق ، وأرسلوا عليهم الصواعق ، وعادوا وأحضروا معهم أربع مائة أسير ما بين مأمور وأمير ، فسلم السلطان جماعة منهم إلى القاضى والرئيس ليقتلوهم فى شوارع المدينة والأسواق ، ويتركوا جثثهم هناك ، وضرب جلال الدين رقاب الباقين ولما كان اليوم الموعود رتب جلال الدين عساكره ، فلما تراءى الجمعان هرب غياث الدين أخوه فى ذلك الوقت بعسكره وطائفة من عسكر جلال الدين مقدمهم خردجهان بهلوان إيلچى ، وتغافل السلطان عنهم ، ووقف التتار مقابل السلطان ، وأمر السلطان رجالة أصفهان بالعود إذ أعجبته كثرته بالعدو ، وقد رأى عسكره بالنسبة إليهم أضعافاً ، وحملت آخر النهار ميسرة السلطان على ميمنة العدو فكسرتها ، وركبوا أكتافهم يقتلونهم إلى حدود قاشان[٥] ، ولما رأى انهزامهم وقد جنحت الشمس للغروب ترك الحرب ونزل على حافة

---

(١) النياريز: جمع نيروز ، وهو عيد فارسى الأصل ، ومعناه اليوم الجديد ، وقد احتفل به الأقباط والمسلمون فيما بعد ، ولاسيما الفاطميون فى مصر .
انظر : سيرة جلال الدين منكبرتى ، ص٢٣٣ ، حاشية(٦) .

(٢) «القزاقندات» : فى سيرة جلال الدين منكبرتى ، ص٢٣٣ ، والمفرد «قزاقند» أو «قزاغند» أو «كزاغند» وهو لفظ فارسى معناه المعطف القصير يلبس فوق الزردية ويصنع من القطن أو الحرير المبطن المنجد .
انظر : Dozy:supp. Dict. Ar

(٣) «جبال الرى» : كذا فى الأصل والصحيح ما أثبتناه من سيرة منكبرتى ، ص٢٣٤ ، وهى اسم لبعض القبائل ولعلها تنتسب إلى جبال اللور أو بلاد اللور الجبلية (لورستان) وتميد بين مدينتى تستر وأصبهان .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣٥٥ ؛ سيرة منكبرتى ، ص١٩٠ ، حاشية(٢) ؛ صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٣٤٢ ـ ص٣٤٣ .

(٤) «يقوم بهم» كذا فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه من سيرة منكبرتى ، ص٢٣٤ .

(٥) قاشان : مدينة قرب أصفهان ، تذكر مع قم ومنها تجلب الغضائر القاشانى .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص١٥ .

جرف كائن فى المعركة(١) فأتاه إيلان يرغو مشنعا وقال : قد تمنينا دهرا أن نرزق فيهم يومًا أبيض يذهب فيه غيظ قلوبنا . وفى هذه الليلة تقطع[٤٥] التتار مسيرة يومين ، فندم على فواتهم حيث لاتغنى الندامة ، وكان التتار لما رأوا(٢) سواد الليل تجرد شجعانهم وكمنوا حتى عبر جيش السلطان بعد غروب الشمس ، فخرج الكمين كالنار ، فضربوا الميمنة والقلب ، فلم تكن إلا حملة واحدة حتى زلت الأقدام عن مقارها ، وثبت الخانات والأمراء أصحاب الميسرة وفاء بالأيمان ، فقتلوا ولم يسلم منهم إلا ثلاثة وهم : كوج تكين بهلوان ، والحاجب الخاص خان بردى ، وأودك أمير آخور ، ووقف أخش ملك يقاتل إلى أن استشهد ، واستشهد ألب خان وأرتوخان وكحيوقة خان وقزلق خان ، ومنكلى بك طاين ، وأسر علائى الدُيلة أتان خان صاحب يزد(٣) ، وأخذه واحد من المرتدة فأعطاه صدراً من المال كان معه فأطلقه ، ووقع فى ليلته فى بئر فمات ، ووقف السلطان جلال الدين فى القلب وقد تبدد نظامه ، وأحاط به العدو من كل صوب ، ولم يبق معه إلا أربع عشرة نفساً من خواص مماليكه ، وحمل على التتار فأزاحهم عن الطريق ، ونجى بنفسه وتفرقت العساكر المنهزمة ، فمنهم من وقع إلى فارس ، ومنهم إلى كرمان وإلى أذربيجان ، ولما عاين اللعين بانيال مقدم التتار ما قد جرى منه أعجبته فروسيته ، فحرك المقَرعة وراءه ، وقال : سلمت حين سقت . وعادت ميمنة السلطان بعد يومين من جهة قاشان معتقدين أن السلطان بأصفهان ، وتفرقت عساكر التتار أيضا ، وخفى أمر جلال الدين ثمانية أيام ، فلا يدرى أميت هو أم حى ، وهموا فيمن يقوم بالأمر بعده ، وهمت عامة أصفهان بمد الأيادى إلى(٤) حريم الأصفهانية الخوارزمية وأموالهم ، واستمهلهم القاضى إلى العيد ربما يتحقق حال السلطان(٥) .

قال أبو الفتح : وكان المصاف يوم الثانى والعشرين من رمضان سنة خمس وعشرين وستمائة ، وكان الأتابك يغان طايسى لم يخرج من أصفهان يوم المصاف لمرضه ، فاتفق

(١) [ونزل على حافة النهر جرف] كذا فى الأصل ، والمثبت من سيرة منكبرتى ، ص٢٣٥ .
(٢) «روا» كذا فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه لاستقامة المعنى .
(٣) يزد : مدينة متوسطة بين نيسابور وشيراز وأصبهان ، معدودة فى أعمال فارس .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص١٠١٧ .
(٤)«إلا» كذا فى الأصل ، والمثبت من سيرة منكبرتى ، ص٢٣٧ ، لاستقامة المعنى .
(٥) ورد هذا الخبر بتصرف فى سيرة منكبرتى ، ص٢٣٢ ـ ص ٢٣٧ .

القاضى ومن تخلف بها من أرباب الدولة على أنهم إذا صلوا صلاة العيد ولم يحضر السلطان يجلسونه على السرير إذ كان فيه من أسباب الرياسة وأدوات السياسة ما [٤٦] استمالت القلوب إليه ، فلما خرج الناس يوم العيد إلى المصلى وصل السلطان وحضر الخطبة ، فاعتدوا بعودة عيداً ، وأقام بها عدة أيام إلى أن تراجعت فرق من عساكره المتفرقة ، وجازى السلطان ميمنة عسكره بمزايد الرواتب والمراتب ، فلقب بكت ملك بأونزخان ، وبكتيارون جنكشى بخاص خان ، وكى سنقرخان ، وأبوبكر ملك بإينام خان ، وسار بهم متشرقا نحو الرى ، ليزيد التتار نفورا . وجرد عساكره إلى أرض خراسان يريد بذلك انتشار الصيت والقوة وبعد سمعة القدرة ، وأما التتار فقد عادوا من أصفهان خائفين وأنهم مع انتصارهم فى آخر النهار قد نالت منهم السيوف ما لم تنله من المسلمين فنكص[١] التتار على أعقابهم ملعونين ، فلم يتخلص منهم إلى ماوراء جيحون إلا قليلا[٢] .

وفى هذه السنة قتلت الإسماعيلية أميرا كبيرا من أمراء جلال الدين ، وكان رجلا خيرا حسن التدبير ، وجميل السيرة ، بعيدا من الشر ، فسار جلال الدين فى عساكره إلى بلادهم وخربها من بلاد ألموت[٣] إلى بلاد كردكوه بخراسان وقتل أهلها وانتقم منهم ، لأنهم كانوا قد طمعوا مذ خرج التتار إلى بلاد الإسلام . وقال أبو الفتح المنشىء : لما عاد السلطان جلال الدين من الهند أقطع أميراً من أمرائه يقال له أورخان ما كان بقى من أرماق نيسابور وأعمالها ، وكان نائبه بها يتعرض إلى مايتاخمها من بلاد الإسماعيلية مثل : تون[٤] ، وقاين[٥] ، وقهستان[٦] ، بالنهب والقتل ، فورد شخص منهم يلقب بالكمال رسولا على جلال الدين ، وكان جلال الدين إذ ذاك بخوى يشكو من نواب أورخان ، فأمر جلال الدين وزيره شرف الملك أن ينظر فى أمره ، فلما سمع أورخان كلام الكمال جذب من حياصته عدة سكاكين ، ورماها بين يدى الرسول ، وقال : هذه سكاكيننا ولنا من

(١) «فنكس» كذا فى الأصل ، والمثبت من سيرة منكبرتى ، ص٢٣٨ ، لاستقامة المعنى .
(٢) وردت هذه الأحداث بتصرف فى سيرة منكبرتى ، ص٢٣٧ - ص٢٣٨ .
(٣) ألموت : أهم وأمنع حصون الإسماعيلية فى فارس . انظر : سيرة منكبرتى ، ص٢٢٤ ، حاشية(٤) .
(٤) تون : مدينة فى نواحى قهستان قرب قاين . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٦٠٠ .
(٥) قاين : بلد بين نيسابور وأصفهان . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٢٢ .
(٦) قهستان : جبال بين هراة ونيسابور . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٢٠٥ .

السيوف ماهو أمضى ، وليس لكم منها شئ ، فعاد الرسول بهذا الجواب ، فلما عاد السلطان[٤٧] جلال الدين إلى كنجة وثب بأورخان ثلاثة من الفداوية[١] فقتلوه بظاهرها ، ودخلوا المدينة والسكاكين بأيديهم ، ينادون بشعار علاء الدين[٢] فوصلوا باب شرف الملك ، ودخلوا دار الديوان ، فلم يجدوا شرف الملك بها ، وكان عند جلال فجرحوا فراشاً له ، وخرجوا ينادون بشعارهم ، فرجمتهم العوام إلى أن أهلكوهم . وكان قد وصل رسول من ألموت من عند الإسماعيلية يسمى بدر الدين أحمد إلى بيلقان قاصداً باب جلال الدين ، فلما جرى الأمر المذكور تحير فى أمره ، فأرسل كتابا إلى الوزير شرف الملك يستشيره فى أمره ، فأذن له بالقدوم خوفا من طلب الفداوية إياه ، ويعملون معه مثل ماعملوا بأورخان ، فورد عليه فأكرمه واهتم بقضاء أشغاله ، وكان مضمون رسالته إزالة التعرض عن بلادهم ، وكانوا قد استولوا على دامغان فى أيام التتار حين خلت عمن يحميها ، وجلال الدين كان يطالبهم بتسليمها ، واجتهد الوزير شرف الملك على استمرارها بأيديهم ، على أن يحملوا إلى خزانة السلطان كل سنة ثلاثين ألف دينار ، وكتب لهم بذلك توقيعا ، ثم لما سار جلال الدين إلى ناحية أذربيجان والرسول المذكور فى صحبة الوزير ، يحضر كل يوم مجلسه وسماطه ، فلما وصلوا إلى مرج سراة[٣] ذكر الرسول فى بعض مجالس الشرب حين أخذت الكؤوس مأخذها أن لنا فى عسكركم هذا جماعة من الفدائية ، وقد تمكنوا فصاروا كالواحد من غلمانكم ، فمنهم من خدم فى اصطبلك ، ومنهم من خدم عند مقدم الجاوشية[٤] للسلطان ، فألح شرف الملك الوزير على أن يحضرهم ليبصرهم ، وأعطاه منديله علامة الأمان ، فأحضر خمسة من الفداوية ، وكان الواحد منهم هنديا ، شرع يقول لشرف الملك : كنت أقدر يوم كذا فى منزل كذا

(١) الفداوية : وهم الفدائية ، وكانت طبقة الفدائيين أهم طبقات المجتمع الاسماعيلى فى فارس ، إذا كانت الأداة التى يعتمد عليها دعاتهم فى القضاء على أعدائهم . وقد مهر الفدائيون فى فن التخفى واستعمال السلاح ، وإتقان اللغات الأجنبية ، وكانوا يقتلون المسلمين أيام الجمع فى المساجد ، كما كانوا يقتلون المسيحيين فى الكنائس علنا . انظر : سيرة منكبرتى ، ص٢٢٩ ، حاشية(٢) .

(٢) المقصود علاء الدين محمد الثالث بن حسن الثالث ، داعى دعاة الإسماعيلية فى فارس : ٦١٨/٦٥٣هـ =١٢٢١/ ١٢٥٥م . انظر : سيرة منكبرتى ، ص٢٢٩ ، حاشية(١) .

(٣) مرج سراة : وصحتها سراو ، وهى إحدى مدن أذربيجان وتقع على مسيرة ثلاثة أيام من مدينة أردبيل فى اتجاه تبريز . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٦٤ ـ ص٦٥ .

(٤) الجاوشية : ومفردها الجاويش أو الجاووش . ويقال له أيضا الشاويش . وهى لفظ تركى ـ وكان الجاويشية فى نظام دولة المماليك بمصر أربعة من جند الحلقة ، ووظيفتهم السير أمام السلطان أو النائب فى مواكبه للنداء وتنبيه المارة . انظر : القلقشندى : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٤٧ ، ص٤٨ ، ص٢٣٩ .

على قتلك ، إلا أنى كنت أنتظر ورود الأمر بإمضاء العزيمة فيك ، فرمى شرف الملك حين سمع كلامة الفرجية[١] من ظهره وقعد بينهم بالقميص ، وقال : مافعلت أنا؟ ومايريد علاء الدين منى وأنا مملوكه كما أنا مملوك السلطان؟ وهأنا بين أيديكم فافعلوا ماشئتم ، وبالغ فى التذلل جدا [٤٨] وبلغ جلال الدين ذلك ، فغضب عليه وأنكر تذلله ، وسير إليه من خواصه من ألزمه بإحراق هؤلاء الخمسة على باب خيمته ، فاستعفى من ذلك فلم يعف ، فأمر على كره منه ، فأوقدت على باب خيمته نار عظيمة ، ورمى أولئك الخمسة فيها فكانوا يحترقون ، ويقولون : نحن قرابين المولى علاء الدين إلى أن أحرقوا ، وقتل جلال الدين كمال الدين مقدم الجاوشية لاستخدامه الفداوية ، لأنه كان أولى الناس بالاحتزاز من ذلك ، ورحل من هناك صوب العراق ، وتخلف الوزير شرف الملك بأذربيجان . قال أبو الفتح : وتخلفت أنا معه فبينما نحن ببرذعة[٢] إذ ورد رسول من ألموت بعد أيام يلقب بالصلاح ، واجتمع بالوزير وقال له : إنك أحرقت خمسة منا وهم الفداوية ، فإن أردت سلامتك أدِّعن كل واحد منهم عشرة آلاف دينار دية ، فهالـه ماسمع وضعف قلبه ، فأكرم هذا الرسول وأنعم عليه بإنعام وافر . قال أبو الفتح : وأمرنى فكتبت لهم توقيعا ديوانيا بإسقاط عشرة آلاف دينار مستمرة فى كل سنة مما تقرر حملها إلى الخزانة السلطانية ، وهى ثلاثون ألف دينار كما ذكرناه عن قريب ، وعلم الوزير على التوقيع[٣] .

وفى تاريخ بيبرس : وفى هذه السنة وصل ابن الأتابك المسمى خاموش ، وكان أصم أبكم يفهم ويستفهم بالإشارات ، ولايقدر على تفهمه إلا رجل واحد قد رباه ، وكان أبوه قد زوجه بصاحبة زوين دُرّ[٤] وهى من حفدة الأتابك علاء الدين كراية صاحب مراغة ، فلما وصل السلطان إلى كنجة منصرفه من خلاط قدم الملك خاموش سمى به لعدم قدرته على النطق ، فأحضر فى جملة تقادمه حياصة[٥] كيكاوس ملك الفرس ، وفيها عدة جواهر

(١) الفرجية : من ملابس القضاة والعلماء والأعيان والوزراء ، وكانت تلبس فوق الثياب وتكون مفرجة من قدامه من أعلاها إلى أسفلها مزررة بالأزرار أما ما دونهم فكانوا يلبسون الفرجية مفرجة من الخلف .
انظر : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٤٢ - ص٤٣ .

(٢) برذعة : بلد فى أقصى أذربيجان ، وهى مدينة أران . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٥٥٨ .

(٣) وردت هذه الأحداث بتصرف فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٧٠ ؛ سيرة منكبرتى ، ص٢٢٨ - ص٢٣١ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٦ .

(٤) «روبين دز» فى سيرة منكبرتى ، وهى إحدى القلاع القريبة من مدينة أردويل .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٢٢٣ ، حاشية(٢) .

(٥) حياصة : هو حزام العسكريين الذى يسمى «منطقة» ويوضع فيه السيوف والسكاكين ، وكان يصنع من معدن ثمين أفخمها ما كان من الفضة المطلية بالذهب ، وصنعت أحيانا من الذهب الخالص المرصع بحجر اليشم .
انظر : ماير ، الملابس المملوكية ، ص٤٧ - ص٥٠ .

نفيسة لاتُقَوّم ، من جملتها قطعة بذخشان ممسوح على قدر الكف ، أفخر مايكون من الجوهر ، فقبلها منه وأضاف إليها قطعا أخر نفائس مما كان عنده ، فأخذت منه فى آمد«وحُمِلَت[٤٩] إلى جنكيزخان[١] ، وأقام خاموش الملك عنده مدة ، فلم يعتن به إلى أن رثت حاله ، وانتكثت حباله ، وأعول أهله وعياله ، ففارق السلطان من غير إذن إلى علاء الدين صاحب الإسماعيلية ، وساقه المَوْتُ إلى ألموت ، فتوفى هناك بعد شهر ، ثم سار السلطان إلى كنجة فوثب بأورخان ثلاثة من الفداوية ، فقتلوه بظاهرها فذكرت[٢] بقية القصة مثل ماذكرناه الآن[٣] .

قلت : خاموش الذى ذكره هو ابن الأتابك أزبك صاحب أذربيجان ، ولم يخلف أزبك ولدا إلا هذا ، وكان قد وُلِدَ أصم أبكم على ماذكرناه . وقال أبو الفتح المنشئ : كان اسم كيكاوس على ذلك البذخشانى ، والسلطان جلال الدين أضاف إلى ذلك قطعا أخرى ، وغير الصياغة ، وجعل الفص الكيكاوسى واسطتها ، وكان السلطان يشدها فى وسطه فى الأعياد لاغير إلى أن كبسه التتار فى آمد فى شوال سنة ثمان وعشرين وستمائة ، فظفروا بالحياصة وسائر الجواهر ، وحملت إلى ابن[٤] جنكيزخان الذى يسمى خاقان[٥] .

وأما وزير جلال الدين الذى ذكرناه فهو فخر الدين بن على بن أبى القاسم الجندى ، ويلقب بشرف الملك خواجة[٦]جهان ،كان نائبا عن المستوفى[٧] بديوان الجند[٨] ، ثم

---

(١) ورد فى سيرة منكبرتى «وحُمِلَت إلى الخاقان ابن جنكيزخان» ص٢٢٣ .

(٢)«ذكر» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .

(٣)وردت هذه الأحداث بتصرف فى سيرة منكبرتى ، ص٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٤) ابن جنكيزخان : هو الخاقان أجتاى (أكتاى) : ٦٢٤/ ٦٣٩هـ = ١٢٢٧/١٢٤١م .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٢٢٣ ، حاشية(٤) .

(٥)وردت هذه الأحداث بتصرف فى سيرة منكبرتى ، ص٢٢٣ - ٢٢٤ .

(٦) خواجاجهان : أى سيد العالم وهى عبارة فارسية .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٨٢ ، حاشية(٣) .

(٧) المستوفى : من كُتَّاب الأموال بالدواوين ، وعمله ضبط الديوان التابع له والتنبيه على مافيه مصلحة من استخراج أمواله ونحو ذلك . وقد بقى اسم المستوفى فى بلاد فارس إلى القرن التاسع عشر الميلادى ، وكان يطلق على كبار كُتَّاب المالية . انظر : سيرة منكبرتى ، ص١٨٣ ، حاشية(٥) .

(٨) ديوان الجند : الديوان كلمة فارسية معناها سجل أو دفتر ، ثم تطور استعمال هذا اللفظ فأطلق من باب المجاز على المكان الذى تحفظ فيه السجلات الخاصة بأمور الدولة المختلفة . وقد اقتبس عمر بن الخطاب نظام الدواوين فى الدولة الإسلامية بعد أن اتسعت الفتوحات فى عهده وأصبحت الحاجة ماسة إلى ضبط أمور الدولة ، فأنشأ ديوان الجند لكتابة أسماء الجند .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٤٩ ، حاشية(١) .

تولى استقلالا ، ثم ترتب فى جملة الحجاب[١] ، وكان ذا لسان جليد[٢] ، مقداما على السلطان ، فصيحا فى اللغة التركية ، واستمر به الحال فى الحجوبية إلى أن جرت قضية ماء السند على ماذكرناه ، فهلكت أرباب الدولة ، وساعدته المقادير إلى أن توزر ، ونال عند السلطان ما لم ينله أحد ، وكان لجلال الدين وزير بالعراق يقال له شرف الدين على ابن الفضل ، من رؤساء تفرش وهى كورة من كور العراق ، وكان مستوفى العراق عند السلطان محمد بن غُورسا ، ونكب فى أيام غياث الدين ، ولما طلع جلال الدين من الهند وصَفَا له مُلك العراق بادر إلى خدمته ، فاستوزره فى جميع العراق ، وحَكَّمه فى الرقاب والأموال ، ولم يتول حكم العراق بأسرها وزير قبله بَل كان فى كل[٥٠] مدينة وزير ، ثم اتفق وزير الرى نظام الدين ، ومستوفيهما أوحد الدين ، وقاضى أصفهان ركن الدين مسعود بن صاعد على مرافقته والطعن عليه ، وواطأهم شرف الملك ، فأمر جلال الدين أن يعقد شرف الملك لهم مجلساً يسمع فيه مرافعتهم بحضرة سائر أرباب المناصب بالديوان ، وجلس السلطان ينظر إليهم من شبابك يسمع مقالتهم وهم لايعلمون . ولما علم شرف الدين بأن شرف الملك الوزير يواطئهم على ما اتفقوا عليه من المرافعة حسداً ومكرا ، أرضى السلطان فى السير بمائة ألف دينار يحملها إلى الخزانة على أنه لايقبل قولهم فيه ، وكان السفير فى ذلك ملك الخواص تاج الدين قليج ، فرضى السلطان بذلك وأولئك لايعلمون[ولا][٣] يدرون ، ولم يقم شرف الدين من مجلسه إلا وهو مستمر على ما كان عليه من الحكم والجاه بعامة مدن العراق ، وكاد شرف الملك الوزير أن يموت كمداً ، ورسم السلطان على المذكورين المرافعين يطالب كل واحد منهم بعشرين ألف دينار وثلاثين ألف دينار[٤] . وقد وعدنا أن نذكر بعد ماجريات بنى أيوب ، وماجريات جلال الدين ، وفاة الملك المعظم ، ووفاة سلطان الغرب ، وهلاك جنكيزخان عليه اللعنة .

---

(١) الحُجَّاب : مفردها حاجب ، وقد كانت الحجابة من أهم مميزات السلطنة عند الخوارزمين وخاصة فى أواخر أيامهم إذ كان للخوارزميين حجاب مهمتهم حجب السلطان عن العامة وغلق بابه دونهم أو فتحه لهم فى الأوقات المناسبة وليس هناك من شك فى أن تمسك الحكام بالحجابة كما يرى ابن خلدون لمن أقوى الأدلة على ضعفهم .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٦٢ ، حاشية(٢) .

(٢) جليد : ذو قوة وصبر ، والجليد ما يجمد على الأرض من الماء ، جلده جلدا أى السياط ضربه بها . المنجد ، مادة (جلد) .

(٣)مابين حاصرتين إضافة من سيرة منكبرتى ، ص٢٢٦ ، لاستقامة المعنى .

(٤)وردت هذه الأحداث بتصرف فى سيرة منكبرتى ، ص٢٢٥ ـ ص٢٢٧ .

ذكر وفاة الملك المعظم

والكلام فيه على أنواع ، **الأول** : في ترجمته : هو شرف الدين عيسى الملقب بالملك المعظم ابن السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب صاحب دمشق والشام ، وكان مولده سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة ، ويقال : ولد في سنة ست وسبعين وخمسمائة بالقاهرة ، ونشأ بالشام ، وكان استقلاله بالملك لما توفي أبوه العادل سنة خمس عشرة وستمائة ، وكانت مدة ملكة دمشق تسع سنين وشهورا[١] .

وفي المرآة[٢] : وفي سنة أربع وعشرين وستمائة توفي الملك المعظم عيسى بن العادل ، العالم ، الفقيه ، الفاضل ، المجاهد في سبيل الله ، الغازي النحوي اللغوي ، ولد بالقاهرة في سنة ست وسبعين[٥١] وخمسمائة ، ونشأ بالشام ، وقرأ القرآن ، وتفقه على مذهب أبي حنيفة على فخر الدين الرازي ، وحفظ المسعودي ، واعتنى بالجامع الكبير ، وقرأ الأدب على تاج الدين الكندي[٣] ، فأخذ عنه كتاب سيبويه وشرحه للسيرافي ، والحجة في القراءات لأبي علي الفارسي ، والحماسة ، وقرأ عليه الإيضاح[٤] لأبي علي حفظًا ، وسمع مسند أحمد بن حنبل بدمشق ، وعلى ابن طبرزد أشياء من مسموعاته ، وسمع السيرة لابن هشام على ابن المحلي بمصر ، وغير ذلك ، وشرح الجامع الكبير ، وصنف كتاب الرد على الخطيب والعروض ، وله ديوان شعر ، ومع تصنيفه للعروض ما كان يقيم وزن الشعر في بعض الأوقات .

قال السبط[٥] : فكنت أقول له : فيك ضرب من النبوة ، وما علمناه الشعر .

---

(١) وردت هذه الأحداث : في الكامل ، ج١٢ ، ص٤٧١ - ص٤٧٢ ؛ الذيل على الروضتين ، ص١٥٢ ؛ وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٩٤ - ص٤٩٦ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٠٨ ؛ المختصر في أخبار البشر ، ج٣ ، ص١٣٨ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٤٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٠ ؛ مرآة الزمان ، ج٩ ، ص٤٢٤ - ص٤٢٥ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١١٥ .

(٢) سبط ابن الجوزي ، ج٨ ، ص٤٢٥ .

(٣) تاج الدين الكندي : هو الشيخ العلامة تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد الكندي المقرىء النحوي الأديب . توفي سنة ٦١٣هـ / ١٢١٦م .

انظر : الذيل على الروضتين ، ص٩٥- ص٩٩ ؛ وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٣٣٩ ؛البداية والنهاية ، ج١٣ ،ص٧٨ - ص٨١ .

(٤) «الإفصاح» كذا في الأصل ، والتصحيح من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٢٥ حيث ينقل عنه العيني .

(٥) المرآة ، ج٨ ، ص٤٢٥ .

وفى تاريخ المؤيد[١] : وكان عالما فاضلا فى الفقه والنحو ، وكان شيخه فى النحو تاج الدين زيد بن الحسن الكندى ، وفى الفقه جمال الدين الحصيرى[٢] وكان حنفيا متعصبا لمذهبه ، وخالف جميع أهل بيته ، فإنهم كانوا شافعية .

وقال ابن خلكان[٣] : وعوقب فى ذلك ، وقيل له : لم خالفت آباءك وأهلك؟ فقال : أما ترضون أن يكون فى بنى أيوب مسلم واحد .

وقال صاحب[٤] الطبقات الحنفية : كان الخطيب شنع على أبى حنيفة (رضى الله عنه) وصنف كتاباً ، ورد عليه المعظم ، فصنف كتاباً سماه : «السهم المصيب فى الرد على الخطيب» ، وكان لائقا بالرد ؛ ذكر ما لايليق ذكره ، فلم يصبر عليه المعظم لحسن اعتقاده فى أبى حنيفة (رضى الله عنه) .

وقال ابن كثير[٥] : اشتغل المعظم فى الفقه على الحصيرى مدرس النورية[٦] ، وكان محفوظه كتاب المفصل للزمخشرى ، وكان يجيز من حفظه بثلاثين دينارا .

وقال ابن خلكان[٧] : وقيل : إنه كان قد شرط لمن يحفظ المفصل مائة دينار وخلعة ، فحفظ لهذا السبب جماعة ، ورأيت بدمشق والناس يقولون : إن سبب حفظهم له كان هذا .

وكان قد أمر أن يجمع له كتاب فى اللغة يشمل الصحاح للجوهرى ، والجمهرة لابن دريد ، والتهذيب للأزهرى وغير ذلك ، وأمر أن[٥٢] يرتب له مسند الإمام أحمد بن حنبل ، وكان يحب العلماء ويكرمهم ، واجتهد فى متابعة الخير ، ويقول : أنا على عقيدة الطحاوى[٨] .

---

(١) المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص١٣٨ .

(٢) جمال الدين الحصيرى : شيخ الحنفية أبو المحامد محمود بن أحمد بن عبد السيد البخارى ، ولد ببخارا سنة ٥٤٦هـ فى رجب ، وتوفى ليلة الأحد الثامن من صفر سنة ٦٣٦هـ بدمشق ، ودفن بمقبرة الصوفية خارج باب النصر .
وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٢٥٩ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٢٥٩ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١٨٢ .

(٣) بالبحث لم نجد هذا القول فى ابن خلكان ، وفيات الأعيان ولكن وجدناه بتصرف فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢١١ .

(٤) بالبحث لم نجد هذا القول فى الطبقات الحنفية ولكن وجدناه بتصرف فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢١٢ .

(٥) البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٠ - ص١٣١ .

(٦) المدرسة النورية : المقصود بها النورية الكبرى ، وهى بخط الخواصين ، أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى بن أقسنقر فى سنة ٥٦٣هـ . وفيه نظر إنما أنشأها ولده الملك الصالح إسماعيل . الدارس ، ج١ ، ص٦٠٦ - ص٦٠٧ .

(٧) وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٩٥ .

(٨) ورد هذه الخبر فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٧٢ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣١ .

الثانى فى سيرته : كان شجاعا مقداما ، كثير الحياء ، متواضعا ، مليح الصورة ، ضحوكا ، غيورا ، جواداً ، حسن العشرة ، محافظا على الصحبة والمودة[١] .

وفى المرآة[٢] : وكان بالبلقاء رجل من بنى مهدى يقال له : نصار يُشْعِر على عادة العرب . مدح المعظم بقصيدة يقول فيها :

حمى من أوهام الزمان علامة عزيز إذا ما الدهر كرّجفاه

فكان يتعجب من قوله كرجفاه ، وكان قد توجه إلى أخيه الكامل فى سنة سبع أو تسع وستمائة ، والكامل فى الإسكندرية فركب فرساً واحداً ووصل من دمشق إلى الإسكندرية فى ثمانية أيام ، فخرج الكامل فالتقاه وترجلا واعتنقا ، وكان البهاء بن التبنى على دار الزكاة فقدم البدر بن المسحف الشاعر من الشرق ومعه قماش كثير ، فعسفه ابن التّبنى ، فكتب ابن المسحف إلى المعظم هذه الأبيات :

أيا ملكا أباد عِداه قهرا وأحيى كل منقبة وفضل
ومن هو كالمسيح اسما وفعلا ونصبا للحياة وجزم فعل
يكلفنى البهاء زكاة مال حرام كله من غير حل
وكيف يجود بالزكوات من لا يحج ولا يصوم ولا يصلى
فجد بهبات مالكم فإنى أُجِل زكاتكم عن مال مثلى

فكتب المعظم على رأسها : يؤخذ منه العشر .

وفى المرآة[٣] : وإذا خرج إلى الغزاة لاينام إلا على حلّ الطرح ، وزرديته[٤] مخدته ، ولا يقطع الاشتغال بالقرآن[٥] والجامع الكبير ، وسيبويه ، وكان دائما يركب ، فإذا نزل مد السماط ، فإذا أكل السماط الناس قضى الحوائج إلى الظهر ، وكان فى أيام الفتح مع الفرنج يرتب النيران على الجبال من باب نابلس إلى عكا ، وعلى عكا جبل قريب منها يقال له : الكَرْمَل ، وكان عليه المنورون ، وبينهم وبين[٥٣] الجواسيس علامات ، وكان له

(١) ورد هذه الخبر فى نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٤٤ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٢٥ .
(٢) سبط ابن الجوزى ، ج٨ ، ص٤٢٥ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، ج٨ ، ص٤٢٦ .
(٤) الزردية : هى قميص من الزرد يقوى برقائق من المعدن تتداخل أطرافه بعضها فوق بعض .
انظر : ماير ، الملابس المملوكية ، ص٦٨ .
(٥)[القراءة] كذا فى الأصل ، والمثبت من سبط ابن الجوزى ، ج٨ ، ص٤٢٦ حيث ينقل عنه العينى .
وانظر : نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٤٤ .

فى عكا أصحاب أخبار ، وأكثرهم نساء الخيالة ، وكانت طاقاتهن فى قبالة الكَرْمَل ، فإذا عزم الفرنج على الغارة فتحت المرأة الطاقة ، فإن كان يخرج مائة فارس أوقدت المرأة شمعة واحدة ، وإن كانوا مائتين شمعتين ، وإن كانوا يريدون قصد حوران أو ناحية دمشق أشارت إلى تلك الناحية ، وكذا إلى نابلس ، وكان قد ضيق على الفرنج الطريق ، إذا قصد وجهة سبق إليها بعسكره ، وكان يعطى النساء والجواسيس فى كل فتح جملة كثيرة .

قال السبط[١] : وكان المعظم قد أمر الفقهاء أن يجردوا له مذهب أبى حنيفة دون صاحبيه[٢] ، فجردوا له المذهب فى عشر مجلدات وسماه التذكرة ، فكان لايفارقه سفراً وحضراً ، يطالعه دائما ، فكتب على ظهر كل مجلد : أنهاه حفظا عيسى بن أبى بكر بن أيوب فقلت له : ربما يؤخذ هذا عليك ؛ لأن أكبر مدرس فى الشام يحفظ القدورى[٣] مع تفرغه ، وأنت مشغول بتدبير الممالك تكتب بخطك على عشر مجلدات إنك قد حفظتها . فقال : ليس الاعتبار بالألفاظ وإنما الاعتبار بالمعانى ، بسم الله سلونى عن جميع مسائلها ، فإن قصرت كان الصحيح معكم ، وإلا فسلموا إلى ماقلت .

وفى تاريخ بيبرس : وكان شديد البأس ، وكان أخوه الكامل يخافه ويداريه ، وهو أيضا كان يدارى أخاه الكامل ، ويخطب له على منابر بلاده ، ولايذكر اسمه معه ، ويضرب السكة باسمه ، ويدارى أخاه الأشرف ، ويؤلب عليه جلال الدين خوارزم شاه فى الباطن ، وكان مع شهامته وعظم هيبته قليل التكلف جداً ، لايركب بالسناجق السلطانية فى غالب أوقاته ، بل يركب فى جمع قليل ، وعليه قباء[٤] أبيض وكلوته صفراء بلا شاش ، ويتخرق الأسواق ولايُطَرِّق بين يديه ، ولقد زار البيت المقدس ، ودخل الجامع الأقصى ، وكان الرجال والنساء والصبيان يزاحمونه ولايردهم أحد عنه ، ولما كثر منه هذا ضربت به الأمثال فكان الإنسان إذا فعل فعلا لاتكلف فيه قيل : قد فعل فعلا[٥٤] معظميا[٥] .

---

(١) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٢٦ .
(٢) يقصد بذلك أن يُجددوا آراء أبى حنيفة وحده دون آراء صاحبيه محمد وأبى يوسف ، أى يجمعوها وحدها فى مؤلف .
انظر : نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٤٦ ، حاشية(٢) .
(٣) اسم كتاب مشهور من موجزات الفقه على المذهب الحنفى .
انظر : نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٤٦ .
(٤) قباء : جمعها أقبية وهو ثوب له أكمام ضيقة .
انظر : ماير ، الملابس المملوكية ، ص٢٥ .
(٥) لمعرفة المزيد من المعلومات عن هذه الأحداث .
انظر : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٠٩ - ص٢١٧ .

(الثالث) فى مآثره : قال بيبرس : اعتنى بأرض الحجاز ، فبنى حمامين بمعان للرجال والنساء ، وأقام لهم الضيافة عند رواحهم إلى مكة ومجيئهم ، وزرع طريق الحجاز من باب الجابية إلى مكة ، وحفر البرك والمصانع ، وأوقف على الحاج ضياعا بالساحل ، وعلى المدارس ، وأخذ قلعة العلى من بنى صخر لما حج سنة إحدى عشرة وستمائة ، ورتب فيها جماعة ، وعمر المساجد عند جعفر(١) الطيار ، وأقام الضيافات للزوار ، وبنى سور دمشق ، وله آثار كثيرة ومآثر مشهورة(٢) .

وفى المرآة(٣) : بنى مدرسة(٤) بقاسيون(٥) ، ودفن فيها والدته وأخاه المغيث ، ومدرسة بالقدس(٦) ، ودار الضيف ، وبنى الطارمة(٧) التى على الباب الحديد(٨) والطيارة(٩) التى عند باب السر(١٠) المشرفة على دار المعظم(١١) العتيقة ، وبنى الخان على باب الجابية .

(الرابع) فى وفاته : كان قد جهز العساكر إلى نابلس خوفاً من اتفاق الأنبرور مع أخيه الكامل ، ومرض فى نصف شوال ، وكان عنده رسل الخوارزمى(١٢) .

---

(١) جعفر الطيار : من منازل طريق الحج بين دمشق والمدينة .
انظر : الدارس ، ج١ ، ص٥٨٤ ، حاشية(٣) .
(٢) وردت هذه الأحداث فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٢٩ .
(٣) سبط ابن الجوزى ، ج٨ ، ص٤٢٩ ؛ الدارس ، ج١ ، ص٥٨٤ .
(٤) المدرسة المعظمية : بالصالحية بسفح قاسيون الغربى جوار المدرسة العزيزية ، أنشئت فى سنة ٦٢١هـ .
انظر : الدارس ، ج١ ، ص٥٧٩ .
(٥) قاسيون : هو الجبل المشرف على مدينة دمشق ، وفيه آثار الأنبياء ، وهو جبل معظم مقدس .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص١٣ .
(٦) مدرسة بالقدس : وهى المدرسة المعظمية وقف الملك المعظم عيسى مقابل باب شرف الأنبياء المعروف بباب الدويدارية ، تاريخ وقفها سنة ٦٦٠هـ ، وهى معمورة ، وكان يدرس فيها الخالدية خصوصا الكافية والهداية .
انظر : خطط الشام ، ج٦ ، ص١٢٣ .
(٧) الطارمة : بيت من الخشب كالقبة . وهو دخيل أعجمى مُعَرَّب ؛ لسان العرب ، مادة (طرم) .
(٨) الباب الحديد : خاص بالقلعة التى أحدثت غربى دمشق فى دولة الأتراك ، سمى بذلك لأنه كله حديد فقيل الباب ثم تركت الألف واللام تخفيفا . تاريخ مدينة دمشق ، ابن عساكر ، ج٢ ق١ ـ خطط دمشق .
(٩) الطيارة : هى دار ضيافة يطلق عليها اسم الطيارة الحمراء على سور باب النقفى فى حماة .
انظر : خطط الشام ، ج٦ ، ص١٥٦ .
(١٠) باب السر : من أبواب دمشق . الدارس ، ج٢ ، ص٥٤ .
(١١)«دار الطعم» كذا فى الأصل ، والمثبت من مرآة الزمان حيث ينقل عنه العينى ، ج٨ ، ص٤٢٩ ؛ ودار المعظم العتيقة بنابلس . مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٢٨ .
(١٢) ورد هذا الخبر فى نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٤٣ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٢٧ .

قال السبط[١] : حكى لى نجم الدين بن سلام قال : غرم عليهم فى تسعة أشهر تسع مائة ألف درهم ، واشتد مرضه وأصابه ذرب عظيم ، بحيث أنه رمى قطعة من كبده ومصراناً ، وكثرت الأقوال أنه سُقى السم ، واتهم به جماعة ، وآخر عهدى به ليلة الجمعة التاسع والعشرين من ذى القعدة ، دخلت عليه آخر النهار وعنده ولده الملك الناصر داود ، وكريم الدين الخلاَّطى ، ويعقوب الحكيم فى محفة ، قد زمن وقد تغيرت أحواله ، وطالع الموت فى محاسن وجهه ، فبكيت فقال : حاشاك حاشاك . وتحته طراحة خفيفة بندقى ومخدة ولحاف من جنسها ، وعلى رأسه كوفية ، وعند رأسه صينية إسبادروة فيها تراب ، فقلت : لكريم الدين ماهذه؟ قال : يتمم لكل صلاة ، وكان المعظم يقول : والله ما فاتنى صلاة قط ، وتوفى ثالث ساعة من نهار الجمعة أول يوم من ذى الحجة[٥٥] وغسله النجم خليل وكريم الدين يصب عليه ، وكان[قد][٢] أوصى أن لايدفن فى القلعة ، ويخرج إلى الميدان ويصلى عليه ، ويدفن بقاسيون على باب تربة والدته تحت الشجرة ، فلم تنفذ وصيته ، ودفن فى القلعة ، ثم أخرج بعد ذلك بمدة لما ملك الأشرف دمشق على حال غير مرض[٣] بين يديه نصف شمعة ، والعزيز خليل معه ، وبلغنى أن الحمالين طلبوا مايربطونه به على النعش ، فقيل له : اربطوه بعمامتكم ، ودفن مع والدته فى القبة عند الباب وفيها أخوه المغيث ، وعملنا له العزاء ثلاثة أيام فى جامع دمشق ، وجرى على الرعية فى وفاته ما لم يجر على غيرهم لموت أحد من الملوك ، رأيت بنات البيوت اللاتى لم يخرجن قط من خدورهن من أوائل الليل أتين إلى تحت القلعة ، قد شققن ثيابهن ، ونشرن شعورهن ، ومعهن الدرادك[٤] ، فيلطمن عليه ، ويقلن : ياصيحة يامعظم . ثم يمشين فى الأسواق ، ويلطمن إلى الصباح ، أقمن على ذلك شهراً ، وكذا فى الميادين طول النهار[٥] .

(١) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٢٧ .
(٢) مابين حاصرتين إضافة من السبط الذى ينقل عنه العينى ، ج٨ ، ص٤٢٨ .
(٣) «مرضى» كذا فى الأصل ، وما أثبتناه هو الصحيح لغة .
(٤) الدرادك :كلمة فارسية ومعناها جرس .
المعجم الذهبى ، فارسى ـ عربى ، د / محمد التونجى ، ص٢٥٨ .
(٥) ورد هذا الخبر فى نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٤٣ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٢٧ ـ ص٤٢٨ .

ويقال : إنه مات يوم الجمعة ثامن ساعة من نهاره ، سلخ ذى القعدة من هذه السنة ، وكان نقله من القلعة إلى جبل الصالحية[١] ليلة الثلاثاء مستهل المحرم سنة سبع وعشرين وستمائة[٢] .

(الخامس) فى أولاده : خلف من الأولاد الذكور أربعة ، مات أحدهم صغيراً بعده بقليل ، والثلاثة الباقون أحدهم : الملك الناصر أبو المظفر داود[٣] ، وكان يلقب قبل ذلك الملك الحاكم ، وهو أكبرهم ، ومولده سنة ثلاث وستمائة ، وكان عمره لما مات أبوه إحدى وعشرين سنة ، وأمه تركية . وثانيهم : الملك المغيث شهاب الدين عبد العزيز ، وأمه أيضا تركية ، توفى سنة تسع وأربعين وستمائة ببلاد الشرق ، وخلف عدة أولاد . وثالثهم : الملك القاهر بهاء الدين عبد الملك ، وأمه رومية . وخلف[الملك[٤] المعظم بن العادل أيضا]عدة بنات ، إحداهن[٥] التى كان تزوج بها السلطان جلال الدين خوارزم شاه ، ولم يتفق حملها إليه[٦] .

وفى المرآة[٧] : وكانت له سبع[٨] بنات ، وقيل : تسع عشرة ، والله أعلم .

(السادس) فى ما ملكه من البلاد وغيره من أحواله[٥٦] : كانت مملكته من حدود حمص إلى العريش ، يدخل فى ذلك بلاد الساحل الإسلامية منها وبلاد الغور ، وفلسطين ، والقدس ، والكرك ، والشوبك ، وصرخد ، وغير ذلك[٩] .

وقال ابن كثير[١٠] : وكان كثيرا ماينشد :

ومورد الوجنات أغيد خاله بالحسن من فرط الملاحة عمهُ
كحل الجفون وكأن فى ألحاظه كَحَلٌ فقلت سقى الحُسام وسَمَّهُ

(١) الصالحية : قرية كبيرة ذات أسواق وجامع فى لحف جبل قاسيون من غوطة دمشق . معجم البلدان ، ج٣ ، ص٣٦٣ .
(٢) ورد هذا الخبر فى وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٩٥ .
(٣) «داواد» كذا فى الأصل ، وما أثبتناه من الكامل ، ج١٢ ، ص ٤٧٢ ؛ وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص ٤٩٦ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢١٨ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٤٣ .
(٤) مابين حاصرتين إضافة من مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢١٩ لتوضيح المعنى .
(٥) «إحديهن» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .
(٦) ورد هذا الخبر فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢١٨ ـ ص٢١٩ .
(٧) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٣٠ .
(٨) «تسع بنات ، وقيل إحدى عشرة» كذا فى الأصل ، والمثبت من مرآة الزمان حيث ينقل عنه العينى ، ج٨ ، ص٤٣
(٩) ورد هذا الخبر فى وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٩٥ .
(١٠) ورد هذا الخبر فى وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٩٥ ، ولم ترد فى ابن كثير كما ذكر العينى .

وكان ابن عنين الشاعر صاحبه ، وقد مرض ، فكتب إليه :

انظر إلى بعـين مـولى لم يزل ... يولى الندى وتلاف قبل تلافى
أنا كالذى يحتاج[١] ما أحتاجه ... فاغنم ثوابى والثناء الوافى[٢]

فجاء إليه بنفسه يعوُده ومعه صرة فيها ثلاث مائة دينار ، فقال : هذه الصلة وأنا العائد ، وهذه لو وقعت لأكابر النحاة ومن هو فى ممارسته طول عمره لاستعظم منه ، ولاسيما مثل هذا الملك[٣] . ومدحه جماعة من الشعراء المجيدين ، وكانت له رغبة فى فن الأدب ، وكان جيد النظم[٤] .

وذكر أنه كان نازلا بنابلس مرة وفى معسكره بهاء الدين بن القيسرانى ، وكان المعظم قد بعث عسكراً فأغاروا على مدينة قيسارية ، وكانت يومئذ بيد الفرنج ، فأسروا وقتلوا وعادوا ومعهم أُتْرُجّ وليمُون[٥] من ثمار قيسارية ، فسيَّر منه شيئا إلى ابن القيسرانى المذكور ، فكتب إلى المعظم :

يأيها الملك المعظم والذى ... أضحت له الدنيا تُزف عروسا
أَوْلَيْتَنِى نعماً إذا أظهرتُها ... للناس أظهر حاسدُوها بُؤسا
فليهنك اليوم الذى قد اطلعت ... فيه الكؤوس كواكبا وشموسا[٦]

فكتب إليه المعظم :

يامن تفرَّد بالفضائل دائِبا ... أبدًا يؤسس مجدها تأسيسا
لازلت فى درج المكارم راقيا ... تعلو وربعك بالثنا مأنوسا[٧]

فكتب إليه بهاء الدين مجيباً :

مدح بمدح يُستطاب ولا أرى ... مابين ذَين دراهما وفُلوسا[٨]

---

(١) «أنا كالذى أحتاج ماتحتاجه» كذا الشطرة الأولى من البيت فى وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٩٦ .
(٢) ورد هذان البيتان فى وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص ٤٩٦ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١١٥ .
(٣) ورد هذا الخبر فى وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٩٦ .
(٤) ورد هذا الخبر فى وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٩٤ .
(٥) «لَيْمو» كذا فى الأصل ، والمثبت من مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢١٧ .
(٦) وردت هذه الأبيات فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢١٧ - ص٢١٨ .
(٧) «محروسا» كذا فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢١٨ .
(٨) ورد هذا البيت فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص ٢١٨ .

فأمر له المعظم بقماش وذهب قيمته ألف دينار صورية[١] . وقال للرسول : قل له : [٥٧]فلوس مابيننا[٢] .

وفى تاريخ بيبرس : ورثاه شرف الدين بن عنين ، ومدح ولده الناصر داود بهذه القصيدة :

يادهر ويحك ماعدا مما بدا ... أرسلتَ سهمَ الحادثات فأَقصدا
أغمدت سيفا مرهفا شفراتُه ... قد كان فى ذات الاله مجردا
فافعل بجهدك ماتشاء فإننى ... بعد المعظم لا أبالى بالردى[٣]
ماخلتُه يفنى وأبقى بعده ... يابؤس عيشى[٤] ما أمرَّ وأنكدا
لهفى على بدر تغيب فى ثَرى ... رَمْس وبحرٍ فى ضريح ألحدا
أبقيت لى يادهر بعد فراقه ... كبدا مقرحة وجفنا أرمدا
وجوى يؤجج بين أثناء الحشا[٥] ... ناراً تزايَدُ بالدموع توقُّدا
لو كان خلق بالمكارم والتقى ... يبقى لكنت مع الزمان مخلَّدا
أوكان شقُّ الجيب ينقذ من ردى ... شقت عليك بنو أبيك الأ كبدُا
أوكان ينجى عنك دفع بالقنا الـ ... خطى غادرت الوشيج مُقصدا
ولقد تمنَّت أن يكون فوارسٌ ... من آل أيوب الكرام لك الفدا
أبكيْتَ حتى نثرةً وطمرة ... وحزنت حتى ذابلا ومهندا
كم ليلة قد بت فيها لاتَرى ... إلا ظهور الأعوجيَّة مرقدا
تحمى حمى الإسلام منتصرا له ... بعزائم تستقرب المستبعدا
ولرُبَّ ملهوف دعاه لحادث ... جللٍ فكان جوابه قبل الصدا
ولطالما شمنا بوارق كفه ... فهمت سحائبها علينا عَسجدا

---

(١) دنانير صورية : هى الدنانير المسكوكة التى يؤتى بها من البلاد الإفرنجية والروم ، وهى مشخصة ، على أحد وجهيها صورة الملك الذى تضرب فى زمنه . ويعبر عنها بالإفرنتية .
انظر : صبح الأعشى ، ج٣ ، ص٤٣٧ .

(٢) ورد هذا الخبر فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢١٧ ـ ص٢١٨ .

(٣) «الردا» كذا فى الأصل ، والتصحيح من مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٢٠ .

(٤) «دهر» كذا فى الأصل ، والمثبت من مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٢٠ ، حاشية(٣) .

(٥) «الحشى» كذا فى الأصل ، والتصحيح من مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٢٠ .

يامالكا من بعد فقدى وَجْهَه جار الزمانُ علىَّ بعدَك واعتدا
اعــزز علىَّ بأنْ يزورك راثيــا من كان زارك بالمدائح مُنْشدا
كم مَوْرِدٍ ضنك وردت وطعمه مُر وقد عاف الكماة المـوردا
وعزيزَ قوم مترفٍ سربلتُه ذُلاً وكان الطاغىَ المتمردا
أركبتَه حلقات أدهم قصَّرَت عنه الخُطَى من بعد أشقَر أجردا[1]
لولا دفَاعُك بالصوارم والقنا[2] عن حوزة الإسلام عاد كما بدا[٥٨]
وديار مصر لو وَنَتْ عزماتُه عن نصرها لتحكمت فيها العدا
ولأمست البيض الحرائرُ بينهم فيها إماءً والموالى أَعبدا
ولأصبحت خيلُ الفرنج مغيرةً تجتاب مابين البقيع[3]إلى كُدًا[4]
وبثغر دمياط فكم من بيعة عُبِد الصليب بها وكانت مسجدا
أجليت[5] ليلَ الكفر[6]عنها فانطوى وأنرت فى عرصاتها فجر الهدى
ولقد شهدُتك يوم قيسارية والشمس قد نسج القتام لها ردًا
والكفر معتصمٌ بسور مشرف الـ أبراج أحكم بالصفيح وشُيدا
فجعلتَ عاليها مكان أساسها وألنت للأخشاب[7] فيها الجلمدا
قل للأعادى إن فقدنا سيدا يحمى الذمارَ فقد رزقنا[8]سيدا
الناصرُ الملك الذى أضحى برو ح القُدس فى كل الأمور مؤيَّدا
أعلى الملوك مَحِلَّةً وأسَرُّهم رأيا وأشجعهم وأنداهم يدا
ماضى العزائم لايُرى فى رأيه يوم الكريهة حائرا مترددا
يقظ يكادُ يُريه ثاقبَ رأْيه فى يومه ماسوف يأتيه غدا[9]

(١)«عنه الخُطَى من أشقرا وأجرد» كذا الشطر الثانى فى الأصل ، والمثبت من مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٢١ .
(٢)«القنى» كذا فى الأصل ، والمثبت من مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٢١ .
(٣) البقيع : هى مقبرة أهل المدينة ، وكذا موضع بأسفل مكة .
معجم البلدان ، ج١ ، ص٧٠٣ .
(٤) كُدًا : بأعلى مكة عند المحصَّب دار النبى ﷺ من ذى طوى .
معجم البلدان ، ج٤ ، ص٢٤١ .
(٥)«جليت» كذا فى الأصل ، والمثبت من مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٢٢ .
(٦)«الفكر» كذا فى الأصل ، والمثبت من مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٢٢ .
(٧)«كالأخشاب» كذا فى الأصل ، والمثبت من مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٢٢ .
(٨)«وجدنا» كذا فى الأصل ، والمثبت من مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٢٢ .
(٩) وردت هذه الأبيات فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٢٠ ـ ٢٢٢ .

ذكر سلطنة الملك الناصر صلاح الدين داود بن الملك المعظم

لما مات والده المعظم فى التاريخ المذكور قام فى مملكته داود المذكور، وقام بأموره كلها أستادار[(١)] أبيه الأمير عز الدين[(٢)] أيبك المعظمى، وكانت بيده صرخد[(٣)] وأعمالها، واستمر فى خدمته عماه الملك العزيز عثمان صاحب بانياس وبلادها، وهو شقيق أبيه، والملك الصالح عماد[(٤)] الدين اسماعيل، وكانت له بصرى[(٥)]، والسواد[(٦)]، وابن عمه الملك المغيث[(٧)] شهاب الدين محمود بن الملك المغيث بن الملك العادل، ونفذت كتبه إلى عميه الملك الكامل بمصر والملك الأشرف بالتعزية بأبيه المعظم، فقعد كل منهما فى عزائه، ووصل إلى الملك الناصر علاء[(٨)] الدين بن شجاع الدين جلدك المظفرى التقوى رسولا من السلطان الملك الكامل ومعه الخلعة، وسنجق السلطنة، وكتب إليه بما طيب قلبه، وأقره على ممالك أبيه فلبس خلعة[٥٩] عمه، وركب بالسنجق الواصل إليه[(٩)].

(١) أستادار :وظيفة من وظائف أرباب السيوف، يتولى صاحبها شئون بيوت السلطان كلها من المطابخ والشراب خاناه والحاشية والغلمان، وله مطلق التصرف فى استدعاء ما يحتاجه كل من فى بيت السلطان من النفقات والكسوة.
صبح الأعشى، ج٤، ص٢٠؛ ج٥، ص٤٥٧.

(٢) الأمير عز الدين أيبك المعظمى : توفى فى أوائل جمادى الأولى من سنة ٦٤٦هـ فى موضع اعتقاله بالقاهرة، ودفن خارج باب النصر فى تربة شمس الدولة ثم نقل إلى تربته فى مدرسته التى أنشأها ظاهر دمشق على الشرف الأعلى مطلة على الميدان الأخضر الكبير.
وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٩٦.

(٣) صَرْخَد : بلد ملاصق لبلاد حَوْران من أعمال دمشق، وهى قلعة حصينة.
معجم البلدان ج٣، ص٣٨٠.

(٤) الملك الصالح عماد الدين أبو الجيش اسماعيل بن العادل، سيف الدين أبو بكر محمد بن أيوب وأعدم فى سلخ ذى القعدة من هذه السنة أى سنة ٦٢٤هـ.
شذرات الذهب، ج٥، ص٢٤١.

(٥) بُصْرَى : بالشام من أعمال دمشق وهى قصبة كورة حوران.
معجم البلدان ج١، ص٦٥٤.

(٦) السَّوَادُ : ناحية قرب البلقاء، سميت بذلك لسواد حجارتها.
معجم البلدان ج٣، ص١٧٤.

(٧) الملك المغيث شهاب الدين محمود بن الملك المغيث عمر بن الملك العادل، توفى سنة ٦٣٠هـ.
الذيل على الروضتين، ص١٦١.

(٨) علاء الدين بن شجاع الدين جلدك المظفرى التقوى : هو الأمير أبو المظفر عتيق تقى الدين عمر صاحب حماة، وكان دينا فاضلا، وعرف بوالى دمياط، ومات فى الثامن والعشرين من شعبان سنة ٦٢٨هـ بالقاهرة، وقد ناهز ثمانين سنة.
وفيات الأعيان، ج١، ص١٦٤ ـ ص١٦٧؛ فوات الوفيات، ج١، ص٢٠٩ ـ ص٢١١ ترجمة (٨٤)؛ شذرات الذهب، ج٥، ص١٢٧.

(٩) وردت هذه الأحداث فى مفرج الكروب، ج٤، ص٢٢٤.

ثم طلب منه الكامل أن يسمح له من بلاده بقلعة الشوبك[(١)] فقط ليجعلها خزانة له ، فلم تقع منه الإجابة إلى ذلك ، فكان امتناعه سببا للوحشة بينهما[(٢)] .

ذكر وفاة الملك العادل صاحب الغرب

هو عبد الله بن المنصور يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ، صاحب المغرب ، كانت ولايته فى سنة عشرين[(٣)] وستمائة بعد خلع عبد الواحد[(٤)] وقتله ، وفى أيام العادل هذا كانت الوقعة[(٥)] بين المسلمين والفرنج بالأندلس على طليطلة ، انهزم فيها المسلمون هزيمة قبيحة ، وهذه الوقعة هى التى هدت دعائم الإسلام بالأندلس ، ثم إن العادل المذكور خلع وحبس ثم خنق فى هذه السنة ، ونهب المصامدة قصره بمراكش واستباحوا حريمه[(٦)] .

ثم ملك بعده يحيى بن محمد الناصر بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن ، ويحيى يومئذ ماخط عذاره ، ولما تمت بيعة يحيى وصل الخبر بأنه قد قدم أشبيلية[(٧)] إدريس بن يعقوب المنصور وهو أخو العادل المذكور ، وتلقب إدريس المذكور بالمأمون ، وجميعهم كانوا يتلقبون بأمير المؤمنين ، وتعقد البيعة لهم بالخلافة ، ولما استقر أمر إدريس المذكور فى أشبيلية ثارت جماعة من أهل مراكش[(٨)] وانضم إليهم العرب ، ووثبوا على يحيى بن محمد الناصر ، وهرب يحيى إلى الجبل[(٩)] ، ثم اتصل

---

(١) قلعة الشوبك : قلعة حصينة فى أطراف الشام بين عمان وأيلة والقلزم قرب الكرك .
انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٣٣٢ .
(٢) انظر : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٢٥ ، وقد ذكرها ابن واصل ضمن أحداث سنة ٦٢٥هـ .
(٣) ذكر العينى أن عبد الله بن المنصور يعقوب هذا كانت ولايته بالمغرب سنة ٦٢٠هـ ، بعد خلع عبد الواحد وقتله ، بينما ذكر ابن العماد الحنبلى أن عبد الواحد هذا توفى سنة ٦٢١هـ .
انظر : شذارت الذهب ، ج٥ ، ص٩٥ .
(٤) عبد الواحد : هو أبو محمد عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن بن على ، توفى سنة ٦٢١هـ .
انظر : شذارت الذهب ، ج٥ ، ص٩٥ .
(٥) الوقعة بين المسلمين والفرنج بالأندلس فى أيام العادل هذا كانت سنة ٥٨٦هـ ، الكامل ، ج١٢ ، ص١١٣ - ص١١٦ ؛ وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص٤ - ص٩ .
(٦) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٦ ، ترجمة (٣٥٩) .
(٧) أشبِيلية : مدينة كبيرة عظيمة بالأندلس تسمى حصن أيضا ، وهى غربى قرطبة .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٢٧٥ .
(٨) مراكش : مدينة بالمغرب ، وهى فى البر الأعظم بينها وبين البحر عشرة أيام فى وسط بلاد البربر .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٤٧٨ .
(٩) هو جبل دَرَنْ . وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٦ ، وهو جبل من جبال البربر بالمغرب .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥٧٠ .

بعرب المعقل فغدروا به وقتلوه ، وخطب للمأمون إدريس فى مراكش ، واستقر أمره فى الخلافة بالبرين بر الأندلس وبر العدوة ، ثم خرج على إدريس المذكور بشرق الأندلس المتوكل بن هود ، فاستولى على الأندلس ، ففارق إدريس الأندلس وسار من أشبيلية ، وعبر البحر ووصل إلى مراكش ، وخرجت الأندلس حينئذ من ملك بنى عبد المؤمن . ولما استقر إدريس فى مراكش تتبع الخارجين على من تقدمه من الخلفاء فقتلهم عن آخرهم ، وسفك دماءهم ودماء كثيرة حتى سموه لذلك الحجاج ، حجاج المغرب . وكان إدريس هذا فصيحا عالما بالأصول والفروع ، ناظما ناثرا ، أمر بإسقاط اسم مهديهم ابن تومرت من الخطبة على المنابر ، وعمل فى ذلك[٦٠] رسالة طويلة أفصح فيها بتكذيبهم وتكذيب مهديهم المذكور وضلاله ، ثم ثار على إدريس المذكور أخوه بسبتة[١] ، فسار إدريس من مراكش وحصره بمدينة سبتة ، ثم بلغ إدريس وهو محاصر سبتة أن بعض أولاد محمد الناصر بن يعقوب المنصور قد دخل إلى مراكش ، فرحل إدريس عن سبتة وسار إلى مراكش ، فمات فى الطريق بين سبتة ومراكش[٢] .

ولما مات إدريس ملك بعده ولده عبد الواحد بن إدريس ، وتلقب بالرشيد ، ثم توفى الرشيد عبد الواحد بن إدريس بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن غريقا فى صهريج ببستان له بحضرة مراكش فى سنة أربعين وستمائة ، وكان الرشيد المذكور حسن السياسة ، وكان أعاد ما أبطل والده إدريس من اسم مهديهم من الخطبة كما ذكرنا ، وقمع العرب ، إلا أنه تخلى بذاته بلذاته لما استقر أمره ، ولم يخطب للرشيد بإفريقية ولا بالمغرب الأوسط[٣] .

ولما مات الرشيد ملك بعده أخوه على بن إدريس ، وتلقب بالمعتضد أمير المؤمنين وكان أسود اللون ، وكان مدحوضا فى حياة والده ، وسجنه فى بعض الأوقات ، وقدم عليه أخاه الصغير عبد الواحد المذكور ، واستمر المعتضد المذكور حتى قتل وهو محاصر قلعة

---

(١) سَبْتَةَ : هى بلدة مشهورة من قواعد بلاد المغرب ، ومرساها أجود مرسى على البحر ، وهى على بر البربر تقابل جزيرة الأندلس ، وهى مدينة حصينة ضاربة فى البحر .

انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٣٠ .

(٢) وردت هذه الأحداث فى وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٦ ـ ص١٧ .

(٣) وردت هذه الأحداث فى وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص ١٧ .

بالقرب من تلمسان[١] فى صفر سنة ست وأربعين وستمائة ، ثم ملك بعده أبو حفص عمر بن إبراهيم بن يوسف فى شهر ربيع الآخر من سنة ست وأربعين وستمائة ، وتلقب بالمرتضى[٢] .

وفى الحادى والعشرين من المحرم من سنة خمس وستين وستمائة دخل الواثق أبو العلاء إدريس المعروف بأبى دبوس مراكش ، وهرب المرتضى إلى آزمور من نواحى مراكش ، وقبض عليه عامله بها ، وبعثه إلى الواثق ، فأمر الواثق بقتله ، فقتل فى العشر الأخير من ربيع الآخر من سنة خمس وستين وستمائة بموضع يقال له : كتامة . بُعده عن مراكش ثلاثة أيام ، وأقام الواثق أبو إدريس ثلاث سنين ، وقتل[٦١] فى الحروب التى كانت بينه وبين بنى مَرين ملوك تلمسان ، وانقضت دولة بنى عبد المؤمن . وكان قتل الواثق أبى دبوس المذكور فى المحرم سنة ثمان وستين وستمائة بموضع بينه وبين مراكش مسيرة ثلاثة أيام فى جهتها الشمالية ، واستولى بنو[٣] مرين على ملكهم . وسنذكر بقية أمورهم فى مواضعها إن شاء الله تعالى[٤] .

ذكر هلاك جنكزخان

والكلام فيه على أنواع :

(الأول) فى ترجمته : هو السلطان الكبير عند التتار ، ولا يعرف أبوه ، وهو مجهول النسب ، وقد كانت أمه تزعم أنها حملت به من شعاع الشمس ، وكان اسمه أولا تُمرجى ، ثم لما عظم سمى نفسه جِنْكِزخَان ، بكسر الجيم الممزوجة بالزاى ، وسكون النون وكسر الكاف الصماء ، وفتح الخاء المعجمة ، وبعد الألف نون . وأصل الاسم جنكز فقط ، ولفظه خان معناها السلطان بلغة التتار . وجنكزخان هو والد الخانات الذين أتوا بعده ، وتحكموا فى البلاد الشمالية والشرقية بأسرها ، وكل من يتولى من ذريته يسمى خانا ، وعادتهم أنهم لايجعلون الخان إلا من كان من ذرية جنكيزخان ، وإلى هذا الزمان الأمر على هذا ، وذريته لم تنقطع إلى الآن ، وقد كان ظهور جنكيز خان فى سنة تسع

(١) تلمْسان : هما مدينتان متجاورتان مسورتان بينهما رمية حجر ، إحداهما قديمة ، والأخرى حديثة .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٨٧١ .
(٢) ورد هذا الخبر فى وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص ١٧ ـ ص١٨ .
(٣) «بنى» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .
(٤) وردت هذه الأحداث فى وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص ١٨ .

وتسعين وخمسمائة كما ذكرناه ، وكان في ابتداء أمره [خصيصا عند][1] ملك يسمى أُوَيْك[2] خان ، بضم الهمزة وفتح الواو وسكون الياء آخر الحروف وبعدها كاف ، وكان خانا في مملكة الصين من جملة الخانات ، وفي قديم الزمان كانت مملكة الصين منقسمة ستة أجزاء ، كل جزء مسيرة شهر ، يتولى أمر كل جزء خان بعد خان يعني سلطان بعد سلطان ، ومن عادتهم الإقامة بطمغاج[3] ، وهي واسطة الصين ونواحيها ، طول صيفهم متنقلون[4] من مصيف إلى مصيف ، ومن ريف إلى ريف ، فإذا أقبل الشتاء يشتون في موضع يسمى ماكنك مما يلي قَشْمير ، وهي مشاتي ساحلية طيبة الأغوار والأنجاد ، ولما كان جنكيزخان[٦٢] شابا ، وكان شابا حسنا ، كان عند أويك خان خصيصا ، وكان هذا الملك قد قربه وأدناه ، فحسده عظماء الملك ، ووشوا به إليه ، فأبعده عنه وطرده ولم يقتله ، إذ لم يجد طريقا[في ذنب][5] إلى قتله ، وجنكيز خان في ذلك إذ غضب أويك خان على مملوكين صغيرين من مماليكه ، فخافا منه وهربا ولجآ إلى جنكيزخان ، فأكرمهما وأحسن إليهما ، وقالا له : إن الملك قصده أن يقتلك ، وحرضه خواصه على ذلك ، فاحذر منه . فأخذ حذره وتحيز إلى موضع ، وأتبعه طوائف من التتار ، ثم صار كل من ينفر من أويك خان يأتي إليه ويلتجئ به ، وصار كثير من أصحابه إليه[6] ، وكان جنكيزخان يكرمهم ويعطيهم ، حتى قويت شوكته وكثر جنوده ، ثم حارب بعد ذلك مع أويك خان ، فظفر به وقتله واستحوذ على مملكته ، وانضاف إليه عَدَدهُ وعُدَدُه ، وعظم أمره وبعد صيته ، وخضعت له قبائل الترك ببلاد طمغاج ، حتى آل أمره إلى أنه كان يركب في نحو ثمانمائة ألف مقاتل ، وأكبر القبائل قبيلته التي هو من أصلهم ، يقال لها : قيات[7] ثم أقرب القبائل إليه بعدهم قبيلتان كبيرتان كثيرتا العدد وهما : أويرات[8] وقيقورات[9] .

---

(١) مابين حاصرتين إضافة من البداية والنهاية لاستقامة المعنى ، ج١٣ ، ص١٢٧ .

(٢) «أزبك خان» في البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٧ .

(٣) «طوغاج» كذا في الأصل ، والمثبت من سيرة منكبرتي ، ص٣٩ ، حاشية(١) .
وطمغاج : كانت عاصمة امبراطورية كين تسمى بن كنج ، وليس طمغاج ويحتمل أن تكون كلمة طمغاج وطفغاغ تحريف لكلمة من اللهجة التركية الشرقية «تبغاج» ومعناها المعظم أو المشهور .
انظر : سيرة منكبرتي ، ص٣٩ ، حاشية(١) .

(٤)« متنقلين» كذا في الأصل ، والمثبت هو الصحيح لغة .

(٥) مابين حاصرتين إضافة من البداية والنهاية لاستقامة المعنى ، ج١٣ ، ص١٢٧ .

(٦) يقصد أصحاب أزبك خان . البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٧ .

(٧) «قيان» في البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٧ .

(٨) «أزان وقنقوران» في البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٧

(٩) وردت هذه الأحداث في البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٧ .

وقال أبو الفتح المنشئ ، محمد بن أحمد النسائى : وكان فى جملة الخانات الستة شخص يسمى دوشى خان ، وكان متزوجا بعمة جنكيزخان ، وهم سكان البرارى ومنشأهم موضع يسمى أرغون[١] ، وهم مشهورون بين التتار بالشر والغدر ، واتفق أن دوشى خان مات وقد حضر جنكيز خان[٢] معزيا لعمته ، وزائرا لها ، وكان متاخم أعمال دوشى خان خانان أحدهما يسمى كشلوخان ، والآخر يسمى دلان خان ، فأرسلت عمة جنكيز خان إليهما تنعى زوجها دوشى خان ، وأنه مات ولم يخلف ولدا ، وأن ابن أخيها[٣] جنكيزخان يقوم مقامه ويحذو حذوه فى معاضدتهما واتباع إرادتهما ، فاستصوبا رأيها فيما رأت ، وأشارا عليها بتقليد الأمر إلى جنكيزخان ، فعند ذلك قام جنكيزخان مقام المتوفى ، وكل ذلك كان وخانهم الكبير الذى يرجع إليه فى الأمور كان غائبا فى[٦٣] مشتاه واسمه ألطون خان ، فلما عاد ألطون خان من مشتاه إلى مدينته طمغاج سأل[٤] حجابه ونوابه عن القضايا التى حدثت فى زمن غيبته ، فأخبروه بخبر جنكيزخان وقيامه مقام زوج عمته دوشى خان ، بموافقة الخانين المذكورين ، فغضب من ذلك ألطون خان حيث تولى جنكيز خان موضع دوشى خان بغير أمره ، وبغير مراجعته[٥] ، وغضب على الخانين المذكورين أيضا ، ثم فى عقب ذلك جاءت مقدمة جنكيزخان إلى ألطون خان ، فازداد غضبا ، وأمر بقطع أذناب الخيل التى أرسلها جنكيزخان ، وردها إليه ، مع السب والشتيمة ، ولمن أتى بها ولمرسلها وللخانين المذكورين ، فعند ذلك اتفق جنكيزخان مع الخانين المذكورين ، وخرجوا على ألطون خان ، ونزعوا أيديهم عن طاعته[٦] .

ولما بلغ ذلك ألطون خان أرسل إليهم فى استردادهم إلى الطاعة ولاطفهم ، فلم يزدهم ذلك إلا نفورا ، فلما أيس منهم جمع عسكره وسار إليهم ، فالتقى هو وإياهم ، فكسروه أقبح كسرة ، وقتلوا من عسكره مقتلة عظيمة ، وهرب ألطون خان بنفسه ، وببعض

---

(١) أرغون : مكان يقع بين الجبال الواقعة فى جنوب بحيرة بيكال .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٣٩ ، حاشية(٥) .
(٢)«جنكاز خان» كذا فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه من سيرة منكبرتى ، ص٤٠ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٧ .
(٣)«أخيه» كذا فى الأصل ، والتصحيح من سيرة منكبرتى ، ص٤٠ .
(٤)«سأل عن حجابه» كذا فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه لاستقامة المعنى .
(٥)«مراجعته إليه» كذا فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه لاستقامة المعنى .
(٦) وردت هذه الأحداث فى سيرة منكبرتى ، ص ٣٨ ـ ص٤٠ .

خواصه إلى ماوراء كنك[١] وأخلى لهم البلاد ، فتمكنوا فيها ، وتملكوها ، وانضم إليهم من الترك ومن أوباشها كل طامع فى مال وكل ذى فساد ، فأخذ أمر ألطون خان فى إدبار وضعف ، فأرسل إليهم بأنه يقنع بما تحت يده من الملك الحقير ، فأجابوه إلى ما سأل ، واستمر الأمر بينهم إلى أن مات كشلوخان ، وقام ابنه مقامه وهو صغير ، فاستضعف جنكيزخان جانبه لصغر سنه ، وأخل بالقواعد المقررة بينه وبين أبيه[٢] .

فلما رأى ذلك فارق[كشلوخان][٣] جنكيزخان وذهب إلى حدود قيالق[٤] وألمالق[٥] ، والتجأ بصاحبها ممدود خان بن أرسلان ، واتفق وصول كوْرخان[٦] ملك الخطا إليه هاربا من وقعة جرت بينه وبين خوارزم شاه محمد بن تكش ، وهى آخر الوقائع بينهما ، ثم أشار ممدودخان عَلَى[٧] كشلوخان أن يقصد كاشغر[٨] وبلاساقون[٩] فسار إليها واستولى عليها[١٠] .

ولما بلغ ذلك جنكيزخان جرد إليه ابنه دوشى خان فى عشرين ألف فارس أو أكثر ، وكان السلطان خوارزم شاه أيضا قد قصده من جهته فى ستين ألف فارس ، ولكنهم لما وصلوا إلى نهر أرغز وجدوه جامدا ، فلم يمكنهم[٦٤] العبور ، فأقاموا هناك حتى ذاب

(١) كنك : اسم واد فى بلاد الهند .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣١٢ .
(٢) وردت هذه الأحداث فى سيرة منكبرتى ، ص٤١ - ٤٢ .
(٣) مابين حاصرتين إضافة من سيرة منكبرتى لاستقامة المعنى ، ص ٤٢ .
(٤) قيالق : إحدى مدن إقليم التركستان ، وكانت من المدن التى تضمها دولة الخطا .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٤٣ ، حاشية(١) .
(٥) ألمالق : ذكرت فى المراجع الصينية ، إحدى مدن تركستان ، وكانت فى وقت من الأوقات من أمهات مدن دولة الخطا ، وترجع أهميتها إلى أنها كانت تقع على الطريق بين منغوليا وفارس .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٤٣ ، حاشية(٢) .
(٦) كورخان : لقب اتخذه ملوك دولة الخطا لأنفسهم ، ومعناه خان خانان أى ملك الملوك أو سلطان السلاطين .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٤٣ ، حاشية(٤) .
(٧) «على بن كشلوخان» كذا فى الأصل ، وما أثبتناه من سيرة منكبرتى ، ص٤٣ .
(٨) كاشغر : هى مدينة وقرى ورساتيق يسافر إليها من سمرقند ، وهى فى وسط بلاد الترك وأهلها مسلمون .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٢٣٧ .
(٩) بلا ساقون : وتكتب بلاساغون أيضا ، وهى بلد عظيم فى ثغور الترك وراء نهر سيحون قريب من كاشغر . وهى من أمهات مدن إقليم التركستان وقد اتخذها بى لوتاشى مؤسس دولة الخطا حاضرة لملكه فترة من الزمن وذلك قبل أن ينتقل إلى كاشغر .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٧٠٨ ؛ سيرة منكبرتى ، ص٤٢ ، حاشية(١) .
(١٠) وردت هذه الأحداث فى سيرة منكبرتى ، ص٤٣ .

الجليد ، فعبروا وأخذوا فى السير ، وكان دوشى خان قد ظفر بابن[١] كشلوخان الذى استولى على كاشغر وغيرها ، وقتله وقتل خلقا كثيرا من الخطا ، وعاد ولقى فى طريقه طلائع خوارزم شاه ، ولما بلغ دوشى خان ذلك علم أنه لاطاقة له بمقاتلة السلطان خوارزم شاه ، فأرسل إليه يعتذر ويقول له : إنى قد كفيت ما أنت اهتممت به وقتلت عدو السلطان ، وهذا رأسه معى وغنائمهم فى صحبتى ، فإن أراد السلطان أرسلها إليه ، فلم يلتفت السلطان إلى كلامه ، وقال لرسله : إن الله تعالى أمرنى بقتال المشركين كافة ولافرق عندى بينك وبين ابن[٢] كشلوخان لاشتراككم فى الكفر والشرك ، وتقدم السلطان للقائهم[٣] ، فآخر الأمر تلاقيا ، وحمل دوشى خان بن جنكيزخان على ميسرة السلطان فكسرها ، وكادت الهزيمة تستمر بالسلطان ، لولا تحمل ميمنته على ميسرة دوشى خان ، وتفرق الفريقان ، ولم يعلم الغالب من المغلوب ، ولكنهم على ميعاد الحرب من غد ، وأشعل[٤] عسكر دوشى خان فى تلك الليلة نيرانا كثيرة ، مظهرين بأنهم ثابتون ، وعلى نية الحرب بايتون ، ثم ركبوا فى أثناء الليل ، فقطعوا مسافة بعيدة مديدة فى تلك الليلة ، ولما علم السلطان بذلك عاد إلى بلاده ونزل بسمرقند[٥] . ثم بعد ذلك لم تزل الحروب قائمة بين عسكر جنكيزخان وبين عسكر السلطان خوارزم شاه ، ثم من بعده بينهم وبين عسكر جلال الدين بن خوارزم شاه على ماذكرناه فى السنين المتقدمة ، وإلى الآن الحروب قائمة والفتن منتشرة .

(الثانى) فى سيرة جنكيزخان وأموره

ومن سيرته أنه لما عظم شأنه وملك تلك البلاد وضع للتتار الياساق[٦] ، وهى التى يتحاكمون إليها ويحكمون بها ولايخرجون عنها ، وأكثرها تخالف شرائع الله عز وجل

---

(١)« قد ظفر بكشلوخان» كذا فى سيرة منكبرتى ، ص٤٦ .
(٢)« وبين كورخان وكشلوخان» كذا فى سيرة منكبرتى ، ص٤٨ .
(٣)«للتقاهم» كذا فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه لاستقامة المعنى .
(٤)«وأشعلت» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .
(٥) وردت هذه الأحداث فى سيرة منكبرتى ، ص٤٦ ـ ص٤٨ ، فى أحداث عام ٦١٢هـ .
(٦) الياساق : وتسمى أيضا الأسة أو الياسا أو اليسق وهى مجموعة الشرائع المغولية التى وضعها جنكيزخان لتنظيم نواحى الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغير ذلك بين المغول واشتهرت الياسا بقسوة أحكامها ومنها : قتل الزانى ، وقتل التاجر الذى يخسر فى بضاعته بعد المرة الثالثة ، وقتل من يأوى أسرى الحرب دون إذن ومن يقصر فى معاونة زميله أثناء الحرب ، ونص أيضا على احترام الفقراء والعلماء ورجال الدين على اختلاف أديانهم ، وساوى بين جميع أفراد الشعب ، وحرم عيهم منح الألقاب ، كما نظم الجيش والبريد .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص١٢ ، حاشية(١) ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٣٧ ، حاشية (١) .

وسنة نبيه(ﷺ) وإنما هو شئ اقترحه من عند نفسه ، وتبعوه في ذلك ، وكان يكتب الياساق[٦٥] في مجلدين بخط عظيم ، ويحمل على بعير عندهم[1] ، وقد ذكر بعضهم أنه كان يصعد جبلا ثم ينزل ثم يصعد ثم ينزل حتى يَعْيَى ، فيقع مغشيا عليه ، ويأمر من عنده أن يكتب مايلقى على لسانه حينئذ ، فإن كان هذا هكذا ، فالظاهر أن الشيطان كان ينطق على لسانه بما فيها ، وذكر علاء[2] الدين الجويني الوزير ببغداد ـ وقد ذكر سيرته في مجلد واحد ـ أن بعض عبادهم كان يصعد الجبال في البرد الشديد للعبادة ، فسمع قائلا يقول له : إنا قد ملكنا جنكيزخان وذريته وجه الأرض . وقال الجويني : فمشايخ المغول يصدقون هذا ، ويأخذون به مسلما . وذكر نتفامن الياساق ، من ذلك : أن من زنى يقتل محصنا كان أو غير محصن ، وكذلك من لاط قتل ، ومن تعمد الكذب قتل ، ومن سحر قتل ، ومن تجسس قتل ، ومن دخل بين اثنين يختصمان فأعان أحدهما قتل ، ومن بال في الماء الواقف قتل ، ومن انغمس فيه قتل ، ومن وجدها رباً ولم يَرُدُّه قتل ، ومن أطعم أسيرا أوسقاه أو كساه بغير إذن أهله قتل ، ومن وجد رمى إلى أحد شيئا من المأكول قتل ، بل يناوله من يده إلى يده ، ومن أطعم أحدا شيئا فليأكل منه أولا ولو كان المُطعِمْ أمير الأسير ، ومن أكل ولم يطعم من عنده قتل ، ومن ذبح حيوانا ذُبح مثله ، بل يشق جوفه ويتناول[3] قلبه بيده ويستخرجه من جوفه أولا ، وفي هذا ما يخالف شرائع الله تعالى التي شرع لأنبيائه ، فمن ترك الشرع المحكم المنزل على محمد(ﷺ) وتحاكم إلى غير ذلك من الشرائع المنسوخه كفر ، فكيف بمن تحاكم إلى الياساق وقدمها عليها؟! فمن فعل ذلك كفر بإجماع المسلمين . قال الجويني : ومن شأنهم أنهم يخاطبون الملك باسمه ، ومن مر بقوم يأكلون فله أن يأكل معهم من غير استئذان ولايتخطى مواقد النار ، ولاطبق الطعام ، ولا أسكفة[4] الخركاة ولايغسلون ثيابهم حتى يبدو وسخها ، ولايتعرضون لمال ميت ، ونحو ذلك . قال الجويني : وكان جنكيزخان يصطاد من السنة

(١)«معظم عندهم» كذا في الأصل ، والصحيح ما أثبتناه من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٧ ، لتوضيح المعنى .

(٢) علاء الدين الجويني الوزير ببغداد : هو علاء الدين عطا مالك الجويني بن الصاحب بهاء الدين محمد بن محمد الخراساني ، صاحب كتاب جهانكشا ، توفي سنة ٦٨٣هـ ، وهو من جوين إحدى مقاطعات فارس .
انظر : سيرة منكبرتي ، ص١٨٠ ، حاشية(٤) ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٣٨٢ .

(٣)«ويتناوك» كذا في الأصل ، وما أثبتناه من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٨ لتوضيح المعنى .

(٤) أُسْكُفَّة الخركاة : الخركاه كلمة فارسية معناها خيمة ، والأسكفة خشبة الباب التي يوطأ عليها ، فالأسكفة هي عتبة الباب .
انظر : سيرة منكبرتي ، ص١٩٨ ، حاشية(٥) ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٣٢٩ ، حاشية(٢) ؛ القاموس المحيط ؛ المعجم الوجيز ـ مادة «سكف» .

ثلاثة أشهر والباقى للحرب والحكم ، وكان يضرب الحلقة يكون ما بين طرفيها ثلاثة أشهر ، ثم تتضايق فيجتمع فيها من أنواع[٦٦] الحيوانات شىء كثير لايحد كثرة[١] .

وذكر الجوينى طرفا كبيرا من أخبار جنكيزخان ومن مكارمه التى كان يفعلها بسجيته ، وما أداه إليه عقله ، وإن كان مشركا بالله تعالى ، يعبد معه غيره ، وقد قتل من الخلائق ما لايعلم عدده إلا الله الذى خلقهم ، ولكن كانت البُدَاءه من السلطان خوارزم شاه ، حيث قتل تُجّاره ، وأخذ أموالهم على ماذكرناه ، ومما ذكره عن كرمه أنه قدم له بعض الفلاحين وهو فى الصيد ثلاث بطيخات ، فلم يكن عنده أحد من الخازندارية[٢] ، فقال لزوجته الخاتون[٣] : أعطيه هذين القرطين اللذين فى أذنيك ، وكانت فيهما جوهرتان نفيستان جدا ، فشحت المرأة بهما ، وقالت : أنظره إلى غد . فقال : إنه يبيت هذه الليلة مقلقل الخاطر ، وربما لايُحَصِّل له[شىء][٤]من بعد هذا ، وإن هذين لايمكن أحد[٥] إذا اشتراهما إلاجاء بهما إليك ، فانتزعتهما فدفعتهما إلى ذلك الفلاح ، فطار عقله بهما ، وذهب بهما فباعهما لبعض التجار بألف دينار ، ولم يعرف قيمتهما ، فحملهما التاجر إلى الملك ، فردهما على زوجته ، ثم أنشد الجوينى عند ذلك وقال :

ومن قال إن البحر والقطرَ أشبها ... نداهُ فقد أثنى على البحر والقَطْرِ

قال : واجتاز يوما فى سوق فرأى عند بقال عُنّابا فأعجبه لونه ، ومالت نفسه إليه ، فأمر الحاجب أن يشترى منه ببالس[٦] فاشترى الحاجب منه بربع بالس ، فلما وضعه بين يديه أعجبه ، وقال : هذا كله ببالس . فقال : وبقى منه هذا . فأشار إلى مابقى معه[٧] من

(١) وردت هذه الأحداث باختصار فى سيرة منكبرتى ، ص١٢ ، حاشية(١) ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٣٦ -٣٧ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٧ - ١٢٨ .

(٢) الخازندارية : مفردها «الخازن» أو «الخازندار» وهى وظيفة يشرف فيها الخازن على ديوان لأموال الدولة يساعده موظفون مختصون بتسجيل الوارد والمنصرف من الأموال .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٥٨ ، حاشية(١) .

(٣) الخاتون : هى السيدة عريقة الأصل ، وجمعها «خاتونات» .
انظر : محمد التونجى ، المعجم الذهبى ، ج١ ، ص٢٣٠ ، بيروت ١٩٨٠م .

(٤) مابين حاصرتين إضافة من البداية والنهاية ، لاستقامة المعنى ، ج١٣ ، ص ١٢٩ .

(٥)«أحدا» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .

(٦) بالس : وهو البلس ، وربما يكون المقصود به الفلْس وهى أقل وحدات النقود ، وهى التى تصنع من نحاس ، وصارت قيمة الفلس إذ ذاك ١٦/١ من الدرهم الفضة . نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٣١ ، حاشية(١) .

(٧)«بعده» كذا فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه لاستقامة المعنى .

المال . فغضب وقال : من يجد من يشترى منه مثلى؟ فتمموا له عشرة بوالس . قال : وأهدى له رجل جام زجاج من معمول حلب ، فاستحسنه جنكيزخان ، فوهن أمره عنده بعض خواصه ، وقال : ياخواند[١] هذا زجاج لاقيمة له . فقال : أليس قد حمله من بلاد بعيدة حتى وصل إلينا سالما؟ أعطوه مائتى بالس . قال : وقيل له : إن فى هذا المكان كنزاً عظيماً ، فإن[٢] فتحته أخذت منه مالا كثيرا . فقال : الذى فى أيدينا يكفينا ، ودع هذا يفتحه الناس ويأكلونه وهم أحق به منا ، ولم يتعرض له . قال : واشتهر عن رجل فى بلاده أنه يقول : أنا أعرف موضع كنز[٣] [٦٧] ولا أقول له إلا للخان ، وألح عليه الأمراء أن يعلمهم ، فلم يفعل ، فذكروا ذلك للخان ، فأحضره على خيل أولاق - يعنى البريد - سريعا ، فلما حضر إلى ما بين يديه ، سأله عن الكنز ، فقال : إنما كنت أقول ذلك حيلة لأرى وجهك ، فلما رأى تغير كلامه غضب ، وقال له : قد حصل لك ما أملت . فارجع إلى موضعك . وأمر برده سالما . ولم يعطه شيئا . قال الجوينى : وهذا غريب . قال : وأهدى له إنسان رمانه ، فكسرها وفرق حَبَّها على الحاضرين ، ثم أمر له بعدد حبها بوالس . ثم أنشد :

فلذاك يزدحم الوفود ببابه ... مثل ازدحام الحب فى الرمان

قال : وقدم عليه رجل كافر ، يقول : رأيت فى النوم جنكيزخان وهو يقول لى : اقتل المسلمين . فقال له : هذا كذب . فأمر بقتله . قال : وأمر بقتل ثلاثة قد قضت الياساق بقتلهم ، فإذا امرأة تبكى وتلطم ، فقال : ماهذه؟ أحضروها . فقالت : هذا ابنى ، وهذا أخى ، وهذا زوجى . فقال : اختارى واحدا منهم حتى أطلقه لك . فقالت : الزوج يجئ مثله ، والابن كذلك ، والأخ لا عوض له . فاستحسن ذلك منها ، وأطلق الثلاثة لها . قال : وكان يحب المصارعين وأهل الشطارة ، وقد اجتمع عنده منهم جماعة ، وذكر غير ذلك من أموره[٤] .

---

(١) خواند : وتكتب أيضا خوند ، وهو لفظ تركى أو فارسى وأصله خُداوند ومعناه السيد أو الأمير ، ويخاطب به الذكور والإناث على السواء ، والخوند فى اصطلاح عشائر لبنان من كان فى الرتبة دون الأمير ، وفوق الشيخ أو المقدم . انظر : محيط المحيط ، مادة «خوى» .

(٢) «فلين» كذا فى الأصل وما أثبتناه هو الصحيح لاستقامة المعنى ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٩ .

(٣) «كذا» كذا فى الأصل وما أثبتناه هو الصحيح لاستقامة المعنى ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٩ .

(٤) وردت هذه الأحداث فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٨ - ص١٣٠ .

(الثالث) فى هلاكه : هلك جنكيزخان فى هذه السنة ، ولما توفى جعلوه فى تابوت من حديد وربطوه بسلاسل وعلقوه بين جبلين هناك ، ولما احتضر أوصى أولاده بالاتفاق وعدم الافتراق ، وضرب لهم فى ذلك الأمثال ، وأحضر بين يديه نشابا ، فأخذ سهما فأعطاه الواحد منهم فكسره ، وكذلك الآخر فالآخر ، ثم أحضر حزمة أخرى ودفعها مجموعة إليهم ، فلم يطيقوا كسرها ، فقال : هذا مثلكم إذا اجتمعتم واتفقتم ، وذاك مثلكم إذا انفردتم واختلفتم . قال الجوينى : وكان له أولاد ذكور وإناث ، ومنهم خمسة هم عظماء أولاده وهم : توشى وهو أكبرهم ، وهو الذى يقال له : دوشى خان . وهزنوك ، وباظو ، وبركة ، وبركجار ، وهم الذين ملكوا بلاد ما[٦٨] وراء النهر وبلاد خراسان ، وغير ذلك إلى البلاد الفراتية ، وبلاد الدشت[١] وغيرها ، واستولوا على البلاد ، هم ثم أولادهم ، وأولاد أولادهم ، على مانذكره مفصلا ، وإلى الآن لم تنقطع ذريتهم[٢] .

ذكر بقية الحوادث فى هذه السنة

منها أنه ولى قضاء القضاة ببغداد نجم الدين أبو المعالى عبد الرحمن الواسطى ، وخلع عليه كما هى عادة الحكام ، وكان يوما مشهودا[٣] .

ومنها أنه كان غلاء شديد ببلاد الجزيرة ، وقلة اللحم جدا حتى حكى ابن الأثير[٤] : أنه لم يذبح بمدينة الموصل فى بعض الأيام سوى خروف واحد فى زمن الربيع .

ومنها أنه سقط فى عاشر آذار ثلج كثير بالجزيرة والعراق ، وهذا شئ غريب[٥] لم يعهد مثله ، والعجب كل العجب وقوع الثلج فى العراق مع شدة حره ، والله على كل شئ قدير[٦] .

---

(١) بلاد الدشت : الدشت قرية من قرى أصفهان والدشت أيضاً بليدة فى وسط الجبال بين أربيل وتبريز . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥٧٥ - ص٥٧٦ .

(٢) ورد هذا الخبر بتصرف فى سيرة منكبرتى ، ص١٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٧ - ص١٣٠ .

(٣) انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٦ .

(٤) الكامل ، ج١٢ ، ص٤٧٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٦ .

(٥) «واحد» كذا فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه من الكامل ، ج١٢ ، ص٤٧٣ لاستقامة المعنى .

(٦) ورد هذا الخبر فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٧٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٦ .

ومنها أن الأتابك طغريل الخادم[١] انتزع الشغر[٢] وبكاس[٣] من الملك الصالح أحمد[٤] بن الملك الظاهر وعوضه عنها بعينتاب[٥] والراوندان[٦]، [٧].

ومنها أن الملك الكامل صاحب مصر أمر بهدم تنيس[٨]، وسير إليها النقابين والحجارين، فهدمت وأخليت من يومئذ، وكانت من البلاد الجليلة بديار مصر كدمياط واسكندرية، وكان ينسج فيها ثياب من الحرير وغيره يجُلب إلى البلاد[٩].

ومنها أنه كانت الحرب بين صاحب آمد وسلطان الروم، وذلك أن صاحب آمد الملك المسعود[١٠] بن الملك الصالح محمود بن محمد الأرتقى كان قد وافق الملك المعظم معاضداً له، ولصاحب إربل[١١]، وجلال الدين خوارزم شاه، وكان السلطان

---

(١) الأتابك طغريل الخادم: هو طغريك شهاب الدين الخادم، أتابك صاحب حلب الملك العزيز، ومدبر دولته، كان صالحا خيرا متعبدا، كثير المعروف ذا رأى وعقل وسياسة وعدل، حسن السيرة، محمود الطريقة، وكان خادما أرمنى الجنس أبيض، توفى ليلة الاثنين ١١من محرم سنة ٦٣١هـ بحلب، ودفن بمدرسته الحنفية خارج باب الأربعين.
انظر: وفيات الأعيان، ج٧، ص١٠٠؛ شذرات الذهب، ج٥، ص١٤٥.

(٢) الشُغر: هى قلعة حصينة مقابلها أخرى يقال لها بكاس وعلى رأس جبلين بينهما واد كالخندق، وهما قرب أنطاكية.
انظر: معجم البلدان، ج٣، ص٣٠٣.

(٣) بَكَاسُ: قلعة من نواحى حلب على شاطئ العاصى.
انظر: معجم البلدان، ج١، ص٧٠٤.

(٤) الملك الصالح صلاح الدين أحمد بن الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب عين تاب، ولد فى صفر سنة ستمائة بحلب، وتوفى بعين تاب فى شعبان سنة ٦٥١هـ.
انظر: وفيات الأعيان، ج٤، ص١٠؛ شذرات الذهب، ج٥، ص٢٥٣.

(٥) عَيْنْتاب: قلعة حصينة ورستاق بين حلب وأنطاكية، وكانت تعرف بدُلُوك، وهى من أعمال حلب.
انظر: معجم البلدان، ج٣، ص٧٥٩.

(٦) الرَاوَنْدان: قلعة حصينة وكورة طيبة من نواحى حلب.
انظر: معجم البلدان، ج٢، ص٧٤١.

(٧) ورد هذا الخبر فى مفرج الكروب، ج٤، ص٢٠٧؛ المختصر، ج٣، ص١٣٨.

(٨) تِنِّيس: جزيرة فى بحر مصر، قريبة من البر، ما بين الفَرَما ودمياط، وهى أيضا بلدة تلك الجزيرة، وكانت ثغر من الثغور المصرية، وموقع مكانها الآن شمال شرقى بحيرة المنزلة قرب بورسعيد.
انظر: معجم البلدان، ج١، ص٨٨٢؛ نهاية الأرب، ج٢٩، ص١٣٩.

(٩) ورد هذا الخبر فى نهاية الأرب، ج٢٩، ص١٣٩ - ص١٤٠.

(١٠) الملك المسعود بن الملك الصالح محمود بن محمد الأرتقى: هو ابن الملك الصالح ناصر الدين محمود بن نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن سقمان بن أرتق، صاحب آمد قام بالملك بعد وفاة أبيه، الذى توفى عام ٦١٩هـ.
انظر: الكامل، ج١٢، ص٤١٢؛ مفرج الكروب، ج٤، ص١٠٧؛ المختصر، ج٣، ص١٣٠.

(١١) صاحب إربل هو مظفر الدين بن زين الدين.
انظر: مفرج الكروب، ج٤، ص٢٠٢.

علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان السلجوقى خائفا من جلال الدين ، فاتفق مع الملك الأشرف لذلك ، فلما كانت هذه السنة أرسل إليه الأشرف يطلب منه أن يقصد بلاد آمد ، فسار علاء الدين إلى ملطية(١) وهى له ، وجهز منها العساكر إلى بلاد آمد ، ففتحوا حصن(٢) منصور[٦٩] وغيره كما ذكرناه متقدما ، فلما رأى صاحب آمد ذلك راسل الأشرف وعاد إلى موافقته ، فأرسل الأشرف إلى علاء الدين سلطان الروم يعرفه ذلك ، ويطلب منه أن يعيد على صاحب آمد ما أخذ منه ، فامتنع من ذلك ، وقال : ماكنت نائبا للأشرف يأمرنى تارة وينهانى أخرى . فأمر الملك الأشرف عسكره بمساعدة صاحب آمد ، وجمع صاحب آمد عسكره ، وسار بالجميع إلى عسكر الروم وهم يحاصرون الكختين(٣) من بلاده ، فالتقوا هناك واقتتلوا ، فانهزم صاحب آمد ومن معه ، وجرح وأسر منهم خلق ، وملك عسكر علاء الدين الكختين ـ وهى من أمنع الحصون ـ ثم عادوا إلى صاحبهم(٤) .

ومنها أنه وقعت فتنة بين الفرنج والأرمن ، وذلك أن ليون الأرمنى توفى ولم يخلف سوى بنت واحدة ، فملكها الأرمن عليهم وزوجوها بابن البرنس ، وانتقل إلى بلدهم ، واستقر فى الملك نحو سنة ، ثم ندموا على ذلك ، وخافوا أن يستولى الفرنج على بلادهم ، فقبضوا على ابن البرنس ، فأرسل أبوه يطلب منهم إطلاقه ، فلم يفعلوا ، فأرسل إلى الباب ملك الفرنج يستأذنه فى قصد بلاد الأرمن فمنعه ، وقال : إنهم أهل ملتنا ولايجوز قصد بلادهم . فخالفه وأرسل إلى علاء الدين كيقباذ ملك قونية ، وصالحه ووافقه على قصد بلاد الأرمن ، فدخلها ونهبها وعاد عنها(٥) .

وفيها . . . . . .(٦)

---

(١) ملطية : بلدة من بلاد الروم مشهورة تتاخم الشام ، وهى للمسلمين .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٦٣٣ ـ ص٦٣٤ .

(٢)حصن منصور : يقع غربى نهر الفرات قرب سميساط وكان ضمن مدينة عليها سور وخندق وثلاثة أبواب .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٧٨ .

(٣)الكختين : هى كختا وهى قلعة حصينة عالية البناء بينها وبين ملطية مسيرة يومين فى طرف الحد الشمالى للشام على مرحلة من حصن منصور .
انظر : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص١٧٨ ، حاشية(٧) ؛ ص٢٠٣ ؛ صبح الأعشى ، ج٤ ، ص١٢٠ .

(٤) ورد هذا الخبر بتصرف فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٥٨ ـ ص٤٥٩ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٠٢ ـ ص٢٠٣ ، وذلك فى أحداث عام ٦٢٣هـ .

(٥) ورد هذا الحدث فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٦٤ ـ ص٤٦٦ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢١ .

(٦) بياض بالأصل بمقدار نصف صفحة .

وفيها حج بالناس من العراق شمس الدين قيران مملوك الخليفة ، ومن الشام الشجاع ابن السلار ، وهى آخر إمرته على الشام ، وآخر السنين التى كان الحج فيها رخيا طيبا ، وانقطع ركب الحج بعدها مدة بسبب ما وقع بالشام من الاختلاف والفتن[١] .

وفيها حج من ميافارقين سلطانها وهو شهاب الدين غازى بن الملك العادل وقد ذكرناه[٢] .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

أبو المعالى أسعد بن يحيى ، بن موسى بن منصور بن عبد العزيز بن وهب ، الفقيه الشافعى السنجارى ، شيخ أديب فاضل خَيِّر ، له نظم ونثر ظريف ، وله نوادر[٧٠] حسنة ، وقد جاوز التسعين ، وقد استوزره صاحب حماة فى وقت[٣] ، وله شعر رائق أورد منه ابن الساعى قطعة جيدة ، فمن ذلك قوله :

وهواك ماخطر السلوُّ ببـاله[٤] ولأنت أعلمُ فى الغرام بحاله
فمتى وشى واش إليك بأنه سال هواك فذاك من عُذّاله
أو ليس للدَّنف المعنَّى شاهدٌ من حاله يُغْنيك[٥] عن تسآله
جددت ثوب سقامه وهتكت ستـ ـر غرامه وصَرَمت حبل وصاله
ياللعجائب من أسير دأبُهُ يَفْدِى الطليق بنفسه وبماله[٦]

(١) ورد هذا الحدث فى الذيل على الروضتين ، ص١٥١ ـ ص١٥٢ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٦ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٢٤ .

(٢) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص١٥١ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٢٦ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٢٤ .

(٣) انظر ترجمته فى وفيات الأعيان ، ج١ ، ص ٢١٤ ـ ص٢١٧ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣١ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١٠٤ ـ ١٠٥ ؛ طبقات الشافعية الكبرى ، تاج الدين السبكى ، ج٥ ، ص٥٠ .

(٤) «ببابه» كذا فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه لاستقامة المعنى .
وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢١٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣١ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١٠٤ ، ولكنه ذكر فى وفيات سنة ٦٢٢هـ .

(٥) «يغنيه» كذا فى الأصل ، و ما أثبتناه من وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٢١٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣١ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١٠٤ .

(٦) وردت هذه الأبيات فى وفيات الأعيان ، ج١ ، ص٤١٢ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣١ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص١٠٤ .

وله أيضا :

لام العـواذلُ فى هواك فـأكـثـروا ... هيـهـات ميـعـادُ السلو المحـشرِ

جـهلوا مكانَك فى القلوب فطولوا ... لو أنهـم وجدوا كـوجدى أقصـروا

صبرا على عذب الهوى وعذابِهِ ... وأخـو الهـوى أبداً يلامُ ويُعـذَرُ(١)

أبو القاسم(٢) عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن حمدان الطيبى، المعروف بالصائن، أحد المعيدين بالنظامية، ودرس بغيرها، وكان عارفا بالمذهب والفرائض والحساب، صنف شرحا للتنبيه ذكره ابن الساعى .

أبو النجم(٣) محمد بن القاسم بن هبة الله التكريتى، الفقيه الشافعى، تفقة على أبى القاسم بن فضلان، ثم أعاد بالنظامية، ودرس فى غيرها، وكان يشغل فى كل يوم عشرين درسا، وليس له دأب إلا الاشتغال وتلاوة القرآن ليلا ونهارا، وكان بارعا كثير العلوم، قد أتقن المذهب والخلاف، وكان يُفتى فى مسألة الطلاق الثلاث بواحدة، فتغيظ عليه قاضى القضاة أبو القاسم عبد الله بن الحسين الدامغانى، فلم يسمع منه، ثم أخرج إلى تكريت(٤)، فأقام بها، ثم استدعى إلى بغداد، فعاد إلى الاشتغال، وأعاده قاضى القضاة نصر(٥) بن عبد الرزاق، إلى إعادته بالنظامية، وأعاده إلى ما كان عليه من الاشتغال والفتوى والوجاهة، إلى أن توفى فى هذه السنة، ذكره ابن الساعى .

الإمام(٦) الرافعى أبو القاسم عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن الفضل، الرافعى القزوينى، الإمام المسحر فى مذهب الشافعى(رحمه الله) له تصانيف منها : كتابه الشرح فى بضعة عشر مجلدا، وله تصانيف أخرى، وكان من الصالحين، وله الكرامات الكثيرة الظاهرة، توفى فى هذه السنة .

---

(١) وردت هذه الأبيات فى البداية والنهاية، ج١٣، ص١٣١ .

(٢) انظر : البداية والنهاية، ج١٣، ص١٣٢ ؛ هدية العارفين، اسماعيل باشا البغدادى، ج٥، ص٥٢٤، دار الكتب العلمية - بيروت - بغداد، ١٤١٣هـ - ١٩٩٢م .

(٣) انظر : البداية والنهاية، ج١٣، ص١٣٢ .

(٤) تكريت : غربى دجلة بين بغداد والموصل، وهى إلى بغداد أقرب . معجم البلدان، ج١، ص٨٦١ .

(٥) نصر عبد الرزاق : ابن الشيخ عبد القادر الكيلانى قاضى القضاة عماد الدين أبو صالح الجيلى ثم البغدادى الحنبلى . توفى سحر يوم الأحد ١٦ شوال سنة ٦٣٣هـ عن سبعين سنة، ودفن بتربة الإمام أحمد (رضى الله عنه) . انظر : شذرات الذهب، ج٥، ص١٦١ - ص١٦٢ .

(٦) لمعرفة المزيد من ترجمته . انظر : شذرات الذهب، ج٥، ص١٠٨ ؛ هدية العارفين، ج٥، ص٦٠٩ - ص٦١٠ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الخامسة والعشرين بعد الستمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستنصر بالله(١) ، وصاحب مصر الملك الكامل ، وصاحب دمشق الملك الناصر داود بن الملك المعظم ، وصاحب حلب الملك العزيز بن الملك الظاهر ، وبقية الملوك على حالهم فى بلادهم(٢) .

ذكر ماجريات بنى أيوب

وفيها سار الملك الكامل بعساكره من مصر إلى الشام بعد أن عهد لولده الملك الصالح نجم(٣) الدين أيوب بالسلطنة بعده ، وأركبه بالقاهرة ، وحملت الأمراء الغاشية(٤) بين يديه بالنوبة(٥) ، وجعله نائبا عنه بالديار المصرية ، وأنزله بدار الوزارة ، وعمره يومئذ نحو اثنين وعشرين سنة ، ثم خرج الكامل وفى صحبته ابن أخيه المظفر تقى(٦) الدين محمود بن السلطان الملك المنصور ، وهو موعود منه بأن ينتزع حماة له وبلادها من أخيه الملك الناصر قليج أرسلان(٧) وابن أخيه الملك الجواد(٨) مظفر الدين يونس ، ولما وصل

(*) يوافق أوله : ١٢ ديسمبر ١٢٢٧م .

(١) الخليفة المستنصر بالله : هو أبو جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر أحمد بن المستضئ حسن بن المستنجد يوسف بن المقتفى العباسى ، ولد سنة ٥٨٨هـ ، واستخلف فى رجب سنة ٦٢٣هـ ، وتوفى بكرة الجمعة عاشر جمادى الآخرة سنة ٦٤٠هـ . انظر : شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٢٠٩ ؛ تاريخ الخلفاء ، السيوطى ، ص٤٦٠ - ٤٦٤ .

(٢) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص١٥٢ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٢٥ .

(٣) الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل محمد بن العادل ، ولد سنة ٦٠٣هـ بالقاهرة ، وتوفى بالمنصورة ليلة الاثنين ، نصف شعبان سنة ٦٤٧هـ . انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٨٥ - ٨٦ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص٢٣٧ - ص٢٣٨ .

(٤) الغاشية : هى من رسوم الملك ، وهى غاشية سرج من أديم مخروزة بالذهب ، يخالها الناظر جميعها مصنوعة من الذهب ، تحمل بين يدى السلطان عند الركوب فى المواكب كالميادين والأعياد وغيرها ، يحملها الركاب دارية ، رافعا لها على يديه يلفتها يمينا ويسارا ، فهى من شعار السلطنة .
انظر : نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص٢٢٣ ، صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٧٠ .

(٥) النوبة : جمعها نوب وهو لفظ يطلق على فرق الجند التى تتناوب الوقوف لحراسة شخص أو سلطان ، وهى خمس نوبات ، ويكون تغييرها فى الظهر والعصر والعشاء ونصف الليل وعند الصباح .
انظر : السلوك ، ج١ق١ ، ص ٤٦١ ، حاشية(٢) .

(٦) المظفر تقى الدين محمود بن السلطان الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالى محمد بن الملك المظفر تقى الدين عمر بن الأمير نور الدولة شاهنشاه بن أيوب ، ولد منتصف رمضان سنة ٥٩٩هـ ، وملك حماة سنة ٦٢٦هـ ، وتوفى ثامن جمادى الأولى سنة ٦٤٢هـ . المختصر ، جـ ٣ ، ص ١٧٣ ؛ نهاية الأرب ، جـ ٢٩ ، ص ٣٠٨ - ٣٠٩ ؛ شفاء القلوب ، ص ٣٥٠ .

(٧) الملك الناصر قلج أرسلان بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، الملك الناصر بن المنصور صاحب حماة ، مات سنة ٦٣٥هـ ، قبل وفاة الكامل بأيام قليلة . وقد ولد سنة ٦٠٠هـ .
انظر : مفرج الكروب ، ج٣ ، ص١٦١ ؛ تاريخ الإسلام ، للحافظ الذهبى ، ص٢٥٢ ، دار الكتاب العربى ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م .

(٨) الملك الجواد مظفر الدين يونس بن ممدود بن العادل أبى بكر بن أيوب ، توفى سنة ٦٤١هـ .
انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٧٥ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٢١٢ - ص٢١٣ .

الكامل إلى غزة انزعج الناصر داود صاحب دمشق لذلك وخاف ، فعزم على الالتجاء إلى عمه الملك الأشرف ، وخيم الكامل بتل العجول[١] ، وبعث ولاته إلى نابلس والقدس والخليل وغيرها من الأعمال . وكان عند المظفر الأمير حسام[٢] الدين بن أبى على ، ففارقه بغزة ، وصار إلى الديار المصرية ، فاستخدمه الملك الصالح نجم الدين أيوب وجعله أستاداره ، وبقى ابن عمه سيف[٣] الدين على بن أبى على عند المظفر ، فتقدم عنده ، ولما ملك حماة على مانذكره فوض إليه أموره كلها[٤] .

وفيها فارق العزيز بن العادل الملك الناصر داود ومضى إلى الملك الكامل ، وذلك أنه اتفق معه جماعة من جند بعلبك على تسليمها إليه ، وأخذها له من صاحبها الملك الأمجد[٥] مجد الدين بهرام شاه ، فرحل الملك العزيز إليها ، ونزل بالقرب منها ، وأطلع الملك الأمجد على الحال ، فقبض على أولئك الذين اتفقوا مع العزيز ، فقتل بعضهم واعتقل البعض ، ولم يتم للملك العزيز ما أراد ، فنازل بعلبك محاصراً لها ، وبلغ ذلك ابن أخيه الناصر داود صاحب دمشق ، فبعث إليه من رَحَّله عنها قهراً ، فغضب العزيز لذلك على الناصر ، وهو شقيق أبيه ، وبيده بانياس وبلادها ، فرحل إلى أخيه الكامل[٧٢] وأقام فى خدمته والتجأ إليه ، ففرح به ووعده انتزاع بعلبك من صاحبها الملك الأمجد ، وتسليمها إليه ، ولما جرى من الكامل ما ذكرناه أرسل الناصر داود إلى عمه الأشرف يعتضدبه ، ويستمسك بذيله ، ويستنصر به على الكامل ، وكان الرسول عماد الدين بن موسك[٦] ،

---

(١) تل العجول : يقع بين عكا والعائدية . انظر : زبدة الحلب ، ابن العديم ، ج٢ ، ص٢٠٢ ، حاشية(٥) .

(٢) حسام الدين بن أبى علي : توفى بالديار المصرية فى أواخر شعبان سنة ٦٥٨هـ .
انظر : الذيل على الروضتين ، ص٢٠٨ .

(٣) سيف الدين على بن أبى على : هو الشيخ أبو الحسن على بن أبى على بن محمد بن سالم التغلبى المعروف بالسيف الأمدى ، توفى سنة ٦٣١هـ ، ودفن بجبل قاسيون رابع صفر .
انظر : ترجمته فى الذيل على الروضتين ، ص١٦١ ، وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٩٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٥١ .

(٤) وردت هذه الأحداث بتصرف فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٢٥ ـ ص٢٢٧ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٤٠ ـ ص١٤١ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٥٠ .

(٥) الملك الأمجد مجد الدين أبو المظفر بهرام شاه بن فروخ شاه ، قتله مملوكه فى داره ليلة الأربعاء ثانى عشر شوال سنة ٦٢٨هـ ، ودفن بتربة أبيه على الشرف الشمالى .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٤٥٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٤٠ ـ ص١٤٢ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١٢٦ ـ ١٢٧ .

(٦) عماد الدين بن موسك : هو الأمير عماد الدين داود بن موسك بن جكر ، توفى سنة ٦٤٤هـ بالكرك ، ودفن بمشهد جعفر الطيار . انظر الذيل على الروضتين ، ص١٧٩ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص٣٢٥ .

وفخر القضاة ابن بزاقة[١] ، فاجتمعا به بسنجار ، وطلباه ليأتى دمشق ، فسار إليها ولما وصلها ضربت البشائر لقدومه ، وخرج الناصر لاستقباله ، وذلك فى العشر الآخر من رمضان من هذه السنة[٢] .

وأقام الأشرف بدمشق ، وقام الناصر بجميع وظائفه ، وقدم إلى خدمته الملك المجاهد[٣] أسد الدين شيركوه صاحب حمص ، وأرسل الأشرف إلى الكامل الأمير سيف[٤] الدين على بن قليج يشفع فى الملك الناصر ، ويطلب منه إبقاء دمشق عليه ، فلم يجب الكامل إلى ذلك ، وخاطب سيف الدين بما فيه إطماع الملك الأشرف بملك دمشق ، ولما جرى ذلك أشار الملك الأشرف على ابن أخيه الناصر أن يمضى فى صحبته إلى نابلس ، ويقيم بها ويمضى هو إلى أخيه الكامل ويصلح له الأمر ، فأجابه إلى ذلك ، ورحلا معا من دمشق ، وكان الملك الكامل قد تقدم إلى نابلس ، ونزل بها فى دار المعظم ، ولما بلغه قدوم الأشرف إلى دمشق ، واتفاقه مع ابن المعظم أغضبه ذلك ، فرحل على عزم العود إلى الديار المصرية ، ووصل إلى تل العجول ، ووصل الملك الأشرف والملك الناصر إلى نابلس ، وأقام الملك الناصر بها ، ومضى الأشرف ومعه الملك المجاهد صاحب حمص إلى نحو الكامل ، فخرج إلى استقباله وعاد به إلى المعسكر بتل العجول ، ونزلا به ، ووقع الاتفاق بينهما على انتزاع دمشق من ابن أخيهما الناصر داود ، وأنها تكون للأشرف ، ومامعها من الأعمال إلى عقبة[٥] فيق وغزة من البلاد

---

(١) ابن بزاقة : ويكتب أيضا ابن بُصَاقَة وهو كاتب الإنشاء نصر الله بن هبة الله بن عبد الباقى الغفارى ، كان أكتب أهل زمانه بلا مدافعة ، وأطولهم باعا فى الأدب ، ولد بقوص سنة ٥٧٧هـ ، ومات بدمشق سنة ٦٤٦هـ .

انظر :حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة ،ج١ ، ص٤٣٧ ، ترجمة ٤٧ ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤٢٥/٢٠٠٤م .

(٢) وردت هذه الأحداث بتصرف فى الكامل ،ج١٢ ، ص٤٨٣ - ص٤٨٤ ؛ الذيل على الروضتين ، ص١٥٣ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٢٧ ـ ص٢٢٨ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٤٠ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٢ ـ ص١٣٣ .

(٣) الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن شيركوه بن شاذى صاحب حمص ، ولد سنة ٥٦٩هـ ، وتوفى يوم الثلاثاء تاسع عشر رجب سنة ٦٣٧هـ ، بحمص ، ودفن فى تربته داخل البلد .

انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٦٩ ؛ وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٤٨٠ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص ١٦٤ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص٢٥٤ ـ ص٢٥٥ ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٦٦ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١٨٤ .

(٤) الأمير سيف الدين على بن قليج : هو الأمير الكبير صاحب القليجية ، توفى فى شعبان سنة ٦٤٣هـ بدمشق ، ودفن فى مدرسته التى وقفها بمسكنه بدار الفلوس .

انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٧٧ ؛ البداية والنهاية ،ج١٣ ، ص١٨٢ ؛ تاريخ الإسلام ، ص١٦٥ .

(٥) عقبة فيق : ينحدر جزء منها إلى غور الأردن ، وجزء آخر يشرف على طبرية وبحيرتها .

انظر : معجم البلدان ،ج٣ ، ص٩٣٢ .

والحصون ، وهو الفتوح الصلاحى بأسره ، ويكون للملك الناصر داود عوضا عن بلاده من بلاد الملك الأشرف : حران ، والرقة ، والرها ، وسروج(١) ، ورأس عين(٢) ، وجملين(٣) ، والموزر(٤) ، وأن ينتزع بعلبك من يد الملك الأمجد [٧٣] وتعطى هى وأعمالها لأخيهما الملك العزيز عثمان ، وينتزع حماة ، والمعرة(٥) ، وبعرين(٦) من يد الملك الناصر قليج أرسلان ، ويعطى للسلطان الملك المظفر تقى الدين محمود أخيه ، وتؤخذ من المظفر سلمية(٧) ، وتضاف إلى الملك المجاهد أسد الدين صاحب حمص ، وكان طلبها من الملك الكامل لأنها كانت جارية فى إقطاع أبيه ناصر(٨) الدين محمد بن شيركوه ، وإنما أضيفت إلى تقى(٩) الدين عمر بن شاهنشاه فى أيام صلاح الدين بعد موت ناصر الدين ، وبقية الكلام فى السنة الآتية إن شاء الله(١٠) .

---

(١) سروج : بلدة قريبة من حران من ديار مضر . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٨٥ .

(٢) رأس عين : مدينة كبيرة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٧٣١ .

(٣) جملين : جملين والموز قلعتان كانتا على مسافة يوم من حران من ديار مضر وديار بكر .
انظر : ابن العديم ، زبدة الحلب ، ج٢ ، ص٢٢٧ ، حاشية ٤ ، ٥ .

(٤) موزر : كورة بالجزيرة منها نصيبين الروم .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٦٧٩ .

(٥) المعرة : توجد معرتان ، الأولى معرة مَصْرين وهى بليدة وكورة بنواحى حلب ومن أعمالها ، والثانية معرة النعمان وهى مدينة كبيرة قديمة مشهورة من أعمال حمص بين حلب وحماة .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٥٧٤ ـ ص٥٧٥ .

(٦) بعرين : بليدة بين حمص والساحل . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٦٧٢ .

(٧) سَلَمْيةَ : بليدة من أعمال حماة .
انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص١٢٣ .

(٨) ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الملقب الملك القاهر صاحب حمص ، توفى سنة ٥٨١هـ ، يوم عرفه ، وهو ابن عم السلطان صلاح الدين ، وقد نقلته زوجته بنت عمه ست الشام بنت أيوب إلى تربتها بمدرستها بدمشق ظاهر البلد .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٤٨٠ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٧٣ .

(٩) تقى الدين عمر بن شاهنشاه : هو الملك المظفر تقى الدين أبو سعيد عمر بن نور الدولة شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة ، وهو ابن أخى السلطان صلاح الدين ، توفى يوم الجمعة تاسع عشر رمضان سنة ٥٨٧ هـ ، ودفن بظاهر حماة .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٥٦ ـ ص٤٥٧ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٢٨٩ .

(١٠) وردت هذه الأحداث بالتفصيل فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٨٣ ـ ص٤٨٥ ؛ الذيل على الروضتين ، ص١٥٤ ـ ١٥٦ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٢٨ ـ ص٢٣١ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٤٣ ـ ص١٤٥ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٥٣ ـ ص١٥٧ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ١٣٣ . وجدير بالذكر أن هذه الأحداث وردت سنة ٦٢٦هـ .

وفى تاريخ المؤيد[١] ، وفى هذه السنة أرسل الملك الكامل صاحب مصر يطلب من ابن أخيه الناصر داود بن الملك المعظم صاحب دمشق حصن الشوبك ، فلم يعطه الناصر ذلك ، ولا أجابة إليه ، فسار الملك الكامل من مصر فى هذه السنة فى رمضان إلى الشام ، وذكر نحو ماذكرناه ، غير أنه قال : فقدم الملك الأشرف إلى دمشق ، ودخل هو والملك الناصر داود إلى قلعة دمشق راكبين .

وقال القاضى جمال[٢] الدين بن واصل : كنت إذ ذاك حاضرا فى دمشق ، ورأيت الملك الأشرف راكبا مع ابن أخيه ، وعلى رأس الملك الأشرف شاش[٣] علم[٤] كبير ، ووسطه مشدود بمنديل ، وكان وصول الأشرف إلى دمشق فى العشر الأخير من رمضان من هذه السنة . ثم قال : وخرجت السنة والأشرف عند أخيه الكامل بظاهر غزة .

وفى تاريخ ابن العميد[٥] : بلغ الناصر صاحب دمشق خروج الملك الكامل لأخذ بلاده ، وكان سبب ذلك أن الناصر لما استقر فى دمشق ظلم الناس ، وأخذ أموالهم ، وأقبل على اللهو والشرب والطرب ، واشتغل عن النظر فى مصالح دولته ، فبلغ ذلك الكامل فتغير خاطره عليه ، وتجهز وخرج بعساكره إلى الشام ، ليأخذ دمشق ، واستناب ولده الصالح نجم الدين بمصر ، وجعل الأمير فخر الدين[٦] بن الشيخ بين يديه ليحصل الأموال ويدبر المملكة ، وذلك فى شهر رجب من هذه السنة ، ولما بلغ ذلك الناصر لم يسيِّر إليه ، ولا استعطفه ، بل كتب إلى عمه الملك الأشرف يسأله أن يصل إليه ، فلما جاءه الأشرف إلى دمشق رأى من حركاته المذمومه فكرهه بسببها ، وأيضا أطمعته نفسه بدمشق فإن [٧٤] جلال الدين خوارزم شاه كان قد أخذ أخلاط ، ولم يبق بيد الأشرف

---

(١) المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص١٤٠ ـ ص١٤١ .

(٢) مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٢٨ ـ ص٢٢٩ .

(٣) الشاش : هو زى المواكب الحافلة ، وهو الرداء الفوقانى الذى كان يلبس كثياب رسمية ، فالشاش يعبر عن الموسلين الطويل الذى يلف حول العمامة كلباس للرأس عند الأمراء أثناء الاحتفالات السلطانية .

(٤) «معلم» كذا فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه من المختصر فى أخبار البشر حيث ينقل عنه العينى ، ج٣ ، ص١٤٠ .

(٥) أخبار الأيوبيين ، ص١٥ ـ ص١٦ ، مكتبة الثقافة الدينية ، ٥٢٦ ش بور سعيد ـ الظاهر .

(٦) فخر الدين بن الشيخ : هو فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ صدر الدين محمد بن عمر بن على بن محمد بن حموية الجوينى ، وهو الأمير نائب السلطنة ، ولد بدمشق بعد الثمانين وخمسمائة ، طعن يوم المنصورة ، وتوفى عام ٦٤٧هـ . لمعرفة المزيد عن ترجمته . انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٨٤ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٩١ ، حاشية(٣) ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٤٧ ـ ص١٤٨ ، حاشية(٣) ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٢٣٨ ـ ص٢٣٩ .

سوى حران ، والرها والجزيرة ، وسنجار وأعمالها ، وبلاد الخابور[١] جميعه ، وسببه أن الحاجب على غلام الأشرف دخل إلى بلاد جلال الدين المجاورة لأخلاط ، وأخرب ونهب وأسر بنت خواجاجهان الوزير ، زوجة جلال الدين خوارزم شاه ، فبلغ جلال الدين ذلك فسار إلى أخلاط وحاصرها ، وفتحها ، وأسر بنت ملك الكرج زوجة الملك الأشرف ، فسير الأشرف إلى مملوكه عز الدين صاحب دارا[٢] بأنه يقبض على عَلِى الحاجب ويقتله فقتله ، وأما السلطان الملك الكامل فإنه وصل إلى نابلس ، ونزل بها ورتب الولاة[٣] والنواب[٤] والدواوين[٥] فى البلاد الساحلية ، وبلغه أن الأنبرور وصل إلى يافا[٦] فى ميعاده[٧] فعاد الكامل من نابلس إلى تل العجول ونزل عليها ، وترددت الرسل بين السلطان والأنبرور ، وكان السفير بينهما الأمير فخر الدين بن الشيخ ، فلم يزل يتردد إلى الأنبرور تارة بمفرده وتارة يأخذ معه الصلاح[٨] الإربلى إلى أن تقرر الصلح ، على أن يعطى الأنبرور القدس والقرى[٩] التى على طريقه من يافا إلى القدس ، ومدينة لدْ[١٠] .

---

(١) بلاد الخابور : ولاية واسعة وبلدان جمة من بلاد قرقيسيا وماكسين والمجدل وعربان ونسبت إلى نهر الخابور ، وهو نهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٨٣ .

(٢) دارا : بلدة فى لحف جبل بين نصيبين وماردين ، وهى من بلاد الجزيرة . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥١٦ .

(٣) الولاة : المفرد والى وهو الذى يشرف على الولاية يقابل فى أيامنا «المحافظ» ، وكان الوالى يعين بمرسوم من السلطان ، ويمنح عند التولية خلعة وفرسا ، وكان عمل الولاة الأساسى هو القيام بأعمال الشرطة وحفظ النظام .
انظر : صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص٣٥٨ .

(٤) النواب : مفردها النائب وهو من موظفى الديوان يقوم برفع الحسابات أو الكتابة عليها .
انظر : صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص٣٤٤ .

(٥) الدواوين : الديوان كلمة فارسية معناها سجل أو «دفتر» ثم تطور استعمال هذا اللفظ فأطلق من باب المجاز على المكان الذى تحفظ فيه السجلات الخاصة بأمور الدولة المختلفة ، وقد اقتبس عمر بن الخطاب نظام الدواوين فى الدولة الإسلامية بعد أن اتسعت الفتوحات فى عهده وأصبحت الحاجة ماسة إلى ضبط أمور الدولة .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٤٩ ، حاشية(١) .

(٦) يافا : مدينة على ساحل بحر الشام من أعمال فلسطين بين قيسارية وعكا .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص١٠٠٣ .

(٧) «ميعاد» كذا فى الأصل ، والمثبت من «أخبار الأيوبيين» ، ص١٥ ، حيث ينقل عنه العينى .

(٨) الصلاح الإربلى : هو أبو العباس أحمد بن عبد السيد بن شعبان بن محمد بن جابر بن قحطان الإربلى الملقب صلاح الدين ، وهو من بيت كبير بإربل ، وكان حاجبا عند الملك المعظم مظفر الدين بن زين الدين صاحب إربل ، توفى فى الخامس والعشرين من ذى الحجة سنة ٦٣١هـ ، ودفن بظاهر الرها بمقبرة باب حران ، وكان تقدير عمره يوم وفاته ستين سنة ، وولد فى شهر ربيع الآخر سنة ٥٧٢هـ بإربل .
انظر : وفيات الأعيان ، ج١ ، ص١٨٤ ـ ص١٨٧ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١٤٣ .

(٩) «القرايا» كذا فى الأصل ، والمثبت من «أخبار الأيوبيين» ، ص١٥ ، حيث ينقل عنه العينى .

(١٠) لُدْ : قرية قرب بيت المقدس من نواحى فلسطين . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣٥٦ .

قال : وفى سنة ست وعشرين طلب الأنبرور من السلطان تبنين[١] وأعمالها بحكم أن صاحبتها بنت الهنفرى ، ودخلت عليه فسألته ، فأنعم السلطان عليه بها ، ودخلت فى نسخة المهادنة التى بين الأنبرور وبين السلطان وانتظم الصلح مدة عشر سنين[وخمسة أشهر وأربعين يوما][٢] وتسلم الأنبرور مدينة القدس ومدينة لدْ والأماكن التى على طريقه[٣] . وسنذكر بقية ذلك فى السنة الآتية إن شاء الله تعالى .

وفى تاريخ بيبرس : وفيها قدم الأنبرور فردريك[٤] ملك الإفرنج إلى عكا فى جمع كثير من الألمانية وغيرها من الفرنج ، ومعنى هذا الاسم بالفرنجية ملك الأمراء ومملكته جزيرة صقلية[٥] ، ومن البر الطويل بلاد أنبولية[٦] [٧] والأنبر دية[٨] .

وكان الأنبرور ملكا متميزا عالما ، يحب الحكمة والمنطق والطب ، ولما وصل نسب الكامل به ولم يمكنه دفعه ومحاربته لما تقدم بينهما من الاتفاق ، ولأنه كان [٧٥] يؤدى ذلك إلى فوات أغراضه التى كان فى ذلك الوقت بصددها فراسله ولاطفه[٩] .

وبعد وصوله إلى عكا شرع الفرنج فى عمارة صيدا ، وكانت مناصفة بينهم وبين الفرنج ، وسورها خراب ، فعمروها واستولوا عليها ، وأزالوا عنها حكم المسلمين ، ولم يزل الأنبرور بعكا ، والرسل مترددة بينه وبين الكامل إلى أن خرجت هذه السنة[١٠] .

---

(١) تبنين : بلدة فى جبال بنى عامر المطلة على بلد بانياس بين دمشق وصور .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٥٢٤ .

(٢) مابين حاصرتين إضافة من أخبار الأيوبيين ، حيث ينقل عنه العينى ، ص١٦ .

(٣) إلى هنا توقف العينى عن النقل من أخبار الأيوبيين ، ص١٦ .

(٤) الأنبرور فردريك : هو الأنبرطور فردريك الثانى امبراطور الدولة الرومانية المقدسة (١١٩٤ - ١٢٥٠) .
انظر : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٠٦ ، حاشية(٦) .

(٥) جزيرة صقلية : هى جزيرة خصيبة كثيرة البلدان والقرى والأمصار ، وصقلية مدينة فى البر الشمالى الشرقى الذى عليه مدينة قسطنطينية . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٤٠٦ .

(٦) بلاد أنبولية : وتكتب أيضا أنبلُونَة ، وهى مدينة قديمة على البحر المغربى بنواحى إفريقية قريبة من تونس ، وهى من عمل شطفورة . وهى مملكة عى بحر الروم عند فم جون البنادقة من غربيه .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٣٧٠ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٠٦ ، حاشية(٦) .

(٧) الأنبردية : أو أَنْبَرْدُوَان ، وهى من قرى بخارا . انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٣٦٩ .

(٨) وردت هذه الأحداث فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٧٧ - ص٤٧٨ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٣٣ - ص٢٣٤ ؛ المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص١٤١ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ١٣٢ .

(٩) ورد هذا الخبر فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٣٤ - ص٢٣٥ ، المختصر ، ج٣ ، ص١٤١ .

(١٠) ورد هذا الخبر فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٧٨ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٣٥ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ١٣٢ ؛ السلوك ، ج١ق١ ، ص٢٢٩ .

وفى[١] تاريخ ابن كثير : لما جاء إلى بلاد الشام دخل بيت المقدس الشريف ، ثم سار إلى نابلس ، فخاف الناصر صاحب دمشق ، فكتب إلى الأشرف ، فقدم عليه جريدة ، وكتب إلى أخيه الكامل يستعطفه ويكفه عن ابن أخيه ، فأجاب الملك الكامل بأنى إنما جئت لحفظ بيت المقدس وصونه عن الفرنج الذين يريدون أخذه ، وحاشا لله أن أعارض أخى أو ابن أخى ، وبعد أن جئت إلى الشام فأنت تحفظها ، وأنا راجع إلى الديار المصرية ، فخشى الأشرف وأهل دمشق إن رجع الملك الكامل أن تمتد أطماع الفرنج إلى بيت المقدس ، فركب الأشرف إلى أخيه الكامل فثبطه عن الرجوع ، وأقاما جميعا هنالك يحوطان جناب بيت المقدس من الفرنج (لعنهم الله) .

وفى تاريخ النويرى[٢] : وكان الملك الكامل قد أرسل إلى الأنبرور فخر الدين بن الشيخ يستدعيه إلى قصد الشام بسبب أخيه المعظم ، فوصل الأنبرور وقد مات المعظم ، والأنبرور معناه ملك الأمراء بالفرنجية ، وأما اسمه فردريك ، وكان صاحب جزيرة صقلية وغيرها ، ويقال : كان صاحب جزيرة قبرس . قلت : لاخلاف بين الكلامين لأنه كان صاحب الجزيرتين جزيرة صقلية وجزيرة[٣] قبرس[٤] .

ذكر ماجريات جلال الدين خوارزم شاه

وفى هذه السنة كانت حروب كثيرة بين جلال الدين وبين التتار ، كسروه غير مرة ، ثم بعد ذلك كله كسرهم جلال الدين كسرة بشيعة ، وقتل منهم خلقا وأمما لا يحصون ، وكان هؤلاء التتار قد عصوا على جنكيزخان وانفردوا ، وكان جنكيزخان قد كتب إلى جلال الدين يقول : إن هؤلاء ليسوا منا ، ونحن أبعدناهم ، ولكن سترى مناما لاقبل له ، وبعد أن فرغ جلال الدين من التتار قصد بلاد خلاط ، ونهب القرى ، وقتل وخرب البلاد ، وفعل الأفعال القبيحة[٥] .

---

(١) البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٢ .

(٢) نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٥٠ .

(٣) جزيرة قُبْرس : هى جزيرة فى بحر الروم . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٢٩ .

(٤) وردت هذه الأحداث فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٣٣ - ص٢٣٤ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٤١ .

(٥) ورد هذا الخبر فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٧٦ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٣١ - ص٢٣٢ ؛ المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص١٤١ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ١٣٢ .

وفى تاريخ بيبرس : [٧٦] وفيها نهب جلال الدين خلاط وماحولها ، وذلك أنه لما فرغ من حرب التتار وهزمهم ، ووصل إلى أذربيجان بعساكره قصد خلاط ، وتعداها إلى صحراء موش[١] وجبل جور[٢] ، ونهب الجميع ، وسبى الحريم والأولاد ، وقتل الرجال ، وخرب القرى ، وعاد إلى بلاده ، وخاف أهل حران والرها وسروج وسائر بلاد الملك الأشرف ، وعزم بعضهم على الانتقال إلى الشام ، ووصل بعض أهل سروج إلى منبج[٣] ، وكان الوقت شتاء فسقط ببلاد خلاط ثلج كثير لم يعهد مثله ، فعاد جلال الدين إلى بلاده[٤] . وفيه أيضا وفيها وقع الخلف بين جلال الدين وبين غياث الدين تترشاه أخيه ، وذلك أنه لما ضاق حال غياث الدين فارقته جماعة من سرهنكيته[٥] ، وانحازوا إلى نصرة الدين محمد بن الحسن بن خرميل ، وقد كان جلال الدين صَيَّرهُ شحنة[٦] على أصفهان حين ملكها ، وعين له بها إقطاعا جليلا ، ولما أقام جلال الدين بأصفهان على نية لقاء التتار ، اتخذه لمنادمته لأنه كان كثير الفكاهة ، حسن المحاضرة ، فاجتمعوا فى بعض الليالى فى مجلس جلال الدين على الشرب بحضور غياث الدين ، فلما لعب الشمول[٧] بالعقول ، ودارت الكؤس بالرؤس ، قال غياث الدين لنصرة الدين : هلا ترد غلمانى إلى بابى؟ فأجابه نصرة الدين بجواب غير لائق ، وقال له : الغلمان يخدمون من يطعمهم ولايصبرون على الجوع . فغضب غياث الدين ، وأخذ يكرر الكلام ، فلما أحس السلطان بغيظه أمر نصرة الدين بالقيام ، فقام وخرج ، وتبعه غياث الدين إلى داره ، فقتله فى تلك الليلة ، فحزن السلطان عليه ، وغضب بسببه على أخيه ، وقال : إنك حلفت أن تكون

---

(١) مُوش : بلدة من ناحية خلاط بأرمينية . انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٦٨٢ .
(٢) جبل جور : اسم لكورة كبيرة متصلة بديار بكر من نواحى أرمينية ، وفيها قلاع وقرى .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٠ .
(٣) منبج : مدينة كبيرة ذات خيرات كثيرة ، بينها وبين الفرات ثلاثة فراسخ ، وبينها وبين حلب عشرة فراسخ .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٦٥٤ - ص٦٥٦ .
(٤) وردت هذا الأحداث فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٨١ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٣٥ ؛ المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص١٤١ ؛ السلوك ، ج١ق١ ، ص٢٢٨ .
(٥) سرهنكية : سرهنك هى رتبة عسكرية . انظر : سيرة منكبرتى ، ص١١٧ ، حاشية(٥) .
(٦) شحنة : أى رياسة الشرطة ويسمى متوليها صاحب الشحنة . السلوك ، ج١ق١ ، ص٣٥ .
(٧) الشمول : الخمر . انظر : مادة «شمل» ، لسان العرب .

لصديقي صديقا ، ولعدوى عدوا ، فأنت الحالف الحانث ، ولم يبق لك فى ذمتى يمين ، وأنا مع ذلك لا أفعل إلا الشرع . فحاكم أخاه إلى القاضى ، فإن شاء اقتص ، وإن شاء عفا ، فعظم ذلك عليه ، وحسن عنده الهروب ، وصار خائفا مرعوبا ، إلى أن اتفق لقاء السلطان التتار بظاهر أصفهان ، فاغتنم الفرصة وهرب إلى خوزستان ، وأرسل إلى الخليفة المستنصر[٧٧] بالله بأنه قد فارق أخاه ، وجاور الممالك الديوانية ، فأعيد رسوله بواعد جميل ، وثلاثين ألف دينار أنعاما ، وخِلَع ، ثم إن غياث الدين تسحَّب إلى ألموت لما بلغه أن التتار انهزموا ، وأن أخاه جلال الدين قد ظهر عليهم ، وأقام بها إلى أن وصل جلال الدين إلى الرى ، متبعا آثار التتار ، وفرق عساكره ، فأحاطت بتخوم ألموت من الرى إلى زنجان[١] ، فصار غياث الدين بها كالمخنوق سدت عليه المنافس . ثم ورد رسول علاء الدين صاحب ألموت[٢] إلى جلال الدين يلتمس منه الصلح لأخيه ، وأن يعود إلى الخدمة فأجابه إلى ما سأله من الأمان ، وأكد قواعده بالأيمان ، وأصحب رسول علاء الدين بتاج الملك الخوارزمى[٣] وشرف الملك يستردان غياث الدين ، وشكر لعلاء الدين فعله ، فندم غياث الدين على مانواه من العود ، ورأى أن هروبه أصلح ، فاقترح على علاء الدين إعانته على مايحمله من الخيل ، فأعانه بذلك وخرج ، وكادت طائفة من العساكر الجلالية تمسكه ، لولا أن جهان بهلوان ردهم عنه ، وكسرهم ، فنجا إلى كرمان ، وبها الحاجب[٤] براق نائبه ، فسار إليه طمعا فى وفائه ، فلم يلق منه إلا الغدر الفظيع والمكر

---

(١) زنجان : ويقال لها زنكان ، بلد كبير مشهور من نواحى الجبال بين أذربيجان وهى قريبة من أبهر وقزوين .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٩٤٨ .

(٢) ألموت : قلعة بالطالقان بناها السلطان ملكشاه السلجوقى .
انظر : صبح الأعشى ، ج١٣ ، ص٢٤٤ .

(٣) تاج الملك نجيب الدين يعقوب الخوارزمى : هو مشرف المماليك حيث كانت قصور الخوارزميين مليئة بالأعداد الكبيرة من المماليك الذين اشتروهم من أسواق النخاسة ، وكان يقوم بالإشراف عليهم رجل سمى بمشرف المماليك ، يتولى النظر فى كل مايتعلق بهم ، فينظر فى مشاكلهم ويتولى الحكم فيهم .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٢٤٣ ، حاشية(١) .

(٤) الحاجب براق : كان براق الحاجب قائدا من قواد دولة الخطا الذين دخلوا فى خدمة علاء الدين محمد خوارزم شاه ، وقد اتخذ من الفوضى التى أعقبت غزو جنكيزخان فرصة لتأسيس دولة له فى كرمان سنة ٦١٩هـ (١٢٢١م) ، واستطاع إلى حين أن يسيطر على الأقاليم الغربية من الدولة الخوارزمية .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٧٢ ، حاشية(٣) .

الشنيع ، ولما صار عنده أمسكه واعتقله ببعض القلاع ، وقيل : إنه قتله بعد ذلك . وقيل : بل خلص من الحبس ، وهرب إلى أصبهان ، وتزوج براق الحاجب بأمه على كره منها ، ثم قتلها ، وشنع أنها أرادت أن تسقيه سماً ، وقتل معها الوزير جهان بهلوان . وقال أبو الفتح المنشىء : لما فارق غياث الدين أخاه جلال الدين راح إلى خوزستان ، وأرسل وزيره كريم الشرق إلى ديوان الخلافة معلما بمفارقته أخاه ، ثم ذكر القضية مثل ماذكرناه ، إلى أن قال : اقترح على علاء[١] الدين صاحب ألموت إعانته بما يحمله ، ويحمل معه من الخيل ، فأعانه بثلاث مائة رأس ، فخرج ، ووقعت عليه طائفة من العساكر المركوزة التى للسلطان مقدمهم الطواشى[٢] جُبَة السلاحدار[٣] فلحقوه ببعض حدود همذان ، وأسر جماعة من الذين كانوا[٤] مع غياث الدين ، ونجا إلى كرمان وبها الحاجب براق نائبه فسار [٧٨] إليه طمعا فى وفائه فأول قبيح عامله به أنه[٥] تزوج بوالدة غياث الدين على كره منه ومنها ، ثم شنع عليها بعد حين بأنها أرادت أن تسقيه سما ، فقتلها ، وقتل معها الوزير كريم الشرق ، وجهان بهلوان ، وحبس غياث الدين ، فقيل : إن براقا قتله بعد حين . وقيل : إنه تخلص من الحبس إلى أصفهان ، وأن جماعة من النساء بالقلعة رثين له ، فاتفقن على تخليصه ، فجمعن له الحبال وأدلينه من القلعة ، وقتل غياث الدين بأصفهان بأمر السلطان[٦] .

(١) علاء الدين صاحب ألموت : هو ابن جلال الدين الحسن الملقب بالكيا ، وهو من عقب الحسن بن الصباح المقدم ذكره ، وكان أبوه جلال الدين قد أظهر شعائر الإسلام ثم توفى بقلعة ألموت فى سنة ٦١٨هـ ، فاستولى ابنه علاء الدين على هذه القلعة وخالف رأى أبيه المذكور إلى مذهب النِّزارية ، وصار رأسا من رؤوسهم .
انظر : صبح الأعشى ، ج١٣ ، ص٢٤٤ .

(٢) الطواشى : جمعها طواشية وهم الخدام الخصيان الذين يتولون أمر المماليك للسلطان أو الأمير .
انظر : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٤٥٦ .

(٣) السلاحدار : لقب للذى يحمل سلاح السلطان أو الأمير ، كما يطلق على صناع الأسلحة .
انظر : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص١١ - ص١٢ ؛ معجم الألفاظ التاريخية فى العصر المملوكى ، لمحمد أحمد دهمان ، دار الفكر المعاصر ـ بيروت ، ١٩٩٠ .

(٤) «كان» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .

(٥) «بأنه» فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .

(٦) وردت هذه الأحداث بتصرف فى سيرة منكبرتى ، ص٢٣٩ - ص٢٤٥ .

وفيها عزل جلال الدين صفى الدين محمد الطغرائى عن وزارة خراسان وقبض عليه وأقام تاج الدين محمد البلخى المستوفى[(١)] مقامه بها، وكان صفى الدين من قرية كليجرد[(٢)]، ابن رئيسها، وكان أكبر أدواته، حسن الخط، وكان مع جلال الدين حين كان بماء السند وسلم من الغرق حين غرق أكثر أصحاب جلال كما شرحناه فيما مضى، ثم انضم إلى شرف الملك الوزير وواظب خدمته، ولما ملك جلال الدين البلاد ولاه شرف الملك الطغرا[(٣)]، فتجمل وتمول وأكثر الخدم، ثم لما قبض عليه جلال الدين بالرى جاء إليه حميد الدين الخازن[(٤)] يوما وهو محبوس يقول له عن جلال الدين: إن كنت تريد أن أعفو عنك وأرضى عليك فابعث إلى ماجمعته من الجواهر، واحمل إلى ماجَبَيْتَه لشرف الملك الوزير من الذهب. فأحضر إليه أربعة آلاف دينار كان أودعها عند بعض التجار، وسبعين فصا مابين ياقوت وبذخشانى[(٥)]، وتسلمه الخازن ولم يحمل من ذلك شيئا إلى خزانة جلال الدين، وخطر بباله أن الطغرائى مقتول البتة لعلمه بسخط جلال الدين عليه، وأراد الله تأخير أجله إلى أن رضى عنه جلال الدين وانصلح أمره عنده، ثم فتش ذلك فى ديوان[(٦)] الخزانة فلم يجد للفصوص ولا للذهب ذكرا، فذكر ذلك لحميد الدين الخازن ودخل عليه على أن يكتم هذا الأمر، ويأخذ منه كل شهر مائتى دينار، فأوفى الذهب كله وأما [٧٩] الفصوص فلم يحصل له منها شئ[(٧)].

---

(١) المستوفى: من كُتَّاب الأموال بالدواوين، وعمله ضبط الديوان التابع له والتنبيه على ما فيه مصلحة من استخراج أمواله ونحو ذلك، وكان يطلق على كبار كتاب المالية فى بلاد فارس حتى القرن التاسع عشر الميلادى. السلوك ج١ق١، ص١٩٢، حاشية(٢)؛ معجم الألفاظ التاريخية فى العصر المملوكى، ص١٣٨.

(٢) «كلى جرد»: كذا فى الأصل، والمثبت هو الصحيح من سيرة السلطان جلال الدين منكبرتى، ص٢٤٧؛ وكليجرد: قلعة حصينة عظيمة بين خوزستان واللُر، بينها وبين أصبهان مرحلتان.
انظر: معجم البلدان، ج٤، ص٣٠٣.

(٣) الطغرا: وتكتب الطغراء، وهى الطابع أو التوقيع، والطغرائى هو الموظف الموكل بالتوقيع.
انظر: دائرة المعارف الإسلامية، مادة [Tughra]؛ سيرة منكبرتى، ص٥٧، حاشية(٥).

(٤) الخازن: كاتب يتولى خزن الغلات وصرفها، وعليه سداد ما يعجز من عهدته، وقد تضاف إليها اللفظ الفارسى «دار» فتكون: الخازندار، وهو الذى يتولى أعمال خزانة السلطان أو الأمير أو غيرهما وفى عهدته ما بها من أموال وغلال
انظر: صبح الأعشى، ج٥، ص٤٦٢ - ص٤٦٣.

(٥) البذخشانى: وتذكر أيضا بلخشانى نسبة إلى بلخشان، وهو اسم أطلقه العامة على المكان الذى يوجد فيه معدن البلخشن المقادم للياقوت، ويوجد فى الجبال على هيئة عروق، لكن الجيد منه قليل.
انظر: سيرة منكبرتى، ص٢٥٠، حاشية(١).

(٦) ديوان الخزانة: كان يوضع به الأموال والغلال والذخائر والحواصل والأقمشة والتشاريف والطرز.
انظر: صبح الأعشى، ج١٣، ص ١٠٠.

(٧) وردت هذه الأحداث بتصرف فى سيرة جلال الدين منكبرتى، ص٢٤٧ - ص٢٥٠.

ذكر بقية الحوادث

منها أن علاء الدين كيقباذ بن كيخسروا سلطان بلاد الروم ملك أرزنكان[١] من صاحبها علاء الدين داود شاه ، وأراد المسير إلى أرزن الروم ليأخذها وبها ابن عمه طغرل شاه بن قليج أرسلان ، فلما سمع صاحبها بذلك أرسل إلى الأمير حسام[٢] الدين على النائب عن الملك الأشرف بأخلاط يستنجده وأظهر طاعة الملك الأشرف ، فسار حسام الدين الحاجب إلى أرزن الروم ومنع عنها ، ولما بلغ كيقباذ وصول العساكر إليها لم يقدم على قصدها فسار إلى بلاده ، وكان قد أتاه الخبر أن الروم الكفار المجاورين لبلاده قد ملكوا عليه حصنا من حصونه يسمى سنوب[٣] ، مطلا على البحر حصينا ، فلما وصل إلى بلاده سير إليه عسكراً واستعاده منهم ، وسار إلى أنطالية[٤] باللام ليشتى بها[٥] .

ومنها فى ربيع الأول كانت الوقعة على باب صور[٦] بين العزيز عثمان وبين الفرنج ، فإنه كمن مع عسكره قريبا من صور ، فلما تعالى النهار خرج الفارس والراجل بأغنامهم ومواشيهم ، وخرج عليهم المسلمون فقتلوا وأسروا منهم سبعين فارساً ، ولم يسلم من الفرنج سوى ثلاثة أنفس ، وكانت وقعة عظيمة[٧] .

---

(١) أرزنكان : ويقال لها أرذنجان ، بلده من بلاد أرمينيا بين بلاد الروم وخلاط .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٢٠٥ .

(٢) حسام الدين على : كان شهما مقداما موصوفا بالشجاعة والسياسة والحشمة والبر والمعروف ، قبض عليه الأشرف على يد مملوكه عز الدين أيبك ، وحبسه ثم قتله سنة ٦٢٦هـ .
انظر : المختصر ، ج٣ ، ص١٤٣ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١١٩ .

(٣) سِنُوب : وتكتب أيضاً سينوب ، وهى مدينة على البحر الأسود .
انظر : بلدان الخلافة الشرقية ، ص١٧٥ .

(٤) أنطالية : بلد كبير من مشاهير بلاد الروم وهو حصن الروم على شط البحر .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٣٨٨ .

(٥) وردت هذه الأحداث بتصرف فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٧٨ ـ ص٤٧٩ .

(٦) صور : مدينة كبيرة معروفة على بحر الشام ، وهى معدودة فى أعمال الأردن بينها وبين عكا ستة فراسخ ، وهى شرقى عكا . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٤٣٣ .

(٧) وردت هذه الأحداث فى الذيل على الروضتين ، ص١٥٢ ـ ص١٥٣ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٤٩ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٣١ .

ومنها أن مدرسة الركن الفلكى[١] نجزت بقاسيون ، وذكر فيها ملك شاه الدرس[٢] .

وفيها . . . . .[٣]

وفيها حج بالناس من الشام على بن السلار[٤] .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

القاضى[٥] جمال الدين عبد الرحيم بن على بن اسحاق بن شيث ، القرشى العالم الفاضل ، كان الله تعالى قد جمع له بين الفضل والمروة والكرم والفتوة والإحسان إلى الخلق ، ماقصده أحد فى شفاعة فرده خائبا ، وكان يمشى بنفسه مع الناس فى قضاء حوائجهم ، وكان كثير الصدقات ، واسع المعروف ، غزير الإحسان ، وكان القاضى الفاضل يحتاج إليه فى علم الرسائل ، وكان إماما فى فنون العلوم من المنثور والمنظوم ، مات له ولد صغير ، فخرج فى جنازته يبكى ويقول :

ما الذى أطمع فى الدنيا وقد فارقت بعضى
هكذا تنفلت الدنيا من الأيدى وتمضى[٦]

[٨٠]وله تصانيف كثيرة ظريفة ، ورسائل وأشعار لطيفة ، وكانت وفاته بدمشق سابع المحرم ، ودفن بقاسيون .

الشيخ[٧] الصالح الفقيه أبو الحسن على المراكشى ، المقيم بمدرسة المالكية[٨] ، مات فى أوائل رجب منها ، ودفن فى المقبرة التى وقفها الرئيس خليل[٩] بن زويزان قبلى مقابر الصوفية ، وكان أول من دفن بها .

(١) المدرسة الركنية البرانية : تمييزاً لها عن الركنية الجوانية أنشأها الأمير ركن الدين منكورس عتيق فلك الدين سليمان العادلى سنة ٦٢٥هـ .
انظر : محمد كرد على ، خطط الشام ، ج٦ ، ص٩٢ ؛ الدارس ، ج١ ، ص٥١٩ - ص٥٢٢ .

(٢) ورد هذا الخبر فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٣٠ ؛ الدارس ، ج١ ، ص٥٢٠ .

(٣) بياض بمقدار نصف سطر .

(٤) ورد هذا الخبر فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٣١ .

(٥) انظر ترجمته فى : الذيل على الروضتين ، ص١٥٣ ؛ المرآة ، ج٨ ، ص٤٣١ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص١١٧ .

(٦) انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٣١ .

(٧) انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٥٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٣ ؛ الدارس ، ج٢ ، ص٦ .

(٨) المدرسة المالكية : بدمشق ، وهى أربع مدارس مالكية وهى : الزاوية المالكية ، الشرابيشية ، الصمصامية ، والصلاحية .
انظر : الدارس ، ج٢ ، ص٣ - ص٢٨ ؛ خطط الشام ، ج٦ ، ص٩٨ .

(٩) خليل بن زويزان : هو جمال الدولة خليل بن زويزان ، رئيس قصر الحجاج ، وله زيارة فى مقابر الصوفية من ناحية القبلة ، مات سنة ٨٢٨هـ ، ودفن بتربته عند مسجد الفلوس .
انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٤٠ ؛ الدارس ، ج٢ ، ص٢٤٧ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة السادسة و العشرين بعد الستمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستنصر بالله ، وملوك أيوب مفترقون مختلفون قد صاروا أحزابا وفرقا ، فلذلك آل الأمر إلى أن سلموا القدس الشريف إلى الإفرنج[١] .

ذكر تسليم القدس إلى الفرنج

وكان هذا فى الإسلام من أعظم المصيبات ، وأصل هذه الطامة أنه قد اجتمع ملوك بنى أيوب إلى الملك الكامل صاحب مصر ، وهو مقيم بنواحى القدس بسبب أخذ دمشق ، فقويت قلوب الفرنج بكثرتهم بمن وفد إليهم من البحر ، وبموت الملك المعظم ، واختلاف من بعده بين الملوك ، فطلبوا من المسلمين أن يردوا إليهم ما كان السلطان صلاح الدين أخذ منهم ، فوقعت المصالحة بينهم وبين الملوك على أن يردوا عليهم بيت المقدس وحده ، وتبقى بأيديهم بقية البلاد ، فسلموا القدس الشريف ، وكان الملك المعظم قد هدم أسواره على ماذكرناه ، فعظم ذلك على المسلمين جدا ، وحصل بذلك وهن عظيم وإرجاف شديد[٢] .

وفى تاريخ النويرى[٣] : ولما طال الأمر ولم يجد الملك الكامل بداً من المهادنة أجاب الأنبرور إلى تسليم القدس إليه ، على أن تستمر أسواره خرابا ولايعمرها الفرنج ، ولايتعرضون إلى الصخرة ، ولا إلى الجامع الأقصى ، ويكون الحكم فى الرساتيق[٤] إلى والى المسلمين ، ويكون لهم من القرايا ما هو على الطريق من عكا إلى القدس فقط ، ووقع

(*) يوافق أوله :٣٠ نوفمبر ١٢٢٨م .

(١) ورد هذا الخبر فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٣ .

(٢) ورد هذا الخبر بتصرف فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٨٢ ـ ص٤٨٣ ؛ الذيل على الروضتين ، ص١٥٤ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٤١ ـ ص٢٤٢ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٤١ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٤٩ ـ ص١٥٢ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ١٣٣ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٣١ ـ ص٤٣٤ ؛ شفاء القلوب فى مناقب بنى أيوب ، ص٢٦٧ ، مكتبة الثقافة الدينية ـ الظاهر .

(٣) ورد هذا الخبر بتصرف فى نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٥٠ ـ ص١٥١ .

(٤) الرساتيق : مفردها الرستاق وهو لفظ فارسى معناه القرية أو محلة العسكر ، أو البلد التجارى ، ومنه الكلمة العربية الرزداق ، وجمعها الرزداقات ، والرزاديق .
انظر : مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص١٥٩ ؛ محيط المحيط ؛ معجم الألفاظ التاريخية فى العصر المملوكى ، محمد أحمد دهان ، ص٨٢ .

الأمر على ذلك ، وتحالفا عليه ، وتسلم الأنبرور القدس فى هذه السنة فى ربيع الآخر على القاعدة التى ذكرناها [١] .

وفى تاريخ بيبرس : لم تزل الرسل تتردد بين الكامل وبين الأنبرور ، وأبى أن يرجع إلى بلاده إلا بما وقع الشرط عليه[٨١] من تسليم القدس إليه وبعض الفتوح الصلاحى ، وأبى الكامل أن يسلم إليه كل ذلك ، وتقرر الأمر آخر الحال أنه يسلم إليه القدس على شريطة أن يبقى خرابا ولايجدد سوره ، وأن لايكون للفرنج شىء من ظاهره البتة ، بل يكون جميع قراياه للمسلمين ، ويكون عليها وال للمسلمين ، ويكون مقامه بالبيرة من عمل القدس ، وأن الحرم الشريف بما حواه من الصخرة المقدسة والمسجد الأقصى يكون بأيدى المسلمين ، لايدخله الفرنج إلا للزيارة فقط ، ويكون شعار الإسلام به قائما على عادته ، ورأى الملك الكامل أن يرضى الفرنج بمدينة القدس خرابا ، ويهادنهم مدة ، ثم هو قادر على انتزاع ذلك منهم متى شاء ، وأنه متى شاقق الأنبرور ، ولم يف له بالكلية انفتح باب محاربة مع الفرنج ، ويتسع الخرق ويفوته كلما خرج بسببه ، وكان المتردد بينهما فى الرسائل الأمير فخر الدين بن الشيخ ، وكانت تجرى بينهم محاورات شتى ، ومسائل حكمية وغيرها ، ثم حلف الكامل على ماوقع عليه الاتفاق ، وحلف الأنبرور له ، وعقدوا عقد الهدنة مدة معلومة ، وقال الأنبرور للأمير فخر الدين بن الشيخ : لولا أنى أخاف انكسار جاهى عند الفرنج لما كلفت السلطان شيئا من ذلك ، ونودى فى القدس بخروج المسلمين وتسليمه إلى الفرنج ، فخرج المسلمون ووقع فيهم الضجيج والبكاء ، وحزنوا على خروجه من أيديهم ، وأنكروا على الكامل هذا الفعل ، واستشنعوه ورثوا القدس بأبيات منها :

عزيز علينا أن نرى القدس يخرب وشمس مبانيه تزول وتغرب
وقلت له : منا الدموع لأنه على مثله تجرى الدموع وتسكب[٢]

(١) ورد هذا الخبر بتصرف فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٤١ - ص٢٤٢ ؛ المختصر فى أخبار البشر ، ج٣ ، ص١٤١ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٥٠ - ص١٥١ ؛ السلوك ، ج١ق١ ، ص٢٣٠ ؛ شفاء القلوب ، ص٢٦٧ .
(٢) ورد هذان البيتان فى شفاء القلوب ، ص٢٦٨ .

ولما تم ذلك استأذن الأمبرور السلطان فى زيارة القدس ، فأذن له ، وتقدم إلى القاضى شمس الدين قاضى نابلس[١] بملازمته إلى أن يزور القدس ، ويرجع إلى عكا قرار ورجع ، وعمل الشيخ شمس[٢] الدين يوسف سبط جمال الدين بن الجوزى الواعظ مجلس وعظ بمدينة دمشق ، وذكر فيه القدس وماورد فيه من الآثار ، وأورد قصيدة فى ذلك[٣] منها :

على قبة المعراج والصخرة التى ... تُفاخر مافى الأرض من صخرات
مـــدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحى مُقفِر العرصات[٤] [٨٢]

وقال السبط[٥] فى المرآة : لما وصلت الأخبار بتسليم القدس إلى الفرنج قامت القيامة فى جميع بلاد الإسلام ، واشتدت العظائم بحيث أنه أقيمت المآتم ، وأشار الملك الناصر داود صاحب دمشق أن أجلس بجامع دمشق ، وأذكر ماجرى على بيت المقدس ، فما أمكننى مخالفته ، ورأيت من جملة الديانة والحمية للإسلام موافقته ، فجلست بجامع دمشق ، وحضر الناصر داود على باب مشهد على[٦] ، وكان يوما مشهودا ، ولم يتخلف من أهل دمشق أحد ، وكان من جملة الكلام : انقطع عن بيت المقدس وفود الزائرين ، ياوحشة المجاورين! كم كانت لهم فى تلك الأماكن من ركعة؟! كم جرت لهم على تلك المساكن من دمعة؟! تالله لو صارت عيونهم عونا لما وفت ، ولو تقطعت قلوبهم أسفا لما اشتفت ، أحسن الله عزاء المؤمنين ، ياخجلة ملوك المسلمين لمثل هذه الحادثة تسكب العبرات ، لمثلها ، تتقطع القلوب من الزفرات ، لمثلها تعظم الحسرات . وذكر كلاما طويلا .

(١) نابلس : مدينة مشهورة من أرض فلسطين بين جبلين .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٧٢٤ .

(٢) شمس الدين يوسف سبط جمال الدين بن الجوزى : العلامة الواعظ المؤرخ أبو المظفر يوسف بن قُزُغلى التركى ثم البغدادى الهبيرى الحنفى ، توفى رحمه الله فى ليلة الثلاثاء العشرين من ذى الحجة بمنزله بجبل الصالحية ، عام ٦٥٤هـ ، ودفن هناك .
انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٩٥ ؛ وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص١٤٢ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٢٠٦ - ٢٠٧ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص٢٦٦ - ص٢٦٧ .

(٣) وردت هذه الأحداث فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٤٣ - ص٢٤٤ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٥٠ - ص١٥١ ؛ السلوك ، ج١ق١ ، ص٢٣١ ؛ شفاء القلوب ، ص٢٦٧ - ص٢٦٩ .

(٤) ورد هذان البيتان فى شفاء القلوب ، ص٢٦٨ .

(٥) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٣٢ .

(٦) مشهد على : بالكوفة بالعراق .وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص١٧٦ .

وحكى أن فقيرا بات بالقدس ، فسمع قائلا يقول فى الليل هذه الأبيات :

إن يكن بالشـام قلَّ نصيـرى وتهـدمتُ ثم دام هُلُوكى
فلقـد أصبح الغـداة خـرابى سِمَـة العار فى حياة الملوك

وفى تاريخ ابن[1] العميد : تسلم الأنبرور مدينة القدس ، ومدينة لد[2] ، والأماكن التى[3] على الطريق ، وحضر الأئمة والمؤذنون الذين كانوا فى الصخرة والمسجد الأقصى إلى باب دهليز الملك الكامل ، وأذنوا على باب الدهليز فى غير وقت الآذان ، فعزَّ ذلك على الملك الكامل ، وأمر أن يؤخذ ما معهم من الستور[4] والقناديل الفضة وجميع الآلات ، ويتوجهوا إلى حال سبيلهم[5] .

وقال بيبرس فى تاريخه : ثم أقلع الأنبرور إلى بلاده ، واستمر مصافيا للملك الكامل ومُوَادًّا له إلى أن مات الكامل ، ثم استمر على موادة الملك الصالح نجم الدين أيوب بعده[6] . وفى المرآة[7] : وجرى للأنبرور عجائب منها : أنه لما دخل الصخرة رأى قسيسا قاعدا عند القدم يأخذ من الفرنج [٨٣] قراطيس[8] فجاء إليه كأنه يطلب منه الدعاء ، فلكمه ، فرماه إلى الأرض ، وقال : ياخنزير السلطان يصدق علينا بزيارة هذا المكان ، تفعلوا فيه هذه الأفاعيل ، لئن عاد دخل واحد منكم على هذا الوجه لأقتلنه . قال السبط[9] : وحكى لى صورة الحال قوَّام الصخرة ، ونظر إلى الكتابة التى فى القبة : وقد[10] طهر هذا البيت المقدس صلاح الدين من المشركين . فقال : ومن هم المشركين؟ وقال

(١) أخبار الأيوبيين ، ص١٦ .
(٢) لُد : قرية قرب بيت المقدس من نواحى فلسطين .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣٥٤ .
(٣) «التى طريقه» كذا فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه من أخبار الأيوبيين ، حيث ينقل عنه العينى ، ص١٦ .
(٤) الستور : مفرده« الستر والساتر» وهو مايُسْتر به كائنا ماكان . ويقال لما ينصبه المصلىُ قدُامه علامة لمصلاة من عصا وتسنيم تراب وغيره(سترة) لأنه يستر المار من المرور أى بحجبه . المصباح المنير ، مادة (ستر) .
(٥) إلى هنا توقف العينى عن النقل من ابن العميد ، أخبار الأيوبيين ، ص١٦ .
(٦) ورد هذا الخبر فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٤٦ - ص٢٤٧ .
(٧) سبط ابن الجوزى ، ج٨ ، ص٤٣٣ - ص٤٣٤ .
(٨) قراطيس : المفرد «قرطاس» وهو ما يكتب فيه ، والقرطاس قطعة من أديم تنصَّب للنضال فإذا أصاب الرامى قيل : قرطس قرطسة ، وكسر القاف أشهر من ضمها .
انظر : المصباح المنير ؛ محيط المحيط ، مادة «قرط»
(٩) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٣٣ - ص٤٣٤ .
(١٠) «وهى» كذا فى الأصل ، والمثبت من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٣٣ ، حيث ينقل عنه العينى .

وللقَوَّام : هذه الشَباك التى على أبواب الصخرة من أجل إيش؟ قالوا : لئلا يدخلها العصافير . فقال : قد أتى الله إليكم بالخنازير . قالوا : ولما دخل وقت الظهر ، وأذن المؤذنون ، قام جميع من كان معه من الفراشين والغلمان[1] ومعلمه ، وكان من صقلية يقرأ عليه المنطق ، فصلوا وكانوا مسلمين ، قالوا : وكان الأنبرور أشقرا أمْعط ، فى عينيه ضعف ، لو كان عبدا مايساوى مائتى درهم . قالوا : والظاهر من كلامه أنه كان دهريا[2] وإنما كان يتلاعب بالنصرانية . قالوا : وكان الكامل قد تقدم إلى القاضى شمس الدين قاضى نابلس أن يأمر المؤذنين مادام الأنبرور فى القدس لايصعدون[3] المنابر ، ولايؤذنون[4] فى الحرم ، فأنسى القاضى أن يُعْلِم المؤذنين ، فصعد عبد الكريم المؤذن فى تلك الليلة وقت السحر ، والأنبرور نازل فى دار القاضى ، فجعل يقرأ الآيات التى تختص بالنصارى ، مثل قوله تعالى :«ما اتخذ[5] الله من ولد ذلك عيسى بن مريم» ونحو هذا ، فلما طلع الفجر استدعى القاضى عبد الكريم وقال له : إيش عملت؟ السلطان رسم كذا وكذا . قال : فما عرفتنى التوبة . فلما كانت الليلة الثانية ، ماصعد عبد الكريم المأذنة ، فلما طلع الفجر استدعى الأنبرور القاضى ، وكان قد دخل القدس فى خدمته ، وهو الذى سلم إليه القدس ، فقال له : ياقاضى أين ذاك الرجل الذى طلع بارحه أمس المنارة ، وذكر ذاك الكلام؟ فعرفه أن السلطان أوصاه . فقال الأنبرور : أخطأتم ياقاضى تغيرون أنتم شعاركم ودينكم لأجلى ، فلو كنتم عندى فى بلادى هل كنت أبطل ضرب الناقوس لأجلكم؟! الله الله ، لاتفعلوا هذا أول ماتنقصون عندنا ، ثم فرق فى القوام والمؤذنين والمجاورين جملة ، أعطى كل واحد [٨٤] عشرة دنانير ، ولم يقم بالقدس سوى ليلتين ، وعاد إلى يافا ، وخاف من الداوية[6] فإنهم عزموا على قتله[7] .

---

(١) والغلمان والغلمان» كذا فى الأصل ، والمثبت من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٣٣ ، حيث ينقل عنه العينى .

(٢) الدهرى : هو الملحد القائل ببقاء الدهر أى الذى يقول أن العالم موجود أزلا وأبدا لا صانع له . وقد جاء ذكرهم فى سورة الأنعام . وقالوا إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر» . والدهرية كذلك فرقة من الكفار ذهبوا إلى قدم الدهر وأسندوا ، مايقع من الحوادث إلى الدهر .
انظر : محيط المحيط ؛ المصباح المنير ، مادة (دهر) .

(٣) «لايصعدوا» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .

(٤) «لايؤذنوا» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .

(٥) قال الله تعالى : ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ ، سورة مريم ، آية (٣٤ ، ٣٥) .

(٦) الداوية : تطلق على جمعية فرسان المعبد Templiers وقد أسسها Hugh de payns عام ١١١٩ وذلك لحماية طريق الحجاج المسيحيين بين يافا وبيت المقدس .King: Knight Hospitallerspp - 1-33

(٧) إلى هنا توقف العينى عن النقل من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٣٣ - ص٤٣٤ .

ذكر مجئ الكامل على دمشق وأخذه من الناصر داود

لما تسلم الأنبرور القدس وكان فى ربيع الآخر من هذه السنة ، كان الملك الناصر محصورا فى دمشق ، وعمه الملك الأشرف يحاصره بأمر الملك الكامل ، ولما جرى الاتفاق بين الملكين الكامل والأشرف على نزع دمشق من الناصر ، كان الناصر حينئذ بنابلس ، فلما بلغه الخبر رحل إلى دمشق ، وكان عمه الأشرف لحقه بالغور(١) ، وعرفه ما أمر به عمه الكامل ، وأنه لايمكنه الخروج عن مرسومه(٢) ، فلم يلتفت الناصر إلى ذلك ، وسار إلى دمشق ، وسار الأشرف فى أثره ، وحصره بدمشق ، ثم أن الكامل لما عقد الهدنة مع الأنبرور ، وخلا سره من جهة الفرنج ، سار إلى دمشق ، ووصل إليها فى جمادى الأولى من هذه السنة ، واشتد الحصار على أهل دمشق ، ووصل إلى الكامل رسول الملك العزيز صاحب حلب ، وخطب بنت الكامل ، فزوجه بنته فاطمة خاتون ، التى هى من الست السوداء أم ولده أبى بكر العادل بن الكامل ، ثم استولى الملك الكامل على دمشق ، وعوض الناصر عنها الكرك(٣) والبلقاء(٤) والصلت(٥) والأغوار والشوبك(٦) ، وأخذ الكامل لنفسه البلاد الشرقية ، التى كانت قد عينت للناصر ، وهى حران والرها وغيرهما ، التى كانت بيد الملك الأشرف ، ثم نزل الناصر عن الشوبك ،

---

(١) الغور : هو غور الأردن بالشام بين بيت المقدس ودمشق ، وهو منخفض عن أرض دمشق وأرض البيت المقدس ولذلك سمى بالغور . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٨٢٢ .

(٢) مرسوم : المقصود به المرسوم السلطانى ، والجمع «مراسيم» ، ويكتبها مستوفى الصحبة ، ويعلم عليها السلطان ، تارة تكون بما يعمل فى البلاد ؛ وتارة بإطلاقات ، وتارة بإستخدامات كبار فى صغار الأعمال ومايجرى مجراها ، وفى ديوان الصحبة تثبت التواقيع والمراسيم السلطانية ، وتصدر المراسيم السلطانية كذلك باعتماد حضور رسل الملوك . انظر : مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص٣٠٧ .

(٣) الكرك : اسم لقلعة حصينة جدا فى أطراف الشام من نواحى البلقاء .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٢٥١ - ص٢٥٢ .

(٤) البلقاء : كورة من أعمال دمشق ، بين الشام ووادى القرى ، قصبتها عمان .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٧٣٨ .

(٥) الصلت : بليدة واقعة من جند الأردن فى جبل الغور الشرقى جنوبى عجلون .
انظر : تقويم البلدان ، ص٢٤٥ .

(٦) الشوبك : قلعة حصينة فى أطراف الشام بين عمان وأيلة قرب الكرك .
انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٣٣٢ .

وسأل عمه الكامل فى قبولها ، فقبلها ، وتسلم الأشرف دمشق ، وتسلم الكامل من الأشرف البلاد الشرقية المذكورة ، ولما سلم الكامل دمشق إلى أخيه الأشرف ، وسار من دمشق ونزل بمجمع المروج[١] ثم نزل سلمية وقصده أخذ حماة على مانذكره[٢] .

وفى تاريخ بيبرس : ولما حاصر الأشرف دمشق ، أرسل إلى أخيه الكامل يستعجله على القدوم إلى دمشق ، فرحل من تل العجول ووصل إلى ظاهر دمشق فى جمادى الأولى من هذه السنة ، واتفق هو والأشرف على محاصرة البلد ومضايقته ، وقطعوا الماء عنه ، وشرب الناس من الآبار ، وكان الدمشقيون يخرجون إلى [٨٥] العسكر المصرى ويقاتلون محبة فى صاحبهم ، وطالت مدة الحصار إلى آخر رجب من هذه السنة ، فعظم ذلك على أهل دمشق ، واشتد الأمر وغلا السعر ، وفارق من العسكر الدمشقى أرغش المعظمى وهو من أمراء الملك الناصر ، وجماعة ، ونفدت النفقات من عند الناصر ، فإنه أنفق فى هذه المدة جميع ما فى الخزائن ، وشرع فى ضرب ماعنده من الأوانى الفضية والذهبية دراهم ودنانير ، وأتى على أكثر ما عنده من الذخائر[٣] .

وفيها وصل إلى الكامل وهو على دمشق رسول الملك العزيز[٤] غياث الدين محمد ابن الملك الظاهر غازى فى خطبة ابنته للملك العزيز ، وكان الرسول القاضى بهاء[٥] الدين بن شداد ، وحمل المهر وعقد العقد بحضور الملك الأشرف ووليه من جهة الكامل

---

(١) مجمع المروج : واحدها «مرج» وهى الأرض الواسعة فيها نبت كثير تمرج فيها الدواب ، وأصل المرج القلق ، وهى فى مواضع كثيرة كل مرج منها يضاف إلى شئ .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٤٨٧ .

(٢) وردت هذه الأحداث فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٨٣ - ص٤٨٤ ؛ الذيل على الروضتين ، ص١٥٥ - ص١٥٦ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٥٦ - ص ٢٥٨ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٤٢ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٥٣ - ص١٥٥ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ١٣٣ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص ٤٣٤ ؛ السلوك ، ج١ق١ ، ص٢٣٤ - ص٢٣٥ ؛ أخبار الأيوبيين ، ص١٦ .

(٣) وردت هذه الأحداث فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٥٢ - ص٢٥٣ ؛ السلوك ، ج١ق١ ،ص٢٣٤ .

(٤) الملك العزيز غياث الدين أبو المظفر محمد بن الملك الظاهر غازى ، ولد يوم الخميس خامس ذى الحجة سنة ٦١٠هـ بقلعة حلب ، وتوفى يوم الأربعاء رابع شهر ربيع الأول سنة ٦٣٤هـ ، ودفن بالقلعة .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٩ - ص١٠ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١٦٨ .

(٥) القاضى بهاء الدين بن شداد : هو يوسف بن رافع بن تميم ، توفى بحلب سنة ٦٣٢هـ ، وولد سنة ٥٣٩هـ .
انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٦٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٥٣ - ص١٥٤ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١٥٨ .

الأمير عماد[١] الدين بن الشيخ على فاطمة[٢] خاتون ـ وهى شقيقة العادل أبى بكر بن الكامل ـ على صداق مبلغه خمسون ألف دينار، وقبل النكاح عن الملك العزيز القاضى بهاء الدين المذكور[٣] .

ولما طالت مدة الحصار، ونفد ما فى يد الملك الناصر من الأموال والذخائر، علم أنه لاقبل له بعمه الكامل، فخرج ليلا من قلعة دمشق فى العشر الآخر من رجب، وقصد جهة الدهليز[٤] فى نفر يسير من أصحابه، وبلغ عمه مجيؤه فخرج إليه وتلقاه وأكرمه إكراما كثيرا، وطيب قلبه، وعاتبه عتابا كثيرا، ثم أمره بالرجوع إلى قلعة دمشق، ثم أرسل إليه بعد يومين الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ من جهة السلطان، وكان يوم الجمعة، فصلى الجمعة بجامع القلعة، ثم خرج هو والملك الناصر إلى السلطان، ووقع الاتفاق والتحالف، وأقر عز الدين[٥] أيبك المعظمى على صرخد[٦] والملك الصالح والملك العزيز ابنا الملك العادل، وابن أخيهما المغيث عى مابأيديهم، وقرر للملك الناصر داود الكرك، والشوبك، وأعمالهما، والصلت، والبلقاء، والأغوار، ونابلس، وأعمال البيت المقدس، وبيت جبريل[٧]، ونزل الناصر عن الشوبك للكامل لتكون خزانة

---

(١) عماد الدين بن الشيخ : هو الشيخ عماد الدين عمر أحد أبناء صدر الدين على بن حمويه شيخ الشيوخ، وكان أحد إخوة الملك الكامل من الرضاع لأن أمه وهى بنت الشيخ شرف الدين بن أبى عصرون الفقيه الكبير أرضعته، ولد يوم الاثنين ١٦ شعبان سنة ٥٨١هـ بدمشق، ومات مقتولا فى السادس والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٣٦هـ، ودفن بجبل قاسيون .
انظر : الذيل على الروضتين، ص١٦٨ ؛ شذرات الذهب، ج٥، ص١٨١ .

(٢) فاطمة خاتون : هى فاطمة بنت الملك الكامل بن العادل محمد بن أبى بكر بن أيوب، ابن عم أبيها العزيز محمد ابن الظاهر غازى بن الناصر يوسف بن أيوب، أخذها أبوها فى صحبته لما توجه إلى الشرق سنة ٦٢٩هـ، واحتفل لها العزيز احتفالا كليا . انظر : شفاء القلوب، ص٣٤٤ .

(٣) وردت هذه الأحداث فى مفرج الكروب، ج٤، ص٢٥٤ ـ ص٢٥٥ ؛ نهاية الأرب، ج٢٩، ص١٥٧ ؛ السلوك، ج١ق١، ص٢٣٣ ـ ص٢٣٤ .

(٤) الدهليز : خيمة الملك أو السلطان، أو الخيمة الكبيرة .
انظر : نهاية الأرب، ج٢٩، ص١٥٤ .

(٥) عز الدين أيبك المعظمى : صاحب صرخد، توفى فى أوائل جمادى الأولى من سنة ٦٤٦هـ فى موضع اعتقاله بالقاهرة، ودفن خارج باب النصر فى تربة شمس الدولة .
انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان، ج٣، ص٤٩٦ ؛ ذكره ابن كثير فى البداية والنهاية ضمن وفيات سنة ٦٤٥هـ، ج١٣، ص١٨٦ .

(٦) صرخد : بلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، وهى قلعة حصينة وولاية حسنة واسعة .
انظر : معجم البلدان، ج٣، ص٣٨٠ .

(٧) بيت جبريل : أو بيت جبرين، بليد بين بيت المقدس وغزة، بينه وبين القدس مرحلتان كانت فيه قلعة حصينة، خربها صلاح الدين لما استنقذ القدس من الإفرنج .
انظر : معجم البلدان، ج١، ص٧٧٦ .

له وبقى له [٨٦] مع الشوبك الخليل[١] وطبرية[٢] وغزة وعسقلان والرملة ولُد ، وسائر السواحل التى[٣] بأيدى المسلمين ، ثم رجع الناصر إلى قلعة دمشق ، وفتحت أبواب البلد مستهل شعبان ، ودخل العسكر المصرى من جميع الأبواب ، وامتلأت البلد بهم وحزن الدمشقيون حزنا عظيما ، ودخل والى الكامل إلى القلعة وتسلمها[٤] .

وولى فى المدينة عز الدين بن ملكشو ، وسلمها إلى أخيه الأشرف ، وأخذ منه عوضا عنها البلاد الشرقية ، التى كانت عينت أولا للملك الناصر وهى : حران والرقة ، والرها ، وسروج ، ورأس عين ، وجُملين ، والموزر ، وأرسل نوابه إليها فتسلموها من نواب الأشرف ، وبقى للأشرف بالبلاد الشرقية نصيبين ، وسنجار ، والخابور ، وبلاد خلاط ، وكانت ميافارقين بيد أخيهما المظفر[٥] شهاب الدين غازى ، وقلعة جعبر بيد أخيهما الملك الحافظ[٦] أرسلان [٧]شاه ، ثم سافر الناصر بأهله وأخوته ومن يتعلق به إلى الكرك ، وتسلم البلاد التى عينت له ، ثم أمر الكامل العساكر بالتبريز إلى جهة حماة لأخذها من صاحبها الملك الناصر[٨] قليج أرسلان بن المنصور[٩] .

(١) الخليل : اسم موضع وبلدة فيها حصن وعمارة وسوق بقرب البيت المقدس .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤٦٨ .
(٢) طبرية : بليدة مطلة على البحيرة المعروفة ببحيرة طبرية من أعمال الأردن .
انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٥٠٩ .
(٣) «الذى» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه ؛ بالكامل ، ج١٢ ، ص٤٨٣ ـ ص٤٨٤ .
(٤) وردت هذه الأحداث بتصرف فى الكامل ، ج١٢ ، ص ٤٨٤ ؛ الذيل على الروضتين ، ص١٥٥ ـ ص١٥٦ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٥٦ ـ ص٢٥٧ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٥٣ ـ ص١٥٥ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ١٣٢ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص ٤٣٤ ؛ السلوك ، ج١ق١ ، ص ٢٣٥ ؛ أخبار الأيوبيين ، ص١٦ .
(٥) المظفر شهاب الدين غازى بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى بن الملك العادل ، توفى فى رجب سنة ٦٤٥هـ بميافارقين .
انظر ترجمته فى : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٣٣٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٨٦ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٢٣٣ .
(٦) الملك الحافظ أرسلان شاه بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك الحافظ نور الدين العادل ، توفى سنة ٦٤٠هـ ، وقيل فى ذى الحجة سنة ٦٣٨هـ ، ودفن بالفردوس .
انظر : شفاء القلوب ، ص٢٧٦ ؛ ترويح القلوب ، ص٨٠ .
(٧)«رسلان شاه» كذا فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه من مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٥٨ ؛ شفاء القلوب ، ص٢٧٦ .
(٨) الملك الناصر قليج أرسلان بن المنصور : هو الملك الناصر قليج أرسلان بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب ابن شاذى الملك الناصر ، صلاح الدين بن الملك المنصور بن المظفر صاحب حماة ، ولد سنة ٦٠٠هـ ، وتوفى سنة ٦٣٠هـ . انظر ترجمته فى : المختصر ، ج٣ ، ص١٢٦ ؛ شفاء القلوب ، ص٣٥٤ ـ ص٣٥٦ .
(٩) وردت هذه الأحداث فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٥٧ ـ ص٢٥٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ١٣٣ ؛ السلوك ، ج١ق١ ، ص ٢٣٦ .

وفى المرآة[١] : ولما أقام الأشرف بدمشق دخل عليه ابن عنين الشاعر فلم يرمنه ما كان يعهده من مجالس المعظم ، وما كان يجرى فيها من الهنات ، وقذف المحصنات ، فإن ابن عنين كان هجاء ، خبيث اللسان ، فشرع فيما كان يفعله ، فنهاه الأشرف ، وقال : مامجالسى كما عهدت ، يكفينى ما أنا فيه ، حتى أضيف إليه ثلب المسلمين ، فخرج من عنده وعمل فيه :

وكُنَّا نُرَجى بعد عيسى[٢] محمدا[٣] لينقذنا من شدة الضر والبلوى
فأوقعنا فى تيه موسى[٤] كما ترى حيارى فلا مَن لديه ولاسلوى

وبلغ الأشرف فقال : هذا الملعون ، إذا لم يكن عندى من ولاسلوى فعند من؟ وأمر بقطع لسانه ، فدخل على جماعة ، وحلف أنه ما قال هذا ، فقال الأشرف : هذا ما أفلت من لسانه أحد ، ولابد من قطعة فهرب إلى [٨٧] بلاد زُرَع[٥] وحوران ، وسكت الأشرف عنه[٦] .

ذكر توجه الكامل إلى حماة

ولما فرغ شغل الكامل من جهة دمشق رحل بعساكره ، ووصل إلى مجمع المروج ، ثم رحل إلى سلمية ، قاصدا التوجه إلى الشرق للإشراف على بلاده التى تسلمها من أخيه الأشرف ، وتقدم إلى المظفر[٧] تقى الدين محمود بن المنصور بمحاصرة حماة ، وبعث معه الملك المجاهد[٨] أسد الدين شيركوه وأخويه العزيز والصالح ، ابنى العادل

(١) سبط ابن الجوزى ، ج٨ ، ص٤٣٤ - ص٤٣٥ .
(٢) عيسى : يقصد به الملك المعظم صاحب دمشق .
انظر : نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٥٦ ، حاشية(١) .
(٣) محمدا : يقصد به الملك الكامل .
انظر : نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٥٦ ، حاشية(٢) .
(٤) موسى : يقصد به الملك موسى الأشرف .
انظر : نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٥٦ ، حاشية(٣) .
(٥) زُرَع : بلدة من بلاد حوران .
انظر : نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٥٦ ، حاشية(٤) .
(٦) إلى هنا توقف العينى عن النقل من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٣٤ - ص٤٣٥ .
(٧)المظفر تقى الدين محمود بن المنصور هو ابن ملكة خاتون بنت أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، ويأتى فى الطبقة الخامسة وهو محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى ، ولد سنة ٥٩٩هـ ، وملك حماة وعمره نحو سبع وعشرين سنة ، وتوفى سنة ٦٤٢هـ .
انظر : المختصر ، ج٣ ، ص١٤٤ ؛ شفاء القلوب ، ص٣٥٠ .
(٨)المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شاذى صاحب حمص ، وتوفى بها سنة ٦٣٧هـ .
انظر ترجمته فى : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٦٦ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١٨٤ ؛ ترويح القلوب ، ص٦٧ ، وقد ذكر فيه الزبيدى أنه توفى سنة ٦٣٦هـ .

فنازلوها ونصبوا عليها آلات الحصار ، ونزل صاحبها الناصر قليج أرسلان إلى البلد ، وارتقى السور وعاين كثرة العساكر المحيطة بالبلد ، فأضمر فى نفسه العزم على[1] النزول إلى خاله الكامل وهو بسلمية ، وبها نواب المظفر ، فأرسل قليج أرسلان إلى المجاهد أسد الدين شيركوه يخبره بأنه ينزل إليه ، ويمضى معه إلى خدمة الملك الكامل ، فركب المجاهد ووقف خارج البلد ينتظره ، فنظر إليه فى العشر الآخر من شهر رمضان المعظم ، ومضى معه إلى المعسكر الكاملى بسلمية ، فلما دخل الناصر على الكامل صاح عليه وانتهره ، وكان ممتلئا غيظا منه لأشياء كثيرة بلغته عنه ، ثم أمر باعتقاله ، فاعتقل ، ثم بعث إليه يأمره أن يبعث إلى النواب بقلعة حماة علامة يعرفونها ، ليسلموا القلعة إلى نواب السلطان الكامل ، فأجاب إلى ذلك ، وأنفذ العلامة إلى النواب ، وأمرهم بتسليم القلعة إلى نواب الكامل ، وكان بقلعة حماة بعض أولاد المنصور ومماليكه ، والطواشيان بشير ومُرْشد خادما المنصور ، وسير السلطان الأمير مجد[2] الدين أخا الفقيه[3] عيسى الهكارى ومثقال[4] الجمدار ليتسلما القلعة ، فامتنع من كان بها من أولاد الملك المنصور ومماليكه وخدامه من تسليمها إلى الملك الكامل ، وركبوا الملك المعز بن الملك المنصور شقيق الملك المظفر والناصر. وأمهم جميعا الملكة[5] خاتون بنت الملك

---

(١) «إلى» كذا فى الأصل ، والمثبت هو الصحيح لغة .

(٢) الأمير مجد الدين عمر بن محمد بن عيسى ، أبو حفص الهكارى ، أخو الفقيه عيسى ، ولد فى رجب سنة ٥٦٠هـ ، وتوفى فى الثالث والعشرين من ذى القعدة سنة ٦٣٦هـ بالقاهرة ، ودفن بسفح المقطم .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٩٨ .

(٣) الفقيه عيسى الهكارى : هو ضياء الدين عيسى الهكارى ، أبو محمد عيسى بن محمد بن عيسى بن محمد ، أحد أمراء الدولة الصلاحية ، كبير القدر ، وافر الحرمة ، يؤخذ برأيه فى الأمور الهامة ، توفى يوم الثلاثاء ، تاسع ذى القعدة سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م بمنزلة الخروبة .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٩٧ ـ ص٤٩٨ ؛ السلوك ، ج١ق١ ، ص١٠٣ .

(٤) مثقال الجمدار : هو سابق الدين مثقال الجمدار الناصرى الصلاحى ، وكان أحد خدام العاضد خليفة مصر ، ثم صار للسلطان الملك الناصر صلاح الدين ، وعَمَّر عمرا طويلا إلى آخر أيام الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل ، فأدرك أول الدولة الأيوبية بمصر وآخرها .
انظر : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٦٩ .

(٥) الملكة خاتون بنت الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب صاحب مصر : هى مؤنسة خاتون الملقبة بدار إقبال ودار القطبية ، وهى المحدثة المعمرة ، روت الإجازة عن عفيفة الفارقانية ، ولدت سنة ٦٠٣هـ ، وتوفيت سنة ٦٩٣هـ فى ربيع الآخر بالقاهرة ، ودفنت بباب زويلة .
انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٣٥٦ ؛ ترويح القلوب ، ص٨٠ .

العادل ، ونادوا فى حماة فى شعاره[١] ، وقالوا : هذا بدل الملك الناصر ، والبلد له ، وكان صبيا صغيرا ، ولم يمكنوا الأمير مجد الدين الهكارى ومثقال [٨٨] الجمدار الكاملى من الصعود إلى القلعة ، وأنزلوا إليهما الملك المعز فاجتمع بهما ، وقال لهما : هذه القلعة لى ولإخوتى نقوم عليها ، وأى واحد منامات كان فينا من يقوم مقامه ، وليس بيننا وبين من يقصدنا إلا السيف . ثم رجع إلى القلعة ، ورجع مجد الدين ومثقال الجمدار ، فصاحت عامة البلد عليهما ورجموهما بالحجارة ، فرجعا إلى السلطان وأخبراه بذلك ، فحينئذ أرسل الكامل إلى ابن أخته المظفر تقى الدين محمود يأمره أن يتفق مع مماليك أبيه على تسليم القلعة إليه ، وكان نازلا بظاهر البلد مع العسكر ، محاصرا له ، فراسلهم المظفر فى ذلك ، فأجابوه إلى تسليم القلعة إليه ، وأرسلوا إليه من يستحلفه لهم ، فخرج إليه جماعة من الأعيان ، فاجتمعوا به فى الجوسق[٢] الذى[٣] بناه الناصر أخوه على العاصى ، واستحلفوه لمن فى القلعة ، وشرطوا عليه أن لايدخل البلد إلا بجماعته خاصة ، وأن لايدخله أحد من عسكر الكامل ، فأجاب إلى ذلك وواعده الوصول بجماعة إلى باب النصر ليلا ليفتحوه له ، فجاءهم فى الليلة الثانية إلى باب النصر ، ففتحوا له فدخل بجماعته ثم أغلق الباب ومضى إلى دار أبيه المعروفة بدار الأكرم[٤] فنزلها ، وأصبح الناس قاصدين بابه مهنئين له بمصير الملك إليه ، وكان أهل حماة قد حلفوا له بولاية عهد أبيه المنصور سنة ست عشرة وستمائة ، وجرى من تغلب أخيه على الملك ماجرى كما ذكرناه ، فعاد الحق إلى نصابه واستقر فى أربابه ، وفرحت الرعية بملكه ، وكانوا خائفين من تغلب الكامل على البلد ، فأمنوا من ذلك ، وكانت[٥] مدة الملك الناصر لحماة وبلادها تسع سنين إلا شهرين ، وصعد المظفر القلعة فتسلمها ، وأخذ الكامل منه سلمية ،

---

(١) شعار : الشعار هو علامة يتميز بها القوم عن غيرهم ، وشعار السلطنة هى أنواع الملابس والأدوات والترتيبات التى كان السلطان يظهر بها فى المواكب الحافلة .
انظر : مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص٢٠٢ .

(٢) الجوسق : هو لفظ معرب من الفارسى على كلمة «كوسك» ومعناه القصر الصغير .
انظر : المعجم الوسيط ، ص١٥٢ ـ ص١٥٣ ؛ معجم الألفاظ التاريخية ، ص٥٧ .

(٣) «التى» كذا فى الأصل ، والمثبت هو الصحيح لغة .

(٤) دار الأكرم : هى دار الوزير خُطَير الدين الأكرم بن الدخماسى بالجانب من حماة المعروف بالسوق الأعلى ، وهى معروفة بدار الإكرام ، وهى الآن مدرسة تعرف بالخاتونية ، وقفتها عمة مؤنسة خاتون بنت الملك المظفر محمود ابن المنصور .
انظر : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٧١ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٤٤ .

(٥) «وكان» كذا فى الأصل ، والمثبت هو الصحيح لغة .

فسلمها إلى المجاهد أسد الدين حسبما وقع عليه الاتفاق، وبقى فى يد المظفر حماة والمعرة وبعرين، وهُنِّى بقصائد .[1] منها ما أنشده الشيخ شرف[2] الدين عبد العزيز ابن محمد الأنصارى الدمشقى :

تناهى إليك المُلْكُ واشتد كاهله — وحل بك الراحى فحطت رواحله[٨٩]
ألا هكذا فليمنع المجد مانع — ألا هكذا فليبذل الجود باذله
ترحلت عن مصرَ فامحل روضها — ولما حللت الشام رُوّض ماحله
وعزت حماة فى حمى ليث غاية — بصولته تحمى كُليب ووابله
وقد طال ماذلَّت بتدبير أهوج — يخيبُ مُرَجّيه ويحرم سائله
وأمضى عليها الشكرُ فرضا لفوزها — بذى كرم فاضت عليها نوافله
سبقت إلى ورد العُلى كلَّ سابق — فما نال الأفضل ما أنت نائله
وعدَّلْت بالعدل الزمان وردتَه — سنا فاستوت أسحارُه وأصائله
إذا فاعِلٌ دام ارتفاعا بفعله — ففعلك مرفوعٌ بأنك فاعله
وذى أمل أعطيت فوق سؤله — فغاضت أمانيه وفاضت مناهله
دعا وسبقت العدل بالسيف رادعا — له فاهتدى لما أُصِيبت مقاتله
أَبرَّ تقى الدين مجدا وسؤددا — فتمت عطاياه وتمت فضائله
وفاق على الأملاك معنى وصورة — فراق مُحيَّاهُ ورقت شمائله
هم القوم إن سيمُوا وعودًا بآجل — سَمَاهُم جوادٌ يَسْبقُ الوَعَدَ عاجلهُ
وإن شغلتهم دُميةٌ أو مدامة — بلهْوٍ فلا هَزْل عن الجد شاغلُه
فما لبنى أيوب مُلكٌ ساجِلٌ — ولافى بنى أيوب ملك يسُاجَلهُ

(١) وردت هذه الأحداث باستفاضة فى الكامل، ج١٢، ص ٤٨٦ - ص٤٨٧ ؛ الذيل على الروضتين، ١٥٦ ؛ مفرج الكروب، ج٤، ص٢٦٥ - ص٢٧٤ ؛ المختصر، ج٣، ص١٤٣ - ص١٤٥ ؛نهاية الأرب، ج٢٩، ص١٥٦ - ص١٥٧ ؛ البداية والنهاية، ج١٣، ص١٣٣، السلوك، ج١ق١، ص٢٣٥ - ص٢٣٦ ؛ تاريخ حلب، ص٩٥٣ - ص٩٥٤ ؛ أخبار الأيوبيين، ص١٦ .

(٢) الشيخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد بن عبد المحسن بن منصور بن خلف الأنصارى الدمشقى، وكان أبوه زين الدين ينوب فى القضاء بحماة عن القاضى ضياء الدين بن الشهر زورى، لما ولى الحكم بحماة، وكان الشيخ شرف الدين فاضلا متأدبا جيد النظم والترسل .
لمعرفة المزيد من ترجمته انظر : مفرج الكروب، ج٤، ص٢٧٣ - ص٢٧٤ .

فكَمْ فُضٍّ ضيقٌ حين زارت هباته | وضاق فضاء حين زادت جَحافله
مليكٌ لشمل المكرمات مُجمعٌ | فلا جمع إلا وهو بالبذل شاملُه
وبحرٌ طويل الباع مُنْسرح الندى | بسيط المعالى وافر الفضل كامله
يَذِلُّ مُعاديه ويعتزُّ جارُه | وتُرجَى عطاياهُ وتُخْشى غوائلُه
ويلقى حصينات الدُّرُوع غنيمة | إذا ما التقى أقرانُهُ وعواملِه
دعاه إلى حُبِّ المواضى مضاؤه | وهل يصحب الإنسان من لايشاكله
وعمَّ اليتامى والأراملَ برُّه | فكل الورى أيتامُه وأراملهُ
وقد كانت الدنيا تحاول كاملا | فقد أدْركت فى عصره ماتُحاوله[٩٠]
بلغتُ بمدحى فيه أبلغَ غايةٍ | فَبُلِّغت من جَدْوَاه ما أنا آمِلُه
ومن جُوده شكرى ولم تُثْن روضةٌ | على المزن بل أثنى على المزن وابله
تعدى نداه الجمَّ أقصى مآربى | فأفضلت مما أمطرتنى فواضله
وقر قرارى فى جنات جنانه | وقد قلقلت يابن الحسين قلاقلهُ
وصار قريضى مدح أشرف ضيغمَ | فلم له يبذله فى غزال أُغَازِلُه[١]

وفى تاريخ ابن كثير[٢] : ولما فتحوا باب[٣] النصر وقت السحر للملك المظفر دخل منه ، ومضى إلى دار الوزير المعروفة بدار الأكرم داخل باب الغار ، وهى الآن مدرسة تعرف بالخاتونية ، وقفتها مؤنسه[٤] خاتون بنت الملك المظفر المذكور ، وأقام المظفر فى دار الأكرم يومين ، وصعد فى اليوم الثالث إلى القلعة ، وتسلمها . وجاء عيد الفطر من هذه السنة والملك المظفر مالك لحماة ، وعمره يومئذ نحو سبع وعشرين سنة ، لأن مولده سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، وكان أخوه الناصر قليج أرسلان أصغر منه بسنة . ولما ملك

(١) ورد هذا الشعر فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٧٤ ـ ص٢٧٦ .
(٢) بالبحث لم نجد هذه الأحداث فى تاريخ ابن كثير ، ولكن وجدناها فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٧١ ـ ٢٧٤ .
(٣) المقصود باب النصر بدمشق . الدارس ، ج١ ، ص٢٧٨ .
(٤) مؤنسة خاتون بنت الملك المظفر : هى بنت المظفر محمود بن المنصور محمد بن المظفر عمر بن شاهنشاه بن أيوب بن شاذى ، عمرت بحماة المدرسة الخاتونية ، وهى دار الوزير المعروفة بـ «دار الأكرم» .
انظر : شفاء القلوب ، ص٣٩٦ .

المظفر حماة فوض تدبير أمرها إلى الأمير سيف الدين على بن أبى على الهذبانى ، وكان سيف الدين بهذا قد خدم الملك المظفر بعد ابن عمه حسام الدين بن أبى على ، الذى كان نائب السلطنة للملك المظفر بسلمية لما سلمت إليه ، وهو بمصر عند الكامل ، ثم حصل بين المظفر وبين حسام الدين المذكور وحشة ، ففارقه حسام الدين واتصل بخدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب بن الملك الكامل ، وحظى عنده ، وصار أستاداره ، وخدم ابن عمه سيف الدين على المذكور الملك المظفر ، وكان يقول له : أشتهى أنى أراك صاحب حماة وأكون بعين واحدة . فأصيبت عين سيف الدين على حصار حماة لما نازلها عسكر الكامل ، وبقى بفرد عين ، فحظى عند المظفر لذلك ، ولأجل كفاية سيف الدين المذكور وحسن تدبيره .

ذكر رحيل الملك الكامل إلى بلاد الشرق

[٩١] ولما استقر الملك المظفر فى حماة رحل الملك الكامل عن سلمية إلى البلاد الشرقية التى أخذها من أخيه الملك الأشرف ، عوضا عن دمشق ، فنظر فى مصالحها ، ثم سار الملك المظفر من حماة ، ولحق الملك الكامل وهو بالشرق ، وعقد له الملك الكامل هناك على ابنته غازية[١] خاتون ابنة الكامل وهى شقيقة الملك المسعود[٢] صاحب بلاد اليمن ، وهى والدة الملك المنصور[٣] صاحب حماة ، وأخيه الملك الأفضل نور الدين على ابنى الملك المظفر محمود ، ثم عاد الملك المظفر إلى حماة ، وقد قضيت أمانيه بملك حماة ، بخاله الملك الكامل ، وكان يتمنى ذلك لما كان

---

(١) غازية خاتون : بنت محمد بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الصاحبة بنت الملك الكامل بن العادل ، تزوجها ابن ابن ابن عم أبيها المظفر محمود بن المنصور محمد بن المظفر عمر بن شاهنشاه بن أيوب سنة ٦٢٦هـ ، توفيت فى ذى القعدة سنة ٦٥٦هـ .

انظر : شفاء القلوب ، ص٣٤١ ـ ص٣٤٣ .

(٢) الملك المسعود : هو يوسف بن محمد بن أبى بكر بن أيوب بن شاذى ، الملك المسعود المعروف بأقسيس ، الملقب أطز ، وهو اسم تركى ، صاحب اليمن ، ابن الكامل بن العادل ، وكان المسعود جبارا فاتكا ، مات سنة ٦٢٦هـ ودفن بالمعلى وكان سنة ستة وعشرين سنة لأن مولده سنة ٦٠٠هـ .

انظر : نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٥٧ ، شفاء القلوب ، ص٣٢٥ ـ ص٣٢٨ ؛ ترويح القلوب ، ص٨٩ ؛ أخبار الأيوبيين ، ص١٦ .

(٣) الملك المنصور صاحب حماة : هو الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالى محمد بن عمر ، مات يوم الاثنين الثانى والعشرين من ذى القعدة سنة ٦١٧هـ بحماة .

انظر : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٤٥٧ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٠٠ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص٧٧ ـ ص ٧٨ .

بالديار المصرية ، وكان يصحبه بمصر رجل من أهلها يقال له : الزكى القوصى ، فأنشده الزكى يوما بمصر ، وقد جرى ذكر ملك الملك المظفر حماة وزواجه بنت خاله الملك الكامل :

متى أراك كما تهوى وأنت ومن تهوى كأنكما رُوحان فى البدن
هناك أنشد والأقدار مصغية هنيت بالملك والأحباب والوطن

فقال الملك المظفر : إن صار ذلك يازكى أعطيتك ألف دينار مصرية . فلما ملك المظفر حماة أعطى الزكى ماوعد به[1] .

وفى تاريخ بيبرس : ولما سار الملك الكامل إلى جهة الشرق نزل بالرقة ، وولى على البلاد ، ونظر فى مصالحها ، وخافه ملوك الشرق ، وأطلق ابن أخيه الناصر قليج أرسلان من اعتقاله وأعطاه بعرين ، وكتب له توقيعا ، ورسم بأن يحمل إليه ما كان فى قلعة حماة من المال ، وكان نحو أربع مائة ألف درهم ، وكتب إلى المظفر بتسليم ذلك إليه ، فأمر المظفر النواب ببارين بتسليمها إلى أخيه الناصر ، ووصل الناصر ليتسلمها ، فبعث إليه أخوه ببعض المال ، فأبى أن يقبله إلا الجميع ، فأخذ المظفر المال المردود ، ولم يبعث له شيئا[2] .

وفى تاريخ[3] ابن العميد : بعث الكامل الأمير فخر[4] الدين بن الشيخ ليتسلم قلعة حران وقلعة الرها ، وبلاد الجزيرة ، فمضى إليها ، وبعد ذلك لحقه السلطان ، فوصل إلى الرقة ليلة عيد الفطر من هذه السنة ، فلما عيد على الرقة سار إلى[5] حران والرها ، وكشف

(١) وردت هذه الأحداث بالتفصيل فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٨٧ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٧٦ - ص٢٧٧ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص ١٤٥ ؛نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٥٦ - ص١٥٧ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٣ ، السلوك ، ج١ق١ ، ص٢٢٥ - ص٢٢٦ ؛ أخبار الأيوبيين ، ص١٦ .

(٢) وردت هذه الأحداث فى الكامل ، ج١٢ ، ص ٤٨٦ - ص٤٨٧ ؛ الذيل على الروضتين ، ص١٥٦ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٧٣ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٥٦ - ص١٥٧ ؛ السلوك ، ج١ق١ ، ص ٢٣٦ ؛ أخبار الأيوبيين ، ص١٦ .

(٣) أخبار الأيوبيين ، ص١٦ .

(٤) فخر الدين بن الشيخ : هو فخر الدين يوسف بن الشيخ بن حموية ، وكان فاضلاً دينا مهيبا وقورا خليقا بالملك ، قتلته الداوية من الفرنج شهيدا فى ذى القعدة سنة ٦٤٧هـ .
انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٨٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٩٠ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص٢٣٨ - ص٢٣٩ .

(٥) «نحو إلى» كذا فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه من أخبار الأيوبيين ، حيث ينقل عنه العينى ، ص١٦ .

أحوال البلاد ، وطلع إلى القلاع ودبرها ، وشرع في[٩٢] استخدام عساكرها ، وولى ذلك الأمر للأمير بهاء الدين خليل بن محمد بن ملكشو[١] ، وكان مشد[٢] ديوان[٣] الجيوش المنصورة .

ذكر عود الكامل إلى جهة الديار المصرية

ولما فرغت حاجة الكامل فى بلاد الشرق عاد إلى الديار المصرية ، وكان قد وردت عليه كتب من أم ولده العادل[٤] تشكو من ابنه الصالح نجم الدين أيوب ، وكان قد رتَّبه نائبه بالديار المصرية ، وجعله ولىَّ عهده ، وذكرت عنه أنه عزم على التوثُّب على الملك ، واشترى جماعةً كثيرةً من المماليك الترك ، وأخذ جملة من أموال التجار وبدَّل جُملةً من بيت المال ، وتقول له : «إن لم تدرك البلاد غلب عليها ، وأخرجنى وولدك العادل منها» . فأغضبه ذلك وأحنقه[٥] ورجع إلى الديار المصرية مسرعاً . ولما وصل أظهر التغير على ولده الملك الصالح ، وقبض على جماعة من أصحابه واعتقلهم ، وطالبهم بالأموال التى فرط فيها ، وكان هذا[هو][٦] السبب فى انحرافه عن الصالح إلى العادل ، حتى أدى ذلك إلى إبعاده إلى الشرق على ماسنذكره إن شاء الله تعالى ، وعهد بالسلطنة بعده إلى ولده العادل ، وكان عمره يومئذ إحدى عشرة سنة ، وكان الكامل شديد الميل إليه وإلى والدته[٧] .

---

(١) «ملكشوا» كذا فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه من أخبار الأيوبيين ، حيث ينقل عنه العينى ، ص١٦ .

(٢) مشد الديوان : هذه الوظيفة من بين الوظائف السلطانية الخاصة بأرباب السيوف (أمراء الجند) ، وموضوعها أن يكون صاحبها رفيقا للوزير ، متحدثا فى استخلاص الأموال وما فى معنى ذلك .
انظر : نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٦٨ ، حاشية(٤) ؛ صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٢٢ .

(٣) ديوان الجيش : من الدواوين الهامة ، أنشئ فى عهد الفاطميين ، وتركزت فيه كل شئون الجيش وأصناف الجند وأعدادهم ، وأعداد خيولهم وأنواعها ، وكان لايتولى هذا الديوان إلا من كان مسلما ، وله الرتبة الجليلة والمكانة الرفيعة وبين يديه حاجب ، وقسم هذا الديوان إلى ثلاثة أقسام وهى : قسم يختص بالأجناد وإحصاء أعدادهم ، وقسم يختص بضبط الإقطاعات الخاصة بأولئك الأجناد ، وقسم خاص بالرواتب والجوامك التى كانت تصرف لكل موظف بالدولة .
لمزيد من المعلومات انظر : مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص١٤٥ .

(٤) يقصد الملك العادل سيف الدين أبى بكر .
انظر : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٧٧ ـ ص٢٧٨ .

(٥) «والحنقة» كذا فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه من مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٧٨ .

(٦) مابين حاصرتين إضافة من مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٧٨ ، لاستقامة المعنى .

(٧) ورد هذا الحدث فى سنة ٦٢٧هـ فى كل من مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٧٧ ـ ص٢٧٩ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٦٠ ؛ السلوك ، ج١ ، ق١ ، ص٢٣٨ ؛ أخبار الأيوبيين ، ص١٧ .

ذكر بقية الحوادث

منها أن الملك الأشرف سير أخاه الصالح عماد[1] الدين اسماعيل صاحب بصرى ومعه جماعة من العسكر إلى بعلبك ، فنازلوها وضايقوها ونصبوا عليها المجانيق إلى أن خرجت هذه السنة[2] .

ومنها انه نادى الأشرف بدمشق وغيرها أن لايشتغل الناس بعلم الأوائل ، وأن يشتغلوا بعلم التفسير والحديث والفقه ، وكان الناس قد اشتغلوا بعلوم الأوائل فى أيام الملك الناصر داود ، وكان يعانى ذلك ، وربما نسبه بعضهم إلى نوع من الانحلال ، وكان سيف الدين الآمدى[3] مدرسا بالعزيزية[4] فعزله منها ، وبقى ملازما منزله حتى مات فى سنة إحدى وثلاثين وستمائة[5] كما سنذكره إن شاء الله تعالى .

قال أبو شامة[6] : وفى هذه [٩٣] السنة أهين جماعة من المتجبرين وذلك بعد استقرار الأشرف فى دمشق . من ذلك أن هبة الله النصرانى الذى كان متولى خزانة[7] السلطان ، علق بيده اليمنى على باب كنيسة[8] مريم ، وفى رجليه لبنة حديد ، وطلب

(١) الصالح عماد الدين اسماعيل : هو ابن الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب ، ملك دمشق مدة ، وقتل سنة ٦٤٨هـ .
انظر ترجمته فى : الذيل على الروضتين ، ص١٨٦ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٩١ ؛ شفاء القلوب ، ص٢٧٩ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص٢٤١ ؛ ترويح القلوب ، ص٧٩ .

(٢) انظر : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٨٠ ؛ أما المختصر ، ج٣ ، ص١٤٥ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٦ - ص١٣٧ ؛ المرآة ، ج٨ ، ص٤٣٥ - ص٤٣٦ ، فقد ورد هذا الحدث فيهم سنة ٦٢٧هـ .

(٣) هو سيف الدين على بن أبى على محمد بن سالم بن التغلبى ثم الشافعى الآمدى ولد بآمد بعد سنة ٥٥٠هـ ، وتوفى سنة ٦٣١هـ ودفن بتربته بقاسيون .
انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٥١ ؛ الدارس ، ج١ ، ص٣٩٣ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص١٤٤ - ١٤٥ .

(٤) المدرسة العزيزية ، بعد وفاة صلاح الدين بن أيوب قام ابنه الملك العزيز عثمان ببناء المدرسة العزيزية ، بالكلاسة بجوار الجامع الأموى ، وكان أول من وضع أساسها الملك الأفضل ، ثم أتمها الملك العزيز عثمان٥٩١هـ .
انظر : الدارس ، ج١ ، ص٣٨٢ .

(٥) وردت هذه الأحداث فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٣ .

(٦) الذيل على الروضتين ، ص١٥٦ .

(٧) خزانة السلطان : الخزائن السلطانية هى التى تحفظ فيها الأموال والنقد ويحمل إليها معدن النفط المستخرج من بحر القلزم فهو يسيل دهنه من أعلى جبل قليلا قليلا وينزل إلى أسفله ، فيجمع فى أوان قد وضعت لذلك ، وتأتى العرب فتحمله إلى الخزائن السلطانية ويدخل هذه الخزانة أيضا مايحمل إليها من البلاد الخارجية ، ويدخلها كذلك مايتحصل من الثغور ، وتحمل إليها كذلك المعادن كمعدن الزمرد ، ومعدن الشب .
انظر : مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص١٢٠ .

(٨) كنيسة مريم : بجوار مسجد صدقة عند باب المدينة بدمشق .
انظر : الدارس ، ج٢ ، ص٣١٦ .

منه مال عظيم ، وهرب أهله ، وقد كان هذا الملعون تمكن من المسلمين وآذاهم ، ورفع منار النصارى ، وتسلَّطوا بجاهه على المسلمين ، وجدَّد لهم بناء كنيسة مريم ، وشيَّد بنيانها ، ورفع بابها ثم هدم مازاده ، وأعيدت الكنيسة على ماكانت عليه فى شعبان بأمر السلطان الكامل ، وتولى النصارى هدم ذلك بأنفسهم .

ومنها أن شرو انشاه أفريدون صاحب شروان[١] حضر إلى جلال الدين خوارزم شاه ، وكان قد قرر عليه خمسين ألف دينار يحملها إلى الخزانة الجلالية[٢] فى كل سنة ، وأحضر معه خمس مائة رأس خيلاً تركية تقدمةً فقبلها منه ، وخلع عليه ، وكتب له توقيعا بتقرير الممالك التى تحت يده ، وإسقاط عشرين ألف دينار من الخراج المقرر عليه[٣] .

ومنها أن جلال الدين خوارزم شاه سار إلى بلاد الكرج ، فإنهم كانوا قد كبسوا بعض الأعمال الجلالية ، وأوقعوا بطائفة من العسكر ، ثم ورد الخبر بعد ذلك أن الملكة ومقدَّم الكرج[٤] قد جمعا ، ووافتهم نجد اللُكز[٥] والآلان[٦] ، فصاروا فى أربعين ألفا ، فخرج جلال الدين للوقت مبادراً إلى نحوهم ، ولما تلاقى اليزكان[٧] انهزم الكرج وأحضرت منهم جماعة فأمر بضرب رقابهم ، وتبع العسكر الجلالى آثار المنهزمين ، ولحق بعضهم أثقال إيوانى فأخذها غنيمةً ، وراح السلطان صوب لُورى ، فنزل بظاهرها ، وراسل مَنْ بها

---

(١) شَرْوَان : مدينة من نواحى باب الأبواب الذى يسمونه الفرس الدُر بند بناها أنو شروان فسميت باسمه ، وبين شروان وباب الأبواب مائة فرسخ .
انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٢٨٢ .

(٢) الخزانة الجلالية : أى خزانة السلطان جلال الدين منكبرتى ، وقد سبق تعريف الخزانة السلطانية .

(٣) لمعرفة المزيد عن هذا الحدث . انظر : سيرة منكبرتى ، ص٢٨٩ ـ ص٢٩٠ .

(٤) مقدم الكرج : الكرج أمة من المسيحيين كانت مساكنها بجبال القوقاز المجاورة لتفليس ثم استولوا على تفليس من المسلمين سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م . ولم يزالوا متملكين لها حتى أغار عليهم جلال الدين خوارزم شاه سنة ٦٢١هـ/ ١٢٢٤م ، ومقدمهم هو الذى يتحدث عنهم ويتقدم عليهم .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٢٥١ ـ ص٢٥٢ ؛ مفرج الكروب ، ج١ ، ص١٩٢ ، مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص٣١٩ .

(٥) اللكز : جنس من الترك يسكنون مدينة لكز ، يقال لهم اللكزى ، ويسكنون فى الجبل الفاصل بين تتر مملكة بَرَكَة ، وتتر مملكة هولاكو .
انظر : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٤٦٧ .

(٦) الألان :وتكتب أيضا «اللان» قبائل كانت تسكن بالقرب من مدينة دربند .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٢٩١ ، حاشية(٢) .

(٧) اليزك : لفظ فارسى معناه الطلائع .
انظر : صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص٣٦٤ .

من الكرج مُهددا لهم بحصارها ، وطالبهم بإطلاق مَنْ كان قد أُسِرَ من الأتراك فأطلقوهم ، وتوجه إلى قِلاع بهرام الكرجي وحاصرها ، وفرق عساكره في بلاده بنهب وقتل وأخذ الأموال ، وزحف على قلعة سكان[١] ففتحها عنوة ، وأضرم بها على الكفار نارًا ، ثم رحل منها إلى قلعة علياباذ[٢] ، فاستباحها ، وقتل أهلها ، وضايق الكرج فَسَألوه الموادعة على مال يحملونه ويعجلونه ، فتسلم المال ورحل إلى خلاط ، عازما على حصارها ، وحثّ الأمراء والخانات [٩٤] على المسير إليها مع الأثقال ، وسارهو على طريق نخجوان[٣] ، وأغار على ما أصاب من مواشي الكرج ، وساقها حتى لقد بيع الثور الجيد بدينار ، وتزوج بصاحبة نقجوان ، وأقام بها أياما إلى أن قضى أشغال خراسان والعراق ومازندران[٤][٥] .

ولما نزل على خلاط نزل على مسيرة يوم منها ، فراسله عز الدين أيبك نائب الملك الأشرف بها ، ولاطفه ، وتَخَضَّع له ، وأعلمه بأن الملك الأشرف رسم بالقبض على الحاجب على ، وأنه ماقبض عليه إلا لتخطّيه إلى بلاد جلال الدين ، وإساءته الأدب ، وقال : إنه قد ولاّنى خلاط ، وأمرنى بطاعة السلطان ، واتباع مراده ، معدودًا في جملة أعوانه ، وإنجاده أسوة بسائر أجناده[٦] ، وزاد في ملاطفته ، فأجاب جلال الدين أنه إن كان يطلب مرضاتي فليسير إلى الحاجب عليًا ، فلما وصل الرسول بهذا الجواب قتل عز الدين أيبك الحاجب على[٧] بن حماد[٨] .

---

(١) سكّان : من قرى الصغد من أربنجن . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص١٠٦ .

(٢) علياباذ : عدة قرى بنواحي الرَّى . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٧١٤ .

(٣) نخجوان : وبعضهم يقول نقجوان وهي بلد بأقصى أذربيجان .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٧٦٧ .

(٤) مازندران : اسم لولاية طبرستان .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣٩٢ .

(٥) لمعرفة المزيد عن هذه الأحداث . انظر : سيرة منكبرتي ، ص٢٩١ - ص٢٩٣ ، ص٢٩٧ - ص٢٩٨ .

(٦) الأجناد : وهم على طبقتين :
الطبقة الأولى : المماليك السلطانية وهم أعظم الأجناد شأنا ، وأرفعهم قدرا ، وأشدهم قربا إلى السلطان ، وأوفرهم إقطاعا ، ومنهم تؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة ، وهم في العدة بحسب مايؤثره السلطان من الكثرة والقلة .
والطبقة الثانية : أجناد الحلقة وهم عدد جم وخلق كثير ، وكل أربعين نفسا منهم مقدم ، ومن الأجناد طائفة ثالثة يقال لها البحرية يبيتون بالقلعة وحول دهاليز السلطان في السفر كالحرس .
انظر : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص١٥ - ص١٦ .

(٧) الحاجب على بن حماد : هو الحاجب حسام الدين على بن حماد ، وهو المتولى لبلاد خلاط والحاكم فيها من قبل الأشرف ، قتله الأمير عز الدين أيبك سنة ٦٢٦هـ .
انظر : ترجمته في الكامل ، ج١٢ ، ص٤٨٥ - ص ٤٨٦ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١١٩ .

(٨) وردت هذه الأحداث في سيرة منكبرتي ، ص٢٩٩ .

واستمر الحصار على خلاط ، واشتد الغلاء بأهلها ، حتى أكلوا الكلاب والسنانير ، وكان بها أمير يسمى اسماعيل الإيوانى ، فراسل جلال الدين يطلب منه إقطاعًا ، على أن يُسلم البلد ، فأجابه إلى ذلك ، وعيَّن له سلماس[1] وعدة قرى بأذربيجان ، فأطلع أصحاب جلال الدين على السور بحبال أدلاها لهم ، فلما صَاروا على السور وملكوا البلد صعد جماعة من الأمراء إلى القلعة ، وامتنعوا بها ، ووضع العسكر الجلالى السيف فى أهل البلد ، وكانوا قد قَلُّوا ، فإن بعضهم فارق البلد خوفا ، وبعضهم خرج من شدة الجوع ، وسُبِى أهلها ، وبيع أولادهم ونسوانهم ، وفعل فيها ما لم يفعل فى غيرها من المسلمين[2] .

ولما ملكها قبض على عز الدين أيبك الأشرفى وقتله ، وقبض على الملك المعز مجير الدين يعقوب[3] بن الملك العادل ، ثم أطلقه فمضى إلى أخيه الأشرف موسى[4] .

ثم سار إلى منازكرد[5] ، ووصل إليه ركن الدين جهان شاه بن طغرل[6] صاحب أرزن الروم ، وهو ابن عم علاء الدين كيقباذ ثانيا يُعْلمه أن ملوك الشام والروم اجتمعوا على حربه ، والصواب أن يُبادرهم قبل أن يجتمعوا ، فأمره السلطان أن يتقدم نحو أرزن الروم ، ورحل بعده بخمسة أيام على أنهما [٩٥] يسوقان إلى نواحى خرت برت[7] فيقيمان بها منتظرين حركتى عسكرى الشام والروم ، فأيهما يحرك أولا ساقا إليه قبل اتصاله

(١) سلماس : مدينة مشهورة بأذربيجان بينها وبين أرمية يومان وبينها وبين تبريز ثلاثة أيام .
انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص١٢٠ .

(٢) ورد هذ الحدث فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٨٨ ؛ سيرة منكبرتى ، ص٣٢٠ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٩٤ - ص٢٩٥ ، وقد جاءت ضمن أحداث سنة ٦٢٧هـ .

(٣) الملك المعز مجير الدين يعقوب : هو الملك المعز يعقوب بن أبى بكر بن شاذى ، مجير الدين بن العادل أبى بكر بن أيوب ، توفى سنة ٦٥٤هـ ، ودفن عند والده بتربة العادلية . الذيل على الروضتين ، ص١٩٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٢٩٧ ؛ شفاء القلوب ، ص٢٨٠ .

(٤) ورد هذ الحدث فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٨١ ، ص ٢٩٧ .

(٥) منازكرد : أو منازجرد أو ملا ذكرت وهى بلدة مشهورة بين خلاط وبلاد الروم .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٦٤٨ ؛ تقويم البلدان ، ص٣٩٤ - ص٣٩٥ .

(٦) ركن الدين جهان شاه بن طغرل صاحب أرزن الروم : وهو ابن عم لعلاء الدين كيقباذ سلطان السلاجقة الروم ، وكان بينه وبين ابن عمه عداوة مستحكمة كما أنه كان أحد الذين أعانوا جلال الدين منكبرتى على حصار مدينة خلاط بعد أن دخل فى طاعته .
انظر : الكامل ، ج١٢ ، ص٤٨٩ - ص٤٩١ ؛ سيرة منكبرتى ، ص٣٢٩ ، حاشية(١) .

(٧) خَرْتَ بِرْت : إحدى قلاع أرمينية الكبرى ، على مسيرة يومين من ملطية ، وتعرف أيضا بحصن زياد .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤١٧ .

بصاحبه ، وكتب جلال الدين لأخى ركن الدين توقيعا بناحيتى كنفى[١] وخوزستين ، ولما وصل إلى خرْت برت ، وأقام فى انتظار العساكر ، مرض مرضا شديدا ، فلما أفاق سار وجرَّد أمامه أوترخان فى زهَاء ألفى فارس برسم اليزك ، فصادم عسكر أرذنجان[٢] وخرت برت فهزمهم ، وتتابعت الهزيمة فى الروم ، فلما بلغ علاء الدين كيقباذ هذا الخبر المزعج قلق قلقا شديدا ، وعزم على العود لحفظ الدربندات[٣] التى وراءه ، وآخر الأمر انكسر جلال الدين خوارزم شاه على ماسنبينه فى السنة الآتية إن شاء الله تعالى[٤] .

ومنها أن فى شهر صفر ولى الملك الناصر داود محيى الدين[٥] يحيى بن الزكى قضاء القضاة بدمشق ، وقرأ عهدته بهاء الدين[٦] بن أبى اليُسر بالكلاسة[٧][٨] .

وفيها . . . .[٩]

وفيها لم يحج أحد من الشام ولا من مصر ولا من العراق ، وذلك لفُشُوِّ الفتن والخباط بين الملوك[١٠] .

---

(١) كَنَفَى : موضع كانت فيه وقعة أسر فيها حاجب بن زُرارة أسره الخمخام بن جبلة .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٣١٢ .

(٢) أرذنجان : بلدة طيبة مشهورة من بلاد أرمينية بين بلاد الروم وخلاط قريبة من أرزن الروم .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٢٠٥ .

(٣) الدربندات : مفردها دربند ومعناها فى الأصل سنبلة من حديد ، يقفل بها باب الدكان ، ويقال لها درونِد أيضا ، وتستعمل هذه الكلمة كذلك بمعنى المضايق والطرقات .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٣٦ ، حاشية(٧) .

(٤) وردت هذه الأحداث فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٨٩ ـ ص٤٩٠ ؛ سيرة منكبرتى ، ص٣٢٩ ـ ص٣٣١ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٦ .

(٥) محيى الدين يحيى بن الزكى : هو أبو الفضل يحيى ابن قاضى القضاة بهاء الدين أبى المعالى محمد بن على بن محمد بن يحيى بن على بن عبد العزيز بن على بن عبد العزيز بن على بن الحسين بن محمد بن عبد الرحمن ابن القاسم بن الوليد ، القرشى الأموى ابن الزكى ، تولى قضاء دمشق غير مرة ، وكذلك آباؤه من قبله ، ولد سنة ٥٩٦هـ ، وتوفى بمصر فى الرابع عشر من رجب سنة ٦٦٨هـ ، ودفن بالمقطم وقد جاوز السبعين .
انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٥٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٢٧٢ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٣٢٧ ـ ص٣٢٨

(٦) بهاء الدين بن أبى اليسر : توفى فى خامس عشر المحرم سنة ٦٣١هـ ، ومولده سنة ٥٦٥هـ .
انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٦١ .

(٧) الكلاسة : مدرسة بناها نور الدين محمود سنة ٥٥٥هـ متصلة بالجامع الأموى من شماله ، وسميت كذلك لأنها كانت موضع عمل الكلس أيام بناء الجامع ، وقد أمر بتجديدها السلطان صلاح الدين الأيوبى .
انظر : كرد على ، خطط الشام ، ج٦ ، ص٨٩ .

(٨) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص١٥٤ ، نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٥٣ ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٣ .

(٩) بياض بالأصل بمقدار نصف سطر .

(١٠) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص١٥٨ .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

أبو الفتوح[١] نصر بن على البغدادى الفقيه الشافعى ، ويلقب بثعلب ، اشتغل فى المذهب والخلاف ، ومن شعره قوله :

جسمى معى غير أن الروح عندكم فالجسم فى غربة والروح فى وطنى
فليعجب الناس منى أن لى بدنا لاروح فيه ولى روح بلا بدن

أبو الفضل[٢] جبريل بن منصور بن هبة الله بن جبريل بن الحسن بن غالب بن يحيى بن موسى بن يحيى بن حسن بن غالب بن الحسن بن عمرو بن الحسن بن النعمان بن المنذر ، المعروف بابن زطينا[٣] البغدادى ، كاتب الديوان ، بها أسلم ، وكان نصرانيا فحسن إسلامه . وكان من أفصح الناس وأبلغهم موعظة ، وأورد له ابن الساعى شعرا حسنا فمنه قوله :

إن سهرت عيناك[٤] فى طاعة فذاك خير لك من نوم
أَمْسُكَ قدفات[٥] بعِلاتِه فاستدرك الفائت فى اليوم

ومنه قوله :

إنَّ رَّباً هداك بَعد ضلال سبلَ الرشد مستحقُ العبادة [٩٦]
فتعبد له تجد منه عتقا واستدم فيضه بطول الزَّهَادَة

العبادى[٦] الشاعر أبو الحسن على بن سالم بن يزبك[٧] بن محمد بن مقلد ، العبادى الشاعر ، من الحديثة[٨] ، قدم بغداد مرارا ، وامتدح المستنصر بالله وغيره ، وكان فاضلا شاعرا ، يكثر التغزل .

---

(١) انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٥ .
(٢) انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٥ - ص١٣٦ .
(٣) «نطينا» كذا فى الأصل والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٥ .
(٤) «عينك» كذا فى الأصل والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٦ .
(٥) «فاز» كذا فى الأصل والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٦ .
(٦) انظر : البداية والنهاية ج١٣ ، ص١٣٤ .
(٧) «بريك» كذا فى الأصل والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٤ .
(٨) الحديثة : تقع فى مواضع عدة وهى : حديثة الموصل وهى بليدة على دجلة بالجانب الشرقى قرب الزاب الأعلى ، وحديثه الفرات وهى على فراسخ من الأنبار ، والحديثة أيضا من قرى غوطة دمشق ويقال لها حديثة جرش .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٢٢ - ص٣٢٥ .

أبو يوسف[١] بن صابر الحرانى ، ثم البغدادى المنجنيقى ، كان فاضلا فى فنه ، وشاعرا مطبقا لطيف الشعر ، حسن المعانى ، قد أورد له ابن الساعى[٢] قطعة جيدة ، ومن أحسن ما أورد له من قصيدة فيها تعزية عظيمة لجميع الناس وهى قوله :

هل لمن يرتجى البقاء خلود … وسوى الله كل شئ يبيد
والذى كان من تراب وإن … عاش طويلا إلى التراب يعود
فمصير الأنام طراً إلى ما … صار فيه آباؤهم والجدودُ
أين حواء؟ أين آدمُ؟ إذ فا … تهم الخلد والثوى والخلود؟
أين هابيلُ؟ أين قابيلُ؟ إذ هـ … ذا لهذا معاندٌ وحسودُ
أين نوح ومن نجامعهُ بالفلـ … ك والعالمونَ طرًا فقيدُ
أسلمتهُ الأيامُ كالطفلِ للمو … تِ ولم يغنِ عمرهُ الممدودُ
أين عادٌ؟ بل أين جَنَّةُ عادٍ … أم ترى أينَ صالحُ وثمودُ؟
أينَ ابراهيمَ الذى شادَ بيـ … ت اللهِ فهو المعظَّمُ المقصودُ
حسدوا يوسفاً أخاهم فكادو … هُ وماتَ الحاسدُ والمحسودُ
وسليمانُ فى النبوةِ والملكُ … قضى مثلَ ماقضى داودُ
فعدوا بعد ما أطيعُ له الخلـ … قِ وهذا ألين له الحديدُ
وابن عمرانَ بعد آياتهِ التسـ … ع وشق الخضمَ فهو صعيدُ
والمسيحُ ابن مريم وهو روح اللـ … ه كادتْ تقضى عليه اليهودُ
وقضى سيدُ النبيينَ والهـا … دى إلى الحقِ أحمدُ المحمود
وتبنوه[٣] وآله الطاهرو … نَ الزهرُ صلى عليهمُ المعبودُ
ونجومُ السماءِ منتثراتٌ … بعدَ حينٍ وللهواءِ ركودُ

---

(١) انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٤ - ص١٣٥ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص١٢٠ .

(٢) ابن الساعى : هو أبو طالب على بن أنجب بن عثمان بن عبيد الله البغدادى السلامى ، خازن كتب المستنصرية ، كان إماما حافظا مبرزا على أقرانه ، وله تصانيف كثيرة جدا ، وهو شافعى المذهب ، وكان فقيها بارعا قارئا بالسبع محدثا مؤرخا شاعرا لطيفا كريما ، توفى فى رمضان سنة ٦٧٤هـ ، وقد قارب الثمانين أو جاوزها .
لمعرفة المزيد عن ترجمته انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٢٨٦ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص٣٤٣ - ص٣٤٤ ، تاريخ الإسلام للحافظ شمس الدين الذهبى ، تحقيق الدكتور عمر عبد السلام تدمرى ، دار الكتاب العربى - بيروت - لبنان ، ١٤٢٣هـ - ٢٠٠٣م ، ص١٦١ - ص١٦٢ .

(٣) «ذروه» كذا فى الأصل والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٥ .

ولنارِ الدنيا التى توقد الصخـ رَ خمود للماءِ[1] جمودُ
وكذا للثرى غداةُ يوم للـ ناس فيها تزلزلٌ وهمود
هذه الأمهاتُ نارٌ وتربٌ وهواءٌ رطبٌ وماءٌ برودُ
سوفَ يفنى كما فَنَيْنا فلا يبقى من الخلق والدٌ ووليدُ
لا الشقُّى الغوىُّ من نوبِ الأيا م ينجو ولا السعيدُ الرشيدُ
ومتى سلَّت المنايا سيوفًا فالموالى حصيدها والعبيدُ

مات فى هذه السنة .

محمد[2] السبتى النجار ، كان يعده بعضهم من الأبدال[3] ، قال أبو شامة[4] : هو الذى بنى المسجد غربى دار الزكوة ، عن يسار المار فى الشارع من ماله ، مات فى هذه السنة ، ودفن فى الجبل وكانت جنازته مشهودة .

الحاجب حسام[5] الدين على الموصلى ، قتل فى هذه السنة ، قتله عز الدين أيبك الأشرفى بأخلاط ، وقد ذكرناه عن قريب ، وكان هذا من أهل الموصل ، وخدم الملك الأشرف فجعله نائبه بأخلاط ، وأحسن إلى الرعية ، وحفظ البلاد ، واستولى على عدة من بلاد أذربيجان ، مثل : نقجوان وغيرها . وكان كثير الخير والمعروف ، بنى الخان الذى بين حران ونصيبين ، والخان الذى بين حمص ودمشق وهو الخان المعروف بخان برج العطش .

الملك المسعود[6] يوسف بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب صاحب اليمن ، الملقب بأطسز ، المعروف بين العامة بأقسِسْ ، وقد ذكرنا وجه

(١) «للمياه» كذا فى الأصل والمثبت من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٥ .
(٢) انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٥٧ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٤ .
(٣) الأبدال : جمع بديل وهم قوم من الصالحين لاتخلو الدنيا منهم ، إذا مات واحد منهم أبدل الله تعالى مكانه بآخر . لمعرفة المزيد انظر : مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص١٢ .
(٤) الذيل على الروضتين ، ص١٥٧ .
(٥) الكامل ، ج١٢ ، ص٤٨٥ - ص٤٨٦ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٦٣ - ص٢٦٥ ، المختصر ، ج٣ ، ص١٤٣ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١١٩ .
(٦) انظر الذيل على الروضتين ، ص١٥٨ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٥٩ - ٢٦٠ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٤٢ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٥٧ - ١٥٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٤ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٣٥ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١٢٠ ؛ ترويح القلوب ، ص٨٩ .

تلقيبه بذلك ، مات فى هذه السنة بمكة ، ودفن بالمعلى[١] ، وكان قد مرض فى اليمن مرضا شديدا وكره الإقامة بها ، وعزم على مفارقتها والتوجه إلى الديار المصرية ، فسار إلى مكة وهى له كما ذكرنا ، واشتد مرضه بها ، فتوفى فيها وعمره ست وعشرون سنة ، وكانت مدة ملكه اليمن أربع[٢] عشرة سنة .

وكان لما سار من اليمن استخلف عليها على بن رسول ، وكان أستاداره ، فاستقر باليمن نائبا لبنى أيوب ، واستمر فى النيابة إلى أن مات قبل سنة ثلاثين وستمائة[٣] ، واستولى على اليمن بعده ولده عمر[٤] بن على ، على مانذكره إن شاء الله . ولم تزل اليمن إلى الآن فى أولاده ، ولما وصل الخبر بوفاة الملك المسعود المذكور إلى أبيه الملك الكامل وهو على حصار دمشق جلس للعزاء ، وخلف المسعود ولداً صغيرا اسمه أيضا يوسف[٥] ، وبقى يوسف هذا حتى مات فى سلطنة [٩٨] عمه الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر ، وخلف يوسف ولدا صغيرا اسمه موسى[٦] ، ولقب بالملك الأشرف ، وهو الذى أقامه الترك فى مملكة مصر بعد قتل المعظم بن الملك الصالح ابن الملك الكامل كما سنذكره إن شاء الله[٧] .

(١) المعلى : وتكتب مُعَلاً وهو موضع بالحجاز .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٥٧٧ .
(٢) «أربعة عشر» كذا فى الأصل والصحيح لغة ما أثبتناه .
(٣) المختصر ، ج٣ ، ص١٥٨ .
(٤) عمر بن على بن رسول : الملك المنصور صاحب اليمن ، وثب عليه جماعة من مماليكه وقتلوه سنة ٦٤٨هـ .
لمعرفة المزيد انظر : المختصر ، ج٣ ، ص١٨٥ ؛ سير أعلام النبلاء ، شمس الدين الذهبى ، ج٢٣ ، ص١٧٣ ، ترجمة (١٠٨) ، مؤسسة الرسالة - بيروت - طبعة ١١ ، ١٤١٧هـ / ١٩٩٦م .
(٥) صلاح الدين يوسف بن الملك المسعود أقسيس الملقب كأبيه بالملك المسعود .
انظر : المختصر ، ج٣ ، ص١٤٢ ؛ شفاء القلوب ، ص٣٧٨ ؛ ترويح القلوب ، ص٩٠ .
(٦) الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك يوسف بن الملك المسعود يوسف بن الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، اتفق الأمراء على إقامته فى السلطنة ، وحضروا فى خدمته يوم السبت لخمس مضين من جمادى الأولى سنة ٦٤٨هـ . انظر : المختصر ، ج٣ ، ص١٣٢ ؛ شفاء القلوب ، ص٣٧٨ ؛ ترويح القلوب ، ص٩٠ .
(٧) وردت هذه الأحداث فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٥٩ - ٢٦٣ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٥٩ - ص١٦٠ ، السلوك ، ج١ق١ ، ص٢٣٧ ؛ أخبار الأيوبيين ، ص١٦ -١٧ ؛ شفاء القلوب ، ص٣٧٨ .

وقال ابن كثير[١] : قد ملك الملك المسعود مكة من سنة تسع عشرة وستمائة ، فأحسن بها المعدلة[٢] ، ونفى الزيدية[٣] منها ، وأمنت الطرقات والحجاج ، ولكنه كان مسرفا على نفسه ، فيه عسف وظلم أيضا .

وفى تاريخ بيبرس : وكان شجاعا مقداما ذا بأس شديد ، وهمة عالية ، وكان أبوه يخاف منه على بقية أولاده ، ولما ملك اليمن سفك دماء كثير من المفسدين ، فخافته العرب وغيرهم ، وعظمت هيبته ، وكان قد قدم إلى أبيه زائرا ، فأقام بالقصر بالقاهرة مدة ، ثم عاد كما ذكرناه ، ولما قدم مصر امتدحه البهاء[٤]زهير[٥] كاتب أخيه الصالح[٦] بقصيدة مطلعها :

لكم أينما كنتم مكان وإمكان ... ومُلْك له تعنوا الملوك وسلطان
ضربتم من العز المنيع سرادقا ... فأنتم له بين السماكين سكان

ومنها :

قَدِمْتَ قدوم الليث والليث باسل ... وجئت مجئ الغيثِ والغيثُ هتان
ومابرحت مصرُ إليك مشوقة ... ومثلك من يشتاق لُقياه صديان[٧]

ومنها :

فحسبُك قد وافاكِ يامصر يوسف ... وحسبك قد وافاك يانيل طوفان[٨]

---

(١) البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٤ .
(٢) المعدلة : هم أهل العدل الذين يقولون : إن الله تعالى واحد فى ذاته لاقسمة ولاصفة له وواحد فى أفعاله لاشريك له ، فلا قديم غير ذاته ، ولا قسيم له فى أفعاله ، ومحال وجود قديمين ، ومقدور بين قادرين ، وذلك هو التوحيد ، وأهل العدل أى المعدلة هم من أهل السنة وأهل الاعتزال .
لمعرفة المزيد عنهم انظر : الملل والنحل ، ج١ ، ص٤٢ - ص٤٣ .
(٣) الزيدية : فرقة من الشيعة وهم المنسوبون إلى زيد بن على زين العابدين ، وهم ثلاث فرق ، الجارودية والسليمانية والبتيرية .
لمعرفة المزيد عنهم انظر : الملل والنحل ، ج١ ، ص١٥٤ - ص١٦٢ ؛ كشاف اصطلاحات الفنون ، ج٢ ، ص٢٩٨ - ص٢٩٩ .
(٤) «البها» كذا فى الأصل ، وما أثبتناه من مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٦١ .
(٥) البهاء زهير : هو زهير بن محمد بن على بن يحيى بن الحسين بن جعفر المهلبى العتكى المصرى ولد بمكة ونشأ بقوص ، وأقام بالقاهرة ، وله ديوان مشهور ، وقدم على السلطان الصالح أيوب ، وكان غزير المروءة ،توفى سنة ٦٥٦هـ .
لمعرفة المزيد انظر : الذيل على الروضتين ، ص٢٠١ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٢٢٤ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٢٧٦ - ص٢٧٧ .
(٦) يقصد بالصالح الملك الصالح نجم الدين أيوب .
انظر : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٦١
(٧) «بلدان» كذا فى الأصل ، وما أثبتناه من مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٦٢ .
(٨) ورد هذا الخبر ، والأبيات الشعرية فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٦٠ - ص٢٦٢ .

وفى المرآة[١] : وفى سنة ست وعشرين وستمائة توفى أقسيس الملك المسعود بن الكامل صاحب اليمن ، وكان قد بلغه موت الملك المعظم فى سنة خمس وعشرين وستمائة ، فطمع فى الشام فتجهز جهازا لم يسبقه إليه أحد من الملوك ، ونادى فى بلاد اليمن فى التجار من أراد صحبة السلطان إلى الديار المصرية فليتجهز ، فجاء التجار من الهند بأموال الدنيا ، والأقمشة والجواهر ، فلما تكاملت المراكب بزبيد[٢] جمع التجار ، وقال : [٩٩] اكتبوا إلى بضائعكم ومامعكم ، لأحميها من الزكاة والمؤن ، فكتبوها له ، فصار يكتب لكل تاجر برأس ماله إلى بعض بلاد اليمن ، ففعل بالجميع كذا ، فاجتمعوا واستغاثوا ، وقالوا : نحن قد جئنا من بلدان شتى ، وفينا من أهل اسكندرية والقاهرة ومصر والشام والروم ، ولنا مدة سنين عن أهلنا ، وقد اشتقنا إليهم فخذ أموالنا وأطلقنا نروح إلى أهلنا ، فلم يلتفت إليهم وأخذ الجميع . قال السبط[٣] : فبلغنى أنه كان نقله فى خمسمائة مركب ، ومعه ألف خادم ، ومائة قنطار عنبر وعود ومسك ، ومائة ألف ثوب ، ومائة صندوق أموال وجواهر ، وركب الطريق إلى مكة ، ولما وصل بعض الطريق مرض مرضا مزمنا ، فما دخل مكة ـ شرفها الله ـ إلا وقد فلج[٤] ويبست يداه ورجلاه ، ورأى فى نفسه العبر ، فلما احتضر بعث إلى رجل مغربى بمكة ، فقال : والله ما أرضى لنفسى من جميع مامعى كفنا أتكفن به ، فَتَصَدَّقْ على بكفن . فبعث له نَصْفِيَّتَيْن[٥] بغدادى ، ومائتى درهم ، فكفنوه فيهما ، ودفن بالمعلى . قال السبط[٦] : وبلغنى عن الكامل أنه سر بموته ، ولما جاء خزنداره إليه ما سأله كيف مات ، بل قال : كم معك من المال والتحف؟ قال : وقد ذكرنا ما فعل الأقسيس وضربه فى الحرم بالبندق[٧] ، فعوقب سريعا ، وضربه القدر ضربا وجيعا .

---

(١) سبط ابن الجوزى ، ج٨ ، ص٤٣٥ .

(٢) زبيد : مدينة مشهورة باليمن ، أحدثت فى أيام المأمون ، وبإزائها ساحل غلافقه وساحل المندب .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٩١٥ .

(٣) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٣٥ .

(٤) فُلِجَ : أى انقسم جسمه نصفين والفالج أيضا هو ريح يأخذ الإنسان فيذهب بشقه وقد فُلج أى ذهب نصفه ، وهو داء الأنبياء ، وهو داء معروف يُرَخِّى بعض البدن ، لسان العرب ، مادة «فلج» .

(٥) نَصْفِيَّتَين : المفرد نصفية وهو نوع من القماش الرقيق أي المصقول من الحرير أو التيل .
انظر : مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص٤٣٧ .

(٦) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٣٥ .

(٧) البندق : ويسمى أيضا «الجلاهق» استعمل أيام المماليك فى مصر لإطلاق كرات الرصاص . وهو قوس يتخذ من القنا ويلف عليه الحرير ويغرى ، وفى وسط وتره قطعة دائرة تسمى الجوزة توضع فيها البندقة عند الرمى ، وقد كان للبندق سوق خاص فى مصر عرف باسم : البندقانيين .
انظر : مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص٦٨ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة السابعة والعشرين بعد الستمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستنصر بالله ، وصاحب مصر الملك الكامل بن العادل ، وصاحب دمشق أخوه الملك الأشرف[1] .

ذكر وقعة الملك الأشرف مع جلال الدين خوارزم شاه

وسببها أن جلال الدين كان قد أخذ مدينة أخلاط وخربها وشرد أهلها . قال السبط[2] : وكان قد أخذ أخلاط بعد أن أكل من فى أخلاط الميتات والجيف ، وبيعت قطعة من جلد بألف درهم ، فلما كان فى جمادى الأولى زحف عليها من كل جانب ونصب المجانيق[3] وطم[4] الخنادق وكان قد أقام عليها[١٠٠] عشرة أشهر ، فدخلها بالسيف فنهبها ، وهتك نساءها ، وأخذ مجير[5] الدين وتقى[6] الدين بن العادل ، وكانا بها ، وأخذ الكرجية زوجة الأشرف ودخل بها من ليلته ، وكان عز الدين أيبك قد خنق الحاجب علياً ، وكان مع جلال الدين مماليك الحاجب ، فقالوا لجلال الدين : هذا قتل أستاذنا . فقال : اقتلوه . فقتلوه . وقد ذكرنا أن عز الدين أيبك كان نائب الملك الأشرف على أخلاط ، وكان من مماليك العادل ، وبلغ هذا الأمر الملك الأشرف وهو بدمشق ،

(*) يوافق أوله : ٢٠ نوفمبر ١٢٢٩م .

(١) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص١٥٨ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٨٢ .

(٢) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٣٦ ؛ وانظر أيضا : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٩٤ - ص٢٩٧ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٦٢ - ص١٦٤ .

(٣) المجانيق : مفردها منجنيق ، وهى من أسلحة الحصار ، وقد عرفها المماليك وتقدمت صناعتها على أيديهم ، وهى آلات يقذف بها على بعد الأحجار واللهب وحتى الزرنيخ والأفيون ، والقصد من ذلك خنق العدو ، وكان المنجنيق يحمل على مائة عجلة وكذلك كانت المجانيق تجرها الأبقار بعد فصل أجزائها بعضها عن بعض ثم تركت عند الحصار ، وهى اسم أعجمى .
انظر : مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص٣٣٢ .

(٤) طَمّ الخنادق : أى كبسها وردمها .
انظر : لسان العرب ، مادة (طمم) ؛ المعجم الوجيز .

(٥) مجير الدين : هو الملك المعز مجير الدين يعقوب بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، توفى يوم الأربعاء سادس عشر ذى القعدة سنة ٦٥٤هـ ، ودفن بمقبرة والده بالمدرسة العادلية .
انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٩٤ ؛ ترويح القلوب ، ص٧٨ .

(٦) تقى الدين بن العادل : هو الملك الأمجد تقى الدين عباس بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وهو أصغر إخوته ، ولد سنة ٦٠٣هـ ، وتوفى سنة ٦٦٩هـ يوم الجمعة الثانى والعشرين من جمادى الآخرة بدرب الريحان ، ودفن بتربته بسفح قاسيون .
انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٢٧٥ ؛ ترويح القلوب ، ص٧٨ ، حاشية(٦) .

والملك الكامل بالرقة ، فخرج من دمشق وجاء إلى الرقة ، وكتب صاحب الروم السلطان علاء الدين كيقباذ إلى الملك الأشرف يقول : هذا يستولى على البلاد ، والمصلحة أن تجئ إلى عندى ، فعندى المال والرجال . فشاور الكامل ، فقال : مصلحة . وقطع الكامل الفرات إلى ناحية مصر فى سبعة آلاف مقاتل ، وليس له عدو ، وسار الأشرف إلى حران فى سبع مائة فارس ، فأقام بحران ، وكتب إلى حلب والموصل والجزيرة ، فجاءته العساكر فرحل يريد الروم ومعه من المقدمين أخواه شهاب الدين غازى ، والعزيز عثمان ، والجواد ، وشمس[1] الدين صواب ، والأمراء ، واجتمع الأشرف بصاحب الروم ، وكان اجتماعهما بمدينة سيواس[2] . وفى تاريخ ابن كثير[3] : أرسل صاحب الروم إلى الأشرف يستحثه على القدوم عليه ولو جريدة وحده ، فقدم الأشرف فى طائفة كثيرة من عسكر دمشق إلى كيقباذ واجتمع به ، وانضاف إليهما عسكر بلاد الجزيرة ومن بقى من عسكر أخلاط ، فكانوا خمسة آلاف مقاتل ، معهم العدة الكاملة والخيول الهائلة .

وفى تاريخ بيبرس : وكان ركن الدين جهان شاه صاحب أرزن الروم ، وهو ابن عم السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان السلجوقى صاحب بلاد الروم قد انتمى إلى جلال الدين ودخل فى طاعته ، وحضر معه فى حصار أخلاط وفتحها ، وكانت بينه وبين ابن عمه علاء الدين كيقباذ عداوة مستحكمة ، فخاف[١٠١] علاء الدين أن يقصد جلال الدين بلاده ويأخذها منه ، ويملكها لابن عمه ركن الدين ، فاستنجد بالملكين الكامل والأشرف ، فجمع الملك الأشرف عساكر الشام والجزيرة ، وسار بنفسه إلى سيواس واجتمع بالسلطان علاء الدين كيقباذ ، وسارا معا إلى جهة خلاط ، ولم يكن جلال الدين استولى على شىء من معاقلها ، واجتمعت العساكر

---

(١) شمس الدين صواب : هو الطواشى والخادم العادلى ، مقدم جيش الكامل ، وأحد من يضرب به المثل فى الشجاعة ، وكان له من جملة المماليك مائة خادم ، فيهم جماعة من الأمراء ، توفى بحران فى رمضان سنة ٦٣٢هـ ، وكان نائبا للكامل عليها .
انظر : مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٥٩ ، الشذرات ، ج٥ ، ص١٤٩ .

(٢) سيواس : بلدة كبيرة مشهورة وبها قلعة صغيرة ، والطريق بين سيواس وقيسارية ستون ميلا ، وفى شرقيها مدينة أرزن الروم .
انظر : تقويم البلدان ، أبو الفداء ، ص٣٨٤ ـ ص٣٨٥ ـ دار صادر بيروت ـ طبع فى مدينة باريس ـ دار الطباعة السلطانية ـ ١٨٤٠ مسيحية .

(٣) البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٦ ؛ وانظر أيضا الكامل ، ج١٢ ، ص٤٩٠ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٩٨ .

الشامية بعسكر دمشق وعسكر حمص ومقدمه الملك المنصور ابراهيم[1] بن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه ، سيره أبوه مقدما على عسكره ، وبعض عسكر حماه ، وبعض عسكر حلب ، وعسكر الشرق ، وعساكر الروم ، وكان مقدم عسكر حلب الأمير عز الدين[2] بن مُجَلىّ ، وبلغ ذلك جلال الدين خوارزم شاه ، فسار إليهم ، فوقع فى طريقه بسبعة آلاف من الروم ، جاؤا نجدة لصاحب الروم ، وقد نزلوا فى مرج يستريحون فقتلهم[3] .

قال السبط[4] : وحكى لى الأمير عماد الدين[5] بن موسك (رحمه الله) وكان مع العسكر ، فقال : لما وصلنا إلى الروم خرج عسكر أرزنجان نجدة لنا ، وكانوا فى اثنى عشر ألفا ، فنزلوا فى مرج ، ورموا سلاحهم وسيبوا دوابهم ترعى ، ولم يعلموا بمسير جلال الدين ، فمر بهم فى طريقهم فقتلهم وأسرهم ، ولم يفلت منهم إلا اليسير ، وكان ذلك فى الخامس والعشرين من رمضان ، نهار الأربعاء ، فضعفت قلوب العساكر وخافوا ، وأقمنا مكاننا إلى عشية الخميس ، فوصل الجاسوس ، وأخبر أن العدو يصبحنا يوم الجمعة ، فرتبنا الأطلاب[6] ، الحاشية فى الأول ، ثم بعدهم العرب ، وبعدهم الحلبيون ، ثم صوابٌ ، ثم الجواد ، ثم العزيز ، ثم شهاب الدين ، ثم تبعتهم الأطلاب ؛ أطلاب الروم ، وصاحب الروم فى الطلب الخاص ، وكنا فى أرض وعرة فخرجنا إلى وطأة ، وإذا بطلائع

(١) الملك المنصور ناصر الدين ابراهيم بن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه : صاحب حمص مرض بدمشق ببستان الملك الأشرف بالنيرب ، ومات فى حادى عشر صفر سنة ٦٤٤هـ ، وكان شجاعا مقداماً .
انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٨٤ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص٢٢٩ .

(٢) الأمير عز الدين بن مجلّى : هو الأمير عز الدين عمر بن على بن مُجَلّى ، وهو من الأكراد الهكارية ، ومن الشجاعة فى الدرجة العالية ، وله من الأوصاف الجميلة ، والأخلاق الكريمة .
انظر : الكامل ، ج١٢ ، ص٤٩٠ .

(٣) وردت هذا الأحداث بتصرف فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٨٩ـ ص٤٩١ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٩٧ ـ ص٢٩٩ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٤٦ .

(٤) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٣٦ ـ ص٤٣٧ ؛ وانظر أيضا : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٩٧ ـ ص٢٩٩ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٤٦ .

(٥) عماد الدين بن موسك : هو الأمير عماد الدين داود بن موسك بن جكر ، توفى بالكرك ، وكان جامعا لمكارم الأخلاق ، ودفن عند قبر جعفر والشهداء بحوته .
انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٧٩ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٧٦ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٨٣ ـ ص١٨٤ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٥٠٨ .

(٦) الأطلاب : جمع طَلب وهى وحدات صغيرة قد تبلغ أربعمائة يرأسها أمراء يعملون فى وظائف البلاط أو الدولة وقد ظهرت هذه الوظيفة أيام صلاح الدين الأيوبى ، والطلب فى لغة الغز هو أمير له لواء وبوق ومائتى فارس إلى مائة إلى سبعين .
انظر : القلقشندى ، مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص٣٦ .

جلال الدين خوارزم شاه ، فأخذ العرب منهم مائة فارس ، وقتلوا مائة فارس ، ولم يتقدموا إلينا ، ونزلوا ونزلنا وبيننا وبينهم جبل ، وإلى جانبه وادى ، وخفنا خوفا شديدا ، وليس معنا زاد ولاماء ، ولاعلف لدوابنا ، وقال الأشرف : مانحشر إلا من تحت حوافر خيولنا . أين المفر؟ فلما كان وقت السحر قبيل طلوع الفجر أمر جلال الدين[١٠٢] لمن بقى من عسكر أرزنجان ، وكانوا خمسمائة فضرب رقابهم ، فلما كان بكرة السبت الثامن والعشرين من رمضان قطعوا إلينا الوادى ، ووقف جلال الدين على رأس الجبل وسنجقه فى الوادى ، ووقع القتال ، وأرسل الله تعالى ضبابا فلم ير أحد كفه ، ونصرنا الله عليهم ، فانكسروا ، ووقع معظمهم فى الجبال والأودية ، وقاتل الروم قتالا شديدا ، وكان من وقع من رأس الجبل إلى الوادى أكثر ، فأصبحوا بين قتيل وأسير ، وغنم الناس أموالهم وخيلهم وسلاحهم ، وامتلأت الجبال والأودية بنتنهم ، وشبعت الطيور والوحوش من دمائهم ولحومهم .

وفى تاريخ بيبرس : لما سمع جلال الدين بعساكر الملك الأشرف مع عساكر الروم أتوا لقتاله ، سار مجدا لقتالهم ، فوصل إليهم فلقيهم بناحية أرزنجان ، واصطفت العساكر للقتال ، ولما التقوا ووقع القتال ، لم يثبت جلال الدين وولى منهزما ، وتفرق عسكره وتمزقوا ، وهلك منهم خلق عظيم ، قتلا وترديا من رؤوس جبال كانت فى طريقهم ، واسترجع الملك الأشرف خلاط ، وقد صارت خرابا يبابا[١] ، وسار جلال الدين نحو أذربيجان[٢] .

وأسر ألغ خان وأطلس ملك ، وعدة من المفاردة ، فأمر علاء الدين كيقباذ بضرب رقابهم ، وأسر صاحب أرزن الروم بعد أن كانوا قد أحاطوا به ، فقاتل أشد قتال وقتل ، ولما وصل جلال الدين إلى سكماناباذ وخلف شرف الملك ومن كان معه من العراقيين هناك برسم اليزك ، ليكونوا حجابا دونه ، وأقام بخوى ، وأما وجوه الترك والخانات فلم يعرج واحد منهم على آخر ، ولا على السلطان ، وكانوا يخففون بكل مرحلة ما أثقلهم إلى أن وصلوا[٣] مُوقَان[٤] .

---

(١) يباباً :خرابا ـ انظر : القاموس المحيط ، مادة «بَابَ» .

(٢) وردت هذه الأحداث بتصرف فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٩٩ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٤٦ .

(٣) انظر : سيرة منكبرتى ، ص٣٣١ ـ ص٣٣٣ .

(٤) مُوقان : ولاية بأذربيجان ، فيها قرى ومروج كثيرة ، يحتلها التركمان للرعى .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٦٨٦ .

وفى المرآة[١] : ولما جرى ماذكرنا ؛ قال الملك الأشرف لكيقباذ : لابد لى من خلاط ، فأعطاه ولأصحابه وأخوته وجميع الأعيان من الأموال والخلع والثياب والخيل والتحف ماقيمته ألفا[٢] ألف دينار ، ورجع كيقباذ إلى بلاده ، وجرد مع الأشرف بعض عسكره ، وسار الأشرف فنزل أرزن الروم ، وكان صاحبها [١٠٣] قد صار مع جلال الدين ، فأخذها منه ، وبعث به إلى كيقباذ ، وسلم أرزن الروم إلى نواب كيقباذ ، وسار إلى أخلاط ، ولما وصل جلال الدين إلى أخلاط أخذ جميع ما كان له فيها ، والكرجية زوجة الأشرف ، ومجير الدين ، وتقى الدين ، ونزل أرجيش[٣] ، وجاء الأشرف فنزل أخلاط ، وسار خلف جلال الدين ، فأبعد عنه ، وتراسلا واصطلحا على أن يطلق جلال الدين من عنده من الأسارى ، فأطلق مجير الدين وتقى الدين ، ولم يطلق الكرجية ، وعاد الأشرف إلى دمشق مستهل جمادى[٤] الأولى سنة ثمان وعشرين وستمائة . فأقام شهرا ، وطلع إلى مصر إلى أخيه الكامل . قال السبط[٥] : ومن العجائب أنه كان لى عادة أجلس الثلاثة أشهر بجامع دمشق ، فلما كان فى يوم السبت الثامن والعشرين من رمضان ، اليوم الذى التقوا فيه مع جلال الدين ، وثار الضباب ، وكان آخر مجالسى بجامع دمشق ، وحضره الصالح[٦] اسماعيل ، وكان نائب الأشرف بدمشق ، وقال الصالح : وكان فى القبة لنجم الدين بن سلام ، قل للشيخ يدعو للسلطان بالنصر . فأشار إلى فدعوت ، وأمن الجماعة ، فثار فى الساعة التى دعوت فيها ضباب عظيم ، وغشى أهل المجلس ماغشيهم ، وغبت أنا أيضا ، فلما أفقت قلت : نصر الأشرف اليوم ، فتعجب الجماعة ، فوصل الخبر بعد عشرة أيام بالواقعة على ماذكرنا ، وأن الضباب الذى كان عندهم كان عندنا ، وأنهم نصروا فى الساعة التى دعونا فيها[٧] .

(١) سبط ابن الجوزى ، ج٨ ، ص٤٣٧ - ص٤٣٨ .

(٢) «ألفى» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .

(٣) أرجيش : مدينة قديمة من نواحى أرمينية الكبرى ، قرب خلاط ، وأكثر أهلها أرمن نصارى .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص١٩٦ .

(٤) «ربيع الآخر» كذا فى الأصل ، وما أثبتناه من مرآة الزمان ، ج ٨ ، ص٤٣٧ ، حيث ينقل عنه العينى .

(٥) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٣٧ - ص٤٣٨ .

(٦) يقصد الملك الصالح عماد الدين اسماعيل بن الملك العادل .
انظر : شفاء القلوب ، ص٢٧٩ ؛ ترويح القلوب ، ص٧٩ .

(٧) إلى هنا توقف العينى عن النقل من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٣٧ - ص٤٣٨ .

وفى تاريخ[١] ابن كثير : لما انهزم جلال الدين ، وهلك من عسكره خلق كثير ، دقت البشائر فى البلاد ، فرحا بنصرة الملك الأشرف على الخوارزمية ، فإنهم كانوا لا يفتحون بلدا إلا قتلوا من فيه ، ونهبوا أموالهم ، فكسرهم الله عز وجل ، وقد كان الأشرف رأى النبى (ﷺ) فى المنام قبل الوقعة ، وهو يقول له : ياموسى أنت منصور عليهم .

وفى تاريخ بيبرس : ولما علم الأشرف أن شرف الملك وزير جلال الدين بسكماناباذ فاتحه بالمراسلة والملاطفة ، وقال : إن [١٠٤] السلطان جلال الدين سلطان الإسلام والمسلمين وسيدهم ، والحجاب دونهم ودون التتار ، وغير خاف علينا ما تم على الإسلام والمسلمين بموت والده[٢] ، ونحن نعلم أن ضعفه ضعف الإسلام ، وضرره عائد على كافة الأنام ، فهلا ترغبه فى جمع الكلمة ، فإنه أهدى سبيلا ، وأقوم قيلا ، ولم لاتدعوه إلى الألفة التى هى أحمد فى البدو والعقبى ، وأنا ضامن للسلطان من جهة علاء الدين كيقباذ ، وأخى الملك الكامل مايرضيه من الإسعاد ، وإصفاء النيات على حالتى القرب والبعاد ، والقيام بما يزيل عارض الوحشة ، ويمحوا سمة الفرقة ، وأمثال ذلك من الملاطفة . فأدى شرف الدين إلى جلال الدين الرسالة ، فركن إليها وتم الصلح ، وحلف للملك الأشرف ، ولم يحلف لعلاء الدين كيقباذ ، ولما تواترت الأخبار بورود التتار إلى العراق ، حلف لصاحب الروم أيضا بكف الأذى عن بلاده ، ولم يحلف عن سرمارى[٣] بحكم أنها بقرب بلاد أذربيجان ، وكان صاحبها راسل الملك الأشرف يسأله التلطف مع جلال الدين فى أمرها ، فأرسل الأشرف إليه رسولا فى معناها ، فأجاب السلطان إلى النزول عنها ، على أن يكتب بها توقيعا[٤] للملك الأشرف ، وقبل الرسول الأشرفى الأرض بين يدى السلطان ، شكرا على ذلك[٥] .

وقال أبو الفتح المنشئ فى كتابه الذى صنعه فى سيرة جلال الدين ، باسطا هذه القضية بعبارات طويلة ، أكثرها لايحتاج إليه ، فنحن سقنا كلامه ملخصا لأجل بعض

---

(١) البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٧ .
(٢) علاء الدين محمد خوارزم شاه . انظر : سيرة منكبرتى ، ص٣٣٤ .
(٣) سُرْمارى : قلعة عظيمة وولاية واسعة بين تفليس وخلاط ، وهى قرية بينها وبين بخارا ثلاثة فراسخ . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٨٢ .
(٤) «توقيع» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .
(٥) وردت هذه الأحداث فى سيرة منكبرتى ، ص ٣٣٣ - ص٣٣٥ .

زيادات فيه ، لم يذكره أكثر المؤرخين . قال : ولما أراد جلال الدين أن يسير إلى أخلاط ، كانت عساكره سبقت إلى تخومها وأقامت على مسيرة يوم منها ، إلى أن عاد السلطان من نخجوان ، واتصل بهم ، ثم ورد عليه رسول من عز الدين أيبك ، وكان نائب الملك الأشرف بأخلاط ، وقبض على الحاجب على ، وكان الرسول شيخا تركيا عاقلا ، وكانت زبدة رسالته إظهار الطاعة ، وأن الأشرف ما أمره بالقبض على الحاجب على إلا لإساءته الأدب مع[١٠٥] السلطان ، وكان جواب جلال الدين : إن أردت مرضاتى فابعث إلى الحاجب عليا ، فلما عاد الرسول بهذا الجواب ، قتل عليا ، فنزل جلال الدين على خلاط ، ونصب عليها اثنى عشر منجنيقا ، وجرت أمور فى مدة حصار خلاط[١] .

منها أن الأصفهيد[٢] نصرة الدين صاحب الجبل[٣] قصد جلال الدين اعتماداً على أوترخان[٤] ، الذى كان قد تزوج بأخت له لأب ، وقدم تقادم جليلة ، أكثرها الجواهر الثمينة ، فانحرف عنه أوترخان ، وحمل السلطان على قبضه ، فقبض وقيد ، وبقى محبوسا إلى أن عاد جلال الدين من الروم منهزما[٥] .

ومنها أن خان سلطان بنت علاء الدين خوارزم شاه ، أخت جلال الدين ، كانت أسرت حين أسرت تركان خاتون زوجة علاء الدين ، وحملت إلى جنكيزخان ، فأخذها دوشى[٦]خان بن جنكيزخان لنفسه ، وكانت تبعث إلى جلال الدين أخيها بأخبار التتار سرا ، فسيرت أيضا ـ وجلال الدين محاصر خلاط ـ خاتما من خواتيم علاء الدين خوارزم شاه ، وفيه فص فيروزج منقوش عليها اسم علاء الدين ، وذلك علامة من جهتها ومعرفة بحالها ، من ذلك أن الخاقان قد أمر بتعليم أولادها القرآن ، ومن ذلك أنه بلغه أخبار شوكتك واتساع باعك ، فعزم على مصاهرتك ، والمهادنة معك ، على أن تشاطره

---

(١) وردت هذه الأحداث بالتفصيل فى سيرة منكبرتى ، ص ٢٩٩ .

(٢) الأصفهيد : أى مقدم الخيالة .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٣٠٠ ، حاشية(١) .

(٣) الجبل : كورة بحمص ، وهو اسم جامع لهذه الأعمال التى يقال لها الجبل ، والعامة فى أيامنا يسمونها العراق ، وهمذان أيضا من بلاد الجبل .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٢٢ .

(٤) أوترخان : كان السلطان جلال الدين قد جاز أمراء ميمنته بجزيل الرواتب والمراتب ، فلقب يكت ملك بأوترخان .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٢٣٨ .

(٥) وردت هذه الأحداث بالتفصيل فى سيرة منكبرتى ، ص ٣٠٠ .

(٦) دوشى خان : هو جوجى بن جنكيزخان .

الملك على نهر جيحون ، فيكون لك مادونه ويكون له ماوراءه ، فإن كنت تعلم أنك تقاومه فانهض إليه وقاتله ، فتظفر بما أردت ، وإلا فاغتنم المسالمة ، فتشاغل جلال الدين بالحصار ، ولم يعد إليها جوابا[١] .

ومنها أنه قدم إليه ركن الدين جهان شاه بن طغرل صاحب أرزن الروم ، وكان يخطب للملك الأشرف ، وكان يعادى ابن عمه السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو صاحب الروم ، وكانت له ذنوب عند جلال الدين ، منها أنه كان يمنع وصول التجار إلى معسكره ، ومنها أنه قتل رسوله السديد عائدا من الروم ، وغير ذلك . فلما رأى أنه أشرف على أخذ خلاط ساءل منه الأمان برسول أرسل إليه ، وهو شمس الدين الحكيم البغدادى ، وكان ذا ظرافة وأدب[١٠٦] ، فأمر جلال الدين وزيره[٢] شرف الملك بملاقاته مسيرة يوم فى أصحاب الديوان ، ثم التقاه الخانات يوم وصوله إلى خلاط على مراتبهم ، وكان اجتماع الوزير به عند بحيرة[٣] ناووك ، وهى بين خلاط ومنازجرد ، وجمعهما الشرب تلك الليلة ، فقدم للوزير أشياء تنيف على عشرة آلاف دينار ، ثم أنه لما قرب وقف له جلال الدين على رأس الميدان تحت الجِتْر[٤] ، فلما رأى السلطان نزل ، وقبل الأرض ، وتخطى عدة خطوات ، ثم جاء إليه الحاجب الخاص بدر الدين طوطق بن أينانج خان ، وأمره عن السلطان بالركوب ، فركب وسار فى خدمة السلطان إلى أن نزل السلطان ، فعانقه ، وقَبَّل جهان شاه يده ، وأشار إليه السلطان بالوقوف على يمينه تحت الجتر ، فوقف ، وفى تلك الساعة تساقطت دعائم الجتر ، فتطير الناس بذلك ، وكان اجتماعهما سبب هلاكهما على مايجئ بيانه إن شاء الله ، ثم خلع جلال الدين عليه وعلى أصحابه مائتى خلعه ، وأقام عنده أياما ، ثم أذن له أن يعود إلى بلاده ، ويسير إليه ما يقدر عليه من آلات الحصار ، فسير منجنيقا كبيرا يسمى قرابُغا[٥][٦] .

(١) وردت هذه الأحداث بالتفصيل فى سيرة منكبرتى ، ص ٣٠٠ - ٣٠١ .
(٢) الوزير شرف الملك جهانشاه . سيرة منكبرتى ، ص٣٠٢ .
(٣) «بحيرة نازوك» كذا ورد اسم البحيرة فى سيرة منكبرتى ، ص٣٠٢ .
(٤) الجِتْز : المظلة ، وقد كانت فى أيام الفاطميين والأيوبيين والمماليك فى مصر من شعار السلطنة ، وهى عبارة عن قبة من الحرير الأصفر المزركش بالذهب فى أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب تحمل على رأس السلطان فى العيدين . انظر : سيرة منكبرتى ، ص٥٤ ، حاشية (٥) .
(٥) «قرابغرا» ورد هذا الاسم هكذا فى سيرة منكبرتى ، ص٣٠٣ .
(٦) وردت هذه الأحداث بالتفصيل فى سيرة منكبرتى ، ص٣٠١ - ص٣٠٣ .

ومنها موت ابن جلال الدين قيقمارشاه[١] ، وكان عمره ثلاث سنين ، وكان من أخت شهاب الدين سليمان شاه ملك الإيوانية[٢] ، وكان اتصاله بها أنه لما رجع من بلاد بغداد سنة إحدى وعشرين وستمائة ، بعد شن الغارات على نواحيها ، وصل إلى قلعة المذكور متجردا ، وليس معه حريم ، فنزل بظاهرها ، وأرسل إليه يطلب منه جارية تصلح للاستفراش ، وكانت الرسالة على يد خادم له يسمى سراج الدين محفوظ ، فأجاب بأنه ليس عندى مايصلح له إلا كريمتى ، وزوجها منه ، فأرسلها إليه فى تلك الليلة ثم رحل جلال الدين وتركها هناك ، ثم جاء إليه بعد مديده خصى وأخبر أنها حملت ، فأرسل إليها السلطان ، واستحضرها فولدت عنده قيقمارشاه المذكور[٣] .

ومنها موت دوشى خان بن أخشْ ملك ، وكان أخش ملك ابن خال السلطان ، قتل بظاهر أصفهان فى الحرب فأخذ[١٠٧] جلال الدين ابنه دوشى خان عنده ، وربّاه ، وكان عنده أعز من أولاده ، حتى كان بعضهم يظن أنه ابنه ، فحزن لموته حزنا شديدا . قال أبوالفتح : ورأيته خرج من خيمته حافيا ، ودخل الخيمة التى فيها التابوت[٤] .

ومنها أنه ورد إليه سعد الدين بن الحاجب رسولا من الديوان العزيز[٥] فى عدة ملتمسات ، إذا قضيت من كبار أصحاب السلطان ، من له خبرة بمراتب أصحاب المناصب ليعاد بالخلع . ومن جملة الملتمسات : إن السلطان لايحكم على بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، ومظفر الدين كوكبورى صاحب إربل ، وشهاب الدين سليمان شاه ملك الإيوانية ، وعماد الدين بهلوان بن هزارَسْف ملك الجبال[٦] ، بل يعدهم فى أولياء الديوان وأتباعه . ومن ذلك أن السلطان لما رجع من جبال همذان ولم يتم له ماقصده من

(١) «قيمقارشاه» كذا ورد الاسم فى سيرة منكبرتى ، ص ٣٠٣ .

(٢) «الأبوية» كذا ورد الاسم فى سيرة منكبرتى ، ص ٣٠٣ .

(٣) وردت هذه الأحداث بالتفصيل فى سيرة منكبرتى ، ص٣٠٣ ـ ص ٣٠٤ .

(٤) ورد هذا الخبر بالتفصيل فى سيرة منكبرتى ، ص٣٠٤ .

(٥) أى ديوان الخلافة . انظر : سيرة منكبرتى ، ص٣٠٤ ، حاشية(٤) .

(٦) الجبال : اسم للبلاد المعروفة اليوم باصطلاع العجم بالعراق ، وهى مابين أصبهان إلى زنجان وقزوين وهمذان والدينور وقرميسين والرى ، ومابين ذلك من البلاد الجليلة .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص١٠ .

أخذ بغداد أسقط عن الخطبة اسم الخليفة بعامة ممالكه ، ولما خاطبه سعد الدين[١] بذلك أمر بإعادة الخطبة باسم الخليفة المستنصر[٢] بالله فى سائر ممالكه . قال أبو الفتح : فأمرنى السلطان بكتابة تذكرة إلى المواقف الشريفة مشتملة على عدة فصول ، وكان آخر الفصول إحضار الحاجب الخاص ليبدى إليه مافى خاطره . قال أبو الفتح : لما جاء الحاجب الخاص من عند الخليفة حدثنى بأن السلطان وصانى بأنى إذا حضرت الديوان لا أقبل يد الوزير مؤيد[٣] الدين القُمِّى ، ولا يوفه حق التعظيم لأمور كان ينقمها عليه . قال : ففعلت ذلك امتثالا لأمره . قال : فلما مضت أيام فإذا بحراقة[٤] وصلت إلى منزلى بحافة دجلة ، وإذا سعد الدين بن الحاجب قد دخل ، وقال : استعد لخدمة أمير المؤمنين فركبت الحراقة ، وسقنا إلى أن وصلنا إلى باب كبير فدخلت ، وتأخر سعد الدين ، ولم يتعد ، فقلت : هل لاتدخل معى؟ فقال : ومامنا إلا له مقام معلوم ، وكان خلف الباب خادم ، فأوصلنى إلى باب آخر ، ودق الباب ففتح ، ودخلت ، وإذا بخادم شيخ جالس على دكة ، وبين يديه مصحف شريف وشمعة ، فأجلسنى وترحب بى ، إلى أن جاء خادم آخر أبيض حسن الصورة ، ولاطفنى بالعجمى ، ثم أخذ بيدى ووصانى ، فقال لى : انظر تحضر بين يدى من هو؟ واستعمل حسن الأدب[١٠٨] فقلت : لاتستجهلنى ، وإن كنت رجلا تركيا . فلما طلعنا الدرجة ، وصافح عينى الستر[٥] الأسود قبلت الأرض قبل أن ينبهنى عليه ، فأثنى علىَّ الخادم ، ورأيت الوزير واقفا حذاء ستارة مُرْخاة ، فجاء خادم آخر ، ورفع الستارة ، فمشيت ، فإذا أمير المؤمنين جالس على سرير ، فكلم الوزير بلغة عربية ، فتقدم إلىَّ خطوات ، وأشار إلىَّ بالوقوف حيث كان هو أولا ، فقبلت الأرض ، ثم قال أمير المؤمنين : كيف الجناب العالى الشاهنشاه؟ يعنى السلطان .

---

(١) سعد الدين هو رسول ديوان الخلافة . انظر : سيرة منكبرتى ، ص٣١٥ .

(٢) الخليفة المستنصر بالله هو أمير المؤمنين أبو جعفر المنصور .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٣٠٥ .

(٣) مؤيد الدين القُمِّى : ولد هذا الوزير فى مدينة قُمْ إحدى مدن العراق العجمى ، ونشأ فى بغداد ، وتوفى بها سنة ٦٢٩هـ ، وتولى الوزارة فى عهد الخلفاء العباسيين الناصر والظاهر والمستنصر .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٣٠٥ ، حاشية (٤) .

(٤) حَرَّاقَة : هى مركب حربى قديم كان يستعمل فى حمل الأسلحة كالنار الإغريقية وبها مدافع خاصة تقذف النيران ، وكانت تستخدم فى مصر لحمل الأمراء ورجال الدولة فى التنقلات النهرية ، وقد حلت محله اليوم المدمرة .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٣٠٦ ، حاشية (٢) .

(٥) الستر الأسود : هو شعار العباسيين .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٣٠٧ ، حاشية (١) .

وهكذا كان خطابه للسلطان فى الكتب . فَقَبَّلت الأرض ، وأردف ذلك بكلمات تنبىء عن المواعيد الجميلة ، من ذلك أنه يريد تقديمه على سائر ملوك زمانه ، ثم عَلَّم على كتاب العهد الذى كتب للسلطان ، وناولينه الوزير ، فوضعته على رأسه ، وقبلت الأرض ، وخلع عليَّ بخلعة سنية ، وأُعْطِيتُ عشرة آلاف دينار ، وأصحب بالأمير فلك الدين بن سنقرالطويل ، وسعد الدين بن الحاجب ، ومعها خلعة السلطان ، فوصلوا إلى خلاط فى الشتاء ، والسلطان يحاصرها ، وكان يضرب لفلك الدين الدهليز ، وتضرب له البوقات[١] عند ركوبه ونزوله ، وكان سعد الدين بن الحاجب مع جلالة قدره فى الديوان العزيز يحجبه حفظا لإقامة الهيئة ، وأما الخلعة فكانت ثنتين : إحداهما[٢] جبة[٣] وعمامة وسيف هندى قد رصع غلافه ، والأخرى قباء[٤] وكمة[٥] وفرجية[٦] وسيف محلى بالذهب ، وقلادة مرصعة ثمينة ، ومعهما فرسان مكملتان العُدَّة ، وقد تعلوهما عند تقديمهما للسلطان بتطبيقتين ، كل تطبيقة أربع مائة دينار ، وترس ذهب مرصع بالجوهر ، فيه أحد وأربعون فصا ، من ياقوت وبذخشانى فى وسطها فيروزج كبير ، وثلاثون فرسا من الخيل العربية ، مجللة بالأطلس الرومى ، مبطنة بجلال الأطلس البغدادى ، وكل واحد منها مقود حرير ضرب[٧] عليه ستون دينارا خليفتية[٨] ، وعشرون مملوكا بالعُدَد والمراكيب ، وعشرة فهود بجلال أطلس ، وقلائد ذهب ، وعشرة صقور مكللة الكمام ، ومائة وخمسون [١٠٩] بقجة[٩] ، وكل واحدة منها عشرة ثياب ، وخمس أكر من العنبر ، مضلعة بالذهب ، وشجرة عود طولها خمسة أذرع ، وأربع[١٠] . عشرة خلعة برسم

---

(١) البوقات : المفرد البوق ، وهو آلة ينفخ فيها ويُزَمَّر . لسان العرب ، مادة «بوق» .
(٢) «إحديهما» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .
(٣) جُبَّة : هى الفرجية الفوقانية الأصلية وهى الثوب الخاص بطبقة العلماء والقضاة .
انظر : الملابس المملوكية ، ص٩٥ .
(٤) قباء : وهو ثوب له أكمام ضيقة .
انظر : الملابس المملوكية ، ص٢٥ .
(٥) كمة : هى نوع من القلانس . معجم الألفاظ التاريخية ، ص١٣١ .
(٦) فرجية : تطلق على الثوب الفوقانى الخاص بطبقة القضاة والعلماء ، وتصنع من أقمشة متنوعة حسب فصول السنة وكانت تزين بطراز وتزرر .
انظر : الملابس المملوكية ، ص٩٥ .
(٧) «ضربت» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .
(٨) «خليفية» كذا فى سيرة منكبرتى ، ص٣٠٨ .
(٩) البقجة : العدة من القماش ، يوضع بها الثياب أو النقود أو الأوراق الخاصة ، وهى فارسية الأصل وجمعها بقج .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٣٠٨ ، حاشية (٥) .
(١٠) «أربعة عشر» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .

الخانات ، وحوايص ذهب ، والكنابيش[١] التفليسية ، فنُجيت الكنابيش من الخيل ، إلا من خيول أربعة من الخانات ، وهم : داغ خان ، وألغ خان ، وأوترخان ، وطغان خان ، وثلاث مائة خلعة برسم الأمراء ، كل خلعة قبا وكمة ، وكانت خلعة الوزير شرف الملك عمامة سوداء وقبا وفرجية وسيف هندى وأكرتين[٢] من العنبر ، وخمسين[٣] ثوبا وبغلة ، وعشرين[٤] خلعة برسم أصحاب الديوان ، كل خلعة منها جبة وعمامة . قال أبو الفتح : وخصصت أنا من بين سائر أرباب الديوان ببغلة شهباء جيدة ، وعشرين ثوبا ، أكثرها الأطلس الرومى والبغدادى . قال : ولما قرأت النسخة الواردة على السلطان ، وكان قد ذكر فى الأول الجناب العالى الشاهنشاهى ، وبعده الأجل شرف الملك الوزير ، ثم ذكرت أنا بعدهما ، ولم يذكر أحد من سائر أصحاب[٥] الديوان لا باسمه ولا بلقبه ، بل أطلق اللفظ المستوفى ، والمشرف ، والعارض ، والناظر ونحو ذلك ، وكان رسولا[٦] دار الخلافة ينتظران السلطان يحضر خيمته التى ضربت له ، فيلبس الخلعتين ، فلم يفعل ذلك بل ضربت له خيمة بقرب الخزانة ، ونقلت الخلع إليها ، وركب السلطان مرتين ، ولبس الخلعتين فى نهار واحد ، ولبس الناس بعده ، ثم خاطب الرسول السلطان فى أمر خلاط وإزالة الحصار ، فلم يرد عليه جوابا شافيا[٧] .

ومنها ورود رسول الملك المسعود صاحب آمد ، وكان شخصا تركيا يعرف بعلم الدين قصب السكر ، ورسول الملك المنصور صاحب ماردين ، وكان خادما أسود ، والرسولان رسالتهما عرض الخدمة والطاعة ، وأصحب معهما السلطان رسولا من جهته

---

(١) الكبابيش : كذا فى سيرة منكبرتى . ص٣٠٨ . والكنابيش : مفردها كنبوش وهو كساء الفرس أى البرذعة تجعل تحت سرج الفرس ، وهو أيضا اللثام الذى يستعمله أهل بلاد المغرب لتغطية الوجه من الذقن إلى الخيشوم اتقاء لبرودة الصباح ورطوبته ، ويسمى أيضا الكنفوش .

انظر : مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص٢٨٩ ؛ الملابس المملوكية ، ص١٣٥ .

(٢) «أكرتان» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .

(٣) «خمسون» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .

(٤) «عشرون» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .

(٥) أصحاب الديوان : صاحب الديوان هو منصب متولى الديوان وهو يلى رتبة الناظر فى المراجعة ، وله أمور تخصه كترتيب الدرج ، ونحو ذلك لعمل الأرشيف .

انظر : مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص٢١٣ .

(٦) «رسول» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .

(٧) وردت هذه الأحداث بالتفصيل الشديد فى سيرة منكبرتى ، ص٣٠٤ - ص٣١٠ .

يأمرهما بإقامة الخطبة له في بلادهما ، وأصحب الرسولين بالفقيه نجم الدين الخوارزمى ، فأبطأ[١] عن السلطان ولم يعد إلا[١١٠] بعد عود السلطان من الروم على الوجه الذى لايروم[٢] .

ومنها أن خلاط لما عظم بها البلاء ، واشتد الغلاء ، خرج من أهلها فى يوم واحد مقدار عشرين ألف إنسان ، وقد تغيرت صورهم من الجوع ، حتى أن الأخ لايعرف الأخ ، وكان شرف الملك الوزير يطعمهم فيذبح لهم كل يوم عدة أبقار ، فما سكنت نفوسهم ، حتى مات أكثرهم ، وتفرق الباقون أيدى سبأ[٣] .

ومنها أن السلطان علاء الدين خوارزم شاه والد جلال الدين كان مدفونا بالجزيرة[٤] على ماذكرنا ، فسنح لجلال الدين وهو محاصر لأخلاط أن يبنى مدرسة بأصفهان ، وينقل تابوت والده من الجزيرة ، فسير مقرب الدين مِهْتَر مهتران مقدم الفراشين[٥] إلى أصفهان ، وكان هو الذى تولى غسل علاء الدين خوارزم شاه ، ليبنى بها مدرسة ، فيها قبة للدفن ، ويكون فيها بيت الثياب ، وبيت الفرش[٦] ، وبيت[٧] الطشت ، والركاب[٨] ، وغير ذلك ، وأصحبه ثلاثين ألف دينار ، للشروع فى عمارتها ، وتقدم للوزير بالعراق بإطلاق مايحتاج إليه تمام العمارة من وجوه الديوان ، وأن يستعمل لها آلات الذهب من

---

(١) «فانطاء » كذا فى الأصل ، والصحيح ما أثبتناه من سيرة منكبرتى لاستقامة المعنى ، ص٣١٠ .

(٢) ورد هذا الخبر فى سيرة منكبرتى ، ص٣١٠ .

(٣) ورد هذا الخبر فى سيرة منكبرتى ، ص٣١٠ - ص٣١١ .

(٤) هى إحدى جزر مازندران التى توفى فيها السلطان علاء الدين خوارزم شاه ، سنة ٦١٧هـ .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص١٥ .

(٥) مقدم الفراشين أو الفراشية : هو الذى يشرف على بيت الفراش الذى يحوى البسط العديدة والخيام .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص١٠٨ ، حاشية (٣) .

(٦) بيت الفرش : يسمى أيضا الفراش خاناه ، ويشتمل على أنواع الفرش المختلفة من بسط وخيام وغير ذلك ، ويعمل فيه عدد من الغلمان يسمون بالفراشين .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٣١١ ، حاشية (٣) .

(٧) بيت الطشت : ويسمى أيضا بالطشت خاناه ، وسمى بذلك لاحتوائه على الطشت الذى تغسل فيه الأيدى والطشت الذى يغسل فيه القماش ، وهو يحتوى على مايلبسه السلطان من الكلوتة والأقبية وسائر الثيات والسيف والخف وغيره ، كما أنه يحوى على ما يجلس عليه السلطان من المقاعد والمخاد والسجاد الذى يصلى عليه وغيره . انظر : سيرة منكبرتى ، ص٣١١ ، حاشية (٤) .

(٨) بيت الركاب : ويعرف أيضا بالركاب خاناه ، ويشتمل على عدد الخيل من السروج واللجم . . الخ .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٣١١ ، حاشية (٥) .

الشمعدانات والطشت والإبريق ، وأن يقام بالباب فرس النوبة[1] ، فسار المقدم إلى أصفهان ، وشرع فى العمارة . قال أبو الفتح : ووصلت إليها بعد أربعة أشهر ، فوجدتها قد طلع بنيانها قدر قامة ، وكاتب السلطان عمته شاه خاتون صاحبة سارية من أعمال مازندران . وكان أبوها تكش[2] قد زوجها لملك مازندران أردشير[3] بن الحسن [وتوفى عنها][4] بأن تركب بنفسها ومن بمازندران من الملوك والأمراء والصدور ، فينقلون التابوت من الجزيرة إلى قلعة أردهن[5] ، وهى أحصن قلاع الأرض ، إلى أن تتم عمارة المدرسة بأصفهان ، ثم تنقل التابوت إليها . قال أبو الفتح : ولعمرى كنت أكتب هذا التوقيع كارها لعلمى بأن جثته ما سلمت من إحراق التتار ، ولقد أحرقوا عظام كل سلطان مدفون بأى أرض كان ، حتى أحرقوا عظام السلطان[6] محمود بن سبكتكين ، وأخرجوه من قبره بغزنة ، فأحرقت عظامه[7] .

ومنها أن مجير الدين يعقوب بن الملك[١١١] العادل أبى بكر بن أيوب قرع سور خلاط يوما ، والتمس حضور السلطان ليتحدث معه ، فيما يعود إلى حصول الغرض ،

---

(١) النوبة : الجمع نوب وهو لفظ يطلق على فرق الجند التى تتناوب الوقوف لحراسة شخص أو سلطان ، وهى خمس نوبات ويكون تغييرها فى الظهر والعصر والعشاء ونصف الليل وعند الصباح .
انظر : السلوك ، ج١ق٢ ، ص٤٦١ ، حاشية (٢) ؛ مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص٣٥٣ .

(٢) تكش : هو علاء الدين خوارزم شاه تكش بن أرسلان شاه بن آتسز من ولد طاهر بن الحسن ، كان شجاعا جوادا ملك الدنيا من الصين والهند ، وماوراء النهر إلى خراسان إلى بغداد ، وقد أزال دولة بنى سلجوق ، وكان يباشر الحروب بنفسه حتى ذهبت إحدى عينيه فى الحروب ، توفى فى دهستان فى رمضان سنة ٥٩٦هـ ، فحمل فى تابوت إلى خوارزم ودفن عند أهله .
انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٧ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٢٥ ؛ شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٣٢٤ .

(٣) أردشير بن الحسن ملك مازندران : هو حسام الدين أردشير صاحب مازندران مات سنة ٦٠٣هـ .
انظر : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان ، ج٣ ، ص١٩٩ ، تحقيق د/محمود رزق محمود ، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة ، (١٤٢٨هـ ـ ٢٠٠٧م) .

(٤) مابين حاصرتين إضافة من سيرة منكبرتى لتوضيح المعنى ، ص٣١٢ .

(٥) قلعة أَرْدَهْنُ : قلعة حصينة من أعمال الرى .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٢٠٤ .

(٦) السلطان محمود بن سبكتكين : حكم من سنة ٣٨٨/٤٢١هـ = ٩٩٨/١٠٣٠م ، وترجع أهميته فى تاريخ الشرق الإسلامى بوجه عام ، وفى تاريخ الدولة الغزنوية بوجه خاص إلى أنه استطاع أن يوسع أملاكه فى بلاد الهند حتى شملت إقليم البنجاب بما ذلك لاهور ومولتان وغيرهما ، كما وسع أملاكه فى فارس حتى شملت العجمى بما فى ذلك الرى وأصفهان ، والسلطان محمود هذا هو أبو القاسم محمود بن ناصر الدولة أبى منصور سُبُكتكين الملقب أولا سيف الدولة ، ثم لقبه الإمام القادر بالله «يمين الدولة وأمين الملة» ولد ليلة عاشوراء سنة ٣٦١هـ ، وتوفى فى ربيع الآخر ، وقيل حادى عشر صفر سنة إحدى وقيل : ٤٢٢هـ بغزنة .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٣١٢ ، حاشية (٢) ؛ وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص١٧٥ ـ ص١٨١ .

(٧) ورد هذا الحدث بالتفصيل فى سيرة منكبرتى ، ص٣١١ ـ ص٣١٢ .

فلما حضر قال : إن الضر قد اتضح ، وإن الطائفتين قد هلكتا ، فهل لك أن تبارزنى فيعود الأمر إلى فيصل؟ فقال السلطان : ومتى يكون ذلك؟ قال : بكرة غد . فلبس السلطان لأمة[١] حربه صباح غد ، وبلغ ذلك الوزير[٢] ، فأسرع إليه ، وقال : مجير الدين ليس من أقران السلطان ، وليس يليق بالسلطان أن يبارزه ، ولو علمنا أن السلطان إذا أهلكه حصل مقصوده لرضينا به ، فقال السلطان : هو كما ذكرت ، ولكن كيف لا أقاتل إذا دُعِى نزال؟ ثم ركب وحده ، وساق على الميعاد ، ووقف وأعلم بحضوره ، فشتموه وأمطرت عليه السهام ، ولم يخرج مجير الدين ، فرجع السلطان[٣] .

ومنها ما قاله أبو الفتح : إن السلطان استحضرنى ليلة ، فوجدت عنده عجوزا ذات هيبة قد خرجت من خلاط برسالة مزورة من الزكى العجمى ، وكان من ذوى الحظ عند الملك الأشرف ، والسلطان يعبّر عن لسانها بثلاث لغات : الفارسية ، والتركية ، والأرمنية ، ورسالتها أن الزكى العجمى استدعى من السلطان خمسة آلاف دينار يفرقها فى الأجناد ، فيجلب[٤] أهواءهم بها إلى السلطان ، حتى يرضوا بتسليم خلاط ، ثم يفتح باب الوادى صباح غد فيدخل السلطان . فلما شاورنى فى ذلك قلت : إن الزكى من دهاة عصره ومن لا[يخفى][٥] عليه الخطأ ، وهو رجل عاقل لايدخل فى مثل هذه القضية ، وأنا أعرفه حين ورد رسولا على السلطان ، ومع هذا رأيت السلطان لشدة حرصه على أخذ خلاط ، قد عزم على تسليم المطلوب إلى العجوز ، فلما كررت عليه الكلام رجع عن ذلك ، ولكن حرصه على أخذ خلاط حمله على أن أعطاها ألف دينار ، وقال لها : إن بان لى صدقك بعلامة أخرى سلمنا إليك خمسة آلاف دينار ، فرجعت ليلا ودخلت خلاط ، وماكان للحديث أصل ، وشاع الخبر فى العسكر ، وجاء إلى عز الدين أيبك من أخبره بأن الزكى يكاتب جلال الدين ، فقتله من[١١٢] غير ذنب صدر منه ، ولما ملك السلطان

---

(١) لأمة الحرب : هى أداة الحرب كلها من رمح وبيضة ومغفر وسيف ودرع ، وقيل : إنها الدرع الحصينة ، وسميت لأمة لإحكامها وجوده حلقاتها ، والجمع لأم .
انظر : المعجم الوسيط ، مادة لأم ؛ لسان العرب .
(٢) يقصد بالوزير «شرف الملك» . انظر : سيرة منكبرتى ، ص٣١٣ .
(٣) ورد هذا الخبر فى سيرة منكبرتى ، ص٣١٣ .
(٤) «فتجلب » كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه لاستقامة المعنى .
(٥) مابين حاصرتين إضافة من سيرة منكبرتى لاستقامة المعنى ، ص٣١٤ .

خلاط ظفر بالعجور بعض السرهنكية[١] ، فأخرجها من مدبغة ومعها زوجها شيخ هرم ، فأحضرت الذهب وقد نقصت منه ثلاث مائة دينار ، وقيل : إنها خنقت ، وكانت فائدة التزوير هلاكها ، وهلاك زكى الدين[٢] .

ومنها أن عز الدين أيبك كتب كتابا إلى الملك الأشرف بالألغاز ، وكذلك كتب مجير الدين إليه ، فَمُسِكَا فى الطريق . قال أبو الفتح : فناولنى إياهما السلطان ، وأعاننى الله على حلهما ، ومضمونهما الشكوى مما هم فيه من الضائقة ، وفيهما أن العدو قد سحر السماء فلم يقع لاثلج ولا غيره بحدود خلاط فى هذه السنة . ومسك أيضا كتاب الأشرف إليهما ، ومضمونه أن الذى ذكرتم من سحر العدو ليس له أصل ، وهذا أمر لايقدر عليه إلا الله تعالى ، غير أن السنوات تختلف أحوالها ، فتارة يتقدم الثلج ، وتارة يتأخر ، وهانحن عن قريب واصلون بالعسكر لكشف الضر وسنطردهم إلى ماوراء جيحون[٣] .

ومنها وفاة صاحب الديوان[٤] شمس الدين محمد ، وكان من كبار الصدور وتولى بعده الجمال على العراقى[٥] .

ومنها إحضار وزير علاء الدين[٦] صاحب ألموت أسيرا ، أسره برهان[٧] الدين سكر ، مقطع ساوة[٨] ، وسيره إلى خلاط ، فحمل إلى قلعة دزمار[٩] وحبس فيها إلى أن هلك[١٠] .

---

(١) السرهنكية : هى رتبة عسكرية أى القواد . .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص١٠٧ ، حاشية (١) ، ص١١٧ ، حاشية (٥) .
(٢) ورد هذا الخبر بالتفصيل فى سيرة منكبرتى ، ص٣١٣ ـ ص٣١٥ .
(٣) ورد هذا الخبر بتصرف فى سيرة منكبرتى ، ص٣١٥ .
(٤) صاحب الديوان : هو متولى الديوان وهو يلى رتبة الناظر فى المراجعة ، وله أمور تخصه كترتيب الدرج ، ونحو ذلك كعمل الأرشيف . انظر : مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص٢١٣ .
(٥) لمعرفة المزيد عن شمس الدين محمد صاحب الديوان .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٣١٥ .
(٦) علاء الدين صاحب ألموت : هو علاء الدين محمد الثالث بن جلال الدين حسن الثالث ، توفى سنة ٦٥٣هـ/ ١٢٢٥م . انظر : سيرة منكبرتى ، ص٣١٧ ، حاشية (١)
(٧) «بهاء» كذا فى سيرة منكبرتى ، ص٣١٧ .
(٨) ساوة : مدينة بين الرى وهمذان . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٢٤ .
(٩) قلعة دزمار : قلعة حصينة من نواحى أذربيجان ، قرب تبريز .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٥٧٣ .
(١٠) ورد هذا الخبر فى سيرة منكبرتى ، ص٣١٧ .

ومنها ورود رسل صاحب الروم علاء الدين كيقباذ[١] : وهم شمس الدين ألتون أبه[٢] الجاشنكير[٣] وكمال الدين ليماز[٤] بن اسحاق ، وقاضى أرزنجان بهدايا وألطاف فيها ثلاثون بغلا موقرة ، أحمالا من الأطلس ، والحطابى والقندس[٥] والسمور وغيرها ، وثلاثون مملوكا بالخيل والعدة ، ومائة فرس ، وخمسون بغلة بالجلال ، فلما وصلوا إلى أرزنجان تعذر وصولهم إلى السلطان لأن صاحبها ركن الدين جهان شاه بن طغرل كان يعادى صاحب الروم ، ويوالى جلال الدين ، فما مكنهم من التوجه إلا بعد أن اتفق هو مع جلال الدين ودخل فى طاعته ، وحضر إلى خدمته ، وأحضر الرسل المذكورين معه ، ثم أن خلاط أخذت فى سنة ست وعشرين[١١٣] وستمائة على ماذكرنا[٦] .

وأراد السلطان أن يحمى خلاط من النهب ، فغلبوه على رأيه ، وحضر الخانات والأمراء وقالوا : إن العسكر قد ضعفت من طول الحصار ، وماتت دوابهم ، فإن منعتهم عن النهب قعد بهم الضعف عن لقاء العدو ، فرضى بذلك ، ونهبوا ثلاثة أيام ، واستخرجوا دفاينهم وخباياهم بالمعاصير ، فمن وقع بيده من الأخلاطية عذبه بأنواع العذاب ، فهلك بذلك قوم ، والذى يقوله الناس من أن جلال الدين أمر بقتل من بها غير صحيح ، فإن قوة هلاكهم كانت بالغلاء ، ونزل إليه مجير الدين وتقى الدين ابنا العادل ، وعز الدين أيبك متولى أخلاط ، فأبقى على الأخوين ، وقتل عز الدين بعد أمور كثيرة[٧] .

ثم إن جلال الدين ندم على إذنه بالنهب والتخريب ، فأطلق من الخزانة أربعة آلاف دينار ليجدد ماخربت المجانيق من السور ، فعُمِّر فى أسرع وقت ، وأقطع الكور من

---

(١) هو علاء الدين كيقباذ الأول بن كيخسرو الأول سلطان السلاجقة الروم ، وقد حكم من سنة ٦١٦/ ٦٣٤هـ = ١٢١٩/١٢٣٦م . انظر : سيرة منكبرتى ، ص٣١٧ .

(٢) « آية» كذا فى الأصل ، والمثبت من سيرة منكبرتى ، ص٣١٧ .

(٣) وكلمة الجاشنكير هنا تعنى من يقوم بذوق المأكل والمشرب قبل السلطان فى الولائم والأسمطة خوفاً من أن يدس فيه سم أو نحوه . انظر : صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص٨١ .

(٤) « كامباذ» كذا فى سيرة منكبرتى ، ص٣١٧ .

(٥) القندس هو حيوان السمور (وهو كلب الماء) ويؤخذ فراؤه لعمل الملابس .
انظر : ماير ، الملابس المملوكية ، ص٤٦ ـ ٤٧ .

(٦) وردت هذه الأحداث فى سيرة منكبرتى ، ص٣١٧ ـ ص٣١٨ .

(٧) ورد هذا الخبر فى سيرة منكبرتى ، ص٣٢١ .

أعمالها الخانات والأمراء ، واستدعى[١] منه أورخان إقطاع سر مارى[٢] ، فأجابه إليها لسخطه على شرف الدين أزدَرَه صاحبها[٣] .

ثم إن جلال الدين سار إلى منازجرد لترتيب المحاصرة ، فوصل إليه ركن الدين جهان شاه بن طغرك صاحب أرزن الروم ثانيا ، وأعلمه باتفاق ملوك الشام والروم عليه ، وقال : إن الرأى فى مبادرتهم قبل أن يجتمعوا ، فأمره عند ذلك أن يرحل صوب أرزن الروم ، فيتجهز بها ، ويرحل السلطان بعده بخمسة أيام فى عساكره ، فيذهبان إلى خرت برت[٤] ويقيمان بها منتظرين حركة العسكرين ، فأيهما تحرك أولاً ساقا إليه قبل اتصاله بصاحبه ، فمرض بها مرضاً شديدا ، وكانت الخانات والأمراء يحضرون الباب أيام مرضه على العادة ، ثم تواترت كتب ركن الدين مُعْلمةً بحركة العسكرين على نية الاجتماع ، فحين خف عنه المرض ، ركب فنزل شرف الملك الوزير بعسكره وعسكر العراق على منازجرد ، وتكين مُقْطع خُوّى ، على بركرى[٥] ، وجَردَّ أمامه أوترخان فى ألفى فارس برسم اليزك ، فصادف بِيَاشْجُمان عسكر أرزنجان وخرت برت ، فالتقاهم ، ثم شاعت الهزيمة فى الروم فقتلوا ، وفى ثانى اليوم وصلت عساكر الروم والشام فتلاقوا ، وجرى بينهم قتال شديد ، فانهزم جلال الدين وأُسِر[١١٤] ألغ[٦]خان ، وأطلس ملك ، وعدَّة من المفاردة ، فأمر كيقباذ بضرب أعناقهم على ماذكرناه مفصلا[٧] .

---

(١) «استرعى» فى سيرة منكبرتى ، ص٣٢٥ .

(٢) «سر من رأى» كذا فى الأصل ، والمثبت من سيرة منكبرتى ، ص٣٢٥ ، وسر مارى : قلعة حصينة وولاية واسعة بين تفليس وخلاط . انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٨٢ .

(٣) «ورد هذا الخبر» فى سيرة منكبرتى ، ص٣٢٥ .

(٤) خَرْتَ بِرْتُ : إحدى قلاع أرمينية الكبرى ، على مسيرة يومين من ملطية ، وهو الحصن المعروف بحصن زياد . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٤١٦ .

(٥) بركرى : مدينة فى نواحى خلاط . انظر : تقويم البلدان ، ص٣٨٩ ؛ سيرة منكبرتى ، ص٢٧٥ ، حاشية (٣) .

(٦) «ألاع» كذا فى الأصل ، والمثبت من سيرة منكبرتى ، ص٣٣١ .

(٧) لمعرفة المزيد عن هذه الأحداث . انظر : سيرة منكبرتى ، ص٣٢٩ - ص٣٣٢ .

ذكر استيلاء الملك الأشرف على بعلبك

وكان قد حاصرها قريبا من عشرة أشهر ، واشتدَّت مضايقة عسكره لها ، وكان بها الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه[١] ، فأذعن إلى تسليمها لابن عمه[الملك الأشرف][٢] ، وأقطعة الملك الأشرف قُصَيْر دمشق[٣] ، والزبدانى[٤] ، ومواضع أُخر[٥] .

وتوجه الملك الأمجد إلى دمشق فقتل بها فى السنة المذكورة ، قتله مملوك كان عنده من أخص مماليكه ، وذلك أنه فقد دواةً مُحلاةً له ، واتهم بها هذا المملوك ، وألزمه إحضارها فلم يعترف بها ، فأمر باعتقاله فى مرقد بإيوان داره ، ثم جلس على باب ذلك المرقد يلعب بالنرد[٦] ، فخرج ذلك المملوك وبيده سيف مسْلول فضرب به أستاذه ضربا مثخنا ، وطلع إلى سطح الدار ورمى بنفسه إلى قاعتها ، فمات لوقته ، وعاش الأمجد إلى الليل ، ثم توفى ، ودفن فى مدرسة والده ، وكانت مدة ملكه لبعلبك تسعا وأربعين سنة ، من أيام عم أبيه السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وإلى هذه السنة . وكان ملكا جليلا ، فاضلا متأدبا ، يحب العلماء والفضلاء والشعراء ، وكان ينظم الشعر الجيد ، ودون له ديوان من أشعاره[٧] .

---

(١) الملك الأمجد مجد الدين أبو المظفر بهرام شاه بن فروخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك ، وكان فيه فضل وله ديوان شعر ، وأخذ الأشرف بن العادل منه بعلبك فانتقل إلى دمشق ، وقتله مملوكه فى داره ليلة الأربعاء ثانى عشر شوال سنة ٦٢٨هـ ، ودفن فى تربته التى إلى جانب تربة أبيه فى الشرق الشمالى .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٤٥٣ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٤٠ - ص١٤١ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١٢٦ - ص١٢٧ .

(٢) مابين حاصرتين إضافة من مفرج الكروب للتوضيح ، ج٤ ، ص٢٨٤ .

(٣) قُصَيْرُ دمشق : ضيعة أول منزل لمن يريد حمص من دمشق .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص١٢٦ .

(٤) الزَبَدانى : كورة مشهورة معروفة بين دمشق وبعلبك ، منها خرج نهر دمشق .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٩١٣ .

(٥) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص١٥٨ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٨٤ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٤٥ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٦٢ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٦ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٣٥ - ص٤٣٦ .

(٦) النَّرْد : شىء يلعب به ، وهو لفظ فارسى معرب «نرد شير» . لسان العرب ، مادة «نرد» .

(٧) ورد مقتل الملك الأمجد بالتفصيل فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٨٤ - ص٢٨٦ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٤٦ ؛ كما ورد مقتله فى سنة ٦٢٨هـ فى كل من : نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٦٦ - ص١٦٧ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٤١ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٤١ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١٢٦ - ص١٢٧ .

ومن جيده قصيدة مطلعها :

حى عنى الحمى ، وحى المصلى وزمـاناً بالرقـمَـتـين تولى
كان أغلى الأوقات فى النفس قَدْراً فـتـلاشى زمـانُه واضـمـحـلا
هل إلى ذلك الزمـان سـبـيل وضلال أن يقتضى الشوق «هلاّ»
بت والبـرق لا أَمَلٌ دمـوعى عند إيمـاضـه ، ولا البـرق مَـلا
مسـتـهـامـا ألقى الغـرام بجسم منذ أبلاه هجـركُم مـا أبلا
ذا غليل من حُرقة البين والهجـ ـر بغـيـر اقـتـرابكم لن يُبـلا
أيهـا النـاظمـون هذا قـرَيضى دق فى صنعـة القـريض وجـلا
يتمشى على السماكِ افتخاراً ثم يضـحى منه عليكم مُطلا
وبغـيضٌ إلى من ليس يدرى صنعـة الشـعـر أن يكون مـذلا
بقـريض إذا كـسـا الشـعـرُ عِزًّا قـائليـه ، كـسـاه هوناً وذلا
مايُسمى فى حلبة الشعـر يوماً سابقاً لا ، ولا أَسْتُحِث[1] فَضَلا[2]

ومدحه جماعة من الشعراء منهم : شرف[3] الدين بن عنين بقصيدة يمدح فيها شعره منها :

لـمـا تخـيـرنى أروى قـصـائده مـضـيتُ قـدماً وخلّفت الرواة ورا
فأعجب لبحر غدا فى رأس شاهقة من العـواصم طام يقـذف الدُّرَرَا
شعرٌ ثمت به الشعرى لشركتها فيه فباتت تباهى الشمس والقمرا
سـحْـرٌ ولكن هاروتا وصـاحـبـه مـاروت مـانهـيـا فـيـه ولا أمـرا
كم[4] قُمْتُ فى مجلس السادات أنشده فلم يكن لحسود فى عُلاه مرا[5]

(١) «أستخف» كذا فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٨٨ .
(٢) وردت هذه الأبيات فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٨٦ ـ ص٢٨٨ .
(٣) شرف الدين بن عنين : هو أبو المحاسن محمد بن نصر بن الحسين بن عُنَيّن الأنصارى ، الملقب شرف الدين ، الكوفى الأصل الدمشقى المولد ، الشاعر المشهور ، كان خاتمة الشعراء ، لم يأت بعده مثله ، ولا كان فى أواخر عصره من يقاس به ، وكان مولعا بالهجاء وثلب أعراض الناس ، وتولى الوزارة بدمشق فى آخر دولة الملك المعظم ومدة ولاية الملك الناصر بن المعظم ، كانت ولادته بدمشق يوم الاثنين ٩ شعبان سنة ٥٤٩هـ ، وتوفى عشية نهار الاثنين لعشرين من شهر ربيع الأول سنة ٦٣٠هـ بدمشق أيضا ، ودفن بمسجده بأرض المزة بدمشق .
لمعرفة المزيد عن ترجمته انظر : وفيات الأعيان ج٥ ، ص١٤ ـ ص١٩ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص١٤٠ ـ ص١٤٢ .
(٤) «لم» كذا فى الأصل ، والمثبت فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٩٣ .
(٥) وردت هذه الأبيات فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٩٢ ـ ص٢٩٣ .

وقال ابن كثير[(١)] : الملك الأمجد أشعر بنى أيوب ، وشعره مشهور ، ومن شعره الرائق الفائق فى شاب رآه يقطع قضبان بان فأنشأ على البديهة :

من لى بأهيفَ[(٢)] قال حين عتبته — فى قطع كل قضيبِ بانٍ رائق
تحكى شمائله الرَّشاءَ[(٣)] إذا انثنى — ريَّانَ بينَ جداولٍ وحدائقِ
سرقَتْ غصون البان لينَ شمائلى — فقطعتها والقطعُ حدُّ السارقِ

وله دوبيت :

كم يذهب هذا العمرُ فى الحسرات — ما أغفلنى فيه وما أنسانى
ضيّعتُ زمانى كلَّهُ فى لعبٍ — ياعمرُ هل[(٤)] بعدكَ عمرٌ ثانى[(٥)]

وقد رآه بعضهم فى المنام ، فقال[له][(٦)] : مافعل الله بك؟ فقال :

كنتُ من ذنبى[(٧)] على وجلٍ — زالَ عَنِّى ذلك الوجلُ
أَمِنَتْ نفسى بوائِقها — عشتُ لما متُّ يارجلُ[(٨)]

ذكر استيلاء الملك المظفر شهاب الدين[(٩)] غازى على مدينة أرزن[(١٠)] من ديار بكر[(١١)]

وأخذها من صاحبها حسام الدين ، والسبب فى ذلك أن المذكور كان مصاحباً للملك الأشرف ومناصحاً له فى جميع حروبه ، وينفق أمواله فى طاعته ، وكان فى خلاط

(١) البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٤١ .
(٢) أهيف : أى ضامر البطن والخاصرة . انظر : لسان العرب ، مادة «هيف» .
(٣) «الرشاق» كذا فى الأصل ، وما أثبتناه من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٤١ ، حيث ينقل عنه العينى ، والرّشاء كواكب صغيره كثيرة على صورة السمكة يقال لها بطن الحوت . انظر : لسان العرب ، مادة «رشا» .
(٤) «فهل» كذا فى الأصل ، وما أثبتناه من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٤٢ ، حيث ينقل عنه العينى .
(٥) وردت هذه الأبيات فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص ١٤١ - ص١٤٢ .
(٦) مابين حاصرتين إضافة من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٤٢ ، للتوضيح .
(٧) «دينى» كذا فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٤٢ .
(٨) ورد هذا الخبر والبيتان فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٤٢ .
(٩) الملك المظفر شهاب الدين غازى بن العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب ، صاحب ميافارقين وخلاط ، توفى سنة ٦٤٥هـ . انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٨٦ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٢٣٣ ؛ ترويح القلوب ، ص٧٩ .
(١٠) مدينة أرزن : مدينة مشهورة قرب خلاط ، ولها قلعة حصينة . معجم البلدان ، ج١ ، ص٢٠٥ .
(١١) ديار بكر : هى بلاد كبيرة واسعة ، وحدها ما غرّب من دجلة من بلاد الجبل المطل على نصيبين إلى دجلة ، ومنه حصن كيفا وآمد وميافارقين ، وقد يتجاوز دجلة إلى سِعِرْت وحيزان وحينى وماتخلل ذلك من البلاد . انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص ٤٣٦ - ص٤٣٧ .

لما حضرها جلال الدين خوارزم شاه ، ولقى من الشدّة والخوف مالقى ، ولما فتحت أَسَرَهُ جلال الدين فيمن أَسَر ، وأراد أخذ مدينة أرزن منه ، فقيل له : إنه من بيت قديم عريقٍ فى الملك[١١٦] وإن أرزن صارت له من أسلافه مع غيرها من البلاد ، فخرج الجميع من يده ولم يبق له غيرها ، فتعطف عليه ورق له وأبقى عليه مدينته ، وأخذ عليه العهود والمواثيق أنه لايقاتله ، فعاد إلى بلده وأقام بها . فلما جاء الملك الأشرف وعلاء الدين [صاحب الروم][١] لمحاربة جلال الدين لم يحضر معهم الحرب وفاءً لجلال الدين ، فلما انهزم جلال الدين جاء[٢] إليه الملك المظفر غازى بن العادل صاحب ميافارقين ، فحصره بها ثم ملكها صلحاً ، وعوضه عنها بمدينة حانى من ديار بكر ، وهو من بيت قديم ، يقال لهم : بيت طغان أرسلان ، ويقال لهم : بيت الأحدب ، وكان لهم مع أرزن بدليس[٣] وغيرها ، ولم تزل بأيديهم من أيام السلطان ملك شاه بن ألب أرسلان السلجوقى[٤] ، وأخذ بكتمر[٥] صاحب خلاط مملوك شَاهَرْ مَنْ بدليس من عم حسام الدين هذا ، لأنه كان موافقا للناصر[٦] الكبير[٧] .

ذكر قصد الفرنج حماة

وفى شهر رمضان قصد الفرنج من حصن[٨] الأكراد وغيرها حماة فى جَمْع كثير من الخيالة والرجّالة ، فخرج إليهم السلطان الملك المظفر تقى الدين محمود بن الملك

(١) مابين حاصرتين إضافة من سيرة منكبرتى ، ص٣٠٢ ، للتوضيح .
(٢) أى جاء إلى حسام الدين صاحب أرزن .
(٣) بدليس : بلدة من نواحى أرمينية قرب خلاط . معجم البلدان ، ج١ ، ص٥٢٦ .
(٤) السلطان ملك شاه بن ألب أرسلان السلجوقى : هو ملكشاه أبو الفتح جلال الدولة بن السلطان ألب أرسلان محمد بن داود السلجوقى التركى تملك بلاد ماوراء النهر وبلاد الهياطلة وبلاد الروم والجزيرة والشام والعراق وخراسان وغير ذلك ، وقيل إنه سُمَّ ونقل فى تابوت فدفن بأصبهان فى مدرسة كبيرة له ، مات فى شوال سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م .
لمعرفة المزيد من ترجمته انظر : سيرة منكبرتى ، ص٢٨٩ ؛ الشذرات ، ج٣ ، ص٣٧٦ - ص٣٧٧ .
(٥) بكتمر : هو سيف الدين بكتمر صاحب خلاط ، كان دينا ، خيرا ، صالحا ، كثير الخير والصدقة ، محبا لأهل الدين والصوفيه ، قريبا إلى رعيته ، قتل فى أول جمادى الأولى سنة ٥٨٩هـ .
لمعرفة المزيد عنه انظر : الكامل ، ج١٢ ، ص١٠٢ - ص١٠٣ ؛ العبر فى أخبار من غبر ، ص٢٦٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٨ .
(٦) الناصر الكبير : يقصد به السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف .
(٧) ورد هذا الخبر بالتفصيل فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٣٠١ - ص٣٠٢ .
(٨) حصن الأكراد : حصن منيع حصين على الجبل الذى مقابل حمص من جهة الغرب وهو جبل الجليل ، وهو بين بعلبك وحمص .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٧٦ .

المنصور فى عسكر حماة ووصل الفرنج إلى أفنون[١] وهى ما بين حماة وبعرين ، فقاتلهم وحمل عليهم فلم يثبتوا له ، وولوا منهزمين وقتل من فرسانهم ورجالتهم جماعة ، وأسر جماعة ، ودخل حماة منصوراً ، فمدحه الشعراء بقصائد منها[٢] :

أَبشر بما شئتَ من نصرٍ وتأييد   فعنك يُروى حديث البأس والجود
وأنت ليثٌ وغى تدمى مخالبه   فى نحر كل طويل الباع صنديد
وأنت غيثُ نَدى تجرى عوائده   بجوده مثل جرى الماء فى العود
فَرّقْت بين المعالى والثراء كما   جمعت فى العدل بين السد[٣] والسيد
يَذُم بعض الورى بعضاً وقولهم   مافى البرية محمودٌ كمحمودِ
مَلك إذا أغرق الأملاكُ فى قنص   فصَيدهُ غُلْبُ آل الأصغر الصيدِ
وإن سبتهم ذوات الحسن مال به   قَطْع الطُّلى عن وصال الخرّد الغيد[١١٧]

ومنها :

لو نال مَلْك على مقدار همته   لنلت مُلْك سليمان بن داود

ومنها :

أما الفرنج فقد أخمدتَ نارهمُ   ولم تزل ذات إضرام وتوقيد
من بعد ماحاد أملاك الطوائف عن   حفظِ البلاد وألقوا بالمقاليد

ومنها :

فما جنحت إلى سِلمٍ على غُبن   ولاقنعت بإرهاب وتهديد
أقبلتهم رحب صدر ليس يحرجه   ضيق المجال وقلبا غير مرءود[٤]
ورُعْتهم بخميس فَلّ جمعهمُ   بحرّ ضرب وطعن كالأخاديد
فغودِروا بين مجروحٍ ومختبل   يبكى على هالك منهم ومصفود

(١) «أفيون» كذا فى الأصل ، والمثبت من مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٣٠٣ حاشية(٣) ، ويبدو أن المقصود بها قرية قفيلون الحالية وهى قرب بعرين «بيرين» .
(٢) أورد مفرج الكروب أن قائل هذه القصيدة هو الشيخ شرف الدين عبد العزيز بن محمد الأنصارى .
انظر : ابن واصل ، ج٤ ، ص٣٠٣ .
(٣) يبدو أن معنى كلمة «السد» هنا تعنى قليل المال المحتاج إلى المساعدة .
انظر : مادة «سدد» ، المصباح المنير .
(٤)«مزؤد» كذا فى الأصل ، والمثبت فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٣٠٥ ، والرئد هو الضيق .
انظر : القاموس المحيط .

إن خُبرّوا عنك بالبأس المنيع فقد قام العيان بتصديق الأسانيد
صاروا قطائع إذ راموا القطائع للـ بيض القواطع فى حُجب الوغى السودِ
فلا تدع غزوهم فى عقر دارهم صغْوا إلى الزود من لوم وتفنيد
واسلم ، لك الملك مقصورٌ عليك ولا زال الورى تحت ظل منك ممدود[١]

ذكر بقية الحوادث

منها أنه ظهر أمير من أمراء التركمان يقال له : شمس الدين سونج من قبيلة يقال لها : قيشالوا[٢] ، فقوى أمره وقطع الطريق ، وكثر جمعه ، وكان قطعه الطريق مابين إربل وهمذان ، ثم إنه تعدى إلى قلعة حصينة[٣] للملك المعظم مظفر الدين كوكبورى[٤] بن زين الدين على كوجك[٥] صاحب إربل ، وقتل عندها أميراً كبيراً من أمراء مظفر الدين ، يقال له : عز الدين الحميدى واستولى على القلعة ، فجمع مظفر الدين جموعا وأراد استعادتها منه ، فلم يمكنه ذلك لحصانتها وكثرة جموع هذا التركمانى الذى استولى عليها ، فتركها مظفر الدين له ، وأرسل إليه أهل قلعة روندز ، وهى من قلاع أذربيجان الحصينة ، ليسلموها إليه ، فسار إليها وتسلمها وملكها ، وأزال عنها أصحاب جلال الدين مع مهابته ، ولما ملكها سونج المذكور طمع فى غيرها ، لاسيما وقد اتفق ضعف جلال الدين بما[٦] أصابه من الهزيمة ، فنزل سونج إلى مراغة وحصرها ، فأتاه منها سهم غَرْب[٧] فقتله ، فلما قُتِل مَلَكَ القلعة بعده أخوه ، ثم أنه نزل من القلعة وقصد أعمال

(١) وردت هذه الأبيات فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٣٠٣ ـ ص٣٠٥ .
(٢) «قشيالوا» فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٩٣ .
(٣) المقصود هنا قلعة «سارو» ، الكامل ، ج١٢ ، ص٤١٣ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٣٠٩ .
(٤) مظفر الدين كوكبورى : هو أبو سعيد كوكبورى بن أبى الحسن على بن بكتكين بن محمد الملقب الملك المعظم مظفر الدين صاحب إربل ، ولما توفى والده زين الدين على ولى موضعه وعمره أربعة عشر عاما ، ودخل إربل فى ذى الحجة سنة ٥٨٦هـ ، وولد بقلعة الموصل سنة ٥٤٩هـ ، وتوفى ليلة الجمعة رابع عشر رمضان سنة ٦٣٠هـ بداره ، ودفن بإربل .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص١١٣ ـ ص١٢٠ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٤٧ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص١٣٨ .
(٥) زين الدين على كوجك صاحب إربل : أصله من التركمان ، وملك إربل وبلادا كثيرة فى تلك النواحى وفرقها على أولاده ، وعَمَّر طويلا ويقال إنه جاوز مائة سنة ، وعمى فى آخر عمره ، وتوفى بإربل ليلة الأحد ، حادى عشر ذى القعدة سنة ٥٦٣هـ ، ودفن فى تربته المعروفه به المجاورة للجامع العتيق داخل البلد ، وكان موصوفا بالقوة المفرطة والشهامة .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص١١٤ ؛ العبر ، ج٤ ، ص١٨٢ ؛ الشذرات ، ج٤ ، ص٢٠٩ .
(٦) «ما» كذا فى الأصل ، والمثبت من الكامل ، ج١٢ ، ص٤٩٤ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٣٠٧ ، لاستقامة المعنى .
(٧) «سهم غَرْب» أى لايدرى راميه . انظر : القاموس المحيط .

تبريز ، ونهبها ، وعاد إلى القلعة بالنهب ليجعله مَدْخورا فيها ، فصادفه[١١٨] طائفة من التتار فقتلوه وأخذوا مامعه ، فملكت القلعة أخت(١) له ، وكل هذا أمر يسير(٢) .

ومنها أنه وصل جهان بهلوان من الهند إلى العراق ومعه سبع مائة فارس ، وذلك أن السلطان جلال الدين رتبه مقدما على عسكره بالهند ، فأحسن السياسة ، فقصده عسكر أيلتمش(٣) فطرده عنها ، وتخلف جماعة منهم : الحسن قِزلق الملقب بوفا ملك . فلما وصل جهان بهلوان رسم له جلال الدين بعشرين ألف دينار تحمل إليه من مال العراق ، وأن يُشَتى بالعراق ليعود إلى الخدمة ، وصادف وصوله من الهند عود السلطان على الوجه الذى تقدم ذكره ، وكان يريد المثول بين يديه ، فجاءت الأخبار بورود التتار ، فحالت بينهما(٤) .

ومنها أنه ولد للملك العزيز(٥) بن الظاهر غازى بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب حلب ثلاثة أولاد ذكور ، أحدهم : وهو أول أولاده سماه غازى(٦) ولقبه الظاهر ، والثانى : سماه العادل(٧) ، والثالث : سماه صلاح الدين(٨) يوسف ولقبه بالناصر(٩) .

---

(١) «ابن أخت» كذا فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٩٤ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٣٠٨ .

(٢) وردت هذه الأحداث بتصرف فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٩٣ ـ ص٤٩٤ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٣٠٦ ـ ص٣٠٨ .

(٣) أيلتمش : هو شمس الدين إيلتمش أحد أرقاء الترك فى الدولة الغورية ، وقد سار إلى بلاد الهند بعد سقوط هذه الدولة ، وتمكن من تأسيس إمارة فى الجزء الشمالى من هذه البلاد ، وقد حكم هذا الرجل مدينة دهلى من ٦٠٨/ ٦٣٤هـ (١٢١١/ ١٢٣٦م) . انظر : سيرة منكبرتى ، ص١٦٥ ، حاشية(١) .

(٤) وردت هذه الأحداث بتصرف فى سيرة منكبرتى ، ص٣٤٦ ـ ص٣٤٧ .

(٥) الملك العزيز بن الظاهر غازى : هو محمد بن غازى بن يوسف بن أيوب بن شادى ، الملك العزيز غياث الدين بن الملك الظاهر بن الناصر ، صاحب حلب ، ولد خامس ذى الحجة سنة ٦١٠هـ من ضيفة خاتون بنت الملك العادل بن أيوب ، ولى السلطنة وعمره أربع سنين ، وجعلوا طغريل الخادم أتابكه يسوس الأمور ، توفى سنة ٦٣٤هـ ، ودفن بالقلعة ، وكان عمره ثلاثا وعشرين سنة وشهورا ، ومدة ملكه قريب العشرين سنة ، وأقيم بعده ولده الملك الناصر يوسف وهو طفل أيضا .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص٩ ـ ص١٠ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٥٨ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص٢١٧ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٥٦ ؛ المرآة ، ج٨ ، ص٤٦٥ ؛ شفاء القلوب ، ص٣٠٨ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص١٦٨ ؛ ترويح القلوب ، ص٩٥ .

(٦) الملك الظاهر غازى بن محمد بن غازى بن يوسف بن أيوب بن شاذى ، الملك الظاهر بن العزيز بن الظاهر بن الناصر ، وهو شقيق السلطان الملك الناصر يوسف ، وأمهما تركية ، قتل مع أخيه الناصر بين يدى هولاكو سنة ٦٥٩هـ .
انظر : المختصر ، ج٣ ، ص٢١٢ ؛ شفاء القلوب ، ص٣٧٤ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٢٩٨ ؛ ترويح القلوب ، ص٩٥ .

(٧) فى شفاء القلوب اسمه : الظاهر وليس العادل ، وهو الظاهر على بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن الناصر يوسف بن أيوب بن شاذى . انظر : شفاء القلوب ، ص٣٧٤ ؛ ترويح القلوب ، ص٩٥ .

(٨) الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز محمد بن الظاهر غازى بن السلطان صلاح الدين صاحب الشام ولد سنة ٦٢٧هـ ، وسلطنوه بعد أبيه سنة ٦٣٤هـ ، ودبر المملكة شمس الدين لؤلؤ ، وقتل فى تبريز على يد هولاكو وهو وأخوه الملك الظاهر غازى وجميع أتباعه وأقاربه سنة ٦٥٩هـ ، وقيل سنة ٦٥٨هـ وهو آخر ملوك بنى أيوب .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص١٠ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص٢١١ ـ ص٢١٢ ؛ شذرات الذهب ، ج٥ ، ص٢٩٩ ـ ص٣٠٠ ؛ ترويح القلوب ، ص٩٥ .

(٩) ورد هذا الخبر فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٨٣ .

ومنها أن شيركوه[١] صاحب حمص شرع فى عمارة قلعة شُمَيْمِسْ[٢] ، وكان لما سلم إليه الملك الكامل سلميه قد استأذنه فى عمارة تل شميمس ، فأذن له بذلك ، ولما أراد شيركوه عمارته أراد الملك المظفر صاحب حماة منعه من ذلك ، فلم يمكنه ذلك لكونه بأمر الملك الكامل[٣] .

ومنها أن الفرنج أخذوا جزيرة مَيُورْقَةْ[٤] وقتلوا بها خلقاً وأسروا آخرين ، فقدمُوا بهم إلى الساحل ، فاستفكهم المسلمون ، وقدموا إلى دمشق ، وأخبروا بما جرى عليهم[٥] .

وفيها ......[٦]

وفيها لم يحج أحد من الشام ولا فى السنة التى قبلها ، ولا فيما قبل قبلها ، فهذه ثلاث سنين لم يحج أحد من الشام[٧] .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

الشيخ الصالح أبو[٨] البركات الحسن بن محمد بن الحسين بن هبة الله بن عبد الله بن الحسن الشافعى ، المعروف بزين الأمناء ، ابن عساكر ، وكانت له روايات كثيرة لكتب الحديث وغيرها من عَمَّيْه الحافظ أبى القاسم على ، والصائن أبى الحسين هبة الله ابنى الحسن ، وكان قد أقعد فى آخر عمره ، وكان يُحْمل فى محفة[١١٩] إلى الجامع وإلى دار الحديث[النورية][٩] ، مات ليلة الجمعة ، السادس عشر من صفر من هذه

(١) شيركوه صاحب حمص : هو أسد الدين شيركوه ، الملك المجاهد بن محمد بن شيركوه بن شاذى ، ولد سنة ٥٦٩هـ ، وتوفى بحمص سنة ٦٣٧هـ ، ودفن فى تربته داخل البلد ، وكانت له أيضاً الرحبة وتدمر وماكسين من بلد الخابور . انظر : وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٤٨٠ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص١٨٤ .

(٢) «شُمَيْمس» كذا ورد هذا الاسم فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٨٢ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٤٥ وهى إحدى بلاد كورة حمص .

(٣) ورد هذا الخبر فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٢٨٢ - ص٢٨٣ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٤٥ .

(٤) مَيُورْقَةُ : جزيرة فى شرقى الأندلس .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٧٢٠ .

(٥) ورد هذا الخبر فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٧ .

(٦) بياض بالأصل بمقدار نصف سطر .

(٧) ورد هذا الخبر فى الذيل على الروضتين ، ص١٥٩ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٧ .

(٨) انظر : ترجمته فى الذيل على الروضتين ، ص١٥٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٧ ؛ المرآة ، ج٨ ، ص٤٣٨ - ص٤٣٩ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص١٢٣ .

(٩) مابين حاصرتين إضافة من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٧ ؛ للتوضيح .

السنة ، ودفن عند قبر أخيه الفقيه أبى منصور عبد الرحمن بن محمد ، المعروف بالفخر ابن عساكر ، بالشرف القبلى بظاهر دمشق ، وعُمِّرَ ، وتَفَرَّد بالرواية ، وجاوز الثمانين بثلاث سنين (رحمه الله) .

الشيخ بيرم[١] الماردينى ، كان صالحا منقطعاً محباً للعزلة عن الناس ، وكان مقيما بالزاوية الغربية من الجامع ، وهى التى يقال لها الغزالية[٢] وكانت تعرف[٣] بزاوية الدولعى ، وقبله بزاوية القطب النيسابورى ، وقبله بزاوية الشيخ أبى نصر المقدسى .

ابن الجاموس[٤] عز الدين كان الأمير شهاب الدين غازى صاحب ميافارقين استخدمه على ديوانه فى هذه السنة ، وأعطاه الكوسات[٥] والأعلام ، وقدمه على جماعة ، ودُعى بالصاحب الأمير عز الدين ، ومكنه غازى من البلاد والعباد ، فبدا منه من الكبر والجبروت ، والظلم والعدوان ، بحيث كان الجُلَنْدى [الذى يأخذ كل سفينة غصبا][٦] عنده كسرى أنو شروان ، وكان غازى قد اقترض من البدر بن المسخف الشاعر لما توجه إلى مكة عشرة آلاف درهم ، وكتب له بها توقيعاً على أَنَضِّ الجهات ، فمطله ابن الجاموس ، وأحاله على جهات منكسرة ، ولقى منه أموراً عسرة ، فهجاه بأبيات ، وكتب بها إلى غازى . فمنها :

---

(١) انظر : ترجمته فى الذيل على الروضتين ، ص١٥٨ - ١٥٩ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٧ ؛ الدارس فى تاريخ المدارس ، ج١ ، ص٤١٤ .

(٢) الزاوية الغزالية : بالجامع الأموى شمالى مشهد عثمان ، كان مدرسها سنة ١٠٨٣ مصطفى المحاسنى . انظر : خطط الشام ، ج٦ ، ص١٤٣ .

(٣) «وكان يعرف» كذا فى الأصل ، والمثبت هو الصحيح لغة .

(٤) انظر ترجمة ابن الجاموس فى نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٦٤ ؛ المرآة ، ج٨ ، ص٤٣٨ .

(٥) الكوسات : مفردها كوسة وهى صنجة من نحاس تشبه الترس الصغير ، يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص ، ومع ذلك طبول وشَبَّابَة ، يدق بها مرتيين فى القلعة فى كل ليلة ، ويدار بها فى جوانبها مرة بعد العشاء الآخرة ، ومرة قبل التسبيح على المآذن ، وتسمى الدورة بذلك فى القلعة ، وكذلك إذا كان السلطان فى السفر تدور حول خيامه ، ويقال للذى يضرب بالصنوج النحاس بعضها على بعض الكوسى . انظر : صبح الأعشى ، ج٤ ، ص٩ ، ١٣ .

(٦) اقتبس هذا القول من القرآن الكريم ، سورة الكهف ، آية(٧٩) وهى ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾

أبوه الذى أفتى قديما بسبكم جهارا وهذا الابن من ذلك الصلب
فأبْعِدُه وُقِيتَ الردى عن دياركم وقابِلْه بالإعراض والفتك والصُّلْبِ
فقد قيل بيتاً سائراً فى مثاله وسار مسير الشمس فى الشرقْ والغرب
ومن ربط الكلب العقور بِبَابه فعقر جميع الناس من رابط الكلب[1]

مات ابن الجاموس فى هذه السنة بميافارقين ، فاستولى غازى على تركته ودوابه وغلمانه ، ولعنه غازى ، وقال : لقد ظلم الرعية ووسخ أعراضنا ، فدعوا علينا بسببه ، وجماعة من دمشق طلبوا تركته ، فسبهم غازى ، وقال : بأى شىء جاءنى ما جاء إلا بِجُبة[2] وبرطوس[3] وأعطى عمه ألف درهم[١٢٠] .

(١) وردت هذه الأبيات فى مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٣٨ .

(٢) الجبة : الجبة تطلق على الفرجية الفوقانية ، وهى الفرجية الأصلية ، وكانت لاترى إلا على المشايخ وحدهم ، وبعد عام ٧٩٩هـ فى عهد السلطان برقوق كان يرتديها رؤساء ديوان القلم ، وفى العصر المملوكى كان يرتديها القضاة والعلماء على وجه العموم .

انظر : الملابس المملوكية ، ص٣٠ ، ص٩٢ ، ص٩٥ .

(٣) برطوس : ضرب من الفراء يجلب من بُرطاس ، وهى ولاية ومدينة تقع شمال بحر قزوين .

انظر : تكملة المعاجم العربية ، ج١ ، ص٢٩٣ ، رينهارت دوزى ، ترجمة د/ محمد سليم النعيمى ، منشورات وزارة الثقافة والإعلام ، الجمهورية العراقية ، ١٩٧٨ .

فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الثامنة والعشرين بعد الستمائة(*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو المستنصر بالله[1] ، والسلطان الملك الكامل صاحب مصر بالديار المصرية ، وأخوه الملك الأشرف بدمشق ، وقد تخلى عن البلاد الشرقية ، فإن حران ومامعها صارت لأخيه الملك الكامل ، وأما أخلاط وبلادها التى كانت للأشرف فقد صارت خراباً يبابًا ، بإفساد جلال الدين خوارزم شاه على ماذكرناه ، ولم يكن للأشرف ولد ذكر ، فقنع بدمشق ، واشتغل باللهو والملاذ ، ثم فى هذه السنة قد سار الأشرف إلى أخيه الكامل فأقام عنده بالديار المصرية متنزها[2] . وصاحب حلب الملك العزيز غياث الدين محمد بن الملك الظاهر غازى بن السلطان صلاح يوسف بن أيوب ، اشتغل فى هذه السنة بالممالك الحلبية ودبَّرها ، وتصرف فى أحوالها ، وبلغ من العمر ثمانى عشرة سنة ، وسلم إليه أتابكه[3] شهاب[4] الدين طغريل الخزائن ، وخرج العزيز من القلعة ودار القلاع والحصون التى له ، ونزل الأتابك شهاب الدين من القلعة ، وكان له بها نحو خمس عشرة سنة ملازماً من حين مات السلطان الملك الظاهر غازى[5] .

(*) يوافق أولها : ٩ نوفمبر ١٢٣٠م .

(١) المستنصر بالله : هو أبو جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر أحمد بن المستضىء حسن بن المستنجد يوسف بن المقتفى العباسى ، ولد سنة ٥٨٨هـ ، وهو ابن تركية ، واستخلف فى رجب سنة ٦٢٣هـ ، وحمدت سيرته ، وتوفى بكرة الجمعة ، عاشر جمادى الآخرة سنة ٦٤٠هـ .
انظر ترجمته فى المختصر ، ج٣ ، ص١٧١ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٧٠ - ص١٧١ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص٢٠٩ .

(٢) ورد هذا الخبر فى المختصر ، ج٣ ، ص١٤٧ .

(٣) الأتابك : يتألف هذا اللقب من لفظين تركيين ، وهما أطا بمعنى أب ، وبك بمعنى أمير ، وأصله أن السلاطين السلاجقة منذ أيام ملكشاه بن ألب أرسلان كانوا يطلقون لفظ أطابك على كبير أمرائهم يولونه الوصاية والرعاية من بعدهم على سلطان أو أمير قاصر صغير ، وكثيرا ما تزوج الأطابك من أم الموصى به فتصبح العلاقة بين السلطان ووصيه شبه أبويه ، ثم أطلق هذا اللقب فى أيام المماليك بمصر على مقدم العساكر أو القائد العام ، وكان يسمى أتابك العساكر .
انظر : مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص١٤ .

(٤) شهاب الدين طغريل : توفى ليلة الاثنين الحادية عشرة من محرم سنة ٦٣١هـ بحلب ، ودفن بمدرسته الحنفية خارج باب أربعين ، وكان خادما أرمنى الجنسى أبيض ، حسن السيرة ، محمود الطريقة .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٧ ، ص١٠٠ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٥٤ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص١٤٥ .

(٥) ورد هذا الخبر فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٣٠٩ - ص٣١٠ .

ذكر قصد التتار بلاد الإسلام

وفى هذه السنة وصلت مقدمة التتار إلى تخوم أذربيجان ، ورحل جلال الدين من تبريز إلى موقان[١] ، وكان قد جرد جماعة بهلوانية[٢] ليكشفوا خبر التتار فى العراق ، فلما وصلوا إلى مرج [شروان][٣] بين زنجان وأبهر[٤] صادم يزك[٥] التتار ، وكان مقدمهم قد تقدم فى أربعة عشر نفساً ، فلم ينج غيره ، فعاد مقدم البهلوانية بهذا الخبر بعد عود جلال الدين من الروم مهزوما ، قبل رمّ الشعث من جيشه ، فرحل من تبريز إلى موقان ، إذ كانت عساكره بها متفرقة ، وكان قد استشعر زوال الملك من يده ، فكان إذا خلا تنحدر الدموع على خديه لذلك ، ولما سار إلى موقان عاجله التتار ، وكتب إلى نائبه شرف الملك بأردويل[٦] [١٢١] وإلى تكين باش بقلعة فيروز[٧] أباذ بأنّا قد وجّهنا الأمير يُغان سنقر شحنة[٨] خراسان ، والأمير أرسمان بهلوان شحنة مازندران ، يزكا يكشفان لنا أخبار التتار ، وقد أمرناهما أن يُرتبا خيلاً بأردويل ، وخيلا بفيروز أباذ ، ويَقُوما بها ويزيحا عِلَلَها ، وانفصل المذكوران إلى حيث وجّهِهما ، وكبس التتار السلطان على غرّة منه ، واتكال على يزكه ، وذلك أنه لما انفصل البهلوانية فى جميع العساكر اشتغل بالصيد ، وهو إذ ذاك فى قُلٍّ من العسكر نحو ألف فارس من خواصه ، فنزل بقرب شِيركبُوت ، وهى قلعة بنيت على تل بموقان يحيط بها خندق بعيد الغور ، متسع العرض ، ينبع الماء منه فيفيض فيسقى البلد ، لايُعبر إليها إلا بجسر يُرفع عند الاستغناء عنه ، وكانت قد خربت فى مبدأ خروج التتار ، فعمّرها شرف الملك ، وكان السلطان قد سيرّ دكجك نوين

(١) موقان : ولاية فيها قرى ومروج كثيرة ، أكثر أهلها من التركمان للرعى ، وهى بأذربيجان .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٤٨٦ .

(٢) بهلوانية : البهلوان فى اللغة الفارسية الشجاع الجرئ والمقصود من السياق الفرسان الأقوياء .
انظر : تكملة المعاجم العربية ، ج١ ، ص٤٦٨ .

(٣) مابين حاصرتين إضافة من سيرة منكبرتى ، ص٣٥٠ ، للتوضيح

(٤) أبهر : مدينة مشهورة بين قزوين وزنجان وهمذان من نواحى الجبل .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص١٠٤ .

(٥) «راء وأيزك» كذا فى الأصل ، وهما كلمتان ليس لهما معنى ، والمثبت من سيرة منكبرتى ، ص٣٥٠ .

(٦) أردويل : من أشهر مدن أذربيجان ، بينها وبين تبريز سبعة أيام ، ويقال لها أيضا أردبيل .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص١٦٧ .

(٧) قلعة فيروز أباذ : قلعة حصينة من أعمال أذربيجان ، بينها وبين خلخال فرسخ واحد ، وهى موضع بظاهر هراة .
انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٩٢٨ .

(٨) شحنة : وظيفة يسمى متوليها صاحب الشحنة ، وهو رئيس الشرطة ، والموكل بالأمن فى بلد من البلاد .
انظر : مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص١٩٣ .

السلحدار[١] من خلاط عند حصارها إلى خوارزم يكشف له أخبار التتار ، فكبس المذكور طائفة منهم ببعض تُخومها ، فقتل أكثرهم ، وأحضر البعض معه إلى خلاط ، وكان فيمن حضر شخص تترى أبقى السلطان جلال الدين عليه وحده فلم يقتله ، فلما نزل جلال الدين حذاء قلعة شيركبوت أمر بالقبض عليه احترازاً من أن يقفز إليهم فى ذلك الوقت فَيُعْلِمُهم بحاله وتفرق عسكره ، فَقُيد وسُلِّم إلى والى قلعة خوارزم ، وكبس التتار جلال الدين ليلاً فلم يُصبح له أثر ، وكانت الخيام مضروبةً ، والحال على حاله ليس فيه أحد من الناس ، وسار التتار إلى كنجة ، وعذبوا أهلها وقتلوا منهم جماعةً ، فظهر لهم السلطان فهربوا منه ، وأوهمهم أنه قطع النهر صوب كنجة ، وعطف إلى أذربيجان ، فأكرمه عز الدين صاحب قلعة شاهق[٢] ، ولما انقضى الشتاء أخبره بأن التتار قاصدون العود إليه ، وأشار عليه بالعود إلى أرّان ، وفَرّق السلطان حُرَمَه فى قلاع حسام الدين قليج أرسلان ، وجعل بعضهم فى قلعة مُسك[٣] سَوارح[٤] .

وفيها سير جلال الدين خوارزم شاه مجير الدين يعقوب[١٢٢] بن الملك العادل إلى أخيه الملك الأشرف مظفر الدين موسى ، وكان قد استصحبه[٥] معه من خلاط ليؤانسه ، وكان صحبته لما توجه من تبريز إلى موقان ، فلما اتفقت كبسة التتار أشار عليه أصحابه بأن يرسل إلى الملك الأشرف موسى ويُعرفه بأمر التتار ، وأنهم لايردُّهم إلا اجتماع الكلمة ، واتفاق الأمة ، ولما جرى على السلطان ماذكرناه من كبسة التتار كاتب شرف الملك الوزير الأمراء والملوك ، ووعدهم أن يخطب لهم بتلك البلاد ، وكتب فى حق السلطان بأنه الظالم المخذول ، وثار عوام تبريز وقتلوا من بها من الخوارزمية ، وسلموها للتتار كغيرها من البلاد ، ولما سمع شرف الملك بقرب السلطان حضر ومعه

---

(١) السلحدار : لفظ مركب من كلمتين إحداهما عربية ومعناها آلة القتال ، والثانية فارسية ومعناها ممسك ، هو الرجل المنوط بحمل سلاح السلطان أو الأمير الذى فى خدمته ، ومن وظائفه الأخرى الإشراف على السلاح خاناه وماهو من توابع ذلك .
انظر : مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص١٨٢ .
(٢) قلعة شاهق : تقع فى جزيرة وسط بحيرة أذربيجان ، كانت بمثابة مخزن للذخيرة .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٢٦٤ .
(٣) أورد جلال الدين منكبرتى فى سيرته أنها «قلعة سند سوارخ» وهى مغارة على شقيف عال وفيها عين ماء تدير الرحى تحتها . انظر : سيرة منكبرتى ص٣٥٧ .
(٤) لمعرفة المزيد عن هذه الأحداث . انظر : سيرة منكبرتى ، ص٣٥٠ - ٣٥٤ ، ص٣٥٦ - ٣٥٧ .
(٥) «استصحب» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .

كفنٍ ، وأظهر الندم على مافعل ، فأخذه السلطان وحبسه فى قلعة جاربرد[١] وقتله بعد شهرٍ ، وأما أهل كنجة فإنهم قتلوا من بها من الخوارزمية وظاهروا بالفساد ، وملك زمامهم شخص يعرف يَبَنْدار[٢] مقدمهم ، وأطاعه الأوباش ، فبسط يده فى المصادرات ، وسير جلال الدين إليهم يدعوهم إلى الطاعة ، ويحذرهم عواقب المخالفة ، فلم يسمعوا ولم يُطِيعوا ، وترددت الرسل فى بذل الأمان والوعد والإحسان ، فلم يقبلوا وخرجوا إلى خيمة السلطان فرموها بالنشاب ، فأمر السلطان من معه أن يرموهم ، فرموا منهم خلقاً كثيراً ، ودخل معهم المدينة ، وطلب مثيرى هذه الفتنة ، فعينوا منهم ثلاثين نفساً ، وأقام السلطان بكنجة سبعة عشر يومًا ، واتفق الأمراء معه على استنجاده بالأشرف ، وبلغ ذلك الأشرف فكان ذلك باعثا له على مسيره إلى مصر كما ذكرناه ، ثم كتب إلى جلال الدين بأنَّا واصلون إلى خدمة السلطان ، وأقامت رسل جلال الدين بدمشق فى انتظار ماوعد به الأشرف من إنجاده ، منتظرين مايعتمده من تجهيز جيوشه وأجناده ، فلما طال عليهم الأمد أرسل مختص الدين أكبر رسله الموجهين إلى الأشرف يقطع رجاه من إنجاده ويؤيسه من رجوعه عن مصر إلا بعد انفصال أمر السلطان مع التتار ، وقال : فلينظر السلطان فى شغله غير منتظر جواب رسله ، فعند ذلك جهز[١٢٣] جلال الدين رسولاً إلى المظفر شهاب الدين غازى بن الملك العادل يستحضره بنفسه وعسكره ، ومن حوله من الملوك ، مثل صاحبى آمد وماردين ، على أنهم إذا حضروا أغنوا عن حضور الأشرف ، وقال للرسول : قل للملك الأشرف هلم إلىَّ مساعداً ، وفى حادثة التتار معاضدا ، فإننى متى نصرنى الله جل ذكره عليهم مَّلكتك بلاد خلاط ونواحيها . وإنما قال ذلك لأجل حضور الأمراء والخانات المشيرين عليه بالإرسال إليه ، ولما خلا المجلس منهم ، قال : نحن مانشك فى أن هؤلاء لاينجدوننا ولايختارون ظهورنا ولاينفع شكوانا إليهم ، غير أن هؤلاء الترك من الأمراء يُطَمّعون أنفسهم بما لايكون . ثم عزم على المسير إلى أصفهان[٣] .

(١) جاربرد : إحدى القلاع المضافة لأرّان .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٣٦٤ .
(٢) «بندار» كذا فى سيرة منكبرتى ، ص٣٦٩ .
(٣) لمعرفة المزيد عن هذه الأحداث .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٣٥٥ ، ص٣٥٧ ـ ص٣٥٨ ، ص٣٦٤ ، ص٣٦٩ ـ ص٣٧٣ .

وكان قد جرد ستة آلاف فارس قبل انفصال الرسول عن خدمته ، فأغاروا على بلد خرت برت وأرزنجان وملطية ، فاستاقوا أغنامًا كثيرة ، لما كان ينقم على علاء الدين كيقباذ صاحب الروم من تحريشه إياه بكتبه ورسائله المتتابعة بخلاط ، ثم ميله إلى الأشرف ، فلما اتفق من الغارة على بلاد كيقباذ ما اتفق ، ووصل رسول جلال الدين إلى الملك المظفر ، قال : إن اليمين التى حلفت بها للسلطان حلفت بمثلها لعلاء الدين كيقباذ ، وقد بلغنى ماساقوا من غارات بلاده إلى المخيم السلطانى ، فما الذى يؤمننا من مثله ، واليمينان واحدة وعلى الحالات كلها ، فما أنا مستقل برأيى بل معدود فى جملة نواب إخوتى ، فكيف يمكننى إنجاد السلطان إلا بأمرهم؟ وأما صاحب آمد وماردين فلم يسمعا منى ، ولم يمتثلا أمرى ، وليس يخفى أنهما كانا يكاتبان للسلطان ، فَيُخْبِرَ السلطان عقائدهما فى الاستحضار ، ويسير ضمائرهما فى الانجاد على التتار ليعلم أن زعمهما ليس له مصداق ، والأشرف مهتم بخدمة السلطان ، ولم يقصد مصر إلا لاستصحاب عساكرها إلى خدمته . ووقعت البطائق من خلاط وبركرى[1] مُخْبِرةً بأن التتار قد عبروا عليهما كاشفين أخبار السلطان جلال الدين ، سالكين آثارَه ، فجرَّد أُترخان وهو من خُؤلتهِ فى أربعة آلاف فارس يزكا ، وأمره أنه إذا رأى التتار ينهزم بين أيديهم لينجروا إلى[١٢٤][مرابض][2] آجالهم ، فرجع وأخبر بأن التتار قد رجعوا من حدود منازكرد . أخباراً لا حقيقة له ، فعزم جلال الدين على المسير إلى أصفهان ، لأنهم طالما وردوها محسورين مكسورين ، فراشت الحسير ، وجبرت الكسير[3] .

(١) بركرى : مدينة فى نواحى خلاط .

انظر : سيرة منكبرتى ، ص٤١٨ .

(٢) مابين حاصرتين إضافة من سيرة منكبرتى للتوضيح ، ص٣٧٥ .

(٣) وردت هذه الأحداث بتصرف فى سيرة منكبرتى ، ص٣٧٣ ـ ص٣٧٧ .

ذكر هزيمة جلال الدين ومقتله

لما عزم على المسير إلى أصفهان ورد إليه ثانى يومه ذلك علم الدين سنجر المعروف بقصب السكر رسولا من جهة الملك المسعود[١] صاحب آمد برسالة تشتمل على عرض الخدمة والطاعة ، وزين له قصد الروم والاستيلاء عليها ، وقال : إنها عرضة للسلطان مهما قصدها ملكها من غير منازع ، وأنه إذا استظهر بملك الروم واستند إلى قفجاق[٢] على موالاتهم له ، ورغبتهم إليه ، هابه التتار وحصل الاستظهار ، وذكر فى جملة الرسالة أن السلطان إذا عزم على ذلك يخرج بنفسه وأربعة آلاف فارس إليه ، ولايفارق الخدمة إلا بعد انفصال تلك المملكة ، وانضوائها إلى سائر الممالك السلطانية ، وقد كان صاحب الروم أوغر صدر الملك المسعود تلك السنة بعدة قلاع ملكها عليه ، فمال السلطان إلى كلامه ، وعدل عما كان نواه فى المسير إلى أصفهان ، وعطف صوب بلد آمد ، ونزل بجسر بقربها ، وجاء إليه شخص تركمانى وقال : إنى رأيت فى منزلك[٣] التى كنت بها أمس نازلا عسكرا زيهم غير زى عسكرك ، فكذبه ، وقال : هذا ممن لايختار توسطنا هذه البلاد . فلما قرب طلوع كتيبة التتار تفرق الذين كانوا معه فى الأقطار[٤] .

وأحاطت أطلاب[٥] العدو بخركاة جلال الدين وهو نائم ، وقيل : إنه كان سكرانا ، وإذا بأوترخان[٦] قد وصل فى أعلامه وأطلابه ، وأصحابه ، فحمل على التتار ، وكشفهم

---

(١) الملك المسعود صاحب آمد : هو ركن الدين مودود بن الملك الصالح أبى الفتح محمد بن نور الدين محمد بن فخر الدين قرا أرسلان بن ركن الدولة داود بن نور الدولة سقمان ويقال ـ سكمان ـ بن أرتق .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٥ ، ص٨٢ .

(٢) قفجاق : قبائل فى شمال البحر الأسود ، وقد نزح عدد كبير من أفراد هذه القبائل إلى أراضى الدولة الخوارزمية وصاهروا الخوارزميين ، وقد كانت هذه العناصر مصدرا من مصادر الاضطراب السياسى والاجتماعى فى قلب الدولة ، ويكتب اسم قفجاق فى المصادر التركية «قبچاق» .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٢٨٤ ، حاشية(١) .

(٣) «منزلتك» كذا فى الأصل ، وما أثبتناه من سيرة منكبرتى ، ص٣٧٨ ، لاستقامة المعنى .

(٤) وردت هذه الأحداث فى سيرة منكبرتى ، ص٣٧٧ ـ ص٣٧٨ .

(٥) أطلاب : مفردها طلب ، وهى وحدات صغيرة قد تبلغ أربعمائة يرأسها أمراء يعملون فى وظائف البلاط أو الدولة ، حتى أنه كان للسلطان نفسه طلبه من الفرسان فى عدد صغير وهذا اللفظ ظهر فى أيام صلاح الدين الأيوبى ، ويذكر المقريزى أن الطلب فى لغة الغز هو أمير له لواء وبوق ومائتى فارس إلى مائة إلى سبعين .
انظر : مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص٣٦ .

(٦) «أرخان» كذا فى سيرة منكبرتى ، ص٣٧٩ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٥٠ .

عن الخركاة ، ودخل بعض الخواص على السلطان جلال الدين ، فأخذ بيده وأخرجه وعليه طاقية بيضاء ، وركب فرسه ، وساق ، فعلم أن التتار تتبعه ، فأمر أترخان أن يفارقه بمن معه ليتبع التتار سواده[١] ، وتخلص هو بنفسه ومفرده ففعل ، وكان ذلك خطأ ، فإن أترخان لما فارقه انضوى إليه من شداد العسكر خلق ، ووصل إلى إربل ومعه[١٢٥] أربعة آلاف فارس ، وساق إلى أصبهان ، وملكها زمانا إلى أن قصدها التتار ، وسار السلطان إلى باشورة[٢] آمد ، والطلب وراءه ، وكانت آمد قد تشوشت ، وظن أهلها أن الخوارزمية أرادوا الغدر بهم ، فضربوا السلطان جلال الدين ، ورموه بالحجارة ، فلما أيس منهم ومن الدخول إلى آمد تياسر عنها ، وانضوى إليه زهاء مائة نفس ، ثم رمته الجفلة بهم إلى حدود جزيرة بها دربندات منيعة ، فكانوا يمانعونه فى العبور ، وطمعت الناس ، وقتل بعضهم شحنة همذان ، فأشار عليه أترخان بالعود ، وقال : إن أسلم الطريق اليوم طريق سلكه التتار ، فرجع برأيه ليكون هلاكه من جميع الوجوه بتدبيره ، ووصل إلى قرية من قرى ميافارقين ، فنزل وسيب الخيل ترعى ، وفارقه أترخان جبنا ، ووثوقا بما كان بينه وبين الملك المظفر شهاب الدين غازى من المودة والعهود ، وأقام جلال الدين بالبيدر[٣] ، فستره الليل حتى إذا كان الفجر طلع عليه التتار ، فركب لوقته ، وعوجل أكثر جماعته ، فقتلوا وأسروا بعضهم ، وركب السلطان ، فقال بعض الأسرى للتتار : إنه جلال الدين فجدوا فى طلبه ، وساق وراءه خمسة عشر فارسا منهم ، ولحقه فارسان فقتلهما ، وأيس الباقون من الظفر به ، فرجعوا ، ثم صعد الجبل ، وكان الأكراد يحفظون الطرق لسحت يجمعونه ، فأخذوا جلال الدين وسلبوه كعادتهم ، فحين هموا بقتله قال لكبيرهم : إننى أنا السلطان فلا تعجل فى أمرى ، ولك الخيار فى إحضارى عند الملك المظفر شهاب الدين غازى فيغنيك ، أو إيصالى إلى بلدى فتصير ملكا ، فرغب الرجل فى إيصاله إلى بلاده ، ومشى

---

(١) السواد : العدد الكثير .
انظر : المصباح المنير ، مادة «سود» .
انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص١٧٤ .
(٢) الباشورة : الحائط الظاهرى أو مايرى منه ، وتجمع على بواشير .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٣٧٩ ، حاشية(٨) .
(٣) البيدر : الموضع الذى تدرس فيه الغلال .
انظر : سيرة منكبرتى ، ص٣٨٠ ، حاشية(٢) .

به إلى عشيرته ، وحلته ، فتركه عند زوجته ومضى إلى خيله ، ليحضر منها مايركبانه ، فبينا [الرجل][1] غائب أقبل رجل كردى من السفلة ، وبيده حربة فقال للمرأة : ماهذا الخوارزمى؟ وهلا تقتلونه؟ فقالت : لاسبيل إلى ذلك ، وقد آمنة زوجى ، وعرف أنه السلطان . فقال : كيف تصدقونه أنه السلطان؟ وقتل لى بخلاط أخ خير منه ، فضربه بالحربة فمات ، ولما كان بعد مدة أرسل المظفر إلى ذلك الجبل ، وجمع سلب السلطان جلال[١٢٦] الدين ، والسرج والسيف المشهور والعوذَة التى كان يشدها فى وسط شعره ، فلم حم القضاء ضاق به الفضاء ، وكان هلاك ذلك الأسد الغالب على أيدى الثعالب[2] .

ذكر ترجمة جلال الدين

والكلام فيه على أنواع (الأول) : فى نسبه : هو السلطان جلال الدين منكبرتى بن السلطان علاء الدين خوارزم شاه محمد بن علاء الدين تكش بن أرسلان بن أطسز بن محمد بن نوشتكين[3] ، وهم من سلالة طاهر بن الحسين ، وتكش جده هو الذى أزال دولة السلجوقية . وقد ذكرنا ترجمة والده السلطان علاء الدين خوارزم شاه ، كيف توفى؟ وكيف انكسر من جنكيزخان؟ وأنه خلف أربعة أولاد ، منهم : السلطان جلال الدين هذا ، وأنه ملك البلاد بعد والده ، وجاءه الأمر المحتوم ، والقضاء المبروم ، وقتل فى هذه السنة كما ذكرنا[4] .

وفى المرآة[5] : واختلفوا فى اسم جلال الدين ، فقيل : تكش اسم جده ، قال السبط : سمعت الملك المعظم (رحمه الله) يقول : ليس هو من بنى سلجوق ، وإنما هو من نسل طاهر بن الحسين ، وجده تكش هو الذى أزال الدولة[6] السلجوقية ، وملك محمد أبو جلال الدين البلاد ، وكان ابنه جلال الدين هذا قد هرب إلى الهند ، وعاد منها ، ونزل على همذان ، وقصد بغداد ، وجرى له وعليه ماذكرناه مفصلا[7] . وقال أبو الفتح

(١) مابين حاصرتين إضافة من سيرة منكبرتى ، ص٣٨٢ ، للتوضيح .
(٢) وردت هذه الأحداث فى سيرة منكبرتى ، ص٣٧٩ - ص٣٨٢ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٥٠ - ص١٥١ .
(٣) «أنويش تكين» كذا فى الأصل ، والمثبت من سيرة منكبرتى ، ص٣٤ .
(٤) ورد هذا الخبر فى المختصر ، ج٣ ، ص١٤٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٤٢ ؛ مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٤٢ .
(٥) سبط ابن الجوزى ، ج٨ ، ص٤٤٢ - ص٤٤٣ .
(٦) «المملكة» كذا كتبت التخريجة فى الأصل ، وكذلك فى مرآة الزمان ورد اسم المملكة بدلا من الدولة ، ج٨ ، ص٤٤٢ .
(٧) إلى هنا توقف العينى عن النقل من مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٤٢ - ص٤٤٣ .

المنشيء : واسم جلال الدين منكبرتى ، قلت : هو الأصح لأنه كان كاتبا بين يديه سنين وهو أدرى باسم مخدومه[١] .

(الثانى) فى صفته : قال أبو الفتح : كان أسمر قصيرا تركيا ، حسن[٢] الشارة والعبارة وكان يتكلم بالفارسية .

(الثالث) فى سيرته : قال أبو الفتح المنشيء : كان أسداً ضرغاماً ، وأشجع الفرسان إقداماً ، وكان حليما لا غضوبا ولاشَتَّاما ، وكان وقورا لا يضحك إلا تبسما ، ولا يكثر كلاما ، وكان يختار العدل غير أنه صادف أيام الفتنة فغلب ، ويحب الترفيه على الرعية لولا أنه ملك فى زمان الفترة[٣] . وفى تاريخ ابن كثير[٤] : وكان جلال الدين فى آخر عمره قد قبحت سيرته ، وفسد عقله ، وعادى ملوك جميع الأطراف . وفى المرآة[٥] : [١٢٧] وكم فتك وأسر من المسلمين وسبى وكان كثير الفساد ، وأهلك عسكره العباد والبلاد ، ثم قال السبط : وحكى لى خالى أبو محمد يوسف محيى الدين قال : بعثنى الخليفة إليه فى رسالة وهو على خلاط ، فدخلت عليه وبين يديه المصحف ، وهو يقرأ فيه ويبكى ، فقلت له : تقرأ فى المصحف وتبكى وأنت تفعل بالمسلمين ماتفعل! وقد قتلت فى دقوقا عشرين ألف مسلم ، وسبيت نساءهم ، وفعلت مافعلت ! فقال : هذا عسكر عظيم مسيرة خمسة أيام مالى عليهم طاقة ولاحكم ، ولا يلتفتون إلى . ومع هذا فإنه كان سدا بين المسلمين والكفار ، وسندا لأهل الإسلام من الفجار ، وكان يدفع التتار عن المسلمين ، ويصدهم ، فلما هلك انفتح السد ، ولقد حكى لى الأمير عماد الدين بن موسك قال : لما كُسِر الخوارزمى دخل عثمان العزيز ، وغازى وجماعة الأعيان ، فهنؤا الأشرف بالكسرة ، فقال : تهنونى بهذا سوف ترون غِبَّ هذا ، والله لتكونن هذه الكسرة سببا لدخول التتار إلى بلاد المسلمين ، ما كان الخوارزمى الأمثل السد الذى بيننا وبين يأجوج ومأجوج . فكان كما قال ، وكان الخوارزمى إذا لقى التتار اقتتلوا عشرة أيام بلياليها ، ثم يترجلوا عن خيولهم ، ويتلاقوا بالسيوف ، وأحدهم يأكل ويبول وهو يقاتل .

---

(١) ورد هذا الخبر فى المختصر ، ج٣ ، ص١٥١ .
(٢) «تركى الشارة والعبارة» فى سيرة منكبرتى ، ص٣٨٤ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٥١ .
(٣) ورد هذا الخبر فى سيرة منكبرتى ، ص٣٨٤ .
(٤) ورد هذا الخبر فى ابن الأثير ، الكامل ، ج١٢ ، ص٤٩٥ ، ولم يرد فى تاريخ ابن كثير كما ذكر العينى .
(٥) سبط ابن الجوزى ، ج٨ ، ص٤٤٣ ـ ص٤٤٤ .

وفى تاريخ[1] ابن كثير : وكان له مملوك يحبه محبة شديدة ، فمات ذلك المملوك ، فجرى عليه من الحزن مالم يعهد بمثله ، وأمر أهل تبريز بالخروج والنوح واللطم عليه ، ثم أنه لم يدفنه ، وبقى يستصحبه معه حيث سار وهو يلطم ويبكى ، وكان إذا قدم إليه الطعام يرسله إلى المملوك الميت ، ولايجسر أحد أن يقول له أنه ميت ، فكانوا يحملون الطعام ويقولون : إنه يقبل الأرض . ويقولون : إنه الآن أصلح مما كان عليه . فأنف أمراؤه من ذلك ، وخرج بعضهم عن طاعته ، وكان هذا المملوك سببا لتشتت حاله ، وزوال ملكه . وقال ابن كثير : وكان المملوك خِصيا ، يقال له قلج ، وكان حين بعث الطعام وهو ميت ، قال له بعضهم : أيها الملك إنه قد مات . فأمر بقتله ، فقتل ، فكانوا بعد ذلك يقولون : إنه يقبل الأرض ، ويقول : إنه أصلح مما كان عليه . يعنى أنه مريض وليس بميت . فلما جاءت التتار اشتغل بهم ، وأمر بدفن قلج ، وهرب من بين أيديهم[١٢٨] وامتلأ قلبه خوفا منهم ، فجرى عليه ماذكرناه ، وتفرق عنه جيشه فصاروا شذر مذر .

(الرابع) فى وفاته : قد ذكرنا كيفية قتله عن قريب .

وفى المرآة[2] : أخذ جلال الدين خلاط ، وفعل فيها مافعل ، وآخر أمره جاء التتار خلفه ، وانهزم إلى بلاد ميافارقين ، وتاه فى الجبال ، فوقع به فلاح من قرية يقال لها عين دار[3] ، فرآه راكب على سرج مرصع باليواقيت ، وعلى لجام فرسه الجواهر ، وسلاحه كله مجوهر ، فقال : من أنت؟ فقال : خوارزم شاه . يعنى جلال الدين ، وكان شخص من عسكر جلال الدين قد قتل أخ هذا الفلاح ، وكان ذلك سببا لقتله إياه . وقيل : إنه شره إلى ما كان معه ، فأنزله وأطعمه ، ونام آمنا ، فضربه بفأس فقتله ، وأخذ ما كان معه ، وبلغ شهاب الدين غازى ، فأرسل إلى الفلاح ، فأنكر فقرره ، فأقر ، وأحضر الفرس والسلاح ، وقال : دفنته إلى جانب القرية . وكان طرخان خال جلال الدين قد وصل إلى شهاب الدين ، فأنزله فى قصره ، وأمر بحمل جلال الدين ليلا من القرية ، وقال لخاله : أبصر هل هو هذا . فلما رآه بكى ، وقال : نعم فدفنوه ليلا وأخفوا قبره مخافة أن ينبش .

---

(١) البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٨ . وانظر الخبر أيضا فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٩٦ - ص٤٩٧ .

(٢) سبط ابن الجوزى ، ج٨ ، ص٤٤٢ - ص٤٤٣ ؛ وانظر أيضا : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٤٢ .

(٣) عين دار : لعل هذه القرية بأرض ميافارقين كما ذكر فى البداية والنهاية أن الفلاح من قرية بأرض ميافارقين . ج١٣ ، ص١٤٢ .

وقال السبط(١) : وبلغنى وجه آخر ، أنه لما كبسه التتار خرج من الخيمة ليلا ومعه جماعة من أصحابه ، وقصد ميافارقين ، وكانت معه جواهر نفيسه ، فبات بقرية عند أرمنى ، فقال : أنا خوارزم شاه . وأعطاهم جواهر ، وقال : احملونى إلى شهاب الدين غازى . فحملوه إلى سفينة ، وكان تحته فرس سرجه ولجامه ذهب بجوهر ، وأنزلوه فى السفينة وبها رجل كردى كان خوارزم شاه قد قتل أهله ، فضربه فى صدره بحربة ، فأخرجها من ظهره ، فقتلوا الكردى ، وأخذوا ما كان على جلال الدين ، وفرسه وحياصته ، وكان فيها جوهر عظيم ، وألقوه فى بئر ، وبلغ شهاب الدين غازى ، فأرسل إليهم فأخذهم وأخذ ما أخذوه ، وسألهم عن جلال الدين ، فأخرجوه من البئر ، فقتلهم شهاب الدين ، وغسله وكفنه ، ودفنه خارج ميافارقين ، فعفى شهاب الدين موضع قبره . وقيل : قتل فى سنة تسع وعشرين وستمائة . وفى تاريخ بيبرس : وكانت[١٢٩] وفاته فى النصف من شوال من سنة ثمان(٢) وعشرين وستمائة ، ومدة مملكته منذ وفاة والده اثنتى عشرة سنة(٣) . قال بيبرس(رحمه الله) : والغالب على ظنى أن الطائفة التى كانت تصادمه وتلازمه من التتار التى جاست وراءه خلال الديار ، وآل ما آل له معها إلى البوار هى الطائفة التى كانت مع باطوخان بن جنكيزخان ، لأنه استقر بهذه البلاد ، وصارت بعده لمن كان له من الأولاد .

ذكر ما فعل التتار فى بلاد الإسلام

وفى هذه السنة نهب التتار سواد آمد وأرزن وميافارقين ، وقصدوا أسعرد(٤) ، فقاتلهم أهلها ، فبذل لهم التتار الأمان ، فاطمأن أهل البلد إلى أمانهم ، واستسلموا ، فلما تمكن التتار منهم بذلوا فيهم السيف ، وقتلوهم حتى كادوا يأتون عليهم ، وحُزِّر القتلى فكانوا يزيدون على خمسة عشر ألفا ، وساروا منها إلى طنزة(٥) ، ففعلوا فيها كذلك ، ثم ساروا

---

(١) مرآة الزمان ، ج٨ ، ص٤٤٣ ؛ وانظر أيضا : سيرة منكبرتى ، ص٣٨١ ـ ص٣٨٣ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٣٢٢ ؛ المختصر ، ج٣ ، ص١٥١ .

(٢) «ثمانية» كذا فى الأصل ، والمثبت هو الصحيح لغة ، وقد ورد فى سيرة منكبرتى تاريخ الوفاة ، ص٣٨٥ .

(٣) عن مدة مملكة جلال الدين منكبرتى انظر : سيرة منكبرتى ، ص٣٨٥ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص٢٩٨ .

(٤) «أسعرد» : مدينة بالقرب من شط دجلة ، وهى عن ميافارقين على مسيرة يوم ونصف ، وميافارقين فى الشمال عن سعرت ، وقد وردت بأسماء أخرى وهى : سعرت وأسعرذ .
انظر : تقويم البلدان ، ص٢٨٨ ـ ص٢٨٩ .

(٥) طنزة : بلد بجزيرة ابن عمر من ديار بكر .
انظر : معجم البلدان ، ج٣ ، ص٥٥١ .

إلى ماردين فنهبوا ماوجدوا فى بلدها ، واحتمى صاحب ماردين ومن معه من أهل دنيسر[١] بقلعتها ، ثم وصلوا إلى نصيبين ، فأقاموا عليها بعض نهار ، ونهبوا سوادها ، وسلبوا وقتلوا وغاروا ، وغلقت أبوابها ، فعادوا عنها ، ومضوا إلى سنجار ، ووصلوا إلى الجبال فنهبوها ، ودخلوا الخابور[٢] ، ووصلوا إلى عرابان[٣] ، ومضت طائفة إلى طريق الموصل ، ومضت طائفة إلى نصيبين الروم على الفرات ، فنهبوا وقتلوا ، وقصدوا بدليس[٤] وأحرقوها ، وساروا إلى أعمال أخلاط ، فحاصروا بلدا منه يقال له باكرى فملكوه ، وحصروا أرجيش ، وهى مدينة عظيمة من بلاد خلاط ، ففعلوا فيها كذلك ، وألقى الله الرعب فى قلوب المسلمين منهم [حتى][٥] كان الرجل منهم يدخل القرية وفيها جمع كثير فلا يزال يقتلهم واحدا واحدا حتى يأتى عليهم ، ولا يجسر أحد منهم يمد يده إليه ، ولقد ذكر أن واحدا تتريا أخذ رجلا وليس مع التترى سلاح ، فقال للرجل : ضع رأسك على الأرض ولا تبرح . فوضع رأسه على الأرض ، ومضى التترى فأحضر سيفا فقتله به ، وبالجملة فإن الله ألقى الرعب فى القلوب لإمضاء ماقدره فى طى الغيوب ، ولما اتفقت وفاة جلال الدين ، ورأى أهل أذربيجان استيلاء التتار كاتبوهم بالطاعة ، وبذلوا لهم ماطلبوا منهم من الأموال والثياب ،[١٣٠] وكذلك فعل أهل تبريز وطلبوا من مقدمهم الأمان فآمنهم ، وتوجه إليه أعيانهم ، وطلب منهم أن يحضروا إليه صناع الثياب ليستعمل للقان[٦] الذى هو ملكهم مايحتاج إليه ، وطلب منهم أن يعملوا له خركاه عظيمة فعملوا له خركاه لم يعمل مثلها ، غشاؤها من الأطلس الجيد والزركش[٧] ، وبطنوا داخلها

---

(١) دُنَيْسَر : بلدة عظيمة مشهورة من نواحى الجزيرة قرب ماردين ، ولها اسم آخر يقال لها قوج حصار .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٦١٢ .

(٢) الخابور : اسم لنهر كبير بين رأس عين والفرات من أرض الجزيرة ، ولاية واسعة وبلدان جمة غلب عليها اسمه فنسبت إليه من بلاد قرقيسياء وماكسين والمجدل وعَرَّبان .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٨٣ .

(٣) عرابان أو عَرَّبان : بليدة بالخابور من أرض الجزيرة .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٣٨٣ .

(٤) بدليس : بلدة من نواحى أرمينية قرب خلاط .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٥٣٦ .

(٥) مابين حاصرتين إضافة من مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٣٢٧ ، للتوضيح .

(٦) القان : لقب أطلق على رؤساء الترك فى القرن السابع الميلادى ، ومعناه رئيس الرؤساء ، وقد استعمل أولئك الترك المتقدمون لقب قان أوخان أيضا بمعنى قاغان ، فصارت كلمة قاغان أوقان تطلق على ملك المغول الأعظم .
ولمعرفة المزيد عن هذا المصطلح ، انظر : مصطلحات صبح الأعشي ، ج١٥ ، ص٢٦٧ .

(٧) الزركش : أى صبغة الثياب وألوانها .
انظر : مصطلحات صبح الأعشى ، ج١٥ ، ص١٦٩ .

بالسمور[١] والقندس ، وقرروا عليهم كل سنة شيئا من المال والثياب ، وأما الخوارزمية فتفرقوا فى الأغوار ، والأنجاد[٢] ، وتشتتوا فى البلاد ، وسنذكر متجدداتهم معهم فى أوقاتها[٣] .

ذكر حركة الإفرنج

وفى هذه السنة كانت للفرنج حركة ، فخرج عسكر حلب مع الأمير بدر الدين[٤] الوالى وأغاروا على ناحية المرقب[٥] ، ونهبوا حصن بانياس وخربوه ، وسيروا الأسارى إلى حلب ، ثم وقعت وقعة أخرى بينهم قتل فيها من الفريقين خلق كثير ، واستظهر فيها الفرنج على المسلمين ، فجهزت العساكر من حلب إليهم ، ثم استقرت الهدنة بين عسكر حلب والداوية[٦] والاستبار[٧][٨] .

(١) السمور : نوع من فراء حيوان السمور المستخدم فى صنع الملابس ، وحيوان السمور ببلاد الروس وراء بلاد الترك يشبه النمس ، ومنه أسود لامع وأشقر .
انظر : الملابس المملوكية ، ص٣٦ ، المصباح المنير ، مادة (سمر) .

(٢) الأنجاد : النجد الأرض الصلبة ، وماغلظ منها فى ارتفاع من الجبل .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٧٤٥ .

(٣) وردت هذه الأحداث فى الكامل ، ج١٢ ، ص٤٩٩ - ٥٠١ ؛ مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٣٢٥ - ٣٣٠ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٨ ؛ المرآة ، ج٨ ، ص٤٤٠ .

(٤) الأمير بدر الدين الوالى : كان أميرا جليلا ، وكان متولى قلعة جعبر فى أيام الملك الظاهر إلى أن أخذها الملك العادل فولاه الملك الظاهر بعد ذلك قلعة حلب إلى حين وفاته .
انظر : مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٣١٠ - ٣١١ .

(٥) المَرْقب : اسم الموضع الذى يرقب فيه بلد ، وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة بلنياس .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٥٠٠ .

(٦) الداوية : أو الديوية وهم الاسم الذى أطلقه المسلمون على الطائفة التى عرفت فى أوروبا باسم «فرسان المعبد» ، وهى طائفة دينية تخصصوا لحرب المسلمين فى الحروب الصليبية ، فأصبحت فرقة حربية ، وكانوا أشد المحاربين تعصبا وأكثرهم قوة وضراوة ومنهم طائفة أخرى تسمى الاسبتارية .
انظر : نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص٨٣ ، حاشية(١) .

(٧) الاستبار أو الاستبارية : هم طائفة أخرى من فرسان المعبد (من الإفرنج) وهم مثل الداوية فى التعصب والحماس . انظر : نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص٣٠٥ ، حاشية(١) .

(٨) وردت هذه الأحداث فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٣١٠ - ٣١١ .

ذكر بقية الحوادث

منها أنه كان غلاء شديد بديار مصر ، وبلاد الشام ، وحلب ، والجزيرة ، بسبب قلة المياه السماوية والأرضية[١] .

وفى تاريخ بيبرس : واحتبس الغيث فى هذه السنة احتباسا كثيرا جداً ، وارتفعت الأسعار ، فخرج الناس إلى جبل بانقوسا[٢] ، واستسقوا ، فجاء مطر يسير بعد ذلك ، وانحلت[٣] الأسعار قليلا[٤] .

ومنها أن الملك الكامل ابتدأ[٥] بحفر البحر الذى من دار الوكالة بمصر إلى صناعة التمر الفاضلية ، وعمل بنفسه فيه ، واستعمل فيه[٦] الملوك والأمراء والأجناد وغيرهم ، وكان هذا البحر فى أوان نقصه يصير طريقا إلى الجزيرة[٧] والمقياس[٨] ، فبَعُد البحر عن مصر ، وخشى السلطان بعده وارتدامه بالرمال ، فحفر فيه إلى أن صار الماء محتاطا بالمقياس ، وصار الناس بعد ذلك يخوضون فيه من قبلى المقياس فى وقت الاحتراق ، وأما من صناعة الإنشاء إلى بحر المقس[٩] فكان ينكشف عند نقص النيل ، ويبقى الناس يعدون الجزيرة[١٠] من قبالة ربع العادل ، ثم إنه كان عند ابتداء مد النيل يسير الماء منحدرا فى أنابيب إلى أن يلتقى ببحر بولاق ، فيكون يوم لقائه عند أهل مصر يوم سرور

---

(١) ورد هذا الخبر فى الكامل ، ج١٢ ، ص٥٠٤ ؛ الذيل على الروضتين ، ص١٥٩ .

(٢) جبل بانَقُوسا : جبل فى ظاهر مدينة حلب من جهة الشمال .
انظر : معجم البلدان ، ج١ ، ص٤٨٢ .

(٣) «وانحطت» كذا فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٣١٢ .

(٤) ورد هذا الحدث فى مفرج الكروب ، ج٤ ، ص٣١٢ .

(٥) «ابتدى» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .

(٦) «فيها» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .

(٧) الجيزة» كذا فى نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٦٥ ؛ السلوك ، ج١ق١ ، ص٢٤١ .

(٨) المِقْياس : هو عمود من رخام قائم فى وسط بركة على شاطئ النيل بمصر ، له طريق إلى النيل يدخل الماء إذا زاد عليه ، وفى ذلك العمود خطوط معروفة عندهم يعرفون بوصول الماء إليها مقدار زيادته .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٦١٠ .

(٩) المَقْسُ : بين يدى القاهرة على النيل ، وكان قبل الإسلام يسمى أم دُنين ، وكان فيه حصن ومدينة قبل بناء الفسطاط .
انظر : معجم البلدان ، ج٤ ، ص٦٠٦ .

(١٠) الجزيرة : وهى جزيرة مصر وهى محلة من محال الفسطاط ، وسميت جزيرة لأن النيل إذا فاض أحاط بها الماء وحال بينها وبين عظم الفسطاط واستقلت بنفسها .
انظر : معجم البلدان ، ج٢ ، ص٨٠ .

وفرح ولهو وانفساح ، ولم يزل الأمر كذلك إلى أن ملك[١٣١] الملك الصالح نجم الدين أيوب الديار المصرية ، وشرع فى بناء قلعة الجزيرة ، فحفر بعض هذا البحر ، واستحضر المهندسين وسألهم كيف العمل فى جريان الماء بحيث لاينقطع صيفا ولا شتاء؟ واتفق الرأى على أن تغرق مراكب فى بر الجزيرة قبالة باب القنطرة الذى بمصر مما يلى السور الذى بناه صلاح الدين ، وقبلى الجزيرة ، فغرقت المراكب ، وعمل البحر من ذلك اليوم قليلا قليلا ، ويتكاشف أولا فأول(١) ، وقطع كثيرا من بر مصر من دار الملك إلى قريب المقس ، ورمى قطعة من السور الذى بناه الكامل ، وكمله ابنه العادل ، وقطع المنشية الفاضلية(٢) .

ومنها أنه تكامل بناء المدرسة(٣) التى بسوق العجم فى بغداد ، المنسوبة إلى إقبال الشرابى(٤) ، وحضر الدرس بها ، وكان يوما مشهودا اجتمع فيها جميع المدرسين والمفتيين ببغداد ، وعمل بصحنها قباب الحلواء ، فحمل منها إلى جميع المدارس والرُّبَط ، وخلع على المدرسين والمعيدين والفقهاء يومئذ ، وكان وقتا حسنا(٥) .

وفى جمادى الأولى ذكر تقى الدين(٦) بن الصلاح الدرس فى المدرسة(٧) التى

---

(١) «فأولا» كذا فى الأصل ، والصحيح لغة ما أثبتناه .

(٢) وردت هذه الأحداث بتصرف فى نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٦٥ - ص١٦٦ ؛ السلوك ، ج١ق١ ، ص٢٤١ .

(٣) هى المدرسة الإقبالية التى بداخل باب الفرج وباب الفراديس ، شمالى الجامع والظاهرية الجوانية ، وشرقى الجاروخية والإقبالية الحنفية ، وغربى التقوية بشمال ، أنشأها جمال الدين بل جمال الدولة إقبال عتيق ست الشام . انظر : الدارس فى تاريخ المدارس ، ج١ ، ص١٥٨ - ص١٥٩ .

(٤) إقبال الشرابى : بنى مدرسة بواسط وإلى جانبها جامعا ، وبنى ببغداد مدرسة فى سوق السلطان ، وجدد بمكة الرباط الذى اشتهر به ، وتوفى سنة ٦٥٢هـ .
انظر : الدارس ، ج١ ، ص١٥٩ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص١٦١ .

(٥) ورد هذا الخبر فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٨ - ص١٣٩ ؛ الدارس فى تاريخ المدارس ، ج١ ، ص١٥٩ - ص١٦٠ .

(٦) تقى الدين بن الصلاح : أبو عمرو عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى بن أبى نصر النصرى الكردى الشهر زورى المعروف بابن الصلاح ، الشُرخانى الملقب تقى الدين الفقيه الشافعى ، كان أحد فضلاء عصره فى التفسير والحديث والفقه وأسماء الرجال تولى التدريس بالمدرسة الناصرية بالقدس ، وتدريس المدرسة الرواحية ، ودرس بمدرسة ست الشام زمرد خاتون ، ولد سنة ٥٧٧هـ بشَرخَان ، وتوفى سنة ٦٤٣هـ بدمشق .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٢٤٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٧٩ - ص١٨٠ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص٢٢١ .

(٧) يقصد بها المدرسة الشامية البرانية : وهى بالعقيبة ، وبانيها والدة الملك الصالح إسماعيل ، وأول من درس بها تقى الدين بن الصلاح ، وأنشأتها ست الشام ابنة نجم الدين أيوب بن شاذى بن مروان ، وهى من أكبر المدارس وأعظمها وأكثرها فقها .
انظر : الدارس ، ج١ ، ص٢٧٧ .

وقفتها بنت حسام[١] الدين لاجين بن ست الشام[٢] على الشافعية بدمشق، المجاورة لمارستان[٣] نور الدين الشهيد[٤] (رحمه الله).

وفي رجب ذكر الناصح[٥] بن الحنبلي الدرس في المدرسة[٦] التي أنشأتها ربيعة[٧] خاتون بنت أيوب بقاسيون[٨].

ومنها أن تاريخ ابن الأثير الذي سماه الكامل انتهى في هذه السنة[٩].

ومنها أن الأشرف أبا العباس أحمد بن القاضي الفاضل سار في الرسلية عن السلطان الملك الكامل صاحب مصر إلى الخليفة المستنصر بالله ببغداد، فأكرم وأعيد معظما[١٠].

---

(١) حسام الدين لاجين: هو حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين بن أخت صلاح الدين، وهو صاحب نابلس، وأمه ست الشام بنت أيوب، أخت السلطان صلاح الدين، توفي ليلة الجمعة التاسع عشر من رمضان سنة ٥٨٧هـ، ودفن بالتربة الحسامية التي أنشأتها أمه بمحله العونية (المدرسة الشامية البرانية).
انظر: البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٦٩؛ مرآة الزمان، ج٨، ص٢٦٥.

(٢) ست الشام: هي بنت أيوب بن شاذي وشقيقة المعظم تورانشاه بن أيوب، وزوجها ابن عمها نصر الدين محمد ابن أسد الدين شيركوه، توفيت يوم الجمعة في السادس عشر من ذي القعدة سنة ٦١٦هـ.
انظر: وفيات الأعيان، ج٣، ص٢٤٤ - ص٢٤٥؛ البداية والنهاية، ج١٣، ص٩٢؛ شفاء القلوب، ص٢٢١ - ص٢٢٢؛ الدارس، ج١، ص١٥٩.

(٣) مارستان نور الدين: بناه السلطان نور الدين محمود بدمشق، وهو مستشفى لمعالجة المرضى وإقامتهم، وهو لفظ فارسي مركب من «بيمار» أي مريض و«ستان» أي محل، ويقال بيمرستان وبيمارستان، والمارستان النوري أحسن مابني من المارستانات بالبلاد، ومن شرطه أنه على الفقراء والمساكين، وإذا لم توجد بعض الأدوية التي يعز وجودها إلا فيه، فلايمنع منه الأغنياء.
انظر: خطط الشام، ج٦، ص١٦١ - ١٦٢؛ البداية والنهاية، ج١٢، ص٣٠٠.

(٤) ورد هذا الخبر في المرآة، ج٨، ص٤٤٠.

(٥) الناصح بن الحنبلي: ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب بن الشيخ أبو الفرج الشيرازي، ويرجع نسبه إلى سعد بن عباده (رضي الله عنه)، ولد سنة ٥٥٤هـ وتوفي سنة ٦٣٤هـ.
انظر: الدارس، ج٢، ص٨٢.

(٦) يقصد بها المدرسة الخاتونية البرانية، غرب دمشق، بنيت سنة ٥٥٧هـ، وقد وقفتها الست خاتون أم شمس الملوك، وأخت الملك دقاق. انظر: الدارس، ج١، ص٥٠٢ - ص٥٠٦.

(٧) ربيعة خاتون بنت أيوب بن شاذي، أخت صلاح الدين، تزوجت أولا بالأمير سعد الدين بن مسعود بن معين الدين أنر، وتزوجت ثانيا بعد موت الأول بالملك مظفر الدين صاحب إربل، توفيت سنة ٦٤٣هـ.
انظر: البداية والنهاية، ج١٣، ص١٨٢؛ شفاء القلوب، ص٢٢٢ - ص٢٢٣؛ الدارس، ج٢، ص٨٠.

(٨) ورد هذا الخبر في مرآة الزمان، ج٨، ص٤٤٠.

(٩) انظر: الكامل، ج١٢، ص٥٠٥.

(١٠) انظر: البداية والنهاية، ج١٣، ص١٣٩.

ومنها أن الملك السعيد المظفر كوكبورى[١] بن زين الدين صاحب إربل دخل بغداد ولم يكن دخلها قط ، فتلقاه الموكب وشافهه الخليفة بالسلام مرتين فى وقتين ، وكان ذلك شرفا له غبطه به سائر الملوك فى الآفاق ، وساءلوا أن يهاجروا ليحصل لهم مثل ذلك ، فلم يُمَكَّنوا لحفظ الثغور ، ورجع إلى مملكته معظما مكرما[٢] .

وفيها . . . .[٣]

وفيها حج بالناس من دمشق شبل الدولة كافور العادلى[٤] ، وكان فيمن حج الشيخ تقى الدين أبو عمرو بن الصلاح ، ولم يحج أحد من العراق لانتشار الفساد من التتار[٥] .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

ابن معطى[٦] النحوى **يحيى بن معطى بن [عبد]**[٧] **النور الزواوى** ، صاحب الألفية وغيرها[١٣٢] من المصنفات النحوية المفيدة ويلقب بزين الدين ، أخذ عن الكندى وغيره فى الشام ، ثم سافر إلى مصر ، وكانت وفاته بالقاهرة فى مستهل ذى الحجة من هذه السنة ، وشهد جنازته الشيخ شهاب[٨] الدين أبو شامة ، وكان قد رحل إلى مصر فى هذه السنة . وحكى أن الملك الكامل شهد جنازته ، وأنه دفن قريبا من قبر المزنى بالقرافة فى طريق الشافعى عن يسرة المار .

---

(١) المظفر كوكبورى بن زين الدين : أبو سعيد كوكبورى بن أبى الحسن على بن بكتكين بن محمد الملقب الملك المعظم مظفر الدين ، تولى البلاد موضع أبيه بعد موته وكان عمره أربع عشرة سنة وكان أتابكه مجاهد الدين قايماز ، وكانت ولادته بقلعة الموصل ليلة السابع والعشرين من المحرم سنة ٥٤٩هـ ، وتوفى ليلة الجمعة رابع عشر شهر رمضان سنة ٦٣٠هـ .
انظر : وفيات الأعيان ، ج٤ ، ص١١٣ ـ ص١٢١ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٤٧ .

(٢) ورد هذا الخبر فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٩ .

(٣) بياض فى الأصل بمقدار سطر .

(٤) المرآة ، ج٨ ، ص ٤٤٠ .

(٥) ورد هذا الخبر فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٨ .

(٦) انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٦٠ ؛ وفيات الأعيان ، ج٦ ، ص١٩٧ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٩ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص١٢٩ .

(٧) مابين حاصرتين إضافة من البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٩ ؛ النجوم الزاهرة ، ج٦ ، ص٢٧٨ .

(٨) الشيخ شهاب الدين أبو شامة : هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان بن أبى بكر بن عباس أبو محمد وأبو القاسم المقدسى الشيخ الإمام العالم الحافظ المحدث الفقيه المؤرخ المعروف بأبى شامة ، شيخ دار الحديث الأشرفية ، ومدرس الركنية ، وصاحب المصنفات العديدة المفيدة ، ولد ليلة الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة ٥٩٩هـ ، وتوفى سنة ٦٦٥هـ .
انظر : الذيل على الروضتين ، ص٣ ـ ٤ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص٢٦٤ ـ ص٢٦٥ ، الشذرات ، ج٥ ، ص٣١٨ .

وقال ابن خلكان[١] : وكان الملك الكامل أرغبه فى الانتقال إلى مصر ، فسافر إليها وتصدر بالجامع العتيق بمصر لإقراء الأدب ، ولم يزل إلى أن توفى فى سلخ ذى القعدة من هذه السنة ، ودفن من الغد على شفير الخندق بقرب تربة الإمام الشافعى ، وقبره هناك ظاهر ، ومولده سنة أربع وستين وخمسمائة . والزواوى : بفتح الزاى نسبة إلى زواوة ، وهى قبيلة كبيرة بظاهر بجاية ، من أعمال إفريقية ، ذات بطون وأفخاذ . قلت : كان يحيى بن معطى المذكور من سادات الأئمة الحنفية ذكره صاحب الطبقات فيهم . وكذا قال ابن خلكان : يحيى بن معطى النحوى الحنفى (رحمه الله) .

الدخوار[٢] **الطبيب** ، واقف الدخوارية بدمشق ، مهذب الدين عبد الرحيم بن على بن حامد ، المعروف بالدخوار ، شيخ الأطباء بدمشق ، وقد وقف داره بدرب العميد بالقرب من الصاغة العتيقة على الأطباء بدمشق مدرسة لهم ، وكانت وفاته فى صفر من هذه السنة ، ودفن بسفح جبل قاسيون ، وعلى قبره قبة على أعمدة فى وسط الجبل شرقى الركنية[٣] ، وقد ابتلى بستة أمراض متعاكسة منها ريح اللقوة ، وكان مولده سنة خمس وستين وخمسمائة ، وعمره ثلاث وستون سنة . وقال القوصى : أنشدنى الحكيم[٤] الفاضل فى الإسرائيلى صاحب المعتبر :

لنا صديق يهودى[من حماقته][٥] إذا تكلم تبدو آفته[٦] من فيه
يتيه والكلب خير منه منزلة كأنه بعد لم يخرج من التيه[٧]

---

(١) وفيات الأعيان ، ج٦ ، ص١٩٧ .

(٢) انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٥٩ ـ ص١٦٠ ؛ نهاية الأرب ، ج٢٩ ، ص١٦٨ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٩ ؛ المرآة ، ج٨ ، ص٤٤٤ ـ ص٤٤٥ ؛ الشذرات ، ج٥ ، ص١٢٧ ـ ص١٢٨ .

(٣) الركنية : هى المدرسة الركنية الجوانية الشافعية ، واقفها ركن الدين منكورس عتيق فلك الدين سليمان العادلى ، وهو الذى بنى الركنية الحنفية البرانية .
انظر : الدارس ، ج١ ، ص٢٥٣ .

(٤) الحكيم الفاضل : هو هبة الله بن صاعد أبو الحسن بن التلميذ الطبيب النصرانى لكن الشعر ليس لنفسه بل لابن أفلح كما فى أخبار الحكماء .
انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٥٩ ، حاشية(١)

(٥) حماقته : كذا فى الذيل على الروضتين ، ص١٦٠ .

(٦) فيه : كذا فى الذيل على الروضتين ، ص١٦٠ .

(٧) ورد هذان البيتان فى الذيل على الروضتين ، ص١٦٠ .

ابن العديم[١] الشيخ الصالح القاضى أبو غانم ، كان من المجتهدين فى العبادة والرياضة ، والعاملين بعلمهم . وقال ابن [٢]الأثير : إنه من شيوخنا ، سمعنا عليه الحديث ، وانتفعنا برؤيته وكلامه ، مات فى هذه السنة .

أبو اسحق[٣] ابراهيم بن عبد[١٣٣] الكريم بن أبى السعادات بن كريم الموصلى ، أحد الفقهاء الحنفية ، شرح قطعة كبيرة من القدورى ، وكتب الإنشاء لصاحبها بدر الدين لؤلؤ ، ثم استقال من ذلك ، وكان فاضلا شاعرا . فمن شعره قوله :

دعوه كما شاء الغرامُ يكونُ فلستُ وإن خان العهود أخونُ
ولينوا له فى قولكم ما استطعتم عسى قلبه القاسى علىَّ يلينُ
وبثوا صباباتى إليه وكرروا حديثى عليه فالحديثُ شجون
وسلوا على العشاقِ يوم تحملوا سيوفا لها وطفُ[٤]الجفونِ جفونُ[٥]

المجد[٦] البهنسى ، وزير الملك الأشرف ، من بيت الفضل والعلم ، كان أبوه فاضلا ، كتب شرح الحماسة بخطه فى ست مجلدات للتبريزى ، ووقفه فى الخانقاه[٧] الشُمَيْساطيَّة ، ليس فى الشام نسخة أصح منها ، وكان المجد فاضلا ، وُزِّرَ للأشرف مدة ، ولم يقطع رزق أحد ، وكان حسن المحضر عاقلا ، ولم يكن فيه ما يعاب به إلا استهتاره ، والله يعفو عنه ، وكان الأشرف قد عزله عن الوزارة واستأصله ، وأخذ جميع ماله ، وتوفى بدمشق ، ودفن بتربته التى أنشأها بقاسيون ، ووقف عليها وقفا ، وأوصى بكتبه تكون فيها .

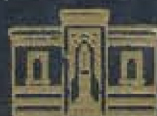
---

(١) انظر : الكامل ، ج١٢ ، ص٥٠٥ ؛ البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٣٩ .
(٢) الكامل ، ج١٢ ، ص٥٠٥ .
(٣) انظر : البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٤٠ .
(٤) الوطف : كثرة شعر العين . المصباح المنير ، مادة (وطف) .
(٥) وردت هذه الأبيات فى البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٤٠ .
(٦) انظر : الذيل على الروضتين ، ص١٦٠ ، البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٤٠ ، المرآة ، ج٨ ، ص٤٤٤ .
(٧) الخانقاه الشميساطية : ورد اسم الخانقاه فى الدارس (السميساطية) وهى تنسب للسميساطى أبى القاسم على بن محمد بن يحيى السلمى الحبشى من أكابر الرؤساء بدمشق ، وسميساط قلعة على الفرات بين قلعة الروم وملطية ، وكانت هذه الخانقاه دار عبد العزيز بن مروان بن الحكم أبى الأصبغ الأموى (أمير المؤمنين) وابنه عمر (رضى الله عنه) . انظر : الدارس ، ج٢ ، ص١٥١ ـ ص١٥٢ .

جمال[1] الدولة خليل بن زويزان ، رئيس قصر حجاج ، كان كيسا ذا مروءه ، له صدقات كثيرة ، وله زيارة فى مقابر الصوفية من ناحية القبلة ، مات فى هذه السنة ودفن بتربته عند مسجد فلوس[2] .

(١) انظر: البداية والنهاية ، ج١٣ ، ص١٤٠ .

(٢) مسجد فلوس : يقع قبلى الميدان على طريق حوران ، ويعرف اليوم بمسجد أبى فلوس ، ولم يبق منه إلا محرابه ، وهو الذى بناه وفيه قبره وعلى بابه بئر ، ومسجد فلوس أيضا على الطريق بناه الأمير أكز ، له منارة خشب ، وهو من مساجد دمشق . انظر : الدارس ، ج٢ ، ص٣٦١ .



دار الكتب والوثائق القومية
الإدارة المركزية للمراكز العلمية
مركز تحقيق التراث

عِقد الجُمان في تاريخ أهل الزمان

تأليف
بدر الدين محمود العينى
المتوفى سنة ٨٥٥ هـ/ ١٤٥١ م

عصر سلاطين المماليك

الجزء الأول

حوادث وتراجم

٦٤٨ - ٦٦٤ هـ/ ١٢٥٠ - ١٢٦٤م

حققه ووضع حواشيه
دكتور محمد محمد أمين
أستاذ تاريخ العصور الوسطى
كلية الآداب - جامعة القاهرة

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
(١٤٢١ هـ - ٢٠١٠م)

مقدمة

لسنا هنا بصدد الترجمة للمؤرخ بدر الدين العينى ، أو التوسع فى الكلام عن حياته الخاصة والعامة ، فقد ترجم له من المعاصرين ابن تغرى بردى ، والسخاوى ، والسيوطى ، وابن العماد ، وغيرهم ، كما توجد له ترجمة مطولة فى مقدمة كتاب « السيف المهند فى سيرة الملك المؤيد » ، وفى غيره من الدراسات التى تناولت نشر بعض كتب العينى ، أو نشر أجزاء من كتبه .

ورغم ذلك فقد رأينا إتماما للفائدة أن نورد فى هذه المقدمة ترجمة بدر الدين العينى التى كتبها أحد المعاصرين له ، وهو ابن تغرى بردى فى كتابه « المنهل الصافى » ، والتى لم تنشر بعد ، وبخاصة أن ابن تغرى بردى أقدم من ترجم لبدر الدين العينى ، وفيما يلى نص هذه الترجمة :

محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين بن يوسف بن محمود ، العلامة ، فريد عصره ، ووحيد دهره ، عمدة المؤرخين ، مقصد الطالبين ، قاضى القضاة بدر الدين أبو محمد وأبو الثناء بن القاضى شهاب الدين بن القاضى شرف الدين ، العينتابى الأصل والمولد والمنشأ ، المصرى الدار والوفاة ، الحنفى ، قاضى قضاة الديار المصرية ، وعالمها ، ومؤرخها .

سألته عن مولده فكتب إلىّ بخطه — رحمه الله — : مولدي في السادس

والعشرين(1) من شهر رمضان سنة اثنتين وستين وسبعمائة ، فى درب كيكن ، انتهى .

قال : ونشأ بعينتاب ، وحفظ القرآن الكريم ، تفقه على والده وغيره ، وكان أبوه قاضي عينتاب وتوفى بها فى شهر رجب سنة أربع وثمانين وسبعمائة ، ورحل ولده صاحب الترجمة « إلى حلب » وتفقه بها ، وأخذ عن العلامة جمال الدين يوسف بن موسى الملطى الحنفى ، وغيره ، ثم قدم لزيارة بيت المقدس فالتقى به العلامة علاء الدين أحمد بن محمد السيرامى الحنفى ، شيخ المدرسة الظاهرية برقوق ، وكان العلاء أيضا توجه لزيارة بيت المقدس ، فاستقدمه معه إلى القاهرة فى سنة ثمان وثمانين وسبعمائة ، ونزّله فى جملة الصوفية بالمدرسة الظاهرية ، ثم قرره خادما بها فى أول شهر رمضان منها ، فباشر المذكور الخدامة حتى توفى العلامة علاء الدين السيرامى فى سنة تسعين وسبعمائة ، وقد انتفع به صاحب الترجمة وأخذ عنه علوما كثيرة فى مدة ملازمته له ، ولما مات العلاء السيرامى أخرجه الأمير جاركس الخليلى أمير آخور من الخدامة وأمر بنفيه ، لما أنهوه عنه ، حسدا من الفقهاء ، حتى شفع فيه شيخ الإسلام سراج الدين عمر البلقينى ، فأعفى من النفى ، وأقام بالقاهرة(2) ملازما للإشتغال ، وتردد للأكابر من الأمراء مثل الأمير جكم من عوض ، والأمير قلمطاى الدوادار قبله ، وتغرى بردى القردمى ، وغيرهم ، حتى توفى الملك الظاهر برقوق فى شوال سنة إحدى وثمانمائة ، فولى بعد ذلك حسبة القاهرة فى يوم الإثنين مستهل ذى الحجة سنة

(1) « فى سابع عشر رمضان » فى التبر المسبوك ص ٣٧٥ .

(2) « فتوجه إلى بلاده » فى التبر المسبوك ، و « ثم بعد يسير توجه إلى بلاده ثم عاد » فى الضوء اللامع .

إحدى وثمانمائة عوضا عن الشيخ تقي الدين المقريزي ، فلم تطل مدته ، وصرف أيضا بالشيخ تقي الدين المقريزي في سنة اثنتين وثمانمائة .

قلت : وولايته الحسبة بالقاهرة يطول الشرح في ذكر ذلك لأنه وليها غير مرة آخرها في سنة ست وأربعين وثمانمائة عوضا عن يارعلى الطويل الخراساني ، انتهى .

ثم ولى المذكور في الدولة الناصرية عدة تداريس ووظائف دينية ، واشتهر اسمه ، وأفتى ودرس ، وأكب على الإشتغال والتصنيف إلى أن ولى في الدولة المؤيدية شيخ نظر الأحباس ، وصار من أعيان فقهاء الحنفية ، وأرخ وكتب ، وجمع وصنف ، وبرع في علوم كثيرة : كالفقه ، واللغة ، والنحو ، والتصريف ، والتاريخ ، وشارك في الحديث ، وسمع الكثير في مبدأ أمره ، وقرأ بنفسه ، وسمع التفسير والحديث والعربية .

فمن التفسير : تفسير الزمخشري ، وتفسير النسفي ، وتفسير السمرقندي .

ومن الحديث : الكتب الستة ، ومسند الإمام أحمد ، وسنن البيهقي والدارقطني ، ومسند عبد بن حميد ، والمعاجم الثلاثة للطبراني ، وغير ذلك .

ومن العربية : المفصل للزمخشري والألفية لابن مالك في النحو وغيرهما .

وتصدى للإقراء سنين ، واستمر على ذلك إلى أن طلبه الملك الأشرف برسباي ، وأخلع عليه باستقراره قاضي قضاة الحنفية بالديار المصرية في يوم الخميس سابع عشرين ربيع الآخر سنة تسع وعشرين وثمانمائة ، بعد عزل قاضي القضاة زين الدين عبد الرحمن التفهني ، وخلع على التفهني بمشيخة خانقاة شيخو بعد

موت شيخ الإسلام سراج الدين عمر قارئ الهداية ، فباشر المذكور وظيفة القضاء بحرمة وافرة ، وعظمة زائدة ، لقربه من الملك ، ولخصوصيته به ، ولكونه ولى القضاء من غير سعى .

وكان ينادم الملك الأشرف ، ويبيت عنده فى بعض الأحيان ، وكان يعجب الأشرف قراءته فى التاريخ ، كونه كان يقرأه باللغة العربية ثم يفسر ما قرأه باللغة التركية ، وكان فصيحا فى اللغتين .

وكان الملك الأشرف يسأله عن دينه ، وعما يحتاج إليه من العبادات وغيرها ، وكان العينى يجيبه بالعبارة « التى » تقرب من فهمه ، ويحسن له الأفعال الحسنة ، حتى سمعت الأشرف فى بعض الأحيان يقول : لولا العنتابى ما كنا مسلمين ، انتهى .

واستمر فى القضاء إلى أن صرف وأعيد التفهنى فى يوم الخميس سادس عشرين صفر سنة ثلاث وثلاثين وثمانمائة ، وفى اليوم المذكور أيضا صرف قاضى القضاة شهاب الدين بن حجر بقاضى القضاة علم الدين صالح البلقينى .

فلزم المذكور داره أياما يسيرة ، وطلبه السلطان إلى عنده ، وصار يقرأ له على عادته ، ثم ولاه حسبة القاهرة فى يوم السبت رابع شهر ربيع الآخر من السنة ، عوضا عن الأمير إينال الششمانى ، وكان الششمانى ولى الحسبة إلى أن أعيد إلى القضاء فى سابع عشرين جمادى الآخرة سنة خمس وثلاثين وثمانمائة ، عوضا عن التفهنى بحكم طول مرض موته .

باشر القضاء والحسبة والأحباس معاً مدة طويلة ، إلى أن صرف عن الحسبة بالأمير صلاح الدين بن حسن بن نصر الله ، واستمر فى القضاء ونظر الأحباس

إلى أن توفى الملك الأشرف برسباى فى ذى الحجة سنة إحدى وأربعين وثمانمائة ، وتسلطن ولده الملك العزيز يوسف ، وصار الأتابك جقمق العلائى مدبر مملكته ، عزله جقمق المذكور عن القضاء بشيخ الإسلام سعد الدين سعد بن محمد الديرى فى يوم الإثنين ثالث عشر المحرم سنة اثنتين وأربعين وثمانمائة ، فلزم المذكور داره مكبا على الإشغال والتصنيف إلى أن ولّاه الملك الظاهر جقمق حسبة القاهرة مرتين ، لم تطل مدته فيهما ، الأولى عن الأمير تنم بن عبد الرزاق المؤيدى ، والثانية عن يار على الطويل .

ثم ركدت ريحه ، وضعف عن الحركة لكبر سنه ، واستمر مقيما بداره إلى أن خرجت عنه الأحباس لعلاء الدين على بن محمد بن الزين ، أحد نواب الحكم الشافعى وندماء الملك الظاهر جقمق ، فى سنة ثلاث وخمسين ، فعظم عليه ذلك لقلة موجوده ، وصار يبيع من أملاكه وكتبه إلى أن توفى ليلة الثلاثاء رابع ذى الحجة سنة خمس وخمسين وثمانمائة ، وصلى عليه من الغد بالجامع الأزهر ، ودفن بمدرسته بجوار داره ، رحمه الله .

وكانت جنازته مشهودة ، وكثر أسف الناس عليه .

وكان بارعا فى عدة علوم ، مفتنا ، عالما بالفقه ، والأصول ، والنحو ، والتصريف ، واللغة ، مشاركا فى غيرهم مشاركة حسنة ، أعجوبة فى التاريخ ، حلو المحاضرة ، محفوظا عند الملوك — إلا الملك الظاهر جقمق — ، كثير الإطلاع ، واسع الباع فى المعقول والمنقول ، لا يستنقص إلا متعرض ، قلّ أن يذكر علم إلا ويشارك فيه مشاركة جيدة .

ومصنفاته كثيرة الفوائد ، وأخذت عنه ، واستفدت منه ، ولى منه اجازة بجميع مروياته وتصانيفه .

وكان شيخا أسمر اللون ، قصير ، مسترسل اللحية ، فصيحا باللغة التركية ، لكلامه فى التاريخ وغيره طلاوة ، وكان جيد الخط ، سريع الكتابة ، قيل أنه كتب كتاب القدورى فى الفقه فى ليلة واحدة فى مبادئ أمره ، وكانت مسوداته مبيضات ، وله نظم ونثر ، ليسا بقدر علمه .

ومن مصنفاته : شرح البخارى فى مجلدات كثيرة نحو العشرين مجلد ، وشرح الهداية فى الفقه ، وشرح الكنز فى الفقه ، وشرح مجمع البحرين فى الفقه أيضا ، وشرح تحفة الملوك ، وشرح الكلم الطيب لابن تيمية ، وشرح قطعة من سنن أبى داود ، وقطعة كبيرة من سيرة ابن هشام ، وشرح العوامل المائة ، وشرح الجاربردى ، وكتاب فى المواعظ والرقائق فى ثمان مجلدات ، ومعجم مشايخه فى مجلد ، ومختصر فى الفتاوى الظهيرية ، ومختصر المحيط ، وشرح التسهيل لابن مالك مطولا ومختصرا ، وشرح شواهد الألفية لابن مالك ، وهو كتاب نفيس احتاج إليه صديقه وعدوه ، وانتفع بهذا الكتاب غالب علماء عصره ، وشرح معانى الآثار للطحاوى فى ثنتى عشر مجلدة ، وكتاب طبقات الشعراء ، وحواشى على شرح الألفية لابن مالك ، وكتاب طبقات الحنفية ، والتاريخ الكبير على السنين فى عشرين مجلدة ، واختصره فى ثلاث مجلدات ، والتاريخ الصغير فى ثلاث مجلدات ، وعدة تواريخ أخر ، وحواشى على شرح السيد عبد الله ، وشرح الساوية فى العروض ، واختصر تاريخ « دمشق الكبير لابن عساكر ، وله مصنفات » أخر لم يحضرنى الآن ذكرها ، وفى الجملة كان من العلماء الأعلام ، رحمه الله تعالى ،

المخطوط ومنهج التحقيق :

مخطوط « عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان » كتاب في التاريخ العام ، ذكر المؤلف في مقدمته : « قد كنت جمعت في حداثة سني وعنفوان شبابي تاريخا من مبدأ الدنيا إلى سنة خمس وثمانمائة ، حاويا لقصص الأنبياء عليهم السلام ، وما جرى في أيامهم ، وسيرة نبينا صلى الله عليه وسلم ، وما جرى بعده بين الخلفاء والملوك في كل زمان ، مع الإشارة إلى وفيات الأعيان ، متوجا بذكر الملكوت العلوية ، والملكوت السفلية ، ثم بدا لي أن أنقحه بأحسن منه ترتيبا ، وأوضح تركيبا ، مع زيادات لطيفة ، ونوادر شريفة ، وضبط ما يقع فيه من المبهمات من أسامي الرجال والأمكنة المذكورات وترجمته بعقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، وفصلته على فصول ، تسهيلا للحصول ، متوجا بمقدمة تنبيء عن أصل التاريخ ، ومعناه ، وعن سبب وضعه ومبناه . » .

وقد قدم حوادث كل سنة على وفيات أعيانها ، ورتب ما بعد الهجرة على السنين ، وانتهى فيه إلى آخر سنة ٨٥٠ هـ .

وما وصل إلينا من هذا الكتاب بخط المؤلف أجزاء متناثرة في مكتبات متعددة في أنحاء العالم ، كما وجدت نسخ أخرى غير كاملة كتبت فيما بعد ، ومن أشهر ما وجد من هذا الكتاب نسخة ملفقة من ثلاث نسخ مخطوطة محفوظة بمكتبة ولي الدين باستانبول : النسخة الأولى منقولة عن خط المؤلف بخط محمد بن أحمد بن محمد ابن أحمد الأنصاري الخزرجي الإخميمي الحنفي ، كتبها بالقاهرة فيما بين سنة ٨٩٣ هـ ، وسنة ٨٩٨ هـ ، والنسخة الثانية بخط الشيخ عبد الله بن عيسى بن إسماعيل العمري الأزهري المالكي كتبها سنة ٨٩١ هـ ، والنسخة الثالثة بخط المؤلف .

وتقع هذه النسخة الملفقة فى ٢٣ جزءا فى ٦٩ مجلدا ، وعن هذه النسخة صورة بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ ، وعنها أيضا نسخة كتبت حديثا وتقع فى ٢٨ مجلدا تحت رقم ٨٢٠٣ م .

كما توجد بدار الكتب المصرية ست مجلدات من هذا الكتاب كتبت سنة ١٢٩٠ هـ تحت رقم ٧١ م .

كما توجد أجزاء من نسخ أخرى ، بعضها بخط المؤلف فى مكتبة أحمد الثالث تحت رقم ٢٩١١ ، ومكتبة سليم أغا تحت رقم ٨٣٥ ، ومن هذه الأجزاء نسخة مصورة بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة .

كما يوجد جزء من مختصر عقد الجمان للمؤلف ، وهو المعروف باسم « تاريخ البدر فى أوصاف أهل العصر » ، محفوظ بمكتبة المتحف البريطانى بلندن تحت رقم Add. 22360 .

ولعل ضخامة الكتاب التى قد تصل فى بعض النسخ إلى ٦٩ مجلدا من الأمور التى جعلت أمر تحقيق الكتاب ونشره أمرا صعبا ، ويكاد أن يكون بعيد المنال ، ولذلك اقترحت على مركز تحقيق التراث بالهيئة المصرية العامة للكتاب أن يقسم الكتاب إلى عصور تاريخية ، ويتم تحقيق ونشر كل عصر منها على حدة ، وعلى يد أحد المتخصصين والمهتمين بهذا العصر ، وبذلك يخرج هذا المخطوط إلى النور ، ويصبح فى متناول الباحثين والدارسين للتاريخ الإسلامى والوسيط .

ورأيت أن أبدأ بعصر سلاطين المماليك ، فهو أقرب لى من حيث التخصص الدقيق ، وفى نظرى هو أهم أجزاء الكتاب ، فكما رأينا من ترجمة ابن تغرى بردى

المؤلف أنه عاش ومات فى عصر سلاطين المماليك ، وكان شاهد عيان على عصره بحكم كونه مؤرخا ، وبحكم الوظائف التى تقلدها ، حتى أنه يمكن أن نطلق على العينى أنه المؤرخ الرسمى للدولة فى عصر السلطان برسباى .

ولم يكن العينى فيما نقله عن بدايات العصر المملوكى مجرد ناقل ، ولكنه كان باحثا ومدققا وناقدا لما ينقله ويكتبه عن الآخرين ، وذلك فى حدود ما تسمح به هذه المعانى فى عصر اعتبر التأليف هو جمع وتلخيص لما كتبه الآخرون . ويكفى للتدليل على ذلك ما ورد بهذا الجزء — الذى نقدمه للقارئ اليوم — على سبيل المثال لا الحصر ، مناقشة العينى لتاريخ سلطنة المعز أيبك وأنها كانت سنة ٦٥٠ هـ وليس سنة ٦٤٨ هـ كما ذكر المؤرخون الآخرون ، وعلل العينى هذا اللبس بأن أيبك بويع بالسلطنة سنة ٦٤٨ هـ لمدة خمسة أيام فقط ، ثم عزل عن السلطنة ، وظل أتابكا[1] .

كذلك ربط العينى بين زواج أيبك من شجر الدر وسلطنته الثانية — نقلا عن بيبرس الدوادار — وأن ذلك كان سنة ٦٤٩ هـ[2] ، مناقضا بذلك رواية المقريزى المتداولة بين المؤرخين المحدثين ، والتى تردد القول بأن شجر الدر تزوجت من أيبك وتنازلت له عن السلطنة سنة ٦٤٨ هـ ، إذ يقول المقريزى « وتزوج الأمير عز الدين أيبك بشجر الدر فى تاسع عشرى ربيع الآخر ، وخلعت نفسها من مملكة مصر ونزلت له عن الملك[3] » .

---

(١) انظر ما يلى ص ٣٦ ، ص ٦٧ .

(٢) انظر ما يلى ص ٥٣ ، ص ٥٥ .

(٣) السلوك جـ ١ ص ٣٦٨ .

ومثال ذلك أيضا ما ذكره العينى — فى هذا القسم — عن وفاة السلطان الملك غياث الدين كيخسرو — صاحب بلاد الروم — واستقلال أولاده بالسلطنة، فقال: « وقد خبط نفر من المؤرخين فى تاريخ وفيات هؤلاء وتاريخ ولاياتهم، منهم: بيبرس الدوادار، والصواب ما ذكرناه »(١).

من هذه الأمثلة يتضح لنا أهمية ما كتبه العينى عن عصر سلاطين المماليك، حتى فى الأجزاء التى لم يعاصرها ونقلها عن غيره، فإنه نقل، ونقد ما نقله، ثم أدلى برأيه فى هذه الأقوال.

ويعتمد تحقيق الأجزاء الخاصة بعصر سلاطين المماليك على إتخاذ ما وجد من أجزاء بخط المؤلف أساسا للتحقيق والنشر مع مقابلتها على ما يوجد من نسخ أخرى، أما الأجزاء التى لم تصلنا بخط المؤلف، ومنها هذا القسم، فالاعتماد سيكون أساسا على أقدم النسخ، وفى جميع الأحوال ستجرى مقابلة النص على مصادره الأصلية التى نقل عنها العينى — إن وجدت —، وعلى المصادر الأساسية المعاصرة والتى تتناول نفس الأحداث.

ويعتمد نشر الجزء الأول (٦٤٨—٦٦٤ هـ)، وكذلك الجزء الثانى (٦٦٥—٦٨٨ هـ) من القسم الخاص بعصر سلاطين المماليك على النسخة التى كتبها محمد بن أحمد بن محمد الإخميمى بالقاهرة سنة ٨٩٥ هـ، وهما عبارة عن المجلدين الثالث والرابع (الورقة ٣١١ — ٧٢٧) من الجزء ١٨ من النسخة الملفقة،

(١) انظر ما يلى ص ١٣٧.

والمخطوط صورتان بدار الكتب المصرية تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ، فقد جاء بآخر هذا الجزء « وكان الفراغ من كتابة هذا الجزء في ضحوة يوم الثلاثاء السابع من شهر جمادى الأولى عام خمس وتسعين وثمانمائة على يد أفقر عبيد الله وأحوجهم إلى عفوه ورحمته ومغفرته محمد بن أحمد بن محمد الإخميمي الأنصاري الحنفي بمنزله بباب الجوانية داخل باب النصر بالقاهرة المحروسه ، حامدا لله ، ومصليا على رسوله ، ومسلما ، ومحسبلا ، ومهللا ، ومحوقلا » .

ويعتمد التحقيق على التعريف بالشخصيات والأعلام المشاركة في الأحداث ، والإشارة إلى مصادر ترجمتها ، وشرح المصطلحات التاريخية ، والألفاظ اللغوية ، والتعريف بالأماكن ... الخ وذلك في شرح مختصر ، وذلك عند ورودها لأول مرة .

وسيجرى — إن شاء الله — نشر الأجزاء الخاصة بعصر سلاطين المماليك في أجزاء متتابعة بحيث يحتوى كل جزء على تحقيق ونشر أحداث وتراجم عدد من السنوات ستوضح على غلاف كل جزء ، دون ارتباط بعصر سلطان معين ، أو فترة متساوية من عدد السنين ، ذلك أن المؤلف يلجأ أحيانا إلى التوسع ، ويلجأ أحيانا إلى الاختصار ، ولم يكن أمامنا سوى تقسيم الكتاب إلى أجزاء شبه متساوية من حيث الحجم ، تضم عددا من السنوات تزيد أو تنقص تبعا لتوسع المؤلف أو إيجازه .

وسيزود كل جزء بفهارس تفصيلية تسهل الاستفادة من كل جزء على حدة .

وفي ختام هذه المقدمة لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر إلى كل من الأستاذ محمد كامل شحاته ، وكيل الوزارة ، ورئيس قطاع دار الكتب والوثائق القومية ،

والأستاذ على عبد المحسن زكى مدير عام مركز تحقيق التراث ، لما قاما به من تذليل للصعوبات والمعوقات الإدارية ، وتوفيرهما للمصادر والمخطوطات والمصورات التى احتجت إليها عند تحقيق هذا الجزء .

كما أوجه الشكر إلى الباحثين — أعضاء لجنة التاريخ — بمركز تحقيق التراث الذين شاركوا فى مقابلة المخطوط على المصادر المعاصرة فى هذا الجزء ، كما شاركوا فى إعداد كشافات الكتاب ، ومراجعة تجارب المطبعة ، وهم : السيدة / نجوى مصطفى كامل ، والسيد / على صالح حافظ ، والسيد / عوض عبد الحليم حسن ، والسيدة / إلهام محمد خليل ، كما أوجه الشكر إلى السيد / عبد المنعم عبد الفتاح الناسخ بمركز تحقيق التراث .

وبعد فالكمال لله وحده ، ولا يسعنى إلا أن أذكر قوله تعالى : « ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » ، وأدعوه سبحانه وتعالى أن يوفقنا لإتمام هذا العمل ، ولخدمة التراث الإسلامى .

والله ولى التوفيق

مسقط فى { ٢٩ ربيع الثانى ١٤٠٧ هـ
١ يناير ١٩٨٧ م

دكتور محمد محمد أمين

[٣١١]

فصل فيما وقع من الحوادث
في السنة الثامنة والأربعين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة هو : المستعصم بالله (١) .

وسلطان الديار المصرية : الملك المعظم تورانشاه (٢) بن الملك الصالح نجم الدين ، ولكنه ما أقام في السلطنة إلا يسيرا ، وقتل على ما نذكره عن قريب إن شاء الله تعالى .

وبقية أصحاب البلاد وملوك الأطراف على حالهم ، غير صاحب اليمن (٣) ، فإنه قتل أيضا في هذه السنة على ما نذكره إن شاء الله .

ذكر كسر الفرنج وأخذ ريدافرنس أسيرا :

قد ذكرنا في السنة الماضية من القتال مع الفرنج (٤) ، وكانوا قد ضعفوا لأجل انقطاع المدد والميرة عنهم من دمياط ، فإن المسلمين قطعوا الطريق الواصل إليهم [٣١٢] من دمياط ، فلم يبق لهم صبر على المقام ، فرحلوا ليلة الأربعاء

(*) يوافق أولها الثلاثاء ٥ إبريل ١٢٥٠ م .

(١) هو عبد الله بن منصور بن أحمد بن الحسن بن يوسف ، أمير المؤمنين المستعصم بالله ، قتل على يد التتار سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م — انظر ترجمته فيما يلي وفيات سنة ٦٥٦ هـ .

(٢) قتل في نفس السنة — انظر ترجمته فيما يلي .

(٣) هو عمر بن علي بن رسول ، الملك المنصور ، أنظر ترجمته فيما يلي .

(٤) المقصود جيوش لويس التاسع قائد الحملة الصليبية السابعة .

لثلاث مضين من المحرم من هذه السنة متوجهين إلى دمياط ، وركبت المسلمون أكتافهم ، ولما أسفر صباح يوم الأربعاء خالطهم المسلمون ، وبذلوا فيهم السيف ، ولم يسلم منهم إلا قليل ، وبلغت عدة الموتى من الفرنج ثلاثين ألفا ، وانحاز ريد افرنس (١) ومن معه من الملوك والأمراء إلى تل هناك .

قال المؤيد (٢) : إلى بلد هناك ، فطلبوا الأمان ، فآمنهم الطواشى محسن الصالحى ، ثم احتيط عليهم وأحضروا إلى المنصورة (٣) .

قال أبو شامة (٤) : وأسر ريد افرنس وأخوه (٥) ، وجماعة من خواصه ، كانوا اختفوا فى منية عبد الله من ناحية شرمساح (٦) ، فأخذوا [برقابهم] (٧) ، وقيدوا

---

(١) ريد افرنس : يقول المقريزى : لقب بلغة الفرنج معناه ملك افرنس ، السلوك جـ ١ ص ٣٣٣ والمقصود Roi de France.

(٢) هو إسماعيل بن على بن محمد بن محمود عماد الدين ، أبو الفدا الملك المؤيد ، صاحب حماة المتوفى سنة ٧٣٢ هـ/ ١٣٣١ م ، وصاحب كتاب المختصر فى أخبار البشر الذى ينقل عنه العينى فى هذا الجزء .

(٣) المختصر جـ ٣ ص ١٨١ .

(٤) هو عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم ، شهاب الدين ، أبو القاسم ، المتوفى سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٨ م ، وصاحب كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين ، وكتاب ذيل تاريخ أبى شامة ، والكتاب الأخير هو الذى ينقل عنه العينى فى هذا الجزء .

(٥) كان للويس التاسع فى حملته هذه ثلاثة أخوه هم : روبرت كونت أرتوا .Ropert Count Of Artois الذى قتل بالمنصورة ، ألفونسو كونت بواتو Alphonse Of Poiton وشارل كونت أنجو Charles of Anjou ، وقد أسر المسلمون الثانى والثالث ، ثم أبقوا الثانى فى الأسر حتى تدفع الفدية — أنظر رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية جـ ٣ ص ٤٤٣ ، ٤٥٣ ، ٤٦٠ ، ٤٦٦ ، ٤٧١ .

(٦) شرمساح = شارمساح : قرية كبيرة من القرى القديمة ، على الضفة الشرقية لفرع دمياط ، وهى حاليا تابعة لمركز فارسكور من أعمال محافظة دمياط . القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ١ ص ٢٤٣ .

(٧) [ ] إضافة من ذيل تاريخ أبى شامة ص ١٨٤ : وهى آخر الجملة التى نقلها العينى ، والموجودة بالمطبوع من ذيل تاريخ أبى شامة .

ريد افرنس ، وجعل فى الدار التى كان ينزلها كاتب الإنشاء فخر الدين [بن](1) لقمان ، ووكل به الطواشى صبيح المعظمى .

وقال بيبرس(2) : و كان للبحرية النجمية فى هذه الوقعة الحظ الأوفى ، والقدح المعلى .

وفى المرآة(3) : وفى أول ليلة من سنة ثمان وأربعين وستمائة كان المصاف بين الفرنج والمسلمين على المنصورة ، بعد وصول الملك المعظم توران شاه إلى المخيم ، ومسك الأفرنسيس وهو ريد افرنس(4) ، وقتل من الفرنج مائة ألف ، ووصل كتاب المعظم توران شاه ، يعنى إلى دمشق ، إلى نائبها جمال الدين ابن يغمور(5) :

---

(١) [بن] إضافة من السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٣٥٦ ، وهو إبراهيم بن لقمان بن أحمد بن محمد ، الوزير فخر الدين ، المتوفى سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م — المنهل جـ ١ ص ١٣٦ رقم ٦٣ .

(٢) هو بيبرس بن عبد الله المنصورى الدوادار ، المتوفى سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٤ م ، وصاحب كتاب زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة ، والذى ينقل عنه العينى فى هذا الجزء وسوف نقتصر على الإشارة إلى هذا الكتاب حيث توجد الأحداث فى المخطوط الذى بين أيدينا .

(٣) هو كتاب مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان ، نشر منه الجزء الثامن فى قسمين — حيدر أباد ١٩٥٢ ، لمؤلفه يوسف بن قزأوغلى ، شمس الدين أبو المظفر ، المعروف بسبط ابن الجوزى ، المتوفى سنة ٦٥٤ هـ /١٢٥٦م — أنظر ترجمته بالمنهل الصافى .

(٤) « بعد مجى الملك تورانشاه إلى الخبيث الأفرانسيس » فى مرآة الزمان جـ٨ ق ٢ ص ٧٧٨ .

(٥) « إلى نائبها جمال الدين بن يغمور » ساقط من مرآة الزمان ، وقد توفى جمال الدين بن يغمور سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٠ م — مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٨٠ .

الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن، ﴿ وما النصر إلا من عند الله ﴾[1]، ﴿ ويومئذ يفرح المؤمنون ، بنصر الله ، «ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم» ﴾[2]، ﴿ وأما بنعمة ربك فحدث ﴾[3]، ﴿ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴾[4]؛ نبشر المجلس السامى[5] الجمالى، بل نبشر الإسلام[6] كافة بما منّ الله به على المسلمين من الظفر بعدو الدين، فإنه كان قد استفحل أمره ، واستحكم شره، ويئس[7] العباد من الأهل والأولاد، فنودوا : ﴿ ولا تيأسوا من روح الله [إنه لاييأس من روح الله ﴾[8] الآية[9]] ولما كان يوم الأربعاء مستهل السنة المباركة تمم الله على الإسلام بركتها ، فتحنا الخزائن ، وبذلنا الأموال ، وفرقنا السلاح ، وجمعنا العربان ، والمطوعة ، واجتمع خلق[10] [عظيم][11] لا يحصيهم إلا الله تعالى ، وجاءوا[12] من كل فج عميق ، ومن كل[13] مكان

(١) سورة آل عمران رقم ٣ جزء من الآية ١٢٦ ، أو سورة الأنفال رقم ٨ جزء من الآية رقم ١٠ .

(٢) سورة الروم رقم ٣٠ آية رقم ٤ ، ٥ ، وفيما بين « » ساقط من السلوك جـ ١ ص ٣٥٦ .

(٣) سورة الضحى رقم ٩٣ آية رقم ١١ .

(٤) سورة إبراهيم رقم ١٤ آية رقم ٣٤ .

(٥) من ألقاب كبار الأمراء فى العصر الأيوبى — انظر الألقاب الإسلامية ص٣١٦، ص٤٥٥ .

(٦) « المسلمين » فى السلوك جـ ١ ص ٣٥٧ .

(٧) « رأيس » فى الأصل ، ومرآة الزمان والتصحيح من السلوك .

(٨) سورة يوسف رقم ١٢ جزء من الآية رقم ٨٧ .

(٩) [ ] إضافة من مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٧٨ .

(١٠) « وخلقا » فى السلوك .

(١١) [عظيم] إضافة من مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٧٨ .

(١٢) « فجاءوا » فى السلوك .

(١٣) « من كل » ساقط من السلوك .

[بعيد](1) سحيق، « ولما رأى العـدو ذلك أرسل يطلب الصلح على ما وقع عليـه(2) الاتفاق بينهـم وبين [٣١٣] المـلك الكامل رحمه الله ، فأبينا ، « ولما كان في الليل »(3) ، تركوا خيامهم ، وأثقالهم ، وأموالهم(4) ، وقصدوا دمياط هاربين ، « فسرنا(5) في آثارهم طالبين »(6) ، ومازال السيف يعمل في أدبارهم عامة الليل ، وقد(7) حل بهم الخـزى والويل : فلما أصبحنا نهار الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفا ، غير من ألقى نفسه في اللجج ، وأما الأسرى فحدث عن البحر ولاحرج ، والتجأ الفرنسيس إلى المنية(8) ، وطلب الأمان فآمناه ، وأخذناه ، وأكرمناه ، وتسلمنا دمياط(9) بعون الله ولطفه(10) .

وقال أبو شامة : وفي يوم الأربعاء سادس عشر المحـرم وصل إلى دمشق غفارة(11) ملك افرنسيس المأسور ، أرسلها السلطان المعظم إلى نائبـه بدمشق الأمير

---

(١) [بعيد] إضافة من مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٧٨ .

(٢) « عليه » ساقط من مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٧٩ .

(٣) « » ساقط من السلوك ، وبدلا منه « فلما كان ليلة الأربعاء » .

(٤) « وأموالهم وأثقالهم » في نهاية الأرب والسلوك .

(٥) « ونحن » في نهاية الأرب .

(٦) « » ساقط من السلوك .

(٧) « قد » ساقط من السلوك .

(٨) هي منية أبي عبد الله ، وتعرف حاليا باسم « ميت الخولي عبد الله » وهي على الشاطئ الشرقي لفرع دمياط ، وتتبع مركز فارسكور بمحافظة دمياط .

(٩) « دمياط » ساقط من مرآة الزمان . ولم يتسلم المصريون دمياط إلا بعد قتل توران شاه — أنظر ما يلي .

(١٠) « بعون الله وقوته ، وجلاله وعظمته » في مرآة الزمان ونهاية الأرب والسلوك .

(١١) غفارة — غفائر : المعطف — محيط المحيط .

جمال الدين موسى بن يغمور ، فلبسها ، فرأيتها عليه ، وهى أشكرلاط أحمر[(١)] ، تحته فرو سنجاب ، فيها بكلة[(٢)] ذهب ، فنظم صاحبنا الفاضل الزاهد نجم الدين محمد بن إسرائيل مقطعات ثلاثيا إرتجالا ، كل قطعة بيتين فى مدح السلطان ، والأمير . أحدها[(٣)] :

إن غفارة الفرنس التى جاءت حباء لسيد الأمراء
كبياض القرطاس فى اللون[(٤)] لكن صبغتها سيوفنا بالدماء[(٥)]

والثانية : مخاطبة للأمير :

يا واحد العصر الذى لم يزل يحوز فى نيل المعالى المدا
لا زلت فى عز وفى رفعة تلبس أسلاب ملوك العدا

والثالثة : كتبها الأمير مقدمة[(٦)] كتاب إلى السلطان :

أسيد أملاك الزمان[(٧)] بأسرهم تنجزت من نصر الإله وعوده
فلا زال مولانا يبيح حمى العدا ويلبس أسلاب الملوك عبيده

ثم إن الملك المعظم توران شاه رحل إلى فارسكور ونصب بها برج خشب ،

---

(١) أشكرلاط أحمر : نوع من القماش . معجم دوزى .

(٢) بكلة : لفظ فارسى معناه مشبك .

(٣) « أحدهما » فى الذيل على الروضتين ص ١٨٤ .

(٤) « كبياض القرطاس لونا » فى السلوك جـ ١ ص ٣٥٨ ونهاية الأرب ، « بياض » فى الذيل على الروضتين .

(٥) « بدماء » فى الذيل على الروضتين .

(٦) « مقدم » فى الأصل ، والتصحيح من الذيل على الروضتين .

(٧) « الزمن » فى السلوك جـ ١ ص ٣٥٨ .

وأرسل إلى ابن أبى على (١) نائب القاهرة بأمره بالقدوم عليه ، واستناب بالقاهرة الأمير جمال الدين أقوش النجمى ، وأعرض عن مماليك والده ، وأهمل جانبهم ، وهم الذين أبلوا فى غزو الفرنج بلاء حسنا ، فوجدوا فى نفوسهم لما بلغهم عنه من التهديد والوعيد ، فاجتمعوا على إعدامه ، وتعجيل حمامه .

ذكر قتل الملك المعظم توران شاه :

والكلام فيه على أنواع :

الأول فى ترجمته : وهو السلطان الملك المعظم [٣١٤] تورانشاه بن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن السلطان الملك الكامل محمد بن السلطان الملك العادل أبى بكر بن الأمير نجم الدين أيوب ، كان أبوه ولاه حصن كيفا فى الشرق ، ثم كان يستدعيه فلا يجيبه ، فلذلك كان يكرهه ، ولأجل خفة فيه أيضا وخلاعة وهوج ، فلذلك لم يوص إليه بالملك ، مع أنه لم يخلف ولدا غيره ، لأن ولده الواحد مات بدمشق ، وولده المغيث توفى معتقلا بها كما ذكرناه (٢) ، وولده خليل المولود من شجر الدر ، لم يلبث إلا قليلا ومات طفلا (٣) .

قال السبط : وحكى لى الأمير حسام الدين بن أبى على قال : كنا نقول للملك الصالح أيوب : ما ترسل إلى ولدك توران شاه وتحضره إلى ها هنا . فيقول : دعونا من هذا ، فلححنا عليه يوما فقال : أجيبه إلى ها هنا أقتله (٤) .

---

(١) هو الحسن بن محمد ، الأمير حسام الدين الهذبانى ، توفى سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م — شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٩٦ .

(٢) انظر أحداث سنة ٦٤٢ هـ .

(٣) السلوك جـ ١ ص ٣٤٢ .

(٤) انظر النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٢٨ ، فوات الوفيات جـ ١ ص ٢٦٣ .

الثـانى : فى سبب قتله : وكان قتله لأمور بدت منه ، فنفرت عنه القلوب ، فاتفقوا على قتله .

منها : أنه كان فيه خفة .

قال السبط : بلغنى أنه لما دخل كان يجلس على السماط ، فإذا سمع فقيها يذكر مسألة وهو بعيد منه ، يصيح هو : لا نسلم . ومنها : أنه احتجب عن الناس أكثر من أبيه ، وما ألفوا من أبيه ذلك ، وكذا سمع مماليك أبيه منه ، ما ألفوا من أبيه ذلك . ومنها : أنه كان إذا سكر يجمع الشموع ويضرب رءوسها بالسيف فيقطعها ويقول : كذا أفعل بالبحرية .

ومنها : أنه كان يسمى مماليك أبيه بأسمائهم .

ومنها : أنه قدم الأرذال والأنذال ، وأبعد الأماثل والأكابر .

ومنها : أنه أهان مماليك أبيه الكبار .

ومنها : أنه كان قد وعد أقطاى[1] بأن يؤمره ، ولم يف له ، فاستوحش منه .

ومنها : أنه كان يهدد أم خليل[2] ، ويطلب المال والجواهر ، فخافت منه ، وارتفقت معهم .

الثالث : فى كيفية قتله :

قال السبط : لما كان يوم الإثنين السابع والعشرين[3] من المحرم جلس المعظم

(١) هو أقطاى بن عبد الله الجدار النجمى الصالحى ، المتوفى سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م — المنهل جـ ٢ ص ٥٠٢ رقم ٥٠٥ .

(٢) هى شجر الدر ، قتلت سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧م — انظر المنهل ، وانظر ما يلى .

(٣) « فلما كان يوم الإثنين — سادس أو سابع عشرين المحرم » نهاية الأرب و« سادس عشرى » فى السلوك جـ ١ ص ٣٥٩ .

على السماط ، فضربه بعض المماليك البحرية بالسيف ، فتلقاه بيده ، فقطع بعض أصابعه ، وقام فدخل البرج(١) وصاح : من جرحنى ؟

قالوا : الملحدة الحشيشية(٢) . قال : لا ، والله إلا البحرية(٣) ؛ والله لا أبقيت منهم بقية ، واستدعى المزين(٤) ليخيط يده وهو يتوعدهم [٣١٥] ، فقال بعضهم لبعض : تمموه وإلا أبادكم ، فدخلوا عليه ، فانهزم إلى أعلا البرج ، فأوقدوا النيران حول البرج ، ورموه بالنشاب ، فرمى بنفسه ، وهرب نحو البحر وهو يقول : ما أريد الملك ، دعونى أرجع إلى الحصن ، يا للمسلمين(٥) ما فيكم من يصطنعنى ويجيرنى ، والعساكر كلها واقفة ، فما أجابه أحد ، والنشاب تأخذه ، وكذا لما صعد إلى البرج رموه بالنشاب ، فتعلق بذيل أقطاى ، فما أجاره(٦) ، فقطعوه قطعا ، وبقى على جانب البحر ثلاثة أيام منتفخا ، ما يتجاسر أحد أن يدفنه ، حتى شفع فيه رسول الخليفة ، فحمل إلى ذلك الجانب فدفن ، وكان(٧) الذين باشروا قتله أربعة .

---

(١) « برجا » فى مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٨٢ .

(٢) الحشيشية أو الحشاشون : اسم أطلق على طائفة الباطنية من الشيعة الإسماعيلية ، الذين كانوا أتباع الحسن بن الصباح ، الذى ظهر فى أواخر القرن ٥ هـ / ١١ م ، وتوارث أتباعه مذهبه ، وكانوا يعملون على اغتيال خصومهم .

(٣) البحرية : طائفة المماليك البحرية التى أسسها الملك الصالح نجم الدين أيوب .

(٤) « الجرائحى » فى نهاية الأرب ، وهو الطبيب الجراح .

(٥) « يا مسلمين » فى مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٨٢ .

(٦) « فما أجاروه » فى مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٨٢ .

(٧) فى مرآة الزمان فى هذا الموضع جملة اعتراضية نصها : «ولما قتلوه دخلوا على الإفرنسيس الخيمة بالسيوف وقالوا : نريد المال ، فقال : نعم ، أطلقوه وسار إلى عكا على ما اتفقوا عليه معه » — جـ ٨ ص ٧٨٢ ، ٧٨٣ . ويبدو أن هذه العبارة وضعت فى غير موضعها فى النسخة المطبوعة من مرآة الزمان .

قال سعد الدين مسعود بن تاج الدين شيخ الشيوخ : حكى لى [رجل](١) صادق أن أباه الملك الصالح أيوب قال لمحسن الخادم : إذهب إلى أخى العادل إلى الحبس ، وخذ معك من المماليك من يخنقه ، فعرض المحسن ذلك على جميع المماليك ، فامتنعوا بأسرهم(٢) إلا هؤلاء الأربعة ، فإنهم مضوا معه وخنقوه ، فسلطهم الله تعالى على ولده حتى قتلوه أنحس قتلة وأقبحها ، ومثلوا به أعظم مثله كما(٣) فعل بأخيه .

وفى تاريخ النويرى : اجتمعت البحرية على قتله بعد نزوله بفارسكور ، وهجموا عليه بالسيوف ، وكان أول من ضربه ركن الدين بيبرس الذى صار ملك مصر فيما بعده ، فهرب المعظم منهم إلى البرج الخشب الذى نصب له بفارسكور كما ذكرنا ، فأطلقوا فى البرج النار ، فخرج المعظم من البرج هاربا طالبا للبحر ليركب فى حراقته ، فحالوا بينه وبينها بالنشاب ، فطرح نفسه فى البحر فأدركوه وأتموا قتله فى يوم الإثنين المذكور ، وكانت مدة إقامته فى الملك من حين وصوله إلى الديار المصرية شهرين وأياما(٤) .

وقال أبو شامة : جرح فى يده فى دهليز الخدمة بعد السماط ، فانهزم ودخل برج خشب ، فأحرق ، فرمى بنفسه منه إلى ناحية النيل ، فأدرك ، وقطع بقرية فارسكور .

---

(١) [رجل] إضافة من مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٨٣ .

(٢) « بأمرهم » فى مرآة الزمان ، وهو تحريف .

(٣) « مثلما » فى مرآة الزمان .

(٤) ملخصا لما ورد فى نهاية الأرب — مخطوط جـ ٢٧ ورقة ٩٥ .

وقال : أخبرنى من شاهد ذلك أنه ضرب أولا، فتلقى الضربة بيده[1]، فخرقت[2] يده ، واختبط الناس، فأظهر أن ذلك كان من بعض الملحدة الحشيشية، ثم أشار بعضهم على الباقين بإتمام الأمر فيه . وقال بعد جرح الحية : لا ينبغى إلا [٣١٦] قتلها ، فركبوا وتسلحوا ، وأحاطوا بخيمته و برجه الخشب ، لأنه كان نازلا فى الصحراء بإزاء الفرنج ، فدخل البرج خوفا منهم ، فأمروا زراقا بإحراق البرج ، فامتنع ، فضربت عنقه ، ثم أمروا زراقا آخر، فرمى البرج بنفط ، فأحرقه ، فخرج منه وناشدهم الله فى الكف عنه ، والإقلاع عما نقموا عليه ، وطلب تخلية سبيله ، فلم يجب إلى شىء من ذلك، فدخل البحر إلى أن وصل الماء إلى حلقه ، فرجع فضربه البندقدارى بالسيف ، فرجع إلى الماء[3] . وقيل : ضربه ضربة واحدة على عاتقه ، فنزل السيف من تحت إبط اليد الأخرى ، فوقع قطعتين ، وكان قتله فى أواخر محرم .

فانظر إلى هاتين الوقعتين[4] العظيمتين القريبتين[5] كيف اتفقتا فى شهر واحد ، إحداهما[6] فى أوله : وهى كسرة الفرنج الكسرة العظمى التى استأصلتهم .

(١) « بالسيف » فى الذيل على الروضتين ، وهو تحريف .

(٢) « بجرحت » فى الذيل على الروضتين .

(٣) « فوقع فى الماء » فى الذيل على الروضتين .

(٤) « الواقعتين » فى الأصل ، والتصحيح من الذيل على الروضتين .

(٥) « الغريبتين » فى الذيل على الروضتين .

(٦) « إحديهما » فى الأصل .

والثانية فى آخره : قتل للسلطان المعظم على هذا الوجه الشنيع .

وحكى عن السيف بن شهاب جلدك والى القاهرة [، كان أبوه](١) : أنه بقى على البرج وهو يستغيث برسول الخليفة : يا أبا عز الدين أدركنى ، وتكرر ذلك ، فركب فى أمره ، وكلمهم فيه ، فردّوه وخوفوه بالقتل والإحراق ، وإحراق حرمة الخلفة ، وجرى ما ذكرناه(٢) .

قال السبط : وكانو قد جمعوا فى قتله ثلاثة أشياء(٣) : السيف والنار والماء ، فإنهم قتلوه وقد التجأ إلى البحر .

قال : وحكى لى العماد بن درباس قال : رأى جماعة من أصحابنا الملك الصالح أيوب فى المنام وهو يقول :

قتلوه شر قتله ... صار للعالم مثله
لم يراعوا فيه إلا ... لا ولا من كان قبله
ستراهم عن قريب(٤) ... لأقل الناس أكله

فكان كما ذكر من اقتتال المصريين والشاميين ، ومن عدم فيهم من أعيان الأمراء .

---

(١) [ ] إضافة من الذيل على الروضتين للتوضيح .
(٢) انظر الذيل على الروضتين ص ١٨٥ .
(٣) «أشياء» ساقط من مرآة الزمان .
(٤) « قليل » فى مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٨٣ .

ذكر سلطنة شجر الدر حظية الملك الصالح أيوب

ولما قتلوا المعظم اجتمعت الأمراء واتفقوا على أن يقيموا شجر الدر في المملكة ، وأن يكون عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحي المعروف بالتركماني أتابك العساكر ، وحلفوا على ذلك ، وخطب لشجر الدر على المنابر ، وضربت السكة باسمها ، وكان نقش السكة : المستعصمية الصالحية ، ملكة المسلمين ، والدة الملك المنصور خليل ، وكانت شجر الدر قد ولدته من الصالح أيوب ومات صغيرا كما ذكرناه[1] ، [٣١٧] وكانت صورة علامتها على المناشير والتواقيع : والدة خليل المستعصمية .

ذكر تسلم دمياط من الفرنج ورحيل ريدافرنس :

ولما تم النصر الأعظم والفتح الأكبر بتسلم دمياط من الفرنج من ريدافرنس أفرج عنه عن الحبس ، وكان المتحدث مع ريدافرنس في ذلك الأمير حسام الدين ابن أبي علي الهذباني ، لما يعلمون من عقله ومشورته ، واقتداء مخدومهم بتدبيره ، فتقرر الاتفاق على تسليم دمياط وأن يذهب هو بنفسه سالما ، فأرسل ريدافرنس إلى من بدمياط يأمرهم بتسليم البلد إلى المسلمين ، فأجابوه إلى ذلك ، ودخل العلم السلطاني إليها يوم الجمعة لثلاث مضين من صفر ، وأفرج عن ريدافرنس ، وانتقل هو ومن بقي من أصحابه إلى البر الغربي ، وركب البحر هو

(١) انظر ما سبق ص ٢٣ .

ومن معه، وأقلعوا إلى عكا، ووردت البشرى بذلك إلى البلاد، وضربت البشائر، وأعلنت الأفراح .

وفى كسرة ريد افرنس يقول القاضى جمال الدين بن مطروح(١) رحمه الله :

قل للفرنسيس إذا جئته ... مقال حق صادر عن نصيح(٢)
آجرك الله على ما جرى ... من قتل عباد يسوع المسيح
أتيت مصرا تبتغى ملكها ... تحسب أن الزمر يا طبل ريح
فساقك الحين إلى أدهم ... ضاق به عن ناظريك الفسيح
وكل أصحابك أوردتهم(٣) ... بحسن تدبيرك بطن الضريح
خمسون(٤) ألفا لا يرى منهم ... إلا قتيل أو أسير جريح
وفقك(٥) الله لأمثالها ... لعل عيسى منكم يستريح
إن كان بابا(٦)كم بذا راضيا ... فرب غش قد أتى من نصيح(٧)

(١) هو يحيى بن عيسى بن إبراهيم، أبو الحسن، ابن مطروح، جمال الدين، توفى سنة ٦٤٩ هـ / ١٢٥١ م — انظر ما يلى فى وفيات ٦٤٩ هـ .

(٢) « مقال نصح من فؤول فصيح » فى السلوك جـ ١ ص ٣٦٣، و « مقال صدق من فؤول نصيح » فى المختصر جـ ٣ ص ١٨٢ .

(٣) « أوردتهم » فى السلوك .

(٤) « سبعون » فى السلوك .

(٥) « ألهمك » فى السلوك .

(٦) « الباب » فى السلوك، والمقصود البابا فى روما .

(٧) يوجد بعد هذا البيت البيت التالى :

فاتخذوه كاهنا إنه ... أنصح من شق لكم أو سطيح

السلوك جـ ١ ص ٣٦٤ .

وقل لهم إن أضمروا[1] عودة لأخذ ثأر أو لقصد صحيح[2]
دار بن لقمان على حالها والقيد باق والطواشى صبيح

وذكر أن الفرنسيس لما توجه إلى بلاده جمع جموعا كثيرة ونزل على تونس[3]، فقال شاب من أهلها يعرف بابن الزيات[4] :

[٣١٨]

يا فرنسيس هذه أخت مصر فتاهب لما إليه تصير
لك فيها دار لقمان قبر وطواشيك منكر ونكير

وكان هذا منه فألا عليه ، فإنه هلك وهو محاصر لها ، وصالح أهلها ابنه على مال ورحل عنها .

ذكر عود العسكر إلى القاهرة :

ولما جرى ما ذكرنا عادت العساكر إلى القاهرة ودخلوها يوم الخميس تاسع صفر من هذه السنة ، ولما دخلوا القاهرة أرسلوا رسولا إلى الأمراء الذين بدمشق فى موافقتهم على ذلك ، فلم يجيبوا إليه .

وفى تاريخ بيبرس : وسيروا رسولا إلى دمشق لاستحلاف الأمير جمال الدين يوسف بن يغمور نائب السلطنة بها والأمراء القيمرية[5] وغيرهم ، فغلطوا الرسول ولم يجيبوه إلى ذلك .

(١) « إن أزمعوا » فى السلوك .

(٢) « أو لفعل قبيح » فى السلوك .

(٣) انظر شمال أفريقيا والحركة الصليبية — مجلة الدراسات الأفريقية — العدد الثالث ١٩٧٤ .

(٤) هو أحمد بن إسماعيل الزيات — السلوك جـ ١ ص ٣٦٥ .

(٥) القيمرية : نسبة إلى قيمر : قلعة بين الموصل وخلاط ، وكان أهلها فى زمن ياقوت من الأكراد — معجم البلدان .

وكان الملك السعيد بن الملك العزيز فخر الدين عثمان بن العادل صاحب الصبيبة خرج من الديار المصرية ، وعبر على غزة ، وأخذ جميع ما بها من المال وهرب ، وكان قد أعطى قبل ذلك قلعته للملك الصالح أيوب وصار فى خدمته ، ولما هرب احتيط على داره بالقاهرة ، وتوجه هو إلى قلعة الصبيبة فسلمها له من كان فيها .

وفى هذه الأيام ملك المغيث فتح الدين عمر[1] بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن الملك الكامل بن العادل بن أيوب الكرك واستولى عليها ، وذلك أنه كان عند عماته[2] بالقاهرة ، فلما توفى الملك الصالح أيوب بلغ الأمير حسام الدين ابن أبى على أن فخر الدين بن الشيخ ربما أخرجه ورتبه فى الملك ، فأطلعه إلى قلعة الجبل واعتقله بها ، فلما ورد المعظم توران شاه إلى المنصورة فى التاريخ الذى ذكرناه ، أمر به فحمل إلى الشوبك واعتقل بها خوفا منه ، فلما مات المعظم أخرجه الطواشى بدر الدين الصوابى الصالحى ، وكان نائب الملك الصالح بالكرك ، وكانت الشوبك مضمومة إلى ولايته ، فملكه البلدين ، وسلم إليه القلعتين ، وقام بتدبير دولته ، والاجتهاد فى خدمته .

ذكر استيلاء الملك الناصر صاحب حلب على دمشق :

ولما جرى [٣١٩] ما ذكرناه خرج الملك الناصر يوسف[3] بن الملك العزيز ابن الظاهر غازى بن صلاح الدين يوسف بن أيوب من حلب ، وذلك لأنه

---

(١) انظر وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٨٦ رقم 220 .

(٢) عماته هن بنات الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وأخوات الملك الكامل محمد ، وكانت مساكنهم بقلعة الجبل — مفرج الكروب حوادث سنة ٦٤٨ هـ .

(٣) هو يوسف بن محمد بن غازى ، توفى سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م — المنهل ، وانظر ما يلى .

لما ورد عليه الخبر بقتل المعظم توارنشاه وصلت إليه كتب الأمراء القيمرية من دمشق يستدعونه ويحثونه على الوصول إليهم ليسلموا دمشق إليه، فوصلها يوم السبت ثامن ربيع الآخر من هذه السنة، وأحاط عسكره بها، وزحفوا عليها، وكان النائب بها الأمير جمال الدين بن يغمور من جهة الملك الصالح، وكان قد رتب الأبواب على الأمراء القيمرية وهم: ناصر الدين القيمرى، وضياء الدين، وشهاب الدين الكبير، ففتحوا باب الجابية مواطأة للملك الناصر، فدخل الناصر وأصحابه دمشق، وتملكوها بغير ممانعة ولا مقاتلة، وخلع على الأمراء المذكورين، وخلع أيضا على الأمير جمال الدين بن يغمور النائب من جهة السلطنة، وأحسن إليهم، وعلى جماعة من الأمراء المصريين مماليك الملك الصالح نجم الدين، واستقرت قدمه في ملك دمشق، وعصت عليه بعلبك وعجلون وشميس مدة يسيرة، ثم مال الجميع إليه.

ولما وصل الخبر بذلك إلى مصر اجتمعت الأمراء والأجناد بقلعة الجبل وجددوا الأيمان لشجر الدر والدة خليل، وللأمير عز الدين أيبك التركماني بالتقدمة على العساكر، وعزموا على إخراج العساكر صحبة الأمير حسام الدين ابن أبي على ليدفعوا الملك الناصر عن دمشق، ويردوه قبل أن يملكها، فورد عليهم بأن القيمرية سلموها إليه، فأمسك من كان منهم بالقاهرة، وقبض على كل من اتهم بالميل إلى الحلبيين (١).

(١) انظر السلوك جـ ١ ص ٣٦٧

ذكر سلطنة أيبك التركمانى

ولما جرى ماذكرنا من عصيان الملك المغيث بالكرك واستيلائه عليها وعلى الشوبك ، واستيلاء الملك الناصر صاحب حلب على دمشق ، ووقوع الاضطراب فى مصر ، اجتمعت البحرية والأتراك وأجالوا الرأى بينهم ، وقالوا : إنه لا يمكننا حفظ البلاد وأمر الملك إلى إمرأة ، وقد ورد فى الحديث : « كيف يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة » .

وقالوا : لابد من إقامة شخص كبير تجتمع الكلمة عليه ويشار فى الملك إليه فاتفق رأيهم [٣٢٠] على أن يفوض أمر الملك إلى الأمير عز الدين أيبك الجاشنكير التركمانى الصالحى مقدم العساكر ، فقاموا إليه وسألوه أن يُولَّى عليهم ليقوم بسياسة الملك ، فأجابهم على ذلك(١) ، وولوه ، وعقدوا له ، ولقبوه بالملك المعز ، وركب بالصناجق السلطانية يوم السبت آخر ربيع الآخر من هذه السنة ، وحملت الأمراء الغاشية فى خدمته على العادة .

وهو أول ملوك الترك ، وأبطلت السكة والخطبة التى كانت باسم شجر الدر فى ثانى يوم تمليكه ، وكانت مدة سلطنتها ثلاثة أشهر لأنهم كانوا عقدوا لها بالسلطنة فى آخر المحرم ، ثم خلعوها من السلطنة فى آخر ربيع الآخر .

---

(١) « وتزوج الأمير عز الدين أيبك بشجر الدر ، فى تاسع عشرى شهر ربيع الآخر ، وخلعت شجر الدر نفسها من مملكة مصر ، ونزلت له عن الملك » — فى السلوك جـ١ ص ٣٦٨ — وقارن ذلك بما يلى فى أحداث سنة ٦٤٩ هـ .

ذكر عقد السَّلْطَنَة للملك الأشرف مظفر الدين موسى ابن الملك المسعود صلاح الدين يوسف الملقب بإتسز ابن الملك الكامل بن العادل بن أيوب

والملك المسعود هو الذى ملك اليمن فى حياة والده الملك الكامل كما ذكرنا[1]، وكان السبب فى ذلك أنهم لما رأوا وقوع الاختلاف فى البلاد، واستيلاء كل أحد على ناحية، ووقوع الإضطراب فى الديار المصرية، قالوا: لابدّ من إقامة شخص من بنى أيوب ليجتمع الكلّ على طاعته، ويرتفع الخلاف. واتفق رأيهم على إقامة الملك الأشرف مظفر الدين موسى المذكور، وأن يكون الملك المعز عز الدين أيبك أتابكه[2]، والقائم بتدبير الدولة، والتقدمة على العساكر، فرضى الجميع بذلك، وأقاموا الأشرف المذكور، وأجلسوه فى دست السلطنة والأمراء فى خدمته يوم الخميس لخمس مضين من جمادى الأولى، وكان عمر الأشرف عشر سنين، وجلس على السماط على عادة السلطنة.

(١) انظر احداث سنة ٦١١ هـ، عندما أرسل الملك العادل الأيوبى حفيده الملك المسعود إلى اليمن.

وهو أقسز أو اطسيس أو أقسيس بن محمد بن أبى بكر بن أيوب، الملك المسعود بن الملك الكامل ابن الملك العادل الأيوبى، توفى سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م — وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٨٣ رقم 218.

(٢) يذكر المقريزى صراحة أن المعز أيبك كان شريكا فى الملك، إذ ورد به «تجمع الأمراء وقالوا: لابد من إقامة شخص من بيت الملك مع المعز أيبك ... شريكا للملك المعز أيبك ... فكانت المراسيم والمناشير تخرج عن الملكين الأشرف والمعز» — السلوك جـ ١ ص ٣٦٩.

بينا تؤكد مصادر أخرى ما ذكره العينى هنا من أن الأشرف موسى أقيم فى السلطنة وأن «يكون أيبك التركمانى أتابكه» — المختصر جـ ٣ ص ١٨٣، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٦.

وكانت مدّة سلطنة عز الدين أيبك خمسة أيام ، لأنه تولى السلطنة فى آخر ربيع الآخر يوم السبت ، وخلع عنها يوم الخميس الخامس من جمادى الأولى .

ذكر ما جرى من الأمور بعد سَلْطنة الأشرف :

منها : أنه كان فى غزّة جماعة من عسكر مصر مقدمهم ركن الدين خاص تُرْك[1] ، فاندفعوا إلى مصر لما بلغهم حركة الحلبيين إلى مصر ، ونزلوا بالسانح ، واجتمعوا ، واتفقت كلمتهم على طاعة الملك المغيث صاحب الكرك ، وخطبوا له بالصالحيّة يوم الجمعة لأربع مضين من جمادى الآخرة من هذه السنة[2] [٣٢١] فنودى بالقاهرة ومصر أن البلاد للخليفة المستعصم بالله ، وأن الملك المعز عزّ الدين أيبك نائبهُ بها ، وجددّت الأيمان للأشرف بالسلطنة ، وللمعز بالأتابكيّة ، وندبت العساكر إلى السانح ، فهرب من السانح الطواشيان شهاب الدين رشيد الكبير ، وشهاب الدين رشيد الصغير ، وركن الدين خاص ترك ، وأقُوش المشرف ، وكانوا من جملة الذين اتفقوا على تمليك المغيث بن العادل صاحب الكرك ، فقبض غلمان الرشيد الصغير عليه ، وجاءوا به إلى القاهرة ، فاعتقل بها ، ونجا الباقون ، وخرجت الخلع للذين تخلّفوا بالسانح وعفى عنهم ، وطيبّت قلوبهم ، وخرجت لهم النفقة .

ومنها : أن فى يوم الأحد لخمس مضين من رجب من هذه السنة رحل الأمير فارس الدين آقطاى الجمدار ، وكانت إليه تقدمة البحرية الصالحية ، من القاهرة

---

(١) هو خاص ترك بن عبد الله الصالحى النجمى ، الأمير ركن الدين ، توفى بدمشق سنة ٦٧٤ هـ/ ١٢٧٥ م ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٤٩ ، وورد اسمه خاص بك فى المنهل ، والدليل الشافى

(٢) « من هذه السنة » مكررة فى أول ورقة ٣٢١ .

متوجها إلى بلاد الشام، ومعه من العسكر ألفا فارس ، فوصل إلى غزة ، وكان بها جماعة من أصحاب الملك الناصر صاحب حلب الذى استولى على دمشق ، فأوقع بهم ، فاندفعوا من بين يديه[1] ، ثم عاد الأمير أقطاى إلى الديار المصرية ، ودخلها ، وقبض على الأمير زين الدين قراجا أمير جاندار ، وعلى صدر الدين قاضى آمد ، وكانا من كبار الصالحية .

ومنها : أنه قبض على الأمير جمال الدين النجيبى ، والأمير جمال الدين أقوش العجمى ، واعتقلا .

ومنها : أنهم نقلوا الملك الصالح إلى تربته[2] التى بنيت له عند مدرسته بالقاهرة بين القصرين ، وعمل له العزاء بالقاهرة ، وقطعت مماليكه شعورهم ، وعملوا له عزاء جديدا .

ومنها : أن الأمراء وأرباب الدولة اتفقوا على هدم أسوار دمياط وتخريبها ومحو آثارها ، لما اتفق من قصد الفرنج لها مرة بعد أخرى ، لأنهم قصدوها فى أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب وكادوا يملكونها[3] ، وفى أيام الملك الكامل وحاصروها أكثر من سنة وملكوها[4] ، وفى أيام الملك الصالح نجم الدين ، وجرى ماذكرناه[5] ، فهدموها وبنيت مدينة قريبة منها سميت المنشية، وهى المدينة يومنا هذا .

(١) انظر السلوك جـ ١ ص ٣٧٠ .

(٢) أنشأتها شجر الدر بعد وفاة الصالح أيوب — انظر المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٧٤ ، وانظر أيضا السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ص ٢٠٧ .

(٣) وذلك فى سنة ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م .

(٤) وذلك فى سنة ٦١٥ هـ / ١٢١٨ م .

(٥) وذلك فى سنة ٦٤٧ هـ / ١٢٤٩ م .

ومنها : أن الملك الناصر يوسف صاحب حلب قبض على الملك الناصر داود[1] ابن [٣٢٢] المعظم وحبسه فى حمص، وذلك أنه كان قد قدم دمشق فى خدمة الناصر يوسف، فبلغه عنه ما أوجب القبض عليه، فقبض عليه وسيّره إلى حمص تحت الاحتياط، فاعتقل فى قلعتها، وكان قد وعده وعودًا جميلة فلم يُنجز له منها شيئا ، فلما أيس منه طلب منه دستورا يمضى إلى بغداد ، فأعطاه الدستور ، فلما خرج إلى القُصَيْر[2] قبض عليه فى مستهلّ شعبان من هذه السنة ، ووصل حريمه وأولاده من مصر ، وكان له عشرة أولاد ذكورا وثلاث بنات ، فأنزلوا فى دمشق .

ولما اعتقل بحمص نظم قصيدة مَطْلعُهَا :

إلهى أنت أعلى وأعلَمُ ... بحقوق ما تبدى الصدورُ وتكتُمُ

وأنت الذى تُرجى لكلّ عظيمة ... وتخشى وأنت الحاكمُ المُتحكّمُ

إلى علمك العلوى أشكو ظلامتى ... وهل بسواك يُنْصَفُ المتظلّمُ

أبث خيانات العشيرة معلنًا ... إلى مَن بمكنون السرائر يعلَمُ

أتيتهُمُ مُستنصرًا مُتحرّما ... كما يفعلُ المستنصرُ المتحرِمُ

فلما أيسْنَا نصرهم ونوالَهم ... رمونا بإفك القول وهو مُرجّمُ

أغثنا أغثنا من عدانا يكن لنا ... بك النصرُ حتى يخذلوا ثم يُهزموا

فنصرك مجعولٌ لنا مَتَعجلٌ ... وبرّك معلوم بنا فهو مُعلَمُ

---

(١) توفى سنة ٦٥٦ هـ/ ١٢٥٨ م — المنهل ، وانظر ما يلى .

(٢) القصير : تطلق على عدة مواضع ، والمقصود هنا ضيعة أول منزل لمن يريد حمص من دمشق — معجم البلدان .

ذكرُ توجُّه الملك الناصر صاحب حلب من دمشق قاصدا الديار المصرية :

وفيها : سار الملك الناصر المذكور بعساكره من دمشق وصحبته ، من ملوك أهل بيته ، الصالح إسماعيل[١] بن العادل بن أيوب ، وهو خال أبيه ، والأشرف موسى[٢] صاحب حمص ، كان وهو يومئذ صاحب تل باشر والرحبة وتدمُر ، والملك المعظم فخر الدين تورانشاه[٣] بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ومقدم جيشه الأمير شمس الدين لؤلؤ و إليه تدبير المملكة .

وفى المرآة : وكان سير الملك الناصر قاصدا الديار المصرية بإشارة شمس الدين لؤلؤ المذكور ، فإنه لجَّ فى القضيَّة لحاحا كان سببا لحضور المنيَّة ، وكان يستهزئُ بالعساكر المصرية ويقول : آخذها بمائتى [٣٢٣] قناع[٤] .

وكان رحيلهم من دمشق يوم الأحد منتصف رمضان من هذه السنة ، ولما وصلت الأخبار بذلك إلى الديار المصرية انزعج الملك المعز أيبك التركمانى ومن معه من البحرية والترك لذلك ، وأجمعوا على لقاء الملك الناصر ومحاربته ودفعه عن الديار المصريَّة ، وقبضوا على جماعة من الأمراء اتهموهم بالميل إلى الناصر ، وتجهزوا ، وخرجوا من القاهرة فى شهر شوال ، وبرزوا إلى السَّانح ، وتركوا السلطان الملك الأشرف موسى بقلعة الجبل ، واستناب المعز بالديار المصرية

(١) توفى سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م — المنهل جـ ٢ ص ٤٢٠ رقم ٤٤٨ ، وانظر ما يلى .

(٢) هو موسى بن إبراهيم بن شيركوه ، توفى سنة ٦٦٢ هـ / ١٢٦٣ م — المنهل ، وانظر ما يلى .

(٣) هو تورانشاه بن يوسف بن أيوب ، توفى سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م — المنهل جـ ٤ ص ١٨٠ رقم ٨٠٣ ، وانظر ما يلى .

(٤) القناع : هو ما تتقنع به المرأة ، والمقصود أنه يمكنه الاستيلاء على مصر بمائتى إمرأة .

الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارى ، وأفرج عز الدين أيبك عن ولدى الصالح إسماعيل ، وهما : المنصور إبراهيم والسعيد عبد الملك ابنا الصالح إسماعيل ، وكانا معتقلين من استيلاء الملك الصالح نجم الدين أيوب على بعلبك ، وخلع عليهما ، ليتوهم الملك الناصر صاحب حلب من أبيهما الصالح إسماعيل .

ولما خرجوا وصل أولهم إلى السانح ، ونزلوا بالصالحية ، وقوى الإرجاف بوصول الملك الناصر ودخوله الرمل .

قال بيبرس : وكان رحيل المعز فى بقية العساكر ثالث ذى القعدة من هذه السنة ، ووصل الملك الناصر بمن معه من العساكر إلى كراع وهى قريبة من العباسة والسدير ، وتقارب ما بين العسكرين ، فمال من كان مع الناصر من مماليك أبيه العزيز إلى الترك الذين بمصر للجنسية ، فرحل المعز أيبك ونزل قبالة الناصر بسموط ، والتقوا فى يوم الخميس عاشر ذى القعدة ، فكانت الكسرة أولا على عسكر مصر ، وولوا منهزمين ، وثبت المعز أيبك فى جماعة من البحرية ، وانحاز إلى جانب ، وبقى الملك الناصر تحت السناجق (١) فى جمع من العزيزية (٢) ، فخامروا وانضافوا إلى المعز أيبك ، فحمل على الطلب (٣) الذى فيه الملك الناصر ، فولى منهزما طالبا الشام فى جماعة من خواصه ، وأخذت سناجقه والطبلخاناة (٤)

(١) السنجق : لفظ تركى ، يطلق فى الأصل على الرمح ، ثم أصبح يطلق على نوع من الرايات وهى صفر صغار — صبح الأعشى جـ ٤ ص ٨ ، جـ ٥ ص ٤٥٦ ، ٤٥٨ .

(٢) العزيزية : طائفة من المماليك تنسب الى السلطان الملك العزيز محمد بن غازى ، صاحب حلب — النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٢٩٧ ، السلوك جـ ١ ص ٢٩٧ ، ٣٩٧ .

(٣) طلب — أطلاب : وحدة عسكرية صغيرة قد تصل أربعمائة فرد ، يرأسها أمير — انظر بدائع الزهور جـ ٣ ص ٢٤ ، ٢٥ ، المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ١٣٩ .

(٤) الطبلخاناة : كلمة فارسية تعنى فرقة الموسيقى السلطانية ، أو بيت الطبل ، وتكون هذه الفرقة صحبة السلطان فى الأسفار والحروب — صبح الأعشى جـ ٤ ص ٨ وما بعدها .

التي له ، وقصد المعز أيبك الأطلاب الشاميّة ، فوقع بالطلب الذى فيه شمس الدين لؤلؤ ، فحمل عليهم ، وبدّد شملهم ، وأُتِىَ به إليه ، فأمر بضرب عنقه ، فضُربت ، وأُتى بالأمير ضياء الدين القيمرى ، [٣٢٤] فضربت عنقه ، وأُتى بالملك الصالح عماد الدين إسماعيل فسلم عليه الملك المعزّ ، ووقف راكبا إلى جانبه ، وأُسر الملك الأشرف صاحب حمص ، ونُصْرَة الدين ، والمعظم فخر الدين ابنا صلاح الدين يوسف .

وأما العسكر المصريون المنهزمون (١) ، فإن الهزيمة استمرّت بهم ، ولا يعلمون ما تجدّد بعد ذلك ، ووصلوا القاهرة غد هذا اليوم ، وهرب بعضهم إلى الصعيد ، وخطب ذلك اليوم للملك الناصر يوسف صاحب حلب بالقلعة وجامع مصر (٢) ، وأما القاهرة فلم يقم بجامعها خطبة (٣) وتوقفوا ليتحققوا .

ووصل معظم العسكر الشامىّ إلى العبّاسة فى إثر المصريين ، ولا يظنون إلا أنّ الكسرة قد تمت على المصريين : وزال أمرهم بالكلية ، وهم ينتظرون وصول الملك الناصر ليدخلوا معه القاهرة ، ثم جاءهم الخبر بما جرى من هرب الملك الناصر ، وقتل شمس الدين لؤلؤ والقيمرىّ ، وأَسْر من أُسِرَ ، فاختلفوا فيما يعتمدون عليه ، وكان فى الجيش تاج الملوك ولد المعظم بن صلاح الدين وهو مجروح ، وحاروا فيما يفعلون .

(١) هكذا بالأصل ، وهو أسلوب ضعيف .

(٢) هو جامع عمرو بن العاص بالفسطاط — المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٤٦ .

(٣) « وكان بجامع القاهرة (الأزهر) الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، فقام على قدميه وخطب خطبتين خفيفتين ، وصلى بجماعة الجمعة ، وصلى قوم صلاة الظهر » — السلوك ج ١ ص ٣٧٧ .

وفى نهار الجمعة حادى عشر ذى القعدة وردت البشائر بانتصار المعزّ وانكسار الناصر ، وكان بقلعة الجبل ناصر الدين بن يغمور أستادار الملك الصالح عماد الدين إسماعيل ، وأمين الدولة [أبى الحسن غزال](١) وزيره محبوسين من أيام الملك الصالح نجم الدين ، فلما بلغهما انتصار الناصر وكسر العسكر المصرى خرجا من الحبس وأظهرا السرور، ثم لما تحقّق نصر المعزّ أيبك أُعيدا إلى السجن، ونودى فى آخر هذا اليوم ، وهو يوم الجمعة المذكور ، بإظهار الزّينة .

وعاد الملك المعزّ والبحرية والعساكر المصريّة ومَن انضمّ إليهم من العزيزية على غير طريق العباسة خوفا من الناصريّة النازلين عليها ، ووصلوا إلى القاهرة بكرة يوم السبت ثانى عشر ذى القعدة ودخل المعزّ أيبك ، والملك الصالح عماد الدين إسماعيل قدامه فى الموكب تحت الاحتياط فاعتقله بقلعة الجبل فى دار، واعتقل الأشرف صاحب حمص [٣٢٥] والمعظم تورانشاه وأخوه فى حبس القلعة ، وشنق ناصر الدين بن يغمور ، وأمين الدولة الوزير على باب القلعة ، ثم أخرج الملك الصالح عماد الدين إسماعيل خارج القلعة من جهة القرافة ، فقتل ودفن هناك ، وكان مقتله فى ليلة الأحد السابع والعشرين من ذى القعدة .

وفى المرآة : لما أسروا شمس الدين لؤلؤ ، وجاءوا به إلى بين يدى الملك المعز، قال حسام الدين بن أبى علىّ : لا تقتله لتأخذ به الشام . وقال أقطاى : هذا الذى يأخذ مصر بمائتى قناع ، قد جعلنا مخانيث ، فضربوا عنقه .

وأما الملك الناصر فإنه لما كُسِر ، كَسَرَت العزيزيّة سناجقه ، وكَسَرُوا صناديقه ، ونهبوا ماله ، وَرَموه بالنشّاب ، فأخذه نوفل البدوى وجماعة من

---

(١) [ ] إضافة للتوضيح — انظر السلوك جـ ١ ص ٣٧٧ ، وانظر ما يلى فى وفيات السنة .

ممـاليكه وأصحابه ، وساروا به إلى الشام ، ومات تاج الملوك من جراحة كانت به ، فحمل إلى القدس ومات به ، وضرب الشريف المرتضى فى وجهه بالسيف ضربة هائلة عرضا ، وأرادوا قتله ، فقال : أنا رجل شريف ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتركوه .

قال السبط : وحكى لى قال : بقيتُ فى الرمل يوماً وليلةً ملقى ، رأسى ناحيةً ووجهى ناحيةً ، والدّماءُ تفيض ، ولولا أن الله تعالى منَّ علىَّ بالملك الصالح ابن صاحب حمص لهلكت ، حمانى وخيّط وجهى بمَسال ، وعاينتُ الموتَ مراراً ، وتمزّق الناس كل ممزّق ، ومشوا فى الرمال أيّاماً .

وأما(١) المصريُّون فإنهم دخلوا إلى القـاهرة بالأُسارى والسناجق المقلّبـة ، والطبول المشقّقة ، والخيول والأمـوال والعدد ، ولما وصلوا إلى تربة المـلك الصالح نجـم الدين أيوب أحدقوا بالصالح إسماعيل ، وصاحوا يا خوند(٢) : أين عينك ترى عُدوك ، ورموا الأسارى فى الجبل ، وجمعـوا بين الصالح إسماعيل وبين أولاده أيّاما ، ثم غيّبوهُ .

وأما المماليك فمالوا على المصريّين قتلا ونهبا ، ونهبوا أموالهم ، وسـبوا حريمهم ، وفعلوا بهم ما لا يفعل الفرنج بالمسلمين .

وكان السامرى ، وزير الصالح إسماعيل ، معتقلا فى القلعة فى جب هو وناصر الدين بن يغمور ، وسـيف الدين القيمرى ، والخـوارزمى صهر المـلك الناصر

---

(١) «واما» مكررة فى الأصل .

(٢) خوند : لفظ فارسى ؛ واستخدم فى التركية أيضا ، ومعناه السـيد أو الأمير ، ويخاطب به المذكر والمؤنث — صبح الأعشى ج ٦ ص ٥٧ — ٨٨ .

يوسف ، فخرجوا من الجبّ ، وعصَوا فى [٣٢٦] القلعة . ولم يوافقهم سيف الدين القيمرىّ ، بل جاَء فقعد على باب الدار التى فيها عيال الملك المعز أيبك التركمانى وحماهم ، فلم يدع أحداً يقربها .

وأما الباقون فصاحوا الملك الناصر يامنصور ، وجاء الترك ففتحوا باب القلعة ودخلوا ، فشنقوا السامرىّ وابن يغمور والخوارزمىّ متقابلين ، ولكن لا على سرر(١) ، وشنقوا المجير بن حمدان ، وكان شابًّا حسنا ، قالوا : تعدّى على بعض المماليك ، ونهب خيله .

وأما الملك الناصر يوسف صاحب حلب ، فإنه وصل إلى غزة فى حالة عجيبة ، وأقام ينتظر أصحابه ، فوصل إليه مَنْ سلم منهم ، ومن عسكر الشام ، وابن صاحب الموصل وكان معه .

وقال المؤيّد وغيره : ثم بعد هزيمة الملك الناصر يوسف صاحب حلب سار فارس الدين أقطاى من الديار المصرية ومعه ثلاثة آلاف فارس إلى غزة وملكها ، واستولى عليها ، ثم عاد إلى الديار المصرية(٢) .

وفيها امر الملك المعزّ ببناء مدرسته(٣) التى بدار الملك بمصر على البحر ، فبُنيت .

وفيها :(٤)

وفيها :(٥)

---

(١) إشارة إلى الآيات القرآنية : « فى جنات النعيم ، على سرر متقابلين » — سورة الصافات رقم ٣٧ آيات رقم ٤٣ — ٤٤ .

(٢) المختصر جـ ٣ ص ١٨٥ .

(٣) المدرسة المعزية : بمصر القديمة ، أنشأها السلطان المعز أيبك على النيل بمصر القديمة — النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٤ .

(٤) ، (٥) بياض فى الأصل .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

عبد الملك بن عبد السلام بن الحسن اللغانى[1] الحنفى ، مدرس مشهد أبى حنيفة رضى الله عنه ، وهو أخو عبد الرحمن ، وعم محمد بن على بن عبد السلام ابن الحسن اللغانى[2] .

وكان رجلا فاضلا من بيت العلم والرئاسة ، توفى فى هذه السنة ، ودفن بمقبرة الخيزران .

الحافظ المسند أبو الحجاج يوسف[3] بن أبى الصفا خليل بن عبد الله الدمشقى الآدمى المنعوت بالشمس ، نزيل حلب .

مات بحلب فى العاشر من جمادى الآخرة ، ودفن بظاهر باب الأربعين ، ومولده بدمشق فى سنة خمس وخمسين وخمسمائة ، سمع الكثير ، ومعجم شيوخه يزيد على أربعمائة شيخ .

(١) « الدامغانى » فى الأصل ، والتصحيح من ترجمة أخيه فى وفيات سنة ٦٤٩ هـ التالية حيث ورد بها « واللغانى : بفتح اللام وسكون الميم وفتح الغين المعجمة ، نسبة إلى لمغان ، وهى مواضع بين جبال غزنة » .

ووردت : لامغان أو لام غان : بفتح الميم — من قرى غزنة ، وينسب إليها جماعة من فقهاء الحنفية ببغداد ، منهم عبد السلام بن إسماعيل بن عبد السلام بن الحسن اللامغانى ، كما ينسب إليها عدة من أهل هذا البيت — معجم البلدان .

(٢) « الدامغانى » فى الأصل — انظر الهامش السابق .

(٣) انظر أيضا : العبر جـ ٥ ص ٢٠١ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٤٣ ، السلوك جـ ١ ص ٣٨١ .

أمين الدولة أبو الحسن غزال[1] المتطبب ، وزير الملك الصالح عماد الدين إسماعيل .

وكان سامريا كما ذكرناه وكان سببا على هلاك نفسه ، وعلى سلطانه ، وسبب زوال النعمة عنه وعن مخدومه ، وهذا هو الوزير السوء .

وقال السبط : فسبحان من أراح المسلمين بقتله[2] ، وقد ذكرنا قتله عن قريب[3] .

قال : وما كان مسلما ، ولا سامريا بل كان يتستر [٣٢٧] بالإسلام ، ويبالغ فى هدم شريعة المصطفى عليه السلام ، وبلغنى أن الشيخ إسماعيل الكورانى رحمه الله قال له يوما وقد زاره : لو بقيت على دينك كان أصلح لأنك تتمسك بدين فى الجملة[4] ، أما الآن فأنت مذبذب لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء .

ولقد ظهر له من الأموال والجواهر واليواقيت والتحف والذخائر مالا يوجد فى خزائن الخلفاء ولا السلاطين ، وأقاموا ينقلونه مدة سنين ، فبلغنى أن قيمة ما ظهر ثلاثة آلاف ألف دينار ، غير الودائع التى كانت له عند أصدقائه والتجار ، ووجد له عشرة آلاف مجلد من الكتب النفيسة والخطوط المنسوبة ، فتمزق الجميع فى زمان يسير[5] .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٨٤ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢١ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٨٠ ، العبر جـ ٥ ص ١٩٩ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٤١ .

(٢) « أراح منه المسلمين » فى مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٨٤ .

(٣) انظر ما سبق فى حوادث السنة .

(٤) « فى الجملة » ساقط من مرآة الزمان .

(٥) مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٨٤ — ٧٨٥ .

الملك الصالح عماد الدين إسماعيل(١) أبو الجيش بن الملك العادل أبي بكر ابن أيوب واقف تربة(٢) أم الصالح .

وقد كان ملكا عاقلا حازما ، تقلبت به الأحوال أطوارا كثيرة .

وقد كان الملك الأشرف بن العادل أوصى له بدمشق من بعده ، فملكها شهورا ، ثم انتزعها منه أخوه الملك الكامل ، ثم ملكها من يد الملك الصالح نجم الدين أيوب خديعة ومكراً ، فاستمر فيها أزيد من أربع سنين ، ثم استعادها منه الملك الصالح أيوب عام الخوارزمية سنة ثلاث وأربعين وستمائة(٣) ، واستقرت بيده بلداه بعلبك وبصرى ، ثم أخذتا منه كما ذكرنا ، ولم يبق له بلد يأوى إليه ، فلجأ إلى المملكة الحلبية فى جوار الملك الناصر يوسف صاحب حلب ، فلما كان فى هذه السنة ما ذكرنا من القتال بين الشاميين والمصريين أسر الصالح وأحضر إلى القاهرة(٤) .

وقال ابن كثير : عُدمَ بالديار المصرية فى المعركة ، فلا يُدرى ما فعل به ، وهو واقف التُربة(٥) والمدرسة ودار الحديث والقراء بدمشق .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٢ ص ٤٢٠ رقم ٤٤٨ ، وورد اسمه فيه « إسماعيل بن محمد بن أيوب » ، وأنظر أيضا العبر جـ ٥ ص ١٩٨ ، الوافى جـ ٩ ص ٢١٥ رقم ٤١٢١ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٤١ ، السلوك جـ ١ ص ٣٧٨ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٧٩ — ١٨٠ .

(٢) « تربة الصالح » فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٧٩ .

وعن تربة أم الصالح انظر المدرسة الصالحية بدمشق — الدارس جـ ١ ص ٣١٦ وما بعدها .

(٣) « وخمسمائة » فى الأصل وصححه .

(٤) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٧٩ — ١٨٠ .

(٥) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٨٠ .

وفى تاريخ النويرى : وفى ليلة الأحد السابع والعشرين من ذى القعدة من هذه السنة هجم جماعة على الملك الصالح إسماعيل بن العادل بن أيوب وهو يَمُصّ قصب السُكَّر، وأخرجوه إلى ظاهر قلعة الجبل وقتلوه (١) .

وقال القاضى جمال الدين بن واصل (٢) : من أعجب ما مرّ بى أن الملك الجواد مودود لما كان فى حَبْس الملك الصالح إسماعيل ، [٣٢٨] وأنه سيَّر إليه مَنْ خنقه وفارقه ظننا أنه قد مات فأفاق، فرأته امرأةٌ هناك، فأخبرتهم أنه قد أفاق، فعادوا إليه وخنقوه حتى مات . وفى هذه الليلة لما أخرجوا الملك الصالح إسماعيل بأمر أيبك التركمانى إلى ظاهر القلعة ، وكان معهم ضوء فأطفأوه (٣) ، فخنقوه وفارقوه ، ظننا أنه قد مات ، فأفاق ، فرأته امرأة هناك ، فأخبرتهم أنه قد أفاق ، فعادوا إليه وخنقوه حتى مات ، فانظر ما أعجب هذه الواقعة (٤) .

ودفن هناك ، وعمره قريب من خمسين سنة ، وكانت أمه رومية من حظايا الملك العادل .

الأمير شُمُسُ الدين لؤلؤ مدبر مملكة حلب (٥) .

وكان من خيار عباد الله الصالحين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ،

---

(١) ورد فى مخطوط نهاية الأرب أثناء ذكر الحرب بين الملك المعز والملك الناصر « وأسر جماعة وهم : الملك الصالح بن العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب ، ثم قتله الملك المعز فى سنة تسع وأربعين ودفنه بالقرافة » جـ ٢٧ ورقة ١٢٠ .

(٢) « ابن الواصل » فى الأصل ، وهو تحريف .

(٣) « فأطفوه » فى الأصل .

(٤) مفرج الكروب ورقة ٣٨٤ ب .

(٥) أنظر ما سبق فى حوادث السنة . وانظر أيضا السلوك جـ ١ ص ٣٨٠ — ٣٨١ .

قتـل فى هذه السنة فى المعـركة التى وقعت بين المصريين والشاميين كما ذكرناه مفصـلا .

وقال السبط : كان أميرا حسنا ، صالحا عابدا زاهداً ، مدبرا ، وكان يحكى واقعات جرت له ، منهـا قوله عن بركة خان : أريد رأسه ، فكان كما قال ، وأمثال ذلك كثيرة ، وما كان يدعى ذلك كرامات ، وإنما كان يخبر عن نفسه وما به بأس إلا أنه قتل قتلة شنيعة ، وبقى مُدَّة لاَ يُوارىَ .

الملك المَنْصُور عمر بن على بن رسول صاحب اليمن[(1)] .

وكان علىّ بن رسول هذا أستاذ الدار للملك المسعود ابن السلطان الملك الكامل ، فلما سار المسعود قاصدا الشام ومات بمكة كما ذكرنا ، استناب علىّ بن رسول هذا باليمن ، فاستقر بها نائبا لبنى أيوب ، وكان لعلى المذكور إخوة ، فأحضروا إلى مصر ، وأخذوا رهائن خوفا من تغلبه على اليمن ، واستمر المذكور نائبا باليمن حتى مات قبل سنة ثلاثين وستمائة ، واستولى على اليمن بعده ولده عمر بن علىّ المذكور على ما كان عليـه أبوه من النيابة ، فأرسل من مصر أعمامه ليعزلوه ويكونوا نُوَّاباً موضعه ، فلما وصلوا إلى اليمن قبض عمر المذكور عليهم واعتقلهم ، واستقلّ عمر المذكور بملك اليمن يومئذ وتلقّب بالملك المنصور ، واستكثر من المماليك الترك

(1) انظر ترجمتـه فى : العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٤ وما بعـدها ، تاريخ عدن ص ١٧٤ ، العقد الثمين جـ ٦ ص ٣٢٩ رقم ٣٠٨٢ ، المنهل ، الدليل الشافى جـ ١ ص ٥٠٢ ، المختصر جـ ٣ ص ١٨٥ .

فقتلوه فى هذه السنة[1]، [٣٢٩] واستقر بعده فى مُلك اليمن ابنه يوسف[2] بن عمر وتلقب بالملك المظفر ، وصفا له ملك اليمن ، وطالت أيام مملكته ، كما سنذكره إن شاء الله تعالى .

الخاتون أرغوان[3] الحافظية ، سميت الحافظية لخدمتها وتربيتها الحافظ صاحب قلعة جعبر .

وكانت عتيقة الملك العادل الكبير أبى بكر بن أيُّوب ، وكانت امرأة عاقلة ، مدبرة ، عمِّرت دهرا ، ولها أموال جزيلة عظيمة ، وهى التى كانت تصلح الأطعمة للملك المغيث عمر بن الصالح أيُّوب ، فصادرها الصالح إسماعيل ، وأخذ منها أربعمائة صندوق من المال .

وقد وقفت دارها بدمشق على خدامها ، واشترت بستان النجيب ياقوت الذى كان خادم الشيخ تاج الدين الكندى ، وجعلت فيه تربة[4] ومسجدا ، ووقفت عليها أوقافا جيدة .

---

(١) قتل فى « تاسع ذى القعدة سنة سبع وأربعين وستمائة » — العقد الثمين جـ ٦ ص ٣٤٨ ، « سنة ثمان وأربعين وستمائة » فى المختصر جـ ٣ ص ١٨٦ .

(٢) توفى سنة ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م — المنهل الصافى .

(٣) ولها ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٨٠ . شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٤٠ ، الدارس جـ ٢ ص ٢٤٣ .

(٤) التربة الحافظية بدمشق ، انظر الدارس جـ ٢ ص ٢٤٣

فصلٌ فيما وقع من الحوادث
في السنة التاسعة والأربعين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة، والخليفة: هو المستعصم بالله.

وصاحب الديار المصرية: الملك الأشرف موسى بن الملك المسعود بن الكامل ابن الملك العادل بن أيوب، ومدبر المملكة وأتابك العساكر عز الدين أيبك التركماني.

وصاحب المملكة الحلبية: السلطان الملك الناصر يوسف بن الملك العزيز بن الظاهر بن صلاح الدين يوسف بن أيوب، وهو متغلب على دمشق كما ذكرنا، وقد جهز عسكرا من جهته لقصد المعاودة إلى الديار المصرية، وقدّم على العسكر الملك الأمجد بن العادل، وتجهز الملك المعز أيبك والعساكر للخروج وبلغهم نزول العساكر الشامية على تل العجول، فتوجهوا ونزلوا السانح، فأقاموا به، ولم يزالوا مقيمين إلى أن خرجت هذه السنة، والرسائل مترددة بين الفريقين.

وفي تاريخ ابن كثير: ولما عاد الملك الناصر صاحب حلب إلى دمشق بعد انهزامه قدمت عساكر المصريين، فحكموا على بلاد السواحل إلى حد الشريعة (١)، فجهّز إليهم الناصر جيشا، فطردوهم حتى ردوهم إلى الديار المصرية (٢).

وفي تاريخ النويري: وأنفق الناصر الأموال واستخدم الرجال، وجهّز

(*) يوافق أولها الأحد ٢٦ مارس ١٢٥١ م.
(١) نهر الشريعة = نهر الأردن — معجم البلدان.
(٢) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٨١.

عسكرا إلى غزة [٣٣٠] ، وخرج المصريون إلى السائح وأقاموا كذلك حتى خرجت السنة[1] .

وقال السبط : وخرجت السنة [و][2] التي بعدها أيضا[3] على هذا .

(١) ورد فى مخطوط نهاية الأرب « واتصل ذلك بالملك الناصر ، فجهز العسكر الشامى إلى غزة ليكون قبالة العسكر المصرى ، وأقام العسكران فى منازلهما ستين يوما » جـ ٢٧ ورقة ١٢٠ .

(٢) [و] إضافة من مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٨٥ .

(٣) « أيضا » ساقط من مرآة الزمان .

ذكر خلع الأشرف عن السلطنة
وإعادتها إلى أيبك التركمانى

قال بيبرس فى تاريخه : وفى هذه السنة ، يعنى سنة تسع وأربعين وستمائة ، عزم المعز أيبك على تزويجه بشجر الدّر(١) ، والاستقلال بالسلطنة ، وإبطال أمر الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك المسعود من الملك ، فأبطله ، وخلعه ، وأزاله ونزعه .

وكان ذلك إنتهاء الدولة الأيوبيّة بالديار المصرية وإبتداء الدولة التركية وظهور مُلك البحرية ، فسبحان مدبر البريّة ومجرى القدر بما سبقت به المشيئة .

ومدة الدولة الأيوبية إلى هذا الحين خمس وثمانون سنة .

وخرجت هذه السنة والملك المعزّ نازل بعساكر مصر على السانح ، وعسكر الملك الناصر يوسف نازل بغزّة .

وكانت مدة الملك الأشرف المذكور حَول الحول ، ثم تحولت بأمر ذى الطول والحول .

ذكر بقيّة الحوادث فى هذه السنة :

منها : أنه وصل إلى الخليفة كتاب من صاحب اليمن وهو صلاح الدين يوسف بن عمر ، يذكر فيه أن رجلا باليمن خرج فادعى الخلافة وأنه نفذ إليه

(١) انظر ما سبق بخصوص هذا الزواج عند تولى أيبك السلطنة . وقارن ما جاء بالسلوك والنجوم الزاهرة وغيرها من المصادر .

جيشا ، فكسروه وقتلوا خلقا من أصحابه ، وأخذ منه صنعاء وهرب هو بنفسه في شرذمة ممن بقى من أصحابه ، وأرسل إليه الخليفة بالخلع والتقليد .

ومنها : أنه في رمضان استدعى الشيخ سراج الدين عمر بن بركة النهرقلى مدرس النظامية ببغداد ، فولى قضاء القضاة ببغداد مع التدريس المذكور وخلع عليه (١) .

ومنها : أن السلطان الملك المعز تزوج بأم خليل شجر الدر ، حظية السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ، رحمه الله ، واستقل بالسلطنة كما ذكرنا .

ومنها : أن في شعبان ولى تاج الدين عبد الكريم بن الشيخ محيى الدين يوسف ابن الشيخ جمال الدين أبي الفرج بن الجوزى حسبة بغداد بعد أخيه عبد الله الذى تركها تزهدا عنها ، وخلع عليه بطرحة ، ورفع على رأسه غاشية ، وركب الحجاب في خدمته (٢) .

ومنها : أنه صليت صلاة العيد يوم الفطر بعد العصر ، وهذا اتفاق [٣٣١] غريب (٣) .

ومنها : أنه انتهى في هذه السنة الكتاب المسمى : [شرح] (٤) نهج البلاغة » في عشرين مجلدا ، مما ألفه عبد الحميد (٥) بن داود بن هبة الله بن أبي الحديد المدائنى الكاتب للوزير مؤيد الدين بن العلقمى ، فأطلق له الوزير مائة دينار وخلعة

(١) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٨١ .

(٢) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٨١ .

(٣) ورد الخبر بنفس النص في البداية والنهاية جـ١٣ ص ١٨١ ، ولم يحدد في أى المدن تم ذلك .

(٤) [ ] إضافة من البداية والنهاية ، وهدية العارفين جـ١ ص ٥٠٧ .

(٥) توفى ببغداد سنة [illegible] / [illegible] م ـ المنهل الصافى ، وانظر ما يليه ، وورد اسمه عبد الحميد بن هبة الله في مصادر ترجمته .

وفرس ، وامتدحه عبد الحميد بقصيدة ، لأنه كان[1] شيعيا معتزليًا .

وفيها : ... ...[2]

وفيها : لم يحج أحد بالناس من العراق .

(١) « وكأنه » فى الأصل ، والتصحيح من البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٨١ .

(٢) « ... ... » بياض فى الأصل .

ذِكْرُ مَنْ تُوفِّى فيها مِنَ الأعيان

أقضى القضاة أبو الفضل عبد الرحمن[(١)] بن عبد السلام بن إسماعيل بن عبد الرحمن ابن إبراهيم اللمغانى الحنفى ، من بيت العلم والقضاء .

درس بمشهد أبى حنيفة رضى الله عنه ، وناب عن قاضى القضاة بن فضلان الشافعى ، ثم عن قاضى القضاة أبى صالح نصر بن عبد الرزاق الحنبلى ، ثم عن قاضى القضاة عبد الرحمن بن مقبل الواسطى ، ثم بعد وفاته استقر القاضى عبد الرحمن اللمغانى بولاية الحكم ببغداد ، ولقب أقضى القضاة ، ولم يخاطب بقاضى القضاة ، ودرس للحنفية بالمستنصرية فى سنة خمس وثلاثين وستمائة ، وكان مشكور السيرة فى أحكامه ونقضه وإبرامه .

ولما توفى تولى بعده قضاء القضاة ببغداد شيخ النظامية سراج الدين النهرقلى كما ذكرنا .

وقال صاحب طبقات الحنفية : إن أقضى القضاة عبد الرحمن المذكور توفى يوم الجمعة ضاحى نهار الحادى عشر من رجب سنة تسع وأربعين وستمائة ، ودفن بمقابر أبى حنيفة رحمه الله ، وكان مولده فى المحرّم سنة أربع وستين وخمسمائة .

واللمغانى — بفتح اللام[(٢)] وسكون الميم وفتح العين المعجمة — نسبة إلى لَمْغَان وهى مواضع بين جبال غزنه .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، الدليل الشافى جـ ١ ص ٤٠٠ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٨١ ، السلوك جـ ١ ص ٣٨٢ .

(٢) « بفتح الميم » فى معجم البلدان .

بهاء الدين على بن هبة الله بن سلامة الجميزى خطيب القاهرة[1] .

رحل من صغره إلى العراق ، فسمع بها و بغيرها ، وكان فاضلا ، أتقن مذهب الشافعى ، وكان دينا ، حسن الأخلاق ، واسع الصدر ، كثير البر ، قلّ إن قدم عليه أحد إلا أطعمه شيئا ، وقد سمع الكثير على الحافظ السلفى وغيره ، وأسمع الناس كثيرا من مروياته .

وكانت وفاته فى ذى [٢٣٢] الحجة من هذه السنة وله تسعون سنة ، ودفن بالقرافة .

ابن عمرون الحلبى ، هو الشيخ الإمام أبو عبد الله محمد بن محمد بن أبى على ابن سعد بن عمرون الحلبى النحوى .

مات فى شهر ربيع الأول ودفن من يومه بالمقام ، ومولده فى سنة ست وخمسمائة تقديرا ، سمع من أبى حفص عمر بن محمد بن طبرزد[2] ، وحدّث ، وقرأ الأدب وبرع فيه ، وأقرأ مدة ، وانتفع به جماعة .

أبو الفتح الصوفى ، الشيخ الفقيه الحنفى الصوفى ، أحمد بن يوسف ابن عبد الواحد بن يوسف الأنصارى الدمشقى الأصل ، الحلبى المولد .

توفى فى السادس عشر من شعبان بحلب ، ودفن من الغد بالمقام ظاهر حلب .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، الدليل الشافى جـ١ ص ٤٨٧ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٨١ ، السلوك جـ ١ ص ٣٨٢ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٤ ، العبر جـ٥ ص ٢٠٣ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٤٦ .

(٢) هو عمر بن محمد بن معمر ، أبو حفص ، موفق الدين ، ابن طبرزد ، المتوفى سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م — العبر جـ ٥ ص ٢٤ .

تفقه على مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه ، وقرأ علم النظر والخلاف وبرع فيهما ، واستدعى إلى بغداد ، وولى بها تدريس الفرقة الحنفية بالمدرسة المستنصرية (١) مدة ، ثم استأذن فى العود إلى وطنه ، فأذن له فى ذلك ، فعاد إلى حلب ودرس بها بالمدرسة المقدمية (٢) ، وبمدرسة الحدادين (٣) ، وكان قد ولى مشيخة رباط سُنقرجاه بعد موت أبيه ، رحمهما الله .

علَمُ الدين قيصر بن أبى القاسم بن عبد الغنى بن مسافر (٤) ، الفقيه الحنفى المقرئ ، المعروف بتعاسيف .

كان إماما فى العلوم الرياضية ، اشتغل بالديار المصرية والشام ، ثم سافر إلى الموصل ، وقرأ على الشيخ كمال الدين بن يونس علم الموسيقى ، ثم عاد إلى الشام ، وتوفى بدمشق فى شهر رجب منها ، ومولده سنة أربع وخمسين (٥) وخمسمائة بأُصفون (٦) بليدة بالصعيد .

(١) المدرسة المستنصرية ببغداد : أنشأها الخليفة المستنصر بالله المتوفى سنة ٦٤٠ هـ/١٢٤٢ م ، ووقفها على المذاهب الأربعة ، وهى أول مدرسة فى الدولة الإسلامية تدرس المذاهب الأربعة — المدرسة المستنصرية ص ٢٨ — ٣٠

(٢) المدرسة المقدمية بحلب : أنشأها عز الدين عبد الملك بن المقدم ، من أمراء صلاح الدين سنة ٥٦٤ هـ/١١٦٨ م — خطط الشام جـ ٦ ص ١١٠ .

(٣) هكذا بالأصل ، وهى المدرسة الحدادية بحلب ، أنشأها حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين ، ابن أخت صلاح الدين — خطط الشام جـ ٦ ص ١٠٩ — ١١٠ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : المختصر جـ ٣ ص ١٨٦ ، نهاية الأرب جـ ٢٧ ورقة ١٢ ، السلوك جـ ١ ص ٣٨٢ ، الطالع السعيد ص ٤٦٩ رقم ٣٦٦ ، حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٥٠ ، وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٣١٨ رقم 275 . المختصر جـ ٣ ص ١٨٦ .

(٥) « أربعة وسبعين » فى المختصر جـ ٣ ص ١٨٦ .

(٦) « بأسفون » فى الطالع السعيد .

أصفون : فى معجم البلدان — وهى من القرى القديمة وهى حاليا تابعة لمركز إسنا بمحافظة قنا — القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٤ ص ١٥٢ .

جمال الدين بن مطروح أبو الحسين يحيى (١) بن عيسى بن إبراهيم بن الحسين ابن على بن حمزة بن إبراهيم بن الحسين بن مطروح، الملقب جمال الدين.

من أهل صعيد مصر، ونشأ هناك، وأقام بقوص مدة، وتقلبت به الأحوال فى الخدم والولايات، ثم اتصل بخدمة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب ابن السلطان الملك الكامل بن السلطان الملك العادل بن أيوب [٣٣٢]، وكان إذ ذاك نائبا عن أبيه الكامل بالديار المصرية، ولما اتسعت مملكة الكامل بالبلاد الشرقية، فصار له آمد وحصن كيفا وحرّان والرُّها والرقة ورأس عين وسروج وما انضم إليها، سيّر إليها ولده الصالح المذكور نائبا عنه وذلك فى سنة تسع وعشرين وستمائة، فكان ابن مطروح المذكور معه، ولم يزل يتنقل فى البلاد إلى أن وصل الملك الصالح إلى مصر مالكا لها فى سنة سبع وثلاثين وستمائة، كما ذكرنا، ثم وصل ابن مطروح بعد ذلك إلى الديار المصرية فى أوائل سنة تسع وثلاثين وستمائة، فرتّبه السلطان ناظرا فى الخزانة، ولم يزل يتقرب منه ويحظى عنده إلى أن ملك الصالح دمشق فى الدفعة الثانية من سنة ثلاث وأربعين وستمائة، كما ذكرناه، ثم إن السلطان بعد ذلك رتب لدمشق نوابا، فكان ابن مطروح فى صورة وزير لها، ومضى إليها، وحسنت حاله، وارتفعت منزلته، ثم عزله الصالح لأمور نقمها عليه، وهو مواظب للخدمة مع إعراض الملك الصالح عنه.

ولما توفى الملك الصالح بالمنصورة، كما ذكرناه، وصل ابن مطروح إلى مصر، وأقام بها فى داره إلى أن مات ليلة الأربعاء مستهل شعبان سنة تسع وأربعين وستمائة بمصر، ودفن بسفح المقطم.

---

(١) وله أيضا ترجمة فى: نهاية الأرب جـ ٢٧ ورقة ١٢٠، ووفيات الأعيان جـ ٦ ص ٢٥٤ رقم ٨١٠، العبر جـ ٥ ص ٢٠٤، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٤٧، السلوك جـ ١ ص ٣٨٢، ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ١٩٧ — ٢٤٠، وورد ذكر وفاته سنة ٦٥٠هـ فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٨٢.

وقال ابن خلكان : وحضرت الصلاة عليه ودفنه ، وأوصى أن يكتب عند رأسه دو بيت نَظَمَه فى مرضه وهو :

أصبحت بقعرِ حُفرة مُرتهنـا لا أملك من دُنيَـاى إلا الكَفنَا (١)
يَامنْ وسعتَ عبـادَهُ رَحْمتُهُ من بعـض عبادك المسيئين أنا

وكانت ولادته يوم الإثنين ثامن رجب سنة إثنتين وتسعين وخمسمائة بأسيوط ، وهى بليدة بالصعيد الأعلى من ديار مصر .

وقال ابن خلكان : وكانت أدواته جميلة ، وخلاله حميدة ، جمع بين الفضل والمروءة والأخلاق الرضيـة ، وكانت بينى و بينه مودّة أكيـدة ، ومكاتبات فى الغيبة ، ومجالس فى الحضرة ، تجرى فيها مذاكرات لطيفة ، وله ديوان شعر . أنشدنى [أكثره] (٢) .

وكان فى بعض [٣٣٤] أسـفاره قد نزل فى طريقه بمسجد وهو مريض فقـال :

ياربّ إن عجـز الطبيب فداونى بلطيف صُنْعك واشفنى يا شافى
أنا من ضيوفك قد حسِبتُ و إن مِن شـيم الـكرام البرُّ بِالأضـيافِ (٣)

وله أيضا :

يا مَنْ لبستُ عليه أثواب الضنى صفراء (٤) موشّـعة بحُمـر الأدمُع
أدرِك بقيّـة مهجة لو لم تذُب أسـفاً عليك نفيتهـا عن أضلعى

(١) « كفنا » فى وفيات الأعيان جـ ٦ ص ٢٢٦ .
(٢) [ ] إضافة من وفيات الأعيان جـ ٦ ص ٢٦٠ .
(٣) انظر وفيات الأعيان جـ ٦ ص ٢٦١ .
(٤) « صفرا » فى وفيات الأعيان جـ ٦ ص ٢٦٢ .

وكان فى مدّة انقطاعه فى داره، وضيق صدره بسبب عطلته، وكثرة كلفته، قد حدث فى عينيه ألم انتهى به إلى مقاربة العمى.

وقال ابن خلكان أيضا: وكنت أجتمع به فى كل وقت، فتأخرت عنه مديدة لعذر أوجب ذلك، وكنت فى ذلك الوقت أنوبُ فى الحكم بالقاهرة عن قاضى القضاة بدر الدين أبى المحاسن يوسف(١) بن الحسن بن على الحاكم بالديار المصرية المعروف بقاضى سنجار، فكتَبَ إلىّ ابن مطروح [يقول](٢):

يامَنْ إذا استوحش طـرفى له ... لم يخـلُ قلبى منه من أُنْسِ
والطـرفُ والقلْبُ على ماهمـا ... عليـه مأْوى البـدر والشمسَ

وكان بينه وبين بهاء الدين زهير(٣) صحبة قديمـة من زمن الصـبا، وإقامتهما ببلاد(٤) الصعيد، حـتى كانا كالأخوين وليس بينهما فرق فى أمور الدنيـا، ثم اتصلا بخدمة المـلك الصالح وهما على تلك المودّة، وبينهما مكاتبات بالأشعار فيما يجرى لهما(٥)، فأخبرنى بهاء الدين زُهير أن جمـال الدين بن مطروح كتب إليه فى بعض الأيام يَطلُب منـه درج ورق، و[كان قـد](٦) ضـاق به الوقت، وأظنهما كانا ببلاد الشرق [معا](٧):

(١) توفى سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م: المنهل، وانظر مايلى.
(٢) [ ] إضافة من وفيات الأعيان جـ٦ ص ٢٦٢.
(٣) هو زهير بن محمد بن على بن يحيى، الشاعر، المتوفى سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م — المنهل، وانظر مايلى.
(٤) «بلد» فى الأصل، والتصحيح من وفيات الأعيان جـ٦ ص ٢٦٣.
(٥) «فيما جرى بينهما» فى الأصل، والتصحيح من وفيات الأعيان جـ٦ ص ٢٦٣.
(٦) [ ] إضافة من وفيات الأعيان.
(٧) [ ] إضافة من وفيات الأعيان.

أفلست ياسيدى من الورق   جُـدْ بدرَجْ كعرضك اليقق
وإن أتى بالمداد مقترنا   فمرحبا بالخدود والحدق(١)

وفى تاريخ المؤيد : وفى سنة تسع وأربعين وستمائة توفى الصاحب محيي الدين ابن مطروح ، وكان متقدما عند الملك الصالح أيوب ، كان(٢) يتولى له — لما كان الصالح(٣) بالشرق — نظر الجيش ، ثم استعمله على دمشق ، ثم عزله ، وولى ابن يغمور ، وكان [ابن مطروح المذكور](٤) فاضلا فى النثر والنظم ومن شعره(٥) :

[٣٢٥]

عانقته فسكرت من طيب الشذا   غصناً رطيبا(٦) بالنسيم قد اغتذا
نشوان ما شرب المدام وإنما   أمسى بخمر رُضابه مُتَنَبِّذا
جاء العذولُ يلومنى من بَعْدمَا   أخذ الغرام علَىَّ فيه مَآخذا
لا أرعوى لا أنثنى لا أنتهى   عن حُبّه فليَهْذ فيه مَنْ هذا
إنْ عشْتُ عشْتُ على الغرام وإنْ أمُتْ   وجدا به وصبابةً ياحبَّذا(٧)

(١) انظر وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٣٦ ، جـ ٦ ص ٢٦٣ .
(٢) « وكان » فى الأصل ، والتصحيح من المختصر جـ ٣ ص ١٨٦ .
(٣) « الصاحب » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح من المختصر .
(٤) [ ] إضافة من المختصر .
(٥) « فن » فى المختصر .
(٦) « غصن رطيب » فى المختصر .
(٧) انظر المختصر جـ ٣ ص ١٨٦ .

فصـــل فيما وقع من الحـــوادث

في السنة الخمسين بعد الستمائة (*)

إستهلت هذه السنة ، والخليفة : المستعصم بالله .

وسلطـان الديار المصرية : الملك المعز عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحي التركماني .

وصاحب دمشق وحلب : السلطان الملك النـاصر صلاح الدين يوسـف ابن السلطان الملك العزيز محمد بن السلطان الملك الظاهر غازى بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الأمير نجم الدين أيوب .

وصاحب حمص : الملك الأشرف موسى بن الملك المنصور إبراهيم بن الملك المجاهد شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادى .

وصاحب حماة : الملك المنصور محمد بن الملك المظفر محمود بن الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب .

وصاحب عينتاب : الملك الصالح صلاح الدين أحمد بن الملك الظاهر غازى ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب .

وصاحب بلاد الروم : السلطان غياث الدين كيخسرو بن السلطان علاء الدين كيقباد السلجوقي .

(*) يوافق أولها الخميس ١٤ مارس ١٢٥٢ م .

وصاحب ماردين : « ... ... » [(١)].

وصاحب الموصل : بدر الدين لؤلؤ .

وأما بلاد عراق العجم و بلاد خراسان وغيرها إلى بلاد ما وراء النهر و بلاد الدشت وغيرها : ففى أيادى أولاد جنكز خان .

وصاحب اليمن : صلاح الدين يوسف بن عمر بن على بن رسول .

ثم اعلم أن الديار المصرية والشامية انتهت بعد إنقضاء الدولة العبيدية الفاطمية إلى الدولة الأيوبية كما ذكرناه مفصلا ، ثم لما شاء الله تعالى انقراض الدولة الأيوبيــة وذريتها سبق فى علمه الأزلى أن [٣٣٦] صلاح هـذه المملكة بتوليــة أولى النجدة والبأس ، وأن الترك من بينهم هـم أصلح الأجناس ، وأن فى هدايتهم إلى الإيمـان صلاحا خاصا وعاما ، فأخرج طائفة منهم من الظلمات إلى النور، وحباهم بأنواع العطايا بالبهجة والسرور ، وقيض الله تجارا أخرجوهـم إلى الآفاق خصوصا فى أيام استيلاء التتار على البلاد المشرقية والشمالية وعلى الأتراك القفجاقية [(٢)] ، فجاءت منهـم طائفـة إلى البـلاد الشامية والديار المصرية فى أواخر الدولة الأيوبية، فاشتراهم ملوك بنى أيوب بأبخس الأثمـان ليزينوا بهم مواكبهم فى البلدان ، وليتخذوهم عدة [(٣)] عنـد النوائب ، لما فيهم من الشجاعة والإقـدام

(١) « ... ... » بياض فى الاصل .

وصاحب ماردين فى هذه السنة هو الملك السعيد نجم الدين غازى (إيلغازى) بن أرتق بن أرسلان ، المتوفى سنة ٦٥٨هـ / ١٢٦٠م — أنظر ما يلى فى وفيات سنة ٦٥٨هـ ، وتاريخ الدول الإسلامية ص ٣٥٣

(٢) هزم التتار قبائل القفجاق سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م — ، وعن القفجاق واستيلاء التتار على بلادهم — انظر نهاية الأرب جـ٢٧ ص ٣٢١ — ٣٢٢ ، الكامل جـ١٢ ص ٣٨٥ — ٣٨٦

(٣) « عدة » مكررة فى الأصل

فى المصائب ، ثم صارت منهم جماعة أمراء كبارا مقدمين ، وجماعة منهم ملوكا سلاطين ، فملك منهم من الذين جُلبوا وبيعُوا إلى يومنا هذا وهو سنة اثنتين وثلاثين وثمانمائة[1] أحد عشر نفسا وهم :

الملك المعز أيبك التركمانى : وهو أول الملوك الأتراك الذين ملكوا الديار المصرية ، والملك المظفر قطز ، والملك الظاهر بيبرس ، والملك المنصور قلاون[2] ، والملك العادل كتبغا ، والملك المنصور لاجين ، والملك المظفر بيبرس الجاشنكير ، والملك الظاهر برقوق ، والملك المؤيد شيخ ، والملك الظاهر ططر ، والملك الأشرف برسباى .

قال بيبرس فى تاريخه : وأوّل من اهتم بتحصيلهم واحتفل بتجميلهم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وأخوه الملك العادل أبو بكر ، ثم ولده الملك الكامل ، ولما آلت المملكة إلى ولده الملك الصالح نجم الدين أيوب استكثر منهم استكثارا بذل فيهم المجهود ، وبلغ منهم المقصود ، وبذل فيهم الأموال الكثيرة ، وأصرف لأجلهم الأشياء الغزيرة ، ثم لما مات الملك الصالح نجم الدين أيوب ، وقتل ابنه الملك المعظم ، ولّوا زوجة أستاذهم الملك الصالح المسماة بشجر الدُر لقصدهم استمرار الملك فى البيت الأيُّوبى ولا يخرج عنه ، وتصدُر الأمور كلها منه فكانوا لها أطوع من البنان بُرْهةً من الزمان ، ثم لما رأوا أنّ ذلك قصر بحقوق الملك وأزرَى عليه ، واشتدّت [٣٣٧] أطماع من كان بالشام إليه ، فاحتاجوا إلى إقامة رجل يزاحم بمنكبه المناكب ، ويُباهى بموكبه

(١) هذا هو تاريخ تأليف هذا الجزء من الكتاب .

(٢) هكذا فى الأصل ، وفى وثائق الوقف «قلاون» ، وترد فى بعض المصادر قلاوون — انظر تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٩٥ وما بعدها .

المواكب ، ويقوم بتدبير البلاد والعباد ، ويحسم مادّةَ الفساد والعناد ، ويبنى الملك على الأساس والمهاد .

قال الشاعر :

لا يصلح الناسُ فوضى لا سَراة لهم ولا سَرَاة إذا جُهّالُهُمْ سَادُوا
والبَيْتُ لا يُبْنَى إلّا بأعمدةٍ ولا عمادا إذا لم تُرَسَّ أوتادُ
فإن تجمّع أوتادٌ وأعمدةٌ فقد بلغوا الأمرَ الذى كادُوا

فأقاموا الأمير عز الدين أيبك الجاشنكير الصالحىّ مدبّر الممالك مضافا اسمه إلى اسم الملك الأشرف موسى بن الملك المسعود المعروف بأَطسِز بن الملك الكامل ابن الملك العادل بن أيوب فى التواقيع والمناشير وسكة الدراهم والدنانير ، فاستقر الأمر على ذلك .

ثم لما ظهرت(١) أطماع الملك الناصر يوسف بن الملك العزيز بن الملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب البلاد الحلبيّة والشاميّة ، وتبع على ذلك الإرجاف بما تواتر من الأخبار بحركة التتار ، ولا سيما دخول هلاون بلاد العراق ، واستيلائهم على تلك الآفاق ، ورأوا صغر سنّ الملك الأشرف ، وعدم قيامه بواجب أمور المملكة ، اجتمعت الآراءُ ، واتفقت الأمراءُ على استقلال عز الدين أيبك التركمانى الجاشنكير بالسلطنة ، واستقلاله بها على انفراده ، فأقاموه على ذلك ، وأزالوا عن الأشرف اسم السلطنة ، وأسقطوا اسمه من السكة والخطبة .

قال بيبرس فى تاريخه : وذلك فى شهور هذه السنة ، أعنى سنة خمسين وستمائة .

---

(١) « ثم لما ظهر أطماع » فى الأصل .

قلت : ذكر بيبرس هـذا فى السنة الماضية ، أعنى فى سنة تسعة وأربعين وستمائة ، وقال هناك : عزم الملك المعزّ أيبك على تزويج شجر الدر والاستقلال بالسلطنة و إبطال أمر الملك الأشرف من الملك ، فأبطله وخلعه وأزاله ونزعه ، ثم قال هاهنا : إن الاتفاق على سلطنته كان فى هـذه السنة ، أعنى سـنة خمسين وستمائة (١) .

ومع هـذا ذكر هو وغيره أن [٣٣٨] الملك المعز أيبك إنمـا كانت سلطنته فى سنة ثمـانية وأربعين وستمائة .

قلت : التوفيق فى هذا الكلام أنه تسلطن فى سنة ثمـانية وأربعين وستمائة ، ولكنه ما أقام إلا شيئًا يسيرا جدّا ، كما ذكرناه هناك ، ولم يعتبروا هذه السلطنة حيث لم تمتـد أيامها ولا ظهرت أحكامها ، فكانت كسلطنة الأمـير بَيْدراً (٢) عند قتـله الملك الأشرف خليل بن الملك المنصور قـلاون عند الطرّانة (٣) ، فإنه تسلطن وتلقب بالملك القـاهر وأقام نصف نهار ، ثم ضربت رقبتـه كما سيأتى بيـانه إن شاء الله تعـالى ، ثم كان عزمه للسلطنة واستقلاله بهـا فى أواخر سـنة تسعة وأربعين وستمائة ، فلذلك ذكروا أن سلطنته كانت فى هـذه السنة ، أعنى سـنة تسعة وأربعين وستمائة ، ولكن لمـا وقع استقلاله التامّ بها ، وظهوره بها ، ونفاذ

(١) انظر أيضا الجوهر الثمين ص ٢٥٧ .

(٢) وذلك فى المحرم سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م — تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٦٨ ، وانظر ترجمة بيدرا بن عبد الله المنصورى — المنهل الصافى جـ ٣ ص ٤٩٣ رقم ٧٣٤ .

(٣) الطرانة : من القرى المصرية القديمة بمركز كوم حمادة من أعمال البحيرة — التحفة السنية ص ١٢٠ ، القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٢ ص ٣٢١ — ٣٢٢ .

كلمته ، وانتشار مراسيمه فى هذه السنة ، أعنى سنة خمسين وستمائة ، أُسْنِدَت سلطنته وظهورُها التامُّ إلى هذه السنة ، أعنى سنة خمسين .

ثم لما استقلّ بذلك فى هذه السنة شرع فى تحصيل الأموال ، واستخدام الرجال ، واستوزر شخصا من نظار الدواوين يسمّى شرف الدين هبة الله بن صاعد (1) الفائزى ، كان من القبط الكُتَّاب ، ثم عدل عن أهل الكتاب ، وأسلم فى الدولة الكاملية ، وتقدّم فى المناصب الديوانيّة ، فقرر أموالا على التجار وذوى اليَسَار وأرباب العقار ، ورتّب مُكوسًا وضمانات وسماها حقوقا ومعاملات (2) ، واستقرّت وتزيّدت إلى يومنا هذا .

ثم فى هذه السنة أمّر الملك المعزّ كبارَ مماليكه ، ورتّب سيف الدين (3) قطز نائب السلطنة ، وكان أكبرهم وأقدمهم هجرةً ، وأعظمهم لديه أُثْرةً ، وقطع خبز حُسام الدين بن أبى علىّ الهَذَبانى الذى كان نائبا بالديار المصريّة ، ثم لما قطع الملك المعزّ خبزَه طلب دستورا أن يروح إلى الشام ، فأعطاه دستورا ، فسافر إلى الملك الناصر يوسف وأعطاه إمْرة خمسمائة فارس .

وفى هذه السنة تسلّم (4) المصريون الشوبك من نائب الملك المغيث فتح الدين عمر ، ولم يبق بيده غير الكرك والبلقاء [٣٣٩] وبعض الغور .

---

(١) توفى سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م — انظر ترجمته فيما يلى فى وفيات ٦٥٥ هـ .

(٢) « سماها الحقوق السلطانية والمعاملات الديوانية » فى السلوك جـ ١ ص ٣٨٤ .

(٣) توفى سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٥٩ م ، انظر ما يلى .

(٤) « تسلمت » فى الأصل .

ذكر بقية الحوادث فى هذه السنة :

منهـا : أن التتار وصلت إلى الجزيرة وسُروج ورأس العين وما والى هـذه البلاد، فقتلوا وسَبَوا، ونهبوا وخرّبوا، ووقعوا بتجار يسيرون بين حران ورأس العين، فأخذوا منهم ستمائة حمل سكر ومعمول مصر (١)، وستمائة ألف دينار، وقتلوا فى هـذه البلاد زيادة على عشرة آلاف نفس، وقتلوا الشيوخ والعجائز، وساقوا من النسوان والصبيان ما أرادوا، ورجعوا إلى خلاط (٢)، وقطع أهل الشرق الفرات، وخاض (٣) الناس فى القتلى من دنيسر (٤) إلى الفرات.

قال السبط : وحكى لى شخص من التجار قال : عددتُ على جسر بين حران ورأس العين فى مكان واحد ثلاثمائة وثمانين قتيلا (٥).

ومنهـا : أنه وقع حريق بحلب، احترق بسببه ستمائة دار، يقال : إن الفرنج لعنهم الله ألقوه فيها قصداً.

ومنهـا : أنه استقرّ الصلح بين الملك الناصر يوسف صاحب الشام وبين البحرية بمصر، على أن يكون للمصريين إلى نهر الأردن وللملك الناصر ما وراء ذلك، وذلك بواسطة نجم الدين البادرائى (٦) رسول الخليفة بسبب ذلك.

(١) « ستمائة حمل سكر من عمل مصر » . السلوك جـ ١ ص ٣٨٤ ، و « ستمائة حمل سكر مصرى » — النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٥ .

(٢) « أخلاط » فى الأصل ، والتصحيح من السلوك والنجوم الزاهرة .
وخلاط : بكسر أوله ، قصبة أرمينية الوسطى — معجم البلدان .

(٣) « وخاض » مكررة فى الأصل .

(٤) دنيسر : بلدة مشهورة من نواحى الجزيرة ، قرب ماردين — معجم البلدان .

(٥) مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٨٧ .

(٦) هـو عبد الله بن محمد بن الحسن بن عبد الله البغدادى ، نجم الدين البادرائى ، نسبة إلى بادريا : قرية من عمل واسط ، توفى سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م — انظر ترجمته فيما يلى .

قال بيبرس : وفى هـذه السنة وصل من بغداد إلى القاهرة الشيخ نجم الدين ابن البادرائى رسولا من عند الخليفة المستعصم ليصلح ما بين الملك الناصر صاحب الشام و بين الملك المعز صاحب مصر ، فتقرر الصلح وترتب ، ورجع الناصر وعسكره إلى دمشق ، وعاد المعز من الباردة (١) إلى قلعة الجبل .

ومنها : أن الملك الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب أفرج عن الناصر داود بن المعظم ، صاحب الكرك كان ، وكان قد اعتقله بقلعة حمص على ماذكرناه ، وذلك بشفاعة الخليفة المستعصم فيه ، فأفرج عنه وأمره أن لا يسكن فى بلاده ، فرحل الناصر داود المذكور إلى جهة بغداد ، فلم يمكنوه من الوصول إليها وطلب وديعته الجوهر ، فمنعوه إياها ، وكتب الناصر يوسف إلى ملوك الأطراف : لا يأووه (٢) ولا يميروه ، فبقى الناصر داود فى جهات عانة والحديثة ، وضاق به الحال و بمن معه ، وانضمت إليه جماعة من غزية ، فبقوا يرحلون و ينزلون جميعا ، ثم لما قوى [٣٤٠] عليهم الحر ولم يبق بالبرية عشب ولا كلأ ، قصدوا أزوار الفرات يقاسون بق الليل وهواجر النهار ، وكان معه أولاده ، وكان لولده الظاهر شادى فهد ، فكان يصيد فى النهار ما يزيد على عشرة غزلان ، وكان يمضى للناصر ولأصحابه أيام لا يطعمون غير لحوم الغزلان .

واتفق أن الأشرف صاحب تل باشر وتدمر والرحبة يومئذ أرسل إلى الناصر داود مركبين موسقين دقيقا وشعيرا ، وأرسل الناصر يوسف صاحب دمشق يتهدده على ذلك .

---

(١) « وعاد الملك المعز وعسكره إلى قلعة الجبل فى يوم الثلاثاء سابع صفر » (سنة ٦٥١ هـ) — السلوك جـ ١ ص ٣٨٦ ، وانظر ما يلى فى أحداث سنة ٦٥١ هـ .

(٢) « لا يؤوه » فى الأصل .

ثم أن الناصر داود قصد مكاناً للشرابىّ واستجار به ، فرتّب له الشرابىّ شيئا دون كفايته ، وأذن له فى النزول بالأنبـار ، و بينها و بين بغـداد ثلاثة أيام ، والناصر داود مع ذلك يتضرع إلى الخليفة المستعصم فلا يجيب ضراعته ، و يطلب منه وديعته فلا يردُّها إليه ، ولا يُجيبُه إلا بالممـاطلة والمطاولة .

وكانت مدة مقامهُ متنقلا فى الصحارى مع غزية ثلاثة أشهـر ، ثم بعد ذلك أرسل الخليفة وشفع فيـه عند الناصر يُوسف ، فأذن له فى العـود إلى دمشق ، ورتّب له مائة ألف درهم على بُحيرة فامية وغيرها ، فلم يتحصّل من ذلك إلاّ دون ثلاثين ألف درهم .

ومنها : أنه وصلت الأخبار من مكة بأنّ ناراً ظهرت فى أرض عدن و بعض جبالهـا ، بحيث كانت[1] تظهر بالليل ، و يرتفع بالنهار دخان عظيم .

وفيهـا : « ... . »[2] .

وفيهـا : حج بالناس من بغـداد ، فكان لهم عشر سنين لم يحجوا منذ مات المستنصر[3] بالله إلى هذه السنة .

---

(١) « كان » فى الأصل .

(٢) « ... ... » بياض فى الأصل .

(٣) هو المستنصر بالله أبو جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله محمد بن الناصر أحمد ، المتوفى سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م — العبر جـ ٥ ص ١٦٦ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٠٩ ، وورد أنه توفى سنة ٦٣٩هـ — الجوهر الثمين ص ١٧٤ .

ذكر من تُوفى فيها من الأعيان

صاحب المشارق فى الحديث ، والعباب فى اللغة ، الصاغانى أبو الفضائل الحسن بن محمد بن الحسن بن حيدر بن على بن إسماعيل القرشى العدوىّ العُمرى[1] ، من ولد عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، الصاغانى المحتد ، اللَّوْهَوْرِي ، البغدادى الوفاة ، الفقيه الحنفى المحدّث اللغوى المنعوت بالرضى .

ولد بلَوْهوْر — بفتح اللام وسكون الواوين بينهما هاءٌ مفتوحة وفى آخرها راءٌ — وهى مدينة كبيرة من بلاد [٣٤١] الهند ، كثيرة الخير ، ويقال لها : لَهَاوُور أيضا ، سنة سبع وسبعين وخمسمائة ، يوم الخميس عاشر صفر ، ونشأ بغزنة ، ودخل بغداد فى صفر سنة خمس عشرة وستمائة ، وتوفى بها ليلة الجمعة تاسع عشر شعبان سنة خمسين وستمائة ، ودفن بداره فى الحريم الظاهرى ، ثم نقل إلى مكة ودفن بها ، وكان أوصى بذلك ، وجعل لمن يحمله ويدفنه بمكة خمسين دينارا .

وسمع[2] بمكة وعدن والهند .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، فوات الوفيات جـ ١ ص ٣٥٨ رقم ١٢٩ ، السلوك جـ ١ ص ٣٨٥ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٦ ، العبر جـ ٥ ص ٢٠٥ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٥٠ .

(٢) « وسمع » مكررة فى الأصل .

وصنف مجمع البحرين(١) فى اثنى عشر سفرا ، وصنف العباب(٢) ، ومات قبل أن يكمله بثلاثة أحرف أو أكثر ، وصنف الشوارد فى اللغات(٣) ، وشرح القلادة السمطية فى توشيح الدريدية(٤) ، وكتاب فعال على وزن جذام وقطام وفعلان على وزن شيبان ، وكتاب الإنفعال ، وكتاب مفعول ، وكتاب الأضداد ، وكتاب العروض ، وكتاب فى أسماء الأسد ، وكتاب فى أسماء الذئب ، وكتاب مشارق الأنوار النبوية(٥) فى الحديث ، وشرح البخارى(٦) فى مجلد ، ومصباح الدجى والشمس المنيرة فى الحديث(٧) ، ودرر السحابة فى وفيات الصحابة ، ومختصر الوفيات ، وكتاب الضعفاء ، وكتاب الفرائض(٨) .

وكان عالما صالحا .

والصاغانى نسبة إلى قرية بمرو يقال لها : جاغان ، فعربت وقيل : صاغان .

---

(١) « مجمع البحرين فى اللغة ، اثنى عشر مجلدا » — هدية العارفين جـ ١ ص ٢٨١ .

(٢) « العباب الزاخر فى اللغة ، عشرين مجلدا » — هدية العارفين .

(٣) « فى اللغة » — هدية العارفين .

(٤) « شرح مقصورة ابن دريد » — هدية العارفين .

وابن دريد هو محمد بن الحسن بن دريد ، أبو بكر ، المتوفى سنة ٣٢١ هـ / ٩٣٣ م — هدية العارفين جـ ٢ ص ٣٢ .

(٥) « مشارق الأنوار النبوية من صحاح الأخبار المصطفوية » — هدية العارفين .

(٦) « شرح الجامع الصحيح للبخارى » — هدية العارفين .

(٧) « وشرح البخارى فى مجلد » فى الأصل وهى مكررة من السطر السابق .

وهما : « الشمس المنيرة فى الحديث ، ومصباح الدجى فى حديث المصطفى صلى الله عليه وسلم » — هدية العارفين .

(٨) من مصنفات صاحب الترجمة انظر هدية العارفين جـ ١ ص ٢٨١ .

الركنُ البخاريّ الحنفى محمود بن الحسين بن محمود بن فلان أبو القاسم ، المنعوت بالركن البخاريّ .

فقيه ، عالم بالخلاف ، والأصلين ، وعلم البديع ، والشعر .

مولده ببخارى سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة ، وتوفى بدمشق ليلة الأحد سادس رمضان من سنة خمسين وستمائة .

ومن تصانيفه شرحان للجامع الكبير أحدهما مختصر والآخر مطول سماه البحرين ، وصنف كتابا سماه خير مطلوب ، صنفه للملك الناصر داود بن الملك المعظم .

وكان عالما فاضلا ، رحمه الله .

شمسُ الدين محمد بن سَعْد المقدسى (١) ، الكاتب الحسن الخط كثير الأدب .

سمع الكثير ، وخدم السلطان الصالح إسماعيل والناصر داود ، وكان دينا فاضلا شاعرا ، له قصيدة يمدح فيها [٣٤٢] الصالح إسماعيل وما يلقاه الناس من وزيره وقاضيه وغيرهما من حواشيه ، مات فى هذه السنة .

عبد العزيز بن علىّ بن عبد الجبار ، المغربى أبوه .

ولد ببغداد ، وسمع بها الحديث ، وعنى بطلب الحديث والعلم ، وصنّف كتابا فى مجلدات على حروف المعجم فى الحديث ، وحرّر فيه حكاية مذهب الإمام مالك رضى الله عنه .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٨٧ ، السلوك جـ ١ ص ٣٨٥ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٦ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٥١ ، العبر جـ ٥ ص ٢٠٦ .

الشيخ أبو عبد الله محمد بن غانم بن كريم الأصبهانى .

قدم بغداد ، وكان إماما فاضلا ، فتتلمذ (١) للشيخ شهاب الدين السهروردى (٢) ، فانتفع به ، وتكلم بعده على الناس فى الوعظ ، وفاق أهل زمانه ، وكان حسن الطريقة ، له يد فى التفسير ، وله تفسير على طريقة التصوف ، وفيه لطافة ، ومن أشعاره :

وقُوفى بأكناف العقيق عُقوق إذا لم أَرِدْ والدمعُ فيه عقيق
وإن لم أُمتْ شوقاً إلى سكن الحمى فما أنا فيما أدعيه صَدُوقُ
أيا ربعَ ليلى ما لمجنون فى الهوى سِوَاهُ ولا كلُّ الشراب رَحيقُ
ولا كلُّ من يلقاك قلبه واعى ولا كلُّ من يحنو إليك مَشُوقُ
تكاثرت الدعوى على الحبِّ فاستوى أسيرُ صباباتِ الهوى وطليقُ

توفى الشيخ بن غانم فى هذه السنة، رحمه الله .

أبو الفتح نصر الله (٣) بن هبة الله بن عبد الباقى بن هبة الله بن الحسين بن يحيى الغفارى الكنانى المصرى ، ثم الدمشقى .

كان من أخصّاءِ الملك المعظم وولده الملك الناصر داود ، وقد سافر معه إلى بغداد فى سنة ثلاث وثلاثين وستمائة، وكان أديبا مليح المحاضرة ، ومن أشعاره :

---

(١) « فتلمذ » فى الأصل .

(٢) هو عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن التيمى البكرى الصوفى ، شهاب الدين السهروردى ، المتوفى سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م — العبر جـ ٥ ص ١٢٩ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، فوات الوفيات جـ ٤ ص ١٨٧ رقم ٥٤٥ ، الطالع السعيد ص ٦٧٦ رقم ٥٣٨ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٥٢ ، السلوك جـ ١ ص ٣٨٥ .

ولما أبيتم سادتى عن زيارتى وعوضتمونى بالبعاد عن القرب
ولم تسمحوا بالوصل فى حال يقظتى ولم يصطبر عنكم لرُقْيَةِ قلبى
نصبت لصيد الطيف نومى حبالةً فأدركت بالنوم بالنصب

الشريف أبو عبد الله محمد[1] بن الحسين الأرموى ، الفقيه الشافعى ، المعروف بقاضى العسكر .

تولى نقابة الأشراف ، وقضاء العسكر ، وترسّل إلى بغداد وغيرها ، وصحب شيخ الشيوخ أبا الحسن بن حمويه[2] وتفقه عليه ، وكان [٣٤٣] من الرؤساء المذكورين والفضلاء المشهورين ، توفى فى هذه السنة بمصر .

باطوخان[3] بن دوشى خان بن جنكزخان .

مات فى هذه السنة ببلاد الشمال ، وكان لقبه صاين خان ، ومعناه الملك الجيد ، وكانت مدّة مملكته ببلاد الشمال ونواحى الترك والقفجاق مدّة عشر سنين ، وهو ثانى ملك تملكها من ذُرِّيةِ جنكزخان ، وكرسىُّ هذه المملكة تسمى صراى[4] ، وخلّف

(١) وله أيضا ترجمة فى : الدليل الشافى جـ ٢ ص ٦١٦ ، الوافى جـ ٣ ص ١٧ رقم ٨٧٧ ، السلوك جـ ١ ص ٣٨٥ .

(٢) « تفقه على الصدر ابن حمويه » — السلوك جـ ١ ص ٣٨٥ ، وصدر الدين بن حمويه هو محمد بن عمر بن على بن محمد بن حمويه الجوينى ، صدر الدين ، أبو الحسن ، المتوفى سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م — العبر جـ ٥ ص ٧٠ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٥٧ .

(٤) صراى أو سراى : مدينة شمال غرب بحر الخزر (قزوين) — معجم البلدان .

من الأولاد ثلاثة وهم : صغان[1] و بركة و برْكجار ، فنازعهم أخوه المملكة ، واستبدّ بها دونهم ، وكان اسمه صرطق[2] بن دُوشى خان بن جنكزخان ، فاستقرّ فى هذه السنة فى الملك بالمملكة المذكورة .

---

(١) « طغان » — نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٥٧ .

(٢) توفى سنة ٦٥٢ هـ/ ١٢٥٤ م — انظر ما يلى .

فصلٌ فيما وقع من الحوادث

فى السّنة الحادية والخمسين بعد السّتمائة (*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة : هو المستعصم بالله .

وصاحب الديار المصريّة : الملك المعز أيبك الجاشنكير التركمانى الصالحىّ .

وصاحب الديار الدمشقيّة والحلبيّة والحمصيّة : الملك الناصر يوسف بن الملك العزيز بن الملك الظاهر غازى بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب .

وصاحب تُدْمُر والرحبة : الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن المنصور .

وصاحب حماة : الملك المنصور ناصر الدين محمد بن المظفر تقى الدين محمود ابن المنصور بن المظفر تقى الدين محمود بن المنصور بن المظفر عمر بن شاهين شاه ابن أيوب .

وصاحب الكرك : الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن الملك الكامل .

وصاحب بعلبك وبصرى : الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن العادل .

وصاحب عينتاب : الملك الصالح صلاح الدين أحمد بن الملك الظاهر غازى ابن صلاح الدين ، ولكنه توفى فى هذه السنة على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

(*) يوافق أولها الإثنين ٣ مارس ١٢٥٣ م .

وصاحب ميافارقين : الملك الكامل ناصر الدين محمد بن المظفر غازى بن العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب .

وصاحب الموصل : الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ .

وصاحب الروم ثلاثة وهم : عز الدين كيكاوس ، وركن الدين قليج أرسلان ، وعلاء الدين كيقباذ ، أولاد غياث الدين كيخسرو ، والسلطان الأكبر بالروم علاء الدين كيقباذ ، وكرسيُّه قونية .

وصاحب بلاد الشمال صَرْطَق .

[٣٤٤] وصاحب قراقروم : منكوقان .

وصاحب العراق : هلاون .

وكان نائب السلطنة بالديار المصريّة : سيف الدين قطز ، والوزير بها : الصاحب شرف الدين الفائزى ، وقاضى القضاة بدر الدين السنجارىّ استقلالا بالقاهرة ومصر المحروستين والوجهين القبلى والبحرىّ .

وكان الأمير الكبير فى الديار المصريّة فارس الدين أقطاى الجمدار الصالحى النجمىّ ، واستفحل أمره فى هذه السنة ، وانحازت إليه البحريّة ، وأرسل إلى ابن الملك المظفر صاحب حماة (١) يلتمس وصلته ، ويخطب إليه ابنته ، وكان الرسول إليه الصاحب فخر الدين محمد (٢) بن الصاحب بهاء الدين المعروف بابن حنّا ، ولم

(١) هو الملك المنصور محمد — انظر ما سبق .

(٢) هو محمد بن على بن محمد بن سليم ، الوزير الصاحب فخر الدين أبو عبد الله ، ابن الوزير الصاحب بهاء الدين ، المتوفى سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م — المنهل الصافى ، الوافى بالوفيات جـ ٤ ص ١٨٥ رقم ١٧٢٥ .

يكن والده وُزِرَ بعد ، وإنما كان مُرَشَّحًا لذلك ، فلما وصل إلى صاحب حماة تلقاه بالإجلال و إجابة السُّؤال ، وجهّز ابنته بما يليق بمثلها .

فسمَت نفس الأمير فارس الدين ، وعلت رتبته ، وكثرت أتباعه وشيعته على البحرية وغيرهم من الخوشداشيَّة بالإقطاعات والصلات والإطلاقات ، وكانوا لا يعبأون بالملك المعزّ ، ولا يلبّسونه ثوب عزّ ؛ بل يهضمون جانبه ، ويُعطّلون مراسمَه ومآربه ، وينتقصون حرمته ، ويغضون منه ، وهو يُسِرُّ ذلك كلّه ويخفيه ، ويُضمرُه فى نفسه ولا يُبديه ، وأعمل الحيلة على قتل الأمير فارس الدين أقطاى لأنه الرأس ، وإذا قتله لايثبت بنيان البحرية بغير أساس ، فانقضت هذه السنة وهم على هذه الحال ، والبحرية منهمكون على اللذات والصيد ، والمعزّ ينصب لهم حبائل الكيد .

وفيها قُدِّمَ(١) فى الجيش المصرىّ بالفرنج ، ووعدوهم أن يسلّموا إليهم بيت المقدس إن نصروهم على الشاميّين ، وكان قد اشتدَّت الحربُ بينهم وتَنَبَّهتْ ، ودخل الشيخ نجم الدين البادرائى رسول الخليفة بينهم وأصلحهم .

وقال السبط : وقدم الشيخ البادرائى والنظام بن المولى(٢) القاهرة ، وحلّفا الملك المعزّ والأمراء ، وخلّصا الأمراء المعظم وأخاه النُصرة(٣) ، وابن صاحب

(١) « قدما » فى الأصل .

(٢) هو نظام الدين أبو عبد الله محمد بن المولى الحلبى ، كاتب الإنشاء بحلب — السلوك ج ١ ص ٣٨٥ .

(٣) « المعظم توارنشاه بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وأخاه نصرة الدين » — السلوك ج ١ ص ٣٨٦ .

حمص ، وغيرهم ، [و بنت الأشرف[1]] وأولاد الصالح إسماعيل[2] ، وغيرهم من المحبوسين .

وفيها : « ... ... »[3] .

وفيها : حج القاضى بدر الدين[4] قاضى مصر على البحر وعاد على البر ، والأصح أن حجه [٦٤٥] كان فى السنة الثانية والخمسين ، وحج بالناس « .. ..[5] »

(١) [ ] إضافة من مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٨٩ .

(٢) مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٨٩ .

(٣) « ... ... » بياض فى الأصل .

(٤) هو بدر الدين السنجارى ، يوسف بن الحسن بن على ، المتوفى سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٤ م — انظر ما يلى .

(٥) « ... ... » بياض فى الأصل .

ذكر من تُوفّى فيها من الأعيان

الشيخ المسند أبو القاسم عبد الرحمن[(١)] بن أبى الحرم، المعروف بابن الخاسب، سِبْط الحافظ أبى طاهر السّلفى ، توفى فى هذه السنة بمصر .

الشيخ الفاضل أبو الفضائل أحمد بن يوسف المغربى القفصى، توفى فى هذه السنة بمصر ، وله شعر حسن ، ونثر جيّد ، ومصنّفات فى عدّة فنون .

الشيخ الأديب أبو إسحاق إبراهيم[(٢)] بن سليمان بن حمزة الدمشقىّ، الكاتب المعروف بابن النجار .

توفى فى هذه السنة بدمشق .

وله شعر حسن ، وكان أحد الكتاب المشهورين بجودة الخطّ ، وقوة الكتابة ، وسافر إلى حلب ، وإلى ديار مصر ، وغيرها .

سعد الدين محمد[(٣)] بن المؤيّد بن حمويه، ابن عمّ صدر الدين شيخ الشيوخ ، توفى فى هذه السنة بخراسان .

---

(١) هو عبد الرحمن بن مكى بن عبد الرحمن الإسكندرى ، وله أيضا ترجمة فى : العبر جـ ٥ ص ٢٠٨ ، السلوك جـ ١ ص ٣٨٩ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٦٥ رقم ٢٩ ، العبر جـ ٥ ص ٢٠٧ ، الوافى جـ ٥ ص ٣٥٦ رقم ٢٤٣٦ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٥٣ ، العبر جـ ٥ ص ٢٠٧ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣١ . مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٩٠ ، وورد فى العبر وشذرات الذهب أنه توفى سنة ٦٥٠ هـ — العبر جـ ٥ ص ٢٠٦ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٥١ .

وكان زاهدا عابدا ورعا لطيفا، يتكلّم فى الحقيقة، وله مجاهدات ورياضات، وقدم مصر، وحج، وسكن الشام، فأقام بقاسيون مدةً فى زاوية يتعبَّد، ومعه جماعة من أصحابه، وكان فقيرا جدا، ومع ذلك لم يكن يتردد إلى أحد من أبناء الدنيا، ولا إلى بنى عمه، ولما ضاق به الحد توجه إلى خراسان واجتمع بملوك التتار، فأحسنوا فيه الظن، وأعطوه ما لا كثيرا، وأسلم على يده خلق كثير منهم، وبنى بآمد خانكاة وتربة إلى جانبها، وأقام يتعبَّد، وله قبول عظيم هناك، فقال فى بعض الأيام: أريد أزور جدى محمد بن حمُّويه بجراباذ، ومضى إليه وزاره، وأقام عنده أسبوعا، فمات ودفن هنالك إلى جانب جده، وقيل: إنه مات فى سنة خمسين وستمائة (١).

الإمام جُواهر زاده، العالم العلّامة بدر الدين محمد بن محمود بن عبد الكريم (٢) الكَردِرىّ المعروف بجواهر زاده، ابن أخت الشيخ شمس الدين الكَردِرىّ شمس الأئمة.

تفقه على خاله شمس الأئمة الكَردِرىّ، وتوفى سلخ ذى القعدة من سنة إحدى وخمسين وستمائة، ودفن عند خاله.

كمال الدين أبو المكارم عبد الواحد بن خطيب (٣) زَمْلكا (٤).

---

(١) هذه الترجمة تكاد أن تكون منقولة بنصها من مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٩٠.

(٢) وله أيضا ترجمة فى: المنهل الصافى، والدليل الشافى جـ ٢ ص ٧٠٣ رقم ٢٤٠٣ وفيه «الكردى»، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٥٦.

(٣) هو عبد الواحد بن عبد الكريم بن خلف بن نبهان الأنصارى الزملكانى، كمال الدين أبو محمد. وله أيضا ترجمة فى. الذيل على الروضتين ص ١٨٧، العبر جـ ٥ ص ٢٠٨، السلوك جـ ١ ص ٣٨٩، وورد فى شذرات الذهب أنه توفى سنة ٦٥٠هـ، جـ ٥ ص ٢٥٠.

(٤) زملكا = زملكان: قرية بغوطة دمشق — معجم البلدان.

كان فاضلا ، عالمـا خيرا ، متميزا فى علوم متعددة ، وتولى قضاء صرخد ، ودرس [٣٤٦] ببعلبك ، ثم توفى فى دمشق فى ثامن المحـرم (١) من هذه السنة ، ودفن بمقابر الصوفية .

وكان أبوه عبد الكريم الخطيب ، توفى فى سنة خمس وثلاثين وستمائة .

الملك الصالح صلاح الدين أحمـد (٢) بن الملك الظاهر غازى بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب صاحب عينتاب (٣) .

توفى فى شعبان سنة إحدى وخمسين وستمائة (٤) بعينتاب ودفن فيها .

وكانت ولادته فى صفر سـنة ستمائة بحلب ، وكان ملكه عينتاب من سنة أربع وعشرين وستمائة ، وكان أولا بيـده الشُغرُ وبكاس ، فانتزعهما الأتابك طُغرُل وعوضه عنهما بعينتاب والراوندان ، واستمر فى عينتاب إلى أن توفى بها فى هذه السنة ، رحمه الله .

---

(١) « فى سادس المحرم » — الذيل على الروضتين ص ١٨٧ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٢ ص ٥٥ رقم ٢٢٧ ، الوافى جـ ٧ ص ٢٧٦ رقم ٣٢٥٥ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٥٣ ، السلوك جـ ١ ص ٣٨٩ ، العبر جـ ٥ ص ٢٠٧ .

(٣) عينتاب : قلعة بين حلب وأنطاكية — معجم البلدان .

(٤) « وسبعمائة » فى الأصل ، وهو تحريف .

فصل فيما وقع من الحوادث
في السنة الثانية والخمسين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة : هو المستعصم بالله .

وأصحاب البلاد وملوك الأطراف على حالهم ، غير صاحب الشمال صَرْطق ابن دُوشى خان بن جنكزخان ، فإنه هلك فى هذه السنة على ما نذكره عن قريب ، وكذلك هلك الأمير فارس الدين أقطاى قتيلا .

ذكر مقتل فارس الدين أقطاى :

قال بيبرس : وفى هذه السنة عزم الملك المعزّ على قتله ، واتفق مع مماليكه على حيلة ، فلما كان فى شهر شعبان أرسل إليه يستدعيه مُوهِمًا له أنه يستشيره فى مهمات من الأمور ، ويعرض عليه آراء من التدبير ، وقد كمن له كمينا من مماليكه وراء قاعة الأعمدة (١) بالقلعة ، وقرّر معهم أنه إذا مرّ مجتازا بالدهليز يتبدرونه بسُرعة ويعاجلونه بالصَرْعة ، فلما وردت إليه رسالة المعزّ بادر بالركوب فى نفر يسير من مماليكه من غير أن يُعلم أحدا من خوشداشيته ، لثقته بتمكن حرمته ، وطلع القلعة آمنا ، ولم يَدْر بما كان له كامنًا ، فلما وصل إلى باب القلعة منع مماليكه من الدخول معه ، ووثب عليه المماليك المعزّية فعَلَوْه بالمشرفية ، وأذاقوه كأس المنيّة ، وقتلوه على مكانته ، ولم يُنجِدْه أحد من بطانته .

(*) يوافق أولها السبت ٢١ فبراير ١٢٥٤ م .

(١) قاعة كبرى بالقلعة برسم خوند الكبرى — زبدة كشف الممالك ص ٢٦ .

وفى تاريخ النويرى : وفى هذه السنة [٣٤٧] اغتال الملك المعز أيبك التركمانى المستولى على مصر خُشداشه الفارس أقطاى الجمدار ، وأوقف له فى بعض دهاليز الدور التى بقلعة الجبل ثلاث مماليك وهم : قُطُز وبهادُر وسنجر الغتمى ، فلما مرّ بهم أقطاى ضربوه بسيوفهم فقتلوه .(١)

ذكر ترجمة أقطاى :

ويقال له : أقطايا(٢) ، كان من مماليك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيّوب ، وكان أحد الجمدارية عنده ، ثم ترقت به الحال إلى أن استولى على الديار المصرية ، وتقدم على البحرية الذين أهلكوا الناس .

وقال ابن واصل : وكان أقطاى إذا ركب يقتل(٣) بين يديه جماعة بأمره ، وكانت خزائن مصر بيده ، وكان أصحابه يأخذون أموال الناس وحريمهم وأولادهم أخذا باليد ، ولا يقدر أحد على منعهم ، ويدخلون حمامات النساء فيأخذون منهنّ مَن يختارون .

وكان أقطاى يمنع الملك المعزّ أيبك من الاستقلال بالسلطنة ، وكان الاسم للملك الأشرف موسى بن يوسف بن الملك الكامل بن العادل بن أيّوب ، فلما قتل

(١) ملخصا من مخطوط نهاية الأرب جـ ٢٧ ورقة ١٢٢ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٢ ص ٥٠٢ رقم ٥٠٥ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٠ — ١٢ ، العبر جـ ٥ ص ٢١١ ، الوافى جـ ٩ ص ٣١٧ ترجمة ٤٢٥٠ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٥٥ ، مرآة الزمان جـ ٨ ق ٢ ص ٧٩٢ — ٧٩٣ .

(٣) « شعل » فى السلوك ، وهو تحريف جـ ١ ص ٣٧٩ .

أقطاى استقلّ أيبك بالسلطنة ، وأبطل الأشرف المذكور بالكليّة ، وبعث به إلى عمّاته القُطبيّات (١) ، والأشرف المذكور آخر من خُطب له من بيت بنى أيوب بالسلطنة فى مصر ، وكان انقضاء دولتهم من الديار المصرية فى هذه السنة .

ذكر ما تجدّد للبحريّة الصالحيّة بعد موت أقطاى المذكور :

ولما شاع الخبر بموته قتيلا ، وبلغ خوشداشيّته الأمر ضاق بهم الفَضاء ، وحاق بهم القضاء ، وتحققوا أنهم متى تلبّثوا أخذوا بالنواصى والأقدام ، وأُلحقُوا به فى الإعدام ، فأجمعوا أمرَهم على التوجه إلى الشام ، وكان منهم من الأمراء الأعيان : الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارىّ ، والأمير سيف الدين قلاوون الألفى ، والأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، والأمير بدر الدين بيسَرى الشمسى ، والأمير سيف الدين سُكُزْ ، والأمير سيف الدين برامُق ، وغيرهم ، فرأوا الرواح خيرا من الإقامة ، واتفقوا وخرجوا ليلا فوجدوا باب المدينة [٣٤٨] الذى قصدوا الخروج منه مغلقًا ، فأضرموا فيه نارا ، وهو الباب المعروف بباب القراطين (٢) ، وتوجّهوا على حميّة نحو البلاد الشاميّة ، وقصدوا الملك الناصر يوسف صاحب دمشق وحلب وغيرهما ليكونوا عنده من جملة العساكر ، ولما أصبح المعزّ بلغه تسحّبهم من المدينة ، فأمر بالحوطة على أملاكهم وأموالهم ودورهم وغلالهم

(١) هن بنات الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، وأخوات إبنه الملك الكامل محمد ، ويعرفن بالقطبيات نسبة إلى شقيقهن الملك المفضل قطب الدين أحمد ، وكانت مساكنهن بقلعة الجبل بالقاهرة — مفرج الكروب — حوادث سنة ٦٤٨ هـ .

(٢) هو باب القاهرة الشرقى ، وعرف بعد الحريق باسم « الباب المحروق » — المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٣٨٢ .

ونسوانهم وغلمانهم وأتباعهم وأشياعهم ، واستُصْفِيتَ أموالهم وذخائرهم وشُوَنهم ، واستتر مَنْ تأخر منهم ، واختفى من انقطع من الأتباع عنهم ، ونُودِى عليهم فى الأسواق والشوارع والطرقات والقوارع بتهديد من يأوى منهم أحد عنده ، وتمكن الملك المعز من المملكة ، وارتجع ثغر الإسكندرية (١) إلى الخاصة السلطانية ، وأبطل ما قرره من الجبايات ووزعه من الجنايات ، وأعفى الرعية من المطالبات والمصادرات .

ذكر وصول البحرية إلى الشام :

ولما وصلت البحرية المذكورون الهاربون من مصر إلى الملك الناصر يوسف صاحب الشام أطمعوه فى ملك مصر ، فرحل من دمشق بعسكره ونزل غمتا من الغور ، فأرسل إلى غزة عسكرا فنزلوا بها ، وكذلك برز المعز أيبك صاحب مصر إلى العباسة ، وخرجت السنة وهم على ذلك .

وفى تاريخ النويرى : ولما قتل أقطاى تفرقت أصحابه وانعزل منهم جماعة ، تقدير اثنى عشر نفرا ، وخرجوا هاربين خوفا من المعز ، فوقعوا فى التيه ، فذكروا أنهم أقاموا فيه خمسة أيام حائرين ؛ ثم نفذ زادهم وماؤهم فى اليوم السادس ، ولاح لهم سوادٌ على بُعد ، فقصدوه ، فإذا هو مدينة عظيمة ذات أسوار وأبواب حصينة كلها من الرخام الأخضر ، فدخلوها ، فوجدوا الرمل ينبُع من أرضها كنبع الماء ، فطافوا بأسواقها ودورها ، فلم يجدوا بها ما يأخذون ، لأن جميع

---

(١) كان الملك المعز أيبك قد أقطع الفارس أقطاى ثغر الإسكندرية سنة ٦٥٠ هـ / ١٢٥٢ م — انظر السلوك جـ ١ ص ٣٨٤ .

أوانيهم وملابسهم (١) تتفتّت كالهباء إلا أنهم وجدوا فى بعض المواضع تسعة دنانير منقوش عليها صورة غزال وحوله أسطر بالعبرانيّة ، ثم وجدوا مكانا ابريدون [٣٤٩] لحفروه ، فطلعت لهم بلاطة ، فرفعوها فإذا صهريج ماء أبرد من الثلج ، فشربوا واستقوا وسافروا تلك الليلة ، فوقعوا على قبيلة من العرب ، فحملوهم إلى الملك المغيث صاحب الكرك (٢) ، فأمر بهم فنزلوا فى الربض ، ثم عرضوا تلك الدنانير على الصيارف ، فقال بعضهم : هذه ضربت فى أيام موسى عليه السّلام ، فسألَنا عن قصتها ، فأخبرنا ، فقال : هذه المدينة الخضراء بنيت لما كان بنو إسرائيل فى التّيه ، ولها طوفان من رمل ، فتارةً يزيد وتارة ينقص ، وهى مَخْفِيَةٌ لا يقع عليها إلا تائهٌ ، ثم بعْنا كل دينار بمائة درهم (٣) .

ذِكْرُ هَلاك صَرْطَق (٤) بن دُوشى خان بن جنكزخان صاحب البلاد الشمالية :

مات فى هذه السّنة حتف أنفه ، وكانت مدّة مملكته سنةً وشهرا ، ولم يكن له ولد يلى المملكة بعده ، وكانت بَرَاق شِين زوجة طغاى (٥) بن أخيه [باطو خان] (٦) قد أرادت أن تولى ولدها تُدانْ منكو السلطنة ، وكانت لها بَسْطةٌ وتحكمٌ ، فلم يوافقها الخانات أولاد باطُو وبقيّة الأمراء ، فلما رأتِ أنهم لم يوافقوها راسلت

---

(١) « ملابيسهم » فى الأصل .

(٢) « لحملوهم إلى الكرج » فى السلوك جـ ١ ص ٣٩١ .

(٣) لم يرد هذا الخبر فى مخطوط نهاية الأرب التى بين أيدينا ، وانظر السلوك جـ ١ ص ٣٩١ .

(٤) « طرطق » فى السلوك جـ ١ ص ٣٩٤ .

(٥) « صغان » فيما سبق ، و « طغاى » فى نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٥٧ .

(٦) [ ] إضافة من نهاية الأرب جـ ٢٧ للتوضيح .

هلاون ، وأرسلت إليه نشابا بلا ريش ، وقباء بلا بنود ، وبعثت تقول له : قد فرغ الكاشن من النُشاب ، وخلا القُرنان من القوس ، فتحضر لتسلم المُلك ، ومعنى(١) هذه الرسالة : إنه لم يبق ممانع ولا مدافع ، ثم سارت فى إثر الرسول تقصد اللحاق بهلاون و إحضاره إلى بلاد الشمال .

وكان(٢) أول من دخل البلاد الشمالية ومملكتها من أولاد جنكز خان دوشى خان ، واستقر بها إلى حين هلاكه ، فملكها بعده ولده باطوخان ، ثم ملكها بعده ولده(٣) الثانى صرطق ، فلما عزمت براق شين على ذلك ، بلغ القوم ما أرادته ، فأرسلوا فى إثرها ، وأعادوها كارهةً ، وضربوا رقبتها جزاء بما فعلت .

ذكر جلوس بركة فى المملكة :

ولما جرى ما ذكرنا ، جلس بركة خان فى كرسى المملكة ، وبركة خان هذا هو ابن باطو خان بن دُوشى خان بن جنكز خان ، ولما ملك البلاد أسلم وحسن إسلامه ، وأقام منار الدين ، وأظهر شعائر المسلمين ، وأكرم الفقهاء [٣٥٠] والعلماء ، وأدناهم ، وأبرّهم ، ووصلهم ، واتخذ المساجد والمدارس بنواحى مملكته ، وأخذ بالإسلام جُلّ عشيرته ، ونفذ أمرُه ، وامتدّت أيامهُ ، وأسلمت زوجته ججك خاتون ، واتخذت لها مسجدا من الخيم(٤) يحمل معها حيث اتجهت ، ويضرب حيث نزلت ، وكان من شأنها وشأن زوجها ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

(١) « وهى » فى الأصل ، والتصحيح يتفق وسياق الكلام .

(٢) « فكان » فى الأصل .

(٣) المقصود ولد دوشى خان — انظر ما سبق .

(٤) « من الخيام » نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٥٩ .

وفي تاريخ بيبرس : وكان السبب في إسلام بركة خان أن الشيخ نجم الدين الكبراء[(١)] كان قد ظهر صيته وارتفع ذكره ، ففرق مريديه إلى المدن العظام ، ليظهروا بها شعائر الإسلام ، وأرسل سعد الدين الحموي إلى خراسان ، وكمال الدين السرياقي إلى تركستان ، ونظام الدين الجندي إلى قفجاق ، وسيف الدين الباخرزي إلى بخارى ، فلما استقر الباخرزي ببخارى أرسل تلميذا له كبير المحل عنده إلى بركة خان ، فاجتمع به ووعظه ، وحبب إليه الإسلام ، وأوضح له مناهجه ، فأسلم على يده ، واستمال بركة عامة أصحابه إلى الإسلام ، وقصد أن يبر الشيخ بشيء قبالة ما أسداه إليه ، فأمر له ببايزة[(٢)] بالبلاد التي هو فيها ليكون وقفا على الفقراء والصلحاء وتجبى أموالها إليه ، وأرسل البايزة إلى الباخرزي ، فلما وصلته قال لرسوله : ما هذه ؟ قال : هذه تكون في يد الشيخ تحمي كل من يكون من جهته . فقال : اربطها على حمار ، ثم أرسله إلى البرية ، فإن حمته من الذهاب[(٣)] فأنا أقبلها ، وإن كانت لا تحمي الحمار فما عساه لي فيها ، وأبى أن يقبلها ، فعاد الرسول وأخبر بركة بما قال الشيخ ، فقال بركة : أنا أتوجه إليه بنفسي ، فسار نحوه ، ووصل إلى بخارى ، وأقام بباب الشيخ ثلاثة أيام ، وهو لا يأذن له في الدخول إليه ،

---

(١) « نجم الدين كبرا » في السلوك جـ ١ ص ٣٩٥ .

(٢) البايزة : لوحة من الذهب أو الفضة ، وفي بعض الأحيان من الخشب ، وذلك على حسب رتب الأشخاص ، وينقش على وجهها اسم الله واسم السلطان وعلامة خاصة ، وتهدى إلى الأشخاص الذين يتمتعون بثقة المغول ، كما أنها تتضمن أمر الملك لسفرائه ، ويتمتع حاملها بامتيازات خاصة فله الطاعة على كل من في الدولة المغولية — انظر جامع التواريخ — المجلد الثاني — الجزء الأول ص ٢٤٧ هامش (١) .

(٣) هكذا الأصل ، ولعلها « الذئاب » .

حتى تحدّث معه بعض مُريديه ، فقال : إن هذا ملكٌ كبير ، وقد أتى من بلد بعيد يلتمسُ التبرّك بالشيخ والحديث معه ، فلا بأس بالإذن له ، فأذن له عند ذلك ، فدخل إليه وسلم عليه ، وكان الشيخ متبرقعا فلم يكشف له عن وجهه ، ووضع بين يديه [٣٥١] مأكولا ، فأكل منه ، وجدّد إسلامه على يده ، وعاد عنه إلى بلده .

ذكر بقيّة الحوادث :

منها : أنه وردت الأخبار من مكة ، شرفها الله ، بأن نارا ظهرت فى أرض عدن فى بعض جبالها بحيث أنه يظهر شررها إلى البحر فى الليل ، ويصعد منها دخان عظيم فى أثناء النهار ، فما شكّوا أنها النار التى ذكر النبيّ صلى الله عليه وسلم أنها تظهر فى آخر الزمان ، فتاب الناسُ ، وأقلعوا عما كانوا عليه من المظالم والفساد ، وشرعوا فى أفعال الخير والصدقات .

ومنها : أن الشريف المرتضى وصل من الروم ومعه بنت علاء الدين كيقباذ صاحب الروم ملكة خاتون التى خطبها الملك الناصر يوسف صاحب دمشق ، فزفت إليه بدمشق ، ودخل بها ، واحتفل لها احتفالا عظيما .

قال السبط : وتلقاها قضاة البلاد ، والولاة ، والنواب ، بالهدايا والإقامات ، من الروم إلى دمشق (١) .

ومنها : أن الملك المنصور صاحب حماة ولّى قضاء حماة للقاضى شمس الدين إبراهيم بن هبة الله بن البارزى بعد عزل القاضى المُحيى حمزة بن محمد .

(١) مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٩١ .

ومنها : أن هلاون شن الغارات على بلاد الإسماعيلية وقلاعهم ومعاقلهم ، وهم المسمون بالملاحدة ، فنهب وسبي ، وفتح في هذه السنة قلعتين من قلاعهم إحداهما [1] تسمى قلعة صرطق والأخرى قلعة تون ، واستمر على النهب والغارة ومضايقة القلاع .

وفيها : « ... ... » [2] .

وفيها : حج بالناس « ... ... » [3] .

---

(١) « إحديهما » في الأصل .

(٢) « ...... » بياض في الأصل .

(٣) « ...... » بياض في الأصل .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

الخسروشاهى المتكلم عبد الحميد بن عيسى شمس الدين (١) .

أحد مشاهير المتكلمين ، وممن اشتغل على الفخر الرازى فى الأصول وغيرها ، ثم قدم الشام فلزم الملك الناصر داود بن الملك المعظم وحظى عنده .

وقال أبو شامة : وكان شيخا نبيها (٢) فاضلا متواضعا حسن الظاهر .

وقال السبط : كان كيساً ، محضر خير ، لم ينقل عنه أنه أذى أحدا ، فإن قدر على نفع وإلا سكت (٣) .

توفى رحمه الله بدمشق ، [٣٥٢] ودفن بقاسيون على باب تربة المعظم .

الشيخ كمال الدين [محمد بن أحمد بن هبة الله] (٤) ابن طلحة الذى ولى الخطابة بدمشق بعد الدولعى ، ثم عزل وصار إلى الجزيرة ، فولى قضاء نصيبين ، ثم صار إلى حلب ، فتوفى فيها فى هذه السنة .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، فوات الوفيات جـ ٢ ص ٢٥٧ رقم ٢٤٥ ، مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٩٣ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٢ ، العبر جـ ٥ ص ٢١١ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٥٥ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٨٥ ، الذيل على الروضتين ص ١٨٨ .
وينسب إلى خسروشاه : قرية من قرى تبريز — معجم البلدان .

(٢) « نهيبا » فى الأصل ، والتصحيح من الذيل على الروضتين ص ١٨٨ .

(٣) مرآة الزمان جـ ٨ ص ٧٩٣ .

(٤) [ ] إضافة من السلوك جـ ١ ص ٣٩٦ للتوضيح .
وانظر ترجمته أيضا فى : السلوك جـ ١ ص ٣٩٦ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٨٦ ، الذيل على الروضتين ص ١٨٨ ، العبر جـ ٥ ص ٢١٣ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٥٩ .

وقال أبو شامة : وكان فاضلا ، عالما ، طُلِبَ أن يلىَ الوزارة فامتنع من ذلك ، وكانت وفاته فى السابع والعشرين من رجب منها [(١)] .

السَّديد[(٢)] بن علان ، آخر من روى عن الحافظ ابن عساكر سماعا ، مات فى هذه السنة بدمشق .

الناصِحُ فرج[(٣)] بن عبد الله الحَبَشى .

كان كثير السماع مسنداً خيِّراً صالحاً، مواظباً على سماع الحديث و إسماعه إلى أن مات بدار الحديث النورية بدمشق فى هذه السَّنة [(٤)] .

القاضى الفقيه أبو القاسم محمد بن أبى إسحاق إبراهيم الحموى الشافعى المعروف بابن المنقشم المنعوت بالعماد .

ولى القضاء بحماة ، وترسَّل عن صاحب حمص إلى بغداد مرارا ، ودخل مصر ، وتولى القضاء بها ، ثم خرج إلى الشام فتوفى فيها .

---

(١) انظر الذيل على الروضتين ص ١٨٨ .

(٢) هو مكى بن المسلم بن مكى بن خلف بن علان القيسى ، السديد .

وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٨٦ وفيه « السيد بن علان » ، الذيل على الروضتين ص ١٨٨ ، العبر جـ ٥ ص ٢١٣ ، وورد اسمه : السديد بن مكى فى شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٦٠ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٨٦ ، الذيل على الروضتين ص ١٨٨ ، العبر جـ ٥ ص ٢١٣ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٥٩ .

(٤) دار الحديث النورية بدمشق ، تنسب إلى الملك العادل نور الدين محمود ، المتوفى سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣م — الدارس جـ ١ ص ٩٩ وما بعدها .

الشيخ أبو شجاع بَكْبَرْس[1] بن عبد الله التركى الفقيه الحنفى المعروف بنجم الدين الزاهد مولى الخليفة الناصر لدين الله[2] .

توفى فى هذه السنة ، ودفن بتربة الإمام أبى حنيفة، رضى الله عنه ، ببغداد

وقال صاحب طبقات الحنفيّة : بَكْبَرْس بن يلَنقلج أبو الفضائل وأبو شجاع الفقيه الأصولى الملقّب نجم الدين التركى الناصرى مولى الإمام الناصر لدين الله ، وله مختصر فى الفقه على مذهب أبى حنيفة رضى الله عنه نحو من القدورى[3] اسمه الحاوى ، وله شرح العقيدة للطحاوى ، فى مجلد كبير ضخم فيه فوائد، سماه بالنور اللامع والبرهان الساطع[4] .

---

(١) « بكبرس — وقيل بكتاش — أبو الفضل ، وأبو شجاع ، نجم الدين التركى الناصرى » — فى المنهل الصافى جـ ٣ ص ٣٨٤ رقم ٦٧٤ ، وورد « بكبرس بن يلنقلج ، وأن اسمه كان أولا منكوبرس ، فسمى بكبرس » — انظر الوافى جـ ١٠ ص ١٨٧ ، تاج التراجم ص ١٩ ، وانظر أيضا طبقات الحنفية .

(٢) هو الخليفة العباسى أبو العباس أحمد الناصر لدين الله ، الذى ولى الخلافة العباسية ببغداد فى الفترة ٥٧٥ — ٦٢٢هـ / ١١٨٠ — ١٢٢٥م — تاريخ الدول الإسلامية ص ١٣ .

(٣) هو الإمام أحمد بن محمد القدورى البغدادى الحنفى ، المتوفى سنة ٤٢٨هـ / ١٠٣٦م ، وله كتاب « مختصر القدورى فى الفروع » فى فقه الحنفية — هدية العارفين جـ ١ ص ١٣ ، ٧٤ .

(٤) « النور اللامع والبرهان الساطع فى شرح عقائد الطحاوى » — هدية العارفين جـ ١ ص ٢٣٣ .

والطحاوى هو أحمد بن محمد بن سلامة الأزدى ، أبو جعفر ، المتوفى سنة ٣٢١هـ/ ٩٣٣م ، وله « بيان السنة والجماعة فى العقائد » — هدية العارفين جـ ١ ص ٥٨ .

وذكره الصاحب ابن العديم في تاريخ حلب ، وقال : فقيه حسن ، عارف بالفقه والأصول ، وكان يلبس لبس الأجناد : القباء[(١)] والشربوش[(٢)] ، عرض عليه المستنصر قضاء القضاة ببغداد وأن يلبس العمامة ، فامتنع من ذلك[(٣)] .

قال ابن العديم : وبلغني أنه كان اسمه أولا مَنْكُوبَرَس فسمّى بَكْبَرْس ، وكان خيرا ، ورعا تقيًّا ، فاضلا ، حسن الطريقة ، وتوفى في أوائل ربيع الأول من هذه السنة، ودفن إلى جانب قبر أبي حنيفة - رحمه الله - [٣٥٣] في القبة في الرُّصافة .

وبَكْبَرس بفتح الباء الموحّدة ، وسكون الكاف ، وفتح الباء الثانية ، وسكون الراء ، وفي آخره سين مهملة .

ويَلَنْقِلِج : بفتح الياء آخر الحروف ، واللام ، وسكون النون ، وكسر القاف ، وكسر اللام الثانية ، وفي آخره حاء مهملة .

الشيخ أبو الخير بن عثمان بن محمد بن حاجى المقرئ توفى بمصر في هذه السنة .

الشيخ الفقيه العالم أبو البركات عبد السلام[(٤)] بن عبد الله الحراني الحنبلي ، مات في هذه السنة بحرّان .

(١) القباء : من الملابس في عصر المماليك وتشبه القفطان ، وهي ضيقة الأكمام — دوزى ، الملابس المملوكية ص ٤١ وما بعدها .

(٢) الشربوش : لباس الرأس ، يلبس بدل العمامة ، ويلبسه الأمراء والأجناد — دوزى ، الملابس المملوكية ص ٤٥ .

(٣) انظر أيضا المنهل الصافى جـ ٣ ص ٣٨٤ .

(٤) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافى ، فوات الوفيات جـ ٢ ص ٣٢٣ رقم ٢٧٨ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٣ ، طبقات القراء جـ ١ ص ٣٨٥ رقم ١٦٤٧ ، السلوك جـ ١ ص ٣٩٥ — ٣٩٦ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٨٥ .

الأديب أبو الفتوح ناصر(١) بن ناهض اللخمى المعروف بالحصرى .

كان شاعرا محسنا ، ومن شعره المعشّرات المشهورة التى مطلعها :

أما لك يـــاداءَ المحبّ دواءُ ‏ ‏ ‏ ‏ بلى عند بعض الناس منك شفاءُ

وغيرها من القصائد .

مات فى هذه السنة بمصر ، رحمه الله .

شهاب الدين بن بحبابات ، شرب الخمر(٢) ، فأصبح سكرانا ، ميّتاً .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، الدليل الشافى جـ ٢ ص ٧٥٧ رقم ٢٥٧٨ .

(٢) « بشرب الخمر » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

فصل فيما وقع من الحوادث
في السنة الثالثة والخمسين بعد الستمائة(*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة : هو المستعصم بالله .

وصاحب الديار المصرية : السلطان الملك المعز أيبك .

وصاحب الديار الشامية : السلطان الملك يوسف بن العزيز .

وصاحب الروم : أولاد الملك غياث الدين كيخسرو وهم ثلاثة : كيكاوس وقليج أرسلان و كيقباذ ، وأبوهم مات في سنة أربعة وخمسين وستمائة على ما نذكره ، وعند بعض المؤرخين مات في سنة إحدى وخمسين وستمائة ، فاستقر أولاده الثلاثة في السلطنة متشاركين فيها ، وإن كان تأخر موته إلى سنة أربعة وخمسين كما ذكرناه الآن ، في حياة أبيهم ، والله أعلم .

وصاحب البلاد الشمالية : بركة خان .

وصاحب العراق : هلاون اللعين .

وصاحب إفريقية في الغرب : محمد بن أبي زكريا يحيي ، ولكنه مات في سنة خمس وسبعين وستمائة .

قال السبط : وفي سنة الثانية والخمسين وستمائة وصلت الأخبار من المغرب باستيلاء إنسان على إفريقية ، وادعى الخلافة(1) ، وتلقب بالمستنصر ، وخطب له

(*) يوافق أولها الأربعاء ١٠ فبراير ١٢٥٥ م .

(١) هو أحمد بن مرزوق بن أبي عمارة البجائي المغربي ، السلطان الدعي ، قتل سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤م — المنهل الصافي جـ ٢ ص ٢١٥ رقم ٣١٣ ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص ٤٦ ، الحلل السندسية جـ ١ ق ٤ ص ١٠٣٦ .

فى تلك البلاد والنواحى ، وأظهر العدل والإحسان[1] والإنصاف ، وبنى له برجا ، وأجلس الوزير والقاضى والمحتسب [٣٥٤] والوالى بين يديه يحكمون بين الناس[2] .

وقال الشيخ الفاضل ركن الدين[3] : الحفصيون الذين ملكوا تونس أولهم أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتى ، بتاءين مثناتين من فوق ، وهى قبيلة من المصامدة ، ويزعمون أنهم قرشيون من بنى عدى بن كعب رهط عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وكان أبو حفص المذكور من أكبر أصحاب ابن تومرت[4] بعد عبد المؤمن[5] ، وتولى عبد الواحد بن أبى حفص المذكور [إفريقية][6] نيابة عن بنى عبد المؤمن فى سنة ثلاث وستمائة ، ومات فى ذى الحجة[7] سنة ثمانية عشر وستمائة ، وتولى بعده أبو العلاء[8] من بنى عبد المؤمن ، ثم توفى ، فعادت إفريقية إلى ولاية الحفصيين ، وتولى منهم عبد الله بن عبد الواحد بن أبى حفص فى سنة

---

(١) « والإحسان » ساقط من مرآة الزمان .

(٢) ورد هذا الخبر فى مرآة الزمان فى حوادث سنة ٦٥٢ هـ ، جـ ٨ ص ٧٩١ .

(٣) « ركن الدين بن قوبع التونسى » — المختصر جـ ٣ ص ١٨٧ .

(٤) هو محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن ، الإمام المهدى ابن تومرت ، توفى حوالى سنة ٥٢٤ هـ / ١١٣٠ م — تاريخ الدولتين ص ٧ ، وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٤٥ رقم ٦٨٨ ، الاستقصا جـ ٢ ص ٩٧ .

(٥) هو عبد المؤمن بن على القيسى الكومى ، المتوفى سنة ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م — وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٢٣٧ رقم ٤٠٨ ، تاريخ الدولتين ص ١٣ ، الاستقصا جـ ٢ ص ١٤٤ .

(٦) [ ] إضافة من المختصر للتوضيح .

(٧) « توفى يوم الخميس أول المحرم فاتح عام ثمانية عشر وستمائة » — انظر تاريخ الدولتين ص ١٩ ، المؤنس ص ١٢١ .

(٨) « أبو المعلى » فى الأصل ، والتصحيح من المختصر الذى ينقل عنه المؤلف ، وهو إدريس ابن يوسف بن عبد المؤمن — تاريخ الدولتين ص ٢٠ .

ثلاث وعشرين وستمائة[1]، ولما تولى ولى أخاه أبا زكريا يحيى قابس[2]، وأخاه أبا إبراهيم إسحاق بلاد الجريد[3]، ثم خرج على عبد الله — وهو على قابس — أصحابه ورجموه وطردوه، وولوا موضعه أخاه أبا زكريا بن عبد الواحد سنة خمس وعشرين وستمائة[4].

فنقم بنو عبد المؤمن على أبى زكريا ذلك، وأسقط أبو زكريا اسم عبد المؤمن من الخطبة، وبقى متملكا لإفريقية وخطب لنفسه بالأمير المرتضى، واتسعت مملكته، وفتح تلمسان، والمغرب الأوسط، وبلاد الجريد والزاب، وبقى كذلك إلى أن توفى على بونة فى سنة سبع وأربعين[5] وستمائة.

وأنشأ فى تونس بنايات عظيمة شامخة، وكان عالما بالأدب، وخلف أربع بنين وهم: أبو عبد الله محمد، وأبو إسحاق إبراهيم، وأبو حفص عمر، وأبو بكر وكنيته أبو يحيى، وخلف أخوين وهما أبو إبراهيم إسحاق، ومحمد اللحيانى ابنى عبد الواحد بن أبى حفص.

وكان محمد اللحيانى صالحا منقطعا يتبرك به الناس.

---

(١) «فى يوم السبت سابع عشر ذى القعدة من عام ثلاثة وعشرين وستمائة» — تاريخ الدولتين ص ٢١.

(٢) قابس: مدينة وميناء هام — المغرب ص ١٧.

(٣) «وعقد لأخيه أبى إبراهيم على توزر ونفطة وسائر بلاد قسطيلية» — تاريخ الدولتين ص ٢١.

(٤) «سنة اثنتين وستين» — المختصر جـ ٣ ص ١٨٨، وهو تحريف — أنظر ما يلى، وانظر تاريخ الدولتين ص ٢٢.

(٥) «سنة أربع وأربعين» — فى الأصل، والتصحيح من المختصر جـ ٣ ص ١٨٨، والمؤنس ص ١٢٤، وورد فى تاريخ الدولتين أنه توفى سنة ٦٤٦هـ ص ٣٠.

ثم تولى بعده ابنه أبو عبد الله محمد بن أبى زكريا ، ثم سعى عمه أبو إبراهيم فى خلعه ، وبايع لأخيه محمد اللحيانى الزاهد على كره منه لذلك ، فجمع أبو عبد الله [محمد](١) المخلوع أصحابه فى يوم خلعه ، وشد على عميه فقهرهما وقتلهما ، واستقر فى ملكه ، وتلقب بالمستنصر بالله أمير المؤمنين أبى عبد الله محمد ابن الأمراء الراشدين(٢) .

وفى أيامه [فى سنة ثمان وستين وستمائة](٣) وصل الفرنسيس(٤) إلى إفريقية بجموع الفرنج ، وأشرفت [٣٥٥] إفريقية على الذهاب ، فقصمه الله تعالى ، ومات الفرنسيس لعنه الله ، وتفرقت تلك الجموع .

وفى أيامه خاف أخوه أبو إسحاق إبراهيم بن أبى زكريا ، فهرب ، ثم أقام بتلمسان ، وبقى المستنصر المذكور كذلك حتى توفى حادى عشر ذى الحجة سنة خمس وسبعين وستمائة(٥) .

وملك بعده ابنه يحيى بن محمد بن أبى زكريا وتلقب بالواثق بالله أمير المؤمنين ، وكان ضعيف الرأى ، فتحرك عليه عمه أبو إسحاق إبراهيم الذى هرب وأقام بتلمسان ، وغلب على الواثق فخلع نفسه ، واستقر أبو إسحاق إبراهيم فى المملكة فى ربيع الأول سنة ثمان وسبعين وستمائة(٦) ، وخطب لنفسه بالأمير المجاهد ، وترك

(١) [ ] إضافة من المختصر جـ ٣ ص ١٨٨ للتوضيح .
(٢) « وذلك سنة ٦٥٧ هـ » — أنظر المؤنس ص ١٣٥ .
(٣) [ ] إضافة من المختصر للتوضيح ، وانظر أيضا المؤنس ص ١٣٦ .
(٤) المقصود لويس التاسع — انظر شمال أفريقيا والحركة الصليبية .
(٥) المؤنس ص ١٣٧ ، الفارسية ص ١٣٤ .
(٦) انظر الفارسية ص ١٣٧ ، المؤنس ص ١٣٨ .

زى الحَفْصيِّين ، وأقام على زىّ زناته ، وأقام على الشرب ، وفـرق المملكة على أولاده ، فـوثب أولاده على الواثق المخلوع ، فذبحوه وذبحوا معـه ولديه الفضل والطيِّب ابنى يحيى الواثق ، وسلم للواثق ابن صغير يلقَّب أبا عَصيدة ، لأنهـم يصنعون للنفساء(١) عصيدة فيها أدوية يهدى منها للجيران ، فعملت أم الصبى ذلك ، فتلقب ولدها بأبى عصيدة ، ثم ظهر إنسان [ادعى(٢)] أنه الفضل بن الواثق الذى ذبح مع أبيه(٣) ، واجتمعت عليه الناس ، وقصد ابا إسحاق إبراهيم وقهره ، فهرب أبو إسحاق إلى بجاية ، وبها ابنه أبو فارس عبد العزيز بن إبراهيم ، فترك أبو فارس أباه ببجاية ، وسار بإخوته(٤) وجمعـه إلى الدعى بتونس ، والتقى الجمعـان ، فانهزم عسكر بجاية ، وقتـل أبو فارس وثلاثة من إخوته ، ونجـا له أخ اسمه يحيى بن إبراهيم وعمه أبو حفص عمر بن أبى زكريا .

ولمـا هزم الدعى عسكر بجاية وقتـل المـذكورين أرسل إلى بجاية من قتل أبا إسحاق إبراهيم وجاءه برأسه ، ثم تحدث الناس بدعوة الدعى ، واجتمعت العرب على عمر بن أبى زكريا بعد هروبه من المعركة وقوى أمره ، وقصد الدعى ثانيـا بتونس وقهره ، واستتر الدعى(٥) فى بعض المواضع(٦) بتونس ، ثم أحضر واعترف بنسبه وضربت عنقه .

---

(١) « للنساء » فى الأصل ، والتصحيح من المختصر .

(٢) [ ] إضافة من المختصر جـ ٣ ص ١٨٨ للتوضيح .

(٣) « مع ابنه » فى المختصر ، وهو تحريف .

(٤) « بأخويه » — فى المختصر ، وهو تحريف — انظر ما يلى .

(٥) « الداعى » فى المختصر جـ ٣ ص ١٨٩ ، وهو تحريف .

(٦) « فى دور بعض التجار » — المختصر .

وكان الدعى(١) المذكور من أهل بجاية واسمه أحمد(٢) بن مرزوق بن أبي عمارة(٣)، وكان أبوه يتجر إلى بلاد السودان، وكان الدعىّ المذكور مجازفا قصيفاً(٤)، وسار إلى ديار مصر ونزل بدار الحديث الكاملية، [٣٥٦] ثم عاد إلى المغرب، فلما مر على(٥) طرابلس، كان هناك شخص أسود يسمى نُصَيْراً كان خصيصا بالواثق المخلوع قد هرب لما جرى للواثق ما جرى، وكان في أحمد الدعىّ بعض الشبه من الفضل بن الواثق، فدبر مع نصير المذكور الأمر، فشهد له أنه الفضل بن الواثق، واجتمعت عليه العرب، وكان منه ما ذكرناه حتى قتل.

وكان الدعى يخطب له بالخليفة الإمام المنصور بالله القائم بحق الله أمير المؤمنين [ابن أمير المؤمنين](٦) أبي العباس الفضل.

ولما استقر أبو حفص عمر في المملكة، وقتل الدعى تلقب بالمستنصر بالله [أمير المؤمنين](٧)، وهو المستنصر الثاني.

ولما استقر في المملكة سار ابن أخيه يحيى بن إبراهيم بن أبي زكريا الذي سلم من المعركة إلى بجاية وملكها، وتلقب بالمنتخب لإحياء(٨) دين الله أمير المؤمنين،

---

(١) «الداعى» في الأصل والمختصر، وهو تحريف.

(٢) انظر ما سبق.

(٣) «بن أبي عمار» — المختصر جـ ٣ ص ١٨٩.

(٤) قصف: أقام في أكل وشرب ولهو، وأكثر من ذلك — المنجد.

(٥) «مر» مكررة في الأصل.

(٦) [ ] إضافة من المختصر جـ ٣ ص ١٨٩.

(٧) [ ] إضافة من المختصر.

(٨) «بإحياء» في الأصل، والتصحيح من المختصر.

واستمر المستنصر بالله في مملكته حتى توفى في أوائل المحرم سنة خمس وتسعين وستمائة(١) ، ولما اشتد مرضه بايع لابن صغيرله ، واجتمعت الفقهاء وقالوا له : أنت صائر إلى الله ، وتولية(٢) مثل هذا لايحل ، فأبطل بيعته ، وأخرج ولد الواثق المخلوع الذى كان صغيرا وسلم من الذبح(٣) الملقب بأبي عصيدة ، وبويع له صبيحة موت أبي حفص عمر المذكور الملقب بالمستنصر ، وكان اسم أبي عصيدة أبا عبد الله محمد ، وتلقب أيضا بالمستنصر ، وهو المستنصر الثالث .

وفي أيامه توفى صاحب بجاية المنتخب يحيى بن إبراهيم ، وملك بعده بجاية ابنه خالد بن يحيى(٤) ، وبقى أبو عصيدة كذلك حتى توفى سنة تسع وسبعمائة ، وملك بعده شخص من الحفصيين يقال له أبو بكر بن عبد الرحمن بن أبي بكر بن أبي زكريا بن عبد الواحد بن أبي حفص صاحب ابن تومرت ، فأقام في الملك ثمانية عشر يوما(٥) ، ثم وصل خالد بن المنتخب صاحب بجاية ودخل تونس ، وقتل أبا بكر المذكور في سنة تسع وسبعمائة(٦) ، ولما جرى ذلك كان زكريا اللحياني بمصر ، فسار مع [٣٥٧] عسكر السلطان الملك الناصر محمد بن قلاون إلى طرابلس الغرب(٧)

(١) « توفى في آخر ذى الحجة سنة أربع وتسعين وستمائة » — المؤنس ص ١٤٠ ، الفارسية ص ١٥٢ .

(٢) « وتولى » في الأصل ، والتصحيح من المختصر .

(٣) « الفرنج » في الأصل ، التصحيح من المختصر .

(٤) « توفى في العاشر لشهر ربيع الثاني من عام تسعة وسبعمائة » — الفارسية ص ١٥٤ ، المؤنس ص ١٤١ .

(٥) « فكانت مدته ستة عشر يوما وبعض يوم » — الفارسية ص ١٥٥ ، المؤنس ص ١٤١

(٦) يوجد في الأصل جملة مكررة مما سبق ، ملغاة ومنبه عليها .

(٧) « المغرب » في الأصل .

وبايعه [العرب][1]، وسار إلى تونس، فخلع خالد بن المنتخب، وحبس[2]، ثم قتل قصاصا بأبى بكر بن عبد الرحمن المقدّم ذكره.

واستقر اللحيانى فى ملك إفريقية، وهو أبو يحيى[3] زكريا بن أحمد بن محمد الزاهد بن عبد الواحد بن أبى حفص صاحب ابن تومرت.

ثم تحرك على اللحيانى أخو خالد وهو أبو بكر بن يحيى المنتخب، وهرب اللحيانى إلى ديار مصر وأقام بالإسكندرية، وملك أبو بكر المذكور تونس وما معها خلا طرابلس والمهدية، فإنه بعد هروب اللحيانى بايع[4] ابنه محمد بن اللحيانى لنفسه واقتتل مع أبى بكر فهزمه أبو بكر، واستقر محمد بن اللحيانى بالمهدية وله معها طرابلس.

وكان استيلاء أبى بكر وهروب اللحيانى إلى ديار مصر فى سنة عشرين وسبعمائة[5]، وأقام اللحيانى فى الإسكندرية، ثم وردت عليه مكاتبات من تونس فى ذى القعدة سنة إحدى وعشرين وسبعمائة إلى الإسكندرية يذكر[6] فيها أن أبا بكر متملك تونس المذكور قد هرب وترك البلاد، وأن الناس قد اجتمعوا على طاعة اللحيانى وبايعوا

---

(١) [ ] إضافة من المختصر.

(٢) «وجلس» فى الأصل، والتصحيح من المختصر.

(٣) «ابن يحيى» فى المختصر، وهو تحريف.

(٤) «مانع» فى الأصل، والتصحيح من المختصر.

(٥) «فى سنة تسع عشرة وسبعمائة» — فى المختصر جـ٢ ص ١٩٠؟

(٦) «يذكرون» فى المختصر.

نائبه وهو محمد بن أبي بكر من الحفصيين ، وهو صهر زكريا اللحيانى المذكور ، وهم فى انتظار وصول اللحيانى إلى مملكته(١) .

وقال المؤيد فى تاريخه : اللحيانى المذكور قدم إلى مصر قبل أن يملك ، ورأيته بها فى سنة تسع وسبعمائة ، وكان حسن الشكل ، ضخم الخلقة ، قدم إلى ديار مصر وربما أنه حج ، ثم عاد إلى بلاد المغرب فملك تونس ، وهو مقهور فيها مع العرب ، فإنهم يتغلبون عليه .

وقال : وهو صاحب تونس فى زماننا هذا ، وهو سنة ثمانى عشرة وسبعمائة(٢) .

ذكر ماجريات المصريين :

منها : أن العزيزية المقيمين عند الملك المعز أيبك التركمانى عزموا على القبض عليه وهم على العباسة ، وعلم بذلك المعز واستعد لهم ، فهربوا من مُخَيَّمهم على العباسة ، واحتيط على مُخَيَّمهم .

ومنها : أن الأمير عز الدين [٣٥٨] أيبك(٣) الأفرم الصالحى عصى بصعيد مصر ، وتظاهر بالعصيان ، وجمع عليه جماعة من العربان ، ووافقه حصن الدين ابن ثعلب والأمير ركن الدين الصيرمى ، واعتدوا ونهبوا البلاد(٤) ، وأكثرت

(١) نهاية ما نقله المؤلف عن كتاب المختصر جـ ٣ ص ١٨٧ - ١٩٠ .

(٢) لم يرد هذا الخبر فى كتاب المختصر المطبوع والموجود بين أيدينا ، وذلك فى أحداث سنة ٧١٨ هـ ، ولكن هناك أخبار أخرى - انظر المختصر جـ ٤ ص ٨٤ - ٨٥ .

(٣) هو أيبك بن عبد الله الصالحى ، الأمير عز الدين ، المعروف بالأفرم الكبير ، توفى سنة ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م - المنهل الصافى جـ ٢ ص ١٢٠ رقم ٥٧٥ .

(٤) « واعتدوا نهب البلاد » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق .

العربان من الفساد، ووضع هؤلاء أيديهم على الأموال فأخذوها من بيوت المال، وجبوا الجزية من ذمة تلك الأعمال، فانفسد النظام، وانتكث الإبرام، فاقتضى الحال إرسال الصاحب شرف الدين الفائزى الوزير ليتدارك الخلل بالتدبير، وجرد معه إلى الصعيد من العسكر جماعة، وأمروا له بالطاعة، فتحيلوا على الشريف حصن الدين فمسكوه، وأحضروه إلى القلعة المحروسة فاعتقل بها، ثم نقل إلى ثغر الإسكندرية، فاعتقل فى جب تحت الأرض، يعرف بجب الشريف، إلى أن كان من أمره ما سنذكره إن شاء الله .

ذكر ماجريات أولاد جنكزخان :

منها : كانت وقعة بين بركة خان بن باطو وبين هلاون بن طولو ملك التتار، قد ذكرنا(١) أن براق شين زوجة طغاى بن باطوخان لما لم يوافقها التتار على تمليك ولدها تدان منكو راسلت هلاون وهو يومئذ ببلاد عراق العجم بصدد افتتاحها، وأطمعته فى أخذ مملكة الشمال التى فى بنى عمه، فلما وصلته رسالاتها تجهز وسار بجيوشه إليها، وكان وصوله بعد مقتلها وجلوس بركة على سرير الملك، فبلغه وصول هلاون لحربه، فسار للقائه بعساكره وحزبه، وكان بينهما نهر يسمى نهر ترك، وقد جمد ماؤه لشدة البرد، فعبر عليه هلاون وعساكره متخطيا إلى بلاد بركة، فلما التقى الجمعان واصطدم الفريقان كانت الكسرة على هلاون وعسكره، فولوا على أدبارهم وتكردسوا على النهر الجامد، فانفقأ الجمد من تحتهم، فغرق منهم جماعة كثيرة، وأفلت من نجا منهم من المصاف والغرق صحبة هلاون راجعا إلى

(١) انظر ما سبق فى حوادث سنة ٦٥٢ هـ، ص ٨٩ — ٩٠ .

بلاده، ونشأت الحرب بينهم من هذه السنة وصارت العداوة بين هاتين الطائفتين متمكنة [١].

وكان فيمن شهد مع بركة هذه الوقعة ابن عمه نوغيه بن ططر [٣٥٩] ابن مغل بن دوشي خان، فأصابته في عينه طعنة رمح فعور، ولما قذف النهر جثث الغرقى جمعها نوغيه المذكور مع جثث القتلى أهراما وقال: هذه أجساد بني الأعمام والذرية فلا نتركها يأكلها الذئاب والكلاب في البرية .

ومنها : أن هلاون فتح بالمشرق قلعتين أخرايين من قلاع الإسماعيلية ، اسم الواحدة بجوش واسم الأخرى تماشر ، ولم يزل يخرب أولا فأولا و يقتل من لقى منهم حتى أفنى عامتهم [٢] .

بقية الحوادث :

منها : ما قاله المؤيد : وهو أن الملك المعز أيبك تزوج شجر الدر أم خليل التى خطب لها بالسلطنة فى ديار مصر ، وقيل : إنما تزوجها فى السنة الماضية ، والله أعلم [٣] .

ومنها : أنه كان وقع فتنة بين الحج العراقى وأصحاب مكة وأصلح بينهم الملك الناصر داود ، وكان قد ذهب إلى بغداد ، ثم حج من العراق ، ولما عاد أقام بالحلة .

(١) انظر جامع التواريخ المجلد الثانى الجزء الأول ص ٣٢٢ وما بعدها ، نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٥٩ — ٣٦٠ .

(٢) عن العلاقة بين المغول والإسماعيلية فى عهد هولاكو — انظر جامع التواريخ المجلد الثانى الجزء الأول ص ٢٤٣ وما بعدها ، والمغول ص ٢١٠ وما بعدها .

(٣) انظر المختصر جـ ٣ ص ١٩١ .

وقال المؤيد : وفى هذه السنة طلب الناصر داود من الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز بن الظاهر بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب دستورا(١) إلى العراق بسبب طلب وديعته من الخليفة وهى الجوهر الذى تقدم ذكره، وأن يمضى إلى الحج ، فأذن له الناصر يوسف فى ذلك ، فسار الناصر داود إلى كربلاء ، ثم مضى منها إلى الحج ، ولما رأى قبر النبى صلى الله عليه وسلم تعلق بأستار الحجرة الشريفة بحضور الناس وقال : اشهدوا أن هذا مقامى من رسول الله عليه السلام داخلا عليه مستشفعا به إلى ابن عمه المستعصم فى أن يُرَدَّ علىّ وديعتى ، فأعظم الناس ذلك ، وجرت عبراتُهُم ، وارتفع بكاؤهم ، وكتب بصورة ما جرى مشروحا ورفع إلى أمير الحاج [كيخسرو](٢) وذلك يوم السبت الثامن والعشرين من ذى الحجة من هذه السنة ، وتوجه الناصر مع الحاج العراقى وأقام ببغداد(٣) .

وفيها(٤) : ... ...

وفيها(٥) : ... ...

---

(١) دستور = إذن .

(٢) [ ] إضافة من المختصر للتوضيح .

(٣) انظر المختصر جـ ٣ ص ١٩١ .

(٤) « ... ... » بياض فى الأصل نحو ٢ كلمات .

(٥) « ... ... » بياض فى الأصل نحو ٥ كلمات .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

[٣٦٠] الفقيه ضياء الدين صقر[١] بن يحيى بن صقر، مات فى حلب ليلة الإثنين الثامن عشر من صفر من هذه السنة .

وكان شيخا فاضلا دينا ، ومن شعره :

من ادّعى أنّ له حاجة[٢] تُخْرِجُهُ عن منهج الشَّرْع
فــلا تكونَنَّ له صاحبًا فإنّه ضُرٌّ بــلا نَفْــع

وَاقِفُ القَوْصِيّة أبو العزّ إسماعيل[٣] بن حامد بن عبد الرحمن الأنصارى القوصى، واقف داره التى بالقرب من الرحبة على أهل الحديث وبها قبره .

وكان ظريفا مطبوعا ، حسن المحاضرة ، وقد جمع له معجما حكى فيه عن مشايخه أشياء كثيرة مفيدة .

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى، العبر جـ ٥ ص ٢١٤، وورد اسمه « جعفر » فى السلوك جـ ١ ص ٣٩٧ ، و « صقر » فى الذيل على الروضتين ص ١٨٨ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٦١ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٨٦ .

(٢) « له حالة » فى البداية والنهاية .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : العبر جـ ٥ ص ٢١٤ ، الطالع السعيد ص ١٥٧ رقم ٨٧ ، مرآة الجنان جـ ٤ ص ١٢٩ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٨٦ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٥ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٦٠ .

وقال أبو شامة : وقد طالعته بخطه ، فرأيت فيه أغاليط وأوهاما فى أسماء الرجال وغيرها ، فمن ذلك أنه انتسب إلى سعد بن عبادة بن دليم ، فقال سعد ابن عبادة بن الصامت : وهذا غلط فاحش[(١)] .

وكانت وفاته يوم الإثنين سابع عشر ربيع الأول من هذه السنة .

الشيخ الصالح الجليل مجد الدين أبو المجد على بن عبد الرحمن الأخميمى الخطيب .

وكان أحد المشايخ المشهورين بالدين والعلم ، وله قبول تام ، من الخاص والعام ، وكرم الأخلاق ، توفى فى هذه السنة ودفن بالقرافة ، وقبره ظاهر يزار .

الشريف المرتضى نقيب الأشراف بحلب وهو أبو الفتوح المرتضى بن أبى طالب أحمد[(٢)] [بن أحمد][(٣)] بن محمد بن جعفر بن زيد بن جعفر بن محمد بن أحمد ابن محمد بن الحسين بن إسحاق بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين الحلبى النقيب ، المنعوت بالعز .

مات فى ليلة السادس عشر من هذه السنة بجاءة ، ودفن بعد ثلاثة أيام بجبل الجوش ، ومولده فى سنة تسع وسبعين وخمسمائة بحلب .

الشيخ الأصيل أبو المكارم محمد بن أبى بكر محمد بن عبد الله بن علوان ابن عبد الله بن علوان بن عبد الله الأسدى الحلبى المنعوت بالنجم .

---

(١) وردت هذه الفقرة ضمن ترجمة مقربن يحيى فى الذيل على الروضتين ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : السلوك جـ ١ ص ٣٩٧ ، الذيل على الروضتين ص ١٨٩ .

(٣) [ ] إضافة من السلوك .

مات فى صبيحة الخامس والعشرين من شوال من هذه السنة بحلب ، ودفن بالمقام، ومولده فى الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة [٣٦١] ثمـان وثمانين وخمسمائة بحلب ، سمع من أبى حفص عمر بن محمد بن طبرزد ، وحدث بحلب ، وله شعر حسن .

الشيخ الصالح الفاضل أبو العباس بن تامتيت المغربى(١) .

توفى بالقرافة بمصر ، وقد جاوز مائة سنة .

وسُئل يوما عن الحكم فى تارك الصلاة فقال : أنشدنى بن الرمامة واسمه محمد ابن جعفر العبسى الحافظ قال : أنشدنى أبو الفضل طاهر النحوى لنفسه هذه الأبيـات :

فى حكم مَنْ ترك الصلاة وحكمُهُ　　إن لم يُقِر بهـا كحُكم الكافِرِ
فإذا أقرَّ بهـا وجانب فِعْلَهـا　　فالحُكْمُ فيـه للحسَّام الباتِرِ
وبه يقـول الشـافِعىُّ ومالكٌ　　والحنبلـىُّ تمسُّـكًا بالظَّـاهِرِ
وأبو حنيفة لا يقُـول بقتـله　　ويقُول بالضرب الشديد الزاجرِ
هذا أقاويلُ الأئمـة كلِّهـم　　وأجلُّهـا ما قلتُـه فى الآخِرِ
المسـلمون دماؤُهـم معصومة　　حتـى تُـراق بمسـتنير باهِرِ
مثـل الزنا والقتل فى شرطيهما　　وانظر إلى ذاك الحـديث السَّائِرِ

---

(١) « أبو العباس بن ثابت المقرئ » فى الذيل على الروضتين ص ١٨٩ ؛ وانظر ما يلى فى وفيات ٦٥٧ هـ ، حيث ورد ذكر وفاة أبو العباس أحمد بن محمد بن تامتيت .

ومعنى قوله : تمسكا بالظاهر، معنى قوله عليه السلام : « بين العبد والكفر ترك الصلاة »[1] . ومعنى قوله : فى الآخر، قوله عليه السلام : « لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث »[2] .. الحديث .

الشيخ الأصيل أبو بكر بن أبى الفوارس مُرْهَف بن الأمير مُؤَيَّد الدولة أبى المظفر أسامة بن أبى أسامة مرشد بن على بن مقلد بن نصر بن مُنقذ الكنانى الحلبى الشيزرى الأصل، المصرى الدار، المنعوت بالحسام .

توفى بالقاهرة فى الثامن والعشرين من شعبان، وقيل : فى السابع والعشرين من رمضان من هذه السنة، ومولده فى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، وهو من بيت الإمارة والفضيلة والتقدُّم، وقد حدَّث منهم جماعة وحدث هو أيضا .

أبو عبد الله محمد[3] بن محمد بن محمد بن عثمان البلخى، ثم البغدادى، ثم الحلبى المنعوت بالنظام .

أحد السادات الحنفيَّة، درس بحلب، وسمع من المؤيد الطوسى .

قال الذهبى : وحدّث عنه بصحيح مسلم، [٢٦٢] وسمع ببخارى وسمرقند، وتفقَّه بخراسان على المحبوبى، وحدَّث بحلب وأفتى، وكتب عنه الحافظ الدمياطى

(١) « بين العبد وبين الشرك والكفر ترك الصلاة » رواه مسلم فى الإيمان ١٣٤، وأبو داود فى السنة ١٥، والترمذى فى الإيمان ٩، وابن ماجه فى السنن ١٧ .

(٢) « لا يحل دم رجل مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلا بإحدى ثلاث : الثيب الزانى، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة » رواه أبو داود فى الحدود ٤٣٥٢، والترمذى فى الديات ١٠ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : العبر جـ ٥ ص ٢١٥، شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٦١، السلوك جـ ١ ص ٣٩٧ .

وذكره في معجم شيوخه ، وقال : توفى بحلب ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاث وخمسين وستمائة ، ودفن بالجُبَيْل خارج باب الأربعين ، ومولده ببغداد سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة .

صاحب فاس من بلاد المغرب أبو بكر(١) بن عبد الحق المريني .

مات في فاس في هذه السنة حتف أنفه ، وقام بعده ولده عمر(٢) بن أبي بكر ابن عبد الحق ، وكان ولى عهد أبيه ، وهو الثاني من ملوك بني مرين ، فأقام نصف سنة أو دون ذلك ، فثار عليه عمه يعقوب بن عبد الحق ، وجرت بينهما حروب كثيرة ، ثم اصطلحا على أن يخلع عمر نفسه ، فخلع نفسه وأعطاه عمه مكناسة الزيتون(٣) وأعمالها ، فاستقر بها مدّة ، ثم أرسل عمه بعد مُدَيْدةٍ إلى أقوام من بني عمه يقال لهم : أولاد عثمان بن عبد الحق ، كانوا مطالبيه بدم لهم على أبيه ، فاتبعوه فقتلوه .

وقام عمُّه يعقوب بن عبد الحق ، وهو الثالث من سلاطين بني مرين ، وكان رجلا صالحا ، حسن السيرة ، محبا في الصالحين ، واجتمع عليه أعيان بني

---

(١) أجمعت المصادر المغربية على أن وفاة أبي بكر بن عبد الحق المريني كانت سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م — انظر الذخيرة السنية ص ١٧ ، الاستقصا جـ ٢ ص ١٩ ، روض القرطاس ص ٢٩٦ .

(٢) « عمرو » في الأصل ، والتصحيح من الاستقصا جـ ٢ ص ١٩ .

(٣) « بكناسة الزيتون » في الأصل .

مكناسة الزيتون : مدينة بالمغرب ، حصينة ، في طريق المار من فاس إلى سلا على شاطئ البحر ، فيه مرسى للراكب — معجم البلدان .

مرين ، ولما جلس فى السلطنة (١) سار إلى جزيرة الأندلس لغزو الفرنج فى ألف فارس ، واجتمع إليه من المسلمين الذين بالأندلس ثلاثمائة فارس ، فخرج قائد من زعماء الفرنج للقائه يقال له : دَوَالَنْتُو (٢) فى نحو عشرة آلاف فارس مدرعين ، وخلق كثير من الرجالة ، فالتقاهم أبو يوسف المذكور فهزمهم وقتل عامتهم ، ورجع إلى برّ العَدْوة (٣) ، فكان منه ما سنذكره إن شاء الله .

* * *

(١) « فى السلطنة فى المملكة » فى الأصل .

(٢) « واعلم أن هذا الزعيم يسميه كثير من المؤرخين دون نونه ، ولفظة « دون » معناها فى لغتهم السيد أو العظيم أو ما أشبه ذلك ، فلذا أسقطناها » — الاستقصا جـ ٢ ص ٤١ .

وهو القائد « دون نونيودى لارا » — معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٨٦ .

(٣) فى رجب سنة ٦٧٤ هـ — الاستقصا جـ ٢ ص ٤٢ .

فصل فيما وقع من الحوادث
في السنة الرابعة والخمسين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة : هو المستعصم بالله .

وصاحب الديار المصرية : السلطان الملك المعز أيبك التركمانى الصالحى .

وصاحب الديار الشامية : السلطان الملك الناصر يوسف [٣٦٣] ، وكان قد أرسل فى هذه السنة كمال الدين المعروف بابن العديم الحلبى رسولا إلى الخليفة المستعصم بالله وصحبته تقدمة جليلة ، وطلب خلعة من الخليفة لمخدومه .

ووصل أيضا من جهة الملك المعزّ أيبك صاحب الديار المصريّة رسول إلى الخليفة وهو شمس الدين سنقر الأقرع ، من مماليك المظفّر غازى صاحب ميّافارقين ، وصحبته تقدمة جليلة إلى الخليفة ، وسعى فى تعطيل خلعة الناصر يوسف صاحب دمشق .

فبقى الخليفة مُتحيّرا ، ثم أنه أحضر سكّينا كبيرة من اليَشْم وقال للوزير : إعط هذه السكين لرسول صاحب الشام علامة منى فى أن له خلعة عندى فى وقت آخر ، وأما فى هذا الوقت فلا يمكننى ، فأخذ كمال الدين بن العديم السكين وعاد الى الملك الناصر بغير خلعة (١) .

وفيها قبض المعز على الأمير علاء الدين أيدغدى العزيزى لأنه اتهمه ، فأمسكه وسجنه .

(*) يوافق أولها الأحد ٣٠ يناير ١٢٥٦ م .

(١) انظر المختصر جـ ٣ ص ١٩١ .

وفيها أرسل المعز إلى صاحبى حماة والموصل يخطب ابنتيهما لنفسه ، وبلغ ذلك شجر الدر والدة خليل الصالحية وأنكرته وأكبرته ، لأنه بها وصل إلى ما وصل ، وبوصلها حصل من الدولة والصولة على ما حصل ، فدبرت على إعدامه وقررت قتله مع خدامها وخدامه ، على ما يأتى إن شاء الله تعالى .

ذكر دخول التتار إلى بلاد الروم :

اعلم أن التتار دخلوا فى هذه السنة إلى الروم مرتين :

الأولى : جرّد منكوقان بن طولوخان بن جنكزخان الأمير جرماغون والأمير بيجو ومعهما جماعة من العساكر إلى بلاد الروم ، وهى يومئذ فى يد السلطان علاء الدين كيقباذ بن السلطان غياث الدين كيخسرو ، فساروا إليها ونزلوا على آرزن الروم (١) وبها سنان الدين ياقوت أحد مماليك السلطان علاء الدين كيقباذ ، فحاصروها مدة شهرين ونصبوا عليها إثنى عشر منجنيقا ، فهدموا أسوارها ودخلوها وأخذوا سنان الدين ياقوت أسيرا ، وكان حريمه فى القلعة ، فأخذوها [٣٦٤] ثانى يوم وقتلوا الجند ، واستبقوا أرباب الصنائع وذوى المهن ، وداسوا الأطفال بحوافر الخيل ، وغنموا وسبوا ، وعادوا وقتلوا ياقوت العلائى وولده ، واتفقت وفاة جُرْماغون أحد المقدمين على سُرْمارى (٢) .

المرة الثانية : وهى التى دخل فيها بَيْجُو ومن معه إلى الروم ومعه نُجَانوين ، فوصلوا إلى أقشهر زنجان (٣) ونزلوا بالصحراء التى هناك ، فجمع السلطان غياث

(١) آرزن الروم : مدينة مشهورة من مدن أرمينية — قرب خلاط — معجم البلدان .

(٢) انظر نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٤٩ .

(٣) « برنجان » فى الأصل ، والتصحيح من نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٤٩ .

الدين جيشه وسار للقائهم ، وأخذ حريمه معه ليقاتل قتال الحريم ، ونزلوا على كُوسَا داغ وهو الجبل الأقرع ، وذلك الجبل مطل على الوطأة التي نزل بها بيجو وعساكره ، ثم أن السلطان غياث الدين ضرب مَشُورةً مع أكابر أمرائه وذوى آرائه في لقاء التتار وقتالهم ، فتكلم كل بما عنده ، ومنهم من هوّل أمره فغضب أخو كُرجى خاتون زوجة السلطان ، وقال : هؤلاء قد هابوا التتار وَجُبُنُوا عنهم وفرقوا منهم ، فالسلطان يعطيني الكرج والفرنج الذي في جيشه وأنا ألقاهم ولو كانوا من عَسَاهم يكونون ؟ فغاظ الأمراء كلامه ، وتقدم واحد منهم من أعيانهم ، فألزم نفسه الأيمان المغلظة أنه لابد أن يلاقى التتار بنفسه ، ومن يضمه تقدمته ولا ينتظر أحدا ، فركب ومعه نحو من عشرين ألف فارس وركب السلطان على الإثر ، وركبت عساكره وضربت كوساته(١) ، ونزل المقدم المتقدم إلى الصحراء قاصدا الهجوم على التتار ، فوجد قدامه [واد](٢) قد قطعهُ السُّيُلُ فلم يستطع أن يقطعه ، فسار مع لحف الجبل يطلب طريقا يمكنه التوجه منه نحو التتار ، فركب التتار وقصدوه ودنوا منه وحاذوه ، وأرسلوا إليه شهابا كالشهب المحرقة ، فأهلكوا أكثر خيله وخيل من معه ، وكان السهم لا يقع إلا في الفارس أو الفرس . هذا والعساكر السلطانية قد تبعته قافية خطوه ، وحاذية فيما فعل حذوه ، فلما تقدموا ندموا حين أقدموا ، ورأوا عساكر التتار تحاذى الجبل فسقط في أيديهم وأيقنوا [٣٦٥] أن الكسرة عليهم ، فطلب كل منهم لنفسه النجاة وفر نحو ملجئه .

---

(١) كوسة ــ كوسات : صنوجات من نحاس تشبه الترس الصغير ، يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص ــ صبح الأعشى جـ ٤ ص ٩ .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح من نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ١٠٦ .

وأما السلطان غياث الدين فلم يبرح من مكانه وقيّد فرسه ، ووقف على أعلى الجبل ظنا منـه أن عساكره التى تقدمت قد نزلت ونازلت ، ولم يدْر بما أصابهم من الافتراق، وأن كل طائفة منهم صارت إلى أفق من الآفاق، فأتاه الخبر بذلك وهو فى قلة ممن حوله ، وكان معه جماعة من الأمراء كان قد نقم عليهم أمرا، فأمسكهم وأودعهم الزردخاناة ، فأطلقهم وسلم الحريم إلى أحدهم ، وكان اسمه تركى الجاشنكير وهو والد الأمير مبارز الدين سوارى الرومى أمير شكار الذى هاجر إلى الديار المصرية فى الأيام الظاهرية على ما سنذكره إن شاء الله تعالى ، وأمره أن يتوجه بهم إلى قونية التى هى دار ملكه ، وموطن أهله ومسافتها من الذى كان فيـه ثلاثون يوما ، فسار بهن وقد تركوا القماش والفرش والأثاث، ولم يحملوا إلا الجـواهر النفيسة التى يخف حملها ويسهل نقلها ، ورحل السلطان عائدا ، وترك الوطاق(١) بما حوى من الدهاليز المضروبة والخيام المنصوبة والأثقال التى لها ولعساكره ، والخزائن المشتملة على ذخائرهم وذخائره .

ولما عاين التتار هزيمة ذلك العسكر الجرار ظنوها مكيدة، ولم يحسبوها هزيمة ، فلبثـوا ثلاثة أيام لا يتجاسرون على العبور إلى الخيم ، ثم تحققوا أمرهم وعبروه ، وحَوَوْا كل ما وجدوه من الخيول والأثاث والأثقال ، واستعرضوا كله ، وعادوا راجعين(٢) .

ذكر بقيـة الحـوادث :

منها : أن الملك الناصر داود لما عاد إلى بغداد بعد استشفاعه بالنبى صلى الله عليه وسلم فى ردّ وديعته أرسل الخليفة المستعصم بالله من حاسب الناصر المذكور

(١) الوطاق : الخيمة الكبيرة التى تعد للعظماء — القاموس .

(٢) انظر نهاية الأرب جـ٢٧ ص ١٠٦ — ١٠٧ .

على ما وصله فى تردداه إلى بغداد من المضيف مثل اللحم والخبز والحطب وغير ذلك ، وثُمِّن ذلك عليه بأغلى الثمن ، ثم أرسل إليه شيئا نزرا ، وألزمه بأن يكتب خطه بقبض وديعته وأنه ما بقى يستحق على [٣٦٦] الخليفة شيئا ، فكتب خطه بذلك مُكْرَهًا ، وسار عن بغداد وأقام مع العرب ، ثم أرسل إليه الملك الناصر يوسف صاحب الشام فطيب قلبه وحلف له ، فقدم الناصر داود إلى دمشق ونزل بالصالحيّة (١) .

ومنها : أن هلاون — على ما ذكر — دخل بغداد (٢) فى زىّ تاجر عجمىّ ، ومعه مائة حمل حرير ، واجتمع بالوزير مؤيّد الدين محمد بن العلقمى ، وبأكابر الدولة ، وكانوا قادرين على مَسْكِهِ إلا أنهم خانوا الله ورسوله والمسلمين ، ثم خرج بعدما أتقن أمره معهم (٣) .

ومنها : أنه كملت المدرسة الناصرية الجوانية (٤) داخل باب الفراديس بدمشق ، وحضر فيها المدرّس قاضى البلد صدر الدين بن سنىّ الدولة ، وحضر عنده الأمراء والعلماء وجمهور أهل الحلّ والعقد ، وحضر السلطان الملك الناصر يوسف واقفها أيضا (٥) .

---

(١) انظر المختصر جـ ٣ ص ١٩١ — ١٩٢ ، ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ١٣ .

(٢) « وفيها وصلت جواسيس هولاكو إلى الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمى ببغداد » — السلوك جـ ١ ص ٤٠٠ .

(٣) كنز الدرر جـ ٨ ص ٢٩ .

(٤) انظر الدارس جـ ١ ص ٤٥٩ وما بعدها .

(٥) وذلك فى سابع المحرم سنة ٦٥٤هـ — الدارس جـ ١ ص ٤٦٠ .

ومنها : أن السلطان الملك الناصر يوسف أمر بعمارة الرباط بسفح جبل قاسيون .

ومنها : أن عسكر الملك الناصر يوسف رحلوا من العوجاءِ إلى غُزّة ونزلوا على تلّ العجول ، واتفق وصول رسول الخليفة وهو الشيخ نجم الدين البادرائى من بغداد ليجدّد الصلح الذى وهَتْ مبانيه ، وقرر الصلح ، فأعاد العسكر .

ومنها : أنه كان ظهور النار من أرض الحجاز التى أضاءت لها أعناق الإبل ببصرى ، كما نطق بذلك الحديث المتفق عليه ، وقد بسط القول فيه أبو شامة فى كتاب الذيل وملخصه أنه قال : جاءَ إلى دمشق كتب من المدينة النبويّة ، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، بخروج نار عندهم فى خامس جمادى الآخرة من هذه السّنة ، وكتبت الكتب فى خامس رجب والنار بحالها .

قال : ووصلت الكتب إلينا فى عاشر شعبان وفيه تصديق لما فى الصحيحين من حديث أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضئ أعناق الإبل ببصرى » .

قال : فأخبرنى بعضُ من أثق به ممن شاهدها بالمدينة أنه بلغه أنه كُتب بتيماء(١) على ضوئها الكتب .

قال : وكنا فى بيوتنا تلك الليالى وكأنّ فى دار كل رجل سراجًا ، ولم يكن لها حرٌّ ولفح على عظمها ، إنما كانت آية من آيات الله عز وجل .

---

(١) تيماء : بالفتح والمد ، بليد بأطراف الشام ، على طريق حاج الشام ودمشق — معجم البلدان .

قال أبو شامة : هذه صورة ما وقفت عليه من الكتب الواردة منها : لما كانت ليلة الأربعاء ثالث جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة ظهر بالمدينة النبوية دوىٌّ عظيم ، ثم زلزلة عظيمة رجفت منها الأرض والحيطان والسُّقُف والأخشاب والأبواب ساعةً بعد ساعةٍ إلى يوم الجمعة الخامس من الشهر المذكور، ثم ظهرت نار عظيمة فى الحرَّة[1] قريبة من قريظة ، نبصرها من دورنا من داخل المدينة كأنها عندنا ، وهى نار عظيمة ، إشعالها أكبر من ثلاث منائر ، وقد سالت أودية منها بالنار إلى وادى شظا مَسيل[2] الماء ، وقد سدّت مسيل شظا وما عاد يسيل[3] ، والله لقد طلعنا ونحن جماعة نبصرها ، فإذا الجبال تَسيل[4] نيرانا[5] ، وقد سدّت الحرّة طريق الحاج العراقى ، فسارت إلى أن وصلت إلى الحرّة ، فوقفت بعد أن أشفقنا[6] أن تجئ إلينا ، ورجعت تسير فى الشرق ، تخرج من وسطها مهود[7] وجبال نيران تأكل الحجارة ، فيها أنموذج عما أخبر الله تعالى فى كتابه العزيز فقال عز من قائل : ﴿ إنها ترمى بشرر كالقصر ، كأنه جمالات صفر[8] ﴾ . وقد أكلت الأرض .

---

(١) الحرة : موضع معروف ظاهر المدينة المنورة ، أرضه كالصخر المحروق ، كانت به موقعة الحرة .

(٢) « وادى الشظاة » — فى ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٧ .

(٣) « سيل » فى الذيل على الروضتين ص ١٩٠ .

(٤) « بسيل » فى الذيل على الروضتين ص ١٩٠ .

(٥) « تسير » فى الذيل على الروضتين .

(٦) « فوقفت ما أشفقنا » فى الأصل ، والتصحيح من الذيل على الروضتين .

(٧) « مهول » فى الذيل على الروضتين .

(٨) سورة المرسلات رقم ٧٧ آية رقم ٣٢ — ٣٣ .

وقد كتب هذا الكتاب يوم خامس رجب سنة أربع وخمسين وستمائة ، والنار فى زيادة ما تغيرت ، وقد عادت إلى الحرار فى قريظة طريق [عير](١) الحاج العراقى إلى الحيرة(٢) ، كلها نيران تشعل ، نبصرها فى الليل من المدينة كأنها مشاعل الحاج ، وأما أم النار الكبيرة فهى جبال نيران حمر ، والأم الصغيرة(٣) النار التى سالت النيران منها من عند قريظة وقد زادت ، وما عاد الناس يدرون أى شىء يتم بعد ذلك(٤) ، والله يجعل العاقبة إلى خير وما أقدر أن أصف هذه النار .

وقال أبو شامة : فى كتاب آخر ظهر فى أول جمعة من جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة : وقع(٥) بالمدينة فى شرقيها نار عظيمة [٣٦٨] بينها وبين المدينة نصف يوم ، انفجرت من الأرض ، وسال منها واد من نار حتى حاذى جبل أحد ، ثم وقف(٦) وعادت إلى الساعة ، ولا ندرى ماذا نفعل ، ووقت ما ظهرت دخل أهل المدينة إلى نبيهم صلى الله عليه وسلم مستغفرين تائبين إلى ربهم تعالى ، وهذه دلائل القيامة .

قال : وظهر كتاب آخر : لما كان يوم الإثنين مستهل جمادى الآخرة سنة أربع وخمسين وستمائة ، وقع بالمدينة صوت تشبه صوت الرعد البعيدة تارة وتارة ، أقام على هذه الحالة يومين ، فلما كان ليلة الأربعاء ثالث الشهر المذكور

---

(١) [ ] إضافة من الذيل على الروضتين .

(٢) « إلى الحرة » فى الذيل على الروضتين .

(٣) « والأم الكبيرة » فى الذيل على الروضتين ، ولعله تحريف .

(٤) « وما عاد الناس يرون أى شىء بعد ذلك » فى الذيل على الروضتين .

(٥) « وقع » ساقط من الذيل على الروضتين .

(٦) « ثم وقفت » فى الذيل على الروضتين .

تعقب الصوت الذي كنا نسمعه زلازل ، [فتقيم على هذه الحالة ثلاثة أيام ، يقع في اليوم والليلة أربع عشرة زلزلة (١)] ، فلما كان في يوم الجمعة خامس الشهر المذكور انبجست الأرض من (٢) الحرة بنار عظيمة ، تكون قدرها مثل مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهي برأى العين من المدينة ، نشاهدها وهي ترمي بشرر كالقصر ، كما قال الله عز وجل ، وهي بموضع يقال له أجلين ، وقد سال من هذه النار واد يكون مقداره أربعة فراسخ وعرضه أربعة أميال وعمقه قامة ونصف ، وهي تجرى على وجه الأرض ، وتخرج منها أمهاد وجبال صغار ، وتسير على وجه (٣) الأرض وهو صخر يذوب حتى يبقى مثل الآنك ، فإذا جمد (٤) صار أسودا ، وقبل الجمود (٥) لونه أحمر ، وقد حصل بطريق هذه النار إقلاع عن المعاصي والتقرب إلى الله تعالى بالطاعات ، وخرج أمير المدينة عن مظالم كثيرة إلى أهلها .

قال أبو شامة : ومن كتاب شمس الدين بن سنان بن عبد الوهاب بن نُميلة الحُسيني قاضي المدينة إلى بعض أصحابه : لما كان ليلة الأربعاء ثالث شهر جمادى الآخرة حدث بالمدينة في الثلث الأخير من الليل زلزلة عظيمة أشفقنا منها ، وباتت (٦) باقي تلك الليلة تزلزل كل يوم وليلة قدر عشر نوبات ، والله لقد زلزلت مرة ونحن حول حجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم اضطرب لها المنبر إلى أن

(١) [ ] إضافة من الذيل على الروضتين ص ١٩١ .

(٢) «الأرض من» ساقط من الذيل على الروضتين .

(٣) «وجه» ساقط من الذيل على الروضتين .

(٤) «خمد» في الذيل على الروضتين ، وهو تحريف .

(٥) «الخمود» في الذيل على الروضتين .

(٦) «وبانت» في الأصل ، والتصحيح من الذيل على الروضتين .

سمعنا(١) منه صوتا للحديد الذى فيه ، واضطربت قناديل الحرم الشريف [النبوى](٢) [٣٦٩] ودامت الزلزلة إلى يوم الجمعـة ضحىً(٣) ، ولهـا دوىٌ [مثل دوى](٤) الرعد القاصف ، ثم بين فيه صفة النار ، ثم قال : وكتب الكتاب يوم خامس رجب وهى على حالهـا ، والناس منها خائفون ، والشمس والقمر يوم يطلعان(٥) ما يطلعان إلا كاسفين ، [فنسأل الله العافية](٦) .

قال أبو شامة : وبان عنـدنا بدمشق أثر الكسوف من ضـعف نورها على الحيطان ، وكنا حيارى من ذلك إشْ هو(٧) إلى أن جاءنا هذا الخبر عن هذه النار .

قال : وجاء كتاب من بعض بنى القاشانى بالمدينـة يقول فيه : وصل إلينا فى جمادى الآخرة نجابة من العراق وأخبروا عن بغداد أنه أصابها غرقٌ عظيم حتى دخل المـاءُ(٨) من أسْوار بغـداد إلى البـلد ، وغرق كثير من البلد ، ودخل المـاء دار الخليفة وسـط البلد ، وانهدمت دار الوزير وثلاثمائة وثمانون دارا ، « وانهدم مخزن الخليفة »(٩) ، وهلك من خزانة السلاح شىءٌ كثير ، [بل تلف كله](١٠) ، وأشرف

(١) « أوجسنا » أى سمعنا ، فى الذيل على الروضتين .
(٢) [ ] إضافة من الذيل على الروضتين .
(٣) « وتمت » فى الأصل ، والتصحيح من الذيل على الروضتين .
(٤) [ ] إضافة من الذيل على الروضتين .
(٥) « من يوم طلعت » فى الذيل على الروضتين .
(٦) [ ] إضافة من الذيل على الروضتين .
(٧) « لا ندرى ما هو » فى مخطوط نهاية الأرب جـ ٢٧ ، وساقط من الذيل على الروضتين .
(٨) « وصل » فى الأصل ، والتصحيح من الذيل على الروضتين .
(٩) « » ساقط من الذيل على الروضتين .
(١٠) [ ] إضافة من الذيل على الروضتين .

الناسَ على الهلاك ، وعادت السفن تدخل إلى أوسط(1) البلد وتخترق(2) أزقة بغداد ، ثم ذكر فيه حكاية النار(3) .

وقال ابن كثير رحمه الله : الحديث الوارد فى هـذه النار مخرّج فى الصحيحين من طريق الزهرىّ عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا تقوم الساعة حتى تخرج نار من أرض الحجاز تضىءُ أعناق الإبل ببُصْرى » . وهـذا لفظ البخارى(4) ، وقد وقع هـذا فى هذه السنة ، أعنى سنة أربع وخمسين وستمائة كما ذكرنا .

وقد أخبرنى قاضى القضاة صدر الدين على بن أبى القاسم التميمى الحنفى الحاكم بدمشق فى بعض الأيام فى المذاكرة وجرى ذكر هـذا الحديث وما كان من [أمر](5) هذه النار فى هذه السنة : فقال : سمعت رجلا من الأعراب يخبر والدى ببُصْرى فى تلك الليالى أنهم رأوا أعناق الإبل فى ضوءِ هـذه النار التى ظهرت من أرض الحجاز(6) .

وقال ابن كثير : وكان مولده فى سنة ثنتين وأربعين وستمائة(7) ، وكان والده مُدَرِّسا للحنفية ببُصْرى ، وكذلك كان جدُّه ، وهو أيضا قد درّس بها ، ثم انتقل

---

(١) « وسط » فى الذيل على الروضتين .

(٢) « وتخرق » فى الأصل ، والتصحيح من الذيل على الروضتين .

(٣) انظر الذيل على الروضتين ص ١٩٠ — ١٩٢ .

(٤) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٩١ ، وانظر البخارى الفتن ٢٤ ، مسلم أشراط الساعة ١٤ رقم ٢٩٠٢ .

(٥) [ ] إضافة من البداية والنهاية .

(٦) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٩١ .

(٧) « وخمسمائة » فى الأصل ، والتصحيح من البداية والنهاية .

[٣٧٠] إلى دمشق فدرس بالصادرية (١) وبالمقدمية (٢) ، ثم ولى قضاء القضاة الحنفية ، وكان مشكور السيرة فى الأحكام ، وقد كان عمره حين وقع هذه النار بالحجاز ثنتى عشرة سنة ، ومثله ممن يضبط ما سمع من الخبر أن الأعرابى أخبر والده فى تلك الليالى (٣) .

وقال أبو شامة : وفى ليلة الجمعة مستهل شهر رمضان من هذه السنة احترق مسجد النبي عليه الصلاة والسلام ، وابتداء حريقه من زاويته الغربية من الشمال ، وكان دخل أحد القومة إلى خزانة ثَمّ ، ومعه نار فعلقت فى آلاتٍ ثَمّ ، واتصلت بالسَقف سرعةً ، ثم دبت فى السقوف آخذةً قبلةً (٤) ، فاعجزت الناس [عن] (٥) قطعها ، فما كان إلا ساعة حتى احترقت سقوف المسجد أجمع (٦) ، ووقعت بعض أساطينه وذاب رصاصها ، وكل ذلك قبل أن ينام الناس ، واحترق سقف الحجرة النبويةّ على ساكنها السلام (٧) ، ووقع ما وقع منه فى الحجرة وبقى على حاله لما شرع فى عمارة سقفه وسقف المسجد ، وكان ذلك ليلة الجمعة وأصبح الناس فعزلوا موضعا للصلاة .

(١) المدرسة الصادرية بدمشق : وهى أول مدرسة أنشئت بدمشق سنة ٤٩١ هـ/ ١٠٩٨ م ، أنشأها شجاع الدولة صادر بن عبد الله ، بباب البريد على باب الجامع الأموى — الدارس جـ ١ ص ٣٧٥ وما بعدها .

(٢) المدرسة المقدمية الجوانيـة بدمشق ، أنشأها شمس الدين محمد بن المقدم ، أحد نواب صلاح الدين بدمشق ، والمتوفى سنة ٥٨٣ هـ/١١٨٧ م — الدارس جـ ١ ص ٥٩٤ وما بعدها .

(٣) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٩١ — ١٩٢ .

(٤) « فأعجلت » فى الذيل على الروضتين ، وذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ١٠ .

(٥) [ ] إضافة من الذيل على الروضتين ، وذيل مرآة الزمان .

(٦) « جميعها » فى الذيل على الروضتين .

(٧) « عليه » فى الأصل ، والتصحيح من الذيل على الروضتين .

وعدّ[1] ما وقع من تلك النار الخارجة وحريق[2] المسجد من جملة الآيات ، وكأنها كانت[3] منذرة عما يعقبها فى السنة الآتية من الكائنات على ما سنذكره إن شاء الله تعالى[4] .

ونظم بعضهم فى هذه النار وغرق بغداد بيتين ، قال :

سبحان من أصبحت مشيئته — جاريةً فى الورى بمقدار
أغرق بغداد بالمياه كما — أحرق أرض الحجازِ بالنار

قال أبو شامة : كان ينبغى أن ينبّه على أن الأمرين فى سنة واحدة ، وإلا فالإغراق والإحراق يقعان كثيرا ، فالصواب أن يقال :

فى سنة أغرق العراق وقد — أحرق أرض الحجاز بالنار[5]

وقال[6] :

بعد ستّ من المئين وخمسين — لدى أربع جرى فى العام
نار أرض الحجاز مع حرق — المسجد مع غريق[7] دار السلام
ثم أخذ التتار بغداد فى — أول عام من بعد ذاك بعام[8]

[٣٧١]

(١) « وعدوا » فى الذيل على الروضتين .

(٢) « من » فى الأصل ، والتصحيح من الذيل على الروضتين .

(٣) « كانت » ساقط من الذيل على الروضتين .

(٤) انظر الذيل على الروضتين ص ١٩٤ .

(٥) انظر الذيل على الروضتين ص ١٩٣ .

(٦) ينسب أبو شامة الأبيات التالية لنفسه — الذيل على الروضتين ص ١٩٤ .

(٧) « تغريق » فى الأصل ، والتصحيح من الذيل على الروضتين .

(٨) « العام » فى الذيل على الروضتين .

لم يقن[1] أهلها وللكفر أعوان عليهم يا ضيعة الإسلام

وانقضت[2] دولة الخلافة منها صار مستعصم بغير اعتصام[3]

وفيها : « ... ... »[4]

وفيها : حج بالناس « ... . »[5]

---

(١) « لم يغن » فى الأصل ، والتصحيح من الذيل على الروضتين .

(٢) « انقضت » فى الأصل ، والإضافة من الذيل على الروضتين .

(٣) انظر أبيات أخرى فى الذيل على الروضتين .

(٤) « ... ... » بياض فى الأصل .

(٥) « ... ... » بياض فى الأصل .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

الشيخ الفقيه أبو محمد عبد الوهاب بن على بن عبد الوهاب بن مناس الطرابلسى المالكى .

وكان قد ولى القضاء بطرابلس المغرب والمهدية ، ثم استوطن الإسكندرية .

وكان شيخا صالحا . توفى فى هذه السنة .

الشيخ عماد الدين عبد الله (١) بن النحاس الزاهد الورع .

خدم الملوك ووزر بالعجم ، وانقطع فى آخر عمره بجبل قاسيون ، وأقام ثلاثين سنة مشغولا بالله ، ويقضى حوائج الناس بنفسه وماله . توفى فى هذه السنة ، ودفن بقاسيون بدمشق .

وهو الذى قال له ابن شيخ الشيوخ فخر الدين : والله لأسبقنك إلى الجنة بمدة ، فسبقه فخر الدين .

الشيخ شمس الدين عبد الرحمن (٢) بن نوح المقدسى ، الفقيه الشافعى ، مدرس

---

(١) هو عبد الله بن الحسن بن الحسين بن على الأنصارى الدمشقى ، عماد الدين بن النحاس ، وله أيضا ترجمة فى : ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٢٤ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٩٣ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٦٥ . وورد اسمه « أبو بكر بن عبد الله » فى العبر جـ ٥ ص ٢١٧ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : العبر جـ ٥ ص ٢١٨ ، ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ١٩ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٦٥ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٩٥ .

الرواحية[1] بعد شيخه تقى الدين بن الصلاح[2] . توفى فى هذه السنة ، ودفن بالصوفية[3] . وكانت له جنازة حافلة .

سِبْطُ ابن الجوزى[4] : الشيخ شمس الدين أبو المظفر يوسف بن الأمير حسام الدين قزغلى بن عبد الله ، عتيق الوزير عون[5] بن هبيرة الحنفى ، أحد السادات الحنفية البغدادى ، ثم الدمشقى ، سبط ابن الجوزى ، أمه رابعة بنت الشيخ جمال الدين أبى الفرج بن الجوزى[6] الواعظ .

وقد كان حسن الصورة ، طيب الصوت ، حسن الوعظ ، كثير الفضائل والمصنفات ، وله مرآة الزمان فى عشرين مجلدا[7] من أحسن التواريخ ، انتظم فيها

---

(١) المدرسة الرواحية بدمشق : أنشأها هبة الله بن محمد الأنصارى ، زكى الدين بن رواحة المتوفى سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م — الدارس جـ ١ ص ٢٦٥ .

(٢) « ابن صلاح » فى الأصل ، وهو عثمان بن عبد الرحمن الشهرزورى ، تقى الدين بن الصلاح ، المتوفى سنة ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م — الدارس جـ ١ ص ٢٦٦ .

(٣) « دفن من الغد بمقابر الصوفية » — ذيل مرآة الزمان .

(٤) وله أيضا ترجمة فى . المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ١٣ العبر جـ ٥ ص ٢٢٠ ، ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٣٩ — ٤٢ ، السلوك جـ ١ ص ٤٠١ ، الذيل على الروضتين ص ١٩٥ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٩٤ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٦٦ — ٢٦٧ ، وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٤٢ رقم 96 ، فوات الوفيات جـ ٤ ص ٢٥٦ رقم ٥٩٢ ، تاج التراجم ص ٨٣ رقم ٢٥٦ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٩ .

(٥) هو يحيى بن هبيرة بن محمد بن هبيرة ، أبو المظفر ، الوزير عون الدين ، المتوفى سنة ٥٦٠ هـ ١١٦٤ م — وفيات الأعيان جـ ٦ ص ٢٣٠ رقم ٨٠٧ .

(٦) هو عبد الرحمن بن على بن محمد ، أبو الفرج بن الجوزى ، المتوفى سنة ٥٩٧ هـ / ١٢٠٠ م — وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٤٠ رقم ٣٧٠ .

(٧) « رأيته بخطه فى أربعين مجلدا » — وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٤٢ .

المنتظم(١) تاريخ جدّه وزاد عليه ، وذيل إلى زمانه ، وهي من أحسن التواريخ وأبهجها ، قدم دمشق في حدود الستمائة ، وحُظي عند ملوك بني أيوب ، وقدموه وأحسنوا إليه .

وكان له مجلس وعظ كل يوم سبت بكرة النهار عند السارية التي يقوم عندها الوعاظ اليوم عند مشهد علي بن الحسين زين العابدين ، وقد كان الناس يبيتون ليلة السبت بالجامع ويتركون البساتين [٣٧٢] في الصيف حتى يسمعوا ميعاده ، ثم يُسرعون إلى بساتينهم فيتذاكرون ما قاله من الفوائد والكلام الحسن على طريق جدّه .

وقد كان الشيخ تاج الدين الكندي(٢) وغيره من المشايخ يحضرون عنده تحت قُبّة يزيد التي عند باب المشهد ويستحسنون ما يقول .

ودَرّس بالعزية البرانية(٣) التي بناها الأمير عز الدين أيبك(٤) المعظمي أستادار الملك المعظم وهو واقف العزية الجوانية(٥) التي بالكشك أيضا ، وكانت قديما تعرف بدُور ابن منقذ .

---

(١) « نظم فيه المنتظم » في البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٩٤ .

(٢) هو زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن البغدادي ، تاج الدين الكندي ، شيخ الحنفية والقراء والنحاة بالشام ، والمتوفى سنة ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م . العبر جـ ٥ ص ٤٤ — ٤٥ .

(٣) المدرسة العزية البرانية بدمشق : أنشئت سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م — الدارس جـ ١ ص ٥٥٠ وما بعدها .

(٤) توفي سنة ٦٤٥ هـ / ١٢٤٧ م — البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٧٤ .

(٥) المدرسة العزية الجوانية بدمشق — الدارس جـ ١ ص ٥٥٥ وما بعدها .

ودرّس السبط أيضا بالشبلية (١) التى بالجبل عند جسر كُحيل ، وفوض إليه البدرية (٢) التى قبالتها ، فكانت سكنه ، وبها توفى ليلة الثلاثاء الحادى والعشرين من ذى الحجة من هذه السنة ، وحضر جنازته سلطان البلد الملك الناصر يوسف ابن العزيز فمن دونه .

وأثنى عليه أبو شامة فقال : كان فاضلا ، عالما ، ظريفا ، منقطعا ، منكرا على أرباب الدول ما هم عليه من المنكرات ، وقد كان مقتصدا فى لباسه ، مواظبا على المطالعة والاشتغال ، والجمع والتصنيف ، ربى فى طول زمانه فى حياة طيبة وجاه عريض عند الملوك والعوام نحو خمسين سنة ، وقد كان مجالس وعظه مطربا (٣) ، وصوته فيما يورده فيه حسنا طيبا .

وقد سُئل يوم عاشوراء فى زمن الملك الناصر يوسف صاحب حلب أن يذكر للناس شيئا من مقتل الحسين رضى الله عنه ، فصعد المنبر وجلس طويلا لا يتكلم ، ثم وضع المنديل على وجهه وبكى ، ثم أنشأ يقول وهو يبكى شديدا :

ويلٌ لمنْ شفعاؤهُ خُصَماؤهُ والصُورُ فى نشر الخلائقِ يُنفَخُ

لابدّ أن تَردَ القيامة فاطمٌ وقميصُها بدم الحسين مُلطخُ

---

(١) المدرسة الشبلية البرانية بدمشق : بسفح جبل قاسيون بالقرب من جسر ثورى ، أنشأها شبل الدولة كافور طواشى حسام الدين محمد بن لاجين ولد ست الشام ، المتوفى سنة ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م — الدارس جـ ١ ص ٥٣٠ وما بعدها .

(٢) المدرسة البدرية بدمشق : قبالة المدرسة الشبلية التى بالجبل عند جسر كحيل على نهر ثورى على الطريق بين مين الكرش وحى الأكراد ، أنشأها الأمير بدر الدين حسن بن الداية من أكابر أمراء نور الدين محمود ، الدارس جـ ١ ص ٤٧٧ وما بعدها .

(٣) انظر الذيل على الروضتين ص ١٩٥ .

ثم نزل عن المنبر وهو يبكى ، وصعد إلى الصالحية وهو يبكى[1] .

وقال صاحب طبقات الحنفيّة : روى السبط عن جدّه ببغداد ، وسمع من أبى الفرج بن كليب وأبى حفص بن طبرزد ، وسمع بالموصل ودمشق وحدّث بها وبمصر ، وله تصانيف منها : مرآة الزمان ، وشرح الجامع الكبير ، وإيثار [٣٧٣] الإنصاف وغير ذلك ، مات فى التاريخ المذكور ، وصُلّى عليه بباب جامع جبل قاسيون الشمالى ، وصلّى عليه السلطان الملك الناصر يوسف ، وكان مولده نحو سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ببغداد .

ورثاه الشهاب أحمد بن إبراهيم بن عبد اللطيف بن مصعب ارتجالا بأبيات :

ذَهبَ المـؤرّخُ وانقضت أيامُه		فتكدّرت من بعده الأيّامُ
قد كان شمسُ الدين نورا هاديًا		فقضى فعمَّ الكائنات ظلامُ
كم قد أتى فى وعظه بفضائلٍ		فى حُسْنها تحيّرُ الأفهامُ
حزن العِراقُ لفقده وتأسّفتْ		مِصْرٌ وناح أسى عليه الشّامُ
فسُقِىَ ثرى وارهُ صَوْبَ غمامةٍ		وتعاهدَتْه تحيّةٌ وسَلَامُ

مجير الدين يعقوب[2] بن السلطان الملك العادل أبى بكر بن أيوب . توفى فى هذه السنة ، ودفن عند والده بتربة العادلية[3] .

(١) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٩٤ — ١٩٥ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : الذيل على الروضتين ص ١٩٤ ، ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٣٧ .

(٣) « ودفن بمقبرة والده بالمدرسة العادلية » — الذيل على الروضتين ص ١٩٤ .

الأمير مظفر الدين إبراهيم[(١)] بن صاحب صرخد عز الدين أيبك ، أستاذ دار الملك المعظم ، واقف العزيزيتين الجوانيـة والبرانية على الحنفية . توفى فى هذه السنة ، ودفن عند والده بالتربة تحت القبة عند الوراقة .

الأمير الكبير سيف الدين أبو الحسن يوسف[(٢)] بن أبى الفـوارس موسك القيمرى الكُردىّ ، أكبر أمراء القيمريّة .

كان يقفون بين يديه كما يفعل بالملوك ، ومن أكبر حسناته وقفه[(٣)] المـارستان الذى بسفح جبـل قاسيون ، وكانت وفاته ودفنـه بالسفح فى القبّـة التى تجاه المـارستان المذكور ، وكان ذا مال كثير وثروة .

السلطان المـلك غياث الدين كيخسرو[(٤)] بن السلطان عـلاء الدين كيقباذ ابن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش ابن أرسلان بن سلجوق .

وخلّف من الأولاد ثلاثة وهم : عزّ الدين كيكاوس ، وركن الدين قليج أرسلان ، وعلاء الدين كيقباذ ، ولما توفى والدهم استقرّوا فى السلطنة ولم ينفرد

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ١٥ — ١٧ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٩٠ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٩٥ ، وورد ذكر وفاته سنة ٦٥٣ هـ فى العبر جـ ٥ ص ٢١٤ ، وورد اسمه : سيف الدين أبو الحسن على بن يوسف بن أبى الفوارس القيمرى ، ووفاته سنة ٦٥٣ هـ فى شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٦١ .

(٣) « وقعة » فى الأصل ، والتصحيح من البداية والنهاية .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ١٠٥ وما بعدها ، السلوك جـ ١ ص ٤٠١ ،

بها أحد عن الآخر ، وضربت السكّة بأسمائهم مشتركة ، وخطب لهم جميعا ، [٢٧٤] وكان أبوهم قد فوض ولاية عهده إلى ولده علاء الدين كيقباذ الذى هو من كُرجى خاتون ، فاتفقوا على أن يتوجه إلى مَنكوقان يطلب منه الصلح والهدنة ، ويقرر له الإتاوة ، ليكُفّ عساكره المتوالية ، ويمنع جيوشه العادية ، وأما التتار فإنهم استولوا على قيسارية وأعمالها وصار إليهم مسافة شهر من بلاد الروم(١) وأقاموا فى هذه البرهة اللطيفة يقتلون ويأسرون وينهبون ، ثم لما استأصلوا شعبها وبالغوا فى تخريبها عادوا إلى مستقرهم .

وكانت تولية غياث الدين كيخسرو المذكور فى السنة التى مات فيها والده علاءُ الدين كيقباذ وهى سنة أربع وثلاثين وستمائة(٢) ، فيكون مدة مملكته عشرين سنة ، وكان والده علاءُ الدين قد زوّجه بكُرجى خاتون ابنة ملك الكُرج ، فلما صارت إليه السلطنة صيّر أخاها — وكان نصرانيا لم ينتقل عن ملته — مقدّما على الجيش ، فكرهه الأمراءُ وكرهوا السلطان غياث الدين لتقديمه إياه عليهم ، وقد خبّط نفر من المؤرخين فى تاريخ وفيات هؤلاء وتاريخ ولاياتهم ، منهم : بيبرس الدوادار ، والصواب ما ذكرناه .

فإن قلت : أنت قد ذكرت فى أول سنة إحدى وخمسين وستمائة أن صاحب الروم ثلاثة وهم(٣) : عز الدين كيكاوس وركن الدين قليج أرسلان وعلاء الدين

(١) « فصار لهم من بلاد الروم مسافة شهر » — السلوك ج ١ ص ٤٠٠ .

(٢) انظر نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٠١ — ١٠٤ .

(٣) انظر ما سبق فى أحداث سنة ٦٥١ هـ ص ٧٩ .

كيقباذ أولاد غياث الدين كيخسرو ، فكيف يلتئم هذا الكلام بالذى ذكرته آنفاً ؟

قلت : هذا نقلته هناك فى تاريخ بيبرس ، ولكنه أطلق كلامه بحيث أنه يوهم أن غياث الدين كيخسرو الذى هو والد الثلاثة مات فى تلك السنة ، أعنى سنة إحدى وخمسين وليس كذلك ، بل وجهه أنه كأنه قسم بلاده فى حياته بين أولاده الثلاثة المذكورين فى السنة المذكورة ، واستقلّ كل منهم سلطانا ، إلا أنه مات فى تلك السنة ، واستقلوا سلاطين فيها ، فافهم ، والله أعلم .

* * *

فصلٌ فيما وقع من الحوادث
في السنة الخامسة والخمسين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة : وهو المستعصم بالله .

[٣٧٥] وسلطان الديار المصرية : الملك المعز أيبك الصالحى ، ونائبه فيها الأمير سيف الدين قطز ، ولكن أيبك قتل فى هذه السنة على ما نذكره إن شاء الله .

وسلطان الشام وحلب : الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز ابن الظاهر بن الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب .

وصاحب بلاد الروم : الأخوة الثلاثة وهم : عز الدين كيكاوس ، وركن الدين قليج أرسلان ، وعلاء الدين كيقباذ ، أولاد غياث الدين كيخسرو ، ولكن كبيرهم علاء الدين كيقباذ ، وهو كيقباذ الصغير ، وجده هو كيقباذ الكبير ، وعلاء الدين كيقباذ الأصغر ، مات هو أيضا فى هذه السنة .

ولنذكر أولا وفاة الملك المعز أيبك ، ثم وفاة كيقباذ الأصغر .

(*) يوافق أولها الجمعة ١٩ يناير ١٢٥٧ م .

ذكر وفاة الملك المعز أيبك الصالحي

والكلام فيه على أنواع :

الأول، فى ترجمته : هو السلطان الملك المعز عز الدين أيبك[1] الصالحى النجمى التركمانى المعروف بالجاشنكير ، كان من أكبر مماليك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بن السلطان الملك الكامل بن السلطان الملك العادل أبى بكر ابن أيوب ، وكان من الأخصاء عند أستاذه الملك الصالح ، وترقى حاله عنده إلى أن غلب على الديار المصرية بعد قتل الملك المعظم تورانشاه بن الملك الصالح ، وصار أتابك العساكر بالديار المصرية ، ثم استقر فى السلطنة فى التاريخ الذى ذكرناه .

الثانى، فى سيرته : كان دينًا صينًا عفيفًا كريما ، شجاعاً ، وهو الذى وقف المدرسة المعزية التى بمصر على شاطئ النيل ، ومكث فى الملك نحوا من سبع سنين . وقال بيبرس فى تاريخه : كانت دولة المعز خمس سنين وأشهرا .

الثالث، فى مقتله : قال ابن كثير : قتلته زوجته شجر الدر أم خليل التى كانت حظية أستاذه الملك الصالح ، وكان سبب ذلك أنه كان قد تغير على شجر الدر بعد قتل الفارس أقطاى ، وبلغها أنه أرسل يخطب بنت بدر الدين لؤلؤ صاحب

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ج ١ ص ٢٠ - ٢٨ ، العبر ج ٥ ص ٢٢٢ . وانظر أيضا الجوهر الثمين ص ٢٥٦ - ٢٦٢ ، كنز الدرر ج ٨ ص ٣٠ - ٣٢ .

الموصل ليتزوجها ، وأنه اتفق أنه قبض على جماعة من البحرية وهو على أم البارد وأرساهم إلى القلعة ليعتقلوا بها (١) ، وكان منهم شخص يُسَمّى أيدكين الصالحى ، فلما وصلوا تحت الشُبَّاك الذى تجلس فيه شجر [٣٧٦] الدر، قال لبعض الطواشية : ياطواشى ، خُوندْ (٢) جالسةٌ فى الشباك . قال : نعم، فخدم أيدكين المذكور برأسه ورفعها إلى الشباك ، وقال لها بالتركى : المملوك أيدكين البَشْمقدار (٣) : والله يا خُوَند ما عملنا ذنبًا يوجب مَسْكَنَا إلا أنه لما سيَّر يخطب بنت بدر الدين لؤلؤ ليتزوجها ما هان علينا لأجلك ، فإنا نحن تربية نعمتك ونعمة الشهيد المرحوم فعاتبناه على ذلك، ماترين ؟ قال، قال : وأومأت بمنديل من الشباك ، يعنى قد سمعت كلامك ، فلما نزلوا بهم إلى الجب قال أيدكين : إن كان حبسنا فقد قتلناه (٤) .

فلما رجع المعز أيبك من لعب الأكرة ودخل الحمام ، رتبت شجر الدر له فى الحمام سنجر الجوجرى مملوك الطواشى محسن (٥) والخدام الذين كانت اتفقت معهم فقتلوه فى الحمام ، وأرسلت فى تلك الساعة أصبع المعز أيبك وخاتمه إلى الأمير

(١) كان من بينهم « برى بلجك » جد المؤرخ ابن أيبك الدوادارى — كنز الدرر جـ ٨ ص ٣١ .

(٢) « خونده » فى الأصل ، والتصحيح من كنز الدرر .

(٣) « بمقدار » فى الأصل ، والتصحيح من كنز الدرر .

(٤) كنز الدرر جـ ٨ ص ٣١ .

(٥) « مملوك الفارس أقطاى » — النجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٧٦ .

عز الدين الحلبي الكبير[1]، وطلبت منه أن يقوم بالأمر، فلم يجسر على ذلك، وكان قتله يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة[2].

وفي تاريخ بيبرس : ولما بلغ شجر الدُّر أن المعز أرسل يخطب لنفسه بنتي صاحب حماة وصاحب الموصل أخذتها الحدة وملكتها الغيرة لما قصد من الاستبدال عنها والاعتزال منها . فحملها ذلك على قتله ، ولما كان يوم الثلاثاء الرابع و العشرين[3] من ربيع الأول، ركب إلى الميدان كعادته وعاد إلى القلعة من عشيته ، فلما دخل الحمام أحاط به جماعة من الخُدَّام ، وأذاقوه كأس الحمام ، وأشاعوا بكرة يوم الأربعاء أنه قدمات فُجاءة في جوف الليل ، ودعوا بالثبور والويل ، وأعولت النساء في الدور ، وأردن التلبيس بهذه الأمور فلم تتم الحيلة على مماليكه لأنهم فارقوه بالعشي سليما ، وألفوه في الصباح عديما ، فعلموا أنه قد قتل غيلة .

---

(١) هو أيبك بن عبد الله الصالحي النجمي الحلبي « الأمير الكبير عز الدين » توفي سنة ٦٥٥ هـ/ ١٢٥٧م — المنهل الصافي جـ ٣ ص ١٢٩ رقم ٥٧٤ .

(٢) هناك اختلاف كبير بين هذا النص، وما ورد في البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٩٥ — ١٩٦ ص ١٩٨ — ١٩٩ .

(٣) « الثالث والعشرين » ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٤٥ ، وهو تحريف ، فيوم ٢٤ ربيع الأول ٦٥٥ هـ يوافق يوم ثلاثاء — انظر التوفيقات الإلهامية .

ذكر تولية الملك المنصور نور الدين [على](١) بن السلطان الملك المعز أيبك

ولما ظهر الخبر بقتل المعز أراد مماليك المعز قتل شجر الدر، فجاءها المماليك الصالحية واتفقت الكلمة على إقامة نور الدين على بن المعز أيبك سلطانا ، ولقبوه الملك المنصور، وعمره يومئذ خمسة عشر سنة ، ونقلت شجر الدر [٣٧٧] من دار السلطنة إلى البُرج الأحمر ، وصلبوا الخدام الذين اتفقوا معها على قتل المعز ، وهرب سنجر الجوجرى ، ثم ظفروا به وصلبوه ، واحتيط على الصاحب بهاء الدين بن حنا لكونه وزير شجر الدر ، وأخذ خطه بستين ألف دينار .

وفى يوم الجمعة عاشر ربيع الآخر منها : اتفقت مماليك المعز أيبك مثل : سيف الدين قطز وسنجر الغتمى ، وبهادر، وقبضوا على علم الدين سنجر الحلبى ، وكان قد صار أتابك العساكر للملك المنصور نور الدين علىّ ، ورتّبوا فى أتابكيّته أقطاى المُستعرِب الصالحى(٢) .

وفى تاريخ بيبرس : استقر نور الدين على فى السلطنة بعد موت أبيه ، وكان جلوسه فى السادس والعشرين من ربيع الأول سنة خمس وخمسين وستمائة ،

(١) [ ] إضافة للتوضيح . وانظر الجوهر الثمين ص ٢٦٢ — ٢٦٣ .

(٢) توفى سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م — المنهل الصافى جـ ٢ ص ٥٠٤ رقم ٥٠٦ .

وعمره يومئذ حول عشر سنين، وكان يميل إلى اللهو واللعب لِصباه ، وقام الأمير سيف الدين قطز المُعِزى بأتابكيته وتدبير دولتـه ، وكان ذا بأس وشهامةً، وحزم وصرامة ، فأمسك الصاحب شرف الدين الفائزى وعزله عن الوزارة ، واحتيط على أمواله ، وأسبابه ، وذخائره . وكان مثريا من المـال ، وله ودائع كثيرة متفرقة ، فتُتُبِّعت واستخرجت من أربابها وحملت ، واعتقل ثم قُتِل .

وسَببُ قتله أنّ والدة الملك المنصور هذا كانت مجفوّة من زوجها الملك المعز ، وكان قد اتخذ سرارى وصيّرهن عند الوزير ، فنقمت عليه ، وسأل أن يبذل عن نفسه مالاً فلم ترض إلا بقتله ، واستوزر بعده الصاحب زين الدين يعقوب بن الزبير[1] .

ذكر وفاة السلطان علاء الدّين كيقباذ الصغير بن السلطان كيخسرو ابن السلطان علاء الدين كيقباذ :

مات فى هذه السنة بمدينـة أرزنكان[2] ، وكان توجه إلى خدمة منكـوقان ابن طلوخان بن جنكزخان من قونية قاصـدا الأُرْد ، وسار فى خدمته الأمـير سيف الدين طرنطاى ، صاحب أماسية، وكان من أكابر أمراء الدولة، وحده، وكان يلقب بكلار باكى ، يعنى أمـير الأمراء ، وشجاع الدين ، ومحسن ملك

(١) هو يعقوب بن عبد الرفيع بن زيد بن مالك ، الصاحب زين الدين الأسـدى الزبيرى ، توفى سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م — المنهل الصافى .

(٢) أرزنكان : بالفتح ثم السكون وفتح الزاى : من قرى فارس — معجم البلدان .

السواحل، واستصحب معه الهدايا النفيسة، والجواهر الثمينة، [٣٧٨] والتحف الغريبة، والأقمشة شيئا كثيرا.

فلما توجّه وأقام أخواه بقونية وهما: عز الدين كيكاوُس، وركن الدين قليج أرسلان، لم يلبثا إلا قليلا حتى دَبَّتْ بينهما عقاربُ السُّعاة، وأفضى الحال بينهما إلى المعاداة، واختلفت الآراء، وشعّبت الأهواء، وتقسمت خواطر الأمراء.

وكان الصاحب يومئذ شمس الدين الطُغرائى، وكان يميل مع ركن الدين، وآل أمر الأخوين إلى أن اقتتلا، فانكسر ركن الدين قليج أرسلان، وانتصر عليه أخوه عز الدين كيكاوُس، وأخذه أسيرا، واعتقله عنده، واستقر بقونية، وحكم فى المملكة، هذا وبَيْجُو ومن معه يجوسون خلال الديار.

ولما حصل ركن الدين فى الأَسْرضاق بإلزامه الأمراء[1] وهم: شمس الدين الطُغرائى، والأمير سيف الدين جاليش، وبهاء الدين أزْدكردى، ونور الدين الخزندار، ورشيد الدين صاحب ملطيّة وهو أمير عارض، وفكّروا فيما يفعلون، فاتفقوا على أن زوّروا كُتُبًا عن السلطان عز الدين إلى سيف الدين طُرُنْطاى ورفيقيه بأن يُسَلّما إليهما السلطان علاء الدين وما معهما من الهدايا والخزانة، ليتوجّه الصاحب بذلك إلى منكوقان وتعودا أنتما من الطريق.

وساروا بهذه الكتب الموضوعة فى إثر السلطان علاء الدين، فلحقوه وقد وصل هو ومَنْ معه إلى أرْدُو بَايْطُو، فدخلوا على بايطُو وقالوا له: إن السلطان عز الدين كان قد أرسل أخاه ليتوجّه إلى القان، وأرسل معه هذين الذين هما طرنطاى

(١) «الأمر» فى الأصل، والتصحيح يتفق والسياق.

ورفيقه ، ثم انضح له أنهما قد أضمرا السوء (١) ، وأن طرنطاى ضربته الصاعقة فيما مضى من الزمان فلا يصلح أن يدخل بين يدى القان ، وأن رفيقه شجاع الدين رئيس طبيب ساحر ، وقد أخذ صحبته شيئا من السم القاتل يغتال به منكوقان ، فأرسلنا نحن عوضا منهما وأمر بردهما .

فلما سمع بايطو مقال الصاحب ورفقته ظنه حقا ، فأمر بإحضار طرنطاى ورفيقه ، وأن يفتش ما صحبتهما من القماش والزاد وغيره ، ليظهر السم الذى معه ، فكبست خيمة شجاع الدين الرئيس (٢) [٣٧٩] وحمل ما وجد ، فكان من جملته برانى شراب وعقاقير الأدوية وشيء من المحمودة (٣) ، فألزموه بالأكل من جميعها ، فأكل حتى انتهوا إلى المحمودة أمروه أن يأكل منها فأبى ، وقال : إن أكلت من هذه مت ، فقالوا : هو السم الذى قيل فيه إنه معكما ، وسألوا الأمير سيف الدين طرنطاى : ما هذا السم ؟ ولم حملتماه ؟ ومن الذى تقصدان أن تغتالا به وتقتلاه ؟ فأجاب : بأنه لا علم له بأمره ، وإنما يسأل عنه من وجد معه ، فرسم بايطو بأن يقرر شجاع الدين بالضرب ليطلعهم على الأمر ، فقال لهم : اطلبوا الأطباء إلى هاهنا ، وأروهم هذا النوع واسألوهم عنه ، فإن ذكروا أنه سم قاتل ، فأنا خائن خاتل ، وإن قالوا : إنه دواء يتخذه الناس ويستعملونه لعلاج الأمراض ، فهؤلاء القوم ذو أغراض .

---

(١) « أنضح » فى الأصل ، والتصحيح من نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ١٠٨ .

(٢) « رئيس » فى الأصل .

(٣) « السقمونيا » — فى نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ١٠٨ .

فأحضروا الأطباء وسألوهم عن المحمودة ، فأجابوا بأنها دواءٌ يشرب للنفعة ، وتوجد عند كثير من الباعة وغيرهم ، فتبيّن لهم أن الصاحب قد تَقوّل عليه ، ثم سألوا طرنطاى ما هى الصاعقة التى ضربته وفى أىّ وقت أصابته ؟ فقال : الصاعقة لا حقيقة لها ، والحالُ فيها كالحال فى السُمّ ، وإنما هؤلاء زوّروا الكتب التى على أيديهم ، وكتبوا ما أرادوا لأنفسهم ، وأنا بينى و بين السلطان أمارة جعلها معى عند وداعه فأقول سرًّا ، فإن قالها الصاحب ومَن معه فهم صادقون ، و إن لم يعرفوها فهم مإذقون ، وأسرّ إليه الأمارةَ ، فسأل الصاحب ورفقته عنها فلم يعرفوها ، فقال بايطُو لطرنطاى : أنتم جميعا متوجهون إلى القان ، وهو يفعل ما يراه .

وهؤلاء حضروا من مسافة بعيدة فاختاروا(١) إما أن يتسلّموا السلطان وتبقى الخزائن معكم ، أو تسلّموا إليهم الخزائن و يبقى السلطان معكم ، فأجمع رأى الأمير سيف الدين طرنطاى على أن تكون الخزائن معه ومع رفيقه ، وأن يتسلّم السلطان علاء الدين الصاحبُ شمس الدين الطغرائىّ ورفيقه ، فتسلّماه .

وسار طرنطاى ورفيقه قبلهما ، وسار الصاحبُ والسلطان معه بعده ، فمرض السلطان علاء الدين فى [٣٨٠] أثناء الطريق ومات .

فاتفق الصاحب وجاليش أن يسيرا إلى طرنطاى ورفيقه يعرّفانهما أن السلطان ضعيف ، فإذا حضرا ليُبْصِرَاه يقتلونهما ، و بلغ سيف الدين طرنطاى موت السلطان ، فأرسل فراشا ليكشف له أمره وأوصاه بأن يفتش آثارهم بالمنزلة التى

(١) بداية ما وجد فى الجزء التاسع من مخطوط زبدة الفكرة ورقة ٢٨ أ .

رحلوا منها ، فمهما أصاب من ورقة مُمَزَّقة أو غيرها يحضرها إليه ليستدل منها على شيء من أحوالهم .

فوجد الفراش رقعة مُمَـزَّقَةً كان جاليش قد كتبها إلى الصاحب بما اتفقا عليه عند موت السلطان ، فأحضرها الفـراش إلى سيف الدين طرنطاى ، فاحتفظ بها ، وعلم منها ما كانا عزما عليه من المكيدة ، وسار هو ورفيقه حتى إذا صارا من الأُرْدُو على مسافة ثلاثة أيام نزلا فى إنتظار الصاحب ومَن معه معتقدين أنهم جاءُون وراءهم ، وكانوا قد توجَّهوا من طريق أخرى إلى مَنكوقان ، فلما وصلوا إليـه وأعلموه بأنَّ لهم رفقة لم يصلوا بَعْـدُ أنكر منكوقان عليهم ، وأمَر بأن يُرْبطوا ويقاموا فى الشمس إلى حين وصول رفقتهم (١) ، فأرسـل الصاحب يخبر طرنطاى بأمره ، ويسأله سرعة القدوم ليفكَّ من أسْره ، فقدم طرنطاى .

وجلس [لهم] (٢) منكوقان مجلسا عامًّا ، وأحضرهم بين يديه ، ووقف التراجمَةُ يعبِّرون لهم وعنهم ، فأمر بأن يجلسوا فى مراتبهم كما يجلسون فى بلادهم ، فتنافسوا فى الجلوس ، وقصد كلٌّ من التقدّم على الآخر ، ثم سألهم عن وظائفهم ، فصار كلٌّ يدَّعى أنه الأكبر ، فلما انتهى إلى طرنطاى ذكر أن وظيفته الأتابكيَّة وتقدمة الجيش ، فأمر أن يجلس فوق جميعهم ، فأبى ، وضرب جوك الخدمة وقال : أنا بمرسـوم القان أجْلِسُ فى المـنزلة التى كنت أجلسُ فيهـا فى بلادنا ، فأعجب مَنكوقان قوله وقال : هذا قد تبيَّن لنا صدقه [وعقله] (٣) ، وسأله عن أمر السلطان

(١) بداية الورقة ٢٨ ب من جـ ٩ من مخطوط زبدة الفكرة .

(٢) [لهم] إضافة من مخطوط زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٢٨ ب .

(٣) [وعقله] إضافة من مخطوط زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٢٨ ب .

علاء الدين وكيف كان موته ؟ فقال : منذ سلمه المملوك إلى الصاحب ورفقته ، وتقدمنا [هم] (١) فى المسير لم نعرف له خبرا ، فالقانُ يسأل من كان معه عن أمره ، فعطف [٣٨١] إلى الصاحب وسأله عنه ، فقال له إن طرنطاى قتله وزوجة السلطان تشهد بذلك ، ولم يكن مع السلطان زوجة ، وإنما كان سيف الدين طرنطاى قد اشترى للسلطان جاريةً تخدمه فى الطريق وعهدَتها معه ، وكان الصاحبُ قد أوصاها أن تقول : إنها زوجته وتوافقه على ما رتَّبَه ، فاستدعاها (٢) القانُ وسألها كيف كان موت السلطان ؟ فاستصرخت واستغاثت ، وادَّعتْ أن طرنطاى ورفيقه هما اللذان قتلاه ، فأحضر طرنطاى عُهْدَة الجارية ، وعرف القان كذبها فى زعمها أنها زوجة السلطان (٣) ، وأحضر الورقة المُمَزَّقة التى أحضرها إليه الفراش ، وهى من جهة جاليش إلى الصاحب بما تآمرا عليه ، فتحقق منكوقان غرض الصاحب ونقله الكاذب ، فأخره ودحره ، وقدَّم طرنطاى وأكرمه ، وقبل التقدمة ، وسمع الرسالة ، وكان مضمونها إن السلطان عز الدين كيكاوس كبير الأخوة وأولاهم بالمملكة ، وسأل أن يُسيِّر إليه القان (٤) يَرْليغ (٥) بتقليده ، ويمنع التتار من الغارات على بلاده والتعرض إلى رعيته ، فأجاب

---

(١) [هم] إضافة من مخطوط زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٢٨ ب .

(٢) « فاستدعاه » فى الأصل .

(٣) بداية الورقة ٢٩ أ من جـ ٩ من مخطوط زبدة الفكرة .

(٤) « الخان » فى زبدة الفكرة .

(٥) يرليغ : كلمة مغولية بمعنى حكم أو قرار أو أمر ، ثم استعملت بمعنى أمر أو تفويض صادر من السلطان مباشرة إلى الأشخاص الممتازين ، ويقول القلقشندى أن « اليراليغ هى المراسيم » — جامع التواريخ المجلد الثانى جـ ١ ص ٢٤٧ هامش (٢) ، صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٢٣ .

منكوقان إلى ذلك وأعطاه بايزة (١) ذهب سار مقر منقوشا فيها التقليدُ والتفويض إلى السلطان عز الدين ، وخلع على طرنطاى ورفقته ، وأنعم عليهم بالشاشات (٢) الذهب ، وعلى حاشيتهم بالشاشات (٣) الفضة .

ومن الغد ورد عليه من جهة أخيه قُبلاى وكان قد جرّده إلى بلاد الخطا خَبَرٌ أزعجهُ وكلام أحفظه ، فعزم على المسير إليهم ، وتجهز للغارة عليهم .

ثم اتفق وصول خبر آخر سائقا على البريد من عند بَيْجُو من ناحية الروم يقول : إنا كنا عابرين إلى الروم ، فلما وصلنا إلى مكان يسمّى ماخان لقينا جيشهم صحبة أمير منهم يُسمّى صارم كمنانوس ، وقاتلنا ومنعنا العبور ، وقطع القنطرة التي نجوز عليها ، فاستشاط منكوقان غضبا وأحضر طرنطاى وقال له : ألستم تقولون إنكم حضرتم من عند مخدومكم في طلب الصلح ! ! فلماذا يسير الجيش لقتال عسا كرنا ؟ فقال له : أنا لى مدة متطاولة [٣٨٢] منذ خرجت من عند مخدومي ، ولم يرد عليّ منه كتاب ، ولا صدر إليه مني جواب (٤) ، ولا يعلم (٥) هل نحن أحياء أم أمواتٌ ، غير أني إذا وصلت إليه باليَرْليغ من عند القان دخل تحت طاعته ، وحمل إليه ما تقرّر من إتاوته ، فتقدم الصاحب [شمس الدين] (٦) الطغرائي

(١) البايزة : انظر ما سبق عنها ص ٩١ هامش (٢) .

(٢) « بالشات » في زبدة الفكرة .

(٣) « بالشات » في زبدة الفكرة .

(٤) « ولا صدر مني إليه جواب » في زبدة الفكرة ورقة ٢٦ ب .

(٥) « ولا يعلمون » في زبدة الفكرة .

(٦) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

ورفقته وسألوا القان أن يعطى السلطنة للسلطان ركن الدين قليج[1] أرسلان دون أخيه، وضمنوا عنه حمل الإتاوة وبذل الطاعة، فقال منكوقان : بل تكون المملكة مشتركة بينهما، والبلاد مقسومة لكل منهما، وقسم البلاد مناصفة، فصيّر من نهر سيواس إلى حدّ بلاد الأشكرى لعزّ الدين كيكاوس، ومن سيواس إلى تخوم أرزن الروم من الجهة الشرقية[2] المتصلة ببلاد التتار لركن الدين قليج أرسلان أخيه، وعاد الصاحبُ شمس الدين وسيف الدين طرنطاى ورفقتهما من عنده، فلم يصلوا إلى الروم حتى دخلها التتار وفعلوا فيها ما سنذكره إن شاء الله فى سنة سبع وخمسين وستمائة، وأحضروا معهم جسد السلطان علاء الدين كيقباذ مُصبّرا، فدفنوه بارزنكان «رحمه الله»[3] .

ذكر ما اشتملت عليه المملكة الروميّة من البلاد الإسلامية :

بلاد خلاط وأعمالها : وتسمى الأرمينية الكبرى وكل من تملكها يسمى شاه أرمن، ومن مُدنها : [خلاط][4] وآنْ، وسطان، وأرجيش [وما معها][5] .

أرزن الروم وأعمالها، ومن مدنها : سَنْبَهر، وبابَرت، وبخماز، وتسمى دار الجلال .

---

(١) «قلج» فى زبدة الفكرة، فى هذا الموضع والمواضيع التالية .

(٢) «الجهة الشمالية» فى نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٠٩، وهو تحريف .

(٣) «   » ساقط من زبدة الفكرة، وانظر نهاية الأرب ج ٢٧ ص ١٠٧ — ١٠٩ .

(٤) [   ] إضافة من زبدة الفكرة ج ٩ ورقه ٢٧ أ .

(٥) [   ] إضافة من زبدة الفكرة .

[مدينة الني وأعمالها ، وهى متصلة ببلاد الكرج وتخومها ، وهى ذات قلعة حصينة منيعة](١) .

بلاد أرزنجان وأعمالها : ومن مدنها آقشهر، ودرجان وكماخ ، وقلعة كغونية [وما مع ذلك](٢) .

ديار بكر وأعمالها : ومن مدنها(٣) المشهورة خرت برت ، وملطية ، وشميسات(٤) ومشار وغيرها .

سيواس وبلاد دانشمند : وتسمى دار العلاء ، ومن مدنها(٥) نكيسار ، وأماسية ، وتوقات ، وقمينات .

وبلاد كنكر ومدينة أنكورية ومدينة سامسون وقلعة سنوب وكستمونية وطرخلو وبرلو ، وهذه متصلة بسواحل البحر المحيط .

وقيسارية وأعمالها : ونكده، وصراقلية ، وبلاد أرمناك وبها ابن منتشى .

مدينة قونية [٣٨٣] وأعمالها .

وطنغرلو وأعمالها .

وقرا حصار ودمرلو وأقصرا وأنطاليا [والعلايا](٦) .

---

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٢) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٣) « ومدنها » فى زبدة الفكرة .

(٤) « شيمسات » فى زبدة الفكرة .

(٥) « أعمالها » فى زبدة الفكرة .

(٦) [ ] إضافة من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٢٧ ب .

ذكر دخول التتار بلاد الروم ثالث مرّة :

وفى هذه السنة ، دخل بَيْجو مع التتار إلى بلاد الروم ثالث مَرة ، وشنّ الغارات عليها، وسبى هو ومن معه من عساكر التتار وغنموا ، فكانت هذه الغارة أعظم نكايةً من الغارات المتقدّمة .

وحكى أن الباعث لبيجُو عليها بَيْجار الرومىّ ، وذلك أنه حصل يوما فى جملة الناس إلى دار السلطان علاء الدين كيقباذ(١) وقت بَسط الخوان(٢) ، فقصد الدخول إلى السلطان مع الأعيان ، فضربه أحد البَرْدَدارِيّة(٣) بعصاة على رأسه ليمنعه عن الدخول، فأرمى(٤) طرطوره عن رأسه، فأغضبه ذلك، وقال : أنتم رميتم طرطورى على هذا الباب ، فلابدّ أن أرمى عوضه رُؤوسًا كثيرة وعدّة طراطير ، وخرج من فوره وتوجّه إلى بَيجو مخامرا ، وأطمعه فى بلاد [الروم](٥) والإغارة عليها ، وهذا بيجار لم يكن له بين العساكر الروميّة ذكر ولاصريّة ، ولكن قال الشاعر :

لاتحقرنّ عدّوا رماك وإنْ ... كان فى ساعديه قِصَرْ
فإن السيوف تحــزّ الرقاب ... وتعجـز عما تنـال الإبَرْ

فلمـا آل أمرُ بـلاد الروم إلى الفساد ، عزم أولاد السلطان غياث الدين كيخسرو على توجُّهِ أحدهم إلى منكوقان ببذل الطاعة وإلتمـاس الأمان والفرمان ،

(١) « إلى باب السلطان غياث الدين » — نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٥٠ .
(٢) « ليحضر السماط ، ولم تكن له صورة بعسكر الروم » — نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٥٠ .
(٣) البردار : هو الذى يكون فى خدمة مباشرى الديوان ، متحدثا على أعوانه والمتصرفين فيه — صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٦٨ .
(٤) « فسقط » فى نهاية الارب .
(٥) [ ] إضافة تتفق والسياق .

فتوجّه السلطان علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو من قونيـة قاصدا الأَرْدُو وإلى منكوقان بن طولوخان بن جنكزخان ، وقد ذكرنا قضيته مفصّلةً عن قريب .

ثم إن بيْجـو ونُجَانُوين ومَنْ معهما من التتار عادوا إلى بلاد الروم ، و كان السلطان عز الدين كيكاوس قد استقرّ بمُفـرَدَه فى المملكة ، وأخوه ر كن الدين قليج أرسلان كان فى سجنه كما ذكرنا ، وأخوه الآخر علاء الدين كيقباذ قد مات ، كما ذكرنا ، فلما بلغه عودُ التتار إلى بـلاده جهّز جيشَه على عزم الجهاد ، وقدّم عليهم أميرا من كبار أمرائه يسمى أرسـلان دُغمش ، فتوجّه المذكور بالعساكر الروميّه ، وكان بيْجو نازلا على صحراء قونية ، فلما كان بعد توجه أرسلان دغمش بأيام شرب السلطان عزّ الدين مُسْكراً وتوجّه إلى بيت أرسـلان دغمش وهـو سكران ، وقصد كَبْسَ [٣٨٤] حريمه والهجوم عليهم ، فأرسلوا يخبرونه بذلك ، فاغتاظ وقال : أنا فى خدمته قبالة عدوّه وعدو الإسلام وهو يعاملنى بهذه المعاملة ويهجم على حريمى .

فأزمع الخلاف والمخامرة وأرسل إلى بيْجُو ، و وعده أنه يتخاذل عند اللقاء ، و ينحاز إليه و يكون مساعدا له لا عليه .

فلما التقوا عمد أرسلان دغمش إلى سناجق صاحبه ، فكسرها وولى هزيما ، فانهزم عسكر الروم ، واستظهر بيْجُو ومن معه ، وتوجّه أرسلان دغمش إليه ، فسلم عليه وحضر معه إلى قونية .

وبلغ السلطان الكسرة ، فهرب من قونية إلى العلايا وأقام بها ، وأغلق أهل قونية أبواب المدينة .

فلما كان يوم الجمعة أخذ الخطيب ما يملكه من ماله وحلى نسائه ، وأحضره معه إلى الجامع وارتقى المنبر فنادى فى الناس قائلا : يا معشر المسلمين نحن قد ابْتُلينا بهذا العَدوّ الذى دهمنا وما لنا فيه مَنْ يَعْصِمُنا ، فابذلوا أموالكم واشتروا نفوسكم بنفائسكم ، واسمحوا بما عندكم لنجمع من بيننا شيئاً نفدى به نفوسنا وحريمنا وأولادنا ، ثم بكى ، وبكى الناس ، وسمح كل أحد بما أمكنه ، فجهّز الخطيب المذكور الإقامات ، وخرج إلى مُخَيَّم بَيْجُو فلم يصادفه لأنه كان راكبا فى الصيد ، وقدم ما كان معه إلى الخاتون زوجته فقبلته منه ، وأقبلت عليه ، وأكلت من المأكول ، وقدم المشروب وأخذ منه شيئا على سبيل الشِّشْنى (١) ، فناوله شابًّا إلى جانبه ليذوقه ، فقالت له : لماذا لاتشرب أنت منه؟ فقال : هذا محرَّم علينا . قالت : من حرَّمه ؟ قال : الله تعالى حرَّمه فى كتابه العزيز . قالت : فكيف لم يحرِّمه علينا ؟ قال : أنتم كُفَّارٌ ونحن مسلمون . فقالت له : أنتم خير عند الله أم نحن ؟ قال : بل نحن ، قالت : فإذا كنتم خيرا منا عنده فكيف نُصِرنا عليكم ؟ فقال : هذا الثوب الذى عليك ، و كان ثوبا نفيسا مُرَصَّعاً دُرًّا ثمينا ، أنت تعطينه لمن يكون خاصًّا بك أو لمن يكون بعيدًا عنك . قالت : بل أُخُصُّ به من يختصُّ بى . قال : فإذا أضاعه وفرَّط فيه ودنَّسه ما كنت تصنعين به؟ قالت : كنتُ أنكِّلُ به وأقتله . فقال لها : دين الإسلام بمثابة هذا الجوهر والله أكرمنا به فما رعيناه حق رعايته ، فغضب علينا وضربنا بسيوفكم [٣٨٥] واقتص منا بأيديكم ، فبكت زوجة بَيْجُو فقالت للخطيب : من الآن تكون أنت أبى وأنا أكون بنتك . فقال : ما يمكن هذا حتى تُسْلمى ، فأسلمت على يده ،

(١) كلمة فارسية بمعنى ذوق الطعام أو الشراب .

وأجلسته إلى جانبها على السّرير ، فحضر بيجُو من الصيد ، فهمّ الخطيب بالقيام ليلتقيه فمنعته المرأة وقالت : أنت قد صرت حموه وهو يريد يجئ إليك ويخدمك .

فلما دخل بيجُـو إلى خيمته قالت له : هذا قد صار أبى ، فجلس بيجُو دونه وأكرمه ، وقال لزوجته : أنا عاهدتُ الله أننى إذا أخذت قونيـة وهبتها لك . قالت : وأنا وهبتها لأبى هذا ، ثم أمر بفتح أبواب المدينة وآمنَ أهلها ، ورتّبَ على كل باب شحنَة لحفظهم من التتار ، ورسم أن لا يدخلوها إذا كانت لهم حاجة إلا خمسين نفسًا ، خمسين نفسًا ، لقضاءِ حوائجهم ، ثم يخرجون ، فلم يتعرضوا لأحد من أهلها بأذيّة ، فكان ذلك من ألطاف الله الخفية(١) .

ذكر بقية الحوادث فى هذه السنة :

منها : أنه حصلت وحشة بين البحريّة الصالحيّة وبين الملك الناصر يوسف ، فخافوه وخافهم على نفسه ، ففارقوه وخرجوا من دمشق .

وقال المؤيد : وفى هذه السنة نُقِل إلى الناصر يوسف أن البحرية يريدون أن يفتكوا به ، فاستوحش خاطره منهم وتقدّم إليهم بالانتزاح عن دمشق ، فساروا إلى غزة(٢) .

وقال بيبرس : خرجوا ووصلوا نابلس ، واتفقوا على التوجُّه إلى الملك المغيث بالكرك ، فتوجّهوا إليه وهم : الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى ، والأمير سيف الدين قـلاون الألفى ، والأمـير سيف الدين بلبان الرشيدى ، وغيرهم ،

(١) انظر نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٥٠ — ٣٥٢ .

(٢) انظر المختصر جـ ٣ ص ١٩٢ — ١٩٣ .

فأكرمهم الملك المغيث وقبلهم وبرّهم ووصلهم، والتمسوا منه المساعدة على قصد الديار المصريّة وإمدادهم بعسكر لتصير لهم يَدٌ قويّةٌ، فسيّر معهم عسكره حسبما سألوهُ، فساروا في نحو ألف فارس، وبلغ الخبر الأمير سيف الدين قطز والأمراء المصريين، فجرّدوا عسكرا إلى الصالحيّة.

وقال المؤيد: إلى العباسة، ووصل من البحرية جماعة مُقفِزين إلى القاهرة، منهم الأمير عز الدين الأفرم، فأكرموه وأفرجوا عن أملاكه[1].

فلما كان ليلة السبت الخامس [٣٨٦] والعشرين[2] من ذى القعدة أقبلوا إليهم واتفقوا معهم، فانكسر البحرية ومن معهم من العسكر الكركى، وأُسِرَ الأمير سيف الدين قلاون الألفى، والأمير سيف الدين بلبان الرشيدى، وقتل الأمير سيف الدين بُلغان الأشرفى، وانهزم الباقون، وعادوا إلى الكرك وهم خائبون.

قال المؤيد: انهزم عسكر المغيث والبحريّة وفيهم بيبرس البندقدارى الذى تسلطن بعد ذلك[3].

ولما حصل الأمير سيف الدين قلاون فى الأَسر ضمنه الأمير شرف الدين قَيْران المعزى[4]، وهو يومئذ أستادار السلطنة، فلم يعرض أحد إليه، وأقام بالقاهرة مدة يسيرة، ثم تسحّب واختفى بالحُسَيْنِيّة عند شمس الدين قطليجا الرومى، وقصد اللحاق بخوشداشيته، فزوده[5] وجهزه وسار إلى الكرك.

---

(١) انظر المختصر جـ٣ ص ١٩٣.

(٢) « يوم السبت خامس عشر ذى القعدة » فى السلوك جـ ١ ص ٤٠٦.

(٣) انظر المختصر جـ ٣ ص ١٩٣.

(٤) فوق هذه الكلمة فى الأصل « برهة ».

(٥) « فزوده » فى الأصل، والتصحيح يتفق مع السياق.

وحسَّن البحريَّة للمُغيث قصد الديار المصرية وأطمعوه فيها ، وكاتبه بعض أمرائها ووعدوه بانحيازهم إليه متى حضر بنفسه إليها ، فقصدها فى سنة ست وخمسين وستمائة .

ومنها : أنه وصل من الخليفة المستعصم بالله الخلعة والطوق والتقليد إلى الملك الناصر يوسف صاحب الشام كما وعده .

ومنها : أنه كانت فتنةٌ عظيمة ببغداد بين الرافضة وبين أهل السنة ، فنهبت الكرخُ ودورُ الرافضة حتى دور قرابات الوزير ابن العلقمى ، وكان ذلك من أقوى الأسباب فى ممالأته للتتار .

ومنها : أنه دخل الفقراء الحيدريَّة الشام ، ومن شعارهم لبس الفراجى والطراطير ، ويقصُّون لحاهم ويتركون شواربهم ، وهو خلاف السنَّة ، تركوها[(١)] لمبايعة شيخهم حيدر حين أسَرَه الملاحدة ، فقصُّوا لحيته وتركوا شواربه ، فاقتدوا به فى ذلك ، وهو معذور مأجور ، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك ، وليس لهم فيه قدوة ، وقد بُنيت زاوية[(٢)] بظاهر دمشق قريبا من العونيَّة .

ومنها : أنه ولى القضاء بالديار المصرية تاج الدين عبد الوهاب بن خلف العلائى[(٣)] المعروف بابن بنت الأعز ، عوضا عن القاضى بدر الدين السنجارى ، رحمه الله .

وفيها : « ... ... »[(٤)] .

وفيها : حج بالناس « ... ... »[(٥)] .

(١) أى تركوا السنة .
(٢) « وبنوا لهم زاوية خارج دمشق » — السلوك جـ ١ ص ٤٠٧ .
(٣) « العلاقى » فى الأصل ، وهو تحريف — انظر ما يلى .
(٤) ، (٥) « ... » بياض فى الأصل .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

الإمام الزاهد الشيخ تقى الدين [٣٨٧] عبد الرحمن بن أبى الفهم(١) البلداني(٢)، توفى بقريته(٣) فى ثامن ربيع الأول ودفن بها .

وكان شيخا صالحا ، مُسنِدا مشتغلا بالحديث سماعا وكتابةً وإسماعاً إلى أن توفى ، وله نحو من مائة سنة .

قال أبو شامة : أخبرنى أنه كان مراهقا فى سنة تسع وستين وخمسمائة حين طهّر نور الدين بن زنكى رحمه الله ولده ، وأنه حضر الطهور ، وأخبرنى أنه رأى النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وقال له يارسول الله : بالله ما أنا رجل جيّد . فقال : بلى ، أنت رجل جيد(٤) .

الشيخ شرف الدين محمد(٥) بن أبى الفضل المرسى .

---

(١) « عبد الرحيم بن أبى القاسم » فى الأصل ، والتصحيح من مصادر الترجمة .
انظر العبر جـ ٥ ص ٢٢٣ ؛ ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٧٠ ، الذيل على الروضتين ص ١٩٥ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٦٩ .

(٢) بلدا : قرية فى غوطة دمشق .

(٣) « قرية كلدا » فى الأصل ، والتصحيح من مصادر الترجمة السابقة .

(٤) انظر الذيل على الروضتين ص ١٩٥ ، العبر جـ ٥ ص ٢٢٤ .

(٥) هو محمد بن عبد الله بن محمد بن أبى الفضل ، أبو عبد الله شرف الدين ، وله أيضا ترجمة فى : العبر جـ ٥ ص ٢٢٤ ، ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٧٦ — ٧٩ ، الذيل على الروضتين ص ١٩٥ — ١٩٦ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٦٩ .

كان شيخا فاضلا مفتناً (١) ، محقق البحث ، كثير الحج ، له مكانة عند الأكابر ، وقد اقتنى كتبا كثيرة ، وكان أكثر مقامه بالحجاز ومصر والشام ، وحيث حل عظمه رؤساء تلك البلدة ، وكان مقصدا فى أموره ، وكانت وفاته بالزعقة (٢) بين العريش والداروم فى منتصف ربيع الأول من هذه السنة ، ودفن فيها .

البادرائى الشيخ نجم الدين عبد الله (٣) أبو محمد بن أبى الوفا بن الحسن بن عبد الله بن عثمان بن أبى الحسن بن حَسْنُون البغدادى البادرائى الشافعى ، مدرس النظامية ببغداد ، ورسول الخلافة إلى ملوك الآفاق فى الأمور المهمة ، وإصلاح الأحوال المدلهمة .

وقد كان فاضلا بارعاً ، رئيساً متواضعاً ، وقد ابتنى بدمشق مدرسة (٤) حسنة مكان دار الأمير أسامة ، وشرط على المقيم بها العُزْبَة ؛ ولكن حصل بسبب ذلك خلل كثير ، وشر لبعضهم كبير .

---

(١) « مفتيا » فى الذيل على الروضتين .

(٢) الزعقا : على خط سير البريد بين العريش ورفح ، وهى من البلاد المندرسة — القاموس الجغرافى ق ١ جـ ١ ص ٦٦ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : العبر جـ ٥ ص ٢٢٣ ، درة الأسلاك ص ١٤ ، ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٧٠ — ٧٣ ، السلوك جـ ١ ص ٤٠٧ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٥٧ ، الذيل على الروضتين ص ١٩٨ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٦٩ .

(٤) هى المدرسة البادرائية بدمشق ، داخل باب الفراديس والسلامة — الدارس جـ ١ ص ٢٠٥ وما بعدها .

وقال ابن كثير : وقد كان شيخنا الإمام العلامة شيخ الشافعية وغيرهم برهان الدين أبو إسحاق إبراهيم بن الشيخ تاج الدين الفزارى(١) مدرس هذه المدرسة وابن مدرسها(٢) ، يذكر أنه لما حضر الواقف فى أول يوم درس بها وحضر عنده السلطان الملك الناصر يوسف بن العزيز قرئ كتاب الوقف وفيه : ولا تدخلها إمرأة ، فقال السلطان : ولا صبى . فقال الواقف : يامولانا ربنا ما يضرب بعصاتين ، فإذا ذكر هذه الحكاية تبسم عندها(٣) ، وكان هو أول من درس بها ، ثم ولده كمال الدين من بعده ، وجعل نظرها إلى وجيه الدين بن سويد ، ثم صار فى ذريته إلى الآن .

وقد أوقف البادرائى على هذه المدرسة أوقافا حسنة دارة ، وجعل بها خزانة كتب حسنة نافعة ، [٣٨٨] وقد عاد إلى بغداد فى هذه السنة ، وتولى بها قضاء القضاة كرها منه ، فأقام فيه سبعة عشر يوما ، ثم توفى إلى رحمة الله فى مستهل ذى الحجة من هذه السنة ، ودفن بالشونيزية(٤) .

المشد الشاعر الأمير سيف الدين على بن عمر بن قزل(٥) ، مشد الدواوين بدمشق .

---

(١) هو إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع ، برهان الدين الفزارى ، المتوفى سنة ٧٢٩ هـ / ١٣٢٨ م — المنهل الصافى جـ ١ ص ٩٩ رقم ٤٠ ، وانظر الدارس جـ ١ ص ٢٠٨ .

(٢) هو عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع الفزارى ، تاج الدين ، المتوفى سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م — المنهل الصافى ، الدارس جـ ١ ص ٢٠٨ .

(٣) « هذا » فى الأصل ، والتصحيح من البداية والنهاية .

(٤) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٩٦ — ١٩٧ .

(٥) ذكر المؤلف ترجمته مرة ثانية فى وفيات سنة ٦٥٦ هـ ، وهو ما أجمعت عليه المصادر — انظر ما يلى ص ١٩٢ .

كان شاعرا مطبقا، وله ديوان مشهور، وقد رآه بعضهم بعد موته، فسأله عن حاله فأنشده :

نُقِلتُ إلى رَمس القبور وضيقها وخوفى ذنوبى أنها بى تُعْثَرُ

وصادفت رحمانا رءوفاً وأنعما حبانى بها لما كنت أحذَرُ

ومن كان حُسْنُ الظن فى حال مَوته جميلاً بعفو الله فالعفوُ أجْدَرُ

بشارة[1] بن عبد الله الأرمنى الأصل، بدر الدين الكاتب، مولى شبل الدولة[2] المعظمى .

سمع الكندىّ وغيره، وكان يكتب خطًّا جيّدًا، وأسند إليه مولاه النظر فى أوقافه، وجعله فى ذريته، فهؤلاء ينظرون فى الشبليتين[3] .

وكانت وفاته فى النصف من رمضان من هذه السنة .

القاضى تاج الدين أبو عبد الله محمد[4] بن قاضى القضاة جمال الدين المصرى .

ناب عن أبيه، ودرس بالشامية[5]، وله شعر، فمنه قوله :

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٩٨ .

(٢) هو شبل الدولة كافور المعظمى، طواشى حسام الدين محمد بن لاجين، المتوفى سنة ٦٢٣هـ/١٢٢٦م — العبر جـ ٥ ص ٩٥، الدارس جـ ١ ص ٥٣٠ .

(٣) هما المدرسة الشبلية البرانية بسفح جبل قاسيون بدمشق، والمدرسة الشبلية الجوانية بدمشق — أنظر الدارس جـ ١ ص ٥٣٠، ص ٥٣٧ .

(٤) « ابن محمد » فى الأصل والتصحيح من البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٩٨ .

وهو محمد بن يونس بن بدران بن فيروز، أبو عبد الله بن جمال الدين المصرى — البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٩٨، الدارس جـ ١ ص ٢٨٠ .

(٥) المدرسة الشامية البرانية بدمشق : أنشأتها ست الشام ابنة أيوب، أخت السلطان صلاح الدين، والمتوفاة سنة ٦١٦هـ/١٢١٩م — الدارس جـ ١ ص ٢٧٧، ص ٢٨٠ .

صيرت في لفيه باللثم غدا (١) [عمدا] (٢) ورشفت من ثناياه مدام
فازورّ وقال أنت في الفقه إمامٌ ريق خمرٍ وعندك الخمر حَرَامُ

الشيخ الأسعد هبة الله (٣) بن صاعد بن شرف الدين الفائزى .

خدم قديما للملك الفائز سابق الدين إبراهيم بن الملك العادل ، وكان نصرانيا فأسلم ، وكان كثير البرّ والصدقات والصلات .

استوزره الملك المعزّ ، وكان حظياً عنده جدا لا يفعل شيئا إلا بمراجعته ومشاورته .

وكان قبله في الوزارة القاضي تاج الدين بن بنت الأعز ، وقبله القاضي بدر الدين السنجاري ، ثم صارت بعد ذلك كله إلى هذا الشيخ الأسعد المسلماني ، وقد كان المعزّ يكاتبه بالمملوك ، ثم لما قُتل المعزّ أهين الأسعدَ حتى صار شقيا ، وأخذ الأمير سيف الدين قطز خطه بمائة ألف دينار ، وقد هجاه [٣٨٩] بعضهم :

لعن الله صاعدًا وأباه فصاعدًا
وبنيه فنازلاً واحدًا ثم واحدًا (٤)

ثم قتل بعد ذلك كله ودفن في القرافة .

---

(١) « لثام » في البداية والنهاية ، والدارس .

(٢) [ ] إضافة من البداية والنهاية ، والدارس .

(٣) وله أيضا ترجمة في : ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٨٠ — ٨٣ ، السلوك جـ ١ ص ٤٠٧ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٥٥ .

(٤) انظر ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٨٠ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٥٨ .

ابن أبى الحديد الشاعر العراقى عبد الحميد(1) بن هبة الله بن محمد بن محمد ابن الحسين ، أبو حامد بن أبى الحديد ، عز الدين المدائنى ، الكاتب الشاعر المطيق الشيعى الغالى .

له شرح نهج البلاغة فى عشرين مجلدا . ولد بالمدائن سنة ست وثمانين وخمسمائة ، ثم صار إلى بغداد ، وكان أحد الكتاب والشعراء للديوان الخليفتى ، وكان حظيًا عند الوزير ابن العلقمى لما بينهما من المناسبة والمهاربة والمشابهة فى التشيع والأدب والفضيلة ، وكان أكثر فضيلةً وأدبًا من أخيه أبى المعالى موفق الدين أحمد(2) بن هبة الله ، وإن كان الآخر فاضلا بارعاً أيضا ، وقد ماتا فى هذه السنة .

الشريف الأديب أبو الحسن(3) على بن محمد الموسوى ، المعروف بابن دفترخوان(4) ، له شعر حسن ، ومصنفات كثيرة ، توفى فى هذه السنة .

الشيخ أبو جعفر(5) بن الشيخ شهاب الدين أبى عبد الله عمر السهروردى الصوفى ، مات ببغداد فى هذه السنة .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٦٢ — ٧٠ ، السلوك جـ ٧ ص ٤٠٨ .

(٢) « أبو المعالى القسم بن هبة الله » فى شذرات الذهب ، وورد فيه ذكر وفاته سنة ٦٥٦ هـ . وانظر أيضا العبر جـ ٥ ص ٢٣٤ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٧٣ — ٧٥ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٥٩ .

(٤) « دمعرخان » — فى ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٧٣ .

(٥) هو محمد بن عمر بن محمد بن عبد الله بن حمويه ، أبو جعفر التيمى البكرى السهروردى . وله أيضا ترجمة فى : ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٧٩ .

شَجَرُ الدُّرِّ[1] بنت عبد الله أم خليل التركيّة .

كانت من حظايا الملك الصالح نجم الدين أيُّوب بن السلطان الملك الكامل ابن العادل أيُّوب ، وكان له ولد منها يسمى خليل ، كان من أحسن الصور ، مات صغيرا ، وكانت تكون فى خدمة الملك الصالح لاتفارقه حضرا وسفراً من شدّة محبته لها ، وقد ملكت الديار المصرية بعد مقتل ابن زوجها الملك المعظم توران شاه[2] ، فكان يخطب لها ويضرب السكة باسمها ، وعلّمت على المناشير مدّة ثلاثة أشهر كما ذكرنا ، ثم تملك الملك المعز أيبك ، ثم تزوجها بعد تملكه الديار المصرية ، ثم غارت عليه لما بلغها أنه يريد أن يتزوج ابنة[3] صاحب الموصل كما ذكرناه ، فعملت عليه حتى قتلته كما تقدّم ، فتمالى عليها مماليك المعزّ فقتلوها وألقوها على مزبلة ثلاثة أيام ، ثم نقلت إلى تربة لها[4] بالقرب من قبر الست نفيسة .

وفى تاريخ النويرى : وفى سادس عشر ربيع الآخر من هذه السنة [٣٩٠] قتلت شجر الدّرّ وألقيت خارج البُرج الأحمر[5] وحملت إلى تربة كانت قد عملتها فدفنت بها .

---

(١) ولها أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٦١ — ٦٢ ، العبر جـ ٥ ص ٢٢٢ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٩٩ ، السلوك جـ ١ ص ٤٠٤ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٦٨ .

(٢) « تورن شاه » فى الأصل .

(٣) « أن يتزوجها » ، فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح يتفق وسير الأحداث — انظر ما سبق ص ١٤٠ — ١٤١ .

(٤) انظر الإنتصار جـ ٤ ص ١٢٥ .

(٥) البرج الأحمر ، بساحل الفسطاط — انظر المواعظ والإعتبار جـ ١ ص ٣٨٠ .

وكانت تركية الجنس ، وقيل : كانت أرمنيـة الجنس ، وكانت مع الملك الصالح فى الإعتقال بالكرك(١) .

وفى تاريخ ابن كثير : وكانت قوية النفس ، ولما علمت أنها قد أحيط بها أتلفت شيئا كثيرا من الجوهر واللآلى كسرته فى الهاون لا لها ولا لغيرها(٢) .

وقال : لما سمع مماليك المعز بقتله أقبلوا صحبة مملوكه الأكبر سيف الدين قطز ، فقتلوها وألقوها على مزبلة غير مستورة العورة بعد الحجاب المنيع والمقام الرفيع(٣) .

(١) ما نقصا من مخطوط نهاية الأرب جـ ٢٧ .

(٢) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٩٩ .

(٣) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٩٦ .

فصل فيما وقع من الحوادث

فى السنة السادسة والخمسين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة ، وفيها فتنٌ ومصائب ، وأعظمُها قتل الخليفة المستعصم بالله ، وانقراض الخلافة العباسيّة من بغداد ، واستيلاء هلاوُن على بغداد ، وفساد التتار فى البلاد ، ووقوع الحرب بين بنى أيوب وبين المماليك البحرية ، وبين الشاميّة والمصريّة ، على ما نذكره مفصّلاً .

ذكر أخذ هلاون بن طلوخان بن جنكزخان مدينة بغداد وقتله الخليفة المستعصم بالله :

وفى أول هذه السنة قصد هلاون بعساكر التتار بغداد ، وسار إليها فنازلها ، وكان معه من المقدمين الأكابر : كُوكك نُوين ، وألكان نُوين ، وكتبغا نُوين ، وقدغان نُوين ، وهلاجوُ نُوين ، ومَركديه نُوين ، وصُغُون جاق ، ومن الملوك داود ملك الكرج بجيشه ، وأرسل إلى بَيْجُو يستدعيه ليشهد هو ومن معه المُحَاصَرة ويستكثرهم فى المُحَاصَرة ، فلما وصل إليه الرسول أزمع التأخير واستشار الأمراء الذين معه فى ذلك ، وهم : أرسلان جوبان ، وصرمون نُوين ، وانكَراث ، فأبوا إلا التوجُّه إلى هلاون ، فاضطرّه الأمر إلى المسير إليه ، إلا أنه

(*) يوافق أولها الثلاثاء ٨ يناير ١٢٥٨ م .

أرسل يخبر هلاون بأن جمعا كثيرا من القراسلية (١) والأكراد والياروقية قد جمعوا لهم في الطرقات ، ومقدمهم شرف الدين بن بلاش ، وأنهم أخذوا عليهم المضيق ، وسدُّوا دونهم الطريق ، ولا سبيل لهم إلى الخروج [٣٩١] من حدود ديار بكر ، وقصد بَيْجُو بذلك المدافعة ، إذ لم يجد سبيلا إلى الممانعة ، فجهز هَلَاوُن تومانين (٢) من التوامين الذى صحبته ، أحدهما : مقدمه قَدَغان ، والآخر : كتُبُغا نُوين ليفتحا الطرقات لهم ، ويُزيحا عنها الأكراد وغيرهم ، وفى أثناء ذلك أتقع الأكراد (٣) والقراسل وقعة عظيمة ، وجفل (٤) منهم أهل أرزنجان ، وتحصنوا بجبل أُرْزُن سُور ، فلما وصل التتار إلى أرزنجان تسلموها ، وحاصروا كاخ (٥) ، وكسروا الأكراد ، وسَبَوا منهم وقتلوا ، وأقام قَدغان وكتبغا حتى وصل إليهم بَيْجُو ونجانوين ومن معهما ، وتوجهوا جميعا إلى هلاون ، فنزل بَيْجُو ومن معه بالجانب الغربى من بغداد ، وهلاون ومن معه بالجانب الشرقى ، وحاصروا بغداد أشدّ الحصار .

---

(١) « القرى تليه » فى نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٨ .

(٢) « تمانين » فى نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٨٠ .

والتومان أو الطومان : فرقة عسكرية يبلغ عددها عشرة آلاف مقاتل — السلوك جـ ١ ص ٩٣٣ هامش (١) .

(٣) « أوقع بالأكراد » فى نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٨٠ ، وهو تحريف .

والمقصود وقوع معركة بين الأكراد والقراسل — انظر ما سبق .

(٤) « وجعل » فى نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٨٠ ، وهو تحريف .

(٥) « كاج » فى نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٨١ .

ولما أحاطوا بها ، وخيّموا حولها ، خرج إليهم عسكرها بَعدد وعُدده ، وحشده ومدده، صحبة مجاهد الدين أيبك الدوادار الصغير(١) ، وكان له شأن عظيم ، وقدر جسيم ، وكان مقدّما على عشرة آلاف فارس ، فندبه الخليفة لقتال التتار، وكان فى مقدمتهم صُغُون حاق بتُمانه ، فلما التقى المسلمون معهم كانت الكسرة على التتار ، فولّوا الأدبار ، وتبعهم الدوادار ، سحابة ذلك النهار ، وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، وجما غفيرا .

وحجز بينهم الليل ، فكفّت المسلمون الذين مُعتقدين أنهم قد استظهروا ، ولأعدائهم قهروا ، فلما أصبحوا لم يشعروا إلا وقد تراجع التتار إليهم ، وحملوا عليهم ، فكسروهم وهزموهم ، لأن أكثرهم كان قد تسلّل فى الليل إلى المدينة مُوقنا بالنصرة .

فلما تمت هذه الكسرة ، ولّى المنهزمون ليرجعوا إلى بغداد ، فحال بينهم و بينها بَثْقٌ انبثق فى تلك الليلة ، وساحت منه مياه دجلة ، وشملت الطُرُق والمسالك ، وأدركت العسكر ، فأغرقت بعضهم هنالك .

وقتل التتار مجاهد الدين أيبك الدوادار وولده أسد الدين ، وكان مقدّما على خمسة آلاف فارس ، وسليمان بن بَرْجَم(٢) أمير علم الخليفة ، وجماعة من الأمراء البغاددة ، وأعيان العسكر ، وأسروا خلقا .

---

(١) « الدوادار الكبير » فى الأصل والتصحيح مما يلى ص ١٧٥ ، وانظر نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٨١ هامش (١) .

(٢) « ابن ترجم » فى نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٨٢ ، وهو تحريف .

وأما هؤلاء الثلاثة فإنهم حملوا رءوسهم [٣٩٢] إلى الموصل ، ونصبوها على باب المدينة ترهيباً لصاحبها ، وتخويفا لأهلها .

وارتاع الخليفة أشدّ ارتياع ، وأخذت أسبابُه فى الانقطاع ، وأصبح لايدرى ، وإن كان حازمًا أُقْدامه خير أم وراءهُ ، وأغلقت أبواب مدينة بغداد ، فأحاط بها التتار وضايقوها بالحصار ، فافتتحوها عنوة ، ودخلوها غدوة فى العشرين من محرم هذه السنة ، فبذلوا فى أهلها المناصل ، وأوردوهم من حياض الموت أمّر المناهل ، وأكثروا الأيامى واليتامى والأرامل ، ولم يرحموا شيخا كبيرا ، ولاطفلا صغيرا (١) .

وفى تاريخ النويرى : وكان سبب ذلك أن وزير الخليفة مؤيد الدين بن العلقمى كان رافضيا ، وكان أهل الكرخ روافض (٢) فجرت فتنة بين السنة والشيعة ببغداد على جارى عادتهم فى السنة الماضية ، فأمر أبو بكر (٣) ابن الخليفة وركن الدين الدوادار العساكر ، فنهبوا الكرخ ، وهتكوا النساء ، وركبوا فيهن الفواحش ، فعظم ذلك على الوزير ابن العلقمى ، وكاتب التتار وأطمعهم فى مُلك بغداد ، وكان عسكر بغداد مبلغ مائة ألف فارس ، فقطعهم المستعصم ليحمل إلى التتار متحصل

(١) انظر نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٨٠ — ٣٨٢ .

(٢) « كان شيعيا ، والشيعة يسكنون بالكرخ ، وهى محلة مشهورة بالجانب الغربى من بغداد » — نهاية الأرب جـ ٢٣ ص ٣٢٤ .

(٣) « فأمر الخليفة » فى نهاية الأرب .

إقطاعاتهم ، وبقي عسكر بغـداد دون عشرين ألف فارس ، وأرسل ابن العلقمي إلى التتار [أخاه](١) يستدعيهم(٢) ، فساروا قاصدين بغداد لجرى ما جرى .

وقال ابن كثير في تاريخه : وأحاطت التتار بدار الخلافة ، يرشقونها بالنشاب(٣) من كل جانب ، حتى أصيبت جارية كانت تلعب بين يدي الخليفة وتضحكه ، وكانت من جملة الحظايا ، وكانت مولدة تسمى عرفة ، جاءها سهم من بعض الشبابيك فقتلها وهي ترقص بين يدي الخليفة ، فانزعج الخليفة من ذلك [وفزع فزعاً](٤) شديداً ، وأحضر السهم الذي أصابها بين يديه ، فإذا عليه مكتوب : إذا أراد الله إنفاذ قضائه وقدره(٥) سلب ذوي العقول عقولهم(٦) ، فأمر الخليفة عند ذلك بزيادة الاحتراز ، وكثرت الستائر على دار الخلافة(٧) ، وكان قدم هلاون بجنوده كلها ، وكانوا نحوا من مائتي ألف مقاتل في ثاني عشر المحرم من هذه [٣٩٣] السنة ، وهو شديد الحنق على الخليفة بسبب ما كان ما تقدم من الأمر الذي قدره الله وقضاه ، وهو أن هلاون لما كان أول بروزه من همدان متوجها إلى العراق أشار الوزير مؤيد الدين محمد بن العلقمي على الخليفة بأن يبعث إليه بهدايا سنية ليكون ذلك مداراة له عما يريده من قصد بلادهم ، فخذل الخليفة عن ذلك دواداره

(١) [ ] إضافة من المختصر جـ ٣ ص ١٩٤ ، للتوضيح .

(٢) انظر نهاية الأرب جـ ٢٣ ص ٣٢٤ .

(٣) « بالنبال » في البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٠٠ .

(٤) [ ] إضافة من البداية والنهاية .

(٥) « وقدرته » في الأصل ، والتصحيح من البداية والنهاية .

(٦) « أذهب من ذوي العقول » في البداية والنهاية .

(٧) « وكثرة الستائر عن دار الخلافة » في الأصل والتصحيح من البداية والنهاية .

أبيك وغيره، وقالوا : إن الوزير إنما يريد بهذا مصانعة ملك التتار بما يبعثه إليهم من الأموال، وأشاروا بأن يبعث بشيء يسير، فأرسل شيئًا من الهدايا، فاحتقره هلاون، وأرسل إلى الخليفة يطلب منه دواداره المذكور وسليمان شاه، فلم يبعثهما إليه، ولا بالى به حتى أزف قدومه، ووصل إلى بغداد بجنوده الكثيرة الكافرة الفاجرة، فجرى ما جرى (١) .

ذكر خروج الخليفة إلى هلاون وقتله :

ولما غلب التتار على بغداد، كان أول من برز إلى هلاون الوزير مؤيد الدين بن العلقمى، فخرج فى أهله وأصحابه، فاجتمع بهلاون، ثم عاد، فأشار على الخليفة بالخروج إليه والمثول بين يديه، لتقع المصالحة، على أن يكون نصف الخراج من أرض العراق لهم ونصفه للخليفة، فاحتاج الخليفة إلى أن خرج فى سبعمائة راكب من القضاة والفقهاء والصوفية ورؤوس الأمراء والدولة والأعيان، ولما اقتربوا من منزل هلاون حجبوا عن الخليفة إلا سبعة عشر نفسا، فخلص الخليفة بهؤلاء، وأنزل الباقون عن مراكيبهم ونهبت وقتلوا عن آخرهم، وأحضر الخليفة بين يدى هلاون، فسأله عن أشياء كثيرة، وقيل : انه اضطرب كلام الخليفة من هول ما رأى من الإهانة والجبروت، ثم عاد إلى بغداد وفى صحبته خواجا نصير الدين الطوسى والوزير مؤيد الدين بن العلقمى وغيرهما، والخليفة تحت الحوطة والمصادرة، فأحضر من دار الخلافة شيئا كثيرا من الذهب والحلى والمصاغ والجوهر والأشياء النفيسة .

---

(١) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

وقد أشار أولئك الملاعين الرافضة وغيرهم من المنافقين على هلاون أن لا يُصالح الخليفة . وقال الوزير : ولو وقع الصلح على المناصفة لا يستمر [٣٩٤] هذا إلا عاما أو عامين ، ثم يعودُ الأمر على ما كان عليه قبل ذلك ، وحَسّنوا له قتل الخليفة ، فلما عاد الخليفة إلى هلاون أمر بقتله .

ويقال : إن الذى أشار بقتله الوزير بن العلقمى ونصير الدين الطُوسىّ ، وكان النصير عند هلاون حظياً قد استصحبه فى خدمته لما فتح قلعة الموت وانتزعها من أيدى الإسماعيلية ، وكان النصير وزير شمس الشموس ولأبيه من قبله علاء الدين بن جلال الدين ، وكانوا ينتسبون إلى نزار بن المستنصر العُبيدى ، وانتخب هلاون النصير يكون فى خدمته كالوزير المشير ، فلما قدم هلاون تهيّب قتل الخليفة ، فهوّنَ عليه قتلَه الوزير والنصير ، فقتلوه رَفْساً وهو فى جَوْاق لئلا يقع على الأرض شيءٌ من دمه ، خافوا أن يؤخذ(١) بثأره فيما قيل لهم . وقيل : بل خُنِق . وقيل : بل غُرِق(٢) .

وفى تاريخ النويرى : خرج الوزير ابن العلقمى فتوثق منه لنفسه ، وعاد إلى الخليفة وقال : إن السلطان هلاونُ يبقيك فى الخلافة كما فعل بسلطان الروم، ويريد أن يزوّج ابنته من ابنك أبى بكر ، وحسّن إليه الخروج إليه ، فخرج الخليفة فى جمع من الأكابر من أصحابه ، فأنزل فى خيمة ، ثم استدعى الوزير الفقهاء والأماثل ، فاجتمع هناك جميع سادات بغداد ومدرسوها ، وكان فيهم الشيخ محيي الدين بن الجوزى(٣) وأولاده ، وجعل الوزير يخرج إلى التتار طائفة بعد

(١) « أن لا يؤاخذوا » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح من البداية والنهاية .

(٢) انظر البداية والنهاية ـ ١٢ ص ٢٠١ .

(٣) انظر ما يلى فى الوفيات .

طائفة ، فلما تكاملوا قتلهم التتار عن آخرهم ، ثم مدّوا الجسْرَ ، وعدّى بَجُو ومن معه ، وبذلوا السَّيْفَ فى بغداد وهجموا دار الخلافة ، وقتلوا كلّ من فيها من الأشراف ، ولم يسلم منهم إلا مَن كان صغيراً فأخذ أسيراً ، ودام القتل والنهْبُ فى بغداد أربعين يوما حتى صار الدم فى الأزقّة كأكباد الإبل ، ثم نودىَ بالأمان (١) .

وفى تاريخ ابن كثير : ولما قتلوا هؤلاء السادات مالوا على البلد ، فقتلوا جميع من قدروا عليه من الرجال والنساء والولدان والمشايخ والكهول والشبان ، ودخل [٣٩٥] كثير من الناس فى الآبار وأماكن الحشوش وقنى الوسخ ويكمنون فيها ولا يظهرون ، وكان جمع من الناس يجتمعون فى الخانات ويغلقون عليهم الأبواب فيفتحها التتار إما بالكسر أو بالنار ، ثم يدخلون عليهم فيهربون منهم إلى أعالى المكان ، فيقتلونهم على الأسطحة حتى تجرى الميازيب من الدماء فى الأزقة ، وكذلك فى المساجد والجوامع والربط ، ولم ينج منهم أحد سوى أهل الذمة من اليهود والنصارى ، ومن التجأ إليهم ، وإلى دار الوزير محمد بن العلقمى الرافضى ، عليه ما يستحق .

وعادت بغداد ، بعد ما كانت أنس المدن كلها ، كأنها خراب ، ليس فيها أحد إلا القليل من الناس ، وهم فى خوف وجوع وذِلّة وقِلّة .

وقد اختلف الناس فى كمية من قتل ببغداد من المسلمين فقيل : ثمانمائة ألف نفس ، وقيل : ألف ألف وثمانمائة ألف ، وقيل : بلغت القتلى ألفى ألف نفس ، وقتل مع الخليفة ولده الأكبر أبو العباس أحمد ، وله خمس وعشرون سنة ، ثم قتل ولده الأوسط أبو الفضل عبد الرحمن ، وله ثلاث وعشرون سنة ،

(١) لم يرد هذا النص فى أجزاء نهاية الأرب المطبوعة الموجودة بين أيدينا ــ انظر جـ٢٣ ، جـ ٢٧ .

وأُسر ولده الأصغر مبارك ، وأُسرت إخوته الثلاث فاطمة وخديجة ومريم ، وأُسر من دار الخلافة من الأبكار ما يقارب ألف بكر فيما قيل ، والله أعلم .

وقتل استادار الخليفة الشيخ الفاضل محيي الدين بن يوسف الشيخ أبي الفرج ابن الجوزى وكان عدوّ الوزير بن العلقمى ، وقتل أولاده الثلاثة عبد الرحمن وعبد الله وعبد الكريم ، وأكابر الدولة واحدا بعد واحد ، منهم : الدوادار الصغير مجاهد الدين أيبك ، وشهاب الدين سليمان شاه ، وجماعة من أمراء السنة وأكابر البلد .

وكان الرجل يستدعى به من دار الخلافة من بنى العباس ، فيخرج بأولاده ونسائه ، فيذهب به إلى مقبرة الخلال تجاه المنظرة ، فيذبح كما تذبح الشاة ، ويؤسر من يختارون من بناته وجواريه .

وقتل شيخ الشيوخ مؤدب الخليفة صدر الدين على بن النيار ، وقتل الخطباء والأئمة وحملة القرآن ، وتعطلت المساجد والجماعات والجُمعات مدة شهور [٣٩٦] ببغداد ، وأمر الوزير بن العلقمى بأن تعطل المساجد والجوامع والمدارس والربط ببغداد ويستمر بمحال الروافض ، وأن يبنى للرافضة مدرسة هائلة ، ينشرون فيها علمهم ، فلم يقدره الله عز وجل على ذلك ؛ بل أزال نعمته عنه ، وقصف عمره بعد شهور يسيرة من هذه الحادثة ، واتبعه ولده فاجتمعا — والله أعلم — فى الدرك الأسفل من النار .

ولما انقضى أمد المدّة المقدّرة ، وانقضت الأربعون يوما ، بقيت بغداد خاوية على عروشها ، ليس بها أحد إلا الشاذ من الناس ، والقتلى فى الطرقات كأنها التلول ، وقد سقط عليهم المطر فتغيرت صورهم وأنتنت البلد من جيفهم ،

وتغير الهواء ، لحصل بسببه الفناء والوباء الشديد ، حتى سرى وتعدى فى الهواء إلى بلاد الشام ، فمات خلق كثير من تغير الجو وفساد الريح ، فاجتمع على الناس الغلاء والوباء والفناء والطعن والطاعون .

ولما نودى ببغداد بالأمان خرج من كان تحت الأرض بالمطامير والقنى والمغاير كأنهم الموتى إذا نُبشوا من القبور ، وقد أنكر بعضهم بعضا فلا يعرف الوالد ولده ، ولا الأخ أخاه ، وأخذهم الوباء الشديد فتفانوا وتلاحقوا بمن سلف من القتلى .

وكان رحيل هلاون عن بغداد فى جمادى الأولى من هذه السنة إلى مقر مُلكه ، وفوّض أمر بغداد إلى الأمير على بهادر ، فوّض إليه الشحنكية (١) بها إلى الوزير مؤيد الدين ابن العلقمى ، فلم يُمهله الله تعالى حتى أخذه عزيز مُقتدر فى مستهل جمادى الآخرة ، كما سنذكره فى الوفيات إن شاء الله ، فولى بعده الوزارة ولده عز الدين أبو الفضل ، فألحقه الله بأبيه فى بقية هذا العام .

ويقال : إن هلاون عزم على إحراق مدينة بغداد لما أراد الرحيل عنها ، فقال له كتبغا نوين إنّ هذه المدينة أمّ المدن ومقصد التجار ، فإذا أبقاها الملك حصل له منها مال جزيل ، فأبقاها وشحّن (٢) عليها ، وسار عنها إلى الفرات (٣) .

---

(١) الشحنكية : وظيفة يتولاها الشحنة ، وهو صاحب الشرطة ، أو متولى رئاسة الشرطة — دوزى .

(٢) أى عين عليها شحنة — صاحب شرطة .

(٣) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٠١ — ٢٠٣ .

وفى تاريخ بيبرس : ثم سار هلاون عن بغداد بعد انقضاء الشتاء إلى الشام(١) [٣٩٧]، وجرد جيشا إلى ميافارقين صحبة صَرْطق نُوين وقَطغان نُوين، وكان بها الملك الكامل ناصر الدين محمد(٢) بن الملك المظفر شهاب الدين غازى بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى(٣)، فحاصروها ونصبوا عليها المنجنيقات من كل ناحية، فقاتلت(٤) أهلها وامتنعوا عن تسليمها، وصبروا [أنفسهم](٥) على الحصار الشديد والجوع المبيد، حتى أكلوا الميتات(٦) والدوابّ والسنانير والكلاب، وطال عليهم الأمد، وقلت منهم القوة والجلد(٧)، فاستولى التتار على المدينة وفتحوها، وكانت مدة مقامهم على حصارها سنتين، فقتلوا وسَبوا من أهلها خلقا كثيرا، وفنى الجُند من كثرة القتال(٨)، [واشتداد النزال](٩) وأُسر من بقى منهم، وأخذ صاحبها ناصر الدين(١٠) الملك الكامل وتسعة نفر من مماليكه وأحضروا بين يدى هلاون،

---

(١) « وسار عنها إلى الفرات . ذكر استيلاء التتار على ميا فارقين ، ومنها أرسل هولاكو طائفة من عساكره إلى ميا فارقين » زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٣٤ أ ، ٣٤ ب .

(٢) استشهد على يد التتار سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م . وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، الوافى جـ ٤ ص ٣٠٦ رقم ١٨٤٩ ، السلوك جـ ١ ص ٤٤١ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٩٥ . وذكر أنه قتل سنة ٦٥٦ هـ فى نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٨٣ — ٣٨٤ .

(٣) « ابن شادى » ساقط من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٣٤ ب .

(٤) « فقاتل » فى زبدة الفكرة ، و « فقاتله » فى نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٨٣ .

(٥) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٦) « الميتة » فى زبدة الفكرة .

(٧) « وقل منهم الجلد » فى زبدة الفكرة .

(٨) « وفنى جندها من طول القتال » فى زبدة الفكرة .

(٩) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(١٠) « ناصر الدين » ساقط من زبدة الفكرة .

فقتلوا إلا مملوكا واحدا اسمه قرا سنقر ، أبقاه هلاون ، وذلك أنه سألهم عن وظائفهم ، فذكر له ذلك المملوك أنه كان (١) أمير شكار للسلطان ، فاستبقاه (٢) وسلم (٣) إليه شيئا من الطيور الجوارح وحظى عنده ، واتفق حضوره إلى الديار المصرية فى الأيام الظاهرية ، فأعطاه السلطان إقطاعا (٤) ، وجعله مقدم فى الحلقة .

وكان صاحب ميافارقين أديبا فاضلا ، وله نظم جيد ، فمنه قوله :

تَرَى تَسْمَحُ الدنيا بما أنا طالبُ ... فلى عزَماتٌ دونهن الكواكبُ (٥)

وإن يكن الناعى بموتى مُعرضًا ... فأىُّ كريم ما تَعتْهُ النوائبُ

ومن كان ذكر الموت فى كل ساعةٍ ... قريبًا له هانت عليه المصائب

وما عجبى إلا تأسُّف عاقلٍ ... على ذاهبٍ من ماله وهو ذاهبُ

ذكر ما جرى لأصحاب البلاد مع هلاون :

منها : أن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل سار إلى هلاون مُهادنا ، فاستصحب معه شيئا كثيرا من الهدايا النفيسة ، والأمتعة الجلية ، والجواهر الثمينة ، ومفاتيح القلعة والمدينة ، وإنما حداه على ذلك الشفقة على رعيته والخوف على أهل مملكته ، فمنعه أهل البلد من المسير إليه حَذَراً عليه ، فلم يمتنع

(١) « كان » ساقط من زبدة الفكرة .

(٢) « للسلطان ، فاستبقاه » ساقط من زبدة الفكرة .

(٣) « فسلم » فى زبدة الفكرة .

(٤) انظر نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٨٣ — ٣٨٤ .

(٥) نهاية ما جاء فى زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٣٤ ب .

فسار، [٣٩٨] فلما وصلَ إلى هلاون أوقف بين يديه حاملاً كفنَه على كتفيه، وقدَّم هداياه فقبلها منه وأقبل عليه، وقال لمن حضره من أكابر الخانات ومُقدمى التُّمانات : هـذا رجل عاقل ذوسياسة، ثم خلع عليـه وكتب له يرليغ بتفويض مملكة الموصل إليه على قاعدته، فعاد إلى بلده ومعهَ يرليغ، وفرح الناسُ به فرحا شديدا إلا أنه لم تطُلْ أيّامهُ حتى مات، على ما نُبيِّنهُ إن شاء الله تعالى .

ومنها : أن الملك الناصر يوسف صاحب دمشق، أرسل ولده الملك العزيز إلى هلاون مسالمـا وصحبته الهدايا الكثيرة، والتحف النفيسة، مقتديا فى ذلك بصاحب الموصل، فلما وصل إليه قبل تقدمته وسأله عن سبب تأخير والده عن الحضور إلى الأُرْدُ، فاعتذر إليه بأنه لم يمكنه مفارقة البلاد خوفا عليهـا من عُدّو الإسلام الذى فى الساحل، فأظهر له أنه قبل عذره وأعاده إلى والده .

ومنها : أن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل كان قد أرسل إلى هلاون من قبـل مْبدأ خروجه إلى العراقين ولده الملك الصالح ركن الدين إسماعيل بهدايا، فاجتمع به وسار من عنده إلى منكوقان أخيه إلى الأُرْدُو، فأكرمـه، وقَرَّبَه، وبقى عنده مدة، وزوجه بابنة خوارزم شاه التى أخذت عند مقتل أبيها، فلما أقام عند منكوقان وأبطأ خبره على أبيه أرسل أخاه سيف الدين إسحاق وولده علاء الملك لكشف خبره، وجهّز معهما هديّة أخرى إلى هـلاون، فتوجّها وعادا وأخبرا بسلامته وقرب عودته، فعاد بعدهما بقليل ومعه اليْرليغ، وفرح النـاس برجوعه سالمـا، وزُيِّنَت الموصل فرحاً به، وتوجه إلى ميافارقين، وحضر حصارها وعاد عنها، وجهّز أخاه وولده لمساعدة مقدّمى التتار على الحصار .

وهاهنا نادرة لطيفة وهى ان بدر الدين لؤلؤ لما طلب التوجه إلى هلاون جاء إليه أعيان أهل الموصل وأكابر دولته وقصدوا تعويقه حذر الإيقاع به ، فقال لهم : لاتخشوا على منه فإنى راج أن أتمكن منه وأعرك أذنيه ، وسار ، وكان قد هيأ حلقتى أذن ذهبا [٣٩٩] ، وفيهما درتان من الدر النفيس ، كل منهما يضاهى الدرر اليتيمة ويناهزها فى جلالة القيمة ، فلما فرغ من عرض تقادمه بين يدى هلاون ، فقال له : قد بقى معى شيء أحضرته خاصا للقان قال : وما هو ؟ قال : هاتان الحلقتان وهما تصلحان للآذان ، ومن عادة ملوك التتار أن يتخذوا فى آذانهم الجوهر ، فلما رآهما هلاون استحسنهما كثيرا فقال : يأمرنى القان أن أجعلهما فى أذنيه ، فأعلم رضاه عنى ويحصل لى تعظيم بين الملوك ، فأصغى إليه أذنيه فأمسكهما بأصبعيه ووضع الحلقتين فيهما ، وأومأ إلى من كان معه مشيرا إليهم أنى قلت لأهل الموصل قولا وقد حققته فعلا ، وعاد من عنده محترما مكرما .

ومنها : إن هلاون أرسل أرقطو (١) أحد المقدمين بتمان إلى أربل لأنه كان عند عبوره عليها قصد التعرض إليها فقال أهلها : نحن مطيعون ، فسار عنها ، ثم أرسل هذا المقدم ليتسلمها فنازلها بعنف وعسف ، فأغلق أهلها الأبواب وتمنعوا ، فحاصرها التتار ستة أشهر حتى هجم عليهم الحر وأصابهم من الوخم الضر ، فرجعوا عنها ، فسلمها أهلها إلى شرف الدين الكردى ورحلوا بأولادهم وأموالهم إلى حيث شاءوا ، ثم خرج نائب الخليفة بها وهو الصاحب تاج الدين بن الصلايا ، وتوجه إلى هلاون ، فقتله ظنا منه أنه الذى امتنع من تسليمها ، ولم يكن كذلك ؛

---

(١) « أرقيو نويان » — فى جامع التواريخ المجلد الثانى الجزء الأول ص ٢٩٨ .

بل كان قد أشار على أهلها بأن يستأمنوا ويسلموا، فأبوا ولم يفعلوا وصبروا حتى خلصوا (١).

ذكر بقية الحوادث :

منها : أن الملك المغيث صاحب كرك سار بعسكره والبحريّة صحبته إلى الديار المصرية ، فلما وصل إلى الصالحية تسلّل إليه من كان قد كاتبه من أمراء مصر وهم عز الدين الرومي والكافوري والهواش وغيرهم ، وانحازوا إليه ، وخرج عسكر مصر فالتقوهم ، فكانت الكسرة على المغيث وأصحابه ، فانهزم طريدا وولى إلى نحو الكرك وليس معه إلا القليل من جماعته ، وأما البحرية فإنهم لما انهزموا توجّهوا نحو الغَوْر ، [٤٠٠] فصادفتهم الشهرزورية (٢) وقد جاءوا جافلين من الشرق ، فاجتمعوا بهم واتفقوا معهم ، وتزوج الملك الظاهر منهم .

وبلغ ذلك الملك الناصر صاحب دمشق، فخاف أن تقوى شوكتهم فيقصدون الشام، ويفسدون عليه النظام، فجرد عسكره لقتالهم ، فالتقوا بالأغوار ، فكسروا عسكره ، وخلوهم وعادوا إليه، وقد نالت منهم الكسرة ، فاستشاط لذلك غضبا، وركب بنفسه، وجمع عساكره لقصدهم والإيقاع بهم، فعلموا العجز عن المقاومة فتفرقوا ، فتوجه البحرية إلى الكرك ليأووا عند الملك المغيث ، وتوجّهت الشهرزورية نحو الديار المصرية ، فصادفوا التركمان نازلين بالعريش، فقاتلوهم

(١) انظر جامع التواريخ المجلد الثانى — الجزء الأول ص ٢٩٨ — ٢٩٩ ق

(٢) الشهرزورية : طائفة من الأكراد ينسبون إلى شهرزور، وهى إحدى جهات كردستان حيث توجد مدينة شهرزور، وقد فر الشهرزورية من وجه التتر إلى الشام ومصر — السلوك ج ١ ص ٤١١ ق

على الماء حتى جرت بينهم غدران الماء ، وبلغ ذلك الملك الناصر وأن البحرية عادوا إلى الملك المغيث ، فأرسل إليه يطلب منه تسليمهم ، ويتهدده إن مانع عنهم ، فدافعه المغيث فى أمرهم على أنه يندفع .

فسار إليه الملك الناصر بعساكره عازما على منازلة الكرك ونزل على بركة زيزا ، وراسل الملك المغيث بنوع من التهديد ، وأغلظ له فى الوعيد ، فعلم أنه لا يدفعه منه إلا إرسالهم إليه ، فتحيَّل عليهم ، فأمسك من أمكنه وفاته من لم يقدر عليه ، فأرسل الذين أمسكهم إلى الملك الناصر وهم : شمس الدين سنقر الأشقر ، وسيف الدين سكز ، وسيف الدين برامق وغيرهم ، فأرسلهم الملك الناصر إلى قلعة حلب ، فحبسوا بها إلى أن فتحها هلاون ، وأخذهم صحبته إلى بلاده ، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى ، وأما الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى والأمير سيف الدين قلاون الألفى وخشداشيتهما الذين لم يجد الملك المغيث سبيلا إلى القبض عليهم فإنهم قد تشردوا فى البلاد وتلك النواحى مدة ، ثم حضروا إلى الديار المصرية ولزموا الخدمة على العادة .

ويحكى عن الأمير سيف الدين قلاون أنه والملك الظاهر بيبرس حين كانا تشردا فى هذه المدة قاسيا أمرا عظيما من القلة والفقر والشتات والتنقل من مكان إلى مكان ، والخوف ، وعدم الإقامة فى مكان واحد ، لأن الملك الناصر كان مجِدًّا فى طلبهما [٤٠١] والملك المغيث عامل على قبضهما ، والملك المظفر قطز بمصر لا يركن إليهما ، ثم أنهما اتفقا على زيارة الشيخ على البكا ، وهو يومئذ مقيم بزاويته بمدينة الخليل عليه السلام ، فأعوز سيف الدين قلاون القوت يوما من الأيام ، فصادف إنسانا مجتازًا بشيء من الطعام ، فطلب منه شيئا لضرورة الجوع ،

فامتنع ، فحمله الغيظ على أن ضربه ضربة مفرطة خطأً ، فكانت فيها منيّته ، فندم أشد الندم ، وقال : لقد كان الجوعُ والعدمُ خيرا من قتل النفس ، ثم أنهما مَضَيَا إلى الشيخ ، فلما دخلا عليه وسلّما عليه رد الشيخ سلام ركن الدين بيبرس وأقبل إليه ، ولم يرد سلام الأمير سيف الدين قلاون وأعرض بوجهه عنه ، وقال : هذا تجرأ على قتل النفس المحرمة ، فأعجبهما كشفه واطلاعه على هذا الأمر ، فتلطف الأمير ركن الدين فى سؤاله والتماس إقباله حتى سمح بجلوسه ، ولما قاما ليودعاه صافح الشيخ الأمير ركن الدين بيبرس ودعا له وقال : أنت رايح إلى مصر وسيصير إليك ملكها ، فاجتهد فى فعل الخير ، ثم تقدم إليه الأمير سيف الدين قلاون فصافحه وقال له كما قال لركن الدين بيبرس ، فتعجبا من ذلك وخرجا من عنده ، ثم آل حالهما إلى أن ملك كل واحد منهما الديار المصرية ، كما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ومنها : أنه وقع الوباءُ بالشام خصوصا بدمشق حتى لم يوجد مغسّل .

ومنها : أنه كثر الإرجافُ بقدوم التتار إلى بلاد الشام ، وحصل للناس من ذلك انزعاج عظيم وقلق شديد .

وفيها : « ... ... »(١) .

وفيها حج بالناس « ... ... »(٢) .

---

(١) ، (٢) « ... » بياض فى الأصل .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

واقف الجوزية بدمشق أستاذ دار الخلافة الصاحب محي الدين أبو المظفر(١) يوسف بن الشيخ جمال الدين بنى الفرج عبد الرحمن بن على بن محمد بن عبيد الله ابن عبدالله بن حماد بن أحمد بن محمد بن جعفر بن عبد الله بن القاسم بن النصر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، القرشى التيمى البكرى البغدادى الحنبلى ، المعروف بابن الجوزى .

ولد فى [٤٠٢] ذى القعدة سنة ثمانين وخمسمائة ، ونشأ شابا حسنا ، وحين توفى أبوه وعظ فى موضعه ، فأحسن وأجاد وأفاد ، ثم تقدم وولى حسبة بغداد ، مع الوعظ الرائق ، والأشعار الحسنة الفائقة ، وولى تدريس الحنابلة بالمستنصرية ببغداد فى سنة ثنتين وثلاثين وستمائة ، وكانت له مدارس أخرى ، ثم لما ولى مؤيد الدين بن العلقمى الوزارة وشغر عنه الاستادارية وليها محيى الدين هذا ، وانتصب ابنه عبد الرحمن فى الحسبة والوعظ ، فأجاد وأفاد ، ثم كانت الحسبة تنتقل فى بنيه الثلاثة : عبد الرحمن ، وشرف الدين عبد الله ، وتاج الدين عبد الكريم ، وقد قتلوا معه فى هذه السنة فى قضية هلاون كما ذكرنا(٢) ، ولمحيى الدين مصنف

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ١٧ ، ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٣٢٢ — ٣٤٠ ، العبر جـ ٥ ص ٢٣٧ ، السلوك جـ ١ ص ٤١٢ — ٤١٣ ، المختصر جـ ٣ ص ١٩٧ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٨٦ .

(٢) انظر ما سبق ص ١٧٥ .

في مذهب الإمام أحمد رحمه الله ، وقد وقف المدرسة الجوزية[1] بدمشق على الحنابلة .

الصَرْصَرِيّ[2] المادح يحيى بن يوسف بن يحيى بن منصور بن المعمر بن عبد السلام ، الشيخ الإمام ، العالم العلامة ، البارع ، جمال الدين أبو زكريا الصرصري ، الشاعر المادح ، الحنبلي ، الضرير ، البغدادي .

وشعره في مديح رسول الله صلى الله عليه وسلم مشهور ، وديوانه في ذلك معروف غير منكور .

ولد سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، وسمع الحديث ، وحفظ الفقه واللغة ، وكان يقال : إنه يحفظ صحاح الجوهري بكمالها ، وصحب الشيخ على بن إدريس تلميذ عبد القادر الكيلاني ، وكان ذكيا يتوقد ذكاء ، ينظم على البديه سريعا أشياء حسنة فصيحة بليغة ، وقد نظم الكافي للشيخ موفق الدين بن قدامة ومختصر الخرقي ، وأما مدائحه في رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقال : إنها تبلغ عشرين مجلدا .

ولما دخل التتار بغداد دعى إلى دار بها فرمان من هلاون ، فأبى أن يجيب إليه وأعد في داره أحجارا ، فحين دخل عليه التتار رماهم بتلك الأحجار ، فهشم

---

(١) المدرسة الجوزية بدمشق : كانت بسوق القمح (البذورية) — الدارس جـ ٢ ص ٢٩ .

(٢) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي ، درة الأسلاك ص ١٩ ، فوات الوفيات جـ ٤ ص ٢٩٨ رقم ٥٥٧ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٦٦ ، البداية والنهاية جـ ٣ ص ٢١١ ، السلوك جـ ١ ص ٤١٣ ، ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٢٥٧ — ٣٢٢ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٨٥ ، العبر جـ ٥ ص ٢٣٢ .

منهم جماعة ، فلما خلصوا إليه قتل بمكازه أحدهم ، فقتلوه شهيدا ، رحمه الله ، وله من العمر ثمانون(١) سنة .

البهاء زهير(٢) صاحب الديوان المشهور : أبو الفضل زهير بن محمد بن على بن يحيى بن الحسن بن جعفر بن منصور بن عاصم المهلبي العتكيّ ، الملقب بهاء [٤٠٣] الدين الكاتب .

كان من فضلاء عصره، وأحسنهم نظما ونثرا . وخطا ، ومن أكثرهم مروّة، وكان قد اتصل بخدمة السلطان الملك الصالح أبى الفتح أيوب بن السلطان الملك الكامل بالديار المصرية ، وتوجه فى خدمته إلى البلاد الشرقية وأقام بها إلى أن ملك الملك الصالح مدينة دمشق ، فانتقل إليها فى خدمته ، وأقام كذلك إلى أن جرت الكائنة المشهورة على الملك الصالح وخرجت عنه دمشق وخانه عسكره وهو على نابلس وتفرقوا عنه ، وقبض عليه الملك الناصر داود صاحب الكرك واعتقله بقلعة الكرك(٣) ، وأقام بهاء الدين زهير بنابلس محافظة لصاحبه الملك الصالح ، ولم يتصل بخدمة غيره ، ولم يزل على ذلك حتى خرج الملك الصالح وملك الديار

(١) هكذا بالأصل ، وهو لا يتفق مع ما سبق ذكره أن صاحب الترجمة ولد سنة ٥٨٨ هـ ، وورد فى السلوك أن صاحب الترجمة توفى « عن ثمان وستين سنة » وهو الأرجح — السلوك جـ ١ ص ٤١٣ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : نهاية الأرب (المخطوط) جـ ٢٧ ، المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ١٨ ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ١٨٤ — ١٩٧ ، العبر جـ ٥ ص ٢٣ ، السلوك جـ١ ص ٤١٣ ، وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣٣٢ رقم ٢٤٧ ، المختصر جـ ٣ ص ١٩٧ ، الذيل على الروضتين ص ٢٠١ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢١١ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٧٦ .

(٣) وذلك فى ١٢ ربيع الأول ٦٣٧ هـ / ٦ أكتوبر ١٢٣٩ م — السلطان الصالح نجم الدين أيوب ص ٤٠ .

المصرية ، وقدم إليها فى خدمته ، وذلك فى أواخر ذى القعدة سنة سبع وثلاثين وستمائة .

وقال ابن خلكان : وكنتُ يوم ذاك مقيما بالقاهرة ، وأودّ او اجتمعت به لما كنتُ أسمع عنه من مكارم الأخلاق وكثرة الرياضة ، وأنشدنى كثيرا من شعره ، فمما أنشدنى قوله فى جارية له اسمُها روضة :

يا روضة الحسن صِلِى فما عليك ضَيْرُ
فَهَل رأيت روضة ليس لها زُهَيْرُ

قال : وأخبرنى أن مولده فى خامس ذى الحجة سنة إحدى وثمانين وخمسمائة بمكة حرسها الله .

وقال لى مرة أخرى : إنه وُلِدَ بوادى نخلة وهو قريب من مكة ، وأخبرنى أن نسبه إلى المهلب بن أبى صُفْرة[١] .

ثم حصل بالقاهرة مرض عظيم لم يكد يسلم منه أحد ، وكان حدوثه يوم الخميس الرابع والعشرين من شوال سنة ست وخمسين وستمائة ، وكان بهاء الدين المذكور ممن مسّه منه ألم ، فأقام به أياما ، ثم توفى قبل المغرب فى يوم الأحد رابع ذى القعدة من السنة المذكورة ، ودفن من الغد بعد الظهر بتربته فى القرافة الصُغْرى بالقرب من قبة الشافعى ـ رحمه الله ـ فى جهتها القبلية ، ولم يتفق لى الصلاة عليه لاشتغالى بالمرض[٢] .

---

(١) هو ظالم بن سراق بن صبح بن كندى ، أبو سعيد المهلب بن أبى صفرة ، المتوفى سنة ٨٢ هـ / ٧٠١ م — وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٣٥٠ رقم ٧٥٤ .

(٢) انظر وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٣٣٢ ، ٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ .

وفى تاريخ المؤيد: وفى سنة ست وخمسين وستمائة توفى الصاحب بهاء الدين زهير بن محمد المهلبى كاتب إنشاء الملك الصالح أيوب ، وفى آخر عمره انكشف [٤٠٤] حاله ، وباع(١) موجوده وكتبه ، وأقام فى بيته بالقاهرة إلى أن أدركته وفاته بسبب الوباء العام ، ومن شعره وهو موزون(٢) مخترع ليس بخرجة العروض أبيات منها :

يا من لعبت به الشمول(٣) ... ما ألطف(٤) هذه الشمائل

مولاى يحق لى بأنى ... عن حبك فى الهوى أقاتل

ها عبدك واقفا ذليلا ... بالباب يمد كف سائل

من وصلك بالقليل يرضى ... والطل(٥) من الحبيب وابل

الحافظ زكى الدين عبد العظيم(٦) بن عبد القوى بن عبد الله بن سلام بن سعد ابن سعيد ، الإمام العالم العلامة ، الحافظ أبو محمد زكى الدين المنذرى الشافعى المصرى .

---

(١) « باع » فى الأصل ، والإضافة من المختصر .

(٢) « وزن » فى المختصر .

(٣) « شمول » فى المختصر ، وذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ١٩٥ .

(٤) « ما أحسن » فى ذيل مرآة الزمان .

(٥) انظر المختصر جـ ٣ ص ١٩٧ .

(٦) وله أيضا ترجمة فى : مخطوط نهاية الأرب جـ ٢٧ ، درة الأسلاك ص ١٧ ، المنهل الصافى ، العبر جـ ٥ ص ٢٣٢ ، ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٢٤٨ — ٢٥٣ ، فوات الوفيات جـ ٢ ص ٣٦٦ رقم ٢٩١ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢١٢ ، السلوك جـ ١ ص ٤١٢ ، المختصر جـ ٣ ص ١٩٧ ، الذيل على الروضتين ص ٢٠١ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٧٧ .

وأصله من الشام، ولكنه ولد بمصر، وكان شيخ الحديث بها مدة طويلة، وإليه الوفادة والرحلة من سنين متطاولة، وسمع الكثير ورحل، وطاب، وصنف، وخَرَّجَ، واختصر صحيح مسلم، وسنن أبي داود، وله يد طولى في اللغة، والفقه، والتاريخ، وكان ثقة حجة متحرِّزا، زاهدا.

وتوفي في يوم السبت الرابع من ذي القعدة من هذه السنة بدار الحديث الكاملية، ودفن بالقرافة.

النور أبو بكر محمد[1] بن محمد بن عبد العزيز بن عبد الرحيم بن رستم الأسعردي، الشاعر المشهور الخليع.

كان القاضي صدر الدين[2] بن سنيّ الدولة قد أجلسه مع شهود تحت الساعات[3]، ثم استدعاه الناصر صاحب البلد، وجعله من جلسائه وندمائه، وخلع عليه خلع الأجناد، فانسلخ من هذا الفن إلى غيره، وجمع كتابا سماه الزَرْجُون في الخلاعة والجنون، وذكر فيه أشياء كثيرة من النظم والنثر في الخلاعة، ومن شعره:

لذةُ العمر خمسةٌ فاقتنيها من خليع غدا أديبا فقيها
في نديم وقينةٍ وحبيبٍ ومُدَام وسَبِّ من لام فيها

(١) وله أيضا ترجمة في: المنهل الصافي، الوافي جـ ١ ص ١٨٨ رقم ١١٦، فوات الوفيات جـ ٣ ص ٢٧١ رقم ٤٢٢، السلوك جـ ١ ص ٤١٤، الذيل على الروضتين ص ١٩٩، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٨٤.

(٢) هو أحمد بن يحيى بن هبة الله، صدر الدين بن سني الدولة.

(٣) باب الساعات = باب الزيادة ؛ وهو الباب القبلي للجامع الأموي بدمشق — الدارس جـ ١ ص ١١٤ هامش (٢).

محمد بن عبد الصمد بن عبد الله بن حيدرة فتح الدين بن العدل[1] ، محتسب دمشق ، وكان[2] من الصدور المشكورين ، حسن الطريقة ، وجدّه العدل نجيب الدين أبو محمد عبد الله[3] بن حيدره ، هو واقف المدرسة بالزبدانى فى سنة تسعين وخمسمائة .

توفى محمد بن عبد الصمد المذكور فى مستهل جمادى الآخرة من هذه[٤٠٥] السنة ، وتولى فى الحسبة أخوه ناصر الدين .

القرطبى — صاحب المُفْهم فى شرح مسلم .

أحمد[4] بن عمر بن إبراهيم بن عمر أبو العباس الأنصارى القرطبى المالكى ، الفقيه ، المحدّث ، المدرس بالإسكندرية .

ولد بقرطبة سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، وسمع الكثير هناك ، واختصر الصحيحين[5] ، وشرح صحيح مسلم بكتابه المسمى بالمفهم[6] ، وفيه أشياء حسنة مفيدة ، توفى فى هذه السنة .

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، الوافى جـ ٣ ص ٢٠٧ رقم ١٢٨٤ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢١٣ .

(٢) « وكانوا » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق .

(٣) « ابن عبد الله » فى الأصل ، والتصحيح مع البداية والنهاية ، والدارس جـ ١ ص ٢٧٥ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٤٤ رقم ٢٢٩ ، الديباج المذهب جـ ١ ص ٢٤٠ رقم ١٢٦ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٧٣ ، ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٩٥ — ٩٦ ، العبر جـ ٥ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٦٩ ، الوافى جـ ٧ ص ٢٦٤ رقم ٣٢٣٠ .

(٥) انظر كشف الظنون جـ ١ ص ٥٥٤ .

(٦) هو كتاب « المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم » — هدية العارفين جـ ١ ص ٩٦ ، كشف الظنون جـ ٢ ص ١٧٧٢ .

الكمال إسحاق(١) بن أحمد بن عثمان ، أحد مشايخ الشافعيـة ، أخذ عنه الشيخ محيي الدين النووى(٢) وغيره ، وكان مدرسا بالرواحية(٣) ، وكانت وفاته فى ذى القعدة من هذه السنة .

العماد داود(٤) بن عمر بن يحيي بن عمر بن كامل أبو المعالى وأبو سليمان الزبيدى المقدسى ، ثم الدمشقى خطيب بيت الآبار(٥) .

وقد خطب بدمشق ست سنين بعد انفصال الشيخ عزالدين بن عبد السلام عنها ، ودرس بالغزالية(٦) ، ثم عزل عنهـا ، وعاد إلى بيت الآبار ، فمـات بها فى هذه السنة .

شيخ الشيوخ ببغداد على(٧) بن محمـد بن الحسين ، صدر الدين أبو الحسن بن النيـار .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : العبر جـ ٥ ص ٢٠٥ ، ٢٢٧ ، فقد ذكره الذهبى فى وفيات ٦٥٠هـ ، ٦٥٦ كما ورد فى شذرات الذهب فى وفيات ٦٥٠ هـ — شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٤٩ ، وانظر أيضا طبقات الشافعية الكبرى جـ ٨ ص ١٢٦ رقم ١١١٤ .

(٢) هو يحيي بن شرف النووى ، المتوفى سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م — المنهل الصافى .

(٣) المدرسة الرواحية بدمشق : أنشأها زكى الدين أبو القاسم ، التاجر المعروف بابن رواحة ، المتوفى سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م — الدارس جـ ١ ص ٢٦٥ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ١٢٦ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٧٥ ، العبر جـ ٥ ص ٢٢٩ .

(٥) بيت الآبار : جمع بئر : قرية يضاف إليها كورة من غوطة دمشق — معجم البلدان .

(٦) المدرسـة الغزالية بدمشق : فى الزاوية الشمالية الغربية من الجامع الأموى — الدارس جـ ١ ص ٤١٣ ، ٤٢٠ .

(٧) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢١٢ .

كان أولا مؤدّبا للإمام المستعصم بالله ، فلما صارت إليه الخلافة رفعه[(١)] رفعة عظيمة ، وولاه مشيخة الشيوخ ببغـداد ، وانتظمت إليه أزمة الأمور بُرهةً من الدهر ، ثم أنه ذبح بدار الخلافة كما تذبح الشاة ، فى هذه السنة ، وذلك فى وقعة التتـار .

وكان أول ما مثل المستعصم بالله هاذين البيتين ، وذلك حين أراد تعليمه فى أول أمره وهما :

ما طـار بين الخـافقين أقلّ عقـل من مُعلِّم
ولقـد دخلنا فى الصناعة ربِّ سـلِّم ربِّ سـلِّم

الشيخ العابد الزاهد على[(٢)] الخباز .

كان له أتباع وأصحاب ببغداد ، وله زاوية يُزار فيها ، قتلته التتار ، وألقى على مزبلة بباب زاويته ثلاثة أيام حتى أكلت الكلاب من لحمه ، ويقـال إنه أخبر بذلك عن نفسه فى حياته .

الشيخ العـارف أبو الحسن على[(٣)] بن عبـد الله ، من ولد الحسن بن على بن أبى طالب ، الشاذلى الضرير .

مات بصحراء عيذاب وهو قاصد الحجـاز ، ودفن بِحُمَيْثرا[(٤)] حيث توفى .

---

(١) « نال » فى الأصل ، ومصححة فى الهامش .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : العبر جـ ٥ ص ٢٣٣ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٨٠ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، العبر جـ ٥ ص ٢٣٢ — ٢٣٣ ، السلوك جـ ١ ص ٤١٤ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٧٨ .

(٤) حميثرى : منزلة بالقرب من الحد الفاصل بين مصر والسودان جنوب غرب عيذاب ، وعلى بعد ١٤٠ كم منها — القاموس الجغرافى ق ١ جـ ١ ص ٣٣٩ .

وكان أحد المشايخ المشهورين بمعرفة الطريق ، وله فى ذلك كلام كثير ، وتصانيف معروفة[1] ، ونسبته إلى شاذلة قرية بإفريقية ورد منها [٤٠٦] إلى الإسكندرية وسكنها ، وحج مرارا ، وصحبته جماعة فانتفعوا بصحبته ، وله حزب يقرأه الناس مشتمل على أدعية مباركة ولطائف حسنة يتبرك بقراءته .

الخطيب أبو عبد الله[2] محمد بن إسماعيل بن أحمد بن أبى الفتح المقدسى خطيب مردا[3] .

سمع الكثير ، وعاش تسعين سنة ، وقدم فى سنة ثلاث وخمسين ، فسمع الناس عليه الكثير بدمشق ، ثم عاد فمات ببلده فى هذه السنة .

النجيب نصر الله بن[4] أبى العز مظفر بن أبى طالب عقيل بن حمزة ، نجيب الدين ابن شُقَيْشَقَة الدمشقى المحدِّث .

أحد العدول بدمشق ، سمع الحديث وعنى به ، ووقف داره بدرب البانياسى على المحدثين[5] .

(١) انظر هدية العارفين جـ ١ ص ٧٠٩ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى العبر جـ ٥ ص ٢٣٥ ، السلوك جـ ١ ص ٤١٤ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٨٣ .

(٣) « بردى » فى الأصل ، والتصحيح من مصادر الترجمة . وورد فى البداية والنهاية « خطيب براد » — جـ ١٣ ص ٢١٣ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : العبر جـ ٥ ص ٢٣٦ — ٢٣٧ ، الذيل على الروضتين ص ٢٠١ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٨٥ الدارس جـ ١ ص ٨٠ — ٨١ .
وورد اسمه « النجيب بن شعيشعة الدمشقى » وأن وفاته سنة ٦٥٧ هـ ، انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢١٧ .

(٥) هى دار الحديث الشقيشقية بدرب البانياسى بدمشق — الدارس جـ ١ ص ٨٠ .

وقال ابن كثير : وقد سكنها شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزى(١) قبل انتقاله إلى دار الحديث الأشرفية بدمشق(٢) .

وقال أبو شامة : وكان ابن شُقَيْشْقَة وهو النجيب أبو الفتح نصر الله بن أبى العز بن أبى طالب الشيبانى ، مشهورا بالكذب ورقة الدين وغير ذلك ، وهو أحد الشهود المقدوح فيهم ، ولم يكن بحال أن يؤخذ عنه .

قال : وقد أجلسه أحمد بن يحيى بن هبة الله الملقّب بالصدر بن سنى الدولة فى حال ولايته قضاء القضاة بدمشق ، فأنشد فيه بعض الشعراء :

جلس الشقيشقة الشقى ليشهدا ... بأبيكما ماذا عدا فيما(٣) بدا

هل زلزل الزلزال أم قد أخرج الـ ... ـدجال أم عُدِم الرجال ذَوُو الهدى

عجبا لمحلول العقيدة جاهل ... بالشرع قد أذنوا له أن يعقدا(٤)

أبو عبد الله الفاسى(٥) ، شارح الشاطبية ، اشتهر بالكنية ، قيل : إن اسمه القاسم .

---

(١) هو يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف ، أبو الحجاج المزى ، المتوفى سنة ٧٤٢ هـ/١٣٤١م — المنهل الصافى .

(٢) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢١٧ — ٢١٨ .

(٣) « مما » فى الذيل على الروضتين ص ٢٠١ .

(٤) انظر الذيل على الروضتين ص ٢٠١ .

(٥) هو محمد بن حسن بن محمد بن يوسف المغربى ، الإمام أبو عبد الله الفاسى .

وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، الذيل على الروضتين ص ١٩٩ ، الوافى جـ ٢ ص ٣٥٤ رقم ٨٢٠ ، العبر جـ ٥ ص ٢٣٥ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٨١ — ٢٨٢ .

وكان عالما فاضلا فى العربية والقراءات ، وقد أجاد فى شرحه للشاطبية وأفاد، واستحسنه الشيخ شهاب الدين أبو شامة شارحها أيضا، وكانت وفاته بحلب فى هذ السنة .

سيف الدين ابن صَبره(١) متولى شرطة دمشق ، ذكر أبو شامة أنه حين مات جاءته حية ، فنهشت أفخاذه ويقال : إنها إلتفت فى أكفانه وأعيى الناس دفعها .

قال وقيل لى : إنه كان نُصَيريًّا [٤٠٧] رافضيا خبيثا ، مدمن خمر ، قبحه الله(٢) .

تاج الدين أبو الفتح يحيى(٣) بن(٤) الشيخ أبى غانم محمد بن أبى الفضل هبة الله بن أبى غانم محمد بن أبى الفضل هبة الله بن أبى الحسن أحمد بن يحيى بن زهير(٥) بن هارون بن موسى بن عيسى بن عبد الله بن محمد [بن(٦)] عامر أبى جرادة بن ربيعة ابن خُويلد بن عوف بن عامر بن عُقَيْل العقيلى الحلبى الحنفى، المنعوت بالتاج ، المعروف بابن العديم .

مات فى سحر النصف من شهر صفر من هذه السنة بحلب ودُفن يومه بالمقام، ومولده بحلب فى النصف من ذى الحجة سنة ثمانين وخمسمائة، سمع من أبيه ابن

(١) وله أيضا ترجمة فى : الذيل على الروضتين ص ٢٠٠ .

(٢) انظر الذيل على الروضتين ص ٢٠٠ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، السلوك جـ ١ ص ٤١٢ .

(٤) « بن » مكررة فى الأصل .

(٥) « بن زيد » فى السلوك جـ ١ ص ٤١٢ .

(٦) [ ] إضافة من السلوك .

غانم ، وعمه أبى الحسن ، ومن الشريف أبي هاشم عبد المطلب[(١)] بن الفضل الهاشمى ، ومن الشيخ تاج الدين الكندى[(٢)] بدمشق وآخرين ، وهو من بيت مشهور .

الشيخ الجليل الأصيل أبو عبد الله محمد[(٣)] بن أبى الحسن أحمد بن أبى الفضل هبة الله بن محمد بن هبة الله بن أحمد بن يحيى بن زهير بن[(٤)] هارون ، المعروف بابن أبى جرادة الحلبى الحنفى ، المنعوت بالمحى ، المشهور بابن العديم .

مات فى العاشر من جمادى الآخرة من هذه السنة بحلب ، ودفن فى مقام إبراهيم عليه السلام ، خارج باب العراق ، ومولده فى الثالث من رجب سنة تسعين وخمسمائة بحلب ، سمع من أبيه وعمه أبى غانم و بدمشق من تاج الكندى وآخرين .

وكان رئيسا مقدمًا ، و بيته معروف بالعلم والحديث والرئاسة ، وقد تقدم الان ذكر ابن عمه أبى الفتح المنعوت بالتاج .

الشريف أبو الحسن على بن أبى على الحسن بن زهرة أبى الحسن بن زهرة ابن على بن محمد العلوى الحسينى الإسحاقى الحلبى .

---

(١) هو عبد المطلب بن الفضل العباسى ، الافتخار الهاشمى ، أبو هاشم ، المتوفى سنة ٦١٦ هـ/ ١٢١٩ م — العبر جـ ٥ ص ٦٢ .

(٢) هو زيد بن الحسن بن زيد البغدادى ، تاج الدين الكندى ، أبو اليمن ، المتوفى سنة ٦١٣ هـ/ ١٢١٦ م — العبر جـ ٥ ص ٤٤ — ٤٥ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، السلوك جـ ١ ص ٤١٣ .

(٤) « بن زهير » فى السلوك جـ ١ ص ٤١٣ .

مات بحلب فى العشر الأواخر من صفر من هذه السنة ، وولد بها فى الثانى عشر من شعبان سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة .

كانت له معرفة بالحديث ، والفقه ، والقراءات ، والتواريخ ، والعربية ، وله نظم جيد وترسُّل حسن ، وكتب الإنشاء بحلب مدة ، وترسل إلى بغداد ، وولى نقابة الأشراف بحلب ، وسمع من غير واحد من الشيوخ ، وحدَّث .

الشيخ أبو المناقب محمود بن أحمد ، الفقيه الشافعى .

وكان رئيس [٤٠٨] الشافعية ببغداد ، قتل شهيدا فى وقعة التتار .

الأمير الأديب سيف الدين أبو الحسن على (١) بن قزل بن جلدك .

مات بدمشق فى هذه السنة ، ومولده بمصر ، وتولَّى شدَّ الدواوين بالديار المصرية مدةً ، وكان أميرا مقدما فى دولة الملك الناصر يوسف صاحب الشام ، وله شعر حسن ، فمنه قوله :

بَا كِرْ كُؤُوس المُدام واشْرَبْ		واستَجْلِ وجْه الحبيب واطْرِبْ
ولا تَخَـفْ للهُمُومِ داءً		فهــو دَوَاءٌ له مُجَــرَّبْ
فى يَدِ ساقٍ له رضَاب		كالشُّهْدِ لكن جَنَاهُ أَعْذَبْ (٢)

(١) هو على بن عمر بن قزل بن جلدك الياروقى التركمانى ، المعروف بالمشد ، وقد سبق أن ذكره المؤلف فى وفيات سنة ٦٥٥ هـ ، ص ١٦١ — انظر المنهل الصافى ، والسلوك جـ ١ ص ٤١٣ ، فوات الوفيات جـ ٣ ص ٥١ رقم ٣٤٥ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٦٤ .

(٢) « كالمسك لا بل جناه أطيب » — فى فوات الوفيات جـ ٣ ص ٥٢ .

الملك الناصر داود[1] بن الملك المعظم عيسى بن السلطان الملك العادل أبي بكر ابن أيوب .

توفى فى هذه السنة بظاهر دمشق فى قرية يقال لها البُوَيْضَاء، ومولده سنة ثلاث وستمائة، وكان عمره نحو ثلاث وخمسين سنة، وقد ذكرنا أحواله وماجرى عليه فى السنين الماضية ، وكان أصاب الناس فى الشام فى تلك المدة وباء مات فيه الناصر داود ، وخرج الملك الناصر يوسف صاحب دمشق إلى البُوَيْضَاء ، وأظهر عليه الحزن والأسف، ونقله ودفنه بالصالحية فى تربة والده الملك المعظَّم .

وكان الناصر داود فاضلا ، ناظما ، ناثرا ، وقرأ العلوم العقلية على الشيخ شمس الدين الخسرو شاهى تلميذ الإمام فخر الدين الرازى[2] ، وكان حنفى المذهب مثل والده .

وله أشعار جيدة ، فمنها قوله :

عيونٌ عن السِّحْرِ المُبينِ تَبِينُ ... لها عند تحريك القلوب سُكُونُ
تَصُولُ ببيض وهى سُودٌ فِرِندها ... ذُبولٌ فُتُورٍ والجفونُ جُفُونُ
إذا ما رَأَتْ قلبًا خاليًا من الهَوَى ... تقول له كن مُغْرَمًا فيكونُ[3]

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى، درة الأسلاك ص١٦ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٦١، العبر جـ ٥ ص ٢٢٩ ، فوات الوفيات جـ ص ٤١٩ رقم ١٤٩ ، ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ١٢٦ — ١٧٨ ، السلوك جـ ١ ص ٤١٢ ، المختصر جـ ٣ ص ١٩٥ — ١٩٦ ، الذيل على الروضتين ص ٢٠٠ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٧٥ .

(٢) هو محمد بن عمر بن الحسين الرازى ، فخر الدين ، المعروف بابن الخطيب ، والمتوفى سنة ٦٠٦ هـ/ ١٢٠٩ م — وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٢٤٨ رقم ٦٠٠ .

(٣) انظر المختصر جـ ٣ ص ١٩٥ ، وذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ١٥٢ — ١٥٣ .

وله أيضا :

طرفي وقلبي قاتلٌ وشهيدٌ　　　ودمي على خديك منه شهودُ

أمَا وحُبِّك لا أضمِرْ سلْوةً　　　عَنْ صَبْوتي ودع الفؤادَ يبيدُ

مُنِّي بطيفك بَعْد ما منع الكرى　　　عن ناظريَّ البُعْدُ والتسهيدُ

ومن العجائب أن قلبك لَمْ يَلِنْ　　　لي والحديدُ ألاَنَهُ داود(١)

[٤٠٩] وقال أبو شامة : وكان الملك الناصر داود سلطان دمشق بعد أبيه نحوا من سنة ، ثم اقتصر له على الكرك وأعماله ، ثم سُلِبَ ذلك كله وصار متنقلا(٢) في البلاد موكلا عليه ، وتارة في البراري(٣) إلى أن مات موكَّلاً عليه بالبُوَيْضاء، وهي(٤) قريةٌ قبليّ دمشق ، كانت تكون لعمه مُجير الدين بن العادل وحمل منها ، فصلى عليه عند باب النصر، ودفن بجبل قاسيون عند أبيه بالمقبرة المعظمية بدير مَرّان، وخلَّف أولاداً كثيرة(٥) .

الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ(٦) صاحب الموصل .

(١) انظر المختصر جـ ٣ ص ١٩٦ .

(٢) « متنقلا » في الذيل على الروضتين .

(٣) توجد في هذا الموضع جملة مكررة ، وملغاة .

(٤) « وهي » ساقط من الذيل على الروضتين .

(٥) انظر الذيل على الروضتين ص ٢٠٠ .

(٦) هو لؤلؤ بن عبد الله ، السلطان الملك الرحيم ، الأرمني الأتابكي النوري ، وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي ، البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢١٤ وقد ورد ذكر وفاته سنة ٦٥٧ هـ في درة الأسلاك ص ٢١ ، المختصر جـ ٣ ص ١٩٨ ، الذيل على الروضتين ص ٢٠٣ ، العبر جـ ٥ ص ٢٤٠ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٨٩ ، وورد ذكر وفاته سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م في جامع التواريخ المجلد الثاني جـ ١ ص ٣٢٧ وما بعدها .

توفى فى شعبان من هـذه السنة ، عن ثمـانين سنة ، وقد ملك الموصل نحوا من خمسين سنة .

وكان ذا عقل ودُهاءٍ ومَكْرٍ ، لم يزل يعمل على أولاد أستاذه ، وزالت الدولة الأتابكية عن الموصل ، وقد ذكرنا مسيره إلى هلاون اللعين ، فمكث بَعْدَ مرجعه بالموصل أياما يسيرة ، ثم مات ودفن بمدرسته البدرية بالموصل ، فتأسَّف الناس عليه لحسن سيرته وجودته وعدله .

وقـد جمع له الشيخ عز الدين بن الأثير (١) كتابه المسمى بالكامل فى التاريخ ، فأجازه عليه وأحسن إليه ، وكان يعطى لبعض الشعراء ألف دينار وغيرها .

وقام فى الملك بعده ولده الصالح إسماعيل .

وقد كان بدر الدين لؤلؤ أرمنيًّا اشـتراه رجل خياط ، ثم صار إلى الملك نور الدين أرسلان (٢) بن عز الدين مسعود بن مودود بن زنكى بن آقسنقر الأتابكى صاحب الموصـل ، وكان مليح الصورة فحظى عنـده ، وتقدَّم فى دولته إلى أن صارت الكلمة دائرة عليه ، والوفود من سائر جهات ملكهم إليه ، ثم أنه أخفى على أولاد أستاذه فقتلهم غيلةً ، واحدا بعد واحد ، إلى أن لم يبق معـه أحد منهم ، فاستقلَّ بالمملكة حينئذ ، وصفت له الأمور وراقَتْ .

---

(١) هو على بن محمد بن محمد بن عبد الكريم ، المعروف بابن الأثير الجزرى ، عز الدين ، المتوفى سنة ٦٣٠ هـ / ١٢٣٢ م — وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٣٤٨ رقم ٤٦٠ .

(٢) هو أرسلان شاه بن عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود ، الملك العادل ، المتوفى سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م — وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٩٣ رقم ٨٢ .

وكان يبعث في كل سنة إلى مشهد على رضى الله عنه قنديلا زنته ألف دينار .

وكان قد بلغ من العمر فوق ثمانين سنة ، فكأنه شابٌ حسن الشباب من نضارة وجهه وحسن شكله ، وكانت العامة تلقبه بقضيب الذهب ، وكان ذا همّة عالية ، وداهية ، شديد المكر ، بعيد الغَوْر .

[٤١٠] وقال بيبرس : واستقرّ بعده ولده الملك الصالح إسماعيل ، وأما ولده علاء الدين على فإنه فارق أخاه وحضر إلى الشام ، وكان منهما ما نذكره(١) ، إن شاء الله تعالى :

بَيجُو(٢) : ويقال له باجُو أيضا ، مقدّم التتار .

هلك في هذه السنة . ويقال : إن هلاون نقم عليه لما بلغه من إضمار الخلاف ، وإنه قصد التأخر عنه لما استدعاه ، وأراد الإنفراد ببلاد الروم ، فلما فرغ هلاون من فتوح بغداد وبلاد العراق دسّ إليه سُمًّا ، فشربه فمات .

وقيل : إنه كان أسلم قبل موته ، ولما احتضر أوصى بأن يغسل ويدفن على عادة المسلمين .

وكان له من الأولاد أَفَاك وسُكْتَاى ، وأُفَاك هذا هو أبو سلامش وقُطَقْطُو الوافدين إلى الديار المصرية على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

---

(١) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٣٥ ب .

(٢) انظر نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٨٤ وما بعدها .

الوزير ابن العلقمى[1] الرافضى قبّحه الله[2] ، واسمه محمد بن أحمد بن على بن أبى طالب ، الوزير مؤيد الدين بن العلقمى البغدادى .

خدم فى أيام المستنصر بالله استادار الخلافة مدة طويلة ، ثم استوزره المستعصم بالله ، ولم يكن وزير صدق ، فإنه كان من الفضلاء الأدباء إلا أنه كان رافضيا خبيثا ، ردئ الطوية على الإسلام وأهله ، وقد حصل له من التعظيم والوجاهة فى أيام المستعصم ما لم يحصل لكثير من قبله من الوزراء ، ثم مالأ على الإسلام وأهله التتار ، أصحاب هلاون ، حتى جاءوا فجاسوا خلال الديار ، وكان أمرا مفعولا ، ثم حصل له من الاهنه فى أيامهم والقلة والذلة وزوال ستر الله ما لا يحد ولا يوصف .

رأته امرأة وهو راكب فى أيام التتار برذونا وسائق يضرب فرسه[3] ، ووقفت إلى جانبه فقالت يابن العلقمى : هكذا كان بنو العباس يعاملونك[4] ، فوقعت كلمتها فى قلبه ، وانقطع فى داره إلى أن مات كمدا فى مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة ، وله من العمر ثلاث وستون سنة ، ودفن فى قبور الروافض[5] ، وقد سمع

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، الوافى جـ١ ص ١٨٤ رقم ١١٤ ، فوات الوفيات جـ ٢ ص ٢٥٢ رقم ٤١٥ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢١٢ ، العبر جـ ٥ ص ٢٣٥ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٧٢ ، الفخرى ص ٢٩ .

(٢) هكذا بالأصل ، وشذرات الذهب ، بينما ورد اسمه محمد بن محمد بن على فى باقى مصادر الترجمة .

(٣) « وهو راكب فى أيام التتار برذونا وهو مرسم عليه ، وسائق يسوق به ويضرب فرسه » — البداية والنهاية جـ ١٣ ، ص ٢١٢ .

(٤) انظر نهاية الأرب جـ ٢٣ ص ٣٢٥ .

(٥) « الرافض » فى الأصل والتصحيح من البداية والنهاية .

بأذنيه ورأى بعينيه من التتار والمسلمين ما لا يحد ولا يوصف ، وتولى بعده الوزارة ولده ، ثم أخذه الله سريعا .

وقد هجاه بعض الشعراء فقال :

[٤١١]

يا فرقة الإسلام نوحوا واندبوا أسفا على ما حل بالمستعصم

دست الوزارة كان قبل زمانه لابن الفرات فصار لابن العلقمى (١)

هذا كله ذكره ابن كثير فى تاريخه .

وقال بيبرس فى تاريخه : وأما الوزير فهو (٢) مؤيد الدين [محمد] (٣) بن العلقمى ، فإن هلاون استدعاه بين يديه وعنفه على سوء سيرته وخبث سريرته وممالاته على ولى نعمته ، وأمر بقتله جزاء لسوء فعله ، فتوسل وبذل الالتزام بالأموال (٤) يحملها ، وإتاوة من العراق يحصلها ، فلم يذعن لقبوله ولا أجاب إلى سؤاله (٥) ، بل قتل بين يديه صبرا [وتحسى من يد المنون صبرا (٦)] وأوقعه الله فى البئر التى احتفر ، وخانه فيما قدره صرف القدر (٧) .

(١) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢١٢ — ٢١٣

(٢) « وهو » فى زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٣٢ ب .

(٣) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٤) « بأموال » فى زبدة الفكرة .

(٥) « مسئوله » فى زبدة الفكرة .

(٦) [ ] إضافة من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٣٢ ب ٣٣ أ .

(٧) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٣٣ أ .

الصَّاحِبَةُ غازية خاتون[1]، والدة الملك المنصور، بنت السلطان الملك الكامل محمد بن السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب .

توفيت في ذي القعدة من هذه السنة بقلعة حماة، وكان قدومها إلى حماة في سنة تسع وعشرين وستمائة، وولدها من زوجها الملك المظفر[2] ثلاث بنات أيضا، فتوفيت الكبرى منهن وكان اسمها ملكة خاتون قبل وفاة والدها بقليل، وتوفيت الصغرى وهي دُنْيا خاتون بعد وفاة أخيها الملك المنصور[3] .

وقال الملك المؤيد في تاريخه : وولد لها مِنْ[4] الملك المظفر محمود صاحب حماة ثلاثة بنين[5]، مات أحدهم صغيرا وكان اسمه عمر، وبقى الملك المنصور [محمد[6]] صاحب حماة، وأخوه والدى الملك[7] الأفضل على، وولد لها منه ثلاث بنات أيضا، كما ذكرنا .

وكانت غازية خاتون المذكورة من أحسن النساء سيرةً وزهداً وعبادةً، وحفظت الملك لولدها الملك المنصور حتى كبر، وسلّمته إليه قبل وفاتها، رحمها الله[8] .

---

(١) ولها أيضا ترجمة فى ء المختصر جـ ٣ ص ١٩٦ ، وورد ذكر وفاتها سنة ٦٥٥ هـ فى ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٧٥ — ٧٦ .

(٢) هو الملك المظفر الثانى تقى الدين محمود بن قلج أرسلان ، ولى حكم حماة فى الفترة ٦٢٦ — ٦٤٢ هـ / ١٢٢٩ — ١٢٤٠م — تاريخ الدول الإسلامية ص ١٤٧ .

(٣) هو الملك المنصور الثانى محمد بن محمود ، ولى حكم حماة سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٠ م وحتى وفاته سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م = العبر جـ ٥ ص ٣٤٥ .

(٤) « ابن » فى الأصل ، والتصحيح من المختصر .

(٥) « وولد لها من الملك المظفر ابنان » — ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٧٥ .

(٦) [ ] إضافة من المختصر للتوضيح .

(٧) « والد الملك » فى المختصر .

(٨) انظر المختصر جـ ٣ ص ١٩٦ .

ذكر ترجمة الخليفة المستعصم بالله :

والكلام فيه على أنواع : —

الأول في بيان اسمه ونسبه : هو أمير المؤمنين أبو أحمد عبد الله[(١)] بن أمير المؤمنين المستنصر بالله أبي جعفر منصور بن أمير المؤمنين الظاهر بالله أبي نصر أحمد بن أمير المؤمنين الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسن بن أمير المؤمنين المستنجد بالله أبي المظفر يوسف ابن أمير المؤمنين المقتفي [٤١٢] لأمر الله أبي عبد الله محمد بن أمير المؤمنين المستظهر بالله أبي القاسم عبد الله بن الأمير الذخيرة أبي العباس أحمد بن الأمير إسحاق بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبي العباس أحمد ابن الأمير الموفق أبي أحمد طلحة بن المتوكل على الله أبي الفضل جعفر بن المعتصم بالله أبي إسحاق محمد بن أمير المؤمنين الرشيد أبي محمد هارون بن المهدي أبي عبد الله محمد بن المنصور أبي جعفر عبدالله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس ابن عبد المطلب بن هاشم العباسي الهاشمي ، آخر خلفاء بني العباس بالعراق ، وأمه أم ولد تدعى هاجر ، ولد ضاحي نهار السبت حادي عشر شوال سنة تسع وستمائة ، وبويع له بالخلافة في العشرين من جمادى الأولى سنة أربعين وستمائة .

---

(١) وانظر ترجمته أيضا في : المنهل الصافي ، درة الأسلاك ص ١٦ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٦٣ ، ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٢٥٢ وما بعدها ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٧٠ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٠٤ وما بعدها ، نهاية الأرب جـ ٢٣ ص ٣٢٢ وما بعدها ، الجوهر الثمين ص ١٧٥ وما بعدها ، كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٦ — ٣٧ .

الثانى فى سريرته وسيرته : كان حسن الصورة ، جيد السيرة ، صحيح السريرة ، مقتفيا بأبيه المستنصر بالله فى المعدلة وكثرة الصلاة والصدقات وإكرام العلماء والعباد ، وقد استجاز من الحافظ بن النجار ، فأجاز له ، وكذلك أجاز له جماعة من مشايخ خراسان منهم : المؤيد الطوسى ، وأبو روح عبد العزيز بن محمد الهروى ، وأبو بكر بن الصفار وغيرهم ، وحدث عنه جماعة منهم : مؤدبه شيخ الشيوخ صدر الدين أبو الحسن على بن محمد بن النيار ، وأجاز هو للإمام محيى الدين بن الجوزى ، وللشيخ نجم الدين البادرائى ، وحدثا عنه بهذه الإجازة ، وقد كان سنيا على طريقة السلف واعتقاد الجماعة كما كان أبوه وجده ، ولكن كان فيه لين وعدم تيقظ وضعف رأى ومحبة للمال وجمعه ، ومن جملة ذلك أنه أغل الوديعة التى استودعها إياه الناصر داود بن الملك المعظم ، وكانت قيمتها نحوا من مائة ألف دينار ، فاستقبح هذا من الخليفة وأمثاله .

الثالث فى مقتله : قد ذكرنا أن التتار قتلوه مظلوما شهيدا ، وقتل معه ولده وأسر الثالث مع بنات ثلاث من صلبه ، وشغر منصب الخلافة بعده ، ولم يبق فى بنى العباس من سد مسده ، فكان آخر الخلفاء من بنى العباس الحاكمين بالعدل بين الناس ، ومن يرتجى منهم [٤١٣] النوال ، ويخشى منهم البأس ، وختموا بعبد الله المستعصم ، كما افتتحوا بعبد الله السفاح .

وكانت عدة الخلفاء من بنى العباس إلى المستعصم بالله سبعة وثلاثين خليفة ، وكان أولهم عبد الله السفاح ، بويع له بالخلافة وظهر ملكه وأمره فى سنة ثنتين

وثلاثين ومائة ، بعد انقضاء دولة بنى أمية ، كما تقدم بيانه ، وآخرهم عبد الله المستعصم ، وقد زال ملكه وانقضت خلافته فى هذا العام ، أعنى سنة ست وخمسين وستمائة ، فجملة أيامهم خمسمائة سنة وأربع وعشرون سنة ، وزالت يدهم(١) عن العراق والحكم بالكلية مدة سنة وشهور فى أيام البساسيرى(٢) بعد الخمسين والأربعمائة ، ثم عادت كما كانت ، وقد بسطنا ذلك فى موضعه فى أيام القائم بأمر الله .

ولم تكن أيدى بنى العباس حاكمة على جميع البلاد ، كما كانت بنو أمية قاهرة جميع البلاد والأقطار والأمصار ، فإنه قد خرج عن بنى العباس بلاد المغرب ، ملكها فى أوائل الأمر بعض بنى أمية ممن بقى منهم من ذرية عبد الرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، ثم تغلب عليه الملوك بعد دهور متطاولة كما ذكرنا ، وقارن بنى العباس دولة جماعة(٣) من الفاطميين ببلاد مصر وبعض بلاد المغرب وما هنالك وبلاد الشام فى بعض الأحيان والحرمين فى أزمان طويلة ، واستمرت دولة الفاطميين قريبا من ثلاثمائة سنة حتى كان آخرهم العاضد(٤) الذى مات بعد الستين وخمسمائة فى الدولة الصلاحية الناصرية الأيوبية كما ذكرنا .

---

(١) « وزال ملكهم » فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٠٥ .

(٢) هو أرسلان بن عبد الله البساسيرى ، أبو الحارث ، مقدم الأتراك ببغداد ، الذى خرج على الخليفة العباسى القائم وخطب للخليفة الفاطمى المستنصر بالله — صاحب مصر ، حتى قتله عسكر السلطان السلجوقى طغرل بك فى ذى الحجة سنة ٤٥١ هـ / يناير ١٠٦٠ م — وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٩٢ رقم ٨١ .

(٣) « دولة المدعين أنهم » — فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٠٥ .

(٤) هو عبد الله بن يوسف ، الخليفة الفاطمى العاضد بن الحافظ ، المتوفى فى المحرم سنة ٥٦٧ هـ / سبتمبر ١١٧١ م — وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٠٩ رقم ٣٥٤ .

وكانت عدة ملوك الفاطميين أربعة عشر ملكا ، أولهم المهدى وآخرهم العاضد ، ومدة ملكهم تحريرا من سنة تسع وتسعين ومائتين إلى خمسمائة وخمسة وستين ، فتكون مائتى سنة وست وستين سنة ، وكان مقامهم بمصر مائتى سنة وثمانى سنين .

والعجب أن خلافة النبوة التالية لزمن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت ثلاثين سنة ، كما نطق بها الحديث الصحيح ، فكان فيها أبو بكر وعمر [٤١٤] وعثمان وعلى رضى الله عنهم ، ثم ابنه الحسن بن على رضى الله عنهما ستة أشهر حتى كملت بها الثلاثون ، كما قررنا فى دلائل النبوة[١] ، ثم كانت ملكا ، فكان أول ملوك الاسلام معاوية بن أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية ، ثم ابنه يزيد ثم ابن ابنه معاوية بن يزيد بن معاوية ، وانقرض هذا البطن المفتتح بمعاوية المختتم بمعاوية ، ثم ملك مروان بن الحكم بن العاص بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى ثم ابنه عبد الملك ، ثم الوليد بن عبد الملك ، ثم أخوه سليمان ، ثم ابن عمه عمر ابن عبد العزيز رضى الله عنه ، ثم يزيد بن عبد الملك ، ثم هشام بن عبد الملك ، ثم الوليد بن زيد بن الوليد ثم أخوه إبراهيم الناقص وهو ابن الوليد أيضا ثم مروان ابن محمد بن مروان الملقب بالحمار ، وكان آخرهم فكان أولهم اسمه مروان ، وآخرهم اسمه مروان ، وكان أول خلفاء بنى العباس السفاح واسمه عبد الله ، وكان آخرهم المستعصم بالله واسمه عبد الله ، وكذلك كان أول خلفاء الفاطميين اسمه عبد الله المهدى ، وآخرهم عبد الله العاضد ، وهذا اتفاق غريب جدا قل من يتنبه له[٢] .

---

(١) ينقل العينى من البداية والنهاية قول ابن كثير — جـ ١٣ ص ٢٠٦ .

(٢) إلى هنا ينتهى ما نقله العينى عن ابن كثير فى هذا الموضوع — البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٠٤ — ٢٠٦ .

وقال القاضي بن واصل : واتفق في بني العباس اتفاق عجيب وهو أن كل سادس منهم مخلوع أو مقتول ، فأول من ولي السفّاح ، ثم أخوه المنصور ، ثم ابنه المهدي ، ثم ابنه الهادي ، ثم أخوه الرشيد ، ثم ابنه الأمين وهو سادس خليفة خلع ، ثم قتل ، ثم ولي أخوه المأمون ، ثم أخوه المعتصم ، ثم ابنه الواثق ، ثم أخوه المتوكل ، ثم ابنه المنتصر ، ثم المستعين بالله وهو سادس خلفائهم ، فخلع وقتل ، ثم ولي ابن عمه المعتز ، ثم عمه المهتدي ، ثم ابن عمه المعتمد ، ثم ابن أخيه المعتضد ثم ابنه المستكفي ، ثم أخوه المقتدر وهو سادس خليفة ، خلع مرتين وقتل ، ثم ولي أخوه القاهر ، ثم ابن أخيه الراضي ، ثم ابن أخيه المتقي ، ثم ابن عمه المستكفي ، ثم ابن عمه المطيع ، ثم ابنه الطائع وهو سادس خليفة ، فخلع ثم ولي ابن عمه القادر ، ثم ابنه المقتدر ، ثم ابن ابنه المقتدي ، ثم ابنه المستظهر ثم ابنه المسترشد ، ثم ابنه الراشد وهو سادس خليفه فخلع وقتل ، ثم ولي [٤١٥] عمه المقتفي ، ثم ابنه المستنجد ، ثم ابنه المستضئ ، ثم ابنه الناصر ، ثم ابنه الظاهر ، ثم ابنه المستنصر وهو سادس خليفة ، فحكى وجيه الدين بن سويد وجماعة أنه فصد بمبضع مسموم فمات ، وقتل التتار ابنه المستعصم بالله وهو آخرهم .

وحكى أنه لما ولد علي بن عبد الله بن العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنهم أتاه علي بن أبي طالب رضي الله عنه مُهنّياً وحنكه ودعا له ورده إليه وقال :

خذ إليك أبا الأملاك سميته عليا وكنيته أبا الحسن

وقال ابن واصل : لقد أخبرني من أثق به أنه وقف على كتاب عتيق فيه ما صورته : أن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بلغ بعض خلفاء بني

أمية عنه أنه يقول : إن الخلافة ستصير إلى ولده ، فأمر الأموى بعلى بن عبد الله فحمل على جمل ، فطيف به وضرب ، وكان يقال عند ضربه : هذا جزاء من يفترى ، ويقول : إن الخلافة ستكون فى ولده ، وكان على بن عبد الله يقول : إى والله لتكونن الخلافة فى ولدى ، ولا يزال فيهم حتى يأتيهم العلج من خراسان ، ويملكهم ، هم الصغار العيون ، والعراض الوجوه ، وينتزعونها منهم ، فوقع مصداق ذلك ، وهو ورود هلاون وإزالته ملك بنى العباس (١) .

وكان على هذا مفرطا فى الطول حتى كان إذا طاف (٢) كأنه راكب والناس يمشون ، وكان إلى منكب أبيه عبد الله ، وكان عبد الله إلى منكب أبيه العباس وكان العباس إلى منكب أبيه عبد المطلب .

هذه أرجوزة لبعض الفضلاء نظمها وذكر فيها جميع الخلفاء ، وهى هذه الأبيات :

الحمد لله العظيم عرشه ... القاهر الفرد القوى بطشه
مقلب الأيام والدهور ... وجامع الأنام للنشور
ثم الصلاة بدوام الأبد ... على النبى المصطفى محمد
وآله وصحبه الكرام ... السادة الأئمة الأعلام
وبعد هذا هذه أرجوزة (٣) ... نظمتها لطيفة وجيزة
نظمت فيها الراشدين الخلفا ... من قام بعد النبى المصطفى
ومن تلاهم وهلم جرا ... جعلتها تبصرة وذكرا

(١) انظر المختصر جـ ٣ ص ١٩٤ — ١٩٥

(٢) « حتى اذا كان طاف » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق .

(٣) « وبعد فإن هذه أرجوزة » فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٠٦ .

ليعلم العاقل ذو التصوير		كيف جرت حوادث الأمور
وكل ذى مقـدرة ومُلك		مُعرَّضون للفنـاء والهُلك
وفى اختلاف الليل والنهار		تبصرة لـكل ذى إعتبار
والمُلك(١) للجبار فى بـلاده		يورثه من شاء من عباده
وكل مخـلوق فللفناء		وكلُّ مُلك فإلى انتهاءِ
ولا يدوم غيرَ ملك البارى		سبحانه من ملك قهار

[٤١٦]

منفـرد بالعزِّ والبقـاءِ		ومـا سواه فالى انقضاءِ
أول من بُويـع بالخـلافة		بعـد النبى ابن أبى قحافة
أعنى الإمام العادل(٢) الصديقا		ثم ارتضى من بعده الفاروقا
ففتح البـلاد والأمصارا		واستأصلت سيوفه الكفارا
وقام بالعدل قياما يُرضى		بذاك جبّار السماء والأرض
ورضى الناس بذى النورين		ثم على والد السِّبْطينِ
ثم أتت كتائبٌ مع الحسن		كادوا بأن يجدّدوا بها الفتن
فأصلح الله عـلى يديه		كما عزا نبيِّنا إليـه
وأجمع(٣) الناس على معاويه		ونقل القصة كل راوية
فمهَّـد الملك كما يريـد		وقام فيـه بعده يزيـد
ثم ابنه وكان برا راشدا		أعنى أبا ليلى وكان زاهدا

(١) « الملك الجبار » فى البداية والنهاية .
(٢) « الهادى » فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٠٧
(٣) « وجمع » فى البداية والنهاية .

فــترك الإمرة لاعن غَلَبَـةَ ولم يكن منـه إليهـا طِلْبَـه (١)
وابن الزُبـير بالحجـاز يدْأبُ فى طلب الملك وفيه يَنْصِبُ
وبالشـام بايعــوا مروانا بحكم من يقول كن فكانا
فـلَمَ يدُم فى الملك غــير عَام وعافصتـه أسهــم الحمام
واستوسَق (٢) الملك لعبـد الملك وثار (٣) نجـم سـعده فى الفلك
وكل من نازعه فى الملك خرَّ صريعا بسـيوف الهُـلكِ
فقُتِـل (٤) المصعب بالعــراق وسـيَّر الحجاجُ ذا الشقاق
إلى الحجـاز بسُـيوف النِقَـم وابن الزبـير لائذ بالحــرم
فجـاء (٥) بعـد قتـله فصلبـه ولم يخف فى أمره من ربه
وعنـد ما صفت له الأمورُ تقلبت لجيفـــه (٦) الدهــور
ثم أتى من بعـده الوليد ثم سليمان الفـــتى الرشـــيدُ
ثم استفاض فى الورى عدل عمر تابع أمر ربه كما أمَرْ
وكان يدعى بأشج القـــوم وذى الصلاة والتقى والصوم
فجـاء بالعـدل وبالإحسان (٧) وكفّ أهل الظلم والطغيان

---

(١) « ولم يكن إليها منه طلبه » فى البداية والنهاية .
(٢) « واستوثق » فى البداية والنهاية .
(٣) « ونار » فى البداية والنهاية .
(٤) « وقتل » فى البداية والنهاية .
(٥) « فجار » فى البداية والنهاية .
(٦) « بجسمه » فى البداية والنهاية .
(٧) « والإحسان » فى البداية والنهاية .

مقتديا بسنة الرسول والراشدين من ذوى العقول

بجرّع الإسلام كأس فقده ولم يَرَوْا مثلا له من بعده (١)

ثم يزيد بعده هشام ثم الوليد فُتّ منه الهام

ثم يزيد وهو يُدعى ناقصا (٢) فجاءه حمامه مُعافِصا

ولم يحصل مدة إبراهيما وكان كل أمره سقيما

وأُسنِدَ الملك إلى مروانا فكان من أموره ما كانا

وانقرض الملك على يديه وحادث الدهر سطا عليه

وقتله قد كان بالصعيد ولم تفده كثرة العديد

وكان فيه حتف آل الحكم واستُنزعت عنهم ضروب النعم

ثم أتى مُلكُ بنى العباس لازال فينا ثابت الأساس

وجاءت البيعة (٣) من أرض العجم وقلدت بيعتهم كل الأمم

فكل (٤) من نازعهم من (٥) الأمم خرّ صريعا لليدين والفم

وقد ذكرت من تولى منهم حتى تولى القائم المستعصم

أولهم يُنْعت بالسفّاح وبعده المنصور ذو النجاح

ثم أتى من بعده المهدى يتلوه موسى الهادى الصّفِيّ

---

(١) « له مثلا له » فى الأصل ، والتصحيح من البداية والنهاية .

(٢) « الناقصا » فى البداية والنهاية .

(٣) « الشيمة » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح من البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٠٨ .

(٤) « وكل » فى البداية والنهاية .

(٥) « من أم » فى الأصل ، والتصحيح من البداية والنهاية .

وجاء هارون الرشيد بعده ... ثم الأمين حين ذاق بُعْدَه (١)

وقام بعد قتله المأمون ... وبعده المعتصم المسكين (٢)

واستُخْلِفَ الواثق بعد المعتصم ... ثم أخوه جعفر مُوفٍ كريم (٣)

وأخلص النية فى التوكل (٤) ... لله ذى العرش القديم الأول

فأدحض الباطل (٥) فى زمانه ... وقامت السنةُ فى أوانه

ولم يُبَقِّ بدعة (٦) مضلّه ... وألبس المعتزلىّ ذلّه

فرحمة الله عليه أبدا ... ما غار نجم فى السماء وبدا (٧)

وعندما استُشهد قام المنتصر ... والمستعين بعده (٨) كما ذكر

[٤١٧]

وجاء بعد موته المعتز ... والمهتدى المُكْرَمُ (٩) الأعز

وبعده استولى وقام المعتمد ... ومهّد الملك وساس المعتضد

(١) « فقده » فى البداية والنهاية .

(٢) « المكين » فى البداية والنهاية .

(٣) « موفى الذمم » فى البداية والنهاية ، وجعفر هو المتوكل على الله .

(٤) « المتوكل » فى البداية والنهاية ، وهو تحريف

(٥) « البدعة » فى البداية والنهاية .

(٦) « ولم يبق فيها بدعة » فى البداية والنهاية .

(٧) « أو بدا » فى البداية والنهاية .

(٨) يوجد اختلاف فى الترتيب فى البداية والنهاية ، فبدلا من هذا البيت يوجد البيت الذى أوله « وبعده استولى وقام المعتمد » — وهو لا يتفق وترتيب تولية الخلفاء العباسيين — انظر تاريخ الدول الإسلامية ص ١٢ — ١٣ .

(٩) « الملتزم » فى البداية والنهاية .

والمكتفى فى صحف العَلْياءسطر(١) — وبعده ساس الأمور المقتدر
واستُوسِق الملك بعزّ القاهر(٢) — وبعده الراضى أخو المفاخر
والمتقى من بعد والمستكفى(٣) — ثم المطيع ما به من خلف
والطائع الطائع ، ثم القادر — القائم الزاهد وهو الشاكر
والمقتدى من بعده المستظهر — ثم أتى المسترشِدُ الموقر
وبعده الراشد ، ثم المقتفى — وحين مات استنجدوا بيوسف
والمستضىء(٤) العادل فى أفعاله — الصادق المصدوق(٥) فى أقواله
والناصر الشهم الشديد البأس — ودام طول مكثه فى الناس
ثم تلاه الظاهر الكريم — وعَدْلُه كلٌّ به عليم
ولم تطل أيامُه فى المملكة — غير شهور واعترضته الهلكه(٦)
وعهده كان إلى المستنصر — العادل البر الكريم المغتفر(٧)
دام يسوس الناس سبع عشرة — وأشهرا بعزمات برره
ثم توفى عام أربعينا — وفى جُمادى صادف المنونا
وبايع الخلائق المستعصما — صلى عليه ربنا وسلما

---

(١) « فى صحف العلا أسطر » فى البداية والنهاية .

(٢) « واستوثق » فى البداية والنهاية .

(٣) « من بعد ذا المستكفى » فى البداية والنهاية .

(٤) « المستضىء » فى البداية والنهاية .

(٥) « الصدوق » فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٠٩ .

(٦) « واعترته » فى البداية والنهاية .

(٧) « الكريم المنصر » فى البداية والنهاية .

يبعث نجب الرسل فى الآفاق[(١)] يقضون بالبيعة والوفاق
وشرفوا بذكره المنابرا ونشروا من جوده المفاخرا
وسار فى الآفاق حسن سيرته وعدله الزائد فى رعيته

تمت الأرجوزة .

وقال ابن كثير رحمه الله : وقلت أنا بعد ذلك :

ثم ابتلاه الله بعد[(٢)] بالتتار أتباع جنكز الخان[(٣)] الجبار
صحبة ابن ابن له[(٤)] هلاكو فلم يكن من أسره[(٥)] فكاك
فمزقوا جنوده وشمله وقتلوه نفسه وأهله
ودمروا بغداد والبلادا وقتلوا الأجناد والأولادا[(٦)]
وانتهبوا المال مع الحريم ولم يخافوا سطوة العظيم
وغرهم إنظاره وحلمه وما اقتضاه عدله وحكمه[(٧)]

* * *

(١) « فأرسل الرسل إلى الآفاق » فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٠٩ .

(٢) « بعد » ساقط من البداية والنهاية .

(٣) « جنكز خان » فى البداية والنهاية .

(٤) « ابن إبنه » فى البداية والنهاية .

(٥) « أمره » فى البداية والنهاية .

(٦) « وقتلوا الأحفاد والأجداد » فى البداية والنهاية .

(٧) لهذه الأرجوزة بقية فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٠٩ — ٢١٤ .

فصل فيما وقع من الحوادث

في السنة السابعة والخمسين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة ، وليس للمسلمين خليفة ، والفتن قائمة ، وبنو جنكزخان قد أظهروا الفساد ، وأهلكوا العباد ، وأخربوا البلاد .

وسلطان الديار المصرية : الملك المنصور نور الدين على بن الملك المعز أيبك التركمانى ، ونائبه ومدبر مملكته الأمير سيف الدين قُطُز .

وصاحب دمشق وحلب وغيرهما : السلطان الملك الناصر يوسف بن الملك العزيز بن الملك الظاهر بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، والحرب قائمة بينه وبين المصريين ، ولكنه رجع عن ذلك لكثرة الأراجيف بقصد التتار الديار الشامية ، حتى أن هلاون أرسل إلى الناصر المذكور يستدعيه إليه ، فأرسل الناصر ولده العزيز ، وهو صغير ، ومعه هدايا كثيرة وتحف سنية ، فلم يحتفل به هلاون ، وغضب على إبنه ؛ إذ لم يقدم إليه أبوه ، وقال : أنا الذى أسير إلى بلاده بنفسى ، فانزعج الناصر لذلك ، وبعث بحريمه وأهله إلى الكرك ، ليُحصنهم بها ، وخاف أهل دمشق خوفا [٤١٨] شديدا حين بلغهم أن التتار قد قطعوا الفرات ، وصار منهم (١) جماعة كثيرة إلى الديار المصرية فى زمن الشتاء ، ومات كثير منهم ، ونُهِبَ آخرون .

(*) يوافق أولها الأحد ٢٩ ديسمبر ١٢٥٨ م .

(١) « وسار كثير منهم » — السلوك ج ١ ص ٤١٦ .

وأقبل هـلاون بجنوده يقصد نحو الشام ، ونازل حران وملكها ، واستولى على البلاد الجزرية ، وأرسل ولده شموط بن هلاون إلى الشام ، فوصل إلى ظاهر حلب فى العشر الأخير من ذى الحجة من هذه السنة ، وكان الحاكم فى حلب يومئذ الملك المعظم توران شاه(١) بن السلطان صـلاح الدين نائبا عن ابن ابن أخيـه الملك الناصر ، فخرج فى عسكر حلب لقتالهم ، ولم يكن من الرأى خروجه ، وأكمن لهم التتار فى باب إلى المعروف بباب الله ، وتقاتلوا عند بانقوسا ، فاندفع التتار قدامهم حـتى خرجوا عن البلد ، ثم عادوا عليهـم ، وهرب المسلمون طالبين المدينـة ، والتتار يقتلون فيهم حتى دخلوا البلد ، واختنق جماعة من المنهزمين فى أبواب البلد ، ثم رحل التتار إلى عزاز فتسلموها بالأمان .

وكان الملك الناصر قد أرسل قبل ذلك القاضى الوزير كمال الدين عمر بن أبى جرادة المعروف بابن العديم إلى الديار المصرية رسولا يستنجد المصريين على قتال التتار ، فإنهم قد اقترب قدومهم إلى الشام ، وأنهم قد استولوا على حران وبلاد الجزيرة وغـيرها فى هذه السنة ، وقد جاز شموط بن هلاون الفرات واقترب من مدينة حلب .

فعقد لذلك مجلس بالديار المصرية بين يدى الملك المنصور بن الملك المعز أيبك الـتركمانى ، وحضر قاضى القضاة بالديار المصرية بدر الدين السنجارى ، وحضر الشيخ عز الدين بن عبد السلام ، وأفاضوا الكلام فيما يتعلق بأخذ شىء من أموال الناس لمساعدة الجنـد ، وكانت العمدة على ما يقوله ابن عبـد السلام ، فكان

---

(١) هو توران شاه بن يوسف بن أيوب ، الملك المعظم فخر الدين أبو المفاخر ، المتوفى سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠ م — المنهل الصافى جـ ٤ ص ١٨٠ رقم ٨٠٣ ، وانظر ما يلى فى وفيات ٦٥٨ هـ .

حاصل كلامه أنه قال : إذا لم يبق فى بيت المال شىء ، وأنفقتم الحوائص(١) الذهب وغيرها من الزينة ، وتساويتم والعامة فى الملابس سوى آلات الحروب ، ولم يبق للجندى سوى فرسه التى يركبها ، ساغ أخذ شىء من أموال الناس فى دفع الأعداء ، إلا أنه إذا دهم العدوّ وجب على الناس كافة أن يدفعوهم بأموالهم وأنفسهم(٢) .

ثم أن الملك الناصر برز إلى وطاة برزة(٣) [٤١٩] فى جحافل كثيرة من الجيش والمطوعة والأعراب وغيرهم ، ولما سمعوا ما فعل شموط بن هلاون على حلب ، وعلموا ضعفهم عن مقاومة المغول انفض ذلك الجمع ، ولم يصبر لا هو ولا هم ، فإنا لله وإنا إليه راجعون .

(١) حوائص ، جمع حياصة : وهى الحزام أو المنطقة — دوزى .

(٢) انظر أيضا السلوك جـ ١ ص ٤١٦ — ٤١٧ .

(٣) برزة قرية بالغوطة ، شمالى دمشق — معجم البلدان .

ذكر سلطنة سيف الدين قُطُز
النائب بالديار المصريّة

ولما عقد المصريون المجلس ، حين قدم إليهم رسول الملك الناصر صاحب دمشق ، وهو كمال الدين بن العديم المذكور ، قالوا : لا بُدّ من سلطان قاهر يقاتل التتار ، وهذا صبي صغير لا يعرف تدبير المملكة (١) ، يعنى السلطان الملك المنصور ابن الملك المعز ، وكان كذلك فإنه كان يركب الحمير الغُرّة ، ويلعب بالحمام مع الخدام .

واجتمع الأمراء الكبار وأعيان العساكر على أنه لا غنى للمسلمين من ملك يقوم بدفعه ، وينتدب لمنعه ، ويذُبّ عن حوزة الدين ، وذلك لما تحققوا قصد هلاون الديار الشامية ، وامتداده إلى ممالك الإسلام ، واتفقوا على إقامة الأمير سيف الدين قطز المعزى سلطانا لأنه كبير البيت ، ونائب الملك ، وزعيم الجيش ، وهو معروف بالشجاعة والفروسية ، ورضى به الأمراء الكبار فأجلسوه على سرير الملك ، ولقبوه الملك المظفّر .

وكان الأمير علم الدين الغتمى ، وسيف الدين بهادر ، وهما من كبار المعزية غائبين فى رمى البندق حين تسلطن المظفر ، ولما حضرا قبض عليهما واعتقلا .

(١) ينسب المقريزى هذا القول إلى الأمير سيف الدين قطز — السلوك جـ ١ ص ٤١٧ .

وكان جلوس الملك المظفر على تخت السلطنة فى الرابع من ذى الحجة[1] من هذه السنة بقلعة الجبل .

وكان ذلك كله بحضرة كمال الدين بن العديم ، فأعاد قطز الجواب إلى الملك الناصر يوسف بأنه سينجده ولا يقعد عن نُصرته ، ورجع ابن العديم إلى دمشق بذلك .

ويقال : إن الملك المظفر قطز لما قبض على الملك المنصور نور الدين على بعثه هو وأمه وأخاه قاقان إلى بلاد الأشكرى[2] .

وفى تاريخ بيبرس : وأما المنصور على بن المعز فإنه اعتقل مدّة فى الأيام المظفرية ، ثم سفّر فى الأيام الظاهرية هو وأخوه وأمهما إلى الإسكندرية ، وسُيِّروا منها إلى القسطنطينية ، وأمسك من الأمراء من خاف غائلته ، وحذر مخالفته ، وكانوا قد تفرقوا فى [٤٢٠] الصيد ، فصادهم بمصائد الكيد [ولم ينجهم من يده أيد][3] ، وانقضت دولة المنصور ، فكانت مدة مملكته سنتين وستة أشهر ، والله أعلم[4] .

(١) «ملك الديار المصرية فى يوم السبت ، لليلتين بقيتا من ذى القعدة سنة سبع وخمسين وستمائة» فى نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٧ ، « فى يوم السبت الرابع والعشرين من ذى القعدة » — السلوك جـ ١ ص ٤١٧ .

(٢) المقصود الدولة البيزنطية ، وأمبراطورها فى هذه السنة هو الأمبراطور تيودور لاسكاريس الثانى الذى حكم فى الفترة من ١٢٥٤ — ١٢٥٨م ، وكان مقر حكمه فى ذلك الوقت فى مدينة نيقية .

(٣) [ ] إضافة فى زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٣٥ أ ، ٣٥ ب .

(٤) « والله أعلم » ساقط من زبدة الفكرة .

ذكر ماجرّيات هلاون :

منها : أنه أرسل ابنه شمطو إلى حلب وقد ذكرناه .

ومنها : أنه أرسل إلى ولدى صاحب الروم وهما عز الدين كيكاوس ، وركن الدين قليج أرسلان ، يستدعيهما إليه فسارا إليه ، وذلك أن الرسل الذين كانوا قد توجهوا مع أخيهما علاء الدين كيقباذ إلى منكوقان أخى هلاون عادوا إلى الروم فى هذه السنة ، فوجدوا بيجو فعل بقونية وغيرها ما فعل والسلطان عز الدين كيكاوس قد هرب إلى قلعة العلائية ، وكان أخوه فى محبسه ، فخلص وهو بقونية ، فأحضروا إليهما يرليغ منكوقان ، فاستقرت خواطرهما وتوطنا ، وتراجع الناس إليهما ، وتقررت قسمة البلاد بينهما ، و إنحاز إلى كل منهما جماعة من الأمراء .

فكان ممن إنحاز إلى السلطان عز الدين الأمير قرطاى الأتابك ، وشمس الدين الحرمانى ، وشمس الدين توتاش ، وخواجه جهان ، ووزيره عز الدين كلٌ .

وكان من أمراء السلطان ركن الدين قليج أرسلان الأمير أرسلان دغمش الأتابك ، وقد ذكرنا انحرافه عن السلطان عز الدين ، وأنه انهزم قدام بيجو غيظا من السلطان ، وانحاز إلى السلطان ركن الدين ، والأمير سيف الدين طرنطاى صاحب أماسية الملقب بكُلُربا كى ، والأمير خَطير الدين ، والأمير معين الدين سليمان البرواناه ، ووزيره الصاحب شمس الدين الطغرائى .

ولما عزم هلاون على السير إلى حلب وعبر الفرات ، استدعى السلطانين المذكورين كيكاوس وقليج أرسلان ، فسارا إليه وحضرا معه فى أخذ حلب .

---

(١) « شموط » — انظر ما سبق ص ٢١٨ ؟

ومنها : أن هلاون وجه أرغون أغا — وهو من أكابر المقدمين — فى جيش إلى كرجستان ، فغزا تفليس وأعمالها ، وأغار ونهب ، وعاد إليه وهو بالعراق .

ذكر بقية الحوادث :

منها : أن فى ليلة الأحد خامس عشر المحرم ولد الملك المظفر محمود بن الملك المنصور صاحب حماة بن الملك المظفر محمود بن الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب .

وقال المؤيد فى تاريخه : وفى الساعة [٤٢١] العاشرة فى ليلة الأحد خامس عشر المحرم من هذه السنة ، وثانى عشر كانون الثانى(١) ، ولد محمود بن الملك المنصور ، ولقبوه بالملك المظفر بلقب جده ، وأم الملك المظفر محمود المذكور عائشة خاتون بنت الملك العزيز محمد صاحب حلب بن الملك الظاهر غازى بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وهنأ الشيخ شرف الدين عبد العزيز المعروف بشيخ الشيوخ الملك المنصور صاحب حماة بقصيدة طويلة منها :

أبشر على رغم العدى والحسد ... بأجل مولودٍ وأكرم مولد
بالنعمة الغراء بل بالدولة ... الزهراء بل بالمفخر المتجدد
وافاك بدرا كاملا فى ليلة ... طلعت عليك نجومها بالأسعد
ما بين محمود المظفر أسفرت ... عنه وما بين العزيز محمد(٢)

(١) يوافق ١٢ يناير سنة ١٢٥٩ م .

(٢) انظر المختصر جـ ٣ ص ١٩٩ .

ومنها : أن الخواجا نصير الدين الطوسى صاحب التجريد وغيره عمل الرصد بمدينة مراغة[(١)] ، ونقل إليها شيئا كثيرا من كتب الأوقاف التى كانت ببغداد ، وعمل دار حكمة فيها فلاسفة لكل واحد فى اليوم ثلاثة دراهم ، ودار طب فيها للحكيم درهمان ، ومدرسة فيها لكل فقيه فى اليوم درهم ، ودار حديث لكل محدّث نصف درهم فى اليوم[(٢)] .

ومنها : أنه حصلت بديار مصر زلزلة عظيمة جدا ، وتسامع الناس بمجىء التتار لقصد الشام ، فانزعجوا بسبب ذلك ، وبالله المستعان .

ومنها : أن فى شهر رجب تولى محيي الدين قاضى غزة تدريس المدرسة الناصرية بالقدس الشريف ، وتولى شهاب الدين محمد بن القاضى شمس الدين أحمد ابن الخليل الخوى قضاء القدس الشريف ، وسافرا من دمشق إلى ولايتهما .

وفيها : « ... ... »[(٣)]

وفيها : حج بالناس . « ... ... »[(٤)]

---

(١) عن بناء المرصد بمدينة مراغة انظر جامع التواريخ المجلد الثانى الجزء الأول ص ٢٠٣ — ٢٥٤ .

(٢) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢١٥ .

(٣) ، (٤) « ... ... » — بياض بالأصل .

ذكر من تُوفّى فيها من الأعيان

الشيخ الصالح المحدث أبو العباس أحمد[(١)] بن محمد بن تامتيت[(٢)] اللواتى ، مات بمصر فى هذه السنة ، وأصله من مدينة فاس بالمغرب ، وكان رجلا صالحا مقصودا للزيارة والتبرك بدعائه .

الشيخ فتح الدين بن أبى الحوافر[(٣)] رئيس الأطباء بمصر والقاهرة ، توفى فى هذه السنة وكان شيخا فاضلا حسنا .

القاضى أبو عبد الله محمد[(٤)] بن القاضى الأشرف بن القاضى الفاضل أبى على عبد [٤٢٢] الرحيم البيسانى وزير الإنشاء الصالحى ، وقد تقدم ذكر جده واقف الصدرية .

الرئيس صدر الدين أسعد[(٥)] بن المنجى بن بركات بن مؤمل التنوخى المعرى ، ثم الدمشقى الحنبلى .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : العبر جـ ٥ ص ٢٣٨ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٨٨ وانظر ما سبق فى وفيات سنة ٦٥٢ هـ .

(٢) « ما متيت » فى العبرة

(٣) هو أحمد بن عثمان بن أبى الحوافر ، فتح الدين ، وله أيضا ترجمة فى : نهاية الأرب جـ ٢٩ ورقة ٢٣٣ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : الذيل على الروضتين ص ٢٠٣ .

(٥) هو أسعد بن عثمان بن أسعد بن المنجا ، أبو الفتح صدر الدين ، وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ٢١ ، المنهل الصافى جـ ٢ ص ٣٦٩ رقم ٤١٤ ، الوافى جـ ٩ ص ٤٣ رقم ٣٩٤٧ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٨٨ ، السلوك جـ ١ ص ٤٢١ ، الذيل على الروضتين ص ٢٠٣ ، العبر جـ ٥ ص ٢٣٩ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢١٦ .

أحد المعدّلين ذوى الأموال والثروة والصدقات الدارّة البارّة، وقف مدرسة لحنابلة بدمشق[(١)] مقابلة لتربة سيف الدين بن قليج[(٢)]، وقبره بها إلى جانب تربة القاضى جمال الدين المصرى[(٣)] فى رأس درب الريحان من محلة ناحية الجامع، وقد ولى نظر الجامع مدة، وقد استجدّ أشياء كثيرة منها: سوق النحاس قبلى الجامع، ونقل الصاغة إلى مكانها الان، وقد كان قبل ذلك حيث يقال الصاغة العتيقة، وعدد الدكاكين التى بين أعمدة الزيادة، وكانت له صدقات كثيرة.

وذكر عنه أنه كان يعمل صنعة الكيمياء، وأنه صح عنده عمل الفضة، والله أعلم، مات فى مستهل رمضان من هذه السنة.

الشيخ يوسف[(٤)] القمينى، كان يعرف بالقمينى لأنه كان سكن قمين حمام نور الدين الشهيد، وكان يلبس ثيابا طوالا تسحف[(٥)] على الأرض، ويبول فى ثيابه، ورأسه مكشوف، وله أحوال وكشوف كثيرة.

---

(١) وهى المدرسة المنسوبة إليه والمعروفة باسم « المدرسة الصدرية » — الدارس جـ ٢ ص ٨٦ وما بعدها.

(٢) وهى بالمدرسة القليجية الحنفية بدمشق، وتنسب إلى الأمير سيف الدين على بن قليج النورى المتوفى سنة ٦٤٣ هـ/ ١٢٤٥ م — الدارس جـ ١ ص ٥٦٩.

(٣) هى التربة الجمالية المصرية برأس درب الريحان من ناحية الجامع الأموى بدمشق، وهى لقاضى القضاة يونس بن بدران بن فيروز، جمال الدين المصرى المتوفى سنة ٦٢٣ هـ/ ١٢٢٦ م — الدارس جـ ٢ ص ٢٤٢.

(٤) وله أيضا ترجمة فى: ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٣٤٨، العبر جـ ٥ ص ٢٤٠، الذيل على الروضتين ص ٢٠٢، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٨٩، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢١٦.

(٥) « تكنس الأرض » فى الذيل على الروضتين.

وقال ابن كثير : وكان كثير من العوام وغيرهم يعتقدون صلاحه وولايته، وذلك لأنهم لا يعلمون أن الكشوف قد تصدر من المؤمن والكافر ، ومن البر والفاجر كابن صياد[1] ، فلا بد من اختبار صاحب الحال بالكتاب والسنة ، فمن وافق حاله وطريقته الكتاب والسنة فهو رجل صالح سواء كاشف أم لا[2] ، ومن لم يوافق فليس برجل صالح سواء كاشف أم لا .

قال الشافعي رضي الله عنه : إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء ويطير في الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة .

ولما مات دفن بتربة في سفح جبل قاسيون ، وهي مشهورة شرقي تربة أبي عمر المقدسي[3] ، وهو مزخرفة قد اعتنى بها من كان يعتقد فيه ، وكانت وفاته في سادس شعبان من هذه السنة[4] .

ابن الفخر بن البديع[5] .

قال أبو شامة : كان زنديقا يتعاطى علوم الفلاسفة، والنظر في علم الأوائل، وسكن مدارس الفقهاء، وقد أفسد عقائد جماعة من المسلمين الشباب المشتغلين ، وكان متجاهرا بانتقاص الأنبياء [٤٢٣] عليهم السلام ، كان معروفا بابن الفخر

(١) « من البر والفاجر، والمؤمن والكافر ، كالرهبان وغيرهم ، وكالدجال وابن صياد وغيرهم ، فإن الجن تسترق السمع وتلقيه على أذن الإنسي ، ولاسيما من يكون مجنونا أو غير نقي الثياب من النجاسة » ـــ البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢١٦ .

(٢) « أو لم يكاشف » في البداية والنهاية .

(٣) « شرقي الرواحية » في البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢١٧ .

(٤) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢١٦ ـــ ٢١٧ .

(٥) وله أيضا ترجمة في « الذيل على الروضتين ص ٢٠٤ » .

ابن البديع البندهى ، كان أبوه يزعم أنه من جملة تلامذة الفخر الرازى ابن خطيب الرى صاحب المصنفات[1] .

المعين المؤذن العادلى .

مات فى سابع صفر منها ، وكان معمرا قد جاوز المائة سنة ، وكان ممن أدرك دولة نور الدين الشهيد ، وخدم صلاح الدين فمن بعده من الملوك إلى أن أقعد فى بيته زمنا قبل موته بسنتين .

سيف الدين بن الغرس خليل .

كان أحد حجاب السلطان ، وكان مشكورا فى ذلك ، وكان أبوه والى شرطة دمشق فى زمن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، مات فى أول شهر رمضان من هذه السنة .

الأمير أبو بكر[2] بن الملك الأشرف أبى الفتح محمد بن السلطان الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب .

مات فى الثانى والعشرين من ذى الحجة من هذه السنة بحلب ، ودفن بالياروقية ، ومولده فى النصف الأخير من شهر رمضان سنة سبع وتسعين وخمسمائة بمصر ، سمع بحلب وبغداد ، وحدث بدمشق وغيرها .

---

(١) انظر الذيل على الروضتين ص ٢٠٢ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، ذيل مرآة الزمان جـ١ ص ٣٤٨ .

صفر، فأمر هلاون برفع السيف، ونودى بالأمان، ولم يسلم من أهل حلب إلا من التجأ إلى دار شهاب الدين [بن][1] عمرون، ودار نجم الدين أخى مردكين، ودار بازيار، ودار علم الدين قيصر الموصلى، والخانقاة التى فيها زين الدين الصوفى، وكنيسة اليهود، وكذلك أصحاب دور كانت فرمانات بأيديهم، قيل: إنه سلم بهذه الأماكن ما يزيد على [٤٢٥] خمسين ألف نفس، ونازل التتار القلعة وحاصروها، وبها الملك المعظم توران شاه نائب الغيبة ومن التجأ إليها من العسكر، واستمر الحصار[2].

وقال بيبرس فى تاريخه: قتل من حلب خلق كثير لا يكاد يحصون[3]، وسبى من النساء والذرارى زهاء مائة ألف نفس من الأشراف والأعيان، وبيعوا فى الجزائر الفرنجية والبلاد الأرمنية، وبقى السيف مبذولا، ودم الإسلام مطلولا، سبعة أيام وسبع ليال، ثم نودى برفع القتل والقتال[4].

ذكر مجىء أعيان أهل حماة إلى هلاون وهو على حلب:

وكان صاحب حماة قد توجه إلى دمشق، وتأخر بحماة الطواشى مرشد، ولما بلغ أهل حماة فتح حلب توجه الطواشى مرشد من حماة إلى الملك المنصور صاحب حماة بدمشق، وجاء كبراء حماة إلى حلب ومعهم مفاتيح حماة، وحملوها

---

(١) [ ] إضافة من المختصر جـ ٣ ص ٢٠١ .

(٢) انظر نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٢٨٦ — ٢٨٨، وانظر أيضا المختصر جـ ٣ ص ٢٠٠ — ٢٠١ .

(٣) « فقتل فيها خلق لا يكادون يحصرون » فى زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٣٧ أ .

(٤) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٣٧ أ .

فصل فيما وقع من الحوادث
في السنة الثامنة والخمسين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة ، أولها يوم الخميس ، وليس للمسلمين خليفة .

وملك العراقين وخراسان وغير ذلك من بلاد الشرق هلاون بن طولى خان ابن جنكز خان ملك التتار ، وأخوه منكوقان بن طولى خان ملك الأقاليم المتصلة ببلاد خطا وغيرها ، وما وراء النهر وغيرها .

وصاحب الديار المصرية ، السلطان الملك المظفر قطز .

وصاحب دمشق وحلب : الملك الناصر يوسف .

وصاحب الكرك والشوبك : الملك المغيث بن الملك العادل أبي بكر بن الملك الكامل بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، وهو حزب مع الملك الناصر صاحب دمشق على المصريين ، ومعهم الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري ، وكان عزمهم قتال المصريين وأخذ البلد منهم ، ولكن التتار أشغلوا كل أحد بنفسه ، ووقع الجفل في البلاد الشامية بمجيء هلاون إليها .

ذكر مُنازَلة هَلاوُن مدينة حلب وأخذها من الملك الناصر يوسف :

وعبر هلاون الفُرات من البيرة [٤٢٤] وأخذها ، ووجد بها السعيد بن العزيز أخا الملك الناصر يوسف معتقلا ، فأطلقه ، وسأله عما كان في يده من

(*) يوافق أولها الخميس ١٨ ديسمبر ١٢٥٩م .

البلاد فقال له : كانت فى يدى الصبيبة وبانياس ، فكتب له بهما فرمان وأحسن إليه ، ثم سافر ونزل على حلب فى ثانى صفر من هذه السنة ، فحاصرها سبعة أيام ، ثم افتتحها عنوة .

وفى تاريخ النويرى : لما نزل هلاون على حلب فى التاريخ المذكور (١) أرسل إلى الملك المعظم توران شاه بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب نائب السلطنة بحلب يقول له : إنكم تضعفون عن لقاء المغول ، ونحن قصدنا الملك الناصر والعساكر ، فاجعلوا لنا عندكم بحلب شحنة وبالقلعة شحنة ونحن نتوجه إلى العسكر ، فإن كانت الكسرة على عسكر الإسلام كانت البلاد لنا ، وتكونون أنتم قد حقنتم دماء المسلمين ، وإن كانت الكسرة علينا كنتم مخيرين فى الشحنتين إن شئتم طردتموهما وإن شئتم قتلتموهما .

فلم يجب الملك المعظم إلى ذلك ، وقال لهم : ليس لكم عندنا إلا السيف .

وكان رسول هلاون إليهم فى ذلك صاحب آرزن الروم ، فتعجب من هذا الجواب ، وتألم لما علم من هلاك أهل حلب بسبب ذلك ، فلما رد الجواب غضب هلاون ، وأحاط التتار بحلب ثانى صفر وهجموا فى غد ذلك اليوم ، وقتل من المسلمين جماعة كثيرة ، منهم : أسد الدين [ابن الملك (٢)] الزاهر بن صلاح الدين ، واشتدت مضايقة التتار لحلب ، وهجموها من عند حمام حمدان فى ذيل القلعة يوم الأحد تاسع صفر ، وبذلوا السيف على المسلمين ، وصعد إلى القلعة خلق عظيم ، ودام القتل والنهب فى حلب من يوم الأحد المذكور إلى يوم الجمعة رابع عشر

(١) ورد فى مخطوط نهاية الأرب « ونازل هولاكو مدينة حلب فى المحرم سنة ثمان وخمسين وستمائة » جـ ٢٧ ورقة ١٣٧ .

(٢) [ ] إضافة من المختصر جـ ٣ ص ٢٠١ .

لهلاون وطلبوا منه الأمان لأهل حماة وشحنة تكون عندهم ، فآمنهم هلاون وأرسل إلى حماة شحنة رجلا أعجميا كان يدعى أنه من ذرية خالد بن الوليد رضى الله عنه ، يقال له خسرو شاه ، فقدم إلى حماة وتولاها وأمن الرعية ، وكان بقلعة حماة مجاهد الدين قايماز أمير جاندار ، فسلم القلعة إليه ، ودخل فى طاعة التتار (١) .

ذكر ما جرى للناصر صاحب حلب ودمشق :

ولما بلغ الناصر فتح حلب ، رحل بمن معه من العساكر إلى جهة الديار المصرية ، وفى صحبته الملك المنصور صاحب حماة ، فأقام بنابلس أياما ، ورحل عنها ، وترك فيها الأمير مجير الدين بن أبى زكرى ، والأمير على بن شجاع وجماعة من العسكر ، ثم رحل الملك الناصر إلى غزة ، وانضم إليه مماليكه الذين كانوا قد أرادوا قتله ، وكان قد اصطلح معه أخوه الظاهر غازى وانضم إليه .

وبعد مسير الناصر عن نابلس ، وصل التتار إليها ، وكبسوا العسكر الذى بها ، وقتلوا مجير الدين والأمير على بن شجاع ، ومعهما جماعة من العسكر .

وكانا أميرين جليلين فاضلين ، وكانت البحرية قد قبضوا عليهما واعتقلوهما بالكرك ، فأفرج المغيث عنهما لما وقع الصلح بينه وبين الناصر .

ولما بلغ الناصر وهو بغزة ما جرى من كبسة التتار لنابلس رحل من غزة إلى العريش ، وسير القاضى برهان الدين بن [٤٢٦] الخضر رسولا إلى الملك المظفر صاحب مصر يطلب منه المعاضدة ، ثم سار الملك الناصر والمنصور صاحب

(١) انظر المختصر جـ ٣ ص ٢٠١ ، نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٨٨ — ٣٨٩ ع

حماة والعسكر، ووصلوا إلى قَطْية، فجرى بها فتنة بين التركمان والأكراد الشهرزورية[1]، ووقع نَهْب في الحال، وخاف الملك الناصر أن يدخل مصر فيقبض عليه، فتأخر في قطية، ورحلت العساكر والملك المنصور صاحب حماة إلى مصر، وتأخر مع الملك الناصر جماعة منهم [أخوه][2] الملك الظاهر [غازى][3]، الملك الصالح بن شيركوه صاحب حمص، وشهاب الدين القيمرى، ثم سار الملك الناصر من قطية بمن تأخر معه إلى جهة تيه بني اسرائيل.

فلما وصلت العساكر إلى مصر التقاهم الملك المظفر قطز بالصالحية وطيب قلوبهم، وأرسل إلى الملك المنصور صاحب حماة سنجقا، والتقاه ملتقى حسنا، وطيب قلبه، ودخل القاهرة[4].

وفي تاريخ النويرى: ولما كان الناصر بدمشق وبلغ إليه قصد التتار حلب برز من دمشق إلى برزة في أواخر السنة الخالية، وجفل الناس بين يدى التتار، وسار الملك المنصور صاحب حماة إلى دمشق، ونزل مع الناصر ببرزة، وكان هناك مع الملك الناصر بيبرس البندقدارى من حين هرب من الكرك، والتجأ إلى الناصر يوسف، واجتمع مع الملك الناصر على بَرْزَة أُمَم عظيمة من العساكر، ولما دخلت هذه السنة والملك الناصر ببرزة بلغه أن جماعة من مماليكه قد عزموا على اغتياله والفتك به، فهرب من الدهليز إلى القلعة — يعنى قلعة دمشق —

(١) « الشهرزرية » في الأصل، انظر ما سبق.

(٢) [ ] إضافة من المختصر ج ٣ ص ٢٠٢.

(٣) [ ] إضافة من المختصر ج ٣ ص ٢٠٢.

(٤) انظر المختصر ج ٣ ص ٢٠١ — ٢٠٢.

وبلغ مماليكه الذين قصدوا ذلك علمه بهم هربوا على حمية إلى جهسة ، وكذلك سار بيبرس البندقدارى وجماعته إلى غزة ، وأشاع المماليك الناصرية أنهم لم يقصدوا قتل الملك الناصر ، وإنما كان قصدهم أن يقبضوا عليه ويسلطنوا أخاه الملك الظاهر غازى بن الملك العزيز بن الملك الظاهر غازى بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب لشهامته ، ولما جرى ذلك هرب الملك الظاهر المذكور خوفاً من أخيه الناصر يوسف ، وكان الظاهر المذكور شقيق الناصر ، أمهما [٤٢٧] أم ولد تركية ، ووصل الملك الظاهر إلى غزة ، واجتمع عليه من بها من العساكر وأقاموه سلطاناً .

ولما جرى ذلك كاتب الملك المظفر قطز صاحب مصر بيبرس البندقدارى ، وبذل له الأمان ، ووعده الوعود الجميلة ، ففارق بيبرس البندقدارى الشاميين ، وسار إلى مصر فى جماعة من أصحابه ، فأقبل عليه الملك المظفر قطز وأنزله فى دار الوزارة ، وأقطعه قليوب وأعمالها .

وأما الملك الناصر يوسف فإنه لما انفرد عن العسكر من قَطْيَة كما ذكرنا سار إلى تيه بنى اسرائيل ، وبقى متحيرا الى أين يتوجه ، وعزم على التوجّه إلى الحجاز ، وكان له طبر دار كردى اسمه حسين ، فحسّن له المضى إلى التتار ، وقصد هلاون ، فاغتر بقوله ، ونزل بُركة زيزا ، وسار حسين الكردى إلى كتبغا نُوين نائب هلاون ، وهو نازل على المرج ، وعرفه بموضع الملك الناصر ، فأرسل كتبغا نوين إليه وقبض عليه وأحضره إلى مدينة عجلون ، وكانت بعد عاصية ، فأمر الملك الناصر بتسليمها ، فسلمت إليهم فهدموها وخربوا قلعتها أيضا .

وكان بالصُبَيبة الملك السعيد بن الملك العزيز بن الملك العادل ، سلَّم الصبيبة إليهم وسار معهم وأعان بالفسق والفجور وسفك الدماء .

وأما الملك النـاصر يوسف فإنه لمـا اجتمع بكتبغا نوين ، بعث به كتبغا إلى هلاون ، وهو على حلب بعد ، فلما عاين الناصر حلب وما حل بهـا و بأهلها بكى وأنشد :

سقى حلب الشهباءَ فى كل بُقعة		سحائب غيث نوؤُها مثل أدْمُعى
فتلك مرامى لا العقيق ولا اللوَى		وتلك ربوعى لا زرودٌ وأملـع

ولمـا بعد عنها قليلا أنشد :

ناشـدتك اللهَ يا هطالة السُحُبِ		إلا حملتِ تحيّـاتى إلى حلبِ
لا عُذْر للشوق أن يمشى على قدرٍ		ماذا عسى يبلغ المشتاق فى الكُتب
أحبابنـا لو درى قلـبى بأنكم		تدرون ما أنا فيـه لذ لى تعـبى

[٤٢٨] ثم بكى بكاء طويلا وأنشد :

يعز علينا أن نرى ربعـكم يَبْـلَى		وكانت به آيات حسنكم تُتْـلَى
لقـــد مرّ لى فيهـا أفانين لذّة		فما كان أهْنَى العيش فيها وما أحْلَى
أأحْبابنَـا والله ما قلتُ بعـدكم		لحـادثة الأيام رِفقـا(١) ولا مَهْـلاَ
عَبَرتُ على الشهباء وفى القلب حَسْرةٌ		ومن حولهـا تركٌ يتابعهم مُغْـلاَ
ولقد حكموا فى مهجتى حكم ظالمٍ		ولا ظـالِمٌ إلا سَيُبلى كما أُبْـلَى

---

(١) « رفقا » فى زبدة الفكرة — انظر ما يلى . ووردت « رفقا ولا مهلا » فى كنز الدرر جـ ٨ ص ٥٩ .

ثم سار إلى الأردو ، فأقبل عليه هلاون ووعده ردّه إلى مملكته[(١)] .

وفي تاريخ بيبرس : بقي الملك الناصر عند هلاون[(٢)] هو وولده العزيز ، وعزم هلاون على العود من حلب إلى العراق ، فسأل الملك الناصر وقال له : من بقي في ديار مصر من العسكر ؟ فقال له : لم يبق بها إلا نفر قليل من العسكر وأقوام من مماليك بيتنا لا يبالى بهم[(٣)] . قال : فكم يكفى التجريد لقتالهم[(٤)] ؟ قال : يكفى القليل من الجيش ، وحقّر[(٥)] عنده أمرهم وهونه ، فجرد هلاون كتبغا نوين ومعه اثنى عشر ألف فارس وأمره أن يقيم بالشام ، وحفزه العود لما اتصل به من اختلاف حصل بين إخوته ، فعاد وأصحب[(٦)] معه الملك الناصر وولده العزيز[(٧)] .

ووصل كتبغا نوين إلى دمشق [وكانت قلعتها بعد ممتنعة ، وبها وال إسمه بدر الدين بن قزل نعمى ، وأبى أن يسلمها إلى نواب التتار ، فحاصره كتبغا

---

(١) لم يرد هذا النص في مخطوط النويري الذي بين أيدينا .

(٢) « فبقى عنده » في زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٣٧ ف .

(٣) « لا يباه بهم » في زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٣٧ ب .

(٤) « للتجريد قبالتهم » في زبدة الفكر .

(٥) « وصغر » في زبدة الفكرة .

(٦) « واستصحب » في زبدة الفكرة .

(٧) « والعزيز ولده .

لقد مر لي فيها أفانين لذة ... فما كان أهنى العيش فيها وما أحلى

عبرت على الشهباء وفي القلب حسرة ... ومن حولها ترك يتابعهم مغلا

أأحبابنا والله ما قلت بعدكم ... لحادثة الأيام رفقا ولا مهلا

وقد حكموا في مهجتي حكم ظالم ... ولا ظالم إلا سيبلى كما أبلى »

زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٣٨ أ ، وانظر ما سبق بالمتن ص ٢٣٥ .

أياما ففتحها عنوة ، وأمر بقتل متوليها ، فأخرج إلى مرج برغوث وقتل ، وقتل معه نقيب القلعة وهو جمال الدين بن الصيرفى[(١)]] ، ونزل [كتبغا[(٢)]] على المرج ، فحضر إليه رسل الفرنج الذين بالساحل بالهدايا والتقادم ، لأنهم خافوا على بلادهم من تطرق التتار إليها وغارتهم عليها ، وشرعوا فى تحصين مدائنهم وحصونهم ، وحضر إليه الملك الظاهر أخو الملك الناصر ، وكان مقيما بصرخد ، فأحسن إليه وأقره على حاله ، وأعاده إلى مكانه ، وأرسل رسلا[(٣)] إلى السلطان[(٤)] الملك المظفر قطز[(٥)] [يطالبه ببذل الطاعة أو تعبئة الضيافة ، فلما وصلت رسله بهذه الرسالة أمر الملك المظفر[(٦)]] بقتلهم ، فقتلوا وطيف برءوسهم[(٧)] الأسواق إلا صبيا واحدا كان معهم استبقاه[(٨)] المظفر وأضافه إلى مماليكه ، وتجهز للمسير إلى الشام ، وجرد العزم والاهتمام ، [وأعد للقاء العدو الجيش الهمام[(٩)]] .

وسنذكر بقية ماجرى على الملك الناصر يوسف فى موضعه إن شاء الله تعالى .

---

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٣٨ أ .

(٢) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٣) « رسولا » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٤) « السلطان » ساقط من زبدة الفكرة .

(٥) « قطز » ساقط من زبدة الفكرة .

(٦) [ ] إضافة من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٣٨ أ .

(٧) « وطوفت رؤوسهم » فى زبدة الفكرة .

(٨) « فاستبقاه » فى زبدة الفكرة .

(٩) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

ذكر حال قلعة حلب :

قال النويرى فى تاريخه : وثب جماعة من أهل قلعة حلب فى مدة الحصار على صفى الدين طُرْزه رئيس حلب ، وعلى نجم الدين أحمد بن عبد العزيز [٤٢٩] ابن القاضى نجم الدين بن أبى عصرون فقتلوهما ، لأنهم اتهموهما بمواطأة التتار ، واستمر الحصار على القلعة ، واشتدت مضايقة التتار لها نحو شهرين ، ثم سلمت(١) بالأمان يوم الاثنين الحادى عشر من ربيع الأول .

ولما نزل أهلها بالأمان ، كان فيها جماعة من البحرية الذين حبسهم الملك الناصر يوسف ، منهم : سكز وسنقر الأشقر وبرامق وغيرهم ، فسلمهم هلاون هم وباقى الترك إلى رجل من التتار يقال له سلطان جُقْ ، وهو رجل من أكابر القفجاق هرب من التتار لما غلبت على القفجاق ، وقدم إلى حلب ، فأحسن إليه الملك الناصر فلم تطب له تلك البلاد ، فعاد إلى التتار ، وأما العوام والغرباء فنزلوا إلى أماكن الحمّى التى قدمنا ذكرها ، وأمر هلاون أن يمضى كل مسلم إلى داره وملكه وأن لا يعارض ، وجعل النيابة فى حلب لعماد الدين القزوينى(٢) ، وخربت أسوار البلد وأسوار القلعة ، وبقيت كأنها حمار أجوف .

وانقضت المملكة الناصرية ، وبانقضائه انقضت الدولة الأيوبية من البلاد الشامية كما زالت من الديار المصرية .

ووصل إلى هلاون بحلب الملك الأشرف صاحب حمص [موسى بن إبراهيم ابن شيركوه(٣)] ، فأكرمه هلاون ، وأعاد عليه حمص ، وكان قد أخذها منه الملك

(١) « تسلموا » فى الأصل ، والتصحيح من المختصر جـ ٣ ص ٢٠٢ .
(٢) انظر المختصر جـ ٣ ص ٢٠٢ .
(٣) [ ] إضافة من المختصر جـ ٣ ص ٢٠٢ للتوضيح .

الناصر صاحب حلب(١) في سنة ست وأربعين وستمائة وعوضه عنها تل باشر كما ذكرنا ، فعادت إليه في هذه السنة ، واستقر ملكه بها(٢) ، ولما حضر الأشرف بين يديه قال : تمنَّ ، فقبل الأرض وقال : البرج الذى فيه حريمنا وحريم الملوك ، فغضب هلاون ، فقالت له خاتون : ملك من الملوك يتمنى عليك شيئا يسيرا ، وأنت أذنت له في ذلك وتمنعه ، فقال هلاون : إنما منعته لأجلك حتى أجعل بنات الملوك خدمك . فقالت : هم خدمي وقد وهبتهم له ، فرسم له بالبرج ، فقبل الأرض ، وأراد النهوض فلم يقدر حتى أقاموه بإبطيه ، ولم تزل به الخاتون حتى أعاد عليه مملكة حمص وأضاف إليه غيرها(٣) .

قال بيبرس في تاريخه : وكتب له منشورا بنيابة دمشق وبلاد الشام ، وعاد من عنده ، وأقام بدمشق(٤) .

وقدم إلى هلاون وهو على حلب الشيخ محيي الدين [٤٣٠] بن الزكى من دمشق ، فأقبل عليه ولبس خلعة هلاون ، وكانت مذهبة ، وولاه قضاء الشام ، وعاد بن الزكى إلى دمشق ودخلها وعليه الخلعة ، وجمع الفقهاء وغيرها من أكابر دمشق ، وقرأ عليهم تقليد هلاون ، واستمر في القضاء(٥) .

---

(١) « حمص » في الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٢) انظر المختصر جـ ٣ ص ٢٠٢ .

(٣) انظر ما ورد في نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٨٨ — ٣٨٩ .

(٤) « أقام بمدينة دمشق » في زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٣٧ ب .

(٥) انظر المختصر جـ ٣ ص ٢٠٢ — ٢٠٣ .

ذكر رحيل هلاون من حلب وإرساله جيشا إلى اخذ دمشق :

ثم رحل هلاون إلى حارم وطلب تسليمها ، فامتنعوا أن يسلموها لغير فخر الدين والى قلعة حلب ، فأحضره هلاون وسلموها إليه ، فغضب هلاون من ذلك وأمر بهم فقتلوا عن آخرهم وسبي النساء .

ثم رحل هلاون بعد ذلك وعاد إلى الشرق ، وأمر عماد الدين القزويني بالرحيل إلى بغداد ، فسار إليها ، وجعل بحلب مكانه رجلا أعجميا ، وأمر هلاون بخراب أسوار حلب ، فأخربت كما ذكرنا ، وكذلك أمر بخراب أسوار حماة ، فأخربت وأحرقت زردخاناتها ، وبيعت الكتب التى بدار السلطنة بقلعة حماة بأبخس الأثمان (١) .

وقال النويرى : لم تخرب سور حماة لأنه كان بها رجل يقال له إبراهيم بن الإفرنجية ضامن الجهة المفردة ، فبذل لخسروشاه جملة كثيرة من المال ، وقال : الفرنج منا قريب بحصن الأكراد ، ومتى خربت سور المدينة لا يقدر أهلها على المقام بها ، فأخذ منه المال ولم يتعرض لخراب سور المدينة (٢) .

وكان هلاون قد أمر الملك الأشرف صاحب حمص بخراب قلعة حمص أيضا فلم يخرب منها إلا شيئا قليلا لأنها مدينته .

وأما دمشق فإنهم لما ملكوا المدينة بالأمان لم يتعرضوا إلى قتل ونهب ، وعصت عليهم قلعة دمشق ، فحاصرها التتار ، وجرى على أهل دمشق بسبب عصيان القلعة شدة عظيمة ، وضايقوا القلعة ، وأقاموا عليها المجانيق ، ثم تسلموها

(١) انظر المختصر ج ٣ ص ٢٠٣ .

(٢) انظر نهاية الأرب ج ٢٧ ص ٣٨٩ .

بالأمان فى منتصف جمادى الأولى من هذه السنة ، ونهبوا جميع ما فيها ، وجدوا فى خراب أسوار القلعة وإعدام ما فيها من الزردخانات والآلات ، ثم توجهوا إلى بعلبك ونازلوا قلعتها[1] .

وقال ابن كثير : أرسل هلاون قبل أن يرحل من حلب جيشا مع أمير من كبار دولته يقال له كتبغا نوين ، فوردوا دمشق فى أواخر صفر ، فأخذوها سريعا من غير ممانعة [٤٣١] ، وتلقاهم أكابرها بالرحب والسعة ، وقد كتب هلاون معهم فرمان أمان لأهل البلد ، فقرئ بالميدان الأخضر ، ونودى فى البلد بالأمان ، فأمن الناس والقلعة ممتنعة ، وفى أعاليها المجانيق منصوبة ، والحال شديدة ، فأحضرت التتار المجانيق على عجل ، والخيول تجرها ، وهم راكبون على الخيل ، وأسلحتهم على الأبقار الكثيرة ، فنصبوا المجانيق على القلعة من غربيها وهدموا حيطانا كثيرة وأخذوا أحجارها[2] ، ورموا بها القلعة رميا متواليا كالمطر المتدارك ، فهدموا كثيرا من أعاليها وشرفاتها وتداعت للسقوط ، فأجابهم متوليها فى آخر ذلك النهار إلى المصالحة ، ففتحوها وخربوا كل بدنة فيها وأعالى بروجها ، وذلك فى المنتصف من جمادى الأولى من هذه السنة ، وقتلوا المتولى بها بدر الدين بن قزل[3] ، ونقيبها كمال الدين[4] بن الصيرفى الحلبى .

---

(١) انظر المختصر جـ ٣ ص ٢٠٢ .

(٢) « وخربوا حيطانا كثيرة ، وأخذوا حجارتها » فى البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢١٩ .

(٣) « بدر الدين بن قراجا » فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢١٩ ، و « بدر الدين محمد بن قريجار » — فى ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٣٥٤ .

(٤) « جمال الدين » فى البداية والنهاية ، وذيل مرآة الزمان .

وسلموها إلى أمير منهم يقال له : إيل سنان ، وكان معظما لدين النصارى ، فاجتمع به أساقفتهم وقسوسهم ، فعظمهم جدا ، وزار كنائسهم ، فصارت لهم دولة وصولة بسببه ، لعنهم الله ، وذهبت منهم طائفة إلى هلاون بهدايا وتحف ، وقدموا منه ومعهم فرمان أمان من جهته ، ودخلوا البلد من باب توما ومعهم صليب منصوب يحملونه على رؤوس الناس ، وهم ينادون بشعارهم ويقولون : ظهر الدين الصحيح دين المسيح ، ويذمون دين الإسلام وأهله ، ومعهم أوانى فيها خمر لا يمرون مسجدا إلا رشّوا عنده خمرا ، وقماقم فيها خمرا يرشون منها على وجوه الناس ، ويأمرون كل من يجتازون به فى الأسواق والطرقات أن يقوم لصليبهم ، ودخلوا من درب الحجر ، فوقفوا عند رباط الشيخ أبى البيان(١) ورشوا هنالك خمراً ، وكذلك على باب مسجد فى الحجر الصغير والكبير ، واجتازوا فى السوق حتى وصلوا إلى درب الريحان أو قريب منه ، فتكاثر عليهم المسلمون ، فردوهم وعادوا إلى سوق كنيسة مريم ، ثم توقف خطيبهم إلى دكته وكان فى عطفة السوق هنالك ، فذكر فى خطبته مدح دين النصارى وذم دين الإسلام وأهله ، ثم ولجوا بعد ذلك إلى كنيسة مريم ، وكانت بعد عامرة ، ولكن كان هذا سبب [٤٣٢] خرابها(٢) .

وحكى الشيخ قطب الدين فى الذيل : أنهم ضربوا بالناقوس بكنيسة مريم ، والله أعلم .

---

(١) الرباط البيانى : داخل باب شرقى دمشق ، وينسب إلى أبو البيان بنا بن محمد بن محفوظ القرشى الشافعى الدمشقى ، الزاهد ، ويعرف بابن الحورانى ، والمتوفى سنة ٥٥١ هـ / ١١٥٦ م - الدارس جـ ٢ ص ١٩٢ .

(٢) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢١٩ .

قال : وذكروا أنهم دخلوا الجامع بخمر ، وكانت من نيتهم الفاسدة إن طالت التتار أن يخربوا كثيرا من المساجد وغيرها ، فكفى الله شرهم .

ولما وقع هذا في البلد ، اجتمع قضاة المسلمين والفقهاء ، فدخلوا القلعة يشكون هذا الحال إلى متسلمها إيل سنان، فأهينوا وطردوا ، وقدم كلام رؤوس النصارى عليهم، فـ « إنا لله وإنا إليه راجعون »(1) .

ذكر وقعة عين جالوت وكسرة التتار عليها يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر رمضان من هذه السنة :

ولما استولت التتار على البلاد الشامية وضايقوا الممالك الإسلامية ، ولم يبق من يدفعهم عن العباد والبلاد إلا عسكر الديار المصرية ، اتفق السلطان الملك المظفر قطز مع الأمراء والأكابر على تجهيز العساكر ، وصمموا على لقاء العدو المخذول ، وجمعوا الفرسان والرجالة من العربان وغيرهم ، وخرجوا من القاهرة بأعظم أُبَّهة .

وكانت التتار في أرض البقاع ، فساروا صحبة مقدمهم كتبغا نوين ، فكان الملتقى بمنزلة عين جالوت في مرج بني عامر ، فلما التقى الجمعان حمل السلطان الملك المظفر بنفسه، وألقى خوذته عن رأسه ،وحملت الأمراء البحرية والعساكر المصرية حملة صادقة ، فكسروهم أشد كسرة ، وقتل كتبغا نوين في المعركة،

(1) سورة البقرة رقم ٢ جزء من الآية رقم ١٥٦ .

وانظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢١٩ ــ ٢٢٠ ، ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٣٦٢ ــ ٣٦٣ .

وقتل بعده السعيد بن الملك العزيز لأنه وافقه فى هذه الحركة ، وكان قد أخذ من هلاون فرمانا بإستمراره على ما بيده من البلاد وهى الصبيبة وأعمالها وزيادة عليها ، وحضر مع كتبغا نوين الوقعة ، فلما انكسر وأحضر إلى المظفر مستأمنا فقال له : كان هذا يكون لو حضرت قبل الوقعة ، وأما الآن فلا ، وأمر به فقتل صبرا .

وقتل أكثر التتار ، وجهزت خيل الطلب وراء من هم بالفرار ، وكان المقدم عليها الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى ، فتبع المنهزمين وأتى عليهم قتلا وأسرا حتى استاصل شأفتهم ، فلم يفلت أحد منهم ، وصادفت طائفة من التتار جاءت من عند هلاون مددا لكتبغا ، فلما وصلت هذه النجدة إلى بلد [٤٣٣] حمص صادفت التتار منهزمين على أسوأ الأحوال ، والخيول تجول فى طلبهم كل مجال ، فلم تمكنهم الهزيمة(١) ، فكانوا للسيوف غنيمة ، وكانت عدتهم ألفين ، فلم يبق لهم أثر ولا عين .

وكان أيضا فى صحبة التتار الملك الأشرف موسى صاحب حمص ، ففارقهم وطلب الأمان من السلطان الملك المظفر ، فآمنه ووصل إليه فأكرمه وأقره على ما بيده وهى حمص ومضافاتها .

ومما اتفق فى هذه الوقعة أن الصبى الذى استبقاه السلطان الملك المظفر من التتار المرسلين إليه من عند كتبغا ، وأضافه إلى المماليك السلطانية ، كما ذكرناه ، كان راكبا وراءه حال اللقاء ، فلما إلتحم القتال كيز سهما وفوقه نحو المظفر ، فبصر به بعض من كان حوله ، فأمسك وقتل مكانه ، فكان كما قيل :

(١) المقصود أنه لم يمكنهم الهرب والفرار .

واحذر شرارة من أطفأت جمرته فالثأر غض ولو بُقِّ إلى حين

وفى تاريخ النويرى : ضرب ذلك الشاب السلطان بسهم فلم يخطىء[(١)] فرسه فوقعت ، وبقى السلطان على الأرض ، فنزل فخر الدين ما ماى[(٢)] عن فرسه وقدمه إلى السلطان فركب ، ثم حضرت الجنائب[(٣)] السلطانية فركب فخر الدين منها .

ثم لما فرغ السلطان من كسر التتار ، وانقضى أمر المصاف ، أحسن إلى الملك المنصور صاحب حماة ، وأقره على حماة وبارين وأعاد عليه المعرة ، وكانت فى أيدى الحلبيين من سنة خمس وثلاثين وستمائة ، وأخذ السلمية منه وأعطاها للأمير شرف الدين عيسى[(٤)] بن مهنى بن مانع أمير العرب .

ذكر دخول السلطان الملك المظفر دمشق :

ثم لما جرى ما ذكرنا أتم السير السلطان الملك المظفر بالعساكر ، وصحبته الملك المنصور صاحب حماة حتى دخل دمشق ، وتضاعف شكر المسلمين لله تعالى على هذا النصر ، فإن القلوب كانت قد يئست من النصر على التتار لاستيلائهم على معظم بلاد المسلمين ، ولأنهم ما قصدوا إقليما إلا فتحوه ، ولا عسكرا إلا هزموه ، وفى يوم دخوله دمشق أمر بشنق جماعة من المنتسبين إلى التتار

(١) « يخط » فى الأصل .

(٢) « فخر الدين ماما » فى السلوك جـ ١ ص ٤٣١ .

(٣) الجنائب : جمع جنب : وهى الخيول التى كانت تسير وراء السلطان فى الحروب لاحتمال الحاجة إليها — محيط المحيط .

(٤) توفى سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م — المنهل الصافى .

فشنقوا، وكان فى جملتهم حسين الكردى طبردار(١) الملك الناصر يوسف وهو [٤٣٤] الذى أوقع الملك الناصر فى أيدى التتار .

وفى هذه النصرة ، وقدوم الملك المظفر قطز إلى الشام يقول بعض الشعراء :

هلك الكفر فى الشام جميعا واستجد الإسلام بعد دحوضه

بالمليك المظفر البطل(٢) الأر وع سيف الإسلام عند نهوضه

ملك جاءنا بعزم وحزم فاعتززنا بسمره وببيضه

أوجب الله شكر ذاك علينا دائما مثل واجبات فروضه(٣)

وقال جمال الدين بن مصعب :

إن يوم الحمراء يوم عجيب فيه ولى جيش الطغاة البغاة

دار كاس المنون لما مزجنا عين جالوت بالدما للسقاة

يالها جمعة غدا الكفر فيها مسجدا للسيوف لا للصلاة

وقال شهاب الدين أبو شامة :

غلب التتار على البلاد فجاءهم من مصر تركى يجود بنفسه

بالشام بددهم وفرق شملهم(٤) ولكل شىء آفة من جنسه

---

(١) الطبردار « هو الذى يحمل طبر السلطان ، أى فأسه ، عند ركوبه فى المواكب » صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥٨ .

(٢) « بالمليك المظفر الملك » — ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٣٦٧ .

(٣) وانظر المختصر جـ ٣ ص ٢٠٥ — ٢٠٦ ، ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٣٦٧ — ٣٦٨ .

(٤) « بالشام أهلكهم وبدد شملهم » — ، الذيل على الروضتين ص ٢٠٨ ، وفيا يلى ص ٢٤٩ .

ثم أعطى الملك المظفر قطز دستورًا للملك المنصور صاحب حماة، فقدم الملك المنصور وأخوه الملك الأفضل ووصلا إلى حماة، ولما استقر الملك المنصور بحماة قبض على جماعة كانوا مع التتار فاعتقلهم .

وهنأ[1] الشيخ شرف الدين شيخ الشيوخ الملك المنصور بهذا النصر العظيم و بعود المعرة بقصيدة منها قوله :

رعت العدى فضمنت ثل عروشها		ولقيتها فأخذت ثل جيوشها

نازلت أملاك التتار فأنزلت		عن خيلها قسرا ومن اكديشها

فغدا لسيفك فى رقاب كماتها		حصدُ المناجل فى يبيس حشيشها

فُقْتَ الملوك ببذل ما تحويه إذ		ختمت خزائنها على منقوشها

ومنها :

وطويت عن مصر فسيح مراحل		ما بين بركتها وبين عريشها

حتى حفظت على العباد بلادها		من رومها الأقصى إلى أحبوشها

فرشت حماة لوطىء نعلك خدَّها		فوطيتَ عينَ الشمس من مفروشها

[٤٣٥]

وضربت سكتها التى أخلصتها		عما يشوب النقد من مغشوشها

وكذا المعرة إذ ملكت قيادها		دهشت سرورا صار فى مدهوشها

لا زلت تنعش بالنوال فقيرها		وتنال أقصى الأجر من منعوشها

طربت برجعتها إليك كأنما		سكرت بخمرة جاشها أو جَيشها[2]

(١) « وهنى » فى الأصل .

(٢) وانظر المختصر جـ ٣ ص ٢٠٥ - ٢٠٦ .

ذكر أحكام الملك المظفر فى دمشق :

ولما استقر ركابه الشريف فى دمشق ، جهّز عسكرا إلى حلب لحفظها ، ورتب علاء الدين بن صاحب الموصل(1) نائب السلطنة بحلب ، ورتّب بدمشق الأمير علم الدين سنجر الحلبي الصالحى نائبا ، وأمر لنجم الدين أبى الهيجاء بن خُشتر بن الكردى أن يقيم بدمشق مع النائب ، وأقر الملك المنصور ناصر الدين محمد صاحب حماة بها على حاله ، كما ذكرنا ، وحضر إليه الملك الأشرف صاحب حمص ، فأقبل عليه وأقره بما بيده ولم يؤاخذه ، ورتب شمس الدين أقوش البرلى العزيزى أميرا بالسواحل [وغزة](2) ، ورتب معه جماعة من العزيزية ، وكان شمس الدين أقوش المذكور من مماليك العزيز محمد صاحب حلب ، وكان مع الملك الناصر ، ولما هرب الناصر من قَطْيَه ، على ما ذكرنا ، سار شمس الدين أقوش المذكور مع العساكر إلى مصر ، فأحسن إليه الملك المظفر وولّاه الآن السواحل وغزة .

وقال ابن كثير : كان علم الدين سنجر(3) الحلبي المذكور أتابكا لعلى بن المعز أيبك ، وابن صاحب الموصل هو الملك السعيد بن بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل ، وكان قد وصل إلى الملك الناصر يوسف صاحب الشام ، ودخل مع العسكر إلى مصر ، وصار مع المظفر قطز ، ففوض إليه نيابة السلطنة بحلب ،

(1) « وبعث السلطان أيضا بالملك المظفر علاء الدين على بن بدر الدين لؤلؤ صاحب سنجار إلى حلب نائبا بها » — السلوك جـ ١ ص ٤٣٣ .

(2) [ ] إضافة من المختصر جـ ٣ ص ٢٠٦ ، تتفق مع ماذكره المؤلف فيما يلى .

(3) توفى سنة ٦٩٢ هـ / ١٢٩٣م ـ المنهل الصافى ، وانظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٣٤ .

وكان سببه أن أخاه الملك [الصالح إسماعيل(١)] بن لؤلؤ كان تولى الموصل بعد أبيه ، فولاه حلب ليكاتبه أخوه بأخبار التتار ، ولما استقر فى نيابة حلب سار سيرة ردية ، وكان دأبه التحيل على أخذ مال الرعية .

ونظر المظفر فى أحوال البلاد ، وحسم مواد الفساد ، وجدد الإقطاعات بمناشيره .

ذكر ما فعل أهل دمشق عند ورود البشارة بكسر التتار [٤٣٦] على عين جالوت على يد السلطان الملك المظفر رحمه الله :

قال أبو شامة : جاءنا كتاب قطز من طبرية بتاريخ الأحد السابع والعشرين من رمضان من هذه السنة ، وهو أول كتاب ورد منه إلى أهل دمشق يخبرهم بهذه الكسرة الميمونة وبوصوله إليهم بعدها .

قال : ومن العجائب أن التتار كسروا وهلكوا بأبناء جنسهم من الترك ، وقلت فى ذلك :

غلب التتار على البلاد فجاءهم		من مصر تركى يجود بنفسه

بالشام أهلكهم وبدد شملهم(٢)		ولكل شىء آفة من جنسه

قال : وقد كانت النصارى بدمشق قد شمخوا بسبب دولة التتار ، وتردد إيل سنان وغيره من كبارهم إلى كنائسهم ، وذهب بعضهم إلى هلاون ، وجاء من

(١) [ ] موضع بياض فى الأصل ، والإضافة مما يلى من حوادث سنة ٦٥٩ هـ ؛ وانظر ترجمة إسماعيل بن لؤلؤ الذى توفى سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م فى المنهل الصافى .

(٢) « بالشام بددهم وفرق شملهم » — انظر ما سبق ص ٢٤٦ .

عنده بفرمان لهـم اعتنى بهم ، وبوصية فى حقهم ، ودخلوا به البلد من باب توما وصلبانهم مرتفعة ، وهم ينادون حولها بارتفاع دينهم واتضاع دين الإسلام ، فركب المسلمون من ذلك هم عظيم ، فلما هرب التتار من دمشق ليلة الأحد السابع والعشرين من رمضان أصبح النـاس إلى دور النصارى ينهبونها ويخربون ما استطاعوا منهـا ، وأخربوا كنيسة اليعاقبة ، وكنيسة مريم حتى بقيت كوما والحيطان حولها تعمل النار فى أخشابها ، وقتل منهـم جماعة واختفى الباقون ، وجرى عليهم أمر عظيم اشتفى به بعض الاشتفاء صدور المسلمين ، ثم هموا بنهب اليهود ، فنهب قليل منهم ، ثم كفوا عنهم لأنهم لم يصدر عنهم ما صدر من النصارى(١) .

وقال ابن كثير : وقتلت العامة وسط الجامع شيخا رافضيا ، كان مصانعا للتتار على أموال الناس ، يقال له : الفخر محمد بن يوسف بن محمـد الكنجى ، كان خبيث الطوية [مشرقيا](٢) ممالئا لهم على أموال المسلمين ، وقتلوا جماعة مثله من المنافقين الممـالئين على المسلمين(٣) .

وكان هلاون أرسل تقليدا بولاية القضاء بجميع مدائن الشام والموصل وماردين وميا فارقين والأكراد وغير ذلك للقاضى كمال الدين عمر بن بندار(٤) التفليسى ، وقد كان نائب الحكم بدمشق [٤٣٧] عن القـاضى صدر الدين أحمـد بن يحيى بن

(١) الذيل على الروضتين ص ٢٠٨ .

(٢) [ ] إضافة من البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٢١ .

(٣) البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٢١ .

(٤) توفى سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م — المنهل الصافى ٤

ابن هبة الله بن سنى الدولة من مدة خمس عشرة سنة ، ووصل التقليد فى السادس والعشرين من ربيع الأول ، وحين وصل قرئ بالميدان الأخضر[(١)] ، فاستقل بالحكم من دمشق وكان من الفضلاء ، فسار القاضيان المعزولان صدر الدين بن سنى الدولة ومحيي الدين بن الزكى إلى خدمة هلاون ، إلى البلاد الحلبية ، فخدع ابن الزكى لابن سنى الدولة و بذل أموالا كثيرة ، وتولى القضاء بدمشق ، ورجعا ، فمات ابن سنى الدولة ببعلبك ، وقدم ابن الزكى على القضاء ومعه تقليد به وخلعة بذهب ، فلبسها وجلس فى خدمة إيل سنان تحت قبة النسر ، وهو النائب الكبير ، و بينهما الخاتون زوجة إيل سنان حاسرة عن وجهها ، وقرئ التقليد هنالك ، وحين ذكر اسم هلاون اللعين نثر الذهب والفضة من فوق رؤوس الناس[(٢)] .

وذكر أبو شامة : أنه استحوذ على مدارس كثيرة فى مدته هذه القصيرة ، فإنه عزل قبل رأس الحول ، فأخذ العَذْراوِيّة والسلطانية والفلكية والركنية والقمرية والكلاسة مع المدرستين اللتين كانتا بيده وهما التقوية والعزيزية ، وأخذ لولده عيسى تدريس الأمينية ومشيخة الشيوخ ، وانتزع من الشمس الكردى الصالحية وسلمها إلى العماد بن العزى ، ونزع الشومانية من الفخر النقجوانى وسلمها إلى الكمال بن النجار ، ونزع الربوة من الجمال محمد بن اليمنى وسلمها إلى الشهاب محمود بن شرف الدين محمد بن القاضى شرف الدين بن زين القضاة عبد الرحمن ابن سلطان وهو من بنى عمه .

---

(١) « عند الباب الكبير » — فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٢١ — ٢٢٢ .

(٢) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٢١ — ٢٢٢ .

كل هـذا مع ما عرف منـه من التقصير فى حق الفقهاء فى المدرستين اللتين كانتا بيده من قديم الزمان وهما الخزيزية والتقوية، وعدم انصافه فيهما، [وولى ابنـه عيسى مشيخة الشيوخ بخوانق الصوفية](١) واستناب أخاه لأمـه فى القضاء، ومعه من المدارس : الرواحية والشامية البرانية ، مع أن شرط واقفها أن لا يجمع المدرس بينها وبين غيرها(٢) .

وقال ابن كثير : ولمـا رجعت المملكة إلى المسلمين سعى القاضى محيي الدين وبذل أموالا جزيلة ليستمر فى القضاء والمدارس التى استولى عليهـا فى مدة هذه الشهور ، فلم يستمر إلا قليلا حتى جاء تقليد القضاء لنجم الدين أبى بكر [٤٣٨] ابن صدر الدين بن سنى الدولة ، فقرئ يوم الجمعة بعد الصلاة الحـادى والعشرين من ذى القعدة بالشباك الكمالى من مشهد عثمان بجامع دمشق(٣) .

ذكر عَوْدِ الملك المُظَفَّر قُطز إلى الديار المصرية ومَقْتَلِه :

لمـا قرر السلطان الملك المظفر قطز أمور الشام على ما شرحناه سار من دمشق إلى جهة الديار المصرية ، وفى نفوس البحرية منه ومن أستاذه قبله من قتلهما الفارس أقطاى واستبدادهمـا بالملك وإلجائهم إلى الهـرب والهجاج والتنقـل فى الفجاج إلى غير ذلك من أنواع الأهوان التى قاسُوها ، والمشقات التى لابَسُوها ، وإنمـا

(١) [ ] إضافة من الذيل على الروضتين ص ٢٠٦ .

(٢) الذيل على الروضتين ص ٢٠٥ — ٢٠٦ ، وانظر أيضا البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٢٢ .

(٣) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٢٢ .

انحازوا إليه لما تعذّر عليهم المقام بالشام ، وللتناصر على صيانة الإسلام ، لا لأنهم أخلصوا له الولاء ، أو رضوا له بالاستيلاء .

وقد ثبتَ المرعى على دِمَنِ الثرى وتبقى حزازاتُ النفوس كما هيا

فاتفق الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى ، والأمير سيف الدين أنص الأصفهانى ، والأمير سيف الدين [بلبان[(١)]] الرشيدى ، والأمير بدر الدين بكتوت الجوكاندارى ، والأمير سيف الدين بَيْدَغَان ، ومن معهم على قتله ، وجعلوا يترصدون له وقتا لإنتهاز فرصتهم ، وإمضاءِ عزيمتهم ، فلا يجدون سبيلا إلى ما همُّوا بفعله ، ولا تمكنًا من الوثوب به وقتله ، إلى أن أفضى بهم السيرُ إلى منزلة القُصَيْر بطرف الرمل ، بينه وبين الصالحيَّة مرحلة ، وقد سبق الدهليزُ إلى الصالحيَّة وقالوا : متى فاتنا من هذه المنزلة وصل إلى القلعة وأعجزنا مَرَامُه ولم نأْمن انتقامَه ، واتفق أنه انفرد عن المواكب لصيد الأرانب ، ساق خلف أرنب عرض له ، وهم يَرْمقونه ، فلما رأوه قد بَعُد عن الأطلاب ، قالوا : الآن ندرك الطِلاب ، وساقوا فى إثره ركضا ، وجاءوا يتلو بعضهم فتقدَّم إليه أنص الأصبهانى كأنه يشفع عنده فى إصلاح حال الركن بيبرس البندقدارى لأنه أقام فى الخدمة مُدَّة ولم يعين له عدَّه ، وخرج إلى الغزاة برمحه ، وبذل فيها غاية نصحه ، فأجابه المظفر إلى سُؤَالِه ووعده بإصلاح حاله فأهوى إلى يده كأنه يقبلهما ، فأمسكها أنص وضبطها ، فأيقن المظفر أنه قد ختل وخدع وأن ذلك [٤٣٩] الأمَر قد أبْرِم ووضع ، وأراد أن يجذب سَيْفه ليدفَع عن نفسه ، فعاجله البنْدُقدارى بالسيف

(١) [ ] إضافة للتوضيح — السلوك جـ ١ ص ٤٢٥ .

وأخذته السيوف ، فخر صريعا يمج[1] دما ونجيعا ، وذلك فى سابع عشر ذى القعدة من هذه السنة[2] .

ويقال : لما أجاب لمظفر إلى كلام أنص أهوى لتقبيل يده ، فقبض عليها ، وحمل عليه بيبرس البندقدارى حينئذ ، وضربه بالسيف ، واجتمعوا عليه ورموه عن فرسه ، ثم قتلوه بالنشاب[3] فى التاريخ المذكور .

ذكر ترجمة الملك المظفر قطز :

والكلام فيه على أنواع[4] :

(١) « وذلك يوم السبت خامس عشر ذى القعدة » — السلوك جـ ١ ص ٤٣٥ ، بينما يحدد العينى أن السبت سابع عشر ذى القعدة وذلك فى كلامه عن تولية بيبرس — أنظر ما يلى . بينما فى التوفيقات الإلهامية ١٥ ذو القعدة ٦٥٨ هـ . هو يوم جمعة .

(٢) أورد المقريزى رواية أخرى فذكر : « فلما فرغ من صيده ، وعاد يريد الدهليز السلطانى ، وطلب منه الأمير بيبرس إمرأة من سبى التتر ، فأنعم بها عليه ، فأخذ بيبرس يد السلطان ليقبلها ، وكانت إشارة بينه وبين الأمراء ، فبدره الأمير بدر الدين بكتوت بالسيف ، وضرب به عاتقه ، واختطفه الأمير أنص وألقاه عن فرسه ، ورماه الأمير بهادر المعزى بسهم أتى على روحه » — السلوك جـ ١ ص ٤٣٥ .

(٣) ذكر ابن عبد الظاهر أن بيبرس هو الذى قتل قطز بمفرده ، فقال : « وفعل السلطان الملك الظاهر ما فعله بنفسه وبلغ غرضه بمفرده ، وذلك بين العساكر العظيمة والاحتراز الشديد ، وما قدر أحد أن يتكلم ، ولا جسر أن يمد يده إليه » الروض الزاهر ص ٦٨ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ٢٤ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٧٢ — ٩٣ ، ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٣٧٩ — ٣٨٤ ، العبر جـ ٥ ص ٢٤٧ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٩٣ ، السلوك جـ ١ ص ٤١٧ — ٤٣٥ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٢٥ ، الجوهر الثمين ص ٢٦٤ — ٢٧٠ ، كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٩ وما بعدها .

الأول في اصله ومبدا امره ونسبه : هو سيف الدين قطز بن عبد الله التركي ، أخص مماليك الملك المعز أيبك التركماني، أحد مماليك السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب .

وحكى بن أبي الفوارس[1] قال : كان هذا قطز مملوكا لابن العديم ، أو قال لابن الزعيم ، رجل من دمشق ، فضربه يوما وشتمه ، فبكى بكاءً كثيرا وامتنع من الأكل في ذلك اليوم . فقال له الفراش : هذا البكاء كله من ضربة أو ضربتين ، فقال يا خارج : والله ما أبكي للضرب ، ولكن للعنته أبي وجدّي وهما خير من أبيه وجدّه فقال له الفراش : ومن أبوك وجدُّك ، وما كانا إلا كافرين ؟ فقال : لا والله ، بل أنا مسلم ابن مسلم إلى عشر جدود وأنا محمود بن مودود بن أخت جلال الدين خوارزم شاه السلجوقي ، ولا بد أن أملك مصر وأكسر التتار[2] .

وحكى تاج الدين أحمد بن الأثير الحلبي قال : لما ملك الملك المظفر قطز قال لي حسام البركتخاني : والله لا يكسر التتار غيره ، فقلت له : من أين لك هذا ؟ فقال : إني وإياه مملوكين صبيين عند الهيجاوي ، وكان على قطز قمل كثير ، فكنت أسرح رأسَه وآخذ له كل قملة بفلس أو بصَفعة، فسرحت رأسه يوما وصفعته صفعاً كثيرا ، ثم تنهّدت فقال : ما بالك ؟ فقلت : أتمنى على الله إمرة خمسين فارساً . فقال ورأسه في حجري : طيب قلبك ، انا أعطيك إمرة

(١) هو محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن عبد العزيز بن أبي الفوارس ، العدل أمين الدين الجزري ـ كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٩ .

(٢) كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٩ ـ ٤٠ .

خمسين فارساً ، فضحكتُ وصفعته صفعةً قويةً ، وقلت له : من أين لك هذا؟ قال : رأيت النبيّ صلى الله عليه وسلم وقال لى : أنت تملك مصر وتكسر التتار . قال : فسكتُّ ، وكنت أعرف منه الصدق ، وما أشك فى أنه يكسر التتار ، فلم تمض إلا مدة يسيرة حتى خرج وكسر التتار (١) .

وقال القاضى تاج الدين : ثم رأيت حسام الدين البركتخانى المذكور بمصر بعد كسر [٤٤٠] التتار ، وهو أمير خمسين فارسًا .

وقال ابن كثير : وقد حكى الشيخ قطب الدين اليونينى فى الذيل عن الشيخ علاء الدين [على] (٢) بن غانم عن المولى تاج الدين أحمد بن الأثير ، كاتب السر فى أيام الملك الناصر صاحب دمشق ، قال : لما كنا مع السلطان الناصر بوطأة برزة (٣) ، كانت البريديّة يخبرون بأن المظفر قطز قد تولى سلطنة الديار المصرية ، فقلت ذلك للسلطان . فقال : اذهب إلى فلان وفلان (٤) وأخبرهم بهذا ، فلما خرجت من عنده لقينى بعض الأجناد (٥) ، فقال لى : جاءكم الخبر من الديار المصريّة بأن قطز تملك . قلت : ما عندى من هذا علم ، وما يُدريك أنت هذا ؟ فقال : بلى والله إنه سيلى المملكة ويكسر التتار . فقلت : من أين تعلم هذا؟ قال : كنتُ أخذته وهو صغير وعليه قمل كثير ، فكنت أفليّه وأهينه . فقال لى : ويلك إش

(١) كنز الدرر جـ ٨ ص ٤٢ .

(٢) [ ] إضافة من ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٣٨١ للتوضيح .

(٣) « فى أواخر سنة سبع وخمسين وستمائة » فى ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٣٨١ — ٣٨٢ .

(٤) « الأمير ناصر الدين القيمرى والأمير جمال الدين بن يغمور » — ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٣٨٢ .

(٥) « لقينى حسام الدين البركة خانى » — ذيل مرآة الزمان ؛

تريد أن أُعطيك إذا تملكتُ الديار المصريّة . فقلت : أنت مجنون . فقال : لا والله لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام وقال لى : أنت تملك الديار المصريّة وتكسِرُ التتار ، وقول رسول الله عليه السّلام حق لا شك فيه . فقلت له حينئذ وكان صادقا : فأريد منك إمرة خمسين . فقال : نعم .

قال ابن الأثير : فلما قال لى هذا قلت : هذه كتب المصريين بأنه تولى السلطنة . فقال : والله ليكسرنَّ التتار ، فكان كما قال .

قال : ولما رجع الناصر يوسف إلى ناحية الديار المصريّة وأراد دخولها فلم يدخل ورجع عنها ، ودخلها أكثر الجيوش ، كان هذا الحاكى فى جملة من دخلها ، فأمَّره المظفَّر قطز إمرة خمسين فارسًا ، ووفَّى له بالوعد ، وهو الأمير كمال الدين البركتانى[(1)] .

قال ابن الأثير: فلقينى بالديار المصرية بعد أن تأمَّر فذكرنى بما كان أخبرنى عن المظفر ، فذكرته ، ثم كانت وقعة التتار على إثر ذلك[(2)] .

وفى تاريخ النويرى : وحكى عز الدين بن أبى الهيجاء قال : حدثنى بلقاق عن بدر الدين بكتوت الأتابكى قال : كنت أنا وقطز وبيبرس البندقدارى خشداشيّة فى حال الصبا ، فرأينا يوما منجما فى بعض الطرقات بالديار المصريّة فوقفنا عليه ، فقال له قطز : أبصر لى ، فضرب [بالرمل][(3)] وجعل يصوِّبُ فيه النظر ، وقال : إلى هذا العجب . فقال له : قل . فقال : أنت تملك مصر وتكسرُ التتار ، فضحكنا

---

(١) هكذا فى الأصل ، وورد « البركة خانى » فى ذيل مرآة الزمان .

(٢) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٢٦ ، وذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٣٨١ وما بعدها .

(٣) [ ] إضافة من ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٣٨٤ للتوضيح .

منه، ثم قال له بيبرس : أبصر [٤٤١] لى ، فضرب وجعل يُصوِّبُ النظرَ إلى الآخر ويتعجّب . فقال له : قل . فقـال : أنت أيضا تملك مِصْرَ ويطول مُلكك ، فضحكنا، ثم قلتُ له : فابصِرْ لى، فضرب وقال : أنت يحصل لك إمْرةٌ كبيرة وهذا سَهِيها، وأشار إلى بيبرس البندقدارى، ويقتل هذا وأشار إلى قطز ، فوالله ما خرم من قوله ذرة[(١)] .

وحكى ركن الدين الجـزرى أستاذ الفارس أقطاى قال : كنا عنـد قطز فى فى أول دولة استاذه الملك المعزّ أيبك ، وقد حضر عنده منجم مغـربىّ موصوف بالحذق ، فأمر مَنْ كان هناك بالإنصراف إلا أنا . وقال للمنجـم : اضرب وانظر من يملك مِصْرَ بعـد أستاذ المُعِزّ ويكسر التتارَ ، فضرب وجعل يَعُدّ على أصابعه وقال : يطلع لى اسم فيـه خمسُ حروف بلا نقط ، وابوه أيضا كذلك ، وأنت فسمك ثلاثة أحرف ، فتبسّم قطز وقال له : لم لا تقول محمود بن مودود ؟ فقـال المنجم : هو والله هذا . قال قطز : أنا محمـود بن مودود ، أنا الذى أكسر التتار وآخذ بثأر خالى خوارزم شاه منهم .

وأمّا مبـدأ أمر قطز فإنّ السلطان الملك المعزّ أيبك اشتراه وهو أميرٌ ، فربّاه وأحسن تربيته ، ولمـا قتل[(٢)] أستاذه قام فى تولية ابنه الملك المنصور نور الدين على ابن المعز، وكان حينئذ أتابك العساكر بالديار المصرية، ولمـا سمع بأمر التتار خاف أن تختلف الكلمة بسبب صـغر ابن أستاذه ، فعـزله ودعا إلى نفسه ، فبويع

---

(١) نقلا عن نهاية الأرب بتصرف جـ ٢٧ ورقة ١٣٧ .

(٢) « قام » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح يتفق وسير الأحداث ، ومع ما ورد فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٢٥ .

له فى ذى القعدة سنة سبع وخمسين وستمائة، فقدر الله على يديه نصرة الإسلام بعين جالوت كما ذكرنا .

الثانى فى سيرته : كان شجاعا ، بطلا ، كثير الخير ، محبًّا للإسلام وأهله ، وهم يحبُّونه ، وذكر عنه أنه لما كان فى المعركة يوم عين جالوت قتل جواده ولم يجد أحدا فى الساعة الراهنة من الوشاقيّة (١) الذين معهم الجنائب ، فترجل ، وبقى كذلك واقفا على الأرض، ثابتًا فى محل المعركة وموضع السلطنة من القلب ، فلما رآه بعض الأمراء ترجَّل عن فرسه وحلف على السلطان ليركب ، فامتنع السلطان وقال : ما كنتُ لأحرم المسلمين نفعك ، ولم يزل كذلك حتى جاءت الوشاقيّة، فركب ، فلامه بعض الأمراء وقال ياخوند : لم لاركبتَ فرسَ فلان؟ فلو كان رآك بعض الأمراء لقتلك وهلك الإسلام بسببك . فقال : أما أنا فكنت أروح إلى الجنة [٤٤٢] ، وأما الإسلام فله ربٌّ لا يضيِّعه ، قد قتل فلان وفلان وفلان وعدد خلقا من الملوك ، فلم يضيِّع الله الإسلام (٢) .

وكان حين ساق من الديار المصرية كان فى خدمته خلق من كبار الأمراء من البحريّة وغيرهم ، ومعه الملك المنصور صاحب حماة ، وجماعة من أبناء الملوك ، فأرسل إلى صاحب حماة يقول له : لاتعنى بمدّ سماط فى هذه الأيام ، وليكن مع الجندى لحمه فى سولقه يأكلها ، والعجل العجل .

---

(١) الأوشاقية أو الأوجاقية : جمع أوشاق أو أوجاق : فرقة من خدم السلطان عملها ركوب الخيل للتسيير والرياضة — صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥٤ .

(٢) انظر ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٢٨٠ — ٢٨١ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٢٥ .

وكان اجتماعه بعدوه كما ذكرنا فى العشر الأخير من رمضان ، يوم الجمعة ، وهذه بشارة عظيمة ، فإن وقعة بدر كانت يوم جمعة فى شهر رمضان ، ولهذا نصر الله تعالى الإسلام نصرا عزيزا .

وقال أبو شامة : وكان سيف الدين قطز هذا موصوفا بمواظبة الصلوات ، والشجاعة ، وتجنب شرب الخمر (١) .

الثالث فى مدة سلطنته : ذكرنا أنه قتل يوم السبت السادس عشر (٢) من ذى القعدة بين الغُرابىّ والصالحيّة ، ودفن بالقُصَيْر ، وكان قبره يُزار ، فلما تمكن الظاهر بيبرس فى المملكة بعث إلى قبره فغيّبه عن الناس ، وكان لا يعرف بعد ذلك ، وكانت مدة مملكته أربعة عشر شهرا وثلاثة عشر يوما .

وقال الملك المؤيد : وكانت مدة سلطنته أحد عشر شهرا وثلاثة عشر يوما (٣) .

---

(١) الذيل على الروضتين ص ٢١٠ .

(٢) فيما سبق ، وفيما يلى : السبت سابع عشر ذى القعدة . والقول بأن ١٦ ذى القعدة ٦٥٨ هـ يوافق يوم السبت يتفق مع ماجاء فى التوفيقات الإلهامية .

(٣) المختصر جـ ٣ ص ٢٠٧ .

ذِكْرُ سَلْطَنَةَ الملك الظّاهر

وهو الأسد الضاوى بيبرس البندقدارىّ .

ولما وصل بيبرس ، وهو والجماعة الذين قتلوا الملك المظفر المذكور إلى الدهليز ، كان عند الدهليز نائب السلطنة فارس الدين أقطاى المستعرب ، وهو الذى كان أتابكا لنور الدين على بن الملك المعزّ أيبك التركمانى بعد الحلبىّ ، فلما تسلطن قطز أقرّه على نيابة السلطنة بالديار المصريّة ، فلما وصل بيبرس البندقدارىّ مع الجماعة الذين قتلوه سأله أقطاى المُستعرب . وقال : من قتله منكم ؟ فقال بيبرس : أنا قتلته . قال أقطاى : ياخوند اجلس فى مرتبة السلطنة مكانه ، فجلس واستدعيت العساكر للتحليف ، فحلفوا له فى اليوم الذى قتل فيه قطز ، [وهو سابع عشر ذى القعدة من هذه السنة ، أعنى سنة ثمان وخمسين وستمائة[1]] واستقر بيبرس فى السلطنة ، وتلقب بالملك القاهر ، ثم بعد [٤٤٣] ذلك غُيِّر لقبه ، وتلقّب بالملك الظاهر ، لأنه بلغه أن القاهر لقبٌ غير مبارك .

وكان بيبرس هذا قد سأل من قطز نيابة حلب ، فلم يُجبْه إليها ، ليكون ما قدر الله تعالى ، فكأنّ القَدَرَ قال له حين سأل نيابة حلب : لا تستعجل فإنك عن قريب تتولى السلطنة ، ولما حلف الناس له بالصالحية ، ساق فى جماعة من أصحابه وسبق العسكرَ إلى قلعة الجبل ، ففتحت له ودخلها ، واستقرّت قدمه فى المملكة .

(١) [ ] إضافة من المختصر ج ٣ ص ٢٠٨ .

وكانت مصر والقاهرة قد زُيّنتا لقدوم الملك المظفر قطز ، فاستمرت الزينة للملك الظاهر بيبرس البندقداري (١) ، فسبحان الله الفعال لما يريد .

وقال ابن كثير : ولما قتل الأمراء السلطان المظفر قطز حاروا فيما بينهم لمَنْ يملكون عليهم ، وصار كل واحد منهم يخشى غائلة ذلك ، وأنه يقتل سريعا (٢) ، ثم اتفقت كلمتهم على أن بايعوا الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري ، ولم يكن من أكابر المقدمين ولكن أرادوا أن يجربوا فيه ، ولقبوه الملك القاهر ، فقال له الوزير : إن هذا اللقب لم يفلح من تلقب به ، فقد تلقب به القاهر بن المعتضد ، فلم تطل أيامه حتى خلع وسمل ، وتلقب به القاهر بن صاحب الموصل ، فسُمَّ فمات (٣) .

قلت : لما قتل الأمير بيدرا السلطان الملك الأشرف خليل بن الملك المنصور قلاون على الطرانة ، كما يجيء في موضعه ، تسلطن وتلقب بالملك القاهر ، وضربت رقبته من يومه .

ولما سمع بيبرس بذلك عدل عن القاهر إلى الملك الظاهر .

وقال بيبرس في تاريخه : استقر الملك الظاهر في السلطنة يوم قتل المظفر وهو يوم السبت السابع عشر من ذي القعدة من هذه السنة (٤) ، وطلع القلعة سحر يوم الإثنين التاسع عشر منه ، وابتدأ بأخلاف الأمراء والأكابر وسائر العساكر والوزراء والحكام وأرباب الوظائف والأقلام على الإختلاف في مراتبهم

(١) المختصر جـ ٣ ص ٩٧ — ٢٠٨ .

(٢) « وأن يصيبه ما أصاب غيره سريعا » البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٢٢ .

(٣) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٢٢ .

(٤) ويتفق ابن عبد الظاهر مع العيني في أن السبت ١٧ ذي القعدة ٦٥٨ هـ هو يوم مقتل قطز وتولية بيبرس — الروض الزاهر ص ٦٨ .

وطبقاتهم ، فحلفوا جميعا ، وصرف همته إلى تدبير دولته وتمهيد مملكته واستمالة الخواطر واستجلاب قلوب الأكابر [٤٤] والتحيل على من تجب الحيلة عليه ، والترغيب لمن تميّله الرغبة إليه ، وانقضت هذه السنة ولم يركب موكب السلطنة حتى وكّد الأسباب ، وسدّ ما يخاف فتحه من الأبواب (١) .

وقال بيبرس أيضا : لما قتلوا قطز كانت أوائل العسكر قد وصلت إلى المنزلة ، ولم يشعروا بما كان ، ولا علموا بعدم السلطان ، ثم لما نزل الأمراء الذين قتلوه وتشاوروا فيمن يقوم بالأمر وتردّد الكلام بينهم ، فمنهم من يظهر الامتناع ومنهم من يأبى الاستماع ، فقال لهم الأمير فارس الدين أقطاى الأتابك المستعرب : مَنْ هو الذى علاه بسيفه وعاجله أولا بحتفه ؟ فقالوا : الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارى . فقال : الضارب الأول أولى ، ونحن نراه للملك أهلا ، فأجمعوا رأيهم عليه وأجلسوه على الطراحة الملوكيّة ، ووقفوا بين يديه ، ورأوا أن المصلحة فى السُرعة وطلوع القلعة قبل أن يَفْشُ الأمر ، ويشعر به خوشداشية المظفر و إلزامه ، فربما ينتقض ما أُبرم أحكامه ، فركبوا مسرعين ، وساروا سابقين ، وقدّموا الأمير عزّ الدين أيدُمر الحلّى ليسبقهم إلى القلعة ، فيستفتح لهم الأبواب و يستصلح النُّواب ، فسبق وطلع إليها ، وتحدث مع الأمراء المقيمين بها ، وأعلمهم أن المظفر قد قتل ، والبندقدارىّ قد ملك ، ووصل ، وأن اتفقوا على الرضى به والحلف له ، فاستحلفهم الأيمان المؤكّدة ، وقرّر معهم القاعدة ، وأقبل الركن البندقدارىّ ، فتوقل فارب قلّتها (٢) ، وتسنّم كاهل

(١) هذه العبارات ساقطة من مخطوط زبدة الفكرة التى بين أيدينا وموضعها فيا بين ورقة ٤٠ ب و ٤١ أ .

(٢) أى صعد إلى أعلى مكان بالقلعة — انظر مواد : وقل — قرب — قلة — فى القاموس .

ذُرَوِتِها ، بغير ممانع يمانعه ، ولا معارض يعارضُه ، ورحل العسكر من تلك المنزلة على الإثر وقد تنسَّمُوا أنفاس الخبر ، فوصلوا إلى القاهرة والحال قد استتمّ ، والظاهر قد استقرّ له الملك وانتظم .(١)

(١) هذه العبارات ساقطة من مخطوط زبدة الفكرة التى بين أيدينا وموضعها فيما بين ورقة ٤٠ ب و٤١ أ .

ذِكْرُ سَلْطَنَة الملك المُجَاهد فى دِمَشْق

قد ذكرنا أن السلطان الملك المظفر قطز لما انتصر على التتار، ودخل دمشق ولَّى عليها الأمير علم الدين سنجر الحلبي أحد الأتراك ، ولما استقر فيها نائبا شرع فى العشر الأخير من ذى القعدة [٤٤٥] فى عمارة قلعة دمشق ، وجمع لها الصناع وكبراء الدولة والناس ، وعملوا فيها حتى عملت النساءُ أيضا ، وكان عند الناس بذلك سُرورٌ عظيم ، ثم فى العشر الأول من ذى الحجة من هذه السنة دعا الناس إلى نفسه ولقب نفسه بالملك المجاهد ، وذلك لما بلغه مقتل المظفر قطز ، ودخل القلعة ، واستقر فيها زاعما أنه سلطان .

قال ابن كثير : ولما جاءت البيعة للملك الظاهر بيبرس خطب له يوم الجمعة السادس من ذى الحجة ، فدعى الخطيب للظاهر أولا ثم للمجاهد ثانيا (١) ، وضربت السكة باسمهما معا أيضا ، ثم ارتفع المجاهد هذا من البَيْن على ما سيأتى بيانه إن شاء الله تعالى .

وفى تاريخ المؤيد : ولما بلغ علم الدين سنجر الحلبى الذى استنابه المظفر قطز على دمشق قتلُ قطز ، جمع الناس وحلَّفهم لنفسه بالسلطنة ، وذلك فى العشر الأول من ذى الحجة من سنة ثمان وخمسين وستمائة ، فأجابه الناس إلى ذلك ، وحلفوا له ، ولم يتأخر عنه أحد ، ولقب نفسه بالملك المجاهد ، وخطب له

(١) « فدعى الخطيب أولا للمجاهد ثم للظاهر ثانيا » — البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٢٣ .

بالسلطنة ، وضربت السكة باسمه ، وكاتب الملك المنصور صاحب حماة فى ذلك فلم يُجبه ، وقال : أنا مع من يملك(١) الديار المصريّة كائنًا مَنْ كان(٢) .

(١) « ملك » فى الأصل ، والتصحيح من المختصر .

(٢) المختصر ج ٣ ص ٢٠٨ .

ذكر عود التتار إلى الشام

وفى هذه السنة تحرك التتار، وتوجهوا إلى جهة الشام، وقربوا من البيرة على الفرات، ولما بلغ ذلك نائب حلب الذى ولاه السلطان الملك المظفر قطز، وهو الملك السعيد بن صاحب الموصل، وكان قد جرّد(1) جماعة من العزيزية والناصرية، وأرسل إلى التتار جماعة قليلة من العسكر، وقدّم عليهم الأمير سابق الدين أمير مجلس الناصرى، فأشار عليه كبراء العزيزية بأن هذا ما هو مصلحة، فإن هؤلاء قليلون، ويحصل الطمع بسببهم فى البلاد، فلم يلتفت إلى ذلك وأصرّ على مسيرهم، فسار سابق الدين أمير مجلس بمن معه حتى قاربوا البيرة، فوقع عليهم التتار، فهرب منهم ودخل [٤٤٦] البيرة بعد أن قتل غالب من كان معه.

فإزداد غيظ الأمراء على الملك السعيد بسبب ذلك، واجتمعوا وقبضوا عليه، ونهبوا وطاقه، وكان ردئ السيرة، وقد أبغضته العسكر، وكان قد برّز إلى باب اللالا المعروف بباب الله، ولما استولوا على خزائنه لم يجدوا فيها مالاً طائلا، فهددوه بالعذاب ليُقَرّ لهم، فنبش من تحت أشجار حائر(2) دار بباب اللالا جملةً من المال قيل: كانت خمسين ألف دينار من الذهب المصرى، ففرقت فى الأمراء،

---

(1) «وكان قطز قد جرد جماعة» فى الأصل، والتصحيح من المختصر جـ ٣ ص ٢٠٨ إذ ورد به: «وبلغ الملك السعيد المذكور مسير التتر إلى البيرة فجرد إلى جهتهم جماعة قليلة من العسكر».

(2) «حائط» فى المختصر جـ ٣ ص ٢٠٩.

وحمل الملك السعيد المذكور إلى الشغر وبكاش معتقلا فيها ، ثم لما اندفع العسكر بين يدى التتار كما سنذكره ، أفرجوا عنه .

ولما جرى ذلك اتفقت العزيزية والناصريّة وقدموا عليهم الأمير حسام الدين الجوكندار العزيزى ، ثم سارت التتار إلى حلب ، فاندفع حسام الدين الجوكندار والعسكر الذين معه بين أيديهم إلى جهة حماة ، ووصلت التتار إلى حلب فى أواخر هذه السنة ، وملكوها ، وأخرجوا أهلها إلى قَرَنْبِيَه واسمها مقرُّ الأنبياءَ ، ولما اجتمع المسلمون هناك بذلوا فيهم السيف ، فأفنوا غالبهم ، وسلم القليل منهم ، ووصل حسام الدين الجوكندارَ ومَنْ معه إلى حماة ، فضيَّفهم الملك المنصور محمد صاحب حماة ، وهو مُستشعر منهم ، خائف من غدرهم ، ثم رحلوا عن حماة إلى حمص ، ولما قارب التتار حماة خرج منها صاحبها الملك المنصور وصحبته أخوه الملك الأفضل علىّ والأمير مبارز الدين ، وباقى العسكر ، واجتمعوا بحمص مع باقى العسكر إلى أن خرجت هذه السنة (١) .

وفى يوم الجمعة خامس المحرم من السنة الآتية وهى سنة تسع وخمسين وستمائة كانت كسرة التتار على حمص ، وكانت التتار ساروا إليهم ، فاجتمعت العساكر الحلبيَّة والحَماوِيّة والحمصية مع صاحب حمص الملك الأشرف ، واتفقوا على ملاقاة التتار ، فالتقوا بظاهر حمص فى نهار الجمعة المذكور ، وكان التتار أكثر من المسلمين بكثير ، ففتح الله عز وجل على المسلمين بالنصر ، [٤٤٧] وولت التتار منهزمين ، وتبعهم المسلمون يقتلون ويأْسرون منهم كيف شاءُوا ، ووصل الملك

(١) انظر المختصر جـ ٢ ص ٢٠٩ .

المنصور إلى حماة بعد هذه الوقعة ، وانضم مَن سلم من التتار إلى باقي جماعتهم ، وكانوا نازلين قرب سلميَّة ، واجتمعوا ونزلوا على حماة ، وبها صاحبها الملك المنصور ، وأخوه الملك الأفضل والعساكر ، وأقام التتار على حماة يوما واحدا ، ثم رحلوا عن حماة إلى أفامية ، ثم رحلوا عنها إلى الشرق[1] .

وقال ابن كثير : وكانت كسرة التتار على حمص قريبا من قبر خالد بن الوليد رضى الله عنه ، وكانت أعظم من كسرة عين جالوت بكثير لكثرة التتار وقلة المسلمين ، وكانت التتار فى ستة آلاف والمسلمون ألف وأربعمائة[2] .

وحكى الأمير نور الدين القيمرى قال : كنت فى القلعة فرأيتُ بعينىَّ طيورا بيضاء قد أقبلت ، وجعلت تضرب وجوه التتار بأجنحتها .

ثم بعد إنكسارهم ذهبوا إلى حماة ، وبها صاحبها الملك المنصور ، فأقاموا عليها يومًا واحدًا ، ثم رحلوا عنها إلى أفامية ، وكان قد وصل إليها سيف الدين الديبلى الأشرفى ومعه جماعة ، فأقام بقلعة أفامية ، وبقى يُغيرُ على التتار ، فرحلوا عنها ونزلوا على حلب وأحاطوا بها وضربوا رقاب جماعة ، ولم يتركوا أحدا يخرج منها ولا يدخل إليها ، فأقاموا كذلك اربعة أشهر حتى غلت الأسعار بحلب ، وأكلت الناس الميتات والجلود والبغال والحمير ، وبلغ الرطل من اللحم إلى سبعين درهما ، والرطل اللبن إلى خمسة عشر درهما ، والرطل السكر إلى مائة درهم ، والرطل من عسل النحل إلى خمسين درهما ، والرطل من الشراب إلى سبعين درهما ، وأبيع الحَذى بمائة درهم ، والدجاجة بعشرة دراهم ، والبيضة بدرهم

(١) انظر المختصر جـ ٣ ص ٢٠٩ .

(٢) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٣٠ .

ونصف ، والبصلة بنصف درهم ، وحزمة البقل بنصف درهم وبدرهم ، والتفاحة بخمسة دراهم .

وحكى بدر الدين الصمرخدى التاجر قال : كانت عندى أربع بقرات ، فكنت أحلب منها كل يوم كفايتى وأبيع الباقى بمائة وأربعين درهما ، وأعطيتُ فيها ستة آلاف درهم فأبيت ، [٤٤٨] وبعت خمسة تفاحات وثلاث خراف بتسعمائة درهم ، والذى إشتراها منى إستفاد فيهم مائتى درهم .

وبعد أربعة أشهر توجّه التتار من حلب إلى الشرق .

ذكر بقيّة الحوادث فى هذه السنة :

منها : أن السلطان الملك الظاهر بيبرس كتب للناس مسموحا بما كان الملك المظفر قطز قد قرّره عليهم وهو ستمائة ألف دينار فى كل سنة تجىء من الناس بغير موجب (١) .

ومنها : أن جمعًا من السودان اجتمعوا بالقاهرة والركبدارية (٢) والغلمان (٣) ، وخرجوا بليل فى وسط المدينة ينادون يا آل علىّ ، وفتحوا دكاكين السيوفيين بين

(١) ذكر المقريزى أن قطز « أحدث فى هذه السنة حوادث كثيرة عند حركته لقتال التتر : منها تصقيع الأملاك وتقويمها ، وأخذ زكاتها من أربابها ، وأخذ من كل واحد من الناس من جميع أهل إقليم مصر دينارا ، وأخذ من الترك الأهلية (التركات) ثلثها ، فأبطل الملك الظاهر جميع ما أحدثه قطز » — السلوك جـ ١ ص ٤٣٧ ، ٤٣٨ .

(٢) الركبدار — الركابدارية : هم الذين يحملون الغاشية بين يدى السلطان فى المواكب ، وهم تابعون للركاب خاناة أى بيت الركاب — صبح الأعشى جـ ٤ ص ٧ ، ١٢ .

(٣) الغلمان : جمع غلام ، وهو الصبى الصغير والمملوك ، ثم غلب على من يقوم بخدمة الخيل من أرباب الخدم ، وربما أطلق على غيرهم من رجال الطشت خاناة ونحوهم — صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٧١ .

القصرين ، وأخذوا ما فيها من السلاح ، وأخذوا خيل الجند من بعض الإصطبلات ، و كان الباعث لهم على ذلك شخص يعرف بالكورانى تظاهر بالزهد والمشيخة ، وعمل له قُبّة على الجبل الأحمر وأقام بها ، وتردّد بعض الغلمان إليه وأقبلوا عليه ، فأجرى معهم هذا الأمر ووعدهم بالإقطاعات ، وكتب لبعضهم رقاعا ببلاد معيّنة ، فثاروا هذه الثورة ، فركبت جماعة من العسكر وأحاطوا بهم ، وأُخِذُوا أخذًا وبيلاً ، فأصبحوا مصلّبين على بابى زويلة ، وسكنت الفتنة .(١)

قال القائل :

مَعْشَرٌ أشبهوا القُرودَ ولكن خالفوها فى خفّة الأرواح

ومنها من الأمور العجيبة الغريبة : أن فى أول هذه السنة كانت الشام للملك الناصر يوسف بن الملك العزيز بن الملك الظاهر غازى بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، ثم فى النصف من صفر منها : صارت لهلاون اللعين ملك التتار ، ثم فى آخر رمضان : صارت للملك المظفر قطز ، ثم فى أواخر ذى القعدة : انتقلت إلى مملكة السلطان الملك الظاهر بيبرس وقد شاركه فى دمشق الملك المجاهد علم الدين سنجر كما ذكرناه .

وكذلك كان القاضى فى أول السنة بالشام صدر الدين بن سنىّ الدولة ، ثم تولى الكمال عمر التفليسى ، ثم تولى محى الدين بن الزكى ، ثم تولى نجم الدين بن سنى الدولة .

وكذلك كان الخطيب بجامع دمشق فى أول السنة : عماد الدين بن الحرستانى ، وكان من سنين متطاولة فعزل فى شوال من هذه السنة بالعماد الإسعردى ، وكان

(١) انظر السلوك جـ ١ ص ٤٤٠ .

[٤٤٩] صَيِّتاً قارئاً مجيدا ، ثم أعيد العماد بن الحرستانى فى أول ذى القعدة منها .

فسبحان الذى يُغيِّر ولا يتغيَّر .(١)

ومنها : أن الناس فى دمشق ابتلوا بغلاء شديد فى سائر الأشياء من المأكول والملبوس وغيرهما ، فبلغ الرطل من الخبز إلى درهمين والرطل من اللحم إلى خمسة عشر درهما(٢) ، والأوقية من القنبريس الى درهم ، والأوقية من الجبن إلى درهم ونصف ، والأوقية من الثوم الى درهم ، والرطل من العنب إلى درهمين ، ومن أكبر أسبابه ما أحدثه الفرنج من ضرب الدراهم المعروفة باليافيّة وكانت كثيرة الغش .

قال أبو شامة : بلغنى أنه كان فى المائة منها خمسة عشر درهما فضة والباقى نحاس ، وكثرت فى البلد كثرة عظيمة وتُحُدِّث فى إبطالها مرارا ، فبقى كل من عنده منها شيء كان حريصا على إخراجه خوفا من بُطلانها ، فتزايدت الأسعار بسبب ذلك إلى أن بطلت فى أواخر السنة ، فعادت تباع كل أربعة منها بدرهم ناصرى مغشوش أيضا بنحو النصف(٣) .

وفيها : « ... ... »(٤) .

وفيها : حج بالناس « ... ... »(٥) .

---

(١) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٢٢ — ٢٢٤ .

(٢) « ورطل اللحم خمسة دراهم » — الذيل على الروضتين ص ٢١١ .

(٣) انظر الذيل على الروضتين ص ٢١١ .

(٤) ، (٥) « ... » بياض فى الأصل .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

قاضي القضاة أحمد(1) بن يحيى بن هبة الله بن الحسن(2) بن يحيى بن محمد بن على ابن يحيى بن صدقة بن الخياط ، صدر الدين أبو العباس أحمد بن سنى الدولة الثعلبي الدمشقى .

وسنىّ الدولة هو الحسن بن يحيى المذكور .

كان قاضيا لبعض ملوك دمشق فى حدود الخمسمائة ، وله أوقاف على ذريته ؛ وابن الخياط الشاعر — صاحب الديوان — هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن علىّ بن يحيى بن صدقة الثعلبىّ ، عم سنى الدولة .

ولد القاضي صدر الدين سنة تسع وثمانين وخمسمائة ، وسمع ابن طبرزد ، والكندى ، وغيرهما ، وحدّث ودرّس فى عدّة مدارس ، وأفتى ، وكان فاضلا عارفا بالمذهب ، وقد ولى الحكم بدمشق استقلالا سنة ثلاث وأربعين ، واستمرّ إلى هذه السنة ، فسار حين عزل بالكمال التفليسىّ هو والقاضي محيي الدين بن الزكى إلى هلاون كما ذكرنا ، ثم عادا من عنده ، وقد تولى ابن الزكىّ ، فاجتاز

(1) وله ايضا ترجمة فى : المنهل الصافى ج ٢ ص ٢٥٧ رقم ٣٣٦ ، الوافى ج ٨ ص ٢٥٠ رقم ٣٦٨٨ ، ذيل مرآة الزمان ج ١ ص ٣٨٥ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٢٤ ، العبر ج ٥ ص ٢٤٤ ، شذرات الذهب ج ٥ ص ٢٩١ .

(2) « الحسين » فى الأصل ، والتصحيح من مصادر الترجمة .

ابن [٤٥٠] سنيّ الدولة ببعلبك ، وهو متمرِّض فمات بها ، ودفن عند الشيخ عبد الله اليونيني .

وكان الملك الناصر يثني عليه ، كما كان الملك الأشرف يثني على والده قاضى القضاة شمس الدين بن سنيّ الدولة .

ولما استقرّ أمر السلطان الملك الظاهر بيبرس ولىّ ولده القاضى نجم الدين أبا بكر بن قاضى القضاة صدر الدين القضاء بدمشق ، وعزل ابن الزكىّ ، ثم عزله بعد سنة ، على ما سيأتى إن شاء الله .

وقال ابن كثير : والقاضى صدر الدين بن سنى الدولة هذا هو الذى أحدث فى زمن المشمش بطالة التدريس لأنه كان له بُستان بأرض السهم ، فكان يشقّ عليه النزول منه فى ذلك الوقت إلى الدرس ، ثم اتبعه الناس فى ذلك(١) .

شَرَفُ الدّين عبد الرحمن(٢) بن عبد الرحيم بن عبد الرحمن بن الحسن بن عبد الرحمن ابن طاهر بن محمد بن الحسين بن علىّ ، أبو طالب شرف الدين بن العجمى الحلبى الشافعى .

من بيت العلم والرئاسة بحلب ، درس بالظاهرية ، ووقف بها مدرسة ، ودفن فيها ، وكانت وفاته حين دخل التتار حلب فى صفر ، فعذّبوه بأن صبُّوا عليه ماءً باردا فى الشتاء ، فتشنّج حتى مات .

---

(١) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٢٤ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ٢٥ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٢٥ ، العبر جـ ٥ ص ٢٤٧ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٩٢ .

الشيخ الحافظ الحسين أبو حامد الدمشقيّ(١) الشافعي المعروف بابن عساكر .

مات في هذه السنة بنابلس، وهو متوجه من مصر إلى دمشق، وجدّه الإمام الحافظ أبو القاسم علىّ صاحب التصانيف المشهورة منها : تاريخ دمشق .

الشيخ الفقيه عمر بن عبد المنعم بن أمين الدولة الحلبيّ الحنفي(٢) .

استشهد في الوقعة المذكورة بحلب في هذه السنة .

الشيخ أبو الفتح بن أبي المكارم الطَرسُوسِيّ .

استشهد في الوقعة المذكورة بحلب في هذه السنة .

الشيخ محمد اليُونيني(٣) الحنبلي البعلبكي الحافظ : هو محمد بن أحمد بن عبد الله ابن عبد الله بن عيسى بن أبي الرجال أبو عبد الله بن أبي الحسين اليونيني الحنبلي ، تقي الدين الحافظ المفيد البارع العابد الناسك .

ولد سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة ، وسمع الخشوعي ، والكندي ، والحافظ عبد الغني المقدسيّ وكان يثني عليه ، وتفقه على الشيخ الموفق ولزم صحبة الشيخ عبد الله اليُونيني ، [٤٥١] وانتفع به ، وكان الشيخ عبد الله يثني عليه ويقدّمُه ويقتدي به في الفتاوى الشرعيّة ، وقد لبس الخرقة من شيخه عبد الله البطائحي ، وبرع في علم الحديث ، وجمع الجمع بين الصحيحين بالفاءِ والواو ، وقطعةً صالحةً

(١) وله أيضا ترجمة في : الذيل على الروضتين ص ٢٠٩ .

(٢) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٤٤ .

(٣) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي ، الوافي جـ ٢ ص ١٢١ رقم ٤٦٧ ، العبر جـ ٥ ص ٢٤٨ ، الذيل على الروضتين ص ٢٠٧ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٢٧ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٩٤ ، ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ٣٨ — ٧٤ .

من مسند الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه، وكان يعرف العربيّة، أخذ ذلك عن تاج الدين الكنـدى، وكتب مليحا حسنا، وكان النـاس ينتفعون بفنونه الكثيرة، وحصلت له وجاهة عظيمة عند الملوك وغيرهم.

وكان ولده يقول: إن والدى لا يقبل شيئاً من الصدقة، ويزعم أنه من ذرية جعفر الصادق رضى الله عنه بن محمـد الباقر زين العابدين بن الحسين بن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنهم، وذكر أنه مات فى التاسع عشر من رمضان من هذه السنة عن ثمان وثمانين سنة.

وقال أبو شامة: وكان رجـلا ضخما[1]، وحصل له قبـول كثير من الأمراء وغيرهم، وكان يلبس قبعا صوفه إلى خارج[2]، يعنى كما كان شيخه عبد الله اليونينى. قال: وصنف شيئاً فى المعراج، فرددت عليـه فى كتاب سميته: الواضح الجلى فى الرّد على الحنبلى[3].

الملك السّعيد نجم الدين إيل غازى[4] بن المنصـور أرتق بن أرسـلان بن إيل غازى بن تمرتاش بن إيل غازى بن أرتق.

مات فى هذه السنة وكان شيخا معظما.

---

(١) «وكان شيخا» — الذيل على الروضتين.

(٢) «يلبس على رأسه قبع فرو أسود صوفه إلى الخارج بلا عمامة» — الذيل على الروضتين.

(٣) الذيل على الروضتين ص ٢٠٧.

(٤) وله أيضا ترجمـة فى درة الأسلاك ص ٢٦، المنهل الصافى جـ ٣ ص ١٨٨ رقم ٦١٣، النجـوم الزاهرة جـ ٧ ص ٩٠، ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٣٧٨، وجـ ٢ ص ١٤ وما بعدها، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٢٤.

الملك المعظّم توران شاه بن الملك الناصر السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب (١).

كان نائبا للملك الناصر يوسف بن العزيز بن الظاهر على حلب حين تملك دمشق، وقد حصّنَ حلب من أيدى المغُول مُدّة شهر، ثم سلمها بعد محاصرة شديدة صلحا، ثم كانت وفاته فى هذه السنة بحلب، ودُفِنَ بدهليز داره، وذلك بعد الوقعة بأيام.

الملك السعيد حسن (٢) بن الملك العزيز عثمان بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب.

صاحب الصُبَيْبة وبانياس بعد أبيه، ثم أخذتا منه وحبس بقلعة البيرة، فلما جاءت التتار كان معهم، وردوا عليه بلاده، فلما كانت وقعة عين جالوت جاء بعد الوقعة أسيرا إلى حضرة الملك المظفر قطز، [٤٥٢] فضرب عنقه لأنه كان قد لبس سراقوج (٣) التتار، فناصحهم.

الملك مَنْكُوقَان (٤) بن طلوخان بن جنكزخان ملك التتار.

هلك فى هذه السنة بمقام نهر الطاى من بلاد أيغوُر وهو قاصد غَزْو الخطا، وكان فيما يقال يتمذهب بمذهب النصرانيّة والفلاسفة ويميل إليها، فمات عليها، لعنه الله.

---

(١) وله أيضا ترجمة فى: المنهل الصافى جـ ٤ ص ١٨٠ رقم ٨٠٣، النجوم الزاهرة جـ٧ص ٩٠، العبر جـ ٥ ص ٢٤٥، ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٤٢٩، جـ ٢ ص ١٥ وما بعدها، السلوك جـ ١ ص ٤٤٠، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٩٢.

(٢) وله أيضا ترجمة فى: المنهل الصافى، ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ١٦، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٩٢، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٩٢.

(٣) لباس الرأس عند التتار.

(٤) انظر جامع التواريخ المجلد الثانى جـ ١ ص ٣٠٨، نهاية الأرب جـ٢٧ ص ٣٩٢.

وكان[1] موته فتحا للإسلام ، لأنه أوجب عود هلاون اللعين عن ديار الشام ، وبذلك تمت للمسلمين النصرة ، وطمّت المشركين الكسرة .

وذلك أن أربيكا[2] أخا منكوقان كان نائبه فى المملكة بكرسى قرا قروم ، فلما مات أخوه منكوقان أراد الاستيلاء على المملكة ، وكان أخوه قبلاى خان مجرداً ببلاد الخطا ، جرده إليها أخوه منكوقان من حين جلوسه فى الدست[3] ، وأرسل بركة يقول لأربيكا : أنت أحق بالقانية لأن منكوقان رتبك فيها فى حياته ، وانضم إليه بنو عمه يحيى بن أوركدية[4] وإخوته ، واتفق عود أخيه قبلاى من بلاد الخطا ، وسار أربيكا لحربه والتقيا فاقتتلا ، فكانت الكسرة على قبلاى ، وانتصر عليه أربيكا ، فأخذ الغنائم والسبايا واحتجزها لنفسه ، ولم يسهم لبنى عمه بشىء ، فوجدوا عليه ، ونفروا منه ، ومالوا إلى قبلاى ، فأعاد القتال معه ، فاستظهر عليه وأخذ أربيكا أسيرا .

واستقر قبلاى فى القانية[5] ، وسقى أخاه سمّا فمات ، وطالت مدة قبلاى فى المملكة ، واستقر إلى سنة ثمان وتسعين وستمائة[6] .

---

(١) « وكان » مكررة فى الأصل .

(٢) هكذا فى الأصل فى هذا الموضع والمواضع التالية و « أرنبكا » فى نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٥٣ . كما ورد أيضا « أريق بوكا » و « أرغبغا » نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٥٢ هامش (٤) .

(٣) « بجلس فى دست القانية » فى نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٥٣ .

(٤) « أوركتاى » فى نهاية الأرب .

(٥) « فى قراقورم » فى نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٥٤ .

(٦) هكذا فى الأصل ، و « سنة ثمان وثمانين وستمائة » فى نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٥٥ ، وورد فى جامع التواريخ أنه توفى سنة ٦٩٣ هـ ، وكذلك أيضا فى تاريخ الدول الإسلامية ص ٤٧٥ .

فبلغ ذلك هلاون(1) ، وهو نازل على حلب ، فانزعج وعاد رجاء أن يكون له في الأمر نصيب ، فلما وجد أخاه قبلاى مستقرًا استقرّ بالأقاليم التي فتحها ، فصارت في يده ويد ذريته إلى يومنا هذا(2) .

وكان عز الدين كيكاوس وأخوه ركن الدين قليج أرسلان سلطانا الروم في خدمة هلاون لما فتح حلب ، ولما رفع السيف من أهلها تقدّم إليه البرواناه وضرب الجوك(3) وقال : إن أذن لى القان أقول كلمتين بين يديه ، فقال له : قل . قال : من قصة عيسى [٤٥٣] ابن مريم عليهما السلام أنه أحيى الأموات ، فأطاعه أهل الأرض وآمنوا به حتى تغالوا في قصته ، وقالوا بربوبيته ، والقان في هذا الوقت أحيى هذه النفوس وصان هذه الرءوس ، فلابدّ أن تطيعه البقاع والأقاليم والقلاع ، وينفذ حكمه في الشرق والغرب ، ويثقون بعهده ووعده ، فحسن موقع كلامه عنده وسأل عن حسبه ونسبه ، فعرف به ، وهو أن أباه في أيام السلطان علاء الدين كيقباذ حضر إلى سعد الدين المستوفى بالروم ، وكان نافذ الحكم في الإطلاق وإجراء الأرزاق ، فسأله أن يجرى عليه جاريا يقتات به من بعض المدارس يكون درهما في اليوم ، وكان شابًا جميلا وسيمًا من طلبة العلم ، واسمه مهذب الدين على ، وأصله من الديلم ، فمال إليه المستوفى لما رآه من سَمْتِه وسِمَتَه فقال له : أريدُ أن أصيرك منى مكان الولد ، وأجود لك بما

(١) أى بلغه وفاة منكوقان وتولية قبلاى — انظر نهاية الأرب ٢٧ ص ٣٥٣ .

(٢) نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٥٣ — ٣٥٤ .

(٣) الجوك : لفظ تترى معناه الجلوس على الركبتين كعادة المغول في حضرة ملوكهم — السلوك جـ ١ ص ٦٠٥ حاشي (٣) .

أحد، ثم قرّبه وأدناه، وأحبّه، وزوّجه من إبنتـه ، وخوّله فى نعمته، واتفقت وفاة المستوفى بعـد ذلك ، فوصف مهذب الدين للسلطان علاء الدين بالفضيلة والمعرفة والكفاية والأهليّة للمناصب ، فرشحه للوزارة وألقى عليه مقاليد الإمارة ، فرزق معين الدين سليمان المسمّى بَرْواناه (١) ، فهو ابن وزير السلطان غياث الدين .

ولمـا أخبر هـلاون بأمره قال للسلطان ركن الدين : من الآن لا يتردّد إلىّ فى الأشغال أحد سواه ، فترقت منزلته من يومه ذلك حتى صار فيما بعد حاكما على المـمالك .

وفارق المذكوران هلاون ، وعاد كل منهما إلى مستقره ، إلى أن كان منهما ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

الأمير كَتْبغا نُوين (٢) : نائب هلاون على بلاد الشام ، وقد فتح لأستاذه هلاون من أقصى بلاد العجم إلى الشام ، وقد أدرك جنكز خان جدّ هلاون .

وكان كتبغا نوين هذا يعمل للسلمين ببلاد خراسان والعراق فى حروبه أشياء لم يسبقه إليها أحد، كان إذا فتح بلدا ساق المقاتلة منه إلى البلد الذى يليه، ويطلب من أهل البلد أن يأووا هؤلاء إليهم ، فإن فعلوا حصل مقصوده فى مضيق الأطعمة والأشربة عليهـم ، فتقصر مدة حصارهم ، وإن امتنعوا قاتلهم [٤٥٤] بهؤلاء حتى يفنى هؤلاء ، فإن حصل ، [يكون] (٣) الفتح ، وإلا كان قد أَضْعَفَ أولئك بهؤلاء ، ثم

(١) انظر نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ١١٢ — ١١٣ .

(٢) انظر أيضا : المنهل الصافى ، نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٩١ ، العبر جـ ٥ ص ٢٤٧ — ٢٤٨ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٧٨ — ٨١ ، ٩٠ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٩١ ، ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٣٦١ .

(٣) [ ] إضافة للتوضيح .

استأنف قتالهم بجنده حتى يفتحه ، وكان يبعث إلى الحصن يقول لهم : إنّ ماءكم قد قلّ ، فافتحوا صلحا قبل أن آخذه قسرا ، فيقولون إن الماء عندنا كثير ، فيقول : إن كان كثيرا انصرفت عنكم ، فيقولون : ابعث من يشرف على ذلك ، فيرسل رجالا من جيشه معهم رماحٌ مجوّفة محشوّة سُمًّا ، فإذا دخلوا قاسوا ذلك الماء بتلك الرماح ، فيفسح ذلك السم ويستقرُّ في الماء ، فيكون سبب هلاكهم ولا يشعرون .

وكان لعنه الله شيخا كبيرا قد أسنّ ، وكان يميل إلى دين النصارى ولكن لا يمكنه الخروج عن حكم جنكزخان من الياساق .

وقال الشيخ قطب الدين اليونيني : وقد رأيته ببعلبك حين حاصر قلعتها ، وكان شيخا حسنا له لحية طويلة مسترسلة رقيقة قد ظفّرها مثل الدبُّوقة ، وتارة يعلقها في حلقة بأذنه ، وكان مهيباً ، شديد السطوة . قال : وقد دخل الجامع فصعد المنارة ليتأمل القلعة منها ، ثم خرج من الباب الغربي ، فدخل دكانا خراباً فقضى حاجته ، والناس ينظرون إليه وهو مكشوف العورة ، ولما فرغ مسحه بعضهم بقطن ملبّد مسحةً واحدةً .

قال : ولما بلغه بروز الملك المظفر إليه بالعساكر المصريّة تَلَوّم في أمره ، ثم حملته نفسه الأبيّة على لقائهم ، وظنّ أنه يُنْصر كما كانت عادته ، فحمل يومئذ على الميسرة فكسرها ، ثم أيّد الله المسلمين وثبّتهم ، فحملوا حملة صادقةً على التتار ، فهزموهم هزيمةً لاتنجبر أبدا ، وقتل كتبغا نوين في المعركة وأسر ابنه ، وكان شابًّا حسنًا ، فأحضر بين يدى المظفر قطز فقال له : أهَرَبَ أبوك ؟ فقال : إنه لا يهرب ، فطلبوه فوجدوه بين القتلى ، فلما رآه ابنه بكى وصرخ ، فلما تحققه

المظفر قال : هذا كان سعادة التتار ، وبقتله ذهب سَعْدُهم ، وكذا كان كما قال : لن تفلحوا بعده أبدا .

وكان قتله يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان ، وكان الذى تولى قتله فى المعركة الأمير جمال الدين أقوش الشمسى (١) .

ونُوين — بضم النون، وكسر الواو، وسكون الياء آخر الحروف، وفى آخره نون — ومعناه [٤٥٥] أمير عشرة آلاف ، وكل اسم من أسماء ملوكهم فى آخره نوين معناه رأس عشرة آلاف ، ويسمّى أيضا رأس تُومان .

الملك الناصر (٢) : الكلام فيه على أنواع :

الأول فى ترجمته : هو السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك العزيز محمد بن الملك الظاهر غازى بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن نجم الدين أيوب صاحب دمشق وحلب .

وكان مولده فى سنة سبع وعشرين وستمائة بحلب ، وكان قد تولى مملكة حلب بعد موت أبيه الملك العزيز وعمره سبع سنين ، وأقامت جدَّته ضَيْفة (٣) خاتون

(١) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٢٧ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ٢٧ ، العبر جـ ٥ ص ٢٥٦ ، ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ١٣٤ — ١٥٠ ، وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١٠ رقم ١٤٦ ، الذيل على الروضتين ص ٢١٢ ، فوات الوفيات جـ ٤ ص ٣٦١ رقم ٥٩٥ ، السلوك جـ ١ ص ٤٦٦ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٩٩ . ويوجد اختلاف فى المصادر فى سنة وفاته ٦٥٨ هـ أو ٦٥٩ هـ . انظر ما يلى .

(٣) « صفية » فى فوات الوفيات جـ ٤ ص ٣٦١ ، وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١٠ ، وهو تحريف . وقد توفيت ضيفة خاتون سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢م ـ السلوك جـ ١ ص ٣١١ .

بنت الملك العادل أبي بكر بن أيوب بتدبير مملكته ، واستقل بالملك بعد وفاتها في سنة أربعين وستمائة ، وعمره ثلاث عشرة سنة ، وزاد ملكه على ملك أبيه وجده ، فإنه ملك مثله[1] حرّان والرُها والرَقّة ورأس عين وما مع ذلك من البلاد ، وملك حمص ثم ملك دمشق وبعلبك والأغوار والسواحل إلى غزة ، وعظم شأنه ، وكسر عسكر مصر ، وخطب له بمصر وبقلعة الجبل كما ذكرنا ، وكان قد غلب على الديار المصرية لولا هزيمته ، وقتل مدبّر دولته شمس الدين لولو الأمينيّ ، ومخامرة مماليك أبيه العزيزيّة .

الثاني في سيرته : كان ملكا جيّدًا ، حليما جدًّا ، وجاوز به الحِلمُ إلى حدٍّ أضرّ بالمملكة ، فإنه لما أمنته قطاع الطريق في أيام مملكته من القطع والقتل تجاوزوا الحدّ في الفساد ، وانقطعت الطرق في أيامه ، وبقي لا يقدر المسافر إلا برفقة من العسكر ، وكثر طمع العرب والتركمان ، وكثرت[2] الحرامية ، وكانوا يكسرون أبواب الدور ، ومع ذلك إذا حضر القاتل بين يديه يقول : الحيُّ خير من الميت ويُطلقه ، فأدّى ذلك إلى انقطاع الطرقات وانتشار الحرامية ، وكان على ذهنه شيءٌ كثير من الأدب والشعر ، ويروى له أشعار كثيرة منها قوله :

فوالله لو قطّعتَ قلبي تأسّفًا　　وجرّعتني كاسات دمعي دمًا صِرْفا

لما زادني إلا هَوًى ومحبّة　　ولا تخذت روحي سواك لها إلْفَا

---

(١) « مثل » في الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق .

(٢) « وكثرت » مكررة في الأصل .

وكان يُطَبَخ فى مطبخه كل يوم أربعمائة رأس غنم ، وكانت سماطاته وتجمله فى الغاية القصوى ، وبنى بدمشق مدرسة(١) قريب الجامع وأوقف عليها [٤٥٦] وقفا جليلا ، وبنى بالصالحية تربة(٢) غرم عليها جملا مستكثرة ، فدفن فيها كَرْمُون ، وهو بعض أمراء التتار .

الثالثُ فى مقتله وصورته : أنه لما بلغ هلاون كسرة عسكره بعين جالوت ، وقتل كتبغا نوين نائبه ومقدم عساكره ، غضب من ذلك ، وأحضر الملك الناصر ، وكان عنده كما ذكرنا ، وكان وعده أن يردّه إلى ملكه ، وأقام عنده مدة ، فقال له : أنت ما قلت إن عسكر الشام فى طاعتك ، فغررت بى وقتلت المغول ، فقال الملك الناصر : لو كنت بالشام ما ضرب أحد فى وجه عسكرك(٣) بسيف ، ومن يكن ببلاد التتار(٤) كيف يحكم على بلاد الشام ، فاستوفى هلاون ياصجا(٥) وضربه به ، وقال : ياخوند الصنيعة ، فنهاه أخوه الظاهر غازى ، وكان معه ، عن ذلك ، وقال : قد حضرت ، ثم رماه بفردة ثانية فقتله ، ثم قتل أخاه الظاهر ، وأمر بضرب رقاب الباقين الذين كانوا معه ، وقتل الملك الصالح ابن صاحب حمص ، وكان معه أيضا ، والجماعة الذين معهم من الألزام والأتباع والحواشى .

---

(١) هى المدرسة الناصرية الجوانية بدمشق : داخل باب الفراديس شمالى الجامع الأموى — الدارس ج ١ ص ٤٥٩ وما بعدها .

(٢) التربة الناصرية : بجبل قاسيون — الدارس ج ٢ ص ١٩٨ .

(٣) « عسكرى » فى الأصل ، والتصحيح من المختصر ج ٣ ص ٢٠٩ ، و يتفق مع السياق .

(٤) « بلاد توريز » فى المختصر .

(٥) « ناصجا » فى المختصر .

واستبق الملك العزيز بن الملك الناصر لأنه كان صغيرا ، فبقى عندهم مدة طويلة وأحسنوا إليه ، ثم مات(١) .

وكان قتل الملك الناصر على جبال سَلَمَاس(٢) .

وقال بيبرس : وأمر هلاون بقتل ولده العزيز ، فشفعت إليه طُقُزْ خاتون زوجته فيه ، فعفا عنه(٣) .

وقيل : إنه كان أذن له هلاون فى العود إلى بلاد الشام ليستقرَّ بها على عادته ، فسار من عنده ، وفى مسيره بلغ هلاون خبر كسرة كتبغا نوين ، فأمر بأن يُرَدَّ الناصر من الطريق ، فلما جاءه الأمر بالرجوع قال :

أعلامهم على الحِمى لى بانَتْ		لما وصل الركبُ إليها بانَتْ
ما أعجل ما فى الحال منى خِفَيتْ		يا سَعْدُ كأنَّ فى منامى كانتْ

ولما استحث فى السير قال :

يا سائقها وجدا على الآماقِ		لا تعجل فى تفرُّق العشَّاقِ
واحبسْ نفسا تُحَظ بأجْرٍ وثنا		منا ومن المهيمن الخلاق

قال بيبرس : وكان قتله على جبال سَلماس(٤) .

وقال ابن خلكان : كان قتله فى الثالث والعشرين من شوال سنة ثمان وخمسين وستمائة بالقرب من [٤٥٧] مراغة من أعمال أذربيجان .

---

(١) انظر المختصر جـ ٣ ص ٢١١ — ٢١٢ .

(٢) سلماس : بفتح أوله وثانيه ، مدينة مشهورة بأذربيجان — معجم البلدان .

(٣) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٤٤ أ .

(٤) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٤٠ أ .

قال : وكان خروجه من دمشق فى صفر سنة ثمان وخمسين وستمائة[1] .

وذكر ابن كثير وغيره : أن قتله كان فى سنة تسع وخمسين وستمائة ، ولما بلغ خبر موته إلى دمشق عمل عزاؤه فى دمشق فى سابع[2] جمادى الأولى من سنة تسع وخمسين[3] .

(١) وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١٠ رقم ١٤٦ .

(٢) « فى تاسع » — الذيل على الروضتين ص ٢١٢ .

(٣) انظر أيضا العبر جـ ٥ ص ٢٠٦ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٩٩ .

فصل فيما وقع من الحوادث

فى السنة التاسعة والخمسين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة ، وأولها يوم الإثنين لأيام خلون من كانون الأول ، وليس للمسلمين خليفة ، و بغداد خراب ، و بلادها غير آمنة تحت ظلم وجَوْر من التتار طائفة جنكز خان .

وسلطان الديار المصريّة والشاميّة : الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى ، وشريكه فى دمشق و بعلبك والصُّبيبة و بانياس الأمير علم الدين سنجر الحلبي الملقب بالملك المجاهد ، وشريكه فى حلب الأمير حسام الدين لاجين الجوكندار العزيزى .

وصاحب الكرك والشوبك : الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل الكبير سيف الدين أبى بكر بن أيوب .

وصاحب صهيون وبرزية : الأمير مظفر الدين عثمان بن ناصر الدين منكورس .

وصاحب حماة : الملك المنصور بن تقى الدين محمود .

وصاحب حمص الملك الأشرف بن المنصور إبراهيم بن أسد الدين .

(*) يوافق أولها الإثنين ٦ ديسمبر ١٢٦٠ م .

وصاحب الموصل الملك الصالح إسماعيل بن بدر الدين لولو وأخوه الملك المجاهد صاحب جزيرة ابن عمر .

وصاحب ماردين : الملك السعيد نجم الدين إيل غازى بن أُرْتُق .

وصاحب بلاد الروم : ركن الدين قليج أرسلان بن غياث الدين كيخسرو السلجوقى ، وشريكه فى الملك أخوه كيكاوس ، والبلاد بينهما نصفان .

وصاحب مكة أبو نمى إبراهيم بن أبى سعد بن على بن قتادة الحسنى وعمه إدريس بن على شريكه .

وصاحب المدينة : الأمير عز الدين جماز بن شيحة الحُسَيْنى .

ذكر ما جريات الملك الظاهر ركن الدين بيبرس ، رحمه الله :

منها : أنه فى سابع صفر من هذه السنة [٦٥٨] ركب بشعار السلطنة ، وأظهر المهابة المتمكنة ، وشق المدينة ، وقد زُخرفت بالزينة . ونثرت عليه الدنانير والدراهم ، وأفيضت الخلع على الأمراء والمقدمين والوزراء والمتعممين على تفاوت أقدارهم ، وكتب إلى صاحب المغرب ، وصاحب اليمن ، وملوك الشام ، وثغور الإسلام ، بما قدّره الله له من القيام بأمر عباده وإيالة بلاده ، واستبشرت به القلوب ، وانجلت بدولته الكروب ، واستمر بالصاحب زين الدين يعقوب (١) ابن الزُبير بُرهةً يسيرة ، ثم عزله وولى الصاحب بهاء الدين على بن عماد الدين (٢)

(١) هو يعقوب بن عبد الرفيع بن زيد بن مالك ، الصاحب زين الدين الأسدى الزبيرى ، المتوفى سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م — المنهل الصافى .

(٢) هو على بن محمد بن سليم ، الصاحب بهاء الدين ، ابن حنا . المتوفى سنة ٦٧٧ هـ/١٢٧٨م — المنهل الصافى .

محمد الوزارة ، وهذا بهاء الدين هو المعروف بابن الحنّا ، وولى القاضى تاج الدين عبد الوهاب بن الأعز (١) خلف الحكم ، وقرّر قواعد الدولة على النظام ، وأظهر عزما أرهف من حدّ الحسام ، وراعى القواعد الصالحيّة ، وتبع الآثار النجميّة .

وقال ابن كثير : وفى يوم الثلاثاء عاشر جمادى الأولى باشر القضاء بالديار المصريّة العلامة تاج الدين عبد الوهاب بن القاضى الأعز أبى القاسم خلف ابن القاضى رشيد الدين أبى الثناء محمود بن بدر ، وذلك بعد شروط ذكرها للملك الظاهر شديدة ، فدخل تحتها الملك الظاهر ، وعزل عن القضاء بدر الدين أبا المحاسن يوسف بن على السنجارى (٢)، ورسّم عليه أياما .

ومنها فى ربيع الآخر : قبض الملك الظاهر على جماعة من الأمراء بلغه عنهم أنهم يريدون الوثوب عليه .

ومنها : أن الظاهر أمر ببناء مشهد على عين جالوت ، لما شاهد من بركة ذلك المكان ، فبنى هناك مشهد .

ومنها : أنه كتب إلى بركة بن صاين قان ، صاحب البلاد الشمالية ، كتابا يغريه بهلاون ، ويعرفه أن جهاده واجب عليه ، لتواتر الأخبار بإسلامه ، ويلزمه إذا دخل فى دين الإسلام أن يجاهد الكفار ، فورد جوابه فيما بعد كما سنذكره إن شاء الله تعالى (٣) .

---

(١) هو عبد الوهاب بن خلف بن محمود بن بدر ، تاج الدين ابو محمد ، المعروف بابن بنت الأعز ، المتوفى سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م — المنهل الصافى .

(٢) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٣١ .

(٣) انظر أيضا السلوك جـ ١ ص ٤٦٥ .

ومنها : أن الظاهر كتب منشور الإمرة على جميع العربان للأمير شرف الدين عيسى بن مُهَنَّا ، وأحضر أمراء العرب وأجرى إقطاعاتهم ، وسلم إليهم خفر البلاد ، وألزمهم حفظها إلى حدود العراق .

ومنها : أن الظاهر جهّز إلى الأنبرور (١) هديةً من جملتها الزّراف ، وأرسل إليه جماعةً من التتار الأسارى المأخوذين فى نوبة عين جالوت بخيولهم التترية وعُدَّتهم .

ومنها : أن السلطان [٤٥٩] كتب إلى علم الدين سنجر الحلبى الذى كان الملك المظفر قطز ولاه نيابة دمشق ، ثم أنه ركب فى دمشق بشعار السلطنة ، وخطب له على المنابر وتلقّب بالملك المجاهد ، وذلك حين بلغه مقتل الملك المظفر كما ذكرنا ، فكتب إليه الظاهر يقبح هذا الفعل عليه ويتلطف به فى الرجوع عنه ، ثم جرّد إليه الأمير جمال الدين المحمّدى ليستميلَه (٢) ويردّه إلى الصواب ، وأرسل إليه صحبته مائة ألف وخمسة وعشرين ألف درهم (٣) أنعاماً وحوائص ذهب وخلعاً نفيسةً ، فأشهد على نفسه بأنه قد نزل عن الأمر وأنه نائب من نواب السلطان .

ثم لم يلبث أن رجع إلى ما كان عليه من الخلاف ، وركب بشعار السلطنة ، فجهز السلطان إليه جيشا صحبة الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار ، وهو أستاذ

(١) الأنبرور : ويقصد بها الأمبراطور ، والمقصود هنا هو مانفريد بن فردريك الثانى الذى حكم صقلية وجنوب إيطاليا فى الفترة من ١٢٥٨ — ١٢٦٦ م .

(٢) « ليستميل الناس على المجاهد سنجر » — السلوك جـ ١ ص ٤٤٤ .

(٣) « مائة ألف درهم » — السلوك جـ ١ ص ٤٤٤ .

السلطان الملك الظاهر ، فوصلوا إلى دمشق فى ثالث صفر من هذه السنة ، فخرج إليهم سنجر الحلبي لقتالهم ، وكان صاحب حماة ، وصاحب حمص بدمشق ، ولم يخرجا مع سنجر الحلبي ، ولا أطاعاه لإضطراب أمره ، ووقع القتال بينهم بظاهر دمشق فى ثالث عشر صفر (١) ، فانهزم الحلبي ، وولّى وأصحابه معه ، ودخل إلى قلعة دمشق حتى أجنّه الليل ، فهرب من قلعة دمشق إلى جهة بعلبك ، فتبعه العسكر ، وقبضوا عليه ، وحمل إلى الديار المصريّة ، فاعتقله الظاهر بها ، ثم أطلق .

واستقرّت دمشق فى ملك الظاهر بيبرس وأقيمت له الخطبة بها وبغيرها من الشام مثل حماة وحمص وحلب وغيرها ، واستقرّ أيدكين البندقدار الصالحى فى دمشق لتدبير أمورها ، ولما استقرّ الحال على ذلك رحل الملك المنصور صاحب حماة والأشرف صاحب حمص وعادا إلى بلادهما ، واستقرّا بها (٢) .

وقال بيبرس فى تاريخه : وقرر السلطان الظاهر أن يكون حديث القلعة بدمشق وأمر الأموال للأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى الحاج ، ثم رتبه فى نيابة السلطنة (٣) .

وفى تاريخ ابن كثير : ثم بعد استقرار أيدكين البُندقدار فى دمشق ورد عليه مرسوم الملك الظاهر بالقبض على بهاء الدين بُغْدى الأشرفى ، وعلى شمس الدين أقوش [٤٦٠] البُرْلى ، وغيرهما من العزيزية والناصرية وبقى علاء الدين

---

(١) « والتجأ هو إلى القلعة فامتنع بها فى يوم السبت حادى عشر صفر » ـ السلوك جـ ١ ص ٤٤٤ ـ ٤٤٥ .

(٢) انظر المختصر جـ ٣ ص ٢١٠ .

(٣) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٤٢ ب .

أيدكين متوقفا فى ذلك(١) ، فتوجه بغدى إلى أيدكين لحال دخوله عليه قبض على بغدى المذكور ، فاجتمعت العزيزية والناصرية إلى أقوش البُرْلى ، وخرجوا من دمشق ليلا على حمية ونزلوا بالمرج ، وكان أقوش البُرْلى قد ولاه المظفر قطز غزة والسواحل كما ذكرنا ، فلما جهز الملك الظاهر أستاذه أيدكين البُندقدار إلى قتال سنجر الحلبى ، أرسل إلى البُرْلى وأمره أن ينضم إليه ، فسار أقوش البُرْلى مع أيدكين وأقام بدمشق .

فلما قبض على بُغدى خرج البرلى إلى المرج ، وأرسل أيدكين إليه يطيب قلبه ويحلف له ، فلم يلتفت إلى ذلك وصار إلى حمص ، وطلب من صاحبها الأشرف أن يوافقه على العصيان فلم يُجب إلى ذلك ، ثم توجه إلى حماة ، وأرسل يقول للملك المنصور صاحب حماة : إنه لم يبق من البيت الأيوبى غيرك ، فقم لنصير معك ونُملكك البلاد ، فلم يلتفت الملك المنصور إلى ذلك ، ورده ردًّا قبيحًا ، فاغتاظ البُرْلى ونزل على حماة ، وأحرق زرع بيدر العشر ، وسار إلى شيزر ثم إلى جهة حلب .

وكان أيدكين لما استقر بدمشق قد جهز عسكرا صحبة فخر الدين الحمصى للكشف عن البيرة ، فإن التتار كانوا قد نازلوها ، فلما قدم البُرْلى إلى حلب كان بها فخر الدين الحمصى المذكور ، فقال له البُرْلى : نحن فى طاعة الملك الظاهر ، فتمضى إلى السلطان وتسأله أن يتركنى ومن فى صحبتى مقيمين بهذا الطرف ، ونكون تحت طاعته من غير أن يكلفنى وطأ بساطه .

فسار الحمصى إلى جهة مصر ليؤدى الرسالة .

(١) « متوقفا ذلك » فى المختصر جـ ٣ ص ٢١٠ ، وهو تحريف ، وانظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٣٣ .

فلما سار عن حلب تمكّن البُرْلى واحتاط على ما فى حلب من الحواصل، واستبدَّ بالأمر، وجمع العرب والتركمان واستعدَّ لقتال عسكر مصر.

ولما توجّه فخر الدين الحمصى، لذلك التقى فى الرَّمل جمال الدين محمد الصالحى مُتوجّهًا بمن معه من عسكر مصر لقتال البُرْلى وإمساكه، فأرسل الحمصىّ، وعرَّف الملك الظاهر بما يطلبه البُرْلى، [٤٦١] فأرسل الظاهر ينكر على فخر الدين الحمصىّ المذكور، ويأمره بالانضمام إلى المحمدى، والمسير إلى قتال البُرْلى، فعاد من وقته، ثم رضى الظاهرُ على علم الدين سنجر الحلبىّ وجهّزه وراءَ المحمدى فى جمع من العسكر، ثم أردفه بعز الدين الدمياطى فى جمع آخر، وسار الجميع إلى جهة البُرْلى، وساروا إلى حلب وطردوه عنها.

وانقضت السنة والأمر على ذلك (١).

ومنها: نصب السلطان الملك الظاهر الخليفة للمسلمين، وأصل ذلك، أن فى رجب من هذه السنة قدم إلى مصر جماعة من العرب ومعهم شخص أسمرُ (٢) اللون اسمه أحمد، زعموا أنه ابن الإمام الظاهر بالله بن الناصر لدين الله، وأنه خرج من دار الخلافة ببغداد لما ملكها التتار، فعقد السلطان الملك الظاهر بيبرس مجلسا حضر فيه جماعة من الأكابر منهم الشيخ عز الدين بن عبد السّلام والقاضى تاج الدين عبد الوهاب بن خلف المعروف بابن بنت الأعز، فشهد أولئك العرب أن هذا الشخص المذكور هو ابن الظاهر محمد بن الإمام الناصر لدين الله،

(١) انظر المختصر ج ٣ ص ٢١٠ — ٢١١.

(٢) «أسود» فى المختصر ج ٣ ص ٢١٢.

فيكون عم المستعصم بالله الذى قتله هلاون ، وأقام القاضى جماعة من الشهود واجتمعوا بأولئك العرب وسمعوا شهادتهم ، فشهدوا بالنسب بحكم الإستفاضة ، فأثبت القاضى تاج الدين نسب أحمد المذكور ولقبوه المستنصر بالله أبا القاسم أحمد بن الظاهر بالله محمد ، وبايعه الملك الظاهر والناس بالخلافة .

ثم اهتمّ الظاهر بأمره ، وعمل له الدهليز ، والجمدارية ، والسلاح دارية ، وآلات الخلافة ، واستخدم له عسكرا ، وغرم على تجهيزه جملة طائلة ، قيل كانت جملتها ألف ألف دينار ، وكانت العامّة تلقب هذا الخليفة بالزراتيتى[1] .

وفى تاريخ بيبرس : وفى التاسع من رجب وصل الإمام أبو العباس أحمد بن الإمام الظاهر بالله بن الإمام الناصر[2] لدين الله من العراق إلى الديار المصريّة ، وركب السلطان الظاهر[3] للقائه فى موكب مشهود ، [ومحفل محفود][4] ، وأنزله فى القلعة ، وبالغ فى إكرامه ، وقصد إثبات نسبته ، وتقرير بيعته ، لأن الخلافة كانت قد شغرت منذ قتل الإمام المستعصم بالله ، [فسر السلطان باتصال أسبابها ، وتجديد أثوابها ، وإقامة منارها ، وإظهار شعارها ، لتكون ثابتة الأساس ، متصلة فى بنى العباس ، كما سبقت الوعود النبوية بأنها خالدة ، تالدة فى هذه الذرية][5] ، فأحضر الأمراء الكبار[6] [٤٦٢] ومقدمى العساكر ، والوزير ، وقاضى القضاة ،

(١) «بالزرابينى» فى المختصر — انظر جـ٣ ص ٢١٢ — ٢١٣ .

(٢) «المستنصر بالله» فى الأصل والتصحيح من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٤٢ أ .

(٣) «الظاهر» ساقط من زبدة الفكرة .

(٤) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٥) [ ] إضافة من زبدة الفكرة جـ٩ ورقة ٤٣ أ .

(٦) «الأكابر» فى زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٤٣ أ .

ونواب الحكم، والفقهاء، والعلماء، والصلحاء، وأكابر المشايخ، وأعيان الصوفيّة، فاجتمع المحفل بقاعة الأعمدة بقلعة الجبل، وحضر الخليفة، وتأدّب السلطان معه في الجلوس بغير مرتبة[1] ولا كرسيّ[2]، وأمر بإحضار العربان الذين حضروا مع الخليفة من العراق، فحضروا وحضر خادم من البغاددة، فسُئلوا عنه: هل هو الإمام أحمد بن الظاهر بن المستنصر؟ فقالوا: إنه هو، فشهدت جماعة بالاستفاضة وهم: جمال الدين يحيى[3] نائب الحكم بمصر، وعلم الدين بن رشيق[4]، وصدر الدين موهوب الجزرى، ونجيب الدين الحرانى، وسديد الدين التزمنتى[5] نائب الحكم بالقاهرة، عند قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب، فأسجل على نفسه بالثبوت، [فقام قاضى القضاة وأشهد على نفسه بثبوت النسبة][6]، وسُمّى الإمام أحمد بالمستنصر بالله[7]، وبايعه السلطان على كتاب الله وسنة رسوله عليه السلام، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والجهاد فى سبيل الله، وأخذ أموال الله بحقها، وصرفها فى مستحقها.

---

(١) مرتبة أو طراحة: يفترشها السلطان إذا جلس.

(٢) يجلس السلطان فى سائر الأيام على كرسى من خشب مغشى بالحرير، إذا أرخى رجليه كادت أن تلحق بالأرض ــ صبح الأعشى جـ ٤ ص ٧.

(٣) جمال الدين يحيى بن عبد المنعم بن حسن، المعروف بالجمال يحيى ــ السلوك جـ ١ ص ٤٤٩.

(٤) محمد بن الحسين بن عيسى بن عبد الله بن رشيق ــ السلوك جـ ١ ص ٤٤٩.

(٥) «وسديد الدين عثمان بن عبد الكريم بن أحمد بن خليفة، وأبو عمرو بن أبى محمد الصنهاجى التزمنتى» ــ السلوك جـ ١ ص ٤٤٩ ــ ٤٥٠».

(٦) [ ] إضافة من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٤٣ ب.

(٧) «وسمى الإمام أحمد باسم أخيه وهو المستنصر بالله» فى زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٤٣ ب.

وبعد البيعة له قلّد الخليفة السلطان البلاد الإسلامية وما ينضاف إليها وما سيفتحه الله على يديه من بلاد الكفار، ثم بايع الناس الإمام على اختلاف طبقاتهم، فتمت له الخلافة وصحت له الإمامة، وكتب السلطان إلى البلاد بأخذ البيعة له، وأن يخطب له على المنابر، وتنقش السكة باسمه واسم الملك الظاهر.

ولما كان يوم الجمعة السابع عشر من رجب خطب الخليفة بالناس فى جامع القلعة (١).

وفى يوم الإثنين الرابع من شعبان ركب السلطان إلى خيمة ضربت له بالبستان الكبير بظاهر [القاهرة] (٢)، ولبس الأهبة العباسيّة، وهى الجبّة السوداء، والعمامة البنفسجيّة، والطوق، وتقلد سيفا، وجلس مجلسا عاما، وقد خلع على الأمراء والوزير وقاضى القضاة وصاحب ديوان الإنشاء، وقرئ التقليد [الشريف] (٣) السلطانى، قرأه فخر الدين بن لقمان (٤).

وقال ابن كثير: وقد كان الإمام أبو العباس أحمد هذا معتقلا ببغداد، ثم أطلق، وكان مع جماعة الأعراب بالعراق، ثم قصد الملك الظاهر حين بلغه، فقدم عليه الديار المصرية مع جماعة من العرب فيهم عشرة من الأمراء [٤٦٣] منهم: الأمير ناصر الدين مهنّى (٥)، فتلقاه السلطان والوزير وقاضى القضاة تاج الدين

---

(١) انظر الروض الزاهر ص ١٠١، المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٠٢.

(٢) [ ] إضافة من المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٠٢ للتوضيح.

(٣) [ ] إضافة من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٤٣ ب.

(٤) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٤٣ أ — ٤٣ ب.

(٥) « فى ثامن رجب » — البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٣١.

والشهود والمؤذنون، وخرجت اليهود والنصارى بإنجيلهم، ودخل من باب النصر في أُبَّهة عظيمة، وكان يوما مشهودا.

وهذا الخليفة هو الثامن والثلاثون من خُلفاء بني العباس، وبينه وبين العباس أربعة وعشرون أبا.

وكان أول من بايعه يوم عقد المجلس القاضي تاج الدين عند ما ثبت نسبه عنده، ثم السلطان الملك الظاهر، ثم الشيخ عز الدين بن عبد السّلام، ثم الأمراء وأكابر الدولة.

وكان منصب الخلافة شاغرا ثلاث سنين ونصفا، لأن المستعصم بالله قتل في أوائل سنة ست وخمسين وستمائة، وبويع هذا في يوم الإثنين الثالث عشر من رجب من هذه السنة، أعني سنة تسع وخمسين وستمائة.

وكان أسْمَرا، وسيما، شديد القُوى، عالي الهمّة، ذا شجاعة وإقدام، وقد لقب هذا بالمستنصر، كما كان أخوه باني المدرسة ببغداد لقب بهذا، وهذا أمر لم يسبق إليه أن خليفتين أخوين يلقب كل واحد منهما بلقب الآخر، وقد أنزل هذا الخليفة بقلعة الجبل في برج هو وحشمه وخدمُه.

ولما كان يوم الجمعة سابع عشر رجب، ركب في أُبَّهة السواد، وجاء إلى الجامع بالقلعة، فصعد المنبر، وخطب الناس، ذكر فيها شرف بني العباس، ثم استفتح فقرأ عشرا من سورة الأنعام، ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم، وترضى عن الصحابة، رضى الله عنهم، ودعا للسلطان، ثم نزل عن المنبر فصلى بالناس، فاستحسن ذلك منه، وكان وقتا حسنا، ويوما مشهودا[1].

(١) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٣١ - ٢٣٢ ؛

وقال ابن كثير : ولما كان يوم الإثنين الرابع من شعبان ، ركب الخليفة والسلطان والوزير والقضاة والأمراء وأهل الحل والعقد إلى خيمة عظيمة قد ضربت بظاهر القاهرة ، فألبس الخليفةُ السلطانَ بيده خلعة سوداء ، وطوقا فى عنقه ، وقيدا فى رجليه ، وهما من ذهب [1] ، وصعد فخر الدين إبراهيم بن لقمان رئيس الكُتاب منبرا ، فقرأ عليه تقليد السلطان ، وهو من إنشائه وبخط نفسه ، ثم ركب السلطان بهذه الأُبّهة ، والقيد فى رجليه ، والطوق فى عنقه ، والوزير بين يديه على رأسه التقليد ، والأمراء والدولة فى خدمته مشاه سوى الوزير ، [٤٦٤] فشق القاهرة ، وقد زينت له ، وكان يوما مشهودا [2] .

ونسخة التقليد المكتتب عن الخليفة للسلطان :

الحمد لله الذى اصطفى [الإسلام ب] [3] ملابس الشرف ، وأظهر [بهجة] [4] دُرَرِه ، وكانت خافيّة بما استحكم عليها من الصَدَف ، وشيَّد ما وَهَى من عُلائه ، حتى أنسى ذكر ما سَلَف ، وقيّض لنصره مُلُوكًا اتفق على طاعتهم مَن اختلف .

أحمده على نِعَمِه التى رَتَعتْ الأعينُ [5] منها فى الروض الأُنُف ، وألطافه التى وقفتْ للشكر عليها [6] ، فليس له عنها مُنصَرف ، وأشهدُ أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك

(١) من هذه الخلع الخليفتية انظر السلوك جـ ١ ص ٤٥٢ .

(٢) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٣٢ .

(٣) [ ] إضافة من السلوك جـ ١ ص ٤٥٣ ، «أضفى على الإسلام» فى ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٤٤٣ .

(٤) [ ] إضافة من السلوك ، وذيل مرآة الزمان .

(٥) « تسرح » فى ذيل مرآة الزمان .

(٦) «ووقف الشكر» فى السلوك جـ ١ ص ٤٥٣ ؛ وذيل مرآة الزمان والروض الزاهر ص ١٠٢ .

له ، شهادةً توجبُ من المخاوف أمْنًا ، وتُسَهِّلُ من الأمور ما كان حَزْنا . وأشهد أن محمدا عبده(١) الذى جبر من الدين وَهْنًا ، ورسوله الذى أظهر من المكارم فنونا لا فَنًّا ، [صلى الله عليه](٢) وعلى آله . الذين أضحت مناقبهم باقيةً لا تفْنَى ، وأصحابه الذين أحْسَنوا فى الدين(٣) فاستحقُوا الزيادة فى الحُسْنَى(٤) ، [وسلم تسليما كثيرا](٥) .

وبعد : فإنّ أولَى الأولياء بتقديم ذكره ، وأحقهم أن يُصْبِح القلمُ ساجدا وراكعا(٦) فى تسطير مناقبه وبِرِّه ، من سعى فأضحى بسعيه الجميل مُقَدَّما(٧) ، ودعا إلى طاعته فأجاب(٨) من كان مُنْجِدا ومُتْهِما ، وما بدَت يدٌ من المكرمات إلا كان لها زَنْدا ومعصما ، ولا استباح بسيفه(٩) حِمًى وغىً إلا أضرمه نارًا وأجراه دَمًا .

ولما كانت هذه المناقب الشريفة مختصةً بالمقام العالى المولوى السلطانى الملكى الظاهرى الركنى ، شرّفه الله وأعلاه ، ذكره(١٠) الديوانُ العزيزُ النبوىُّ الإمامىُّ المستنصرىُّ ، أعز الله سلطانه ، تنويها بشرف قدره ، واعترافا بصنيعه(١١) الذى

---

(١) « عبده ورسوله » فى الأصل ومشطوب على كلمة « رسوله » ، وكذلك فى ذيل مرآة الزمان ، وحذف كلمة « رسوله » يتفق مع ما جاء بالسلوك جـ ١ ص ٤٥٣ .

(٢) [ ] إضافة من السلوك ، وذيل مرآة الزمان ، والروض الزاهر .

(٣) « فى الدنيا » فى السلوك .

(٤) « من الحسنى » — فى السلوك والروض الزاهر « والحسنى » فى ذيل مرآة الزمان .

(٥) [ ] إضافة من الروض الزاهر ص ١٠٢ .

(٦) « راكعا وساجدا » — فى السلوك ، وذيل مرآة الزمان ، والروض الزاهر .

(٧) « بسعيه الحميد متقدما » — فى السلوك ، وذيل مرآة الزمان ، والروض الزاهر .

(٨) « فأجابه » فى ذيل مرآة الزمان .

(٩) « بسيفه » ساقط من الروض الزاهر ، ص ١٠٣ .

(١٠) « ذكرها » فى ذيل مرآة الزمان .

(١١) « بصنعه » فى الروض الزاهر ، وصبح الأعشى جـ ١٠ ص ١١٢ .

تنفذ العبارةُ المسهبة ولا تقوم بشكره ، وكيف لا ؟ وقد أقام الدولة العباسيّة بعد أن أقعدتها زمانة الزمان ، وأذهب[(1)] ما كان لها من محاسن وإحسان ، وعتب[(2)] دهرها المسيء لها فأعتب ، وأرضى عنها زمانها[(3)] ، وقد كان صال عليها صولة مغضب ، فأعاده لها سلما بعد أن كان عليها حربا ، وصرف إليها اهتمامه فرجع كل متضايق[(4)] من أمورها واسعاً[(5)] رحبا ، ومنح أمير المؤمنين عند القدوم عليه حنوًا وعطفا ، وأظهر له[(6)] من الولاء رغبة فى ثواب الله ما لا يخفى ، وأبدى من الإهتمام بأمر [الشريعة و] البيعة أمراً[(7)] لو رامه غيره لامتنع عليه ، ولو تمسك بحبله متمسك لانقطع به [٤٦٥] قبل الوصول إليه ، لكن الله [تعالى][(8)] ادخر هذه الحسنة ليثقل بها فى الميزان ثوابه[(9)] ويخفف بها يوم القيامة حسابه ، والسعيد من خفف حسابه ، فهـذه منقبة أبى الله إلا أن يخلدها فى صحيفة[(10)] صنعه ، ومكرمة قضت لهـذا البيت الشريف بجمعه[(11)] ، بعد أن حصل الإياس من جمعه .

(١) « وأذهبت » فى السلوك ، وذيل مرآة الزمان .

(٢) « وأعتب » فى السلوك والروض الزاهر ، « واستعتب » فى صبح الأعشى جـ ١٠ ص ١١٢ .

(٣) « زمنها » فى الروض الزاهر .

(٤) « كل مضيق » فى ذيل مرآة الزمان .

(٥) « واسعا » ساقط من الروض الزاهر .

(٦) « له » ساقط من الروض الزاهر .

(٧) [ ] إضافة من السلوك وذيل مرآة الزمان .

(٨) [ ] إضافة من السلوك .

(٩) « ليثقل بها ميزان ثوابه » فى السلوك ، وذيل مرآة الزمان ، والروض الزاهر .

(١٠) « فى صحف » — فى ذيل مرآة الزمان .

(١١) « قضت لهذا البيت الشريف النبوى بجمع شمله » — فى ذيل مرآة الزمان .

وأمير المؤمنين يشكر لك(١) هذه الصنائع ، ويعترف(٢) أنه لولا اهتمامك [بأمره(٣)] لاتسع الخرق على الراقع ، وقد قلدك الديار المصرية والبلاد الشامية ، والديار البكرية(٤)، والحجازية، واليمنية ، والفراتية ، وما يتجدد من الفتوحات غورا ونجدا، وفوض أمر جندها ورعاياها إليك حين أصبحت فى المكارم(٥) فردا ، ولا جعل(٦) منها بلدا من البلاد ، ولا حصنا من الحصون مستثنى(٧) ، ولا جهة من الجهات تعد فى الأعلى ولا الأدنى(٨) .

فلاحظ أمور الأمة ، فقد أصبحت لها(٩) حاملا ، وخلص نفسك من التبعات اليوم(١٠) ففى الغد(١١) تكون مسئولا ولا سائلا(١٢) ، ودع الاغترار بأمر الدنيا فما نال أحد منها طائلا، وما رآها(١٣) أحد بعين الحق إلا رآها خيالا زائلا، فالسعيد من

---

(١) « يشكر الآن » فى ذيل مرآة الزمان .

(٢) « ويعرف » صبح الأعشى .

(٣) [ ] إضافة من ذيل مرآة الزمان .

(٤) « والديار الجزيرية » فى ذيل مرآة الزمان .

(٥) « بالمكارم » فى السلوك ، وذيل مرآة الزمان ، والروض الزاهر .

(٦) « وما جعل » فى الروض الزاهر ، و« لم يجعل » فى صبح الأعشى .

(٧) « يستثنى » فى السلوك .

(٨) « ولا فى الأدنى » فى السلوك والروض الزاهر .

(٩) « أصبحت لثقلها » فى ذيل مرآة الزمان .

(١٠) « اليوم من التبعات » فى ذيل مرآة الزمان .

(١١) « ففى غد » فى السلوك ، وذيل مرآة الزمان ، وصبح الأعشى ، والروض الزاهر .

(١٢) « تكون مسئولا لاسائلا» فى السلوك ، والروض الزاهر، وصبح الأعشى و« تكون مسئولا عنها لا سائلا » فى ذيل مرآة الزمان .

(١٣) « وما لحظها » فى ذيل مرآة الزمان .

قطع [منها](١) آماله الموصولة ، وقـدم لنفسه زاد التقوى ، فتقدمة غير التقوى مردودة لا مقبولة ، وابسط يدك بالإحسان والعـدل ، فقـد أمر الله بالعدل والإحسان(٢) [وكرر ذكره(٣)] فى مواضع من القرآن ، وكفر به عن المرء ذنوبا [كتبت عليـه(٤)] وآثاما ، وجعل يوما واحدا فيه(٥) كعبادة العابد(٦) ستين عاما ، وما سلك أحد(٧) سبيل العـدل إلا واجتنيت ثمـاره من أفنان ، ورجع الأمر(٨) به بعد(٩) تداعى أركانه وهو(١٠) مشيد الأركان ، وتحصن به من حوادث زمانه(١١) ، والسعيد من تحصن من حوادث الزمان ، وكانت(١٢) أيامه [فى الأيام(١٣)] أبهى من الأعياد ، وأحسن فى العيون من الغُرَر فى أوجه الجياد ، وأحلى من العقود إذا حلى بها عطل(١٤) الأجياد .

---

(١) [ ] إضافة من السلوك ، وذيل مرآة الزمان .

(٢) « وحث على الإحسان » فى السلوك ، « بالإحسان والعدل » فى صبح الأعشى .

(٣) [ ] إضافة من السلوك ، وذيل مرآة الزمان .

(٤) [ ] إضافة من السلوك ، وذيل مرآة الزمان ، والروض الزاهر .

(٥) « منها » فى السلوك ، و « منه » فى ذيل مرآة الزمان ، و « فيه » فى صبح الأعشى .

(٦) « العابد » ساقط من ذيل مرآة الزمان .

(٧) « أحد » ساقط من ذيل مرآة الزمان .

(٨) « الأمن » فى ذيل مرآة الزمان ، وهو تحريف .

(٩) « بعد بعد » فى السلوك .

(١٠) « وهو » ساقط من ذيل مرآة الزمان .

(١١) « الزمان » فى ذيل مرآة الزمان .

(١٢) « فكانت » فى ذيل مرآة الزمان .

(١٣) [ ] إضافة من السلوك وذيل مرآة الزمان ، والروض الزاهر .

(١٤) « عاطل » فى السلوك .

وهذه الأقاليم المنوطة بك[١] تحتاج إلى نواب[٢] وحكام ، وأصحاب رأى من أصحاب[٣] السيوف والأقلام، فإذا استعنت بأحد منهم فى أمورك[٤] فنقب عليه تنقيبا[٥]، واجعل عليه فى تصرفاته رقيبا ، وسل عن أحواله ففى يوم القيامة تكون عنه مسئولا ، و بما أجرم[٦] مطلوبا ، ولا تول [منهم[٧]] إلا من تكون مساعيه حسنات [٤٦٦] لك[٨] لا ذنوبا ، وأمرهم بالإناة[٩] فى الأمور والرفق ، ومخالفة الهوى إذا ظهرت [لهم[١٠]] أدلة الحق ، وأن يقابلوا الضعفاء فى حوائجهم بالثغر الباسم ، والوجه الطلق ، وأن لا يعاملوا أحدا على الإحسان والإساءة إلا بما يستحق ، وأن يكونوا لمن تحت أيديهم من الرعية[١١] إخوانا ، وأن يوسعوهم برا و إحسانا ، وأن لا يستحلوا حرماتهم إذا استحل الزمان[١٢] لهم حرمانا ، فالمسلم أخو المسلم[١٣] ولو كان أميرا

(١) « بنظرك » فى ذيل مرآة الزمان .

(٢) « نواب » ساقط من ذيل مرآة الزمان .

(٣) « أرباب » فى ذيل مرآة الزمان .

(٤) « فى أمرك » فى ذيل مرآة الزمان .

(٥) « نقيبا » فى الأصل ، والتصحيح من السلوك وذيل مرآة الزمان .

(٦) « اجترم » فى ذيل مرآة الزمان .

(٧) [ ] إضافة من السلوك ، وذيل مرآة الزمان ، والروض الزاهر .

(٨) « لك » ساقط من ذيل مرآة الزمان .

(٩) « بالأناءة » فى الأصل .

(١٠) [ ] إضافة من ذيل مرآة الزمان .

(١١) « الرعايا » فى السلوك .

(١٢) « لهم الزمان » فى ذيل مرآة الزمان .

(١٣) « والمسلم » فى الأصل ، والتصحيح من السلوك ، وذيل مرآة الزمان ، وصبح الأعشى .

عليه أو سلطانا[١] ، والسعيد من نسج ولاته فى الخير على منواله ، وامتدوا بسنته فى تصرفاته وأحواله ، وتحملوا عنه ما تعجز عن حمل[٢] أثقاله .

ومما يؤمرون به أن يمحى ما أحدث من سيء السنن ، وجدد من المظالم التى هى [على الخلائق[٣]] من أعظم المحن ، وأن يشترى بإبطالهما المحامد ، [فإن المحامد[٤]] رخيصة بأغلى ثمن[٥] ، ومهما جبي منها[٦] من الأموال فإنما هى[٧] باقية فى الذمم ، [وإن كانت[٨]] حاصلة ، وأجياد الخزائن وإن[٩] أضحت بها خالية ، فإنما هى على[١٠] الحقيقة منها[١١] عاطلة ، وهل أشقى ممن احتقب إثما ، واكتسب بالمساعى الذميمة ذما ، وجعل السواد الأعظم يوم القيامة له خصما[١٢] ، وتحمل ظلم الناس[١٣] فيما صدر عنه من أعماله ، ﴿ وقد خاب من حمل ظلما[١٤] ﴾ .

(١) « وسلطانا » فى السلوك ، وذيل مرآة الزمان .

(٢) « عنه على » فى الأصل ، والتصحيح من السلوك ، وذيل مرآة الزمان .

(٣) [ ] إضافة من ذيل مرآة الزمان .

(٤) [ ] إضافة من السلوك ، وذيل مرآة الزمان .

(٥) « الثمن » فى ذيل مرآة الزمان .

(٦) « بها » فى الأصل ، والتصحيح من السلوك ، وذيل مرآة الزمان ، والروض الزاهر .

(٧) « فانها » فى ذيل مرآة الزمان .

(٨) [ ] إضافة من ذيل مرآة الزمان .

(٩) « إن » فى الأصل ، والتصحيح من السلوك .

(١٠) « فى » فى الأصل ، والتصحيح من السلوك ، وذيل مرآة الزمان .

(١١) « منها » ساقط من ذيل مرآة الزمان .

(١٢) « له يوم القيامة خصما » فى السلوك .

(١٣) « مما » فى ذيل مرآة الزمان .

(١٤) سورة طه رقم ٢٠ جزء من الآية ١١١ .

وحقيق بالمقام الشريف ، المولوى(١) ، السلطانى ، الملكى ، الظاهرى ، الركنى ، أن تكون ظلامات الأنام مردودة بعدله ، وعزائمه تخفف [عن الخلائق](٢) ثقلا لا طاقة لهم بحمله ، فقد أضحى على الإحسان قادرا ، صنعت له الأيام ما لم تصنعه لمن تقدم(٣) من الملوك وإن جاء آخرا ، فاحمد الله على أن وصل إلى جنابك إمام هدى يوجب لك(٤) مزية التعظيم ، وينبه(٥) الخلائق على ما خصك الله به من هذا الفضل العظيم(٦) ، وهذه أمور يجب(٧) أن تلاحظ وترعى ، وأن يوالى عليها حمد الله فإن الحمد [لله(٨)] يجب عليها عقلا وشرعا ، وقد تبين أنك صرت فى الأمور أصلا وصار غيرك فرعا .

ومما يجب أيضا(٩) تقديم ذكره ، أمر(١٠) الجهاد الذى أضحى على الأمة فرضا ، وهو العمل الذى يرجع به مسود الصحائف مبيضا ، وقد وعد الله المجاهدين بالأجر العظيم ، وأعد لهم عنده المقام الكريم ، وخصهم بالجنة التى « لا لغو فيها

---

(١) « الشريف المولوى » ساقط من ذيل مرآة الزمان ، و « المولوى » ساقط من الروض الزاهر .

(٢) [ ] إضافة من ذيل مرآة الزمان .

(٣) « لغيره من تقدم » فى السلوك ، والروض الزاهر .

(٤) « أوجب لك » فى السلوك ، وذيل مرآة الزمان ، والروض الزاهر .

(٥) « ونبه » فى السلوك وذيل مرآة الزمان ، والروض الزاهر .

(٦) « العميم » فى ذيل مرآة الزمان .

(٧) « ينبغى » فى ذيل مرآة الزمان .

(٨) [ ] إضافة من ذيل مرآة الزمان .

(٩) « أيضا » ساقط من ذيل مرآة الزمان .

(١٠) « أن » فى الأصل ، والتصحيح من السلوك والروض الزاهر ، وصبح الأعشى ، وساقط من ذيل مرآة الزمان .

ولا تأثيم »[1]، وقد تقدمت لك فى الجهاد [يد][2] بيضاء أسرعت فى سواد الحساد، وعرفت منك عزيمة[3] وهى أمضى مما تجنه ضمائر الأغماد، [٤٦٧] «واشتهرت لك مواقف فى القتال هى أشهر[4] » وأشهى إلى القلوب من الأعياد، وبك صان الله حمى الإسلام من أن يتبدل[5]، وبعزمك حفظ على المسلمين[6] نظام هذه الدول، وسيفك أثر[7] فى قلوب الكافرين قروحا لا تندمل، وبك يرجى أن يرجع مقر[8] الخلافة[9] إلى ما كان عليه فى الأيام الأول.

فأيقظ لنصرة الإسلام جفنا ما كان غافيا ولا هاجعا، وكن فى مجاهدة أعداء الله [إماما][10] متبوعا لا تابعا، وأيد كلمة التوحيد فما تجد فى تأييدها إلا مطيعا سامعا.

ولا تخل الثغور من اهتمام بأمرها، تبتسم[11] له الثغور، واحتفال يبدل ما دجى من ظلماتها بالنور، واجعل أمرها على الأمور مقدما، وشيد منها كل[12] ما غادره

---

(١) سورة الطور رقم ٥٢ جزء من الآية ٢٣ .

(٢) [ ] إضافة من الروض الزاهر، وصبح الأعشى .

(٣) « عزمة » فى السلوك، وذيل مرآة الزمان، والروض الزاهر، وصبح الأعشى .

(٤) « » ساقط من السلوك، و « هى أبهى » فى ذيل مرآة الزمان .

(٥) « يتبدل » فى السلوك .

(٦) « على الإسلام » فى الأصل، والتصحيح من المصادر المذكورة .

(٧) « الذى أثر » فى ذيل مرآة الزمان .

(٨) « مقام » فى الأصل، والتصحيح من المصادر المذكورة .

(٩) « الخلافة المعظمة » فى ذيل مرآة الزمان .

(١٠) [ ] إضافة من السلوك، وذيل مرآة الزمان، وصبح الأعشى، والروض الزاهر .

(١١) « تبسم » فى السلوك، وصبح الأعشى .

(١٢) « كل » ساقط من ذيل مرآة الزمان .

العدو متهدما، فهذه حصون بها يحصل(١) الإنتفاع، [وبها تحسم الأطماع(٢)]، وهى على العدو داعية افتراق لا اجتماع، وأولاها بالإهتمام ما كان البحر له مجاورا(٣)، والعدو إليه ملتفتا ناظرا، لاسيما ثغور الديار المصرية، فإن العدو وصل إليها رابحا وراح(٤) خاسرا، واستأصلهم الله فيها حتى ما أقال منهم عاثرا.

وكذلك [أمر](٥) الأسطول الذى ترى حبله(٦) كالأهلة، وركائبه سائقة(٧) بغير سائق مستقلة، وهو أخو الجيش السليمانى، فإن ذاك غدت الرياح له(٨) حاملة، وهذا تكفلت بحمله المياه السائلة(٩)، وإذا لحظها الطرف جارية فى البحر كالأعلام(١٠)، وإذا شبهها قال: هذه ليال تقلع بالأيام(١١).

---

(١) « يحل » فى الأصل، والتصحيح من المصادر المذكورة.

(٢) [ ] إضافة من ذيل مرآة الزمان.

(٣) « ما كان البحر مجاررا » فى الأصل، والتصحيح من المصادر المذكورة.

(٤) « ورجع » فى ذيل مرآة الزمان.

(٥) [أمر] إضافة من السلوك.

(٦) « ترى خيله » فى السلوك، « ترى خيله » فى ذيل مرآة الزمان، وصبح الأعشى، والروض الزاهر.

(٧) « سابقة » فى السلوك وصبح الأعشى وساقط من ذيل مرآة الزمان.

(٨) « له الرياح » فى ذيل مرآة الزمان، و« الريح له » فى صبح الأعشى.

(٩) « الرياح السابلة » فى صبح الأعشى.

(١٠) « وإذا لحظها جارية فى البحر كانت كالأعلام » فى السلوك، و« وإذا لحظها الطرف سائرة فى البحر كانت كالأعلام » ــ فى ذيل مرآة الزمان، والروض الزاهر.

(١١) « تطلع فى أيام » فى ذيل مرآة الزمان.

وقد سنى لك الله(١) من السعادة كل مطلب، وآتاك من أصالة الرأى الذى يريك المغيب، وبسط بعض القبض منك الأمل، ونشط بالسعادة ما كان من كسل، وهداك إلى مناهج الحق، ومازلت مهتديا إليها، وألزمك(٢) المراشد فلا تحتاج(٣) إلى تنبيه عليها، والله [تعالى(٤)] يمدك(٥) بأسباب نصره، ويوزعك شكر نعمه، فإن النعمة تستتم بشكره(٦) [إن شاء الله تعالى(٧)].

وركب السلطان، وشق المدينة، وحمل التقليد الأمير جمال الدين النجيبى أستاذ الدار والصاحب بهاء الدين فى بعض الطريق، فكان السلطان فى موكبه هذا كما قيل:

خلع خلعن من الهداة قلوبهم ... وملأن بالإشراق أبصار الملا

[٤٦٨]

لما طلعت بها بهرت فلم تطق ... طرف إليك من الشجاع تأملا

(١) « الله لك » فى السلوك، وذيل مرآة الزمان.

(٢) « والهمك » فى ذيل مرآة الزمان.

(٣) « ولا تحتاج » فى السلوك.

(٤) [ ] إضافة من ذيل مرآة الزمان.

(٥) « يؤيدك » فى ذيل مرآة الزمان.

(٦) « فإن النعمة ستتم بشكره » فى السلوك، و « فإن النعم تستتم شكره بمنه وكرمه » فى ذيل مرآة الزمان.

(٧) [ ] إضافة من صبح الأعشى، والروض الزاهر، وانظر نص التقليد فى كل من: ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٤٤٣ – ٤٤٩، جـ ٢ ص ٩٨ – ١٠٣، صبح الأعشى جـ ١٠ ص ١١٢ – ١١٦، الروض الزاهر ص ١٠١ – ١١٠، السلوك جـ ١ ص ٤٥٣ – ٤٥٧، كنز الدرر جـ ٨ ص ٧٣ – ٧٩ ؛ وانظر أيضا الفقرات الطويلة التى أوردها ابن تغرى بردى من التقليد – النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١١١ – ١١٣.

و بدا عليك الطوقَ رُصِّعَ دُرّه　　فرأيت بدراً بالنجوم تكلّلا[1]

واستخدم السلطان للخليفة ما يحتاج إليه من أرباب الوظائف والأشغال، فجعل الأمير سابق الدين بُوزَبا أتابك العساكر، وكتب له بألف فارس، وجعل الطواشي بهاء الدين صندل شرابيا، وكتب له بخمسمائة فارس، والأمير ناصر الدين بن صيرم خزندارا وكتب له بخمسمائة فارس، والأمير نجم الدين استادار الدار، وكتب له بخمسمائة فارس، وسيف الدين بلبان الشمسي دوادارا، وكتب له بخمسمائة فارس، وأمر جماعة من العربان بالطبلخانات، واشترى للخليفة مائة مملوك جمدارية وسلحدارية، وأعطى كلا منهم ثلاثة أروس خيل، وجملا لعدته، وإستخدم له أصحاب الدواوين، وكتاب الإنشاء، والأئمة، والغلمان، والحكماء، والجرائحية، وكمل البيوت، والخيول، والأسلحة[2].

ومنها: أن السلطان الملك الظاهر بيبرس — رحمه الله — توجه إلى الشام خارجا من مصر في السادس من شوال من هذه السنة، وصحبته العساكر، والخليفة، وحاشيته، والأخوة الثلاثة ملوك البلاد الشرقية أولاد صاحب الموصل: ركن الدين إسماعيل، وولده علاء الملك، وأخوه المجاهد سيف الدين إسحاق صاحب الجزيرة، وأخوهما الملك المظفر، وسنذكر مجيئهم إلى خدمة السلطان الظاهر، وكان قصد الظاهر تقرير ما تغير من القواعد، وإعادة الأحوال بدار السلام.

---

(١) «مكللا» في الروض الزاهر ص ١١٠.

(٢) انظر أيضا السلوك جـ ١ ص ٤٥٨ — ٤٥٩.

ولما وصل إلى دمشق نزل بقلعتها، وأنزل الخليفة فى تربة الملك الناصر بجبل الصالحية ، ولما اجتمع على تجهيز الخليفة ، والملوك المذكورين ، جرد معهم الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى ، والأمير شمس الدين الرومى ، وهما من أكابر الأمراء ، وجرد معهما طائفة من العسكر ، وأوصاهما أن يزالا مع الخليفة إلى أن يوصلاه إلى الفرات بالبر الغربى ، وبجهة البلاد الحلبية، لانتظار ما يتجدد من جهة الخليفة حتى إذا احتاج إليهما وأرسل من يستدعيهما يبادران إليه بمن معهما من العسكر ، ولا يدعان أحدا يتوقف عنه ، ولا يتأخر ، ثم ودعه ميلا ، والخليفة مطاعا أمره ، مسرورا قلبه .

فكان جملة ما غرم السلطان على تجهيزه من الأموال ألف ألف دينار عينا مصرية وستين ألف دينار ، [٤٦٩] فلله دره من ملك ، ما أعظم همته ، وما أكرم سجيته ، وما أشد اجتهاده فى الله ، رضى الله عنه .

وقال ابن كثير : وكان سبب خروج السلطان إلى الشام أن البرلى (١) كما تقدم كان قد استحوذ على حلب ، فأرسل [إليه] (٢) الأمير علم الدين سنجر الحلبي الذى كان قد تغلب على دمشق ، فطرده عن حلب وتسلمها منه ، وأقام بها نائبا عن السلطان ، ثم لم يزل البرلى (٣) حتى إستعادها منه واستولى عليها كما كان ، فاستناب السلطان على الديار المصرية عز الدين أيدمر الحلى (٤) ، وجعل تدبير المملكة بها إلى

---

(١) « أن التركى » فى البداية والنهاية ، وهو تحريف .

(٢) [ ] إضافة من البداية والنهاية .

(٣) « التركى » فى البداية والنهاية .

(٤) « الحلبي » فى البداية والنهاية .

الوزير بهاء الدين بن حنا ، واستصحب ولده فخر الدين بن الحنا وزير الصحبة ، وجعل تدبير العسكر والجيوش معه إلى الأمير بدر الدين بيلبك الخزندار (١) .

وقال ابن كثير : وكان دخول السلطان إلى دمشق يوم الإثنين سابع ذى القعدة من هذه السنة وكان يوما مشهودا ، وصلى هو والخليفة الجمعة بجامع دمشق ، وكان دخـول الخليفة إلى الجامع من باب البريد ، ودخول السلطان من باب الزيادة وكان يوما مشهودا ، ثم جهز السلطان الخليفة كما ذكرنا ، وأصحبه أولاد صاحب الموصل ، وقدم إليه صاحب حمص الملك الأشرف فخلع عليـه ، وأطلق له ، وكتب له تقليدا ببلاده ، ثم جهز جيشا صحبة الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار إلى حلب لمحاربة البرلى المتغلب عليها المفسد فيها (٢) .

وقال أبو شامة : وفى يوم الخميس ثامن ذى الحجـة عزل عن قضاء دمشق النجم بن الصدر بن سنى الدولة ، وتولى الحكم القاضى شمس الدين أحمد بن بهاء الدين محمد بن إبراهـيم بن أبى بكر بن خلكان الذى كان نائبـا فى الحكم بالقاهرة سنين كثيرة ، وجلس مكان النجم وابنه (٣) بالمدرسة العادلية ، ثم وكل على النجم وأمره (٤) بالسفر إلى الديار المصرية ، وكان حاكما جائرا فاجرا ظالمـا متعديا ، فاستراح منه البـلاد والعباد (٥) ، وهو الذى شاع عنه أنه أُودع كيسا فيه ألف دينار ، فردّ بدله

(١) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٣٢ — ٢٣٣ .

(٢) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٣٣ .

(٣) « وأبيه » فى الذيل على الروضتين ص ٢١٤ ، وهو تحريف .

(٤) « وأمر » فى الأصل ، والتصحيح من الذيل على الروضتين .

(٥) « العباد والبلاد » — فى الذيل على الروضتين .

كيسا فيه فلوس ، وذكر ذلك فى القصيدة التى هُجى بها لما تولى الحكم ، [ورفعت إلى الملك(١)] المظفر والمولى الأمير المجير ، وابن وداعة .

قال أبو شامة : وفى الجملة تولى الحكم فى زماننا ثلاثة مشهورين بالفسق : هذا الظالم ، والرفيع الحنفى(٢) وابن الجمال المصرى ، وكان نائبا عن أبيه ، وقلت فى حصر [٤٧٠] القضاة ونوابهم :

دمشق فى عصرنا مع فضلها بُلِيَتْ ... من القضاة بجُهَّالٍ وأوقاح
بأعجميين ومصرى وصانعهم ... وإربلى وخيّاط وفلاّح(٣)
هم ضعف ستة والنواب كلهم ... ضعفان أحزانهم أضعاف أفراح

أى هم إثنا عشر : الزكى ، [وأخوه(٤)] وابن الحرستانى ، وإبنه ، والجمال المصرى ، [والخويى(٥)] والرفيع ، والتفليسى ، وبنو سنى الدولة ثلاثة ، وابن خلكان(٦) ، والنواب ثمانية عشر .

ثم سافر القاضى المعزول إلى مصر تحت الحوطة يوم الخميس خامس عشر ذى الحجة ، والدعاء عليه كثير ، والتظلم منه شائع ، والدعاوى عليه كثيرة(٧) .

---

(١) [ ] إضافة من الذيل على الروضتين ، ويوجد فى الأصل بدلا منها « أولها يا أيها المالك » .

(٢) « الجيلى » فى الذيل على الروضتين .

(٣) « وصائغهم والأربلى » فى الذيل على الروضتين .

(٤) ، (٥) [ ] إضافة من الذيل على الروضتين .

(٦) ، (٧) انظر الذيل على الروضتين ص ٢١٤ .

قال : وأنشدنى العماد داود الحموى لنفسه فى ذلك [القاضى المعزول](١) :

نجم أتاه ضياء الشمس فاحترقا　　وراح فى لجج الأدبار قد غَرِقا
ناحت عليه الليالى وهى شامتة　　وعرفته صروف الدهر ما اختلقا
وحدّثته الأمانى وهى كاذبة　　بأنه لا يرى بعد النعيم شقا
وجاد بالمال كى تبقى رئاسته　　وفتق الشرع والتقوى وما رتقا
فجاءه سهم غرب جل مُرسله　　فمات معنى وما أخطاه من رشقا
وأُلقيت فى قلوب الناس بُغضته　　لكنهم قد غدوا فى ذمه فِرَقا
ففرقةٌ بقبيح الظلم تذكرهُ　　وفرقةٌ حلفَتْ بالله قد فسقا(٢)

[وزدت أنا](٣) :

وفرقة وصفته بالخلاعة مع　　خبث وكبر وكلٌ منهم صَدقا

قال : وفى الغد يوم الجمعة : قُرِئَ بالشباك الكمالى بجامع دمشق ، وأنا حاضر فيه ، تقليد القضاء للقاضى شمس الدين بن خلكان الإربلى ، ويتضمن أنه فوض إليه الحكم فى جميع بلاد الشام من العريش إلى سلمية ، يستنيب فيها من يراه ،

---

(١) [ ] إضافة من الذيل على الروضتين ص ٢١٥ .

(٢) انظر الذيل على الروضتين ص ٢١٥ ، حيث توجد أبيات أخرى هى :

وفرقة سلبته ثوب عصمته　　بأنه من رباط الدين قد مرقا
وراح قسرا إلى مصر على عجل　　موافقا للذى من قبله سبقا
مفارقا لنعيم كان منغمسا　　فيه ولذة يوم بدلت أرقا

(٣) [ ] إضافة من الذيل على الروضتين للتوضيح .

وفوض إليه النظر(١) فى أوقاف الجامع ، والمصالح ، والمارستان ، والمدارس وغيرها(٢) ، مما كان تحت يد الحاكم المعزول ، وفوض إليه تدريس سبع مدارس كانت تحت يد المعزول أيضا وهى العذراوية ، والعادلية ، والناصرية ، والفلكية ، والركنية ، والإقبالية ، والبهنسية(٣) .

وفى تاريخ النويرى : ولما سار السلطان الملك الظاهر من مصر إلى الشام ، أمر القاضى شمس الدين بن خلكان أن يسافر فى صحبته من [٤٧١] مصر إلى الشام فسافر ، ولما دخل السلطان دمشق عزل عن قضاء دمشق نجم الدين بن صدر الدين ابن سنى الدولة وولى عوضه القاضى شمس الدين بن خلكان(٤) .

ذكر بقية الحوادث :

منها : أن فى يوم الجمعة خامس المحرم من هذه السنة كانت كسرة التتار على حمص قريبا من قبر خالد بن الوليد رضى الله عنه ، وقد ذكرناها مفصلة فى السنة الماضية لأجل تتميم الكلام(٥) .

ومنها : وصول الملك الصالح ركن الدين إسماعيل بن الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ إلى الأبواب السلطانية ، وكان وصوله فى شعبان ، فأقبل الظاهر عليه وأحسن إليه ، وأمر له ولمن معه بالإقامات والإنزال من دمشق إلى مصر ، وتلقاه

(١) « الناظر » فى الأصل ، والتصحيح من الذيل على الروضتين .

(٢) « وغيرهما » فى الذيل على الروضتين .

(٣) « البهسنية » فى الأصل ، والتصحيح من الذيل على الروضتين ص ٢١٥ .

(٤) ملخصا عن نهاية الأرب مخطوط جـ ٢٨ ورقة ٤٣ ، وانظر المختصر جـ ٣ ص ٢١٣ .

(٥) انظر ما سبق ص ٢٦٨ وما بعدها .

وأنزله في دار أخليت له، تليق بمثله، ووصل بعده أخوه المجاهد سيف الدين إسحاق صاحب الجزيرة، فتلقاه كما تلقى أخاه، وكان أخوهما الملك المظفر صاحب سنجار قد رتبه الملك سيف الدين قطز نائبا بحلب بعد كسرة التتار - كما ذكرنا - فوجد العزيزية أمراء حلب عليه، وكرهوا ولايته، فأمسكوه واعتقلوه في بعض قلاع حلب لما قتل المظفر، فسأل إخوته السلطان تسييبه، فأفرج عنه، ووصل السلطان المذكورين بصلات جزيلة من المال والقماش والخيل والخلع والحوائص، لهم ولأصحابهم، وجهزهم ليعودوا إلى ممالكهم صحبة الخليفة المستنصر بالله، وكتب تقاليدهم بتفويضها إليهم.

فكتب للملك الصالح ركن الدين إسماعيل: الموصل وولاياتها ورساتيقها، ونصيبين(1) وولاياتها: بالوصا [والجزيرة](2) ومدينة بوازيج(3) وما يتعلق بها، وعقر(4) [و] شوش(5)، ودارا(6) وأعمالها، والقلاع العمادية(7) وبلادها، والكواشي(8) وبلادها،

(١) نصيبين: من مدن الجزيرة على طريق القوافل من الموصل إلى الشام - معجم البلدان.

(٢) «وبالوصا» في الأصل، والتصحيح والإضافة من الروض الزاهر ص ١١٥.

(٣) بوازيج: ويقال لها: بوازيج الملك: مدينة بين تكريت وإربل - معجم البلدان.

(٤) عقر: ويقال لها عقر الحميدية: قلعة حصينة في جبال شرق الموصل، وتنسب إلى سكانها من الأكراد - معجم البلدان.

(٥) [و] إضافة من الروض الزاهر. شوش: قلعة كبيرة وعالية قرب عقر الحميدية - معجم البلدان.

(٦) دارا: مدينة في سفح جبل نصيبين وما ردين، وتتبع الجزيرة - معجم البلدان.

(٧) هي قلعة حصينة عمرها عماد الدين زنكي سنة ٥٣٧هـ / ١١٤٢م ونسبت إليه، وكان اسمها آشب - معجم البلدان.

(٨) كواشي: قلعة في جبال شرقي الموصل - معجم البلدان.

وأهرور[1] وبلدها ، وجلصور[2] وبلدها، وكنكور[3] وبلدها .

وكتب للملك المجاهد سيف الدين إسحاق بلاد الجزيرة وزيد عليها حمرين .

وكتب للملك المظفر علاء الدين على سنجار وأعمالها التى كانت بيده .

وأرسل إليهم الطبلخانات والسناجق ، وتقدم بسفرهم صحبته إلى الشام ليجهزهم إلى مستقرهم صحبة الخليفة المستنصر بالله ، فتجهزوا صحبته كما ذكرنا .

ومنها : أنه جاءت الرسل من جهة جُوَانْ دِابن كُندِيافا[4] ، وغيره من الفرنج الذين بالساحل ، إلى السلطان الملك الظاهر ، والسلطان فى منزلة ماء[٤٧٢]العوجاء يسألون السلطان الإذن لصاحبهم فى حضوره[5] إلى الأبواب الشريفة ، فأذن لكنديافا المذكور ، فحضر ، فأكرمه السلطان وأقبل عليه ، وأجاب سؤاله ، ورسم بتقرير الهدنة له ، ولصاحب بيروت على حكم القاعدة التى كانت مقررة فى الأيام الناصرية ، وكتب له منشورا بما فى يده من البلاد ، فقبل الأرض شكرا على هذه النعمة ، وعاد ، وكثرت الأجلاب ، وأمنت السبل ، وترددت التجار ، وسلكت السفار ، واندفعت عن أهل السواحل المضار .

---

(١) أهرور : حصن منيع من أعمال الموصل — معجم البلدان .

(٢) « جاصرا » فى الأصل ، والتصحيح من الروض الزاهر ص ١١٦ . جلصورا : قامة فى أرض الموصل — معجم البلدان .

(٣) « ليكور » فى الأصل ، والتصحيح من الروض الزاهر . كنكور : قلعة حصينة من قلاع الزوزان ، وهى لصاحب الموصل — معجم البلدان .

(٤) هوجون إبلين John of Ibelin صاحب يافا .

(٥) « حضورهم » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق ، وما جاء فى الروض الزاهر ص ١١٦ .

ومنها : أنه وصل إلى السلطان رسول الأشكرى[1] ببذل المودة والمساعدة .

ومنها : أنه حضر إلى خدمة السلطان وهو فى الشام الملك المنصور والملك الأشرف صاحب حمص ، فتلقاهما بالإكرام وحباهما بالإنعام ، وأرسل إليهما شعار السلطنة ، فركب كل منهما ، وكتب لهما التقاليد بممالكهما ، وزاد كل منهما على ما بيده ، فزاد المنصور صاحب حماة بلاد الإسماعيلية ، والملك الأشرف تل باشر ، وأعادهما إلى مستقرهما .

وحضر لخدمته الملك الزاهد أسد الدين شيركوه ، والملك الأمجد بن العادل صاحب بعلبك ، والمنصور والسعيد ولدا الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن الملك العادل الكبير ، والملك الأمجد بن[2] الملك الناصر [داود[3]] ، والملك الأشرف ابن الملك المسعود ، والقاهر بن المعظم ، فعاملهم بالجميل والإنعام الجزيل .

وهؤلاء من أعيان الذرية الأيوبية ، وفدوا إلى خدمته ومثلوا بحضرته ووطئوا بساطه ، وأكلوا سماطه ، فكان هذا من أمارات الإقبال ، وسعادة جد دولته الآمنة من الزوال .

ومنها : أن السلطان أفرج عن العزيز بن المغيث وأرسله إلى أبيه بالكرك ، وذلك أن الملك المغيث فتح الدين عمر صاحب الكرك كان قد أرسل ولده العزيز فخر الدين عثمان إلى كتبغا نوين ، مقدم التتار ، عند وصوله إلى دمشق ، فبقى

---

(١) المقصود الامبراطور البيزنطى وهو الامبراطور ميخائيل الثامن باليولوجس .

(٢) « بن » مكررة فى الأصل .

(٣) [ ] إضافة للتوضيح من الروض الزاهر ص ١٢٠ .

مقيما بها إلى أن اتفقت الكسرة، ودخل السلطان المظفر دمشق، فأمسكه واعتقله، فلما دخل الظاهر دمشق أفرج عنه وأحسن إليه، وجهزه إلى والده، وجهز إليه شعار السلطنة، فركب بها فى الكرك .

ومنها: أنه اتفقت واقعة بين الفرنج والتركمان ببلاد الجولان، وكان التركمان قد آووا إلى بلد الساحل جافلين من التتار، وانتقلوا إلى بلد الجولان فأقاموا بها، وكانت صفد بيد الفرنج فقصدوا الإغارة على التركمان، وتبييتهم على غِرَّةٍ منهم، فشعروا [٤٧٣] بما أراده الفرنج، فتأهبوا لهم وتيقظوا، فلما جاءوا إليهم اتفقوا معهم، فكسروا الفرنج كسرة شديدة، وأسروا من كنودهم جماعة، فبذلوا لهم مالا يشترون به نفوسهم، و يفدون به رؤوسهم، فقبلوه منهم، وخلوا عنهم، ولم يطلعوا على ذلك أحدا من النواب السلطانية ظنا منهم أن الأمر يخفى ولا يظهر، فأطلع السلطان على ذلك، وعلم التركمان بذلك، فخافوا غائلة إيقاعه، فرحلوا من البلاد، وتوجهوا إلى الروم .

ومنها: أن الأمير بيبرس قال فى تاريخه: وفى هذه السنة اتفق وصولى إلى الديار المصرية صحبة الطواشى مجاهد الدين قايماز الموصلى خادم الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، فاشترانى منه الأمير سيف الدين قلاون الألفى، واشترى منه مملوكا آخر خوشداشا لى يسمى أيبك الموصلى، وكان السلطان قلاون ساكنا بحارة البندقانيين بالقاهرة المحروسة(١)، فرتبنى فى المكتب، فلطف الله بى، وعلمنى كتابه العزيز، وشرفنى بدراسة القرآن الكريم، لطفا من رب العالمين .

---

(١) فى الطريق من قصبة القاهرة المعزية إلى سويقة الصاحب والحارة الوزيرية و بباب سعادة ـ المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٣٧٤ .

ولما سافر المخدوم هذه السفرة ، صحبة السلطان الملك الظاهر ، كنت مقيما بالدار عند الست خاتون قُطْقَطِيَة ، وهي والدة الملك الأشرف ، معدودا في جملة الصغار .

ومنها : أنه جرى لولدى صاحب الروم وهما عز الدين كيكاوس وركن الدين قليج أرسلان ، وقد ذكرنا أنهما حضرا مع هلاون فتح حلب ، وعاد كل منهما إلى مستقره على صورة القسمة التي قسمها بينهما منكوقان ، فلما كان في هذه السنة(١) أرسل هلاون إلى عز الدين يستدعي شمس الدين يوتاش نائبه ، فأرسله إليه ، فوصل إلى أرزنكان صحبة رسله ، فاتفق عند وصولهم إليها عيد غطاس النصارى ، فخرجوا متوجهين إلى الفرات بجمع كثير ، ومعهم الجاثليق ، واسمه مَرِحَسْيَا ، وقد رفعوا الصلبان على الرماح ، وأعلنوا النواقيس والصياح ، فأنكر(٢) عليهم شمس الدين يوتاش ، وقصد منعهم ، فقام عليه رسل هلاون(٣) وقالوا : هذه بلاد السلطان ركن الدين ، فلا تحدث إلا في بلاد مخدومك عز الدين كيكاوس ، وسألوا الجاثليق كيف كانت عادتكم في أيام السلطان غياث الدين ؟ فقال لهم : كانت عادتنا نحمل ثلاثة آلاف درهم ونعمل عندنا كما [٤٧٤] نختار ، فأخذوا منه ثلاثة آلاف درهم ، ومكنوه من عمل العيد كما أراد ، فلما جرت هذه المفاوضة بين رسل هلاون وشمس الدين يوتاش(٤) عاد مغضبا ورجع إلى السلطان عز الدين ،

---

(١) « فلما كان في سنة ستين وستمائة » — في نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ١٠٩ — ١١٠ .

(٢) « فأنكر » مكررة في الأصل .

(٣) « فقام عليه هلاون رسل هلاون » في الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق ، وما ورد في نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ١١٠ .

(٤) « يوقاش » في الأصل ، والتصحيح مما سبق ، ومن نهاية الأرب .

وحسن إليه العصيان على هلاون ، والخلاف على أخيه ركن الدين ، والاستيلاء على بلاده ، فأطاعه ووافقه .

وكان ذلك داعية الفساد الأكبر ، والصدع الذى لم يجبر ، ثم سار إلى توقات وهى إقطاع معين الدين سليمان البرواناه ، وبها أولاده وحريمه ، فحصرها وضايقها ، واستولى على البلاد التى فى قسمة السلطان ركن الدين ، فتوجه ركن الدين والبرواناه إلى هلاون ، وشكيا إليه ما فعله السلطان عز الدين ونائبه يوتاش من الخلاف والعصيان ، ونقض ما قرره القان ، فجهز هلاون معهما تمان[1] من عسكره ، صحبة مقدم يسمى بيان نوين ، وسارا راجعين ، وتقدما العسكر المذكور ، وقررا مع بيان نوين أن يكون عندهما فى فصل الربيع .

ثم أن السلطان ركن الدين فرق ضياع أرزنجان[2] على أمرائه إقطاعا ، ووعدهم بأنه متى استولى على مملكة أخيه أعطاهم تلك الضياع أملاكا ، وأقام السلطان ركن الدين على أرزنجان إلى أن انقضى فصل الشتاء ، وكان نائبه الأمير خطير الدين زكريا ، وأتابك جيشه رسلان دغمش ، انحاز إليه مذ نفر عن أخيه السلطان عز الدين لما جهزه لحرب بيجو ، وهجم على حريمه وهو فى حال السكر ، وقد ذكرنا ذلك مقدما[3] ، فاستمر فى الخدمة الركنية ، وكان البرواناه بين يديه متصرفا فى المهمات ، وشرف الدين مسعود وضياء الدين محمود كتابا بين يديه .

فلما أقبل زمن الربيع جاء بيان نوين بجيش التتار إلى أرزنجان ، فجهز معهم السلطان ركن الدين عساكره ، وسفرهم إلى الروم صحبة معين الدين البَرْواناه ،

---

(١) التومان : الفرقة من الجيش التى يبلغ عددها عشرة آلاف مقاتل ، وقائد التومان من أصحاب أكبر الرتب العسكرية فى الجيش المغولى — نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ١١٠ هامش (١) .

(٢) أرزنجان = أرزنكان : من بلاد أرمينية بين بلاد الروم وخلاط — معجم البلدان .

(٣) انظر ما سبق ص ١٥٤ وفيها ورد اسم الأتابك « أرسلان دغمش » .

فسار شمس الدين يوتاش عن التوقات ومعه عساكر السلطان عز الدين لحربهم ، فالتقى الجمعان على موضع يسمى يلدوز طاغى، ومعناه جبل النجم، فكانت الكسرة على جيش ركن الدين والتتار ، فانهزموا .

وعادوا إلى أرزنكان، فأقاموا بها، وأرسلوا إلى هلاون يستنجدون منه مددا، فجرد إليهم مقدما يسمى على شاق نوين ، ومعه [٤٧٥] تمان ، فلما وصل ، سار السلطان ركن الدين بنفسه ، فوصلوا إلى قزان يوكى ، فشتّوا هناك .

فلما انصرف الشتاء ، وصلت رسل هلاون إلى السلطان عز الدين تستدعيه ، فأبى المضى ، وعكف على اللهو واللعب ، وجمع عسكره حوله بقونية ، ولم يهتم لحفظ الأطراف وثغور مملكته، فسار أخوه ركن الدين إليها، واستولى عليها حتى انتهى إلى أقصراى ودخل صحراء قونية .

فهرب السلطان عز الدين منهزما إلى الأشكرى بالقسطنطينية ، وصحبته أخواله كرخيا وكركديد وهما على دين النصرانية ، وثلاثة نفر من أمرائه، وأخلى لأخيه البلاد فملكها واستولى[1] عليها ، سوى الثغور والجبال والسواحل التى بأيدى التركمان ، فإنهم امتنعوا عن طاعة السلطان ركن الدين .

وكان كبارهم محمد باك وإلياس باك أخوه وعلى باك[2] صهره وسونج قرابته ، فأرسلوا إلى هلاون يبذلون له الطاعة وحمل الإتاوة ، ويطلبون منه سنجقا ، وفرمانا بتقليدهم ، وشحنة يقيم عندهم ، فأجابهم إلى ذلك ، وأرسل إليهم شحنة

(١) « واستولى » مكررة فى الأصل . وانظر هذه الأحداث فى نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ١٠٩ — ١١٠ .

(٢) « طيباك » فى الأصل .

يسمى قُلْشار ، وكتب لهم فرمان بالبلاد التى بأيديهم ، وهى : طُكُزلُو وخُوبَاس وطلماى وما حولها .

وأرسل هلاون إلى محمد باك أمير التركمان المذكور يستدعيه إلى الأُرْدُو ، فأبى ولم يتوجه إليه ، فبرز مرسوم هلاون إلى السلطان ركن الدين والتتار الذين فى الروم بأن يتوجهوا لقتال محمد باك والتركمان الذين معه ، فتوجهوا لحربه ، فخامر عليه على باك صهره ، وجاء إلى السلطان ركن الدين وقوى عزمه على قتال التركمان ، ودلهم على عوراتهم ، ومداخل بلادهم ، فدخلوها وأخذوا أكثرها ، والتقى معهم فى صحراء طَلْمانية ، فكسروه فانهزم ، وتحصن ببعض الجبال ، وأرسل يطلب الأمان ليحضر إلى الطاعة ، فحلفوا له وآمنوه ، فحضر ، فأرسلوه إلى السلطان ركن الدين ، فأخذه معه ورحل إلى قونية ، فقتله عند وصوله إلى مدينة بُرْلُو ، واستقر عليباك صهره أميرا على التركمان ، وملك التتار تلك الأطراف إلى حد إسطنبول .

ومنها : أنه اتفقت واقعة الأمير شمس الدين أقوش البرلى العزيزى ، وكان [٤٧٦] المذكور له نابلس من الأيام المظفرية ، وزاده السلطان بيسان ، وأعطى مملوكه بجقار إقطاعا ، وتوجه إلى دمشق ، فحصلت أسباب أوجبت إمساك الأمير بهاء الدين بغدى الأشرفى ، فنفر الأشرفية والعزيزية ، وخرج الأمير شمس الدين المذكور وجماعة منهم ، وتوجه إلى البيرة واستولى عليها ، وجعل يشن الغارات على التتار الذين هم بشرق الفرات ، ويكبس من يستفرده منهم ، وطمعت آماله فى قصد سنجار ، فقصدها ، وقد كمن له التتار وهو لا يشعر ، فلما انتهى إلى حيث هم ، خرجوا عليه فكسروه وهزموه ، وقتلوا من رفقته جماعة منهم : الأمير علم الدين جكم الأشرفى ، ونجا بنفسه ، فعاد إلى البيرة ، فراسله السلطان ، وعرض

عليه الدخول فى الطاعة ، ووعده بالإحسان ، فلم يقبل ، فجهز إليه جيشا وقدم عليه الأمير جمال الدين المحمدى ، فسار إليه والتقيا ، فكسره البرلى وأسره ومن معه ، فأما الأمراء فأعطى لكل أمير منهم فرسا واحدا ، وأما الأجناد فإنه تركهم رجالة وأطلقهم ، فحضروا إلى السلطان ، وهم على هذه الحال ، فعدل عن مقاتلته إلى مخاتلته ، فأرسل إليه يعده الإحسان ويستجلبه بصوغ اللسان .

ذكر الأمور المزعجة :

منها : أن فى ربيع الأول من هذه السنة وردت الأخبار من ناحية عكا أن سبع جزائر فى البحر خسف بها وبأهلها ، بعد أن أمطرت عليهم دماء عدة أيام ، وهلك منهم خلق كثير قبل الخسف ، وبقى أهل عكا لابسين السواد ، وهم يبكون ويستغفرون من الذنوب على زعمهم .

ومنها : أنه خرج على الغلال بأرض حوران وأعمالها والجولان وأعمالها فأر عظيم أكل الغلات ، فكان الذى أكله ثلاثمائة ألف غرارة قمح غير الشعير ، وأبيعت الحنطة فى هذه السنة المكوك[1] منها بأربعمائة درهم ، واستأصلت الفرنج أموال المسلمين فى ثمن الغلال .

قلت : وقع فى صعيد مصر فى سنة خمس وسبعمائة مثل ذلك ، وكان مباشروا شونة أم القصور باتوا بها ليلة لأجل الفأر خوفا على الغلة ، فباتوا يقتلون فى الفأر

(١) المكوك : بفتح الميم وتشديد الكاف المضمومة ثم الواو الساكنة بعدها الكاف ، مكيال لأهالى العراق ، يختلف مقداره باختلاف اصطلاح الناس عليه ، والمشهور أنه صاع ونصف ، ويتراوح وزن الصاع عند الفقهاء من ٢٩٦ر٣ كجم عند الحنفية إلى ١٧٥ر٢ كجم عند الشافعية والحنابلة والمالكية — النقود الإسلامية ص ١٠٧ ، الإيضاح والتبيان ص ٥٧ .

إلى الصباح ، فكان [٤٧٧] جملة ما قتلوه سبعة عشر أردبا وكسورا بالكيل المصرى .

وفيها : حج بالناس « ... ... »[1] .

(١) « ... ... » بياض فى الأصل .

ذكر من توفي فيها من الأعيان

الشيخ الإمام العالم العلامة الزاهد البارع الورع فريد عصره ووحيد دهره أثير الدين بن نجيب بن محمد الكاساني، أحد الأعيان الحنفية الكبار.

وكان إماما فاضلا صاحب تصانيف مفيدة منها كتاب « بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع »[1] في عشر مجلدات، وهو كتاب عظيم مفيد مشهور في الآفاق، وروى الحديث وغيره عن الشيخ الإمام شيخ الإسلام أبي بكر محمود بن الحسن البلخي، وعن الشيخ الإمام شمس الأئمة الكردري، وكان يروي كتاب « التيسير في التفسير » للإمام نجم الدين[2] النسفي عن الشيخ الأجل برهان الدين الحسن بن محمد الكاساني، وهو عن الشيخ الإمام نجم الدين عن المصنف.

توفي ليلة الثلاثاء السادس عشر من محرم هذه السنة ببلده كاشغر.

ورثاه الإمام العلامة كمال الدين بن أبي المظفر بقوله:

فقدنا إماما كان لو نسبته ... إلى جميع الورى بالعلم والفضل أشرفا
وكان على ما فيه من بشرية ... على كل أسرار الملائك أشرفا
ولو سئلوا من ذا الذي ينصر الهدى ... ويدعو إليه عين الكل أشرفا

الشيخ تاج الدين أبو عبد الله محمد[3] بن أبي البقاء صالح بن محارب التنوخي المحلي ناظر ثغر الإسكندرية.

كان رئيسا فاضلا جليلا، مات في هذه السنة.

(١) هذا الكتاب مطبوع ومنسوب إلى أبو بكر بن مسعود الحنفي، علاء الدين الكاساني، المتوفى سنة ٥٨٧ هـ / ١١٩١ م — مطبوع في ٧ أجزاء بمصر سنة ١٣٢٨ هـ / ١٩١٠ م — وانظر أيضا نسبة هذا الكتاب إلى أبو بكر بن مسعود في هدية العارفين جـ ١ ص ٢٣٥.

(٢) هو عمر بن محمد بن أحمد بن إسماعيل، النسفي السمرقندي الحنفي، الإمام نجم الدين، المتوفى سنة ٥٣٧ هـ / ١١٤٢ م — العبر جـ ٤ ص ١٠٢، هدية العارفين جـ ١ ص ٧٨٣.

(٣) وله أيضا ترجمة في: ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ١٢٢.

الشيخ أبو بكر مفضل بن الشيخ أبي الفتح بن أبي سراقة .

مات بمصر فى هذه السنة .

الشيخ الخطيب أبو البركات عبد الرحمن (١) بن أبى بكر محمد بن عبد القاهر بن موهوب الحموى الشافعى .

توفى بحماة ودفن بمدرسته فيها .

الجمال أبو عمرو عثمان (٢) بن الشيخ أبى الحرم مكى السارعى .

كان فاضلا مشهورا بالدين والصلاح ، وكان يجلس للوعظ ، وله اليدُ الطولى فى معرفة المواقيت وعمل الساعات ، توفى فى هذه السنة بالقاهرة .

الشيخ المحدث الحافظ أبو بكر محمد (٣) بن أحمد بن سيد [٤٧٨] الناس اليعمرى الأندلسى .

وكان أحد حفاظ المحدثين المشهورين وفضلائهم المذكورين ، وبه ختم هذا الشأن بالمغرب ، توفى فى هذه السنة بمدينة تونس ، رحمه الله .

الصاحب صفى الدين أبو إسحاق إبراهيم (٤) بن عبد الله بن هبة الله بن أحمد بن على بن مرزوق العسقلانى الكاتب التاجر ، وزَرَ للملك الكامل .

وكان أحد الرؤساء المعروفين بالثروة وسعة ذات اليد ، توفى هذه السنة بمصر .

(١) وله أيضا ترجمة فى : ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ١٢٩ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : العبر جـ ٥ ص ٢٥٤ ، شذارت الذهب جـ ٥ ص ٢٩٨ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٠٢ .

(٣) هو محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن يحيى بن سيد الناس ، أبو بكر اليعمرى الأندلسى الإشبيلى .

وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ٢٩ ، الوافى جـ ٢ ص ١٢١ رقم ٤٦٨ ، العبر جـ ٥ ص ٢٥٥ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٩٨ ، ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ١٣١ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ١٢٦ ، العبر جـ ٥ ص ٢٥٢ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٩٧ .

فصل فيما وقع من الحوادث

في السنة الستين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة : المستنصر بالله الذى نصبه السلطان الملك الظاهر قد قتل فى ثلث المحرم فى هذه [السنة] (١) على ما نذكره الآن .

وسلطان البلاد المصرية والشامية : الملك الظاهر بيبرس البندقدارى .

ونائبه بدمشق : الأمير علاء الدين طيبرس الوزيرى .

وكان المتغلب على حلب : الأمير شمس الدين أقوش البرلى العزيزى ، ثم أخذت منه على مانذكره الآن .

وصاحب بلاد الروم : السلطان ركن الدين قلج أرسلان السلجوقى .

وصاحب العراق وكرسيه بغداد ، وإقليم خراسان وكرسيه نيسابور ، وعراق العجم وكرسيه أصبهان ، وأذربيجان وكرسيها تبريز ، وخوزستان وكرسيها ششتر ، وبلاد فارس وكرسيها شيراز ، وديار بكر وكرسيها الموصل : هلاون بن طلوخان ابن جنكزخان ، وهذه البلاد كلها تحت يد هلاون وأولاده ، وكذلك بلاد الروم تحت يده ، ولكنه قرر صاحبها ركن الدين قلج أرسلان وهو فى طاعة هلاون وتحمل إليه الإتاوة .

(*) يوافق أولها السبت ٢٦ نوفمبر ١٢٦١ م .

(١) [ ] إضافة تتفق والسياق .

وصاحب البـلاد الشمالية وكرسيها صراى : بركة خان صاين بن دوشي خان ابن جنكزخان ، وهو أعظم ملوك التتار .

ذكر قتل الخليفة المستنصر بالله :

قد ذكرنا أنه بويع له فى رجب من السنة الماضية ، وذكرنا أنه ما أقامه إلا السلطان الملك الظاهر بيبرس ، وأقام بركة[1] ، وسافر به إلى الشام ، وجهزه من الشام إلى بغـداد ، وأنه لما عبر الفرات بمن معه من العسكر ظن أن التتـار قد انتزحوا عن العراق ، وفارقوها على عادتهم أنهم يخربون و يذهبون ولا يقيمون ، ولم [٤٧٩] يدر أنهم فى البـلاد ، فسار على ما هو عليه ، واتصل بالتتار قدومه لأخذ الثأر ، فجردوا إليه عسكرا صحبـة هُلَاجو وأُزدان ، فأدركوه وقد بلغ عانا[2] ، فحاربوه حربا عوانا ، فصابرهم جهده ، وثبت لصدمتهم وكده ، ثم تكاثروا عليـه وتبادروا إليـه ، فلم يكن له قبـل بكثرتهم ولا طاقة بمنعهم لمنعتهـم ، فأخذته السيوف وأدركته الحتوف ، فمـات شهيدا وتولى حميدا ، وقتل أكثر من كان معه ، وتفرق من نجا بنفسه ، وكان قتله فى ثالث المحرم من هذه السنة أعنى سنة ستين وستمائة[3] .

---

(١) البرك : لفظ فارسى معناه الثوب المصنوع من و بر الجمال ، ثم أصبح لفظا إصطلاحيا يقصد به أمتعة المسافر أو مهمات الجيش — هامش (١) ص ٨٧ من النجوم الزاهرة . جـ ٨ ع

(٢) عانة : بلد مشهـور بين الرقة وهيت ، من أعمال الجزيرة ، مشرفة على الفرات — معجم البـلدان .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهـل الصافى جـ٢ ص ٧٢ رقم ٢٥١ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٠٦ ، الوافى جـ٧ ص ٣٨٤ رقم ٣٣٧٨ ، السلوك جـ ١ ص ٤٦٢ ، ٤٧٦ ، ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ١٦٣ وما بعدها .

وقد ذكر بيبرس وفاته فى السنة الماضية(1) ، والصواب ما ذكرناه .

وشغرت البلاد من الخليفة العباسى إلى أن قدم أبو العباس أحمد بن الأمير أبى على القبى بن الأمير على بن الأمير أبى بكر بن الإمام المسترشد بالله بن المستظهر بالله أبى العباس أحمد من بلاد الشرق ، وصحبته جماعة من رؤوس تلك البلاد ، وقد كان شهد الوقعة فى صحبة المستنصر بالله المقتول ، وهرب هو فى جماعة من المعركة ، فسلم ، وتوجه إلى الديار الشامية طالبا الديار المصرية ، فحضر إلى القاهرة فى السابع والعشرين من ربيع الآخر من هذه السنة ، ويوم دخوله تلقاه السلطان الملك الظاهر وسُرّ به ، وأكرمه وعظمه ، وأنزله فى البرج الكبير بقلعة الجبل ، وأجرى عليه الأرزاق الدارة والإحسان ، ولم يحصل له بيعة إلا فى سنة إحدى وستين وستمائة ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

ذكر ما جَرّيات الملك الظّاهر :

منها : أخذه الشوبك من الملك المغيث بن الملك العادل الصغير .

ولما عاد السلطان من الشام إلى الديار المصرية فى السنة الماضية جرد الأمير بدر الدين الأيدمرى ومعه جماعة ، ولم يعلم أحدا جهة مقصده ، لأن الملك الظاهر كان حازما فى أمره ، كأنما لسره مقتديا بقول القائل :

إذا ضاق صَدرُ المرءِ عن سِرّ نفسِه   فصَدرُ الذى يَستودعُ السِّرَّ أضيَقُ

---

(1) ذكر بيبرس المنصورى خبر مقتل الإمام المستنصر بالله فى أحداث سنة ٦٥٩ هـ ، ولكنه لم يحدد بالضبط يوم مقتله — زبدة الفكرة جـ ٩ ورقم ٤٩ أ ، ٤٩ ب .

فسار الأمير المذكور ومن معه إلى الشوبك ، وتسلمها يوم الأحد وقت العصر في العشر الأواخر من شهر [ذى الحجة](١) ، ورتب فيها سيف الدين بلبان [٤٨٠] المختصى واليا ، واستخدم بها النقباء ، والجاندارية(٢) ، وأفرد لخاص القلعة ما كان مفردا لها فى الأيام الصالحية(٣) .

ولما أخذها السلطان كان عند المغيث جماعة من الشهرزورية ، فاعتمدوا الغارة على بلادها ، فجرد السلطان إليهم من يردهم ، وشرع فى تجهيز عسكر إلى الكرك ، فسير المغيث بن العادل يلتمس العفو عنه من السلطان ، ثم أرسل يستعطف السلطان ، فأجابه ، وأقطعه دبيان(٤) ، واستأمنت الشهرزورية إلى السلطان ، فأمنهم وعفا عنهم ، وأعطى بعضهم الإقطاعات .

ومنها : أن فى ذى القعدة قبض الملك الظاهر على نائبه بدمشق وهو علاء الدين طيبرس(٥) الوزيرى ، وكان قد تولى دمشق بعد مسير الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار عنها .

---

(١) [ ] موضع بياض فى الأصل ، والإضافة من مفرج الكروب : وما يفهم من الروض الزاهر ص ١٢١ ، وذلك سنة ٦٥٩ هـ . وورد فى المختصر : « فتسلم الشوبك فى سلخ ذى الحجة من هذه السنة أعنى سنة تسع وخمسين وستمائة » — جـ ٣ ص ٢١٤ .

(٢) « الجاندرة » فى الروض الزاهر ص ١٢١ . الجاندار : هو الأمير الذى يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ، ويتبعه الجندوارية — صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٠ ، جـ ٥ ص ٤٥٩ .

(٣) انظر الروض الزاهر ص ١٢١ .

(٤) دبيان : قرية فى الأردن ، تجاه البلقاء — لوسترنج .

(٥) توفى سنة ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م — المنهل الصافى .

وسبب القبض عليه أنه بلغ الملك الظاهر عنه أمور كرهها ، فأرسل إليه عسكرا مع عز الدين الدمياطى وعلاء الدين الركنى وغيرهما من الأمراء ، فلما وصلوا إلى دمشق ، خرج طيبرس للقائهم ، فقبضوا عليه ، وقيدوه ، وأرسلوه إلى مصر ، فحبسه الملك الظاهر ، واستمر فى الحبس سنة وشهرا ، وكانت مدة ولايته بدمشق سنة وشهرا أيضا .

وكان ردئ السيرة فى أهل دمشق ، حتى نزح منها جماعة كثيرة من ظلمه ، وقيض الله عليه من جازاه بمثله ، ثم أطلقه فيما بعد ، وأحسن إليه ، وأعطاه إمرة وقربة وأدناه ، ولما أرسل إلى القلعة مقيدا أقام بدمشق الأمير علاء الدين أيدغدى الحاج الركنى إلى أن عين السلطان لها الأمير جمال الدين أقوش[1] النجيبى[2] ، وأرسله إليها فى هذه السنة ، فولى بها نيابة السلطنة مدة .

وكان جمال الدين هذا من أكابر الأمراء .

واستوزر بدمشق[3] عز الدين بن وداعة .

ومنها : أن السلطان جرد الأمير عز الدين أمير جاندار إلى الصعيد ليردع العربان ، فإنهم كانوا قد طمعوا بتغير الممالك ونافقوا وقتلوا عز الدين الحواش[4] والى قوص ، فحسم مادتهم وبدد شملهم .

---

(١) توفى سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م — المنهل الصافى جـ ٣ ص ٢٤ رقم ٥١٦ .

(٢) انظر المختصر جـ ٣ ص ٢١٤ — ٢١٥ .

(٣) « وفوض السلطان وزارة دمشق لعز الدين بن وداعة » فى السلوك جـ ١ ص ٤٦٨ ، وانظر أيضا الروض الزاهر ص ١٤١ . وهو عبد العزيز بن منصور بن محمد ، الصاحب عز الدين المعروف بابن وداعة ، والمتوفى سنة ٦٦٦ هـ/١٢٦٧ م — المنهل الصافى .

(٤) « الحواش » فى السلوك جـ ١ ص ٤٧١ .

ومنها : أن السلطان رسم للعساكر التى بالشام بالغارة على بلد أنطاكية ،
[٤٨١] فتوجه الأمير شمس الدين سنقر الرومى بمن كان قد جرد معه لتشييع الخليفة الذى قتل ، وتوجه صاحب حماة وحمص فأغاروا عليها ، وأخذوا ميناءها ، ونهبوا وغنموا ، وعادوا سالمين غانمين إلى مصر[1] ، ومعهم أزيد من ثلاثمائة أسير، فقابلهم السلطان بالإحسان والإنعام .

ومنها : أن السلطان أرسل رسولا إلى الأشكرى صاحب قسطنطينية ، ووجه صحبته بطرك الملكية بمصر ، فإن الأشكرى كان قد سير رسله يلتمس إنفاذه إليه[2] ، وكان الذى أرسله السلطان الأمير أقوش المسعودى ، ولما بلغ الرسالة عاد وعاد معه البطرك ، وقد حصل له من الأشكرى مال وقماش ومصوغ ، فعرضه على السلطان فرده عليه .

وأخبر الرسول المذكور بأن الأشكرى أبق الجامع الذى بالقسطنطينية ، فأمر السلطان أن يجهز له الحصر والستور والقناديل والمباخر والسجادات والطيب ، وكان هذا المسجد قد بنى فى سنة ست وتسعين عند ما وقع العداء مع الروم فى خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان ، وأن بانيه مسلمة بن عبد الملك .

ومنها : أن السلطان عزل عن القضاء بمصر والقاهرة القاضى بدر الدين السنجارى ، وأعيد القاضى تاج الدين بن بنت الأعز .

---

(١) « فى يوم الخميس تاسع وعشرين شهر رمضان سنة ستين » — الروض الزاهر ص ١٣٢ .

(٢) « وكان قد سير الأشكرى إلى السلطان يلتمس منه بطركا للنصارى الملكيين ، فعين الرشيد الكحال لذلك » — الروض الزاهر ص ١٢٩ ، وانظر أيضا السلوك ج ١ ص ٤٧١ .

وفى هذه السنة أمر السلطان للقاضى تاج الدين هذا بأن يستنيب من المذاهب الثلاثة ، فاستناب صدر الدين سليمان الحنفى ، والشيخ شرف الدين عمر السبكى المالكى ، والشيخ شمس الدين محمد بن الشيخ العماد الحنبلى .

ذكر بقية الحوادث :

منها : أن فى نصف رجب وردت جماعة من مماليك الخليفة المستعصم البغاددة ، وكانوا قد تأخروا فى العراق بعد استيلاء التتار على العراق وقتل الخليفة ، وكان مقدمهم يسمى شمس الدين سلار ، فأحسن الملك الظاهر ملتقاهم وعين لهم إقطاعات بالديار المصرية (١) .

ومنها : أن فى ذى الحجة من هذه السنة ظهر بين القصرين بالقاهرة عند الركن المخلق حجر مكتوب عليه : [٤٨٢] هذا مسجد موسى عليه السلام ، فخلق بالزعفران ، وسمى من ذلك اليوم الركن المخلق .

ومنها : أن فى رجب وصل إلى القاهرة إلى خدمة الملك الظاهر عماد الدين ابن مظفر الدين صاحب صهيون (٢) وصحبته هدية جليلة ، فقبلها الملك الظاهر وأحسن إليه (٣) .

ومنها : أنه جهز الملك المنصور صاحب حماة شيخ الشيوخ شرف الدين الأنصارى رسولا إلى الملك الظاهر ، ووصل شيخ الشيوخ المذكور فوجد السلطان

---

(١) الروض الزاهر ص ١٢٤ .

(٢) صهيون : بكسر أوله ثم السكون ، و ياء مفتوحة ، وواو ساكنة ونون : حصن من أعمال سواحل الشام لا يشرف على البحر — معجم البلدان .

(٣) انظر الروض الزاهر ص ١٢٧ — ١٢٨ ، السلوك جـ ١ ص ٤٧٠ .

الملك الظاهر عاتبا على صاحب حماة لاشتغاله عن مصالح المسلمين باللهو ، وأنكر الملك الظاهر على الشيخ شرف الدين ذلك ؛ ثم انصلح خاطره وحمله ما طيب به قلب صاحبه الملك المنصور ، ثم عاد إلى حماة[1] .

ومنها : أنه وصل رسل السلطان عز الدين صاحب الروم إلى السلطان الملك الظاهر يستنجده ويستمده ، وكان أرسلهم لما ضايقه أخوه قبل انهزامه إلى بلاد الأشكرى ، وهم شرف الدين الجاكى ، والشريف عماد الدين الهاشمى ، والأمير ناصر الدين بن كُوجْ رسلان أمير حاجب ، ووصل معهم كتابه بأنه نزل للسلطان من نصف مملكته ، وسير دروجا عليها علائمه ليكتب فيها مناشير بما يقطعه السلطان من بلاده لمن يشاء ، فأكرم السلطان رسله ، وجهز السلطان الأمير ناصر الدين أغلمش الصالحى ليتوجه إليه بجماعة من العسكر وأقطعه ثلاثمائة فارس فى الروم ، ولما وقع الاهتمام بذلك جاءت الأخبار بانهزامه ، فتأخر الحال ، فكان كما قيل :

أُهُمُّ بأمر الحـزم لو أَسْتَطيعُه وقد حيل بَيْن العَيْرِ والنزوانِ

ومنها : أنه وصل من عند التتار قصاد إلى الملك المنصور صاحب حماة ومعهم فرمان له ، فأرسل القصاد والفرمان إلى السلطان الملك الظاهر .

ومنها : أن فى هذه السنة اصطاد بعض الأمراء الظاهرية بجرود[2] حمار وحش ، فطبخوه فلم ينضج ، ولا أثر فيه كثرة الوقود ، ثم افتقدوا أمره فإذا هو موسوم على أذنه بهرام جور ، ذكره ابن خلكان وقال : قد أحضروه إلىّ

(١) انظر المختصر جـ ٣ ص ٢١٥ .

(٢) « بجدرد حماة » فى البداية والنهاية .

فقرأته كذلك ، وهذا يقتضي أن لهـذا الحمار قريبا من ثمانمائة سنة ، فإن بهرام جور كان قبل المبعث بمدة متطاولة ، وحمر الوحش تعيش دهرا طويلا .

وقال ابن كثير : يحتمل أن يكون هذا بهرام شاه الملك الأمجد ، إذ يبعد بقاء [٤٨٣] مثل هذا بلا اصطياد هذه المدة الطويلة ويكون الكاتب قد أخطأ فأراد كتابة بهرام شاه ، فكتب بهرام جور وحصل اللبس من هذا (١) .

قلت : كلام ابن كثير بعيـد ، فإش يحتاج إلى هذه التأويلات البعيدة ، ولا ضرورة إليها ، فإن عيش الحمر الوحشية هذه المدة غير بعيد ، وعدم وقوعها في الصـيد غير بعيد ، وأيضا فإن المواسم التي يسمون بهـا آذان الحيوان بأسمـاء الملوك مقـررة عندهم مكتوبة صحيحة حتى لا يقع الاشتباه ، فكيف يلتبس بهرام شاه ببهرام جور ؟

ومنها : أن القاضي شمس الدين بن خلكان نزل عن تدريس الركنية للشيخ شهاب الدين أبي شامة ، وحضر عنده حتى درس وأخذ في أول مختصر المزني (٢) .

ومنها : أن في عشية يوم الثلاثاء الثامن عشر من جمـادى الآخرة من هـذه السنة شـنق قاضي المقس وهو الكمال خضر (٣) الكردي أحد أقارب قاضي سـنجار بالقاهرة المحروسة ، وذلك بأنه تعرض لإقامة دولة باجتماعه مع جماعة من الأكراد الشهروزية فقبض عليـه ، وعلق وفي رقبته تواقيع كان كتبها ، وبنود من شعار

(١) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٣٣ .

(٢) انظر الذيل على الروضتين ص ٢١٦ .

(٣) هو خضر بن أبي بكر بن أحمـد ، القاضي كمال الدين الكردي قاضي المقس ، شنق سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م — المنهـل الصافي ، الذيل على الروضتين ص ٢١٧ ، ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ١٧١ .

الدولة التي كان رام إقامتها ، وكان قبل ذلك قد صنع خاتما وجعل تحت فصه ورقة ، وذكر أنه وجده ، وفيها أسماء جماعة من أولى الثروة بمال عندهم مودع ، ورام استئصال أموالهم والتقريب بها إلى ولاة الأمر ، فاطلع على محاله فأهين وصفع ، فقيل فيه :

ما وفق الكمال فى أفعاله   كلا ولا سدد(1) فى أقواله

يقول من أبصره يصك تأ   ديبا على ما كان من محاله(2)

قد كان مكتوبا على جبينه   فقلت لا بل كان فى قُذاله

وقال أبو شامة : وسألت الحاكم شمس الدين أحمد بن محمد عن هذه القضية ، فأخبرنى أن هذا الكمال خضر كان قد علق به حب التقدم عند الملوك بسبب أنه كان قد تقدم عند الملك المعز عز الدين أيبك التركمانى ، ثم أبعد واتفق أنه لما صنع الخاتم المذكور وحبس كان فى الحبس شخص آخر يدعى أنه من ولد العباس وكانت الشهرزورية أرادت مبايعته بالخلافة وهيأوا أمره بغزة ، فلما تبدد شملهم [٤٨٤] أخذ هذا وحبس ، فاتفق خضر معه فى الحبس على أنه يسعى له فى ذلك الأمر ويكون هو وزيره ، فاتفق موت العباسى ، فلما خرج خضر سعى فى إتمام الأمر لابنه ، فتم ما تم .

قال : وكان فى زمن الإمام الناصر أحمد قد ورد إلى إربل شخص يسمى الأمير(3) الغريب ، كان يدعى أنه ولد الناصر ، ثم توفى سنة أربع عشرة وستمائة ،

---

(1) « ولا صدق » فى الذيل على الروضتين .

(2) « يقول من أبصره يصر   نادما على ما كان من محاله » — الذيل على الروضتين ص ١٧ .

(3) « الأمر » فى الأصل ، والتصحيح من الذيل على الروضتين .

فادّعى هـذا الشخص أنه ابنه عند الشهرزورية ، فقـدموه ، فحبس ومات ، وخلف ولدا صغيرا ، فسمى الكمال فى المبايعة له ، فجرى ما جرى وقد خاب من افـترى[1] .

وفيها : « ... ... »[2]

وفيها : حج بالناس « ... ... »[3]

(١) الذيل على الروضتين ص ٢١٨ .

(٢) ، (٣) « » بياض فى الأصل .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

الحسن[١] بن محمد بن أحمد بن نجا الصوفى ، من أهل نصيبين .

ونشأ بأُرْبُل واشتغل بعلوم كثيرة من علوم الأوائل ، وكان يشغل أهل الذمة وغيرهم ، ونسب إلى الإنحلال وقلة الدين وترك الصلوات ، وكان ذكيا مفرطا ، وله شعر رائق ، وكان ضريرا ، وهذا الضرير شبيه بأبى العلاء المعرى الضرير فى أموره .

ابن عبد السلام : الشيخ الإمام العالم العلامة عزالدين عبد العزيز[٢] بن عبد السلام ابن أبى القاسم الحسن بن محمد بن المهذب أبو محمد السلمى الدمشقى الشافعى .

شيخ المذهب ، ومفيد أهله ، وصاحب المصنفات الحسان منها : التفسير ، واختصار النهاية ، والقواعد الكبرى والصغار ، وكتاب الصلاة ، والفوائد الموصلية ، وغير ذلك[٣] .

ولد سنة سبع أو ثمان وسبعين وخمسمائة ، وسمع كثيرا ، واشتغل على الشيخ فخر الدين بن عساكر ، وغيره ، وبرع فى المذهب ، ودرّس بعدة مدارس بدمشق ،

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، فوات الوفيات جـ ١ ص ٣٦٢ رقم ١٣١ ، العبر جـ ٥ ص ٢٥٩ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٠١ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ٢٩ ، فوات الوفيات جـ ٢ ص ٣٥٠ رقم ٢٨٧ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٠٨ ، المختصر جـ ٣ ص ٢١٥ ، الذيل على الروضتين ص ٢١٦ ، ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٥٠٥ ، جـ ٢ ص ١٧٢ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٣٥ ، طبقات الشافعية الكبرى جـ ٨ ص ٢٠٩ رقم ١١٨٣ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٠١ ، العبر جـ ٥ ص ٢٦٠ .

(٣) عن مصنفات صاحب الترجمة انظر هدية العارفين جـ ١ ص ٥٨٠ .

وولى خطابتها ، ثم انتقل عنها إلى الديار المصرية بسبب إنكاره على الصالح إسماعيل تسليمه صفد والشقيف إلى الفرنج وغير ذلك ، ووافقه الشيخ أبو عمرو بن الحاجب المالكى ، فأخرجهما من بلده ، فسار أبو عمرو بن الحاجب إلى الناصر دواد صاحب الكرك ، فأكرمه ، وسار عز الدين إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب صاحب مصر ، فأكرمه وولاه قضاء مصر وخطابة الجامع العتيق ، ثم انتزعهما منه وأقره على تدريس الصالحية ، فلما حضره الموت أوصى بها للقاضى تاج الدين بن بنت [٤٨٥] الأعز .

وكانت وفاته فى العاشر من جمادى الأولى من هذه السنة ، وقد نيف على الثمانين ، ودفن من الغد بسفح جبل المقطم ، وحضر جنازته الملك الظاهر وخلق من الأئمة .

كمال الدين بن العديم : عمر(١) بن أحمد بن هبة الله بن محمد بن هبة الله بن أحمد ابن يحيى بن زهير بن هارون بن موسى بن عيسى بن عبد الله بن محمد بن أبى جرادة ابن عامر بن ربيعة بن خويلد بن عوف بن عامر بن عقيل العقيلى الحلبى الحنفى ، كمال الدين أبو القاسم ، الأمير الوزير ، الرئيس الكبير .

ولد سنة ست وثمانين وخمسمائة ، وسمع الحديث ، وحدث وتفقه ، وأفتى ودرس ، وصنف ، وكان إماما فى فنون كثيرة ، وترسّل إلى الخلفاء والملوك

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ٣٠ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٠٨ ، العبر جـ ٥ ص ٢٦١ ، المختصر جـ ٣ ص ٢١٥ ، ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٥١٠ ، جـ ٢ ص ١٧٧ ، السلوك جـ ١ ص ٤٧٦ ، تاج التراجم ص ٤٨ رقم ١٤٣ ، فوات الوفيات جـ ٣ ص ١٢٦ رقم ٣٧٢ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٠٣ .

مرارا عديدة ، وكان يكتب حسنًا طريقة مشهورة ، وصنّف لحلب تاريخا مفيدا[1] يقرب من أربعين مجلدا ، وكان جيد المعروف بالحديث ، حسن النظر بالفقراء والصالحين ، كثير الإحسان إليهم ، وقد أقام بدمشق فى الدولة الناصرية المتأخرة .

وكانت وفاته بمصر ، ودفن بسفح الجبل المقطّم بعد الشيخ عز الدين بعشرة أيام .

وفى تاريخ النويرى : وكان قد قدم إلى مصر لما جفل الناس من التتار ، ثم عاد إلى حلب بعد خرابها ، فلما نظر إليها ورأى ما فعله التتار بها تأسف وقال فى ذلك قصيدة طويلة ، من جملتها هى هذه :

هو الدّهرُ ما تَبْنيه كفّاك يَهْدِمُ ... وإن رُمْتَ إنصافا لديه فَيَظْلِمُ
أبادَ ملوكَ الأرض كسرى وقيصرا[2] ... وأصمت لدى فرسانها منه أسهمُ
ومُلكُ بنى العباس زَالَ ولم يَدَعْ ... لهُم أثرًا من بعدهم وهُمُ هُمُ
وأعتابُهم أضحت تُدَاسُ وعَهْدُهَا ... تُبَاسُ بأفواه الملوك وتُلْثَمُ
وأفنى بنى أيوب كُثْرَ جميعهم[3] ... وما منهم إلّا مليكٌ مُعَظّم[4]
وعن حَلَبٍ ماشِئْتَ قُلْ من عجائبٍ ... أَحَلَّ بها يا صاح إن كنت تَعْلَمُ

---

(١) هو كتاب « بغية الطلب فى تاريخ حلب » — هدية العارفين جـ ١ ص ٧٨٧ .

(٢) « أباد ملوك الفرس جمعا وقيصرا » — المختصر جـ ٣ ص ٢١٥ .

(٣) « وأفنى بنى أيوب مع كثر جمعهم » — المختصر جـ ٣ ص ٢١٥ .

(٤) هذا البيت هو الثالث فى الترتيب فى المختصر .

غــداة أتاهـا للمنيّــة بغتـة — من المغل جيش كالسحاب عرمرم
أحاطوا كأسراب القطا بربوعها — على سبّق جرد من الخيل طهّم
ومن بعد ست هاجموها ومالهم — من الموت واق لا ولا منه معصم
فـما دفعت أسوارها عنهـم الذى — دهاهـم ولا ما شيّدوه ورمّـوا

[٤٨٦]

أتوها كأمـواج البحار زواخر — ببيـض وسمــر والقتام مخـيّم
فلو حاب البيضاء عاينت تربهـا — وقد عندم القضى من تربها الدم
وقد سيّرت تلك الجبال ومجّرت — بهنّ بحـار المـوت والجو أقـتم
وقد عطّلت تلك العشار وأذهلت — مراضع عمّا أرضعت وهى هيّم
فيا لك من يوم شـديد لغامه — وقد أصبحت فيه المساجد تهدم
وقد درست تلك المدارس وارتمت — مصاحفها فوق الثرى وهى تهضم (1)
وقد جزّزت تلك الشعور وضمّخت — وجـوه بأمواه الدماء وهى تلطم
وكل مهـاة قـد أهينت صبية — وقد طال ما كانت تعزّ وتكرم
تنادى إلى من لا يجيب نداءها — وتشكو إلى من لا يرقّ ويرحم
فـما غادروا إلا اليسير وقـدأتى — الحساب على الباقين بالحرف يقسم
وأقوت رسوم كنّ فيها وأقفرت — ربوع بهـم كانت تنير وتبسم
وأيقنت أن الأرض مادت وأقبلت — بها الصاخة الكبرى والآن التنقم
فيا حلبـا أنى ربوعك أقفـرت — وأعيت جـوابا فهى لا تتـكلّم
وكنت لمن وافاك بالأمس جنّة — فـما بال هذا اليـوم أنت جهنّم

(١) « وهى ضخم » — المختصر .

بأىِّ جنًا منك استحقَّيْتُ ذى الذى ... أصابك والأعداءُ فيك تحكَّمُوا
وكيف أصابتك الحوادث غِرَّة ... بعين الرَّدَى والبُؤسُ عنك يُتَرْجِمُ
أَمَا كُنْتِ ملجأً لمن خاف حايرًا ... وفيك لذى البأساءِ والضرِّ أَنعمُ
أَمَا كُنْتِ غوثًا للوفود ومقصِدًا ... يخافُك ذو شرٍّ و يرجوك مُعْدِمُ
أما كُنْتِ للداعى إذَا ما دعى جدا ... وفيك لمن يبغى من البَغى مُقْدِمُ
يَعِزُّ على قلبي المعنَّى بأنَّنى ... أرى رُبعك المأنوس قفراً و يعظمُ
فأيْنَ أَحبَّائى الذين عهدتُهُم ... بِرَبْعك والقُطَّانُ فيك مُخَيِّمُ
وأين شموسٌ كُنَّ بالأَمسِ طُلَّعًا ... فأين استقلُّوا بالرِّكاب و يمَّموا
فها أنا ذو وجْدٍ يحيد بأضلعى ... عليك وعَيْشى فى البلادُ يذمَّمُ

[٤٨٧]

أَنُوحُ على أهليك فى كلِّ منزلٍ ... وأبكى الدُّجَى شوقًا وأسأَلُ عنهم
ولكنَّما للّه فى ذا مشيئةٌ ... فيفعلُ فينا ما يشاءُ ويحكُمُ (١)

يوسف (٢) بن يوسف بن يوسف بن سلامة بن إبراهيم بن الحسن بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن جعفر بن سليمان بن محمد الفافا الزينبي بن إبراهيم بن محمد بن على ابن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ، محيي الدين أبو العز ، ويقال أبو المحاسن الهاشمي العباسي الموصلي ، المعروف بابن زبلاق الشاعر .

قتلته التتار لما فتحوا الموصل فى هذه السنة ، عن سبع وخمسين سنة ، فمن شعره قوله فى بعض قصيدة من ديوانه :

(١) توجد بعض أبيات هذه القصيدة فى المختصر جـ ٣ ص ٢١٥ — ٢١٦ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ٣١ ، العبر جـ ٥ ص ٢٦٢ ، فوات الوفيات جـ ٤ ص ٣٨٤ رقم ٥٩٨ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٣٦ ، ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٥١٣ - ٥٢٤ ، جـ ٢ ص ١٨١ ، السلوك جـ ١ ص ٤٧٦ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٠٤ .

بعثتَ لنا من سحر مقلتك الوَسْنَى مُهاداً يذُودُ الجفْن أن يألف الوسَنَا[1]

وأبصر جسْمى حُسْن خَصْرك ناحلاً فحاكاه لكن زاد فى دقّة المعنَى

وأبرزْتَ وجْهاً أخجل الشّمْس[2] طالعاً [ومالت بقد علم الهيف الغصنا][3]

حَكيْتَ أَخاكَ البدرُ فى حال تمه[4] سَنًا وسناء اذ تشابهتُما سَنًا

البدرُ المراغى الخلاق[5]، المعروف بالطويل، مات فى ثانى عشر جمادى الآخرة من هذه السنة.

وقال أبو شامة: كان قليل الدين، تاركا للصلاة، مغتبطا بما كان فيه من معرفة الجدال والخلاف على طريقة إصطلاح المتأخرين[6].

محمد[7] بن داود بن ياقوت الصارمى المحدث.

كتب كثيرا، وكان دينا خيرا، يُعير كتابه، ويداوم على الاشتغال بسماع الحديث، مات فى هذه السنة.

---

(١) « يألف الجفنا» فى ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ١٨٥، فوات الوفيات جـ ٤ ص ٣٨٩، « يزود الكرى أن يألف الجفنا » فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٣٦.

(٢) « أخجل الصبح » فى ذيل مرآة الزمان، والبداية والنهاية، « يخجل البدر » فى فوات الوفيات.

(٣) [ ] بياض فى الأصل، والإضافة من ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ١٨٦، و« مست بقد » فى فوات الوفيات، « وملت بقد علم الصيف الغصن اللدنا » فى البداية والنهاية.

(٤) « ليلة تمة » فى البداية والنهاية.

(٥) وله أيضا ترجمة فى: الذيل على الروضتين ص ٢١٧، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٣٧.

(٦) الذيل على الروضتين ص ٢١٧.

(٧) وله أيضا ترجمة فى: ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ١٧٩، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٣٧.

الشيخ المحدث أبو الحسن عبد الوهاب[1] بن الشيخ أبي البركات الحسن المعروف بابن عساكر، حدث بدمشق ومصر وغيرهما، وتولى مشيخة دار الحديث النورية وغيرها بدمشق، توفي في هذه السنة بمكة رحمه الله .

الأمير سيف الدين بلبان[2] المعروف بالزردكاش، الذى كان استنابه طيبرس موضعه بدار العدل على دمشق لما سافر إلى حصار أنطاكية .

مات في ثامن ذي الحجة من هذه السنة، وكان دينا خيرا يحب العدل والصلاح .

(١) وله أيضا ترجمة فى : العبر جـ ٥ ص ٢٦٠ — ٢٦١ ، ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٥١٣ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٠٢ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٠٧ ، ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ١٦٥ ، الذيل على الروضتين ص ٢٢٠ .

فصل فيما وقع من الحوادث

في السنة الحادية والستين بعد الستمائة(*)

استهلت هذه السنة ، وفى اليوم الثانى منها عقد للخليفة الحاكم بأمر الله عوضا عن المستنصر بالله الذى قتله التتار ، كذا قال بيبرس فى تاريخه .

وقال ابن كثير فى تاريخه : وفى يوم الخميس [٤٨٨] ثانى(١) المحرم من هذه السنة بويع له بالخلافة(٢) .

وقال المؤيد فى تاريخه : وفى يوم الخميس فى أواخر ذى الحجة فى هذه السنة أعنى سنة ستين وستمائة جلس الملك الظاهر وبايع له بالخلافة(٣) .

وقال أبو شامة : ثم دخلت سنة إحدى وستين وستمائة وسلطان الديار المصرية والشامية الملك الظاهر بيبرس الصالحى المعروف بالبندقدارى ، ولا خليفة للناس يذكر بل السكة تضرب باسم المستنصر بالله على ما كان الأمر عليه ، والنائب بدمشق عن السلطان جمال الدين أقوش النجيبى ، وقاضيها شمس الدين ابن خلكان(٤) .

(*) يوافق أولها الأربعاء ١٥ نوفمبر ١٢٦٢ م .

(١) « ثامن » فى الأصل ، والتصحيح من البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٣٧ ، ويتفق مع ما ورد فى التوفيقات الإلهامية من أن يوم الخميس ثانى المحرم من السنة .

(٢) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٣٧ .

(٣) انظر المختصر جـ ٣ ص ٢١٥ .

(٤) انظر الذيل على الروضتين ص ٢٢١ .

وفيها : فى يوم الجمعة سادس عشر محرم خطب بجامع دمشق وسائر الجوامع للخليفة الحاكم أبى العباس أحمد ، بويع له بقلعة القاهرة ومصر فى ثامن المحرم من السنة المذكورة[1] .

فنحن نبين ذلك مفصلا فنقول :

ذكر خلافة الحاكم بأمر الله :

والكلام فيه على أنواع :

الأول : فى نسبه : هو أبو العباس أحمد بن الأمير على القُبّى بن الأمير أبى بكر بن الإمام المسترشد بالله أمير المؤمنين أبى منصور الفضل بن الإمام المستظهر بالله أبى العباس أحمد بن عبد الله المقتدى بالله أبى القاسم بن القائم بن القادر بن الطائع بن المطيع ، وباقى النسب ذكر غير مرة .

وقال أبو شامة : أبو العباس أحمد بن الحسين بن الحسن من ولد المسترشد[2] .

وقال بيبرس فى تاريخه : هو أبو العباس أحمد بن محمد بن الحسن بن أبى بكر بن الحسن بن على القبى بن الحسن بن الخليفة الراشد بالله أبى جعفر المنصور ابن المسترشد بالله .

وقال المؤيد فى تاريخه : وقد اختلف فى نسبه ، فالذى هو مشهور بمصر عند نسابة مصر أنه أحمد بن حسن بن أبى بكر بن الأمير أبى على القبى بن الأمير

(١) هكذا بالأصل ، وفى الذيل على الروضتين ص ٢٢١ — انظر ما سبق .

(٢) « من أولاد المسترشد » — الذيل على الروضتين ص ٢٢١ .

حسن بن الراشد بن المسترشد بن المستظهر، وقد مر نسب المستظهر فى جملة خلفاء بنى العباس ، وأمّا عند الشرفاء العباسيين فى درج نسبهم الثابت فقالوا : هو أحمد ابن أبى بكر على بن أبى بكر بن أحمد بن الإمام المسترشد الفضل بن المستظهر(١) .

الثـانى : فى قدومه إلى الديار المصرية .

وقال أبو شامة : وفى سنة ستين وستمائة يوم الأحد الثانى والعشرين من صفر وصل إلى دمشق الخليفة الحاكم الذى كان بايعه البرلى بحلب وأنزل فى قلعة دمشق مكرما ، وذلك بعد الوقعة التى قتـل فيها الخليفة المستنصر، وكان معه [٤٨٩] فهرب ، ثم سافر إلى مصر يوم الخميس السادس والعشرين من صفر(٢) .

وقال ابن كثير : فى السابع والعشرين من ربيع الآخر من سنة ستين وستمائة دخل الخليفـة الحاكم بأمر الله إلى مصر [من بلاد الشرق](٣) ، وصحبته جماعة من رءوس تلك البلاد ، وكان قد شهد الوقعة فى صحبة المستنصر بالله وهرب هو فى جماعة من المعركة فسلم(٤) .

قلت : إذا كان خروجه من دمشق يوم الخميس السادس والعشرين من صفر على ما ذكره أبو شامة ، ودخوله مصر يوم السابع والعشرين من ربيع الآخر على ما ذكره ابن كثير يكون مدة سفره من دمشق إلى مصر شهرين ويوم، وهذا بعيد

---

(١) انظر المختصر جـ ٣ ص ٢١٥ .

(٢) الذيل على الروضتين ص ٢١٦ .

(٣) [ ] إضافة من البداية والنهاية ، للتوضيح .

(٤) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٣٣ .

جدا ، اللهم إلا إذا كان تعوق فى الطريق لعروض مرض أو غيره ، أو يكون زار القدس والخليل وأقام فيهما أياما .

وقد ذكرنا أن السلطان الملك الظاهر تلقاه يوم دخوله ، وأنزله فى البرج الكبير فى قلعة الجبل ، وأجرى عليه الأرزاق الدارة والإحسان .

الثالث : فى بيعته :

قال ابن كثير : لما كان يوم الخميس ثانى[1] المحرم من سنة إحدى وستين وستمائة جلس الملك الظاهر ركن الدين بيبرس وأمراؤه وأهل الحل والعقد فى الإيوان الكبير بقلعة الجبل ، وجاء الخليفة الحاكم بأمر الله راكبا حتى نزل عند الإيوان ، وقد بسط له إلى جانب السلطان ، وذلك بعد ثبوت نسبه ، فقرئ نسبه على الناس ، ثم أقبل عليه الملك الظاهر فبايعه ، وبايعه الناس بعده ، وكان يوما مشهودا[2] .

وقال بيبرس : ولما كان الثانى من المحرم من سنة إحدى وستين وستمائة أحضره السلطان ليقرر له الإمامة ويبايعه على الخلافة بحكم وفاة الإمام المستنصر بالله شهيدا بسيوف التتار ، قتيلا بأيدى الكفار ، فلم يرد أن يبقى منصب الخلافة شاغرا ، وفوها فارغا ، فأحضر الإمام المذكور راكبا إلى الإيوان الكبير الكاملى بقلعة الجبل ، وأجلسه ، وجلس إلى جانبه ، وعملت له شجرة النسب العباسى ، وبايعه السلطان على كتاب الله ، وسنة رسوله ، والأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، وجهاد

---

(١) « ثامن » من الأصل ، والتصحيح من البداية والنهاية ، وهو يتفق مع ما يلى ، وأنظر التوفيقات الإلهامية ص ٣٢١ .

(٢) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٣٧ .

أعداء الله ، وأخذ أموال الله بحقها ، وصرفها فى مستحقها ، وإقامة الحدود ، وما يجب على الأئمة فعله من أمور الدين ، وحراسة المسلمين .

ثم أقبل الخليفة على السلطان وقلده أمور [٤٩٠] البلاد والعباد ، ووكل إليه تدبير الخلق ، وجعله قسيم نفسه فى القيام بالحق ، وفوض إليه سائر الأمور ، وغدق[1] به صلاح الجمهور ، ثم أخذ الأمراء والوزراء والقضاة والأجناد والفقهاء والناس على إختلاف طبقاتهم فى المبايعة ، فتمت هذه البيعة المباركة .

وهذا الخليفة هو التاسع والثلاثون من خلفاء بنى العباس ، [و][2] ممن ليس والده وجدّه خليفة كثير[3] ، منهم : المستعين أحمد بن محمد بن المعتصم ، والمعتضد ابن طلحة بن المتوكل ، والقادر بن إسحاق بن المقتدر ، والمقتدى بن الذخيرة ابن القائم بأمر الله .

الرابع : فى خطبته :

ولما كان يوم الجمعة الثانية خطب الخليفة للناس خطبة بليغة وصلى بالناس بالقلعة .

الخطبة الأولى التى خطب بها :

الحمد لله الذى أقام لآل العباس رُكنا وظهيرا ، وجعل لهم من لدنه سلطانا نصيرا ، أحمده على السراء والضراء [وأستعينه على شكر ما أسبغ من النعماء][4]

(١) غدق العيش : اتسع — المنجد .

(٢) [ ] إضافة تتفق والسياق .

(٣) « وكثير » فى الأصل .

(٤) [ ] إضافة من البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٣٧ ، ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ١٨٨ .

واستنصر به[1] على دفع الأعداء ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأشهد[2] أن محمدا عبده ورسوله ، صلى الله عليه [وسلم[3]] ، وعلى آله وصحبه ، نجوم الاهتداء ، وأئمة الإقتداء الأربعة الخلفاء[4] ، وعلى العباس عمه[5] وكاشف غمه ، أبى السادة الخلفاء « الراشدين والأئمة المهديين[6] » ، وعلى بقية أصحابه [أجمعين[7]] والتابعين[8] بإحسان إلى يوم الدين .

أيها الناس اعلموا أن الإمامة فرض من فروض الإسلام ، والجهاد محتوم على جميع الأنام ، ولا يقوم علم الجهاد إلا باجتماع كلمة العباد ، ولا سبيت الحرم إلا بانتهاك المحارم ، ولا سفكت الدماء إلا بارتكاب المآثم[9] ، فلو شاهدتم أعداء الإسلام حين[10] دخلوا دار السلام ، واستباحوا الدماء والأموال ، وقتلوا الرجال والأبطال[11] والأطفال [وسبوا الصبيان والبنات ، وأيتموهم

(١) « واستنصره » فى الروض الزاهر ص ١٤٣ .

(٢) « وأشهد » ساقط من البدية والنهاية .

(٣) [ ] إضافة من البداية والنهاية .

(٤) « لاسيما الأربعة » فى البداية والنهاية .

(٥) « عمه و » ساقط من البداية والنهاية .

(٦) « » ساقط من البداية والنهاية .

(٧) [ ] إضافة من البداية والنهاية .

(٨) « والتابعين لهم » فى السلوك جـ ١ ص ٤٧٨ ، والبداية والنهاية .

(٩) « الجرائم » فى البداية والنهاية .

(١٠) « لما » فى البداية والنهاية .

(١١) « والأبطال » ساقط من البداية والنهاية ، وذيل مرآة الزمان .

من الآباء والأمهات [(١)] ، وهتكوا حرم الخلافة والحريم ، « وأذاقوا من استبقوا العذاب الأليم ، فارتفعت الأصوات بالبكاء والعويل (٢) » ، وعلت الضجات (٣) من هول ذلك اليوم الطويل ، فكم من شيخ خضبت شيبته بدمائه ، وكم من طفل بكى فلا رحم (٤) لبكائه ، فشمروا [عباد الله (٥)] عن ساق الاجتهاد في إحياء فرض الجهاد ، ﴿ فاتقوا (٦) الله ما استطعتم واسمعوا وأطيعوا ، وانفقوا خيرا لأنفسكم ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ .

فلم تبق معذرة في القعود عن أعداء الدين والمحاماة عن المسلمين .

[٤٩١] وهذا السلطان الملك الظاهر السيد الأجل العالم العادل المجاهد [المؤيد (٧)] ركن الدنيا والدين قد قام (٨) بنصر الإمامة عند قلة الأنصار (٩) ، وشرد جيوش الكفر بعد أن جاسوا خلال الديار ، فأصبحت البيعة باهتمامه (١٠) منتظمة العقود ، والدولة العباسية متكاثرة الجنود ، فبادروا عباد الله إلى شكر هذه النعمة ،

(١) [ ] إضافة من البداية والنهاية .
(٢) « » ساقط من البداية والنهاية .
(٣) « وعلت الصيحات » في البداية والنهاية .
(٤) « فلم يرحم » في البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٣٨ .
(٥) [ ] إضافة من البداية والنهاية .
(٦) « واتقوا الله » في الأصل ، والتصحيح من سورة التغابن رقم ٦٤ آية رقم ١٦ .
(٧) [ ] إضافة من البداية والنهاية .
(٨) « أقام » في البداية والنهاية .
(٩) « أنصار » في الروض الزاهر ص ١٤٤ .
(١٠) « بهمته » في البداية والنهاية .

وأخلصوا نياتكم تنصروا، وقاتلوا أولياء الشيطان تظفروا، ولا يروعنكم ما جرى ، فالحرب سجال ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾[1] ، والدهر يومان ، والآخر[2] للمؤمنين .

جمع الله على التقوى[3] أمركم ، وأعز بالإيمان نصركم ، واستغفر الله العظيم لى ولكم ولسائر المسلمين[4] ، فاستغفروه ﴿ إنه هو الغفور الرحيم ﴾[5] .

الخطبة الثانية :

الحمد لله ، حمدا يقوم بشكر نعمائه ، ويشهد بوحدانيته[6] عدة عند[7] لقائه ، والصلاة على محمد خاتم أنبيائه[8] ، عدد ما خلق فى أرضه وسمائه .

أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، إن أحسن ما وعظ به الإنسان كلام الملك الديان ، ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم ،

---

(١) سورة الأعراف رقم ٧ جزء من الآية ١٢٨ .

(٢) « والأجر » فى البداية والنهاية .

(٣) « على الهدى » فى البداية والنهاية .

(٤) « واستغفر الله لى ولسائر المسلمين » فى البداية والنهاية .

(٥) سورة الزمر رقم ٣٩ جزء من الآية رقم ٥٣ ، وانظر نص هذه الخطبة فى : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٥٧ أ — ٥٨ أ ، وانظر أيضا مفرج الكروب ، الروض الزاهر ص ١٤٣ — ١٤٤ ؛ السلوك جـ ١ ص ٤٧٨ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٣٧ — ٢٣٨ ، ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ١٨٨ — ١٨٩ .

(٦) « وأشهد أن لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له » فى الروض الزاهر ص ١٤٥ ، والسلوك جـ ١ ص ٤٧٩ .

(٧) « عند » ساقط من السلوك .

(٨) « وأشهد أن محمدا سيد رسله وأنبيائه ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه » فى الروض الزاهر ص ١٤٥ ، والسلوك جـ ١ ص ٤٧٩ .

فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول (١)، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير (٢) وأحسن تأويلا (٣) ﴾ .

نفعنا الله وإياكم (٤) بكتابه ، وأجزل لنا ولكم من ثوابه ، وغفر لى ولكم وللمسلمين أجمعين (٥) .

وألبس الخليفة السلطان الفُتُوّة متصلة الإسناد، واحدا اواحد إلى سلمان الفارسىّ رضى الله وعنه وسَلمانَ إلى علىّ رضى الله عنه (٦) .

---

(١) « وإلى الرسول » فى الأصل وهو تحريف .

(٢) « ذلك خير لكم » فى السلوك ، وهو تحريف .

(٣) سورة النساء رقم ٤ آية رقم ٥٩ .

(٤) « وإياكم » ساقط من الروض الزاهر .

(٥) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٥٨ أ ، ٥٨ ب ، الروض الزاهر ص ١٤٥ ، السلوك جـ ١ ص ٤٧٨ — ٤٧٩ ، ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ١٨٩ — ١٩٠ .

(٦) ورد فى الروض الزاهر :

« ولما كان ليلة الأربعاء ثالث شهر رمضان من السنة المذكورة سأل مولانا السلطان مولانا الخليفة — سلام الله عليه — هل لبس الفتوة أحد من أهل بيته الطاهرين ، أو من أوليائهم المتقين ، فقال : لا ، والتمس من السلطان أن يصل سببه بهذا المقصود ، ويمنحه هذا الأمر الذى من بيته بدأ وإليه يعود ، فلم يمكن السلطان إلا طاعته المفترضة ، وأن يمنحه ما كان ابن عمه — رضى الله عنه — افترضه » — الروض الزاهر ص ١٤٥ — ١٤٦ ، وانظر أيضا : ماورد بهذا الخصوص فى ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ١٩٠ .

ذكر توجه السلطان الملك الظاهر إلى الطور :

وفى هذه السنة ، سار السلطان من الديار المصرية ، وخرج بجيوشه وجموعه(١) فى السابع من شهر ربيع الآخر، وخيّم على باب القاهرة بمسجد التبر حتى تكاملت العساكر ، ثم رحل ، وخلف بالقلعة المحروسة(٢) فى نيابة السلطنة الأمير عز الدين ايدمر الحلى(٣) ، ولما وصل إلى غزة وجد بها والدة الملك المغيث ، وهى زوجة العادل بن الكامل ، حضرت إليه مستعطفة له على ولدها ، فأجرى معها الحديث فى حضوره ، وأرسل صحبتها الأمير شرف الدين الجاكى المهمندار لتجهيز الإقامات [٤٩٢] برسمه إذا حضر إليه ، ونزل على حكمه ، فخرج المذكور من الكرك ، ولما بلغه وصوله إلى بيسان ركب لتلقيه يوم السبت السابع والعشرين(٤) من جمادى الأولى فلما وصل إلى الدهليز، احتيط عليه وعلى أصحابه ، وأرسله إلى القاهرة من ليلته صحبة الامير شمس الدين آقسنقر(٥) الفارقانى الظاهرى(٦) .

(١) « رجمه » فى الأصل والتصحيح من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٥٨ ب .

(٢) « فى قلعة الجبل » بالأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة جـ٩ ورقة ٥٨ ب .

(٣) هو أيدمر بن عبد الله الحلى الحلبي النجمى ، عز الدين ، المتوفى سنة ٦٦٧ هـ / ١٢٦٨م — المنهل الصافى جـ ٣ ص ١٧٠ رقم ٦٠٠ .

(٤) « سادس عشرين » السلوك جـ ١ ص ٤٨٢ .

(٥) هو آق سنقر بن عبد الله النجمى الفارقانى ، الأمير شمس الدين ، توفى سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م — المنهل الصافى جـ ٢ ص ٤٩٤ رقم ٥٠٠ .

(٦) انظر الروض الزاهر ص ١٤٩ — ١٥٠ .

وجهز إلى الكرك الأمير بدر الدين بَيْسَرِى(١) الشمسى، والأمير عز الدين أيدمر(٢) الظاهرى أستاذدار، فتسلماها واستقر الأمير عز الدين نائبا بها، وعاد الأمير بدر الدين بَيْسَرِى بعد أن رتّبَ أحوالها وطيّب خواطر رجالها(٣).

وفي تاريخ النويرى : وفي حادى عشر ربيع الآخر من هذه السنة، سار الملك الظاهر من مصر إلى الشام، فلاقته والدة المغيث صاحب الكرك بغزة، واستوثقت لابنها من الظاهر، ثم سار الظاهر من غزة ووصل إلى الطور ثانى عشر جمادى الأولى، ووصل إليه على الطور الملك الأشرف موسى صاحب حمص في نصف الشهر المذكور، فأحسن الظاهر إليه، ثم أن الملك المغيث سار حتى وصل إلى بيسان، فركب الملك الظاهر بعساكره والتقاه يوم السبت السابع والعشرين من جمادى الأولى، فلما شاهد المغيث الملك الظاهر ترجل، فمنعه الظاهر، وأركبه، وساق إلى جانبه، وقد تغير وجه الملك الظاهر، فلما قارب الدهليز، أفرد الملك المغيث عنه، وأنزله في خيمة، ثم قبض عليه، وأرسله إلى مصر معتقلا، صحبة الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقانى، ثم قبض الملك الظاهر على جميع أصحاب المغيث، ومن جملتهم ابن مزهر، وكان ناظر خزانة المغيث.

وكان للمغيث ولدان أحدهما يقال له الملك العزيز، والآخر شرف الدين، فأحضرهما السلطان، وأعطى للملك العزيز إقطاعا بالديار المصرية، وأحسن إليهما.

(١) هو بيسرى بن عبد الله الشمسى الصالحى، الأمير بدر الدين، المتوفى سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م — المنهل الصافى جـ ٣ ص ٥٠٠ رقم ٧٤١.

(٢) هو أيدمر بن عبد الله الظاهرى، الأمير عز الدين التركى، المتوفى سنة ٧٩٠ هـ / ١٣٨٨ م — المنهل الصافى جـ ٣ ص ١٨٣ رقم ٦٠٩.

(٣) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٥٨ ب، ٥٩ أ، الروض الزاهر ص ١٥١.

ثم إن السلطان أرسل عسكرا وهو على الطور ، فهدموا كنيسة الناصرة وهى من أكبر مواطن عبادات النصارى ، لأن منها خرج دين النصرانية [١] .

ذكر مسير السلطان إلى عكا والإغارة عليها :

وفيها : ركب من الطور ، وسار إلى عكا جريدة ، ومعه من كل عشرة فارس واحد ، واستناب الأمير شجاع الدين طغريل الشبلى بالدهليز ، وكان ركوبه نصف الليل من [٤٩٣] ليلة السبت رابع جمادى الآخرة ، فأصبح بالوادى الذى دون عكا ، ثم أحاط بها من ناحية البر ، وكان بالقرب منها برج فيه جماعة من الفرنج ، فسير إليه طائفة من الجند ، فحاصروه ، وخرج من فيه مستأمنين ، وحرق ما حولها من الأخشاب ، وقطع ما هنالك من الأشجار ، وناوشوا الفرنج القتال ، فقتل منهم أقوام .

وأحضر إليه جندى يسمى حبش [٢] من أصحاب أطلس خان فارسا خيالة من الفرنج ، طعنه ورماه عن فرسه وأسره ، فأنعم عليه ووعده بعدة ، وعاد إلى الدهليز [بالطور] [٣] ، فرتب الأمير ناصر الدين القيمرى نائب السلطنة بالفتوحات الساحلية .

ورحل وتوجه إلى القدس الشريف ، وزار ورسم بعمارة المسجد الأقصى ، ثم خرج طالبا الكرك [٤] .

---

(١) ملخصا من نهاية الأرب مخطوط جـ ٢٨ ورقة ٧٧ — ٧٩ .

(٢) « حسن » فى مفرج الكروب ، ونقل عنه محقق الروض الزاهر ص ١٥٩ .

(٣) [ ] إضافة من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٥٩ أ ، للتوضيح .

(٤) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٥٩ أ .

وفى تاريخ النويرى : لما كان السلطان على الطور أرسل عسكرا هدموا كنيسة الناصرة ، وأغاروا على عكا وبلادها ، فغنموا وعادوا ، ثم ركب السلطان الملك الظاهر بنفسه وجماعة ممن اختارهم وأغار ثانيا على عكا ، وهدم برجا كان خارج البلد ، وذلك عقيب إغارة عسكره[1] .

ذكر توجه السلطان إلى الكرك :

ولما خرج السلطان من القدس الشريف ، سار نحو الكرك ، ونزل عليها فى الثالث عشر[2] من جمادى الآخرة ، فنزل إليه أولاد [الملك[3]] المغيث ، وقاضى المدينة ، وخطيبها ، وجماعة من أهلها ، يطلبون العفو ، فأحسن إليهم ، وأعطاهم حتى رضوا ، وتسلم القلعة ، وطلع إليها ، وأحضر دواوينها ، ورتب أمر جيشها ، وأعطى رجالها جامكية ثلاثة أشهر من خزانته[4] ، وعين لها خاصا[5] وأعطى أولاد [الملك[6]] المغيث ما كان فيها من المال والقماش والأثاث ، وخلع على العزيز فخر الدين عثمان ولد المغيث[7] ، وعلى خادمه ، وأتابكه ، وكتب مناشير

(١) ملخصا عن نهاية الأرب مخطوط جـ ٢٨ ورقة ٣٦٢ — ٣٦٣ ، وانظر المختصر جـ ٣ ص ٢١٧ — ٢١٨ .

(٢) « ثالث وعشرون » فى مفرج الكروب ، السلوك جـ ١ ص ٤٩١ .

(٣) [ ] إضافة من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٥٩ أ .

(٤) « خزائنه » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٥) « خاتما » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٦) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٧) « ولد المغيث » ساقط من زبدة الفكرة .

عُربانها ، وأُحْلِفوا [له](١) وأحْلِف مقدمو المدينة ونصاراها ، وجميع أمراء بنى مهدى وبنى عقبة(٢) وأمرهم أن لا يشرب أحد منهم ، ولا يسقى خيله ، من صهاريج المدينة ، وأهل البلاد رفقا بهم ، وتوفيرا لهم ، وترك [بها](٣) مما كان معه من الخزانة سبعين ألف دينار ، ومائة وخمسين ألف درهم ، والزردخاناة التى صحبته ، ورحل عنها عائدا إلى القاهرة(٤) .

ذكر عَوْدِ السُّلطان إلى القاهرة :

لما قضى السلطان شغله فى الكرك ، رحل عنها عائدا إلى القاهرة ، فوصلها فى سابع عشر رجب فكانت [٤٩٤] مدة(٥) سفرته هذه خمسة وتسعين يوما ، وأحضر أولاد المغيث وحريمه إلى الديار المصرية ، وأعطى ولده فخر الدين عثمان إمرة بمائة طواشى بالديار المصرية ، وقبض على الرشيدى والدمياطى والبرلى(٦) .

قلت : الرشيدى هو سيف الدين بلبان(٧) الصالحى ، والدمياطى هو الأمير

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٢) « وأحضر الأمير عيبة وغيره من بنى مهدى وبنى عقبة » - الروض الزاهر ص ١٦٤ . وبنى عقبة أحد فروع بنى مهدى ، وكانت مساكنهم حول الكرك - صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢١٢ ، ٢٤٢ .

(٣) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٤) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٥٩٠ أ / ب .

(٥) « مدة » ساقط من زبدة الفكرة .

(٦) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٥٩ ب ، كنز الدرر جـ ٨ ص ٩٦ .

(٧) هو بلبان بن عبد الله الزينى الصالحى ، الأمير سيف الدين ، المتوفى سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م المنهل الصافى جـ ٣ ص ٤١٧ رقم ٦٩٢ .

عز الدين (١) ، وأما البُرْلى فهو الأمير شمس الدين أقوش البَرْلى العزيزى ، وكان قد حضر إلى الأبواب السلطانية فى أوائل هـذه السنة ، وقـد ذكرنا استيلائه على البيرة ، وما اتفق بينه وبين العسكر الذين جردهم السلطان إليـه ، وكونه كسرهم وسلبهم ، وأرسلهم على تلك الحـال ، فأخذه السلطان بالترغيب والترهيب ، وجعل تارة يبسط الآمال ، ومرة يضيق عليه الحال ، وحينا يتحيل عليـه بنوع من الاحتيال ، حتى بذل الطاعة ، ودخـل فيها ، فسر السلطان بذلك وأرسل الأمير بدر الدين بكتاش (٢) الفخرى إلى دمشق ليتلقاه ، ورتب الإقامات والأنزال بالطرقات له ، ولمن معه من الأمراء العزيزية ، ولمـا وصل أعطاه ستين فارسا مضافا إلى البيرة ، وأجرى له العطاء من المـال والقماش والخلع والبيوتات والخيول وغيرها ، وأوسع للذين وصلوا معـه على قدر مراتبهم ، وقربه وأدناه ، واتخذه سميرا ومشيرا وأنيسا ونديما ، ثم سأل هو النزول عن البيرة ، فأجابه السلطان إلى قبولها منـه بعد تكرار سؤاله ، وعوضه عنها ، ثم قبض عليـه فى ثانى يوم دخوله القاهرة من سفر الكرك والطور .

وقال الملك المؤيد : كان دخول البرلى فى طاعة السلطان فى سنة ستين وستمائة ، وكان وصوله إلى القاهرة إلى خدمة السلطان فى ثانى ذى الحجة من سـنة ستين

---

(١) هو أى بك بن عبد الله الدمياطى ، الأمير عز الدين ، المتوفى سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م المنهل الصافى جـ٣ ص ١٣٤ رقم ٥٨٠ .

(٢) هو بكتاش بن عبد الله الفخرى ، الأمير بدر الدين ، المتوفى سنة ٧٠٦ هـ / ١٣٠٦ م — المنهل الصافى جـ٣ ص ٣٨٥ رقم ٦٧٥ .

وستمائة ، وكان قبضه إياه فى رجب سنة إحدى وستين وستمائة ، فكان آخر العهد به (١) .

ذكر وصول رسل بركة خان ملك التتار :

وفى هذه السنة ، وصلت رسل بركة خان وهم : الأمير جلال الدين بن القاضى والشيخ نور الدين على ، وغيرهما (٢) ، مخبرين بإسلامه وعلى أيديهم كتاب منه يتضمن ذكر من أسلم من بيوت التتار، وخرج عن زمرة الكفار، وتفصيلهم بقبائلهم وعشائرهم [وأنفارهم وعساكرهم] (٣) وصغيرهم وكبيرهم، [: قال : ودخل فى دين الإسلام] (٤) إخواننا الكبار، و إخواتنا الصغار [٤٩٥] وذراريهم، أولاد بوداكور بحشمهم وأولادهم بلاد كوكاخور بنشونوقا، ومن [فى] (٥) بلادهم : قودعو ، وقراجار ، ونتش بغا ، وشرامون ، وبوز باكو ، ومنكقدار بجيوشه وسواده ، وبك قداق باينال ، وتقوزا غول ، وقتلغ تيمور ، وآجى وذريته، ودرباى ، والتومان الذى تجرد إلى خراسان ،وكل من توجه صحبة بايجو، مثل بانيال نوين، وايكاكوا ، كل هؤلاء أسلموا بأسرهم ، وأقاموا بالفرائض والسنن ، والزكاة والغزاة، والجهاد فى سبيل الله،وقالوا ﴿ الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى

---

(١) المختصر جـ ٣ ص ٢١٤ . ومن سبب القبض على هؤلاء الأمراء انظر الروض الزاهر ص ١٦٦ — ١٧٠ ، السلوك جـ ١ ص ٤٩٣ — ٤٩٤ .

(٢) « وغيرهما » ساقط من زبدة الفكرة .

(٣) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٤) « وهم فى الأصل » والإضافة من زبدة الفكرة .

(٥) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

لولا أن هدانا الله (١)) وقرأنا ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله (٢)) الآية. فليعلم السلطان أنني حاربت هلاون الذي من لحمي ودمي لإعلاء كلمة الله العليا، تعصبا لدين الإسلام، لأنه باغي، والباغي (٣) كافر بالله ورسوله، وقد سيرت قصادي ورسلي صحبة رسل السلطان وهم: أربغا (٤)، وأرتيمو، وأوناماش، ووجهت ابن شهاب الدين غازي معهم، لأنه كان حاضرا في الوقعة، ليحكي للسلطان ما رآه بعينه من عجائب القتال، ثم لنوضح لعلم السلطان أنه موفق للخيرات والسعادات، لأنه أقام إماما من آل عباس في خلافة المسلمين، وهو الحاكم بأمر الله، فشكرت همته، وحمدت الله تعالى على ذلك، لاسيما لما بلغني توجهه بالعساكر الإسلامية إلى بغداد، واستخلاص تلك النواحي من أيدي الكفار.

وتاريخ هذا الكتاب مستهل رجب سنة إحدى وستين وستمائة بمقام إتل، وهو كتاب مطول مشتمل على إسهاب وإطناب، هذا من جملته (٥).

وعادت رسل السلطان صحبتهم وهما: الأمير سيف الدين كشريك التركي جمدار خوارزم شاه، والفقيه مجد الدين الروذراوري.

فأكرم السلطان رسل بركة خان، ورسل الأشكري الواصلين معهم، وجهز لبركة من الهدايا من كل شيء مستحسن وهي: ختمة شريفة، ذكر أنها

(١) سورة الأعراف رقم ٧ جزء من الآية رقم ٤٣.

(٢) سورة البقرة رقم ٢ جزء من الآية رقم ٢٨٥.

(٣) «وباغي» في زبدة الفكرة.

(٤) «أربوغا» في زبدة الفكرة.

(٥) في هذا الموضع توجد تفصيلات أخرى عن إسلام بركة خان — انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٦٠أ.

بخط عثمان بن عفان رضى الله عنه بمراوقات ، وسجادات للصلاة متنوعة الألوان(١) خرق بندق ، وأكسية لواتية ، ودسوت من النطوع المصردقة(٢) والأديم ، سيوف قلجورية مسقطة ، ودبابيس مذهبة ، وخود فرنجيه وطوارق مذهبة ، فوانيس مغشاة ، وشمعدانات ، ومنجنيقات [٤٩٦] بأغشية ، ومشاعل جفتاه ، وقواعد برسمها مكفتة ، سروج خوارزمية ونمازينات ، وبلجم ، كل ذلك بأنواع السقط بالذهب والفضة ، قسى حلق قسى بندق ، وقسى جروخ ، ورماح قنى ، وأسنة ، ونشاب فى صناديقه ، قُدُور بَرام ، وقناديل مذهبة بسلاسل فضة مطلاة بالذهب ، وخدام سود وجوارى طباخات ، وخيل سوابق عربية ، وهجن نوبية ، ودواب فارهة ، ونسانيس ، و بغابغ ، وغير ذلك ، وألبس رسله الفتوة ، وأعادهم فى شهر رمضان(٣) .

أقول : أما إسلام بركة خان ، فقد ذكرنا أنه كان فى سنة اثنتين وخمسين وستمائة(٤) ، على يدى خادم الشيخ الباخرزى الذى كان من جملة مريدى الشيخ نجم الدين كبرا ، رحمه الله ، من ذرية عمار بن ياسر الصحابى رضى الله عنه ، وكان نجم الدين كبرا من كبار الصالحين وأعيان المحققين بخوارزم ، وقد ذكرناه ، وأما الحرب الذى وقع بين بركة خان وهلاون ، فكان حربا عظيما ، انكسر فيها هلاون كسرا

(١) « متنوعات » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٦٠ ب ، و « نمزلوقات الصلاة وسجادات ألوانا متنوعة » فى الروض الزاهر ص ١٧٢ .

(٢) « المسردقة » فى الروض الزاهر ص ١٧٢ ، « المصرطقة » فى نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٦٠ .

(٣) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٦٠ أ / ب ، وقارن أيضا ما ورد فى الروض الزاهر ص ١٧٢ — ١٧٣ حيث توجد اختلافات كثيرة ، وانظر كذلك نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٦٠ .

(٤) انظر ما سبق ص ٩٠ وما بعدها .

شنيعا ، وقتل أكثر أصحابه ، وغرق أكثر من بقى ، وهرب هو فى شرذمة قليلة من أصحابه ، وبعد فراغ بركة خان من الحروب عاد على بلاد القسطنطينية وصانعه صاحبها ، وأرسل إلى السلطان الملك الظاهر الرسل المذكورين ، وأرسل السلطان إليه الهدايا المذكورة .

ذكر توجّه السُّلطان الظّاهر إلى الإسكندريّة[(١)] :

وفى شوال منها : سافر السلطان الظاهر ، رحمه الله ، إلى إسكندرية ، ونظر فى أحوالها وأمورها ، وعزل قاضيها وخطيبها ناصر الدين أحمد[(٢)] بن المنير .

وفى تاريخ بيبرس : وفى سادس شوال توجه السلطان إلى ثغر الإسكندرية ، ولما وصلها نزل خارج المدينة ، ونادى أن لا ينزل بالثغر جندى ولا يقيم به ، ودخلها يوم الأربعاء مستهل ذى القعدة ، ورسم بردّ مال السهمين[(٣)] ، وحطّ عن أهل الثغر[(٤)] ما كان مقرّرا من الفائدة ، وهو رُبع دينار القنطار عن كل ما يباع ويبتاع[(٥)] ، وحضر إليه شخصان من أهل الثغر أحدهما زين الدين بن البُوري ،

---

(١) « إسكندرية » فى الأصل .

(٢) هو أحمد بن محمد بن منصور ، ناصر الدين بن منير الجذامى ، الإسكندرى ، المتوفى سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م — المنهل الصافى جـ٢ ص ١٨٥ رقم ٣٠٤ .

(٣) مال السهمين : كان الملك الكامل الأيوبى قد أخرج « من زكوات الأموال ، التى كانت تجبى ، سهمى الفقراء والمساكين ، وجعلهما مصروفين فى مصارفهما ، ورتب عليها جامكيات الفقهاء والفقراء والصلحاء » — السلوك جـ١ ص ٢٦٠ .

(٤) « ثغر » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٦٠ ب .

(٥) « ربع دينار على كل قنطار يباع » — الروض الزاهر ص ١٧٥ .

والآخر المكرم بن الزيات ، وادعيا [٤٩٧] أن بالثغر أموالا ضائعة ، وكتبا بها أوراقا، فسد ما أرادا فتحه من أبواب المظالم، وأمر بإشهار ابن البورى ، فأشهر بين العالم ، وأنعم على الأمراء الذين معه بالقماش والخلع ، وعاد إلى قلعة الجبل [المحروسة][1] فى الحادى عشر من ذى القعدة الحرام[2] .

ذكر بقية الحوادث :

منها : وفود التتار المستأمنين من عسكر هلاون .

وفيها : فى سادس ذى الحجة وصلت جماعة كبيرة من التتار مستأمنين وفى الإسلام راغبين، فكانوا زهاء ألف نفس ، وفيهم من أعيانهم كَرَمُون، وامطغيه، ونوكيه ، وجَبْرك وقَيان ، وناصْغيهَ ، وطَبْشور، وتبتو، وصبجى، وجوجلان ، واجقرقا ، وأرقرق[3] ، وكراى، وصلاغية[4] ، ومَنْقُدم ، وصراغان ، وهؤلاء كانوا من أصحاب بركة ، وكان قد أرسلهم إلى هلاون نجدة ، فأقاموا عنده مدة ، فلما وقع بينه وبين بركة ،وتمكنت العداوة، كتب بركة إليهم بأن يفارقوا هلاون ويحضروا إليه ، وإن لم يتمكنوا من التوجّه إليه ، فينحازوا إلى عساكر الديار المصرية، ولما وصلوا أسلموا، وطُهِّروا، وقدم كبراؤهم المذكورون ، وأُمِّروا،

---

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٢) « الحرام » ساقط من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٦٠ ب ، ٦١ أ ، وانظر أيضا الروض الزاهر ص ١٧٤ — ١٧٥ .

(٣) « وأرنوق » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة ؛

(٤) « وصلاغاى » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

وعينت لهم(١) الإقطاعات . والطبلخانات ، وأفيضت عليهم الصلات والخلع والهبات ، وأنزلهم باللوق .

فقال في ذلك [القاضي(٢)] محي الدين ابن عبد الظاهر :

يا مالك الدنيا الذي　　أضحى صلاحًا للأمم
يا من محا بالعدل ما　　للظلم فينا من ظُلَم
يا من تُساق له التتا　　ر غنيمة مثل الغنم
خافوا سيوفك أنها　　ستسوقهم نحو النقم
فاتوا لبابك كلهم　　يأوون منه الى حَرَم
أمنوا مما يخا　　ف من البلايا والسقم
جعلوا جنابك جنة　　وثرى خيولك مستلم
بسطوا يمينا للهدا　　ية طالما خضبت بدم
أعطيتهم ما للمؤ　　لفة القلوب من القسم
لازلت يا ملك الزما　　ن لك الملوك من الخدم(٣)

ومنها : أنه زلزلت الموصل زلزلة عظيمة تهدمت أكثر دورها .

ومنها : أن الملك الظاهر جهز صناعاً وأخشابا وآلات كثيرة لعمارة المسجد النبوى بعد حريقه ، فطيف بتلك الأخشاب والآلات فرحة بها ، وتعظيما لشأنها ، ثم ساروا بها إلى المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلوات .

---

(١) « وعين » في الأصل ، التصحيح من زبدة الفكرة .

(٢) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٣) « لا زلت يا ملك الملوك　　لك الزمان من الخدم » في الأصل ، والتصحيح من الروض الزاهر ص ١٥٠ — ١٨١ » وانظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٦١ ب .

ومنها : أن فى آخر يوم الأحد ثالث صفر سُمِّر شابٌّ ، ذكر أنه كان يرسل زوجته ، فتدخل فى بيوت النـاس ، فتُحَسِّن للمرأة [٤٩٨] الخروج معها لابسةً أفخر ثيابها وحليها ، وتشوقها بأن تقول : ها هنا عُرْس أو وليمة أوشىء من هذا الباب ، وتقول : وقد اجتمعت فيه جماعة من النساء المحتشمات ، فلا تتركى من الزينة شيئا ليحصل لك التجمل بينهن ، فتفعل تلك المغرورة أقصى ما تقدر عليه وتخرج معها ، فتجىء بهـا إلى بيت زوجها ، فتأخذ جميع ما عليها ، ثم تخنقها ، وترميها فى بئر فى داره ، فعل ذلك بجماعة من النساء ، ثم هتكه الله ، فأُخذ هو وامرأته ، وضربا ، فاعترفا ، فأما المرأة فخنقت ، وجُعلت فى جُوْلَق ، وعلق الجوالق تحت الخشب التى سُمِّر عليها الزوج ، خارج باب الفرج ، فبقى ليلتين ويوما ، وفى اليوم الثـانى خنق بطـرف الحبل ، فنسـأل الله السلامة .

وفيها : « ... ... » (١) ، حج بالناس « ... ... » (٢)

وفيها : « ... ... » (٣)

---

(١) ، (٢) ، (٣) « ...... » بياض فى الأصل .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

عبد الرزاق[1] بن رزق الله بن أبى بكر بن خلف عز الدين أبو محمد الرسعنى[2] المحدث المفسر .

سمع الكثير وحدث ، وكان من الفضلاء الأدباء ، له مكانة عند بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل وكذلك عند صاحب سنجار ، وبها توفى ليلة الجمعة الثانى عشر من ربيع الآخر ، وقد جاوز السبعين .

ومن شعره :

نَعَبَ الغرابُ فدلّنا نعيبُه[3] إن الحبيب دنا أوانُ مغيبه

يا سائلى عن طيب عيشى بعدهم جُدْ لى بعيش ثم سَلْ عن طيبه

محمد[4] بن أحمد بن عنتر السُلَمىُّ الدمشقى محتسبها ، وكان من عدولها وأعيانها ، وله بها أملاك وثروة وأوقاف ، توفى بالقاهرة ، ودفن بسفح جبل المقطم .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ٣٢ ، ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٥٤٥ ، جـ ٢ ص ٢١٩ ، العبر جـ ٥ ص ٢٦٤ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤١ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٠٥ ، السلوك جـ ١ ص ٥٠٢ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢١١ .

(٢) « الرسغنى » فى الأصل ، والتصحيح من مصادر الترجمة .

(٣) « بنعيه » فى البداية والنهاية ، ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ٢١٩ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ٢٢٠ — ٢٢١ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤١ ، الذيل على الروضتين ص ٢٢٦ .

علم الدين أبو محمد القاسم [(١)] بن أحمد بن الموفق بن جعفر المرسى اللورقى [(٢)] اللغوى النحوى المقرئ .

شرح الشاطبية شرحا مختصرا ، وشرح المفصل فى عدة مجلدات ، وشرح الجزولية ، وقد اجتمع بمصنفها وسأله عن بعض مسائلها ، وكان ذا فنون متعددة ، حسن الشكل ، مليح الوجه ، له هيئة حسنة و بزة وجمال ، وقد سمع الكندى وغيره .

توفى فى سابع رجب من هذه السنة ، ودفن من الغد فى مقابر توما بدمشق ، قريبا من قبر الشيخ رسلان [٤٩٩] وكان معمرا .

واللورَقى نسبة إلى لُورَقَة بليدة من أعمال مرسية .

الشيخ أبو بكر [(٣)] الدينورى أحد الصلحاء ، تلميذ الشيخ عز الدين الدينورى . وهو بانى الزاوية بالصالحية بدمشق ، وكانت له فيها جماعة مريدون يذكرون بأصوات حسنة طيبة ، توفى فى هذه السنة .

الشيخ الإمام كمال الدين أبو الحسن على [(٤)] بن أبى الفوارس شجاع بن العباس ابن عبد المطلب القرشى الهاشمى المصرى المقرئ ، الشافعى الضرير .

---

(١) أبو القسم محمد بن أحمد ، فى زبدة الفكرة جـ ٩ ، ورقة ٦١ ب . وله أيضا ترجمة فى : العبر جـ ٥ ص ٢٦٦ — ٢٦٧ ، درة الأسلاك ص ٣٢ ، الذيل على الروضتين ص ٢٢٦ — ٢٢٧ ، وورد اسمه « علم الدين أبو القاسم بن أحمد » فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤١ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٠٧ ، السلوك جـ ١ ص ٢ ٥ — ٥٠٣ .

(٢) « البورقى » فى البداية والنهاية ، وهو تحريف .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤١ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٦٢ أ ، درة الأسلاك ص ٣٢ العبر جـ ٥ ص ٢٦٦ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٠٦ ، ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ٢٢٠ .

وكان قد تصدر بمصر والقاهرة لإقراء القرآن الكريم ، وانتفع الناس به انتفاعا كثيرا ، وإليه انتهت رئاسة الإقراء بالديار المصرية ، توفى فيها بالقاهرة رحمه الله .

الشريف أبو العباس أحمد بن الصقلى ، وكان شاعرا خليعا ، توفى فى هذه السنة .

الأمير مجير الدين(١) بن خوشتر بن الكردى .

كان من أمراء مصر ، وحضر كسرة التتار بعين الجالوت مع الملك المظفر قطز ، وغزا يومئذ حتى فتح الله على المسلمين .

مات بدمشق فى التاسع والعشرين من شعبان منها ، ودفن بالجبل ، وأبوه الأمير حسام الدين ، مات محبوسا مع عماد الدين بن المشطوب فى البلاد الشرقية التى للأشرف .

وقال ابن كثير : الأمير مجير الدين أبو الهيجاء عيسى(٢) بن خوشتر بن الأزكشى الكردى .

كان من أعيان الأمراء الكبار(٣) وشجعانهم ، وله يوم عين جالوت اليد البيضاء ، ولما دخل الملك المظفر قطز إلى دمشق بعد الوقعة جعله مع الأمير علم الدين الحلبى

(١) هو عيسى بن خشتر الأزكشى الكردى ، مجير الدين أبو الهيجاء .

وله أيضا ترجمة فى درة الأسلاك ص ٣٢ ، ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٥٤٤ ، جـ ٢ ص ٢٢٢ — ٢٢٣ ، السلوك جـ ١ ص ٥٠٢ ، الذيل على الروضتين ص ٢٢٧ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤٢ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢١٢ .

(٢) « ابن عيسى » فى الأصل ، والتصحيح من البداية والنهاية .

(٣) « الكبار » ساقط من البداية والنهاية .

ــ نائب البلد ــ مستشارا ، ومشاركا[1] فى الرأى والتدبير والمراسيم ، وكان يجلس معه فى دار العدل ، وله الأقطاع الكامل والرزق الواسع .

وقال ابن كثير أيضا : وولده الأمير عز الدين تولى ولاية دمشق مدة ، وكان مشكور السيرة ، وإليه ينسب درب ابن سنون بالصاغة العتيقة ، فيقال له : درب بن أبى الهيجاء ، لأنه كان به سكنه ، وكان يعمل الولاية فيه ، فيعرف به : وبعد موته بقليل كان نزولنا حين قدمنا من حوران به ، فختمت فيه القرآن العظيم[2] .

الملك المغيث فتح الدين الدين عمر[3] بن الملك العادل الصغير أبى بكر بن الملك العادل الكبير أبى بكر بن أيوب بن [٥٠٠] شادى صاحب الكرك .

قتل فى هذه السنة ، وسببه أنه كان فى قلب الملك الظاهر منه غيظ عظيم لأمور كانت بينهما .

قيل : إن المغيث المذكور أكره امرأة الملك الظاهر بيبرس ، لما قبض المغيث على البحرية وأرسلهم إلى الملك الناصر يوسف صاحب دمشق ، وهرب الملك الظاهر بيبرس المذكور ، وبقيت امرأته فى الكرك .

وكان من حديث مقتله أن الملك الظاهر مازال يجتهد على حضوره ، وحلف لوالدته على غرضه كما ذكرنا ، وكان عند المغيث شخص يسمى الأمجد ، وكان

(١) « ومشتركا » فى البداية والنهاية .

(٢) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤٢ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى « ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ١٩٢ ــ ١٩٣ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٣٨ ، وورد ذكر وفاته سنة ٦٦٢ هـ فى درة الأسلاك ص ٣٢ ، العبر جـ ٥ ص ٢٦٩ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣١٠ ، ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٢٩٧ وما بعدها حيث ذكره المؤلف مرة ثانية »

يبعثه فى الرسلية إلى الملك الظاهر ، فكان الظاهر يبالغ فى إكرامه وتقريبه ، فاغتر الأمجد بذلك ، ومازال على مخدومه الملك المغيث حتى أحضره إلى الملك الظاهر (1) .

وقال المؤيد فى تاريخه : حكى لى شرف الدين بن مزهر ، ناظر خزانة المغيث ، قال : لما عزم المغيث على التوجه إلى خدمة الملك الظاهر ، لم يكن قد بقى فى خزانته شىء من القماش ولا المال ، وكانت لوالدته حواصل بالبلاد ، فبعناها بأربعة وعشرين ألف درهم ، واشترينا بإثنى عشر ألفا خلعاً من دمشق ، وجملنا فى صناديق الخزانة الإثنى عشر الألف الأخرى ، ونزل المغيث من الكرك ، وأنا والأمجد وجماعة من أصحابه معه فى خدمته .

قال : وشرعت البريدية تصل إلى المغيث فى كل يوم بمكاتبات الملك الظاهر ، ويرسل صحبتهم غزلانا ونحوها ، والمغيث يخلع عليهم حتى نفذ ما كان بالخزانة من الخلع .

ومن جملة ما كتب إليه فى بعض المكاتبات ، أن المملوك ينشد فى قدوم مولانا :

خليلَىَّ هل أبصرتما اوسمعتما … بأكرم من مولى تمشّى إلى عَبْدِ

قال : وكان الخوف فى قلب المغيث شديدا من الملك الظاهر ، قال ابن مزهر المذكور : ففاتحنى فى شىء من ذلك بالليل ، فقلت له : احلف لى أنك ما تقول للأمجد ما أقوله لك حتى أنصحك ، فحلف لى ، فقلت له : أخرج

---

(1) المختصر جـ ٣ ص ٢١٦ .

الساعة من تحت الخام [1]، واركب حجرتك النجيلة [2]، ولا يصبح لك الصباح إلا وأنت قد وصلت إلى الكرك، فتعصى فيه، وما تفكر بأحد.

قال ابن مزهر: فغافلني وتحدث مع الأمجد فى شىء من ذلك، فقال له الأمجد: هذا رأى ابن مزهر، إياك من ذلك، وسار المغيث. حتى وصل إلى بيسان، فلقى الظاهر كما ذكرناه، فقبض عليه وأرسله [٥٠١] على الفور معتقلا إلى مصر، وكان آخر العهد به.

قيل: إنه حمل إلى امرأة الملك الظاهر بيبرس بقلعة الجبل، فأمرت جواريها فقتلته بالقباقيب، ثم قبض الملك الظاهر على جميع أصحاب المغيث ومن جملتهم ابن مُزهر المذكور، ثم بعد ذلك أفرج عنهم.

وقال المؤيد: ولما قبض الظاهر على المغيث أحضر الفقهاء والقضاة وأوقفهم على مكاتبات من التتار إلى المغيث أجوبة عما كتب إليهم به فى أطماعهم فى مُلك مصر والشام، وكُتب بذلك مشروح، وأُثبت على الحكام [3].

الملكُ الأشرفُ [4] موسى بن الملك المنصور إبراهيم بن الملك المجاهد شيركوه ابن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شادى بن مروان صاحب حمص.

---

(١) الخام = الخيام.

(٢) الحجرة: أنثى الخيل - القاموس.

(٣) المختصر جـ٣ ص ٢١٦ - ٢١٧.

(٤) وله أيضا ترجمة فى: المنهل الصافى، درة الأسلاك ص ٣٢، النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٢١٧، السلوك جـ١ ص ٥٢٨، المختصر جـ٣ ص ٢١٨، البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢٤٣ وفيه أنه توفى سنة ٦٦٢هـ - انظر ما يلى، وكذلك فى الذيل على الروضتين ص ٢٢٩، وذيل مرآة الزمان جـ١ ص ٥٥٥، جـ٢ ص ٣١، العبر جـ٥ ص ٢٧٠، شذرات الذهب جـ٥ ص ٣١١.

مات في هذه السنة بعد عوده من خدمة السلطان الملك الظاهر بيبرس إلى حمص بمرض اشتدّ به ، فتوفى وأرسل الملك الظاهر فتسلّم حمص في ذي القعدة من هذه السنة .

وهذا الملك الأشرف هو آخر الملوك الذين ملكوا حمص من بيت شيركوه .

وكان مَنْ ملك منهم حمص خمس ملوك أولهم أسد الدين بن شيركوه ابن شادى ، ملكه إياها نور الدين الشهيد رحمه الله ، ثم ملكها من بعده أولاده المذكورون واحدا بعد واحد ، فآخرهم موسى المذكور ، وانقرض بموته ملكهم حمص[1] .

وذكر ابن كثير وفاة الملك الأشرف المذكور في سنة اثنتين وستين وستمائة ، قال : وكان من الكرماء الموصوفين ، والكبراء الدماشقة المترفين ، فيعتنى بالمآكل والمشارب والملابس والمراكب ، وقضاء الشهوات والمآرب ، وكثرة التنعم بالمغانى والحبايب ، ولما توفى وجد له حواصل من الجواهر النفيسة ، والأموال الكثيرة ، وعاد ملكه إلى الدولة الظاهرية[2] ، واستناب ببلاده من المماليك البحرية .

قال أبو شامة : وقبله بقليل توفى الزين خضر[3] المعروف بالمسخرة ، وكان من ندماء الأشرف موسى بن العادل[4] .

---

(١) المختصر جـ٣ ص ٢١٨ .

(٢) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤٣ ، وانظر أيضا ذيل مرآة الزمان جـ٢ ص ٣١٠ .

(٣) «خضير» في الأصل ، والتصحيح من الذيل على الروضتين .

(٤) الذيل على الروضتين ص ٢٢٩ .

ذكر ماجريات الملك الظاهر :

منها : أن الظاهر توجه إلى الغربيّة ، ومنها إلى ثغر دمياط ، وزار البرزخ ، ورسم بعمل فم بحر الدمياط وردمه بالقرابيس وتضبيقه ، ليمنع سفن العدو الكبار من دخولها ، وأمر بحفر أشمون .

ومنهـا : أنه رسم بعمارة بير اللَّبُونة غربى الإسكندرية ، وحفر منافسها ، وأنشأ بستانا فيها ، لأنها منزلة من المنازل عند توجهه إلى الحمامات للصيد ، فشرع فيهـا .

ومنها : أنه عمر مسجدا مجاور المشهد الحسينى ، رضى الله عنه .

ومنها : أنه عمر بالقدس الشريف خانا ، ووقف عليه أوقافا للنازلين به فى إصلاح نعالهم وأكلهم وغير ذلك ، وبنى به طاحونا وفُرنا .

ومنها : أنه ندب عز الدين الأفرم لحفر فم الخليج الإسكندرية ، فحفر وبنى هناك مسجدا .

ومنها : أنه ندب الأمير جمـال الدين موسى بن يغمور إلى جزيرة بنى نصر للاهتمام بريّها .

ومنها ، أنه سامح ما كان مقررا على ولاية مصر من رسوم الولاية .

ومنها : أنه لمـا غلت ديار مصر أمر بالتسعيرة طلبا للرفق ، ورسم بأن يباع من أهرائه خمسمائة أردب كل يوم ، بمـا قسمه الله عز وجل من السعر .

وفى تاريخ بيبرس : وفى هـذه السنة غلت أسعار الغلال بالديار المصرية ، وبلغ القمح قريب مائة درهم نقرة الإردب ؛ فرسم السلطان بالتسعير طلبـا للرفق

فصل فيما وقع من الحوادث

في السنة الثانية والستين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة، والخليفة هو الحاكم بأمر الله العباسى، وهو مقيم بالقاهرة.

وسلطان البلاد المصرية والشامية : هو الملك الظاهر بيبرس البندقدارى الصالحى، وقاضى القضاة [٥٠٢] بها تاج الدين بن بنت الأعز، ونائبه بدمشق: الأمير جمال الدين أقوش النجيبى، وقاضى القضاة بدمشق شمس الدين بن خلكان.

ونائبه بحلب : الأمير نور الدين على الهكارى.

وصاحب البلاد الرومية : السلطان ركن الدين قليج أرسلان السلجوقى.

وصاحب العراقين وخراسان وغيرها : هلاون بن طلوخان بن جنكزخان.

وصاحب البلاد الشمالية : بركة خان.

وصاحب بلاد الغرب : أبو يوسف يعقوب المرينى.

وصاحب مكة : الشريف نجم الدين بن أبى نمى الحسنى.

وصاحب المدينة : عز الدين جماز بن سالم الحسينى.

وصاحب اليمن : الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر.

(*) يوافق أولها الأحد ٤ نوفمبر ١٢٦٢ م.

بالفقير[1] ، [والجبر للكسير][2] ، واشتد الحال ، وقلت الأقوات ، وكاد الخبز يعدم من أسواق القاهرة ومصر ، فأمر بالنداء فى الصعاليك والفقراء أن يجتمعوا تحت القلعة ، فاجتمعوا ونزل إلى دار العدل ، وأبطل التسمير ، ورسم بأن يباع من أهرائه [٥٠٣] خمسمائة أردب كل يوم ، بما يقدره الله تعالى من السعر ، ويوزع على الضعفاء[3] والأرامل من ويبتين فما دونهما ، وأمر بإحضار كل من بالقاهرة ومصر وحواضرها من الفقراء وأفرد منهم ألوفا يقوتهم من ماله ، ووزع منهم لولده الملك السعيد جماعة ، وفرق على كل أمير نظير عدة جنده ، وفرق على مفاردة الحلقة بحسب أحوالهم ، وعلى المقدمين والبحرية والوزير والأكابر والتجار والشهود والمتعممين ، ورسم أن كل من خصه فقير يعطيه مؤنته لثلاثة أشهر[4] .

ومنها : أنه اهتم بتجهيز كسوة الضريح النبوى ، على ساكنه أفضل الصلوات ، صحبة الطواشى جمال الدين محسن الصالحى فى شهر رمضان ، وأجرى فى هذا الشهر الصدقات على الفقراء بالقاهرة ومصر ، ورتب لهم مطابخ لفطر الصائمين .

ومنها : أنه عزم على طهور ابنه الملك السعيد ناصر الدين بركة ، فعرض الجيوش المنصورة لايبى عدد الحروب ، وعبروا عشرة عشرة وهو جالس على الصفة التى بجانب دار العدل تحت القلعة ، ثم طهر ولده المذكور ، وطهر معه جماعة من أولاد الأمراء الكبار ، ولم يقبل السلطان من أحد من الأمراء تقدمة :

---

(١) « بالفقراء » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٦٣ أ .

(٢) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٣) « الفقراء » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٤) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٦٣ أ / ب ، وانظر أيضا الروض الزاهر ص ١٨٨ - ١٨٩ .

ملك تعوّد أنه يهب البلادَ مع الممالك
[ويجود بالمدن العظام وبالحصون وما هنالك](١)
حاشاه يَنْسك من قبول هديةّ تلك المسالك
[أو أنه مع جوده وعطا نه يرضى بذلك](٢)

ومنها : أنه توجّه إلى ثغر الإسكندرية متصيِّداً ، ووصل إلى الكاش ، وهي قريب العقبة الصغرى التي غربيّ الحمامات ، وعند عوده جعل سيف الدين عطاء الله بن عزاز مقدّما على عرب بَرْقَة ، وقرر عليهم الزكاة ، وألزمهم باستخراجها منهم وحملها(٣) .

ومنها : أنه بلغه أن جماعة من التتار واصلون مستأمنون ، فأخذ بالعزم ، وعزم على الخروج بالعساكر لأجل تواتر الأخبار بمجيء هلاون مع التتار ، وعزم على تقرير السلطنة لابنه ناصر الدين بركة .

ذكر سلطنة الملك السعيد ناصر الدين بركة :

ولما كان يوم الخميس ثالث عشر شوال من هذه السنة ، أركبَ السلطان ولده الملك السعيد بشعار السلطنة ومشى [٥٠٤] في ركابه حاملا له الغاشية ، وأخذها الأمراء الكبار واحدا بعد واحد ، وعليهم الخلع الفاخرة ، والحلل الزاهرة ،

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .
(٢) [ ] إضافة من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٦٧ أ .
(٣) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٦٧ أ .

وزينت المدينة زينة تامة ، واستبشر بذلك الخاصة والعامة ، وتقرر أن يكون أتابكه الأمير عز الدين أيدمر الحلى[1] .

وكتب تقليده [الشريف][2] ، وقرئ فى السابع عشر من الشهر وهو :

الحمد لله منمى الغروس ، ومبهج النفوس ، ومزين سماء المملكة بأحسن الأهلة وأضواء البدور ، وأشرق الشموس الذى شد أزر الإسلام بملوك[3] يتعاقبون مصالح[4] الأنام ، ويتناوبون تدبيرهم كتناوب العينين واليدين فى مهمات الأجساد وملمات الأجسام .

نحمده على نعمه التى أيقظت جفن الشكر المتغافى ، وأوردت منهل الفضل الصافى ، وخولت الآلاء حتى تمسكت الآمال منها بالوعد الوفى ، وأخذت بالوزن الوافى .

وأشهد[5] أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة عبد كثر الله مدده وعدده ، وأحمد أمسه ويومه ، ويحمد إن شاء الله غده ، ونصلى على سيد محمد الذى أطلع الله به نجم الهدى ، وألبس المشركين به أردية الردى ، وأوضح به

(١) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٦٤ ب .

(٢) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٣) « الذين شدوا إزار الإسلام » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة ، والروض الزاهر ص ٢٠٤ ، وصبح الأعشى جـ ١٠ ص ١٦٣ .

(٤) « بمصالح » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٥) « ونشهد » فى الروض الزاهر ص ٢٠٥ .

مناهج الدين، وكانت « طرائق قِدداً »(١) صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة دائمة لا تنقضي أبدا .

وبعدُ فإنا لما ألهمنا اللهُ من مصالح الأمم، وخولناه من الحرص على مُهمّات العباد التي قطع به شأفة الكُفرَ وَحَسَمْ ، وأتى بنا والشرك قد علم كل أحد اشتعال ناره ، فكان علما بنارٍ مُضَرَّمَةٍ ، لا نارًا على علم ، وقدره من دفع الكفر من جميع الجوانب ، وقمعهم من كل جهة حتى رميناهم بالحتف الواصل والعذاب الواصب ، فأصبح الشرك من الإبادة في شرك ، والإسلام لا يخاف من فَتْكٍ ولا يخاف من درك ، وثغور الإسلام عالية المبتنى نامية المقتنى ، جانية ثمار الادخار من هنا ومن هنا ، تزاحم بروجها في السماء البروج ، ويشاهد الأعداء منها سماء بنيت وزينت ومالها من فروج ، وعساكر الملة [٥٠٥] المحمدية في كل طرف أطراف الممالك تجول ، وفي كل واد تهيم حين تُشْعِرُ بالنصر ولكنها تفعل ما تقول ، قد دوّخت البلاد فقتلت الأعداء تارة بالإلمام وتارة بالأوهام ، وسلت سيوفها فراعتهم يقظة بالقراع ونوما(٢) بالأحلام، نرى أنا قد لذّ لنا هذا الأمر التذاذ المستطيب ، وحسُن لدينا موقعه فعكفنا عليه عكوف المستجيد ولبيناه تلبية المستجيب ، وشغلنا فيه جميع الأوقات والحواش ، وتقسمت مباشرتُه ومؤامرته سائر الزمن حتى غدا أكثر ترددا الى(٣) النفس من الأنفاس ، واستنفدنا الساعات في امتطاء الضمر الشُوس، وإدراع محكم الدلاص التي كأنها ومضات(٤) برق أو شعاع

(١) سورة الجن رقم ٧٢ جزء من آية ١١ .

(٢) « ويوما » في الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٣) « إل » في الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٤) « ومضان » في الأصل ، والتصحيح من الروض الزاهر ص ٢٠٦ .

شموس ، وتجريد المرهفات التى قد حفّت لحاظها الأجفان ، وجرت فكا لمياه واضطرمت فكا لنيران ، وتفويق السهام التى قد غدت قسيّها من اتعابنا لها تئن ، واعتقال السمهرية التى تقرع الأعداء سنّها ندما كلما قرعت هى السن ، الى غير ذلك من كل غارة شعواء تُسىء للكفار الصباح ، وتصدم كالجبال وتسير كالرياح ، ومنازلات كم استكبت من موجود ، وكم استنجزت من نصر موعود ، وكم مدينة أضحت لها مُذْنِيَة ولكن أخرها الله إلى أجل مَعْدُود .

وكانت شجرتنا المباركة قد امتد منها فرعٌ تفرسنا فيه[(1)] الزيادة والنمو ، وتوسمنا منه حسن الجناء المرجو ، ورأينا أنه الهلال الذى أخذ فى ترقى منازل السعود إلى الإبدار ، وإنه سِرّنا الذى صادف مكان الاختيار له حسن الاختيار ، أردنا أن ننصبه فى منصب أحلنا الله فسيح غُرَفه ، ونُشرّفه بما خَوّلنا الله من شرفه ، وأن تكون يدنا ويده يقتطفان من ثَمَره ، وجيدنا وجيده متحليان بجوهره ، وأنا نكون للسلطنة الشريفة السمع والبصر ، وللملكة المعظمة فى التناوب بالاضاءة الشمسُ والقمر ، وأن تصول الأئمةُ منا ومنه بمخذين ، ويبطشون من أمرنا وأمره بيدين ، وأن نُربيه على حسن سياسة تحمد الأمة إن شاء [٥٠٦] الله عاقبتها عند الكبر ، وتكون الأخلاق الملوكية منتشية[(2)] معه ومنتشبة به من الصغر ، ونجعل سعى الأمة حميدا ، ونهب لهم منه سلطانا نصيرا ، وملكا سعيدا ، ونقوى به عضد الدين ، ونُريش جناح المملكة ، وننجح مطالب الأمة بإيالته ، وكيف لا ينجح مطلب يكون فيه بركة .

---

(1) « فيها » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(2) « مقتبسة » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

وخرج أمرنا، لابرح مسعدا ومسعفا، ولا عدمت الأمة منه خلفا منيلا ونواه مخلفا، بأن يكتب هذا التقليد لولدنا الملك السعيد [ناصر الدين][1] بركة خاقان محمد، جعل الله مطالع سعده بالإشراق محفوفا، وارى الأمة من منامه ما يدفع للدهر صرفا ويحسن بالتدبير تصريفا بولاية العهد الشريف على قرب البلاد وبعدها، وغورها ونجدها، وعساكرها وجندها، وقلاعها وثغورها، وبرورها وبحورها، وولاياتها وأقطارها، ومدنها وأمصارها، وسهلها وجبلها، ومعطلها ومعتملها، وما تحوى أقطاره الأقلام، وما ينسب للدولة القاهرة من يمن وحجاز ومصر وغرب وسواحل وشآم بعد شام، وما يتداخل ذلك من قفار ومن بيد فى سائر هذه الجهات، وما يتخللها من نيل وملح وعذب فرات، ومن يسكنها من حقير وجليل، ومن يحتلها من صاحب رغاء وثغاء، وصاهل وصهيل، وجعلنا يده فى ذلك كله المبسوطة، وطاعته المشروطة، ونواميسه المضبوطة، ولا تدبير ملك كلى إلا بنا أو بولدنا يعمل، ولا سيف ولا رزق إلا بأمرنا هذا يسل وهذا يسأل، ولا دست سلطنة إلا بأحدنا يتوضح منه الإشراق، ولاغض قلم فى روض أمر ونهى إلا ولدينا أولديه وتمتد له الأوراق، ولا منبر خطيب إلا باسمينا يميس، ولا وجه درهم ولا دينار إلا بنا يشرق ويكاد تبرجا لابهرجا يتطاير من خلال الكيس .

فليتقلد الولد ما قلدناه من أمور العباد، وليشركنا فيما نباشره من مصالح الثغور والقلاع والبلاد، [٥٠٧] وسنعاهد الولد من الوصايا بما سينشأ معه توأما[2]، ويمتزج بلحمه ودمه حتى [يكاد][3] يكون ذلك إلهاما لا تعلما، فى الولد

(١) [   ] إضافة من زبدة الفكرة، الروض الزاهر ص ٢٠٧ .

(٢) « يوما » فى الأصل ، والتصحيح من الروض الزاهر ص ٢٠٨ .

(٣) [   ] إضافة من زبدة الفكرة ، والروض الزاهر ص ٢٠٨ .

بحمد الله من نقاء الذهن وصحة التصور ما يتشكل فيه الوصايا أحسن التشكيل ، وتظهر صورة الإبانة فى صفائه الصقيل ، فلذلك استغنينا عن شرحها مسرودة ، وفيه بحمد الله من حسن الخليقة ما يحقق أنها بشرف الإلهام موجودة ، والله لايعدمنا منه إشفاقا وبرا ، ويجعله [أبدا](١) للأئمة سندا وذُخرا(٢) .

ذكر المدرسة التى بناها السلطان الظاهر بالقاهرة :

وفى أول هذه السنة ، كملت المدرسة الظاهرية التى بين القصرين ، ورتب لتدريس الشافعية بها القاضى تقى الدين محمد(٣) بن الحسين بن رزين ، ولتدريس الحنفية مجد الدين عبد الرحمن(٤) بن كمال الدين عمر بن العديم ، ولمشيخة الحديث بها الشيخ شرف الدين الدمياطى عبد المؤمن(٥) بن خلف الحافظ .

وكان الإجلاس بها فى الخامس من صفر من هذه السنة ، واجتمع بها أهل العلم والأدباء والفقهاء ، ودرس المدرسون ، واندفع الشعراء يمتدحون ، فأنشد السراج عمر(٦) الوراق :

---

(١) [أبدا] إضافة من زبدة الفكرة .

(٢) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٦٤ ب — ٦٦ ب ، الروض الزاهر ص ٢٠٤ — ٢٠٩ ، صبح الأعشى جـ ١٠ ص ١٦٣ — ١٦٥ .

(٣) توفى سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م — الوافى جـ ٣ ص ١٨ رقم ٨٧٩ .

(٤) توفى سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٩ م — المنهل الصافى .

(٥) توفى سنة ٧٠٥ هـ / ١٣٠٥ م — المنهل الصافى .

(٦) هو عمر بن محمد بن حسن ، سراج الدين الوراق ، المتوفى سنة ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م — المنهل الصافى .

مَليكٌ له في العلم حبٌّ وأهلُهُ فلله حبٌّ ليس فيه مَلامُ
فشيَّدها للعلم مدرسةً غدا عراقٌ إليها شيِّقٌ وشآمُ
فلا تذكُرَنْ(١) يومًا بنظامية لها فليس يضاهى ذا النظام نظامُ
ولا تذكرنْ مَلْكا وبيبرسُ مالكا وكل مليك في يديه غُلامَ
ومُذْ برَزت كالروض في الحسن أنبأت بأنّ يديه في النوال غمام(٢)

وأنشد الجمال يوسف بن الخشاب :

قصد الملوك حماك والخلفاءُ فافخر فإن محلك الجوزاءُ
أنت الذى أمراؤه بين الورى مثل الملوك وجنده أمراءُ
ملك تزينت الممالك باسمه وتجملت بمديحه الفصحاءُ
وترفعت للعلم خير مدارس حلت بها العلماء والفضلاءُ
يبقى كما يبقى الزمانُ وملكه باقٍ له ولحاسديه فناءُ
كم للفرنج وللتتار(٣) ببابه رُسُلٌ مُناها العفو والإعفاء

[٥٠٨]

وطريقه لبلادهم موطوءة وطريقهم لبلاده عذراءُ
دامت له الدنيا ودام مخلَّدًا ما أقبل الإصباح والإمساءُ(٤)

وأنشد الأديب أبو الحسن الجزار :

---

(١) « ولا » في الروض الزاهر ص ١٨٤ .

(٢) انظر أيضا الروض الزاهر ص ١٨٤ — ١٨٥ .

(٣) « التتار والفرنج » في الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة والروض الزاهر .

(٤) أنظر أيضا الروض الزاهر ص ١٨٥ .

ألا هكذا يَبْنى المدارسَ من بَنَى ومَنْ يتغالى فى الثواب وفى الثنا
لقد ظهرت للظاهر الملك هِمّـةٌ بها اليوم فى الدارين قد بلغ المُنَا
تجمّـع فيها كلُّ حُسْن مُفَـرِّقٍ فراقت قلوباً للأنام وأعيُنَـا
ومُذ جاوَرَتْ قبر الشهيد فنفسُه النفيسَةُ [منها](1) فى سرورٍ وفى هَنا
وما هى إلا جنّـةُ الخلد أُزْلِفتَ له فى غـدٍ فاختار تعجيلها هُنـا(2)
فشرف الشعراءُ المذكورون ووُصِلوا(3).

ذكر بقية الحوادث :

منها : أن هيثوم بن قسطنطين متملك الأرمن وصل من جهة السلطان هلاون إلى حضرة السلطان ركن الدين قليـج أرسلان صاحب الروم ، واستصحب معه قاضي هـلاون ، وجمـاعة من التتار ، فالتقاه صاحب الروم مترجلا ، وجاء إلى هرقله ، وتحالفا واتفقا ، واهتم الأرمنى بجمع عساكره لقصد البلاد الإسلامية ، وسار إلى قلعة صرفندكار، ومعه ألف فارس من بنى كلاب، وقصدوا عينتاب.

فجهز السلطان عسكرى حماة وحمص إلى حلب، وأمرهم بالإغارة على عسكر الأرمن ، فأغاروا عليهم ، وقتلوا منهم ثلاثين نفرا ، وأسروا أميرا من أمرائهم ، وأخذوا مائة حمـل من البخاتى ، وجرح بَارُون بَهرَام ، وهو صاحب حَوص ، وقرابة الملك ، جراحة شديدة ، وانهزموا راجعين(4).

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة ، والروض الزاهر .
(٢) انظر أيضا الروض الزاهر ص ١٨٥ .
(٣) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٦٢ ب ، ٦٣ أ .
(٤) الروض الزاهر ص ١٩٢ .

ومنها : أنه وصلت جماعة من عسكر شيراز إلى الخدمة ، مقدمهم الأمير سيف الدين بكلك ، ومعهم سيف الدين اقتبار جمدار جلال الدين خوارزم شاه ، وغلمان أتابك سعد ، وهم : شمس الدين سنقرجاه ورفقته ، ووصل معهم حسام الدين حسين بن علاج أمير العراق ، ومظهر الدين وشاح بن شهرى ، وجماعة من أمراء خفاجة ، فأحسن إليهم وجهزهم إلى بلادهم .

ومنها : أنه وصل رسول من الأمير شارل(١) أخى الفرنسيس بهدية .

ومنها : أنه وصلت إلى السلطان كتب أصحاب خيبر عبيد الإمام على بن أبى طالب رضى الله عنه ، يبذلون الطاعة ، ويسألونه إرسال من يتسلم [٥٠٩] خيبر ، فندب أمين الدين موسى بن التركمانى ، وكتب إلى نائب الكرك ، بأن يجرد معه جماعة من البحرية الذين بالكرك ، فتوجه إليها وتسلمها(٢) .

ومنها : أنه وصل الأمير جلال الدين شكر ولد الدوادار مجاهد الدين دوادار الخليفة ببغداد ، فأعطاه السلطان طبلخاناه ومعها عشرة عقبان ، فأطلقها وفرقها .

فقال فى ذلك الأمير جمال الدين بن الإمام الحاجب :

جاءَتْ ملوك الطير فى يد آسِرٍ		قهرًا إلى ملك الأنام الظاهر
أضحى سليمان الزمان فملكه		يَسمُو به لقياصر وأكاسر
ملك الزمان سيأْتِينَك مثلهُم		فى أسْر خادمك الزمان الجائر

ومنها : أنه وجدت بظاهر القاهرة ، خارج باب الشعرية ، امرأة تحيل على الناس ، وتدخلهم بيتا لها هناك ، وقد أعدت فيه رجالا يطابقونها على سوء

(١) « شرك » فى الأصل ، والتصحيح من الروض الزاهر ص ٢٠١ ، وهو شارل كونت أنجو .
(٢) الروض الزاهر ص ٢٠٤ .

فعلها ، فيخنقون من تأتى به فقتلت خلقا كثيرا من رجال ونساء ، فأمر بها فسُمِرت .

وكان اسم هـذه المرأة السيئة غازية الخناقة ، وكانت ذات حسن وجمال ، وكانت تمشي بالمدينة ومعها عجـوز تطمع النـاس فى نفسها ، وكان من طمع فيها وطلبها تقول له العجوز : أنهـا لا يمكنها التوجه إلى أحد ، ولكن تعال أنت إلى بيتهـا ، فيجىء ، فيطلع له رجلان ، فيقتـلانه ويأخذون ما معـه ، وكانوا ينتقلون من مكان إلى مكان ، فاتفق أن العجوز أتت إلى بعـض المواشـط ، وأمرتها أن تأخذ ما تقدر عليه من الحلى والحُلَل ، وتمضى معها لعروسة عندها ، ففعلت الماشطة ، واستصحبت معهـا جارية لهـا ، ولمـا دخلت الماشطة منزلهـم ، رجعت الجارية إلى مكانهـا ، فقتلوا المـاشطة ، وأخذوا ما معها ، فاستبطأتها جاريتها ، فجاءت إليهـم وطلبتها ، فأنكروها وادعوا أنها خرجت من يومها ، فمضت وأتتهم بصاحب الشرطة ، فاحتاط عليهم وعذبهم ، فأقروا بمـا كانوا يفعلون ، وأطلعوا فى بيتهـم على حفرة فيهـا خلق عظيم مقتولين ، وكان بعض الطوابين قد اتفق معهم ، وجعلوا يحضرون إليه القتلى مختفيا ، فيحرقهـم فى أقنـة الطوب ، فامسكوا جميعا وسُمِّـروا ، وكانوا خمسة أنفس ، وأما المرأة فإنها بعد التسمير أطلقت ، فأقامت [٥١٠] يومين ، ثم ماتت ، عليها ما تستحق .(١)

ومنهـا : أنه اتفقت واقعـة بالمغرب بين أبى يوسف يعقوب المرينى وبين الفرنج ، وكان المقـدم عليهم قائدا من قوادهم يسمى بدر قزمان ، على مكان

(١) انظر أيضا كنز الدرر جـ ٨ ص ١٠٢ — ١٠٣ .

يقال له بيتره ، فهزمه المريني ، وقتل جماعة ممن كان معه ، وأثر في تلك البلاد آثارا كثيرة .(١)

ومنها : أن نصير الدين الطوسي قدم إلى بغداد من جهة هلاون ، فنظر في الأوقاف وأحوال البلد ، وأخذ كتبا عظيمة كثيرة من سائر المدارس وحولها إلى الرصد الذي بناه بمراغة ، ثم انحدر إلى واسط والبصرة .(٢)

ومنها : أن الأشكرى قبض على السلطان عز الدين كيكاوس صاحب الروم ، وقد ذكرنا أنه انهزم من أخيه ركن الدين قليج أرسلان ، وتوجه إلى القسطنطينية ، فأكرمه الأشكرى ، وأقبل عليه ، وعلى من معه من الأمراء ، فلما كان هذه السنة خطر ببال الأمراء الروميين الذين معه وهم : غُرلَو أمير آخور(٣) ، وعلى بهادر ، وأمير مجلس أن يثبوا على الأشكرى فيقتلوه ، ويستولوا على بلاده ، فعرفوا أستاذهم بذلك ، وسألوه كتمانه عن أخواله كَرْخيا وكَرْكَرِيد ، فاستدعى خَاليْه ، وعرفهما ما عَزم أولئك عليه ، وأشار إليهما بإعلام الأشكرى بذلك ، ومنعه من الركوب في غداة اليوم الذي عزموا على اغتياله فيه ، فتوجها إلى الأشكرى وأعلماه ، فلم يركب ذلك النهار ، وعمل وليمة كبيرة ، وعزم على السلطان عز الدين وعلى أمرائه فأكلوا وشربوا ، ورتب أن يمسكوا إذا خرجوا ، فقبض على كل من خرج منهم ، وعلى السلطان عز الدين أيضا ، وقيدوا ، وسير السلطان وأولاده إلى قلعة من القلاع الغربية ، فاعتقلوا فيها ، وأما أمراؤه

---

(١) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٦٨ أ .

(٢) انظر جامع التواريخ المجلد الثاني الجزء الأول ص ٢٠٣ .

(٣) «عز الدين أمير آخر» في نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ١١١ .

فإنه كحلهم[1] جميعا ، ثم رسم بأن يجمع كل من يلوذ بهم من الجند والغلمان والعامة والحاشية ، وجمعوا فى الكنيسة الكبرى جميعا ، وحضروا[2] ، وحضرت البطاركة والبطارقة ، وعرضوا[3] عليهم الدخول فى دين النصرانية ، فمنهم من تنصر وسلم ، ومن أبى إلا البقاء على إسلامه فكحل ، وكان فيهم رجل من أرزنكان يسمى نور الدين ، فلما أحضروه وعرضوا[4] [٥١١ ا] عليه التنصر ، فصاح وقال[5] : الجنة معدة للإسلام ، والنار معدة لكم ، فطالعوا الملك بأمره ، فقال : هذا رجل ثابت على دينه ، فاعطوه كتاب الطريق ولا تعرضوا[6] له ، فأطلقوه .

وأما عز الدين كيكاوس وأولاده ، فإنه بقى معتقلا بتلك القلعة إلى سنة ثمان وستين وستمائة[7] .

ومنها : أنه حصل بجاسوسين للتتار ، ووجد معهما فرمان هلاون للأمير فارس الدين أقطاى الأتابك ، فعلم السلطان أن ذلك مكيدة من التتار ، لعنهم الله .

وفيها[8] : « ... ... »

وفيها : حج بالناس[9] « ... ... »

(١) « فإنهم كحلوا » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٢) « وحضروا » ساقط من زبدة الفكرة .

(٣) « فعرضوا » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٤) « وأعرضوا » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٥) « فقال » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٦) « تتعرضوا » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٧) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٦٧ ب — ٦٨ ا ، وانظر أيضا نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ١١٠ — ١١١ .

(٨) ، (٩) « ... ... » بياض فى الأصل .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

القاضي الخطيب عماد الدين أبو الفضائل عبد الكريم[1] بن قاضي القضاة جمال الدين عبد الصمد بن محمد الحرستاني .

كان خطيبا بدمشق وناب في الحكم عن أبيه في الدولة العادلية ، ثم عن ابن خليل الخُوَيّ ، ثم استقل بقضاء القضاة بدمشق في الدولة الأشرفية ، ثم كان خطيب دمشق ، ومدرس الغزالية[2] ، وشيخ دار الحديث الأشرفية بعد ابن الصلاح إلى أن توفى بدار الخطابة في التاسع والعشرين من جمادى الأولى من هذه السنة ، ودفن عبد الكريم[3] بسفح جبل قاسيون وقد جاوز الثمانين بخمس سنين .

وتولى بعده الخطابة والغزالية ولده مجير الدين[4] ، وباشر بعده مشيخة دار الحديث الشيخ شهاب الدين أبو شامة ، رحمه الله .

محيي الدين محمد[5] بن أحمد بن محمد بن إبراهيم بن الحسين بن سراقة ، الحافظ المحدث الأنصاري الشاطبي أبو بكر المغربي .

---

(١) وله أيضا ترجمة في : درة الأسلاك ص ٣٣ ، العبر جـ ٥ ص ٢٦٨ ، ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ٢٩٥ ـ ٢٩٦ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤٣ ، الذيل على الروضتين ص ٢٢٩ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٠٩ ـ ٣١٠ ، الدارس جـ ١ ص ٤٢١ .

(٢) المدرسة الغزالية بدمشق : في الزاوية الشمالية الغربية من الجامع الأموى ، الدارس جـ ١ ص ٤١٣ ، ص ٤٢١ .

(٣) « عبد الله » في الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٤) هكذا بالأصل ، و « محيي الدين محمد » ، وتوفى سنة ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م ـ الدارس جـ ١ ص ٤٢١ .

(٥) وله أيضا ترجمة في : العبر جـ ٥ ص ٢٧٠ ، ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ٢٠٤ ـ ٢٠٧ ، البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٤٣ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣١٠ ـ ٣١١ .

عالم فاضل دَيِّن، وأقام بحلب مدة، ثم اجتاز بدمشق قاصدا الديار المصرية، وقد ولى دار الحديث الكاملية بعد زكى الدين عبد العظيم المنذرى، وقد كان له سماع جيد ببغداد وغيرها من البلاد، وقد جاوز السبعين، مات فى هذه السنة بالقاهرة.

القبارِى الشيخ الصالح محمد[1] بن منصور بن يحيى القبارى الأسكندرانى.

كان يكون مقيما بغيط يقتات من ثماره وزرعه، ويتورع فى تحصيل نذره.

قال أبو شامة: بلغنى أنه كان إذا رأى ثمرة ساقطة فيه تحت [٥١٢] أشجاره ولا يشاهد سقوطها من شجره يتـورع من أكلها، خوفا أن يكون من شجر غيره قد حملها طائر فسقطت منه فى غيطه[2].

وكانت وفاته فى السادس من شـعبان منها بالإسكندرية، وله خمس وستون سنة، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويردع الولاة من الظلم، فيسمعون منه ويطيعونه؛ وإذا جاء الناس إلى زيارته يكلمهم من طاقة المنزل وهم راضون منه بذلك.

ولمـا توجه الملك الظاهر إلى الإسكندرية فى العام المـاضى، قصد زيارته، فركب إلى بستانه، فلم يفتح له الباب، ولمـا توفى دفن فى بستانه بوصية منه.

وقال ابن كثير: وغريب ما حكى عنه أنه باع دابة له من رجل[3]، فلمـا كان

(١) وله أيضا ترجمة فى: زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٦٨ ب، درة الأسلاك ص ٢٤، العبر جـ ٥ ص ٢٧، ذيل مرآة الزمان جـ٢ ص ٣١٥ - ٣١٦، الذيل على الروضتين ص ٢٢١، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤٢ - ٢٤٤، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣١٢.

(٢) انظر الذيل على الروضتين ص ٢٢١.

(٣) هكذا بالأصل؛ وفى البداية والنهاية.

بعد أيام جاء الرجل فقال : يا سيدى إن الدابة [التى اشتريتها منك](١) لا تأكل عندى شيئا ، فنظر إليه الشيخ فقال : ما تعانى من الصنائع(٢) ؟ فقال : رقاص عند الوالى . فقال : إنّ دابتنا لا تأكل الحرام ، ودخل منزله فأعطاه دراهمه ومعهما دراهم كثيرة قد اختلطت بها أيضا معها ، فاشترى الناس من الرقاص كل درهم بثلاثة دراهم لأجل البركة ، [وأخذ دابته(٣)] وترك من الأثاث(٤) ما يساوى خمسين درهما فأُبيع بمبلغ عشرين ألفا(٥) ، رحمه الله .

محيى الدين عبد الله(٦) بن صفى الدين إبراهيم بن مرزوق ، توفى فى الثامن والعشرين من رمضان منها بداره بدمشق المجاورة للمدرسة النورية .

وقال ابن كثير : داره هى التى جعلت مدرسة للشافعية ، وقفها الأمير جمال الدين أقوش النجيبى وبها إقامتنا ، وقد كان أبوه صفىّ الدين وُزِّرَ مدة للملك الأشرف ، وملك من الذهب ستمائة ألف دينار خارجا عن الأملاك والأثاث والبضائع ، وكانت وفاة أبيه بمصر فى سنة تسع وخمسين ، ودفن بتربة عند جبل المقطم(٧) .

(١) [ ] إضافة من البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤٣ .

(٢) « من الأسباب » فى البداية والنهاية .

(٣) [ ] إضافة من البداية والنهاية .

(٤) « الأساس » فى البداية والنهاية ، وهو تحريف .

(٥) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤٤ .

(٦) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤٤ ، الذيل على الروضتين ص ٢٣١ .

(٧) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤٤ .

القاضى أبو البقاء صالح[1] بن أبى بكر بن سلامة المقدسى الفقيه الشافعى الحاكم بمدينة حمص .

وكان حسن الطريقة محمود السيرة ، توفى فى هذه السنة بحمص .

القاضى زين الدين أبو الفتح محمد[2] بن القاضى الموفق بن أبى الفرج الإسكندرانى .

وهو من رؤساء بلده المشهورين ، [٥١٣] وتولى القضاء والخطابة بها مدة ، وتوفى فى الإسكندرية فى هذه السنة .

كمال الدين أحمد[3] بن القاضى زين الدين بن الأستاذ .

كان تولى قضاء حلب بعد أبيه ، فبقى على ذلك إلى أن أخذ التتار حلب ، فنكب مع من نكب ، وجاء مع أهله إلى دمشق ، وخرج إلى مصر فبقى فيها إلى هذه السنة ، فرجع إلى حلب فتوفى بها فى خامس عشر شوال ، وكان فاضلا وابن فاضل ، وجده من الصالحين ، وجمع كتابا فى شرح الوسيط كان تعب فيه أبوه من قبل .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٦٧ ب ، المنهل الصافى ، ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ٢٣٩ .

(٢) هو محمد بن على بن عبد الوهاب بن أبى الفرج ، زين الدين الأسكندرانى — وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٦٨ أ ، وفيه « أبو الفرج محمد » ، ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ٣٠٤ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ٣٤ ، العبر جـ ٥ ص ٢٦٧ ، ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ٢٣٢ — ٢٢٨ ، « الذيل على الروضتين ص ٢٣٢ » ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٠٨ .

سليمان[1] بن المؤيد بن عامر العقربانى المعروف بابن الزين الحافظى .

قتله هلاون فى هذه السنة ، وقتل معه جميع أولاده وأهل بيته وأقاربه ، وقال له هلاون قبل قتله : ثبتت خيانتك عندى ، خدمت صاحب بعلبك طيبيا فخنته ، واتفقت مع غلمانه على قتله ، ثم خدمت الملك الحافظ فباطنت عليه الملك الناصر صاحب الشام حتى أخرجته من قلعة جعبر ، ثم خدمت الملك الناصر فخنته معى حتى أخربت دياره ، ثم خدمتنا فشرعت تباطن صاحب مصر علينا ، فأنت تشبه القرمة على وجه الماء كيف ماضربها الهوى مالت معه .

وقال ابن كثير: وقد كان هذا المغتر لما قدم التتار سنة هلاون[2] مالأ على المسلمين [وآذاهم][3] ودل على عوراتهم ، ثم لما عادت الدولة الإسلامية صار إلى التتار ، فكان عندهم حتى سلطهم الله عليه فأهلكوه : من أعان ظالما سلطه الله عليه[4] .

الأمير حسام الدين[5] الجوكندار العزيزى ، من غلمان العزيز بن الظاهر بن السلطان صلاح الدين .

وكانت له يدٌ طولى فى كسر التتار على حمص ، وقتل مقدمهم بَيْدَرًا ، وكان تولى نيابة حلب ، مات فى تاسع عشر المحرم من هذه السنة .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ٢٣٤ — ٢٣٩ ، العبر جـ ٥ ص ٢٦٧ — ٢٦٨ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٠٨ — ٣٠٩ .

(٢) « لما قدم التتار مع هولاكو دمشق وغيرها » — فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤٤ .

(٣) [ ] إضافة من البداية والنهاية .

(٤) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤٤ .

(٥) هو لاجين الجوكندار العزيزى ، حسام الدين لاجين وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ٣٣ ، انظر العبر جـ ٥ ص ٢٧١ ، جـ ٥ ص ٣١١ ، ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ٣٠٠ — ٣٠٢ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢١٦ .

الشمس الوتار الموصلى[(١)] .

كان قد حصل شيئا من علم الأدب وخطب بجامع المزة مدة .

قال أبو شامة : أنشدنى لنفسه فى الشيب والخضاب :

وكنت وإياها مذ اختط عارضى[(٢)] كروحين فى جسم وما نقضت عهدا

فلما أتانى الشيب يقطع بيننا توهمته سيفا فألبسته غمدا[(٣)]

(١) هو محمد بن أبى بكر بن سيف ، أبو عبد الله شمس الدين التنوخى ، الموصلى الوتار ؛ وله أيضا ترجمة فى : ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ٣١٠ ، الذيل على الروضتين ص ٢٣٢ .

(٢) « عارضى ... كروجين » — فى الذيل على الروضتين .

(٣) الذيل على الروضتين جـ ٢٣٢ ، ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ٣١٠ .

فَصْلٌ فيما وقع من الحوادث
في السنة الثالثة والستين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة : هو الحاكم بأمر الله ، وهو مقيم بالقاهرة .

وسلطان الديار المصرية والشامية : الملك الظاهر بيبرس البندقدارى ، وتوجه الظاهر إلى أغراس والعباسة للصيد ، ثم عاد إلى قلعة الجبل ، وكان سبب عوده وصول الأخبار إليه بأن مقدما من مقدمى التتار يُسمّى دُرَباى قد قصد البيرة بثمان من التتار وشرع فى المنازلة والحصار ، فأسرعَ العود إلى القلعة ، وجرّد الأمير عز الدين يوغان (١) الملقّب سم الموت بمقدمة العساكر ، ومن جُرِّد معه من الجند المتوجهين جرائد ، فتوجهوا فى رابع ربيع الأول من هذه السنة ، ثم جرد السلطان .

ذِكر سَفَر السُّلطان الظاهر إلى الشام :

ولما جهز السلطان العسكر المذكورين ، وخرجوا فى التاريخ المذكور ، شرع هو أيضا فى التجهيز ، ورحل فى سادس ربيع الآخر من هذه السنة .

قال بيبرس : شرع فى التجهيز وإحضار الخيول من الربيع ، وطرد الجند المتفرقين بالديار المصرية ، ورحل فى سابع ربيع الآخر ، فوصل إلى غزة فى

(*) يوافق أولها الجمعة ٢٤ أكتوبر ١٢٦٤ م .

(١) هو أيغان بن عبد الله الركنى ، الأمير عز الدين المتوفى سنة ٦٧٥ هـ / ١٢٧٦م ـ المنهل الصافى جـ ٢ ص ١٨٧ رقم ٦٧٥ . وورد اسم « يوغان » فى الروض الزاهر ص ٢٤٢ ، كما ورد « ايغان » فى السلوك جـ ١ ص ٥٢٣ .

العشرين منه، فوردت إليه مطالعة الأمير جمال الدين أقوش[1] النجيبي نائب السلطنة بالشام، مطوقة على بطاقة وصلت إليه من الملك المنصور صاحب حماة، وكان قد توجه صحبة الأمير عز الدين أُوغان والأمراء المجردين إلى البيرة، مضمونها أنهم لما وصلوا إليها، وشاهدهم التتار النازلون عليها، انهزموا، وكان درباى المذكور قد نصب على البيرة سبعة عشر منجنيقا، فلما ولوا هاربين عدى العسكر الفرات ونهبوا المجانيق، وسائر الآلات، فلما وردت هذه[2] الأخبار [بهزيمة التتار][3]، استبشر السلطان، وثنى العنان قاصدا بلاد الفرنج، فنزل على قيسارية[4].

ذكر فتوح قيسارية الشام:

نزل السلطان عليها يوم الخميس تاسع جمادى الأولى، والوقت « نصبت عليها المجانيق[5] » وأطافت بها العسكر، وعمدوا إلى سكك[6] الخيل فجعلوها [٥١٥] أوتادا، وتعلقوا فيها من كل جانب وطلعوا إليها، ونصبوا السناجق السلطانية عليها، وحرقت أبوابها، وهتك حجابها، فهرب أهلها إلى قلعتها، فجد العسكر في الحصار، فلما كانت ليلة الخميس منتصف جمادى الأولى هربت الفرنج، وأسلموا القلعة بما فيها، فتسلق المسلمون إليها من الأسوار واستولوا عليها،

---

(١) « أقوش » ساقطة من زبدة الفكرة.

(٢) « هذه » ساقط من زبدة الفكرة.

(٣) [ ] إضافة من زبدة الفكرة.

(٤) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٦٩ أ، وانظر أيضا الروض الزاهر ص ٢٢٣ – ٢٢٤.

(٥) « - » ساقط من زبدة الفكرة.

(٦) السكك: جمع سكة: وهي الوتد الذي يربط به مقود الحصان – القاموس.

ورسم السلطان بهدم مبانيها ، فهدمت » وهى أول فتوح السلطان الملك الظاهر رحمه الله » (١) .

ثم توجه السلطان إلى جهة عثليث جريدة ، وبث عساكره تشن الغارات وتقول يا للثارات ، وجرد عسكرا إلى حيفا (٢) ، فدخلوها ، فنجا الفرنج بأنفسهم إلى المراكب ، وأخربت المدينة وقلعتها فى يوم واحد . ووصل إلى عثليث وعاد عنها ، وقد ترك أهلها فى حبس منها ، فنزل على أرسوف (٣) .

ذكر فتح أرسوف :

وكان نزول السلطان عليها فى مستهل جمادى الآخرة من هذه السنة ، ورامتها العساكر بالسهام والمجانيق ، وضيقوا عليها أنواع التضييق ، وتمكنوا منها ، وأطلعوا السناجق السلطانية عليها ، فما أحس الفرنج إلا وقد خالطهم المسلمون ، وأنشبت فيهم براثنها المنون ، قبل أن يسألوا الأمان ، ويبذلوا الطاعة والإذعان ، فتسلمها السلطان فى يوم الخميس ، وأمر أهلها وأرسلهم إلى الكرك مصفدين (٤) .

قال بيبرس رحمه الله : وحضرت هذه الغزاة مع الجيش وكنت إذ ذاك [الوقت] (٥) فى خدمة الأمير سيف الدين المخدوم ، وأراد به قلاون لأنه مملوكه ، قال :

---

(١) « ... » ساقط من زبدة الفكرة ، وانظر الروض الزاهر ص ٢٣٠ — ٢٣٣ .

(٢) « الفرس » فى الأصل ، وهو تحريف والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٣) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٦٩ ب .

(٤) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٦٩ ب ، وانظر أيضا الروض الزاهر ص ٢٣٥ — ٢٣٩ ، السلوك جـ ١ ص ٥٢٨ .

(٥) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

كنت فى سن المراهق او قريبا منه ، وكنت أجُرُ الجنبب (1) ، ولما ملكها قسم أبراجها على الأمراء ليَهْدمُوهَا ، وجعل هدمها دستورهم .

وقال محيي الدين بن عبد الظاهر أبياتا يصف فيها هذه الفتوح منها :

لايحسب الناس قيسارية ضَعُفت ... وأسلمت نفسها من خيفة رهَبا
لكنها بذُيول النصر قد علِقت ... وقد أتته لعكا تطلب الحَسَبا
كذاك أرْسُوفُ لما حاز غايتها ... ما جاء مختطبا بل جاء مُختطِبا
لئن غدا آخذ الدنيا ومُعطيها ... فإنه أحسن التعميم مُحْتَسِبا (2)

[٥١٦]

ذكر البلاد التى ملكها للأمراء لما ملكها :

ولما استولى السلطان (3) على هذه الفتوح ، جعلها لأمرائه من إنعامه الممنوح ، ففسدها عليهم بتواقيع بأيديهم ، وكتب بالتمليك توقيعا جامعا نسخته :

أما بعد حمد الله على نصرته المتناسقة العقود ، وتمكينه الذى رفلت الملة الإسلامية منه فى أصفى البرود ، وفتحه الذى إذا شاهدت العيون مواقع نفعه وعظيم وقعه ، علمت لأمر ما يُسوَّد من يَسُود ، والصلاة على سيدنا محمد الذى جاهد الكفار ، وجاهرهم بالسيف البتار ، وأعلمهم لمن عقبي الدار ، وعلى آله وصحبه صلاةً تتواصل بالعشى والإبكار ، فإن خير النعم نعمةٌ وردت بعد اليأس ،

(1) فى زبدة الفكرة تقديم وتأخير فى هذه العبارة .

(2) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٠ أ وهذه الأبيات غير موجودة فيما هو منشور من الروض الزاهر انظر الروض الزاهر ص ٢٤٢ .

(3) « السلطان » ساقط من زبدة الفكرة .

وأقبلت على فترة من تخاذُل الملوك وتهاوُن الناس ، فأكرِمْ بهـا نعمة وصلت للملّة المحمدية أسبابا ، وفتحت للفتوحات أبوابا ، وهزمت من التتار والفرنج العَدُوّين ، ورابطت من الملح الأُجاج والعذب الفُرات بالبرين والبحرين ، وجعلت عساكر الإسلام تُذِلّ الفرنج بغزوهم فى عقر الدار ، وتجوس من حصونهم المـانعة خلال الديار والأمصار ، وتقود من فضل عن شبع السيف الساغب إلى حلقات الإسَار ، ففرقَةٌ منها تقتلع للفرنج قلاعا وتهدم حُصُونا ، وفرقة تبنى ماهدم التتار بالمشرق وتعليه تحصينا ، وفرقة تتسلم بالحجاز قلاعا شاهقة ، وتتسنم هضابا سامقة ، فهى بحمد الله البانية الهادمة ، والقاسية الراحمة ، كل ذلك بمن أقامه الله سيفا فَقَرَى ، وحملت رياح النُصرة بركابه تسخيرا ، فسار إلى مواطن الظفر وسَرَى ، وكونته السعادة ملكا إذا رأته فى دستها قالت : ما هذا بشرا ، وهو السلطان الملك الظاهر ركن الدنيا والدين أبو الفتح بيبرس ، جعل الله سيوفه مفاتيح البلاد ، وأعلامه أعلاما على رأسها من الأسنة نار لهداية[1] العباد ، فإنه آخذ البلاد ومعطيها ، وواهبها بمـا فيها ، وإذا عامله الله بلطفه شكر ، وإذا قدر عفا وأسلف ، فوافقه القدر ، وإذا أهدت [إليه][2] النصرة فتوحات قسمها فى حاضريها [٥١٧] لديه متكرما وقال : الهـدية[3] لمن حضر ، وإذا خوّله الله تخويلا وفتح على يديه قلاعا ، جعل الهـدم للأسوار ، والدماء للسيف[4] البتار ، والرقاب للإسار ، والبلاد المزدرعة[5] للأولياء

(١) «الهداية» فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة ، ويوجد فى السلوك تقديم وتأخير — السلوك جـ ١ ص ٥٣١ .

(٢) [إليه] إضافة من زبدة الفكرة ، والسلوك .

(٣) « الهدية » ساقط من السلوك .

(٤) « للسيف » ساقط من السلوك .　　(٥) « المزروعة » فى السلوك .

والأنصار ، ولم يجعل لنفسه إلا ما تُسَطِّرُه الملائكةُ فى الصحائف لصفاحه من الأجور ، وتطوى عليه طويات السير التى قدمت بما[1] فتحه الله من الثغور بإسمه، باسمه الثغور :

فتى جعل البلاد من العطايا[2] فأعطى المدن واحتقر الضياعا
سمعنا بالكرام وقد أرانا عيانا ضعف ما فعلوا[3] سماعا
إذا فعل الكرام على قياس جميلا كان ما فعل ابتداعا

ولما كان بهذه المثابة ، [وقد][4] فتح الفتوحات التى أجزل الله بها أجره ، و [ضاعف][5] ثوابه ، وله أولياء كالنجوم ضياء ، وكالأقدار مضاء ، وكالعقود تناسقا ، وكالوبل تلاحقا إلى الطاعة وتسابقا ، رأى أن لا ينفرد عنهم بنعمة ولا يتخصص ، ولا يستأثر بمنحة غدت بسيوفهم تستنقد وبعزائمهم تستخلص ، وأن يؤثرهم على نفسه ، ويقسم عليهم الأشعة من أنوار شمسه ، ويبقى للولد منهم وولد الولد ، ما يدومُ إلى آخر الدهر ويبقى على الأبد ، ويعيش الأبناء فى نعمته كما عاش الآباء ، وخير الإحسان ماشمل وأحسنه ما خلد ، فخرج الأمر العالى ، لا زال يشمل الأعقاب والذرارى ، وينير إنارة الأنجم الدرارى ، أن يملك أمراءه وخواصه الذين يذكرون ، وفى هذا المكتوب يسطرون ، ما يعين من البلاد

(١) « بها » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة ، والسلوك .
(٢) « العطا » فى السلوك .
(٣) « ما عملوا » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة ، والسلوك .
(٤) [ ] إضافة من السلوك .
(٥) [ ] إضافة من السلوك .

والضياع (١)، على ما يشرح ويبين من الأوضاع وهو :

الأتابك (٢) فارس الدين أقطاى الصالحى ، عتّيل بكمالها .

الأمير علاء الدين أيدغدى العزيزى (٣)، نصف زَيْتا .

الأمير بدر الدين بيَسْرَى الشمسى ، نصف طُورْ كَرَم .

الأمير سيف الدين الدِكُز (٤) الكركى ، رُبع زَيْتا .

الأمير سيف الدين قليج البغدادى ، رُبع زَيْتا .

الأمير ركن الدين بيبرس خاص ترك الكبير ، أفراسين .

[٥١٨] [الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار نَامه الشريفة] (٥) .

الأمير عز الدين أيدمر الحلى (٦)، نصف قلنسوة .

[الأمير شمس الدين سنقر الرومى ، نصف قلنسوة] (٧) .

الأمير سيف الدين قلاون الألفى ، نصف طيبة الإسم .

الأمير عز الدين يوغان (٨) سم الموت ، نصف طيبة الإسم .

---

(١) هى جميعا قرى وضياع حول قيسارية وأرسوف ، وليس لأحدها تعريف فى معجم البلدان ـ انظر السلوك جـ ١ ص ٥٣٢ هامش (١) .

(٢) « الأمير » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة ، والسلوك .

(٣) « جمال الدين » فى السلوك جـ ١ ص ٥٣٢ .

(٤) « شمس الدين الذكر » فى السلوك .

(٥) [ ] إضافة من زبدة الفكرة ، « باقة الشرقية » فى السلوك .

(٦) « الحلبى الصالحى » فى السلوك .

(٧) [ ] إضافة من السلوك .

(٨) « إيغان » فى السلوك .

الأمير جمال الدين أقوش[1] النجيبي ، أم الفحم بكمالها .

الأمير علم الدين سنجر الحلبي ، تبان[2] بكمالها[3] .

الأمير جمال الدين أقوش المحمدى [الصالحى[4]] ، نصف بورين .

الأمير علاء الدين[5] أيدغدى الحاجب ، نصف تيرين[6] .

الأمير فخر الدين الطونبا[7] الحمصى ، نصف تيرين[8] .

الأمير بدر الدين بيليك الأيدمرى ، نصف بورين[9] .

الأمير فخر الدين عثمان بن الملك المغيث ، ثلث حله[10] .

[الأمير شمس الدين سلار البغدادى ، ثلث حلبة .

الأمير صارم الدين صراقان ، ثلث حلبة .

الأمير ناصر الدين القيمرى ، نصف البرج الأحمر[11]] .

---

(١) « نائب سلطنة الشام » فى السلوك .

(٢) « يتان » فى السلوك .

(٣) إلى هنا ينتهى ما ورد فى زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧١ ب عن مرسوم توزيع الإقطاعات ، إذ يوجد خرم فى نسخة زبدة الفكرة التى بين أيدينا من هنا حتى ذكر فتوح حصن الأكراد فى شهر شعبان سنة ٦٦٩ هـ .

(٤) [ ] إضافة من السلوك .

(٥) « جمال الدين » ، السلوك .

(٦) « بيزين » فى السلوك .

(٧) « الطنبا » فى السلوك .

(٨) « بورين » فى السلوك ، وهذا الأمير مذكور قبل السابق عليه فى السلوك .

(٩) « بيزين » فى السلوك .

(١٠) « حلبة » فى السلوك .

(١١) [ ] إضافة من السلوك جـ ١ ص ٥٣٢ .

الأمير سيف الدين بلبان الزينى ، نصف البرج الأحمر .

الأمير سيف الدين أيتمش (١) السعدى ، نصف تما .

الأمير سيف الدين (٢) آقسنقر السلحدار ، نصف تما .

الملك المجاهد سيف الدين إسحاق (٣) ، نصف ذنابه (٤) .

الملك المظفر « علاء الدين أخوه (٥) » ، نصف ذنابه (٦) .

الأمير بدر الدين « محمد بن بركتخان ، دير العصفور (٧) » .

الأمير عز الدين أيبك « الأفرم ، نصف شويكه (٨) » .

[الأمير سيف الدين كرمون أغا التترى ، نصف الشويكة (٩)] .

الأمير بدر الدين بيليك (١٠) الوزيرى ، نف طرس (١١) .

الأمير ركن الدين منكورس الدوادارى ، نصف طرس (١٢) .

---

(١) « إيتامش » فى السلوك .

(٢) « شمس الدين » فى السلوك .

(٣) « صاحب الجزيرة » فى السلوك .

(٤) « دنابة » فى السلوك .

(٥) « صاحب سنجار » فى السلوك .

(٦) « دنابة » فى السلوك .

(٧) « محمد بن ولد الأمير حسام الدين بركه خان ، دير القصون بكمالها » فى السلوك .

(٨) « الأفرم أمير جاندار نصف الشويكة » فى السلوك .

(٩) [ ] إضافة من السلوك .

(١٠) « بيليك » ساقط من السلوك .

(١١) « طبرس » فى السلوك .

(١٢) « طبرس » فى السلوك .

الأمير سيف الدين قشتمر العجمى ، علّار [بكمالها](١) .

الأمير علاء الدين أخو الدوادار ، نصف عَرْعَرَا .

الأمير سيف الدين بيجق(٢) البغدادى ، نصف عَرْعَرَا .

الأمير علم الدين سنجر الأزكشى ، نصف قرعور(٣) .

الأمير سيف الدين دكاجك(٤) البغدادى ، نصف قرعور(٥) .

الأمير علم الدين « سنجر طردج الآمدى ، سباها(٦) » .

الأمير سيف الدين(٧) أيتمش بن أطاس خان ، سَيَدَا [بكمالها](٨) .

الأمير علاء الدين كندغدى [الظاهرى](٩) أمير مجلس ، الصير القوما(١٠) .

الأمير عز الدين أيبك الحموى ، نصف أرتاح .

[الأمير شمس الدين سنقر الألفى ، نصف أرتاح](١١) .

الأمير علاء الدين طيبرس الظاهرى ، نصف باقة الغربية .

(١) [ ] إضافة من السلوك .

(٢) « تنجق » فى السلوك .

(٣) « قرعون » فى السلوك .

(٤) « دكجل » فى السلوك .

(٥) « قرعون » فى السلوك ، وهذا مذكور قبل السابق عليه فى السلوك .

(٦) « طرطج الأسدى أتابة بكمالها » فى السلوك .

(٧) « حسام الدين » فى السلوك .

(٨) [ ] إضافة من السلوك .

(٩) [ ] إضافة من السلوك .

(١٠) « الصفرا بكمالها » فى السلوك .

(١١) [ ] إضافة من السلوك .

[الأمير علاء الدين التنكزى ، نصف باقة الغربية[1]]

الأمير عز الدين « أيدمر الفخرى »[2] ، القصير بكمالها .

الأمير علم الدين سنجر الصيرفى [الظاهرى][3] ، أخصاص بكمالها .

الأمير ركن الدين بيبرس « العزى ، نصف قفير »[4] .

الأمير شجاع الدين طغريل الشبلى[5] ، نصف كفرراعى .

الأمير علاء الدين كندغدى الحبيشى ، نصف كفرراعى .

الأمير شرف الدين يعقوب[6] بن أبى القاسم ، نصف كسفا[7] .

الأمير بهاء الدين يعقوب الشهرزورى ، نصف كسفا[8] .

الأمير جمال الدين موسى بن يغمور ، « نصف ابرويله »[9] .

الأمير علم الدين سنجر « الحلبى ، نصف برويله »[10] .

---

(١) [ ] إضافة من السلوك .

(٢) « الأتابك الفخرى » فى السلوك .

(٣) [ ] إضافة من السلوك .

(٤) « المغربى نصف قفين » فى السلوك .

(٥) « مقدم الأمراء البحرية » فى السلوك .

(٦) « يعقوب » ساقط من السلوك .

(٧) « كستا » فى السلوك .

(٨) « كستا » فى السلوك .

(٩) « استادار العالية نصف برنبكية » فى السلوك .

(١٠) « الحلبى الغزاوى نصف برنبكية » فى السلوك .

الأمير علم الدين سنجر أمير جاندار(١)، نصف حانوتا [من أرسوف](٢)

الأمير سيف الدين « بينعان الركني افراد نسيفا »(٣) .

الأمير عز الدين أيدمر [الظاهري](٤) نائب الكرك، ثلث حبله [من أرسوف](٥) .

الأمير شمس الدين صنقرجاه الظاهري ، ثلث حَبْله .

الأمير جمال الدين أقوش(٦) ، ثلث حَبْله .

الأمير بدر الدين بكتاش الفخري [أمير سلاح](٧) ، ثلث جلجولية .

الأمير « سيف الدين بجكا الرومي »(٨) : ثلث جاجولية .

[٥١٩] الأمير علاء الدين كشتغدي [الشمسي](٩) ، ثلث جلجولية .

ولما فرغ السلطان من ذلك عاد إلى الديار المصرية مظفرا منصورا، فدخل المدينة يوم الخميس حادي عشر شعبان من هذه السنة .

---

(١) « نائب أمير جاندار » في السلوك .

(٢) [ ] إضافة من السلوك .

(٣) « بيدغان الركني فرديسيا بكاملها من نيساربة » في السلوك .

(٤) [ ] إضافة من السلوك .

(٥) [ ] إضافة من السلوك .

(٦) « السلاح دار الرومي » في السلوك ، وهذا الأمير مذكور في السلوك قبل السابق عليه .

(٧) [ ] إضافة من السلوك .

(٨) « بدر الدين بكتوت بجكا الرومي » في السلوك وهذا الامير مذكور بعد الامير التالي في السلوك .

(٩) [ ] إضافة من السلوك .

ذكر بقية ماجريات الملك الظاهر :

منها : أنه أبطل حراسة النهار بالقاهرة ومصر وكانت بجملة كثيرة .

ومنها : أنه مسك الأمير شمس الدين سنقر الرومى واعتقله .

ومنها : أنه قطع أيدى جماعة من نواب الولاة والمقدمين والخفراء وأصحاب الرباع بالقاهرة ، وسببه أنه نزل القاهرة بالليل متنكرا ليرى أحوال الناس ، فرأى بعض المقدمين وقد أمسك امرأة وعراها سراويلها بيده ، ولم يجسر أحد أن ينكر عليه[1] .

ومنها : أنه أمر ببناء الجامع الذى بالحسينية بجوار زاوية الشيخ خضر ، وكان الشيخ خضر[2] هو السبب فى بناء الجامع[3] .

وقال بيبرس : فى سنة أربع وستين وستمائة رسم السلطان الظاهر ببناء ميدان قراقوش بظاهر القاهرة جامعا ، وأفرد منه جانبا ليبنى دورا ، ويكون حكره وقفا على الجامع .

ومنها : أن السلطان ولى من بقية المذاهب قضاة بالديار المصرية مستقلين يولون من جهتهم فى البلدان أيضا كما يولى الشافعى ، فكان قاضى الشافعية تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز ، وقاضى الحنفية شمس الدين

(١) كنز الدرر جـ ٨ ص ١٠٦ - ١٠٧ .

(٢) هو خضر بن محمد بن موسى ، الشيخ المعتقد ، صاحب الزاوية بزقاق الكحل خارج القاهرة ، والمتوفى سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م - المنهل الصافى .

(٣) المواعظ والإعتبار جـ ٢ ص ٢٩٩ - ٣٠٠ .

ابن سليمان [بن أبى العز بن وهيب](1) ، وقاضى المالكية « شرف الدين السبكى »(2) ، وقاضى الحنابلة شمس الدين محمد بن [إبراهيم](3) المقدسى ، وكان ذلك يوم الاثنين الثانى والعشرين(4) من ذى الحجة بدار العدل .

وكان سبب ذلك كثرة توقف القاضى تاج الدين بن بنت الأعز ، فأشار الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى على السلطان الملك الظاهر بأن يولى من كل مذهب قاضى قضاةٍ استقلالا ، وكان السلطان يحب رأيه ومشورته ، فأجاب إلى ذلك ، ففعل كما ذكرنا ، وكذلك فعل بدمشق فى السنة الآتية .

ذكر بقية الحوادث :

منها : أنه وصل رسول من جهة داود بن سودان ملك الكرج بهدية ، وكتاب عُرِّبَ ، فأعرب عن بذل المودةِ والصداقة والاعلام بأن رسله متردّدة [٥٢٠] إليه .

ومنها : أن نور الدين زامل بن على هرب بسبب فتنة كانت بينه وبين عيسى ابن مهنى ، فلما جرى ذلك بينهما مسك السلطان زاملا واعتقله تأديبا له ، ثم

(١) [ ] إضافة من السلوك . وتوفى سليمان بن وهيب سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م — المنهل الصافى .

(٢) « شمس الدين الشبلى » فى الأصل ، والتصحيح من السلوك جـ ١ ص ١٩ ٥٢٩ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٢٢ . وهو شرف الدين عمر بن عبد الله بن صالح السبكى المالكى ، المتوفى سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧٠ م — حسن المحاضرة ، جـ ١ ص ٤٥٧ — ٤٥٨ .

(٣) [ ] إضافة من السلوك . وتوفى سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م — العبر جـ ٥ ص ٣١١ — ٣١٢ .

(٤) « يوم الاثنين تاسع عشره » فى السلوك ، وما ذكره العينى يتفق مع ما جاء فى التوفيقات الإلهامية من أن يوم الإثنين ٢٢ ذى الحجة . وورد « الإثنين ثانى عشر ذى الحجة » فى النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٢١ .

أطلقه وأصلح بينه و بين عيسى بن مهنى ، وأحمد بن حجى ،وتوجهوا إلى بلادهم ، فلم يلبث زامل أن توجه إلى هــلاون ، فأعطاه إقطاعا بالعراق ، وعاد إلى مشتاه بالحجــاز فنهب من وجد ، وحضر إلى أوائل الشام ، وراســل السلطان فى طلب العفو ، فلم يجبه ، وأرسل إليه من أمسكه وأحضره واعتقله .

ومنها : أنه ورد خبر من بلاد المغرب بأنهم انتصروا على الفرنج ، وقتلوا منهم خمسة وأربعين ألف مقاتل ، وأسروا عشرة آلاف ، واسترجعوا ثنتين وثلاثين بلدة منها سرين وأشبيلية وقرطبة ومرســية ، وكانت النصرة يوم الجمعــة الرابع عشر من رمضان سنة ثنتين وستين وستمائة .

وقال أبو شامة : ورد إلى دمشق كتاب يتضمن أنه ورد إلى القــاهرة فى جمــادى الآخرة من هــذه السنة كتاب من المغرب يتضمن نصر المسلمــين على النصارى فى بر الأندلس ، ومقدّم المسلمين سلطانهم أبو عبد الله[1] بن أحمر رحمه الله[2] ، و كان الفنش[3] ملك النصارى قد طلب منه الساحل من طريف إلى الجزيرة ومالقه إلى المرية ، فاجتمع المسلمون ولقوهم فكسروهــم مرارًا ، وأخذ أخــو الفنش أسيرا ، ثم اجتمع العــدو فى جمع كثير ونزل على غرناطة فقتل المسلمون منهــم مقتلة عظيمة ، فجمع من رؤوسهم نحو خمسة وأربعين ألف رأس ، فعملوهــا

(١) هو محمد بن نصر ، أبو عبد الله الذى تلقب بالغالب بالله ، وحكم غرناطة فى الفترة من ٦٢٩ ــ ٦٧١ هـ / ١٢٣٢ ــ ١٢٧٣ م ــ تاريخ الدول الإسلامية ص ٣٨ .

(٢) « بن الأحمر ، أيده الله » فى الذيل على الروضتين ص ٢٣٤ .

(٣) « النفش » فى الأصــل ، هنا وفى المواضع التالية ، والتصحيح من الذيل على الروضتين ، وهو الفونسو العاشر ملك قشتالة وليون ، والملقب بألفونسو العالم ــ انظر معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٣٨٤ .

كوما ، وطلع المسلمون عليها وأذنوا ، وراح الفنس إلى أشبيليه منهزما ، وكان قد دفن أباه بجامع أشبيليه فأخرجه من قبره خوفا من استيلاء المسلمين عليها[1] ، وحمله إلى طليطلة[2] .

ومنها : أنه وقع حريق عظيم بمصر أتهم به النصارى ، فعاقبهم الملك الظاهر عقوبة عظيمة .

وفيها : « ... ... »[3]

وفيها : حج بالناس « ... ... »[4]

(١) « إليها » فى الأصل ، والتصحيح يتفق وسياق الكلام ، ومن الذيل على الروضتين .

(٢) الذيل على الروضتين ص ٢٣٤ — ٢٣٥ .

(٣) ، (٤) « » بياض فى الأصل .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

الشيخ زين الدين خالد[1] بن يوسف بن سعد الحافظ النابلسي شيخ دار [٥٢١] الحديث النورية بدمشق .

كان عالما بصناعة الحديث ، حافظا لأسماء الرجال ، اشتغل عليه فى ذلك الشيخ محيي الدين النووى وغيره ، وكان فيه خير وصلاح ، توفى فى هذه السنة ، ودفن بمقابر الباب الصغير ، وتولى بعده مشيخة النورية الشيخ تاج الدين الفزارى .

قاضى القضاة بدر الدين يوسف[2] بن حسن بن على الكردى السنجارى ، باشر قضاء القضاة بالديار المصرية مرارا .

قال أبو شامة : كانت له سيرة معروفة من أخذ الرشا من قضاة الأطراف والشهود والمتحاكمين ، إلا أنه كان كريما جوادا ، وحصل له ولأتباعه بآخره تشتت ومصادرات[3] .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، فوات الوفيات ج ١ ص ٢٠٢ رقم ١٤٥ ، العبر ج ٥ ص ٢٧٣ ، الذيل على الروضتين ص ٢٣٣ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٤٦ ، شذرات الذهب ج ٥ ص ٣١٣ ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢١٩ ، ذيل مرآة الزمان ج ٢ ص ٣٢٦ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ٣٦ ، النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٢١٩ ، العبر ج ٥ ص ٢٧٤ – ٢٧٥ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٤٦ ، الذيل على الروضتين ص ٢٣٤ ، شذرات الذهب ج ٥ ص ٣١٣ ، ذيل مرآة الزمان ج ٢ ص ٣٣٢ .

(٣) الذيل على الروضتين ص ٢٣٤ .

مات فى الرابع عشر من رجب من هذه السنة، ودفن بتربته بالقرافة، وكان تقدم عند الملوك، وتولى الوزارة أياما قلائل، ودرس بالمدرسة الصالحية بالقاهرة بالطائفة الشافعية ، وسمع وحدث .

الشيخ أبو القاسم الحوارى يوسف[1] بن أبى القاسم بن عبد السلام الأموى ، الشيخ المشهور صاحب الزاوية بحوارى ، توفى ببلده .

وكان خيرا صالحا ، له أتباع وأصحاب يحبونه ، وله مريدون فى كثير من قرى[2] حوران ، وهم حنابلة لا يرون الضرب بالدف ؛ بل بالكف ، وهم أمثل من غيرهم[3] .

الحافظ أبو بكر محمد[4] بن أبى أحمد يوسف بن موسى المهلبى الأندلسى .

وكان فاضلا حسن المعروفة برواية الحديث، توفى فى هذه السنة بمكة .

القاضى أبو يعلى حمزة[5] البهرانى الشافعى الحموى .

كان قاضيا بحماة توفى بها فيها .

الأمير جمال الدين أبو الفتح موسى[6] بن يغمر بن جلدك بن بلهان بن عبد الله .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : العبر جـ ٥ ص ٢٧٥ ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ٣٢٦ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤٦ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣١٣ .

(٢) « قرايا » فى الأصل .

(٣) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤٦ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : العبر جـ ٥ ص ٢٧٤ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣١٣ .

(٥) وله أيضا ترجمة فى : ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ٣٢٦ .

(٦) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ٢٥ ، العبر جـ ٥ ص ٢٧٤ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢١٨ ، الطالع السعيد ص ٦٦٨ رقم ٥٣٠ ، الذيل على الروضتين ص ٢٣٤ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣١٣ السلوك جـ ١ ص ٥٤١ ، ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ٣٣٠ ــ ٣٣٢ ، الطالع السعيد ص ٦٦٨ رقم ٥٣٠ .

مات في مستهل شعبان بالقصير[1] من أعمال الفاقوسية[2] بين الغرابي والصالحية، وحمل إلى تربة والده بسفح المقطم، فدفن بها في رابع الشهر المذكور.

ومولده في جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وخمسمائة بالغزية، قرية بالقرب من سمهود من أعمال قوص.

وكان أحد الأمراء المشهورين والرؤساء المذكورين، موصوفا بالكرم والمعرفة، معروفا بالرأي والتقدمة.

هَلَاوُن[3]: الكلام فيه على أنواع:

الأول في نسبه ومبدأ أمره: هو هَلَاوُن [٥٢٢] قان بن طلوخان بن جنكزخان ملك التتار، وهو بفتح الهاء واللام وضم الواو وفي آخره نون مثل قلاوُن، وقد يقال بضم الهاء، ويقال له أيضا: هُلاكُو بالكاف بعد اللام بغير نون في آخره، ويقال له أيضا: هَلَالُو باللام موضع الكاف.

وكان باطوخان والد هلاون استولى على بلاد العجم، بعضها في حياة والده جنكزخان، ولما مات جنكزخان استولى باطوخان على الجميع، وأفسد وقتل في البلاد، ثم لما هلك استولى ولده هلاون على البلاد، ولكن كان تحت حكم أخيه منكوقان، وكان منكوقان هو المالك للبلاد كلها، ولما هلك منكوقان في سنة

(١) القصير: هي قرية الجعافرة بمركز فاقوس ـ القاموس الجغرافي ق ٢ جـ ١ ص ١١١.

(٢) قاعدة مركز فاقوس بمحافظة الشرقية ـ القاموس الجغرافي ق ٢ جـ ١ ص ١١٦.

(٣) وله أيضا ترجمة في «درة الأسلاك ص ٣٦، كنز الدرر جـ ٨ ص ١١٤، ١١٥، جامع التواريخ المجلد الثاني الجزء الأول ص ٢١٩ وما بعدها، نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٩٣ وما بعدها، وورد ذكر وفاته سنة ٦٦٤هـ ـ انظر العبر جـ ٥ ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣١٦».

ثمانية وخمسين وستمائة استبدَّ هلاون بالمملكة ، ولم يبق له معارض ، فأفسد في بلاد الإسلام ما لا يمكن وصفه ، فطغى وتجبر إلى أن أهلكه الله تعالى على ما نُبيِّنُه عن قريب .

الثاني في سيرته : كان ملكا جبارا عنيدا ، سفاكا للدماء ، لا يتدين بدين من الأديان ، وكانت زوجته طقزخاتون قد تنصرت ، وكانت تعضد النصارى ، وكان هلاون يترامى على محبة المعقولات ، ولا يتصور منها شيئا ، وكان أهل المعقولات من أفراخ الفلاسفة عنده ، لهم وجاهة ومكانة ، وكان نصير الدين الطوسى العالم في العقليات — صاحب التصانيف منها : التجريد في الكلام — عنده ، خصيصا به ، يشاوره في مصائبه ، وكان الطوسى شيعيا خبيثا ، وكان معه حين أخرب هلاون بغداد وقتل الخليفة ، وكان هو أحد الأسباب لذلك ، عليه ما يستحق ، وكانت همة هلاون في تدبير المملكة وملك البلاد شيئا فشيئا حتى أباده الله تعالى في هذه السنة .

الثالث في هلاكه : مات في تاسع ربيع الآخر(1) من هذه السنة ، بالقرب من كورة مراغة بمرض الصَّرْع .

وقال ابن كثير : مات بمدينة مراغة . قيل : حملوه إلى قلعة تَلَا ودفنوه بها ، وبنوا عليه قبة ، وكان عزمه أن يجمع عساكره من البلاد ويقصد بلاد الشام ومصر ، ولكن الله أهلكه وأراح البلاد والعباد منه ، ولما بلغ السلطان الملك

(1) « في سابع ربيع الآخر » في البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤٥ .

الظاهر بيبرس خبر هلاكه فرح فرحا عظيما ، وعزم على جمع العساكر ليأخذ بلاد العراق ، فلم يتمكن من ذلك لتفرق العساكر (١) .

الرابع : فى مدة [٢٢٣] مملكته وبيان عددها وأولاده :

أما مدة مملكته فكانت نحو عشر سنين (٢) .

وأما بيان عدد مملكته : فإنها البلاد التى كانت بيد والده حال وفاته وهى :

إقليم خراسان وكرسيها نيسابور، ومن مدنها المشهورة : طوس وهراة وترمذ وبلخ .

وعراق العجم : وكرسيه أصبهان ، ومن مدنه قزوين وقم وقاشان وسهرورد وسجستان وطبرستان وكيلان وبلاد الإسماعيلية .

وعراق العرب : وكرسيه بغداد ، ومن مدنه واسط والكوفة والبصرة والدينور وغيرها .

وأذربيجان : وكرسيها تبريز ، ومن مدنها خوى وسلماس ونقجوان .

وخوزستان : وكرسيها ششتر ، ومن مدنها الأهواز وغيرها .

وبلاد فارس : ومدينتها شيراز ، ومن أعمالها كنشن وكرمان وكازرون والبحرين .

وديار بكر : وكرسيها الموصل ، ومن مدنها ميافارقين ونصيبين وسنجار واسعرد ورأس العين ودنيسر وحران والرها وجزيرة بنى عمر .

---

(١) انظر البداية والنهاية حيث ورد هذا الخبر ملخصا — جـ ١٣ ص ٢٤٥ .

(٢) «وكانت مدة ملكه منذ فتح بغداد سبع سنين وشهورا ، ومنذ وفاة أخيه منكوقان واستقلاله بالملك خمس سنين» — نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٩٣ .

وبلاد الروم : وكرسيها ، قونية ، ومدنها كثيرة .

وأما أولاده لخمسة عشر ذكرا[(١)] وهم :

جماغار[(٢)] : وهو أكبرهم سنا ، وأبغا : بالغين ويقال بالقاف ، ويصمت[(٣)] ، وتبشين[(٤)] ، وتكشى[(٥)] ، وتكدار[(٦)] وهو الذى يقال له أحمد ، وآجاى ، والاجو[(٧)] ، وسبوجى[(٨)] ، ويشودار[(٩)] ، ومنكوتمر ، وقنغرطاى[(١٠)] ، وطرغاى ، وطغاى ، وتمر[(١١)] وهو أصغرهم .

ولما هلك هلاون جلس موضعه أبغا بن هلاون .

---

(١) « كان لهولاكو خان أربعة عشر ولدا وسبع بنات » — جامع التواريخ ـ المجلد الثانى ـ الجزء الأول ص ٢٢٣ .

(٢) « جغار » فى نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٩٤ ، « جومقور » فى جامع التواريخ المجلد الثانى الجزء الأول ص ٢٢٣ ، وفيه أن جومقور هو الابن الثانى لهولاكو .

(٣) « يشموت » فى جامع التواريخ .

(٤) « تنشين » فى نهاية الأرب ، و « توسين » فى جامع التواريخ .

(٥) « بكشى » فى نهاية الأرب ، و « يكين » فى جامع التواريخ .

(٦) « تكدار » فى نهاية الأرب ، و « تاكودار » فى جامع التواريخ .

(٧) « مولاچو » فى جامع التواريخ .

(٨) « سباوجى أو شيادجى » — فى جامع التواريخ .

(٩) « يسودار » فى جامع التواريخ .

(١٠) « تنقرتاى » فى جامع التواريخ .

(١١) « طغاى تمر » فى نهاية الأرب ، وهو الابن الرابع عشر والأخير رغم أن النويرى ذكر فى البداية « وكان له من الأولاد الذكور خمسة عشر » جـ ٢٧ ص ٣٩٤ . وهو « طغاى تيمور » فى جامع التواريخ . بينما اعتبر العينى « طغاى » شخص ، وتمر شخص آخر . انظر تفصيل ذلك فى جامع التواريخ المجلد الثانى الجزء الأول ص ٢٢٣ — ٢٣١ .

ذكر جلوس أَبْغَا فى كرسى المملكة :

ولما استقر فى المملكة بعد وفاة والده هلاون ، جهز جيشا لحرب عساكر بركة خان ملك بلاد الدشت والجهة الشمالية ، وبركة هو ابن صاين خان بن دوشى خان بن جنكزخان ، وهو ابن عم هلاون ، ولما بلغ بركة ذلك جهز جيشا وقدم عليه بيشو نوغا (١) بن ططر بن مغـل بن دوشى خان بن جنكزخان ، فسار فى المقدمة ، ثم أردفه بركة بمقدم آخر اسمه يَسُنْتَاى (٢) فى خمسين ألف فارس ، فسبق بيشو نوغا فيمن معه ، وتقدم إلى عسكر أبغا وردفه يسنتاى على الأثر ، فاستشرفت عساكر أبغا على يسنتاى وهو مقبل فى سواده العظيم ، كقطع الليل البهيم ، فتكردسوا [٥٢٤] وتجمعوا للهزيمة فبصربهم يسنتاى ، وقد تخلفوا فظنهم أحاطوا بينوغا ومن معه ، فلم يلبث أن انهزم راجعا وفر مسارعا ، وأما نوغا فإنه تبع عسكر أبغا وساق عليهم ، واتقع معهم ، فكسرهم وقتل منهم جماعة وظفر بهم ، وعاد إلى بركة فعظم أمره وارتفع قـدره ، وقدمه بركة على عدة تماناوت ، وصـار معدودا فى الخانات ، وأما يسنتاى فعظم ذنبه عند (٣) بركة ، فكان منه ما سنذكره إن شاء تعالى ، والحمد لله وحده (٤) .

---

(١) « يبسوا نوغا » فى نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٦١ .

(٢) « بستاى » فى نهاية الأرب .

(٣) نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٦١ .

(٤) انظر جامع التواريخ المجلد الثانى الجزء الثانى جـ ١٣ وما بعدها .

رفع

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

فصل فيما وقع من الحوادث

فى السنة الرابعة والستين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة : هو الحاكم بأمر الله ، ولكنه غير مرجوع إليه ، ولا إليه الأمر والنهى ، وإنما هو باسم الخليفة .

وسلطان البلاد المصرية والشامية والحلبية : الملك الظاهر بيبرس .

وقضاة مصر أربعة من أربع مذاهب مستقلين كما ذكرنا .

ونائبه فى دمشق : الأمير جمال الدين أقوش النجيبى ، وقاضى القضاة الشافعية بها شمس الدين بن خلكان ، وقاضى القضاة الحنفية شمس الدين عبد الله ابن محمد بن عطا ، وقاضى القضاة المالكية زين الدين عبد السلام ابن الزواوى ، وقاضى القضاة الحنابلة شمس الدين عبد الرحمن بن الشيخ أبى عمر محمد بن أحمد ابن قدامة ، وكان هذا الصنيع لم يسبق إلى مثله وتجدد هذا فى دمشق فى هذه السنة ، وأما فى ديار مصر ففى السنة الماضية كما ذكرنا .

وقال أبو شامة : وفى سادس جمادى الأولى من سنة أربع وستين وستمائة (1) جاء من مصر من السلطان الملك الظاهر بيبرس الصالحى ثلاثة عهود لثلاثة من

(*) يوافق أولها الثلاثاء ١٣ أكتوبر ١٢٦٥ م .

(١) ورد هذا الخبر فى أحداث سنة ٦٦٣ هـ فى الذيل على الروضتين ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .

القضاة شمس الدين عبد الله بن محمد بن عطاء الحنفى(١)، وزين الدين عبد السلام(٢) ابن الزواوى المالكى وشمس الدين عبد الرحمن(٣) بن الشيخ أبى عمر الحنبلى، وجعل كل واحد منهم قاضى القضاة، كما هو المنصب لشمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن خلكان الشافعى، فلما وصلت العهود الثلاثة لم يقبل المالكى فوافقه الحنبلى واعتذرا بالعجز، وقبل الحنفى فإنه كان نائب الشافعى، فاستمر على الحكم، ثم ورد من مصر كتاب بإلزامهما ذلك وأخذ [٥٢٥] ما بيدهما من الأوقاف إن لم يفعلا، فأجابا، ثم أصبح المالكى فاشهد على نفسه بأنه عزل نفسه عن القضاء وعن الأوقاف، فترك، واستمر الحنبلى، ثم ورد الأمر بإلزامه، فقبل، واستمر الجميع، لكن امتنع المالكى والحنفى من أخذ جامكية على القضاء وقالا: نحن فى كفاية فأعفيا منها.

ومن العجيب اجتماع ثلاثة على ولاية قضاء القضاة فى زمن واحد ولقب كل واحد منهم شمس الدين، واتفق أن الشافعى منهم استناب أيضا من لقبه شمس الدين، فقال بعض الظرفاء:

أهل دمشق استرابوا من كثرة الحُكّام
إذ هم جميعا شموسٌ وحالهم فى ظلام

(١) «شمس الدين محمد بن عطاء الحنفى» — فى الذيل على الروضتين ص ٢٣٥، وهو تحريف، فهو عبد الله بن محمد بن عطاء بن حسن، شمس الدين الأذرعى الحنفى، المتوفى سنة ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م المنهل الصافى.

(٢) هو عبد السلام بن على بن عمر، زين الدين الزواوى، المتوفى سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م — المنهل الصافى.

(٣) هو عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة، شمس الدين أبو محمد الحنبلى، المتوفى سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ — المنهل الصافى.

وقيل أيضا :

بدمشق آية قـد ظهرت للنـاس عـاما
كلمـا ولى شمس قاضـ يا زادت (١) ظـلاما

وقيل أيضا :

أظـلم الشام وقـد ولى للحـكم شمـوس
ليس فيهـم من بيت (٢) الحكم [علما] (٣) أو يسوس (٤)

وصاحب بلاد الروم : السلطان ركن الدين قليج أرسلان .

وصاحب العراقين وغيرهما أبغا بن هلاون بن طلوخان بن جنكز خان .

وبقية أصحاب البلاد على حالهم .

ذكر سفر السلطان الملك الظاهر إلى جهة الشام :

وفى هذه السنة، قصد مولانا السلطان — رحمه الله — فتح صفد من أيدى الفرنج الكفار ، وما حولها من البلاد ، فتوجه إلى الشام ، واستناب بالقلعة الأمير عز الدين أيدمر الحلبي فى خدمة ولده الملك السعيد ، وكان خروجه من القاهرة مستهل شعبان ، ورحل فى ثالث الشهر ، ولما وصل إلى غزة جرد الأمير سيف الدين قلاون الألفى ، والأمير جمال الدين أيدغدى العزيزى ، لمنازلة الحصون التى حول طرابلس .

(١) « زاد » فى الذيل على الروضتين .

(٢) « بيت » فى الذيل على الروضتين .

(٣) [ ] إضافة من الذيل على الروضتين .

(٤) انظر الذيل على الروضتين ص ٢٣٥ — ٢٣٦ .

قال بيبرس فى تاريخه : فتوجها ، وأنا يومئذ أجراالجنيب مع المخدوم، يعنى قلاون .

فَتْحُ القُليعات وحَلْبَاء وعَرْقَا فى شعبان المكرم من هذه السنة :

قال بيبرس : ولما أشرفنا على القليعات ، سأل أهلها الأمان ، فآمنهم المخدوم ، يعنى قلاون ، وتسلم الحصن ، وحمل الأسرى المأخوذين منه على جمال [٥٢٦] أرسلها السلطان إليه ، وحمل بهم على جسر يعقوب بحيث يراهم أهل صفد ، فانقطعت قلوبهم خوفا وفرقا ، وشاهدوا أصحابهم على تلك الحال ، والعساكر تسوقهم مصفدين على الجمال ، فأيقنوا بالتلف ، هذا والسلطان قد نازلهم ، فانضم هذا العسكر إليه ، واجتمعوا لديه .

فتح صفد :

فى تاسع عشر رمضان منها ، أعنى من سنة أربع وستين وستمائة ، ونزل السلطان الملك الظاهر على صفد فى الثامن من شهر شعبان[1] ، وقد جمع لحصارها العساكر المصرية والشامية ، وأحضر إليها المجانيق ، فحملتها الرجالة على أعناقهم وحاصرها حصارا شديدا ، وأخذت النفوس ، واستمر القتال ، فسلموا الباشورة فى خامس عشر الشهر ، واشتد على الفرنج الحصار ، وامتد للمسلمين الإستظهار ، فأرسلوا فى طلب الأمان ، فأجيبوا إليه فى تاسع عشر الشهر[2] ، وفتحت أبوابها ، وطلعت عليها السناجق ، وتسلمها السلطان ، وأخرج أهلها ، وأمر بأن يجمعوا

(١) « فى ثامن شهر رمضان المعظم » فى كنز الدرر جـ ٨ ص ١١٦ .

(٢) « فلما كان يوم الجمعة ثامن عشر شوال طلعت السناجق المنصورة السلطانية على الأسوار » فى كنز الدرر جـ ٨ ص ١١٧ .

على تل هناك كانوا يجتمعون فيه لقطع الطريق على المسلمين ، وأن تسفك دماؤهم حيث كانوا يسفكون الدماء الحرام ، فأذيقوا هنالك طعم الحمام .

وتقل السلطان إليها ما يحتاج إليه من الآلات والزردخانات ، وأحضر جماعة من الرجالة الدمشقيين ، فرتبهم بها ، وقرر لهم الجامكيات والجرايات ، ورتب للقلعة كفايتها من النفقات ، وعمر فيها جامعا فى ربضها للصلوات ، ورحل عنها متوجها إلى دمشق ودخلها فى الخامس من ذى القعدة وأقام بها .

ذكر غزاة سيس :

ولما استقر ركاب السلطان فى دمشق جرد العساكر للإغارة على سيس ، صحبة الملك المنصور صاحب حماة ، وقدم على العسكر الأمير سيف الدين قلاون ، والأمير عز الدين يوغان الركنى سم الموت ، فساروا ودخلوا دربساك[1] ، ومنه إلى الدربند[2] ، وكان الملك « ... ... »[3] هيثوم بن قسطنطين بن باساك قد ملك ولده ليفون وانقطع مترهبا ، وبنى ليفون أبراجا ليتمنع بها ، فكانت كقول الشاعر :

[٥٢٧]

وإن يَبْنِ حيطانًا عليه فإنما أولئك عقالاته لا مَعاقِله[4]

ولما خرجت العساكر من الدربند ، وجدوا الأرمن على سطح الجبل ، قد صفوا الصفوف ، واستعدوا للوقوف ، بل للحتوف ، فالتقوا معهم ، وصدموهم

(١) دربساك = دربساك : حصن شمال غرب أنطاكية — معجم البلدان .

(٢) الدربند : لفظ فارسي بمعنى المضايق والطرقات ، والمعابر الضيقة ، والمقصود هنا الطرق المؤدية إلى سيس — السلوك جـ ١ ص ٥٥١ هامش (٢) .

(٣) موضع كلمة غير مقروءة ، وهى صفة للملك هيثوم .

(٤) الروض الزاهر ص ٢٧٠ .

صدمة كانت الكسرة فيها عليهم ، وأخذوا ليفون أسيروا وولده معهم ، وقتلوا عمه وأخاه، وانهزم عمه الآخر المسمى كنداسطيل، وصاحب حوص[1]، وتمزقت منهم جماعة ، وقتلت أكابرهم ، وأغارت العساكر على كرنجبل وسرفندكار ، وتل حمدون ، ونهرجان ، ونزلوا من هنالك إلى مكان قريب من قلعة تسمى العمودين[2]، فأصابوا جماعة كثيرة من التتار وغيرهم، وقتلوا ما شاء الله منهم، وسبوا سباياهم، وأخربوا القلعة وأحرقوها ، ودخلوا إلى سيس فأخربوها، وتركوها خاوية على عروشها ، وهدموا قلعة الديوية المعروفة بالساب ، وغنمت العساكر فى هذه الغزاة ما لا يحصى كثرة، وبيع الرأس البقر بدرهمين لكثرة المواشى التى أصابوها ، وأرسلوا إلى السلطان يخبرونه بالنصرة، ويبشرونه بأن له الظفر ولأعدائه الكسرة .

وكان الذى بعث به الأمير عز الدين سم الموت جنديا من أجناده اسمه كربجى، فسبق إلى الدهليز، وبشر السلطان وعرفه صورة الغزاة وكيفية الغارات ، فرأى فيه شهامة ، ولمح منه نقمة وصرامة ، فسأله عن شأنه فأخبره أنه من أجناد الأمير المشار إليه ، فأنعم عليه وأمره بطبلخاناة ، ولم يزل مستمرا على الإمرة إلى حين وفاته فى الدولة الأشرفية .

ذكر رحيل السلطان من دمشق :

ولما سمع السلطان من الجندى المذكور بشارة الفتح رحل من دمشق نحو

---

(١) حوص = حيص : قلعة حصينة بالقرب من قصر جوهان — تقويم البلدان ص ٢٥١ ، صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٢٧ .

(٢) قلعة العمودين : قلعة حصينة للداوية بأرمينية الصغرى — الروض الزاهر ص ٢٧٠ ، السلوك جـ ١ ص ٥٢٢ ، تقويم البلدان ص ٢٦٢ .

حماة ، ومنها إلى أفامية لملتقى العسكر، وعاد ودخل دمشق، وملوك الأرمن قدامه راكبين،وأمراهم مساقين أمامه،والعساكر الشامية والمصرية قد طلبت وتجملت .

وقال أبو شامة : وكان دخول السلطان دمشق فى الخامس والعشرين من ذى الحجة ، فدخلها و بين يديه ابن صاحب سيس ، وسائر الملوك الذين أسرهم لما أخذ [٥٢٨] بلادهم على نهر جيحان ، وكان يوما مشهودا(١) .

قال أبو شامة : وفى بكرة يوم الاثنين السادس والعشرين من ذى القعدة قرئ بجامع دمشق كتاب ورد من بلاد الأرمن السيس ومايجاورها، يتضمن أن المسلمين من عسكر صاحب الشام ومصر الملك الظاهر بيبرس الذين سيرهم إليها فى هذه السنة دخلوها عنوة، واستولوا عليها قتلا ونهبا ، وأُسِرَ ملكها،وقتل أخوه وجماعة من ملوك الأرمن ، وكان ذلك يوم الثلاثاء العشرين من ذى القعدة سنة أربع وستين وستمائة ، وكان هذا الملعون قد فتك فى المسلمين، وظاهر عليهم العدو من التتار، وعمل فى حلب لما فتحها التتار أمورا منكرة ، واستولى على أكثر نسائها وأطفالها أسرا ، وتقدم إلى بلاد الإفرنج والروم برا وبحرا تحت الذل والصغار ، فأمكن الله منه ومن بلاده وأخذ بثأر الاسلام(٢) .

ذكر إيقاع السُلطان بأهْل قارَا :

لما خرج السلطان من دمشق للقاء العسكر المجرد إلى سيس نزل على قارا(٣) ، فشكى إليه أهل الضياع التى حولها أن أهلها يعدون عليهم ، ويتخطفونهم ،

(١) لم ترد أحداث سنة ٦٦٤ هـ فى كتاب الذيل على الروضتين المطبوع بين أيدينا . انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤٧ .
(٢) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤٧ .
(٣) قارا : قرية على الطريق من دمشق إلى حمص ــ معجم البلدان .

ويبيعون من وقع لهم إلى الفرنج بحصن عكار، فأمر العسكر بنهبهم، فنهبوا، وقتل كبارهم، وسبي نساؤهم وصغارهم.

قال أبو شامة: وفى رابع ذى الحجة من سنة أربع وستين وستمائة، أوقع السلطان الظاهر بأهل قارا النصارى، فقتل وسبي وغنم، وكانوا كما شاع عنهم يأخذون من قدروا عليه من المسلمين، ويصبحون بهم الى بلاد الفرنج، وكان بعض الأسارى الذين خلصوا من قلعة صفد أخبروا أن سبب وقوعهم فى الأسر أهل قارا، ففعل السلطان بهم ذلك.

ذكر توجه السلطان إلى مصر:

ولما فرغ شغله فى دمشق خرج منها، وفارق العسكر على الدرب، وتوجه جريدة إلى الكرك، وعاد منها إلى الديار المصرية، فتقنطر عن فرسه قريبا من زيزا فأقام هناك أياما، وركب محفة فى الطريق بسبب ألم تألم فى وركه، ولما وصل إلى مسجد التبر، الذى تقوله العامة مسجد تبن، لم يرد أن يدخل إلى القاهرة على تلك الحال، فأقام ليالى إلى أن صح وركه، وزال وعكه، وطلع القلعة ممتطيا صهوة جواده، مكمدا [٥٢٩] قلوب حُسّاده، ففك عن ليفون ابن صاحب سيس قيده وأحسن إليه، وأخذه صحبته وتوجه لرمى البندق ببركة الجب، وكتب له موادعة على بلاده.

وقال ابن كثير رحمه الله: وطلب صاحب سيس أن يفادى ولده من السلطان فقال: لا نفاديه إلا بأسير لنا عند التتار(١) يقال له: سنقر الأشقر، فذهب

(١) «النصارى» فى الأصل، والتصحيح من البداية والنهاية، ومما يلي.

صاحب سيس إلى ملك التتار ، فتذلل له وتخضع حتى أطلق له سنقر الأشقر ، فأطلق السلطان ابن صاحب سيس .(١)

ذكر بقية الحوادث :

منها : أنه قدم ولد الخليفة المستعصم بن المستنصر بن الظاهر بن العباسى واسمه علىّ إلى دمشق ، وأنزل بالدار الأسديه(٢) تجاه المدرسة العزيزية(٣) ، وقد كان أسيرا فى أيدى التتار ، فلما كسر بركة خان لهلاون تخلص منهم وصار إلى ههنا(٤) .

ومنها : أن السلطان أمر بإراقة الخمور وإبطال المنكرات ، وتعفية آثار المسكرات ، ومنع الخانات والخواطى بجميع أقطار مملكته بمصر والشام .

ومنها : أنه عُقِد عَقْد الأمير سيف الدين قلاون الألفى على ابنة سيف الدين كرمون التترى الوافد ، وهى والدة الملك الصالح علاء(٥) الدين على ، وكان يوما مشهودا ، وحضر السلطان ، وجلس على الخوان(٦) ، وكان ذلك فى الدهليز بسوق الخيل(٧) .

---

(١) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤٧ .

(٢) الدار الأسدية = المدرسة الأسدية بدمشق ، أنشأها أسد الدين شيركوه الكبير المتوفى سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨ م ، وجعلها للشافعية والحنفية ـ الدارس جـ ١ ص ١٥٢ وما بعدها .

(٣) المدرسة العزيزية بدمشق : تنسب إلى الملك العزيز عثمان بن السلطان صلاح الدين الأيوبى ، والمتوفى سنة ٥٩٥هـ/١١٩٨م ـ الدارس جـ ١ ص ٣٨٢ وما بعدها .

(٤) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤٧ .

(٥) مات فى حياة والده سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م ـ المنهل الصافى .

(٦) « الأخوان » فى الاصل .

(٧) سوق الخيل : تحت قلعة الجبل بالقاهرة ـ انظر المواعظ والإعتبار .

قال بيبرس : وقدم السلطان للأمير قلاون تقدمة من خيل، وتعابى قماش وأربعة من المماليك السلطانية ، فقبل التقدمة ، واستعفى من قبول المماليك ، وقال هؤلاء خوشداشيتي في خدمة السلطان ، وشكر ما أولاه من الإحسان ، وقدم كل أمير من الأمراء ثلاثة أروس خيلا وثلاث بقج قماشا .

ومنها : أنه وصلت رسل الأنبرور ، والفرنش[1] ، وملوك الفرنج ، واليمن ، بالهدايا إلى صاحب الإسماعيلية ، فأمر السلطان بأن تؤخذ الحقوق الديوانية من هذه المراكب إفسادا لنواميس الاسماعيلية ، وتعجيزا لمن اكتفى شرهم بالهدية[2] .

ومنها : أنه جمع، البرنس بيمند بن بيمند صاحب طرابلس جماعة من الديوية والاسبتار، وقصد مخاضة [٥٣٠] بلاله ، طالبا جهة حمص ، وكان النائب بها الأمير علم الدين سنجر الباشقردى[3] ، فبلغه الخبر ، فسبق الفونس إلى المخاضة فلما داناها عدت العساكر ، بجر ذيول الهزائم ، وكان يأمل أملا، فخاف ، وقنع من الغنيمة بالإياب .

ومنها : أن السلطان رسم بعمارة مراكب بدمشق وحملها إلى البيرة ، فعمرت وحملت إليها .

ومنها : أنه رسم ببناء جسر على الشريعة[4]، وكان ماؤها قوى التيار، فاقتضت

---

(١) هكذا بالأصل ، والسلوك، ولعل المقصود البرنس صاحب طرابلس — انظر السلوك جـ ١ ص ٥٤٣ هامش (١) ، انظر ما يلى .

(٢) السلوك جـ ١ ص ٥٤٣ .

(٣) توفى سنة ٦٨٦ هـ / ١٢٨٧ م — المنهل الصافى .

(٤) الشريعة = نهر الشريعة .

سعادته أن جاء سيل كثير فحدر صخورا كبارا فصارت كالسكر (١) ، فوقفت جرية الماء وبنى الجسر .

ومنها : أنه بلغه أن خليج الأسكندرية قد ارتدم فتوجه بنفسه لحفره .

ومنها : أنه رسم لمتولى قوص وهو علاء الدين الخزندار بأن يتوجه إلى سواكن (٢) ، ويساعد تجار الكارم على المجبئ ، ويروع علم الدين اسلبغانى صاحبها عن التعرض إليهم ، فتوجه وصحبته عدة مراكب ، وجهز إليه من القصير خمسة « ... ... » (٣) فيهم الرجال المقاتلة ، فدخلها وفعل مارسم له وعاد .

ومنها : أنه أمر بجمع أهل العاهات فجمعوا بخان السبيل ، وأمر بنقلهم إلى الفيوم ، وأفرد لهم بلدا ليكونوا فيه ، ويجرى عليهم ما يحتاجون إليه ، فلم يستقروا وتفرقوا ، وعاد أكثرهم إلى القاهرة ومصر .

ومنها : أن الأمير شكال بن محمد أرسل إلى الأمير عز الدين جماز (٤) أمير المدينة النبوية وطلب العدا من بلاده ، فامتنع ، ودافع ، فحضر شكال إلى بنى خالد

---

(١) سكر النهر : أى جعل له سدا ــ القاموس .

(٢) سواكن : ميناء مشهور على ساحل البحر الأحمر ، يتبع حاليا جمهورية السودان ــ معجم البلدان .

(٣) « ... » موضع كلمة غير مقروءة ، ويدل السياق على أنها سفن حربية بحرية .

(٤) هو جماز بن شيحة بن هاشم بن قاسم ، عز الدين ، أبو سند ، الحسينى ، ولى إمارة المدينة سنة ٦٥٧هـ/١٢٥٩م ، وتوفى سنة ٧٠٤هـ/١٣٠٤م ــ التحفة اللطيفة جـ ١ ص ٢٣٤ رقم ٧٩٢ .

واستعان بهم عليه ليحاربه ، فخاف وأرسل إلى السلطان مذعنا ملتزما القيام بحقوق الله واستخراجها من قومه .

وفيها : « ... ... »(١)

وفيها : « ... ... »(٢)

(١) ، (٢) « ... ... » بياض في الأصل .

ذكر مَنْ تُوفى فيها من الأعيان

الشيخ المعمَّر أبو بكر بن إبراهيم الشيبانى البغدادى الصوفى بخانقاه سعيد السُّعداء .

مات فى ليلة الثانى عشر من ذى القعدة بالقاهرة ، ودفن من الغد بسفح المقطم .

ذكر أنه ولد فى سنة إحدى وخمسين وخمسمائة ، وكان شيخا صالحا وصوفيا حسنا من أكابرهم المعروفين ، كتب عنه .

الشيخ بهاء الدين ابو المواهب الحسن(١) بن عبد الوهاب بن الشيخ أبى الغنائم سالم بن الشيخ أبى المواهب الحسن بن هبة الله بن [٥٣١] محفوظ بن الحسن ابن محمد بن الحسن بن أحمد بن الحسين بن صصرى التغلبى الدمشقى .

مات فى الرابع من صفر من هذه السنة بدمشق ، ومولده سنة ثمان وتسعين وخمسمائة تخمينا ، سمع من الكندى وغيره ، وحدث بدمشق والقاهرة .

الشريف النقيب أبو الحسن(٢) على بن الحسين بن محمد بن الحسين بن زيد بن الحسن بن محمد بن ظفر الحسينى الأرموى الأصل المصرى المولد والدار .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ٣٧ ، العبر جـ ٥ ص ٢٧٧ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣١٦ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ٣٠٥ .

مات في ليلة الحادي والعشرين من صفر منها بالقاهرة، وتولى نقابة الأشراف بمصر مدة ، ومولده سنة ثلاث وستمائة بمصر سمع من شيخ الشيوخ أبي الحسن علي بن عمر بن حمويه وحدث .

الشيخ المعمر أبو علي بن منصور بن ذبيان بن طلائع الإسكندراني المالكي .

مات في السادس من شهر ربيع الأول بالقاهرة ، ودفن بسفح المقطم، وقد نيف على المائة ، كتب عنه .

الشيخ الصالح أبو الحجاج يوسف(١) بن صالح بن صارم بن مخلوف الأنصاري الخزرجي القوصي المنعوت بالنور .

مات في العشر الأوسط من شهر ربيع الأول بمدينة قوص من صعيد مصر الأعلى ، في عوده من الحج ، سمع وحدث ، وكان شيخا صالحا حسن الطريقة ، ومولده في الخامس والعشرين من ذي الحجة سنة سبع(٢) وتسعين وخمسمائة .

الشيخ الأصيل أبو عبد الله محمد(٣) بن الشيخ أبي الطاهر منصور بن الحضرمي الصقلي الأصل الأسكندراني المولد والدار ، المالكي العدل بالإسكندرية .

مات بالأسكندرية في العشرين من جمادى الأولى ، وهو من بيت الحديث ، حدث هو وأبوه وجده ، وجد أبيه ، وجد جده خمسة منهم على نسق .

الأمير شهاب الدين أبو الجود جلدك بن عبد الله الرومي الفائزي .

---

(١) وله أيضا ترجمة في « الطالع السعيد ص ٧٢١ رقم ٥٧٢ » .

(٢) « تسع » في الطالع السعيد .

(٣) وله أيضا ترجمة « درة الأسلاك ص ٢٧ » ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ٣٥٦ .

مات فى السابع عشر من شوال منها بالقاهرة ، ودفن بالقرافة ، وتولى عدة ولايات ، وقال الشعر الحسن ، وحدث بشيء من شعره .

الأمير جمال الدين أيدغدى[1] بن عبد الله العزيزى .

كان من أكابر الأمراء وأحظاهم عند السلطان الملك الظاهر بيبرس ، لا يكاد يخرج عن رأيه ، وهو الذى [٥٣٢] أشار عليه بولاية القضاء من كل مذهب على سبيل الاستقلال .

وكان رحمه الله متواضعا ، لا يلبس محرمًا ، كريمًا ، وفورا ، رئيسا ، معظما فى الدول ، أصابته جراحة فى حصار صفد ، ولم يزل ضعيفا منها حتى مات ليلة عرفة ، ودفن بالرباط الناصرى بسفح جبل قاسيون ، وكان سمع وحدث .

(١) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ٣٧ ، المنهل الصافى جـ ٣ ص ١٥٩ رقم ٥٩٥ ، الوافى جـ ٩ ص ٤٨٤ رقم ٤٤٤٦ ، العبر جـ ٥ ص ٢٧٧ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤٨ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣١٥ ، السلوك جـ ١ ص ٥٥٤ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤٨ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٢١ .

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

فصل فيما وقع من الحوادث

في السنة الخامسة والستين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة هو : الحاكم بأمر الله .

وسلطان البلاد المصرية والشامية : الملك الظاهر ، ونائبه بدمشق : الأمير جمال الدين أقوش النجيبي (1) ، وبحلب : نور الدين على الهكاري (2) ، وبحماة : الملك المنصور (3) .

وكان أول السنة يوم الأحد (4) ، وفي اليوم الثاني خرج السلطان من دمشق إلى مصر ، وقد ذكرنا أنه أرسل العساكر بين يديه إلى غزة ، وعدل هو إلى

(*) يوافق أولها السبت ٢ أكتوبر ١٢٦٦ م — التوفيقات الإلهامية ، وانظر ما يلي هامش (٤) .

(١) هو أقوش بن عبد الله النجيبي الصالحي ، الأمير الكبير جمال الدين ، المتوفى سنة ٦٧٧ هـ/ ١٢٧٨ م — انظر ما يلي .

(٢) هو علي بن عمر بن مجلي الهكاري ، الأمير نور الدين ، المتوفى سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م — انظر ما يلي .

(٣) هو محمد بن محمود بن محمد بن عمر شاه بن أيوب ، الملك المنصور أبو المعالي ناصر الدين ، المتوفى سنة ٦٨٣ هـ/ ١٢٨٤ م — انظر ما يلي .

(٤) « الأحد ثاني المحرم » — البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٤٨ ; وفي التوفيقات الإلهامية ص ٣٣٣ :

ناحية الكرك[1] لينظر في أحوالها ، ولما وصل إلى القاهرة واستقر ركابه فيها نظر في أمور الناس .

ثم في ثامن عشر ربيع الأول[2] نزل السلطان إلى الجامع الأزهر وصلى فيه الجمعة ، ولم تكن تقام فيه الجمعة من زمن العُبيديين[3] إلى هذا الحين ، وهو أول مسجد وضع بالقاهرة ، بناه جوهر القائد ، وكان تقام فيه الجمعة إلى أن بنى الحاكم جامعه فحول إليه الجمعة وترك الأزهر[4] ، فأمر السلطان بعمارته وبياضه وإقامة الخطبة فيه ، وكان فراغ جوهر القائد من بنائه في سنة إحدى وستين وثلاثمائة في خلافة المعز بن المنصور بعد بناء القاهرة بثلاث سنين ، ويقال إن به طلسما لا يسكنه عصفور ولا يفرخ به ، واستمرت إقامة الجمعة فيه إلى يومنا هذا .

وقال بيبرس في تاريخه[5] : وقد كانت انقطعت الخطبة فيه مدة تناهز مائة سنة ، فأراد الله إعادتها للإمام الحاكم والملك الظاهر .

---

(١) الكرك : قلعة حصينة جدا في أطراف الشام ، نواحى البلقاء ، بين أيلة والقلزم ، على سن جبل عال — معجم البلدان .

(٢) « ثامن شهر ربيع الأول » في الروض الزاهر ص ٢٧٧ ، « وفى ثانى عشر ربيع الأول » في البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤٨ ، « ثامن عشر ربيع الآخر » في السلوك جـ ١ ص٥٥٦ ، ولا يوافق يوم جمعة إلا ما ورد بالمتن وفقا للتوفيقات الإلهامية ، ويؤيده ما ورد في المواعظ والإعتبار جـ ٢ ص ٢٧٥ .

(٣) نسبة إلى عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين بالمغرب ، وقد سقطت الدولة الفاطمية — بالقاهرة على يد صلاح الدين الأيوبى في أول المحرم سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١ م .

(٤) عن الجامع الأزهر وجامع الحاكم وتحول الخطبة — انظر المواعظ والإعتبار جـ ٢ ص ٢٧٣ ، ٢٧٧ .

(٥) يوجد خرم في نسخة زبدة الفكرة جـ ٩ الموجودة بين أيدينا من أثناء حوادث سنة ٦٦٣ هـ ، وحتى ذكر فتوح حصن الأكراد في شعبان سنة ٦٦٩ هـ ، وذلك فيما بين الورقة ٧١ ب ، ٧٢ أ — انظر الجزء الأول من عقد الجمان ص ٤٠٢ ، وما يلي « ذكر فتح حصن الأكراد » في حوادث سنة ٦٦٩ هـ .

ثم وصل الملك المنصور صاحب حماة إلى خدمة السلطان بالديار المصرية ، ثم طلب منه الدستور(١) بأن يتوجه إلى الإسكندرية ليتفرج فيها ، فرسم له بذلك، وأمر لأهل الإسكندرية بإكرامه واحترامه ، وفرش الشقق(٢) بين يدى فرسه ، فتوجه إليها وتفرج، ثم عاد إلى الديار المصرية مكرما محترما، ثم خلع عليه السلطان وأحسن إليه على جارى عادته ، ورسم له بالعود [٥٣٣] إلى بلده ، فعاد .

وقال بيبرس : وتوجه الملك المنصور إلى العباسة(٣) أيضا صحبة السلطان للصيد ، وعاد صحبته ، ثم سافر إلى محل ولايته .

ذكر توجه الملك الظاهر إلى ناحية الشام :

وفى هذه السنة توجه السلطان إلى الشام فى بعض أمرائه ، وأراح بقية العساكر بالديار المصرية ، وسار إلى صفد ، فلما وصلها بلغه أن طائفة من التتار على عزم قصد الرحبة(٤) ، فرتب أمر عمارة صفد وسار إلى دمشق مسرعا(٥) ، فورد الخبر برجوع التتار(٦) عن قصد الرحبة ، فأقام بدمشق خمسة أيام ، ثم عاد إلى جهة

(١) الدستور = الدساتير : فارسية ، من معانيها الإجازة أو الإذن — المنجد .

(٢) الشقة = الشقق : قطعة من قماش الكتان أو شعر الماعز — صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٠٩ .

(٣) العباسة : بفتح أوله وتشديد ثانيه — بلدة فى الطريق من مصر إلى الشام تبعد عن القاهرة نحو ٧٥ كم ، أصبحت منذ عهد الملك الكامل الأيوبى متنزها فقد كان يكثر الخروج إليها للصيد لأن إلى جانبها مما يلى البرية مستنقع ماء يأوى إليها طير كثير — معجم البلدان .

(٤) الرحبة : على شاطىء الفرات بين الرقة وبغداد — معجم البلدان .

(٥) « فوصل إلى دمشق رابع عشر رجب » — الروض الزاهر ص ٢٨٠ ، السلوك جـ ١ ص ٥٥٨ .

(٦) هكذا فى الأصل ، وفى الروض الزاهر ص ٢٨٠ ، ورورد فى السلوك « وجاء الخبر بقدوم التتار إلى الرحبة » — جـ ١ ص ٥٥٨ .

صفد وحفر خندقا حول قلعتها ، وعمل فيه بنفسه وأمرائه وجيشه ، وأمر بعمارة سور صفد وقلعتها وأن يكتب عليها : ﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾[1] : ﴿ أولئك حزب الله ألا إن حزب الله هم المفلحون ﴾[2] .

وقال أبو شامة : وفي شهر رجب حفر السلطان الظاهر بيبرس خندقا لقلعة صفد ، وعمل فيه بنفسه وعسكره ، وفي بعض تلك الأيام بلغه أن جماعة من الفرنج بعكا تخرج منها غدوة وتسقى ظاهرها إلى ضحوة ، فسرى ليلة ببعض عسكره فكمن لهم في تلك الأودية ، فلما أبعدوا عن عكا خرج عليهم من ورائهم فقتل وأسر ، وضربت البشائر بدمشق بذلك[3] .

وقال بيبرس : وفيها وصل إلى السلطان رسل الإفرنج وأجابوا إلى المناصفة في صيدا ، وهدم الشقيف[4] ، وكان قد بلغه أنهم أغاروا على مشغرا ، فأنكر عليهم وأقيموا بين يديه قياما مزعجا ، ثم ركب وشن الغارة على عكا ، وعمل اليزك[5] على

---

(١) سورة الأنبياء رقم ٢١ آية رقم ١٠٥ .

(٢) سورة المجادلة رقم ٥٨ جزء من الآية رقم ٢٢ .

(٣) لم يرد هذا الخبر في الذيل على الروضتين المطبوع .

(٤) الشقيف = شقيف أرنون : بفتح أوله وكسر ثانيه ، قلعة حصينة جدا في كهف من الجبل قرب بانياس - معجم البلدان .

(٥) اليزك : طلائع الجيش - صبح الأعشى جـ ١٠ ص ١١٤ .

أبوابها ، وقطع الأشجار ، وأحرق الثمار ، وهدم طاحونا لبيت الاسبتار يسمى طاحون كردانة .

وكان أهل صور قد قتلوا شخصا من مقدمي رجال الصُّبَيْبَة يسمى السابق(1) شاهين ، فقرر عليهم ديته خمسة عشر ألف دينار صُورِيّة وسألوا الصلح ، فأجابهم ، وكتبت هُدْنة لمدة عشر سنين لصور وبلادها وهي تسعة وتسعون قرية(2) ، وقررت الهدنة مع بيت الاسبتار على حصن الأكراد والمرقب(3) .

[٥٣٤] واستقرت قاعدة الصلح مع صاحبة بيروت ، فإن أخاها كان قد غدر بمركب الأتابك فيه جماعة من التجار كانوا متوجهين إلى قبرس ، فطالبهم السلطان بمال التجار ، فالتزموا به ، والتزموا إطلاق التجار ، وتقرر الصلح .

وفيها : تنازع الشريف عز الدين جماز(4) بن شيحة و بدر الدين مالك(5) بن منيف ابن شيحة بن أخيه على نصف المدينة النبوية ، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، فحضر مالك بن منيف إلى الأبواب السلطانية على صفد مستصرخا ،

---

(1) « صفد » في الأصل ، والتصحيح من الروض الزاهر ص ٢٨٢ ، السلوك جـ ١ ص ٥٥٨ .

(2) « لصفد » في الأصل .

(3) المرقب : بالفتح ثم السكون : بلد وقلعة حصينة تشرف على ساحل بحر الشام وعلى مدينة بانياس — معجم البلدان .

(4) هو جماز بن شيحة بن هاشم بن قاسم بن مهنا ، الشريف عز الدين الحسيني ، المتوفى سنة ٧٠٤ هـ / ١٣٠٤ م — المنهل الصافي ، العقد الثمين جـ ٣ ص ٤٢٩ رقم ٩٠٩ ، التحفة اللطيفة جـ ١ ص ٤٢٣ رقم ٧٩٢ .

(5) « ملك بن منيف » في السلوك جـ ١ ص ٥٦٠ .

وهو مالك بن منيف بن شيحة ، الروض الزاهر ص ٢٨٤ ، وانظر المنهل الصافي جـ ٤ ص ١٩٣ — ١٩٤ .

فكتب له السلطان كتابا إلى عمّه يردّ المصحف الذي كان بيد أبيه إليه ، فتقرر الاتفاق بينهما .

ومن غريب ما يُحكى ما قاله ابن كثير : وحكى القاضي شمس الدين بن خلكان فيما نقل بخطه عن خط الشيخ قطب الدين اليُونيني قال : بلغنا أن رجلا بدير أبي سلامة(١) من ناحية بُصرى(٢) ، وكان فيه جنون وعنده استهتار(٣) ، فذكر عنده السواك وما فيه من الفضيلة فقال : والله لا أستاك إلا في المخرج ، [يعني دبره(٤)] فوضع سواكا في مخرجه [ثم أخرجه(٥)] ، فمكث [بعده(٦)] تسعة أشهر [وهو يشكو من ألم البطن والمخرج(٧)] ، ووضع ولدا على صفة الجرذان(٨) ، له أربعة قوائم ورأسه كرأس السمكة وله دبر كالأرنب ، ولما وضعه صاح ذلك الحيوان ثلاث صيحات ، فقامت إليه ابنة ذلك الرجل [فرضخت(٩)] رأسه فمات ، وعاش الرجل بعد وضعه له يومين ، ومات في الثالث ، وكان يقول : هذا الحيوان قتلني وقطع أمعائي ، وقد شاهد ذلك جماعة من أهل تلك

(١) « أن رجلا يدعى أبا سلامة » — في البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤٩ .

(٢) بصرى : بالضم والقصر ، المقصودة هنا من أعمال دمشق ، وهي قصبة كورة حوران — معجم البلدان .

(٣) « كان فيه مجون واستهتار » في البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤٩ .

(٤) ، (٥) ، (٦) ، (٧) [ ] إضافة من البداية والنهاية .

(٨) « الجرذون » في الأصل ، والتصحيح من البداية والنهاية .

(٩) [ ] بياض في الأصل ، والتكملة من البداية والنهاية .

الناحية ، وخطيب المكان[1] ، ومنهم من رآه حيًا[2] قبل أن يموت ، ومنهم من رآه بعد موته[3] .

وفيها : « ... ... »[4] .

وفيها : حج بالناس « ... ... »[5] .

(١) « وخطباء ذلك المكان » فى البداية والنهاية .

(٢) « ومنهم من رأى ذلك الحيوان حيا » — البداية والنهاية .

(٣) انظر البداية جـ ١٣ ص ٢٤٩ ، وانظر أيضا شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣١٧ .

(٤) (٥) « ... ... » بياض فى الأصل .

ذكر مَنْ تُوفى فيها من الأعيان

قاضي القضاة بالديار المصرية تاج الدين عبد الوهاب بن خلف بن بدر العَلاَّمي (١) المصري ، الفقيه الشافعي المعروف بابن بنت الأعز .

تفقه على مذهب الشافعي ، وسمع وحدَّث ، ووُزِّر لغير واحد من الملوك وتقدَّم عندهم ، وكان ديِّنًا عفيفًا نزهًا ، لا تأخذه في الله لومة لائم ، ولا يقبل [٥٣٥] شفاعة أحد ، وجُمع له قضاء الديار المصرية بكمالها ، والخطابة ، والحسبة ، ومشيخة الشيوخ ، ونظر الأحباس (٢) ، وتدريس الشافعي ، والصالحيَّة (٣) ، وإمامة الجامع ، وكان بيده خمس عشرة وظيفة ، وباشر الوزارة في بعض الأوقات ، وكان السلطان يُعظمه ، والوزيرُ ابن الحِنَّا (٤) يخاف منه كثيرا وكان يُحِبُّ أن ينكبه عند السلطان فلا يستطيع ذلك .

---

(١) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٢٢ ، العبر جـ ٥ ص ٢٨١ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤٩ — ٢٥٠ ، السلوك جـ ١ ص ٥٦١ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣١٩ .

(٢) نظر الأحباس ؛ تطور مدلول لفظ الأحباس في العصر المملوكي ، انظر : الأوقاف والحياة الاجتماعية ص ١٠٧ وما بعدها .

(٣) المدرسة الصالحية بالقاهرة ، أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب ، بدئ في بنائها سنة ٦٣٩هـ/١٢٤٠م ، المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٧٤ .

(٤) هو علي بن محمد بن سليم ، الصاحب بهاء الدين أبو الحسن بن حنا ، المتوفى سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٨م — انظر ما يلي .

وكان مولده في سنة أربع وستمائة ، وتوفي في ليلة السابع والعشرين من شهر رجب من هذه السنة بالقاهرة ، ودفن من الغد بسفح المقطم ، وكانت جنازته مشهودة ، وتولى بعده القضاء تقي الدين بن رزين (١) .

أبو شامة ، الشيخ شهاب الدين عبد الرحمن (٢) بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان ابن أبي بكر بن عباس ، أبو محمد وأبو القاسم ، المقدسي ، الشيخ الصالح الإمام العلامة الحافظ المحدث المقرئ ، الفقيه الشافعي المعروف بأبي شامة .

شيخ دار الحديث الأشرفية (٣) ، وتدريس الركنية ، وصاحب المصنفات المفيدة منها : مختصر تاريخ دمشق ، وشرح الشاطبية ، وكتاب البعث والإسراء ، وكتاب الروضتين في الدولتين النورية والصلاحية ، وله الذيل على ذلك ، وغير ذلك .

وُلد ليلة الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الآخر سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، وتفقه على الفخر بن عساكر (٤) ، وابن عبد السلام (٥) ، والشيخ سيف الدين الآمدي (٦) ،

---

(١) هو محمد بن الحسين رزين ، تقي الدين أبو عبد الله الشافعي ، المتوفى سنة ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م — انظر ما يلي .

(٢) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي ، فوات الوفيات جـ ٢ ص ٢٦٩ رقم ٢٦١ ، العبر جـ ٥ ص ٢٨٠ البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٠ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣١٧ ، غاية النهاية جـ ١ ص ٣٦٥ رقم ١٥٠٨ ، السلوك جـ ١ ص ٥٦٢ .

(٣) دار الحديث الأشرفية بدمشق : تنسب إلى الملك الأشرف موسى بن السلطان الملك العادل أبي بكر بن موسى بن أيوب ، المتوفى سنة ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧م — الدارس جـ ١ ص ١٩ وما بعدها .

(٤) هو عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين الدمشقي ، فخر الدين ، المعروف بابن عساكر ، المتوفى سنة ٦٢٠ هـ/١٢٢٣ م — وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٣٥ رقم ٣٦٦ .

(٥) هو الفتح بن عبد الله بن محمد بن علي بن هبة الله بن عبد السلام ، أبو الفرج ، المتوفى سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٦ م — العبر جـ ٥ ص ١٠٠ .

(٦) هو علي بن أبي علي بن محمد بن سالم التغلبي ، سيف الدين الآمدي ، المتوفى سنة ٦٣١ هـ / ١٢٣٣ م — وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٢٩٣ رقم ٤٣٢ .

والشيخ موفق الدين بن قدامة[1] ، وكان يقال إنه بلغ رتبة الاجتهاد ، وقد كان ينظم أشعارا ، وبالجملة فلم يكن فى وقته مثله فى تفننه وديانتــه وثقته وأمانته ، وكان قرأ القــرآن بالقراءات على الشــيخ علم الدين السخاوى[2] وصحــبه مدة ، وقرأ عليه العربيّة ، وتفقه على الشيخ تقى الدين بن الصلاح[3] ، وقد كانت وفاته بسبب جماعة ألبوا عليه ، وأرسلوا إليه من اغتاله وهو بمنزل له بطواحين الأشنان[4] ، وكان قد اتهم بأمر ، الظاهر براءته منه .

وقد قال جماعة من أهــل الحديث وغيرهم : إنه كان مظلوما ، ولم يزل يكتب فى التاريخ حتى وصل إلى رجب من هــذه السنة ، فذكر [٥٣٦] أنه أصيب بمحنة فى منزله بطواحين الأشنان ، وكان الذين قتلوه جاؤوه قبــل ذلك فضربوه ليموت فلم يمت ، فقيل له : ألا تشتكى ؟ فلم يفعل ، وأنشأ يقول :

قلتُ لِمَنْ قــال ألا تشتكى ... ما قــد جرى فهو عظيم جليل

فقيّضَ[5] الله تعــالى لنــا ... مَنْ يأخذ الحقّ ويشفى الغليل

إذا توكلنــا عليــه كفى ... فَحَسْبُنــا الله ونعم الوكيل

---

(١) هو عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسى الشافعى ، موفق الدين أبو محمد ، المتوفى سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٣ م — العبر جـ ٥ ص ٧٩ .

(٢) هو على بن محمــد بن عبد الصمد بن عبــد الأحد الهمدانى المقــرئ النحوى ، علم الدين ، السخاوى ، المتوفى سنة ٦٤٣هـ / ١٢٤٥ م — العبر جـ ٥ ص ١٧٨

(٣) هو عثمان بن عبد الرحمن بن موسى الكردى الشهرزورى الموصلى ، الشافعى ، تقى الدين ، أبو عمرو ، المتوفى سنة ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م — العبر جـ ٥ ص ١٧٧ .

(٤) الطواحين : موضع قرب الرملة من أرض فلسطين — معجم البلدان .

(٥) « يقيض » فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥١ .

وكأنهم عادوا إليه مرة ثانية وهو في منزله المذكور، فقتلوه في ليلة الثلاثاء التاسع عشر من شهر رمضان منها، ودفن من يومه بمقابر باب الفراديس، وباشر بعده مشيخة الحديث الأشرفية الشيخ محيي النووي (١)، رحمه الله.

الشيخ الأصيل أبو يوسف يعقوب بن أبي البركات عبد الرحمن بن القاضي أبي سعد عبد الله بن محمد بن هبة الله بن على بن المطهر بن أبي عصرون التميمي الشافعي، المنعوت بالسعد.

أجاز له جماعة منهم: الحافظ بن الجوزي (٢)، ودرس بالمدرسة القطبية (٣) بالقاهرة مدة، وهو من ذوي البيوتات المشهورة بالفقه والحديث والتقدم، مات في الثالث والعشرين من شهر رمضان بالحلة.

الأمير الكبير ناصر الدين أبو المعالي الحسين (٤) بن أبي الفوارس القيمري الكردي.

---

(١) هو يحيى بن شرف بن مرى، محيى الدين النووي، المتوفى سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م — انظر ما يلي.

(٢) هو عبد الرحمن بن على بن محمد بن على بن الجوزي البغدادي، المتوفى سنة ٥٩٧ هـ/ ١٢٠٠ م — وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٢٠ رقم ٣٧٠.

(٣) المدرسة القطبية بالقاهرة: في خط سويقة الصاحب داخل درب الحريري، أنشأها الأمير قطب الدين خسرو سنة ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤ م — المواعظ والإعتبار جـ ٢ ص ٣٦٥

(٤) هو الحسين بن عبد العزيز بن أبي الفوارس، الإمير الكبير،

وله أيضا ترجمة في: المنهل الصافي، العبر ٥ ص ٢٨٠، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣١٧، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٠، السلوك جـ ١ ص ٥٦٢، واسمه فيه «ناصر الدين حسين بن عزيز القيمري».

كان من أعظم الأمراء وأرفعهم منزلة عند الملوك ، وهو الذى سلم الشام إلى الملك الناصر يوسف صاحب حلب حين قتل توران شاه بن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب بمصر ، وهو واقف المدرسة القيمرية(١) عند مئذنة فيروز ، وعمل على بابها ساعات لم يسبق إلى مثلها ولا عمل على شكلها ، فيقال : إنه صرم عليها أربعين ألف درهم ، مات يوم الأحد ثالث عشر ربيع الأول من هذه السنة ، وكان موته بالساحل .

بركة(٢) خان بن صاين خان بن دُوشى خان بن جنكزخان ، ملك التتار ببلاد الشمال ، وهو ابن عم هلاون خان .

وكان قد دخل فى بلاد الإسلام كما ذكرناه ، وكان بينه وبين السلطان الملك الظاهر صحبة ومودّة ، وكان لا يقطع مكاتبته [٥٣٧] ولا مراسلته من الظاهر ، وقد وقع بينه وبين هلاون من الحروب ما ذكرناه ، وكان يحبُّ العلماء والصالحين ، ومن أكبر حسناته كسرُه لهلاون وتفريقه جنوده ، وكان أعظم ملوك التتار ، وكرسىّ مملكته مدينة صَرَاىْ ، توفى فى هذه السنة ولم يكن له ولد ذكر ، فاستقرَّ عوضه ابن أخيه منكوتمر(٣) بن طوغان بن دُوشى خان بن جنكزخان ، وجلس على

(١) المدرسة القيمرية بدمشق — الدارس جـ ١ ص ٤٤١ وما بعدها .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٣ ص ٣٤٩ رقم ٦٦٠ ، نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٥٨ — ٣٦١ ، العبر جـ ٥ ص ٢٨٠ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٤٩ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٢٢ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣١٧ ، الوافى جـ ١٠ ص ١١٧ ، السلوك جـ ١ ص ٥٦١ ، ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٣٦٤ .

(٣) توفى سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م — انظر المنهل الصافى جـ ٤ ص ٧٩ .

كرمى صراى (١) ، وصارت إليه مملكة التتار ببلاد الشمال والتُرك والقفجاق وباب الحديد وما يليه ، ثم وقعت بينه وبين أبغا بن هلاون (٢) حروب كثيرة ، فكسره أبغا وغنم منه شيئا كثيرا ، وعاد أبغا إلى بلاده ، والله أعلم .

(١) صراى أو سراى : مدينة شمال غرب بحر الخزر (قزوين) — معجم البلدان .

(٢) توفى سنه ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م — المنهل الصافى جـ ١ ص ١٩٨ رقم ١٠١ ، الوافى جـ ٦ ص ١٧٨ رقم ٢٦٣٩ ، السلوك جـ ١ ص ٧٠٤ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٤٨ .

فصلٌ فيما وقع من الحوادث

في السنة السادسة والستين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة والخليفة هو : الحاكم بأمر الله .

وسلطان البلاد المصرية والشامية والحلبية : الملك الظاهر بيبرس .

وسلطان الروم : الملك ركن الدين قليج أرسلان .

وصاحب العراقين وغيرهما : أبغا بن هلاون .

وصاحب البلاد الشمالية التي كرسيها صَرَاىْ : منكوتمر بن طوغان ، وكتب إليه الملك الظاهر بالتعزية لأجل بركة خان ، والتهنئة لأجل ولايته عوضه ، وأغراه على قتال أبغا بن هلاون .

ذكر سفر السلطان الظاهر إلى الشام :

وفي شهر جمادى الآخرة (١) تجهز السلطان لأجل السفر إلى الشام ، وخرج من القاهرة في ثالث الشهر المذكور ، ولما وصل إلى غزة أمر العساكر بمنازلة

(*) يوافق أولها الخميس ٢٢ سبتمبر ١٢٦٧ م .

(١) « الأخرى » في الأصل .

الشقيف[(١)] ، فنازلوها بغتة وضايقوها ، وناوشوا أهلها القتال ، ونزل السلطان بالعوجاء[(٢)] .

ذكر فتح يافا :

وفي جمادى الآخرة فتحت يافا ، وذلك أن صاحبها جُوان دبلين[(٣)] سيّر متجرّمة في زيّ صيّادين إلى قطنا[(٤)] ، واتفق هلاكه وقيامُ ولده مقامه ، فلما وصل السلطان إلى العوجاء حضر إليه رسله وهم قسطلان[(٥)] يافا وأكابرُها ، فعوّقهم ، وسيّر الحجاب إلى العساكر يأمرهم بلبس العَدَد والركوب على أتم أُهْبَةٍ [٥٣٨] ، وركب نصف الليل ، فصبّح يافا صبَاحاً ، فلما عاينوا كثرة العساكر المنصورة ، وشاهدوا تلك الجيوش بتلك الأُهْبة والصورة ، شملهم الذهول ، وطارت منهم العقول ، فملك المسلمون المدينة ، ولجأ أهلها إلى القلعة ، وسألوا الأمان على أن يطلقوا

(١) الشقيف أو شقيف أرنون : معقل حصين بين دمشق والساحل بالقرب من بانياس — النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٤٢ .

(٢) العوجاء : اسم لعدة مواضع ، والمقصود هنا : نهر (ماء) — موضع بين أرسوف والرملة بفلسطين — معجم البلدان .

(٣) هو John II d'Ibelin.

(٤) « قطيا » في الأصل ، والتصحيح من الروض الزاهر ص ٢٩٢ .

قطنا : من قرى دمشق — معجم البلدان .

(٥) القسطلان : معرب اللفظ اللاتيني Castellanus وهو حارس القصر — زيادة ، السلوك جـ ١ ص ٩٦٧ هامش (٥) .

ويرد أن وصول رسل يافا كان في « ثاني جمادى الأولى » — كنز الدرر جـ ٨ ص ١٤٤

بأموالهم وأولادهم ، فأجابهم ، وتسلم القلعة منهـم ، وطلعت عليهـا السناجق(١) السلطانيّة فى العشر الأوسط من جمادى الآخرة من هذه السنة ، وأمر السلطان بهدم المدينة فهدمت ، وكذلك هدمت القلعـة ، وقد كانت الفرنج قد اعتنوا بعمارتها وتحصينها فجعلوها بَلْقعاً(٢) لئلا يكون لهم إليها عودة، وقد كان الريد افرنس(٣) لمـا أطلق من الأسر من ثغر دمياط حضر إليها وعمّرها وأنفق عليها أموالا .

وذكر ابن عساكر فى تاريخه : أن أول من بناها الملك طنكلي فى سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة(٤) ، ولمـا فرغ السلطان من هـدمها رحل عنهـا إلى الشقيف منصورا .

ذكر فتح شَقيف أرْنُونَ :

فى رجب من هذه السنة .

ولمـا أتى إليها السلطان نزل عليهـا ، وقد كان جهّز لمضايقتها عسكرا صحبة بجكا العزيزى(٥) ، وله قلعتان ، ولمـا ضُويقوا عجزوا عن حماية القلعتين ، فأحرقوا أحديهما ، فتسلمها المسلمون فى السّادس والعشرين من رجب ، وخرج الوزير

(١) سنجق = سناجق : لفظ تركى ، يطلق فى الأصل على الرمح ، والمقصود الأعلام السلطانية — صبح الأعشى جـ ٤ ص ٨ ، جـ ٥ ص ٤٥٦ ، ٥٨ ، ٤ .

(٢) البلقع : الأرض المقفرة — المنجد .

(٣) المقصود لويس التاسع ملك فرنسا ، وانظر كنز الدرر جـ ٨ ص ١٢٤ .

(٤) انظر أيضا الروض الزاهر ص ٢٩٤ .

(٥) « الأمير بدر الدين بكتوت بجكا العزيزى » فى الروض الزاهر ص ٢٩٦ .

كُلْيام من القلعة الأخرى مستأمنا فأمّنه السلطان، وفى آخر الشهر تسلمت وطلعت عليها السناجق السلطانية ونصبت ، وأخرج أهلها وصُيِّروا إلى جهة صُور ، وبعث السلطان الأثقال إلى الشام .

ثم رحل عنها وبث العساكر للإغارة على طرابلس وأعمالها ، فقطعوا أشجارها وخرّبوا ما حولها من الكنائس ، ونهبوا وسبوا ، فلما سمع صاحب صافيتا وأنطرسوس بما حل بالفرنج من العكوس خاف أن يمسّه ما مسّهم من البؤس ، فبادر إلى الخدمة ، وتلّق العساكر بالإقامة ، وأحضر من كان عنده من أسرى المسلمين ، وكانوا ثلاثمائة أسير(١) .

[٥٣٩] ثم رحل السلطان إلى حمص ، ومن حمص إلى حماة .

ذكر فتح أنطاكية :

فى شهر رمضان من هذه السنة .

وهى مدينة عظيمة ، يقال إن دَوْرَ سُورِها اثنى عشر ميلا ، وعدد بروجها مائة وثلاثون برجا ، وعدد شرفاتها أربعة وعشرون ألف شرفة .

ولما رحل السلطان من حمص إلى حماة فرّق العساكر ثلاث فرق : فرقة صحبته ، وفرقة صحبة الأمير سيف الدين قلاون الألفي ، وفرقة صحبة الأمير عز الدين يوغان الركني(٢) .

---

(١) انظر الروض الزاهر ص ٣٠٦ ، السلوك جـ ١ ص ٥٦٦ .

(٢) « ولما وصل حماة رتب العسكر ثلاث فرق ، فرقة صحبة الأمير بدر الدين الخزندار ، وفرقة مع الامير عز الدين إيغان ، وفرقة صحبة السلطان » — الروض الزاهر ص ٣٠٧ ، السلوك جـ ١ ص ٥٦٧ .

قال بيبرس : وكنت فى هـذه الغزاة المبرورة ، فأما قلاون ومن معـه فإنه سار من أفامية(١)، فصابحنا القصير(٢) صباحا وشنّنا أهله القتال غدوًا ورواحا ، وارتحلنا إلى أنطاكية فنزلنـا من غربيها على سفح الجبل ، وتواصلت العساكر إليهـا ، ونزل السلطان عليها فى اليوم الأول من شهر رمضان ، وخرج منهـا جماعة فيهم كُنُدُ اصْطبل عمّ صاحب سيس الذى ذكرناه أنه انهزم فى نوبة سيس ، فالتقوا مع الجاليش(٣) المنصور ، فاستظهر الجاليش عليهم ، وأسرَ الكُنُدَ جندىٌ من أجناد الأمير الأجل شمس الدين آقسنقر الفارقانى(٤) ، يُسمّى المظفرى ، وأحضره إلى السلطان ، فأعطاه عشرة طواشية ، وأمره بحمل رُنك(٥) كند اصطبل ، فحمل رُنكة على سنجقه إلى أن مات ، وسأل هذا الكند أن يدخل أنطاكية ويتحدث مع أهلها ويحذرهم وينذرهم ، وأحضر ولده رهينة على ذلك ، فلم يُغْن شيئا .

وفى يوم السبت رابـع رمضان المعظم قـدره زحفت العساكر ، وأطافت بالمدينة والقلعة ، وقاتل أهلهـا قتالا شديدا ذريعا ، وجاهدهم المسلمون جهادا

(١) أفامية : مدينة حصينة من سواحل الشام ، وكورة من كور حمص — معجم البلدان .

(٢) القصير : بلفظ تصغير قصر : اسم لعدة مواضع : والمقصود هنا : ضيعة أول منزل لمن يريد حمص من دمشق — معجم البلدان .

(٣) الجاليش : راية عظيمة فى رأسها خصلة من الشعر — صبح الأعشى ج ٤ ص ٨ . ولعل المقصود هنا مقدمة الجيش أو طلائعه .

(٤) هو آق سنقر بن عبـد الله النجمى الفارقانى ، الأمير شمس الدين ، المتوفى سـنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م — انظر ما يلى .

(٥) رنك = رنوك : لفظ فارسى معناه اللون ، وقد استخدم فى المصطلح بمعنى الشعار الذى يدل على الوظيفة — صبح الأعشى ج ٤ ص ٦١ — ٦٢ .

عظيما ، وتسوّروا الأسوار من جهة الجبـل ، ونزلوا المدينة بالبيض والأسل[1] ، وشرعوا فى النهب والقتل والأسر حتى أثخنوا فيهـم غاية الإثخان ، واجتمع نحو القلعة منهم نحو ثمـانية آلاف منهم ، وسألوا الأمان ، فأجيبوا إليه . وأخذوا فى الحبال ، وقُتل وأُسر جمع يتجاوز الإحصاء من النساء والرجال ، وكان بها مائة ألف أو يزيدون ، ووجدوا بها من الأسرى والحلبيين خلقا كثيرا .

وكتبت كُتب البشائر ، ومن جملتها كتاب إلى صاحبها[2] نسخته :

قد علم القومص[3] الجليل [المبجل ، المعزز الهمام ، الأسد الضرغام][4] بيمند ، [فخر الأمة المسيحية ، رئيس الطائفة الصليبية ، كبير الأمة العيسوية][5] المنتقلة مخاطبته بأخذ أنطاكية [منه][6] من البرنسية إلى القومصية ، ألهمه الله رشـده ، وقرن بالخير قصده ، وجعل النصيحة محفوظة عنده[7] ، ما كان من قصدنا طرابلس وغزونا له فى عقر الدار ، وما شاهده بعد رحيلنا من اخراب العمائر وهدم الأعمار ، وكيف كُنِست تلك الكنائس من على[8] بساط الأرض ، ودارت الدوائر على كل دار ، وكيف جعلت تلك الجـزائر من الأجساد على ساحل البحر كالجـزائر ،

---

(١) الأسل : الرمح ، أى السيوف والرماح .

(٢) هو بوهمند السادس Bohemond VI أمير أنطاكية وطرابلس .

(٣) القومص فى اللاتينية Comes ، وفى العربية الدارجة « الكونت » .

(٤) ، (٥) [ ] إضافة من نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٨ ورقة ٢٠٢ أ ، وانظر أيضا الروض الزاهر ص ٣٠٩ .

(٦) [ ] إضافة من الروض الزاهر .

(٧) « عليه » فى نهاية الأرب .

(٨) « على » ساقط من نهاية الأرب .

وكيف قُتلت الرجال ، واستُخدمت الأولاد ، وتُملكت الحرائر ، وكيف قُطعت الأشجار ، ولم يُترك إلا ما يصلح للأعواد والمجانيق(١) والستائر ، وكيف نُهبت لك ولرعيتك الأموال والحريم والأولاد والحواشي(٢) ، وكيف استغنى الفقير ، وتأهّل العازِبُ ، واستخدم الخديم ، وركب الماشي ، هذا وأنت تنظر نظر المغشيّ عليه من الموت ، وإذا سمعت صوتا قلت فزعا : عَلَيّ هذا الصوت ، وكيف رحلنا عنك رحيل مَنْ يعُود ، وأخَّرناك وما كان تأخيرك إلا لأجل معدود ، وكيف فارقنا بلادك ، وما بقيت ماشية إلا وهى لدينا ماشية ، ولا جارية إلا وهى فى ملكنا جَارِيَة ، ولا سارية إلا وهى بين أيدى المعاول سارية ، ولا زرع إلا وهو محصود ، ولا موجود لك إلا وهو منك مفقود ، ولا منعت تلك المغايرُ التى هى فى رءوس الجبال الشاهقة ، ولا تلك الأودية التى هى فى التخوم مُخترقة ، وللعقول خارقة ، وكيف سُقْنا عنك ولم يسبُقْنَا إلى مدينتك أنطاكية خبَرَ ، وكيف وصلنا إليها وأنت لا تُصدّق أننا نَبْعُد عنك ، وإن بعُدْنا فسنعود على الأَثْرِ ، وها نحن نعلمك بما تمّ ، ونفهمك بالبلاءِ الذى عمّ : كان رحيلنا عنك من طرابلس يوم الأربعاء الرابع والعشرين من شعبان ، ونزولنا أنطاكية فى مستهل شهر رمضان ، وفى حالة النزول خرجت عساكرك للمبارزة فكسِرُوا ، وتناصروا فما نُصروا ، وأُسر من بينهم كُنداصْطبل ، فسأل فى(٣) مراجعة أصحابك ، فدخل إلى المدينة ، فخرج هو وجماعة من رهبانك ، وأعيان أعوانك ، فتحدّثوا معنا ،

---

(١) « لأعواد المجانيق إن شاء الله » فى الروض الزاهر ص ٣٠٩ ، ونهاية الأرب .

(٢) « والمواشى » فى نهاية الأرب ، والروض الزاهر .

(٣) « فى » ساقط من نهاية الأرب .

فرأيناهم على رأيك من إتلاف النفوس بالغرض الفاسد ، [٥٤١] وإنَّ رأيهم في الخير مختلف ، وقولهم في الشّر واحد ، فلما رأيناهم قد فات فيهم الفَوْت ، وأنّهم قد قدَّر [الله] (١) عليهم المَوْت ، رددناهم وقلنا : نحن الساعة لكم محاصر ، وهذا هو الأول في الإنذار والآخِر ، فرجعوا متشبهين بفعلك ، ومعتقدين أنك تدركهم بخيلك ورجلك ، ففي بعض ساعة صُرِّ شأن المَرْءِ شان (٢) ، وداخل الرهَبُ الرهَبان ، [و] (٣) لان للبلاء القسطلان (٤) ، وجاءهم الموتُ من كل مكان ، وفتحناها بالسيف في الساعة الرابعة من يوم السبت رابع شهر رمضان ، وقتلنا كل من اخترته لحفظها والمحاماة عنها ، وما كان أحد منهم إلا وعنده شيءٌ من الدنيا ، فما بقي أحد منا إلا وعنده شيءٌ منهم ومنها ، فلو رأيت خيّالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول ، وديارك والنّهابة فيها تصول ، والكسّابة (٥) فيها تجول ، وأموالك وهي توزَنَ بالقنطار ،

(١) [ ] إضافة من الروض الزاهر ص ٣١١ ، نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٨ ورقة ٢٥٢ ب .

(٢) هكذا بالأصل ، وفي الروض الزاهر ، ونهاية الأرب « مرشان المرشان » — انظر أيضا ملحق رقم / ٢ السلوك جـ ١ ص ٩٦٧ .

و « المرشان » في مصطلح التاريخ الأوربي في العصور الوسطى « منظم الحفلات والمجالس » في البلاط ، وربما يرادفه في مصطلح دولة المماليك وظيفة « أمير مجلس » — زيادة : السلوك — جـ ١ ص ٩٦٧ هامش (٤) .

(٣) [ ] إضافة من الروض الزاهر ص ٣١١ .

(٤) القسطلان — لفظ لاتيني بمعنى « حارس القصر » — زيادة : السلوك جـ ١ ص ٩٦٧ هامش (٥) .

(٥) الكسابة : الذين كان همهم كسب الغنائم وجمعها .

وداماتك (١) وكل أربع منهنّ تباع ، فتشترى من مالك بدينار ، ولو رأيت كنائسك : وصلبانها قد كُسِرت (٢) ، وصحفها من الأناجيل المزوّرة قد نُشِرت ، وقبور البطارقة قد بُعْثِرت ، ولو رأيت عدوّك المسلم داس (٣) مكان القداس والمذبح ، وقد ذُبِح فيه الراهبُ والقسيسُ والشماس ، والبطارقة قد دُهِموا (٤) بطارقة ، وأبناء المملكة ، وقد دخلوا فى المملكة ، ولو شاهدت النيران وهى فى قصورك تخترق ، والقتلى بنار الدنيا قبل نار الآخرة تحترق ، وقصورك وأحوالها قد حالَتْ ، وكنيسةُ بُولص وكنيسة القِسَّيان وقد تركت كل منهما وزالَتْ (٥) ، لكُنت تقول : ﴿ ياليتنى كنتُ ترابا ﴾ (٦) ، وياليتنى لم أُوت بهذا الخبر كتابا ، ولكانت نفسُك تَذهبُ من حسرتك ، ولكنت تطفىء تلك النيران من ماء عبرتك ، ولو رأيت مغانيك [وقد أقفرت من مغانيك] (٧) ، ومراكبك وقد أُخذت فى السُّوَيدية بمراكبك ، فصارت شوانيك من شوانيك ، لتيقَّنتَ أن الإله الذى أنطاك (٨) أنطاكية منك استرجعها ، والربُّ الذى أعطاك قلعتها منك قلعها ، ومن الأرض اقتلعها ، ولتعلمَ أنا قد أخذنا بحمد

(١) هكذا بالأصل ، وفى المصادر المتداولة فيما عدا صبح الأعشى فورد به « وإماءك » — ولعل المقصود بها النساء .

(٢) « قد كسرت ونشرت » فى الروض الزاهر ص ٣١١ ، ونهاية الأرب ، وملحق السلوك ، ويبدو أن ماورد فى المتن هو الأرجح — انظر باقى العبارة .

(٣) « وقد داس » فى الروض الزاهر ، ونهاية الأرب .

(٤) « وقد » فى الروض الزاهر ، ونهاية الأرب .

(٥) « وقد زالت كل منهما وزالت » فى الروض الزاهر ، و « وقد زلت وزالت » فى نهاية الأرب ، وملحق السلوك .

(٦) سورة النبأ رقم ٧٨ جزء من الآية رقم ٤٠ .

(٧) [ ] إضافة من الروض الزاهر ص ٣١٢ ، ونهاية الأرب .

(٨) أنطاك : أعطاء — المنجد .

ووردت « أعطاك » فى ملحق السلوك .

الله منك ما كنت قد[1] أخذته من حصون الإسلام ، وهو دير كُوش ، وشقيف كفردوش[2] ، وجميع ما كان لك[3] فى بلاد أنطاكية ، واستنزلنا أصحابك من الصّياصى ، وأخذناهم بالنواصى[4] ، وفرقناهم فى الدانى والقاصى ، [٥٤٢] ولم يبق شىء يُطلق عليه اسم العصيان إلا النهر ، فلو استطاع لما تسمّى[5] بالعاصى ، وقد أجرى دموعه نَدَما ، وكان يذرفُها عَبْرة صافية ، فها هو أجراها بما سفكناه فيه دَمَا ، وكتابُنا هذا يتضمن بالبُشرى[6] لك بما وهبك الله من السلامة وطول العمر بكونك لم يكن لك فى أنطاكية فى هذه المدة إقامة ، وكونك ما كنت فيها فتكون إما قتيلا وإما أسيرا ، وإما جريحا وإما كسيرا ، وسلامةُ النفس هى التى تفرح[7] الحىَّ إذا شاهد الأموات ، ولعل الله ما أخّرك إلا لأن تَسْتَدرك من الطاعة والخدمة ما فات ، ولما لم يَسلم أحدٌ يُخبرك بما جرى خبّرناك ، ولما لم يقدر أحدٌ يُباشرك بالبُشرى وسلامة[8] نفسك وهلاك ما سواها باشرناك بهذه المفاوضة وبشّرناك ، ليتحقق[9] الأمرُ على ما جرى ، وبعد هذه المكاتبة لا ينبغى

(١) « قد » ساقط من الروض الزاهر ، ونهاية الأرب .

(٢) « وشقيف تلميس ، وشقيف كفر دنين » فى الروض الزاهر ، ونهاية الأرب ، وملحق السلوك .

(٣) « لك » ساقط من ملحق السلوك .

(٤) « وأخذناهم بالنواصى » ساقط من ملحق السلوك .

(٥) « سمى » فى ملحق السلوك .

(٦) « البشرى » فى الروض الزاهر ، وملحق السلوك .

(٧) « يفرح بها » فى الروض الزاهر ص ٣١٢ ، وملحق السلوك جـ ١ ص ٩٦٨ .

(٨) « بسلامة » فى الروض الزاهر ، وملحق السلوك .

(٩) « لتحقق » فى الروض الزاهر ، و « لتتحقق » فى ملحق السلوك .

لك أن تكذب لنا خبرا (٢) ، كما أن بعد [هـذه] (١) المخاطبة يجب أن لا نسأل غيرنا مخـبرا .

وأما كندا أصطبل فإن السلطان أطلقه ، وأطلق أهله وأقاربه ، وفسح له فى التوجه إلى سيس .

وهذه أنطاكية هى التى ذكرها الله فى القرآن الكريم بقوله : ﴿ واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ﴾ (٣) وبانيها (٤) أنطياخس وإليه تنسب ، وكان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب قد فتحها كما ذكرنا من البرنس أرناط (٥) وقتله ، ثم ملكها الابرنس المعروف بالأسير ، ومن بعده ولده سدو ، و بعده ولده بيمند (٦) ، ومنه أخذت الآن واستقرت فى الممالك الإسلامية إلى الدولة الناصرية .

---

(١) [ ] إضافة من الروض الزاهر .

(٢) « خيرها » فى الروض الزاهر ، وملحق السلوك ، وانظر أيضا كنز الدرر جـ ٨ ص ١٢٨ — ١٣١ حيث يوجد نص الخطاب مع اختلاف فى بعض الكلمات .

(٣) سورة يس رقم ٣٦ آية رقم ١٣ .

(٤) « وثانيها » فى الأصل ، وهو تحريف من الناسخ — انظر الروض الزاهر ص ٣١٣ حيث ورد أنها تنسب إلى « الملك اسوخس » .

(٥) البرنس أرناط هـو ريجنالد دى شاتيون ، وكان قد حكم أنطاكية فى الفترة من ١١٥٣ — ١١٦٠ م ، وهو صاحب حصن الكرك الذى قتله صلاح الدين يوسف بن أيوب بعد موقعة حطين سنة ٥٨٤ هـ/١١٨٧ م .

أما صاحب أنطاكية فى ذلك الوقت فهـو بوهيمند الثالث الذى عقد صلحا مع صلاح الدين لمدة ثمانية أشهر — المختصر جـ ٣ ص ٧٥ ، النوادر السلطانية ص ١١٨ ، مفرج الكروب جـ ٢ ص ٢٧٠ .

وانظر أيضا مثل ما ورد بالمتن فى المنهل الصافى جـ ٤ ص ١٩١ .

(٦) ولى حكم أنطاكية فى عهـد صلاح الدين بوهيمند الثالث (١١٦٣ — ١٢٠١ م) ، ثم بوهيمند الرابع (١٢٠١ — ١٢١٦ م) ، ثم ريمـوند روبان (١٢١٦ — ١٢١٩ م) ، ثم بوهيمند الرابع مرة ثانية (١٢١٩ — ١٢٣٣ م) ، ثم بوهيمند الخامس (١٢٣٣ — ١٢٥١ م) ، ثم بوهيمند السادس (١٢٥١ — ١٢٦٧ م) .

وورد « تيمند ابن سرابن الأشتر » — كنز الدرر جـ ٨ ص ١٣٧ .

ثم أن السلطان أمر بجمع المكاسب، فجمع من الأموال والمصوغ مالا يحصى كثرة، وقسمت الغنائم على الأمراء والعساكر، وتقاسموا السبايا والمواشي والنسوان والأطفال، فلم يبق غلام إلا له غلام، وبيع الصغير باثني عشر درهما فيما حولها بين العسكر والكسّابة، وأمر السلطان بإحراق قلعة أنطاكية فأحرقت، وأما ما خصّه من الغنائم فإنه أفرده وأرصده لعمارة الجامع الذي أمر بإنشائه بالحسينية(١)، فصرف عليه.

ذكر فتح بغراس:

لما فتحت [٥٤٣] الحصون المذكورة، انهزمت الداوية من بغراس(٢)، فتسلمها السلطان على يدي الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقاني أستاذ الدار في ثالث عشر رمضان، ولم يوجد بها سوى امرأة عجوز، ووجدت عامرة بحواصلها، وهذا الحصن نازل عليها(٣) الملك الظاهر غازي بن السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيوب وحاصره بالعسكر المصري الحلبي(٤) سبعة أشهر فلم يأخذه، وأخذه السلطان الملك الظاهر بيبرس بغير تعب ولا نصب، وتسلم السلطان أيضا حصونا كثيرة وقلاعا أخرى، ثم عاد السلطان مؤيدًا منصورًا.

---

(١) كمل بناؤه سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م - المواعظ والإعتبار جـ ٢ ص ٢٩٩.

(٢) بغراس أو بغراص، مدينة في لحف جبل اللكام - معجم البلدان.

(٣) هكذا بالأصل.

(٤) «في أيام الملك العزيز، صاحب حماة، ابن الملك الظاهر بن السلطان صلاح الدين، رحمهم الله، نزل عليها العسكر الحلبي حاصرها سبعة أشهر ولم يأخذها» - الروض الزاهر ص ٣٢٦.

وتوفى غازي بن يوسف بن أيوب، الملك الظاهر، صاحب حلب، في سنة ٦١٣هـ/١٢١٦م - العبر جـ ٥ ص ٤٦، وانظر أيضا المختصر جـ ٤ ص ٥، كنز الدرر جـ ٨ ص ١٢٧.

ذكر دخول السلطان دمشق :

ولما فرغ أمر السلطان من هذه الغزوة عاد منصورا ، فدخل دمشق فى السابع والعشرين من رمضان فى أبهة عظيمة وهيئة هائلة ، وقد زينت له البلد ، ودقت البشائر فرحا به ، ولما استقر ركابه فى دمشق عزم على انتزاع أراضى كثيرة من القرى والبساتين التى بأيدى ملاكها ، بزعم أنه قد كانت التتار قد استحوذوا عليها ، ثم استنقذها منهم ، وقد أفتاه بعض الفقهاء من الحنفية بذلك بناء على أن الكفار إذا أخذوا شيئا من أموال الناس المسلمين ملكوها ، فإذا استرجعت لم ترد إلى أصحابها الذين أخذت منهم ، وهذه المسألة مشهورة وفيها خلاف ، والمقصود أن السلطان الملك الظاهر عقد مجلسا اجتمع فيه القضاة والفقهاء من سائر المذاهب وتكلموا فى ذلك ، وصمم السلطان على ذلك اعتمادا على ما بيده من الفتاوى[(١)] ، وخاف الناس من غائلة ذلك ، فتوسط الصاحب فخر الدين[(٢)] ابن الوزير بهاء الدين بن الحنا ، وكان قد درس بالشافعى بعد تاج الدين ابن بنت الأعز[(٣)] فقال : يا خوند أهل البلد يصالحون بك عن ذلك كله بألف ألف درهم مقسطة كل سنة مائتا ألف درهم فضة ، فأبى إلا أن تكون معجلة ، ثم بعد أيام وقد خرج متوجها إلى الديار المصرية أجاب إلى تقسيطها ، وجاءت البشارة فقرئت على الناس ، ففرح الناس بذلك ، ورسم أن يعجلوا من ذلك أربعمائة ألف ،

---

(١) أورد ابن كثير بعض الآراء الفقهية فى هذا الموضوع — البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢٥٢ .

(٢) هو محمد بن على بن محمد بن سليم ، الوزير الصاحب فخر الدين ، المعروف بابن حنا ، والمتوفى سنة ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م — انظر ما يلى .

(٣) انظر ما سبق فى وفيات سنة ٦٦٥هـ .

وأن تعاد إليهم القلاع التي كانوا [٥٤٤] قد احتاطوا عليها فى زمن القسم والثمار ، وكان هذا مما شغب خواطر الناس على السلطان ، سامحه الله .

ذكر وقوع الصلح بين السلطان و بين صاحب سيس :

وفى شوال من هذه السنة وقع الصلح بين السلطان وهو فى دمشق و بين هيثوم صاحب سيس ، على أنه إذا أحضر هيثوم سنقر الأشقر من التتار ، وكانوا قد أخذوه من قلعة حلب لما ملكها هلاون كما ذكرنا ، ويُسَلِّم مع ذلك بَهَسْنَى ودَرْبِسَاك ومَرْزُبان ورَعْبانِ وشيح الحديد يُطلَق له ابنه ليفون ، فدخل صاحب السيس على ملك التتار أبغا وطلب منه سنقر الأشقر فأعطاه إياه ، ووصل سنقر الأشقر إلى خدمة السلطان ، وتسلم السلطان المواضع المذكورة خلا بَهَسْنَى ، وأطلق السلطان ابن صاحب سيس ليفون بن هَيْثوم وتوجّه إلى والده (١) .

وقال بيبرس فى تاريخه : ولما تقرّر الصلح بين الظاهر و بين صاحب سيس على ما ذكرنا أرسل السلطان بجكا الرومى لإحضار ليفون بن صاحب سيس من الديار المصريّة ، فتوجّه من أنطاكية وأحضره ، وعاد إلى دمشق فى ثلاثة عشر يوما ، فأرسله السلطان إلى والده فى ثالث عشر شوال منها (٢) ، وكان صاحب سيس قد سيّر إلى السلطان أخاه فاسَاك فى هذا الأمر ، وسيّر ريمون صهر ولده رهينةً إلى أن يسلّم إليه القلاع المذكورة ويُحضر بسنقر الأشقر إلى الخدمة الشريفة .

---

(١) انظر المختصر جـ ٤ ص ٥ .

(٢) « فى حادى عشره » فى السلوك جـ ١ ص ٥٧٠ ، والروض الزاهر ص ٢٢٩ .

ذكرُ مجيء رُسُل صاحب عكّا إلى السلطان :

وهو فى دمشق أيضا ، واسمه اوك بن هرى ابن[1] أخت صاحب قبرس ، وكان أهل عكا قد أحضروه وملكوه عليهم ، فلما جاء السلطان من أنطاكية إلى دمشق جاءت رسله إلى أبواب السلطان يسألونه الصلح ، فتقرَّر الحال بينه وبين السلطان على عكّا وبلادها وثلاثين ضيعةً ، وتقرَّر أن تكون حَيْفًا للفرنج ولها ثلاث ضياع ، وبقيَّةُ بلادها مناصفة ، وللقرين عشر قرى والباقى للسلطان ، وبلاد الكرمل[2] مناصفة ، وعثليت تكون لهـا خمس قرى والبـاقى مناصفة ، وبلادُ صيدا الوطاء للفرنج والجبليات للسلطان ، واتفق الصلح على مملكة قبرس وأن تكون الهدنة لعشر سنين ، وسير السلطان إليه هدِّية عشرين نفرا من أُسَارى أنطاكية[3] .

ذكر عود السلطان من الشّام [٥٤٥] إلى الديار المصريّة :

ولمـا فرغ أمر السلطان خرج من دمشق عائدا إلى الديار المصريّة ، فدخلها يوم الحادى عشر من ذى الحجة من هذه السّنة[4] ، وكان يوم دخوله يوما مشهودا ، وجاءت إليه هدية صاحب اليَمن[5] مشتملة على تحف شتى وكتاب إلى السلطان ،

(١) هو هيو بن هنرى بن بوهيمند الرابع صاحب أنطاكية ، وهو المعروف فى المراجع الأوروبية باسم Hugg of Antioch - Lusignan

(٢) الكرمل : حصن بالجبل المشرف على حيفا بساحل الشام — معجم البلدان .

(٣) أنظر السلوك جـ ١ ص ٥٧١ ، الروض الزاهر ص ٣٣٣ .

(٤) ورد فى الجوهر الثمين أن السلطان رجع الى الديار المصرية سنة ٦٦٧ هـ — ص ٢٧٨ .

(٥) هو يوسف بن عمر بن على بن رسول ، الملك المظفر أبو منصور ، المتوفى سنة ٦٩٥هـ ١٢٩٥م المنهل الصافى .

وسأله الإنتماء والحضور إلى جنابه وأنه يخطب له ببلاد اليمن ، فأرسل له السلطان خلعا وسنجقا وتقليدا .

ذكر بقية الحوادث :

منها : أن ضياء الدين بن الفقاعى رافع الصاحب بهاء الدين حنا عند السلطان الظاهر ، فاستظهر عليه فسلمه السلطان إليه ، فلم يزل يضربه بالمقارع ويستخلص أمواله إلى أن مات ، فيقال إنه ضربه قبل أن يموت سبعة عشر ألف مقرعة وسبعمائة .

ومنها : أن السلطان فتح جبلة[1] وتسلمها من صاحبها افريرماهى صافاج[2] .

ومنها : أن معين الدين البرواناه مدبر مملكة الروم اتفق مع التتار المقيمين معه ببلاد الروم على قتل السلطان ركن الدين قلبج[3] أرسلان السلجوقى ، فخنق التتار ركن الدين بوتر ، وأقام البرواناه مقامه ولده غياث الدين كيخسرو بن ركن الدين المذكور ، وله من العمر أربع سنين .

وقال ابن كثير : وله من العمر عشر سنين ، وتمكن البرواناه جدا[4] ، وأطاعه جيش الروم[5] .

---

(١) جبلة : بالتحريك ، اسم لعدة مواضع ، والمقصود هنا : قلعة مشهورة بساحل الشام من أعمال حلب ـ قرب اللاذقية ـ معجم البلدان .

(٢) انظر الروض الزاهر صفحات ١٥٣ ، ٣٠٦ ، ٣٣٠ .

(٣) « قلج » فى السلوك جـ ١ ص ٥٧١ .

(٤) « وتمكن البرواناه فى البلاد والعباد » ـ البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٣ .

(٥) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٢ .

ومنها : أنه ولى القضاء بالديار المصرّية القاضى تقى الدين محمد بن الحسين ابن رزين بالقاهرة ، وبمصر القاضى محيي الدين عبد الله[1] بن عين الدولة .

ومنها : أن أبغا أوقع بابن عمه تُكُدار بن مُوجى بن جغطاى جنكزخان ، وكان أبغا قرر على وزارته نصير الدين الطوسى ، واستناب على السلطنة البرواناه المذكور وارتفع قدره عنده جدّا .

ومنها : أن صاحب القُصَير بذل نصف البلاد التى فى يده للسلطان الملك الظاهر ، فتسلّمها منه ، وزعم أهلها أن بأيديهم خطا من عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فكتب لهم هُدْنَة[2] بما تقرر الحال عليه .

وفيها : « ... ... »[3] .

وفيها : حج بالناس مع الركب المصرى الأمير عز الدين أيدمر الحلى[4] .

---

(١) هو عبد الله بن محمد بن عين الدولة الأسكندرى المصرى الشافعى ، محى الدين أبو الصلاح ، المتوفى سنة ٦٧٨/١٢٧٩م ـ درة الأسلاك ص ٦١ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٥٤ ـ ٥٥ ، السلوك جـ ١ ص ٦٧٤ .

(٢) انظر الروض الزاهر ص ٣٢٥ .

(٣) « .... » بياض بالأصل .

(٤) هو أيدمر بن عبد الله الحلى الحلبى ، الأمير عز الدين ، المتوفى سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٨م انظر ما يلى .

ذكر من تُوفّى فيها من الأعيان

الشيخ عفيف الدين يوسف البقال، شيخ رباط المرزبانية (1) .

كان صالحا، ورعا زاهدا، حكى عن نفسه قال: كنت بمصر فبلغني ما وقع ببغداد من القتل [٥٤٦] الذريع فأنكرته بقلبي، وقلت: يارب كيف هذا وفيهم الأطفال ومن لا ذنب له، فرأيتُ في المنام رجلا وفي يده كتابٌ فأخذته فإذا فيه:

دَع الاعتراض فما الأمرُ لك ... ولا الحكمُ في حركات الفلكْ
ولا تسأل الله عن فعله ... فمن خاضَ لُجّة بحرٍ هلكْ
[إليه تصير أمور العباد ... دع الاعتراض فما أجهلكْ (2)]

ابن الخُشكرى النُعمانى الشاعر: قتله الصاحبُ علاء الدين صاحب الديوان ببغداد، وذلك أنه اشتهر عنه أشياء عظائم، منها: أنه يعتقد تفضيل شعره على القرآن الكريم، واتفق أن الصاحب انحدر إلى واسط، فلما كان بالنُعمانية حضر ابن الخُشكرى عنده وأنشد قصيدة قد قالها فيه، فبينا هو يُنْشِدُها بين يديه إذ أَذَّن المؤذن للصلاة، فاستنصته الصاحبُ، فقال ابن الخشكرى: يامولانا أسمع

(1) وله أيضا ترجمة في: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٣ .

(2) [ ] إضافة من البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٣، حيث نقل العينى نص ما كتبه ابن كثير .

شيئًا جديدا وأعرض عن شيء له سنون(١) ، فثبت عند الصاحب ما كان يُقال عنه ، ثم باسطه ولا يُظهر أنه ينكر عليه شيئًا حتى استعلم ما عنده ، فلما ركب قال لإنسان معه : استَفْرِده فى الطريق واقتله ، فسايره ذلك الرجل حتى انقطع به عن الناس ، ثم قال لجماعة معه : أنزِلوه عن فرسه كالمُدَاعب له ، فأنزلوه وهو يشتمهم ويلعنهم ، ثم قال : انزعوا عنه ثيابه ، فسلبوها عنه ، فتقدَّم إليه أحدهم فضربه بسيف فى رقبته فأبان رأسه(٢) .

الشيخ أبو الصَّبر أيوب بن عمر بن علىّ بن شدَّاد الدمشقى(٣) ، المعروف بابن الفُقَّاعى .

مات بدمشق فى يوم عاشوراء من هذه السنة ، سمع وحدَّث .

الشَّريف أبو العباس أحمد بن أبى محمد عبد المحسن بن أبى العباس أحمد بن محمد بن على بن الحسن بن علىّ بن محمد بن جعفر بن إبراهيم بن إسماعيل بن جعفر ابن محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن موسى بن جعفر بن محمد بن الحسين بن علىّ ابن أبى طالب ، رضى الله عنهم ، الواسطى الغرَّافى التاجر .

مات بثغر الأسكندريَّة فى ليلة الخامس من صفر ، ودفن من الغد بين الميناءين ، ومولده بالغرَّاف(٤) ، بفتح الغين المعجمة وتشديد الرَّاء وبعد الألف فاء ،

---

(١) « له سنين » فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٣ .

(٢) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٢ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٣ ص ٢٢٧ رقم ٦٣٣ ، الوافى جـ ١٠ ص ٥٣ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٢٦ .

(٤) الغراف : فعال بالتشديد : نهر كبير تحت واسط بينها وبين البصرة — معجم البلدان .

من أعمال واسط القصب ، سمع بمرو من أبي المظفر عبد الرحيم بن الحافظ أبي[1] سعد عبد الكريم السمعاني ، و ببغداد عن غير واحد ، وحدّث .

الشيخ [٥٤٧] نظام الدّين أبو عمرو عثمان بن أبي القاسم عبد الرحمن بن رشيق الرَبَعي المصري المالكي ، المنعوت بالنظام .

مات في ليلة الحادي والعشرين من جمادي الأولى من هذه السنة بالقاهرة، ودفن من الغد بسفح المقطم ، سمع وحدّث .

الشيخ الإمام العلّامة أبو الحسن[2] علي بن عدلان بن حماد بن علي الربَعي الموصلي النحوي المترجم .

مات بالقاهرة في التاسع من شوال من هذه السنة ، ودفن من الغد بسفح المقطم ، ومولده بالموصل في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة ، قرأ الأدب على غير واحد، منهم أبو البقاء العُكبري[3]، وسمع ببغداد عن جماعة كثيرين ، وحدّث ، وأقرأ العربيّة ، وكان أحد الأئمة المشهورين بمعرفة الأدب ، وكانت له اليد الطولى في حَلّ التراجم والألغاز[4] ، وله مصنفات في ذلك وغيره .

---

(١) هو عبد الرحيم بن عبد الكريم ، أبو المظفر السمعاني، توفي سنة ٦١٢ هـ / ١٢٢٠ م — وفيات الأعيان جـ٣ ص ٢١٢ رقم 135 .

(٢) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي ، فوات الوفيات جـ ٣ ص ٤٣ رقم ٣٤٣ ، السلوك جـ ١ ص ٥٧٢ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٢٦ .

(٣) هو عبد الله بن الحسين بن أبي البقاء ، العكبري ، الفقيه الحنبلي ، النحوي ، العزيز ، المتوفى سنة ٦١٦ هـ / ١٢١٩ م — وفيات الأعيان جـ٣ ص ١٠٠ رقم ٣٤٩ .

(٤) منها « عقلة المجتاز في حل الألغاز » — هدية العارفين جـ ١ ص ٧١١ .

وفى هذه السنة ولد الشيخ شرف الدين عبد الله[١] بن تيمية والخطيب جلال الدين القزوينى[٢]، رحمهما الله .

(١) هو عبد الله بن عبد الحليم بن تيمية ، شرف الدين ، المتوفى سنة ٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م — الدرر جـ ٢ ص ٢٣٧ رقم ٢٢٠٠ .

(٢) هو محمد بن عبد الرحمن بن عمر ، قاضى القضاة جلال الدين أبو عبد الله ، القزوينى ، الشافعى ، المتوفى سنة ٧٣٩ هـ / ١٣٣٩ م — المنهل الصافى .

فصل فيما وقع من الحوادث

في السنة السابعة والستين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة هو : الحاكم بأمر الله العباسي .

وسلطان البلاد المصرية والشامية والحلبية : الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري (1) الصالحي ، وقد جدد في صفر البيعة لولده الملك السعيد بركة خان محمد ، وأحضر الأمراء كلهم والقضاة والأعيان ، وأركبه ومشى بين يديه ، وكتب له ابن لقمان تقليداً هائلا بالملك من بعد أبيه ، وأن يحكم أيضا في حياته ، وبنى مصطبة بميدان العيد بباب النصر لرمى النشاب (2) ، وتوجه إلى الجامع الظاهري الذي أنشأه بالحسينية ، ورتب أوقافه ، ونظر في أحواله .

وكان ببابه جماعة من الرسل من جهة الملوك ، بجهزهم ، وسفر صحبتهم رسله وهداياه ، وهم رسل منكوتمر ، ورسل جارلا (3) أخى الريدافرنس ، ورسل العرب ، ورسل الأشكرى (4) صاحب القسطنطينية .

(*) يوافق أولها الإثنين ١٠ سبتمبر ١٢٦٨ م .

(1) توفى سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م — انظر ما يلى .

وانظر الجوهر الثمين ص ٢٧٨ .

(2) النشاب : سهام خشبية صغيرة ذات نصول مثلثة الأركان ، وهى ما يرمى بها عن القسى الفارسية — صبح الأعشى جـ ٢ ص ١٤٢ .

(3) هو شارل أخو لويس التاسع ملك فرنسا .

ويذكر ابن عبد الظاهر : « والفرنج في تسميته مختلفون ، يقولون : ريجار ، ويقولون : جارلا ، وإنما نكتبه جارلا » .

والمقصود النطق العربي لاسم شارل بالفرنسية Roi Charles ، وشارل Charles الروض الزاهر ص ٣٣٦ .

(4) هو الأمبراطور ميخائيل (الثامن) باليولوجس .

ذكر ماجريات الملك الظاهر العجيبة :

منها : أنه ركب فى جمادى الأولى(١) بعساكره ، والأمراء(٢) الأكابر بالديار المصرية ، وتوجه إلى الشام ، ونزل أرسوف لكثرة مراعيها .

ولما دخل دمشق اتفق مجىء رسل [٥٤٨] أبغا ملك التتار ، ومعهم مكاتبات ومشافهات ، ومعهم التكفور(٣) صاحب سيس ، فإنه كان قد سعى فى الصلح بين السلطان وبين هلاون ، فسيَّر أبغا هـؤلاء الرسل وصحبتهم يرليغ(٤) و بايزة(٥) ذهب ، فأرسل السلطان ناصر الدين [بن](٦) صيرم مشدّ حلب لإحضارهم ، ولما التق السلطان أعفاهم من النزول ، ثم أحضر كبيرهم كتابا بغير ختم ، نسخته :

بقوة الله تعالى ، باقبال قان فرمان أبغا ، يعلم السلطان ركن الدين أنه لأجل أن هيرض على رأينا ، كتب إلى عند التكفور أن الرسل الذين أنفذهم إيلخان

(١) « فى ثانى عشر جمادى الآخرة » — فى الروض الزاهر ص ٣٣٩ ، السلوك ج ١ ص ٥٧٣ .

(٢) « ونزل والأمراء » فى الأصل ، و يبدو أنه سبق نظر من الناسخ .

(٣) هو هيتوم بن قسطنطين بن باساك — السلوك ج ١ ص ٥٥١ ، وانظر ما يلى فى وفيات سنة ٦٦٩ هـ .

(٤) يرليغ : كلمة مغولية بمعنى حكم أو قرار أو أمر ، ثم استعملت بمعنى أمر أو نفو بض صادر من السلطان مباشرة إلى الأشخاص الممتازين ، و يقول القلقشندى أن « اليرالغ هى مراسيم » — جامع التواريخ المجلد الثانى ج ١ ص ٢٤٧ هامش (٢) ، صبح الأعشى ج ٤ ص ٤٢٣ .

(٥) البايزة : لوحة من الذهب أو الفضة ، وفى بعض الأحيان من الخشب ، وذلك على حسب رتب الأشخاص ، و ينقش على وجهها اسم الله واسم السلطان وعلامة خاصة ، وتهدى إلى الأشخاص الذين يتمتعون بثقة المغول ، كأنها تتضمن أمر الملك إلى سفرائه ، و يتمتع حاملها بامتيازات خاصة فله الطاعة على كل من فى الدولة المغولية — جامع التواريخ — المجلد الثانى ج ١ ص ٢٤٧ هامش (١) .

(٦) [بن] إضافة من الروض الزاهر ص ٣٣٩ ، السلوك ج ١ ص ٥٧٤ .

ما قتلهم إلا قطز ، والملوك يطلبون التوسّط حتى يصيروا إيل ، والآن لو تُنْعِم فى حق إيلخان أصيرُ إيل ، وقد سمعنا أن قد طلبت القفجاق (١) الذين عندنا ، وهم : سيف الدين بلبان ، وبدر الدين بكمش ، وأولاد سيف الدين سكز ، ولا ريب أن (٢) مذ سنين الذين ما كان قبلكم معنا ، صحيح كان بين إخواننا الكبار والصغار بعضهم بعضا خلف ، فلأجل ذلك ما قدرنا نركب إلى صوبكم ، والآن إذ نحن جميعنا من الأخوة الكبار والصغار عملنا قوريلتاى ، واتفقنا على أن ما نغيّر فرمان وياساق قان ، وأنتم [أيضا] (٣) قد تقدمتم وعرضتم أنا نحن إيل ونعطى القوة ، استحسنا ذلك منكم ، فمن مطلع الشمس الى مغربها (٤) فى جميع العالم من الذى استقبل وأطاع ودخل فى العبودية ، وكان من قبل هذا فى فرمان وياساق [جنكزخان ، والآن أيضا فى فرمان وياساق (٥)] قان هيكذاه : أن إذا أذنب الأب ما يذنب الابن (٦) ، ولو يذنب الأخ ما يُمسكوه بذنب الأخ الصغير ، فلو أذنب الذنب أذنب السلطان قُودُور (٧) ، وهو رجل فى ذنبه ، قُتل على يدك بالحق ، فأنت لو وصلت إلى كلامك الذى فات تقّذ إلينا من إخوانك ومن أولادك

(١) هكذا بالأصل .

(٢) « أن » ساقط من الروض الزاهر .

(٣) [ ] إضافة من الروض الزاهر ص ٣٤٠ .

(٤) « إلى مغيبها » فى الروض الزاهر ص ٣٤٠ .

(٥) [ ] إضافة من جامع التواريخ جـ ٢ ص ١٩٩ ، انظر أيضا الروض الزاهر ص ٣٤٠ .

(٦) « الولد » ـ الروض الزاهر ص ٣٤٥ .

(٧) « فقبل على يدك الحق » ـ الروض الزاهر ص ٣٤٠ .

أو من أمرائك الجياد هاهنا حتى نسمعهم ونفهمهم يرليغ و ياساق قان ، و يعودون إليك ، فإذا وقع الاتفاق بيننا ، الناسُ الذى(1) طلبت ما يمسُون(2) نحن نعطيكم ، ولو أن ما تصل إلى كلامك وتكون باغى وتفكر غير الصحيح ، نحنُ ليس(3) نعلم ذلك يعلمُ الله [٥٤٩] ، و إقبال قان ، أمرنا هكذا ، ونفدنا إليكم هذين الرسولين ، وهُمَا : بيك طُوب(4) ، وأبو الغريب بالاولاغ ، كتب فى [عشرين](5) شهر ربيع الآخر سنة سبع وستين وستمائة ، بمقام(6) بغداد(7) .

نسخة الجواب الصادر من السلطان :

بسم الله الرحمن الرحيم ، بعون الله وقوته ، بإقبال السلطان الأعظم بيبرس الصالحى ، يفهم الملك أباقا أننا ما رسمنا للتكفور أن يُفهم الملك إلّا جواب ما ذكره لنا شمس الدين سنقر الأشقر ، أما قتل الملك المظفر الرُسُل(8) ، فنحن رُسُلك أعدناهم إلى الملك مثل ما حضروا سالمين ، [و](9) على قدر ما فهّمنا الأمير

(1) « الذين » — الروض الزاهر ص ٣٤١ .

(2) « منا يمشون » — الروض الزاهر ص ٣٤١ .

(3) « نحن إيش » — الروض الزاهر ص ٣٤١ .

(4) « بيك طوت » — الروض الزاهر ص ٣٤١ .

(5) [ ] إضافة من الروض الزاهر .

(6) « قيام » فى الأصل ، والتصحيح من الروض الزاهر .

(7) ذكر المقريزى : « فكان من جملة كتابه إن الملك أبغا لما خرج من الشرق تملك جميع العالم وما خالفه أحد ، ومن خالفه هلك وقتل ، فأنت لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منا ، فالمصلحة أن تجعل بيننا صلحا » — السلوك جـ ١ ص ٥٧٤ .

(8) « أما قتل الملك المظفر — رحمه الله — الرسل » — الروض الزاهر ص ٣٤١ .

(9) [ ] إضافة من الروض الزاهر .

شمس الدين سنقر الأشقر رسمنا للتكفور أنه يكون الواسطة بيننا و بين الذى طلبنا(١)، ما أبصرنا شيئا ، فكيف(٢) يقع الاتفاق ونحن اليوم الياساق التى لنا [هى](٣) أعظم من ياساق جنكزخان ، وقد أعطانا الله ملك أربعين ملكا ، وأما ما ذكره من مطلع الشمس إلى مغربها(٤) أطاعوه ، فأىُّ شىء جرى على كتبغا نوين ؟ وكيف كان دماره ؟ ، وأنت لو وقفت على قولك الذى ذكرته لسنقر الأشقر ، وسيَّرت أحد إخوتك أو من أولادك أو من أمرائك الكبار كنا سيَّرنا إليك نحن أيضا الذى ذكرته .

وعمل على الكتاب طمغات فيها رنك السلطان ، وأُعيد به الرُّسُل إلى أبغا .

وذكر غير بيبرس : أن السلطان الظاهر لما دخل دمشق وصل إليه رسول أبغا ملك التتار ، ومعه مكاتبات ومشافهات ، فمن جملة المشافهات : أنت مملوكٌ أُبِيعَ بسيواس ، فكيف يصلح لك أن تخالف ملوك الأرض(٥) ، واعلم أنك لو صعدت إلى السماء أو هبطت إلى الأرض ما تخلصت منه ، فاعمل لنفسك على مصالحة السلطان أبغا ، فلم يلتفت الظاهر إلى هذا الكلام ، بل أجاب عنه بأتمّ جواب وقال : اعلموه أنى وراءه بالمطالبة ، ولا أزال حتى أنتزع من يده جميع البلاد التى استحوذ عليها من بلاد الخليفة وسائر أقطار الأرض .

---

(١) « وبين الذين طلبناه » — الروض الزاهر .

(٢) « وكيف » — الروض الزاهر .

(٣) [ ] إضافة من الروض الزاهر .

(٤) « إلى مغيبها » — الروض الزاهر .

(٥) « فكيف تشاقق الملوك ملوك الأرض ؟ » — السلوك جـ ١ ص ٥٧٤ ، وانظر أيضا النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٤٥ ، كنز الدرر جـ ٨ ص ١٤٠ .

ومنهـا : أن السلطان توجّه إلى صُـور ، وذلك أنه لمـا خرج من دمشق بعساكره متوجهـا إلى الديار المصريّة جاءته امرأة فى أثنـاء الطريق عند خَرْبَة اللصوص ، فذكرت أن ابنهـا دخل إلى صـور ، وأن صاحبها الفرنجى (١) غدر به وقتله ، وأخذ ماله (٢) ، فركب السلطان وشنّ الغارة على مدينة صور وأخذ [٥٥٠] منها شيئا كثيرا وقتل خلقا ، فأرسل إليه مالكها ما سبب هذا ! فذكر له غدره ومكره بالتجار .

ومنها : توجّه السلطان إلى مصر خفية .

قال بيبرس فى تاريخه : ولمـا فرغ السلطان من تجهـيز الرسل وإعادتهم ، ودّع الأمراء الذين كانوا صحبته وأعطاهـم دستورا ليتوجهوا إلى مصر ، وخرج من دمشق وليس معـه منهم غير : الأتابك ، والمحمّدى ، والأيدمرى ، وابن أطلس خان ، وأقوش الرومى ، وتوجه إلى القلاع فبـدأ بالصُبَيْبَة ، ومنها إلى الشقيف ، وصفد ، فبلغته وفاة الأمير عز الدين الحلى بمصر ، فوصل إلى خَرْبَة اللصوص والعسكر قد خيّم بها ، فخطر له التوجّه إلى الديار المصرية ، فكتب إلى النُوّاب بالشام بمكاتبة الملك السعيد بمـا يتجـدّد من المهمات والاعتماد على ما يصدر عنـه من الأجوبة والمكاتبات ، ثم أظهر أنه قد تشوش جسْمُه ، وصار البريدُ إذا جاءَ يُقرأُ عليـه وتخرج علائم على دُرُوج ، فيكتب عنهـا الأجوبة ، واستقر هذا الترتيب أياما ، وأُشِيعَ ضعْفُه ، وأُحضر الحكماء إلى الدهليز ، وشاهده الأمراء مُنجمعًا متألّمًـا ، وجُهّز الأيدمرى وجرْدبك على البريد إلى جهة حلب

(١) هو Philip de Montfort .

(٢) ذكر ابن عبد الظاهر رواية أخرى عن هذه المرأة ـ الروض الزاهر ص ٣٤٧ .

في ظاهر الأمر ، وأوصاهما بما عليه في باطن السر ، وخرج ليلة السبت سادس عشر شعبان من الدهليز متنكرا ، حاملا بقجة قماش في زي أحد البابية [(١)] ، وركب وصحبته الأميران المذكوران ، وواحد من البريدية ، وواحد من السلاحدارية ، وأربعة جنائب ، وساق إلى جهة مصر ، وجنيبه على يده ، ومر بمراكز التبريد متنكرا لا يعرفه أحد من الولاة ، فوصل إلى القلعة ليلة الثلاثاء تاسع عشر الشهر [(٢)] ، فأوقفهم الحراس حتى شاوروا الوالي ، ونزلوا في باب الإصطبل ، وكان قد رتب مع زمام الآدر ، أن يبيت خلف باب السر ، فدق الباب وذكر لزمام الدور علائم كان يعرفها ، ففتح له ، وأحضر رفقته إلى باب السر ، وأقام يوم الثلاثاء والأربعاء وليلة الخميس لا يعلم أحد ، وهو يشاهد الأمراء في الموكب من شباك على سوق الخيل ، فلما كانت بكرة الخميس قدم الفرس ليركب الملك السعيد على عادته ، وقدم للسلطان فرس فركب على غفلة ، والوقت مغلس [(٣)] ، فأنكر الأمراء الذين في الموكب الحال ، فلما تحققوا [٥٥١] السلطان قبلوا الأرض بين يديه ، وعاد من الموكب إلى القلعة ، فأقام بها إلى يوم السبت ، ولعب الأكرة بالميدان وعاد إلى القلعة ، ولما كانت ليلة الأثنين الخامس والعشرين من شعبان سافر عائدا إلى البريد ، ولما وصل إلى الدهليز أخذ على يده جراب البريد وفي كتفه فوطه ، وتوجه راجلا ودخل من جهة الحراس ، فمانعه حارس ، فأمسك طوقه ، فانجذب منه ، وعبر من باب سر الدهليز ، وركب عصر يوم الجمعة السابع والعشرين من

(١) البابية : جمع بابا : لقب عام لجميع رجال الطشت خاناه ، ممن يتعاطى الغسل والصقل وغير ذلك ، وأطلق عليهم هذا اللقب لأنهم يقومون بترفيه مخدومهم من تنظيف ملابسه وتحسين هيئته فهم أشبه بالأب الشفيق ــ صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٧٠ ، ج ٨ ص ٤٢ .

(٢) «وصل قلعة الجبل ليلة الخميس حادي عشرين شعبان» ــ النجوم الزاهرة ج ٧ ص ١٤٥ .

(٣) الغلس = أغلاس : ظلمة آخر الليل ــ المنجد .

شعبان ، وحضر الأمراء الخدمة يهنئون بالعافية ، وضربت البشائر لذلك ، واهتم بالدهليز للحجاز الشريف ، وهذا الذى صدر منه جراءة عظيمة و إقدامٌ هائل .

ومنها : توجه السلطان إلى الحجاز الشريف فى هذه السنة ، ولما عزم على ذلك وهو فى المخيم أنفق فى العسكر ، وعين منهم جماعة يتوجهون صحبته ، وجهز بقية العسكر صحبة الأمير شمس الدين آقسنقر استادارا إلى دمشق ، فأقاموا بها .

وتوجّه السلطان إلى الكرك بصورة صيد ، ولم يجسر أحد يتفوّه بأنه متوجه إلى الحجاز حتى أن شخصا من الحجاب يسمى جمال الدين بن الداية قال : أشتهى أتوجّه صحبة السلطان إلى الحجاز ، فأمر بقطع لسانه ، ورحل من الفوار يوم الخامس والعشرين من شوال ، فوصل الكرك مستهلّ ذى القعدة ، وتوجّه فى سادسه إلى الشوبك ، ورحل منها فى حدى عشره ، فوصل المدينة النبويّة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام فى الخامس والعشرين من ذى القعدة ، وأحرم، وقدم مكة شرّفها الله تعالى فى خامس ذى الحجة ، وبقى كأحد الناس لا يحجبه أحد، وغسل الكعبة بيده [(١)] ، وحمل الماء فى القرب على كتفه ، وغسل البيت ، وجلس على باب الكعبة الشريفة ، فأخذ بأيدى الناس ، وسبّل البيت الشريف للناس ، وكتب إلى صاحب اليمن كتابا يقول فيه : سطرتها من مكة ، وقد أخذت طريقها فى سبع عشرة خطوة ، يعنى بالخطوة المنزلة ، وقضى حجه ، وحلق ونحر ، ورتب شمس الدين مروان نائبا بمكة ، وأحسن إلى أميرها [(٢)] ، وإلى

(١) « فغسل الكعبة بيده بماء الورد » فى الجوهر الثمين ص ٢٧٨ .

(٢) « إلى أميرى مكة — شرفها الله تعالى — الأمير نجم الدين أبى نمى ، والأمير إدريس ابن قتادة » — الروض الزاهر ص ٣٥٦ .

وعن أميرى مكة فى ذلك الوقت انظر: غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام جـ١ ص ٦٤٠ وما بعدها .

صاحب ينبع [٥٥٢] ، و[صاحب] خُلَيْص وزعماء الحجاز[1] ، وعاد ، فكان خروجه من مكة ثالث عشر ذى الحجة ، ووصوله إلى المدينة فى العشرين منه ، ووصل إلى الكرك سلخ ذى الحجة ، ولم يعلم به أحد إلى أن وصل إلى قبر جعفر الطيار[2] ، رضى الله عنه ، ودخل الكرك لابسا عباءة ، راكبا هجينا ، فبات بها ليلة ، وأصبح متوجّهًا إلى الشام جريدة .

وقال بيبرس : فى مستهل المحرم من سنة ثمان وستين وستمائة عاد السلطان من الكرك ، وتوجه إلى دمشق جريدة ، وحضر إلى الميدان بغتة ، وتوجه من نهاره إلى حلب فدخلها والأمراء فى الموكب ، فما عرفه أحد ، وبقى بينهم ساعةً حتى عرفوه ، ونزل بدار نائب السلطنة ، وشاهد القلعة ، وعاد إلى دمشق ، فوصلها فى ثالث عشر المحرم من سنة ثمان وستين ، وتوجه إلى القدس الشريف والخليل فزارهما ، وكان العسكر قد سبقه صحبة الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقانى إلى تلّ العجول ، فوصل إلى المنزلة المذكورة ، فصلّى الجمعة فى الكرك ، والجمعة الثانية فى حلب ، والجمعة الثالثة فى دمشق ، ورحل من تلّ العجول فدخل قلعة القاهرة فى الثالث صفر من سنة ثمان وستين ، وفى ثامن عشره توجه إلى الإسكندرية ، وفى طريقه دخل البرية متصيّدًا ، وضرب حلقا على الكحيليات فصار فى كل حلقة منها ما يقارب خمسمائة غزال وأقلّ وأكثر ، ومن النعام وبقر الوحش كثير ، فكان كل من أحضر غزالا أُعطى بغلطاقا[3] ، ومن ضرب نعاما أو بقرا أعطى فرسًا ، ففرق من الخيل والخلع شيئاً كثيرا ، ووصل

(١) [ ] إضافة من الروض الزاهر ص ٣٥٦

(٢) « قبر جعفر الطيار بمؤتة » — السلوك ج ١ ص ٥٨٢ .

(٣) البغلطاق : لفظ فارسى ، وهو قباء بلا أكمام ، أو بأكمام قصيرة جدا — المواعظ والإعتبار ج ٢ ص ٩٩ .

إلى مكان يعرف بقصر فارس، وعاد إلى الإسكندرية، فأقام أياما، وفرق تعابى القماش على الأمراء، ووصلهم بالهبات، وعمهم بالصلات.

وقال ابن كثير: لما وصل السلطان إلى مكة تصدق على المجاورين بها، ثم وقف [بعرفة](١)، وطاف للإفاضة(٢)، وفتحت له الكعبة فغسلها بماء الورد وطيبها بيده، ثم وقف بباب الكعبة يتناول أيدى الناس [ليدخلوا الكعبة](٣) وهو بينهم كأحدهم، [ثم رجع فرمى الجمرات](٤)، ثم تعجل النفر فعاد على المدينة النبوية فزار القبر الشريف مرة ثانية.

ثم ساق إلى الكرك فدخلها فى التاسع والعشرين من ذى الحجة وأرسل [٥٥٣] المبشر إلى دمشق بقدومه سالما، فخرج الأمير جمال الدين أقوش النجيبى ليتلق البشير فى ثانى المحرم، فإذا بالسلطان الملك الظاهر بنفسه يسير فى الميدان(٥)، فتعجب الناس من سرعة مسيره وصبره وجلده، ثم ساق حتى دخل حلب ليتفقد أحوالها، ثم عاد إلى حماة، ثم رجع إلى دمشق، ثم عا إلى مصر فدخلها يوم الثلاثاء ثالث صفر فى سنة ثمان وستين وستمائة(٦).

وقال فى ذلك القاضى محى الدين بن عبد الظاهر أبياتا منها:

حتى أتاها ظاهر ملكٌ إذا   شاءَ اختفى فأموره تتلمس
بينا تراه فى الحجاز إذا به   فى الشام للحج الشريف يقدس

(١) [ ] إضافة من البداية جـ ١٣ ص ٢٥٤.

(٢) «وطاف طواف الإفاضة» فى البداية والنهاية.

(٣)، (٤) [ ] إضافة من البداية والنهاية.

(٥) «فى سادس المحرم» فى البدية والنهاية.

(٦) انظر البداية والنهاية حيث يوجد اختلاف فى بعض الكلمات جـ ١٣ ص ٢٥٤ — ٢٥٥.

وتراهُ في حلبٍ يُـدبِّرُ أمرَهـا وتراه في مصر يَذُب ويَحرُس

ويلوحُ في حج عليــه مهابةٌ ويـلوح في عزّ وعليـه أطلس (١)

لا يزال (٢) للدنيا يَسوس أمورهـا ويُشيّدُ الأخرى بها ويؤسّس

ومنها : أن السلطان أنعم على ناصر الدين محمـد بن الأميـر عز الدين الحلي (٣) بإمرة ، ولم يتعرض إلى ما خلّفه أبوه من المـال والموجود .

ومنها أن السـلطان تسلّم بلاطُنُس (٤) من عز الدين عثمان صاحب صهيون ، وقرر له عوضا عنهـا بلدا من بلاد صهيون ، فقالوا : كانت خمس قرايا تعمـل ثلاثين ألف درهم (٥) .

ذكر بقيّة الحوادث :

منها : أنه وردت الأخبار بأن زلزلة حدثت في بلاد سيس وأخربت قلاعها مثل سرفندركار وحجر شغلان وقتلت جماعة (٦) .

ومنها : أنه توجهت المغيرون (٧) من البيرة وغيرها إلى جهة كركر (٨) ، وأحرقوا

(١) « في عز وعليه أطلس » ـ الروض الزاهر ص ٣٥٧ .

(٢) « لا زال » في الروض الزاهر ص ٣٥٨ .

(٣) « إمرة أربعين فارسا » ـ السلوك جـ ١ ص ٥٨٠ .

(٤) بلاطنس : حصن بساحل الشام مقابل اللاذقية ـ معجم البلدان .

(٥) « في سادس عشر شهر رمضان » ـ الروض الزاهر ص ٣٤٨ .

(٦) « في حادي عشرين شعبان » ـ الروض الزاهر ص ٣٥٠ .

(٧) هكذا بالأصل ، و« توجهت العساكر » في السلوك جـ ١ ص ٥٧٩ .

(٨) كركر : توجد عدة مواضع بهذا الإسم ، والمقصود هنا : حصن على الفرات بين آمد وملطية ـ معجم البلدان .

بيذرها ، واستاقوا مواشيها ، وتوجهوا إلى قلعة بينها وبين الكختا[(1)] اسمها شرموساك ، فزحفوا عليها ، وقتلوا رجالها .

ومنها : أنه كان المصاف بين أبغا وبين براق ، فكانت الهزيمة على براق وأصحابه ، فغنموا وأسروا منهم وقتلوا ، ونجا براق بنفسه مع بعض أصحابه ، وبراق هذا هو ابن يسنتاى ابن ما ينقان بن خفطاى بن جنكزخان . وقيل : إن أبغا إنما أوقع به بعد الإيقاع بتكدار ، لأنه ابن عمه ، وكانا قد اتفقا على حربه .

ومنها [٥٥٤] أن يعقوب المرينى[(2)] أخذ فى هذه السنة مدينة مراكش ، وذلك أنه توجه إليها بمن معه ، فجمع أبو دبوس[(3)] جماعة عظيمة من العربان والفرنج والموحدين وغيرهم ، فالتقى مع بنى مرين ، فكانت الكسرة عليه ، فقتل وعلق رأسه على سور مدينة فاس ، واستولى المرينى على مراكش من التاريخ المذكور ، ثم تجهز لفتح البلاد أولا فأولا ، وسار إلى جبال الموحدين وهى : سكسيرة ، ناروديت ، صنجاية ، وكراكة ، بلاد السوس الأقصى ، وأقام بالسوس وبها عرب يقال لهم أولاد ابن حسان ، والشامات ، فدخلوا فى طاعته ، وساروا فى خدمته إلى لمطة[(4)] ، وهى آخر المعمورة مما يلى شط البحر المحيط ، وفتح أولا فأولا ، ورتب أحوال البلاد ، وقرر قواعدها ، ورجع إلى سجلماسة .

(1) كختا : قلعة قديمة على نهر كختاصو ، على مسافة أربعين ميلا جنوب شرق ملطية — زيادة ، السلوك جـ ١ ص ٥٧٩ هامش (٥) .

(٢) هو يعقوب بن عبد الحق بن يوسف المرينى ، سلطان المغرب ، وعميد آل مرين ، توفى سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م — انظر ما يلى .

(٣) هو إدريس بن عبد الله بن محمد بن يوسف المؤمنى ، انظر وفيات سنة ٦٨٨ هـ فيما يلى .

(٤) لمطة : بالفتح ثم السكون ، أرض لقبيلة من البربر بأقصى المغرب — يقال للأرض والقبيلة معا لمطة — معجم البلدان .

ومنها : في آخر ذي الحجة هبّت ريح شديدة بديار مصر غرّقت مائتى مركب في النيل ، وهلك فيها خلق كثير ، ووقع هنالك مطر شديد جدًّا ، وأصاب الشام من ذلك صقعة أهلكت الثمار .

ومنها : أن أهل حران خرجوا منها وقدموا الشام ، وكان فيهم الشيخ الإمام العلامة تقي الدين بن تيمية (١) صحبة أبيه وعمره ست سنين ، وأخواه زين الدين عبد الرحمن ، وشرف الدين عبد الله وهما أصغر منه (٢) .

ومنها : أنه وردت كتب الشريف نجم الدين أبو نمى يذكر فيها أنه طامد من عمه الشريف بهاء الدين إدريس بن قتادة ميلا إلى صاحب اليمن ، وتحاملا على دولة السلطان ، فأخرجه من مكة وانفرد بالإمرة ، وخطب للسلطان ، وكُتب له تقليد الإمرة .

وفيها : « ... ... » (٣) .

وفيها : حج بالناس « ... ... » (٤) .

---

(١) هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ، شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس بن تيمية ، المتوفى سنة ٧٢٨هـ / ١٣٢٧م — المنهل الصافي جـ ١ ص ٣٥٨ رقم ١٩٥ .

(٢) « وهي » في الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٣) ، (٤) « ... ... » بياض في الأصل .

ذكر من تُوفى فيها من الأعيان

شرف الدين أبو الطاهر محمد[(١)] بن الحافظ أبى الخطاب عمر بن دحية المصرى .

ولد سنة عشر وستمائة ، وسمع أباه وجماعة ، وتولى مشيخة دار الحديث الكاملية[(٢)] مدة ، وكان فاضلا ، مات فى العشرين من شهر رمضان بالقاهرة ، ودفن بالقرافة .

القاضى تاج الدين أبو عبد الله محمد[(٣)] بن وثاب بن رافع البجيلى الحنفى .

درس وأفتى وناب عن ابن [٥٥٥] عطاء بدمشق ، ومات بعد خروجه من الحمام على المصاطب بجاءة ، ودفن بقاسيون .

الطّبيب الماهر شرف الدين أبو الحسن[(٤)] على بن يوسف بن حيدره الرحبى ،

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٥ .

(٢) دار الحديث الكاملية بالقاهرة : أنشأها الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر الأيوبى المتوفى سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٨م — المواعظ والإعتبار جـ ٢ ص ٣٥٥ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، الوافى جـ ٥ ص ١٧٣ رقم ٢٢٠٩ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٥ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : الوافى جـ ٢٢ ص ٣٥١ رقم ٢٤٥ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٥ ، عيون الأنباء جـ ٢ ص ١٩٥ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٢٧ وفيه توفى سنة ٦٦٨ هـ السلوك جـ أ ص ٥٨٣ ، الدارس جـ ٢ ص ١٣٠ .

شيخ الأطباء بدمشق ، ومدرسة الدخوارية (١) من وصية واقفها له بذلك ، لتقدمه فى هذه الصناعة على أقرانه وأهل زمانه .

ومن شعره :

يُساق بنى الدنيا إلى الحتف عنوة		ولا يشعر الباقى بحالة من يَمْضِى

كأنهم الأنعام فى جهل بعضها		بما تمّ من سفك الدماء على البعض

الشَيْخ نصير الدين المبارك (٢) بن يحيى بن أبى الحسن أبو البركات بن الطباخ الشافعىّ .

العلامة فى الفقه والحديث ، ودَرّس ، وأفتى ، وصنّف ، وانتفع به ناس ، وعمّر ثمانين (٣) سنة ، وكانت وفاته بالقاهرة فى الحادى عشر من جمادى الآخرة من هذه السنة ، ودفن خارج باب النصر .

الشيخ أبو الحسن على (٤) بن عبد الله بن إبراهيم (٥) الكوفى المغربى النحوى ، الملقب بسيبويه .

---

(١) المدرسة الدخوارية بدمشق : كانت دار الدخوار الطبيب ، وهو عبد الرحيم بن على بن حامد ، الشيخ مهذب الدين الطبيب الدخوار ، الذى وقف داره بالصاغة العتيقة مدرسة للطب ، والمتوفى سنة ٦٢٧ هـ / ١٢٢٩ — فوات الوفيات جـ ٣ ص ٣١٥ رقم ٢٧٢ ، الدارس جـ ٢ ص ١٢٧ وما بعدها .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٦ ، تذكرة الحفاظ جـ ٤ ص ١٤٧٦ .

(٣) « والأولى » فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٦ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، السلوك جـ ١ ص ٥٨٣ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٦ .

(٥) « على بن إبراهيم بن عبد الله » فى الأصل ، والتصحيح من مصادر الترجمة .

كان فاضلا ، بارعا فى صناعة النحو ، توفى بالمارستان بالقاهرة .

ومن شعره :

عذبت قلبى بهجر منك متصل يامن هواه ضمير غير منفصل

مازادنى غير تأكيد صدودك لى فما عدولك عن عطف إلى بدل (١)

الشيخ أبو الفضائل محمد بن أبى الفتوح نصر بن فازى بن هلال بن عبد الله الأنصارى ، المقرئ الحريرى .

مات فى الثالث من المحرم من هذه السنة بالقاهرة ، ودفن من يومه ظاهر باب البرقية (٢) ، ومولده فى مستهل المحرم سنة ثمان وثمانين وخمسمائة بناها من أعمال كورة كوش ، سمع وحدث .

الشيخ المسند أبو الطاهر إسماعيل (٣) بن الشيخ أبى محمد عبد القوى بن أبى العز عزون بن داود بن عزون بن الليث بن منصور الأنصارى ، الغزى الأصل ، المصرى المولد والدار ، الشافعى ، المنعوت بالزين .

مات فى ليلة الثانى عشر من المحرم من هذه السنة بمسجد الذخيرة ظاهر القاهرة ، ودفن من الغد بسفح المقطم ، ومولده فى سنة تسع وثمانين وخمسمائة تقديرا ، سمع الكثير وحدث .

---

(١) « من عطف إلى بدل » — البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٦ .

(٢) باب البرقية بالقاهرة : أحد أبواب القاهرة — المواعظ والإعتبار جـ ١ ص ٣٨٣ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى تذكرة الحفاظ جـ ٤ ص ١٤٧٦ ، العبر جـ ٥ ص ٢٨٦ .

الشيخ الفقيه الإمام أبو الحسن علي[1] بن أبي العطايا وهب بن مطيع بن أبي الطاعة القُشَيْري المنفلوطي المالكي، المنعوت بالمجد.

وكان أحد العلماء المشهورين، [٥٥٦] والأئمة المذكورين، جامعا لفنون من العلم، معروفا بالصلاح والدين والخير، توفي في الثالث عشر من المحرم بمدينة قوص من صعيد مصر الأعلى، ومولده في شهر رمضان سنة إحدى وثمانين وخمسمائة بمنفلوط من صعيد مصر.

الشيخ الفقيه أبو محمد عبد الوهاب بن محمد بن رجا التنوخي الإسكندراني، العدل بالإسكندرية.

مات في السادس والعشرين من المحرم بالإسكندرية، ودفن من الغد بين الميناءين، سمع وحدّث، وناب في الحكم بثغر الإسكندرية.

الشيخ الصالح المحدث أبو الفتح محمد[2] بن أبي بكر الكُوفَنِي الأَبِيوَرْدي الصوفي الشافعي.

كان من أهل الدين والصلاح والعفاف. مات في ليلة الحادي عشر من جمادى الأولى بالقاهرة، ودفن من الغد بسفح المقطم، سمع كثيرا وحدّث، وخرج لنفسه معجما عن مشايخه الذين سمع منهم، ووقف كتبه.

والكُوفَني: بضم الكاف وسكون الواو وفتح الفاء وبعد النون ياء النسب، نسبة إلى كوفن بلدة قريبة من أبيورد[3].

---

(١) وله أيضا ترجمة في: المنهل الصافي، الطالع السعيد ص ٤٢٤ رقم ٣٣١، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٢٤. العبر جـ ٥ ص ٢٨٦، تذكرة الحفاظ جـ ٤ ص ١٤٧٦.

(٢) وله أيضا ترجمة في: العبر جـ ٥ ص ٢٨٦ — ٢٨٧.

(٣) أبيورد: بفتح أوله وكسر ثانيه وياء ساكنة وفتح الواو وسكون الراء ودال مهملة: مدينة بخراسان — معجم البلدان.

الشيخ الصالح أبو العباس أحمد[1] بن عبد الواحد المقدسى الحورانى .

كان أحد المشايخ المشهورين الجامعين بين العقل والدين والتجرد والانقطاع ، توفى فى هذه السنة بالمدينة النبوية .

الأمير الكبير عز الدين أيدمر[2] بن عبد الله الحلى الصالحى .

كان من أكابر الأمراء ، وأحظاهم عند الملوك ، ثم عند الملك الظاهر بيبرس ، كان يستنيبه فى غيبته ، ولما كانت هذه السنة أخذه معه ، وكانت وفاته فى قلعة دمشق ، ودفن بتربته بالقرب من اليغمورية[3] ، وخلف أموالا جزيلة ، وأوصى الى السلطان فى أولاده ، وحضر السلطان فى عزائه بجامع دمشق .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ج ١ ص ٣٧٦ رقم ٢٠١ ، الوافى ج ٧ ص ١٢٠ رقم ٣٠٨٩ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ج ٣ ص ١٧٠ رقم ٦٠٠ ، الوافى ج ١٠ ص ٥ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٥٥ ، السلوك ج ١ ص ٥٨٢ ، ذيل مرآة الزمان ج ٢ ص ٤١٣ .

(٣) التربة الأيدمرية : بحارة السكر بسفح قاسيون — الدارس ج ٢ ص ٣٢٤ .

فصل فيما وقع من الحوادث
في السنة الثامنة والستين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة هو : الحاكم بأمر الله العباسي ، وهو متوطن بالقاهرة .

وسلطان البلاد المصرية والشامية : الملك الظاهر بيبرس الصالحي ، وكان قد وصل إلى دمشق من الحجاز الشريف في ثاني محرم هذه السنة على الهُجُن ، ثم راح إلى حلب فدخلها في سادس [٥٥٧] الشهر ، ثم عاد إلى دمشق ، ثم سار إلى مصر فدخلها في ثالث صفر من هذه السنة ، كما ذكرناه مفصلا في السنة الماضية (١) .

ذكر خروج السلطان الملك الظاهر إلى جهة الشام :

ولما دخل السلطان الديار المصرية في ثالث صفر من هذه السنة ، بعد عوده من الشام ، جاءته الأخبار بحركة التتار ، وأنهم تواعدوا مع الفرنج الساحلية ، وأغاروا على الساجور (٢) قريبا من حلب ، واستاقوا مواشي العربان ، فجهز للخروج أيضا ولكنه أراح العسكر مُدَيدة . ثم خرج جريدة في ليلة الاثنين الحادى

(*) يوافق أولها السبت ٢١ أغسطس ١٢٦٩ م .

(١) « الآتية » في الأصل ، وهو تحريف والتصحيح يتفق والسياق ، انظر ما سبق .

(٢) الساجور : نهر بجهات منبج تقع عليه عينتاب وتل باشر — معجم البلدان .

والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة ، ووصل إلى غزة ثم منها إلى دمشق ، فانهزم التتار ، وكان مقدمهم صمغار .

وقال ابن كثير : وفى تاسع عشر(1) شهر ربيع الآخر [منها](2) وصل السلطان الملك الظاهر بيبرس(3) إلى دمشق فى طائفة من جيشه ، وقد لقوا فى الطريق مشقة كبيرة(4) من البرد والوحل ، وبلغه أن ابن أخت زيتون(5) خرج من عكا يتقصد(6) جيش المسلمين ، فركب إليه مسرعا ، فوجده قريبا من عكا(7) ، فأسره وأسر جماعة من أصحابه ، وقتل آخرين .

وقال بيبرس : وفيها أغار السلطان على مرج يعقوب وما حول عكا ، وأسر من محتشمى الفرنج جماعة ، وقتل نائب فرنسيس بعكا ، ولم يعدم من [عسكر](8) الإسلام إلا الأمير فخر الدين الطونبا(9) الفائزى ، وعاد السلطان ورءوس القتلى

---

(1) « وفى ثالث عشر » فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٦ .

(2) [منها] إضافة من البداية والنهاية .

(3) « الظاهر بيبرس » ساقط من البداية والنهاية .

(4) « كثيرة » فى البداية والنهاية ، وهو تحريف .

(5) « لخروج جماعة من الفرنج مقدمهم كندلوفير المسمى بزيتون » الروض الزاهر ص ٣٦٣ ؛ والمقصود كونت أوليفر Count Oliver ، وانظر أيضا نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٨ ورقة ١٠٠ .

(6) « يقصد » فى البداية والنهاية .

(7) « فدخلها خوفا منه » فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٦ .

(8) [ ] إضافة للتوضيح — الروض الزاهر ص ٣٦٤ .

(9) هكذا مضبوطة فى الأصل ، و « الطوبنا » فى الروض الزاهر ، و « الطونبا » فى السلوك جـ ١ ص ٥٨٥ .

قدامه تحملها أُساراهم على الرماح إلى صفد ، وتوجه إلى دمشق ، ثم إلى حماة ، ثم إلى كفر طاب (١) ، وتوجّه إلى حصن الأكراد (٢) فى مائتى فارس ، فخرج إليه جماعة من الفرنج ملبسين ، فحمل عليهم السلطان ، فكسرهم ، وقتل منهم جماعة (٣) .

ذكر استيلائه على حصون الإسماعيلية :

وكان السلطان – رحمه الله – قد أبطل رسوم الإسماعيلية التى كانت تُجْبى إليهم ، واستأدى الحقوق من مراكبهم ، وكسر شوكتهم ومضايقتهم ، وحضر إليه صارم الدين [مبارك] (٤) بن الرضى صاحب العُلَيْقة ، وقلده السلطان بلاد الدعوة ، وعزل نجم الدين الشعرانى الملقب بالصاحب وولده منها لأنه لم يحضر إلى الخدمة [٥٥٨] ، ونعت صارم الدين بالصاحب ، وأرسل معه عسكرا إلى مِصْياف ، فتسلّمها فى العشر الأوسط من رجب من هذه السنة ، وهى كرسىّ مملكتهم ، وهى مقرّ الفِدَاوِيّة ، فعند ذلك حضر الصاحب نجم الدين إلى الأبواب السلطانية ، وهو شيخ كبير جدًا (٥) ، فرحمه السلطان ورقّ له ، وولّاه النيابة شريكا لابن الرضى ، فإنه صهره ، وقرر عليه حمل مائة وعشرين ألف درهم

---

(١) كفرطاب : بين المعرة وحلب – معجم البلدان .

(٢) على جبل يقابل حمص من جهة الغرب ، بين بعلبك وحمص ، معجم البلدان .

(٣) انظر أيضا كنز الدرر جـ ٨ ص ١٤٢ – ١٤٣ .

(٤) [ ] إضافة للتوضيح من كنز الدرر جـ ٨ ص ١٤٣ .

(٥) « وعمره تسعون سنة » – الروض الزاهر ص ٣٦٦ .

فى كل سنة ، وعاد السلطان من جهة حصن الأكراد ، فدخل دمشق فى الثامن والعشرين من رجب .

ذكر عَود السلطان إلى الديار المصرية :

ولما دخل السلطان دمشق فى التاريخ المذكور بلغه أن الفرنج أخذت من ميناء(١) الإسكندرية مركبين ، فخرج سريعا من دمشق إلى الديار المصرية ، وعبر فى طريقه على عسقلان ، وعفّى آثارها ، ورمى حجارتها فى مينائها(٢) ، ثم وصل إلى مصر ودخل قلعته ، ثم استفاضت الأخبار بقصد الفرنج بلاد الشام ، وجهّز السلطان العساكر المنصورة لقتالهم ، وهو مع ذلك مهتمّ بمدينة الإسكندرية ، وقد حصّنها ، وعمل جسورة إليهما إن دهمها العدو .

وقال بيبرس فى تاريخه : بلغ السلطان أن الفرنسيس ، « هو »(٣) لُوَيْس بن لُوَيس ، والانكتار ، وملك اسكَوْسنا ، وملك نُورك وهى بلاد السناقر ، والبرشَنُونى واسمه ريد راكون(٤) ، وغيرهم من ملوك الفرنج ، اجتمعوا على صقلية ، وشرعوا فى تجهيز المراكب ، ولم يُعلم مقصدهم ، فاهتمّ السلطان بالثغور والشوانى ، وحفظ السواحل والموانى ، وعمّر الجسور إلى دمياط ، وأنشأ القناطر ، وكان قصد الفرنج بلد تُونس ، فساروا إليها ونزلوا على المعلّقة ، فاجتمع الموحدون والعُربان

---

(١) « مينى » فى الأصل .

(٢) « ميناها » فى الأصل .

(٣) « و » فى الأصل ، والتصحيح من الروض الزاهر ص ٣٧ .
والمقصود لويس التاسع ملك فرنسا وحملته على تونس — انظر شمال أفريقيا والحركة الصليبية .

(٤) المقصود جيمس الأول ملك أراجون Roi d'Aragon .

وغيرهم من المسلمين ، فقاتلهم الفرنج وضايقوهم ، فأراد الله هلاكَ الملك الفرنسيس ، فلما مات رحلوا طالبين بلادهم ، وأراح الله المسلمين منهم .

ذكر ما حصل في البلاد :

منها : أنه حصل من الفرنج مضايقة عظيمة لابن الأحمر بالأندلس ، وأتوا على أكثر ما في يديه من البلاد . وابن الأحمر يسمى محمد بن نصر (١) ، أصله من مدينة جَيَّان بالأندلس ، وهو ينتمي إلى الأنصار ، وسبب ظهوره بالأندلس [٥٥٩] أنه كان يخدم مَنْويل عمُّ الفُونس (٢) ، فلما ضعفت دولة الموحدين أصحاب عبد المؤمن وَوَهَتْ مملكتهم باستيلاء المريني عليها ، وثب أهل الأندلس بمن كان عندهم من الموحدين أصحاب عبد المؤمن فقتلوهم عن آخرهم ، وثار شخص يسمَّى سيف الدولة محمد بن هود (٣) بالأندلس ولقب نفسه الخليفة ، وتعرض إلى بعض البلاد التي في يد الفُونس ، فأرسل إليه الفونس محمد بن نصر بن الأحمر ، فكان كما قيل :

ولكل شيءٍ آفةٌ من جنسه — حتى الحَديد سَطا عليه المِبْرَدُ

فاستظهر ابن الأحمر على ابن هُود ، وكفَّ عادتَه عن الفونس ، واستفتح له بلاداً كثيرة ، وقويت شوكتُه ، وانتهى إلى غرناطة واستولى عليها ، فلما

(١) هو أبو عبد الله محمد بن نصر الذي تلقب الغالب بالله وحكم في المدة ٦٢٩ — ٦٧١ هـ / ١٢٣٢ - ١٢٧٣ م — معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٨٤ ، وذكر العيني أن وفاته كانت سنة ٦٧٠ هـ — انظر ما يلي .

(٢) المقصود الفونسو العاشر .

(٣) هو محمد بن يوسف بن نصر الجذامي بن هود الملقب بالمتوكل ، وقد بدأ نشاطه سنة ٦٢٥ هـ معالم تاريخ المغرب والأندلس ص ٢٨١ ، تاريخ الدول الإسلامية ج ١ ص ٣٩ .

استقرّ بها وأمن على نفسه خلع طاعة الفونس ، واستبدّ بما فى يده ، وطالت مدته ، واتفقت وفاته فى سنة سبعين وستمائه .

ومنها : أن أبا دَبُوس (١) آخر الملوك من بنى عبد المؤمن قتل فى هـذه السنة ، وانقرضت بقتله دولتهم ، وملكت بلادهم بعدهم بنى مَرين ، وكان قتله فى حرب بينه و بين مَرين بنى ، واسم أبى دَبُوس : إدريس بن عبد الله بن محمد بن يوسف صاحب مَراكش (٢) .

ومنها : أنه حصل بين مَنكوتمر بن طغان ملك التتار بالبلاد الشمالية و بين الأشكرى صاحب قسطنطينيّة وحشة ، بجهّز منكوتمر إلى القسطنطينيّة جيشا من من التتار ، فوصلوا إليها وعاثوا فى بلادها ، ومَرّوا بالقامة التى بها عز الدين كيكاوس بن كيخسرو سلطان بلاد الروم ، وكان محبوسا بها كما ذكرنا فى سنة إثنتين وستين وستمائة (٣) ، فحمله التتار بأهله ونسائه إلى منكوتمر ، فتلقاه بالإكرام وعامله بالإحترام ، وأقام فى بلاد قرمَ ، وزوجه بإمرأة من أعيان نسائهم تُسمّى أُرْباى خاتون من بنات بركة (٤) ، ولم يزل إلى أن توفى فى سنة سبع وسبعين وستمائة ،

---

(١) انظر العبر جـ ٥ ص ٢٨٨ — ٢٨٩ .

«وكان قتل أبى دبوس وانقراض دولته يوم الجمعة منسلخ شهر ذى حجة من سنة سبع وستين وستمائة» — الأنيس المطرب ص ٢٦١ .

(٢) «هو أبو العلاء ، إدريس بن السيد محمد بن السيد عمر بن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على» — الأنيس المطرب ص ٢٥٩ .

(٣) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٣٨٧ — ٣٨٨ .

(٤) انظر وفيات سنة ٦٧٧ هـ فيما يلى .

على ما نذكره إن شاء الله تعالى ، فسار ابنه مسعود بن عز الدين إلى بلاد الروم ، وصار سلطان الروم على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

وقال بيبرس فى تاريخه : جهّز منكوتمر جيشا إلى إصطنبول ، وقصد أخذها من الأشكرى [٥٦٠] لِمَوْجِدة صارت بينهما ، فوصل العسكر المذكور إلى إصطنبول فى زمن الشتاء ، وعساكر بالَيلُوغُوس متفرقة فى البلاد ، وكان رسول السلطان الظاهر إذ ذاك الوقت عند الأشكرى ، وهو الفارس المسعودى ، فخرج إلى جيوش التتار وتحدّث مع مقدّمهم وقال : أنا رسول الملك الظاهر صاحب مصر ، متوجّه إلى الملك منكوتمر ، وأنتم تعلمون أن لصاحب[1] إصطنبول صُلْحٌ مع السلطان ، وأن مصر إصطنبول ، و إصطنبول مصر ، وبين أستاذى وأستاذكم الملك منكوتمر صُلْحٌ ، فارجعوا من ههنا ، فاغتروا بقوله ، ورجعوا عن إصطنبول وعبروا ببلادها ، فنهبوا ماشاءُوا ، ومرُّوا بالقلعة التى كان السلطان عز الدين كيكاوس صاحب الروم مسجونا بها ، فأخذوه وحملوه إلى منكوتمر ، كما ذكرناه الآن ، وأما المسعودى فإن الأشكرى أنعم عليه بمال وقماش وتوجه إلى منكوتمر[2] فهمَّ بضَرَبه لكونه صد جيشه عن إصطنبول وردَّهم دون بلوغ المأمول ، فشُفِع فيه فعفا عنه ، ولما عاد إلى الملك الظاهر خاف على نفسه من هذه الجريرة ، واتفق وصول بعض التجار ، فأخبر السلطان بهذه الأخبار ، فقبض عليه وضربه واعتقله .

(١) « صاحب » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق .

(٢) « بركة » فى الأصل ، ومصححة فى هامش المخطوط .

ومنها : أن أبا نُمى صاحب مكة وثب بعمه إدريس بن قتادة فقتله ، واستبدّ بالإمرة على مكة ، شرّفها الله .[1]

وفيها : « ... ... »[2]

وفيها : حج بالناس « ... ... »[3]

(١) ورد هذا الخبر فى أحداث سنة ٦٦٩ هـ ـ السلوك جـ ١ ص٥٩٧ ، انظر غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ـ جـ ١ ص ٦٤١ .

(٢) ، (٣) « ... ... » بياض فى الأصل .

ذكر من تُوفي فيها من الأعيان

الصاحب زين الدين يعقوب[(١)] بن عبد الرفيع[(٢)] بن زيد بن مالك المصري ، المعروف بابن الزبير .

كان فاضلا ، رئيسا ، وزر للملك المظفر قُطز ، ثم للملك الظاهر في أول دولته ، ثم عزله وولَّى بهاء الدين بن الحنَّا ، فلزم منزله حتى أدركته المنيةُ في الرابع عشر من ربيع الآخر ، وله نظم جيّد .

الشيخ موفق الدين أحمد[(٣)] بن القاسم بن الخزرجي ، المعروف بابن أبي أصيبعة[(٤)] .

له تاريخ الأطباء في عشر مجلدات لطاف ، وهو وقف بمشهد أبي عروة ، وكانت وفاته بصرخد ، وقد جاوز السبعين .

الشيخ زين الدين أحمد[(٥)] بن عبد الدائم [٥٦١] بن نعمة بن أحمد بن محمد ابن إبراهيم بن أحمد بن أبي بكر أبو العباس المقدسي النابلسي .

---

(١) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٧ ، السلوك جـ ١ ص ٥٨٩ .

(٢) « الربيع » في الأصل ، والتصحيح من مصادر الترجمة .

(٣) وله أيضا ترجمة في : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٧ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٢٩ .

(٤) « صيبعة » في الأصل ، والتصحيح من مصادر الترجمة .

(٥) وله أيضا ترجمة في : العبر جـ ، ص ٢٨٨ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٧ ، السلوك جـ ١ ص ٥٨٩ .

وكرر المؤلف ذكر وفاته — انظر ما يلي ص ٦٨ .

تفرّد بالرواية عن جماعة من المشايخ ، وكان مولده فى سنة خمس وسبعين وخمسمائة ، وقد سمع الحديث ، ورحل إلى بلدان شتى ، وكان فاضلا ، يكتب سريعا ، وحكى الشيخ علم الدين أنه كتب مختصر الخرقى (١) فى ليلة واحدة ، وخطه حسن ، قوى ، حلو ، وكتب تاريخ ابن عساكر مرتين ، واختصره لنفسه أيضا ، وأضرّ فى آخر عمره أربع سنين ، وله شعر جيد ، وكانت وفاته بسفح قاسيون ، وبه دفن ، فى بكرة الثلاثاء عاشر رجب ، وقد جاوز التسعين .

قاضى القضاة محي الدين أبو الفضل يحيى (٢) بن قاضى القضاة محي الدين أبى المعالى محمد بن على بن محمد بن يحيى بن على بن عبد العزيز بن على بن الحسين بن محمد بن عبد الرحمن بن القاسم بن الوليد بن عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان ، رضى الله عنه ، القرشىّ الأموىّ ، ابن الزكىّ .

تولى قضاء دمشق غير مرة ، وكذلك آباؤه ، كل وليها ، وقد سمع الحديث من حنبل ، وابن طبرزد ، والكندىّ ، وابن الحرستانى ، وجماعة ، وحدّث ، ودرّس فى مدارس كثيرة ، وقد ولى القضاء فى الدولة الهلاونيّة فلم يُحمد ، على ما ذكره أبو شامة ، وكانت وفاته بمصر فى الرابع عشر من رجب ، ودفن بجبل المقطم ، وقد جاوز السبعين ، وقد كان فاضلا ، وله شعر جيد قوىّ .

ومن شعره :

قالوا أما فى جلق برهة (٣) تسليك عن مَنْ أنت به مغرًا

(١) هو كتاب فى الفقه لعمر بن الحسين بن عبد الله الخرق الحنبلى المتوفى سنة ٣٣٤هـ/٩٤٥م — شذرات الذهب جـ ٢ ص ٣٣٦ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٧ ، العبر جـ ٥ ص ٢٨٩ ، السلوك جـ ١ ص ٥٨٩ .

(٣) « قالوا ما فى جلق نزهة » — البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٨ .

يا عاذلى دونك من لحظه[1] سهما ومن عارضه[2] سطرا

وحكى الشيخ قطب الدين فى ذيله عن ولده القاضى شهاب الدين : أن والده كان يذهب إلى تفضيل علىّ رضى الله عنه على عثمان رضى الله عنه موافقة لشيخه محيى الدين بن عربى[3] .

الصاحب فخر الدين محمد[4] بن الصاحب بهاء الدين علىّ بن محمد بن سليمان بن الحنّا المصرىّ .

كان وزير الصحبة ، وقد كان فاضلا ، بنى رباطا بالقرافة الكبرى ، ودرس بمدرسة والده[5] بمصر ، وبالشافعى بعد ابن بنت الأعز ، وقد كانت وفاته فى شعبان ، ودفن بسفح المقطم ، وفوض السلطان وزارة الصحبة إلى ولده تاج الدين[6] .

الشيخ أبو نصر محمد[7] بن [٥٦٢] الحسن الحرار الصوفى البغدادى الشاعر .

---

(١) « فى لحظة » فى البداية والنهاية .

(٢) « رقه » فى البداية والنهاية .

(٣) هو محمد بن على بن محمد بن أحمد بن عبد الله ، الشيخ محى الدين أبو بكر الطائى الحاتمى الأندلسى ، المعروف بابن عربى ، والمتوفى سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤٠ م ــ فوات الوفيات جـ ٣ ص ٤٣٥ رقم ٤٨٤ ، الوافى جـ ٤ ص ١٧٣ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٥٦ ، العبر جـ ٥ ص ١٩٨ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى « المنهل الصافى ، الوافى جـ ٤ ص ١٨٥أ رقم ١٧٢٥ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٨ .

(٥) هو على بن محمد بن سليم ، الصاحب الوزير الكبير بهاء الدين بن حنا المصرى ، المتوفى سنة ٦٧٧ هـ/ ١٢٧٨ م ــ انظر ما يلى فى وفيات ٦٧٧ هـ .

(٦) هو محمد بن محمد بن علىّ بن محمد بن سليم المصرى ، الصاحب تاج الدين ، المتوفى سنة ٧٠٧هـ/ ١٣٠٧ م ــ فوات الوفيات جـ ٣ ص ٢٥٥ رقم ٤١٦ .

(٧) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٨ .

له ديوان حسن ، وكان جميل المعاشرة ، حسن المذاكرة ، دخل عليه بعض أصحابه فلم يقم له ، وأنشده قوله :

نهض القلبُ حين أقبلتَ إجلالا لما فيه عن صحيح الودادِ
ونهوض القلب بالودِّ أولى من نهوض الأجساد للأجسادِ

الشيخ الأصيل أبو عبد الله محمد بن أبي الفتح الحسن بن الحافظ مؤرخ الشام المعروف بابن عساكر .

وهو من بيت الحفظ والعلم والحديث ، توفى فيها بدمشق .

الشيخ المحدث المسند أبو العباس أحمد[1] بن عبد الدائم ، توفى فيها بدمشق .

الشيخ القاضي تقى الدين أبو التقى صالح[2] بن الحسين الهاشمي الجعفري .

كان أحد الفضلاء العارفين بالأدب وغيره ، وتولى الحكم بمدينة قوص ونظرها أيضا ، وله خُطَبٌ حَسَنَةٌ ، ونظم جيد ، وتصانيف عدةٌ ، توفى فى هذه السنة بالقاهرة .

الطواشي جمال الدين محسن الصالحي النجمي ، شيخ الخدام بالمدينة النبويّة بحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، توفى فى هذه السنة .

إدريس[3] بن قتادة ، وثب عليه ابن أخيه أبو نُمَى صاحب مكة فقتله ، واستبدَّ بالإمرة على مكة ، شرّفها الله .

---

(١) ذكر المؤلف خبر وفاته فيما سبق انظر ص ٦٥ — ٦٦ .

(٢) هو صالح بن الحسين بن طلحة بن الحسين بن محمد ، تقى الدين الهاشمي الجعفري الزينبي . وله أيضا ترجمة فى : الوافى ج١٦ ص ٢٥٦ رقم ٢٨٣ ، ذيل مرآة الزمان ج ٢ ص ٤٣٨ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ج ٢ ص ٢٨٧ رقم ٣٥٣ ، العقد الثمين ج ٣ ص ٢٧٨ رقم ٧٤٣ .

فصل فيما وقع من الحوادث

فى السّنة التاسعة والسّتين بعد السّتمائة (*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة هو : الحاكم بأمر الله العباسى .

وسلطان الديار المصرية والشاميّة : الملك الظاهر بيبرس الصالحى النجمى ، ففى مستهل صفر منها ركب وتوجّه إلى الشام ، واستصحب معه ولده الملك السعيد ، والأصح أنه ما استصحب ولده إلّا فى السفرة الثانية (١) ، على ما نذكره عن قريب إن شاء الله تعالى ، ومعه طائفة من العسكر ، وجاز على عسقلان ، وهدم ما بقى من سورها ، ممـا كان أهمل ، ووجد فيما هدم كوزين (٢) فيهما ألف دينار ، ففرقهما على الأمراء (٣) .

وجاءت البشارة هناك بأن منكوتمر كسر جيش أبغا ، ففرح بذلك ، ثم عاد إلى القاهرة مؤيّدًا منصورا .

ذكر سَفرة الظّاهر ثانى مرّة :

وفيها : توجه السلطان الظاهر إلى الشام ، واستصحب معه ولده الملك السعيد ، والوزير بهاء الدين بن حنّا ، وجمهور الجيش ، ودخل دمشق يوم

(*) يوافق أولها الأربعاء ٢٠ أغسطس ١٢٧٠ م .

(١) يتفق هـذا مع ما يلى ، ومع ما ورد فى الروض الزاهر ص ٣٧٤ حيث جاء أن السلطان « توجه فى عاشر جمادى الآخرة ، وصحبته ولده الملك السعيد » .

(٢) كوز = كيزان : إناء كالأبريق ، ولكنه أصغر منه — المنجد .

(٣) انظر أيضا كنز الدرر جـ ٨ ص ١٥[illegible] .

الخميس ثامن رجب [٦٦٣ هـ] فى أُبَّهَةٍ عظيمة، وابنه الملك السعيد قُدَّامه ، وكان يوما مشهودًا ، وفى طريقه شنَّ الإغارة على طرابلس ، واتصلت غارته بصافيتا ، وجرَّد فرقةً من العسكر صحبة الأمير سيف الدين قلاون الألفى ، والأمير فخر الدين بيليك الخزندار الظاهرى ، وسيَّر صحبتهما الملك السعيد ولده ، فأغاروا على ناحية المرقب ، فعنـد عود السلطان من الغارة على طرابلس عاد الملك السعيد ومن معه من الغارة على جهـة المرقب ، وتوافوا ونزلوا على حصن الأكراد فى تاسـع شهر شعبان(١) من هذه السنة .

ذكر فتح حصن الأكراد :

ونزل السلطان عَلَيْه فى تاسع الشهر المذكور ، وجُدَّ فى حصاره وقتاله ، فلما كان العشرون منه أُخِذَت أرباضه ، وزحفت العساكر ، فطلبوا القلعة وتسلموها ، وطلع الفرنج [إلى](٢) القُلّة ، ثم طلبوا الأمان ، فأجابهم إليـه ، فخرجوا وجُهِّزوا إلى بلادهم فى الرابع والعشرين منه ، وتسلم السلطان الحصنَ ، وكتب إلى مقدِّم الإسبتار صاحب الحصن كتابا نسخته :

---

(١) « وفى تاسـع رجب نازل السلطان حصن الأكراد » — الروض الزاهر ص ٣٧٥ ، وانظر أيضا نهاية الأرب .

وما ورد بالمتن يتفق وسير الأحداث فقد دخل السلطان وابنه دمشق فى ٨ رجب — انظر أيضا السلوك جـ ١ ص ٥٩٠ ، كنز الدرر جـ ٨ ص ١٥٢ .

(٢) [إلى] إضافة من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٣٢ أ

هذه المكاتبة إلى أفريرأوك[(١)]، جعله الله ممن لا يعترض على القدر، ولا يعاند من سخر لجيشه النصر والظفر[(٢)]، ولا يعتقد أنه ينجى من أمر الله الحذر[(٣)]، ولا يحمى منه محجور البناء، ولا مبنى الحجر، تعلمه بما سهل الله من فتح حصن الأكراد الذى حصنته وبنيته وخليته، وكنت الموفق لو أخليته، واتكلت فى حفظه على إخوتك فما نفعوك، وضيعتهم بالإقامة فيه فضيعوه، وضيعوك، وما كانت هذه العساكر تنزل على حصن ويبقى، أو تخدم سعيدا ويشقى[(٤)].

وقال ابن كثير : وكان الذى حاصره ابن السلطان[(٥)] الملك السعيد، فأطلق السلطان أهله ومن عليهم، وأجلاهم إلى طرابلس، وتسلم القلعة بعد عشرة أيام [من الفتح[(٦)]] فأخلاها أيضا[(٧)]، وجعل كنيسة البلد جامعا، وأقام فيه الجمعة، وولى فيها[(٨)] نائبا وقاضيا، وأمر بعمارة البلد[(٩)].

---

(١) وهو Hugh Revel .

(٢) « لخيفته » فى الأصل، والتصحيح من زبدة الفكرة .

و « من سخر الله لجيشه » فى كنز الدرر جـ ٨ ص ١٥٢ .

(٣) « بالقدر» فى الأصل، والتصحيح من زبدة الفكرة، والروض الزاهر .

(٤) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٢ أ ، الروض الزاهر ص ٣٧٦ .

وانظر نص الخطاب فى كنز الدرر جـ ٨ ص ١٥٢ — ١٥٣ .

(٥) « وكان الذى يحاصره ولد السلطان » فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٩ .

(٦) [ ] إضافة من البداية والنهاية .

(٧) « فاجلى أهلها أيضا » — البداية والنهاية .

(٨) « فيه » فى الأصل، والتصحيح من البداية والنهاية .

(٩) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٩ .

وبعث إليه صاحب أنطرسوس واسمه كندور، ومقدم(1) بيت الإسبتار وسألا(2) الصلح، فأجابهم السلطان إلى الصلح على أنطرسوس والمرقب خاصّة خارجا عن صافيتا وبلادها، واسترجع منهم بلدة وأعمالها، وما أخذوه فى الأيام الناصريّة، وعلى أن جميع ما لهم من الحقوق والمناصفات على بلاد الإسلام يتركونه، وعلى أن تكون بلاد المرقب ووجوه أمواله مناصفة بين السلطان وبين الإسبتار، وعلى أن لا تجدد عمارة المرقب، وحلف لهم على ذلك، وأخلوا قرفيص، [٥٦٤] وأحرقوا ما لم يمكن حمله.

وقال ابن كثير: ولما فتح الملك السعيد بن الظاهر حصن الأكراد جعل كنيستها جامعا وأقام فيه الجمعة، وولّى السلطان فيه نائبا وقاضيا، وأمر بعمارة البلد(3)، ثم أنه بلغ السلطان وهو مخيّم على حصن الأكراد أن صاحب جزيرة قبرص قد ركب بجيشه إلى عكا لينصر أهلها خوفا عليهم(4) من الملك الظاهر، فأراد السلطان أن يغتنم هذه الفرصة، فبعث جيشا كثيفا فى سبعة عشر(5) شينيا ليأخذوا جزيرة قبرص فى غيبة صاحبها [عنها](6)، فسارت المراكب مسرعة، فلما قاربت

(1) «وهو مقدم بيت الإسبتار» فى الأصل، والتصحيح من الروض الزاهر ص ٣٧٨، السلوك ج ١ ص ٥٩١.

والمعروف أن صاحب أنطرطوس هو مقدم الداوية.

(2) «وسأل» فى الأصل، والتصحيح يتفق مع السياق.

(3) انظر الفقرة السابقة حيث كرر العينى بعض ما نقله عن ابن كثير.

(4) «عليهم» ساقط من البداية والنهاية.

(5) «اثنى عشرة» — البداية والنهاية

(6) [ ] إضافة من البداية والنهاية.

الجـزيرة[1] جاءتها ريح قاصف ، وصادفت[2] بعضها بعضا ، فتحطم منهـا أحد عشر مركبا[3] بإذن الله عز وجل ، فغرق خلق وأسر [الفـرنج][4] من الصُناع والرجال قريب من ألف وثمانمـائة إنسان فـ ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾[5] .

وقال بيبرس فى تاريخه : هـذه الطّامة التى حصلت على المسلمين بعـد فتح القرين[6] ، فقال : خرج السلطان من دمشق بعـد فراغه من الجهات التى ذكرناها فى العشر الآخر من شوال ، وسار إلى القرين ونازله فى ثانى ذى القعدة ، وأخذت باشورته[7] ، وسأل مَنْ فيه الأمان ، فكتب لهم أمانا ، وتقرّر خروجهم وتوجّههم حيث شاءُوا ، وأنهـم لا يستصحبون مالا ولا سلاحا ، وتسلّم السلطان الحصن وأمر بهدم قلعته ، ثم سار عنه ونزل اللجون ، وتقدمت مراسمه إلى النواب[8] بالديار المصريّة وتجهيز الشوانى وتسفيرها إلى قبرس ، فجهزّها النواب ، وسفّروها صحبة مقدم البحر ورؤساء[9] الخلافة ، فلما وصلت إلى مَرْسَى النَمْسُون[10] تحت قبرس جنّها

---

(١) « المدينة » فى البداية والنهاية .

(٢) « وصدم » فى البداية والنهاية .

(٣) « فانكسر فيها أربعة عشر مركبا » فى البداية والنهاية ، وانظر ما سبق عن عدد الشوانى فى البداية والنهاية .

(٤) [ ] إضافة من البداية والنهاية .

(٥) جزء من الآية ١٥٦ من سورة البقرة رقم ٢ .

(٦) انظر ما يلى .

(٧) الباشورة : سد من التراب يمنع وصول الخيالة أو غيرهم إلى موضع المحاربين — ملحق دوزى

(٨) « الملوك » فى الأصل والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٩) « والرؤساء » فى الأصل ، التصحيح من زبدة الفكرة .

(١٠) هو ميناء ليماسول Limassol الحالى .

الليــل ، وتقدَّم الشينى الأوَّل داخلا على أنه يقصد الميناء ، فصادف الشعاب فى الظلماء ، فانكسر ، وتبعـه الشوانى واحدا فواحدا ، ولم تعـلم بمـا أصابه ، فانكسروا فى دجى الليل جميعا ، وأسَرهم أهل قبرس ، وكان ابن حسُّون المقدَّم قد أشار برأى ، تطيَّر الناس منـه ، وهى أن تطلى [الشوانى](١) بالقار ، ويعمل عليها الصلبان لتشتبه على الفرنج بشوانيهم ، فيتمكن من موانيهـم ، فاقتضى تغيير شعارها بمـا أراد الله من انكسارها .

وورد كتاب صاحب قبرس إلى السلطان يخـبر بأن شوانى مصر [٥٦٥] وصلت إلى قـبرس ، وكسرها الريح وأخذتها ، وهى أحد عشر شينيا ، فأمر [السلطان](٢) بأن يُكتب جوابه ، فكُتب إليه هذه المكاتبة :

إلى حضرة الملك أُوَكْ دلزنيال(٣)، جعله الله ممن يوفى الحق لأهله ، ولا يفتخر بنصر إلا إذا أتى قبله أو بعده بخير منه أو مثـله ، نُعلمه أن الله إذا أسْعَدَ إنساناً دفع عنه الكثير من قضائه باليَّسير ، وأحسن له التدبير فـيما جرت به المقـادير ، وقد كنت عرفتنا أن الهواء كسر عدةً من شـوانينا وصار بذلك يتبجح ، وبه يفرح ، ونحن الآن نبشره بفتح القرين ، وأين البشارة بتملك القُرين من البشارة بمـا كفى الله ملكنا من العين ، وما العجب أن يفتخر بالاستيلاء على حديد وخشب ، الاستيلاءُ على الحصينة هو العجب ، وقـد قال وقلنا ، وعـلم الله إن

(١) [ ] إضافة للتوضيح — انظر الروض الزاهر ص ٣٨٧

(٢) [ ] إضافة للتوضيح .

(٣) هو ج هيو دي لوزنيان (لوزجنان) "Hugh de lusignan"

قولنا هو الصحيح ، واتكل واتكلنا ، وليس(١) من اتكل على الله وسيفه كمن اتكل على الريح ، وما النصر بالهواء مليح ، إنما النصر بالسيف هو المليح ، ونحن نُنْشيء في يوم واحد عدة قطائع(٢) ، ولا يُنْشَأ لكم من حصن قطعة ، ونجهز مائة قلع ولا يُجهز لكم في مائة سنة قلعة ، وكل من أُعطى مقداف قذف ، وما كل من أُعطى سيف أحسن الضرب به أو عرف ، وإن عُدمت من بحرية المراكب آحاد فعندنا من بحرية المراكب(٣) ألوف ، وأين الذين يطعنون بالمقاديف(٤) في صدر(٥) البحر من الذين يطعنون بالرماح في صدر(٦) الصفوف ، وأنتم(٧) خيولكم المراكب ونحن(٨) مراكبنا الخيول ، وفرق بين مَنْ يُجْريها كالبحار ومَنْ تقفُ به في الوحول ، وفرقٌ بين مَنْ يتصيَّد على الصقور من الخيل العِراب ، وبين مَنْ إذا افتخر قال : تصيدت بغراب ، فلئن كنتم أخذتم لنا قرية مكسورة فكم أخذنا لكم قرية معمورة ، وإن استوليتم على سكان فكم أخليتا بلادكم من سكان ، وكم(٩) كتبت(١٠)

---

(١) « وأين » — الروض الزاهر ص ٣٨٨ .

(٢) « وفي يوم نُنْشيء عدة قطائع » — الروض الزاهر ص ٣٨٨

(٣) المواكب » في زبدة الفكرة ، ويبدو أنه تحريف من الناسخ .

(٤) « المجاديف » في زبدة الفكرة .

(٥) ، (٦) « في صدور » — الروض الزاهر ص ٣٨٨

(٧) « أنتم » ساقطة من الروض الزاهرة .

(٨) « نحن » ساقطة من الروض الزاهر .

(٩) « وكم » في الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(١٠) « كتبت » في الروض الزاهر ص ٣٨٨

وكسبنا ، فترى أينا أغنم ، ولو أن في الملك سكوتا كان الواجب عليه [أن](١)
سكت وما تكلم(٢) .

ذكر فتح عكار :

نزل السلطان على عكار(٣) فى سابع عشر رمضان [المعظم](٤) ومهد الطرقات لطلوع المجانيق ، واشتد [٥٦٦] أهله فى المناضلة ورمى(٥) الحجارة والمجانيق ، واستشهد عليه ركن الدين منكورس الدوادارى ، وكان يصلى فى خيمته ، فجاءه حجر فمات من وقته ، وشددت العساكر الحصار(٦) ، وأخذوا النقوب تحت الأسوار(٧) ، فلما رأوا أنهم عاجزون عن مقابلتهم طلبوا الأمان ورفعت عليه السناجق ، وخرجت أهله فى سلخ الشهر ، فجهزوا إلى مأمنهم : وعيد السلطان بها عيد الفطر ، ثم رحل إلى مخيمه بالمرج ، فقال القاضى محيي الدين بن عبد الظاهر فى ذلك(٨) :

---

(١) (أن) إضافة من الروض الزاهر .

(٢) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٣ ب — ٧٤ ب وانظر أيضا الروض الزاهر ص ٢٨٧ — ٢٨٨ ورقة ٦٦ — ٥٦ ، كنز الدرر جـ ٨ ص ١٦٢ .

(٣) عكار : حصن على جبل عكار شمالى طرابلس — معجم البلدان .

(٤) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٥) « ونصبت عليها » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٦) « فى » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٧) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٢ ب .

(٨) « وكتبت البشائر إلى البلاد الإسلامية بما فتح الله به ، وكتب إلى صاحب طرابلس كتابا بإنشاء القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر » — انظر كنز الدرر جـ ٨ ص ١٥٥ — ١٥٧ .

يا مليك الأرض بشرا لك فقد نلت الإرادة
إن عكار يقينا هي عكا وزيادة (١)

وكان هذا الحصن شديد الضرر على المسلمين ، وهى فى وادى بين جبال .

ثم إن السلطان نفق فى العساكر بنفقة كاملة ، ثم بعد النفقة سار طالبا مدينة طرابلس ، وقد أمر العساكر فلبسوا الجواشن (٢) والخُوَذ (٣) ، وساروا بأُهْبة الحرب ، وأحاطوا بطرابلس إحاطة الهالات بالأقمار ، والأكام بالأثمار ، فلما عاين بُرنس طرابلس قدوم العساكر وهجومهم كالسيل الهامر أرسل يسأل الصلح ، فأجابه السلطان إليه (٤) .

وقال ابن كثير : أرسل إليه صاحبها يقول : ما مرادك أيها السلطان فى هذه الأرض ؟ فقال : جئت لأرعى زرعكم (٥) وأخرب بلادكم ، ثم أعود إلى حصاركم فى العام الآتى إن شاء الله تعالى ، فأرسل يستعطفه ويطلب منه المصالحة ووضع الحرب بينهم عشر سنين ، فأجابه إلى ذلك (٦) .

---

(١) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٣ أ ، الروض الزاهر ص ٣٨١ ، المختصر جـ ٤ ص ٩ .

(٢) جوشن = جواشن : الدروع ــ محيط المحيط .

(٣) الخوذة : تلبس على الرأس ، وتصنع من الجلد أو الحديد ، وتحلى بالذهب أو الفضة ــ صبح الأعشى جـ ٢ ص ٤٧٣ .

(٤) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٣ أ .

(٥) « زروعكم » فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٩ .

(٦) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٩ ، كنز الدرر جـ ٨ ص ٥٧ أ ــ ١٥٨ .

وأرسل إليه الإسماعيلية يستعطفونه على والدهم ، وكان مسجونا بالقاهرة ، فقال : سلموا [إلى] العُلَيْقة(١) وانزلوا لخذوا إقطاعات بالقاهرة وتسلموا آباكم ، فلما نزلوا أمر بحبسهم فى القاهرة ، وقد استناب بحصن العُلَيْقة(٢) ، وخرجت من يد الإسماعيلية من ذلك الوقت .

ثم رجع السلطان ودخل دمشق يوم الأربعاء خامس عشر شوال من هذه السنة ، وعزل القاضى شمس الدين بن خلكان(٣) ، وكان له فى القضاء عشر سنين ، وولى القضاء عز الدين بن الصائغ(٤) ، وكان تقليده قد كُتِبَ [٥٦٧] بظاهر طرابلس ، بسفارة الوزير بهاء الدين بن الحنَّا ورأيه ، فسافر ابن خلكان فى ذى القعدة إلى الديار المصرية .

وفى حادى عشر(٥) شوال «دخل الشيخ خضر الكُردى»(٦) شيخ السلطان وأصحابه إلى كنيسة اليهود ، فصلوا فيها ، وأزالوا ما فيها من شعائر اليهود ، ومدُّوا فيها سماطا ، وعملوا سماعا ، وبَقُوا كذلك أياما ، ثم أُعيدت إلى اليهود .

---

(١) [ ] إضافة من البداية والنهاية .

(٢) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٥٩ .

(٣) توفى سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م — فوات الوفيات جـ ١ ص ١٠٠ رقم ٤٥ .

(٤) هو محمد بن عبد القادر بن عبد الخالق بن خليل بن مقلد بن جابر ، الشهير بابن الصائغ ، المتوفى سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م — انظر ما يلى فى وفيات ٦٨٣ هـ .

(٥) « وفى ثانى » فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٠ .

(٦) « دخل حصن الكردى » فى البداية والنهاية ، وهو إضطراب فى النص وتحريف .

ذكر فتح القُرَين :(١)

خرج السلطان من دمشق فى العشر الآخر من شوال(٢) وأتى إلى الساحل ، ثم سار إلى القُرَين ونازله ، وأخذ باشورته فى ثانى ذى القعدة ، وقد ذكرنا بقية الكلام الآن ، فحاصله أنه أخذ الحصن وأمر بهدم قلعته ، ثم سار عنه ونزل اللجون(٣) ، وتقدمت مراسيمه إلى النُواب بالديار المصرية بتجهيز الشوانى ، وقد ذكرناه مفصلا عن قريب(٤) ، ثم إن السلطان جاء إلى عكا وأشرف عليها وتأملها ، ثم سار إلى الديار المصرية . وكان مقدار ماغرمه فى هذه السَرحة والغزوات قريبا من ثمانمائة ألف دينار ، وكان وصوله إلى القاهرة يوم الخميس ثالث عشر(٥) ذى الحجة .

ولما دخل القاهرة أمر بعمارة الشوانى و باشرها بنفسه ، فعمّر فى أقرب مدة ضِعفَىْ ما انكسر .

وفى اليوم الثانى من وصوله(٦) مسك السلطان جماعة من كبار الأمراء منهم :

---

(١) القرين : حصن قرب صفد ، كان المركز الرئيسى لفرسان التيوتون ــ الروض الزاهر ص ٣٨٥ .

(٢) « فى رابع عشرين منه » ــ الروض الزاهر ص ٣٨٥ .

(٣) اللجون : هناك أكثر من موضع ببلاد الشام بهذا الاسم ، والمقصود هنا بلد بالأردن بينه و بين طبرية عشرون ميلا ، و يبعد عن الرملة أربعين ميلا ــ معجم البلدان .

(٤) انظر ماسبق ص ٧٢ ــ ٧٣ .

(٥) « ثانى عشر » فى الروض الزاهر ص ٣٨٩ ، السلوك جـ ١ ص ٥٩٥ .

(٦) « فى خامس عشر ذى الحجة » فى كنز الدرر جـ ٨ ص ١٦٣ .

[علم الدين سنجر](١) الحلبي، وعز الدين إيغان(٢) سم الموت ، و[أقوش](٣) المحمدى وغيرهم(٤) ، بلغه أنهم أرادوا أن يفتكوا به وهو على الشقيف .

وفى اليوم السابع عشر من ذى الحجة أمر بإراقة الخمور من سائر بلاده ، وتهدّد مَن يعصرها بالقتل ، وأسقط الضمان فى ذلك ، وكان بالقاهرة وحدها ألف دينار ، وسارت البُرد بذلك إلى الآفاق بأمر بذلك .

ذكر بقيّة الحوادث :

منها : أن فى ربيع الأول بلغ السلطان الملك الظاهر أنّ أهل عكا ضربوا رقاب مَنْ فى أيديهم من أَسْرَى المسلمين صَبْرًا بظاهر عكا ، فأمر بمَن كان فى يده من أسارى عكا ، ففرِّقُوا جميعهم ، وكانوا قريبا من مائة نفر .

ومنها : [٥٦٨] أن فى الجمعة الثامن والعشرين من ربيع الآخر أقيمت الخطبة فى جامع المنشية ، بحسَبْ كمال بنائه .

ومنها : أن فى يوم الأحد الثانى عشر من شوال جاءَ سَيْلٌ عظيمٌ إلى دمشق ، فأتلف شيئًا كثيرا ، وغرق بسببه أناس كثير أيضا لا سيما الحجاج من الروم ، أخذهم وجمالهم فهلكوا ، وغلقت أبواب البلد ، ودخل الماءُ من مرامى السُّور

(١) [ ] إضافة من السلوك جـ ١ ص ٥٩٥ .

(٢) « يغال » فى الأصل ، والتصحيح من السلوك .

(٣) [ ] إضافة من السلوك .

(٤) انظر السلوك جـ ١ ص ٥٩٥ .

ومن باب الفراديس ، فغرق خان بن مقـدّم ، وأتلف شيئاً كثيرا ، وكان ذلك في زمن المشمش .

وفي تاريخ بيبرس : أتى على كلّ شيء بجمله كالرميم (١) ، وطلع في سور دمشق قدر رمح ، وأغرق حيوانات كثيرة ، وأفسد عدة أدُر بدمشق ، وأغرق من العالم ما لا يحصى ، ونضب ، فلم يعلم من أين اجتمع وإلى أين ذهب ، ويقال إنه هلك به تقدير عشرة آلاف نفس ، وأخذ الطواحين بحجارتها (٢) .

ومنها : أن صاحب صور (٣) سأل الصلح فأُجيبَ ، وتقرر الصلح ، وحصل الاتفاق على أن يكون له عشرة بلاد خاصًا ، ويكون للسلطان خمس بلاد يختارها خاصًّا ، وبقيّة البلاد مناصفة .

ومنها : أنه ورد كتاب نَيْسُو نوغاى (٤) قريب الملك بركة ، وهو أكبر مقدمى جيشه ، نسخته :

صدر هذا الكتاب : من نَيْسُو نوغاى إلى الملك الظاهر ، أحمد الله تعالى على أن جعلنى من جملة المسلمين ، وصَيَّرنى ممن يتبعُ الدين المستبين (٥) ، و بعد :

---

(١) « وطلع السيل على » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٢) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٣ أ ، الروض الزاهر ص ٢٨٤ — ٢٨٥ .

(٣) « الصور » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٤ ب .

(٤) « بوسو نوغاى » فى الروض الزاهر ص ٣٧١ ، السلوك جـ١ ص ٥٩٠ .

(٥) يوجد بعد هذه العبارة فى الروض الزاهر صيغة تصلية نصها : « وأصلى على مختتم الرسالة ، ومعلم الدلالة ، إمام المرسلين ، وقوام المتقين ، محمد — صلى الله عليه وسلم — ، وعلى إخوانه النبيين ، وأصحابه المحبين ، أرباب الحق ، وأصحاب التمكين » — الروض الزاهر ص ٣٧١ .

فإن كتابنا هذا يحتمل على معنيين : أحدهما : التحيّة والسلام منا إليك . والثانى : أنا سمعنا من أرفوغا[1] أنه لصدق عهده مع أبينا بركة خان استخبر عن أولاده وأقربائه ومَنْ أسْلم منهم ، فلما أخبر[2] هذا الخبر أخلصْنا المحبّة للملك الظاهر ، الوفىّ بالعهود ، وقلنا : ما استخباره عنا إلَّا لحميّته فى الإسلام وصدق نيّته فى تجديد العهود ، وكتبنا هذا الكتاب على يد أريتمو وتوق بغا ، معلماً أنا دخلنا فى الإسلام ، وآمنا بالله ، وبما جاء من عند الله ، وبرسول الله [محمد][3] صلى الله عليه وسلم ، فيثق بما قلناه ، ويستن[4] بسنة أبينا بركة خان ، ويتبع الحق ، ويجتنب [٥٦٩ هـ] البطلان ، ولا يقطع إرسال المكاتبة ، فنحن معك كالأنامل لليد ، نوافق من يوافقك ، ونخالف من يخالفك .

فكتب جوابه : صدرت هذه المكاتبة إلى سامى مجلس العزيز الأصيل ، المجاهد فى سبيل ربه ، المستضىء بنور قلبه ، ذخيرة المسلمين ، وعون المؤمنين ، نيسونوغا[5] ، عمَّر الله قلبه بالإيمان ، وجعله من أمر دنياه وأخراه فى أمان ، وعامله بما عامل به التابعين بإحسان ، نُعلِمه[6] بورود كتاب منه ، سَرّ السمع والقلب ، وحكم للتوفيق بالغلب ، ووجدناه مقصورا على أفهام ما هو عليه من صحة الإعتقاد والإقتفاء لأثر الملك بركة خان فى اجتهاد فى الدين

(١) « أربوغا » فى الروض الزاهر ص ٣٧١ .

(٢) « خبر » فى الروض الزاهر .

(٣) [ ] إضافة من الروض الزاهر .

(٤) « وأنا نستن » فى الروض الزاهر .

(٥) « يسونوغا » فى الروض الزاهر

(٦) « نعلم » فى الروض الزاهر .

وجهاد ، وهذا كان عندنا منه أمرٌ لا نترك مثلَه ولا نُلغى ، وقد تلونا قوله تعالى : ﴿ ذلك ما كنا نبغ ﴾ (١) ، وحمدنا الله على أن كثّر به حزب المؤمنين ، وجعله فى ذلك الجانب مُتَبتِّلا لقتال الكافرين ، وقد عُلِمَ أن الرسول (٢) جاهَد عشيرتَه الأقربين ، وأنكر على مَنْ رضِىَ أن يكون مع القاعدين ، والقصد التذكار بذلك ، وإبلاغ التحيةُ لمن فى الجانب المحروس ، ممَّن نور الله بصيرته حتى اهتدى للحق ، واقتدى بالملك بركة خان ، رضى الله عنه ، فى جهاده ، وداوم على الجهاد ، الذى كتب اللهُ لنا أجْره ، فى الغرب ، ولهم أجره فى الشرق ، حتى تنكسر شوكة الكفار ، ويعلم الكافر لمن عقبى الدار ، ويخذل أنصار المشركين ، ﴿ وما للظالمين من أنصار ﴾ (٣) وتمته تتضمن الأشلاءَ على التتار والإغراء بهم (٤) .

وفيها : « ... ... » (٥) .

وفيها : حج بالناس « ... ... » (٦) .

---

(١) جزء من الآية رقم ٦٤ من سورة الكهف رقم ١٨ .

(٢) « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم » فى الروض الزاهر .

(٣) جزء من الآية ٢٧٠ من سورة البقرة رقم ٢ .

(٤) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٤ ب — ٧٥ ب ، الروض الزاهر ص ٢٧١ — ٢٧٢ ، جامع التواريخ جـ ٢ ص ٢٠٦ .

(٥) ، (٦) « ... .. » موضع بياض بالأصل .

ذكر من تُوفى فيها من الأعيان

قاضى القضاة شرف الدين أبو حفص عمر(١) بن عبد الله بن صالح بن عيسى السبكى المالكى .

ولد سنة خمس وثمانين وخمسمائة ، وسمع الحديث ، وتفقه ، ودرس ، وأفتى بالصالحية(٢) ، وولى حسبة القاهرة ، ثم ولىَ قضاء القضاة سنة ثلاث وستين ، لما ولّوا من كل مذهب قاضيا ، وقد مرّ أنه امتنع أشد الامتناع ، وإنما أجاب بعد إكراه ، وشرط أن لا يأخذ جامكيةً ، وكان مشهورا بالعلم والدين ، روى عنه القاضى بدر الدين بن جماعة وغيره ، وكانت [٥٧٠] وفاته لخمس بقين من ذى القعدة بالقاهرة ، ودفن بمقابر باب النصر

الشيخ عمر السنجارى(٣) من أصحاب على بن وهب .

وسبب وفاته : أن الفقراء اجتمعوا فى زاوية الشيخ مذكور الجعفارى ببلبيس ، وكانت ليلة جمعة : ومعهم قوّال يسمى أسعد الفاقوسىّ ، فقرأ القارئ : ﴿ أينما تكونوا يدرككم الموْت(٤) ﴾ . فتواجد الشيخ عمر المذكور وقام وقعد ، فأنشد القوّال :

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٦ أ ، الوافى جـ ٢٢ ص ٥٠٢ رقم ٣٥٢ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٠ ، والسلوك جـ ١ ص ٥٩٦ .

(٢) « بالصلاحية » فى البداية والنهاية .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٥ ب .

(٤) جزء من الآية ٧٨ من سورة النساء رقم ٤ .

لئن عاد جمعُ الشمل فى ذلك الحمى ... غفرت لدهرى كل ذنب تقدّما
وإن لم يَعُدْ مُنْيتُ نفسى بعودةٍ ... وماذا عسى تجدى الأمانى وكلّما
يحق لقلبى أن يذُوبَ صبابةً ... وللعين أن تجرى مدامعُها دمًا
على زمنٍ ماضٍ بكُم قد قطعتُه ... لبستُ به ثوب الخلاعة مُعْلِماً

فقام الشيخ وتواجد ووقع إلى الأرض ، فانقطع حِسُّه فحركوه فإذا هو ميت (١) .

الشيخ أبو إبراهيم إسحاق (٢) بن أبى الثناء محمود بن أبى الفياض بن على البُرُوجِردى (٣) الصوفى المشرف ، المنعوت بالشمس .

مات فى ضحوة النهار الخامس من المحرم بالقاهرة ، ودفن من يومه بسفح المقطم ، ومولده فى الثانى عشر من شهر ربيع الأول سنة سبع وسبعين وخمسمائة ببَرُوجِرد ، سمع وحدّث ، وكان يكتب خطا حسنا ، وكان من أكابر مشايخ الصوفية ، مشهورا عندهم ، مقدّما فيهم .

ابن سَبْعين (٤) قطب الدين أبو محمد عبد الحق بن أبى إسحاق إبراهيم بن سبعين المَرسى الرقوطى ، نسَبةً إلى رقوطة بلدة قريبة من مُرْسِيَة .

---

(١) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٥ ب .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة جـ ١ ورقة ٧٥ ب .

(٣) بروجرد : بالفتح ، ثم الضم ، ثم السكون ، وكسر الجيم ، وسكون الراء ، ودال ، مدينة خصبة بين همدان والكرج — معجم البلدان .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، وفيه توفى سنة ٦٦٨ هـ ، العقد الثمين جـ ٥ ص ٣٢٦ رقم ١٧ ، فوات الوفيات جـ ٢ ص ٢٥٣ رقم ٢٤٢ ، السلوك جـ ١ ص ٥٩٧ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٣٢ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٢٩ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦١ ، العبر جـ ٥ ص ٢٩١ — ٢٩٢ .

وُلِد سنة أربع عشرة وستمائة ، واشتغل بعلوم الأوائل والفلسفة ، فتولد له من ذلك نوع من الإلحاد ، وصنف فيه ، وكان يعرف السيمياء ، [وكان يلبس بذلك على الأغبياء من الأمراء والأغنياء](١) أنه حال ، وله مصنفات منها كتاب « الهو » ، وقد أقام بمكة واستحوذ على عقل صاحبها أبي نمى ، وجاور فى بعض الأوقات بغار حراء ، يرتجى فيما نقل عنه أن يأتيه فيه وحى [٥٧١] بناء على معتقده الفاسد من أن النبوة مكتسبة ، فما حصل له إلا الخزى فى الدنيا ، ويوم القيامة يُرَدّ إلى أمه الهاوية ، إن كان مات على ما ذكرعنه من العظائم ، وكانت وفاته فى الثامن والعشرين من شوال بمكة ، وقد حط عليه ابن تيمية فى كتابه المسمى ببغية المراد حطًّا شنيعا ، عليه وعلى أمثاله ممن ذهبوا إلى الحلول والإتحاد .

القاضى شمس الدين إبراهيم بن البازرى(٢) ، قاضى القضاة بحماة .

ماتَ فى هذه السنة .

الشيخ الفقيه أبو الرضى عمر(٣) بن على بن أبى بكر بن محمد بن بركة بن محمد الحنفى ، المعروف بابن الموصلى ، المنعوت بالرضى .

مات فى الثانى عشر من شهر رمضان بالقاهرة ، ودفن من يومه بسفح المقطم ، ومولده بميافارقين فى سنة أربع عشرة وستمائة ، تفقه على مذهب الإمام

(١) [ ] إضافة من البداية والنهاية .
وبوجد بدلا منهما فى الأصل « على الأغنام » ، وهو تحريف .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : العبر جـ ٥ ص ٢٩١ ، السلوك جـ ١ ص ٥٩٧ ، المختصر جـ ٤ ص ٧ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٣١ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، وفيه توفى سنة ٦٧٠ هـ .

أبي حنيفة رضي الله عنه ، ودرّس ، وأفتى ، وحدّث ، وكان أحد المشايخ المشهورين بالفضل ، المعروفين بالرئاسة ، وله نظم حسن ، وخطّ جيّد .

الأمير شرف الدين أبو محمد عيسى[(١)] بن الأمير أبي عبد الله محمد بن أحمد بن إبراهيم بن كامل الكُردي الهكاري .

مات بدمشق في الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر، ودفن بجبل قاسيون ، سمع من ابن طبرزد ، والكندي ، وغيرهما ، وحدّث ، وكان أحد الأمراء المشهورين بالشجاعة ، المعروفين بالإقدام ، وله وقائع معروفة مع العدو المخذول بأرض الساحل وغيرها .

الملك تقي الدين عباس[(٢)] بن السلطان الملك العادل أبي بكر بن أيوب .

وهو آخر من بقي من أولاد العادل ، وقد سمع الحديث من الكندي ، وابن الحرستاني[(٣)] ، وغيرهما ، وكان محترما عند الملوك ، لا يرفع عليه أحد في المجالس ولا في المواكب ، وكان دمث الأخلاق ، حسن العشرة ، لا تملّ مجالسته ، وتوفي يوم الجمعة الثاني والعشرين من جمادى الأولى بدَرْب الريحان بدمشق ، ودفن بسفح جبل قاسيون .

الطواشي شجاع الدين مُرْشِد[(٤)] المظفري الحموي .

---

(١) وله أيضا ترجمة في : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٥ ب ، النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٢٣٣ .

(٢) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٣٢ ، البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢٦٠ ، الوافي جـ ١٦ ص ٦٦٠ رقم ٧١٢ ، ذيل مرآة الزمان جـ ٢ص ٤٦٠ .

(٣) هو عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل بن علي بن عبد الواحد الأنصاري الدمشقي الشافعي ، ابن الحرستاني ، المتوفى سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٦م - سير أعلام النبلاء جـ ٢٢ ص ٨٠ - ٨٤ رقم ٥٨ .

(٤) وله أيضا ترجمة في : البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢٦٠ ، المختصر جـ٤ ص ٧ .

كان من الأبطال المشهورين ، ذوى الرأى ، وكان ابن أستاذه لا يخالفه ، وكذلك الملك [٥٧٢] الظاهر ، ومات بحماة ودفن بتربته بالقرب من مدرسته التى بناها بحماة .

الملك المجير هيثوم بن قسطنطين ، صاحب سيس .(1)

هلك فى هذه السنة ، وملك بعده ابنه ليفون بن هيثوم الذى كان المسلمون أسروه .

(1) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ٧٥ ب ، المختصر ج ٤ ص ٦ – ٧ .

فصل فيما وقع من الحوادث
في السنة السبعين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة هو : الحاكم بأمر الله العباسي .

وسلطان البلاد المصرية والشامية : الملك الظاهر بيبرس البندقداري الصالحي .

وصاحب بلاد الروم : ركن الدين قليج أرسلان السلجوقي ، ولكنه تحت حكم التتار .

وصاحب البلاد العراقية وخراسان وأذربيجان وغيرها من البلاد : أبغا ابن هلاون .

وصاحب البلاد الشمالية : منكوتمر .

وصاحب الغرب : أبو يوسف يعقوب المريني .

وفي يوم الأحد الرابع عشر من محرم هذه السنة ركب السلطان الملك الظاهر إلى البحر لإلقاء الشواني التي عملت (1) عوضاً عما غرق بجزيرة قبرس ، فركب في شيني منها ، ومعه الأمير بدر الدين الخازندار ، فمال بهم المركب ، فسقط الخازندار (2) في البحر ، فغاص في الماء ، فألقى رجل نفسه وراءه ، فأخذ بشعره وأنقذه من الغرق ، فخلع السلطان على ذلك الرجل وأحسن إليه جزيلا (3) .

(*) يوافق أولها الأحد ٩ أغسطس ١٢٧١ م .

(1) « عملت » في البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦١ .

(2) « الخزندار » في الأصل .

(3) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦١ .

ذِكْرُ سَفْرَةِ السُّلْطانِ الملك الظاهر إلى ناحية الشام :

وفى أواخر المحرم[(١)] منها ، ركب السلطان فى نفر يسير من الخاصكيّة والأمراء من الديار المصرية ، فجاء إلى الكرك ، واستصحب نائبها عز الدين أيدمر[(٢)] الظاهرى أستاذ الدار معه ، ورتب علاء الدين أيدكين الفخرى أستاذ الدار نائب السلطنة بها ، ثم توجه إلى دمشق فدخلها فى الثانى عشر من صفر[(٣)] ، ومعه عز الدين أيدمر المذكور ، فولاه نيابة دمشق ، وعزل جمال الدين أقوش النجيبى فى رابع عشر صفر .

وفى مستهل ربيع الأول خرج من دمشق[(٤)] فتوجه إلى شيزر وحمص وحصن الأكراد وحصن عكّار وكشفهم[(٥)] ، ثم عاد إلى دمشق بعد عشرة [٥٧٣] أيام ، وجاء إليه الأخبار بأن التتار أغاروا على عينتاب ، ثم توجهوا إلى عُمق حارم ، ومقدّمهم يُسمّى صَمغار ، فوقعوا على طائفة من التركمان بين حارم وأنطاكية ، فاستأصلوهم ، فكتب السلطان إلى الديار المصريّة يستدعى الأمير بدر الدين

(١) « ليلة سابع وعشرين المحرم » — الروض الزاهر ص ٣٩١ ، كنز الدرر جـ ٨ ص ١٦٤ .

(٢) هو أيدمر بن عبد الله الظاهرى ، الأمير سيف الدين التركى ، المتوفى سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م — المنهل الصافى جـ ٣ ص ١٨٣ رقم ٦٠٩ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٣٥ ، درة الأسلاك ص ١٥٣ ، نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٩ ورقة ١٢٨ .

(٣) « فدخلها فى ثالث عشر » — السلوك جـ ١ ص ٥٩٨ .

(٤) « من ظاهر حماة » فى السلوك جـ ١ ص ٥٩٩ ، الروض الزاهر ص ٣٩٥ .

(٥) « وكشفها » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٦ أ .

بيسرى[1] الشمسى وثلاثة آلاف فارس من العسكر، فوصل البَريدى إلى الأمير بدر الدين الثالثة من ليلة الأربعاء الحادى والعشرين من ربيع الأول، فتجهز وخرج بكرة الأربعاء هو والعسكر المطلوب، فسافروا ووصلوا إلى دمشق فى رابع ربيع الآخر، وأما التتار فإنهم أغاروا على حارم والمروج وقتلوا جماعة، فتأخر نائب حلب والعسكر إلى حماة، وجفل أهل دمشق، فلما وصل البيسرى والعسكر إلى دمشق سار السلطان بالعساكر إلى حلب، وجرّد إلى كل جهة عسكرا صحبة أمير من أمرائه، فجرد الحاج طيبرس الوزيرى[2] وعيسى بن مُهَنّى[3] إلى مرعش[4]، فقتلا من وجداه بها من التتار، وانكفّوا بحركة السلطان، وكان الفرنج قد تحركوا بالساحل وأغاروا على قاقون وقتلوا الأمير حسام الدين أستاذ الدار وبعض من كان معه، فلما لحقتهم العساكر تفرقوا وعادوا، ولما سكّن السلطان هذه الثوائر[5] عاد إلى الديار المصرية .

(١) هو بيسرى بن عبد الله الشمسى الصالحى، الأمير بدر الدين، المتوفى سنة ٦٩٨هـ/ ١٢٩٨م — المنهل الصافى جـ ٣ ص ٥٠٠ رقم ٧٤١، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢١٤، درة الأسلاك ص ١٤٤ .

(٢) هو طيبرس بن عبد الله الوزيرى، الأمير الكبير، الحاج علاء الدين، توفى سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م — المنهل الصافى، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٨٥ .

(٣) هو عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة، الأمير شرف الدين، المتوفى سنة ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م — انظر ما يلى فى وفيات ٦٨٣هـ .

(٤) «إلى حران والرها» فى الروض الزاهر ص ٣٩٦، والسلوك جـ ١ ص ٦٠٠ .

(٥) فى زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٦ ب .

ذكر عود السلطان إلى مصر :

ولما فرغ شغله من الشام عاد إلى الديار المصرية ، فوصل إلى قلعة الجبل الثالث والعشرين من جمادى الأولى ، وأقام فيها إلى شعبان ينظر فى مصالح المسلمين ، ثم خرج .

ذكر خروج السلطان من الديار المصرية إلى الديار الشامية ثانى مرة :

وفى شهر شعبان (١) خرج السلطان وتوجه إلى أراضى عكا ، فأغار عليها فسأله صاحبها المهادنة ، فأجابه إلى ذلك ، فهادنه عشر سنين وعشرة أشهر وعشرة أيام وعشر ساعات ، ثم عاد إلى دمشق فقرئ كتاب الصلح بدار السعادة ، فاستمر الحال على ذلك .

وقال بيبرس : وعاد السلطان إلى الشام وخرج من قلعة الجبل فى شهر شوال ونزل على الروحاء مقابل عكا لأنه مكان كثير المياه والأعشاب ، فحضرت إليه رسل الفرنج ، فزادهم ثمانى ضياع [٥٧٤] وأنعم عليهم بشفرعم ونصف اسكندرونة ، وتقررت الهدنة مع صاحب قبرس (٢) .

وفيها : حضرت إليه رسل البرواناه النائب بالروم ، ورسل صمغار مقدم

(١) « فى شوال » فى زبدة الفكرة — انظر ما يلى .

« وفى ثالث شعبان خرج السلطان » — الروض الزاهر ص ٣٩٨ .

(٢) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٦ ب .

التتار المقيم بها (١)، فجهز الأمير فخر الدين إياز المقرى (٢)، والمبارز الطورى أمير طبر صحبة رسلهما بهدية [إليهما و] (٣) إلى أبغا بن هلاون (٤)، فدخلا قيسارية واجتمعا بصمغار والبرواناه وأوصلا إليهما الهدية، وأبلغاهما جواب الرسالة وتوجها الى الأردو، واجتمعا بأبغا وأوصلا إليه هديته وهى جوشن ريش قنفذ، وخوذة كذلك، وسيف، وقوس، وتركاش، وتسع فردات (٥) [نشابا] (٦).

وفيها: وصل إلى السلطان الخبر أن الإفرنج المرشيلية (٧) أخذوا مركبا فى البحر، فيه رسل الملك منكوتمر ملك التتار ببلاد الشمال، والترجمان الذى توجه إليهم من جهة السلطان، فأحضروهم أسرى إلى عكا، فأرسل الى الإفرنج يطلبهم منهم، فأطلقوهم وأرسلوهم وما أخذوا لهم شيئاً (٨).

---

(١) هو إياز بن عبد الله الصالحى النجمى، المعروف بالمقرى، توفى سنة ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨م - المنهل الصافى جـ ٣ ص ١٢١ رقم ٥٦٧، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ١٥ رقم ٢١، درة الأسلاك ص ٩٣، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٢١.

(٢) طبر: كلمة فارسية بمعنى فأس، وأمير طبر يشرف على حاملى هذا النوع من السلاح حول السلطان فى المواكب - صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥٨، ٤٦١، ٤٨٥.

(٣) [ ] إضافة من زبدة الفكرة.

(٤) « بن هلاون » ساقط من زبدة الفكرة.

(٥) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٦ ب

(٦) [ ] إضافة من الروض الزاهر ص ٣٩٩.

(٧) نسبة إلى مرسيليا، والمقصود المرسيليز Marseillais.

(٨) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٧ أ.

وفيها : سيّرت فداويّة إلى ورد(١) ملك الفرنج بهديّة ، فقفز عليه أحدهم فقتله ، وقُتل الفداوىُّ لوقته ، وكان ذلك جزاء لما فمله من الغارة على قاقون وقتل الحسام أستاذ الدار ﴿ وجزاءُ سَيّئةٍ سَيّئةٌ مِثلُها ﴾(٢) .

وفيها : توجّه السلطان إلى حصن الأكراد وأمر بعمارتها ، وعاد إلى دمشق فدخلها فى خامس المحرم من سنة إحدى وسبعين وستمائة(٣) ، ثم توجه إلى مصر على ما نذكره إن شاء الله فى أوّل السنة الآتية .

ذكر بقيّة الحوادث :

منها : أنه كانت وقعة شديدة بين أبغا بن هلاون و بين بَراق بن يُسَنْتَاى بن ما يُنْقَان بن جغطاى بن جنكزخان(٤) .

ومنها : أنه استقرّ بغرناطة وما معها محمد بن محمد بن نصر بن الأحمر ، فثار عليه ابن عمّة له يعرف بابن الشَقَيْلُولة ، واستمان عليه بأبى يوسف المرينى(٥) وأعطاه

(١) الأمير إدوارد بن هنرى الثالث ملك إنجلترا .

(٢) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٧ أ ، الروض الزاهر ص ٤١ .
جزء من الآية ٤٠ من سورة الشورى رقم ٤٢ .

(٣) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٧ أ .

(٤) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٧ أ .

(٥) هو يعقوب بن عبد الحق بن محيو بن أبى بكر بن حمامة ، أبو يوسف المرينى ، المتوفى ٦٨٥ هـ / ١٢٨٦ م - المنهل الصافى ، الأنيس المطرب ص ٣٢٣ .

مالقةَ وحصونَهـا ، فسار إليه وعاضده ، ولمـا دخل الأندلس جعل مقامه على إشبيلية ، وهذه المدينة مدينة عظيمـة عدة قراها اثنى عشر ألف قرية ، وجهّز أبو يوسف من جيوشه من يَشُنّ الغارات [٥٧٥] من كل جهـة وأقام بهـا عامين، ثم عاد إلى البلاد ، ثم أن محمدا الأحمر لاطف أبا يوسف المرِّينى واستماله إليه ، وسأله إنجاده فأنجده نجدات(١) كثيرة .

ومنها : أن زَرَافَة بقلعة الجبل ولدت وأرضعت من بقرة، قاله قطب الدين، وقال : هذا شىءٌ لم يعهد بمثله، وكان ذلك فى جمادى الآخرة منها(٢) .

ومنها : أن امرأةً بدمشق ولدت فى بطن واحد سبع بنين وأربع بنـات ، وكانت مدةَ حملها أربـع شهور وعشرة أيام وماتوا كلهـم وعاشت هى ، ذكره النَوَيرىّ فى تاريخه .

وفيها : « ... ... »(٣)

وفيها : حج بالنـاس « ... ... »(٤)

(١) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٧ أ .

وانظر تفصيل ذلك فى الأنيس المطرب ص ٣١٣ وما بعدها .

(٢) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٢ .

(٣)، (٤) « ... ... » بياض فى الأصل .

ذكر من تُوفى فيها من الأعيان

الشيخ الفقيه أبو على الحسن(١) بن أبى عمرو عثمان بن على القابسى المالكى المحتسب بالإسكندرية .

توفى بها فى هذه السنة عن سن قريب من مائة سنة ، وكان معروفا بالخير والصلاح .

الشيخ أبو الحسن علىّ(٢) بن عثمان بن محمد الإربلى الصوفى المعروف بالسليمانى .

توفى فيها بمدينة الفيوم ، وكان أحد المشايخ الصوفية المعروفين ، وكان دينا ، فاضلا ، شاعرا .

الشيخ الإمام الفقيه أبو الفضائل سلار(٣) بن الحسن بن عمر بن سَعْد الأربلى الشافعى ، المنعوت بالكمال .

توفى فيها بدمشق ، وكان أحد الفقهاء المشهورين بالشام ، وقد اشتغل عليه الشيخ محيى الدين النَّوَوِىّ ، وقد اختصر البحر للرُّويانى فى مجلدات عديدة .

الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد(٤) بن على بن محمد الموصلىّ المعروف بابن الطباخ .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٧ أ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، وفيه توفى سنة ٦٦٩ هـ ، فوات الوفيات جـ ٢ ص ٣٩ رقم ٣٤٢ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٣٦ السلوك جـ ١ ص ٦٠٤ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٧ أ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٢ ، العبر جـ ٥ ص ٢٩٣ ، السلوك جـ ١ ص ٦٠٤ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٧ ب .

توفى فى الرابع والعشرين من جمادى الآخرة بسارية من قرافة مصر الصغرى، ودفن بها من يومه، حدّث عن الشيخ مرهف بشيء من نظمه، وكان أحد المشايخ المعروفين بالصلاح والخير، وله زاوية بسارية، وكان يُقصد للزيارة والتبرك به.

الشيخ الصالح العارف أبو العباس أحمد(1) بن سَعْد النيسابورى اللهاوُرى الصوفى المنعوت بالصفى.

وكان أحد مشايخ الصوفية المشهورين بالخير والصلاح والعفّة والانقطاع، [٥٧٦] وكانت وفاته بالقاهرة فى الحادى عشر من شهر رمضان، رحمه الله.

وجيه الدين محمد(2) بن على بن أبى طالب بن سُوَيْد التكريتى التاجر، الصدر الكبير ذو الأموال الكثيرة.

وكان معظما عند الدولة ولا سيما عند الملك الظاهر لأنه كان قد أسْدى إليه جميلا فى أيام إمْرته، مات فى هذه السنة ودفن بتربته بالقرب من الرباط الناصرى، وكانت كُتُب(3) الخليفة ترد إليه، وكانت مكاتباته مقبولة عند جميع الملوك حتى ملوك الفرنج من السواحل، وكان كثير البرّ والصدقات.

---

(١) وله أيضا ترجمة فى: زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٧ ب.

(٢) وله أيضا ترجمة فى: العبر جـ ٥ ص ٢٩٤، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٢.

(٣) «كان» فى الأصل، والتصحيح من البداية والنهاية.

الصاحب نجم الدين يحيى[1] بن عبد الواحد بن اللبودى .

واقف اللبودية[2] التى عند حمام فلك المسيرى على الأطباء، وكان فاضلا لديه معرفة، وقد ولى نظر الدواوين فى دمشق ودفن بتربته عند اللبودية .

الشيخ على البكاء[3] صاحب الزاوية بالقرب من مدينة الخليل عليه السلام .

كان مشهورا بالصلاح والعبادة وطعم من يجتاز به من المارة والزوار، وقد ذكرنا من مكاشفاته حين أتى إليه ركن الدين بيبرس البندقدارى وسيف الدين قلاون الألفى لما هربا من عند صاحب الكرك .

وذكر الشيخ قطب الدين اليونينى : أن سبب بكائه الكثير أنه صحب رجلا له أحوال، وأنه خرج معه من بغداد فانتهوا فى ساعة واحدة إلى بلدة بينها وبين بغداد مسيرة سنة ، وأن ذلك الرجل قال له : إنى سأموت فى الوقت الفلانى ، واشهدنى فى ذلك الوقت فى [المكان[4]] الفلانى . قال الشيخ : على ، فلما كان فى ذلك الوقت حضرت عنده وهو فى السياق ، وقد استدار إلى الشرق ، فحولته إلى القبلة، فعاد فاستدار إلى الشرق فحولته . فقال لى : لا تتعب فإنى لا أموت إلا على هذه الجهة ، وجعل يتكلم بكلام الرهبان حتى مات ، فحملناه وجئنا به إلى دير هناك ،فوجدناهم فى حزن عظيم ،فقلنا : ما شأنكم ؟ قالوا : كان عندنا شيخ

---

(١) هو يحيى بن عبد الله بن عبد الواحد اللبودى .
وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢٦٢ ، طبقات الأطباء جـ ٢ ص ١٨٥ ، الدارس جـ ٢ ص ١٣٥ .

(٢) المدرسة اللبودية النجمية بدمشق : خارج البلد ملاصقة لبستان الفلك الدارس جـ ٢ ص ١٣٥ وما بعدها .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : الوافى جـ ٢٢ ص ٣٠٧ رقم ٢٥٠ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٢ ، السلوك جـ ١ ص ٦٠٤ .

(٤) [ ] موضع بياض بالأصل ، والتكملة تتفق مع السياق .

كبير ابن مائة سنة ، فلما كان اليوم مات على دين الإسلام ، فقلنا : خذوا هذا بدله وسلموه إلينا ، فوليناه وصلينا عليه ودفناه .

وتوفى الشيخ على البكاء ، رحمه الله ، المذكور فى رجب من هذه السنة ببلد الخليل [٥٧٧] عليه السلام .

الأمير أبو يوسف يعقوب بن الأمير أبى إسحاق إبراهيم بن موسى بن يعقوب ابن يوسف العادلى الدمشقى الحنفى ، المنعوت بالشرف المعروف بابن المعتمد .

مات فى الثالث عشر من رجب بجبل قاسيون ، ودفن به ، وحدث بدمشق والقاهرة .

فصل فيما وقع من الحوادث

في السّنة الحادية والسّبعين بعد السّتمائة (*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة هو : الحاكم بأمر الله ، والسلطان الملك الظاهر كان في دمشق ، كما ذكرنا ، وخرج منها على البريد ليلة السادس من المحرم من هذه السنة ، ووصل إلى قلعة الجبل يوم الثالث عشر من المحرم ، وأمر بتجهيز العساكر إلى الشام ، وأقام بالقلعة خمسة عشر(1) يوما وخرج(2) .

ذكر سفر السُّلطان إلى الشّام :

خرج من الديار المصرية يوم التاسع والعشرين(3) من محرم هذه السنة ، فوصل إلى دمشق في الثالث من صفر ، وطلع قلعتها ليلا .

وفي هذا الشهر : وصل رُسُل أبغا بن هلاون في أمر الصلح ، وفسّروا كلامهم ، وقالوا : أولا إن السلطان يسيّر سنقر الأشقر يمشي في الصلح ، ثم قالوا : إن السلطان يمشي في الصلح أو من يكون بعده في المنزلة ، فاغتاظ السلطان

(*) يوافق أولها الجمعة ٢٩ يولية ١٢٧٢ م .

(1) « أحد عشر يوما » في الجوهر الثمين ص ٢٧٩ .

(2) « في خامس المحرم وصل الظاهر دمشق من بلاد السواحل التي فتحها وقد مهدها ، وركب في أواخر المحرم إلى القاهرة فأقام بها ستة ثم عاد فدخل دمشق في رابع صفر » — البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٣ ، وهو اضطراب واضح في النص .

(3) « تاسع عشره » في السلوك جـ ١ ص ٦٠٥ .

من هذا الخطاب ، وقال أيضا : إذا كان بقصد الصلح يمشى هو بنفسه ، أو واحد من إخوته ، وأعاد الرسل إلى مرسلهم فى ربيع الأول منها[١] .

ذكر عبور السلطان الفرات :

وكان السبب فى ذلك حضور دُرَيْبَه ومن معه من التتار إلى البيرة، فنزلوا عليها [ونازلوها][٢] ونصبوا عليها المجانيق وآلات الحصار ، وجرد دُرَيْبَه[٣] طائفة منهم صحبة مقدم يسمى جيغرا[٤] إلى الفرات لحفظ المخائض[٥] ، فنزلوا على مخاضة تعرف بمخاضة القاضى ، وأقاموا لهم سياجا من السيب[٦] ، وحاجزا من الخشب ، ونزلوا وراء ذلك السياج ، فسار السلطان بالعساكر الإسلامية المصرية والشامية حتى انتهى إلى [تلك][٧] المخاضة ، وأشرف على التتار من أعلى الجبل ، وهم عليها نازلون ، [وبها محيطون][٨] فاستشار [٥٧٨] الأمراء الأكابر[٩] [ومن جرت عادته بالإشارة فى المشاور][١٠] ، فتقدم إليه الأمير سيف الدين قلاون[١١] وقال : [هؤلاء أهون علينا من أن

(١) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٧ ب ، ٧٨ أ ، الروض الزاهر ص ٤٠٤ .

(٢) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٣) « دريبة » ساقط من زبدة الفكرة ، وورد « دربای » فى الروض الزاهر ص ٤٠٨ .

(٤) « جنقر » فى الروض الزاهر ص ٤٠٥ ، كنز الدرر جـ ٨ ص ١٦٩ .

(٥) هكذا بالأصل بدلا من « مخاوض » — انظر القاموس المحيط .

(٦) « وكان العدو قد عملوا سيبا على البر من جانبهم ليعوق من يطلع إليهم » .

(٧) ، (٨) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٩) « الكبار » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(١٠) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(١١) « سيف الدين قلاون » ساقط من زبدة الفكرة ، ويوجد بدلا من الاسم لفظ « المخدوم » لأن الكلام على لسان بيبرس الدوادار .

نستشير فى أمرهم أو نتوقف دونهم[1] و] أنا أعبر إليهم[2] وأهجم عليهم وإنما أحتاج دليلا يعرفنى المخاضة ، فتقدم الدليل قدامه وتوجه بمن معه من مماليكه وأصحابه ، فاقتحم الفرات وعبر على سفائن كواهل الصافيات ، فثار التتار إليه وحملوا عليه ، فثبت لهم ، وصدمهم صدمةً فرقتهم قوتها ، ومزّقتهم شدتها ، وقتل مقدمهم جَبْغَرا ، قتله زين الدين كتبغا مملوك الأمير سيف الدين قلاون[3] وقتل منهم جماعة[4] ، فعند ذلك عبر السلطان ، وعبرت العساكر ، فلما تكاملت الجيوش شرقى الفرات ولى دُرُبَّية هزيمة ، ورحل عن البيرة ذميما ، وترك آلاته التى أعدها للحصار ، فنزل أهل البيرة تأخذوها واقتسموها ، وسار السلطان إليها ، فخلع على المغيثى النائب بها وعلى مقدميها ، وفرّق فى أهلها أموالا كثيرةً ، ثم عاد إلى دمشق فى ثالث جمادى الآخرة ومعه الأَسْرَى .

وأما دُرُبَّية فإنه لما حضر عند أبغا بن هلاون منهزما ، وقد فقد رفيقه ، وقتل أكثر من معه ، عنّفه أَبْغَا وعدّد له ذُنُوبُه وقال له : كيف انهزمت ؟ وما جُرحت ؟ وقُتــل رفيقك وما قُتلت ؟ وأمر بالحوطة عليه وإبعاده ، وإعطاء تقدمته لأبطاى ، فقال أبطاى : أنا أسُدُّ الخلل وأقوم بما قصّر فيه من العمل.

---

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٢) « أغير عليهم » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٣) « سيف الدين قلاون » ساقط من زبدة الفكرة ، ويوجد بدلا من الاسم لفظ « المخدوم » لأن الكلام على لسان بيبرس الدوادار .

(٤) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٨ ب .

ذكر توجّه السُلطان إلى الديار المصريّة :

ولما فرغ بال السلطان من جهة هؤلاء التتار عاد إلى دمشق ، ثم سار إلى الديار المصريّة ، فطلع قلعته فى الخامس والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة ، وأفرج عن الأمير عز الدين الدمياطى من الاعتقال ، وجلس لشرب القمز (١) بحضرة أمرائه وأعيانه ، فتذاكروا وقعة الفرات ، وأَثْنَوْا على الأمير سيف الدين قلاون فى إقدامه يومئذ ، فأنعم السلطان عليه بثلاثة آلاف دينار عينا ، وفرس بسرج ذهب ، وتشريف كامل ، وجوشن ، وخوذة ، وسيف محلى بالذهب ، فكان مقدار ذلك ألفى دينار عينا ، فتكملت منه من الحباء فى ذلك اليوم خمسة آلاف دينار ، ولما شربوا [٥٧٩] القمز ناول الهناب (٢) إلى الأمير عز الدين الدمياطى ، وكان قد شابت لحيتُه ، فقال يا خوند : شبنا وشاب نبيذنا ، وغنت الأُنَساءُ والشعراءُ بهذه الأبيات (٣) :

زعمت بنو قاقان أن خيولنا ... تخشى العبور إليهُم فى الماءِ
فأتوا (٤) إلى شط الفرات وطلّبُوا ... متهيئين لغارة شعواءِ
وترجلت من بينهم أقْشيةٌ ... مُغُلٌ وكُرْجٌ فيهُم وخطاءُ
قصَدوا بهذا مَنْعنا عن برِّهِمْ ... غلِطُوا وخُيِّبَ مقصَدُ الأعداءِ

(١) القمز : لفظ تترى الأصل ، يطلق على نبيذ يعمل من لبن الخيل — زيادة : السلوك جـ ١ ص ٦٠٧ هامش (٢) .

(٢) الهناب : قدح الشراب — زيادة : السلوك جـ ١ ص ٦٠٧ هامش (٣) .

(٣) هذا الخبر منقول بتصرف من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٩ أ ، ب .

(٤) « وأتو » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

فأتاهم جَيْشُ النبيّ يؤمُّهم ... ملكُ الزمانِ الظاهرُ الآلاءِ
بعصائبٍ سُودٍ عليها رَنكُهُ ... أُسْدٌ يصيدُ فوارسَ الهيجاءِ
عام الفرات إليهم بصواهلٍ ... ومناصلٍ وعواسلٍ سَمْراءِ
فانفلَّ جيشُهمُ وولَّى هاربًا ... قد حاطهم وَيْلٌ وفرطُ بلاءِ
وغَدَتْ سيوفُ المسلمين خضيبة ... عند اللقاءِ مِنْ هامهم بِدماءِ
لله يوم بالفراتِ رأيتُه ... قد مرّ فى ظفرٍ ونصرِ لِواءِ
ثم الصلاةُ على النبيّ محمّدٍ ... ما مالتِ الأغصانُ بالورقاءِ(1)

وفى يوم الثلاثاء ثالث رجب منها : خلع على جميع الأمراءِ ، ومقدمى الحلقة ، وأرباب الدولة ، وأعطى كل إنسان ما يليق به من الخيل والذهب والحوائص والثياب ، فكان مبلغ ما صرف فى ذلك نحوا من ثلاثمائة ألف دينار.

وفى شعبان : أرسل السلطان إلى منكوتمر بهدايا عظيمة وتحف كثيرة .

وفى يوم الإثنين ثانى عشر شوال : استدعى السلطان شيخه الشيخ خضر الكردى إلى بين يديه فى القلعة وحوقق على أشياء كثيرة ورموه بمنكرات كثيرة ، فأمر السلطان عند ذلك باعتقاله فكان آخر العهد به(2) .

وفى تاريخ النويرى : وكان هذا الشيخ قد بلغ عند الملك الظاهر أرفع منزلة ، وانبسطت يده ، ونفذ أمرُه بمصر والشام ، وسببه أنه اجتمع بالملك الظاهر قبل أن يملك مصر وأخبره أنه يملك الديار المصريّة ، وأخبره بأشياء اتفقت له ،

(1) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٧٩ ب .
(2) كنز الدرر جـ ٨ ص ١٧١ .

فلما ملك السلطان [٥٨٠] حظي عنده ، وانقبض منه الصاحب بهاء الدين بن حنّا والنائب والخزندار ، فعملوا عليه وأحضروا عند السلطان من شهد عليه بالزنا واللواط وشُرْب الخمر ، وكان السلطان قد قدمت له هدية من صاحب اليمن من جُملتها كُرٌّ نفيس ، فأعطاه السلطان للشيخ خضر ، فدفعه لامرأة وزنى بها ، وأحضروها ، فأحضروا الكُرّ بين يدى السلطان ، وأقرت عليه بالزنا ، فاعتقله مكرما حتى مات .

وقيل : إن الصاحب بهاء الدين اتفق مع الملك السعيد فى غيبة السلطان إلى الشام وأرسل إلى الشيخ من خنقه (١) .

بقيّة الحوادث :

منها : أن فى المحرم وصل صاحب النوبة إلى عيذاب (٢) ، فنهب التجار ، وقتل خلقا كثيرا من أهلها ، منهم : الوالى والقاضى ، فسار الأمير علاء الدين [أيدغدى] (٣) الخزندار إلى بلادهم ، فقتل خلقا ، ونهب وحرّق ، ودوخ البلاد ، وأخذ الثأر .

ومنها : أن ديوان السلطان تسلم ما كان تأخر تسلمه من حصون الدعوة ، وهى : الكهف والمينقة والقَدمُوس ، وقد كان أهل هذه الحصون يُسوّفون

(١) ملخصا من نهاية الأرب مخطوط جـ ٢٨ ورقة ٢٠٤ — ٢٠٦ .

(٢) عيذاب : بفتح العين المهملة ، ثم السكون ، وذال معجمة ، وباء موحدة آخر الحروف ، بليدة على البحر الأحمر يخرج منها الركب المصرى المتوجه إلى الحجاز من طريق قوص — معجم البلدان تقويم البلدان .

(٣) [ ] إضافة للتوضيح من البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٣ .

وَيُدَافِعُون ، ثم أذعنوا وسلموها ، فتسلمها النوابُ : الميتقة فى ثالث ذى القعدة ، والقدمُوس فى ثامنه ، والكهف فى الثانى والعشرين من ذى الحجة من هذه السنة ، وتكملت قلاع الدعوة فى المملكة السلطانية ، واستؤصلت شأفة الاسماعيلية[(١)] .

ومنها : أنه تظاهر بَلَبُوش أمير عُربان بَرْقة بالنفاق والعصيان ، فسيّر إليه العربان فأخذوه أسيرا وجاءوا به إلى السلطان ، فمَنّ عليه وأطلقه ، ووجّهه إلى بلاده ، فلم يلبث إلا قليلا حتى مات[(٢)] .

وفيها : « ... ... »[(٣)] .

وفيها : حج بالناس « ... ... »[(٤)] .

---

(١) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٠ أ ، الروض الزاهر ص ٤١٣ — ٤١٤ .

(٢) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٠ أ ، الروض الزاهر ص ٤١٤ — ٤١٥ .

(٣) ، (٤) « ... » بياض فى الأصل .

ذكر من تُوفى فيها من الأعيان

الشيخ تاج الدين أبو الفضل يحيي[(١)] بن محمد بن أحمد بن حمزة بن على بن هبة الله بن الحسن بن على الثعلبي الدمشقي المحتسب ، المعروف بابن الحُبُوبي المنعوت بالتاج .

مات فى الرابع والعشرين من شهر ربيع [٥٨١] الآخر بدمشق ، ومولده فى سنة عشر وستمائة ، وهو من بيت الحديث ، وتولى الحسبة بدمشق مدة .

قال ابن كثير : وكان من أعيان أهل دمشق ، ولى نظر الأيتام ، ثم الحسبة ، ثم وكالة بيت المال ، وسمع الكثير ، وخرّج له ابن بلبان مشيخته ، قرأها عليه الشيخ شرف الدين الفزارى بجامع دمشق ، فسمعها جماعة من الأعيان والفضلاء[(٢)] .

والثعلبي : بالثاء المثلثة ، والعين المهملة ، والحبوبي : بضم الحاء المهملة ، والباء الموحدة ، وبعد الواو باء أخرى .

الخطيب فخر الدين أبو محمد عبد القاهر[(٣)] بن عبد الغنى بن محمد بن أبي القاسم ابن محمد بن تيمية الحرّانى ، الخطيب بها كان .

وبيته معروف بالعلم والخطابة والرئاسة ، مات فى الحادى عشر من شوال منها بدمشق ، ودفن من الغد بمقابر الصوفية ، ومولده سنة إثنتى عشرة وستمائة .

(١) « الشيخ تاج الدين أبو المظفر محمد بن أحمد » فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٤ .

(٢) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٤ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٤ .

العلاّمة تاج الدين عبد الرحيم بن محمد بن محمد بن يونس بن محمد بن منعم[(١)] ابن مالك بن محمد ، أبو القاسم الموصلى .

من بيت الفقه والرئاسة ، وُلدَ سنة ثمان وتسعين وخمسمائة ، وسمع ، وحدّث ، وصنّف ، واختصر الوجيز [من كتابه التعجيز][(٢)] والمحصول ، وله طريقة فى الخلاف ، أحدهما من طريق ركن الدين الطاووس ، وكان جدُّه عماد الدين ابن يونس شيخ المذهب فى وقته ، رحمه الله .

الشيخ أبو الفتح عبد الله[(٣)] بن أبى الفضل جعفر بن أبى محمد عبد الجليل بن على بن محمد بن إبراهيم بن عبد العزيز اللخمى القمودى الأصل الإسكندرانى المولد والدار ، المالكى .

مات فى عشية الثالث من المحرم من هذه السنة بالإسكندرية ، ودفن بالديماس ، سمع ، وحدّث ، ودرّس ، وكان شيخا فاضلا . والقمودى نسبة إلى قموده من بلاد إفريقية مسافة يومين من القيروان .

الشيخ المحدث أبو المظفر يوسف[(٤)] بن الحسن بن بكار النابلسى الشافعى ، المنعوت بالشرف .

كان مشهورا بالصلاح والإفادة ، وتولى مشيخة دار الحديث النورية[(٥)] بدمشق إلى أن توفى فيها فى هذه السنة .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٥ .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح من البداية والنهاية .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٠ أ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٠ أ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٣٩ .

(٥) دار الحديث النورية بدمشق : بناها نور الدين محمود الملك العادل ، المتوفى سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م — الدارس جـ ١ ص ٩٩ وما بعدها .

الشيخ المسند أبو الفتح عبد الهادي بن[1] عبد [٥٨٢] الكريم بن على ابن عيسى بن تميم القيسى المصرى المقرئ الشافعي الخطيب بمصر .

مات في الليلة الرابع والعشرين من شعبان بمصر ، ودفن من الغد بسفح المقطم ، ومولده سنة سبع وتسعين وخمسمائة بمصر ، سمع كثيرا ، وحدث ، وانفرد بالرواية من غير واحد من شيوخه ، وخطب بجامع المقياس مدة ، رحمه الله .

الشيخ الأصيل أبو عبد الله محمد بن الشيخ الخطيب أبى حفص عمر بن يوسف ابن يحيي بن عمر بن كامل بن يوسف بن يحيي بن قابس بن حابس بن مالك بن عمرو بن معدى كرب ، الزبيدى ، المقدسى الأصل ، الدمشقى المولد والدار ، الشافعي الخطيب ، المنعوت بالموفق ، المعروف بابن خطيب بيت الأبار .

مات في السابع عشر من صفر من هذه السنة ببيت الأبار ودفن بها : سمع الكندى وجماعة آخرين ، وحدث ، وهو من بيت الحديث .

الشيخ خضر الكُردى[2] شيخ الملك الظاهر .

---

(١) وله أيضا ترجمة في : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨ م ، العبر جـ ٥ ص ٢٩٠ .

(٢) هو خضر بن أبي بكر محمد بن موسى .

وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي ، وفيه توفى سنة ٦٧٦ هـ ، فوات الوفيات جـ ١ ص ٤٠٤ رقم ١٤٧ ، السلوك جـ ١ ص ٦٠٨ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٠ .

وقد ذكر ابن كثير وفاته مرتين سنة ٦٧١هـ ، وسنة ٦٧٦هـ — انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٥ ، ص ٢٧٨ ، وانظر أيضا النجوم الزاهرة وشذرات الذهب إذ ورد فيهما أن صاحب الترجمة حبس بالقلعة سنة ٦٧١ هـ حتى مات في المحرم سنة ٦٧٦ هـ

وأورد بيبرس الدوادار ذكر وفاته سنة ٦٧٥ هـ — زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٦ ب .

وأورد ابن أيبك ترجمة كاملة في الشيخ خضر هذا — انظر كنز الدرر جـ ٨ ص ٢٢٠ — ٢٢٤ .

ذكرنا عن قريب أنه اعتقله السلطان الملك الظاهر ، ومات فى السجن فى هذه السنة ، وقيل السلطان أمر بإعدامه ، وقيل ابن الحنّا كما ذكرنا ، وكان حظيًّا عند السلطان جدًّا حتى كان ينزل بنفسه إلى زاويته التى بناها له بالحسينيةّ فى كل أسبوع مرة أو مرتين ، وبنى له عندها جامعا يخطب فيه للجمعة ، وكان يعطيه كثيرا ، ويطلق له ؛ ووقف على زاويته شيئا كثيرا جدا ، وكان معظما عند الخاصّ والعام ، وكان فيه خير وصلاح ، وقد كاشف السلطان بأشياء كثيرة ، وقد دخل مرة كنيسة قمامة ، فذبح قسّيسها بيده ، وأنهب ما فيها لأصحابه ، وحولها مدرسة أنفق عليها أموالا كثيرة من بيت المال ، وسماها المدرسة الخضراء ، وكذلك فعل بكنيسة اليهود بدمشق دخلها ونهب ما فيها ، ومدّ بها سماطا ، وعمل فيها سماعا ، واتخذها مسجدا مدةً ، ثم سعوا فى عودها إليهم واستمرارها عليهم ، ثم اتفق له ما ذكرناه حتى سجنه السلطان ، ومات فى هذه السنة .

الملك المغيث فتح الدين أبو الفتح عمر(١) بن الملك الفائز [٥٨٣] أبى إسحاق إبراهيم بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب الملقب بالمغيث .

مات فى السابع والعشرين من ذى الحجة مسجونا بخزانة البنود(٢) بالقاهرة ، وأخرج منها فى يومه ، ودفن بتربتهم المجاورة لضريح الإمام الشافعى ، رحمه الله ،

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٠ أ / ب ، المنهل الصافى .

(٢) خزانة البنود : من منشآت الدولة الفاطمية لخزن أنواع البنود من الرايات والأعلام ، ثم احترقت سنة ٤٦١ هـ / ١٠٦٨ م ، وجعلت بعد ذلك حبسا للأمراء والوزراء والأعيان ، ثم اتخذها بنو أيوب سجنا ، ثم جعلوها منزلا للأسرى من الفرنج — صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٠٤ ، المواعظ والإعتبار جـ ١ ص ٤٢٣ .

ومولده فى صفر سنة ست وستمائة بالقاهرة ، حدث بالإجازة عن أبى الروح عبد العزيز بن محمد الهروى .

الأمير سيف الدين أحمد[1] بن مظفر الدين عثمان بن منكبرس صاحب صهيون .

توفى فى هذه السنة ، وكان قد أوصى أولاده بأن يسلموا الحصن إلى السلطان الظاهر ، ويلجأوا إليه ، ففعلوا كذلك ، وسلموا الحصن إلى نُوّابه ، ووفدوا إلى أبوابه ، وهما : سابق الدين ، وفخر الدين ، فأكرم مثواهما ، وأحسن إليهما ، وأمّر الأمير سابق الدين بطبلخاناه ، وأعطى أخاه إقطاعا فى حلقة دمشق واستمرا بها إلى أن ماتا ، رحمهما الله تعالى .

الأمير بَلَبُوش أمير عربان بَرْقَة ، مات فى هذه السنة ، وقد ذكرنا أمره من قريب .

(١) « محمد » فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٢ ، والعبر جـ ٥ ص ٢٩٦ .

فصل فيما وقع من الحوادث
فى السنة الثانية والسبعين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة هو : الحاكم بأمر الله .

والسلطان الملك الظاهر فى الديار المصرية ، ولكنه خرج إلى ناحية الشام .

ذكر سفر السلطان إلى الشام :

وفى ليلة السادس والعشرين من محرم هذه السنة ، خرج السلطان من القاهرة ، وتوجه إلى الشام ، وصحبته جماعة من أمرائه بسبب تواتر الأخبار بحركة أبغا ملك التتار ، ثم تواترت عليه الأخبار فى أثناء الطريق بقوة حركته ، فكتب باستدعاء العساكر من الديار المصرية صحبة الأمير بدر الدين الخزندار ، ورسم بأن جميع مَنْ فى مملكته ممن له فرس يركب للغزاة ، وأن يخرج أهلُ كل قرية بالشام من بينهم خيَّالةً على قدر أهل القرية ، ويقومون بكلفتهم ، ووصل دمشق فى شهر صفر ، ثم عاد إلى يافا عند وصول العساكر من الديار المصرية ، فأنزلهم بها ، ورتّب أحوالهم ، وعاد إلى دمشق (١) .

وفيها [٨٤ هـ] وصل إليه وهو بدمشق الأمير شمس الدين بهادر ابن الملك فرج ، وكان والده أمير الطشت عند السلطان جلال الدين خوارزم شاه ، ولَهُ

(*) يوافق أولها الثلاثاء ١٨ يولية ١٢٧٣ م .

(١) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٠ ب ، ٨١ أ .

شُمَيْصَات ، وبعد وفاة جلال الدين ملك قلعة كَرّان[1] وقلاعًا أُخر بناحية نَقْجُوان[2] ، ثم وصل إلى الروم ، فأقطع له أقصرا ، وكان بهادر المذكور قد كاتب السلطان فاطلع التتار على أمره ، فأمسكوه وحملوه إلى الأُرْدُو ، فهرب وحضر إلى البيرة ، ووصل إلى الأبواب السلطانية ، فشمله الإنعام ، وأُعطى إقطاعا بعشرين فارسا بالديار المصرية[3] .

وفيها : اتصل بالسلطان أن ملك الكرج حضر مختفيا لزيارة القدس الشريف ، فأرصد له من يعرف حليته ، فأُمسك من بين الزُّوَّار هو وثلاثة نفر من أعيان أصحابه ، وسُيِّروا إلى السلطان وهو بدمشق ، فسجنه بالقلعة المنصورة ورحل السلطان إلى القاهرة[4] .

وكان الأمير عمرو بن مخلول أحد أمراء العرب قد حبسه السلطان فى عجلون لجرم عمله ، فهرب منها وتوجه إلى التتار ، ثم طلب الأمان ، فقال السلطان : ما نؤمنه إلى أن يحضر إلى عجلون ويقعد فى المكان الذى كان مسجونا ، فحضر وتطوق بالطوق الحديد كما كان ، فعفا السلطان عنه[5] .

---

(١) « كيران » فى الروض الزاهر ص ٤٢١ ، السلوك جـ ١ ص ٦١١ .
وهى مدينة بأذربيجان — معجم البلدان .

(٢) نقجوان : بلدة من نواحى أران ، وتسمى أيضا نخجوان — معجم البلدان .

(٣) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨١ أ ، الروض الزاهر ص ٤٢١ — ٤٢٣ .

(٤) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨١ أ ، الروض الزاهر ص ٤٢٣ .

(٥) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨١ أ ، الروض الزاهر ص ٤٢٢ .

ذكر رحيل السلطان من دمشق إلى القاهرة :

ثم أن السلطان خرج من دمشق فى أواخر جمادى الأخرى ، ووصل إلى القاهرة ، فدخلها فى سابع شهر رجب وكان يوم دخوله يوما مشهودا .

ثم بعد ما دخل طهّر ولده نجم الدين خضر فى شهر شعبان (١) ، فلعب العسكر القبق ، فكان كما قيل :

ذاك يومٌ لنا من اللهو فيه ويُغنى عن مُطربات الأغانى
بصليلٍ لمُرْهَفٍ ، وصهيلٍ لجوادٍ ، ورنّةٍ لادانِ
كُل أقماله إلى الجد تعزى يوم سلم ، أو لا ، فيوم رهان
لا تراه فى السلم والحرب إلا بين رمح وصارم وسنان (٢)

وعمل القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر أبياتا منها :

[٥٨٥]

يا ملكَ الدُنيا (٣) ومَنْ بعزمهِ الدّين نُصِر
هُنّيت بالعيد وما على الهناء اقتصر
لكنّها (٤) بشارة لها الوُجود مُفتقر
بفرحةٍ قد جُمِعتْ ما بين موسى والخضر (٥)

(١) « فى شهر رمضان » فى زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨١ أ ، والروض الزاهر ص ٤٢٤ ، « وفى يوم عيد الفطر ختن الأمير نجم الدين خضر » — السلوك جـ ١ ص ٦١٢ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٥ .

(٢) انظر أبيات أخرى من هذه القصيدة فى تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٧ .

(٣) « يا مالك الدنيا » فى الروض الزاهر ص ٤٢٥ ، وتاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٧ .

(٤) « بل إنها » فى الروض الزاهر ص ٤٢٥ ، وتاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٨ .

(٥) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨١ ب ، الروض الزاهر ص ٤٢٥ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٧ — ٨ .

ذكر سفر الملك السعيد بن الظاهر إلى الشام :

وفى الثانى عشر من شهر رمضان من هذه السنة وجّه السلطان ولده الملك السعيد إلى الشام صحبة الأمير شمس الدين آقسنقر استادار ، فوصل دمشق بغتة ولم يدر نائب السلطان بها إلا وهو بينهم فى سوق الخيل ، ثم سار منها إلى صفد والشقيف وعاد إلى مصر فوصل فى الحادى والعشرين (١) من شوال .

ذكر الوقعة التى كانت بين أبْغَا بن هَلَاوُن وبين ابن عمه تكدار ابن مُوجى بن جغطاى بن جنكزخان :

وذلك أن تكدار كان مقدما على ثلاثين ألفا ، مقيما ببلاد كُرجستان فكاتب بُرَاق .

وقال بيبرس : فكاتب قَيْدُو ، وقصد الاتفاق معه على أبغَا ، فوقعت كتبه فى يد أبغا ، فأرسل يستدعى عساكره المتفرقة [وعزم على قصده] (٢) ، فأحضر صمغار من بلاد الروم ، وصحبتُه معين الدين سليمان البَرْوَاناه ، وسيف الدين طرنطاى ، والدستان الدين الرومى ، وغيرهم ، وعرَّفَهُم ما بدا من تُكْدار ، وتجهَّز لقصده ، فانهزم من قدامه ، والتجأ هو وعسكره إلى بلاد الكرج ، فمنعه صاحبها الملك سَرْكِيس من دخولها ، فأوى إلى جبل من جبالها هو ومن معه ، فأكلت خيولهم من عُشْبِ ذلك الجبل وفيه كيفيَّة سُمِّيه مضرَّة بالخيل ، فنفقت وتماوتت ، فطلبوا

---

(١) « عشر » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨١ ب ، والروض الزاهر ص ٤٢٧ ، السلوك جـ ١ ص ٦١٢ ، والتصحيح يتفق مع السياق .

(٢) إضافة من زبدة الفكرة .

من أبغا الأمان ، فأمنهم واستنزلهم ، وأسر تكدار ، وفرق عسكره على مقدمى عساكره ، ورسم لتكدار أنه لا يركب خيلا قارحةً ، ولا جذعًا ، « منهم ، ولا يركب » [1] إلا مُهْرًا صغيرا فقط ، وأنه لا يمس بيده قوسا ، فبقى كذلك مدة لا يجسر يخالف أمره حتى أن ولدا له صغيرا أحضر إليه قوسَه يومًا من الأيام ليُوتره له ، فقال يا بنى : ما أقدر أمسِكُ قوسَك [٥٨٦] هذا ولا أُوتِرُه لأجل مرسوم أبغا ، فإنه رسم لى بأن لا أمسّ قوسًا بيدى ، فلست أُمسكه ، ولو أنه قوسُ ولدى ، لأننى لا أقوى على خلافه ، خوفا من إتلافه ، ولم يقتعد فرسا قارحا ، ولا جذعا ، إلى أن حمّ حمامُه ، وتصرَّمت أيّامه ، ولقد أبان ابن أخيه عن حلم وافر ، ورفق ظاهر ، إذ لم يقابله على سُوءِ فعله بما يؤذيه فى نفسه [2] .

---

(١) « » ساقط من زبدة الفكرة .

(٢) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٢ أ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٩[illegible]

ذكر ملك يعقوب المريني سبتة وذكر ابتداء ملكهم :

وفي هذه السنة ملك يعقوب بن عبد الحق بن محيو بن حمامة المريني مدينة سبتة ، وبنو مرين ملكوا بلاد المغرب بعد بني عبد المؤمن ، وكان آخر من ملك من بني عبد المؤمن أبا دبوس ، وقد ذكرنا أخباره(١) مع ما فيه من الإختلاف من سنة أربع وعشرين وستمائة ، وأن المذكور قتل في سنة ثمان وستين وستمائة ، وانقرضت حينئذ دولة عبد المؤمن ، وملك بعدهم بني مرين ، وهذه القبيلة أعني بني مرين يقال لها حمامة من بين قبائل العرب بالمغرب ،وكان مقامهم بالريف القبلي من إقليم تازة .

وذكر في كتاب نهاية الأرب : أن بني مرين بطن من زناتة من البربر ، وأول أمرهم أنهم خرجوا عن طاعة بني عبد المؤمن المعروفين بالموحدين لما اختل أمرهم ، وتابعوا الغارات عليهم حتى ملكوا مدينة فاس ، واقتلعوها من الموحدين في سنة بضع وثلاثين وستمائة ، واستمرت فاس وغيرها في يديهم في أيام الموحدين ، وأول من اشتهر من بني مرين أبو بكر بن عبد الحق بن محيو بن حمامة المريني(٢) ، وبعد ملكه فاس سار إلى جهة مراكش وضايق بني عبد المؤمن ، وبقي كذلك حتى توفي أبو بكر المذكور في سنة ثلاث وخمسين وستمائة ، وملك بعده أخوه يعقوب بن عبد الحق بن محيو ، وتولى أمره وحاصر أبا دبوس

(١) هذا النص منقول من المختصر جـ ٤ ص ٧ — ٨ .

(٢) « بني عبد الحق » في الأصل ، والتصحيح من المختصر — الذي ينقل عنه العيني — جـ ٤ ص ٨ .

فى مراكش وملكها يعقوب المرينى المذكور ، وأزال ملك بنى عبد المؤمن [من][1] حينئذ ، واستقرت قدم يعقوب المرينى المذكور فى الملك حتى ملك سَنَتَهُ فى هذه السنة ، ثم توفى .

قال المؤيد : ولم يقع لى[2] تاريخ وفاته[3] ، وملك بعده ولده يوسف [٥٨٧] ابن يعقوب بن عبد الحق [بن محيو][4] ، وكنية يوسف المذكور أبو يعقوب ، واستمر يوسف المذكور فى الملك حتى قتل فى سنة ست وسبعمائة ، على ما سنذكره إن شاء الله تعالى[5] .

ذكر بقيّة الحوادث :

منها : أنه أغار عسكر حلب على كينوك[6] ، فقتلوا الرجال الذين بها ، وسبوا الحريم ، وأتم العسكر غازية إلى أطراف طَرَسُوس .

وهذه كينوك هى الحدث الحمراء ، وقد ذكرها المتنبى فى قصيدته التى أولها : على قدر أهل العزم تأتى العزائمُ :

هل الحدث الحمراء تعرف لونها ... وتعلم أى الساقيين الغمائمُ

سقتها الغمام قبل نزوله ... فلما دنا منها سقتها الجماجمُ

(١) [ ] إضافة من المختصر .
(٢) « لنا » فى الأصل ، والتصحيح من المختصر .
(٣) ورد فى الأنيس المطرب ، والمنهل الصافى أنه توفى سنة ٦٨٥ هـ .
(٤) [ ] إضافة من المختصر .
(٥) المختصر جـ٤ ص ٧ – ٨ .
(٦) « كينوك » فى تاريخ ابن الفرات جـ٧ ص ١ .

قلت : كُيْنُوك ـ بضم الكاف ، وسكون الياء آخر الحروف ، وضم النون ، وسكون الواو ، وفي آخره كاف . وهو قريب من مرعش .

ومنها : أن ملك التتار فوّض إلى علاء الدين صاحب الديوان ببغداد النظر في أمر تستر وأعمالها ، فسار إليها ليتصفح أحوالها ، فوجد بها شابا كان من أبناء التجار يقال له : كِي (1) ، قد قرأ القرآن ، وشيئا من الفقه ، والإشارات لابن سيناء ، ونظر في النجوم ، ثم ادعى أنه عيسى بن مريم ، وقد صدقه في ذلك جماعة من جهلة أهل تلك الناحية ، وقد أسقط لهم من الفرائض صلاة العصر ، وعشاء الآخرة ، فاستحضره فسأله عن هذا فرآه ذكيا إنما يفعل ذلك عن قصد ، فأمر بقتله ، فقتل بين يديه ، جزاه الله خيرا وأمر العوام فنهبوا أتباعه (2) .

ومنها : أن في سلخ شوال وردت كتب النصحاء أن الفرنج أقاموا انبرورا في بلد الألمانية اسمه المَرْكيس رُودَلْف (3) .

ومنها : أن في هذه السنة وُلد الملك المؤيد عماد الدين إسماعيل (4) بن علي بن محمود بن عمر بن محمد بن شاهنشاه بن أيوب بدار ابن الزنجيل بدمشق المحروسة .

---

(1) « لي » في البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٦ .

(2) انظر أيضا البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٦ .

(3) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٢ ب .

« المركيس رودلف دفريتركو » في الروض الزاهر ص ٤٢٨ .

والمقصود رودلف أوف هبسبرج الذى توج ملكا في ٢٤ أكتوبر ١٢٧٣ .

(4) ولد في جمادى الأولى سنة ٦٧٢ هـ / ١٢٧٣ م ، وتوفي سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م — المنهل الصافي جـ ٢ ص ٣٩٩ رقم ٤٣٧ ، تذكرة النبيه جـ ٢ ص ٢٢١ ، الوافي جـ ٩ ص ١٧٣ رقم ٤٠٨٥ ، فوات الوفيات جـ ١ ص ١٨٣ رقم ٧١ ، البدر الطالع جـ ١ ص ١٥١ رقم ٩٤ . وانظر المختصر جـ ٤ ص ٨ .

قال المؤيد فى تاريخه : فإن أهلنا كانوا قد جفلوا من حماة إلى دمشق بسبب أخبار التتار[١] .

ومنها : أنه كان وباءٌ بالديار المصرية فهلك فيه خلق كثير ، [٥٨٨] أكثرهم النسوان ، والأطفال .

وفيها : « ... ... »[٢] .

وفيها : حج بالناس « ... ... »[٣] .

(١) « التتر » فى المختصر ج ٤ ص ٨ .

(٢) ، (٣) « ... ... » بياض فى الأصل .

ذكر من تُوفى فيها من الأعيان

الصدر الرئيس مؤيّد الدين أبو المعالى أسعد[1] بن عز الدين أبى غالب المظفرى الوزير مؤيد الدين أسعد بن حمزة بن أسعد بن على بن محمد التميمى ابن القلانسى .

جاوز السبعين ، وكان رئيسًا كبيرا ، واسع النعمة ، لا يُباشِر[2] شيئا من الوظائف ، وقد ألزموه بعد ابن سويد بمباشرة مصالح السلطان ، فباشرها بلا جامكية[3] ، وكانت وفاته ببستانه ، ودفن بسفح قاسيون يوم الثلاثاء ثالث عشر المحرم ، وهو والد الصدر عز الدين حمزة[4] رئيس البلدين دمشق والقاهرة ، وجدُّهم مؤيد الدين أسعد بن حمزة الكبير ، كان وزير الملك الأفضل نور الدين على بن[5]

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٦ ، العبر جـ ٥ ص ٢٩٧ ، السلوك جـ ١ ص ٦٠٣ ، تذكرة الحفاظ جـ ٤ ص ١٤٩٠ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٤١ — ٢٤٢ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ١٩ .

(٢) « لا يفعل يباشر » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق ،
و « لا يفعل أن يباشر » فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٦ .

(٣) جامكية — جوامك ، الرواتب عامة ، فذكر القلقشندى « أن نفقة مماليك السلطان كانت عبارة عن جامكيات وعليق وكسوة وغير ذلك » — صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٥٧ .

(٤) هو حمزة بن أسعد بن مظفر ، الصاحب عز الدين بن القلانسى التميمى الدمشقى ، المتوفى سنة ٧٢٩ هـ / ١٣٣٨ م — المنهل الصافى ، الدرر جـ ٢ ص ١٦٢ رقم ١٦٢٧ ، وفيه أنه توفى سنة ٦٢٩ هـ .

(٥) توفى سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م — وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٤١٩ رقم ٤٨٦ .

السلطان الملك الناصر يوسف بن أيوب فاتح القدس ، وكان رئيسا فاضلا ، له كتاب الوصية فى الأخلاق المرضية ، وغير ذلك ، وكانت له يدٌ جيدةٌ فى النظم ، فمن ذلك قوله :

يارب جُدْ لى إذا ما ضمّنى جَدَثى ... برحمة منك تُنجينى من النارِ
أحسنْ جوارى إذا ما أصبحت جارك فى ... لحدى فإنك أوصيتَ بالجارِ

وأما والد حمزة بن أسعد بن على بن محمد التميمى فهو العميد فكان كتب جيدًا[1] ، وصنف تاريخا من بعد سنة أربعين وأربعمائة إلى سنة وفاته خمس وخمسين وخمسمائة .

الشيخ عبد الله[2] بن غانم بن علىّ بن إبراهيم بن عساكر بن الحسين المقدسى .

له زاوية بنابلس وله أشعار رائقة ، وكلام قوى فى علم التصوف ، مات فى هذه السنة .

قاضى القضاة كمال الدين أبو الفتح عمر[3] بن بندار بن عمر بن علىّ التفليسى الشافعى .

---

(١) « وكان يكتب جيدا » فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٦ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٦ ، تذكرة الحفاظ جـ ٤ ص ١٤٩١ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٧ ، السلوك جـ ١ ص ٦١٣ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٣٧ ، العبر جـ ٥ ص ٢٩٨ — ٢٩٩ ، تذكرة الحفاظ جـ ٤ ص ١٤٩١ .

كان مولده بتفليس[1] سنة إحدى وستمائة ، وكان فاضلا أصوليا مناظرا ، ولى نيابة الحكم بدمشق مدة ، ثم استقل بالقضاء في دولة هلاون ، وكان عفيفا نزها ، ولما انقضت أيامهم تعصبت عليه بعض الناس ، ثم التزم بالمسير إلى القاهرة ، فأقام بها يفيد الناس إلى أن توفى بها في ربيع الأول منها ، [٥٨٩] ودفن بالقرافة الصغرى .

إسماعيل[2] بن إبراهيم بن شاكر التنوخى ، وتنوخ من قضاعة .

كان صدرا كبيرا ، سمع كثيرا ، وكتب الإنشاء للناصر داود[3] بن الملك المعظم ، وتولى نظر المارستان[4] النورى وغيره ، وكان مشكور السيرة ، وقد أثنى عليه غير واحد ، وقد جاوز الثمانين سنة .

جمال الدين بن مالك أبو عبد الله محمد[5] بن عبد الله بن مالك الطائى الجيانى النحوى .

---

(١) تفليس : بفتح أوله ويكسر : بلد بأرمونية الأولى — معجم البلدان .

(٢) « ابن أبى اليسر » مسند الشام » تقى الدين » فى العبر جـ ٥ ص ٢٩٩ .

وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٢ ص ٣٨٢ رقم ٤٢٥ ، الوافى جـ ٩ ص ٧١ رقم ٣٩٩٠ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٧ ، العبر جـ ٥ ص ٢٩٩ ، تذكرة الحفاظ جـ ٤ ص ١٤٩٠ .

(٣) توفى سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م — انظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ١٩٨ .

(٤) « المرستان » فى الأصل .

(٥) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٤٣ — ٢٤٤ ، الوافى جـ ٣ ص ٣٥٥ رقم ١٤٣٦ ، فوات الوفيات جـ ٣ ص ٤٠٤ رقم ٤٧١ ، السلوك جـ ١ ص ٦١٢ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٩٠ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٧ ، العبر جـ ٥ ص ٣٠٠ ، تذكرة الحفاظ جـ ٤ ص ١٤٩١ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ١٩ .

صاحب التصانيف المفيدة ، من ذلك الكافية الشافية ، وشرحها ، والتسهيل ، وشرح نصفه ، والألفية التى شرحها ولده بدر الدين شرحا مفيدا ؛ ولد بجيان (١) سنة ستمائة ، أو إحدى وستمائة ، وأقام بحلب مدة ، ثم بدمشق ، وكان كثير الاجتماع بالقاضى شمس الدين بن خلكان ، وأثنى عليه غير واحد ، وروى عنه القاضى بدر الدين بن جماعة ، وكانت وفاته بدمشق ليلة الأربعاء ثانى عشر رمضان ، ودفن بتربة القاضى عز الدين بن الصايغ بقاسيون .

النصير الطوسى (٢) محمد بن محمد بن الحسن أبو عبد الله الطوسى .

وكان يقال له المولى نصير ويقال أيضا : خواجا نصير ، اشتغل فى شبيبته ، فحصل علم الأوائل جدا وصنف فى ذلك ، وفى علم الكلام ، منه : كتاب التجريد المشهور ، وله شرح على الإشارات ، ووزر لأصحاب قلاع الموت من الإسماعيلية ، ثم وزر لهلاون ، وكان معه فى واقعة بغداد ، ومن الناس من يزعم أنه أشار على هلاون بقتل الخليفة ، والله أعلم .

وقال ابن كثير : وعندى أن هذا لا يصدر من فاضل ولا عاقل ، وقد ذكره بعض البغاددة ، فأثنوا عليه ، وقالوا : كان عالما فاضلا ، كريم الأخلاق ، توفى ببغداد فى ثامن عشر ذى الحجة منها ، وله خمس وتسعون سنة (٣) ، ودفن فى مشهد

(١) جيان : بلدة بالأندلس ، تبعد نحو ٥٠ ميلا عن قرطبة — معجم البلدان .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، الوافى جـ ١ ص ١٩٢ رقم ١١٢ ، فوات الوفيات جـ ٢ ص ٢٤٦ رقم ٤١٤ ، السلوك جـ ١ ص ٦١٤ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٣٩ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٧ ، تذكرة الحفاظ جـ ٤ ص ١٤٩١ ، المختصر جـ ٤ ص ٨ .

(٣) « ولد فى جمادى الأولى سنة ٥٧٧ هـ » ـ السلوك جـ ١ ص ٦١٤ ، « وله خمس وسبعون سنة » فى البداية والنهاية .

موسى بن جعفر في سرداب كان قد أُعِدّ للخليفة الناصر لدين الله ، وهو الذي كان قد بنى الرصد لمراغة ورتّب عنه الحكماء من الفلاسفة والمتكلمين والفقهاء والمحدثين والأطبّاء وغيرهم من الأنواع ، وبنى له قبة عظيمة ، وجعل فيه كتباً عظيمة جدًا من الكتب التي نهبت من بغداد والجزيرة والشام ، حتى [٥٩٠] قيل تجمّع فيها زيادة على أربعمائة ألف مجلّد ، وأصل اشتغاله على المعين سالم بن بدر بن على المصرى المعتزلى المتشيّع ، فنزع فيه عروق كثيرة .(١)

الشيخ الجليل المسند أبو الفرج عبد اللطيف(٢) بن الشيخ أبي محمد عبد المنعم ابن على بن نصر بن منصور بن هبة الله النميرى الحرّانى الحنبلى ، التاجر المنعوت بالنجيب ، المعروف والده بابن الصيقل .

مات في مستهل صفر بقلعة الجبل بظاهر القاهرة ، ودفن من يومه بسفح المقطم ، ومولده بحرّان في سنة سبع وثمانين وخمسمائة ، سمع الكثير ، وحدث بالكثير ببغداد ودمشق والقاهرة ومصر وغيرها ، وبقى حتى تفرد بالرواية عن كثير من شيوخه ، وتولى مشيخة دار الحديث الكاملية بالقاهرة ، فحدّث بها مدة إلى حين وفاته .

الشيخ الصالح العارف أبو محمد عبد الله(٣) بن عمر بن يوسف أبي عبد الله الصنهاجي الحميدى القصرى .

---

(١) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٧ — ٢٦٨ .

(٢) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي ، العبر جـ ٥ ص ٢٩٨ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٣٩ ، تذكرة الحفاظ جـ ٤ ص ١٤٩١ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ١٩ .

(٣) وله أيضا ترجمة في : تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ١٩ .

مات فى ليلة الرابع من شهر ربيع الآخر بظاهر القاهرة ، ودفن بسفح المقطم ، وقد قارب المائة من عمره ، صحب جماعة من المشايخ ، وكان مشهورا بالعلم والدين ، مذكورا بالصلاح والخير ، مقصودا للزيارة والتبرك به .

القاضى محيى الدين أبو المكارم محمد(١) بن محمد بن الشيخ أبى محمد عبد الرحمن ابن عبد الله بن علوان بن عبد الله بن علوان بن الشيخ بن رافع الأسدى الحلبى .

مات فى الثالث عشر من جمادى الأولى بحلب ، ودفن بتربة جده ، ومولده بحلب فى الخامس من شعبان سنة اثنتى عشرة وستمائة ، سمع ، وحدث ، ودرس بالمدرسة المسرورية(٢) بالقاهرة ، ثم تولى القضاء بحلب إلى حين وفاته ، و بيته معروف بالعلم والدين والتقدم .

الشيخ الصالح محيى الدين(٣) أحمد بن الصاحب بهاء الدين أبى الحسن على بن القاضى السديد أبى عبد الله محمد بن سليم المصرى الشافعى .

مات فى ليلة الثامن من شعبان بمصر ، ودفن من الغد بسفح المقطم ، سمع من جماعة ، وحدث ، وكان منقطعا عن المناصب الدنياوية ، محبا للتخلى والإنفراد [٥٩١] كثير الصدقة والمعروف ، وبنى رباطا حسنا بمصر ، ودرس بمدرسة والده مدة إلى حين وفاته .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : السلوك جـ ١ ص ٦١٣ .

(٢) المدرسة المسرورية بالقاهرة : كانت فى الأصل دارا لشمس الخواص مسرور ، من الخصى بالسلطان صلاح الدين الأيوبى ، وظل مسرور هذا مقدما إلى الأيام الكاملية ، ثم انقطع حتى وفاته ، فأصبحت داره مدرسة — المواعظ والإعتبار جـ ٢ ص ٢٧٨ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٤١ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ١٩ .

الشيخ ضياء الدين أبو العباس[١] أحمد بن الشيخ أبي عبد الله محمد بن عمر بن يوسف بن عبد المنعم الأنصاري المعروف بابن القرطبي .

مات في النصف من شوال بقنا من صعيد مصر ، ومولده في سنة إثنتين وستمائة ، سمع وحدّث ، وله النظم الحسن ، والنثر الجيّد .

الشيخ الصالح المُكَرَّم[٢] بن المظفر بن أبي محمد العَيْن زَرْبي .

مات في ليلة الثامن عشر من شوال بالقرافة الصغيرة ودفن بها ، ومولده في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة بمصر ، سمع ، وحدّث ، وكان شيخا صالحا .

ومُكَرَّم — بضم الميم وتشديد الراء المفتوحة وآخره ميم — .

الأمير حسام الدين لاجين[٣] بن عبد الله الأيدمري الدوادار المعروف بالدرفيل .

مات في الرابع عشر من شهر رمضان ببستان الخشاب ظاهر القاهرة ، ودفن من يومه بسفح المقطم ، سمع ، وكان محبا لأهل العلم ، مؤثرا للاجتماع بهم ، ذكيا ، حسن السمت ، رحمه الله .

الأمير يغمراس صاحب تلمسان .

توفي في هذه السنة ، وأخذ يعقوب بن عبد الحق المريني مكانه .

الأمير مبارز الدين أقوش المنصوري .

---

(١) وله أيضا ترجمة في : تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ١٢ ، الطالع السعيد ص ١٣١ رقم ٧٠ .

(٢) وله أيضا ترجمة في : تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٢٠ .

(٣) وله أيضا ترجمة في : السلوك جـ ١ ص ٦١٢ .

مملوك الملك المنصور صاحب حماة ونائب سلطنته ، وكان أميرا جليلا ، شجاعا ، عاقلا ، قفجاق الجنس .

الأمير فارس الدين أقطاى[(١)] الأتابك المستعرب الصالحى النجمى .

من كبار الأمراء ، وهو أول من دعا بعد قتل السلطان الملك المظفر قطز إلى سلطنة الملك الظاهر بيبرس ، فأجابه الأمراء إلى ذلك ، وكان الظاهر يعرف له ذلك ، واستمر عنده عالى المنزلة ، نافذ الكلمة إلى أن مات فى جمادى الأولى من هذه السنة .

وقال بيبرس : فى السنة الآتية[(٢)] .

الشيخ جلال الدين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن قاسم بن المسيب بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق ، رضى الله عنه ، ابن أبى قحافة القرشى ، المعروف بمولانا جلال الدين القونوى .

كان رجلا [٥٩٢] عالما بمذهب أبى حنيفة رضى الله عنه واسع الفقه ، عالما بالخلاف وبأنواع العلوم ، قصده الشيخ قطب الدين الشيرازى شارح المفتاح وغيره ، وجرى بينهما محاورات ، ثم إن جلال الدين المذكور ترك الاشتغال وانقطع ، وترك أولاده ومدرسته وساح فى البلاد ، واشتغل بالأشعار ، غالبها بالفارسيّة ، وألف كتابا وسماه المثنوى ، وفيه كثير مما يرده الشرع والسنّة

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٢ ص ٥٠٤ رقم ٥٠٦ ، الوافى جـ ٩ ص ٣١٨ رقم ٤٢٥١ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٤٢ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٣٦ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٦ ، العبر جـ ٥ ص ٢٩٧ ، تذكرة الحفاظ جـ ٤ ص ١٤٩٠ — ١٤٩١ .

(٢) يوجد خرم فى النسخة التى بين أيدينا من الجزء التاسع من زبدة الفكرة من وفيات سنة ٦٧٢ هـ إلى كسرة التتار فى ذى القعدة سنة ٦٧٥ هـ ، وذلك فيما بين الورقة ٨٢ ب ، ٨٢ أ .

الطاهرة ، وضلّت بسببه طائفة كثيرة ، ولا سيما أهل الروم ، وقد ينقل عنهم من الإطراء فى حق جلال الدين المذكور ما يُؤدّى إلى تكفيرهم وخروجهم عن الدين المحمدىّ والشرع الأحمدىّ .

ويقال : إنّ سبب عدول الجلال المذكور عن التصدّى بالإشتغال بالعلوم ، وإنّ توجّهه إلى الحال التى تنقل عنه ، أنه كان جالسا يوما فى بيته وحوله الكتب والطلبة ، فدخل عليه الشيخ شمس الدين التبريزى ، فسلّم وجلس فقال : ما هذا ؟ وأشار إلى الكتب والحالة التى هو عليها ، فقال جلال الدين : هذه لا تعرفُها ، فما فرغ الجلال من هذه اللفظة إلا والنار قد عملت فى البيت والكتب ، فقال الجلال للتبريزى : ما هذا ؟ فقال له التبريزى : هذا لا تعرفه ، ثم قام وخرج من عنده : فقام الشيخ جلال الدين وخرج وراءه ولم يجده ، ثم ترك كتبه واشتغاله وأولاده وخرج منقطعا ، ولم يحصل له الاجتماع بالتبريزى المذكور بعد .

ويقال : إن حاشية جلال الدين قصدوه واغتالوه والله أعلم ، مات الجلال فى خامس جمادى الآخرة من هذه السنة ، أعنى سنة اثنتين وسبعين وستمائة بمدينة قونية ، ودُفن بها ، وبُنيت عليه تربة عظيمة ، ولقد زرته فى سنة « ... ... »[1] وثمانمائة .

(١) « ... ... » بياض فى الأصل .

فصل فيما وقع من الحوادث

فى السنة الثالثة والسبعين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة هو : الحاكم بأمر الله العباسى .

وسلطان البلاد المصرية والشامية : الملك الظاهر ، رحمه الله .

وبقية أصحاب البلاد على حالهم .

وفيها أطلع [٥٩٣] السلطان على ثلاثة عشر أميرًا من المصرية ، منهم بجقار الحموى ، قد كاتبوا التتار ، فأخذهم ، فأقروا بذلك ، وجاءت كتبهم مع البريد ، فكان آخر العهد بهم .

ذكر خروج السلطان إلى الكرك :

خرج السلطان الظاهر من الديار المصرية فى الثامن من صفر من هذه السنة ، وتوجه على الهجن إلى الكرك من طريق البدرية ، فبلغه أن الرجال الذين بها قد خامروا ، فمسكهم وقطع أيديهم وأرجلهم ، وأقام بالكرك ثلاثة عشر يوما ، ثم عاد إلى جهة مصر ، ودخلها فى الثانى والعشرين من شهر ربيع الأول من هذه السنة .

(*) يوافق أولها السبت ٧ يولية ١٢٧٤م .

ثم توجه إلى العبّاسة وولده الملك السعيد صحبته ، ورمى البندق ، وصرع ولده طيرا من الطيور الواجبة (١) .

وفيها تحيّل السلطان على استخلاص رؤساء الشوانى واستخراجهم من أسر الفرنج ، وذلك أنه لما انكسرت الشوانى بقبرس على ميناء نمسون كما ذكرنا ، وأن صاحب قبرس أسر رؤساءها وأرسلهم إلى عكا فاعتقلوا بها فى قلعتها ، فبذل السلطان لهم مالاً فى إطلاقهم ، فتوقفوا وتغالوا فيهم ، فتحيّل واستمال الموكّلين بحفظهم ، ولم يزل يتلطف فى أمرهم حتى سُرقوا من محبسهم وخرجوا فى مركب معدّ لهم ، وكانت لهم خيل معدّة فى البر ، فركبوها ، ولم يُعلم بهم إلا وقد وصلوا إلى الأبواب السلطانيّة ، وهم ستة نفر ، وكان السلطان كما قيل :

ولكم بلغتُ بحيلـــتى ما ليس يبلغ بالسيوف

وفيها : ورد كتابُ ملك الحبشة واسمه حَسْر أملاك (٢) يطْلب مطران من بطرك الإسكندرية ، فأجابه السلطان إلى ذلك ، ورسم لبطرك اليعاقبة بأن يجهز إليه مطران ، فجهّزه وأرسله إلى السلطان صحبة رُسله (٣) .

وفيها : توجّه عسكر حلب إلى بلاد سيس ، وأغاروا عليها ، وعلى مَرْعش ، وقلعوا أبوابَ رَبضها ، وتبع هذه الغارة خروج السلطان إليها ، وإناخته عليها .

---

(١) « أوزة خبية » — الروض الزاهر ص ٤٢٩ .

والمقصود أحد الطيور المعينة للرماية — انظر زبدة كشف الممالك ص ١٢٦ .

(٢) هو المعروف فى المصادر الحبشية باسم « يكونو أملاك » Yekuno Amlak الذى حكم فى الفترة من ١٢٧٠ — ١٢٨٥ م .

(٣) الروض الزاهر ص ٤٣٠ — ٤٣١ .

وانظر نص الخطابات المتبادلة فى تاريخ ابن الفرات ج ٧ ص ٢٤ — ٢٥ .

ذكر خروج السُلطان إلى الشام :

برَّز السلطان [٥٩٤] من قلعة الجبل فى الثالث من شعبان من هذه السنة ، ووصل إلى دمشق فى سلخ شعبان ، ودخل دمشق فى يوم ثلج ألبس الأرض أثوابا ، ﴿ وفتحت(١) السماءُ فكانت أبوابا(٢) ﴾ وخرج عسكر الشام مُلْبسين متوجهين لغزو سيس وأعمالها ، وأقام السلطان بدمشق بعدهم أياما قلائل ، ثم جهَّز الجاليش صحبة الأمير سيف الدين قلاون الألفى والأمير بدر الدين بيليك الخزندار ، فساروا سيْرا عنيفا .

قال بيبرس فى تاريخه : ووصلنا إلى المَصِّيصة(٣) على غرة من الأرمن ، فهجمت العساكر عليها عند فتوح أبوابها ، فملكوها وقتلوا مَنْ بها ، وملكوا الجسر ، وكان السلطان قد جهز المراكب وحملها صحبته على الجمال لُيَعدُّوا فيها نهر جِهان(٤) والنهر الأسود(٥) فلم يحتج إليها ، ووصل إليها السلطان على الأثر ، وجرد الأمير حسام الدين العينتابى ومهنى بن عيسى إلى البيرة ، ودخل السلطان سيس مطلّبا فى العساكر

(١) « وفتحت فيه » فى الأصل ، وهو تحريف .

(٢) سورة النبأ رقم ٧٨ آية رقم ١٩ .

(٣) المصيصة : مدينة على نهر جيحان ، وهى تقارب طرسوس ، وبينها وبين أذنة تسعة أميال — معجم البلدان .

(٤) نهر جهان = نهر جيحان — تقع عليه المصيصة ، ويصب فى البحر المتوسط على مسافة قريبة منها — معجم البلدان .

(٥) النهر الأسود : أحد فروع الفرات الأعلى ، ويعرف عند الترك باسم قرا صو ، أى النهر الأسود ، ويجرى غرب المصيصة وطرسوس — معجم البلدان .

والمواكب كالبدر المنير بين الكواكب ، وأمر بتخريبها ، ووصل دربند الروم ، ووصل ، ووصلت بعوثه إلى أياس ، والبرزين ، وآذنة ، وقتلوا وغنموا ، فقال (١) في ذلك :

يا ويح سيس أضحت (٢) نهبة كم عوق الجارى بها الجارية (٣)

وكم بها قد ضاق من مسلك واستوقف الماشي بها الماشية

ولما عاد إلى المصيصة راجعاً من الدربند أمر بإحراق جانبها ، فأحرقت ، وتحكمت عساكره في كل ما حوت ، فكان كقول البحترى :

سيوف لها في كل دار غدا رحى وخيل لها في كل دار [غدا] (٤) نهب

علت فوق بغراس فضاقت بما جنت صدور رجال حين ضاق بها الدرب

وما شك قوم أوقدوا نار فتنة وسرت إليهم أن نارهم تخبو (٥)

ثم خرج السلطان ـــ رحمه الله ـــ إلى مرج أنطاكية ، فأقام به وجمع الغنائم في صعيد واحد من الخيل والجوارى والمماليك والمواشي وغيرها ، فقسمها بنفسه على العساكر ، فلم ينس صاحب علم ولا رب قلم ، وأراح العساكر [٥٩٥] شهرا ، ثم رحل إلى القصير فنازله ، وهذا الحصن لبابا رومية ، وكانت

---

(١) المقصود ابن عبد الظاهر ـــ انظر الروض الزاهر ص ٤٣٨ .

(٢) « أصبحت » في تاريخ ابن الفرات .

(٣) « جارية » في تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٣٣ .

(٤) [ ] إضافة من الروض الزاهر ص ٤٣٤ .

(٥) تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٣٠ .

مضرة على القوم وجهاتها ، وكان أهله عند فتح أنطاكية سألوا الهدنة ، فأجيبوا إليها فما وقفوا عنـدها ، فرتب السلطان عسكرا لحصاره ، فسلمه أهله ، وحملوا إلى الجهات التى قصدوا ، وأما العسكر والعربان الذين توجهـوا نحو البيرة فإنهم وصـلوا إلى رأس العين ونهبوا وغنموا ما وجدوا ، وأما السلطان وعساكره فإنهم توجهوا إلى دمشق وأقاموا فيها إلى أن خرجت هذه السنة .

ومن الحوادث المزعجة فى هذه السنة أن ثار رمل على أهل الموصل فعم الأفق ، وخرجوا من دورهم يتهلون إلى الله تعالى حتى كشف عنهم .

وفيهـا : « ... ... »[1] .

وفيهـا : حج بالنـاس « ... ... »[2] .

(١) ، (٢) « ..... » بياض فى الأصل .

ذكر من تُوفى فيها من الأعيان

ابن عطاء قاضى القضاة شمس الدين أبو محمد عبد الله[(١)] بن الشيخ شرف الدين محمد بن عطاء بن حسن بن جُبير بن جابر بن وهب الأذرعى الحنفى .

وُلِد سنة خمس وتسعين وخمسمائة ، وسمع الحديث ، وتفقه على مذهب الإمام أبى حنيفة رضى الله عنه ، وناب فى الحكم عن الشافعى مدة ، ثم استقل بالقضاء للحنفيّة أول ما ولى القضاء من المذاهب الأربعة ، ولما وقعت الحوطة على أملاك الناس أراد السلطان منه أن يحكم له بها بمقتضى مذهبه ، فغضب من ذلك وقال : هذه بأيدى أربابها ولا يحل لمسلم أن يتعرض إليها ، ونهض من المجلس ، وغضب السلطان غضبا شديدا ، ثم سكن غضبه ، وكان يثنى عليه بعد ذلك ويقول : لا تثبتوا كتبا إلا عنده[(٢)] ، وكان رحمه الله من العلماء الأعيان ، كثير التواضع ، قليل الرغبة فى الدنيا ، روى عنه ابن جماعة وغيره ، وأجاز للبِرْزالى ، وكانت وفاته يوم الجمعة التاسع من جمادى الأولى ، ودفن بالقرب من المعظمية بسفح جبل قاسيون ، رحمه الله .

---

(١) وله ايضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٤٦ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٤٠ ، السلوك جـ ١ ص ٦١٩ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٨ ، العبر جـ ٥ ص ٣٠١ .

(٢) « إلا عنه » فى البداية والنهاية .

الشيخ مُسلَّم (١) — بتشديد اللام المفتوحة — البَرقى البدوى ، شيخ [٥٩٦] الفقراء .

مات فى ليلة الخامس من شهر ربيع الأول من هذه السنة ، ودفن من الغد بقرافة مصر الصغرى ، كان أحد المشايخ المشهورين مقصودا للدعاء والتبرك ، وله رباط بقرافة مصر الصغرى وأصحاب معروفون به .

الشيخ الصالح أبو الطاهر محمد بن الشيخ المحدث أبى الحسن مرتضى بن أبى الجود حاتم بن المسلم بن أبى العرب بن عباس الحارثى ، المقدسى الأصل ، المصرى المولد والدار ، الضرير .

كان شيخا صالحا من أهل الخير ، مات فى ليلة السادس والعشرين من جمادى الأول بالقاهرة ، ودفن من الغد بسفح المقطم بقرب المسجد المعروف بالفتح ، ومولده فى ليلة السابع والعشرين من شهر رمضان سنة سبعين وخمسمائة ، سمع ، وحدث ، وأبوه الشيخ أبو الحسن أحد المشايخ المعروفين بالطلب والحديث ، وكتب بخطه كثيرا ، وجمع ، وحدث ، وكان موصوفا بالخير والصلاح .

الشيخ المحدث أبو المظفر منصور بن سَليم (٢) بن منصور بن فتوح الهمدانى الإسكندرانى ، الفقيه الشافعى المنعوت بالوجيه .

---

(١) « الشيخ سالم البرقى » فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٨ ، وورد فيه أيضا أنه توفى سنة ٦٧٢ هـ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٣٨ ، العبر جـ ٥ ص ٣٠١ — ٣٠٢ ؛ السلوك جـ ١ ص ٦١٩ .

مات فى ليلة الحادى والعشرين من شوال بالإسكندرية ، ودفن من الغد بالميناوين ، ومولده فى الثامن من صفر سنة سبع وستمائة بالإسكندرية ، وكان فقيها فاضلا ، ومحدثا حافظا ، وقدم بغداد وأقام بها مدة ، وسمع بها الكثير ، ثم لما قدم الإسكندرية تولى بها الحسبة ، ودرس بها ، وحدث ، وجمع ، وصنف ، وخرج معجم شيوخه ، وألف تاريخا لبلده الإسكندرية .

الشيخ أبو الفتح عمر بن يعقوب بن عثمان بن طاهر بن المفضل الأربلى الصوفى .

مات بدمشق فى يوم عيد الأضحى ، ومولده فى ليلة الثامن والعشرين من شوال سنة ثمان وتسعين وخمسمائة بأربل ، حدث بالإجازة من جماعة .

الأمير الأصيل شهاب الدين أبو العباس أحمد(١) بن الأمير جمال الدين أبى [٥٩٧] الفتح موسى بن يغمور بن جلدك .

مات فى الرابع والعشرين من جمادى الأولى بالمحلة من الأعمال الغربية ، وكان واليا بها ، وحمل إلى القرافة ودفن بتربتهم ، حدث بشىء من نظمه ، وكان معروفا بالشدة والصرامة فى ولايته ، وكان فاضلا فى الأدب والشعر ، عارفا بصنعة الألحان وعلم الموسيق .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٢ ص ٢٢٩ رقم ٣١٩ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٤٥ ، الوافى جـ ٨ ص ٢٥٢ رقم ٣٦٣٦ ، السلوك حـ ١ ص ٦١٩ وفيه « يوسف بن أحمد » ، الطالع السعيد ص ١٤٩ رقم ٧٦ ، تاريخ ابن الفرات ـ المجلد السابع ص ٢٧

الأبرنس بيمند[1] بن بيمند صاحب طرابلس، هلك فى هذه السنة، ووصل ابن عمّه صاحب قبرس إلى طرابلس معزّيا أولده[2]، وسألوا السلطان إرسال بعض أمرائه ليقرّروا معه الإتفاق، فأرسل إليهم الأمير سيف الدين بلبان الرومى الدّوادر[3]، فقرر عليهم القيام بعشرين ألف دينار صورية و إطلاق عشرين أسيرا .

وقال ابن كثير : وكان جدّ بيمند بن بيمند المذكور نائبا لبنت صنجيل الرومى الذى تملك طرابلس من ابن عمار فى حدود الخمسمائة كما تقدم ، وكانت مقيمة ببعض جزائر البحر، فتغلّب على البلد لبعدها منه ، ثم استقلّ بها ولده ، ثم حفيده هذا ، وكان شكلا مليحا .

وقال قطب الدين اليُونينى : رأيته ببعلبك فى سنة ثمان وخمسين وستمائة حين جاء مسلما على كتبغا نوين ، ورأى أن يطلب منهم بعلبك ، فشق ذلك على المسلمين ، ولما توفى دفن بكنيسة طرابلس ، ولما فتحت فى سنة ثمان وثمانين بعد الستمائة نبش النّاسُ إياه من قبره، وألقوا عظامه على المزابل للكلاب[4] .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٣ ص ٥١٥ رقم ٧٥١ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٤٦ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٩ .

وانظر تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٣٤ — ٣٥ .

(٢) هو بوهيمند السابع Bohemond VII .

(٣) وذلك فى ٨ ثامن المحرم هـ — السلوك جـ ١ ص ٦١٩ .

(٤) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٩ .

فصل فيما وقع من الحوادث
في السّنة الرابعة والسّبعين بعد السّتمائة (*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة هو : الحاكم بأمر الله .

والسلطان الملك الظاهر بيبرس في دمشق ، وأرسل الأمير بدر الدين الخزندار إلى مصر في الرابع والعشرين من المحرم لإحضار ولده الملك السعيد ، فتوجّه وأحضره ، ودخل دمشق في سادس صفر من هذه السنة ، وكان يوما مشهودا .

ذكر نزول [٥٩٨] التتار على البيرة :

وفي يوم الخميس ثامن جمادى الآخرة (١) نزل التتار على البيرة في ثلاثين ألفا من المقاتلة منهم خمسة عشر ألفا من المغول وخمسة عشر ألفا من الروم ، فعلى المغول أمير يسمّى ابطاى (٢) ، وعلى الروم الأمير معين الدين سليمان البَرْوَاناه ، ومعهم جيش الموصل ، وجيش ماردين ، والأكراد ، وذلك بأمر أبغا بن هلاون ملك التتار ، فنصبوا على البيرة ثلاثةً وعشرين منجنيقا ، فخرج أهل البيرة في الليل ،

(*) يوافق أولها الخميس ٢٧ يونية ١٢٧٥ م .

(١) « ثاني جمادى الآخرة » في الأصل ، والتصحيح من البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٩ ، فما ذكره ابن كثير هو الأرجح ، فقد ورد في التوفيقات الإلهامية أن أول جمادى الآخرة سنة ٦٧٤ هـ هو يوم جمعة .

(٢) « وقيل أبتاي » — تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٤١ ، وهو Abatai .

فكبسوا العسكر وأحرقوا المنجنيقات ، ونهبوا شيئاً كثيرا ، ورجعوا إلى حصنهم سالمين ، فأقام الجيش عليها إلى تاسع عشر الشهر المذكور ، ثم رجعوا عنها بغيظهم ، ولما بلغ السلطان الظاهر ذلك أنفق فى العساكر نفقة كاملة .

وقال ابن كثير : أنفق فى الجيش ستمائة ألف دينار ، وركب سريعا ، وفى صحبته ولده الملك السعيد ، فلما وصل إلى القُطَيفة (١) بلغه أن التتار سمعوا بحركته فوهنوا ورجعوا عن البيرة ، فسار السلطان إلى حمص ، ثم إلى حلب (٢) .

وقال بيبرس : وكان السبب فى رجوع التتار عن البيرة أن البَرْواناه كان قد مال إلى جانب الملك الظاهر وكاتبه يعرفه أنه على طاعته ومناصرته ويحسّن له القدوم إلى الروم ، فصدر جواب السلطان إليه معتذرا بقلة المياه فى هذه السنة ، ووعده التوجه فى السنة القابلة ، فبلغ ذلك أبْطاى ، فجرّد أميرا يسمّى كُمْتاى بهادُر فى أربعمائة فارس ليحفظوا الطرقات على قُصّاد البَرْواناه ويحضروهم إليه ، فذهبوا وأمسكوا القُصّاد وأحضروهم إليه ، فوقف على الكتب ، فوجد من مضمونها إنكم تطمعون التتار حتى نحضر بالعساكر ، فتكونوا من ورائهم ونحن من أمامهم ، فرحل من وقته ، وأرسل الكتب والقصاد إلى أبغا ، فتغيّر أبغا على البَرْواناه وأرسل يستدعيه إلى الأُرْدُو .

فعلم البَرْواناه أنه إنما [٥٩٩] يطلبه ليهلكه ، فكرّر المكاتبات إلى السلطان واستحثه على القدوم بعساكره ، وتقاعد البرواناه عن التوجّه إلى أبغا .

---

(١) « فلما كان فى أثناء الطريق » — البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٩ .

القطيفة : قرية دون ثنية العقاب للقاصد إلى دمشق فى طرف البرية من ناحية حمص — معجم البلدان .

(٢) « فعاد إلى دمشق » — فى البداية والنهاية .

ولما تكررت رُسُل أبغا إلى البَرْواناه بأن يسير إليه اعتذر بأنه مهتم في جهاز ابنة السلطان ركن الدين التى من كُرجى خاتون ، وكان أبغا قد طلبها ليتزوجها ، فأرسل إليه إن كنت قد خامرت حقا وإلا فتحضر .

فسار من قيسارية وتوجّه يقدّم رجلا ويُؤخّر أخرى ، وجرّد جيش الروم إلى أُبْلُستين ، فخرجوا من قيسارية وتركوا بها السلطان غياث الدين كيخسرو ابن ركن الدين قليج أرسلان وهو ليس له إلّا الإسم فقط ، وحضر أمراء الروم إلى أبلُستين فى هذه السنة ، وكان وصولهم إليها فى شهر صفر من هذه السنة وهم : تاج الدين كُكُو . وعلاء الدين على ولد معين الدين سليمان البَرواناه ، وشرف الدين مسعود بن الخطير ، وضياء الدين محمود أخوه ، ونور الدين بن جَبْجا ، وسيف الدين طرنطاى صاحب أَماسية ، وسنانُ الدين الرومى ولدُه .

وبقى البَرواناه ينتظر ما يتجدّد من جهة السلطان من أخبار وصوله إلى بلاد الروم ليعود إليه ، ثم أرسل البَرواناه يستدعى سيف الدين طرنطاى صاحب أماسيَة ، فتوجّه إليه وقال له : أنت تعلم أنى لست أختار القدوم على أبغا ولا يسعنى التأخير إلا بسبب مانع عن السَيْر ، فإذا عُدتَ من عندى تتفق مع الأمراء وتكون كتبكم متواترة إلىّ بأن الملك الظاهر قد قصد البلاد ، وتحرّضونى على الرجعة ، وتحثّونى على السُرعة .

فعاد من عنده وتوجه البَرواناه إلى نحو جهة قصده .

ولما رجع سيف الدين طرنطاى إلى قيساريّة رجع العسكر الذين كانوا بأبلستين إليها ، ولم يتأخر منهم سوى سيف الدين أبو بكر جَنْدَرْ باك مقطع أبلستين ،

ومُبارز الدين سِـوَارى بن تركى الجاشنكير، وقروُنج أمير آخور. واعتمد سيف الدين طرنطاى والأمراء الذين معه ما أشار [٦٠٠] به البَرواناه، وكاتبوه مدَّة مكاتبات بأنَّ السلطان الملك الظاهر قاصد البلاد بعَساكره، وإنك إن لم (١) تسرع العودة إلينا وإلا فالبلاد منا مأخوذة.

فأرسل البَرواناه كتبهم إلى أبغا، فأعطاه دستورا ليعود من الطريق، وجرَّد ثلاثين ألفا من أعيان المغول صحبة تُوقُو وتُدَاوُن إلى الروم ليكونوا مَدَداً له.

وفى أثناء ذلك اختلف الأمراءُ الروميون فيما بينهم، وقتل اثنان منهم، وتحالف بعضهم على طاعة الملك الظاهر والانحياز إليه، وبرَّزوا خيامهم إلى ظاهر قيسارية، وخرج السلطان غياث الدين كيخسرو منها إلى مدينة دَوَالُو، فأقام بها.

وسيَّر الأمراءَ الذين اتفقوا على الانحياز إلى الملك الظاهر رُسُلا إليه يخبرونه بخروجهم لقصده واتفاقهم على طاعته، وكان الرسل من : الأمير ضياء الدين (٢) (٣) محمود بن الخطير، والأمير سنان الدين موسى الرومى بن الأمير سيف الدين طرنطاى، ونظام الدين أخو مجد الدين الأتابك، والحاج أخو جلال الدين المستوفى، فحضرت هؤلاء إلى عينتاب، واجتمعوا بالسلطان الملك الظاهر وسألوه أن يجهز معهم عسكرا ليحضروا إليه وبقيَّة الأمراء، فجرّد معهم سيف الدين بلبان الزينى وبدر الدين بكتوت المعروف بابن أتابك.

---

(١) « وإنك لم » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٢) « وكان » مكررة فى الأصل .

(٣) « إلى » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق .

ففي عودهم من عند الملك الظاهر وصل البرواناه إلى قيسارية وصحبته توقو(١) وتداون(٢) وعسكر التتار، فحالوا بينهم وبين السلطان غياث الدين وغيره، فرجعوا إلى السلطان الملك الظاهر من كوك صو، وهو النهر الأزرق، فجهزهم وحريمهم إلى الديار المصرية، وسعى بهم ابن الخطير، فاعتقلهم بقلعة الجبل مدة، ثم أطلقوا.

وأقام البرواناه بقيسارية إلى انقضاء هذه السنة، وجهز بيجار الرومي وبهادر ولده وجماعة من الروميين على الهرب إلى الديار المصرية [٦٠١] ، واللحاق بالملك الظاهر، فهربوا من الروم، فحضروا في أوائل سنة خمس وسبعين وستمائة.

وأما السلطان غياث الدين فإن توقو وتداون أخذاه وسلماه إلى البرواناه، وقتلا شرف الدين بن الخطير بسبب مخامرته لهم، وأما سيف الدين طرنطاى فخلوا سبيله وأمروه بأن يلزم بيته.

ذكر عود السلطان الظاهر من عينتاب إلى الديار المصرية :

ولما جرى الأمور المذكورة، وكان السلطان على مدينة عينتاب رحل منها طالبا الديار المصرية في مستهل رجب من هذه السنة، ووصل إلى الديار المصرية في ثامن عشر رجب من هذه السنة، وكان يوم دخوله يوما مشهودا.

ولما استقر ركابه في قلعته بالقاهرة وفد عليه شكنده(٣) ابن عم داود ملك

(١) هو Toucouz .

(٢) هو Toudoun .

(٣) « مشكد » في السلوك جـ ١ ص ٦٢١ ، و« مرقشنكز » في صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢٧٧ ، و« واسمه مشكد وقيل سكنده » في تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٤٥ ، و« شكندة » في كنز الدرر جـ ٨ ص ١٨٣ .

النوبة متظلما من ابن عمه داود وأخذه الملك منه ، فجرد السلطان الظاهر معه جيشا صحبة الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقانى والأمير عز الدين أيبك الأفرم فى مستهل شعبان ، فوصلوا إلى دنقلة (١) ولقيهم جمع من السودان ، واقتتلوا ، فانهزم السودان ، وقتل منهم جماعة كثيرة ، وأسر منهم ما لا يقع عليه الحصر حتى أبيع كل رأس بثلاثة دراهم ، ثم تبعوا داود فترك أخته وأمه و بنت أخته وهرب ، فأخذ حريمه ورجعوا إلى الديار المصرية بعد أن ملكوا شكندة ورتبوا أمره ، وقرروا عليه فى كل سنة على كل رأس دينار ، ووصلوا إلى القاهرة وصحبتهم السبى فأبيع بمائة ألف درهم وعشرة آلاف درهم .

وقال بيبرس فى تاريخه : ولما جرد العسكر من مصر خرجوا فى ثامن شوال ووصلوا إلى الدو ، فأغاروا على قلعتها ونزلوا جزيرة ميكائيل ، وهى رأس جنادل النوبة ، فقتلوا وأسروا وغنموا ، وكان بها قمر الدولة آبى صاحب الجبل ، فآمنوه وقرروه على ولايته ، ثم التقوا الملك داود وعساكره ، فكسروه وأسر أخوه وأمه وأخته (٢) ، وقتلوا [٦٠٢] من السودان ألوفا ، وهرب داود إلى الأبواب ، وهى فوق بلاده ، فالتقاه صاحبها واسمه أدرو وقاتله وقتل ولده ، وأكثر من كان معه ، وأمسكه وارسل به إلى السلطان أسيرا ، فاعتقل بقلعة الجبل إلى أن مات فى السجن فيما بعد ، ورتب الأمراء شكنده مكان داود خاله ، وقرروا عليه فى

(١) دنقلة = دمقلة : مدينة كبيرة فى بلاد النوبة ، وهى منزلة ملك النوبة على شاطىء النيل — معجم البلدان .

(٢) « وأخواته » فى الجوهر الثمين ص ٢٨١ .

كل سنة قطيعة يؤدّيها، وهى : ثلاثة أفيلة، وثلاثة زرافات (١)، وخمس فهود، ومائة أصهب جياد، وأربعمائة رأس بقر (٢)، وأن تكون البلاد مشاطرة : النصف للسلطان، والنصف لعمارتها وحفظها، وأن تكون بلاد العلى وبلاد الجبل للسلطان خاصًّا لقربها من أسوان، ويحمل ما يتحصل منها من التمر والقطن مع ما تقرّر من القطيعة والجزية وهى دينار واحد من كل واحد من العقلاء البالغين إلى الأبواب الشريفة، واستحلفوه على ذلك الأيمان التى يحلفها النصارى، وعادت العساكر المنصورة.

وأما شَنكو (٣) أخو داود فإنه أسلم وحَسن إسلامه، ورُتّب فى جملة البحريّة، وقُرّرت له ولولده جامكيّة، وسمّى ولده محمدا، وكان متدينا، كثيرا التلاوة فى القرآن الكريم إلى أن توفى، رحمه الله.

وقال النويرى : وأول من غزا النوبة فى الإسلام عبد الله بن أبى السرح فى سنة إحدى وثلاثين فى خلافة عثمان رضى الله عنه، ثم فى زمن هشام بن عبد الملك ابن مروان، ثم غزاها يزيد بن أبى صُفْرَة، ثم غزاها أبو منصور هى وبرقة فى عام واحد، ثم غزاها كافور الإخشيدى، ثم غزاها ناصر الدولة بن حمدان سنة تسع وخمسين وأربعمائة، ثم غزاها شاهنشاه بن أيوب أخو صلاح الدين بن أيوب فى سنة ثمان وستين وخمسمائة (٤).

(١) « وفهود إناث خمس » — السلوك ج ١ ص ٦٢٢ .

(٢) « رأبقار جهاد منتخبة مائة » — السلوك ج ١ ص ٦٢٢ .

(٣) « سنكوا » فى نهاية الأرب (مخطوط) ج ٢٨ ورقة ٣٤٨ .

(٤) ملخصا عن نهاية الأرب ج ٢٨ مخطوط ورقة ٣٤٨ — ٣٥٠ .
وانظر تاريخ ابن الفرات ج ٨ ص ٤٤ وما بعدها .

ذكر عقد السلطان الملك السعيد بن الظاهر على ابنة الأمير سيف الدين قلاون الألفى :

وفى يوم الخميس الثانى عشر من ذى الحجة من هذه السنة عُقد عقد الملك السعيد على الست غازية خاتون ابنة سيف الدين قلاون (١) ، وكتب القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر الصداق ، وهو خمسة آلاف دينار : المعجّل منها ألفا دينار ، وكان ذلك فى الإيوان بحضرة السلطان ، فأعطى السلطان [٦٠٣] محيى الدين المذكور مائة دينار وخلع عليه .

ونسخة الصداق : الحمدُ لله موفق الآمال لأَسْعَد حركة ، ومصدِّق الفالِ لمن جعل عنده أعظم بركة ، ومحقق الإقبال لمن أصبح نسيبُه سلطانه ، وصهرُه ملكه ، الذى جعل للأولياء من لدنه سلطانا نصيرا ، وميَّز أقدارهم باصطفاء تأهيله حتى حازوا نعيما وملكا كبيرا ، وأفرد فخارهم بتقريبه حتى أقاد شمس آمالهم ضياء ، وزاد قمرهم نورا ، وشرَّف به وصلتهم حتى أصبح فضل الله عليهم بها عظيما ، وإنعامه كبيرا ، مهيِّئ أسباب التوفيق العاجلة والآجلة ، وجاعل ربوع كل أملاك من الأملاك بالشموس والبدور والأهِلَّة ، جامع أطراف الفخار لذوى الإيثار حتى حصلت لهم النعمة الشاملة ، وحلَّت عندهم البركة الكاملة ، نحمده على أن أحسن عند الأولياء بالنعمة الاستيداع ، وأجمل لتأمُّلهم الاستطلاع ، وكمل لاختيارهم الأجناس من العزِّ والأنواع ، وآتى آمالهم ما لم تكن فى حساب أحسابهم من الابتداء بالتخويل والابتداع ، وأشهد أن لا إله إلا الله

(١) انظر الجوهر الثمين ص ٢٨٠ .

وحده لا شريك له شهادةً حسنة الأوضاع ، مليَّة بتشريف الألسنة وتكريم الأسماع ، ونصلى على سيدنا محمد الذى أعلى الله به الأقدار ، وشرف به الموالى والأصهار ، وجعل كرمه دارا لهم فى كل دار ، ونخره على من استظلمه من المهاجرين والأنصار مشرق الأنوار ، صلى الله عليه وعليهم ، صلاة زاهية الأثمار ، يانعة الثمار ، وبعد : فلو كان اتصال كل شىء بحسب المتصل به فى تفضيله ، لما استصلح البدر شيئا من المنازل لنزوله ، ولا الغيث شيئا من الرياض لهُطوله ، ولا الذكر الحكيم لسانا من الألسنة لترتيله ، ولا الجوهر الثمين شيئا من التيجان لحلوله ، لكن الشرَف بيت يحلُّ به القمر ، ونبتٌ يزوره المطر ، ولسانٌ يتعوَّد يتعوَّذ بالآيات والسُور ، ونُضار يتجمَّل باللآلى والدُّرَر ، والمترتِّب على هذه القاعدة إفاضة نور يستمدُّه الوجود ، وتقريرُ أمرٍ يقارن سَعْدَ [٦٠٤] الأَخبية فيه سعد السُعود ، وإظهار خطبة بقول الثُريَّا لانتظام عقدها كيف ، وإبرازُ وُصْلةَ تجمَّلُ بترصيع جَوهرها مَتْن السيف ، الذى يغبطه على إبداع هذه الجوهريَّة كل سيف ، ونسج صهارة تتم بها إن شاء الله كل أمر سَديد ، ويتَّفق بها كلُّ توفيق يخْلُق الأيام وهو جديد ، ويختار لها أَبْرَكُ طالع وكيف لاتكون البركة فى ذلك الطالع وهو السعيد ، ذلك بأن المراحم الشريفة السلطانية أرادت أن تُخصَّ المجلس السَّامى الأميرى الكبيرى السيفى بالإحسان المُبتكر ، وتفرُدَه بالمواهب التى يرهَف بها الحدُّ المُنتَقى ويعظُم الجدُ المنتظر ، وأن يرفع من قدره بالصهارة مثل ما رفعه صلى الله عليه وسلم من أبى بكر وعمر ، نخطبَ إليه أسْعدُ البريَّة ، وأمنعُ من يحميها السيوفُ المشرفيَّة ، وأعز من يسبل عليها ستور الصون الخفيَّة ، وتُضرب دونها خدور

الجلال الرضيَّة، و يُجمِّل بنعوتها المعقودُ، وكيف لا وهى الدرَّةُ الألفيَّة، فقال والده وهو الأميرُ المذكور : هكذا ترفع الأقدار والأَوْزان ، وهكذا يكون قران السَّعْد وسَعْدُ القِران ، وما أسْعَد أرضا أصبحت هذه المكارمُ له نخيلة ، وأشرف سَيفًا غدت منطقُه بروج سمائها له حَمِيلة ، وما أعظمها معجزةً أتت الأولياءُ من لدنها سلطانا ، وزادتهم مع إيمانهم إيمانا ، وما أفخرها صهارة يقول التوفيق لابن أُمِّها ليت ، وأشرفها عبودية كرمت سلمانها بأن جعلته من أهل البيت ، وإذ قد حصلت الإستخارة فى رفع قدر المملوك ، وتخصيصه بهذه المزيَّة التى تقاصرت عنها آمالُ أكابر الملوك ، فالأمرُ لمليك البسيطة فى رفع درجات عبيده كيف يشاءُ ، والتصدُّق بما يتفوَّهُ به هذه الأشياء ، وهذا مفتتح الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتابٌ مبارَكٌ تحاسدت رماحُ الخطِّ وأقلامُ الخطّ على تحريره ، وتنافست مطالع النوار(١) ومشارق الأنوار على نظم سُطوره ، فأضاءَ نوره بالجلالة وأشرق، وهطل نورُه [٦٠٥] بالإحسان وأغدق، وتناسبت فيه أجناسُ تجنيس لفظ الفضل ، فقال : الاعتراف هذا ما يُصَدق ، وقال : العُرْفُ هذا ما أصدق مولانا السلطان الملك السعيد ناصر الدين بركة خان بن مولانا السلطان الملك الظاهر رُكن الدنيا والدين أبى الفتح بيبرس الصالحى قسيم أمير المؤمنين الستر الرفيع الخاتونى غازية خاتون ابنة المجلس السامى السيفى قلاون الألفى الصالحى ، أصدقها ما ملأَ خزائن الأحسَابْ فخارا، وشجرة الأنساب ثمارا،

(١) « الأنوار » فى السلوك جـ ٢ ص ٦٢٣ .

ومشكاة الجلالة أنوارا ، وأضاف إلى ذلك ما لولا أدب الشرع لكان أقاليم ومدائن وأمصارا ، فبذل لها من العين المصرى (١) مما هو باسم والده قد تشرَّف ، وبنعوته قد تعرَّف ، وبين يدى هباته وصدقاته قد تصرَّف [وهو مبلغ خمسة آلاف دينار المعجل منها ألفا دينار] (٢) .

ذكر توجُّه السلطان إلى الشام :

ولما انقضى العقد ركب السلطان الملك الظاهر من ساعته وتوجَّه إلى الكرك فى الثانى عشر من ذى الحجة على الهُجُن فى جماعة لطيفة ، على الطريق البدريَّة ، تحت جبل يعرف بنقب الرفاعى ، ولما وصلها نظر فى أحوالها ، وجمع القيمرية الذين بها ، فإذا هم ستمائة نفر ، فأمر بشنقهم ، فشفع عنده فيهم ، فأطلقهم وأجلاهم إلى الديار المصريَّة ، وكان قد بلغه عنهم أنهم يُريدون قتل مَنْ فيه ويقيمون ملكا عليهم ، وسلم الحصن إلى الطواشى شمس الدين صواب (٣) السُهيلى ، فانقضت السنة والسلطان بالكرك ، ثم توجه منها إلى دمشق ، فوصلها فى رابع عشر المحرم من سنة خمس وسبعين وستمائة على ما نذكره إن شاء الله .

(١) « الأنفين » فى الأصل ، والتصحيح من تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٥٣ .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح من تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٥٣ وانظر ما سبق ص ١٤٦ .

(٣) هو صواب بن عبد الله السهيلى الطواشى الخازندار ، نائب الكرك ، توفى سنة ٧٠٦ هـ / ١٣٠٦ م — المنهل الصافى ، الدرر جـ ٢ ص ٣٠٧ رقم ١٩٨٤ .

ذكر بقيّة الحوادث فى هذه السنة :

منها : أنه كانت زلزلة عظيمة ببلاد خلاط ، فهلك فيها شيئًا كثيرا من الدور والأسواق والخانات ، واتصلت الزلزلة ببلاد بكر .

ومنها : أن سيف الدين قلاون رتب مملوكه سيف الدين الدوادار صاحب التاريخ على الشراب خاناة(١) التى له ، عوضا عن زين الدين كتبغا .

ومنها : أن فى رمضان [٦٠٦] وجد رجل وامرأة فى حمام نهاراً(٢) على فاحشة فى بغداد ، فأمر علاء الدين صاحب الديوان برجمهما فرُجما .

وقال ابن كثير : ولم يرجم ببغداد قبلهما [قط(٣)] أحد ، [منذ بنيت(٤)] وهذا غريبٌ جدًا .

وفيها : « ... ... »(٥) .

وفيها : حج بالناس « ... ... »(٦) .

---

(١) الشراب خاناة : خزانة الشراب ، وتحتوى على أدوات الشراب النفيسة . كما تشتمل على أنواع مختلفة من المشروبات والمطريات ، والأدوية ، ويشرف عليها « مهتار » يعرف بمهتار الشراب خاناه ، وتحت يده غلمان يسمون « الشرابدارية » — صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٧٢ ، جـ ٤ ص ١٠ ، ٢١ ، جـ ٥ ص ٤٦٩ ، زبدة كشف الممالك ص ١٢٤ .

(٢) « وجد رجل وامرأة فى نهار رمضان » — البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٦٩ .

(٣) ، (٤) [ ] إضافة من البداية والنهاية .

(٥) ، (٦) « ... ... » بياض فى الأصل .

ذكر من تُوفى فيها من الأعيان

الشيخ الإمام الأديب العلامة تاج الدين أبو الثناء محمود(١) بن عابد(٢) بن الحسن ابن محمد بن على التميمى الصرخدى الحنفى .

كان مشهورا بالفقه ، والأدب ، والعفّة ، والصلاح ، ونزاهة النفس ، ومكارم الأخلاق ، وكان مولده سنة ثمان وسبعين وخمسمائة ، وسمع الحديث ، وروى ، وتوفى فى هذه السنة ، ودفن بمقابر الصوفية فى ربيع الآخر من هذه السنة وله ست وتسعون سنة .

الشيخ الإمام عماد الدين عبد العزيز(٣) بن محمد بن عبد القادر بن عبد الله بن خليل بن مُقلد الأنصارى الدمشقى المعروف بابن الصائغ .

كان مدرسا بالعذراوية(٤) ، وشاهدا بالخزانة بالقلعة ، وكان يعرف الحساب جدًّا ، وله سماع ورواية ، توفى فى هذه السنة ودفن بقاسيون .

الشيخ أبو العباس أحمد السلاوى(٥) المغربى .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، فوات الوفيات جـ ٤ ص ١٢١ رقم ٥١٥ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٤٩ ، السلوك جـ ١ ص ٦٢٤ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٤٤ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧٠ ، العبر جـ ٥ ص ٣٠٢ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٦٢ .

(٢) « بن عائذ » فى الأصل ، والتصحيح من مصادر الترجمة .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧٠ .

(٤) المدرسة العذراوية بدمشق : أنشأتها الست عذراء بنت نور الدولة شاهنشاه بن أيوب ، بنت أخى السلطان صلاح الدين الأيوبى ، والمتوفاة سنة ٥٩٣ هـ / ١١٩٦ م — الدارس جـ ١ ص ٣٧٣ .

(٥) وله أيضا ترجمة فى : تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٦٤ .

مات فى السابع عشر من شهر ربيع الأول بمصر ودفن من يومه بسفح المقطم ، وكان أحد المشايخ المشهورين بالصلاح المقصود للدعاء والتبرك .

الشيخ أبو المعالى عبد الرحمن(1) بن الشيخ أبى القاسم عبد العزيز الأسكندرى المقرئ .

مات فى هذه السنة بالإسكندرية .

الشيخ أبو القاسم عبد الرحمن(2) بن الشيخ الإمام أبى العز مظفر الأنصارى الخزرجى المصرى .

كان أحد الأئمة المشهورين بالفضل والعلم ، وتوفى فى هذه السنة .

ابن السَّاعى المؤرخ تاج الدين على(3) بن أنجب البغدادى .

سمع الحديث ، واعتنى بالتاريخ ، ولم يكن بالحافظ ولا الضابط المتقن ، وقد أوصى إليه ابن النجار(4) حين توفى ، وله تاريخ كبير ومصنفاتٌ أُخَرُ مفيدة(5) ، وآخِرُ ما صنَّف كتابٌ(6) فى الزهد ، ولد سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة ، ومات [٦٠٧] فى هذه السنة ، رحمه الله .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٦٠ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٦٠ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧٠ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٤٣ ، تذكرة الحفاظ جـ٤ ص ٤٦٩ رقم ١١٦١ ، تاريخ ابن الفرات جـ٧ ص٦١

(٤) هو محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله ، الحافظ الكبير محب الدين بن النجار البغدادى ، المتوفى سنة ٦٤٣هـ/١٢٤٥م — فوات الوفيات جـ ٤ ص ٣٦ رقم ٤٩٤ ، العبر جـ ٥ ص ١٨٠ .

(٥) انظر هدية العارفين جـ١ ص ٧١٢ — ٧١٣ .

(٦) هو كتاب « أخبار الزهاد ومناقب الأولياء والأفراد » — هدية العارفين جـ١ ص ٧١٢ .

فصل فيما وقع من الحوادث
في السنة الخامسة والسبعين بعد الستمائة(*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة هو : الحاكم بأمر الله العباسي .

والسلطان الملك الظاهر بيبرس رحمه الله في الكرك ، وتوجه منها إلى دمشق ، فدخلها في الثالث عشر من المحرم منها(١) ، ولما وصلها بلغه وصول الأمراء الروميين المهاجرين إلى أبوابه ، فسار من دمشق إلى حلب ، فوصل بنجار الرومي(٢) ، وبهادر ولده ، وأحمد بن بهادر ، واثنى عشر من أمراء الروم بأولادهم وأهليهم ، من جملتهم : قرمشي وسكتاي ابنا قرا جبن بن جيغان نوين ونفرهما(٣) من قبيلته ، بيسون وجيغان جدهما كان سلحدار جنكزخان ملك التتار هو وبيجو ، وكان قرمشي وسكتاي المذكوران قد أقاما بالروم عند البرواناه ، وتزوج البرواناه بأمهما ، فطلبا إلى الأردو فامتنعا ، وقتلا الذي جاء في أثرهما ، وقتلا كل من معه ، ولحقا بنجار المذكور وحضرا معه ، ولما حضروا إلى خدمة السلطان أحسن إليهم ، وتلقاهم بالقبول ، وجهزهم وحريمهم إلى الديار المصرية ، وأجرى عليهم الأرزاق .

(*) يوافق أولها الاثنين ١٥ يونية ١٢٧٦ م .

(١) « فدخلها في رابع المحرم من هذه السنة ، وقيل وصل إلى دمشق في رابع عشر المحرم الشهر المذكور » تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٦٥ .

(٢) « بينجار » في السلوك جـ ١ ص ٦٢٥ ، و « حسام الدين بيجار » في تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٦٦ ، وفي كنز الدرر جـ ٨ ص ١٩٠ .

(٣) النفر : من ثلاثة إلى عشرة من الرجال ، ويقال : هم نفر فلان أي نفره — والجمع من الناس ؟

ولما أفضت السلطنة إلى الملك المنصور قلاون تزوّج ببنت سُكتاى المذكور على ما سنذكره إن شاء الله تعالى .

ثم وصل بعدهم سيف الدين جَنْدربك صاحب الأبُلُسْتَين(١) ، والأمير مبارز الدين أمير شكار(٢) ، وبلغ السلطان أن التتار وصلوا إلى كُوكْ صو(٣) مع تُوقُو وتُدَاوُن ، فعاد السلطان إلى الديار المصريّة لمهمات كانت بين يَدَيْه منها دخول الملك السعيد ولده بَنْبَه .

ذكر عَوْد السُلطان من حلب إلى الدّيار المصريّة :

عاد السلطان من حلب بعد مجئ الأمراء المذكورين وهم فى خدمته ، فوصل إلى مصر ودخلها فى ثانى عشر شهر ربيع الآخر من هذه السنة ، وكان يوم دخوله يوما مشهودا ، وجهّز حاله وحالَ عساكرَه وأمرهم بالتأهب والتجهز لما [٦٠٨] سمع من وصول التتار إلى القرب من أعماله الحلبيّة .

ذكر دخول الملك السعّيد بن السلطان الظاهر بابنة سيف الدين قلاون :

وفى خامس جمادى الأولى(٤) من هذه السنة عمل عُرس الملك السعيد على ابنة قلاون الألفى ، واحتفل السلطان به احتفالا عظيما ، وركب الجيش خمسة أيام

(١) الأبلستين : مدينة ببلاد الروم قريبة من افسوس — معجم البلدان .

(٢) الأمير شكار : شكار لفظ فارسى بمعنى الصيد ، والمقصود الأمير الذى يتحدث على الجوارح السلطانية من الطيور وغيرها وعلى سائر أمور الصيد — صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٢ ، جـ ٥ ص ١٤٦ .

(٣) كوك صو = النهر الأزرق — انظر ماسبق .

(٤) « وكان الدخول خامس ربيع الأول » فى الجوهر الثمين ص ٢٩٤ .

فى الميدان يلعبون ويتطاردون ، ويحمل بعضهم على بعض ، وقد لبسوا أكمل العُدَد ، ورتب لهم السلطان لعب القبق (١) ، فلعب السلطان بالميدان الأسود (٢) تحت القلعة ، ولبس جوشنا وخوذة ، وتقلد تُرْسا ، وألبس فرسه العدَّة الكاملة من البركستوان والوجه والرقبة ، وساق تحت القبق ، ورماه باليد اليُسْرى فأصابه ، وأخطأ غيره باليُمنى بغير لُبس ، وأنعم على كلٍّ من أصاب من الأمراء بفرس بسرجه ولجامه وزينته من المراوات الفضة ، ومن أصاب من المماليك والأجناد خُلع عليه ، وبقى هذا المهم ثلاثة أيام متوالية والناس فى أفراح وسرور ، وشاهد الناس منه ومن ولده الأسد وشبله ما يحار الناظرون ويدهش المتفرجون ، ثم فى اليوم الرابع خلع على الأمراء وجميع أكابر الدولة وأرباب المناصب من القضاة والوزراء والكُتاب والمقدمين والمتعممين ، فكان بلغ ما خلع ألفا وثلاثمائة خلعة ، وراحت مراسيمهما إلى الشام بالخلع على أهلها ، ومُدّ فى ذلك اليوم سماط عظيم لايوصف ، حضره الشارِد والوارِدُ ، والخاصُّ والعامُّ ، وجلس رمل التتار

(١) القبق : لفظ تركى معناه نبات القرعة العسلية ، وقد أطلق فى العربية على الهدف الذى كان مستعملا فى ملعب الرماية المعروف باسم القبق أيضا ، وقد وصف المقريزى لعب القبق فقال : « والقبق عبارة عن خشبة عالية جدا تنصب فى براح من الأرض ويعمل بأعلاها دائرة من خشب ، وتقف الرماة بقسيها وترمى بالسهام جوف الدائرة لكى تمر من داخلها إلى غرض هناك ، تمرينا لهم على إحكام الرمى » — انظر المواعظ والإعتبار ج ٢ ص ١١١ .

(٢) الميدان الأسود : هو الميدان الخاص برمى القبق ، خارج القاهرة فيما بين النقرة التى ينزل من قلعة الجبل إليها وبين قبة النصر ، ويسمى أيضا ميدان الصيد ، والميدان الأخضر ، وميدان السباق ، وهو ميدان السلطان الملك الظاهر بيبرس — المواعظ والإعتبار ج ٢ ص ١١١ .

ورُسل الفرنج والأمراء و [جميع أكابر] (١) الدولة ، وعليهم كلهم الخلع الهائلة ، وكان وقتا مشهودا ، وحمل صاحب حماة هدايا عظيمة ، وركب إلى مصر للتهنئة ، ودخل الملك السعيد بيْتَه (٢) ، وقدمت له التقادم فقبل منها القليل ، وانقضى الوقت على الوجه الجميل .

ذكر مسير السلطان إلى الشام لغزو التتار :

ولما قوى خبر هجوم التتار على البلاد الشامية واشتد عزمهم على ذلك خرج [٦٠٩] السلطان الملك الظاهر بيبرس من الديار المصرية يوم الخميس العشرين من رمضان من هذه السنة ، ومعه العساكر والجنود ، وسار معهم ، فدخل دمشق فى سابع عشر شوال منها ، فأقام بها ثلاثة أيام ، ثم سار ومعه العساكر حتى دخل حلب مستهل ذى القعدة وأقام بها يوما ، ورسم لنائب حلب (٣) أن يقيم بعسكر حلب على الفرات يحفظ المعابر ، وسار السلطان ، ولما وصل إلى كُوكْصُو وهو النهر الأزرق تحرك تُوقُو وتُدَاوُنْ ومن معهما من عسكر (٤) التتار الذين انتقاهم أبغا واختارهم ، فجهز السلطان الجاليش ومقدمة العساكر صحبة الأمير شمس

(١) [ ] إضافة مما سبق يقتضيها السياق .

(٢) « وحضرت التقادم ، فقبل السلطان منها اليسير » فى السلوك جـ ١ ص ٦٢٧ ، وانظر أيضا الروض الزاهر ص ٤٥٢ .

(٣) وهو نور الدين على بن مجلى — السلوك جـ ١ ص ٦٢٨ .

(٤) ابتداء ما وجد من كتاب زبدة الفكرة جـ ٩ — بعد الخرم — بين فيها الورقة ٨٢ ب ، ٨٣ أ .

الدين سنقر الأشقر ، فوقع على ألف فارس من التتار مقدمهم كراى ، فانهزموا بين أيديهم وتيقنوا أن الدائرة عليهم (١) .

وقال ابن كثير : وقع سنقر الأشقر فى أثناء الطريق بثلاثة آلاف من المغل فهزمهم يوم الخميس تاسع ذى القعدة من هذه السنة (٢) .

ذكر ملاقاة السلطان مع التتار وانتصاره عليهم :

ثم إن السلطان الملك الظاهر قطع الدربند (٣) فى نصف يوم ، وصعد مع العسكر الجبال ، فأشرفوا على صحراء الأبلستين ، فرأوا التتار قد رتبوا عسكرهم ، وهم اثنا عشر طُلبا ، وعزلوا عنهم عسكر الروم خوفا من مخامرتهم ، وكانوا فى طلب واحد وحدهم ، فلما تراءت الجمعان ورأى بعضهم بعضا بالعيان حملت ميسرة التتار ، فصدمت سناجق السلطان ، ودخلت طائفة منهم ، فشقوها ، وساقت إلى الميمنة ، فلما رأى السلطان ذلك أردف المسلمين بنفسه ومن معه ، ثم لاحت منه التفاتة ، فرأى الميسرة قد كادت أن تتحطم ، فأمر جماعةً من الأمراء بإردافها ، وقاتلت التتار مع المسلمين قتالا شديدا ، وصبر المسلمون صبرا عظيما ، فأنزل الله نصره على المسلمين وبأسه على الملحدين ، فأحاطت بهم العساكر من كل جانب ، وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، وقتل من المسلمين أيضا جماعة .

(١) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٣ أ .

(٢) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧١ .

(٣) الدربند : المنافذ والممرات الجبلية فى جنوب شرق آسيا الصغرى ، بينها وبين بلاد الشام ، وهى غير الدربند أو باب الأبواب على بحر طبرستان — معجم البلدان .

وكان ممن قتل من سادات الأمراء الأمير الكبير ضياء الدين بن الخطير ، وسيف الدين قزان[1] [٦١٠] العلائى ، وسيف الدين قبجق[2] الجاشنكير ، وعز الدين أيبك الشقيفى[3] ، وأسر جماعة من أمراء المغول ومن أمراء الروم جماعة أيضا ، فمن المغول أسير زيرك[4] وهو صهر أبغا ، وصرطق وهو من أقاربه ، وجوديه ، وبردكيه ، وتماديه ، ومن الروميين علاء الدين بكلاربكى[5] بن البرواناه حاكم الروم ، وابن أخته وهو ولد خواجا يونس ، ونور الدين بن جاجا . وسراج الدين أخوه ، وقطب الدين أخو الأتابك ، وسيف الدين سنقرجاه السيواسى[6] ، ونصرة الدين صاحب سيواس ، وكمال الدين عارض الجيش بالروم ، وحسام الدين كياوك[7] قرابة البرواناه ، وسيف الدين بن على شير التركمانى ، وحضر فى الإحسان سيف الدين جاليش أمير دار وهو أمير العدل والمظالم ، وميكائيل صاحب سنوب ، وظهير الدين متوج مشرف الممالك ، ونظام الدين أوحد بن شرف الدين ابن الخطير وإخوته ، وقاضى قضاة الروم حسام الدين الحنفى ، ومظفر الدين جحاف ، وأولاد ضياء الدين بن الخطير ، وسيف الدين كجكنا الجاشنكير .

---

(١) « قيماز » فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧١ .

(٢) « بنجور » فى البداية والنهاية .

(٣) « الثقفى » فى البداية والنهاية .

(٤) « بريزك » فى الروض الزاهر ص ٤٦٢ .

(٥) بكلاربكى = أمير الأمراء .

(٦) « الزوباشى » فى الروض الزاهر ص ٤٦٢ .

(٧) « نولنارل » فى الروض الزاهر ص ٤٦٢ .

ونور الدين المنجنيق ، وأولاد رشيد الدين صاحب ملطية كمال الدين و إخوته ، وأمير علي صاحب كركر ، فما منهم إلا من أحسن السلطان (١) إليه وأفاض إنعامه عليه (٢) .

وأما تُوقُو وتُدَاوُن فإنهما قتلا في المعركة ، وأما البَرْواناه فإنه كان مع جماعة وعسكر الروم في طلب واحد وحده منفرد عن أطلاب التتار كما ذكرناه ، ولما رأى انهزام التتار بادر بالهروب هو وأصحابه وولّوا الأدبار ، وأخذ البَرْواناه معه السلطان غياث الدين وفخر الدين الوزير ومَنْ كان بقيسارِيّة وتوجّه بهم إلى تُوقات ، وكانت إقطاعا له .

وقال بيبرس في تاريخه : وفي هذه الوقعة أخذ سيف الدين قلاون الألفي : سيف الدين جَاوَرْشي ، وسيف الدين قفجاق ، واشترى سيف الدين سَلَّارَ ، لولده علاء الدين [٦١١] على المنقب عند سلطنته بالملك الصالح ، [فكان ذلك في طالع طلعة سعوده وغربت نحوسه ، فإن المشار إليه ترقت به السعادة إلى ما سنذكره في موضعه إن شاء الله] (٣) واسم أبيه طغرل ، وكان البَرْواناه قد قرَّبه وأدناه وصيَّره أمير شكار .

ذكر دخول السلطان قيسارِيّة وجُلُوسه على كرسي المملكة الروميّة :

ثم أن السلطان الملك الظاهر رحل من مكان المعركة يوم السبت حادي عشر الشهر ونزل قريب الكهف والرَّقيم ، وعبر على خان قرطاي ، وهو خان مبنيّ

(١) « السلطان » ساقط من زبدة الفكرة .
(٢) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٣ ب .
(٣) [ ] إضافة من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٢ ب ، ٨٤ أ .

بالجر الأحمر ، وله مغلات متسعة ودواوين متفرقة ومجتمعة ، ونزل بالقرب من عسيب (١) ، وهى التى يقول فيها امرئ القيس بن حجر الكندى :

أجارتنا (٢) إن الخطوب تنوب ... وإنى مقيم ما أقام عسيب

أجارتنا إنا غريبان ههنا (٣) ... وكل غريب للغريب نسيب

وهو مدفون هناك (٤) .

ولما وصل إلى وطاق (٥) كيخسرو خرج أهل قيسارية كافة لتلقيه ، وكان دهليز السلطان غياث الدين مضروبا هناك ، فنزله .

وأقام على قيسارية سبعة أيام ينتظر حضور البرواناه إليه ليقرر معه قاعدة ينتظم بها مصالح الإسلام بتلك البلاد ، وتجرى بها أمورهم على السداد ، وأرسل إليه مملوكا له ، كان قد حصل فى الأسر مع ولده ، وكتب إليه كتابا على يده يحثه على الحضور ، ويوضح له ما يترتب على حضوره من مصالح أمر الجمهور ، فأبى إلا النفار لما جرت به من دنو أجله الأقدار ، فلما أيس

(١) عسيب : بفتح أوله وكسر ثانيه ، وواضح من النص أنها بآسيا الصغرى — أما عسيب التى وردت فى شعر امرئ القيس فيرى ياقوت أنها جبل بعالية نجد ، وأنه كان يقال : لا أفعل ذلك ما أقام عسيب ، ثم استشهد بالبيتين التاليين — معجم البلدان .

(٢) « أجيرتنا » فى الروض الزاهر ص ٤٦٥ .

(٣) « أجيرتنا إنا مقيمان هاهنا » فى الروض الزاهر ص ٤٦٥ .

(٤) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٤ أ .

(٥) « وطأة » فى زبدة الفكرة .

السلطان من أمره رحل عن قيسارية عائداً ، ورتب فيها سيف الدين جاليش نائبا ، وكتب إلى أولاد قرمان يحرضهم على الحضور ، وركب يوم الجمعة سابع عشر ذى القعدة وعلى رأسه الجتر (١) ، وشاهد الناس منه صاحب القبة والسبع (٢) ، وخطب له فى جوامع قيسارية وهى سبعة ، وقيل فى ذلك أبيات :

وما كان هذا التخت من حين نصبه لغير الملك الظاهر البدر يصلح (٣)
مليك على اسم الله ما فتحت له صوارمه البيض المواضى ويفتح (٤)
أتته وفود الروم والكل قائل رأيناك تعفو عن كثير وتصفح
فأوسعهم حلماً ، وأولاهم ندى فأمسوا على أمن ومن فأصبحوا (٥)

[٦١٢]

وقال الأمير ناصر الدين محمد بن الحلى من أبيات فى وقعة أبلستين :

عزمنا على اسم الله والله ربنا نروم العدى قهراً بكل مضمر
نروم بنى قاقان جمعاً لأنهم بغوا وطغوا عن قسوة وتجبر
لنا فيهم الثارات تارات من مضى جدود لنا فاقوا بأطيب عنصر

(١) « ونصب جتر بنى سلجوق على رأسه » — السلوك جـ ١ ص ٦٣٢ هامش (١) .
(٢) « وهى تخت بنى سلجوق بجلوسه » — السلوك جـ ١ ص ٦٣٢ هامش (١) ؛ انظر أيضا الروض الزاهر ص ٤٦٦ .
(٣) « الندب » فى الروض الزاهر ص ٤٦٦ ؛ زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٤ ب .
(٤) « وتفتح » فى الروض الزاهر ، زبدة الفكرة .
(٥) « وأمسوا على من وأمن وأصبحوا » فى الروض الزاهر .

ونحنُ جلبنا الخيلَ فى كل غارةٍ إلى مُعْلِهـا والروم فاسأل تُخـبرِ
مع الفارس الكرار فى حومة الوغا أبى الفتح بيبرس الهمام الغَضَنْفرِ
عليـه سلام الله منى تحيَّـةً إلى أَنْ ألاقى الله فى يوم مَحْشَرِ (١)

ذكر نزول السُلطان بمَرج حَارِم :

لمـا رحل السلطان من قيسارِيَّة فى التاريخ المذكور آنفا نزل فى صحراء قراجا فريب بَازَارْيكُو (٢) ، ثم رحل منها إلى أن انتهى إلى مرج حارم وصحبته علاء الدين على بن البَرْواناه ، ومن أخذ من الروم أسيراً ، ومن جاء بالطاعة مستجيرا .

وأقام السلطان على مَرْج حارم شهرا ، وقد رتَعَتْ خُيولُ العساكر فى المروج وأخذت الأعُين حقها من منظرها البَهِيج (٣) ، واستراحت العساكر هناك وهم آمِنُون سالمون وعلى أعدائهم منصورون مؤيَّدون .

ذكر مجىء أبغا الى موضع المعركة :

ولمـا بلغ خبر هذه الوقعة إلى أبْغا بن هلاون ملك التتار ، وتحقق عنده ما حلَّ بعسكره من الكسرة ، نهض وجاءَ حتى شاهد بنفسه مكان المعركة ومَنْ فيها من

---

(١) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٤ ب

(٢) « بازار بلو » فى الروض الزاهر ص ٤٦٩ .

« وهذا البازار هو الذى كانت الخلائق تجتمع إليـه من أقطار الأرض ، ويباع فيه كل شىء يجلب من الأقاليم » — الروض الزاهر ص ٤٦٩

(٣) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٤ ب .

قَتلى المغول ، فأعظم ذلك وحنق على البَرْواناه ، إذْ لم يعلمْهُ بجليّة الحال ، وأضمر ذلك فى نفسه ، ثم جاء إليه البَرْواناه وتلقاه ، وسار فى خدمته ، واتفق فى ذلك الوقت أن أيبك الشيخ قفز من عسكر السلطان وتوجّه إلى أبغا ، لأن السلطان كان قد ضربه ، فوجد فى نفسه من ذلك ، وحضر عنده ، وأطلعه على أمر البَرْواناه ، وأنه كان الباعث للملك الظاهر على الحضور إلى بلاد الروم بتكرار كتبه وتواتر رسله ، فازداد غيظ أبغا عليه ولا سيمًا لما شاهد قتلى [٦١٣] المغول الأكابر ، وأن القتلى جميعا من عسكر التتار وليس فيهم أحد من الروميّين ، وتحقق عنده مخامرة البَرْواناة وتخاذل عسكر الروم ، فعند ذلك أمر بنَهْب بلاد الروم من قيسارية إلى أرزنجان ، وقتل المسلمين الذين بها ، فتفرقت عساكره تنهب وتقتل ، وقتلوا من المسلمين خلقا لا يُحْصَوْن كثرةً ، وكان من جملة من قتل القاضى جلال الدين بن الخبيب ، ولم يتعرضوا إلى نصارى البلاد ، وامتدت غاراتهم مسافة سبعة أيام .

ووكل أبغا بالبَرْواناه من حيث لم يظهر ذلك له ، واستصحب معه السلطان غياث الدين ، والصاحب بن خواجا على ، ورجع ، فلما عبر على قلعة كغونية أمر أبغا البَرْواناه أن يسلّمها إلى نوابه ، فنادى البرواناه نائبه الذى بها ليُسَلّمَها إلى أبغا ، فأبى وامتنع بها ، فرحل أبْغا وسار إلى أرزنجان (١) فاشتراها له ملكا واعتدّ بثمنها عن الإتاوة المقرّرة له على بلاد الروم ، وسار إلى قلعة كَمَاخ فأمر

(١) « أرزنكان » فى زبدة الفكرة .

البرواناه أن يخرجوا إلى خدمة أبغا ، فأبوا وقالوا : نحن تحت طاعة القان إذا رحل عنا خرجنا ، فإنا نخاف سطوته ؛ فطلع إليها الصاحب شمس الدين الجُوَيني وأعرض حواصلها ، وحمل ما بها من القماش والمال لأبغا ، وساق إليه ما كان فيها من الخيل .

ثم سار إلى قلعة بابَرْت ، فخرج إليه شيخ منها وقال : أريد من القان الأمان لأتكلم بين يديه كلمتين فقال : قل ولك الأمان . قال : يا ملك البسيطة عدوك حضر إلى بلادك وما تعرض للرعيّة ولا أسال لهم محجمة دم ، وأنت قصدت العدُوَّ وجئت فى طلبه ، فلما فاتك أنخت على رعيتك ، فقتلتهم ونَهبْتَ بلادهم وخرّبتها ، فمن هو من الخانات الذين تقدَّموا من أسلافك مَنْ هذه السُّنة واعتمد هذه الياساق ، فاغتاظ أبغا لذلك وعطف على الأمراء الذين أشاروا عليه بنهب البلاد ، فأهانهم ، وأطلق كلَّ من كان قد أخذ أسيرًا ، فكانت عدّتهم أربعمائة [٦١٤] ألف نفر ، وسار إلى الأُرْدُو (١) ، وقتل البَرْواناه .

ذكر مقتل البَرْوَاناه :

واسمه سليمان (٢) بن على بن محمد بن حسن ، ولُقبه علاء الدين البَرْواناه ، ومعناه الحاجب بالعجمى .

---

(١) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٥ أ ، ب .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، فوات الوفيات جـ ٢ ص ٧١ رقم ١٧٨ ، السلوك جـ ١ ص ٦٢١ وما بعدها ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣١٢ ، العبر جـ ٥ ص ٣١٠ .

وكان رجلا شجاعا ، حازما ، كريما ، جوادا ، عارفا بتدبير المملكة ، ذا مكر ودُهاء

وذكر فى بعض التواريخ : أن أصله من الديلم ، وأن أباه كان يلقب بمهذّب الدين ، وكان رجلا جميلا وسيماً من طلبة العلم ، وكان حضر إلى سعد الدين المستوفى بالروم فى أيام السلطان علاء الدين كيقباذ ، فسأله أن يجرى عليه شيئا من بعض المدارس ليقتات به فيكون درهما كل يوم ، فمال إليه المستوفى لما رأى من حسْن سَمْته وسِمَته فقال له : أريد أن أُصيِّرك منى مكان الولد وأجودُ لك بما أجد ، ثم قرَّبه وأدناه وأحبَّه ، وزوَّجه ابنته ، واتفق وفاه المستوفى بعد ذلك ، فوُصِفَ مهذَّب الدين للسلطان علاء الدين كيقباذ بالفضيلة والمعرفة والكفاية والأهلية للمناصب ، فرشحه لوزارته وألقى إليه مقاليد دولته ، فرزق مهذّب الدين معين الدين سليمان الملقب بالبَرْواناه ، ثم آل أمرُ البَرواناه إلى أن هلاون لما أخذ بلاد الروم قال للسلطان ركن الدين : مَنِ الآن يصلح للتردد فى الأشغال ؟ قال : ما يصلح أحد لذلك سوى البرواناه ، فترقت منزلته من ذلك اليوم حتى صار فيما بعد حاكما على ممالك الروم إلى أن جرى عليه ما نذكره الآن من أبغا ملك التتار .

وهو أن أبغا لما توجه من الروم إلى الأُرْدُو ، وأخذ معه البَرْواناه كما ذكرناه ، استشار الأمراءَ فى أمره ، فقوم أشاروا عليه بقتله ، وقوم أشاروا بإبقائه وإعادته إلى البلاد ليحفظ نظامها ويحمل خراجها ، فترجح عنده إبقاؤه فأطلقه من التوكيل على أنَّه يعود ، فسمع نساء أمراء المغول الذين قتلوا فى المعركة كزوجة تُوقُو وتُدَاوُن وغيرهما أن أبغا رسم بإطلاقهما لبَرْواناه ، فاجتمعن [٦١٥] جميعا

عصر النهار، وأقمن مأتماً وصحن ونُحْنَ، فسمع أبغا ضجيجهن فقال: ما هذا؟ فقيل له: إن الخواتين سمعن بأن أبغا قد خلّى سبيلَ البَرْوَاناه وأطلق سراحه ليعود إلى الروم سالما، فبكين وأعولن على أزواجهن، فأمر أبغا لأمير من الأمراء الذين يُشَتُّون ببلاد سيس اسمه كُوبكا بهادر(١) أن يأخذ معه مائتي فارس ويسير بالبَرْوَاناه إلى موضع عَيّنَهُ له فيقتله، فاستدعى كوبكا بهادر البَرْوَاناه وقال له: إن أبغا يُريد يركب ورسم لك أن تركب أنت وأصحابك معه، فركب هو ومعه اثنان وثلاثون نفسا من مماليكه وألزامه، فتوجه معه، فأخذ به نحو البر، فعلم أن ذلك الأمر لاخير له فيه، فأحاط به وبأصحابه التتار كما يحيط بالزند السوار، وكتّفوا أصحابه، فسأل أن يمهلوه رَيْثما يتوضأ ويصلي، فأمهلوه، فلما فرغ من صلاته قتلوه ومَن معه.

وكان أبغا نازلا بمقام الأطاغ، ولما سمع مماليك البَرْوَاناه بقتله وهم: علم الدين سنجر البَرْوَانيّ، وبدر الدين بكتوت أميرآخور، فاجتمعا ومن معهم من كبارهم فى مخيمهم وأوتَرُوا قِسيّهم، ونكّثوا نشابهم بين أيديهم وقالوا: ما نموت إلا مقاتلين، فاضطر الذين نُدبوا إلى قتلهم إلى أن شاوروا أبغا، فلما شاوروه على ذلك استحسن هذا الأمر منهم، وقال: هؤلاء مماليك نافعون، نخلُّوا عنهم، فأطلقوا سبيلَهم وأُعطوا دستورا إلى بلادهم.

---

(١) «كركجي» فى زبدة الفكرة.

وكان مقتل البرواناه فى آخر ذى الحجة(١) من سنة خمس وسبعين وستمائة(٢) .

وقال ابن كثير : وكان مقتله فى العشر الأول من محرم سنة ست وسبعين وستمائة(٣) .

وقال النويرى : وكان مقتله على منزل الأُطَاغْ ، وقتل معه نيف وثلاثون نفسا من مماليكه وخواصه .

وقال بيبرس فى تاريخه(٤) : وكان مقتل البَرْوَاناه فى آخر صفر من سنة ست وسبعين وستمائة(٥) .

ذكر رحيل السلطان الملك الظاهر إلى ناحية دمشق :

قد [٦١٦] ذكرنا أن السلطان قد أقام فى مرج حارم شهرا لإراحة عساكره وتربيع خيولهم ، ثم رحل عند انقضاء هذه السنة ، أعنى سنة خمس وسبعين وستمائة إلى دمشق ، ودخلها فى خامس المحرم من سنة ست وسبعين وستمائة على ما نذكره إن شاء الله .

---

(١) «فى آخر صفر» فى زبد الفكرة .

(٢) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٥ب ، ٨٦ أ .

(٣) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧٤ ،

(٤) «خمس» فى زبدة الفكرة

(٥) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٦ أ .

وفيها : جهّز يعقوب المريني إلى محمد بن الأحمر نجدة من بني مرين صحبة محمد وعامر ابني إدريس ، فانجدوه على الفرنج واتفقوا معهم على شريش مدينة من مدائن الأندلس ، فهزموهم هزيمة عظيمة ، وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، وأرسل إلى يعقوب يشكره ويثني عليه على إنجاده له وإمداده إياه .

وفيها : « ... ... »[1] .

وفيها : حج بالناس « ... ... »[2] .

---

(١) ، (٢) « ... ... » بياض في الأصل .

ذكر من تُوفى فيها من الأعيان

الشيخ أبو الفضل عيسى[(١)] بن الشيخ عبد الله بن عبد الخالق الدمشقى .

مات فى هذه السنة ، ودفن بالقرب من الشيخ رسلان ، وكان مولده سنة أربع وستين وخمسمائة .

الشيخ المحدث شمس الدين أبو العباس أحمد[(٢)] بن محمد بن عبد الله بن أبى بكر الموصلى ، ثم الدمشقى الصوفى .

سمع الكثير ، وكتب الكتب الكبار بخط رفيع جيد واضح ، وجاوز السبعين ، مات فى هذه السنة ، ودفن بباب الفراديس ، رحمه الله .

الشاعر شهاب الدين أبو المكارم محمد[(٣)] بن يوسف بن مسعود بن بركة بن سالم بن عبد الله الشيبانى التلعفرى[(٤)] .

---

(١) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧٢ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧٢ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٦ ب ، الوافى جـ ٥ ص ٢٥٥ رقم ٢٣٣٧ ، فوات الوفيات جـ ٤ ص ٦٢ رقم ٥٠٥ ، السلوك جـ ١ ص ٦٣٤ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٥٥ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٤٩ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧٢ ، العبر جـ ٥ ص ٣٠٦ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٧٦ وما بعدها .

(٤) التلعفرى : نسبة إلى تل يعفر المعروف أيضا باسم تل أعفر : قلعة بين سنجار والموصل ، واسم بلدة من نواحى الجزيرة — معجم البلدان .

صاحب ديوان الشعر ، جاوز الثمانين ، وكانت وفاته بحماة فى هذه السنة ، وكان الشعراء معترفين بفضيلته وتقدمه فى هذا الفن .

القاضى شمس الدين على(1) بن محمود بن على بن عاصم الشهرزورى ، ثم الدمشقى .

مدرس القيمرية(2) ، شرط واقفها له ولذريته من بعده ، وقد سافر مع ابن العديم إلى بغداد ، فسمع بها ، مات فى هذه السنة ، ودفن فى مقابر الصوفية بالقرب من ابن الصلاح .

الشيخ الصالح العالم الزاهد أبو إسحاق إبراهيم(3) بن سعد الله بن جماعة بن على ابن جماعة بن حازم بن صخر الكنانى الحموى .

له معرفة بالفقه [٦١٧] والحديث ، ولد سنة ست وتسعين بحماة ، وكانت وفاته بالقدس الشريف ، ودفن بماملا ، وسمع من الفخر بن عساكر ، وروى عنه ولده قاضى القضاة بدر الدين ابن جماعة(4) .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٥٧ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧٢ .

(٢) المدرسة القيمرية بدمشق : أنشأها الأمير حسين بن على القيمرى ، ناصر الدين ، المتوفى سنة ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م — الدارس جـ ١ ص ٤٤١ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٦٤ رقم ٢٧ ، الوافى جـ ٥ ص ٣٥٢ رقم ٢٤٢٩ ، طبقات الشافعية الكبرى جـ ٨ ص ١١٥ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧٣ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٥١ ، درة الأسلاك ص ٥٣ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٦٩ — ٧٠

(٤) هو محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة ، بدر الدين ، المتوفى سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٢م — المنهل الصافى .

الشيخ الصالح جندل[(١)] بن محمد المنيني .

كانت له عبادة وزهد، وكان الناس يترددون لزيارته بمنين، وكان من أهل الطريق ، وعلماء التحقيق ، وتوفى فى رمضان من هذه السنة وعمره خمس وتسعون سنة ، ودفن فى زاويته المشهورة به بقرية منين[(٢)] ، رحمه الله .

محمد[(٣)] بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن الحافظ بدر الدين أبو عبد الله بن الفُوَيْرة السُلمى الحنفى .

اشتغل على الصدر سليمان، وابن عطاء ، وفى النحو على ابن مالك، وحصَّل، وبرع ، ونظم ، ونثر ، ودرَّس بالشبلية[(٤)] ، والقصّاعين[(٥)] ، وطلب لنيابة القضاء فامتنع ، وكتب الكتابة المنسوبة ، رآه بعض أصحابه فى المنام بعد وفاته فقال: ما فعل الله بك ؟

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، وفيه توفى سنة ٦٥٧ هـ — وأمله تحريف ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٤٧ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧٢ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٧١ .

(٢) منين : بالفتح ثم الكسر ثم ياء مثناة ، ونون أخرى ، وله معان كثيرة ، والمقصود هنا : قرية فى جبل سنير من أعمال دمشق — معجم البلدان .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٢٥٣ ، شذرات الذهب جـ٥ ص ٣٤٧ ، السلوك جـ ١ ص ٦٣٤ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧٣ ، العبر جـ ٥ ص ٣٠٦ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٧٤ .

(٤) المدرسة الشبلية بدمشق : بسفح قاسيون ، أنشأها شبل الدولة كافور الحسامى الرومى المتوفى سنة ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م — الدارس جـ ١ ص ٥٣٠ ، خطط الشام جـ ٦ ص ٩٣ .

(٥) مدرسة القصاعين بدمشق — المدرسة القصاعية : بحارة القصاعين ، أنشأتها فاطمة بنت الأمير كوكبا سنة ٥٩٣ هـ / ١١٩٦ م — الدارس جـ ١ ص ٥٦٥ .

فأنشأ يقول :

ماكان لى من شافع عنده غير اعتقادى أنه واحــدُ

وكانت وفاته فى جمادى [الآخرة](١) منها ، ودفن بظاهر دمشق .

محمد(٢) بن عبد الوهاب بن منصور بن شمس الدين أبو عبد الله الحرانى الحنبلى .

تلميذ الشيخ مجد الدين بن تيميّة(٣) ، وهو أول من حكم بالديار المصريّة من الحنابلة نيابة عن القاضى تاج الدين بن بنت الأعزّ ، ثم لما ولى شمس الدين ابن العماد القضاء مستقلا استنابه ، ثم ترك ذلك ورجع إلى الشام يشتغل ويُفتى ويناظر إلى أن توفى وقد نيّف على الستين .

الشيخ رشيد الدين أبو محمــد عبد الله(٤) بن نصر بن سعيد القوصى النحوى .

توفى فيها بمصر ، وكان متصدّرا لإقراء العربيّة ، رحمه الله .

الشيخ أبو المعالى أحمد(٥) بن أبى العباس بن عصرون التميمى الشافعى .

---

(١) [ ] إضافة للتوضيح من البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧٣ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهــل الصافى ، الوافى جـ ٤ ص ٧٥ رقم ١٥٣٣ ، فوات الوفيات جـ ٢ ص ٤٢٨ رقم ٤٧٨ ، شــذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٤٨ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧٣ — ٢٧٤ ، العبر جـ ٥ ص ٣٠٦ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٧٤ .

(٣) هو عبد السلام بن عبد الله بن أبى القاسم بن محمد الحرانى الحنبلى ، مجد الدين بن تيمية شيخ الإسلام ، أبو البركات ، المتوفى سنة ٦٥٢ هـ / ١٢٥٤ م — المنهل الصافى .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٦ ب ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٧١ .

(٥) هو أحمد بن عبد السلام بن المطهر بن أبى سعد بن أبى عصرون التميمى الشافعى .

وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٣٣٧ رقم ١٨٥ ، الوافى جـ ٧ ص ٦٠ رقم ٢٩٩٥ ، زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٦ ب ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٧٠ ، السلوك جـ ١ ص ٦٣٤ ، العبر جـ ٥ ص ٣٠٥ .

وبيته مشهور بالعلم والتقدم ، توفى فى هذه السنة بحلب[1] .

الفاضى الفقيه أبو إسحاق إبراهيم[2] بن محمد بن على البوشى المالكى .

وكان صالحا ، تولى قضاء الإسكندرية ، وتوفى فى هذه السنة بمصر ، رحمه الله .

الشيخ [٦١٨] نجيب الدين أبو الفضل محمد[3] بن على بن الحسين بن حمزة الخلاطى .

تولى الإعادة بالمدرسة السرورية بالقاهرة ، وذكر أنه شرح الوجيز فى عدة مجلدات ، وتوفى فيها بالقاهرة .

الأمير أبو عبد الله محمد[4] بن الأمير أبى زكريا يحيى بن أبى محمد عبد الواحد ابن أبى حفص عمر صاحب تونس .

مات فى هذه السنة .

الأمير الطواشى يمن[5] الحبشى ، شيخ الخدام بالحرم الشريف النبوى .

توفى فى هذه السنة ، وكان دينا عادلا ، صادق اللهجة ، وكان فى عشر السبعين ، رحمه الله .

---

(١) ورد فى المنهل الصافى أنه توفى سنة ٦٩٥ هـ/ ١٢٩٥ م ، بينما اتفقت مصادر الترجمة على أنه توفى فى هذه السنة (٦٧٥ هـ) .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٦ ب .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٦ ب ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٧٩ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٦ ب ، الوافى جـ ٥ ص ٢٠٢ رقم ٢٢٦٤ ، السلوك جـ ١ ص ٦٣٤ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٤٩ ، العبر جـ ٥ ص ٣٠٦ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٧٩ .

(٥) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧٢ .

فصل فيما وقع من الحوادث

فى السنة السادسة والسبعين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة هو : الحاكم بأمر الله .

والسلطان الملك الظاهر قد دخل دمشق بعد رجوعه من بلاد الروم وكسره التتار على الأُبُلُسْتَين ، و إقامته بعد ذلك على مرج حَارم شهرا كما ذكرنا ، فى اليوم الخامس (١) من محرم هذه السنة ، فنزل بالقصر الأبلق الذى بناه غربىّ دمشق بين الميادين الخُضْر ، وتواترت الأخبار بأن أبغا بن هلاون قد عزم على قصد بلاد الشام ، فأمر عند ذلك بجمع الأمراء وضرب الدهليز منشورا ، ثم جاء الخبر بأنّ أبغاَ عاد إلى بلاده ، فرسم بردّ الدهليز ، وأقام فى القصر الأبلق يجتمع عنده الأمراءُ ، والدولة فى أسرّ حال ، معتقدا أن الدنيا قد حصلت فى يده ، والأقدار تخدمه فى بلوغ مقصده ، و إذا بالعافية قد شمّرت الذيل ، والصِحّةُ قد انجابت كما ينجاب ضوءُ النهار من سُدْفة الليل ، وأمرُ الله قد أدركه فلم تغن الحيلة ولا الحيل .

ذكر وفاة السُلطان الملك الظاهر أبو الفتح الأسد الضارى ركن الدّين بيبرس البندقدارى الصالحى النجمى :

تغمده الله برحمته ، وأسكنه فسيح جنته ، والكلام فيه على أنواع :

(*) يوافق أولها الجمعة ٤ يونية ١٢٧٧ م .

(١) « السابع » فى الأصل ، والتصحيح من الروض الزاهر ص ٤٢٧ ، السلوك ج ١ ص ٦٧٥ ، ومما سبق ص ١٦٧ .

الأول في ترجمته(١) : هو بيبرس بن عبد الله، قفجاق [٦١٩] الجنس، وقيل هو من برج أغلى قبيلة من الترك، حضر هو ومملوك آخر مع تاجر إلى مدينة حماة، فاستحضرهما الملك المنصور محمد صاحب حماة يشتريهما فلم يعجبه أحد منهما، وكان أيدكين البندقداري الصالحي مملوك الملك الصالح نجم الدين أيوب بن السلطان الملك الكامل صاحب مصر قد غضب عليه الصالح المذكور، وكان قد توجه أيدكين المذكور إلى جهة حماة، فأرسل الملك الصالح من يقبض عليه واعتقاله بقلعة حماة، فتركه المنصور صاحب حماة في جامع قلعة حماة، واتفق ذلك عند حضور الملك الظاهر صحبة التاجر، فلما قلبه المنصور صاحب حماة فلم يشتره أرسل أيدكين البندقدار وهو معتقل، فاشتراه ليخدمه، وبقى عنده، ثم أفرج الملك الصالح عن أيدكين البندقدار، فسار من حماة وصحبته الملك الظاهر، وبقى مع أستاذه المذكور مدة، ثم أخذه الملك الصالح نجم الدين أيوب من أيدكين المذكور، فانتسب الملك الظاهر إلى الملك الصالح دون أستاذه، وكان يخطب له، وينقش على الدنانير والدراهم بيبرس الصالحي.

الثاني في صفته : كان الملك الظاهر أسمر، أزرق العينين، جهوري الصوت، عليه مهابة وجلالة، وكان إلى الطول أقرب.

---

(١) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي جـ ٣ ص ٤٤٧ رقم ٧١٧، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٩٤ — ٢٠٠، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٥٠، كنز الدرر جـ ٨ ص ٤٩٢ وما بعدها، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٨١ وما بعدها.

الثالث في سيرته : كان شهما ، شجاعا ، سخيًا ، عالى الهمّة ، بعيد الغور ، مقداما ، جسورًا ، مُعتنياً بأمر السلطنة ، متحليًا بها ، له قصد صالح في نصرة الإسلام وأهله ، وإقامة شعائر الملك .

وفي تاريخ النويري : وكان ملكا جليلا ، شجاعا ، مهيبا ، حسن السياسة ، كثير التحيُّل ، وكان عسوفا جبّارا ، كثير المصادرات للرعية والدواوين خصوصا لأهل دمشق ، وكان مُتنبّها ، شهما ، لايفتر ليلا ولانهارا عن مناجزة الأعداء ونصرة الإسلام ، وكان مقتصدا في ملبسه ومطعمه ، وكذلك جيشه .

وقد جمع له كاتبه محيي الدين بن عبد الظاهر سيرة مطوّلة (١) ، وكذلك ابن شداد (٢) أيضا ، وهو الذي أنشأ [٦٢٠] الدولة العباسيّة بعد بقاء الناس بلا خليفة نحوا من ثلاث سنين ، وهو الذي جدّد من كل مذهب قاضي قضاة مستقلا من غير مشاركة .

الرابع في فتوحاته : فتح في أيامه فتوحات كثيرة وهي : قيسارية التي على الساحل ، وأَرْسُوف ، ويافا ، والشقيف ، وأنطاكية ، وبُغْراس ، وطبريّة ، والقُصَير ، وحصن الأكراد ، وحصن عُكّار ، وحصن عكا ، والقُرَيْن ، وصافيثا ،

---

(١) هي « الروض الزاهرة في سيرة الملك الظاهر » — حققها ونشرها عبد العزيز الخويطر — الرياض ١٩٧٦ .

(٢) هي « الملك الظاهر بيبرس » — مخطوط بأدرنه — المسجد السليماني رقم ٢٣٠٦ ، والتي كتبها محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد ، الشيخ عز الدين ، والمتوفى سنة ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م — انظر ما يلي في وفيات سنة ٦٨٤ هـ

وغير ذلك من الحصون المنيعة التي بأيدي الفرنج ، ولم يُبْق مع الإسماعيلية شيئاً من الحصون ، وناصَفَ الفرنج على : المرقب ، وبلنياس ، وبلاد انطرسوس ، وسائر ما بقي بأيديهم من البلاد والحصون ، وأخذ قيسارية الروم على ما ذكرنا ، وخطب له فيها ، واستعاد (١) من صاحب سيس بلادا كثيرة ، واستردَّ أيضا من المتغلِّبين من المسلمين : بعلبك ، وبُصْرى ، وصرخد ، وعجلون ، وحمص ، والصلت ، وتدمر ، والرحبة ، وتلّ باشر ، والكرك ، والشوبك ، وأخذ بلادا كثيرةً من التتار منها : البيرة ، وغيرها ، وفتح بلاد النوبة بكمالها ، واتسعت مملكته من الفُرات إلى أقصى بلاد النوبة .

وقال النويري : وأول فتوحاته قيسارِيّة الشام بالسواحل ، وآخر فتوحاته قيسارِيّة الروم ، وأما مدَّة فتوحاته فكانت تزيد على أربعين حصناً ، وكان بيده بمصر والشام ستة وأربعون قلعةً (٢) .

الخامسُ في عمائره : قال ابن كثير : وعمر شيئاً كثيرا من الحصون ، والمعاقل ، والجسور ، والقناطر على الأنهار في بلاد الشام ومصر (٣) ، وبنى بقلعة الجبل دار الذهب ، وبنى قبةً على إثنى عشر عمودا مُلَوَّنةً مُذهبةً ، وصوَّر فيها صُوَر خاصكيته وأشكالهم ، وحفر أنهارا كبارا (٤) وخلجانات ببلاد مصر منها :

(١) « واستعد » في الأصل .
(٢) عن غزوات السلطان وفتوحاته انظر نهاية الأرب مخطوط ج ٢٨ ورقة ١٦٠ — ٢٦٦ .
(٣) « على الأنهار الكبار » في البداية والنهاية ج ١٣ ص ٢٧٥ .
(٤) « أنهار كثيرة » في البداية والنهاية .

بحر السردوس[١]، وبنى جوامع كثيرة ومشاهد عديدة[٢]، وجدد مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أحرق[٣]، ووضع الدرابزينات [٦٢١] حول الحجرة الشريفة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، وعمل فيه منبرا وسقفه بالذهب، وجدد المارستان[٤] بالمدينة، وجدد قبر الخليل عليه السلام، وزاد فى رواتبه وما يصرف إلى المقيمين، وبنى على المكان المنسوب إلى قبر موسى عليه السلام قبة قبلى أريحا[٥]، وجدد بالقدس أشياء حسنة من ذلك قبة السلسلة، ورمم شعث[٦] الصخرة وغيرها، وبنى خانا هائلا بالقدس ونقل إليه باب قصر الخلفاء الفاطميين [من مصر][٧]، وعمل فيه طاحونا وفرنا وبستانا، وجعل للواردين أشياء تصرف إليهم نفقة وإصلاح الأمتعة، وبنى على قبر أبى عبيدة رضى الله عنه بالقرب من عمتنا مشهدا وأوقف عليه شيئا للواردين، وجدد جسر قامية[٨]، وجدد عمارة[٩] جعفر الطيار رضى الله عنه بالكرك، وأوقف على الزائرين شيئا [كثيرا][١٠]، وجدد

(١) « نهر السرداس » فى البداية والنهاية .
(٢) « ومساجد عديدة » فى البداية والنهاية .
(٣) « احترق » فى البداية والنهاية .
(٤) « زاويته » فى البداية والنهاية، وهو تحريف .
(٥) « ريحا » فى الأصل، والتصحيح من البداية والنهاية .
(٦) « سقف » فى البداية والنهاية .
(٧) [ ] إضافة من البداية والنهاية .
(٨) « دامية » فى البداية والنهاية .
(٩) « وجدد قبر » فى البداية والنهاية .
(١٠) [ ] إضافة من البداية والنهاية .

قلعة صفد[1] وجامعها ، وجدّد جامع الرملة وغيرها فى كثير من البلاد التى كانت الفرنج قد عدت عليها[2] ، وبنى بحلب دارا هائلة ، وبدمشق : القصر الأبلق ، والمدرسة الظاهرية[3] قبالة العادلية ، وبنى بالقاهرة أيضا : المدرسة الظاهرية[4] ، وبنى جامعا هائلا بالحسينية[5] ، وله من الآثار والأماكن ما لم يُبْنَ فى زمن الخلفاء وبنى أيوب[6] .

السادس فى وفاته : قال بيبرس — رحمه الله — : وكان القمر قد كسف كسوفا كاملا أظلم له الجو ، وتأوّل ذلك المتأوّلون بموت رجل جليل القدر نبيه الذكر ، فقيل : إن السلطان لما بلغه هذا الإرجاف حذر على نفسه وخاف ، وقصد أن يصرف التأويل إلى غيره لعله يسلم من شرّه[7] ، وكان بدمشق رجل من أولاد الملوك الأيوبيّة يُسمّى الملك القاهر « بهاء الدين عبد الملك من ولد الملك الناصر داود بن الملك المعظم عيسى بن السلطان الملك العادل أبى بكر ابن نجم الدين أيوب ، وكان يسكن البرّ ، وتزوج من العرب ، وأقام بينهم ، يسير

(١) « صفت » فى البداية والنهاية ، وهو تحريف .

(٢) « التى كانت الفرنج قد أخذتها وخربت جوامعها ومساجدها » — البداية والنهاية .

(٣) « المدرسة ، الظاهرية وغيرها » فى البداية والنهاية .

(٤) وعن المدرسة الظاهرية بالقاهرة : بخط بين القصرين — انظر المواعظ والإعتبار جـ ٢ ص ٣٧٧ — ٣٧٨ .

(٥) عن جامع الظاهر بالحسينية بالقاهرة : انظر المواعظ والإعتبار جـ ٢ ص ٢٩٩ — ٣٠٠ .

(٦) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧٥ — ٢٨٦ .

(٧) « شخص » فى زبدة الفكرة .

معهم حيث ما ساروا، وإذا غزوا غزا معهم، لحضر من الغزاة إلى دمشق»[١]، فأراد على ما قيل اغتياله، فأحضره فى مجلس شرابه، فأمر الساقىَ أن يَسْقِيه [٦٢٢] كأس قـز كان مَمْزُوجاً فيما يُقال بسُمّ، فسقاه السَّاقى ذلك الكأسَ، فأحسَّ منه بالباس، فخرج من المقام وعلقت به مخاليبُ الحمام، وغاط الساقى لإصابة المقدور، وملأً على أثره الكأس المذكور وأداره، والدائراتُ تدور، فوقع فى نوبة السلطان، فشربه ولم يشعر حتى أحسَّ بالنيران، فكتم أمره عن الأطبَّاء، وأخفى حاله عن الأحبّاء، ومكث أياماً يشكو الليل والنهار من توقُّد وهج النار، ثم اضطر إلى اطلاع الطبيب بعد استحكام دائه، طمعا فى دوائه، فلم ينجع العلاج، ولا نهضت قدرة الإساءة لإصلاح المزاج[٢].

وأما القاهر فإنه حمل إلى منزله وهو مغلوب، فمات من ليلته ليلة السبت خامس عشر المحرم من هذه السنة.

وتمرض السلطان بعده أياما حتى كانت وفاته يوم الخميس بعد صلاة الظهر السابع والعشرين[٣] من المحرم بالقصر الأبلق، فكان ذلك يوما عظيما على الأمراء.

وقال بيبرس فى تاريخه: توفى فى اليوم المذكور وقت الزوال، وحضر نائب السلطنة عز الدين أيدمر وكبار الأمراء والدولة، فصلوا عليه سراً، وجعلوه فى تابوت، ورفعوه إلى القلعة فى بيت من بيوت البحرية إلى أن نقل إلى تربته تجاه

(١) «   » ساقط من زبدة الفكرة فى هذا الموضع ، ثم وردت بعض الجمل بعد ذلك مما أدى إلى اضطراب النص فى زبدة الفكرة.

(٢) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٧ أ ، ب.

(٣) «فى ثامن عشرين المحرم» — الجوهر الثمين ص ٢٨٣.

العادلية الكبيرة ليلة الجمعة خامس رجب من هذه السنة، وكتم موته فلم يعلم جمهور الناس به حتى كان العشر الأخير من ربيع الأول ، وجاءت البيعة للملك السعيد من مصر ، فحزن الناس عليه وترحموا ، وكان يوماً شديدا على الناس (١) ، وجددت البيعة ، وجاء تقليد النيابة مجددا لعز الدين أيدمر .

وقال بيبرس : فكتم الأمير بدر الدين بيليك الخزندار نائبه موته عن العساكر ، وأظهر أنه مستمر المرض ، ورتب حضور الأطباء وعمل الأدوية والأشربة على العادة ، وحمل جسده إلى قلعة دمشق ، فبقي فيها مصبرًا إلى أن بنيت له التربة المذكورة (٢) ، ثم إن الأمير بدر الدين الخزندار رحل بالعساكر المنصورة [والخزائن مصونة موفورة ، والأطلاب مرتبة منتظمة] (٣) والمحفة محمولة في الموكب [محترمة] (٤) كأن السلطان فيها مريض ولا يجسر أحد يتفوه [٦٢٣] بموته ، [إلا أن الظنون ترجمت ، والأفكار في أمره تقسمت ، وغلب الناس أمر وفاته على مرضه وحياته ، ولم تزل الحال مرتبة في النزول والترحال إلى أن وصلوا إلى القاهرة المحروسة ، وحصلت الخزائن ، والبيوتات والخيول والاصطبلات في قلعة الجبل] (٥) فأشيع مماته ، وأظهرت للناس وفاته ، واستقر ولده الملك السعيد مكانه (٦) .

---

(١) لم يرد هذا النص في نسخة زبدة الفكرة التي بين أيدينا ، ولكن توجد بعض عبارات هذا النص فيما أورده ابن كثير — البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧٥ .

(٢) « المعروفة به بدمشق ، فنقل إليها فيما بعد » — زبدة الفكرة .

(٣) ، (٤) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٥) [ ] إضافة من زبدة الفكرة ، و يوجد بدلا منها في الأصل « فوصلوا إلى القاهرة » .

(٦) « وجلس ولده السعيد » في زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٧ ب .

وقال المؤيد فى تاريخه : وفى سنة ستّ وسبعين يوم الخميس السابع والعشرين من المحرم توفى السلطان الملك الظاهر بيبرس الصالحى بدمشق ، وقت الزوال ، عقيب وصوله من جهة بلاد الروم إلى دمشق ، وقد ذكرنا أنه دخل دمشق فى اليوم الخامس(١) من محرم هذه السنة ، ومات فى السابع والعشرين منه ، فتكون مدة إقامته بدمشق من بعد دخوله ثلاثة وعشرين يوما .

السابعُ(٢) فى مدّة سلطنته : قال بيبرس : مدة مملكته ثمانية عشرة سنة وشهرين [وعشرة أيام(٣)] .

وقال النويرى : وكانت مدّة الملك الظاهر نحو سبع عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام لأنه ملك فى سابع عشر ذى القعدة سنة ثمان وخمسين وستمائة ، وتوفى السابع والعشرين من محرم سنة ست وسبعين وستمائة ، وكذا قال المؤيد فى تاريخه .

الثّامن فى أولاده وما رُثِى به : قال النُويرى : وخلّف من الأولاد : الملك السعيد ناصر الدين بركة خان ، ونجم الدين أمير خضر ، وبدر الدين سلامش ، وثلاث بنات(٤) .

وقال غيره : خلف من الأولاد عشرةً ، ثلاثة ذكور وهم المذكورون وسبع بنات(٥) .

(١) « السابع » فى الأصل ، والتصحيح يتفق و باقى العبارة ، وانظر ما سبق ص ١٦٧ ، ص ١٧٤ .

(٢) « ستة » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٣) [ ] إضافة من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٧ ب .

(٤) أنظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٧ ب .

(٥) انظر أيضا الجوهر الثمين ص ٢٨٣ .

ومما رُثى به ما قاله محيي الدين بن عبد الظاهر يرثى به الملك الظاهر :

أبدًا عليك تحيّـةٌ وسـلامُ		يا قبرُ مَنْ خُتِمَتْ به الإسلامُ (١)
يا تُرْبَةً لولا الحياءُ من الحيا		أمسى سجال الدمع فيك سجامُ
يا دمعُ عينى مثل دمع سحابةٍ		هيهات بين الدمعتين زِحامُ
فسبقت كل سحابة هطّالةٍ		يثنى عليها منـدلٌ وبشامُ
تنهل منك نوالُ سا كنك الذى		من كفّـه فوق السماح يسامُ
الظاهرُ السلطان من بعصابه		هُدَّ الهدى وتضعضع الإسلام
وغدت دمشق بقبره وحلوله		فيها تتيـهُ على الوجـود شامُ

[٦٢٤]

قبرٌ به تتضاعف الأقسامُ من		بركاته وتـؤكّد الأقسامُ
قبرٌ به تتوسّـلُ الآمالُ فى		حاجاتها وتُصرّف الأحكامُ
قبر الذى لو أنصفته قلوبُنا		ما أصبحت لمسرّة تستـامُ
قـبر الذى قلعَ القـلاع		سُكّانُها وله الحصـون خيامُ
قبر الذى قهر التتار فأصبحوا		ولهم إذا ناح الحَمامُ حِمـامُ (٢)

وقال بيبرس : قال القاضي محيي الدين بن عبد الظاهر يرثيه أبياتا أوّلهـا :

ما مِثْلُ هذا الرُزْءِ قلبٌ يحملُ		كلا ولا صـبرٌ جميلٌ يجمُلُ
اللهُ أكـبر إنهـا لمصـيبةٌ		منها الرواسى خيفـةً تتقلقلُ

(١) « الأيام » فى كنز الدرر جـ ٨ ص ٢١٨ .

(٢) انظر أيضا كنز الدرر جـ ٨ ص ٢١٨ .

ما للرماح تخولتها رعدة [ألتركها أن ليس تعقل تعقل](١)

لهفى على الملك الذى كانت به الدنيا تطيب وكل قفر منزل(٢)

الظاهر السلطان من كانت له منن على كل الورى وتطول

لهفى على آرائه تلك التى مثل السهام إلى المصالح توصل

لهفى على تلك العزائم كيف قد غفلت وكانت قبل ذا لا تغفل

سهم أصاب وما رئى من قبلة سهم له فى كل قلب مقتل

أنا إن بكيت فإن عذرى واضح ولئن صبرت فإننى أتمثل

خلف السعيد لنا الشهيد فأدمع منهلة فى أوجه تتهلل(٣)

---

(١) [... ...] بياض بالأصل ، والإضافة من زبدة الفكرة .

(٢) « فكل » فى زبدة الفكرة .

(٣) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٨ أ .

وانظر نص القصيدة فى كنز الدرر جـ ٨ ص ٢١٥ — ٢١٧ ، وانظر أيضا تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٩٠ — ٩٢ ، كما وردت بعض الأبيات فى بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٣٣٩ ، وفى هذه المصادر اختلاف فى بعض الألفاظ عما ورد بالمتن .

ذكر سلطنة السلطان الملك السعيد
ناصر الدين بركة خان

استقر في السلطنة بعد وفاة والده الملك الظاهر ، وكان استقراره في شهر ربيع الأول سنة ست وسبعين وستمائة ، وذلك أن الأمير بدر الدين بيليك الخزندار لما وصل بالعساكر إلى الديار المصرية ألقى المقاليد إليه ، ووقف بين يديه ، واستمر على مناصحته وطاعته كما كان مع أبيه .

وفي يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر صفر خطب في جميع الجوامع بالديار المصرية للملك السعيد .

وفي منتصف ربيع الأول ركب [٦٢٥] السلطان الملك السعيد بالعصائب على عادة أبيه ، وبين يديه الجيش بكماله الشامي والمصري حتى وصل إلى الجبل الأحمر ، وفرح الناس به فرحا شديدا ، وعمره يومئذ تسع عشرة سنة ، وعليه أبهة الملك ، ورئاسة السلطنة ، واستقر الأمير بدر الدين بيليك الخزندار في نيابة السلطنة على ما كان عليه مع والده ، فلم تطل أيامه ومات بعد ذلك ، كما سنذكره في الوفيات إن شاء الله تعالى .

وتولى عوضه النيابة شمس الدين الفارقاني الظاهري أستاذ الدار ، وكان يباشر نيابة السلطنة بالديار المصرية عند سفر أستاذه إلى البلاد الشامية ، وكان جادا حازما ، فلما استتب له حديث النيابة ، والتقدم على تلك العصابة ، ضم

إليه أقواما كان الملك الظاهر ألزمهم بتبيع نفوسهم له على الكبر، فلم يمكنهم مخالفته ما أمر، فاشتراهم زعم من ورثة مواليهم ومن ادعى أن له النظر عليهم، فكان ممن التف بأصحابه، وانحاز إلى جنابه شمس الدين أقوش، و(١) قطليجا الرومى وسيف الدين قايچ(٢) البغدادى، وسيف الدين بيجق(٣) البغدادى، وعلم الدين سنجر طردج، وأسد الدين قراصقل، وعز الدين مُغان(٤) أمير شكار، وسيف الدين بكتمر السلحدار، وأمثالهم(٥).

ثم أن الملك السعيد مالت به الأهواء وتقلبت به الآراء، وقدّم الأصاغر على الأكابر، وأقصى الأكابر بقرب الأصاغر، وكان يميل إلى أقرانه ومعاصرى أسنانه، فأمسك الأمير شمس الدين سنقر الأشقر، والأمير بدر الدين بيسرى، وهما من أكابر الأمراء، وكانا جناحىْ والده.

فلما قبض عليهما دخل الأمير بدر الدين محمد بن بركه إلى أخته أم الملك، الملك السعيد، وقال لها: إن ولدك هذا قد أساء التدبير، واعتمد أسباب التدمير، وأمسك مثل هؤلاء، وعوّل على الصغار الناقصى الآراء، والمصلحة أن تردّيه إلى الصواب لئلا يفسد نظامه وتقصر أيامه(٦)، فبلغ السلطان كلام خاله، فبادر باعتقاله، فقامت والدته عليه وعنّفته [٦٢٦] على سوء فعله، حتى أفرج عن الأمراء

(١) «و» ساقط من زبدة الفكرة.

(٢) «قلج» فى السلوك جـ ١ ص ٦٤٣.

(٣) «بيجر» فى السلوك جـ ١ ص ٦٤٣.

(٤) «ميغان» فى السلوك جـ ١ ص ٦٤٤.

(٥) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٨ ب

(٦) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٩ أ، السلوك جـ ١ ص ٦٤٥.

المذكورين، وقد تمكنت العداوة في قلوبهم وسكنت البغضاءُ في صدورهم، فاجتمعوا وتشاوروا فيما بينهم . فقال بعضهم : نخرج إلى الشام ونخلى له البلاد، وقال بعضهم : بل نتحدث معه ونصدُّه عن هذه الفعال الذميمة، فاجتمعوا ليلة الخميس على ذلك، وطلعوا بكرة الخميس إلى القلعة في مماليكهم وألزامهم ومن انضمَّ إليهم من الأمراء والعسكر، فامتلأ بهم الإيوان والرحبة، وأرسلوا إليه يقولون : إنك قد أفسدت الخواطر، وغيَّرت عليك الضمائر، وتعرضت إلى الأمراء الأكابر، فإما أن ترجع عن ذلك وإلا كان لنا ولك شأن، فلاطفهم وأخذ خواطرهم، وتقرَّر الصلح، وسكن ثائر الشـــر (٢) . (١)

وقال بيبرس : فلاطفهم وتنصَّل لهم من كل مايكرهون، وأرسل لهم أربع تشريفات جليلة إلى الأمراء الأربعة الكبار، فأبوا أن يلبسوها وقالوا : نحن ما تكلمنا لأجل أنفسنا، بل لأجل العسكر كله، فكيف نلبس نحن دونهم وخواطرهم مغلية ؟ فأعاد جوابهم بما طمأن قلوبهم، وتقرَّر الصلح، وحلف لهم أنه لا يريد بهم سُوءاً ولا يبغى لهم شرا ؛ وتولى أخذ اليمين منه الأمير بدر الدين الأيدمرى، فرضى الأمراء بذلك وانصرفوا، واستقر الحال هُنيهةً (٣) .

ذكرُ وقوع الاختلاف الباعث إلى التلاف :

ثم إن الخاصكية الجوانية ومماليك بدر الدين الخزندار لكراهتهم للأمير

(١) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٩ أ .

(٢) انظر السلوك جـ ١ ص ٦٤٦ .

(٣) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٩ أ .

شمس الدين آقسنقر الفارقانى [وظنهم أنه عمل على أستاذهم وأخذ منصبه] (١) اتفقوا على إمساكه ، [وأتمروا على إهلاكه] (٢) وحسنوا ذلك للسلطان ، وبعثوه عليه ، واستعانوا بسيف الدين كُونَدك الساقى ، وكان الملك السعيد قد قدّمه وعظّمه ، لأنه رُبى معه فى المكتب ، فامتدّت أطماعه إلى أن يكون عوضا عن الفارقانى فى المنصب ، فأمسكوا الأمير شمس الدين المذكور وهو قاعد على باب القُلّة (٣) ، وسحبوه إلى داخل ، وبالغوا فى ضربه وأذيّته ، ونتف لحيته ، والإكثار من إهانته (٤) لما فى أنفسهم من كراهيته ، واعتقل بالقلعة ، فلم يلبث إلا أياما قلائل حتى مات ، وسُلِّم إلى ألزامه ليدفنوه ، [٦٢٧] واستقر بعده فى النيابة عن السلطنة الأمير شمس الدين سنقر الألفى المظفرى ، فلم يرضه الخاصكيّة فإنه ليس من الظاهرية ، واتفق أنه ولّى خشداشا له يسمّى علم الدين سنجر الحموى ويعرف بأبى خُرص الأعمال الصفديّة وزاده نواحى من خاص الديوان السلطانى على إقطاعه وهى أريحا وكفر نَمرين ، فأوهموا السلطان منه ، وزعموا أنه يقصد إقامة المظفّرية ولا يؤمن غائلته (٥) ، فعزله عن قريب وولى سيف الدين

---

(١) ، (٢) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٣) باب القلة : أحد الأبواب الصغرى بداخل قلعة الجبل ، ويتوصل إليه من باب المدرج ، وكانت بين البابين ساحة مستطيلة تؤدى إلى دركاه واسعة يجلس بها الأمراء حتى يؤذن لهم بالدخول — المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٠٤ ، ٢١٢ ، صبح الأعشى ج ٣ ص ٣٧٢ .

(٤) « اهنته » فى الأصل .

(٥) « وخيلوا الملك السعيد منه أنه يريد أن يثور بخشداشيته مماليك الملك المظفر قطز » — السلوك ج ١ ص ٦٤٤ .

كُوَندك الساقي ، فمال إلى جانب الأمير[1] سيف الدين قلاون الألفي ، واتفق أنه كان تحت حجره أخت لزوجته ، وهي بنت كرمون التترى الذى ذكرنا وفوده إلى الديار المصريّة في سنة إحدى وستين وستمائة ، وذلك أن كرمون وصل معه ثلاث بنات له مستحسنات ، فتزوج إحداهن الأمير[2] سيف الدين قلاون المذكور ، ورزق منها ولده الأكبر علاء الدين على الملقب في سلطنته بالملك الصالح ، وواحدة كانت متزوجة بواحد من التتار الوافدين ، وبقيت الثالثة بكرا ومات أبوها ، فأخذها الأمير قلاون[3] عنده ، وصارت مع أختها ، فخطبها الملك الظاهر ودخل بها ، ثم أبانها وأعادها إلى مكانها فخطبها سيف الدين كُوَندك حين صار نائب السلطنة ، فجهّزها إليه وزفّها عليه ، فتمكّنت قربته ، وتأكّدت صحبته[4] .

وتقدّم في ذلك الوقت شخص من المماليك السلطانية اسمه لاجين الزيني ، وتميز على أمثاله ، وغلب[5] على الملك السعيد في أكثر أحواله ، وضم إليه جماعة من الخاصكية واستمالهم بالخُشداشية ، فأخذ لهم الإقطاعات ، واستنجز لهم الصلات ، فكان كلما انحل بديوان الجيش المنصور اقطاع لها صورة يسارع إلى أخذها لمَنْ يختار ويحب[6] ، ويُنافس النائب المذكور في الإيراد والإصدار ،

(١) ، (٢) « الأمير المخدوم » في زبدة الفكرة ، حيث ينقل العيني نص بيبرس الدوادار .

(٣) « المخدوم » في زبدة الفكرة .

(٤) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٨٩ أ — ١٩٠أ .

(٥) « وعلى » في الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق وما يرد في السلوك جـ ١ ص ٦٤٤ .

(٦) « يسارع إلى أخذه لمن يختار » في زبدة الفكرة .

فتوغّرت منهما الصدور ، ودبّتْ بينهما عقاربُ الشرور ، [وبغى كل منهما لصاحبه الغوائل ، ونصب أحدهما للآخر الحبائل](١) ، وضم إليه كُوندك جماعة من أهل السَمع له والطاعة ، وجعل الأمراء الكبار عُمدتَه واتخذهم عُدّته ، فبقى القوم حِزْبًا له وحِزْبًا عليه ، فكان هذا [٦٢٨] الاختلاف موجبا للفساد والتلاف ، ولقد أحسن القائل حيث يقول :

كُنْ آلفا لهمُ ومالوفا لهم   تقوى وبالتقوى تكون أُلوفا
إن السّهامَ إذا انفردن فكسرُها سَهْلُ ويصعبُ إن جمعنَ أُلوفَا(٢)

ذكر بقية الحوادث فى هذه السنة :

منها : أنه عمّ النيل البلاد فى هذه السنة ، ورخُصت الغلال رُخْصا لم يُرَ مثلة فى الدولة التركية حتى بيع الأردبّ من القمح بخمسة دراهم ، والأردبُّ من الشعير بثلاثة دراهم ، ومن بقيّة الحبوب بدرهمين ، حتى حكى بعض التجار أنه أحضر إلى مصر ثلاثمائة أردب فول ، فأبيعت بخمسمائة درهم نقرة ، فأصرف منها أجرة المراكب والحقوق التى عليها ، وبقى له خمسة وثمانون درهما .

ومنها : أن فى يوم الاثنين رابع جمادى الأولى فتحت مدرسة الأمير شمس الدين آقسنقر الفارقانى بالقاهرة ، بحارة الوزيرية ، على مذهب الحنفية ، وعمل فيها مشيخة حديث ، وقارئ .

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٢) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٩٠ أ

وبعده بيوم عُقِد عقد ابن الخليفة المستمسك بالله بن الحاكم بأمر الله على ابنة الخليفة المستنصر بن الظاهر ، وحضر والده والسلطان ووجوه المملكة وكان يوما مشهودا .

ومنها : أن فى يوم السبت تاسع جمادى الأولى شرع فى بناء الدار التى كانت تعرف بدار العقيقى ليعمل مدرسة وتربةً للسلطان الملك الظاهر ، واستقر أساس التربة فى خامس جمادى الآخرة .

ومنها : أن فى رمضان طلعت سحابة بمدينة صفد ، فلمع منها برق شديد ، وسطع منها لسان نار ، وسمع صوت شديد هائل ، ووقع على منارة صفد صاعقة شقتها من أعلاها إلى أسفلها شقًّا يدخل فيه الكفّ .

ومنها : أن فى صفر وصلت الهدايا من الَنْفَش (١) مع رسله إلى الديار المصريّة ، فوجدوا السلطان قد توفى ، ووجدوا ولده الملك السعيد قد أقيم مقامه والدولة ما تغيّرت ، والمعرفة بعدما تنكّرت ، ولكن فَقَدَ أسَدُها ، بل أشدُّها وأسَدُّها الذى كلما انفتحت ثغرةٌ من سور الإسلام [٦٢٩] سَدَّها ، وكلّما انحلّت عقدةٌ من عُرى العزائم شدّها ، وكلما رامت فرقة من طوائف الطغاة أن يَلِجَ إلى حوزة الإسلام صدّها (٢) .

---

(١) هكذا بالأصل ، و « الفونش » فى السلوك جـ ١ ص ٦٦٦ .

ويذكر القلقشندى أن هذا الاسم كان يطلق اصطلاحا على كل ملوك الفرنج بطليطلة وبرشلونة من أسبانيا حتى ولو كان المقصود يحمل اسما غير ذلك الاسم الشائع فى تاريخ أسبانيا المسيحية ، ويذكر القلقشندى أن الصيغة المثبتة عامية ، والصحيح فى المصطلح « أدفونش » — صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥٤ .

(٢) « وصدها » فى الأصل .

ومنها : أن أبا يوسف يعقوب المَرينى دخل إلى الأندلس منجدا لابن الأحمر، فلقاه وبادر إلى خدمته وقدّم له حِصْنَيْن من حصونه أحدهما : يسمى طريف على البحـر ، والآخر : يسمى الجزيرة ، فتسلمهما منه، ورتّب فيهما جماعة من أصحابه ، وبلغ ملوك الفرنج حضوره إليه واجتماعهما معا ، فحشدوا حشدا عظيما وخرجـوا بفارسهم وراجلهم لقصدهما ، وكان فيهـم من أكابرهم : دَوالَنْتُو ، وبَدَر قرمان ، والتقوا فكانت الكسرة على الفرنج ،فقتل منهم ألوف كثيرة ، فجمع المسلمون رُءُوسهم وجعلوها تلّا ، فكانت أربعة وعشرين ألف رأس ، وصعد المؤذن عليها وأقام الأذان فوقها ، ورجع يعقوب إلى بلاده وترك فى بلاد ابن الأحمر ولده قنديل بن يعقوب ، وعنده تقدير أربعة آلاف فارس .(١)

وفيها : « ... ... » .(٢)

وفيها : حج بالنـاس « ... ... » .(٣)

---

(١) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٩٠ أ .

(٢) ، (٣) « ... .» بياض بالأصل .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

قاضي القضاة شمس الدين أبو بكر محمد[1] بن الشيخ عماد الدين بن أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الواحد بن علي بن مسرور المقدسي .

أول من ولي قضاء القضاة للحنابلة بمصر، سمع الحديث حضورا على ابن الطبرزد، وغيره ، ورحل إلى بغداد ، واشتغل بالفقه ، وتفنن في علوم كثيرة ، وتولى مشيخة سعيد السعداء[2] ، وكان شيخا مهيبا ، حسن الشيبة ، كثير التواضع والبر والصدقة، وقد اشترط في قبول الولاية أن لا يكون له عليه جامكية ، وقد عزله السلطان عن القضاء قبل موته سنة سبعين ، واعتقله بسبب الودائع التي كانت عنده ، ثم أطلقه بعد سنين، فلزم منزله واستقر في تدريس الصالحية إلى أن توفي في أواخر المحرم ، ودفن عند عمه[3] الحافظ عبد الغني بسفح جبل المقطم ، وقد أجاز للحافظ البرزالي .

---

(١) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي ، الوافي جـ ٢ ص ٩ رقم ٢٩٢ ، السلوك جـ ١ ص ٦٤٨ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧٧ ، تذكرة الحفاظ جـ ٤ ص ١٤٧٤ .

(٢) المقصود خانقاة سعيد السعداء التي أوقفها السلطان صلاح الدين الأيوبي برسم الفقراء الصوفية — المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٤١٥ .

(٣) « عند عم الحافظ عبد الغني » في البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧٧ .

الشيخ محيي الدين النووى الإمام العالم العلامة أبو زكريا يحيى بن شرف [١] بن مرى بن حسن بن حسين بن جمعة بن حزام الحزامى النووى ، ثم الدمشقى ، الشافعى .

شيخ المذهب وكبير الفقهاء فى زمانه ، ومن حاز قصب السبق دون أقرانه ، وُلد سنة إحدى وثلاثين وستمائة بنوى ، وقدم دمشق سنة تسع وأربعين ، وقد حفظ القرآن ، فشرع فى قراءة التنبيه [٢] . يُقال : إنه قرأه فى أربعة أشهر ونصف ، وقرأ ربع العبادات من المذهب فى بقيّة السّنة ، ثم لزم المشايخ تصحيحا وشرحا ، فكان يقرأ كل يوم عشر دروس على المشايخ ، ثم عنىَ بالتصنيف ، فخرج أشياء كثيرةً منها ما أكمله ومنها ما لم يكمله ، فما كمله : شرح صحيح مسلم ، والروضة ، والمنهاج ، ورياض الصالحين ، والأذكار ، والتبيان ، وتحرير التنبيه وتصحيحه ، وتهذيب الأسماء ، واللغات ، وطبقات الفقهاء ، وغير ذلك ، ومما لم يتمّمه : شرحه للمهذّب الذى سمّاه المجموع وصل فيه إلى كتاب الربو ، فأبدع فيه وأجاد وأفاد ، وقد كان من الزّهادة والعباد والتحرى والورع والانجماع عن الناس والتخلى لطلب العلم والتحلى به على جانب عظيم لا يقدر عليه غيره ، وقد كان يصوم الدهر ولا

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، فوات الوفيات جـ ٤ ص ٢٦٤ رقم ٥٦٨ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٧٨ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧٨ ، طبقات الشافعية الكبرى جـ ٨ ص ٣٩٥ رقم ١٢٨٨ ، السلوك جـ ١ ص ٦٤٨ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٥٤ ، تذكرة الحفاظ جـ ٤ ص ١٤٧٠ رقم ١١٦٢ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ١٠٨ .

(٢) هو كتاب « التنبيه فى فروع الشافعية » للشيخ إبراهيم بن على الفقيه الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٦ هـ / ١٠٨٣ م — كشف الظنون جـ ١ ص ٤٨٩ .

بجم بن أذانين ، وغالب قوته ما يحمله أبوه إليه من حوران ، وقد باشر تدريس الإقبالية نيابة عن القاضى شمس الدين بن خلكان ، وكذلك فى الفلكية ، والركنية ، وكان لا يُضَيِّعُ شيئا من أوقاته ، وحج فى مدة إقامته بدمشق ، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر للملوك وغيرهم ، وكانت وفاته فى ليلة الرابع والعشرين من شهر رجب من هذه السنة بنوى ودفن فيها .

على بن على بن اصفنديار نجم الدين[(1)] .

الواعظ بجامع دمشق أيام السُبوت فى الأشهر الثلاثة ، وكان شيخ الخانقاة المجاهدية[(2)] ، وبها توفى فى هذه السنة ، وكان فاضلا بارعا ، وكان جدُّه يكتب الإنشاء للخليفة الناصر ، وأصلهم من بوشج ، ومن شعرِ نجم الدين هذا :

إذا زار بالجثمان غيرى فإننى ... أزور مع الساعات ربعك بالقلب
وما كل ناءٍ عن ديار بنازحٍ ... ولا كل دانٍ فى الحقيقة ذو قُرْب

[٦٣١] الشيخ الفخر أبو عبد الله محمد الفارسى[(3)] .

توفى ليلة الثامن والعشرين من جمادى الآخرة منها بالقاهرة ، رحمة الله .

الشيخ عماد الدين عبد الرحمن بن داود ضاحى المعروف بالسِمِرْبائى[(4)] .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧٩ ، العبر جـ ٥ ص ٣١١ ، السلوك جـ ١ ص ٦٤٨ ، تذكرة الحفاظ جـ ٤ ص ١٤٧٤ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ١٠٧ ، الدارس جـ ٢ ص ١٦٩ — ١٧٠ .

(٢) الخانقاة المجاهدية بدمشق : تنسب إلى إبراهيم بن أرتبا ، الأمير مجاهد الدين أمير خندار الملك الصالح نجم الدين أيوب ، والمتوفى سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م — الدارس جـ ٢ ص ١٦٩ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٩٠ ب ، ابن تاريخ الفرات جـ٧ ص ١٠٨ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٩٠ ب ، تاريخ ابن الفرات جـ٧ ص ١٠٧ .

كان فاضلا ، وله نظم حسن ، ومن شعره :

اجعل لربك ماتأتى وما تذر تفز لديه بما لا تبلغ الفكر

وبادر الوقت بالخيرات مجتهدا إن النفيس لخوف الفوت يبتدر (١)

ولا تضيع لاهيا عمرا شرفت به فالعمر عقد له ساعاته درر

لله كل الورى ملك فطاعته أحق ما اكتسبته (٢) البدو والحضر

فى الله فى كل شىء (٣) فائت عوض إذا المعانى تجلت غابت الصور

ومن يدم شغله بالله كان له سمعا رعيا كذاك الخبر والخبر

الملك القاهر بهاء الدين عبد الملك (٤) بن الملك الناصر داود بن الملك المعظم ابن الملك العادل بن أيوب .

توفى يوم السبت خامس عشر المحرم من هذه السنة مسقيا كما ذكرنا عن أربع وستين سنة ، وكان رجلا جيدا ، سليم الصدر كريم الأخلاق ، لين الكلمة ، كثير التواضع ، يعانى ملابس العرب ومراكبهم ، وهو معظم فى الدول ، وكان كريما شجاعا مقداما ، وكان يسكن البر ، وتزوج فى العرب ، وأقام بينهم ، يسير معهم حيث ساروا ، وإذا غزوا غزا معهم ، فحضر من الغزاه إلى دمشق ، فشرب من كأس الظاهر الذى فيه حمامه كما ذكرنا .

(١) « الموت » فى تاريخ ابن الفرات .

(٢) « ما ادخرته » فى تاريخ ابن الفرات .

(٣) « عن كل » فى زبدة الفكرة ، وتاريخ ابن الفرات .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١٧٧ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧٤ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ١٠٤ .

الأمير الكبير بدر الدين بيليك(١) بن عبد الله الخزندار نائب الديار المصرية للملك الظاهر .

وكان خيّرا جوادا ممدّحا ، له إلمامٌ ومعرفة بأيام الناس والتواريخ ، وقد وقف دروسا بالجامع الأزهر بالقاهرة على الشافعيّة ، ويقال : إنه سُمّ فمات ، وذلك بعد أيام يسيرة من موت السلطان الملك الظاهر . ويقال : إنه مات حتف أنفه والله أعلم ، وانتقض بعده حبل الملك السعيد واضطربت أموره .

الأميرُ شمس الدين آقسنقر(٢) بن عبد الله الفارقاني الظاهري ، أستاذ الدار .

وكان يُباشر [٦٣٢] نيابة السلطنة بالديار المصرية عند سفر السلطان الملك الظاهر ، مات في هذه السنة معتقلا في القلعة بعد وفاة الأمير بدر الدين بيليك بأيام قليلة ، رحمه الله .

وممن توفى في هذه السنة من الأمراء الأمير جمال الدين أقُوش الحمدى ، والأمير عز الدين الدمياطي ، والأمير بَلْطا البيرى ، والأمير بدر الدين الوزيرى ، والأمير سنقر الرومىّ .

---

(١) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي جـ ٣ ص ٥١٢ رقم ٧٤٩ . النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٢٧٦ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٥١ ، الوافي جـ ١٠ ص ٣٦٥ ، ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ٢٦٧ ، السلوك جـ ١ ص ٦٤٣ ، ٦٤٨ ، الجوهر الثمين ص ٢٨٧ .

(٢) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي جـ ٢ ص ٤٩٤ رقم ٥٠٠ ، الوافي جـ ٩ ص ٢١٠ رقم ٤٢٤٥ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٨٠ ، السلوك جـ ١ ص ٦٤٤ ، العبر جـ ٥ ص ٣١٤ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ١٠١ .

فصل فيما وقع من الحوادث

في السنة السابعة والسبعين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة وأولها يوم الأربعاء ، والخليفة هو : الحاكم بأمر الله العباسي .

وسلطان الديار المصرية والشامية والحلبية : الملك السعيد بن الملك الظاهر بيبرس . ونائبه بدمشق عز الدين أيدمر الظاهري ، وبحلب الأمير نور الدين على الهكاري .

وصاحب حماة : الملك المنصور .

وسلطان بلاد الروم : غياث الدين بن ركن الدين قليج أرسلان ، وهو سلطان إسماً ، والحكم للتتار .

وصاحب العراق وأذربيجان وغيرهما من تلك البلاد : أبغا بن هلاون .

وصاحب اليمن : الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر .

وصاحب مكة : الشريف نجم الدين بن أبي نمى الحسنى .

وصاحب المدينة : عز الدين جماز بن سالم الحُسَيْني .

وفي أوائل المحرم جاء الخبر إلى دمشق بأن شمس الدين بن خلكان ، تولى قضاءَ القضاة الشافعية بدمشق ، عودًا على بدْء ، وذلك بعد أن عزل من قضاء

(*) يوافق أولها الأربعاء ٢٥ مايو ١٢٧٨ م .

دمشق مدة سبع سنين ، فلما جاء الخبر بذلك امتنع قاضى القضاة عز الدين ابن الصائغ عن الحكم ، وقد كان منصب القضاء بينهما دولا ، ثم وصل ابن خلكان إلى دمشق ، فدخلها يوم الخميس الثالث والعشرين من المحرم ، فخرج نائب السلطنة الأمير عز الدين أيدمر ، ومعه جميع الأمراء والموكب لتلقيه ، وفرح الناس به فرحا شديدا ، ومنهم من تلقاه إلى الرملة ، ومدحه الشعراء ، فكان فيمن أنشد الفقيه شمس الدين محمد بن جَعْفَران :

لما تولَّى قضاءَ الشام حاكمُهُ قاضي القضاة أبو العباس ذو الكرم

[٦٣٣]

من بعد سبع شداد قال خادمُهُ ذا العامُ فيه يغاثُ الناسُ بالنعم (١)

وفى يوم الأربعاء ثالث صفر ذكر ابن خلكان الدرس بالظاهرية التى بُنِيَت موضع دار العقيقى بدمشق ، ولم تكن المدرسة تكاملت بعدُ ، وحضر نائب السلطنة عز الدين أيدمر وبقيَّة القضاة والأعيان ، وكان مدرس الشافعية رشيد الدين عمر بن إسماعيل الفارقى (٢) ، ومدرّس الحنفية الشيخ صدر الدين سليمان الحنفى (٣) .

(١) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧٩ ،
وأورد ابن حبيب لعمر بن إسماعيل الفارقى :

أنت فى الشام مثل يوسف فى مصر وعندى أن الكرام جناس
ولكل سبع شداد وبعد السبع عام فيه يغاث الناس

تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٣٣ .

(٢) توفى سنة ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م — المنهل الصافى ، العبر جـ ٥ ص ٣٦٣ ، درة الأسلاك ص ١٠١ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٣٢ .

(٣) انظر ما يلى فى وفيات هذه السنة .

وفى جمادى الأولى : باشر قضاء الحنفيّة بدمشق الشيخ صدر الدين سليمان المذكور ، عوضا عن القاضى مجد الدين بن العديم بحكم وفاته ، ثم توفى صدر الدين المذكور فى رمضان من هذه السنة ، وتولى عوضه القاضى حسام الدين أبو الفضائل الحسن (١) بن القاضى تاج الدين أحمد بن القاضى جلال الدين الحسن ابن أبى شروان الفرازيّ (٢) الذى كان قاضيا بملطية قبل هذا .

وفى العشر الأواخر من ذى القعدة : فتحت المدرسة النجيبيّةُ (٣) ، وحضر تدريسها القاضى شمس الدين بن خلكان بنفسه ، ثم نزل عنها لولده كمال الدين موسى (٤) ، وفتحت الخانقاه النجيبيّةُ ، وكانتا وأوقافهما تحت الحوطة إلى الآن .

ذكر سفر السلطان الملك السّعيد بن الملك الظاهر من مصر إلى دمشق :

وفى أواخر هذه السنة : عزم السلطان الملك السعيد على السفر إلى الشام ليتفرّج فى الممالك ويتنزّه فى المروج والمسالك ، فتجهّز وسار بالعساكر ، فوصل إلى دمشق ودخلها يوم الثلاثاء خامس ذى الحجة من هذه السنة ، وطلع قلعتها ، ونزل بقصر والده الظاهر ، وقد زُيّنت له البلد ، وعملت له قبابٌ ظاهرة ،

(١) توفى سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م — المنهل الصافى ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ٦٤ رقم ٦٥ ، درة الأسلاك ص ١٤١ ، ١٤٨ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٢٧ ، العبر جـ ٥ ص ٣٩٧ ، وانظر عقد الجمان وفيات ٦٩٩ هـ .

(٢) هكذا بالأصل ، و « الرازى » فى مصادر الترجمة .

(٣) المدرسة النجيبية بدمشق ، أنشأها النجيبى جمال الدين أقوش الصالحى النجمى — الدارس جـ ١ ص ٤٦٨ .

(٤) هو موسى بن أحمد بن محمد البرمكى ، كمال الدين ، المتوفى سنة ٧١٧ هـ / ١٣١٧ م — الدرر .

وخرج أهل البلد لتلقيه ، وفرحوا به فرحا شـديدا لمحبتهم والده ، وصلى عيد النحر بالميدان الأخضر ، وعمل العيد بالقلعة ، واستوزر بدمشق الصاحب فتح الدين عبد الله بن القيسراني ، وبالديار المصرية بعد موت بهاء بن الحنّا الصاحب برهان الدين الخضر بن الحسن السنجاري .

وفي يوم الثلاثاء السادس والعشرين من ذي الحجـة منهـا : [٦٣٤] جلس السلطان الملك السعيد بدار العدل داخل باب النصر ، وأسقط ما كان جدّده والده على بَساتين أهل دمشق ، فتضاعفت الأدعية له وأحبّوه لذلك حبًّا شديدا ، فإنه كان قد أجحف بكثير من أرباب الأملاك ، وودّ كثير منهم أن لو تخلص من ملكه بسبب ما عليه .

وقال بيبرس في تاريخه : وكان السلطان اهتم ببناءِ تربة على والده ، فاشترى دارا تعرف بالعقيق وبناها تربَةً ونقل والده إليها . فقال في ذلك القاضي محي الدين ابن عبد الظاهر أبياتا من جملتها :

صَاحِ : هذا ضريحُه بينَ جفني ... فزورا من كل فجّ عميق

وكيف لا وهو من عقيق دموعي ... دفنـوه منهـا بـدار العقيـق (١)

ذكر تفريق السُّلطان عَساكرهُ :

ولما استقرّ ركابه بدمشق فرق العساكر في أواخر ذي الحجة من هذه السنة ، فسيّر فرقةً صحبة الأمير بدر الدين بيسرى الشمسي إلى جهة قلعة الروم ، وفرقة صحبة الأمير سيف الدين قلاون الألفي الصالحي إلى بلاد سيس ، وسير معه خزانة برسم

(١) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٩٠ ب ـ ٩١ أ .

نفقات العساكر، فأنفق فيهم بحلب، ثم ساروا إلى سيس، وسار بدر الدين بيسرى إلى قلعة الروم، وكان القصد بتفريقهم التمكن من التدبير عليهم، فلما أبعدوهم إلى هذه الجهات وفرقوهم بحجة الغارات قرّروا مع الملك السعيد القبض عليهم عند عودهم، وأخذ إقطاعاتهم وموجودهم، وعيّنوا خبز كل واحد منهم لواحد منهم، هذا والأمير سيف الدين كُونْدُك مطَّلعٌ عليهم، فلما اتفقت العودةُ من الغارة اجتمع الأمراءُ بالمرج ليدخلوا دمشق بالأطلاب والترتيب على العادة، فأرسل سيف الدين كُونُدك إلى الأميرين المذكورين وهما بدرالدين بيسرى وسيف الدين قلاون سرًّا، وعرّفهما بما اتفقت الخاصكيّة عليه، وما انتهى الحال إليه، فأسرّا ذلك في أنفسهما، ثم خرج الأمير سيف الدين كُونَدُك لتلقيهما، وأعلمهما الأمر مشافهةً، فتحققا الخبر ولم يشكّا فيه (١)، [٦٣٥] لعلمهما بانفعال السلطان وميله إلى آراء الصبيان.

فأقاموا بالمرج ولم يدخلوا دمشق، وأرسلوا إلى الملك السعيد يقولون له: إنا مقيمون بالمرج وإن سيف الدين كوندك شكى إلينا من لاجين الزيني شكاوى كثيرة، ولابدَّ لنا من الكشف عنها فيُسيّره السلطان [إلينا] (٢) لنسمع كلام كل منهما وننصف بينهما (٣).

فلم يعبأ بقولهم ولم يُسيّر لاجين الزيني إليهم، وكتب إلى الأمراء الظاهريّة الذين معهم بأن يفارقوهم (٤) ويعبروا دمشق، فأرسل الكتب إليهم مع قاصد، فوقع به

(١) «وأما» فى الأصل، والتصحيح يتفق مع السياق.

(٢) زبدة الفكرة جـ٩ ورقة ١٩١أ.

(٣) [ ] إضافة من زبدة الفكرة.

(٤) «بأن يفارقوا» في الأصل، والتصحيح من زبدة الفكرة.

أصحاب كُونْدُك ، فأحضروه إليه ، فأحضره إلى الأمراء ، فوقفوا على ما معه من الكتب ، فتحققوا سوء رأيه فيهم ، فرحلوا من وقتهم ونزلوا على الجُسُورة من ناحية داريا ، وأظهروا الأمور الدالّة على الخلاف ، وتجريد صوارم الهجر من الغلاف (١) .

وتبين للسلطان أنه فرط وأسرف فى سوء التدبير ، فبادر بإرسال الأمير شمس الدين سنقر الأشقر ، والأمير شمس الدين سنقر التكريتى الظاهرى أستاذ الدار إلى نحوهم ملتمسا منهم الرجوع ، ومتلطفا لهم بأنواع الخشوع والخضوع ، وفاوضاهم فى ذلك ، وبالغا فيه ، فما ازدادوا إلا نفارا وإباءً ، وقالوا : لا سبيل إلى المراجعة إليه ، وقد انصدعت القلوب ، وجرت هذه الخطوب ، فعادا الأميران المذكوران إليه ، وأعادا القول عليه ، فخامره القلق وخالطه الفرق ، فقالت والدته : أنا أتوجه بنفسي إليهم لعلهم يرون للحُرَم ويرعون مالهم من الحُرَم ، فأذن لها فى ذلك ، فحضرت إليهم ، ودخلت عليهم وهم على منزلة الكسوة ظاهر دمشق ، فسألتهم إخماد الثوائر ، واستعطفتهم بكل ما تستمال به الخواطر ، فما مالوا إليها ولا عاجوا عليها ، فرجعت آيبة ، ومما أمّلته خائبة (٢) .

ثم رحلت الأمراء من الكسوة وجدُّوا فى المسير من غير تقصير حتى وصلوا إلى الديار المصرية فى أوائل السنة الآتية ، وسنذكر ما جرى بعد ذلك إن شاء الله .

---

(١) انظر زبدة الفكرة جـ٩ ورقة ٩١ أ ، ب .

(٢) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٩١ ب ، ٩٢ أ .

وفيها : طُلب من أهل بغداد خمسون ألف دينار ، وضربت على أملاكهم أجرة مدّة شهرين وَجُبِيَت منهم على وجه القهر والغلبة والظلم .

وفيها : [٦٣٦] حج بالناس « . . . . . »[1] .

وفيها : « . . . . . . »[2] .

(١) ، (٢) « . . . . . » بياض في الأصل .

ذكر من تُوفى فيها من الأعيان

قاضى القُضاة صدر الدين سليمان[(١)] بن أبى العز وُهَيْب بن نظام أبو الفضل الأذرعى ، ثم الدمشقى الحنفى .

الإمام العالم المتبحر العارف بدقائق الفقه وغوامضه ، انتهت إليه رئاسة الحنفية بمصر والشام ، وشيخ الحنفية فى وقته شرقا وغربا ، تفقه على الشيخ جمال الدين الحصيرى[(٢)] وغيره ، ثم سكن مصر ، وحكم بها ، ودرس بالصالحية ، ثم رجع إلى دمشق فاتفق موت قاضى القضاة مجد الدين بن العديم ، فولى القضاء عوضا عنه ، فلم يبق فيه إلا ثلاث شهور حتى مات ليلة الجمعة سادس شعبان من هذه السنة ودفن من الغد بعد الصلاة بدار بسفح قاسيون ، وله ثلاث وثمانون سنة ، وولى القضاء بعده بدمشق حسام الدين الرومى ، وكان الملك الظاهر بيبرس يحبُّه ويبالغ فى احترامه ، وأذن له أن يحكم حيث حلّ وكان لا يكاد يفارقه فى غزواته ، وحج معه ، ولم يخلف بعده مثله فى المذهب ، وله شعر حسن ومنه ما قالَه فى مملوك حسن الصور من مماليك الملك المعظم بن العادل زوّجه بجارية من جواريه موصوفة بالحُسن :

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، العبر جـ ٥ ص ٣١٠ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٥٧ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ١١٩ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٨١ ، السلوك جـ ١ ص ٦٥١ .

(٢) هو محمود بن أحمد بن عبد السيد البخارى ، جمال الدين الحصيرى ، نسبة إلى حصير — بفتح الحاء — قرية من أعمال بخارى ، والمتوفى سنة ٦٣٦ هـ / ١٢٣٨ م — العبر جـ ٥ ص ١٥٢ .

يا صاحبيّ قفا(١) وانظرا عجبا … أتى بنا(٢) الدهر فينا من عجائبه

البدرُ أصبح فوق الشمس منزلةً … وما العلوُّ عليها من مراتبه

أضحى يُماثلها حسنا وصار لها(٣) … كفوا وسار إليها فى مواكبه(٤)

فأشكل الفرقُ لولا وشْيُ نمنمة … بصُدغه واخضرارٌ فوق شاربه

قاضى القُضاة مجد(٥) الدين(٦) عبد الرحمن بن كمال الدين عمر بن أحمد المعروف بابن العديم الحلبى ، ثم الدمشقى الحنفىّ .

ولى قضاء الحنفية بعد ابن عطاء بدمشق ، وكان رئيسًا ابن رئيس ، له فضل ومكارم أخلاق ، وقد ولى الخطابة بجامع القاهرة الكبير ، وهو أول حنفىّ وليَه ، وكانت وفاته بجوسقه فى ربيع الآخر من هذه السنة ، ودفن بالتربة التى أنشأ عند زاوية الحريرى على الشرف القبلى غربىّ الزيتون .

الشيخ جمال(٧) الدين عبد(٨) الرحمن بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن عبد الله ابن الحسن بن عثمان بن الشيخ نجم الدين البادرّائى البغدادى ، ثم الدمشقى .

(١) « قفا لى » فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٨١ .

(٢) « به » فى البداية والنهاية .

(٣) « وشاركها » فى البداية والنهاية .

(٤) انظر أيضا تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ١٢٠ .

(٥) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٨١ ، البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢٨٢ . السلوك جـ ١ ص ٦٥١ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٥٨ ، العبر جـ ٥ ص ٣١٥ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ١٢١ .

(٦) « جمال الدين » فى البداية والنهاية .

(٧) « نجم » فى أصل المتن ، ومصححة فى الهامش .

ووردت أيضا « نجم الدين » فى تاريخ ابن الفرات .

(٨) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٨٢ ، تاريخ ابن الفرات جـ٧ ص ١٢٢ .

[٦٣٧] درس بمدرسة أبيه من بعده إلى حين وفاته يوم الأربعاء سادس رجب ، ودفن بسفح قاسيون ، وكان رئيسا حسن الأخلاق ، جاوز خمسين سنة .

جمال الدين [طه بن] إبراهيم(١) بن أبى بكر الهمدانى الأربلى .

كان أديبا ، فاضلا ، شاعرا ، له قُدْرَةٌ فى تصنيف دوبَيْت ، وقدم القاهرة حتى كانت وفاته بها فى جمادى الأولى من هذه السنة ، اجتمع مرةً بالملك الصالح نجم الدين ، بجمل أيوب يتكلم فى علم النجوم ، فأنشده على البديهة :

دَعِ النجومَ لطُرقىٍّ يعيشُ بها		وبالعزيمة فانهض أيها الملك(٢)

إن النبىَّ وأصحابَ النبى نَهَوْا		عن النجوم فقد أبصرت ما مَلَكوا(٣)

وكتب إلى صاحب له اسمه شمس الدين يَسْتزيرهُ بعد رَمَدٍ أصابه وبرأ منه :

يقول لى الكحَّالُ عينكَ قد هَدَتْ		فلا تشغلَن قلبا عليها وطِبْ نَفْسَا(٤)

ولى مدةٌ يا شمس لم أركم بها		وآيةُ بُرءِ العين أن تُبصرَ الشَّمسَا

الوزير بهاءُ الدين أبو الحسن على بن محمد بن سُليم المعروف بابن حنا المصرى .(٥)

(١) [ ] إضافة من مصادر الترجمة ، فهو :
طه بن إبراهيم بن أبى بكر ، كمال الدين الهمدانى ، فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٨٢ ، السلوك جـ ١ ص ٦٥١ ، الوافى جـ ١٦ ص ٤١٣ رقم ٤٥٢ ، العبر جـ ٥ ص ٣١٦ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٥٧ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ١٢٠ .

(٢) « وانهض بعزم صحيح أيها الملك » — الوافى جـ ١٦ ص ٤١٤ .

(٣) « وقد عاينت ما ملكوا » — الوافى جـ ١٦ ص ٤١٤ .

(٤) « وطب بها نفسا » فى البداية والنهاية .

(٥) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، فوات الوفيات جـ ٣ ص ٧٦ رقم ٣٥٤ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٥٨ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٨٢ ، السلوك جـ ١ ص ٦٥١ ، الوافى جـ ٢٢ ص ٣٠ رقم ٤ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ١٢٥ .

وزَّر للملك الظاهر ، ثم لولده الملك السعيد إلى أن توفى فى سلخ ذى القعدة منها، وكان ذا رأى وحزم وتدبير، وكان قد تمكن فى الدولة الظاهرية ،لا تمضى الأمور إلا عن رأيه وأمره ، وله مكارم على الأمراء وغيرهم ، وقد امتدحه الشعراء ، وكان ابنه تاج الدين وزير الصحبة وقد صودر فى الدولة السعيدية .

وقال النُويرى : لما توفى الصاحب بهاء الدين بن حنَّا احتاطوا على ابنه تاج الدين وأخيه زين الدين وعلى ابن عمه عز الدين بن محيى الدين، وأخذ خط كل واحد منهم بمائة ألف دينار بدمشق، وصُيِّروا الجميع تحت الحوطة إلى مصر، وتولى الوزارة بعد موت بهاء الدين المذكور الصاحب برهان الدين السنجارى .

وقال النجم بن النجيب يهجو الصاحب بهاء الدين بن الحنَّا المذكور :

خربَتْ ديارك يا بن حنَّا وانقضى زمنٌ به أسرفتَ فى الطغيان
ونُقلت من دار النعيم إلى لظى بفضاضة ملأت فضا النيران
وتركت رهطك فى العذاب فلم يُفِدْ ما نلتَ من عزٍّ بذا الخُسْرَانِ
كم ذا تُزَخرِفُ باطلا لبطالة قام الدليلُ عليه بالبُرْهَانِ

[٦٢٨] ابنُ الظَّهير الأُربِلى الحنفى (1) محمد بن أحمد بن عمر بن أحمد بن أبى شاكر مجد الدين أبو عبد الله الأربلى الحنفى المعروف بابن الظهير .

---

(1) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى، الوافى جـ ٢ ص ١٢٣ رقم ٤٧١ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٨٢ ، فوات الوفيات جـ ٣ ص ٣٠١ رقم ٤٣٢ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٥٩ ، العبر جـ ٥ ص ٣١٦ ، السلوك جـ ١ ص ٦٥١ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ١٢٧ .

وُلد بأربل سنة إثنتين وستمائة، ثم أقام بدمشق، ودرّس بالقيمازية (١) وأقام بها حتى توفى فيها ليلة الثانى عشر من ربيع الأول منها، ودفن بمقابر الصوفية، وكان بارعا فى النحو واللغة، وكانت له اليد الطولى فى النظم، وله ديوان مشهور وشعر رائقٌ حسنٌ قويٌّ، سمع الكثير من أصحاب أبى الوقت (٢) وغيره، قدم القاهرة فسمع بها وحدّث، وسمع ببغداد وبدمشق، روى عنه الحافظ الدمياطى (٣)، وتفقه فى مذهب أبى حنيفة على عبد الرحمن بن الفقيه محمد البغدادىّ. ومن شعره:

طـرفى وقلبى ذا يسيلُ دمًا وذا ... دونَ الورى أنت العليمُ بقُرحه (٤)

وهُمَـا بحُبِّك شاهـدَان وإنمـا ... تعـديلُ كلٍّ منهمـا فى جَرْحه

نجم الدين أبو المعالى محمّد (٥) بن سوار بن إسرائيل بن الخضر بن إسرائيل ابن الحسن بن على بن محمد بن الحسين الشيبانى الدمشقى.

---

(١) المدرسة القيمازية بدمشق: داخل بابى النصر والفرج، أنشأها قايماز النجمى، صارم الدين، من أكابر الدولة الصلاحية، والمتوفى سنة ٥٩٦ هـ/١١٩٩م — الدارس جـ١ ص٥٧٢ وما بعدها.

(٢) هو عبد الأول بن عيسى بن شعيب السجزى، نسبة إلى سجستان، أبو الوقت، المتوفى سنة ٥٥٣ هـ/ ١١٥٨م — العبر جـ٤ ص ١٥١.

(٣) هو عبد المؤمن بن خلف بن أبى الحسن بن شرف، الدمياطى، شرف الدين، أبو محمد، المتوفى سنة ٧٠٥ هـ/ ١٣٠٥م — المنهل الصافى.

(٤) « قلبى وطرفى ذا يسيل دما وذا بين الورى أنت العليم بقرحه » — فوات الوفيات جـ٣ ص ٣٠٢.

(٥) وله أيضا ترجمة فى: المنهل الصافى، الوافى جـ٣ ص ١٤٣ رقم ١٠٩٢، فوات الوفيات جـ٣ ص ٣٨٢ رقم ٤٦١، البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢٨٣، العبر جـ٥ ص ٣١٦، السلوك جـ١ ص ٦٥١، تاريخ ابن الفرات جـ٧ ص ١٣١.

ولد فى ضحى يوم الاثنين ثانى عشر ربيع الأول من سنة ثلاث وستمائة، وصحب الشيخ على بن أبى الحسن[1] بن[2] منصور البُسْرى[3] الحريرى فى سنة ثمانى عشرة، وكان قد لبس الخرقة قبله من الشيخ شهاب الدين السُّهْرَوَرْدى[4] وزعم أنه أجلسه فى ثلاث خلوات، وكان ابن إسرائيل يذكر أن أهله قدموا الشام مع خالد بن الوليد رضى الله عنه، فاستوطنوا دمشق، وكان أديبا فاضلا فى صناعة الشعر، بارعا فى النظم الفائق الرائق، ولكن فى كلامه ما يُشِيرُ به إلى نوع من الحُلول والإلحاد على طريقة ابن الفارض[5] وابن عربىّ، والله أعلم بحاله وحقيقة أمْره، وكانت وفاته بدمشق ليلة الأحد الرابع عشر من ربيع الآخر من هذه السنة عن أربع وسبعين سنة، ودفن فى تربة الشيخ رسلان داخل القبّة، وكان الشيخ رسلان شيخ الشُيوخ على المغَربل الذى تخرج على يديه الشيخ على الحريرى شيخ ابن إسرائيل .

(١) هو على بن أبى الحسن بن منصور الدمشق، الحريرى، المتوفى سنة ٦٤٥ هـ/١٢٤٧ م — العبر جـ ٥ ص ١٨٦، فوات الوفيات جـ ٣ ص ٦ رقم ٣٣٥، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٧٣، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٣١ .

(٢) « الحسين » فى الأصل، والتصحيح من مصادر الترجمة .

(٣) نسبة إلى قرية بسر من حوران — العبر .

(٤) هو عمر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عموية، شهاب الدين السهروردى، المتوفى سنة ٦٣٢ هـ/١٢٣٤ م — وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٤٤٦ رقم ٤٩٦، العبر جـ ٥ ص ١٢٩، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٣٨ .

(٥) هو عمر بن على بن مرشد، ابن الفارض، الحموى الأصل، المصرى المولد والوفاة، المتوفى سنة ٦٣٢ هـ/١٢٣٤ م — وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٤٥٤ رقم ٥٠٠، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢١٦، العبر جـ ٥ ص ١٢٩ .

ابن العُود الرافضيّ أبو القاسم الحسين بن العُود نجيبُ الدين الأسديّ الحلّيّ (١)

[٦٣٩] شيخ الشيعة ، وإمامهم ، وعالمهم في أنفسهم .

كانت له فضيلة ، ومشاركة في علوم كثيرة ، حسن المحاضرة والمعاشرة ، لطيف النادرة ، وكان كثير التعبُّد في الليل والنهار ، وله شعر جيّد ، ولد سنة إحدى وثمانين وخمسمائة ، وتوفي في شعبان (٢) من هذه السنة عن ست وتسعين سنة .

الأميرُ الكبيرُ جمال الدين أقوش بن عبد الله النجيبي أبو سعيد الصالحيّ (٣) .

أعتقه الملك الصالح نجم الدين أيُّوب وجعله من أكابر الأمراء ، وولاه استاداريته ، وكان يثق إليه ويعتمد عليه ، وكان مولده في سنة تسع أو عشر وستمائة ، وولاه الملك الظاهر استاداريته ، ثم استنابه بالشام تسع سنين فاتخذ فيها المدرسة النجيبية (٤) والخانقاة (٥) ووقف عليهما أوقافا دارّةً واسعةً ، ولكن لم يقرِّر للمستحقين قدرا يُناسب ما وقفه عليهم ، ثم عزله السلطان واستدعاه إلى الديار المصريّة ، فأقام بها

(١) وله أيضا ترجمة في : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٨٧ .

(٢) « في رمضان » في البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢٨٧ .

(٣) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي جـ ٣ ص ٢٤ رقم ٥١٦ ، الوافي جـ٩ ص ٣٢٣ رقم ٤٢٥٨ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٥٧ ، البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٨١ ، العبر جـ٥ ص ٣١٤ ، ذيل مرآة الزمان جـ ٣ ، السلوك جـ ١ ص ٦٥٠ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ١١٨ .

(٤) المدرسة النجيبية بدمشق : لصيق المدرسة النورية من جهة الشمال — الدارس جـ ١ ص ٦٨٤ وما بعدها .

(٥) الخانقاة النجيبية بدمشق : ويقال لها النجيبية البرانية ، وخنقاة القصر — الدارس جـ ٢ ص ١٤١ وما بعدها .

بطّالاً، ثم مرض بالفالج أربع سنين، وقد عاده فى بعضها الملك الظاهر، ولم يزل به حتى كانت وفاته ليلة الجمعة خامس عشر ربيع الآخر بالقاهرة بدرب مُلُوخيا، ودفن فى يوم الجمعة قبل الصلاة بتربته التى أنشأها بالقرافة الصغرى، وقد كان ابتنى لنفسه تربةً بالمدرسة النجيبيّة وفتح لها شباكين فى الطريق، فلم يقدّر دفنه فيها، وكان كثير الصدقة، محبا للعلماء محسنا إليهم، حسن الاعتقاد، شافعىّ المذهب، متغاليا فى السنة ومحبة الصحابة رضى الله عنهم، وبغض الروافض، ومن جملة أوقافه الخان الذى فى طريق الحُسُورة قبلىّ جامع كريم الدين(١) اليوم، وعليه أوقاف كثيرة، وجعل النظر فى أوقافه للقاضى شمس الدين بن خلكان رحمه الله.

الأمير الكبير علاء الدين أيدكين(٢) بن عبدالله الشهابى واقف الخانقاة الشهابيّة(٣).

وقد كان من أكابر الأمراء بدمشق، وقد ولى النيابة بحلب مدة، وكان من خيار الأمراء وشجعانهم، وله حُسْن ظن بالفقراء والإحسان إليهم، ومات فى خامس عشر ربيع الأول منها، ودفن بتربة الشيخ عثمان الرومىّ بسفح قاسيون وهو فى عشر الخمسين، والخانقاة المذكورة داخل باب الفرج، وكان لها شباك إلى الطريق. [٦٤٠] والشهابى نسبة إلى الطواشى شهاب الدين رشيد الكبير الصالحىّ.

(١) هو جامع الكريمى بدمشق: أنشأه القاضى كريم الدين عبد الكريم بن المعلم هبة الله المتوفى سنة ٧٢٤هـ / ١٣٢٤م — الدارس جـ٢ ص ٤١٦ وما بعدها.

(٢) وله أيضا ترجمة فى: المنهل الصافى جـ٣ ص ١٥٢ رقم ٥٩٠، الوافى جـ٩ ص ٤٩١ رقم ٤٤٥٥، البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢٨١، السلوك جـ١ ص ٦٥٠، تاريخ ابن الفرات جـ٧ ص ١١٩.

(٣) الخانقاة الشهابية بدمشق: داخل باب الفرج، المنهل الصافى جـ٣ ص ١٥٣، وانظر ما يلى.

السلطان عز الدين كَيْكاوس(١) بن كيخسرو بن كيقُباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن سليمان بن قطلومش بن أرسلان بن سلجُوق .

مات في هـذه السنة عند منكوتمر ملك التتار بمـدينة صراى ، وكيكاوس المذكور هو الذي كان محبوسا في قلعة من قلاع القسطنطينية كما تقدم ذكره عند القبض عليه في سنة اثنتين وستين وستمائة(٢)، وذكر خلاصُه واتصالُه بملك التتار في سنة ثمان وستين وستمائة(٣)، وخلَّف عز الدين المذكور ولدًا اسمه مسعود وقصد منكوتمر أن يزوِّجه بزوجة أبيـه عز الدين كيكاوس وهي أُرْبايْ خاتون ، فهرب مسعود ابن كيكاوس واتصل ببـلاد الروم ، فحمل إلى أبْغا ، فأحسن إليه أبْغا وأعطاه سـيواس وأرزن الروم وأرْزنجان(٤) ، واستقرت هـذه البلاد لمسعود بن عز الدين المذكور ، ثم بعد ذلك جعلت سلطنة لمسعود المذكور ، وافتقـر جدًّا وانكسر حاله ، وهو آخر من سمى سلطانا بالروم من السلجوقيَّة .

وقال بيبرس : ولما هرب مسعود من عند منكوتمر استصحب معه ولدين كانا له أحدهما اسمه ملك والآخر قرامُرد ، وعَدَّى البحر المحيط ، وجاء(٥) إلى قيسارية ، فحمل إلى أبغا كما ذكرنا ، وأما امرأة أبيه فإنها لم تصبر على فراقه ، فجمعت أموالها

(١) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي ، السلوك جـ ١ ص ٦٥٠ .

(٢) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٢٨٧ .

(٣) انظر ما سبق بهذا الجزء .

(٤) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٩٢ ب

(٥) « وحضر » في زبدة الفكرة .

وسارت فى إثره وعدّت البحر ووصلت إلى الروم ، فصادفتها كُرْسالية الفرنج فى البحر ، فقطعوا عليها الطريق وأخذوا أموالها ، وخرجت إلى ساحل صَمْصُون (١) ، ثم جاءت إلى أماسية ، فصادفت بها زوجة سيف الدين طرنطاى ، فأحسنت إليها وأنزلتها فى منزلها وأضافتها مدة شهر ، وبلغ أَبْغا وصُولها ، فأمر بأن تُحمل إلى الأُرْدُو مكرّمةً ، فلما وصلت إلى قريب الأُرْدُو خرجت الخواتين ونساء أَبْغا لتلقيها ، وسألها أبْغا عما اتفق لها ومَنْ مِنْ أهـل الروم أكرمها أوخدمها ، فأخبرته بإكرام كُرجى خاتون زوجة طرنطاى لها وما عاملتها به من الخير ، وكانت كُرجى خاتون قد أعلمتها [٦٤١] بحال سنان الدين الرُومىّ ولدها وأنه معتقل بالديار المصريّة ، وأنها تختار أن تحيّل له فى الخلاص ، وتخشى من أَبْغا أن تسيّر رسـولا إلى مصر أو هدية أو غير ذلك ، فأجرت أُرْباى خاتون الحديث مع أبغا ، فأمر بأن يكتب مرسوم إلى صَمْغارْ نائبُه فى الروم أن يُقطع انطالية — باللام — لوالدة سنان الدين الرومىّ لتكون بها قريبة من ولدها ، وأن يُؤْذن لها فى التحيُّل على خلاصة بما تختاره من الرسُل وغيرهم إما ظاهرا و إما سرًّا ، فتوجه الأمير سيف الدين طرنطاى وزوجته من أماسية إلى انطاليه وجهّزا رسـولا وهدية إلى الديار المصريّة بسبب ولدهمـا ، فكان ما سنذكره إن شاء الله تعالى (٢) .

(١) « سامسون » فى زبدة الفكرة .

(٢) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٩٢ ب ، ٩٣ أ .

فصل فيما وقع من الحوادث

في السنة الثامنة والسبعين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة ، وأولها يوم الأحد والخليفة هو : الحاكم بأمر الله العباسي .

والسلطان الملك السعيد بن الملك الظاهر بدمشق ، والعساكر الذين خامروا عليه الذين كانوا بالمرج ، ثم رحلوا إلى الكسوة هناك ، وقد اتفق في هذه السنة أمور عجيبة من وقوع الخلف بين الممالك كلها ، قد اختلفت التتار فيما بينهم واقتتلوا ، فقتل منهم خلق كثير ، واختلفت الفرنج الذين في الساحل وقتل بعضهم بعضا ، وكذلك الفرنج الذين هم في البحر اختلفوا واقتتلوا ، واقتتلت قبائل الأعراب بعضهم في بعض قتالا شديدا ، وكذلك وقع [الخلف](1) بين العشير من الحوارنة بعضهم على بعض وقامت الحرب بينهم على ساق ، وهكذا وقع الخلف بين الأمراء الظاهرية كما ذكرنا في العام الماضي(2) .

ذكر وصول الأمراء إلى الديار المصرية :

وهم الذين خرجوا عن طاعة الملك السعيد ، وصلوا إلى القاهرة في ربيع الأول من هذه السنة ، ونزلوا تحت الجبل الأحمر(3) ، فاتصل بالأمراء المقيمين في

(*) يوافق أولها الأحد ١٤ مايو ١٢٧٩ م .

(١) [ ] إضافة من البداية والنهاية .

(٢) انظر البداية والنهاية جـ١٣ ص ٢٨٧ .

(٣) الجبل الأحمر : يطل على القاهرة من الشمال الشرقي ، ويعرف باليحموم — المواعظ والإعتبار جـ١ ص ١٢٥ .

القلعة قدومهم ، وكان بها الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحى - أمير جاندار ، والأمير علاء الدين أقطوان الساقى ، والأمير سيف الدين بلبان الزُرَيْقى أستاذ الدار ، فتقدموا إلى متولى القاهرة بغلق أبوابها فأغلقت ، وبنى خلف [٦٤٢] أكثرها حيطانا .

فراسلهم الأمراء فى فتح أبواب المدينة ليدخل العسكر إلى بيوتهم ويبصروا أولادهم ، فإنَّ عهدهم بَعُدَ بهم .

فنزل الأمير عز الدين الأفرم والأمير علاء الدين أقطوان الساقى إلى الأمراء ليجتمعا بهم ويبصرا أحوالهم ، فبادر سيف الدين كوندك بالقبض عليهما وعلى الحُسام لاجين البَركنجانى ، فإنه حضر صحبتهما .

وأرسل الأمراء ففتحوا أبواب المدينة ، ودخل الناس إلى بيوتهم بأثقالهم ، وحمل هؤلاء الأمراء الثلاثة المقبوض عليهم إلى الدار السلطانية التى كانت سكن الأمير سيف الدين قلاون المعروفة بالأمير فخر الدين عثمان بن قزل ، فعوّقوا بها ، وأما الأمير سيف الدين الزُرَيقى أستاذ الدار ، فإنه استوثق من أبواب القلعة وأغلقها ، فتقدّم الأمراءُ لحصارها (١) .

ذكر أسماء الأمراء الأعيان الذين توافقوا على ذلك واجتمعوا هنالك :

الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى (٢) .

(١) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٩٣ أ ، ب .

(٢) أضافت بعض المصادر بعد الأمير بيسرى الشمسى اسم الأمير قلاون — السلوك جـ ١ ص ٦٥٤ ، الجوهر الثمين ص ٢٨٩ .

الأمير سيف الدين أيتمش السَّعْدِىّ .

الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار .

الأمير بدر الدين بَكتاش الفخرىّ .

الأمير بدر الدين بَيليك الأيدَمُرىّ .

الأمير شمس الدين سنقر البكتُوتى .

الأمير علم الدين سنجر طردج .

الأمير سيف الدين بلبان الحُبيشىّ (١) .

الأمير بدر الدين بَكتاش النجمى .

الأمير علاء الدين كُشْتُغْدى الشمسىّ .

الأمير سيف الدين بلبان الهارونى :

الأمير بدر الدين بَجكا العلائى .

الأمير ركن الدين بيبرس الرشيدىّ :

الأمير بدر الدين كُندُغدى الوزيرى .

الأمير بهاء الدين يعقوبا الشهرزورى .

الأمير سيف الدين أيتمش بن أطْلس خان .

الأمير سيف الدين بيْدغان الركنى .

الأمير بدر الدين بَكتُوت بن الأتابك .

الأمير علاء الدين كندغدى أمير مجلس .

---

(١) « وسنجر طرطج الحبشى » فى الجوهر الثمين ص ٢٨٩ ، وهو تحريف ضم اسم الأمير سنجر طردج ، مع اسم الأمير بلبان الحبيشى .

الأمير سيف الدين بكتوت جرمك .

الأمير ركن الدين بيبرس طُقْصُوا .

الأمير سيف الدين كُوَنْدُك .

الأمير عز الدين أيبك الحموى .

الأمير شمس الدين سنقر الألفى .

الأمير سيف الدين سنقُرجَاه الظاهرى .

الأمير سيف الدين شاطَلُمُش .

الأمير سيف الدين قَلْنجق الظاهرى .

الأمير سيف [٦٤٣] الدين بجُغَار الحموى .

ومن سواهم من الامراء الصغار ، ومقدّمى الحلقة ، وأعيان المفاردة والبحرّية ، وأحاطوا بالقلعة ، ومنعوا عمن بها المـاء والميرة ، وضيّقوا عليهم .(١)

ذكر قدوم السُلطان الملك السّعيد إلى الديار المصريّة :

ولمـا رأى المـلك السعيد نفارَ الأمراء والعساكر عنه ومسيرهم نحـو الديار المصريّة دونَه جمـع من كان بدمشق مَنْ بقايا العسـكر المصرية ومن حَوْنه من العساكر الشامية ، واستدعى العُربان ومن ينضمّ إليهم من الفرسان ، وأنفق فيهم بدمشق ، وخرج منها وسار إلى الديار المصريّة ، فلما وصل إلى غزة تسلّل أكثر

(١) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٩٢ب ؛ ٩٤أ .

العربان وتفرقوا ، فلما وصل إلى بلبيس لم يبق من العساكر إلا صُبَابَة لا ترجى بها إصابة ، ورأى أنه لا ينتفع بهم ، فأعطى الشاميين منهم دستورا (١) ، فعادوا من هناك صحبة الأمير عز الدين أيدمر الظاهرى نائب الشام (٢) .

ولما وصل المذكور دمشق وحصل فيها اجتمع الأمير جمال الدين أقوش الشمسى والأمراء الذين بدمشق وقبضوا عليه ، وأرسلوه إلى الديار المصرية مقيدًا .

وأما الملك السعيد فلم يبق فى صحبته إلا نفر يسير من مماليكه منهم : لاجين الزينى ، ومغلطاى الدمشقى ، ومغلطاى الجاكى ، وسنقر التكريتى ، وأيدغدى الحرانى ، والبكى الساقى ، وبكتوت الحمصى ، وصلاح الدين يوسف بن بركنجان ، وعلاء الدين على بن بركنجان ، ومن يجرى مجراهم .

ومن الأمراء الكبار : شمس الدين سنقر الأشقر خاصة ، ولما وصلوا إلى قرب المطرية فارقه واعتزل عنه ولم يلم بالأمراء ، بل أقام فى مكان إلى أن كان منهم ما كان (٣) .

وبلغ الأمراء رحيل السلطان من بلبيس وقيل لهم : إنه يجئ من خلف الجبل الأحمر ، ويطلع القلعة ، فركبوا وتوجهوا إلى الجبل الأحمر ليحولوا بينه وبين القلعة لئلا يستقر بها فتصير له منعة [و] (٤) تتسع عند العساكر السمعة (٥) .

(١) « وأما السلطان فإنه لما نزل بلبيس ، وبلغه خبر الأمراء ، خامر عليه من كان معه من عسكر الشام وتركوه فى بلبيس » — السلوك جـ ١ ص ٦٥٣ .

(٢) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٩٤ ب ، ٩٥ أ .

(٣) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٩٤ ب .

(٤) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٥) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٩٤ ب .

وكان يوما قد ترادف سحابُه، وتراكم ضبابُه، وحجب وجه الشمس نِقَابُه، فكان الإنسانُ لا يبصر رفيقه وهو يُسايره، ولا ينظر زميله وهو يُسامره، وكان ذلك لطفا من الله تعالى بالمسلمين وحقنا لدمائهم، فإنه لو تراءى الجمعان ووقع العيان على العيان لكان بينهم سفك دماء كثيرة (١).

فاستتر [٦٤٤] الملك السعيد عن العيون، ونجا من يد المنون، وطلع القلعة، ففتح له مماليكه الأبواب، فبلغ ذلك الأمراء، فشدُّوا عليه الحصار، فوقع التشاجر بين الخاصكيَّة والزَّرَدْ كاش، وأسمعه لاجين الزيني غليظ الكلام، ولامه أعظم الملام، ونسبه إلى التقصير وسُوء التدبير؛ فتوغر خاطره، وساءت ضمائره، وترك القلعة، ونزل إلى الأمراء مخامرًا، وتسلَّل بعده المماليك واحدا بعد واحد (٢).

وكان الأمير علم الدين سنجر الحلبي معتقلا بالقلعة، فأخرجه [السلطان] (٣) واستشاره فى أمره، فقال: أرى أن تعطيني هؤلاء المماليك الذين عندك، فأنزل بهم عليهم وأهجم عليهم وأفرق شملهم، فلم يوافقه على ذلك.

وتمادى الأمر أسبوعا وهو محصور، فأرسل إلى الأمراء مستعتباً فما اعتبوا، واستمرُّوا على مضايقته، فقال لهم: أنا أعطيكم جميع الشام [ولا تنقضوا هذا النظام] (٤)،

(١) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٩٤ أ.

(٢) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٩٥ أ.

(٣) [ ] إضافة للتوضيح.

(٤) إضافة من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٩٥ أ.

فأبوا إلا خلع نفسه من السلطنة [والتخلي عن المملكة[(١)]] ، فأرسل إلى الأمير سيف الدين قلاون ، والأمير بدر الدين بيسرى يلتمس منهما الكرك ، فأجابوه إلى سؤاله[(٢)] ، وأنزلوه من القلعة على حاله ، وحلفوا له أنهم لا يؤذونه في نفسه ، ولا يغيرون عليه مغيرا ، وأحلفوه أنه لا يتطرق إلى غير الكرك ، ولا يكاتب أحدا من النواب ، ولا يستميل [إلى جهته[(٣)]] أحدا من الجند ، ولا من الأعراب ، وسفروه لوقته[(٤)] .

ذكر تسفير الملك السعيد إلى الكرك :

ولما جرى ما ذكرنا نزل من القلعة[(٥)] ، وسافر إلى الكرك صحبة الأمير سيف الدين بيدغان الركني وجماعة يوصلونه إلى الكرك ، فوصلها ، وتسلمها من

(١) إضافة من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٩٥ أ .

(٢) أورد المقريزي رواية أخرى فقال : « ولما طال الحصار بعث السلطان الخليفة الحاكم بأمر الله أحمد يقول : يا أمراء إيش غرضكم ؟ فقالوا : يخلع الملك السعيد نفسه من الملك ونعطيه الكرك ، فأذعن السعيد لذلك » — السلوك جـ ١ ص ٦٥٥ ، وانظر أيضا الجوهر الثمين ص ٢٩٢ .

وذكر ابن كثير : « ثم اتفق الحال بعد ذلك مع الأمير سيف الدين قلاوون الألفي الصالحي — وهو المشار إليه حينئذ — أن يترك الملك السعيد الملك ويتعوض بالكرك والشوبك ، ويكون في صحبته أخوه نجم الدين خضر ، وتكون المملكة إلى جهة أخيه الصغير بدر الدين سلامش ، ويكون الأمير سيف الدين قلاوون أتابكه » — البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٨٨ .

(٣) [ ] إضافة من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٩٥ ب .

(٤) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٩٥ أ ، ب .

(٥) « في سابع عشر الشهر ، وهو ربيع الآخر » — البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٨٨ ؛ انظر ما يلي بالمتن .

النائب الذى هو بها وهو علاءُ الدين أيدكين الفخرى ، وتسلَّم ما بها من الأموال والذخائر والغلال .

وكان خروجه من المملكة فى [سابع](1) شهر ربيع الأول من هذه السنة ، أعنى سنة ثمان وسبعين وستمائة ، وكانت مدة سلطنته من حين وفاة أبيه الملك الظاهر سنتين وشهرا وأياما(2) .

ذكر استقرار سيف الدين قلاون متحدِّثًا فى القلعة فى مصالح الناس :

ولما جرى ما ذكرنا طلع الأمير سيف الدين القلعة ، ومعه الأمراء ، وتصرف فى التدبير فى أمر المملكة من الأمر والنهى والأخذ والعطاء ، ولم يُسْفك [٦٤٥] فى هذه الحركة إلا دم رجل واحد وهو سيف الدين بكتُوت الحمصىّ فإنه كان بينه وبين الأمير شمس الدين سُنْقُرجَاه الظاهرى مشاجرة ، فلما طلع مع الملك السعيد إلى القلعة يوم وصوله صادفه سنقرجاه ، وكان من حزب الأمراء ، فطعنه فى حلقه ، فحمل إلى قبة القلندرية(3) ، فمات من يومه ، ودفن بها ، ولم يُجْر شىءٌ سوى ذلك ، ولم يغن عن الملك السعيد كثرة ماله وكثرة مماليك أبيه ؛ بل كانوا وبالاً عليه .

(1) [ ] إضافة للتوضيح — السلوك جـ ١ ص ٦٥٥ .

(2) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٩٥ ب .

« سنتين وشهرين وثمانية أيام » — السلوك جـ ١ ص ٦٥٥ .

(3) زاوية القلندرية : خارج باب النصر من الجهة التى فيها الترب والمقابر بالقاهرة ، أنشأها الشيخ حسن القلندرى الجوالقى ، أحد فقراء العجم القلندرية ، والذين ينسبون إلى مؤسس هذه الفرقة الصوفية وهو قلندر يوسف — انظر وصف المقريزى لطائفة القلندرية فى المواعظ والإعتبار جـ ٢ ص ٤٣٢ — ٤٣٤ ؛

ذكر سلطنة الملك العادل

بدر الدين سلامش بن الملك الظاهر بيبرس البندقداري

ولما تم خلع السلطان الملك السعيد وإرساله إلى الكرك ، عرضت السلطنة على الأمير سيف الدين قلاون ، وقال له الأمراء الأكابر الذين ذكرناهم : أنت أولى بتدبيرها ، وأحق بتقليد أمورها ، فأبى وقال : أنا لم أخلع الملك السعيد شَرِها إلى السلطنة وحرصا على المملكة ؛ لكن حفظا للنظام وأنفةً بجيوش الإسلام أن يتقدم عليهم الأصاغر ، [ويمتهنوا منهم الأعيان والأكابر](١) ، ويضيعوا مصالح العسكر ، والأولى أن لا يخرج الأمر من ذرية الملك الظاهر ، فأقام الأمير بدر الدين سلامش المذكور وله من العمر سبع سنين وشهور ، وأجلس في السلطنة ، وخطب له على المنابر في الأمصار ، [وذكر اسمه في الأقطار](٢) ، وضربت السكة باسمه ، وذلك في شهر ربيع الأول(٣) من هذه السنة ، واستقر الأمير سيف الدين قلاون الألفي في الأتابكية ، واستوزر الصاحب برهان الدين الخضر أبي الحسن السنجاري لمعرفته به وبأخيه بدر الدين قاضي القضاة من الأيام الصالحية ، وذلك لأن الصاحب بهاء الدين علي بن محمد كان قد توفي في أوائل هذا العام والملك السعيد بالشام ، وكانت وزارته له ولأبيه من قبله تقدير تسع عشرة سنة(٤) .

---

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٢) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٣) « يوم الأحد سابع عشر ربيع الآخر » — النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٨٦ .

(٤) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٩٦أ .

ذكر تولية سُنقُر الأشقر فى نيابة دمشق :

وقد ذكرنا أن نائب الشام عزالدين أيدمر الظاهرى قد قبض عليه وحبس فى قلعة القاهرة ، وكانت شاغرة من النائب ، فنهض سيف الدين قلاون وولى الأمير سنقر الأشقر نائبا بها ، وكان الذى يتولَّى أمر دمشق الى [٦٤٦] هذا الوقت بعد مسك نائبه المذكور الأمير أقوش الشمسى ، فلما قدم النائب الجديد وهو سنقر الأشقر إلى دمشق(١) فوض إلى أقوش الشمسى نيابة السلطنة بحلب ، فسار وتولاها ، واستمرّ الحال على ذلك مدة يسيرة .

وقال ابن كثير : وعزل قضاة مصر الثلاثة : الشافعى والحنفى والمالكى ، وولى القاضى صدر الدين عمر بن القاضى تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز ، عوضا عن تقى الدين بن رزين ، « وكأنهم إنما عزلوا لكونهم توقفوا فى قضية الملك السعيد ، والله أعلم(٢) » .

---

(١) « فى ثامن جمادى الآخرة » — السلوك جـ ١ ص ٦٥٧ .

(٢) « وكأنهم إنما عزلوه لأنه توقف فى خلع الملك السعيد ، والله أعلم » — البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٨٨ .

وقد أعيد قاضى القضاة معز الدين النعمان الحسن بن يوسف الخطيبى الحنفى ، وقاضى القضاة نفيس الدين أبو البركات محمد بن مخلص الدين هبة الله بن كمال الدين أبو السعادات أحمد بن شكر المالكى — السلوك جـ ١ ص ٦٥٧ .

ذِكْر سلطنة الملك المنصور قلاون الألفي الصالحي

ولما حكم قلاون في أتابكيته أحضر من كان من البحرية الصالحية منسيًا، وقرب مَنْ كان منهم مُبْعَدًا مقصيًا، فأعطاهم الإقطاعات، وأمَّرهم بالطبلخانات، وأرسل بعضهم إلى الجهات الشامية، واستنابهم في القلاع، وأحسن إليهم ما استطاع، ومنهم من عينَّ له جامكية، ومنهم من رتَّب له جراية، وجازى المماليك الظاهرية بسُوءِ أفعالهم، وأذاقهم وبالَ أمرهم، وأمر وبالهم، وقبض على أعيانهم الذين سعوا في تخريب بيت مخدومهم وبيوتهم، وأرسلهم إلى الثغور، فأودعوا السجون، ومع ذلك لم يقطع عنهم برًا، ثم أفرج عنهم واحدا بعد واحد على أحسن حال، وأعاد على بعضهم إمْرته (١).

ولما أحكم تدبير الأمور، وأحسن سياسة الجمهور، اجتمع أكابر الأمراء وأماثل ذوى الآراءِ على أنه لا فائدة في بقاءِ ذلك الصبي الصغير لانتشار السمعة في البلاد (٢)، وامتهان الحرمة في أنفس الحواضر والبواد، وأن الرأى جلوس المخدوم في الدست استقلالا ليزداد الملك بهجة وجلالا.

(١) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٩٦ ب.

(٢) يذكر المقريزى رواية أخرى فيقول: «ثم جمع قلاون الأمراء في العشرين من رجب، وتحدث معهم في صغر سن الملك العادل، وقال لهم: قد علمتم أن المملكة لا تقوم إلا برجل كامل، إلى أن اتفقوا على خلع سلامش فخلعوه، وبعثوا به إلى الكرك» ـ السلوك جـ ١ ص ٦٥٨.

فأجابهم بالاستبداد بالأمور ، ولقب الملك المنصور ، وخلع سلامش من السلطنة ، فكانت مدته مائة يوم (١) .

وجلس سيف الدين قلاون على تخت السلطنة فى الطالع الأسعد ، والوقت الأحمد ، يوم الأحد ، وكان طالع جلوسه بالأسد الثانى والعشرين من رجب (٢) الفرد سنة ثمان وسبعين وستمائة ، وخطب له على المنابر ، وجاءت البيعة إلى دمشق فوافق [٦٤٧] الأمراء وحلفوا ، ويذكر أن الأمير شمس الدين سنقر الأشقر النائب لم يحلف مع الناس ولم يرض بما وقع ، وكأنه داخله حسد من المنصور ، وخطب للمنصور على المنابر المصرية والشامية والحلبية ، وضربت السكة باسمه ، وجرت الأمور فى البلدان بمقتضى رأيه وحكمه ، فعزل عن الوزارة برهان الدين السنجارى وولى مكانه مجد الدين بن لقمان (٣) كاتب السر وصاحب ديوان الإنشاء بالديار المصرية .

---

(١) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٩٦ ب ، ٩٧ أ .

« خمسة شهور وأياما » الجوهر الثمين ص ٢٩٤ .

« ثلاثة أشهر وستة أيام » النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٨٨ .

(٢) « يوم الأحد ثانى عشر رجب الفرد » — الجوهر الثمين ص ٢٩٥ .

« يوم الأحد العشرين من رجب » — السلوك جـ ١ ص ٦٦٣ ، كنز الدرر جـ ٨ ص ٢٣١ .

وما جاء فى السلوك يوافق حسابات التوفيقات الإلهامية حيث أن أول شهر رجب ٦٧٨هـ يوافق يوم ثلاثاء ، وعلى ذلك فالعشرين من رجب يوافق يوم أحد ، وقد أجمعت المصادر على أن توليه قلاوون كانت يوم أحد .

(٣) « فخر الدين » فى تذكرة النبيه جـ ١ ص ٥١ .

وهو إبراهيم بن لقمان بن أحمد بن محمد ، المتوفى سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣م — المنهل الصافى جـ ١ ص ١٢٦ رقم ٦٣ ، الوافى جـ ٦ ص ٩٧ رقم ٢٥٢٧ ، وانظر ما يلى فى وفيات سنة ٦٩٣ هـ .

قال بيبرس مملوكه : لما تولى سيف الدين قلاون السلطنة رَفع قدرَ عتقائه وألزامه، وصيّرهم ولاة الأمور وقادة للعساكر، ونوابا في الممالك (١) .

ذكر أسماء مماليكه الذين كانوا في خدمته في زمن الإمْرَة :

الأمير حسام الدين طرنطاى .

الأمير زين الدين كتبغا .

الأمير حسام الدين لاجين .

الأمير شمس الدين قراسنقر .

الأمير عز الدين أَيْبك الخزندار .

الأمير سيف الدين الطباخى .

الأمير علم الدين سنجر الشجاعى .

الأمير سيف الدين قطز .

الأمير ركن الدين الصَيْرَفى .

الأمير علاء الدين أيدغدى الساقى .

الأمير علاءُ الدين علق .

الأمير عز الدين الجَنْدَكى .

---

(١) لم يقصد بيبرس الدوادار هذا المعنى الذى أورده العينى ، فقد ذكر بيبرس أثناء كلامه عن صفات قلاون « وكان حليما ، عفيفا عن سفك الدماء ، مقتصدا فى العقاب ، كارها للأذى ، لاجرم أن الله جازاه فى ذريته وحاشيته بالحسنى ورفع قدر عتقائه ... الخ » .
زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٩٨ أ .

الأمير علم الدين سنجر المعمرى .

الأمير علم الدين سنجر أرجواش .

الأمير سيف الدين طغريل المشرف .

الأمير سيف الدين بجقار .

« الأمير عز الدين أيبك الموصلى »[1] .

الأمير بدر الدين بيليك الطيار .

الأمير سيف الدين تازى .

الأمير سيف الدين طَيْبغا الرومى .

الأمير سيف الدين كاوَرْكا .

الأمير سيف الدين طاجار .

الأمير سيف الدين بليان الرومى .

الأمير عز الدين أيبك الطويل[2] .

الأمير جمال الدين أقوش بُرْناق .

الأمير بدر الدين بكتوت البحلاق .

الأمير سيف الدين سلّار .

الأمير بدر الدين بَيْدَرا .

---

(١) « » ساقط من زبدة الفكرة .

(٢) اسم هذا الأمير مكرر فى الأصل قبل ذلك بثلاثة أسماء ، وأبقينا عليه فى هذا الموضع ليتفق مع ما ورد فى زبدة الفكرة .

الأمير سيف قبجاق .

الأمير سيف الدين جاورشى .

الأمير سيف الدين بهادر رأس نوبة .

الأمير جمال الدين أقوش الأسدى .

الأمير علم الدين سنجر أمير آخور .

الأمير عز الدين أيدمر الزردكاش .

الأمير علاء الدين طيبرس .

علاء الدين الطبرس .

بدر الدين كيكلدى الشحنة .

بدر الدين بيليك الشحنة .

بيبرس الدوادار صاحب التاريخ (١) .

فمنهم من ارتقى [٦٤٨] إلى المملكة وجلس على كرسى السلطنة ، ومنهم من تولى النيابة بالممالك الشامية والحصون الإسلامية ، ومنهم من تقدم إلى تقدمة الألوف (٢) .

ومن أجناده أيضا وخدامه من ارتقى إلى الإمرة بالطبلخاناة وهم : الأمير عز الدين أيدمر الحناحى ، والأمير سيف الدين ألدق (٣) الخوارزمى ، والأمير

(١) « وناقل هذه الآثار ، بيبرس الدوادار » فى زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٩٩ أ .

(٢) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٩٨ ب ، ٩٩ أ .

(٣) « الدق » فى زبدة الفكرة .

عز الدين الكورانى ، والأمير علم الدين الأصبهانى ، والأمير شمس الدين الدكز أمير آخور[1] ، وعلاء الدين النقيب ، والطواشى شهاب الدين مرشد .

وأما من حوت[2] يده بعد السلطنة من المماليك المنصورية الذين اشتراهم بأنفس الأثمان ، فإنهم انتهوا فى آخر دولته إلى ما ينيف على ستة آلاف مملوك أرباب إقطاعات ، وأصحاب جامكيات ، وأمراء طبلخانات[3] .

وافتتح دولته النيرة وأيامه الزاهرة بما أصلح به دار الدنيا وعمر به دار الآخرة بإبطاله زكاة الدولبة[4] ، وقد كانت أجحفت بالرعية ، فأبطل حكمها ، وعفّى رسمها ، ورسم بأن يوضع ارتفاعها من وجوه الأملاك ، وكتب بذلك إلى سائر الأعمال[5] .

ولما استقر فى السلطنة أفرج عن الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحى ورتبه فى نيابة السلطنة ، فباشرها مدة يسيرة ، ثم سأل الإعفاء منها فأعفاه ورتب الأمير حسام الدين طرنطاى مملوكه نائباً ، وكان شهما شجاعا ، ذا همة عالية ، وكفاية كافية ، وكان لا يحسن الخط ولا القراءة ، لكن كان يستعين بذكائه ،

(١) « الحيراخور » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٢) « حوته » فى زبدة الفكرة .

(٣) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٩٨ ب ، ٩٩ أ .

(٤) زكاة الدولبة « هى مال كان يؤخذ من أصحاب الأموال ولو عدم المال ، وإن مات من فقر أخذ ذلك من ورثته — المواعظ والإعتبار جـ ١ ص ١٠٦ .

وانظر أيضا نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٩ ص ٢٦٨ ، زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٩٩ ب ، السلوك جـ ١ ص ٦٦٤

(٥) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ٩٩ ب .

فأحسن التدبير وحفظ النظام ومكّن الله مهابته فى قلوب الخاصة والعوام ، وقام بأمر نيابة السلطنة أحسن قيام[(١)] .

ذكر تجريد السلطان الملك المنصور الأمير بدر الدين بيليك الأيدمرى إلى الشوبك وصحبته عسكر من الديار المصرية :

وذلك لأن الملك السعيد كان قد شرط السلطان عليه شروطا لما طلب الرواح إلى الكرك ، منها : أنه لا يكاتب أحدا من النواب ، ولا يستفسد أحدا من العساكر ويستحفظى القلاع ، وأخذ عليه بذلك العهود والأيمان ، فلما صار بالكرك لعب بعقله من كان معه من المماليك ، وحسّنوا له [أن][(٢)] يسيّرهم ليأخذوا الشوبك[(٣)] وبلاد الشام أولا فأولا ، ثم بعد ذلك يقصدون الديار المصرية ، فمال إلى موافقتهم ، وحسنوا له أن يكاتب النواب ويراسلهم ، ففعل ذلك ، وبلغ الملك المنصور ذلك ، فكاتبه وعذله ، فلم يغن [٦٤٩] ذلك شيئا ، وسيّر حسام الدين لاجين رأس نوبة الجمدارية إلى الشوبك ، فأقام فيها وتغلّب عليها ، ثم جرّد السلطان الأمير بدر الدين المذكور ، فنزل عليها بمن معه وضايق أهلها ، فتسلمها فى العاشر من ذى القعدة من هذه السنة ، ورتب فيها نائبا عز الدين الموصلى وعاد عنها[(٤)] .

---

(١) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٠٠ أ .

(٢) [ ] إضافة تتفق مع سياق الكلام .

(٣) الشوبك : قلعة حصينة فى أطراف الشام بين عمان وأيلة القلزم ، قرب الكرك — معجم البلدان .

(٤) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٠٠ ب ، ١٠١ أ ، م .

ذكر وفاة السلطان الملك السعيد ناصر الدين محمد[(١)] بركة خان أبي المعالي بن السلطان الملك الظاهر بيبرس الصالحى البندقدارى :

قد ذكرنا أن أباه بايع له الأمراء فى حياته ، فلما توفى أبوه بويع له بالملك وله تسع عشرة سنة ، ومشت الأمور فى أول الأمر على السعادة ، ثم أنه غلبت عليه الخاصكية ، فجعل يلعب معهم فى الميدان الأخضر فيما قيل أول هوى ، فربما جاءت النوبة عليه ، فأنكرت الأمراء الكبار ذلك ، وأنفوا أن يكون ملكهم يلعب به الغلمان ، فراسلوه ليرجع عن ذلك ، فلم يقبل ، فخلعوه كما ذكرنا ، وولوا أخاه الملك العادل ، ثم خلعوه كما ذكرنا ، ثم ولوا الملك المنصور قلاون ، وأرسلوا الملك السعيد إلى الكرك كما ذكرنا ، ثم كانت وفاته بالكرك يوم الجمعة الحادى والعشرين من ذى القعدة من هذه السنة ، وسبب ذلك أنه لعب بالأكرة فى ميدان الكرك ، فتقنطر به فرسه ومرض أياما ومات ، وحمل إلى دمشق ، فدفن فى تربة أبيه الملك الظاهر ، وعمل عزاه بمصر فى الثانى والعشرين من ذى القعدة.

وقال ابن كثير : ويقال إنه سُمّ ، والله أعلم ، فدفن أولا عند قبر جعفر الطيار وأصحابه رضى الله عنهم بمؤته ، ثم نقل إلى تربة أبيه سنة ثمانين وستمائة[(٢)] .

وقال بيبرس[(٣)] : بقى مَصَبَّرًا فى تابوت مدة ، ثم حمل إلى تربة أبيه .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ٦٠ ، المنهل الصافى ، زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١١١ أ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٥٣ ، الوافى جـ ٢ ص ٢٧٤ رقم ٦٩٧ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٥٩ ، السلوك جـ ١ ص ٦٦٩ ، ٦٧٤ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٩٠ ، العبر جـ ٥ ص ٣٢١ ، الجوهر الثمين ص ٢٩٦ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ١٦٥ .

(٢) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٩٠ .

(٣) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٠١ أ .

ذكر قيام نجم الدين خضر مقام أخيه الملك السعيد :

ولما مات الملك السعيد كان نائبه فى الكرك علاء الدين أيدغدى الحرانى الظاهرى ، فاتفق هو ومن معه وأقاموا أخاه نجم الدين خضر مقامه ، ولقبوه بالملك المسعود ، وشرع المماليك الذى حوله فى سوء التدبير وفرط التقرير ، فأنفقوا الأموال ، واستخدموا على زعمهم الرجال طمعا فى استرجاع الفائت واستدراك الفارط . هيهات ، وقد أراد الله تعالى نقض القواعد الظاهرية بإظهار الدولة المنصورية ، وتوجه منهم جماعة إلى الصلت ، فأخذوها وأرسلوا [٦٥٠] إلى صرخد ، فلم يقدروا عليها ، وكاتبوا شمس الدين سنقر وراسلوه فى الاتفاق ، ودبّت بينهم عقارب النفاق ، وكان سنقر الأشقر قد خرج عن الطاعة .

ذكر سلطنة سُنْقر الأشقر فى دمشق :

ولما كان يوم الجمعة الرابع والعشرين من ذى القعدة(1) من هذه السنة ركب الأمير سنقر من دار السعادة بعد صلاة العصر ، وبين يديه جماعة من الأمراء والجند مشاة ، وقصد باب القلعة الذى يلى المدينة ، فهجم منه ودخلها ، واستدعى بالأمراء ، فبايعهم له ، وتسلطن وتلقب بالملك الكامل ، وأقام بها ، ونادت المنادية بدمشق بذلك ، فلما أصبح يوم السبت استدعى بالقضاة والأعيان والعلماء ورؤساء البلد وأكابر الدولة إلى مسجد أبى الدرداء رضى الله عنه ، فحلّفهم وحالف لهم ، وحلف له أيضا بقية الأمراء والعسكر ، وأرسل عسكرا إلى غزّة لحفظ الأطراف وأخذ الغلات .

(1) « ذي الحجة » فى تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ١٦٢ ، كنز الدرر جـ ٨ ص ٢٣٤ ،

وقال بيبرس : أوهم الأمير شمس الدين سنقر المذكور أمراء الشام وأكابرها أن السلطان الملك المنصور قد قتل على القمز ، واستحلفهم لنفسه ، معتقدين عدم السلطان ، وركب بشعار السلطنة (١) .

ولما تولى نيابة دمشق واستقر بها فى شهر جمادى الآخرة من هذه السنة شرع فى تسلّم القلاع من يد النواب الظاهرية ، وترتيب النواب المنصوريّة ، فسولت له نفسه الاستبداد بالسلطنة فى الشام وأعماله ، وخطر هذا الأمر بباله ، فعند ذلك جمع الأمراء وجرى منه ما ذكرناه الآن .

ذكر تجريد السُلطان الملك المنصور الأمير عز الدين الأفرم أمير جاندار إلى الشام وصحبته بعض العسكر لينازل الكرك على طريق الإرهاب :

فتوجّه فى آخر ذى الحجة من الديار المصريّة سالكا على طريق الكفرين وغَمرين وأريحا ، ولما بلغ ذلك شمس الدين سنقر الأشقر توهّم أنه واصل لحربه وأخذه ، فكتب إليه كتابا ينهاه عن المسير ويثبّطه عن المصير مضمونه :

إنى مهدّتُ الشام ، وفتحت القلاع ، وبذلت فى خدمة السلطان مالم يبذله أحد ، وكان شرطى معه أن أكون حاكما من الفرات إلى العريش ، فاستنابت [٦٥١] أقوش الشمسى بحلب ، وعلاء الدين الكبكى بصفد ، وسيف الطباخى بحصن

(١) هذا النص لا يوجد فى نسخة زبدة الفكرة جـ ٩ التى بين أيدينا ، حيث يوجد فيها اضطراب فى النص .

الأكراد ، وآخر الحال يُسيِّر إلىَّ من يُمسكني ، فلا تقطع العقبة ، ولا تَدْنُ من البلاد ، وإن غررت فقد عيَّنا لك الضيافة ، واتبع كتابه بتجريد يَزَكْ إلى أُرْبُدَ لحفظ الطريق (١) .

فأرسل الأمير عز الدين الأفرم كتابه هذا إلى السلطان طىّ مطالعته ، فكتب السلطان إلى شمس الدين سنقر الأشقر من جهته ومن جهة خُوشْداشِيَّتِهِ يُقَبِّحون عليه هذا الفعل الذى يفرّق الكلمة ، ويوهن الأمّة ، وأرسل إليه الكُتُبَ صحبة البريد ، ثم جُهِّز إليه الأمير سيف الدين بلبان الكريمى العلائى خُوشداشه ليسترجعه عما هو عليه ، فلم يسمع منه ولا أصغى إليه (٢) .

وأما الأمير عز الدين الأفرم فإنه عند ورود كتاب سنقر الأشقر إليه رجع إلى غزة ، إذ لم يكن معه جمع يُقابل عسكر الشام ، فلما وصلها وافى الأمير بدر الدين الأيدمري عائدا من الشوبك بعد أخذها بمن معه من العسكر ، فاجتمع كلاهما على غزة ، فجمع سنقر الأشقر العساكر من حلب وحماة وحمص ، واستدعى الكبكى من صفد ، والعربان من البلاد ، وجهّز من عسكر الشام جماعة وقدّم عليهم الأمير قراسنقر المُعِزّى ، فساروا إلى غزة ، والتقوا مع الأميرين عز الدين الأفرم وبدر الدين الأيدُمرى على غزة ، وكانت الكسرة على العسكر الشامى ، فاستظهر العسكر المصرى عليهم وأسروا منهم جماعة فيهم من الأعيان : بدر الدين كِنجك الخوارزمى ، وبهاء الدين يملك الناصرى ، وناصر الدين باشقرد الناصرى ،

---

(١) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٠٢ أ .

(٢) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٠٢ أ .

وبدر الدين بَيْليك الحلبي[(1)]، وعلم الدين سنجر البدرى، وسابق الدين سليمان صاحب صهيون، وسُيِّروا إلى الأبواب السلطانية، فأحسن السلطان إليهم وخلع عليهم ولم يعنِّفهم على ما جرى منهم[(2)].

ولما عادَ فلّ عسكر الشام إليه وأخبروه بمن أسر منهم شرع فى تجريد الإهتمام، واجتهد فى الإستخدام، وخرج بنفسه[(3)]، وذلك كله فى السنة الآتية على ما نذكره إن شاء الله تعالى، وإنما ذكرنا هذا المقدار فى هذه السنة ليتم الكلام على نسَقه ولا ينقطع.

ذكر بقيّة الحوادث فى هذه السنة :

منها : أن فتح الدين بن القيسرانى [٦٥٢] عزل عن الوزارة بدمشق ووليها تقى الدين التوبة[(4)] التكريتى.

ومنها : أن الملك أبغا بن هلاون ملك قلعتى نابَروان وأُوشُلوان[(5)] من يد الكرج، وكانتا فى يد السلطان علاء الدين صاحب الروم، فلما استولت التتار على الممالك الروميّة وضعت الكرج أيديهم عليهما وعلى قلعة بابَرْت وأعمالها، فاسترجعهم أبغا وسلّمهم إلى النائب بالروم[(6)].

---

(١) « بن » فى الأصل ، وفى زبدة الفكرة والتصحيح من السلوك جـ ١ ص ٦٧٥ .

(٢) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٠٢ أ ، ب .

(٣) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٠٢ ب .

(٤) هو توبة بن على بن مهاجر بن شجاع بن توبة ، الصاحب تقى الدين أبو البقاء الربعى التكريتى ، المتوفى سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م — المنهل الصافى جـ ٤ ص ١٧٩ رقم ٨٠٢ .

(٥) « بابروان وواشلوان » فى زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٠١ ب .

(٦) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٠١ ب .

ومنها : أن السلطان الملك المنصور رتَّب علم الدين سنجر الشجاعى أحد مماليكه فى شدّ الدواوين ، والحديث مع الوزير ، واستخراج الأموال ، فكوتب من الولاة بشادّ الدولة الشريفة[1] .

(١) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٠١ ب .

ذكر مَنْ تُوفى فيها من الأعيان

عبد السلام[(١)] بن أحمد بن غانم بن على بن إبراهيم بن عساكر بن حسين، عز الدين أبو محمد الأنصارى المقدسى، الواعظ المُطيق المُفْلق، الشاعر الفصيح الذى ينسج على منوال ابن الجوزى وأمثاله.

وقع من موضع مرتفع فتوجع قليلا، ومات يوم الأربعاء الثامن عشر من شوال من هذه السنة بالقاهرة، ودفن بمقابر باب النصر، ولم يبلغ خمسين سنة، وله تصانيف كثيرة منها: تفسير القرآن فى مجلد، وتلبيس إبليس وغيرهما، وكان له قبول من الناس، وقد تكلم مرة تجاه الكعبة المعظمة وفى الحضرة الشيخ تاج الدين الفزارى والشيخ تقى الدين بن دقيق العيد وابن العُجَيل من اليمن وغيرهم من سادات العبّاد والعلماء، فأجادوا وأفادوا، وخطب فأبلغ، وأحسن نقل هذا المجلس بحروفه الشيخ شرف الدين الفزارى، وأنه كان سنة خمس وسبعين وستمائة.

الشيخ عمر[(٢)] بن مزاحم.

والشيخ أبو الفضل على[(٣)] بن رضوان العدوى.

---

(١) وله أيضا ترجمة فى: المنهل الصافى، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٥٠، مرآة الجنان جـ ٤ ص ١٩٠، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٦٢، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٨٩، العبر جـ ٥ ص ٣٢١، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ١٦٦.

(٢) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٠١ ب.

(٣) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٠١ ب.

وصاين الدين عبد الله[1] الخوارزمي أحد الصوفية بخانقاة سعيد السعداء .

والشيخ الكبير قدوة المشايخ الروزبهاري الكازروني .

والشيخ الصالح مبارك الحبشي خادم الشيخ أبي السعود ، ماتوا كلهم في هذه السنة .

الأمير نور الدين علي بن عمر[2] بن مُجلي[3] الهكاري .

ولي نيابة السلطنة بحلب وأعمالها من سنة تسع وخمسين وستمائة إلى هذه السنة ، وعزل عنها قبل موته بالأمير علاء الدين [٦٥٣] أيدغدي الكبكي ، وتوفي بعد عزله بأيام قليلة في هذه السنة بحلب ودفن بها ، و كان حسن السيرة، كثير التواضع للعلماء والفقراء ، وكان والده الأمير عز الدين من أكابر الأمراء بحلب .

الأمير جمال الدين أقوش[4] الركني المعروف بالبطاح .

أحد أمراء دمشق ، كان مجردا مع العسكر في سيس، فلما عاد مرض بحلب ومات بها ، ونقل إلى حمص ودفن بمقبرة خالد بن الوليد رضي الله عنه .

(١) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٠١ ب .

(٢) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي ، درة الأسلاك ص ٦١ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٥٤ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٩٠ ، السلوك جـ ١ ص ٦٧٤ .

(٣) « عثمان » في الأصل ، والتصحيح من مصادر الترجمة .

(٤) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي جـ ٣ ص ٢٢ رقم ٥١٤ ، الوافي جـ ٩ ص ٣٢٤ رقم ٤٢٦٠ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٨٩ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ١٦٤ .

ويرد في المنهل أنه توفي سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م ، ويبدو أنه تحريف .

فصل فيما وقع من الحوادث
فى السنة التاسعة والسبعين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة أولها يوم الخميس ثالث أيار، والخليفة هو: الحاكم بأمر الله العباسي .

وسلطان الديار المصرية : الملك المنصور سيف الدين قلاون الألفى الصالحى ، وبيده بعض بلاد الشام أيضا .

وأما دمشق وأعمالها فقد استحوذ عليها الملك الكامل شمس الدين سنقر الأشقر .

وصاحب الكرك : الملك المسعود نجم الدين خضر بن السلطان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى .

وصاحب حماة : الملك المنصور ناصر الدين محمد بن الملك المظفر تقى الدين محمود .

وفى صفد : علاء الدين الكبكى .

وفى حلب : أقوش الشمسى .

وصاحب بلاد الروم : السلطان غياث الدين بن السلطان ركن الدين قليج أرسلان ، ولكن لاحكم له سوى الإسم ، والحاكم عليها التتار .

(*) يوافق أولها الخميس ٣ مايو ١٢٨٠ م .

وبلاد العراق ، وخرسان ، والجزيرة ، والموصل ، وأربل ، وأذربيجان ، وديار بكر ، وأخلاط ، وغيرها بأيدى التتار وكبيرهم أبغا بن هلاون .

وصاحب اليمن : الملك المظفر شمس الدين يوسف بن عمر بن على بن رسول .

وصاحب مكة : الشريف نجم الدين بن أبى نمى الحسنى .

وصاحب المدينة : عز الدين جماز بن سالم الحسينى .

ففى مستهلّ هذه السنة ركب سنقر الأشقر الذى تسلطن فى دمشق وتلقب بالملك الكامل من القلعة إلى الميدان الأخضر ، وبين يديه الأمراء ومقدمو الحلقة رجّالة يحملون الغاشية وعليهم الخلع ، والقضاة والأعيان راكبون بالخلع ، فسيّر فى الميدان ساعةً ، ثم رجع إلى القلعة ، وجاء إلى خدمته الأمير شرف الدين عيسى ابن مُهنّا ملك العرب ، فقبّل [٦٥٤] الأرض بين يديه ، وجلس إلى جانبه وهو على السماط ، وقام له الكامل ، وكذلك جاء إلى خدمته ملك أعراب الحجاز ، وأمر الكامل أن تضاف البلاد الحلبيّة إلى ولاية القاضى شمس الدين بن خلكان رحمه الله ، وولاه تدريس الأمينية (١) وانتزعها من يد نجم الدين بن سنىّ الدولة ، فدرس بها ابن خلكان . (٢)

---

(١) المدرسة الأمينية بدمشق ، أنشأها أمين الدولة كمشتكين بن عبد الله الطغتكيني ، المتوفى سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م — الدارس جـ ١ ص ١٧٨ ، خطط الشام جـ ٦ ص ٨٧ .

(٢) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٩٠ .

ولما بلغ السلطان الملك المنصور ذلك أرسل إليه جيشا كثيفا على مانذكره عن قريب، وقد ذكرنا فى السنة الماضية أن المنصور قد أرسل الأمير عز الدين الأفرم فى عسكر ليُرهبَ بذلك الجماعة الذين بالكرك، وأن سنقر الأشقر أرسل أيضا طائفة من العسكر وتقاتلوا على غزَّة، فانكسر عسكر الشام ورجعوا منهزمين إلى سنقر الأشقر، ثم أن سنقر الأشقر تجهَّز وخرج بنفسه (١) .

ذكر خروج شمس الدين سُنقر الأشقر الملقب بالملك الكامل من دمشق بعسكره لقتال العسكر الذين خرجوا من مصر من عند السلطان الملك المنصور قلاون :

ولما تجهزّ الكامل خرج من دمشق، ونزل بظاهرها، وكاتب الأمراء الذين بغزة يستميلهم إليه، وأعطى كلا منهم قلعةً من القلاع، ووعدهم وعودا تمتدّ إلى مثلها الأطماع، وأنفق فى العسكر الذين معه .

وأما السلطان الملك المنصور فإنه جرَّد من الديار المصريّة الأمير علم الدين سنجر الحلبى، والأمير بدر الدين بكْتاش الفخرى أمير سلاح، ومعهما عسكر، فوصلا إلى غزَّة واجتمعا بالأميرين اللذين بغزَّة وهما الأمير عز الدين الأفرم والأمير بدر الدين الأيدمرى، وتكاثر العسكر وتعاضدوا، وسار الأمير علم الدين الحلبى بهم طالبا دمشق، فوصل إلى الكسوة ورتَّب الأطلاب وتقدّم،

(١) انظر ما سبق ص ٢٣٤ — ٢٣٦ .

فوجد شمس الدين سنقر الأشقر فى عساكر الشام مُطَلِّبًا وافقا على الجُسُورَة ، فالتقى الجمعان والتحم القتال ، فساق الأمير علم الدين الحلبى على سنقر الأشقر ، فلما صدمه هزمه ، فتوجه طالبا [طريق](1) الرحبة ومعه شرف الدين عيسى بن مُهَنّى وكانت هذه الكسرة فى تاسع عشر صفر من هذه السنة .

ونزل الأمير علم الدين الحلبى [٦٥٥] ظاهر دمشق ، وتسلمها ، وأنزل الأمير عـلاء الدين كُشْتُغدى الشمسى فى قلعتها ، وكان السلطان الملك المنصور لما فوض نيابة الشام إلى سنقر الأشقر فوض أيضا نيابة قلعة دمشق إلى حسام الدين لاجين السلحدار أحد مماليكه ، فلما جلس سنقر الأشقر فى السلطنة قبض عليه واعتقله ، واعتقل معه الأمير ركن الدين بيبرس العجمى الجالق ، لأنه لم يحلف له فيمن حلف من عسكر الشام ، فأفرج عنهما بعد كسرته ، واستقر الأمير حسام الدين لاجين المنصورى نائب السلطنة بدمشق ، وكتب الأمير علم الدين الحلبى إلى السلطان بالنصر ، وأرسل إليـه مَنْ حصل من الأمراء فى الأسْر ، فعاملهم السلطان بالعفو الجميـل ، وأعطاهم الحوائص الذهب ، والخيـول العربية ، وتعابى القماش الملوكية حتى لقـد حمدوا عاقبة نفاقهم لأنه كان سببا لصلة أرزاقهم ، فكانوا كما قيل :

وسعتْ عواطفُك الجُناة بأسرهم ... وأقلْتَ كلًّا منهـم عـثراتِهِ

وجزيت مرتكب الإساءة منهم ... الحسنى فأصبح شاكرا زلّاتِهِ

---

(1) [ ] إضافة للتوضيح من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٠٣ أ .

وأعاد من كان إقطاعُه بدمشق إلى ما كان عليه ، وعفا عفـوا لم يسبقه أحـد إليه[1] .

وقال بيبرس فى تاريخه : أخبرنى من حضر هذه الوقعة أن سنقر الأشقر لمـا التقى مع علم الدين الحلبىّ دبَّر حيلةً أراد بها التمكُّن والاستظهار ، فاحترز الحلبىُّ منها وأخذ الحِذارَ لأنه كان قد مارس الخطوب وباشر الحروب وشهد المواقف وخاض المتالف ، فلم تتم عليه الحيلة ، ولا نشب فيما نصب خصمُه من الأُحْبُولَة ، وهى أنه قرَّر مع العربان الذين جمعهم أن يقاطعوا ساعة الملتقى على العساكر المصرية ويجيئوهم من ورائهم ويحطوا أيديهـم فى نهب الأثقال والغلمان والجمال ليثنوا إليهم عنانهم ، فيركبَ أكتافَهم ، ففعل العرب ما أوصاهم وجاءُوا من ورائهم وشرعوا فى النهب .

فقال له العسكر : إن العرب قد نهبت الأثقال والقماش والأحمال . فقال : لا تلتفتوا إليهم ولا تعرُجوا عليهم ، وشأنكم ومن قدامكم ، فإنا إذا هزمناهم استرجعنا الذى [٦٥٦] لنا ، وغنمنا الذى لهم ، فأطاعوه وتقدموا ، فاستظهروا وغنموا ، وهذا تدبير ينبغى لمن يتقدَّم على الجيوش أن يُحكِمَهُ ، ولِمَنْ يمارسُ الحـروب أن يفهمهُ[2] .

وقال ابن كثير : ولمـا استقرَّ ركاب علم الدين الحلبى فى دمشق بعد انتصاره على سنقر الأشقر جاء إليه قاضى القضاة شمس الدين بن خلّكان ليسلّم عليه ، فقبض

(١) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٠٣ أ ، ب .

(٢) زبدة الفكر جـ ٩ ورقة ١٠٣ ب .

عليه واعتقله في الخانقاة النجيبيّة ، وكان ذلك في يوم الخميس العشرين من صفر من هـذه السنة ، ورسم للقاضي نجم الدين بن سنيّ الدولة بالقضاء فباشره ، ثم جاءت البريديّة ومعهم كتاب من الملك المنصور بالعفو عنهم كلهم (١) ، فتضاعفت الأدعية للسلطان ، وجاء تقليد النيابة بالشام للأمير حسام الدين لاجين السلحدار المنصوري ، فدخل معـه علم الدين سنجر الحلبي إلى دار السعادة ، ورسم الحلبي للقاضي شمس الدين بن خلكان أن يتحول من المدرسة العادلية الكبـيرة ليسكنها قاضي القضاة نجم الدين بن سنيّ الدولة وألحّ عليه في ذلك ، فاستدعى جمالا لينقل أهله ونقله عليها إلى الصالحية ، فجاء البريدُ بكتاب من السلطان فيه تقرير قاضي القضاة ابن خلكان على القضاء والعفو عنه وشكره والثناء عليه ، وذكر خدمته المتقدمة ، و [معه] (٢) خلعة سنيّة [له] (٣) ، فلبسها وصلى بها الجمعة ، وسلّم على الأمراء فأكرموه وعظموه ، وفرح الناس كلهم بما وقع من الصفح عنهم (٤) وأمنهم في أوطانهم (٥) .

ذكرُ ما جرى على سُنقر الأشقر بعد انهزامه :

قد ذكرنا أنه لمـا انهزم توجه إلى الرحبة مع العرب ، وتفرق عنه أصحابه ، ومَنْ كان معه ، وتركوه ، وتراجع أكثرهم إلى السلطان لمـا علموا أنه أغمد سيف الانتقام ، وأنشأ سحب الحلم والإنعام ، ورأى سـنقر الأشقر نفسَهُ وحيـدًا ،

---

(١) « بالعتب على طوائف الناس ، والعفو عنه كلهم » — البداية والنهاية .

(٢) ، (٣) [ ] إضافة من البداية والنهاية .

(٤) « عنه » في البداية والنهاية .

(٥) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٩١ .

فطالب النائب بالرحبة بتسليمها إليه ، فأبى وامتنع ، وكان يُسمّى الموفّق خضر الرحبي ، فكاتب عند ذلك أبغا بن هلاون ملك التتار يُعرِّفه أن كلمة الإسلام قد تفرقت ، وحُلّة الإلتئام قد تمزقت ، ويحثّه على المسير إلى البلاد [٦٥٧] الشاميّة ليتملكها ، ويَعِدُه المناصرة عليها والمساعدة إذا جاءَ إليها ، وكتب معه شرف الدين عيسى بن مُهَنّا ملك العرب بمثل ذلك ، وجهّز إليه قُصّادا ، فكان ذلك باعثا على حضوره على ما نذكره إن شاء الله تعالى .

فأرسل إليه السلطان شمس الدين سنقر الأشرفي يستميله ، ويتلطّف به ليعُود ، ويُمنّي له الوعُود ، فأبى إلا الامتداد فى غُلواءِ جهالته ، والإشتداد فى ميدان ضلالته ، وكان عند تغلبه على الشام قد كاتب النواب الذين بالقلاع ، فنهم من لم يُطِعْه ومنهم مَنْ أطاع ، فكان ممن أطاعه : صهيون ، وبُرْزَيَه ، وبلاطُنس ، والشُغْر ، وبكاس ، وحصن عكّار ، وشيرز ، وحمص ، ولما ضاقت به رحابُ الرحبة بقي حائرا فى أمره ، وجرّد إليه السلطان جيشا صحبة الأمير حسام الدين بن أطلس خان ، فبادر هو وعيسى بن مُهنّا بالهرب إلى صهيون(١) وذلك فى جمادى الأولى من السنة المذكورة(٢) ، فعاد ابن أطلس خان ومَنْ معه(٣) ، وقد كان بصهيون أولاد شمس الدين سنقر وحواصله .

---

(١) صهيون : بكسر أوله ثم السكون : حصن حصين من أعمال سواحل بحر الشام — معجم البلدان .

(٢) ذكر ابن دقاق أن ذلك كان سنة ٦٧٨ هـ ، وهو تحريف — الجوهر الثمين ص ٢٩٦ .

(٣) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٠٤ أ ، ب .

وأما علم الدين سنجر الحلبي الذي دخل الشام بمن معه من الأمراء والعسكر بعد هروب شمس الدين سنقر الأشقر، فقد عادوا من الشام إلى الديار المصرية، فشملتهم الخلع السلطانية والإنعام الجزيل.

ذكر تجريد السلطان عز الدين الأفرم لحصار شيزر وبها عز الدين كُرجي:

ولما وصل إليها ونازلها واشتغل بحصارها جاءت الأخبار بوصول التتار على ثلاث فرق: فرقة من جهة الروم مقدمهم صُمْغار ويَنْجي وطرنجي، وفرقة من الشرق مقدمهم بَيْدو بن طَرْغاى أخي أبغا بن هلاون وصحبته صاحب ماردين وصاحب آمد، والفرقة الثالثة وفيها معظم العسكر وشره المغول صحبة منكوتمر بن هلاون، وتواترت الأخبار بذلك وتداركت القُصاد بقربهم من بلد الروم وأن صاحب سيس خرج إليهم من طريق الدَّرْبَساك.

وكتب السلطان مُتواترةً إلى سنقر الأشقر يستميله عن سُوء رَأْيه، ويقبح عليه ما ظهر من غدره ومُناصرته الكفر على الإسلام آخر عمره.

ولما تحقق الأمير عز الدين الأفرم مقاربة [٦٥٨] التتار الفراتَ رحل عن شيزر وكتب إلى سنقر الأشقر بمثل ما أشار به السلطان إليه من التعنيف والتخويف والترهيب والترغيب، فجنح إلى سلْم الإسلام وأصاخ إلى التوبيخ والملام، ونزل من

صهيون إلى الجراص على عزم إنجاد المسلمين والرجوع إلى مظافرة الدين، وجفل عسكر حلب وحمص وحماة (١) .

ذكر تجهيز السلطان للسفر إلى الشام :

ولما تواترت الأخبار لمجئ التتار ، ومال سنقر الأشقر إلى الصلح والإنقياد والرجوع عما هو فيه، تأهب السلطان الملك المنصور للسفر إلى جهة الشام، وفوض السلطنة لولي عهده ولده الملك الصالح علاء الدين علي (٢)، وذلك بعد أن جمع الأمراء الكبار، وعرض عليهم تفويض السلطنة إليه، والكل رضوا بذلك ، وفرحوا على ذلك ، واتفقت آراؤهم عليه ، فعند ذلك ركب بشعار السلطنة (٣) ، وشق المدينة، وطلع القلعة ، وجلس على مرتبته ، وكتب له تقليد شريف نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم ، [وبه أثق] (٤) .

الحمد لله الذي شرف [سرير] (٥) الملك بعليه ، وحاطه منه بوصيه ، وعضد منصوره بولاية عهد مهديه ، وأسمى حاتم جوده بمكارم حازها بسبق عديه ، وأبهج

(١) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٠٥ أ .

(٢) توفي في حياة أبيه في شعبان ٦٨٧هـ / سبتمبر ١٢٨٨م — انظر ما يلي في وفيات سنة ٦٨٧هـ .

(٣) « في حادي عشر شهر رجب الفرد » — كنز الدرر جـ ٨ ص ٢٢٨ .

« في شهر رجب » — الجوهر الثمين ص ٢٩٧ .

« في يوم الاثنين سابع عشر جمادى الآخرة » — تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ١٨٦ .

(٤) (٥) [ ] إضافة من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٠٥ ب .

خيرَ الآباء بخير الأبناء بمن يسمو (١) أبيه منه تشريف (٢) الخلق أبيه ، وغذى روضه بمتابعة وسميّه ومسارعة وليّه، نحمده على نعمه التى جمعت إلى الزَّهر الثَّمَر، وأضافت إلى نور الشمس هداية القمر، وداركت بالبحر وباركت فى النهر، وأجملت المبتدأ وأحسنت الخبر، وجمعت فى لذاذة الأوقات وطيبها بين رقّة (٣) الآصال ورقّة البُكر، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادةً تَلهَجُ الألسنةُ منها فى كلّ ساعة جَديدا ، ونتفيأ منها ظلّا مديدا ، ونستقرب منها من الآمال ما يراه سَرابا (٤) بعيدا ، ونصلِّى على سيدنا محمد الذى طهّر الله به هذه الأمة من الأدناس ، وجعلها بهدايته زاكية الغِراس، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الذين منهم من فهم حُسن استخلافه (٥) بالأمر له بالصلاة بالناس ، ومنهم من بنى اللهُ به قواعدَ الدين وجعله [٦٥٩] مُوَطَّدَ الأَسَاس، ومنهم من جهّز العُسْرَة وواسىَ بماله حين الضرّاء والبأس، ومنهم مَنْ قال عنه صلى الله عليه وسلّم : « لأُعْطِيَنّ الرايةَ غدًا رجُلاً يحبُّه الله ورسوله ويحبُّ الله ورسوله » لحسن الالتماس بذلك الاقتباس، وزاد فى شرفه بأن طهّر أهل بيته وأذهب عنهم الأرجاس ، صلاة لا تزال تُرددُ تردّد الأنفاس ، ولا تبرح فى الإناء حسنة الإيناس .

(١) « من خير » فى زبدة الفكرة .

(٢) « أسموا به » فى الأصل والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٣) « رونق » فى زبدة الفكرة .

(٤) « سوانا » فى زبدة الفكرة .

(٥) « خلافه » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

وبعدُ : فإن خيرَ مَنْ شَرُفَتْ مراتبُ السلطنة بحلُوله ، وفوقت مَلابسُ التحكيم لقبوله ، ومَنْ يُزهى مطالعَ الملك بإشراقه ، وتتَبَادَرُ الممالكُ مُذْعِنةً لاستحقاقه ، ومَنْ يَزْدهى به مُلكُ منصوره ، نصره الله ، موطده وولى عهده ، مكنه الله بأبيه ، ومَنْ يتشَرَّف إيوانُ عظمة إن غاب والدُه فى مصلحة الإسلام ، فهو صدرُه ، وإن حضر فهو ثانيه ، ومَن يتحمل غابَ الإيالة منه بخير شبلٍ كفل ليثًا ، ويتكفل غوث الأمة بخيرِ وابلٍ خلفَ غيثًا ، ومَنْ أُلهِمَ الأخلاق المُلوكية وأوتى حكمها صبيًّا ، ومن خصَّصته أدعيَـة الأُبُوَّة الشريفة بصالحها ولم يكن بدعائها شقيًّا ، ومَنْ ترفَّعت(1) به هَضَبَةُ المُلك حتى أمسى مكانها عليًا ، ومن هو أحقُّ بأن يُنْجُبَ الأملُ فيه ويَنجح ، وأولى بأن يتلى له أخلفنى فى قومى وأصلح ، ومَن هــو بكل خير مَلىٌّ ، ومَنْ إذا فَوَّضَت إليه أمور المسلمين كان أشْرَف من لأمورهم يَلِى ، ومن يتحقق من والده الماضى الغرار ومن اسمه العالى المنار أن لا سيف إلا ذو الفقار ولا فتى إلا عَلى .

ولما كان المقـام العالى الولدى السلطانى الملكى الصالحىّ العلائى عضَدَ اللهُ به الدين ، وجمع إذعانَ كل مؤمن على إيجاب طاعته لمباشرة أمور المسلمين ، حتى يصبح وهو صالح المؤمنين ، هو المرجوُّ لتدبير هذه الأمور ، والمأمول لمصالح البلاد والثغور ، والمدَّخرُ من النصر لشفاء ما فى الصدور ، والذى تشهد الفراسة لأبيه وله بالتحكم أليس الحاكم أبو على هو المنصور ، فلذلك اقتضت الرحمة والشفقة على الأمة أن ينصب لهم ولىَّ عَهْـدٍ يتمسكون من الفضـل بعُرْوَة كرمه ، ويسمون

---

(1) « رفعت » فى زبدة الفكرة .

بعد التطواف بكعبة أبيه لِحُرَمِه، ويقتطفون أزاهرُ العَذْبِ [٦٦٠] وثمارَ الجُود من قلمه وكَلِمه ، وتستسعد الأئمة منه بالملك الصالح الذى تقسم الأنوار بجبينه وتقسم المبارُّ من كراماته وكرمه .

فلذلك خرج الأمرُ العالى المولوى السلطانى الملكى المنصورى أخدمه الله القدر ، ولازالت الممالك تتباهى منه ومن ولىّ عهده بالشمس والقمر، أن يُفوَّض إليه ولاية العهد ، وكفالة السلطنة الشريفة ، ولايةً تامةً عامّةً شاملةً كاملةً جامعةً وازعةً قاطعةً ساطعةً شريفةً مُنيفةً عطوفةً رءوفةً لطيفةً عفيفةً فى سائر أقاليم(١) الممالك الشريفة ، وعساكرها وجُندها ، وتركمانها وأكرادها ، ونوابها وولاتها ، وأكابرها وأصاغرها ، ورعاياها ورُعاتها ، وحكامها وقضاتها وسارحها وسانحها ، بالديار المصرية وثغورها وأقاليمها وبلادها ، وما احتوت عليه ، والمملكة الحجازية وما احتوت عليه ، ومملكة النُوبة وما احتوت عليه ، والفتوحات الصفدية ، والفتوحات الإسلاميَّة الساحليّة وما احتوت عليه ، والممالك الشاميَّة وحصونها وقلاعها ومدنها وأقاليمها وبلادها، والمملكة الحمصيَّة، [والمملكة الحصنية](٢) الإكرادِيَّة والجبليَّة وفتوحاتها، والمملكة الحلبيَّة وثغورها وبلادها وما احتوت عليه، والمملكة الفُراتيَّة وما احتوت عليه ، وسائر القلاع الإسلامية برًّا وبحرا ، سهلا ووعَرا ، شامًا ومصرًا ، يمنا وحجازا ، شرقا وغربا ، بُعدا وقربا ، وأن يُلقى إليه

---

(١) « الأقاليم » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٢) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

مقاليد الأمور فى هذه الممالك الشريفـة ، وأن تستخلفه سلطنة والده ــ خلَّد الله دولته ــ لمشاهد الأُمَّة منه فى وقت واحد سلطانا وخليفة، ولاية [و](١) استخلافا، تُسْنِدُهما الرُّواة ، وتترنَّم بهما الحُدَاة ، وتعيهما الأسماع ، وتنطق بهما الأفواه ، وتفويضا يعلن لكافة الأمم، ولكل ربّ سيف وقلم، ولكل ذى علم وعلم، بما قاله صلى الله عليه وسلّم لسَميّه ، رضى الله عنه، حين أولاه من الفخار ما أولاه ، من كنت مولاه ، فعلىٌّ مولاه ، فلا ملك إقليم إلا وهـذا الخطاب يَصله ويُوصله ، ولا زعيم جيش إلا وهذا التفويض يسعهُ ويَشمله ، ولا إقليم إلا وكل مَنْ به يَقْبَلُه ويُقبِّله ، ويتمثَّل بين يديه ويمتثلُه، ولا مَنْبرٌ إلا وخطيبُه تتلو فرقان هذا [٦٦١] التقدُّم وتُرَتِّلُه .

وأما الوصايا فقد لقَّنا(٢) ولدنا وولىَّ عهدنا منها ما انطبع فى صفاء ذهنه وسَرَتْ تغذَيتُه فى نماء غُصْنه ، ولا بدَّ من لوامع وصايا للتبرك بها فى هذا التقليد الشريف تُنير ، وجوامع يصير الخبر بها حيث تَصير ، وودائع تُنَهِّئك بها ياولدنا، أعزَّنا الله ببقائك ، ولا ينبئك مثل خبير .

فاتق الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يَراك ، وانصُر الشرع فإنك إذا نصرتَه نصرك الله على عِدا الدين وعداك ، وأفض العـدل مخاطبا وكاتبا حتى تستبق إلى الإيعاز به لسانك ويُمْناك ، وأْمُرْ بالمعروف وانْهَ عن المنكر عالما أنه ليس يُخاطَبُ

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٢) « فقد أمنا » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

غدا بين يدى الله تعالى عن ذلك سوانا وسواك ، وأنْهُ نفسك عن الهوى حتى لا يراك حيث نهاك ، وحُط الرعيّة ، ومُر النواب بحملهم على القضايا المرضيّة ، وأقم الحدود وجنّد الجنود ، وأبعثها براً وبحراً من الغزو إلى كلّ مقام محمود ، واحفظ الثغور ، ولاحظ الأمور ، وازددْ بالاسترشاد بآرائنا نورا على نور ، وأمراء الإسلام الأكابر وزعماؤُه ، فهم بالجهاد والذبّ عن العباد أصفياء الله وأحبّاؤُه ، فضاعف لهم الحرمة والإحسان ، واعلم أن الله قد اصطفانا على العالمين وإنّما القوم إخوان ، لاسيّما أولى السعى الناجح ، والرأى الراجح ، ومَنْ إذا فخروا بنسبة صالحيّة قيل لهم نعم السلف الصالح ، فشاورهم فى الأمر ، وحاورهم فى مهمات البلاد فى كل سرٍّ وجَهْر ، وكذلك غيرهم من أكابر الأمراء الذين من بقايا الدوَل : وذخائر الملوك الأُوَل ، أَجْرِهم هـذا المَجْرَى ، واشرَحْ لهم بالإحسان صدرا ، وجيوش الإسلام هم البنان والبنيان(١) نوال إليهم الامتنان ، واجعـل محبتك فى قلوبهم بإحسانك إليهم حسنة المربّى ، وطاعتك فى عقائدهم وقد شغفتها(٢) حبًّا ليصبحوا لك بحسن نظرك إليهم طوعا ، وليُخصّك كل جنس من التقرُّب إليك بالمناصحة نوعا ، والبلاد وأهلها فهى وهم عندك الوديعة ، فاجعل أوامرك بها بصيرةً ومنهم سَميعةً ، وأما غير ذلك من الوصايا فسنخلك منها بما تَشامعك تَوأما ، ويُلقّك من آياتها محكما فمحكما ، [٦٦٢] والله تعالى يُنمى هلالك حتى بوصله إلى درجة الإبدار ، ويُغَدِّى غُصْنَك حتى تراه قد أينَع بأحسن الأزهار وأينع الثمار ، ويرزق سعادةَ سلطاننا الذى نُعتَّ به تبرُّكا ،

(١) « والشأن » فى الأصل والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٢) « شغفها » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

ويلهمك الاعتضاد بشيعته والاستنان بسنته حتى تصبح لتمسكنا بذلك متمسكا ، ويجعل الرعية بك فى أمن وأمان وعدل وإحسان حتى لا تخشى سوءًا ولا تخاف دركا (1) .

وقرئ هذا التقليد فى الإيوان الكاملى بالقلعة ، وأفيضت الخلع على الأمراء والمقدمين والوزراء والمتعممين ، وانقضى المجلس من قراءته والناس قد عجلوا بالدعاء الصالح للمنصور والصالح .

ذكر توجه السلطان إلى الشام وعوده من غزة :

ولما فرغ السلطان من هذا المهم أزمع التوجه من الديار المصرية إلى البلاد الشامية ، فخرج وصحبته العساكر الإسلامية قاصدا الشام لحماية الإسلام ، ووصل إلى غزة فخيم ظاهرها ، وكان التتار قد وصلوا إلى عينتاب وبغراس والدربساك ، وتقدموا إلى حلب ، فوجدوها خالية من العسكر ، وقد أجفل أهلها منها ، فأحرقوا الجوامع والمساجد والدور والمنازل ، وعاثوا وأفسدوا ، وذلك فى العشر الأوسط من جمادى الآخرة من هذه السنة ، فلما بلغهم وصول السلطان تفرقوا إلى مشاتيهم ، فعاد السلطان إلى الديار المصرية لاستحقاق ربيع الخيول وأمنه على الشام بانسداد الطرقات إليه بالثلوج والسيول (2) .

---

(1) انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ٩ ورقة ١٠٥ ب — ١٠٨ أ .

وانظر نص التقليد أيضا فى كل من تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص١٨٧ — ١٩٠ ، صبح الأعشى جـ١٠ ص١٧٣ — ١٧٧ حيث يوجد اختلاف فى بعض الألفاظ .

(2) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٠٨ ب .

وجرّد عسكرا صحبة الأمير بدر الدين بَكْتاش النجمى إلى حمص ، وعسكرا صحبة الأمير علاء الدين البُندقدار الصالحىّ إلى الساحل ، لحفظ البلاد من الفرنج بحكم أنه لم يكن بعدُ قرّر معهم هُدْنة ، نخشى أن يجدوا فى تلك الفترة الفرصة ، فيحُدثوا حدثا ويثيروا فتنة[1] .

ذكرُ توجّه السُّلطان ثانيا إلى الشّام :

خرج السلطان الملك المنصور من الديار المصريّة طالبا الشام ثانى مرة ؛ وكان خروجه من القلعة فى مستهل ذى الحجة من هـذه السنة ، وخلف بها ولده الملك الصالح نور الدين علىّ ، ورتّب الأمير علم الدين سنجر الشجاعى المنصورىّ فى استخراج الأموال وشدّ الدولة وغير ذلك من المهمّات بالديار المصرية ، [٦٦٣] وخرجت هذه السنة والسلطان على الروحاء .

ذكرُ بقيّة الحوادث فى هـذه السنة :

منها : أن الأمراء الذين كانوا عند سنقر الأشقر قد تسللو قاصدين إلى الأبواب الشريفة ، وكان الأمير عز الدين الأفرم بحماة ، فلحقوا به ، وهم : علاءُ الدين الكَبكى ، وعز الدين الكُرجى ، وبَدْر الدين بَكْتُوت القطـرى ، وبقى معه علم الدين سنجر الدوادارىّ ، والحاج عز الدين أزدمر ، وبعض قوم من الظاهرية الذين كانوا مجرّدين بالقلاع التى انحازت إليه[2] .

(١) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٠٨ ب .

(٢) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٠٨ ب .

ومنها : أن الفرنج الذين كانوا بحصن المرقب طمعوا فى البلاد ، وذلك لما بلغهم هجوم التتار على البلاد ، وانجفال العساكر من حلب ، واعتمدوا على الفساد ، وتطرقوا إلى أذيّة المسلمين بأطراف تلك البلاد ، فأرسل الأمير سيف الدين بلبان الطباخى المنصورى ، وهو حينئذ نائب السلطنة بحصن الأكراد وما معه يستأذن السلطان فى غزوهم لقرب المرقب إليهم واستطالته عليه ، وهوّن على السلطان أمر من به من الخيالة وذكر له قلة مَن فيه من الرجالة ، فأذن له فى ذلك ، فسار ومعه الجيش من الحصون وأمراء التركمان ورجّالة تلك النواحى ، واستصحب المجانيق والآلات ، وتقدّم إلى أن وقف قريبا من الحصن ، وهو حصن عالى المرام ، لا يصله من أسفله السهام ، وأخفى أهله أمرهم ولم يتحركوا فى فى مبدأ الحال ، فازداد العسكر فيهم طمعا وإليهم تقدّما ، فلما صاروا بحيث تبلغ إليهم السهام أرسلوا عليهم الجروخ فنالت منهم النصال ، وأنكت فيهم النبال ، فاضطرب مَنْ كان معه من الجنود ، وتململ من كان صحبه من الحشود ، فلما رأى اضطرابهم استشار بعض مَنْ عنده من الأمراء فى التأخر شيئا يسيرا بحيث يمتنع وصول النشاب إليهم ، ثم تأخر راجعا وثنى عنانه للرجعة مسارعا ، والناس لا يعلمون أن ذلك التأخر برأى وتدبير ، فظنوها الهزيمة ، فولوا الأدبار وأسرعوا الفرار ، ورأى الفرنج ما كان ، ففتحوا أبواب الحصن وجاءوا من كل مكان ، وتبادر الرجالة ، وتبعهم الفرسان ، ونالوا من المسلمين ، وجرحوا منهم جماعة ، ونهبوا ما أمكنهم ، وأسروا من الرجالة جماعةً ، وبلغ السلطان ذلك فأنكره وأكبره ،

وأزمع حينئذ سفره ليتدارك هذه الأحوال، وينظر [٦٦٤] في المصالح التي لا يسع فيها الإهمال، وتوجَّه إلى الشام ثاني مرة كما ذكرناه الآن[1].

ومنها : أن الفرنج خافوا من السلطان لما خرج من مصر ونزل بالروحاء، وهي بالقرب من عكار، وراسلوه في طلب تجديد الهدنة، فإنه كان قد انتهى أَمَدُ ما قبلها، وكانت الهُدنة في أوائل السنة الآتية فلنذكرها إن شاء الله .

ومنها : أن في جمادى الأولى أعيد برهان الدين السنجاري إلى وزارة الديار المصريَّة، ورجع فخر الدين بن لقمان إلى كتابة الإنشاء على عادته .

ومنها : أن آخر رمضان أُعيد إلى القضاء تقي الدين بن رزين، وعُزل صدر الدين بن بنت الأعز، وأُعيد القاضي نفيس الدين شكر المالكي، ومعين الدين الحنفي، ورتب للحنابلة عز الدين الحنبلي .

وفي ذي الحجة جاء تقليد ابن خلكان بإضافة المعاملة الحلبيَّة إليه يستنيب مَنْ يشاءُ فيها من نُوابه .

ومنها : أن في ذي الحجة يوم عرفة وقع ببلاد مصر بردٌ كبارٌ أتلفت شيئا كثيرا من الغلات، ووقعت صاعقة في الأسكندريَّة وأخرى في يومها تحت الجبل الأحمر على حجر فأحرقته، فأخذ ذلك الحجر وسُبك فخرج منه الحديد أواقي بالرطل المصري[2] .

(١) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٠٨ب — ١٠٩ ب .

(٢) الرطل المصرى ١٢ أوقية، والأوقية ١٢ درهما — صبح الأعشى جـ٣ ص ٤٤١ .

ومنها : أن يعقوب المَرِينىّ عزم على قصد ابن عبد الواد بتلمسان ، فحشد يغمر بن عبد الواحد جماعةً من مغراوة وغيرها ، والتقيا على مدينة تسمَّى وَجْدة ، فاستظهر بنو مَرين على بنى عبد الواد وقتلوا ونهبوا وسبوا ما أرادوا من عيالاتهم وأموالهم ، ومنُّوا عليهم ، وأطلقوا عيالهم ، وعادوا بالأموال والمواشى إلى بلادهم .

ومنها : أن المرينى استقر بمدينة سَلَا وهى على البحر فى وسط البلاد مسافتها من مراكش ستة أيام ومن فاس ثلاثة أيام .

وفيها : « ... ... »[1] .

وفيها : حج بالناس « ... ... »[2] .

(١) ، (٢) « ... ... » بياض بالأصل .

ذكر مَنْ تُوفى فيها من الأعيان

عز الدين أبو بكر[١] بن محمد بن إبراهيم الإربلى .

توفى فى هـذه السنة بدمشق فى الثالث عشر من ذى القعدة ودفن بمقابر الصوفية ، وكان أديبا مطبقا مقتدرا على عمل الألغاز ، ومن نظمه : الألفيّة فى الألغاز المخفيّة ، وهى ألف لغز فى ألف اسم .

شمس الدين محمـد بن أيوب بن أبى رحلة الحمصى [٦٦٥] مولدا وسكنا ، البعلبكى وفاة .

كان يستحضر الأشياء الحسنة ، والأشعار اللطيفة .

الشيخ الصالح داود[٢] بن حاتم بن عمر الحبّال .

كان حنبلىّ المذهب ، له كرامات وأحوال صالحة ، ومكاشفات صادقة ، وأصـل آبائه من حرّان ، وكانت إقامتـه ببعلبك ، وبها توفى عن ستة وتسعين سـنة .

الشيخ الصالح على[٣] المعمر المعروف بطير الجنة .

توفى فيها ، ودفن بسفح المقطم بتربة سنقر الأشقر .

---

(١) وله ترجمة أيضا فى : المنهل الصافى .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٢٩٣ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٠٩ ب ، السلوك جـ ١ ص ٦٨٤ ، ٦٨٧

الجَزّار (١) الشاعر الماجن المعروف بالجزار .

مدح الملوك والأمراء والوزراء والكبراء، وكان ماجنا ظريفا حلو المحاضرة، مع الحديث ، وكان مولده فى حدود ستمائة بعدها بسنة أو سنتين ، وتوفى يوم الثلاثاء ثانى عشر شوال من هذه السنة ، ودفن بالقرافة .

قال : وقد تزوج أبوه بعجوز :

تزوج الشيخ أبى شيخة ليس لها عقل ولا ذِهْنُ
كأنها فى فرشها رِمَّةُ وشعرُها من حولها قُطْنُ
وقائل قال لى كم سنُّها فقلت ما فى فمها سِنُّ (٢)
لو سفَرت (٣) غرَّتَها فى الدُّجى ما جَسَرت تبصرها الجنُّ

الأمير الكبير جمال الدين أقوش (٤) الشمسى .

أحد أمراء الإسلام ، وهو الذى باشر قتل كتبغا نُوين مقدم التتار يوم عين جالوت ، وهو الذى أمسك عز الدين أيدمر الظاهرى، وقد ناب فى حلب

---

(١) وهو يحيى بن عبد العظيم بن يحيى بن محمد بن على الجزار ، جمال الدين أبو الحسين .
وله أيضا ترجمة فى المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ٦٤ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٦٠ ، فوات الوفيات جـ ٤ ص ٢٧٧ رقم ٥٧١ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٤٥ ، السلوك جـ ١ ص ٦٨٤ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٦٤ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٩٣ ، العبر جـ ، ص ٣٢٤ .

(٢) « وقال لى كم سنها قلت ليس فى فمها سن » — البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٩٣ .

(٣) « أسفرت » فى البداية والنهاية .

(٤) وله أيضا ترجمة فى المنهل الصافى جـ ٣ ص ٢١ رقم ٥١٣ ، وورد فيه أنه توفى فى آخر سنة ٦٧٨ هـ ، الوافى جـ ٩ ص ٣٢٥ رقم ٤٢٦٢ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٩٢ ، السلوك جـ ١ ص ٦٨٤ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٤٤ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٤٩ ، ٥٧ ، درة الأسلاك ص ٦٠ .

فى السنة الماضية ، وتوفى فى حلب فى خامس المحرم من هذه السنة ، وتولى عوضه فى حلب علم الدين سنجر[(١)] الباشقردى .

الأمير على بن عمر الطورى[(٢)] .

كان من أبطال المسلمين وشجعانهم ، وله صيت عظيم عند الفرنج ، وتنقل فى الولايات الجليلة فى عدة جهات من بلاد الشام ، توفى فى هذه السنة بجبل الصالحية ظاهر دمشق ، ودفن بسفحه ، وقد نيّف على تسعين سنة .

الأمير سيف الدين أبو بكر بن أسبا[(٣)] سالار والى مصر .

ولى مصر عدة[(٤)] سنين وكان سمينا عظيما ، مات فى ربيع الآخر من هذه السنة ، ودفن بتربته فى القرافة ، وكان خيرا فى أموره يشكره الناس .

---

(١) توفى سنة ٦٨٦ هـ / ١٢٨٧ م — انظر ما يلى فى وفيات سنة ٦٨٦ هـ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ٦٣ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٦٠ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ١٩٣ ، السلوك جـ ١ ص ٦٨٤ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٢٠١ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، السلوك جـ ١ ص ٦٨٥ .

(٤) « الأيام » فى السلوك .

فصل فيما وقع من الحوادث
في السنة الثمانين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة هو الحاكم بأمر الله العباسي .

وسلطان الديار [٦٦٦] المصرية والشامية : الملك المنصور قلاون الألفي الصالحي ، وهو على الروحاء (١) بالقرب من عكا .

ونائب دمشق : الأمير حسام الدين لاجين المنصوري .

ونائب حلب : الأمير علم الدين سنجر الباشقردي .

وفي عاشر المحرم انعقدت الهدنة بين أهل عكا وبين السلطان وهو على الروحاء .

وفي تاريخ بيبرس : جاءت رسل الإفرنج إلى أبواب السلطان ، وهو على الروحاء ، يسألونه تقرير الهدنة ، والزيادة على الهدنة الظاهرية ، والصلح لأهل المرقب ، ولم يزالوا يترددون إلى أن تقرر الحال على أن يكون لهم مناصفة الربض وبلنياس ، على أن يردوا كل من عندهم من أسرى المسلمين الذين أخذوهم في الفسخ ، وكانوا جماعة كثيرة ، وتقررت الهدنة في المحرم من هذه السنة ، وحلف السلطان لهم ونودي بالصلح ، وسير الأمير فخر الدين إياز المقرئ أمير حاجب ليحلف

(*) يوافق أولها الثلاثاء ٢٢ إبريل ١٢٨١م .

(١) الروحاء : بلد بالساحل من فلسطين — السلوك جـ ١ ص ٦٨٥ هامش (٢) .

الفرنج ومقدَّم بيت الاسبتار واسمه افرير نشكول لكورن (١) ، فحلف على ما انعقد عليه الصلح (٢) .

ذكر حادثة سيف الدين كُوَنْدَك ومَن معه :

وبلغ السلطان وهو على الروحاء أن سيف الدين كُوَنْدَك (٣) ، وجماعة من الأمراء الظاهرية ، قد أزمعوا الغدر به والوثوب عليه ، فأحضرهم إليه وعنفهم ، [وعتبهم] (٤) واتفق وصول كتب من عكا بالفرنجى من جهة مَنْ كان له فيها من الناصحين ، مضمونها أن تحترز على نفسك ، فإن عندك جماعة من الأمراء قد اتفقوا عليك ليقتلوك ، وقد كاتبوا الفرنج وقالوا لهم : لا تصالحوه ولو أعطاكم ما أعطاكم ، فقد طبخنا له القدر [وغلت] (٥) ، وما بقى الأمر يُبطئ .

فلما بلغه هذا الخبر ، عزم على العمل بالحزم ، والأمر بالجزم (٦) .

وأحس الأمراء المذكورون بذلك ، فاضطربوا ، وعزموا على أن يركبوا في الليل (٧) ،

---

(١) هو Fr. Micholas le Lorgne .

(٢) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٠٩ ب ، ١١٠ أ .

(٣) « وفيه بلغ الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى ... فأعلم السلطان بذلك » — السلوك جـ ١ ص ٦٨٥ .

(٤) [ ] إضافة من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١١٠ أ .

(٥) [ ] إضافة من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١١٠ أ .

(٦) « الجزم » في زبدة الفكرة .

(٧) « على أنهم يركبون » في زبدة الفكرة .

ويأتون إلى الدهليز باتفاق بينهم وبين بعض الظاهرية الجُوّانية[1]، فإذا قربوا من الدهليز يقطعون أطنابه[2]، ويفعلون ما اتفقوا عليه، فإن ظفروا بالإبل، وإلا ركبوا حَمِيَّةً واحدةً، وطلبوا جهة الأمير شمس الدين سنقر الأشقر.

فنقل الخبر إلى السلطان، فسيّر إلى طرقات الشام بأن تُحفظ عليهم المسالك من غير أن يَعلموا، ورتب حول الدهليز جماعة من البحرية الصالحيّة، واتفق مع الأمراء الكبار[3] على التحرز إلى أن يحصل الدخول إلى دمشق والتمكن منهم وفعل [٦٦٧] ما يجب فعله.

ثم رحل السلطان من الروحاء ونزل اللجون، فجاءه الخبر بأنّهم أحسّوا بتيقظه، وكان بينه وبينهم نهر الشريعة، ومتى قطعت لا يلحق هاربهم ولا يُدركهم طالبُهم، وربّما توجه بعضهم إلى الكرك، وبعضهم إلى سنقر الأشقر، فركب من اللجون طالبا حمراء بيْسان[4]، وساق بينهم يومَه ذلك يُطارحهم الحديث، ويلاطفهم ويخادعهم إلى أن وصل الحمراء فلم يشعروا[5] إلّا وهم قبالة الدهليز، فرسم بأن ينزلوا ليشربوا سويقا، فإنه كان يوما شديد الحرّ، فنزلوا وشربوا السويق، فدعا كُوندك، وايدغمش الحكيمى، وبيبرس الرشيدى، وساطلمش السلحدار

(١) الجوانية: أى المماليك الجوانية، ويقصد بهم الخاصكية — أى خواص السلطان — المواعظ والإعتبار جـ ٢ ص ٢١٧.

(٢) طنب — أطناب: حبل طويل يشد به سرادق البيت — المنجد.

(٣) «الأكابر» فى زبدة الفكرة.

(٤) «حمراة» فى زبدة الفكرة.

(٥) «فلم يشعر» فى الأصل والتصحيح من زبدة الفكرة.

الظاهرى وقال لهم : أنتم تعلمون أنى ما طلبت الملك ولا قصدته ، ولا رغبتُ فيه ، وإنما أنتم لما خامرتم على ابن أستاذكم وخرجتم إلىَّ وأنا داخل من سيس ، وأمسكتم ذيلى وقلتم : يطلبُ حَبْسك(١) ، فسيَّرتُ أشفع فيكم ، فلم يقبل شفاعتى ، فوافقت هواكم وسبات رُوحى وأولادى ومالى لأجلكم ، وعلم الله نيتى ، فأعطانى ما أعطانى ، فأحسنت إليكم وزدتكم ، وبذلت لكم الأموال ، وآخر الأمر تكاتبون الفرنج على قتلى ؟ فقالوا : أخطأنا ، وقد فعلنا كما بلغ السلطان عنا . فقال يا أمراء : اعلموا بما أقروا به ، وأمر بإمساكهم فى وسط الخيمة ، فأُمسكوا وسيروا إلى الخيم ، فأمسك كلُّ مَنْ كان موافقا لهم من البرانيين(٢) والمماليك الجوانيين وكانوا ثلاثة وثلاثين [نفرا](٣) ، وخاف جماعة فهربوا : فساق العسكر خلفهم ، فأحضروا بعضهم من جبال بعلبك ، وبعضهم من ناحية صرخد .

ولم يستقرّ السلطان بحمراء بيسان غير تلك الليلة وعبر الشريعة .

وأما كُوَنْدك ، وأيدغمش الحكيمى ، وبيبرس الرشيدى ، وساطلمش الظاهرى ، فإنهم أُعدِمُوا ، وأما باقى الممسوكين اعتقلوا بقلعة دمشق ، وهرب الأمير سيف الدين أيتمش السعدى ، وسيف الدين بلبان الهارونى ، وسيف الدين كراى

---

(١) « نطلب حسبك » فى زبدة الفكرة .

(٢) البرانيين : أى المماليك البرانية ، أى الذين ليسوا من الخاصكية ، ويطلق عليهم أيضا « الخرجية » — المواعظ والإعتبار جـ ٢ ص ٢١٧ .

(٣) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

وأولاده، وجماعة من البحرية الظاهرية والتتار الوافدية، فإنهم توجهوا إلى صهيون ولحقوا بالأمير شمس الدين سنقر الأشقر، وجرَّد السلطان خلفهم عسكرا صحبة الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح [٦٦٨] والأمير ركن الدين بيبرس طُقصو، فلم يدركوهم .

ورحل السلطان إلى دمشق، فتلقته العساكر الشامية، « وكان دخوله دمشق فى التاسع عشر من المحرَّم، فطلع القلعة ونزل بها »[١]، وقد زينت له البلد، وشرع فى استجلاب القلوب، والتجاوز من الذنوب، وأخرج الخزائن، وأنفق فى العساكر، وأخذ بإحسان الخواطر، فسكن إليه كل نافر « وداعر »[٢] .

ذكرُ ماجرَيات السلطان الملك المنصور فى دمشق :

منها : أنه فى اليوم التاسع والعشرين[٣] من المحرم عزل القاضى شمس الدين ابن خلكان، وولى عز الدين بن الصايغ .

ومنها : أن السلطان فى أول شهر صفر ولَّى نجم الدين بن الشيخ بن أبى عمر قضاء الحنابلة، وقد كان المنصب شاغرا منذ عزل والده نفسه من القضاء .

ومنهـا : أنه ولى قضاء حلب فى هـذا الشهر تاج الدين محيى بن محمد ابن إسماعيل الكردى .

(١) « » ساقط من زبدة الفكرة .

(٢) « » ساقط من زبدة الفكرة .

انظر زبدة الفكرة جـ٩ ورقة ١١٠ أ — ١١١ أ .

(٣) « الثانى والعشرين » فى تاريخ ابن الفرات جـ٧ ص ٢٠٧ .

ومنها : أنه جلس بدار العدل فى هــذا الشهر ، فحكم وأنصف المظلوم من الظالم ، وقدم عليه صاحب حماة ، فتلقاه السلطان بنفسه ، فى موكبه ونزل بداره داخل باب الفراديس .

ومنها : أن السلطان جرد الأمير عز الدين الأفرم فى عسكر، وبعده علاء الدين كُشتغدى الشمسى بعسكر آخر، فتوجهوا إلى جهة[1] شيزر، على أنهم يعملون عملا ، ويؤثرون[2] أثرا ، فحصل الوخم ، وتمرّض الأمير عز الدين الأفــرم ، ومات من الأمراء المستعربى فى تلك السَّفْرة .

وتردّدت الرسائل بين السلطان وبين الأمير شمس الدين سنقر الأشقر[3]، وطلب منه تسليم شيزر ، وطلب هو عوضها[4] الشغر وبكاس ، وكانت قد أخذت منه من مدة ، ورتب السلطان سيف الدين بلبان الطباخى[5] نائبا فيهــا ، وطلب معها كفر طاب وبلادها ، فأجيب إلى ذلك ، وأجاب إلى تسليم شيزر ، وتقرر أن يقيم على هذه البلاد ستمائة فارس[6] لنصرة الإسلام ، وأن الأمراء الذين هربوا إليه إن أقاموا

---

(١) « جهة » ساقط من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١١١ ب .

(٢) « أو يؤثرون » فى زبدة الفكرة .

(٣) « شمس الدين المشار إليه » فى زبدة الفكرة .

(٤) « فطلب عوضها » فى زبدة الفكرة .

(٥) « الخناحى » فى زبدة الفكرة .

وهو بلبان بن عبد الله الطباخى المنصورى ، المتوفى سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م — المنهل الصافى جـ٣ ص ٤٢٢ رقم ٦٩٩ .

(٦) « وشرط أيضا أن يكون أميرا بستمائة فارس » — السلوك جـ ١ ص ٦٨٧ ، وانظر تفسيرها بهذا المعنى فى هامش (٦) نفس الصفحة .

عنده يكونون من أمرائه ، وإن حضروا إلى السلطان يكونون آمنين ولهم الإحسان ولا يؤاخذون ، وحضر من عند الأمير علم الدين الدُّوَيْدارى بنسخة يمين على ما تقرر ، فحلف له السلطان عليها ، وسأله سنقر الأشقر أن يلقبه بلفظة الملك ، فامتنع وكتب له [٦٦٩] تقليد بالبلاد[(1)] ونُعِت فيه بالأمير .

وسيَّر السلطان الأمير فخر الدين المقرئ ، والأمير شمس الدين قراسنقر الجوكندار المنصورى إليه ، فلقاه وسلَّم شيزر وتسلم الشغر وبكاس ، وسيّر إليه السلطان من الأوانى والأقمشة والأنعام شيئاً كثيراً ، وانتظم الإتفاق وانقطع الشقاق[(2)] .

ومنها : وقوع الصلح مع الملك المسعود بن الملك الظاهر مع السلطان الملك المنصور ، وذلك أنه ترددت رسل الملك المسعود من الكرك يطلبون الصلح وزيادة على الكرك ، وأن يكون لهم ما كان بيد الملك الناصر داود بن الملك المعظم بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، فلم يُجِبْه السلطان إلى ذلك ولا إلى الإقامة فى الكرك ، بل قال لهم فى جواب كل رسالة : أنا أعطيكم قلعةً غير الكرك ، فلما تقرَّر الصلح مع سنقر الأشقر خافوا الغائلة ، وعلموا أنهم لا طاقة لهم بالمقاومة ، وكانوا قد تقسمت آراؤهم ، وقطعت أطرافهم ، وتقاصرت بهم الأحوال والأموال ، فأجابوا إلى طاعة السلطان على أنه يبقيهم فى الكرك وأعمالها من الموجب إلى الحَسا ، فأجابهم السلطان وحلف لهم ، والتمسوا شروطا منها : تجهيز الأخوة الذكور

---

(1) « البلاد » فى الأصل » والتصحيح من زبدة الفكرة .

(2) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١١١ ب ، ١١٢ أ .

والبنات أولاد الملك الظاهر من القاهرة إلى الكرك ، ورد الأملاك الظاهرية عليهم، وتمّ الصلح على ذلك وحلف السلطان عليه، وتوجّه بدر الدين بيليك المحسنى السلحدار والقاضى تاج الدين بن الأثير [1] إلى الكرك وحلّفا الملك المسعود ، وكوتب كما يكاتب صاحب حماة ، واستقر الحال [2] .

ومنها : أن فى العشر الأول من ربيع الأول ضمن الخمر والزنا بدمشق، وجعل ديوان ومشدّ ، فقام جماعة من العلماء والعبّاد فى ذلك، فأبطل بعد عشرين يوما، وأريقت الخمور ، وأقيمت الحدود .

ومنها : أن فى أواخر ربيع الآخر عزل التقى توبة التكريتى عن الوزارة بدمشق، وباشر بعده تاج الدين الشهرزورى .

ومنها : أن السلطان عزل برهان الدين السنجارى عن الوزارة بمصر وصُودر وأهين .

ذكر وصول التتار إلى البلاد ومهاجمتهم :

وفى هذه السنة وردت الأخبار [٦٧٠] على السلطان بدخول منكوتمر إلى الروم فى عساكر المغول، وأنه قد نزل بين قيسارية وأُبُلُسْتَيْن، فأقام [3] بهذه المنزلة

(١) هو أحمد بن سعيد بن محمد بن الأثير الحلبى ، الموقع ، المتوفى سنة ٦٩١ هـ / ١٢٩١ م — المنهل الصافى جـ ١ ص ٣٠٠ رقم ١٦٠ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٥٨ .

(٢) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١١٢ أ .

(٣) «وأقام» فى زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١١٢ ب .

والأخبار تتواتر بذلك ، والكشافة تغدو وتروح ، ولا يمر لهم بنكشف ولا يبوح ، ثم توجه كشافة من عينتاب للكشف ، فوقعوا بفرقة من التتار قريب صحراء هونى ، التى كسر الملك الظاهر التتار عليها ، فظفروا منهم بشخص يسمى جلتار بهادر أمير آخور أبغا ، كان قد توجه لكشف المروج والمراعى ، فضربوه ضربة سيف فى أذنه ، وامسكوه ، وأحضروه إلى السلطان إلى مدينة دمشق ، فوانسه وسايسه ، وسأله عن أخبار القوم ، فذكر أنهم فى عدد عظيم يزيد على ثمانين ألف فارس من المغول والحشود ، وأنهم يقصدون البلاد قولا جزماً ، ويركبون من منزلتهم فى أول شهر رجب ، فسمع السلطان كلامه ، وحمل إلى مصر هو ومن أمر معه .

فلما كان فى شهر جمادى الآخرة من هذه السنة قوى الخبر وزاد ، وتنقلوا من منزلتهم إلى صاروس ، ومنها إلى أبلستين ، ورحلوا إلى أن دخلوا الدربند وهم يسيرون الهوينا ، ثم توجهت منهم إلى الرحبة فرقة صحبة أبغا الملك بنفسه وصاحب ماردين ، فنازلوها ، وسير(١) السلطان بدر الدين بجكا العلائى ومعه مائتا فارس جرائد إلى جهة الرحبة كشافة ، وخرج السلطان من دمشق فى جموع وعدد وحشود ، وكان يوما مشهودا ، والخلائق كأنهم قد جمعوا فى صعيد ، وحشروا اليوم الوليد الوعيد(٢) .

---

(١) « فسير » فى زبدة الفكرة .

(٢) « أو حشروا ليوم الوعيد » فى زبدة الفكرة .

وكان قد قدم قبل خروجه الأمراء ومع كلِّ أمير جماعة ، فكان الأمير سيف الدين قشتمر العجمى على حمص ، والأمير سيف الدين بكتمر الغُتْمى بحلب ، ثم ورد الخبر بأن فرقة العدوّ التى جاءت من جهة الروم قد نزلت مَرعش ، وتقدمت إلى صوب حَارِمَ ، فقُدِّم دهليز السلطان إلى القُطَيْفَة ، ومنها إلى عيون القصب ، ووصل العدوّ المخذول إلى حَارِمَ وملكوا البلاد .

فأمر السلطان الناسَ بأن يلبسوا فى كل يوم عُدَد الحرب ، ويركبوا ويصطفوا صفوفا ، ويتشالشوا ليتمّرنوا على الحرب ، وراسل سنقر الأشقر عدّة مراسلات حتى تقرّر أنه ينزل من صهيون [٦٧١] ويقف حيث يقف المسلمون هو ومن عنده من الأمراء بشريطة عوده إلى مكانه إذا انقضى المصاف ، وتوجّه إليه الأمير سيف الدين بكتمر الساقى العزيزىّ ، والأمير بدر الدين بكتاش الفخرىّ فى تقرير هذه القواعد ، فنزل وأقام على الجراض قريبا من أبى قُبَيْس .

ولما نزل السلطان بحمص حضر شمس الدين سنقر الأشقر ، ومَنْ عنده من الأمراء وهم : أيتمش السَعْدىّ ، والحاج أزدمر الدُوَيْدارى ، وبيَجْق البغدادىّ ، وكراى ، وشمس الدين الطُنطاش ، وابنه ، ومَن معهم من الظاهريّة مبادرين إلى الخدمة ، ففرح المسلمون بحضرهم ، وكان ذلك قبل المصاف بيومين .

وضرب السلطان دهليز الحرب الأحمر ، ثم ورد إليه الخبر بأن منكوتمر قد نزل بحماة ، ومعه عساكر التتار فى ثمانين ألفا ، منهم : خمسون ألفا من المغول وباقيهم مرتدّه وكُرْج وروم وأرْمن وفرنج ، وأنه قد قفز إليهم مملوك من

مماليك الأمير ركن الدين بيبرس[1] العجمى الجالق ، فدلهم على عورات المسلمين، وأخبرهم بعددهم .

ولما كان ليلة الخميس رحلوا عن حماة ، ورتبوا جيوشهم ، وكان طرف ميمنتهم حماة ، وطرف ميسرتهم سَلَمْيَة ، وساقوا طالبين اللّقاء ؛ فرتب السلطان الجيش ميمنةً وميسرةً وقلبًا وجناحَين على ما تَصِفُه ، وبات المسلمون على ظهر لابسين لامات الحروب ، مدرَّعين هم وخيولهم .

واتفق أن شخصا من عسكر التتار ففز ودخل إلى حماة ، وقال للنائب بها : اكتب الساعةَ إلى السلطان على جناح الحمام ، وعرفه أن القوم ثمانون ألف مقاتل تحت القلب ، منها أربعة وأربعون ألفا مُغْلا ، وهم طالبون القلب والميمنة التى لهم قويَّة جدًّا ، فيُقَوِّى ميسرة المسلمين ويحترزون على السناجق ، فقرأ السلطان الكتاب وركب عند إسفار الصبح لتقوية الميسرة واعتماد ما يراه من الصلاح[2] .

ذكر الوقعة مع التتار على حِمْص :

فى يوم الخميس رابع عشر شهر رجب الفرد ، سنة ثمانين وستمائة .

ولما ركب السلطان بكرة النهار لترتيب الأطلاب ساق بنفسه على الجيوش

---

(١) هو بيبرس بن عبد الله الجالق الصالحى ، المتوفى سنة ٧٠٧ هـ / ١٣٠٧ م — المنهل الصافى جـ ٣ ص ٤٧٤ رقم ٧١٩ .

(٢) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١١٣ أ ، ب .

وطيّب خواطرهم ، وقوّى عزائمهم ، وحضّهم على الثبـوت ، وحُسْن الصبر ، ورجع إلى [٦٧٢] موقفه من القلب متوكّلا على الرب بجأشٍ أثبت من الجبال الشُمّ ، وجنان أصلد من الرواسي الصُمّ ، وكان التطليبُ على هذا الترتيب .

الميمَنَةُ المنصُورةَ المنصورية :

فيها : الملك المنصور ناصر الدين محمد صاحب حماة والعسكر الحموى ، والأميرُ بدر الدين بيسَرى الشمسى ، والأمير علاء الدين طَيبَرس الوزيرى [الحاج] (١) ، والأمير عز الدين أيبـك الأفرم أمير جاندار الصالحى ، والأمـير علاء الدين كُشْتُغدى الشمسى ، ومضافوهم من الأمراء الطبلخانات ، وأصحاب العشرات ، ومقدمو الحلقـة وأجنادها ، وغيرهم من العساكر (٢) ، والأمير حسام الدين لاجين السلحدار المنصورى نائب الشام ، والأمراء الشاميّون ، والعسكر الشامى ، وفى رأس الميمنة شرف الدين عيسى بن مُهَنّى وآل فضل ، وآل مَرى (٣) ، وعُربان البـلاد الشاميّة ومن انضمّ إليهم (٤) .

الميْسرَة المباركةُ الإسلاميةُ :

فيها : الأمير شمس الدين سنقر الأشـقر ومَنْ معـه من المماليك الظاهريّة ، والأمير سيف الدين أيتمش السـعدى ، والأمير بدر الدين بَيْليـك الأيدُمرى ،

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١١٤ أ .
(٢) « من العسكر » فى زبدة الفكرة .
(٣) « مَرّا » فى السلوك جـ ١ ص ٦٩٢ .
(٤) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١١٤ أ .

والأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح ، والأمير علم الدين سنجر الحلبى الصالحى ، والأمير سيف الدين بجكا العلائى ، والأمير بدر الدين بكتوت العلائى ، والأمير سيف الدين جرك التترى ، ومن معهم من الأمراء والألوف ، وفى رأس الميسرة التركمان بجموعهم ، وعسكر حصن الأكراد (١) .

الجاليش وهو مقدمة القلب :

الأمير حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة ومضافوه من الأمراء والمفاردة ومماليكه وأجناده ، والأمير ركن الدين أياجى الحاجب ، والأمير بدر الدين بكتاش ابن كرمون ومن معهم من المماليك السلطانية المنصورية ، ووقف السلطان تحت السناجق المنصورة ، وحوله مماليكه ، والزامة ، والسلاحدارية ، والسنجقدارية ، والطبردارية ، وهو ثابت فى صهوة جواده ثبوت الطود الراسى ، محتسبا فى سبيل الله [عز وجل] (٢) ثواب ما يلابس ويقاسى ، وأشرفت كراديس التتار متراكمة كالأمواج ، مترادفة [٦٧٣] كالبحر العجاج ، وأقبلوا ينسلون من الفجاج ، وهم كقطع الليل المظلم ، والمسلمون كالسراج الوهاج ، قد أشرقت عليهم أنوار التوحيد ، وأشعة الحديد .

بوجوه تعشى السيوف ضياء ... وسيوف تغشى الشموس وقودا

فى مقام يخر فى صكة البيض ... على البيض ركعا وسجودا

---

(١) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١١٤ أ ، ب .

(٢) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

وكان الملتقى بوطأه حمص، بالقرب من مشهد خالد بن الوليد رضى الله عنه، حيث مركز الرماح، ومهب الرياح؛ وهو المكان الذى لم يزل بلاء الناس فيه محمودا، ونصر خالد يزداد لديهم خلودا، فالتقى الجمعان فى الساعة الرابعة من يوم الخميس الرابع عشر من شهر رجب[1].

وفى تاريخ ابن كثير: ولما كان يوم الخميس رابع عشر رجب التقى الجمعان، وتواجه الخصمان عند طلوع الشمس، وعسكر التتار فى مائة ألف فارس، وعسكر المسلمين على النصف من ذلك أو يزيد قليلا، والجمع[2] فيما بين مشهد خالد بن الوليد رضى الله عنه إلى الرستن، فاقتتلوا قتالا عظيما، لم ير مثله من أعصار متطاولة، فاستظهر التتار أول النهار، فكسروا[3] الميسرة، [واضطربت الميمنة أيضا، وبالله المستعان][4]، وانكسر[5] جناح القلب الأيسر.

«وكان فى ميمنة التتار من مقدميهم: ألناق بهادر، وطنجو بهادر، وعايد، وبلطو، ويجى، وصمغار، وكان فى ميسرتهم: قرمشى بن هندوغور، وبراجار، والبابا شمس الدين والد الأمير جنكلى، ودرتبه، وتمدار، وملك الكرج تجاه ميمنة المسلمين، وكان فى القلب منكوتمر بن هلاون ومعه تلاجى وقراتغيه بن يضمت، بجكاب بن جمغان، ومن الأمراء طلاطاى ونكباى وغيرهم»[6].

(١) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١١٤ ب، ١١٥ أ.

(٢) «والجميع» فى البدايه والنهاية جـ ١٣ ص ٢٩٥.

(٣) «وكسروا» فى البداية والنهاية.

(٤) [ ] إضافة من البداية والنهاية.

(٥) «وكسر» فى البداية والنهاية.

(٦) « » ساقط من البداية والنهاية.

وثبت السلطان الملك المنصور (١) ثباتا عظيما جدًا فى جماعة قليلة ، وقد انهزم كثير من [عسكر] (٢) المسلمين ، والتتار فى الآثار (٣) حتى وصلوا وراءهم إلى بُحَيْرَة حمص ، ووصلوا إلى حمص ، وهى مغلقة الأبواب ، فقتلوا خلقا من العامة وغيرهم ، وأشرف المسلمون على خطر عظيم (٤) ، ثم إن أعيان الأمراء من الشجعان والفرسان تآمروا (٥) فيما بينهم ، مثل سنقر الأشقر ، وبيسرى (٦) ، وطيبرس الوزيرى ، وأمير سلاح ، وأيتمش السعدى ، وحسام الدين لاجين ، وحسام الدين طرنطاى ، والدوادارى ، وأمثالهم ، لما رأوا [٦٧٤] ثبات السلطان « ردوا على التتار ، وحملوا عليهم حملات صادقة متعددة » (٧) ولم يزالوا يتابعون الحملة بعد الحملة حتى كسر الله بحوله وقوته التتار ، وجُرح منكوتمر ، وجاءهم الأمير شرف الدين (٨) عيسى ابن مهنى أمير العرب (٩) من ناحية العَرَض ، فصدم التتار ، فاضطرب الجيش (١٠)

---

(١) « الملك المنصور » ساقط من من البداية والنهاية .

(٢) [ ] إضافة من البداية والنهاية .

(٣) « فى آثارهم » فى البداية والنهاية .

(٤) « على خطة عظيمة من الهلاك » فى البداية والنهاية .

(٥) « توامروا » فى الأصل ، والتصحيح من البداية والنهاية .

(٦) « وبيبرس » فى الأصل ، والتصحيح من البداية والنهاية .

(٧) « ردوا إلى السلطان ، وحملوا حملات متعددة صادقة » فى البداية والنهاية

(٨) « شرف الدين » ساقط من البداية والنهاية .

(٩) « أمير العرب » ساقط من البداية والنهاية .

(١٠) « فاضطربت الجيوش » فى البداية والنهاية .

لصدمته ، وتمت الهزيمة ولله الحمد ، وقتلوا منهم مقتلةً[١] عظيمةً جدًا ورجعت الطائفة[٢] من التتار الذين كانوا خلف مَنْ هُزم من المسلمين[٣] ، [فوجدوا أصحابهم قد كسروا ، والعساكر في آثارهم يقتلون ويأسرون][٤] ، والسلطان ثابت في مكانه تحت السناجق ، والكوسات تضرب وراءه[٥] ، وما معه إلا نحو من[٦] ألف فارس فطمعوا فيه فقاتلوه ، فثبت لهم ثباتا عظيما ، فانهزموا من بين يديه ، فلحقهم فقتل أكثرهم ، فكان[٧] ذلك تمام النصر ، وكان انهزام التتار قبل المغرب[٨] .

وقال بيبرس في تاريخه : جاءت ميسرة العدو تجاه الميمنة الإسلامية ، وقد تكردسوا فيها أطلابا ، وترادفوا أحزابا ، وصدموا الميمنة الصدمة الأولى ، فثبت العساكر للقتال وصبر المسلمون للنزال ، والتقوا على التتار حتى ضاق بهم المجال فمالوا لذلك على ناحية جاليش القلب ، فأشار السلطان إلينا بأن نردفه ، فردفناه جميعا ، وجعلناه بجمعنا منيعا ، وقتلنا الذين قصدوه قتلا ذريعا ، وبُذلت فيهم

(١) « من التتار » في البداية والنهاية .

(٢) « الطائفة » ساقط من البداية والنهاية .

(٣) « التتار الذين اتبعوا المنهزمين من المسلمين » في البداية والنهاية .

(٤) [ ] إضافة من البداية والنهاية .

(٥) « خلفه » في البداية والنهاية .

(٦) « نحو من » ساقط من البداية والنهاية .

(٧) « وكان » في البداية والنهاية .

(٨) « الغروب » في البداية والنهاية .

• البداية والنهاية ج١٣ ص [illegible]

السيوف ، ودارت عليهم دائرة الحتوف ، فانكسرت الميسرة(١) كسرة تامّة ، وأيقنا نحن بالنصرة العامة ، وانتهت كسرة ميسرتهم إلى القلب الذى لهم ، وبه منكوتمر ابن هلاون ، فضعف قلب ذلك القلب ، فانهزم طريدا وولى شريدا .

وأما الميسرة الإسلامية فإنها لما صادفها ميمنة التتار وصادمتها تزحزحت عن مواقفها ولم تثبُتْ لتراكم كراديس(٢) التتار وترادفها ، ولأنهم كانوا قد بالغوا فى تقويتها ، وأمعنوا فى كثرتها ، وساقوا وراء المسلمين حتى انتهوا إلى تحت حمص ، ووقعوا فى السوقية والعوام وألجأوهم إلى مكان متضايق الزحام ، فأبادوا منهم خلقا كثيرا ، ولم يعلم المسلمون بما تهيّأ للميمنة المنصورة من النصرة ، وما أصاب التتار من الكسرة ، فاستقبل بعضهم الطريق ، وولّى وهو من سكر الهزيمة لا يفيق ، ومنهم من أدّته الجفلةُ إلى دمشق ، فلما دخلوها شاع بين [٦٧٥] أهلها كسرة العساكر الإسلامية ، فتشوشت الخواطر ، وقلق البادى بها والحاضر ، ودخل بعض المنهزمين الضعيفى القلوب إلى جسر يعقوب ، ووصل بعضهم إلى غزة .

ولما رأى التتار أنهم قد هزموهم واستظهروا عليهم ، نزلوا عن خيولهم فى المرج الذى عند سُدّ حمص منتظرين قدوم رفقتهم ، معتقدين ربح صفقتهم ، ولم يعلموا أنهم قد انكسروا وولوا وأدبروا ، فلما طال بهم الانتظار أرسلوا

(١) «الميمنة» فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١١٥ أ ، كما أنها مصححة بهامش الأصل بخط مخالف .

(٢) كردوس ـ كراديس : الفرقة الحربية الراكبة ، والقطعة العظيمة من الخيل ـ محيط المحيط .

مَنْ يكشف لهم الأخبار، فعاد الكشّافة إليهم وأخبروهم بما تمّ عليهم، فركبوا خيولهم وقد فقدوا عقولهم [وعادوا](١) راجعين، وبأصحابهم لاحقين .

وكان السلطان قائما بمكانه، لم يبرح، ثابتا فى موقفه لم يتزحزح، فى نفر قليل من المماليك الأصاغر، وما حوله من أثقال العساكر، لأن العسكر تفرق، فبعض ذهب خلف العدو فى الطلب، وبعضهم(٢) أدبر منهزما لما ظن أن لهم الغلَبْ، فرأى السلطان من الحزم أن تطوى السناجق، وتُخفى البيارق، وتبطل الكوسات، وتخفض الأصوات(٣)، ومرّت ميمنة التتار راجعة على الأعقاب، ناجيةً منجى الذباب، وعاينوا السلطان واقفا فى السواد الذى حوله، وقد تكاثف حواليه، فلم يقدموا عليه(٤)، وطلبوا طريق الرستن ليلحقوا بأصحابهم، وأسرعوا فى ذهابهم لا يهتدون إلى صوابهم :

ولّوا طَرائدَ للحتوف ترى لهم		بين الصفوف عجاجةً وعجيجا
وتخوفوا نار السُيُوف ويومُهم		أمسى بنيران السُموم وهيجَا
والوحشُ يُقْسِمُ لا آكُلنَّ شِوَاهُمُ		إلا شِوَاءً بالهجير نضيجا

(١) إضافة من زبدة الفكرة .

(٢) « وبعض » فى زبدة الفكرة .

(٣) « وتخفض الأصوات » ساقط من زبدة الفكرة .

(٤) ذكر ابن كثير أنهم قاتلوا السلطان، وانهزموا بين يديه - انظر ما سبق ص ٢٧٧ .

وكُتبت البطائق المخلَّقة [١]، وسُرِّحت بها أطيار البشائر مجلِّقة [٢]، فتراجع بعض الميسرة التى جرَّت ذيول الهزائم، واستبشر الناس بما أتى الله سلطانهم المنصورَ من نصر العزائم، وخاب مَنْ ولّى الأدبارَ وخَارْ، وحازَ الصابرون أجزلَ الفخار.

وعاد السلطان من يومه إلى المنزلة، وعاين القتلى بها مجدَّلة [٣]، وقد نهبت الأثقال والوطاقات، منها ما نهبه التتار، ومنها ما نهبته الحرافيش والكَسَّابة، فلم يفكر فيما ذهب من قماش أو ذهب، وكان قد أحرز ما فى الخزائن من العين [٦٧٦] قبل وقوع العين على العين، وفرقه على مماليكه أكياسًا، فى كل كيس ألف دينار، ليحملوه إلى أن تنجلى الوقعة، وتتفق الرجعة، فلما نهبت الصناديق وجد الناس صناديق الخزانة فارغة من المال، فلم يعدم منه مثقال، وكانت جملته مائتى ألف دينار [٤].

قال بيبرس: ولقد حملتُ منه كيسا وقت تفرقته، وأعدته سالما بجملته [٥].

وبات السلطان تلك الليلة، والعساكر متفرقة، والجيوش متمزقة، والخيول مُغَرِّبة ومُشَرِّقَة، وتراجع الناس، وغابَ الرَّجاء اليأس.

(١) « وكتب » فى الأصل، والتصحيح من زبدة الفكرة.

(٢) مخلقة = مطيبة بالخلوق، وهو ضرب من الطيب أعظم أجزائه الزعفران — المنجد.

(٣) مجدلة = ملقاة فى الجدالة، أى ملقاة على الأرض — المنجد.

(٤) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١١٥ أ — ١١٦ أ.

(٥) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١١٦ أ [illegible]

ولما كان سحر الجمعة ، صبيحة يوم الوقعة ، قام في الخيام صائحٌ أيقظ النُوام ، وظن الناس أن التتار عادوا مكابسةً ، وعادَ الحربُ مخالسةً ، فركب السلطان وركب معه مَن كان بالدهليز من المماليك والسنجقية ، فانكشف الخبر بعد ساعة ، بأن جماعة من العسكر الذين تبعوا التتار المنهزمين عادوا إلى الوطاق .

وأسفر صباح يوم الجمعة المبارك ، الخامس عشر من شهر رجب ، والعدوّ قد ولّى هاربا ، ولم يبلغ أَرَبا ، وسارت الجيوش الإسلاميّة في إثره طَلبًا ، فنالت [منه](١) قتلا وأسْرًا ، ونهبًا وسَبْيًا ، وضُربت البشائر والتهانى ، وتحققت الآمال والأمانى ، وكتبت الكُتُبُ الشريفة بهذه الأخبار إلى الأقطار ، وركضت سوابق الخيول بالاستصار إلى الأمصار ، ولم يبق بلد ولا مدينة ولا ثغر من ثغور الإسلام ، بمصر والشام ، إلا وقد أُعلِنت فيه البشائر ، وقُرِئَت به كُتُب النصر على المنابر ، فاكتسى الزمان رونقا وبهجة ، وامتلأت بالسرور كل مُهْجَة ، وبطقت(٢) البطائق إلى الحصون القريبة من مسالك التتار التى سلكوها(٣) للفرار ، مثل البيرة ، وعينتاب ، وبغراس ، والدَرْبَساك ، والراوندان ، وأبى قبيس ، وشيزر ، بأن يأخذوا لهم المراصد ، فصار العشرة منهم يقتلهم من المسلمين واحد ، وحفظ أهل البيرة عليهم المعابر من الجهة الفراتيّة ، والمخائض إلى الجهة الشرقية ، فعبر أكثرهُم من غير عُبَر ، فهلك أكثرهُم غرقا ، وقتل منهم فى الهزيمة أكثر ممن قتل عند اللقاء .

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٢) « وبطاق » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٣) « ملكوها » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

وكانت فى هذه الكرّة عليهم الكسرة ، ولم تغن عنهم الكثرة ، فأنزل الله على المسلمين نصره، ورسم السلطان بأن تضرم النار فى الأزوار[1] [٦٧٧] التى على الفرات ، فمات أكثر من اختفى فيها حرقا ، وأما درب سلمية فإن فرقةً منهم فيه سلكوا فهلكوا، وكان على الرحبة طائفة مع أبغا يحاصرها، فلما وصلتها البطائق، وضربت البشائر ، أخذت التتار الصيحة ، فولوا هاربين ، وولى أبغا هاربا ، وسار نحو بغداد طالبا، خوفا أن يأخذه أهل البلاد، يتخطفه أهل الحواضر والبواد.

وجهّز السلطان العسكر الحلبى إلى حلب ، والحموىّ إلى حماة ، وجرّد الأمير بدر الدين الأيدمرىّ لتمهيد البلاد وترتيبها ، وعاد الأمير شمس الدين سنقر الأشقر إلى صهيون ، وأما الأمير سيف الدين أيتمش السعدىّ ، وعلم الدين الدواداري، وكراى التترى وولده، وتُناجى وجماعة من الأمراء الذين كانوا عنده، فإنهم رغبوا فى العود إلى الخدمة الشريفة فعادوا إليه[2] .

ذكر عَود السُّلطان إلى دَمشق :

ولما فرغ السلطان ، وصفا بَالهُ ،واستقام حالهُ ، عاد إلى دمشق ، والأسْرى تساق قدامه فى الكبول ، وقد حمل ما نهب لهم من القسىّ والسناجق والطبول، وكان دخوله دمشق يوم الجمعة الثانى والعشرين من رجب من هذه السنة ،فدخلها

(١) الأزوار-الأزيار: جمع زارة ، وهى الأرض ذات الماء والحلفاء والقصب — لسان العرب .

(٢) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١١٦ أ — ١١٧ أ .

ونزل فى القلعة مُؤيَّدًا منصورا ، وكان أعظم الأيام قدرا ، وأعطرها عند الأنام نشرًا ، وأظهرها فى وجه الزمان بشرا ، بهذه النصرة العظيمة ، والنظرة الوسيمة ، والكسرة التى لم يُرَ مثلها فى الأزمان القديمة ، فإن جيش التتار لم يُجز هذه الديار بمثل هذا الإكثار (١) ، ولا قصدها قبل هذه المدة فى بعض هذه العِدّة (٢) .

ذكر ما قيل فى هذه الغَزَاة من الأشعار :

قال القاضى فتح الدين محمد بن عبد الظاهر (٣) ، كاتب السرّ [المنصور] ، وناظر ديوان الإنشاء [المعمور] (٤) يذكر الواقعة بقصيدة جامعة لأحوالها (٥) ، [وهى] (٦) :

الله أعطاكَ لا زيدٌ ولا عمـــرُو ... هذا العطاءُ وهـذا الفتح والنَّصْرُ

هذا المقامُ الذى لو لم تَحُلّ به ... لم يبق والله لا شامٌ ولا مِصْرُ

من ذا الذى يَلقى ذَا العدوّ وكذا ... أو يدّرع لامةً ما لامها الصبْرُ

يا أيها الملك المنصور قد كُسِرَت ... جنودك المغل كسرًا ما له جَبْرُ

واستأصلوا شأفـة الأعداء وانـ ... نصروا المآتيتُ وزال الخوف والذُّعْرُ

[٦٧٨]

يا عَزْمةً ما رأى الرأوُون مُشْبِهَا ... ووقفـةً سار فى الدنيا لهـا ذكْرُ

(١) « هذه » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة جـ٩ ورقة ١١٧ أ .

(٢) انظر زبدة الفكرة جـ٩ ورقة ١١٧ أ .

(٣) ، (٤) ، (٦) [ ] إضافة من زبدة الفكرة جـ٩ ورقة ١١٧ أ .

(٥) « لأحوالها جامعة » فى زبدة الفكرة .

لما بغى جيش أبغا فى تجاسره ... وإن يمد له إلا القنا جسر
واستجمع المغل والتكفور واتفقوا ... مع الفرنج ومن أردى به الكفر
جاءت ثمانون ألفا من بعوثهم ... لأرض حمص فكان البعث والنشر
وافى الخميسان فى يوم الخميس ضحى ... وامتدت الحرب حتى أذن العصر
والسيف يركع والأعلام رافعة ... والروس تسجد لا عجب ولا كبر
والخيل لا تغتدى إلا على جثث ... والسهل من أرؤس القتلى به وعر
والبيض تغمد فى الأجفان من مهج ... والسمر ناهيك ياما تفعل السمر
لجاء فى رجب عيدان من عجب ... للسيف والرمح وهذا الفطر والنحر
فكان أسلمهم من أسلموه لأن ... يقوده القيد أو يسرى به الأسر
وراح فارسهم تزواح راجلهم ... تنتابه الوحش أو ينبو به القفر
فما وعى منهم واع رعيته (١) ... ولا ارعوى لهم من روعة فكر
وكان يوم الخميس النصف من رجب ... عام الثمانين هذا الفتح والنصر
وعاد سلطاننا المنصور منتصرا ... فالحمد لله تم الحمد والشكر (٢)

وقال القاضى محيى الدين عبد الله بن عبد الظاهر، والده، من أبيات يصف فيها السلطان وحسن بلائه، [وجميل أثره، وجزيل غنائه] (٣) :

---

(١) « فما رعى منهم راع رعيته » فى زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١١٨ أ .

(٢) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١١٧ ب، ١١٨ أ .

(٣) [ ] إضافة من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١١٨ أ .

لله في حمص مقامٌ قامهُ والنارُ من بين الأسنَّة توهجُ
والناس قد فرُّوا فلا متريثٌ والخلق قد هربوا فليس معرجُ
وهناك من جند الملائك عصبةٌ جاءته للنصر المبين تروّجُ
وهناك خالدُ قد أجار نزيله ونزيلُ خالد ليس ممن يزعجُ
فثنى العنانَ وما انثنى حتى بدا للدينِ من أسر الأعادي مخرجُ
مَلِكٌ به ردَّ العِدَى او انهم مما سُبي أولادهم لم ينتجوا
البحرُ لولا أنه من كفِّهِ ما كان منه جوهر يستخرجُ
والصبحُ لولا أنه من شُهبِه مافات ركضَ البرقِ منه يهملجُ

[٦٧٩]

والليل لولا أنه من دهمه ما كان بالشُّهب الثواقبِ يسرجُ
والنصرُ لولا أنه من سيفهِ ما كان كربٌ في الوجودِ يفرّجُ
والروضُ لولا أنه في كتبه ماهبَّ في الآفاق منه تأرجُ
والسُّحبُ لولا أنها من جُودهِ ما كان منها كل صدرٍ يثلجُ
والنارُ لولا أنها من سخطه ما أحرق الأعداءُ منه تأججُ
فلمدحه ما حاكهُ ذو فكرةٍ ولرُمحه من نثره ما ينسجُ
يرضيك من فوق السوابح أروعٌ منه ومن تحت التريكة أبلجُ (١)

(١) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١١٨ أ ، ب .

وقال ناصر الدين حسن بن النقيب أحمد الكنانية، وكان مُفْلِقًا (١) فى فنون الأدبية [والشعرية بذكر هذه النصرة المنصورية] (٢) :

هى النعمة الكبرى هى النصرة العظمى (٣) هى اللفظ والمعنى هى البشر والبشرى
هى المطلب الأسنى هى المنحة التى لقد شرفت قدرًا وقد عظمت ذكرا
هى الوقعة الصماء والحطمة التى بها انكسر الفكر الذى لم يجد جبرا
هى الفتك بالأعداء والظفر الذى شفى القلب من أبغا وقد أثلج (٤) الصدرا
وأمكن من تمغار حد سيوفنا خفى إلى الأذقان لاساجدًا شكرا
ونكس أعلامًا وفل كتائبا لمنكوتمر كالأسد فى الحرب بل أضرا
فلما رأوه قد تقطر قاتلوا عليه قتالا قطع البيض والسمرا
فلما نجا منها وقد كب طرفه تولى وخلى الابن والأب والصهرا
وراح ثخينا بالجراح مصبرا يئن ويشكو من مضاضاتها ضرا
فلله منا الحمد والشكر دائما فقد أصل الإسلام واستأصل الكفرا
فقل لرؤس المغل إن قلاوونا هو السيف ضرابا لأعناقكم قهرا
هو الملك المنصور والله خاذل لأعدائه خذلانا (٥) وناصره نصرا

(١) أفلق الشاعر : أتى بالفلق أى الأمر العجيب ، فهو مفلق ، ومفلق بالأمر : كان حاذقا فيه — المنجد .

(٢) [ ] إضافة من زبدة الفكرة ، وفى الأصل « والشعر » .

(٣) « هى النعمة العظمى هى النصرة الكبرى » فى زبدة الفكرة .

(٤) « أبلج » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٥) « خذلا » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

هو المقدم الكرّار فى حومة الوغى — إذا أحجم الأبطال وامتلأُوا ذُعْرا
هو الأسد العادى على انفس العدى — هو القمر الهادى إذا أظلم المسرا
هو القائد الجيش العرمرم خلفه — إلى الفان فى موغان يطلبه جَهْراً

[٦٨٠]

عساكر مِلءَ الأرض من كل وجهة — تجمعن حتى فات العدّ والحصرا
تخيّل (١) رائيها القيامة مثّلت — لعينيه فى دنياه والعرض والحشرا
فلم ينج منها الوحش عند إثارة — ولا الطير فى جوّ السماء إذا مرّا
فقل للتتار العادمين عقولهم — نسيتم سيوف الترك تضربكم هبرا
وكم كسّر وكم مرةً بعد مرة — فما حصروا القتلى ولا استوعبوا الأسرا
وقد زاركم أبغاء من بعد قتلكم (٢) — فأجرى عليكم من مدامعه جمرا
وأكبر مرأىً هاله بسماعه — ففرّ إلى توريز يجعلها ظهرا
ولو حلّ فى غمدان يبغى تحصّناً — لما استطاع أن يقيم فيه ولا فرّا
وأنتم بسيف الدين أخبر فى الوغا — فذلك همام قد أحطتم به خُبْرا
ولم يخفكم حملاته ولطالما — أذاقكم المُرّان من طعنه المرّا
أأنسيتم فى عين جالوت ما جرى — وفى العين قد أجرى دماءكم (٣) نهرا
أما كان فى يوم (٤) الفرات إليكم — مقدّمة الجيش الذى عبر البحرا

(١) «يخيل رائها» فى الأصل، والتصحيح من زبدة الفكرة .
(٢) «قبلكم» فى زبدة الفكرة، وهو تحريف .
(٣) «أجرا دمائكم» فى الأصل، والتصحيح من زبدة الفكرة .
(٤) «فى هوم» فى زبدة الفكرة .

أما كان فى يوم البُلُسْتَين أولا وأعينكم ترنو إلى نحوه شزرا

فما أطرفت أجفانكم[1] أو قضى الرَّدى عليكم وأمضى حدّه فيكم الأمرا

وفى الملتقى ما بين حمص وحماة تلقاكم السيف الذى يقطع العُمْرا

وداسكمُ من خيله بحوافرٍ حفرن لكم فى كل جلمودةٍ قبرا

وكم لكمُ فى الذئب والنسر مدفنٌ فنوحوا إذا أبصرتم الذئب والنسرا

أغرّكمُ من صاحب السيس قوله فكم غرّ بالقول المحال وكم أغرا

وقد وعدته الترك أن ستزوره ولو أن أرض السيس مفروشة جمرا

وأنتم فأدرى الوعود بصدقهم فما أخلفوا قولا ولا اختلقوا غدرا[2]

(١) « أطرقت » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٢) زبدة الفكرة جـ٩ ورقة ١١٨ ب — ١١٩ ب .

وانظر باقى القصيدة فى زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١١٩ ب — ١٢٠ ب .

(١)

... ...

---

(١) يوجد سقط فى النسخة التى بين أيدينا من عقد الجمان، وذلك فيما بين الورقة ٦٨٠، والورقة ٦٨١ من الجزء الرابع من المجلد الثامن عشر.

ويقابل هـذا السقط فى عقـد الجمان الأوراق من ١٢١ ا الى ١٤٧ ب من الجزء التاسع من كتاب زبدة الفكرة، وهو الكتاب الذى اتخـذه العينى مصدرا أساسيا، ونقل عنه ما أورده فى حوادث سنة ٦٨٠ هـ.

وتضمنت أوراق زبدة الفكرة — المقابلة لهـذا السقط — الموضوعات الآتية :

أولا : باقى أحداث سنة ٦٨٠ هـ :

— جزء من قصيدة لبدر الدين محمد بن عمر المنبجى.

— عودة السلطان إلى الديار المصرية فى الثانى والعشرين من شعبان.

— وصول رسل الملك المظفر شمس الدين بن رسول صاحب اليمن.

— وصول رسل الملك الأشكرى صاحب القسطنطينية.

— ذكر ما تقرر من المهادنات مع الفرنج (بين السلطان وولده وبين مقدم بيت الاسبتار) اعتبارا من ١٢ محرم سنة ٦٨٠ هـ.

— الهدنة مع متملك طرابلس، اعتبارا من ٢٧ ربيع الأول سنة ٦٨٠ هـ.

... ...

وفيات سنة ٦٨٠ هـ .

— وفاة منكوتمر بن هولاكو .

— وفاة الصاحب علاء الدين عطا ملك الجويني، صاحب الديوان ببغداد .

— وفاة القاضي تقي الدين محمد بن الحسين بن رزين، قاضي القضاة بالديار المصرية .

— وفاة الشيخ الصالح مرمي بن مسعود .

— وفاة القاضي نفيس الدين شكر قاضي القضاة المالكية .

— وفاة الشيخ أبو الحسن علي بن أبي الخير السعودي[1] .

أما الوفيات التي ذكرها ابن كثير، والتي جرت عادة العيني أن ينقلها في عقد الجمان، فتضمنت في سنة ٦٨٠ هـ :

— أبغا ملك التتار بن هولاكو .

— أبو بكر بن يحيي بن هبة الله، قاضي القضاة ابن سني الدولة .

— عمر بن عبدالوهاب بن خلف بن بنت الأعز، قاضي القضاة صدر الدين .

— الشيخ إبراهيم بن سعيد الشاغوري .

— الأمير عز الدين أزدمر السلحداري .

— محمد بن الحسين بن رزين، قاضي القضاة تقي الدين .

(١) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٢١ أ — ١٢٨أ .

... ...

— موسى بن داود بن شيركوه ، الملك الأشرف مظفر الدين .

— الشيخ جمال الدين الأسكندرى ، الحاسب بدمشق .

— محمد بن الحسين بن عيسى بن عبد الله بن رشيق الربعى المالكى ، الشيخ علم الدين أبو الحسن .

— محمد بن مكى بن خلف غيلان ، القيسى الدمشقى ، الصدر الكبير أبو الغنائم المسلم .

— أبو القاسم بن محمد بن عثمان بن محمد التميمى الحنفى ، الشيخ صفى الدين ، شيخ الحنفية ببصرى[1] .

ثانيا : أحداث سنة ٦٨١ هـ[*] .

— ذكر إغارة العساكر المنصورة الإسلامية على الجهة الشرقية والبلاد الرومية .

— وصول شخص من جهة الأمير سيف الدين طرنطاى صاحب أماسية والد سنان الدين الرومى إلى السلطان .

— وصول رسول عند الفونش — أحد ملوك الفرنج — اسمه : الفارس الحكيم مايشتر قلب الأسبنيولى .

— استقرار الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى فى نيابة السلطنة بحلب .

---

(١) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٩٧ — ٢٩٩ .

(*) يوافق أولها السبت ١١ إبريل ١٢٨٢ م .

... ...

— وصول شخص من أولاد الأويراتية يسمى الشيخ على .

— ذكر وفاة أبغا[1] بن هولاكو ملك التتار مسموما .

— ذكر تملك توكدار بن هولاكو الملقب أحمد سلطان .

— ذكر نسخة الكتاب الذى أرسله أحمد سلطان إلى بغداد ، لما جلس فى السلطنة بإسلامه هو ومن معه من التتار .

— وصول رسل الملك أحمد سلطان إلى الأبواب السلطانية .

— ذكر نسخة الكتاب الواصل من جهة المذكور مخبرا بانتقاله إلى ملة الإسلام هو ومن معه من التتار . (كتب فى واسط جمادى الأولى سنة إحدى وثمانين وستمائة بمقام الأوطاق) .

— ذكر نسخة جواب السلطان الصادر إليه .

— ذكر وفاة منكوتمر بن طغان بن باطو بن جنكزخان، ملك التتار بالبلاد الشمالية .

— ذكر مملكة تدان منكو بن طغان بالبلاد الشمالية .

— وصول ولد الشريف أبى نمى أمير مكة ومعه جماعة كبيرة من الأشراف وزعماء الحجاز .

— حج فى هذه السنة الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار الصالحى .

(١) ورد ذكر وفاته سنة ٦٨٠ هـ فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٩٧ .

... ...

— ذكر العقد للملك الصالح على بنت الأمير سيف الدين نوكيه .

— ذكر دخول السلطان ببنت سكتاى بن قراجين بن جيغان نوين .

— ذكر تقرير الهدنة مع بيت الديوية بالساحل .

— ذكر الظفر بملك من ملوك الكرج وإمساكه .

وفيات سنة ٦٨١ هـ :

— وفاة القاضي شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلكان البرمكي .

— وفاة ناصر الدين الجوهري التاجر(١) .

أما الوفيات التي ذكرها ابن كثير ، فتضمنت في سنة ٦٨١ هـ :

— برهان الدين أبو إسحاق بن إسماعيل بن إبراهيم ، ابن الرضي الحنفي ، إمام المعزية بالكبش .

— أحمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الجبار ، القاضي أمين الدين الأشتري .

— محمود بن عبد الله بن عبد الرحمن المراغي الشافعي ، الشيخ برهان الدين أبو الثناء .

— أبو محمد بن عبد السلام بن علي بن عمر الزواوي المالكي ، قاضي قضاة المالكية بدمشق .

(١) انظر زبدة الفكرة ج ٩ ورقة ١٢٨ أ — ١٢٩ ب .

... ...

— محمد بن علي بن محمود بن علي الشهرزوري ، الشيخ صلاح الدين ، مدرس القيمرية .

— أحمد بن محمد بن إبراهيم ، شمس الدين أبو العباس ، ابن خلكان ، قاضي القضاة (١) .

ثالثا : أحداث سنة ٦٨٢ هـ (*) :

— وصول الملك المنصور صاحب حماة إلى الديار المصرية .

— توجه السلطان إلى جهة البحيرة لحفر الخليج المعروف بالطيرية .

— رسم السلطان لنائب المملكة الحلبية بأن يوجه وجه الغارات إلى سيس وأعمالها .

— تجريد السلطان عسكرا لمضايقة الكرك .

— ذكر توجه السلطان إلى الشام وعوده .

— تقرير هدنة عكا اعتبارا من ٥ ربيع الأول سنة ٦٨٢ هـ .

— ذكر العقد للملك الأشرف على بنت الأمير سيف الدين نوكيه .

— وصول الشيخ عبد الرحمن من عند السلطان أحمد وصحبته صمداغو .

— ذكر فتوح تونس بشعار السلطان واسمه .

(١) انظر البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٣٠٠ — ٣٠١ .

(*) يوافق أولها الخميس ١ ابريل ١٢٨٣ م .

... ...

— ذكر واقعة اتفق وقوعها بين أحمد سلطان ملك التتار الجالس ببيت هولاكو وبين أرغون ابن أخيه أبغا .

— ذكر مقتل توكدار الملقب أحمد سلطان بن هولاكو .

— ذكر مملكة أرغون بن أبغا بن هولاكو ملك التتار .

— ذكر فتوح قلعة قطينا واقتلاعها من يد العدو المخذول .

— ذكر فتوح ثغر الكختا واستنقاذه من الكفار[1] .

[ذكر[2] توجه السلطان إلى الشام المحروس :

وفيها توجه السلطان إلى الشام المحروس ، لتدبير أحواله والنظر فى مصالحه ، وكانت الأخبار قد بلغته بقتل السلطان أحمد، واستقرار أرغون فى الملك بعده، وأن فرقة من التتار تقدير أربعة آلاف فارس حضرت مقفرة طالبة نحو الشام، فسار إلى دمشق ، فدخلها فى الثانى من شهر جمادى الآخرة ، فسُرَّ الناس بقدومه ، وَقَدَّم النظر فى كل مهم تكون المصلحة فى تقديمه ، وأحضر رسل أحمد سلطان ، وقد كانوا لما وصلوا إلى الشام[3] أنزلوا بقلعة دمشق ، واحتفظ بهم ، ولم يمكن

---

(١) انظر زبدة الفكرة جـ٩ ورقة ١٣٩ ب — ١٤٦ ب .

(٢) بداية الموضوع لتصل الكلام مع ما وجد بعد السقط — نقلا عن زبدة الفكرة جـ٩ ورقة ١٤٧ أ .

(٣) « كان وصوله إلى دمشق فى ليلة الثلاثاء ثانى عشر ذى الحجة » — تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٢٧٩ ، كنز الدرر جـ ٨ ص ٢٦١ .

أحد من الاجتماع بهم ، بل كانوا فى دار رضوان ، وغلمانهم وجواسيسهم بمعزل منهم ، والإقامات جارية عليهم ، والأنزال واصلة إليهم . واستدعاهما السلطان ، وهما الشيخ عبد الرحمن وصمداغو ، ولم يكونا علما بموت مرسلهما .

وكان عبد الرحمن هذا قدوة الملك أحمد ، ومشيره ، وهو الذى أشار عليه بالإسلام ، على جهة المكر والخداع ، حتى يطمئن من هذه الجهة ، ويتفرغ لينال قومه ، وأقاربه ، وولد أخيه . وتحكم هذا الشيخ فى البلاد ، وتحدث فى جميع الأوقاف ، بالعجم والعراق والروم ، وجُبى إليه من أموالها حَمل عظيمة ، وأظهر للمغل من الخاريق والحيل وأنواعها أشياء أخذ عقولهم بها ، فمالوا إليه ميلا كبيرا ، واتخذوه مشيرا ، وصار الملك أحمد وعشيرته يقفون بين يديه ، ويمتثلون أمره . وأصله موصلى ، وكان مملوكا ، يقال له : عبد الرحمن النجار ، وتوهم أنه إذا حضر الى السلطان يتم له عنده ماتم له فى العراق ، ويصير منه ما صار فى تلك الآفاق ، فكان الأمر بخلاف ذلك ، لأنه لما خرج من الأوردو استصحب جماعة من أكابر المغل ، وهم : صمداغو وجماعته ، وكتابا ، وفقهاء ، وفقراء ، وكان يحمل على رأسه جتر فى الطريق ، وحلقة سلحدارية ، وحواشى ، وأرباب أشغال ، وغلمان ، وأخباره كانت تتصل بالسلطان ، منزلة بمنزلة ، فلما وصل إلى البيرة تلقاه الأمير جمال الدين أقش الفارسى ، أحد أمراء حلب ، ومنعه من حمل الجتر والسلاح[1] ، [٦٨١] وتنكب به ، ومن معه عن الطريق المسلوكة ، وساق بهم فى الليل ، وقرر مع المجرّدين صحبته أن أحدا لا يكلمهم ولا يملأ عينه

(١) نهاية ما نقل من زبدة الفكرة جـ٩ ورقة ١٤٧ أ — ب ليتصل الكلام مع ماوجد بعد السقط من عقد الجمان .

منهم ، ولما وصل بهم إلى حلب أخفى أمرهم ، وأخرجوا منها فى الليل ، وسير بهم فى غير الجادة على العادة، ولما وصلوا إلى دمشق أدخلوا فى الليل، وأنزلوا فى القلعة على الصورة التى ذكرناها إلى أن حل السلطان بدمشق ، فلما دخل بين يديه سمع كلامه وكلام رفيقيه وهما صمداغو وشمس الدين ابن الصاحب ، وقبل هدية الشيخ المذكور، وأخذ الكتاب الذى على يده من جهة أحمد سلطان[1].

ذكر نسخة الكتاب الواصل من أحمد سلطان [ثانيا][2] :

بسم الله الرحمن الرحيم

بقوة الله تعالى بإقبال قاآن[3] فرمان أحمد ، إلى سلطان مصر، أما بعد : فالذى يجب على العاقل : بذل الجهد وترك الإهمال والتوانى ، واستنفاد الوسع فى اقتناء الذكر الباقى، ألا وهو[4] العمر الثانى ، وقد انحصر الثناء الجميل ، والثواب الجزيل ، فى التعظيم لأمر الله ، والشفقة على خلق الله ، واستعمال العدل والنصفة المندوب إليها ، وأى عدل ونصفة أعظم قدرا وأعلى ذكرا فى سائر الأصقاع والممالك من إنقاذ الأنفس بجريعة الذقن من المهالك، وإطفاء نائرة أكباد حرى، وقلوب جرحى،

(١) انظر زبدة الفكرة جـ٩ ورقة ١٤٧ أ ، ب .

(٢) [ ] إضافة من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٤٧ ب ، لتوضيح أن هذا الخطاب الثانى ، وكان الخطاب الأول بتاريخ جمادى الأولى سنة ٦٨١ هـ — انظر زبدة الفكرة جـ٩ ورقة ١٣١ أ — ١٣٣ ب .

(٣) « بيا من كان » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٤) « الذى هو » فى زبدة الفكرة .

﴿ ومن أحياها فكأنما أحيى الناس جميعا[1] ﴾ ، ولما لم يكن لنا[2] بفضل الله العظيم وإحسانه الجسيم افتقارٌ ولا بغيه ، ولم يبق فى ضميرنا إرادة ولا مُنيةٌ سوى رفاهية العالم وطمأنينة بنى آدم ، خصوصًا الطائفة الإسلامية ، وأهل الملة الحنيفيّة أنفذنا الألجية[3] إلى إخواننا توقاى أغا[4] وتودا منكو وغيرهما ، ونبهناهم على أن الملك العقيم الذى ادّخره لنا جدّنا جنكزخان ، وآباؤنا الكرام ، بعد الصبر على المشقة فى تحصيله والمقاساة ، وتحمّل أعباء الشدائد والمعاناة ، بمجرد النزاع والخصام ، وخلاف الوفاق واختلاف الكلام ، قد أشرف[5] على شحوب بهجته وبهائه ، وتكدير رونق صفاء مائه ، والآن آن [أن][6] نستبدل وحشة النزاع بأنس الصلح ، ونتعوض من غيهب ليله النفار والنقار تباشير الصباح ، ونُغمِدَ [٦٨٢] السيوف البواتر التى استُلّت من الأغماد ، ونعفى أثر المرج والمرج ونُعرض عن الاعراض والأحقاد ، ونتفق الجميع على القيام بواجب كُوج [قان][7] وخدمته ، والإلتزام بواجب طاعته ،

---

(١) « الناس جميعا » ساقط من زبدة الفكرة .

جزء من الآية ٣٢ من سورة المائدة رقم (٥) .

(٢) « كنا » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٣) « الأفجية » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٤) « أقا » فى زبدة الفكرة .

(٥) « أشرق » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٦) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٧) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

والاشتمال بما ينوط(١) بمصلحته، وحيث تأملوا ذلك بعين البصيرة، ورأى من حنكه دوران الفلك، والتجربة، يبين لهم أن هـذا الرأى محض شـور لا يشوبه غش ولا مداهنة، وخالص تنبيه لا يغادره سوى زبدة المناصحة، فقالوا: إن الذى وقع من الخلاف، كان بين من قد قضى نحبه من الآباء والأسلاف، ولم تجر بيننا مخاشنة، ولا وقع خلف ولا مشاحنة، فعدنا على ما كان عليه آباؤنا القدماء الكرام من الاتفاق والائتلاف، وحفظ العهد والذمام، والتزمنا أن لا نخلى عقد هذا النظام، والله الموفق للرشاد الهادى إلى السداد.

ولما تفرغ البال من إصلاح ذات البين، واستحكمت مرائر الائتلاف بين الجهتين، أنفذنا الإيلجية بعد النية الخالصة لله وللرسول، تسكينا للفتن الثائرة، وإطفاء للهيب تلك النائرة، وحقنا لدماء المسلمين، وسدا لثلمة الدين، فكانت خلاصة جوابه، وزبدة خطابه، عند وقوفه(٢) على ما كتب به إليه، أنه لو أنفذ أبونا شيخ الإسلام، قدوة العارفين، كمال الدين عبد الرحمن، لكنت أسكن إلى أمانته، وأخلد إلى ديانته، وأسمع منه مالم يحتمل إيداعه الكتب، وأشافهه بما عندى من المصالح، وأخاطبه بما ينطوى عليه ضميرى للمسلمين من النصائح.

هذا، وغير خاف أنه يعز علينا بعاده(٣)، ويوحشنا بعده وفراقه، وربما اتصل به ما نستفيده من حسن معاشرته، وجميل مصاحبته، وحيث كان التماسه موجبا

(١) «على ماينوط» فى زبدة الفكرة.

(٢) «ولوعه» فى الأصل، والتصحيح من زبدة الفكرة.

(٣) «إبعاده» فى الأصل، والتصحيح من زبدة الفكرة.

لإشاعة الخير العام ، وإذاعة شعار الإسلام ، رضينا بتوجُّهه إلى جهته إسْعَافا لمقترحه ، وجعلناه فى اتخاذ العهد واليمين ، بدلا عن شمالنا واليمين ، ولم يكن بين كلامنا وكلامه بَوْن ، إذ هو لنا فى أمور الدين نعم العَوْن ، والتزمنا بكل ما عساه يسندُه إلينا وبما يرى ، ثقةً بأنه الناصح الأمين الذى لا ينْطقُ عن الهوى ، وربما شرذمة من الجُهال من الجهتين ، من أهل الشقاق والنفاق ، [٦٨٣] الذين لاتجتمع كلمتهم على الوفاق ، تُنافى طبائعهم الصلح والاتفاق ﴿ يريدون أن يطفئوا (١) نور الله بأفواههم [ويأبى الله إلا أن يتم (٢)] نوره (٣) ﴾ ، لاختلاف ملتهم ، وطمعا فى إدراك بغيتهم ، فالواجب أن لاتسمع أقوالهم ، وتترك أفعالهم ﴿ أولئك حبطت أعمالهم (٤) ﴾ .

ومن المعلوم أن كل أمر يمكن اعتماده على الوجه الجميل ، بحيث تحسم فيه موادُّ القال والقيل ، لا ينبغى أن يكون الحال فيه بالضدّ خصوصا فى الخطب الإدّ ، والأمر الجدّ ﴿ الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله (٥) ﴾ .

وكتب فى أوائل ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وستمائة بمقام تبريز ، والحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم (٦) .

(١) « ليطفئوا » فى الأصل ، وهو تحريف .

(٢) [ ] « والله متم » فى الأصل ، والتصحيح والإضافة من القرآن .

(٣) جزء من الآية ٣٢ من سورة التوبة رقم (٩) .

(٤) « أولئك الذين » فى الأصل ، وهو تحريف .

جزء من الآية ١٧ من سورة التوبة رقم (٩) .

(٥) جزء من الآية ٤٣ من سورة الأعراف رقم (٧) .

(٦) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقه ١٤٧ ب — ١٤٩ ب .

وانظر نص الخطاب أيضا فى تشريف الأيام والعصور ص ٦٩ — ٧١ ، وقد ورد فيه أن مقابلة السلطان الملك المنصور لرسل أحمد تكدار كانت سنة ٦٨٣ م .

فخلع السلطان عليهم وأحسن إليهم، ثم أعلمهم بوفاة مرسلهم بعد ذلك .

وشرع السلطان فى الخروج إلى جهة المرج والإقامة به والصيد ، وبذل الخلع والإنعام ، وذلك كان دأبه مدة قيامه(١) بالشام(٢) .

ذكر بقية الحوادث :

منها : أنه وصلت رسل من جهة تدان منكو(٣) ، الجالس على كرسى الملك ببيت(٤) بركة يخبرون بإسلامه ، ويهنون بتملكه ، وهم من فقهاء القفجاق ، أحدهم يسمى مجد الدين اتا(٥) ، والآخر نور الدين ، وعلى يدهم كتاب من جهته بالخط المغلى ، معرب ، فكان مضمونه الإعلام بدخوله فى دين الإسلام ، وجلوسه على التخت ، وأنه أقام شرائع الدين ، ونواميس المسلمين ، وأوصى على الفقهاء الواصلين، وأن يساعدوا على الحج المبرور، الذى جاءوا له قاصدين ، وذكروا من ألسنتهم أنه سأل السلطان أن ينعته نعتا يسمى به من أسماء المسلمين، وعلما خليفتيا ، وعلما سلطانيا نقاتل بهما أعداء الدين ، فجهز السلطان الفقهاء المذكورين إلى الحجاز الشريف ، فلما عادوا سفرهم إلى مقصدهم على أحسن حال(٦) .

---

(١) «مقامه» فى زبدة الفكرة .

(٢) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٤٩ ب .

(٣) «تدا منكو» فى تشريف الأيام والعصور ص ٤٦ .

(٤) «بنت» فى الأصل والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٥) «أطا» فى زبدة الفكرة ، وتاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٢٧٢ ، وتشريف الأيام والعصور ص ٤٦ .

(٦) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٤٢ أ .

ومنها : أنه أمسك شخص بطرك ، كان مقيما بالحدث[١] ، وله شوكة كبيرة وحوله طواغيتُ كثيرة ، وقد انضم إليه جماعة من ذوى الضلال ، من أهل تلك الجبال ، وتحصّن بالحدث ، فقصده التركمان ، وتحيّلوا عليه حتى تمكنوا منه ، وأحضروه أسيرا ، وغادروه حسيراً ، واستراح المسلمون من شره ومن عادية أمره.[٢]

ومنها : أنه خرج صاحب قبرس[٣] فى [٦٨٤] جماعته ، عازما على قصد بلاد الساحل ، وركب البحر ، فرمته الريح إلى جهة بيروت[٤] ، فخرج منها ، وقصد الإغارة على تلك الجهات ، وكان السلطان لما بلغه حضوره قد تقدّم أمره إلى النُّواب بتلك البلاد لحفظ جميع الأماكن عليه ، فلما حصل فى جهة بيروت ، كمن له أهل جبل بيروت[٥] ، وخرجوا عليه ، فقتلوا وأسروا من جماعته ثمانين رجلا ، وأخذوا له شيئًا كثيرا من مال وخيل وبغال ، فركب البحر وتوجه إلى صُور ، ولم يلبث أن هلك وأراح الله منه .[٦]

---

(١) الحدث ، قلعة حصينة من الثغور بين ملطية وسميساط ومرعش — معجم البلدان .

(٢) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٤٢ أ ، ب ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٢٧٧ ، تشريف الأيام والعصور ص ٤٧ .

(٣) « البحر » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٤) صاحب قبرس فى ذلك الوقت هو هيو الثالث اوزجنان الذى حكم فى الفترة من ١٢٦٧ — ١٢٨٤ م .

(٥) « جبل الخروب » فى زبدة الفكرة .

(٦) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٤٢ ب .

ومنها : أنه وصل رسول أبى نكبا[1] ملك سيلان إلى الأبواب السلطانية ، واسمه الحاج أبو عثمان ، ومعه رفيق له[2] ، وأحضر كتابا فى حق من ذهب ، وقالوا : هذا الكتاب بخط الملك[3] ، فطلب من يقرأه ، فلم يوجد ، فسألوا عن مضمونه ، فقالوا : مضمونه أن سَيْلان مصرُ ومصر سَيْلان ، وأنه قد ترك مصاحبة صاحب اليمن مرة واحدة فى محبة السلطان ، وقال : أريد رسولا من جهة السلطان يحضر إلى صحبة رسولى ، ورسولا يقيم فى عدن ، والجواهر واليواقيت واللؤلؤ عندى كثير ، والمراكب[4] والقماش من البزوغيره عندى ، وعندى البقم والقرفة ، وجميع ما يجلبه[5] الكارم والرماح نشأتها عندى ، وعندى الفيول ، ولو طلب السلطان كل سنة عشرين مركبا لسيَّرتها إليه ، ونُطلق تجار السلطان للبلاد ، ورسول صاحب اليمن أتانى فرددته محبة فى مولانا السلطان ، وأنا لى سبعة وعشرون قلعةً مملوءة خزائنها جواهر ويواقيت ، والمغَاصَاتُ لى ، وكل ما يحضر منها فهو لى[6] .

---

(١) « أبو نكبة » فى السلوك جـ ١ ص ٧١٣ ، وتاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٢٦١ ، و « أبو بكباه » فى تشريف الأيام والعصور ص ٥٠ .

(٢) « أمين الدين أبو عثمان ورفيقه الشيخ على لوكشتى » تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٢٦١

(٣) « وصورة الكتب التى وصلت على أيديهم صفيحة ذهب رقيقة عرض ثلاثة أصابع فى طول نصف ذراع أو حوله مدورة حلقة وداخلها شىء شبيه بالخوص أخضر عليه كتابة تشبه الخط الرومى أو القبطى » — تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٢٦١ .

(٤) « والمركب » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٥) « ما تجلبه » فى زبدة الفكرة ، و « يطلبه » فى تاريخ ابن الفرات .

(٦) انظر أيضا تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٢٦١ — ٢٦٢ ، تشريف الأيام والعصور ص ٥٢ .

فأكرم السلطان هذا الرسول ، وكتب جوابَه ، وجهزّه ، فعاد .

وذكر أنه حضر على طريق هرمز فى مركب السَّيلانىّ إلى بندر هُرْمز ووصف البلاد والمنازل التى مرّ بها فى سفرته . قال : إنهم سافروا من سَيْلان إلى جزيرة الحاشك ، ثم إلى أسْناس ، ثم إلى كُرْزُستَان .

ومنها : إلى تادانه (١) .

ومنها : إلى قِيش (٢) .

ومنها : إلى هَرْوَا .

ومنها : إلى العصر .

ومنها : إلى الآمى (٣) .

ومنها : إلى الأندروانى (٤) .

ومنها : إلى قلعة أحمد تكر (٥) .

ومنها : إلى قلعة الريح (٦) .

ومنها : إلى قلعة بجيلوا (٧) .

---

(١) « تارانه » فى زبدة الفكرة ، وتشريف الأيام والعصور ص ٥٠ .

(٢) « فنس » فى تشريف الأيام والعصور .

(٣) « الاء » فى تشريف الأيام والعصور .

(٤) « الأندرواى » فى تشريف الأيام والعصور .

(٥) « فكر » فى تشريف الأيام والعصور .

(٦) « الزنج » فى تشريف الأيام والعصور .

(٧) « تحيلو » فى تشريف الأيام والعصور .

ومنها : إلى تانيد[(١)] .

ومنها : إلى سَرَاف .

ومنها : إلى بَرْدَاسْتَان .

ومنها : إلى إيرم .

ومنها : إلى ايرشهر[(٢)] .

ومنها : إلى جَوز السدق[(٣)] .

[٦٨٥]

ومنها : إلى جزيرة خارك .

ومنها : إلى جبابة .

ومنها : إلى مَهْرَوَان .

ومنها : إلى أرض عَبَّادان .

ومنها : إلى المحجرى[(٤)] .

ومنها : إلى الأُبُلَّة[(٥)] .

ومنها : إلى البصرة .

ومنها : إلى الحبيلة[(٦)] .

---

(١) « تابند » في تشريف الأيام والعصور .

(٢) « أبو مهر » في تشريف الأيام والعصور .

(٣) « خرز السدف » في تشريف الأيام والعصور .

(٤) « المجرزى » في زبدة الفكرة ، والمحررى » في تشريف الأيام والعصور .

(٥) الأبلة : بلدة على شاطىء دجلة في زاوية الخليج الذي تطل عليه مدينة البصرة — معجم البلدان .

(٦) « الحبلة » في تشريف الأيام والعصور .

ومنها : إلى زبر الدير[1] .

ومنها : إلى المطارة ، ومن المطارة إلى البرية .

ومنها : إلى الجواهر .

ومنها : إلى أم عَبيده .

ومنها : إلى برق مرية[2] .

ومنها : إلى الفاروت[3] .

ومنها : إلى قرية عبد الله .

ومنها : إلى واسط .

ومنها : إلى أبي مُعَيْط .

ومنها : إلى المُبارك[4] .

ومنها : إلى الخيزرانة[5] .

ومنها : إلى سايس .

ومنها : إلى جُبْل .

ومنها : إلى النعمانية .

ومنها : إلى فم الدرب .

---

(١) « دير الدير » فى تشريف الأيام والعصور .

(٢) « بدن مزية » فى تشريف الأيام والعصور .

(٣) « الفاروث » فى زبدة الفكرة .
الفاروت : قرية على شاطئ دجلة بين واسط والمذار — معجم البلدان .

(٤) « المباركة » فى تشريف الأيام والعصور .

(٥) « حيزرانه » فى تشريف الأيام والعصور .

ومنها : إلى الحديدة، ثم إلى الكيل ، ثم إلى المدائن ، ثم إلى بغداد، ومن بغداد سلكوا الجادّة(١) المسلوكة إلى الشام ، ثم إلى مصر .

ومنها : أن في هذه السنة توجّه الملكان الصالح والأشرف ولدا مولانا السلطان الملك المنصور إلى جهة العبّاسة ، فرمى الصالح كُرْكياً(٢) بالبندق ، وادعى لصاحب حماة(٣) ، وأرسله إلى المذكور صحبة الركن بيبرس الفارقاني ، وذلك لأنه(٤) كان كبيرا في البندق ، وكان قدمته(٥) صالحيةٌ نجميةٌ ، فاستبشر بذلك ، وقال ما أعظم هذه المنائح وأنا غلام من صالح إلى صالح ، وضربت البشائر بحماة أياما ، وبالغ في التهانى إجلالا وإعظاما ، وأوسع للرسول الحامل للطير إكراما ، وجهز التقادم من القسيّ المُذَهّبة والجَراوات المزركشة والبنادق المصنوعة من الذهب ، والخلعة الفيار المعلمة .

---

(١) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٤٣ أ — ١٤٣ ب .

وقد اتبع رسول سهلان هذا الطريق ليتجنب المرور بسواحل اليمن .

(٢) « كيا » في تشريف الأيام والعصور ص ٥٣ .

الكركى — كراكى : طائر البجعة ، وهى من طيور الشتاء ، ومن الطيور التى يعبر عنها بـ « طير الواجب » ، ويفتخر بصيدها رماة البندق — صبح الأعشى جـ ٢ ص ٦٣ — ٦٤ .

(٣) ادعى لصاحب حماة : أى انتسب له فى رمى البندق .

وصاحب حماة فى ذلك الوقت هو الملك منصور محمد ، المتوفى سنة ٦٨٢ هـ — انظر ما يلى فى وفيات السنة .

(٤) « أنه » فى زبدة الفكرة .

(٥) قِدْمة — قدمات : وسائل تشتمل على حال الرمى بالبندق ، وأحوال الرماه ، وأسماء طير الواجب ، واصطلاح الرماه وشروطهم — صبح الأعشى جـ ١٤ ص ٢٨٢ .

ومنها : أنه نجزت عمارة تربة كان السلطان قد رسم بعملها لوالدة ولده الملك الصالح ، بشدّ الأمير علم الدين الشجاعى ، بالقرب من مشهد السيّدة نفيسة ، نزل السلطان وولده إليها ، وتصدقا فيها ، ورتبا وقوفها وأحوالها .

واستحسن السلطان وجوه المبار، ورآها أنفس الادّخار، فرسم بتعيين مكان تليق أن تبنى فيه مدرسةٌ وتُربةٌ ومارستان بوَسْط القاهرة ، فلم يوجد لذلك إلا دار تعرف بالقُطْبيّة بين القصرين (١) ، فاشتراها السلطان من خاص ماله من وكيل بيت المال بوكالة الأمير حسام الدين نائبه عنه ، وعوّض مَنْ كان ساكنا بها (٢) بالقصر المعروف بقصر الزمُرد ، ورتَّب الأمير علم الدين الشجاعى مشدًّا على العمارة ، وإحضار الآلات [٦٨٦] من جميع الجهات فأظهر من الإهتمام ، وجمع الصُّناع من مصر والشام ، ما لا يُسمع بمثله فى سالف الأيام ، وشرع فى العمارة ، فأخرب قلعة الروضة واستعان بما فيها من الأصناف لعمارة هذا المكان ، واجتهد فيه كل الإجتهاد ، ففرغ البيمارستان بأواوينه الأربعة وشاذرواناته ورخامه وأنهاره الجارية ، وبستانه (٣) ، قبل أن يهل شهر رمضان من هذه السنة ، واستمرّ العمل إلى أن تمّ وكمل على ما نذكره إن شاء الله تعالى (٤) .

(١) الدار القطبية : نسبة إلى الملك المفضل قطب الدين أحمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب ، فقد ظلت فى ورثته حتى أخذها السلطان قلاوون ، وكانت فى الأصل قاعة ست الملك ابنة الملك العزيز بالله الفاطمى — المواعظ والإعتبار جـ ٢ ص ١٤٧ .

(٢) أخذها السلطان قلاوون من ابنة الملك العادل مؤنسة خاتون — السلوك جـ ١ ص ٧١٦ — ٧١٧

(٣) يوجد جزء من حجة وقف السلطان قلاوون به وصف للمدرسة والبيمارستان — انظر الوثيقة رقم ٧٠٦ ج بأرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة ، وانظر أيضا فهرست وثائق القاهرة .

(٤) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٤٣ ب — ١٤٤ أ .

ومنها : أن السلطان أمر لنائب حلب بالإغارة على جهة بلد الأرمن ، فسيّر جماعة مقدمهم الأمير سيف الدين بلبان الشمسى إلى الثنيات ، فنزلوا عليها ونازلوها ، ورموا بالمنجنيقات ، وأحرقوا بُرجا من أبراجها ، وبدنةً من أسوارها ، فصاح أهلها الأمان ، وطلبوا من يتحدث معهم ، فتوجّه اثنان من الحلقة الحلبيّة ، وتحدّثا معهم بتقرير الحال على أن يقوموا بسبعة عشر ألف درهم برسم تطابيق الخيول ، وعجّلوا منها ألفى درهم ، وأحضروا رهينةً على بقية المبلغ ، وبينماهم يتحدثون (١) حضر قراغول التتار المجردين بالبلاد ، وكان مقدمهم سيف الدين جنغلى ابن البابا إلى جبل ليسُون ، طالب فرصة ، وأرسل جماعة من القراغول فتوقع عليهم (٢) اليزك الإسلامىّ وجهًا لوجه ، واقتتلوا ، فقتل أكثر التتار ، وأمسك منهم ستة أنفار ، واستشهد الأمير شهاب الدين حيدر ، ثم عاد العسكر من هذه الغارة وقد حرقوا قلعة التينى ، فلم يتمكن الأرمن من الإقامة بها بعد ذلك (٣) .

ومنها : أن فى العشر الأول من شعبان جاء سيلٌ عظيم بدمشق ، والسلطان الملك المنصور بها ، وأخذ ما مرّ به من العمارات وغيرها ، واقتلع الأشجار ، وأهلك الحيوان ، [و] (٤) الكثير من الناس ، والخيل والجمال ، وذهبت بما لا يحصى من الأقمشة والعدد والخيم والأموال ، وكان السلطان قد أمر بالخروج من دمشق الى

(١) « وبينما هم فى المفاوضة » فى زبدة الفكرة .

(٢) « فوقع » فى زبدة الفكرة .

(٣) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٤٦ ب .

(٤) [ ] إضافة تتفق مع السياق .

مصر ، وقرر أن يكون توجهه فى الحادى عشر من شعبان ، وأحضرت جمال الخزائن والبيوتات ، ولم يبق إلا إخراج الخزائن والآلات ، فرسم السلطان أن يكون نزول الجمال بعيدا عن الأبواب ، وأن يُؤَخَّر إخراج الخزائن ذلك اليوم ، توفيقا من الله الذى ألهمه الصواب ، فلما [٦٨٧] كانت ليلة الأربعاء العاشر من شعبان من هذه السنة هجم السيل ، ومدّ [لما جَنّ الليل] (١) وجاءَ كأنّه الجبال ، وجرى ما ذكرنا ، ولم يدر أحد من أىّ جهة اندفع ، فوصل السلطان قلعته يوم الثلاثاء ثامن عشر رمضان المعظم من هذه السنة (٢) .

وفيها : « .. .. » (٣) .

وفيها : حج بالناس علم الدين سنجر الباشقردى .

---

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٢) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٥٠ ب — ١٥١ أ .

(٣) « ... ... » بياض فى الأصل .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

الصدر الكبير عماد الدين أبو الفضل محمد[(1)] بن القاضي شمس الدين أبي نصر محمد بن هبة الله بن الشيرازي .

صاحب الطريقة المنسوبة في الكتابة ، سمع الحديث ، وكان من رؤساء دمشق وأعيانها ، توفى في هذه السنة في شهر صفر[(2)] .

الشيخ[(3)] الإمام العلامة شيخ الإسلام شمس الدين أبو محمد عبد الرحمن بن الشيخ أبي عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة الحنبلي .

أول من ولي قضاء الحنابلة بدمشق ، ثم تركه وولى ابنه نجم الدين[(4)] القضاء

(١) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي ، نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٩ ورقة ٣١ ، درة الأسلاك ص ٧٥ ، الوافي جـ ١ ص ٢٠١ رقم ١٢٦ ، تالي كتاب وفيات الأعيان ص ١٥٠ رقم ٢٤٢ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٨ ، السلوك جـ ١ ص ٧١٨ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٨٣ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٠٢ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٥٩ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٢٨٦ .

(٢) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٠٢ .

(٣) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي ، درة الأسلاك ص ٧٤ ، تالي كتاب وفيات الأعيان ص ١٠٦ رقم ١٦٠ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٧٦ ، السلوك جـ ١ ص ٧٢٠ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٨١ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٠٢ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٥٨ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٧ ص ٢٨٦ .

(٤) هو أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن قدامة المقدسي الحنبلي ، نجم الدين أبو العباس ، المتوفى سنة ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م — المنهل الصافي جـ ١ ص ٣٣٠ رقم ١٧٨ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٢٩ ، ١٦٤ .

وتدريس الأشرفية بالجبل، وقد سمع الحديث الكثير، وكان من علماء المسلمين، وأكبرهم ديانة فى عصره وأمانة، مع هدى صالح، وسمت حسن، وخشوع ووقار، وكانت وفاته ليلة الثلاثاء سلخ ربيع الآخر من هذه السنة، عن خمس وثمانين سنة، ودفن فى مقبرة والده (١).

العلامة شمس الدين أبو عبد الله محمد (٢) بن محمد بن عباس بن أبى بكر بن جَعْوان الأنصارى الدمشقى، المحدث، الفقيه الشافعى، البارع فى النحو واللغة.

وقال ابن كثير: سمعت الشيخ تقى الدين بن تيمية، وشيخنا الحافظ أبا الحجاج المزى يقول كل واحد منهما: إن هذا الرجل قرأ مسند الإمام أحمد، رحمه الله، وهما يسمعان فلم يَعُدَّا عليه لحنة (٣)، وناهيك بهذين ثناء، هذا وهماهما (٤).

الخطيب محيي الدين يحيى (٥) بن الخطيب قاضى القضاة عمادالدين عبد الكريم بن قاضى القاضى جمال الدين بن الحرستانى الشافعى، خطيب دمشق، ومدرس الغزاليــة (٦).

---

(١) البداية والنهاية جـ١٣ ص٣٠٢.

(٢) وله أيضا ترجمة فى: المنهل الصافى، درة الأسلاك ص٥٧، الوافى جـ١ ص٢٠٢ رقم١٢٧، النجوم الزاهرة جـ٧ ص٣٦٠، البداية والنهاية جـ١٣ ص٣٠٢، شذرات الذهب جـ٥ ص٣٨١، تذكرة النبيه جـ١ ص٨٤.

(٣) «فلم يضبط عليه لحنة متفقا عليها» — البداية والنهاية.

(٤) البداية والنهاية جـ١٣ ص٣٠٢.

(٥) وله أيضا ترجمة فى: المنهل الصافى، النجوم الزاهرة جـ٧ ص٣٦٠، البداية والنهاية جـ١٣ ص٣٠٢ — ٣٠٣، شذرات الذهب جـ٥ ص٣٨٠.

(٦) المدرسة الغزالية بدمشق: كانت بالزاوية الغربيــة من الجامع الأموى — الدارس جـ١ ص٤١٣؛ خطط الشام جـ٦ ص٨٧.

وكان فاضلا بارعا ، أفتى ودرّس ، وولى الخطابة ، والغزالية بعد أبيه ، وكانت وفاته فى جمادى الآخرة منها ، عن ثمان وستين سنة ، ودفن بسفح جبل قاسيون .

الشيخ الإمام العالم شهاب الدين عبد الحليم[1] بن الشيخ الإمام العلّامة العالم تقى الدين بن تيمية مفتى الفِرَق .

وكان الشيخ شهاب الدين له فضيلة حسنة ولديه فوائد كبيرة ، وكان له كرسىٌّ [٦٨٨] بجامع دمشق يتكلم عليه عن ظهر قلبه ، وإليه مشيخة دار الحديث السكّريّة بالقصاعين ، وبها سكنه ، ثم درّس ولده الشيخ تقى الدين أول السنة الآتية ، ودفن بمقابر الصوفية .

الشيخ محمد اليمنى ، خادم الشيخ سفيان أبى عبد الله .

أقام فى القاهرة على قدم التجريد عشر سنين ، وكان يأكل فى كل عشرة أيام أكلة واحدة ، وكان لا يلبس المخيط ، وكانت إقامته بباب سعادة ، وتوفى يوم الاثنين الثانى عشر من جمادى الآخرة ، ودفن بباب النصر .

الشيخ عبد الرحمن[2] ، رسول الملك أحمد سلطان ملك التتار .

توفى فى هذه السنة ، وكانت وفاته قريبة من وفاة مُرسِله ، وقد ذكرنا بعض ترجمته ، وكان هو تلميذ الشيخ موفق الدين الكواشى .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٣٦٠ ، البداية والنهاية جـ١٣ ص٣٠٢ ، تذكرة النبيه جـ١ ص٨٥ ، شذرات الذهب جـ٥ ص٣٧٦ .

(٢) ورد ذكر وفاته فى وفيات سنة ٦٨٣ هـ فى تاريخ ابن الفرات جـ٨ ص ١٢ .

ويقال : إن موفق الدين أعطاه كتابا فى علم السيمياء، وقال له : اخرج اغسل هذا فى البحر ، فخرج فأودعه عند من يثق به ، وادعى أنه غسله ، وبعد ذلك اشتغل به وتمهّر فيه ، ودخل على الخواتين بهذا العلم ، وحظى عند المغول ، وعند الملك سلطان أحمد ، كما ذكرناه .

الأمير الكبير ملك عرب آل مَرِين أحمد بن حجي (١) ، توفى فى هذه السنة بمدينة بُصْرَى .

الملك المنصور ناصر الدين أبو المعالى محمد (٢) بن الملك المظفر محمود بن الملك المنصور محمد بن الملك المظفر عمر بن شاهنشاه بن أيوب ، صاحب حماة .

توفى فى هذه السنة ، كذا أرّخ بيبرس تاريخ وفاته فى هذه السنة (٣) .

وذكره الملك المؤيَّد ابن ابنه فى تاريخه فى سنة ثلاث وثمانين وهو أجْدَرُ بذلك، فقال (٤) ، ابتدأ به المرضُ فى أوائل شعبان بعد عوده من خدمة السلطان من

(١) هو أحمد بن حجى بن بريد البرمكى ، أمير آل مرا .

وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ١ ص٢٦٢ رقم ١٣٩ ، السلوك جـ١ ص٧٢١ ، البداية والنهاية جـ١٣ ص٣٠٣ ، الوافى جـ٦ ص٣٠٤ رقم ٢٨٠٥ ، شذرات الذهب جـ٥ ص٣٧٦ ، النجوم الزاهرة جـ٧ ص٣٥٧ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة جـ٩ ورقة ١٥١ أ ، ب ، المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص٧٧ ، الوافى جـ٥ ص١١ رقم ١٩٦٦ ، البداية والنهاية جـ١٣ ص ٣٠٤ — ٣٠٥ ، شذرات الذهب جـ٥ ص٣٨١ ، السلوك جـ١ ص٧٢٦ ، تذكرة النبيه جـ١ ص٨٨ ، كنز الدرر جـ٨ ص٢٦٥ ، تاريخ ابن الفرات جـ٨ ص١٣ — ١٤ ، تشريف الأيام والعصور ص ٢٣ .

(٣) زبدة الفكرة جـ٩ ورقة ١٥١ أ ، ب .

(٤) المختصر جـ٤ ص١٨ — ١٩ ، وانظر أيضا مصادر الترجمة — فيما عدا زبدة الفكرة ، فقد أجمعت على أن وفاة صاحب الترجمة كانت سنة ٦٨٣ هـ .

دمشق ، وكان مرضه حمى صفراوية داخل العروق ، ثم صلح مزاجه بعض الصلاح ، فأشار الأطباء بدخوله الحمام ، فدخلها ، فعاوده المرض ، وأحضر له الأطباء من دمشق مع من كان فى خدمته منهم ، واشتد به ذات الجنب ، وعالجه بما يصلح لذلك فلم يفد شيئًا ، وفى مدة مرضه أعتق مماليكه ، وتاب توبة نصوحًا ، وكتب إلى السلطان الملك المنصور قلاون يسأله فى إقرار ابنه الملك المظفر محمود(1) فى ملكه على قاعدته ، واشتد به مرضه حتى توفى بكرة حادى عشر شوال من سنة ثلاث وثمانين وستمائة ،وكانت ولادته فى الساعة [٦٨٩] الخامسة يوم الخميس لليلتين بقيتا من ربيع الأول سنة اثنتين وثلاثين وستمائة ، فيكون عمره إحدى وخمسين سنة وستة أشهر وأربعة عشر يوما ، وملك حماة يوم السبت ثامن جمادى الأولى سنة اثنتين وأربعين وستمائة ،وهو اليوم الذى توفى فيه والده الملك المظفر محمود ، فيكون مدة ملكه إحدى وأربعين سنة وخمسة أشهر وأربعة أيام .

وكان أكبر أمانيه أن يعيش حتى يسمع جوابه من السلطان فيما سأله من إقرار ولده الملك المظفر محمود على حماة ، فاتفقت وفاته قبل وصول الجواب ، وكان قد أرسل فى ذلك على البريد مملوكه سنقر أمير آخور ، فوصل بالجواب من السلطان .

بعد البسملة .

المملوك قلاون .

أعز الله أنصار المقام العالى المولوى السلطانى الملكى المنصورى الناصرى ، ولا عدمه الإسلام ، ولا فقدته السيوف والأقلام ، وحماه من ذى داء ، وعود

(1) توفى سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م — المنهل الصافى .

مُوَاد ، والمام الآلام ، المملوك يجدّدُ الخدمةَ التى كان يودُّ تجديدها شفاها ، ويصف ماعنده من الألم لما ألمَّ بمزاجه الكريم ، حتى أنه لم يكد يفتح بحديث فاها ، ولما وقفنا على كتاب المولى المتضمن بمرض الجسد المحروس ، وما انتهى إليه الحال ، كادت القلوب تنشق ، والنفوس تذوب حزنا ، والرجاءُ من الله أن يتداركه بلطفه ، وأن يمنّ بعافيته التى رفع فى مسألتها يديه وبسط كفيه ، وهو يرجو من كرم الله معاجلةَ الشفاء ، ومداركةَ العافية المُوردةِ بعد الكدر مورد الصفا ، وأن الله يفسح فى أجل المولى ، ويهبه العمر الطويل .

وأما الإشارة الكريمة إلى ماذكره من حقوق يوجبها الإقرار ، وعهود آمنت بدورها من السرار ، ونحن نحمد الله ، فعندنا تلك العهود ملحوظة ، وتلك المودّات محفوظة ، فالمولى يعيش قرير العين ، فما ثمّ إلّا ما يسرُّه من إقامة ولده مقامه ، لا يحول ولا يزول ، ولا يرى على ذلك ذلّة ولا ذهول ، ويكون المولى طيب النفس ، مستديم الأنس بصدق العهد القديم ، وبكل مايؤثر من خير مقيم .

ولما وصل الكتاب اجتمع لقراءته الملك الأفضل ، والملك [٦٩٠] المظفر ، وعلم الدين سنجر المعروف بأبى خُرص ، وقرئَ عليهم ، فتضاعف سرورهم بذلك .

وكان الملك المنصور محمد ملكا ذكيا ، فطنا ، محبوب الصورة ، وكان له قبول عظيم عند ملوك الترك ، وكان حليما إلى الغاية ، يتجاوز عما يكره ويكتمه ، ولا يفضح قائله ، من ذلك أن الملك الظاهر بيبرس قدم مرةً إلى حماة ونزل بالدار المعروفة الآن بدار المبارز ، فرفع إليه أهل حماة عدة قصص يشكون فيها على الملك

المنصور ، فأمر الملك الظاهر دواداره سيف الدين بلبان الرومى أن يجمع القصص ولا يقرأها ، ويضعها فى منديل ويحملها إلى الملك المنصور صاحب حماة ، فحملها الدوادار المذكور ، وأحضرها إلى الملك المنصور ، فقال : إنه والله لم يطلع السلطان — يعنى الملك الظاهر على قصة منها ، وقد حملها إليك ، فتضاعف دعاء الملك المنصور لصدقات الملك الظاهر ، وخلع على الدوادار ، وأخذ القصص ، فقال بعض الجماعة : سوف يُرَى من تكلم بشىء لا ينبغى ما يلتق ، وتكلموا بمثل ذلك ، فأمر الملك المنصور بإحضار نار وحرق تلك القصص ، ولم يقف على شىء منها ، لئلا يتغير خاطره على رافعها ، وله مثل ذلك كثير .

ذكرُ تملك الملك المُظَفَّر حَماة :

ولما بلغ السلطان الملك المنصور قلاون وفاة الملك المنصور صاحب حماة ، قرّر ابنه الملك المظفر محمود بن الملك المنصور محمد فى ملك حماة على قاعدة والده ، وأرسل إليه ، وإلى عمه الملك الأفضل ، وإلى أولاده التشاريف ، ومكاتبة إلى الملك المظفر بذلك ، ووصلت التشاريف ولبسوها فى العشر الأخير من شوال من هذه السنة — أعنى سنة ثلاث وثمانين وستمائة .

ونسخة الكتاب الواصل من السلطان : بعد البسملة .

المملوك قلاون .

أعز الله نصرة المقام العالى المولوى السلطانى الملكى المظفرى المنصورى (١) ، ونزع عنه لباس البأس ، وألبسه حُلَل السعد المجلوة على أعين الناس ، وهو ندم خدمة بولاء ، قد انبجست عيونه ، وتأسّست مبانيه ، وتناسبت ظنونه ، وحلّت رهونه ، وخلت ديونه ، وأثمرت غصونه ، وزهت أفنانه وفنونه .

ومنها : وقد سيَّرنا المجلس السّامى جمال الدين أقوش الموصلى الحاجب ، وأصحبناه [٦٩١] من الملبوس الشريف ما يُغيِّر به لباس الحزَن ، ويجلى فى مطلعه ضياءُ وجهه الحسَن ، وتنجلى بذلك غيوم تلك الغموم ، وأرسلنا أيضا صحبته ما يلبسه هو وذووه ، كما يبدو البدر بين النجوم .

وآخر الكتاب — وكتب فى العاشر من شوال (٢) سنة ثلاث وثمانين وستمائة .

وكان قد وقع الإتفاق عند موت الملك المنصور على إرسال علم الدين سنجر أبو خُرص الحموى لأجل هذا المُهم ، فلاقى سنجر المذكور جمال الدين الموصلى بالخلع فى أثناء الطريق ، فأتمّ سنجر أبو خُرص السير ووصل إلى الأبواب الشريفة السلطانية ، فتلقاه السلطان بالقبول ، وأعاده بكل ما يجب ويختار . وقال : نحن واصلون إلى الشام ونفعل مع الملك المظفر فوق ما فى نفسه ، فعاد علم الدين سنجر أبو خُرص إلى حماة ومعه الجواب بنحو ذلك .

(١) « المنصورى » ساقط من تذكرة النبيه جـ ١ ص ٨٩ .
ووردت « التقوى » فى المختصر جـ ٤ ص ٢٠ .

(٢) « فى عشرين شوال » فى المختصر جـ ٤ ص ٢٠ .

السلطان تُوكُدار بن هلاوُن بن باطو بن جنكزخان الملقب فى الإسلام أحمد سلطان (١)، قتل فى هذه السنة، قتله عمه أرغون كما ذكرناه مفصلا.

السُلطان غياثُ الدين كيخسرو بن ركن الدين قليج أرسلان صاحب الروم (٢).

قتل فى هذا السنة، وكان سبب قتله أن أرغون توهم [فيه] (٣) أنه أعانَ أحمد سلطان على قتــل عمه قنغرطاى بن هلاون، فإن أحمد سلطان كان قد استدْعاه إلى الأُرْدُو (٤)، عند ما جلس فى السلطنة، وكان قنغرطاى مقيما ببلاد الروم من أيام أبغا، هو والسلطان غياث الدين، الأمير عز الدين محمد بكلْبَركى (٥) بن سَلْمان أخى البَرْواناه بين يَدَيْه، والصاحب فخر الدين خواجا على، وكان النُوَّاب عن أحمد سلطان صَمغَار وطُقْرِيل وبلُرْغى فى الروم بثلاثة تُمانات، فلما تقاعد قنغرطاى عن المَسير إلى أُرْدُو أحمد سلطان، أرسل يَحُثّهُ ويستدعيه بسُرعة، فلم يمكنه التأخير، فتــوجه هو والسلطان غياث الدين، وكان قد تزوج بأختــه بنت السلطان ركن الدين، فلما وصل أُرْدُو قتله أحمد سلطان لوقته، وعزل غياث الدين عن السلطنة،

---

(١) هو أحمد سلطان المسمى توذكار بن هلاون.

وله ترجمة أيضا فى: المنهل جـ٢ ص٢٠٤ رقم ٣٣٤، الوافى جـ٨ ص٢٢٧ رقم ٣٦٦٤، النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٣٦٢، شذرات الذهب جـ٥ ص ٣٨١، جامع التواريخ المجلد الثانى جـ٢ ص٨٨ وما بعدها، العبر جـ٥ ص٣٨١، السلوك جـ١ ص٧٢٧، البداية والنهاية جـ١٣ ص٣٠٣، تذكرة النبيه جـ١ ص٩٠.

(٢) وله أيضا ترجمة فى زبدة الفكرة جـ٧ ورقة ١٤٥ أ، ب، المنهل الصافى، السلوك جـ١ ص٨١٥

(٣) [ ] إضافة من زبدة الفكرة.

(٤) «بلد» فى زبدة الفكرة.

(٥) «بكلبركى» ساقط من زبدة الفكرة.

ورسم له فى الإقامة فى أرزنكان ، فعاد إليها معزولا ، وأقام بها مهزولا ، وفوض السلطنة ببلاد الروم(1) إلى السلطان مسعود بن السلطان عز الدين[٦٩٢] كيكاوس ، فاستقر بها(2) ، وليس له منها إلا الاسم ، والحكم كله فيها للتتار وشحانيهم ، فلما جلس أرغون فى السلطنة دسّ إليه وهو فى أرزنكان من خنقه بوتر ، فمات فى هذه السنة(3) .

الأشكرى صاحب القسطنطينية ، واسمه ميخائيل(4) .

هلك فى هذه السنة(5) ، وملك بعده ولده اندرونيكوس(6) ، وتسوّج ، ولقب الدوقس الانجالوس الثاولوغس ، وكانت(7) رسل السلطان قد توجّهوا إلى والده ميخائيل بنسخة الأيمان ، فحلف بها ولده المذكور ، فجهّز السلطان إليه الأمير ناصر الدين محمد بن المحِنى الجزرى رسولا بهدية جليلة ، وجهّز السيفى بلبان الحلبى الكبير ، ومظفر الدين موسى بن نمرش رسُلا إلى تدَان منكو ونوغاى وقيدو ، ومعهما الأمير قطقان وشمس الدين بن أبى الشوارب .

---

(١) «السلطنة وحكم بلد الروم» فى زبدة الفكرة .

(٢) «فاستقر بها إلى يومنا هذا» فى زبدة الفكرة .

(٣) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٤٥ أ ، ب .

(٤) وله أيضا ترجمة فى المصادر العربية مثل : زبدة الفكرة جـ٩ ورقة ١٤٦ أ ، المنهل الصافى ، المختصر جـ٤ ص١٨ ، السلوك جـ١ ص٧١٤ ، تشريف الأيام والعصور ص٤٠ .

وهو ميخائيل الثامن باليولوجوس الذى حكم فى الفترة من ١٢٥٩ — ١٢٨٢ م .

(٥) «هلك فى هذه السنة» ساقط من زبدة الفكرة .

(٦) هو أندرونيقوس الثانى باليولوجوس الذى حكم فى الفترة ١٢٨٢ — ١٣٢٨ م .

(٧) «وكان» فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

وميخائيل هذا [المتوفى](١) لم يكن له أولا مملكة بالقسطنطينية ولا لأبيه ، بل كان الملك بها لغيره ، وكان هو من كبار البطارقة ، وله قلعة من القلاع ، وهو مقيم بها ، فاتفق مجيء الفرنج لحصار القسطنطينية ، فاستولوا عليها ، واجتمع ميخائيل المذكور مع جماعة من عسكر القسطنطينية وقال لهم : إن أنا تحيلت وأزحت الفرنج منها أكون ملكا عليكم ، فأجابوه إلى شرطه ، فقصدها في جماعة ممن اجتمع إليه من البطارقة وحصرها ، وقاتل الفرنج الذين بها أياما ، ثم استجلى مكانا من السور ، فطلع منه هو وأصحابه ، والفرنج لا يشعرون ، فإن المدينة وسيعة جدا ، فما أفاقهم إلا وثوبه بهم ، وبذل السيف فيهم ، فقتل منهم جماعة ، وهرب من نجا منهم إلى المراكب ، واستقر بالمدينة ، وجلس على كرسي المملكة الأشكرية ، وأخذ الذي كان متملكا قبله ، وكان شابا فسمله وعزله (٢) .

والدة الملك السعيد بن الملك الظاهر بيبرس (٣) ، ماتت في هذه السنة ، وهي بنت حسام الدين بركة خان مقدم الخوارزمية ، الذين ذكرنا وصولهم إلى الديار المصرية وأخبارهم في الأيام الصالحية النجمية الأيوبية ، والله أعلم .

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .
(٢) زبدة الفكرة جـ٩ ورقة ١٤٦ أ ، ب .
(٣) زبدة الفكرة جـ٩ ورقة ١٥١ ب .

فصل فيما وقع من الحوادث
في السنة الثالثة والثمانين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة هو : الحاكم بأمر الله العباسي .

وسلطان البلاد المصرية والشامية : الملك المنصور قلاون الألفي .

ونائبه في [٦٩٣] الشام : حسام الدين لاجين المنصوري ، وفي حلب : الأمير شمس الدين قراسنقر مملوكه .

وصاحب حماة : الملك المظفر بن الملك المنصور .

وصاحب بلاد الروم : السلطان مسعود بن السلطان عز الدين كيكاوس ، ولكنه مقهور تحت أيدي التتار ، وليس له إلا اسم السلطنة فقط .

والحاكم بالبلاد الشرقية بكمالها أرغون بن أبغا بن هلاون .

وصاحب البلاد الشمالية التي كرسيها صَرَاى : تُدان مَنْكُو بن طغان بن باطوخان ابن دُوشي خان بن جنكزخان .

ذكر ما جريات السلطان الملك المنصور رحمه الله :

منها : أنه توجه من الديار المصرية إلى الديار الشامية ، ووصل دمشق يوم السبت ثاني عشر جمادى الآخرة (1) ، ثم خرج إلى الديار المصرية بعد ثلاثة أيام .

(*) يوافق أولها الإثنين ٢٠ مارس ١٢٨٤ م .

(1) ذكر ابن الفرات أن سبب سفر السلطان الملك المنصور كان « بسبب الاجتماع بالشيخ عبد الرحمن ومن معه من التتار رسل الملك أحمد أغا سلطان بن هولاكو ملك التتر » — تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٤ ، وانظر أيضا تشريف الأيام والعصور ص ٦٨ — ٦٩ .

بينما أورد العيني وفاة الشيخ عبد الرحمن ضمن وفيات عام ٦٨٢ هـ — انظر ماسبق ص ٣١٣ .

ومنها : أنه عزل علم الدين سنجر الدواداري عن شد الدواوين، وولى عوضه الأمير شمس الدين سنقر الأعسر(١) .

ومنها : أنه عزل الصاحب برهان الدين السنجاري عن الوزارة ، وولى عوضه فخر الدين لقمان .

ومنها : أنه أنعم على مملوكه بيبرس الدوادار صاحب التاريخ بإمرة طبلخاناة بخمسين فارسًا ، وأعطاه إقطاع الأمير عز الدين أيبك الأفرم الصالحي أمير جاندار، ونقله إلى مائة فارس، وكتب له منشورا بالخبز المذكور تاريخه الخامس من شوال ، ونسخة المنشور .

بسم الله الرحمن الرحيم .

الحمد لله مجزل العطاء، ومجدد النعماء، وممطر ديم الجود المستهلة بالأنواء ، الذي شيد للإسلام ركنا ، وبلغ كلا من أولياء الدولة ما كان يتمنى ، نحمده حمدا يستغرق أنواع المحامد لفظا ومعنى ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة تحل قائلها من الكرامة بالمقام الأعلى والمحل الأسنى ، ونشهد أن محمدا صلى الله عليه وسلم(٢) عبده ورسوله الذي كان من ربه كقاب قوسين أو أدنى صلى الله عليه وعلى آله وصحبه صلاة تتوالى وتتكرر فرادى ومثنى وبعد :

---

(١) هو سنقر بن عبد الله الأعسر المنصوري ، توفي سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م — المنهل الصافي .

(٢) « صلى الله عليه وسلم » ساقط من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٥٤ ب .

فإنك أولى من خُصّ من النعم بأحسنها ، ومَنْ قُلِّدَ من العقود النفيسة بأز ينها وأثمنها من نشأ على طاعة الدولة الشريفة وغُذِّى بلبانها ، و إذا عُدَّ الأبطال كان من أكبر فرسانها وشجعانها ، وهو لسان المملكة المأمون على [٦٩٤] الأَسرار ، ووليّها الذى لا تتوارى شمس إخلاصه بحجاب ، ولا بدرُه بسرار ، ولما كان المجلس السامى الأمير الأجلّ الكبير الأوحد المؤيد النصير العضد الاسفَهسلّار الغازى ركن الدين ، عز الإسلام مجد الأنام ، نصرة المجاهدين ، لسان المملكة ، عضد الملوك والسلاطين ، بيبرس الدوادار الملكى المنصورى ، أدام الله تمكينه ورفعته ، طرازَ هذه الحُلة ، ونتيجة هذه الأدلة ، وفارس هذا (١) المضمار ، ولرُكنه فى المَهَامِّ يُسْتَنَدُ ، و إليه فى مواقف الحُروب يُشَار .

خرج الأمر العالى المولوى السلطانى الملكى المنصورى السيفى ، أعلاه الله وشرفه ، أن يجرى بإقطاعه مارسم به الآن من الإقطاع والجهات الديوانيّة لخاصّه ولمن يستخدمه من الأجناد ، وذلك لاستقبال مغل سنة اثنتين وثمانين وستمائة (٢) .

وكان السلطان الملك المنصور أنعم على مملوكه بيبرس المذكور فى السنة [الماضية] (٣) بخمسة عشر طواشيا ، واستقر فى زمرة الأمراء ، وكتب له منشور بذلك ، وألبس التشريف والشربُوش .

ونسخة منشوره بإنشاء القاضى محيى الدين بن عبد الظاهر وخطه :

---

(١) « هذه » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٢) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٥٤ ب ، ١٥٥ أ .

(٣) [ ] إضافة للتوضيح — انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٥١ ب ، ١٥٢ أ .

بسم الله الرحمن الرحيم .

أما بعد حمد الله الذى علم بالقلم ، وجعله مُؤاخى السيف فى مُهمّات الأُمَم ، وطاول به السمهرىّ ، فنصب هذا لرفْع العِلم وهذا لحز العَلَم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المخصوص بأنواع الحكم، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ماتنسّمت ثغور الديَم ، وشابت بالأنوار لمم الظلم .

فإنه لما كان المجلس السامى الأميرى الأجلّ الكبير المختار [المجاهد الأوحد الأعز المرتضى الأكمل ركن الدين، مجد الإسلام] (١) شرف الخواصّ، بهاءُ الأمّة ، فرس الدولة ، واسطة المملكة ، اختيار الملوك والسلاطين ، بيبرس الدوادار المنصورى ، أدام الله رفعته وسُمُوّه، ممن ربّته النعماءُ فى حجرها، وصرّفته الآلاءُ فى نهيها وأمرها، وأنشأته المملكة تحت جناحها، ورتّبته السلطنة فى حمل ما هو أفخر وأفخم من حمل سلاحها، وحَبته كلما (٢) يستدعى عطفها ويستديم شكرها له ووصفها، ويكون أحد معقباتها التى ما بين يديها من الأمر ولسواه من ذوى الأسلحة ما خلفها ، وله نباهةٌ تقدّمه [٦٩٥] ووجاهةٌ تفخّمه ، وقدم خدمة يُرشّحه ، وعظم حُرمة تُوَسّع له مجال الاصطفاء وتفسحه ، اقتضى حسن الرأى الشريف أَنْ يُنمّى هلالَه ، ويُدرج إقباله ، ويقرب مناله ، فلذلك خرج الأمر العالى المولوى السلطانى الملكى المنصورى السيفى ، لا برح يَجُود ، وباستخلاصه يسُود من الأولياء من يسود، أن يجرى فى إقطاعه ما رسم له الآن من الإقطاع لخاصّته ولمن

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٥٢ أ .

(٢) « كما » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

يستخدمه من الأجناد الجياد ، المعروفين بالخدمة بالبرك التام والعُدّة الكاملة ، والعِدّة الخاصّة ، وخمسة عشر[(١)] طواشيا .

وكان تاريخ هذا المنشور المُبَارك رابع عشر ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وستمائة[(٢)] .

ذكر بقيّة الحوادث :

منها : أن فى هذه السنة ، كملت عمارة المدرسة المنصورية والبيمارستان والقبة والتُربة ومكتب السبيل بالقاهرة المحروسة بيْن القصرين ، وجميع مرافقها وما يتعلق بها ، وأظهر الأمير علم الدين الشجاعى فى نجاز هذه العمائر العظيمة ، التى لم يسمع بمثلها فى هذه المدة القريبة ، ما تعجز الفراعنة عنه ، وتقصر الهمم دونه ، مع أفانين البنيان والأوضاع ، وغرائب الترخيم والأدهان[(٣)] وسائر الأنواع[(٤)] .

---

(١) « خمس عشرة » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٢) زبدة الفكر جـ ٩ ورقة ١٥٢ أ ، ١٥٢ ب .

(٣) « والإذهاب » أى استخدام الذهب فى الدهان — فى زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٥٢ ب .

(٤) انظر وثائق وقف السلطان قلاوون وهى : وثيقة رقم ٧٠٦ ج أوقاف ، وهى جزء من حجة وقف عمائر السلطان قلاوون بها وصف المدرسة والبيمارستان ، والوثيقة ١٠١٠ أوقاف وصورتها بمجموعة المحكمة الشرعية بدار الوثائق القومية رقم ٢/١٥ ، وهى أوقاف على مصالح البيمارستان ، والوثيقة ١٠١١ أوقاف ، وهى على مصالح البيمارستان أيضا ، والوثيقة ٧٠٨ ج وهى عبارة عن وثيقة إيجار رواق بالبيمارستان المنصورى ، وانظر خلاصة شروط كتب وقف السلطان قلاوون فى الوثيقة رقم ١٠١٢ أوقاف — فهرست وثائق القاهرة .

وانظر ملاحق الجزء الأول من كتاب تذكرة النبيه لابن حبيب الحلبى حيث نشرت الوثيقة ١٠١٠ أوقاف وصورتها ٢/١٥ محكمة .

وانظر أيضا الأوقاف والحياة الاجتماعية ص ١٥٧ وما بعدها .

ووصف الشعراء فنون هذه العمائر وبدائع إعجازها الذى يذهل الأبصار والبصائر ، فكان مما قيل فى ذلك قصيدة مطولة أنشأها شرف الدين البُوصيرى الشاعر ، فمن مختارها هذه الأبيات :

جوارُك من جَوْر الزمان يُجيرُ		وبِشْرك للرَّاجى نَداك بَشيرُ

ومنها بعد المديح :

بَنى ما بَنى كِسرى وما قلت مؤمن		يُبَاهى به فيها بناه كفُورُ
وَدُكٌّ على تقوى الإله أساسُهُ		كما دُكَّ بالواد المقدّس طُورُ
جحارته السُّحبُ الثقال تسوقُها		على عجلٍ سَوقًا صَبًا ودَبُورُ
ومنها نُجُومٌ فى بُروج مجرّة		على الأرض تبدو تارةً وتغورُ
يضيق بها السبل الفجاج فلا يُرى		بها للرياح العاصفات مسيرُ
فكم صخرة عاديةٍ قذفت بها		إليه سهولٌ جمةٌ(١) ووعورُ
ومن محمد فى همة الدهر فترةٌ		وفى باعه من أن تجمَّ قصورُ

[٦٩٦]

أشار لها فانقاد سهلًا عسيرُها		إليه وما أمرٌ عليه عسيرُ
فأذنة كالنجم تشرق فى الدُّجى		عليها هدى للعالمين ونورُ
ومن حيث ما وجهت وجهك نحوها		تلقتك منها نضرةٌ وسرورُ
يمدُّ إليها الحاسدُ الطرف حسرةً		فيرجع عنها الطرف وهو حسيرُ

(١) « جمة » فى زبدة الفكرة .

فكم حسدتها فى الكمال كواكبٌ وغارت عليها فى العلوّ بدورُ
إذا قام يدعو الله فيها مؤذِّنٌ فما هو إلا للنجوم سميرُ
وقبّة مارستان ليس لعلّة عليه وإن طال الزمان مرورُ
صحيحٌ هواءٌ للنفوس بنشره معادٌ وللعظم الرميم نشورُ
تهبّ فتهدى كلّ روح لجسمه كأنّ صباه حين ينفخ صورُ
بجنّته ورقٌ يراسل ماؤه يشوق هديل منها[(1)] وهديرُ
ومدرسة ودّ الخورنق أنه لديها حظيرٌ والسدير غديرُ
مدينة علم والمدارس حولها قرى أو نجوم بدرهنّ منيرُ
تبدّت فأخفى الظاهرية نورها وليس بظهر للنجوم ظهورُ
بناءٌ كأنّ النحل هندس شكله ولانت له كالشمع فيه صخورُ
يرى من يراها أنّ رافع سمكها على فعل ما أعيى الملوك قديرُ
ثمانيةٌ فى الجوّ تحمل عرشها وبعضٌ لبعضٍ فى البناء ظهيرُ
ذكرناها لديها قبة النسر مرة فما كاد نسر الجوّ يطيرُ
فإن نسبت للنسر فالطائر الذى له بالبروج الثابتات وكورُ
بناها سعيدٌ فى بقاع سعيدة بها سعدت قبل المدارس دورُ
فصارت بيوت الله آخر عمرها قصورٌ خلت من سادة وخدورُ
بها عمدٌ كانت أيام عامها ومن عامها لم تمض بعد شهورُ

---

(1) « منهما » فى زبدة الفكرة.

سماويةٌ أرجاؤها فكأنما ... عليها من الوشى البديع ستورُ

رقه يومٌ ضمٌ فيها أئمة ... تدفق منهم للعلوم بحورُ

وما تلك للسلطان إلا سعادةٌ ... يدومُ له ذِكْرٌ بها وأُجورُ

[٦٩٧]

فهل فى ملوك الأرض أو خلفائها ... له فى الذى شادت يداه نظيرُ

وما جنةُ الفردوس فى الأرض غيرُها ... ولا فلكٌ فيه النجوم أثيرُ

فلا زال مبينًا به العلمُ والتقى ... ومُنْهدِمًا كفرٌ علا وفجورُ

ولا زالت الأفلاك طوعا بكلما ... يُريدُ على رغم العدوّ يدورُ(١)

ومنها : أن الأمير حسام الدين طرنطاى نائب السلطنة اهتمّ بحفر بئر نخل(٢) ، وانتفع الحاج بذلك(٣) .

ومنها : أن يعقوبَ المرينى عاد إلى الأندلس ثالث مرة(٤) ، واستطال على أعمالها ، وأثر فيها آثارًا عظيمة ، فخافه محمد بن الأحمر على نفسه ، وأرسل إلى الفونس(٥) يهادنه ويستنجده عليه ، فارسل الفونس كتبه إلى يعقوب وأعلمه أنه

(١) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٥٣ أ — ١٥٤ أ .

(٢) نخل : موضع قديم بشبه جزيرة سيناء ، كان محطة من محطات طريق الحج ، وبها آبار ماء عذب ، وتقع حاليا شرقى مدينة السويس بنحو ١٢٠ كم — القاموس الجغرافى ق ٢ جـ ٤ ص ٢٦٥ .

(٣) زبدة الفكرة جـ ٩ ، ورقة ١٥٤ أ .

(٤) كانت بداية خروج يعقوب المرينى « فى أول يوم من ربيع الثانى من سنة اثنتين وثمانين وستمائة هـ (٢٩ يونية ١٢٨٣ م) » — الأنيس المطرب ص ٣٣٩ .

(٥) هو الفونسو العاشر .

لا يساعدُ ابن الأحمر عليه، ولا يُنجده بإرسال أحد إليه من جهته، وتراسل المريني [والفونس][(١)] وتكاتبا، واتفقا، وحضر الفونس إليه بنفسه، واجتمعا، وأقام عنده أياما، وأهدى إليه هدايا كثيرة، وخيلا، ولُطَفًا، وغيرها، وأهدى إليه المَريني هديّة وخيلا، واتفقا على ابن الأحمر، وعاد الفونس إلى كرسيه[(٢)].

ومنها: أن الشيخ الإمام العلّامة تقي الدين أبا العباس أحمد بن تيميّة درّس بدار الحديث السكرية[(٣)] التي بالقصاعين، وذلك في يوم الاثنين ثامن المحرم من هذه السنة، وحضر عنده قاضي القضاة[(٤)] بهاء الدين بن الزكي الشافعي، والشيخ تاج الدين الفِزاري[(٥)] شيخ الشافعية، والشيخ زين الدين بن المرحل[(٦)]، وزين الدين بن المنجى[(٧)] الحنبلي، وكان درسا هائلا، وجلس الشيخ تقي الدين أيضا يوم الجمعة عاشر صفر في الجامع

---

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٥٥ أ.

(٢) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٥٥ أ.

(٣) دار الحديث السكرية بدمشق: بالقصاعين داخل باب الجابيـة، وقد ولى مشيختها الشيخ شهاب الدين عبد الحليم بن تيمية، وعندما توفى سنة ٦٨٢ هـ، ولى مشيختها الشيخ أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية — الدارس جـ ١ ص ٧٤ — ٧٥.

(٤) هو يوسف بن يحيي بن محمد، بهاء الدين أبو الفضل، الشهير بابن الزكى الشافعي، المتوفى سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م — انظر ما يلى.

(٥) هو عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع الفزارى، تاج الدين، المتوفى سنة ٦٩٠هـ/١٢٩١م — المنهل الصافى، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٤٣.

(٦) هو عمر بن مكى بن عبد الصمد الشافعى، زين الدين بن المرحل، خطيب الجامع الأموى، والمتوفى سنة ٦٩١ هـ / ١٢٩٢ م — المنهل الصافى، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٥٥.

(٧) هو المنجا بن عثمان بن أسعد بن المنجا التنوخى الحنبلى، زين الدين، المتوفى سنة ٦٩٥ هـ / ١٢٩٦ م — المنهل الصافى، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٩٠.

الأُمَوىّ بعد الصلاة على منبر هُيّىء له لتفسير القرآن، فابتدأ من أوله، فكان يجتمع عنده خلق كثير والجمّ الغفير، واستمرّ فى ذلك مدّة سنين متطاولة على هذا المنوال.

ومنها: أن ... الدين ابن الشيخ عدى الكُردىّ (١) هرب من الاعتقال، وكان معتقلا فى بُرج بالقلعة (٢)، فطلب أشدّ الطلب، وكتب إلى البلاد فى أمره، وجعل لمن أحضره مائة دينار وخلعة، فأمسك من بعض دُور الحسينيّة وأُحضر، واعتقل مدّة، ثم أفرج عنه فيما بعدُ (٣).

وفيها: « ... ... » (٤).

وفيها: حج بالناس الأمير علم الدين سنجر الباشقردىّ وجرى بينه وبين أمير مكة [٦٩٨] كلام اقتضى أن أغلقوا أبواب مكة ولم يمكنوا أحد من الدخول إليها، فلما كان يوم التروية زحف العسكر من باب الحَجُون وأحرقوا البابَ، ونقبوا السُور، وهجموا على البلد، فهرب جمع الشريف بن أبى نمى، ولم يبق معه إلا أولاده، فدخل الناس مكة، ووقع بينهم الصلح على يد برهان الدين السنجارى (٥)، وكان حج فى هذه السنة، وهو الذى كان وزيرا، فعزل وتولى عوضه فخر الدين بن لقمان كما ذكرنا (٦).

---

(١) « ... » بياض فى الأصل، وفى زبدة الفكرة أيضا.
(٢) « القلعة » فى الأصل، والتصحيح من زبد الفكرة.
(٣) زبدة الفكرة جـ٩ الورقة ١٥٥ أ.
(٤) « ... » بياض فى الأصل.
(٥) زبدة الفكرة جـ٩ ورقة ١٥٤ أ.
(٦) انظر ما سبق ص ٣٢٢.

ذكر من توفى فيها من الأعيان

صاحب مجمع البحرين والبديع، الشيخ الإمام العالم العلّامة، مظفر الدين أحمد[1] بن على بن تغلب بن أبى الضياء البغدادى، البعلبكى الأصل، المعروف بابن الساعاتى.

سكن بغداد ونشأ بها، وأبوه هو الذى عمل الساعات المشهورة على باب المستنصرية ببغداد، وكان مظفر الدين إماما عظيما فاضلا، وله تصانيف منها: مجمع البحرين فى الفقه، جمع فيه بين مختصر القدورى، والمنظومة[2] مع زوائد، ورتبه فأحسن، وأبدع فى اختصاره، وأسسه على قواعد لم يسبق إليها، وشرحه فى مجلدين كبار، وسمعت بعض المشايخ أنه سوّده ولم يبيّضه، وإنما بيّضته ابنته الستّ الجليلة فاطمة خاتون، وكانت قد تفقهت على والدها وبرعت.

وقال صاحب طبقات الحنفية: ورأيت مجمع البحرين بخطها.

قال العبد الضعيف مؤلف هذا الكتاب: لقد اختصرت هذا الشرح وسميته: كتاب المستجمع فى شرح المجمع، وزدت فيه مذهب الإمام أحمد بن حنبل

---

(١) وله أيضا ترجمة فى: المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٠، رقم ١٢٢ / ١، تاج التراجم ص ٦ رقم ١٠، الطبقات السنية جـ ١ ص ٤٦٢ رقم ٢٥٢، مرآة الجنان جـ ٤ ص ٢٢٧.

(٢) «ومنظومة النسفي» فى المنهل الصافي جـ ١ ص ٤٢١.

رضى الله عنه ، وتعرفت إلى عبارته وحلِّ ألفاظه ، فبحمد الله وعونه وقع موقع القبول ، وكتبت منه نسخ وسارت بها إلى الآفاق : بلاد الروم والشام والعراق .

ومن تصانيف الشيخ مظفر الدين : كتاب البديع فى أصول الفقه ، وهو كاسمه بديع غريب عجيب ، جمع فيه بين أصول فخر الإسلام البزدوى (١) والأحكام للآمدى (٢) وأسسه على قواعد المعقول . واعتنى بشرحه جماعة من الفضلاء المتأخرين منهم : الشيخ الإمام شمس الدين الأصفهانى ، وقاضى القضاة سراج الهندى وغيرهما ، وكانت وفاته بعد سنة ثنتين وثمانين وستمائة ، لأنه كان حيا فى سنة إثنتين وثمانين وستمائة . ويقال : إنه [٦٩٩] توفى وهو شاب ، ومن جملة فضائله أنه كان يكتب خطًّا حسنا جدا ، رحمه الله .

قاضى القُضاة الإمام عز الدين أبو المفاخر محمد (٣) بن شرف الدين عبد القادر ابن عفيف الدين عبد الخالق بن خليل الأنصارى الشافعى الدمشقى [الشهير بابن الصائغ (٤)] .

---

(١) هو كتاب « كنز الوصول إلى معرفة الأصول » للامام على بن محمد بن عبد الكريم بن موسى البزدوى الحنفى ، فخر الإسلام ، أبو الحسن ، المتوفى سنة ٤٨٢ هـ / ١٠٨٩ م — هدية العارفين جـ ١ ص ٦٩٣ .

(٢) هو كتاب « إحكام الأحكام فى أصول الأحكام » للشيخ على بن أبى على بن محمد بن سالم ، الحنبلى ، ثم الشافعى ، السيف الآمدى ، المتوفى سنة ٦٣١ هـ / ١٢٣٣ م — هدية العارفين جـ ١ ص ٧٠٧ ، العبر جـ ٥ ص ١٢٤ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ٧٨ ، الوافى جـ ٣ ص ٢٩٦ رقم ١٣١٤ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ١٤٩ رقم ٢٤١ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٩١ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٠٤ ، العبر جـ ٥ ص ٣٤٤ .

(٤) [ ] إضافة للتوضيح — انظر مصادر الترجمة .

ولى قضاء القضاة بدمشق مرتين، عزل به ابن خلكان، ثم ولى ابن خلكان، ثم عزل نائبه وسُجِن ، وولى بعده بهاء الدين بن زكى ، واستمر عز الدين المذكور معزولا إلى أن توفى بِبُسْتَانه فى تاسع ربيع الأول ، ودفن بسفح قاسيون ، وكان مولده سنة ثمان وعشرين وستمائة ، وكان مشكور السيرة ، له عقل وتدبير ، واعتقاد كثير فى الصالحين ، وقد سمع الحديث وروى .

القاضى نجم الدين عمر(١) بن نصر بن منصور [البيانى(٢)] الشافعى .

توفى فى شوال ، وكان فاضلا ، ولى قضاءَ زُرَع ، ثم قضاءَ حلب ، ثم مات فى دمشق بالرواحية .

القاضى جمال الدين أبو يعقوب يوسف(٣) بن عبد الله بن عمر الزواوى قاضى القضاة المالكية ومدرسهم بعد القاضى زين الدين(٤) الزواوى الذى عزل نفسه .

وكانت وفاته فى الخامس من ذى القعدة من هذه السنة وهو فى طريق الحجاز، وكان عالما فاضلا قليل التكلف ، وقد شغر المنصب بعده ثلاث سنين .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٠٤ .

(٢) [ ] إضافة من البداية والنهاية .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٠٥ ، الدارس جـ ٢ ص ٥ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٤ .

(٤) هو عبد السلام بن على بن عمر الزواوى المالكى ، قاضى القضاة زين الدين ، المتوفى سنة ٦٨١هـ / ١٢٨٢م — المنهل الصافى ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٧٦ .

المَلِكُ السَّعِيدُ فتح الدين عبد الملك[1] بن الملك الصالح أبى الحسن إسماعيل ابن الملك العادل ، وهو والد الملك الكامل ناصر الدين محمد .

توفى ليلة الاثنين ثالث رمضان ، ودفن من الغد بتربة أم الصالح[2] ، وكان من خيار الأمراء ، محترما ، كبيرا ، رئيسا ، روى موطأ يحيى بن بكير عن مكرم[3] ابن أبى الصقر ، وسمع ابن الليثى وغيره .

الشيخ طالب[4] الرفاعى ، توفى فى هذه السنة بقصر حجاج ، وله زاوية مشهورة به .

الإمامُ ناصر الدين أبو العباس أحمد[5] بن محمد بن منصور بن أبى بكر بن قاسم ابن مختار الجذامى الجروى المالكى ، المعروف بابن المنير ، الحاكم بالإسكندرية .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٠٤ ، الدارس جـ ١ ص ٣٢ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٣ .

(٢) تربة أم الصالح بدمشق : بالمدرسة الصالحية ، وقد أوقف التربة والمدرسة ودار الحديث والأقراء بدمشق الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل أبى بكر ، المتوفى سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م — الدارس جـ ١ ص ٣١٦ — ٣١٧ .

(٣) هو مكرم بن محمد بن حمزة الدمشقى ، المعروف بابن أبى الصقر ، نجم الدين أبو المفضل ، المتوفى سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م — العبر جـ ٥ ص ١٤٦ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٠٤ .

(٥) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٥٥ أ ، نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٩ ورقة ٣٤ ، المنهل الصافى جـ ٢ ص ١٨٥ رقم ٣٠٤ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٦٣ ، السلوك جـ ١ ص ٧٢٧ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٨١ ، العبر جـ ٥ ص ٣٤٢ ، الوافى جـ ٨ ص ١٢٨ رقم ٣٥٤٨ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٩٢ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٢ .

توفى فيها فى مستهل ربيع الأول ، ومولده فى ثالث ذى القعدة سنة عشرين وستمائة بالإسكندرية ، وكان إماما عالما متبحرا فى العلوم خصوصا فى الأدب .

الشيخ شرف الدين بن الميدومى[1] المحدث بالمدرسة الكاملية .

توفى فى هذه السنة بالقاهرة .

[٧٠٠] الأمير شرف الدين عيسى بن مُهَنَّى[2] أمير آل فضل وأكبر أمراء عربان الشام .

توفى فى هذه السنة ، وكان دينا صالحا ، وله اليدُ الطولى فى وقعة حمص ، وتولى مكانه ولده الأكبر حسام الدين مهنى[3] .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٠٥ أ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، العبر جـ ٥ ص ٣٤٤ : السلوك جـ ١ ص ٧٢٥ — ٧٢٦ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٨٣ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٩٠ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٢ .

(٣) هو مهنا بن عيسى ، المتوفى سنة ٧٣٥ هـ / ١٣٣٤ م — المنهل الصافى ، الدرر جـ ٥ ص ١٢٨ رقم ١٢٩ .

فصل فيما وقع من الحوادث

فى السنة الرابعة والثمانين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة هو : الحاكم بأمر الله العباسى .

وحكام البلاد على حالهم غير صاحب الغرب ، فإنه مات فى هذه السنة على ما نذكره عن قريب إن شاء الله تعالى .

ذكر سفر السلطان الملك المنصور إلى الشام :

وكان خروجه من القاهرة فى أول المحرم من هذه السنة ، ووصوله إلى دمشق فى أواخر المحرم ، ومعه الجيش المنصور ، وجاء إلى خدمته الملك المظفر صاحب حماة ، وعمه الملك الأفضل ، فأكرمهما السلطان إكراما كثيرا ، وأرسل الى الملك المظفر فى اليوم الثالث من وصوله التقليد بسلطنة حماة ، والمعرة ، وبارين ، والتشريف ، وشعار السلطنة ، وهو : سنجق ، وفرس بسرج ذهب ، ورقبة ، وكنبوش ، وأرسل الغاشية السلطانية ، فركب الملك المظفر بشعار السلطنة ، وحضرت أمراءُ السلطان وتقدموا عساكره ، فساروا معه من الموضع الذى كان فيه وهو داره المعروفة بالحافظية داخل باب الفراديس بدمشق إلى قلعة دمشق ، ومشت

(*) يوافق أولها الجمعة ٩ مارس ١٢٨٥ م .

الأمراءُ فى خدمته ، ودخل الملك المظفر عند السلطان ، فأكرمه ، وأجلسه إلى جانبه على الطراحة ، وطيّب خاطره ، وقال له : أنت من بيت مبارك ، ماحضرتم فى مكان إلا وكان النصر معكم ، ثم عاد الملك المظفر وعمه الأفضل إلى حماة ، وعملا أشغالهما ، وكذلك باقى العسكر الحموى ، وتأهّبوا للسير إلى خدمة السلطان الملك المنصور ثانيا .

ذكرُ فتح المَرْقَب :

خرج السلطان الملك المنصور من دمشق بالعساكر المصريّة والشامية ، وأتى إلى مرقب[1] ، ونازلها فى أوائل ربيع الأول من هذه السنة ، وهو حصن الأسبتَار فى غاية العلو والحصانة ، لم يطمع أحد من الملوك الماضين فى فتحه ، ولما زحف العسكر عليه وأخذ[2] الحجارون فى النقوب ، ونصبت عليه عدة [٧٠١] مجانيق كبارا وصغارا ، طلب أهلها الأمان ، فأجابهم السلطان إلى ذلك رغبةً فى بقاء عمارته ، فإنه لو هدمه وأخذهُ بالسيف حصل التعبُ فى إعادة عمارته ، فأعطى أهلَه الأمانَ على أن ينتقلوا و يأخذوا معهم ما يقدرون عليه غير السلاح .

قال ابن كثير : فصعدت السناجق السلطانية والألويّة المنشورة على حصن

---

(١) المرقب : بالفتح ثم السكون : قلعة حصينة تشرف على البحر المتوسط ، كانت فى يد الأسبتارية — تقويم البلدان ص ٢٥٤ ، تاريخ ابن الفرات المجلد ٨ ص ١٧ ، ١٨ .

(٢) « وأخذت » فى الأصل .

المرقب، وتسلمه في الساعة الثامنة من يوم الجمعة تاسع عشر ربيع الأول(١)، وكان يوما مشهودا(٢).

وقال الملك المؤيد في تاريخه: إني حضرت حصار الحصن المذكور وعمري إذ ذاك نحو اثنتي عشرة سنة، وهو أول قتال رأيته، وكنت مع والدي(٣).

قلت: والده هو الملك الأفضل علي بن(٤) الملك المظفر محمود.

وقال بيبرس في تاريخه: وجهز السلطان أهله إلى طرابلس، وظن أن الأمير شمس الدين سنقر الأشقر إذا سمع بقربة يبادر إليه ويسعى لخدمته، كما يجب عليه، فتأخر عن الحضور، فتغير له باطن الملك المنصور، ثم أنه أرسل واحدا من أولاده يسمى سيف الدين جمغار إلى المخيم متلافيا لما قدم، فحنق السلطان عليه، ومنعه العود إلى والده، وأمر بتوجهه إلى الديار المصرية(٥).

ثم أن السلطان رحل عن المرقب بعد أن قرر أموره، فنزل بالوطأة بالساحل وأقام بمرج بالقرب من موضع يسمى مرج القرفيص، ثم سار ونزل تحت حصن الأكراد، ثم سار ونزل على بحيرة حمص وهي بحيرة قدس، ثم توجه السلطان إلى الديار المصرية، وأعطى الملك المظفر صاحب حماة عند رحيله من حمص الدستور، فعاد إلى حماة، وكان توجه السلطان إلى القاهرة في جمادى الآخرة من هذه السنة.

---

(١) «ثامن عشر صفر» — البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٠٥.

(٢) لا يوجد هذا النص في نسخة البداية والنهاية المطبوعة والتي بين أيدينا.

(٣) المختصر جـ ٤ ص ٢١.

(٤) توفي سنة ٦٩٢ هـ / ١٢٩٣ م — المنهل الصافي.

(٥) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٥٦ أ.

ذكر مولد السلطان الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاون الألفى الصالحى النجمى :

وفى خامس عشر المحرم[1] من هذه السنة ولد السلطان الملك الناصر محمد المذكور ، من ابنة سكِبای بن قراجين بن حنغان نُوِين ، وسكبای المذكور ، ورد إلى الديار المصرية هو وأخوه قرمشى سنة خمس وسبعين وستمائة صحبة بَنْجار الرومى فى الدولة الظاهرية ، فتزوج السلطان الملك المنصور قلاون ابنة سكبای هذا فى سنة ثمانين وستمائة [٧٠٢] بعد موت أبيها المذكور بولاية عمها القرمشى ، ووردت البشائر إلى السلطان وهو نازل على بحيرة قدس عند عوده من فتح المرقب[2] ، فتضاعف سروره به ودقت البشائر فرحا بمولده مقترنا بفتح المرقب ، فتضاعف الهناء والسرور .

وحدّث الشيخ شعبان الهُوِىّ[3] قال : حدثنى الشيخ شرف الدّين السنجارى [التاجر السفار][4] قال : كنت بالموصل سنة أربع وثمانين ليلة النصف من

(١) « فى يوم السبت سادس عشر المحرم » — السلوك جـ ١ ص ٧٢٧ ، كنز الدرر جـ ٨ ص ٢٧١ .

« يوم السبت سادس عشر وفهل الخامس عشر » تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٧ .

ولما كان أول المحرم يوافق يوم جمعة — طبقا للتوفيقات الإلهامية — فالسبت هو ١٦ المحرم .

(٢) « بشر السلطان قبل وصوله إلى دمشق لفتح المرقب » — تذكرة النبيه جـ ١ ص ٩٧ ، وانظر أيضا السلوك جـ ١ ص ٧٢٧ . وهو ما يتفق وسير الأحداث — انظر ما سبق ص ٣٣٧ — ٣٣٨ .

(٣) « الهروى » فى كنز الدرر جـ ٨ ص ٢٧١ .

(٤) [ ] إضافة من كنز الدرر للتوضيح .

المحرم ، فظهر كوكب عظيم له ثلاث ذوائب طوال إلى جهة المغرب ، فتعجب الناس من ذلك ، وكان فى الجماعة عماد الدين بن الدهان رئيس المنجمين ، فسألوه عنه فقال : هذا الكوكب ظهر فى سنة عشرين وأربعمائة ، وله ذؤابتان فى طول الذى ترونه وأخرى قصيرة جدًّا ، فولد فى ذلك التاريخ المستنصر خليفة مصر ، فعاش سبعا وستين سنة ، وأقام خليفةً ستين سنة ، ثم ظهر هذا الكوكب فى سنة تسعين وأربعمائة ، فولد فى هذا التاريخ عبد المؤمن صاحب الغرب ، فعاش سبعين سنة ، وملك خمسين سنة ، ثم ظهر هذا الكوكب فى سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، فولد فى هذا التاريخ الناصر لدين الله ، [خليفة بغداد](١) فعاش تسعا وستين سنةً ، وأقام خليفةً سبعا وأربعين سنة ، وهاهو قد ظهر فى هذا الوقت وذوائبُه الثلاث كاملة متساوية ، يدُلُّ على أنه يولد فى هذه الليلة مولود سعيد يملك مصر والشام والعراق ، ويعيشُ ثلاثين وثلاثين وثلاثين ، فنظروا فلم يُولد فى تلك الليلة إلا الملك الناصر محمد بن قلاون المذكور(٢) .

قلت : صادف كلامه ذلك ولكنه أخطأ فى المدة على ما لا يخفى .

ومن الحوادث فى هذه السنة : أن محيي الدين بن النحاس(٣) عزل عن نظر الجامع الأموىّ ، ووليه بعده عز الدين بن محيي الدين بن الزكى ، وباشر محيي الدين

(١) [ ] إضافة من كنز الدرر للتوضيح .

(٢) انظر أيضا كنز الدرر جـ ٨ ص ٢٧١ — ٢٧٣ .

(٣) هو محمد بن يعقوب بن إبراهيم بن هبة الله بن طارق بن النحاس ، القاضى الصاحب محيي الدين ، المتوفى سنة ٦٩٥ هـ / ١٢٩٦ م — المنهل الصافى ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٩٠ .

ابن النحاس الوزارة عوضا عن التقى توبة التكريتى ، وطلب التقى إلى الديار المصرية ، واحتيط على أمواله وأملاكه ، وعزل سيف الدين طوغان عن ولاية مدينة دمشق ، وباشرها عز الدين بن أبى الهيجاء .

وفيها : « ... ... »[1] .

وفيها : حج بالناس الأمير علم الدين سنجر الباشقردى .

(١) « ... ... » بياض فى الأصل .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

الشيخ[٧٠٣]عز الدين محمد(١) بن على بن إبراهيم بن شداد الأنصاري الحلبي .

توفى في صفر ، ودفن بسفح المقطم ، وكان فاضلا مشهورا ، وله تصنيف في سيرة الملك الظاهر(٢) ، وكان معتنيا بالتواريخ .

الشيخ الصالح العابد الزاهد شرف الدين أبو عبد الله محمد(٣) بن الحسن بن إسماعيل الإخميمي .

توفى في هذه السنة ، ودفن بجبل قاسيون ، وكانت له جنازة حافلة .

الشيخ الصالح المقرئ شمس الدين أبو عبد الله محمد(٤) بن عامر بن أبي بكر الغسولي الحنبلي .

سمع الحديث من الشيخ موفق الدين بن قدامة وغيره ، وكان شيخ الميعاد ليلة الأحد ، توفى يوم الأربعاء حادى عشر جمادى الآخرة ، ودفن بالقرب من تربة الشيخ عبد الله الأرمني .

---

(١) وله أيضا ترجمة : في البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٠٥ ، العبر جـ ٥ ص ٣٤٩ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٣٣ .

(٢) انظر ما سبق ص ١٧٦ هامش (٢) .

« وهو الذي جمع السيرة للملك الظاهر ، وجمع تاريخا لحلب » — العبر جـ ٥ ص ٣٤٩ .

(٣) وله أيضا ترجمة في : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٠٦ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٣٤ وورد « محمد بن محمد بن الحسن » في العبر جـ ٥ ص ٣٥٠ .

(٤) وله أيضا ترجمة في : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٠٦ ، العبر جـ ٥ ص ٣٥٠ .

القاضى عماد الدين داود[1] بن يحيى بن كامل القرشى البصروى الحنفى .

مدرّس المعزيّة بالكشك ، وناب فى الحكم عن مجد الدين بن العديم ، وسمع الحديث ، وتوفى ليلة النصف من شعبان من هذه السنة ، وهو والد الشيخ شمس الدين[2] القحفازى شيخ الحنفية وخطيب جامع تنكز .

الشيخ حسن[3] الرومى ، شيخ سعيد السعداء ، توفى فيها بالقاهرة ، وولى مشيختها بعده شمس الدين الأيكى[4] .

الرشيد سعيد[5] بن على بن سعيد ، الشيخ رشيد الدين الحنفى .

مدرس الشبليّة[6] ، وله تصانيف مفيدة كثيرة ونظم حسن ، وتوفى يوم السبت ثالث رمضان ، وصلى عليه بعد العصر بالجامع المظفرى ، ودفن بالسفح .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٠٦ ، الوافى جـ ١٣ ص ٤٩٨ رقم ٥٩٧ .

(٢) « نجم الدين » فى الوافى .

وهو على بن داود بن يحيى ، نجم الدين أبو الحسن القحفازى ، المتوفى بعد سنة ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠م ـ المنهل الصافى .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٠٦ .

(٤) « الأتابكى » فى البداية والنهاية .

(٥) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ٨٢ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٦٨ تالى كتاب وفيات الأعيان ص ٧٦ رقم ١١٦ ، العبر جـ ٥ ص ٣٤٧ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٨٥ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٩٩ .

ورد اسمه فى السلوك « رشيد الدين أبو محمد شعبان بن على بن سعيد البصراوى » ويبدو أنه تحريف ـ جـ ١ ص ٧٣٠ .

(٦) المدرسة الشبلية بدمشق : بسفح قاسيون أنشأها شبل الدولة ـ كافور الحسامى الرومى ، المتوفى سنة ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦م ـ الدارس جـ ١ ص ٥٣٠ .

أبو القاسم علي(١) بن بلبان بن عبد الله الناصري ، المحدث ، المفيد الماهر .

توفي يوم الخميس مستهل رمضان .

الشيخ العارف شرف الدين أبو عبد الله(٢) محمد بن الشيخ عثمان بن علي الرومي .

توفي فيها، ودفن بتربتهم بسفح قاسيون، ومن عندهم خرج الشيخ جمال الدين السّاوجي وخلق ودخل في زيّ الجوالقيّة وصار شيخهم ومقدّمهم .

الأمير مجير الدين محمد(٣) بن يعقوب بن علي [الأسعردي(٤)] ، المعروف بابن تميم الحموي الشاعر صاحب الديوان في الشعر .

فمن شعره قوله :

هاتِ بنتُ ورد الروض يلطُم خدَّهُ ... ويقول وهْو على البنفسج محنِقُ(٥)

[٧٠٤]

لا تقربوه وإن تضوَّع نشْرُه ... ما بينكم فهو العدُوُّ الأزرَقُ

(١) وله أيضا ترجمة في : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٠٧ .

(٢) وله أيضا ترجمة في : درة الأسلاك ص ٨٣ ، الوافي جـ ٤ ص ٨٦ رقم ١٥٠٢ ، العبر جـ ٥ ص ٣٥٠ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٨٩ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٦٨ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٩٨ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٠٧ .

(٣) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٦٧ ، الوافي جـ ٥ ص ٢٢٨ رقم ٢٣٠٤ ، فوات الوفيات جـ ٤ ص ٥٤ رقم ٥٠٤ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٠٧ ، شذارت الذهب جـ ٥ ص ٣٨٩ .

(٤) [ ] إضافة للتوضيح من المنهل الصافي .

(٥) « ويقول قولا في البنفسج محنق » ـ البداية والنهاية .

الأمير الكبير علاء الدين أيدكين[1] البندقدار الصالحي ، أستاذ الملك الظاهر بيبرس .

كان من خيار الأمراء ، وقد كان الملك الصالح نجم الدين أيوب غضب عليه وصادره ، وأخذ منه مملوكه بيبرس ، وأضافه إليه لشهامته ونهضته ، فتقدم عنده على خشداشيته ، وتوفى أيدكين المذكور فى ربيع الآخر من هذه السنة ، ودفن بتربته بالشارع الأعظم قبالة حمام الفارقانى بظاهر القاهرة .

السلطان يعقوب بن يوسف المرينى[2] .

مرض وهو نازل على حصن الجزيرة بأطراف الأندلس ، فاتفقت وفاته فى شهر المحرم[3] هناك ، وكان فى صحبته ولده أجيلد ، فحمله إلى سلا ودفنه بها ، وكان له من الأولاد يوسف ، وأبو سالم ، وعلى ، ومحمد أجيلد ، ومنديل ، وجلس ابنه يوسف[4] مكان أبيه ، وكان مقيما بفاس ، فركب وسار إلى الأندلس فى البحر

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٣ ص ١٥٥ رقم ٥٩٣ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٦٥ ، الوافى جـ ٩ ص ٤٩١ . ذيل مرآة الزمان جـ ٤ ص ٢٦٢ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٨٨ ، السلوك جـ ١ ص ٧٣٠ ، كنز الدرر جـ ٨ ص ٢٧٦ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٣٣ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٠٥ ، العبر جـ ٥ ص ٣٤٨ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٥٦ أ ، المنهل الصافى ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٠٩ ، الاستقصا جـ ٢ ص ٣٢ ، السلوك جـ ١ ص ٧٣٣ ، الأنيس المطرب ص ٣٧٣ ، روضة النسرين ص ١٧ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٠٤ .

وورد ذكر وفاته سنة ٦٨٥ هـ فى البداية والنهاية وفى الاستقصا ، وانظر أيضا تذكرة النبيه ومصادر الترجمة .

(٣) ٢٣ محرم ٦٨٥ هـ — الاستقصا .

(٤) توفى سنة ٧٠٦ هـ / ١٤٠٦ م — المنهل الصافى .

لأجل جيش أبيــه وخزائنه ، فتلقاه أصحابُه وأقاربُه و بايعوه ، وحضر إليه محمد ابن الأحمر معزّيًا بأبيه ، فتلقّاه بالإكرام ، وأعاد إليــه أكثر البلاد التى استولى أبوه عليها ، وعاد أبو يعقــوب إلى بلاده ، وأغلظ على إخوته وأقاربه ، وكان شديد الوطأة عليهم ، فقتــل منهم جماعة من جملتهم أخوه محمـد أجبلد ، وأخوه منديل ، وأظهر الشدة والغلظة والحزم والعزم .

فصل فيما وقع من الحوادث

فى السنة الخامسة والثمانين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة هو الحاكم بأمر الله العباسى .

والسلطان فى البلاد المصرية والشامية الملك المنصور قلاون الألفى ، وجرد عسكرا كثيفا صحبة الأمير حسام الدين طرنطاى إلى الكرك وأمره بمنازلتها، فتوجه إليها (١)، ونزل عليها، وأحضر آلات الحصار من البلاد الشامية والحصون الإسلامية، وشرع فى مضايقتها، وقطع الميرة عنها من سائر الجهات، وأظهر الجد والإجتهاد، وجرد صوارم العزم من الأغماد ، وخلط الترهيب بنوع من الترغيب ، [٧٠٥] فاستدعى بعض رجالها ، وخاطبهم بلسان الإحسان ، وطيب قلوبهم ، فتسلل أكثر الرجال إليه، فلما رأى الملك المسعود جمال الدين خضر وأخوه بدر الدين سلامش أنه قد أسلمهما رهطهما ، وبقيا وحدهما مع انقطاع الميرة منهما . بذلا الطاعة وجنحا إلى الإذعان، وسألا خاتم الأمان من عند السلطان، فضمن الأمير حسام الدين عنه الإحسان والأمان والإيمان ، فقالا : لا غنى لنا عن حضور خاتمه لنسكن إليه (٢) ، ونعتمد عليه ، فبادر بمطالعة الأبواب الشريفة السلطانية

(*) يوافق أولها الأربعاء ٢٧ فبراير ١٢٨٦ م .

(١) « فى ثانى المحرم » — السلوك جـ ١ ص ٧٣٠ .

(٢) « إليك » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٥٦ ب .

صحبة البريدية بحصول المقصود، والإذعان إلى الوفود، فإن الأمر بقى متوقفا على
على مجئ أحد من خاصة السلطان بخاتم الأمان.

قال بيبرس فى تاريخه: فنـدبنى السلطان إليهـم، ومعى أمانه الشريف، فسرت على البريد إلى الكرك، فاجتمعت بالأمير حسام الدين، فأعلمهما « بحضورى، فدخلت إليهما بالأمان، وأبلغتهما رسالة السلطان[(1)] » بمواعيد الإحسان، فطابت قلوبهما[(2)]، وانشرحت صدورهما، واطمأنت خواطرهما، ونزلا من الكرك إلى الأمير حسام الدين، فتلقاهما بالإجلال والإعظام، وركب صبيحة ذلك اليوم إلى الصيد وركبا معه معا، وتصيدنا يومنا ذلك، وعدنا إلى الوطاق، ورتب الأمير حسام الدين الأمير عز الدين أيبك الموصلى المنصورى فى نيابة السلطنة بالكرك، فإنه كان نائبا فى الشوبك منذ تسلمها السلطان، وحضر إلى الأمير حسام الدين عند نزوله على الكرك، ووقف بين يديه إلى أن سلمت إليه، فرتبه فيها ورتب فى ولاية القلعة الأمير بدر الدين بكتوت العلائى، وفى ولاية المدينة الأمير عز الدين أيبك النجمى، وكان السلطان قد عينهما، وخلع المشار إليه عليهم، وعلى رجال القلعة، ومقدمى المدينة، وأمراء العربان، ورتب أحوالها، ورحل عائدا إلى الديار المصرية، وولدا الملك الظاهر صحبته.

قال بيبرس: فلما وصلا إلى قريب القلعة ركب السلطان والعساكر والأمراء فى موكب حفل وتلقاهما، وأقبل عليهما، وأطلعهما القلعة، ولم يعرض [٧٠٦]

(١) « » مكرر فى هامش الأصل.

(٢) بداية سقط من نسخة زبدة الفكرة جـ ٩ التى بين أيدينا فيا بين الورقة ١٥٦ ب، ١٥٧ أ.

إليهما بسوء، بل وفّى لهما بأمانة، وغمرهما بإحسانه، وأعطى كُلًّا منهما إمرة بمائة فارس، واستمرّا يركبان معه فى الموكب، و يلعبا مع ولَديه فى الميدان، ونزلهما منزله، وشرط عليهما أن يسلكا ما يجب من الأدب، و يتجنّبا مناهج الرِيَب، فلبثا فى ذلك برهة فى أرغد عيشة وأهنى معيشة، ثم بلغه عنهما أمور أنكرها، فقبض عليهما واعتقلا، و بقيا فى الإعتقال إلى أيام ولده الملك الأشرف، فسيّرهما إلى القسطنطينيّة(١)، فكان منهما ما نذكره إن شاء الله.

ذكر سفر السلطان إلى الشام :

خرج السلطان إلى الشام(٢)، فنزل غزة، ثم توجّه إلى الكرك جريدة متصيّدًا، وترك العساكر مقيمة على غزّة، فوصل إليها فى شهر شعبان من هذه السنة، ونزل على ظاهرها، وطلع إلى قلعتها، ونظر فى أحوالها، وحفر البركة التى فى باب النصر، وكانت قد أهملت وارتدمت، ورتّب أحوال العُربان ومن بها من الرجال، وجدّد لأمراء العرب مناشير إقطاعاتهم، وأجرى لهم عادات صلاتهم.

ثم رسم للأمير بيبرس الدوادار صاحب التاريخ بالإقامة فى الكرك نائبا، فأقام، وخرج الأمير عز الدين أيبك الموصلى، ونقله السلطان منها إلى نيابة السلطنة وتقدمة العسكر بغزّة، فأقام بها مدة يسيرة، ثم نقله منها إلى قلعة صفد

(١) ساقط من نسخة زبدة الفكرة التى بين أيدينا.

(٢) «فى يوم الخميس سابع شهر رجب» — تاريخ ابن الفرات جـ٨ ص ٣٨.

نائبا بالقلعة خاصّةً ، عوضا عن الأمير سيف الدين بجقار المنصورى ، فإنه كان قد مرض وقصد التوجه إلى الديار المصريّة ليتداوى ، فتوجّه ، فكانت مَنيتَه في تلك المرضة ، فتوفىّ بالقاهرة .

ولما قرر السلطان أحوال الكرك[1] على ما يجب تقريره رحل عنها وتوجه إلى غابة أرسُوف ، بحكم أن الوخم أصاب العسكر بغزة ، فأقام نازلا على الغابة إلى أن هجم الشتاء ووقع الثلج ، وأمِنَ حركة العَدُو من الرواح والغُدُو ، وعاد إلى الديار المصريّة[2] .

قال بيبرس في تاريخه : وأخذ[3] الشعراء يمتدحون ، فمما قيل في ذلك أبيات نظمها القاضي شمس الدين الأربليّ منها :

يا ذا الذى السرحان في أيامه　　والشاءُ لا هـذا على ذا يَعْتَدِى

وافيتنا والناسُ بين مُحَيَّرٍ　　في نفسه ومُخَوَّفٍ ومُهَدَّدِ

[٧٠٧]

ألقيت فينا هَيْبَةً حتى لقد　　خاف التقىُّ فكيف خوفُ المُفْسِد

فأناب مَنْ ما زالَ منهم يعْتَدِى　　حتى ظننَّاك الرفاعىَّ أو عَدِى

(١) بداية ما يوجد في زبدة الفكرة جـ ٩ بعد السقط السابق الإشارة إليه فيا بين الورقة ١٥٦ ب ، ١٥٧ أ — انظر ماسبق ص ٣٤٩ هامش (٢) .

(٢) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٥٧ أ .

(٣) « وأخذت » في الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

مَنْ كان يدلج فى الحرام و يَغْتَدى ... أضحى بخوفك قيِّما فى المسجدِ
وَأقمْتَ أمْر الله بين عبادِه ... ترجو ثوابَ النـاسك المتَعبِّدِ
يا جامعاً بين النوالِ وعَـدْله ... وصَـلاتِه وصِـلاتِه للمُحْتدى
ما زلتُ أخشى الحادثات وصرفها ... حتى بحبل ولائه علقت يدى
ما ضلّ مَنْ بضياء عَدلكَ يَهْتَدى ... فى أمْرِه و بنـور رَأيك يقتدى (١)

قال بيبرس : وأنعم السلطان علىّ بثمانين فارساً وإقطاع الأمير علم الدين سنجر الدوادار الصالحىّ على عادته فى الدربستية ، وأرسـل إلىّ المنشورَ الشريفَ على البريد ، وأنالنى من إحسانه فوق المزيد (٢) .

ونسخة المنشور الشريف :

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ذى الفضل الجمّ ، والامتنان الذى عمّ ، والجميل الذى تمّ ، نحمده حمد من قدّم من شكر منته الأهمّ ، ونشهـد أن لا إلّه إلا الله وحده لاشريك له ، [شهادة] (٣) يُجلى بها عن قلب الموحِّد الغـمّ ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله الذى جمع الله بنُبُوّته شمل الإيمـان ولَمَّ ، صلى الله عليه وسلَّم (٤) ، وعلى آله وعترته وصحابتـه صلاةً نأتمُّ بها ونأتَمّ .

(١) زبدة الفكرة ورقة ١٥٧ أ .
(٢) زبدة الفكرة جـ٩ ورقة ١٥٧ أ ، ب .
(٣) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .
(٤) « وسلم » ساقط من زبدة الفكرة .

وبعد : فإن خير من سمت به جدوده، واتسمت لشجاعته سعوده، وخفقت رياح النصر بنوده، وعمرت بالخير معاهده ورعيت عهوده، من زكت مغارسه، وصفت بالإحسان ملابسه ، وكثرت عند الإعتداد ذخائره من الخدمة ونفائسه، وقصر عن طول ملوله مقايسه .

ولما كان المجلس السامى الأمير الأجل الإسفهسلار الأوحد المجاهد العضد، ركن الدين فخر الإسلام ، شرف الأنام ، شرف الأمراء المقدمين (١) ، عضد الملوك والسلاطين بيبرس الدوادار الملكى المنصورى ، نائب السلطنة بالكرك المحروس ، هو أسارير هذا الجبين ، وفحوى هذا اليقين ، اقتضى حسن الرأى الشريف أن خرج الأمر العالى المولوى السلطانى الملكى المنصورى [٧٠٨] السيفى ، زاده الله علاء ونفاذا وإمضاء ، أن يجرى فى إقطاعه ما رسم به الآن من الإقطاعات الأعمال الشامية لخاصته ولمن يستخدمه من الأجناد الجياد المعروفين بالخدمة ، بالبرك التام ، والعدة الكاملة ، بعد ارتجاع ما بيده بالديار المصرية ، والعدة خاصة ثمانون طواشياً ، خارجا عن الملك والوقف ، عن الأمير علم الدين سنجر الدوادار الصالحى ، على عادته فى الدربستية ، وذلك لاستقبال مغل سنة خمس وثمانين وستمائة .

وكان استقرارى بها فى النيابة فى شهر شعبان سنة خمس وثمانين وستمائة ، وأقمت حول خمس سنين (٢) .

وفيها : عزم السلطان على تجريد العساكر مع الأمير حسام الدين نائبه إلى جهة صهيون ، فخرجوا من القاهرة فى حادى عشر ذى الحجة من هذه السنة (٣) .

(١) « شرف الأيام والأمراء » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .
(٢) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٥٧ ب ، ١٥٨ أ .
(٣) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٥٨ أ .

وفيها: كتب الأمير بدر الدين بكتوت العلائى، وهو مجرد بحمص إلى نائب دمشق الأمير حسام الدين لاجين أنه انعقدت زَوْبَعَةَ فى يوم الخميس «رابع عشر»[1] صفر بأرض حمص[2]، ثم ارتفعت فى السماء كهيئة العمود أو الحية العظيمة، وجعلت تختطف الحجارة الكبار، فتصعد بها فى الجوّ كأنها سهام النشاب، وحملت شيئا كثيرا من الجمال بأحمالها، والأثاث والخيام، ففقد الناس شيئا كثيرا من رحالهم وأمتعتهم.

وفيها: أعيد علم الدواداری إلى شدّ الدواوين بدمشق، والصاحب تقى الدين إلى الوزارة بالشام.

وفيها: تولى القضاء فى مذهب المالكية بمصر زين الدين بن مخلوف[3] التبريزى، عوضا عن القاضى تقى الدين بن شاس[4]، فإنه توفى إلى رحمة الله تعالى.

وفيها: « ... ... »[5].

حج بالناس: « ... ... »[6].

(١) « رابع » فى الأصل، والتصحيح من السلوك جـ ١ ص ٧٢١، ويتفق مع التوفيقات الإلهامية.

(٢) « بناحية الفسولة من معاملة مدينة حمص » - السلوك جـ ١ ص ٧٢١، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٠٢، والفسولة: منزلة للقوافل فيما بين حمص وقارا - معجم البلدان ق

(٣) هو على بن مخلوف بن ناهض، نور الدين أبو الحسن، قاضى قضاة مصر، المتوفى سنة ٧١٨هـ/ ١٣١٨م - المنهل الصافى، الوافى جـ ٢٢ ص ١٨٩ رقم ١٣٧.

(٤) هو الحسين بن عبد الرحيم بن عبد الله بن شاس السعدى المالكى، تقى الدين أبو على. وله أيضا ترجمة فى: المنهل الصافى، نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٩ ورقة ٣٧، السلوك جـ ١ ص ٧٢٢، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٠٦.

(٥) (٦) « ... ... » بياض بالأصل.

ذكر من توفى فيها من الأعيان

أحمد[1] بن شيبان بن ثعلب الشيبانى، أحد مشايخ الحديث المسندين المعمَّرين.

توفى فى هذه السنة فى دمشق فى شهر صفر عن ثمان وثمانين سنة، ودفن بقاسيون.

الشيخ الإمام العالم البارع جمال الدين أبو بكر محمد[2] بن أحمد بن عبد الله البكرى الشريشى المالكى.

ولد بشريش[3] فى سنة إحدى وستمائة، ورحل إلى العراق فسمع بها من المشايخ كالقطيعى وابن الليثى وغيرهما، واشتغل [٧٠٩] وحصَّل وساد أهل زمانه وبذ أقرانه، ثم عاد إلى مصر فدرس بالفاضلية، ثم أقام بالقدس شيخ الحرم، ثم جاء إلى دمشق فولى مشيخة الحديث بتربة أم الصالح، ومشيخة الرباط الناصرى، ومشيخة المالكية، وعرض عليه القضاء فلم يقبل، وتوفى يوم الاثنين الرابع والعشرين من رجب بالرباط الناصرى، ودفن بسفح جبل قاسيون.

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٣١٢ رقم ١٦٧، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٠٨، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٧٠، العبر جـ ٥ ص ٣٥١، الوافى جـ ٦ ص ١٧ رقم ٢٩٣٥، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٩٠ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى، درة الأسلاك ص ٨٦، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٩٤، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٤٦، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٠٧، السلوك جـ ١ ص ٧٢٣، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٠٨، العبر جـ ٥ ص ٣٥٤ .

(٣) شريش : مدينة كبيرة من كورة شذونة بالأندلس ــ معجم البلدان، تقويم البلدان ص ١٦٦ .

قاضى القضاة بهاء الدين أبو الفضل يوسف[1] بن قاضى القضاة محيي الدين أبى الفضل يحيى بن محمد بن علىّ بن محمد بن يحيى بن على بن عبد العزيز بن علىّ بن الحسين بن محمد بن عبد الرحمن بن أبان بن عثمان بن عفان رضى الله عنه القرشى الدمشقى ، المعروف بابن الزكى الشافعىّ .

وكان أحد الفضلاء البارعين ، والعلماء المبرّزين ، وهو آخر مَنْ تولى القضاءَ من بنى الزكى إلى يومنا هذا ، وكان مولده فى سنة أربعين ، وسمع الحديث ، وتوفى ليلة الإثنين حادى عشر ذى الحجة ، ودفن بقاسيون ، وتوفى بعده ابن الجوزى .

شهاب الدين الشيخ مجد الدين يوسف[2] بن محمد بن عبد الله المصرىّ ، ثم الدمشقىّ الشافعىّ الكاتب المعروف بابن المهتار .

كان فاضلا فى الحديث والأدب ، كان يكتب كتابة حسنة جدا ، وتولى مشيخة دار الحديث النورية ، وقد سمع الكثير ، وانتفع الناس به ، و بكتابته ، وتوفى تاسع عشر ذى الحجة[3] ، ودفن بباب الفراديس .

الشاعرُ الأديب شهاب الدين أبو عبد الله محمد[4] بن عبد المنعم بن محمد المعروف بابن الخيمى .

(١) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ٧٤ ، السلوك جـ ١ ص ٧٣٣ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٠٣ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٠٨ ، العبر جـ ٥ ص ٣٥٦ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٤٧ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٠٨ ، العبر جـ ٥ ص ٣٥٦ .

(٣) « توفى عاشر ذى الحجة » فى البداية والنهاية .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، فوات الوفيات جـ ٢ ص ٤٥٨ رقم ٤٣٠ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٩٣ ، السلوك جـ ١ ص ٧٣٣ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٤٢ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٠٦ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٠٨ — ٣٠٩ ، العبر جـ ٥ ص ٣٥٤ .

كانت له مشاركة في علوم كثيرة ، ويدٌ طولى في النظم الرائق الفائق ، جاوز الثمانين سنة ، وقد تنازع هو ونجم الدين بن إسرائيل[1] [في][2] قصيدة بائية[3] ، فتحا كما إلى ابن الفارض ، فأمرهما بنظم أبيات على رويهما ، فنظم كل منهما فأحسن ، ولكن حكم لابن الخيمى ، وكذلك فعل القاضى شمس الدين بن خلكان ، رحمه الله .

البيضاوى هو القاضى الإمام العلامة ناصر الدين عبد الله بن[4] عمر الشيرازى ، قاضيها ، وعالم أذربيجان وتلك النواحى .

مات بتبريز فى هذه [٧١٠] السنة ومن مصنفاته : المنهاج فى أصول الفقه ، وهو مشهور وقد شرحه غير واحد ، وله منهاج آخر فى أصول الدين ، ومنهاج آخر فى الفروع وشرحه هو ، وله شرح التنبيه فى أربع مجلدات ، وله الغاية القصوى فى دراية الفتوى ، وشرح المنتخب والكافية فى المنطق ، وله الطوالع ، وشرح المحصول أيضا ، وله غير ذلك من التصانيف المفيدة ، وقد أوصى القطب الشيرازى أن يدفن إلى جانبه بتبريز ، رحمهما الله .

الأمير ركن الدين إباجى الحاجب[5] ، توفى فى هذه السنة ، رحمه الله .

---

(١) وهو محمد بن سوار بن إسرائيل ، نجم الدين أبو المعالى الشيبانى ، الشاعر المشهور ، المتوفى سنة ٦٧٧ هـ/١٢٧٨ م — انظر ما سبق فى وفيات ٦٧٧ هـ ص ٢٠٩ — ٢١٠ .

(٢) [ ] إضافة من الهداية والنهاية .

(٣) مطلعها :

يا مطلبا ليس لى فى غيره أرب 		إليك آل التقصى وانتهى الطلب

انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٠٩ هامش (١) .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٩٢ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٠٤ ، السلوك جـ ١ ص ٧٣٣ ، الهداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٠٩ .

(٥) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٥٨ ب .

وانظر ما يلى فى وفيات سنة ٦٨٦ هـ ص ٣٦٨ .

فصل فيما وقع من الحوادث
في السنة السادسة والثمانين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة هو الحاكم بأمر الله العباسى

وسلطان الديار المصرية والشامية : الملك المنصور قلاون الألفى الصالحى .

وبقية أصحاب البلاد على حالهم .

ذكر بعوث السلطان :

منها : بعثة العسكر إلى صهيون وسنقر الأشقر فيها حاكم ، فخرجوا أوائل المحرم .

وقال النويرى (١) : وكان خروجهم فى أواخر السنة الماضية .

وقال بيبرس : وذلك للأسباب التى اتفقت من الأمير شمس الدين سنقر الأشقر . منها :

كونه تقاعد عن الحضور إلى حصن المرقب ، وتأخر عن المساعدة فى الجهاد المفترض عليه .

ومنها : أنه كان يشن الغارات بخيله ورجله على البلاد التى حوله ، وخرج عما وقع عليه الاتفاق ، وأبدى أنواعا من الشقاق ، فسير السلطان إليه جيشا صحبة

(*) يوافق أولها الأحد ١٦ فبراير ١٢٨٧ م .

(١) وانظر أيضا ما سبق ص ٣٥٣ .

المشار إليه [(١)]، فتوجه في جماعة من العسكر، فسار ومعه من الأمراء والأكابر، ونزل على صهيون، وأرسل إلى الأمير شمس الدين سنقر الأشقر يعرض عليه تسليم الحصن، والتوجه إلى الديار المصرية، ويعرفه ماوعده السلطان من المواعيد، وما نواه له من المزيد، [وما قصده من اجتماع الشمل بأنسه، والراحة من القيل والقال الذي يشوب الود بعكسه] [(٢)]، فما أجاب ولا أظهر [تماسكا بشيء من هذه الأسباب] [(٣)]، فعند ذلك جدّ في محاصرته، وبالغ في مضايقته، ونصب عليه المجانيق، ورماه بالأحجار [(٤)]، وشدّد عليه الحصار، فلما رأى ذلك عاين الهُلك، وأيقن أنه متى [(٥)] فتح الحصن عنوةً لم يأمن على نفسه، فأرسل يطلب الأمان [(٦)]، ويلتمس [٧١١] تأكيده بالأيمان، فأجابه الأمير حسام الدين إلى ذلك، وحلف له على

---

(١) المقصود الأمير حسام الدين طرنطاى — انظر ماسبق ص ٣٥٣ وزبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٥٨ ب.

ويوجد في هامش المتن تعليق نصه: «وليس المشار إليه بالمسبوق فيكون الإضمار قبل الذكر».
ووقع هذا اللبس بسبب نقل العيني جزء من الخبر عما أورده بيبرس الدوادار في زبدة الفكرة.

(٢) [ ] إضافة من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٥٨ ب.

(٣) [ ] إضافة من زبدة الفكرة، ويوجد بدلا منها في المتن «الطاعة».

(٤) «ترمين بالحجار» في زبدة الفكرة.

(٥) «ما» في الأصل، والتصحيح من زبدة الفكرة.

(٦) «وأرسل يسأل الاجتماع بطرنطاى، فأجاب سؤاله، فنزل سنقر الأشقر إليه، فتعانقا، وكان على طرنطاى قباء نوقاني، فقلعه وبسطه تحت رجلي سنقر الأشقر. وحلفا لبعضهما بعضا: حلف طرنطاى له على أنه ما يخونه، ولا يمكن أستاذه منه. فلما استوثق سنقر منه سلم إليه الحصن» — الجوهر الثمين ص ٣٠٠.

وعن هذا اللقاء انظر أيضا السلوك جـ ١ ص ٧٢٤.

ما قصده هنالك ، وضمن عن السلطان أنه سيعامله بالجميل ، ويَصله من إحسانه بكل جزيل ، وأنه لا يعرض إليه بسوء فى نفسه وجسده وأهله وولده وحاشيته .

فلما استوثق بتأكيد العهود واطمأنَّ إلى هذه الوُعود نزل من صهيون وتسلمها الأمير حسام الدين طرنطاى المنصورى ، ورتّب فيها نائبا وواليا ورجّالةً ، وأنعم على رجالها ، ونظر فى أحوالها ، وسار عنها والأمير شمس الدين سنقر الأشقر صحبته ، فرُتِّبَت له الإقامات ، وأجزلت له الكرامات ، ولما وصلوا إلى قريب القلعة ركب السلطان وولداه الصالح والأشرف وولدا الملك الظاهر بين يديه فى موكب حفّت به العساكر ، واجتمعت فيه الأمراء الأكابر ، والصالحيّة ، والنجمية ، وسائر الخشداشية ، وتلقى السلطان الأمير شمس [الدين][1] سنقر المذكور بالبشر والإقبال ، وتعانقا ، وتكارشا ، [وتعارضا ، تحية المحبين إذا التقيا بعد البين][2] ، ثم أطلعه القلعةَ معه ، وأسكنه فيها ، وحمل إليه من الخلع الفاخرة ، والأقمشة الزاهرة ، وحوائص الذهب الثمينة ، وأنواع التحف النفيسة ، وأعطاه إمرة مائة فارس ، وساق إليه من الخيل المسوَّمة ، والسروج المحلاة ، وغير ذلك ، ماملأ عينيه ، ويدَه ، واتخذه فى الحضر جليسا ، وفى السفر أنيسا ، وفى المهمات مشيرا ، وبقى على ذلك بقيّة أيام السلطان ، فلما أفضى الملك إلى ولده الأشرف أوقع به على مانذكره إن شاء الله[3] .

---

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٠٩ ب .

(٢) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٣) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٠٩ ب ، حيث يوجد اختلاف فى بعض الألفاظ .

وقال النويرى : ولما نزل سنقر الأشقر من صهيون طائعا إلى خدمة الأمير حسام الدين ، سار حسام الدين وهو معه إلى اللاذقية ، وكان فيها برج للإفرنج تحيط به البحر من جميع جهاته، فتوصل حسام الدين طريقا إليه، وحاصره وتسلمه بالأمان وهدمه ، ثم سار منه إلى غزّة ، ثم إلى مِصْر .

ومنها : أن السلطان بعث جيشا من الأمراء والأجناد وعُربان البلاد وغيرهم صحبة الأمير علم الدين سنجر المسرورى متولى القاهرة المعروف بالخياط، والأمير عزّ الدين أيدمر السيفى أستاذ الدار، والأمير أيتمش السّعدىّ متولى الأعمال القوصيّة لغزو النوبة ، فتوجهوا [٧١٢] ووصلوا دُنْقلَة ، وأغاروا عليها وعلى أعمالها ، وسَبوا ونهبوا وغنموا ، وجلبوا شيئا كثيرا من الرقيق .(١)

ذكر بقيّة الحوادث :

منها : أنه ولى القضاء بالقاهرة قاضى القضاة تقى الدين عبد الرحمن بن قاضى القضاة تاج الدين عبد الوهاب ابن بنت الأعز، عوضا عن برهان الدين الحصرى الحسن السنجارى .

ومنها : أنه وقع ببلاد الغربية من الديار المصرية فى زمن الحصاد بَرَد ، فضرب كثيرا من الزرع القائم .

ومنها : أن تُدَانْ مَنْكُو بن طغان بن دوشي خان ابن جنكزخان صاحب البلاد الشمالية أظهر التوله والتخلى عن النظر فى أمور المملكة ، والانقطاع إلى المشايخ

(١) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٦٠ ب .

والفقراء ، والإلمام بالصلحاء والعُبّاد ، وقيل له : إن المُلك لا بُدّ له من ملك يَسُوسُه ، فأشار بأنه قد نزل عنه لابن أخيه تَلابُغَا بن طرْنُوا بن دوشى خان بن جنكزخان ، فطابت نفسه بذلك ووافقه الخواتين والأخوة والأعمام والأقارب والإلزام ، وكانت مدة مملكة تُدَانْ منكو حول خمس سنين،(١) وكان له من الأولاد أنْ منْكى وصَراى تمر وسكباى .

ومنها : أن تَلاَبُغَا المذكور ملك عوضا عن تُدَان منكو،وتجهز وسار بعساكره إلى بلاد الكرك للإغارة عليها ، وغزو مَن فيها ، وأرسل إلى نُوغَيْه يأمره بالمسير فيمن عنده من العساكر ليجتمعا على الغارة على بلاد كرك ،فسار نُوغَيْه في التُمَانات التي عنده ، وتوافيا في المقصد ، وشَنُّوا الغارة ، ونهبوا ما شاءوا وقتلوا مَنْ شاءوا وعادوا ، وقد تمكن الشتاءُ ، وتكاثرت الثلوج ، واستصعبت الطرقات ، ففصل نُوغَيْه عنه بمن معه وسار إلى مشاتيه ، فوصل سَالمًا هو وكل من يليه ، وسار تَلابُغَا يتعسَّفُ البِيدَ الموعَرَة، والفيافى المقفرة،فتاه عن حدّ الطرق،وناله وعسكره غاية الضنك والضيق ، وهلك أكثرهم من شدة البَرد ، وعدم القوت ، ولم يسلم إلا القليل منهم ،فعزّ ذلك على تلابغا وتوهم أن نُوغَيْه إنما فعل ذلك مكرا بهم ومكيدة ليهلك عساكره ، ويُبيد عشائره ، فأضمَرَه الغَدْرَ ، وأبطن له الشرّ ، وذلك لما ناله ونال عسكره من الشدة الشديدة التى ألجأتهم إلى أكل لحوم دوابهم التي

---

(١) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٥٩ ب ، ١٦٠ أ .

يركبونها ، ودوابهم التى استصحبوها ، ولحوم من مات منهم جوعا ، [٧١٣]
فاتفق مع أصحابه على قصد نُوغَيْه (١) ، على ما سنذكره فى مكانه إن شاءَ الله تعالى .

وفيها (٢) : « ... ... » .

وفيها : حج بالناس الأمير سيف الدين قطز السلحدار .

(١) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٦٠ أ ، ب .

(٢) « ... ... » بياض فى الأصل .

ذكر مَنْ تُوفى فيها من الأعيان

الشيخ الإمام العلّامة القدوة قطب الدين أبو بكر محمد (١) بن الشيخ الإمام أبى العباس أحمد بن على بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن أحمد بن الميمون القيسى التوزرى (٢) ، ثم المصرى ، ثم المكى الشافعى المعروف بابن القسطلانى .

شيخ دار الحديث الكاملية (٣) بالقاهرة ، وُلد سنة أربع عشرة وستمائة ، ورحل إلى بغداد وغيرها ، وسمع الكثير وحصّل علوما ، وكان يفتى على مذهب الشافعى ، وأقام بمكة مدة طويلة ، ثم صار إلى مصر ، ثم تولى مشيخة الحديث بها ، وكان حسن الأخلاق ، محببا إلى الناس ، وكانت وفاته فى أواخر المحرم ، ودفن بالقرافة الكبرى ، وله شعر حسنٌ .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة جـ٩ ورقة ١٦٠ ب ، المنهل الصافى ، النجوم الزاهرة جـ٧ ص٣٧٢ ، شذرات الذهب جـ٥ ص٣٩٧ ، تاريخ ابن الفرات جـ٨ ص٥٩ ، الوافى جـ٢ ص١٣٢ رقم ٤٨٠ ، تذكرة النبيه جـ١ ص١١٠ ، السلوك جـ١ ص٧٤٨ ، البداية والنهاية جـ١٣ ص٣١٠ .

(٢) «الموروذلى» فى الأصل ، والتصحيح من مصادر الترجمة ، و«النورى» فى البداية والنهاية ، و«النويرى» فى المنهل الصافى .

(٣) دار الحديث الكاملية بالقاهرة : أنشأها الملك الكامل الأيوبى — المواعظ والاعتبار جـ٢ ص ٣٧٥ .

الشيخ الإمام محمد(١) بن محمد بن عبد الله بن عبد الله بن مالك ، بدر الدين ابن العلامة جمال الدين الطائى الجيانى ، ثم الدمشقى .

كان إماما فى النحو وغيره ، أخذ عن والده ، ومن تصانيفه : شرح ألفية والده ، وله مقدمة فى المنطق ، ومقدمة فى العروض ، ومات قبل الكهولة من قولنج كان يعتريه كثيرا فى سنة ست وثمانين وستمائة بدمشق ، ودفن بمقبرة باب الصغير .

عمادُ الدين محمد(٢) بن عباس الدُّنَيْسَرى الطبيب الماهر الحاذق الشاعر .

خدم الأكابر والوزراء وعُمِّر ثمانين سنةً ، وتوفى فى صفر منها بدمشق .

قاضى القضاة برهان الدين الخضر(٣) بن الحسن بن على السنجارى ، ولى الحكم بديار مصر غير مرة وولى ، الوزارة أيضا ، وكان رئيسًا وقورًا مهيبًا ، وقد باشر بعده القضاءَ تقى الدين بن بنت الأعز .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : الوافى جـ١ ص ٢٠٤ رقم ١٢٩ ، شذرات الذهب جـ٥ ص ٣٩٨ ، تذكرة النبيه جـ١ ص ١١٠ ، السلوك جـ ١ ص ٧٣٨ .

وقد كرر العينى ذكر وفاته فى وفيات سنة ٦٨٧ هـ — انظر ما يلى ص ٣٧٥ .

كما ذكره ابن كثير فى وفيات ٦٨٧ هـ — البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٣ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ٩١ ، طبقات الأطباء جـ ٢ ص ٢٦٧ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٩٧ ، الوافى جـ ٣ ص ٢٠٠ رقم ١١٧٨ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١١٢ ، السلوك جـ ١ ص ٧٣٩ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٠ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٦٠ ب ، المنهل الصافى ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٠ ، السلوك جـ ١ ص ٧٣٨ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٤٧ .

شرف الدين سليمان[1] الشاعر المشهور ، له ديوان شعر رائق ، توفى فى صفر منها .

الشيخ الصالح عز الدين عبد العزيز[2] بن عبد المنعم بن صيقل الحرانى .

ولد سنة أربع وتسعين وخمسمائة، وسمع الكثير، ثم استوطن مصر حتى كانت وفاته بها فى رابع عشر رجب وقد جاوز السبعين ، وقد سمع منه الحافظ علم الدين البَرزالى لما رحل إلى مصر فى سنة أربع وثمانين .

وحكى عنه أنه شهد جنازةً ببغداد، فتبعهم نبّاشٌ، فلما كان الليل جاءَ إلى ذلك القبر ، ففتح عن الميت ، وكان شابا قد أصابته سكتةٌ ، فلما فتح القبر نهض الميّتُ جالسا ، فسقط النباشُ ميتا فى القبر ، وخرج الشابُّ من قبره وحكى له : كنتُ مرةً بقليوب وبين يدى صُبْرة قمح ، فجاء زُنْبُور فأخذ حبةً من القمح ، ثم جاءَ فأخذ أخرى ، [٧١٤] ثم جاءَ فأخذ أخرى أربع مرّات ، فذهبتُ فاتبعته ، فإذا هو يضع الحبّة فى فم عُصْفور أعمى فى تلك الأشجار التى هناك .

قال : وحكى لى الشيخ الصالح عبد الكافى أنه شهد مرةً جنازةً ، فإذا

---

(١) هو سليمان بن بنيان (بليان) بن أبى الجيش بن عبد الجبار ، شرف الدين ، أبو الربيع الهمذانى ، ثم الأربلى .

وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٧٢ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٩٥ ، فوات الوفيات جـ ٢ ص ٥٧ رقم ١٧٠ ، الوافى جـ ١٥ ص ٣٠٦ رقم ٥٠٥

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٩٦ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ١١٣ رقم ١١٧ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٥٨ — ٥٩ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١١٣ ، السلوك جـ ١ ص ٧٣٨ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٠ — ٣١١ .

عبدٌ أسود معنا ، فلما صلّى الناس لم يصل ، فلما حضرنا الدفن نظر إلىّ وقال : أنا عملُه ، ثم ألقى نفسَه فى القبر ، فنظرت فلم أَرَ شيئًا .

الحافظ أبو اليمن عبد الصمد بن عبد الوهاب بن الحسن بن محمد بن الحسن بن عساكر الدمشقى (١) .

ترك الرئاسة والأملاك ، وجاور بمكة ثلاثين سنةً مقبلًا على العبادة والزهادة ، وقد حصل له قبولٌ تامٌّ من الناس من الشاميين والمصريّين وغيرهم ، ثم كانت وفاته بالمدينة النبويّة فى ثانى رجب ، رحمه الله .

الشيخ الإمام الورع الزاهد الحافظ المجوّد صاحب الرياضات والمجاهدات صدر الدين محمد (٢) بن الشيخ سديد الدين القزوينى .

إمام صفة صلاح الدين بخانقاة سعيد السعداء بالقاهرة ، توفى فيها فى هذه السنة .

الأمير سيف الدين قجقار (٣) المنصورى .

نائب السلطنة بصفد ، توفى فى هذه السنة .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١١ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٩٥ ، فوات الوفيات جـ ٢ ص ٣٢٨ رقم ٢٨٢ ، العقد الثمين جـ ٥ ص ٤٣٢ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٦٠ ب .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى .

وورد اسمه « قجقار بن عبد الله المنصورى التركى ، يلقب سيف الدين » فى تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٥٩ .

الأمير ركن الدين أَبَاجى[1] الحاجب ، توفى يوم الأحد عاشر رمضان من هذه السنة .

الأمير سيف الدين كراى الظاهرى ، توفى فى هذه السنة وكان أميرا كبيرا .

الأمير حسام الدين لاجين[2] الزينى الصّعيدى ، توفى فى هذه السنة .

الأمير علم الدين سنجر[3] الباشقردى الصالحى .

توفى بالقاهرة ليلة الثلاثاء التاسع عشر من شهر رمضان ، وكان قد تولى نيابة حلب ، ثم عزل عنها بالأمير قرا سنقر فى سنة إحدى وثمانين وستمائة .

الأمير بدر الدين بَيْلِيك[4] الأيدمرىّ .

توفى فى رابع المحرم منها ودفن بتربته قرب مشهد الإمام الشافعىّ رضى الله عنه ، وحزن السلطان عليه حزنا عظيما .

---

(١) ورد ذكر وفاته فى وفيات سنة ٦٨٥ هـ ، أنظر ما سبق ص ٣٥٧ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، الوافى جـ ١٥ ص ٤٧٢ رقم ٦٣٨ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٥٨ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٣ ص ٥١٥ رقم ٧٥٠ .

فصل فيما وقع من الحوادث

في السنة السابعة والثمانين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة هو : الحاكم بأمر الله العباسي .

والسلطان الملك المنصور قلاون صاحب الديار المصرية [٧١٥] والشامية والحلبية ، وقد عزل الأمير علم الدين سنجر الشجاعي المنصوري من الوزارة ، وصادره ، وأخذ أمواله ، وكان أكثر حَنَقه عليه أنه بلغه عنه أنه قد أفحش في المظالم ، واستجلب الدعاءَ على دولته من العالم ، وأن في سجنه جماعة كثيرة عدتهم مئون ، وقد مرت عليهم شهور وسنون ، وقد صار موجودهم كله جُعْلًا للرسل وبرطيلا للمقدمين ، فرسم لبهاء الدين بُغْدى الدوادار بأن يخرج إلى أماكن هؤلاء المصادرين ، ويكشف أمرهم عن يقين ، فخرج في الليل إلى دار الفلوس التي هي مجمع الدواوين ، فوجد فيها خلقًا ، فقاموا إليه مُستصرخين ، فأعلم السلطان بأمرهم ، فأمر الأمير حسام الدين طرنطاى نائبه بعرضهم ، وأمر [بإطلاق] (١) من يجبُ إطلاقه منهم ، فعرضهم (٢) وأفرج عن جميعهم ، وباءَ بأجرهم كما باءَ الشجاعي بإثمهم ، ووجد سوءَ عاقبة ظلمهم ، وكانت هذه النقمة الحالّة به بأدعيتهم ، فللّه درّ القائل :

(*) يوافق أولها الجمعة ٩ فبراير ١٢٨٨ م .

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٦١ أ .

(٢) « فأعرضهم » في الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

أتَهْـزأُ بالدعاءِ وتزدرِيه وما يُدريك ما فعل الدعاءُ
سِهامُ الليل ما تُخْطِئُ ولكن لهـا أجلٌ وللأجل انقضاءُ (١)

ثم ولّى السلطان الأمير بدر الدين بَيْدَرا (٢) المنصورى الوزارة ، وكان أولا أمير مجلس ، ثم صار أستاذ الدار ، ثم نقله إلى الوزارة عوضا عن علم الدين سنجر الشجاعى المذكور ، فأحسن فيها السيرة ، وعامل الناس فى اللطف (٣) ، وانكفّت فى أيامه المرافعات ، وقلّت المصادرات ، وانجلت ظلم الظلمات ، وذاقت الدواوين حَلَاوةَ الأمْن (٤) من بعد مرارة الخوف ، ولم يزل مستمرا إلى أن انقضت الدولة المنصورية ، وأقبلت الدولة الأشرفية ، فنقل إلى نيابة السلطنة ، فكان منه ماسنذكره إن شاء الله تعالى (٥) .

قلت : بَيْدَرا هذا هو ثانى الوزراء من الترك أرباب السيوف ، وأولهم الشجاعى المذكور ، وكانت ولاية بَيْدَرا للوزارة فى السابع والعشرين من ربيع الأول [٧١٦] من هذه السنة .

وفيها : بنى السلطان ببنت الأمير شمس الدين سنقر التكريتى الظاهرى ، وأفرج عنه من الإعتقال ، وأعطاه إمرةً بالشام ، ثم بانت عنه (٦) .

(١) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٦١ ب ، ١٦٢ أ .

(٢) هو بيدرا بن عبد الله المنصورى ، المتوفى سنة ٦٩٣ هـ/ ١٢٩٤ م — المنهل الصافى جـ ٣ ص ٤٩٣ رقم ٧٣٤ .

(٣) « باللطف » فى زبدة الفكرة .

(٤) « مستمر الوزارة » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٥) زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٦٢ أ .

(٦) انظر أيضا تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٦٩ .

وفيها : فى شهر رمضان كُبِس نصرانىّ وعنده مسلمةٌ وهم يشربون الخمر فى نهار رمضان، فأمر نائب السلطنة بدمشق حسام الدين لاجين بتحريق النصرانى، فبذل فى نفسه أموالا جزيلةً، فلم تقبل منه، وحرّقه بسوق الخيل .

وفيها : وقعت الحربُ بين قُبْلاى خان صاحب التخت والتاج وبين قَيْدُو وابن جُغَى وابن ارْكَذَيه بن جنكزخان أحد ملوك التتار، وكان سبب الواقعة أن أميرا من أمراء قبلاى يسمّى طُرُدْغَا احس [بأن](١) قبلاى قد تغيّر عليه، وعزم على الإيقاع به، فهرب ولحق بقَيْدُو، وحسّن له قصْد قُبْلَاى وحربه، وأطمعه فى أخذ مملكته، وقال له : إنه قد كَبُر سنّهُ وما بقى ينهض بتدبير مُلْكه، وإنما أولاده هم الذين يتولون الأمور وهم صبيان، فسار قَيْدُو بجيوشه لقَصْده وسار طُرُدْغا صحبته، وبلغ ذلك قُبْلاى، فجهز جيوشه، وأرسلها صحبة ولده نُمْغَان لحربه، فلما وصل قَيْدُو قريبا من القوم، بلغه أنهم فى جمعيةٍ كثيرة، فأراد الرجوع من فوره، فقال له طُرُدْغَا : يعطينى الملك تُومَان من نقاوة العسكر وأنا أدبر له الحيلة وأكسرهم . قال له قيدو: وكيف تصنع ؟ قال: إن الطريق الذى قدامنا فيها وادٍ بين جبلين، فأتوجّه بالتُومان، فأكمن فى الوادى، ويتقدّم الملك إلى القوم حتى إذا وقعت العين على العين يرجع موليا، فهم لابد لهم أن يتبعونه، فإذا تبعوه يَسْتَدْرجهم الى أن يصيروا بين الوادى و بينه، فأخرج إليهم ويلتفت العسكر عليهم، ففعل قيدُو كذلك، وكمن الكمين مع طُرُدْغَا نُوين، وسار حتى تقابل

---

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٦١ أ .

العسكران، ووقع العيان على العيان، فطمع عسكر قبلاى فيهم لقلتهم وحملوا عليهم، فما ثبتوا لحملتهم وانهزموا قدامهم راجعين، وتبعوهم طامعين حتى إذا تجاوزوا مكان الكمين خرج عليهم طُرُنْدغا نُوين [ومن](١) معه من نقاوة [٧١٧] التَوامين، ثم كرّ عليهم قَيْدو بمن معه، فكسر عسكر قبلاى أشد كسرة، وأثخنوا فيهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا، ثم ساروا فى آثارهم حتى أشرفوا على ديارهم فنهبوها، ونهبوا من النساء والصبيان خلقا عظيما، وجُلِبَ من ذلك السبْى عدّةٌ من المماليك إلى الديار المصرية، ونجا نُمغان ابن قبلاى فى عدّة من أصحابه، فلما وصل إلى أبيه سخط عليه وأرسله إلى بلاد الخطا، فمات بها(٢).

وفيها: « ... ... »(٣).

وفيها: حج بالناس سيف الدين بلبان الدكاجلى المعروف بالشحنة، فبارز عليه الأمير أبو نمى الحسنى صاحب مكة، وأمسكه باتفاق مع الحجاج، وسيّره إلى السلطان، فأرسله إلى الكرك، فاعتقل فيها مدة، ثم أطلق فيما بعد.

---

(١) [ ] إضافة تتفق والسياق.

(٢) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٦١ ا — ب.

(٣) « ... ... » بياض فى الأصل.

ذكر من توفى فيها من الأعيان

الخطيب الإمام قطب الدين أبو الوفا عبد المنعم[(١)] بن يحيى بن إبراهيم بن على ابن جعفر بن عبد الله بن محمد بن سعيد بن إبراهيم بن سَعْد بن إبراهيم بن عبد الرحمن ابن عوف رضى الله عنه ، القرشىّ الزهرىّ .

خطيب القدس الشريف أربعين سنة ، وكان من الصلحاء الكبار ، مجموعا عن الناس ، حسن الهيئة ، مهيبا ، عزيز النفس ، يفتى الناس ، ويذكر التفسير من حفظه فى المحراب بعد الصبح ، وقد سمع الكثير ، وكان من الأخيار ، ولد سنة ثلاث وستمائة ، وتوفى ليلة السابع والعشرين من رمضان عن أربع وثمانين سنة ، وتولى موضعه بدر الدين بن جماعة[(٢)] .

الشيخ الصالح العابد إبراهيم[(٣)] بن معضاد بن شداد بن ماجد الجعبرىّ ، تقى الدين أبو إسحاق .

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ٩٢ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٢ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٧٤ ، السلوك جـ ١ ص ٧٤٦ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٠١ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١١٩ — ١٢٠ .

(٢) هو محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة ، بدر الدين ، المتوفى سنة ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م — المنهل الصافى .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ١ ص ١٧٧ رقم ٨٤ ، درة الأسلاك ص ٩٢ ، الوافى جـ ٦ ص ١٤٧ رقم ٢٥٩٢ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٩٩ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٧٤ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٧٢ ، السلوك جـ ١ ص ٧٤٦ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١١٦ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٢ .

أصله من قلعة جعبر ، ثم أقام بالقاهرة وكان يعظ الناس وكان الناس ينتفعون بكلامه كثيرا ، توفى بالقاهرة يوم السبت الرابع والعشرين من المحرّم ، ودفن فى تربته بالحسينية ، وله نظم حسن ، وكان من الصالحين المشهورين .

ومن أشعاره قوله :

أرى غراماً وتعذيباً وفرط جوىً وحُرقةً فى الهوى تعلُو على سقرِ
ولستُ أدرِى بمَنْ وجْدِى ولا نظرت عيناىَ حُبّىَ فى بدْوٍ ولاحضَرِ

[٧١٨]

فهل رأيتم جميعَ الناس أعجب من حالى وقد سمعتم مثل ذا الخبرِ
أذُوبُ شوقًا إلى مَنْ لستُ أعرِفُه ولأى خيالا منه فى عُمُرِ (١)

الحكيم الفاضل العلامة علاء الدين على بن أبى القرشى الدمشقى (٢) ، المعروف بابن النفيس .

نشأ بدمشق واشتغل بها على مهذب الدين الدخوارى ، وإليه انتهت رئاسة الطبّ ، وصنف التصانيف المفيدة منها : كتاب الشامل فى الطبّ ، وكتاب المهذّب فى الكحل ، وكتاب الموجز وهو من أحسن الكتب ، وشرح القانون

(١) تاريخ ابن الفرات جـ٨ ص٧٣ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ٩٤ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٣٧ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٠١ ، السلوك جـ ١ ص ٧٤٦ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١١٥ — ١١٦ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٢ .

في مجلدات كثيرة ، وشرح مسائل حنين ، وفصول أبقراط ، وغير ذلك[(١)] ، توفى بالقاهرة فى الحادى والعشرين من ذى القعدة منها .

الشيخ بدر الدين أبو عبد الله محمد[(٢)] بن الشيخ جمال الدين بن مالك النحوى .

شارح الألفية التى لأبيه وهو من أحسن الشروح وأكثرها فوائد ، وكان لطيفا ظريفا فاضلا ، توفى يوم الأحد الثامن من المحرم ، ودفن من الغد بباب الصغير بدمشق .

الشيخ الصالح ياسين[(٣)] بن عبد الله المقرئ ، الحجام .

شيخ الشيخ محيى الدين النووى ، وقد حج عشرين حجة ، وكانت له أحوال وكرامات ، توفى يوم الأربعاء الثالث من ربيع الأول .

الشيخ أبو العباس أحمد[(٤)] بن عُمَر المُرْسِى ، من أصحاب الشيخ الشاذلى[(٥)] ، توفى فى هذه السنة[(٦)] .

(١) انظر هدية العارفين جـ ١ ص ٧١٤ .

(٢) ورد ذكره فى وفيات سنة ٦٨٦ هـ ـ انظر ما سبق ص ٣٦٥ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٢ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٠٣ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٦٣ ب ، درة الأسلاك ص ٩٠ ، المنهل الصافى جـ ٢ ص ١٤٣ رقم ٢٢٨ ، الوافى جـ ٧ ص ٢٦٤ رقم ٣٢٢٩ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٧٣ .

(٥) هو على بن عبد الله بن عبد الحميد بن عبد الجبار ، أبو الحسن الشاذلى ، المتوفى سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ـ المنهل الصافى .

(٦) ورد ذكر وفاته سنة ٦٨٦ هـ فى المنهل الصافى . انظر مصادر الترجمة .

الشيخ الصالح عثمان بن خضر بن سَعْد الكردى المراكشي العدوى صاحب الكرامات (١).

توفى فى هذه السنة ، وحكى عنه تلميذه قال : لما كان فى اليوم الذى التقى الملك الظاهر مع التتار بالأُبلُسْتين حصل للشيخ غفوة من الوسَنِ ، ثم أفاق من سِنَتِه فقال : كُنْتُ فى هذه الساعة فى بلاد الروم ، ورأيتُ الملك الظاهر وقد انتصر على التتار ونصب دهليز على قيسارية ، فورّخ الوقت والساعة ، فكان الأمر كما أخبر الشيخ ، رحمه الله (٢).

ناصر الدين حسن (٣) بن شاور النقيب الشاعر.

وله أشعار ومقطعات رائقة ، توفى فى هذه السنة ، ومن أشعاره :

عاش صَبًّا بكم ومات مُحِبًّا فسقى الله منه مَهْدًا وتُرْبَا
ما قضى أو قضى حقوق هواكم وأباح « ... ... » (٤) جسما وقلبًا

[٧١٩]

قام والله ما الذى أوجبَ العشقَ على مثله وإن كان صعبا
رضى الموت فى الغرام ولم يَرْضَ مَلَامًا عليه فيه وعَتْبًا

(١) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٦٣ ب .

(٢) انظر زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٦٣ ب .

(٣) وله أيضا ترجمة فى المنهل الصافى ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٧٦ . فوات الوفيات جـ ١ ص ٣٢٤ رقم ١١٥ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٠٠ .

وورد ذكر وفاته سنة ٦٨٩ هـ فى المنهل الصافى .

(٤) « ... ... » بياض فى الأصل .

هكذا هكذا وإلا فلا لا كلُّ مَنْ هامَ أو صبَا أو أحبَّا
يا محبِّين هذه صفة الحبِّ وذا وصفُ من يُسمَّى مُحِبَّا
لو صدقتم محبَّة ما نطقتم لا تظُنُّوا الغرامَ لهواً ولعبَا
ليس مَنْ يشهَدُ القتالَ بعينيه كمَنْ يلتقى طعاناً وضَرْبَا
ربُّ صبَّ لسوقه الحبَّ للموت فينقادُ وهو لا يتأبَّى

وكان حسن الدُّعابة ، وجُرِّدَ في وقتٍ إلى بعض البيادر فقال :

وجُرِّدتُ مع فقرى وشيخوختي إلى غريبِ فعيني مثل نومى مُشرَّداَ
فلا يدَّعى غيرى مقامى فإنَّنى أنا ذلك الشيخ الفقيرُ المجرَّدُ

محمد بن محمد بن محمد العلامة أبو الفضائل ، عُرِفَ بالبرهان النسفى الحنفى (١) ، صاحب التصانيف الكلامية والخلافيَّة ، مولده سنة ستمائة تقريبا ، ولخَّص تفسير الإمام فخر الدين . وله مقدمة فى الخلاف مشهورة ، وأجاز للإمام البرْزَالى فى سنة أربع وثمانين وستمائة ، وكتب بخطه الملقب بالبرهان النسفى ، توفى فى هذه السنة (٢) ، ودفن تحت قبة مشهد أبى حنيفة رضى عنه .

الملك الصَّالح علاءُ الدين على بن الملك المنصور قلاون (٣) .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ٩٣ ، الوافى جـ ١ ص ٢٨٢ رقم ١٨٥ . شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٨٥ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٢٠ .

(٢) ورد ذكر وفاة صاحب الترجمة سنة ٦٨٤ هـ فى مرآة الجنان جـ ٤ ص ٢٠٠ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٦٢ أ ، ب ، المنهل الصافى ، السلوك جـ ١ ص ٧٤٦ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٢ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١١٥ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٦٩ — ٧٠ . الجوهر الثمين ص ٣٠١ .

مرض بالدوسنطارية الكبدية ، وهى من الأمراض القاتلة الردية ، فتوالى عليه رمى الدم ، وأعيى الأطباء دواءه ، فقدر الله منيته فى هذه السنة .

وقال ابن كثير : توفى ليلة الجمعة رابع شعبان من هذه السنة ، فوجد عليه السلطان وجدا عظيما[1] ، وكان قد عهد إليه فى الأمر[2] من بعده ، وخطب له معه[3] على المنابر من مدة سنين ، ودفنه فى تربته ، وجعل ولاية [العهد من][4] بعده إلى ابنه الملك الأشرف خليل[5] ، وكتب بذلك إلى الآفاق ، وخطب له بعد أبيه فى البلاد .

وقال بيبرس : وخلف الملك الصالح ولدا ذكرا وهو الأمير مظفر الدين أمير موسى ، ولما أفضت الدولة إلى عمه السلطان الملك الناصر صار فى زمرة الأكابر وأمره بمائة فارس :

[٧٢٠]

ورث السعادة عن أبيه وجده وحوى السيادة كابرا عن كابر
فالله يحرسه ويرفع مجده فى ظل مولانا الملك الناصر

الخوندة غازية خاتون[6] بنت السلطان الملك المنصور قلاون وزوجة الملك السعيد بن الظاهر ، توفيت بعد الصالح المذكور ببرهة يسيرة ، وهى أخته لأبيه ، والله أعلم .

---

(١) « شديدا » فى البداية والنهاية .
(٢) « بالأمر » فى البداية والنهاية .
(٣) « معه » ساقط من البداية والنهاية .
(٤) [ ] إضافة من البداية والنهاية .
(٥) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٢ .
(٦) ولها أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة جـ ٩ ورقة ١٦٢ ب ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٢ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٧٥ هامش (٢) .

فصل فيما وقع من الحوادث
في السنة الثامنة والثمانين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة هو : الحاكم بأمر الله العباسي .

والسلطان الملك المنصور قلاون صاحب الديار المصرية والشامية والحلبية ، ونائبه في الديار المصرية الأمير حسام الدين طرنطاى ، وفي دمشق الأمير حسام الدين لاجين المنصوري ، وفي حلب الأمير قراسنقر المنصوري .

ذكر سفر السلطان إلى الشام :

وفي هذه السنة رسم السلطان للعساكر بالتجهيز ، وعزم على التبريز ، وخرج من قلعته في المحرم من هذه السنة ، وسار إلى الشام على عزم غزو طرابلس وأخذها ، وذلك أن أهلها نقضوا قواعد الصلح ، وكدّروا موارد الهدنة ، بما ارتكبوا من الفساد ، وسوء الاعتماد ، والتطرق إلى الطرقات ، والتعرض إلى المسلمين في معظم الأوقات ، فعزم على حصارها ، وصمّم على دمارها (١) ، وكتب إلى النواب بالممالك الشامية والحصون الساحلية بتجهيز الجيوش إليها ، وإنفاذ المجانيق وآلات الحصار والنزول عليها .

(*) يوافق أولها الثلاثاء ٢٥ يناير ١٢٨٩ م .

(١) نهاية الورقة ١٦٣ ب ص ٨ جـ ٩ من زبدة الفكرة ، ويبدو أن هناك سقط بين هذه الورقة والتي تليها وهي الورقة ١٦٤ أ والتي ورد فيها ذكر وفاة السلطان قلاوون (٦٨٩ هـ) ، دون تكملة حوادث فتح طرابلس وغيرها من أحداث سنة ٦٨٨ م .

ذكر فتح طرابُلس :

توجّه السلطان إليها ، ونزل عليها ، وجاءَت الأمداد من جميع البلاد ، وجَدُّوا فى الحصار .

وقال ابن كثير : نزل السلطان على طرابلس وصحبته خلق كثير من المتطوعة ، منهم قاضى الحنابلة نجم الدين بن الشيخ ، وخلق من المقادسة وغيرهم ، فنازلها يوم الجمعة مستهل ربيع الأول وحاصرها بالمجانيق[1] حصارا شديدا ، وضايقها مضايقة عظيمة ونصب عليها تسعة عشر منجنيقا ، فلما كان يوم الثلاثاء رابع جمادى الآخرة[2] فتحت [٧٢١] طرابلس فى الساعة الرابعة من النهار عنوةً ، وشمل القتل والأسر جميع من فيها ، وغرق كثير منهم فى الميناء[3] ، ونهبت الأموال ، وسبيت النساء والأطفال ، وأخذت[4] الذخائر والحواصل ، وقد كانت[5] طرابلس فى أيدى الفرنج من سنة ثلاث وخمسمائة[6] إلى هذا التاريخ ، وقد كان الملك صنجيل حاصرها سبع سنين حتى ظفر بها كما ذكرنا ، وكانت قبل ذلك بأيدى المسلمين من زمن

(١) « بالماجيق » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح من البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٣ .

(٢) « يوم الثلاثاء تاسع عشر ربيع الآخر » — الجوهر الثمين ص ٣٠١ .
وانظر ما يلى من التاريخ الذى حدده النويرى والمقريزى وهو « الثلاثاء رابع ربيع الآخر » ، وطبقا لما جاء فى التوفيقات الإلهامية فإن أيا من التواريخ المذكورة لا يوافق يوم ثلاثاء .

(٣) « وغرق كثير من أهل الميناء » — البداية والنهاية .

(٤) « وأخذ » فى الأصل .

(٥) « كان » فى الأصل .

(٦) استولى الصليبيون على طرابلس فى ١١ ذى الحجة سنة ٥٠٣ هـ / ١٢ يوليو ١١٠٩ م — المختصر جـ ٤ ص ٢٢ ، الكامل جـ ١٠ ص ٤٧٥ .

معاوية رضى الله عنه، فإنه فتحها فى زمن معاوية سفيان بن نجيب فأسكنها معاوية اليهود، ثم لما كان عبد الملك بن مروان جدّد عمارتها وحصّنها وسكنها المسلمون، حينئذ وصارت مطمئنة، وبها ثمار الشام ومصر، فإنه يجتمع فيها الجوز والموز والبلح(١) والقصب، وقد كانت(٢) قبل ذلك كله ثلاث مدن متقاربة، ثم صارت بلدا واحدا، ثم حولت من موضعها، فإن السلطان أمر بهدم هذه البلدة بما فيها من العمائر والآدر والأسوار وأن تُبنى على ميل منها بلدة غيرها أمكن منها وأحسن، ففعل ذلك، فهى هذه التى هى الآن، جعلها الله دار أمان(٣).

وفى تاريخ النويرى: مدة لبث الفرنج عليها من يوم استولوا عليها نحو مائة سنة وخمس وثمانون سنة وشهورا، وكان فتحها عنوة يوم الثلاثاء رابع ربيع الآخر(٤)، وهرب أهلها إلى الميناء، فنجا أولهم فى المراكب، وقتل غالب رجالها، وسبيت ذراريهم، وغنم منها المسلمون غنيمةً عظيمةً، وكان فى البحر قريبا من طرابلس جزيرة، وفيها كنيسة تسمى كنيسة سُنطماس بينها وبين طرابلس الميناء، فلما أخذت طرابلس هرب إلى الجزيرة المذكورة عالم عظيم من الإفرنج رجال ونساء، فاقتحم العسكر الإسلامى البحر وعبّروا خيولهم سباحةً إلى الجزيرة المذكورة، وقتلوا جميع مَنْ بها من الرجال، وغنموا ما بها من النساء والصغار والأموال، وصار الناس لا يستطيعون الصعود إليها من نتن جيف القتلى.

(١) « والثلج » فى البداية والنهاية.

(٢) « كان » فى الأصل، والتصحيح من البداية والنهاية.

(٣) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٣ حيث يوجد اختلاف فى بعض الألفاظ.

(٤) وحدد المقريزى نفس التاريخ لفتح طرابلس — السلوك جـ ١ ص ٧٤٧.

ثم عاد السلطانُ إلى دمشق ، وأعطى صاحب حماة الدستور ، فعاد إلى بلده ، ودخل السلطان دمشق يوم النصف من جمادى الآخرة .

ثم سافر السلطان [٧٢٢] فى ثانى شعبان بجيشه إلى الديار المصريَّة ، فدخلها فى آخر شعبان من هذه السنة .

وفى تاريخ بيبرس : وانهزمت طائفة من الفرنج من أهل طرابلس إلى جزيرة قريبة من الميناء لم يكن يتوصل إليها إلا بالقوارب وصغار المراكب ، فالتجأوا إليها وظنوا أنهم يحتمون بها ، ونقلوا معهم ما عزَّ عليهم من قماشهم وأثاثهم ، فاقتضت سعادة السلطان وشقوتهم أن انطرد البحر عنهم ، وظهرت للعساكر المخائض إليهم ، فبادروا إليها ما بين راجل وفارس ، وأوقعوا بمن كان فيها من شيخ وشابّ ، وبكر وعانس ، وركب أقوام منهم مركبا فى البحر لينجوا بأنفسهم ، فطردتهم الريح إلى الساحل ، وتعذر عليهم الخروج فى العاجل ، وكانت(١) هناك الخيول الإسلاميَّة مع الدُشَاريَّة(٢) ، فخرج إليهم الغلمان(٣) والشاكردية والوشاقية(٤)

(١) « وكان » فى الأصل .

(٢) دشار = جشار : الخيل والأبقار التى تساق مع الجيش — السلوك جـ ١ ص ٩٠٩ هامش (١) .

(٣) غلام — غلمان : هو الذى يقوم بخدمة الخيل ، وفى أصل اللغة مخصوص بالصبى الصغير والمملوك ، ثم غلب على هذا النوع من أرباب الخدم ، وكأنهم سموه بذلك لصغره فى النفوس — صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٧١ .

(٤) الأوشاقية (الأرجاقية) — أوشاقى أو أرجاقى : وهو الشخص الذى يتولى ركوب الخيل للتسيير والرياضة — صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥٤ .

وأمير آخورية(١) ووقعوا فيهم ونهبوهم وأسروا من وجدوا منهم ، فكان الخذلان لهم في البر والبحر ، ولم يستشهد في هذه الغزاة إلا الأمير عز الدين مغان أمير شكار ، والأمير ركن الدين منكورس الفارقاني ، ثم أمر السلطان بتخريب المدينة بكمالها ، وبنيت بالقرب منها مدينة أخرى وسميت طرابلس المستجدة ، وسكنها كثير من المسلمين ، واستقر بها نائب السلطنة ، وطائفة من العسكر ، ولما فرغ السلطان من أمرها رحل عائداً إلى الديار المصرية(٢) .

وقال بدر الدين المنبجي البزاز الشاعر(٣) في ذلك قصيدة يذكر فيها الفتح ، ويمدح السلطان ، رحمه الله :

أدركت بالجد أقصى غاية الطلب ... ونلت بالجد أعلى منتهى الرتب
أبا المظفر لا زالت مظفرة ... منك الجيوش على الأعداء بالرعب
فالله جارك أنى سرت من ملك ... وناصر لك من ناء ومقترب
للهول مرتكب للحق منتصر ... للغزو محتسب للأجر مكتسب
بالسيد الملك المنصور شيد على ... الإسلام وانهد دين الشرك والصلب
يا مدرك الغاية القصوى التي عجزت ... عنها الورى برضى في الله أو غضب

[٧٢٣]

(١) الأمير آخورية : التابعون للأمير آخور ، وهو المسئول عن الإسطبلات ، وتولى أمر ما فيها من الخيل والإبل وغيرها مما هو داخل في حكم الإسطبلات — صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٦١ .

(٢) هذا الجزء ساقط من نسخة زبدة الفكرة التي بين أيدينا .

(٣) هو محمد بن عمر بن أحمد بن عمر المنبجي ، بدر الدين أبو عبد الله ، المتوفى سنة ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م — المنهل الصافي : الوافي جـ ٤ ص ٢٨٦ رقم ١٨٥٦ .

أحرزت ما فات قدماً من طرابلس ... جمع الملوك ذوي الإرعاب والرهب
أتعبت نفسك في ذات الآله بها ... فنالها راحة وافت من التعب
فتح بنيه على كل الفتوح به ... عصر غدا منتشى الأعطاف من طرب
فكم لها في حبال الكفر من حقب ... مرت ولم ترج تطليقا على حقب
أعضت على الذل أحيانا ومابرزت ... بالوجه طالبة بعدا من الحجب
حتى إذا ما رأت كفؤا لخطبتها ... دعت فلبيتها في جحفل لجب
أصدقتها كل ثبت القلب ترعب من ... إقدامه أسد الآجام من رعب
آساد معركة عقبان مقتلة ... فرسان ملحمة للموت لم تهب
من كل قطر أحاطوا محدقين بها ... كما أحيط على الأحداق بالهدب
لو كنت شاهدهم والشمس طلعتها ... من شقة النقع يوم الزحف في نقب
خلت الأسنة شهبا لحن في غسق ... والمشرفيات برقا شيم في سحب
قل للملوك التي أعيتهم فقضوا ... عمراً وكل إليها الدهر ذو أرب
تهدى العرائس من شم الحصون إلى ... من بات يخطبها بالسمر والقضب
غادرتها بمناجيق نصبن لها ... ورفع أبراجها خفض بمنتصب
فأصبحت ذات أصحاب وكم جنبت ... على مرادك من جار لها جنب
أجريت فيها بحارا نجيعهم ... فكل سابحة سبحا إلى اللبب
لم تطلع الشمس فيها بعد ذاك على ... غير الشلايا من القتلى ولم تغب
لله در عواليك التي وصلت ... لك المعالي بحبل غير منقضب

وافتهمُ في جيوش منك أُسْدُ شرًى　　بالبِيض والبَيْض واللامات والثلب

خاضت إليهم عُباب البحر مُسْرعةً　　كأنها في طريق مَهْيَع لَحِب

أذقتهمُ بعد عِزّ مُرَّ ذُلّهم　　وبعدما من كؤوس الخوف والوَصَب

بآرائهما علم الدين الحنيف ومن　　أصاب بالخفض دين الرجس والصُّلُب

[٧٢٤]

أن نِلْتَ ما أعْجَزَتْ صيدَ الملوك بما　　أدركْتَ منْ فتحها الميمونَ عَنْ كُتُب

فآيةُ السيف كم من آيةٍ نَسَخَتْ　　وطلعةُ الشمس كمْ أخفتْ من الشُّهُب

جزاك ربُّك عنه كل صالحةٍ　　وكفَّ عنك أكُفَّ الخَلْفِ في النُّوَب

ودُمْتَ تُرْجَى وتُخْشَى ذا عُلاً وسَطاً　　على العِدَى وعلى الإسلام ذا حَدَب

واهتمّ السلطان بعد ذلك في استجلاب المماليك التُّرك والتتار إلى هذه الديار قصدًا في الاستظهار والاستكثار ، وبذل الأموال لمن يحضرهم من التجار في المفاوز والبحار ، ورغّبهم بالمسامحات تحقيق الإيراد والإصدار ، فجابوا إليه منهم العدد الكثير ، والجمّ الغفير ، حتى أنه اقتنى منهم عدّة لم يسبقه إلى مثلها أحد من أشكاله ، فكانت زهاء ستة آلاف اشتراهم بماله ، وربّاهم تربية الأولاد ، برسم الجهاد ، وغزو الأعداء والأضداد ، ولم يزل مُشفقا عليهم مُحسِنًا إليهم ، نافلاً لهم على التدريج من الجامكيات إلى الإقطاعات ، ومنَ المفاردة إلى إمْرَة العشرات ، ثم إلى الطبلخانات ، ومنهم من انتقل إلى تقدمة الألوف وإمْرَة المئين ، وكانوا جميعا عنده كبنيه ، بل أعزّ من البنين .

وفيها : فتحت قلاع كثيرة بناحية حلب و كركر وتلك النواحى ، وكُسرت طائفةٌ من التتار .

وفيها : سَلْطَن السلطان ولده الملك الأشرف خليل ، وركب من قلعة الجبل ، وشقّ القاهرة من باب النصر إلى باب زويلة بشعار السلطنة ، وطلع القلعة ، وزُينت له القلعة .

وفيها : توجه شمس الدين بن سَلْعوس (١) من دمشق إلى مصر لخدمة السلطان الملك الأشرف بن السلطان الملك المنصور قلاون ، ودخلها فى أواخر المحرم من السنة الآتية .

وقال ابن كثير : جاء كتابٌ يستحث الوزير شمس الدين بن السَلْعُوس فى السير (٢) إلى الديار المصرية وبين الأسطر بخط الملك الأشرف : يَاشُقَيْر ياوَجْهَ الخير، احضُرْ تسلَّم (٣) الوزارة ، فساق إلى القاهرة ، فوصلها يوم الثلاثاء عاشر المحرم من السنة الآتية (٤) ، فتسلَّم الوزارة .

وفيها : « ... ... » (٥) .

وفيها : حج بالناس [٧٢٥] الأمير ركن الدين بيبرس الجالق الصالحى .

(١) هو محمد بن عثمان بن أبى الرجا التنوخى ، الشهير بابن السلعوس ، الصاحب الوزير شمس الدين ، المتوفى سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٤ م — المنهل الصافى ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٧٣ .

(٢) « المسير » فى البداية والنهاية .

(٣) « لتستلم » فى البداية والنهاية .

(٤) ورد هذا النص فى نهاية أحداث سنة ٦٨٩ هـ فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٧ .

(٥) « ... ... » بياض فى الأصل .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

الإصبهاني شارح المحصول، محمد بن محمود بن محمد بن عباد الكافي، العلامة شمس الدين الأصبهاني[(١)].

قدم دمشق بعد الخمسين وستمائة، وناظر الفقهاء، واشتهرت فضائله، وسمع الحديث، وشرح المحصول لفخر الدين الرازي[(٢)]، وصنف القواعد في أربعة فنون: أصول الدين والفقه والمنطق والخلاف، وله معرفة جيدة بالمنطق والخلاف والنحو والآداب، وقد رحل إلى مصر فدرس بمشهد الحسين رضي الله عنه، وبالشافعي رحمه الله، وغيرهما، ورحل إليه الطلبة، وكانت وفاته في العشرين من رجب بالقاهرة عن ثنتين وسبعين سنة.

الشمس محمد بن العفيف سليمان بن علي بن عبد الله بن علي التلمساني الشاعر المطبق[(٣)].

---

(١) وله أيضا ترجمة في: المنهل الصافي، درة الأسلاك ص ٩٦ ــ ٩٧، الوافي جـ ٥ ص ١٢ رقم ١٩٦٧، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٠٦، السلوك جـ ١ ص ٧٥٠، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٥، العبر جـ ٥ ص ٣٥٩، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٢٥.

(٢) هو كتاب «المحصول في أصول الفقه» لفخر الدين محمد بن عمر الرازي، المتوفى سنة ٦٠٦هـ/ ١٢٠٩م ــ كشف الظنون جـ ٢ ص ١٦١٥.

(٣) وله أيضا ترجمة في: المنهل الصافي، درة الأسلاك ص ٩٧، الوافي جـ ٣ ص ١٢٩ رقم ١٠٧٤، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٠٥، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٨٥، السلوك جـ ١ ص ٧٥٠، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٥، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٢٦، العبر جـ ٥ ص ٣٥٩.

كانت وفاته فى حياة أبيه ، فتألّم له ، ووجد عليه وجدا شديدا ، ورثاه بأشعار كثيرة ، توفى يوم الأربعاء الرابع عشر من رجب ، وصلى عليه بالجامع الأموىّ ، ودُفن بمقبرة الصوفية .

ومن رائق شعره :

لحاظُكَ أسيافٌ ذكورٌ فما لها ... كما نقلوا مثل الأرامل تَغزِلُ

وما بالُ بُرهانِ العِذارِ مُسلِماً ... ويلزمُه دورٌ وفيه تَسلسُلُ

وله :

وإنّ ثناياه نجومٌ لبَدره ... وهُنّ لعِقد الحُسْنِ فيه فرائدُ

وكم يتجافى خَصرُه وهو ناحلٌ ... وكم يتحالى(1) ثغرُه وهو باردُ

وله يَذمّ الحشيشة :

ما للحشيشة فضلٌ عند آكِلِها ... لكنّه غيرُ مصروفٍ إلى رَشَدِه

صَفراءُ فى وجهِه خضراءُ فى فمه ... حمراءُ فى عينه سوداءُ فى جَسَدِه(2)

وله :

بدا وجْهُه من فوق ذابل قَدِّه(3) ... وقد لاح من سُودِ الذوائبِ فى جُنحِ

فقلتُ عجيبٌ كيفَ لم يذهب الدُّجى ... وقد طلعت شمس النهار على رُمْحِ

---

(1) « يحلى » فى البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٣١٥ .

(2) « فى كبده » فى البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٣١٥ .

(3) « خديه » فى البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٣١٥ .

وله من جملة أبيات :

من أنت عندى والقضيب اللّدن فى حدّ سَوَا
هذا حرّكه الهَوَى وأنتَ حرّكتَ الهَوَى (١)

الشيخ فخر الدين أبو محمد عبد الرحمن بن يوسف بن محمد البعلبكى الحنبلى (٢) .

شيخ دار الحديث النورية ، ومشهد بن عُروة ، وشيخ الصدرية ، وكان يُفتى ويُفيد [٢٦ ٧] الناس مع ديانةٍ وصلاحٍ وعبادةٍ ، وُلِدَ سنة إحدى عشرة وستمائة ، وتوفى فى رجب من هذه السنة .

العَلَمُ الصاحب أحمد بن يوسف بن عبد الله بن شكر (٣) .

كان من بيت علم ورئاسة ، وقد درس هو فى بعض المدارس ، وكانت له وجاهة ورئاسة ، ثم ترك ذلك كله وأقبل على صحبة الحرافشة والتشبّه بهم فى اللباس والطريقة ، واستعمل ما كان عندهم من الفهم فى الخلاعة والمجون ، وقد كان له أولاد فضلاء ينهونه عما هو فيه فلا يلتفت إليهم ، ولم يزل كذلك حتى توفى ليلة الجمعة الحادى والعشرين من ربيع الآخر .

(١) انظر تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٢٦ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٥ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٦ ، العبر جـ ٥ ص ٣٥٨ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٢ ص ٢٧٤ رقم ٣٤٥ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٧٨ ، الوافى جـ ٨ ص ٢٩٢ رقم ٣٧١٢ ، العبر جـ ٥ ص ٣٥٧ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٠٣ .

وقال يمدح الحشيشة :

في خُمار الحشيش معنى مَرامى ... يا أُهَيْلَ العقول والأفهام

حرَّموها من غير عقلٍ ونقلٍ ... وحرامٌ تحريمُ غير الحرام

وله :

يا نَفْسُ ميلى إلى التصابى ... فاللهو منه الفتى يعيشُ (1)

ولا تملى من سُكر يومٍ ... إن أعوزَ الخمر والحَشيشُ

ولـه :

جمعتُ بين الحشيش والخمر ... فرحتُ لا أهتدى من السُكر

يا مَنْ يَرمنى اباب مدرستى ... يَرْبَح والله غاية الأجر

الشيخ الحافظ ضياء الدين محمد بن الزرزارى ، تُوفى فى ثامن جمادى الأولى من هذه السنة .

الملك المنصور شهاب الدين محمود (2) بن الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل .

توفى يوم الأربعاء ثامن عشر شعبان ، وصلى عليه بالجامع الأموى ، ودفن من يومه بتربة جدته ، وكان ناظرها ، وقد سمع الحديث الكثير ، وكان يحب أهله ، وكان فيه لطف وتواضع .

---

(1) « يا نفس ميلى إلى التصابى ... فاللهو منه الفتى يعيش » .
فى المنهل الصافى جـ ٢ ص ٢٧٨ .

(2) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٩ ورقة ٤٦ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٥ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٠٧ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٢٤ .

الأمير عز الدين ٌغان أمير شكار ، والأمير ركن الدين منكو برس الفارقاني استشهدا في غزوة طرابلس كما ذكرناه .

قبلاى خان بن طلو بن دوشي خان بن جنكزخان ملك التتار بالصين .

وهو أكبر الخانات لأنه الجالس على التخت، والحاكم على كرسي جنكزخان، وكان قد طالت مدته ، وامتدت مملكته، توفى فى هذه السنة ، وجلس بعده ولده شرمون بن قبلاى خان، وكان له ثلاثة أولاد وهم: نمغان وشرمون [٧٢٧] وكملك ، فأما نمغان فإنه أرسله إلى بلاد الخطا لما غضب عليه عند رجوعه من كسرة قيدو منهزما ، فمات ببلاد الخطا كما ذكرنا (١) . وأما شرمون فإنه أكبر من أخيه ، فأجلسوه فى الملك والله أعلم .

الشيخة فاطمة (٢) بنت الشيخ إبراهيم الزعيبي زوجة النجم إسرائيل .

كانت من بيت الفقر، لها إقدام وترجمة وكلام فى الحريرية وغيرهم ، ماتت فى هذه السنة ، وحضر جنازتها خلق كثير، ودفنت بخوزستان .

• • •

(١) انظر ما سبق ص ٣٧٢ .

(٢) ولها أيضا ترجمة في : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٤

قد انتجز هذا الجزء المبارك على يد مؤلفه ومسطره العبد الفقير إلى الله الغنى أبى محمد محمود بن أحمد بن موسى العينى الحنفى ، عامله ربه ووالديه بلطفه الجلى والخفى ، إنه على ذلك قدير ، وبالإجابة جدير ، بعد طلوع الفجر الصادق ، وحلول صلاة الصبح ، يوم الأحد الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر عام اثنتين وثلاثين وثمانمائة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلوات ، وأزكى التحيات ، وعلى آله وصحبه وعترته وأزواجه إلى يوم الدين ، وذلك فى منزله بحذاء مدرسته البدرية بحارة كتامة بالقرب من الجامع الأزهر ، عمره الله بالعبادات ، مع تخللات الحوادث والأعراض ، وتجرع الغصص من أصحاب الشر والأغراض ، فنسأل الله العظيم متوسلين بنبيه الكريم أن يحرسنا من شر كل ذى شر وحسد ، ومن عداوة كل ذى حقد ونكد ، وأن يجعلهم مشغولين بأنفسهم حتى لا يشتغلون بالحط علينا ، وبلوغ المنكدات إلينا ، إنه على ذلك قدير ، وبدفعهم عنا هو القادر الجدير .

ويتلوه الجزء الذى أوله فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة التاسعة والثمانين بعد الستمائة .

انتهى كلام المصنف شيخنا .

* * *

وكان الفراغ من كتابة هذا الجزء فى ضحوة يوم الثلاثاء السابع من شهر جمادى الأولى عام خمس وتسعين وثمانمائة على يد أفقر عبيد الله وأحوجهم إلى عفوه ورحمته ومغفرته محمد بن أحمد بن محمد بن الأنصارى الحنفى، بمنزله بباب الجوانية داخل باب النصر بالقاهرة المحروسة، حامدا لله، ومصليا على رسوله ، ومسلما ، ومحسبلا ، ومهللا ، ومحوقلا .

* * *

مقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه وسلم .

وبعد . . فهذا هو الجزء الثالث من القسم الخاص بعصر سلاطين المماليك من كتاب بدر الدين محمود العينى المسمى «عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان» وهو عبارة عن ١٩٢ ورقة من الجزء ١٩ من نسخة دار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ تاريخ ، وهى النسخة الملفقة من هذا الكتاب[(١)] ، وهو نفس الجزء الذى يحمل رقم ١٥ من نسخة معهد المخطوطات العربية بالقاهرة .

وللجزء ١٩ من نسخة دار الكتب (١٥ فى معهد المخطوطات العربية بالقاهرة) أهمية خاصة إذ أنه بخط المؤلف ، ويتناول أحداث وتراجم الفترة من ٦٨٩ — ٧٠٧ هـ ، وقد اعتمد فيه العينى اعتمادا أساسيا على مصدرين معاصرين للأحداث ، وشارك مؤلفاهما فى العديد من الأحداث .

فالمصدر الأساسى الأول الذى اعتمد عليه العينى فى هذا الجزء من كتابه هو كتاب « زبدة الفكرة فى تاريخ الهجرة » لمؤلفه بيبرس بن عبد الله المنصورى قلاوون الدوادار ، كبير الدولة الناصرية محمد بن قلاوون ، ونائب السلطنة بالقاهرة ، والذى توفى سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٤ م ، والذى شارك فى العديد من الأحداث التى أوردها العينى فى هذا الجزء من كتابه .

---

(١) انظر مقدمة الجزء الأول ص ١١ وما بعدها .

أما المصدر الأساسي الثاني الذى اعتمد عليه العيني في هـذا الجزء من كتابه فهو كتاب « نزهة الناظر في دولتي المنصور والناصر » لمؤلفه موسى بن محمـد بن يحيي اليوسفي ، أحد أجناد الحلقة ، والمتوفى سنة ٧٥٩ هـ / ١٣٥٨ م .

ونلاحظ أن العيني كان حريصا على أن ينقـل الروايات والأحداث التى شاهدها اليوسفي بنفسه أو استقى معلوماته عنهـا من المشاركين في الأحداث ، كما حرص العيني على إثبات ذلك توثيقا لمـا يورده من روايات وأحداث .

وأول نص ينقـله العيني عن نزهة النـاظر في أوائل سلطنة الأشرف خليـل ويتحدث فيه اليوسفي عن السبب في مسك طرنطاى ، وذلك في حوادث سـنة ٦٨٩ هـ ، وبعد وفاة المنصور قلاوون ، رغم أن عنوان الكتاب كما أورده العيني هو «نزهة الناظر في دولتي المنصور والناصر» ، ويبدو أن العيني وجد أن ما أورده اليوسفي عن دولة المنصور إنمـا نقـله من مصادر أخرى ، ولم يكن اليوسـفي مشاركا في الأحداث أو شاهـد عيان ، وبدأ يعتمد عليـه في الأجزاء التى تلت أخبار وفاة المنصور قلاوون .

ومن الأمثـلة التى تدل على حرص العيني في هـذا المجال ما يذكره مثـل : « وقال صاحب نزهة الناظر : أخبرنى جماعة منهـم » أو « قال صاحب نزهـة الناظر : أخبرنى علم الدين الطيبرسى » أو « قال صاحب نزهـة الناظر ذكر لى زردكاش بيدرا » ... الخ .

وابتداء من حوادث سنة ٦٩٢ هـ نجـد أن العيني ينقل عن اليوسفي باعتباره شاهد عيان ، ويحرص العيني على إثبات ذلك فيقول : « قال صاحب التاريخ : ورأيته في ذلك اليوم » أو « وقال صاحب التـاريخ : كنت في ذلك اليوم مـع والدى أشاهـد ما وقـع » أو « قال : وقـد خرجت مـع والدى صحبة العسكر

والسـلطان لمـا خرجوا لقصـد فتح قلعـة الروم ، وكان والدى مع جمـاعة المقدمين » .

وإذا كان كتاب « زبدة الفكرة » وبخاصة الجـزء التاسع منـه متـداول ومعـروف عند الباحثين والدارسين لعصر سلاطين المـاليك ، فإن كتاب « نزهة الناظر فى دولتى المنصور والناصر » يعتبر فى عداد الكتب المفقودة ، اللهم فيما عدا الجـزء الذى نشر أخيرا فى بيروت بعنوان « نزهـة الناظر فى سيرة الملك الناصر »(١) والذى يتضمن أحداث الفترة ٧٣٣ – ٧٣٨هـ ، وهى فترة محدودة بالقياس إلى عنوان الكتاب كما أورده العينى « دولتى المنصور والناصر » ، والمفترض أنه يتناول أحداث الفترة من ٦٧٨ – ٧٤١ هـ ، ويصبح لنص العينى فى هذا الجزء أهمية خاصة إذ حفظ لنا مصدرا أساسيا لفترة هامة من عصر سلاطين المـاليك .

واعتماد العينى على هذين المصدرين – بصفة أساسية – فى هذا الجزء يزيد من أهمية الكتاب ، ولا أبالغ إذا قلت أن العينى قد رفع هذا الجزء من كتابه إلى مستوى كتابات المعاصرين وشاهدى العيان والمشاركين فى الأحداث .

وتبعـا لخطة النشر فإن الجـزء ١٩ من نسخة دار الكتب سوف ينشر فى جزئين – إن شاء الله – همـا الثالث والرابع من القسم الخاص بعصر سلاطين المـاليك .

والجزء الثالث – الذى نقدمه اليوم – يتناول حوادث وتراجم الفترة من ٦٨٩ – ٦٩٨ هـ / ١٢٩٠ – ١٢٩٨ م ، وهى الفترة المحصورة بين وفاة السلطان الملك المنصور قلاوون ، وبداية السلطنة الثانيـة للسلطان الملك الناصر محمد بن قلاوون ، وتضمنت عهـود ثلاثة من سلاطين المـاليك هم : الأشرف خليل

(١) تحقيق ودراسة الدكتور أحمد حطيط – عالم الكتب – بيروت ١٩٨٤ م .

ابن قـلاوون ، وزين الدين كتبغا ، وحسام الدين لاجين ، فضلا عن السلطنة الأولى للناصر محمد .

وفى ختام هـذا التعريف الموجز لا يسعنى إلا أن أتقدم بالشكر إلى الأستاذ على عبد المحسن زكى مدير عام مركز تحقيق التراث ، وإلى أعضاء لجنـة التاريخ بالمـركز الذين قاموا بمراجعـة تجارب المطبعـة ، وشاركوا فى إعداد كشافات الكتاب وهم : السيدة / نجـوى مصطفى كامل ، والسيد / على صالح حافظ ، والسيد / عوض عبد الحليم حسن ، والسيدة / إلهام محمد خليل ، كما أوجه الشكر إلى السيد / عبد المنعم عبد الفتاح الناسخ بمركز تحقيق التراث .

وبعد ، فالكمال لله وحده ، ولا يسعنى إلا أن أذكر قوله تعـالى : « ربنـا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا » ، وأدعوه سبحانه وتعالى أن يوفقنا لإتمـام هذا العمل ولخدمة التراث الإسلامى .

والله ولى التوفيـــق ،،

دكتور محمد محمد أمين

(لوحة رقم ١)

بسم الله الرحمن الرحيم

استهلت هذه السنة والخليفة الحاكم بامر الله ابو العباس احمد
والسلطان بالديار المصرية والشامية الملك المنصور قلاوون الالفي الصالحي وصاحب الروم
السلطان غياث الدين كيخسرو وليس له الا الاسم والحكم فيها للتتار وصاحب البلاد
الشمالية التي كرسيها صراي تلابغا بن منكوتمر بن طغان بن باطو بن دوشي خان بن جنكزخان
وصاحب الصين الذي هو اكبر القانات والحاكم على كرسي مملكة جنكزخان [illegible] قبلاي
خان بن طلوخان بن جنكزخان وصاحب خراسان والعراقين وما والاها من
البلاد ارغون بن ابغا بن هلاكو الذي هو ملك التتار في هذه البلاد وفي هذه السنة
اتصل الخبر بالسلطان الملك المنصور قلاوون ان الفرنج الذين في عكا قد عاثوا وافسدوا و[illegible] الى
ان وصل الى البلاد تجار من المسلمين ومعهم ما [illegible] فاعتدى عليهم الا [illegible] السلطانية با [illegible]
عليهم وقتلوهم واخذوا اموالهم من البضائع والبضاعة وذكر بيبرس في كتابه التحفة الملوكية
انهم قتلوا من اهل نوى فلما سمع السلطان بذلك غضب لله ولرسوله وارسل الى رسل
الفرنج بالانكار واستعاد منهم ما اخذوه من التجار فاعتذروا بالاعذار والاظهار وابداء
الاعذار بما لا يقبل فرأى السلطان عند ذلك قتالهم وتجهيز العساكر وامر بالتجهيز
وخرج من القلعة وخيم على مسجد التبن في العشر الاخير من شوال واستخلف بالقلعة
ولده الملك الاشرف خليل والامير زين الدين كتبغا نائب السلطنة وكان قد اعاد
الامير علم الدين الشجاعي الى الوزارة وكان قد امر ايضا لنائب الشام ان يعمل مناجيق وزردخاناه
لاجل حصار عكا وكان قد سفر [illegible] الامير عز الدين الافرم امير جاندار وكان على الزردخانات
ايضا مع الامير علم الدين سنجر الحلبي في شوال وكان قد عزم في هذه السنة على [illegible]
ولم يبق الا الرحيل فاعاقه القدر عما يروم وادركه امر الله فتوفي الى رحمة الله تعالى

ذكر وفاة السلطان الملك المنصور سيف الدين قلاوون الالفي الصالحي النجمي الالفي تركي الجنس
كانت وفاته بمسجد التبن ظاهر القاهرة يوم السبت السادس من ذي القعدة من هذه السنة
وسببه انه لما نزل موكبه بالدهليز لحقه من شدة جريان الجوف بالاسهال واشتد
به المرض وحصل الحمام ولم يلبث الا خمسة ايام وتوفي الى رحمة الله كذا ذكره بيبرس في
كتابه التحفة وقال النويري ابتدأ مرضه في العشر الاواخر من شوال بعد نزوله في الدهليز
بالمكان المذكور وتزايد به المرض حتى توفي في التاريخ المذكور وقال غيره وجد السلطان في
جسده توعكا قبل نزوله من القلعة ووصل الامراء عليه مدعوا له وتزايد به الالم وصار
ولده الاشرف كل يوم ينزل من القلعة [illegible] الى ما بعد العصر ثم يرجع [illegible]
في القلعة [illegible] من العشر الاخير من شوال الى العشر الاول من ذي القعدة
والده [illegible] وكان الامراء يدخلون عليه [illegible] الا الامير طرنطاي نائب السلطنة
[illegible] فلما [illegible] ودخل بالسلطان [illegible] فقويت المرض

رَفَعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

(لوحة رقم ٢)

[illegible]

ورقة ٣ ويظهر بها مواضع الثقوب وطمس الكلمات

وخربندان وكانوا قال الحريدان التتر لما جلا منها نحو خمسة وثم نصف الليل وحمل الصناديق
على الخيل وامضى بها الى مجد الدين العبادي فعمل الكرندار ديجك وقال له عمره وحده
الامير عندك الى ان يعود من الحجاز ثم مات الامير وخربندان وحمل ابن سنقر سنا
ولما رأى عز الدين ان اولاد الخط عبد الغني وشاهد اخر منه ما تحملوا بهذا والقسم
بزتول يفحص واحتج بالامير سيف الدين قانقان وهو يومئذ شاد الدواوين
واحضره ان يحضره صندوقين ووسعه الامير عز الدين ايدمر الكاشي الذي نوى
عليه فقال له قانقان هذا اسم حسن ابن المصدر فقال له عدد ما معه
العدول ووكيل بيت المال وحملوها فكان معها من الذهب العين المصري ما اسمه بلا ربع
الف دينار وحلي وجواهر وكلوثات وكم ما ثبت الكثير منها من الف دينار
معظم مجد الدين لين محمد الناصر بذلك الامر ** والامير شمس الدين كرتيه مات في هذه
السنه بغزه ودفن بها وكان امير كبيرا صيتا فقيرا ما يقتنى لنفسه ** الامير بدر الدين
الدوادار بعرف بالفرق كان اصله من الجند وعمل دوادار السلطان الظاهر وكان
على عمائر جامع العدل وكان له معرفه وخبرة ومرض ما احتيج له ان كان ثم
الستر الناصر شمس الدين ان فعل منه لا يتولى من هذا المنصب فانها ما امر السلطان
للدوادار بعد ان نزل اليه وبسبب علم من جهة سلطانه من اول الدوهره عليه
ما يكون من الضعف فرجع الى السلطان فقال له السلطان لما مات سرحاله فقال انا هو بدر
ايمن كان هو الستر فخرج فانه ما كان منه شي وبعد سبعة ايام توفي الدوادار
وطلع كاتب الستر وسلم على السلطان فعاد في الدوادار صحبة السلطان كاين
وقال لا اله الا الله كان الدوادار ما يريد ان يموت لكانت الستر فخرنا كانت الكسرة
الامير بهاء الدين كرا ارسلان المنصوري مات بدمشق في هذه السنة وكان من
اكابر الامراء المنصورية والمسكين سيف الدين جانقان بدمشق مع من يسكن من الامراء
لما قتل السلطان لاجين ركب قرا ارسلان هذا في موكب النيابه والعصابة على راسه
وحكم وكتب على القصص كونه تولت نفسه ان يكون نائبا مستقلا وان الامراء لا يستكثرون
نيابة ومن عليه لا يدلا ولا يدعي انه احق من بيبرس واقوش الافرم والبرجية
ولم تطل مدته وتوفى بتوقيع اصحابه ** الامير سيف الدين نيرغا مات في هذه
السنه بطرابلس وكان من الصور البديعة في الحسن والجمال وكان السلطان الظاهر
من الناظرين اليه بحسده يشكر من عقل وكمرد افعاله بعده عنه يستتر ه
صحبه الملك الناصر الى الكرك ثم نقله من بعد ذلك الى طرابلس فتوفى بها
وقال صاحب النزهه كان من الكرم والفتوه واللوازم السنيه على جانب عظيم
فكان بالاملاك والطرب مولعا بالشراب قال والذي شاهدت من كرمه

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

(لوحة رقم ٤)

[illegible] عسقلان [illegible] السلطان [illegible] في مجلسه [illegible] سنة [illegible]

والبليبلي [illegible] السلطان [illegible] الدين [illegible]

[illegible] في مجلسه [illegible] المغني المذكور [illegible] أكثر [illegible]

وكان له [illegible] الأمير [illegible] له [illegible] لا يعد [illegible]

له [illegible] دينار [illegible] وأعطاه [illegible] دينار رحمه الله الأمير جمال الدين أقوش

المغيثي نائب [illegible] سنة وكان [illegible] أيام [illegible]

نائبها [illegible] سنة الملك المظفر تقي الدين محمود [illegible] المنصور [illegible] الدين [illegible]

الدين عمر [illegible] صاحب حماة وابن ملوكها [illegible]

الخميس [illegible] والعشرين [illegible] القعدة [illegible] ودفن [illegible]

[illegible] سنة [illegible] وسبعمائة [illegible] شاه [illegible]

[illegible] المنصور [illegible] سلطنة الشام [illegible]

نجم الدين [illegible] السلطان [illegible] السلطان الملك الناصر صلاح الدين [illegible]

[illegible] بدمشق في الرابع عشر [illegible] وممن [illegible] سنة [illegible]

الأمير سيف الدين [illegible] وناصر الدين [illegible] سيف الدين [illegible] الغزال

[illegible] الدين [illegible] وسيف الدين طقطبه [illegible]

[illegible] طقطبه [illegible] بلده [illegible] كسروا وسال

[illegible] أيام [illegible] الدين [illegible]

الطعام [illegible] وما وصل [illegible]

[illegible] الدولة الأشرفية [illegible] بعضهم [illegible]

وبعضهم في الطعام

[illegible] الخليفة [illegible]

وسلطان البلاد المصرية [illegible] الملك الناصر [illegible]

ونائبه بمصر سيف الدين سلار ونائب الشام جمال الدين أقوش الأفرم ونائب حلب

سيف الدين [illegible] واستهلت هذه السنة والسلطان [illegible] إلى جهة

الشام كما ذكرنا فإنه خرج بعساكره من القاهرة في الرابع والعشرين من [illegible] السنة الماضية

ولما وصل إلى غزة أقام عليها [illegible] التتار وقد ذكرنا

[illegible] من أمراء [illegible] والعسكر مع السلطان على غزة [illegible]

[illegible] ثم رحل السلطان ونزل على عسقلان [illegible] عسقلان [illegible]

إلى الشام [illegible] يوم الجمعة [illegible] ربيع الأول [illegible] سنة [illegible]

[illegible] يوم [illegible] شديد [illegible] في الإنفاق على العساكر

[illegible] يوم السبت [illegible] دمشق [illegible]

ورقة ١٩٢ وبها نهاية الجزء المنشور

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل فيما وقع من الحوادث

في السنة التاسعة والثمانين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة، والخليفة : الحاكم بأمر الله العباسي أبو العباس أحمد (1) .

وسلطان البلاد المصرية والشامية : الملك المنصور قلاوون الألفي الصالحي (2) .

وصاحب الروم : مسعود بن السلطان عز الدين كيكاوس (3) ، وليس له إلا الاسم ، والحكم فيها للتتار .

وصاحب البلاد الشمالية والتي كرسيها صراي : تلابغا (4) بن منكوتمر بن طغان بن باطو بن دوشي خان بن جنكزخان .

وصاحب الصين الذي هو أكبر الخانات ، والحاكم على كرسي مملكة جنكزخان : شرمون بن قبلاي خان بن طلوخان بن دوشي خان بن جنكزخان .

(*) يوافق أولها السبت ١٤ يناير ١٢٩٠ م .

(1) هو أحمد بن محمد بن الحسن بن أبي بكر ، الخليفة الحاكم بأمر الله أبو العباس ؛ والمتوفى سنة ٧٠١ هـ/ ١٣٠١ م — المنهل الصافي جـ ٢ ص ٧٩ رقم ٢٥٣ ، وانظر ما سبق بالجزء الأول من هذا الكتاب ص ٣٤٦ وما بعدها .

(2) انظر خبر وفاته وترجمته فيما يلي .

(3) ولي الحكم سنة ٦٨٢ هـ/ ١٢٨٣ م بعد مقتل غياث الدين كيخسرو بن ركن الدين قلج أرسلان السلوك جـ ١ ص ٧١٨ ، وانظر جـ ٢ من هذا الكتاب ص ٣٢٠ .

(4) انظر ما يلي في وفيات ٦٩٠ هـ .

وصاحبُ خراسان والعراقين وما والاها من البلاد: أرغون[١] بن أبغا بن هلاون الذى هو ملك التتار فى هذه البلاد.

وفى هذه السنة اتصل الخبر بالسلطان المنصور قلاون أن الفرنج الذين فى عكا، قد عاثوا وأفسدوا ونهبوا[٢] إلى أن وصل إلى البلاد تجار من المسلمين ومعهم مماليك قاصدين بهم الأبواب السلطانية، فاحتاطوا عليهم وقتلوهم[٣]، وأخذوا ما معهم من المماليك والبضاعة.

وذكر بيبرس فى كتابه المسمّى باللطائف[٤]: أنهم قتلوا ثلاثين نفرا، فلما سمع السلطان بذلك غضب لله ولرسوله عليه السلام، وأرسل إليهم بالإنكار واسترجاعهم عن الغدر والإضرار، فأبوا إلا التمادى والإصرار[٥]، وإبداء الأعذار بما لا يُقبَل. فتأهب السلطان عند ذلك لقصدهم، وتجهز للسفر وأمر العساكر بالتجهيز، وخرج من القلعة وخيّم على مسجد التِّبْر[٦] فى العشر الأخير من شوال،

(١) انظر ما يلى فى وفيات سنة ٦٩٠ هـ.

(٢) « وذلك أن الظاهر بيبرس هادنهم، فحملوا إليه وإلى الملك المنصور هديتهم فى كل سنة، ثم كثر طمعهم وفسادهم » السلوك جـ ١ ص ٧٥٣.

(٣) « فلما وصلوا إلى ميناء عكا قتلهم الفرنج » تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٩٦.

(٤) لم تذكر المصادر كتابا بهذا الإسم لبيبرس المنصورى، ولكن ورد النص التالى ملخصا فى كتابه: التحفة الملوكية فى الدولة التركية (القاهرة ١٩٨٧) ص ١٢٢.

(٥) « فأخرج لهم السلطان الأمير شمس الدين سنقر المساح على عسكر، ونزلوا الجون على العادة فى كل سنة. فإذا بفرسان من الفرنج بعكا قد خرجت فحاربوهم، واستمرت الحرب بينهم وبين أهل عكا مدة أيام، وكتب إلى السلطان بذلك فأخذ فى الاستعداد لحربهم » السلوك جـ ١ ص ٧٥٤.

(٦) مسجد التبر: يقع هذا المسجد خارج القاهرة قريبا من المطرية، ويعتبر موضعه المنزلة الأولى فى الطريق إلى الشام وتسميه العامة مسجد التبن، وهو خطأ، وتبر هذا أحد الأمراء الأكابر فى أيام الأستاذ كافور الإخشيدى المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٤١٣.

واستخلف بالقلعة : ولده الملك الأشرف خليل(١) ، والأمير زين الدين كتبغا(٢) نائب السلطنة ، وكان قد أعاد الأمير علم الشجاعى(٣) إلى الوزارة ، وكان أمر أيضا لنائب الشام(٤) أن يعمل مناجيق وزردخاناه لأجل حصار عكا . وكان قد سفَّر بسبب ذلك الأمير عز الدين الأفرم(٥) أمير جاندار(٦) ، وكان قد أفرج أيضا عن الأمير علم الدين سنجر الحلبى(٧) فى شوال ، وكانت مدّة اعتقاله ست سنين ، ولما خرجت العساكر ولم يبق إلا الرحيل عاقه القدر عما يرومه ، وأدركه أمر الله ، فتوفى إلى رحمة الله تعالى .

---

(١) قتل فى المحرم سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م انظر ما يلى .

(٢) هو كتبغا بن عبد الله المنصورى ، الذى ولى السلطنة وتلقب الملك العادل فى ١١ محرم ٦٩٤ هـ / ١٢٩٤ م وحتى عزل بعد سنتين ، وتوفى سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م المنهل الصافى ، وانظر ما يلى .

(٣) هو سنجر بن عبد الله الشجاعى المنصورى ، توفى سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م المنهل الصافى ، وانظر ما يلى .

(٤) هو لاجين المنصورى ، حسام الدين ، ولى نيابة السلطنة فى دمشق فى ١١ ربيع الأول ٦٧٩ هـ ، وولى السلطنة فى ٩ صفر ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م ، وتلقب بالملك المنصور إلى أن قتل فى ربيع الآخر ٦٩٨ هـ / ١٢٩٩ م المنهل الصافى ، وانظر ما يلى .

(٥) هو أيبك بن عبد الله الصالحى ، الأمير عز الدين المعروف بالساقى ، وبالأفرم الكبير ، توفى سنة ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م المنهل الصافى جـ ٣ ص ١٣٠ رقم ٥٧٥ وانظر ما يلى .

(٦) أمير جاندار : وظيفته أن يستأذن على دخول الأمراء للخدمة ، ويدخل أمامهم إلى الديوان ، ويقدم البريد مع الدوادار ، وكاتب السر ، وهو المتسلم للزردخاناة ، وهو الذى يطوف بالزفة حول السلطان فى سفره صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٠ .

(٧) هو سنجر بن عبد الله الحلبى ، الذى تسلطن بدمشق ، ولقب بالملك المجاهد ، فى عهد الظاهر بيبرس ، ثم أصبح من جملة أمراء الظاهر بيبرس ، وعاش حتى سنة ٦٩٢ هـ / ١٢٩٣ م المنهل الصافى وانظر ما يلى .

ذكر وفاة السلطان الملك المنصور قلاون (١)

ابن عبد الله التركى الصالحى النجمى الألفى

توفى فى المخيم بمسجد التبن ظاهر القاهرة يوم السبت (٢) السادس من ذى القعدة من هذه السنة، وسببه أنه لما نزل موكبه بالدهليز (٣) لحقه من نهاره جريان الجوف بالإسهال، واشتد به المرض وهو بالخيام، ولم يلبث إلا خمسة أيام وتوفى إلى رحمة الله، كذا ذكره بيبرس فى كتابه اللطائف.

وقال النويرى : ابتداء مرضه فى العشر الأواخر من شوال بعد نزوله فى الدهليز فى المكان المذكور، وتزايد به المرض حتى توفى فى التاريخ المذكور.

وقال غيره : وجد السلطان فى جسده توعكا ليلة نزوله من القلعة، ودخل الأمراء عليه، فدعوا له، وتزايد به الألم، وصار ولده الأشرف كل يوم ينزل من القلعة فيقيم عنده إلى ما بعد العصر، ثم يرجع ويبيت فى القلعة، فبقى على

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى، نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٩ ورقة ٤٨، درة الأسلاك ص ٩٧ فوات الوفيات جـ ٢ ص ٢٠٣ رقم ٣٩٩ كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٠١ تالى كتاب وفيات الأعيان ص ١٢٩ رقم ٢٠٦ العبر جـ ٥ ص ٣٦٣ البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٨٨ – ٣١٧ السلوك جـ ١ ص ٦٦٣ – ٧٥٦ النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٩٢ – ٣٤٣ شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٠٩، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٣٥.

(٢) « ليلة » فى السلوك جـ ١ ص ٧٥٥.

(٣) الدهليز : الخيمة التى ترافق السلطان فى الحرب، وتختلف عن الخيم والدهاليز التى تقام للسلاطين فى الصيد والتنزه، بكونها خيمة قائمة بذاتها ليس بجوانبها خيم صغيرة كالتى تقام عادة لتجهيز حاجات السلطان فى أيام السلم – Supp. Dict. Ar.

ذلك من العشر الأخير من شوال إلى العشر الأول من ذى القعدة وألمه يتزايد ، و كان الأمراء يدخلون عليه ، و يقعدون عنده[(١)] فلما زاد ألمه منع الأمير طرنطاى[(٢)] — أتابك العساكر — الأمراء من الدخول عليه ، فصار يدخل عليه بمفرده[(٣)] ويخرج بالسلام للأمراء ، فلما قوى به المرض [٣] اجتمع كبار مماليكه الأمراء مثل كتبغا وأيبك الخازندار وغيرهما عند الأمير طرنطاى ، وأفاضوا بينهم الأمر « والرأى وقالوا لطرنطاى : أنت تعلم[(٤)] » أمرك مع الأشرف ، و بغضه فيك ؛ والأمر صائر إليه ، والسلطان « ما بقى فيه رجوة ، وتعلم[(٥)] » أيضا ما بينك و بين الشجاعى من البغضاء ، وهو قاتلك بلا محالة « و ينجر الأمر إلينا ، وما يُخَلِّى منا[(٦)] » أحدا ، فخذ لنفسك قبل استحكام الأمر ، فسكت ساعة ، وقال : والله « العظيم لا يسمع أنى خنت[(٧)] » أستاذى ، ولا ولده من بعده ، ولا عملت فتنة « بين المسلمين ، و إذا صار[(٨)] » الأمر إليه ، فإن رضينى كنت مملوكه ، و إن قتلنى كنت مظلوما ، وكل مقضى كائن[(٩)] .

---

(١) « و يقعدون عنده » فى هامش الورقة ، ومنبه على موضعها بالمتن .

(٢) هو طرنطاى بن عبد الله المنصورى ، حسام الدين ، أبو سعيد ، قتله الأشرف خليل بعد سلطنته — انظر ما يلى .

(٣) « منع الأمير طرنطاى الأمراء من الدخول عليه ، حتى ولده الأشرف » — بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٣٦٠ .

(٤) ، (٥) ، (٦) ، (٧) ، (٨) « ... » موضع ثقب بالمخطوط ، والمثبت من الجوهر الثمين ص ٣٠٣ — ٣٠٤ .

(٩) انظر ما ورد أيضا فى بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٣٦٣ .

وكان طرنطاى قد عرّف الجمدارية الذين حول السلطان أنه إذا عرض عليه عارض يعرِّفوه . فلما تزايد به المرض ، وظهر منه ما يدل على الموت يدخل إليه ، فأعلموه بذلك ، فدخل عليه ، فوجده فى النزع ، فقعد عند رأسه حتى توفى إلى رحمة الله ، وغمّضه ، وقصد المماليك أن يصيحوا ويبكوا ، فمنعهم من ذلك ، وقال لهم : اكتموا أمره .

وقعد على عادته بباب الدهليز ، وحضر الأمراء فأعطاهم دستورا ، وأسرّ لسنقر الأشقر بالجلوس بمفرده ، فلما ذهب الأمراء أخبره بموت السلطان ، واستشاره فيما يفعله . فقال له : مهما اخترت تعمل فنحن بين يديك ، فقال له : قم إلى خيمتك ، والمقضى كائن .

فما تضاحى النهار حتى وقع الصوت بين الخيم بموت السلطان ، وذلك يوم السبت السادس من ذى القعدة .

وعند ذلك ركب طرنطاى ، وطلب الحجاب ، وأمرهم أن يعرفوا الأمراء أن يركب كل أمير ويقف مكانه ، ولا يتعدّاه حفظا لأحوالهم ، ثم طلب الطواشى مرشد ، مقدم المماليك السلطانية ، ورسم له أن يركب وصحبته المماليك السلطانية ، وأن يكونوا مع ولد السلطان بالقلعة .

فركب الطواشى ، وركبت المماليك معه ، وتوجهوا إلى القلعة ، فوافوا الأشرف خليل وهو نازل من القلعة ، وعرفه الطواشى بموت السلطان ، فرجع إلى القلعة .

وأقام الأمير طرنطاى هناك إلى المغرب ، حتى شالوا الخزانة ، والأطلاب جميعها وأرسلهم إلى القلعة ، ثم حُمِل السلطان فى تابوت إلى أن أدخل القلعة ،

وظل بالقصر في قاعته الكبرى حتى غُسِّل ودفن بتربته بين القصرين[(١)].

ودفن بتربتــه يوم العاشر من ذي القعدة بمدرسته المذكورة[(٢)] التي ليس بمصر ولا الشام شبهها لهــا ، فإنهــا تربة ودار حديث ومارستان وقبة ومدرسة للمذاهب الأربعة ــ كما ذكرنا[(٣)].

كان جلوسه على التخت يوم الأحد الحادي والعشرين من شهر رجب[(٤)] ســنة ثمــان وسبعين وستمائة ، فيكون له في ملكه إحدى عشرة سنة وثلاثة أشهر[(٥)] وأيام ، وخلَّف من الأولاد الذكور ثلاثة وهم : الملك الأشرف صــلاح الدين خليل ،

(١) يوجد بعد ذلك نحو سطرين من الصعب متابعة ما جاء بهما .

(٢) « فلما كان في ليلة الجمعــة المسفرة عن ثاني شهر المحرم نقل جثة الملك المنصور من القلعة إلى تربته » ــ في تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٩٧ ؛ وورد أنه « دفن ليلة الأحد » أي في نفس يوم وفاته ــ بــدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٣٦١ ؛ وعن المدرسة والقبة المنصورية ، انظر المواعظ والإعتبار جـ ٢ ص ٣٧٩ وما بعدها .

(٣) انظر وثائق وقف السلطان قلاون وهي :

١ ــ وثيقة رقم ٧٠٦ ج أوقاف ، وهي جزء من حجة وقف عمائر السلطان قلاون ، وبها وصف للدرسة والبيمارستان .

٢ ــ الوثيقة ١٠١٠ أوقاف وصورتها بدار الوثائق القومية بمجموعة المحكمة الشرعية رقم ١٥ / ٢ والتي قام المحقق بدراستها ونشرها ــ ملاحق الجزء الأول من كتاب تذكرة النبيه لابن حبيب الحلبي ، وهي وثيقة وقف على مصالح البيمارستان .

٣ ــ الوثيقة ١٠١١ أوقاف ، وهي وثيقة وقف على مصالح البيمارستان أيضا .

٤ ــ الوثيقة ١٠١٢ أوقاف ، وبها خلاصة شروط كتب وقف السلطان قلاون .

٥ ــ الوثيقة ٧٠٨ ج ، وهي عبارة عن وثيقة إيجار رواق بالبيمارستان المنصوري .

انظر فهرست وثائق القاهرة .

(٤) « سنة » في هامش المخطوط .

(٥) « وشهرين » في السلوك جـ ١ ص ٧٥٥ وتذكرة النبيه جـ ١ ص ١٢٥ ، وهو لا يتفق مع تاريخ تولي قلاوون السلطنة .

والملك الناصر محمد ، وأحمد ولد بعد موته[(١)] ومات فى دولة أخيه الأشرف . ومن الإناث بنتين إسم إحديهما : التطمش [وتعرف بدار مختار ، وأختها دار عنبر][(٢)] .

وكان وسيما جسيما ، حسنا ، قيما ، تاما ، نبيلا ، حليما ، جميلا ، من أحسن الناس صورة وأكثرهم هيبة ، تعلوه جلالة وحشمة ووقار ، وعليه مهابة وحرمة .

وأما جنسه فهو من خالصة القفجاق[(٣)] [٤] من القبيلة المعروفة ببرج أُغْلى[(٤)] .

وكان قد اشترى مماليكا كثيرة حتى بلغت عدتهم إثنى عشرة ألفا[(٥)] ، وقيل سبعة آلاف وهو الأصح[(٦)] ، وكان قد أمَّر منهم ثلاثة آلاف وسبعمائة مملوك من الجراكسة[(٧)] ، وأسكنهم فى أبراج القلعة وسمَّاهم البرجية ، وأقام نوابه فى البلدان من مماليكه الذين أمرهم ، وهم الذين غيروا ملابس الأمراء الماضية[(٨)] ، ولبسوا أحسن

(١) أى بعد موت السلطان قلاوون .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح — السلوك جـ ١ ص ٧٥٥ .
وورد « دار مختار الجوهرى ... ودار عنبر الكالى » فى تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٩٧ .

(٣) هكذا بالأصل .
وهى قبيلة القبجاق : قبيلة عظيمة فى الترك ، استقرت بحوض نهر إتل (الفلجا) جنوب روسيا الحالية ، فعرفت تلك الجهة بإسم القبجاق — النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٩٤ صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٥٦ السلوك جـ ١ ص ٦٦٣ هامش (١) .

(٤) يوجد بعد ذلك ٢٠ سطرا مطموسة إلى درجة يصعب معها متابعة النص .

(٥) انظر النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٢٧ بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٣٦٢ .

(٦) السلوك جـ ١ ص ٧٥٥ .

(٧) « من الآص والجركس » فى السلوك جـ ١ ص ٧٥٦ .
وتقع بلاد الآص جنوب شبه جزيرة القرم بالقرب من ثغر كافا — السلوك جـ ١ ص ٧٥٦ هامش (٢) .

(٨) « الدولة الماضية » فى البداية والنهاية ، والنجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٢٦ .

الملابس، لأن في الدوله الصلاحية(١) كانوا يلبسون كلوتات(٢) صفرا مضربة بكلبندات(٣) بغير شاشات(٤)، وشعورهم مضفورة دبابيق(٥) في أكياس حرير ملون أصفر وأحمر، وكان في خواصرهم بنود ملونة، أو بعلبكية عوض الحوائص(٦)، وأكمام أقبيتهم(٧) ضيقة على زى ملابس الفرنج، وأخفافهم بُرغالى(٨) أو سقامين(٩)، ومن فوق

(١) «الصالحية» في الأصل، والصحيح من النجوم الزاهرة، والمقصود دولة صلاح الدين الأيوبي أي الدولة الأيوبية.

(٢) كلّوتات: جمع كلّوتة — بتشديد اللام — فارسية — وتعنى الطاقية الصغيرة من الصوف المضربة بالقطن، وكان الأمراء يلبسونها بغير عمامة، ولها كلاليب تعقد تحت الذقن وهي الكلبندات وكانت لهم ذوائب شعر يرسلونها خلفهم، وكانت صفراء اللون — المواعظ والإعتبار جـ ٢ ص ٩٨، ٢١٧، صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٩، وانظر هامش النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٣٠ رقم (١).

(٣) كلبندات: جمع كلبندة — فارسية: وهي لباس الرقبة أو كوفية الرقبة، كا تعلق على كلاليب الكلوتة — المواعظ والإعتبار جـ ٢ ص ٩٨، السلوك جـ ١ ص ٤٩٤.

(٤) شاشات: جمع شاش قطعة من القماش كانت تلف على الكلوتة النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٣٠ هامش (٣).

(٥) أي أن شعورهم مضفورة مدلاة بدبوقة، والدبابيق: نوع من الحرير ينسب إلى دبيق من أعمال تنيس بمصر المواعظ والإعتبار جـ ٢ ص ٩٨.

(٦) الحوائص: حياصة — بمعنى الحزام، أي ما يشد في الوسط — صبح الأعشى جـ ١٢ ص ١٣٤.

(٧) الأقبية: جمع قباء ثوب يلبس فوق الثياب، وكان يعرف بالبغلطاق، وهو القباء القصير، وهو مثل المعطف المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٩٩.

(٨) الخف البرغالى: خف من جلد الفرس مبطن بجلد ذئب النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٣١ هامش (٤).

(٩) سقامين — جمع سقمان: خف ثان يلبس فوق خف آخر — المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٩٨.

قماشهم كمرات(١) بحلق و إبزيم(٢)، وصوالقهم(٣) كبار، يتسع كل صولق نصف ويبة(٤) أو أكثر، ومندياهم كبار طوله ثلاثة أذرع، فأبطل المنصور ذلك كله بأحسن منه .

وكانت الخلع للأمراء المقدمين الأكابر خاصة(٥)، فخصص السلطان الملك المنصور من الأمراء بلبس [٥] طرد وحش(٦)، وهم خشداشيته(٧) أربعة أنفس، وهم : سنقر الأشقر(٨)، و بيسرى(٩)، والأيدمرى(١٠)، والأفرم، و باقى الأمراء

(١) كمرات — جمع كمر ، فارسية ، وتعنى الحزام المفرغ من وسطه لوضع النقود أو نحو ذلك — المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٩٨ .

(٢) إبزيم : حديدة فى طرف الحزام يدخل فيها الطرف الآخر — لسان العرب .

(٣) صوالق — جمع صولق : مخلاة من الجلد يضعها الشخص فى حزامه من الجهة اليمنى ، قد تستخدم فى حمل الطعام أو نحو ذلك — النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٧٨ هامش (٢) .

(٤) الويبة : مكيال للحبوب ، يستعمل فى مصر ، وسعته سدس الأردب — صبح الأعشى ج ٢ ص ١٠ ، ج ٣ ص ٤٤١ .

(٥) « وكانت الخلع للأمراء المقدمين المروزى » — النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٣١ ، و « كانت خلع الأمراء مقدمى الألوف خاره ملون » — الجوهر الثمين — ص ٣٠٨ .

(٦) طرد وحش : كلمة مركبة تطلق على نوع من الثياب من قماش حرير منقوش على هيئة جلد الوحش — المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٢٧٧ .

(٧) خشداش : معرب اللفظ الفارسى خواجاتاش ، أى الزميل فى الخدمة ، وتعنى فى مصطلح عصر سلاطين المماليك بمصر : الأمراء الذين نشأوا مماليك عند سيد واحد ، فنشأت بينهم رابطة الزمالة القديمة . انظر هوامش السلوك نقلا عن Quatremere , II . I . P .5 . no .5

(٨) هو : سنقر الأشقر الصالحى النجمى ، قتله الأشرف خليل سنة ٦٩١ هـ / ١٢٩٢ م — المنهل الصافى ، وانظر ما يلى .

(٩) هو : بيسرى بن عبد الله الصالحى، المتوفى سنة ٦٩٨ هـ/١٢٩٨ م — المنهل الصافى ج ٣ ص ٥٠٠ رقم ٧٤١ ، وانظر ما يلى .

(١٠) هو : أيدمر بن عبد الله الظاهرى ، الأمير عز الدين ، المتوفى سنة ٧٠٠ هـ/١٣٠٠ م — المنهل الصافى ج ٣ ص ١٨٣ رقم ٢٦٠٩ — انظر ما يلى .

الخاصكية[1]، والبرانيين[2] بلبس المروزى، والطبلخانات بالملون، والعشرات بلبس العتابى[3].

وكان يباشر أحوال مماليكه بنفسه حتى أنه كان فى غير يوم الخدمة[4] يوضع له كرسى ويخرج أهل كل طبقة إلى الرحبة فيلعبون بالرمح، ولهم معلمون، ثم إذا فرغوا من ذلك يتصارعون إلى الظهر، فإذا صلوا الظهر نزلوا مع الخدام لرمى النشاب، وهذا كان دأبهم دائما، ورزق فيهم السعادة بحسن نيته وحسن تدبيره ورأيه، فلذلك لم تزل السطلنة إلى يومنا هذا فى بيته وحاشيته[5].

وله من الفتوحات من القلاع التى بيد الإفرنج: المرقب، وجبلة، واللاذقية، وطرابلس، وأخذ من أولاد الظاهر: الكرك، والشوبك.

(١) الخاصكية: مماليك خواص السلطان، يدخلون على السلطان فى أوقات خلواته وفراغه، ويحضرون للخدمة طرفى النهار، ويركبون لركوب السلطان ليلا ونهارا ويتميزون عن غيرهم بحملهم سيوفهم ... الخ. انظر زبدة كشف الممالك ص ١١٥ — ١١٦.

(٢) البرانيون: أو المماليك البرانية.

(٣) العتابى: صنف من قماش خشن مخطط بحمرة وصفرة. Dozy : Supp .Dict.Ar

(٤) يوم الخدمة: يوم العمل اليومى.

(٥) وتسلطن من ذريته سلاطين كثيرة آخرهم الملك المنصور حاجى الذى خلعه الملك الظاهر برقوق، وأعظم من هذا أنه من تسلطن من بعده من يوم مات إلى يومنا هذا، إما من ذريته، وإما من مماليكه أو مماليك مماليك أولاده وذريته لأن يلبغا مملوك السلطان حسن، وحسن بن محمد بن قلاوون، وبرقوق مملوك يلبغا، والسلاطين بأجمعهم مماليك برقوق وأولاده، — النجوم الزاهرة: جـ ٧ ص ٣٢٧.

وأبطل مظالم كثيرة منها : زكاة الدولة (١) ، كانت تُؤخذ من كل من كان عُرف عنده مال الزكاة ، ولو هلك ماله ، أو مات ، تُؤخذ من ورثته بالضرب والحبس . ومنها ما كان يُؤخذ من أهل الذمة عن كل واحد دينار — غير الجالية (٢) — برسم نفقات الجند ، فأبطله . ومنها ما كان يُؤخذ من التجار عند سفر العسكر للغزاة عن كل تاجر دينار ، فأبطله . ومنها ما كان يُجبى من الناس على قدر معايشهم إذا حضر مبشر بأخذ حصن أو بنصرة المسلمين ، فأبطله .

ورثاه جماعة من الشعراء ، فقال بعضهم أبياتا يرثيه بصدورها ويُهنّئ ولده الأشرف بأعجازها :

إن أوجعَ الدهرُ القلوبَ وأحْزنا … فلقد تَدارَكَ بالمسرّة والهَنَا
خطبٌ عظيمٌ جاءنا من بَعده … فرحٌ أزالَ صباحُه ظُلَمَ العَنَا (٣)
بمنية المنصور شاهدنا الرَّدى … لكن شهدنا فى ابنه كُلَّ المُنى

---

(١) « زكاة الدولة » فى الأصل ، والتصحيح من المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ١٠٦ ، حيث ورد فيه :

« ولما ولى الملك المنصور سيف الدين قلاون الألفى مملكة مصر أبطل زكاة الدولة ، وهو ما كان يؤخذ من الرجل من زكاة ماله أبدا ولو عدم منه و إذا مات يؤخذ من ورثته » .

وورد فى بدائع الزهور « أن كانت وظيفة قديمة تسمى ناظر الزكوات ، كان يؤخذ ممن له مال زكاته فى كل سنة ، حسبما تقرر عليه فى الدفاتر القديمة ، فإن مات صاحب المال أو عدم ماله يؤخذ ما تقرر عليه فى الدفاتر من أولاده وأولاد أولاده أو أقاربه ، ولو بقى منهم واحد » — بدائع الزهور: جـ ١ ق ١ ص ٣٦٣ .

(٢) الجالية : وجمعها جوالى : هى ما يؤخذ من أهل الذمة من الجزية المقررة على رقابهم فى كل سنة — صبح الأعشى — جـ ٣ ص ٤٦٣ — ٤٦٤ .

(٣) « أزال صباحه تَرحًا » فى التحفة الملوكية ص ١٢٣ .

فلئن أساءَ الدَّهرُ فيه فإنّه ... بالأشرف الملك المؤيّد أحْسَنا
يا راحلًا أبكى العيون تركتَ مَنْ ... ملأَ القلوبَ مَسَرةً والأعْيُنا
أحسنتَ ثم تركتَ فينا مُحسِناً ... جُزِيت خيرا غاب شخصك أم دنَا
يا سيف دين الله إن فُلّتك عَنْ(١) ... بعض المراد كؤوس حين تجنّنا(٢)
أبشِرْ فقد خلّفت بَعْدَك صارِماً ... ما أنفلّ عن نيلِ المراد ولا انثنَى
وانعمْ بمقعدك الكريم فمُلك مَنْ ... خَلّفتَه أبداً يزيدُ تَمَكُّنَا(٣)

ذكرُ الأمراء الذين كان إليهم الأمر بالديار المصرية :

الأمير حسامُ الدين طرنطاى نائب السلطنة ، وأتابك العساكر .

والأمير زين الدين كتبغا نائب السلطنة فى الغيبة ، وهو أيضا نظير طرنطاى فى العظمة(٤) .

والأمير علم الدين الشجاعى ، متولى الوزارة(٥) .

والأمير بدر الدين بيدرا ، أستاد الدار العالية(٦) .

والأمير عز الدين أيبك الخزندار ، مُرَتَّب فى منصبه أميرجاندار .

(١) قبل هذا البيت ورد فى زبدة الفكرة ١٤ بيتا .

(٢) « تجنى » فى التحفة الملوكية .

(٣) انظر زبدة الفكرة ـ مخطوط جـ ٩ ورقة ١٦٤ ب ـ ١٦٥ أ ، التحفة الملوكية ص ١٢٣ ــ ١٢٤ .

(٤) « نائب السلطنة فى الغيبة ومضاهية فى الهيبة » زبدة الفكرة .

(٥) متولى الوزارة وما إليه من الإمارة » زبدة الفكر .

(٦) « أستاذ الدار وهو ممن إليه مشار » ــ زبدة الفكرة .

وأما الأمراء الذين يلون[1] الممالك الشامية[2] :

فالأمير[3] حسام الدين لاجين السلحدار ، نائب دمشق وأعمالها .

والأمير شمس الدين قرا سنقر الجوكندار[4] نائب حلب بأعمالها .

والأمير سيف الدين بلبان[5] السلحدار ، نائب السلطنة بالحصون الساحلية .

والأمير حسام الدين بلبان[6] الجوكندار ، [٦] نائب صفد بأعمالها .

والأمير بدر الدين كيكلدى المنصورى ، نائب حمص بأعمالها .

والأمير علاء الدين كشتغدى المنصورى ، نائب الشوبك بأعمالها .

والأمير بيبرس الدوادار[7] ، نائب الكرك بأعمالها .

والأمير شمس الدين آقسنقر كرتيه ، نائب غزة ورملة بأعمالها .

والأمير علم الدين سنجر أرجواش ، نائب قلعة دمشق[8] .

---

(١) « يلوون » فى الأصل .

(٢) « والذين يلون الممالك الشامية ، وهم آخذون بزمامها ضابطون لنظامها » ــ زبدة الفكرة .

(٣) « فالأمير » ــ هكذا بالأصل .

(٤) الجوكندار : لقب يطلق على الأمير الذى يحمل الجوكان أو الصولجان مع السلطان فى لعب الكرة ــ صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥٨ .

(٥) هو : بلبان بن عبد الله الطباخى المنصورى قلاوون نائب طرابلس ثم حلب ، توفى سنة ٧٠٠ هـ/ ١٣٠٠ م ــ المنهل الصافى جـ ٣ ص ٤٢٢ رقم ٦٩٩ .

(٦) هو : بلبان بن عبد الله الجوكندار ، الأمير سيف الدين المتوفى سنة ٧٠٦ هـ/ ١٣٠٦ م ــ المنهل الصافى جـ ٣ ص ٤٢٠ رقم ٦٩٧ .

(٧) « الفقير إلى الله تعالى بيبرس الدوادار » ــ زبدة الفكرة .

وهو : بيبرس بن عبد الله المنصورى الخطائى الدوادار ، الأمير ركن الدين ، المتوفى سنة ٧٢٥ هـ/ ١٣٢٤ م ــ المنهل الصافى جـ ٣ ص ٤٧٧ رقم ٧٢٢ .

(٨) انظر زبدة الفكرة ــ مخطوط جـ ٩ ورقة ١٦٦ أ .

ذكر سلطنة الأشرف خليل

ابن المنصور قلاون

لما توفى المنصور بالوطاق كما ذكرنا ، وقف الأمير حسام الدين طرنطاى المنصورى بنفسه ، فنقله إلى القلعة والخزائن معه بسُرعة ، وأمر الولاة والنُوّاب بحفظ الشوارع والأبواب ، ونادى مناديه بأن من تفوّه بما لا يعنيه حلّ به ما(١) لا يُرْضيه ، وأصبح الملك الأشرف متحكما مستقلا ، لم يختلف فيه اثنان ، ولا تحرّكت شفة ولا لسان ، وكان والده — رحمه الله — لمّا احتضر استدعاه إلى الوطاق ، [واستدناه وهو فى السياق](٢) ، وأوصاه بأن يحفظ مماليكه ويحافظ عليهم ، ويبالغ فى الإحسان إليهم ، ويستمر بهم على إقطاعاتهم ووظائفهم بمصر والشام ، ويهتم بمصالحهم كل الاهتمام(٣) .

---

(١) « حل » فى الأصل .

(٢) [ ] إضافة من زبدة الفكرة ، حيث ينقل العينى عن بيبرس الدوادار .

(٣) انظر زبدة الفكرة — مخطوط جـ ٩ ورقة ١٦٥ أ ، ب .

وقد سبق أن سلطن السلطان قلاوون ولده خليل فى حياته سنة ٦٨٧ هـ وجعله وليا للعهد ، فقد ذكر ابن تغرى بردى : « وفى شوال هذا (٦٨٧ هـ) سلطن الملك المنصور ولده الملك الأشرف صلاح الدين خليلا ، وجعله مكان أخيه الملك الصالح علاء الدين على بعد موته ، ودقت البشائر لذلك سبعة أيام بالديار المصرية وغيرها ، وحلف الناس له والعساكر ، وخطب له بولاية العهد » — النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٢٠ ؛ وانظر أيضا السلوك جـ ١ ص ٧٤٥ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١١٥ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٩٨ .

وكان مماليك والده لهم العُمال والنُّواب بالأعمال ، فأطاعوه جميعا ، فكانوا دعائم بُنيانه ، وقواعد أركانه .

وكان جلوسه فى السلطنة فى سابع ذى القعدة من هذه السنة، وكان صبيحة وفاة والده يوم الأحد ، وَدَخَلَت عليه الأمراء ، وقَبّلوا الأرض بين يديه ، ثم استحلفهم جميعا ، ووقف الأمير حسام الدين طرنطاى مع الأمراء[(١)] ، فطلبه وقَرّبه ، وطيب خاطرَه ، واستقرّبه على نيابته ، وخلع عليه، وخلع على الشجاعى وولّاه الوزارة .

وقيل : إن الشجاعى تولى الوزارة فى سابع عشر ذى الحجة .

وأرسل البُرّد إلى البلاد والأقاليم بوفاة والده، واستقراره فى دست المملكة، وخلع على سائر الأمراء والمقدمين وأعيان الدولة، وركب بشعار السلطنة[(٢)] يوم الجمعة الثانى عشر من ذى القعدة، والعساكر فى خدمته، من القلعة إلى الميدان الأسود[(٣)]، ثم طلع إلى تخته[(٤)] مسرورا .

ثم أرسل وراء الخليفة الحاكم ، وأرسل له مركوبا وخلعة ، فلبس وركب المركوب من موضعه، وكان ساكنا فى البُرج[(٥)]، ومشى الأمراء والقضاة فى خدمته

(١) وفى غير منزلة النيابة » ـ الجوهر الثمين ص ٣٠٥ .

(٢) شعار السلطنة : ويقصد به أنواع الملابس والأدوات والترتيبات التى كان يظهر بها السلطان فى المواكب ، ومنها : الغاشية ، والمظلة ، والرقبة ، والجفتة ، والأعلام ، والسناجق . صبح الأعشى جـ ٤ ص ٧ ، ٨ وانظر وصفا لموكب السلطنة فى المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٠٩ .

(٣) الميدان الأسود : تحت القلعة بالقرب من سوق الخيل ـ السلوك جـ ١ ص ٧٥٦ .

(٤) التخت : هو سرير الملك ، ويقال له : تخت الملك ، وهو منبر من رخام بصدر إيوان السلطان الذى يجلس فيه ، ويجلس عليه السلطان فى يوم مهم ـ صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٦ .

(٥) انظر ما يلى ص ٣٧ .

إلى باب الجامع ، واجتمع بالسلطان ، وكان الأمير بيدرا والشجاعى تلقياه من باب الجامع ، ودخل فى محفل عظيم إلى المقصورة عند السلطان ، فنهض إليه وعانقه ، وأجلسه إلى جانبه ، واشتغل به إلى أن استحقت الخطبة ، فسأله أن يصعد المنبر ويخطب ، فما أمكنه المخالفة(١) ، وصعد المنبر ، واستفتح الخطبة ، فقال :

الحمـد لله الذى أقام لآل عباس مَلِكًا ظهيرا ، وجعل لهـم سلطانا نصيرا ، واختصر فى الخطبة ، ودعى للسطان وللمسلمين ، وعند نزوله امتنع أن يصلى إماما ، فصلَّى الخطيب ، ولمـا فرغوا من الصلاة أخذ السلطان بيده وأكرمه ، ورسـم أن يُخْلَى له مكان بالكَبْش(٢) يسكن فيـه هو وعائلته ، وأطلق له رواتب كثيرة ، وكان يوما مشهودا .

ولمـا كانت الجمعة الثانية ، ركب إلى القلعة ، وجلس مع السلطان فى المقصورة إلى وقت الخطبة ، فصعد المنبر وخطب ، فقال : الحمـد لله الذى جعل من لدنا سلطانا نصـيرا ، وكان فضل الله به على الإمامة فضـلا كبيرا ، سبَّب أسبابَ النَّصر والظفرَ ، وقرَّبَ أَمْر الفتوحات بخـير زمان كانُ يُنظر ؛ والصلاةُ والسلامُ على سيدنا محمـد خير البَشر ، وعلى آله وصحبه [٧] صـلاة متواليَّة فى العشيَّاتِ

(١) كرر العينى هذا الخبر فى أحداث نفس السنة ، كما كرره فى أحداث سـنة ٦٩٠ هـ ــ انظر ما يلى .

(٢) الكبش : موضـع القصر الذى أنشأه السلطان الملك الصالح أيوب على جبل يشكر بجـوار الجامع الطولونى ــ المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٣٣ .

وقد ذكر ابن حبيب فى حوادث سنة ٦٩٦ هـ « وفيـها نقل السلطان (لاجين) الخليفة الحاكم بأمر الله العباسى من قلعة الجبل بالقاهرة المحروسة إلى مناظر الكبش بها » ــ تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٩٥ .

والْبِكر ، اعلموا وفقكم الله يا أنجاد الإسلام وحماته ، ويا شُجعانه وكُماته ، إن الله سهّل لكم نصرا عزيزا فانتهزوا فُرَصه ، واجعلوا فى أيام هذا السلطان بشارة تقصّ على البلاد والعباد أحسن قصصه ، واخلصوا النيات فى الجهاد ، وتعاونوا على ميعاد الظفر بالوفاء ، ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾(١) ، اللهم أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت بها علىّ وعلى والدىّ ، وأجب اللهم دعائى فى المحسن للإسلام وإلىّ ، وهو السلطان الملك الأشرف الذى سخّرت له تأثيرات الفلك ، فاجعله اللهم مالكا حيث ما سلك ، وامنحه بنصرك إياه تفتح عليه ممالك الأرض وأبوابها ، واجعل دار الإسلام دار السّلام ومنابر الخلافة بها ، وانصر اللهم جُنْدَه ، وانجز له وعده ، وارض عن والده السلطان الأجل الملك المنصور الذى جاهد فى الكفار جُهده ، وجعل الملائكة الكرام فى تأييده جُنده ، ثم دعى للسلطان وللمسلمين ، ونزل وأمّ بالناس وصلّى .

ذكر القَبْض على الأمير حُسَام الدّين طُرنطاى(٢) :

لما استقر الملك الأشرف فى السلطنة ، وقف الأمير حسام الدين بين يديه معتقدا أنه يعتمد عليه ، ويفوض الأمور — كما كانت فى حياة والده — إليه ، وكان فى خاطر السلطان منه أثرة عظيمة قديمة من زمن(٣) والده ، وكان يتوهم فيه

(١) جزء من الآية ٩ من سورة آل عمران رقم ٣ ، جزء من الآية ٣١ من سورة الرعد رقم ١٣ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، زبدة الفكرة — مخطوط جـ ٩ ورقة ١٦٧ أ ، الوافى جـ ١٦ ص ٤٢٩ رقم ٤٦٦ ، المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٨٦ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ٩٤ رقم ٤٩ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٨٣ — ٣٨٥ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٨ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٣٦ .

(٣) « من زمانه » فى الأصل ، والصحيح من زبدة الفكرة — مخطوط جـ ٩ ورقة ١٦٣ أ .

أنه يمنعه أكثر مقاصده ، مع ما يتفوه به الوشاة[(١)] ، وكان الشجاعى أيضا يكرهه لما جرى عليه بسفارته من العزل الذى ذكرناه[(٢)] ،واتفق مع ذلك نفار الخاصكية منه[(٣)] ، فرأوا السلطان نافرا من جهته[(٤)] ، فحسّنوا له القبض عليه .

فلما كان يوم الجمعة الثانى عشر من ذى القعدة استدعاه السلطان إلى بين يديه[(٥)] ، فدخل آمنا مطمئنا لا يخشى رَيْب الزمان ولا يتوقّى طارق الحدثان ، قائلا فى نفسه : إنه نظام الملك وقوامُه ،وبيده تدبيرُه وزمامُه ،ولم يدر بما كمنت له النائبات ، ونصبت له من أشراكها الحادثات ، فلما مثل بين يديه وُضعت الأيدى عليه . وحُمل إلى الاعتقال على أسوء الأحوال[(٦)] ،فكان كما قيل فى قول الشاعر :

حَسَّنْتَ[(٧)] ظنك بالأيام إذ حَسُنَتْ ولم تَخَفْ سُوءَ ما يأتى به القَدَرُ
وسَالمتكَ[(٨)] اللَّيالى فاغْتَرَرْتَ بها وعند صَفْوِ الليالى يَحْدُث الكَدَرُ

وندب الشجاعى للحوطة على أمواله وذخائره .

(١) « ويتقوله السعاة من أقوال الزور التى توغر الصدور » فى زبدة الفكرة .

(٢) انظر ما سبق بالجزء الثانى من هذا الكتاب ص ٣٠٩ .

(٣) « لما يعلمونه من شدته ، ويتحققونه من سطوته وحدته » — فى زبدة الفكرة .

(٤) من أسباب كراهية الأشرف لطرنطاى من أيام أبيه «إن طرنطاى كان يطرح جانب الأشرف ويهين نوابه ومن ينسب إليه ، ويرجح أخاه الملك الصالح عليه ، ولم يتلاف ذلك بعد موت الصالح ، بل جرى على عادته فى أهنة من ينسب إليه » — السلوك جـ ١ ص ٧٥٧ .

(٥) منعه الأميرين الذين كتبغا أن يدخل إليه وحذره منه ، فقال طرنطاى : « والله لو كنت نائما ما جسر خليل ينبهنى » — السلوك جـ ١ ص ٧٥٧ .

(٦) « ثم إن الأشرف خليل عمل الموكب ، فلما تكامل الأمراء قبض على الأمير طرنطاى » — بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٣٦٥ .

(٧) « أحسنت » فى زبدة الفكرة .

(٨) « وساعدتك » فى زبدة الفكرة .

وحكى الأمير نجم الدين أبو المعالى : أن الحَوْطَة لما وَقَعت على دار طرنطاى عند مسكه أُخرج من بَيْته ستمائة ألف دينار عين (١) ، ومائة وسبعون قنطارا فضة (٢) ، وأما الأوانى الفضية ، والكفت (٣) ، والخيل ، والبغال ، والهجن ، والجمال ، والأبقار ، والحواصل ، فهى أكثر من أن تذكر ، ومن الغلال مائتا ألف أردب ، ومن القماش شيء كثير من جملته : أربعمائة وعشرون ثوبا أطلس ، منها : أطلس أحمر متدلى مائة وثمانون ثوبا ، ومنها : أطلس أصفر مائتان وستون ثوبا ، قيمة كل ثوب ألف وخمسمائة ، وألف وسبعمائة ، ومن أصناف السلاح : ثلاثمائة وتسعون قرقلا (٤) ، ومائة وثمانون جوشنا (٥) مُسقطا ، وأربعمائة وستون بركستوانا (٦) ، ومائتان وستون طارقة مسقطة ، وثلاثمائة سيف ، وألف وستمائة صندوق من النُشاب ، ومن المواشى : أربعة آلاف رأس من الغنم ، وألف وثمانمائة رأس من البقر فى الدواليب (٧) والزروعات ، ووُجد [٨] له أربعمائة

---

(١) « ألف ألف وستمائة ألف دينار مصرية » ــ السلوك جـ ١ ص ٧٥٨ ، وانظر أيضا تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٣٦ .

(٢) « من الدراهم النقرة » ــ كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٠٥ .

(٣) « والنحاس المكفت » ــ السلوك جـ ١ ص ٧٥٨ .

وعن النحاس المكفت انظر المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٠٥ .

(٤) قرقل ــ قرقلات : نوع من الدروع المتخذة من صفائح الحديد المغشاة بالديباج الأحمر والأصفر ، وقد تكون مهطلة ــ صبح الأعشى جـ ٣ ص ١٤٣ جـ ٤ ص ١١ .

(٥) جوشن جوسن ــ جواسن : لفظ فارسى ؛ درع من الجلد يلبس حول الجزء الأوسط من الجسم ــ السلوك جـ ١ ص ٨٩٧ هامش (١) .

(٦) بركستوان ــ بركستوانات : غاشية الحصان المزركشة ، وقد تكون لغير الخيول مثل الفيلة ــ صبح الأعشى جـ ٤

(٧) الدواليب الآلات ، ولعل المقصود هنا السواقى والمعاصر .

وثمانون مملوكا، فأدخل الجميع فى بيت السلطان وتأمر منهم جماعة وكانوا يعرفون بالحُسَامية .

ويقال : لما رسم السلطان للشجاعى بأن ينزل ويحتاط على بيت طرنطاى وموجوده ، فنزل وهو فرحان بما ساعده الزمان ، وناهيك من عدو أمكنه الظفر وحَكَّمه القضاء والقدر ، فأظهر فى عدوه العِبرَ ، وأخذ صحبته شهود بيت المال ، وأوقع الحوطة على سائر حواصله ، وقبض على مماليكه ، ورسم على مُبَاشريه ، وكتب الكتب لسائر البلاد بالحوطة على موجوده ، وأخرج سائر خزائنه وخدامه وجواريه(١)، فأحضر لهم المعاصير(٢) ، وجعل يقررهم على موجوده وأمواله ، فصار الشجاعى ينزل كل يوم إلى بيت طرنطاى ويستعرض حاشيته ويعاقبهم ، فأخرج ما ذكرنا من الأموال .

وذكر فى نزهة الناظر فى دولتى المنصور والناصر(٣) :

كان السبب لمسك طرنطاي حقائد كانت فى النفوس كامنة ، قَدَحَتْها زناد الاقتدار، وضغائن طويت أحشاؤها على غلل ، فحين ملكت تَمَلَّكَت لطلب الثأر، وقد تقدم ذكر ما كان طرنطاى عليه من الحرمة والتمكن من أستاذه ونفاذ أمره إلى وفاة المنصور، ولما تملك ابنه بعده أخذ فى التدبير عليه وعلى حاشيته ، فطلب

---

(١) « وجواره » فى الأصل .

(٢) معصرة — معاصير ، آلة للتعذيب ، وتكون المعصرة من خشبتين مربوطتين ببعضهما ، يوضع بينهما وجه المعاقب ، أو رأسه ، أو رجلاه ، أو عقباه ، ثم تشد الخشبتان شدا وثيقا ، وكثيرا ما يؤدى ذلك إلى كسر العظم المحصور بين الخشبتين — السلوك جـ ١ ص ٧٤٠ هامش (٢) .

(٣) نشر جزء من هذا الكتاب بعنوان « نزهة الناظر فى سيرة الملك الناصر » ، تأليف موسى بن محمد بن يحيي اليوسفى ت ٧٥٩هـ / ١٣٥٨م ، تحقيق ودراسة الدكتور أحمد حطيط — عالم الكتب — بيروت ١٩٨٤ .

الشجاعى و بيدرا والخاصكية، وبسط معهم من أمره، وكانوا يعلمون أن طرنطاى إذا استمر بالحكم ما كان يدع لأحد منهم كلمة، فاتفقوا على القبض عليه وعلى من يلوذ به .

وعلم كتبغا والأمراء المتعصبين لطرنطاى الأمر ، فاختلوا به ، وعرفوه أن العمل عليه ، واستنهضوه على أنه يفعل أمرا، وهم موافقون عليه، فكان جوابه لهم : والله أنا أعلم أنه يفعل معى كل سوء ، وما أنا موثوق به أغبر ، ولكن قيامى فى حق نفسى بفساد جماعة كثيرة ، وسفك دماء ، وقلة وفاء ، ولا يرجع يشتمل الملك لأحد إلا بعد فساد كثير ، والله لا أفعل شيئا مما يعيبه الناس علىّ، فأكسب خطية ، فإن كان لى عمر فى التقدير فلا يقدر أحد ينقصه ، وإن كان الأجل قد حضر والسعادة قد فرغت ، فلله الأمر ، فعند ذلك علموا أنه لا يفعل شيئا (١) .

وبقى الأشرف كلما دخل طرنطاى إليه يقربه ويكرمه ويحدث معه فى أمور النواب والعسكر ، ويعد له مواعيد حسنة ، وطرنطاى يفهم من ذلك المقصود ويجيبه بما فى نفسه ، كما قيل :

يُخفِي العَداوَةَ وهي غيرُ خَفيّةٍ　　نَظَرُ العدوِّ بما أَسَرَّ يَبُوحُ

وبقى الحال إلى يوم السبت ، فطلبه إليه ، وقد رتب للقبض عليه الأمراء ، فعندما حضر شرع السلطان يذكر إساءته إليه ، ويعددها عليه ، فنظر إليه وقال : يا خوند ، هذا جميعه قد علمته منك ، وقدمت الموت بين يدىّ ، ولكن والله

---

(١) ذكر ابن الفرات أن الأمير حسام الدين طرنطاى شرع فى التآمر على الملك الأشرف ، بل وشرع فى اغتياله أيضا ، ولكن وشى به بعض من باطنه — انظر تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٠٠ .

لتندمنّ بعدى، وما فرغ الكلام حتى أخذه اللُّكم من كل جانب، وأخذوا سيفه[(١)].

قال صاحب التاريخ[(٢)] : وبلغنى أن بعض الخاصكية قلع عينه فى ساعته، وما أمسى المساء حتى توفى إلى رحمة الله تعالى مقتولا.

وقيل: بل عاقبه إلى أن مات فى ثامن عشر ذى القعدة وأقام ميتا ثلاثة أيام[(٣)]، ثم أخرجوه على جنوية[(٤)] إلى تربة الشيخ أبى السعود[(٥)]، فغسله وكفنه الشيخ عمر خادم [٩] الزاوية من عنده، ودفنه قبلى الزاوية إلى أن ملك كتبغا، فأمر بنقله إلى تربته[(٦)].

ولما قبض السلطان على طرنطاى قبض أيضا على زين الدين كتبغا بعده، وعلى سنقر الطويل والى باب القلعة، وطلب أبا خرص[(٧)]، فوجده قد سافر إلى الحجاز، وكان من المقربين لطرنطاى، وكان علم أن الأشرف ما يُبقيه ولا يبق

(١) «وكان والده (أى المنصور قلاون) قد قال له : هذا طرنطاى لاتمسكه ولا تتعرض له بأذى أبدا، وهذا لاجين لاتمسكه، وإن أمسكته فلا تبقه، فخالف (الأشرف خليل) والده فى الاثنين» — الوافى جـ١٦ ص ٤٣٠.

(٢) هو صاحب كتاب «نزهة الناظر فى دولتى المنصور والناصر» — انظر ما سبق.

(٣) «وترك بعد قتله فى محبسه ثمانية أيام» — السلوك جـ١ ص ٧٥٧.

(٤) الجنوية : النقالة التى تستخدم لنقل الجرحى والموتى، وهى سياج من مخازق الخشب، وتسمى أيضا «الحسيكة» — السلوك جـ١ ص ٧٥٧ هامش (٢).

(٥) «زاوية سيدى الشيخ أبى السعادات بن أبى العشائر» — كنز الدرر جـ٨ ص ٣٠٤.
«زاوية الشيخ أبى السعود بن أبى العشائر بالقرافة» — المواعظ والاعتبار — المدرسة الحسامية — جـ٢ ص ٣٧٦، وانظر أيضا النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٣٨٤ هامش (١).

(٦) «تربته التى أنشأها بمدرسته الحسامية بخط المسطاح من حارة الوزيرية من القاهرة» — المواعظ والاعتبار جـ٢ ص ٣٨٦.

(٧) «سنجر المعروف بأبى خرص» — النجوم الزاهرة جـ٨ ص ٩، وهو «علم الدين سنجر الحموى، المعروف بأبى خرص» — السلوك جـ١ ص ٧٦٧.

حاشيته، فطلب دستورا إلى الحجاز وسأل أن يجهز نفسه من الشام، فرسم له بذلك وسافر من يومه، وطلب أيضا أمير علي بن قرمان فلم يوجد.

ثم سكن الأمير بيدرا فى دار النيابة على عادة النواب، لأن الأشرف فوّض إليه النيابة، وأخذ إقطاع طرنطاى وعدته، وما كان له من المشترَوات والحمامات بنواحى الأعمال.

وفوض الوزارة إلى شخص يسمى محمد بن السلعوس[1].

ولما سكن بيدرا دار النيابة قال الشاعر:

كأنها بعدهم ليل بلاقمر ونعمة حكمت فيها أعاديها

قال صاحب التاريخ: أخبرنى بعض شهود الخزانة أنهم وجدوا فى بيت طرنطاى فسقية صغيرة فيها ذهب، وورقة مكتوب فيها أخذها الشجاعى ودخل بها إلى السلطان، فكانت مائة ألف وعشرين ألف دينار، وهذا خارج عما ذكرنا من الحواصل، ووجد له من الغلال بمصر والشام مائتا ألف أردب وستة آلاف أردب، وكانت عبرة إقطاعه فى ديوان الجيش أربعين ألف دينار، وكان أكبر متحصله من الدواليب والزراعات وأصناف المتجر.

ذكر وَقْعة ابن قرمان:

قد ذكرنا أن السلطان طلب أمير علي بن قرمان بعد مسكه طرنطاى فلم يوجد، وكان لما علم بالقبض على طرنطاى شدّ تركاشه[2] فى وسطه، وركب حصانا من

(١) هو محمد بن عثمان بن أبى الرجاء، الوزير الصاحب شمس الدين التنوخى الدمشقى الشافعى، التاجر المعروف بابن السلعوس، والمتوفى سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٤ م — المنهل الصافى، وانظر ما يلى.

(٢) التركاش: لفظ فارسى الأصل، ومعناه الكنانة أو الجعبة التى توضع فيها النشاب — صبح الأعشى جـ ٧ ص ٣٠٩ — ٣١٠.

خيله ، وكان يدخره لأمر يُجرَى عليه ، ومازال يُضَمِّره ، فركب وأخذ معه مملوكا كان يعتمد عليه ، فخرج من المدينة ، وكان مشهورا بالفروسية ورمى النشاب ولا يكاد سهمه يخطئ .

ولما أعلموا السلطان بهروبه أرسل وراءه الأمير سيف الدين منكلى ، والأمير سيف الدين طُقُصو ، ومعهما جماعة ، فأوحى إليهم أن يَروحوا وراءه حيث كان ولا يدعوه ، فركبوا الهجن وساقوا وراءه ، ولحقوه وقد طلعت الشمس ، وصار فى أرض العايد(١) ، فلما رآهم وقف ووقفوا له مقابلة ، وسيّروا إليه وعَرَّفوه بما أمر السلطان ، فقال : لاسبيل إلى تسليم نفسى إلَّا بالموت ، فحمل عليه مملوك من مماليك الأمير منكلى ، فقصد فرسه بالرمى فقتله ، فحمل عليه الأمير طقصو من الجانب الآخر . فقال له : أيها الأمير أنتم مجاهدون ، ولا تعرضوا أنفسكم للموت ، فما منكم أحد إلا وهو يعرف نشابى ، وها أنا قاتل فرسك فلا تطمع ، ثم رماه فى صدر فرسه ، فانقلب طقصو من الفرس ، واشتغلوا بإركابه ، فغاب عنهم فى البر ، فقصروا بعد ذلك من طلبه ، وقالوا : عرب الشرقية ما يمكنونه من الرواح لأن السلطان كاتب إليهم بسببه .

وأما ابن قرمان فإنه وصل إلى بيت الأمير غرارة امير العايد ، وكان هو من أصحب الناس لابن قرمان ، ولما رآه غرارة خرج إليه وتلقاه وأنزله فى بيت ، وظن أنه أتى على عادته للصيد ، وكان أكثر صيده فى أرضه ، فقال له : وأين صبيانك يا أمير ؟ فقال : الآن يحضرون ، فقم وعجل لهم بالطعام ، فقام غرارة وذبح رأسى غنم ، واتكأ ابن قرمان على فخذ مملوكه ، وكان قد أَضَرَّ به

(١) عرب العايد : بالأعمال الشرقية من عمل بلبيس — كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٠٤ .

[١٠] السهر وما نام إلا ساعة لطيفة ، ثم استيقظ والرعب فى نفسه لما يعلم من الطلب خلفه ، فصاح على غرارة أن عجّل بالأكل ، فقال : كما ركبنا القدر فما العجلة بالركوب ؟ فقال : لا سبيل إلى القعود ، وصاح على العبد الذى كان يسيّر فرسه أن يحضر به وغرارة قام يستعجل الغداء، فلما رأى العبد يأتى بالفرس أشار إليه بكمه أن ارجع حتى يتغدّى الأمير ، فخيّل لابن قرمان أن أمر السلطنة وصل إليه ، وأنه أمر بالقبض عليه ، وإن منعه الفرس بسبب ذلك فمدّ يده إلى قوسه وأخذ فردة نشّاب وضرب بها غرارة وهو مولّى، فوقع السهم فى ظهره وخرج من صدره ، فوقع على الأرض ، ووقع الصياح فى البيوت ، وصاح العبد، فأتت العرب من كل جانب .

ورأى ابن قرمان أنه مأخوذ ، فقال لمملوكه : دعنا نموت ولا نسلم أنفسنا لهؤلاء ، فيدخلون بنا إلى السلطان ، فموتنا ههنا أحب من الشماتة بنا ، ثم نهض إلى رابية هناك ، فتكاثرت العرب عليه، فقاسوا منه مشقة عظيمة ، وجرحت منهم جماعة ، وقتل منهم نحو من أحد عشر نفسا ، فرجعوا عنه ، وضربوا عليه يزكا (١) إلى وقت الليل ، فهجموا عليه من سائر الجوانب ، وقد ضعف من التعب والجوع وفرغ نشابه ، فتمكنوا منه فقتلوه (٢) ومملوكه معه، وقطعوا رأسه وأخذته أخوة غرارة ، فأتوا به إلى السلطان وأخبروه جميع ما وقع من أمره ، فأنكر السلطان عليهم قتله ، وقال : لم ما أحضرتموه بالحياة ؟ وعرفوه أنهم عجزوا عن ذلك .

---

(١) اليزك : طلائع الجيش . صبح الأعشى ج ١٥ ص ١١٥ .

(٢) « قتله شخص من العرب العايد يسمى عشيش » — كنز الدرر ج ٨ ص ٣٠٤ .

واعتقد الناس بأجمعهم أن غرارة قصد الغدر بنزيله حيث التجأ إليه ، وكان الأمر بخلاف ذلك ، فهذه واقعة ظاهرة للناس خيانة ، وباطنها صدق وأمانة ، ولما بلغ خبر هذه الواقعة إلى عرب الشام من آل مهنى وغيرهم عيّبوا على عرب مصر بما وقع منهم إلى أن اتفق فى الشام أخت هذه الواقعة بعينها ، وسيأتى ذكرها إن شاء الله تعالى .

ذكر بقيّة ما جرى من الحوادث فى هذه السنة :

منها أن الأشرف فوّض[1] إلى الأمير بيدرا نيابة السلطنة ، كما ذكرنا .

وفى نزهة الناظر : أن القاضى مجد الدين بن الخطاب دخل على بيدرا فى خلوته وهنأه بالوظيفة ، فنظر إليه بيدرا طويلا وقال : يامجد الدين تهنينى بأمر أنا أخشى عقباه ، ثم أنشد :

ومَن يحمد الدنيا بشىء يسُرّه فسوف لعمرى عن قليل يلومُها
إذا أدبرتْ كانت على المرء حسرة وإن أقبلت كانت كثير همومها

ثم دمعت عيناه ساعة .

ومنها : أن السلطان رسم للصاحب تقى الدين[2] بوزارة الشام ، فوصل دمشق فى الخامس والعشرين من المحرم من سنة تسعين ، واحتاط على موجود الأمير

---

(١) انظر ماسبق ص ٣٢ .

(٢) هو : توبة بن على بن مهاجر بن شجاع بن توبة الربعى التكريتى ، الصاحب تقى الدين أبو البقاء ، المتوفى سنة ٦٩٨ هـ/١٢٩٩ م — انظر مايلى .

شمس الدين سنقر الأعسر[1] شادّ الشام ، وكان السلطان قد أحضره إلى مصر فى ذى الحجة من هذه السنة ، وضربه وصادره ، وبقى تحت الترسيم إلى أن حضر ابن السلعوس من الحجاز .

وكان شمس الدين بن السلعوس قد حج فى هذه السنة ، ولما تسلطن الأشرف أرسل إليه نجّابا وكتب معه كتابا بخط يده يقول فيه : ياشقير عجّل السّير ، فقد جاء الخير[2] ، فاستحثه على حضوره ليوليه الوزارة ، وكان خصيصا به من أيام والده المنصور .

ثم ولّى السلطان فى شدّ الدواوين بالشام الأمير سيف الدين طوغان المنصورى .

ومنها أن السلطان أمّر جماعة من الخاصكية يوم الأحد الحادى عشر من ذى القعدة ، منهم : طقجى ، وبلرغى ، وعُمر .

ومنها : أنه أفرج عن جماعة محبوسين من أيام والده ، منهم : ابن الملك المغيث[3] ، وكان قد حبس فى سنة تسع وستين ، وكان له فى الحبس نحو من عشرين

---

(١) هو سنقر بن عبد الله الأعسر المنصورى ، الأمير شمس الدين ، المتوفى سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م — المنهل الصافى ، الوافى جـ ١٥ ص ٤٩٧ رقم ٦٥٩ .

(٢) « وكتب بخطه بين الأسطر » ، « ياشقير ، يا وجه الخير ، عجل السير فقد ملكنا » — السلوك جـ ١ ص ٧٦٠ ، و « ياشقير ياوجه الخير احضر لتستلم الوزارة » — البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٧ .

(٣) هو عثمان بن عمر بن أبى بكر بن محمد بن أبى بكر بن أيوب ، الملك العزيز فخر الدين ، كان والده صاحب الكرك ، وقد اعتقله الملك الظاهر بيبرس ، وظل فى الاعتقال أكثر من عشرين سنة — تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٠٦ ، وقد كرر العينى ذكر هذا الخبر فى حوادث سنة ٦٩٠ هـ — انظر ما يلى .

سنةً ، وكان لهم خادم يسمى بلال المغيثى فى خدمة السلطان ، وهو الذى ذَكَّره به ، فسأل السلطان عن الشجاعى ماسبب حبسه هذه المدة وما كان ذنبه؟ فقال: ليس له ذنب ، وإنما حبس لكونه ابن ملك ، وله حاشية ، فخُشى من أمره بسبب ذلك ، فتبسم الأشرف وأمر بإحضاره ، فلما رآه وجده شكلاً حسناً ، وقال للطواشى : خذ ابن أستاذك وأنزل به إلى أهله ولا تخلّه يجتمع بأحد[1] .

ثم سأل مَنْ بقى فى الحبس ،فقيل الأمير علم الدين سنجر الحلبى والإمام الحاكم بأمر الله ، فرسم بالإفراج عن الحلبى . ولما حضر بين يديه رآه شكلاً غريباً فى الطول والعرض ، ولوائح الشجاعة عليه ، فسأل الشجاعىَّ ماسبب حبسه ؟ فقال : إن السلطان الشهيد كان يخشى أمره لما فيه من الشجاعة والإقدام فى الوقائع والحروب ، فتوهم منه أن يجمع عليه أمراء وحاشية ويطمع فى الملك ، فحبسه ، وكان حبسه فى سنة ثلاث وثمانين وستمائة ، فأقبل إليه السلطان وطَيَّب خاطره ، وخلع عليه ، ورسم له بتقدمة ألف على عادته .

ثم فى يوم الجمعة طلب النائب والشجاعى ، واستشارهما فى إخراج الإمام الحاكم من الكرب الذى هو فيه ، فأشارا عليه بذلك ، فأخرجه قبل الصلاة وسير له مركوبا ، فركب فى القلعة والأمراء والقضاة بين يديه إلى أن اجتمع بالصلاة فى المقصورة ، ثم أشار إليه السلطان بأن يصعد على المنبر،فكان من أمره ماذكرناه فى هذا الفصل[2] .

---

(١) أورد المقريزى هذا الخبر فى حوادث سنة ٦٩٥ هـ فقال : « فى سادس المحرم أفرج عن الملك العزيز فخر الدين عثمان بن المغيث فتح الدين » . السلوك جـ ١ ص ٧٦٥ ، كما أورده أيضا فى هذا التاريخ ابن الفرات — انظر تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٠٦ ، كما ذكره العينى فى حوادث سنة ٦٩٠ هـ — انظر ما يلى .

(٢) انظر ماسبق ص ٢٤ .

ومن المحبوسين الأمير زين الدين كتبغا ، وقد ذكرنا أن الأشرف كان حبسه ، فشفع فيه بيدرا والشجاعى ، فأطلق .

وكذلك رسم بالإفراج عن الأمير سيف الدين جرمك الناصرى .

ومنها : أن السلطان ولّى خطابة جامع دمشق للشيخ زين الدين عمر بن المرحل (١) وكيل بيت المال ، عوضا عن جمال الدين عبد الكافى (٢) ، وولّى نظر الجامع للشيخ وجيه الدين بن المنجى ، عوضا عن ناصر الدين بن المقدسى (٣) ، فباشره وأثمر وقفه ، واشترى له ثلث قرية المنيحة بمائة وخمسين ألف درهم .

وفى ذى الحجة : أرسل تقليدًا لنائب الشام (٤) باستمراره على ما كان عليه ، وزاده قرية حَرَسْتا .

ومنها : أنه احترقت دار صاحب حماة (٥) ، وذلك أنه وقعت فيها نار فى غيبته فلم يتجاسر أحد يدخلها ، فعملت (٦) النار فيها يومين ، فاحترق كل ما فيها ، وكان صاحب حماة فى الصيد .

---

(١) هو عمر بن مكى بن عبد الصمد الشافعى ، الشيخ الإمام زين الدين أبو حفص ، المتوفى سنة ٦٩١ هـ/ ١٢٩٢ م — المنهل الصافى ، وانظر ما يلى .

(٢) « بن عبد الكافى » فى الأصل ، وفى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٧ ، وهو تحريف ، انظر ما يلى فى وفيات السنة ص ٤٣ .

(٣) هو محمد بن عبد الرحمن بن نوح الدمشقى ، ناصر الدين بن المقدسى ، المتوفى سنة ٦٨٩ هـ/ ١٢٩٠ م — العبر جـ ٥ ص ٣٦٤ .

(٤) هو : الأمير حسام الدين لاجين المنصورى .

(٥) هو : الملك المظفر تقى الدين محمود بن الملك المنصور محمد الأيوبى .

(٦) « فعلمت » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق ، وما ورد فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٧ .

وذكر الشيخ شمس الدين الجزري في تاريخه : أن في شعبان من هذه السنة اشتد الحر بحماة حتى شُوِيَ اللحم على بلاط الجامع .

ومنها : أن الإفرنج أخذت جزيرة جربة من صاحب تونس (١) من عمل ملوتة ، وثارت الفرنج أيضا بعكا ، وقتلوا جماعة من المسلمين كانوا قدموا للتجر ، وكان ذلك من أقوى الأسباب في فتحها وقتل أهلها .

ومنها : أنه خالف على أبي يعقوب (٢) المريني عامله على مراكش وكان يقال له أبي عطّو ، وكاتب ولده أبا عامر عبد الله يستدعيه ليُسلم إليه المدينة ، فسار إليه أبو عامر ، فانحاز إليه أهل مراكش ، وأهل السوس الأقصى ، وأهل الجبال [١٢] والعربان ، وتسلل إليه جماعة من بني مرين ، فقويت شوكته ، وجاهر أباه بالمخالفة والمشاققة ، فسار إليه أبوه بنفسه ، وكان بينهما واد يسمى وادي أم الربيع ، والوقت شتاء فعبر النهر المذكور بنفسه بمن معه ، ولقيه ولده فيمن انضم إليه من مراكش ، وكانت الكسرة على الولد أبي عامر ، وقتل خلق كثير ممن كان معه ، وانتهت به الهزيمة إلى جبال سكسيرة ، فأقام بها أياما ، ثم ضاق به الحال ورأى أن لا مناص له من يد والده ، فاستشفع إليه بجماعة من الصالحين ، وهبط إليه ، فأمر ولده عبد الرحمن ، وهو وليّ عهده — فقبض عليه وعلى من معه ، فأما هو فأطلقه ، وأما الذين كانوا معه فقتلهم جميعا .

---

(١) هو : عمر بن يحيي بن عبد الواحد بن أبي حفص ، المستنصر بالله ، المتوفى سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٥م — المنهل الصافي .

(٢) هو : يوسف بن يعقوب المريني ، أبو يعقوب ، المتوفى سنة ٧٠٦هـ / ١٣٠٦م — المنهل الصافي

وفيها عاد أبو عامر إلى العصيان على أبيه وانهزم من بين يديه طالبا بلاد المغرب ، ونزل على موالى لبنى عبد الواد مقيمين بالقبلة .

وفيها : كان النيل خمسة عشر ذراعا وستة عشر إصبعا [1] ، وتوقف بعده توقفا كثيرا ، وخشى من نزوله ، وشرقت بلاد كثيرة وتحسن سعر الغلة ، ثم لطف الله وعاد الرخص .

وفيها ، حج بالناس من دمشق الأمير بدر الدين بكتاش الزومانى ، ومن الديار المصرية الأمير علم الدين سنجر الباشقردى .

(١) « مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا وسبع عشرة إصبعا ، ولم يوف فى هذه السنة » — النجوم الزاهرة ج ٧ ص ٣٨٦ .

ذكر من تُوفى فيها من الأعيان

الإمام العلّامة رشيد الدين أبو حفص عمر بن[1] إسماعيل بن مسعود الفارقى[2] الشافعي ، المدرس بالمدرسة الظاهرية[3] بدمشق .

ذكر الدرس بها فى الرابع من محرم هذه السنة ، ثم دخل إلى مسكنه ، فدخل عليه شخصان ممن يلوذون به ، فخنقاه لأجل ماله — وعُرفا بعد ذلك — وصلى عليه بالجامع الأموى ، ودفن بمقابر الصوفية . ومولده سنة ثمان وتسعين وخمسمائة[4] ، وقد جاوز التسعين ، وكان من أفراد الزمان فى سائر العلوم من الفقه ، والأصلين ، والنحو ، وعلمى المعانى والبيان ، وحل الترجمة ، والكتابة والإنشاء ، ونظم الشعر ، وعلم الفلك ، وضرب الرمل ، والحساب ، وغير ذلك .

---

(١) وله ترجمة أيضا فى : المنهل الصافى ، نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٩ ورقة ٤٨ ، درة الأسلاك ص ١٠١ ، الوافى جـ ٢٢ ص ٤٢١ رقم ٣٠٧ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٠٤ — ١٠٥ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٨٥ ، العبر جـ ٥ ص ٣٦٣ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٠٩ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٣٢ — ١٣٣ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٨ ، السلوك جـ ١ ص ٧٥٩ ، السلوك جـ ١ ص ٧٥٩ .

(٢) « الفارقانى » فى السلوك .

(٣) هى المدرسة الظاهرية الجوانية بدمشق : أنشأها السلطان الظاهر بيبرس لتكون مدرسة للحنفية والشافعية ودارا للحديث — الدارس جـ ١ ص ٣٤٨ ، ٣٥١ ، خطط الشام جـ ٦ ص ٨٢ .

(٤) « بميافارقين » — تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٣٢ .

ميافارقين : من مدن إقليم الجزيرة ، كانت قاعدة ديار بكر — تقويم البلدان ص ٢٧٨ ، بلدان الخلافة الشرقية ص ١٤٣ .

ومن شعره ما ذكره الشيخ علم الدين البرزالي(١) قال . أنشدني الشيخ رشيد الدين لنفسه .

مرّ النسيمُ على الروض الوَسيم(٢) فما شككتُ أنّ سُليمىَ حلّت السَّلما
ولاحَ برق على أعلى الثُنيّة لى فقلتُ برق الثنايا لاح وابتسما
مثنى الحبيبة روّاك السحابُ فكم ظمئتُ فيك وكم رويت فيك ظما
به رأيت الهوى حلوا ومنزلنا للّسهو خلوًا وذاك الشملُ ملتئما
والدارُ دانيةٌ والدهرُ فى شُغلٍ عما نُريد وفى طرف الرقيب عَمىً
والشمس تطلع من ثغر وتغرُب فى نحرٍ وتجلو سَنا أنوارها الظُلمَا
وظَبية من ظباء الإنس ما اقتُنصَت ولا استباح لها طرف الزمان حمًا(٣)
وجفُنها فيه خمرٌ وهو منكسرٌ والخمرُ فى القدح المكسُور ما عُلما
وثغرُها يجعل المنظومَ مُنتثرا من اللآلى والمنثورُ منتظما
تبسّمت فبكت عيني وساعدها قلبى ولولا لمَا الثغر البَسيم لمَا
ولفظها فيه ترخيمٌ فلو نطقت يوماً لا عصمَ وافاها وما اعتصما

[١٣]

ولم لاح عليها قلت لاتكن لى .. ..(٤)
تعذيبها لى عذب والشفاه شفا تجنى وأجنى ولا يُبق الآلَاَ الَمَّا(٥)

(١) هو : القاسم بن محمد بن يوسف البرزالى الإشبيلى الدمشقى ، علم الدين أبو محمد ، المتوفى سنة ٧٣٩هـ / ١٣٣٨م — صاحب كتاب « المقتفى لتاريخ أبى شامة » — المنهل الصافى .

(٢) « الروض البسيم » فى تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٣٣ .

(٣) « صرف الزمان » فى تذكرة النبيه .

(٤) باقى البيت مطموس فى الأصل .

(٥) الَلم : جنون خفيف — المنجد .

خود تجمّع فيها كلّ مفترق ... من المعانى التى تستغرق الكلما

عطت غز الاسطت ليثا خطت غصنا ... لاحت هلالا هدت نجما بدت صنما (١)

لما سرت أمرت ... (٢) ... ...

وصار مربعها قلبى ومربعها ... (٣) ... ...

ولم أكن راضيا منها بطيف كرى ... فاليوم من لى .. .. (٤)

الخطيب جمال الدين أبو محمد عبد الكافى (٥) بن عبد الملك بن عبد الكافى الربعى، خطيب جامع دمشق (٦) .

توفى بدار الخطابة بعد أن صلّى الصبح، وصلى عليه الشيخ برهان الدين السكندرى، وحمل نعشه على رؤوس الأصابع، وامتد الناس إلى الصالحية، ودفن برباط الشيخ يوسف الفقاعى (٧)، وباتت عنده الجهات، وأقام الناس عنده أياما ولياليا، ومولده فى شعبان سنة اثنتى عشرة وستمائة، وكان موته سلخ جمادى الأولى من هذه السنة .

(١) « فاحت عبيرا رنت نبلا بدت صنما » — الوافى جـ ٢٢ ص ٤٢٣ .

(٢) (٣)، (٤)، باقى الأبيات مطموسة فى الأصل .

(٥) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ١٠١، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٨٦، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ١١٦ رقم ١٧٦، مرآة الجنان جـ٤ ص ٢٠٨، العبر جـ ٥ ص ٣٦٢، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٠٩، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٣١ — ١٣٢، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٨، الدارس جـ ١ ص ١٥٨ .

(٦) « خطيب الجامع الأموى — تذكرة النبيه » .

(٧) الزاوية الفقاعية : بسفح قاسيون بدمشق .

والشيخ يوسف الفقاعى هو : يوسف بن نجاح بن موهوب الزبيرى المعروف بالفقاعى، المتوفى سنة ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م — العبر جـ ٥ ص ٣٢٤، الدارس جـ ٢ ص ٢٠٦ .

الشيخ الزاهد العابد العالم أبو طاهر فخر الدين إسماعيل[(١)] بن عز القضاة أبو الحسن على بن محمد بن عبد الواحد بن أبى اليمن .

توفى فى العشرين[(٢)] من رمضان ، ودفن بقاسيون بتربة بنى الزكى . محبة فى محى الدين بن عربى[(٣)] ، فإنه كان يكتب من كلامه كل يوم ورقتين ، ومن الحديث ورقتين . وكان من الصالحين الكبار المعرضين عن متاع الدنيا[(٤)] .

قال الشيخ علم الدين البرزالى : رأيت له المنامات الصالحة ، فمن ذلك أنه رآه وهو يقول : أن الله تعالى لما فرغتم من غُسْلى غَسَّلنى بيده بالماء والثلج والبرد ، ورآه أيضا وهو يقول : إن الله عز وجل إذا توفى رجلا صالحا أمر بضرب نوبة له فى السماء ، فقال له الرائى : يا سيدى أنت أيضا ، فتبسم .

وله نظم كثير ، فمن ذلك قوله :

والنهر[(٥)] قد جُنّ بالغصون هوى[(٦)] فـــراح فى سرِّه[(٧)] يمثلهـــا

(١) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص١٠٢ ، المنهل الصافى جـ٢ ص ٤٠٨ رقم ٤٢٨ ، العبر جـ ٥ ص ٣٦١ ، الوافى جـ ٩ ص ١٦٦ رقم ٤٠٧٩ ، فوات الوفيات جـ ١ ص ١٧٩ رقم ٦٩ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٨ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٠٨ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ٤٣ رقم ٦٣ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٣٠ — ١٣١ ، السلوك جـ ١ ص ٧٦٠ .

(٢) « توفى ليلة الأربعاء الحادى والعشرين من رمضان » — العبر جـ ٥ ص ٣٦١ .

(٣) هو محمد بن على بن محمد الحاتمى الطائى الأندلسى ، محى الدين بن العربى ، نزيل دمشق ، المتوفى سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤٠ م — العبر جـ ٥ ص ١٥٨ — ١٥٩ .

(٤) « متخليا عن الخدم » — تذكرة النبيه .

« مولده سنة ثلاثين وستمائة » — تذكرة النبيه .

(٥) « النهر » فى الوافى .

(٦) « والنهر مذ جن فى الغصون هوى » — فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٨ .

(٧) « فى قلبه » فى تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٣١ ، وفى البداية والنهاية ، وفى الوافى .

فغار منــه النسيم عاشقهـا ... فجاء عن وصله يميلها

وله :

لم أنت في حق الصديق مفرط(١) ... ترضى بلا سبب عليه وتسخط

يا من تلون في الوداد أما ترى ... ورق الغصون إذا تلون(٢) يسقط

وله :

وماتــم بالشعر من فوق ثغره(٣) ... غـدا قائــلا شبهه بي بحياتي(٤)

فقلت سترت الصبح بالليل(٥) قال لا ... ولكن سترت الدر(٦) بالظلمات

قاضي القضاة نجم الدين أبو العباس أحمد(٧) بن شمس الدين أبي محمد عبد الرحمن ابن أبي عمر محمد بن قدامة المقدسي الحنبلي .

---

(١) « كم أنت في حق الصديق تفرط » في المنهــل الصافي جـ ٢ ص ٤٠٩ ، الوافي جـ ٩ ص ١٦٧ ، « لم أنت في ود الصديق تفرط » في فوات الوفيات جـ ١ ص ١٨١ .

(٢) « إذا تغير » في المنهل الصافي ، الوافي .

(٣) « من فوق خده » في فوات الوفيات .

(٤) « وقد قال لي شبهما بحياتي » في تذكرة النبيه ، و « شبهه لي » في فوات الوفيات

(٥) « سترت الليل بالصبح » في فوات الوفيات .

(٦) « سترت النور » في فوات الوفيات .

(٧) وله أيضا ترجمــة في : درة الأسلاك ص ١٠٠ ، نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٩ ورقة ٤٨ ، المنهل الصافي جـ ١ ص ٣٣٠ رقم ١٧٨ ، الوافي جـ ٧ ص ٤٦ رقم ٢٩٧٧ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٣٨٥ ، العبر جـ ٥ ص ٣٦٠ ، السلوك جـ ١ ص ٧٥٩ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٠٧ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٠٤ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٢٩ .

توفى فى الثانى عشر(١) من جمادى الأولى منها ، وحضر جنازته الناس ، ونائب السلطنة ، ودفن بقاسيون ، وله من العمر أربعون سـنة سواء(٢) . وكان فاضلا ، بارعا ، خطيبا ، مدرس أكثر المدارس ، شيخ الحنابلة ، وابن شيخهم ، وتولى بعده القضاء شرف الدين حسن(٣) بن عبد الله بن أبى عمر .

الشـيخ نور الدين [١٤] أبو الحسن(٤) على بن ظهير بن شهـاب المصرى ، ابن الكفتى ، شيخ الاقراء بديار مصر .

الشيخ الصالح العالم الفاضل شمس الدين محمـد(٥) بن عبد الرزاق بن أبى بـكر ابن رزق الله الرسعنى(٦) الحنبلى ، المعروف بابن المحدث(٧) .

(١) « ثالث عشر » العبر جـ ٥ ص ٣٦١ .

(٢) « ولد سنة إحدى وخمسين وستمائة » فى تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٢٩ ، المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٣٠ ، والوافى . « ولد سنة خمسين وستمائة » ـ العبر جـ ٥ ص ٣٦١ .

« عاش ثمانيا وثلاثين سنة » فى الوافى .

(٣) هو الحسن بن عبد الله بن محمد ، شرف الدين أبو الفضل المقدسى الحنبلى ، المعروف بابن قدامة ، المتوفى سنة ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م المنهل الصافى ، وانظر ما يلى .

وورد اسم «حسين بن أحمد بن أبى عمرو» فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣١٧ ، كما ورد أيضا شرف الدين حسين بن عبد الله بن أبى عمرو جـ ١٣ ص ٣١٩ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : العـبر جـ ٥ ص ٣٦٢ ، زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٦٨ ب طبقات القراء جـ ١ ص ٥٤٧ رقم ٢٢٣٥ .

(٥) وله أيضا ترجمة فى : الوافى جـ ٣ ص ٢٥ رقم ١٢٧٢ ، العبر جـ ٥ ص ٣٦٤ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤١٠ ، السـلوك جـ ١ ص ٧٦٠ ، تـالى كتاب وفيات الأعيـان ص ١٤٨ رقم ٢٣٩ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٣٤

(٦) الرسعنى : نسبة إلى رأس عين : إحدى مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ـ معجم البلدان .

(٧) هو : عبد الرزاق بن أبى بكر بن خلف الرسعنى ، عز الدين ، الفقيه ، المحدث ، المفسر ، المتوفى سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٢ م ـ العبر جـ ٥ ص ٢٦٤ .

. وفد إلى دمشق فاستوطنها، « وسافر إلى مصر فى شهادة ، وعاد إلى الشام، فعند وصوله إلى نهر الشريعة (١) وقف ليسقى فرسه، بجفل الفرس فوقع فى النهر فغرق (٢).

وله نظم حسن ، فمن ذلك قوله :

ولو أنَّ إنسانا يُبَلِّغ لوعتى ... ووجدى وأشجانى إلى ذلك الرشا (٣)

لأسكنته عينى ولم أرضها له ... ولولا لهيب القلب أسكنته الحشا (٤)

وله :

أأحبابنا إن جادت المزن أرضكم ... فما هى إلا من دموعى تُمطر

وإن لاحَ برق فهو برق أضالعى ... وإن ناح وُرق عن أنينى يُخبر

وإن نسمَتْ ريح الصبا وتأرَّجت ... فمن طيب أنفاسى بكم تتعطر

وإن رنحت أغصان دجلة فانثنت ... فعنِّى بإبلاغ النسيم تخبَّر

ومن عجبٍ أنى أُكتم لوعةً ... وأُودِعُها طىَّ الصبا وهى تُنْشَر

الشيخ الجليل نجم الدين عبد الجليل بن محمد . « . . . . . » (٥) .

كان عنده فضيلة تامة ، ومكارم خلق ، وحسن عشرة ، وكان « . . . » (٦) المزاح والهزل « . . . . . . » (٧) .

(١) نهر الشريعة هو نهر الأردن — تقويم البلدان ص ٣٩ .

(٢) يوجد بعد ذلك نحو سطرين مطموسين .

(٣) الرَّشا : من أولاد الظِّباء الذى قد تحرك وتمشى — لسان العرب .

(٤) انظر تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٣٤ .

توجد بعد ذلك نحو عشرة أبيات من الشعر مطموسة تماما .

(٥) « . . . . . . » نحو تسع كلمات مطموسة .

(٦) ، (٧) « . . . . » موضع كلمة مطموسة .

وله نظم حسن ، منه (١) :

« . . . . . . » (٢)

قبيلة ببلاد الحبشة ، وكان سافر إليها فى هذه السنة ، فعند وصوله إليها جفل من أهلها « . . . . » (٣) ، وضربه بحربة فقتله .

و كان رجلا دينا ، وعنده صيانة تامة ، و كان يكتب خطا حسنا [١٥] وعمل مثمنات (٤) . مليحة وأتى فيها بكل غريبة ، وله نظم حسن ، فمنه قوله فى عطار مليح :

وعطّار كبدر التم حُسنا مررتُ به لأمرٍ قد عنانى
فقلتُ له أعندك ما وَرْدٍ فقال مُعرِّضا بل ماء لسانى

الشيخ الصالح أبو الزهر بن سالم بن زهير الغسولى .

مات بقاسيون ودفن به ، وكان شيخا مباركا خيرا مقصودا بالزيارة والتبرك .

الطواشى شرف الدين مختص الظاهرى (٥) ، مقدم المماليك السلطانية فى الدولة الظاهرية والسعيدية والمنصورية .

مات فى هذه السنة (٦) ، ودفن بالقرافة ، وكان مهيبا ، ذا حرمة وافرة ، مبسوط اليـــد .

---

(١) يوجد بعد ذلك عدد أربعة أبيات من الشعر مطموسة .

(٢) بداية ترجمة جديدة مطموس منها نحو سطرين .

(٣) « . . . . . » نحو سطر مطموس .

(٤) « مثمانات » فى الأصل .

(٥) وله أيضا ترجمة فى : تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٠٥ .

(٦) « فى ليلة الأحد الثامن والعشرين من شهر ربيع الآخر » — تاريخ ابن الفرات .

الأمير الكبير علاء الدين الحاج طيبرس(1) الوزيرى ، صهر السلطان الملك الظاهر .

مات فى ذى الحجة(2) من هذه السنة ، ودفن بتربته التى أنشأها بسفح المقطم .

وكان من أكابر الأمراء وأعيان الدولة ذوى الحل والعقد ، وكان دينا كثير الصدقات ، له خان بدمشق بالعقيبة على الصدقة ، وله فى فكاك الأسرى وغير ذلك ، وأوصى عند موته بثلاثمائة ألف [درهم(3)] تصرف إلى الجند [الضعفاء(4)] بالشام ومصر ، فحصل لكل واحد خمسون درهما .

---

(1) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، الوافى جـ١٦ ص ٥٠٨ رقم ٥٥٥ النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٣٨٥ البداية والنهاية جـ١٣ ص ٣١٩ تاريخ ابن الفرات جـ٨ ص ١٠٤ .

(2) « فى الخامس والعشرين من ذى الحجة » — تاريخ ابن الفرات .

(3)،(4) [ ] إضافة من الوافى للتوضيح .

فصل فيما وقع من الحوادث

فى السنة التسعين بعد الستمائة (*)

استهلت ، والخليفة : الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد العباسى .

وسلطان البلاد المصرية والشامية : صلاح الدين خليل بن الملك المنصور قلاون ، ونائبه بمصر : بدر الدين بيدرا ، ووزيره شمس الدين بن سلعوس ، ونائبه بدمشق : حسام الدين لاجين السلحدار المنصورى .

وصاحب تونس بالمغرب : عمر (1) بن يحيى بن محمد .

وصاحب اليمن : الملك المظفر شمس الدين يوسف (2) بن المنصور نور الدين عمر بن على بن رسول .

وصاحب مكة : نجم الدين أبو نمى محمد بن إدريس بن على بن قتادة الحسنى .

وصاحب المدينة : عز الدين جماز (3) بن شيحة الحُسينى .

(*) يوافق أولها الخميس ٤ يناير ١٢٩١ م .

(١) « أبو عبد الله محمد » فى الأصل ، وهو تحريف — انظر ما يلى فى وفيات سنة ٦٩٤هـ .

(٢) انظر ما يلى فى وفيات سنة ٦٩٥هـ .

(٣) توفى سنة ٧٠٤هـ / ١٣٠٤م — العقد الثمين جـ ٣ ص ٤٢٦ ، وقسم ٩٠٩ المنهل الصافى .

وصاحب الروم : « مسعود بن السلطان عز الدين كيكاوس[(1)] » .

وصاحب ماردين : الملك المظفر قرا أرسلان[(2)] بن الملك السعيد إيل غازى الأرتقى .

وملك بلاد العراق وخراسان وتلك النواحى : أرغون بن أبغا بن هلاون بن باطو بن جنكزخان .

وملك التتار بالصين، الحاكم على كرسى مملكة جنكزخان : عَزمون بن قبلاى خان بن طلوخان بن دوشى خان بن جنكزخان .

وملك التتار بالبلاد الشمالية ، التى تختها مدينة صراى : تَلابُغا بن مَنكوتمر ابن طوغاى بن باطو بن دوشى خان بن جنكزخان .

وفيها فى أول السنة ، وكان يوم الخميس ، تصدق الأشرف عن والده المنصور بأموال كثيرة جدا من الذهب والفضة ، وأُنزل السلطان إلى تربته[(3)] فى ليلة الجمعة ، فدفن فيها تحت القبة ، ونزل فى القبر بدر الدين بيدرا ، وعلم الدين الشجاعى .

وفى ليلة الجمعة الثامن والعشرين من صفر ، عمل الأشرف ختمة عظيمة

---

(١) «غياث الدين كيخسرو بن ركن الدين قليج أرسلان السلجوقى » فى الأصل ، وهو تحريف ، فقد قتل غياث الدين كيخسرو سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٣ م ، وأقيم بعده مسعود بن عز الدين كيكاوس ابن كيخسرو بن كيقباذ بن كيخسرو بن قليج أرسلان — انظر السلوك جـ ١ ص ٧١٨ وانظر ماسبق من هذا الكتاب جـ ٢ ص ٣٢٠ وما ورد فى بداية هذا الجزء فى بداية حوادث سنة ٦٨٩هـ ، ص ٩ .

(٢) انظر ما يلى فى وفيات سنة ٦٩١ هـ .

(٣) داخل باب المارستان الكبير المنصورى بخط بين القصرين بالقاهرة — المواعظ والإعتبار جـ ٢ ص ٣٧٩ — ٣٨١ ، ٤٠٦ ، ٤٠٤ .

لوالده أنفق فيها أموالا كثيرة ، فنزل بنفسه وفرق فى الفقهاء والقراء من جميع أهل المدارس والزوايا والربط خمسة وأربعين ألف درهم وألف قميص .

وفى أوائل العشر الأول[1] من المحرم ورد شمس الدين بن سلعوس من مكة ، وقد ذكرنا أن الأشرف كان أرسل إليه نجابا يستدعيه ، فحضر فى هذا [١٦] التاريخ ، وولاه الوزارة[2] .

والسبب إلى وصول هذا للأشرف واتصاله بالأمور التى لم يصلها متعمم قبله من أبناء جنسه فى الوزارة أن أباه كان رجلا تاجرا فى متجر القماش ، توفى وورث منه مالا جزيلا ، وشرع يصحب للصاحب تقى الدين توبة ناظر الشام و يتردد إليه إلى أن حصل أخذ المرقب ، ودخل التقى إلى مصر صحبة السلطان المنصور ، فدخل معه ابن سلعوس هذا ، فرأى مصر وجندها وأمراءها[3] ، فأعجبه ذلك ، وقال للتقى : أشتهى أن أكون مباشرا عند أحد من الأمراء ممن له تعلق فى دمشق ، واتفق أن فخر الدين ابن الخليلى كان فى ذلك الوقت ناظر ديوان الأشرف ، فسأل التقى توبة أن يحصل له شخصا من أهل دمشق يباشر ديوان الأشرف فى دمشق ، فقال له : إن ههنا شخصا من دمشق ، وهو صاحب مال جزيل من بيت كبير ، فأحضره إليه ، ودخلوا به إلى الأشرف ، وتحدث معه التقى فى أمره ، فقبله وخلع عليه ، وولاه أمر ديوانه ، ثم إنه عند وصوله إلى دمشق جهز للأشرف تقدمة هائلة ، ثم لم تزل هداياه متواردة متوالية ، واتفق

---

(١) « يوم الثلاثاء العشرين من المحرم » فى كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٠٩ .

(٢) « وكان الأمير سنجر الشجاعى قد تحدث فى الوزارة منذ تسلطن الأشرف ، من غير أن يخلع عليه ، ولا كتب له تقليدا » ـــ السلوك جـ ١ ص ٧٦١ أنظر ما سبق ص ٢٤ .

(٣) « وأمرائها » فى الأصل .

بعد ذلك بمدة أن محتسب دمشق توفى ، فجهز تقدمة لها صورة ، فسأل مباشرة الحسبة ، فسعى له الأشرف عند والده ، وأخذ له توقيعا بالولاية ، واستمر على ذلك إلى أن دخل مصر ، و باشر ديوان الأشرف ، ثم حصل له ما ذكرنا مع طرنطاي(١) نائب السلطنة من الأمور المنكرة حتى أنه خرج من مصر بعد شدة رآها إلى أن جهز نفسه فى السنة الماضية إلى الحجاز الشريف ، واتفق موت السلطان المنصور وتولية ابنه الأشرف ، فكتب إليه كما ذكرنا فى السنة الماضية ، ووصل فى أوائل هذه السنة ، ولما وقف بين يدى الأشرف أكرمه إكراما عظيما ، وقربه ، وجعل يشكر فيه عند الأمراء ، وخلع عليه خلعة الوزارة يوم الإثنين الثاني عشر من المحرم ؛ ورسم لبيدرا والشجاعى و بقية الأمراء أن يخرجوا فى خدمته ، فمشوا فى خدمته ، و بغدي الدوادار حامل الدواة بين يديه .

وكان له نهار عظيم ما وقع لوزير مثله .

ثم رسم السلطان أن يركب الخدام يوم الإثنين والخميس فى موكبه ، وولى بدر الدين مسعودى شد الدواوين فعظمت مهابته .

ولما استقر أمره طلبه السلطان وعرّفه أن والده الشهيد كان قد عزم على الغزاة ، وفتح حصن عكا ، فأدركته الوفاة ، وأنه قد عزم على ذلك ، وأمره أن يجهز الأموال للنفقات على الأمراء والأجناد ، وأذن للأمراء أيضا أن يجهزوا

(١) لم يرد فيما سبق ذكر العلاقة بين طرنطاى وابن السلعوس .

وورد فى زبدة الفكرة أن السلطان قلاون فى آخر سفرية إلى الشام أنكر على الأشرف خليل ما يفعله ابن السلعوس مع المقطعين « وأمر حسام الدين بإمساك الناظر المذكور ومقابلته على هذه الأمور ، فأمسكه وصادره ونكل به وصرفه عن ديوانه ... فكان هذا من أول الأسباب التى غيرت خاطر الأشرف على الأمير حسام الدين » — انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٦٧ ب ، ١٦٨ أ .

أحوالهم ، وأمر الأمير عز الدين الأفرم أمير جندار أن يذهب إلى نائب الشام، ويقول له : رسم السلطان أن تجهز جميع مايحتاج إليه المجانيق(١) وآلات الحصار ، ويتقدم بها إلى حيث يصل ركابه ، فمضى من يومه على البريد .

وأما ابن سلعوس فإنه قد بسط يده ولسانه ، وأظهر من العظمة والكبرياء أمرا عظيما ، ورسم لبعض مماليك السلطان أن يركبوا فى خدمته ، فصار يركب فى موكب كبير ، ووسع له السلطان فى الجامكية والرواتب ، وألقى مقاليد(٢) [الدولة] إليه ، فكان الزهو والكبرياء سببا لوباله ، على مانذكره إن شاء الله، فلله در القائل :

مَنْ ناط بالعُجب عُرَى أخلاقه   نِيطت عُرى المقت إلى تلك العُرى

[١٧]

مَن طال فوق مُنتهى بسَطته   أعجزه نيل الدُّنى بله القضا

من لم يقف عند انتهاء قدره   تقاصرت عنه فُسيحات الخُطا(٣)

ذكر فتح عكا وجعلها دكا :

وكان السلطان المنصور قد جرد(٤) جماعة من الأمراء ليقيموا بجينين ، وقدم

(١) « المناجيق » فى الأصل ، وسيجرى تعديلها فيا يلى دون إشارة .

والمجانيق جمع منجنيق — انظر صبح الأعشى جـ ٢ ص ١٣٧ .

(٢) [ ] إضافة من زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٦٨ ب ، حيث ينقل العينى من بيبرس الدوادار .

(٣) انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٦٨ ب .

(٤) « الجون » فى السلوك جـ ١ ص ٧٥٤ .

الجون : بلد بالأردن على الحدود الشمالية لفلسطين ، بينه وبين طبرية عشرون ميلا ، ومنه إلى الرملة أربعون ميلا ، وهو على مسافة عشرين ميلا أيضا من قيصرية الشام — بلدان الخلافة الشرقية .

عليهم أميرا يسمى سنقر يعرف بالمَسّاح [1] ، وأمره أن يركب كل يوم بالعسكر إلى مقابل حصن عكا ، ويحفظوا الساحل والتجار خشيةً من أهل عكا ، فإنهم كانوا قد نقضوا الهدنة بينهم وبين السلطان ، وتعرضوا للسفارة من التجار وغيرهم ، وكان يجرى بينه وبين أهل عكا كل وقت حروب ووقائع ، وهو ينتصر عليهم ، فوشى به الواشى إلى الأشرف بأنه كان منتميا إلى طرنطاى ، وكان الأمير بدر الدين بكتوت العلائى مجردا على حمص ، قد كان المنصور جرده مع جماعة من الأمراء ، فأرسل إليه الأشرف أن يحضر ويجعل طريقه على جينين ، ويحتال على قبض المَسّاح ، ويُسيّره إلى سجن صفد ، ثم يحضر إلى مصر وصحبته الأمراء ، وكان العلائى هذا له خدمة سابقة مع الأشرف فى حياة والده ، فلما وصل إليه الخبر ركب بمن معه إلى أن وصل دمشق ، ثم خرج منها إلى أن وصل إلى جينين وسمع به المَسّاح ، فركب إلى لقائه مع الأمراء الذين معه وتلقوه ، ولما نزلوا قدم طعام فأكلوا ، وخرجت الأمراء وبقى المساح ، فأخرج إليه العلائى مرسوم الأشرف وقرأه عليه ، وتقدمت مماليكه وأخذوا سيفه ، وأركبه من وقته على خيل البريد وصحبته أميران ، فأوصلاه إلى سجن صفد ، ثم رحل العلائى بمن معه إلى أن وصل إلى مصر ، فحضر بين يدى الأشرف وأكرمه وغير اقطاعه ، وكان ذلك فى أوائل صفر .

وفى سابع صفر قبض الأشرف على الأمير سنقر الأشقر ، وسيف الدين بُرملك الناصرى ، وأفرج عن الأمير زين الدين كتبغا ، وكان قد مسك مع طرنطاى كما ذكرناه ، وردّ عليه اقطاعه ، ثم شرعوا فى الخروج إلى جهة عكا .

---

(1) « الأمير شمس الدين سنقر المساح » فى السلوك جـ ١ ص ٧٥٤ .

قال ابن كثير : جاء البريد إلى دمشق فى مستهل ربيع الأول « لتجهيز الآلات بسبب حصار عكا[١] » ، ونودى بدمشق[٢] الغزاة فى سبيل الله إلى عكا ، وبرزت المجانيق إلى ناحية الجسورة ، وخرجت العامة والمطوعة يجرون العَجَل ، حتى الفقهاء والمدرسون والصلحاء ، فتولى سياقها علم الدين سنجر الدوادارى ، وخرجت العساكر المنصورة بين يدى نائب الشام ، وخرج فى إثرهم النائب حسام الدين لاجين السلحدار ، ولحقه صاحب حماة الملك المظفر بن الملك المنصور ، وصحبته مجانيق وزردخاناه[٣] ، ووصل نائب طرابلس الطباخى ، وصحبته عسكر طرابلس ، وتوجه الجميع إلى حصن عكا[٤] .

ذكر خروج الأشرف :

خرج الأشرف من مصر فى الرابع من ربيع الآخر بعساكره قاصدا عكا ، فوافى الجيش هناك ، فنازلوها يوم الخميس التاسع عشر من ربيع الآخر[٥] .

وفى تاريخ ابن كثير : فنازلها يوم الخميس رابع ربيع الآخر[٦] ، فهذا يدل على أن خروجه كان فى ربيع الأول ، والله أعلم .

---

(١) « لتجهيز آلات الحصار لعكا » — البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٢٠ .

(٢) « فى دمشق » فى البداية والنهاية .

(٣) رافق المؤرخ أبو الفدا المظفر صاحب حماة فى هذه الحملة ، وكان أبو الفدا يومئذ أمير عشرة ، وأثبت ما قام به وما شاهده من وقعة عكا — انظر المختصر جـ ٤ ص ٢٥ — ٢٦ .

(٤) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٢٠ حيث يوجد اختلاف فى بعض الألفاظ .

(٥) « وفى يوم الثلاثاء ثالث ربيع الأول توجه السلطان بالعساكر يريد أخذ عكا ، وسير جريده إلى دمشق فوصلوا إليها فى سابع ربيع الآخر » — السلوك جـ ١ ص ٧٦٤ ، وانظر أيضا النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٥ .

(٦) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٢٠ .
ووردت « يوم الخميس ثالث ربيع الآخر » — السلوك جـ ١ ص ٧٦٤ .
وطبقا للتوفيقات الإلهامية فإن يوم الخميس يوافق ٣ ربيع الآخر ، ١٧ ربيع الآخر .

وذكر في نزهة الناظر : أن السلطان الأشرف رسم قبل خروجه أن ينقل والده المنصور إلى تربته في القبة التي أنشأها بين القصرين ، فخرجت سائر الأمراء ونائب السلطنة والشجاعي والوزير بعد صلاة العشاء [١٨] الآخرة ومشى الجميع قدام تابوته إلى جامع الأزهر ، وحضر القضاة والمشايخ والفقراء ، وتقدم قاضي القضاة تقي الدين وصلى عليه ، ثم ذهبوا به إلى المدرسة ، وكانت ليلة عظيمة .

وبعد أيام[(١)] خرج الدهليز والعسكر في مستهل ربيع الأول ، ولما استقر ، رسم للوزير والنائب بأن يدخلا المدينة ويعملا ختمة لوالده فركبا ليلة الجمعة وعملا ختمة هائلة ، وعملا أطعمة عظيمة ، وتصدقا على الفقراء والمساكين بصدقات كثيرة .

ثم ركب السلطان إلى أن وصل إلى دمشق المحروسة ، وخرج أهل دمشق لتلقيه ولم يبق فيها أحد ، فأقام بها أياما ، ثم خرج وأتى إلى عكا بالعسكر ، وكان نزوله عليها في العشر الأول من ربيع الآخر ، فوجدها قد تحصنت بسائر العُدد والآلات ، وكانت الإفرنج استنجدوا بأهل قبرص وغيرها من الجزائر ، وأرسلوا إلى ملوكهم الكبار ، فاجتمع بها خلق كثير من الداوية والاسبتار ، وكانوا قد كتبوا إلى ملوك الإفرنج مع الرهابين[(٢)] والقسوس ، وذكروا في كتبهم أنه لم يبق حصن من حصون الإفرنج يأوون إليه في جميع السواحل غير هذا الحصن ، وأنه متى أخذ لا يبقى لسائر الإفرنج مكان يذكرون فيه ، فسيّروا إليهم خلقا كثيرا ورجالا مقاتلة ، وجهزوهم في المراكب ، وحملوا لهم سائر ما يحتاجون إليه من العدد والآلات والإقامات وغيرها ، فاجتمع فيها خلق كثير حتى لم يكترثوا

(١) « أيام » مكررة في الأصل .

(٢) هكذا بالأصل ، والمقصود « الرهبان » .

بالمسلمين ، ولم يغلقوا للمدينة بابا ، وصاروا يخرجون إلى العسكر ويطلب فرسانهم المبارزة ، وكان يبرع إليهم الجند من الحلقة والمماليك السلطانية ، فيجرى بينهم الكر والفر والمطاعنة ، فبقوا على ذلك أياما ونال منهم المسلمون ، فجرحوا منهم جماعة ، وقتلوا جماعة ، وكانوا كل يوم لا يرجعون إلا وهم خاسرون ، فرأوا من المسلمين ما ليس فى بالهم ، ثم امتنعوا عن القتال والمبارزة ، فصاروا يقفون على الأبواب يحفظونها ولا يخرجون منها .

وكانت عدة ما نصب عليها من المجانيق اثنان وخمسون منجنيقا شيطانيا . وقال بعضهم : اثنان وسبعون منجنيقا(١) ، ثم صمم السلطان على الحصار ، فرتب الكوسات ثلاثمائة جمل ، وزحف سحر يوم الجمعة السابع عشر من جمادى الأولى ، ودقت الكوسات جملة واحدة عند طلوع الشمس ، وطلع المسلمون مع طلوع الشمس ، فنصبت السناجق الإسلامية فوق الأسوار ، فولت الفرنج عند ذلك الأدبار ، وركبوا هاربين فى مراكب التجار ، وقتل منهم خلق لا يعلم عددهم إلا الله ، وغنموا من الأمتعة والرقيق والبضائع شيئا كثيرا جدا ، وكان فتحها نهار الجمعة ، كما أخذتها الفرنج فى نهار الجمعة ، جزاء وقصاصا ، واستأصل منهم ما ينيف على عشرة آلاف نفس ، ففرقهم السلطان على الأمراء ليقتلوهم(٢) .

وفى نزهة الناظر : ولما كان الناس فى الحرب مع الإفرنج إذا منهم قد رمى من القلعة وفى نصله ورقة مشدود عليها بخيط ، فوقع السهم فى وسط العسكر

(١) « اثنان وتسعون منجنيقا » ـــ السلوك جـ ١ ص ٧٦٤ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١١١ ، ص ١١٢ .

و « نصب حول المدينة خمسة وستين منجنيقا » ـــ بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٣٦٨ .

(٢) « وكان عند فتحها أن أقبل من الفرنج نحو عشرة آلاف فى هيئة مستأمنين ، ففرقهم السلطان على الأمراء فقتلوهم عن آخرهم » ـــ السلوك جـ ١ ص ٧٦٥ .

فأخذوه وأحضروه إلى السلطان ، ففتح الورقة فوجد فيها مكتوب بالعربى :

بسم الله الرحمن الرحيم ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله ، إن الدين عند الله الإسلام ، ياسلطان المسلمين احفظ عسكرك من الكبسة فى هذه الليلة ، فإن أهل عكا قد اتفقوا على ذلك ، وهم قاصدون الهجوم عليك ، واحتفظ أيضا من [١٩] أمرائك فإنهم ذكروا أن فيهم تخابرا عليك .

وكانت هذه الورقة من رجل من أهل عكا رزقه الله الإسلام وكان يكتم إسلامه ، فلما وقف عليها السلطان طلب الأمير بيدرا والشجاعى وقرأها عليهما ، فاتفق رأيهم أن يدور الحجاب والنقباء على الأمراء ويعرفونهم بهذا الأمر سرا فيما بينهم ، وأن يحتفظ كل أمير بمكانه ، واتفق فى تلك الليلة أن هبت ريح عاصفة ، فأظلم الجو لها ووافاها أهوية مختلفة ، فكان ذلك مما فرح به الإفرنج ، واجتمعت طائفة الداوية مع طائفة الاسبتار وتفرقوا ، وخرجوا من أماكن يعرفونها ، وركب بعضهم فى المركب إلى أن صاروا على الأرض ، ثم هجموا على العسكر وتصايحوا صياحا منكرا .

وكان أول وصولهم إلى نحو الميسرة ، وكان فيها مركز الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح ، وكان الخبر عنده ، وكان راكبا بمن معه واقفين خارج الخيم ، فلما وصلت الإفرنج وقربوا من الخيم أرادوا أن يرموا نفطا عظيما كان معهم ، فما لحقوا أن يتوسطوا الطريق حتى أخذهم الصياح من كل جانب ، ورشقتهم السهام فى الليل ، فرجعوا على أعقابهم ، وليس فيهم أحد يلتفت إلى من معه ، ورموا منهم نحو المشرين فارسا ، وخرجوا جماعة فأخذوهم أسرى .

وأما الإفرنج الذين قصدوا الميمنة فسلموا وأخذوا بعض الجنويات والستائر التى كانت للمسلمين ، وكان السبب فى ذلك أن الميمنة كان فيها المقدم هو الأمير الحلبي الكبير ، ولما بلغه خبر الكبسة ركب بمن معه من الأمراء وأوصاهم أن لا يدعوا شيئا فى الخيم ، وأراد بذلك أمرا ، وأراد الله غيره ، وحسب فى نفسه أن الإفرنج إذا هجمت على الخيام ورجعت يكون هو والعسكر الذى معه قد سبقوا إلى المهوى التى طلعوا منها ، فيكون قد ملك الطريق عليهم ويأخذهم قبضا باليد ، ولا يدع أحدا يتمكن من الدخول إلى عكا ؛ فلما هجمت الإفرنج على الخيام ورأوها خالية من كل شيء أدركوا ما أضمره الحلبي فى نفسه ، فعرجوا عن تلك الطريق إلى غيرها ، فوجدوا فى طريقهم جنويات وطوارق للحلبي فأخذوها ، وبقى الحلبي ومن معه واقفين ينتظرون عود الفرنج فما رأوا أحدا حتى أشرق الصبح ووقع الصياح من الإفرنج من عكا ، وعلقوا تلك الطوارق والجنويات على الأسوار ، ولما رأت المسلمون ذلك اغتموا ، وبعد ساعة سير الأمير بكتاش إلى السلطان الأسرى الذين أسرهم من الإفرنج والخيل التى أخذوها منهم ، فزال عن الناس الغم ، ثم أصبح السلطان فطلب الأمراء وعنفهم على الإطالة بالحصار ، فاعتمدوا بأجمعهم على المجانيق ، وصارت الأمراء تركب إليها وتقف على أمرها إلى أن فعلت فعلا عظيما ، وهدمت شراريف الأسوار ، وتقلقلت الآجر لتقع والبدنات ، فوهيت عند ذلك أهل الكفر وتحققوا أن أمرهم إلى التلاشى والزوال .

ونظم أبو[(1)] تميم فى المنجنيق :

للنجنيق على الحصون وقائـع فيهـا عجائبُ للـذى يتفهّـمُ

(1) « أبى » فى الأصل .

يومي إليها بالركوع مُخادعاً　　فتخرّ ساجدة إليه ونُسلّمُ

[٢٠] قال الراوي : ثم اتفق رأى الافرنج على أن يسيروا إلى السلطان فيسألونه أن يرحل عنهم ، وعليهم كل سنة مالاً يحملونه إليه مع هدايا وتحف كما كانت في الأول، فلما جاء رسلهم إلى السلطان جمع الأمراء فشاورهم فيه . فقال جميعهم عن لسان واحد : إن هذا حصن كبير عندهم، ولم يبق في بلاد الساحل من أهل الكفر غير أهله ، وكان عزم الشهيد والد الأشرف على فتحه، والسلطان قد عزم في أول دولته على فتحه على ما كان عليه عزم الشهيد ، وأنه قد أصيب من المسلمين جماعة ، وقتلت جماعة ، وما بقي للصلح فائدة ، فإنما قد أشرفنا على فتحه . وهم في ذلك ، و إذا بصياح عظيم من السوقة والحرافيش والغلمان والجمالين : يا مولانا السلطان بتربة الشهيد لا تصطلح مع هؤلاء الملاعين، ثم قال السلطان للرسل : لا صلح عندنا إلا أن تسلموا الحصن بالأمان، فذهبت الرسل، وكان يوم الخميس .

ففي يوم الجمعة أمر السلطان بالزحف، فزحفوا وكشفوا الإفرنج عن الأسوار بسهام، ثم دخلوا في المدينة فوجدوا من الأموال والذخائر والأواني البلور المرصعة بالذهب واللؤلؤ ما لم يقدر عليه ، وكذا من الأواني الفضة والذهب والدراهم البندقية شيئا كثيرا لا يعدّ ولا يحصى ، ووجدوا أيضا من أصناف المتجر الذي يحضر إليها ويسافر به إلى الشام ومصر شيئا كثيرا ، ومن الذهب السبائك والفضة الحجر، فشرعت الكسابة من الغلمان والسوقة والحرافيش ينهبون، وقتلت من المسلمين جماعة على الكسب ، وكانوا إذا وجدوا آنية من فضة أو ذهب أو بلور كسروها وأطفأوا صنعتها (١) ، وأخذوا من النساء والأولاد شيئا كثيرا ،

(١) « وأطفأوا صنعتها » في الأصل :

واستغنت جماعة السوقة مما كانوا يشترون من الكسابة من الغلمان والجمالين والحرافيش وغيرهم من الأجناد وأتباعهم .

قال صاحب نزهة الناظر : أخبرنى جماعة منهم : أن منهم من كان كسبه بلغ إلى مقدار ألفى دينار وما دونها من الذى ينهبه ويبيعه للسوقة ، وأن شخصا يعرف بسراج الدين ظبيان كان كسبه فى عكا نحو ألف وسبعمائة دينار واثنين وعشرين ألف درهم ، وحضر إلى المدينة وصحبته ثلاثة أقطار من الجمال تحمل تجارة .

قال الراوى : ثم رسم السلطان للأمير علم الدين الدوادارى الصالحى والأمير الشجاعى أن يقيما على عكا لتخريب أسوارها وأبراجها ، ثم رحل السلطان عنها إلى دمشق ، فشرع الشجاعى فى تخريب عكا ، ووجد بها كنائس داثرة قديمة ، وفيها من البناء الغريب الذى لا يقدر على مثله ، ووجدوا فى بعض تلك الكنائس ناوُساً من الرخام الاحمر مثل العقيق ، ووجدوا فى وسطه لوحا من رصاص كبيرا مكتوب عليه بالرومى ، فاحتمله الشجاعى معه ، وأخذوا من ذلك الناس قطع رخام ، فلما وصلوا إلى دمشق أحضروا شخصا يعرف بالقراءة الرومية ، فأخرج له ذلك اللوح مكتوب فيه :

كتب فى سنة اثنتين وعشرين ومائتين ، وذكر فيه أنه يدوس هذه الأرض رجال من أمة نبى العرب ، وهو نبى يظهر له دين وشريعة ، ويكون دينه أعظم الأديان ، وشريعته أعظم الشرائع ، ويطهر الأرض من الكفر ، وتبقى شريعته إلى آخر الزمان [٢١] ، وتملك أمته سائر الأقاليم من الفرس والإفرنج وغيرهما ، وإذا

دخلت السبعمائة ملكت أمته سائر بلاد الإفرنج .

ووجدوا أيضا على باب كنيسة مكتوبا قديما بالكوفى[١] :

جمع الكنائس إن تكن عبثت بكم[٢]		أيدى الحوادث[٣] أو تغيّر حالُ

فلطالما سجدت على أبوابكم[٤]		شمّ الأنوف صحاحٌ[٥] أبطالُ

صبرا على[٦] هذا المصاب فإنه		يوم بيوم والحروبُ سجالُ

ونقلوا من كنائس عكا رخاما عظيما إلى الغاية ، وأبوابا كانت على كنائس مستجدّة فى عكّا، وكان من جملة ما حمل[٧] منها إلى مصر باب كنيسة بقواعده وأعضاده وعوامده ، وهو الآن مركب على باب المدرسة الناصرية[٨] ، وحمل منه إلى دمشق شىء كثير ، وإلى مصر أيضا .

---

(١) « وقال ابن ضامن الضبع بعكا : » — فى السلوك جـ ١ ص ٧٦٧ .

(٢) « ادى الكنائس » فى السلوك .

(٣) « الليالى » فى السلوك .

(٤) «سجدت لكن فوارض » — فى السلوك .

(٥) « جحاجح » فى السلوك .

(٦) « فعزاء عن » فى السلوك .

(٧) «ومن جملة ما نقلوه البوابة الرخام الأبيض التى على المدرسة الناصرية، التى بجوار البرقوقية ، وكان هذا الباب على كنيسة فى مدينة عكا » — بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٣٩٨ .

(٨) المدرسة الناصرية بالقاهرة ، بجوار القبة المنصورية من شرقيها ، تم بناؤها سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م ، وهى تنسب إلى الملك الناصر محمد بن قلاون ، وذكر المقريزى : « وبابها من أعجب ما عملته أيدى بنى آدم ، فإنه من الرخام الأبيض البديع الزى الفائق الصناعة — ونقل إلى القاهرة من مدينة عكا » — المواعظ والإعتبار جـ ٢ ص ٣٨٢ .

قال الراوى : ولما طلقت أبراج عكا وأضرمت فيها النار وتساقطت ، عمل القاضى شهاب الدين محمود[1] الحلبى كاتب الإنشاء هذين البيتين وهما :

مررت بعكا بعد تخريب سورها وزند أوار النار فى وسطها وار
وعاينتها بعد التنصر قد غدت مجوسية الأبراج تسجد للنار[2]

واستشهد على عكا من الأمراء: علاء الدين كشتغدى الشمسى، وعز الدين أيبك المعزى ، وجمال الدين أقوش الغتمى ، وبدر الدين بيليك المسعودى ، وشرف الدين قيوان السكرى ، والعزى نقيب الجيوش[3] ، وست مقدمين من الحلقة[4] ، وثلاثة وخمسون جنديا من الحلقة ، وثلاثون من أجناد الأمراء[5] .

وقال النويرى : ولم تزل النصارى يعظمون هذه المدينة لأجل الناصرة وهى القرية التى خرج منها المسيح عليه السلام ، وبها أيضا عين تسمى عين البقرة يزورها المسلمون والنصارى واليهود يزعمون أن البقرة التى خرجت لآدم للحرث خرجت من هذه العين[6] .

(١) هو محمود بن سليمان (سلمان) بن فهد ، شهاب الدين أبو الثناء الحلبى الدمشقى الحنبلى ، صاحب ديوان الإنشاء بدمشق ، والمتوفى سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م — المنهل الصافى ، فوات الوفيات جـ ٤ ص ٨٢ رقم ٥٠٨ .

(٢) انظر السلوك جـ ١ ص ٧٦٧ تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١١٥ .

(٣) «وعز الدين أيبك المعزى نقيب الجيوش المنصورة» فى كنز الدرر جـ ٨ ص ٣١١ ، وانظر ماسبق عن عز الدين أيبك المعزى .

(٤) «وأربعة من مقدمى الحلقة» — السلوك جـ ١ ص ٧٦٥ وكذلك فى كنز الدرر جـ ٨ ص ٣١١ .

(٥) «وقتل من المماليك السلطانية مائة وعشرون مملوكا» — بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٣٦٨ .

(٦) انظر نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٩ ورقة ٢٠ أ .

وقال بيبرس فى تاريخه : استنقذ الله عكا من أيدى المشركين(١) على يد الملك الأشرف صلاح الدين ، كما كان فتوحها أولا على يد صلاح الدين « يوسف ابن أيوب »(٢) ، وأقامت بأيديهم مائة وثلاث سنين ، لم ينهض أحد من الملوك الأيوبية ومن بعدهم من أرباب الدول التركية باسترجاعها ، « وكان استيلاء الفرنج عليها »(٣) فى الأيام الناصرية سنة سبع وثمانين وخمسمائة(٤) .

ذكر دخول الأشرف دمشق بعد فتح عكا وما تجدد فيها بعد دخوله :

دخل الأشرف دمشق ضحى يوم الإثنين الثانى عشر من جمادى الأخرى ، وفى ميمنته وزيره ابن السلعوس ، والجيوش المنصورة ، وكان يوما مشهودا ، ولم يبق أحد من أهل دمشق وما حوى من أهل البلاد إلا وقد خرج فى موكب اليوم ، وكل واحد فى يده شمعة(٥) ، وكذلك العلماء ، والقضاة ، والخطباء ، والمشايخ ، والنصارى ، واليهود ، وأقامت دمشق نحو شهر مزينة بالزينة المفتخرة ، ووصل كِرَا كلُّ بيت ودكان إلى قيمة كثيرة .

(١) « الكافرين » فى زبدة الفكرة .

(٢) « » ساقطة من زبدة الفكرة .

(٣) « ولا سمت همتهم إلى انتزاعها ، وذلك أن الفرنج أخذوها » فى زبدة الفكرة .

(٤) انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ٩ ورقة ١٧٠ ب ، التحفة الملوكية ص ١٢٦ — ١٢٩ .

(٥) ذكر ابن تغرى بردى أن خروج أهل دمشق بالشمع كان لتوديع الأشرف بعد فتحه قلعة الروم سنة ٦٩١ هـ ، فورد : « ثم خرج الأشرف من دمشق قاصدا الديار المصرية فى ليلة الثلاثاء عاشر شوال ، وكان قد رسم الأشرف لأهل الأسواق بدمشق وظاهرها أن كل صاحب حانوت يأخذ بيده شمعة ويخرج إلى ظاهر البلد ، وعند ركوب السلطان يشعلها ، فبات أكثر أهل البلد بظاهر دمشق لأجل الوقد والفرجة ، فلما كان الثلث الأخير من الليل ركب السلطان ، وأشعلت الناس الشموع ، فكان أول الشمع من باب النصر وآخر الوقيد عند مسجد القدم » — النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٣ .

وأول ما دخل دمشق الأمرى الذين كانوا استأسروهم نحو مائتين وثمانين أسيرا .

وكان الصاحب ابن سلعوس قد كتب إلى أكابر دمشق أن يجهزوا كل شيء حسن من الثياب الأطلس وغيرها ، فبسطوها للسلطان من آخر ميدان الحصَا إلى دار السعادة .

[٢٢] ولما استقر ركابه دخل إليه الوزير وعرّفه أن دواوين الشام قد حصّلوا أموالا كثيرة ، فاستأذن فى مصادرتهم ، فأذن له أن يفعل ما شاء ، فأول ما دق فى تقى الدين توبة التكريتى ناظر الشام ، مع أنه كان هو الذى أوصله إلى الأشرف كما ذكرنا ، وكان له عليه إحسان كثير ، فلم يعرف ذلك ، وأقامه من مجلسه وأهانه ، وكذلك فعل بالأمير شمس الدين الأعسر شاد الدواوين بالشام ، وبجماعة من المباشرين من أكابر دمشق ، وأخذ خطوطهم بمبلغ سبعمائة ألف درهم ، وأول من وضع خطه التقى توبة والأعسر الشاد ، وخافت الدماشقة منه ، وقالوا : إذا كان فعله مع مثل التقى توبة الذى هو أوصله إلى خدمة الأشرف وأنه نشره فكيف يكون مع غيره ؟ فتعاظم فى هذه الأيام ، واحتجب عن الناس ، وصار يركب فى موكب عظيم وسائر القضاة وغيرهم يركبون فى خدمته .

قال صاحب نزهة الناظر : أخبرنى شخص من الدماشقة أنه كتب له كتابا فيه أبيات ، وكتب العنوان : المملوك الناصح ، فقدمه إليه ورجع ، وهو مختفى ، فلما فتحها وجده ورقا أبيض ليس فيه غير أبيات ثلاثة ، فعلم أنه مكيدة فى حقه وهذه هى الأبيات :

لاتغبطنّ وزيرا للملوك		وإن أناله الدهرُ منها فوق همته

واعلم بأن له يوما تميد به		الأرض الوقور كما دانت لهيبته

هودا وهو أخو موسى الشقيق		له لولا الوزارة لم يأخذ بلحيته

فلما وقف عليه طواه ولم يطلع أحدا عليه ، وبعد أيام قام الأمير بدر الدين بيدرا والشجاعى فى حق التقى توبة وعرفوا أن لهذا خدمةً كبيرةً على الأمراء المتقدمين فى خدمة الشهيد، وأنه قديم الهجرة،وما زالوا به إلى أن رسم بالإفراج عنه ، وعن بقية المباشرين ، وسكن ابن السلعوس عن الدماشقة بعد ذلك .

ذكر القَبض على أرجَواش(١) متولى قلعة دمشق :

وكان السبب لذلك أنه كان من المماليك المنصورية ، معروفا ، بينهم بالفروسية والشجاعة ، وكان قد أصيب بسهم فى عينه ، فبقى بفرد عين ، وكان لا يعرف له مزح ولا لعب ، ولم يكن أحد من خشداشيته يقدر على المزح معه ، وكانوا عرَّفوا الأشرف خلقه ووسوسة طبعه وتفرده عن الناس ، وحكوا له هذه حكايات ، وكان يوما واقفا بين يدى السلطان ، فأراد السلطان أن يفتح معه باب المزح، فأشار إلى أحد من خاصكيته أن يقف خلف أرجواش ويدس يده فى مخرجه ، ففعل ذلك، فالتفت إليه أرجواش ولكمه وأرمى كلوتته، وحط يده

(١) هو أرجواش بن عبد الله المنصورى ، المتوفى سنة ٧٠١ هـ / ١٣٠١ م — المنهل الصافى جـ ٢ ص ٢٩٤ رقم ٣٥٨ .

وورد اسمه «سنجر بن عبد الله المعروف بأرجواش المنصورى ، الأمير علم الدين » النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٩٨ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١١٩ .

فى قائم سيفه ، فصاح السلطان عليه ، وبدا عليه الضحك ، فقال له : ويلك ، تلكم مملوكى : ماذا فعل بك ؟ فقال : نحن ما تعودنا بشىء من ذلك ولا رأيناه، ولكن صرنا فى آخر زماننا مسخرة ، فغضب السلطان من ذلك غضبا شديدا (١) ، ورسم بأخذ سيفه، وضربه ضربا مؤلما ، ورسم بالحوطة على موجوده ، واعتقل بالقلعة ، وحملوا من خزانته نحو سبعين ألف درهم وثلاثة آلاف دينار ، وباعوا سلاحه وقماشه إلى أن تكمل جميعه مائتين وستين ألف درهم (٢) .

ثم لما عزم السلطان على السفر إلى مصر [٢٣] ... ... (٣)

... ...

(١) وردت روايات أخرى عن هذا المزاح وغضب السلطان — انظر السلوك جـ١ ص ٧٦٨ تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٢٠

(٢) « ثم أمر السلطان بحمله على خيل البريد إلى الديار المصرية مقيدا ، فتوجه به صاحب البريد ، وحصلت الشفاعة فيه فرد من أثناء الطريق ، ثم أفرج السلطان عنه وأعاده إلى نيابة القلعة بعد عود السلطان إلى الديار المصرية فى شهر رمضان من هذه السنة ، فاستمر بها إلى أن مات » — تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٢٠ .

(٣) توجد صفحتان مطموستان .

وذكر ابن الفرات :

« وفى يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رجب الفرد الشهر المذكور رحل السلطان الملك الأشرف من قلعة دمشق وتوجه راجعا إلى الديار المصرية ، فلما كان وقت السحر من يوم الإثنين تاسع شعبان المكرم من شهور هذه السنة وصل الملك الأشرف إلى القاهرة المحروسة ، ودخل من باب النصر ، وشق القاهرة ، وخرج من باب زويلة ، وصعد قلعة الجبل منصورا فرحا مسرورا .

وكان يوم دخوله القاهرة يوما مشهودا ، وزينت القاهرة قبل وصوله زينة عظيمة لم ير قبلها مثلها ، ولاسمع فى سالف الأيام بحسنها » — تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٢٠ — ١٢١ ، وانظر أيضا النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٠ .

« وكان يوم دخوله يوما مشهودا ، وحملت على رأسه القبة والطير ، ولعبوا قدامه بالغواشى الذهب ، وفرشت تحت حافر فرسه الشقق الحرير » — بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٣٦٨ .

[٢٥] خلائق لا يحصى عددهم ، ولم يبق أحد فى المدينة إلا وقد أخذ جانبا للتفرج منه ، فلما وصل السلطان إلى المدرسة المنصورية ترجل وطلع إلى قبر الشهيد، فوجد هناك القضاة وسائر أرباب الوظائف من الفقهاء والعلماء والقراء والمؤذنين ، وتلقوه بالدعاء ، وشرعوا فى القراءة بين يديه ، ثم أخذوا فى الدعاء له ولوالده الشهيد ، ولما فرغوا من القراءة والدعاء قام ابن العنبرى(١) الواعظ وصعد المنبر ، وكان قد رتب قصيدة يذكر فيها أمر الغزاة والجهاد فى سبيل الله ، فلم يرزق فيها سعادة ، ولا فتح عليه منها فتوح ، وأول ما تكلم بعد قراءته القراءة قال :

زُر والديك وقف على قبريهما　　فكأننى بك قد نقلت إليهما

وكان السلطان ذكيا ، ففهم معنى شعره ، فما وصل إلى آخر البيت حتى نهض السلطان قائما ، وسائر الناس معه ، والتفت إلى بيدرا كالمغضب بسببه ، وقال : ما لى هذا غير هذا القول ! ! فقال له بيدرا : ياخوند هذا الرجل ما فى الدنيا مثله فى الوعظ ، ولكن ما رزقه الله سعادة فى هذا الوقت ، ثم ركب السلطان من المدرسة إلى أن خرج من باب زويلة ، وسائر الأمراء فى خدمته ، ولم يكن أحد راكبا غير الأمير بدر الدين أمير سلاح ، وعند خروجه من الباب مسك عنان الفرس ، ورسم للأمراء بالركوب ، ومشت الخاصكية إلى القلعة .

وعند استقراره خلع على الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة ، وعلى الصاحب شمس الدين ابن سلعوس وسيّر له ألف دينار .

(١) هو محمد بن محمد بن عبد الله بن مهلهل بن غياث بن نصر ، نجم الدين ، المعروف بابن العنبرى الواعظ — المواعظ والإعتبار ج٢ ص ٢٨١ .

ولما وصل السلطان القلعة نُثر على السلطان الذهب والفضة ، وعلى الأمراء المماورد من جانبي النـاس .

ويقال : ما مرّ السلطان على قلعة من تلك القلاع إلا ونثر عليه الذهب والفضة ، ولما بلغ بين القصرين عند دار البيسرى (١) — وكان البيسرى (٢) معتقلا — وقف مملوكه مغلطاى ومعه أولاد أستاذه ، وعمل بأرقابهم (٣) مناديل ، وعندما عاينوا السلطان قبلوا الأرض جميعهم ، وكانوا ست بنين ، وكان مملوكهم مغلطاى قد تحدث مع الأمراء فى الشفاعة فى مخدومه ، ولما رآهم السلطان قال : من هم هؤلاء ؟ قالوا : ياخوند هؤلاء مماليكك أولاد البيسرى ، وتحدثت الأمراء ، فقال السلطان : طيبوا قلوبكم ، الساعة أخرجه لكم ، ثم لما طلع القلعة أمر بإخراجه (٤) ، وأرسل إليه تشريفا إلى السجن صحبة الأمير عز الدين الأفرم أمير جاندار والأمير بغدى الدوادار (٥) ، ورسم له أن يلبس التشريف ويدخل إليه ،

---

(١) الدار البيسرية : كانت بخط بين القصرين ، شرع الأمير بيسرى الشمسى فى عمارتها سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦١ م ، وتأنق مؤسسها فى عمارتها والصرف عليها ، وبلغت سعتها مع ملحقاتها نحو فدانين — المواعظ والإعتبار جـ ٢ ص ٦٨ .

(٢) هو بيسرى بن عبد الله الشمسى الصالحى ، الأمير بدر الدين ، المتوفى سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م — المنهل الصافى جـ ٣ ص ٥٠٠ رقم (٧٤١) ، وانظر ما يلى .

(٣) هكذا بالأصل .

(٤) « وفيها ثامن عشر شعبان أفرج الله تعالى عن الأمير بدر الدين بيسرى » — كنز الدرر جـ ٨ ص ٣١٢ .

(٥) « وكتب افراجه ، وجعل فى كيس حرير أصفر ، وختم عليه بخاتم السلطان ، وتوجه به إلى الجب الأمير بدر الدين بيدرا النائب ، والأمير زين الدين كتبغا ، وعدة من الأمراء » — السلوك جـ ١ ص ٧٦٩ ، وتاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٢٢ — ١٢٣ .

فامتنع من ذلك والتزم يمينا أن لا يدخل عنـد السلطان إلا فى قيده ولبـاسه الذى كان عليه فى السجن ، فدخل على هـذه الهيئة ، ففك قيده بين يديه ، ثم لبس التشريف وباس الأرض ؛ فتلقاه السلطان أحسن ملتقى وأكرمه وطيب خاطره ، وأمر له بإقطاعه التى كانت بيده تقدمة ألف وزاده عليها منية بنى خصيب ، وكتب منشوره (١) وحمل إليه فى كيس أطلس ، وهذه نسخته :

الحمد لله على نعمه الكاملة ، ومراحمه الشاملة ، وعواطفه التى أضحت بها بدور الإسلام بازغة غير آفلة ، أحمده حمدا يعيد سالف النعم ، والكرم الذى خص وعم . وبعد :

فإن أحق من عومل بالجميل ، [وبلغ] (٢) من مكارم هـذه الدولة القاهرة الرجاء (٣) والتأميل ، ومن إذا ذكرت أبطال الإسلام كان أول مذكور ، [٢٦] وإذا وصفت الشجعان كان إمام كل شجاع مشهور ، وإذا تزينت سماء الملك بأنجم كان بدرها المنير ، وإذا عد أولو الأمر كان أول مشير (٤) ، وكم تجملت فيه المواكب بأعلى قدر ، وترتبت المراتب به لأنه بدر ، وهو المقر الأشرف العالى البدرى بيسرى الشمسى الصالحى العجمى الملكى الأشرفى ، فهو الموصوف بهذه

---

(١) المقصود أمر الإفراج ، وقد سماه النويرى « افراج شريف سلطانى » — انظر نهاية الأرب (مخطـوط) جـ ٢٩ ورقة ٢٩٨ ب .

(٢) [ ] إضافة من نهاية الأرب — وتاريخ ابن الفرات للتوضيح .

(٣) « من الرجاء » فى الأصـل ، والتصحيح من نهاية الأرب وتاريخ ابن الفرات .

(٤) « وإذا اجتمع ذوو الآراء على امتثال أمر كان خير مشير » — فى نهاية الأرب ، وتاريخ ابن الفرات .

الأوصاف والمدح ، والمعروف بهذه المكارم والمنح ، فلذلك رسم أن يفرج عنه في هذه الساعة من غير تأخير[(١)] .

وكان له نهار عظيم بالمدينة لأنه نزل والمدينة مزينة ، وفرحت الناس به ، وكان في الاعتقال عشر سنين وأشهرا ، ولما نزل إلى بيته أرسل له السلطان أربعين فرسا منها عشرون اكديشيا[(٢)] ، وأمر لسائر الأمراء أن يقدموا له ، فقدموا له ، وحظى عند السلطان حتى [كان[(٣)]] لا يفارقه السلطان ويخلو به ، ويحدثه في سائر أموره : هزله وجده ، وصار يوالى عليه الإنعام في كل وقت[(٤)] .

ونظمت شعراء كثيرون في فتح السلطان هذه القلاع ، فمن ذلك مانظمه شهاب الدين محمود :

الحمـــد لله ذلّت[(٥)] دولةُ الصُلب وعزّ[(٦)] بالقول دين المُصطفى العربي

(١) انظر نص أمر الإفراج في نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٩ ورقة ٢٩٨ ب تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٢٢ ، حيث توجد إضافات ، واختلاف في بعض الألفاظ عما أورده العينى .

(٢) إكديش — أكاديش ، لفظ فارسي الأصل ، معناه الإنسان أو الحيوان الذى يكون أبوه من جنس وأمه من جنس آخر ، واستعمله المؤرخون في العربية للدلالة على الرجل الذى لا ينتسب إلى أصل واحد ، وعلى الحصان غير الأصيل المستخدم غالبا في حمل الأثقال — السلوك جـ ١ ص ٧٠٣ هامش (١) .

(٣) [ ] إضافة تتفق مع السياق .

(٤) « حتى أن الأمير بدر الدين بيسرى أنتسب إلى الأشرفية ، وكان فيما مضى من عمره في الأيام الظاهرية يكتب بيسرى الشمسى فصار يكتب بيسرى الأشرفى » — تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٢٣ .

وانظر أيضا المواعظ والإعتبار جـ ٢ ص ٦٩ — ٧٠ .

(٥) « زالت » في تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١١٥ ، وكنز الدرر جـ ٨ ص ٣١٠ .

(٦) « القولة » في تاريخ ابن الفرات وكنز الدرر .

هذا الذي كانت الآمال لو طلبت رؤياه في اليوم لا ستحيت من الطلب

ما بعد عكا وقد هُدّت قواعدها في البحر للشرك عند الدين من أرَب (١)

كم رامها ورماها قبله ملكٌ جمّ الجيوش فلم يظفر ولم يُصب (٢)

لم ترض همّته إلا الذي قصدت (٣) عجز عنها ملوك العُجم والعرب

فأصبحت وهي في بحرين مائلة ما بين مضطرم النار ومضطرب (٤)

جيشٌ من الترك ترك الحرب عندهم عارٌ وراحتهم ضربٌ من الوصب

وأطلع الله جيش النصر فانتشرت (٥) طلائع النصر (٦) بين السُمر والقُضب

أجرت إلى البحر بحرا من دمائهم فراح كالراح إذ غرّفاه (٧) كالحبب (٨)

بُشراك يا ملك الدنيا لقد شرفت بك الممالك واستعلت على الرُتب (٩)

لقيتها (١٠) يا صلاح الدين الدين معتقدا فإنّ ظنّ صلاح الدين لم يخب

---

(١) « عند البر » في تاريخ ابن الفرات ، وكنز الدرر .

(٢) «ولم يجب» في فوات الوفيات جـ ١ ص ٤٠٢ .

(٣) « إلا التي تمدت لمعجزه » في تاريخ ابن الفرات .

(٤) «نارا » في تاريخ ابن الفرات .

(٥) «فابتدرت » في تاريخ ابن الفرات .

(٦) « الفتح » في تاريخ ابن الفرات

(٧) « إذ غرقاه » في تاريخ ابن الفرات .

(٨) الحبب : الفقاقيع التي تعلو وجه الخمر عند مزجها بالماء — القاموس المحيط .

(٩) « على الشهب » في تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٣٨ .

(١٠) « لبيتها » في تاريخ ابن الفرات .

أدركت ثأر صلاح الدين إذ عصيت عنه لِسِر(1) طواه الله فى الكُتُب(2)

وفى هذين البيتين إشارة إلى أن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب لما نازل عكا وحاصرها طمع فى أخذها لأنه كان وقف على كتاب يذكر فيه أن السلطان صلاح الدين يفتح عكا ويخرّبها ولا تعمر بعده، فنزل عليها وحاصرها وتسلمها يوم الجمعة فى شهر جمادى الأولى(3) من سنة « ... ... »(4) ورحل عنها بعد ما صارت فى ملكه وقصد أن يخربها، فحصل له عارض وأقامت أياما قليلة ورجعت الإفرنج إليها وأخذوها(5)، فصارت فى أيديهم، ثم أخذها صلاح الدين الملك الأشرف وأخربها وجعلها دكاً.

وأنشد أبى غانم(6) بيتين عند فتح عكا فى هذا المعنى وهما :

مَليكان قد لقّبا بالصّلاح فهذا خليل وهذا(7) يوسفُ

---

(1) « إذ غضبت منه بسر » فى تاريخ ابن الفرات.

(2) « فى اللقب » فى تاريخ ابن الفرات.

وردت هذه القصيدة كاملة فى : تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١١٥ — ١١٨ — كنز الدرر جـ ٨ ص ٣١٥ — ٣٢٠ — فوات الوفيات جـ ١ ص ٤١٠ — ٤١٣ : الوافى جـ ١٣ ص ٤٠٩ — ٤١٠ وورودت بعض أبياتها فى تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٣٨ — ١٣٩، وذلك على اختلاف فى ترتيب الأبيات، وفى بعض الألفاظ.

(3) « يوم الجمعة مستهل جمادى الأولى » — الكامل جـ ٩ (ط. دار الكتاب العربى. بيروت) ص ١٧٩ (حوادث سنة ٥٨٣ هـ).

(4) بياض فى الأصل، والمقصود سنة ٥٨٣ هـ.

(5) استرد الفرنج عكا « يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة » سنة ٥٨٧ هـ — الكامل جـ ٩ ص ٢١٤.

(6) « الشيخ شمس الدين محمد بن سلمان بن غانم » الوافى جـ ١٣ ص ٤٠٤.

(7) « وذا » فى تاريخ ابن الفرات بدائع الزهور الوافى.

فيوسفُ لا شك في فضله ... ولكن خليلٌ هو الأشرف(١)

[٢٧] ومن نظم شمس الدين ابن الصائغ(٢) :

يا أشرف الدنيا تَهَنَّ فإنه ... فتحٌ سواك بمثله لم يحلم

أشبهتَ معتصمَ الخلافة(٣) همةً ... فالرومُ منك(٤) ديارُها لم تُعصم

قاتلتَ(٥) بُلْقَ جيوشهم(٦) بسوابق ... غُرٍّ عليها الريح(٧) لم تتقدّم

كم رعتَها بسواد ليل أليَلٍ ... وصدمتَها(٨) بباض يوم أيوم

وأعدْتها للمسلمين ولم يكن ... منهم يُرى التطهير(٩) إلا بالدم

فالجمعة الغرّاء كان صَبَاحُها ... وجه الزمان بمثله لم يُرقَم(١٠)

---

(١) « هي بيوسف السلطان صلاح الدين يوسف ابن والد الملوك نجم الدين أيوب بن شادي بن مروان الأيوبي ، وهي بخليل الملك الأشرف صلاح الدين خليل بن الملك المنصور سيف الدين قلاوون = الألفي الصالحي النجمي » — تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١١٨ .

(٢) « نظم محمد بن الحسن بن سباع » في كنز الدرر جـ ٨ ص ٣١٥ .

(٣) « الخلايف » في كنز الدرر جـ ٨ ص ٣١٥ .

(٤) « يالروم فيك » في كنز الدرر .

(٥) « قابلت » في كنز الدرر .

(٦) « جيوشه » في كنز الدرر .

(٧) « الرمح » في كنز الدرر .

(٨) « فصدمتها » في كنز الدرر .

(٩) « التطهير » في كنز الدرر .

(١٠) انظر أبيات أخري من هذه القصيدة في كنز الدرر جـ ٨ ص ٣١٥ .

ذكر القبض على قراقوش الظاهرى :

كان هذا الرجل من الظاهرية ، وكانت له نفسٌ قوية ، وأخلاق شرسة ، وهو معروف بالفروسية ، وكان قد ولى قوص فى الدولة المنصورية وبقى إلى أن أتت الدولة الأشرفيـة ، وكان الصاحب ابن سلعوس يكتب إليه كتابا لأجل المهمات ، ولم يكن يكترث بأمره ولا يُحْسن فى جوابه ، فشاور السلطان على عزله ، فأمر بعزله ، فقالوا : هذا رجل قوى النفس ، فإذا بلغـه العزل ربمـا سد حال الوجه القبلى ، وهو قد قويت نفسه بالعرب والسودان ، ولا يعزل هذا إلا بالتحيّل عليه ، فوقع اختيار السلطان والوزير على توليه أقوش الفارسى ، وكان فى طبقة قراقوش فى الحمق والكبرياء ، فولاه كشف الوجه القبلى ، وأعلمه بمـا قصده من القبض عليه عند ملاقاته ، فإذا قبض عليه يرسله مقيدا .

فتجهز أقوش وخرج فى جند كثيرة ، وبلغ قراقوش اتفاقـه مع الوزير على القبض عليه ، فكتم أمره فى نفسه إلى أن وصل أقوش إلى قريب قوص ، ولمـا علم بنزوله طلب مماليكه مع الوافدية المركزين فى قوص وأخبرهم أن هذا الكاشف حضر للقبض عليه من غير مرسوم السلطان ، وليس معه إلا مرسوم الوزير ، وأنا أريد أن أقبض عليه وأُخليه عندى وآخُذ جميع ما معه فأنفقه فيكم ، وأبعث إلى السلطان وأعرفه بذلك ، فإن أنكر على عصيت مع أبى الكنز وأقطعت قوص لكم بأمريات ، وأطمعهم بأشياء كثيرة ، واستمال عقولهم ، فوافقوه على ما قال .

وفى ذلك الوقت وصل كتاب أقوش يذكر فيه العتب وبعض الإنكار لكونه وصل إلى محل ولايته ولم يركب إلى لقائه ، فلما قرأ كتابه طلب قاصده وسبه

وقال : من هو أستاذك حتى أركب أنا إلى لقائه ؟ فأتى إلى أستاذه وأخبره بما جرى له معه ، وبلغه أيضا اتفاقه مع الوافدية والعرب ، فعند ذلك طلب الحاكم وبعض الشهود وقال لهم : اذهبوا إليه واشهدوا عليه أنه قد ورد عليه الكاشف ومعه مرسوم السلطان ، فأبى أن يحضر ، فجاءوا إليه وتلطفوا فى أمره ، ولم يزالوا حتى وافقهم على الركوب إليه ، والاجتماع به ، والوقوف على كتاب السلطان ، وهو مع توافقه على ذلك قال لهم : متى أرى منه أمرا لا يليق أوقع الفتنة ، فحلفوا له أن ماثمه الأخير ، ثم أتوا إلى الكاشف وعرفوه بما جرى وأنهم ضمنوا له أن لا تكون فتنة ولا تشويش .

ثم بعد ذلك أقبل قراقوش فى طلب عظيم ، فقام إليه أقوش وتلقاه وأقعده فوقا منه ، وشرح فى عتبه باللطف ، فأخذ قراقوش يعتذر إليه ، ثم أخرج أقوش كتاب السلطان بحضور القضاة والشهود [٢٨] وفيه القبض عليه ، فعند ذلك قام ولم يلتفت إليه ، وقال : هذا شغل ذلك النحس الوزير والسلطان ما رسم بهذا ، ولم يقدر أحد يتعرض إليه .

ورجع أقوش فوجد السلطان قد خرج إلى عكا والوزير معه ، فكتب بما وقع له ، وأرسل مع الكتاب المحاضر التى كتبها الشهود بسبب الاتفاق الذى ذكرنا .

وأما قراقوش فإنه أيضا كتب إلى السلطان ، وذكر فيه عن الوزير أمورا كثيرة ، وأنه يحاققه على ألف ألف دينار أخذها من بلاد السلطان ، وذكر فيه أشياء كثيرة من ذلك الجنس ، وأرسل قاصده فى السر مع نجاب إلى أن وصل إلى السلطان وسلم الكتاب للدوادار ، فأوصله إلى السلطان فقرأه بحضور الوزير وحصل له من ذلك قلق عظيم .

وبعد أيام وصل كتاب أقوش للكاشف وكتاب نائب السلطنة ، وكتب كتابه بجميع ما وقع بينهم بمحاضر مثبوتة على الحاكم ، فكتب السلطان إلى نائبه بمصر أن يتحيل على قراقوش ويحضره إلى مصر ، وكتب لقراقوش كتابا صحبة قاصده يتضمن شكرا وثناء ، وأطمعه بأمور كثيرة توجب أطماعه فى الحضور .

وعندما وصل الكتاب إليه ركب وطلب الحضور إلى مصر ، فلما قرب إلى منية ابن خصيب أرسل النائب أيبك الخزندار ، فأتى إليه وقبض عليه ، وأوقع الحوطة على سائر موجوده ، وبقى فى الجب إلى أن حضر السلطان وخلع على الوزير ، ورسم للأمير بكتمر السلحدار أمير جندار والأمير عز الدين أيبك الخزندار وغيرهما أن يخرجوا فى خدمة الوزير ويحضروا قراقوش قدامه ، ويقابل الوزير بالذى قال عنه ، فخرجوا بعد المغرب وجلسوا على باب القلة[1] ، وأحضروا قراقوش من الجب[2] وفى رجليه قيد ثقيل وهو يتململ من ثقله ، والوزير جالس بين الأميرين والتشريف عليه ، فلما وقف قامت له الأمراء وتحرك له الوزير قليلا .

فقال بكتمر السلحدار : يا أمير بهاء الدين السلطان يقول : أنت سيرت كتابك إلى عكا وذكرت فيه كلاما كثيرا عن هذا — مولانا الصاحب —

(١) باب القلة : بقلعة الجبل ، كان فى موضعه قلة بناها الملك الظاهر بيبرس ثم هدمها المنصور قلاوون ، وبقى مكانها قبة . ثم هدمها الناصر محمد بن قلاوون وجدد باب القلة — المواعظ والإعتبار جـ ٢ ص ٢١٢ .

(٢) الجب : كان بقلعة الجبل بالقاهرة جب يحبس فيه الأمراء ، عمره الملك المنصور قلاوون سنة ٦٨١ هـ ، وظل كذلك حتى ردمه الملك الناصر محمد سنة ٧٢٩ هـ — المواعظ والإعتبار جـ ٢ ص ٢١٣ .

وقد رسم أن تقول بين يديه الذى قلت منـه . فقال : نعم ، وجميع ما قلته من هذا هو بعض ما فيه وبعض ما فعله فى بلاد السلطان ، فقال الوزير : يافقطعه يا نحس تقول فى وجهى هذا القول : فقال قراقوش : نعم يا قواد يا عامى يا كلب ، وكم مثلك قد نلته بالمقارع ، فكاد الوزير يتمزق من الغيظ فنهض قائماً وصاح لمشد الدواوين والمقدمين : خذوا هذا النحس إلى خزانة شمائل[1] ، فأخذوه أشدّ الأخذ ، وقام الأميران وهما يسبانه على إهانته للوزير فى مجلسه .

فلما أصبحوا دخلوا على السلطان وعرفوه بجميع ما وقع من قراقوش فى حق الوزير ، فتبسم السلطان وقال : ما هذا إلا له نفس قوية ، ورسم بإحضاره إلى بين يديه ، وطلب مشد الدواوين ، ورسم أن يحضر صحبته المقـدمين بالمقارع ، وقصد أن يقتله فى مجلسه ، فمنعه من ذلك الأمير بدر الدين بيدرا وقال ياخوند : ما جرت عادة بضرب المقارع فى مجلس السلطان ، وكان ذلك عناية به ، فرسم أن يحضروه إلى باب القرافة ويضربونه خمسمائة مقارع ، فأخرجوه بعد صلاة الجمعة إلى باب القرافة وعروه وضربوه فوق الأربعمائة مقرعة ، ولم يتكلم بكلمـة واحدة إلى أن رمى إلى جانب الحائط وهو عريان [٢٩] ولم يلتفت إلى كلام أحد ، وبقى فى السجن ، وأخذ جميع ما له .

ذكر ما عمّره الأشرف ، وما أمر بعمارته ، وما أمر بوقفه :

وفى هـذه السنة أمر السلطان بعمارة الرفرف الظاهرىّ الذى بقلعة الجبـل وتوسيعه ورفع سمـكه وتزييه ، فوسّع وشُيِّد وبُيِّض وزُخرف وصُوِّر فيـه أمراء

(١) خزانة شمائل : كانت بجوار باب زويلة ، على يسرة من دخل منـه بجوار السور ، عرفت بالأمير علم الدين شمائل والى القاهرة فى أيام الملك الكامل محمـد بن العادل أبى بكر بن أيوب ، وكانت من أشنع السجون ، وظلت كذلك إلى أن هدمها الملك المؤيد شيخ سنة ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م — المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ١٨٨ .

الدولة وخواصّها ، وعُقِدَتْ له قبة على العُمد ، و بق مجلسا للسلطان ولمن بعده من ملوك الزمان مشرفا على سوق الخيل والميدان الأسود وغيرهما(١) .

وفى أوائل هذه السنة تكملت عمارة قلعة حلب ، وكان قرا سنقر شرع فى عمارتها فى أيام الملك المنصور فتمت فى أيام الأشرف ، وكتب عليها اسمه ، وكان قد خربها هلاون لما استولى على حلب سنة ثمان وخمسين وستمائة ، فكان لبثها خرابا ثلاثاً وثلاثين سنة تقريبا .

وفى شوال منها شرع فى عمارة قلعة دمشق وبناء الأُدُر السلطانية ، والطارمة(٢) ، والقبة الزرقاء ، حسب مارسم الأشرف لنائبه سنجر الشجاعى .

وفيها ، زاد الشجاعى فى الميدان الصغير تقدير سُدسه من جهة نهر بَرَدَى ، وعمل فى عمارة حيطانه جميع الأمراء والجند وأكثر أهل دمشق ، وعمل فيه الشجاعى بنفسه ، ففرغ فى يومين .

وفى رمضان(٣) ، رسم الشجاعى أن يخرب جسر الزلابية والدكاكين التى عليه وخرب جميع ما هو مبنى على نهر بانياس ونهر المجدول ، وذلك من باب السر إلى حد باب الميدان .

ورسم أيضا أن لا يمشى أحد بعد العشاء بدمشق ، وأن تغلق الدكاكين بسرعة ، وكان الأعوان(٤) يدورون بعد العشاء و يمسكون من يجدونه بعد العشاء ،

---

(١) انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٧٣ أ .

(٢) طارمة — طارمات : لفظة فارسية الأصل ، ويقصد بها بيت من خشب يبنى سقفه على هيئة قبة لجلوس السلطان — المواعظ والإعتبار جـ ١ ص ٣٥ ، جـ ٢ ص ٤٤٤ .

(٣) « وفى ثانى شوال » تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٢٨ .

(٤) « الأعونة » فى الأصل .

وحُبس بسبب ذلك خلق كثير ، فاجتمع الناس وشكوا من ذلك ، فأطلقهم .

ورسم أيضا أن شيخ كل حارة يطالعه بجميع مايجرى فى حانوته من الأمور الجليلة والحقيرة .

ورسم أن لا تلبس امرأة شاشا كبيرا .

وفيها : بعد حضور الأشرف من غزاة عكا تقدم إلى المدرسة المنصورية وزار قبر والده ، وسأل عن الوقف الذى أوقفه السلطان الشهيد ، فوجده لايفى لسائر وظائفه ، ورغّبه الأمراء فى زيادة الخير على وقف والده ليكون له ذكر على مرور الأيام ويشارك والده الشهيد فى الخير ، فعند ذلك قدح زناد فكره ، فعين لذلك مما فتحه الله على يديه واستملكه بسيفه من الأعداء ، لأن هذا خالص لوجه الله تعالى لا شوب فيه ولا كدر ، فعين من بلاد عكا وبلاد صور أماكن(١) ، وأضاف لها من أعمال مصر أماكن ، وجعل منه للقبة المخصصة لمدفن والده الشهيد ، وأضاف إليه أمورا كثيرة .

نسخة ما كتب فى ذلك الوقف بعد الخطبة :

وقف وحبس وسبل وأبد وتصدق جميع الضياع الأربع التى فتحت بسيفه القاهر من أعمال صفد ، وجميع ماذكره من الأراضى ، وشروطها التى تذكر ، على مصالح القبة والمدرسة التى أنشأها السلطان المنصور لسادته ، وما تحتاج من إليه من الزيت والشمع والحصا بيح والبسط وكلف الساقية والأبقار والعدة وغير ذلك ، وعين فيها إماما من أهل الدين والصلاح من أى مذهب كان ، وخمسين مقرئا ،

(١) « ولما فتح الملك الأشرف هذا الفتوح أوقف منه ضياعا على تربة والده الملك المنصور ، وهى : الكابرة من عكا ، وتل المشوخ منها ، وكردانة وطوحينها منها ، ومن ساحل صور معركة وصديقين » — تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٢ أ . وانظر أيضا ماجاء فى السلوك جـ ١ ص ٧٦٩ .

وستة خدام ، وعين للخدام [٣٠] ثلاثمائة درهم ، ولكل واحد أربعة أرطال خبز ، وللناظر فى كل شهر ثلاثمائة درهم ، وذكر فيه أمورا كثيرة ، منها ما فضل من ريع هذا الوقف وما يتبقى فيشترى به خبز ويفرق فى ليالى الجمع . ومن شروط هذا البر الولاية عليه للمقر الأشرف العالى وزير دولته ومدبر مملكته وممهد قواعد سلطنته المولوى السيدى الصاحبى ، واسطة عقد المسلمين ، كافل الدولة وهاديها ناصح الملة ومواليها ، بركة الإسلام ، حسنة الأيام ، صدر المجالس القضائى الفخر بن فخر الدين بن أبى الرجاء التنوخى الشافعى ، حرس الله مدته ، وأنفذ فى الأقطار كلمته ، يتولاه بنفسه مدة حياته ، ولمن يشاء من نوابه .

فلما قرئ عليه كتاب الوقف أعجبه ، ورسم للصاحب أن ينزل إلى المدرسة ويجمع سائر القراء والوعاظ وأرباب الخير من سائر الفقراء والمشايخ والحكام ويختم والده الشهيد ، فنزل الوزير وعمل بجميع ذلك ، وخلع على سائر أرباب الوظائف والوعاظ ، وفرق صدقات كثيرة ، ثم ألبسه السلطان تشريفا حسنا ، ورسم أن يكتب مكاتيب بشروط الوقف ، ويذكر فيها سائر ماشرطه الواقف ، ويعين النظر فيه لنائب السلطنة وللقاضى الشافعى ، وتثبت (١) وتجلد بمصر والشام .

ذكر بقية أحكام الأشرف فى هذه السنة :

وفى رابع رمضان : أفرج السلطان عن حسام الدين لاجين من قلعة صفد ، ومعه جماعة أمراء ، ورد إقطاعاتهم عليهم ، وأحسن إليهم وأكرمهم .

وفى نزهة الناظر : كان السبب لذلك أن الأمير بدر الدين بيدرا النائب كان له مع لاجين نائب الشام صحبة أكيدة ، فلما رأى السلطان فى رمضان منشرح

(١) هكذا بالأصل ، ولعلها « وتسجل » .

الصدر مبسوط الأمل ذكر أن عادة السلطان فى غرة رمضان أن تكتب له أوراق بأسماء المحبوسين ، ويكون فى ذلك فرج لمن يريد الله خلاصه ، فرسم بأن تكتب الورقة ، فأول ماوقف على اسم لاجين فقال : لو سلم من لسانه ما كان جرى عليه شيء ، فأخذ بيدرا يعرفه أن الذى نقل عنه كذب عليه ، فقال السلطان : أبو خرص قال عنه ما قال وأنت حاضر . فقال بيدرا : أبو خرص[1] ، أراد بهذا القول تخليص نفسه من العقوبة ، وحكى للسلطان ما قال أبو خرص ، فضحك السلطان ورسم بالإفراج عن لاجين ، وركن الدين طقصوا ، وأبى خرص ، والأمير شمس الدين سنقر الطويل ، والأمير شمس الدين سنقر المساح البكتوتى . وأبو خرص اسمه سنجر ولقبه علم الدين .

وقال بيبرس فى تاريخه : ولما توجه السلطان إلى القاهرة بعد فراغه من غزوته أمر لى بالمسير إلى الكرك ، فسألته أن أكون فى خدمته وأعود فى ركابه ، فاعتفيت من العود إلى الكرك ، فأجاب لى بالإعفاء من العود إليها ، ورتب الأمير جمال الدين أقوش نائبا عن السلطنة فيها ، وهو رجل حسن السياسة ، ظاهر الرئاسة ، وكان الملك المنصور قد اشتراه لولده الأشرف ، فتقدم عنده إلى أن صار استاذ داره قبل سلطنته ، ولما استقر بالكرك أحسن السيرة وأظهر المعدلة[2] .

وفيها : أنعم السلطان على بيدرا نائب السلطنة بالصبيبة ، وكان الملك الظاهر لما أخذ هذا الحصن أنعم به على نائبه الأمير بدر الدين بيليك الخزندار ، فلما

(١) هو الأمير سنجر الحموى ، علم الدين ، المعروف بأبى خرص . انظر ما يلى .

(٢) انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٧٢ ب ، ١٧٣ أ .

ولى المنصور [٣١] قصد طرنطاى أن يستمر به كما كان الخازندار ، فلم يوافقه المنصـور ، فلما تسلطن الأشرف رسم لنائبه أن يضيفـه إلى إقطاعه ، فأضافه وجعل نائب الصبيبة طيبرس الخازن دار الذى تولى نقابة الجيش فى دولة لاجين على ما يأتى إن شـاء الله .

ونسخة ما كتب من إنشاء القاضى شهاب الدين محمود :

الحمد لله الذى أجمل الارتفاع ، وأحسن فى التخصيص بالأجناس والأنواع ، وبعد :

فإن خير النعم نعمة تبقى للأعقاب والذرارى ، وتدوم هدايتها دوام الأنجم الدّرارى ، ومن تكون البحار الزاخرة من موارده ، والنجوم الزاهرة من غدائره ، فأهون ما عليه أن يجود بكوكب درىّ ، وعقد درى ، ولـما كان الجناب العالى البدرى بدر الدين بيدرا نائب السلطنة المعظمة ، أجله الله ، له حقوق كثرت وخدمـة عظمت ، وفتكات ماقابلت وجه عدو إلا وسمت ، فكم شكرله نهـار حربا ، وحمده فى الليـل محراب ، وكم انثنت على سـيفه كتيبة ، وعلى قلمه كتاب ، وإن قد مضى بدر فإن لهـا من نعته بيدرا وزيادة ، ليصح هذا التمليك ، ويقول : استحقاق هذا الاسم لو كان بى درى ما قال إلا بيدرا ولم يقل بيليك : وأثبت ذلك بالدواوين المعمورة بمصر والشام ، ثابت فى صحف مكرمة عن الكرام الكاتبين ، وأسجله فى بياض النهار وسواد الليل أحكم الحاكمين ، والحمد لله رب العالمين .

وفيها : صادر الوزير أبي سعلوس قاضي القضاة تقي الدين بن بنت الأعز[1] وناله منه إحراق و إهانة بالغة ، ولم يترك له من مناصبه شيئا ، وكان بيده سبعة عشر منصبا منها : القضاء ، والخطابة ، ونظر الأحباس ، ومشيخة الشيوخ ، ونظر الخزانة ، ومدارس كبار ، وأخذ منه نحوا من أربعين ألفا غير المراكب والأشياء الكثيرة ، ولم تظهر منه استكانة ولا خضوع ، ثم عاد فرضي عنه وولاه تدريس الشافعي .

وفي أوائل رمضان : طُلب القاضي بدر الدين بن جماعة[2] من القدس الشريف ، وهو حاكم به وخطيب فيه ، على البريد إلى ديار مصر ، فدخلها في رابع عشرة ، فتولى قضاء القضاة عوضا عن تقي الدين بن بنت الأعز بحكم عزله ، ومع القضاء خطابة جامع الأزهر ، وتدريس الصالحية ، ثم استمر خطيبا بالقلعة واستناب في الأزهر بعض الفضلاء .

وفي رجب : درَّس الشيخ عز الدين الفاروثي[3] بالمدرسة النجيبية[4] ، عوضا

(١) هو عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن خلف بن أبي القاسم العلائي المصري ، الشهير بابن بنت الأعز ، المتوفى سنة ٦٩٥ هـ / ١٢٩٦ م — انظر ما يلي .

(٢) هو محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي ، الشافعي ، المتوفى سنة ٧٣٣هـ/ ١٣٣٢ م — المنهل الصافي ، شذرات الذهب جـ ٦ ص ١٠٥ مرآة الجنان جـ ٤ ص ٢٨٧ ، تذكرة النبيه جـ ٢ ص ٢٣٦ .

(٣) هو أحمد بن إبراهيم بن عمر بن الفرج بن أحمد بن الفاروثي الواسطي ، عز الدين ، المتوفى ٦٩٤ هـ — انظر ما يلي .

(٤) المدرسة النجيبية بدمشق : لصيق المدرسة النورية من جهة الشمال ، وقفها النجيبي جمال الدين أقوش الصالحي النجمي ، أستادار الملك الصالح أيوب ، وتوفى أقوش الصالحي سنة ٦٧٧ هـ/١٢٧٨م — الدارس جـ ١ ص ٤٦٥ وما بعدها .

عن ابن خلكان ، ودرّس أيضا فى هذه السنة بدار الحديث الظاهرية [1] ، عوضا عن فخر الدين ابن الكرجى [2] ، وكان الفاروثى قد قدم مع الحجاج من مكة إلى الشام .

وفى رجب أيضا : درس نجم الدين بن مكى [3] بالرواحية [4] ، عوضا عن ناصر الدين ابن المقدسى [5] .

وفيه : درس الشيخ كمال الدين النجيبى [6] بالمدرسة الدخوارية الطبية [7] .

---

(١) هى المدرسة الظاهرية الجوانية بدمشق : داخل بابى الفرج والفراديس ، أنشأها الملك الظاهر بيبرس مدرسة ودار حديث وتربة ، وذلك فى حدود سنة ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م — الدارس جـ ١ ص ٣٤٨ وما بعدها .

ودار الحديث بهذه المدرسة بين إيوان الحنفية القبلى والشافعية الشرقى — الدارس جـ ١ ص ٣٥٥ .

(٢) هو عمر بن يحيى بن عمر الشافعى ، الفخر الكرجى ، المتوفى سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م — العبر جـ ٥ ص ٣٦٩ .

ولم يذكر فى الدارس .

(٣) انظر الدارس جـ ١ ص ٢٧١

(٤) المدرسة الرواحية بدمشق ، أنشأها هبة الله بن محمد الأنصارى ، الزكى بن رواحة التاجر ، المتوفى سنة ٦٢٢ هـ / ١٢٢٥ م — الدارس جـ ١ ص ٢٦٥ وما بعدها ، العبر جـ ٥ ص ٩٢ .

(٥) انظر ما سبق .

(٦) هو محمد بن عبد الرحيم بن مسلم ، كمال الدين ، الطبيب ، المتوفى سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٧ م الدارس جـ ٢ ص ١٣١ .

(٧) المدرسة الدخوارية بدمشق ، أنشأها مهذب الدين عبد الرحيم بن على بن حامد المعروف بالدخوار ، شيخ الطب ، ووقف المدرسة التى بالصاغة العتيقة بدمشق على الأطباء ، والمتوفى سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م — الدارس جـ ٢ ص ١٢٧ وما بعدها .

وفيه : درس الشيخ جلال الدين الخبازى[(١)] بالخاتونية[(٢)] البرانية، وجمال الدين الباجربقى[(٣)] بالقليجية[(٤)] ، و برهان الدين الإسكندرى بالقوصية التى بالجامع .

وفى ليلة الإثنين رابع ذى القعدة : عُملت ختمة عند قبر الملك المنصور ، وحضرها القضاة والأمراء والأعيان ، ونزل السلطان ومعه الخليفة وقت السحر إليهم ، وخطب الخليفة بعد الختمة خطبة بليغة حرّض فيها على غزو [٣٢] بلاد العراق واستنقاذها من أيدى التتار .

وقد كان الخليفة قبل ذلك محجبا فرآه الناس جهرة ، وركب فى الأسواق بعد ذلك .

ولما كان يوم الجمعة رابع شوال : رسم السلطان للخليفة الحاكم بأمر الله أن يخطب هو بنفسه الناس يومئذ ، وأن يذكر فى خطبته أنه ولّى السلطنة للأشرف خليل بن المنصور، فلبس خلعة سوداء وخطب الناس بالخطبة التى كان خطب بها فى الدولة الظاهرية، وكانت من إنشاء الشيخ شرف الدين المقدسى، وكان بين الخطبتين أزيد من ثلاثين سنة ، وذلك بجامع القلعة .

(١) هو عمر بن محمد بن عمر الحنفى الخجندى ، جلال الدين أبو محمد الخبازى ، المتوفى سنة ٦٩١ هـ/ ١٢٩٢ م — الدارس جـ ١ ص ٥٠٤ ، المنهل الصافى .

(٢) المدرسة الخاتونية البرانية بدمشق : مسجد خاتون ، أوقفتة الست خاتون أم شمس الملوك ، أخت الملك دقاق ، وهى زمرد خاتون ابنة الأمير جاولى ، المتوفاة سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦١ م — الدارس جـ ١ ص ٥٠٢ وما بعدها .

(٣) هو عبد الرحيم بن عمر بن عثمان الباجربقى الموصلى ، جمال الدين أبو محمد ، المتوفى سنة ٦٩٩ هـ/ ١٢٩٩ م .

وينسب إلى : باجربق : من قرى بين النهرين — الدارس جـ ١ ص ٢٤٤ .

(٤) المدرسة القليجية بدمشق : داخل البابين الشرقى و باب توما ، أنشأها مجاهد الدين بن قليج محمد بن شمس الدين محمود — الدارس جـ ١ ص ٤٣٤ وما بعدها .

ثم بعد ذلك استمر ابن جماعة يخطب بالقلعة عند السلطان بعد الجمعة التى خطب فيها الخليفة .

وفيها : توهم السلطان من ولدى الملك الظاهر ، وهما : الملك المسعود نجم الدين خضر ، والملك العادل بدر الدين سلامش أوهاما أخطرت ببـاله إبعادهما عن البلاد الإسلامية وإخراجهما من الديار المصرية ، فأخرجهما ومعهما والدتهما إلى الإسكندرية[1] صحبة الأمير عز الدين أيبك الموصلى أستاذ الدار السلطانيـة ، فسفرهما فى البحر الملح إلى مدينـة القسطنطينية ، فلما وصلا إليها أحسن إليهما الأشكرى ، وأمر بإنزالهما ، وأجرى عليهما ما يقوم بهما .

فأما بدر الدين سلامش فأدركته الوفاة فمات هناك[2] ، فصبرته والدته وصيرته فى تابوت إلى أن اتفقت عودتها ، فأعادته إلى ديار مصر ودفنته بها على ما سنذكره إن شاء الله[3] . وهذا سلامش قد تملك الديار المصرية مدة كما ذكرنا[4] .

وفيها : أفرج السلطان عن الملك العزيز فخر الدين عثمان بن الملك المغيث فتح الدين عمر بن الملك العادل أبى بكر بن الملك الكامل محمد بن الملك العادل أبى بكر ابن أيوب ، كان والده صاحب الكرك ، وكان الملك العزيز قد اعتقل فى الدولة الظاهرية فى الرابع عشر من ربيع الأول من سـنة تسع وستين وستمائة ، فكانت مدة اعتقاله عشرين سنة وتسعة أشهـر واثنين وعشرين يوما ، ولما أفرج عنـه

---

(١) « اسكندرية » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة التى ينقل عنها العينى هذا الخبر .

(٢) سنة ٦٩٠ هـ ـ انظر ما يلى .

(٣) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٧٠ أ .

(٤) ولى سلامش السلطنة « فكانت مدته مائة يوم » .

انظر ما سبق بالجزء الثانى من هذا الكتاب ص ٢٢٦ .

رتب له راتبا جيدا ، ولزم داره ، واشتغل بالمطالعة والنسخ ، وانقطع عن السعى والخروج إلّا للجمعة والحمام (١) .

وفيها : أظهـر شخص يسمى ثابت بن منديل شيخ قبيلة مغـراوة وكبيرها الشقاق على بنى يغمراسن بن عبد الواد ، وخرج عن طاعتهم ، فقصدوه وحصروه ، فتحصن بجبال تاجمعمت و برشك (٢) ، فضايقه ابن يغمراسن سبع سنين متوالية ، فلما ضاق عليه الأمر قصد أبا يعقوب يوسف بن يعقوب المـرينى مستغيثا به ومستشفعا ، فأجاب سؤاله على ما سنذكره فى موضعه (٣) إن شاء الله تعالى .

وفيها : انتهت زيادة النيل إلى ستة عشر ذراعا وتسعة عشر أصبعا ، وكان نيلا ثابتا روى سائر البلاد والأقاليم .

وفيها : حج بالناس بالركب المصرى بدر الدين بكتوت (٤) العـلائى ، ومن الشام الطواشى بدر الدين بدر الصوابى (٥) .

(١) سبق أن ذكر العينى هذا الخبر فى أحداث سنة ٦٨٩ هـ ــ انظر ما سبق .

(٢) هكذا فى زبدة الفكرة التى ينقل عنها العينى هذا الخبر .

(٣) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٧٥ أ .

(٤) هو بكتوت بن عبد الله العلائى ، المتوفى سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٤ م ــ المنهل الصافى جـ ٣ ص ٤١١ رقم ٦٨٧ .

(٥) هو بدر بن عبد الله الصوابى ، الأمير الطواشى بدر الدين ، توفى سنة ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م ــ المنهل الصافى جـ ٣ ص ٢٤٣ رقم ٦٤٣ .

ذكر من تُوفى فيها من الأعيان

الشيخ المسند المعمر الرحلة فخر الدين بن البخارى ، وهو أبو الحسن على[(١)] ابن أحمد بن عبدالواحدالمقدسى الحنبلى، المعروف بابن البخارى[(٢)] .

ولد فى سلخ سنة خمس أو مستهل سنة ست وتسعين وخمسمائة ، وتوفى ضحى نهار الأربعاء ثانى ربيع الآخر منها عن خمس وتسعين سنة ، ودفن عند والده الشيخ شمس الدين [٣٣] أحمد[(٣)] بن عبد الواحد بسفح جبل قاسيون .

كان[(٤)] رجلا صالحا ، عابدا زاهدا ، ورعا نسكا، تفرد بروايات كثيرة لطول عمره ، وخرجت له مشيخات[(٥)] ، وسمع منه الخلق الكثير ، والجم الغفير ، وكان متصديا لذلك حتى كبر ، وأسن وضعف عن الحركة .

وله شعر حسن ، منه قوله :

إليك اعتذارى من صلاتى قاعدا وعجزى عن سعى إلى الجمعات

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى، درة الاسلاك ص ١٠٧ ، النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٣٢ ، العبر ج ٥ ص ٣٦٨ ، البداية والنهاية ج ١٣ ص ٣٢٤ ، السلوك ج ١ ص ٧٧٦ ، شذرات الذهب ج ٥ ص ٤١٤ ، تذكرة النبيه ج ١ ص ١٤٤ .

(٢) « المعروف بابن النجار » فى البداية والنهاية .

(٣) هو أحمد بن عبد الواحد بن أحمد المقدسى الحنبلى ، الشمس البخارى ، المتوفى سنة ٦٢٣ هـ/ ١٢٢٥ م — العبر ج ٥ ص ٩٣ — ٩٤ .

(٤) يوجد بالأصل نحو سطر مطموس بحيث يصعب معه متابعة النص .

(٥) « واشتهرت مشيخته التى خرجها له ابن الظاهرى » فى تذكرة النبيه ج ١ ص ١٤٤ .
وابن الظاهرى هو : أحمد بن محمد بن عبد الله الظاهرى ، المتوفى سنة ٦٩٠ هـ / ١٢٩٠ م — شذرات الذهب ج ٥ ص ٤٣٥ ، الدارس ج ٢ ص ٧١ .

وتركى صلاةالفرض فى كل مسجد تجمّعُ فيــه النـاسُ للصلوات
فيارب لا تمقت صلاتى ونجـنى من النار واصفح لىعن الهفوات

وله :

تكررت السنونــ علىّ حتى بليت وصرت من سقط المتاع
وقــلّ النفع عنــدى غيرأنى أعلــل بالـــرواية والسّماع
فإن يك خالصـا فــله جزاء وإن يك مالقـا فإلى ضياع

الشيخ تاج الدين عبد الرحمن(١) بن[إبراهيم بن](٢)سباع بن ضياء أبو محمد الفزارى، الإمام العالم، شيخ الاسلام، شيخ الشافعية فى زمانه.

وهو والد الشيخ العلامة شيخ الأسلام برهـان الدين(٣)، شيخ ابن(٤) كثير.

وكان مـولد الشيخ تاج الدين فى ربيع الأول سـنة ثلاثين وستمائة(٥)، وتوفى

---

(١) «عبد الواحد» فى الأصل، وهو تحريف.

وله أيضا ترجمة فى: المنهـل الصافى، درة الأسلاك ص ١٠٦ — ١٠٧ أ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٣٢، مرآة الجنان جـ ٤ ص ٢١٨، فوات الوفيات جـ ٢ ص ٢٦٣ رقم ٢٤٧، البـداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٢٥، السلوك جـ ١ ص ٧٧٦، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ١١٥ رقـم ١٨٢، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٤٣.

(٢) [ ] إضافة من مصادر الترجمة للتوضيح.

(٣) هو إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع، العلامة برهان الدين، المتوفى سنة ٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م ـ المنهل الصافى جـ ١ ص ٩٩ رقم ٤٥.

(٤) «وهو والد شيخنا العلامة برهان الدين» فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٢٥.

(٥) ورد أن صاحب الترجمة مات «وله ست وستون سنة وثلاثة أشهر» — تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٤٣.

ضحى يوم الإثنين خامس جمادى الآخرة ، بالمدرسة البادرائيـة[1] بدمشق ، وكان مدرسا بها ، ودفن عند والده بباب الصغير .

وله مصنفات منها : إختصار الموضوعات لابن الجوزى .

وقد ولى التدريس بعـده بالبـدرائية ، والحلقـة ، والفتيا بالجـامع ولده برهان الدين ، فمشى على طريقة والده .

وله نظم حسن ، فمن ذلك قوله لمـا جفل النـاس من التتار فى سنة ثمـان وخمسين وستمائة :

لله أيام جمـع الشمل ما برحت ... بها الحوادث حتى أصبحت سمرا

ومبتدا الحزن من تاريخ مسألتى ... عنكم ، فلم ألق لا عينا ولا أثرا

يا راحلين قـدرتم فالنجاة لـكم ... ونحن للعجز لا نستعجز القـدرا[2]

ولـــه :

يا كريم الآباء والأجداد ... وسعيد الإصدار والايراد

كنت سعدا لنا بوعد كريم ... لا تكن فى وفائه كسعاد[3]

---

(١) المدرسة البادرائية بدمشق : أنشأها عبد الله بن أبى الوفا ، نجم الدين الباذرائى البغدادى ، المتوفى سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م - الدارس جـ ١ ص ٢٠٥ ، ص ٢٠٨ ، خطط الشام جـ ٦ ص ٧٨ .

(٢) فوات الوفيات جـ ٢ ص ٢٦٤

(٣) فوات الوفيات .

الطبيب الماهر عز الدين إبراهيم[1] بن محمد بن طرخان السويدى الأنصارى[2] .

فاق أهل زمانه فى الطب ، وله فيه مصنفات منها : كتاب الباهر فى الجواهر ، وكتاب التذكرة فى الطب[3] فى ثلاث مجلدات وهى من أحسن كتب الطب ، وفيه فوائد جمة .

قال ابن كثير : فاق أهل زمانه فى صناعة الطب ، وصنف كتبا فى ذلك ، وكان يُرمى بقلة الدين وترك الصلوات ، وانحلال العقيدة ، وإنكار أمور كثيرة مما يتعلق باليوم الآخر .

وفى شعره ما يدل على قلة عقله ودينه وعدم إيمانه ، واعتراضه على تحريم الخمر[4] .

ومن شعره :

لو أن تغيير لون شيبى يعيد ما فات من شبابى

لما وَفَى لى بما تُلاقى روحى من كُلفة الخضاب

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ١ ص ١٤٢ رقم ٦٧ ، درة الأسلاك ص ١٠٩ ، مرآة الجنان جـ ٤ ص ٢١٦ ، فوات الوفيات جـ ١ ص ٤٨ رقم ١٧ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٢٥ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤١١ ، الدارس جـ ٢ ص ١٣٠ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٣٤ ، الوافى جـ ٦ ص ١٢٣ رقم ٢٥٥٨ ، السلوك جـ ١ ص ٧٧٧ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ٤٤ رقم ٦٦ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٤٦ ، طبقات الأطباء جـ ٢ ص ٢٦٦ .

(٢) « قيل إنه من ولد سعد بن معاذ رضى الله عنه » — المنهل .

(٣) « تذكرة الأطباء المعروفة بتذكرة السويدى » فى كشف الظنون جـ ١ ص ١٩ ، ص ٣٨٦ ، و« التذكرة الهادية فى الطب » فى المنهل ، وتاريخ ابن الفرات .

(٤) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٢٥ ، الوافى جـ ٦ ص ١٢٤ ، وانظر بعض هذا الشعر فى تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٣٤ .

ولــه :

وعدته الـوصال يقظى وزارت فأرته المعـدوم بالموجـود
فهـو لا يطعـم الرقاد فيستيـ ـقـظ إلا على فـراق جديد

وقال مواليـا :

البـدر والسـعد ذا شبهك وذا نجمك
والقـد واللحـظ ذا رمحك وذا سهمك
والحب والبغـض ذا قسمى وذا قسمك
والمسك والحسن ذا خالك وذا عمك[1]

علاء الدين أبو الحسن على[2] ابن الشيخ الإمام العلامة كمال الدين [عبد الواحد بن][3] عبد الكريم بن خلف بن نبهان الأنصارى الزملكانى ، مدرس الأمينية[4] .

وهو والد الشيخ الإمام العلامة كمال الدين أبي المعالى محمد[5] بن على الزملكانى ، شيخ ابن كثير ، وقد درس بعد أبيه بالاميلية ، وكانت وفاة والده هـذا ليـلة الثلاثاء التاسع والعشرين من ربيع الآخر بالأمينية ، ودفن بمقابر الصوفية .

---

(١) الشعر مطموس فى الأصل ، وما أثبتناه من الوافى جـ٦ ص ١٢٤ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ١٠٨ أ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٢٥ — ٣٢٦ ، مرآة الجنان جـ ٤ ص ٢١٩ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤١٧ ، السلوك جـ ١ ص ٧٧٧ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٤٦ — ١٤٧ ، العبر جـ ٥ ص ٣٦٩ .

(٣) [ ] إضافة من مصادر الترجمة .

(٤) المدرسة الأمينية بدمشق : هى أول مدرسة للشافعية بدمشق ، أنشأها أتابك العساكر بدمشق أمين الدولة كمشتكين بن عبد الله الطغتكينى ، المتوفى سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٦ م — الدارس جـ ١ ص ١٧٨ ، خطط الشام جـ ٦ ص ٧٧ .

(٥) توفى سنة ٧٢٧ هـ / ١٣٢٧ م — المنهل الصافى .

الإمام فخر الدين أبو حفص عمر(١) بن يحيى بن عمر الكرخي(٢)، صهر الشيخ تقى الدين بن الصلاح، وأحد تلاميذه.

ولد سنة تسع وتسعين وخمسمائة، ومات يوم الأربعاء ثانى ربيع الآخر منها، ودفن إلى جانب قبر الشيخ تقى الدين بن الصلاح بمقابر الصوفية.

الشيخ نجم الدين محمد(٣) بن عثمان الكرباج، خادم الشيخ شهاب الدين السهروردى(٤).

توفى فى الحادى والعشرين من شعبان منها.

العفيف التلمسانى أبو الربيع سليمان(٥) بن على بن عبد الله بن على بن يس العابدى الكوفى، ثم التلمسانى، الشاعر المتفنن فى علوم كثيرة(٦) منها: النحو، والأدب، والفقه، والأصول، والمعقول، والرياضيات، وله فى ذلك مصنفات.

---

(١) وله أيضا ترجمة فى: البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٢٦، العبر جـ ٥ ص ٣٦٩، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤١٧، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٣٣.

(٢) «الكرجى» فى العبر وشذرات الذهب.

(٣) وله أيضا ترجمة فى: زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٧٥ ب.

(٤) هو عمر بن محمد بن التيمى البكرى الصوفى، الشيخ شهاب الدين السهروردى، المتوفى سنة ٦٣٢ هـ / ١٢٣٤ م — العبر جـ ٥ ص ١٢٩.

(٥) وله أيضا ترجمة فى: المنهل الصافى جـ ٦ رقم ١٠٩١، درة الأسلاك ص ١٠٨، مرآة الجنان جـ ٤ ص ٢١٦، السلوك جـ ١ ص ٧٧٧، الوافى جـ ١٥ ص ٤٠٨ رقم ٥٥٧، فوات الوفيات جـ ٢ ص ٧٢ رقم ١٧٩، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٩ — ٣١، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ٨٢ رقم ١٢٢، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤١٢، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٤٧، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٢٦.

(٦) «يدعى العرفان، ويتكلم فى فنون شتى» تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٤٧.

ويذكر عنه أنه عمل أربعين خلوة ، كل خلوة أربعين يوما ، يخرج من واحدة ليدخل فى غيرها ، «قال الشيخ شمس الدين: هذا الكلام فيه مجازفة ظاهرة فاذ مجموع ذلك ألف وستمائة يوم . قال : وله فى كل علم تصنيف ، وقد شرح الأسماء الحسنى ، وشرح مقامات النفرى ، وحكى بعضهم : قال : طلعت إليه يوم قبض ، فقلت له : كيف حالك ؟ قال : بخير ! من عرف الله كيف يخافه ؟ والله منذ عرفته ماخفته وأنا فرحان بلقائه (١) ! »

وله نظم حسن [٣٥] منه قوله :

هذا المصلّى وهذه الكُتُبُ ... لِمثل هذا يهُزّك الطرَبُ

والحىّ قد شرعت مضاربه ... وحسمه عنه زالت الحُجُب

وكل صبّ صَبِى لساكنه ... يسجد من شوقه ويقترِبُ

أَنخ مَطاياك دون رَبعهم ... كيلا تطأك الرجال والنُجبُ

واسع على « ..... (٢) » خاضعا ... فعسى يشفع فيك الخضوع والأدبُ

وارُج قراهم إذا نزلتَ بهم ... فأنت ضيفٌ وأنهم عرَبُ

عندى لكم يا أُهيل كاظمةٍ ... أسرارُ وجد حديثها عجَبُ

أَربى بكم خاطرى يُلاحظنى ... من أين هذا الإخاء والنسَبُ

وقال :

مادون رَامه للحبّ مَرامُ ... سيّما إذا لاحَتْ له الأعلام

(١) « » مطموس فى الأصل بدرجة يصعب معها متابعة النص ، وما أثبتناه من الوافى جـ ٥ ق ص ٤٠٨ — ٤٠٩ .

(٢) « .... » كلمة غير مقروءة ق

لا تملك العبرات مُقلته ولا يثنى أعنّة شوقه الأسوام
وورا هاتيك الستور محجَّبٌ لتهتدى لجماله الأفهام
لو لاحَ أدنى بارق من حُسنه ليكون ريحه جوًى وغرامُ
ياعُرب نجد ما مضى من عيشنا أتُرى تعود لنا به الأيّامُ
ردّوا الكرى إن طال عزّ وصا لكم فعسى تمثله لى الأحلام
لو لم يلذ الموْت فى حبى لكم لم أُصب نحو الشرق وهو حُسام
ولما اعترضت بنار قلبى للهوى ولكل نار بالنسيم ضِرامُ
صبٌّ يرى نارَ الصَّبابة أنها فى حبكم بَرْد له وسلام
حفظ المودة زادَه ولحبذا فى الزاد حفظ مودّة وذِمامُ
وإذا أتتكم آيةٌ بإمامها وافيتكم ولى الغرام إمام
هذا دمى لكم ألا حلال وإنما عنكم فسلوانى علىَّ حرامُ

وقال :

على رَبع سَلْمى بالعقيق سلامُ وجادَ عليها أدمُعٌ وغمامُ
منازل لولاهنَّ لم يعرف الهوى ولا رغبتا لوعة وهيام
وبين بيوت الحىّ هيفاء قامة لها البدر وجه والسحابُ لثام
فتراها على كل القُلوب فريضة تُؤدى ومثلى فى الغرام إمَامُ
أسيرُ ولو أن الصَّباح صوارم وأسْرى ولو أن الظلام قتامُ
وأمشى ببيوت الحىّ لا مترقبا وأُطرِق ليلى والوُشاةُ نيامُ
إذا لم يكن للصَّبّ إقدام صبوة تحل تلاف النفس وهو حرام

فليس له بين المحبين رحـــلة ولا بين هاتيك الخيام مقامُ

وقال :

إن كان قتلى فى الهـــوى يتعــينُ ياقاتلى فبسيف طرفك (١) أهونُ

حسبى وحسبك أن تكون مدامعى غُسلى وفى ثوب السقام أكفَّنُ

عجبًا بخـــدك (٢) وردة فى بانة والورد فوق البان (٣) مالا يمكن

[٣٦]

أدنته لى سِـنة الكرى فلثمته حتى تبدل بالشقيق السوسنُ

ووردتُ كوثر ثغـره فحسبتنى فى جنة من وجنتيـه أسكنُ

ماراعنى إلا بلال الخـال من (٤) خديه فى صبح الجبين يؤذنُ

نثرتْ من جـوف (٥) الصباح ذؤابة هى كالدجى وظللتُ فيهـا أكمنُ

يانظرة كم رُمتُ أسرق أختهـا من مقلة هى للنعاس معيـــدنُ

يا فاتنًا ما بال مفتون به حد وفيه يُلام مَن لايفتنُ

ألومُ فيك الصبر إن هو خاننى قلبى العزيز علىّ منه وأهونُ

ياجيرة العلمين لا عاش امرؤ أحشاؤه لسـوى هواكم مسكنُ

فدعوا مريضكم يفور بسقمه طـرس المحبة بالسقام مغبونُ

---

(١) « جفنك » فى النجوم الزاهرة ، الوافى .
و « لحظك » فى المنهل الصافى .

(٢) « لخدك » فى النجوم الزاهرة ، وفوات الوفيات ٣

(٣) « والبان فوق الغصن » فى النجوم الزاهرة .

(٤) « بلال الخال فوق الخد » فى النجوم الزاهرة ، والمنهل الصافى ، وفوات الوفيات .

(٥) « فنثرت من خوف » فى فوات الوفيات ٤

وقال :

لا تَلُم صَبْوتى فمَن حبَّ يَصْبُو		إنما يَرحَمُ المحِبَّ المحِبُّ
كيف لا يُوقِد النسيمُ غرامى		وله فى خيام ليلى مهبُّ
ما اقتدارى إذا خَبت نار قلبي		وحبيبي أنواره ليس تخبو
شاهَدت حُسنَه القلوبُ فأمسى		وله فى (١) القلوب نهب وسَلبُ
نصَبوا حَان حُبِّه ثم زادوا		يانيامَ القلوب للراح هبّوا

وقال :

كم فى جفونك من حانات خمّار		وكم بخديك من رَوْضات أزْهار
وكم نسيم سَرى أودعتُه نفسا		مالت به عذبات الشيح والغارِ
هواك أفصح من أنى أكتمُه		من بعد ماهتكت بالدمع أستارى
لولاك مارقصت بالدوح قضُبٌ		نقا ولا تغنت حمامات بأشجار
ولولا حمت ترى تلك الرياض		ولاسقيتُ من ماء دَمعىَ ساحةَ الدار

وقال :

مَرح العيونَ بفترةِ الأجفان		تمايل الصّاحى على النَشوان
وأراك من أنغامه وقوامه		سجعَ الحمام على غصُون البانِ
حدث بعَيشك يانَسيمُ عن الحمَىَ		وأغث بمائك غُلةَ الظمآن
واستبق منى يا سقامُ بقيةً		يَدرى بها طيفُ الحبيب مكانى

وقال دوبيت :

يا برق حمَى الأراك دونَ الشعب		ما علّمك الخفوقَ إلا قلبى

(١) «فى» مكررة فى الأصل .

فاضحكْ طرباً ودَعْ جُفوني تبكي   واشربْ قدحاً من دُموعي شربي

الشيخ الصالح علاء الدين على بن الشيخ أبي صادق الحسن بن يحيي بن صباح المخزومي .

مات بدمشق وصُلّي عليه بجامعها ، ودُفن بسفح قاسيون ، روى عن والده (١) ، وعن الزبيدى ، وابن اللتى ، وغيرهم .

الشيخ الإمام القاضى شمس الدين أبو محمد عبد الواسع (٢) بن عبد الكافى بن عبد الواسع الأبهرى (٣) الشافعى .

مات بمنزله بالخانقاة الأسدية (٤) بدمشق ، ودفن بمقابر الصوفية ، كان تفرد بإجازات وأسمع كثيرا ، ومولده سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، وكان موته فى شوال منها .

الشيخ الإمام المسند الأصيل المعمر الفاضل نجم الدين أبو الفتح يوسف (٥) بن الصاحب شهاب الدين يعقوب [٣٧] بن محمد بن على بن المجاور الشيبانى .

مات بدمشق ، ودفن بتربة والده بسفح قاسيون ، ومولده فى سنة إحدى وستمائة ، وكان موته فى الثامن والعشرين من ذى القعدة منها ، وهو آخر من

---

(١) هو الحسن بن صباح المخزومى المصرى الكاتب ، أبو صادق ، المتوفى سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٤م — شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٤٨ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : العبر جـ ٥ ص ٣٦٨ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤١٩ ، الدارس جـ ٢ ص ١٤٠ .

(٣) نسبة إلى أبهر ، مدينة بين قزوين وهمدان — معجم البلدان .

(٤) الخانقاة الأسدية بدمشق : داخل باب الجابية بدرب الهاشميين ، أنشأها أسد الدين شيركوه الكبير المتوفى سنة ٥٦٤هـ/١١٦٨م — الدارس جـ ٢ ص ١٣٩ .

(٥) وله أيضا ترجمة فى : العبر جـ ٥ ص ٣٧٠ .

حدّث عن الخضر بن[1] كامل و زينب القيسية[2] ، وعبد الرحمن بن نسيم .

الشيخ المسند ، بقية الشيوخ ، محمد بن[3] عبد المؤمن بن أبي الفتح الصوري .

مات بمنزله بقاسيون ، وصُلي عليه بالجامع المظفري ، ودُفن بالسفح ، وهو آخر من حدث عن الكندي[4] ، ومولده سنة إحدى وستمائة ، وموته في الخامس عشر من ذي الحجة منها .

الشيخ الزاهد ، مفتي المسلمين ، بقية السلف ، تقي الدين أبو الربيع سليمان[5] ابن عثمان بن يوسف الحنفي ، المعروف بالتركماني .

مات بدمشق ، ودفن بسفح قاسيون ، ولي نيابة القضاء عن قاضي القضاة مجد الدين بن العديم بدمشق مدة يسيرة ، ثم ترك الحكم تورعا وتزهدا .

الأمير بدر الدين يوسف بن درباس بن يوسف الحميدي ، أحد مقدمي عساكر الشام .

كان متقدما في الدولة ، ولي البقاع بعد أخيه الأمير جمال الدين ، وكان يخدم أولا ببغداد وقدم إلى دمشق بعد استيلاء التتار عليها ، ومات في هذه السنة .

---

(١) هو الخضر بن كامل بن سالم بن سبيع الدمشقي السروجي ، المتوفى سنة ٦٠٨ هـ / ١٢١١ م — العبر جـ ٥ ص ٢٧ .

(٢) هي زينب بنت إبراهيم القيسي ، أم الفضل ، توفيت سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٣ م — العبر جـ ٥ ص ٣٥ .

(٣) وله أيضا ترجمة في : العبر جـ ٥ ص ٣٧٠ .

(٤) هو زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن البغدادي ، تاج الدين الكندي ، أبو اليمن ، النحوي ، اللغوي ، المقرىء ، والمتوفى سنة ٦١٣ هـ / ١٢١٦ م — العبر جـ ٥ ص ٤٤ .

(٥) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي جـ ٦ رقم ١٠٨٩ ، الوافي جـ ١٥ ص ٤٠٤ رقم ٥٠١ ، الدارس جـ ١ ص ٥٣٩ .

وله نظم جيد ، منه قوله في العذار الشايب :

ولما بدا في الخد ممن أحبه مشيبٌ به قد زاد حسنا ومنظرا
تزايد وجدى إذ تزايد حسنه وأحسن شئ أن ترى الغصن مزهراً

وحضر ليلة فى سماع وفيه شاب حسن الصورة لطيف الشمائل ، فقام يقطّ الشمع و يصلحه بريقه ، والناس يرقصون ، فتواجد بعض الجماعة الحاضرين ورمى الشمعة ، نوقع لهيبها فأحرق فم الشاب ، فنظم بدر الدين المذكور بديها :

وبدر دجى زارنا موهنا فأمسى به الهم فى معزل
فحنت لتقبيله شمعة ولم تحتشم ذلك فى المحفل
فقلت اصحبى وقد مكنت صوارم جفنيه فى مقتلى
أتدرون شمعتنا لم هوت لتقبيل ذا الرشا الأكحل
درت أن ريقته شهدة نحنّت إلى إلفها الأول

الشيخ الفاضل شرف الدين عيسى بن فخر الدين إياز ، والى حماة .(١)

مات فى هذه السنة ، ودفن بنقيرين ، كان من الفضلاء الأدباء .

ومن نظمه :

تحن الى لقائكم القلوب فهل لى فى زيارتكم نصيب
ويصبو نحوكم طرفى وقلبى فذا فيكم يصاب وذا يصوب
أجيران الغضا عودوا مريضاً سلامته هى العجب العجيب
لقد سئم العواذل طول سقمى لفرقتكم وأيأسنى الطبيب
أيا قمرى لأن غيبت عنى كذا الأقمار عادتها المغيب

(١) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ١٠٩ ، السلوك ج ١ ص ٧٧٧ ، تذكرة النبيه ج ١ ص ١٤٥ .

يعــزّ علىّ بُعــدك عن عيانى بعُـدتَ وأنتَ من قلبى قريبُ

وقال :

زِدْنى عن الحىّ أو عن أهــله خبَرا

إن كُنت حققت مَمرىَ الرَّكب أينَ سَرَى

قل لى بعيشك يوم البَيْن أين نأى قلبى

وصِف لى حديثَ الدمــع كيفَ جَرَى

[٣٨]

كرِر علىَّ أحاديث الحمَى لأرَى بالسمع سَرْحته إن فاتنى النَظرا

لقد تقادم عَهــدى بالديار ولى قلب يَطِـيرُ اشتياقا كُلّما ذكرا

يا عاذِلى أنت أولى فى المحبــة من أولى على الحب إنصافًا ومن عُذرا

الأمير جك الناصرى .

مات بالشام فى الثالث عشر من رجب منها ، ودفن بقاسيون وكان من الأمراء المشهورين بالفروسية ، وكان رأس ميسرة عسكر الشام ، وله غارات وآثار جيدة فى العدو .

الأمير سيف الدين قطز المنصورى (١) .

توفى فى هذه السنة ، وكان الملك المنصور ولاه نيابة حمص .

الأمير تنكز (٢) بن عبد الله الناصرى ، ناظر الرباط بالصالحية (٣) من أستاذه .

(١) وله أيضا ترجمة فى : تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٣٢ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٤ ص ١٥٥ رقم ٧٩٥ .

(٣) الرباط الناصرى : بدار الحديث الناصرية بسفح قاسيون بدمشق ، أنشأه الملك الناصر يوسف بن العزيز محمد بن غازي والمتوفي سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م — الدارس جـ ١ ص ١١٥ ، ١١٧ .

توفى فى هذه السنة ودفن بالتربة الكبيرة داخل الرباط .

الملك العادل بدر الدين سلامش بن الملك الظاهر[(١)] الذى كان قد بُويع بالملك بعد أخيه الملك السعيد ، لما استنزل عن الملك وجعل المنصور قلاون أتابكه كما ذكرناه مفصلا[(٢)] ، ثم استقل بالملك وأرسله إلى الكرك ، ثم أعاده إلى القاهرة ، ثم سفره الأشرف فى أول دولته إلى القسطنطينية[(٣)] ، ومعه والدته وأخوه نجم الدين خضر ، فمات سلامش هناك وصبرته أمه وجعلته فى تابوت إلى أن اتفقت عودتها فأعادته إلى ديار مصر ، فدفنته بها .

وكان سلامش من أحسن الشباب شكلا وأبهاهم منظرا ، افتتن به خلق كثير من الناس ، وشبب به الشعراء ، وكان عاقلا رئيسا مهيبا وقورا ، وكان له شعر طويل جدا يقال فيه وفيمن يشاكله فى وقته بالحسن بعض الظرفاء من أهل زمانه :

وأربعة كل الأنام تحبهم ... من الخلق سكران الفؤاد ومنتشى
قوام ابن كيكلدى ووجه أبى يسرى ... وثغر أبى بيبرس وشعر سلامش

الملك أرغون[(٤)] بن أبغا بن هلاون ملك التتار .

(١) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ١٠٦ ، المنهل الصافى جـ ٦ رقم ١٠٧٤ ، الوافى جـ ١٥ ص ٣٢٦ رقم ٤٦١ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٢٦ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ٢٨٦ وما بعدها ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤١١ ، السلوك جـ ١ ص ٧٧٦ ، العبر جـ ٥ ص ٣٦٧ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٤٢ .

(٢) انظر ما سبق بالجزء الثانى من هذا الكتاب ص ٢٢٣ .

(٣) انظر ما سبق ص ٨٨ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٢ ص ٣١٠ رقم ٣٦٩ ، زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٧٣ أ وما بعدها ، درة الأسلاك ص ١١٦ ، الوافى جـ ٨ ص ٣٥٠ رقم ٣٧٨٤ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٩ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٢٤ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤١١ ، العبر جـ ٥ ص ٣٦٦ ، كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٢٢ ، السلوك جـ ١ ص ٧٧٦ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٤١ ، التحفة الملوكية ص ١٢٩ .

توفى فى هذه السنة حتف أنفه على شاطئ نهـر الكُر من بلاد آران(١) ، فى شهر ربيع الأول ، وكانت مدة مملكته سبع سنين . وقيـل : إنه مات مُغْتالاً بسُمّ اغتاله به وزيره . وقيل : إنه كان يدين بدين النجيشيين وهم الطائفـة المشهورة بعبادة الأصنام والسحر ويعظم طريقتهـم خصوصا الطائفة المنتسبة منهـم إلى براهمة الهند ، وكان يجلس فى السنة أربعـين يوما فى خلوة يتحنث بهـا ويجتنب أكل لحوم الحيوان ، فوفد عليه من الهند شخص يزعم أنه يعـلم [علم](٢) الأديان ويطبب الأبدان ، فأوحى إليـه أن يتخـذ له معجـونا من داوم تداوله طالت حياته ، فركبه له ، فتناول منه ، فأوجب له انحرافا وصرعا ، وكانت فيه منيته ، فقصر الله به عمره من حيث رام امتداده .

وخلّف من الأولاد الذكور قازان وخربندا ، وكانا بخراسان ، فاتفق الخانات ومقـدمو التمـانات وكـبراء الأمراء وأرباب الأمراء على إقامة كيخاتو(٣) أخيه ، فأقاموه فى المملكة ورتبوه فى السلطنة ، فلما استقر أمره ونفذ حكمه أساء السيرة ، وخرج عن الياساق المقررة ، وأفحش فى الفسق بنسوان المغل واللواط بأولادهم ، فكان من أمره ما نذكره(٤) .

وقال النويرى : ويقال إن أرغون بن أبغـا قتـله وزيره بالسم وهو سـعد الدولة وذلك أنه وقع مع بعض الخواتين ، فخشى أن يطلع عليه أرغون ، فسقاه

(١) آران : إقليم مشهور بينه و بين أذربيجان نهر الرس — معجم البلدان ، تقويم البلدان ص ٣٨٦ .

(٢) [ ] إضافة من زبدة الفكرة للتوضيح .

(٣) توفى سنة ٦٩٤ هـ / ١٢٩٤ م — المنهل الصافى ، وانظر ما يلى .

(٤) انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٧٣ أ ، ب . وانظر ما يلى فى حوادث سنة ٦٩٤ هـ .

[٣٩] سما فقتل ، فلما تحقق ذلك قتلوا اليهود كلهم عن آخرهم(١) .

وفى نزهة الناظر : فكان وزيره سعد الدولة يهوديا ، وقد تولى أمره ، وقام على المغول كلها ، وصار فى نفوسهم منه أمر عظيم ، ولما سقى سعد الدولة . ملكهم أرغون قتلوه ، وسلبوا جميع أمواله ، وقتلوا جماعة من أهله(٢) .

وقال ابن كثير : وكان أرغون شهما ، شجاعا ، سفاكا للدماء ، قتل عمه السلطان أحمد بن هولاكو فعظم فى أعين المغول(٣) ، وعظم شأنه .

وجاء الخبر بوفاة أرغون إلى السلطان الأشرف ، وهو محاصر عكا ، ففرح بذلك .

وكانت مدة ملك أرغون ثمان سنين(٤) ، وقد وصفه بعض مؤرخى العراق بالعدل والسياسة الجيدة .

تلابغا(٥) بن منكوتمر بن طغان بن طربو(٦) بن دوشى خان بن جنكزخان ، ملك التتار بالبلاد الشمالية ، الجالس على كرسى بركة(٧) .

(١) « واتهموا به اليهود أنهم سقوه ، ونموا ذلك على سعد الدولة رقيره ، وكان المستولى على ملكه والغالب على أمره » — كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٢٢ ، وانظر ما جاء بنهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٤٠٥ — ٤٠٦ .

(٢) يوجد نحو سطر ونصف مطموس و يصعب متابعة النص .

(٣) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٢٤ .

(٤) « سبع سنين » فى زبدة الفكرة — مخطوط جـ ٩ ورقة ١٧٣ ب ؛ « نحو سبع سنين » فى تذكرة النبيه ؛

(٥) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة — مخطوط جـ ٩ ورقة ١٧٣ ب — ١٧٤ أ ، نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٦٦ وما بعدها ، المنهل الصافى جـ ٤ ص ٨٤ رقم ٧٧٤ ، السلوك جـ ١ ص ٧٧٥ ، التحفة المملوكية ص ١٢٩ .

(٦) « باطوخان » فى المنهل الصافى .

(٧) هو بركة بن تولى بن جنكزخان المغلى ، المتوفى سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م — المنهل الصافى جـ ٣ ص ٣٤٩ رقم ٦٦٠ ، وانظر ما جاء بالمنهل الصافى جـ ٤ ص ٧٩ ، ونهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٥٧ وما بعدها .

توفى فى هذه السنة ، وذلك أنه لما سار إلى غزو بلاد الكرك — كما ذكرنا — وسار نوغيه إليه، وقضيا منها الوطر ، وعاد كل منهما إلى مقامه ومَشْتَاهُ ، سلك نوغيه الطريق المستسهل ، فوصل بعسكره سالما ، وسلك تلابغا السبل المستصعبة ، فهلك أكثر من معه جوعا و بردا وضياعا على ما شرحناه، فتمكنت العداوة(١) بينه و بينه ، وساءت فيه ظنونه ، وأزمع الإيقاع به ، واتفق على ذلك مع من حوله من بطانته وأولاد منكوتمر المحازين إلى فتنته . وكان نوغيه شيخا مجربا ، و بممارسة المكائد مدربا ، فنمى إليه ما هم به تلابغا فيه ، وأنه جمع له العساكر ، ثم أرسل يستدعيه موهما أنه يحتاجه لمشورة يحضرها عنده(٢) .

فراسل نوغيه والدة تلابغا ، وقال لها : إن ابنك هذا ملك شاب ، وأنا أشتهى أنصحه وأعرفه مصالح تعود على ترتيب قواعده ، [وتقرير مصادره وموارده(٣)] ، ولا يسعنى أن أبديها له إلا فى خلوة ، بحيث لا يطلع عليه سواه ، وأشتهى أن(٤) ألقاه فى نفر يسير ،[ولا يكون حوله أحد من العساكر التى جمعها إليه(٥)]، فمالت المرأة إلى مقالته(٦) ، وانخدعت لرسالته ، فأشارت على ولدها بموافقته ، [وثنت عزمه عن مفاسدته(٧)]، ففرق تلابغا العسكر الذى كان قد جمعه، وأرسل إلى نوغيه ليحضر إليه .

(١) « فتحكمت الشحناء » فى زبدة الفكرة .

(٢) « لمشور يحضره ورأى يحضره » — فى زبدة الفكرة .

(٣) [ ] إضافة من زبدة الفكرة حيث ينقل العينى نص بيبرس الدوادار .

(٤) « أن » ساقط من زبدة الفكرة .

(٥) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٦) « لمقالته » فى زبدة الفكرة .

(٧) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

فتجهز وجمع عسكره ، وأرسل إلى أولاد منكوتمر الذين كانوا يميلون إليه ، وهم : طقطا ، وبرّلك ، وصراى بغا ، وتدان بان ، فلحقوا به ، ثم أسرع السير حتى قرب من مقام تلابغا الذى أعد للاجتماع فيه (١) . وترك العسكر الذين معه ، ومن حضر إليه من أولاد منكوتمر المذكورين كمينا فى مكان ، واستصحب معه نفرا قليلا ، وتوجه نحو تلابغا ، فسار ليتلقاه ، وحضر معه ألغى ، وطغر لجا ، وملغان ، وقدان ، وقتغان ، أولاد منكوتمر .

فاجتمع تلابغا ونوغيه ، وأخذا فى الحديث والاستشارة ، فلم يشعر تلابغا إلا والخيول قد أقبلت إليه ، فتحير فى أمره ، وحاق به ما أبرمه نوغيه من مكيدته ومكره ، ووقف العسكر ينتظرون ما يأمرهم نوغيه بفعله ليفعلوه ، فتقدم إليهم بإنزال تلابغا وأولاد منكوتمر الذين معه (٢) عن خيولهم ، فأنزلوهم ، وأشار بربطهم فربطوهم .

وقال لطقطا (٣) : إن هذا تغلب على ملك أبيك وملكك ، وهؤلاء بنو أبيك وافقوه على أخذك [٤٠] وقتلك ، وقد سلمتهم إليك فاقتلهم أنت كما تشاء ، فكُسِرت رؤوسهم وكسرت ، وهم : تلابغا ، وألغى ، وطغر لجا ، وملغان ، وقدان ، وقتغان أولاد منكوتمر .

وتسلطن طقطا بن منكوتمر بعد تلابغا ببلاد الشمال فى سنة تسعين وستمائة (٤) ، ولما سلم له نوغيه الملك ورتبه فيه رتب عنده إخوته المنتفعين معه وهم : برلك ،

---

(١) « ثم أخذ السير يطوى المراحل ، ويدنى المنازل حتى إذا صار قريبا من مقام تلابغا الذى اتعدا (هكذا) للاجتماع فيه » — زبدة الفكرة .

(٢) « الذين معه » ساقط من زبدة الفكرة .

(٣) « طقطاى » فى المنهل الصافى جـ ٤ ص ٨٥ .

(٤) انظر نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٣٦٦ — ٣٦٧ .

وصراى بغا ، وتدان ، وقال : هؤلاء إخوتك يكونون فى خدمتك ، فاستوص بهم خيرا .

وعاد نوغيه إلى مقامه ، وبقى فى نفسه من الأمراء الذين كانوا اجتمعوا مع تلابغا عليه عندما أرسل يستدعيه إليه ، فدبر عليهم ، كما سنذكره إن شاء الله تعالى .

فصل فيما وقع من الحوادث

في السنة الحادية والتسعين بعد الستمائة (*)

في الرابع والعشرين من محرم (١) من هذه السنة وقع حريق عظيم بقلعة الجبل ، ببعض الخزائن ، وقد أتلف شيئا كثيرا من الذخائر والنفائس والكتب ، ومن بينها كتب عظيمة من ذخائر الملوك التي تحتوى على العلوم الشريفة (٢) .

ذكر فتح قلعة الروم (٣) :

والسبب في ذلك أن « .... (٤) » صاحب هذه القلعة « .... (٥) » السلطان الملك المنصور صالح « .... (٦) » وأ كثروا الفساد ، وأن التتار لما حصل بينهم حرب عند وفاة ملكهم جاء الكثير منهم إلى قلعة الروم ، فاتفقوا مع أهلها على قطع الطريق على المسلمين ، وأخذوا منهم أسرى كثيرة ، وقطعوا الطرقات ،

(*) يوافق أولها الإثنين ٢٤ ديسمبر ١٢٩١ م .

(١) « وفي عشرين المحرم » في البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٢٦ ، « في رابع عشر صفر » في السلوك جـ ١ ص ٧٧٧ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٢٥ .
« رابع صفر سنة إحدى وتسعين وستمائة » في المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢١٢ .

(٢) يوجد بعد ذلك أربعة أسطر معظم كلماتها مطموسة ، ويصعب معها متابعة النص ، وعن خزانة الكتب بالقلعة انظر المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢١٢ .

(٣) قلعة الروم : قلعة حصينة في غربي الفرات ، مقابل البيرة ، بينها وبين سميساط - معجم البلدان .

(٤) ، (٥) موضع كلمة مطموسة تماما .

(٦) نحو نصف سطر مطموس .

فأرسل نائب حلب بذلك إلى السلطان ، وأنه لم يبق فى دار الإسلام من قلاع الكفر غير هذه القلعة يفتحها « .... »(١) .

ولما وقف السلطان الأشرف على كتابه طالب الأمراء ، واستشار بعضهم فى ذلك ، فأشاروا كلهم بالعزم إليها وفتحها ، فكتب إلى نائب حلب ونائب دمشق بتجهيز سائر الآلات للحصار ، وأقام أياما يجهز العساكر ، ولما كمل ربيع الخيل فى مصر ، خرج السلطان ثامن ربيع الآخر(٢) ، وصحبته العساكر المصرية ، ووزيره ابن سلعوس ، ووصل إلى دمشق سادس جمادى الأولى ، وكان يوما مشهودا .

وحضر إليه فى دمشق صاحب حماة الملك المظفر ، ثم استعرض الجيوش وأنفق فيهم أموالا عظيمة ، وجمع عساكر مصر والشام ، ثم خرج من دمشق يوم الإثنين السادس عشر من جمادى الأولى .

وسأل صاحب حماة بيدرا والشجاعى وأكابر الأمراء أن يُضَيِّف السلطان إذا نزل بجهة حماة ، فتحدثوا مع السلطان فأجاب إليهم ، فلما نزل حماة ، وكان صاحب حماة قد سبقه ، هيأ له ما يحتاج إليه ، ومد له سماطا بالميدان ، فدخل السلطان والأمراء والجند وغيرهم ، وجلس السلطان على رأس السماط ، وخدم الملك المظفر ، وأراد أن يأخذ شيشني(٣) فمنعه السلطان من ذلك ، وبقى واقفا على

(١) « » موضع ست كلمات مطموسة .

(٢) « فى شهر ربيع الأول » فى زبدة الفكرة مخطوط جـ ٩ ورقة ١٢٥ ب ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٢٧ .

(٣) كلمة فارسية بمعنى ذوق الطعام أو الشراب ، والمقصود أن الملك المظفر أراد أن يتذوق الطعام قبل أن يأكل منه السلطان ، حتى يتأكد السلطان أن الطعام ليس مسموما .

رأس السماط ، وحلف أنه لايجلس حتى يفرغ السلطان ، وصنع أحواض سكر وليمون ، وأحواض سكروسويق ،وأحواض أقسما ، وأحواض [٤١] قمز ، واحتفل احتفالا عظيما .

وقال صاحب نزهـة الناظر : أخبرنى علم الدين الطيبرسى أنه سأل مباشرى صاحب حماة عن أمر هذا المهم ، فأخبره صارم الدين أستاذ داره أنه ذبح فى ذلك اليوم ألف رأس ومائتى رأس من الغنم ، ومائة فرس ، وثمانين بقرة ، وعمـل ألف صحن من الحلواء .

وقال ابن كثير (١) : وصل السلطان إلى حماة وضرب دهليزه عند ساقية سلمية ، ومد له الملك المظفر سمـاطا عظيما بالميدان ، ونصب خيما يليق بنزول السلطان ، فنزل السلطان بالميدان ، وبسط بين يدى فرسه عدة كبيرة من الشقق الفاخرة ، ثم دخل الأشرف دار الملك المظفر بمدينـة حماة ، فبسط له الملك بين يدى فرسه بسطا ثانيـا ،وقعد السلطان بالدار ، ثم دخل الحمام وخرج ، وجلس على جانب العاصى ، ثم راح إلى الطيارة التى على سور باب الثقفى المعروفة بالطيارة الحمراء ، فقعد فيها ، ثم توجه من حماة وصاحب حماة وعمه فى خدمته إلى المشهد ، ثم إلى الحمام والزرقاء بالبرية ، فصاد شيئا كثيرا من الغزلان وحمر الوحش .

وأما العساكر فسارت على السكة إلى حلب ، ثم وصـل السلطان إلى حلب فى اليوم الثانى والعشرين (٢) من جمادى الأولى ، وأقام فيها أياما ، ثم توجه منها إلى قلعة الروم ، وخرج من حلب فى اليوم الرابع من جمادى الآخرة ووصـل إلى قلعة

(١) لا يوجد النص التالى فى النسخة المطبوعة التى بين أيدينا من البداية والنهاية .

(٢) « فى الثامن والعشرين » فى كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٢٣ .

الروم ونازلهـا فى العشر الأول من جمادى الآخرة (١)، ونصب عليها المناجيق، وهى ثلاثة وعشرون منجنيقا، أحديها عنـد الدهليز الشريف، والأخرى فوق جبل يسامت القلعة المذكورة وعنده الملك المظفر صاحب حماة، وكان كلما رُمى الحجر فأصاب ضُربت كوساته وضُربت بوقاته، والأخرى عند علم الدين سنجر الشجاعى نائب دمشق، وكان ترتيب الرمى بهذه المناجيق أن كل أمير من الأمراء يرمى يوما وليلة، والأمير علم الدين الشجاعى أقام برجا من خشب تعلوه قبة ولبّده كله وحصّنه من يمينه وشماله، وعمل فى داخلهم الرجالة فصاروا يقا تلون من داخله، وأقام العسكر عليها عشرين يوما، ولم ينل السلطان منها طائلا، وكان لا يصل إليها غير منجنيق واحد، فكان حجره يصـل إلى السور، فإذا دق فيه يفتت حجره، وأجمع الأمراء على أن يزحفوا ويوصلوا النقّابين إلى السور، فركب السلطان بنفسه والأمراء، وتكفل نائب الشام ونائب حلب بالنقّابين، وكانوا نحوا من ثمـانين حجّارا بالمعاول، ودخلوا فى الزحافات، وزحف العسكر جميعه، وكان يوما عظيما، وكان فى القلعة رجال لا يعرفون شيء غير القتال، فقاتلوا فى ذلك اليوم قتالا عظيما، ونال المسلمين منهم شيء عظيم.

قال صاحب نزهـة الناظر : بلغنى عن الشجاعى أنه قتـل له فى ذلك اليوم ثلاث رءوس من الخيل، وجرحت جماعة كثيرة من مماليكه، وكذلك نائب حلب، وتفرقت الأمراء والأكابر حول القلعـة، ورموا بسهام كثيرة حـتى أشغلوهم عن جهة النقابين، وما برحوا إلى أن أوصلوهم إلى الأسوار وملكوها، وشرعت النقابون بالمعاول فيها فلم تؤثر المعاول فى الحجر شيئا، ووجد المسلمون من ذلك مشقة كثيرة، ولما ضايق المسلمون عليهم اجتهدوا اجتهادا عظيما.

(١) « يوم الثلاثاء ثامن الشهر » فى كنز الدرر.

وكانوا قد كتبوا إلى صاحب سيس أن يَسَيِّرَ إليهم نجدة ، فوصل فى ذلك الوقت جماعة من عرب آل مهنّى ، وأخبروا السلطان أنهم رأوا نحوا من [٤٢] تومان من المغول وقد عدّوا الفرات ، وهم قاصدون العسكر ، فسمع أهل القلعة بذلك ، فضربوا ناقوسهم ، وأظهروا الفرح .

فعند ذلك رجع السلطان مع الأمراء إلى الدهليز ، وضربوا مشورة فى أمرهم ، فأمر السلطان لبيدرا نائبه أن يقول : نرحل ونرجع إليها فى العام القابل . فقال بيدرا ذلك للأمراء ، وقال : قد ضجر السلطان من أمر هذه القلعة ، ومن كثرة الأمطار والثلوج والبرد العظيم ، وأيضا بلغه أمر المغول ، فاختار أن يرجع ، فسكت الأمراء ، ثم قال السلطان : ماتتكلمون وما تقولون فى كلام الأمير بيدرا؟ فقال له الأمير ركن الدين الجالق (١) : ياخوند ماجرت عادة ولا سمعنا أن سلطانا ينزل بعسكره على بلد ويحاصره أياما ويرجع عنه إلا بسبب يقتضى ذلك . وقال الأمير لاجين : والله ياخوند لو هلكنا بأجمعنا مانرجع إلا بفتح هذه القلعة سيما وقد قتل من المسلمين جماعة ، ولم يعجبه كلامه ، ثم التفت بيدرا إلى الأمير شمس الدين سنقر الأشقر وقال له : ما رأيك نقيم أو نرحل ؟ فالتفت إليه التفات المغضب وقال : يا أمير ، الحرب لعب الصغار ، من قتل منا ومن خرج حتى نرحل من القلعة ، ثم قال له السلطان ، وقد حصل فى نفسه من كلامه حنق عظيم : كيف يكون العمل مع هذا العدو الذى قد تعدى الفرات ؟ فقال : إن رسم السلطان لى أركب وصحبتى بعض الأمراء وألاقى هذا العدو ، فنرجو من الله النصر عليه أو الموت فى سبيل الله ، فالسلطان يكون مقيما بالعسكر والحصار يكون مستمرا ولا

---

(١) هو بيبرس بن عبد الله الجالق الصالحى ، المتوفى سنة ٧٠٧ هـ / ١٣٠٧ م ــ المنهل الصافى ج ٣ ص ٤٧٤ رقم ٧١٩ .

يشمت بنا العدو ، فإذا سمعت الناس أن سلطان مصر وعساكرها نزلوا على قلعة ، ثم رحلوا عنها ماذا يقولون ؟ والله نموت جميعا خير من هذه السمعة .

فعند ذلك عينوا سنقر الأشقر والأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح وأضافوا لهما أمراء ومقدار ألفى فارس وصحبتهم آل مهنى وآل فضل وآل مرى وبنو كلاب وأمراء التركمان ، فتجهزوا وساروا وجدوا فى سيرهم إلى أن بلغوا الفرات ، فلم يجدوا أحدا ، ولا ظهر لهم راكب ولا راجل ، وكان حقيقة ماذكره العرب أن صاحب سيس لما كتب إليه أهل القلعة وطلبوا منه النجدة علم أنه عاجز عن ذلك ولكن احتال فى ذلك حيلة ، فطلب ثلاثة من أمراء الأرمن وجرد معهم خمسة آلاف فارس من الأرمن ، وألبس جميعهم لبس المغول ، وجعل على رؤوسهم السراقوجات التى يركب بها المغول ، وجعل لهم رايات وطبول على زى عسكر المغول ، وأمرهم أن ينزلوا على بر الفرات ويعدوه إذا لم يصادفوا عسكرا هناك ، ويكونوا على حذر عظيم ويتراءوا لأهل البلاد والعرب حتى يظنون أنهم مغول ، ويصل أخبارهم إلى العسكر فيقع فى نفوسهم أن عسكر المغول قد حضروا لنصرتهم فيرجعون عن حصارهم ، فساروا على هذه الهيئة وفعلوا ماقال لهم صاحبهم . ورآهم بعض العرب فأخبروا عسكر السلطان بذلك ، ثم لما أرسل السلطان من ذكرنا من عسكره وبلغ خبرهم إلى الأرمن أخذوا حذرهم منهم ، فرجعوا خائبين خاسرين [٤٣] وجاء الخبر بذلك إلى السلطان ، ثم فى عقيبه جاء العسكر المجردون ، فقوى بذلك عزم المسلمين على القتال والحصار ، وتفرقوا على القلعة كتائب ومواكب ، واستعملوا المعاول فى أسوارها ، ولم يزالوا على ذلك إلى أن جاء نصر الله والفتح .

ففتحت بالسيف يوم السبت الحادى عشر من رجب من هذه السنة ، فطلع إليها المسلمون ومكنوا السيوف من الأرمن ، ولم يرحموا كبيرها ولا صغيرها ولا كهلهـا ولا شابها ، ونهبوا ذراريهم ، وذلك لأنهـم ماوجدوا بها كسبا طائلا مثل عادة القلاع والحصون ، ولم يكن لهـم باع كثير ، وإنما كانوا مقاتلة ، فبـذلك حنقت العسكر عليهم ، ووضعوا فيهـم السيوف بلا رحمـة ولا شفقة ، وأخذوا منها نحو ثلاثمائة أمير ، فأحضروهم إلى مصر ، واعتصم كيثاغيكوس خليفة الأرمن[1] المقيم بها فى القـلة[2] ، وعنده بعض من هرب من القلعـة ، فرسم السلطان أن يرمى عليهم بالمنجنيق ، فلما وتروه ليرمى عليهـم طلبـوا الأمان من السلطان فلم يؤمنهم إلا على أرواحهـم خاصة وأن يكونوا أسرى ، فأجابوا إلى ذلك ، وأخذ كيثاغيكوس وجميع من كان بقلة القلعة أسرى عن آخرهم .

وأمر السلطان أن يمحى عنها سمة الرومية ولايسميها أحد بتلك الاسمـية ؛ بل تسمى قلعة المسلمين الأشرفية .

ثم رتب السلطان سنجر الشجاعى لعمارتها وتحصين قلعتهـا وترتيب مايعود على مصالحهـا ، وأمر أن يخرب ربضها و يبعد عنها .

وفى نزهة الناظر : ومارحل السلطان عنها حتى رتب فيها نائبا وهو الأمير جمال الدين أقشى العارضى ، وذلك بعدما قبض على الأمير عز الدين الموصلى بسبب أنه رسم له أن يكون نائبا بهـا ، فأبى ذلك ، فقبض عليه ، ورتب جمال الدين المذكور ، وأقام فى يومه فى القلعة الخليلية .

---

(١) المقصود هو بطرك الأرمن ، فيذكر ياقوت أن بها مقام بطرك الأرمن خليفة المسيح عندهم ويسمونه بالأرمنية كيثاغيكوس — معجم البلدان .

(٢) قلة القامة : قمة القلمة — لسان العرب .

ونظم بعض كتاب الدرج :

فديتك من حصنٍ منيـــع جنابه تطهرت من بعد النجاسة والشرك

وقد صرت تدعى بالخليلين دائما خليل إله العرش والبطل الترك

وكان المسلمون رأوا في إقامتهم على هذه القلعة أمورا صعبة كان أكثرها من الزلازل والأمطار والصواعق ، واتفق يوما أن الأمـير بدر الدين بيـدرا كان جالسا وقد تقدم الفراش ليمد السماط بين يديه وإذا بصاعقة قـد نزلت بخيمته فنفذت من الخيمة ووقعت على ظهر الفراش فقصمته نصفين ووقع إلى الأرض ، ونفر كل من كان واقفا وغاصت الصاعقة في الأرض ، وقام بيدرا وفي قلبـه رجفة عظيمة .

قال صاحب النزهـة : ثم رسم السلطان بكتاب البشارة يكتب إلى مصر (١) ، فكتب مانسخته .

بسم الله الرحمن الرحيم مبشرةً بفتح ما سَطرت به الأقلام أعظم بشائره (٢) ، ولا تفوهت ألسنة خطباء هـذا العصر على المنابر بأفصح من معانيه في سالف الدهر

(١) أورد كل من ابن أيبك والنويري وابن الفرات نص البشارة التي كتبها شرف الدين القدسي على لسان السلطان ، إلى قاضي القضاة شهاب بن الخويي بدمشق ، وبها فقرات من البشارة التالية — انظر نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٩ ورقة ٣٠١ أ ومابعدها تاريخ ابن الفرات جـ٨ ص ١٣٩ ومابعدها كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٢٤ وما بعدها .

وانظر أيضا نص البشارات التي أوردها ابن حبيب في تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٥٤ ومابعدها والبشارات التي أوردها ابن أيبك في كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٢٤ — ٣٣٢ .

(٢) « نبشره بمـا فتح الله به على الإسلام ، ما سطرته في صدور الطروس الأقـلام » في كنز الدرر ؟

وغابره ، وهو البُشرى بفتح قلعة الروم ، والهناء لكل من رام للإسلام نصرا ببلوغ ما رام وما يروم .

وذلك أننا ركبنا من مصر وما زلنا نصل السُّرى بالسَّير ، ونرسل الأعنَّة إلى نحوها فتمد الجيادُ أعناقها سدًّا ينقطع بين قوائمها السَّير ، واستقبلنا من جبالها كل صعب المرتقى ، شاهق لا يلتقى به مسلك ولا يلتقى ، فما زالت العزائم الشريفة تسهل حزونه ، والشكائم [تفجر] (١) بوقع السنابك على أحجاره عيونه ، [٤٤] والجياد المطهمة ترتقى مع امتطاط متونها بدروع الحديد متونه ، فجعل جبالها دكا ، وحاصرها حتى ألحق بها حصن عكا ، ولما أراد الله بالفتح الذى أغلق على المغول والأرمن أبواب الصواب ، والمنح الذى أضفى على أهل الإيمان والمجاهدين أثواب الثواب ، فتحت هذه القلعة بقوة الله ونصره يوم السبت الحادى عشر من شهر رجب ، فسبحان من سهل صعبها ، وعجل كسبها ، ومكن منها ومن أهلها ، وجمع ممالك الإسلام شملها .

وكان ذلك بخط شهاب الدين محمود ، ونظم للسلطان يهنئه :

لكَ الراية الصفراءَ يَقدُمها النصرُ ... فمن كَيْقُباذُ إن رآها وكَيْخُسرو

إذا خفقت فى الأفق هَدَّت بُنودُها ... دعائم (٢) واستَعلى الهدى وانجلى الثغر (٣)

وإن يَمَّمت نحو العِدَى سار نحوَها ... كتائبُ خطر دوحها البيضُ والسمر (٤)

---

(١) [ ] إضافة مما ورد فى نهاية الأرب للتوضيح .

(٢) « هوى الشرك » فى كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٣٤ .

(٣) إذا خفقت فى الأفق هدت بنورها ... هوى الشرك واستعلى الهدى وانجلى الثغر

فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٢٨ .

(٤) وإن يممت زرق العدى سار تحتها ... كتائب خضر دوحها البيض والسمر

فى البداية والنهاية ، وكنز الدرر .

كأنّ مثار النقع ليـلٌ وَخَفْقُهـا		بُروقٌ وأنت البدرُ والفلكُ الجِتْرُ
بُـذل لهـا عزمٌ(١) فلولا مهـابة		كستها الحياءاتك(٢) تسْعَى ولا مَهْرُ
صرفت إليها عزمةً(٣) لوصرفتهـا		إلى البحر لاستولى على مدّه الجزرُ(٤)

ولمـا سبقت البشارة إلى مصر فرحت العالم ، وكُتب الجـوابُ بستأذنون على عمل قلاع وزينة ، كما كانت العادة بذلك عند مثل هذه القضية .

وكان السلطان لمـا دخل دمشق سأله أهلها أن يصوم رمضان عندهـم ، وذلك لمـا فى قلوبهـم من المحبة الأكيدة ، ورأى السلطان أيضـا طيبة دمشق ونزهها ، قصد الإقامة بها ، فكتب الجواب إلى مصر أن يمنع العمل للقلاع فإن السلطان عزم على أن يصوم رمضان بدمشق .

وكان الصاحب شمس الدين — عند دخول السلطان دمشق — اقترح على أهلها بسط الشقق تحت قوائم الخيل من سائر الأصناف ، كما اقترح ذلك على المصريين ، ولم يقترح أحد غيره قبله ، فصار عادة إلى الآن ، وكتب بذلك على أهل دمشق كل أحد بقدر حاله وقدر منزلته ، ولمـا بسطوا الشقق وأخذها أرباب الوظائف من السلحدارية والطبردارية وغيرهم أخذها الوزير عنهم وجمعها منهم ، وعوضهم منها شيئا يسيرا ، ثم ألزم كل من بسط شيئا أن يأخذه ويحمل ثمنه إليه ، فوقفت جماعة منهم بين يدى السلطان واستغاثوا بجماعة من الحرافيش والعوام ، فاستغاثوا إليه ، وأنهوا ضررا بذلك ، وكان وقوفهم فى سوق الخيل والسلطان راكب ،

(١) «بذلت لهـا عزما» فى البداية والنهاية ، كنز الدرر .
(٢) «كساها» فى البداية والنهاية ، كنز الدرر .
(٣) «صرفت إليهم همة» فى البداية والنهاية ، كنز الدرر .
(٤) ورد فى البداية والنهاية ٤٠ بيتا من هذه القصيدة — انظر جـ ١٣ ص ٣٢٨ — ٣٢٩ ؛ كما ورد منها ١٦ بيتا فى كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٣٤ — ٣٣٨ .

فرسم السلطان للحاجب أن كل من باسمه شىء يأخذه ولا يعطى للوزير شيئا ، وطلب الوزير وأنكر عليه ذلك .

وقال بيبرس فى تاريخه : ولما كنا فى شدة الحصار والقتال والمضايقة والنزال أشرفت علينا من البر الشرقى طائفة من التتر لائحة من بين الجبال ، فرسم السلطان لتجريد جماعة من العساكر صحبة بعض الأمراء الأكابر لكشف الخبر وقص الأثر وحسم مادة من ظهر من التتر ، فجرد أربعة مقدمى الألوف ومُضافيهم منهم الأمير بدر الدين بكتاش أمير سلاح وكنت من مضافيه ، والأمير ركن الدين طقصو الناصرى ، والأمير سيف الدين بلبان الحلبى ، والأمير حسام الدين لاجين السلحدار المنصورى ، فسرنا جميعا سيرا [٤٥] عنيفا ، وعبرنا الفرات من مخاضة شُمَيْصاط[(١)] ، وسرنا فى البر الشرقى عامة الليل والنهار ، وقصصنا الآثار فلم نجد أحدا من التتار ، فعدنا فى الحال وحضرنا إلى المنازلة والقتال حتى افتتحنا قلعة الروم ، وبلغ السلطان منها ما كان يروم .

ولقد اتفق فيما بعد وصول الأمير سيف الدين[(٢)] جنكلى بن البابا أحد أمراء التتار إلى الديار المصرية ، فأخبرنى أنه كان فى تلك السرية وأنها كانت زهاء على عشرة آلاف فارس صحبة مقدم يسمى نِيتمش[(٣)] ، وكانت قد جاءت تلتمس فرصة وتطلب من المسلمين غرة . قال المذكور : فلما شاهدنا كثرة العساكر وعظمتها أيقنا أن لا قبل لنا بها ، فرجعنا على أعقابنا وسرنا مجدين إلى مقامنا[(٤)] .

---

(١) « شميصات » فى زبدة الفكرة .

(٢) « بدر الدين » فى التحفة الملوكية ص ١٣١ .

(٣) « بيتمش » فى التحفة الملوكية ص ١٣١ .

(٤) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٧٦ ب ، ١٧٧ أ ، وانظر أيضا التحفة الملوكية ص ١٣١ .

قلت : هذا الذى ذكره بيبرس يخالفه ما ذكره صاحب نزهة الناظر، ولكن الأصح ما ذكره بيبرس لأنه صاحب الواقعة :

إذا قالت حَذَامِ فصدِّقوها فإن القولَ ما قالت حَذَامِ (١)

واعلم أن قلعة الروم هذه كانت فتحت أيام الصحابة رضى الله عنهم فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه صلحا ، واستمر بها أهلها ، لأن الصحابة أبقوا كنائس كثيرة على أن يؤدوا الجزية ويطالعوا المسلمين بالأحوال . ذكر ذلك البلاذرى وغيره .

وذكر صاحب حماة فى مختصر تاريخه الذى سماه : الحدائق والعيون : أن السلطان نور الدين الشهيد توجه إليها فى سنة تسع وستين وخمسمائة، فتقبل خليفة الأرمن بحمل خمسمائة ألف درهم على سبيل الجزية ، فرجع .

واسمها بالأرمنية هروم كاين ، وتفسيره بالعربى قلعة الروم ، وكانت هذه القلعة كرسى مملكة الأرمن وبها خليفتهم واسمه الكيثاغيكوس ، وكان قد مدّى المائة سنة ، وكانت فى حكم التتار ولهم بها شحنة ، أُسر فى جملة الأسرى، وكان بها على المسلمين أعظم نصرة .

وصفتها : أنها كانت قديما ثلاث قلاع صوامع على سن جبل بين جبال ، ثم حصنها الأرمن بأسوار قد احتفل بانيها بتشييدها غاية الاحتفال ، ما رمقها طرف إلا بهت لعلوها وسما ، ولا تأملها متأمل إلا وظن شرفاتها الأنجم وقلتها السما .

---

(١) هذا البيت لجم بن صعب — من شعراء الجاهلية — ، وحذام التى يذكرها فى البيت هى امرأته — انظر شرح شذور الذهب ص ٩٥ .

وهى من أحصن القلاع وأعظمها فى الارتفاع والامتناع ، ولا يتوصل إليها إلا من طريق صعبة المرتقى لا يستطيع الفارس سلوكها ، وبحر الفرات جار من تحتها ، ولا منزلة لمن ينازلها (١) إلا فى حتفها (٢) .

وهى بين عقاب صعاب كما قال الشاعر :

عقاب بها كل العقاب ومحجرٌ كأنى أمشى فوقه بالمحاجر

ويدور بها نهر يسمى نهر مرزبان ، وبيوت أهلها مغاير منقورة فى الجبل محكمة الصنعة .

وذكر فى بعض التواريخ : أن المثال الشريف ورد إلى الأمير عز الدين أيبك الخازندار نائب السلطنة بمصر فى الغيبة على يد الأميران السلاح دار وأقوش الموصلى الحاجب فى بكرة الإثنين العشرين من رجب الفرد ، وهو من إملاء القاضى فتح الدين بن عبد الظاهر ، وهذه نسخته (٣) :

بسم الله الرحمن الرحيم

أدام الله نعمة المجلس العالى الأميرى العزى ، ولا برحت متلوة عليه آيات التأييد ، واردة إليه بشائر ظفرنا التى يتجمل بحملها البريد ، قادمة عليها التهانى ، كم لحمائم الحمد فى أفانينها من تغريد ، تبشره بفتح ما خطر على بال أحد أنه يكون ، ولا أن صعبه يهون ، ولا أن نيله على غير عزائمنا الشريفة يقرب ولا فى الوهم ، ولا أن الحظوظ تبلغ فيه من مرامها [٤٦] سهما ، ولا أن الخطوب ترامى مراميه بسهم ، وذلك لبعد مداه ، وقوة قومه بالنفار المخذولين الذى تكفا

(١) « لمنازلها » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٢) انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٧٦ [أ] .

(٣) انظر ما سبق ص ١١٧ [ ] .

أكف عداه ، وهو فتح قلعة الروم الذى بلغ كل من رمى من الأعداء بنصل النصر ما يروم ، وفتح على التتار والأرمن أبوابا من البلاء ، كان هذا الحصن على حافة الفرات قفلها المربح ، وبطليمة كيدهم جواده الملجم المسرج، لأنه فى برّ الشام على جانب الفرات ، والتتار المخذولون به حافون، وحوله صافون، ونافسهم عليها منا أشرف سلطان ، جعل جبالها دكا ، وحاصرها حصارا ألحقها بعكا ، ونصبنا عليها عدة مناجيق تنقض حجارتها انقضاض النسور ، وتقتنص الأرواح من الأجسام وإن ضرب بينها وبينهم سور ، وتفترس أبراجها بصقور صخور افتراس الأسد الهصور ، هذا والنقوب تسرى فى بدناتها سريان الخيال ، وإن كانت جفونها المسهدة وعمدها الممدّدة ، وحفظها المجندة ، ورواسيها على جبل الفرات موطدة ، وقد خندقوا عليها خندقا جرى فيه الفرات من جانب ونهر مرزبان من جانب، ووضعها واضعها على رأس جبل يزاحم الجوزاء بالمناكب، وصفح صرحها الممرد فكأنه عرش لها على الماء ، وإذا رامها رائيها اشتبهت عليه بأنجم السماء ، وما زالت المضايقة « تنقص من حبلها أطرافه ، وتستدر بحيلها آخر الطرف وتقطع »(١) ، بسائل جلاد مقاودها وحلالها خلافه ، ويورد عليها من سهامها كل إيراد لاتجاوب إلا بالتسليم ، ويقضى عليها بكل حكم لا يقابل موته إلا بالتحكيم .

ولما أذن الله بالفتح الذى أغلق على الأرمن والتتار أبواب الصواب، والمنح الذى أضفى على أهل الإيمان من المجاهدين أبواب الثواب، فتحت هذه القلعة بقوة الله ونصره فى يوم السبت حادى عشر رجب الفردّ .

---

(١) « » مكتوب بهامش المخطوط ، ومنبه على موضعه بالمتن .

والمجلس السامى يأخذ حظه من هذه البشرى التى بشرت بها ملائكة السماء ملك البسيطة وسلطان الأرض ، وتكاثر على شكرها كل من أرضى الله طاعته وأغضب من لم يرض من ذوى الإلحاد ، ومن حاد الله له حاد ، وممن ينتظر من هذه الانتصار إنجاز الإلحاد ، فإنه بفتح هذه القلعة وتوقلها وحيازة ثغرها ومعقلها تحقق من سيحون وجيحون أنهم بعد فتح باب العراق تكسر أقفالها هذه القلعة ، لا يرجون[1] أنهم ينجون ، وما يكون بعد هذا الفتح إن شاء الله إلا فتح المشرق والروم ، وملك البلاد من مغرب الشمس إلى ملك مطالع الإشراق ، والله يؤيده ويعضده ، وكتب فى يوم الفتح المبارك سنة إحدى وتسعين حسب المرسوم الشريف .

وقال بيبرس فى تاريخه : واجتهد الأمير علم الدين الشجاعى « فى فتح هذه القلعة[2] » اجتهادا عظيما ، وعمل سلسلة عظيمة وعلقها قريبا من شراريف القلعة ، وطرفها واصل إلى أسفل الربض ، فكانت الجند يستمسكون بها ويصعدون فيها ، فارتقى فيها جماعة من العسكر وفيهم شخص[3] من أوشاقية الأمير بدر الدين أمير سلاح يسمى الجبا ، فقاتل قتالا شديدا وأبلى بلاء حميدا ، والسلطان ينظر إليه ، والعسكر يثنون عليه ، فرسم له بتشريف وإمرة ، فسأل امير سلاح أن تكون الإمرة لولده محمد ، فأعطى إقطاعا وطبلخاناة ، ثم تتابعت العساكر فى تلك السلسلة فكانت حيلة إلى القصد موصلة ، فملكوا القلعة ، [وطلعتها

(١) « لا يرجون » بهامش المخطوط ، ومنبه على موضعها بالمتن .

(٢) « فيها » فى زبدة الفكرة .

(٣) « وفيهم واحد » فى زبدة الفكرة .

السناجق بسرعة ، وقتل من وجد فيها من المقاتلة ، وسبى النسوة والعائلة ، ووجد بها بطرك الأرمن فأخذ أسيرا[(١)] .] .

ذكر رجوع السلطان إلى حلب ، ثم إلى دمشق ثم إلى مصر :

ثم إن السلطان بعد ما فتح الله عليه ونصره رجع إلى حلب ، فأقام بها بقية رجب وشعبان[(٢)] ، وفى تلك الأيام [٤٧] أصاب الجمال مرض مميت ، فأباد أكثرها حتى جافت الوطاقات وأنتنت الطرقات ، ولم يبق لأكثر العساكر شىء تحمل[(٣)] أثقالهم ، فحملوها على بغالهم .

وعزل السلطان شمس الدين قراسنقر عن نيابة حلب ، ورتب فيها سيف الدين بلبان الطباخى نائبا ، عوضا عن قراسنقر ، وجعل عز الدين الموصلى مشدا فيها .

ثم رحل عنها إلى دمشق ، فصام بها رمضان وعيد بها عيد الفطر ، كذا ذكره بيبرس فى تاريخه[(٤)] .

وقال ابن كثير : عزل قراسنقر عن نيابة حلب واستصحبه معه ، وولى موضعه على حلب سيف الدين بلبان المعروف بالطباخى[(٥)] ، وكان نائبا بالفتوحات ،

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة للتوضيح .
انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٧٦ أ ، ب .

(٢) « فأقام بها بقية شهر رجب ونصف شعبان » تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٤٢ .

(٣) « لحمل » فى زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٧٧ أ .

(٤) انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٧٧ أ .

(٥) « البطاحى المنصورى » فى البداية والنهاية ، وهو تحريف عن الطباخى .
ويلاحظ أن النص فى البداية والنهاية يختلف عما ورد هنا ، وبه نقص واضح — جـ ١٣ ص ٣٢٨ .

وكان بقلعة بحصن الأكراد ، فعزله وولى موضعه عز الدين أيبك الخازندار المنصورى ، ثم رحل إلى دمشق بكرة يوم الثلاثاء تاسع عشر شعبان ، وصام بها شهر رمضان ، وعيد عيد الفطر .

وفى ليلة العيد هرب حسام الدين لاجين الذى كان نائبا بدمشق ، وكان السلطان قد اعتقله وهو على حصار عكا كما ذكرنا ، ثم أفرج عنه فى أوائل هذه السنة ، وسار مع السلطان إلى قلعة الروم وعاد معه إلى دمشق ، فلما وصل إليها استوحش من السلطان وهرب منه إلى جهة الغرب ، فقبضوه وأحضروه إلى السلطان ، فبعث به إلى الديار المصرية ، فحبس بها ، وقبض على ركن الدين طقصو لأنه صهره على ابنته ، ولأنه تكلم فى حق الأمير بدر الدين بيدرا ، فلما قبض عليه بعث به إلى قلعة الجبل ، فاعتقل بها .

وذكر فى النزهة : أن السلطان لما طلب أن يقبض على حسام الدين لاجين ما وجده ، وكان قد علم من السلطان أنه يقصد مسكه ، فهرب وحده ، وخرج من بين يدى السلطان بعد أكل السماط ، وقال لمماليكه ، روحوا انتم ، وطلب طريق صرخد ، فلما علم السلطان بهروبه أركب سائر مماليكه وقال : لو وصلتم إلى الفرات لا تردوا إلا به ، وطلب السلطان أن يركب خلفه فمنعه بيدرا وقال : يا خوند إش يقال ، يقول الناس السلطان بنفسه يستحث مملوكه ، وطلب والى البرّ ووالى المدينة وأمرهم بالمناداة عليه ومن أحضره كان له ألف دينار ، ومن أخفاه شنق ، واحتيطت المدينة ، ولم يتهن أحد بالعيد ، فرجع الأمراء ولم يقعوا به ولا وقفوا على أثره ، فبطق[1] السلطان إلى سائر الأقاليم ، وكتب

(١) بطق : البطاقة الورقة ، والبطاقة رقعة صغيرة يثبت فيها مقدار ما تجعل فيه ، إن كان عينا فوزنه ، وإن كان متاعا فقيمته . اللسان .

لسائر العربان بسببه وبالاحتفاظ على الطرقات، وبقى السلطان فى قلق من جهته، فأقام ينتظر خبره إلى أن وقعت بطاقة من جهة الشريفى والى البرّ أنه قبض لاجين من صرخد وهو واصل به، ففرح السلطان بذلك فرحا عظيما.

وكان سبب وقوع لاجين أنه سار وحده إلى أن بلغ أبيات هلال البدوى، وكانت بينهما صحبة أكيدة وصداقة متقدمة من أيام كان لاجين نائبا بالشام، وكان لاجين يحسن إليه كثيرا، فلما رآه هلال وحده استخبره عن أمره، فعرفه الأمر وما اتفق له، فأخذ يطيب خاطره وباتا يتشاوران فيما يفعلانه، فاتفق الرأى أنه يخفيه، وأرسل فى الباطن وعرف الشريفى أن لاجين عنده، فركب الشريفى وحضر إلى بيوت هلال، فلما رآه لاجين علم أن هلالا غدر به، فخرج إليه فقبض عليه وحمله إلى السلطان فى دمشق، فقصد السلطان قتله بدمشق، فأخره بيدرا إلى المدينة، فأرسله إلى مصر مقيدا فى سادس شوال على البريد، وإنما أخره الله يعنى لأمر يكون قدّره فى الأزل.

[٤٨] ذكر تجريد العسكر إلى جبال كسروان(١):

كان السبب فى ذلك أن السلطان لما كان نازلا على قلعة الروم كان أهلها ينزلون ويقطعون الطريق على التجار والمسافرين، وهم كانوا دائما عصاة على نائب الشام وغيره، وكان الشجاعى لما كان نائب الشام أراد أن يركب إليهم بالعساكر، فمنعه أمراء الشام لما يعلمون من كثرتهم ومنعتهم، ولضيق الطرقات إليهم بحيث لا يسلكها الفارس، ولما دخل السلطان دمشق عرفوه بأمرهم،

(١) جبال كسروان: سماها بيبرس المنصورى: جبال الظنين، وهى جبال الدروز بلبنان، ومنها ينبع نهر إبراهيم. زبدة الفكرة جـ ٩ (مخطوط) ورقة ١٧٧ أ، السلوك جـ ١ ص ٧٧٩ هامش (١).

فاقتضى رأيه أن يجرد عسكرا صحبة بيدرا، وكان بيدرا قد وقف على حقيقة هؤلاء القوم، فكره الذهاب إليهم، فلما خاطبه السلطان بذلك شرع فى الاستعفاء، فحرج السلطان من ذلك وصاح فى وجهه وأخرجه من بين يديه وألزم نفسه أنه متى مالم يسافر قبض عليه.

فاضطر بيدرا عند ذلك إلى خروجه، فخرج ومعه عسكر نحوا من عشرة أمراء وثلاثة آلاف فارس، فساروا إلى أن وصلوا إلى جبال كسروان ورتبوا أمورهم، فعلم بهم الجبلية فخرجوا إليهم فى جمع عظيم، وكانوا كفرة روافض ولهم شوكة كبيرة، وجمعهم بمقدار عشرة آلاف نفر، وكلهم يرمون على القسى القوية، ومشيهم فى تلك الجبال أسرع من مشى الخيل لأنهم تربوا فيها وألفوا بها، فاستقبلوا عسكر السلطان بالرمى والقتال، ثم رجعوا عن ذلك كالمنكسرين، وكان ذلك حيلة منهم حتى استجروا العسكر إلى المواضع الصعبة، ثم يفعلون فيهم ما يشاءون، فلما حصلوا فى تلك المواضع رجعوا عليهم ورموهم بالأحجار والقسى ونالوا منهم، ثم إن عسكر السلطان قاتلوهم قتالا عظيما على أن يجدوا طريقا فيرجعون عنهم، وكانوا قد ملكوا الطريق عليهم، ورأى العسكر شدة عظيمة إلى أن رجعوا إلى مكان وطلعوا منه، وقتل فى ذلك اليوم تحت بيدرا ثلاث رؤوس من الخيل، وكذلك سائر الأمراء، فلما نزلوا إلى الخيم افتقدوا العسكر، فوجدوا قد جرحت منهم جماعة وأسرت جماعة، فتحيروا ولا يدرون ماذا يفعلون.

وكانت الجبلية يعتقدون أن هذه العسكر هم عسكر الشام، فلما سألوهم قالوا: إنه نائب السلطان الأمير بيدرا، و [لما][1] علموا بذلك ندموا على فعلهم،

(١) [ ] إضافة تتفق مع السياق.

وأطلقوا الأسرى ، وسألوهم أن يتوسطوا فى إصلاح أمرهم مع السلطان خشية على أنفسهم ، فهـؤلاء عرّفوا الأمراء ، فأشارت الأمراء على بيدرا بإصـلاح الأمور وإلا منعت العسكر ، واتفق الحال على أن الجبلية أرسـلوا من استحلف بيدرا والأمراء على أنهم لا يؤذونهم ولا يخونونهم ، فانصلـح الأمر بينهـم ، ثم نزلوا بالإقامات وأحضروا هدايا كثيرة ، وخلع بيدرا عليهم ، وكتب عليهـم بمال يحملونه كل سنة ، واستحلفهم للسلطان ، ثم رحل عنهم[(١)] .

ولـما وصل إلى دمشق كان الخبر وصل قبله إلى السلطان وكان بين مصدق ومكذب ، فلما حضر بيدرا تحقق الخبر ، فأخذ يسبه وينكته بالقول ، ويقول ويلك مثلك نائب السلطان وتروح إلى أناس فلاحين فى جبـل وتكسر عسكرى وتنكسر أنت ، فأغلـظ عليه بالقـول كثيرا ، وآخر الأمر قال له : أخرج من وجهى وإلا ضربت رقبتك .

فخرج من بين يديه وهو فى ألم عظيم[(٢)] ، وحصلت له حمى حادة ، وأصـبح خبره شائعا بضعفه ، وركبت إليه الأمراء ، فمنع من يدخل إليه ، وسير السلطان الحكماء والوزير إليه ، وتألم بسببه ، [٤٩] وبقى من العشر الأول من رمضان إلى نصفه والسلطان ينزل إليه ويطيب خاطره ، ورسم أن يرتب له فى كل يوم

(١) ذكر المقريزى : فلقيهم أهل الجبال ، وعاد بيدرا شبه المهزوم ، واضطرب العسكر اضطرابا عظيما ، فطمع أهل الجبال فيهم ، وتشوش الأمراء من ذلك ، وحقدوا على بيدرا ونسبوه أنه أخذ منهم الرشوة » — السلوك ج١ ص ٧٧٩ ، وانظر أيضا ما ورد بهذا الخصوص فى تاريخ ابن الفرات ج ٨ ص ١٤٢ — ١٤٣ .

(٢) ذكر المقريزى « فلما عاد (بيدرا) إلى دمشق تلقاه السلطان وترجل له عند السلام عليه ، وعاتبه سرا فيما كان منه » — السلوك ج ١ ص ٧٧٩ .

عشرة آلاف درهم يتصدق بها على الفقراء والأيتام والأرامل وأصحاب الزوايا إلى أن عوفى ، فلما ركب رسم أن يجمع الفقراء والمشايخ ويعمل لهم وقت فى جامع بنى أمية ، فعمل ، وكان وقتا عظيما ، ولم يبق فى دمشق فقير ولا صعلوك إلا أكل من طعام ذلك الوقت والمهم .

ذكر خروج السلطان من دمشق وتوجهه إلى الديار المصرية :

كان خروجه من دمشق فى عاشر شوال يوم الإثنين[1] ، ودخل مصر يوم الأربعاء الثانى من ذى القعدة ، ودخلها فى أبهة عظيمة ، وأحضر صحبته قراسنقر المنصورى وجعله مقدما على المماليك السلطانية .

قال ابن كثير : ولما استقر السلطان فى القلعة قبض على الأمير سنقر الأشقر[2] وعجل بإعدامه ، وأذاقه كأس حمامه ، وقبض على الأمير سيف الدين جرمك الناصرى وأعدمه ، هو وطقصو خشداشه ، وكانت وفاة هؤلاء الثلاثة فى وقت معا ، وقصد إعدام حسام الدين لاجين فسلم الله نفسه لأمر كان فى طى الغيب على ماسنذكره إن شاء الله تعالى ، وكان هذا فى أواخر ذى القعدة[3] .

---

(١) « يوم الإثنين تاسع شوال » فى كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٣٩ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ١١٢ ، نهاية الأرب (مخطوط) ٢٩ ورقة ٦٩ ، جـ ٧ ، كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٤٠ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٥١ ، السلوك جـ ١ ص ٧٨١ — ٧٨٢ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ٨٥ رقم ١٢٧ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٥٤ .

(٣) أورده المقريزى هذا الخبر على أنه من أحداث سنة ٦٩٢ هـ وقال : « فى ليلة أول المحرم » السلوك جـ ١ ص ٧٨٢ .

وكان السلطان استحضر[1] سنقر الأشقر وطقصو فعاقبهما فاعترفا بأنهما أرادا قتله ، فسألهما عن لاجين فقالا : لم يكن معنا ولا علم له بهذا ، فخنقهما وأطلقه بعد ما كان الوتر فى حلقه « وكانت له مدة لابد منها[2] » ، وقد ملك بعد ذلك كما سنذكره[3] .

وذكر فى نزهة الناظر : أن مسك سنقر الأشقر ومن معه كان والسلطان فى دمشق ، وأن السبب فى مسكه ماصدر منه والسلطان وعسكره محاصرون قلعة الروم ، وهو أن السلطان لما استشار الأمراء هناك فى الرجوع عن قلعة الروم حين بلغه وصول أبتاى كان آخر كلام سنقر الأشقر هذا للأمير بيدرا : الحرب ، هو لعب الصغار[4] ، فأثرت هذه الكلمة فى نفس السلطان أثرا كبيرا ، وصار إذا جلس مع بيدرا والخاصكية يقول لبيدرا : سمعت قول سنقر الأشقر الحرب هو لعب الصغار ، ما كان هذا القول لك ، بل كان لى ، يقول لك ويسمعنى ، ولما دخل دمشق وأرسل بيدرا إلى جبال كسروان كما ذكرنا وجرى ماجرى ، ثم عادوا إلى دمشق ، شرع السلطان يباكت الأمراء ويقبح عليهم فعلهم ، والتفت إلى بيبرس الجالق وقال : ما أسمع يقولون إلا البحرية فعلوا كذا وصنعوا كذا وفشارات كثيرة وما رأينا منهم شيئا . فقال الجالق : بالله ياخوند خل عنك ذكر البحرية وقد بقينا كلنا على آخر نفس ، وما بقى لنا غير الراحة والقعود فى بيوتنا وينتفع الشبان بأخبازنا ، فالتفت إليه السلطان وهو مغضب

(١) بداية ماورد من هذا النص فى البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٣٠ .

(٢) « وكان قد بقى له مدة لابد أن يبلغها » — البداية والنهاية .

(٣) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٣٠ .

(٤) انظر ماسبق ص ١١٤ .

وقال : إذا أخذت خبزك وأعطيته لغيرك من يمنعنى أو أخاف من أحد ، وإنما أنتم ماتركون فشاركم ، كلما يتكلم أحد تقولون : لو كانت البحرية ، وكان يتكلم بذلك ويشير إلى سنقر الأشقر .

فأخذ سنقر الأشقر من كلامه فى قلبه أمرا عظيما ، فأجابه على الفور ، فقال ياخوند : كم تذكر البحرية ، مارأى السلطان البحرية إلا إذا ركب واحد منهم فرسه مايقدر على ركوبه إلا بمعونة خمسة أنفس وكذا إذا نزل ، وكان أحدهم إذا أخذ فى يده رمحا ما كان أحد يقدر على مقابلته ، فاليوم إذا أخذ بيده سوطا ترعد يده [٥٠] وإن رفعه مايقدر على أن يضرب به فرسه .

وكان أمير سلاح حاضرا فى المجلس ، فرأى أن وجه السلطان قد تغير لونه من كلام سنقر الأشقر، وأسرع فى قوله : ياخوند والله لاالبحرية ولا غيرهم، فكل عسكر مصر والشام اليوم يدعون بحياتك وطول عمرك حتى تعيش لهم طويلا فيعيشون فى ظلك وخيرك ، فسكن ما بالسلطان عند ذلك .

ولما تفرقوا من عند السلطان وجاء كل أحد منزله قال شهاب الدين صمغار ولد سنقر الأشقر له : ياخوند أنت تعرف أن هذا السلطان شاب حاد النفس مدل بسلطنته، فلأى شىء تجاوبه كل وقت ، وما كان يضرك لو سكت عن الجواب عما سمعت ، فقال بعد أن نظر إليه طويلا : ماقلت له هذا القول إلا لعلمى بما فى نفسه منى ومن غيرى من يوم كنا نازلين على قلعة الروم واستشار الأمراء فى الرجوع لأجل المغولى ، وكل وقت يحدث هذا الحديث بين مماليكه ويسوئى ، فالموت خير من مثل هذه الحياة النجسة ، ثم بكى بكاء شديدا .

وكان وقوع المجلس المذكور فى السابع والعشرين من رمضان، ولما دخلت عليه الأمراء ليلة العيد للتهنئة وتقبيل يده، ثم خرجوا، أرسل الشجاعى والحجاب خلفهم، فرجعوا، وأمر عنـد ذلك بالقبض على سنقر الأشقر وطقصو وطاب لاجين فلم يدركوه، وكان قد سبقهم بالخروج، وقد ذكرنا ما جرى عليه وكيف كان مسكه بعد ذلك، ووقع حياط عظيم يوم العيد، فلم يتهن أحد بالعيد.

ومن غريب الأمر أن بعض الخاصكية اعتنى بموفق الدين خطيب حماة وولاه السلطان خطيب دمشق مكان الشيخ عز الدين، واتفق وقوع هـذا الحياط، وللموفق صلاة العيد وخطبته، فنظم فيه بعض الدماشقة:

خطبَ الموفق إذ تولى خطبـة ... شقَّ العَصَى بين المـلوك وفرقا
وأظنه إن قال ثانيـةً غـدا ... دينُ الأنام وشملُهـم مُتمـزِّقا

قلت: موفق الدين هذا هو أبو المعالى محمد[1] بن عز الدين محمد بن محمد بن عبد المنعم، وعز الدين هو الإمام العلامة الزاهـد العابد القدوة العارف شيخ الطريقة أبو العباس أحمد[2] الفاروثى الواسطى الرفاعى، وكان قد تولى الخطابة بجامع دمشق فى الثانى والعشرين من ربيع الأول من هـذه السنة، عوضا عن الشيخ زين الدين بن المرحل بحكم وفاته.

---

(١) هو محمد بن محمـد بن المفضل بن محمـد البهرانى القضاعى الحموى الشافعى، ويعرف بابن حبيش، الخطيب موفق الدين، توفى سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٢م — العبر جـ ٥ ص ٤٠٤ — ٤٠٥. وورد اسمه: محمد بن محمد بن المفضل بن محمد النهروانى، فى الدارس جـ ١ ص ٣٥٦، ص ٤٢٣.

(٢) هو أحمد بن إبراهيم بن عمر الفاروثى، المتوفى سنة ٦٩٤هـ / ١٢٩٥م — انظر ما يلى.

وفيها : وصل مملوك نائب حلب إلى القاهرة ، وعرف السلطان بأن نائب حلب عند توليته - كما تقدم - جرد عسكرا إلى ناحية ملطية بسبب الغارة، وذلك أن بعض التجار شكا إليه أن جماعة طرحوا عليهم من أهل ملطية، فأخذوا مامعهم، وجعل مقدم المجردين الأمير سيف الدين بكتمر الحلبي ، فساروا إلى أن وصلوا إلى أرض ملطية وهجموا على ربضها ، فوجدوا قد نزل بها تلك الليلة أمير تومان ومعه أربعة آلاف فارس ، وكان السبب لحضورهم أن أهل ملطية لما اتفق منهم ما اتفق ، علموا أن نائب حلب لابد أن يجرد إليهم عسكرا ، فبعثوا إلى نائب الأردو وعرّفوه بذلك ، فسير إليهم هؤلاء ، واتفق وصولهم مع وصول عسكر حلب فى تلك الليلة ، فلما هجموا رآهم المغول فركبوا إليهم ، وكان عسكر حلب ألفا وخمسمائة فارس ، فلما رأوا المغول اجتمعوا وتشاوروا ماذا يكون العمل ؟ فقال الحلبى وكان من أهل الشجاعة والفروسية : أنتم تعلمون أن حلب بعيدة وإذا [٥١] قصد أحد منا أن يهرب يموت فى الطريق ويكون من أهل جهنم ، فنقوم ونجتهد ، فإن فتح الله لنا ونصرنا على هؤلاء يكون لنا الوجه الأبيض عند الله وعند السلطان والناس ، وإن قتلنا فيكون الأجر على الله ونبعث مع الشهداء ، وأنا أول من يصدم هؤلاء ونفسى تحدثنى بالنصر، فأجابوه بالسمع والطاعة ، فعند ذلك جمعهم طلبا واحدا ، فصدمهم صدمة عظيمة ، فجاءت طعنة لمقدم المغول من بعض الحلبيين ، فوقع إلى الأرض ، وولى بقية أصحابه منهزمين ، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة ، وأخذوا جمالا كثيرة ، وأغناما كثيرة ، ورجعوا إلى حلب سالمين ومعهم رءوس القتلى وثلاثون أسيرا من المغول، فكتب النائب بذلك إلى السلطان ، فرسم له بالتشريف وكتب له بالشكر والثناء ،

ورسم لبكتمر الجلي بإمرة طبلخاناة ، وكان أمير عشرة ، ووردت بعد ذلك رُسُل من ملطية ومعهم جميع ما عدم لذلك التاجر ، فرسم السلطان بفكاك أسراهم .

وفيها : حج بالنــاس الأمير سيف الدين الباسطي المنصوري .

ذكر من تُوفى فيها من الأعيان

الخطيب الإمام العالم زين الدين أبو حفص عمر[(١)] بن مكى بن عبد الصمد الشافعى ، المعروف بابن المرحل[(٢)] .

وهو والد الشيخ صدر الدين بن الوكيل[(٣)] ، سمع الحديث وبرع فى الفقه ، وفى علوم شتى منها علم الهيئة وله فيه وفى غيره تصانيف ، وقد ولى خطابة جامع دمشق[(٤)] ، ودرس ، وأفتى ، وكانت وفاته ليلة السبت الثالث والعشرين من ربيع الأول ، ودفن بباب الصغير .

جلال الدين الخبازى : هو الشيخ الإمام العلامة عمر[(٥)] بن محمد بن عمر أبو محمد الخجندى ، أحد مشايخ الحنفية الكبار .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ١١٣ ، العبر جـ ٥ ص ٣٧٣ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٣١ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤١٩ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(٢) « مولده سنة سبع عشرة وستمائة » — تذكرة النبيه .

(٣) هو : محمد بن عمر بن مكى بن عبد الصمد صدر الدين ، ابن الوكيل ، وابن المرحل ، ويقال له ابن الخطيب ، المتوفى سنة ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م — المنهل الصافى .

(٤) هو الجامع الأموى .

(٥) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٣٣١ ، تاج التراجم ص ٤٧ رقم ١٤١ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤١٩ ، الدارس جـ ١ ص ٥٠٤ .

أصله من بلاد ما وراء النهر ، واشتغل هناك ، ودرس بخوارزم ، وأعاد ببغداد ، ثم قدم دمشق فدرس بالعزية البرانية[1] ، والخاتونية البرانية[2] ، وكان فاضلا ، بارعا ، منصفا مصنفا في فنون كثيرة .

وقال الذهبي في حقه : المفتي الزاهد الحنفي ، رأيته لما قدم دمشق فدرّس بالمعزية البرانية ، ثم حج ، ودرّس بالخاتونية البرانية .

قلت : ومن تصانيفه « الحواشي على الهداية[3] » المشهورة ، وكتاب « المغنى في أصول الفقه » وهو كتاب نافع عظيم ، ومختصر لطيف كاف شاف ، وشرحه كثير من المتأخرين ، فأوضحها بيانا شرح الإمام العالم سراج الدين الهندي[4] الحنفي ، وهو أول كتاب قرأته في الأصول على المشايخ الكبار في البلاد الشمالية في حدود سنة ثمانين وسبعمائة ، وكانت وفاته لخمس بقين من ذي الحجة ، وله ثمان وستون سنة ، ودفن بمقابر الصوفية .

---

(١) المدرسة العزية البرانية بدمشق : مدرسة الأمير عز الدين أيبك المعروف بصاحب صرخد ، والمتوفى سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م — الدارس جـ ١ ص ٥٥٠ — ٥٥١ .

(٢) المدرسة الخاتونية البرانية بدمشق : مسجد خاتون : وقفتها الست خاتون أم شمس الملوك أخت الملك دقاق ، وهي زمرد خاتون بنت جاولي ، وزوجة تاج الملوك بوري ، المتوفاة سنة ٥٥٧هـ/١١٦١م — الدارس جـ ١ ص ٥٠٣ — ٥٠٤ .

(٣) وكتاب « الهداية » في فقه الحنفية لمؤلفه علي بن أبي بكر المرغيناني ، برهان الدين ، المتوفى سنة ٥٩٣هـ/١١٩٦م — كشف الظنون جـ ٢ ص ٢٠٣١ .

(٤) هو عمر بن إسحاق بن أحمد الهندي ، الغزنوي ، سراج الدين ، أبو حفص ، المتوفى سنة ٧٧٣هـ/١٢٧٢م ، والكتاب المقصود في المتن هو « التوشيح في شرح الهداية » — كشف الظنون جـ ٢ ص ٩٨ : ١ ، ٤ ٣ ، ٢ ، الدرر جـ ٣ ص ٢٣٠ رقم ٢٩٨٦ ، وانظر ترجمته في المنهل الصافي .

الشيخ الفاضل الأديب نجم الدين أبو بكر بن[1] أبي العز بن مشرف الأنصارى الكاتب .

مات فى هـذه السنة ، وصُلِّى عليـه بجامع دمشق ، ودُفن بسفح قاسيون . وكان من الفضلاء ، وكان يكتب خطا منسوبا على طريقـة ابن البواب[2] ، وله نظم حسن ، فمن ذلك قوله يمدح علم الدين الدوادارى :

إنَّ المحِّل إذا عَـلَا وقف المُفَـوَّه فى المــلا
وأجادَ فى وصف القـريـ ـض مُجْمَـلا ومفصَّـلا
وأراك قسًا فى عُكا ظ إذا محاسـنكم تلا
وعلى الحقيقة مجـدكم يُعطى البليغَ المِقْـولا
يُعطى النُّضار مع البيا ن مع البـديع على الوِلا[3]

الشيخ الإمام العالم ، المقرئ الزاهـد العابد ، بقية السلف ، رضى الدين أبو الفضل جعفر بن[4] القاسم بن جعفر بن على بن محمد بن حُبَيْش الربعى ، المعروف بابن دَبُوقا .

(١) وله أيضا ترجمة فى : الوافى جـ ١٠ ص ٢٢٨ رقم ٤٧١٥ .

(٢) هو : على بن هلال ، أبو الحسن ، المعروف بابن البواب ، الخطاط المشهور من أهل بغداد ، توفى سنة ٤٢٣ هـ / ١٠٣٢ م — وفيات الأعيان جـ ٣ ص ٣٤٢ رقم ٤٥٧ .

(٣) انظر الوافى جـ ١٠ ص ٢٢٩ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٤ ص ٢٦٩ رقم ٨٤٦ ، طبقات القراء جـ ١ ص ١٩٤ رقم ٨٩٤ ، العبر جـ ٥ ص ٣٧٢ ، الوافى جـ ١١ ص ١٢٤ رقم ٢٠٥ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤١٨ .

مات فى هذه السنة ودفن بقاسيون ، قرأ بالسبع وروى عن الشيخ [٥٢] علم الدين السخاوى(١) وغيره ، وله نظم كثير ، فمن ذلك قوله :

إنّ الكبائر سبع عشر فاعلمن — للقلب منها أربعٌ فتعلّمْ
إشراكه إصراره وقنوطه — والأمنُ من مكر الإله المنعمْ
وكذا اللسان الشركُ قذف المحصنا — ت السحرُ قول الزور فافهم واعلم
والبطن أموال اليتامى والربا — والخمرُ جماع لسائر ما ذُمّ
يختصّ بالفرج اللواط مع الزنا — ويدٌ إذا سرقت ونيل يحرّم
للرجل واحدة إذا من زحفها — فرت مخافةً ولما تقدم
ولسائر البدن العقوق فإن نجت — ما قد ذكرتُ وقيت حر جهنم

وقال :

جميعُ عذاب منك للصبّ يعذُبُ — وكلُ كريه منك فى الحُبّ طيّبُ
فعذب بما تختارُ فى كل حالةٍ — فأنت على كل الأمور محبّبُ
تساوى العطا والمنع والوصل والجفا — لدىّ وبُعدى فى الهوى والتقرّبُ
فهل ترى فى كل حال إلى سوى — جنابك إذ ما تبتلينى أهربُ
بحق الذى أعطاك فى الحسن غاية — إلى بعضها كلُ الملاحة ينسبُ
واطلع من فوق القضيب على النقا — لنا قمراً من حسنه الطرفُ يعجبُ
ونمنم فى الياقوت خط زمرّد — يسطّرهُ ماءُ الصبا ويرتبُ
وقال لماء الحسن قف صحن خدّه — فمازج فيه النارَ وهى تلهبُ
أمرتَ الدجى أن يستطير ظلامه — بها صبحه حتّى القيامة يذهبُ

(١) هو : على بن محمد بن عبد الصمد الهمدانى ، علم الدين السخاوى ، أبو الحسن ، المتوفى سنة ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م — العبر جـ ٥ ص ١٧٨ .

وقلت لسُقمى قد أبحتك جسمه فأعضائى فى أيدى النوائب تُنهب
ترفق فما أبقيتَ غير حُشاشةٍ وقلبٍ على جمر الغضى يتقلبُ
جنيت وقد عادَت على جنايتى فياليت شعرى من ألُوم وأعتبُ
نديمى حَدّثنى قديم حديثه فإن حديث الحبِّ للسمع مُطربُ
تعلقته فى عنفوان شَبيبتى وها مفرقى مما أعانيه أشيبُ
فدَعنى من لُبْنَى وليلى وزينبا فمن فى الورى ليلى ولبنى وزَيْنبُ
وعد عن الأوطان لاتُلو نحوها وخلِّ وقوفا بالديار يشيبُ
قل الله واتركهم ولا تشتغل بهم وشاهد فإن القوم عن ذاك غيبُ
لعمرك مافى الكون إلا جلالُه ألم ترنى إن بَعْدُ أفنى وأذهبُ
فيا مَنْ إليه يرجعُ الأمر كلُّه ومنه بدا فى الكون ما فيه يعزبُ
اقلنى ذنوبا أوثقتنى جمةً فإنك ذو عفوٍ وإنّى مُذنب
ولا تخزنى فى حين عرض صحيفتى فوا خجلتى مما جنيت ويكتب
قصدَتك أبغى رحمةً منك سيّدى وأنت كريمٌ قاصدٌ لا تخيّب

[٥٣]

لئن ضقت ذرعا بالذنوب فإنّنى لأعلمُ حقاً أن عفوك أرحبُ
وصلِّ على المختار من آلِ هاشم نبيِّ الهدى مالاحَ فى الأفق كوكبُ
وعترته ثم الصحابة كلهم صلاة كنشر المسك بل هى أطيبُ

الصدر الرئيس سعد الدين سعد الله (١) بن مروان بن عبد الله الفارقى الشافعى ،

(١) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ١١٤ ، الوافى جـ ١٥ ص ١٨٧ رقم ٢٦١، فوات الوفيات جـ ٢ ص ٤٧ رقم ١٦٥ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ٧٨ رقم ١١٨ ، السلوك جـ ١ ص ٧٨١ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤١٨ ، العبر جـ ٥ ص ٣٧٢، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٥٧ — ١٥٨ .

الكاتب بالمدرسة الناصرية[١] بدمشق .

مات فى هـذه السنة بدمشق ، ودفن بسفح قاسيون ، وكان نسيبا بليغا ، شاعرا محسنا ، كتب الدرج للصاحب بهاء الدين بن حنا[٢] بمصر ، فلما مات ابن حنا سافر إلى دمشق كاتب إنشاء .

وله شعر فمنه قوله :

قِفْ بى على نجدٍ فإنَّ قبضَ الهوى		رُوحى فطالبْ خَدَّ لَيْلى بالدَّم
وإذا دَجَى ليلُ الفـراقِ فنادِه		يا كافـراً حَلَّلْتَ قتْـل المُسْـلِم

وله :

تاه عـلى عُشّاقه واستَطال		مُذْ قُصِّر الحُسْنُ عليه وطَال
كلُ سَمـاء وجهِـه[٣] أشرقَت		فليتْ ما[٤] أشرقت للـزوالْ
قـد فَصَّـل الشَّـعْرُ على خَدّه		ثـوبَ حِدادٍ حِينَ مات الجمالْ

(١) تنسب للملك الناصر يوسف بن محمد بن غازى ، صلاح الدين ، المتوفى سنة ٦٥٩ هـ/١٢٦١ م ، وهو واقف الناصريتين بدمشق .

الناصرية البرانية دار الحـديث الناصرية ، بمحلة الفواخير بسفح قاسيون ، وقد أنشئت سنة ٦٥٤ هـ بعد الفراغ من الناصرية الجوانية .

الناصرية الجوانية ، داخل باب الفراديس شمالى الجامع الأموى ، انتهت عمارتها فى أواخر سنة ٦٥٣ هـ .

انظر الدارس جـ ١ ص ١١٥ ، ص ٤٥٩ .

(٢) هو : على بن محمد بن سليم ، الصاحب بهاء الدين بن حنا ، المتوفى سنة ٦٧٧ هـ/١٢٧٨ م - انظر ما سبق بالجزء الثانى ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

(٣) « كان سماء شمسه » فى الوافى جـ ١٥ ص ١٨٧ .

« كأن شمس حسنه » فى فوات الوفيات .

(٤) « فليتها » فى الوافى ، وفوات الوفيات .

وقال ، وكتب به إلى الصاحب بهاء الدين بن حنا :

يمّم عليًا فهو بحر الندى ... وناده فى المضلع المعضل
يسرع إذا سيل نداه وهل ... أسرع من سيل أتى من عل
فرفده مجد على مجدب ... ورفده مفض على مفضل (١)

وقال :

بحبك فى شرع الغرام يدين ... محب بروحه لوعة وحنين
إذا كتم الأسرار منه فؤاده ... فإن لسان الدمع منه مبين
وإن قابلته نسمة حاجرية ... ثنى عطفه نوح لها وأنين
فليتك يا من علم الغصن ينثنى ... تعلم منك القلب كيف يلين
وليت قديما من هواك مجدد ... رضاك لتقضى من جفاك ديون
سكنت سواد القلب والطرف دائما ... فما لبياض العيش فيك سكون
وألبسك الإحسان والحسن عزة ... فكل عزيز فى هواك يهون

الشيخ الإمام العالم مجد الدين عبد الله (٢) بن محمد بن محمد بن أبى بكر الطبرى ، إمام صخرة بيت المقدس ، وشيخ الحرم الشريف .

مات فى هذه السنة ، ودفن بمقبرة ماملا ظاهر القدس ، كان من الصلحاء الأخيار ، وروى عن جماعة .

(١) يوجد اختلاف فى ترتيب هذه الأبيات — انظر تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٥٨ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : الوافى جـ ١٧ ص ٥٨٦ رقم ٤٩٢ ، درة الحجال جـ ٣ ص ٤٥ رقم ٩٤٨ ، وورد اسمه « مجد الدين أبو عبد الله محمد بن أبى بكر » — السلوك جـ ١ ص ٧٨٩ .

وله شعر فمنه :

يَرُوقُ لى مَنظر البيت العتيق إذا بدا ... لِطَرْفىَ فى الإشراق والطفَل

كأن حلّته السّوداء قد نُسِجت ... من حبة القلب أو من أسْود المُقَل

أبو المكارم محمد(١) بن عبد المنعم بن نصر الله بن جعفر بن أحمد بن حوارى ، المغربى الأصل ، الدمشقى الحنفى ، المعروف بابن شقير ، الأديب الشاعر .

مولده فى سنة ست وستمائة ، وهو من شعراء [٥٤] الملك الناصر(٢) صاحب حلب ، سمع الزُبيدىّ وابن اللتىّ والهمدانىّ وابن رواحة والسخاوىّ والقطيعىّ وابنَ رواج وجماعةً أخرى بديار مصر ، وعنى بالحديث عناية كثيرة ، وكتب الكثير، وتعب وحصّل، وروى عنه ابن الخباز والدمياطى وابن العطار وآخرون، توفى فى هذه السنة ووقف أجزائه بالضيائية(٣) .

وله فى الملك الناصر صاحب حلب مدائح كثيرة ، ومن شعره قوله :

ماضرّقاضى الهوى العذرىّ حين ولى ... لو كان فى حكمه يقضى علىّ ولى

وما عليه وقد صِرْنا رعيّته ... لو أنه مُغمِدٌ عنّا ظُبي المُقَل

يا حاكم الحُب لاتحكم بسفك دمى ... إلّا بفتوى فتور الأعيُن النُجل

(١) وله أيضا ترجمة فى : الوافى جـ ٤ ص ٤٧ رقم ١٥٠٦ ، فوات الوفيات جـ ٣ ص ٤١١ رقم ٤٧٤ . وورد فى الوافى وفوات الوفيات أن صاحب الترجمة توفى سنة ٦٦٩ هـ .

(٢) هو : يوسف بن محمد بن غازى ، الملك الناصر صلاح الدين ، قتله التتار سنة ٦٥٩ هـ/١٢٦١م — العبر جـ ٥ ص ٢٥٦ — ٢٥٧ .

(٣) هى المدرسة الضيائية المحمدية بدمشق : بسفح قاسيون ، أنشأها محمد بن عبد الواحد المقدسى الحنبلى ، ضياء الدين ، المتوفى سنة ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م ، وكان بالمدرسة الضيائية خزانة كتب كبيرة مشهورة — الدارس جـ ٢ ص ٩١ وما بعدها .

ويا غريم الأسى الخصم الألد هوى | رفقا على بجسمى فى هـواك بلى
أخذت قلبى رهنا يوم كاظمة | على بقايا دماء للهـوى قبـلى
ورمت منى كفيـلا للهوى عبثا (١) | وأنت تعلم أنى بالغرام ملى
وقد قضى حاكم التبريح مجتهدا | على بالوجد حتى ينقضى أجلى
لذا قذفت شهود الشرع فيك عسى | أن الوصال بجرح الجفن يثبت لى
لا تسطون بعسال القوام على | ضعفى فما أتقى إلا من الأسل
هددتنى بالقلى حسبى الجوى وكفى (٢) | أنا الغريق فما خوفى من البلل (٣)

وله :

واحيرة القمرين منه إذا بدا | وإذا انثنى يا خجلة الأغصان
كتب الجمال وياله من كاتب | سطرين فى خديه بالريحان (٤)

القاضى الصاحب فتح الدين أبو عبد الله محمد (٥) بن القاضى محيى الدين عبد الله ابن عبد الظاهر بن نشوان .

---

(١) « بالأسى » فى فوات الوفيات جـ ٣ ص ٤١١ .

(٢) « الجفا » فى فوات الوفيات .

(٣) انظر الوافى جـ ٤ ص ٤٨ ، فوات الوفيات جـ ٣ ص ٤١١ .

(٤) فوات الوفيات جـ ٣ ص ٤١٢ .

(٥) وله أيضا ترجمة فى « المنهل الصافى » نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٩ ورقة ٧٠ ، درة الأسلاك ص ١١٢ ، زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٧٨ أ — ب ، الوافى جـ ٣ ص ٣٦٦ رقم ١٤٤٣ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٣١ ، السلوك جـ ١ ص ٧٨١ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٥١ ، العبر جـ ٥ ص ٣٧٣ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٣٥ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٥٦ — ١٥٧ ، بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٣٧٠ .

صاحب ديوان الإنشاء الشريف ، وكاتب الأسرار فى الدولة المنصورية بعد ابن لقمان حين تولى الوزارة ، وكان ماهرا فى هذه الصناعة ، وحظى عند المنصور ، وكذا عند ابنه الأشرف .

توفى يوم السبت النصف من رمضان بمدينة دمشق ، وخلف من الأولاد القاضى علاء الدين على[1] ، فأجرى السلطان عليه ما كان باسم والده من الجامكية والجراية والراتب ، فاستقر بديوان الإنشاء وله من العمر دون عشرين سنة ، فاستصغر السلطان سنه فى ذلك الأوان .

فرتب القاضى تاج الدين أبا العباس أحمد[2] بن شرف الدين سعيد بن شمس الدين أبى جعفر محمد بن الأثير الحلبى التنوخى صاحب ديوان الإنشاء الشريف ، لأنه كان ماهرا فى هذه الصناعة ، فلم يلبث إلا شهرا أو حول شهر حتى أدركته الوفاة ، فقضى إلى رحمة الله فى العشر الأوسط من شوال[3] من هذه السنة بظاهر غزة ، وعمره أحد[4] وسبعون سنة ، وكان ماهرا فى حل المترجم ، بلغ فيه إلى أن حله بأحد عشر شكلا ، وولى بعده ولده القاضى عماد الدين أبو الطاهر إسماعيل[5] ابن أحمد ، ولم يزل به إلى آخر سنة اثنتين وتسعين وستمائة .

(١) توفى سنة ٧١٧ هـ / ١٣١٧ م — المنهل الصافى ، الدرر جـ ٣ ص ١٨٣ رقم ٢٨٧٤ ، شذرات الذهب جـ ٦ ص ٤٦ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٣٠٠ رقم ١٦٠ ، نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٩ ورقة ٧٠ ، درة الأسلاك ص ١١٣ ، الوافى جـ ٦ ص ٣٩٢ رقم ٢٩٠٦ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٣٤ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٤٧ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ٢٣ رقم ٣٤ ، السلوك جـ ١ ص ٧٨١ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٥٨ .

(٣) « يوم الخميس تاسع عشر شوال » تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٥٥ .

(٤) الصواب : إحدى وسبعون .

(٥) توفى سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م — المنهل الصافى جـ ٢ ص ٣٩١ رقم ٤٢٨ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٩٠ ، الوافى جـ ٩ ص ٩٠ رقم ٤٠٠٧ ، السلوك جـ ١ ص ٩٠٥ ، وانظر ما يلى فى وفيات ٦٩٩ هـ .

وللقاضى فتح الدين شعر حسن ، فمنه قوله :

إذا كنت ذا أصل فكن متواضعاً ... إن التواضع من زكاة المغرس
وإذا حللت بمجلس فاجلس به ... حيث انتهيت فذاك صدر المجلس

وله : وكتب بها إلى ابنه فى مرضه الذى مات فيه :

[٥٥]

إن شئت تنظرنى (١) وتنظر حالتى ... قابل إذا هب النسيم قبولا
فتراه مثلى رقة ولطافة (٢) ... ولأجل قلبك لا أقول عليلا
وهو الرسول إليك منى ليتنى ... كنت «اتخذت مع الرسول سبيلا» (٣)

الأمير عماد الدين يونس (٤) بن على بن رضوان بن قرقس (٥) .

توفى فى شوال منها ، ودفن بتربة والده بالحزيميين داخل دمشق ، وكان عنده فضيلة ومكارم أخلاق ، وكان بعد موت أبيه أعطى طبلخاناة ، وبقى على إمرته إلى أواخر الدولة الناصرية ، ثم بطل الإمرية فى الدولة المظفرية ، وباع أملاكه ونفقها ، وبقى يتقوت من وقف والده ، وكان الملك الظاهر يكرمه .

الأمير شرف الدين بن (٦) خطير أحد أمراء دمشق .

---

(١) « تبصرنى » فى بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٣٧١ .
« إن شئت تبصرنى وتبصر حالتى » فى المنهل الصافى ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٣٥ .
(٢) « تلقاه مثلى رقة ونحافة » — فى بدائع الزهور ، المنهل الصافى ، النجوم الزاهرة .
(٣) سورة الفرقان رقم ٢٥ آية رقم ٢٧ .
(٤) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٣١ .
(٥) « برنش » فى البداية والنهاية .
(٦) وله أيضا ترجمة فى : كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٣٣ .

استشهد فى فتح قلعة الروم ، وكان من بيت كبير فى بلاد الروم ، ولوالده عدة مماليك وردوا صحبته ، وصار له فى مصر سمعة وشان ، وتأمرت منهم جماعة كثيرة .

الأمير شهاب الدين أحمد[(١)] بن الركن أمير جندار ،

مات شهيدا على قلعة الروم .

الأمير سابق الدين[(٢)] الميدانى .

مات بدمشق فى العشرين من شوال ، ودفن بقاسيون ، كان أميرا كبيرا شجاعا ذا مهابة ، وتأمر بعض مماليكه فيما بعد .

الأمير علم الدين سنجر[(٣)] الحلبى .

مات فى عاشر ذى القعدة[(٤)] وكان قد مرض بعد حصار قلعة الروم ، فحمل فى محفة إلى مصر ، فمات بعد حضوره بسبعة أيام ، وكان من أكابر الأمراء الصالحية ، عصى على الظاهر وتسلطن بالشام كما تقدم ، وكان طويل القامة ، مخلا بعينه اليسرى ، ذكروا عنه أنه أصيب بسهم ، وكان ذا بأس وشهامة ، وقوة وشجاعة ، وإقدام شديد .

---

(١) وله ايضا ترجمة فى : كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٣٣ .

(٢) وله ايضا ترجمة فى ، المنهل الصافى جـ ٥ رقم ١٠٥٨ .

(٣) وله ايضا ترجمة فى ، المنهل الصافى جـ ٦ رقم ١١١٤ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٥١ ، ص ١٦١ ، الوافى جـ ١٥ ص ٤٧٣ رقم ٦٣٩ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٣٩ ، السلوك جـ ١ ص ٧٨٧ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٦١ ، وورد فيه أن صاحب الترجمة توفى سنة ٦٩٢ هـ .

(٤) ورد أنه توفى سنة ٦٩٢ هـ — انظر مصادر الترجمة ، وذكر ابن الفرات أنه توفى سنة ٦٩١ هـ ، ثم عاد وذكره فى وفيات ٦٩٢ هـ ، وكذلك فعل العينى — انظر ما يلى ص ١٩٩ .

وقيل : إنه كان فى الدولة الظاهرية إذا نزل من الخدمة إلى بيته لا ينزل عن فرسه حتى يقدم له قنطارته محشوة برصاص فيلعب بها وهو راكب ، ثم يأتى إلى فردة تبن فيطعنها و يشيلها من الأرض ، ثم ينزل و يأخذ عمودا حديدا زنته قنطار فيلف به يمينا و يسارا ، ثم يجلس على سماطه فيأكل خروفا ، ومات وهو فى عشر التسعين وقد انحنى وبان عليه الكبر ، وقيل : مات وعمره إثنان وتسعون سنة .

الملك المظفر قرا أرسلان[1] بن إيلغازى[2] بن أرتق الأرتقى[3] ، صاحب ماردين.

توفى فى هذه السنة ، وله ثمانون سنة ، وكانت دولته ثلاثا وثلاثين سنة ، وقام من بعده ولده شمس الدين داود[4] ولقب بالملك السعيد .

الملك الكامل بن الملك المعظم ، أحد ملوك بنى أيوب .

توفى بدمشق فى هذه السنة ، وكانت له حشمة وأدب .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ١١٢ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٣١ ، السلوك جـ ١ ص ٧٨١ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٥٩ ، كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٣٩ .

(٢) « غازى » فى تذكرة النبيه .

(٣) « الأفريقى » فى البداية والنهاية ، وهو تحريف .

(٤) ولى حكم ماردين حتى سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م — معجم الأسرات الحاكمة جـ ٢ ص ٣٤٥ .

فصل فيما وقع من الحوادث

في السنة الثانية والتسعين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة ، وسلطان البلاد المصرية والشامية : الملك الأشرف خليل بن الملك المنصور قلاون الصالحي الألفي .

وفيها : ظهرت نار بأرض المدينة النبوية ، نظير ما كان في سنة أربع وخمسين (١) على صفتها إلا أن هذه يعلو لهيبها كثيرا ، وكانت تحرق الصخر [ولا تحرق السعف] (٢) ، واستمرت ثلاثة أيام ، كذا ذكر في تاريخ ظهير الدين الكازروني (٣) .

وفيها : ورد كتاب من نائب حلب يذكر فيه أن صاحب سيس (٤) قد تعرض لبعض التجار وأخذ أموالهم ، وأخذ منهم جماعة أسرى ، وأنه أرسل إليه كتابا ، فأمره برد مالهم والأسرى إليه ، وإلا سيّر إلى بلاده عسكرا للغارة ؛ وأنه أرسل إليه كتاب يذكر فيه أنه ما تعرض لشيء من ذلك ولا عنده أسرى ، واستأذن نائب حلب [٥٦] من السلطان في تجريد عسكر من حلب إلى بلاده ، ويضيف إليهم جماعة من التركمان .

(*) يوافق أولها الجمعة ١٢ ديسمبر ١٢٩٢ م .

(١) انظر ما سبق بالجزء الأول من هذا الكتاب ص ١٢٢ وما بعدها .

(٢) « ولا تحرقه » في الأصل ، والتصحيح من البداية والنهاية التي ينقل عنه العيني هذا الخبر .

(٣) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٣٢ .

(٤) سيس : بلدة كبيرة ذات قلعة بثلاثة أسوار ، وهي قاعدة بلاد الأرمن — تقويم البلدان ص ٢٥٦ .

فلما وقف السلطان على كتابه طلب الأمراء وعرّفهم بذلك ، فشرع كل واحدمنهم يحسن للسلطان أمر الغزاة وفتح القلاع ، وأن سيس من أجل البلاد، ولأهلها سعادة كبيرة ، وبلادها عامرة بالخير ، وذكروا له مافعله السلطان الظاهر فى سائر غزواته والقلاع التى أخذها ، وأنه ملكها لأكابر أمرائه ومماليكه ، فأضمر السلطان فى نفسه أن يركب إلى سيس بنفسه ويملكها ، ثم طلب الوزير وأمره أن يكتب بتجهيز الإقامات والعلوفات ، وأن يكتب إلى سائر النواب من البلاد الشامية أن يتأهبوا ويجهزوا مايحتاجون إليه من آلات الحصار وغيرها ، وعرفهم أن قصده أخذ السيس .

ثم ركب بعزم قوى إلى أن وصل إلى دمشق[(1)] ، فخرجت إليه سائر أهل دمشق ، وفرحوا بحضوره ، فما أقام فيه يومين حتى حضر مملوك نائب حلب وأخبر أن رسل صاحب سيس قد حضروا صحبة نائب تكفور وجماعة من أكابر الأرمن ، وبعد يومين وصلوا إلى دمشق ، وجلس السلطان فى الميدان وأحضرهم ، فاندهش نائب تكفور ومن معه مما عاينوه من عظمة عسكر السلطان ، وكان السلطان الأشرف يحب الزينة فى اللباس ، فلما دخلوا قبلوا الأرض بين يديه وأخرجوا كتاب تكفور ، فقرىء على السلطان ، وفيه تضرع كثير ، وإظهار ذله ، وأنه بلغه أن السلطان قصده من غير سبب ، وأن ما نقل عنه غير صحيح ، فإن ثبت عليه شىء من ذلك أو على أحد من بلاده كان عليه أضعاف ما ذكروا عنه من أخذ أموال التجار وغيرهم ، وأن السلطان يرسل إليه من يثق به ، فيحلفه أنه لا يدع فى بلاده أسيرا من المسلمين ، وأنه يضاعف الحمل المقرر

(١) « دخل دمشق فى يوم الأحد تاسع جمادى الآخرة » — النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٤ ، كنز الدرر ج ٨ ص ٣٤٠ .

عليه ، ثم أحضروا ما كانت صحبتهم من البلور الفاخر والأوانى الذهب والفضة والأوانى المرصعة ، فالفصوص والوسط الهائلة ، وأشياء غير ذلك من التحف التى تصلح للملوك .

وفى كتابه أيضا : أن البلاد بلاد السلطان ، وأنه نائبه فيها .

وقرىء أيضا كتاب نائب حلب : وفيه يشير على السلطان بقبول هداياهم والسكوت عنهم ، فقبل السلطان هداياهم ، وآخر ما انفصل عليه أمرهم على أن يسلموا إلى السلطان قلعة بهسنى (١) ، وقلعة مرعش (٢) وتل حمدون (٣) ، وأنه يبعث إليه مفاتيح القلاع الثلاث ، وإن لم يسلمها غزاه السلطان ، فخرجت الرسل من عنده على هذا ، وأقام السلطان فى دمشق إلى أن حضر رسله وصحبتهم مفاتيح القلاع المذكورة وهدية أخرى .

وفى كتابه : سأل السلطان أن تكون بهسنى للسلطان ولكن يكون هو نائبه فيها ، ويقوم بجميع ما يصل إليها ، فأبى السلطان ذلك وتسلم المفاتيح ، وقرر عليه زيادة مائة ألف درهم ، ورسم للأمير سيف الدين طوغان المنصورى أن يكون نائبا فى بهسنى ، وأوصاه بحفظها ، لأنها من أجل القلاع وأحصنها ولها ضياع كثيرة وأراضى ومزدرعات ، وكانت من أعمال حلب ، وهى للمسلمين ، وكان الحاكم عليها صاحب حلب الملك الناصر ، فبقيت إلى أن دخل هلاون إلى حلب وتسلم سائر البلاد ، فبلغ تكفور صاحب سيس أن هلاون تسلمها ، فسير

(١) قلعة بهسنا ، قلعة حصينة فى شمالى حلب — معجم البلدان .

(٢) مرعش : مدينة فى الثغور بين الشام وبلاد الروم — معجم البلدان .

(٣) تل حمدون ، قلعة حصينة ببلاد الأرمن ، وهى أقرب القلاع إلى بلاد سيس — معجم البلدان ، تقويم البلدان .

إليه وأرغبه بالهدية وحمل له مالا وسأله أن تكون بهسنى له ، فسلمها إليه ، و بقيت فى يده إلى أن طلبها السلطان الأشرف [٥٧] فلم يمكنه منعها منه على ما ذكرنا .

ثم كتب السلطان إلى نائب حلب بمنع الغارة على بلاد تكفور ، و بإكرامه .

وأقام السلطان فى دمشق ، ثم سير عسكره ، ودخل هو البرية للصيد ، ثم عاد إلى مصر ، وعند دخوله طلب الأمير بيدرا وسأله عمن بقى من الأمراء فى السجن ، فعرفه أن الأمير بدر الدين بيسرى فى السجن ، فأمر بإطلاقه ، وقد ذكرنا كيفية إطلاقه فى السنة التسعين(١) على ما ذكره بعض المؤرخين .

وذكر بيبرس فى تاريخه إطلاقه فى هذه السنة وقال : وفيها أفرج السلطان عن الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى من الإعتقال ، وكان له فيه حول ثلاثة عشر سنة ، وأعطاه منية بنى خصيب دربستا(٢) ومائة فارس ، واتخذه لمنادمته وملازمة حضرته ، وكان يأنس إلى دعابته ، و يضحك من مجانته ، و بقى كذلك إلى ما كان منه ما نذكره(٣) .

وفيها عزم السلطان على التوجه إلى الوجه القبلى متصيدا ومتفرجا ، فتقدمه وزيره شمس الدين بن سلعوس لتجهيز التقادم والإقامات من جهة العربان والولاة والأعيان ، فكتب إليهم بالاهتمام والاستعداد التام ، وأقام الأمير بدر لدين بيدرا بالقلعة(٤) ، وخرج السلطان متوجها إلى الوجه القبلى .

(١) انظر ما سبق ص ٧ .

(٢) دربستا : لفظ ديوانى فارسى معناه : كاملا ، ووردت صورته فى صبح الأعشى : كربستا ؛ إذا كان جميع البلد أو البلاد المقطعة لا يستثنى منها شىء — السلوك جـ ١ ص ٧٧٠ هامش (١) ، ص ٨٤٤ هامش (٧) ، صبح الأعشى جـ١٣ ص ١٥٦ .

(٣) زبدة الفكرة — مخطوط جـ ٩ ورقة ١٧٨ ب ، وانظر أيضا التحفة الملوكية ص ١٣٣ .

(٤) « واستخلف الأمير بيدرا النائب بقلعة الجبل وهو مريض » — السلوك جـ ١ ص ٧٨٢ — ٧٨٣ .

فلما تحدث الوزير في الأعمال لتحصيل الأمـوال وتقرير التقادم من الخيل والجمال ، وجد لبيدرا عدة من البلاد محميـة باسمه[(١)] ، وله بها كثير من الحواصل والغلال ، مع شغور الشون السلطانيـة ، ووجد نوابه الذين بكل جهة يدافعون عنها ، فأوحى إلى السلطان من أمره ما غيّره عليـه ، وبلغ ذلك بيـدرا[(٢)] فحصل في قلبه تغير .

ولمـا قضى السلطان الوطر من الصيد ، ووصل إلى قوص[(٣)]،عاد إلى قلعته، واهتم له الأمير بيدرا بضيافته عند عوده،وضرب له بالعدوية[(٤)] خيمة من الأطلس الأحمر بأطناب من الإبريسم الملون[(٥)] ، وعمد صندلية[(٦)] محـلاة بفضة مطلية[(٧)] منقوشة بأنواع النقوش ، مرقشة بإبداع الرقوش ، مفروشة ببسط من الحرير،مصورة بغرائب التصوير ، وعمل له ضيافة بالغ فيها ليتلافى سعاية ابن السلعوس إن أمكن

---

(١) « وكشف الوزير السلعوس الوجه القبلي ، فوجد الجاري في ديوان الأمير بيدرا من الجهات — عما هو في إقطاعه ، وما اشتراه ، وما حماه — أكثر ممـا هـو جار في الخاص السلطاني » — السلوك جـ ١ ص ٧٨٣ .

(٢) « من بطانته الذين حول السلطان » — في زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٧٩ أ .

(٣) « ونادى هناك بالتجهز لغزو اليمن » — السلوك جـ ١ ص ٧٨٣ .

(٤) العـدوية : خارج القاهرة بالقرب من بركة الحبش ، فيما بينها وبين طرا — الانتصار جـ ٥ ص ٤٣ .

(٥) « بأطناب حرير» في السلوك جـ ١ ص ٧٨٣ .

(٦) أي من خشب الصندل .

(٧) « وأعمدة صندل محلاة ومفصلة بفضة مذهبة » — السلوك جـ ١ ص ٧٨٣ .

تلافيها . فنزل السلطان فى الخيمة قدر ساعة ، ثم ركب إلى القلعة ، ولم يظهر بشاشة لقبولها، ولا استحسانا لها (١) .

وجاء فى نزهة الناظر: وفى هذه السفرة حط الوزير على بيدرا نائب السلطان، وتمكن من الحديث فيه والتهمة له لأجل « ... ... » (٢) واتهامه هو بالسلطان، وكان فى نفسه من بيدرا أمور كثيرة ، فسعى الوزير فى طول الطريق بجهز « ... ... » (٣) كفاية ، وإذا استعجزه السلطان يقول : يا خوند ، ما كل ما يعلم يقال ، « ... ... » (٤) البلاد العامرة لبيدرا ، والذين فيها نوابه ، لا يُمكّن منهم الوالى ولا غيره ، والبلاد الخراب كلها للسلطان ، وما فيها شيء ، وأنه يشترى كل شيء بالدراهم من بلاد بيدرا ، لكونها عامرة ، وبقى كذلك طول الطريق ، وإذا خرج من عند السلطان ، يقول للأمراء : يا مسلمين الأمير بيدرا يأخذ بلادى وما أجد الإقامات إلا من بلاد الأجناد، وهو مالك البلاد وأنا أشترى الإقامات .

وكل من كان من الأمراء والخاصكية من جهة بيدرا يكتبون إليه بذلك ، ويعرفونه ، فانحصر بيدرا لذلك انحصارا شديدا ، فسير بعد ذلك إلى سائر بلاده بعمل الإقامات إلى السلطان والأمراء ، ومع هذا كله أضمر له السلطان السوء .

---

(١) « ولم يكترث بالتقدمة ، وطلع إلى القلعة ، فارتجع عدة من جهات بيدرا للخاص السلطانى » ــ السلوك جـ ١ ص ٧٨٣ وانظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٧٨ ب ، ١٧٩ أ ، حيث ينقل العينى هذه الواقعة عن بيبرس الدوادار .

(٢) « ...... » موضع كلمة غير مقروءة .

(٣) « ... ... » ثلاث كلمات غير مقروءة .

(٤) « ... ...) كلمتان مطموستان .

وكان قراسنقر وبكتمر السلاحدار [٥٨] و بعض المماليك من جهة بيدرا ، فسيروا إليه ، وقالوا له : تحيل فى دفـع ما أضمر له السلطان فى خاطره ممـا قاله الوزير ، وأعمل ضيافة هائلة عنـد تعدية السلطان وقـدم له « ... ... »[1] من جميع الأشياء « ... ... »[2] وعلى هذا شرع فى تجهيز هـذه الأشياء ، وكتب إليهم ، وسألهم أن يحسنوا بالقضية مـع السلطان و يعرفوه أنه يريد أن يعمل ضيافـة فى العدوية عند تعدية السلطان ، و يقدم له تقادم جليلة ، فقالوا ذلك للسلطان فلم يلتفت إليهم ، فـلم يزالوا به إلى أن أرضـوه بذلك ، ثم استشار الأمراء الكبار فى ذلك ، فقالوا له : بيدرا مملوكك على كل حال ، ولا بأس أن تجبر خاطره .

فأرسلوا بذلك يعرفون بيدرا ، فنهض بيدرا عندما قرب نزول السلطان فى العدوية ، وضرب خيمة أطلس — على ما ذكرنا — ، وعمل فى وسط الدهليز كرسيا مصفحا بالذهب ، وخلفه خركاة .

وقال صاحب النزهة : ذكر لى زردكاش بيـدرا أن الخركاة بمفردها غرم عليها بيدرا ستين ألف دينار .

وشرع فى عمل الطعام ، فأقام ستة مطابخ ، ولم يبق أحد فى مصر والقاهرة إلا وقد خرج إلى العدوية ، ونصب حول الدهليز أحواضا فيها السكر والليمون ، وأحواضا فيها القمز ، وأحواضا فيهـا السويق ، فكانت مائة حوض ، وأما « .. .. »[3] فأخبر صاحب النزهـة أنه ألف وأربعمائة رأس من الغنم ، ومائة إكديش ، وستون رأسا من البقر .

(١) « ... ... » كلمتان مطموستان .

(٢) « ... ... » ثلاث كلمات مطموسة .

(٣) « ... ... » أربع كلمات غير مقروءة .

ولما قرب السلطان نزل بيدرا وقبل الأرض ، ثم قام وشد وسطه بمنديل وبسط له عشرة ثياب أطلس ، فدخل السلطان الدهليز فدهش وصار يردد بصره فيه ويعجب ، وقال : يانائب السلطان متى عملت هذه ، فقال : يا خوند ، لى مدة سنة حتى شرعت فى أستعد لها بما يسر خاطر السلطان ، والمملوك يسأل مرة أخدم السلطان « ... ... »[1] وقبل الأرض « ... ... »[2] وكان قدجهز لكل أحد منهم « ... ... »[3] ذهب ، وكنبوش زركش ، فصار كل أمير يخرج ثم يجىء ويقبل الأرض ، فقال السلطان : لقد أفقرتم النائب ، ثم بعد ذلك قام السلطان وركب .

وكان الأمير طقجى خصيصا بالسلطان ، ومن جهة بيدرا ، فقال : ياخوند ، كم تقراون بيدرا أخذ الكل ، والله لو مسكته ما لقيت نصف ما غرم فى هذه المدة ، فتبسم السلطان ، وقال : صدقت ، والله أفقرناه .

ثم بعد أن رحل السلطان نهبت العوام والحرافيش باقى الأطعمة والحلاوات جميعها .

قال صاحب النزهة : وسألت علاء الدين أمير جاندارية والركن الطقجقى بعد مدة من انقضاء الدولة الأشرفية عما غرمه بيدرا على تلك الضيافة ، فأخبرانى أن مجموع ما غرمه فى الدهليز الأطلس والحركاة والتقادم للأمراء والسلطان نحو مائة وخمسين ألف دينار

---

(١) « ... ... » تسع كلمات مطموسة .

(٢) « ... ... » خمس كلمات مطموسة

(٣) « ... ... » كلمة مطموسة

وفيها أرسل السلطان وأحضر الملك المظفر صاحب حماة، وعمه الملك الأفضل على البريد إلى الديار المصرية ، فتوجها من حماة ، وعندهما خوف عظيم بسبب طلبهما على البريد ، ووصلا إلى قلعة الجبل فى اليوم الثامن من خروجهما ، وحال وصولهما شملتهما الصدقات السلطانية ، وأدخلا الحمام بقلعة الجبل فأنعم عليهما بملبوس يليق بهما ، وأقاما فى الخدمة أياما .

ثم خرج السلطان على الهجن إلى الكرك(١) ، فسار فى الطريق البعدية من جهة البرية(٢) ،وسارت العساكر على الجادة إلى دمشق ،وأركب صاحب [٥٩] حماة وعمه على الهجن صحبته ، لأنهما حضرا الى مصر على البريد ولم يكن معهما خيل ولا غلمان ، وسارا فى خدمته فى الكرك ، ولاقتهما تقادمهما إلى بركة زيزا ، فقدّماها للسلطان .

ولما وصل السلطان إلى الكرك والشوبك أعطى الأمير جمال الدين نائبه بها سبع بلاد من أعمالها ، ثم سار الى دمشق فى جمادى الآخرة(٣) ، فالتقيه العساكر فيها ، ثم سار من دمشق فى ثانى رجب نحو حمص وسلمية ومعه أكثر الجيش ، وأخذ وجه البرية متصيدا ، ووصل إلى القرقليس وهو جفار فى طرف بلد حمص من الشرق ، ونزل عليه ، وحضر إلى خدمته هناك مهنى(٤) بن عيسى أمير العرب ،

---

(١) « فى أول جمادى الأولى » — السلوك جـ ١ ص ٧٨٤ .

(٢) « وسار الى الكرك من غير الدرب الذى يسلك منه إلى الشام » — السلوك جـ ١ ص ٧٨٤ .

(٣) « فقدمها فى تاسع جمادى الآخرة » — السلوك جـ ص ٧٨٤ .

(٤) هو مهنا بن عيسى بن مهنا بن مانع بن حديثة بن غضية بن ربيعة ، الأمير حسام الدين ، وكان قدولى إمرة العرب عوضا عن والده وقاعدته سنة ٦٨٣ هـ - ١٢٨٤ م ،وتوفى مهنا سنة ٧٣٥ هـ — ١٣٣٤ م — المنهل الصافى .

وأخواه محمد وفضل (١) ، وولده موسى بن مهنى ، فقبض السلطان على الجميع وأرسلهم إلى مصر ، فحبسوا فى قلعة الجبل ، ووصل السلطان إلى قصير ، وأعطى صاحب حماة الدستور ، فتوجه إلى بلده .

وعاد السلطان إلى مصر ، ووصل إليها فى الثامن والعشرين من رجب بعد أن جرد عسكرا ليقيم بحمص صحبة ثلاثة من المقدمين وهم : الأمير بدر الدين أمير سلاح ، والأمير شمس الدين كرتيه ، والأمير سيف الدين بلبان الحمصى .

قال بيبرس فى تاريخه : وكنت من مُضافى الأمير بدر الدين أمير سلاح ، فأقمنا بحمص ثلاثة أشهر (٢) .

وقال النويرى فى تاريخه : ثم رسم السلطان للمجردين هنالك ، وصاحب حماة وعمه بالمسير إلى حلب والمقام بها لما فى ذلك من إرهاب العدو ، فسارت العساكر إليها ، وخرج المظفر صاحب حماة وعمه الأفضل معهم من حماة يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان ، ودخلوا حلب يوم الثلاثاء التاسع والعشرين من شعبان وأقاموا بها .

وذكر فى نزهة الناظر سبب مسك مهنى وإخوته : وذلك أن السلطان لما ورد إلى كرك تلقى هؤلاء السلطان من غزة وقدموا له خيلا وهجنا ، ومشوا فى صحبة السلطان ، وكانت سائر العرب فى ذلك الوقت لايلبسون إلا طراطير حمر مترفعة عن العمائم ولهم عذبات مطولة ، ونزل السلطان على نهر يجرى ، فلما دخلت

---

(١) « وعلى إخوته محمد وفضل ووهبة » — السلوك جـ ١ ص ٧٨٤ ثم أفرج السلطان عن أصغر الإخوة ، ويبدو أنه وهبة — انظر ما يلى ص ١٦٤ .

(٢) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٧٩ ب ، وانظر أيضا التحفة الملوكية ص ١٢٣ .

الأمراء إلى الخدمة وحضر مهنى و إخوته أيضا والأمير برغشة وأخوه مظفر صحبة مهنى ، اتفق للسلطان انشراح فى ذلك الوقت ، فشرع يمزح مع العرب ، فالتفت إلى مهنى وقال : يا مهنى أريد أن أقلع هذه الطراطير من رءوسكم وألبسكم كلوتات مثل العسكر ، فنظر مهنى إليه نظر المغضب من قوله ، وقال يا خوند : تريد أن تجعلنا مساخر ومضحكة للعرب ، معاذ الله من ذلك ، فتغير السلطان من قوله وسكت على غيظ منه ، ثم قاموا وتفرقوا .

ولما حضروا فى المجلس الثانى إلى الخدمة على العادة، أراد السلطان أن يعمل به شيئا يتنكى به ، وكان قد عمل على النهر خشبا يمشون عليه مثل الجسر ، فكل من كان يحضر من ذلك الجانب يمشى عليه ، وأمر السلطان لبعض الجمدارية أن يقصر الخشب قليلا ويدوس عليه برجله ، فإذا رأى مهنى وقد أراد الجواز عليه وتوسط ، يرفع رجله حتى يقع فى النهر ، ففعل مثل ما قال السلطان ، وجاء مهنى ومشى عليه إلى أن توسط ، فرفع ذلك الجمدار رجله فخرج الخشب عن موضعه ، فوقع مهنى فى وسط النهر إلى حلقه وغطس غطسة ، فأدركوه وأخرجوه وهو فى حالة عجيبة ، فضحك السلطان حتى نهض من كرسيه ويقول : ويلكم ، شيلوا أمير العرب ، وهو يضحك . فغضب مهنى من ذلك غضبا شديدا وقال : والله ما سوى هذا إلا خبيث بن خبيث ، فرد عليه برغشة [٦٠] وقال له يا أمير : لاتقل هذا القول، حاشى أن يكون فى الملوك وأولاد الملوك خبيث . فتغير السلطان من ذلك تغيرا كثيرا . وقال مهنى : يا أمير ما عنيت الملوك ولا أولاد الملوك ، وإنما عنيت الذى سواها من المماليك . فالتفت السلطان إلى الأمراء الحاضرين وقال : سمعتم مهنى وهو يقول لى : خبيث بن خبيث ، فنهض الجميع ، ومهنى

معهم ، وقبلوا الأرض ، أنه ما أراد بهـذا السلطان ، وبقى مهـنى يقبل الأرض ويحلف أنه ما نوى هذا ، والأمراء يعتذرون عنه .

وقال الأمـير حسام الدين الأسـتاذدار : يا خوند لاتؤاخذ العرب فإنهـم لايعرفون هذه الأمور ، ويتكلمون بكلام ولا يقصدون بذلك شيئا ، فقاموا بعد ذلك وخرجوا ، والسلطان يقول : يا مهنى ، وهو خارج من عنده مع الأمراء ، أُوريك إن كنت خبيث بن خبيث أو خليل بن قلاون .

ثم أن مهنى صبر إلى أن دخل الليل ، فجـاء إلى حسام الدين الأسـتاذدار وعرفه ما هو فيه من القلق بسبب ما وقع منه ، وكان يركن إليه و بينهما مودة ، فاستشاره أنه يقـيم أو يرحل إلى أهـله ، فأشار عليـه أن يرحل ولا يعود يقابل السلطان ، لمـا كان يعلم ما فى باطنه من أمره ، واتفق معه على الرحيل ، وترك عنده من يثق به أنه يسير معه ، و يقف على ما يقع من السلطان فى أمره من الخير والشر ، ثم يرسله إليه و يعرفه بالإشارة ، ثم رحل باكر النهار .

وعلم بذلك السلطان ، فسكت عنه إلى أن اتفق ما اتفق من رواح السلطان إلى الشام ، ثم إلى حمص وخروجه إلى الصيد كما ذكرنا ، فلمـا فرغ سأل عن الطريق التى تأتى على أبيات مهـنى فى البرية حـتى يجعل طريقه عليها ، وأحس الأمير حسام الدين أن فى نفس السلطان القبض عليه ، فطلب ذلك الرجل الذى تركه مهنى عنده ، فقال له : اذهب إلى مهنى وسلم عليـه من عندى واعطه هذه السلة ، ولم يقل له شيئا غـير ذلك ، فسبق القاصد إلى مهنى وعرفه أن السلطان جعل طريقه عليه ، فقال : وأَشْ قال لك الأمير حسام الدين فقال : لم يقل لى شيئا غـير أنه أعطانى هذه السلة التى فيها الحشكنانك ، ففتح مهنى السلة فوجد

فيها بين الحشكنابك جملا مصنوعا من شمع وعليه قتب وخُرج محمل، نعلم أنه أشار برحيله . فطلب إخوته وعرفهم الأمر ، واتفق رأيهم على الرحيل .

وهم فى ذلك ، فإذا صاحب حماة قد تقدم ليلاقى السلطان ، فركب إليه هو وإخوته وعرفوه بأمورهم ، واستشاروه فيما يفعل ، فقال صاحب حماة : يا أمير إن سمعت منى فانظر فى نفسك ، فأى شىء قويت نفسك عليه فافعل واتكل على الله فقال : والله قويت نفسى على لقياه ، وإن كان قدر على أمر صبرت له ، ثم قال له صاحب حماة : إن كان لا بد من الملاقاة فاملأ عينه بالضيافة والتقدمة وفارقه على ذلك .

ثم ركب هو وأخواه فضل ومحمد وتلقوا السلطان ، وترجلوا عن بعد ، وقبلوا الأرض ، وكان فى نفس السلطان أن مهنى ما يقابله ، فأقبل السلطان عليهم وسألوه فى العزيمة ، فأجاب السلطان إلى سؤالهم ، وقصده القبض عليهم ، وعند وصوله أبياتهم قد وجد طعامهم قد جهز ، وكان قد احتفل له فى ذلك اليوم احتفالا عظيما ، فذبح فى ذلك اليوم ثمانمائة رأس غنم ، [٦١] وثلاثين إكديشا ، وخمسين فصيلا ، وأحضر مائتى منسف حلوى ، وعشرة أحواض سكر ، وسويق ، وأحضر التين والزبيب والفستق أكواما مكومة ، فشرعت الأمراء فى الأكل ، والسلطان ينظر إلى مهنى وإخوته ويرى القبض عليهم ، فتنظر مهنى إليه وعرف ما عنده من ذلك ، فتقدم وباس الأرض ، وقال ياخوند نحن اليوم من جملة رعيتك وقد شرفتنا وقبلت عزيمتنا ، ونريد منك أن تتم خيرك وتأكل من طعامنا ، فإن كان فى نفس السلطان شىء يفعله فها نحن بين يديه .

وكان إلى جانب السلطان الأمير برغشه ، فمد السلطان يده فأكل ، وبرغشه يتحدث معه قليلا قليلا . فقال له ياخوند : أزل مافى خاطرك فإنا نحن كلنا عبيدك . فقال يابرغشه : أنسي قول مهنى : ماسموا‌ها إلا خبيث بن خبيث . فقال له ياخوند : صدقت ، ولكن بقى له حق عليك حيث أجبت دعوته ونزلت أبياته وأكلت طعامه ، فإن فعلت ما أضمرت فى نفسك لا يبقى بدوى يأمن إلى السلطان ، فعند ذلك سكن مافى نفس السلطان من الغيظ ، وعلم أن الذى قاله برغشه صحيح .

ثم شرع يتحدث مع مهنى و يطيب خاطره إلى أن طاب خاطره ، ثم ركب السلطان ومهنى صحبته إلى أن نزل على حماة وأكل ضيافة المظفر ، ثم خلع على صاحب حماة ومهنى عند رحيله .

و بقى الأمر فى نفسه إلى أن اتفق خروجه من مصر ، فوقفت له جماعة كبيرة من التجار وعرفوه أن عرب مهنى تعرضت لهم فى الطريق وأخذوا منهم شيئا كثيرا ، وشكوا أمرهم إلى مهنى فقال لهم : ماهم عربى ولكن هؤلاء من بنى كلاب ، فردهم السلطان إلى دمشق ، و بقى فى نفسه إلى أن اتفق سفر السلطان بدخول البر ، وأشار أن يكون العسكر والأمراء على حمص حين عودته ، فراح السلطان إلى أن توصل إلى مكان منزل مهنى ، وكان فى ذلك اليوم حر شديد ، ومهنى جالس فى بيته ، وقد رفع أطراف البيت ، وزوجته إلى جانبه ، فنظر فإذا بجماعة على بعد راكبين الهجن ، فصاح لحاجبه وقال : رأيت جماعة قاصدين فلاقهم وأنزلهم فى بيت الضيافة إلى أن يسكن الحر ، فرجع الرجل وقد عاينهم وهم سبع نفر وهم قاصدون البيت ، فالرجل يومىء بكمه إليهم أن يرجعوا

من بيت الأمير ، وهم لا يلتفتون إليه إلى أن وصلوا إلى البيت ، فجاءهم الحاجب وقال ، ياموالى انزلوا بيت الضيافة فإن الأمير هو وحريمه فى البيت ، فقال له السلطان : ارجع وقل لمهنى كلّم الخليل . فقال يامولاى : ابعدوا عن البيت قليلا ، فصاح السلطان عليه وقال : ويلك قل له كلم الخليل ، فاستهابه الرجل فرجع فوجد مهنى وقد خرج لما رآهم بقرب البيت واقفين فقال : ويلك ماقامت لك أنزلهم ببيت الضيافة . فقال يامولاى : مايسمعون منى وينهروننى ، ويقول واحد منهم : قل لمهنى كلم خليلا ، فعند ذلك رجف فؤاد مهنى ، ووضع عمامته على رأسه ، ونهض يجرى إلى أن علم أنه السلطان ، فصار يجرى ويقبل الأرض ويقول : ياسلطان الإسلام فضحتنا اليوم . فقال له : ماعليك نحن جئنا برسم الصيد . فقال ياخوند : لابد من نزولك . قال : لا ولكن اطلب اخوتك حتى يكونوا معنا فى الصيد ، فركب وبعث إليهم ، فحضر محمد وأخوه الآخر وابنه ، وقبلوا الأرض بين يدى السلطان ، ثم قال له محمد : [٦٢] ياخوند يقبح علينا أن ترجع ولم تأكل ضيافتنا . فقال : أنا ماجئت إلا لصيد الغزال . فقال محمد : ياخوند وحياتك قد ظفرت بالصيد ونحن غلمانك . فقال : حتى نعود ، فركبوا ودخلوا البرية وقضى السلطان وطره من الصيد يومين ، وقد جهز له مهنى ضيافة كبيرة وسالوه ، فرجع إلى بيوتهم فوجدهم قد جهزوا كل شيء حسن أعظم من ضيافتهم الأولى .

قال صاحب التاريخ : وأخبرنى جماعة كثيرة : لم يبق أحد من الغلمان من العسكر إلا وقد ملأ خرجه من سائر النقل وأنهم قد عملوا كل صنف من الأصناف على ناحية حتى حملوا مائة فصيل مصنوع من الحلوى ، كل فصيل

على منسف ، فلما فرغت الأمراء من السماط طلب السلطان قراسنقر والأفرم أمير جندار وجماعة من الأمراء ، فخرجوا إلى مهنى وإخوته ووضعوا الزناجير فى رقابهم ، وركب السلطان من البيوت ، وخرجت النسوان وبكين وصحن وهن مكشوفات الوجوه ، ثم أركبوهم الهجن وهم مقيدون .

ولما نزلوا على حمص سأل مهنى الأمراء أن يسألوا السلطان فى أن يطلق أحد إخوته ، فإن بيوتهم ليس فيها رجل يدبرهم ، فسألوا السلطان فأطلق أصغر إخوته ، وأنعم بإمريات آل عيسى على آل مرا ، ثم ألزم السلطان مهنى وإخوته أن يحضروا مال التجار الذين شكوهم ، فالتزموا به .

ثم ركب السلطان إلى الصيد أيضا ، ورسم للعسكر أن يذهبوا إلى دمشق فيقيموا هناك حتى يحضر السلطان ، وبعد أيام قدم السلطان إلى دمشق وكان يوم دخوله يوما مشهودا .

وفيها : سير السلطان الأمير عز الدين الأفرم إلى قلعة الشوبك ليخربها ، فتوجه إليها وهدمها ، وكان ذلك فى غاية ما يكون من الخطأ وسوء التدبير ، وحكى أنه وجد بقلعتها أربعين ألف ختمة بخطوط منسوبة مذهبة ، وربعات كثيرة كذلك ، وكتبا عظيمة مدخرة من عهد بنى أيوب ، وزردخانة عظيمة القدر ، ووجد فى جملة ذلك سيفا عرضه شبر وأربعة أصابع مفتوحة وطوله أربعة أذرع . قيل : إنه سيف خالد بن الوليد رضى الله عنه ، وقيل : هو صمصامة سيف عمرو بن معدى كرب .

وذكر في نزهة الناظر : أن السلطان لما استقر بمصر بعد عوده من الشام قبض على الأمير عز الدين أيبك الأفرم[(١)] الصالحى أمير جندار[(٢)] ، وكان سبب ذلك أنه حصل للسلطان حنق بسبب عرب الشوبك وأنهم يقيمون فيها ويطلعون قلعتها ، فكتب بذلك نائب الكرك إليه ، فطلب الأفرم المذكور ورسم له أن يركب وينزل على قلعة الشوبك ويخربها . فقال له الأفرم : ياخوند كيف تخرب مثل هذه القلعة وهى قلعة عامرة آهلة ،وهى حصن من حصون المسلمين ، فنظر إليه نظر المغضب وقال : أنتم نفوسكم كبار وما خرج من رؤوسكم دعوى البحرية ، وتزعمون أنكم أصحاب رأى ولا يجىء رأيكم إلا على رؤوسكم ، ثم رسم بأخذ سيفه وتقييده فى وقته ، ورسم للوزير بالحوطة على موجوده بمصر والشام وكان له موجود عظيم جدا ، وتمكن الوزير من ماله .

قال صاحب النزهة : فأخبرنى ولده أسد الدين أن من جملة ما حمل لبيت المال من جهته مائة ألف وستون ألف دينار ، وسته وتسعون ألف أردب غلة [٦٣] ، وكتب إلى دمشق بالحوطة على ما كان له فيها .

وقبض أيضا على الأمير عز الدين أزدمر العلائى[(٣)] أحد الأمراء بدمشق ، وكان له موجود كثير ، وأحضر إلى مصر .

وفيها أمر السلطان الوزير أن يكتب إلى المباشرين بدمشق لاستعمال[(٤)] مائة شمعدان مكفت ، ويكتب اسمه عليها[(٥)] ، وخمسين شمعدان ذهب ، وخمسين

(١) توفى سنة ٦٩٥ هـ — انظر ما يلى ص ٢٢٨ .

(٢) « فى يوم السبت ثانى شوال » — السلوك جـ ١ ص ٧٨٥ .

(٣) توفى سنة ٦٩٦ هـ — انظر ما يلى ص ٢٨١ .

(٤) « بعمل » فى المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١١٢ .

(٥) « بألقاب السلطان » فى المواعظ والأعتبار .

فضة ، ومائة وخمسين سرجا زركشا ، ومثلها مخيشا ، ويجهزون ألف شمعة ، وأشياء كثيرة من هذا الصنف .

وكان هذا لأجل المهم بسبب زوجته بنت نكيه[(1)] ، وكانت حاملا ، وقرب ميلادها .

ثم فى شهر ذى الحجة رسم السلطان للعساكر بالتأهب للعرض والقيام من العدد ، والتجمل بالنافلة والفرض ، فاهتموا بالعدد الجميلة من الجواشن والقرقلات والخود والبركستوانات [والتراكشى والكاسات[(2)]] وغير ذلك [من العدد الفاخرة[(3)]] .

وكان الباعث له على ذلك قرب ميلاد زوجته ، فاهتم بذلك عند قرب النفاس ، مؤملا أن يكون المولود ذكرا يحيي به ذكره ، ويشرح له صدره ، ويرث الملك من بعده ، وتجمل العساكر تجملا لم ير مثله ، وغالوا فى أثمان العدد ، حتى بلغ ثمن الجوشن الذى قيمته مائة درهم إلى ألف درهم وفوق ذلك .

وفى اليوم الثالث من لعب القبق هبت رياح عاصفة ، وثار من العجاج ما يملأ الفجاج ، فصار النهار كالليل ، وكان السلطان قد أمر باتخاذ الأطعمة ، والإكثار من أنواعها ، وتجهيز القمز والفواكه ، وأصناف الحلوى ، فكان المولود بنتا فلم يتم له ما رام ، ولا انشرح لهذا الاهتمام .

وذكر فى نزهة الناظر أن السلطان لما جاء له بنت خشى أن يسأل عن ما كان قد استهم فيه ، فاظهر أنه يريد أن يطهر أخاه محمدا وابن أخيه مظفر

---

(١) « خوند أردوتكين ابنة نوكيه ، ويقال نوغيه السلحدارية » فى المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١١٢ .

(٢) ، (٣) [ ] إضافة من زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٧٩ ب ، حيث ينقل العينى عن زبدة الفكرة هذا الخبر .

الدين موسى بن الملك الصالح، ورسم لنقيب الجيش والحجاب أن يُعرفوا الأمراء والعساكر أن يلبسوا عدد الحرب هم وخيولهم، ويجتمع الجميع بالميدان الأسود خارج باب النصر، فأخذت الأمراء فى الاهتمام لذلك.

وبعد ثلاثة أيام خرجت السوقة ونصبوا سائر ما يحتاجون إليه من الصواوين والخيام والأخصاص، ونقلوا إليها سائر الأطعمة والنقل، وعملوا سوقا عظيما.

ونزل السلطان فى موكب عظيم، ولم يبق أحد من الناس من أكابر البيوت وغيرهم إلا وخرج يمضى ذلك اليوم، وهم فى الزينة المذكورة من العدد.

وفى اليوم الثانى رسم السلطان للعسكر أن يبدأ القبق (١)، وعَرّف الحجاب أن أحدا لا يرد لا من الجند، ولا من مماليك الأمراء، وكل من أراد الرمى يدخل ويرمى.

وطلب السلطان فى ذلك الوقت الأمير بدر الدين بيسرى، والأمير سلاح (٢)، وقال أنتم أكابر الأمراء ومشايخ هذا الحال، فاشتهى أن تبدأوا وترموا القبق، حتى أُبصر همة الشيوخ. فقال البيسرى: يا خوند ينبغى أن نتفرج هذا اليوم على هؤلاء الشبان الملاح إيش بقى فينا ونحن شيوخ، وقد ذهبت علينا. فقال: وحياتى عليك أن لا بد من أن ترمى.

(١) «ثم فى العشرين من ذى الحجة نصب السلطان ظاهر القاهرة خارج باب النصر القبق، وصفة ذلك أن ينصب صارطويل ويعمل على رأسه قرعة من ذهب أو فضة ويجعل فى القرعة طير حمام ثم يأتى الرامى بالنشاب وهو سائق فرسه ويرمى عليه، فمن أصاب القرعة وطير الحمام خلع عليه خلعة تليق به ثم يأخذ القرعة» — النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٩، وعن ميدان القبق انظر: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص ١١١ وما بعدها.

(٢) هكذا بالأصل.

وهو الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى، أمير سلاح — المواعظ والإعتبار جـ ٢ ص ١١٢.

وكان بيسرى قد علم أن السلطان يكرمه بهـذا ، وكان قد أعد له سرجا يليق لرمى القبق ، وهو السرج الذى يكون قربوسه الورانى وطئة حتى إذا مال على قفاه لا يؤلمه ذلك ، فركب ذلك السرج ، واستعمل القبق وهو نائم على علاق قفاه إلى أن وصل إلى مكان الرمى رماه فأصابه ، ثم عاد ورماه على يساره فأصابه(١) ، ثم دخل بعده أمير سلاح ، ثم أمير بعد أمير ، [٦٤] ومقـدم بعد مقدم ، وجندى بعد جنـدى .

وكان ذلك اليوم يوما عظيما ، ما عهد يوم قبله مثل ذلك ، ثم إن السلطان رجع وهو مسرور بذلك إلى الدهليز ، ودارت على الأمراء السقاة بأوانى الذهب والفضة والبلور ، وشرع الجند إلى الأحواض التى نصبت للشرب ، وكانت قدر مائة حوض ، وأقام السلطان فى ذلك يومين والثالث ، وفى اليـوم الثالث قال السلطان لبيسرى : بقى هـذا اليوم ، ادخل وارم . قال : يا خونـد ، خل عنا الشيوخ ، وخلنا نتفرج اليوم على هؤلاء الشبان الذين كل واحد منهم أحسن من الحور فى الجنة ، فتبسم السلطان ، وأشار إلى خاصكيته أن يتقدموا ويرموا القبق ، فدخل طقجى ، وعين الغزال ، وأمير عمر ، وكيكلدى وقشتمر العجمى ، وبرلغى وأعناق الحسامى ، وبكتوت الصهيونى ، ونحو من خمسين أميرا من الخاصكية ، وعليهـم تتريات [حرير](٢) أطلس بطرازات زركشى ، وكلوتات زركشى ، وحوائص الذهب ، ودخل كل واحد منهـم مداخل بحسب الجانبين ، وأثار بواضح سناه على النيرين ، ورمى وهو يهز عطفيه فأصاب الغرض قبـل الإيمـاء

(١) أحدث الأمير بيسرى فى ذلك الحفل تعديلا جديدا فى رمى القبق — انظر نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٩ ورقة ٣٠٤ أ ، السلوك جـ ١ ص ٧٨٦ .

(٢) [ ] اضافة للتوضيح ، من المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١١٣ .

إليه ، وتخيل كل منهم على ذلك بالجوزاء ، وهو راكب ، وحنايا قسيهم من حنايا تلك الحواجب .

قال صاحب النزهة : ولمؤلفه :

عوذة البارى رب الفلق ... لما تلفت عند رمى القبق

ولاح من واضحة بهجته ... ما بين عينيه وفرق فرق

فقلت للناظر من دهشتى ... انظر إلى صحة هذا القبق

وكان السلطان قد رسم بحضور سائر الملاهى فى ذلك اليوم ، وكان يوما عظيما ، ولما رجع « ... ... »(1) ، لما صفا(2) إليه زمانه ، أبدل الله ذلك الفرح بالترح ، والنجاح بالإيجاح ، وذلك فقد أظلم الجو فى ذلك الوقت ، وجاءت ريح عاصف ، وريح « ... ... »(3) طبقت الأرض ، فقلعت سائر الخيام ، وأرمت الدهاليز وذرت الغبار والرمل فى وجوه الناس حتى كان الرجل لا يعرف رفيقه إلى جنبيه ، واختلطت الأجناد بالأمراء ، ووقع النهب فى الخيام والسوق ، وطلب السلطان القلعة والأمراء معه ، واختلفت عليهم الطرق ، وما دخل السلطان من باب الاصطبل إلا بالجهد العظيم ، وهتكت حريم كثيرة ، ونهبت أشياء غير عديدة .

وكان يوما كأنه من أيام البعث والنشور . وكأن الناس لم يروا شيئا من السرور ، واشتغل كل أحد بنفسه ، وبقى الحال على هذه الهيئة مقدار ساعة فلكية ، ثم سكنت الرياح ، وأشرقت الشمس ، وحمد الناس الله تعالى وشكروه على لطفه(4) .

(1) « ... ... » سبع كلمات مطموسة .

(2) صفا : الصفو والصفاء ممدود نقيض الكدر وصفوة كل شىء : خالصة من صفوة المال وصفوة الإخاء — لسان العرب .

(3) « ... ... » كلمة غير مقروءة .

(4) انظر أيضا ما جاء فى التحفة الملوكية ص ١٣٤ — ١٣٥ .

ثم لما أصبح السلطان أمر بإحضار سائر الملاهى لأجل ختان أخيه وابن أخيه ، وعمل المهم فى القاعة التى عمرها وسماها الأشرفية (١) باسمه ، وعمل مهما لم يعهد مثله فى سائر الدول ، وحضر الأمراء ، ورسم السلطان للخاصكية أن تدخل واحد بعد واحد فيرقص بمفرده ، وهو واقف يتفرج عليهم والخازندارية واقفون بين يديه بأكياس الذهب ، وهو ينثر الذهب على كل واحد بمفرده (٢) ، ولما فرغ الختان رسم لكل أمير بفرس مسروج وتشريف ، ورسم للبيسرى وأمير سلاح كل واحد بألف دينار .

[٦٥] وطلب الأمير طقجى ، وكان عنده أحظى الخاصكية ، فكتب بخطه رسم السلطان خليل بن قلاون أن ينعم على الأمير سيف الدين طقجى الأشرفى من الخزانة الشريفة بمائة ألف دينار ، وعلامته ، وكتابته بقلم غليظ ، فأخذ طقجى الورقة عنده ، وكان السلطان رسم عند الختان أن يرمى كل مقدم ألف فى الطشت مائة دينار ، والطبلخاناة خمسين دينارا ، (٣) ووكل الوزير بأمر الطشت وأمر للخازندارية ان يحفظوا الطشت ، فلما فرغوا أمر السلطان أن يكون النصف لأصحاب الملاهى والنصف للزين ، فعرفوا الوزير بذلك ، فأخذ الطشت عنده وأرضى هؤلاء بالبعض ، ووصاهم أن لا يظهروا ذلك للسلطان .

---

(١) الأشرفية . قصر بقلعة الجبل ، أنشأه الملك الأشرف خليل سنة ٦٩٢ هـ — المواعظ والإعتبار جـ ٢ ص ٢١١ .

(٢) « ووقف الخزندارية بأكياس الذهب ، فلما قام الأمراء من الخاصكية للرقص نثر الخزندارية على كل من قام للرقص » — المواعظ والإعتبار جـ ٢ ص ٢١١ .

(٣) « وعندما طهرهم رموا الأمراء الذهب لأجل النقوط ، فإن كان الأمير أمير مائة فارس رمى مائة دينار ، وإن كان أمير خمسين فارسا رمى خمسين دينارا ، وقس على ذلك سائر الأمراء ، ورمى حتى مقدمو الحلقة والأجناد فجمع من ذلك شىء كثير » — النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٦ .

ثم طلب السلطان الوزير وقال له : اعط للبليبل ألف دينار ، وكان البليبل يغنى فى المجلس وعلى السماط ، وكان له صوت عظيم إلى الغاية ، وكان الأشرف يحب سماعه فى حياة والده ، فقال الوزير : ياخوند وكم من ألف خرج فى هذا المهم؟ فالتفت السلطان إلى البليبل فقال : ويحك غنى إذا أسعدك الزمان فلاتبالى ، فصار يلعلع بصوته والسلطان يعجبه قوله ، فقال : يا صاحب إملأ طشت بالذهب فقال : السمع والطاعة ، ثم جاء إلى الوزير استاذ الدار لطقجي وديوانه ، وأوقفوه على ما كتبه السلطان ، فلما رأى علامة السلطان نهض من المجلس وقبل الأرض ووضعه على رأسه و بهت له ساعة ، وقال : مرسوم السلطان على الرأس والعين ، ولكن أمهلونى قليلا ، ثم نهض من المجلس ودخل على الأمير بيدرا نائب السلطنة ، ورمى نفسه عليه ، وقال يا خوند : ارحمني وادركني وإلا أموت ، من أين أجد مائة ألف دينار بعد عمل هذا المهم العظيم ، فلما وقف على المرسوم أعذره ونهض معه ، فدخل إلى السلطان ، فقال له : يا خوند ، من أين يجد الوزير بعد عمل هذا المهم مائة ألف دينار ، وشرع يسأل التنقيص من ذلك ، والوزير أيضا يسأله ، فنظر إليهما السلطان نظر المغضب ، فقال : مثلى ينعم على مملوكه بشيء اليوم وينقصه غدا . فقالوا(١) : يا خوند : نحن ندخل على طقجي ليحط من هذا القدر بشيء . فقال : هذا له وليس لى ، فنهضوا من عنده ، فصادفوا طقجي داخلا إلى الخدمة ، فأخذ بيدرا بيده فأجلسه إلى جانبه ، وطلب بكتمر السلاحدار وبعض الخاصكية ، وخاطبوه أن تكون المائة ألف دينار مائة ألف درهم ، فقال للوزير : أنت فى عقلك ؟ تقول إنى آخذ عوض مائة ألف دينار مائة ألف درهم ، فلما رأى بيدرا تصميمه على الطلب قام ووقف وقال : يا أمير أنا أروح

(١) هكذا بالأصل .

اليوم إلى بيتك واطلب ضيافتى ، فنهض طقجى وقال : يا خوند مثل ما وهبنى أستاذى أنا قد وهبتك الجميع ، وبعد ذلك حمل له الوزير مائة ألف درهم .

وقال صاحب النزهة : وجدت دفترا بخط شخص من مماليك الحاج طيبرس بعد وفاته ؛ وكان والدى وصيه ، فنظرت فيه ، وقد كتب كل ما نفق فى هذا المهم ، فوجدت جميع ما غرم من أوله إلى آخره : ثلاثة آلاف رأس غنم ، وستمائة رأس بقر ، وخمسمائة أكديش[1] وألفين[2] وثمانمائة قنطار سكر للمشروب ، ومائة وستين قنطارا لعمل الحلاوات ، وذكر أنه عجز ما نفق من الذهب ، وقدره على سبيل [٦٦] التقريب مائتى ألف دينار .

قال : ثم بعد قتل الأشرف لما تولى الأميران سلار وبيبرس وباشر علم الدين أبو شاكر ناظر الحوشخاناة سألته عما نفق من بيت المال فى المهم المذكور ، فقال : وجدت أوراق المصروف نحو الثلاثمائة ألف دينار ، سوى ما خص الأقبية والطرز والسروج وقماش العساكر ، ولم يعهد أن أحدا من ملوك الترك صنع مهما مثله ، ولا نفق فيه مثله .

وفيها : كانت واقعة القاضى تقى الدين بن بنت الأعز مع الوزير ، وقد ذكرنا طرفا منها فيما مضى[3] .

وذكر فى نزهة الناظر ما جرى عليه مع الوزير فى هذه السنة ، وقال : ولم يذكر أحد أفحش من هذه الواقعة ولا أشنع منها فى حق هذا الرجل ، وكان السبب فى ذلك أن الصاحب شمس الدين بن سلعوس لما قدم مصر فى الدولة

(١) « ومن الخيل خمسمائة إكديش » — المواعظ والإعتبار جـ ٢ ص ٢١١ .

(٢) « ألف » فى المواعظ والإعتبار .

(٣) انظر ما سبق ص ٨٥ .

المنصورية ، كما ذكرنا ، وباشر فى ديوان ولده الأشرف كان رفيقه فى المباشرة رجل يقال له نجم الدين بن عطايا ، كان شاهدا بديوان الأشرف ، فحصل بينه وبين ابن سلعوس الصاحب عظيم ومودة عظيمة ، واتفق أن ابن سلعوس خرج من مصر وأقام بدمشق ، فكان هذا الرجل يكتب إليه كل ما يتفق فى مصر من الوقائع ويعلمه بذلك ، وكان يهادى بعضهما إلى بعض .

وكان نجم الدين هذا يسعى عند الأمراء وحاشية السلطان فى أن يوليه القاضى تقى الدين فى شىء من الوظائف الدينية ، وكان ابن سلعوس أيضا بعث إليه من من الشام وسأله فى أمره ، فلما حضر قاصده إلى القاضى قال : يا سيدى القاضى شمس الدين يسلم عليكم ، فقال القاضى : أى شمس الدين ؟ فقال : صاحب ديوان الملك الأشرف . قال : تاجر البطاين ، فرجع القاصد وعرف ابن سلعوس بذلك ، فمضت على ذلك مدة وجماعة كثيرة يسعون له عند القاضى وهو يسوف من وقت إلى وقت إلى أن حضر نجم الدين مع جماعة عند القاضى فى أمر ميراث وتوكل فيه ، وادّعى على الأخصام بدعوى غير سائغة ، فنظر القاضى إليه وقال : يا نجم الدين أصلح دعواك ، فخرج وعاد ثانيا ، فرده القاضى وقال : أصلح دعواك ، فلما فرغ من الدعوى طلبه وسأله عن مسألة ، فلم يجب عنها ، وصار القاضى يفهمها له ، فلم يفهم ، ثم قال له : يا نجم الدين كيف يحل لك تسعى أن تتولى مجلسا من مجالس الحكام ولا تحسن طريق الدعوى السائغة ، ولا تجيب عن مسألة ، ارجع إلى الله تعالى ولا تثقل على بعد ذلك بأحد فى ولايتك ، واذهب واشتغل بالعلم ، ولا ألقى الله وفى صحيفتى ولايتك .

وتطاولت المدة على ذلك إلى أن تولى الملك الأشرف بعد وفاة والده المنصور وحضر ابن سلعوس واستقر فى الوزارة كما ذكرنا ، وعزل القاضى تقى الدين من

وظيفة القضاء ثم صار يأخذ منه وظيفة بعد وظيفة إلى أن بقى معه نظر الخزانة وشىء من وظائفه، وحصلت سفرة عكا، فكتب السلطان إلى نائب الغيبة من غير علم الوزير أن يطلب ناظر الخزانة وسائر مباشريها ويأمرهم بكتابة ما فيها من الحواصل، وسيرها صحبة البريدى، فكتب نجم الدين بن عطايا المذكور إلى الوزير وعرفه بذلك، وأن القاضى هو الذى فعل ذلك بسعايته، فبقى فى نفس الوزير ذلك، فلما قدم إلى مصر تلقاه الناس على العادة والقاضى فيهم، فأقبل يسلم على الوزير فلم ينصفه فى الجواب، ثم قال له يا مولانا تقى الدين: جهز عشرين [٦٧] ثوبا أطلس لأجل الفرش عند دخول مولانا السلطان، فقال يا مولانا الصاحب: ما سبقك بهذا أحد ولا سبقنى أيضا قاض بهذا، ورجع عنه وفى وجهه التغير، ثم عمل القاضى تقى الدين للوزير قصيدة من نظمه وعظمه فيها، وقصد بذلك ملاطفته ومداراته، فلما دخل إليه أراد أن ينشدها وهو واقف، فمنعه من ذلك(١)، وهى قصيدة طويلة أولها هو قوله:

شكر الله ما صنعت ويرعى فهو قد حل فى البرية وقعا

وكانت هناك جماعة كثيرة، فدخلوا على الوزير أن يسمعوا القصيدة، فأمر بذلك، ولما فرغ من إنشادها تبسم الوزير، وقال: يا مولانا تقى الدين: عظمت تاجر البطاين كثيرا، فخجل القاضى، ثم قال: يا مولانا الوزير: المرء بنسبه لا بحسبه، وليس رئيس القوم من يحمل الحقد، ثم شرع الوزير بعد ذلك فى العمل عليه إلى أن طلب بعض الكتاب، فكتبوا عليه بمائة وعشرين ألف

(١) «أراد إنشادها بنفسه فخاف الوزير عليه، فأنشدها أخوه علاء الدين» — السلوك ج ١ ص ٧٨٥.

درهم ، فطلبه إليه وخاطبه فى أمرها ، فقال تقى الدين : ما عهدت منى خيانة قبلها ، فنهره ورسم عليه وأقامه من المجلس ، ثم دخل إلى السلطان وعرفه بذلك ، ورسم السلطان بأن يستخرجها منه .

وكتب تقى الدين ورقة إلى نائب السلطان ، وذكر فيه ما جرى عليه مع الوزير ، فسير إليه النائب الأمير الموصلى الحاجب يقول له : هـذا القاضى كان رفيقى فى الوزارة ، وله على خدمة كثيرة ، وما رأيت منـه فى مباشرته ما يشينه فى دينـه ولا دنياه ، وإن كان الصاحب ما يقبل سؤالى فيه ، فمهما كان فى جهته أنا أقوم به عنه لبيت المـال ، فقال فى جوابه : بسم الله ولكن نحتاج إلى تحقق حساب الديوان يومين أو ثلاثة ، ثم أسيره إلى خدمته .

وتحقق الوزير أنه ما ينال منـه غرضه لأجل قيام بيدرا فى طريقه ، فسعى ابن عطايا وأصلح جماعة من شهود القلعة وغـيرهم ممن لا يتقى الله ، فحضروا عند الوزير ، واتفقوا معـه على أن يشهدوا على القاضى بمـا يدعيـه الوزير ، فأصبح الوزير ودخل إلى السلطان فقال : كلما أطلب أحدا ممن له تعلق بأمور المباشرة وعليه مال السلطان يقوم بيدرا لأجله و يمنعه عنى ، و يرسل إلى الرسالات الفاحشة فغضب السلطان وقال : اخرج واطلب مالى حيث ما كان وفى جهة من كان ، ثم شرع يسب بيدرا ، فخـرج الوزير وطلب القاضى تقى الدين ونهـره ، ورسم عليه أربع رسل (١) وقال له : انزل واحمل المـال وإلا فعلت بك كذا وكذا ، وأمر أن لا يركب .

قال صاحب التاريخ : ورأيتـه فى ذلك اليوم عنـد باب الإصطبل وهو يقاول الرسل على الركوب وهم يمنعونه وعليه دراعة وعمامة وعذبة صغيرة ، وكان

(١) هكذا بالأصل .

الأمراء فى ذلك الوقت طالعين إلى الخدمة فرآه أمير سلاح على هذه الحالة ، فضرب الرسل وأركبه ، وقامت العوام على الرسل وقصدوا رجمهم وضربهم ، فمنعهم بعض الناس ، وصارت الأمراء ينظرون إليه وتألموا بسببه ، ولما طلعوا إلى القلعة عرفوا النائب بيدرا بما رأوا مما عليه القاضى من الذلة والإهانة بين العامة والخاصة ، فتألم بيدرا بسبب ذلك غاية ما يكون .

ثم أن الوزير اتفق مع الشهود المذكورين وصوروا عليه محضرا يتضمن فصولا كثيرة ، منها : أنه يشرب الخمر ، ومنها أنه يلوط بالصبيان ، ومنها أنه يتلفظ بألفاظ يصطلح بها [٦٨] النصارى من الألفاظ التى يترتب على قائلها الكفر ، وأنهم عاينوه وقد شدّ فى وسطه زنارا من تحت ثيابه على صفة النصارى ، وأثبتوا المحضر على هذا الوجه ، ثم أخذه الوزير ودخل به إلى السلطان ، فقرأوه عليه ، واتفق معه على أن يحضروه إلى مجلس الحكم ويدّعى عليه بذلك ، فإن أنكر شهد عليه شهود المحضر ، ثم يعمل بمقتضاه من القتل ونحوه .

ولما خرج الوزير من عند السلطان دخل النائب ، فتلمح السلطان فى وجهه الغيظ ، فسأله فقال ياخوند : كيف لا يكون وفى أيامك ينزل قاضى المسلمين ، وهو رجل كبير القدر ، صاحب علم ودين ، وسلف صالح ، راجلا يمشى بين العوام ، ويهان بين الرسل ، وشرع بيدرا يذكر أمثال ذلك ، فقال السلطان : اسكت أنت ما تعرف ، هذا رجل زنديق ، فشرع يذكر له المحضر وما كتب فيه من المصائب ، وأن الوزير التزم أن يثبت ذلك جميعه ، فلم يتمالك بيدرا من حنقه على ذلك حتى قال يا خوند : ارجع إلى الله فى مثل هذا الرجل ولا تسمع فيه قول رجل عامى ، فغضب السلطان من قوله ، وقال له : يا مأبون تقول فى حق وزيرى قطعة عامى ، والله لولا خدمتك على وإلا خليتك

تمشي في خدمته وتحمل مدامه ، فخرج بيدرا من عنده ، وهو أعمى من الغيظ والحنق ، فوصل إلى دار النيابة ولم يجلس للحكم ، واختلى بنفسه وبكى بكاء كثيرا ، فبلغ الوزير ذلك ففرح وانبسط ، ولم يدر ما يكون عقيب ذلك .

وأنشد صاحب التاريخ لنفسه :

كلمة قلتها فقالت مهلا عن قريب تُريك قولا وفعلا
ستری جمرة نار نارا كأن إشعالها سنانا ونصلا

فسمعت الأمراء بذلك ، فأتوه سرا وصبّروه وهوّنوه عليه ، وقالوا له : إن أستاذك حادّ الخلق ، فاصبر على ذلك ، فكلهم تألموا له بسبب ذلك ، ثم أجمعوا كلهم على الكلام مع السلطان ، ولما دخلوا عليه أخذ السلطان يذكر لهم حديث القاضي ، فقال له أمير سلاح ، والبيسرى : يا خوند الله الله حاشى في القاضي هذه الأمور ، فصار السلطان يُحاجج الأمراء ، فقال له أمير سلاح : يا خوند نحن ما نريد أن يكون في ذمة السلطان من ذلك شيء ، فتجتمع مع نائب السلطان وسائر القضاة ، وتعمل عقد مجلس لهذا الرجل وتسمع محنته ، فإن ثبت عليه شيء مما ذكروه عرفنا مولانا السلطان فيرى بما فيه مقتضى الشرع ويبرأ ذمته من جهته ، فأجابهم السلطان على ذلك ونهضوا كلهم واجتمعوا في موضع ، وأحضروا القاضي وشهود المحضر ، وكان منهم نجم الدين بن عطايا ، وابن السبتي ، والنكورى الإمام ، وكان هؤلاء من شهود القلعة ، وأقاموا شخصا يدعى عليه بذلك ، فنهض القاضي تقي الدين وقال :

بسم الله الرحمن الرحيم ؛ قال الله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ ﴾(١) — الآية . ثم قال : يا أمراء الإسلام يا مجاهدين فى سبيل الله أنا فلان بن فلان بن فلان ، وذكر سائر أجداده إلى أن قال ما فى نسبى بطرس ولا جرجس ولا مجوسى ولا نصرانى ، وإذا قالوا إنى أشرب الخمر ربما يكون فيه لذة على زعم من يستعمله ، أو أنى ألوط ربما يكون من عليه شهوة النفس ، ولكن النصرانية وشد الزنار من أين و إلى أين وما فيه من اللذة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وتمثل :

جلوا صارما وتلوا باطلا وقالوا : صدقنا ، فقلنا : نعم

[٦٩] ثم بكى ، فانهملت عيناه بالدموع ، فما قام أمير منهم إلا وهو يمسح عينيه من البكاء ، ويقول : والله يحق على من يشهد على مثل هذا بالنصرانية أن يضرب عنقه ، فانقضى المجلس على ذلك ، وكان مجلسا عظيما ، وقصدت العوام أن يرجموا الشهود ، فمنعتهم الحجّاب ، ثم دخل الأمراء إلى السلطان ، فرأى فى وجوههم أثر البكاء والحزن وقد تنكرت ، وصار الأمير بدر الدين يتحدث معه ودموعه تجرى ، وقال يا خوند : إيش يقال فى بلاد الأعداء إذا سمعوا أن الشهود شهدوا أن قاضيهم الذى هو قاضى القضاة نصرانى ، وشرع البيسرى وبكتمر السلحدار وغيرهما من أكابر الأمراء فتحدثوا مع السلطان ، فقال السلطان : أما فى ذمتى ذنب ، ورسم بالإفراج عنه ، وأن لا يعارضه أحد ، فخرج الأمير سيف الدين بكتمر السلحدار بنفسه ومشى مع القاضى إلى باب القلعة .

وقال صاحب التاريخ : كنت فى ذلك اليوم مع والدى أشاهد ما وقع ، ولم أر مثل ذلك اليوم من اجتماع الناس حتى لا يمكن أن يرى أحد القاضى بينهم .

(١) الآية ٦ من سورة الحجرات رقم ٤٩ .

وأصبح الأمير بيدرا يدخل إليه ، فطلبه وطيب خاطره وخلع عليه وقال : لأجلك أطلقت القاضي وما سمعت فيه قول أحد ، فقبل الأرض ودعى للسلطان ، وفي قلبه من تلك الكلمة أمور .

قال صاحب التاريخ : أخبرني الشيخ زين الدين ابن الكناني الشافعي في سنة أربع وسبعمائة ، وقد أجريت عنده ما جرى على القاضي تقي الدين . فقال : أصيب بدعوة دُعيت عليه ، وهو أن القاضي تقي الدين كانت له وظائف شتى . من جملتها نظر الخانقاة الصلاحية ، وكان شيخها في ذلك الوقت الشيخ شمس الدين الأيكي (١) ، وكان القاضي يحضر الوظيفة ، واتفق في بعض الأيام بحث بينهما في نظم الشيخ شرف الدين بن الفارض (٢) ، وكان قد بلغ القاضي عن الشيخ أنه يعتقد الحلول ، فقال له : بلغني أنك رجل حلولي على مذهب ابن الفارض ، وأنك كل وقت تنشد قصيدته التي فيها ذكر الحلول ، وهذا مذهب نحس ، فصعب على الشيخ كلامه ، وأخذ يجاوب القاضي بالفظاظة فقال له القاضي : الآن ظهر صدق ما قيل فيك ، وسفه عليه ، وقام من غيظه عليه ، فضربه بيده فأخرق عمامته في حلقه ، فنظر إليه الشيخ ، وأجرى دمعه ، وقال : نكلت بي ، نكل الله بك ، فأُجيبت دعوته ، وجرى عليه ما جرى ، ولما أفرج الله عنه جاء إلى الشيخ واستغفر الله تعالى ، وأشار الشيخ إلى خادم من خدام أم الملك السعيد ، وكان حسن الصوت ، فقام وأنشد قصيدة ابن الفارض إلى أن أتى إلى قوله :

وبي من أتم الرؤيتين إشارة تنزه عن رؤيا الحلول عقيدتي

(١) هو محمد بن أبي بكر بن محمد الفارسي الأيكي الشافعي ، شمس الدين أبو المعالي ، المتوفى سنة ٦٩٦ هـ / ١٢٩٦ م — انظرما يلي في وفيات ٦٩٦ هـ .

(٢) هو عمر بن علي بن مرشد الحموي الأصل ، المصري المولد ، والمتوفى سنة ٦٣٢هـ/١٢٣٥ م — وفيات الأعيان جـ ٣ ص ١٢٦ رقم ٤٧٢ .

فبكى القاضى عند ذلك بكاء كثيرا ، فقال : والله لقد قرأت هـذه القصيدة مرارا عديدة ولم أقع على هذا البيت ، ونحن نستعيذ الله من ذلك الذنب .

وفيهـا : عزل القاضى عماد الدين بن الأثير (١) كاتب الإنشاء ، وكان السبب لعـزله أن السلطان قال له : اكتب إلى نائب الكرك باتلاف بعض الأمراء ، فكان جوابه له : ياخوند عاهدت الله أنى لا أكتب بخطى فى إتلاف مسلم ، فنظر إليـه نظر المغضب فقال : ويلك ، أقول لك اكتب فـما تكتب ، فأخذ الدواة فضربه بها ورفصه فى صدره ، فنهض وهو يقول : رضيت بغضب السلطان ولا غضب الله تعـالى (٢) ، فطلب السلطان النائب وعرفه بذلك ، وقال له : افتكر من يـكون كاتب السر ، وكان فى ذلك [٧٠] الوقت نوبة الأمـير لاجين فى السلاح فقال : يصلح لهـذا شرف الدين بن فضل الله (٣) ، وأنه من بيت كبير وله دراية بالوظيفة ، فعند ذلك رسم بطلبه على البريد ، فلما حضر خلع عليه واستقر بالوظيفة .

وفيهـا : أفرج السلطان عن يعقوبا (٤) أمير الأكراد الشهرزوية ، وكان قـد أتى إلى بلاد الشام ومعه نحو من أربعة آلاف نفس من الشهرزوية ، وجرت

(١) هو : إسماعيل بن أحمد بن سعيد بن محمد بن الأثير الحلبى ، عماد الدين أبو الفدا ، المتوفى سنة ٦٩٩ هـ / ١٣٠٠ م — المنهل الصافى جـ ٢ ص ٣٩١ رقم ٤٢٨ .

(٢) « ثم تركها (كتابة السر) تدينا وتورعا » — تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٣٠ .

(٣) « وفى آخر ذى الحجة استقر فى كتابة السر القاضى شرف الدين عبد الوهاب بن فضل الله العمرى ، عوضا عن عماد الدين إسماعيل بن الأثير » — السلوك جـ ١ ص ٧٨٦ .

وهو عبد الوهاب بن فضل الله المجلى بن دعجان بن خلف ، القاضى شرف الدين ، أبو محمد القرشى العدوى العمرى الشافعى ، كاتب السر بالديار المصرية ، والمتوفى سنة ٧١٧ هـ / ١٣١٧ م — المنهل الصافى .

(٤) ورد اسم الأمـير يعقوبا الشهرزورى ضمن الأمراء الذين اتفقوا على خلع الملك السعيد بن الظاهر بيبرس سنة ٦٧٨ هـ — انظر ما سبق بالجزء الثانى من هذا الكتاب ص ٢١٧ .

له وقائع كثيرة، وبقى إلى أن حضر السلطان الملك المظفر قطز والتقى مع المغول فى عين جالوت ، وكان قد حضر المصاف وشكِرَ فيه هو وقومه ، ولما تسلطن الملك الظاهر حبسه، فبقى فى الحبس إلى أن أطلقه الأشرف فى هذه السنة، وكان الساعى له عند السلطان الأمير برغشه، وكان قد حضر عند السلطان بتقدمة جليلة من الخيل وغيرها ، فشفع فيه عند السلطان ، وساعده الأمير بيدرا أيضا، وكان بينه وبين برغشه صحبة من أيام وصول يعقوبا إلى البلاد ، ولما أطلقه السلطان أنعم عليه بألف دينار وكسوة وخيل ، وكان رجلا طوالا وشكلا عجيبا جميلا .

وفيها : ركب السلطان ونزل إلى الميدان ولعب بالأكرة ، فضرب الأكرة فوقعت على وجه بيدرا ، فقطع حاجبه وجرى الدم وتشوش السلطان لأجله ، فقصد أن يبطل لعبه ، فحلف عليه بيدرا أن لا يبطل .

ونظم شرف الدين ابن الوحيد فى ذلك أبياتا منها قوله :

يابدر دين الله يا مُشبها سميَّه فى كل حُسن بَهَرْ
مملوكك الجوكان تأثيرُه فى وجه مولانا أتى واعتذرْ
وقال قصدى أن أرى وجهه كوجه بدر التم فيه أثرْ

وفيها : كانت واقعة أهل الذمة وإسلام كثير منهم ، وكانوا فى الدولة المنصورية فى غاية الذلة والإهانة خصوصا فى أيام الشجاعى الذى كان له حرمة عظيمة على العامة والكتاب وأرباب الأقلام حتى أنه كان أكبر من فيهم يكون راكب حمار وزناره فى وسطه، ولا يجسر يتحدث مع مسلم وهو راكب، ولا يمكن أن يرى عليه فرجية مصقولة ولا بيضاء إلا القليل منهم مع ذلة ومسكنة، فلما تغيرت الدولة وملك الأشرف وحدثت الأمور وانتشأت الخاصكية وكبرت

نفوسهم ، كبر قدر النصارى أيضا بسبب بعض الخاصكية الذين يحامونهم ، وكان من جملة الخاصكية مملوك يعرف بعين الغزال ، وكان صاحب صورة جميلة جدا ، وكانت له منزلة ومكانة عند السلطان ، واتفق أن بعض النصارى خدم عنده ، واتفق أنه لقى يوما عند زين العابدين سمسارا باع قماشا لتاجر ، وعلى التاجر دين للديوان ، فلمارآه السمسار نزل وباس رجله ، وشرع النصرانى يسبه ويشتمه ، والرجل يعتذر إليه فلا يقبل منه ، ثم صاح لغلامه وقال له : انزل وكتف هذا الفاعل الصانع ، فنزل إليه وكتفه ، فاجتمعت عليه خلق وما وصل إلى الصليبة حتى اجتمع عليه خلق كثير ، وهم يسألون النصرانى أن يطلقه وهو يأبى عليهم ، فقاموا عليه وأردوه من حماره وأطلقوا الرجل ، وكان قد قرب إلى اصطبل أستاذه ، فجرى غلامه وأتى إلى الاصطبل وأخبر أهلها بما جرى ، فخرجت الغلمان والوشاقية وخلصوا النصرانى منهم ، والناس يصيحون ما يحل ما يحل حتى وصلت صيحتهم وغايتهم إلى تحت القلعة ،[٧١] وصاحوا نصر الله السلطان ، فسمع السلطان بذلك ، فأرسل جماعة من الوشاقية ليكشفوا الخبر ، فعرفوهم بذلك ، فطلب عين الغزال فقال : ويلك تسلط غلمانك على المسلمين لأجل كاتب نصرانى ، فخشى عين الغزال فقال : ياخوند أنا فى خدمة السلطان هاهنا ما أعرف هذه القضية ، فغضب السلطان وطلب الوشاقية وقال : انزلوا هاتوا كل من فى اصطبل الأمير ، وقولوا للعوام : رسم لكم السلطان أن أى نصرانى رأيتموه أحضروه إلى ، وطلب الشجاعى والنائب ، وقال : لاتخلوا نصرانيا حتى تحضرون به إلى ، وقرر معهم أن ينادى أن أميرا أو غيره لايستخدم نصرانيا ولا يهوديا إلا إذا خرج عن دينه وتمسك بالإسلام ، وأمر لسائر الأمراء أن كل من عنده كاتب نصرانى يعرض عليه الإسلام ، فإن أبى يضرب عنقه وإن أسلم

يستخدمه ، ورسم للنائب أن يعرض سائر المباشرين فى ديوان السلطان و يفعل فيهم مارسم به من الذى ذكرناه ، فهربت جماعة كثيرة من الكتاب ، وسمعت العوام بذلك ، فتتبعوا آثارهم وهجموا عليهم فى بيوتهم ، وأخرجوا حريمهم مسبيات ، وقتلوا جماعة منهم بأيديهم ، وبلغ ذلك إلى السلطان ، فأمر الوالى أن ينادى أن أى من نهب بيت نصرانى يشنق ، ومسكوا جماعة من الحرافيش فأشهروهم .

وكان أعظم ما جرى فى مصر بقصر الشمع ، والكنيسه المعلقة ، وعدمت أموال كثيرة للنصارى ولليهود أيضا ، فلما نادى السلطان كفوا عن ذلك ، وجمعوا جماعة من الكتاب الذين يكتبون فى دواوين الأمراء وديوان السلطان ودخل بهم النائب إلى السلطان ، فأوقفهم من بعيد ، فرسم للشجاعى وأمير جندار أن ينزلا سوق الخيل ويحفرا حفيرة كبيرة و يرميانهم فيها ، ثم يرمون عليهم الحطب والنار ، فأخذوهم وخرجوا ، وتقدم النائب وقال ياخوند : هؤلاء أصحاب دواوين يحفظون الأموال والخراج ، وليس للسلطان غنى عنهم . فقال أنا ما أُريد أن يكون فى دولتى ديوان نصرانى ، ومازال بيدرا يسأله إلى أن اتفق الحال على أن من أسلم منهم يستخدم ومن لا يسلم يضرب عنقه ، وخرج نائب السلطان فأحضر الجميع بين يديه ، وكان فيهم رجل يعرف بالمكين ابن السقاعى ، ولما كان بيدرا وزيرا كان يستظرف كلامه و يمزح معه لأنه كان ظريفا صاحب هزل وجواب خاطر فى وقته ، فأول كلام بيدار كان معه وقال ياجماعة : وصلت قدرتى مع السلطان فى أمركم أن من أسلم خلع عليه و يباشر وظيفته ومن أبى قتل ، فابتدره المكين بالجواب وقال ياخوند : أىّ قواد يختار القتل على هذا الدين الخرعي ، والله دين نقتل عليه يروح لا كتب الله

عليه سلامه ، قولوا لنا الدين الذى تختارونه نروح إليه ، فعلته الضحك ، وكل من كان حاضرا ، فقال بيدرا : ويلك نحن نختار غير دين الإسلام ! فقال يا خوند ما نعرف . قولوا : نحن نتبعكم ، فأحضروا الشهود واستنطقهم بالشهادة ، وكتبوا ، ودخل بهم إلى السلطان ، فألبسهم التشاريف ، وجعلوا فى مجاس الوزير .

واستفتح بعض المدراء ، فناول المكين ورقة ، وقال : يامولانا القاضى ، اكتب على هذه الورقة والوزير يسمعه : وقال يا ابنى : ما كان لنا هذا القضاء فى خلد ، فتبسم الوزير فبقوا إلى العصر ، فحضر الحاجب من جهةالنائب وعرف الوزير أن [٧٢] الجماعة يقومون كلهم إلى مجلس النائب ، ويريد أن يجدد إسلامهم عند القضاة ، فرسم بقيامهم ، فقال المكين : يا مولانا الصاحب صارت هذه عادة كل يوم نقولها ، فتبسم وقال : نعم ، نقولها كل يوم خمس مرات قبل الصلاة وبعدها ، فلما نهضوا كان القاضى تاج الدين بن السفلورى جالسا مع الوزير ، فقال يا مولانا تاج الدين : ما تقول فى إسلام هؤلاء الجماعة ؟ قال : أقول إن الذليل منهم صار عزيزا ، والعزيز من المسلمين صار ذليلا لهم ، فإنه كان يمنعهم من ظلم الناس ومن التكبر عليهم كونهم نصارى ، فالآن يقولون : نحن مسلمون ، فيتسلطون عليهم والله يتولى سرائرهم .

وكان من جملة من أسلم منهم : أمين الملك بن غنام ، وابن السقاعى ، وابن لُقَيقه كاتب ديوان النائب .

وكتب بعضهم لبيدرا بيتين وسيّرهما إليه ، وهما لابن البغدادى :

أسلم الكافرون بالسيف قهرا   وإذا ما خلوا فهم مجرمونا

أسلموا من رواح مال وروح فهم سالمون لا مسلمونا

وقال صاحب التاريخ ولمؤلفه :

قل للمليك الأشرف ما تنتظر يا ناصر الدين ويا منتصر

قد أمكن الله من أعدائه في يوم بؤس نحسه مستمر

فقلد السيف لأرقابهم واجعله على الكافر يوما عسر

فلا يغرنك إسلامهم فكل من أسلم كذاب أشر

وفيها : اشتهى السلطان أن يتفرج على لعب الشواني[1] في البحر ، فطلب الوزير وقال له ذلك ، فنزل إلى الصناعة[2] وطلب الرئيس ، وجهز كل ما يحتاج إليه من العمل ، وأقاموا أياما قليلة وجهزوا نحوا من ستين شينيا ، وحملت فيها سائر العدد من السلاح ، ورتبوا في كل مركب مماليكا ملبسه مقاتلة ومماليكا زرادين .

فهرعت إلى الفرجة على ذلك من قبل ركوب السلطان بثلاثة أيام أهل مصر والقاهرة ، وصنعوا قصورا من الخشب ، وبنوا أخصاصا على ساحل مصر وساحل الروضة ، فبلغ كرا كل ساحة من الساحات التي بين يدي البيوت إلى مائة درهم ومائتين ، ويوم ركوب السلطان كان الناس مثل الجراد المنتشر من المقياس إلى بولاق ، فما رأى أحد مثل ذلك اليوم ، وأراد الحجاب منع الناس

(١) الشواني : جمع شيني ، أو شاني ، أو شينية ، أو شونة ، وهي السفينة الحربية الكبيرة ، ومن أهم القطع التي يتكون منها الأسطول في الدول الإسلامية — السفن الإسلامية على حروف المعجم ص ٨٣ .

(٢) الصناعة : مصطلح يطلق على المكان المعد لصناعة السفن .

والمقصود هنا صناعة مصر ، بساحل فسطاط مصر ، التي أنشئت منذ أيام محمد بن طغج الأخشيد سنة ٣٢٣ هـ — المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ١٩٧ .

فلم يجدوا لذلك سبيلا ، ورسم السلطان أن لا يتعرضوا لأحد ، وأرمت جماعة كثيرة نفسها فى البحر ، ووقف الناس صفوفا صفوفاً ، ووقف السلطان والنائب والخاصكية قدام دار النحاس(١) ، فدارت الشوانى بين يديه ، وقد صنعت فى وسطها أبراج وقلاع ، وفيها مقاتلون ، والنفط ، والمكاحل ، ونحو ذلك ، وأظهر كل مركب صنعة تفتخر بذلك على غيره من المراكب ، فلم يزل السلطان يتفرج على ذلك إلى قريب الظهر ، ثم رجع الى القلعة والذى اتفق فى ذلك اليوم ما اتفق لأحد من الملوك .

قال صاحب التاريخ : وأخبرنى جماعة من أهل المراكب أن أحدا منهم قد استكمل أجرة مركبه سنة كاملة فى هذا اليوم ، وأن الراكب فى مركب كبير قد استكراه فى ذلك اليوم بسبعمائة درهم وأكثر ، وابيع سبعة أرطال خبز بدرهم بعد أن كان اثنى عشر رطلا بدرهم ، وكذلك اللحم وغيره زاد سعره من كثرة الزحام والخلق .

قال الراوى : وأنشدنى الشيخ فتح الدين ، [٧٣] شيخ الحديث بيتين لابن عنين فى لعب الشوانى فى أيام الأشرف وهما :

يا أيها الملك المسرور أمله هذى شوانيك تجرى يوم سرّاء

كأنها شبه أطيار بها ظما طارت إلى الجو وانتثرت على الماء

وفيها رسم للأمير عز الدين أيبك الخزندار بنيابة طرابلس ، عوضا عن الأمير سيف الدين طغريل اليوفانى(٢) ورسم بحضوره إلى مصر .

---

(١) دار النحاس : تطل على ساحل الفسطاط (مصر القديمة) قبيل فم الخليج من جهة الفسطاط ، وهى المنطقة المحصورة حاليا بين كوبرى الملك الصالح ، وبداية سور مجرى العيون بفم الخليج .

(٢) « الإيغانى » فى السلوك جـ ١ ص ٧٨٠ ، ص ٧٨٢ .

وتولى الأمير سيف الدين طوغان نيابة السلطنة بقلعة الروم ، عوضا عن الأمير عز الدين الموصلى .

وفيها أرسل السلطان الأمير علم الدين الدواداری إلى صاحب القسطنطينية ، و إلى أولاد بركة ، ومعه تحف كثيرة جدا ، فلم يتفق خروجه من قبل السلطان ، فعاد إلى دمشق .

وفيها وصل مملوك نائب حلب يخبر بحضور رسل كيخاتو ملك المغول ، وهم جماعة كثيرة ، ويستأذن لدخولهم ، ورسم له بذلك ، ورتبوا الإقامات عندما وصلوا إلى الصالحية ، وخرج المهمندار (١) إلى لقائهم ، وأمر السلطان الأمراء والجند — يوم عبورهم فى الخدمة — أن يزينوا أنفسهم ، فلبسوا الكلوتات الزركش والمطرز وغيرها ، واستقبالهم من باب القلعة ، وقد ترتبوا من خارج الباب إلى الايوان صفين أمراء وأجناد ومقدمون ، فلما رأوهم إندهشوا من مهابتهم وترتيبهم ، فأوصلوا الكتب ، وتكلموا مشافهة أيضا ، على أن القان يقصد أن يدخل إلى مدينة حلب ويقيم فيها ، ويجعل مقامه فيها ، فإنها مما فتحه أبوه هلاون بسيفه ، وهى فى ملكه ، و إن لم يسمح بذلك فهو يقصد العبور إلى الشام .

فاسرع السلطان بالجواب ، وهو يتبسم ، وقال : الحمد لله الذى وافق أخى القان ما كان فى نفسى فكنت قد تحدثت مع أمراء دولتى أن أسيّر طالبا من أخى بغداد ، و إن لم يسمح لى بها ركبت ودخلت بعسكرى وأخربت بلاده ، وقتلت

(١) المهمندار : لفظ مركب من كلمتين فارسيتين بمعنى ممسك الضيف ، وصاحب هذه الوظيفة هو الذى يتلقى الرسل والعربان الواردين على السلطان ، وينزلهم دار الضيافة ، ويتحدث فى القيام بأمرهم — صبح الأعشى جـ ٤ ص ٢٢ ، جـ ٥ ص ٤٥٩ .

رجاله ، وفتحتها قهرا ، وجعلت فيها نائبا من جهتى ؛ فإن بغداد هى دار السلام ، وأرجو أن أعيدها للإسـلام كما كانت ، ولكن إذا وصلتم إليه عرفوه من يسبق إلى بلاد صاحبه ويدخل فيها .

فلما خرج الرسل طلب الوزير ورسم أن يكتب إلى سائر البلاد والعواصم بتجهيز الإقامات ، وكذلك للعساكر أن يجهزوا لدخول الفرات وأخذ بغداد ، ورسم إلى سائر الأمراء لا يدخل أحد منهم الميدان (١) — يوم الميدان — إلا وهو لابس عدة الحرب هو وفرسه ، ورسم للمهمندار أن يأخذ الرسل معه إلى الميدان ليروا الموكب .

وانتظم يوم الميدان بما حيرهم هناك ، وكان يوما عظيما ، واجتمعت فيه خلق لا يحصى عددهم ، وخلت الأسواق بأجمعها ، وانتشرت الخلائق مثل الجراد ، فرأى الرسل نهارا عظيما إلى أن أذن الظهر ، وركب السلطان ، وقد لبس قرقلا (٢) خفيفا ، [و] بيده شطفة ، وناهيك من ملبوس ملك فى مثل ذلك اليوم ، وتواترت الأمراء بعده بالدخول أولا فأولا ، وكل أمير يدخل وقد لبس أفخر لباس الحرب ، وبيده شطفة برنكه (٣) ، ورسم لهم السلطان أن يتصارعوا كل أمير مع أمير على قدر مراتبهم ، وشرعوا فى كر وفر ، وصدور وورود ، وكل منهم قد أظهر فروسيته فى ذلك اليوم ، وكان يوما مشهودا .

(١) « أحد منهم » بها مش المخطوط ، ونبه على موضعها بالمتن .

(٢) قرقل — قرقلات : نوع من الدروع تتخذ من صفائح الحديد ، وتغشى بالديباج الأحمر والأصفر ، وقد تكون مبطنة — صبح الأعشى جـ ٢ ص ١٤٣ ، جـ ٤ ص ١١ .

(٣) رنك : لفظ فارسى معناه : الشعار ، وجمعه : رنوك ، وهو الشعار الذى يتخذه الأمير لنفسه عند تأمير السلطان له ، وكان الشعار يتناسب غالبا مع وظيفة الأمير — صبح الأعشى جـ ٤ ص ٦١ — ٦٢ .

وفيها جهز نوغيه زوجته بيلق خاتون إلى الملك طقطا برسالة تحملها إليه ، وإشارة تشير بها عليه ، فلما وصلت إلى الأردو تلقاها بالإكرام [٧٤] واحتفل لها في الضيافة والتقادم ، وأقامت في الضيافة أياما ، ثم سألها عن سبب مجيئها ، فقالت له : يقول لك أبوك أنه قد بقي في طريقك قليل شوك ، فنظفه ، فقال : وما هو الشوك ؟ فسمت له الأمراء الذين ذكرهم نوغيه لها وهم : كلتكاى ، يوفق ، قرا كيوك ، ماجار ، بارين طقطا ، كبي ، يو كو ، طرا تمر ، التمر ، تكا ، بي طرا ، بيملك تمر ، بي طقتمر ، بيغور افطاجي ، باروه ، ملجكا ، برلغي ، كبجك ، سودق ، قراجين ، خاجزى ، ابشقا ، بيبنجي ، وهؤلاء هم الذين كانوا اتفقوا مع تلابغا على نوغيه .

فلما أبلغته بهذه الرسالة ، وقصت عليه هذه المقالة طلب هؤلاء الأمراء ، واحدا بعد واحد ، وقتلهم جميعا .

فعادت بيلق خاتون إلى نوغيه ، فأعلمته بقتلهم ، فسكن قلقه ، وزال فرقه ، وتحكم أولاده ، وأولاد أولاده .

وكان له من الأولاد الذكور ثلاثة وهم : جكا ، وتكا ، وكانا من أم واحدة ، وطراى من امرأة أخرى ، وابنة تسمى جغلجا ، وابن بنت يسمى افطاجي ، وكانت ابنته هذه مزوجة لشخص يسمى طاز بن منجك ، فقويت شوكتهم وتمكنت مهابتهم وسطوتهم[1] .

(١) انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٨٠ أ ، ب .

وفيها : حج بالناس فى الركب المصرى الأمير بدر الدين بكتاش المعروف بالطيار ، وفى الركب الشامى الأمير الباسطى ، وكان ممن حج فى هذه السنة الشيخ تقى الدين بن تيمية ، ونالهم فى مكة ريح شديدة جدا ، مات بسببها جماعة ؛ وحملت جمالا من أماكنها ، وطارت العمائم ، واستقل كل أحد بنفسه .

ذكر من تُوفى فيها من الأعيان

الشيخ الصالح القدوة العارف، أبو إسحاق إبراهيم(١) بن الشيخ الصالح أبى محمد عبد الله بن يوسف بن يونس بن سليمان بن البكر الأرموى(٢). المقيم بزاويته بسفح قاسيون ، وفيها كان ميلاد الشيخ ، وكانت وفاته بها أيضا .

ومولده سنة خمس عشرة وستمائة ، كانت له عبادة وانقطاع ، وله أوراد وأذكار ، وكان محببا إلى الناس .

وله شعر جيد منه :

سهرى عليك ألذ من سنة الكرى … ويلذ فيك تهتكى بين الورى
وسوى جمالك لا يروق لناظرى … وعلى لسانى غير ذكرك ما جرى
وحياة وجهك لو بذلت حشاشتى … لبشرى برضاك كنت مقصرا
أنا عبد حبك لا أحول عن الهوى … يوما ولو لام العذول وأكبرا(٣)

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ١١٧ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٥١ ، الوافى جـ ٦ ص ٣٦ رقم ٢٤٩٩ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٣٣ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٣٨ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٢٠ ، مرآة الجنان جـ ٤ ص ٢٢٠ — ٢٢١ ، السلوك جـ ١ ص ٧٨٧ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ١٠ رقم ١٥ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٦٣ — ١٦٤ .

(٢) الأرموى : نسبة الى أرمية : مدينة عظيمة قديمة بأذربيجان — معجم البلدان .
وورد « ويعرف بابن الأرمنى ، ويقال ابن الأرموى نسبة الى أرمينية » — تاريخ ابن الفرات .

(٣) انظر أيضا تاريخ ابن الفرات .
« وأكثرا » فى الوافى .

الشيخ الفاضل المقرئ كمال الدين علي[1] بن الشيخ ظهير الدين محمد بن المبارك ابن سالم بن أبي الغنائم الدمشقي ، المعروف بابن الأعمى .

ولد سنة عشرة وستمائة ، وتوفي في الحرم منها ، ودفن بمقابر الصوفية .

وكان فاضلا بارعا ، له قصائد يمتدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، سماها الشفعية ، عدد كل قصيدة اثنان وعشرون بيتا[2] . قال البرزالي : سمعت عليه أوله المقامة المشهورة[3] في الفقراء المجردين .

ومن شعره قوله :

أنا في حالة اللـذة والتهاني[4] لست أثني عن الغـرام عناني

لا يروم الساق قلـبي ولا يفـ ـتر عن ذكر من أحبّ لساني

وسـواء إذا المحبـة[5] دامت نظري بالعيان أو بالجنان

[فاقتراب الديار لفظ وقرب الـ ـود معنى ، فاسلك سهيل المعاني][6]

(١) وله أيضا ترجمة في : درة الأسلاك ص ١١٧ — ١١٨ ، فوات الوفيات جـ ٢ ص ٨٧ رقم ٣٥٨ ؛ السلوك جـ ١ ص ٧٨٨ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٣٣ ، العبر جـ ٥ ص ٣٧٦ — ٣٧٧ ، شذرات الذهب جـ ٥ جـ ٤٢١ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٦٥ — ١٦٦ .

(٢) « وله القصائد النبوية المرتب أولها وآخرها على حروف المعجم » — درة الأسلاك ص ١١٨ .

(٣) « المقامة البحرية المشهورة » في البداية والنهاية ، « المقامة التي في صفات البحرية » في العبر .

(٤) « في حالة النوى والتداني » في فوات الوفيات جـ ٢ ص ٨٨ .

(٥) « المودة » في فوات الوفيات .

(٦) [ ] إضافة من فوات الوفيات .

[٧٥]

لستُ ممّن أَرضى(١) بطَيفِ خيالٍ ... قانعًا فى هواهم بالهوانِ
إن طيفَ الخيال دلّ على أنّ ... الكرى قد يلمّ بالأجفان
غير أنى تشتاق عينى الى ... مَن حَلّ فى(٢) مُهجتى أعزّ مكان
وبروحى ظبىٌ(٣) يغار غصونُ الـ ... ـبان منه ويخجلُ النيرانِ
ذو قوام يُغنيه عن حمله الرمـ ... ـح وجفنٌ وسنانه كالسنان
كتب الحُسن فوق خدّيه بين الـ ... ـماء والنار فيهما جنّتان
حرس الوردُ منهما نرجسَ اللحـ ... ـظ فلم تَجْنُوه بالرَيحان
عارضٌ عوّذته ياسين لمّا ... أن تبدّا كالنمل أو كالدُخان
يلبسَ الحسنَ كلَّ وقتٍ جديدًا ... فلهذا أخلقتُ ثوبَ التوانى
يا خليلىَّ خليانى ووجدى ... وامزُجا لى بذكره واسقيانى
وإذا ماقضيتُ سُكرًا من الوجـ ... ـد فلا تحزنا ولا تدفنانى
فأيادى ذا الناصر الملك تحـ ... ـيينى كاحيائها الندى وهو فانِ(٤)

وقال فى حمام ضيّق شديد الحرّ ليس فيه ماء بارد :

إنّ حمامنا الذى نحنُ فيه ... قد أناخ العذابُ فيه وخيَم
مُظلم الأرض والسماء والنواحى ... كلُ عيب من عيبه يتعلم
حرجٌ بابه كطاقة سجن ... شهد الله مَن يجُز فيه يندم

(١) « يرضى » فى فوات الوفيات .

(٢) « من » فى فوات الوفيات .

(٣) « ظبيًا » فى فوات الوفيات .

(٤) انظر فوات الوفيات جـ ٢ ص ٥٨ .

وبه مالكٌ غـدا خازن النا ر بـلى مالكٌ أرِقْ وارحـم (١)

كلما قلتُ قـد أطلتَ عذابى قال لى إخسَأْ فيها ولا تتكلّـم

قلت لما رأيتـه يتلظى ﴿ ربنا اصرِف عنا عذابَ جهنم ﴾ (٢)

الشيخ تقى الدين أبو اسحاق إبراهيم (٣) بن على بن أحمد بن فضل الواسطى ، ثم الدمشقى الحنبلى ، شيخ الحديث بالظاهرية (٤) بدمشق .

توفى يوم الجمعة آخر النهار الرابع عشر (٥) من جمادى الآخرة منها عن تسعين سنة ، وكان رجلا صالحا عابدا ، تفرد بعلو الرواية ، ولم يخلف بعده مثله ، وقد تفقه [ببغداد] (٦) ، ثم رحل إلى الشام ، ودرس بالصاحبية (٧) مدة عشرين سنة ،

(١) « وله » فى فوات الوفيات .

(٢) جزء من الآية : ٦٥ من سورة الفرقان رقم ٢٥ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى ، درة الأسلاك ص ١١٧ ، المنهل الصافى جـ ١ ص ١٢٢ رقم ٣٥٢ ، الوافى جـ ٦ ص ٦٦ رقم ٢٥٠٥ ، العبر جـ ٥ ص ٣٧٥ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٣٣ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤١٩ ، الدارس جـ ٢ ص ٨٢ — ٨٣ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٦٢ .

(٤) المدرسة الظاهرية بدمشق : أنشأها الملك الظاهر بيبرس لتكون مدرسة للحنفية والشافعية ودارا للحديث — خطط الشام جـ ٦ ص ٨٢ ، الدارس جـ ١ ص ٣٤٨ ، ص ٣٥٧ .

(٥) « رابع عشرين جمادى الآخرة » — البداية والنهاية .

(٦) [ ] إضافة من البداية والنهاية للتوضيح .

(٧) « بالصالحية » فى البداية والنهاية ، والمنهل الصافى ، وهو تحريف .
المدرسة الصاحبية بدمشق : بسفح قاسيون من الشرق ، أنشأتها ربيعة بنت أيوب ، أخت السلطان صلاح الدين الأيوبى ، والمتوفاة سنة ٦٤٣ هـ / ١٢٤٥ م — الدارس جـ ٢ ص ٧٩ ، ص ٨٢ — ٨٣ .

وولى فى آخر عمره مشيخة الحديث بالمدرسة الظاهرية ، وكانت وفاته بسفح قاسيون ، ودفن فى تربة الشيخ الموفق ، ومولده سنة ثلاث وستمائة[1] .

الشيخ جمال الدين إبراهيم[2] بن داود بن ظافر العسقلانى الفاضلى .

مات بدرب السلسلة بدمشق ، ودفن بتربة الشيخ علم الدين السخاوى بقاسيون ، وكان من أخص أصحابه[3] ، وجمع عليه القراءات السبع .

وله شعر ، فمنه قوله :

مضوا عصبة كانوا كراما أعزّة ... وأبقوا من الإنسان ما فيه مُعتبرْ
فهم كبيُوت الماء قائمة فلم يصُبها ... انهدامٌ فهى وعظٌ لمن نظرْ

الشيخ محمود الشيرازى المعروف بسابقان ، المقيم بالكلاسة[4] .

مات فى هذه السنة ، ودفن بزاوية الجوالقية خارج باب الصغير ، وكان من أحاسن الفقراء وظرفائهم ، وله قبول من الناس ، وعنده كرم .

قاضى القضاة معين الدين النعمان[5] بن الحسن بن يوسف الحنفى .

---

(١) « ولد سنة اثنتين وستمائة » — المنهل الصافى ، وتذكرة النبيه .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٦٢ رقم ٢٦ ، الوافى جـ ٥ ص ٣٤٥ رقم ٢٤٢٢ ، العبر جـ ٥ ص ٣٧٤ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٢٠ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٤٠ .

(٣) « ولازم السخاوى ثمانية أعوام . . . . ودفن بتربة شيخه السخاوى بقاسيون » — المنهل الصافى .

(٤) مدرسة الكلاسة بدمشق ، ولصيق الجامع الأموى من شمال ، ولها باب إليه ، عمرها نور الدين محمود سنة ٥٥٥ هـ / ١١٥٩ م — الدارس جـ ١ ص ٤٤٧ .

(٥) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٦٤ ، السلوك جـ ١ ص ٧٨٧ ، حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٢١ .
و « معز الدين » فى بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٣٧٢ .

مات يوم الخميس السابع عشر [٧٦] من شعبان منها ، ودفن بالقرافة ، وتولى القضاء بعده بالديار المصرية قاضي القضاة شمس الدين أحمد السروجي[١] .

الصاحب محيي الدين عبد الله[٢] بن الشيخ رشيد الدين عبد الظاهر بن نشوان ابن عبد الظاهر بن علي بن نجده السروجي السعدي ، الكاتب الناظم الناثر ، كاتب الإنشاء بالديار المصرية ، وأحد من برز في هذا الفن على أهل زمانه ، وسبق سائر أقرانه .

وهو والد الصاحب فتح الدين القاضي فتح الدين المتقدم ذكر وفاته قبل والده ، وكانت وفاته يوم الثلاثاء الرابع من رجب[٣] ، ودفن بتربته التي أنشأها بالقرافة ، ومولده سنة عشرين وستمائة بالقاهرة ، وله مصنفات منها سيرة الملك الظاهر[٤] ، وأبدع فيها نظما ونثرا ، وكان ذا مروءة تامة وتعصب .

(١) « محمد السروجي » في بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٣٧٢ ، وهو تحريف . وهو أحمد بن إبراهيم بن عبد الغني ، قاضي القضاة شمس الدين السروجي ، المتوفى سنة ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م — المنهل الصافي جـ ١ ص ٢٠١ رقم ١٠٢ .

(٢) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي ، درة الأسلاك ص ١١٥ — ١١٦ ، الوافي جـ ١٧ ص ٢٥٧ رقم ٢٤٠ ، زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٨٠ ب ، فوات الوفيات جـ ٢ ص ١٧٩ رقم ٢٢٢ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٣٨ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٢٤ ، العبر جـ ٥ ص ٣٧٦ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٦٢ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٢١ ، بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٣٧٢ ، تالي كتاب وفيات الأعيان ص ١١٨ رقم ١٨٤ ، السلوك جـ ١ ص ٧٨٧ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٦٤ .

(٣) « يوم الأربعاء ثالث شهر رجب » في النجوم الزاهرة ، وتاريخ ابن الفرات .

(٤) نشرت بعنوان : الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر — تحقيق عبد العزيز الخويطر — الرياض ١٩٧٦ .
وانظر أيضا :
Sadeque (S. F.) : Baybers I of Egypt, Pakistan, 1956.
ومن مؤلفاته التاريخية أيضا : تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور ، نشره مراد كامل — القاهرة ١٩٦١ .

وله النظم البديع الرائق ، فمنه قوله :

يا مَن رأى غزلانَ رامةَ هل رأى بالله فيهم مثل طرف غزالى
أَحْيا علوم العاشقين بلحظه الـ ـغَـزّال والإحياء للغـزّالى(١)

وله فى مليح يسمى بالنسيم :

تقضّى ليلُنا طـرَبًا ورَقصًا على شدو مِن الرَّشأ الرخيم
تمايلنا وقد غنّى وفينا مليحُ الدّل معطارُ الشميم
فلنا كالغُصُون وغير بدع لأغصان تميل مع النسيم

وقال الشيخ أثير الدين أبو حيان(٢) رحمه الله : كنت قد نظمت قصيدة ، ووقع لى فيها معنى غريب فى مليح فى أنفه خال ، وهو :

عجبتُ لخال حَلّ فى وَسط أنفه وعهدى به وَسْط الخدود يُرى وَشْيَا
ولكنما خدّاه فيه تغايرُ هوًى فاتبعا من أنفه أوْسَط الأشْيا
وحُسنُ الفتَى فى الأَنف والأَنفُ عاطلٌ فكيف إذا ما الخالُ كان له حَلْيا

فلما وقف القاضى محيي الدين عليه نظم فى هذا المعنى عدّة مقاطيع منها :

أَرى الخالَ من وجه الحبيب بأنفه وموضعه الأولى به صَفحةُ الخدّ
وماذاك إلاّ أنه من تلهب توارى يُريدُ البعد مِن شدّة الوَقد

وقال :

فى أنفه الخال الذى شغل البرّية وصفه
فبحسنه وبظُرفه قد صار شمَخ أنفه

(١) انظر الوافى ج ١٧ ص ٢٥٨ .

(٢) هو محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان ، أثير الدين الغرناطى ، المتوفى سنة ٧٤٥هـ/ ١٣٤٤م — المنهل الصافى .

وقال

وبي مليح حسنه على الملاح قد حكم
بأنفه خالٌ به على الجمال قد ختم
ياحسنه من شامةٍ أمسى بها الأنفُ الأشم

وقال :

مَيدانُ حسنٍ وجهه سبحان ربٍّ صوّره
يلوى بلُب ولا يلوى على من نظره
جوكانُه حاجبُه والخالُ فى الأنفِ الكُرَه

ومن شعره :

ياسيّدى إن جرى من مدمعى ودمى للعين والقلبُ مسفوحٌ ومسفوكُ
لاتخش من قَوَدٍ يُقتصُّ منك به فالعينُ جاريةٌ والقلبُ مملوكُ

الملك الزاهر مجير الدين أبو سليمان داود بن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه، صاحب حمص، بن ناصر الدين محمد بن الملك المعظم أسد الدين شيركوه ابن شادى بن مروان .(١)

توفى ببستانه ، [٧٧] بستان شامة بظاهر دمشق ، ودفن بسفح قاسيون ، وصُلّى عليه بالجامع المظفرى(٢) ، وكان عمره ثمانين سنة ، وكان دينا كثير الصلاة

(١) وله أيضا ترجمة فى : الوافى جـ ٣، ص ٤٧١ رقم ٥٧٥ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٦١ .

البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٣٣ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٦٣ .

(٢) الجامع المظفرى بدمشق : المشهور بجامع الجبل ، و بجامع الحنابلة ، بسفح قاسيون — الدارس جـ ٢ ص ٤٣٥ .

في الجامع ، وله إجازة من المؤيد الطوسي[1] ، وكان ظريفا متواضعا ، حسن الأخلاق ، وكانت وفاته في جمادى الآخرة[2] .

الملك الأفضل نور الدين على[3] بن الملك المظفر تقى الدين محمود بن الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب .

توفى بدمشق وصلى عليه بجامعها ، وخرج به من باب الفراديس محمولا إلى مدينة أبيه حماة ، ودفن بتربتهم بها ، وكانت وفاته بداره المعروفة بدار الدعوة[4] ، وهو والد الأميرين الكبيرين : بدر الدين حسن[5] وعماد الدين إسماعيل[6] الذى تملك حماة بعد جده ، كما سيأتى إن شاء الله تعالى .

الأمير الكبير علم الدين سنجر الحلبي[7] الذى كان نائب قطز على دمشق ،

---

(١) هو المؤيد بن محمد بن على بن حسن ، رضى الدين أبو الحسن الطوسى ، مسند خراسان ، المتوفى سنة ٦١٧ هـ / ١٢٢٠ م — العبر جـ ٥ ص ٧١ .

(٢) « ليلة الأربعاء ثانى عشر جمادى الآخرة » — تاريخ ابن الفرات .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ١٠٥ ، نهاية الأرب جـ ٢٩ ورقة ٧٣ ، الوافى جـ ٢٢ ص ١٨٦ رقم ١٣٣ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٦٢ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٣٤ ، السلوك جـ ١ ص ٧٨٧ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٦٢ .

(٤) « فى يوم الإثنين مستهل ذى الحجة » — تاريخ ابن الفرات ، ونهاية الأرب .

(٥) هو الحسن بن على بن محمود ، الأمير بدر الدين ، المتوفى سنة ٧٢٦ هـ / ١٣٢٦ م — المنهل الصافى .

(٦) هو إسماعيل بن على بن محمود ، الملك المؤيد ، أبو الفدا ، عماد الدين ، المتوفى سنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م — المنهل الصافى جـ ٢ ص ٣٩٩ رقم ٤٣٧ .

(٧) سبق أن ذكر المؤلف وفاة صاحب الترجمة فى وفيات سنة ٦٩١ هـ — انظر ما سبق ص ١٤٧ . وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٦ رقم ١١١٣ ، الوافى جـ ١٥ ص ٤٧٣ رقم ٦٣٩ ، السلوك جـ ١ ص ٧٨٧ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٣٩ .

فلما جاءته بيعة الظاهر دعى إلى نفسه فبويع وتسمى بالملك المجاهد ، ثم حوصر وهرب إلى بعلبك وحوصر ، فأجاب إلى خدمة السلطان فسجنه مدة، ثم أطلقه الأشرف واحترمه وأكرمه وكان بلغ الثمانين ، توفى فى هذه السنة .

وقال صاحب نزهة الناظر : بلغنى عن بعض من كان يلازمه أنه مات فى عشر التسعين ، ورأيته وقد انحنى ظهره وكان من أطول الرجال وأشدهم قوة وأقدمهم شجاعة ، وكان فى الدولة الظاهرية إذا نزل من الخدمة دخل البيت ولا ينزل عن فرسه حتى يقدم له قنطارية محشوة برصاص لأجل الثقل ، فيأخذها ويلعب بها على فرسه ، ثم يأتى إلى فردة تبن فيطعنها و يرفعها من الأرض و يحذفها ، ثم ينزل و يأخذ بيده عامودا حديدا زنته مائة وعشرة أرطال ويلف به اليمين واليسار مرات ، ثم يجلس على السماط ويتغدى فى أكلة بالرأس الغنم .

الملك الكامل ناصر الدين محمد(١) بن الملك الأشرف مظفر الدين موسى بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن الملك المسعود صلاح الدين أقسيس بن السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب بن شادى بن مروان .

توفى يوم الخميس الخامس من رجب من هذه السنة ، ومولده بالكرك بعد العشاء الآخرة ليلة الأربعاء السادس عشر من شوال من سنة تسع وخمسين وستمائة .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : تاريخ ابن الفرات جـ٨ ص ١٦٣ ، تذكرة النبيه جـ١ ص ١٦٣ ، نهاية الأرب جـ٢٩ (مخطوط) ورقة ٧٣ .

فصل فيما وقع من الحوادث
في السنة الثالثة والتسعين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة ، وسلطان البلاد المصرية والشامية : الملك الأشرف خليل ابن الملك المنصور قلاون .

والخليفة : الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد العباسي .

وفي أوائل المحرم (١) منها : تجهز السلطان الأشرف للصيد ، وعدّى إلى بر الجيزة وسار قاصدا التوجه إلى الإسكندرية والحمامات الغربية ، فتقدم وزيره الصاحب شمس الدين بن سلعوس إلى الثغر المحروس لتجهيز الأقمشة ، وتحصيل أصناف الأمتعة ، واستخراج المال ، وترتيب الأحوال بين يدي قدوم الركاب ، فوجد نواب الأمير بيدرا بالثغر قد استولوا على المتاجر (٢) وادخروا منها ما ليس في الحواصل السلطانية ، فأرسل يعرف السلطان بذلك ، فاستشاط السلطان غضبا على بيدرا واستدعاه بحضور الخاصكية والأمراء ، فأغلظ له في الكلام ، وتوعده بأشد الوعيد ، وتهدده بأتم التهديد حتى خاف أن يسطو في ذلك الوقت عليه ، فتلطف حتى خرج من بين يديه ، فجمع خوشداشيته (٣) الأعيان ، [٧٨] وأطلعهم على ما في باطن السلطان من الشنآن وهم : الأمير حسام الدين لاجين المنصوري ، وفي

(*) يوافق أولها الأربعاء ٢ ديسمبر ١٢٩٣ م .

(١) « في ثالث المحرم » — السلوك جـ ١ ص ٧٨٨ .

(٢) « قد استولوا على البهار ، وأدخلوه الحواصل » في بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٣٧٣ ، وانظر أيضا التحفة الملوكية ص ١٣٦ .

(٣) هكذا بالأصل ، وتكتب أحيانا « خشداشية » .

قلبه ما فيه من الأهنة التى نالته والنكبة التى أصابته ، والأمير قرا سنقر ، وهو واجد لعزله من الممالك الحلبية وإحضاره فى غير شىء إلى الديار المصرية ، وغيرهما من الأمراء الذين كانوا مطلعين على سريرته ، وما منهم إلا من هو متغير الخاطر والنية لتأخرهم وتقدم صغار الخاصكية ، فاتفقوا على الوثوب على السلطان قبل أن يثب هو عليهم[1] .

وفى نزهة الناظر : لما رسم السلطان للوزير شمس الدين أن يذهب إلى الإسكندرية لاستعمال الأقمشة ، فركب من فوره وقدم إليها . وكان إذ ذاك الوالى عليها بدر الدين الجالى ، فتلقاه بجميع من فيها من التجار والأعوام[2] ، وكان يوما مشهودا ، فذكروا أنه لم يروا وزيرا مثله قبله دخل كدخوله إلى الإسكندرية فلما استقر بها طلب المباشرين وألزمهم بعمل الحساب ، ورسم عليهم ، وعلى الوالى ، وطلب سائر التجار ، وكتب أسماءهم ، وجمل على كل واحد منهم شيئا على قدره ، وكتب عليهم أوراقا ، وجلس فى الخمس ، وطلب الجميع ، وألزمهم بالحمل ، وهددهم بالإحراق ، وبقيت الإسكندرية فى نار تتوقد .

ثم كتب كتابا إلى السلطان وذكر فيه أنه دخل الإسكندرية فلم يجد صانعا يعمل له شيئا ، وأن سائر الصناع يشتغلون فى أعمال بيدرا ، وأن نوابه مستولية على سائر الأشياء ، ولم أتمكن الحديث معهم ، وحط على بيدرا فى كتابه حطا عظيما ، فلما وقف السلطان على كتابه غضب غضبا شديدا ، وطلب بيدرا من

(١) انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٨٠ ب — ١٨١ ب ، حيث ينقل العينى من بيبرس الدوادار .

(٢) هكذا بالأصل ، والمقصود « العوام » ، أى عامة الشعب .

ساعته ، فلما دخل عليه شرع يسبه ويهينه ، وحمل عليه ليضربه بشيء من عنده ، ولم يترك شيئا حتى قال له ، غير أنه لم يقل خذوا سيفه ، فتقدمت الأمراء الخاصكية وسكنوا غضب السلطان ، وصاحوا على بيدرا : أخرج أخرج من وجه السلطان ، ودفعوه بأكتافه ، فخرج وهو أعمى لا يدرى كيف يمشى ودموعه تنزل على لحيته .

ولما خرج شرع السلطان يقول : أنا أعرف ما مراد بيدرا ، والله لا خليت له مالا ولا زوجا ، فطلب كاتب السر ورسم له أن يكتب إلى الوزير بأن يوقع الحوطة على نواب بيدرا ، ويضرب الجميع بالمقارع ، ويأخذ أموالهم ، فأي شيء وجده لبيدرا من الأموال يحتاط عليه ويحضره صحبته ، وتكلم بكلام كثير قدام الخاصكية ، وتوعده أنه إذا دخل المدينة يقبض عليه .

ثم أن بعض الخاصكية بعثوا في السر إلى بيدرا وأخبروه بجميع ما جرى من السلطان في حقه ، وأنهم هم الذين صبروا السلطان في القبض عليه إلى أن يدخل السلطان المدينة ، وقالوا له : احترز وخذ لنفسك ، فلما وقف عليه بيدرا اجتمع بالأمراء الذين ذكرناهم وتحالفوا على قتله والهجوم عليه ، وكان بيدرا قد استجلب خواطر هؤلاء الخاصكية بالإحسان والخدمة .

ذكر مقتل الأشرف :

وكان السلطان أعطى الأمراء دستورا ليتوجه كل منهم إلى إقطاعه[1] ، وكذلك المقدمين والمفاردة ، ولم يترك معه إلا المماليك الخواص .

(١) «وكان لما طالعه الوزير بقلة الحواصل بالثغر أعطى الأمراء دستورا ليتوجه كل منهم إلى إقطاعه» - في زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٨١ ب .

وفى نزهة الناظر : وعند خروج بيدرا من عند السلطان حصل عنده قلق ، فأبطل الصيد ، ورسم للأمير جمال الدين قتال السبع – وكان فى ذلك الوقت أمير علم – أن يتقدم بالطُّلاب وصحبته الطواشى مقدم المماليك إلى المدينة ، ورسم للأمير كتبغا والحسام أستاذ الدار وغيرهما أن يُرحِّلا ، وأنه يرحل [٧٩] عنهم ، ثم أنه وجد فى نفسه ضيقا وثقلا فى بدنه ، فطلب المزين وافتصد ، وبقى إلى قرب العصر قاعدا وهو متشوش ، ثم قصد أن يركب بمفرده ويطعم الطير ليشرح خاطره ، فركب فى جماعة يسيرة من الخاصكية بغير سيف(١) ، ورآه الخاصكية الذين اتفقوا مع بيدرا على قتله ، فسيروا إليه وعرّفوه أين السلطان ، وأن هذا الوقت وقت الفرصة والغنيمة ، فقام بيدرا وركب ، ومعه قراسنقر ولاجين وغيرهما ، ولبسوا تحت الثياب ، وساروا وبيدرا بينهم ، فلما قربوا من السلطان رآهم فقال : من يكون هؤلاء ؟ فسير من يكشف خبرهم ، فعند وصوله إليهم عوقوه عن الرجوع إلى السلطان ، فسير ثانيا شخصا آخر فعوقوه أيضا ، وقرب بيدرا إليه فتحققه السلطان ، وظن أنه حضر ليشاوره فى أمر ، فما كان إلا جذب سيفه وضربه ، فصاح السلطان منه ، وتلقى ضربته بيمينه التى فيها الزجمة ، فرجع عنه بيدرا فلحقه لاجين من خلفه ، فضرب على عاتقه ، فنزل السيف إلى وسطه ، فوقع من فرسه كالطود العظيم ، فتناوله تلك الأمراء الخاصكية بالسيوف فقطعوه قطعا قطعا .

---

(١) « وركب السلطان وانفرد وحده ، وليس معه سوى أمير شكار » أحمد بن الأشل « نهاية الأرب جـ ٢٩ (مخطوط) ورقة ٣٠ أ ؛ السلوك جـ ١ ص ٧٨٩ – ٧٩٠ ؛ بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٣٧٣ – ٣٧٤ .

ووقع الصياح بقتله ، فأول من نعاه وأشهر قتله الأمير ركن الدين بيبرس الخاصكي ، فحل شاشه من كلوتاته وصار يصيح واسلطاناه ، فركبت الأمراء ، واجتمعت الناس ، ونهبوا كل شيء هناك ، واختبطت الناس ، فوقعت الهجة بينهم ، وكان قريب المغرب ، فدخل الليل على الناس ، وتركوا السلطان هناك مطروحا على الأرض لايؤبه إليه ، وبات بيدرا ولاجين وقراسنقر والأمراء الخاصكية يدبرون أمرهم ، وتحالفوا أن يكونوا يدا واحدة .

وفي تاريخ بيبرس : ركب السلطان في نفر يسير من خواصه ليتصيد قريبا من الدهليز ، وكان إذ ذاك نازلا على تروجة [(١)] ، فأخبر بيدرا ومن معه من أن السلطان ركب منفردا [(٢)] ، فقالوا : هذا وقت انتهاز الفرصة ، فشدوا تراكشهم [(٣)] وركبوا [إلى نحوه [(٤)]] ، وهم : بدر الدين بيدرا ، وحسام الدين لاجين ، وشمس الدين قراسنقر ، وسيف الدين بهادر رأس النوبة ، وشمس الدين آقسنقر الحسامي ، وسيف الدين نوغيه ، ومحمد خواجا ، وطرنطاي الساقي ، وألطنبغا رأس نوبة [(٥)] ، ومن انضم إليهم ، وكان دون السلطان مخاضة فخاضوها ، فلما أقبلوا عليه عصبة واحدة

---

(١) تروجة : من البلاد المصرية القديمة المندثرة ، ومكانها اليوم كوم تروجة بأراضي ناحية زاوية صقر بمركز أبو المطامير بمحافظة البحيرة ــ القاموس الجغرافي ــ القسم الأول ص ١٩٠ ، التحفة السنية ص ١٢٤ .

(٢) « أنه قد ركب منفردا » في زبدة الفكرة .

(٣) التركاش : لفظ فارسي الأصل ، معناه الكنانة أو الجعبة التي توضع فيها السهام ــ صبح الأعشى جـ ٧ ص ٣٠٩ ــ ٣١٠ .

(٤) [　] إضافة من زبدة الفكرة للتوضيح .

(٥) « النوبة » في زبدة الفكرة .

أحس فيهم بالشر ، وظهرت له علامات الغدر[1] ، فأعجلوه عن الكلام وعاجلوه بالكلام وعلوه بالحسام[2] .

وقيل : إن بيدرا ضربه أولا بجرحه ، ثم ضربه لاجين فقطع يده والزخمة فيها وثنى عليه بأخرى ، فانجدل صريعا ، ثم تخاطفته سيوف الأمراء المذكورين وترك صريعا يسج دما نجيعا ، وكان بتروجة الوالى عز الدين أيدمر الفخرى ، فحمل السلطان على جمل من الموضع الذى قتل فيه إلى ساحل البحر ، وحمل فى مركب إلى المدينة ، ودفن بتربته[3] بالقرب من السيدة نفيسه رضى الله عنها .

وفى نزهة الناظر : حكى متولى تروجة أنهم سلبوا كل ما كان على السلطان من الثياب ، وعروه ، ولم يتركوا عليه إلا السراويل لستر عورته ، وأنه هو الذى ستره بالثياب ، وحمله على جمل إلى المعدّية .

ذكر ترجمة الأشرف :

هو السلطان الملك الأشرف صلاح الدين خليل[4] بن السلطان الملك المنصور قلاون الصالحى النجمى الألفى .

(١) « علامة » فى زبدة الفكرة .

(٢) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٨١ ب .

(٣) دفن الأشرف خليل بتربته التى أنشأها بظاهر القاهرة المحروسة بالقرب من مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها ، المعروفة بالأشرفية — تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٢٨ ، الخطط التوفيقية جـ ٢ ص ١٩٠ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٥ رقم ١٠٠٨ ، الوافى جـ ١٣ ص ٣٩٩ رقم ٥٠٤ ، فوات الوفيات جـ ١ ص ٤٠٦ رقم ١٤٨ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٣ وما بعدها ، السلوك جـ ١ ص ٧٥٦ وما بعدها ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٢٢ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٦٥ وما بعدها ، بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٣٧٦ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١١٥ وما بعدها .

قتل في الثالث عشر من محرم هذه السنة، وكانت مدة سلطنته [٨٠]ثلاث سنين وشهرين وأياما، فإنه ملك السلطنة بعد وفاة والده الملك المنصور يوم السبت السادس من ذي القعدة من سنة تسع وثمانين وستمائة على ما ذكرنا، وكان الأشرف شهما شجاعا، عالي الهمة، حسن المنظر، قد عزم على غزو العراق واسترجاع تلك البلاد من أيدي التتار، واستعدّ لذلك ونادى به في بلاده، وقد فتح في مدة ملكه — وكانت ثلاث سنين — عكا والسواحل، ولم يبق للفرنج بها معلم لأحد، وقلعة الروم، وبهسني، ومرعش، وغير ذلك.

وفي تاريخ النويري: وكان ملكا مهيبا شجاعا، مقداما جسورا، جوادا كريما بالمال، أنفق على الجيش في هذه الثلاث سنين ثلاث نفقات:

الأولى: في أول جلوسه في السلطنة من مال طرنطاي.

والثانية: عند توجهه إلى عكا.

والثالثة: عند توجهه إلى قلعة الروم.

وقال الشيخ صلاح الدين الصفدي: كان قبل ولاية الأشرف يؤخذ عند باب الجابية بدمشق عن كل جمل[1] خمسة دراهم مكسا، فأول ما تسلطن[2] وردت إلى دمشق مسامحة بإسقاط هذا[3]، وبين سطور المرسوم بقلم العلامة: ولتسقط[4]

(١) « كل حمل جمل من القمح » — تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٦٦.
« كل حمل يحمل غلة » في الوافي جـ ١٣ ص ٤٠٢.

(٢) « فأول ولاية الأشرف » في الوافي.

(٣) « ذلك المكس » في الوافي.

(٤) « ولبكشف » في تاريخ ابن الفرات.

من رعايانا هذه الظلامة ويستجلب لنا الدعاء[1] من الخاصة والعامة[2] .

وفى نزهة الناظر : وكان قد شغف بتحصيل المماليك إلى أن كمل ألفا ومائتى مملوك ، وأضافهم إلى مماليك والده ، وقصد أن يكملهن مع مماليك أبيه عشرة آلاف مملوك ، فإن والده توفى عن ستة آلاف مملوك فى مدة سلطنته ، وكان أول غزوته وفتوحه حصن عكا ، وكان حصنا عظيما ، وأخذ صور ، وعثليث وغيرها ، وفتح صيدا ، وبيروت ، وملك بهسنى وثلاث قلاع من قلاع سيس ، وعزم على دخوله إلى ناحية بغداد ويدوس بلاد العدو ، وكتب إلى نائب حلب بتجهيز سلاسل الجسور لدخوله الفرات ، وقبض على مهنى وإخوته ، وخافته الملوك من سائر الأطراف وأذعنوا له بالطاعة .

ومع ذلك كان ملكا حادّ النفس ، فيه رهج واستهتار بالأمور واستخفاف بأكابر الأمراء ، وكان لا يفتكر ما يفتكره الملوك من العواقب ، فمن ذلك ما اتفق له مع الأمير بيسرى ، وهو أكبر الأمراء بمصر وأجلهم رأس الميمنة ، وذلك أنه جالس يوما فى شباك الميدان ، وأحضر بين يديه سيفا وثورا كبيرا ، والتفت إلى البيسرى وقال : يا أمير بدر الدين : تحبنى أو لا ؟ فقال ياخوند : وكيف لا أحبك ، وقد خليتنى من السجن وأحسنت إلىّ . فقال له : بحياتى عليك ، قم واركب على هذا الثور ، فنهض من ساعته ، ولم يعلم ما أراد بركوبه ، فلما صار على ظهر الثور ، قال للسباع : أطلق السبع على الثور ، فهجم عليه ، فكمر الثور ، ووقع البيسرى من ظهره ، وطارت كلوتاته من رأسه ، وانكشفت ثيابه

---

(١) « الدعاء لنا » فى تاريخ ابن الفرات .

(٢) انظر الوافى جـ١٣ ص ٤٠٢ — ٤٠٣ .

عن جسده، وانقلب السلطان على قفاه من قوة الضحك، وتضاحكت المماليك، وقام البيسرى وهو خجلان ينفض ثيابه، ولم يظهر فى وجهه تعبا حتى لا يفهم عنه أنه غضب من ذلك الأمر، فأشيع ذلك بين الأمراء، وبلغ الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى، فصعب عليه ولم ينزل ذلك اليوم إلى الميدان حتى أرسل السلطان إليه، فلما اجتمع بالبيسرى أخذ يعنفه ويعتب عليه بما رضى لنفسه من ذلك الأمر، وقال له: جعلتنا فى آخر عمرنا مساخر والناس تضحك علينا. فقال له يا أمير بدر الدين: والله كان الموت أهون على من ذلك، ولكن خشيت الرجوع الى الحبس بعد عشر سنين التى قاسيت فيها الذل والقيد والخوف [٨١] والوحدة وأنت معذور، فلوقاسيت ما قاسيت لهان عليك كل شيء من هذا القبيل.

ولما انقضى أمر الميدان طلب السلطان البيسرى وطيب خاطره، وقال يا بدر الدين: أنت ما فعلت هذا إلا محبة لى وامتثالا لأمرى، فقدرك عندى كبير، وألبسه تشريفا أطلس كاملا، وأنعم عليه زيادة على إقطاعه منية بنى خصيب مائتى ألف درهم وخمسة آلاف إردب.

قال صاحب التاريخ: فلأجل ذلك كان والده الملك المنصور يفضل أخاه الملك الصالح عليه، وسلطنه قبله، لما كان فيه من العقل والسكون والأدب، وكان يرى من الأشرف نقيض ذلك.

وقد حكى القاضى فتح الدين بن عبد الظاهر أن الملك الصالح لما مات فى حياة والده المنصور أشارت الأمراء عليه أن يولى أخاه الخليل ويلقبه الأشرف،

فأمر بذلك وكتب تقليده ، فدخل به الدوادار إلى السلطان المنصور ليعلم عليه ، فدفعه بيده وقال : خله عندك ، فبقى أياما على ذلك ، ثم استحث الأشرف على التقليد ، فاتفقت أنا والأمير الدوادار ودخلنا على السلطان . فقلنا : تقليد ولدمولانا السلطان الذى لقب بالأشرف ، فدفعه بيده وقال : خلوه عندكم والله ما يطيب خاطرى تولية هذا الصبى ، فإنه مجنون لا يفتكر فى عاقبة الأمر ، ولا يحسن تدبير الملك ، وأنا مفتكر كيف يكون أمره بعدى . قال : وبقى الأمر إلى حين توفى السلطان المنصور وتولى الأشرف ، ولما جلس على تخت الملك أول ما سألنى فقال لى يا فتح الدين : هو مارضى بى سلطانا ، فالرب تعالى رضى بى وجعلنى سلطانا .

قال صاحب التاريخ : ومن ذلك ما اتفق له مع الملك المظفر[1] صاحب اليمن ، فإنه لما بلغه موت السلطان الملك المنصور قلاون أقام مدة ولم يسير الهدنة التى جرت بها العادة ، فكتب الأشرف إليه كتابا فيه تخويف وتهديد وعرض له باشتغاله باللهو والطرب والتخلى مع النساء وغير ذلك مع الأشياء الخارقة لحرمته .

وكان آخر قوله فى كتابه لأخرجن ايمن عن يمينك ، واقتل من آل إليك أوالاك ، وكتب العلامة بين الأسطر غير شاكرة ، وجعلها سطرا مطولا بقلم طومار ، وكتب عنوان الكتاب : يصل إلى الخارجى باليمن ، وسيره مع بعض الكارم ، وعرفه أنه يجهز عقيبه عسكرا إذا لم يحضر إليه بالجواب والهدنة على عادته ، ولما أوصله الكارم إلى الملك المظفر ، فرأى عنوانه يصل إلى الخارجى

(١) هو يوسف بن عمر بن على بن رسول ، الملك المظفر ، صاحب اليمن ، توفى سنة ٦٩٥ هـ ١٢٩٥ م — المنهل الصافى ، وانظر ما يلى :

باليمن رده إليه وقال: هذا الكتاب ما هو لى وهذا عنوانه : إلى الخارجى باليمن ، فإن كنت تعرف الخارجى باليمن فأوصله إليــه ، وإلاّ رُده إلى صاحبه ، وكان الملك المظفر رجلا عاقــلا ، وافر العقل ، كثير المحاسن ، ولمـا بلغ إليه الكلام ما قال له الملك الأشرف مشافهة . قال الملك المظفر : هــذا كلام من غلب عليه الجهل والشغاب ، وكان من الأمور المقدرة أن توفى الملك المظفر والملك الأشرف كلاهمـا جميعا .

وذكر صاحب النزهة أيضا : أن أول ما اعتمده الأشرف حين ولى السلطنة أنه أطلق سائر من كان فى السجون من المصادرين وأرباب الدواوين ، ورسم برفع المظالم عن الناس ، وأبطل الرماية على التجار ، ورسم للوزير أن لا يتعرض لظـلم أحد من الناس ، وقال : وقــد ذكرنا ما كان يعتمد الجنــد من الملابس العجيبــة فى الدولة المـاضية ، وأن السلطان المنصور أزال أكثرها عن الجنــد والأمراء ؛ [٨٢] ثم لمـا تـولى الأشرف اختار لمماليكه وخاصكيته الملابس الحسنة ؛ وغـير الكلوتات الصفر والجوخ ، وأمر لسائر الأمراء أن يركبوا بين ممـاليكهم بالكلوتات الزركش والطرازات الزركش والكنباش الزركش والأقبية الأطلس حتى يتميز الأمير بلبسه عن غـيره ، وكذلك فى الملبوس الأبيض الرفيع ، والسروج المرصعة الأشرفية والأكوار ، وقضى مماليكه وحاشيته فى دولة أستاذهم أيامهــم بالهنا والسرور والخـيرات فيما بينهم والهبات والتهادى ، وكان السلطان شرط عليهــم أن لا يبيت أحد منهم فى غـير القلعة ، وفى النهار يفعل ما يختاره .

قال الراوى : وأما سماط الأشرف وما كله فكان من أفخر الأطعمة وأحسنها وأكثرهـا .

قال : وقد خرجت مع والدى صحبة العسكر والسلطان لما خرجوا لقصد فتح قلعة الروم، وكان والدى مع جماعة من المقدمين منهم جمال الدين الطبردار، وركن الدين الكلالى ، وبدر الدين الجاكى ، وكانوا كل يوم يرسلون إلى مطبخ السلطان عشرين درهما فيأخذون بها أربع خوافق صينية ملآنة من الأطعمة المفتخرة بالقلوبات وغيرها ، وفى كل خافقية أكثر من خمسة عشر رطلا من اللحم المائل أو عشرة أطيار من الدجاج المسمن ، وكذلك كثير من الجند والغلمان يشترون من مطابخ الأمراء من أنواع الأطعمة ، وكانت الأجناد يتحدثون بكثرة الخيرات حتى أن الغلمان يأبون فى غالب الأوقات أن يأكلوا من أطعمة أستاذيهم لما أنهم يقرفون من كثرة الأكل و كثرة الأطعمة .

قال : ورأيت فى هذه السفرة أن أحدا من الأمراء لا يأكل من سماطه حتى يتفقد ما حوله من الغلمان والخدام والحاشية ومن المضافين إليه أو النازلين قريبا منه ، فيرسل إليهم من الأكل والشرب والغنم والطيور والسكر والحلوى من الذهب والفضة كل أحد بقدر حاله ، وكانوا يتفاخرون بذلك فيما بينهم .

وأما مكارم السلطان فلا يحد وصفها وقد أنعم على الأمير طقجى فى يوم واحد بمائة ألف دينار ، وأمثال ذلك وقعت منه كثيرا .

ذكر سلطنة بيدرا

ولما قتل السلطان على ما ذكرنا ، اجتمعت الأمراء الذين قتلوه فى الوطاق ، وقرروا بينهم أن تكون السلطنة لبيدرا ، وملكوه ، ولقبوه الملك القاهر ، وقيل : الملك الرحيم[1] . ونص بيبرس فى تاريخه أنهم لقبوه بالملك القاهر[2] .

وذكر فى نزهة الناظر : أن بيدرا ومن معه لما قتلوا الأشرف باتوا تلك الليلة وهم متحالفون على أن يكونوا يدا واحدة ، ولما أصبحوا ركب بيدرا فى دست السلطنة وحوله العسكر والأمراء والشاوشية ، ولقب نفسه بالملك العادل ، ثم اتفقوا على أن يبادروا نحو القلعة يملكوها مرة ، فيتم له المنعة ، فركبوا ، وعند ركوبهم وجدوا الأمير سيف الدين بكتمر السلحدار أمير جندار ، والأمير بدر الدين بيسرى ، وكان قد بلغهما الخبر بأمر السلطان ، فركبا لكشفه ، فوجدوهما فى الطريق فقبضوا عليهما وأخذوا سيوفهما وربطوهما وأركبوهما على البغلين ، وأرادوا قتلهما مرارا ، فشفع فيهما بعضهم فلم يقتلوهما .

وكان فى الدهليز الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، وسيف الدين برلغى ، وحسام الدين الأستادار ، والأمير بدر الدين بكتوت العلائى ، والمماليك

(١) « لقب نفسه بالملك الأوحد ، وقيل الملك المعظم ، وقيل الملك القاهر » — تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٦٩ .

« ولقبوه بالملك الأمجد ، وقيل بالملك الرحيم » — بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٣٧٤ ، وانظر أيضا نهاية الأرب جـ ٢٩ (مخطوط) ورقة ٧٥ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٦٨ .

(٢) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٨٢ أ ، التحفة الملوكية ص ١٣٩ .

السلطانية [٨٣] الذين كانوا متوجهين صحبة السلطان للصيد ، فركب الأمراء المذكورون على آثارهم ، وكان الأمير زين الدين كتبغا فى الصيد ، فبلغه الخبر، فلحقهم ، ولحق بهم المماليك الذين كان السلطان قد أعادهم إلى القلعة قبل وقت مقتله ، فصاروا كتفا واحدا ، وجدوا فى اتباع بيدرا ومن معه من الأمراء ، فلحقوهم على الطرانة يوم الخميس الخامس عشر من المحرم ، فلما التقى الجمعان أطلق بيدرا الأميرين المذكورين بدر الدين بيسرى وبكتمر السلحدار، ليكونا عونا له .

ولما التقى الجمعان ، واقتتل الفريقان ، تسحب الأمير بدر الدين بيسرى ، وسيف الدين بكتمر السلحدار ، والأمير سيف الدين بهادر الحاج ، وانحاز [عنه](١) جماعة ممن كانوا قد انضموا إليه ، والتف عليه ، ولما رأى العربان أن الذين مع بيدرا قد تفللوا وتسللوا ، فهربوا هم أيضا، وطلبوا البر ، فلم يبق معه إلا نفر يسير، وهاجمهم الأمراء وعاجلوهم، فلم يتمكنوا من مراسلة ولا مخاطبة، فما كان بأسرع من أن صدموهم ، وقتل بيدرا لساعته ، ولما خر صريعا وثب إليه بكتمر السلحدار مسرعا ، و بقر بطنه ، واستخرج كبده ، وأخذ منها فلذة وابتلعها حنقا عليه ، وحز رأسه ، وحمل إلى المدينة على رمح ، وطيف به فى القاهرة ومصر ، ودفنت جثته بالطرانة ، وتمزق من كان وافقه من الأمراء ، وتفرقوا فى الأقطار .

وأما حسام الدين لاجين ، وشمس الدين قراسنقر ، فإنهما دخلا القاهرة بغتة ، واستترا فيها مدة ، وأما من سواهما فكل منهم عمد إلى مكان ، واستتر بعضهم فى القاهرة وأطراف البلدان .

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة ، حيث ينقل العينى هذه الواقعة عن بيبرس الدوادار .

وكان بالقلعة سنجر الشجاعي مقيما فاحترز على المعادى والمعابر ، وأمر بأن لا يعدى بأحد من الجند من بر الجيزية .

ووصل الأمير زين الدين كتبغا ، وركن الدين بيبرس الجاشنكير ، وحسام الدين لاجين ، وسيف الدين برلغي [1] ، والأمراء الخاصكية وهم طقجي وطقطاى وقطبية وغيرهم من المماليك السلطانية ، واتفقوا مع علم الدين الشجاعي وقرروا أن تكون السلطنة للملك الناصر محمد بن قلاون ، هذا ما ذكره بيبرس في تاريخه [2] .

وفي نزهة الناظر : وحين ركب بيدرا ومن معه ، وأراد التوجه إلى المدينة بسرعة ، جاءت إليهم العرب ، وأخبروهم أن مماليك السلطان الذين رجعهم السلطان مع الطلب إلى المدينة قد بلغهم أن السلطان قتل ، وأن الأمراء قد اجتمعوا معهم وهم قاصدون إليكم ، وكان الذى أخبرهم بذلك الأمير سنكو الدوادار ، وهو من الذين ركب مع السلطان ، ورأى قتله ، فلم يرجع إلى مخيمه ، ولا ألوى على شيء ، وساق حتى بلغ الطلب وأمير على قدام الطلب ، فأخبرهم بالخبر .

وقام قتال السبع ، وجميع المماليك السلطانية ، وكان الأمير كتبغا ، والأمير حسام الدين أستاذ دار قريبين منهم ، فأرسلوا إليهما من عرفهما بذلك ، فجاء إليهم واجتمعوا وتحالفوا ، ثم ساروا نحو بيدرا ومن معه .

وعند انشقاق الفجر وقعت أعين الطائفتين بعضهم على بعض ، وأشار حسام الدين إلى المماليك السلطانية أن يتطوقوا بمناديل بيض حتى يتميز بعضهم من بعض ففعلوا ذلك ، وكان لاجين وقراسنقر لما بلغهما خبر هؤلاء الذين مع

(١) « بلرغى » في زبدة الفكرة .

(٢) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ٩ ورقة ١٨٩ ب ، وأنظر أيضا التحفة الملوكية ص١٣٦-١٣٨ .

الطلب سيرا من يكشف خبرهم ، و يعرفهما من فيهم من الأمراء ، وكم عدتهم لخضر وكشف ، ثم عاد ، وأخبرهما أن سائر المماليك السلطانية ، وقتال السبع ، وكتبغا ، وحسام الدين الأستاذ دار ، ونحوا من عشرين أميرا من البرجية [٨٤] « ... ... »[1] ، ولقد علمت من نفسى أنى أنا المطلوب ، ومتى سلمت نفسي رأيت ما لا أشتهى ، فالموت على ظهور فرسى خير من ذلك ، ومن سلم منكم وعاش يكون نظره على أولادى ، ثم عطف رأس فرسه وصاح بمماليكه أنه لا يقاتل معى إلا من يموت ، ومن اختار الحياة فليرجع ، ثم حمل ، وحمل معه قرا سنقر ولاجين قدامه إلى أن التحم القتال ، و بيدرا التقى مع طقجى وأمير عمر فتضاربوا ، وضرب كل واحد منهم صاحبه بالسيف ، فلم يؤثر ، ورمى من ذلك الوقت فرس بيدرا بالنشاب ، فخرج إلى الأرض وجلس على الأرض ، ودافع عن نفسه إلى أن قتل ، وقتل معه من مماليكه نحو إثنى عشر نفرا ، و بعد ذلك عادت جماعة من الأمراء الذين كانوا معه إلى طلب السلطان ، ثم شرعوا فى قبض مماليك بيدرا ، ومن كان معه من المخامرين ، و جمعوا أثقالهم وخيلهم ، وعادوا بهم إلى القاهرة .

ذكر ترجمة بيدرا[2] :

كان أصله من جملة المغول الذين وصلوا البلاد من عسكر هلاون ، « ... ... »[3] . قلت : ولما سير هلاون عسكرا صحبة كتبغا نوين وأمرهم

(١) « ... ... » موضع سبعة أسطر مطموسة بحيث يصعب متابعة النص .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ١٢٠ ، المنهل الصافى جـ ٣ ص ٤٩٣ رقم ٧٣٤ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٣ وما بعدها ، الوافى جـ ١٠ ص ٣٦٠ رقم ٤٨٥٥ ، السلوك جـ ١ ص ٧٩٢ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٣٤ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٢٢ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٨٨ ، تشريف الأيام ص ٢٨٠ ، تذكرة النبية جـ ١ ص ١٦٧ — ١٦٨ .

(٣) « ... ... » موضع ثلاث كلمات مطموسة .

بالدخول إلى مصر ، فالتقى مع السلطان الملك المظفر قطز على عين جالوت ، وانتصر السلطان على ما ذكرناه[1] ، وقتل كتبغا ، وانهزم المغلية ، فلما وصلوا إلى هلاون غضب عليهم ، وقال كتبغا مات بيديكم ، وسلمتم أنتم ، ثم أمرهم بالرجوع إلى الشام ، ورسم أن كل من أقام في الأردو قتل ، فرجعوا وعبروا الفرات ، ودخلو إلى حلب ، وصاروا يغيرون[2] على أهل الضياع ، فاجتمعت جماعة من أهل حلب مع صاحب حماة ، وصاحب حمص ، وجماعة من التركمان ، فركبوا لهم ، والتقوا معهم في ظاهر حلب ، وكسروهم كسرة شنيعة ، وأخذوا جميع ما كان معهم ، ولم يصل أحد منهم إلى الفرات إلا قتيلا أو غريقا ، ونسوانهم جوارى ومماليك ، فكان من جملة الأسرى والدة بيدرا ، أخذوها وهى حاملة بيدرا على ظهرها في مهد .

قال صاحب النزهة : كما حكاه الأمير علم الدين الدوادارى الصالحى ، وأنه قد سير الأسرى وهم جماعة كثيرة إلى مصر في الدولة الظاهرية ، وقال : فيهم والدة بيدرا ، وهو معها صغير ، وفيهم أيضا كتبغا ولكن كان في ذلك الوقت مراهقا للبلوغ ، ولما حضروا إلى مصر فرقهم السلطان الملك الظاهر ، فوقعت والدة بيدرا مع ابنها في يد قلاون ، وأعطى قلاون أم بيدرا لمملوكه سنجر الشجاعى ، وكبر بيدرا ، وكان منه ما كان .

قال الراوى : وكثير من الناس يزعمون أن كتبغا وبيدرا أُخذا في نوبة حمص في دولة [٨٥] الملك المنصور ، وهذا غلط ، وقد حكى ذلك عن الأمير علم الدوادارى على ما ذكرنا ، حدث عنه جماعة كثيرة بذلك ، وصدقه أيضا على

(١) انظر ما سبق بالجزء الأول من هذا الكتاب ص ٢٤٣ وما بعدها .
(٢) « يغارون » في الأصل .

هذا المقول الأمير علم الدين أبو خرص ، مملوك الملك المظفر صاحب حماة ، وقد سأله الأمير لاجين – وهو نائب الشام بحضور الملك الكامل[1] – عن أمر بيدرا وكتبغا ، فذكر مثل الدواداري فصدقه على قوله .

قال الراوي : وسمعت ذلك من شرف الدين بن الملك المغيث بن الملك الكامل .

وكان بيدرا تقلبت به الأحوال إلى أن صار نائب السلطان الأشرف، وكانت له حرمة كبيرة ، ودولة وافرة ، وكان مأمون الغائلة ، سهل العريكة ، حصل للجند فى أيامه خير كثير ، ونفقات كثيرة ، وأنعم عليهم بإقطاعات وإنعام مع بشاشة وجه ، وكان مبدعا فى محاسنه ، لطيفا ظريفا ، حسن الأخلاق ، عذب المنطق ، متحليا بصفة الآداب ، مشغوفا بالطرب ، وجد له فى الحوطة على موجوده ستون جارية ، ما فيهن واحدة إلا وقد أتقنت صنعة الطرب من أنواع الملاهى ، وكان يخلو بهنّ فى الليل ، وكان له نديم أعمى لايكاد يفارقه ، وكان له تولع عظيم بالأطعمة الحسنة والمشارب الطيبة .

قال الراوى : ولم يسمع لنائب قبله ولا بعده ، له حوائج خاناه وشراب خاناه مثله ، ولقد حكى لى شاهد ديوانه : أن السلطان لما سافر إلى فتح قلعة الروم اختار أن يطعم الأمراء حلاوة سكب ، وذلك فى الرمل فى الطريق، وتولى عمل ذلك حسام الدين الاستاذدار ، واحتاجوا فى ذلك إلى فستق ، فقال : أبصروا فى حوائج خاناه نائب السلطان ، فإنها لاتخلو منه ، فأرسلوا وسألوا

---

(١) لعله الملك الكامل ناصر الدين محمد بن الملك السعيد بن الصالح عماد الدين اسماعيل بن العادل أبى بكر بن أيوب ، من أولاد الملوك الأيوبيين ، والذى أنعم عليه السلطان كتبغا بامرة طبلخاناة بدمشق عندما كان حسام الدين لاجين نائبا بالشام – السلوك جـ ١ ص ٨١٨ – ٨١٩ .

فوجدوا فى حاصله فى ذلك الوقت ثمانية أحمال قلب فستق ، وستة أحمال بقشره ، فأخذوا منها حمل قلب فستق ، فلما فرغوا من عملها جعلوها فى أطباق وصحون وفرقوها على الأمراء .

قال الراوى : ذكر لى أنهم كانوا فى ذلك الوقت فى منزلة الورادة ، ولم يوجد بعد وفاته فى تركته شيء كثير ، لأنه فرق أكثرها قبل موته ، وخلف ثلاثة أولاد ذكور وبنتا واحدة .

قال الراوى : وآخر من بقى من أولاده صلاح الدين ، وحضرت يوما عنده ، فأخرج محاسبة بين كتبغا وبين ورثة بيدرا — فإن كتبغا ولى النيابة بعده ، وأخذ إقطاعه وسائر غلاله وحواصله — تشتمل على ستين ألف أردب غلة ومائتى أردب برسيم ، وثلاثمائة وثمانين رأس بقر ، وست حجارة معاصير ، وأربعة آلاف قطعة قند ، واثنى عشر ألف مطر عسل قصب ، ومائتى قنطار سكر ، وألفى أردب فول ، ونحو ثلاثمائة ألف درهم ، سوى خيام وسلاح ونحوهما .

قال صلاح الدين : ولم يصل إلى منها شيء يساوى درهما .

ولما قتل بيدرا كان عمره إحدى وأربعين سنة ، سامحه الله .

ذكر ما وقع بالمدينة بعد قتل الأشرف :

ولما قتل السلطان ، وكان الأمير سيف الدين سنكو الدوادار صحبته ، فلما شاهد قتله ركب وساق إلى أن أدرك طلب السلطان وعرفهم بذلك كما ذكرنا ، واستمر سائقا بعد ذلك إلى أن دخل المدينة ، فوجد الأمير علم الدين الدوادارى فى الصناعة يجهز المراكب ، فأخبره بذلك سرا ، ثم ركب صحبته إلى القلعة ، وكان الشجاعى بها نائب الغيبة ، فاجتمعا به ، وأخبراه بذلك ، فركبوا على الفور

إلى أن أتـوا [٨٦] إلى ساحل النيـل ، وطلب الشجاعى والى مصر ووالى الصناعة والرؤساء ، وأمر بإطلاق النداء على أهل المراكب جميعهم بأن لا يعدوا أحد إلى ذلك البر ، فأى من عدّى بمركبه من كبير أو صغير شنق على مركبه ، ثم ركبوا فى المركب وجمعوا سائر المراكب من الأعلى إلى الأسفل ، ولم يدعوا وجه النيل مركبا إلا وأحضروه إلى ساحل مصر ، وكذلك المعادى ، وشخاتير الصيادين ، ووكل بالساحل من يحفظ ذلك ، واتفق وصول طلب السلطان والأمراء الذين كانوا معه بكرة النهار فى ذلك اليوم ، ووجدوا سائر المراكب والمعادى فى بر مصر ، ولم يجدوا إلى التعدية سبيلا ، فاجتمعوا هناك ، وخطر لهم أن الشجاعى كان متفقا مع بيدرا على قتل السلطان لأجل ما كان بينهم من المصاهرة ، فاقتضى رأيهم أن يسلموا رأس بيدرا لبعض الغلمان ليؤديه إلى الشجاعى حتى يعلم أن هذا كان غريم السلطان وأنه قتـل ، فأخذه الغلام ووصل به إلى الشجاعى ، وهو فى الصناعة والمماليك البرجية حوله ، وإلى جانبه الأمير علم الدين الدواداري ، فلما رأى رأس بيدرا بكى وتوجع ، ورسم بسير المراكب والمعادى (١) .

قال صاحب النزهة : حكى لى الشيخ فتح الدين ابن سيد الناس (٢) أن علم الدين الدواداري حكى له فى بعض الأيام ، وقد ذكروا قتل الأشرف : أنه عندما وصل رأس بيدرا إلى الشجاعى بكى بكاء كثيرا وتألم كثيرا ، وقال : يا أمير علم الدين : والله لقد كنت أعجب من عقل صاحب هذا الرأس ، ولكن إذا أراد الله بإتمـام

(١) يذكر المقريزى أن الشجاعى لم يرسل المراكب ويسمح بتعدية الأمراء إلا بعد أن تم الاتفاق بينهم — عن طريق الرسل — على إقامة الملك الناصر محمد بن قلاون — انظر السلوك جـ ١ ص ٧٩٣ — ٧٩٤ .

(٢) هو محمد بن محمد بن محمد أحمد بن سيد الناس فتح الدين أبو الفتح ، المتوفى سنة ٧٣٤ هـ / ١٣٣٣ م — المنهل الصافي .

قضائه وقـدره سلب ذوى العقول عقولهم ، والله ليورى هـذه النار أثرها حتى لا يبق لنـا أثر ، وكان الشجاعى فطنا صاحب ذهن جيد ، وكان يروى الشعر الكثير ، فقال لى يا أمير علم الدين : كأنى أنظر فى هذا الوقت فى قول الرقاشى[(١)] الشاعر لما قتل الرشيد جعفرا البرمكى[(٢)] :

ألا إن سـيفا برمكيا مهنـدا   أصيب بسيف هاشمى مهنـد
فقل للطايا قد امنت[(٣)] من السرى   وقـل للفيافى[(٤)] فدفدا بعـد فدفد
وقل للعطايا بعد فضل تعطلى   وقل للرزايا كل يوم تجـددى[(٥)]
وقـل للمنايا قـد ظفرت بجعفر   ولم تظفرى من بعـدها بمسود

ثم ركب وتلقى الأمراء ، وتباكوا وتوجعوا ، وأخذ الشجاعى يسألهم عن أخبار لاجين وقراسـنقر ، فعرفوه أنهما لم يعلما من هذا الأمر شيئا : فطلب بعض مماليك بيدرا وسأل منه ، فأخبره أنهما كانا مع أستاذه إلى حين حمل بعضهم على بعض ، ولم يعلم بعد ذلك ما جرى منهما .

---

(١) هو الفضل بن عبد الصمد بن الفضل الرقاشى البصرى ، أبو العباس ، شاعر مجيـد ، انقطع إلى البرامكة ورثاهم بعد نكبتهم وتوفى حوالى سنة ٢٠٠ هـ / ٨١٥ م — فوات الوفيات جـ ٣ ص ١٨٣ رقم ٣٩٢ .

(٢) هو جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك ، أبو الفضل ، وزير هارون الرشـيد ، قتل سنة ١٨٨ هـ / ٨٠٣ م — وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٤٢ رقم ١٣٢ ب .

(٣) « ودونك » فى وفيات الأعيان .

(٤) « وطى الفيافى » — فى وفيات الأعيان .

(٥) انظر وفيات الأعيان جـ ١ ص ٣٤٦ حيث يوجد اختلاف فى ترتيب هذه الأبيات .

ذكر سلطنة الملك الناصر محمد بن قلاون

لما كان يوم السبت السادس عشر من المحرم جلس السلطان الملك الناصر فى السلطنة ، وكان عمره إذذاك ثمان سنين وشهورا[١] ، وذلك باتفاق الأمراء الكبار مثل : كتبغا ، وبيبرس الجاشنكير ، وحسام الدين الأستاذدار ، وبرلغى ، والشجاعى ، وغيرهم من الأمراء الخاصكية مثل : طقجى وطقطاى وقطبية وغيرهم ، وتقرر أن يكون الأمير زين الدين كتبغا نائبا ، وعلم الدين الشجاعى وزيرا ومدبرا ، وركن الدين الجاشنكير أستاذدار ، واستقر الحال على هذا النظام[٢] .

وقال بيبرس فى تاريخه : وكنا إذذلك الوقت قد وصلنا من تجريد حمص صحبة [٨٧] الأمير بدر الدين أمير سلاح ، فأنعم السلطان على بمائة فارس وتقدمة ألف ، وسلم إلى ديوان الإنشاء والنظر عليه ، والحديث فيما يصدر منه ويرد إليه[٣] ، وأنفق السلطان فى العساكر ، واستحلفوا له فحلفوا ، وطلب الأمراء

(١) « وعمره يومئذ تسع سنين سواء » — تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٧٢ ، وهو الأصح ، فقد ولد الناصر محمد فى ١٥ محرم سنة ٦٨٤ هـ — انظر ما سبق بالجزء الثانى من هذا الكتاب ص ٢٤٠ وما بعدها .

(٢) « وأما الشام فإنه كتب إلى دمشق كتاب على لسان الملك الأشرف ، ومضمونه : إنا قد استنبنا أخانا الملك الناصر محمدا وجعلناه ولى عهدنا حتى إذا توجهنا إلى لقاء عدو يكون لنا من يخلفنا ، فقد رسم فيه بتحليف الناس للملك الناصر محمد وأن يقرن اسمه باسم الأشرف فى الخطبة . . . . فاستمر الأمر فى الخطبة بالشام على ذلك إلى حادى عشر ربيع الأول ، حتى ورد مرسوم ناصرى بالخطبة للملك الناصر وحده بالسلطنة » — السلوك جـ ١ ص ٧٩٤ — ٧٩٥ .

(٣) « وكتب لى بهذا الإنطاع منشور حسب الأمر المطاع » — زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٨٢ أ .

الذين طابقوا بيدرا ، فوقع منهم أولا بهادر رأس النوبة ، وأقوش الموصلى الحاجب ، فضربت رقابهما وأحرقت جثتهما[1] ، ثم وقع بعدهما طرنطاى الساقى ، وأعناق السلحدار ، ونوغيه السلحدار وأروس السلحدار ، ومحمد خواجا ، والطنبغا الجمدار ، وآقسنقر الحسامى[2] ، فاعتقلوا بخزانة البنود[3] أياما ، وكان ركن الدين الجاشنكير يتوجه إليهم ويتولى عقابهم وتقريرهم ، فلما أقروا بما فعلوا ، واعترفوا بأنهم قتلوا ، قطعت أيديهم وصلبوا ، وطيف بهم على الجمال ، وأيديهم التى قطعت فى أعناقهم قد علقت ، وماتوا شر ميتة جزاء بما كسبوا ، ووقع بعدهم بجقر الساق ، فشنق فى سوق الخيل[4] .

وفى نزهة الناظر : أن السبب لقتل هؤلاء واستعجال الأمراء فى قتلهم أن زوجة السلطان جمعت نوائح كثيرة تنوح على السلطان ، فأراد الأمراء منع ذلك ، فأبت ودخلت على أم السلطان الناصر فمكنتها من ذلك ، فجمعتها وحضرت مع سائر الخدام والجوار ليلة الجمعة إلى تربة السلطان ، وحضر فى تلك الليلة سائر الفقهاء والقراء والوعاظ ، فقرأوا ختمات عديدة ، ولما فرغوا قامت الوعاظ ، فتكلم كل واحد بما يناسب ذكره فى ذلك الوقت ، وتمثل ابن العنبرى بقول الشاعر :

هدمت صروف الدهر أرفع حائط ... ضربت دعائمه على الإسلام
تلك الرزية لا رزية مثلها ... والقسم ليس كسائر الأقسام

(١) « ثامن يوم سلطنة الناصر » — السلوك جـ ١ ص ٧٩٥ .

(٢) « وذلك فى العشرين من المحرم » — السلوك جـ ١ ص ٧٩٥ .

(٣) خزانة البنود بالقاهرة ، كان يعمل بها السلاح أيام الدولة الفاطمية ، ثم احترقت سنة ٤٦١هـ ، وأصبحت سجنا للأمراء والأعيان — المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٨٨ .

(٤) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٨٣ أ — ١٨٤ ب ، وانظر أيضا التحفة الملوكية ص ١٣٨ — ١٣٩ .

ثم نعاه وبكى وتباكت الأمراء والفقهاء ، وذكر كيف وجد طريحا ملقى ، ثم قال :

أبا الفضل لم أعجب لموتك إنه ... هو البين لا يبقى عليك مدى الدهر
فواعجبا للأرض كيف ملكتها ... وبت ولم يسترك من دونها بشبر

وحين فرغ هذا الوقت وثبت مائة جارية وثلاثون خادما ومماليك صغار ، ومعهم شمع وستون فانوسا بستين شمعة ، والجميع لابسات الجلال ، محلولات الشعر ، وفى أعناق الكل غبي[1] محرقة ، ومعهن جوق من النوائح المختلفة الأصوات ، وكل واحدة منهن تنوح بقول مختلف من كلام النساء ، فمن ذلك :

جددوا همى وأحزانى ... يافرحة الأعداء بسلطان

* * *

يا ضارب السيف شلت يداك ... قد بلغت عيناك منه مناك
لا ماتى[2] ربى حتى أراك ... قد سمروا عليك هذا جزاك

* * *

وأشياء كثيرة من هذا القبيل .

فاقمن ست ليال ، كل ليلة من العشاء إلى السحر إلى أن أقلقت الناس ، وأبكت العيون ، وأوجعت القلوب ، والتزمت زوجة الأشرف أن لا تنفك [من][3] حزنها ولا تترك ما هى فيه من هذا الأمر حتى ترى قاتل الأشرف والموافق عليه

(١) غبى : جمع غابة أى بوص .

(٢) لا أماتنى .

(٣) [ ] إضافة للتوضيح تتفق والسياق .

مُسمرا مشهورا، فعند ذلك ثارت المماليك الأشرفية واجتمعوا بالشجاعى، وبكوا بين يديه، وقالوا : نحن نموت كلنا وإلا مكنونا [٨٨] من قاتل أستاذنا، وكانوا قد قبضوا على جماعة من الخاصكية الذين اتفقوا مع بيدرا ورسموا بحبسهم، وكانوا أخروا أمرهم إلى أن يتفقوا على أمر يفعل فيهم .

فنهض الشجاعى ومعه جماعة من المماليك الأشرفية، فدخلوا على كتبغا لينظر فى أمر هؤلاء، فرأوه جالسا فى الشباك والأمراء حوله، فقاموا له وشرعوا فى الحديث، وهم فى ذلك فإذا بالأميرين بهادر رأس نوبة والأمير جمال الدين أقوش الموصلى الحاجب قد حضرا، وكانا من جملة الأمراء المتفقين مع بيدرا، فحين وقع نظر المماليك الأشرفية عليهما سَلُّوا سيوفهم وضربوا رقبة الإثنين فى أسرع من لمح البصر، ولما رأى كتبغا والأمراء ذلك خشوا من الفتنة، واتفقوا على قتل الأمراء الذين فى السجن وإشهارهم إطفاء لنيران الفتنة .

فطلبوا متولى القاهرة فأحضرهم من السجن، ونزل الشجاعى والمماليك الأشرفية صحبته إلى باب السلسلة، وأوقفوهم عند باب السلسلة، وأحضروا قرمة وساطورا، وجعل الوالى يحضر أميرا بعد أمير ويقطع يده على القرمة بضربة واحدة يفصلها من المعصم، فلما فرغوا من ذلك أركبوهم على الجمال وسمروهم تسمير الهلاك، وعلقوا يد كل واحد فى عنقه .

وركب فى ذلك اليوم كتبغا والأمراء إلى جانبه يشاهدون هؤلاء، وهم على هذه الحالة مُسَمرون، وعليهم أقبيتهم الأطلس وكلوتاتهم الزركش وأخفافهم البرغالى وشقوا بهم فى وسط الموكب، وصاروا طالعين بهم وراجعين والمشاعلية تنادى عليهم : هذا جزاء من يخون أستاذه ويتجاسر على قتل الملوك وأقل جزائه، ورسموا أن يُطاف بهم مصر والقاهرة .

ونظرت الناس إلى تلك الشمائل الحسنة ، والوجوه الجميلة ، ويد كل واحد على صدره تشجب دما ، وتباكت الناس ، وانفجعت القلوب ، وكان يوما عظيما .

واتفق فى يوم دخولهم المدينــة سألت زوجة الأمير نغيه بعض خدامها أن تقف فى مكان تنظر منه إلى زوجها قبل الموت ، فطلع بها على بيت فى الشرابشيين لحين وقـع نظرها على زوجها مسمرا أرمت نفسها من باب الطاق لتقع عليــه ، فلطف الله بعثرتها أن وقعت على سقف الدكاكين ، وتباكت الخلائق لأجلها ، وتألموا كثيرا ، وحملوها إلى منزلها (١) .

وبلغ خبرها إلى الأمـير بدر الدين أمير سـلاح ، فتوجع لهـا ، وركب إلى القلعة ، واجتمع بكتبغا النائب والأمراء وشفع فى نزولهم من الجمال ويموتون فى بيوتهم ، فقبلوا سؤاله ، ورسموا للوالى (٢) بتنزيلهم وتسليمهم لأهلهم ، وكان ذلك وقت الظهر ، فحمل كل منهم إلى أهــله ، وما لحقوا أن يقعدوا ساعة حتى بلغ المماليك الأشرفية أمرهم ، فاجتمعوا عند الشجاعى فى محفل كبير ، وقالوا : متى ما لم يعد هؤلاء إلى التسمير مثل ما كانوا ما نسكت ، وقصدوا إقامة الفتنة ، ورأى كتبغا هذه الحالة فبرّأ نفسه ، فقال : دونكم وإياهم ، فأنا ما أدخل بينهم فعنــد ذلك ركبوا ونزلوا ، فأخـذوا كل واحد من مـنزله ، وأعادوهم إلى الأخشاب والتسمير ، وشقوا بهم المدينة .

فكانت تلك الإعادة أَمَرَّ عليهم وأصعب مما وجدوه فى أول الشدة ، وبقيت معهم طائفة من الأشرفية إلى أن وصلوا بهـم [٨٩] إلى ظاهر القاهرة وإلى

(١) ذكر المقريزى رواية مشابهة — لكنها بالنسبة لزوجة علاء الدين ألطنبغا — انظر السلوك جـ ١ ص ٧٩٦ .

(٢) « الولى » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

ظاهر مصر ، فاستمروا على هذه الحالة يومين آخرين ، ثم توفوا إلى رحمة الله .

وكانت عدتهم سبع أمراء وهم : طرنطاى الساقى ، وعناق السلحدار[1] ، ونغيه السلحدار[2] ، وأروس السلحدار ، وطنبغا الجمدار ، وآقسنقر الحسامى ، ومحمد خواجا .

وبعد هؤلاء قبضوا على الأمير بجقار الساقى ؛ وكان قد هرب من يوم الوقعة واختفى ، وشنقوه فى سوق الخيل .

فالكل عشرة أنفس مع بهادر رأس نوبة والموصلى ، فنعوذ بالله من زلة القدم ، وزوال النعم ، وحلول النقم .

ذكر وقعة الوزير ابن سَلْعُوس :

هو الوزير الكبير شمس الدين محمد[3] بن عثمان بن أبى الرجا التنوخى ، المعروف بابن سلعوس ، وزير الملك الأشرف ، كان هو من جملة الأسباب المؤدية إلى وقوع هذه الفتن ، لأنه كان بينه وبين الأمير بيدرا فى الباطن إحن وعداوة — على ما ذكرنا — حتى أدى ذلك إلى ما حصل من بيدرا من ركوبه على الملك الأشرف وقتله إياه .

---

(١) « سيف الدين الناق الساقى السلاح دار » فى السلوك جـ ١ ص ٧٩٥ .

(٢) نغيه أو نوغيه ، « نوغاى » فى السلوك جـ ١ ص ٧٩٥ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٨٤ ب ، نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٩ ورقة ٧٢ وما بعدها ، درة الأسلاك ص ١٢٢ ، التحفة الملوكية ص ١٢٩ ، الوافى جـ ٤ ص ٨٦ رقم ١٥٠٠ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٦٦ وما بعدها ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٢٤ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٣٨ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٧٣ ، بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٣٧٩ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٥٢ — ٥٤ .

ولما جرى ما ذكرناه على الأمراء الذين ذكرناهم مسك الشجاعى الوزير المذكور ، وضربوه وعاقبوه[1] ، فمات تحت الضرب الذى جاوز ألف مقرعة ، وذلك فى عاشر[2] صفر من هذه السنة ، ودفن بالقرافة .

وقيل : إنه نقل إلى الشام بعد ذلك ، واستصفوا أمواله وذخائره .

وفى تاريخ ابن كثير : وكان الذى حمل من جهته خمسمائة ألف درهم[3] .

وفى نزهة الناظر : وكان الوزير فى الإسكندرية يوم قتل السلطان ، وكان قد طلب سائر التجار وأرباب الأموال والمكارم وشرع فى مصادرتهم وإهانتهم فكثر الظلم والعسف عليهم بسبب هذا ، وطلب والى الإسكندرية بدر الدين الحاكى ، وكان رجلا ذا دين ومروءة ، فرسم عليه وأخذ سيفه وأمر بأن يؤخذ منه مبلغ ألفى دينار ، وبقيت الإسكندرية فى بكاء وعزاء .

وفى ذلك اليوم بعد العصر وقعت بطاقة ، فأحضرها البراج للمتولى[4] فأخذها وقرأها ، فوجدها من تروجة وقد كتبت عن بيدرا : سُرح الطائر الميمون يوم السبت وقت العصر الثانى عشر من المحرم يأمر بالقبض على الوزير ، وأن السلطان قتل ، وتسلطن بيدرا .

فلما وقف حمد الله تعالى فى نفسه ، ولم يظهر ذلك لأحد ، ونهض من دار الولاية ووسطه مشدود بمنديل إلى أن وصل إلى باب الوزير ، فوجد المُقَدم

(١) هكذا بالأصل .

(٢) « وكانت وفاته يوم الأحد خامس عشر صفر » — بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٣٧٩ .

(٣) لم يرد هذا النص فى النسخة التى بين أيدينا (المطبوعة) البداية والنهاية .

(٤) أى لوالى الإسكندرية .

ينتظره ، وقال يا أمير : مَالَكَ ؟ كَمُلَت حملك ؟ قال له : بقى ثمان مائة دينار ولكن لى شغل عند مولانا الوزير ، فاستأذن علىّ ، فأرسل خادما من الخدام ، فشاور عليه ، فخرجت الرسالة للمقدم : متى لم يكمل الليلة ألف دينار ، عرّه واضرب به بالمقارع ، فقال المقدم : يا أمير سمعت الجواب . فقال : مرسوم الصاحب على الرأس ، فاليوم يكمل إن شاء الله ، ولكن عرِّفه أن ثمة شغلا ضروريا ، فلابد من الاجتماع به والمشاورة عليه ، فدخل الخادم فعرفه بذلك ، فأذن له ، فدخل فوجده جالسا بعجب وعظمة والموكبية تعد قدامه . فقال : كملت الحمل ؟ . فقال : نعم يا مولانا . فقال : ما تريد وأى شىء تشاور ؟ فقدم له البطاقة من جيبه وناولها إياه ، فقرأ أولها وبهت فيها إلى أن استكملها ، ثم رفع رأسه فقال : يا بدر الدين : ما بقى إلا مروءتك وفتوتك فى هذا الوقت . فقال له : ما عندى شىء يشوش عليك ولكن متى قعدت الليلة ويصبح أهل البلد [٩٠] ويطلعون على الأمر ، ما يخلون يصل على الأرض من دمك قطرة .

فنهض على الفور صحبته إلى أن أخرجه فى الليل من باب الإسكندرية ، وأشاع أن السلطان سيّر بطلبه ، فخرج معه شخص من الدماشقة وكان يصحبه ، فأخفى نفسه إلى أن وصل إلى زاوية الشيخ ابن عبد الظاهر(١) خارج باب البحر ، فقال له يا مولانا الصاحب : أنا أشير عليك بأن تخفى نفسك من هاهنا أياما إلى أن تنظر بعد ذلك ما يتفق للناس ، ثم تحيل لخلاص نفسك ، فالتفت إليه

(١) « زاوية الشيخ جمال الدين أحمد بن محمد بن عبد الله الظاهرى » — السلوك ج ١ ص ٧٩٦ . ومن هذه الزاوية وصاحبها — انظر المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٤٣١ .

كالمغضب وقال : ما تستحى ؟ تشير على برأى العوام ، إش هذا الرأى الفاسد ؟ والله لو نعل هذا بعض العمال الذى تحت يدنا لقبحنا ذلك منه ، فكيف يليق بى أن أفعل ذلك ، فكأنك تعتقد أنهم ما هم محتاجون إلى تدبيرنا لدولتهم ، وما لهم غنى عنا ، فسكت الرجل وتمثل بقول الشاعر :

لكل دَاء دواءٌ يُستطَبُّ به   إلا الحماقة أَعيَتْ من يُداويها

ثم إن الوزير وصل إلى القاهرة ودخلها بالليل(١) ، فنزل بداره بحارة زويلة ، فبلغ الشجاعى حضوره ، فعرفه لزين الدين كتبغا ، فرسم بطلبه ، فطلب الشجاعى الحاجب فقال له : انزل إلى الوزير وقل له : يا مولانا الصاحب إن الأمراء يسلمون عليك ويسألونك أن تركب إليهم ، فإن الدولة محتاجة إلى تدبيرك ، فنزل الحاجب إلى داره ، واستأذن فأذن له ، فدخل عليه وسلم بأدب ، وعرفه بما قالوا له ، فأعجبته نفسه ، وقال : بسم الله اجلس حتى تحضر الجماعة ، فسيّر إلى الكتاب والمباشرين ، فعرفهم أنه طُلب للوزارة ، فركب إليه الناس وسائر الدواوين والمشدين ، فاجتمع خلق كثير ، وحضرت القضاة أيضا .

فركب فى موكب عظيم كما كان بعهده إلى أن وصل إلى القلعة ، فدخل على الشجاعى فنهض إليه ، وقال : كيف حال مولانا الصاحب ؟ فقال : بخير . فقال السلطان : ولدك رسم أن تستقر على وزارتك وتدبير الدولة . فقال : حتى نجتمع بالسلطان ونذكر له شروطا نقررها بين يديه . فقال له : بسم الله والسلطان

(١) يذكر المقريزى أن الوزير ابن السلعوس بات ليلته فى زاوية الظاهرى « ثم ركب منها بكرة بهيئته ودمته إلى داره » — السلوك ج ١ ص ٧٩٦ — ٧٩٧ .

أيضا له شروط ، أولها : أنه يطلب منك أن تنفق على العسكر لأنه سلطان جديد ، فإذا كملت النفقة تجتمع به ، ثم التفت إلى قراقوش الظاهرى [1] — الذى ذكرنا قضيته وما جرى عليه معه من المصادرة [2] — وقول قراقوش له : ويلك هل أنت إلا المقوفز الذى أخربت مصر وقتله الوزير بعد ذلك بالمقارع . فقال له : يا أمير بهاء الدين ، تسلّم غريمك وخلص منه مال السلطان .

فأخذه أشدّ أخذ ، ففى تلك الساعة خرجت تلك الحماقة من رأسه من قوة الصفع بالأيدى ، وانقلب ذلك الموكب الذى طلع فيه إلى القلعة إلى الذلة والهوان فخرجوا به ، وبلغ ذلك إلى كتبغا وأنه تسلمه قراقوش ، فعلم أن نقلته فى ليلته ويروح ماله ، فرسم كتبغا أن يتسلمه الأمير بدر الدين المسعودى مشدّ الدواوين ، فأحضروه إليه ، وصحبته تقى الدين الأعمى الذى كان نديم بيدرا الذى لا يكاد يفارقه ويجلس معه عند جواريه ومغانيه كما ذكرناه ، وكان له فضيلة وشعر وحكايات ، وحصل له جملة مال من قضاء أشغال الناس وحوائجهم عند بيدرا ، ووجد له مال كثير ، وفى جملته نحو من ثمان مائة خاتم ما بين ساذج وبفص ، فإنه كان إذا ركب أو مشى وسلم [٩١] خلفه أحد بمشعل أو غيره ، فيمدّ يده إليه فيصافحه ويجس يده ، فأىّ خاتم وجده فى يده أخذه ، ولو كان أىّ خاتم كان ، وفى يد أىّ من كان ، ثم إن المشدّ يحضر الوزير ويعاقبه ، ومسكوا أيضا جميع من كان يلوذ به من الدماشقة والمصريين وغيرهم إلى أن حصل من جهتهم أربعمائة ألف درهم بعد قتلهم بالمقارع .

(١) « شاد الصحبة » فى السلوك جـ ١ ص ٧٩٧ .

(٢) انظر ما سبق ص ٧٦ وما بعدها .

وقبضوا أيضا على يعقوب المقدم وولده ، وكان هذا مقدم نائب بيدرا ومقدم دولته ، فأحضره المسعودى لعقوبة الوزير ، وكان الشجاعى يكرهه ، فبلغه عنه أنه يعاقب الناس ، فسير إلى المشد وأمره بالقبض عليه وعقوبته ، وكان ذلك فى مدرسة الصاحب بن شكر (١) ، فاتفق حضور الرسالة ويعقوب قد ضرب الوزير ست مقارع ، فقبض عليه للوقت ، وطلب ولده أيضا ، فحضر وأقاما فى العقوبة تسعة أيام ، وكانت آجالهم متقاربة .

وكانوا قد كتبوا أيضا إلى نائب دمشق بالحوطة على جميع أكام ابن سلعوس الوزير وأهله ومن يعلمون أنه من جهته ، فقبض على جماعة كثيرة من الدماشقة ، وحصل منهم نحو مائتى ألف درهم سوى الأملاك والعقارات ، ولم يسلم من ألزامه ومن كان خصيصا به غير رجل واحد ، وذلك أن الوزير لما قوى أمره سير إلى الشام فاستدعى أهله وألزامه فكلهم أجابوه إلا هذا الرجل (٢) ، فلم يجبه ، فكتب إليه يعتذر عن الحضور ويحذره من الشجاعى فقال :

توق (٣) ياوزير الملك واعلم   بأنك قد وطئت على الأفاعى
« وعش ما عشت فى دعة » (٤)   أخاف عليك من نهش الشجاعى

---

(١) هى المدرسة الصاحبية بسويقة الصاحب بالقاهرة : وتنسب إلى الصاحب صفى الدين عبدالله ابن شكر ، وزير السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب — المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٠٤ ، ص ٣٧١ .

(٢) « يقال له زين الدين » — بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٣٨٠ .

(٣) « تنبه » فى تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٧٣ ، بدائع الزهور ، والنجوم الزاهرة ، التحفة الملوكية ص ١٣٩ ، « تثبت ياوزير الأرض » فى تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٧٧ .

(٤) « وكن بالله معتصما فإنى » فى تذكرة النبيه ، وتاريخ ابن الفرات ، والنجوم الزاهرة ، =

فبلغت الأبيات إلى الشجاعي ، فكان يتذاكرها إلى هذا الوقت الذي رسم بطلب أزلامه وأهله واستثنى هذا الرجل، فكتب بالوصية له وعدم التعارض إليه،

فوقع الأمر كما قال الرجل ، فإنه مات من نهش الشجاعي الذي لم يجد له ترياقا .

وقال ابن كثير : وكان ابتداء أمر الوزير ابن سلعوس تاجرا ، ثم ولى الحسبة بدمشق بسفارة الصاحب تقي الدين توبة[1]، ثم كان يُعامل الملك الأشرف قبل السلطنة ، فلما تملك[2] بعد أبيه استدعاه من الحج وولاّه الوزارة ، فكان يتعاظم على أكابر الأمراء ويسميهم بأسمائهم ولا يقوم لهم ، فلما قتلوا الأشرف تسلموه بالضرب والإهانة وأخذ الأموال حتى أعدموه حياته وصبّروه، وأسكنوه الثرى بعد أن كان عند نفسه قد بلغ الثريا[3] .

= التحفة الملوكية ص ١٣٩ ، « فكن بالله محتسبا » في بدائع الزهور .

وفي رواية أخرى :

تنبه يا وزير الملك واحذر زمانك قد وطئت على الأفاعي

ولا تغتر بالدنيا فإني أخاف عليك من نهش الشجاع

تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٧٨ وانظر أيضا رواية أخرى في النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٥٤ .

(١) « وكان جارا للصاحب تقي الدين البيع، فصاحبه ورأى فيه الكفاءة فأخذ له حسبة دمشق » — النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٥٣ .

(٢) « ملك » في البداية والنهاية .

(٣) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٣٨ .

ذكر قضية الأمير علم الدين سنجر الشجاعى (١) :

قد ذكرنا أنه لما قتل الأشرف كان سنجر الشجاعى مقيما فى القلعة ، ولما عاد زين الدين كتبغا والأمراء المذكورون تقرر الحال على أن يكون الشجاعى محكما فى الوزارة ، فتحدث فيها ونفذ أمره .

فلما كان فى شهر صفر من هذه السنة خرج الأمراء من بيوتهم فى يوم موكب (٢) ، وجلسوا على باب القلة كالعادة ينتظرون فتوح باب القلعة ليركبوا الموكب فى خدمة الأمير زين الدين كتبغا نائب السلطنة ، فلم يشعروا إلا وخرجت رسالة على لسان أمير جاندار بطلب أقوام معينين إلى السلطان ، وهم : سيف الدين قفجاق (٣) ، وبدر الدين عبد الله السلحدار ، وسيف الدين قبلاى (٤) ، وركن الدين عمر أخو تمر ، وسيف الدين كرجى ، وسيف الدين طرنجى (٥) ، [٩٢] فدخلوا ، وقام الأمراء للركوب .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٨٥ أ ، درة الأسلاك ص ١٢٠ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٥١ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ٩٠ رقم ١٣٢ ، كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٥٢ وما بعدها ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٥١ — ٥٢ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٧٢ ، التحفة الملوكية ص ١٣٩ — ١٤١ .

(٢) « فلما كان يوم الخميس ثانى عشرى صفر » — تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٧٩ .

(٣) « قبجاق — قبجق » فى السلوك جـ ١ ص ٧٤٩ ، ص ٧٩٩ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٧٩ .

(٤) « قباى » فى نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٩ ورقة ٣٠٧ أ .

(٥) « طرنجى » فى السلوك جـ ١ ص ٧٩٩ .

وورد فى السلوك أسماء لأمراء آخرين — انظر السلوك جـ ١ ص ٧٩٩ ، وانظر أيضا تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٧٩ — ١٨٠ .

ولم يعلم الأمير زين الدين بما تم لهم ، فبينما هم يسيرون تحت القلعة إذ جاء اثنان من ألزام علم الدين الشجاعي ، وهما : سيف الدين قنغر(١) وجاورشي(٢) ولده ، وكانا في خدمته منذ كان نائب السلطنة بدمشق ، فأخبر الأمير كتبغا أن الأمراء الذين استدعوا إلى داخل سحرا(٣) قد اعتقلوا ، وأن الشجاعي قد دبر الحيلة عليك وعلى الأمراء إذا طلعتم إلى القلعة « ودخلتم إلى الخوان(٤) » أن يقبض عليكم أيضا ، كما فعل بالذين قبض عليهم سحرا .

فاستدعى كتبغا الأمراء الذين في الموكب ، وعرفهم الصورة وهو واقف على سفح سوق الخيل ، فتوقفوا عن الطلوع إلى القلعة ، وتوهموا أن الشجاعي اتفق على ذلك مع الأمراء المنصورية والمماليك السلطانية ، وكان بالموكب الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير أستاذ الدار ، والأمير سيف الدين براغي أمير مجلس ، فأمسكوهما في موقفهما رجمًا بكواذب الظنون ، وركونا إلى ما فعله الواشون ، وأرسلوهما إلى الإسكندرية ، فاعتقلا بها إلى أن علم براءتهما ، ففرج عنهما ، ورفع قدرهما ، وكان ما سنذكره منهما .

وعند إمساكهما حصل التجاذب في الكلام بين بعض القوم اللائذين بالأمير كتبغا وبين سنجر البندقداري(٥) ، فجرد سيفه(٦) ، فقتل على مكانته بسوق الخيل .

(١) « قنغر وقيل قنقغ » — تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٧٩ .

(٢) « جاورجي » في السلوك جـ ١ ص ٧٩٩ .

(٣) أي وقت السحر .

(٤) « وقت الجلوس على السماط » — في السلوك جـ ١ ص ٧٩٩ .

(٥) « وقيل لجبان البندقداري — تاريخ ابن الفرات : جـ ٨ ص ١٨٠ .

(٦) « وجرد سيفه ليضرب به كتبغا ، فبادره من ورائه بكتوت الأزرق — مملوك كتبغا — وضربه بسيف حل كتفه ، ونزل إليه بقية مماليك كتبغا وذبحوه » — السلوك : جـ ١ ص ٧٩٩ .

وتوجه كتبغا ومن معه من الأمراء إلى الباب المحروق وخرجوا منه ، ونزلوا ظاهر السور ، وأمروا مماليكهم وأجنادهم وألزامهم بأن يلبسوا عددهم ويجتمعوا حولهم ، وأرسل كتبغا النقباء إلى الحلقة والمقدمين ، فأحضروهم أجمعين .

وأرسل [إلى] السلطان[(1)] فى طلب علم الدين الشجاعى وقال له : إن هذا قد انفرد برأيه فى القبض على الأمراء ، وبلغنا عنه ما أنكرناه ، ونختار حضوره ليحاقق عن نفسه ، ويوضح لنا باطن أمره ، فامتنع عن الحضور إليهم .

ثم إن السلطان طلع إلى البرج الأحمر وتراءى للأمراء ، فقبلوا الأرض من مواقفهم وقالوا له : نحن مماليك السلطان ولم نخلع يدا عن طاعته ، ولا لنا قصد إلا فى حفظ نظام دولته ، وإزالة الفساد عن مملكته ، وهذا الشخص قد أحدث حدثا رديئا ، يفرق الكلمة ، ويخرق الحرمة ، ولا بد لنا منه .

ثم إنهم حاصروه سبعة أيام ، فكان ينزل إليهم ، ومعه طائفة من الأمراء الذين أقاموا معه بالقلعة وهم : سيف الدين بكتمر ، وسيف الدين طقجى[(2)] ومن يلوذ به من المماليك لا بسين ، ويتناوشون القتال ، فلما رأى الذين معه أنه لم يغن شيئا تركوه وفارقوه ، وصاروا ينزلون عشرة بعد عشرة ويلحقون بالأمير كتبغا ، ومن معه من الأمراء الكبار ، كالأمير بدر الدين بيسرى ، وبدر الدين

= وقد أورد ابن تغرى بردى رواية أخرى عن هذه الواقعة — انظر النجوم الزاهرة : جـ ٨ ص ٤٢ — ٤٣ .

(1) [ ] إضافة للتوضيح ، وورد فى السلوك « ثم إن كتبغا بعث إلى السلطان يطلب الشجاعى » جـ ١ ص ٨٠٠ .

وورد « وراسل السلطان فى طلب » فى زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٨٦ أ .

(2) « طغجي » في السلوك : جـ ١ ص ٨٠٠ .

أمير سلاح ، وعلم الدين طردج وغيرهم .

ولما تحقق علم الدين الشجاعى خمود ناره ، وخمود أعوانه ، خرج بنفسه وكر على الأمراء فما أغنت كرته(١) ، ففر عائدا ، وبالقلعة لائذا ، وقال : إن كنت أنا الغريم المطلوب وقد طلبونى بهذه الذنوب ، فأنا أصير إلى الحبس طوعا منى ، [وأبرأ مما قيل عنى](٢) وحضر إلى باب الستارة السلطانية وحل سيفه بيده ، وذهب نحو الحوش(٣) ، فوثب عليه مماليك الأمير أقوش السلحدار وسيف الدين صمغار ، وكانا قد مضيا به نحو البرج الجوانى ليحبساه ، فضربوه بالسيوف وحزوا رأسه ، وأرسلوها إلى [٩٣] الأمراء(٤) ، فطيف بها القاهرة ومصر وضواحيهما(٥) .

وجرت المراسلات بين الأمير كتبغا والأمراء وبين السلطان ، وتقررت الأيمان والعهود ، وتأكدت ، ثم طلعوا إلى القلعة وأشار الأمير كتبغا بالنفقة ، فأنفق فى العساكر قاطبة نفقة شاملة ، وأصلح الأمراء والمقدمون بالزيادات والإقطاعات ، وترتب النظام ، وأنزل من كان فى الأبراج والطباق من المماليك الذين اتهموا بإنشاء الشقاق ، فأسكنت طائفة منهم فى مناظر الكبش(٦) ، وطائفة

---

(١) « فلم يجد بدا من طلب الأمان فلم تجبه الأمراء » — السلوك جـ ١ ص ٨٠١ .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح من زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٨٦ أ .

(٣) « نحو البرج » فى السلوك جـ ١ ص ٨٠١ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٨٢ و « نحو الحبس » فى زبدة الفكرة .

(٤) « ورفعت فى الحال على السور » — السلوك جـ ١ ص ٨٠١ .

(٥) انظر أيضا كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٥٥ التحفة الملوكية ص ١٤١ .

(٦) مناظر الكبش : أنشاها الملك الصالح نجم الدين أيوب على جبل يشكر بجوار الجامع الطولونى — المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٣٣ ، صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٦٢ .

فى دار الوزارة ، وطائفة فى مناظر الميدان الصالحى (١) والظاهرى ، واعتقلت منهم جماعة بعد اعترافهم بما قيل عنهم (٢) .

« وذكر فى بعض التواريخ أن هؤلاء المماليك كانوا ثمانية آلاف وخمسمائة مملوك ، منهم أربعة آلاف مملوك وسبعمائة مملوك أنزلوهم بخدامهم وباينتهم إلى مناظر الكبش ، وإلى قاعات دور الوزارة ألفين وأربعمائة مملوك ، وإلى أبراج باب زويلة ألفا وأربعمائة مملوك ، وزادوا فى رواتبهم حتى لا يتحركوا ولا يفسدوا (٣) » .

وفيها (٤) كان ظهور الأميرين شمس الدين قراسنقر وحسام الدين لاجين المنصورى من الاستتار ، وقد ذكرنا أنه لما جرى لبيدرا ماجرى ، انهزما إلى القاهرة وأقاما بها مختفين ، ثم أعلما مملوكا من مماليك زين الدين كتبغا يسمى بتخاص (٥) بأمرهما ، وأطلعاه على موضعهما ، فأطلع مخدومه على ذلك ، فتلطف لهما مع السلطان إلى أن سمح لهما بالأمان ، فظهرا ومثلا بين يديه ، وقبلا الأرض لديه ، فرضى عنهما ، وعفا عن السالف من دينهما ، وأمر لكل واحد منهما بإمرة ، وعادا إلى أحسن ما كانا (٦) .

---

(١) الميدان الصالحى : كان أراضى اللوق ، أنشأه الملك الصالح أيوب سنة ٦٤٣ هـ ، وأنشأ فيه مناظر جليلة تشرف على النيل الأعظم — المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٩٨ .

(٢) انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٨٥ أ — ١٨٦ ب ، حيث نقل العينى هذه الوقائع عن بيبرس الدوادار .

(٣) « » مكتوب بهامش المخطوط ، ومنبه على موضعه بالمتن .

(٤) « وفى يوم عيد الفطر » — فى السلوك جـ ١ ص ٨٠٣ .

(٥) « الأمير سيف الدين بتخاص الزيفى » — فى السلوك : جـ ١ ص ٨٠٣ .

(٦) انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٨٦ ب — ١٨٧ أ ، التحفة الملوكية ص ١٤١ .

وفي نزهة الناظر : وكان هذان الأميران متفقين مع بيدرا على قتل الأشرف ، ولما رأيا جيشا عظيما وراء بيدرا طلبا طريق النجاة ، فسبق كل واحد منهما إلى الساحل في آخر الليل ، فوجدا جميع المراكب والمعادي في ساحل مصر ، فأرسلا ركبدار لاجين إلى مصر ، فخلع ثيابه وسابح البحر إلى جانب مصر ، وجاء إلى بعض المعادي ، واجتمع بصاحب المعدية فوعده بألف دينار ، فخاطر صاحب المعدية بنفسه ، وعدّى بهما إلى بر مصر . وكان معهما بعض الفضة فأعطياه إياها ، وأودعا عنده كلوتاة زركش وحياصة ذهب — وقالا له : خلّ هذه عندك رهنا إلى أن يحضر إليك هذا الغلام بالذهب فيأخذها .

ولما استقرا في بر مصر تفرقا وأخذ كل منهما في جهة .

وكان مع لاجين مملوك يسمى بهادر ، ومع قراسنقر مملوك يسمى صمغار — وهو الحاكي لهذا التاريخ .

ولما تفرقا دخل قراسنقر المدينة ، وراح لاجين إلى جامع ابن طولون ، فاختفى في بعض زواياه الخراب ، وأقام ينتقل من مكان إلى مكان في الجامع ، وقد نذر في ذلك الوقت على نفسه إن ستره الله تعالى ، وسلمت نفسه عمّر الجامع وجدّده ، ورتب له أوقافا تقوم بوظائفه . ثم خرج منه إلى القرافة الكبيرة ، وكان يأوي في بعض الترب المهجورة ويبيت فيها ، ثم أتى إلى زاوية ابن عبود واختفى فيها .

وأما قراسنقر فإنه لما فارق لاجين دخل المدينة ، فكان ينتقل من بيت إلى بيت إلى أن سكنت الفتنة .

وعلم كل منهما موضع صاحبه ، فتراسلا على الاجتماع ، وحمل لاجين فى داخل صندوق على رأس حمال إلى حارة بهاء الدين ، واجتمع هو وقراسنقر ، واتفق رأيهما أن يبعثا مالا لبتخاص والأزرق مملوكى كتبغا ليتوسطا عند أستاذهما فى أمرهما ، ويُصلحا مُضيهما .

وكان كتبغا يُعز لاجين وقراسنقر ،ولم يمعن فى طلبهما ،وكلما كان الشجاعى يتحدث فى أمرهما كان كتبغا يسكته ، فلما عرف المملوكين أمرهما لكتبغا ، قال لهما : قولا لهما فليصبرا ، ولا يكون إلا خيرا ، فبقيا على هذه الكلمة إلى شهر رمضان ، وفى العشر الأخير منه أرسل كتبغا يعرفهما بأن يدخلا على الأمير بدر الدين أمير سلاح [٩٤] فدخلا عليه بليل ، وبكيا بين يديه ، وسألاه أن يشفع عند السلطان فى أمرهما ، وأنهما ما لهما يد فى جميع الذى وقع لأنه من رأى بيدرا ، فلما سمع أمير سلاح حديثهما ، وعدهما بخير . ثم إنه لما طلع إلى القلعة اجتمع كتبغا والبيسرى وبكتمر السلحدار وحسام الدين الأستاذدار وتحدثوا فى أمرهما ، وطلبوا أمير سلاح ، وسألوه أن يوافقهم على ذلك .

فدخلوا على السلطان ، وتقدم كتبغا وعرف السلطان أن الأمراء يشفعون فى الأميرين لاجين وسنقر ، وأنهما من أكابر مماليك الملك الشهيد والد مولانا السلطان ، أحدهما كان نائب الشام ، والآخر كان نائب حلب ، وأخذ أمير سلاح يعظم أمرهما ، فقال السلطان : يا أمير هؤلاء هم الذين قتلوا أخى ، فقال كتبغا : ياخوند ، كذب أعداؤهما عليهما ، والذى تحققنا منه يبرئهم ، وأشهد لهم[1] ، وفى بقاء هذين الأميرين نفع عظيم للسلمين فلهما اسم كبير فى بلاد العدو ، ونهض الأمراء فنهضوا كلهم ، وقبلوا الأرض بين يديه ، فأجابهم .

---

(١) هكذا بالأصل ، بصيغة الجمع .

وفى اليوم الثانى ، وهو يوم الموكب ، طلع الأمير [بدر الدين أمير](١) سلاح ولاجين فى جانب وقراسنقر فى جانب(٢) .

ثم أمر السلطان بأن يخلع عليهما ، فخلع عليهما ونزلا صحبة أمير سلاح ، وحصل فى نفوس المماليك من ذلك شيء عظيم ، « ... ... »(٣) حتى أنهم قرروا أن يهجموا على كتبغا فى الموكب ، و يقتلوه فعلم بالخبر ، و بطل الركوب ، و جمع الأمراء وأخبرهم بذلك ، ثم اتفق رأيهم على أن يعرضوا المماليك و ينزلوا منهم إلى المدينة من كان متصديا لإقامة الفتنة ، فطلبوا الشجاعى(٤) ومقدم المماليك ، و « ... ... »(٥) المقدم المماليك ، وكان للأمراء ونائب السلطان قد طلبوهم ، فلما جاء ثلاثتهم ، وعرفهم بذلك(٦) .

وحلف لهم أنهم ما طلبوكم إلا فى ذلك ، وما عليكم تشويش ، وعند ذلك نزلوا أولا فأولا ، وعرضوا مقام النائب والأمراء ، وهم ينزلون طائفة منهم « ... ... »(٧) إلى أن صاروا نحو سبعمائة مملوك من الذين يخشى عاقبتهم ، فأنزلوهم إلى المدينة ، وأسكنوا نصفهم فى المناظر المطلة على بركة الفيل ، وهى

(١) [ ] إضافة تتفق مع السياق للتوضيح .

(٢) يوجد بعد ذلك ستة أسطر مطموسة بحيث يصعب متابعة النص .

(٣) « ... ... » موضع ثلاث كلمات غير مقروءة .

(٤) انظر ما سبق عن قتل الشجاعى ، ونزول المماليك من القلعة عقب مقتل الشجاعى ، و يبدو أن الكاتب خلط بين مقتل الشجاعى ، وظهور حسام الدين لاجين وقرا سنقر — انظر ص ٢٣٧ .

(٥) « ... ... » كلمة غير مقروءة .

(٦) يوجد بعد ذلك ثلاثة أسطر معظم كلماتها مطموسة بما يصعب معه متابعة النص .

(٧) « ... ... » كلمتان مطموستان .

التي كانت منزل صاحب حماة إذا حضر إلى مصر ، والنصف الآخر أنزلوهم في دار الوزارة الأيوبية ، مقابل سعيد السعداء والتي سكنها الملوك من بني أيوب ، وكانوا إذا سلطنوا سلطانا ، أو وزّروا وزيرا ، أو أمّروا أميرا يكون من ذلك المكان ، ثم رتبوا لهم رواتب وسائر ما يحتاجون إليه ، ثم رسموا لأمير آخور و « ... ... »(١) مقدم الجوق [٩٥] ورسموا لهم أن لا يشدوا لأحد منهم فرسا إلا بعد المشاورة لنائب السلطان ، فمن خالف ذلك فلا يلومنّ إلّا نفسه .

ذكر الإفراج عن الأمير عز الدين الأفرم :

ومن معه من الأمراء المحبوسين ، وهم : الأمير سيف الدين قفجاق المنصوري ، والأمير بدر الدين عبد الله السلحدار ، والأمير سيف الدين بيليه ، وركن الدين عمر أخ الأمير تمر ، والأمير سيف الدين كرجي ، والأمير سيف الدين طرقجي ، وكانوا كلهم جنسا واحدا من جنس كتبغا وهو جنس المغول ، وكان الشجاعي هو السبب في مسكهم لأنه كان يبغض كتبغا ، وكان هؤلاء يميلون إلى كتبغا لأن الجنسية علة الضم ، وكان الشجاعي متفقا مع المماليك الأشرفية على أن يقبضوا على كتبغا ومماليكه ، وعلى لاجين وقرا سنقر ، ولم يتفق لهم ذلك .

ولما نزل كتبغا عن الموكب عقيب اتفاقهم دخل الشجاعي إلى السلطان وصحبته البرجية وقبض على الأمراء المذكورين ، ثم لما جرى مما ذكرنا على الشجاعي دخل كتبغا والأمراء على السلطان على أن يفرج عن هؤلاء ، وقدم

(١) « ... ... » كلمة غير مقروءة .

يذكر الأفرم ، وقال يا خوند : هــذا الرجل من أكابر الأمراء الصالحية ، وهو خشداش الشهيد الملك المنصور والد مولانا السلطان، وله شهرة بالشجاعة والرأى والتدبير ، فعند ذلك أمر بإخراجه ، فتبادرت الأمراء إلى السجن ، فأخرجوه ومشوا فى خدمته إلى أن خلع عليه السلطان وأكرمه إكراما عظيما ، ثم أخرج بقية الأمراء .

ثم أن كتبغا لمـا عاد إلى مجلس النيابة قبض على الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، وسيف الدين برلغى الأشرفى ، والأمير بورى السلحدار ، واللقمانى ، والأمير مغلطاى المنصورى ، والأمير قرمجى ، وجماعة آخرين ممن كانوا يعلمون أنهم من البرجيه والأشرفية ، فقيــدوهم وسفروهم إلى إسكندرية ، وكان ذلك فى العشر الأخير من صفر من هذه السنة .

ذكر عود القاضى تقى الدين بن بنت الأعز إلى القضاء :

وقد تقدم ذكر عزله ، وما اتفق له بعد ذلك مع الوزير ابن سلعوس ، وكان قد تولى عوضه بدر الدين بن جماعة ، وبقى تقى الدين بطالا ، ولمـا قرب أوان الحج قصد الحجاز وقضى أمره إلى [أن](١) أتى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان قد سبق من مكة بأيام ، وأقام فى الحجرة النبوية ، وقد صنف قصيدة مدح فيها النبى عليه السلام والتزم أن لا ينشدها إلا وهو واقف على باب الحجرة مكشوف الرأس ، وكان ينشدها ويكثر الاستعانة على من ظلمه والتزم أن لا يرجع حتى يسمع بمـا يسره ، ويعلم أن حاجته قــد قضيت ، وهى قصيدة طويلة منهـا قــوله :

(١) [ ] إضافة تتفق مع السياق .

يا أكرمَ الثقلين بَل ياسيِّد الكونين دعـــوة موقن بك مهتـدى
إنى بلغت القـومَ خير وسـيلة يدنُو بها مِنِّيَ مُناى ومَقصدى
إذ جئتُ نحوك زائـرا ومُسلما ووقفتُ وقفـة سائل مسترفد

وهى نحو مائة بيت ، ولم يزل ينشدها ويستغيث إلى أن رأى فى نومه أن حاجته قضيت ؛ فركب مع الركب ، وعند وصوله العقبة حضر من عرَّفه بقتل السلطان الأشرف وابن سلعوس الوزير وتغيير الدولة وسلطنة الملك الناصر ، فلما وصل إلى مصر تكلمت الأمراء مع السلطان [٩٦] فى عوده إلى القضاء، فولاه(١) ونقل بدر الدين بن جماعة إلى ولاية القضاء بدمشق .

قال صاحب النزهة : أخبرنى الشيخ فتح الدين بن سيد الناس أنه يوم تولى كان يوما مشهودا ، وأنه دخل للسلام عليه فسمعه يتمثل بقول الشاعر :

وكانَتْ لنـا جِـيرةٌ صالحـون وجـيرانُ سَـوء لهـا خَلَدوا
أُديرَت على الكل كأسُ المنُون فمـات الصَديقُ ومات العدو

ذكر تولية الوزير تاج الدين بن حنا :

وفى صفر بعـد موت الوزير ابن سلعوس اقتضى رأى الأمراء مع السلطان على وزير يدبر الدولة بعد الشجاعى ، فاتفق رأيهـم على الصاحب تاج الدين بن حنا ، فطلب إلى مجلس السلطان وسألته الأمراء ، فتمنع ، فـلم يقبلوا تمنعـه ، وخلع عليه و باشر الوزارة .

(١) « فى تاسع عشر صفر » — السلوك جـ ١ ص ٧٩٨ .

وولى النظر فخر الدين بن الخليلى ، وتاج الدين بن السنهورى .

وعزل علم الدين الصوابى الجاشنكير من ولاية القاهرة ، وتولاها الأمير شمس الدين ابن أمير جندار ، وكان من بيت كبير من أكابر حلب ، يعرف والده بأمير جندار الملك الناصر صاحب حلب ، وحضر إلى مصر ، وكان يلبس لبس الحلبيين الناصرية وعمامة مدورة من غير كلوتاه ، ولغته لغة أهل البلاد ، ولما تولى صار إذا أراد أن يضرب أحدا يقول : شاحوه عوض مروه ، فشاع ذلك بين الناس ، فلقبوه بشاحوه ، وعظمت حرمته بالمدينة ، وظهرت أمانته ، فرسم له بولاية مصر أيضا مضافة لولاية القاهرة .

وفيها : فى أواخر رجب ، حلف الأمراء للأمير كتبغا مع الملك الناصر محمد ابن قلاون[1] ، وسارت البيعة بذلك فى بقية المدن والمعاقل .

وفى شعبان[2] : ركب الملك الناصر فى أُبهة الملك وشق القاهرة ، وكان يوما مشهودا ، وهذا كان أول ركوبه .

وفى شعبان أيضا : اشتهر أن فى الغيطة التى بحرين بدمشق تنينا عظيما ابتلع رأسا من المعز كبيرا صحيحا ، كذا ذكره البرزالى .

وفى شوال : اشتهر أن مهنى خرج عن طاعة الناصر وانحاز إلى التتار .

وفيها : أوقع نوغيه بن ططر بن مغل بن دوشى خان بن جنكزخان الحاكم ببلاد الشمال على كثير من التتار ، وقد ذكرنا تقدمه وتمكنه فى تلك الأقطار

---

(١) « وفى العشرين من رجب حلف نائب دمشق والأمراء بها للسلطان ونائبه وولى عهده الأمير كتبغا ، ودعى له معه فى الخطبة » — السلوك جـ ١ ص ٨٠٣ .

(٢) « فى خامس عشريه (رجب) » فى السلوك جـ ١ ص ٨٠٣ .

بامرأة منكوتمر ملكتهم واسمها ججك خاتون ، وكانت قد تحكمت فى زمن زوجها وفى مملكة تدان منكو الجالس على الكرسى بعده ، وثقلت وطأتها عليهم ، فشكوها إلى نوغيه ، فأمر بأن تخنق فخنقت ، وقتل معهما أمير كان يلوذ بها وينفذ أوامرها اسمه بيطرا[1] .

وفيها : توقف النيل توقفا كثيرا ، ثم انتهت زيادته إلى خمسة عشر ذراعا وثمان أصابع ، فارتفعت بسبب ذلك الأسعار .

وقال صاحب نزهة الناظر : ولم يتعد الأردب عن أربعين درهما .

وقال أيضا : وذكرت جماعة كثيرة أن النيل كسر من غير وفاء ، ثم ذكر لى ابن أبى الرداد أنه بلغ الوفاء قبل كسره .

وفيها : حج بالناس الأمير عز الدين أيبك الخزندار ، رحمه الله .

---

(١) « بن طرا » فى زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٨٧ أ .

ذكر من تُوفى فيها من الأعيان

الشيخ الإمام تاج الدين موسى[(1)] بن محمد بن مسعود المراغى ، المعروف بابن الحيوان[(2)] الشافعى .

توفى لجأة يوم السبت ، ودفن بمقابر باب الصغير ، وقد جاوز السبعين ، درس بالإقبالية[(3)] وغيرها ، وكان من الفضلاء ، له يد طولى فى الفقه والأصول والنحو ، وكان له فهم جيد قوى .

قاضى القضاة شهاب الدين أبو عبد الله [٩٧] محمد[(4)] بن قاضى القضاة شمس الدين أبى العباس أحمد بن خليل بن سعادة بن جعفر بن عيسى بن محمد الشافعى الخوى .

أصلهم من خُوَىّ — بضم الخاء المعجمة وفتح الواو وتشديد الياء آخر الحروف — وهى بلد كبير مشهور بأذربيجان ، توفى يوم الخميس الخامس عشر من رمضان منها عن سبع وستين سنة ، ودفن بتربة والده بسفح قاسيون ، ومولده فى شوال[(5)] سنة ست وعشرين وستمائة ، اشتغل وحصل علوما كثيرة ، وصنف

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٣٦ .

(٢) « المعروف بأبى الجواب الشافعى » فى البداية والنهاية ، « ابن الجواب » — الدارس جـ ١ ص ١٦١ .

(٣) هى المدرسة الإقبالية الكبيرة الشافعية بدمشق : أنشأها إقبال الخادم جمال الدولة ، أحد خدام صلاح الدين الأيوبى ، والمتوفى سنة ٦٠٣هـ/١٢٠٥م — الدارس جـ ١ ص ١٥٨ وما بعدها .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك : ص ١٢٠ ، الوافى ، جـ ٢ ص ١٣٧ رقم ٤٨٧ ، فوات الوفيات جـ ٣ ص ٣١٣ رقم ٤٣٤ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٣٧ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٨٩ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٢٣ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ٦ رقم ٤ ، العبر جـ ٥ ص ٣٧٩ ، السلوك جـ ١ ص ٨٠٤ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٧٠ .

(٥) « رابع عشرى شوال » فى تاريخ ابن الفرات .

كتبا جمة منهـا كتاب فيه عشرون فنا ، وله نظم علوم الحـديث ، وكتاب التحفظ وغير ذلك ، سمـع الحديث الكثير ، وكان محبا له ولأهله ، وقد درس وهو صغير ، ثم ولى قضاء القدس ، ثم ولى قضاء حلب ، ثم ولى قضاء القاهرة ، ثم قدم على قضاء الشام مع تدريس العادلية والغزالية وغيرهما ، وقد خرج له الحافظ المـزى أربعين حديثا مثلثا فيه الإسناد ، وخرج له تقى الدين عبـد الله الأسعردى مشيخة على حروف المعجم اشتملت على مائتين وستة وثلاثين شيخا .

قال البرزالىّ : وله نحو ثلاثمـائة شيخ لم يذكروا فى هذا المعجم .

وله نظم حسن ، فمنه قوله :

بلطفك ممـا خفتُه اليومَ أَستكفى ... فلا تقطع الألطاف يادائم اللُطف

وحط بى من كل الجهات بعصمة ... لمـا حل من داء المخافة بى يشفى

يمينى ومن فوقى وتحتى ويُسْرتى ... ولا تُخلنى منهـا أمامى ولا خلفى

أُريدُ أمُـدّ الكفّ للخـير سَائلا ... فتأبى ذنُوبى أن أمُـدّ له كفىّ

وكيف يُناجى العَبد سـيده وقد ... تظاهر بالعصيان دهرا وبالخُلف

مضى ما مضى والآن مالى حيـلة ... سوى قصده والدمع مُسترسل الوكِف

أَأَدُق عليـك البابَ فى الليل واثقا ... بأن العظيم الحليم يسمَحُ بالعَطف

سألتُ وظنى فيـك أن لا تَرُدنى ... وإحسان ظنى فيك لى شافع يكفى

بوَصفِـك عاملـنى فإنك مُحْسن ... كريمٌ ولا تجعل جزائى على وصفى

الشيخ الأصيل الكاتب فخر الدين محمد[1] بن بهاء الدين محمد المعروف بابن التيتى[2].

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك : ص ١٢٢ ، الوافى جـ ١ ص ٢٠٥ رقم ١٣٠ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٢٤ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٧٢ ، العبر جـ ٥ ص ٣٨٠ .

(٢) « ابن التيتى » فى مصادر الترجمة ما عدا شذرات الذهب إذ ورد فيه « ابن النيتى » .

مات بالمدرسة الخاروخية ودفن بمقابر الصوفية وكان يكتب على طريقة ابن البواب .

الشيخ العارف محمد[(١)] بن الشيخ الكبير عبد الله بن الشيخ القدوة غانم النابلسى .

مات فى هذه السنة ، وكان صالحا متورعا ، كثير التلاوة ، وزاويته مأوى لكل من تقدم إلى نابلس ، وكان الوارد عليه كثيرا ، وأهل تلك البلاد كانوا يعتقدون فيه ، ومجمعين على صلاحه .

الشيخ الإمام ركن الدين يونس[(٢)] بن على بن مرتفع بن أتكين المصرى ، ثم الدمشقى الصالحى .

مات فى هذه السنة ، ودفن بسفح قاسيون ، وكان مدرس المسرورية[(٣)] وناظرها ، وكان كثير المداخلة لأرباب الدولة ، ويسعى فى قضاء حوائج الناس ، وكان حسن الملتقى ، كثير التواضع .

الشيخ الإمام الفاضل الأديب شمس الدين محمد[(٤)] بن على بن محمد بن الساكن الطوسى الشافعى .

مات فى هذه السنة[(٥)] بالقاهرة فى المارستان المنصورى ، وكان قدم دمشق

(١) وله أيضا ترجمة فى : الوافى جـ ٣ ص ٢٦٩ رقم ١٤٤٥ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : الدارس جـ ١ ص ٤٥٦ .

(٣) المدرسة المسرورية بدمشق ، بباب البريد ، أنشأها الطواشى شمس الدين الخواص مسرور ، من خدام الخلفاء الفاطميين ، وهو صاحب خان مسرور بالقاهرة ، أو أنها تنسب إلى الأمير فخر الدين مسرور الملكى الناصرى العادلى — انظر الدارس جـ ١ ص ٤٥٥ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك : ص ١٢٧ ، السلوك جـ ١ ص ٨١١ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٧٧ .

(٥) ورد ذكر وفاته سنة ٦٩٤ هـ — انظر مصادر الترجمة .

وأقام بها مدة ، ثم سافر إلى الديار المصرية ومات بها ، وكان قد نسخ بخطه كتبا كثيرة فأبيعت ، وكان من الأدباء الفضلاء ، فمن شعره قوله :

ياليلة الوصل بالأحباب لى عُودي فالهجر أحرقنى كالنار فى العُود

[٩٨]

وقد بقيتُ نحيف الجسم كالعُود أحِنّ شوقا أليهم حِنّة العوُد

وقال :

إلهى تُبْ على وَقَطْ عيبى فقد أوبقتُ نفسى بالمعَاصى
وخلّصنى من الآثام واغفر ذنوبى يوم يُؤخذ بالنواصى (١)

الشيخ الفاضل تقى الدين عبد الله (٢) بن على بن منجد بن ماجد السروجى (٣) .

مات فى هذه السنة بالقاهرة ، ودفن بمقبرة الفخرى ظاهر الحسينية جوار من كان يهواه .

وقال الشيخ أثير الدين أبو حيان : كان رجلا خيرا ، تاليا للقرآن ، وعنده حظ جيد من النحو واللغة والأدب ، متقللا من الدنيا ، غلب عليه حب الجمال مع العفة التامة والصيانة ، نظم كثيرا ، وغنى المغنون بشعره ، وكان مأمون الصحبة ، طاهر اللسان لايكاد يظهر إلا يوم الجمعة ، يصلى بالجامع الأزهر مع أصحابه وينادمهم بعد الصلاة وينشدهم شعره .

(١) انظر تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٧٧ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، الوافى جـ ١٧ ص ٣٤١ رقم ٢٩٤ ، فوات الوفيات جـ ٢ ص ١٩٦ رقم ٢٢٠ ، السلوك جـ ١ ص ٨٠٤ .

(٣) ولد سنة ٦٢٧ هـ بسروج - الوافى جـ ١٧ ص ٣٤٢ .

ومن أشعاره قوله .

دُنيا المحبّ ودينُــه أحبابُه		فإذا جَفوه تقطعت أَسبابُه
وإذا أتاهُم فى المحبّة صادقاً		كُشِفَ الحجابُ له وعزّ جَنابُه
ومتى سَقوه شراب أُنسٍ منهم		رقّت مَعانيه وراقَ شرابُه
وإذا تهتك ما يُلام لأنه		سَكرانُ عشقٍ لا يُفيد عِتابُه
بَعث السلامَ مع النسيم رسالةً		فأتاه فى طىّ النسيم جوابُه
قصد الحمى وأتاه جُهد (١) فى السُرى		حتى بدت أعلامهُ وقبابُه
ورأى لليلى العامرّية منزلا		بالجُود يُعرف والندىَ أصحابُهُ
فيه الأمان لمَنْ يخاف من الردَى		والخير قد ظفرت به طلابُهُ
قد أشرعت بيض الصوارم والقَنا		من حوله فهو المنيع جنابه (٢)
وعلى حماه جَلالةٌ من أَهله		فلذلك طارقة العيون تَهابُهُ
قد أخصبت منه الأباطح والربا		للزائرين وفتّحت أبوابه (٣)

وقال

سألتُكَ وقفةً قدر التشاكى		أبُثّ إليك ما بى من هوَاكِ
ونَظرة مُشفقٍ فى حالِ صبّ		لرحمة حاله تبكى البَواكِى
فتاة الحىّ كيف أبحتِ قتلى		وقد أصبحتُ ضيفاً فى حماك

(١) « بجهد » فى الوافى جـ١٧ ص ٣٤٣ ، وفوات الوفيات .

(٢) « جنابه » فى الوافى ، وفوات الوفيات .

(٣) انظر الوافى جـ١٧ ص ٣٤٣ ، وفوات الوفيات جـ٢ ص ١٩٧ — ١٩٨ .

وقومك سادةٌ عُرْبٌ كِرَامٌ حكى الإحسان عنهم كلُّ حاكي
على وادى الأراك لهم خِيامُ أنار بحسنها وادى الأراك
أطوف بها لعل القلبُ يهدأ من الأشواق أو عيني تراكِ
وأسأل من أبى الأعراب جمعا ليذكر لى محدّثها أباكِ
أيا داراً حوت من أهل نجدٍ غزالاً ليس تقنصه شباكى
سقاك الغيثُ من دارٍ وحيي فكم صَبٍّ بأدمعه سقاكِ
إذا رمدت عيونٌ من بكاها فشافى كحلها شافِى ثراكِ

[٩٩]

الصدر الرئيس جمال الدين إبراهيم بن الصدر الرئيس شرف الدين عبد الرحمن ابن الحافظ العدل أمين الدين سالم بن الحسن بن هبة الله بن صَصْرى التغلبي ، ناظر دمشق .

مات فى هذه السنة ، ودفن بتربتهم بقاسيون ، رحمه الله .

الأمير علاء الدين طيبرس(١) الركنى الضرير ، الناظر فى أوقاف حرم القدس الشريف ومنشئ العمارات والرُبُط به و بالخليل عليه السلام .

مات فى هذه السنة بالقدس الشريف ، كان من أحسن الناس سيرة وأجودهم طريقة ، حسن التصرف ، كان الله نور قلبه بالإيمان و إن كان أذهب بصره ، رحمه الله .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٣٧ .

الأمير علاء الدين أيدغدي[(١)] بن عبد الله الصالحي النجمي .

توفي في شوال منها ، كان من أكابر الأمراء ، فلما أضر أقام بالقدس الشريف وولى نظره ، فعمره وثمره ، وكان مهيبا لا تخالف مراسيمه ، وهو الذي بنى المطهرة قريبا من المسجد النبوي فانتفع الناس بها في الوضوء ، وأنشأ بالقدس ربطا كثيرة وآثارا حسنة ، وكان يباشر الأمور بنفسه ، وله حرمة وافرة .

الأمير بدر الدين بكتوت[(٢)] العلائي من أكابر أمراء الدولة المنصورية .

وعظم أمره في أول الدولة الناصرية محمد بن قلاون ، وكان ينتمي إلى السلطان الأشرف في أيام الملك المنصور ويخدم الأشرف دون أخيه الملك الصالح ، وكبره الأشرف عند سلطنته ، وكان يجلس فوق أكابر الأمراء مع كتبغا ، والتفت عليه جماعة من المماليك الأشرفية ، وكان قد أصابه مرض في رجله ، وكان إذا طلع القلعة يدخل من باب القلعة راكبا إلى دار النيابة ، وذكر أن كتبغا خشي عاقبة أمره من قرب الأشرفية إليه ، وأنه اتفق مع حمدان بن صلْغيه ، فصنع طعاما وأحضر العلائي وقعد حمدان يقطع به اللحم بسيخ مسموم فأطعمه ، وقيل : بل سقاه في مشروب فأقام بعد ذلك أربعة أيام ومات[(٣)] .

---

(١) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي جـ ٣ ص ١٦٣ رقم ٥٩٦ ، الوافي جـ ٩ ص ٤٨٥ رقم ٤٤٤٨ ، زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٨٧ أ ، نكت الهميان ص ١٢٣ ، السلوك جـ ١ ص ٨٠٠ ، البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٣٣٧ .

(٢) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي جـ ٣ ص ٤١١ رقم ٦٨٧ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٨٨ ، الوافي جـ ١٠ ص ٢٠٠ رقم ٤٦٨٥ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٢٤ .

(٣) « في يوم الخميس منتصف جمادى الآخرة » في تاريخ ابن الفرات .

السلطان الملك المظفر قرا أرسلان[1] بن الملك السعيد إيلغازى بن البى بن تمرتاش ابن إيل غازى بن أرتق ، صاحب ماردين .

مات فى هذه السنة ، وتولى بعده ولده الملك السعيد إيل غازى ، وكان قرا أرسلان جوادا ، سمحا ، عادلا ، دينا ، سيرته جميلة ، وأفعاله حميدة ، قليل الظلم ، كثير الإحسان .

الملك الحافظ غياث الدين محمد[2] بن الملك السعيد معين الدين شاهنشاه بن الملك الأمجد بهرام شاه بن المعز عز الدين فروخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب .

مات فيها[3] ، ودفن يوم الجمعة السادس من شعبان عند جده لأمه ابن المقدم[4] ظاهر باب الفراديس ، وكان فاضلا بارعا ، سمع الحديث ، وروى البخارى ، ويحب العلماء والفقراء .

الصاحب فخر الدين أبو إسحاق إبراهيم[5] بن لقمان بن أحمد بن محمد الشيبانى الأسعردى ، رئيس الموقعين بالديار المصرية .

---

(١) سبق أن ذكر المؤلف ترجمته فى وفيات سنة ٦٩١ هـ — أنظر ما سبق .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٩ ورقة ٨٠ ، الوافى جـ ٣ ص ١٤٧ رقم ١٠٩٧ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٢٤ ، مرآة الجنان جـ ٤ ص ٢٢٢ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٨٩ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٧٢ .

(٣) ورد أنه توفى سنة ٦٨٣ هـ — الوافى .

(٤) هو إبراهيم بن محمد بن عبد الملك ، فخر الدين بن المقدم ، المتوفى سنة ٥٩٧ هـ/١٢٠٠ م — الدارس جـ ١ ص ٥٩٩ .

(٥) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ١ ص ١٣٦ رقم ٦٣ ، درة الأسلاك ص ١٢١ ، نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٩ ورقة ٨٠ ، الوافى جـ ٦ ص ٩٧ رقم ٢٥٢٣ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٨٦ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٧٢ ، فوات الوفيات جـ ١ ص ٤٣ رقم ١٤ ، السلوك جـ ١ ص ٨٠٤ ، حسن المحاضرة جـ ٢ ص ٢٣٣ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٥٠ .

توفى فى جمادى الأولى منها ودفن بالقرافة ، وكان مولده سنة إثنتى عشرة وستمائة ، ولى الوزارة مرتين للملك المنصور قلاوون ، وتولى وزارة الصحبة للملك السعيد ، وكان فى جميع ولاياته : حسن السيرة ، محمود الطريقة ، قليل الظلم ، كثير الإحسان إلى الناس ، وكان يتولى الوزارة بجامكية[1] الإنشاء ، وعندما يعزل من الوزارة يأخذ دواته ويدخل إلى ديوان الإنشاء ، كأنه ما جرى عليه شيء .

وكان أصله من بلاد إسعرد[2] من المعدن[3] ، ولما فتح الكامل بن العادل آمد[4] كان ابن لقمان بها يكتب على عرصة القمح ، وكان البهاء زهير[5] رأس الموقعين ووزير الصحبة للكامل ، وكانوا يستدعون من إسعرد حوائج ، فتحضر الرسالة بخط ابن لقمان فيعرضونها على بهاء الدين زهير فيعجبه خطه ، [١٠٠] فطلبه إليه ، ولما حضر بين يديه سأله عن حاله وعن جامكيته فقال : دون الدينارين . فقال له : تسافر معى حتى أستنيبك ، فقال : ومن لى بهذا الحال ، فاستصحبه معه وناب عنه فى ديوان المكاتبات إلى دولة الملك الصالح[6] ، ثم استقل بمفرده .

---

(١) الجامكية : كلمة فارسية تعنى الراتب المربوط لشهر أو أكثر .

(٢) إسعرد : بلدة بالقرب من شرق دجلة بالقرب من ميافارقين — تقويم البلدان ص ٢٨٨ .

(٣) « من المعدن » فى المنهل الصافى ، وتاريخ ابن الفرات ، والوافى .

(٤) استولى الملك الكامل محمد بن أبى بكر بن أيوب على آمد سنة ٦٢٩ هـ / ١٢٣١ م — مفرج الكروب جـ ٥ ص ١٧ .

(٥) هو زهير بن محمد بن على بن يحيى ، الشاعر المتوفى سنة ٦٠٦ هـ/١٢٠٨ م — المنهل الصافى .

(٦) دولة السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى ولى حكم مصر سنة ٦٣٧ هـ/١٢٤٠ م ، وحتى وفاته سنة ٦٤٧ هـ/١٢٤٩ م — شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢٣٧ ، وانظر للمحقق : السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب — رسالة ماجستير بجامعة القاهرة .

وله ترسل كثير من إنشائه ونظم ورواية .

ومن شعره فى غلام له (١) ، وكان يحبه ويتغالى فيه :

لووَشَى فيه مَن وَشَى ما تَسلَّيتُ فُلْمشا
أنا قد بُحتُ باسمه يفعل اللهُ ما يَشا

وله فيه أشعار كثيرة ، وله أيضا :

كُن كيفَ شئت فإننى بك مُغْرَمُ راضٍ بما فعلَ الهوَى المُتحكمُ
ولئن كتمتُ عن الوُشاة صَبابتى بك بالجوانح فالهَوى يتكلَّم (٢)
أشتاق من أَهوى وأعجبُ أننى أشتاق مَن هو فى الفؤاد مخيم
يا مَن يَصُدّ عن المحبّ تدللا وإذا بكى وَجْدا غدا يتبسّم
أسكنتُكَ القلبَ الذى أحرقته فحذار من ناربه تتضرمُ

الخاتون الكبيرة المعمّرة مؤنسة خاتون (٣) بنت الملك العادل سيف الدين أبى بكر ابن أيوب .

---

(١) « فى مليح اسمه فلمش » — المنهل الصافى .

(٢) « فالجوانح بالهوى تتكلم » فى النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١ ه ، والمنهل الصافى ، والوافى ، وفوات الوفيات .

(٣) ولها أيضا ترجمة فى ، المنهل الصافى ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٣٧ ؛ المواعظ الاعتبار جـ ٢ ص ٣٦٨ .

توفيت بالقاهرة ودفنت بالقرافة الصغرى ، وكانت تعرف بالدار القطبية وبدار إقبال ، وهى أخت الأمير قطب الدين[1] وهى التى أطلق عليها اسم دار القطبية ، وكانت دارها المارستان المنصورى ، اشتروها منها[2] على كره وأخربوها[3] ، وعمروها ، وتركوا القاعة بحالها ، واتفق لها مع السلطان الملك المنصور ، لما سير الشجاعى إليها ليشترى الدار المذكورة ، لأجل عمل المارستان والتربة ، ونزل الشجاعى فلم تلتفت إلى نزوله وردته ردا جميلا ، ثم سير السلطان الطواشى حسام الدين وعرفها أن السلطان يقصد أن يعمر هذه الدار مارستانا ويقف عليه أوقافا ، فقالت : شىء يكون لنا فيه أجر ففيه السمع والطاعة ، وأما لأجل السكن فنحن أحق بالسكنى من غيرنا .

وكانت ذات عقل وأدب وفطنة ، وروت بالإجازة عن عفيفة الفارقانية[4] ، وعن الشمس[5] بنت أحمد بن أبى الفرج ، وأوقفت قبل وفاتها أوقافا كثيرة على أهلها وقرابتها ، وعلى الفقراء والمساكين ، وخلفت بالقصر آثارا حسنة من الزجاج وغيرها مما فيه نفع بنقوش وطلسمات وآيات من الكتاب العزيز ، من الأشياء

(١) هو أحمد بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب — المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٤٠٦ .

(٢) « منه » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق .

(٣) « وعوضت عن ذلك قصر الزمرد برحبة باب العيد فى ثامن عشرى ربيع الأول سنة اثنتين وثمانين وستمائة » — المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٤٠٦ .

(٤) هى عفيفة بنت أحمد بن عبدالله بن محمد ، أم هانىء الفارفانية الأصبهانية ، نسبة إلى فارفان : قرية من قرى أصبهان ، والمتوفاة سنة ٦٠٦هـ/١٢٠٩م — العبر جـ ٥ ص ١٧ .

(٥) هى عين الشمس بنت أحمد بن أبى الفرج الثقفية الأصبهانية ، المتوفاة سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م — العبر جـ ٥ ص ٣٦ .

النافعة للدغ الحيـة والعقرب وعضّ الكَلْب الكَلِب والقولنج ومغل الخيـل ، وكُتب لهـا إجازة بحديث النبي عليه السلام ، وخلفت مالا جزيـلا ، وأوصت أن يعمل لهـا مدرسة بجميع ما تحتاج إليـه من الفقهاء والقـراء ، وهى إلى الآن باقيـة تعرف بالمدرسة القطبية[1] ، ولدت سـنة ثلاث وستمائة .

(١) المدرسة القطبية بالقاهرة : فى أول حارة زويلة برحبة كوكاى ، وفيها درس الشافعية ودرس الحنفية ، وقراء — المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٦٨ .

فصل فيما وقع من الحوادث

في السنة الرابعة والتسعين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة ، والخليفة : الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد العباسي .

وسلطان البلاد : الملك الناصر محمد بن قلاون ، وهو ابن اثنتي عشرة سنة (١) وشهور .

ومدبر المماليك وأتابك العساكر : زين الدين كتبغا .

ونائب الشام : الأمير عز الدين أيبك الحموي . ونائب حلب « (٢) » .

وصاحب حماة : الملك المظفر تقي الدين .

وصاحب ماردين : الملك السعيد .

وصاحب مكة : نجم الدين [١٠١] أبو نمي الحسني .

(*) يوافق أولها الأحد ٢١ نوفمبر ١٢٩٤ م .

(١) سبق أن ذكر المؤلف أن الناصر محمد جلس في السلطنة في ١٦ محرم سنة ٦٩٣ هـ « وكان عمره إذ ذاك ثمان سنين وشهورا » . انظر ما سبق .

(٢) « » بياض في الأصل .

وكان نائب حلب في ذلك الوقت هو : بلبان بن عبد الله الطباخي المنصوري ، الأمير سيف الدين ، الذي باشر نيابة حلب سنة ٦٩١ هـ ، وطالت مدته بها — انظر المنهل جـ ٣ ص ٤٢٢ رقم ٦٩٩ ، وانظر ما يلي في مستهل حوادث سنة ٦٩٥ هـ ص ٢٩٩ .

وصاحب المدينة : عز الدين بن شيحة ، وكان بينه وبين أبى نمى معاندة، وانفقت لهم وقائع كثيرة ، وقتل من بنى حسن ومن بنى حسين جماعة كثيرة .

وصاحب المغول : بيدو بن هلاون .

ذكر ركوب المماليك من دار الوزارة وخروجهم على كتبغا :

وكان السبب لذلك ما ذكرنا من اتفاق الأمراء مع كتبغا على إنزالهم إلى دار الوزارة ومناظر الكبش ، ومنعهم إياهم من الركوب[1]، وكانوا حملوا من ذلك حقدا كبيرا ، وصاروا لا يهنأ لهم عيش ، وخصوصا كان الخدام الذين يحكمون عليهم يمنعونهم عن الخروج والاجتماع بالناس ، ورأوا أنفسهم فى ذلة ومسكنة ، فصار منهم من يعرق نفسه ويأتى من دار الوزارة فى الليل إلى ناحية الكبش ، ومنهم من يأتى من الكبش إلى دار الوزارة، وما زالوا على[2] ذلك حتى قويت نفوسهم، وأرادوا ركوب الخيل لأجل الحركة ، فعزموا على ذلك، على أنهم إما أن يظهروا ويظفروا ببلوغ المنى، وإما أن يموتوا على خيولهم . ولكن ليس عندهم خيل ولا سلاح ، ثم تراسلوا واتفقوا على أن يخرجوا على ميعاد واحد ويهجموا على الإصطبلات التى بالمدينة وعلى سوق السلاح ، ومهما قدروا على ذلك يأخذونه وينهبونه ، ثم يكون اجتماعهم فى سوق الخيل، ويعينهم على ذلك خشداشيتهم الذين

---

(١) انظر ما سبق ص ، ص ٢٣٧ ، ص ٢٤١ .

(٢) « من » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

بالقلعة ، ولما وقع اتفاقهم على ذلك خرجوا فى الثلث الأول من الليلة الثالثة عشر من محرم هذه السنة[(١)] على حمية من دار الوزارة ، وكبسوا كل إصطبل وجدوه قريبا منهم ، سواء كانت لجندى أو مقدم أو أمير أو قاض أو عامى ، فما مضى ساعة من الليل حتى ركب أكثرهم وبعضهم مشاة ، فجاءوا إلى سوق السلاح وكسروا أبواب الدكاكين وأخذوا منها سلاحا وعُددا على قدر كفايتهم ، ووقع الضياح فى المدينة ورأت الناس منهم ما أعجزهم ، فبلغ الخبر إلى الوالى والحاجب وأصحاب الحرس ، فأخذوا فى الاحتراز منهم ، ثم أنهم توجهوا الى باب السعادة[(٢)] فأحرقوا أقفالها وكسروها ، وخرجوا وذهبوا إلى سوق الخيل ، وكان جميعهم على ميعاد واحد فى الركوب والاجتماع فى سوق الخيل ، وكبسوا أيضا على إصطبل الجوق وركبوا كل خيل فيها ، ثم اجتمعوا ووقفوا عند الإصطبل .

وفى تاريخ ابن كثير وغيره : لما كان يوم عاشوراء نهض جماعة من مماليك الأشرف ، « وكبيرهم اثنان كتبغا وساطلمش[(٣)] » ، وخرقوا حرمة السلطان وأرادوا الخروج [عليه][(٤)] ، وجاءوا إلى سوق السلاح ، فأخذوا ما فيه[(٥)] ، واحتاطوا على ما فى الإصطبلات من الخيل ، وهجموا خزانة البنود ، وأخرجوا من كان مسجونا بها من خشداشيتهم ، واجتمعوا وذهبوا إلى سوق الخيل[(٦)] .

---

(١) « وفى ليلة الأربعاء حادى عشره » فى السلوك جـ ١ ص ٨٠٥ .

(٢) باب سعادة : أحد أبواب القاهرة ، ينسب إلى سعادة بن حيان غلام الخليفة المعز لدين الله الفاطمى — المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٣٨٣ .

(٣) « » ساقط من البداية والنهاية (المطبوع) جـ ١٣ ص ٣٣٨ .

(٤) [ ] إضافة من البداية والنهاية ع

(٥) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٣٨ .

(٦) انظر أيضا تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٩ ، التحفة الملوكية ص ١٤٣ .

وقال بيبرس فى تاريخه : لما كان ذات ليلة من الليالى ، نهض الذين فى الكبش والميدان وركبوا ودخلوا إلى المدينة ، واستدعوا من كان فى دار الوزارة فلم يجيبوهم إلى ما قصدوا ولا وافقوهم فيما اعتمدوا ، وهم سيف الدين يرلطاى وخوشداشيته ، وهجموا خزانة البنود وأخرجوا من كان مسجونا [بها](١) من خوشداشيتهم ، ونهبوا من الإصطبلات ما أمكنهم ، وبينما هم على ذلك إذ تبلج الصباح وبدا الضوء ولاح ، فركب الأمراء الذين فى القلعة ومن عندهم من المماليك وقصدوهم فتصافوا تحت القلعة(٢) .

[١٠٢] ذكر ركوب الأمراء والحاجب والوالى :

قال صاحب النزهة : لما وقع الصوت فى المدينة خرجت أصحاب الدكاكين وركب الوالى وأتى إلى باب الحاجب فأيقظه ، فقام وركب ، وبلغ الخبر إلى كتبغا ، فجلس فى الشباك ، وطلب قراسنقر ولاجين وبقية الأمراء ، وقصد النزول إليهم فمنعوه ، واتفق رأيهم على أن يعرفوا أصحاب النوبة الذين خارج باب القلعة فيروحون ويركبون الحاج بهادر والحاجب ومن من الأمراء ويأتى بهم إليهم ، فإذا رأوه قد وصل بهم إليهم فتحوا باب القلعة ونزلوا هم أيضا ، فوصل إلى الحاج بهادر من يعرفه الخبر ، فساق من باب زويلة إلى أن وصل إلى سوق الخيل وضربت طبلخانات الأمراء وفتحوا باب القلعة ونزلت الأمراء الذين هناك مع المماليك السلطانية ، فحملوا عليهم وهم فى سوق الخيل حملة صادقة ، ولما رأى هؤلاء تلك الحملة مع كثرة الجموع خافوا ولم يثبتوا ، بل انهزموا هزيمة فاضحة ،

---

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٢) انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٨٧ ب .

ولم يلتفت منهم أحد ، وتفرقوا فى سائر الطرقات فرقة فرقة ، فمنهم من طلب نحو بركة الحبش ، ومنهـم من طلب الترب ، ومنهـم من طلب نحـو باب النصر والحسينية ، ومنهم من طلب نحو الصليبة وجامع [ابن](١) طولون وغيرها ، وراحت الأمراء والأجناد خلفهم ، ثم عادت الأمراء وطلعوا القلعة ، وجلس الأمـير سلاح والبيسرى وأكابر الأمراء مع كتبغا ، وكتبغا من حنقه وغيظه لا يدرى ما يقـول .

ووقع الصوت فى القلعة من الحرافيش ، فحضروا ومعهم مملوكان أو ثلاثة وقد عروهم وأتوا بهـم إلى الشباك ، ومماليك كتبغا مابسون واقفون ، وما يقـع نظر واحد منهم على مملوك يحضره الجند أو العوام إلا وقـد هبروه بالسيوف قطعا قطعا ومنهم من بيده دبوس يضرب الرجل منهم على رأسه فيقع ميتا لوقته .

فلما رأى الأمراء ذلك أنكروه ، وصاح أمـير سـلاح والبيسرى وطرطش على ممـاليك كتبغا صياحا منكرا ، وقالوا لكتبغا : ما هذا العمل ؟ أنت تعمل هذا ونحن قعود ، فرأى كتبغا منهم الحنق ، فقال يا أمراء : أنا أى شى عملت حتى يفعـلوا فى حق هـذا الفعال . فقال له طرطش : يا أمـير إن السلطان الملك المنصور اشتراك واشتراهم لينفعوا الإسلام والمسلمين ، ويردوا العـدو ، ويجاهدوا فى سبيل الله ، ويذبوا عن المسلمين ، وأنت ما تفكر إلا فى مصلحة نفسك ، فإذا حضر عدو من أعداء المسلمين أنت تلقاهم وحدك .

فلما رأى كتبغا قيام الأمراء عليه منع ممـاليكه ، واتفق الحال على أن هؤلاء يحبسون ، ويؤدبون بالقيد والحبس ، ويفرقون فى الحبوس ، فبقوا(٢) نحو خمسة أيام

(١) [ ] إضافة يقتضيها السياق .

(٢) « فبقيوا » فى الأصل .

والناس تحضرون منهـم طائفة بعد طائفـة من سائر الأماكن ، وكل من يحضر يقيد إلى أن يحصل منهم نحو أربعمائة مملوك .

واستقر الحال على أن يسجنوا بعد ذلك فى سجن إسكندرية وبرج دمياط .

وكانوا قـد أخرجوا منهـم جماعة من سجن القلعة وهم الأشرار الذين أقاموا هذه الفتنة ، وقصدوا قطع أيدى بعضهم وتوسيط بعضهم ، فشرعوا فى ذلك فالحقوا أن يفعلوا ذلك بنفرين أو ثلاثة حتى انقلبت الأبراج التى فى القلعة بالصياح والزهج والعويل ، وخرجت جماعة من المماليك من الأبراج مستصرخة بالسلطان [١٠٣] والأمراء ، فسمع بذلك كتبغا فلبس فى الحـال ، ولبس مماليكه « .. ... »[1] الطواشى المقـدم وحسام الدين الأسـتاذ دار ، والتقوهم بالصدود ومنعوهم من ذلك فلم يرجعوا ، ثم إنهم دخلوا إلى السلطان ، وبكوا ، وقالوا : أنت تكون أستاذنا وتعيش ، ونحن نقتل فداك ، ثم قالوا ؟ إعطنا دستورا حتى نموت بسيوفنا ، ولا نقتل بسيوف غـيرنا ، فبكى السلطان وتوجع ، فاجتمعت الخاصكية ورؤوس الأطباق « ... ... »[2] فبلـغ ذلك كتبغا ، فطلب الحاج بهادر والحسام الأسـتاذ دار وحسام الدين « ... ... »[3] وشرع يتـلافى الأمر خشية الفتنة وسألهم أن يدخلوا إلى السلطان ويعرفوه أنهم ماركبوا عليه إلا وقد قصدوا قتـله والفتنة بين المسلمين ، فدخلوا على السلطان وعرفوه بذلك ، وأن الحال قـد سكنت فما بقى أحد يوصل إليهـم أذى ، وضمـنوا ذلك إلى أن

(١) « ... ... » كلمتان مطموستان .

(٢) « ... ... » ثلاث كلمات مطموسة .

(٣) « ... ... » ثلاث كلمات مطموسة .

أخمدوا هذه الفتنة، وبلغ كل واحد من مماليك السلطان إلى مكانه ، ثم أنكرت الأمراء على المقدمين أن وافقوا هؤلاء حتى نزلوا من الأبراج ، وكانوا قد عزلوا من المماليك الراكبين ستين مملوكا من أشرارهم على أن يتلفوهم ، فجرى أمر الله تعالى على ست نفر منهم « ... ... »[1]، والباقي سجنوا بخزانة البنود مقيدين، وانفصل الأمر على هذا .

ودخل كتبغا إلى خدمة السلطان ، وأرسلت إليه والدة السلطان تقول له أن يعفو عن مماليك السلطان وأنهم خشداشية متى فعلت بهم هذا الأمر يكون كل يومين وثلاثة فتنة وفساد حال و إتلاف أنفس ، فاشتهي أن تتركوني أنا وولدي نروح إلى الكرك فنقعد هناك ، فأربي ولدي إلى[2] أن أموت أنا، أو يموت هو ، ونستريح من هذه الفتن التي تحدث كل ساعة .

فلما بلّغ الطواشي هذا الكلام لكتبغا بكى وشكا مما يجده من الضرر منهم ، ومن الركوب عليه كل وقت ، وأما السلطان فإنه أستاذي وابن أستاذي ، وما عندي أعز منه أحد ، إنما أشتهي أن يخرجني من مصر فإن هؤلاء يعملون على قتلي ، وشكا من هذا الباب شكاية كثيرة ، ثم إن الحال سكنت على السكوت وإخماد الفتن .

وبقي كتبغا يدخل إلى الخدمة ، ولكنه محترس على نفسه ، وكذلك مماليكه .

---

(١) « ... ... » خمس كلمات مطموسة .

(٢) « إلى » مكررة في الأصل .

وفى تاريخ ابن كثير : لما ركب المماليك الذين فى القلعة ، تصافوا تحت القلعة ، ثم أدركهم سيف الدين بهادر الحاج السلحدار ، وهو يومئذ أمير حاجب [وركب معه جماعة بالعدد والسلاح][1] ، فأدركوهم واحتاطوا عليهم ، فمنهم من صلب ، ومنهم من شنق ، وقطع أيدى آخرين منهم ، وألسنتهم ، وكانوا قريبا من ثلاثمائة أو يزيدون ، وكان هذا سببا لحركة زين الدين كتبغا ، وركوبه إلى السلطنة التى لم يتم له أمرها[2] .

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة للتوضيح .

(٢) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٣٨ حيث توجد بعض عبارات هذه الفقرة ، وانظر أيضا زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٨٧ ب ، ١٨٨ أ ؛ التحفة الملوكية ص ١٤٣ ، حيث نقل العينى بعض العبارات أيضا .

سلطنة زين الدين كتبغا المنصورى

قال بيبرس فى تاريخه : حسّن الشيطان بآراء من حول المشار إليه من المماليك والصبيان أن يستبد بالسلطنة ، ويستقل بالمملكة ، فحملوه على ذلك ، وألجاوه إلى أن وافقهم على رأيهم ، وجلس فى السلطنة وتسمى بالعادل[1] .

وفى نزهة الناظر : كان كتبغا يدخل إلى الخدمة وهو يحترس ، وكذلك لاجين وقراسنقر ، فاتفق فى بعض الأيام أن دخل كتبغا ولاجين قدامه وقراسنقر معه ، وكتبغا قد كلم لاجين بكلام فضحك منه وبعض المماليك ، فنظره مع جماعة من طاق مطلة [١٠٤] على الدهليز الذى منه دخلوا « ... ... »[2] : أى والله يا أشقر يحق لك أن تضحك ، قتلت أستاذنا بسيفك ، ثم تضحك « ... ... »[3] فسمعه لاجين وكتبغا ومن كان قريبا منهما .

فنظر كتبغا إلى لاجين وقراسنقر ، وكتموا ما سمعوا منه ، وبقى فى نفوسهم إلى أن خرجوا من القلعة .

ولما « ... ... »[4] قراسنقر ولاجين عند كتبغا ، وقالوا : يا أمير تحقق أننا وأنت مقتولون مع هؤلاء المماليك لا محالة ، وخصوصا قد أركن

(١) « وذلك يوم الأربعاء تاسع المحرم من هذه السنة » . انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٨١ أ ، التحفة الملوكية ص ١٤٤ .

(٢) « ... ... » أربع كلمات مطموسة .

(٣) « ... ... » كلمتان مطموستان .

(٤) « ... ... » ثلاث كلمات مطموسة .

إليهم السلطان ، والخاصكية ، وما هم عمى يعملون ، وقد فعلنا مع خشداشيتهم كل سوء ، وأنت قتلت كبيرهم ، وحبست أمراءهم ، وعملت معهم كل قبيح حتى سمعت اليوم ما قالوه لنا ، ويكفى « ... ... »[1] هذا القول أن يتبعه فعل فى حقنا ، خصوصا بعد دخولنا الخدمة أو خروجنا ، وهـذا أمر يطول شرحه ، أما آن نقوم لبيعتك وتنصب فى المـلك وتؤمر جماعة من مماليكك وحاشيتك .

فطلبوا الأزرق وبخاص وتكلموا فى ذلك ، فما منهم إلا وقد حسّن له هذا ووافقهم عليه .

وانفصل مجلسهم على أن يبذل الذهب والفضة للأمراء والأكابر، ويستميلهم إليه ، فشرع فى ذلك ، وأرسل لكل مقدم ألف دينار ، ولبعضهم ألفى دينار ، ولمـا أرسل إلى « ... ... »[2] وهى ألفى دينار، قال لمملوكه هذه من أجل إيش ، فقال : ياخوند هدية من ممـلوكك وولدك فتمتم وقال : لايكون يريد السلطنة ، قال له : ياخوند نعوذ بالله .

فأقام أياما وهو يستجلب خواطر الأمراء الأكابر ، ثم الأمراء الخاصكية والأمراء الجوانية ، وهو مع ذلك وحاشيته يحترسون على نفوسهم .

ثم اجتمع بأكابر الأمراء وشرع معهم فى « ... .. »[3] بأمر المماليك ، وما سمعه منهـم وما يبلغه عنهم ، وشكا شكايات كثيرة ، ووقع الاتفاق بينهم على أن

(١) « ... ... » كلمة غير مقروءة .

(٢) « ... ... » كلمة غير مقروءة .

(٣) « ... ... » كلمة غير مقروءة .

هؤلاء جماعة كثيرة فلا يمكن إخراجهم من مصر إلى غيرها ، ولكن نفرقهم(١) على الأمراء بمصر ، كل واحد منهم ، طائفة منهم ، ثم اتفقوا على الاجتماع بالطواشي المقدم والحسام الأستاذدار ، و يتفقون معهما على الدخول إلى السلطان ، فدخلوا وشرعوا يعرفون السلطان أن هؤلاء يقصدون الفتنة بين المسلمين ، و إراقة الدماء ، فيسمع العدو بذلك فيطمع في الملك . فقال السلطان : مهما أشرتم به هو المصلحة فافعلوا ما تختارون .

فخرجت الأمراء والخاصكية صحبة كتبغا ، فجلسوا على باب القلة ، وطلبوا الطواشي المقدم ، وصاروا يدعون طبقة بعد طبقة ، فأى من حضر كتب اسمه واسم الأمير الذى يرسم له بهم ، فيقوم [كل](٢) واحد و يقبل الأرض و يأخذ ما يخصه منهم ، و ينزل وهم قدامه إلى منزله .

و كتبوا باسم البيسرى مائة مملوك ، و كذلك لكل أمير من الأمراء الكبار مائة مملوك ، وسبعين مملوك وستين ، وخمسين ، ولكل أمير عشرة عشرة ، وما دون ذلك ، و بقيت منهم جماعة فأنزلوهم إلى المدينة ، ثم سيّروا منهم جماعة إلى قلعة الكرك ، وأقاموا ثلاثة أيام يفعلون ذلك إلى أن استوفوا الكل ، واطمأن قلب كتبغا والأمراء ، وأمنوا من جهتهم .

و بعد أيام حضر مملوك نائب حلب وصحبته بعض القصاد وأخبر أن السلطان بيدو — ملك المغول — لما قتل كيخاتو ، ملك البلاد كلها ، وأطمعته نفسه في الدخول بعساكره إلى الشام ليملكها ، بسبب ما بلغه [١٠٥] من أخبار مصر

(١) « ولكنهم نفرقوهم » في الأصل .

(٢) [ ] إضافة تتفق والسياق .

ومن اختلاف أمرائها وعساكرها ، وأنه ليس فيهم كبير يرجع إليه ، وأن سلطانهم صغير السن ، وأنه قد سير وراء سائر أمراء المغول وجنده ، وهو على تجهيز أمره للركوب .

فكان هـذا الأمر لكتبغا ولأصحابه أحب ما يكون ، فطلبوا سائر الأمراء وجلس السلطان وأمراء المشورة وسمعوا ما قاله القصاد وكتاب نائب حلب .

و بعد قيامهم أخذ كتبغا مع لا جين وقرا سنقر فى أمره ، واتفقوا على أن يسعوا فى أمر السلطنة لأجل صغر السلطان ، وأن العـدو ثقيل ، والعسكر تحتاج إلى تدبير ونفقات ، فصار لا جين وقرا سـنقر فى هذا الكلام مع سائر الأمراء وأعيان العسكر وأرباب الدولة .

قال صاحب النزهة : ذكر لى علاء الدين مغلطاى مملوك البيسرى أن أستاذه لمـا بلغ إليـه هذا الأمر وسمعه من الأمراء ، قال لى يا مغلطاى : عمـل والله كتبغا على السلطنة ولعب بعقله لا جين وقرا سنقر ، قال : فقلت له يا خوند : أنتم توافقونه على ذلك . قال لى : نحتاج أن نوافقه لأن شوكته قويت ، واستمال الحاج بهادر والأمراء ، ولا بد له من هذا الأمر ، و إلا فلا تسكن الفتن ، على أنه ما يقيم فى السلطنة إلا قليلا .

ومازال الأمر بينهم إلى أن وافقته سائر الأمراء ، وكل ذلك بتعظيم كتبغا والأمراء الذين معه أمر العدو وحضوره ، وأثبتوا ذلك أيضا فى ذهن السلطان ، وأجمع رأى الأمراء على أن يطلبوا زمّام الآدر الشريفـة ويعرفوه أنهم اختاروا أن يجتمعوا بأم السلطان و يعرفوها بالقضية ، وكان هذا من رأى أمير سلاح حتى تعرف هي السبب الموجب لخلـع ولدها من السلطنة تطيبيا لقلبها ، فطلبوا عند

ذلك الزّمام وعرفوه بأن يُعلم أم السلطان بالأمر الذى عقدوه ، فدخل الزمام واستأذن أم السلطان ، فأذنت لهم لحضروا إلى باب الستارة ، وبعثوا السلام إليها ، وعرفوها أن العدو قاصد بلاد الشام ومعه عسكر عظيم ، وذلك لما سمع بوقوع الفتن فى مصر من قتل السلطان والأمراء واختلافهم ، وأن سلطانهم صغير ، وقد أطمعه ذلك ، وأن المسلمين فى ألم عظيم بهذا السبب ، وقد جفلت أهل البلاد ، ونحن قد عزمنا على الخروج و إخراج العساكر والملتقى بهذا العدو ، ونحن إذا خرجنا بالسلطان نخاف عليه من جهة السفر ، وعند الملتقى أيضا ، لأنه صغير السن ، وأيضا ليس له حرمة فى عين العدو ، وهذا الأمر يحتاج إلى رجل كبير يدبر أمر المملكة ، ويقيم ترتيب الملوك المتقدمة ، ويكون له حرمة وسمعة فى البلاد .

وتكلموا من هذا القبيل كلاما كثيرا وهى تسمع جميع ما يقولون ، فعلمت بمقاصدهم ، ثم كان جوابها : إذا خلعتم ابنى فمن تولوه ؟ قالوا : نولى مملوكه الأمير زين كتبغا ، هو مملوك السلطان ، وهو أحق أن يحفظ ابن أستاذه وبيت أستاذه وهو نائب عنه إلى أن يلتقى هذا العدو ، فإن فتح الله تعالى وكسر العدو وحضرنا إلى مصر رجع المُلك إلى السلطان ، ويكون هو على نيابته ، وإن كان غير ذلك فالأمر لله تعالى ، فوافقتهم على قصدهم ، وقالت : هو ولدكم فالذى ترونه مصلحة لكم وللمسلمين افعلوه ، وإن عملتم معنا خيرا [١٠٦] خلونى وولدى نروح عنكم وانفصلوا أنتم ودبروا ملككم كيف ما أردتم ، فأخذوا فى تطييب خاطرها ، وحسنوا القول معها .

(١) هكذا بالأصل : والمقصود : استقلوا بالأمر .

وخرجوا من عندها وشرعوا فى تجهيز أمرهم ، وأصبحوا نهار الأربعاء العاشر من محـرم هذه السنة ، فخلعوا السلطان الناصر محمد بن قـلاون ، وكانت مـدة سلطنته فى هذه المدة سنة إلا أياما قليلة .

ثم عقدوا بالسلطنة للأمير زين الدين كتبغا فى هذا اليوم ، وركب من دار النيابة على فرس النوبة (١) ، ومشيت سائر الأمراء وأرباب الوظائف فى خدمته إلى أن دخل باب القلعة وجلس على تخت الملك ، ثم شاور الأمراء فيمن يكون نائب السلطنة فوقع الاتفاق على الأمـير لاجين المنصورى ، واستمر بالحاج بهادر أمير حاجب على عادته ، والأمير عز الدين الأفرم أمير جندار .

وفى يوم الخميس ثانى يوم السلطنة طلب سائر الأمراء وخلع عليهم .

وفى يوم الجمعـة خُطب له على سائر المنابر ، ولقب نفسـه بالملك العادل ، وكتب إلى سائر النواب بالاستمرار ، وسفر سطلمش بن (٢) صلغاى إلى نائب الشام الأمير عز الدين الحمـوى ، وسفر الأمير طقجى إلى حماة وحلب ، وسـفر أمير عمـر إلى طرابلس وبها الأمير عز الدين أيبك المنصورى .

وبعث إلى والدة السلطان بالشام فطيب خاطرها ، وأهدى إليها شيئا كثيرا ورتب لهـا ولولدها جميع ما يحتاجون إليه من الكلف .

---

(١) « وقدم إليه فرس النوبة بالرقبة الملوكية » — السلوك ج ١ ص ٨٠٦ .
وكانت العادة أن يحتفظ بقرب حضرة السلطان بالقلعة أو فى الأسـفار، فرس مجهز بالسرج والغاشية لاستخدامه فى الطوارئ، وقـد سمى باسم فرس النوبة — السلوك ج ١ ص ٨٠٦ هامش (٣) .
(٢) « ساطلمش » فى السلوك ج ١ ص ٨٠٧ .

ثم شرع فيما يصلح أمر دولته ، ومسك جماعة من الأمراء ، وأمّر جماعة من مماليكه « ... ... »[(١)] و ممن يلوذ به ، وعين طبلخاناه لسطلمش بن صلغاى ، وكان هو ممن اعتنى بدولته ، وأمّر أيضا ناصر الدين بن طرنطاى ، وابن الحاج طيبرس ، وابن أمير سلاح ، وابن كتبغا الذى يسمى[(٢)] أنص ، و جماعة من مماليكه مثل بتخاص ورتبـه أستاذ الدار ، وبكتوت الأزرق ، وغرلو[(٣)] ، وتكلان[(٤)] ، وغيرهم نحو عشرين مملوكا ، وأفرج عن الأمير قفجق ، وعبد الله السلحدار ، ونورى ، وقبلاى ، وأمير عمـر ، و جماعة من الذين كانوا قبضوا ، وعزل الصاحب تاج الدين بن حنا عن الوزارة ، وولى القاضى فخر الدين بن الخليلى ، وعزل علم الدين الصوابى الجاشنكير من ولاية القاهرة ، وولى عوضه شمس الدين الملقب بضلموه الحلبى ، وكان واليا بمصر ، وتولى مصر شمس الدين بن التكريتى .

ثم رسم بتجريد الأمير شمس الدين سنقر البكتوتى ، يعرف بالمساح ، ومعه أربعة آلاف فارس ، وصحبته الأمير حسام الدين الأستاذ دار ، والأمير شمس الدين نوكيـه ، والأمير سيف الدين بلبان الحبشى إلى نحـو سيس ، ليكون سمعة للعدو خروج عسكر مصر .

وكتب إلى نائب الشام أن يبعث الأمير سيف الدين كرجى ليمسك الأمير عز الدين أيبك خزندار ، نائب طرابلس ، وذلك لتوقفه عن اليمين للسلطان

(١) « ... ... » كلمة غير مقروءة .

(٢) « وابن كتبغا الذى يسمى » فى هامش المخطوط ، ومنبه على موضعها بالمتن .

(٣) « وأغرلو » فى السلوك جـ ١ ص ٨٠٨ .

(٤) « وقطلوبك » فى السلوك .

كتبغا حين جاءه خبر عزل الناصر وتولية كتبغا ولم يوافق على ذلك حتى حكمت عليه الأمراء ، وقالوا : إن كتبغا خشداشك وما هو غريب حتى وافقهم على ذلك الأمر حينئذ ، وكان قد بلغ ذلك إلى كتبغا من المقلد له بالنيابة ، فبقى فى نفسه من ذلك ما حتى مسكه ، فلما مُسِك قُيِّد وحُمِل إلى مصر ، وحُبِس بها ، وتولى عوضه الأمير عز الدين الموصلى .

وقال ابن كثير : وكان عمر العادل يوم توليته نحو خمسين سنة ، فإنه من سبى وقعة حمص الأولى التى كانت فى أيام الملك الظاهر بعد وقعة عين جالوت[1] ، وكان من الغويراتية ، وهم طائفة [١٠٧] من التتر[2] .

وفى يوم الأربعاء مستهل ربيع الأول : ركب الملك العادل كتبغا فى أبهة الملك ، وشق القاهرة ، ودعى له الناس[3] .

ومن غريب الاتفاق أن العادل كان قد قبض على عز الدين الموصلى واعتقله ببرج الساقية ، وأقام ثلاثة وتسعين يوما وأخرجه إلى طرابلس ، وقبض على عز الدين أيبك الخازندار من طرابلس واعتقله ببرج الساقية ، فأقام ثلاثة وتسعين يوما نظير المدة التى كانت لأيبك الموصلى ، وهذا أيبك وذاك أيبك والولاية واحدة ومدة السجن واحدة .

---

(١) «أصله من سبايا التتار ، أخذه الملك المنصور قلاون فى وقعة حمص الأولى سنة تسع وخمسين وستمائة» — بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٣٨٦ .

(٢) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٣٨ — ٣٣٩ .

(٣) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٣٩ .

وفيها : عزل العادل الحموى عن نيابة دمشق ، واستناب مملوكه سيف الدين غرلو .

وفيها : قصر النيل بالديار المصرية تقصيرا قلق له الناس ، وحصل منه اليأس ، فكان النوروز ولم يحصل وفاء ولا تغليق ، فاقتضى الحال كسر الخليج بغير تخليق ، وبدل العالم بالاتراح عوضا عن الأفراح والانزعاج بدلا من الابتهاج ، فابتدأ الغلاء ، في الغلال ، والفناء في النساء والرجال ، وأجدب الوجه الغربي من برقة وأعمالها وما يتاخمها فلم يصبها شيء من الوبل ولا من الطل ، ولم يزرع بها ما جل ولا ما قل ، فهلك أهلها جوعا وعدما وعطشا من ماء السماء ، ثم أعقب حدوث الوباء عقبى السنة الشهباء فساقهم القحط والضر إلى انتجاع ديار مصر ، فورد منهم إلى الإسكندرية والبحيرة أمم تتجاوز الإحصاء ، وانبثوا فى البلاد ، وامتدوا فى الربى والوهاد ، وجلبوا الوخم إلى العباد ففشت الأمراض العامة ، ومنى الخلق بالطامة ، وبلغ سعر القمح بالقاهرة ومصر مائة وخمسين درهما نقرة الأردب ، والشعير مائة درهم ، والفول والحبوب نحو ذلك ، واشتد الأمر ، وأكل الناس الميتة جهارا ، ولحوم الكلاب والقطط والحمير [نهارا] (١) . وقيل : إن بعضهم أكل لحم بعض ، وأن امرأة أكلت ولدها .

[وعم الفناء والموتان ، وكثر بسائر البلدان حتى أن بعض البلاد التى كانت مشحنة بالرجال والنسوان خلت من ساكنيها ، ولم يبق إلا النزر اليسير فيها (٢)] .

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة ، حيث أن العينى ينقل هذا الخبر عن بيبرس الدوادار .

(٢) [ ] إضافة من زبدة الفكرة ، وانظر أيضا التحفة الملوكية ص ١٤٤ — ١٤٥ .

وأما القاهرة ومصر فإنه كان يموت فيهما كل يوم ألوف ، ويبقى الميت مطروحا فى الأزقة والشوارع ملقى على الممرات والقوارع اليوم واليومين لا يوجد من يدفنه ، لاشتغال الأحياء بأمواتهم ، والسقماء بأمراضهم ، هذا وأكثر من يموت يلقون فى حفائر الكيمان بغير غسل ولا أكفان ، فتأكلهم الكلاب ، ثم أكل الناس الكلاب ، ففنيت ، وفنى أكثر الدواب ، ورسم السلطان بتوزيع الصعاليك والفقراء على الجند والأمراء ، فوزعوا بالقاهرة ومصر ليقوموا بهم من أموالهم .

هذا كله ذكره بيبرس فى تاريخه فقال : «وكنت إذ ذاك فى الإسكندرية . والصعاليك»[1] الذين فيها والواردين إليها وزعوا على الأملياء، والفقراء على الأغنياء ، وكنت متوليا أمر توزيعهم على التجار وأرباب المعايش والأيسار ، ووظفت على نفسى منهم جماعة ، وأجريت عليهم جاريا قام بأودهم إلى أن انقضت المجاعة ، وتواصلت الغلال إلى الإسكندرية وتواترت من جزيرة صقلية والقسطنطينية وبلد الفرنجية ، حتى أن الواصل إليها شف على ثلاثمائة ألف أردب قمحا ، فتماسك أهل الثغر ، ووجدوا رفقا بهذا الأمر ، وانتهى سعر القمح إلى ثلاثمائة وعشرين درهما ورقا الأردب[2] .

وقال ابن كثير فى تاريخه : مات فى ذى الحجة بديار مصر نحو من عشرين ألفا[3] .

---

(١) «أما ثغر الإسكندرية فإن الصعاليك» — فى زبدة الفكرة .

(٢) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٨٨ ب ، ١٨٩ أ .

(٣) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٤٥ .

وفى نزهة الناظر . وفيها وصل من بلاد برقة جماعة كثيرة ، وقد أثر [١٠٨] الجوع فيهم ، وشكوا من القحط فى البلاد ، وأنه لم ينزل لهم غيث فى تلك السنة ، ولا أعشبت أراضيهم ، ونشفت الأعين ، ولم يجدوا ببلادهم القوت ، وهم نحو ثلاثين ألف نفر ، وأفنى الجوع والعطش جميع ما كانوا يملكونه من الأغنام والإبل والمواشى ، وكذلك الأطفال والنساء ، وما سلم من الرجال إلا من كان فى أجله تأخير .

ووصل عقيب ذلك كتاب من نائب الشام يخبر أن أيام الوسم الذين يزرعون فيه الأراضى فاتت ، ووجدت أهل الشام لذلك مشقة عظيمة إلى أن خرجت المشايخ والصلحاء والفقراء واستغاثوا فلم يسقوا ، وأقام الحال على ذلك ثلاثة أيام ، ثم نودى فى دمشق أن لا يبقى أحد إلا ويخرج للاستغاثة إلى الله تعالى ، فخرج نائب الشام وجميع العسكر ، وأن الله تعالى قبل دعاءهم ، وأنزل عليهم الغيث .

وجاءت الأخبار أيضا من جهة القدس والخليل عليه السلام أن الوسم الذى يعتادونه فى أيام زروعهم قد فات أوانه ، وانقطع الغيث عن بلادهم ، وعن جميع بلاد الساحل ، وأن الأعين والآبار قد جفت ولم يبق فيها ماء إلا قليل جدا حتى عين سلوان .

وكذلك جف النيل بمصر وتناقص من زيادته ، فتحسن سعر الغلة إلى أن وصل القمح بعد الأربعين إلى سبعين ، ثم لطف الله بالوفاء وكسروا الخليج ، وبعد الوفاء بلغ النيل إلى سبعة عشراً صبعا ، ثم نزل سريعا ، وكسر بحر ابن منجى قبل أجله بثلاثة أيام خشية من النقص ، فصار السعر يتزايد كل يوم إلى أن بلغ القمح إلى مائة درهم الأردب ، والشعير إلى ستين ، والفول إلى

خمسين ، وبلغ الرطل من اللحم إلى ثلاثة دراهم ، وكان راتب البيوت فى ذلك الوقت والجرايات لأرباب الرواتب كل يوم سبعمائة وخمسين أردبا من القمح والشعير ، وراتب الحوائج خاناه عشرون ألف رطل من اللحم .

وفيها : ورد البريد من الشام يذكر أنه قد وصل إلى الفرات بالرحبة من عسكر التتار تقدير عشرة آلاف بيت(١) بحريمهم وأولادهم ومواشيهم ، وأنهم من عسكر بيدو ، ولما انكسر بيدو خافوا من قازان وقصدوا بلاد الإسلام راغبين فى الإسلام ، وأن المقدم عليهم أمير يسمى طرغاى ، وهو زوج بنت هلاون ، ومعه أميران يسمى أحدهما ككتاى والآخر أركاون ، فأرسل الملك العادل إلى علم الدين الدوادارى بأن يتوجه إلى لقائهم لأنهم من جنسه ، فتوجه الدوادارى من دمشق عاشر ربيع الأول ، ثم توجه بعده سنقر الأعسر .

ولما كان يوم الإثنين الثالث عشر(٢) من ربيع الأول : عاد سنقر الأعسر إلى دمشق وصحبته من مقدميهم وأعيانهم مائة فارس وثلاثة عشر فارسا ، وخرج لملتقاهم نائب السلطنة ، واحتفل الناس لدخولهم ، وأنزلوهم بالقصر الأبلق ، وأقاموا بدمشق إلى السابع من ربيع الآخر ، ثم حضر الأمير حاج سيف الدين بهادر يستدعيهم إلى الأبواب الشريفة ، فتوجهوا صحبة شمس الدين سنقر الأعسر ، ثم ورد مرسوم للدوادارى أن ينزل ببقيتهم فى الساحل فى أرض عثليث ، فعبر بهم

---

(١) « عشرة آلاف نفر » — تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٨٥ .

« الثمانية عشر ألف بيت » — نهاية الأرب جـ ٢٩ (مخطوط) ورقة ٨٥ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٢٠٣ — ٢٠٤ ، السلوك جـ ١ ص ٨١٢ ، وانظر ما يلى ص ٣٠٤ .

(٢) « ثالث عشرين » فى كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٦٢ .

على دمشق من على المرج ، ولم يمكن أحدا منهم من الدخول إلى دمشق (١) .

وأما قضية بيدو، فإنه ملك بعد مقتل كيخاتو بن أبغا بن هلاون بن طلو بن جنكزخان ، وكان كيخاتو ملك التتار بالعراقين ، فأساء [١٠٩] السيرة ، وتعرض إلى أولاد التتار ونسوانهم، وأفحش في الفساد فيهم، فنقموا عليه وشكوا إلى بيدو ابن عمه ، وهو بيدو بن طرغاى بن هلاون ، ما يلقون منه ، فاتفقوا على إعدامه وتعجيل حمامه ، فوثب عليه بيدو وطرغاى وبستاى ونجك ، فعلم بما هموا به ، ففر من الأُرْدُو هاربا ، للنجاة طالبا ، وتوجه إلى نحو كرجستان لائذا ، فأدركه الهلاك وقتل بمقام بيلا سوار من أعمال موغان في ربيع الآخر من هذه السنة ، فكانت مملكته ثلاث سنين وشهورا (٢) .

وفي جمادى الأولى منها : استقر بيدو في المملكة بعد هلاك كيخاتو، وكان قازان بن أرغون بن أبغا بن هلاون بخراسان وصحبته نوروز أتابكه ، فحسن له قصد بيدو ومحاربته ، وانتزاع الملك منه ، فجمعا وحشدا وحضرا من خراسان لحرب بيدو ، وسار بيدو في عساكره إليهما ، فلما تراءى الجمعان تبين لقازان أن جمعه لايفي بلقائه ، فراسله بالإذعان وعامله بالملاطفة وحلاوة اللسان ، فاتفقا على الصلح ، فاصطلحا ، وعاد قازان راجعا إلى خراسان، وأقام نوروز عند بيدو، فإنه منعه من الرجوع صحبة قازان لكيلا يتفقا عليه وينفذا إليه ، فاغتنم نوروز الفرصة مدة إقامته عند بيدو واستمال جماعة من الأمراء لقازان ، واستوثق منهم أنه متى دنا انحازوا إليه وتركوا بيدو وخامروا عليه ، فبلغ الخبر بذلك لقازان ،

---

(١) انظر أيضا كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٦١ — ٣٦٢ .

(٢) انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٨٩ ب .

فتجهز للسير من خراسان ، وبلغ بيدو خبره فأوجس خيفة منه ، وذكر ذلك لنوروز . فقال له : أنا أكفيك أمره وأدفع عنك شره، ومتى وجهتني إليه ثنيت عليك عزيمته ، وفرقت جماعته ، وأرسلته إليك مربوطا ، فاستحلفه أنه لا يخون فى عهده إذا فصل من عنده ، ثم سرحه فسار إلى خراسان ، وأخبر قازان كل ما كان ، وخرجا معا لقصد بيدو ، وسارا طالبين الأردو ، وأرسل نوروز إليه قدرا مربوطا فى عدل، وقال : قد وفيت بما قلت لك ، وأرسلت قزان[1] إليك مربوطا بالوثاق ، ولم أغير ما وقع به الميثاق ، فغضب بيدو لرسالته ، وتبين له مكره به من مقالته ، وسار للقائه ، فالتقى الجمعان بنواحى همدان، فخامر أمراء بيدو عليه وانحازوا إلى قازان ، فاستظهر بهم وقوى بسببهم ، ولم يكن لبيدو بهم إلا الفرار وسلوك الأوعار ، فلحقوه بنواحى همدان فقتلوه ، وكانت مملكته ثمانية شهور ، ومقتله فى ذى الحجة من هذه السنة .

وفى ذى الحجة : ملك قازان[2] بن أرغون بن هلاون ، واستقر فى السلطنة ، وترك أخاه خربندا مقيما بخراسان ، واستقر نوروز[3] أتابك العساكر ومدبر المملكة إلى أن كان منه ما سنذكره[4] إن شاء الله تعالى .

وقال ابن كثير : ولما تملك قازان على التتار فى هذه السنة أسلم وأظهر الإسلام [على يد الأمير نوزون رحمه الله، ودخلت التتار أو أكثرهم فى الإسلام][5] ،

(١) « قازان » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٢) « قازان » أو غازان » — انظر زبدة الفكرة .

(٣) نوروز أو نيروز ،

(٤) أنظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٩٠ أ ، ب .

(٥) [ ] إضافة من البداية والنهاية .

ونثر الذهب والفضة واللؤلؤ على رءوس الناس يوم إسلامه وتسمى بمحمود ، وشهد الجمعة والخطبة ، وخرب كنائس كثيرة ، وضرب عليهم الجزية ، ورد مظالم كثيرة ببغداد وغيرها من البلاد وظهرت السبح والهيا كل مع التتار .(١)

وفى بعض التواريخ : أن إسلام قازان كان على يد الشيخ صدر الدين ابن حمويه الجوينى .(٢)

وفيه أيضا : أن بيدو لما انكسر لحق بالكرج وكان قد تنصر .

[١١٠] وفيها : أنعم على الملك الأوحد(٣) بن الملك الزاهر بن أسد الدين صاحب حمص بإمرة بدمشق ، وهو أول أمير تأمر بطبلخاناة من بنى أيوب فى دولة الترك ، وكان نائب الشام كتب فيه إلى السلطان وعرف فى كتابه كبر أهل البيت الذى هو منه وتقدمه فى السن وجودته وديانته .

وفيها : بلغ النيل إلى ستة عشر ذراعا وسبع عشرة أصبعا .

وفيها حج بالناس الملك المجاهد أنص بن الملك العادل كتبغا وأهل بيته ، وتصدقوا بصدقات كثيرة فى الحرمين .

وفى نزهة الناظر : لما حج أنص هذا أرسل إلى الشريف أبى نمى صاحب مكة شرفها الله عشرين ألف درهم إنعاما عليه ، وأنعم على أولاده بعشرة آلاف

(١) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٤٠ .

(٢) انظر السلوك جـ ١ ص ٨٠٥ .

(٣) هو شادى بن داود بن شيركوه بن محمد بن شيركوه الأيوبى ، المتوفى سنة ٧٠٥هـ/١٣٠٥م ــ المنهل الصافى .

درهم ، وأنه طول الطريق معه روايا وأصحان مملوءة سكرا وسويقا وأقسما ومشروبا كثيرا ، وأبيعت العلبة من الحلواء فى الطريق بدرهمين ، والرطل السكر بدرهم ونصف ، وكان معه من سائر الأصناف ، وخلع على جميع من صحبه من الأمراء والمماليك والجند وسائر من صحبه .

وقال صاحب التاريخ : حكى لى خازن الداره أن جملة أنعامه على الأمير سيف الدين طقجى مائة وستون ألف درهم ، وكان من جملتها بذلة كلها زركش وقباء تترى فيه ألف دينار ، وكانت تفرقته على الغلمان والصعاليك اثنين ألف درهم ، وأخبر أنه أصلح بين الخليفة أبى العباس أحمد وبين الشريف أبى نمى صاحب مكة ، لأنه وقع بينهما كلام ومشاجرة والركب واقف بجميع الأمراء ، وبلغ من أمرهما إلى أن قال أبو نمى للخليفة : من أنت ؟ ومن يقال لك ؟ ومن أبوك ؟ أما تستحى إذا ذكرت نسبك مع نسبى ، ثم شرع يقول : أنا فلان بن فلان إلى أن أذهل الواقفين ، ولم يقدر الخليفة بعده على الجواب : بل تمثل يقول :

نسبٌ كان عليه من شمس الضحى * نور ومن فلق الصباح عمودا

ولم يزل الملك المجاهد يُرضِّى الشريف والأمير طقجى معه إلى أن اصطلحا وطابت خواطرهما .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

الشيخ الصالح القدوة الزاهد العابد العارف أبو الرجال[1] بن مُرى بن بُحتر المنينى[2] .

مات بقرية منين فى عاشر المحرم منهما ، ودفن فى زاويته بالقرية المذكورة ، وخرج الناس من دمشق فمنهم من أدرك الدفن ومنهم من صلى على قبره ، وكانت له أحوال ومكاشفات ، من المشايخ الأجلاء المعروفين بالخير والصلاح والورع ، وكان أهل البلد يزورونه ، وربما قدم هو بنفسه إلى دمشق فيكرم ويُضَيَّف ، ومات وقد جاوز الثمانين ، وكان شيخه الشيخ جندل من كبار الصالحين أيضا ، ومن الأبدال ، وكان من القرية المذكورة .

الشيخ الصالح العابد الزاهد الورع بقية السلف جمال الدين أبو القاسم عبد الصمد[3] بن قاضى القضاة وخطيب الخطباء عماد الدين بن عبد الكريم بن قاضى القضاة جمال الدين عبد الصمد بن الحرستانى .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٧٦ ، العبر جـ ٥ ص ٣٨٥ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٢٨ ، مرآة الجنان جـ ٤ ص ٢٢٧ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٨٠ — ١٨١ .

(٢) المنينى : نسبة إلى منين : قرية فى جبل سنير من أعمال الشام ، وقيل من أعمال دمشق — معجم البلدان .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٤٠ .

سمع الحديث وناب عن أبيه فى الإمامية وتدريس الفزالية(١)، ثم ترك المناصب وأقبل على العبادة ، وتوفى فى آخر ربيع الآخر ، ودفن بالسفح عند أهله وقد جاوز الثمانين .

الشيخ الإمام العالم العلامة الحافظ مفتى بلاد الحجاز فى زمانه محب الدين أبو العباس أحمد(٢) بن عبد الله بن محمد بن أبى بكر [١١١] بن محمد بن إبراهيم الطبرى المكى الشافعى .

وكان شيخ الشافعية ، وفقيه الحرم ، ومحدث الحجاز ، وسمع الكثير وصنف فى فنون كثيرة(٣) ، من ذلك : كتاب الأحكام فى ست مجلدات وهو كتاب مفيد ، وكتاب على ترتيب جامع المسانيد أسمعه لصاحب اليمن . وكان مولده يوم الخميس السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة عشر وستمائة(٤) ، ومات

(١) المدرسة الفزالية بدمشق : فى الزاوية الشمالية الغربية من الجامع الأموى — الدارس جـ ١ ص ٤١٣ ، ص ٤٢٢ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ١ ص ٣٤٢ رقم ١٨٨ ، درة الأسلاك ص ١٢٧ ، زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٩١ أ ، الوافى جـ ٧ ص ١٣٥ رقم ٣٠٦٤ ، العبر جـ ٥ ص ٣٨٢ ، العقد الثمين جـ ٣ ص ٦١ رقم ٥٠٧ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٧٤ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٢٥ . مرآة الجنان جـ ٤ ص ٢٢٤ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٧٦ ، طبقات الشافعية الكبرى جـ ٨ ص ١٨ رقم ١٠٤٦ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٤٠ ، السلوك جـ ١ ص ٨١١ .

(٣) عن مؤلفات صاحب الترجمة انظر : العقد الثمين جـ ٣ ص ٦٢ — ٦٤ ، هدية العارفين جـ ١ ص ١٠١ .

(٤) « اختلف فى مولده » — المنهل الصافى .

فى هذه السنة ، ودفن بمكة . وله شعر جيد ، فمنه قصيدته فى المنازل بين مكة (١) والمدينة تزيد على ثلاثمائة بيت (٢) ، كتبها عنه الحافظ شرف الدين الدمياطى فى معجمه .

الشيخ الإمام العلامة الخطيب المدرس المفتى القاضى شرف الدين أحمد (٣) ابن الشيخ جمال الدين أحمد بن نعمة بن أحمد بن جعفر بن حسين بن حماد المقدسى الشافعى .

ولد سنة ثنتين وعشرين وستمائة (٤) ، وتوفى يوم الأحد السابع عشر من رمضان منها ، ودفن بمقابر باب كيسان عند والده وأخيه ، سمع الكثير ، وكتب حسنا ، وصنف فأجاد وأفاد (٥) ، وكان مدرس الغزالية ودار الحديث النورية مع الخطابة ، ودرس فى وقت بالشامية البرانية ، وأذن لجماعة من الفضلاء فى الإفتاء منهم الشيخ الإمام أبو العباس ابن تيمية ، وكان يفتخر بذلك ويقول : أنا أذنت لابن تيمية فى الإفتاء ، وكان يتقن فنونا من العلم ، وصنف كتابا فى أصول

---

(١) « مكا » فى الأصل .

(٢) انظر العقد الثمين جـ ٣ ص ٧ — ٧١ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٢٩ رقم ١٢٠ ، درة الأسلاك ص ١٢٤ — ١٢٥ ، الوافى جـ ٦ ص ٢٣١ رقم ٢٧٠٥ ، العبر جـ ٥ ص ٣٨٠ — ٣٨١ ، فوات الوفيات جـ ١ ص ٥٧ رقم ٢٣ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٢٤ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٢٠١ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٤١ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ١٠ رقم ١٣ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٧٨ — ١٨٠ ، طبقات الشافعية الكبرى جـ ٨ ص ١٥ رقم ١٠٤٣ ، السلوك جـ ١ ص ٨١٠ — ٨١١ .

(٤) « بالقدس الشريف » فى تذكرة النبيه .

(٥) انظر هدية العارفين جـ ١ ص ١٠١ .

الفقه جمع فيه شيئا كثيرا ولم يخلف بعده مثله لأنه فيه ما لم يجمع لأحد من العلماء من علم الفقه والأصلين والحديث والنحو واللغة وحسن الخط والدين والعفة والتواضع والفصاحة وحسن الهيئة والمسارعة إلى قضاء حوائج الناس .

وله شعر جيد فيه ما قاله فى زهر اللوز :

أَحِجّ إلى الزَّهر واسْعى به (١) وأرم جمار الهم مستنفرا (٢)
من لم يطف بالزهر فى وقته من قبل أن يُحلق قد قصّرا

وله لغز فى الناعورة (٣) :

وما أنثى وليست ذات فرج وتحمل دائمًا من غير فحل
وتُلقى كل آونةٍ جنينًا فيجرى فى الفلاةِ بغير رِجل
وتبكى حين تلقيه عليه بصوت حزينة فجعت بطفل

وقال يمدح سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :

تحيّةُ مُشتاقٍ بعيد مَزارهُ إلى مَن بأكناف العقيق دِيارهُ
وشكوى بعادٍ أنفدَ الدمع بعضه وأفنى مَدى الصبر الجميل انتظارهُ
وصَبٍ عرته للصَّبابة حسرة تنمّ بها أنفاسُه واصفرارهُ

(١) و « أحجج إلى الزهر لتسعى به » فى تذكرة النبيه .
و « أحجج إلى الزهر لتحظى به » فى المنهل الصافى ، والوافى ، وفوات الوفيات .
و « أحجج إلى الروض » فى درة الأسلاك .
(٢) « مستهترا » — المنهل الصافى ج ١ ص ٢٣١ ، وفوات الوفيات .
(٣) « فى الدولاب » فى الوافى ، وفوات الوفيات .

ووجد بأكناف الحمى سقى الحمى(١) ... ولا زال يندى شيحه وعراره
ودمع بأسرار المحبة ناطق ... إذا لمعت دون المحصب ناره
وجسم غدا إثر الضغائن قلبه ... وإن كان فى أرض البعاد قراره
ركائب تحدو(٢) باسم خير مؤمل ... نبى علا فى العالمين مناره
فوا أسفا لو كان يجدى تأسف ... و واحسرتا إذ شط عنى مزاره

[١١٢]

إذا قدم الزوار تربة يثرب ... وفاضت من الدمع المصون غزاره
فكم خائف جان يلوذ بظله ... وكم تائب ثوب الخضوع شعاره
أحن إلى ربع زكت تراب أرضه ... وأصبح نور المصطفى وهو جاره
نبى أضاء الكون من نور وجهه ... وعاد ظلام الشرك يبدو استناره
وحن إليه الجذع والجذع يابس ... وجاء بعير القوم يعلو خواره
سلام على من سلم الذئب خاضعا(٣) ... عليه كذاك الظبى زال نفاره
له معجزات يبهر العقل بعضها ... وآيات مجد ليس تحصى فخاره
فطوبى لمن زار النبى محمدا ... وأضحى إلى البيت العتيق انتشاره
ولبى مشوقا ثم طاف ملبيا ... وأصبح بعد السعى والبيت داره

(١) « بسكان » فى تذكرة النبيه .

(٢) « تحدى » فى تذكرة النبيه .

والحدو : سوق الإبل والغناء لها — لسان العرب .

(٣) « رافدا » فى تذكرة النبيه .

وسَارٍ وقـد نَال المُنى بعد حجه مُشوقًا ودمـع العين ثج قطاره
وبعـد منى نَال المُنى بوقوفـه وعادَ وجمر الشوق يذكو أواره
فيا خير مأمولٍ وأشرف ماجـد تعطف على صَبٍّ عراه انكساره
وهبـه ثـوابَ الصابرين فإنه على ألم الأشواقِ قـل اصطباره(١)

الشيخ الإمام العالم المفتى الخطيب الطبيب مجدا الدين أبو محمد عبد الوهاب(٢) ابن أحمـد بن أبي الفتح بن سحنون التنوخى الحنفى ، خطيب جامع النـيرب(٣) ، ومدرس الدماغية(٤) للحنفية ، وكان طبيبا بجامع الصالحية .

وكان فاضلا جيدا ، وله مشاركة فى كل فن ، وروى شيئا من الحديث ، توفى ليـلة السـبت الخامس من ذى القعـدة منها عن خمس وسبعين سـنة ، رحمـه الله .

وله شعر حسن فمنـه قوله :

فوالله مَا هجـرى لأهـل مودتى مَلالا ولكنى سكنتُ إلى العَجْز

(١) انظر بعض أبيات هذه القصيدة فى تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٨٠ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ١٢٧ ، فوات الوفيات جـ ٢ ص ٤١٧ رقم ٣١٣ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ١١٧ رقم ١٧٩ ، معجم الأطباء ص ٢٨١ ، العبر جـ ٥ ص ٣٨٣ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٢٦ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٨١ .

(٣) جامع النيرب بدمشق : بالقرب من الربوة ، والنيرب من قرى الغوطة — الدارس جـ ٢ ص ٤٣٨ — ٤٣٩ .

(٤) المدرسة الدماغية بدمشق : داخل باب الفرج ، أوقفتها على الشافعية والحنفية عائشة زوجة شجاع الدين محمود الدماغ ، المتوفى سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م — الدارس جـ ١ ص ٢٢٦ .

وما كان لى منهم غِنى غيرَ أننى — قنعتُ وحَسْبى بالقناعة من كنز
وأعرضت عنهم لاَ ملالا وإنما — رأيتُ مقامَ الذل فى مَنزل العزّ

وقال :

لا تجزعنْ فما طول الحياة سِوى — رُوحٍ تُرَدَّدُ فى سجن من البدَن
ولا يَهُولك أمر الموت تكرَهُه — فإنما مَوتُنا عَوْدٌ إلى الوطن

وسمع قول مجير الدين بن تميم فى تفضيل الورد على النرجس بالبيتين وهما :

من فضَّلَ النرجسَ وهو الذى — يرضى بحكم الوَرد إذ يغْرسُ
أمَا ترى الورْد غَدا جالسا — إذْ قامَ فى خدمته النرجس

فقال فى جوابه :

ليس جُلوس الورد فى مجلس — قامَ بِهِ نرجسه يُوكَسُ
وإنما الوردُ غدا باسطاً — خَدًا تَمشّى فوقه النرجسُ

وله فى مشاعلى :

بأبى غزال جاء يحمل مشعلاً — يكْسُو الدُجَى بملاءِ ثوبٍ أصفرِ
فكأنّه غصن عليه باقةٌ — من نَرجس أو زهرةٌ من نَوْفرِ

[١١٣] وقال وقد أهدى إليه نرجس :

لما تحجبت عن عينى وأرّقنى — بعدى ولم تحظ عينى منك بالنظر
ارسلت مشبهها من نرجس عطر — كيما أراك بأحداقٍ من الزهر

وقال فى الياسمين :

لله حسن الياسمين يلوح فو ... ق الورد للجلساء والندمان

مثل الثنايا والخدود نواضرا ... أو كالفراش هوى على النيران

وقال فى الورد :

وورد أبيض قد زاد حسنا ... فعند الصد للخجل احمرار

يمثله النديم إذا رآه ... مداهنَ فضة فيها نُضَار

الشيخ الإمام العالم الزاهد الخطيب عز الدين أبو العباس أحمد(١) بن الشيخ محيي الدين إبراهيم بن عمر بن فرج بن أحمد بن محمد(٢) بن على بن سابور الفاروثى الواسطى .

ولد سنة أربع عشرة(٣) وستمائة ، وسمع الحديث ورحل فيه ، وكانت له فيه يد جيدة ، وفى التفسير والفقه ، والمواعظ .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ١٢٩ ، الوافى ج ٦ ص ٢١٩ رقم ٢٩٨٧ ، السلوك ج ١ ص ٨١١ ، شذرات الذهب ج ٥ ص ٤٢٥ ، تذكرة النبيه ج ١ ص ١٨٣ ، العبر ج ٥ ص ٣٨١ .

ووقع خلط فى بعض المصادر بين صاحب الترجمة وبين أحمد بن عمر بن الفرج الفاروثى ، المتوفى سنة ٦٩٥ هـ — انظر ما يلى ص ٣٢٨ .

(٢) الفاروثى : نسبة إلى فاروث : قرية كبيرة على شاطىء دجلة بين بلدتى واسط والمذار — معجم البلدان .

(٣) « اثنى عشرة » فى تذكرة النبيه .

وكان دينا عالما ورعا، قدم إلى دمشق فى الدولة الظاهرية، فأعطى تدريس الجاروخية[(١)] ، ثم عاد إلى وطنه فمات فى واسط فى مستهل ذى الحجة ، وكان يوما مشهودا بواسط .

وكان قد لبس خرقة التصوف من السهروردى ، وقرأ القراءات العشر ، وخلف ألفى مجلد ومائتى مجلد ، وحدث بالكثير ، وسمع منه البرزالى كثيرا من الصحاح والمسند .

الشيخ جمال الدين أحمد[(٢)] بن عبد الله بن الحسين الدمشقى ، المعروف بالمحقق .

كان فاضلا فى الطب ، ومدرسا فى عدة مواضع[(٣)] ، شارك فى فنون كثيرة . مات فى هذه السنة، ودفن فى مقابر الصوفية عند قبر الشيخ جمال الدين الحصيرى

الصدر جمال الدين يوسف[(٤)] بن على بن مهاجر التكريتى .

أخو الصاحب تقى الدين توبة ، مات فى هذه السنة بدمشق ، ودفن بتربة أخيه بالسفح .

---

(١) المدرسة الجاروخية بدمشق : داخل بابى الفرج والفراديس ، شمالى الجامع الأموى والظاهرية الجوانية ، وتنسب إلى جاروخ التركمانى — الدارس جـ ١ ص ٢٢٥ وما بعدها .

ولم يرد فى الدارس أن صاحب الترجمة درس بالمدرسة الجاروخية ، ولكن بالمدرسة الظاهرية الجوانية ، والتى تقع قبلى الجاروخية — الدارس جـ ١ ص ٣٤٨ — ٣٤٩ ، ص ٣٥٥ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : الوافى جـ ٧ ص ١٣٦ رقم ٣٠٦٥ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٤٢ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٢٦ .

(٣) « كان مدرسا بمدرسة فروخشاه ، ومدرس الطب بالدخوارية : وطبيبا بالمارستان بدمشق الوافى جـ ٧ ص ١٣٦ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٤٣ .

وكان ذا ثروة ومروءة وتواضع ، وخلف ثلاثة بنين : شمس الدين محمد ، وعلاء الدين على ، وبدر الدين حسن . وكان قد ولى حسبة دمشق فى وقت .

الصدر الكبير العدل علم الدين أبو بكر محمد (١) بن عياش بن أبى المكارم التميمى الجوهرى .

واقف المدرسة الجوهرية (٢) على الحنفية . توفى ليلة الثلاثاء السابع عشر (٣) من من شوال بدمشق ، ودفن بمدرسته ، وقد جاوز الثمانين . وكانت له خدم على الملوك وغيرهم .

الشيخ الفاضل عبد العزيز (٤) الديرينى .

كان فاضلا ، عالما بالنحو واللغة والأصولين ، وله فى كل فن فضل ، وكان مع ذلك راضيا ببذاذة الحال ، توفى ببلدته ديرين (٥) فى هذه السنة (٦) ، ودفن فيها .

(١) وله أيضا ترجمة فى : العبر جـ ٥ ص ٣٨٥ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٤١ .

(٢) المدرسة الجوهرية بدمشق : شرقى تربة أم الصالح ، داخل دمشق بحارة بلاطة — الدارس جـ ١ ص ٤٩٨ وما بعدها .

(٣) « تاسع عشر » فى البداية والنهاية .
« تاسع شوال » فى الدارس جـ ١ ص ٤٩٩ .

(٤) هو عبد العزيز بن أحمد بن سعيد الدميرى ، الشهير بالديرينى ، عز الدين أبو محمد .
وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ١٠٢ ، المنهل الصافى ، زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٩٠ ب ، طبقات الشافعية جـ ٥ ص ٢٤١ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٤٠ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٣٠ ، السلوك جـ ١ ص ٧٦٠ .

(٥) ديرين أو درين : قرية قديمة بمركز طلخا شرق نبروه بمصر — التحفة السنية ص ٧٩ ، القاموس الجغرافى ق : جـ ٢ ص ٨٦ .

(٦) اختلفت مصادر الترجمة فى ذكر سنة وفاة صاحب الترجمة ، ففى تذكرة النبيه ودرة الأسلاك والسلوك ٦٨٩ هـ ، وفى طبقات الشافعية ٦٩٤هـ ، وفى شذرات الذهب ٦٩٩ هـ .

عمر[1] بن يحيى بن عبد الواحد الهنتاتى ، سلطان أفريقية .

توفى فى هذه السنة ، وكانت مدة ملكه أحد عشر سنة .

صاحب اليمن ، شمس الدين يوسف[2] بن الملك المنصور نور الدين عمر بن على ابن رسول التركمانى .

أقام فى مملكة اليمن بعد أبيه سبعا وأربعين سنة ، وعمر ثمانين ، وكان أبوه قد ولى قبله أزيد من عشرين سنة بعد الملك المسعود أقسيس[3] بن الملك الكامل[4] ، وكان عمر بن رسول مقدم عساكر أقسيس ، فلما مات ، وثب على الملك فتم له ، وتسمى المنصور[5] ، واستمر فيه أزيد من عشرين سنة ، ثم ابنه المظفر سبعا وأربعين سنة .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٧٥ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٩٠ ب ، درة الأسلاك ص ١٢٤ ، نهاية الأرب جـ ٢٩ (مخطوط) ورقة ٨٣ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٢٠٢ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٤١ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٧١ ، غاية الأمانى ق ١ ص ٤٧٠ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٧٦ ، العبر جـ ٥ ص ٣٨٤ ، السلوك جـ ١ ص ٨١٠ وفيه « محمد بن عمر » .

(٣) هو أطسز ، وقيل أقسيس ، والأول أصح والثانى هو المشهور ، ابن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ، الملك المسعود ، المتوفى سنة ٦٢٦ هـ / ١٢٢٨ م — غاية الأمانى ق ١ ص ٤١٧ — ٤١٨ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٢٠ .

(٤) « العادل » فى الأصل ، وهو تحريف .

(٥) استقل بأمر اليمن سنة ٦٢٨ هـ / ١٢٣٠ م ، وكاتب خليفة بغداد يجعل له نيابة اليمن ، وتوفى سنة ٦٤٧ هـ/١٢٤٩ م ، غاية الأمانى ق ١ ص ٤٢٠ ، ص ٤٣٢ ، العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٤٨ .

وتوفى المظفر المذكور بقلعة تعز على فراشه فى رجب من هذه السنة . وكان حاكما جيدا ، كفيفا عن أموال الرعايا ، حسن السيرة ، كثير العدل والصفح ، قليل المؤاخذة ، وما قصده أحد إلا [١١٤] ناله منه خيرا كثيرا .

وكان يحب الحديث ، ويسمعه ، وجمع لنفسه منها أربعين حديثا .

واستقر فى الملك بعده ولده الأكبر الملك الأشرف نجم الدين عمر .

وكان للملك المظفر من الأولاد : الأشرف ، والمؤيد ، والواثق ، والمسعود ، والمنصور .

وقال ابن كثير : فلم يمكث الأشرف بعد أبيه المظفر سنة حتى مات ، ثم قام أخوه المؤيد هزبر الدين(١) داود بن المظفر ، فاستمر فى المملكة .

وفى بعض التواريخ : لما مات المظفر ملك بعده ولده الملك الأشرف ممهد الدين ، وهو ولى عهد أبيه ، ثم نازعه أخوه الملك المؤيد هزبر الدين داود ، وكان المؤيد — لما مات والده — ببلاد الشحر(٢) فجمع جمعا كثيرا لوقته ، ومال إلى عدن فملكها ، ثم توجه نحو تعز ، فجرد الأشرف لقتاله الشريف على ابن عبد الله بجماعة من الجيش ، ومعه ولده جلال الدين بن الأشرف ، فالتقيا فيما بين تعز وعدن ، بمكان يسمى الدعيس(٣) ، واقتتلوا ، فخذل المؤيد ، وتفرقوا عنه ،

(١) « هزالدين » فى المطبوع من البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٤١ ، وهو تحريف .
وهو داود بن يوسف بن عمر بن رسول ، المتوفى سنة ٧٢١ هـ / ١٣٢١ م — المنهل الصافى ، المخطوط جـ ٢ ، ص ١٩ رقم ١٦٩١ .

(٢) الشحر : ميناء لحضرموت ، ينسب إليها اللبان الشحرى — معجم المدن والقبائل اليمنية ص ٢٢٧ .

(٣) الدعيس ، قرية فى وادى لحج — معجم المدن والقبائل اليمنية ص ١٥٧ .

وبقى فى نفر يسير ، فتقدم إليه جلال الدين ابن أخيه ، وأشار عليه بالدخول فى الطاعة ، ومد له يد المحالفة ، فرجع إلى الطاعة ، وأراد جلال الدين أن يتوجه به إلى والده على ذلك ، فامتنع عليه ، ثم توجه إلى قلعة تعز ، فاعتقل بها(١) ، إلى أن مات الأشرف سنة ست وتسعين وستمائة ، فأخرج من الاعتقال لأجل دفن أخيه ، فأمر بدفنه ، واستمر المؤيد إلى سنة إحدى وعشرين وسبعمائة ، كما سنذكره إن شاء الله .

وفى تاريخ النويرى : توفى المظفر المذكور مسموما ، سمته بعض جواريه ، والله أعلم .

الأمير بدر الدين بكتوت(٢) بن عبد الله الأقرعى .

مات بدمشق ، ودفن بمقابر باب الصغير ، بقرية ابن العيد ، ولى شد الشام زمن الملك الظاهر ، وعزل زمن الملك السعيد ، وعاد فى زمن المنصور قلاون ، وتولى أيضا شد الصحبة ، وهو الذى حبس قاضى القضاة عز الدين بن الصائغ ، وتعصب عليه ، وكان جبارا ، عنيدا ، عسوفا بالفعل والقول ، سلطا ، معجبا جدا بنفسه ، غير أنه كان عفيفا عن أموال الناس ، وبيت المال ، وكان عليه الديون ، ولم يتناول من أحد شيئا فى مدة ولايته ، لا هو ولا حاشيته ، ولا قبل من أحد هدية ، وكان ينتمى إلى أصحاب الشيخ عدى وانتفعت به العدوية .

الأمير ركن الدين أمير عمر أخو تمر .

توفى فى هذه السنة ، وكان قد ورد فى الدولة المنصورية مع جماعة .

---

(١) انظر أيضا تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ١٩٧ — ١٩٨ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٣ ص ٤١١ رقم ٦٨٦ ، الوافى جـ ١٠ ص ٢٠ رقم ٤٦٨١ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٢٠١ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٢٤ .

الأمير بكتوت[1] الفارسى ، مملوك فارس[2] الأتابك .

كان من أجل الأمراء ، والشجعان المجاهدين ، حسن السيرة ، توفى فى هذه السنة .

الأمير علاء الدين كشتغدى ، حمو السلطان الملك العادل ، توفى فى هذه السنة .

الأمير هساف[3] بن الأمير أحمد بن حجى ، أكبر عربان آل برمك وآل مرى .

مات فى هذه السنة مقتولا ، قتله جماز بن سليمان ، ابن أخيه ، بالقرب من مدينة النبى عليه السلام ، وكان قصد الغارة على أهل المدينة وغار على بعضهم ، فركب جماز ومعه جماعة ، والتقوا معه ، فقتله جماز ، وتباشرت الناس بقتله ، وكان كثير الفتن ، وسفك الدماء ، وكان شجاعا مقداما ، وانتشر له صيت فى البلاد ، وكان يدعى أنه من نسل البرامكة ، فكان القاضى شمس الدين ابن خلكان يصدقه ، وكان يقدم معه عند الملوك إذا اشتد به أمر ، وآخره فى الدولة المنصورية .

جمال الدين بن مصعب[4] ، توفى فى هذه السنة بدمشق ، وكان له فيها إقطاع ، وكان ظريفا لطيفا شاعرا ، وكان يلبس بالفقير[5] .

(١) وله أيضا ترجمة فى « تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٢٠١ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٧٤ .

(٢) الأمير فارس الدين الأتابك .

(٣) وله أيضا ترجمة فى « النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٧٤ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى « كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٦٠ .

(٥) « بالفقير » مكررة فى بداية الورقة التالية بالأصل .

[١١٥] فمن شعره فى قصيدة يتشوق فيها إلى دمشق :

دمشق سقاها من دموعى السحائب (١) — وحيا رباها مدمعٌ لى ساكب
ولا برحت أيدى النسيم عواطفا — غصونا لأعطاف الحبيب تُناسب (٢)
بحيث يمد الظل فاضل بُرْدِه — على الغوطة الفيحاء وتصفو المشارب
ويا حبذا وادى المقاسم واديًا — لقد جمعت فى جانبيه العجائبُ
ترى السبعة الأنهار فيه جَوَاريا — فهذا لهذا صاحب ومُجَانِبُ
وفى النيرب المعمور فضّ بنفسج (٣) — به عُطِّرت تلك الرُّبَا والرَّبائب (٤)

(١) « سحائب » فى كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٦٠ .

(٢) « المناسب » فى كنز الدرر .

(٣) « وروض بنفسج » فى كنز الدرر .

(٤) انظر كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٦٠ حيث توجد أبيات أخرى من هذه القصيدة .

فصل فيما وقع من الحوادث
فى السنة الخامسة والتسعين بعد الستمائة(*)

استهلت وخليفة الوقت : الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد العباسى .

وسلطان البلاد : الملك العادل زين الدين كتبغا ، ونائبه بمصر : الأمير حسام الدين لاجين السلحدار المنصورى ، والوزير : فخر الدين بن الخليلى ، ونائب الشام : عز الدين الحموى .

وصاحب حلب : سيف الدين بلبان الطباخى .

وفى مستهل هذه السنة كان الغلاء والفناء بديار مصر شديدا ، وقد تعانى الناس به ، وكانوا يحفرون الحفيرة فيدفنون فيها القيام من الناس ، والأسعار والأقوات فى غاية القلة والغلاء ، فمات بها فى شهر صفر مائة ألف وثمانون ألفا ، وامتد الغلاء بديار مصر حتى قيل إنه أبيع الفروج بالإسكندرية بستة وثلاثين درهما وبالقاهرة بتسعة عشر درهما ، والبيض كل ثلاثة بدرهم ، وأفنيت الحمر والخيل والبغال والكلاب ، ولم يبق شىء من هذه الحيوانات .

وقال بيبرس فى تاريخه : وكنت فى الإسكندرية فى أيام هذه المحن والفناء والغلاء ، وعدت منها إلى الأبواب السلطانية فى هذه السنة، فوجدت حال أهل القاهرة قد آل إلى التلف من المرض الشامل والموت العاجل، ولقد أبيع الفروج

(*) يوافق أولها الخميس ١٠ نوفمبر ١٢٩٥ م .

الواحد بعشرين درهما، والبطيخ الواحد بمائة درهم، والسفرجلة بثلاثين درهما، ومكث الناس على ذلك إلى أن [لطف الله بهم و](١) فرج الله هذه الشدة عنهم(٢) .

وفى نزهة الناظر : دخلت هذه السنة والحال مستمر على تمادى الغلاء وقلة الجلب ، وقبل إدراك الزرع هاجت فى ناحية بلاد المغرب وبرقة ريح سوداء مظلمة ، فأثارت ترابا أصفر فكسى زرع تلك البلاد كلها فأرمى سنبله ، والذى تأخر دخل فيه فأفسده ، فرحل أهل تلك البلاد إلى نحو مصر ، واستمرت تلك الريح والتراب الأصفر إلى أن عمت إقليم البحيرة والغربية والشرقية ، ثم وصلت إلى أعلى الصعيد ، وأخرت الزرع الصيفى جميعه مثل الأرز والسمسم والقصب والقلقاس ، وجميع ما يزرع على السواقى ، فصار فى كل يوم يتزايد سعر الغلة ، ثم أعقب ذلك أمراض اعترت الناس وحُمّى مزعجة وأمراض مختلفة ، فعم الضعف الناس حتى قَلَّ من سَلم من أهل بيت من ذلك ؛ بل غالب كل من فى بيت أو منزل صاروا ضعفاء ، فبسبب ذلك تحسن سعر السكر وأنواع الأدوية ، وعدمت الفواكه ، وبيع الفروج بثلاثين درهما ، والبطيخة بأربعين ، والرطل منها بدرهم ، وبلغ سعر [١١٦] القمح بالتدريج فى هذه المدة الأردب إلى مائة وستين ، وسبعين ، درهما ، ثم إلى مائة وتسعين ، والشعير إلى مائة وعشرين ، والفول إلى مائة وعشرة دراهم ، وكذلك العدس والحمص ونحوهما .

ووصلت الأخبار من بلاد القدس والشام وصلت بتحسين الأسعار فى الغلة ، فوصل كل غرارة إلى مائتين وعشرين درهما ، والشعير إلى مائة وعشرة ، والرطل من اللحم إلى عشرة .

---

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٢) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٩١ أ .

وكذلك وصلت الأخبار من بلاد مكة شرفها الله والمدينة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام أن الأردب من القمح وصل عندهم إلى تسع مائة درهم ، والشعير إلى سبع مائة ، وأن مكة لم يبق فيها من يطوف إلا نفر قليل ، وأن أهل قراها وسكان حدائقها انتزحوا إلى أعلى الجبال ، وإذا سافر الرجل من مكة إلى المدينة لايجد من يدله على الطريق ، والسعيد منهم من له ناقة أوشاة أو شيء من الماشية يأكل لحمها . وكذلك أهل اليمن وقع فيهم الغلاء المفرط حتى باعوا أولادهم بالقوت ، وأن طائفة منهم خرجت قاصدة إلى مكة وعند وصولهم إلى محلة بنى يعقوب وجدوا بها جماعة من أهل مكة قد قتلهم الجوع ولم يبق منهم غير اثنين ضعيفين .

وكذلك وصلت الأخبار من بلاد الشرق بأنهم فى أسوء الأحوال من القحط والفناء وموت المواشى وقلة المرعى ومسك الغيث .

ثم اشتد الحال بأهل مصر حتى صاروا ينهبون الخبز من الأسواق والأفران ، وكان إذا خرج الرجل من بيته بطبق العجين يجتمعون عليه ويأخذونه قطعا قطعا ، وإذا كان فى الفرن خبز لايقدرون على إخراجه حتى يكون حوله جماعة من أهل بيته وبأيديهم عصى يمنعون من يتعرض إليه ، وكان بعضهم يرمى روحه على الطبق من الجوع والضرب عمال على رأسه وظهره وهو لايلتفت فيضرب حتى يقع مغشيا عليه وهو ماسك رغيفا أو قطعة منه بأسنانه .

ثم اتفق رأى السلطان مع الأمراء على أن يفرقوا الصعاليك على الأمراء والأغنياء ، فكتبوا باسم أمير مائة ، وباسم آخر خمسين ، وباسم آخر عشرين ، وباسم آخر عشرة ، نخف عن الناس ما كانوا يجدونه ، ثم جاء الوباء والفناء فى

بلاد مصر وكثرت الأمراض الحادّة وتحسلت أسعار الأشربة والأدوية والحقن ونحوها ، فصار كل شيء بأضعاف قيمته .

قال الراوى : كان دكان برأس حارة الديلم يعرف بدكان الهندى باع صاحبها فى شهر واحد باثنين وثلاثين ألف درهم من الأشربة والأدوية ، وكان مثل ذلك دكاكين أخرى معروفة فى السيوفيين والوزيرية وخارج باب زويلة ، وكان كل طبيب يحصل فى كل يوم من مائة درهم إلى أقل وأكثر ، وكانت ورقة المواريث يكتب كل يوم من الموتى بثلاثة آلاف درهم وكسور هذا للاطلاق من الديوان ، وأما الطرحاء على الدكاكين والذين يموتون فى الأزقة ونحوها فلا يحصرون ولا يضبطون ، وكانوا يحفرون حفرا وآبارا ويرمون الموتى بعضهم على بعض إلى أن جافت بهم الطرقات والأسواق والنواحى ، وكان الذى أعقب هذه[1] الوباء فى هذا الغلاء كثرة أكل لحم بنى آدم ، فإن الناس من الجوع كانوا يأكلون الموتى ، وخصوصا موتى الأطفال ، وكانوا يجدون الرجل والمرأة ميتين وعند رأسهما لحم الميت ، وكان يمسك بعضهم فيوجد معه كتف صغير [١١٧] أو فخذه أو شيء من لحمه .

وفى تاريخ النويرى : أكل الناس الميتة من الآدميين والدواب والكلاب ، وحكى أن متولى القاهرة وجد ثلاثة نفر وبين أيديهم صبيّ سباعى قد قطعوا يديه ورجليه وشووه وهم يأكلون فيه مع خل وبقل وليمون مالح ، وقرّرهم فاعترفوا أنهم فعلوا بالأمس بصبى آخر كذلك ، فشنقوا على باب زويلة ، فلم يصبح منهم شيء ، بل أكلهم الناس .

---

(١) هكذا بالأصل .

وفى نزهة الناظر : ومن خزن فى تلك السنة غلة ربح ربحا نهاية ، ولكن كثير منهم أصيب فى نفسه بشيء من الآفات التى نفق فيها ما كسبه من ذلك .

قال : إن بعض أصحابنا كان عنده نحو ستمائة أردب ، وباع كل أردب بمائة وخمسين ونيفا ، ثم لما رأى زيادة السعر فى الثمن ندم على ذلك ندما عظيما ، ثم عمّر من ثمن القمح الذى باعه قصرا وزخرفه بالرخام وغيره ، وعند فراغه احترق جميعه حتى لم يبق منه شيء ينتفع به أصلا .

قال : وكان الناس فى أشدّ ما يكون من ذلك ، والسلطان ينزل إلى الميدان وهو خائف على نفسه ، محترس من إيقاع فتنة ، ووقع فى خاطره أن يعمل اصطبل الجوق الذى للمماليك السلطانية ميدانا ، وهو اصطبل مجاور لبركة الفيل مقابل للجامع الطولونى ، وحسن له الأمراء ذلك فعمّر ميدانا ، وأنشأ حوله أماكن وبيوتات ، وأول ما أنشأ فيه علم الدين سنجر الخازن ، فنسب الحكر جميعه بإنشائه وبقى إلى يومنا هذا معروفا بين الناس بحكر الخازن ، واتخذت فيه الأمراء الإصطبلات والمناظر ، واتصلت العمارة إلى بركة الفيل ، فصار حكرا كبيرا إلى الغاية ، وكان السلطان ينزل إليه من القلعة ولا يجد أحدا من العالم يقف بين يديه ، ولا يدعو أحد غير جماعة من أصحاب الدكاكين هنالك .

قال : وفيها توقف حال الوزير فظلم الناس كثيرا ، ولذلك شرعت حاشية السلطان ومماليكه فى أخذ الأموال والبراطيل ، فحصل للناس بسبب ذلك ضرر عظيم ، ومع ذلك كانوا يسيئون الأدب على الأمراء والأجناد ، وضاقت الأحوال على الناس من وجوه كثيرة ، ومع هذا توقفت حال الفلوس إلى أن استقرت بالميزان ، وهذا أول من وزنت الفلوس فى دولته ، كل رطل بدرهمين .

وقال بيبرس فى تاريخه : وفيها وهى فى سنة خمس وتسعين وستمائة ورد إلى البلاد الشامية طائفة كثيرة من التتار الأُوَيراتية (1) صحبة طُرْغاى (2) ، وقد ذكرنا طرفا من ذلك فى السنة الماضية (3) على ما ذكره ابن كثير ولكنه ما ذكره مستوفى .

قال بيبرس : وكان سبب هربهم من بلادهم أن طرغاى كان متفقا مع بيدو [بن طرغاى] (4) على قتل كيخاتو (5) ، فلما وصل الملك إلى قازان بن أرغون خاف طرغاى على نفسه لئلا يأخذه بقتل عمه ، فيجعل ذلك الذنب وسيلة إلى سفك دمه ، وكان مقيما بتمانه بين بغداد والموصل ، وكان ابن بغا مقيما بتمانه بديار بكر، فأرسل قازان بُولاَى ومعه تُمان إلى ديار بكر عوضا عن أسنبغا ، وأوصاه بأن يحفظ الطرقات على طرغاى وجماعته ، وإذا وصل من يندبه لقتله يكون مساعدا له ، وجهز قازان أيضا أميرا يسمى قطغو فى ثمانين فارسا ليقبضوا على طرغاى ومن معه من قبيلة [١١٨] أويرات (6) ، فأحس بما دبر عليه قازان ، وعلم أن قطغو إنما جرد إليه للقبض عليه ، فاتفق هو والأمراء الذين معه وهم ألوص وككتاى فقتلوا قطغو ومن معه ، وعبروا الفرات وحضروا إلى الشام ، وبلغ بولاى أنهم ساروا نحو الفرات فسار (7) فى آثارهم ، فالتقوا وتصافوا معه فكسروه ، وقتلوا أكثر التمان الذين معه ، وطرغاى هذا كان متزوجا ببنت منكوتمر بن هلاون .

---

(١) أويراتية : نسبة إلى لفظ أويرات ، وهو اسم جنس يطلق على عدة قبائل مغولية سكنت الجزء الأعلى من نهر ينسى بأواسط آسيا — السلوك جـ ١ ص ٨٠٧ هامش (٣) .

(٢) انظر ترجمة : طرغاى بن عبد الله التترى — فى المنهل الصافى .

(٣) انظر ما سبق ص ٢٧٨ وما بعدها .

(٤) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٥) « كيختو » فى زبدة الفكرة .

(٦) « من أكابر قبيلة أويرات » — تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٢٠٤ .

(٧) « فساروا » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

فلما وردت مطالعات نواب الشام إلى الأبواب السلطانية بوصول هؤلاء الأويراتية أرسل زين الدين كتبغا إليهم الأمير علم الدين سنجر الدويدارى من دمشق لينزلهم فى بلاد[1] الساحل ، ويحضر مقدميهم وكبارهم إلى الباب العزيز ، فأنزل نسوانهم وأولادهم وعامتهم فى بلد الساحل ، وأحضر من أعيانهم نحو مائتى فارس صحبة[2] طرغاى وككتاى والوص[3] مقدميهم ، فلما وصلوا تلقاهم زين الدين كتبغا بالإكرام ، وعاملهم بالإنعام ، [وألم بهم غاية الإلمام][4] ، وعجل لهم الخلع والهبات ، وأعطى أكابرهم الطباخانات « وصاروا يجلسون بالقُلة فى مراتب الأمراء ومقاعد الكبراء »[5] .

وكان الصواب أن يدرجوا قبل أن يقدموا ويمهل عليهم حتى يسلموا ، فإذا دخلوا فى الدين وأقاموا شعائر المسلمين ، وعرف منهم ذلك باليقين ، يرفع منهم من يستحق الرفعة ، وينقلون إلى الأخباز والإمرة .

فلما رأى أمراء الإسلام مافعله مع هؤلاء على غير القياس ، وأنه قدمهم على أكابر الناس كرهوا منه هذه الفعلة ، مع مافى النفوس من تغلبه على السلطنة وخلعه وارث المملكة ، فتغيرت له الخواطر ، وتكدرت منه الضمائر ، وتوثبت مماليكه على الإقطاعات والحمايات ، وامتدت أيديهم إلى الرُّشَى والجبايات ، وتكبروا على الكبراء ، وتقدموا على قدماء الأمراء ، وغابوه على رأيه ، وحجبوه

(١) « بلد » فى زبدة الفكرة .

(٢) « مائة فارس وثلاثة عشر فارسا » فى كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٦٢ .

(٣) « وأركارون » فى كنز الدرر .

(٤) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٥) « » ساقط من نسخة زبدة الفكرة التى بين أيدينا .

بحجاب وجعلوه من ورائه ، ولم يتنبه لردعهم ولا تيقظ لمنعهم ، فتمكنت البغضاء ، وتزيدت الشحناء ،[وهو لا يعلم بما تم ، ولا ينظر فيه نظر من بحسمه يهتم](١) ، وصار الأمراء يعتقدونه راضيا بهذه الأمور ، فامتلأت بالإحنة صدور الصدور ، وكان كما قيل :

وإن(٢) كنت لاتدرى فتلك مُصيبة ... وإن كنت تدرى فالمصيبةُ أعظم(٣)

وفى نزهة الناظر : ومما قاله شمس الدين ابن دانيال(٤) فى ذلك :

ربنا اكشف عنا العذاب فإنا ... قد هلكنا فى الدولة المغلية

جاءنا المغل والغلا فانسلقنا ... وانطبخنا فى الدولة المغلية

وفيه : لما قرب هؤلاء من القاهرة أمر السلطان لسائر الأمراء والعسكر إلى لقائهم ، فخرجوا ، وخرج أهل المدينة كافة ، وكان يوما مشهودا ، ثم أنعم على مقدميهم طرغاى بطبلخاناة ، وكان عزم على أن يعطيه إمرة مائة وتقدمة ألف ، فأشار عليه الأمراء أن يكون طبلخاناة وبعد قليل يكبره ، وأنعم على ألوص بإمرة عشرة ، والبقية بأخباز وإقطاعات ، وعظمهم تعظيما عظيما ، فصار طرغاى يجلس مع مقدمى الألوف ، وتزايد ضرر العالم بالغلاء والويل ، ورأت السوقة من تلك الطائفة وسوء أخلاقهم وبذاذة نفوسهم ما كرهوه ، وقصد

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٢) «فإن» فى زبدة الفكرة .

(٣) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٩١ أ — ١٩٢ أ، التحفة الملوكية ص ١٤٦ ، وانظر أيضا المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٢ — ٢٣ .

(٤) هو محمد بن دانيال بن يوسف الخزاعى المرصلى ، الحكيم الكحال ، الأديب ، المتوفى ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م — المنهل الصافى ، وورد ذكر وفاته سنة ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م — فى فوات الوفيات جـ ٣ ص ٣٣٠ رقم ٤٤٣ .

الأمراء بعد اتفاقهم مع السلطان أن يتحدثوا فى أمر إسلامهم واشتمالهم على الدين الحنيفى [١١٩] ، وأن يتعلموا فرائض الإسلام ، فتحدث السلطان مع طرغاى فى هذه القضية ، فلم يجد لهم قابلية فى ذلك الوقت ، وعرف الأمراء أنهم يحتاجون إلى تطويل المدة فيهم والتدريج بأمرهم قليلا قليلا .

قال ابن كثير : وفى يوم السبت الثانى عشر من[1] جمادى الأولى ولى قضاء القضاة بالديار المصرية الشيخ الإمام العلامة شيخ الإسلام تقى الدين بن دقيق العيد[2] ، عوضا عن تقى الدين بن بنت الأعز .

ثم أرخص الناس بمصر ، وزال الضرر والجوع فى جمادى الآخرة .

وفيها فى رجب : وقعت صاعقة على قبة زمزم فقتلت الشيخ على بن محمد بن عبد السلام مؤذن المسجد الحرام ، كان يؤذن[3] على سطح القبة المذكورة ، وكان قد روى شيئا من الحديث ، رحمه الله .

ذكر توجه السلطان الملك العادل كتبغا من الديار المصرية قاصدا إلى الشام :

وفى نزهة الناظر : والسبب لذلك أن الأمراء الأكابر لم يعجبهم ما فعله السلطان مع الأويراتية من كثرة الإكرام وعلو منازلهم ورفعتهم فوق غيرهم ،

(١) « ثامن عشر » فى السلوك جـ ١ ص ٨١٣ .
و« وفى يوم الخميس سادس عشره » فى تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٢٠٥ .

(٢) هو محمد بن على بن وهب بن مطيع القشيرى ، المعروف بابن دقيق العيد الشافعى ، المتوفى سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م — المنهل الصافى ، الوافى جـ ٤ ص ١٩٣ رقم ١٧٤١ ، فوات الوفيات جـ ٣ ص ٤٤٢ رقم ٤٨٦ ؛ الدرر جـ ٤ ص ٢١٠ رقم ٤١٢٠ .
وانظر ما يلى ص ٣١٩ .

(٣) انظر السلوك جـ ١ ص ٨١٥ .

واتفق أنه دخل شهر رمضان المعظم ولم يروا أحدا منهم صام ؛ بل رأوا أكثرهم مفطرين ، فخاطب الأمراء السلطان فى ذلك وقالوا : ينبغى أن يخاطب هؤلاء فى الإسلام ويتعلمون شرائع الدين ، ولا يمكن أن هؤلاء فى بلاد الإسلام وفى مملكة مصر على غير دين الإسلام ، فلم يرجع إلى شىء من كلامهم ، فقال : لا يشوش أحد عليهم ، فخلوهم يكونون على دينهم .

فوجد الأمراء من ذلك أمرا عظيما مع تطاول مماليكه وحاشيته عليهم ، وعلى الناس من كثرة المظالم والحمايات ، مع ما اتفق من الغلاء والوباء ، فاتفق الأمراء فيما بينهم على عزله من الملك ، ولم يجدوا لذلك سبيلا غير أن يشيروا عليه بخروجه إلى السفر ليحصل لهم الغرض ، فأخذوا معه فى ذلك ، وحسنوا له الخروج لافتقاد أمور البلاد والعباد ، وعرض العساكر ونواب القلاع ، ولتكون أيضا سمعة فى بلاد العدو أن السلطان قد خرج ومعه العساكر ، وأيضا يحصل التخفيف فى الديار المصرية من العساكر .

فأجابهم إلى ذلك ، وخرج فى العشر الأخير من شوال[1] من هذه السنة ، فقدم دمشق يوم السبت نصف ذى القعدة ، ودخلها والأمير بدر الدين بيسرى حامل الجتر على رأسه .

قال صاحب النزهة : وخرج نائب الشام إلى ملتقاه ، ولم يجد أهل الشام محتفلين له كعادة الملوك المتقدمة عند دخولهم ، فطلب الوالى وأمره أن يخرج أهل دمشق إلى الملاقاة ، ويوقدوا الشمع ، ويظهروا الفرح بقدوم السلطان ،

(١) « فى يوم السبت سابع عشر شوال » ـ السلوك ج ١ ص ٨١٦ ، تاريخ ابن الفرات ج ٨ ص ٢١٢ ، النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٦١ ، كنز الدرر ج ٨ ص ٣٦٥ .

وورد ذكر خروج السلطان إلى الشام ، وما تلاه من أحداث فى بداية حوادث سنة ٦٩٦ هـ فى التحفة الملوكية ص ١٤٧ .

ويزينوا المدينة ، فركب الوالى وفعل ما أمره ، ففعلوا ذلك مكرهين من غير خاطر، وأعلنوا بالدعاء للأمير حسام الدين لاجين ومماليك السلطان مثل بتخاص والأزرق وغيرهما ، علموا ذلك وشاهدوا ، فلم تطب خواطرهم ، وعرفوا بذلك السلطان وأغروه على نائب الشام وأهلها ، فطلب الصاحب فخر الدين بن الخليلى واتفق معه على مصادرة جماعة من دواوين الشام ومباشريها ، فرسم عليهم وعلى شمس الدين سنقر الأعسر مشد الدواوين ، وعلى الأمير سيف الدين اسندمر كرجى متولى البر ، وشرف الدين بن فضل الله كاتب السر بدمشق ، واستخرج من أهل الشام [١٢٠] أموالا كثيرة ، وأهانهم إهانة بالغة ، ومسك الأمير عز الدين أيبك الحموى نائب الشام وولى عوضه مملوكه غرلو(١) العادلى ، وأخذ أموال نائب الشام، وختم على سائر حواصله فلم يطب ذلك على خواطر الأمراء .

وكان قد ورد صاحب حماة إلى ملتقى السلطان ، فاجتمعت به الأمراء واتفقوا معه على الكلام مع السلطان فى أمر نائب الشام ، فحضروا إليه وقالوا يا خوند : إن الأمير عز الدين رجل من أكابر الدولة ، وله خدمة متقدمة ، ولم يظهر منه قط حياته ، فعلم السلطان أنهم متفقون على خلاصه، فأجابهم إلى ذلك، فطلب الحموى وخلع عليه خلعة الرضى ، ثم خلع على مملوكه غرلو بنيابة الشام ، وكانت خلعة العزل والرضى وخلعة التولية فى وقت واحد، ثم إن السلطان جرد من عسكر الشام جماعة صحبة عسكر مصر وأمرهم أن يتقدموا إلى حلب ، وأقام بعد ذلك بدمشق ، وصلى بجامع بنى أمية .

وقال ابن كثير : لما كان يوم الجمعة الثامن والعشرين من ذى القعدة صلى الملك العادل بمقصورة الخطابة ، وعن يمينه صاحب حماة الملك المظفر، وتحته

(١) « أعزلوا العادلى » فى النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٦١ .

بدر الدين أمير سلاح ، وعن يساره أولاد الحريرى ، ثم بدر الدين بيسرى ، وتحته قراسنقر ، وإلى جانبه الحاج بهادر ، وخلفهم الأمراء الكبار ، وخلع على الخطيب خلعة سنية ، وهو قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة ، ولما قضى الصلاة سلّم على السلطان ، وزار السلطان المصحف العثمانى ، ثم أصبح يوم السبت فلعب بالميدان بالأكرة على العادة .

وفى يوم الإثنين ثانى ذى الحجة (١) عزل الأمير عز الدين الحموى عن النيابة ، وعاتبه عتابا كثيرا على أشياء صدرت منه ، ثم عفى عنه وأمره بالمسير معه إلى مصر ، واستناب بالشام سيف الدين أغرلو ، ثم حضر السلطان دار العدل وحضر عنده الوزير والأمراء والقضاة ، وكان عادلا كما سُمِّىَ .

وفيه تولى شهاب الدين الحنفى الوزارة ، عوضا عن التقى التكريتى ، وولى تقى الدين بن شهاب الحسبة ، عوضا عن أبيه ، وخلع عليهما ، ثم سافر السلطان فى الثانى عشر (٢) من ذى الحجة واجتاز على جوسية (٣) ، ثم أقام بالبرّية أياما ، ثم عاد فنزل حمص وجاء إليه نواب البلاد ، ثم عاد نحو ديار مصر .

وفى نزهة الناظر : وبعد أن صلى السلطان بجامع بنى أمية خرج قاصدا نحو حمص ، وضرب الدهليز على بحيرة حمص ، وصار فى كل يوم يتوجه إلى الصيد وصحبته صاحب حماة ، واتفق أن السلطان رمى غزالا فى الحلقة وأحضره معه إلى

---

(١) « أول يوم من ذى الحجة » تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٢١٤ .

(٢) « وفى ثامن عشر » تاريخ ابن الفرات جـ٨ ص ٢١٤ .

(٣) جوسية : قرية من قرى حمص ، تقع إلى الشرق من حمص بنحو ١٨ ميلا ، فيها عيون تسق أكثر ضياعها ، وقد اشتراها الصاحب شهاب الدين الحنفى للملك العادل — معجم البلدان ، النجوم الزاهرة جـ٨ ص ٦١ .

الدهليز ، وكان قد حضر عنده الشيخ حسن القلندرى (١) — شيخ القلندرية بدمشق — وكان ممن يصحب السلطان وينتمى إليه وإلى جماعة من الأمراء ، فقال له يا شيخ حسن : هذا صيد يدى خذه لك ، فقبل الأرض وقال : يا خوند : يأخذ الفقراء هذا الغزال ويودونه (٢) إلى موضع يختارونه ، ويعملون هناك وقتا ويدعون للسلطان ، فقال : وأين تودّيه ؟ فقال : إلى صاحب حماة ، فتبسم وقال له : خذ ، فأخذه وأتى به إلى صاحب حماة فأنعم عليه بتشريف طرد وحش وكلوتاه زركش ، فأراد أن يمتنع من لبس الكلوتاه وقال : أنا رجل فقير قلندرى لايمكننى أن ألبس غير لبسى . فقال له : إن [١٢١] التشريف تشريف السلطان ، ولا يمكن أن يكون غير ذلك ، فلبسه ، وحضر عند السلطان وعرفه أنه أكرهه على لبس الكلوتاه ، فاجتمعت حوله الأمراء وانبسطوا معه كما هى عادتهم معه من الانبساط والضحك ، وهم فى ذلك وإذا صاحب حماة قد حضر ، فتقدم إليه الشيخ حسن وقال له يا خوند : إيش عملت معى ؟ وقد أنكرت على الأمراء والفقراء يطالبونى على ذلك ، فأنعم عليه بألف دينار ، ولما حضر إلى دمشق عمل وقتا عظيما فى زاوية الشيخ الحريرى ، وحضرت عنده مشايخ دمشق وفقراؤها .

ثم إن السلطان أقام هناك أياما برسم الصيد والتنزه ، ثم رجع إلى ناحية دمشق وأقام بها أياما ، وفى تلك المدة زاد فى إكرام طرغاى وألوص والأويراتية ،

---

(١) هو حسن الجوالق القلندرى المتوفى سنة ٧٢٢ هـ / ١٣٢٢ م — المنهل الصافى ، النجوم الزاهرة جـ٩ ص ٢٥٦ ، الدرر جـ٢ ص ١٣٥ رقم ١٥٧٩ .

وانظر ما جاء عن الشيخ حسن القلندرى فى زبدة الفكرة (مخطوط) جـ٩ ورقة ١٩٢ب — ١٩٣أ .

(٢) أى ينقلونه .

وقربهم إليه جدا ، ووعد لهم بمواعيد حسنة ، فصار يلهج بذكرهم مع أكابر الأمراء ويبث شكرهم ، وكان كثيرا ما يذكرهم لنائبه الأمير حسام الدين لاجين ، وكان لاجين يستحسن جميع ما يصدر منه من القول والفعل ، ثم يعرّف الأمراء ما فى نفس السلطان من الفعل إلى أن تحملوا كلهم عليه ، فاتفقوا على خلعه .

ذكر اتفاق الأمراء على خلع السلطان :

وكان السبب لذلك أمورا منها تقديم السلطان الأويراتية لكونهم من جنسه ، ومنها عدم التفات السلطان إلى كلام الأمراء الكبار ، ومنها تطاول مماليكه على الناس وخصوصا على الأمراء بالإساءة وقلة الأدب ، فشرعت الأمراء عند ذلك فى التدبير على خلعه ، وانتهزوا الفرصة فى هذه السفرة ، واجتمع الأمير حسام الدين لاجين بالأمير سيف الدين بهادر الحاجب وغيره ، واستوثق بعضهم بالبعض باليمين ، وكذلك قراسنقر وبقية الأمراء ، فصار كل منهم يخلو بأمير أو بخشداشه إلى أن وصل الأمر إلى البيسرى والأمير قفجاق ، فاتفقوا كلهم على خلعه من غير قتله ، وقصدوا مجرد خلعه عن المسلمين وإزالة ما نالهم من الضرر والفناء والغلاء وقلة الوفاء من النيل والمظالم من مماليكه والتفاته إلى جهة الوافدين من الأويراتية ، ووقع اتفاقهم على ذلك عند خروجه من دمشق وقبل دخوله إلى مصر .

وكان خروجه من دمشق فى العشر الأول من محرم السنة الآتية ، وما وصل إلى منزلة العوجاء إلا وقد اجتمعت قلوب سائر الأمراء على خلعه من الملك وتفريق حاشيته ، فحين وصلوا إلى العوجاء ونزلوا ، ونزل السلطان ، ركبوا ،

فأول ماركب نائب السلطان والحاج بهادر الحاجب ونشر كل منهما سنجقه ، وكان بقى العلامة بينهم ، فعند ذلك ركب الأمير قفجاق وقراسنقر و بيسرى وسائر الأمراء ، وأول ما اصطلى بنار الحرب الأمير حسام الدين لاجين نائب السلطنة ، ولم يكن له همة غير مخيم الأمير بدر الدين بكتوت الأزرق — لما كان يعلم من قوته وشدته — وكان مشهورا بالفروسية فخشى عاقبة أمره فجعله قصده ، ثم لما ساق إلى خيمته سمع الأزرق وقوع الصوت وهيجان الخيل ، فنهض عند ذلك من خيمته ينظر ما ذاك ، فرأى موكب لاجين قد أقبلت ، ورأى الخيل قد أدركته ، وأنه ليس له مهلة أن يعتد وما قدر إلا على فرسه ، فركب وأخذ شطفته التى يعتادها ، [١٢٢] فأدركته الخيل ، وبقى لا يدرى يقصد من ، واحتاطوا به ، وضربه مملوك يسمى طيبرس و يلقب بوجه الحسب ، وكان من جملة المماليك السلطانية الذين فرقهم كتبغا على الأمراء ، وكان المذكور وقع للأمير حسام الدين لاجين ، ولما ضربه بالسيف حل عاتقه فوقع على الأرض قتيلا وكانت خيمته مجاورة لخيمة بتخاص ، فلما رأى الغلبة فى مخيم الأزرق أراد أن يركب فلم يمهلوه فقتل على باب مخيمه .

وأما السلطان فإنه قد كان تخلف وجلس مع بعض خاصكيته ، فسمع الطبلخاناة والغلبة أمر من يكشف الخبر ، فرجع وقد اختبل مما رآه ، فنهض السلطان بنفسه فنظر ، و إذا الخيل قد أقبلت ، وسناجق الأمراء قد نشرت ، وكان عنده بعض الخبر من ذلك فإن الأمير بدر الدين أمير شكار كان ممن أنشاه السلطان وكبره فى دولته وقربه حتى صار أمير شكاره وصاحب مشورته ، وكان من مماليك الخزندار نائب الدولة الظاهرية ، وكان صاحب معرفة وتدبير ، وكان قد تنسم بعض الخبر عند خروجه من دمشق ، وعرف السلطان بذلك وحذره ، فلم يعبأ به السلطان ، ولم يعتقد صحة ذلك ، فلما رأى ما رأى تحقق

الخبر ، فقام ولم يلحق غير لبس شاشه وقباء نوقانى ، وركب فرسه[1] ، وركب معه من مماليكه مقدار عشرين نفسا كانوا قريبين منه ، وركب من سلحداريته مملوك له يسمى سيف الدين تكلان ، وخرجوا من المخيم وقصدوا نحو دمشق ، ولحق أيضا الأمير بدر الدين أمير شكار ، وقال له : يا خوند : ما قلت لك ، ما سمعت منى ، فقال : فات الذى فات ، وما لحقوا أن يخرجوا من أطراف الخيم حتى أدركهم لاجين فى موكبه ، وسبق إلى السلطان حمدان بن صلغاى ، وكان ممن أحسن اليه العادل فى دولته ، فلم يمكنه أمير شكار ، وصاح عليه ، وقال : ويلك هذا جزاؤه منك ، فرجع عنه ، وقصد موكب لاجين الإدراك بالسلطان ، فمنعهم من ذلك وقال : ما قصدنا غير خلعه وهو خشداشى وبينى وبينه أيمان ، ما أخونه فى نفسه ، غير أنكم إن أردتم فالحقوا بماليكه ، وبقى يسوق على مهله ، فرجع إليه مملوك العادل تكلان السلحدار ، وأراد أن يهجم على لاجين ويشغله عن أستاذه أو يقتله أو يموت ، فرآه لاجين وقد عرج نحوه ، فتقدم فأدركه وضربه بالسيف ، فجرحه فى وجهه ، وضرب هو أيضا لاجين ، فجرح فرسه ، ثم ضربه لاجين فى ثلاث مواضع وجرح فرسه فى أماكن عديدة ، فوقع الفرس على الأرض ووقع تكلان ، فقصدوا قتله ، ومنعهم لاجين ، وأمر بأن يحمل فحملوه ، وهو مثخن بالجراحات ، وقال : مثل هذا المملوك إذا قاتل عن أستاذه ما ينبغى أن يقتل .

ووقعت النهبة فى الوطاق ، وما جاء المغرب حتى رجعت الأمراء بأطلابها وسكنت الحال ، ورجعوا إلى مخيمهم ونزلوا ، وأخذت حاشية كتبغا فى

(١) « وركب فرسا كان يسمى عنده ابن قر » — كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٦٦ .

الهزيمة ، واستمر كتبغا سائقا إلى أن وصل إلى دمشق ومعه عشرون مملوكا ، ودخل دار السعادة فى السحر ، واجتمع بمملوكه أغرلو نائب الشام ، وأخبره ما اتفق له مع لاجين نائبه والحاج بهادر ، وكيف غدروا به بعد الوثوق بهم .

وبلغ أهل دمشق حضوره [١٢٣] وعلموا أنه ما جاء على هذه الهيئة إلا لأمر حصل . وكان قد وقع فى نفوسهم له من الكره لأجل مصادرته إياهم ، واجتمع على باب سعادة خلق كثير .

ورأى أغرلو أن السكوت فى هذا الموقف يؤول إلى الفساد ، فاقتضى رأيه طلب الأمراء والمقدمين ، فحضروا ، وطلب القضاة أيضا فحضروا ، وعرفهم بما وقع من لاجين فى حق السلطان ، وأنه ما اختار أن يعمل فتنة ، ولا يسفك دما ، وأنه قصدهم لما يعلم فيهم خيرا ، ثم قال لهم : هل أنتم على ايمين التى حلفتم ، وأنكم رضيتم بسلطنتى ، أو أنتم أيضا غدرتم ، فقالوا : نحن ما حلفنا لغيرك وما رضينا سلطانا غيرك ، فقدموا المصحف وحلفوا له ثانيا بأنهم باقون على أيمانهم لاينقضون ولا يغدرون .

ثم أسرع السلطان فى تفريق الأموال والنفقات فى الجند ، وقدر فى نفسه أن يملك دمشق ويستمر سلطانا بها ، ويستخدم عساكرها ، كما فعل من تقدمه .

ذكر بقية الحوادث :

منها أن السلطان أفرج عن الأمير عز الدين أيبك الخزندار ، نائب طرابلس ، وكان اعتقاله دون أربعة أشهر ، ولما كان السلطان بدمشق عرفه الأمراء بأنه من مماليك الشهيد ، وأكبر خشداشية السلطان ، وكان السلطان قال لهم

إنه كثير الشر والعربدة ، وأنه سكر ، وقيل : أستاذ داره ، لما تحدثوا معه فى خلاصه ، سعى إليه واستتابه عن الشراب فتاب ، وضمنته الأمراء ، وأفرج عنه وأنعم عليه بمال من الخزانة وإقطاع مائة فارس .

ومنها أنه وردت الأخبار فى هذه السنة بإسلام قازان بن أرغون بن أبغا ملك المغول ، والسبب فى إسلامه أن وزيره نوروز[1] كان من أكابر أمراء المغول ، وله المنزلة الكبيرة ، وكان يصحب المشايخ والفقراء ، واطلع على كتب كثيرة ، وعلم حقيقة دين الإسلام ، ولما حصل له من القرب من قازان ، وتوثق به قازان ، وحكّمه فى مملكته ، اتفق فى تلك المدة وصول الشيخ صدر الدين بن محمد ابن حمويه الشافعى إلى نوروز ، فتحدث معه ، وأمره أن يستميل قازان إلى الإسلام ، فاجتمع نوروز بقازان وتحدث معه فى دين الإسلام ، وبين له محاسنه ، وما يحصل له من البركة ، واستجلاب الرعية والتجار ، ولم يزل به على ذلك إلى أن وافق على ذلك ، وقال له : ينبغى أن يكون إسلامك على يد الشيخ صدر الدين المذكور ، والشيخ علم الدين بن البرزالى ، وكان عند نوروز ، وكان كبير القدر ، واتفق مع ذلك وصول الشيخ صدر الدين الجوينى بن شيخ الشيوخ ببغداد ، وكان معظم القدر ، صاحب علم ودين وبر ، فاتفق الجميع ، ودخلوا على قازان ، فتلقاهم بالإكرام والقبول ، وهداه الله إلى دين الإسلام ، فأسلم على يدهم ، وكان ذلك فى العشر الأخير من شعبان ، فعند ذلك أمر بالمناداة فى أوردو برفع المظالم عن الناس ، وإظهار شرائع الإسلام ، وأمر بعمارة المساجد والجوامع ، وصام شهر رمضان ، وأسلمت معه جماعة من المغول ، وكان له يوم الفطر عيد عظيم ، وسمع الخطبة ، ونثر على رأسه يوم صلاته فى يوم العيد الذهب والفضة ، وأمر أن تعمل له سناجق خليفتية ، ورسم أن تخرب الكنائس والبيع ، وقرر على

(١) « نوزون » فى البداية والنهاية ــ انظر ما سبق ص ٢٨٠ .

اليهود والنصارى الجزية ، وأقام الشيخ عنده يعلمه فرائض الإسلام ، وقصد الشيخ الحج بجهزه ، وسيّر معه نفقات كثيرة تعطى [١٢٤] لأشياخ مكة وفقرائها . وشاع خبره في بلاد مكة وغيرها بأنه أسلم .

ولما وصل الخبر بذلك إلى السلطان ، جمع الأمراء لذلك وعرفهم ، فلم يعجب ذلك بعض الأمراء الكبار، وأنكروا إسلامه ، وأنه ربما يكون ذلك مكيدة على المسلمين ليطمئنوا ثم يمشي عليهم على غفلة منهم .

ولما بلغ ذلك طرغاي وأصحابه الأويراتية أنكروه أيضا ، وخطر لهم أنهم أشاعوا ذلك ليرغموهم على الإسلام، فلم يلتفتوا إلى ذلك القول .

وقد ذكرنا أن ابن كثير ذكر إسلام قازان في السنة الماضية(1) ، وذكرنا طرفا منه .

ومنها أنه وقعت في هذه السنة أعجوبة ، وهي أن بعض الأمراء بالقاهرة كان جالسا على باب داره، وإذا بامرأة فقيرة تسأل ، وهي من أحسن الناس صورة ، فاستوقفها ، وقال للخادم : خذ هذه وادخل بها الدار ، واطعمها حتى تشبع ،وكان ذلك من قوة الجاه، فدخل بها الخادم،وأحضر لها رغيفا فأكلته، ثم أحضر ثانيا فأكلته ، ثم أحضر ثالثا فأكلته ، ثم قال الأمير : هاتوا لها زبدية طعام لأجل الدسم ، فأحضروا لها خافقية كبيرة، فأكلت أكثرها، ثم استندت إلى الحائط لتستريح ، فإذا بها قد ماتت ، ووجدوا على كتفها جرابا مسحورة باقي ما فيه يد صغير ورجله(2) .

---

(1) انظر البداية والنهاية جـ١٣ ص ٣٤٠ .
وانظر ما سبق ص ٢٨٠ .
(2) انظر أيضا السلوك جـ ١ ص ٨١٤ .

ومنهـا أنه ظهر بدمشق قتل فاحش ، فكان كل يوم يوجد إثنـان وثلاثة مقتولين ، ولم يدروا ذلك حتى أتى « . . . . »[1] حتى حضر والى المدنية ، وأرصد جماعة « . . . . »[2] أبوابا للدروب ، و بقى يركب طـول الليل دابتـه و يدور البلد ، والأمر فى تزايد والأقاويل مختلفة ، وفى بعض الليالى مسكوا فقيرا مولهـا فاعترف أنه هو الذى يقتل ، فأخذوه وسمروه ، فسكن الناس واطمأنوا .

ومنهـا فى العشر الأول من المحرم أشاع فى دمشق حديث عن قاض قـرية عسال[3] من قرى دمشق ، أنه تكلم ثور فى القرية المذكورة ، وهو أنه خرج ليشرب من ماء هناك ومعه صبى ، فلمـا فرغ من شربه حمد الله تعالى ، فسمعه الصبى ، وحكى ذلك لمـالك الثور ، فأنكره ، وخرج فى اليوم الثانى سقيه مع الثور ، فلما شرب حمد الله ، وحدث بذلك الحاضرين هناك ، ثم قال الثور أن الله كان قد كتب على الأمة سبع سنين جدبا ، ولكن بشفاعة النبى صلى الله عليه وسلم أبدلهـا بالخصب ، وذكر أن النبى عليه السلام أمره تبليغ ذلك ، وأنه قال له : يارسول الله ما علامة صدقى عندهم ؟ ، فقال : أن تموت عقيب الإخبار . قال الحاكى : ثم قدم الثور إلى مكان مرتفع فمات[4] ، فأخذ أهل تلك القرية من شعره للتبرك ، ثم كفن ودفن[5] .

---

(١) « . . . . » كلمة غير مقروءة .

(٢) « . . . . » ثلاث كلمات غير مقروءة .

(٣) « جبة عسال » فى السلوك جـ ١ ص ٨١١ .

جبة عسيل : ناحية تشمل عدة قرى بين دمشق و بعلبك ــ معجم البلدان .

(٤) « ثم مضى الثور إلى موضع مرتفع وسقط ميتا » ــ السلوك جـ ١ ص ٨١١ ــ ٨١٢ .

(٥) وردت نفس القصة فى أحداث سنة ٦٩٣هـ ، وعلى أنها حدثت فى قرية من قرى نواحى الصعيد بمصر ــ انظر بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٣٨٠ ــ ٣٨١ .

ومنهـا ما قال بيبرس في تاريخه : جردت إلى الإسكندرية ، وكان قد بلغ زين الدين كتبغا قبل سفره إلى الشام أن العربان الذين ببرقة قد عبثوا بالمسلمين ، وباعوا منهم جماعة للفرنج ، وأن منصور بن روق كان الباعث على بيعهم بسبب الغلاء الذي عم تلك البلاد ، وأحوج الآباء إلى بيـع الأولاد ، فوردت إلىّ مكاتبات العادل بالتوجه إلى برقة ومقاتلة هؤلاء إن كان ما نقل عنهم حق ، وجرد الأمـير سيف الدين بلبان الحبشي وأصحابه وجماعة من الحلقة ، فعزمنا على التوجه إلى الجهة الغربية ، وبرز من ثغر الإسكندرية ، ونزلنا على تروجة ، فبينما نحن عليهـا نازلون وللرحلة مزمعون ، ورد البريد يخـبر[(١)] بخلع زين الدين كتبغا من الدست واستقرار الأمـير حسام الدين لاجين المنصوري في الأمر ، ورسم لنا بالعود إلى القاهرة ، فعدنا في أوائل سنة ست وتسعين وستمائة[(٢)] .

[١٢٥]

ومنهـا : أنه ولي القضاء بالديار المصرية على الطائفة الشافعية الشـيخ تقي الدين محمـد بن علي بن أبي العطايا القشيري المعروف بابن دقيق العيد ، بعد وفاة القاضي تقي الدين عبد الرحمن بن القاضي تاج الدين عبد الوهاب بن بنت الأعز ، وكانت وفاته في نصف جمادى الأولى ، وتولية المـذكور في الحادي والعشرين منه[(٣)] .

---

(١) « مخبرا » في زبدة الفكرة .

(٢) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٩٣ أ ، ب .

(٣) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٩٣ ب .

وانظر ما يلي في الوفيات .

وفى نزهة الناظر : ولما مات ابن بنت الأعز اتفقت الأمراء والأكابر على تولية الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد ، وعرفوا السلطان دينه وعلمه ، وأنه قد عرض عليه القضاء قبل ذلك مرارا فلم يقبل ، فنزلت إليه الأمراء وسألوه فأجاب إليهم ، وهو أول من لبس الصوف من القضاة فى السلطنة .

قال المؤرخ : وبلغنى من شيخ الحديث فتح الدين بن سيد الناس أن ولد الشيخ قال للشيخ : يا سيدى كيف قبلت الولاية فى هذا الوقت وقد كنت تأبى عنها ؟ فقال له ياولدى : وجب ذلك على من وجوه . أحدها : أنه ليس لى شيء يكفينى للعيال ، والثانى : عندى كتب العلم فأحتاج أن أبيع الكتاب الذى يساوى مائة بخمسين درهما . والثالث : لم يبق لتولية القضاء من هو أحق منى بالولاية ، فتعين على .

ولما ولى كتب بخطه لسائر نوابه وهو يحذرهم وينذرهم ويخوفهم من الله ، ونسخة الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم « الفقير إلى الله محمد بن على »[1] ﴿ يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم – إلى – ما يؤمرون ﴾[2] ﴿ يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾[3] ، ويمهل حتى يلتبس الإمهال بالاهمال على المغرور ، وتحذره صفقة من باع الآخرة بالدنيا ، فما أحد سواه مغبون ، ولاسيما القضاة الذين تحملوا أعباء الأمانة على كواهل

---

(١) « الفقير إلى الله محمد بن على » .
هذه هى علامة القاضى ، وهى صيغة يختارها القاضى تعبر عنه وتغنى عن التوقيع – انظر صبح الأعشى ج ١٤ ص ٣٤٢ – ٣٤٩ ، فهرست وثائق القاهرة : ص ٣٤٧ هامش (٤) .

(٢) ﴿ يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون ﴾ – الآية ٦ من سورة التحريم رقم ٦٦ .

(٣) الآية رقم ١٩ من سورة غافر رقم ٤٠ .

ضعيفة ، وظهروا بصور كبار وهمم نحيفـة ، والله إن الأمر لعظيم ، والخطب لجسيم ، وإن خفى عنـكم من ذلك فتأملوا كلام النبـوة : القضاة ثلاثة[(١)] . وقوله صلى الله عليه وسلم : لاتتأمرن على اثنين ولا تَلِيَنَّ مال يتـيم[(٢)] ، فلا حول ولاقوة إلا بالله العلى العظيم .

هيهات جف القلم ونفذ أمر الله ولاراد لما حـكم . وقال الفاروق : ليت أم عمر لم تلده ، واستسلم عثمان رضى الله عنه وقال : من أغمـد سيفه فهو حر . وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : والخزائن [بين يديه][(٣)] مملوءة ،من يشترى منى سيفى ، وقطع الخوف نياط عمر بن عبد العزيز رضى الله عنـه ، فمـات من خشية الفرض ، فاجعـلوا أكبر همومكم الاسـتعداد للمعاد والتهيؤ للجواب للمـلك الجواد ، فهو يقول ﴿ فوربك لنسألنهـم أجمعـين عما كانوا يعملون ﴾[(٤)] . هـذه نصيحتى إليكم وحجتى عليكم إذا وقفت بين يدى الله تعالى[(٥)] .

---

(١) (القضاة ثلاثة : إثنان فى النار ، وواحد فى الجنة : رجل علم الحق فقضى به فهو فى الجنة ، ورجل قضى للناس على جهل فهو فى النار ، ورجل جار فى الحكم فهو فى النار) — رواه أبو داود ، وابن ماجة — انظر سنن ابن ماجه — تحقيق محمـد فؤاد عبد الباقى جـ ٢ ص ٧٧٦ حديث رقـم ٢٣١٥ .

(٢) (يا أباذر إنى أراك ضـعيفا ، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى ، لا تأمرن على اثنـين ولا تولين على مال يتيم) — رواه النسائى — انظر سنن النسائى بشرح الحافظ جلال الدين السيوطى — باعتناء عبد الفتاح أبو غدة جـ ٦ ص ٢٥٥ حديث رقم ٣٦٦٧ .

(٣) [ ] اضافة من تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٢٠٧ .

(٤) سورة الحجر رقم ١٥ آيات رقم ٩٢ ، ٩٣ .

(٥) انظر تفصيل هـذه المكاتبة ، وحيث توجد زيادات فى النص فى تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

وفيها : بلغ النيل ثمانية عشر ذراعا وأصبعا واحدة .

وفيها : حج بالناس من مصر الأمير عز الدين أيبك الخزندار المنصورى ، ومن الشام الأمير سيف الدين بهادر العجمى ، رحمه الله .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

الشيخ الإمام العالم العامل العلامة مفتى المسلمين زين الدين أبو البركات المنجى (١) بن الصدر عز الدين أبى عمرو عثمان بن أسعد بن المنجى بن بركات بن المؤمل التنوخى ، شيخ الحنابلة وعالمهم .

ولد سنة إحدى وثلاثين وستمائة ، وسمع الحديث ، وتفقه ، وبرع فى فنون كثيرة من الأصول والفروع والعربية والتفسير ، وصنف فى الأصول ، وشرح المقنع (٢) ، وله تعاليق فى التفسير ، توفى يوم الخميس الرابع من شعبان [١٢٦] ، وتوفيت معه زوجته أم محمد ست البهاء بنت صدر الدين الخجندى من غير مرض ، فغُسلا فى وقت واحد وحُملا إلى الجامع ، وصُلّى عليهما عقيب الجمعة ، ودُفنا بسفح قاسيون فى تربة واحدة شمالى الجامع المظفرى (٣) .

الشيخ الصالح إسرائيل (٤) بن على بن حسن الخالدى .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الاسلاك ص ١٢٩ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ١٥٥ رقم ٢٥١ ، السلوك جـ١ ص ٨١٧ ، البداية النهاية جـ ١٣ ص ٣٤٥ ، الدارس جـ ٢ ص ٧٣ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٣٢ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٩٠ — ١٩١ .

(٢) هو كتاب « المقنع فى فروع الحنبلية » لموفق الدين عبد الله بن قدامة الحنبلى ، المتوفى سنة ١٢٢٣/٦٢٠ م — كشف الظنون جـ ٢ ص ١٨٠٩ .

(٣) الجامع المظفرى بدمشق : المشهور بجامع الجبل ، وبجامع الحنابلة ، بسفح قاسيون — الدارس جـ ٢ ص ٤٣٥ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٢ ص ٣٦٧ رقم ٤١٢ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٤٥ .

له زاوية خارج باب السلامة يقصد فيها للزيارة ، وكان مشتملا على عبادة وزهادة لا يقوم لأحد من النـاس ولو كان من كان ، وعنـده سكون ومعرفة ، لا يخرج من منزله إلا للجمعـة حتى كانت وفاته فى النصف من رمضان ، ودفن بقاسيون .

قاضى القضاة شرف الدين أبو الفضـل الحسن[1] بن الشيـخ الإمام الخطيب شرف الدين أبى بكر عبد الله بن الشيخ أبى عمر المقدسى .

سمع الحديث وتفقه ، وبرع فى الفروع والنحو واللغة ، وتولى القضاء بعد نجم الدين بن الشيخ شمس الدين[2] فى أواخر سـنة تسع وثمـانين ، وكانت وفاته ليـلة الخميس الثـانى والعشرين من شـوال وقد قارب الستين ، ودفن بمقـبرة جدّه بالسفح .

الشيخ الإمام العالم البـارع الناسك أبو محمد بن أبى جمره المغربى المـالكى .

توفى بالديار المصرية فى ذى القعدة ، وكان قوالا بالحق ، أمّارا بالمعروف ، نهاء عن المنكر .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ١٢٩ ، السلوك جـ ١ ص ٨١٧ ، طبقات الحنابلة جـ ٢ ص ٢٧٣ رقم ٣٨٣ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٣٠ ، الدارس جـ ١ ص ٥٠ — ٥١ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٢١٦ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٤٥ ، وورد فيه أن صاحب الترجمة اسمه « الحسين » ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٨٩ .

(٢) هو أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن قدامة المقدسى الحنبلى ، انظر ما سبـق فى وفيات سـنة ٦٨٩ هـ ص ٤٥ .

الصاحب محيى الدين أبو عبد الله محمد(١) بن بدر الدين يعقوب بن إبراهيم بن هبة الله بن طارق بن سالم بن النحاس الأسدى الحلبى الحنفى .

ولد سنة أربع عشرة وستمائة بحلب ، واشتغل وبرع ، وسمع الحديث ، وأقام بدمشق مدة ، ودرس بمدارس كبار منها الريحانية(٢) والظاهرية(٣) ، وولى القضاء بحلب ، والوزارة ، ونظر الخزانة ، ونظر الدواوين ، ونظر الأوقاف ، ولم يزل مكرما معظما ، معروفا بالفضيلة والإنصاف فى المناظرة ، محبا للحديث وأهله على طريقة السلف الصالح ، وكان يحب الشيخ عبد القادر(٤) وطائفته ، وكانت وفاته ببستانه بالمزة عشية الإثنين سلخ ذى الحجة ، وقد جاوز الثمانين(٥) ، ودفن يوم الثلاثاء مستهل سنة ست وتسعين وستمائة بمقبرة له بالمزة ، وحضر جنازته نائب السلطنة والقضاة .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ١٢٩ — ١٣٠ ، الوافى جـ ٥ ص ٢٢٤ رقم ٢٢٩٧ ، السلوك جـ ١ ص ٨١٧ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٤٦ ، الدارس جـ ١ ص ٥٢٤ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٣٢ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٩٠ .

(٢) المدرسة الريحانية بدمشق : أنشأها خواجا ريحان الطواشى خادم نور الدين محمود بن زنكى فى سنة ٥٦٥ هـ / ١١٦٩ م — الدارس جـ ١ ص ٥٢٢ .

(٣) هى المدرسة الظاهرية الجوانية بدمشق .

(٤) هو عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكى دوست ، محى الدين الجيلانى ، أو الكيلانى ، أو الجيلى ، مؤسس الطريقة القادرية ، توفى سنة ٥٦١ هـ / ١١٦٦ م — فوات الوفيات جـ ٢ ص ٣٧٣ رقم ٢٩٥ .

(٥) « عاش إحدى وثمانين سنة » — تذكرة النبيه .

قاضي القضاة تقي الدين أبو القاسم عبد الرحمن[1] بن قاضى القضاة تاج الدين أبي محمد عبد الوهاب بن القاضى الأعز أبي القاسم خلف بن بدر العلائى الشافعى .

توفى فى جمادى الأولى ودفن بالقرافة فى تربتهم ، رحمه الله .

الأديب تقى الدين شبيب[2] بن حمدان بن شبيب الحرانى[3] .

مات بالقاهرة ، وكان فاضلا ، أديبا وشاعرا مجيدا ، ومن شعره :

وافى يُعلّنى والليلُ قد ذهَبا ... جَلتْ فى راحةٍ من راحة ذهَبا

ظبيٌ إذاقهقه الابريقُ وابتسمت ... له المُدامُ بكا الراؤوق وانتحَبا

مُترطقٌ لم يقُم بالكأسِ عرسٌ هنا ... إلا وراح بنُور الراح مختضبا

يَجلُو على ابن غمام بنتِ معصرة ... فقم لتشهد أن العُود قد خطبا

كبّرت لما يُدار الكأس فى يده ... عُجبا بمثال ناء يحمل اللهبا

كأنّه والطِلى قد كلّلتْ حبَبا ... بدرٌ لشمس الضُحى قد قلدّ الشُهبا

أغنّ ينضو على العُشاق ناظره ... سيفا من الغُنج لا يَنبوُ إذا ضرَبا

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ١٢٩ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٨٢ ، السلوك جـ ١ ص ٨١٧ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٣١ ، فوات الوفيات جـ ٢ ص ٢٧٩ رقم ٢٥٥ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٨٦ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٦ رقم ١١٨١ ، الوافى جـ ١٦ ص ١٠٧ رقم ١٢١ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٢٨ ، حسن المحاضرة جـ ١ ص ٢٦٠ ، فوات الوفيات جـ ٢ ص ٩٨ رقم ١٩٠ .

(٣) « الطبيب الكحال تقى الدين أبو عبد الرحمن الشاعر نزيل القاهرة ، وأخو الشيخ نجم الدين شيخ الحنابلة » — الوافى جـ ١٦ ص ١٠٨ .

[١٢٧]

ماهزّ من قـدّه العسّال في رهج ... إلا غدا قلبُ جيش الصبر مضطربا

ساق أقام على ساق قيامتهم ... فبادروا نحو جنات المنا غضبا

في خفض عيش يجرون الذيول وكم ... قد رفعوا الصوتَ للراووق إذ نصبا

وقـال :

ومُهفهف قَسمَ الملاحة ربُنا[(١)] ... فيـه فأبدعه[(٢)] بغير مثال

فلخدّه النعمان روض شقائق ... ولثغره النظّام عقد لآلى

ولطرفه الغزّال أحيا[(٣)] الهوى ... وكذلك الإحياءُ للغزّالى

الأديب شهاب الدين أحمد بن شمس الدين يوسف ابن قرمش .

أحد كتاب الإنشاء بالقاهرة ، كان عنده فضيلة تامة .

الصدر الرئيس ضياء الدين إسماعيل بن الصاحب بدر الدين محمد بن جعفر الآمدى .

توفى في السابع والعشرين من جمادى الأخرى منها ، كان مشكور السيرة ، محمود الطريقة ، تولى نظر بيت المال ، وديوان الأمراء والذخائر ، وكان والده ناظر الدواوين بدمشق ، وهم من بيت كتابة ورئاسة وأمانة وتقدم عند الملوك .

---

(١) « ربها » في الوافي جـ ١٦ ص ١١ (١) ، وفوات الوفيات .

(٢) « وأبدعها » في الوافي ، « وأبدعه » في ، فوات الوفيات .

(٣) إحياء » في الوافي .

الشيخ الإمام العالم العامل القدوة الزاهد بقية السلف عز الدين أحمد (١) بن عمر ابن الفرج الفاروثى الشافعى الواسطى .

توفى بواسط ، وكان من السادة العلماء الصلحاء الابدال ، سمع من الشيخ شهاب الدين السهروردى ولبس منه خرقة التصوف ، وسمع على أكثر مشايخ العراق وديار بكر والحجاز ، وكان يعظ و يفسر القرآن و يفتى ، وله أحوال ومكاشفات ، ولما قدم من العراق إلى الشام فى الدولة الظاهرية أعطى تدريس الجاروخية و إمامة مسجد ابن هشام (٢) ، وكان يستدين على ذمته و يطعم الفقراء ، وفى بعض الأوقات لا يكون معه شيء فيقلع بعض ثيابه و يعطى السائل ، ومولده بواسط سنة أربع عشرة وستمائة ، ومات فى أوائل هذه السنة ، ودفن برباط والده .

الشيخ الصالح أبو العباس أحمد بن على بن عبد الكريم الموصلى المعروف بالأثرى القادرى .

مات بدرب القلى بدمشق ، ومولده سنة أربع وتسعين وخمسمائة بالموصل ، وعاش مائة سنة .

(١) يوجد خلط بين صاحب الترجمة وبين أحمد بن إبراهيم بن عمر بن فرج الفاروثى الذى سبق ذكر وفاته سنة ٦٩٤ هـ ، انظر ما سبق ص ٢٩٠ .

وقد تكون الترجمتان لشخص واحد — انظر تالى كتاب وفيات الأعيان ص ٩ رقم ١٠ ، وانظر ما سبق ص ٢٩٠ .

(٢) مسجد ابن هشام بدمشق : فى سوق الفسقار — الدارس ج ١ ص ٣٠٦ ، ج ٢ ص ٣٠٥ .

الفقيه العدل برهان الدين إبراهيم(١) بن الشيخ عز الدين عبد الرزاق بن رزق الله الرسعنى(٢) المعروف بابن المحدث(٣).

مات فى هذه السنة ودفن بقاسيون عند التربة الموفقية(٤)، سمع وحدث، وكان يشهد تحت الساعات بدمشق.

وله نظم فمنه:

سلامٌ من الصبِّ المقيم على العَهْدِ		على نازح دانٍ خَلِىّ من الوَجْدِ
عن العين نائى وهو فى القلب حاضرٌ		بنفسى حبيباً حاضراً غائبا أفدى
غدت أرضه نجدا سقى زَهرَها الحيَا		فأقصى المُنى نجدٌ ومن حلّ فى نجد
أبيتُ إذا ما فاح نشرُ نسيمها		لفرط الأسى أطوِى الضُلوع على وقدِ
وإن لاح من أكنافها لِى بارقٌ		فسُحْبُ دُموع العين تهمى على الخدِ
كلفتُ به لا انثنى عن صبابتى		به والجوى حتى أُوسّدَ فى لحدِى
فيا عاذلى خلِّ الملامة فى الهوى		وكن عاذرى فاللومُ فى الحبُ لا يُجدى

[١٢٨]

فلستُ أُرى عنه مدَى الدهر سَلوة		ولا لِىَ منه قط ما عِشتُ من بُدّ

(١) وله أيضا ترجمة فى: المنهل الصافى جـ ١ ص ١٠٣ رقم ٤٧، الطبقات السنية جـ ١ ص ٢٣٧ رقم ٤٩، تاج التراجم ص ٤ رقم ٢.

(٢) الرسعنى: نسبة إلى مدينة رأس عين بديار بكر — معجم البلدان.

(٣) هو عبد الرزاق بن أبى بكر بن خلف الرسعنى، عز الدين، الفقيه المحدث، المفسر، المتوفى سنة ٦٦١ هـ / ١٢٦٢ م — العبر جـ ٥ ص ٢٦٤.

(٤) هى مقبرة الشيخ أبى عمر بن قدامة المقدسي — الدارس جـ ١ ص ٤٨: هامش (٢).

الشيخ الجليل كمال الدين عبد الله بن محمد بن نصر بن قوام الرصافى .

مات فى هذه السنة، ودفن بمقابر الصوفية، وكان رجلا خيرا صاحب رواية، ومولده سنة خمس عشرة وستمائة بالرصافة .

القاضى شرف الدين موسى بن القاضى نجم الدين محمد بن سالم بن مسلم البالسى قاضى طرابلس .

توفى فى السادس عشر من ذى الحجة منها .

العدل عماد الدين أبو العباس أحمد بن هبة الله بن نصر الله بن على بن المفرج ابن سلمة الدمشقى .

توفى فى هذه السنة بدمشق ، ودفن بمقابر باب الصغير ، ومولده سنة ثلاث وعشرين وستمائة .

القاضى الإمام العالم علم الدين أحمد بن إبراهيم بن حيدره القرشى ، المعروف بابن القماح المصرى .

توفى فى الثانى والعشرين من ربيع الأول منها ودفن بالقرافة ، ومولده يوم الجمعة الثامن والعشرين من رمضان سنة ثلاثين وستمائة ، وكان من العلماء الفضلاء وله شعر مليح ، فمنه قوله (١) :

(١) انظر نص الأبيات التالية فى ترجمة ابن صاحب الترجمة ، وهو محمد بن أحمد بن ابراهيم ابن حيدرة القرشي الشافعي ، المتوفي سنة ٧٤١ هـ/ ١٣٤٠ م فى تذكرة النبيه ج ٣ ص ٢٠ .

إذا كنتُ جار المصطفى ونزيلَه — فيقبح بى شوقى لأهلى وأوطانى

أأرغبُ من دارٍ بها الخيرُ كلُّه — وفيها هوى القاصى وأُمنيّة الدانى

ولست بجافٍ أهل ودّى وإنما — إذا فزتُ بالباقى[(١)] فمالى والفانى

حلفت يمينا أنها خيرُ منزل — لأشرف نُزّال وأكرمُ جيران[(٢)]

فيارب بلّغ من أحبّ وصولها — ليزداد إيماناً كما ازداد إيمانى

الأديب الفاضل سراج الدين عمر[(٣)] بن محمد بن الحسين[(٤)] المصرى الوراق .

أديب الديار المصرية فى وقته ، وقد جاوز التسعين سنة[(٥)] ، كان يسكن بسوق وردان بمصر ، توفى فى هذه السنة ودفن بالقرافة ، وكان أديبا مكثرا متصرفا فى فنون الشعر ، حسن النادرة ، وديوانه فى سبعة أجزاء[(٦)] فمن أشعاره قوله :

---

(١) « إذا صح لى الباقى » فى تذكرة النبيه .

(٢) « لأكرم نزال وأشرف جيران » فى تذكرة النبيه .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ١٣١ ، السلوك جـ ١ ص ٨١٨ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٨٣ ، فوات الوفيات جـ ٣ ص ١٤٠ / رقم ٣٧٩ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ١١٧ رقم ١٨٠ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٣١ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٨٧ ، بدائع الزهور جـ ق ١ ص ٣٨٨ وما بعدها .

(٤) « الحسن » فى تذكرة النبيه ، ودرة الأسلاك .

(٥) « مولده فى العشر الأخير من شوال سنة خمس عشرة وستمائة » ــ النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٨٣ .

(٦) « ملكت ديوان شعره ، وهو فى سبعة أجزاء كبار ضخمة بخطه » ــ فوات الوفيات جـ ٣ ص ١٤٠ .

« وله ديوان فى الأدبيات ، يشتمل على سبعة مجلدات فى القطع الكامل ، يسمى : لمع السراج » ــ بدائع الزهور جـ ١ ق ص ٣٨٨ .

سألتهم وقــد حثُّوا المطايا ... قِفوا نَفَسًا فساروا حيث شاءوا
ومـا عطفوا علىّ وهم غصونٌ ... ولا التفتــوا إلىّ وهم ظباءُ(١)

وقــال :

قلتُ قــومى إلى الفــراش فإنّه ... وتأنت وذاك منهن صَعبُ

وقال فى شخص اسمه عرفات :

اطنبــوا فى عرفات وغـدَوْا ... يتعاطُون له حُسن الصفاتِ
ثم قالــوا لى هــل وافقتنـا ... قلتُ عندى وقفـةٌ فى عرفاتِ

وقــال :

والله ما من خــبرٍ سرّنى ... الا وذِكراك لــه مبتْـدا
وطالمـا باسمــك فى خــلوتى ... ناديتُ أو كلْتُ حروف الندا

وقال فى شـاعر :

أنشــدنى شــعرا به ... ظننـتُ فاه مبعْـرا
وقال لى كيـف ترى ... قلت أرى مثل الخرا
فقال اسمــع غــيره ... قلتُ كفى ماقــد جرا

وقال :

إلهى قد جاوزت تِسعين حِجــةً(٢) ... نشـكرا لنعماك التى ليس تُكْفَرُ

---

(١) انظر فوات الوفيات جـ ٢ ص ١٤٤ .

(٢) « سبعين » فى بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٣٨٩ .

[١٢٩]

وعُمِّرتُ فى الإسلام فازددتُ بهجةً		ونُوراً كذا يَبْدُو والسِراجُ المُعَمَّر
وعَمَّ نـورُ الشيب رأسى فسرّنى		وما سَاءنى إن السِراجَ مُنَوَّرُ

وقال يصف بيته فى الشتاء :

وبيتى فى الشـتاء يكاد يبـدو		به جَسَدى لسُكّان الجحيم
تصـدّ الشمس عنا فيـه		حتى كأنّا فيه أصحابُ الرقيم
ونفتـح طاقنا ليَزُورَحـيناً		فيحجُبها ويأذن للنسـيم

وقال :

لما رأيت البدر والشمسَ معا		قـد انجلت دونَهما الدّياجى
حقـرت نفسى ومضَيتُ هاربا		وقلتُ ماذا مَوضـعُ السِراج

وقال :

ياهــذه لاتجحدى دمى الذى		شهدت عليك لنابه خـدّاك
وسيوفُ قومِك لم تُرِقه وإنما		أصلُ البَليّـة كلها عَيْناك

وقال :

بُنَىّ اقتـد بالكتاب العـزيز		وراحَ كبُـدى سـعيا وراجا
فما قال لى أُف مُذ كان لى		لكَونى أبا وكـونى سراجا

وقال صلاح الدين الصفدى : كان السراج الوراق أديبا أجاد المقاطيع ، كثير الغوص ، جيد المقاصد ، صحيح المعانى ، عذب التركيب ، متمكن

القوافى ، عارفا بالبديع ، أجاد فنون الشعر ، وكان حسن الخط ، واختار ديوانه فى مجلده سماه : « لمع السراج » ، وكان بينه وبين شعراء عصره مجاراة ومباراة ، وكان أشقر ، أزرق العينين ، وكان يكتب الدرج لسيف الدين أبى بكر بن أسباسلار والى مصر ، وكانت وفاته فى جمادى الأولى من هذه السنة ، رحمه الله .

الصدر الرئيس الكبير الفاضل صدر الدين محمد بن الشيخ الكبير الرئيس جمال الدين محمود بن عمر بن أبى المكارم بن حمدان الأنصارى المعروف بابن القباقبى .

مات بثغر صفد ، ودفن بمغارة النبى يعقوب عليه السلام فى تابوت ، ونقله أهله فيما بعد إلى دمشق ودفن بسفح قاسيون بتربتهم عند أسلافه ، خدم فى كتابة الدرج بصفد ، ثم نقل إلى نظر القدس الشريف ، فباشره ، ثم أعيد إلى كتابة الدرج بصفد ، فباشره إلى أن مات فى هذه السنة ، ولم يبلغ الأربعين سنة ، وكان يكتب مليحا ، وينظم شعرا .

ومن شعره :

وِصالٌ ولكن ما إليه وُصولُ ... وحال وعنها الدهر لستُ أحُول

وهجرٌ وتعذيبٌ ونوحٌ وأنّةٌ ... وقلبٌ خفوق للغرام حَمُول

ودمع وتبريح مَديدٌ وكامل ... وسهدٌ وليلٌ وافرٌ وطَويلُ

وصبر على ماليس يُحمل بعضُه ... فسُلوان قلبى ما إليه سبيل

أيابدرَ تمٍ يخجلُ الشمسَ فى الضحى ... ولحظك أم سيفٌ يُهزّ صقيلُ

وثغرك أم ورد جنى مُضاعفٌ ... وريقك أم شهدٍ حلا وشمولُ

وقال :

خلع الربيــعُ على الرياض مَلابِسًا　　منسوجةً من ســائرِ الألــوان

[١٣٠]

من أخضرٍ نضرٍ وأصفــر فاقــع　　في أبيــض يقَـق وأحمــرِ قانى

وقال فى زهر السفرجل :

بزهر الســـفرجل معـــنىً على　　جميــع الزهُـــور به يفضلُ

يُشم ويـــؤكل شـــكرا له　　وتلك تُشمّ ولا تؤكل

وقال :

عيونُ المـــزن تبكى والقنانى　　تُقَهقِهُ فامزُجا لى واسقيانى

مُدام من عهـــد الروم لابل لهــا　　من عهـــدِ نــوح فى الدّنان

وحـــتّا الدورَ بالثانى فإنى　　أُحبُّ الدوْرَ موصـــولا بثانى

وهاتا ياخليـــلىَّ انْشـــدانى　　بَســيطا فى عراقٍ وأصبهان

بأصوات القيان فإنّ قلبى　　وتيمى عند أصـــواتِ القيان

وإن أنا مُتّ شكْرا فاغْسلانى　　بفضلةِ ما تبـــقى فى الدنان

وفى وَرق الدّوالى كفّنانى　　وفى الكرم احْفرا لى وادفِنانى

وإن حاولتما تشـــييع نعشى　　فحثا بالمثـــالث والمثانى

وقــولا عنــد قبرى مات هــذا　　قتيل الراح ســُكرا والقنانى

الأديب الفاضل أبو القاسم عبد الرحمن[1] بن عبد الوهاب بن خلف بن محمود العلامى المصرى الشافعى[2] .

مات فى هذه السنة ودفن بسفح المقطم ، كان فقيها أديبا .

وقال الشيخ شرف الدين الدمياطى أنشدنى المذكور لنفسه :

وَمن رام فى الدنيـا حياة خليـة من الهـم والأكدار رام مُحـالا
وهاتيك دعوى قد تركت دليلها على كل أبنـاء الزمان مُحـالا[3]

الشـيخ الإمام العـلامة ذو العيون نجم الدين أحمد[4] بن حمـدان بن شبيب ابن حمدان بن محمود الحرانى الحنبلى .

توفى فى هـذه السنة بالمـدرسة المنصورية ، ودفن بسفح المقطم ، ومولده بحران سنة ثلاث وستمائة ، وكان شيخ المذهب ، وله معرفة بالأصول ، ويدطولى فى علم الخـلاف والجبر والمقابلة ، وهو صاحب كتاب الرعاية فى الفقه[5] ، وهو

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ١٣٢ ، السـلوك جـ ١ ص ٨١٨ ، تذكرة النبيـه جـ ١ ص ١٩٢ .

(٢) وهو غير عبد الرحمن بن عبد الوهاب بن خلف ، قاضى القضاة تقى الدين بن بنت الأعز ، والذى توفى أيضا فى هذه السنة — انظر ما سبق ص ٣٢٦ .

(٣) تذكرة النبية جـ ١ ص ١٩٢ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٩٠ رقم ١٥٤ ، الوافى جـ ٦ ص ٣٦٠ رقم ٢٨٦٣ ، درة الأسلاك ص ١٣٠ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٢١٥ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٢٨ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٨٦ .

(٥) هو كتاب « الرعاية فى فروع الحنبلة » — كشف الظنون جـ ١ ص ٩٠٨ .

كتاب مشهور بكثرة النقل ، سمع بحران من الحافظ عبد القادر الرهاوى[(١)] ، والخطيب فخر الدين ابن تيميه[(٢)] ، وابن روزبة ، وغيرهم ، وسمع بحلب من أبى خليل ، وبدمشق من ابن صباح ، ومحمد بن غسان[(٣)] ، وعمر بن المنجى ، وغيرهم ، رحمه الله .

السيد الحسيب النسيب الحافظ عز الدين[(٤)] أبو القاسم بن الإمام أبى عبد الله العلوى الحسينى المصرى ، ويعرف بابن الحلبى ، نقيب الأشراف بالديار المصرية .

مولده سنة ست وثلاثين وستمائة ، وتوفى فى السادس من المحرم ، ودفن بالقاهرة .

الأمير الكبير بدر الدين لؤلؤ[(٥)] بن عبد الله المسعودى .

صاحب الحمام بالمزة ، وأحد الأمراء الكبار المشهورين بخدمة الملوك ، توفى ببستانه بالمزة يوم السبت السابع والعشرين من شعبان منها ، ودفن بتربته بالمزة .

---

(١) هو عبد القادر الرهاوى ، أبو محمد الحنبلى ، المتوفى سنة ٦١٢هـ/ ١٢١٥م — العبر جـ ٥ ص ٤١ .

(٢) هو محمد بن أبى القاسم بن محمد الحرانى الحنبلى ، الفخر ابن تيمية ، أبو عبد الله ، المتوفى سنة ٦٢٢هـ / ١٢٢٥م — العبر جـ٥ ص ٩٠ .

(٣) توفى سنة ٦٣٢هـ/ ١٢٣٤م — العبر جـ ٥ ص ١٣١ .

(٤) هو أحمد بن محمد بن عبد الرحمن بن على بن محمد ، الحسينى ، الشريف عز الدين ، أبو القاسم ، المعروف بابن الحلبى .

وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٢ ص ١١٩ رقم ٢٧٤ ، الوافى جـ٨ ص ٤٤ رقم ٣٤٤٩ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٣٠ ، السلوك جـ ١ ص ٨٣١ ، وورد فيه أن صاحب الترجمة توفى سنة ٦٩٦هـ .

(٥) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، البداية والنهاية جـ١٣ ص ٣٤٥ .

الأمير عز الدين أيبك[1] الأفرم الصالحى أمير جندار وهو الأفرم الكبير .

توفى فى هذه السنة[2] ، وكان ذاسعادة كثيرة تدخل عليه من ملكه وإقطاعه كل يوم ألف دينار مصرية خارجا عن ثمن القمح والشعير [١٣١] والحبوب ونحو ذلك ، ولم يزل مقدّما فى الدول ، ولم يكن فى البلاد الإسلامية بلد إلا وله فيه علقة إما ملك أو ضمان أو زراعة ، وخرب الله جميع ما خلفه بالحق، ولم يبق مع ورثته شىء حتى كان أولاده يستعطون من الناس ، هذا مع قلة ظلمه وعسفه .

وفى نزهة الناظر : وكان من الأمراء الكبار الصالحية ، قديم الهجرة فى الدول، وكان شجاعا مقداما، وله غزوات كثيرة ، وإذا عرض غزاة استخدم جماعة من الجند فى سبيل الله، وكانت له سعادة ضخمة، وهى من كثرة زراعته، وإن كانت له زراعات فى سائر الوجه القبلى والبحرى ، فإذا وجد مكانا خرسا اشتراه أو استأجره وعمره، وأعطاه الله فى الزراعة نصيبا وافرا ، واستأجر بلادا كثيرة فى الوجه القبلى،وكل مكان يكون له فى نشا يعمّر فيه جامعا أو مسجدا ، وإذا بلغه أمر جامع خراب أو مسجد خراب عمره حتى حصرت الأماكن التى عمرها قريبا من ثلاثمائة مئذنة ، واتخذ له أملاكا بمصر ، وعمارات على بحر النيل ، وعمر بقوص مدرسة للشافعية ، ومدرسة على ساحل البحر .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٣ ص ١٣٠ رقم ٥٧٥ ، درة الأسلاك ص ١٢٩ ، النجوم الزاهرة جـ٨ ص ٨٠ ، الوافى جـ٩ ص ٤٧٨ رقم ٤٤٣٨ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ١٣ رقم ١٩ ، تاريخ ابن الفرات جـ٨ ص ٢١٥ ، تذكرة النبية جـ١ ص ١٩١أ .

(٢) « يوم السبت سابع شهر ربيع الأول » فى النجوم الزاهرة ،

« فى يوم الأربعاء سادس عشرين صفر » فى تاريخ ابن الفرات .

قال المؤرخ : وحكى لى بعض مباشريه فى البلاد أن غلاله ومتحصل زراعاته فى كل سنة تنيف على مائتى ألف أردب من سائر الحبوب ، وعمل فى سنة الغلاء خيرا كثيرا ، وكان يجمع الصعاليك على الخبز والطعام ، ويبرّ الأيتام وأرباب البيوتات ، وكان له طبقة عالية فى سماع الحديث ، حكى عنه الشيخ فتح الدين ابن سيد الناس شيخ الحديث أنه سمع عليه الحديث هو وجماعة من أهل الشام حضروا لطلب الحديث فى سنة إحدى وثمانين وستمائة .

وعند غلبة المرض عليه أوصى إلى أولاده أنه إذا توفى يخرجون طُلبَه وهى على عادتها ، فالخيول ملبسه والسناجق منشورة ومماليكه ملبسون على جارى عادتهم عند الخروج إلى الغزاة والعرض بالأطلاب[(1)] ، ولما توفى عرّفوا لاجين نائب السلطنة ما أوصى به ، فقال لهم : افعلوا ما قال لكم من غير دق النقارات : وصول نائب السلطان وسائر الأمراء من القلعة ، وغلقت مصر ذلك اليوم من أول باب مصر الى دار سكنه بباب القنطرة ، وجميع القضاة والفقراء كانوا مشاة فى جنازته ، وطلبه سائرة معه على الحالة التى يخرج فيها إلى الغزو غير أنه لا تضرب الطبلخاناة والبوقات .

الأمير بدر الدين بيلك[(2)] المحسنى المعروف بأبى شامة .

توفى فى هذه السنة ، كان متولى الكشف بالوجه القبلى ، وكانت له حرمة

---

(١) « وأن تضرب نوبة الطبلخاناه خلف جنازته » — النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٨٠ .

(٢) له أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٣ ص ١١ ، رقم ٧٤٧ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٧٩ ، الوافى جـ ١٠ ص ٣٦٨ رقم ٤٨٦٤ ، تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٢١٦ .

وصولة ومهابة ، وأتلف جماعة كثيرة من المفسدين فى الوجه القبلى .

الأمير بدر الدين لقلق المسعودى ، توفى فيها بدمشق .

الأمير علم الدين سنجر[1] المسرورى ، متولى القاهرة .

توفى فى هذه السنة ، وكان يعرف بعلم الدين الخياط ، لقبه به أستاذه الذى اشتراه ، وكان ذا شكل حسن ، مهابا مصطنعا للناس بالخير فى ولايته ، عاقلا محتشما ، متعقلا عما يبدو من الفواحش ، رضى الأخلاق مع لطف وكرم ، وكان له تولع بالشراب واجتماع الندماء اللطاف مثل السراج الوراق وشمس الدين الكحال أبى دانيال ونصر الحمامى ، وله مكارم عليهم وقبول شفاعات ينالون بها إلى مقاصدهم ، واتفق لهم معه مجارى كثيرة من الهزليات المضحكة يطول شرحها ، فمن ذلك أنه شرب معهم فى بعض الليالى ، وكان ليلة الموكب ، فقام من السحر وتوضأ ، ولبس ثيابه وأخذ فى لف شاشه على كلوتاته ، فلما فرغ جعل يدير يده على الشاش [١٣٢] ويمشيها ، فقال له السراج الوراق : ياخوند ابصزها فى التحاريس ، فضحك علم الدين وأعجبه هذا القول ، فقال : والله ياسراج الدين لقد أحسنت فى هذا ، وأمر له بعطية ، وقد علم أن عادة الخياطين غرز الإبرة فى عمامته حتى يجد الابرة فيأخذها .

وكان له حسن تأنى فى أموره واصطناع المعروف ، فمن أغرب ما حكى عنه أنه أقام زمانا يتوقع وقوع بعض أرباب البيوت إلى أن أتى إليه البعض[2] فأخبره

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : السلوك جـ ١ ص ٨٨٢ وورد فيه أن صاحب الترجمة توفى سنة ٦٩٨هـ .

(٢) « بعض » فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق .

بأن بعض أولاد الأمراء فى بستان ومعه فلانة ، وكان يبلغه عنها من اللطف والطرافة والملاحة ، وصبر إلى الليل وركب وحده ومعه مملوك صغير فجاء ودخل عليهم ، فلما رأوه وجموا منه وخافوا ، فقال لهم : لاتخافوا ، وأمهم فى الحديث وشرب معهم ، ورأى من تلك المرأة أكثر مما وصفوه له عنها ، فلما أراد أن يقوم قامت تلك المرأة فدخلت إلى مكان وخلعت جميع ما عليها من الحلى والفصوص وفيرها وجمعت الجميع فى منديل وخرجت إليه فوضعته بين يديه واعتذرت أن الأمير حضر عندنا على غفلة ، وهذا يكون عندك على سبيل الرهن إلى حين أحضر إلى خدمتك ومعى ما يصلح لضيافتك ، فلحقه من ذلك خجل وحياء ، وجعل يحلف إلى أن قامت فكشفت رأسها وحلف صاحب المجلس بالطلاق ، فعند ذلك أخذه وخرج من عندهم ، وأقام على ذلك مدة لم يحضر إليه أحد ، ثم أنه طلب بعض الصاغة وقال له : قوّم ما فى هذه الأشياء من الذهب والفضة ، فأخذ الصائغ فى النظر إليها ، ثم قال له يا خوند : هذا جميعه زغل معمول من الرصاص قد أطلى بالذهب والفضة ، فتعجب الأمير من ذلك ودهش وردّه إلى مكانه ، وبقى متفكرا فى هذه الحيلة من تلك المرأة ، فحنق عليها وقال : ما لهذه إذا وقعت إلا أن تهتك ، ولا آمن بعد هذا امرأة ، فمضى على هذا بعض الأيام ، ثم أنه ذات يوم كان جالسا ، فإذا خادم له قد دخل عليه وقال له : إن على الباب امرأة محتشمة ومعها خادم وهى تريد أن تجتمع بالأمير ، فأذن لها بالدخول فدخلت وعليها آثار الحشمة ، فأجلسها وقال لها : لعل حاجة ، فأخرجت كيسا فيه ثلاثمائة دينار ، وقالت يا خوند : عندك رهن ، وقد أحضرت المبلغ الذي عليه ، فعرف الأمير فى ذلك الوقت أنها تلك المرأة التي عملت ما عملت ،

فعند ذلك أمر الأمير فأخرجوا قماشها قطعة بعد قطعة ، ثم قال لها : من صاغ لك بهذا المصاغ ؟ قالت : شخص أعرفه . قال : فهل علمت ما فعل ؟ قالت : نعم . قال : فما حملك على مثل هذا ؟ قالت : فعلنا هذا المثل من لايخاف الله . قال : فلم أعطيتنى هذا ؟ قالت : خشيت أن يحملك الغيظ بقلة الوثوق من النساء فى مثل هذه الواقعة ولا تقع منك رحمة فى غيرنا ولا تستر أحدا بعدنا . فقال الأمير : جزاك الله عن مروءتك خيرا ، فلا والله لا يتبعنى منك شىء ، وحلف بالطلاق على ذلك ، فأخذت الذهب وذهبت ، ثم أصبحت وسيرت له قماشا له صورة .

الملك السعيد إيلغازى[1] بن الملك المظفر فخر الدين قرا أرسلان الأرتقى ، صاحب ماردين .

توفى فى هذه السنة [١٣٣] وكانت مدة مملكته بها دون ثلاث سنين ، وتولى عوضه أخوه الملك المنصور نجم الدين غازى[2] ، رحمهم الله تعالى .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى « المنهل الصافى جـ ٣ ص ١٨٩ رقم ٦١٤ » النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٧٩ ، الوافى جـ ١٠ ص ١٩ رقم ٤٤٩١ ، السلوك جـ ١ ص ٨١٦ ، كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٦٦ .

(٢) توفى سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م — المنهل الصافى .

فصل فيما وقع من الحوادث

في السنة السادسة والتسعين بعد الستمائة (*)

استهلت هذه السنة والسلطان هو الملك العادل كتبغا ، وكان مسافرا في الشام — كما ذكرناه — ، ثم إنه توجه قاصدا الديار المصرية في أوائل المحرم ، ولما وصل إلى ماء العوجاء ركب الأمراء — على ما ذكرنا — وجرى ماذكرنا من هروب السلطان كتبغا إلى دمشق (١) ، ثم إنهم اتفقوا وهم بمنزلة العوجاء بعد سفر كتبغا على إقامة الأمير حسام الدين لاجين السلحدار المنصوري سلطانا .

(*) يوافق أولها الثلاثاء ٣٠ أكتوبر ١٢٩٦ م .

(١) انظر ما سبق ص ٣١٢ وما بعدها .

ذكر سلطنة لاجين المنصورى

قال بيبرس فى تاريخه : فى المحرم من هذه السنة اتفق الأمراء — وهم بمنزلة العوجاء [بعد مفر كتبغا](١) — على سلطنة لاجين المنصورى ، فأقاموه ولقبوه بالمنصور ، وشرطوا عليه شروطا فالتزمها ، منها : أن يكون كأحدهم لا ينفرد برأى عنهم ، ولا يبسط يد أحد من مماليكه فيهم .

وكان الأعيان الحاضرون فى هذه المشورة والمتفقون على هذه الصورة : الأمير بدر الدين بيسرى الشمسى ، والأمير شمس الدين قرا سنقر المنصورى ، والأمير سيف الدين قفجق(٢) ، والأمير سيف الدين بهادر الحاج أمير حاجب ، والأمير سيف الدين كرد ، والأمير حسام الدين لاجين الرومى أستاذ الدار ، والأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح ، والأمير عز الدين أيبك الخزندار والأمير جمال الدين أقوش الموصلى ، والأمير مبارز الدين أمير شكار ، والأمير سيف الدين بكتمر السلحدار ، والأمير سيف الدين سلار ، وسيف الدين طقجى(٣) ، وسيف الدين كرجى ، وعز الدين طقطاى ، وسيف الدين برلطاى ، وغيرهم .

ولما حلف لهم على ما شرطوه ، وعاهدهم على ما طلبوه ، قال له الأمير قفجاق : نخشى أنك إذا جلست فى المنصب تنسى هذا التقرير ، وتقدم الصغير

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة — مخطوط جـ ٩ ورقة ١٩٤ أ .
(٢) « قفجاق » فى زبدة الفكرة .
(٣) « طقجى » فى زبدة الفكرة .

من مماليكك على الكبير، وتخول منكوتمر مملوكك فى التحكيم والتدبير، فتنصل، وكرر الحلف أنه لا يفعل ، وعند ذلك حلفوا له ، ورحلوا نحو الديار المصرية .

فلما وصل إلى القلعة واستقر قراره رتب الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصورى نائبا ، والأمير سيف الدين بهادر الحاج حاجبا ، والأمير سيف الدين سلار أستاذ الدار، والأمير سيف الدين بكتمر السلحدار أمير جاندار(١)، واستمر الصاحب فخر الدين بن الخليلى بالوزارة برهة ثم عزله بالأمير شمس الدين سنقر المعروف بالأعسر ، ورتب فى نيابة السلطنة بدمشق سيف الدين قفجاق(٢) ، وتوجه إليها ، ودخلها فى السادس عشر من ربيع الأول منها .

قال ابن كثير(٣) : ثم دخلت سنة ست وتسعين وستمائة والخليفة الحاكم العباسى وسلطان البلاد العادل زين الدين كتبغا ، وهو فى نواحى حمص يتصيد ، ومعه نائب الديار المصرية حسام الدين لاجين السلحدار المنصورى وأكابر الأمراء ونائب دمشق الأمير سيف الدين غرلو العادلى ، ولما كان يوم الأربعاء ثانى المحرم دخل العادل إلى دمشق ضحى من نواحى حمص ، وصلى الجمعة بالمقصورة، وزار قبر هود عليه السلام، وصلى عنده، وأخذ من الناس قصصهم بيده، وجلس بدار العدل يوم السبت ، ووقع على القصص هو ووزيره فخر الدين بن الخليلى ، ثم حضر السلطان دار العدل يوم الثلاثاء ، ثم صلى الجمعة بالمقصورة يوم الجمعة،

---

(١) « خازن الدار » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٢) زبدة الفكرة ـ مخطوط جـ ٩ ورقة ١٩٤ أ ، ب ، وانظر أيضا التحفة الملوكية ص١٤٨ .

(٣) البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٤٦ وما بعدها .

ثم صعد فى هذا اليوم إلى مغارة الدم وزارها ، وتصدق بجملة من المال ، ثم خرج بالعساكر المنصورة من دمشق سحرة يوم الثلاثاء الثانى والعشرين من المحرم [١٣٤] وخرج معه الوزير ابن الخليلى ، وفى يوم الأربعاء آخر يوم من المحرم منها تحدث الناس بينهم بوقوع تخبيط بين العساكر وتخلف وتشويش ، فغلق باب القلعة ، وركبت طائفة من الجيش على باب النصر وقوفا .

وقال : فلما كان وقت العصر وصل الملك العادل إلى القلعة فى خمسة أو ستة من مماليكه فجاء إليه الأمراء، وحضر ابن جماعة وحسام الدين الحمامى، وجدد تحليف الأمراء فحلفوا له ، فخلع عليهم، وأمر بالاحتياط على نواب الأمير لاجين وحواصله ، وأقام العادل بالقلعة هذه الأيام(١) .

وكان الخلف الذى وقع بينهم بوادى فحمة(٢) يوم الإثنين الثانى والعشرين من محرم هذه السنة ، وذلك أن الأمير حسام الدين لاجين قد واطأ جماعة من الأمراء فى الباطن بعزل العادل ، ووثق منهم ، فأشار على العادل — حين خرجوا من دمشق — أن يستصحب معه الخزانة ، وذلك أنه(٣) لايتقوى بها إن رجع إليها ، وتكون قوة له(٤) فى الطريق على ما قد عزم عليه من الأمور .

---

(١) انظر السلوك جـ ١ ص ٨٢٣ — ٨٢٤ .

(٢) « بالجون بالقرب من وادى فحمة » — تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٢٢٢ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٦٣ .

(٣) الضمير هنا يعود إلى الملك العادل كتبغا .

(٤) الضمير هنا يعود إلى حسام الدين لاجين .

فلما كانوا بالمكان المذكور قتل لاجين الأمير سيف الدين بخاص ، وبكتوت الأزرق النابلسى ، وأخذ الخزانة بين يديه والعدد ، وقصد ديار مصر ، فلما سمع العادل بذلك خرج من الدهليز ، وساق جريدة إلى دمشق ، فدخلها كما ذكرنا ، وتراجع بعض مماليكه كزين الدين أغلبك(١) وغيره . وأقام السلطان بالقلعة لا يخرج منها ، وأطلق كثيرا من المكوس ، وكتب بذلك تواقيع ، وقرئت على الناس ، وغلا السعر جدا .

ولما دخل لاجين إلى مصر دخلها فى أبهة عظيمة ، وتابعه الأمراء ، وملك عليهم ، وجلس على سرير الملك يوم الجمعة العاشر من صفر ، ودقت البشائر ، وزينت البلد ، وخطب له على المنابر ، والقدس ، والخليل ، والكرك ، ونابلس ، وصفد ، وذهبت إليه طائفة من أمراء دمشق ، وقدمت الجريدة من جهة الرحبة صحبة الأمير سيف الدين كجكن ، فلم يدخلوا البلد ، بل نزلوا بميدان الحصى(٢) ، وأظهروا مملكة المنصور لاجين صاحب مصر ، وركبت إليه الأمراء طائفة بعد طائفة ، وفوجا بعد فوج . فقوى أمر المنصور وضعف أمر العادل .

فلما رأى انحلال أمره قال للأمراء : هو خشداشى ، وأنا وهو شىء واحد ، وأنا سامع له مطيع ، وأنا أجلس فى أى مكان من القلعة حتى تكاتبوه ، وتنظروا ماذا يقول .

وجاءت البريدية بالمكاتبات تأمر بالاحتياط على الطرق ، وعلى الملك العادل ، وبقى الناس فى هرج وأقوال مختلفة ، وأبواب المدينة مغلقة سوى باب النصر

---

(١) « غلبك » فى البداية والنهاية .

(٢) « الحصى » فى البداية والنهاية .

وباب القلعة أيضا ، والعامة حول القلعة حتى سقط منهم طائفة فى الخندق ، فمات بعضهم .

وقد أعلن باسم الملك المنصور لاجين ودقت البشائر بذلك بعد العصر ، ودعا له المؤذنون فى سحر ليلة الأحد بجامع دمشق ، وتلوا قوله تعالى ﴿ قل اللهم مالك الملك ﴾[(1)] الآية .

وأصبح الناس يوم الأحد فاجتمع القضاة والأمراء ، وعزلوا العادل بدار السعادة ، وحلفوا للمنصور لاجين ، ونودى بذلك فى البلد ، وأن يفتح الناس دكاكينهم ، واختفى الصاحب شهاب الدين وأخوه زين الدين المحتسب ، فعمل الوالى ابن الشهابى حسبة البلد ، ثم ظهر زين الدين فباشرها على عادته ، وكذلك أخوه شهاب الدين .

وسافر الامير سيف الدين أغرلو[(2)] ، وسيف الدين جاغان[(3)] إلى الديار المصرية يُعلمان بوقوع التحليف على ما رسم به .

وجاء كتاب السلطان أنه جلس على السرير يوم الجمعة العاشر من صفر ، وشق القاهرة فى سادس عشره [١٣٥] فى أبهة الملك ، وعليه الخلعة الخليفتية والأمراء بين يديه مشاة ، وقد استناب بديار مصر الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى .

---

(١) سورة آل عمران رقم ٣ آية رقم ٢٦ .

(٢) « غرلو » فى البداية والنهاية .

(٣) « جاعان » فى البداية والنهاية .

وخُطب بدمشق للمنصور لاجين أول يوم من ربيع الأول ، وحضرت القضاة المقصورة ، وشمس الدين الأعسر ، وكجكن ، وأزدمر (١) ، وجماعة من أمراء دمشق ، وتوجه القاضى إمام الدين القزوينى ، وحسام الدين الحنفى ، وجمال الدين المالكى إلى مصر مطلوبين ، وقدم الأمير حسام الدين أستاذ دار السلطان وسيف الدين جاغان من جهة السلطان ، فحلّف الأمراء ثانية ، ودخلوا على العادل إلى القلعة ومعهم بدر الدين أبى جماعة وكجكن فحلفوه أيمانا مؤكدة بعد ما طال بينهم الكلام بالتركى ، وذكر فى حلفه أنه راض بما يعينه له من البلدان أى بلد كان ، فوقع التعيين بعد اليمين على قلعة صرخد (٣) .

ودخل سيف الدين قفجاق المنصورى على نيابة الشام إلى دمشق بكرة السبت السادس عشر من ربيع الأول ونزل بدار السعادة ، عوضا عن سيف الدين اغزلو العادلى ، واستقر كتبغا بصرخد (٤) ، وكتب له منشور إقطاعا له ، ولم يتعرض إليه أحد ، فسلمت له نفسه وأهله وأولاده ومماليكه وألزامه (٥) .

وفى نزهة الناظر : لما تكمل الدست للاجين فى السلطنة طلب الأمير شمس الدين سنقر الأعسر وأمره أن يركب البريد ويذهب إلى العادل كتبغا فى دمشق ،

---

(١) « وأستدمر » فى البداية والنهاية .

(٢) « الدار » فى الأصل ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٣) وأعانه أهل الشام على كتبغا حتى قبض عليه ، وجعله نائب حماة » فى المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٦٨ ، وهو تحريف .

(٤) « خرج كتبغا من دمشق يوم الثلاثاء تاسع عشر ربيع الأول ، ووصل الى صرخد بعد ما أخلوها من العدد والمجانيق والحواصل — » كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٦٨ .

(٥) انظر البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٤٦ — ٣٤٩ ، حيث يوجد اختلاف فى بعض الألفاظ وتقديم وتأخير ولكنه لا يغير من السياق العام للنص .

ويجتمع بالأمراء والمقدمين والجند، ويعرفهم أن لاجين تسلطن، وأنهم يحيطون به ولا يمكنوه من الخروج إلى مكان آخر، فلما وصل اجتمع بالأمراء والأكابر وعرفهم بالذى أمر به لاجين، وكان جميعهم يميلون إلى لاجين ويحبونه من أيام نيابته عليهم، فوافقوا كلهم متفقين على ما أمر به لاجين، وكان اتفق فى اليوم الثالث من دخول سنقر الأعسر حضور الأمراء الذين كانوا مجردين إلى إلى سيس وفيهم الأمير سيف الدين كجكن، وهو من أمراء الشام، والأمير حسام الدين الأستاذ دار، وهو من أمراء مصر، وكان الخبر وافاهم بحمص، وكان الأمير حسام الدين صاحب رأى وتدبير، وكذلك الأمير كجكن واتفق رأيهما مع رأى سنقر الأشقر إلى أن ركبوا ودخلوا إلى العادل وصحبتهم قاضى القضاة ابن جماعة، فلما تلاقوا بكى كتبغا وبكى هؤلاء أيضا، وشرع كتبغا يخبرهم بما وقع من لاجين فى حقه، وشكى من الأمراء أيضا وأظهر شكوى كثيرة، وظهر منه تخضع وذلة حتى رحموه وبكوا بكاء كثيرا، وأخذوا يتلطفون به فى الحديث، ويترققون له، ويظهرون الحزن والتأسف له .

ويناسب هذه الحالة قول الشاعر :

وعاجز الرأى مضياع لفرصته   حتى إذا تم أمر عاتب القدرا

وأخذ الأمير حسام الدين يقول : إن الأيام دول، والله يُعطى ملكه من يشاء، وما بقى الأمر إلا دخولك تحت طاعته، وهو خشداشك، فإنكم من بيت واحد، ومماليك أستاذ واحد، وإذا بلغه دخولك فى طاعته فعل معك

جميع ما تختاره ، ونحن نضمن لك كل ما تقصده ، ونكتب إليه ، ويأتى الجواب إن شاء الله بما تختاره ، فقال : أنا ما بقيت أريد غير سلامة رأسى وولدى وأهلى ، وحيث اختار أن أكون فيه [١٣٦] يعلمنى بذلك ، ويبعث عائلتى ، وأنتم تعلمون ما عملت مع هذا الرجل من أول الزمان إلى آخره ، وأقل ما يكون أن أكون أنا وعائلتى فى الحياة مستورين ، فتوجعوا كلهم من كلامه وشكايته ، ثم أحضروا سائر القضاة وخلع نفسه من الملك ، فحلف وحلفوا كلهم، وكان ذلك اليوم يوم الجمعة ، فخطب باسمه[1] ودعى له وقرأ رئيس المؤذنين ﴿ قل اللهم مالك الملك[2] ﴾ الآية ، فتباكى الناس وضجوا بالدعاء للملك المنصور لما سبق لهم من المحبة له .

وفى ذلك اليوم انحط سعر الغلة عشرة دراهم من الغرارة ، وكان زاد السعر يوم دخول العادل ، وكذا زادت أسعار بقية الأشياء ، ثم رجعت إلى ما كانت عليه ، ثم أخلوا مكانا لكتبغا فى القلعة ورسموا على أغرلو مملوكه وجميع حاشيته ، ثم كتبوا إلى المنصور بجميع ما وقع عليه الاتفاق ، وسألوه فى آخر الكلام قبول الشفاعة فى كتبغا ، وأنه خشداشه على كل حال ، وأنه أذعن لطاعته ، وكان أول من حلف له عند وصول الخبر ، وأرسلوا نسخة اليمين أيضا .

فلما بلغ إليه ذلك فرح ، وعرف الأمراء ، وقرأ الكتاب عليهم ، ثم قال : كتبغا ما له ذنب ، ولولا مماليكه ما جرى عليه شىء من ذلك ، ولكن الأمور بتقدير الله تعالى ، ثم كتب له تقليدا بنيابة صرخد ، وكتب إلى الأمراء بدمشق

---

(١) الضمير يعود الى المنصور لا جين .

(٢) سورة آل عمران رقم ٣ آية رقم ٢٦ .

أنه أجاب إلى سؤالهم ، وأرسل التقليد مع مملوك له يسمى جاغان ، وبعث معه أيضا تقليد الوزارة لتقى الدين توبة ، وكان ممن يلوذ بخدمته ، وأمر بحضور الأمير علم الدين الدويدارى وصحبته القاضى حسام الدين الحنفى ، وأمر لإمام الدين القزوينى بقضاء دمشق ، عوضا عن ابن جماعة ، واستقر ابن جماعة خطيبا وناظر الأوقاف .

وخلع على الأمير سيف الدين قفجاق واستقر نائب دمشق ، وعلى الأمير شمس الدين قراسنقر واستقر نائب السلطان بمصر ، وأمر لقفجاق أن يروح على البريد ، وتقدم قدامه جاغان بالتقاليد ، وخلع على الأمير سيف الدين الحاج بهادر أمير حاجب على عادته ، وعلى الأمير سيف الدين بكتمر السلاحدار واستقر أمير جاندار ، وخلع على الأمير سيف الدين سلار واستقر أستاذ الدار ، عوضا عن بخاص .

وتباشرت الناس بسلطنته ، وانحطت الأسعار ، وكثر الجلب ، ورجع كل شىء إلى ما كان عليه ، وتواترت الغلال من الأقاليم ، وكثرت المواشى ، والفواكه ، والسلطان أيضا شرع فى الإحسان للرعية والجند والأمراء ، وأمر بتجهيز النفقات ، وأخذ فى تأمير مماليكه ؛ فأمّر منكوتمر ، وجاغان ، وبهادر المعزى ، وبهادر الجوكنداز ، وسيف الدين بيدو ، وأيدغدى شعير ، وسيف الدين بالوج ، وجمال الدين أقوش الرومى ، وغيرهم من الطبلخانات والعشرات ، وأفرج عن الملك المجاهد وخلع عليه ، وشفع هو عنده فى مملوك أبيه علاء الدين قطلوبوس ، فقبل شفاعته ، وخلع عليه ، ورسم بنزوله دار والده المجاورة لدار الملك المنصور ، وطلب بعد ذلك الصاحب فخر الدين ابن الخليلى

وأمره أن لا يظلم أحدا ، ولا يجور على الناس ، ولا يرمى عليهم رماية ، ولا يفعل شيئا إلا بما يقتضيه الشرع الشريف ، ويسلك الطريق الحيدة ، ثم خلع عليه ، [١٢٧] وكذلك أمر لناصر الدين الشيخى الشادّ وشرط عليه ما شرط على الوزير .

ذكر إخراج الناصر من مصر إلى كرك[(١)] :

اتفق المنصور مع الأمراء على إخراج الناصر محمد بن قلاون من مصر ، وقال لهم : إن هذا صغير وقد انحصر من منع الركوب والطلوع والنزول ، والمصلحة أن يكون هو ووالدته فى الكرك عند الأمير جمال الدين[(٢)] نائبها ، يركب إلى الصيد والتنزه ، فوافقت الأمراء على ذلك ، وطلبوا الأمير سيف الدين سلار وعز الدين الحموى لالا[(٣)] السلطان وعرفهما ما قصده ، ثم نهض السلطان بنفسه إلى القاعة التى فيها والدة الناصر ، فجلس وطلب الطواشى وعرّفه أن يُسلم على والدة الناصر ويخرج الناصر إليه ، فردت السلام وأخرجوه ، فأكرمه وأجلسه على ركبته ، وشرع فى تطييب خاطره ، وعرّفه أنه يسيّره إلى مكان الصيد والتنزه ، والركوب كيف ما اختار هو ووالدته ، وترقق له ، وعرّف والدته أنه ما فعل بالملك

---

(١) ورد هذا الخبر فى حوادث سنة ٦٩٧ هـ انظر نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٩ ورقة ٩٤ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٠٤ — ٢٠٥ ، السلوك جـ ١ ص ٨٣٢ .

وورد فى أحداث سنة ٦٩٦ هـ فى زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٩٤ ب ، التحفة الملوكية ص ١٤٩ .

(٢) هو أقوش (آقش) بن عبد الله الأشرفى ، الأمير جمال الدين نائب الكرك ، وأصله من مماليك الاشرف خليل ، وتوفى سنة ٧٣٦ هـ / ١٣٣٠ م — المنهل الصافى جـ ٣ ص ٢٧ رقم ٥١٨ .

(٣) لالا : أى مربى .

العادل ما فعله إلا ليكون نائبا عنه إلى حين يكبر و يصلح للملك ، فهو الآن نائب عنه ، ولما سمعت والدته بذلك أجابت إلى كلامه ، وقرر سفره صحبة بهادر الحموى ، والأمير سلار ، والأمير تمربغا رأس نوبة ، وأمر أن يكون مملوكه أرغون الدويدار صحبته ومعه عشرون مملوكا ، ففرح الناصر بذلك ولا سيما وكان قد وجد حصرا عظيما من أولاد العادل وإهانة ونكدا .

وكتب لاجين أيضا لجمال الدين نائب الكرك ، وعرّفه بوصول الناصر إليه ، وأنه إذا وصل اليه يكرمه ويحترمه ، ثم إنه سفره في الليل وأعطى له ألف دينار وتشريفا ، وكتب كتابا إلى نائب الكرك ، وذكر فيه أنه نائب عنه إلى أن يبلغ ، وأنه ما فعل بالعادل ما فعله إلا لأجله ، ثم إنه لما وصل إلى الكرك(١) نزل إليه النائب وتلقاه وأكرمه ، وطلع به ، فأجلسه مكان جلوسه ، ووقف هو والأمراء بين يديه ، ومدّ له سماطا عظيما ، وقرر عنده سائر ما يحتاج إليه الملك من أرباب الوظائف ، وأقام الأمير سلار عنده ثلاثة أيام ، ثم عاد ، وقصد تمربغا عوده ، فمنعه من ذلك وعرفه نائب الكرك أنه قد ورد مرسوم بإقامته بالكرك مع أستاذه في خدمته ، فامتثل المرسوم وأقام عنده .

ذكر القبض على الأُوَيْراتيّة

قد تقدم ذكر حضورهم ووصولهم إلى الديار المصرية ، وكيف حصل لهم الحظ الوافر والتقرب عند العادل ، وأنه قدمهم على أكابر الأمراء لكونهم من جلسه(٢) ، وكان قد اتفق أن العادل شرب معهم يوما قمزا وجرى بينهم حديث البلاد

(١) « في رابع ربيع الأول » سنة ٦٩٧ هـ في السلوك جـ ١ ص ٨٣٢ .

(٢) انظر ما سبق ص ٢٧٨ وما بعدها ، ص ٣٠٤ وما بعدها .

وكيف اتفق بينهم وبين قازان ، وذكروا أنهم ما قصدوا بلاد مصر إلا أنهم يملكونها ويجعلونها وطنا ، وأنهم كانوا يعتقدون أن ليس لها عسكر يمنع ، وأن عسكرها عامة وعرب وأكراد ، فلما نظروا إلى عساكرها من الأجناس المختلفة والأشكال المتباينة وأنهم لا يحصون ندموا على حضورهم غاية الندم ، وأنهم لو أمكنهم الرجوع ما أقاموا ، وكانوا أخذوا فى مثل ذلك وأشباهه ، وكان بعض الأمراء حاضرا فى ذلك الوقت يشرب القمز مع العادل ، فسمع جميع ما قالوا وأخبر به سائر الأمراء ، وبلغ الخبر إلى النائب لاجين وقرا سنقر وكان هذا هو السبب [١٣٨] لاتفاق الأمراء على كتبغا مع ما حصل من مماليكه .

ولما تسلطن لاجين طلب الأمراء واستشارهم فى أمر هؤلاء الأويراتية ، فاتفق رأيهم على مسك كبارهم وتفريق البقية فى الشام ومصر ، فقبض على مقدمهم طرغاى وككتاى وألُوص وجماعة من كبارهم وسفروا إلى الإسكندرية وكان آخر العهد بهم ، ولا يعرف لأحد منهم قبر غير طرغاى فإنه معروف بمقابر اسكندرية ، وأما ألُوص فإنه أفرج عنه وأقام بمصر، ثم فرق المنصور بقيتهم ، فمنهم من خدم عند الأمراء والأكابر ، ومنهم من ذهب إلى الشام ورغب فى استخدامهم الأمراء لأنه ماجاء طائفة من الشرق إلى مصر أجل منهم، وانتشرت منهم جماعة فى حسينية القاهرة وكانوا قد نزلوا بها واتخذوا بها مساكن ، فطابت أحوالهم ، وكثرت محاسنهم ، وانتشرت منهم بنات حسان لا يوصف حسنهن فرغبت فيهن[1] أكابر الناس من الأمراء والأعيان والتجار وغيرهم[2] .

(١) « فيهم » فى الأصل .

(٢) انظر المواعظ والاعتبار جـ ، ص ٢٢ — ٢٣ .

ذكر بقية ما جرى في هذه السنة :

منها : أن المنصور أخرج جميع من كان فى السجون فى الإسكندرية ودمياط وغيرهما من الأمراء والمماليك ، فلما وصلوا إلى البحر رسم بإخراج المماليك المسجونين بخزانة البنود وخزانة شمائل وسائر السجون ، وكان طلوعهم فى يوم واحد ، وغلقت المدينة للتفرج عليهم ، وكان يوما مشهودا ، وعند طلوعهم إلى السلطان فكوا قيودهم ، وقبلوا الأرض ، ولبسوا التشاريف ، وكان فيهم مثل الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، والأمير سيف الدين براقى ، والأمير سيف الدين الدكز ، وكانوا خمسة وعشرين أميرا ، ونزل كل واحد إلى مستقره ، واستقر بالقلعة من كان عادته بها .

قال صاحب النزهة : بلغنى من دوادار السلطان أنهم لما دخلوا عليه وخلع عليهم وخرجوا من بين يديه ، نظر إليهم وإلى حسن أشكالهم وإلى المهابة التى فيهم لحقه ندم كثير وصار فى فكر عظيم ، وأن دواداره فهم مقصوده . وقال له يا خوند : والله لقد عملت فيهم خيرا وإحسانا . قال : فرفع رأسه إلىّ وقال : أخطأنا بإخراج هؤلاء جملة ، ولو كان بالتدريج لكان أحسن ، وما بات أحد منهم تلك الليلة إلا وقد ملأ اصطبله من الخيل والبغال وحملت إليهم الكساوى والأشياء المفتخرة من خشداشيتهم ، وبلغ ذلك السلطان فازداد ندما على إخراجهم فطلب مماليكه وعرفهم بذلك ، وقال لهم : كيف نعمل ولا يمكن الرجوع من ذلك والندم لا ينفع ، فاتفق رأيهم على إخراج بعضهم إلى القلاع ، وإخراج الأمراء الذى يخشى من فسادهم ، ثم بعد أيام طلب الأمراء واستشارهم فى أمرهم ، وقال لهم : إن هؤلاء كثيرون ، وفيهم أمراء ، وما ثمت شىء فى هذا

الوقت من الإقطاعات ، واتفق رأيه معهم على أن يكون الأمير ركن الدين بيبرس نائب السلطنة بالصبيبة ، والأمير برلغى أميرا بدمشق ، وفلان وفلان فى طرابلس وصفد ، واستقر أمرهم على ذلك ، ولما بلغ هذا الاتفاق على هؤلاء ، دخلوا على الأمراء وعلى خشداشيتهم على أن يدخلوا على السلطان فى أمرهم وأنهم مايختارون إلا أن يكونوا فى ركاب السلطان ، فتكلمت الأمراء [١٢٩] بذلك ، فأجاب إليهم ورسم بإقامتهم ، وأخرج لهم الإمريات والإقطاعات بالتدريج .

ومنها : أنه عزل الصاحب فخر الدين بن الخليلى عن الوزارة ، وخلع على الأمير سنقر الأعسر واستقر فى الوزارة ، وهى وزارته الثانية ، وسلّم إليه الصاحب فخر الدين وأخذ خطه هو وأتباعه بمائة ألف دينار ، كذا ذكره ابن كثير فى تاريخه (١) .

وفى نزهة الناظر : كان فخر الدين ابن الخليلى صادر الأمير سنقر الأعسر ونكل به نكالا كثيرا على ما تقدم ، ولما وزر الأعسر خشى فخر الدين على نفسه من النكال والإحراق ، فسير إلى الأمير سلار ودخل عليه ، وعرفه أن الأعسر متى تمكن منه حصل عليه كل سوء ، وكان بين فخر الدين و بين سلار صحبة أكيدة من أيام السلطان الملك الصالح ، فإنه كان ناظر ديوانه وسلار أمير مجلس ، وكان يخدمه ويهاديه ، ثم سير إليه خط الإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه يذكر فيه : من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تميم الدارى وذريته هذا ما أعطاه محمد رسول الله لتميم الدارى وذريته جيروم والمرطوم و بيت عيون

(١) لا يوجد هذا الخبر فى النسخة المطبوعة من البداية والنهاية .

وبيت إبراهيم وما فيهن وسلمت ذلك إليهم ولأعقابهم ، فمن أذاهم أذاه الله ومن لعنهم لعنه الله ، شهد بذلك عتيق ابن أبى قحافة وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضى الله عنهم وكتبه على بن أبى طالب ، فلما رأى سلار ذلك الخط أخذه ودخل على السلطان وعرفه أن هذا الرجل من أهل بيت كبير وذرية صالحة موصاة بوصية النبى عليه السلام وأخرج له الخط ، فلما رآه السلطان نهض إليه وقبله ووضعه على رأسه وقال : السمع والطاعة ، قبلت أمر رسول الله عليه السلام ، ثم طلب الأعسر وعرفه بذلك ، فأخذ الوزير فى منع هذا وقال : لم يعقب تميم الدارى ، وربما يكون هذا مفتعلا ، فقال السلطان : ما بقى إلا مكان للتعرض إلى هذا بوجه من الوجوه ، وإن كان ما تقول صحيحا ، فخرج الوزير من عنده وطلب ابن الخليلى إليه وأكرمه ، وقال له على شئ يحمله يرضاه ، فاتفق معه على على حمل ثمانين ألف درهم وأفرج عنه .

ومنها : أنه رسم بالإفراج عن الإمام الحاكم بأمر الله أبى العباس أحمد ، وكان قد منع الخروج والركوب وعن أمر يدخل إليه ، وكانوا أخلوا له برجا ، وإلى الآن يعرف ببرج الخليفة ، فلما حضر عنده قام إليه وأكرمه وأنعم عليه بأشياء كثيرة ، ورسم أن يخلى له موضع بالكبش[1] ويقيم فيه هو وعائلته ، وأجرى له ولعائلته رواتب وجميع ما يحتاجون إليه ، ورسم له أن يخطب يوم الجمعة ويؤم بالناس ونزل فى موكب عظيم والأمراء والحجاب فى خدمته ، وكان يوما مشهودا ، وجاءت إليه القضاة والمشايخ ، ثم خطب يوم الجمعة خطبة بليغة .

ومنها : أنه أمر بتجديد عمائر جامع أحمد بن طولون وترميم ما تشعث من جدرانه .

(١) « مناظر الكبش » فى تذكرة النبيه جـ١ ص ١٩٥ .

قال ابن كثير: وندب لعمارته علم الدين سنجر الدوادارى وأفرد له عشرين ألف دينار عينا من خاص ماله، فصرفت عليه، ورتب له أملاكا وجدد له أوقافا[1].

وفى نزهة الناظر: وكان السبب لذلك ما ذكرناه عند ما اتفق للسلطان وقراسنقر من قتل الملك الأشرف، وأن السلطان لما هرب جاء ودخل جامع ابن طولون وأقام فيه ثلاثة أيام هى إقامته فيه [١٤٠] نذر لله تعالى إن خلصه من هذه الورطة أن يعمر هذا المكان ويجدده، وأن يعمل فيه من الخير جهده[2]، واتفق ما اتفق من تقلبات الدهر إلى أن تسلطن وصار له الحكم فى سائر الأمور تذكر ذلك النذر، وكان قد طلب الأمير علم الدين الدوادارى من دمشق وخلع عليه وولاه نيابة دار العدل لما كان يعلم من خيره وعلمه ودينه، وكانت له معه صحبة قديمة، وفوض إليه أمر العمارة وشراء الأوقاف، وأوصى إليه أن لا يسخر فيه صانعا ولا فاعلا، وأن لا يشترى شيئا إلا بقيمته، وأول ما اشترى من الأماكن اوقفه منية الدونة من الأعمال الجيزية، واشترى له أرض ساحة إلى جانبه وحكرها، ورتب فيه الدروس فى المذاهب الأربعة، ورتب المقرئين وقراء المصحف والبوابين والوقادين، ودرس الأطباء، ومكتب الأيتام، وغير ذلك من جميع المعروف[3].

وجدد أيضا المسجد الأخضر بين القرافتين، ومسجدا آخر بجوار الليث بن سعد رضى الله عنه، وجدد مواضع كانت قد هدمت من مساجد الفتح.

---

(١) انظر وثائق وقف السلطان حسام الدين لاجين رقم ١٧، ١٨ محفظة ٣ بمجموعة المحكمة الشرعية بدار الوثائق القومية، وانظر فهرست وثائق القاهرة.

(٢) انظر ما سبق ص ٢٣٨ وما بعدها.

(٣) انظر أيضا المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٦٨.

ومنها : أنه ورد إليه كتاب الشريف أبي نمى صحبة قواده يهنيء بولاية السلطان ويعرض بذكر كتبغا بشيء من شعره :

لقد نُصر الإسلام بالملك الذى تزعزع من شم الملوك الشناخبْ
حُسام الهدى والدين منصوره الذى رَقى بسماء المجد أعلى المراتب
مضى كتبغا خوف الحِمام وقد أتت إليه أسود الجند من كل جانب (١)

ومنها : أن السلطان المنصور قبض على الوزير شمس الدين الأعسر ، وكانت توليته الوزارة فى جمادى الأولى ، وقبض عليه فى أواخر ذى الحجة من هذه السنة ، وكان السبب لذلك كبره وتجبره وتعاظمه على الأمراء ومماليك السلطان ، وبلغ كبره إلى أنه لا يرد الجواب للسلطان إلا بعد زمان وتأنّى ، ومع هذا كان يجيبه بما لا شفاء له ، وكان قصده أن يسلك فى الوزارة مسلك الشجاعى مع أرباب الأقلام والمتعممين ، ولذلك ما كان يقبل شفاعة أحد من الأمراء ، وكان يخرق بقصادهم ونوابهم ويتعاظم عليهم ، فلذلك رماه الله على أم رأسه .

ومنها : أنه قبض على الأمير قراسنقر النائب ، والسبب لذلك أمور منها : أنه أراد أن يقيم مملوكه (٢) منكوتمر عوضه فى النيابة ، ومنها : أنه خشى من اتفاق الأمراء البرجية الذين أخرجهم من الحبس مع قراسنقر النائب ، ومنها : أن قراسنقر أسرف فى الطمع والحمايات وتحصيل الأموال على أى وجه كان ، واتفق فى نيابته شكوى كثيرة فى دار العدل بقصص رفعت فى حق مماليكه ، وكان أكثر الشكاوى فى حق كاتبه شرف [يعقوب] (٣) فإنه كان تحكم فى بيته تحكم المُلّاك ،

(١) انظر غاية المرام جـ ٢ ص ٣٥ — ٣٦ حيث توجد أبيات أخرى ، كما يوجد اختلاف فى بعض المقاطع .

(٢) الضمير هنا يعود على المنصور لاجين .

(٣) [ ] إضافة للتوضيح — تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٢٣٢ ة

وكان صاحب مال كثير ومماليك كثيرة وحفدة وأتباع ، وكان متولعا باللهو والطرب واجتماع الندماء عنده ، وكان يتكرم عليهم مكارم كثيرة وإنعام جسيم ، وكان تعلق قلبه بامرأة بعض أرباب البيوت ، فاتفق أنه سكر ليلة فدعاه سكره إلى أن أرسل وراءها ، فعز عليها الحضور فى تلك الليلة ، فسير من أحضرها كُرهًا وزوجها معها ، فلما حضر زوجها أحرق به فضربه وأهانه [١٤١] ، ثم إن الرجل قدم قصة للسلطان وذكر فيها ما جرى عليه وعلى امرأته ، فقوى ما فى قلب السلطان من جهته ، فطلب أستاذه قراسنقر وأغلظ عليه فى القول وقال له : لا بد من تأديب كاتبك وخروجه من عندك ، ولما خرج قراسنقر من من عند السلطان طلب كاتبه وأعطاه القصة ، فقرأها ، وأنكرها ، ولم يكترث بذلك لا هو ولا قراسنقر ، وصار السلطان بعد ذلك يذكر ذلك للأمراء ، ويعدّ مساوىء هذا الكاتب ، ويتكلم من ظلم قراسنقر ، وظلم حاشيته إلى أن اتفق رأيه بحضور الأمير بدر الدين بيسرى وعز الدين الحموى وسنقرجاه الظاهرى والحاج بهادر الحاجب على قبضه ، ثم قال له البيسرى : يا خوند إذا مسكت هذا ما تريد نائبا غيره ! ! فقال : استنيب مملوكى منكوتمر ، فسكت الجميع عند ذلك ، بل وجموا عند ذكره ، ثم قال السلطان ما سكوتكم عند ذكرى منكوتمر ! فقال البيسرى : يا خوند مملوكك منكوتمر شاب قوى النفس ، حادّ الخلق . وهذا المنصب يريد رجلا ثقيل الرأس ، طويل الروح ، يحسن الحكم والسياسة . وقال الحاج بهادر : يا خوند الأمراء كلهم ما يخشون إلا من تولية منكوتمر ، وأنت قد كنت شرطت على نفسك مع الأمراء حين توليت السلطنة أن لا تولى منكوتمر أمرا ، ولا مملوكك جاغان ، ووقعت اليمين على ذلك ،

وأخذ يذكر ما وقع من ذلك عند سلطنته في العوجاء ، ولما سمع السلطان ذلك منهم قال : حتى ننظر غير هذا .

وخرجت الأمراء من عنده وقد تمكن في غاية الغيظ من ذلك ، ثم أحضر منكوتمر وخشداشيته من المماليك وأخبرهم بالذى وقع مع الأمراء ، ثم قال : هذا منهم يدل على أني محكوم على في سلطنتي ، وما خرجوا من عنده حتى اتفقوا معه على أن يفرق الأمراء إلى كشف الأقاليم ولا يؤخر عنده إلا من يريد مسكه والقبض عليه .

فلما أصبح أمر بكتابة أوراق بذلك ، فعين الأمير سيف الدين طغريل الأيغاني لكشف الشرقية ، والأمير سنقر المساح لكشف الغربية ، والأمير بدر الدين بيسرى لكشف الجيزية ، وأمره أن يكون قريبا من المدينة ويعدى للخدمة أيام الإثنين والخميس ، ويتصيد هناك ويتنزه ، وبعد أيام قليلة خرجت الأمراء كل واحد إلى جهته .

ثم بعد ذلك طلب كرجي وكان قد قدمه على المماليك السلطانية وعرّفه المقصود ، وأمره أن يتفق مع الأمير سيف الدين طقجي وناصر الدين منكلي التترى على مسك أمراء عينهم عند عبورهم للخدمة .

ولما دخلت الأمراء إلى السلطان نهض هؤلاء فمسكوا قراسنقر النائب ، والحاج بهادر ، وعز الدين الحموى ، ومسكوا أيضا ممن كانوا خارج الخدمة سنقرجاه الظاهرى ، والأمير أقوش ، وعبد الله ، وكورى ، والشيخ على ، وقيدوا الجميع وحطوهم في الزرد خاناه ، وأمر السلطان أن يخلى قاعة قريبة منه ويحط فيها قراسنقر ، ويحمل إليه كل ما يحتاج إليه ، ثم أمر بمسك كاتبه وعقوبته

واستخراج أمـواله وأموال أسـتاذه ، وكتب أيضا [١٤٢] إلى نائب الشام بإيقاع الحوطة على سائر موجوده وموجود الأمراء الذين مسكهم معـه .

ثم فى اليوم الثانى يوم الأربعاء منتصف ذى القعدة منها طلب منكوتمر وخلع عليه بخلعة النيابة وخرجت سائر الأمراء فى خدمته ، ووقف الأمير سيف الدين كرت أمير آخور حاجبا مكان الحـاج بهادر ، ثم رسم منكوتمر بإعادة الصاحب فخر الدين بن الخليلى إلى الوزارة ، وعزل ناصر الدين الشيخى من شد الدواوين وخلع على شمس الدين شيخوه الحلبى وتولى عوضه شادّ الدواوين ، وسلمت إليه حاشية قراسنقر وكان يستخرج منـه الأموال ، وأوصى منكوتمر الوزير على أن يعاقب كاتب قراسنقر عقوبة الموت .

وقال بيبرس فى تاريخه(١) : اسـتقل منكوتمر بالنيابة وأظهر العظمة والمهابة ، وكان كالمعيدى فى دمامة شكله وقباحة فعله ، وسلم إليه أستاذه القياد ، ووكل إليه تدبير البلاد والعباد ، فبسط يده ولسانه وقلمـه ، واحتجز الأموال والتحف والهدايا واللطف ، وأسرف غاية السرف ، وأظهر من التكبر والتجبر والصلف ، واستصغار الأكابر واحتقار الأصاغر ما نفر عنـه الخواطر وبغضه إلى البوادى والحواضر ، ولم يتقيـد بمـا يجب من الآداب ، ولا سلك سـبيل الصواب ، ولا علم مصرع الكبرياء ، وسوء مغبة الخيلاء .

ولله در القائل محذرا للإنسان من الزهو ، ومنبها له من الوقوع فى هذا السهو ، حيث يقول :

---

(١) فى حوادث سنة ٦٩٧ هـ .

يا نفسُ ذا الكبرياء من أين		أَلَسْتِ من مخرج السَبيلَين

أبوك بالأمسِ كان من حما		وجيفة أنت بعد يومَين

أقل ما ابتليت لا غيره		بغائط فى النهار وقتين

إن تعسّر فأنتِ هالكةٌ		أو تيسّر فرهن قولين (١)

ومن الحوادث فى هذه السنة ، ما ذكره صاحب نزهة الناظر ، وهو عبور العسكر الحلبي إلى ماردين على سبيل الغارة ، والسبب الموجب لذلك ، أن السلطان كان بينه وبين صاحب ماردين واقعة من أيام نيابته الشام أوجبت ذلك ، وأيضا وقع بين صاحب حلب وصاحب ماردين كلام بسبب مملوك ابتاعه صاحب ماردين من التجار وضع نائب حلب صفته ، فسير إليه يطلبه منه ، فأبى ، ثم إن السلطان أرسل إلى نائب حلب وأمره أن يختار من أمراء حلب وعسكرها جماعة معروفة ليغيروا (٢) على ماردين ، فجرد الحلبي والخطيب وابن العيثانى وجماعة من عسكر حلب معروفين ، وجرد من خيار مماليكه ستين مملوكا ونحو خمسمائة فارس ، فركبوا وساروا إلى أن بقيت بينهم وبين ماردين ليلة واحدة ، وكانوا كلما دخلوا ضيعة من ضياع ماردين لا يأخذون منها شيئا ولا يتعرضون إلى رعيتها ، وإذا سألوهم يقولون إنا قاصدون مكانا بالقرب منكم ، وبلغ صاحب ماردين مجيئهم وأنهم ما شوشوا على أحد من بلاده ، فسير إليهم الإقامات فاطمأن من جهتهم إلى أن كانوا بالقرب منه وركبوا فى الليل وما طلعت الشمس إلا وقد

---

(١) انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ٩ ورقة ١٩٦ أ حيث توجد إضافات على ما نقله العينى .

(٢) « ليغاروا » فى الأصل .

أوقعوا الغارة فى الرمض ، ووقع الصوت فى أهلها فاندهشت [١٤٣] الناس ، ووقع النهب واقتحموا سائر الحانات والبيوت .

وكان الملك المنصور قد عمر مكانا للتنزه سماه الطور، وقد ذكره صفى الدين الحلى فى شعره .

من نفحة الطور لا من نفخة الصور « ... ... »(١) وهى قصيدة طويلة .

وسمع صاحب ماردين الصياح فطلع إلى أعلى القلعة فنظر « ... . »(٢) العسكر قد أحاط بكل مكان، ونهبوا الحريم ، وأخربوا المستنزه، وكان قد غرم عليه أموالا عظيمة وعمر إلى جانبه مكانا آخر وسماه الفردوس .

قال صاحب التاريخ ، فى خبر هذه الغارة ، أنه رأى صاحب ماردين واقفا على قدميه ، وعليه قباء أحمر مزركش ، وهو يضرب يدا على يد ، ويصيح على العسكر ، ويشير بيده إليهم ، ويقول لهم : لا تخربوا بستانى ، واستمرت الغارة إلى آخر ذلك اليوم ، وكان الثانى من شهر رمضان .

وهذه الغارة هى التى أوجبت حضور قازان ، لأنه استفتى من العلماء فى أمر قتال أهل الإسلام الذين هتكوا الحريم ، وسبوا الأولاد ، وسفكوا الدماء واستباحوا الأموال ، ولما عادوا فعلوا فى الضياع أعظم مما فعلوه فى الربض .

ومنها ما ذكره ابن كثير : وهو أن السلطان أرسل إلى الملك الأشكرى بالقسطنطينية بإرسال أولاد الملك الظاهر إلى ديار مصر ، فجهزهم الأشكرى فى

---

(١) الشطرة الثانية مطموسة بالأصل .

(٢) « » كلمتان مطموستان .

مركب من مراكب الفرنج إلى ثغر الإسكندرية ، وخرجوا من ظلمة البلاد الرومية إلى نور البلاد الإسلامية ، وهم نجم الدين خضر وأخواته وأمه وأم سلامش ، وأما سلامش فإنه توفى بتلك البلاد كما ذكرنا ، فأحضرته والدته مصبرا ، ودفنته بتربتها فى مصر ، وسأل نجم الدين خضر أن يتوجه إلى الحجاز ، فأجاب سؤاله ، وجهزه بما يحتاج إليه من مال وزاد وهجن[1] وجمال ، ولما عاد سكن القاهرة[2] .

ومنها ما ذكره بعض المؤرخين ، وهو أنه ظهر بالديار المصرية فأر ، وأتت على الغلات والزروع ، وكان ظهوره على وجه الحصاد[3] ، فكان يسابق الحصادين إلى الزرع ، ولم يحصل من الزرع فى تلك السنة إلا اليسير[4] .

ومنها أنه وصلت خلع إلى أمراء دمشق والمقدمين وأعيان الدولة والمتولين ، فلبسوها ، وعدتها ستمائة خلعة .

وفيها بلغ النيل إلى خمسة عشر ذراعا ونصف ذراع ولم يبلغ الوفاء ، وخشى

(١) الهجان من الإبل : البيض الكرم . اللسان .

(٢) فى النسخة التى بين أيدينا (المطبوعة) من البداية والنهاية يوجد خبر عودة الملك المسعود خضر بن الظاهر من بلاد الأشكرى ، وحج الأمير خضر بن الظاهر ، وذلك فى حوادث شهر شوال سنة ٦٩٧ هـ ـ البداية والنهاية جـ ١٣ ص ، ٣٥٢ .

وكذلك ورد فى السلوك فى أحداث سنة ٦٩٧ هـ « فيها قدم الملك المسعود نجم الدين لخضر بن الملك الظاهر بيبرس من بلاد الأشكرى الى القاهرة بشفاعة أخته امرأة السلطان الملك المنصور لاجين » . السلوك جـ ١ ص ٨٣١ .

ولقد نقل العينى هذا الخبر عن بيبرس الدوادار ـ انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٩٥ ب .

(٣) أى موسم الحصاد .

(٤) انظر تاريخ ابن الفرات جـ ٨ ص ٢٣١ .

عاقبته إن أسرع بنزوله ، وذكر أنه كُسِر من غير وفاء ، ثم مسك من النقص إلى أن بلغ الله به النفع .

وفيها حج بالناس من الديار المصرية الأمير سيف الدين كرتيه المنصورى ، وحج بالناس من الشام الأمير عز الدين كرجى .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

قاضى قضاة الحنابلة هو عز الدين عمر(١) بن عبد الله بن عمر بن عوض المقدسى الحنبلى .

سمع الحديث ، وبرع فى المذهب ، وحكم بديار مصر ، وكان مشكور السيرة ، توفى فى صفر ، ودُفن بسفح المقطم ، وحكم بعده شرف الدين عبد الغنى(٢) ابن يحيى بن محمد بن عبد الله بن نصر الحرانى .

الشيخ الصالح المقرىء جمال الدين عبد الواحد(٣) بن كثير بن ضرغام المصرى ، ثم الدمشقى ، نقيب السبع الكبير والغزالية .

وكان قد قرأ على السخاوى ، وسمع الحديث ، وتوفى فى أواخر رجب ، ودفن بالقرب من قبة الشيخ رسلان ، رحمه الله .

[١٤٤] الصدر الكبير شرف الدين أبو العباس أحمد(٤) بن محمد بن على

---

(١) له أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٥٠ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١١١ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٣٦ ، السلوك جـ ١ ص ٨٣٠ .

(٢) توفى سنة ٧٠٩هـ / ١٣٠٩ م ــ المنهل الصافى .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٥٠ ــ ٣٥١ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ١٣٤ ، المنهل الصافى جـ ٢ ص ١٤٨ رقم ٢٨٧ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٥١ ، الدارس جـ ١ ص ٧٢ ، السلوك جـ ١ ص ٨٣١ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ٢٥ رقم ٣٨ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٩٩ ، فوات الوفيات جـ ١ ص ١٢٤ رقم ٥٢ ، الوافى جـ ٨ ص ٦٦ رقم ٣٤٨٨ .

ابن جعفر البغدادى السامرى[1] .

واقف السامرية[2] التى إلى جانب الكروسية[3] بدمشق ، وكانت داره التى سكن ودفن بها ، ووقفها دار حديث وخانقاة ، وكانت وفاته يوم الإثنين الثامن عشر من شعبان ، وكان كثير الأموال ، حسن الأخلاق ، معظما عند الدول ، له أشعار رائقة ، ومبتكرات فائقة ، وكان ببغداد له حظوة عظيمة عند الوزير ابن العلقمى[4] ، وامتدح الخليفة المستعصم بالله وخلع عليه خلعة سوداء سنية ، ولما أخذت التتار بغداد قدم إلى دمشق ، فحظى عند صاحبها الملك الناصر ، وصارت له عنده أعلى مكانة ، فحسده أرباب الدولة ، فشرعوا ينقمون عليه وعلى وجيه الدين بن سويد ، فعمل الأرجوزة[5] وذكر فيها جميع « ... ...[6] » وادى دمشق وأخضرها « ... ...[7] » على الملك الناصر ، وأولها :

يا سائق العيس إلى الشام وقاطع الوهاد والآكام

مدرعا مطارف الظلام كبارق يلمع فى غمام

وقيت حوادث الأيام

---

(١) « السرمرآى » فى بعض مصادر الترجمة ، وفى الحالين النسبة صحيحة فهو نسبة الى مدينة سر من رأى ، وهى نفسها سامرا — معجم البلدان .

(٢) دار الحديث السامرية بدمشق ، وبها خانقاه — الدارس جـ ١ ص ٧٢ وما بعدها .

(٣) المدرسة الكروسية بدمشق : وقفها محمد بن عقيل بن كروس بن جمال الدين ، محتسب دمشق ، المتوفى سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م — الدارس جـ ١ ص ٤٤٦ .

(٤) هو محمد بن أحمد ، مؤيد الدين ابن العلقمى ، وزير آخر الخلفاء العباسيين ببغداد المستعصم بالله ، قتل سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م — العبر جـ ٥ ص ٢٥٥ .

(٥) « الأرجوزة المشهورة بالسامرية » فى الوافى جـ ٨ ص ٦٦ .

(٦) ، (٧) ثلاث كلمات غير مقروءة .

ره حط فيها على الكتاب ، وأغرى الناصر بمصادرتهم » فى الوافى ، وفوات الوفيات .

فلما سمعها الملك الناصر صادرهم جميعهم ، وحصل للناصر بسببها مال عظيم (١) .

ومن شعره :

أترى وميض البارق الخفاق ... قائدي (٢) إلى أهل الحمى العراقي
ولعلَّ أنفاس النسيم إذا سرى ... يحكي (٣) لوعة مغرم مشتاق
أحبابنا ما آن بعد فراقكم ... أن يتهني محبكم (٤) بتلاق
بنتم فضنت بالرقاد نواظري ... أسفا وجادت بالدموع مآقي
أجريت من جفني على أطلالكم ... دمعا غدا وقفا على الاطلاق
أتراكم ترعون حيا رُمتُم ... أدواؤه (٥) بقطيعة وفراق
بين الدموع وحرّ نار أضالعي (٦) ... عُذِّبت (٧) بالاحراق والاغراق
بالله يا ريح الشمال تحمّلي ... مني (٨) سلام الواله المشتاق
وإذا مررت على الديار فبلغي ... أهل الكثيب [بكل] (٩) ما أنا لاق

(١) « فصادرهم الملك بعشرين ألف دينار » ـ البداية والنهاية جـ ١٢ ص ٣٥٤ .
(٢) « يهدي » في فوات الوفيات جـ ١ ص ١٤٧ .
(٣) « تحية » في فوات الوفيات .
(٤) « أن تسمحوا لمحبكم » في فوات الوفيات .
(٥) « أحشاءه » في فوات الوفيات .
(٦) « جوانحي » في فوات الوفيات .
(٧) « بالاغراق والاحراق » في فوات الوفيات .
(٨) « وافري » في فوات الوفيات .
(٩) [ ] إضافة من فوات الوفيات .

نهناك لى رشـأ أغنّ مهفهف ... يُصمى القـلوب بأسهم ورقاق (١)
فإذا انثنى فضح القنا وإذا رنا ... سفكت لواحظـه دَمَ العشّاق
ويزينُ غصنَ القدّ منه ذؤابة (٢) ... وكذا الغصون تزان بالأوراق (٣)
أأبيت ملسوعا بعقرب صـدغه ... ويضن من فيـه بالدرياق
يا من أحلّ دمى وحرّم وصـله ... ووفيت لمـا خان فى الميثاق
صل أو فصُدّ فلست أخشى حادثا ... والصدر نجـم الدين حى باق
الصاحب الصـدر الذى أقلامه ... يجـرين بالآجال والأرزاق

وكان الصاحب بهاء الدين بن حنا قد صادره وأخذ منه ثلاثين ألف دينار فى دولة الظاهر، وصادره الشجاعى فى دولة المنصور وأخذ منه مائتى ألف درهم، وبقى عليه ديون كثيرة، وطباعه [١٤٥] كما هى ما تغـيرت، ولا غير ملبوسه ولا ترك هزله ومجونه وهدايا إلى نواب السلطنة وأعيان الدولة وإيثاره للفقراء، وآخر ما بقى له قاعة جعلها خانقاة وتربة كما ذكرنا، ووقف عليها مزرعة بالشاغور وبقايا من أملاكه، ولمـا مات مملوكه أقوش كانت له حصص فى مواضع وقفها أيضا على خانقاته (٤).

العـدل الرئيس نفيس الدين أبو الفدا إسماعيل (٥) بن محمـد بن عبد الواحد بن

(١) « الأحداق » فى فوات الوفيات.

(٢) « شعره » فى فوات الوفيات.

(٣) الى هنا ينتهى ما ورد فى فوات الوفيات.

(٤) « خانقاهه » فى الأصل.

(٥) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٢ ص ٤٢٨ رقم ٤٥٤، الوافى جـ ٩ ص ٢١٢

إسماعيل بن سلامة بن علي بن صدقة الحراني ، ثم الدمشقي .

كان أحد عــدول القسمة بدمشق(١) ، وولي نظــر الأيتام في وقت ، وكان ذا ثروة، ولد ســنة ثمــان وعشرين وستمائة وسمـع الحديث ، ووقف داره دار حديث ، وهي التي تسمى النفيسية(٢) التي بالرصيف، وكانت وفاته يوم السبت بعد الظهر الرابع من ذي القعدة منها ، ودفن بسفح قاسيون .

الشيخ الإمام العــالم البارع الفاضل عفيف الدين عبد السلام(٣) بن محمد بن مزروع البصري ، نزيل الحرم الشريف النبوي .

ومولده سنة خمس وعشرين وستمائة(٤) ، ومات في هذه السنة ، ودفن بالبقيع ، وكان عند الأمير عز الدين شيحة — صاحب المدينة — بمنزلة الأب والوزير، وعرض عليه وزارته فأبى ، وكان يرسله في مهماته إلى مصر والشام والعراق ، وجاور بالمدينة مدة خمسين سنة ، وحج أربعين حجة .

= رقم ٤١١٨ ، وورد فيه أن صاحب الترجــة توفي ســنة ٦٩٨ هـ ، الدارس جـ ١ ص ١١٤ ، شــذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٣٥ .

ويلاحظ أن ابن تغرى بردى خلط في ترجمته — انظــر المنهل جـ ٢ ص ٤٢٢، ص ٤٢٨ .

(١) « كان أحد شهود القيمة بدمشق » — البداية والنهاية .

(٢) دار الحــديث النفيسية بدمشق — الدارس جـ ١ ص ١١٤ .

(٣) وله أيضا ترجمة في : درة الأسلاك ص ١٣٤ ، البــداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٥٠ ، الســلوك جـ ١ ص ٨٣١ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٣٥، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٩٨ — ١٩٩ .

(٤) « بالبصرة » في تذكرة النبيه .

وله نظم ، فمنه قوله[(١)] :

إليكَ رعاكَ اللهُ لا زلتَ مُنعما ... ومن غيرِ الدهرِ الخئون مُسلّما
كتبتُ ولولا حبُّ ساكنِ طَيْبةٍ ... لوافاكَ شخصى دون خطّى مُسلّما
ولكنّنى أصبحتُ رهنَ صبابةٍ ... بجيرةَ سلعٍ والعقيقَ متيّما
ولى بالنقا لازلتُ جارَ أُهَيلةٍ ... قديمِ هوى فى حبّة القلب خيّما
وبين ثنياتِ الوداعِ إلى قُبا ... لِقلبى أسرارٌ أبتْ أن تُكتما
وبالحرم المأنوس آنستُ نسمة ... لأنعمِ بها آنستُ سلمى وكلثما
وكم فاح لى من طيب طيبة نعمة ... ألذّ من الإثراء لمن كان مُعدما
وكم حُزت من فضل بمسجد أحمدٍ ... وبالروضة الزهراء كم نلتُ أنعما
أروح وأغدو بين قبرٍ ومنبرٍ ... قلوبُ الورى شوقا تطيرُ إليهما
أقوم تجاه المُصطفى ومدامعى ... على الخدّ تجرى فرحة لا تندّما
فلى كلّ يومٍ موسمٌ متجدّدٌ ... بقُرب رسول الله يتبعُ موسِما
لعَمرى هذا الفخر لا الفخر من غدا ... يُرى مغرقا فى الظاعنين ومشئما
ولم أكُ أهلًا للوصال وإنّما ... تطفّلتُ تطفيلا فأُلفيتُ منعما
وجاورتُ خير العالمين محمّدا ... أبا القاسم الهادى العظيم المعظما
أعزّ الورى جاها وأغزرهم ندًا ... وأوسعهم حلما وأمنعهم حِمَا

[١٤٦]

فلا بدّلت نفسى بطيبة غيرها ... إلى أن يوارى اللحدُ منّى أعظُما[(٢)]

---

(١) « ومن شعره من أبيات كتبها الى بعض اصحابه بالبصرة » ـ تذكرة النبيه .

(٢) انظر بعض أبيات هذه القصيدة فى تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٩٩ .

وله :

طلبتُ سِواكا منك يا غاية المُنى ومالى قصد فى السّواك سِواكا
كذاك أراك قد أردت تفاءلا لعلّى من بُعد البعاد أراكا

الصدر الرئيس الفاضل الأديب نور الدين أحمد بن إبراهيم بن عبد الضيف[1] ابن مصعب الدمشقى[2] .

مات فى هذه السنة ببستانه بسطرا ، ودفن بسفح قاسيون قبالة المدرسة الأتابكية[3] ، كان فاضلا فى النحو واللغة ، وكان تجرد وهو شاب مع الفقراء الحريرية[4] ، وسافر إلى مصر وغيرها من البلاد ، وكان من رؤساء دمشق .

وله نظم مليح ، ومن شعره ما كتبه إلى الأمير علم الدين الدوادارى وهو :

هل شمت بالشام برق لاح من أضم على المُقطَّم من شوق إلى العَلَم
ومنزلى بين وادى النيربين إلى سفح البنفسج لابالضّال والسّلم
طورًا على جانبى ثوْرًا تناشدُنى وُرْق الحمائم بالأسجاع والنّغم
وتارةً حول باناس وفائضة تجرى إلى بردَى بالبارد الشَّبِم

(١) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ١٢٣ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ٢٨ رقم ٣٩ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٣٤ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ١٩٧ .

(٢) « مولده سنة اثنين وعشرين وستمائة بدمشق » — تذكرة النبيه .

(٣) المدرسة الأتابكية بدمشق : بصالحية دمشق ، أنشأتها تركان خاتون بنت السلطان عز الدين مسعود بن مودود بن أتابك زنكى بن آق سنقر ، المتوفاة سنة ٦٤٠ هـ / ١٢٤٢ م — الدارس جـ ١ ص ١٢٩ .

(٤) الفقراء الحريرية : ينتسبون إلى الشيخ على بن منصور الحريرى ، الدمشقى ، الفقير ، والمتوفى سنة ٦٤٥ هـ / ١٢٤٧ م — العبر جـ ٥ ص ١٨٦ .

وفى المقاسم أنهارٌ جداولُها تجري إلى الغُوطة الفَيحاء بلا قدَمِ
وحسن رَبْوتنا مع فضل معبدها يُجاب فيه دُعاء داعٍ ومُسْتلِم
مواطن هى مَرْبَاىَ ومُرتبَعى ودار لهوى وإخوانى ومُلتزمى
كم قد قطعتُ بها والدار تجمعُنا من صَفْوِعيش بِطيبِ الوصل مُبْتسِم
منازل تشبه الجنّات منظرُها إن لم تكنها لما فيها من النِعَم
لكنها تشتكى شوقُ أضرّ بها إلى أمير كثير الجود والكَرم

جمال الدين ابراهيم بن الشيخ شمس الدين أبى الحسن على بن شيخ السلامية .

مات ليلة الأربعاء غرة ربيع الأول منها ، ودفن يوم الأربعاء بمقابر باب الفراديس ، كان فاضلا أديبا ، ومن شعره :

ومن يكُن الرحمانُ أدنى محلّه وأعطاهُ دون العالمين مَواهبا
فلا طرفهُ يكبُو ولا سيف عزمه مدى الدهر يَنْبو قوةً ومضاربا
فلا زال هذا الدهرُ طوعَ يمينه ولا انفك للأعداء ما عاش غالبا

عز الدين أبو الفضل أحمد[1] بن الشيخ شمس الدين المُسلم بن محمد بن المسلم ابن المكى بن خلف بن المسلم بن أحمد بن محمد بن محمد بن على بن القيسى .

مات فى السادس من ربيع الأول ، ودفن بقاسيون ، ومولده فى عاشر صفر من سنة أربع وعشرين وستمائة ، سمع إبراهيم الخشوعى ، وأبا نصر الشيرازى ،

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٢ ص١٦٢ رقم ٢١٤ ، الوافى جـ ٨ ص١٨٦ رقم ٣٦٠٢ .

وورد فى المنهل الصافى أن صاحب الترجمة توفى سنة ٦٩٧هـ .

والفخر الأربلي ، وحدّث ، وكان منقطعا عن الناس ، مواظبا على الذكر وحضور الجماعات .

الشيخ الإمام شمس الدين محمد[1] بن أبي بكر بن محمد الفارسي ، المعروف بالأيكي .

مات يوم الجمعة الثالث من رمضان منها ، ودفن بمقابر الصوفية ، كان إماما عالما ، ولي مشيخة الشيوخ بالديار المصرية مدة ، ودرّس بزاوية الغزالي بدمشق مدة ، ولم يزل معظما موصوفا بالفضل [١٤٧] والعلم إلى أن مات ، رحمه الله .

الشيخ عز الدين أبو محمد عبد العزيز[2] بن القاسم[3] بن عثمان بن عبد الوهاب البابصري البغدادي الحنبلي .

مات في هذه السنة ، ودفن بمقابر الصوفية بدمشق ، ومولده ببغداد في صفر سنة أربع وثلاثين وستمائة ، سمع من جماعة بدمشق ، وكان فاضلا ، وله شعر حسن ومعرفة بالتاريخ . ومن شعره :

قعدت في منزلي حزينا أبكي على فقد نور عيني

(١) وله أيضا ترجمة في : درة الأسلاك ص ١٢٧ ، البداية والنهاية ج ١٢ ص ٣٥٣ ، شذرات الذهب جـ٥ ص ٤٣٩ ، السلوك جـ١ ص ٨٥١ ، الدارس جـ ١ ص ٤٢٢ .

وفي مصادر الترجمة أن صاحب الترجمة توفي سنة ٦٩٧ هـ .

(٢) وله أيضا ترجمة في : درة الأسلاك ص ١٣٩ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٠٨ ، وفيها أن صاحب الترجمة توفي سنة ٦٩٧ هـ .

(٣) « أبي القاسم » في درة الأسلاك ، وتذكرة النبيه .

عاندنى الدهر فيه حتى فرق ما بينه وبينى
وبان عصرُ الشباب عنى فصرت أبكى لفقد ذَين [1]

الشيخ الفاضل أبو الحسن [2] [بن عبد الله [3]] بن الشيخ غانم بن على النابلسى .
سمع من عبد الدائم، وعمر الكرمانى ، وكان صالحا ، كثير التقشف ، حسن المحاضرة ، متواضعا ، خيرا ، مات يوم الأربعاء الرابع من ذى القعدة منها ، ومولده بدمشق فى شوال سنة أربع وأربعين وستمائة . وله شعر حسن فمنه :

هى النظرة الأولى جرت فى مفاصلى شُغلت بها فى الكون من كل شاغلى
وأصبحت فى وجدى فريد صبابة جنونى لا يخفى على كل عاقل
أنزه طرفى أن أرى فى خيامها سواها وسمعى عن حديث العواذل
وأكتم مابى من هواها صيانة فيظهر تأثير الهوى فى شمائلى
لها بالحمى عن أيمن الحمى منزل أعظمه من بين تلك المنازل
سلام على تلك الخيام وأهلها ومن حلّ فيها من مقيم وراحل
أَسُكّان ذاك الحى أين ترحلوا بقلب محب ضاع بين المحامل
سألتكمو رُدُّوا الفؤاد فإنه متاع لأيام الحياة القلائل
أجيراننا بالخيف إن دام هجركم ولم تسمحوا لى منكم بالتواصل
ألا فابعثوا لى من حماكم رسالة تكون إلى قلبى أعزّ الرسائل
ولا تبعثوها فى النسيم فإننى أغار عليها من نسيم الأصائل

(١) تذكرة النبيه .
(٢) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ١٣٩ ، وتذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٠٨ ، وفيها أن صاحب الترجمة توفى سنة ٦٩٧ هـ .
(٣) [ ] إضافة من تذكرة النبيه .

الشيخ الإمام المسند، شيخ بغداد وسندها، كمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن (١) ابن عبد اللطيف بن محمد بن عبد الله بن وريده البزاز، عرف بالفويرة الحنبلي، المقرىء المحدث.

توفي في هذه السنة، ودفن بباب حرب ببغداد، ومولده ثمان أو تسع وتسعين وخمسمائة، سمع ابن ضرما، ومحمد بن الحسن، وعلي بن يوسف الحمامي وأجازه ابن طبرزد، وابن سكينة، وهو آخر من أدّى عنهما، وقرأ القراءات بالروايات على الفخر الموصلي، وأجازه أيضا أحمد بن الحسن العاقولي، وكان شيخ المستنصرية.

تاج الدين علي بن الصاحب فخر الدين إسماعيل بن إبراهيم ابن أبي القاسم أبي طالب بن سعيد بن علي بن سعيد بن كسيرات المخزومي.

مات في مستهل ذي الحجة من هذه السنة بطرابلس، ومولده في مستهل ذي الحجة سنة تسع وستين وستمائة، كان فاضلا أديبا، مليح الشعر، فمن شعره قوله:

[١٤٨]

يقولون الغداة تموت وجدا فقلت لهم ورب الأخشبين
لقد سربلت ثوب الفصل قسرا على رغم النوى لم أخش بيني

(١) وله أيضا ترجمة في: النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١١٤ وفيه أن صاحب الترجمة توفي سنة ٦٩٧هـ.

شهاب الدين أحمد[1] بن عثمان بن أبي الرجاء بن أبي الزهر بن السلعوس التنوخي .

مات في هذه السنة ، ودفن بمقبرة الباب الصغير في الثامن عشر من جمادى الأولى منها ، وكان قد ولى النظر على جامع دمشق في وزارة أخيه شمس الدين[2] ، وكان مشكور السيرة في نظره ، سمع من عثمان بن عوف ، وابن عبد الدائم .

الشيخ الصالح الزاهد العابد الخاشع الناسك نجم الدين أبو على الحسن[3] ، المعروف بالشاورت[4] الدمشقي .

كان في مبدأ أمره كاتبا ، ثم ترك ذلك وتزهد ، وكانت له كرامات ومكاشفات وأشياء من علم الحرف وغيرها .

الشيخ الفاضل شرف الدين أبو السماح عبد الكريم[6] بن محمد بن محمد بن نصر الله الحموى المعروف بابن المغيزل ، وكيل بيت المال بحماة .

---

(١) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي جـ ١ ص ٣٨٧ رقم ٢٠٦ ، الوافي جـ ٧ ص ١٧٩ رقم ٣١٢٠ ، الدرر جـ ١ ص ٢١٢ رقم ٥١٣ .

(٢) هو محمد بن عثمان بن الرجاء ، الوزير الصاحب شمس الدين ، ابن السلعوس ، المتوفى سنة ٦٩٣ هـ / ١٢٩٣ م ــ انظر ما سبق .

(٣) هو عثمان بن هبة الله بن عبد الرحمن بن مكى بن اسماعيل بن عوف الزهرى ، الاسكندرانى ، أبو الفتح ، المتوفى سنة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م ــ العبر جـ ٥ ص ٣٠٢ .

(٤) وله أيضا ترجمة في : البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٥١

(٥) « المعروف بالشارورب » ــ البداية والنهاية .

(٦) وله أيضا ترجمة في : درة الأسلاك ص ١٣٩ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٣٨ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٠٨ ــ ٢٠٩ ، وورد في هذه المصادر أن صاحب الترجمة توفى سنة ٦٩٧ هـ .

مات بها يوم السبت الرابع عشر من المحرم ، ومولده فى سنة ست عشرة وستمائة بحماة ، سمع ببغداد الكاشغرى[(١)] ، وابن الخازن[(٢)] .

الأمير حسام الدين كوسا الحاجب .

كان من الأجواد الأخيار ، توفى فى هذه السنة .

الأمير عز الدين أزدمر[(٣)] العلائى ، أخو الأمير علاء الدين الحاج طيبرس[(٤)] الوزيرى .

توفى فى هذه السنة ، كان من الأمراء الأعيان ، والشجعان المشهورين .

الخاتون الجليلة نسب خاتون بنت الملك الجواد مظفر الدين يونس[(٥)] بن شمس الدين ممدود بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب .

ماتت بدمشق ، ودفنت عند والدها بقاسيون ، سمعت إبراهيم بن خليل ، وخطيب مردا ، وابن عبد الدائم ، وحدثت ، وكانت صالحة خيّرة .

---

(١) هو أحمد بن أسعد بن المظفر ، عز الدين أبو الفضل الكاشغرى ، المتوفى سنة ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨ م — المنهل الصافى جـ ١ ص ٣٢٨ رقم ١٢٦

(٢) هو عبد العزيز بن هنف بن أبى طالب البغدادى الحنبلى ، عفيف الدين ، المتوفى سنة ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م — شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٨٤ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٢ ص ٣٤٧ رقم ٣٩٥ ، الوافى جـ ٨ ص ٣٧٠ رقم ٣٨٠٢ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١١٠ .

(٤) هو طيبرس بن عبد الله الوزيرى ، المتوفى سنة ٦٨٩ هـ / ١٢٩٠ م — انظر ما سبق .

(٥) توفى سنة ٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م — العبر جـ ٥ ص ١٢١ ، وانظر الدارس جـ ١ ص ٥٨١ .

رفَعُ

عبد الرَّحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

فصل فيما وقع من الحوادث

في السنة السابعة والتسعين بعد الستمائة (*)

استهلت ، والخليفة : الحاكم بأمر الله أبو العباس أحمد العباسي ،

وسلطان البلاد : الملك المنصور لاجين السلحدار المنصوري ، ونائبه بمصر : منكوتمر ، وبدمشق : سيف الدين قبجق ، وبحلب : الأمير سيف الدين بلبان الطباخي .

وقاضي القضاة الشافعية بالديار المصرية : الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد .

وقاضي القضاة الحنفية : حسام الدين الرازي ، ثم ولي ابنه جلال الدين (١) مكانه بدمشق في عاشر صفر وركب بالخلعة والطرحة ، وهنأه الناس .

وقاضي المالكية بدمشق : جمال الدين الزواوي .

وقاضي الحنابلة : تقي الدين سليمان بن حمزة بن الشيخ أبي عمر المقدسي .

وخطيب الجامع الأموي : بدر الدين بن جماعة .

ثم طلب حسام الدين الرازي إلى مصر ، فأقام عند السلطان لاجين وولاه قضاء القضاة الحنفية بمصر ، عوضا عن شمس الدين السروجي (٢) ، واستقر ولده

(*) يوافق أولها السبت ١٩ أكتوبر ١٢٩٧ م .

(١) هو أحمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن بن أنو شروان الرازي الحنفي ، جلال الدين أبو المفاخر ، المتوفى سنة ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م — المنهل الصافي جـ ١ ص ٢٦٤ رقم ١٤١ .

(٢) هو أحمد بن إبراهيم بن عبد الغني السروجي ، شمس الدين أبو العباس ، المتوفى سنة ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م — المنهل الصافي جـ ١ ص ٢٠١ رقم ١٠٢ .

جلال الدين بالقضاء فى الشام، ودرس بمدرستى أبيه الخاتونية والمقدمية، وترك مدرستيه القصاعية والشبلية .

وفيها : اتفق للشيخ تقى الدين قاضى القضاة مع منكوتمر نائب السلطان كلام أوجب أنه عزل نفسه من القضاء، والسبب لذلك أن تاجرا توفى وادعى رجل أنه أخوه، فأرسل منكوتمر إليه وعرفه أن المتوفى أخو هـذا الرجل، ولم يخلف غيره، ولا [١٤٩] وارث غيره، ولم يسمع منه الشيخ تقى الدين، فغضب بسبب ذلك منكوتمر، فدخل بينهما الأمير سيف الدين كرت الحاجب فقال لمنكوتمر : إن هـذا الرجل كبير القدر ورجل صالح ولا ينبغى أن نسمع عن مولانا نائب السلطان إلا خيرا وأنا أذهب إليـه ونرجو من الله أن ينقضى الشغل، فذهب إليه وهو جالس فى محكمته وسلم عليه ووقف، فنظر إليه الشيخ ورد سلامه، وقام له نصف القيام، وأشار إليه بالجلوس فجلس، ثم قال : يا سيدى ولدك يسلم عليك ويقبل يدك فقال : وأى الأولاد ! ! فقال : الأمير سيف الدين منكوتمر، فشرع الشيخ يقول : منكوتمر، منكوتمر، ويكررها، ثم قال : ما مقصوده ؟ فعرفه القضية مع تلطف وترقق . فقال فى جوابه : إش يبنى على شهادته لهذا الرجل . فقال له : يا سيدى ما هو عندكم عدل . فقال : سبحان الله، وتمثل بقول الشاعر :

يقولون هـذا عندنا غير جائز ومن أنتم حتى يكون لكم عند

وشرع يكررها ثلاث مرات، وفى الآخر قال : والله متى مالم تقم عندى بينة شرعية ما حكمت بشئ، قم بسم الله، فنهض الحاجب من عنده وخرج .

قال صاحب النزهة : وكنت أنا ووالدى مع الحاجب المذكور فى ذلك الوقت . فقال لوالدى وهو خارج من عند القاضى : والله هذا هو الإسلام ، ولما اجتمع بمنكوتمر تلطف معه وقال له : هذا الشغل ما ينقضى إلا إذا طلع القاضى إلى دار العدل واجتمع به مولانا النائب ، فلعله إذا رأى الأمير يستحى منه ، فسكن من غيظه بعض شىء .

فلما كان يوم دار العدل واتفق خروجه من عند السلطان والنائب جالس فى الشباك ، فخرجت إليه الحجاب واحدا بعد واحد يقولون له : الأمير يختار أن يجتمع بخدمتكم ، وهو لا يلتفت ولا يجاوب أحدا منهم إلى أن ألحوا عليه ، فالتفت إلى القضاة الذين معه وقال للحجاب : قولوا له ماوجبت طاعته على ، وقال للقضاة : أشهدكم إنى عزلت نفسى . قولوا له : يولى من يختار ، فرجعوا إلى الباب وعرفوه بما وقع فسكت ، فلما نزل القاضى إلى المدينة أغلق بابه وأرسل النقباء إلى جميع النواب وأصحاب العقود أن أحدا منهم لايحكم ولا يعقد عقد إلى أن يتولى قاض .

ثم فى اليوم الثانى بلغ السلطان ماوقع من هذا ، فطلب منكوتمر وصاح عليه وسبه وقال له : قد حكمتك فى الجيش تتحدث فيهم ، مايكفيك حتى تدخل فى أمر القضاة وتحرش مع مثل هذا الرجل ، ثم أرسل من وقته إلى القاضى يعتذر من ذلك الأمر وساله الحضور إليه ، فأبى القاضى وقال للقاصد : سلم على السلطان وقل له : إن القضاة كثيرون وقد حصل لى عذر فى هذا الوقت يمنعنى من الطلوع إليه ، فلما عرفوا السلطان بذلك طلب الشيخ نجم الدين بن عبود (١)

(١) « الشيخ نجم الدين حسين بن محمد بن عبود » — السلوك جـ ١ ص ٨٤٩ .

والطواشي مرشد ، وأرسلهما إليه وقال لهما : ثقلا عليه فى الطلوع . فنزلا إليه وتكلما معه كثيرا ، ثم قال له الشيخ نجم الدين : ياسيدى إن لم تطلع إلى السلطان فانه ينزل إليك بنفسه ، ولم يزالا به حتى قام معهما وطلع إليه ، فتلقاه السلطان ونزل من مرتبته وأخذه بيده وأجلسه عليها ، فأخرج القاضى من كمه خرقة فبسطها فوق الفرش الأطلس ، فجلس عليها(١) ، ثم شرع السلطان يسأله فى الولاية وألح عليه إلى أن قبلها ، وتولى على عادته [١٥٠] ، ثم قال له : ياسيدى هذا ولدك منكوتمر خاطرك معه ، ادع له(٢) ، فنظر إليه ساعة وصار يفتح يده ويضمها ويقول : منكوتمر ، لا يجىء منه شىء — ثلاث مرات — ، فلما قام أخذ السلطان تلك الخرقة منه على سبيل التبرك ، ثم طلب الأمراء أيضا ، فأخذ كل واحد منهم قطعة(٣) .

ذكر خروج العساكر إلى سيس :

فى جمادى الأولى منها : استشار السلطان لاجين الأمراء فى أخذ سيس والغارة على بلادها ، وكان ذلك الوقت وقت اختلاف المغول(٤) ، فقصد السلطان بذلك أن يذكر أن فى دولته أخذت حصون وأخمدت أعداء كثيرة ، ثم أعرض

---

(١) « فبسط منديله — وكان خرقة كتان خلقة — فوق الحرير قبل أن يجلس ، كراهة أن ينظر إليه ، ولم يجلس عليه » — السلوك ج ١ ص ٨٤٩ .

(٢) « وكان منكوتمر ممن حضر » — السلوك ج ١ ص ٨٤٩ .

(٣) « وتفرقها الأمراء قطعة قطعة ليدخروها عندهم رجاء بركتها » — السلوك ج ١ ص ٨٤٩ .

(٤) « وفيه قدم البريد من حلب بوقوع الخلف بين طقطاى وطائفة نغيه حتى قتل منهم الكثير من المغل ، وانكسر الملك طقطاى ، وأن غازان قتل وزيره نيروز وعدة ممن يلوذ به ، فاتفق الرأى على أخذ سيس مادام الخلف بين المغل » — السلوك ج ١ ص ٨٣٧ .

الجيش وجرد في مصر تجريدة(١) فيها الأمير بدر الدين [بكتاش](٢) أمير سلاح ، وشمس الدين آقسنقر كرتيه(٣) السلحدار ، وسيف الدين بكتمر السلحدار ، وسيف الدين بوزلار ، والأمير سيف الدين أغرلو ، والأمير علم الدين الدواداري الصالحي ، والأمير حسام الدين ، [لاجين الرومي](٤) الاستاذ دار ، وكتب كتابا لنائب الشام سيف الدين قبجق(٥) بأن يتجرد و يجرد معه ركن الدين جالق(٦) ، والأمير سيف الدين بهادر آص ، والأمير سيف الدين كجكن ، والأمير بهاء الدين قرا أرصلان ، وكتب إلى نائب طرابلس أيضا أن يتجرد بعساكرها ، و إلى نائب حماة كذلك ، و إلى نائب صفد فارس الدين البكي الظاهري كذلك .

فاجتمع هؤلاء مع الأمير سيف الدين بلبان الطباخي نائب حلب ، وتوجهوا إلى سيس ، وكان وصولهم إليها في شهر رجب الفرد ، فشنوا الإغارة على أهلها ، وأوقعوا بخيلها ورجلها ، ودوخوا أرجاء حزنها وسهلها ، وفتحوا تل حمدون والمصيصة وحموص وقلعة نجم ومروند كار وحجر شعلان والنقير وقلعة الهارونية .

قال بيبرس في تاريخه : وعادوا من هذه الغزاة إلى مدينة حلب ، فأقاموا بها ، فلم يشعروا إلا وقد وصل سيف الدين حمدان بن صلغاي(٧) من الديار المصرية

(١) « عشرة آلاف فارس » في كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٦٩ .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح ــ السلوك جـ ١ ص ٨٣٧ .

(٣) « كرتاي » ــ السلوك جـ ١ ص ٨٣٨ .

(٤) [ ] إضافة للتوضيح ــ السلوك جـ ١ ص ٨٣٨ .

(٥) « قفجاق » ــ زبدة الفكرة مخطوط جـ ٩ ورقة ١٩٦ أ .

(٦) « الأمير بيبرس الجالق » ــ السلوك جـ ١ ص ٨٣٧ .

(٧) « صلغية » ــ زبدة الفكرة .

بكتاب المنصور إلى الأمير سيف الدين بلبان النائب بحلب بالقبض عليهم وهم راكبون فى الموكب ، فلما وقف المذكور على المراسيم لم يسعه إلا اعتمادها ، فطلب الأمراء واستدعاهم لينزلوا ويدخلوا معه دار النيابة ويحضروا السماط ، وكان قد وقع لهم بعض هذا الخبر، وخامرهم الخور ، وتقسمت بهم الفكر ، وامتنعوا من حضور الخوان ، وتحققوا مكيدة منكوتمر الخوان ، ومضوا إلى خيامهم ، فجهزوا أحوالهم وركبوا من وقتهم ، وجاءوا إلى حمص إلى الأمير سيف الدين قفجاق لأنه كان بها وعسكر دمشق ، فأطلعوه على الأخبار ، واتفقوا معه على الفرار ، وكان بحمص علاء الدين الطوان نائبا، فلم يستطع منعهم ، ولا أمكنه صدهم، ووضعوا أيديهم عليه، واستصحبوه معهم إلى القريتين مربوطا ، وقادوه مكرها مضبوطا ، ثم أنهم أطلقوه فعاد راجلا .

وكان الأمير سيف الدين قفجاق عند خروجه من دمشق متوجها إلى حمص أقام بها عوضا عنه الأمير سيف الدين صاغان متحدثا فى النيابة ، فلما اتفق مقتل المنصور لاجين على مانذكره إن شاء الله وثب عليه قرا أرسلان أحد أمراء دمشق ومسكه وسجنه ، وأرسل سيف الدين بلغان بن كيجك الخوارزمى وراء قفجاق ليعلمه الخبر ويستدعيه ليعود إلى دمشق، فجاءه وهو قريب الفرات وأعلمه الحال [١٥١] فلم يصدق المقال، وخاف أن تكون حيلة معمولة فلم يرجع، وسار على ماهو عليه فيمن انضم إليه وساروا مجدين، فعبروا الفرات وقصدوا بلد التتار، وأنشدوا بلسان الاضطرار :

إذا ماخفت فى أرض قدمها ... وحث اليعملات على وجاها
ونفسك فزنها إن خفت ضيما ... وخل الدار تنعى من بناها
فإنك واجد أرضا بأرض ... ونفسك لم تجد نفسا سواها

وكان الذين تظافروا على المسير واتفقوا على هذا التدبير : الأمير سيف الدين قفجاق ، والأمير سيف الدين بكتمر السلاحدار ، والأمير سيف الدين إلْبَكى الساقي ، والأمير سيف الدين بوزلار ، والأمير سيف الدين عزّاز ، الصالحى ، فلحقوا بقازان وأقاموا عنده إلى أن كان منهم ما كان .(١)

ولما استقر بهم القرار تزوجوا بنسوان من التتار ، فتزوج سيف الدين قفجاق بامرأة من الأكابر ، وهي أخت بلغان خاتون زوجة قازان ، وأقاموا جميعا إلى أن حضر قازان إلى الشام لقصد بلاد الإسلام ، فحضروا معه ، ثم فارقوه واستقروا بالديار المصرية على ماسنذكره إن شاء الله .

وأما بقية الأمراء الذين كانوا فى ذلك التجريد فمنهم من مرض وقضى ، ومنهم من عاد متمرضا . وقال الناس : إنهم اغتيلوا هنالك ، والله أعلم بذلك .

وفى نزهة الناظر : أقامت العساكر على السيس نحو الشهر ، وأخذوا البلاد المذكورة ، وكتب نائب حلب إلى السلطان يبشره بذلك ، فأعيد له الجواب بالشكر والثناء له وللأمراء ، وكتب منكوتمر كتابا فيه غلظ على الأمراء ، من جملة ذلك : متى لم تفتح سيس لا يحضر أحد من الأمراء إلى مصر ، فإنه لم يبق له عند السلطان إقطاع ، وكتب إلى نائب الشام سيف الدين قفجاق أن يركب مع عسكر الشام وينزل بهم على حمص ليصل خبره إلى العدو بأن عسكر الشام مقيمون ينتظرون العبور ، ثم قال : وصل مملوك نائب حلب بأن العساكر مقيمون بحلب ينتظرون دستورا ، وذكر فى كتابه وفاة الأمير عز الدين الموصلى

---

(١) زبدة الفكرة ــ مخطوط جـ ٩ ورقة ١٩٦ أ ، ب .

وانظر أيضا كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٧٣ ــ ٣٧٦ حيث توجد رواية أخرى .

نائب طرابلس ، ولما جاء هذا الخبر شرع منكوتمر فى التصرف فى أمور الأمراء وتفريق شملهم ، وأراد أن يُكبر خشداشيته ، ثم اتفق مع السلطان على مسك جماعة من الأمراء المصريين والشاميين ، وأن يطلب الأمير حسام الدين الاستاد دار إلى مصر بمفرده على البريد ليفرق شملهم ، فإذا وصل إلى مصر يُمسك ، وطلب حمدان بن صلغاى وعرفه بجميع ماوقع عليه الاتفاق من مسك بعض وقتل بعض وتغيير بعض ، وأوثق الأمر معه ، وكتب إلى الأمير بلبان الطباخى نائب حلب وعرفه أنه ثَمَّ أمراء قد قصدوا تغيير دولتنا ، ونقل عنهم كلام كثير ، فينبغى أن تحسن فى مسكهم وتساعد حمدان وأيدغدى شقير وبالوج ، المماليك السلطانية ، وركب حمدان إلى أن وصل إلى دمشق وعرف الأمير جاغان(١) بالأمر الذى حضر بسببه ، وكان معه كتاب إليه بأن يحترص على قفجاق ولا يمكنه من العبور إلى دمشق إلا بمرسوم ، ثم ركب من عنده إلى أن وصل إلى قريب حمص وبَطَّق(٢) البريد إلى قفجاق ، فلما وصل إليه الخبر قال : نذهب إلى الصيد فإنه رجل نحس وماحضر فى خير ولابد معه مكيدة يفعلها ، فنحن نبعد عنه [١٥٢] ، ثم إن حمدان لما ركب أوقع الله طريقه فى الليل على المكان الذى نزل فيه نائب الشام وكان قد قاد غزالين ، وكان متكئا ، وإذا قد سمع ركض الخيل ، فقام وجلس وإذا بجاغان ، فقام وتلقاه وأكرمه وقال : ماهذه طريقتك ؟ فقال والله جعل لنا نعاس ، فخرجنا من الطريق إلى هذا المكان ، وقال : النوم غالب علىّ فأريد أن أتكىء ، فوطئوا له فراشا ونام إلى قريب الفجر ، ثم قال له قفجاق نركب معك إلى حمص . قال : نعم ولكن أريد أن تُطَمِّى

(١) « جاغان شاد الدواوين » ــ السلوك ج ١ ص ٨٥٢ .

(٢) « بطق » البطاقة : الورقة البطاقة رقعة صغيرة . البيان .

الأمير شماجا بلحم الغزال قبل أن أروح ، فقال : نعم ،وركب قفجاق وسبق وأمر بعمل الشماج ، فلما وصل حمدان أحضروا الطعام بين يديه ، وتقدموا للأكل ، وجلس هـو بجذا قفجاق نائب الشام ، وأخرج سكينا من وسطه وأسرع يقطع اللحم ويأكل ،ثم إنه قطع برأس السيخ لحما ورمى قدام قفجاق، ولم ير قفجاق أنه يأكل منه ولا مدّ يده إليه ، فقال له يا أمير : لم لا تأكل معي من هذا ؟ فقال له : بطني توجع ، ولي أيام ما أكلت الزفر ، فلما سمع هذا الكلام لم يجلس بعدها ، وركب وراح ، وبعد ركوبه أخذ قفجاق اللحم الذي قطعه برأس السكين ورماه للكلب ، فحين أكله الكلب وقع ومات . فقال : جروه وارموه ، فلما أرادوا أن يجروه تمرق لحمه من عظمه .

ثم أرسل من ساعته إلى بكتمر السلاحدار وجماعة الأمراء الذين يثق بهم وأخبرهم بخبر حمدان ، وأنه ما جاء في خير ، وأنهم يحترزون منه، وسير أيضا بعض النجابة إلى مصر إلى أصحابه ، ولما وصل حمدان إلى حلب واجتمع بنائبها أعطاه الكتاب وعرفه بسبب الأمر الذي أتى فيه ، فلما سمعه الطباخي تعجب وقال : يا أمير ، كيف نعمل ؟ وهذا ما هو أمر قليل يحتاج فيه إلى رجال ، ولا يعمل بفتن كثيرة ، وطارحه بأن أيدغدى شقير وأخبره بما قال النائب ، وكان حمدان قد حضر ومعه تقليد لسيف الدين طقطاى بنيابة طرابلس بحكم وفاة نائبها ، [و][1] توفي طقطاى أيضاً[2] .

فأرسل هو وأيدغدى شقير مملوكين مع مملوك نائب حلب إلى السلطان

---

(١) [ ] إضافة تتفق مع السياق .

(٢) « وراءهم حمدان بسقيه » — السلوك ج ١ ص ٨٥٣ .

وعرفوه بذلك ، وذكر حمدان فى كتابة توقف الطباخى عن مسك الأمراء ، فحصل من ذلك لمنكوتمر حنق وغيظ على نائب حلب ، وقال للسلطان : ينبغى مسك الطباخى وتولية أيدغدى شقير عوضه فى النيابة ، فقال السلطان : هذا الوقت لا يقتضى تحريك الطباخى ، فكتبوا له بالشكر والثناء ، وأمروه أن يتحيل على مسكهم بكل وجه ، وأرسلوا تقليد الأمير سيف الدين بكتمر السلحدار بنيابة طرابلس ، فإذا حضر ولبس تشريفة يمسك ، ثم يمسك الأمراء المذكورون بعده ، ثم إن بكتمر تجهز إلى الخروج والتوجه إلى الديار المصرية ، فخرج وسار إلى أن قرب من بلبيس ، فلما وقعت بطاقته طلب منكوتمر حسام الدين الاستاذدار فقال له : يمسك بكتمر قبل دخوله إلى السلطان ، فقال : ماهو مصلحة فى هذا الوقت ، والمصلحة تأخيره إلى أن يرد الجواب من نائب حلب بمن مسك من الأمراء .

وقال صاحب النزهة : وكان سبب سلامته ما حكاه لى بعض مماليكه الذين حضروا معه ، فقال : حين طلب أستاذى إلى مصر تحقق أنه إذا وصل [١٥٣] إلى مصر ما يخلى سبيله ، فأوصى على صغيرات ، ووقف ، وتصدق ، وأخذ معه ألف دينار برسم الصدقة ، وصار يتصدق بها طول الطريق ، ولما وصل إلى بلبيس فى آخر الليل أراد أن ينام ويستريح ساعة ، فلم يأخذه النوم لكثرة فكره وقلقه ، ثم قام توضأ وصلى ركعتين ، وسأل الله أن ينجيه من شر من يخافه ، وتضرع إلى الله كثيرا ، ثم سمع المؤذن يسبح ، ويقول فى ابتداء كلامه : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ، إنا فتحنا لك فتحا مبينا ﴾(١) ، الآية ،

(١) الآية ١ من سورة الفتح رقم ٤٨ .

فقام وتمرغ على الأرض، وسأل الله تعالى، وقال للعامل معه : والله لم يطب خاطرى إلا عند ذلك ، لأنه تفاءل باستفتاح ذلك المؤذن ، وأوضح ذلك بأن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ويكره الطيرة ، وأفضل ما يكون التفاؤل من كلام الله عز وجل ، ثم ركب وهو منشرح الصدر ، إلى أن دخل عند السلطان ، فأقبل عليه السلطان إقبالا حسنا ، وأجلسه ، وشرع يسأله عن أحوال العسكر ، وعن الأمراء ، وعن القلاع التى فتحت ، وهو يخبره بالتفصيل ، والسلطان ينشرح لحديثه ، وآخر كلامه أن قال له : يا أمير ما طلبتك إلا لتخبرنى بما وقع بين أمير سلاح وبين الدوادارى ، وما السبب فى ذلك . فقال : والله يا خوند ما وقع بينهما شىء يوجب الخلف ، وإنما أراد الأمير علم الدين الدوادارى التقدم على العسكر ، فكره أمير سلاح ذلك منه لكونه أتابك العساكر مدة عمره ، ولما حضر مرسوم مولانا السلطان إمتثلوه ، ومشى كل واحد فى مكانته .

ثم بعد ذلك خلع عليه السلطان ، وأنعم عليه بألف دينار ، وخرج من عنده .

وكان منكوتمر منتظرا لمسكه ، فلما رآه وقد خرج وعليه الخلعة حصل عنده ضيق الصدر ، وكان قد راود السلطان فى أمره مرارا عديدة إلى أن وافق على مسكه ، ولكن الله تعالى أزال ذلك عن خاطره .

ثم إن منكوتمر لما دخل عند السلطان قال له : يا منكوتمر ، والله مازلت طالبا مسكه إلى أن دخل عندى ، فزال ما فى خاطرى من ذلك ، ولما رأيته استحييت منه ، وذكرت له خِدَماً كثيرة علىّ ، فطيب خاطرك فهذا أمر لا يفوتى .

وفيها كان الروك[1] الحسامى بالديار المصرية، وكان إبتداؤه فى جمادى الأولى[2]، فربكت البلاد، وكتبت الأمثلة[3] وفرقت، وجلس منكوتمر ليفرقها على العساكر، فكان كل من وقع له مثال لاسبيل له إلى المراجعة فيه، فمن الجند من سعد، ومنهم من شقى، ومنهم من خاب، وأفرد للخاص السلطانى بلاد الأعمال الجيزية ونواحى الصفقة الاطفيحية، وثغرى دمياط والإسكندرية، ونواحى معينة من البلاد القبلية والبحرية[4].

وقال بيبرس فى تاريخه : وفيها أجمع رأى المنصور ومنكوتمر نائبه على روك النواحى والجهات، وسائر المعاملات، وجميع الاقطاعات، وتجديد ترتيبها، فرسم بجمع الدواوين والكتاب والمستوفين لتحرير المقترحات الروكية، وتحقيق ارتفاع الديار المصرية، وتعيين قوانين نواحيها، ومكلفات مساحة ضواحيها، وجملة متحصلاتها، وعقد معاملاتها، وريع أموالها وغلاتها، فجمعوا جميعا، ورتب معهم الأمير بدر الدين ألك الفارسى الحاجب، والأمير بهاء الدين قراقوش الصوابى الظاهرى [١٥٤] وطولبوا بسرعة النجاز، فعملوا المقترح بعضها

(١) الروك : مسح الأراضى الزراعية فى بلد من البلاد — انظر المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٨٧ وما بعدها، كتاب ماليه مصر ص ١٧٤ وما بعدها.

(٢) « خرج الأمراء للروك ومعهم الكتاب وولاة الأقاليم فى سادس عشر جمادى الأولى » — السلوك ج ١ ص ٨٤٣.

(٣) مثال — مثالات : أول وثيقة يصدرها ديوان الجيش فى أمر الإقطاع، وهى عبارة عن ورقة مختصرة تكتب فيها بيانات الإقطاع — صبح الأعشى ج ١٣ ص ١٥٣، منشور بمنح إقطاع ص ٥ — ٦.

(٤) انظر زبدة الفكرة، وقد نقل منه العينى هذا النص، ثم عاد فكرره ثانيا — انظر ما يلى.

بالحقيقة ، وبعضا بالمجاز ، وجددت الإقطاعات ، وجمعت النواحي والجهات وكتبت بها المثالات ، وجعلت ثلاث طبقات ، وجلس منكوتمر لتفرقتها على العساكر ، فكان كل من وقع له مثال لاسبيل له إلى المراجعة فيه ، ولا يمكنه الحيلة على تلافيه ، فمن الجند من سعد ، ومنهم من شقى ، [ومنهم من خاب ، ومنهم من أنجح بما لقى ، فانتقل بعضهم من بلاد عامرة إلى أراضى غامرة ، ومن متحصلات وافرة إلى نواح داثرة ، وفاز بعض بأكثر مما قصده ، ووجد خيرا مما فقده](١) . « وكان كما قيل »(٢) :

يشقى رجال ويشقى آخرون بهم　　ويسعد الله أقواما بأقوام

[وأفرد للخاص السلطاني بلاد الأعمال الجيزية ، ونواحي الصفقة الإطفيحية ، وثغرى دمياط والإسكندرية ، ونواح معينة من البلاد القبلية والبحرية ، وجمعت اقطاعات الأمراء وأجنادهم ، وأضيفت عبر الجند إلى عبر بلادهم(٣)] .

وعين لمنكوتمر من النواحي المعروفة ، والإقطاعات الموصوفة ، والجهات المتميزة ، والبلاد المتعينة والمختارة لنفسه وأصحابه ، وكان الحكم في تعيينه لدواوينه ، والاختيار لكُتّابه ، إلا أنه لم ينتفع بمباشرة فيه ، ولا تملى به ، فلله در القائل :

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .
(٢) » » ساقط من زبدة الفكرة .
(٣) العبرة : متوسط الدخل السنوى للاقطاع .

Cahen, C. : L'Evolution de l' lqta, p. 46.

وانظر منشور بمنح اقطاع ص ١٦ .

[ ] إضافة من زبدة الفكرة .

ويلاحظ أن العينى أسقط هذه العبارات لكونه ذكرها قبل أن ينقل نص زبدة الفكرة ، ولكن رأينا استكمال نص زبدة الفكرة .

إقنـــع تعــز ولا تطمــع تـــذل ولا تكثر تقل ولا تغتر بالأمل

وكان نجاز الروك والفراغ منه فى ذى الحجـة سـنة سبـع وتسعين وستمائة ، واستقبل بالإقطاعات سنة ثمـان وتسعين الهلالية ، ونقلت السنة الخراجية من سنة ست إلى سنة سبع وتسعين وستمائة .

وهذا النقل جرت العادة باثباته فى الدواوين ، وامضائه للمستخدمين من تقادم السنين ، وأيام الخلفاء والملوك المتقدمين ، وسببه الداعى إليـه أن إدراك الغلال ، واعتصار الأقصاب ، وقبض الخراج ، إنما المعول فى حسابه على السنة الشمسية ، وعقد الضمانات ، وأقساط المعاملات على حكم أشهر السنة القمرية ، وبينهما تفاوت فى عدد السنين والحساب ، يعلمه العلمـاء والكتاب ، وله دليـل من آى الكتاب ، وهو قوله عز وجل : « ولبثوا فى كهفم ثلاث مائة سنين وأزدادوا تسعاً »(١) ، فقيل أن التسع مقدار التفاوت بين السنين الشمسية والهلالية ، فإذا مضى ثلاث وثلاثون سـنة انزحفت النسبة إلى السنة الخراجية فيحتاجون إلى تحويلها بالأقلام ، ونقلها على جهـة الإعلام من غير نقص فى الأمـوال ، ولا خلل فى الأعمال ، وكتب بهذا التحويل سجلات إلى البلاد ليكون عليها العمل والاعتماد(٢) .

وقال صاحب النزهة : لمـا أرادوا روك البلاد ، طلبوا تاجا الطويل(٣) ليعمل

(١) الآية ٢٥ من سورة الكهف رقم ١٨ .

(٢) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٩٨ أ — ١٩٩ أ ، وأنظر أيضا التحفة الملوكية ص ١٥٢ . وعن تحويل السنة الخراجية (القمرية) الى سنة شمسية انظر صبح الأعشى جـ ١٣ أ ص ٥٤ وما بعدها ، المواعظ والاعتبار جـ١ ص٢٧٣ وما بعدها .

(٣) هو عبد الرحمن الطويل ، تاج الدين ، مستوفى الدولة ، وكان من مسالمة القبط ، وممن يشار إليه فى معرفة صناعة الكتابة ، ويعتمد على قوله ، ويرجع إليه» السلوك جـ ١ ص ٨٤٢ — ٨٤٣ »

أوراقا بعبرة الأمراء والجند ، وقوانين البلاد[(١)] ، واتفق الحال على أن العسكر جميعه أربع عشرة قيراطا ، والسلطان أربع قراريط ، وقيراطان وقف ، والبقية تبقى إلى أن يسجل عليها جند بطالون لتقوية الجيش[(٢)] ، والذى استقر للخاص الشريف السلطانى : الجيزية ، والاطفيحية ، ومنفلوط ، والكوم الأحمر ، ومرج بنى هميم[(٣)] ، والإسكندرية ، ودمياط ، وجرجة شمسطا ، ورتب لمنكوتمر ما لم يكن لنائب قبله فكانت عبرة إقطاعه ما ينيف على مائه ألف دينار[(٤)] .

وهذا الروك كان سبب اتلاف الجند والعسكر لتناقص الاقطاع الذى كان لجند الحلقة ، وكان عشرة آلاف درهم إلى ثلاثين ألفا ونيفا ، فجمع أكثره إلى عشرين وما دونها ، فصار كل من كان خبزه يعمل عشرين ألفا نجده عشرة آلاف ، ومن كان يعمل عشرة نجده ستة ، وتوقفت أحوال الجند ، وقلت الأرزاق ، فهذا هو الذى ولد حب التضاغن فى القلوب ، والبغضاء فى النفوس ، فكان أقوى الأسباب على الفتنة ، كما نذكره إن شاء الله .

---

(١) « لتحرير المقترحات الروكية ، وتحقيق ارتفاع الديار المصرية ، وتعيين قوانين نواحيها ، ومكلفات مساحة ضواحيها » — زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٩٨ أ .

(٢) « أن يجعل للأمراء وأجناد الحلقة أحد عشر قيراطا ، ويستجد عسكرا بتسعة قراريط . . . أن يفرد للأمراء والأجناد عشرة قراريط ، وأن يجعل القيراط الحادى عشر برسم من يتضرر » — السلوك جـ ١ ص ٨٤٢ — ٨٤٣ .

وانظر أيضا المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٨٨ .

(٣) « وهو والكوم الأحمر من أعمال القوصية » — السلوك جـ ١ ص ٨٤٣ .

ويلاحظ أن المقريزى ذكر « مرج بنى هميم » من بين النواحى التى خصصت للنائب — السلوك جـ ١ ص ٨٤٤ .

(٤) « وكان متحصلها ينيف على مائة الف أردب وعشرة آلاف أردب من الغلة ، خارجا عن المال العين ، والقنود ، والأعسال ، والتمر ، والأغنام ، والأحطاب » — السلوك جـ ١ ص ٨٤٤ .

وفيها تقنطر المنصور لاجين بالميدان ، فانكسرت [١٥٥] يده ، وانقطع أياما ثم عوفى وركب فى الحادى عشر من صفر، ومدحه شمس الدين محمد بن « . . . »(٢) بأبيات منها : .

فمصر والشام كل الخير عمهما ... وكل قطر علت فيه التباشير
والكون مبتهج والوقت مبتسم(٣) ... والخير متصل والدين مجبور
وكيف لا وعدو الله منكسر ... بالله والملك المنصور منصور(٤)

وفى نزهة الناظر : كانت عادة السلطان فى لعب الآكرة العجلة والانهماك على اللعب ، وعرف فى الشام ومصر بجودة لعب الآكرة ، وكان كثيرا ما يدع الآكرة فى الهواء ويسوق تحتها ، ويقوم فى السرج ويأخذها من الهواء بيده ويصل بها إلى آخر الميدان ، فاتفق له ذلك اليوم أنه ضرب الآكرة وساق تحتها وقام فى السرج فخرج منه وسبقه رأسه إلى الأرض فالتقى الأرض بيمينه فانكسرت ، وتمتعت أضلاعه ، وبقى ساعة فى الأرض إلى أن نهض بنفسه وقام ، فوجد جميع الأمراء قد ترجلت(٥) ، وكانت العادة أن الملك إذا اتفق له وقوع من فرسه إلى الأرض لا يجسر

---

(١) انظر السلوك جـ١ ص ٨٣١ .

(٢) « » بياض فى الأصل .

(٣) « والخلق » فى النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٨٩ .

(٥) انظر كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٧١ — ٣٧٢ حيث توجد أبيات أخرى .

(٥) أورد المقريزى هذه الحادثة ضمن أحداث شهر ذى القعدة سنة ٦٩٦ هـ — السلوك جـ ١ ص ٨٢٩ — ٨٣٤ .

أحد أن يتقدم إليه إلا بإذن منه لمن يختاره أولمن له عليه إدلال مثل مملوكه الخاص أو غلامه ، ويترجل سائر الأمراء ، فإذا ركب ركبوا ، وركب السلطان وأشار للأمراء أن يتموا لعبهم ، وطلب المجبرين فعملوا فى يده ما هو الواجب .

وكانت العامة يحبونه لأنه كان يحبب نفسه إليهم ، فلما رأوه وهو راكب تباشروا ودعواله ، وصاح بعض الحرافيش [1] وقال : سلامتك يا قضيب الذهب ما تستهل ، أرنا يدك ، وكان قد علقها بمنديل ، فلما سمعه أخرج يده وأخذ المقرعة وضرب بها على معرفة الفرس ، فتصايحوا ودعوا له ، ثم لما طلع طلب المجبرين فلما حلوا يده وجدوا الرباط قد تغير والعضو قد انزعج ، فسألوه عن ذلك ، فأخبرهم بما فعله عند صياح ذلك الحرفوش ، فقالوا له : يا خوند كيف تخليه يفشو ؟ قال : لا كان ينكسر خاطر الناس .

ثم إنه أقام مدة شهرين إلى أن ركب ، فلما ركب زينت مصر والقاهرة ، وكتب إلى البلاد الشامية بعافيته ، وزينت سائر الأقاليم .

وأما ما أنفق يوم ركوبه إلى الميدان فكان شيئا غريبا ، وكان يوما مشهودا ، وكانت جميع دكاكين الصليبة إلى آخر الكبش مملوءة بالرجال والنساء ، وكان الرجل منهم يجلس بنصف درهم ، وأما البيوت فانها أكريت فى ذلك اليوم بأجرة سنة ، ولما عاد وطلع القلعة خلع على سائر أرباب الوظائف وسائر الأمراء والمقدمين ، وأمر بالصدقات على الفقراء والمشايخ ، وأفرج عن المسجونين .

---

(١) المقصود عوام الناس ع

وفيها : وفد سلامش بن أفاك[1] بن بيجو التترى وأخوه قطقطو[2] ومن معهما إلى الأبواب السلطانية ، وسبب ذلك أن سلامش كان مقيما ببلاد الروم ومقدّما على التمان المجرد فيها ، فبلغه أن قازان عزم على أن يقتله ، فأراد الانحياز إلى دار الإسلام طلبا للنجاة ، وكاتب الملك المنصور حسام الدين لاجين [١٥٦] مستأذنا ومعلما بوصوله مستأمنا ، وأرسل من جهته شخصا يسمى مخلص الدين الرومى ، فأجاب السلطان إلى ذلك ، وقال : إنا لا ننكره من يهاجر إلينا محبة فى الله والرسول عليه السلام .

وبلغ قازان مراسلته ، فجرد عسكرا لحربه وأخذه ، فالتقوا معه فى بلد الروم ، فلما التحم القتال بينهم خامر عليه بعض من كان مضافا إليه ، فلم يُنْجه إلا الفرار وقصد هذه الديار .

ولما وصل إلى البلاد الحلبية جهز معه من يحضره إلى الأبواب السلطانية ، وعند وصوله عومل بالإكرام وقوبل بالإنعام ، وخير فى المقام بمصر إن شاء أو الشام ، فذكر أنه ترك عياله وخلف أهله وأطفاله وسأل تجريد عسكر ليحضر أهله ، فرسم بأن يجهز معه من عسكر حلب من يساعده على ماطلب ، وعاد من الباب العزيز ، فجرد النائب بحلب معه عسكرا إلى الروم وقدّم عليه الأمير سيف الدين بكتمر الحلبى أحد الأمراء بحلب ، فساروا إلى بلاد سيس ، فلما وصلوا إليها شعر بهم صاحب سيس والتتار الذين ببلادها ، فأخذوا عليهم مضايق الدروب وعاجلوهم

---

(١) « بن أذل » — فى السلوك جـ ١ ص ٨٧٤ .

وقد أورد المقريزى هذه الأحداث ضمن حوادث سنة ٦٩٨ هـ .

(٢) « قطقطوا » — فى زبدة الفكرة ـ مخطوط جـ ٩ ورقة ١٩٧ ب ، السلوك جـ١ ص ٨٧٧ .

بالحروب عن المروب ، فقتل الحلبي ومن معه وفر سلامش منهزما وجاء إلى قلعة ببلد الروم واعتصم بها ، فأرسل قازان فى طلبه ، فأحضر إليه فقتله شر قتلة[1] .

وكان قد ترك أخاه بالديار المصرية على أنه رهينة عنه واسمه قطقطو وصحبته مخلص الدين الرومى ، فاستقرا بها وأعطيا إقطاعا وراتبا .

وفى نزهة الناظر : كان سلامش هذا كبير القدر معظما ببلاد الروم ، وله بيت كبير فى المغول .

قال صاحب النزهة : ذكر لى من أثق به من الروميين أن جدّ هذا الرجل هو الذى فتح بلاد الروم فى سنة إحدى وأربعين وستمائة ، وملكها بعد قتل عالم كثير ، وعند نزوله حضر إليه أبو بَرْوانا[2] وعرفه بنفسه وعرفه أيضا أن هذه أقليم عظيم ، وأنه لاينظر إلى من قتل منه ، والتزم أن يحمل له كل سنة خراجا ويكون هو ومن معه رعيته ، فوافقه على ذلك وقرر عليه فى كل سنة ثلاثمائة وستين ألفا من الدراهم ، وألف رأس غنم ، وألف رأس بقر ، وألف رأس جمل . وقال له بعض أمرائه : يا خوند هذا يأخذ هذا المقدار من ضيعة واحدة من هذه الإقليم . فقال له : إذا استمر هذا يجىء غيره ، وبقى هذا إلى سنة أربع وخمسين وستمائة ، فخرج هلاون ومات بيجو وأخذ ولده أفاك مكانه ، وحضر إليه بروانا ، وكان أيضا والده توفى فأكرمه وخلع عليه وقرر عليه ماكان يحمل والده لوالده ، واستقر إلى أن توفى أفاك وملك سلامش ابنه البلاد وأقام فيها ، وملك جبال قرمان

---

(١) انظر زبدة الفكرة — مخطوط جـ٩ ورقة ١٩٨ أ .

بينما أورد المقريزى هذه الأحداث فى حوادث سنة ٦٩٨ هـ — السلوك جـ١ ص ٨٧٤ — ٨٧٨ .

(٢) هكذا بالأصل .

وضياعا كثيرة ، ثم مضى على ملوك المغول ، فلما ملك قازان سير إليه جوبان وقطلوجا ، فضربوا معه مصافا ، فخامرت عليه أمراؤه فانكسر ، وكان سبب عبوره إلى مصر .

ثم قال صاحب النزهة : والأصح أن سلامش أرسل كتبه فى دولة لاجين، يستأذن على الدخول إلى البلاد الإسلامية ، فلما وصل إلى حلب قُتل لاجين، ودخل إلى مصر فى الدولة الناصرية وأكرمه بيبرس وسلار (١) .

وفيها : ابتدأ الخلف بين طقطا بن منكوتمر ملك بيت بركة بالبلاد الشمالية وبين نوغيه بن ططر بن مغل بن دوشى خان بن جنكزخان ، وذلك لأسباب :

منها : أن بيلق خاتون زوجة نوغيه استنفرت من ولديه وهما جكا وتكا وأظهرا لها الكره [١٥٧] والامتهان ، فأغرت طقطا بهما وأرسلت تحرضه عليهما .

ومنها : ان بعض أمراء طقطا أوجسوا خيفة من أمر بلغهم عنه ففارقوه وانحازوا إلى نوغيه ، فقبلهم وأحسن إليهم وأنزلهم فى حوزته وزوج واحدا منهم اسمه طاز بن منجك بابنته .

فأرسل طقطا يطلبهم منه ، فمنعهم عنه ، فأغضبه ذلك ، وأرسل إليه رسولا وأصحبه : محراثا ، وسهم نشاب ، وقبضة من تراب ، فلما جاء الرسول إليه وعرض ما معه عليه قال : إن لهذه الرسالة خبرا ، ولهذا الرمز إشارة ورمزا ، فجمع كبار قومه وذوى مشورته وقال : ما عندكم فى هذا وما قصد طقطا بإرسال التراب والنشاب والمحراث ؟ فقال كل منهم مقالا ، وجال فى تأويلها مجالا .

---

(١) هذا يوضح الخلاف بين ما ذكره العينى سابقا ، وما ورد فى السلوك ـ انظر ما سبق ص ٤٠٠ .

فقال : ما أصبتم القصد ولا أجدتم النقد ، وأنا أخبركم بمراده وأعرفكم خبر فؤاده ، أما المحراث فهو يقول : إن نزلتم إلى أسافل الأرض أطلعتكم بهذا المحراث ، وأما النشابه فيقول : وإن طلعتم إلى الجو أنزلتكم بهذا السهم ، وأما التراب فيقول : اختاروا لكم أرضا يكون فيها الملتق ، فعلموا أنه أصاب فى تأويله وفهم فحوى رسالة طقطا ورسوله ، فأعاد الرسول وقال : قل لطقطا إن خيلنا قد عطشت ونريد أن نسقيها من ماء تَنْ وهو نهر على مقام صراى وفيه منازل طقطا .

فعاد الرسول بالجواب، فاستعد طقطا وجمع جنوده ، وأعد حشوده، وسار للقائه ، وبلغ نوغيه وأولاده مسيره إليه وعزمه حربه ، فجمع العساكر التى عنده والتوامين التى تحت حكمه ، والمقدمين الذين هم اليه مضافون وبه مقتادون ، وهم : طاز بن منجك وهو زوج ابنته ، وطنغر بن بخان ، وأباجى ابن قرمشى ، وقراجين أخوه ، ومنجى أخوهما ، وماجى ، وسدن ، وأُلاج ، وصنغى ، وقوشب ، وصلغاى ، واشق ، وكبجك ، وشبتكاى ، وتركى ، وقطلوبغا ، ومغلطاى ، ومعهم ما ينيف عن مائتى ألف فارس .

وسار كل منهما لقصد صاحبه ، فالتقوا على نهر يصى بين مقام طقطا ومقام نوغيه ، فكانت الكسرة على طقطا وعسكره وانهزموا ، وانتهت بهم الهزيمة إلى نهر تن فمنهم من عبره فسلم ، ومنهم من هوى فيه فغرق ، وأمر نوغيه عساكره أن لا يتبعوا مُولّيا ، ولا يجهزوا على جريح ، وأخذ الغنائم والسبايا والأسلاب وعاد إلى مكانه[1] .

(١) زبدة الفكرة — مخطوط جـ ٩ ورقة ١٩٩ ب — ٢٠٠ ب .

ذكر القبض على الأمير بيسرى :

والسبب فيه أن منكوتمر كان يُعلِّم عن السلطان الكتب والتوقيعات فى الأيام التى وقع السلطان من الفرس فى الميدان حين كان يلعب بالأكرة ، وكان يخاف على السلطان من عارض ، وكان يعلم أن ما فى الدولة أكبر من بيسرى ، ومع هذا كان البيسرى يكره منكوتمر فى الباطن ، وكان [منكوتمر][1] يخاف أنه إذا جرى أمر يكون البيسرى هو المقدّم ، وأنه إذا تقدّم أوقع به ، فشرع فى التدبير على مسكه ، وكان السلطان قد رسم فيما مضى أن يكون البيسرى كاشفا بالجيزة[2] وأن يحضر الخدمة أيام الإثنين والخميس ، وكان يجلس رأس الميمنة ويجلس فوقه حسام الدين بلال المغيثى الطواشى ، لأجل كبره وتقدّمه ، وكان الملوك والأمراء يعظمونه ، واتفق أن البيسرى حضر على عادته وقامت الأمراء ، فلما رآه [١٥٨] الطواشى قام إليه وشرع يبكى ويمسح عينه بالمنديل قدام الأمراء ، فخشوا من بكائه وقالوا : يا سيدنا ما سبب بكائك ؟ فقال : كلما رأيت هذا الأمير أتذكر أستاذى وأشم فيه روائح الملوك ، فبلغ ذلك فى وقته منكوتمر ، فأثّر عنده تأثيرا عظيما ، وعرَّف السلطان بذلك ، وبالغ فى الكلام فيه ، وما نهض من عنده إلا بعد الاتفاق على مسك البيسرى ، ولكن استمهل السلطان فى ذلك أياما ، وبقى مفكرا فى أمره ، وكيف يدبر على مسكه وذلك لما كان يعلم من

(١) [ ] إضافة للتوضيح .

(٢) « ثم حسن منكوتمر للسطان أن ينتدب بيسرى لكشف جسور الجيزة ، فتقدم لذلك مع أنها غض منه ، إذ محله أجل من ذلك ، فلم يأب وخرج إلى الجيزة بمماليكه وأتباعه » ـــ السلوك جـ ١ ص ٨٣٤ .

كبره وعظمته فى النفـوس وتقدمه فى الدول ، ولمـا كان يعـلم من كثرة حاشـيته .

واتفق فى تلك المدة أن حضر مملوك نائب حلب وأخبر أن العسا كر المنصورة دخلت إلى بلاد سيس وأغاروا عليهـا ، ولكن لم يتعرضوا لحصر القلاع ، فإن السبب فيه أن صاحب سيس استنجد بصاحب قبرس و بأصحاب جزائر بحر الروم و بالافرنج ، ونفق أموالا عظيمة فى العسكر ، واستقل بعسكر السلطان ، فلما سمع السلطان ذلك وجد فرصـة فى أمر البيسرى ، فطلب منكوتمر واتفق رأيهما على تجريد عسكر أخرى ، فعين الأمير بكتمر السلحدار والأمير طقطاى ومبارز الدين اوليا بن قرمان وأضاف إليهم جماعة من العسكر ورسم لهم بالسفر ، ولمـا سافروا وجد أكابر الأمراء قـد تفرقت ولم يبق من يخشى من جهته ، وجلس منكوتمر وخشدا شيته وأخذوا يتحـدثون فى ترتيب أمراء بدمشق من جهتهم وفى مسك أمراء آخرين لتكون الدولة كلها انشاء هم فى الديار المصرية والشامية .

ثم بعد أيام لمـا طلع البيسرى الخدمة على العادة أخذ السلطان يسأله عن حاله وما هو فيه فقال ياخوند : أنا منشرح بمـا تصدق علىّ مولانا السلطان من قرب المكان ، يعنى كشف الجـيزة ، وهو مكان نزه وفيـه الصيد وطيب الوقت ، فتبسم السلطان ثم قال له : يا أمير ما تعزم على يوما عندك حتى تنشرح وتنبسط ، فقام وقبـل بالأرض وقال : قـم ياخوند ، وتواعد معـه أن تكون ضيافته يوم الثلاثاء .

ثم خرج من عنده وشرع فى تجهيز أمر الضيافة الهائلة، ورأى أن المخيم الذى فيه ما يسع للسلطان وحاشيته، فطلب أمير مجلسه (١) وقال له : اذهب إلى منكوتمر وقل له يقول للسلطان إن مخيمى ضيق، ويكون مخيم السلطان فى الموضع الفلانى، فجاء هذا إلى منكوتمر وبلغه الرسالة، ثم قال له : اجلس عندى حتى أبلغ السلطان ما قلته لى ، ثم شرع معه فى الحديث ولم يزل يستميله ويعدُ له بإمْرة ومالٍ ، وحلف له على ذلك على أن يذهب معه إلى السلطان ويقول له : إن أستاذى اتفق مع بعض الأمراء على أن السلطان إذا حضر إلى مخيم أستاذه يوقع به الأمر ويأخذ المملكة لنفسه ، فاغتر هذا بقول منكوتمر ورضى بذلك ، ثم قام منكوتمر وأخذه معه، فدخل على السلطان وقال له ياخوند : هذا قد حضر من عند البيسرى ومعه نصيحة للسلطان، وهو يقصد بذلك المكافأة عليها ، فأخبر السلطان بما وقع عليه اتفاقهما ، فشكره السلطان وأثنى عليه ، ثم رسم السلطان بتجهيز الدهليز صحبة الفراشين إلى الجيزة وأعاد الرجل بالإجابة (٢) ، فجاء إلى أستاذه البيسرى وأخبره بأن السلطان أجاب إلى ذلك [١٥٩] وأن خيامه قد طرحت، فلما أصبح البيسرى طلع إلى الخدمة بناء على أن ينزل مع السلطان لميعاده على ما مضى من الاتفاق ، فلما فرغت الخدمة ، قال له السلطان : ميعادنا يكون يوم الأربعاء ، فعند ذلك قام وأراد النزول، فلما وصل وسط الدهليز خارج باب النحاس قامت إليه مماليك كان السلطان قد أرصدهم هناك وأمرهم بأن بيسرى إذا وصل هناك يأخذوا سيفه ويمسكونه ، فضربوا على الحلقة ، وأخذوا سيفه من وسطه ، ومسكوه ،

---

(١) « أرسلان أستاذ دار بيسرى » فى السلوك جـ ١ ص ٨٣٤ .

(٢) أورد المقريزى رواية أخرى ، ولكنها مشابهة فى بعض الوجوه — انظر السلوك جـ ١ ص ٨٣٤ .

ووقع الضجيج بعد ذلك في القلعة ، وبلغ إلى أهالى المدينة ، فغلقت باب زويلة (١) مقدار ساعة من النهار ، فذهب الناس بجميع ما كان جهزه البيسرى للضيافة .

ثم رسم السلطان بالحوطة على جميع موجوده ، وحبس جماعة من مماليكه (٢) ، وفرح منكوتمر بذلك فرحا عظيما فإنه كان كلما يراه يتنكد ويتنغص .

وكان اعتماد المنصور فى مسك الأمراء الظاهرية اعتماد أستاذه الملك المنصور قلاون فإنه لم يتم له الملك حتى مسك جماعة كبيرة من الظاهرية ، وأول من مسك منهم كان البيسرى هذا ، وأقام فى الحبس تسع سنين وأيام إلى أن أفرج عنه الملك الأشرف على ما ذكرنا (٣) ، ولما تولى لاجين أراد أن يفعل مثل فعل أستاذه قلاون .

ولما مسك بيسرى أرسل يقول للسلطان : هذا جزائى منك ؟ وأقسم على كرجى وهو يقيده (٣) أن يبلغ هذا إلى السلطان ، فأبلغ كرجى كلامه هذا إلى السلطان ، فقال له : هذا جزاؤك ، بل جزاؤك أكثر من هذا ، وأنا ما أقدر أن أعمل معك ما عمله كتبغا معك من الاحسان ، فكان جزاؤه منك ما فعلته فى حقه ، فكيف آمن إليك بعده ؟ .

(١) « الزويلة » فى الأصل ، والتصحيح من السلوك جـ ١ ص ٨٣٥ .

(٢) « ثم أفرج عنهم » فى السلوك .

وقد ظل الأمير شمس الدين بيسرى فى الإعتقال إلى أن توفى فى ١٩ شوال سنة ٦٩٨ هـ — السلوك جـ ١ ص ٨٨٠ ، وانظر ما يلى .

(٣) انظر ما سبق ص ٧ وما بعدها .

(٣) ذكر المقريزى أن اللذين قبضا على الأمير بيسرى هما : سيف الدين طقجى وعلاء الدين أيدغدي شقير — السلوك جـ ١ ص ٨٣٥ .

وفيها ورد الأمير حسام الدين مهنى بن عيسى ، أمير آل عيسى ، فتلقاه السلطان بالإكرام والقبول ، وقد ذكرنا أن الملك الأشرف خليل لما مسكه كان قد سلمه إلى حسام الدين لاجين ليوصله إلى مصر ، وأوصاه أن يطبق عليه ، ولا يمكنه من الاجتماع بأحد ، وحكى عن أخيه محمد بن عيسى أن من جار إحسان لاجين إلى أخيه مهنى أنا لما نزلنا خربة اللصوص فى الليل ، وانفرد لاجين عن الناس قلت : ويل لآل مهنى ما لهم من معين ، ولا مخبر لأهلهم بخبرنا ، والله إن هذه الطريق شين وتهم علينا ، فقال لى أخى مهنى : اسكت ، فنحن لانبالى ، ومعنا هذا الأشقر الذى تخافه العرب والترك ، وأراد به لاجين . وكان لاجين يسمعه ، فلما أصبحنا ، وجدنا إنسانا على راحلة .

فقال أخى : يا أمير حسام الدين أما تتصدق علينا بأن تنادى هذا الرجل [لعله](1) جاء من بلادنا ومعه خبر من أهلنا ، فقال نعم ، وأشار إليه فحضر ، فقال له أخى مهنى : من أين ياوجه العرب ، فانتسب إلى قبيلة من العرب ، فعرفه مهنى ، ثم سأله عن أهله فأخبره عن أهلنا ومنازلنا ، فقال له نقصدك أن تذهب إلى أهلنا وتخبرهم بأنا نحن طيبون ، ونحن فى قيد الحياة ، لذلك علينا الملاقاة إذا أفرج الله عنا ، فقال : نعم ، إنها الأمير « ... ... »(2) لاجين ، فقال : يا أمير حسام الدين ترى أن تفعل معنا خيرا ، والله تعالى يكافئكم ، فقال : قل ما تريد ، فقال : أن تأذن لنا بأن نكتب سطرين أو ثلاثة إلى أهلنا ليعلموا أنا نحن طيبون فى خير ، وأنا تحت حفظك وظلك ، فتبهم وقال لدواداره : اعط الأمير الدواة والورق [١٦٠] فإذا كتب كتابا توقفنى عليه ،

(١) [ ] إضافة تتفق والسياق .

(٢) « ... » كلمتان مطموستان .

فأعطاه ، فكتب إلى أخيه هبة ، وعرف أخيه أنه طيب فى خير وعافية ، وأمره أن يرحل بأهله إلى نحو الشرق إلى مكان سماه له ، وأن يشن الغارة فى المنازل القريبة منه ، ولكن ذكر ذلك كله باللغز ، فسمى تلك بأسماء أولاده ، وبعض نسائه بحيث لا يفهم أحد ذلك إلا أخوه الذى كتب إليه ، فلما وصل إليه الكتاب رحل هو بأهله من برية دمشق ، ثم شرع فى التشويش على المنازل ، ونالوا بذلك مقاصدهم ، ولما اتفق مجىء مهنى إلى السلطان أحسن إليه السلطان ، فخلع عليه طرد وحش ، وهو أول من لبس طرد وحش من آل مهنى ، وكانت خلعته قبل ذلك كنجى (١) [أو] (٢) مسمط (٣) ، وطلب دستورا للحجاز من الشام ، فأذن له بذلك وأنعم عليه .

وفيها صودر القاضى بهاء الدين بن الحلى ناظر الجيوش ، وكان له خدمة على السلطان فى أيام نيابته ، فلما تسلطن صارت له عنده مكانة كبيرة ، واتفق أنه استشاره فى بعض الأيام فى أمر منكوتمر ، وقال له : ياقاضى بهاء الدين ، قد كثرت الشكوى فى هذا النائب ، وفى حاشية وكُتَّابه ، وإنما أريد أن أقيم مملوكى منكوتمر ، وأكون مطمئنا من جهته . وتكون أنت تدبره وتعرفه الطرق التى يسلكها القواد . فقال له : والله ياخوند ، نُصْحك واجب على كل أحد ، وخصوصا على المملوك ، ولا يخفى على السلطان أن دولة الملك السعيد ما أخربها

(١) كنجى : قماش منسوج من قطن وحرير ، وكان يصنع فى بادىء الأمر فى كنجة بجهات آران ، فانتسب إليها — السلوك جـ ١ ص ٨٤٧ هامش (٩) .

(٢) [ ] إضافة من السلوك للتوضيح .

(٣) مسمط : قماش من الحرير الأصفر والأحمر مزين بنقش بارز ، وورد فى محيط المحيط أن المسمط : الثوب الذى ليست له بطانة طيلسان — السلوك جـ ١ ص ٨٤٧ هامش (٨) .

إلا مملوكه كوندك ، ودولة الأشرف ما أخربها إلا بيدرا ، ودولة الملك العادل ما خربت إلا بسبب مماليكه ، ومملوكك منكوتمر شاب كبير النفس، حاد الخلق ، لا يرجع لأحد ، وربما يجرى بسببه فساد كثير ، وما هـذا بأمره ، وإنما أمر السلطان ، فسكت السلطان ، ولم يجبه بشيء .

وبلغ ذلك منكوتمر فى وقته ، فكتمه فى نفسه ، وحط عليه مكائد السوء .

قال الراوى : وبلغنى أن بهاء الدين لما خرج من عند السلطان اجتمع بالأمير علم الدين الدواداري ، وأخبره بما جرى بينه وبين السلطان ، فقال له علم الدين: أخطأت يا قاضى فى هذا الرأى ، وسكت عنه .

وبقى هـذا الأمر إلى أن مسك قراسنقر النائب ، وتولى منكوتمـر النيابة ، ودخلت عليه الناس تهنئة ، وكان فيهـم القاضى بهاء الدين فلما قبل يده وجلس ، قال له : ياقاضى هذا كله ببركتك ، وبركة وعظكم للسلطان ، فأطرق رأسه إلى الأرض ، وعلم أنه لا بد من شيء مترتب عليـه من جهته مما لا طاقة له به . ثم شرع منكوتمر يعـرف السلطان بما للقاضى بهـاء الدين من السعادة والأمـوال والعقارات والبساتين بمصر والشام ، فلم يزل يوحى إليه إلى أن اتفق معه على مسكه ومصادرته .

قال الراوى : وكان للقاضى من السعادة والعظمة والأحكام النـافذة على جانب كبير ، وكانت له مسقفة « ... »[1] كبيرة اتخـذها لنفسه ، وله ميـل إلى الشباب من أهـل المحاسن ، وكان له تعلق ببعض المماليك الخاصكية ، وكان لذلك المملوك عادة ، يأتى إليه فى بستان بالقرب من الميدان حين يخرج من الخدمة ،

(١) « ... » كلمة غير مقروءة .

واتفق حضوره عنده على عادته ، وكان منكوتمر قد بلغه ذلك عنه فأمر باسترصاده ، ولما أخبروه بذلك أمر الطواشي المقدم أن يركب و يأخذ معه عدد من النقباء ، ويأتى البستان، و يكبس عليه، [١٦١] فركب الطواشي بمن معه وهجموا عليه فى البستان ، وأخرجوا المملوك منه ، ولم يتعرضوا لغيره ، فلما أصبح وطلع إلى الخدمة مُسك وسلم إلى جمال الدين أقوش الرومى الحسامى ، ومسك معه أيضا جمال الدين بن عزيز مقدم الركبدارية ، ومجد الدين ناظر الأعمال الغربية وجماعة آخرون من الكتاب .

ورسم بالحوطة على جميع ما للقاضى بهاء الدين من الأموال والأملاك والبساتين بمصر والشام ، وكذلك غلاله وسواقيه وجميع دواليبه ، وتولى بجميع ذلك أقوش الرومى ، وأوصى منكوتمر لأقوش بعقوبة القاضى بهاء الدين لما كان فى نفسه منه ، وكان المذكور بالغ فى عقوبته حتى أنه كان يحمى الخوذة الحديد على جمرات النار ، ثم يلبسها رأسه فيجد من ذلك ألما عظيما ، وعذبه بأنواع العذاب إلى أن أخذ منه جميع أمواله ،فكان جملة ما أخذ منه من موجوده بمصر والشام نحو مائة ألف وثلاثين ألف دينار ، وقصد منكوتمر إتلافه بالكلية .

وقفت الأمراء وسألوا السلطان أن يصفح عنه ، فقبل شفاعتهم وأمر بالإفراج عنه ، وعن بقية المصادرين الذين مُسكوا معه ، وقرر أقوش الرومى على بهاء الدين مائة ألف درهم[1] بشرط أن يضمن عنه جماعة من التجار ، فأحضر جماعة من قيسارية جهاركس وجماعة من الجند والمقدمين ، فضمنوه وأفرج

(١) « وأخذ خطه بألف ألف درهم » — السلوك جـ١ ص ٨٢٦ .

عنه ، ولم يمكث يومين حتى بعث إليه يطالبه بالمبلغ المذكور فخشى على نفسه من الرجـوع إلى العقوبة فأخفى نفسه ، فلما أخبر أقوش بذلك طلب الضمان وفرق عليهم المبلغ وأخذه منهم .

وفيها : قصد منكوتمر بقطع كثير من المباشرين وأرباب الرواتب ، وعرف السلطان أن الكُتَّاب يأخذون هـذه الرواتب والجرايات بأسماء أقاربهم وعبيدهم ويكتبونه بأسماء ناس صعاليك وهـم يأخذون لأنفسهم ، وأن ذلك يحصل منه شيء كثير ، فطلب الوزير فخـر الدين بن الخليلي وأمره أن يكتب أسماء أرباب الرواتب وأرباب الرزق ، فحصل للناس بذلك قلق عظيم .

وفكر الوزير فى ذلك ، فأحضر إلى السلطان رسالة القاضي الفاضل فى دولة السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله ، فقرأها عليـه ، فأعجب السلطان ذلك إلى أن دمعت عيناه ، ثم قال : قل لمنكوتمر لا يتحدث فى هذا بالجملة الكافية .

وكان مضمون الرسالة النصيحة للسلطان صلاح الدين حين أراد أن يفعل مثل ما أراد منكوتمر أن يفعله ، فبلغ هذا إلى منكوتمر ، فلما دخل عليه الوزير قال له : ما أنت يا قاضى إلا نصحت السلطان نصحا كثيرا . فقال له الوزير : يا خوند النصح واجب على كل مسلم . فقال : اترك عنك الفشار وجهزلى الأوراق ، وبعد يومين اتفق قتل منكوتمر على ما نذكره إن شاء الله .

وفيها : قلت المياه جدا بدمشق ، وغـلا سعر الثلج بالبـلد جدا إلى [أن][1] أبيع الرطل منه بدرهم وثلث ، وجفت الأعين من سائر البلاد ، واستسقى الناس

(١) [ ] إضافة تتفق والسياق .

بدمشق وبيت المقدس والخليل ، ورأى المسافرون أيضا شذه فى سائر الطرقات ، وأمانيل مصر فإنه كان فى هذه السنة فى غاية الزيادة والكثرة .

وفى نزهـة الناظر : وكان النيل فى هذه السنة فى الثامن عشر من ذى القعدة بلغ إلى ثمـانية عشر ذراعا وست أصابع .

وفيها : حج بالناس من مصر الإمام الحاكم بأمر الله ومعه أولاده ، وأعطاه السلطان سبعمائة ألف درهم .

[١٦٢] وفى النزهة . وكان أمير الركب فى هذه السنة الأمير طقجى ، وحج فى هذه السنة خلق كثير .

رفع

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

ذكر من توفى فيها من الأعيان .

الشيخ الصالح الزاهد حسن(١) بن الشيخ الكبير على الحريرى .

توفى فى ربيع الآخر منها بزاويته بقرية بسر(٢)، ومولده سنة إحدى وعشرين وستمائة .

الصدر إبراهيم(٣) بن أحمد بن عقبة بن هبة الله بن عطا البصراوى(٤) الحنفى .

درس وأفاد ، وولى قضاء حلب فى وقت، ثم سافر قبل وفاته إلى مصر ، فجاء بتوقيع فيه قضاء حلب(٥) ، فلما اجتاز بدمشق توفى بها فى رمضان منها ، وله سبع وثمانون سنة(٦) .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ١٣٨ ، المنهل الصافى ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١١٣ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٥٢ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ٦٥ رقم ٩٩ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٠٧ .

(٢) بسر : قرية من أعمال حوران بأراضى دمشق ـ معجم البلدان .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ١٣٧ ، المنهل الصافى جـ ١ ص ٣١ رقم ٣ ، الوافى جـ ٥ ص ٣١١ رقم ٢٣٨٣ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٥٣ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١١٣ ، السلوك جـ ١ ص ٨٥٠ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٣٨ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦ .

(٤) نسبة إلى بصرى : كورة حوران من أعمال دمشق ـ معجم البلدان .

(٥) « وتوصل إلى أن كتب له بقضاء حلب » تذكرة النبيه .

(٦) ولد سنة ٦٠٩ هـ ـ تذكرة النبيه .

أحمد[1] بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن نعمة المقدسي الحنبلي ، الشيخ شهاب الدين عابر الرؤيا[2] .

سمع الحديث ، وروى الكثير ، وكان عجبا في تفسير المنامات ، وله فيه اليد الطولى ، وله تصانيف فيه ، ليس كالذي يؤثر عنه من الغرائب والعجائب ، ولد سنة ثمان وعشرين وستمائة[3] ، وتوفى في آخر ذي القعدة منها ، ودفن بباب الصغير وكانت جنازته حافلة ، مشى فيها نائب السلطان والقضاة ، وكان يقول للشخص جميع ما جرى له من أول العمر إلى حين جاءه ، ويقول ما في بيته يخبي ، وإذا قص عليه المنام لا يفسره له حتى يستتيبه ويحلفه على ملازمة الصلوات ، وكان كثير الصوم والصلاة والأوراد ، ولا يفطر إلى بعد العشاء الآخرة ، ويصلي من المغرب إلى العشاء الآخرة ولا يكلم أحدا من الناس .

هبة الله[4] بن عبد الله بن سيد الكل ، القاضي أبو القاسم بهاء الدين القفطي بفتح القاف — نسبة إلى قفط بلدة بصعيد مصر .

مولده بها سنة ستمائة ، وقبل سنة إحدى وستمائة ، وتولى قضاء إسنا والتدريس بالمدرسة العزية ، وكانت إسنا مشحونة بالرافضة ، فقام في نصرة

(١) وله أيضا ترجمة في : الوافي جـ ٧ ص ٤٨ رقم ٢٩٨٣ ، فوات الوفيات جـ ١ ص ٨٧ رقم ٤١ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١١٣ — ١١٤ ، السلوك جـ ١ ص ٨٥ ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٥٣ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٣٧ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢١٠ .

(٢) هكذا بالأصل ، ورود « منفردا في تعبير الرؤيا » — في تذكرة النبيه .

(٣) « بنابلس » — تذكرة النبيه .

(٤) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي ، الطالع السعيد ص ٦٩١ رقم ٥٤٨ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٣٩ .

السنة ، وأصلح الله به خلقا ، وهمت الرافضة بقتله فحماه الله منهم ، وترك القضاء أخيرا ، واستمر على العلم والعبادة ، وكان فقيها فاضلا ، متعبدا زاهدا خيرا ، مشهورا ، تفقه على المجد القشيرى ، وقرأ الأصول على شمس الدين الأصبهانى بقوص ، وسمع من ابن الجميزى ، وصنف فى الرد على الرافضة كتابا ، وانتهت إليه رئاسة العلم فى إقليمه ، وشرح الهادى فى الفقه ، وله تفسير لم يكمله ، ومات بإسنا فى هذه السنة ، ودفن بالمدرسة المجدية .

الأمير عز الدين أيبك[1] الموصلى نائب السلطنة بالفتوحات[2] .

توفى فيها ، وسير إليها عوضه سيف الدين كرد أمير آخور فأقام برهة واتفقت وقعة حمص على ماذكره ، فقتل فيها ، فسير عوضا عنه سيف الدين قطلوبك[3] على ما سيرد[4] .

الأمير عز الدين طقطاى[5] الأشرفى .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى « زبدة الفكرة — مخطوط جـ ٩ ورقة ٢٠٠ ب ، السلوك جـ ١ ص ٨٥٠ .

وورد ذكر وفاته سنة ٦٩٨ هـ فى كل من « المنهل الصافى جـ ٣ ص ١٣٢ رقم ٥٧٧ ، درة الأسلاك ص ١٤٤ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢١٥ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٨٣ .

(٢) « تنقلت به الخدم حتى ولى نيابة طرابلس إلى أن مات » — السلوك

(٣) هو قطلوبك بن عبد الله المنصورى ، المتوفى سنة ٧١٦ هـ / ١٣١٩ م — الدرر جـ ٣ ص ٣٢٧ رقم ٣٢٦٤ ، المنهل الصافى .

(٤) انظر زبدة الفكرة .

(٥) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، زبدة الفكرة — مخطوط جـ ٩ ورقة ٢٠٠ ب ، السلوك جـ ١ ص ٨٥١ .

كان قد تقدم وكبرت منزلته وأخذ منية بنى خصيب دَرْبستا كما كانت للأمير بدر الدين بيسرى[1]، توفى فيها .

الأمير شمس الدين محمد بن سنقر الأقرع ، توفى فيها .

الأمير سيف الدين كيكلدى ابن السرية ، توفى فيها .

الأمير عين الغزال ، توفى فيها .

الأمير قطباى والأمير طقطاى ماتا مَسْقِيين فى هذه السنة .

الأمير علم الدين سنجر[2]، من أمراء دمشق .

توفى فيها من أثر جرح أصابه فى حصار القلاع[3]، وكان من الأمراء الناصرية، مشهورا بالشجاعة والفروسية [١٦٣] والإقدام فى الوقائع ، وله طبقة عالية فى سماع الحديث .

الأمير سيف الدين اسنبغا من أمراء حلب .

مات فى هذه السنة من أثر جراحات حصلت له فى الحصار .

الأمير شمس الدين سنقر التكريتى[4] المعروف بأستاذ الدار الملك السعيد .

---

(١) انظر زبدة الفكرة .

(٢) هو سنجر بن عبد الله طقصبا الناصرى .

وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ١٣٧ ، المنهل الصافى ، السلوك جـ ١ ص ٨٥٠ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٠٦ .

(٣) « وكانت وفاته ببلدة حلب المحروسة ، عائدا من غزاة سيس بسهم أصابه بها » — تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٠٦ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : السلوك جـ ١ ص ٨٥١ ؛

مات فيها من أثر جراحات أصابته .

الأمير سعد الدين كَوجِبا[1] الناصري من أكابر الأمراء الناصرية من أمراء مصر .

توفى فيها[2] وكانت له مباشرات[3] بإسكندرية ومصر .

الأمير سيف الدين بلبان[4] الفاخرى نقيب الجيوش .

كان رجلا خيرا ، وكان فى أول أمره مشغولا بلذات الدنيا ، وتوفى على توبة وخير .

الأمير علم الدين طُرطُش[5] الصالحى .

كان من الأمراء الصالحية الفرسان المشهورين بالشجاعة والإقدام والكرم والفتوة ، وكانت له كلمة مسموعة عند الملوك وسمعة فى البلاد ، مات فى هذه السنة .

الأمير شمس الدين سنقر[6] المساح .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، السلوك جـ ١ ص ٨٥ .

(٢) « توفى سنة ٦٩٩ هـ » فى المنهل الصافى .

(٣) « نائب دار العدل » — السلوك .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : السلوك جـ ١ ص ٨٥٠ .

(٥) وله أيضا ترجمة فى : السلوك جـ ١ ص ٨٥١ ، وورد فيه « طرطج الصالحى » .

(٦) وله أيضا ترجمة فى : السلوك جـ ١ ص ٨٥١ ، وورد فيه « سنقر التكريتى » عرف بالمساح » .

كان من الأمراء الأعيان المشهورين بالشجاعة والإقدام فى الحروب والحصارات ، وكان السلطان الملك المنصور يجمله كل سنة مقابل حصن عكا، وكان يقع له مع صاحب عكا وفرسانه وقائع كثيرة ، وينصر هو عليه ، ومازال المنصور يعظمه ويستشيره فى سائر أموره ويحترمه حتى أنه كان يركب إلى جانبه فى المواكب وغيرها .

الأمير نوروز[1] ، أتابك قازان ملك التتار .

أوقع به قازان فى هذه السنة وقتله ، وكان سببه أنه هم بإعدامه فأحس نيروز[2] بذلك ، فكاتب الملك المنصور لاجين بأنه يقصد الانحياز إليه ، والتمس منه تجريد عسكر ليساعده عليه ، فوقعت كتبه فى يد قازان ، فأرسل إلى نائبه قطلوشاه يأمره بأن يجرد جيشا فى طلبه ، وأمره بأن متى وقع له يوقع به ، فلما أحس نوروز بذلك التجأ إلى صاحب هراة وهو فخر الدين بن شمس الدين كُرت صاحب سجستان ، فقبض على نوروز وسلمه إلى قطلوشاه ، فقتله ، ثم قتل قازان أخويه فيما بعد فى بغداد وهما حاجى ولكزى ، وأوقع بأكثر ألزامه ، وقتل القاصد الواصل إليهم بالكتب من مصر .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى « المنهل الصافى » زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ١٩٧ أ ، ب ، البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٥١ ، السلوك جـ ١ ص ٨٣٧ .

(٢) هكذا بالأصل .

فصل فيما وقع من الحوادث

في السنة الثامنة والتسعين بعد الستمائة (*)

استهلت ، والخليفة : الحاكم بأمر الله العباسي .

وسلطان البلاد المصرية والشامية : الملك المنصور لاجين ، ونائبه بمصر مملوكه سيف الدين منكوتمر .

وقاضي القضاة الشافعي : الشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد .

وقاضي القضاة الحنفي : حسام الدين الرازي .

وأما نائب الشام فكان : سيف الدين قفجق ، ولكنه قد هرب إلى قازان كما ذكرنا قضيته في السنة الماضية ، وكان قد استناب في الشام عوضه الأمير سيف الدين جاغان ، ولما اتفق قتل لاجين على ما نذكره وثب عليه قرا أرسلان أحد أمراء دمشق فمسكه وسجنه على ما ذكرناه مفصلا .

وأما نائب حلب فانه : سيف الدين بلبان الطباخي .

ذكر مقتل السلطان الملك المنصور حسام الدين لاجين :

ذكر بيبرس في تاريخه : أن السبب فيه أن لاجين فوض إلى مملوكه منكوتمر جميع الأمور، فاستبد بوظائف الملك ومهماته، [وصار وقفا على إشاراته](1) وانتهى

(*) يوافق أولها الخميس ٩ أكتوبر ١٢٩٨ م .

(1) [ ] إضافة من زبدة الفكرة — مخطوط جـ ٩ ورقة ٢٤١ أ .

حاله معه إلى أنه صار إذا رسم مرسوما أو كتب لأحد توقيعا [١٦٤] وليس هو بإشارة منكوتمر يمزقه فى الملأ ويرده ويمنع أستاذه منه ويصده ، فاستثقل الناس وطأته ، وكرهوا دولته ، ورغبوا إلى الله فى زوالها وتغير أحوالها ، ونسبوا الذنب فيما يبدو من منكوتمر إليه لكونه جمع أمره كله عليه، وأنشد لسان حالهم :

فإن لاتكن أنت المسئ بعينه فإنك ندمان المسيء وصاحبه

وكان فى مماليك السلطان شخص[2] يسمى سيف الدين كرجى ممن أعان المنصور ووازره فى تلك الأمور، فقدمه على المماليك السلطانية، فكان يتحدث فى أشغالهم، وينظر فى أحوالهم ، ويدخل إلى السلطان متى أراد لايحجبه عنه حاجب ولاراد، فغار منكوتمر من قربه وسعى فى بعده ، فلما ورد البريد مخبرا بأمر القلاع التى فتحها العسكر ببلاد الأرمن حسن لأستاذه أن يرسله إليها ليقيم فيها ، فوافقه على إرساله ، واتصل ذلك بكرجى، فدخل إلى السلطان وتضرر من الرواح إلى الجهات المعينة ، وسأل الاعفاء منها وتعيين غيره لها ، فأجابه وأعفاه ، فكمن فى نفسه من عداوته ما كمن .

واتفق بعد ذلك أن منكوتمر فاوض شخصا من الخاصكية نسيبا لطقجى ، فسبه وأغلظ عليه ، فتوجه ذلك إلى طقجى وشكى الحال إليه ، وكان يسمى طغاى ، فاجتمع هؤلاء وتشاكوا سوء سيرة منكوتمر وعمله على إبعاد الأمراء وإتلافهم ، وقالوا : هذا متى طالت مدته قويت شوكته وعمل علينا واحدا بعد

---

(٢) « المماليك السلطانية » فى زبدة الفكرة .

واحد[(١)]، وأستاذه مرتبط به ومتمسك بسببه، ومتى لم نبدأ بإعدامه ما ننال من مملوكه قصدا، والصواب أنا نبدأ بأستاذه قبله[(٢)]، وأبرموا أمرهم فيما بينهم.

فلما كان ليلة الجمعة «الحادية عشر من ربيع الآخر»[(٣)] هجموا عليه وهو جالس يلعب بالشطرنج مع أحد جلسائه، فأرووا السيوف من دمائه، وقطعوه قطعا، وتركوه ملفما، وخرجوا إلى دار النيابة فى طلب منكوتمر، فلما أتوا إلى بابه استدعوه للنزول، فأحس بالأمر المهول، وعلم أنه مقتول، وكان طقجى ساكنا بدار الملك السعيد، فنزل منكوتمر إليه، وألقى نفسه بين يديه، واستجار به من القتل فأجاره، وقال لكرجى ومن معه: اذهبوا به إلى الجب ودلوه، فلما صار فى [قعر][(٤)] الجب عرفه الأمراء المعتقلون، فظنوا أن أستاذه نقم عليه واعتقله، وسألوه عن أمره، فأخبرهم بقتله، فثاروا إليه وشتموه وضربوه وأهانوه لما فى نفوسهم منه. وقيل: إنهم وجدوا عليه رائحة النبيذ[(٥)].

وقال صاحب نزهة الناظر: كان السبب لذلك أن طغجى حضر من الحجاز مستهل صفر، فوجد أن أمره قد احتكم بسفوه من مصر إلى نيابة طرابلس،

---

(١) «هذا متى طالت مدته أخذنا واحدا بعد واحد» — النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٠١.

(٢) «والصواب أنا بأستاذه قبله نبدأ» — فى زبدة الفكرة.

(٣) « » ساقط من زبدة الفكرة.

(٤) [ ] إضافة من زبدة الفكرة.

(٥) ورد فى زبدة الفكرة: «ثم إن كرجى استدرك الفارط، وقال: نحن قتلنا أستاذه وما أساء إلينا ولا جنف علينا، وإنما قتلناه لأجل هذا الشيطان، وما أوجبه سوء فعله من الشنآن، فكيف نتركه حيا، فعاد إلى الجب، وأطلعه وذبحه من قفاه، ولقاه الله ما قدمت يداه» — انظر زبدة الفكرة ـ مخطوط جـ ٩ ورقة ٢٠٠ ب ـ ٢٠١ ب، وانظر أيضا التحفة الملوكية ص ١٤٥.

وأن منكوتمر قصد فرقته من خشداشيته حتى لا يكونوا مجتمعين ، ولما استقر أياما طلبه السلطان وعرفه أنه عينه للنيابة لما يعلم من محبته ونصيحته وأنه متوثق به . فقال طقجي : والله ياخوند إنى مدة عمرى ماحكمت بين اثنين ، ولا أعرف أحكم ، وخرج من عنده على غير انفصال ، واجتمع بكرجى وسلار وبيبرس الجاشنكير وأخبرهم بما وقع بينه وبين السلطان، وكان عندهم الخبر، فاجتمع رأيهم على أن يتحدثوا مع السلطان [١٦٥] فى قعوده ، فاجتمعوا به ، وترققوا له فى السؤال، وقالوا : أحدث أحد ولى من السلطنة نائبا وليس له دربة بالنيابة ، ولا يعرف الأحكام ، فاستحى السلطان منهم ، وأعفاه ، وعلم بذلك منكوتمر، وتحدث مع السلطان ، ولامه على موافقة هؤلاء، وخرج من عنده وهو حرج ، فلقى كرجى فى الطريق ، فقطب فى وجهه ، وجفا عليه ، وقال : كل واحد منكم بقى يعمل رأيه فى السلطنة فى السر، وحط على الأمراء الذين تكلموا معه وقت سؤالهم السلطان بإعفاء طقجى[1] .

ثم إن منكوتمر لما علم أن السلطان قبل الشفاعة فى أمر طقجى امتنع من الحضور إلى الخدمة ، وجعل يحتج بأنه ضعفت رجله عن الحركة، فعلم السلطان ذلك، فطلب قاضى القضاة حسام الدين الحنفى ، واختلى به، وقال له : يا قاضى أنا قد تحيرت مع منكوتمر، إن طاوعته على جميع أغراضه ، واتبعت ما يشير إليه لا آمن على نفسى وعليه ، و إن أنا خالفته فما يهون على ، وهو على كل حال شاب ما جرب الأمر بعد « .. ... »[2] وما أدرى ماذا أفعل ؟ .

(١) يوجد بعد ذلك نحو ستة أسطر معظم كلماتها مطموسة مما يصعب معه متابعة النص .

(٢) « ... ... » كلمة غير مقروءة .

وكان القاضي يعرف محبة السلطان له(١) ، فقال له : ياخوند أنا أروح إليه وأسمع ما يقول . فسلم ودخل عليه(٢) ، وجعل يسأله عن حاله ، فقال له : مالي حاجة بالنيابة ، ولا بالإمرية ، وأنا أريد أعمل فقيرا ، وتحدث في هذا الباب كثيرا ، وفهم القاضي منه أنه يريد أن يسمع كلامه في كل ما في يده من مسك ناس وعمل آخرين ، وابعادهم عنه .

فلما فهم القاضي مقصوده علم أنه متى أشار على السلطان بشيء لا يرجع فيه إليه ، وأنه لا يرجع إلا لكلام منكوتمر .

فدخل عليه(٣) ، وعرفه ما قاله منكوتمر ، وما قصده ، فلم ينكر عليه شيئا ، بل سير إليه وطلبه ، وطيب خاطره ، وقال له : افعل كل ما تختار ، وأنه بعد أيام يمسك طقجي ، وبعده بقليل يمسك كرجي ، أو نرسله إلى نيابة موضع .

وفي تلك الأيام وصل قاصد للأمير قفجق في خفية واجتمع بطقجي وكرجي ، وأعطاهما الملطفات التي معه ، « ... ... »(٤) وأخبرهم برواح الأمراء إلى قازان ، وكيف خرج قفجق من دمشق ، وتولى جاغان مكانه ، وأنهم يعرفوا أنكم إما أنكم توقعوا القتل في السلطان ومنكوتمر ، وإما تعرفوهم فيهاجرون ، وذلك حتى يعرفوا حالهم .

فلما سمع طقجي وكرجي هذا من القاصد اجتمعا مع بيبرس وسلار وعبد الله

---

(١) الضمير يعود إلى منكوتمر .

(٢) المقصود منكوتمر .

(٣) أي على السلطان .

(٤) « ... ... » ثلاث كلمات مطموسة .

السلحدار « ... ... »[1] يوافقهم على ما « ... ... »[2] ، وأرسلوا إليهم بأنهم يفعلون ما أشاروا به ، ثم شرعوا فى تدبير قتل السلطان .

ذكر قتل السلطان :

فلما كانت الليلة التى يسفر صباحها عن يوم الجمعة الحادى عشر ربيع الآخر طلع فى هذه الليلة نجم فى السماء [١٦٦] يسطع نوره ، ويأخذ بالبصر وله ذنب يظن الرائى أنه يراه بقريب من الأرض ، واشتغل الناس بالنظر إليه « ... ... »[3] وقال بعضهم كان فى تلك الساعة قران المشترى وزحل على رأى المنجمين ، ثم وقعت الضجة فى داخل المدينة ، فركب الأمراء بالسلاح ، وأشيع الخبر بأن لاجين قتل تلك الساعة .

وركب الأمير جمال الدين قتال السبع الموصلى مع جماعة من الأمراء « ... »[4] إلى ظاهر المدينة ، ووقعت الضجة فى سوق الخيل ، فركب كثير من الناس ولم يبق من الناس أحد فى منزله .

قال الراوى : وأخبرنى قاضى القضاة حسام الدين الرازى الحنفى عن كيفية قتل السلطان ، فإنه كان حاضرا هناك ، ونجم الدين بن العسال حاضر ، وكانوا يحضرون عند السلطان ينادمونه فقال : كان السلطان جالسا وقدامه أصحاب

---

(١) « ... ... » ثلاث كلمات مطموسة .

(٢) « ... ... » أربع كلمات مطموسة .

(٣) « ... ... » ثلاث كلمات مطموسة .

(٤) « ... ... » كلمة مطموسة .

الخدمة ، وقد صلى العشاء الآخرة ، وجلس بعض المماليك بين يديه يلعبون بالشطرنج ، وهو ينظر إليهم ، وقد أحضر له مأكول ، فأكل منه ، ثم رفع يده منه ، وطلب الطشت فغسل يده ، وقدم له الجمدار فوطة للمسح ، فأخذها ومسح بها يده ، وكانت الإشارة بين كرجى والمماليك أصحاب النوبة الذين اتفقوا على قتله أن كرجى إذا تقدم إلى الشمعة تكون إشارة إلى الهجوم على السلطان . قال : ولم يشعر إلا وكرجى قد تقدم إليه وضربه على كتفه ، فرفع يده يلتقى الضربة ، فطارت يده وأخذ كرجى النمشة[1] من بين يديه وضربه عند نهضته فقطع مشط رجله ، فوقع وهو يقول : الله ! الله ! ، فأخذته السيوف من كل جانب ، ووقع بعض أطرافه إلى الاصطبل .

قال الراوى : حكى لى أنه[2] قام على قدميه وصار يصيح : لا تفعلوا بسلط ننا ، هذا ما يحل ، ورفع إليه بعض السلحدارية بالسيف ، وقال : اقل بلا فضول ، قال : فسكت ، ولما تحققوا موته[3] خرجوا على حمية ، وفى أيديهم الشموع ، ونزلت مماليك الأطباق ، واجتمع الأمراء الذين داخل باب القلة ، وفتحوا باب القلة وخرجوا ، فوجدوا الأمير طقجى جالسا على باب القلة فى انتظارهم ، هو وخشداشيته ، فتلقاهم ، وتباشروا بما حصل لهم من الظفر ، ثم أرسلوا وطلبوا بقية الأمراء المقيمين بالقلعة ، فجاءوا أولا فأولا ، وبسطوا من باب القلعة بسطا ، وأوقدوا شموعا ، ووقع الصوت فى نواحى القلعة بأن السلطان قتل .

---

(١) نمشة ، ونمشا ، ونمشاه = نمجه ، نمجا ، ونمجاه ، لفظ فارسى يعنى الخنجر المقوس الذى يشبه السيف القصير — السلوك جـ ١ ص ٨٥٧ هامش (١) .

(١) المقصود قاضى القضاة حسام الدين الرازى .

(٢) أى موت السلطان .

وكان منكوتمر يتحدث فيما يتعلق بالأمراء المجردين[1]، فلم يشعر إلا وقد دخل مملوك وهو يقول: يا خوند، اسمع هذه الضجة فى القلعة، فنهض وقام إلى الشباك[2] فرأى باب القلعة قد انفتح، وخرجت الأمراء، والشموع توقد، والضجة قد ارتفعت، فقال: والله فعلوا، وأشار إلى مماليكه أن يغلقوا الأبواب، ويلبسوا، ويتحصنوا.

ثم قال كرجى للحسام الأستاذ دار: نقوم إلى دار منكوتمر ونحرقها إلى أن نخرجه، فقال له الحسام: يا أمير ما يحتاج، أنا أروح إليه وأخرجه، ومشى إلى أن وصل إلى الباب فوجد المماليك قد لبسوا واعتدوا للقتال[3]، فعرفه نفسه، وقال: قولوا للأمير سيف الدين يكلمنى، ففتح الشباك، فسلم على منكوتمر وعرفه بما جرى من قتل السلطان [١٦٧] وما ذكره كرجى من إحراق بيته، فصار يتلطف به حتى أذعن لخروجه على شرط أن يشفع الأمراء فيه، فخرج وقد شد وسطه بمنديل، ومشى صحبته إلى أن وصل إلى باب القلة، فوجد سائر الأمراء جلوسا والأمير طقجى جالس مكان النيابة، فلما رأوه قاموا إليه وتلقوه، فأخذ يد طقجى وباسها، فقام إليه وأجلسه إلى جانبه، وشرعت الأمراء مع الأمير حسام الدين الأستاذ دار يترققون السؤال لطقجى أن يلطف بأمره مع كرجى ويسأله فى إبقاء نفسه عليه، فأجاب إلى ذلك.

---

(١) كان كل من السلطان ومنكوتمر ينتظر أن يرد خبر الأمراء المجردين، وهل قبض عليهم أم لا - انظر ما سبق، والسلوك جـ ١ ص ٨٦٣.

(٢) المقصود شباك دار النيابة - السلوك جـ ١ ص ٨٥٧.

(٣) « رأى مماليكه فصار فى أربعمائة ضارب سيف وأزيد » فى السلوك جـ ١ ص ٨٥٨.

وكان كرجى فى ذلك الوقت غير حاضر، واتفق الحال أن يكون منكوتمر فى الحبس إلى حين حضور كرجى، ثم يسألونه فيه، وأرسلوه مع جماعة إلى الجب بالقلعة، وكان فى الجب جماعة من الأمراء منهم الأمير شمس الدين الأعسر، والأمير عز الدين الحموى نائب الشام، فلما نزل منكوتمر عندهم عرفوه، وقالوا: كيف جئت عندنا؟ فقال لهم: إن السلطان غضب عليه لأمر بلغه عنه وحلف أنه لا بد من حبسه، فأمسكوا عنه، وقصد الأعسر أن يوقع به فى ذلك الوقت، فمنعه الحموى من ذلك، ورجوا أن أستاذه يرضى عليه ويكون هو الواسطة فى أفراجهم عن الحبس.

ولم يلبث فيه يسيرا إلا وقد أرخوا القفة التى كانوا قد نزلوه بها وصاحوا من رأس الجب على منكوتمر بالصعود، فقاموا إليه وأكرموه، وهم يظنون أن القول الذى ذكره لهم صحيح، فلما أخرجوه وجد كرجى واقفا ومعه جماعة من المماليك السلطانية، فلما وقع نظره عليه أخذ يسبه ويهينه، فلم يلتفت إليه منكوتمر، بل كلمه بعزة نفس لأنه تحقق أنه لا يبقى عليه، فضربه بدبوس حديد كان فى يده ورماه إلى الأرض، ثم ذبحه بيده على باب الجب، وتركه ومشى إلى الأمراء.(١)

وكانت الأمراء سألوا كرجى أن يبقى عليه قبل مجيئه إلى الجب. فقال لهم: إن السلطان ما عمل معى سوءا، بل والله أحسن إلى غاية الإحسان فكبرنى وأنشأنى،

---

(١) « ثم إن كرجى أحرق باب منكوتمر، ودخل قبض عليه، وتوجه به الى الجب الذى كان بالقلعة، يسجن فيه الأمراء، وكان فى هذا الجب جماعة من الأمراء مسجونين، وكان منكوتمر سببا لقبض عليهم، فلما عاينوا منكوتمر قاموا اليه وقتلوه أشر قتلة » ــ فى بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٣٩٩.

وإنما قتلته حتى أبلغ مرادى من منكوتمر، ما أحليه[1] فى الدنيا ، ولو علمت أنى إذا قتلت منكوتمر يخليني السلطان بعده بالحياة لما قتلته ولا شوشت عليه .

وقال بعض الرواة : كان السلطان لاجين يوم الخميس صائما فأفطر ليلة الجمعة . ولما كان بعد صلاة العشاء الآخرة دخل عليه الأمير سيف الدين كرجى مقدم البرجية ، وكان السلطان يلعب بالشطرنج وعنده قاضى القضاة حسام الدين الرازى الحنفى[2] ، وكان كرجى قد اتفق مع نغاى الكرمونى سلاح دار[3] السلطان ، وكان صاحب النوبة تلك الليلة . فقال السلطان : يا أمير كرجى ما عملت ؟ فقال : بيّتُّ البُرجية وغلقت عليهم ، وكان قد أوقف أكثرهم فى دهليز الدار ، فشكره السلطان وأثنى عليه للحاضرين ، وقام يصلح الشمعة والنمجاة[4] إلى جانبها ، فرمى عليها فوطة ، وقال للسلطان : ما تصلى ؟ فقال السلطان : نعم ، فقام ليصلى فضربه بالسيف على كتفه ، فطلب السلطان النمجاة فلم يجدها ، فقام من هول الضربة ، فمسك كرجى ورماه تحته فخطف نوغاى الكرمونى النمجاة وضرب بها السلطان على رجله فقطعها [١٦٨] ، فانقلب السلطان على ظهره قتيلا يخور فى دمه ، فصاح القاضى حسام الدين فأرادوا قتله ، ثم أمسكوا عنه وتركوه مع السلطان وأغلقوا عليهم الباب[5] .

---

(١) « ما خليه » فى الأصل .

(٢) « وعند السلطان قاضى القضاة حسام الدين الحنفى ، وابن العسال المقرى، والسلطان لاجين يلاعب ابن العسال بالشطرنج » — فى كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٧٨ .

(٣) « سلاح الدار » فى الأصل .

(٤) النمجاه : خنجر مقوس يشبه السيف القصير — انظر ما سبق عن عنه ، السلوك جـ ١ ص ٨٥٧ هامش (١) .

(٥) انظر أيضا النجوم الزاهرة جـ ٥ ص ١٠١ — ١٠٢ .

قال القاضى : كنت عند السلطان فما شعرت إلا وستة أسياف نازلة على السلطان ، وهو منكب على لعب الشطرنج ، فقتلوه .

وكان رؤوس الذين اتفقوا على قتله طقجى ، وكرجى ، ونوغاى ، وقراطرنطاى ، وبجك ، وأرسلان ، وأقوش ، وبيلبك الرسولى .

ذكر ترجمة السلطان لاجين[1] :

كان أصله من مماليك السلطان الملك المنصور نور الدين[2] على بن السلطان الملك المعز أيبك التركمانى .

قال صاحب النزهة : حكى لى بعض الخدام المعزية أن قطز لما كان نائب نور الدين على المذكور أشترى لاجين وهو صغير للسلطان ، ثم لما تسلطن قطز والتقى بالتتار على عين جالوت وكسرهم وعاد إلى الديار المصرية ، قتل قريبا من الصالحية وتسلطن بعده الظاهر بيبرس ، ولما تسلطن بيبرس شيّع أولاد الملك المعز إلى بلاد الاشكرى وبقيت من جماعته بعض المماليك ، وكان لاجين هذا منهم ، فشرعوا فى بيعهم ، فاشتراه قلاون مع مملوكين آخرين ، وبقى عند قلاون إلى أن تسلطن ، فجاء إليه تاجره وادعى أنه لم يقبض ثمنه عند بيعه ، فنودى عليه ثانيا واشتراه قلاون شراء ثانيا صحيحا بثلاثة آلاف درهم ، وكان

---

(١) وله أيضا ترجمة فى المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ١٤١ ، نهاية الأرب ــ مخطوط جـ ٢٩ ورقة ١٠٣ وما بعدها ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٨٥ ــ ١٠٩ ، ص ١٨٢ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٣ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٤٠ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢١١ ، بدائع الزهور جـ ١ ق ١ ص ٤٠٠ ، المواعظ والأعتبار جـ ٢ ص ٢٣٩ .

(٢) انظر ما سبق بالجزء الأول من هذا الكتاب ص ١٢٣ وما بعدها .

فى مماليك قلاون مملوك اسمه لاجين وكان من أكابر مماليك قلاون ، فلما اشترى لاجين هذا قالوا له : لاجين الصغير ، وكان بعضهم يسميه لاجين شقير لأنه كان أشقر أزرق العينين معرق الوجه طويلا ، وذكر أنه كان جركسى الجنس ، وكان شجاعا مهيبا ، موصوفا بالشجاعة والإقدام ، وفيه دين وعقل ، وكان يلعب بالرمح ويرمى بالنشاب فى غاية الاتقان ، وظهرت له أمور من الشجاعة والإقدام فى وقائع كثيرة خصوصا فى نوبة أخذ طرابلس ، وكان يصطلى الحروب بنفسه ، ومما يدل على إقدامه ركوبه على الملك الأشرف وقتله ، ثم ركوبه على السلطان الملك العادل كتبغا وقتل مماليكه .

وذكر عن القاضى حسام الدين الحنفى[1] أنه لما بلغه تجهيز قازان لغزو بلاد الإسلام شاهده مرارا يصلى ويقف على قدميه ويكشف رأسه ويسأل الله أن يطيل عمره حتى يلتقى مع قازان وجيشه . قال : فقلت له ليلة : يا خوند كيف يكون عزمك إذا صح أمر قازان ؟ قال : يا قاضى حسام الدين كنت أُختارُ من عسكر مصر ألفى فارس ممن أعرف فيه النجابة والفروسية ، وأَصدُم قازان حيث كان ، ولو كان فى عشرين ألف فارس ، ويعطى الله النصر من يشاء ، ولكن أنا خائف أن يدركنى الأجل قبل لقائه قال : قلت له : ياخوند الأعمال بالنيات .

وذكر فى السلطان أنه لما كان نائبا بالشام كان فى عنفوان شبابه ، وكان مشغولا بلذة العيش فى اللهو والشغف بالشراب ، وكان يعايش كبراء دمشق

(١) هو الحسن بن أحمد بن الحسن بن أنوشروان ، قاضى القضاة حسام الدين الحنفى ، المتوفى سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م - المنهل الصافى ؛

ورؤسائها ، ويتخذ لهم المجالس ، وينعم ويهب ، وكانت له مكارم كثيرة على أهلها ، فلذلك أهل الشام كانوا يحبونه ويتعصبون له .

ومن كثرة انهماكه على الشراب واللهو والطرب [١٦٩] بلّغ الشجاعى خبره إلى السلطان الملك المنصور وعرفه أنه هتك حرمة السلطان بسبب معاشرته مع عامة دمشق وانهماكه على الشراب ، فغضب السلطان عليه ، وعرف الأمير حسام الدين النائب مانقله الشجاعى عنه ، فأخذ حسام الدين يرد عنه ويكذب الشجاعى ويقول : إنه صاحب غرض ، ثم أمر السلطان بأن يكتب إليه كتاب ، فكتب كتاب فيه توبيخ وتهديد ونهاه عن الشراب والمعاشرة مع أطراف الناس ، وكذلك كتب إليه الأمير حسام الدين طرنطاى ، فلما وقف على الكتابين قلل ما كان يرتكبه ، وصار يقضى كثرة أوقاته فى الركوب إلى الصيد ونحوه ، ويغيب فى ركوبه شهرا وشهرين ، ويصحب معه الملاهى ، وقطع على هذا لذة عظيمة من العيش ، ولما كثر عليه العتب من السلطان وَبّخه طرنطاى وسدّ خاله إلى أن ترك ذلك كله .

وكانت أيامه من أحسن ماتكون من العدل والإحسان إلى الرعايا ، وكان دينا خيرا ، مشفقا ، كثير الصوم والعبادة ، وقطع أكثر المكوس ، وقال : إن عشت لاتركت مكسا واحدا ، ولكن نائبه منكوتمر كان على خلاف ما ذكر ، وكان يعمل ما يختاره ، فوقع فى دولته الفساد وكان ما كان .

وكانت مدة مملكته سنتين وثلاث شهور ، وقيل : ثلاث سنين وشهرين ، وقيل ، ثلاث سنين وستا وعشرين يوما ، والأول أصح [1] ، وكان عمره لما قتل

(١) انظر أيضا الجوهر الثمين ص ٣٢٧ .

نحو خمسين سنة .

وقال صاحب النزهة : حكى لى بيجان مملوك الأمير شمس الدين قراسنقر حكاية غريبة اتفقت لأستاذه مع السلطان لاجين، وهى أنهما بعد قتل الأشرف خليل بن قلاون لما هربا ودخلا القاهرة ، واختفى كل منهما فى مكان، فاختفى شمس الدين قرا سنقر فى حارة بهاء الدين ، واختفى لاجين فى مأذنة جامع ابن طولون — على ماذ كرنا فيما مضى(١) — رأى قرا سنقر مناما عظيما فى حق لاجين ، فلما أجتمعا وهما مختفيان قال له قراسنقر : يا أشقر والله لقد رأيت رؤيا عظيمة ، ولكن أخاف إذا قصصتها عليك تطمعك نفسك وتغير نيتك وتغدر بى . فقال لاجين : لايكون ذلك إن شاء الله ، فآخر الأمر أحضرا مصحفا شريفا وتحالفا ، وأكدا اليمين أن أحدهما لايخون الآخر، ثم شرع قرا سنقر فقص المنام وقال : رأيتك راكبا وبين يديك خيول معقودة الأذناب مضفورة المعارف(٢) ، مجللة الأرقاب(٣) على عادة مراكيب الملوك . قال : ثم نزلت وجلست على منبر وأنت لابس حلة الخلافة ، وطلبتنى فأجلستنى بالقرب منك على ثالث الدرجات ، وشرعت فى الحديث معى ، ثم رفصتنى برجلك ، فوقعت من المنبر ، فاستيقظت عند وقوعى : وهذا يدل على قربى منك، ثم يجرى على أمر من جهتك ، ثم قال : يا أشقر النحس أنا والله حلفت وحلفتك فما أدرى هل تثبت على يمينك أم لا ؟

(١) انظر ماسبق ص ٢١٤ وما بعدها .

(٢) أى أن معارف الخيول كانت منسوجة كل خصلة على حدتها — محيط المحيط .

(٣) « مجللة بالرقاب الذهب » فى السلوك ج ١ ص ٨٦١ .

وبقي الأمر على هذا إلى أن تسلطن لاجين واستناب قرا سنقر ، ثم قبض عليه ؛ ولكن أخلى له مكانا فى بعض القاعات وأكرمه فى محبسه ؛ وأوصى أن تعمل له أطعمة مفتخرة ، ولا تقطع من عنده فاكهة ، ولا حلاوة ، وكل مايختاره من الأشياء المستطرفة ؛ [١٧٠] والمراسلات بينهما لا تنقطع ، وكل وقت كان قرا سنقر يسير إليه ويذكر له المنام المذكور ويسأل منه أن يجعل بشارة المنام الإفراج عنه وإرساله إلى أى مكان يشاء السلطان ، وفى أثناء ذلك كان يُذكِّرُه الأيمان المؤكدة بينهما ، وكان السلطان كلما سمع من ذلك تبسم ويبعث إليه السلام ويقول له : مابقى إلا قليل .

وتمادى الأمر على ذلك إلى ليلة الجمعة التى قتل فيها السلطان ، فأرسل إليه السلطان السلام ومعه فاكهة ، وقال للرسول : قل للأمير شمس الدين إنى اشتهيت بسلة بلحم قديد ، ولا آكلها إن شاء الله إلا وأنت معى ، فلما سمع قرا سنقر بذلك استبشر وفرح غاية الفرح ، ولما كانت ليلة قتله أرسل إليه بسلة مطبوخة ، واعتذر بأنه صائم ولا يمكنه أن يفطر على بسلة ، وفى الجمعة الأخرى تكون عندى إن شاء الله ، فلما سمع قرا سنقر ذلك أرسل إليه إنى منتظر لرؤيته ولو ساعة واحدة أو بكلمة واحدة ، فإن فى خاطرى أن أراه قبل الموت ، ولما سمع السلطان ذلك تبسم وقال للقاصد : اذهب إليه وسلم عليه ، وعرفه أنه لا يجمعنى وإياه إلا يوم القيامة ، فلما ورد إلى قرا سنقر ذلك قال : لاحول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، وقتل السلطان فى تلك الليلة .

وحكى مجد الدين الحرمى وكيل بيت المال[1] قال : كان السلطان متزوجا

(١) « وكيل بيت المال المعمور ووصى بيت الملك الظاهر » فى كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٧٩ .

بنت الملك الظاهر [بيبرس][1]، وكانت دينة عفيفة ، فحكت أنها رأت فى المنام ليلة الخميس قبل قتل السلطان بليلة كأن السلطان جالس فى المكان الذى قتل فيه ، وكان عدة غربان سود على أعلى المكان ، وقد نزل منهم غراب فضرب عمامة السلطان فرماها عن رأسه وهو يقول : كرجى كرجى مرتين ، فلما أصبحت ذكرت ذلك للسلطان وقالت له : أقم الليلة عندنا ، فقال : ماثم إلا مايقدره الله تعالى . ذكر هذا النويرى فى تاريخه[2] .

وذكر صاحب النزهة : أن زوجة السلطان أرسلت خادمها وراء علاء الدين ابن الأنصارى ، وكان له علم فى تفسير المنامات ، لأجل تفسير رؤيا رأته . فقال علاء الدين : إنى ضعيف لا أقدر على الطلوع إلى القلعة ، ولكن قل لها : تكتب المنام فى الورقة وأنا أرد الجواب عنها ، فعاد الخادم إلى الخاتون وأخبرها بذلك ، فأرسلت إليه ورقة مكتوب فيها أن الخاتون رأت السلطان جالسا وهى إلى جانبه وإذا بطائر يشبه العقاب انقض عليه واختطف فخذه الأيسر وطار به إلى أن طلع من دور القاعة ، وطائر آخر قاعد على خشب دور القاعة فى حلية الغراب وهو يصيح كرجى كرجى كرجى ثلاث مرات ، فلما وقف عليها علاء الدين قال : أيها الخادم هذا لايفسر إلا بعد ثلاث جمع . قال : وقصدت بذلك التسويف إلى أن تنقضى إما ثلاثة أيام أو ثلاث جمع أو ثلاث شهور ، وعلمت أنه يظهر مر منامها عن قريب ، فوقع قتله ثانى ليلة الرؤيا[3] .

(١) [ ] إضافة للتوضيح — النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٠١ .

(٢) انظر أيضا النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٠١ ، كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٧٨ — ٣٧٩ .

(٣) انظر أيضا السلوك جـ ١ ص ٨٦٢ .

ذكر قتل منكوتمر وترجمته[1] :

قد ذكرنا أن كرجى هو الذى قتله ، وأن طقجى ومن معه لما قتلوا السلطان أتوا إلى دار منكوتمر فدقوا عليه الباب وقالوا له : السلطان [١٧١] يطلبه ، فأنكر حالهم ، وقال : إنكم قتلتم السلطان ، فقال له كرجى : نعم يا مأبون ، وجئنا نقتلك ، فقال منكوتمر : أنا فى جيرة الأمير سيف الدين طقجى ، فأجاره ، وحلف له أن لا يؤذيه ، ولا يمكن أحدا من أذيته ، ففتح باب داره ، وتسلموه ، وذهبوا به إلى السجن ، كما ذكرنا مفصلا[2] ، ثم اغتنم كرجى غيبة طقجى وأخرجه من السجن ، فذبحه من أذنه إلى أذنه ، وأصبح كما قال الشاعر :

ومن يحتفر فى الشر بئرا لغيره ... يبيت وهو فيها لامحالة واقع

وكان منكوتمر مملوكا من أحسن الأشكال ، وأكمل صفات الحسن ، وكان لاجين ممن يثق به ، ويعتمد عليه فى سائر أموره ، ولما ولى الملك ولاه النيابة كما ذكرنا ، وسلم إليه مقاليد الأمور ، فتعاظمت نفسه ، وساءت أخلاقه ، ونفّر منه النفوس ، وعافته الأمراء وأرباب المناصب والكتاب ، وأكبر ذنوبه عند الخاصة والعامة والذى أورث له « ... »[3] منهم عند عمل روك البلاد ، فإن السلطان

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ١٣٢ ، المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢٨٧ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٠١ — ١٠٣ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٤٠ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢١٣ .

(٢) انظر ما سبق ص ٤٢٧ ومابعدها .

(٣) « ... » كلمة مطموسة .

قصد بذلك إصلاح أرزاق الجند ، فرجعه عن قصده ، ونقص أخبازهم ، وتولى تفريقها ، وكان يجلس فى شباك دار النيابة و يفرق المثالات ، وهو مولى الوجه ، ظاهر الغضب « ... ... »[1] فلم يكن أحد يجسر أحد[2] على كلمة بين يديه من خير أو شر .

وكان السلطان قد كَبَّر كرجى وقَرَّبه ، وجعله مقدما على المماليك السلطانية ، وكان كلما حضر عند منكوتمر من عند السلطان فى رسالة لا[3] يأخذها منه بقبول ، ويولى وجهه عنه ، فإذا جاوبه ، جاوبه بكلام غليظ منكر . وما سمع أنه دخل إليه فى شفاعة وقبلها منه ، ومازال يسعى عليه وعلى طقجى إلى أن وافق السلطان على إخراجهما إلى الشام ، فوقفت الأمراء ومنعوه من ذلك ، كما ذكرنا[4] ، وكان قصده إبعاد هؤلاء من عند السلطان ، و إنشاء قوم من حاشيته وجهته .

وكذلك كان قصده فى نواب البلاد ، فأوقع ذلك فى قلوبهم حزازات لايحصى عددها ، ونارا تتلظى ولايسكن وقودها ، ولايمكن خمودها ، حتى جرى ما جرى .

ذكر تدبير كرجى :

ولما جرى ما ذكرناه من قتل السلطان ، ونائبه منكوتمر إجتمعت الأمراء للشورة والتحدث فى الأمور بينهم لسيف الدين طقجى ، وسيف الدين كرجى ، وأول ما بدأوا فيه أن سيروا البريد إلى الشام وحلب ، وكتبوا إلى النواب عما

(١) « ... ... » كلمتان مطموستان .
(٢) هكذا بالأصل ، كلمة « أحد » مكررة .
(٣) « لم » فى الأصل .
(٤) انظر ما سبق ص ٤٢٢ وما بعدها .

جرى من الأمور ، وعرفوا نائب حلب الطباخي بأنهم قضوا الشغل الذي وقع عليه الاتفاق ، وأمروه بأن يقبض(١) على أيدغدي شقير الذي كان قصد منكوتمر أن يجعله نائب حلب ، ويقبض(٢) على جاغان الذي هو نائب الغيبة في الشام ، وهو الذي كان قصد منكوتمر أن يجعله نائب دمشق عوض سيف الدين قفجق . ويقبض(٣) أيضا على حمدان بن صلغاي الذي أرسله السلطان إلى النواب ، كما ذكرنا ، ويقبضوا جميع الأمراء الحسامية .

وجعل الأمراء يحضرون كل يوم ، ويجلسون على باب القلة ، ويجلس الأمير طقجي مكان النائب ، والأمراء الكبار في الميمنة والميسرة ، ويمد سماط السلطان كما هي العادة .

ووقعت المشورة بينهم في أمر السلطان الذي يولى عليهم ، فاتفقوا على إحضار الملك الناصر من الكرك ، وإجلاسه [١٧٢] على التخت .

والأمراء الكبار بالقلعة يومئذ الأمير سيف الدين سلار ، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، والأمير حسام الدين [لاجين](٤) الرومي أستاذ الدار ، والأمير عز الدين أيبك الخازندار ، والأمير بدر الدين عبد الله السلحدار ، والأمير سيف الدين كرد(٥) الحاجب ، وطقجي في مكان النائب ، والأمراء حوله ،

(١) « بأن يقبضوا » في الأصل .

(٢) « ويقبضوا » في الأصل .

(٣) « ويقبضوا » في الأصل .

(٤) [ ] إضافة للتوضيح من السلوك جـ ١ ص ٨٦٥ .

(٥) « كرت » في السلوك جـ١ ص ٨٦٥ .

وديوان الجيش قدامه ، وهـو يأمر وينهى معتقدا أن الرقاع قـد خلت ، وأن البياذق قد تفرزنت [1] .

ولما اجتمعت آراؤهـم على إحضار الملك الناصر من الكرك ليجلس فى السلطنة ، لأنه صاحب البيت ، وابن صاحبه ، ووارث ملك أخيه وولده .

فقام كرجى بينهـم يتكلم ، فقال اسمعـوا له ، وقال : يا أمراء ! أنا الذى قتلت السلطان لاجين ، وأخذت ثار أسـتاذى ، والملك الناصر الذى فى الكرك صغير ولا يصلح أن يكون سلطانا ، وما يكون سلطان إلا هذا ، وأشار إلى الأمير طقجى ، وأكون أنا نائبـه ، فأنا ما فعلت الذى فعلت إلا أن أكون أنا وهـو هاهنا ، والذى يقول غير هـذا يقول قُدّامى ، فلم يقدر أحد من الأمراء أن يردّ عليه الجـواب ، فسكتوا عن آخرهم ، وبـقى كل واحد ينتظر جواب غيره ، فأجاب الأمير سيف الدين كرد الحاجب وقال : ياخوند الذى فعلته أنت قـد علمه الأمراء ، وخاطرت بنفسك ، ومهما أردت ما ثم من يخالف ، وانفـض هذا المجلس على أن موافقة الأمراء على ما يختاره .

وفى ذلك اليوم وقعت بطاقة الأمير بدر الدين أمير سلاح ، وصحبته الأمراء المجردة ، وهى من أيام لاجين ، كما ذكرناه ، بأنهـم قد وصـلوا إلى الصالحية ، قصد الأمير حسام الدين الأسـتاذ دار وكرد الحاجب إلى خدمة كرجى ، وقالا له : إن الذى اخترته قد حصل ، ولم يبق غير حضور هذا الرجل الكبير العقـل ، وهو موافق لنا فى كل ما تختاره ، وانقضى الأمر على هذا .

---

(١) انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢١٢ أ .

ثم كتب الأمراء الكتب فى الليل إلى خشداشيتهم من الأمراء الواصلين، وعرفوهم بجميع ما جرى، وأن كرجى وطقجى قد قويت شوكتهما، وأرادا أن تكون السلطنة لطقجى والنيابة لكرجى، ووقع اتفاقنا معهما على ذلك من غير اختيار منا. وإنما أكرهانا على ذلك، وعرفوهم أن يأخذوا حذرهم، ويعملوا فى رأيهم على الأمير بدر الدين أمير سلاح، ويتقيدوا برأيه فى جميع ما يرمم به، وأنهم منتظرون ما يرى فى أمرهم وأمر الأمراء الذين بمصر، إن الأمراء المجردين إذا وصلوا إلينا يقوى أمرنا، ويشتد قلبنا.

ووقع الاتفاق أيضا من كرجى وطقجى وشاورشى والمماليك الأشرفية أن يكون كلهم يد واحدة، وتكون كلمتهم متفقة على أن تكون السلطنة لطقجى، والنيابة لكرجى، وعينوا لجماعة من حاشيتهما بإمريات وإقطاعات، واتفقوا على أن أحدا منهم لا ينزل من القلعة، ولا يلتقوا ببدر الدين أمير سلاح، ولا الأمراء المجردين الذين معه، وأن يظلوا مقيمين بالقلعة إلى حين طلوع الأمراء، ثم يتفقون عليهم، ويفعلون ما يختارونه.[1]

فبقى الأمر على ذلك إلى أن وصلت [١٧٣] العساكر إلى بركة الحجاج وكان ذلك فى النصف من شهر ربيع الآخر من هذه السنة.

ذكر قدوم الامراء المجردين ومقتل طُقجى[2]:

لما وصلت العساكر إلى بركة الحجاج، ودخل بعضهم المدينة، شرعت

(١) انظر أيضا السلوك جـ ١ ص ٨٦٧.

(٢) هو طقجى أو طغجى بن عبد الله الأشرفى، الأمير سيف الدين.
وله أيضا ترجمة فى: المنهل الصافى، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٨٣، السلوك جـ ١ ص ٨٦٨، المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٩٧.

الأمراء المقيمون بمصر فى تجهيز الملاقاة ، وشاوروا طقجى وكرجى فى ذلك .
فقال كرجى : نحن ما عندنا أحد ينزل إلى ملتقى أحد ، وكل واحد منهم يدخل إلى بيته ، ثم إذا أصبح يطلع إلى قلعة السلطان ويلبس خلعته ، ثم يروح إلى بيته وبعد ذلك ندبر ما نفعله ، فقامت الأمراء على ذلك وتفرقوا .

ثم اجتمع الأمير سيف الدين كرد الحاجب بالأمير حسام الدين الأستاذدار، وقال : هذا الذى اتفقت الأمراء عليه لا ينفع ،ولما يتم لنا أمر ما دام طقجى وكرجى فى القلعة ، والرأى أن تعلم الأمراء أنهم إذا طلعوا خدمة القصر يوسعون الحيلة فى الحكم عليهما بالنزول والملاقاة بالأمراء القادمين ، فأرسلا لكل أمير مملوكا وأعلما بذلك .

فلما اجتمعوا فى القلعة لخدمة القصر شرع الأمير جمال الدين قتال السبع وحسام الدين الأستاذدار وطغريل البوغاى وتحدثوا مع طقجى وكرجى وقالوا : هذا الأمير بدر الدين أمير سلاح رجل كبير، وأتابك عسكر مصر، وقديم الهجرة، وكان فى الغزاة مع العدو ، وقد أثر فيهم آثارا حسنة ، وفتح إحدى عشرة قلعة ، وله مدة سنة ونصف غائبا هو ومن معه ،فيدخلون مصر ولا يجدون أحدا لاقاهم ولا التفت إليهم ولو كان السلطان فى الحياة خرج بنفسه فالتقاه فأكرمه، ووافقهم سائر الأمراء فى هذا الحديث ، ولم يبق أحد حتى قال : والله هذا هو المصلحة، وكرجى لا يلتفت إلى سماع ما يقولون ، ثم قال : لا ينزل أحد منا إليهم ، فإن أردتم أنتم انزلوا ولاقوهم فإنهم خشدا شيتكم ، وطال شرح الكلام بينهم إلى أن استحى الأمير طقجى وقال لكرجى : قول الأمراء على هذا الوجه هو الصواب، وأنا أركب صحبة الأمراء ومماليك السلطان معى، وتركب بقية العسكر وحدهم،

ويلاقون هذا الرجل ومن معه، وتكون أنت مقيما بالقلعة مع بعض مماليك السلطان إلى أن نلتقى ونرجع ، فإن اختار طلوع القلعة طلعنا معه ، وإن اختار غير ذلك عرفنا قصده وانتظم الأمر على الدول على هذا الوجه .

ثم جلس طقجى وكرجى على باب القلعة وعرضا مماليك السلطان فاختارا منهم أربعمائة مملوك من خيارهم يكونون فى خدمة طقجى ويركبون معه عند نزوله ، ووصاهم أن يكونوا متيقظين على أنفسهم ولا يفارقون طقجى ويحفظونه إلى أن يرجع ، وجهز لهم كرجى من الاصطبل خيار الخيل وخيار المراكيب .

فلما أصبحوا ثانى اليوم[1] ركبت سائر الأمراء ووقفوا ينتظرون ركوب طقجى إلى أن نزل فى عصبة شديدة وموكب كبير ، وكان الأمير سيف الدين كرد الحاجب أيضا راكبا مع الأمراء والجند فى موكب كبير، ولم يبق فى القاهرة أحد من العامة والسوقة إلا وقد خرج للتفرج ، وكان يوما مشهودا ، ثم سارت الأمراء والعسكر كلهم إلى أن التقوا ، وفسح الحجاب طريقا لطقجى ، فساق إلى أن اجتمع بالأمير سلاح ، فتصافحا على الخيل وقبل طقجى يده ، [١٧٤] ومشى إلى جانبه إلى أن وصلوا إلى قبة النصر .

فساق كرد الحاجب من وسط الموكب وقال للأمير سلاح : ياخوند الأمير يطلع إلى القلعة أو يروح إلى بيته ، فقال الأمير سلاح : المرسوم مرسوم السلطان ، وأنا موجوع من رجلى ، فإن رسم بالطلوع طلعت . فقال له كرد : يا خوند وأين السلطان ؟ فقال : ما هذا الكلام ؟ فقال : السلطان — تعيش — قتله

---

(١) « يوم الإثنين رابع عشره (ربيع الآخر) » ــ السلوك جـ ١ ص ٨٦٨ .

الأمير . فقال : من قتله ؟ فقال كرد هذا قتله ، وأشار إلى طقجي[١] ، فلما سمعه طقجي قال : نعم أنا قتلت السلطان ؟ بالإنكار. قال كرد : نعم . قال طقجي : تكذب ، وما خرج الكلام من فمه حتى ضربه بعض المماليك البرجية بالسيف على كتفه ايمين فلم يقطع منه شيئا ، فلما أحس بالسيف ركض فرسه وخرج من الحلقة التي كان واقفا فيها مع الأمراء ، فأشهرت بعد ذلك السيوف ووقعت الضجة والغلبة ، وارتفع الغبار حتى لا يرى بعضهم بعضا .

ورأى كرد الحاجب أن مماليك السلطان داروا بطقجي يحفظونه ، فقال لهم : يا أولادي أنتم نزلتم حتى تقابلون هذا الرجل الكبير أتابك العساكر، وإذا رآكم على هـذا الحال لا يعتقد إلا إنكم نزلتم لأجل قتاله ، فيحصل بذلك فتنة كبيرة ، وما زال يتلطف بهم إلى أن أخرجهم من الحلقة وأوقفهم بمعزل من الناس ، ثم ساق كرد، وجاء إلى الأمير سلاح وقال ياخوند : متى ما وليت عن العسكر ههنا يهلك أهل الإسلام، وكان قد قصد أن يخرج من بينهم ويذهب ، فعند ذلك أمر بأن ينشر سنجقه ويحرك النقارات حربيا ، ولما رأت الناس ذلك اجتمعت المماليك كلها ، وقامت ساق الحروب ، وبقي طقجي وحده وخلفه سلحدار واحد ، ونظر إلى العسكر وقد ضربوا عليه حلقة ، ولم يبق معه أحد من المماليك ، فقصد أن يلتجئ إلى أمير سلاح ويستجير به ، فصادفه قراقوش الظاهري والتزق به ، فضربه بالسيف ، فجاءت الضربة في وسط حنكه، فقطع وجهه قطعتين وفصل

---

(١) ذكر المقريزي عند ذكر ذلك : « فقام عنـد ذلك بكتاش في الركب وقال لطقجي : أنت قتلت السلطان ؟ فقال : نعم ، فقال له بكتاش : تكذب ، فلم يتم قولة تكذب ، حتى جرد قراقوش الظاهري سيفه وضرب على كتف طقجي فلم يؤثر فيه » ـ السلوك جـ ١ ص ٨٦٨ .
وانظر أيضا نهاية الأرب ـ مخطوط جـ ٢٩ ورقة ١٣٣١ .

الحنك من الوجه ووقع إلى الأرض ، واجتمعت عليه الخيل ، فبقى طريحا ، لجاء أمير سلاح ووقف عليه وأمر بأن يُشال على قبر عال ، ويحمل إلى تربته .

قال صاحب النزهة : فرأيته وقد سُلب جميع ما كان عليه ، ولم يجدوا شيئا يحمل عليه غير مزبلة من مزابل الحمامات(١) ، فوضع على بهيمة ، ودارت به الناس إلى أن أوصلوه إلى تربته التى عمرها بجوار اصطبله ومدرسته .

ذكر مقتل كرجى(٢) :

لما قتل طقجى وانهزمت المماليك الذين نزلوا صحبته كانت طائفة منهم هربت نحو القلعة ، وأخبروا كرجى بأن العسكر جميعهم اجتمعوا على طقجى وهم فى قتال معه ، ولم يعرفوا أنه قتل أو بالحياة ، فنهض كرجى من وقته وطلب سائر المماليك السلطانية الذين فى القلعة ، وفتح الزردخاناه(٣) وأخرج منها العدد وآلات الحرب وفرقها ، وأمر بشد الخيل من اصطبل السلطان ، ونزل فى خمسمائة مملوك ، ووقف تحت الطبلخاناه على أنه منتظر خبرا ثانيا ، ثم ترادفت المماليك المنهزمة والذين حضروا مقتل طقجى ، وعرفوا كرجى أنه قتل ، وأن العسكر جميعهم قاصدون إليك ، فوجد لذلك أمرا عظيما [١٧٥] وقوى نفسه على ملاقاتهم بمن معه ، ثم نظر إلى من معه ، فرأى منهم من ينحاز إلى ورائه ، ومنهم من

(١) « وشالوه من هناك بعد ذلك فى مزبلة حمار » — كنز الدرر جـ ٨ ص ٣٨٢ .

(٢) هو كرجى بن عبد الله ، الأمير سيف الدين ، مقدم المماليك البرجية .

وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٣ ، السلوك جـ ١ ص ٨٦٨ ٨٦٩ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٤٠ .

(٣) « الزردخاه » فى الأصل ، والتصحيح من السلوك جـ ١ ص ٨٦٨ .

يلوى عنان فرسه ، وعرف أن الأمر قد انحل ولم يبق معه غير مماليك نفسه ، وأول العسكر قد بدأ وأعلامهم منشورة ، فأثنى عنان فرسه إلى نحو القرافة ، وتبعته الحرافيش وصاحوا عليه ، وكان متولى القاهرة فى ذلك الوقت ناصر الدين الشيخى(١) ، فصادفه وهو طالع من الصليبة وهو سائق ، وقصد أن يرده ، فرجع إليه وضربه بالسيف(٢) ، فخرج فرسه ، وساق إلى أن وصل بساتين الوزير(٣) ، والخيل وراءه أولا فأولا ، وهو يرجع إليهم ويردهم عنه .

وكان كرجى على ما كان عليه من قصر القامة شجاعا ، فارس الخيل ، وقد تعلّم فنون الحرب ، ولم يزل فى مُراددة الخيل الواصلين إليه إلى أن قابله صمغار ابن سنقر الأشقر واصطدم هو وإياه ، فتطاعنا ساعة ، فأدركه محمد شاه المعروف بالأعرج الخوارزمى ، وكان من الفرسان المُجيدين ، وقابله ومازال يتطاردّ معه إلى أن رماه إلى الأرض ، فاجتمعت الجند عليه فذبحوه وأخذوا رأسه وأتوا بها إلى الأمير بدر الدين أمير سلاح والحسام الأستاد دار ، والأمراء وقوف عند الطبلخاناه ، ورموا برأسه بين أيديهم ، ففرحت الأمراء وتباشروا ، ثم تفرقوا ، ورجعت(٤) المجرّدون إلى بيوتهم .

وفى تاريخ النويرى : هرب كرجى حين علم بقتل طقجى ، فلحقوه آخر القرافة فقتلوه هنالك .

(١) « الأمير ناصر الدين محمد بن الشيخى » ــ السلوك جـ ١ ص ٨٦٨ .

(٢) « نضربه كرجى بالسيف » ــ السلوك جـ ١ ص ٨٦٨ .

(٣) « بساتين الوزير على بركة الحبش » ــ السلوك جـ ١ ص ٨٦٨ .

(٤) هكذا بالأصل .

وقال بيبرس : هرب إلى ظاهر مصر فأدركوه عند قبور أهل[1] الذمة ، فقتلوه هناك ، فصرعه بغيه وأهلكه غيه ، ولله أن در القائل[2] :

قضى الله أن البغى يصدع أهله وأن على الباغى تدور الدوائر[3]

---

(١) « أهل » ساقط من زبدة الفكرة .

(٢) « ولله در القائل » ساقط من زبدة الفكرة .

(٣) انظر زبدة الفكرة ــ مخطوط جـ ٩ ورقة ٢٠٢ ب ، وانظر أيضا التحفة الملوكية ص ١٥٤ .

ذكر عود الملك الناصر محمد بن قلاون إلى السلطنة

ولما جرى ما ذكرنا طلعت الأمراء الأكابر إلى القلعة فى ثانى اليوم الذى قتل فيه طقجي وكرجى ، واتفقت[1] آراؤهم على النزول إلى الأمير بدر الدين أمير سلاح وتكون المشورة بحضرته لأجل أمر السلطنة ، فنزلوا إليه وشاوروه فى ذلك ، وأقاموا يترددون إليه يومين والثالث إلى أن اتفقت آراؤهم على أن يسيروا بعض الأمراء إلى مدينة الكرك ليحضروا الملك الناصر منها ؛ ليجتمع شمل أهل الإسلام وتسكن الفتن بينهم ، فإن مماليك السلطان البرجية جميعهم التفت على الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، والمماليك الصالحية والمنصورية وبعض الأشرفية التفت على الأمير سيف الدين سلار الصالحى ، فأرادوا أن يسكنوا خواطر الناس بحضور ابن أستاذهم وسلطانهم ، وأن يحفظوا دولته إلى أن يبلغ مبلغ الرجال ، فاتفقوا على ذلك ، وقصدوا قتل من مسكوا من المماليك الذين شاركوا فى قتل السلطان، ثم أخروا ذلك إلى وقت حضور السلطان من الكرك .

واتفق رأيهم على تسيير الأمير علم الدين [سنجر][2] الجاولى ، والأمير سيف الدين آل ملك الجوكندار ، وجهزوا لهما الهجن وما يحتاجان إليه .

واتفقوا على أن تكون الكلمة بينهم متفقة واحدة ، فكانوا يجلسون ويحكمون وتكتب الكتب بالعلائم ، فأول من [١٧٦] يكتب علامته الأمير حسام الدين

---

(١) « واتفق » فى الأصل .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح ـ السلوك جـ ١ ص ٨٦٩ .

[لاجين[1]] الأستاذ دار ، ثم الأمير عز الدين أيبك الخزندار ، ثم الأمير سيف الدين سلار ، ثم الأمير سيف الدين كرد الحاجب ، ثم الأمير جمال الدين أقوش الأفرم ، ثم الأمير جمال الدين عبد الله السلحدار ، ثم الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير وكانوا إذا كتبوا كتبا لسائر النواب يكتب عن ألسنة هؤلاء الأمراء ويحط كل منهم علامته عليه ، ثم ينزل الجميع يوم الإثنين ويوم الخميس إلى خدمة الأمير بدر الدين أمير سلاح ، ويأكلون على سماطه ، ويستشيرونه فيما يفعلونه ، فإنه كان هو المشار إليه من الأكابر ، وهو الذى سكن الفتنة بينهم فى ذلك الوقت وأشار أن المسلمين لا يسكنون إلا أن تجتمع كلمتهم على ابن أستاذهم ، فإنهم مماليك أبيه وأخيه ، وهو وارث ملكهم ، ومالك عقدهم وحلهم ، وقطع من الجميع علائق الطمع ، وعرفهم أن حضوره وتملكه عليهم أحق وأولى ، وإن كان صغير السن وأنتم تدبرون أمره برأيكم .

ثم كتب كتابا من عنده إلى الملك الناصر ، وكتابا آخر إلى جمال الدين أقوش نائب الكرك وعرّفه ما اتفق من الوقائع فى مصر وأن يجهز السلطان إلى الحضور لملكه .

وكان الأمير عز الدين أيبك الخزندار يجلس مكان النيابة والأمراء دونه .

وكتبوا أيضا كتبا لوالدة الملك الناصر وعرفوها بالوقائع وطيبوا خاطرها ، فأخذ نائب الكرك الكتب ودخل بها عليها وعرفها مضمونها ، فظنت أن هذا مكر من حسام الدين لاجين أراد بذلك إحضار ولدها وقتله ، فأبت وامتنعت ، ولم تعلم أن الإرادة الإلهية حكمت له بالسعادة الطويلة ، ثم إن نائب الكرك قال

---

(١) [ ] إضافة للتوضيح ـ السلوك جـ ١ ص ٨٦٩ .

لهـا : إن امتناعك عن هذا يورث فسادا كثيرا بين المسلمين، ويوقع فتنا وسفك دماء ، وحلف أن هذا الأمر حقيقة ليس فيـه مكر ولاخديعة ، وما زال بها إلى أن أجابت إليه ، وقبلت كلامه ، لمـا كان من سبق إحسانه إليها وإلى ولدها الناصر عند حضورهما إلى الكرك ، وكان كل يوم يمد السماط بين يدى الملك الناصر ويقف هو مكان النيابة ،وراعى ترتيب المملكة معه مدة إقامته فى الكرك إلى حضور الأمراء بطلبه ، ثم شرع فى تجهيزه بمـا يليق به وسافر صحبته إلى أن وصـل إلى مصر ، فلما قرب منها ركبت إليه سائر الأمراء ولاقوه ، فلما وقـع نظره عليهم ترجلوا كلهم وقبلوا الأرض ، وتباشروا بقدومه، وكان يوما مشهودا عظيما، ولم يبق فى ذلك اليوم أحد من الأمراء والمقدمين والجند والعامة إلا وقد خرج إليه ولاقاه ، وعند طلوعه أجلسوه على التخت ، وجلس الأمير بدر الدين أمير سلاح والأمراء الكبار ، وكان دخوله يوم السبت الرابع من جمادى الأول من هذه السنة .

وفى يوم الإثنين السادس[1] من الشهر المذكور حلف له سائر الأمراء ، وعليه خلعة الخلافة[2] ، وهو ابن أربع عشرة سـنة ، وزينت القاهرة ومصر ، ودقت البشائر .

وكان خلو التخت من السلطنة من يوم قتـل لاجين إلى يوم حضور الناصر

---

(١) « السادس عشر » فى الأصل ، وهو لايتفق مـع ما سبق ذكره من أن يوم السبت رابع الشهر ، والتصحيح من السلوك جـ ١ ص ٨٧٢ .

(٢) « وكتب شرف الدين محمـد بن فتح الدين القيسرانى عهده عن الخليفة الحاكم بأمر الله أبى العباس أحمد » ـ السلوك جـ ١ ص ٨٧٢ .

أحدا وأربعين يوما[1] ، وبقى الأمر شورى بين ثمان أمراء لاينفذ أمر إلا بهم ولا يخرج مرسوم إلا [١٧٧] بخطهم أجمعين وهم : بيبرس ، وسلار ، وأيبك الخزندار ، وعبد الله السلحدار ، وبكتمر أمير جندار[2] ، والحسام أستاذ الدار ، وأقوش الأفرم ، وكرد الحاجب .

وقال بيبرس فى تاريخه : ولما استقر الناصر بالقلعة المحروسة استدعى الأمراء الكبار، فحضروا بين يديه، وهم الأمراء المذكورن ، وقال : وبيبرس الدوادار مدون هذه الآثار ، فوقع اتفاق الآراء ، واجتماع الأمراء على أن يستقر الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة ، والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير أستاذ الدار ، والأمير بكتمر جندار ، والأمير سيف الدين قطلو بك حاجبا ، والأمير شمس الدين الأعسر وزيرا ، وفوضت نيابة السلطنة بدمشق الى الأمير جمال الدين أقوش الأفرم ، وأرسل الأمير سيف الدين كرد الى الحصون نائبا ، وأفرج عن الأمير شمس الدين قراسنقر الجوكندار من الاعتقال وأعاده الى ما كان عليه من الإمرة ، وأنفق فى العساكر نفقة عامة ، فسرت به الخاصة والعامة[3] .

---

(١) «فأقام التخت بقلعة الجبل خاليا من سلطان مدة خمسة وعشرين يوما» — السلوك جـ ١ ص ٨٦٩ ، وهو الأصح ، فقد قتل لاجين فى عاشر ربيع الآخر ، وجلس الناصر على التخت فى سادس جمادى الأولى .

(٢) لم يرد اسم «بكتمر أمير جندار» فيما سبق فيمن يكتب علامته على الكتب والمراسيم — انظر ما سبق ص ٤٤٩ — ٤٥٠ ، السلوك جـ ١ ص ٨٦٩ .

(٣) زبدة الفكرة — (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٠٣ أ ، ب ، وانظر أيضا التحفة الملوكية ص ١٥٥ .

وفى نزهة الناظر : أرسل الأمير سيف الدين كرد الحاجب نائبا بطرابلس، عوضا عن الأمير عز الدين الموصلى بحكم وفاته، واستقر سيف الدين قطلوبك حاجبا، عوضا عن كرد، وكان ممن تأمر بدمشق فأخرجه لاجين إلى حلب ثم عاد الى مصر واستقر فيها.

قال : ثم اتفق الحال على كتب الكتب الى سائر النواب الشامية والحلبية وسائر الممالك، وسيروا بها الأمير علاء الدين مغلطاى الدمشقى، ثم اجتمع رأيهم على الافراج عن الأمراء المسجونين وهم : شمس الدين قراسنقر، والأمير سنقر الأعسر، والأمير عز الدين أيبك الحموى، ورسموا أن يكون قراسنقر نائب الصبيبة وأعمالها ؛ وولوا فخر الدين بن الخليلى وزيرا ؛ ثم بعد أيام قليلة عزلوه ؛ وولوا سنقر الأعسر فى شهر رمضان.

ولما وصل الأمير جمال الدين أقوش الى دمشق أفرج عن الأمير سيف الدين جاغان الحسامى وولاه البر.

و وصل كتاب نائب حلب بوصول الأمراء إلى البلاد؛ وفى خدمتهم أمراء المغل.

وذكر ابن كثير أن الأمراء الذين قفزوا إلى قازان إنما كان فى أول هذه السنة، وإنما نحن ذكرناهم فى السنة الماضية نحو ما ذكره بيبرس فى تاريخه[1].

(١) البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢، وانظر ما سبق ص ٣٨٨ وما بعدها.

وورد « وفيها (٦٩٧ هـ) أواخر ذى القعدة هرب الأمير سيف الدين قبجق» — تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢١٠.

ثم ورد « الأمير سيف الدين قبجق بحكم تسحبه إلى بلاد التتار فى شهر ربيع الأول منها (٦٩٨ هـ) — تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢١٣.

وقال ابن كثير : جاءت الكتب إلى نائب الشام سيف الدين قفجق فوجدوه قد قفز(١) خوفا من غائلة لاجين، فسارت البرد وراءه(٢) فلم يدركوه إلا وقد اجتمع(٣) بالمغول عند رأس العين [من أعمال ماردين](٤)، وتفارط الحال [ولا قوة إلا بالله](٥) .

وكان الذى شمر العزم وراءهم ليردهم الأمير سيف الدين بُغَاق، وقام بأعباء البلد لغيبة النائب(٦) نائب القلعة الأمير(٧) علم الدين أرجواش ، والأمير سيف الدين جاغان(٨)، واحتاطوا على من كان له اختصاص بتلك الدولة، فكان منهم جمال الدين يوسف الرومى محتسب البلد وناظر المارستان ، ثم أطلق بعد مدة وأعيد إلى وظائفه ، واحتيط أيضا على سيف الدين جاغان ، وحسام الدين لاجين والى البر ، وأدخلا القلعة(٩) .

وقدم الأمير جمال الدين أقوش الأفرم نائبا على دمشق، فدخلها يوم الأربعاء — قبل العصر — الثانى والعشرين من جمادى الأولى [١٧٨] ، وكان هروب شمس الدين قفجق ومن معه من الأمراء يوم الثلاثاء الثامن من ربيع الآخر(١٠) سنة ثمان وتسعين وستمائة ، وكانوا فى خمسمائة فارس ، وتوجهوا نحو الفرات ،

(١) « نائب الشام قبجق فوجدوه قد فر » — البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٣
(٢) « فسارت إليه البريدية » فى البداية والنهاية .
(٣) « لحق » فى البداية والنهاية .
(٤) ، (٥) [ ] إضافة من البداية والنهاية .
(٦) « لغيبة النائب » ساقط من البداية والنهاية .
(٧) « الأمير » ساقط من البداية والنهاية .
(٨) « جاغان » فى البداية والنهاية .
(٩) البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢ .
(١٠) « وساروا ليلة الثلاثاء من ربيع الآخر » وهكذا دون تحديد — فى السلوك جـ ١ ص ٨٥٤ .

فتبعهم الأمير عز الدين بن « ... ... »[(١)]، والملك الأوحد ليرجعوهم، فلم يقدروا على رضاهم، فرجعوا، ثم توجه أيدغدى شقير وبكتكن من حلب ليدركوهم فوجدوهم قد قطعوا الفرات، وأدركوا بعض أثقالهم فأخذوها ورجعوا، فلما بلغوا رأس عين التقاهم بولاى فى ألف فارس من المغل وأكرمهم وأحسن نزلهم، وكذلك التقاهم صاحب ماردين فأكرمهم وقدم لهم تقادم خوفا منهم أن يبلغوا قازان أنه كان يكاتب صاحب مصر، وأتموا السير حتى عبروا الموصل، ثم توجهوا إلى قازان، وهو مقيم بالأردو من أرض شبت من أعمال واسط، فلقيهم وأكرمهم، وأنعم على كل أمير منهم بعشرة آلاف دينار صرف الدينار عشرة دراهم، وأنعم على مماليكهم كل نفر بألف ومائتى درهم، والمماليك الصغار والغلمان كل نفر بستمائة درهم، وأعطى قفجق همذان فلم يأخذها، كما ذكرنا.

وقال بيبرس فى تاريخه : لما قدم الملك الناصر أشرقت الدنيا بطلعته، وفرحت الخلائق برجعته، وقال الدهر بلسان حاله لا بلسان مقاله :

قد رجع الحق إلى نصابه ... وأنت من دون الورى أولى به
ما كنت إلا كالسيف سلّه ... يد ثم أعادته إلى قرابه

ثم أنفق فى العساكر نفقة عامة، فهو حقيق بقول القائل :

الناصر الملك العالى المنار إذا ... أهل الفخار سموا للجد والجود
الواهب المال لم تعلق بساحته ... إلا يمدّ الأيادى غير معدود[(٢)]

(١) « ... » موضع كلمة غير مقروءة .

(٢) « الإمال عن الأيادي » في زبدة الفكرة .

السابــق الوعْد بالحسنى يقدمها ... فما يحضُّ على إنجاز موعـود
المشــترى بالندى الحمدالثمين فقد ... أضحى بكل لسان عين محمـــود (١)
المشرق الوجه فى ظلمــاء قاتمــة ... والمغــدق الجودفى شهباء جارود
الثـابت الحـزم فى دهياء مظلمة ... والثاقب العزم فى صمّاء صيخـــود
ترب العــلى ابن أبيه سطوة وندى ... أبو الوفود أخو الغر المناجيـــد
أغر يُعرب فى أفعــال نائله الـ ... حُسنى و يعرب عن طيب المواليـــد
زاكى المغارس نهاب الفوارس وهـ ... ـاب النفائس ما شئت بتعريد
ماضى العزائم غفار الجـرائم عقـ ... ـار الكرائم وضّاح النواجيـد
يجود بالأعوجيات الجياد و بالبـ ... ـيض الحـداد و بالسمر الأماليد
و بالظبى والظباء الآنسـات و بالبـ ... ـزل الهجان و بالمهـرية القـود
يا ابن الأولى ملكوا الدنيا فامطرها ... نداهــم الغمر عهدا غير معهود

[١٧٩]

وأوسعوا العـدل أقصاها فمهّدها ... ولم تكن قبلهم دانت لتمهيد
أحييت يا ابن الشهيد الملك مفخرة ... فيــا رضى والد عن خير مولود
وشدت (٢) بيت قلاون فعشت له ... فى ظل ملك على الآفاق ممـدود
أعدت للدولة الغـراء بهجتها ... فالملك كـملك سليمان بن داود
أشرقت كالشمس فى أبراج رفعتها ... فكان عودك عيـدا أيمّا عيـد (٣)

---

(١) « خير محمود » فى زبدة الفكرة .
(٢) « شيدت » فى التحفة الملوكية .
(٣) « وكان عودك فى الأيام كالعيد » فى التحفة الملوكية .
زبدة الفكرة ــ مخطوط جـ ٩ ورقة ٢٠٣ ب ، ٤ ٢ أ ، التحفة الملوكية ص ١٥٥ .

وفى نزهة الناظر: أن السلطان لاجين لما قتل سفر الأمير سيف الدين بُلْغاق من جهة الأمراء بمصر يعلمون الأمير سيف الدين قفجق بالوقائع التى جرت، ويعرفون صحته بالأمارات التى بينهم، ولما وصل إلى دمشق وجده قد قفز هو ومن معه إلى نحو الفرات، ولم يخبر أحدا بما حضر حتى وصل إلى حلب فوجد الأمر قد فات، وكان يوم وصوله إلى دمشق يوم سفر قفجق والأمراء من حمص، فلما وصل إلى حلب وقف نائب حلب على الكتب المكتتبة عن الأمراء، وحكى له بلغاق ما اتفق جميعه، ثم طلب بريديا من أكابر البريدية بحلب يعرف ببلبان القصاص ووعد له بإمرة إذا أدرك الأمراء وأوقفهم على الكتب التى حضرت من مصر، وأمره أن يلحق بهم ولو دخلوا فى البلاد، فركب المذكور من حلب على طريق الفرات، وساق تلك الليلة إلى بكرة النهار، والتقى بأيدغدى شقير وبكتكن وبالوج ومعهم الأمراء الخاصكية وبعض الأمراء المجردين من مصر والشام ممن كان يلوذ بدولتهم، فلما رأوه أراد أن يعرج عن طريقهم أرسلوا إليه من أحضره، فلما رآه أيدغدى شقير قال له: إلى أين قصدت؟ قال: إلى الأمراء الذين قفزوا لعلىّ ألحق بهم. فقال: من سيرك إليهم؟ قال له: نائب حلب. فقال: لأى سبب؟ فأنكره وقال: ما أعرف غير أنه سيرنى إليهم قال: وأين كتابه إليهم؟ فقال: ما معى كتاب ولكن مشافهة، فأنكر أمره وقال للأمراء الذين معه: والله ما قضية هذا بخير، ثم أشار إلى بعض مماليكه أن يؤجل البريدى ويأخذ جرابه، فلما أخذه فتحه فوجد فيه كتب الأمراء وهم يعرفون قفجق بجميع ما اتفق من قتل لاجين ومنكوتمر وما تجدد من الوقائع، وكتب نائب حلب إليهم بأن الشغل قد انقضى وسألهم الرجوع، وترقق لهم فى

القول ، فلما وقفوا على ذلك اتفق رأيهم على أن يطلقوا البريدى من غير الكتب فقال لهم البريدى : إذا قلت لهم هذا الكلام ما يصدقونى وأرد خائبا ، فاستصوبوا كلامه وأعطوه الكتب ، فذهب إلى طريقه .

ثم إن أيدغدى شقير شرع فى خلاص نفسه وكيف يكون حاله مع نائب حلب ومع الأمراء ، وكان قد أساء على نائب حلب والأمراء المجردين ، وعاملهم بالغلظة والكلام الفاحش والحماقة والكبرياء ؛ فإن اتفاق منكوتمر كان معه أنه إذا قضى شغل الأمراء ومسك منهم الذين بينوا له مسكهم فيستقر نائبا بحلب ، وكذلك كان الاتفاق أيضا مع جاغان فى أمره مع نائب الشام قفجق ، فإنه إذا مسك بكتمر السلحدار ومن عينوه بالمسك من الأمراء يكون هو نائب الشام .

ولما تحقق أيدغدى وجاغان وقوع الأمر بلاجين ومنكوتمر خشداشينه ، ووقفا على كتب الأمراء وكتاب نائب حلب علما أن الأمر قد فات وتحيرا فيما يعملان ، ثم قوى أيدغدى شقير عزمه على أن يرجع بمن معه إلى قلعة [١٨٠] تل حمدون ويتحصنون بها ، فلم يوافقه على ذلك بكتمر وقالوا : نحن بين أمرين : إما أن يفتحوا لنا القلعة أو يأبوا ذلك فنكون قد فرطنا فى أمرنا ، والرأى عندى أن نرجع إلى حلب وندخل على نائبها فهو على كل حال ما يرمى جانبنا ويشفع لنا ، والذى قضى الله لابد منه ، فانتظم أمرهم على ذلك ورجعوا قاصدين حلب ، ولما دخلوا على الأمير سيف الدين النائب أقبل عليهم بإقبال حسن ، وأظهر التوجع لهم ، وأمر لكل أحد بأن ينزل فى منزلته[1] .

(١) انظر السلوك جـ ١ ص ٨٧٠ .

وفيها : اتفق بمصر مطر عظيم ، وجاء عقيبه سيل لم يعهد بمصر مثله ، ونزل من صوب المقطم إلى القرافة وأفسد تربا كثيرة ومقابر ودورا وأملاكا ، وعم سائر القرافة ، وكذلك نزل من الجبل الى أن وصل الى باب النصر وأفسد تربا ودورا كانت معمورة مجاورة للزرب .

وفيها : قتل أقطاجى(١) بن طشتمر ابن بنت نوغيه بمدينة كفا ، وذلك أن نوغيه جده لما كسر الملك طقطا(٢) استولى على البلاد ، فأرسل ابن بنته [الأمير أقطاجى هذا](٣) الى بلاد قرم ليجبي المال المقرر على أهلها لأنه وهبها له ، فسار اليها ومعه أمير يسمى الطبرس بن قينو وعسكره مقدار أربعة آلاف فارس ، فدخل الى كفا وهى مدينة الفرنج الجنوية بين اسطنبول وبين القرم ، وطالب أهلها بمال فضيفوه وقدموا اليه شيئا من المأكول وخمرا للمشروب ، فأكل وشرب الخمر وحكم عليه السكر ، فوثبوا عليه وقتلوه ، وبلغ خبر مقتله نوغيه جده ، فأرسل عسكرا كثيفا إلى قرم صحبة ماجى أحد أمرائه فنهبوها وأحرقوها ، وقتلوا من القرم جماعة وسبّوا من كان فيها من تجار المسلمين والفرنج ، وأخذوا أموالهم ، ونهبوا صار ، وكرمان ، وقرق ايدى ، وكرج وغيرها(٤) .

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٢ ص ٥٠١ رقم ٥٠٤ .

(٢) « طقطاى » فى المنهل الصافى .

وهو طقطاى بن منكوتمر بن طغاى بن باطو ، توفى سنة ٧١٦ هـ ١٣١٦ م — المنهل الصافى .

(٣) [ ] إضافة من المنهل الصافى جـ ٢ ص ٥٠٢ للتوضيح .

(٤) انظر زبدة الفكرة — مخطوط جـ ٩ ورقة ٢٠٤ أ .

وانظر أيضا المنهل الصافى جـ ٢ ص ٥٠١ — ٥٠٢ .

وفيها : قتل أباجى بن قرمشى وأخوه قراجين ، وهؤلاء أولاد قرمشى كانوا ثلاثة إخوة من كبار المقدمين وأصحاب التوامين ببلد الشمال ، وكانوا يضاهون نوغيه فى المنزلة والتقدم وعدة العسكر ، وكانوا قد اتفقوا معه على حرب طقطا ، وشهدوه معه وعاضدوه فيه ، فلما استقام لنوغيه الأمر تحكمت أولاده وهم جكا وتكا وطراى ، ولم يحصل لأولاد قرمشى ما كانوا يؤملونه منهم ، فوقع بينهم ، وقصدوا الانفراد عنهم ، وهم أباجى وقراجين وينجى ، ومالوا إلى طقطا ، فبلغ ذلك نوغيه وأولاده ، فجرد أولاده وهم الثلاثة المذكورون ليردوهم ويمنعوهم من الإنحياز إلى طقطا ، والتقى الجمعان واقتتلوا يومهم ذلك ، وحجز بينهم الليل ، فباتوا على تعبئتهم ، فلما جن الليل هرب من عسكر أولاد قرمشى أمير يسمى قطغو مقدم ألف فارس ، وانحاز إلى أولاد نوغيه ، فأصبحوا وقد فقدوه هو وطائفته ، فلم يتقدم أحد من الفريقين لحرب الآخر .

فلما كان المساء أضرم أولاد قرمشى نارا وأزمعوا الرجوع ، فأرسل إليهم أولاد نوغيه ولاطفوهم وخدعوهم وقالوا لهم : ما الحاجة إلى الخلف والحرب ونحن أقرباء وألزام ، والأولى ترك الشنان وتقرير الصلح كما كان ، واستمالوا ينجى وهو الأصغر ، فمال إليهم ، وسألوه يلاطف أخويه ويسألهم فى الموادعة والمسالمة ، فعاد إلى أباجى أخيه وأبلغه مقالتهم ولاطفه فى الاجتماع [١٨١] بهم ، فانقاد إلى كلامه وتوجه بنفسه إليهم .

وأما قراجين أخوه فانه كان أثبتهم جأشا ، وكان متوليا تدبير العسكر ، ولم يتوجه مع أخيه ، فراسلوا والدته فى توجهه ، فأشارت إليه بالتوجه وتقرير الصلح ، فتوجه ، فلما حصل الأخوان أباجى وقراجين عند أولاد نوغيه قتلوهما ، ونهبوا

ينجي بذلك فلم يعاود إليهم ، بل نجا بنفسه ، ونهب أولاد نوغيه ثمانات أباجي وأخيه ، وأتوا على أكثرهم قتلا وأسرا ونهبا ، فقويت شوكتهم وكثرت عساكرهم وانبسطت أيديهم ، واستظهروا حتى على أبيهم [(١)].

وفيها : تواترت الأخبار بحركة التتار وقصدهم بلاد الشام ، فجرد السلطان ، وبرزوا الدهاليز والخيام ، وكان خروجه من قلعة الجبل في الرابع والعشرين من ذي الحجة [(٢)].

قال بيبرس في تاريخه : وأقمت بالقلعة نائبا [(٣)] ، وانقضت هذه السنة المباركة .

وكان السبب لتحرك قازان وعبوره إلى البلاد ما تقدم ذكره من الغارة التي وقعت على ماردين في شهر رمضان من عسكر الشام ، وكانوا أفسدوا فيها فسادا عظيما .

قال صاحب النزهة : أخبرني من حضرها أنهم كانوا يأخذون الولد من حجر أمه ، والولد من كف أبيه ، وكم من حرة كشفوا سترها ، وكم من بكر أخرجوها من خدرها ، وسفكوا دماء كثيرة ، وكان صاحب ماردين على بعض أبراج القلعة يشاهد ذلك ، ولما انفصل أمر الغارة ركب صاحب ماردين إلى قازان واستصحب معه ما يليق لملك مثله ، وكان رجلا معظما عند المغول وسائر ملوكها فلما وصل إليه قربه وأكرمه ، وعرفه صاحب ماردين ما اتفق من سلطان مصر وعسكر حلب ، وما صنعوه في بلاده ، وبكى بين يديه ، فتوجع له قازان وسائر

---

(١) انظر زبدة الفكرة — مخطوط جـ ٩ ورقة ٢٠٤ ب — ٢٠٥ .

(٢) السلوك جـ ١ ص ٨٧٩ .

(٣) انظر أيضا السلوك جـ١ ص ٨٧٩ ، زبدة الفكرة مخطوط — جـ ٩ ورقة ٢٠٥ أ ؟

الخواتين وأكابر المغول، وصار قازان يكرر ويقول : هذا فعلوه فى شهر رمضان ! وأين الإسلام مع هؤلاء القوم ؟ وأخذ يتعجب من فعلهم فإنه كان قريب العهد بالإسلام ، فعند ذلك طلب قازان من القضاة والعلماء بتبريز وعرفهم بما صنعوا من الفسق وشرب الخمر فى شهر رمضان ، وسألهم أن يفتوه فى أمر قتالهم أو الغارة على بلاد الشام، فأجابوا بأن مثل هذا لا يثبت بكلام فرد شخص وخصوصا فى مثل ذلك ، وربما يكون لهم جواب فى ذلك ، فشرعوا فى البحث فى هذا الأمر إلى أن اتفق رأيهم أن يسيروا رسلاً إلى صاحب مصر ويذكرون له ما وقع من هذا الأمر فى مثل هذا الشهر الشريف ، وما ارتكبوه من المعاصى ، وطيبوا خاطر صاحب ماردين ووعدوا له بنصرته والقيام فى حقه وردوه إلى بلده مكرما ، ثم اتفق بعد ذلك دخول قفجق نائب الشام بمن معه من الأمراء إلى بلادهم ، ولما اجتمعوا بقازان حرضوه على العبور إلى بلاد الشام ، وكان عنده عزم من ذلك فقوى عزمه على ذلك ، وكتب إلى سائر النواب والولاة بتجهيز العساكر إلى أردو ، وتواترت الأخبار بذلك فى مصر ، واجتمعت الأمراء ، وأمروا للعسكر بتجهيزهم ، وكتبوا الكتب بتجهيز الإقامات فى المنازل ، وما انسلخ شهر ذى الحجة من السنة المذكورة إلا والعسكر قد خيمت ، ثم رحلوا وأرسلوا الرد إلى نائب الشام بأخذ الأهبة والتجهيز للسلطان ، ولما وصلت العساكر إلى غزة أقاموا أياما ينتظرون ما يرد من الأخبار .

ذكر وقعة الأُوَيْراتيّه والسبب لخروجهم [١٨٢] عن الطاعة :

قد ذكرنا أن أمراءهم وكبراءهم قتلوا فى الدولة الحسامية لكونهم سببا فى الركوب على الملك العادل كتبغا لميله إليهم لكونهم من جنسه ، فالبقية منهم

لما رأوا البرجية فى السعادة الوافرة والسيادة العظيمة حسدوهم على ذلك ، فسوّل لهم السلطان[1] أن يكونوا عصبة واحدة ويكون الأمير قطلوبرس العادلى كبيرهم ورأسهم ، وكان من أكابر مماليك السلطان العادل كتبغا ، ولما اتفق لكتبغا ما ذكرنا كانوا أبقوه على إمرته لكونه من فرسان الخيل المعروفين ، ولما اجتمعوا على ذلك عرفوه بما عزموا عليه وقالوا له : اجتمعنا ببرنطيه[2] أحد المماليك السلطانية وخشداشه آلُوص الذى كان من أكابر الأُويراتية ، وكان هؤلاء على جهل عظيم وكبر النفس ، وكان اتفاقهم على أن يركبوا على بيبرس وسلار فى موكبهما ، فإذا حصل لهم مقصودهم يطلبون كتبغا ويعيدونه إلى السلطنة ، ويأخذ أكابرهم إمْريات أمراء البرجية .

وكان قطلوبرس رجلا عاقلا صاحب رأى وتدبير وتحقق أن أمر هؤلاء إذا ظهر كان سبب تلافه وهلاكه ، ورآهم مصرين على عزمهم ، وقد غلب عليهم الجهل والطمع ، ومابقى له منهم مخلص ، فلما رآهم على ذلك أوصاهم بكتمان أمرهم ، وأن يستجلبوا من قدروا عليه من المماليك السلطانية ليكونوا عونا لهم على مقاصدهم ، وتحدثوا مع جماعة منهم ، ووقع الاتفاق على أن الأمراء إذا ترجلوا يوم الموكب وترجلت مماليكهم يهجم برنطيه على بيبرس ويضربه بالسيف ، وآلوص على سلار ، وأن الأُويراتية إذا نظروا إلى سيف برنطيه وقد أشهره يجذبون سيوفهم ويضرب كل واحد منهم مخدومه ، أومن يكون قريبا منه من الأمراء أى من كان .

(١) هكذا بالأصل ، ولعلها « الشيطان » .

(٢) « برنطاى » فى السلوك جـ ١ ص ٨٨٣ ، « برلطاى » فى نهاية الأرب ، وزبدة الفكرة .

وكانت العساكر السلطانية قد أقاموا على غزة أياما[1] ، ثم وصلوا إلى تل العجول وأقاموا هناك ينتظرون الأخبار كما ذكرنا ، وكانوا قالوا لقطلوبرس أن يكون مجهزا بمن معه ، فإذا رأى السيوف أشهرت ووقع الفصل نشر سنجقه وضرب طبلخاناته وعمل عمله .

ولما كان الموكب وترجلت الأمراء على العادة ، وكان بيبرس يتقدم سلار احتراما له ، تقدم برنطيه وهجم على بيبرس ، وقد جذب سيفه وهمز فرسه إلى أن قاربه ، وكانت الأمراء يحجبون بيبرس وما شعروا إلا وقد رأوا برنطيه بينهم وسيفه مشهور يريد ضرب بيبرس ، وكان فى الأمراء الماشين فى خدمته أمير من البرجية يقال له سيف الدين طشتمر الجمقدار ، وكان جمقدار الملك الأشرف ، وكان له قوة وشجاعة وشكل حسن ، ولما رأى برنطيه وقد هجم على بيبرس جذب هو أيضا سيفه وضرب برنطيه ، ولكن وقعت الضربة على كفل فرسه[2] ، فالتفت إليه برنطيه وضربه فقطع كلوتاته وشاشه وجرح وجهه جرحا بالغا ، ثم تناولت السيوف برنطيه فقتل من وقته ، ووقع الصياح فى العسكر فركبوا عن بكرة أبيهم ، وطلب بعض الأويراتية والمماليك الذين كانوا متفقين

(١) رحل السلطان بالعساكر من الريدانية — فى طريقه إلى الشام — أول يوم من المحرم سنة ٦٩٩ هـ ، ولذا أورد المقريزى هذه الأحداث ضمن حوادث سنة ٦٩٩ هـ — السلوك جـ ١ ص ٨٨٢ — ٨٨٣ .

(٢) « شهر برنطاى سيفه — وكان ماشيا فى ركاب بيبرس — وضربه ، فوقعت الضربة على كفل الفرس خلف ظهره ، وضرب برنطاى ثانيا ، فوقعت الضربة على الكلفتة فقطعتها وجرحت — الوجه ، فتبادرته السيوف حتى قتل » — السلوك جـ ١ ص ٨٨٣ .

كفل : الكفل هو كساء يوضع على سنام البعير ثم يركب ، وكساء تحت الرحل ، والكفل ما يحفظ الراكب من خلفه وفى الحديث وذاك كفل الشيطان يعنى مقعده — اللسان .

معهم نحـو دهلـيز السلطان ، وركبت الأمراء الذين كانـوا ترجلوا ، وركبت [١٨٣] مماليكهم وساقوا خلف القاصدين الدهلـيز إلى أن أدركوهـم داخل الدهليز ، ومنهم من دخل وهجم على السلطان .

وركبت مماليك السلطان . وكذلك الأمير بكتمر الجـوكندار ، واعتقدوا أنهـم قصدوا الهجوم على السلطان ليقتلوه ، فركب ونشر العصائب السلطانية ، ونشر سنجقه أيضا ، واجتمعت إليـه مماليـك السلطان ، وخرج السلطان من الدهلـيز ، و « ... ... »(١) وقصد الركوب بين مماليكه ، فمنعـه أمير الجنـدار وطيب خاطره ، وقال له أمير جندار : ما عليك شيء ، فكأن الأمراء وقع بينهم أو جرى لأحد منهم شيء ، فهذه الهجمة بسببه .

وخشيت الناس على أموالهم ، فصار الأمير منهم يركب بعض مماليكه ويخلى البعض لحفظ خيمته ودوابه .

وكان يوما صـعبا لم ير مثله ، ولا أشد منه ، ثم رجع بيـبرس وسلار إلى مخيمهما . ثم أمر الحجاب والنقباء أن يقولوا للمقـدمين بأن يحضر كل مقـدم بمضافيه ، وكان كثير من المقدمين يأتون بمضافيهم إلى مخـيم النيابة ، ويرون سنجق السلطان منشورا فيرجعون إليه ، وكانت الحجاب يردونهـم ، وأكثرهم لايلتفتون إليهـم ، ويقولون : نحن إذا رأينا سنجق السلطان منشورا لا نلتفت إلى غيره .

والتفت جماعة منهم على السلطان ، ثم رأى سلار أن هذا الأمر ما سينفصل إلا عن سفك دم كثيرة ، وكان صاحب عقـل وتدبير حسن ، فسير من جهته

(١) « ... ... » نحو كلمات مطموسة .

أحد الحجاب « وبعض المماليك »(١) إلى بكتمر الجوكندار الذى هو أمير جندار يقول له : ما هذه الفتنة التى قصدتم إثارتها؟ وكيف يحل لمسلم فى هذا الوقت؟ ونحن جئنا لدفع العدو، وحركنا أنفسنا وأموالنا للذب عن الإسلام وعن المسلمين، وقد بلغنا أن بعض مماليك السلطان اتفقوا مع الأويراتية على قتلنا ، وسفك الدماء بين المسلمين ، فإن السلطان وأنتم أشرتم عليهم بهذا الرأى ، ولكن الله عز وجل ، بمنه وكرمه ، قد دفع عنا ذلك ، فإن كان هذا بمشورتكم فنحن مماليك السلطان ، ومماليك والده الشهيد ، فنحن نكون فداء الإسلام ، وإن كان ما عندكم من ذلك علم فسيروا إلينا غرماءنا فنجازى الذين أرادوا قتلنا وقيام هذه الفتنة .

فلما وصل الذين أرسلهم سلار إلى السلطان ، وبلغوه ما ذكر سلار ، بكى السلطان ، وحلف بالله أن ما عنده مما ذكروه خبر، وكذلك الأمير بكتمر حلف، وأنهم لما رأوا السيوف وقد وقعت اعتقدوا أنهم يريدون قتل السلطان ليسلطنوا أحدا منهم ، واعتذروا اعتذارا كثيرا ، وقالوا لهم : إن الذى قلتم حق ، فإن كان يحصل لكم تشويش من السلطان ومن مماليكه ، فها أنا آخذهم وأروح بهم إلى الكرك ، وهى قريبة من هاهنا ، وهو أنى أسير معهم فأقيم أنا وهو ومماليكه على الكرك ، واحكموا أنتم بكل ما تحبون وتختارون .

فلما سمعوا ذلك خرجوا من عندهم ، وأتوا إلى سلار والأمراء الذين عنده ، وبلغوهم الرسالة ، فصعب ذلك عليهم ، وثارت نفوس البرجية ، وأرادوا أن يركبوا على الأمير بكتمر ، فقال الأمير سلار : ما هذه مصلحة ، وأنتم تعلموا

(١) « وبعض المماليك » مكتوبة فى هامش المخطوط ، ومنبه على موضعها بالمتن .

برأى أمير سلاح ، هو شاويش العساكر وأتابكها ، وهو قدامنا بمرحلة ، وأما إذا [١٨٤] فعلتم شيئا بغير مشورته تكون حجة علينا ، وقد علمتم ما اتفق له مع كرجى وطقجى عند مشورته . والمصلحة أن نُعرِّفه جميع ما اتفق عليه ، ونستشيره فيما نعمله ، فإنه أتابك العساكر ، وكبير الدولة ، والناس يرجعون إلى رأيه .

فسيروا إليه أمير حاجب ، وعرفوه كل ما وقع ، وأن هذا الأمر كان باتفاق من السلطان مع مماليكه وبكتمر أمير جندار ، فلما سمع كلامهم قال : إن عرف الأمراء أن هذا الحديث أنا ما أعرفه . فإنى نازل عنكم ببعيد ، والذى أقوله : إن دم المسلمين يتعلق بابن أستاذهم ، وما أعرف غير هذا الكلام[1] ، ثم قام وخرج من عنده الحاجب . وعرف الأمراء ما قاله الأمير سلاح ، بعد ذلك قال الأمير سلار : ما بقى إلا أن نلاطف أمرنا مع السلطان ، وينفصل الأمر على خير .

ثم طلع[2] الأمراء الكبار ، ودخلوا على السلطان ، وأصلحوا بين أمير جندار وبين الأمراء ، وقبلوا الأرض بين يدى السلطان ، واجتمع رأيهم على طلب الأويراتية ، والكشف عن أمرهم ، ومن كان السبب لقيام هذه الفتنة ، فمسكوا جماعة منهم ، وعاقبوهم ، فاعترفوا أن الاتفاق وقع بينهم على الهجوم على الأمير ركن الدين بيبرس والأمير سلار وقتلهما ، وقيام دولة الملك العادل كتبغا ، وأخذ ثار من قتل من أمرائهم ، وأن المحرك لذلك برنطيه ، وألوص ورأس المشورة فى ذلك قطلوبرس العادلى ، وسموا جماعة كثيرة من العادلية .

---

(١) « فلم يدخل فى شىء من ذلك ، وأوصى ألا يتعرض السلطان بسوء » السلوك جـ ١ ص ٨٨٤ .

(٢) « طلعوا » فى الأصل .

فاتفق رأى الأمراء على أن يستفتوا فى أمرهم ، فأفتوا بقتل الجميع لقوله تعالى ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾[1] ... فلما أصبحوا نصبت لهم الأخشاب ، وشنق منهم نحو خمسين نفرا من أكابرهم ، وصلبوهم صلبا بشيعا بكلوتاتهم وشاشاتهم ، ونادى عليهم المشاعلية : هذا جزاء من يقصد إقامة الفتنة بين المسلمين و يتجاسر على الملوك .

وطُلب علاء الدين قطلوبرس العادلى فلم يجدوه ، فنودى فى سائر الوطاق أن من أخفاه شُنق .

وكان قطلوبرس تلك الليلة قد جهز أمره الجميع ، وكان عزمه أن الأمر الذى عزم عليه إن جاء على وفق مراده ينشر سنجقه و يتظاهر بالركوب ، و إن كان بخلاف ذلك ينجو بنفسه ، فلما تحقق أن الأمر انقلب عليه خرج مختفيا من أصحابه ، واستصحب معه ما يعز عليه من المال ، فجاء إلى غزة واختفى بها عند بعض أصحابه .

وما علموا خبره إلا بعد يومين ، وأمروا بنهب وطاقه ، وجميع ماله من الدواب ، وتركوا المصلوبين ثلاثة أيام ، وأنزلوهم فى اليوم الرابع ، فحصل بسبب ذلك بكاء وتألُّم ، وجافت الأرض من روائح أجسادهم .

ثم قصدوا الرحيل ، واجتمع الأمراء البرجية ، وقالوا لبيبرس نحن ما نرحل حتى نأخذ ما بقى من غرمائنا من المماليك السلطانية ، وعرفوا بيبرس أن الأمير سلار ربما كانت له يد فيما اتفق ، فاتهموه ، فبلغ ذلك الأمير سلار فخاف فى نفسه وقال : إن لم أدارهم فى ذلك قامت الفتنة . ولما تكلم معه الأمير بيبرس

(١) جزء من الآية ١٩١ سورة البقرة رقم ٢ .

فى أمر المماليك ، وأنه ما نرحل حتى ينجز الأمر معهم وافقه على ذلك ، ثم اجتمعوا بالأمير جوكندار وقالوا له : إن من المماليك السلطانية من يرضى الفتنة [١٨٥] ، ومنهم من كانوا وافقوا الأويراتية ، فرأى الجوكندار أن مخالفتهم فى ذلك الوقت تؤدى إلى فساد كبير، فطاوعهم على ما قالوا ، واجتمعوا ودخلوا على السلطان وقالوا : إن ههنا صبيانا من المماليك يقصدون الفتن بيننا وينقلون الكلام الفاسد ، ونريد أن نطمئن من جهتهم فى السفرة ، فقال لهم السلطان : ما الذى يفعل بهم ؟ فقالوا : يرسلهم مولانا السلطان إلى الكرك فيقيمون هناك إلى أن نعود من السفر فنأخذهم إلى مصر معنا ، فإذا دخلنا مصر يفعل السلطان فيهم بما يرى ، فأجاب إليهم السلطان ، فأمر عند ذلك بطلب جماعة فأحضروهم وسيروهم إلى الكرك صحبة النقباء ورسم السلطان بحبسهم هناك .

ثم بعد ذلك رحل السلطان بعساكره من تل العجول إلى قرتيا (١) وضربوا الدهليز هناك ، وأمروا بالإقامة هناك إلى أن يكشفوا أخبار العدو من النواب .

واتفق فى تلك المنزله أمر غريب من مجىء سيل عظيم من رءوس الجبال فى ضحوة النهار على غفلة فأخذ من الجمال والخيل والخيم والأثقال شيئا كثيرا ، فوقعت ضجة عظيمة فى العسكر ، ومن لطف الله تعالى أنه كان من فرد جانب ، فاستمر ذلك إلى وقت العصر من ذلك اليوم . وانفسد حال جماعة كبيرة من العسكر ، ومنهم من أصبح فقيرا لا يملك شيئا ، فتطيرت الناس بذلك وقالو : لا يحصل خير فى هذه السفرة .

---

(١) قرتيا : قرب بيت جبرين بفلسطين — معجم البلدان ووردت « قرتية » فى السلوك ج ١ ص ٨٨٥ .

قال صاحب النزهة : واتفقت بعد ذلك نكتة غريبة وهى أنه كان رجل مشهور بالصلاح والمكاشفات، وقد كان وقعت منه أمور غريبة فى نوبة الشجاعى وكتبغا قبل وقوع أمرهما. وكان لا يتكلم مع الناس، ولا يأخذ شيئا من أحد، وأكثر اجتماعه كان مع الأمير سلاح ، ولكنه ما كان يتكلم معه ، فإذا أخذ منه شيئا كان يفرقه على ذوى الحاجات ، وكانت عادته أنه إذا ظهر أمر مما قدره الله تعالى من الخير والشر كان قبل وقوعه يلبس شيئا يناسب ذلك الأمر. وكان يعرف بالشيخ الحبشى ، وكثيرا ما كان يمشى فى الأسواق وعلى رأسه كاوتاه كشف .

قال : ورأيته فى ذلك اليوم حين وقع السيل جالسا خلف دهليز السلطان ، ثم مشى ومشيت معه إلى قريب المطبخ السلطانى ، فجلس فى مكان يُرمَى فيه العظام التى تفضل من السماط ، فصار يأخذ العظم ويمشمشه . ثم ينظر إلى السماء ويهز رأسه ويقول: والله قربوا وأشار بيده إلى السماء، ثم أشار إلينا وقال: أبصروا أبصروا وقد جاءوا . فنظرنا إلى السماء ، ولا ترى السماء فكأنها قد سترت بالغمام من الجراد ، فاستد ما بين السماء والأرض(١) ، حتى اشتغل بالنظر إلى ذلك جميع الناس ، ووقع الصياح فى الوطاق ، وخرج السلطان وسائر الأمراء من الخيم ينظرون إليه ، ويتعجبون من ذلك ومن كثرته .

فحكى شخص هناك أنه لما كان صغير السن شاهد فى بلاد الخطا جرادا مثل هذا ، وإنه كان هناك رجل كبير السن أخبر أن هذا الجراد ما دخل على مكان فيه عسكر إلا وقد طرقهم أعداؤهم ، ويحصل بذلك خذلان وينتصر أعداؤهم

---

(١) « جراد سد الأفق ــ السلوك جـ ١ ص ٨٨٥ .

عليهم ، فاشتاع ذلك الكلام بين العسكر [١٨٦] فلم يبق أحد إلا وقد جزم بحضور العدو ، وأن المسلمين ينخذلون وهذه إشارته قد لاحت .

ثم شرعت الأمراء فى تسفير البريدية إلى نائب حلب ليطالعهم بالأخبار، ثم اجتمعت آراؤهم على الرحيل إلى دمشق ، فاجتمعت جماعة من مقدمى الحلقة وجندها إلى الأمير جمال الدين قتال السبع وأكابر الأمراء وعرفوهم ضعف حال الجند وقلة نفقتهم ، وأن هذا السيل قد أضر ببعضهم وأخذ أموالهم ، فاتفقت الأمراء على الكلام مع الأمير بيبرس والأمير سلار فى أمرهم ، فلما اجتمعوا عرفوهم ضرر الجند وشكواهم فقالوا : حتى نصل إلى دمشق وننفق فيهم ، ورسموا بالرحيل من يومهم .

وفيها : اتفق بزلار المنصورى وأقوام من أصحاب الأمير سيف الدين قفجق الذين تسحبوا معه وهم تبديه وغيره على الخروج من بلاد التتار والهرب إلى هذه الديار ، وساروا ليلا ، فاطلع عليهم التتار فساقوا خلفهم فأدركوهم بحدود بلد الأكراد فاتقعوا معهم ، فقتل بوزلار (١) وعلى بن اسلبغا وغيرهما ، ومسكوا تبديه وجماعة آخرين معه ، وأحضروهم إلى الأُرْد ، فتلطف بهم الأمير سيف الدين قفجق ، فخلصوا .

وكان سيف الدين قفجق هذا مسموع الكلام عند قازان وذلك لأنه لما حضر عنده أعطى له همدون فلم يأخذها وقال : ليس لى قصد سوى خدمة القان ، فأعجبه ذلك ، وذكر أنه وجد أباه وإخوته سلاحدارية عند قازان واستمروا عنده إلى حين دخولهم الشام صحبة قازان .

(١) هكذا بالأصل .

وفيها : تجهز يوسف بن يعقوب صاحب مراكش لقصد تلمسان وبها صاحبها عثمان يغمراسن، فسار إليها وشدد حصارها ، وكانت من أحصن المدن قد حصنها يغمراسن وولده عثمان من العدد والذخائر والغلال والحواصل ، فلما رأى يوسف بن يعقوب عسر مرامها وشدة امتناعها بنى عليها مدينة من غربيها، وبنت كل قبيلة من قبائل بنى مرين حواليها ربضا فصارت فى الوسط، وخندقوا عليها وأحاطوا بها ، وسوروا عليها سورا ، وقطعوا عنها المواد والمير والأقوات ، وهلك أكثر أهلها جوعا ، ومات منها خلق لا يحصى .

وفيها : كان النيل ستة عشر ذراعا وثمان أصابع ، وتوقف توقفا شديدا حتى أعان الله ووفى[1] .

وفيه : حج بالناس عز الدين ايبك الخزندار ، وهو أمير جندار ، ومن الشام الأمير شمس الدين العيلتابي .

---

(١) « أمر النيل — فى هذه السنة — الماء القديم خمس أذرع وأصابع ، مبلغ الزيادة : سبع عشرة ذراعا وست عشرة إصبعا » — النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٨٩ .

ذكر من تُوفى فيها من الأعيان

الشيخ نظام الدين أحمد[(١)] بن الشيخ جمال الدين محمود بن أحمد بن عبد السلام الحصيرى[(٢)] الحنفى، مدرس النورية[(٣)].

توفى فى ثامن المحرم منها، ودفن يوم الجمعة تاسعه بمقابر الصوفية[(٤)]، كان مفتيا فاضلا، وناب فى الحكم فى وقت عن قاضى القضاة حسام الدين، ودرس بالنورية بعد أبيه، ودرس بعده بها الشيخ شمس الدين ابن الصدر سليمان[(٥)] فى يوم الأربعاء الرابع والعشرين من محرم.

الشيخ الإمام العالم الزاهد جمال الدين أبو[(٦)] عبد الله محمد[(٧)] بن بن سليمان بن

(١) وله أيضا ترجمة فى: المنهل الصافى جـ٢ ص ٢١٠ رقم ٣٠٩، الوافى جـ ٨ ص ١٦٥ رقم ٣٥٨٧، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٤، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٤١، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٨٢، العبر جـ ٥ ص ٣٨٧.

وورد فى الوافى أن صاحب الترجمة توفى سنة ٦١٦ هـ، ورجح المحقق أن الصفدى أخطأ وذكر تاريخ ميلاده على أنه تاريخ وفاته.

(٢) «الحصرى» فى البداية والنهاية، «ابن الحصيرى» فى شذرات الذهب.

(٣) المدرسة النورية بدمشق: أنشاها الملك العادل نور الدين محمود زنكى سنة ٥٦٣ هـ/١١٦٧م — الدارس جـ ١ ص ٦٠٦.

(٤) «مقابر الصُّوفِيَّة بدمشق» — النجوم الزاهرة.

(٥) هو محمد بن سليمان بن وهيب الحنفى الدمشقى، المتوفى سنة ٦٩٩ هـ/١٢٩٩م — المنهل الصافى.

(٦) «أبو» ساقط من البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٤.

(٧) وله أيضا ترجمة فى: المنهل الصافى، زبدة الفكرة - مخطوط جـ ٩ ورقة ٢٠٥ ب، درة —

الحسن بن الحسين البلخى المقدسى الحنفى ، [المعروف بابن النقيب][1] .

مولده فى نصف شعبان سنة إحدى عشرة وستمائة بالقدس ، واشتغل بالقاهرة ، وأقام مدة بجامع الأزهر ، ودرس فى بعض المدارس [١٨٧] هناك ، ثم انتقل إلى القدس الشريف فاستوطنه حتى مات فى الحرم منها ، كان فاضلا فى التفسير ، له فيه مصنف حافل كبير جمع فيه خمسين مصنفا من التفاسير ، وكان الناس يقصدونه للزيارة بالقدس و يتبركون بدعائه .

الشيخ أبو يعقوب[2] المغربى المقيم بالقدس الشريف .

كان الناس يجتمعون به وهو منقطع بالمسجد الأقصى ، وكان ابن تيمية يقول فيه أنه على طريقة ابن عربى وابن سبعين ، وكانت وفاته فى الحرم منها .

القاضى شهاب الدين يوسف[3] بن الصاحب محي الدين بن النحاس ، أحد رؤساء الحنفية ، ومدرس الريحانية والظاهرية .

= الأسلاك ص ١٤٤ ، الوافى جـ ٣ ص ١٣٦ رقم ١٠٧٦ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٤ ، السلوك جـ ١ ٨٨١ ، فوات الوفيات جـ ٢ ص ٤٣٠ رقم ٤١٥ ، العبر جـ ٥ ص ٣٨٩ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٤٢ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢١٥ .

(١) [ ] إضافة من المنهل الصافى ، وتذكرة النبيه .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٥ .

(٣) وهو يوسف بن محمد بن يعقوب بن ابراهيم بن هبة الله سالم بن طارق النحاس بن الأسدى الحلبى ، شهاب الدين بن الصاحب محى الدين .

وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى وفيه « جمال الدين » ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٥ ، السلوك جـ ١ ص ٨٨٢ .

وانظر وفاة والده فى وفيات سنة ٦٩٠ هـ فيما سبق .

وقد ولى نظر الخزانة والجامع فى وقت ، وكان صدرا كبيرا كافيا ، توفى بستانه بالمزة فى الثالث عشر من ذى الحجة ، ودرس بعده بالريحانية القاضى جلال الدين بن حسام الدين .

الصاحب الكبير الصدر الوزير تقي الدين توبة بن(١) على بن مهاجر بن شجاع ابن توبة الربعى التكريتى(٢) .

ولد سنة عشرين وستمائة يوم عرفه بعرفه ، وتنقل فى الخدم إلى أن وُزّر بدمشق مرات عديدة(٣) حتى كانت وفاته ليلة الخميس الثامن من جمادى الآخرة ، وصلى عليه غدوه بالجامع وسوق الخيل ، ودفن بتربته تجاه دار الحديث الأشرفية بالصفح ، وكان فى مبدأ أمره تاجرا يتردد من بغداد إلى بلاد الروم وديار بكر والجزيرة ، فلما أخذ التتار بغداد قدم إلى دمشق واستوطنها ، وضمن الوكالة فى الأيام الظاهرية ، وبقى على ذلك إلى أوائل الدولة المنصورية ، وكان قد خدم الملك المنصور قلاون فى الدولة الظاهرية والسعيدية وأقرضه ستين ألف درهم بلا فائدة ، فلما تولى السلطنة حل عنه الضمان وأطلق له ما كان عليه مكسورا ، وكان يقارب مائة ألف درهم ، ورسم له بمباشرة الخزانة بدمشق أولا ، ثم رتبه

(١) وله أيضا ترجمة فى ، درة الأسلاك ص ١٤٥ ، المنهل الصافى ج ٤ ص ١٧٩ رقم ٨٠٢ ، الوافى ج ١٠ ص ٤٣٨ رقم ٤٩٣٠ ، النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٨٥ ، فوات الوفيات ج ١ ص ٢٦١ رقم ٩٠ ، السلوك ج ١ ص ٨٨١ ، شذرات الذهب ج ٥ ص ٤٤١ ، العبر ج ٥ ص ٣٨٧ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٥ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ٦٠ رقم ٩٠ ، تذكرة النبيه ج ١ ص ٢١٣ .

(٢) نسبة إلى تكريت : بلدة من بغداد والموصل — معجم البلدان .

(٣) « ولى الوزر بدمشق لخمسة سلاطين » النجوم الزاهرة ، وانظر ما يلى .

بعد ذلك وزيرا بالشام ، وتوزر لخمس ملوك : المنصور ، والأشرف ، والعادل كتبغا ، والمنصور لاجين ، والناصر محمد ، وكان من أرباب المروءات والمكارم ، وحسن الأخلاق والمداراة ، والهمة العالية .

الصدر الكبير الرئيس الصاحب أمين الدين أبو الغنائم سالم[1] بن محمد بن سالم بن الحسن بن هبة الله بن محفوظ بن صرصرى[2] التغلبى .

كان أسن من أخيه نجم الدين بن صرصرى ، وقد سمع الحديث وأسمعه ، وكان صدرا معظما ، ولى نظر الدواوين ونظر الخزانة ، ثم ترك المناصب وحج وجاور بمكة ، وقدم إلى الشام فأقام بها دون السنة ، وكانت وفاته يوم الجمعة الثامن والعشرين من ذى الحجة ، ودفن بتربتهم بالسفح .

القاضى جلال الدين عثمان[3] بن أبى بكر بن محمد النهاوندى .

قاضى صفد وأعمالها ، وكان قاضيها منذ فتحها الملك الظاهر[4] ، وكان شكلا حسنا مهيباً ، مات فى هذه السنة .

---

(١) وله أيضاً ترجمة فى : المنهل الصافى ، الوافى جـ ١٥ ص ٩ رقم ١٢١ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٥ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ٨٣ رقم ١٢٣ ، السلوك جـ ١ ص ٨٨٢ .

(٢) « صصرى » فى البداية والنهاية ، والوافى .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢١٦ .

(٤) فتح الملك الظاهر بيبرس صفد سنة ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م – انظر ما سبق بالجزء الأول من هذا الكتاب ص ٤٢١ – ٤٢٢ .

الصدر الكبير الرئيس زين الدين محمد(١) بن أحمد بن محمود العقيلي القلانسي .

مات في هذه السنة ، ودفن بسفح قاسيون ، وكان شيخا حسنا من الكتاب المتصرفين العقلاء ، وهو والد الشيخ جلال الدين ، والشيخ عز الدين(٢) المحتسب بدمشق وناظر الخزانة .

الشيخ الإمام العلامة حجة العرب بهاء الدين(٣) محمد بن إبراهيم ، المعروف بابن النحاس الحلبي النحوي .

مات بالقاهرة(٤) ، ودفن بالقرافة بالقرب من تربة الملك العادل [١٨٨] زين الدين كتبغا ، ومولده في سنة سبع وعشرين وستمائة بحلب ، وانتقل منها إلى القاهرة واستوطنها ، ومات في جمادى الأولى منها ، كان إماما في العربية يشار إليه في عصره ، وكان عنده مروءة وحسن خلق وكرم نفس ، وله نظم كثير ، فمنه قوله :

(١) وله أيضا ترجمة في : الوافي جـ ٢ ص ١٤١ رقم ٤٩٥ .

(٢) هو محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن محمود ، عز الدين بن القلانسي ، المتوفى سنة ٧٢٦هـ/١٣٢٦م ـ الوافي جـ ٢ ص ١٤٩ رقم ٥١١ .

(٣) هو محمد بن إبراهيم بن محمد بن أبي نصر بن النحاس الحلبي الشافعي « بهاء الدين » .

وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي ، درة الأسلاك ص ١٤٤ ، الوافي جـ ٢ ص ١٠ رقم ٢٦٥ ، السلوك جـ ١ ص ٨٨١ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ١٤٣ رقم ٢٣١ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٤٢ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢١٧ ـ ٢١٨ ، العبر جـ ٥ ص ٣٨٩ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٨٣ ، فوات الوفيات جـ ٣ ص ٢٩٤ رقم ٤٢٩ .

(٤) « يوم الثلاثاء سابع جمادى الأولى » ـ النجوم الزاهرة .

إنى تركت لذى الورى دُنياهُم ... وظللتُ أنتظر المماتَ وأرْقُبُ
وقطعت فى الدنيا العلائق ليس لى ... ولد يموتُ ولاعقارٌ يُخْرَبُ

وله فى مليح مشروط :

قالت لما شرطوه وجَرَى ... دمُه القانى على الخدِّ اليَقَق
غيرُ بِدْعٍ ما أتَوْا فى فعلهم(١) ... هو بَدْرٌ ستروه بالشَّفَق

وقال : اجتمعت أنا والشيخ شهاب الدين مسعود السنبلى والضياء المناوى ، فانشد كلٌ بيتين من شعره ، فكان الذى أنشده السنبلى قوله فى مليح مكارى :

علقتُه مُكارياً ... شرَّد عن عَينى الكرى
كأنه البدرُ فما(٢) ... يملُّ من طُول السُّرَى

وقال الضياء المناوى :

أفدى الذى يكْبِتَ بدرُ الدُّجى ... لحسْنه الباهر من عبده
سَمَّوْهُ جَمَرِيًّا وما أنصفوا ... مافيه جَمْرٌ سوى خَدِّه

وأنشد الشيخ بهاء الدين البيتين اللذين أنشدهما فى المليح المشروط .

وقال الشيخ أثير الدين أبو حيان رحمه الله : كنت أنا والشيخ بهاء الدين بن النحاس نمشى بالليل بين القصرين فرأينا صبيا مليحا يسمى جمال وهو مصارع ، فقال الشيخ شهاب الدين : تعال حتى ننظم فى هذا المصارع : فنظم الشيخ بهاء الدين فيه :

---

(١) « ليس بدعا ما أتوا فى نمله » فى الوافى جـ ٢ ص ١٥ .
(٢) « قد أشبه البدر فلا » فى النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٨٤ .

مُصارعٌ تصْرَعُ الآسادَ سُمرتُه　　تِيهًا فكلُّ مليح دونه همَجُ

لما غدا راجحا فى الحُسن قلت لهم　　عن حسنه حدِّثوا عنه ولا حرجُ

ونظم الشيخ أثير الدين :

سبانى جمالٌ من مليح مُصارع　　عليه دليلٌ للملاحة واضحُ

لئن عزّمنه المثلُ فالكلّ دونه　　وإن خفّ منه الخصرُ فالردف راجحُ

قال الشيخ أثير الدين وسمع شهاب الدين العزازى بنظمنا فنظم :

هل حَكَمٌ يُنصفني من هوى(1)　　مُصارعٌ يَصْرع أُسْدَ الشّرى

[مذ فر منى الصبرُ فى حبه　　حكى عليه مدمعى ما جرى](2)

أباح قتلى فى الهوى عامداً　　وصاح كم(3) من عاشقٍ فى الورَى

رَميتُه فى أسرِ حبٍ ومن أجـ　　ـل أنَّ عينيه أخذتُ الكرَى

الشيخ جمال الدين أبو الدُر(4) ياقوت بن عبد الله المستعصمى الكاتب ببغداد .

---

(١) « فى هوى » فى الوافى جـ ٢ ص ١٤ .

(٢) [ ] إضافة من الوافى ، وفوات الوفيات جـ ٣ ص ٢٩٥ .

(٣) « وقال لى » فى الوافى .

« وقال كم » فى فوات الوفيات .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ١٤٥ ، فوات الوفيات جـ ٤ ص ٢٦٣ رقم ٥٦٧ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٦ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٤٣ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ١٧٥ رقم ٢٩١ ، العبر جـ ٥ ص ٣٩٠ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٨٧ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢١٩ .

مات فى هذه السنة ، وكان يكتب على طريقة ابن البواب ، وهو من المشهورين فى الكتابة والفضيلة والنظم وغير ذلك ،وأصله رومى من مماليك الإمام المستعصم ، كتب عليه خلق من الأكابر والكتاب .

ومن نظمه ما ذكره علم الدين البرزالى ، قال أنشدنى أبو شامة ، قال أنشدنى يا قوت المستعصمى لنفسه :

تُجدد الشمسُ شوقى كلما طلعت إلى مُحيَّاك يا شمسى ويا قمـرى (1)

[١٨٩]

وأَمهَرُ الليـل ذا أنس بوحشته (2) إذ طيِّب ذكرك فى ظلمائه سَمِرى (3)

وكل يومٍ مضى لى لا أراكَ به (4) فلستُ محتسبًا ماضيه من عمرى

ليلى نهـار إذا ما دُرتَ فى خلدى (5) لأن ذكرك نورُ القلب والبصر

وله :

يا خليـلى والمـنى كاذبةٌ والليالى شأنهـا أن تسلبا

قـم بنـا ما قعـدت حادثة نقض من حق الصبا ما وجبا

نعص من لام على دين الهوى هـذه سـنّة أيام الصِّبَا

(1) « يا سمعى ويا بصرى » فى تذكرة النبيه جـ١ ص ٢١٩ وفى البداية والنهاية جـ ١٤ ص٦ ، والنجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٨٨ .

(2) « وأسمر » فى درة الأسلاك ص ١٤٥ .

(3) « فى أنفاسه سمرى » فى درة الأسلاك .

وأسهر الليل فى أنس بلا ونس إذ طيب ذكراك فى ظلماته يسرى فى البداية والنهاية .

(4) « وكل يوم مشى » — تالى كتاب وفيات الأعيان ص ١٧٥ .

(5) « نهارى » فى النجوم الزاهرة .

وقال :

رعى الله أياما تقضت بقربكم	قصارا وحيّاها الحيَا وسقاها
فما قلت إيه بعدها لمُسامرٍ	من الناس إلاّ قلبي أهّا

وقال :

وعدَت أن تزور ليلاً فالوَتْ	وأتت فى النهار[1] تسحبُ ذيلا
قلت هلّا صدقتِ فى الوعد قالت	هل توهّمتَ أن تَرى الشّمس ليلا

الشيخ شرف الدين أبو محمد جعفر[2] بن على بن جعفر بن الحسن بن إبراهيم ابن على بن النفيس بن يونس الموصلى المقرئ ، المعروف بأبى الحسن البصرى لأن جده الحسن من البصرة .

مات بدمشق فى العشرين من جمادى الأولى ، ودفن بمقابر الصوفية ، ومولده فى السادس عشر من ذى القعدة سنة أربع وستمائة ، ذكر أنه سمع على الشيخ شهاب الدين السهروردى كتاب عوارف المعارف بالموصل ، وسمع بدمشق من ابن الزبيدى ، وبمصر من ابن الجميزى ، وبالإسكندرية من ابن رواح ، وكان شيخا حسنا صالحا ، يحفظ كثيرا من الأخبار والأشعار .

كتب عنه الحافظ أبو محمد الدمياطى فى معجمه قال : أنشدنا جعفر بن على بدمشق قال : أنشدنى أخى أبو محمد عبد العزيز بن على بن جعفر الفقيه الحنفى لنفسه :

---

(١) « بالنهار » فى فوات الوفيات جـ ٤ ص ٢٦٤ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٤ ص ٢٦٨ رقم ٨٤٥ ، الوافى جـ ١١ ص ١١٧ رقم ١٩٨ .

حدّث عن الوجد لا شطّت بك الدارُ ... واسمعْ فنون غرامى فهى أسمارُ
واستمِل منى غريب الحبّ إن له ... عندى حديثا يقضى منه أوطارُ
كم ليلة بتُّ والأشواق تمـزُج لى ... كأسَ الغمام ولى بالفكر سُمَّـار
والدمع والوجْد والواشى ومصطبرى ... واف ونام ونمـامٌ وغـدّارُ
إن اخلف البَرقُ من لألاء غُرّته ... أو غرنى فى الهوى فالنجم غرّار
أو ملّ سكناه فى قلبى وفى بصرى ... فالقلبُ والطرف نيران وتيـار
ذنوبه كلها بالعدل قـد كُتبت ... فالوجدُ يمحو وفرط الحبّ غفّار
وإن خبر الهجر والإعراض عن ملَل ... قامت له بالهوى العذرىّ أعذار

الشـيخ الفاضل الإمام بدر الدين يونس(١) بن إبرهـيم بن سليمان الصرخدى الحنفى .

مات بصرخد(٢) ، ومولده فى سنة أربع عشرة وستمائة ، كان فاضـلا أديبا ، مليح الشعر ، شريف النفس ، عارفا بالنحو واللغة .

كتب عنه ابن الخباز قطعة من شعره منها :

ظمئت إلى سلسال حسنك مُقلة ... رويت محـاجرها من العَـبرات
تشتاق روضا من جمـالك طالمـا ... سرحت به وجنت من الوجنات

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، وفيه أن صاحب الترجمة توفى سنة ٦٩٧ هـ ، درة الأسلاك ص ١٤٥ ، بغية الوعاة جـ ٢ ص ٣٦٥ رقم ٢٢٠٥ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢١٦ .

(٢) صرخد : بلد قرب حوران من أعمال دمشق — معجم البلدان .

[١٩٠]

حجبوك عن عينى وما حجبوك عن قلبى ولا منعوك من خطراتى
هـل ينقضى أمر البعاد ونلتقى بـلوى المُحصّب(١) أو على عرفاتِ
ويضمّنا بعـد البعاد منـازل بالخيف أو منى على الجمـرات
وأفيق من ولهى عليك وينقضى(٢) شوق إليـك وتنطفى جمـرات(٣)

الملك الأوحد نجم الدين يوسف(٤) ابن المـلك الناصر داود بن المعظم ، ناظر القدس الشريف .

توفى ليلة الثلاثاء الرابع من ذى الحجـة ، ودفن برباطه عنـد باب حطة عن سبعين سنة(٥) ، وكان من خيار أبناء الملوك دينا وفضيلة ، و إحسانا إلى الضعفاء ، وروى عنه الحافظ شرف الدمياطى فى معجمه ، وكتب عنه حديثا واحدا .

الأمير شمس الدين بيسرى(٦) ، من أكابر الأمراء المتقدمين فى الخدمة فى زمن المنصور وهلم جرا .

(١) المحصب : موضع فيما بين مكة ومنى — معجم البلدان .
(٢) « ريتهى » فى تذكرة النبيه .
(٣) انظر تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢١٧ .
(٤) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ١٤٣ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٥ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٨٩ ، السلوك جـ١ ص ٨٨١ ، شذرات الذهب جـ٥ ص ٤٤٢ تذكرة النبيه جـ١ ص ٢١٨ ، العبر جـ٥ ص ٣٩٠ .
(٥) « مولده سنة ثمان وعشرين وستمائة بقلعة الكرك » — تذكرة النبيه .
(٦) هو بيسرى بن عبد الله الشمسى ، الصالحى ، الأمير بدر الدين .
وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ٣ ص ٥ رقم ٧٤١ ، زبدة الفكرة — مخطوط جـ٩ ورقة ٢٠٥ ب ، درة الأسلاك ص ١٤٤ الوافى جـ١٠ ص ٣٦٤ رقم ٤٨٥٩ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ =

توفى بالسجن بقلعة القاهرة فى التاسع عشر من شوال منها ، وما قبض إلا خوفا منه لكبره وموقعه فى نفوس الناس ، وكان كريما ، كان عليه فى أيام إمرته رواتب لجماعة من مماليكه وأولادهم ، وكان رتب لبعضهم فى اليوم من اللحم سبعين رطلا[1] وما يحتاج إليه من التوابل والحطب ، وسبعين عليقة[2] ، ولأقلهم خمسة أرطال وخمس علائق ، ولبعضهم عشرة ، ولبعضهم عشرين ، وبلغ ما يحتاج إليه فى كل يوم لسماطه ودُوره والمرتَّب عليه ثلاثة آلاف رطل لحم ، وثلاثة آلاف عليقة كل يوم ، وكانت صدقته على الفقير ألفا أو خمسمائة[3] ، ولا يعطى أقل من ذلك ، وكان إنعامه ألف أردب غلّة ، وألف قنطار عسل ، وألف دينار ، وكان الملك الظاهر يقول عنه : هذا ابن ملكنا فى بلادنا ، وكان يعظمه ، وما بدا منه شيء قط ، وكان يحمل الجتر على رءوس الملوك من زمان الظاهر إلى حين وفاته .

وكان عمر داره المعروفة ببين القصرين[4] فى أيام الظاهر ، وتجاوز الحد فى عمارتها فى كثرة المصروف من الذهب ، وكان فى تلك الأيام لا يعرف لأحد من الأمراء عمارة مع كبرهم وسعادتهم ، فلامه الظاهر على ذلك وقال له :

= ص ١٨٥ ، السلوك جـ ١ ص ٨٨٠ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٥ ، تذكرة النبيه جـ١ ص ٢١٤ ، الدرر جـ٥ ص ٣٨٧ ، المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٦٩ — ٧٠ .

(١) « مائة رطل من اللحم » فى المواعظ والاعتبار .

(٢) « ستين طبقة » فى المواعظ والاعتبار .

(٣) « ألف درهم وخمسمائة درهم » فى السلوك جـ ١ ص ٨٨٠ .

(٤) هى الدار البيسرية : المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٦٩ وما بعدها ، وانظر أيضا النجوم الزاهرة جـ٨ ص ١٨٦ هامش (١) حيث يوجد تحديد لموضع هذه الدار .

أصرفت مالك جميعه فى عمرة دارك وما خليت للبيكار[(١)]. فقال : خليت للبيكار صدقات مولانا السلطان ، والله يا خوند[(٢)] ما عمرت هذه الدار حتى سمع بها من بلاد العدو. ويقال: إن بعض مماليك السلطان عمر دارا غرم عليها أموالا عظيمة، فرسم له بألفى دينار[(٣)] إعانة له .

ولم يعرف أنه شرب من كوز مرتين، وكان من أحسن الأشكال والفرسان المشهورين ، وتوفى وعليه ديون كثيرة ، وفيت عنه بعد وفاته ، رحمه الله .

الأمير عز الدين أيدمر الجناحى .

مات بحلب وكان مع العسكر المجردين ، وكان يتهم بذهب كثير ، فلم يظهر له خبر. وقال أستاذ الدار وكاتبه : كنا نعرف له صندوقين فيهما ذهب وجواهر، ولما كان سا كنا بالصالحية أودعهما عند أولاد الحافظ عبد الغنى[(٤)] ولم نعلم لهما خبرا، فأحضر أولاد الحافظ عبد الغنى وجماعة معهم بهذا السبب ، فظهر أن الأمير عز الدين قد أخذ الصندوقين منهم وأودعهما عند فخر الدين العزازى التاجر بقيسارية الشرب ، ولم يطلع على ذلك غير الأمير [١٩١] وخزنداره ، وكان قال لخزنداره إكتر لنا جملا ممن لا نعرف ، وقم نصف الليل ، وحمل الصندوقين على الجمل وامض بهما إلى فخر الدين العزازى ، ففعل الخزندار ذلك وقال له : هذه

(١) « أى شىء خليت للغزاة والترك ؟ » — المواعظ والاعتبار .

(٢) والله ياخوند ما بنيت هذه الدار إلاحتى يصل خبرها إلى بلاد العدو» — المواعظ والاعتبار.

(٣) « وأنعم عليه بألف دينار عينا » — المواعظ والاعتبار .

(٤) هو عبد الغنى بن عبد الواحد بن مسرور ، تقى الدين أبو محمد المقدسى الجماعيلى الحنبلى ، المتوفى سنة ٦٠٠ هـ / ١٢٠٣ م — العبر جـ ٤ ص ٣١٣ .

وديعة الأمير عندك إلى أن يعود من التجريدة ، ثم مات الأمير وخزنداره ، وقيل : إنه سقى سما .

ولما رأى فخر الدين أن أولاد الحافظ عبد الغنى وجماعة آخرين قد اتهموا بهذا وهم بريئون ، نهض واجتمع بالأمير سيف الدين جاغان — وهو يومئذ شادّ الدواوين — وأخبره أن عنده صندوقين وديعة الأمير عز الدين أيدمر الجناحى الذى توفى بحلب ، فقال له جاغان : جزاك الله خيرا أين الصندوقان ؟ قال : عندى ، فجهز معه العدول ووكيل بيت المال وحملوهما ، فكان فيهما من الذهب العين المصرى ثلاثة وثلاثون ألف دينار وحلى وحوائص وكلوتات وكمرانات أكثر من ثلاثين ألف دينار، فعظم فخر الدين فى أعين الناس بذلك الأمر .

الأمير شمس الدين كرتيه[(١)] .

مات فى هذه السنة بغزة، ودفن بها، وكان أميرا كبيرا، شجاعا مقداما ، تترى الجنس .

الأمير بدر الدين[(٢)] الدواداري يعرف بالمغربى ، كان أصله من المغرب، وعمل دوادارًا للسلطان لاجين ، وكان على عمارة جامع أحمد بن طولون ، وكانت له معرفة وخبرة ، ومن غريب ما اتفق له أن كاتب السر القاضى شرف الدين ابن فضل الله كان قد مرض وانقطع أياما ، فأمر السلطان للدوادارى هذا أن ينزل إليه ويسلم عليه من جهة السلطان، فنزل إليه فوجده على غاية ما يكون من الضعف،

(١) ورد اسمه « أقسنقر كرتيه » فى السلوك جـ١ ص ٨٨٤ .
وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة — مخطوط جـ٩ ورقة ٢٠٥ ب .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : السلوك جـ١ ص ٨٨٤ .

فرجع إلى السلطان ، فقال له السلطان : ما رأيت من حاله ؟ فقال ياخوند : ابصر كاتب سر[1] غيره فإنه مايجى منه شيء ، وبعد سبعة أيام توفى الدواداري وطلع كاتب السر وسلم على السلطان وعزاه فى الدواداري ، فتعجب السلطان من أمره وقال : لا إله إلا الله كان الدواداري يريد[2] أن يعزينا فى كاتب السر ، فعزانا كاتب السر فيه .

الأمير بهاء الدين قرا أرسلان[3] المنصوري .

مات بدمشق فى هذه السنة ، وكان من أكابر الأمراء المنصورية ، ولما مسك سيف الدين جاغان بدمشق مع من مسك من الأمراء ، لما قتل السلطان لاجين ركب قرا أرسلان هذا فى موكب النيابة والعصابة على رأسه ، وحكم وكتب على القصص ، وسولت نفسه أن يكون نائبا مستقلا ، وأن الأمراء لا يستكثرون نيابة دمشق عليه لأنه كان يدعى أنه أحق من بيبرس وأقوش الأفرم والبرجية ، ولم تطل مدته ، وتوفى[4] بقولنج أصابه .

الأمير سيف الدين تمربغا[5] .

مات فى هذه السنة ، بطرابلس ، وكان من الصور المبدعة فى الحسن والجمال ، وكان السلطان لاجين من الناظرين إليه ، فحسده منكوتمر على ذلك واختار

(١) « كاتب السر » فى الأصل .

(٢) « ظن الدوادار » فى السلوك جـ١ ص ٨٨٢ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، السلوك جـ١ ص ٨٨١ .

(٤) « فى ثانى جمادى الأولى » — السلوك .

(٥) وله أيضا ترجمة فى : السلوك جـ١ ص ٨٨٢ .

بعده عنه، فسيره صحبة الملك الناصر إلى الكرك، ثم نقله من بعد ذلك إلى طرابلس فتوفى بها[(١)] .

وقال صاحب النزهة : كان فى الكرم والفتوة والمكارم السنية على جانب عظيم ، وكان يميل إلى اللهو والطرب ، مولعا بالشراب .

قال : والذى شاهدت من كرمه [١٩٢] أن السلطان أنعم عليه ليلة سفره بألف دينار ، فحضرت مجلسه تلك الليلة فرأيته مغمورا بالطيب ، والبليبل شاعر السلطان ومُغنّيه جالس عنده ، فصار يغنى والذهب مسكوب بين يديه ، فشرع يفرقه على من حضر فى مجلسه هذا ، فأعطى المغنى المذكور ورفقته أكثر من غيرهم ، وكان له بابا يخدمه من قديم الزمان ، فقال له : أنت قد كبرت ولا تقدر تجىء معنا ، فأعطى له ثلاثمائة دينار .

قال : وأعطانى تسعين دينارا ، رحمه الله .

الأمير جمال الدين أقوش[(٢)] المغيثى، نائب البيرة[(٣)] .

توفى فى هذه السنة ، وكان كبير القدر ، فارسا ، شجاعا مقداما ، أقام فى البيرة نائبا نحو أربعين سنة .

---

(١) « وله مسجد بالقرب من الميدان التحتانى بين القاهرة ومصر » — السلوك جـ١ ص ٨٨٢ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : نهاية الأرب — مخطوط جـ٢٩ ورقة ١١١ ، السلوك جـ١ ص ٨٧٩ ، تذكرة النبيه جـ١ ص ٢١٦ .

(٣) البيرة : بين حلب والثغور الرومية — معجم البلدان .

الملك المظفر تقى الدين محمود[1] بن الملك المنصور ناصر الدين محمد بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب صاحب حماة ، وابن ملوكها كابرا عن كابر.

توفى يوم الخميس الحادى والعشرين من ذى القعدة منها ودفن ليلة الجمعة، وكانت مدة ملكه خمسة عشر سنة وشهرا واحدا ويوما واحدا ، وانقطع ملك بنى أيوب من حماة بموته ، وتولاها بعده قراسنقر المنصورى[2] إلى أن ردت إليهم فى سلطنة الناصر الثالثة .

نجم الدين أيوب بن السلطان الملك الأفضل على بن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، مات بدمشق فى الرابع عشر من ذى الحجة منها .

وممن توفى فى هذه السنة بحلب وغيرها[3] : الأمير سيف الدين البسطى ، وأحمد شاه ، وناصر الدين [محمد[4]] بن سنقر الأقرع ، وعين الغزال ، وبدر الدين كيكلدى بن الصرية ، وسيف الدين قطبية ، وسيف الدين طقطية[5] ، وقيل :

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، نهاية الأرب ـ مخطوط جـ ٢٩ ورقة ١١٠ ، درة الأسلاك ص ١٤٢ ، النجوم الزاهرة جـ٨ ص ١٨٩ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٥ ، شذرات الذهب جـ٥ ص ٤٤٢ ، السلوك جـ١ ص ٨٨١ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ١٣٦ رقم ٢١٥ ، العبر جـ٥ ص ٣٨٩ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢١٤ .

(٢) هو قراسنقر بن عبد الله المنصورى ، الأمير شمس الدين ، المتوفى سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م . ـــ المنهل الصافى ، الدرر جـ٣ ص ٣٣٠ رقم ٣٢٤٥ .

(٣) « ومات بحلب من المجردين » ـ السلوك جـ ١ ص ٨٨٢ .

(٤) [ ] إضافة من السلوك للتوضيح .

(٥) « طقطاى » فى السلوك جـ ١ ص ٨٨٢ .

وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى .

إن طقطيه توفى بمصر فى سمنسود بلده ، وذلك أنه كان قد أخـذ دستورا وسافر إليها وأقام بهـا أياما ، وأن منكوتمر سير إليه من تحيل على طباخـه حتى سمـه فى الطعام ، فأحس بالوجع ونزل فى الحراقة وما وصل إلا وقد توفى .

وهؤلاء كانوا من أمراء الدولة الأشرفية تحـيل منكوتمر على هلاكهم ، بعضهم بالسم فى القمز ، وبعضهم فى الطعام .

* * *

تنـــويه

يود المحقق أن يوجه الشكر إلى أعضاء لجنة التـاريخ بمركز تحقيق التراث الذين قاموا بمراجعة تجارب المطبعة ، و إعداد كشافات الكتاب وهم :

١ – السيدة / نجـــوى مصطفى كامل .

٢ – السيد / على صالح حافظ .

٣ – السيد / عوض عبد الحليم حسن .

٤ – السيدة / لبيبة إبراهـيم مصطفى .

فصل فيما وقع من الحوادث

في السنة التاسعة والتسعين بعد الستمائة (*)

استهلت والخليفة : الحاكم بأمر الله (١) العباسي .

وسلطان البلاد المصرية والشامية وما يتبعها من الممالك : الملك الناصر محمد (٢) بن قلاوون ، ونائبه بمصر : سيف الدين سلار (٣) ، ونائب الشام : جمال الدين أقوش (٤) الأفرم ، ونائب حلب : سيف الدين بلبان (٥) الطباخي .

واستهلت هذه السنة والسلطان مُسافِر إلى جهة الشام كما ذكرنا (٦) ، فإنه خرج بعساكره من القاهرة في الرابع والعشرين من ذي الحجة من السنة الماضية ، ولما

(*) يوافق أولها يوم الإثنين ٢٨ سبتمبر ١٢٩٩ م .

(١) هو : أحمد بن محمد بن الحسن بن أبي بكر ، الخليفة الحاكم بأمر الله أبو العباس ، والمتوفى سنة ٧٠١ هـ / ١٣٠١ م — المنهل الصافي جـ ٢ ص ٢٩ رقم ٢٥٣ ، وانظر ما سبق بالجزء الأول من هذا الكتاب ص ٣٤٦ وما بعدها ، وانظر ما يلي في وفيات سنة ٧٠١ هـ .

(٢) توفي في ذي الحجة سنة ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م — المنهل الصافي .

(٣) هو : سلار بن عبد الله المنصوري ، قتل في جمادى الأولى سنة ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م — المنهل الصافي جـ ٦ رقم ١٠٧٣ .

(٤) هو : أقوش بن عبد الله المنصوري قلاوون الأفرم ، الدوادار ، نائب دمشق ، مات بهمذان سنة ٧٢٠ هـ / ١٣٢٠ م — المنهل الصافي جـ ٣ ص ٩ رقم ٥١١ .

(٥) هو : بلبان بن عبد الله الطباخي المنصوري قلاوون ، توفي سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ م — المنهل الصافي جـ ٣ ص ٤٢٢ رقم ٦٩٩ ، وانظر ما يلي في وفيات سنة ٧٠٠ هـ .

(٦) انظر ما سبق بالجزء الثالث من هذا الكتاب ص ٤٩٦ .

وصل إلى غزة أقام عليها مقدار شهرين لأجل التجهيز والتهيؤ(١) للتتار(٢)، وقد ذكرنا ما جرى من أمور الأُوَيراتية والعسكر مع السلطان على غزة، وكانت قضيتهم على منزلة تل العجول كما ذكرنا(٣)، ثم رحل السلطان ونزل على عسقلان، ثم رحل من عسقلان متوجها إلى الشام، ودخل دمشق يوم الجمعة الثامن من ربيع الأول من هذه السنة، ونزل بالقلعة.

وكان يوم دخوله مطر شديد ووحل كثير، ثم شرع فى الإنفاق على العساكر والخروج إلى لقاء التتار.

وفى يوم السبت ثانى يوم دخول السلطان دمشق، ورد [١٩٣] جمال كثيرة وقفول وخلق كثير، أولا فأولا، جافلين من أخبار التتار، وورد مملوك نائب حلب ونائب طرابلس وصاحب حماة وأخبروا(٤) بقدوم العدو، وأنه وصل إلى شاطئ الفرات، وأخبروا أنهم فى عسكر عظيم، ولما تحققوا ذلك اتفق رأيهم على النفقة فى العسكر، ودارت النقباء وعرّفوا سائر الأمراء والأجناد، وأصبحوا جالسين فى الميدان، وشرعوا فى تفريق النفقات، وسيروا لكل أمير مقدم ألف نفقة مُضافية وكان كل واحد منهم يطلب مُضافية ويُفرق عليهم ما أرسلوه إليه من النفقة، وكان لكل جندى منهم ثلاثين [أو](٥) أربعين دينارا مصرية(٦)، وكان واحد منهم

(١) « والتهياء » فى الأصل.

(٢) عن سبب خروج التتار، انظر ما سبق بالجزء الثالث من هذا الكتاب ص ٤٦١.

(٣) انظر ما سبق بالجزء الثالث من هذا الكتاب ص ٤٩٢ وما بعدها.

(٤) هكذا بالأصل « وقدم البريد من حلب وغيرها » فى السلوك جـ ١ ص ٨٨٥.

(٥) [و] فى الأصل، والإضافة تتفق مع السياق.

(٦) « لكل فارس ما بين ثلاثين دينارا وأربعين دينارا » فى السلوك جـ ١ ص ٨٨٥.

يأخذ النفقة من يده ويقلبها ويقول : إش أشترى اليوم بهذا ؟ (١) ، فوالله لأخليها حتى يأخذها التتار، فإن الأشياء من سائر الأصناف تحسنت وغلت جدًا خصوصا الدواب وآلات الحرب ، وكان الجندى منهم يقول : إش بقى إما ثلاثة أيام أو أربعة أيام ؟ ، فنحن أحق بالذى نشترى به ، ومنهم من كان يقول : لعن الله من ينظر إلى فرجة العدو ، فوقع فى نفوس الناس الخذلان والانكسار سلفا وتعجيلا (٢) .

ذكر خروج السلطان الناصر من دمشق بعساكره إلى لقاء قازان (٣) :

ثم خرج السلطان بجيش من دمشق (٤) يوم الأحد السابع عشر من ربيع الأول من هذه السنة ، ولم يتخلف أحد من الجيوش ، وخرج خلق كثير من المطوعة . ولما وصلوا إلى حمص ضربوا الدهليز (٥) بها ، وشرعوا يرسلون إلى العرب ويخبروهم بمجىء العدو (٦) . وشرعت الناس يتلقطون نصرة العدو على المسلمين ، واشتهر ذلك بينهم ،

---

(١) هكذا بالأصل ، والمقصود : ما أو ماذا ؟ .

(٢) « لكثرة ما أجرى الله على الألسنة بكسرة العسكر ، ولتمكن بعض الجند فى الأمراء البرجية » — السلوك جـ ١ ص ٨٨٥ .

(٣) هو : قازان ، وقيل غازان ، وقيل محمود ، ابن أرغون بن أبغا بن هولاكو ، توفى سنة ٧٠٣هـ / ١٣٠٣م — المنهل الصافى ، وانظر ما يلى فى وفيات سنة ٧٠٣هـ .

(٤) « بعساكر مصر » فى السلوك جـ ١ ص ٨٨٦ .

و « خروج الركاب الشريف من دمشق » — فى كنز الدرر جـ ٩ ص ٥ أ .

(٥) الدهليز : الخيمة التى ترافق السلطان فى الحرب ، وهى خيمة قائمة بذاتها ليس بجوانبها خيم صغيرة كالتى تقام عادة لتجهيز حاجات السلطان وقت السلم — Dozzy .

(٦) « وبعث العربان لكشف الأخبار » فى السلوك جـ ١ ص ٨٨٦ .

فوقع الجفل (١) والخوف فيهم حتى أن المقدم الذى كان مضافيه خمسين نفسا أو أربعين يفتقدهم فيجدهم إذا كثروا قدر عشرين أو خمسة وعشرين ، فصار رجال الحلقة (٢) يقول بعضهم لبعض : يا فلان من أش تنفع هذا وقت الغَيْبة خلّ البُرْجيّة الذين يأكلون مصر يقاتلون العدو .

ثم تواترت الأخبار بأن التتار وصلوا إلى وادى الخزندار عند سلمية ، فسارت العساكر إليهم ليهجموا عليهم ، وقطعوا ثلاث مراحل فى مرحلة واحدة ، فلما أشرفوا على مجمع المروج (٣) ركب التتار وطلّبوا ، وكان قازان فيهم وصحبته الأمراء المتوجهون إليه (٤) وهم : سيف الدين قبجق (٥) ، وسيف الدين بكتمر السلاح دار (٦) ، وفارس الدين ألبكى (٧) الظاهرى ، وسيف الدين عزاز الصالحى .

(١) جفل : نفر وشرد ، انجفل القوم : هربوا مسرعين — لسان العرب .

(٢) رجال الحلقة — أجناد الحلقة : تمثل هذه الفئة عماد الجيش المملوكى وقلبه ، وتتكون من العناصر المحترفة من مماليك السلاطين السابقين وأولادهم ، وهم أقرب الفئات إلى الجيش النظامى فى العصر الحديث على اعتبار أنهم جيش الدولة الذى لا يتغير بتغير السلطان — انظر المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٢١٥ وما بعدها .

(٣) فى وادى الخازندار ، وهو فيما بين حمص وحماة — السلوك جـ ١ ص ٨٨٦ هامش (٢) .

(٤) انظر ما سبق بالجزء الثالث من هذا الكتاب ص ٢٨٨ — ٢٨٩ .

(٥) هو : قبجق بن عبد الله المنصورى ، الأمير سيف الدين ، توفى سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م — المنهل الصافى .

(٦) هو : بكتمر بن عبد الله السلاح دار ، الأمير سيف الدين ، توفى سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م — انظر ما يلى فى وفيات سنة ٧٠٣هـ .

(٧) هو : ألبكى بن عبد الله الظاهرى ، الأمير فارس الدين ، توفى سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م — انظر ما يلى فى وفيات سنة ٧٠٢هـ .

ولما أشرفوا على طلائع العدو نادت الحجاب والنقباء بين العسكر بأن يرموا رماحهم ويعتمدوا على الضرب بالسيوف (١)، وكان هذا من سوء التدبير وعلامة الخذلان، فرمى جميع العسكر ما بأيديهم من الرماح إلى الأرض فحصل للخيل ضرر كثير منها لمصادمة حوافرها على أسنة الرماح وهى مطروحة على الأرض، وكان كل سنان منها يساوى مائة درهم إلى خمسين درهما، فنظروا إلى التتار وقد ملأوا الأرض.

ثم شرعت الأمراء والحجاب فى ترتيب الجيش، ورتبوا فى رأس الميمنة الأمير شرف الدين عيسى (٢) بن مهنى وأخاه فضلا، ومعهما آل مرا وآل على وآل كلب وجميع العربان، ونائب حلب ونائب حماة بعساكرهما (٣)، وفى الميسرة بدر الدين بكتاش (٤) [١٩٤] الفخرى، والأمير جمال الدين قتال السبع (٥)، والأمير علم الدين

(١) «واعتمدوا على ضرب السيف والدبوس» — فى السلوك جـ ١ ص ٨٨٦.

(٢) هكذا فى الأصل، وكذلك فى السلوك جـ ١ ص ٨٨٦.

ومن المعروف أن الأمير شرف الدين عيسى بن مهنا توفى سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م، وتولى مكانه ولده الأكبر حسام الدين مهنا — انظر ما سبق بالجزء الثانى من هذا الكتاب ص ٣٣٦.

وتوفى مهنا بن عيسى بن مهنا، أمير آل فضل سنة ٧٣٥ هـ / ١٣٣٤ م — المنهل الصافى.

(٣) «ويليهم الأمير بلبان الطباخى نائب حلب بعساكر حلب وحماة» — فى السلوك جـ ١ ص ٨٨٦.

(٤) هو: بكتاش بن عبد الله الفخرى، أمير سلاح، توفى سنة ٧٠٦ هـ / ١٣٠٦ م — المنهل الصافى جـ ٣ ص ٣٨٥ رقم ٦٧٥، وانظر ما يلى فى وفيات سنة ٧٠٦ هـ.

(٥) هو: أقوش (أقش) بن عبد الله المنصورى اللاورن، الأمير جمال الدين، المعروف بقتال السبع، توفى سنة ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م — المنهل الصافى جـ ٣ ص ٢٦ رقم ٥١٧.

الدوادارى (١)، وطفريل الإيغانى (٢)، والحاج كَرْت (٣) نائب طرابلس، وطُلْب الأمير حسام الدين [لاجين] (٤) الأستادار وفيه الأمراء الطبلخانات من بقية الظاهرية ومضافوها، وفى القلب جمهور العسكر وفيهم سيف الدين سلار، وركن الدين بيبرس (٥)، وسيف الدين برلغى (٦) ومُضَافوه، وسيف الدين قطلوبك (٧) الحاجب ومُضَافوه، والأمير عز الدين أيبك (٨) الخزندار ومضافوه، وجعلوا الجناحين المماليك

(١) هو: سنجر بن عبد الله البرلى التركى الصالحى، الأمير علم الدين أبو موسى الدوادارى، المتوفى فى رجب سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م — المنهل الصافى جـ ٦ رقم ١١٠٩، وانظر ما يلى فى وفيات السنة.

(٢) «طفريل الإتقانى» فى الدرر، وهو تحريف، وفيه توفى سنة ٧٠٧ هـ — الدرر جـ ٢ ص ٣٢٣ رقم ٢٠٢٩.

وطفريل هذا من مماليك الأمير إيغان بن عبد الله الركنى بيبرس، المعروف بسم الموت — انظر المنهل الصافى جـ ٣ ص ١٨٧ رقم ٦١٢.

(٣) هو: كرت بن عبد الله المنصورى، الذى استشهد فى هذه الوقعة — المنهل الصافى.

(٤) [ ] إضافة من السلوك جـ ١ ص ٨٨٦ للتوضيح. وهو: لاجين الرومى، الأمير حسام الدين، توفى سنة ٧٠٢ هـ، انظر ما يلى.

(٥) هو: بيبرس بن عبد الله المنصورى قلاوون الجاشنكير، الذى تسلطن سنة ٧٠٨ هـ/١٣٠٨م ولقب بالملك المظفر، وقتل سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م — المنهل الصافى جـ ٣ ص ٤٦٧ رقم ٧١٨.

(٦) هو: برلغى بن عبد الله الأشرفى، الأمير سيف الدين، قتل سنة ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م — المنهل الصافى جـ ٣ ص ٣٥٧ رقم ٦٦٣.

(٧) هو: قطلوبك بن عبد الله المنصورى، حاجب الحجاب، كان يعرف بالكبير، قتل سنة ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م — المنهل الصافى، الدرر جـ ٣ ص ٣٣٧ رقم ٣٢٦٤.

(٨) هو: أيبك الطويل الخازندار المنصورى، الأمير عز الدين، المتوفى ٧٠٦ هـ/١٣٠٦م — انظر ما يلى.

السلطانية ، ورتبوا أن يكون الأمير حسام الدين [لاجين](١) الأستادار صحبة السلطان يحفظه ، وجعلوه فى موضع بعيد عن الملاقاة خشية عليه ، ورسموا للأمير علم الدين أن يكون سنجق(٢) السلطان منعزلا عنه كى لا يُعرف أنه تحت الأعلام فيُقْصد ، ورتبوا جماعة من الزراقين(٣) نحوا من خمسمائة مملوك فى مقدمة الجيش .

وفى ذلك الوقت حصل للأمير بيبرس إسهال مفرط وحرارة عظيمة حتى ما بقى يمكنه الركوب على الفرس ولا الثبات على ظهره ، فأركبوه المحفة ،وأبعدوه عن الملاقاة .

وأخذ الأمير سلار الحجاب ومعهم الفقهاء ، وداروا على العسكر جميعهم ، وهم يتلون الآيات المناسبة للجهاد ، ويحرضون للجهاد وتوطين النفس على الملاقاة حتى غشى الناس البكاء والتوجع .

وأما قازان فإنه طلب مقدمى التوامين(٤) وأمرهم أن أحدا منهم إذا رأى جيش المسلمين لا يحمل عليه ولا يتحرك من مكانه إلى حين يرى غريمه يدخل عليه ،وأراد بذلك تضعيف خيل المسلمين وكسر همة الفرسان ، وأن يُمَكّن رماته من رمى

(١) [ ] إضافة من السلوك جـ ١ ص ٨٨٦ للتوضيح .

(٢) سنجق — سناجق : لفظ تركى يطلق فى الأصل على الرمح ، والمقصود به الرايات والأعلام السلطانية — انظر صبح الأعشى جـ ٤ ص ٨ ، جـ ٥ ص ٤٥٦ ، ٤٥٨ .

(٣) زارق — زراقون : هو الذى يحمل المزراق ، وهو عود من خشب مجوف فى قصبته ماء مهلك ، ويكون قصد الزارق وجه الخصم أو الدابة . الجيش المصرى جـ ٢ ص ٤٩ .

(٤) التومان — التوامين : فرقة من الجند يبلغ عددها عشرة آلاف مقاتل — صبح الأعشى جـ ٤ ص ٤٢٤ .

السهام، لأن ذلك أثبت لهم وأسكن ، وكذلك كان، فإنه لما وقعت الصدمة، وتحركت العساكر ، وأوقد الزراقون نفطهم، واعتقد المسلمون — على ما عهدوه من اللقاء فى المصاف — أنه ساعة يحمل الجيش يحمل أيضا جيش العدو ، فتقع الصدمة من الطائفتين ، ويعطى الله النصر لمن يشاء .

ولما حملت العساكر وخرجت الخيول بقوة بأسها ، وحدة شوطها ، حتى قربوا من وجه العدو ، لم يتحرك منهم أحد ، ولا انزعج جيشهم ، فلما شاهدوا ذلك منهم قلّ عزمهم ، وانطفأ النفط الذى كان مع الزراقين فى مقدم الجيش، لأنهم كانوا أوقدوه من بُعد على أنهم يتقدمون لهم ، فبينما تقدم عسكر المسلمين إليهم مع بعد المسافة وثبات العدو وعدم حركتهم فرغ البارود ، وبردت الهمة ، بُعيد ذلك حملت التتار حملة صادقة حتى اختلطوا بالمسلمين (١) ، وأصابت سهامهم خيلا كثيرا منهم ، ورموا فرسانها .

وأول ما أرجفوا طائفة العرب بأن أوهنوهم وأوهنوا خيولهم بالسهام ، فكانوا سبب كسر الميمنة وفسادها ، فإن الميمنة ولّت على أعقابها، فجاءت الهزيمة على الجيش الحلبى ، فاستقلوا بأنفسهم ، وأدركهم الموت ، فرجع العسكر الحلبى

(١) « فلما كان نهار الأربعاء تاسع وعشرين ربيع الأول التقى الجيشان » — فى كنز الدرر جـ ٩ ص ١٦ . فى نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٤١١ « يوم الأربعاء ثامن وعشرين شهر ربيع الأول » .

وفى التوفيقات الإلهامية أن أول شهر ربيع الأول يوم خميس ، وعلى ذلك يكون الأربعاء الذى تمت فيه المعركة يوم ٢٨ ربيع أول ، ويؤكد ذلك ما ورد فى التحفة الملوكية : « وذلك فى يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شهر ربيع الأول من سنة تسع وتسعين وستمائة » — التحفة الملوكية ص ١٥٧ .

على العسكر الحموى ، ولم يقف ، وتمت الهزيمة على ميمنة المسلمين من ميسرة العدو .

وأما ميسرة الإسلام فإنها صدمت ميمنة [١٩٥] العدو فقلقلتها وفرقت شملها .

ولما عاين قازان انهزام ميمنته اعتزل فى نحو ثلاثين فارسا وأخذ من جيشه جانبا ، ثم ركبت أخرياتهم الذين لم يركبوا فى الصدمة الأولى وردّوهم وقوّوهم ، فانكسر المسلمون ، ﴿ فإنا لله وإنا إليه راجعون ﴾[1] .

وكان السلطان الناصر قد انعزل فى جمع قليل من المماليك ، ومعه من الأمراء حسام الدين الأستادار لاغير ؛ فكان يبكى وينظر إلى السماء ويقول : ياربّ لا تجعلنى كعب الشؤم على المسلمين[2] ، ويدعو الله تعالى ويتضرع إليه ويُريد أن يلقى نفسه بين القوم وحسام الدين الأستادار يردّه ويمنعه .

وقال صاحب النزهة : وكان الذى مع السلطان فى ذلك الوقت اثنى عشر مملوكا من الشباب ، وكنت أنا الثالث عشر .

وقال بيبرس فى تاريخه : لما انهزمت المسلمون وولّوا تفرقت عساكرهم المجتمعون ، ونهب العدو الخيول والعُدَد والخزائن والأسلحة ، وتبعوهم إلى حمص ونزلوا عليها ، ففتحها لهم متوليها بالأمان وهو محمد بن الصارم ، وأخذوا الدهاليز السلطانية والبيوتات والوطاقات[3] ورحلوا إلى دمشق .

(١) جزء من آية رقم ١٥٦ من سورة البقرة رقم ٢ .

(٢) « يارب ، لا تجعلنى كعبا نحسا على المسلمين » — فى السلوك جـ ١ ص ٨٨٧ .

(٣) « وبها الخزائن السلطانية وأثقال العسكر » — فى السلوك جـ ١ ص ٨٨٩ .

وطاق — وطاقات : لفظ تركى بمعنى الخيمة — محيط المحيط .

وأما السلطان الناصر فإنه ساق بمن معه نحو بعلبك ، ولو تربص فى ذلك الوقت لكان أوقع نفسه بيده إلى التهلكة ، فكان سببا لفساد المملكة[1] .

ولقد فعل الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومى يوم بدر مثل ذلك ، وقال معتذرا هنالك هذه الأبيات :

الله يعلمُ ما تركتُ قتالهم حتى عَلَوْا فرسى بأشقر مُزْبد
وعلمتُ أنى إن أقاتل واحدا أقتل ولا يضرر عدوى مشهدى
فصددت عنهم والأحبة فيهم طمعا لهم بعقاب يوم مفسد[2]

ذكر من استشهد فيها من المسلمين :

كانت الوقعة يوم الأربعاء الثامن والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة ، واستشهد فيها جماعة فازوا بالثواب الجزيل منهم : الأمير سيف الدين كرت[3] نائب السلطنة بالفتوحات ، وكان من الأمراء الأعيان الفرسان الشجعان ، وكان كثير الصدقة والخير والمعروف ، وله أوقاف على وجوه البر والصدقات ، وكان مشهورا بالنخوة والمروءة ، وكان عمل حاجبا ، وأمير آخور ، ونائب طرابلس والفتوحات .

---

(١) لايوجد هذا النص فى مخطوط زبدة الفكرة الذى بين أيدينا ، وإن كان يوجد معناه مختصرا — زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٠٦ ب .

(٢) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٠٧ أ .

(٣) « سيف الدين كرد » فى زبدة الفكرة ، وهو : كرت بن عبد الله المنصورى ، وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، السلوك جـ ١ ص ٨٨٥ .

ومنهم : الأمير ناصر الدين محمد[1] بن الأمير عز الدين الحلى، والأمير بدر الدين بيليك[2] المنصورى المعروف بالطيار، وكان من أمراء دمشق .

ومنهم : الأمير سيف الدين نوكيه[3] التترى ، مات من أثر جراحات أصابته ، لحمل فى محفة إلى أن توفى ودفن بأرض عسقلان أو قريبا منها ، وكان هذا وصل مع الوافدين فى الأيام الظاهرية وأقام قليلا حتى مسكه الملك الظاهر وحبسه بثغر الإسكندرية، وأقام إلى أن تسلطن الملك المنصور قلاوون، ثم جعل له الأفراح وأعطى له تقدمة ألف .

ومنهم : الأمير جمال الدين[4] بلبان التقوى[5]، وكان من أمراء طرابلس . والأمير ركن الدين بيبرس العلمى ، وكان نائبا بالمرقب[6] . والأمير صارم الدين أزبك الطغريلى، وكان نائبا ببلاطنس . والأمير سيف الدين أقوش كُرجى الحاجب .

وقال ابن كثير : واستشهد نحو ألف نفس من الحلقة والمماليك ، وهؤلاء [١٩٦] الأمراء منهم مَن كان استشهاده فى المعركة ، ومنهم من أصابته جراحة فيها فمات بعدها ، وفُقد فى المعركة قاضى القضاة الحنفية حسام الدين الرازى[7] ،

---

(١) هو : محمد بن أيدمر الحلى ، الأمير ناصر الدين — السلوك جـ ١ ص ٨٨٥ .

(٢) انظر السلوك جـ ١ ص ٨٨٨ .

(٣) « نوكاى التترى » — فى السلوك جـ ١ ص ٨٨٨ .

(٤) « سيف الدين » فى زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٠٧ أ .

(٥) انظر السلوك جـ ١ ص ٨٨٨ .

(٦) « بيبرس الفتمى نائب قلعة المرقب » — فى السلوك جـ ١ ص ٨٨٨

(٧) هو : الحسن بن أحمد بن الحسن بن أنوشروان ، الرازى الحنفى ، قاضى القضاة حسام الدين ، ثم الرومى الحنفى — انظر ما يلى فى وفيات سنة ٦٩٩ هـ .

وأسر التتار عامة العوام والأتباع والغلمان والرعاع (١) .

وقال صاحب النزهـة : واستشهد أيضا عـلاء الدين على بن الشيخ الصالح إبراهيم الجعبرى .

وقال : وأما الأمير بدر الدين بيليك الطيار فإنه قتل فى طريق بيْسان ، فإنه لما انهـزم العسكر — وكان من أمراء دمشق — أخذ حريمـه عند وصوله إلى دمشق وخرج بهم ، وما زال إلى أن وصل حَرّة بيسان ونزل بأهله للراحة ، وإذا بجماعة من المغل الذين كانوا صحبة مولاى قد أدركوه ، وكان معه تقدير أحد عشر مملوكا ، فلما رآهم وقـد قصدوه ركب ، وأخذ رمحه بيده ، وشدّ لحريمه خيلا فأركبهم عليها ، وسيّر معهم سـتة أنفس ، وقال : انجوا بأنفسكم وها أنا واقف إلى أن تبعـدوا . فقالوا : يا خوند إرجع معنا لعلنا أن نفوتهم . قال : لا والله ما أنهزم قدامهم ولكن أموت ولا أمكنهم يصلون إلى حريمى وعينى تنظر ، فلما رآهم المغـل عطفت طائفة منهم إليهم ، فلما رآهم مال إلى نحوهم ، ولـما رأوه مقبلا إليهم ظنوا أنه يسالمهم فى أمرهم إلى أن صار معهم ، فطعن واحدا فأرماه ، وطعن آخر أيضا فأخرج حدقته ، وقتـل آخر ، وقد بهتوا لفعله ، ثم تكاثروا عليه إلى أن أرموا فرسه ، فوقـع على الأرض ، وجرح منهـم آخر وهو راجل ، ثم قُتل رحمـه الله شهيدا دون حريمـه وماله ، وكان هذا من جمـلة المماليك المنصورية ، وكان صاحب مروءة ومكارم ، وصاحب شجاعة وفروسـية .

---

(١) هذا النص مختصر فى المطبوع من البداية والنهاية الذى بين أيدينا — انظر : البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٦ — ٧ .

ومن الذين ماتوا من جراحة جرح فى الوقعة المذكورة: سيف الدين الدوادارى(١) الصالحى النجمى ، وكان قد جُرح فى رجله بسهم وعند هزيمة العسكر رجع إلى أن وصل مع نائب حصن الأكراد إليها ، فأقام بها يعلل جرحه إلى أن توفى .

وكان كبير القدر، فإنه عمل دوادارية(٢) الملك الصالح(٣) ، وبقى بعده يتنقل من حال إلى حال إلى أن كان له مائة فارس بمصر وخمسون بدمشق ، ومازال معظما فى سائر الدول ، وكان له سماع عالٍ فى الحديث ، وله علم وفقه وديانة ، وهو الذى أنشأ القاضى بدر الدين(٤) بن جماعة وأنشأ فقهاء كثيرين ، ومع هذا كان صاحب شجاعة وفروسية ، وله غارات كثيرة حتى نقل عن بعض مماليكه أنه صنع له طوبة من غبار الغزوات التى حضرها وغزا فيها ، وأوصى أن تكون هذه الطوبة تحت رأسه إذا دفن ، وكان إذا ركب يكون شعره على قربوس سرجه الورانى وجميعه أبيض ، وكانت له صدقات وبر وأوقاف على عتقائه ، وله بالقدس الشريف رباط رتب فيها شيخا وفقراء ووقفا جاريا ، ولما ورد

---

(١) هو : سنجر الدوادارى التركى البرنلى . انظر ما يلى فى وفيات السنة .

(٢) دوادارية : صاحب هذه الوظيفة هو الدوادار ؛ وهو الذى يحمل دواة السلطان أو الأمير ، ويتولى أمرها ، وما يلحق ذلك من المهمات ، مثل تبليغ الرسائل ، وتقديم القصص ... الخ — صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٩ ، جـ ٥ ص ٤٦٢ .

(٣) هو : أيوب بن محمد بن محمد بن أيوب ، الملك الصالح بن الملك الكامل بن الملك العادل نجم الدين أيوب ، توفى سنة ٦٤٧ هـ/ ١٢٤٩ م — المنهل الصافى جـ ٣ ص ٢٢٧ رقم ٦٣٤ .

(٤) هو : محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة ، قاضى القضاة بدر الدين الكنانى الحموى الشافعى ، المتوفى سنة ٧٣٣ هـ/ ١٣٣٣ م — المنهل الصافى .

خبره إلى دمشق صلّوا عليه صلاة الغائب فى جامع بنى أمية وسائر جوامع دمشق ، وكذلك صلوا عليه صلاة الغائب بمصر .

وذكر فى النزهة أيضا : أن سيف الدين كُرت نائب طرابلس قال للأمراء فى ذلك اليوم : ها أنا أحمل لعل الله يرزقنى الشهادة فى هذا اليوم ، ثم التفت إلى الأمير جمال الدين قتال السبع وقال : يا أمير وصيتى [١٩٧] لك على أهل بيتى ، فإنى والله ممن يُستشهد فى هذا اليوم ، فإنى رأيت رؤيا تدل على الشهادة : رأيت فى هذه الليلة طائر أخضر يرفرف على رأسى ويقول لى : أتل (ربنا لا تزغ قلوبنا)[1] الآية . فتلوتها إلى آخرها ، ثم حملنى على جناحه الأيمن إلى أن وضعنى فى روضة خضراء ، ثم انتبهت ، فهذا يدل على الشهادة ، ثم لما صدموا العدو كان هو أول مَن رمى فرسه بسهام كثيرة ، فأصاب سهم منها نحره ، فوقع إلى الأرض والسيف بيده مسلول يذبّ به عن نفسه إلى أن ضرب بسهم فسقط إلى الأرض ، وقُتل من مماليكه عليه نحو ستة عشر مملوكا ، وجُرح نحو اثنى عشر ، وقُتل من عسكر طرابلس فى تلك الوقعة ما ينيف على أحد عشر نفسا ، وقُتل من كل أمير جماعة من المماليك وجرح آخرون .

وجُرح الأمير بدر الدين أمير سلاح بضربة سيف فى يده ، وجُرح الأمير جمال الدين قتال السبع فى فخذه ، ولما نظر أمير سلاح إلى الهزيمة ورأى جرحه بكى بكاء شديدا وقال لمماليكه : هاتوا لى حصانى الدُوَيك ، وكان قد اشتراه

---

(١) آية رقم ٨ من سورة آل عمران رقم ٣ .

بثلاثمائة دينار، وحياصة[1] ذهب قيمتها مائتا دينار، وخلعة أطلس، وكلوتاة[2] زركش، ثم بعد أيام رأى بائع الفرس المذكور - وهو راكب عليه - فقال له: طاب خاطرك بالثمن الذى دفعته إليك. فقال: والله ياخوند كان أملى فيه أكثر من ذلك الثمن. فلما سمعه يقول ذلك قال له: امش معى إلى البيت، فمشى معه حتى أتى داره، فخلع عليه خلعة بكلوتاة وحياصة ذهب وأعطاه ثلاثمائة دينار، وكانت هذه القضية فى دولة كتبغا[3]، فبلغ ذلك بتخاص والأزرق وغيرهما فصار كل واحد منهم يسأله ويطلب منه هذا الفرس إنعاما عليه، فيبعث إلى كل منهم حصانا مشتراه خمسة آلاف درهم وصحبته خمسة آلاف درهم ويقول له: إنى قد حبست هذا الفرس فى سبيل الله يركبه الغزاة والمجاهدون فى سبيل الله، ثم إن مماليكه أحضروا الفرس المذكور فى ذلك اليوم لما طلبه، وكان جنيبا مع أحد الأوشاقية[4] فقال له مماليكه: ياخوند هذا فرس قوى شديد وأنت اليوم تضعف عن رد عنانه لما فيه من القوة، وكان من شدته رتب له أوشاقيا

---

(١) الحياصة: الحزام أو المنطقة، ومنها مايكون من ذهب مرصع بالفصوص، ومنها ماليس كذلك — صبح الأعشى جـ ٢ ص ١٣٤.

(٢) كلوتة — كلوتات: غطاء الرأس — انظر صبح الأعشى جـ ٤ ص ٦، ٣٩، المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٩٨.

(٣) هو: كتبغا بن عبد الله المنصورى، السلطان الملك العادل زين الدين التركى، سلطان الديار المصرية، ثم نائب صرخد، ثم حماة، توفى سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م — انظر ما يلى فى وفيات سنة ٧٠٢هـ.

وكانت دولة كتبغا فى الفترة من ٩ محرم ٦٩٤هـ وحتى خلع فى ٢٢ محرم سنة ٦٩٦هـ — انظر عقد الجمان جـ ٣ ص ٢٦٧ — ٣٤٧.

(٤) الأوشاقية (الأوجاقية): واحدها أوشاقى (أوجاقى)، وهو الذى يتولى ركوب الخيل للتسيير والرياضة — صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥٤.

وحده برمح ركوبه وخدمته ، ولم يتسمع منهم فركبه ، فلما قعد على ظهره ألوى عنانه[1] نحو العدو وقال للأمراء : من أراد الشهادة فليتبعنى ، فرجعت الأمراء إليه وسألوه أن يرجع فأبى وقال : والله كنت منتظرا لهذا اليوم ، وقال له الأمير علم الدين الدواداري[2] — وكان قد خرج فى مواضع كثيرة — : يا أمير أنت اليوم قوام العسكر وأتابكه ، وما فينا أحد إلا وقد جرح جراحات ومعظم مماليكنا قد قتلوا ، وما يحل أن تلقى نفسك فى التهلكة ، فلم يلتفت إليه ، بل قال : يا أمير مابقى فينا شيء ، فهل تنتظر خلاف هذا اليوم ؟ فتقدم نحو العدو ، واتفق رأى مماليكه على منعه وساق بعضهم إليه وأخذ برأس فرسه إلى نحو حمص وبعضهم [١٩٨] ضرب كفل فرسه بالمقرعة ، فخرج من تحته مثل البرق الخاطف ، وأرادوا بذلك إبعاده عن الفرس حتى يأخذوا بعنانه ويتوجهوا إلى طريق النجاة ، فلما أحس الفرس بالضرب فر مثل الريح العاصف حتى لم يروا منه إلا غباره ، ولم يزل يجرى على ميدان واحد إلى أن وصل إلى نهر حمص ، فقوى عليه العطش من كثرة الجرى وشدة العدو إلى أن أرمى نفسه فى النهر ، وشرع يعبّ من الماء ، وأمير سلاح ماسك بيديه الشنن رافعه على أن يرفع رأسه من الماء فلا يرفع ، فشرب حتى انتفخ فؤاده ، ثم طلع من النهر ووقع طائحا وقد انفقع من شرب الماء ، فلحقه مماليكه وأركبوه جنيبا آخر ، فكان هذا يُعَد من حسناته حيث اشترى فرسًا بمائتى ألف درهم لركوب ساعة واحدة .

---

(١) العنان — الأعنة ، من أجزاء اللجام : وهو الجزء الذى يقبض عليه الفارس — الخيل ورياضتها ص ٨١ .

(٢) « الديوداري » فى الأصل ، والتصحيح مما سبق .

وقال صاحب النزهة : ومن قـوة خذلان العسكر الإسـلامى عاينت الأمـير حسام الدين لاجين المعروف بزيرياح ومعه أعناق الحسامى من المقدمين ومعهما نحو ثلاثة آلاف فارس منهزمين ، وقد أفرد فى أعقابهـم رجل واحد من المغـل ولا يلتفت إليه أحد منهم ، ورأيت فتى شابا من العرب راكبا على حجرة شـقراء وليس عليه شىء يمنع السهام وقد أخذته الحَمِية وهو يقول : يامسلمين أَش خلفكم مائمة إلا رجل واحد ، فلا يجيبه أحد ، فلَوى رأس فرسه عنهم ورجع إلى ذلك الرجل وهو يقول : اللهُ أكبر، فلما رآه ذلك الرجل مصمّما عليه ولّى فرسه ورجع عنهم ،وما كان ذلك الرجل ينتظر فى ذلك الوقت غير صناديق مفتوحة، وكلوتات زركش ، وحوائص ذهب ملقاة ، وأسـلحة ، ومسـناجب ، وأكياس ذهب ، ودراهم ، وخزائن الأمراء بما فيها .

ذكر ما جرى للعَسْكر بعد ذلك :

أما السلطان الناصر فإنه رجع فى طائفة من الجيش على ناحية بعلبك ، وسار إلى مصر ، وسافر جماعة من أهل دمشق من أعيانها وغيرهم إلى مصر كالقاضى إمام الدين الشافعى(١) ، وقاضى المـالكية جمـال الدين الزواوى(٢) ، وتاج الدين بن الشيرازى وعلم الدين الصوافى والى البَرّ ، وجمال الدين بن النحاس والى البلد ، والمحتسب ، وغيرهم وبقيت(٣) دمشق شاغرة ليس فيها حاكم ولارادع سوى نائب

(١) هو : عمر بن عبد الرحمن بن عمر بن أحمد ، قاضى القضاة إمام الدين القزوينى الشافعى ، المتوفى سنة ٦٩٩ هـ/ ١٢٩٩ م — انظر ما يلى فى وفيات سنة ٦٩٩ هـ .

(٢) هو : محمد بن سليمان بن يوسف الزواوى ، قاضى المـالكية بدمشق ، المتوفى سنة ٧١٧ هـ/ ١٣١٧م — شذرات الذهب جـ ٦ ص ٤٥ .

(٣) « وبقى » فى الأصل .

القلعة علم الدين أُرْجواش[1]، وهو مشغول عن البلد بالقلعة ، وأما العسكر تفرقوا فى كل ناحية ووصل بعضهم إلى القلاع القريبة من مكان الوقعة ، ونجى بنفسه مَن كان فيه نهضة ، وتوجه أقوام إلى جبال بعلبك وغيرها جياعا عُراة مشاة ، وتخطفت الجبلية بعض مَن سَلك تلك الطُرق وقتلوا منهم ونهبوا وسلبوا ، فكان هؤلاء عدوّا ثانيا ، وكل من كان يهرب يرمى خوذته من رأسه ويقطع فرقله بالسكين إذا لم يلحق حلها ويقطع البركستوان[2] المثمنة ، وكل ذلك قصدا للتخفيف[3] .

قال صاحب النزهة : ورأيت جماعة من مماليك السلطان تخرج من وسطه كيس الفضة ويُناوله لرفيقه ، فإن لم يأخذه سريعا وإلّا يرَميه من يده إلى الأرض ويَسُوق . قال : ورأى [١٩٩] الأمراء البرجية مع حسن أشكالهم وتزين لباسهم قد صاروا قطعة واحدة هاربين منهزمين ، وقازان فى أعقابهم وقد بسط جيشه من الجانبين وانفرد هو بنفسه فى صدر جيشه ورجل قدامه وبين يديه على فرسه طبل أكبر من طبل الجمالق يضرب به ساعة بعد ساعة ضربة واحدة ، وكلما سمعها الجيش زادت هزيمتهم وهربت فرقة منهم إلى ناحية البرية وسلكوا فيها وهلكوا بأجمعهم ، وفرقة سلكت ناحية البحر المالح فهلكوا ، ولم يسلم منهم إلّا الفرقة التى سلكت الطرق التى يسُلك فيها ، ولكن الذين سلكوا الجبال

---

(١) هو : أرجواش بن عبد الله المنصورى ، توفى سنة ٧٠١ هـ / ١٣٠١م — انظر ما يلى فى وفيات ٧٠١ هـ .

(٢) البركستوان — البركستوانات : غاشية الحصان المزركشة — صبح الأعشى ج ٤ ص ٦٢، ٨ .

(٣) « وألقوا من أنفسهم السلاح طلبا للنجاة » — السلوك ج١ ص ٨٨٨ .

قاسوا من أهلها ما قاسوا مثله من التتار ، وقتل من المسلمين خلق لا يعلم عددهم إلا الله تعالى .

وقال صاحب النزهة : وكان وصولنا إلى قلعة حمص والشمس فى الغروب ، فوجدنا أهلها فوق الأسوار يبتهلون إلى الله عز وجل بالدعاء وكانوا ينادون : يا مسلمون الرجعة الرجعة لا تُسلمونا إلى العدو (١) ، يا مسلمون المروءة المروءة ، ولم يلتفت إليهم أحد ، فتباكوا وبكت الناس وبكى السلطان الناصر ، ثم قال للأمير حسام الدين : يا أبى أنت ما قلت إن المسلمين يقفون ويُقاتلون نوبة ثانية فى حمص ومالى لا أنظر أحدا يقف ويقاتل . فقال : يا خوند ما يقاتلون إلا فى دمشق وقصدهم أن يستجروا العدو حتى يتعبوهم ويُدخلوهم فى مواضع ليس لهم خبرة بها ، وكل ذلك يريد به التعلل للسلطان لئلا يزداد خوفه .

قال الراوى : وما وصلنا إلى حمص إلا وأكثر الخيل قد وقفت ولم تتحرك خصوصا خيول الأمراء والمماليك المُوقرة ، ولما دخل الليل انقطع التتار من خلف عسكر المسلمين . قال : ثم وصلنا إلى بعلبك صبيحة الجمعة ونحن كلنا محتاجون إلى قوت أنفسنا ولخيولنا ، فوجدناها قد أغلقت ، وصعدت أهلها على الأسوار وكانوا يتناولون الفضة بالحبال ، فمنهم من يُعطى ما يطلبه صاحب الفضة ومنهم من يأخذ الفضة ويغيب من فوق السور ولا يراه أحد .

قال : ثم أصبحنا يوم السبت ودخلنا إلى دمشق وتلقتنا أهلها بالويل والثبور ، وما أقمنا فيها غير ساعة واحدة ووقع الصياح بأن طوالع العدو قد لاحت ، فخرجت الناس لا يلتفتون إلى شيء ، وأكثرهم خرجوا بلا زاد ، وأما أهل دمشق فمنهم

---

(١) « وصاحوا بالعسكر : « الله الله فى المسلمين » — السلوك جـ ١ ص ٨٨٨ .

من طلع القلعة ومنهم من توجه نحو القدس والخليل عليه السلام (١)، ومنهم من طلب قلعة صفد وقلعة كرك، ومنهم من أقام وتوكل على الله، وصارت الناس كأنهم يُساقون إلى المحشر يوم القيامة، فلا يلتفت الأخ إلى أخيه ولا الأب إلى ابنه ولا المملوك إلى سيده.

قال الراوى: وأما الفرقة التى كان سفرهم على الساحل فإنهم قاسَوْا شدة عظيمة من أهل جبل كسروان، فكانوا ينزلون إليهم ويمسكون عليهم المضايق، ويأخذون الجندى قبضا بالكف، ويأخذون ما معه، ويُرسلونه عريانا إذا أحسنوا إليه، وربما يقتلونه أو يُرسلون عليه حجرا من فوق فيهلك هو وفرسه، وكانوا قد استوقفوا [٢٠٠] جماعة كثيرة عن المسير، وقصدوا أن يأخذوا منهم ما يريدونه حتى يفتحوا لهم الطرق، فاتفق فى ذلك الوقت حضور طائفة من العسكر الذين هم صحبة الأمير بدر الدين أمير سلاح، وصحبته الأمير بلبان الطباخى نائب حلب وجماعة من الأمراء، فلما رأوا ذلك حملوا عليهم وأزاحوهم عن الطريق، فرجعوا، واجتمعوا جماعة كثيرة ووقفوا لمنع الأمراء أيضا، فلما رآهم الأمير بدر الدين مُصمِّمين على القتال رسم الذين معه أن يترجلوا وأن لا يتهاونوا فى أمرهم كيلا يدركهم التتار فيكونون بين العدوّين، فترجلوا وزحفوا عليهم وقتلوا منهم جماعة، فقام القتال بينهم من ضحوة النهار إلى الظهر، وجُرحت من جماعة أمير سلاح خلقٌ، فآخر الأمر كسروهم وفتحوا الطرق وذهبوا، وبعض الأمراء وراءهم ساقة لهم إلى أن وصلوا إلى غزّة، وأقام أمير سلاح فيها ينتظر المنقطعين من العسكر، والتحق به جماعة كبيرة من الناس والجند

(١) هكذا فى الأصل، والمقصود مدينة الخليل عليه السلام.

والأمراء، وهو يداوى المجروح، ويُركّب الراجل ، ويكسُو العارى ، ومن جملة ما وجده فى غرّة القاضى « فتح (١) » الدين بن القيسرانى ، فأركبه وكساه وصحبه إلى القاهرة .

وأما قازان، فإنه لما رأى أن جيش المسلمين قد انهزموا فرح فرحا عظيما، وقصد أن يلحق المسلمين ، فمنعه الأمير قفجق وقال له : لاتعجل فربما يكون لهم كمين ويكون انهزامهم هذا مكيدة منهم ، فقبل كلامه وتوقف عن اللحوق بهم، وإلا لو مشى وراء المسلمين لكان أخذ الجميع .

ولما أصبح يوم الخميس ورأى أن أخبار السلطان والعسكر قد انقطعت اطمأن ، وسَيّر إلى حمص وأخذ ما وجد فيها من الأموال والودائع والذخائر ، وقبض على من وجد فيها من الجند من الجرحى والمنقطعين ، وفيهم جماعة من الكتاب والموقعين وممن وقف فرسه ، ثم اقتضى رأيه أن يجرد أميرا يسمى بورى ومعه جماعة يكشفون الخبر، ثم توقف من ذلك خوفا أن يكون فى الطريق جماعة من عسكر السلطان يشوشون عليه ، ثم أرسل شخصا على هيئة جاسوس ليكشف خبر السلطان هل هو أقام بدمشق أم راح إلى مصر ؟، فخرج الرجل وغاب يوما وليلة ، ثم جاء وأخبر أن دمشق خالية ليس فيها لا سلطان ولاعسكر .

ولما سمع بذلك أمر بالمسير إلى الشام ، ولكنه انتظر المنهزمين من عسكره ، ثم رجع هو إلى مكان الوقعة وهو وادى الخزندار، بينه وبين تربة خالد بن الوليد رضى الله عنه مسافة نصف يوم أو دونه، فوجد هناك بعض الجند جرحى ممن

(١) «   » بياض فى الأصل ، والإضافة عما يلى ، فهو : عبد الله بن محمد بن أحمد ابن خالد القيسرانى، فتح الدين أبو محمد ، المتوفى سنة ٧٠٢هـ/ ١٣٠٣م — انظر ما يلى فى وفيات ٧٠٢هـ .

وقع فى الوقعة، ووجد من أصناف الأسلحة والأقمشة المفتخرة والحوائص الذهب والكلوتات الزركش والأكياس من الذهب والفضة مالا يوصف ، وكذلك من السروج الزركش والبركستوانات والقرقلات والخوذ ما عجزوا عن حمله ، وأما الدواب من الخيول المسومة فكان شيئا كثيرا واقفة من مكان المصاف إلى قرب حمص ، ورأى قازان من هذه الأشياء ما أذهله عن عقله ، فإن الدولة كانت جديدة وأمراؤها كانوا يفتخرون بأنواع [٢٠١] الزينة ، وكل منهم كان يُريد أن يزيد على صاحبه بالعدد المفتخرة والأشياء الحسنة .

وكان من جملة من أسره من حمص برهان الدين المنجم ، فلما أحضروه بين يدى قازان عرفه قفجق وبكتمر وقالا لقازان : هذا منجم عارف ، فلما رآه قازان أحضر إليه ابن الخواجا نصيرالدين الطوسى حكيم الزمان ، وكان هو عند قازان حكيما ومنجما ، كما كان أبوه نصير الدين عند هلاون وأمثاله ، ولما قدم هلاون الشام كان الخواجا نصير الدين معه كما ذكرنا .

فقال له قازان : سَلْ هذا المنجم كيف ما عرّف أستاذه الناصر بأمر هذه الواقعة ؟ فسأله وقال له : يا حكيم كيف حكمت على صاحب مصر وعسكره أن يلاقى عدوه فى مثل يوم الأربعاء وهو آخر الأربعاوات فى السنة (١) وهو يوم نحس مستمر ؟ فقال له : قد عَرَّفته ذلك ، وعَرَّفت أكابر عسكره ، ولم يسمعوا منى ونهرونى ، ولم يلتفتوا إلى كلامى ، وكان قد وقع ذلك ، فإن السلطان عند نزوله حمص طلب الأمير سيف الدين سلار والأمير ركن الدين بيبرس وشمس الدين الفارقانى وطلبوا برهان الدين هذا ، ثم شرع سلار يسأل من الفارقانى عن أحوالهم وكيف يكون أمرهم عند الملاقاة وأى الأيام يصلح لذلك ، وكان

(١) هكذا فى الأصل ، والأرجح أن يكون « فى الشهر » — انظر ماسبق ص ١٢ من تاريخ الموقعة ، ونظر باقى الفقرة .

الفارقاني له اليد في أحكام الفلك أكثر من برهان الدين المذكور . فقال له الفارقاني : يا خوند إن قدرت أن تؤخر الملاقاة مع العدو إلى مستهل الشهر تكون النصرة إن شاء الله لكم، وماعندي في هذا اليوم طائل ، وكان يوم الأحد . قال : ولا يوم الإثنين ولا يوم الثلاثاء وخصوصا أن يكون يوم الأربعاء فإنه يوم لا يحمد فيه لقاء العدو . فقال له سلار: إذا — وافانا عدو نقول له ، اصبروا حتى نبصر يوما جيدا للقاكم فيه . ما هذا الفشار ؟ ونهضوا من عنده مثل المطرودين .

ذكر ما جرى في دمشق بعد انهزام الجيش :

بتاريخ ليلة الأحد الثاني من ربيع الآخر[1] كسر المحبوسون بباب الصغير باب السجن ، وخرجوا منه قريبا من مائتي راجل ، فنهبوا ما قدروا عليه ، وجاءوا إلى باب الجابية فكسروا أقفال الباب الجواني وأخذوا من الباشورة ما شاءوا ، وكسروا أقفال الباب البراني وخرجوا منه على حمية ، فتفرقوا حيث شاءوا ، لا يقدر أحد على ردّهم ولا صدهم ، وعاثت الحرافشة في ظاهر البلد ، فكسروا أبواب البساتين ، وقلعوا من الأبواب والشبابيك وغير ذلك ما قدروا عليه ، وباعوه بأرخص الثمن ، هذا وسلطان التتار قد قصد ورود دمشق بعد الوقعة .

واجتمع أعيان البلد والشيخ تقي الدين بن تيمية[2] في مشهد علي[3] ، واتفقوا

(١) « ربيع الأول » في البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٧ ، وهو تحريف ، فالموقعة كانت في ٢٨ ربيع أول — انظر ما سبق ص ١٢ — ١٤ .

(٢) هو : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ، شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس ، المتوفى سنة ٧٢٨ هـ /١٣٢٧ م — المنهل الصافي جـ ١ ص ٣٥٨ رقم ١٩٥ .

(٣) « بمشهد علي من الجامع الأموي » — في السلوك جـ ١ ص ٨٨٩ .

على المسير إليه لتلقيه وأخذ الأمان منه لأهل دمشق ، فتوجهوا يوم الإثنين الثالث من ربيع الآخر ، فاجتمعوا به عند النبك (١) ، وكلمه الشيخ ابن تيمية كلاما قويا فيه مصلحة عظيمة عاد نفعها على المسلمين ، ودخل المتسلمون للبلد من جهة قازان ، فنزلوا بالباذرائية (٢) ، وغلقت أبواب المدينة سوى باب توما ، وخطب الخطبة [٢٠٢] يوم الجمعة سابع الشهر المذكور بالجامع ولم يذكر سلطانا فى خطبته (٣) ، وبعد الصلاة قدم الأمير إسماعيل [التترى] (٤) ومعه جماعة من الرسل فنزلوا ببستان الظاهر عند الطريق ، وحضر الفرمان بالأمان فطيف به فى البلد ، وقرىء يوم السبت ثامن الشهر ، بمقصورة الخطابة ، ونثر شىء من الذهب والفضة (٥) .

وفى نزهة الأنام : الذين خرجوا من دمشق لطلب الأمان من قازان هم : خطيب دمشق القاضى بدر الدين بن جماعة ، والشيخ زين الدين الفارقى (٦) ، والشيخ تقى الدين بن تيمية ، والقاضى نجم الدين بن صصرى (٧) ، والصاحب

(١) النبك : قرية بين حمص ودمشق — معجم البلدان .

(٢) المدرسة الباذرائية بدمشق : داخل باب الفراديس بدمشق ، أنشأها الشيخ عبد الله بن محمد ابن الحسن الباذرائى ، نجم الدين البغدادى ، المتوفى سنة ٦٥٥هـ/١٢٥٧ م — الدارس جـ ١ ص ٢٠٥ .

(٣) « ولم يعين فى الخطبة اسم سلطان » — فى كنز الدرر جـ ٩ ص ١٩ .

(٤) [ ] إضافة للتوضيح — السلوك جـ ١ ص ٨٩٠ .

(٥) البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٠٧ .

(٦) هو : عبد الله بن مروان بن عبد الله ، الشيخ زين الدين الفارقى الشافعى ، خطيب الجامع الأموى ، المتوفى سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م — انظر ما يلى فى وفيات سنة ٧٠٣ هـ .

(٧) هو : أحمد بن محمد بن سالم ، قاضى القضاة نجم الدين أبو العباس بن صصرى ، المتوفى سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣ م — المنهل الصافى جـ ٢ ص ٩٧ رقم ٢٦٤ .

فخر الدين بن الشيرجى[1] ، والقاضى عز الدين بن الزكى[2] ، والشيخ وجيه الدين ابن المنجى ، والصدر الرئيس عز الدين بن القلانسى وابن عمه شرف الدين ، وأمين الدين شقير الحرانى ، والشريف زين الدين بن عدنان ، والشيخ نجم الدين ابن أبى الطيب ، وناصر الدين بن عبد السلام ، وشرف الدين بن الشيرجى ، والصاحب شهاب الدين الحنفى ، والقاضى شمس الدين الحريرى ، والشيخ محمد بن قوام البالسى والقاضى جلال الدين أخو قاضى القضاة إمام الدين القزوينى ، والقاضى جلال الدين ابن قاضى القضاة حسام الدين ، وجماعة كثيرة من الفقهاء والقراء[3] ، وتوجهوا نحو جيش التتار .

وبقيت[4] المدينة بلا نائب ولا حاكم ، وأكل الناس بعضهم بعضا ، ومن قدر على أمر فعله ، ووصلت أربعة من التتار ، ومعهم الشريف القمى ونزلوا بالباذرائية ، وأصبح الصباح ولم يفتح من أبواب دمشق باب ، فكسرت أقفال باب توما ، وكان الذى تولى كسرها نواب الولاة : الشجاع هُمام الدين وابن ضاعن وابن الذهبى النقيب ، ووصل إلى ظاهر دمشق جماعة من التتار ومعهم أمير إسمه إسماعيل ، فنزلوا ببستان الظاهر بطريق القابون ، وأما الجماعة الذين خرجوا من دمشق فإنهم التقوا بالعساكر التترية بالنبك ، واجتمعوا بالملك ، ووقف

(١) هو : سليمان بن محمد بن عبد الوهاب ، الصاحب فخر الدين أبو الفضل بن الشيرجى ، المتوفى سنة ٦٩٩ هـ / ١٢٩٩ م — المنهل الصافى .

(٢) هو : عبد العزيز بن يحيى بن محمد بن على بن الزكى ، قاضى القضاة ، المتوفى سنة ٦٩٩ هـ/ ١٢٩٩م .

(٣) انظر كنز الدرر جـ ٩ ص ١٩ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٢٣ .

(٤) « وبقى » فى الأصل .

الترجمان ، وتكلم منهم ، وكان المتكلم فخر الدين بن الشيرجي ، وأحضروا ما كان معهم من المأكول ، فلم يظهر له وقع ولا حضر قدام الملك . وقال الملك قازان : إن الذي تطلبونه من الأمان قد أرسلناه إليكم قبل حضوركم ، فرجعوا إلى دمشق ، وحضر الأمير إسماعيل إلى مقصورة الخطابة وحضر الخطيب ابن جماعة وفخر الدين ابن الشيرجي وابن القلانسي وابن منجي وجماعة لقراءة الفرمان ، واجتمع الناس ، وقرئ الفرمان على السُدّة . فحمد الناس الله تعالى ، وحصل للناس سكون وطمأنينة ، وقرب التتار من دمشق وأحدقوا بالغوطة ، وكثر العبث والفساد والنهب بالحواضر البرانية مثل العُقيبة والشاغور وقصر حجاج وحكر الساق ، ووصل الأمير قفجق وبكتمر السلحدار مع جماعة ونزلوا بالميدان الأخضر .

وورد مرسوم من الأمير إسماعيل بأن العلماء والقضاة والأكابر يتحدثون مع أرجواش نائب القلعة ويحسنون له تسليم القلعة [٢٠٣] وإلا يدخل الجيش البلد ، ولا تبقى بعد هذا القلعة ولا البلد ، فاجتمع جماعة منهم بدار الحديث وأرسلوا رسولا إلى أرجواش فلم يُجبهم ، فقاموا فى دار الحديث بأجمعهم إلى باب القلعة وأرسلوا إليه رسولا ثانيا فبلغه سلامهم . فقال : ومن هم الذين أرسلوك؟ فسماهم له بأنسابهم ، فقال : هم المنافقون الخائنون للمسلمين ، وليس عندى جواب ، ومع هذا فهذه بطاقة وصلت إلى من السلطان صاحب مصر مضمونها أنهم قد اجتمعوا على غزة وكسروا الطائفة الذين تبعتهم من التتار ، وهو يوصينى بالقلعة ، وكان من جملة الجماعة الواقفين بباب القلعة : بدر الدين[1] بن فضل الله .

(١) هو : محمد بن فضل الله العمرى ، الدمشقى ، القاضى بدر الدين ، كاتب السر بدمشق ، توفى سنة ٧٠٦ هـ / ١٣٠٦ م — انظر ما يلى فى وفيات ٧٠٦ هـ .

فقال أرجواش : وصل ابن فضل الله ويقف على البطاقة فإنها بخط أخيه[(١)] ، فامتنع ابن فضل الله من الدخول واشتد خوفه وهرب من بين الجماعة ، وتفرقت الجماعة على هذه الصورة .

وفى اليوم الثانى : حضر الأمير قفجق وجلس بالمدرسة العزيزية[(٢)] وأمر بالمراجعة بأرجواش فى أمر القلعة ، فراجعوه فلم يُجبهم ، وكتبوا فى هذا اليوم فرمانات كثيرة من شيخ الشيوخ [نظام[(٣)]] الدين للتتار ، ولم يحصل بأكثرها نفع ، وخاف الناس ، وأصلحوا أبواب الدروب ، وكثر دخول التتار البلد ، ونزل شيخ الشيوخ نظام الدين بالمدرسة العادلية[(٤)] وادعى أنه يصلح أمور الناس ، وطلب الأموال ، ووقع النهب فى جبل الصالحية[(٥)] ، ودخلوا الناصرية[(٦)] ، والمارستان

(١) هو : يحيى بن فضل الله العمرى : القاضى الرئيس ، كاتب السر بالشام ثم بمصر ، توفى سنة ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧ م — المنهل الصافى .

(٢) المدرسة العزيزية بدمشق : شرقى التربة الصلاحية : لصوق الجامع الأموى ، أنشأها الملك العزيز عثمان بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب ، المتوفى سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م — الدارس جـ ١ ص ٣٨٢ .

(٣) [ ] إضافة عما يلى ، وهى ساقطة من الأصل .

وهو : نظام الدين محمود بن على الشيبانى ، شيخ الشيوخ — السلوك جـ ١ ص ٨٩١ .

(٤) هى : المدرسة العادلية الكبرى بدمشق ، داخل دمشق ، شمالى الجامع بغرب ، وتجاه باب الظاهرية ، يفصل بينهما طريق ، أول من أنشأها نور الدين محمود ، وتوفى ولم تتم ، فبنى بعضها الملك العادل أخو صلاح الدين ، ثم توفى ولم تتم أيضا ، فتممها الملك المعظم عيسى — الدارس جـ ٢ ص ٣٥٩ .

(٥) الصالحية : قرية كبيرة فى لحف جبل قاسيون ، تطل على دمشق — معجم البلدان .

(٦) هى : المدرسة الناصرية الجوانية بدمشق : داخل باب الفراديس ، شمالى الجامع الأموى ، من إنشاء الملك الناصر يوسف بن صلاح الدين يوسف بن أيوب المتوفى سنة ٦٥٩ هـ / ١٢٦٠ م — الدارس جـ ١ ص ٤٥٩ .

القيمرى[1] : وكسروا الأبواب والشبابيك ، وصعدوا إلى مغارة الدم ، وإلى مغارة الجوع ، ولم يعص عليهم موضع ، ودخلوا إلى جامع الحنابلة ، وأخذوا بُسُطه وكسروا القناديل والمنبر ، ودخلوا فى مدرسة الشيخ ضياء[2] فنهبوها ، وأخذوا من الصالحية من المطعومات والقمح والشعير والدفائن والذخائر شيئا كثيرا حتى كان الواحد يأتى إلى الخبيئة كأنه هو الذى خبأها من سرعة هدايته إلى مكانها .

وبلغ الناس بالبلد ماجرى بالصالحية ، فشق عليهم ، وتوجه الشيخ تقى الدين ابن تيمية وجماعة إلى شيخ الشيوخ الذى نزل بالعادلية وشكوا إليه الحال ، فخرج معهم إلى الصالحية ، فسمع التتار بخروجه فهربوا ، ودخل أكثر الناس عرايا عليهم الجوالق والبلاسات ، واشتد الأمر وسار التتار إلى قرية المزة[3] ؛ وكان أكثر أهلها لم ينتقلوا عنها فنهبوها ، وسبوا أهلها ، وفعلوا بها كما فعلوا بالصالحية ؛ ثم ساروا إلى داريا فاحتمى أهلها بالجامع ، فلم يزالوا حتى دخلوه وفعلوا كما تقدم ؛ وقتل من التتار جماعة من أهل داريا جماعة .

ثم خرج الشيخ تقى الدين بن تيمية إلى مخيم السلطان الذى يسمونه الأُرْدُو ؛ وكان بتل راهط ، فدخل عليه ولم يمكن من الإعلام كما ينبغى ، بل أذن له فى

(١) البيمارستان القيمرى بدمشق : بسفح قاسيون ، أنشأه يوسف بن موسك القيمرى الكردى ، الأمير سيف الدين أبو الحسن ، المتوفى سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م — الدارس جـ ٢ ص ٢٧١ — ٢٧٢ .

(٢) هى : المدرسة الضيائية المحمدية بدمشق ، بسفح قاسيون شرقى الجامع المظفرى ، أنشأها الشيخ الضياء أبو عبد الله محمد بن عبد الواحد المقدسى الحنبلى ، المتوفى سنة ٦٤٣ هـ / ١٢٤٤ م — الدارس جـ ٢ ص ٩١ .

(٣) المزة ، قرية كبيرة وسط بساتين دمشق — معجم البلدان .

الدعاء والإسراع ، وقيل : إنه كان مشغول الدماغ ولم يعلم بما جرى ، ولو علم كان قتل جماعة من المغل ، فيحصل بذلك فتنة وتفريق كلمة . فاجتمع تقى الدين بالوزير ابن سعد الدولة ورشيد الدولة [٢٠٤] وتحدث معهما ، فذكر أن جماعة من مقدمى المغول الأكابر لم يصل إليهم شىء من مال دمشق ولابد من إرضائهم ، فدخل الشيخ تقى الدين البلد ، وقد ضاق الأمر بالناس ، وهم فى شدة عظيمة ، واشتاع بينهم أن قازان يريد الدخول إلى البلد ، وقد جعل ما فيه للمغول خاصة ، فضاقت صدور الناس ، وقيل لهم : مَن لم يخرج من البلد نَدقُّه فى عنقه ، ومن أراد الخروج فليخرج إلى الصالحية ، وكان هذا الكلام من جهة شيخ الشيوخ ، ثم حمل حوائجه وخرج من العادلية ، فقالت الناس : لو لم يكن الخبر صحيحا لما خرج مسرعا ، فلما كان آخر النهار رجع بعض حوائجه وحضر إليه أعيان البلد وقالوا : إن رسم السلطان أن يضع على البلد شيئا معلوما سعينا فى استخراجه ، ويكون مثل الشراء عن السلطان ويمنّ السلطان بالعتق على المسلمين ، وكان قد قتل فى هذه الليلة رجلان من متولى أمر المناجيق من جهة أهل القلعة ، وكان السلطان غضب من ذلك غضبا شديدا .

وقال الشيخ وجيه الدين بن منجى : أنا أبذل جميع ما أملكه من العين . وقال الرئيس عز الدين بن القلانسى : قد أخذ منا شىء كثير ، ولم يبق إلا أن يموت بعضنا على بعض ، كل هذا وشيخ الشيوخ ساكت مصمم لا يفرج كربة عن مسلم ، ولكن اشتدّ الطلب من الناس فقرّر على سوق الخواصين مائة ألف وثلاثون ألف من الدراهم ، وعلى سوق الرمّاحين مائة ألف درهم ، وعلى سوق علىّ ستون ألف (١) درهم ، وعلى أكابر البلد ثلاثمائة ألف دينار ، وجبيت من حساب

(١) « مائة ألف » — فى السلوك جـ ١ ص ٨٩٣ .

أربعمائة ألف[1]، ورُسّم عليهم طائفة من المغل، مع كل إنسان طائفة منهم، وضيقوا عليهم، وعصروا ابن شُقَير، ووعدوا ابن منجى وابن القلانسى بوعيد، والمغل محيطون بهم يضربونهم، فصار جميع أهل دمشق فى الذل والهوان، وكثر النهب فى البلد، والقتل عمّال فى ضواحى دمشق وضياعها . يقال : إنه قتل ما يُقارب مائة ألف إنسان من الجند والفلاحين والعامّة، وكثر الطلب، وعجز المطلوب، وعسر الأمر على الناس، وكان متولى الطلب الصفى السنجارى وعلاء الدين أستادار قفجق وأولاد الشيخ على الحريرى الحنّ والبنّ، وكان هؤلاء من أكبر المصائب على الناس، فنظم فيهم الشيخ كمال الدين بن الزملكانى[2] :

لهفى على جِلّق يا سوءَ[3] ما لقيتْ ... من كل علج له فى كُفره فنّْ

بالطمّ والرمّ جاءوا ولا عَديدَ لهم ... فالجنّ بعضهم والحنّ والبنّ

وقال علاء الدين الوداعى :

دَهَتْنا أمورٌ لا يُطاق احتمالُها ... فَسَلَّمنا منها الإلهُ له المَنُّ

أتتنا تتارٌ كالرمال تخالُهم ... هم الجنُ حتى معهم الحنّ والبِنُّ

(١) وورد « وعلى سوق على مائة ألف درهم ، وعلى سوق النحاسين ستون ألف درهم ، وعلى قيسارية الشرب مائة ألف درهم ، وعلى سوق الذهبيين ألف وخمسمائة دينار . وقرر على أعيان البلد تكملة ثلاثمائة ألف دينار ، جبيت من حساب أربعمائة ألف » — السلوك جـ ١ ص ٨٩٣ — ٨٩٤ .

(٢) هو : محمد بن على بن عبد الواحد ، كمال الدين الزملكانى ، الدمشقى ، توفى سنة ٧٢٧ هـ / ١٣٢٦ م — المنهل الصافى .

(٣) « يا شره » — فى النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٢٦ .

وقال الشيخ كمال الدين ابن قاضى شُهْبة (١) :

[٢٠٥]

رَمَتنا صروف الدهر منها بسَبْعةٍ	فما أحدٌ منّا من السَّبْع سالمُ
غلاءٌ، وغازانٌ، وغزوٌ، وغارةٌ،	وغدرٌ ، وإغبانٌ ، وغمٌّ ملازِمُ

ثم استهلّ شهر جمادى الأولى : ففى أول ليلة منه بات المُغل منتشرين بباب البريد إلى القلعة بسبب حفظ مناجيقهم التى بالجامع ، وكانت لهم مدة يُحاصرون القلعة ، وكسروا دكاكين باب البريد وأخذوا ما فيها ، وانتقل الناس من تلك الناحية ، وتركوا حوائجهم وأقواتهم، عجزوا عن حملها ، وغلقت أبواب الجوامع وترك منها باب صغير ، وانقطع الناس عن الجامع .

وفى الجمعة الأولى من الشهر : نهب دير الحنابلة مرة ثانية ، وسُبيت من كان فيه من النساء والأولاد ، ومن جملة ما أخذوا : مائة وعشرون بنتا ، وأسَرُوا القاضى تقى الدين الحنبلى (٢) وعملوا فى رقبته حبلا يجرونه به ، ثم تركوه .

وأما البلد فأحرقت منه دار الحديث الأشرفية (٣) وما جاورها ، ودار الحديث

---

(١) هو : عبد الوهاب بن محمد بن عبد الوهاب ، كمال الدين ، ابن قاضى شهبة ، المتوفى سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م — المنهل الصافى .

(٢) هو : سليمان بن حمزة بن احمد بن عمر بن قدامة المقدسى الحنبلى ، قاضى القضاة تقى الدين ، المتوفى سنة ٧١٥هـ / ١٣١٥م — شذرات الذهب جـ ٦ ص ٣٥ — ٣٦ .

(٣) دار الحديث الأشرفية بدمشق : جوار باب القلعة الشرقى ، أنشأها الملك الأشرف موسى ابن أبى بكر بن أيوب المتوفى سنة ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م — الدارس جـ ١ ص ١٩ — ٢٠ .

النورية[1] ، والعادلية الصغيرة[2] وما جاورها ، وأحرقت القيمارية[3] وما جاورها إلى دار السعادة إلى المارستان النورى ، ومن الجهة الأخرى إلى المدرسة الدماغية[4] إلى باب الفرج ،وأحاطت التتار بالقلعة من جميع الجهات[5] ، وبقيت الأماكن موحشة لا يجسر أحد أن يمرّ بها ، ولم تبق حارة ولا محلة إلا وقد دخلها التتار ونهبوها ، واختفى الناس ، وكان الرجل إذا حصلت له حاجة يخرج فى أثواب رثّة وهو خائف وجل ، ثم يعود مسرعا ، ولم يكن يصلى فى الجامع خلف الإمام إلا رجل أو رجلان ،والتتار منتشرون فيه لأجل حفظ المناجيق ،وشربوا فى الجامع الخمور ، وانتهكوا حرمته ، وفجروا فيه بالنساء ، ونجسوه بالبول ، وامتنع الناس من حضور الجمعة خوفا على أنفسهم ، والأمر فى المصادرة والجباية حثيثا لم يعف عنه أحد لا غنى ولا فقير .

وحصّل لشيخ الشيوخ من البراطيل فوق الثلاثين ألف دينار ،وكان لا يزال الدبوس على كتفه ، ويفخم كلامه ، ولم يكن فيه شئ من أخلاق المشايخ ،

---

(١) دار الحديث النورية بدمشق : أنشأها الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى ، المتوفى سنة ٥٦٩ هـ/ ١١٧٣ م ، وهو أول من بنى دارا للحديث — الدارس جـ ١ ص ٩٩ .

(٢) المدرسة العادلية الصغرى بدمشق : داخل باب الفرج شرقى باب القلعة الشرقى ، أنشأتها زهرة خاتون بنت الملك العادل أبو بكر بن أيوب — الدارس جـ ١ ص ٣٦٨ .

(٣) المدرسة القيمرية بدمشق : بسوق الحريميين بدمشق ، أنشأها الأمير ناصر الدين الحسين ابن على القيمرى ، المتوفى سنة ٦٦٥ هـ/ ١٢٦٦ م — الدارس جـ ١ ص ٤٤١ .

(٤) المدرسة الدماغية بدمشق : داخل باب الفرج ، وهى قبلى وشرقى الطريق الآخذ إلى باب القلعة الشرقى ، وهذا الطريق بينها وبين الخندق ، أنشأتها زوجة شجاع الدين بن الدماغ العادلى سنة ٦٣٨ هـ/ ١٢٤٠ م — الدارس جـ ١ ص ٢٣٦ .

(٥) « وأخذ أرجواش فى هدم ما حول القلعة من العمائر والبيوت ،وصيروها دكا لئلا يستتر العدو فى المنازلة بجدرانها ، فأحرق ذلك كله » — السلوك جـ ١ ص ٨٩٣ . وانظر ما يلى .

وكان كثير الطمع وكان يستهزئ بقلعة دمشق ويقول : إش هـذه ؟ لوأردنا أخذها أخذناها من أول يوم جئنا ، وإنما الملك يريد الرفق .

كل هـذا والناس فى المصادرة ، وكان المُستخرج من الدراهـم برسم خزانة المـلك ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف سوى الدواب والقماش والسـلاح والقمح والشعير ، وذلك غـير الذى أخذه المغول من النهب والبرطيل ، وحصل لخواجا أصيل الدين بن النصير الطوسى نحو من مائتى ألف لأنه كان منجم الملك وناظر الأوقاف التى فى ممـالك التتار ، وطلب من أوقاف دمشق أجرة النظر عن سنة كاملة ، واستخرج الصفى السنجارى لنفسه مائة ألف درهم ، وكل هذا غـير الذى استخرجه قفجق لنفسه ولأمراء المغول ، وسـوى الرواتب المرتبة للملك فى كل يوم ولخواصه ، ونُهب لأهل دمشق مايقارب ذلك ، وأحرق من الأمـلاك والأوقاف والمدارس مالا يقدر أحد على ضبط قيمته .

ذكر نُسْخة فَرْمان التى كتبها قازان :

[٢٠٦] لمـا تولى قازان بظـاهر المرْج والغوطة خرج إليـه أهل دمشق بمفاتيح أبوابها ونفائس هـداياها ، فأقبل عليهم وقبـل ما أحضروه وأمنهم فكتب فرمان لأهل دمشق ونواحيها وأرسلها بأنهم آمنون وأنّ مغل لا يتعرضون للرعية ولا لأموالهم ، وهم يقيمون جمع ما يختاره الملك ، فإن البلاد بلاده والرعية رعيته ، وكتب ذلك على يد الشريف ، وصورة ذلك[1] :

(١) كانت بداية الفرمان : « بقوة الله تعالى وإقبال دولة السلطان محمـود غازان » — كنز الدرر جـ ٩ ص ٢٠ . و « بقوة الله تعالى ، وميامن الملة المحمدية ، فرمان غازان » — فى زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٠٨ أ .

ليعلم أمراء التوامين والألوف ، وعموم عسكرنا المنصور من المغل والكرج والأرمن أن الله نور قلوبنا بالإسلام ، وهدانا إلى ملة نبيه عليه السلام ﴿ أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ﴾(١) . وأتم الله علينا نعمته ، وأنزل علينا سكينته ، وقهرنا العدو الطاغية ، والجيوش الباغية ، وصَدَّرنا أن لا يتعرض أحد من العساكر على اختلاف أجناسها لدمشق وأعمالها ، وسائر البلاد الشامية ، وأن يكفوا أظفار التعدى عن الأنفس والأموال والحريم والعيال ، والتعرض لأهل الأديان ، وكل راع مسئول عن رعيته ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر ﴾(٢) .

ثم أرسل قازان إلى دمشق قطلوشاه ، ومعه يحيى بن جلال الدين ، ورشيد الدين المسلمانى ، وزيره ، ونجيب الدولة اليهودى ، مُشيره ، والأمراء المصريون وهم : الأمير سيف الدين قفجق ، والأمير سيف الدين بكتمر السلحدار ، وأكابر دمشق صحبتهم ، وكان ذلك يوم الجمعة ، ولم يدركوا الخطبة بدمشق ، وكان وصولهم دمشق بعد العصر ، ودخلوا الجامع ، وحضرت أهل دمشق ، وقرئ الفرمان على المنبر ، واطمأنت نفوس الناس بعض شيء ، ثم أقاموا بها أياما لجباية الأموال كما ذكرنا صورة الجباية .

وأطاع أهل دمشق جميعهم قازان ما خلا الأمير علم الدين سنجر المنصورى المعروف بأرجواش نائب القلعة ، وكان من مماليك السلطان الملك المنصور

(١) آية رقم ٢٢ من سورة الزمر رقم ٣٩ .

(٢) آية رقم ٩٠ من سورة النحل رقم ١٦ . وانظر نص الفرمان فى : زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٠٨ أ — ٢١٢ أ ، كنز الدرر جـ ٩ ص ٢٠ — ٢٣ .

القدماء ، فإنه أظهر حزما واجتهادا و يقظة واستعدادا ولم يُسلم القلعة ، بل صمم على امتناعه وأخذوه بأنواع من الترهيب والترغيب ، فلم يَرْهَب السَّطا ولا رغب فى العطا ، ونُصبت عليها المجانيق ، فما هاله أمرها ولا فتح لها بابا حتى رحل قازان عن البلاد ولم ينل منها ما أراد ، ولما اشتد الحصار وأحاطت بالقلعة جموع التتار خاف أن يستولوا عليها من الأماكن والمساكن التى عليها ، فهدم جميع ما حولها من العمائر والبيوت وصيرها دكا ، وهدم دار السعادة وكان هدمها من السعادة لئلا يتستر العدو فى المنازلة بجدرانها و يتسلطوا بنصب المجانيق خلف بنيانها ، فتناوبوا على حصارها أياما متواترة ، وليالى متكاثرة ، ولم ينالوا منها مراما ولا رأوا من نائبها تسليما ولا استسلاما ، فصبروا إلى أن أدركهم لطف الله ، فسلموا وصابروا وما سلموا .

وعلم[1] قازان أن أموال دمشق جميعها بالقلعة ، وفيها خزانة السلطان الناصر ، وأموال الأمراء وغيرهم ، وأنه لايتم له مُلك ولا يملك قلعة من قلاع الشام حتى يملك قلعة دمشق ، فإن أمر القلاع معدوق بأمرها ، فطلب قفجق و بكتمر وغيرهما واستشارهم فى أمرها ، فعرفوه أنها قلعة حصينة ، وأن نائبها رجل شديد البأس وما يمكن أخذها إلا بعد قتال شديد وتلاقى العسكر .

وحضر فى ذلك الوقت نجيب الدين وزير قازان من غزنة ، فأشار عليه أن يعمل المنجنيق و يتوصل به إلى هدم القلعة[2] ، فرسم له عند ذلك بالإنعام الكثير، فشرع فى عمل ذلك ، وساعده جماعة من أهل دمشق على قطع الأخشاب

---

(١) بداية ما كتب على هامش الورقتين ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

(٢) « وجاء رجل منجنيقى فالتزم لقازان بأخذ القلعة ، وقرر أن ينصب المجانيق عليها فى جامع دمشق » ــ نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٤١٢ .

وعمل المنجنيق فى وسط الجامع الأموى ، فبلغ ذلك أرجواش نائب القلعة ، فصبر إلى أن هجم الليل ، وأرسل جماعة من القلعة ومعهم النفط ، فأطلقوا النار أولا فى دار السعادة ، ثم فى سائر الأماكن القريبة من القلعة(١) ، فصارت تلك الأماكن شعلة نار ، وكان فيها جماعة من التتار ، فهربوا منهزمين ، فبقيت النار تعمل يومين وثلاث ليال .

ولما بلغ ذلك قازان غضب غضبا شديدا وأمر لسائر المغل بالركوب ، وركب هو مع الأمراء إلى أن وصل إلى القلعة ، ونظر إليها ، واستهون أمرها ، وأمر بردم الخندق . فقالوا له : لا يمكن ردمه فى شهر لأن المياه مسلطة عليه وصعّبوا أمره ، وكان قصدهم إخماد النار ، وأشار قفجق أن يخاطب نائب القلعة بحضور قازان ويعد له بكل خير ، وسمع قازان جوابه ، فخرج قفجق وبكتمر وبعض أمراء المغل ، فوقفوا قريبا من الخندق ، وكان أرجواش قد نصب له كرسى عال(٢) بحيث يراهم ويرونه ، فلما رأوه سلموا عليه ، وسلم عليهم ، ثم شرع قفجق يعرّفه عن قازان بالمواعيد والعطايا ، وإنه إن لم يفعل فإن الملك يفعل كذا وكذا .

فلما سمع أرجواش كلامه أجابه فأغلظ فى جوابه ، فقال له : يامنافق ، من يتقرب إلى القلعة ؟ والله لو تقرب إليها أستاذى الملك المنصور ما كان له عندى غير سهم فى صدره ، ولكن قل لقازان يتقدم حتى ينظر ما يجرى عليه ، وأخذ فى سبهم ولعنهم ، وبلغ المغل ذلك لقازان ، فغضب غضبا شديدا ، وأمر

(١) « لئلا يتمكنوا من محاصرة القلعة من أعاليها » ـ البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٩ .

(٢) « عالى » فى الأصل .

عند ذلك « ... ... »[1] وأحدقوا بجوانبها ، وما شعروا إلا وقد شقتهم سهام من أكف الرماة من سهام قسي وجرخ ونفط ومدافع ومكاحل ، وكان في القلعة من الرماة أكثر من ألف رام ، فنزلت السهام عليهم مثل المطر ، واختلطت الرجالة بالخيالة ، فقُتلت[2] طائفة وجرحت آخرون .

ورأى قازان يوما عظيما لم ير مثل ذلك ، فتقدم قفجق والأمراء منه وقالوا له : يا خوند أمهل حتى يفرغ عمل المنجنيق تبلغ به ما تريد ، وتلطفوا معه في الكلام إلى أن رجّموه ، فعند ذلك جهز أمراء من المغل يستعجلون بعمل المنجنيق .

وبقي أرجواش يكشف أمر المنجنيق إلى أن عرف أنه على الفروغ ، فطلب أربعة أنفس من الرجال المعدودين فقال لهم : أنزلوا واقتلوا صانع المنجنيق وارموا النفط فيه ، فنزلوا وقد بايعوا أنفسهم من الله تعالى ، فوجدوا المغل نائمين وعامل المنجنيق سهران في العمل ، فوثب بعضهم عليه وضربه بسكين في بطنه أخرج أمعاءه ، وضرب كل واحد منهم آخر من رفقته فقتلوا ثلاثة ، ورموا في الأخشاب النفط فعلق من ساعته ، ووقع الضرب في الجامع ، وقتل من المغل اثنان ، وركبت المغل وهم متحيرون لم يعرفوا من أين جاءتهم الداهية ، ورأوا النار تعمل في الجامع ، وكانت ليلة عظيمة ، ودقت الكوسات في القلعة .

وبلغ ذلك قازان ، فصعب عليه جدا ، فطلب الأمير إسماعيل وأمره أن يأخذ معه جماعة من المغل ويتولى عقوبة أهل دمشق ويستخرج منهم الأموال ، فركبوا ،

(١) « ... ... » موضع ثلاث كلمات غير مقروءة .
(٢) هكذا بالأصل .

ورأى أهل دمشق منهم شدة عظيمة، فجاء(١) قفجق إلى قازان وتلطف به وقال له : ياخوند الأموال لا تستخرج على هذه الحالة ، ولكن بالتلطف على الناس . فأجاب إليه ، وعين لذلك جماعة — وقد ذكرناهم — حتى جبوا الأموال التى ذكرناها .

قال صاحب النزهة : واستمر الأمر على أهل دمشق من النهب وأخذ الأموال خمسة وأربعين يوما ، فإن قازان نزل الغوطة فى العشر الأول من ربيع الآخر ورحل منها فى منتصف(٢) جمادى الأولى(٣) ، والله أعلم .

ذكر إرسال قازان جماعة من جيشه ذوى الطغيان إلى الأغوار وبَيْسَان :

ولما وصل قازان إلى دمشق أرسل من عسكره عشرين ألفا مجردين صحبة مولاى [٢٠٧] وأَبشْغا وجبجك وهُلَاجُو ، فنزلوا بالأغوار وبيسان وشنوا الغارات على تلك البلاد ، ونهبوا ما وجدوا من المواشى والأقوات والأزواد ، وقتلوا من وقع فى أيديهم ، وانتهت غاراتهم إلى القدس الشريف والخليل عليه السلام ، ووصلوا إلى غزة وقتلوا بجامعها خمسة نفر(٤) من المسلمين كانوا به منقطعين ، ثم رجعوا إلى الشام وقد عاثوا ونهبوا وسبوا وأسروا جماعات كثيرة ، وحصروا قرى كثيرة

(١) « جاء » فى الأصل .

(٢) « ورحل قازان فى يوم الجمعة ثانى عشر جمادى الأولى » السلوك جـ ١ ص ٨٩٥ ، « تاسع عشر جمادى الأولى » — فى البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٩ .

(٣) نهاية ما وجد على هامش الورقتين ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

(٤) « وقتلوا بجامعها خمسة عشر رجلا » — السلوك جـ ١ ص ٨٩٦ .

وقتلوا من أهلها خلقا كثيرا ، ولما وصلوا إلى دمشق — وكان قازان قد رحل بعسكره — جبى له قبجق من أهل دمشق جباية أخرى لأجل مولاى ، وخرج تقى الدين بن تيمية إلى مخيم مولاى ، فاجتمع به فى مكان ، فرأى من معه من أسارى المسلمين ، فاستنقذ كثيرا منهم . وأقام عنده ثلاثة أيام ، ثم عاد .

وفى عشية يوم السبت الرابع من رجب (١) : رحل مولاى وأصحابه ، وأشمروا عن البلد ، وساروا من على عقبة دمر ، فعاثوا فى تلك النواحى فسادا ، ولم يأت سابع الشهر وفى حواشى البلد منهم أحد ، ولله الحمد (٢) .

ذكر رحيل قازان من الشام :

لما مل قازان من الإقامة على الشام هم بالرحيل ، وكانت إقامته قدر شهرين ، ثم رحل متوجها إلى بلاده فى الخامس عشر (٣) من جمادى الأولى من هذه السنة ، وكان قد ولى الأمير سيف الدين قفجق النيابة بالبلاد الشامية ، والأمير سيف الدين بكتمر السلحدار البلاد الحلبية والحموية ، والأمير سيف الدين إلبكى البلاد الساحلية ، ظنا أنه قد صارت الممالك الإسلامية فى قبضته وانحازت إلى حوزته ، فلم يتم له ما أراد ، ولا بلغه الله شيئا من هذا المراد ، وأقام بعد رحيله نائبه قطلوشاه مع جمع كثيف من الجيش ، فلما كان يوم الجمعة التاسع عشر من الشهر المذكور قرىء بالجامع تقليد الأمير قفجق بنيابة السلطنة بالشام ،

(١) «ورحلوا من دمشق يريدون بلادهم فى ثانى رجب» — السلوك جـ ١ ص ٨٩٦ .

(٢) البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٠ — ١١ .

(٣) « ثانى عشر » — السلوك جـ ١ ص ٨٩٥ ، كنز الدرر جـ ٩ ص ٣١ « السابع عشر من جمادى الآخرة » — التحفة الملوكية ص ١٥٩ .

وتولية الأمير يحيي بن جلال الدين الختني[١] الوزارة .

وفي يوم الإثنين الثاني والعشرين من الشهر : رحل قطلوشاه والعساكر ، ففرح الناس بذلك واطمأنت قلوبهم ، وخرج الناس إلى جبل الصالحية وإلى الحواضر والمزارع وأظهر الناس ما تخلف من أمتعتهم ، وجلسوا في الأسواق وباعوا واشتروا ، واشتد الغلاء ، فبلغ سعر القمح الغرارة منه بثلاثمائة درهم ، ومن الشعير إلى مائتي درهم ، والرطل الخبز بدرهمين ، والرطل من اللحم باثني عشر ، والرطل من الجبن باثني عشر ، ومن الزيت بستة . والبيض كل أربعة بدرهم .

وأما الأمير قفجق فإنه لما عاد من وداع قازان ركب[٢] الموكب في دمشق والعصابة على رأسه ، ونادى فيها برجوع الناس ، وآمنهم على أنفسهم .

وكان قد حضر إليه بعض أهل الفساد وضمنوا منه الخمر وبيعه وعين عليه كل يوم ألف درهم وجعل دار ابن جرادة خارج باب توما خمّارة وحانة .

وأخذ أموالا أُخر من أوقاف المدارس وغيرها ، ثم شرع يركب بالعصابة والشاويشية بين يديه ، وجهز نحوا من ألف فارس نحو خربة اللصوص ، ومشى مشي الملوك في الولايات وتأمير الأمراء والمراسيم العالية النافذة والآراء ، وصار كما قال الشاعر :

---

(١) الختني : نسبة إلى بلدة ختن بالقرب من كاشغر بالتركستان — معجم البلدان .

(٢) هكذا بالأصل « وورد . . « وأقام الأمير قطلوشاه مقدم عساكر التتار بعد قازان بدمشق . . . حتى سافر ببقية التتار في يوم الثلاثاء ثالث عشرين جمادى الأولى ، وخرج الأمير قبجق نائب الشام لتوديعه ، ثم عاد يوم الخميس خامس عشرينه » — النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٢٧ .

يالك من قنبرة بمعمرى

خلالك الجو فبيضى واصفرى

ونقرى ما شئت أن تنقرى (١)

[٢٠٨] ثم نهض الشيخ تقى الدين بن تيمية واجتمع بالأمير قفجق وقال له : إن الذى فعلته من ضمان الخمور شنعة كبيرة، وثلمة عظيمة فى حق الإسلام، واستأذنه فى إبطاله ، فأذن له ، وخرج بنفسه وأراق ظروف الخمر جميعها .

ولما كان يوم الجمعة (٢) رسم للخطيب بإعادة الخطبة فى سائر الجوامع باسم السلطان الملك الناصر ، وكان بالجامع الأموى ذلك النهار بكاء عظيم وتضرع إلى الله تعالى وتذاكر بما كانت الناس فيه من الشدة والنهب والسبي ،وكانت مدة انقطاع الخطبة عن ملك الإسلام نحو مائة يوم ، ثم أعادها الله تعالى .

وكان تقدير الذى حمل إلى خزانة قازان ثلاثة آلاف ألف دينار (٣) سوى ما أخذ من البراطيل للأمراء والوزراء وأكابر المغل، وهذا هو الذى حصره ابن المنجى، وأما الذى نهب من دمشق والأماكن التى ذكرناها فإنه لا يمكن حصره ، وكذا الذى كسبه الأمراء والجند يوم الهزيمة ، وذكر أن الذى صحبهم من الأسرى أحد عشر ألف نفس من الرجال والنساء والأطفال ، وكان معظمهم من جبل

---

(١) البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٠ .

(٢) « يوم الجمعة سابع عشر رجب » — فى البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١١ .

(٣) « قال ابن المنجا : إن الذى حمل إلى خزانة قازان خاصة نفسه ثلاثة آلاف ألف وستمائة ألف » — النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٢٧ .

الصالحية ولم يصحب معهم(١) إلى البلاد إلا القليل منهم ، فإن منهم من هرب بالليالى ، ومنهم مَنْ مات ، ومنهم من اختفى ، وأخذوا من البلد فوق عشرة آلاف فرس ، وكان معظم فسادهم فى جبل الصالحية ، وكان غالب ذلك من طائفة الأرمن ، فإن صاحب سيس كان فى قلبه حزازات من فعل المسلمين فى بلاده التى أخذت منهم(٢)، وضياعه التى أخربت ، ورجاله الذين قتلوا ، والغارات التى كانت تتواتر على بلاده من جهة المسلمين ، ولما اتفق من نصرة قازان ما اتفق حضر صاحب سيس قدام قازان وسأله أن يمكنه من الدخول من الباب الشرقى والخروج من باب الجابية ، ويضع السيف بين البابين ويشتفى من المسلمين ويقيم بألف ألف دينار ، فوقف قفجق فى طريقه وتحدث مع قازان وقال له : قد ملكت هذه البلاد وهى فى يدك والمال الذى تحمله هذا تأخذه من أهل الشام من غير سفك دم ، وما زال به حتى طرد صاحب سيس عن مراده .

ذكر صور الفرمانات التى كتبها قازان :

وهى أربعة :

الأول : كتبه إلى الأمراء والعساكر والجيوش والأكابر ، وهذه نسخته(٣) :

ميامين الملة المحمدية(٤) ، فرمان غازان ، ليعلم(٥) الأمراء والأكابر وأشراف السادات العظام ، والمشايخ الكرام ، وسائر مشاهير الأعراب ، من الخواص

(١) هكذا بالأصل .

(٢) هكذا بالأصل بصيغة الجمع .

(٣) انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٠٨ أ — ٢١٢ أ .

(٤) « بقوة الله تعالى ، وميامين الملة المحمدية » — فى زبدة الفكرة .

(٥) « أعلم » — فى زبدة الفكرة .

والعوام ، إنه فى كل زمان يقتضى الدوران . يُرسل الله تعالى نبيا لهداية العالم ، ودلالة الإنسان إلى طريق الصواب . وحفظ الأساطير فى ملل الدين ، فلما انتهت النوبة إلى خاتم النبيين محمد المصطفى الذى أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، أرسله إلى جميع الخلائق ليهدى كافة الأنام من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام ، ويُرشدهم من علائق الجُثمانيات إلى زوايا الروحانيات ، ويزّينهم بكمال الدين وتهذيب الأخلاق ، وأنزل عليه القرآن العظيم ، [٢٠٩] وعلمه الأحكام الشرعية الشريفة المطهرة لينقذ بها التابعين من نار جهنم ، فالواجبُ على كل أحد متابعة هذا النبى ومطاوعة شريعته ، والذى يُخالفه يكون مأواه (١) جهنم و بئس المصير ، ومن أول بعثه وُمفتتح رسالته إلى زماننا هذا كلما وقع فى أمور الدين الخلل وظهر الوهن فى شريعة المسلمين ، وأقدم الإنسان على العصيان وأصر على الطغيان ، أظهر لهم (٢) من أولى الأمر شخصا يقَوى الأمور الدينية ويُزكى الخلائق طرا ، وينهاهم عن الأمور المستنكرة ، ويردّهم إلى الطرائق المستقيمة المستحسنة ، وقبل زماننا (٣) هذا قد ظهر المشركون وعبدة الأوثان ، والجماعة الذين كانوا يلايمونهم من المسلمين الذين يقولون آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم ، ظلموا وتعدّوا ، وكانوا يُعلّمونهم الحَيف والجور على الرعية وغصب أموالهم وأكل الربا (٤) ، وترك الصلاة والزكاة والصيام والصدقات وأعمال البر .

(١) « مأواهم » ـ فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة ، ويتفق مع السياق .

(٢) « سبب له » ـ فى زبدة الفكرة .

(٣) « زمان » ـ فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٤) « الربوا » فى الأصل .

وقدر الله من المعجز النبوى المصطفوى المحمدى على صاحبه الصلاة[1] والسلام أننا من أولاد جنكزخان الأعظم الذى تحت حكمهم معظم الأقاليم العظيمة دخلنا فى هذا الدين القويم والصراط المستقيم بغير تكليف ، بل أجلا نور هداية الحق ودين النبى المصطفى على قلوبنا ، وكرمنا الله بالإسلام ، وفضلنا بالعدل والإحسان ، ورسخ فى قلوبنا محبة الدين الحنيفى ، ووفقنا الله تعالى بالجهاد فى قتل المشركين وعبدة الأوثان والمخالفين ، وهدم بيوت الأصنام ودفع شر الظالمين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، كما أمر الله فى محكم كتابه : ﴿ إنَّ الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾[2] الآية . فأمرنا فى الممالك كلها ببناء المساجد ونصب المنابر وإقامة الصلوات وإيتاء الزكاة[3] ، ونهينا عن أخذ الربا[4] ، ومنعنا من سائر أنواع الظلم والخطأ ، فإن الظلم مرتعه وخيم ، وقررنا فى بلاد الإسلام الأموال المقننة لمصالح عساكر الإسلام عند المجاهدة فى سبيل الله عز وجل ، حسبما اقتضاه الشرع المطهر بلا إحداث قاعدة ولا حيف ولا عدوان ولا تطاول على أحد من المسلمين ، واجتهادنا فى استخدام هذه المعانى زائد عن الحد ، ﴿ والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ﴾[5] .

وحيث آباؤنا وأجدادنا سمونا غازان ، كان ذلك بتقدير الله عز وجل فى الأزل فى الإلهام الإلهى الملهم بالتلقيب لهذا الاسم الذى هو مشتق من الغزو ،

---

(١) « الصلوة » فى الأصل .

(٢) جزء من الآية رقم ٩٠ من سورة النحل رقم ١٦ .

(٣) « الزكوة » فى الأصل .

(٤) « الربوا » فى الأصل .

(٥) الآية رقم ٤٣ من سورة الأعراف رقم ٧ .

أوجبنا على أنفسنا الغزو والجهاد ، وقمع المشركين والخوارج والمتمردين والظالمين ، وسمعنا أن أهل مصر والشام الذين أمسَى منهم مسلمون مالهم عهد ولا ميثاق ولا أمانة ولا ديانة ، ويأخذون أموال المسلمين ، ويقصدون دماءهم،(١) توجهنا قاصدين دمارهم لدفع الحركات الرَّديّة البادية منهم ، وإثباتهم على دين الإسلام ليكونوا هم وذرياتهم مُفلحين من أهل الجنة ، ويحصلُ لنا ثوابُ الاجتهاد ، ويَرُدّهم السؤال فى معنى خللهم وزللهم فى دين الإسلام . والجواب أنهم لما تحققوا أننا أولاد سلاطين ربع أقاليم الأرض ، وإنا مسلمون ومُعاونون دين الإسلام يجب على كل أحد [٢١٠] مطاوَعتنا ، اقتداء بكلام الله عز وجل : ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ﴾(٢) ، لحيث عصى من عندنا سولتمش ، [وانخرط فى الخوارج والمرتدين](٣)، وأقدم على إيذاء المسلمين ببعض بلاد الروم، وتخريب بيوتهم ، ونهب أموالهم، هرب من عسكرنا المنصور ، وتوجه إلى تلك البلاد ، كانت الشريعة النبوية والشفقة الإسلامية تقتضى أن تمسكوه وتبعثوه مُغَلّلا بالحديد ، مسلسلا إلى عتبتنا العالية ، فتغافلتم وتهاونتم عن هذا ، بل زودتموه بالعساكر والأنعام والنجدة إلى فوج من التركمان ، ووعدتموه مواعيد عرقوب حتى يقع القتال بين المسلمين من عسكرنا المغول [وساكنى بلاد الروم ، وعسى ما بلغهم أن جميع عسكرنا من

---

(١) يشير بذلك إلى إغارة العسكر الحلبي على ماردين سنة ٦٩٦ هـ ، انظر ما سبق بالجزء الثالث من هذا الكتاب ص ٣٦٥ وما بعدها .

(٢) الآية رقم ٥٩ من سورة النساء رقم ٤ .

(٣) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

المغول] والأُيُغورية والقفجاق والخطائية، وكل من كان بعد هذا من اختلاف الملل دخلوا كافة وطرا بصدق النيـة فى الإسلام ، وأدركهم بتوفيق الله حسن الاتفاق ، وارتضعوا أفاويق الوفاق ، ونحن كأسنان المشط فى الاستواء والنفس الواحدة فى التئام الأهواء، وما كان فينا مَنْ لم يؤمن بربّه الأعلى ونبيه المصطفى، وعاش (٢) على دين المغول ثمانين عاما ، فإنه فى هذه السنة آمن بالله والملة الحنيفية ودخل فى زمرة المهتدين والحمد لله رب العالمين .

وإذا كنتم متهاونين فى قضية سولتمش وسائر الطاغين (٣)، فالله تعالى الذى هدانا للصراط المستقيم ردّه مقيدا (٤) مكبلا على يد أقل مملوك من مماليكنا ، فجاءوا به إلى عتبتنا العالية لمـا أنعم الله علينا بالدين القويم ، ووفقنا لتشييد قواعد سنن رسوله الكريم ، وأرشدنا فى عنفوان الصّبا وريعان الحداثة للانخراط فى سلك أمة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام ، وعلى آله وصحبه الكرام ، عسى لم يعجبكم تقوية دين الله عز وجل التى نحن مصرّون عليها . ولو وصل لأجل هـذا لقلوبكم البهجة والسرور لشكرتم الرحيم الغفور ، وبعثتم من يهنئنا بدخولنا فى دين الحق من إخوانكم وأقاربكم . فمـا فعلتم من هذا شيئا (٥) ؟ ألا إن من اعتصم بالله كفاه .

وأيضا من أفعالكم المذمومة أن تنصبوا فى كل شهر وعام سلطانا ، وتبايعون وتحلفون على طاعته والإعراض من مخالفته ، ثم تخالفونه بعد قليـل ، وتقتلون

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .
(٢) « إلا مرلبه فإنه عاش » — فى زبدة الفكرة .
(٣) هكذا بالأصل .
(٤) « رده الله مقيدا » — فى زبدة الفكرة .
(٥) « فما فعلتم شيئا من هذا » — فى زبدة الفكرة .

ذوى الأمر منكم خلافا لما أمر الله في كتابه العزيز بطاعة أولى الأمر منكم . وتنقضون ميثاقكم ، ولم توفوا بعهدكم حتى تصيروا من ﴿ الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾(1) ، وأى جرح أقبح من هذا .

وأما سائر أخلاقكم وعدم مشروعيتها فهي واضحة غير خافية ، ومستغنية عن الشرح والتفصيل . فقد وافقنا مع عمنا(2) خان الأعظم وسائر أعمامنا وإخوتنا وعشائرنا فمنهم : قايدو ، ونوقاى ، وتوقتا ، وقرجى ، [وطو](3) ، وغيرهم ، وهانحن متوجهون بأنفسنا إلى تلك البلاد بالعساكر الكثيرة التي ما لها نهاية ولا حد ، والكتائب الجرارة التي لاتحصى ولا تعد ، ومن ولاية الإفرنج والروم والكفور وديار بكر وبغداد بعثوا أفواجا كثيرة لا تعد ، وجما غفيرا لنهدى بهم سبيل الرشاد ، وندفع عن سائر المسلمين الشر والفساد .

[٢١١] فإن كنتم تتبعون الهدى وتستقبلون عساكرنا المنصورة ، فنحن في هذه النهضة الميمونة عازمون على أن لا يصدر عن أمرنا المطاع إلا إطفاء النائرة ، ومحافظتهم في الأمن والأمان ، ليستريح المسلمون في عهد الشفقة والإحسان ؛ تعظيما لأمر الله وشفقة على خلق الله ، وقد حرمنا على عساكرنا المنصورة التعرض إلى نفوس المسلمين والطموح إلى أموالهم ، فإن لم تسمعوا مارسمنا ونصحنا :

ف : السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

---

(1) الآية رقم ٢٧ من سورة البقرة رقم ٢ .

(2) « قاآن » — في زبدة الفكرة .

(3) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

ولما كانت همتنا المنصورة مقصورة على وضع قواعد العدل والإنصاف ، وعزمتنا المنيفة مصروفة إلى رفع قوانين الزور والاعتساف بحيث يستقيم الأمر في مركزه تأسيا بقوله تعالى : ﴿ ياداود إنا جعلناك خليفة في الأرض ﴾(١) الآية . ولهذا توجهنا إلى تلك الجهات ، وكيف يجوز تعذيب الرعية من غير جريمة صادرة منهم لاسيما سفك دمائهم وسبى حريمهم(٢) ، فتجب علينا محافظتهم(٣) ودفع الأسواء منهم بموجب قوله صلى الله عليه وسلم : « كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته »(٤) . والتزمنا بمحافظة الرعية في أنفسهم وأموالهم ، والسعي في ترفيه خواطرهم وتطييب قلوبهم ، فينبغي أن يسكنوا في دورهم آمنين مستكنين ، ويقيموا أسواقهم ويرتبوها ، ويشتغلوا بالكسب والمعاملات بعد أداء وظائف العبادات وإقامة مراسم الطاعات ، داعين(٥) لدوام هذه الدولة القاهرة ، ودوام أيامنا الزاهرة(٦) ؛ إذ وجب عليهم وعلى كافة المسلمين طاعتنا لقوله تعالى وأمره بطاعة أولى الأمر منكم(٧) ، وعليهم أن يخطبوا على المنابر باسمنا ، وعند قرب

---

(١) جزء من الآية ٢٦ من سورة ص رقم ٣٨ .

(٢) هكذا بالأصل .

(٣) هكذا بالأصل .

(٤) قال عليه الصلاة والسلام : « ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » — انظر سنن أبي داود — ج ٣ باب الخراج والإمارة والفيء ص ١٣٠ حديث رقم ٢٩٢٨ .

(٥) « لداعين » في الأصل .

(٦) « الزاهرة » ساقط من زبدة الفكرة .

(٧) يشير إلى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » — جزء من الآية رقم ٥٩ من سورة النساء رقم ٤ .

الوصول إلى بلادهـم يستقبلونا ، وتُصاحبنا القضاة والعلماء والصلحاء والمشايخ والسادات والفقهاء مرشدين إلى المزارات المباركة من مشاهد الأولياء ومواقف الأنبياء ، مُستوهبين من الله تعالى التوفيق لنيل مثوباتهـم ، وإحراز بركاتهم ، وبعد ذلك نقصد الإحرام بحجة الإسـلام وزيارة بيت الله الحـرام ، سيما وهو أكبر قواعد الإسلام ؛ إذ هو على كافة لقوله عز وجل : ﴿ ولله على الناس حجُّ البيت من استطاعَ إليه سبيلا ﴾(١) .

وقد نذرت يميننا [على ذلك](٢) ، وانعقـد نذر بأنه يُنـادى من جهتنا بأن جميع المسلمين وسائر المتوكلـين فى أمان من الله ورسوله ، ويكونون مطمئنين ، فارغى البال ، رافهى الحال ، ونحن عاهدنا الله ورسوله على جمـيع ذلك ، وإذا وقفوا على ما أنفذنا إليهم يبعثون إلينا من يُعرف أحوالهم ، وخلوص عقيدتهم ، وصفاء طويتهم حتى نعين الشحانى(٣) المعتبرين . وفى صحبتهـم التواقيع والفـرامين(٤) ليحفظوا البـلاد ، ويُقيموا الأسواق ، ولا يمكنوا أحدا من الظـلم والجور ، ولا تشويش خواطرهـم ، لأن العسكر المجهز إليهم معهـم ما يكفيهم سنة وأكثر(٥) ، فاستراحوا من ذلك .

فإذا تشرفوا بمطالعة هذا التوقيع الشريـف ، وامتثلوا مقاصده وفحواه فقـد فازوا فوزا عظيما ، وإلاّ فقد خسروا خسرانا مبيناً ، وعقابُ ذلك سَـفك الدماء

(١) جزء من الآية رقم ٩٧ من سورة آل عمران رقم ٣ .

(٢) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٣) المقصود جمع « شحنة » .

(٤) المقصود جمع « فرمان » — فرمانات .

(٥) « لأن العساكر الجمة إذا وصلوا إليهم تبع المعاملات معهـم مايكفيهم سـنة وأكثر » — فى زبدة الفكرة ، وفيه اضطراب واضح .

[٢١٢] وغارة الأموال بوقوع الهرج والمرج ، ونحن نبرأ من ذلك ، وقد أعذر من أنذر (والسلام على من اتبع الهدى) (١) .

الثانى من الفرامين (٢) : كتبه عند رحلته من الشام ، فقرىء بجامع بنى أُمية .

بقوة الله وميامين الملة المحمدية ، فرمان السلطان محمود غازان :

ليعلم الأمراء والنُـواب والولاة والقضاة والسادة والصدور والناس كافـة بممالك الشام والسـواحل أن جدنا جنكزخان كان ملكا وابن ملك إلى سـبعة جدود فى بلاد المغول (٣) ، وحيث أيده الله تعالى مَلك بسيفه ربع الأرض المسكون ، ولم يبلغنا فى تاريخ من التواريخ من لدن آدم عليه السلام و إلى يومنا [هذا] (٤) أن ملكا ملك من الأقاليم ماملكه ، ولا تيسر له من التأييد ما تيسر له ، ونحن سادس ملك من صلبه ، وكان قـد سبق فى تقدير الله أن يُصيب أولاده ممن سلف قبلنا عين نافذة ، فوقع بينهم الخلف وطال التنازع بينهـم سنين كثيرة ، فاجتمع من من بقايا سيوفهم أمم مختلفون يتسترون فى الأَكنان و يتغيبون فى أبعد المكان ، وكان منهم سكان مصر والشام ، واجتمع بها من المماليك والخوارج زُمرة غرّتهم سلامتهم من المغل المشتغلين عنهـم بمـا كان أهم عندهم منهـم ، وطفقوا كل قليل يختارون من بينهم مملوكا من أرذل الأجناس ، فيُملكونه على الإسـلام ، ويحكمونه فى رقاب الأنام ، وحسبوا أن ذلك تدبير الملك ، ولم يتعرفوا طريق

(١) جزء من الآية رقم ٤٧ من سورة طه رقم ٢٠ .

(٢) المقصود « فرمانات » . وانظر نسخته أيضا فى زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢١٢ أ — ٢١٤ أ .

(٣) « الملوك » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة ، و يتفق مع السياق .

(٤) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

النجاة من الهلك ، حتى وصلت نوبة المملكة إلينا ، وزُفَّت عروسها علينا ، زين الله قلوبنا بالإسلام[١] ، وأبهجها بأنوار الإيمان ، وكان من الواجب المتعين وأدب الملوك الهين أن هؤلاء المماليك يهنئوننا[٢] بما وهب الله لنا من الملك العظيم وهدانا إليه من الصراط المستقيم ، ويُرسلون إلينا رُسلهم بتحف السلاطين ، ويجدون فى استجلاب مودتنا أوضح القوانين ، فمرت على ذلك ثلاث سنين ، وهم يجهلون حقوق الأدب ، ولم يؤدوا من عوائد الملك ما يجب ، ولما علموا أننا دخلنا فى الإسلام راغبين ، ولرضى الله سبحانه طالبين ، حسبوا أنهم إذا فتحوا إلينا طريق المودّة جاءنا أكثر عسكرهم هاربين ، ولم يكن لهم من التمييز أن يعلموا أن الملك يؤتيه من يشاء من عباده ، وقد ملّك كثيرا من الكفار أكثر بلاده ، كما بلغهم عن جنكزخان ومن كثير ممن كان ، ولو كان نيل الملك بالتقوى لكان بنو فاطمة [عليهم السلام[٣]] على الخلافة أقدر وأقوى ، ولم يرضوا بذلك حتى سلكوا من التهجم والتقحم أقبح المسالك ، وقصدوا طرفا من أطراف بلادنا على غرّة ، وهجموا عليها على فترة ، وكذلك سلامش[٤] لما تسحب خوفا من ذنوب اقترفها وديون ارتكبها حموه ، وأنفذوا معه عسكرا ، وقصدوا أن يشعثوا الروم ، وقد يكون حتف المغرور فيما يروم .

---

(١) « بحب الإسلام » — فى زبدة الفكرة .

(٢) « يهنونا » فى الأصل .

(٣) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٤) « سولتمش » — فى الفرمان الأول — انظر ما سبق ص ٤٩ .

فلما رأيناهم قد تجاوزوا فى البغى غاية الحد، واتخذوا المملكة لعبا واتكلوا على الجد، واغتروا بعدم التفاتنا إليهم، فكان(١) ذلك وبالا عليهم، لأنا رفعنا التنازع بيننا وبين أقاربنا، وجعلنا قصد مهلكتهم من مطالبنا، خشينا [٢١٣] أن جيوشنا تستأصل من المسلمين الأصاغر والأكابر، فأرسلنا إليهم رسلا يُنذرونهم ويحذّرونهم ويذكرونهم، فحبَسوا الرسل وقطعوا السُبُل، ثم حملهم الجهل والغرة على مقابلة جيوشنا ومقاتلتهم، وتمثلوا فى أنفسهم الغلبة فأقدموا على مماثلتهم، وكانوا قد عاجلونا وأكثر عساكرنا لم يركبوا خيولهم ولم يشهدوا الحرب، لما لم يعلموا تعجيلهم، وما لقيهم غير تسعة آلاف كانوا قد ركبوا معنا، فلقونا بأجمعهم، وما قابلوا جمعنا، وكان [من](٢) أمرهم ما كان، وتبين لذوى البصائر أن الله لم يرض منهم ذلك العُدوان، فاجتمعت معنا أمراء دولتنا، وذكروا لنا أن هذه الطائفة من المماليك لهم أربعون سنة يقصدون الحصون فيخربونها، والمدُن المستصعبة فيدمّرونها، حتى إنهم خرّبوا من البلاد وقتلوا من العباد ما يعادل أهل مصر والشام، وأوضحوا فى ذلك مقول الكلام، والمصلحة أننا نشن الغارة(٣) على الشام من غزة إلى الفرات، وينقل من فيها من الرعية فيُعمّر بها ما خرّبوا ليقابل الفاسد بمثله، فما قبلنا مشورتهم، وقلنا: نحن لم نرض [فعلهم، ا](٤) فنصير بما فعلوا مثلهم، وأعرضنا عن ذلك، ورحمنا الرعية، وجعلنا مأمنهم أولَ نعمة لله عليهم، ومَبْدأ عطية، وإن كان قد وقع إلى أحد من عساكرنا بعض من استُضعف

(١) «وكان» — فى زبدة الفكرة.

(٢) [ ] إضافة من زبدة الفكرة.

(٣) «الغارات» — فى زبدة الفكرة.

(٤) [ ] إضافة من زبدة الفكرة.

فقد أمنـه بانتزاعه من يد مَن استلبه ، حـتى يبلغ رجوعه إلى أهـله إربه ، فأرسلنا إلى أهـل القلاع والجبال والأعراب والتركمان والعشائر كتب الأمان ليكونوا فى أمان الله ورسوله وأماننا ، وإذا خفت العساكر من هذه البلاد رُدّ كل إلى وطنه ، ورجع كل إلى سكنه .

ولقصدنا مصلحة الرعايا وحمايتهم ، رتبنا مُولاى وجبجك وأبشغا وبغا وهُلَاجُو وقرابغا وبهادر مُقدّمين على أربعين ألف فارس ، وتركناهم على غزة والغور ، وأمرنا الأمير سبا أن يقيم على حلب وحماة وحمص فى عشرين ألف راكب ، وأعطينا الأمير سيف الدين قفجق[1] نيابة السلطنة بدمشق ، ورتبنا الأمير سيف الدين بكتمر نائب السلطنة بحماة وحلب[2] ، والأمير فارس الدين إلبكى نائب السلطنة بصفد وطرابلس والسواحل ، وجعلنا ملك الأمراء والوزراء ناصر الدين يحيى شادّا على الدواوين فى هـذه الأقاليم كلها ، فكل من أعطاه أحد من هؤلاء الأمراء أمانا فهو أماننا ، وكل جندى أراد خدمتنا فقد أمرناهم أن يُعيّنوا له إقطاعا يليق به ، وَلْيَثِقُوا بما أُودعه الله لهم فى قلوبنا من الرأفة وحسن النيـة ، وليطيعـوا هؤلاء الأمراء طاعة موفقة ، ولا يتخلف أحد عن طاعتهم ، فقد أخذنا عليهـم العهود بالعـدل والشفقة ، وإن خالف أحد أو عصى فلابد أن يذوق كأس الردى ، والله تعالى يجمع قلوب رعايانا على الهوى ، إن شاء الله تعالى .

---

(١) « قفجاق » — فى زبدة الفكرة ، فى هذا الموضع والمواضع التالية .

(٢) « بحلب وحماة » — فى زبدة الفكرة .

الثالث من الفرامين (١) : فرمان الأمير سيف الدين قنجق :

بتقوى الله وميامين الملة المحمدية ، [٢١٤] فرمان السلطان محمود غازان :

الحمد لله الذى جرّد لنصر هذه الدولة القاهرة سيفا ماضيا ، وانتضى لتأييدها من أوليائها قاضيا قاضيا (٢) ، وارتضى لها من أصفيائها من أصبح الملك عنه راضيا ، نحمده ونشكره على نعمته التى أورثتنا الممالك ، وجمعت لنا مابين النصر والفتح وما أشبه ذلك ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، شهادة تُنيلُ النجاة وترفع الدرجات ، ونشهد أن محمدا نبيه المرسل بالهدى والصدق ، والمبعوث بدين الحق صلى الله عليه صلاة تنيله الوسيلة والفضيلة . وعلى آله خير آل وأشرف قبيلة ، وبعد :

فإن الله تعالى لما مَنّ علينا بالإيمان ، وهدانا إلى أشرف الأديان ، حمدناه وشكرناه على أنه أضاف إلى مُلكنا للدنيا ملكنا للآخرة ، وجَلّل علينا حُلل الدين الفاخرة ، ونذرنا أن نُعم الرعيّة بعدلنا ، ونشمل البريّة بفضلنا ، وأن لا نسمع بمظلوم إلّا نصرناه ، ولا نطلع على مقهور إلا أنقذناه ، فلما اتصل بنا ما بمصر من المظالم ، ومن فيها من غاصب وظالم ، هاجرنا لنصر الله تعالى ونصرة الدين ، وبادرنا لإنقاذ من فيها من المسلمين ، وراسلناهم وأنذرنا ، وكاتبناهم وزجرناهم ، ووعظناهم فلم تنفع فيهم العظة ، وأيقظناهم فلم تكن فيهم (٣) يقظة ، فلقيناهم

(١) المقصود : الفرمانات . وانظر أيضا نسخته فى : زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢١٤ أ — ٢١٥ ب .

(٢) هكذا فى الأصل ، وفى زبدة الفكرة ؤ

(٣) « عندهم » — فى زبدة الفكرة .

بتقوى(١) الله تعالى ، فكسرناهم وقطعنا(٢) آثارهم ، وملّكنا الله تعالى أرضهم وديارهم ، وتبعناهم إلى الرمل وحطمناهم كما حطم سليمان وجنوده وادى النمل ، فلم ينج منهم إلا الفريد ، ولا سلم إلّا البَريد ، فلما استقر تملكنا البلاد وجب علينا حسن النظر فى العباد ، فاحضرنا الفكر فيمن نقلده الأمور ، وأمعنا النظر فيمن نفوض إليه مصالح الجمهور ، فاخترنا لها مَن يحفظ نظامها المستقيم ، ويقيم ما أباد من قوامها القويم ، يقول فيُسمع مَقاله ، ويفعل فتقتفى أفعاله ، يكون أمرُه من أمرنا ، وحكمه من حكمنا ، وطاعته من طاعتنا ، ومحبته هى الطريق إلى محبتنا ، فرأينا أن الجناب العالى الأوحدى الكفيلى المجاهدى الأميرى الهمامى النظامى السيفى ، ملك الأمراء فى العالمين ، ظهير الملوك والسلاطين قفجق ، هو المخصوص بهذه الصفات الجليلة ، والمحتوى على هذه المناقب الجميلة ، وأن له حرمة المهاجرة إلى أبوابنا ، ووسيلة القصد إلى ركابنا ، فعرفنا له هذه الحرمة ، وقابلناه بهذه النعمة ، ورأينا أنه لهذا المنصب حفيظ قمين ، وعلى ما استحفظ قوى أمين ، وأنه يبلغنا الغرض من حفظ الرعايا ، فأقمناه مقامنا فى العدل والقضايا ، فلذلك رسمنا أن نفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالممالك الدمشقية والبعلبكية والحمصيّة والساحلية والجبلية والعجلونية والرّحبية من العريش إلى سلمية ، نيابة تامة عامّة ، كاملة شاملة ، يؤتمر فيها بأمره ، ويُزدَجر فيها بزجره ، ويُطاع فى أوامره ونواهيه ، ولا يخرج أحد عن حكمه ولا يعصيه ، له الأمر التامّ والنظر العام ، وحسن التدبير وجميل التأثير ، [٢١٥] والإحسان الشامل لأهل

---

(١) « بقوة » — فى زبدة الفكرة .

(٢) « وقلعنا » فى زبدة الفكرة .

البلاد ، واستجلاب الغُزاة والقُوّاد ، وتأمين مَن يطلب الأمان والطاعة والامتنان متفقا فى الاستخدام والتأمين مع ملك الأمراء ناصر الدين ، فإن اجتماع الآراء بركة ، والهمم تؤثر إذا كانت مُشتركة ، وكل من أمّناه فإنه أماننا أجريناه على قلمهما ولسانهما (١) .

وقد أنعمنا عليه (٢) بالسيف ، والسنجق الشريف ، والكؤوس ، والبائزة الذهب برأس السبع ، ورسمنا له بألف فارس من المغل يركبون لركوبه وينزلون لنزوله ، وليكونوا تحت حكمه رفعةً لقدره ، وتنويها باسمه ؛ وسبيل الأمراء والمقدمين وأمراء العربان والتركمان والأكراد والدواوين والصدور والأعيان والجمهور بأن يتحققوا أنه نائبنا فى السلطنة الشريفة ، فإن (٣) له هذه المنزلة المنيعة ، وليطيعوه طاعة تُزلفهم لديه وتقربهم إليه ؛ ويحصل لهم بها رضاه عنهم وإقباله عليهم وقربهم منه . وليلزموا عنده الأدب فى الخدمة كما يجب ، وليكونوا معه فى الطاعة والموافقة على ما يحبّ .

وعلى ملك الأمراء سيف الدين بتقوى الله فى أحكامه ، وخشيته فى نقضه وإبرامه [وتعظيم الشرع وحكامه ، وتنفيذ قضية كل قاض على قول إمامه (٤)] وليعتمد الجلوس للإنصاف والعدل (٥) ، وأخذ حق المشروف من الأشراف ، وليقم

(١) « على قلبه ولسانه » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٢) « أنعم » — فى زبدة الفكرة .

(٣) « وأن » — فى زبدة الفكرة .

(٤) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٥) « العدل والإنصاف » — فى زبدة الفكرة .

الحدود والقصاص على كل من وجبت عليه ، وليكُف الكَفّ العادية عن كل من يتعدى إليه ، وقد تقدم من الأمر بالآثار الجميلة فى الشام المحروس ماتشوقت إليه الأعين وتاقت إليه النفوس ، وقد ردّه الله سبحانه إليهم ردّا جميلا ، فليكن بمصالح الدولة ومصالح الرعية كفيلا ، والله تعالى يجعل له إلى الخير سبيلا و يوضح له إلى مَراضى الله ومراضينا دليلا ، بمنّه ولطفه .

الرابع من الفَرامين (١) : [فرمان] (٢) الأمير سيف الدين بكتمر السلاحدار .

بقوة الله وميامين الملّة المحمدية . فرمان السلطان محمود غازان :

الحمد لله الذى أيدنا بالنصر العزيز (٣) والفتح المبين ، وأمدّنا بملائكته المقربين ، وجَعلَنا من جنده الغالبين ، نحمده على الهداية إلى سبيل المهتدين ، والإرشاد إلى إحياء الدين ، حمدا يوجب المزيد من فضله كما وعد الحامدين ، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، شهادة تُنظمنا (٤) فى سلك المخلصين ، ونشهد أن محمدا عبده ورسوله خاتم النبيين ، أما بعد :

فإن الله تعالى لما مَلّكنا البلاد وفوض إلينا النظر فى أمور العباد ، وجب علينا أن ننظر فى مصالحهم ، وأن نهتم بنصائحهم ، وأن نقيم عليهم نائبا يتخلق

---

(١) المقصود : الفرمانات . وانظر أيضا نسخته فى : زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢١٥ ب — ٢١٦ ب .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح يقتضيها السياق ، كما ورد فى أول الفرمان السابق .

(٣) « والعز » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٤) « وأشهد » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة ، و يتفق مع السياق .

بأخلاقنا فى كرم السّجايا ، ويبلغنا الأغراض فى مصالح الرعايا ، فأعملنا الفكر فيمن نقلده الأمور ، وأمعنا(١) النظر فيمن نفوض إليه مصالح الجمهور ، واخترنا لها من يحفظ نظامها المستقيم ، ويُقيم ماتأوّد(٢) من قوامها القويم ، يقول فيُسمع مقاله ، ويَفعل فتقتفى أفعاله ، يكون أمره من أمرنا ، وحكمه من حكمنا ، وطاعته من طاعتنا ، ومحبته هى الطريق إلى محبتنا ، فرأينا أن الجناب العالى الأوحدى المؤيدى العضدى النصيرى العالمى العادلى الذخرى الكفيلى [٢١٦] السيفى سيف الدين ، ملك الأمراء فى العالمين، ظهير الملوك والسلاطين بكتمر ، هو المخصوص بهذه الصفات الجميلة ، والمحتوى على هذه السمات الجليلة ، وله حرمة المهاجرة إلى أبوابنا ، ووسيلة الوُصلة إلى ركابنا ، فرعينا له هذه الحرمة ، وقابلناها بهذه النعمة ، ورأينا أنه لهذا المنصب حفيظ مكين ، وخاطبنا لسان الاختيار ﴿ إن خيرَ من استأجرت القوىُّ الأمين ﴾(٣) ، وعلمنا أنه يبلغ الغرض من صون الرعايا ، ويقوم مقامنا بالعدل فى القضايا ، فلذلك رسمنا أن نفوض إليه نيابة السلطنة الشريفة بالممالك الحلبية ، والحموية ، وشيزر ، وأنطاكية ، وبغراس ، وسائر الحصون ، والأعمال الفراتية ، وقلعة الروم ، وبهنسى(٤) ، وما أضيف إليها من الأعمال والثغور ، نيابة تامة عامة ، كاملة شاملة ، يؤتمر فيها بأمره ، ويزدجر فيها بزجره ، ويطاع فى أوامره ونواهيه ، ولايخرج أحد عن حكمه ولايعصيه ، له الأمر التام والنظر العام ، وحسن التدبير وجميل التأثير ،

(١) « وأنعمنا » ــ فى زبدة الفكرة .

(٢) « إتآد » ــ فى زبدة الفكرة .

(٣) جزء من الآية رقم ٢٦ من سورة القصص رقم ٢٨ .

(٤) « بهسنا » ــ فى زبدة الفكرة .

والإحسان الشامل إلى أهل البلاد ، واستجلاب الولاء والوداد ، وتأمين من يطلب الأمان[1] ، ويتلقى من يترامى [إلى][2] الطاعة والخدمة بالامتنان ؛ متفقا فى الاستخدام والتأمين مع ملك الأمراء والوزراء ناصر الدين ، فإن اجتماع الآراء بركة .. إلى آخره مثل ما فى آخر الفرمان الثالث[3] .

ثم فى آخر الكل : مؤرخ فى ثالث عشر جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين وستمائة بمقام مرج .

ذكر قدوم السلطان مصر مع أمراء دولته بعد الانهزام فى الوقعة المذكورة :

لما جرى ما جرى من انهزام الجيش السلطانى وصل السلطان الناصر إلى القاهرة وصحبته الأمير سيف الدين سلار ، والأمير ركن الدين الأستادار ، والأمير سيف الدين بكتمر أمير جاندار ، ومن يلوذ بهم ، وطلعوا القلعة فى العشر الأخير من ربيع الآخر[4] .

وقال صاحب النزهة : وكان ذلك اليوم يوم الأربعاء بكرة النهار الثانى عشر من ربيع الآخر، وكان المصاف الكائن بينهم يوم الأربعاء الثامن والعشرين من ربيع الأول بين الصلوتين ، وتواردت بعده الأمراء المتأخرون والأجناد

(١) « الأمن » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٢) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٣) انظر ما سبق ص ٦٠ — ٦١ .

(٤) « الأول » فى الأصل ، وهو تحريف . وقد ورد : « قدم إلى قلعة الجبل يوم الأربعاء ثانى عشر ربيع الآخر » — السلوك جـ ١ ص ٨٩٦ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٢٨ ، وانظر ما يلى .

المنقطعون، وآخر من حضر كان أمير سلاح والطباخى وتغريل الأيغانى ، وهم الذين كانوا سافروا على الساحل وحموا العسكر ، وحملوا من وجدوه من المنقطعين ، ووقع عند وصولهم فى قلوب الخلق توجع كثير وأسف وبكاء ، وأقاموا المأتم على من فقد ، وأقاموا أياما فى الحزن والنياح على من فقد من الأمراء إلى أن منعوا من جهة السلطنة .

وقال بيبرس فى تاريخه : وصل الأمير سيف الدين بلبان السلحدار المنصورى المعروف بالطباخى نائب السلطنة بالمملكة الحلبية وصحبته العسكر الحلبي ، وكان عبورهم على جانب الساحل من جهة طرابلس ، وصادفوا(1) المضيق ، وقاسوا مشقة عظيمة من وعر الطريق ، وخرج عليهم الجبلية ونهبوا منهم جماعة وقتلوا جماعة ، ووصل الأمير جمال الدين أقوش الأفرم نائب السلطنة بالشام(2) [٢١٧] ومعه العسكر الدمشقى ، والأمير سيف الدين كراى المنصورى نائب السلطنة بصفد وصحبته العسكر الصفدى ، وحضر بعدهم الأمير زين الدين كتبغا المنصورى من صرخد ، وعبر فى طريقه بالكرك وترك بها عائلته وأولاده ، وأقبلت العساكر السلطانية واجتمعوا بالقاهرة(3) .

وقال صاحب النزهة : الأمير زين الدين كتبغا هذا قد كان تولى السلطنة وتلقب بالملك العادل كما تقدم ذكره(4) ، ثم لما خلعوه ولوه نيابة صرخد ، فلما

---

(١) « فصادفوا » ــ فى زبدة الفكرة .

(٢) « بالشام المحروس » ــ فى زبدة الفكرة .

(٣) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢١٧ أ ، ب .

(٤) انظر الجزء الثالث من هذا الكتاب ص ٣١٢ وما بعدها ، ص ٣٥٠ وما بعدها .

دخل العدو البلاد ووصل السلطان الناصر والأمراء إلى دمشق تكلموا فى أمر حضوره، فلم يُعجب الأمراء حضوره وسيروا إليه، فطلبوا مماليكه وعرفوه أنهم أعفوه من الحضور ليحفظ قلعته، فسير إليهم جماعة من مماليكه، فحضروا المصاف، فلما اتفق ما اتفق، نزل من صرخد وسافر على البريد إلى مصر، وكان يجلس مع الأمير سيف الدين سلار والأمير ركن الدين بيبرس ويأخذ المولة ويُرمّل على العلامات التى يكتبها نائب السلطان، فكان سلّار يسأله أن يعفيه من ذلك، وكان كتبغا يحلف أنه لابد أن يفعله، فكانت الناس إذا رأوا ذلك يتعجبون من صنع الله تعالى وعظمة قدرته أن سلار وغيره من الأمراء الكبار وأصحاب الوظائف كانوا فى خدمة كتبغا وهو سلطان يتخدمون له ويتضرعون إليه فى الأمور، ثم قلبَ الله ذلك حتى صار كتبغا فى خدمة سلار الذى هو أمير وليس بسلطان، ويُرمّل على ما يكتبه من العلامات، ويسأله فى أشغال كثيرة سؤال مملوك مخدومه، وهذا من غرائب الزمان وعجائب الدهر، فسبحان المعزّ والمذلّ.

ومن العجائب أن كتبغا هذا عرضوا عليه جوشنا[1] فى أيام دولته وقد أعطى فيه بيبرس الجاشنكير أربعة آلاف درهم، فلما رآه كتبغا قال للدلال: كم جابَ هذا الجوشن؟ قال: ياخوند أربعة آلاف درهم على بيبرس الجاشنكير. قال: وهذا يصلح لذاك الخُرْباطي؟ فأخذه ووزن ثمنه، ومرت الأيام إلى أن اتفق لكتبغا ما اتفق ونفى إلى الشام ووقعت الحوطة على جميع حواصله، ووجد ذلك الجوشن فى حاصله، فأخذه لاجين، ثم انتقل بالعطاء من يد إلى يد حتى وقع فى يد بيبرس فعرفه وأخذه، وجعله فى حاصله إلى أن اتفق حضور كتبغا بعد

(١) جوشن — جواشن: لفظ فارسى، وهو درع يتكون من حلقات يتداخل فيها صفائح رقيقة من التنك — صبح الأعشى جـ ٢ ص ١٧٣.

هـذه الوقعة ، ولما اجتمع بالأمراء أراد بيبرس يُنكى كتبغا ، فأرسل من يحضر بالجوشن المذكور ، فلما حضر به قام بيبرس ولبسه ، والأمراء كلهم حاضرون وكتبغا فيهم ، ثم نظر بيبرس إلى كتبغا وقال : يا أمير إيش تقول؟ يصلح لى هذا الجوشن فألبسه أم لا ؟ فنظر إليه كتبغا ولم يعلم ما فى نفس بيبرس مماقصده من إنكائه . فقال : والله يا أمير هذا كأنه قد فُصّل لك ، ولولبسه غيرُك ما لاق به ، فنظر بيبرس إلى الأمراء وتغامزوا ، وعلم كل منهم ما قصده بيبرس فيما فعله ، وهذا الذى اتفق لكتبغا لم يسْمَع فى دولة من الدول ، فسبحان الفعال لما يريد.(١)

ذكر ما دبّر السلطان وأمراء دولته بعد قدومهم :

[٢١٨] ولما استقر ركاب السلطان فى القاهرة أمر للأمراء فى أخذ الأهبة والتجهيز وتحصيل أصناف السلاح ، فشرعوا فى ذلك ولم يدعوا صانعا إلا وأحضروه ، وأمروا للوزير بجمع الأموال من سائر الجهات لأجل النفقات ، وكان من أجلّ من قام فى أمر النفقة الأمير سيف الدين سلار ، والأمير سيف الدين بكتمر أمير جندار .

قال صاحب النزهة : حكى لى بعض مماليك بكتمر فقال : خرجت أنا والأمير ومعنا من مماليكه ستة أنفس من المصافّ يوم الهزيمة ، وإذا أنا بشخص جندى اعترضنا وبيده رمح ، وقال للأمير : إلى أين يامن يأكل ثلث ديار مصر ، أما تستحى من الله وأنت هارب؟ قال : فالتفت إليه الأمير فقال : ويلك أنا وحدى إيش أقدر أعمل ؟ فتقدم أغير أنا وأنت . فقال : لأى شيء عملت لى لما قبضت ربع خبزك ، فقال : أنا وأنت نأكل ، وأنت تأكل ثلث إقطاعات مصر وأنا آكل

(١) انظر السلوك جـ ١ ص ٨٩٦ – ٨٩٧ .

خمسة آلاف درهـم ، فالآن تقول : تقدم للحرب ، فأعرض عنه وتولى راجعا وهـو يقول : لابيّض الله لك وجها ولاخشداشيتك . قال المملوك المخبر لهـذا : قصدت أن أرجع إليـه أنا و بعض رفقتى فنقتله على إساءته الأدب على الأمير ، فمنعنا الأمير وقال: خلّوه فإنه معذور والله لقد قلت للأمير سلار عدة مرات انظر فى حال الأجناد ، فما قبل كلامى .

قال صاحب النزهة : ثم حكى سيف الدين الطُشلاقى خشداش سلار قال: كنت مع سلار وخرجنا من المصاف وقد جرح فرسى وجرح لسلار فرسا تحته ، ولما انهـزمنا سُقنا إلى أن وصلنا دبُوسية فوق حمص فى الليل ، وكان أمامنا جماعة من الجند يتحدثون وفيهم واحد يقول لرفيقه : كيف كان خروجك و إش جرى لك ؟ فقال : والله كنت أنا وفلان وفلان وسمى جماعةً دخلنا فى ضياع من ضياع حمص ووجدنا فيها جماعة يشترون شعيرا وكنا نحن ستة نفر، قد كُنّا تحالفنا أن لا نحضر المصّاف لأجل ما جرى علينا من أولئك الفَعلة الترك بيبرس وسلار والبُرجيّـة ، وذلك أنهـم لا يذكرون الأجناد إلا بالسبّ والشتيمة و يقـولون : والله ماهم إلا سُخرة ، ولقـد كتبنا قصة فى غزّة وأعطيناها لهـم وقلنا : إنا قد خرجنا بـلا نفقة متكلين على نفقة السـلطان ، وما معنا شىء ننفق ، وألححنا فى الطلب، فكان جوابهم لنا : والله أنتم ماتنفقون شيئا سواء تأخذون النفقة أو لا تأخذونها ، ما عندنا شئ نعطيكم حـتى نصير فى دمشق ، فلما حصلت النفقة فى دمشق ألزمنا أنفسنا أن لانحضر المصاف لأجل ما حصل لنا من الغبن ، وهؤلاء يأكلون مصر كلها وقد تقاسموها ونحن كل واحد ما يصل خبزه ألفى درهـم ، ومع هذا ضاقت أعينهم علينا، وهذا الذى جرى عليهم بسبب [٢١٩] الأجناد،

فإن نياتهم للأجناد كانت سيئة ، فقاتلهم الله تعالى وأحوجهم إليهم ، وكان سلار يسمع ذلك ويبكى ويقول : لاحول ولاقوة إلا بالله ، وقعنا والله فى ألسنة الناس ، هم معذورون . قال : وبقيت أُشاغله حتى لا يسمع ما يقولونه ، وهو لايريد إلا سماع كلامهم ، فيسمع ويتوجع لهم .

ذكر تصدّيهم للنفقات على العسكر :

لما اجتمع الأمراء للمشاورة لأجل النفقة كان أول من تكلم فيها الأمير سلار والأمير بكتمر الجوكندار ، وشرعوا فى طلب الخيل التى فى الدشار جميعها من البغال والأكاديش(1) ، وكتب لسائر الأقاليم بطلب العربان المستجيرة ، وأخذ الخيل من عرب الصعيد والولاة ، وفى طلب السيوف والرماح وغير ذلك من آلات الحرب ، وسفروا البريدية لذلك .

وتحسنت أسعار الدواب ، فالفرس الذى كان يُساوى ثلاثمائة درهم بيع بألف ، كذلك الجمال والبغال والهجن ، واشترت الأجناد الخيل حتى من الطواحين ، كذلك تحسنت أسعار سائر أصناف السلاح ، والقرقل الذى كان يساوى مائة درهم بيع بسبعمائة ، والبركستوان التى كانت تساوى مائتى درهم بيعت بألف ، والجوشن الذى كان بخمسين بيع بمائتين وثلاثمائة ، والخوذة التى كانت تساوى خمسين بيعت بمائتين وثلاثمائة وما توجد إلا نادرا ، وتحسن أسعار سائر أصناف آلات الحرب ، وأمروا أن يُضاف إلى كل واحد

---

(1) أكديش — أكاديش ؛ هو البرذون — البراذين : من أصناف الخيل التى تطلب للصبر على السير وسرعة المشى — انظر صبح الأعشى جـ ٢ ص ١٤ ، الخيل ورياضتها ص ٣٥ .

من الأمراء المقدمين الألوف عشرة من البطالين يقيم بهم طول السفر ، ولكل واحد من أمراء الطبلخاناة خمسة أنفس ، ولأمير العشرة شخصان ، واستخدم الأمراء الذين لهم مقدرة جماعة برسم الغزاة في سبيل الله احتسابا ، وكذلك كثير من الأغنياء ، حتى استخدمت جماعة من نساء الأمراء اللائي فيهن الخير .

ثم إن السلطان فتح بيوت الأموال والذخائر وأنفق في الجيش نفقة ما سمع مثلها ، بجعل الحلقة(١) ثلاثة أقسام : -

القسم الأول : أعطى لكل واحد منهم ثمانين دينارا .

والقسم الثاني : لكل واحد منهم خمسة وسبعين دينارا .

والقسم الثالث : لكل واحد منهم خمسة وستين دينارا .

وأعطى لكل واحد من أجناد الشام خمسة عشر إردبا من القمح والشعير والفول ، وأعطى لأجناد الأمراء لكل واحد منهم خمسين دينارا .

قال بيبرس في تاريخه : هذه النفقات حين أقبلت العساكر السلطانية واجتمعوا بالقاهرة فرقت عليهم ، فأزالوا شعثهم ، وجددوا عُدَدهم ؛ ورخصت قيمة الذهب حتى بلغ الدينار إلى سبعة عشر درهما(٢) ، وقلت الدراهم حتى طاف الجند بالدنانير فلم يجدوا من يشتريها ، وارتفعت أسعار العدد وآلات السلاح ، وأثمان الخيل والبغال والجمال ، ولم تمض على العساكر إلا أيام يسيرة حتى عادوا إلى أحسن صورة(٣) .

(١) المقصود : جند الحلقة .

(٢) « بعد خمسة وعشرين درهما ونصف » — في السلوك جـ ١ ص ٨٩٩ .

(٣) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢١٧ ب .

وقال صاحب نظم الجمان : ثم أنفق السلطان نفقة ثانية لكل جندى اثنى عشر دينارا ، وهذه النفقة حين خروج السلطان والعساكر إلى الشام بعد مجيئه إلى القاهرة بعد الانهزام على ما نذكره عن قريب إن شاء الله .

قال صاحب النزهة : وكان قد قدم إلى القاهرة خلق كثير من سائر البلاد - عقيب انهزام [٢٢٠] السلطان - من الحلبيين والحمويين والدماشقة والحمصيين ومن أهل السواحل من الأجناس المختلفة حتى ضاقت بهم القاهرة ومصر ، وسكنوا القرافة وجامع [ابن] طولون والحسينية [(١)] ، وكان من ألطاف الله تعالى على خلقه أنه رخص أسعار سائر الحبوب والمأكول ، فكان الأردب من القمح قبل أن يسافر السلطان بستة عشر درهما إلى ثمانية عشر ، والأردب من الشعير بعشرة ، والأردب من الفول بثمانية ، ثم لما دخلت العساكر وفتح الأمراء والأجناد الشون باعوا الأردب من القمح بخمسة عشر وأربعة عشر وثلاثة عشر ، وباعوا الأردب من الشعير بعشرة وتسعة وثمانية ، وباعوا الأردب من الفول بسبعة وثمانية ، ولم تتحسن إلا أسعار آلات الحرب من أصناف السلاح وأسعار الدواب .

وقال صاحب النزهة أيضا : وكانت الأمراء اجتمعوا عند السلطان قبل النفقة وتشاوروا أن يؤخذ من سائر التجار والسوقة وسائر من يتسبب [(٢)] بمصر والقاهرة عن كل رأس دينار ، وطلبوا مجد الدين [عيسى] [(٣)] بن الخشاب نائب الحسبة وقالوا

(١) [ ] إضافة تتفق والسياق .

(٢) يتسبب ، يرتزق . والمقصود ، له عمل يرتزق منه أو يتعيش بسببه .

(٣) [ ] إضافة للتوضيح من السلوك جـ ١ ص ٨٩٧ .

وهو : عيسى بن عمر بن خالد بن عبد المحسن ، مجد الدين أبو الروح ، ابن الخشاب ، المتوفى سنة ٧١١ هـ / ١٣١١ م — الدرر جـ ٣ ص ٢٨٥ رقم ٣١٢١ .

له : انزل وتحدث مع القضاة فى ذلك وخذ لنا الفتوى منهم . فقال لهم مجد الدين : إن عندى فتوى بخط الشيخ عز الدين بن عبد السلام (١) ، لما خرج الملك المظفر قطز (٢) إلى ملتقى نائب هلاون وهو كتبغا نوين لما سيره إلى أخذ مصر ، فتلاقى معه على عين جالوت كما ذكرناه مفصلا (٣) ، وأنه لما لم يجد من المال ما يكفى نفقة العساكر وقصدوا أخذ المال من العامة استفتوا الشيخ عز الدين فى هذا فأفتى لهم بأخذ دينار من كل أحد ، وهذه الفتوى عندى ، فأحضرها عندهم وقال له الأمير سلار : اكتب صورة الاستفتاء وانزل بها إلى الشيخ تقى الدين [محمد بن دقيق العيد (٤)] قاضى القضاة حتى يكتب عليها بخطه ، فكتب مجد الدين صورة الاستفتاء ونزل بها إلى قاضى القضاة ومعه شخص من الحجاب ، وتحدثوا مع الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد وناولوه صورة الاستفتاء ، فأخذها وتأمل ما فيها ، ثم هز رأسه وقال يا فقيه : ما القصد فى ذلك ؟ فقال : يا سيدى القصد أن تكتب على هذا لتطيب خواطر الناس بالعطاء . قال : فرماها من يده وقال : لا حاجة للفتوى ، وما ثم مانع إذا أراد ولاة الأمر بشىء قبل الناس ، نخرج المحتسب والحاجب من عنده على هذا ، وجاءوا إلى الأمراء وعرّفوهم

(١) هو : عبد العزيز بن عبد السلام بن أبى القاسم ، شيخ الإسلام عز الدين أبو محمد السلمى الدمشق الشافعى ، توفى سنة ٦٦٠ هـ / ١٢٦١ م — المنهل الصافى .

(٢) هو : قطز بن عبد الله المعزى ، السلطان الملك المظفر سيف الدين قطز ، توفى سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م — المنهل الصافى .

(٣) انظر الجزء الأول من هذا الكتاب ص ٢٤٣ وما بعدها .

(٤) [ ] إضافة للتوضيح من السلوك جـ ١ ص ٨٩٨ .

وهو : محمد بن على بن وهب القشيرى ، قاضى القضاة تقى الدين ، الشهير بابن دقيق العيد الشافعى ، المتوفى سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م — انظر ما يلى فى وفيات ٧٠٢ هـ .

بذلك ، فقال الأمير سلار : ما بقى يمكن الكلام فيما قصدناه دون أن تجتمع بالقاضى ونعرفه بالأمر ونسأله هل هذا جائز أم لا ؟ فإذا امتنع أخرجنا له فتوى الشيخ عز الدين بن عبد السلام . ففى بكرة النهار إنزلوا إليه ، وسلموا عليه واسألوه الاجتماع بنا لالتماس بركته (١) ، فلما أصبحوا نزلوا إليه و بلغوه الرسالة ، فقام وركب وجاء عند الأمراء ، والكل حاضرون عند الأمير سلار ، فلما رأوه قاموا كلهم وتلقوه من أسفل الإيوان ، وأخذ السلار بيمينه والأمير بيبرس بشماله إلى أن أجلساه بينهما ، و بقية الأمراء جلسوا بين يديه ، وتأنسوا به حتى فتحوا له باب النفقات [٢٢١] وقلة الحواصل فى بيت المال و بينوا له الضرورات ، ثم ذكروا له أمر الفتوى . فقال الشيخ : أيها الأمراء ما المانع لما تفعلوه إذا رسمتم بشيء ولا ثمة أحد يُخالف . وقال الأمير سلار : يا سيدى نريد أن يكون معنا فتوى حتى لانقع فى أمر غير جائز ، فيحصل علينا الإثم . فقال الشيخ : أما الفتوى فما يمكن أن أكتبها فى مثل هذا . فقال له مجد الدين ابن الخشاب المحتسب : يا سيدى هذا خط الشيخ عز الدين بن عبد السلام كتبها فى أيام الملك مظفر قطز ، فنظر إليه وتبسم وقال : يافقيه تعرف كيف أفتى الشيخ عز الدين فى ذلك الوقت ؟ قال : لا . فقال لما سألوه الفتوى ، قال لهم : إن الفتوى فى هذا لها شروط إن فعلتموها صحّت الفتوى . فقالوا : ما هى ؟ فقال : أن يتقدم كل أمير منكم و يحلف بالله أنه لايملك فضة ولا ذهبا ولا لزوجته وأولاده مصاغ ولاغيره ، فلما سمعوا هذا من الشيخ قام كل منهم وأحضر من موجوده وموجود أهله من حُلِيّ وغيره ، ثم حلف كل واحد منهم أنه

---

(١) « وسلوه » فى الأصل .

لا يملك شيئا غير ذلك ، فعند ذلك كتب لهم هذه الفتوى ، ويا فقيه أما أنا فإنه يبلغني أن كل أمير يجهز بنته بأنواع اللؤلؤ والفصوص، ويعمل بكالى فضة لبيت الماء[(١)] ، وقباقيب مكللة بأصناف الجواهر[(٢)] ، وتريد منى أن أكتب فتوى على ما لا يحل ، ثم قام ناهضا وخرج ، وقد ألجم كل واحد منهم عن الجواب .

وكان الشيخ قصد بهذا تسميع الأمير سلار حيث جهز بنته لما زوجها من أمير موسى ابن أستاذه الملك الصالح، والأمير بيبرس حيث جهز بنته لما زوجها من برلغى قريب السلطان ، وكان كل منهما قد جهز بنته بما لا يوصف ولا يضبط .

ولما انقضى الأمر على هذا الوجه وعلموا مقصود الشيخ اقتضى رأيهم أن ناصر الدين الشيخى متولى القاهرة ينزل ويستعلم حال التجار وأرباب الأموال وينظر فى أمرهم ، ويأخذ من كل واحد منهم مقدار ما يطيقه على قدر حاله ، ثم بعد أيام قال ناصر الدين المذكور للأمراء : نحن نجبى من المدينة ونواحيها ، ونسير إلى ولاة الأقاليم كل إقليم يرتب عليه شيء ونسميه مقرر الخيالة ، فقالت الأمراء : هذا فيه شنعة كبيرة ، وفيه شطط وعنف ، والمصلحة أن يكون المقرر على كل أردب غلة خروبة[(٣)] ، وفى القماش والسلع يؤخذ نصف السمسرة ،

(١) « ويعمل الإناء الذى يستنجى منه فى الخلاء من فضة » — السلوك جـ ١ ص ٨٩٨ .

(٢) « ويرصع مداس زوجته بأصناف الجواهر » — السلوك جـ ١ ص ٨٩٨ .

(٣) « من كل أردب يباع من الغلال خروبة تؤخذ من المشترى » — السلوك جـ ١ ص ٨٩٩ .
خروبة — خراريب : قطعة صغيرة من النقود النحاسية ، قيمتها عشر درهم — السلوك جـ ١ ص ٨٩٩ هامش (١) .

ومعنى ذلك أن المنادى إذا باع قطعة قماش أو غيرها فإن له فيها درهمين فيكون الدرهم من ذلك باسم السلطان والدرهم الآخر للمنادى ، والأردب إذا طلع للطحان يكون عليه خروبة ، ومهما تحصل من هاتين الجهتين يستخدم به البطالون ، فتقرر ذلك على هذا الوجه واستخدم به نحو مائتى نفر ، ثم بعد ذلك شرعوا فى طلب التجار من القياسر والدكاكين ، واعتبر حال كل واحد منهم من قدرته وسعة ماله ، فمنهم من حمل مائتى دينار ، ومنهم من حمل مائة وخمسين وأربعين وثلاثين وعشرين وعشرة ، واقترضوا أيضا من التجار الكبار مما يأتى عليهم من الحقوق التى كانت توجد منهم ، فانجمع من ذلك أموال عظيمة وصار يُحمل أولا فأولا إلى أن جُمعت فى بيت المال ، ثم بعد ذلك شرعوا فى النفقات .

ذكر خروج السلطان إلى الصالحية :

قال بيبرس فى تاريخه : وفى العشر الأوائل[1] من شهر رجب من هذه السنة تجهز السلطان ، والأمير سيف الدين سلار ، والأمير ركن الدين [٢٢٢] الأستاذ الدار ، وخرجوا بالعساكر الإسلامية ، ولما وصلوا إلى الصالحية أقام السلطان بها وتوجه الأميران بالعساكر لتدبير البلاد وإصلاح ما استحكم بها من الفساد ، واستصحبوا نُواب الممالك الشامية وعساكر البلاد الإسلامية ليُرتبوا كلا منهم فى مكانه ويعمروا كل بلد شغر من سكانه ، وينظروا فى المصالح التى يجب النظر فيها ، ويتلافوا الأحوال التى ينبغى تلافيها ، ورحلوا فى الثانى والعشرين من رجب الفرد ، فلما وصلوا إلى منزلة سكرير[2] راسلوا الأمير سيف الدين

(١) « الأول » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٢) سكرير : منزلة بين غزة وعسقلان — السلوك جـ ١ ص ٩٠٠ .

ققجق والأمير سيف الدين بكتمر السلحدار والأمير فارس الدين ألبكي في الحضور إلى الخدمة والطاعة ، والانتظام في سلك الجماعة وتوثقوا منهم وحضروا إليهم بمنزلة سُكرير ، فأرسل الأمراء الأمير بدر الدين [بكتوت](١) الجوكندار المعروف بالفتاح على خيل البريد إلى الدهليز المنصور مخبرا بمهاجرتهم وحُسن إنابتهم ، فابتهجت بذلك الخواطر وضربت البشائر(٢) .

وفي العاشر من شعبان : وصلوا إلى الوطاق ، فركب السلطان لتلقيهم ، و بالغ في إكرامهم والإحسان إليهم ، ورحل عائدا إلى القلعة ، فوصلها رابع عشره ، وأسكنهم في القلعة ، وأجرى عليهم الإقامات ، ووصلهم بأجزل الصلات(٣) .

وأما الأميران سيف الدين سلار وركن الدين أستاذ الدار فإنهما دخلا دمشق ، ورتبا أحوالها ، وسدا اختلالها ، وأقرا الأمير جمال الدين أقوش الأفرم في وظيفته على قاعدته ، وفوضا إلى الأمير زين الدين كتبغا نيابة السلطنة بحماة ، وأولياه إحسانا ، ورتبا الأمير سيف الدين قطلوبك بطرابلس والفتوحات والسواحل ، عوضا عن الأمير سيف الدين كُرت(٤) المستشهد في الوقعة ، وأرسلا الأمير شمس الدين قراسنقر الجوكندار إلى حلب ليباشر النيابة بها بحكم إعفاء الأمير سيف الدين بلبان الطباخي منها ، وأعادا كل قوم إلى وظيفتهم ،

(١) [ ] إضافة للتوضيح من زبدة الفكرة .

(٢) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢١٨ أ ، ب .

(٣) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢١٨ ب .

(٤) « كرد » في زبدة الفكرة .

[وطيبا خواطر نواب الحصون ، وأحسنا إلى من اعتمد المناصحة منهم](١)، ثم عادا إلى الديار المصرية ، فوصلا فى العشر الأول من شوال . وعند وصولهما عينا للأمير سيف الدين قفجق نيابة الشوبك ، وللأمير سيف الدين بكتمر السلحدار إمرة بالديار المصرية وتقدمة ألف فارس من العساكر الإسلامية . وللأمير فارس الدين ألبكى طبلخاناة بدمشق(٢) ، واستقر الأمير سيف الدين بلبان الطباخى بالديار المصرية بخبز الأمير سيف الدين كرتيه المتوفى إلى رحمة الله .

وقال صاحب النزهة : ولما تكامل أمر النفقة نودى فى الجند بالخروج ، وأى من تخلف شنق ، وكان قد حصل للجند تعب كثير بسبب نقص الذهب ، فإن النفقات كلها كانت ذهبا ، وكان صرف الدينار بخمسة وعشرين ونصفا ، فتناقص إلى أن أصرفوا الدينار بستة عشر حتى قام نائب السلطان فى ذلك وطلب الوالى وأمره أن ينزل إلى الصيارف ويلزمهم بإخراج الدراهم وصرف كل دينار بعشرين ، فنزل الوالى وهو ناصر الدين الشيخى [٢٢٣] وفعل ما أمره به حتى استقرت الأحوال .

ثم خرج السلطان والأمراء من مصر فى العشر الأول من رجب من هذه السنة ، فكان بين دخوله مصر وإقامته وبين خروجه ثانى مرة شهرين وثمانية وعشرين يوما ، فإنه دخل فى الثانى عشر من ربيع الآخر وخرج فى العشر الأول من رجب .

ولما دخل السلطان الصالحية وردت كتب قفجق وبكتمر السلحدار وألبكى بخروج التتار من دمشق وسائر الأماكن ، وأنهم قاصدون الديار المصرية لخدمة

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٢) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢١٨ ب ، ٢١٩ أ .

السلطان و يستعيذون مما صدر عنهم مما قدّره الله عليهم . فلما وقعت الأمراء على ذلك اقتضى رأيهم أن يقيم السلطان على الصالحية إلى أن يشبع الصيد والتفرج ، ثم إن شاء يدخل مصر و إن شاء يقيم هنالك ، وأن الأمراء يرحلون و يلاقون الأمراء الذين يحضرون ، ثم رحلوا طالبين دمشق ، فلما وصلوا إلى أرض عسقلان لافوا قفجق ومن معه بين غزة وعسقلان . فلما تلاقوا ترجلوا كلهم وتعانقوا وتباكوا ، ولم يزالوا حتى دخلوا دمشق ، وكان يوم دخولهم نهارا عظيما وكان فى مستهل شعبان ، وخرجت[1] سائر أهل دمشق ولاقوهم ، وكان يوما مشهودا ، ثم كتبوا كتبا لسائر النواب وأهل القلاع ، وسيّروا بين يديه لسائر نواحي الشام وطرابلس وحماة وحمص وحلب ، وللقلاع التي فى بلاد حلب نحو كختا وكركر وبهسني وعينتاب وسائر النواحي ، وجلبت أهل الضياع الخيرات من سائر النواحي ، وجلب التركمان الأغنام ، وكان سعر الغلة قد تحسن فوصلت الغرارة من القمح إلى ثلاثمائة ، ثم انحط قليلا قليلا إلى أن بقيت الغرارة بمائة وخمسين ، وكان الرطل من اللحم بدرهمين[2] ، وكثر الجلب ، وطابت قلوبهم ، ووقفت الدماشقة للأمراء واستغاثوا من جماعة منهم وافقوا المغل فى أخذ أموال الناس والأذى ، وكانوا يدخلون معهم بيوت السعداء والأكابر من أهل دمشق ويأخذون أموال لهم ويعاقبونهم ، فرسم الأمراء لوالي المدينة ووالي البر أن يحصّلاهم وكانوا قد أخفوا أنفسهم ، فأخرجوهم من المواضع التي اختفوا فيها ، فلما أحضروهم أمروا بإشهارهم فكان منهم الشريف القُمي ، فرسم بتسميره

---

(١) هكذا بالأصل .

(٢) « وأبيع لحم الضأن بدرهمين الرطل الدمشقي » — السلوك ج ١ ص ٩٠١ ؟

وتسمير ابن العوف ، وكانا بَرْدْدارية (١) ، ومنهم ابن خطليجا شُنق وكان كاتب خطبه الولاية ، وإبراهيم مؤذن بيت لُهيا ، ومنهم كجكن والحاج مندوه سُمّرا ، وقطع لسان ابن ظاعن ، ثم يده ورجله ، وقطع يد الشجاع همام ، ثم كحل وتوفى فى ليلته ، وقطعت أيدى جماعة وأرجلهم ، وكانت جماعة من المستصنعية بدار الولاية ، ومن الحرافيش الذين عرفتهم الدماشقة وكانوا يؤذون الناس مع المغل ويأخذون أموالهم ، ثم طلب الأمير سيف الدين أرجواش نائب القلعة وخلع عليه خلعة سنية ، ورسم له بعشرة آلاف درهم إنعاما عليه ، ثم عادوا طالبين مصر ، فوصلوا إليها فى العشرين من شوال ، وركب السلطان إلى ملاقاتهم ، وصحبته الأمير سيف الدين قفجق [٢٢٤] وبكتمر السلحدار وفارس الدين البكى .

ذكر ما تجدد فى الشام من الحوادث :

بتاريخ يوم الخميس النصف من شعبان أعيد القاضى بدر الدين بن جماعة إلى قضاء قضاة دمشق مع الخطابة بعد إمام الدين القزوينى ، ولبس الخلعة ، ولبس معه فى هذا اليوم أمين الدين العجمى خلعة الحسبة .

وفى الحادى والعشرين من شعبان : تولى قضاء الحنفية شمس الدين بن الصفى ، عوضا عن حسام الدين الرازى الذى فقد يوم المعركة ، وباشر تاج الدين ابن الشيرازى نظر الدواوين .

(١) البرددار : هو الذى يكون فى خدمة مباشرى الديوان — انظر صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٦٨ ، ٤٩٦ .

وفيها : ألزموا النـاس بتعليق الأسلحة على الدكاكين ، وعملوا لكل سوق مقـدما .

وفيها : طُلب المقـدمون من قَيْس ويمن ، وطلب منهم جميع ما اعتمده العربان من أصحابهم من الفساد وأخذ أموال الأجناد .

واتفق نائب طرابلس مع نائب حماة أن يركب كل منهما بعسكره إلى جبل كسروان ، ثم رسم بتجهيز عسكر الشام وعسكر صفد أيضا مع هؤلاء ، فاجتمعت العساكر وجاءوا إلى جبل كسروان ووجدوا أهله كلهم مستعدين للقتال ، وكان هذا الجبل حصينا قويا لايمكن صعود الفرس إليه إلا بعد مشقة كبيرة مع عدم مانع منه ، والراجل أيضا لايمكن صعوده إلا إذا كان مُخـفا ، وكان أهـله من أعظم غلاة الروافض والزنادقة ، وحصل لهم فى هذه السنة من الأموال من جهة العسكر لما انهزموا مالم يحصل لأحد قبلهم ، فإنهم كانوا يأخذون الأمير بطلبه عندما يتوسط الجبل قبضا باليد ، ولم يكن أحد يقدر أن يمانع عن نفسه ، فإذا تعسر عليهم أحد منهم أرموا عليه حجرا يقتـله أو يهشمه ، وذكر أنهم كانوا فى هـذا الجبـل نحو اثنى عشر ألف رجل كلهـم يرمون بقسى قوية ، ولما نزلت الأمراء عليهم رتبوا أمرهـم ، وأصبحوا فى الزحف إليهم من كل جانب ، ولم يقدروا على الثبات معهـم إلى الظهر حتى رجعـوا وتأخروا وخرجت من العسكر جماعة كثيرة ، فلما عادوا إلى الوطاق استشاروا فيما بينهـم ، وقالوا القتال معهم صعب ، والرجوع عنهم أصعب ، ثم اتفقوا أن يكون الأمير سيف الدين أسندمر (١)

(١) هو : أسندمر بن عبـد الله الكرجى ، الأمير سـيف الدين ، المتوفى سـنة ٧١١ هـ / ١٣١١ م ــ المنهل الصافى جـ ٢ ص ٤٤٣ رقم ٤٦٥ .

نائب طرابلس بعسكره ومضافيه من ناحيـة من الجبل ، وأن يكون الأمير زين الدين كتبغا نائب حماة ونائب حمص معه من ناحيـة أخرى ، وأن يكون سيف الدين بهادر آص(١) ، وبكتك من ناحية أخرى ، وأن يكون الأمير سيف الدين قطلوبك — الذى كان نائب طرابلس وعزل — من ناحية أخرى ، وأن يكون نائب الشام من ناحية أخرى ، واتفقوا أن تكون المواظبة على الزحف ستة أيام . وأهل الجبل أيضا قد تعرفوا على نواحى الجبـل وجعلوا جانبا من الجبـل للنساء والصبيان يرمون الأحجار .

ولما ركبوا فى ذلك اليوم وزحفوا ترجل الأمير أسندمر الكرجى ، ثم أرسل إلى الأمراء وأخبرهم أنه ترجل وليترجل الأمراء أيضا ، فترجلوا كلهم فى ذلك اليوم ،وكان أول من صعد قدام العسكر أسندمر المذكور وكان شجاعا مقداما ، ولما رأى أهـل الجبل هـؤلاء قد ترجلوا وقع فى قلوبهم الرعب حتى ذكر عن [٢٢٥] بعضهم أنه قال : كنت أرمى على قوس أربعـين رطلا بالدمشقى ، وفى هـذا اليوم لحقتنى رعدة فى يدى ولم أقدر على الرمى ، فأوقـع الله فيهم الذلة والرعب وانهزموا ، وقتلوا منهم جماعة كثـيرة ، فلما رأوا ذلك أرموا أسلحتهم وطلبوا الأمان ، فكفوا عنهـم القتل وأسروا منهـم جماعة كثيرة ثم حضرت مشايخ الجبل وأكابرهم والتزموا أن يحضروا جميع ما أخذوه من العسكر ولا يخلون عندهم شيئا يساوى درهما ولا يخفونه ، فرضى العسكر بذلك ، وأقاموا هناك إلى أن أحضروا جميع ما أخذوه من القماش والسلاح والعـدد من السيوف والرماح والقرقلات وغير ذلك ، ثم حلفوهم على اعتقادهم أنهـم لا يخفون شيئا ، وبعد

(١) هو : بهادر بن عبد الله ، الأمير الكبـير سيف الدين ، المعروف بآص ، والمتوفى سـنة ٧٣٠ هـ/ ١٣١٩ م — المنهل الصافى جـ ٣ ص ٤٢٨ رقم ٧٥٤ .

ذلك قرروا عليهم مائتى ألف درهم ، وأخذوا جماعة من مشايخهم وأكابرهم رهائن وأصحبوهم معهم[(١)] الى دمشق الى أن يحضروا بالمال الذى قرر عليهم ، ثم كتبوا للسلطان والأمراء بذلك .

ذكر الحرب الذى وقع بين الملك طقطا و بين نوغيه وأولاده ، ومقتل نوغيه :[(٢)]

وفيها عزم الملك طقطا بن منكوتمر على حرب نوغيه للأخذ بثأره وإطفاء جمرة ناره . واتفق أن جماعة من أمراء نوغيه الذين كان يعتمد عليهم ويعتمدون عليه فارقوه وانحازوا إلى طقطا ، فقويت بهم عزيمته واشتدت بهم شكيمته وهم : مَاجى وسُدُن ، وأُتراج ، واقبغا ، وطَيْشا ، ومعهم ثلاثون ألف فارس ، فعزم على المسير إليهم واتصل بهم أنه هاجم عليهم : وأنه قد جمع لهم من العساكر أعدادا ، واستصحب من الجيوش أمدادا ، وكان قد صحبته من الخانات ومُقدّمى التمانات : مُرتد طقطا ، ومَنجك ، وجهركس ، و ينجى ، وصَاجُوداى ، و يبلق ، وتلك تمر ، وأقبغا ، والطنبغا ، وقبجماز ، وإخوة الملك وهم : بُرلُك ، وصراى بغا ، وتدان ، والأمراء الذين انحازوا إليه من عسكر نوغيه : وقد ذكرناهم ، وركب نوغيه وأولاده وهم : جكا ، وتكا ، وطراى وأمراؤه وعسكره وتأهبوا اللقاء .

---

(١) هكذا بالأصل .

(٢) ينقل العينى هذا النص عن بيبرس الدوادار دون أن يشير إلى ذلك — انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢١٩ أ — ٢٢٠ أ .

فلما صار بين العسكرين مسافة يوم واحد أرسل شخصا يسمى بُغا ومعه مائة فارس ليكشفوا له الخبر ، ويعلموا أين وصل طقطا ومن معـه من العسكر ، فسار ليكشفهم ، فلما أشرف عليهم أحاطوا به وقتـلوا كل من معـه وسلم هو بنفسه ورجع ، فأخبر نوغيه بأنهم قد دهموه ، فركب نوغيه وأولاده ومن عنده والتقى الجمعان على مكان يسمى كَوكَان تاك (١) واقتتلوا : فكانت الكسرة على نوغيه وقت المغرب ، وانهزمت بنوه وعساكره وتفرقوا ، وثبت هو على ظهر فرسه ، وقد طعن فى السن وتغطت عيناه بشعر حواجبه وعلاه الكبر (٢) وضعفت به (٣) القدرة فوافاه رُوسيّ من عسكر طقطا فعرفه بنفسه وقال له : لاتقتلني فأنا نوغيه وأحملنى (٤) إلى طقطا فإن لى به اجتماعا ولى معه حديث .

فلم يصغ الروسى إلى مقاله ، بل حزّ رأسـه لوقتـه وحاله ، وأحضرها إلى الملك طقطا وقال له : هذه رأس نوغيه ، فقال له : وماالذى أعلمك أنه نوغيه ؟ قال : إنه عرّفنى بنفسه واستوقفنى عن قتله ، فلم أصغ إليه وأجهزت عليـه ، فغضب طقطا لذلك غضبا شديدا [٢٢٦] وأمر بالروميّ فقتـل لكونه تعدى على مثل هذا الرجل الكبير الشان ولم يُحضره إلى السلطان ، وقال : إن السياسة توجب قتله حتى لايعود أحد يفعل مثـل (٥) ذلك ، وعاد طقطا إلى مقامـه وقد ظفر بمناه ، وقرّت بنصرته (٦) على أعدائه عيناه .

---

(١) « كوكان لك » فى زبدة الفكرة . (٢) « وعلته الكبره » فى زبدة الفكرة .

(٣) « منه » فى زبدة الفكرة .

(٤) « فأنا هو نوغيه ، وانما احملنى » فى زبدة الفكرة .

(٥) « مثل » مكتوبة بهامش المخطوط ، ومنبه على موضعها بالمتن .

« مثله » فى زبدة الفكرة .

(٦) « بنصره » فى زبدة الفكرة .

وأما أولاد نوغيه ومن سلم من عسكرهم فإنهم استتروا بجنح الليل واختفوا فى غمار عساكر طقطا ، وتنادوا بشعارهم ليظنوا أنهم من أصحابهم ، وكان شعارهم على ماحكاه مَن شهد الوقعة معهم : إتاَى بايق ، فسلموا ليلتهم تلك ، وساروا مُفلّسين وعادوا راجعين ، وكان الذى سُبِى من نسوانهم وذراريهم الخلق الكثير والجمّ الغفير ، وبيعوا بالأقطار ، وجُلبوا إلى الأمصار ، واشترى السلطان والأمراء منهم بالديار المصرية جماعة من الطوائف التى جلبها التجار ، ودخلوا فى دين الإسلام بالرغبة ، وأقاموا الصلاة باجتهاد ومحبة ، وصاروا من أنصار الملة وأعوان الأمة[1] .

ذكر الخُلف الواقع بين وَلَدَى نُوغَيه وهما جكا وتكا[2] :

وذلك أنهما لما عادا إلى مقامهما من الهزيمة ، ورجع إليهما فَلُّ عسكرهما الذين سلموا من القتل والغنيمة ، استقر جكا فى تقدمة أبيه وأستأثر بها دون أخيه ، فأوغر صدره وغير ضميره ، وأراد مفارقته والحاق بطقطا هو وجماعته ، ولله درّ القائل فى مثل ذلك :

إذا أنت لم تُنْصِف أخاك وجدتَه		على طرف الهجران إن كان يعقِلُ
ويركب حدّ السيف من أن تضيمه		إذا لم يكن عن شفرة السيف مَرْحل

واتصل بأخيه نفاره منه ، وما أزمع عليه من الخروج عنه ، فخشى غائلة ذلك ، فجهز قوما — فى الباطن — إليه ، فقصدوه ليلة من الليالى وهو راقد

(١) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢١٩ أ — ٢٢٠ أ .

(٢) ينقل العينى هذا النص عن بيبرس الدوادار دون أن يشير إلى ذلك — انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٢٠ ب — ٢٢١ أ .

فى خركاته خلى البال ، فأحاطوا بالخركاة من كل الجهات ، وطعنوه بالرماح وهو فى الداخل[1] حتى ظنوا أنه مات ، وتركوه وعادوا ، وبه رمق الحياة . فثارت الضجة فى خيامه ، وقام الصراخ بين أهله وألزامه ، وسارعوا بإعلام أخيه إلى مصرعه[2] ، فبادر إلى نحوه سائلا عن أمره ، ومُوهما أنه لم يشعر بقاصدى غدره ، ودخل إليه فى صورة الزائر ، [وأظهر له أنه متألم الخاطر[3]] ، وأخذ يسأله[4] عن القوم الذين أتوه ، ويستخبره هل عرفهم حين طعنوه؟ فقال له أخوه إن الذى قتلنى لن تطول مدته بعدى ، وسيفقد عُقيب فقدى ، وإنك لتعرفه أكثر منى ، وهو الذى جاءنى ليسأل عنى ، فعلم أخوه أنه إليه يُشير وله نسب تلك الحيلة والتدبير ، فخرج من عنده ودسّ إليه من تمم قتله جهرا ، فلما[5] شاع ذلك بين عساكره وقومه أنكروه على أخيه[6] ، وتغيرت قلوبهم ، وتشوشت خواطرهم ، وفارقه كثير منهم[7] .

وفيها : اشتهر فى آخر السنة قتل جماعة من المسلمين ممن أسروهم من المغل ، وكان قتلهم سرا فى ديار بكر .

---

(١) « وطعنوه وهو داخلها بالرماح » — فى زبدة الفكرة .

(٢) « بمصرعه » فى زبدة الفكرة .

(٣) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٤) « يسائله » فى زبدة الفكرة .

(٥) « فلما » ساقط من زبدة الفكرة .

(٦) « وشاع ذلك بين عساكرهم ، وذاع لأقاربهم وعشائرهم ، فأكبروا فعله ، وأنكروا تدبيره على أخيه وقتله » — فى زبدة الفكرة .

(٧) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٢٠ ب — ٢٢١ أ .

وقال علاء الدين [علي بن مظفر](١) الوداعي :

ما لبستُ الصوفَ من عبث ولا الخلقات(٢) مجانا
إنه زيّ لمن هـو من فقـراء الشـيخ غازانا

وقال أيضا :

أما دمشق فأهلها قـد أصبحُوا بكرية جعلوا التستّر(٣) مذهبا

[٢٢٧]

سّرا وجهرا أنفقوا أموالهم حتى تحـلل كل شخص بالعبا

وقال أيضا :

شيخ غازان ماخـلا أحد من تجـرده
وغدا الكل لابسى خرقة الفقر من يده

وفيها : حج بالناس الأمير « . . . . . »(٤) .

(١) [ ] إضافة من السلوك جـ ١ ص ٩٠٣ .

وهو : علي بن مظفر بن إبراهيم : الشيخ علاء الدين ، المحدث ، الشاعر ، المعروف بكاتب ابن وداعة ، وبالوداعي ، والمتوفى سنة ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م — المنهل الصافي .

(٢) « الخلقان » في السلوك جـ ١ ص ٩٠٤ .

(٣) « التستن » في السلوك جـ ١ ص ٩٠٣ .

(٤) « . . . » بياض في الأصل مقدار ثلاث كلمات .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

قاضى القضاة حسام الدين أبو الفضائل الحسن[١] بن قاضى القضاة تاج الدين أبى المفاخر أحمد بن الحسن بن أنو شروان الرازى الحنفى .

ولى قضاء ملطية مدة عشرين سنة ، ثم قدم من الروم مع الملك الظاهر سنة خمس وسبعين وستمائة إلى دمشق ، فتولى القضاء بها مدة[٢] ، ثم انتقل إلى مصر مدة ، وتولى ابنه جلال الدين[٣] بالشام ، ثم صار[٤] إلى الشام ، فعاد إلى الحكم بدمشق ، ثم لما خرج مع الجيش إلى لقاء غازان بوادى الخزندار عند سلمية ، ففقد بين الصفوف ، ولم يدر ما خبره وقد قارب السبعين . وقيل : إن مولده سنة إحدى وثلاثين وستمائة .

وكان من سادات العلماء الأكابر الرؤساء الكرماء النبلاء ، محبوبا إلى جميع الناس ، لم يخيب قصد من قصده ، ويستقل الكثير فى حق من سأله ، ورزق سعادة فى ولايته بالشام ومصر والروم ، ولم يزل متقدما عند الملوك .

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٥ ص ٦٣ رقم ٨٨٧ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ٦٤ رقم ٦٥ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٣ ، الدرر جـ ٢ ص ٩١ رقم ١٤٩٢ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٤٦ ، درة الأسلاك ص ١٤١ ، ١٤٨ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٢٧ ، السلوك جـ ١ ص ٩٠٦ .

(٢) ولى القضاء بدمشق سنة ٦٧٧ هـ ، انظر ما سبق بالجزء الثانى من هذا الكتاب ص ٢٠٠ .

(٣) هو : أحمد بن الحسن بن أحمد بن الحسن بن أنو شروان ، قاضى القضاة جلال الدين الحنفى ، المتوفى سنة ٧٤٥ هـ / ١٣٤٤ م — المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٦٤ رقم ١٤١ .

(٤) « صار » — فى الأصل .

وكان له نظم حسن، وكان مولده باقسرای[(١)] من بلاد الروم فی المحرم من السنة التی ذكرناها، وكان فقدة[(٢)] يوم الأربعاء السابع والعشرين من ربيع الأول منها، وهو يوم الواقعة، وولى قضاء الحنفية بعده شمس الدين[(٣)] بن الحريرى .

ويقال إن الجبلية أسروه وباعوه للفرنج، ولما وصل إلى قبرس جعل نفسه طبيبا، وكان صاحب قبرس مريضا فداواه فتعافى، وكان قد وعد له أنه إذا تعافى يُطلقه ويبعثه إلى بلاد المسلمين، فلما تعافى الملك مرض حسام الدين مرض الإسهال فأقام أياما قلائل ومات إلى رحمة الله تعالى .

قاضى القضاة الإمام العالم إمام الدين أبو المعالى عمر[(٤)] بن القاضى سعد الدين أبى القاسم عبد الرحمن بن الشيخ إمام الدين أبى حفص عمر بن أحمد بن محمد القزوينى الشافعى .

قدم هو وأخوه جلال الدين[(٥)] فقرِّرا فى تداريس، ثم انتزع إمام الدين قضاء

(١) أقسرا، أو أقصرا : من بلاد الروم، بينها وبين قونية ثلاثة مراحل — تقويم البلدان ص ٣٨٢ .

(٢) « ولا شك أنه عاش إلى بعد السبعمائة » — فى الدرر جـ ٢ ص ٩١ .

(٣) هو : محمد بن عثمان بن أبى الحسن بن عبد الوهاب، قاضى القضاة شمس الدين الأنصارى الحنفى، المعروف بابن الحريرى، المتوفى سنة ٧٢٨ هـ/ ١٣٢٧ م — المنهل الصافى .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى، درة الأسلاك ص ١٤٨، العبر جـ ٥ ص ٤٠٢، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٣، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ١١٧ رقم ١٨١، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٥١، طبقات الشافعية الكبرى جـ ٥ ص ١٣١، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٢٦، السلوك جـ ١ ص ٩٠٥ .

(٥) هو : محمد بن عبد الرحمن بن عمر، قاضى القضاة جلال الدين القزوينى الشافعى، المتوفى سنة ٧٣٩ هـ/ ١٣٣٨م — المنهل الصافى .

القضاة بدمشق من يد بدر الدين بن جماعة[1]، كما تقدم فى السنة السابعة والتسعين[2]، وناب أخوه عنه، وكان جميل الأخلاق كثير الإحسان قليل الأذى، ولما أزف قدوم التتر سافر إلى مصر، فلما وصلها لم يقم بها سوى أسبوع وتوفى، ودفن بالقرب من قبة الشافعى رضى الله عنه عن ست وأربعين سنة، وعاد المنصب إلى ابن جماعة المذكور مضافا إلى الخطابة كما كان، ودرّس أخوه بعده بالأمينية[3].

قلت: وكانت وفاته يوم الثلاثاء الخامس عشر من ربيع الآخر، وحضر جنازته خلق كثير وترحموا عليه لغربته، ومولده فى سنة ثلاث وخمسين وستمائة.

المُسْنِد الرحلة المعمر شرف الدين أبو الفضل أحمد[4] بن هبة الله بن أحمد ابن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله بن الحسين بن عساكر الدمشقى.

ولد سنة أربع عشرة وستمائة، وسمع الكثير وروى، وكانت وفاته فى الخامس والعشرين من جمادى الأولى منها عن خمس وثمانين سنة.

---

(١) هو محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة، بدر الدين، المتوفى سنة ٧٣٣ هـ/ ١٣٣٢م — المنهل الصافى.

(٢) هكذا بالأصل، وورد فيما سبق أن صاحب الترجمة ولى قضاء دمشق عوضا عن ابن جماعة سنة ٦٩٦ هـ — انظر ما سبق بالجزء الثالث من هذا الكتاب ص ٣٥٣.

(٣) المدرسة الأمينية بدمشق، قبلى باب الزيادة من أبواب الجامع الأموى، المسمى قديما باب الساعات، وتنسب إلى أمين الدين كمشتكين بن عبد الله الطغتكينى، أتابك العساكر بدمشق، والمتوفى سنة ٥٤١ هـ/ ١١٤٦ م — الدارس جـ ١ ص ١٧٧ — ١٧٨.

(٤) وله أيضا ترجمة فى: المنهل الصافى جـ ٢ ص ٢٥٤ رقم ٣٣٣، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٩٠، العبر جـ ٥ ص ٣٩٥، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٣، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٤٥.

الخطيب الإمام العالم الرئيس موفق الدين أبو المعالى محمد[١] بن محمد بن الفضل البهرانى[٢] [٢٢٨] القضاعى الحموى ، خطيبها[٣] ، ثم خطب بدمشق عوضا عن الفاروثى[٤] ، ودرس بالغزالية[٥] ، ثم عزل بابن جماعة وعاد إلى بلده ، وقدم دمشق عام قازان ، فمات بها فيها .

الصدر شمس الدين محمد[٦] بن سلمان بن حمايل بن على المقدسى المعروف بابن غانم .

كان من أعيان الناس وأكثرهم مروءة ، ودرس بالعصرونية[٧] وجاوز الثمانين ، وكان من الكتاب المشاهير المشكورين ، وهو والد الصدر علاء الدين بن[٨] غانم .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٣ ، الدارس جـ ١ ص ٤٢٢ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٥٢ .

(٢) « النهروانى » — فى شذرات الذهب ، والبداية والنهاية .

(٣) « ويعرف بابن حبيش » — فى شذرات الذهب .

(٤) هو : أحمد بن إبراهيم بن عمر ، الفاروثى الواسطى ، المتوفى سنة ٦٩٤ هـ / ١٢٩٤ م — عقد الجمان جـ ٣ ص ٢٩٠ .

(٥) المدرسة الغزالية بدمشق : فى الزاوية الشمالية الغربية من الجامع الأموى ، الدارس جـ ١ ص ٤١٣ ، ص ٤٢٣ .

(٦) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٤ ، الدارس جـ ١ ص ٤٠٣ — ٤٠٤ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٥١ — ٤٥٢ .

وورد اسمه : سليمان بن محمد — الدارس .

(٧) المدرسة العصرونية بدمشق : داخل باب الفرج والنصر شرقى القلعة ، أنشأها عبد الله بن محمد بن هبة الله ، قاضى القضاة شرف الدين بن عصرون ، المتوفى سنة ٥٨٥ هـ / ١١٨٩ م — الدارس جـ ١ ص ٣٩٩ .

(٨) هو : على بن محمد بن سليمان بن حمايل ، علاء الدين بن غانم ، المتوفى سنة ٧٣٧ هـ/١٣٣٦ م — المنهل الصافى .

ومولده بالقدس الشريف سنة خمس عشرة وستمائة ، ومات في السادس عشر من شعبان، وكان قد حج هو ووالده فمات والده بمكة شرفها الله ودفن بالزاهر، وكان حجازى الأصل ، وإنما مولده ببغداد بمحلة الجعافرة ، وكان جعفريا ، وكان من الأجواد الكرام ، رحمه الله .

الشيخ جمال الدين أبو محمد عبد الرحيم(1) بن عمر بن عثمان الموصلي الباجربقى(2) الشافعي .

أقام مدة بالموصل يُشغل ويفتى ، ثم قدم دمشق وأقام بها مدة كذلك ، ودرس بالفتحية(3) والدولعية(4)، وناب في الخطابة، ودرس بالغزالية نيابة عن الشمس الأيكى(5)، وكان قليل الكلام، مجموعا عن الناس، وهو والد الشمس محمد(6) المنسوب

(١) وله أيضا ترجمة في : درة الأسلاك ص ١٥٠ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٩٤ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ١٢٢ رقم ١٨٦ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٤ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٤٩ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٢٨ ، الدارس جـ ١ ص ٢٤٤ .

ويلاحظ أن المصادر اختلفت في اسم صاحب الترجمة فهو : عبد الله بن عمر في العبر ، وعبد الرحيم بن عمرو في شذرات الذهب ، وعبد الرحيم بن عبد المنعم بن عمر في تذكرة النبيه .

(٢) الباجربقى : نسبة إلى بلدة باجربق : قرية بشمال العراق ـ معجم البلدان .

(٣) المدرسة الفتحية بدمشق ، أنشأها الملك الغالب فتح الدين صاحب بارين نسهب صاحب حماة ، الدارس جـ ١ ص ٤٢٩ .

(٤) المدرسة الدولعية بدمشق قرب جيرون قبلي المدرسة البادرائية ، أنشأها العلامة جمال الدين أبو عبد الله محمد بن أبي الفضل بن زيد بن ياسين التغلبي الأرقى الدولعي المتوفى سنة ٦٣٥هـ/١٢٣٧م ـ الدارس جـ ١ ص ٢٤٢ وما بعدها .

(٥) هو : محمد بن أبي بكر بن محمد الفارسي الأيكى ، شمس الدين ، المتوفى سنة ٦٩٧ هـ/ ١٢٩٧ م ـ البداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٥٣ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٠٩ .

(٦) هو : محمد بن عبد الرحيم بن عبد المنعم بن عمر بن عثمان الباجربقى ، حكم عليه القاضى المالكى بدمشق بالقتل وإراقة دمه سنة ٧٠٤ هـ/ ١٣٠٤ م ، ولكنه هرب إلى مصر ، ثم تسحب إلى دمشق فأقام بالقابون قرب دمشق حتى توفى سنة ٧٢٤ هـ/١٣٢٣ م ـ الوافى جـ ٣ ص ٢٤٩ رقم ١٢٦٩ ، فوات الوفيات جـ ٢ ص ٤٤٤ رقم ٤٢١ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٦٤ .

إلى الزندقة والإنحلال ، وله أتباع ينسبون إلى ما ينسب إليه ، و يعكفون على ما كان يعكف عليه .

وقد حدث جمال الدين المذكور بجامع الأصول عن بعض أصحاب مصنف ابن الأثير ، وله نظم ونثر حسن ، ومات بالمدرسة الفتحية بدمشق ، ودفن بمقابر باب الصغير .

القاضى عماد الدين إسماعيل[1] بن تاج الدين بن الأثير الحلبى ، كاتب السر بمصر .

عُدم فى وقعة قازان فى هذه السنة .

القاضى علاء الدين أحمد[2] بن عبد الوهاب بن خلف بن محمود بن بدر العلامى المعروف بابن بنت الأعز .

---

(١) هو إسماعيل بن أحمد بن سعيد بن محمد بن الأثير ، الحلبى ، التنوخى .

وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٢ ص ٣٩١ رقم ٤٢٨ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٩٠ ، درة الأسلاك ص ١٤٩ ، الوافى بالوفيات جـ ٩ ص ٩٠ رقم ٤٠٠٧ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٣٠ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٣٧٨ رقم ٢٠٢ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٨٩ ، درة الأسلاك ص ١٤٩ ، الوافى جـ ٧ ص ١٦٣ رقم ٣٠٩٦ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ١٢١ رقم ١٨٥ وورد فيه اسم صاحب الترجمة « علاء الدين على » ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٤٤ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٢٨ ، طبقات الشافعية الكبرى جـ ٨ ص ٢٣ رقم ١٠٤٩ ، السلوك جـ ١ ص ٩٠٤ ، فوات الوفيات جـ ١ ص ١٠٦ رقم ٤٢ .

كان فصيح العبارة ، جميل الصورة ، لطيف المزاح ، فيه مكارم أخلاق وإحسان ، تولى الحسبة بالقاهرة والأحباس ، ودرس بالمدرسة الكهارية (١) والقطبية (٢) ، وحج ودخل اليمن ، وقدم دمشق متوليا نظر ديوان الأمير حسام الدين طرنطاي الخزندار المنصوري ، ودرس بالظاهرية (٣) ، والقيمرية (٤) ، ولما تولى علم الدين الشجاعي نيابة السلطنة بدمشق باشر عنده مدة يسيرة ، ثم أنه طلب منه دستورا للسفر إلى مصر خوفا منه ، فأذن له فسافر ، وأقام بالقاهرة إلى أن مات في ربيع الآخر منها .

وله نظم حسن ، فمن ذلك قوله :

إن أومض البرقُ في ليل بذي سلَم ... فإنه ثغر سَلمى لاحَ في الظلم

وإن سرت نسمةٌ في الكون عابقة ... فإنها نَسْمةٌ من رَبّة الخيمَ

تنامُ عَين التي اهْوى وما علمتْ ... بأن عَينيَّ طول الليل لم تَنم

إذا هدى الليل يطويني وينشرني ... شوق أبيتُ به في غاية الألم

(١) المدرسة الكهارية بالقاهرة : أنشأها الملك السعيد محمد بركة بن الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م ، وعرفت بالكهارية نسبة إلى الدرب الذى أنشئت فيه وهو درب الكهارية بجوار حارة الجودرية - المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٤١ .

(٢) المدرسة القطبية بالقاهرة : في خط سويقة الصاحب داخل درب الحريري ، أنشأها الأمير قطب الدين خسرو بن بليل بن شجاع الهذباني - من أمراء صلاح الدين الأيوبي - وذلك سنة ٥٧٠هـ / ١١٧٤ م ، وجعلها وقفا على الفقهاء الشافعية - المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٦٥ .

(٣) هي المدرسة الظاهرية الجوانية بدمشق : أنشأها الملك الظاهر بيبرس لتكون مدرسة للحنفية والشافعية ودارا للحديث - الدارس جـ ١ ص ٣٤٨ ، ص ٣٥٢ ، خطط الشام جـ ٦ ص ٨٢ .

(٤) المدرسة القيمرية بدمشق : أنشأها الأمير ناصر الدين حسين بن علي القيمري المتوفى سنة ٦٦٥ هـ / ١٢٦٦ م - الدارس جـ ١ ص ٤٤١ ، ص ٤٤٣ .

وتُرسِـل الدمعَ أجفاني مُحاكية لفيض وبل من الوَسْمِيّ منسجم
لله عيش مضى في سَـفح كاظمة قد مَرّ حُلواً مُرُورالطيف في الحلم
أيام لا نــكد فيهـا نشـاهدُه ولّت بغير الرضى منى ولم تَدُم(1)

وحكى الشيخ(2) أثيرالدين(3) أبو حيان قال : اسـتدعانى القاضى علاء الدين بن بنت الأعز [٢٢٩] يوما لمأدبة صنعها لنا بالروضة تجاه مصر ، وهو مكان يحفـه المـاء من جميع جوانبه ، وحضر معنا القاضى فخر الدين بن صدر الدين الماردانى(4) ، فرأينا شابا مليحا يسبح ، ثم يخرج من المـاء فيتلطخ بالتراب . فقال لنا القاضى علاء الدين : لينظم كل منا فى هذا الشاب شيئا ، فقام كل منا إلى ناحية وانفرد ، فنظمنا نظما قريب الاتفاق ، ولم يطلع أحد منا على ما نظم رفيقه ، فكان الذى نظمه القاضى علاء الدين :

ومُتَرّب لـــولا الترابُ بجسمه لم تبصر الأبصـارُ منه منظرا
فــكأنه بــدر عليــه سحـابةٌ والترب ليل من سناه أقمرا(5)

(١) انظر شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٤٤ .

(٢) وقال الشيخ صلاح الدين الصفدى : أخبرنى من لفظه الإمام العلامة أثير الدين أبو حيان. — المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٧٨ .

(٣) هو : محمد بن يوسف بن على بن يوسف بن حيان ، أثير الدين الغرناطى ، المتوفى سـنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م — المنهل الصافى .

(٤) هو : عثمان بن إبراهيم بن مصطفى ، فخر الدين أبو عمرو المـارديني الحنفى ، المتوفى سـنة ٧٣١هـ/١٣٣٠م — المنهل الصافى .

(٥) « مقمرا » فى فوات الوفيات .

والذى نظمه القاضى فخر الدين :

ومُـترّب ترَبت يـدا مَن حاَزه كقضيب تبر ضَمَّخوه بعنــبر
وكأن طرته ونـــور جبينـــه ليل أطـــلّ على صباح أنور

والذى نظمه الشيخ أثير الدين رحمه الله :

ومترّب قـــد ظنّ أن جمـاله سيَصُونه منّا بـترْب أعفـر
فغـدا يُضمخه فزاد ملاحةً أو قد حـوى ليـلا بصُبح أنور
وكأنما الجسمُ الصقيل وتُربه كافـورة لطخت بمسك أذفر (١)

وقال الشيخ أثير الدين : وحضرنا معه مرة أخرى بالروضة ، ومعنا شهاب الدين العزازى ، فأنشدنا لنفسه (٢) :

تعطلت فابيْضت دَواتى لحـزنها ومُذ قلّ مالى قلّ منها مدادُها
وللناس مُسـوَدّ الثياب حدادهم ولكن مُبيّض الدواة حدادها (٣)

ولعلاء الدين دُو بيت :

للسُمر (٤) معان لاتُرى فى البيـــض تالله لقد نصحت فى تحريضى (٥)

---

(١) انظر المنهل الصافى جـ ١ ص ٣٧٩ — ٣٨٠ ، فوات الوفيات جـ ١ ص ١٠٦ أ — ١٠٧ .

(٢) المقصود : علاء الدين بن بنت الأعز — انظر تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٢٨ — ٢٢٩ ؛

(٣) انظر تذكرة النبيه جـ ٢ ص ٢٢٩ .

(٤) « فى السمر » — فى السلوك جـ ١ ص ٩٠٤ .

(٥) « تمريض » — فى السلوك .

ماالشهد إذا طعمته(١) كاللبن يكفى فطنا محاسن التعريض

وله :

وقالوا بالعذار تسلّ عنه وما أنا عن غزال الحسن سال

وإن أبدت لنا خدّاه مسكا فانّ المسك بعض دم الغزال(٢)

وله فى دمشق :

إنى أدلّ على دمشق وطيبها من حُسن وصفى بالدليل القاطع

جمعت جميع محاسن فى فيرها والفرق بينهما بنفس الجامع

وقال فى حماة :

حماة غزالةُ البلدان أضحت لها من نهرها العاصى عُيون

وقلعتُها لها جيد بديع ومن سود التلول لها قرون

مات علاء الدين فى هذه السنة بالقاهرة كما ذكرناه .

الشيخ الإمام الحافظ الزاهد البارع الورع بقية السلف شهاب الدين أبو العباس أحمد(٣) بن فرج بن أحمد بن محمد اللخمى الإشبيلى .

---

(١) « إذا أطعمته » — فى السلوك ؛

(٢) انظر تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٢٩ ، وفوات الوفيات جـ ١ ص ١٠٧ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٢ ص ٥٩ رقم ٢٤٠ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٩١ ، طبقات الشافعية الكبرى جـ ٨ ص ٢٦ رقم ١٠٥٢ وفيه «أحمد بن فرح بالفاء والحاء المهملة» ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٤٣ ، درة الحجال جـ ١ ص ٣٦ رقم ٤١ ، الوافى جـ ٧ ص ٢٨٦ رقم ٣٢٦٦ ، السلوك جـ ١ ص ٩٠٤ .

مات داخل دمشق [بسكنه](1) بتربة أم الصالح(2) ، وصُلِّيَ عليه في الجامع ، ودفن بمقابر الصوفية .

وله نظم حسن ، فمن ذلك قوله(3) :

غرامي صحيحٌ والرَّجا فيك معضلُ　　وحُزْني ودَمْعي مُرْسلٌ ومُسَلْسَلُ
وصبري عنكم يشهدُ القلبُ أنه　　ضعيفٌ ومتروكٌ وذُلّي أجملُ

[٢٣٠]

ولا حسَنٌ إلَّا سماعُ حديثكم　　مُشافهةً تُملَى علىَّ فأنقلُ
وأمري موقوفٌ عليك وليس لي　　على أحدٍ إلَّا عليك معوَّلُ
ولو كان مرفوعا إليك لكُنت لي　　على رغم عُذَّالي ترقُّ وتعدلُ
وعَذْلُ عذولٍ منكرٌ لا أُسيغه　　وزورٌ وتدليسٌ يردُّ ويهملُ
أقضي زماني فيك مُتَّصِلَ الأسَى　　ومنقطعا عما به أتوصَّلُ
وها أنا في أكفان هجرك مُدْرَجٌ　　يكلفني مالا أطيقُ فأحملُ
وأجريتُ دمعي بالدماء مُدبجا　　وماهي إلا مهجتي تتحلَّلُ
فتتفق جفني وسَهدي وعَبرتي　　ومُفترق صبري وقلبي مُبلبلُ

(١) [ ] إضافة للتوضيح من المنهل الصافي جـ ٢ ص ٩٠ .

(٢) تربة أم الصالح = المدرسة الصالحية بدمشق : أوقفها الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل أبي بكر المتوفى سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م — الدارس جـ ١ ص ٣١٦ .

(٣) « قصيدة غزلية في صفات الحديث وهي عشرون بيتا » — المنهل الصافي جـ ٢ ص ٩٠ .

ومؤتلف وجدى وشجوى ولوعتى ومختلف حظى وما منك آمل
خذ الوجد عنى مرسلا ومعنعنا فغيرى لموضوع الهوى يتحيل
غريب يقاسى البعد عنك وماله وحقك من دار الفتى متحول
فرفقا بمقطوع الوسائل ماله إليك سبيل لا ولا عنك معدل
فلا زلت فى عز منيع ورفعة ولا زلت تعلو بالتجنى فأعزل
أروى بسعدى والرباب وزينب وأنت الذى تعنى وأنت المؤمل
فخذ أولا من آخر ثم أولا من النصف منه فهو فيه مكمل
أبر إذا أقسمت إنى بحبه أهيم وقلبى بالصبابة يشمل

مولده فى سنة خمس وعشرين وستمائة ، وسمع الكثير ، توفى فى التاسع من جمادى الأولى منها .

الشيخ الإمام العالم المفتى شمس الدين محمد بن الشيخ فخر الدين عبد الرحمن ابن يوسف البعلبكى الحنبلى .(١)

كان من فضلاء الحنابلة فى الفقه والأصول والنحو والحديث والأدب ، درس وأعاد وأفتى ، وأفاد وروى عن ابن عبد الدايم ، وشيخ الشيوخ الحموى ، وخطيب مردا ، واليونينى ، وغيرهم ، مات فى تاسع رمضان ، ودفن بمقابر باب توما .

---

(١) وله ترجمة فى : الوافى جـ ٣ ص ٢٤٣ رقم ١٢٠٦ ، العبر جـ ٥ ص ٤٠٣ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٥٢ .

وله نظم حسَنٌ فمنه قوله :

الحسنُ أجمعُ جزءٌ من مُحيَّا ريمٍ تبارك مَنْ بالحُسْن حَلَّاه
حلوُ اللمى غنجٌ فى طرفه دعج كأنما كحلت بالسحْر عَيْناه
مُهفهفٌ خنث الإعطاف ريقته من الرحيق ومن دُر ثناياه
داجى الغدائر لايحنو على دنف تذرى الدموع على خديه عيناه
الغُصن قامتُه والمسك نكهته والورد والند خداه وريّاه
بدرٌ بدا وظلامُ الشعر غيهبهُ ظبيٌ فدا وفؤادُ الصبّ مرداه
نَهى رُقادى فتُور فى لواحظه والخصرُ لجسْم بالأسقام أعلاه

[٢٣١]

إنْ لم أنَل منه وَصلا حبذا شرف بمُهْجتى إن فدت من بعَض قتلاه
لله كم من صبابات حوت كَبدى ومن غرام بقلبى ظلّ مثواه
جَار الحبيبُ على قلبى بجفوته ولستُ أنسى طوال الدهر ذكراه
وشى الوُشاةُ بأنى قد كلفت به وكيف لاوفؤادى بعضُ أسْراه
بالروح أفديه من ظبى تملّكنى شفاء داءٍ بقلبى قبلتى فاه
رَمى فؤادى بسهم من لواحظه عمدا فلم يخطِ ذاك السهم مَرماه
أمات قلبى بالهجران منه ولو أراد بالوصل بعد الموت أحياه
نهى العواذل عن حبّ له سفها ولو رأوا حُسْنه يوماً لما فاهُوا
ياسائلى مَا اسْمُ مَن أهوى لتعرِفَه اجمع أوائل أبياتى لتلقاه

قلت : اسمه أحمد بن الحوبرانى ، كان صاحب جمال عظيم متفق على حسنه عند أهل دمشق ، وكان محبوب الشيخ ، وكل من فى دمشق من فضلاء عصره نظموا فيه ، وتفاخروا بعشقه ، وعند طلوع وقته عشقته زوجة الحميدى والى نوى — وكانت قرابته — وتزوجت به ، وأعطت له مالا كثيرا ، فبقى معها قليلا ومات ، وماتت بعده .

ومن نظم شمس الدين المذكور دو بيت :

أَصْبحتُ بسحر المُقلة الكحلا صبًّا دنِفا مُقلقل الاحشاء
ما يُطفِيء نارا أُضرمت فى كبدى إلاّ أَنْمِىَ للشفة اللّعْساء

وقال شمس الدين المذكور أنشدنى بدر الدين الصائغ لنفسه :

لى فى القدود وفى لثم الخدود وفى ضم النُهُود لبُانات وأَوْطار
فإن توافق فذاك السُؤل يا أملى وإلا فَدَعْنِى وما أَهْوى وأختار

وقال شمس الدين فعملت فى المعنى :

لى فى النُحور وفى رشف الثُغور وفى ضمّ الخصور غرامٌ ينقرضُ
فإن تُوافِق فذاك السُؤل يا أملى وإلّا فلاتكُ ممّن راح يعترضُ

قال : وأنشدتُ للشيخ عز الدين البَابصرَى خازن كتب الخانقاة الشُمَيْصاطيّة :

فى صَدرَها كوكَبا نُور كانهما ركنان لم يُدْنيَا من لمسْ مُسْتلم
صانتهما فى ستُورِ من غلائِلها فنحن فى الحِل والركنان فى الحَرم

وقال فأنشدني لنفسه :

أهْوى الغزالَ الذى قدنمَّ عارِضُه كأنَّه عَنبرٌ من فوقِ كافور
ولا أُحبُّ فتاةَ الحيِّ قط ولو كانت من الآنسات الخُرد الحُور

ولشمس الدين أيضا :

عَراني الهوى الممدودُ من بَعدما هَوى بجِسْمي الهوى المقصورُ حتّى أذابَه
و بعضُهما أعْيي الأنامَ علاجُه فكيف بمَنْ هذا وَذا قد أصابه

وقال أيضا :

أأحبابنا إن رُمتم في مسيركم مياهاً تُرويكم فها فيضُ أدمُعي

: [٢٣٢]

وإن شئتم نارا تأجّج وقدُها فما قَدُّ آثار البَيْنْ ما بين أضلُعي

وله دوبيت :

ما أصرف عن جنابكم آمالي عمدا وأرى التخفيف من أثقالي
إلا وتردّى إليكم طمعي في وصلكم وعلمكم بالحال

الشيخ الفاضل الأصيل شمس الدين أحمد(١) بن شرف الدين مفضل بن عيسى ابن إبراهيم بن مطروح ، الكاتب الضرير ، وهو ابن أخى الصاحب جمال الدين(٢) ابن مطروح .

---

(١) وله أيضا ترجمة في : درة الأسلاك ص ١٥١ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ٤٤ رقم ٦٨ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٢٢ — ٢٢٣ .

(٢) هو : يحيى بن عيسى بن إبراهيم بن الحسين ، الصاحب جمال الدين أبو الحسين ، الوزير والشاعر ، والمتوفى سنة ٦٤٩هـ / ١٢٥١م — المنهل الصافي ، وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٣٠٢ رقم ٧٨٢ .

توفى بدمشق ، ودفن بمقابر باب توما ، كان كاتبا جيدا ، وأضرّ فى آخر عمره ، وكان شاعرا فاضلا ، فمن شعره :

رُوَيد الهَوى كم ذا يراق(1) دمى عمداً ... ويفنى وجُودى فى أُهَيل الحمى وَجْدا

ولى بالكثيب الفرد أنّه وَامق(2) ... تُذيبُ الحديدَ الصلْبَ والحجرَ الصَلدا

وكم وقفة لى بالغُوَير ورامة ... أبُثّ غراماً جاوز الوصف والحدّا

وها جَلدى عن حمل ما أنا واجدٌ ... وجار الهَوى ظلما وكم نالنى جَهْدا

ألّا فى سبيل الحُبّ مهجةُ مغرم ... قضى نَحبه شوْقا وما بلغ القَصْدا(3)

الشيخ الإمام بهاء الدين أيوبُ(4) بن أبى بكر بن ابراهيم بن النحاس ، الحنفى الحلبى .

مات بدمشق فى شوال ، ودفن بمقابر الصوفية ، روى عن جماعة من البغداديين وغيرهم ، وكان مدرسا بالمدرسة القليجية مدة طويلة ، ومولده فى سنة سبع عشرة وستمائة .

الشيخ الإمام العالم العلامة بهاء الدين محمد(5) بن يوسف بن محمد البَرْزالى .

(1) « يريق » فى تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٢٣ .

(2) وامق : أى المحب — تاج العروس .

(3) أنظر أبيات أخرى فى تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٢٣ .

(4) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٣ ص ٢٢٤ رقم ٦٣٠ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٩٤ ، الوافى بالوفيات جـ ١٠ ص ٣٦ رقم ٤٤٧٨ .

(5) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ١٤٩ ، الوافى بالوفيات جـ ٥ ص ٢٥٢ رقم ٢٣٣١ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٢٤ .

مات بدمشق ودفن بمقابر الباب الشرقي إلى جانب قبر والده بالقرب من أُبيّ بن كعب رضي الله عنه ، وهو والد الشيخ علم الدين البِرْزالي[(١)] ، وكانت له إجازات من بغداد وديار مصر والشام ، وكان من أكثر الناس مروءة وديانة وصيانة ، وكان عفيفا نزها ، ولم يكتب في مكتوب فيه ريبة أو منازعة .

الشيخ الإمام العالم الفاضل جمال الدين عمر[(٢)] بن ابراهيم بن الحسين بن سلامة العقيمي الرسْعني .

مات بدمشق ودفن بسفح قاسيون ، ومولده برأس العين سنة ست وستمائة ، وكان فاضلا جيد الشعر ، حسن النثر ، جمع مقامات كثيرة في فنون شتّى .

ومن نظمه قوله :

يا سائرا نحو الأثيل مُبكرا ... عَرج على أكناف[(٣)] جِلّق مُسحرا

واحبس بوادي النَيْرَبين وبانه ... يستحل أنفاس النسيم معطرا

والمَسْح قلائدَ زهرها منظومة ... والكُلّ ينثر من نداه جَوْهرا

واجنح إلى الروض الأريض لتسـ ... ـتمع لحَن الغَريض عن الهزار محرّرا

حرم إذا اعتلّ النسيم بأرضه ... عبثت نعائمه بمسك أذفرا

ما ناوحت ريح الشمال رياضه ... إلا حسبْناها الشمول المُسكرا

أو صافحت ريح الجنوب جنابه ... إلا وجدنا كل تُربْ عَنبرا

(١) هو : القاسم بن محمد بن يوسف بن محمد بن يوسف البرزالي ، المتوفى سنة ٧٣٩ هـ/١٣٣٨م — المنهل الصافي ، الدرر جـ ٣ ص ٣٢١ رقم ٣٢٢٩ .

(٢) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي ، درة الأسلاك ص ١٥١ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٩٤ ، العبر جـ ٥ ص ٤٠١ — ٤٠٢ ، تالي كتاب وفيات الأعيان ص ١٢٣ رقم ١٨٧ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٢٥ ، الوافي جـ ٢٢ ص ٤١٣ رقم ٢٩٢ .

(٣) الكنف هو الجانب والناحية ، والكنف : الرحبة — معجم البلدان للبغدادي .

وقال :

سقى اللهُ أكناف الجزيرة ربَّها وحقَّ لأرضٍ تُنبِتُ الوُدَّ أن تُسقى
أناسٌ متى استمسكت من حبل ودّهم بأيسره استمسكتُ بالعُروة الوثقى

[٢٣٣] وقال :

يا صبرُ لا تفعل فصبرُك أجمَلُ ودَع العذولَ بناره يتملمَلُ
ضنّوا وما أنا بالضنين على هوى أنت الأخيرُ به وأنت الأوّلُ
وكلتُ طرفى بالسهاد وبالسُّهى فإلى خيالك والكرا أتوسّلُ
فعلامَ طرفك طارقٌ فى فترةٍ تدعو القلوبَ له وصُدْغك مُرْسل
وإلامَ تهجر مغرما هجرَ الكرى حتى لقد جارتْ عليه العُذّل
واعجبْ لعذرى فى عذارك إننى أُدعى به المجنون وهو مُسلسل

وقال :

شبّهتُ بدرَ سمائها لما بدت منه الثُّريّا فى قميص سُندس
ملِكا مهيبًا قاعدا فى روضةٍ حيّاه بعض الزائرين بنرجس

وقال :

أغُصْن النقا ابن القدودُ المَوايسُ وابن الظبا النافراتُ الأوانسُ
لقد درست أطلالهنّ وهل ترى يهيج الشجى إلا الطلول الدوارسُ
وعندى دواعى جَمّةٌ لفراقهم على أننى من ذلك الوصل آيسُ
مَهاةُ كِناسٍ فارقتْه فما لها شبيهٌ سوى ما مثلته الكنائسُ

بجفنى على آثارهم مُطلِقٌ دَمى		ودمعى وقلبى للصّبابة حائسُ
أبى بيننا إلّا جماحاً وقسوةً		تذوبُ لملقاها نفُوسٌ نفائسُ

بهاء الدين يوسف بن الشيخ تاج الدين موسى بن محمد بن مسعود المراغى ، عرف بابن الحيوان .

مات بالمارستان النورى ، ودفن عند والده بمقبرة باب الصغير ، وكان شابا صالحا ذكيا ، فاضلا ، له اشتغال بالعلوم وله شعر فمنه قوله :

أُناشدكم بالله ألّا وقفتمُ		لبقضى أوطاراً من الوَصل مُغرَمُ
أخو صَبوة مازال يكتم حبّه		فأظهرَ قانى الدمع ما كان يكتم
يقولون لى ما العشق والوجد		والأسى وما البُعد حتى يشتكيه المتيّمُ
فواحسرتا واطول حُزنى واوعتى		يهُون أمر الحبّ من ليس يعلمُ

الشيخ الصالح الواعظ سيدى أبو محمد عبد الله(١) بن محمد المرجانى ، شيخ المغرب وواعظه بتُونُس .

كان عالما متفنّنا مذكرا ، حلو العبارة ، كبير القدر ، له شهرة فى الآفاق ، قدم الإسكندرية ومصر ووعظ بهما ، وكان عارفا بالحديث ، وله قدم فى التصوف ، وكان ربما فسّر فى الآية الواحدة ثلاثة أشهر ، مات فى هذه السنة وخلّف كتبا كثيرة ، وعدة أولاد ، رحمه الله .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى .

الشيخ الإمام البارع العلامة نجم الدين أحمد[1] بن محسن بن ملى الأنصارى البعلبكى ، الشافعى الأصولى المتكلم .

مولده[2] سنة سبع عشرة وستمائة ببعلبك ، سمع من البهاء عبد الرحمن وابن الزبيدى وابن رواحة ، واشتغل بدمشق ، وأخذ العربية عن ابن الحاجب ، والفقه عن ابن عبد السلام ، والحديث عن زكى الدين المنذرى ، والأصول عن جماعة ، وقرأ القانون وكتبا كثيرة فى الطب ، والأصول ، واشتغل على عز الدين بن مقبل فى مذهب الشيعة ، ودرس ، وأفتى ، وناظر ، وتخرج به جماعة ، وكان متبحرا فى علوم كثيرة ، [٢٣٤] فصيح العبارة ، ذكيا متيقظا ، مقداما شجاعا ، إماما فى مذهب الشيعة ، يقتدى به ، مات فيها بقرية بخعون من جبل الظنين[3] .

الشيخ الإمام العالم مفتى المسلمين شمس الدين محمد[4] بن الشيخ الإمام العلامة شيخ المذاهب قاضى القضاة صدر الدين سليمان بن أبى العز بن وهيب الحنفى .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ٢ ص ٦٥ رقم ٢٤٥ ، درة الأسلاك ص ١٥٠ ، الوافى جـ ٧ ص ٢٠٥ رقم ٣٢٩٤ ، طبقات الشافعية الكبرى جـ ٨ ص ٣١ رقم ١٠٥٥ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٤٤ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٣٤ .

(٢) هو : عبد الرحمن بن إبراهيم بن أحمد بن عبد الرحمن بن إسماعيل بن منصور ، المقدسى ، الحنبلى ، المتوفى سنة ٦٢٤هـ/١٢٢٦م ـ شذرات الذهب جـ ٥ ص ١١٤ .

(٣) جبل الظنين : بين طرابلس و بعلبك ـ شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٤٥ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ١٤٩ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٩١ ، ١٩٢ ، الوافى بالوفيات جـ ٣ ص ١٣٧ رقم ١٠٧٧ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٢٥ ، السلوك جـ ١ ص ٩٠٦ .

كان فقيها كبيرا فى مذهبه ، أفتى مدة أربعة وثلاثين سنة ، ودرّس بالعذراوية (١) ، والخاتونية البرانية (٢) ، والنورية ، وكان لايتردد إلى أحد ولا يخالط الناس ، مات فى النورية فى السادس عشر من ذى الحجة ، ناب فى القضاء عن والده ، وكان من خيار الناس .

الشيخ العارف سعد الدين محمد (٣) بن أحمد الكاشانى الفرغانى ، شيخ خانقاة الطاحون (٤) .

مات فى السابع عشر من ذى الحجة منها ، ودفن فى مقابر الصوفية ، وكان شيخا فاضلا عارفا بكلام الشيخ محى الدين بن العربى ، وشرح قصيدة ابن الفارض .

الشيخ الإمام العارف بدر الدين الحسن (٥) بن الإمام أبى الحسن على بن أمير المؤمنين أبى الحجاج يوسف بن هود المرسى .

---

(١) المدرسة العذراوية بدمشق : أنشأتها الست عذراء ابنة أخ السلطان صلاح الدين الأيوبى سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م ــ الدارس جـ ١ ص ٣٧٠ ، خطط الشام جـ ٦ ص ٨٦ .

(٢) المدرسة الخاتونية البرانية بدمشق : أوقفتها زمرد خاتون أخت الملك دقاق صاحب دمشق المتوفاة سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦٢ م ــ الدارس جـ ١ ص ٥٠٢ ، خطط الشام جـ ٦ ص ٩٢ .

(٣) هكذا بالأصل . وورد « سعيد الكاسانى » فى كل من : الدارس جـ ٢ ص ١٦٤ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٤٨ .

(٤) خانقاة الطاحون بدمشق : خارج البلد ، وتنسب إلى السلطان نور الدين محمود بن زنكى ــ الدارس جـ ٢ ص ١٦٤ .

(٥) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ١٥٠ ، العبر جـ ٥ ص ٣٩٧ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٤٦ ، السلوك جـ ١ ص ٩٠٥ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٣١ ، فوات الوفيات جـ ١ ص ٣٤٥ رقم ١٢٢ .

توفى عشية الإثنين السادس والعشرين من شعبان منها بدمشق ، ودفن بقاسيون ، ومولده سنة ثلاث وثلاثين وستمائة بمرسية (١) ، وكان والده متوليها نيابة عن أخية أمير المؤمنين المتوكل على الله محمد بن يوسف بن هود صاحب الأندلس (٢) .

وكان يلبس الصوف ، وعلى رأسه قبع صوف عسلى ، وترك بلاده وهاجر إلى دمشق ، وأقام بالخانقاة الشميصاتية وبالأندلسية وبخانقاة الطاحون .

وقال الذهبي : كان ابن هُود قد حصل له زهد وفراغ عن الدنيا وسكرة عن ذاته ، وغفلة عن نفسه ، فسافر وترك الحشمة ، وصحب ابن سبعين واشتغل عليه بعلوم الأوائل ، وحج وقدم اليمن ، ثم رحل إلى الشام ، وكان فيه انقباض عن الناس ، حُمل مرةً إلى والى البلد وهو سكران ، أخذوه من حارة اليهود خبثا منهما ليقصوا منه بذلك ، وكان أسلم على يده جماعة ، وكان يمشى فى الجامع باهت الطرف ، ذاهل العقل ، وهو رافع أصبعه السبابة كالمتشهد .

ومن شعره :

فؤادى من محبوب قلبى لا يَخلُو ... وسِرّى على فكرى محاسنه يَجلُو
ألا ياحبيب القلب يا مَن بذكره ... على ظاهرى من باطنى شاهدٌ عدلُ
تجليت لى منى علىّ فأصبحَتْ ... صفاتى تُنادى : ما لمحبو بنا مثل

(١) مرسية : مدينة فى شرق الأندلس ، بنيت أيام الأمويين بالأندلس ، اختطها عبد الرحمن ابن الحكم بن هشام — معجم البلدان ، تقويم البلدان ص ١٧٨ .

(٢) تولى حكم مرسية فى الفترة من ٦٢١ — ٦٣٥هـ / ١٢٢٤ — ١٢٣٧ م — معجم الأسرات الحاكمة جـ ١ ص ٩٣ .

أُورّى بذكر الجزع عنه وبانة		فلا البان(١) مطلوبى ولا قصدى الوبل(٢)

وأذكر سُعدى فى حديثى مغالطًا		بليلى ولا ليلى مُرادى ولا جُمل

ولم أرَ فى العُشاق مثلى لأننى		تَلَذّ لى البلوى ويَحلو لى العذل

مجانين إلا أن ذلّ جُنونهم		عزيز على أبوابهم(٣) يسجدُ العقلُ

ومن شعره :

خُضت الدُجنةَ حتى لاحَ لى قبسٌ		وبانَ بانُ الحِمى من ذلك القَبسَ

فقلتُ للقلب(٤) هذا الربعُ ربعهمُ		وقلتُ للسمع لا تخلو من الحرسَ

وقلت للعين غُضّى عن محاسنه		وقلت للنطق هذا موضع الخرسِ

[٢٣٥] وله مُوشحه يصف دمشق :

أشاقك البَرقُ سارى		أم راعَك الطَيفُ زائر

فما لدمعك جارى		وما لقلبك طائر

لاذا ولا ذاك ذكرا		منى أثارت شجونا

أيامُ شُربى يرعى		روض الأمانى أمينا

معنى به كل معنا		يفيدُ دُنيا ودينا

فمن خليع عِذارى		له من الحسن عاذر

(١) « ولا البان » — فى فوات الوفيات .

(٢) « الرمل » — فى فوات الوفيات .

(٣) « أعتابهم » — فى فوات الوفيات .

(٤) « للقوم » — فى فوات الوفيات .

ومن حليف وقار ذاكى الفُؤاد وذاكر
حيّاكَ ربعُ الأحبّة دمع الحيا المستهل
واطلع السّعد شُهبه بأُفقك المستهل
وعرّس النجح رَكبَه ما بين ماء وظل
لذى قرى وقرار بزاهر وزاهر
عذب الجنا والنجار سامى العُلا والمفاخر
اشبهت جنة عدن دمشق حُسْنا وطيبا
أبديت من كلّ فنّ للحُسن معنىً غريبا
لازلت منزل آمن رَحْبَ الفَضَا خصيبا
بكل حامى الديار وكامل الفضل وافر
طويل باع الفخار بسيطُ كف المآثر
هل عائدٌ لى عَهْدُهُ بروضة النيرين
انى وقد دان بُعْدُهُ ما بين ذاك وبينى
لله وَدْقٌ ووقد بأضلُعى وبعَيْنى
فكم أجنّ بجارى وحاكم البَيْن جائرْ
وكم أُوارى أُوارِ والدمعُ لى مُتواتِر
الصبرُ دونك عجز لا تحسبيه اختيارا
والذلّ عندك عزٌ ما آن أراه صَغارا

ترنّم الطير غمزٌ به إليك أشارا
معناه أنت اختيارى وانتى جد خابر
عليك يا خير دار قطبُ السّعادة دائر

عماد الدين يوسف(١) بن أبى نصر بن أبى الفرج الشقارى .

كان زمن الظاهر أمير الركب ، وكان له حجّات كثيرة ، ومولده سنة عشر وستمائة ، مات فى هذه السنة ، ودفن بالنيرب بتربته جوار الجامع .

الأمير جمال الدين أقوش(٢) المطروحى ، وسيف الدين كُرد ، والأمير ركن الدين الجمالى ، نائب غزّة ، عُدموا فى وقعة قازان فى هذه السنة .

الزين خضر بن دانيال الأنطاكى الزرّادى الضرير المُقرئ .

كان عارفا بعلم النجم والرمل ، وكان يخيط ويدخل الخيط فى خرت الابْرة ، وكانت خياطته فى غاية الجَودة ، ويوصل الأوصال ويرفع ما يفصّله فى مواضعه ترقيعا حسَنا ، وكان آية من آيات الله ، وأصله من مسيحى أنطاكية وقع فى قسم الأمير عز الدين الزّرّاد نائب قلعة دمشق فربّاه وأقرأه القرآن ، فحفظ الكتاب العزيز وتلا بالسبع على المشايخ ، مات بدمشق فى الثامن من شعبان منها ، ودفن بمقابر باب الصغير .

الأمير عماد الدين حسن(٣) بن على بن محمد بن النشابى الحلبى .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : العبر ج ٥ ص ٤٠٢ ، شذرات الذهب ج ٥ ص ٤٥٤ — ٤٥٥ وفيه « ابن السفارى » .

(٢) شذرات الذهب ج ٥ ص ٤٤٦ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ج ٥ ص ١٠٢ رقم ٩١١ ، شذرات الذهب ج ٥ ص ٤٤٧ ، العبر ج ٥ ص ٣٩٧ ، الوافى ج ١٢ ص ١٥٩ رقم ١٢٩ ، الدارس ج ٢ ص ٣٠٠ .

مات [٢٣٦] بالبقاع من أعمال بعلبك . ودفن بقاسيون بتربته، وكان قد ولى ولايات بالبرّ، ثم نقل إلى ولاية المدينة، ثم ولاية البرّ، ثم جعل أمير طبلخاناة، فمكث قليلا ومات، وكان مشكورا فى ولايته، وعنده شهامة ونهضة وكفاية .

الأمير الكبير العالم المحدث أبو موسى سنجر(١) الدواداري التركى البرنلى .

مولده فى سنة نيف وعشرين وستمائة، وقدم من بلاد الترك فى حدود الأربعين وستمائة، وكان عبس الشكل، كبير الوجه، خفيف اللحية، صغير العينين، ربعة من الرجال، حسن الخَلق والخُلق، مهيبا فارسا شجاعا، دينا، عالما فاضلا، حسن الخط، حافظا لكتاب الله تعالى، قرأ القرآن على الشيخ جبريل الدلاصى وغيره، وحفظ الإشارة فى الفقه لسُليم الرازى(٢)، وكتب بخطه، وحصّل الأصول، وكانت له عناية بالحديث وسماعه، سمع كثيرا، وخرج له المزّى جزأين عوالى، وخرّج له ابن الظاهرى، وحج ستّ مرات .

وكان من الأمراء الظاهرية، ثم نقل إلى حلب، ثم قدم إلى دمشق، وكان من أصحاب سنقر الأشقر، ثم مُسِك، ثم أعيد إلى رُتبته، ثم أعطى تقدمة ألف، وزادت رتبته فى دولة لاجين المنصور، وقدّمه على الجيش فى غزوة سيس، وكان

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ٦ ص ٦٨ رقم ١١٠٩، درة الأسلاك ص ١٤٧، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ٨٧ رقم ١٢٨، الوافى جـ ١٥ ص ٤٧٩ رقم ٦٤٤، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٤٩، السلوك جـ ١ ص ٩٠٥، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٢٨، كنز الدرر جـ ٩ ص ٤٠ .

(٢) هو كتاب « الإشارة فى الفروع » لمؤلفه سليم بن أيوب بن سليم الرازى، أبو الفتح، الفقيه الشافعى « المتوفى سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م ــ هدية العارفين جـ١ ص ٤٠٩ » .

له معروف كثير وأوقاف بالقدس ودمشق ، وروى عن الحافظ زكى الدين عبدالعظيم المُنذرى ، والرشيد العطار ، والكمال الضرير ، وابن عبد السلام ، وجماعة كثيرة ، وشهد الوقعة وهو ضعيف ، فالتجأ بأصحابه إلى حصن الأكراد ، فمات به ليلة الجمعة الثالث من رجب الفرد منها ، وكان المنصور لاجين قد فوّض إليه عمارة جامع ابن طولون فعمّره وعمّر أوقافه وقرر فيه دروس الفقه والحديث والطب (١) .

وله شعر حسن ، فمنه قوله :

سَلُوا عن وقفى يوم الخميس ... وعن كرّات خيلى فى الخميس

شربتُ دم العدى فرويتُ منه ... فشربى منه لا خمر الكؤوس

وجاورتُ الحجاز وساكنيه ... وكان البيتُ فى الليل أنيسى (٢)

وأتقنت الحديث بكل قُطر ... سماعا عاليا ملء الطُروس

أباحث فى الوسيط لكل حَبر ... وألقى القومَ فى حرّ الوطيس

فكم لى من جلاد فى الأعادى ... وكم لى من جدال فى الدُروس (٣)

وقد ذكرنا طرفا من ترجمته فيمن استشهد من الأمراء فى وقعة قازان (٤) .

---

(١) انظر وثيقة وقف السلطان حسام الدين لاجين رقم ٣/١٧ وصورتها رقم ١٨ / ٣ بمجموعة المحكمة الشرعية بدار الوثائق القومية بالقلعة بالقاهرة - فهرست وثائق القاهرة ص ٧ مسلسل ١٩ - ٢٠ .

(٢) « فى ليلى » الوافى جـ ١٥ ص ٤٨٢ .

(٣) الوافى جـ ١٥ ص ٤٨٢ .

(٤) انظر ما سبق ص ١٧ ع

حسام الدين بلال[1] الطواشى المغيثى ، خادم الملك المغيث صاحب الكرك .

مات فى هذه السنة ، وخدم الملك الصالح ، وكان معظما فى الدولة المصرية يجلس فوق الأمراء كلهم .

وقال صاحب النزهة : وعاينته يجلس فوق البَيْسرى وسنقر الأشقر على باب القبة ، وكان السلطان الملك المنصور سلَّم إليه الملك الصالح علاء الدين وقال له : هـذا ولدك رَبِّه ، وكان مقيما فى القلعة بدار الملك الصالح أستاذه ، وكان له أوقاف على تربة النبى صلى الله عليه وسلم ، وأوقاف على عتقائه وأولادهم ، ولما توفى أثبت مجـد الدين بن الخشاب أن بعض الأوقاف التى أوقفها كان فى غير عقله وأنه كان مخبلا فى ذلك الوقت وأخذ منها ما اختاره ، وكانت له مكارم ، وقصده [٢٣٧] الشعراء ومدحوه ، وكان يهب لهـم ويُعطيهم ، وامتدحه فى وقت شرف الدين القدسى الكاتب بقصيدة مطولة منها :

ما رأيت الناس مثل حسنك لا لا   هـكذا هـكذا و إلا فـلالا

فتبسم وقال : يا شرف الدين بعـد الثمانين يكون الحسن ، والله أسرفت فى التجمل . فقال له : ياسيدى أحسن الشعر ما كذب الشاعر فيه ، فأعجبه ذلك ورسم له بخمسمائة درهم .

وكان قد خرج من مصر على نيّـة الجهاد ، فأدركه مرض منعـه أن يحضر المصاف ، وبقى إلى أن رجع العسكر فركّبه مماليكه إلى أن وصل منزلة السوادة ، فتوفى بها ودفن هناك ، ونقل بعد شقحب إلى مصر ودفن بتربته بالقرافة .

(١) وله أيضا ترجمة فى : العبر جـ ٥ ص ٣٩٦ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٤٦ ، السلوك جـ ١ ص ٩٠٥ .

الأمير سيف الدين جافان مملوك السلطان لاجين ، مات فى هذه السنة بمرض أصابه بدمشق .

الأمير علاء [الدين](1) قطلوبرص(2) العادلى ، مات فى هذه السنة بعد شنقه فى سوق الخيل ، وأقام ثلاثة أيام ، ثم دفن وكان قد هرب فى نوبة الأويراتية واستخفى بمصر ، ثم وجد عند مملوك له فيه هوى(3) .

(١) [ ] إضافة للتوضيح من السلوك .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : العبر جـ ٥ ص ٣٩٦ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٤٦ وفيهما « جاءان » ، السلوك جـ ١ ص ٩٠٥ .

(٣) انظر ما جاء بالجزء الثالث من هذا الكتاب ص ٢٧٨ وما بعدها ، ص ٣٠٤ وما بعدها ، ص ٣٥٥ وما بعدها .

رَفْعُ

عبد الرَّحمن النَّجْدِيّ

أسكنه الله الفردوس

فصل فيما وقع من الحوادث
في السنة السبعمائة من الهجرة (*)

استهلت والخليفة : الإمام الحاكم أبو العباس أحمد بن الأمير أبي على بن الإمام أبي بكر بن الإمام المسترشد بالله أمير المؤمنين العباسي .

وسلطان الديار المصرية والبلاد الشامية : الملك الناصر محمد بن قلاون الصالحي ، ونائبه بمصر : سيف الدين سلار ، وفي دمشق : جمال الدين أقوش الأفرم (١) ، وفي حلب : شمس الدين قراسنقر المنصوري ، وبطرابلس والسواحل : سيف الدين قطلوبك ، وبصفد : سيف الدين [بلبان] (٢) طرنا السلحدار ، وبحماة : زين الدين كتبغا العادلي ، وبالكرك : جمال أقوش الأشرف (٣) .

والقاضي الشافعي بمصر : تقي الدين بن دقيق العيد ، والحنفي : شمس الدين السروجي (٤) ، والمالكي : زين الدين بن مخلوف ، والحنبلي : شرف الدين الحراني .

(*) يوافق أولها يوم الجمعة ١٦ سبتمبر ١٣٠٠ م .

(١) « ملك الأمراء بدمشق المحروسة » ــ في كنز الدرر جـ ٩ ص ٤١ .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح من كنز الدرر جـ ٩ ص ٤١ .

وهو : بلبان بن عبد الله ، أمير جندار ، الأمير سيف الدين ، المعروف ببلبان طرنا ، والمتوفى سنة ٧٢٤ هـ / ١٣٢٣ م ــ المنهل الصافي جـ ٣ ص ٤٢١ رقم ٦٩٨ .

(٣) هو : أقوش بن عبد الله الأشرفي ، الأمير جمال الدين نائب الكرك ، والمتوفى سنة ٧٣٦هـ/ ١٣٣٥ م ــ المنهل الصافي جـ ٣ ص ٢٧ رقم ٥١٨ .

(٤) هو : أحمد بن إبراهيم بن عبد الغني ، قاضي القضاة شمس الدين السروجي ، المتوفى سنة ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م ــ المنهل الصافي جـ ١ ص ٢٠١ رقم ١٠٢ .

وقاضى الشافعية بدمشق : بدرالدين بن جماعة ، وقاضى الحنفية : شمس الدين ابن الحريرى ، والمالكية : جمال الدين الزواوى ، والحنابلة : تقى الدين سليمان بن حمزة المقدسى ، والخطيب : بدر الدين بن جماعة .

والوزير بمصر : شمس الدين سنقر الأعسر .

وصاحب المغرب : أبو عبد الله محمد بن أبى بكر بن يحيى بن محمد وأبو يعقوب المـــريني .

وصاحب اليمن : الملك المؤيد هزبر الدين داود بن المظفر .

وصاحب ماردين : الملك المنصور نجم الدين غازى بن الملك المظفر الأرتــق .

وصاحب مكة : الشريف نجم الدين أبو نمى محمد بن أبى سعد بن على بن قتادة الحسينى .

وصاحب المدينة : عز الدين جماز بن شيحة الحسينى .

وملك التتار : محمود قازان ، وصاحب المملكة الشمالية : طقطاى ابن أخى الملك بركة ، والمتولى على الصين قان بن قان بن جنكزخان ، ومن حد بلاد خراسان إلى خان بالق الملك قَيْدو .

وصاحب الحبشة : الأَمحرى النصرانى .

وصاحب الهند إلى نجد إلى كنبايت : الملك المسعود ناصر الدين محمود ابن علم الدين سنجر عتيق شمس الدين أيتمش مملوك شهاب الدين الغُورى .

ذكر اختلاف عربان بحيرة :

قال بيبرس في تاريخه : وفي سنة سبعمائة اختلفت عربان البحيرة ، وهم طائفتان جَابِرُ ومَرْديس(١) اختلافا كثيرا(٢) أنشأ بينهم حربا ، وأفنى بعضهم بعضا ، [٢٣٨] وكانت مرديس(٣) هي المستظهرة على جابر ، وقد كسرتها كسرا [أعنى على الجابر](٤) ، فاتصل ذلك بالأبواب السلطانية ، فنُدِبتُ(٥) لإخماد فتنتهم و إطفاء جمرتهم وردع المعتدين منهم ، وجُرِّدَ معى من أمراء الطبلخاناة(٦) عشرون أميرا ، وهم : الأمير شمس الدين سنقرجاه السلحدار ، والأمير حسام الدين لاجين الجاشنكير ، والأمير سيف الدين بلبان الطغريلي ، والأمير سيف الدين طشتمر الجمقدار ، والأمير علاء الدين بن أمير مجلس ، والأمير بدر الدين محمد الوزيري ، والأمير عز الدين أيدمر الشمسي القشاش ، والأمير بهاء الدين قراقوش الصوابي ، والأمير سابق الدين بُوزْبا الساقي ، والأمير ناصر الدين محمد بن طرنطاي ، والأمير ناصر الدين محمد بن أيتمش السَّعدي ، والأمير علاء الدين على بن دُدَا التركماني ، والأمير جمال الدين أقوش الرومي ، والأمير شمس الدين الدُكز السلحدار ،

---

(١) هكذا بالأصل ، و « مرديش » في التحفة الملوكية ، ولعل الصواب « مرداس » ــ انظر نهاية الأرب في معرفة قبائل العرب ص ٤١٨ .

(٢) « كثيرا » ساقط من زبدة الفكرة .

(٣) « جابرديس » في الأصل ، وهو تحريف ــ انظر ما يلى ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٤) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٥) ضمير المتكلم هنا يعود على بيبرس الدوادار المنصوري .

(٦) « الطبلخانات » في زبدة الفكرة .

والأمير سيف الدين قطز بن الفارقانى ، والأمير علاء الدين مغلطاى المسعودى ، وأصحاب الأمير مظفر الدين أمير موسى ، وأصحاب الأمير جمال الدين الطشلاقى وغيرهم ، وأُنْهى إلى الأبواب الشريفة أنهم صافون ، وعلى القتال عاكفون ، وذلك على ظاهر تروجة ، فسرنا سيرا حثيثا ، فوجدناهم قد اتفقوا وافترقوا ، فتبعناهم فانهزموا ، وقصدوا جهة اللَّيونة وغربى الإسكندرية ، فأخذنا مواشيهم من الجمال والأغنام ، وسُقنا[1] إلى الباب الشريف ، وأحضرنا هؤلاء العربان بالأمان ، وقررنا قواعدهم ، ونظمنا الصلح بينهم ، وعدنا إلى الأبواب الشريفة ، فتواترت الأخبار بحركة التتار[2] .

ذكر ورود القُصّاد من بلاد الشرق :

وردت القصاد فى أوائل هذه السنة من بلاد الشرق وأخبروا أن قازان ملك التتار قد بلغه أن قفجق النحق بمصر إلى السلطان بمن معه من الأمراء ، وسلم إليه دمشق ، وخطب للسلطان صاحب مصر ، وأبطل اسمه ، فعز عليه ذلك ، ورمى أن يجمع جيشه للعبور إلى الشام ، وكان قد حنق على قفجق ، وجمع المغول واستشارهم ، فمنهم من أشار عليه بالركوب ، ومنهم من قال له : ياخوند الذى حصل لك ما حصل لأحد من ملوك المغول حيث نُصِرْت على عسكر ما عرف قط أنه انهزم من المغول ، وقد بقى لك فى نفوسهم هيبة ، وما فى الاستعجال فى الركوب إليهم فائدة ، فربما يكون بعد الربح الخسران ، ولا تأمن أن يُنْصَروا

(١) « وسيقت » فى زبدة الفكرة .

(٢) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٢١ أ ، ب .

علينا ، والمصلحة أن تبعث إليهم رسلا فى ذلك وتطالبهم أن يحملوا لك مالا ويكون ذلك راحة للعسكر وحرمة للملك .

ثم تواترت مطالعات نواب الشام بأن التتار قاصدون البلاد ، ووقع الجفل فى أهل البلاد إلى الديار المصرية ،وتتابعوا من جميع الأعمال حتى ملأوا الأقاليم والنواحى ، وضاقت بهم الأماكن ، وعجز أكثرهم عن المساكن ، وظن الناس أنهم يُعدمون الأقوات ، فوضع الله البركة فى الغلال ،وأنزل الرخاء فى الأسعار ، فكانوا كلما تكاثروا انحطت الأسعار حتى أبيع الأردب من القمح بخمس عشرة درهما (١) .

وقال ابن كثير : وفى مستهل صفر وردت الأخبار بقصد التتار (٢) بلاد الشام ، [٢٣٩] [وأنهم عازمون على دخول مصر (٣)] وانزعج الناس ، وازدادوا ضعفا على ضعفهم ، [وطاشت عقولهم وألبابهم (٤)] وشرعوا فى الهروب إلى مصر والكرك والحصون المنيعة ، فبلغت الحمارة إلى مصر خمسمائة درهم ، وأبيع الجمل بألف ، والحمار بخمسمائة ، وبيعت الأمتعة بأرخص الأثمان وأبخسها ، وجلس الشيخ تقى الدين بن تيمية فى ثانى صفر بمجلسه فى الجامع ، فحرض الناس على القتال ، وتلا عليهم الآيات والأحاديث الواردة فى ذلك ، ونهى عن التسرع فى الحركة ، ونودى فى البلدان لايسافر أحد إلا بمرسوم ، فتوقف الناس عن السير ، وسكن

(١) هذا الخبر ملخصا عن زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٢١ ب ، ٢٢٢ أ .

(٢) « التتر » فى البداية والنهاية .

(٣) [ ] إضافة من البداية والنهاية .

(٤) [ ] إضافة من البداية والنهاية .

جَأشهم ، وتحدّث الناس بخروج السلطان من القاهرة بالعساكر المنصورة ، فبلغ السلطان ذلك ، فقصد أن يجمع مالاً من الناس لأجل العساكر.(١)

ذكر عزم السلطان على السّفر وأمره بجمع الأموال من الناس :

لما جرى ما ذكرنا اجتمعت الأمراء عند السلطان وتشاوروا فيما بينهم ، واتفقوا على تجهيز أمرهم ، وخروج السلطان مع العساكر ، وأن يجمعوا مالاً يكون فى الخزانة برسم نفقات العساكر ، وكتبوا لنائب الشام أن يدبّر أمره ويستخدم بَطّالين إلى وقت حضور السلطان ، وطلبوا ناصر الدين [محمد بن](٢) الشيخى ، وأمروه أن ينظر فى أمر التجار والكارم والأكابر ، ويتفقد أيضا مَن لم يخرج مع العسكر فى النوبة الأولى ، فيأخذ منهم شيئا ، ثم اتفق رأيهم أن يعرضوا الجيش ، وذلك لأنهم استجدوا جماعة كثيرة من الجند ، وكان فيهم جماعة كثيرة من أهل الصنائع والناس المجمعين ، فطلب مُقدمى الحلقة وأمروهم أن يُحضروا الأجناد راكبين خيولهم وأرماحهم بأيديهم ويدخل كل واحد ويعرض نفسه لينظر الأمراء إلى حملة الرمح وسوقة الفرس ، ويعرفون بذلك هل هو أصيل فى الجندية أو دخيل فيها ، وأيضا يعرف المقدمون من كان منقطعا يوم الواقعة الأولى ومن كان حضرها ، وكان الأمراء نصبوا لهم مخيما بميدان القبق(٣) ، وأقاموا أياما

(١) انظر البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٤ حيث يوجد اختلاف فى بعض الألفاظ لايغير المعنى .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح من السلوك .

(٣) ميدان القبق : وهو ميدان خاص للعب القبق ، ويقع خارج القاهرة المعزية فيما بين النقرة التى ينزل من قلعة الجبل إليها وبين قبة النصر تحت الجبل الأحمر ، ويقال له أيضا الميدان الأسود ، وميدان العيد ، والميدان الأخضر ، وميدان السباق ، وهو ميدان الملك الظاهر بيبرس البندقدارى الصالحى النجمى — المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١١١ .

يعرضون الجيش في كل يوم عشر مقدمين من الحلقة بمضافيها .

وأما أمر المال فإن السلطان والأمراء قصدوا التوسع بشيء يُعين على كُلف العساكر ، وسَمُّوا بتقدير مال على الأملياء والتجار وأرباب المعايش والأسباب بالقاهرة ومصر ، فقُرِّر ، وتولّاه الأمير سنقر المعروف بالأعسر ، والأمير ناصر الدين محمد الشيخي متولي القاهرة ، فاستخرجا منه نحو مائة ألف دينار ، وسُمّي مُقَرّر الخيالة .

وقال صاحب نزهة الناظر : لما تولى ناصر الدين الشيخي استخراج المال المقرر على هؤلاء المذكورين عجز عن ذلك ، وبلغه كلام كثير منهم ، فاختار أن يشرك الوزير معه في أمر الجباية ، واتفق مع ذلك حضور بعض الجند وشكايته إليه ما قاسى من العامة ومن كلامهم الفاحش ، وذكر أن الأجناد ما بقيت لهم حرمة عند العوام ، وإذا وقف واحد منهم لشراء حاجته مما يتعلق بحال الجندية يسمعونه الكلام الفج ويقولون له : أما تستحون بالله تتحدثون اليوم وبالأمس كنتم هاربين ، والآن تتشطرون علينا ، وإذا هب واحد منهم على أحد من العامة بمقرعة في يده ، ينهض إليه ويُمْسكها من يده ويقول : إش معنى ما كانت هذه الحرمة على مثل الذين فعلوا بكم كذا وكذا وهربتم منهم ، فصارت الأجناد في ألم عظيم من مثل ذلك ،[٢٤٠] وعرف ناصر الدين الشيخي ذلك للأمراء ، واختار أن يشرك معه في هذا الأمر من هو أكبر وأكثر حرمة ، فرسموا أن يكون شريكه في ذلك الأمير شمس الدين الأعسر ، فإنه كان ذا حرمة عظيمة وهيبة قوية بحيث أن أحدا من العوام إذا وقف بين يديه لم يقدر أن ينطق بكلمة واحدة ، فاستقام حينئذ حال ناصر الدين المذكور ، ثم نُودى في

القاهرة بأن أىّ عامىّ يزيد فى الكلام على جندى كانت روحه وماله للسلطان (١)، فانقطعوا بعد ذلك عماهم فيه من تشويشهم على الأجناد .

قال الراوى : ثم جاء خبر من نائب الشام صحبة قاصد من عنده أن عسكر قازان يتواردون أولا فأولا ، وهو يحثهم على عبور الشام ، وأنه قد استخرج من الأملاك والأوقاف وأصحاب البساتين أجرة أربع شهور وأنه استخدم بها من التركمان وغيرهم نحو ثمانمائة فارس ، ونفق على كل جندى منهم ستمائة درهم نقرة (٢)، ثم أعرضهم وهم منتظرون حلول الركاب الشريف ، فمنذ ذلك تجهزت الأمراء والسلطان للخروج .

ذكر خروج السلطان من القاهرة متوجها إلى الشام لأجل حركة التتار :

كان خروج السلطان مع عساكره فى النصف من شهر صفر (٣) من هذه السنة ، وتموا سائرين إلى أن وصلوا إلى غزّة وأقاموا عليها يومين ، والثالث ورود خبر من نائب حلب ونائب الشام صحبة القُصّاد أن قازان قد توجه بجيشه إلى نحو جبال أنطاكية وقد جفلت أهل السّواد بين يديه ، فكتب السلطان الجواب بأن تكونوا على يقظة من أمره ، وتعرفوا بحركاته كل وقت ، فاقتضى رأيهم الرحيل من غزة إلى منزلة العوجاء ، فضربوا الدهاليز بها ، وشرعت الأجناد فى

(١) انظر السلوك جـ ١ ص ٩٠٧ .

(٢) درهم نقرة : كان الدرهم النقرة على عهد الظاهر بيبرس عياره الثلثان من فضة ، والثلث من النحاس — صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٦٢ — ٤٦٣ ، الأوقاف والحياة الاجتماعية ص ٢٩٧ .

(٣) « فى يوم السبت ثالث عشر صفر » النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٣١ .

تسفير جمالهم إلى تحصيل الشعير والتبن ومايحتاجون إليه ، وجاءت الأمطار الكثيرة بإذن الله خارجة عن الحد والعادة ، واستمرت ليلا ونهارا عشرة أيام ، ثم أصبحت فى نهار واحد من بكرة النهار إلى الظهر ، ثم شرعت وتزايدت إلى أن منعت المسافرين والجافلين عن جلب الأشياء ، فضاقت بهم الأحوال ، فصار كل أمير إذا أراد طبخ شىء من الطعام يستر مطبخه باللبابيد الكثيرة حتى يتيسر إيقاد النار ، فأقامت المطر على منوال واحد أحداً وأربعين يوما بلياليها ، لم يتلذذ فيها أحد بالنوم من شدة البرد والرعد والمطر والثلج والبرد الذى يمنع الرجل عن القيام لمصلحته ، وكذلك بلغت أحوال الخيول فلا يقدر أحدا منها أن يضع جنبه على الأرض ولا يشرب الماء إلا من النهر الذى يجرى بين يديه ، فتحسنت أسعار التبن والشعير وغير ذلك .

قال صاحب النزهة : اشترينا الحمل من التبن بأربعين درهما ، والعليقة الواحدة بثلاثة دراهم ، والخبز كل ثلاثة أرغفة بدرهم ، والرطل من اللحم بثلاثة دراهم ، وانقطع الجلب من سائر الأماكن ، ثم حصل بعد ذلك سيل عظيم من الأمطار والثلوج التى ذابت من الجبال وانحدر فى النهر إلى أن فاض من جوانبه وارتفع إلى أن علا من فوق القنطرة ، وجاء عقيب ذلك برد عظيم جدا حتى مات من الغلمان جماعة كثيرة من البرد ، وتلفت حال العسكر ، وتلف جميع مامعهم من الثياب والقماش والخيام وأنواع [٢٤١] المأكولات بحيث أن أحدا ما كان يقدر على القعود فى الخيام من المياه من كثرة المطر ، ثم أجمع رأيهم على الرحيل ، فنودى فى العسكر بالركوب بكرة النهار ، وأول من ركب وتقدم الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة ، وقدامه حزمة حطب على السرج ورماها فى الوحل ، ثم

الأمير ركن الدين بيبرس ، ثم بقيـة الأمراء أولا فأولا ومماليكهم وغلمانهم ، وكذلك أجناد الحلقة ، وبيد كل واحد قفة أو مخلاة من التراب أو الحجر أو غير ذلك فيرميه فى الوحل حتى تمشى الدواب عليه .

وهم فى ذلك إذ وصل ممـلوك من نائب حلب ومعـه اثنان من الناصحين ، وأخبروا أن قازان ركب بجيشه إلى أنطاكية ، ثم إلى جبل السماق ورجـع إلى قرون حماة وأرض شـيزر ، ونهب وسبى خلقا كثيرا ، وأخذ مواشى كثيرة للتركمان وأهل البلاد ، وأن صاحب سيس بذل له مالا عظـيما فى شراء أسرى كثيرة من المسلمين ، وأنه صمم على عبوره الشام ، فأرسل الله على جيشه أمطارا عظيمة وثلوجا لم يعهدوا مثلها قبل ذلك ، ومع ذلك وقع الفناء فى خيولهم، وكان الفرس منهم يصيبه البرد وينزل عليه الثلج فيقع على الأرض ، ثم لا ينتفع به بعد ذلك ، وحكوا أن قازان كان معه خصوصا اثنى عشر ألف رأس من الخيـل دُشار ، فلم يبق منهـا إلاَّ مادون الألف ، وأنه لما رأى ذلك استشار أمراءه (١) فى الرجوع ، فرجعوا فى أسوأ حال ، وتفرق عسكره ، ورآه يردف بعضهم بعضا ، فلما سمع السلطان والأمراء ذلك اقتضى رأيهم أن يجردوا بعض المقدمين بمضافيهم إلى حلب لأجل تطمئن البلاد ولسُمْعة العدو بأن عسكر مصر قد وردوا للقائهم ، فعينوا الأمير سـيف الدين بكتمر السلحدار ومضافيـه ، والأمير بهـاء الدين يعقوب ومضافيه ، وأشاروا برحيل بقية العساكر إلى مصر .

ذكر عَوْد السُلطان إلى مصر :

ثم رحل السلطان ببقية العسكر وتوجهوا إلى مصر ، فوصـل السلطان إلى

(١) « أمرائه » فى الأصل .

قلعة الجبل فى عاشر جمادى الأولى (١)، وكان العود أحمد وأولى .

واستعفى الأمير سيف الدين كَراى (٢) السلحدار من نيابة صفد، ورسموا بنيابتها للأمير سيف الدين بُخَاص (٣)، وأنعم على الأمير كراى بإقطاع الأمير سيف الدين بلبان الطباخى بحكم وفاته .

وكان عند العسكر فرح عظيم من رجوع السلطان إلى القاهرة بسبب ما قاسوا من الشدة والقلة ، وقال بعضهم فى ذلك :

أقمنا على العوجاء خمسين ليلةً ... نُدبِّر أمراً قد حكاه اعوجاجُها

وقال صاحب النزهة منشدا لنفسه :

يا سفرة العوجاء من سفرة ... كادت بها أرواحنا تخرجُ
سماؤها ممطرة دائما ... وغيثها من بَرده يثلج
والشمس فى أركانها ظلمة ... وصبحها مع ليلها مُدْلج
لا بَرح الجندىُّ من أرضها ... إلّا عليل الجسم أو أفلج

---

(١) « فى يوم الإثنين حادى عشرة » — السلوك ج ١ ص ٩٠٩ ، النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٣١ .

(٢) هو كراى بن عبد الله المنصورى، نائب صفد ، ثم نائب دمشق . اعتقل بعد سنة ٧١٠ هـ وتوفى معتقلا بقلعة الجبل سنة ٧١٩ هـ / ١٣١٩ م — المنهل الصافى .

(٣) « بدخاص » فى السلوك ج ١ ص ٩٠٩ .

وهو : بتخاص بن عبد الله، الأمير سيف الدين ، كان آخر العهد به سنة ٧١٠ هـ/١٣١٠ م — المنهل الصافى ج ٣ ص ٢٣٧ رقم ٦٤٠ .

وقال ابن كثير : ولما وصلت الأخبار إلى الشام بأن السلطان صاحب مصر قد رجع عائدا إلى مصر ، كثر الخوف واشتد الحال ، وكثرت الأمطار جدا ، وخرج كثير من الناس خفافا وثقالا [٢٤٢] يتحملون بأهاليهم وأولادهم ، والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون[1] ، ثم قويت الأراجيف بوصول التتار ، وتحقق أهل الشام عود السلطان إلى مصر ، ونادى ابن النحاس متولى دمشق فى الناس : من قدر على السفر فلا يقعد بدمشق ، فتصايح النساء والولدان ، وبقى على الناس ذلة وخمدة وزلزلوا زلزالا شديدا ، وغلقت الأسواق ، وتيقن الناس أن لا ناصر لهم ، ودخل كثير من الناس إلى القلعة ولم يبق فى دمشق من الأكابر إلا القليل ، وسافر قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة وشمس الدين بن الحريرى ، ونجم الدين ابن صصرى ، ووحيد الدين بن منجا ، وقد كانت سبقتهم بيوتهم إلى ديار مصر .

وجاءت الأخبار بوصول التتار إلى سرمين ، وخرج الشيخ نجم الدين بن القرانى ، وإبراهيم الرقى ، وابن قوام ، وابن تيمية ، وابن حبان إلى نائب السلطنة الأفرم ، فقووا عزمه على ملاقاة العدو ، واجتمعوا بمهنى أمير العرب ، فأجابه إلى السمع والطاعة ، وقويت نياتهم على ذلك ، وخرج طلب الأميرسلار من دمشق إلى ناحية المرج ، واستعدوا للحرب والقتال بنيات صادقة .

ورجع ابن تيمية من الديار المصرية فى السابع والعشرين من جمادى الأولى على البريد ، وقد أقام بقلعة مصر ثمانية أيام ، واجتمع بالسلطان والوزير وأعيان

(١) يوجد هذا الخبر ملخصا فى المطبوع الذى بين أيدينا من كتاب البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٥ .

الدولة وحرضهم، فأجابوه، وكان الشيخ قد خرج من الشام مستهل جمادى الأولى، وقد غلت الأسعار بدمشق جدا حتى أنه بيع خروفان بخمسمائة درهم، واشتد الحال جدا.

ثم جاءت الأخبار بأن ملك التتار قد خاض الفرات راجعا فى عامه ذلك لضعف جيشه وقلة مَدَده، فطابت الأخبار، وسكن الناس، ورجعوا إلى منازلهم منشرحين آمنين، ولله الحمد رب العالمين، وعاد نائب السلطنة إلى دمشق من المرج، وكان فيه مخيما مدة أربعة شهور متتابعة، وكان هذا من أعظم الرباط، وتراجع الناس من الحصون حول دمشق إلى أوطانهم.

ذكر وصول الرُسُل من جهة قازان :

وفى أواخر شوال : جاء مملوك نائب حلب وأخبر بحضور الرسل من جهة قازان إلى السلطان، ورُسم للأمير سيف الدين كراى المنصورى أن يتجهز إلى لقائهم، فتجهز وخرج، وقد كتبوا بالإقامات فى الطرفات، وتلقاهم الأمير كراى فأحضرهم، وهم : الأمير ناصر الدين [على](١) خواجة، والقاضى كمال الدين يونس(٢) قاضى الموصل، ورفقيهما، وكانوا رسموا قبل تمثلهم بين يدى

(١) [ ] إضافة للتوضيح من السلوك جـ ١ ص ٩١٥.

(٢) « موسى بن يونس » فى السلوك جـ ١ ص ٩١٥، و « القاضى ضياء الدين بن بهاء الدين ابن يونس الشافعى » — فى كنز الدرر جـ٩ ص ٢٥، و « القاضى كمال الدين بن يونس قاضى الموصل » فى زبدة الفكرة.

وهو : موسى بن محمد بن موسى بن يونس الأربلى، القاضى كمال الدين، قاضى الموصل، والمتوفى سنة ٧١٥هـ/ ١٣١٥م — الدرر جـ ٥ ص ١٥٢ رقم ٤٨٩٧.

السلطان أن يلبس سائر الجيش الكلوتات الزركش والطرازات الذهب ، وأن يلبسوا أفخر ما عندهم ، ورتبوا من باب القلعة إلى داخل الإيوان صفين ، فدخلوا ، وكان دخولهم فى النصف من ذى القعدة (١) ، فلما وصلوا إلى مجلس السلطان رأوا ما أذهلهم من الحشمة والهيبة ، ورأوا عسكرا كأنهم خلقوا من حسن ومهابة وجمال ، وهم صُور حسان ووجوه جميلة ، وباسوا الأرض ، واعطوا ما معهم من الكتب .

واجتمعت الأمراء ، وقُرئت الكتب بحضورهم ، وفهموا ما فيها ، ثم أنهم شافهوا السلطان بما حملهم قازان ، فذكرها السلطان للأمراء ، وأمر السلطان بإكرامهم واحترامهم ، وأنزلوهم فى أحسن [٢٤٣] منزلة ، ورتبوا لهم الرواتب السنية ، ثم اجتمعت الأمراء بعد ذلك فتشاوروا فيما بينهم عند السلطان ، وطلبوا كاتب السر وأمروه أن يكتب الجواب عن سائر الفصول التى يتضمنها كتاب قازان .

وقال القاضى شرف الدين بن الوحيد فى تاريخه : لما حضر الرسل من جهة قازان استحضرهم السلطان فى الليل ، فلما وقفوا بين يديه أحسن إليهم وقربهم منه ، ولما رأى قاضى الموصل ذلك خطب خطبة بليغة وذكر آيات فى فى معنى الصلح بين الفريقين ، واتفاق الملكين والعسكرين ، ثم بسط يده ودعى لمولانا السلطان ، ثم بعده لمحمود قازان ، ثم أوضح الرسالة التى بيده وأعاد الكلام فى معنى الصلح وقال : ودفع الكتاب للسلطان وهو مختوم بغير عنوان . فلم يفتحه السلطان فى تلك الليلة ، ورسم بإعادة الرسل إلى مكانهم ، ولما كانت

(١) « ليلة الإثنين خامس عشر ذى الحجة » — فى كنز الدرر جـ ٩ ص ٥٤ .

الليلة الثانيـة طاب السلطان الأمراء المقـدمين الأ كابر وفتحـوا الكتاب ، وقُرئ على السلطان فإذا هو بالخط المغـلى ، وهو فى قطع النصف البغـدادى ، أوله بسم الله الرحمن الرحيم .

ذكر نسخة الكتاب[1] :

بقوة الله تعالى ، وميامين الملة المحمدية ، فرمان السلطان محمود غازان، ليعلم السلطان المعظـم الملك الناصر أنه فى العـام المـاضى بعض عساكرهم[2] المفسدة دخلوا أطراف بلادنا وأفسدوا فيها،لعناد الله تعالى[3] وعنادنا ، كما ردين ونواحيها، وجاهروا الله بالمعاصى فيمن ظفروا به من أهلها ، وأقـدموا على أمور بديعـة[4] وأحوال شنيعة[5] من محاربة الله ، وخرق ناموس الشريعة ، فأنفنا من تهجمهم ، وغرنا من تقحمهـم ، وأخذتنا الحمية الإسـلامية ، فحدتنا على دخول بلادهم ومقابلتهـم على إفسادهم ، فركبنا بمن كان لدينا من العساكر ، وتـوجهنا

(١) انظر نص الخطاب أيضا فى كل من : زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٢٣ ب — ٢٢٤ ب ، نهـاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٩ ورقة ٢٣٠ أ وما بعـدها ، صبح الأعشى جـ ٧ ص ٢٤٣ وما بعدها ، وانظر أيضا ملاحق كتاب السلوك جـ ١ ملحق رقم ١٤ ص ١٠١٦ وما بعدها .

ويوجد نص مختلف فى كنز الدرر جـ ٩ ص ٥٣ — ٥٦ ، وفى النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٢٦ — ١٢٩ .

(٢) هكذا بالأصل .

(٣) « تعالى » ساقط من زبدة الفكرة .

(٤) هكذا بالأصل .

(٥) « وارتكبوا آثاما شنيعة » فى زبدة الفكرة .

بمن اتفق منهم أنه حاضر، وقبل وقوع الفعل منا ، واشتهار الفتك عنا ، سلكنا سنن المرسلين ، واقتفينا آثار المتقدمين ، واقتدينا بقول الله تبارك وتعالى : ﴿ لئلا يكون « للناس على الله »[1] حجة بعد الرسل[2] ﴾ وأنفذنا صحبة يعقوب الكرجى جماعة من القضاة والأئمة الثقات ، وقلنا : ﴿ هذا نذيرٌ من النذر الأولى ، أزفت الآزفة ، ليس لها من دون الله كاشفة[3] ﴾ .

فقابلتم ذلك بالإصرار ، وحكمتم عليكم وعلى المسلمين بالأضرار ، وأهنتموهم وسجنتموهم ، وخالفتم سُنن الملوك فى حسن السلوك ، فصبرنا على تماديكم فى غيكم و إخلادكم[4] إلى بغيكم إلى أن نصرنا الله وأراكم فى أنفسكم قضاه ، ﴿ أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله[5] ﴾ ، وظننا أنهم حيث تحققوا كُنه الحال ، وآل بهم إلى ما آل ، أنهم ربما تداركوا الفارط من أمرهم ، ورتقوا ما فتقوا بغدرهم ، وأوجه إلينا وجه عذرهم ، وأنهم ربما سيروا إلينا حال دخولهم إلى[6] الديار المصرية رُسلا لاصلاح تلك القضية ، فبقينا بدمشق غير متحنحثين ، وتثبطنا تثبط المتملكين المتمكنين، فصدهم عن السعى فى صلاح حالهم التوانى ، وعللوا نفوسهم بالأمانى[7] .

(١) « على الناس » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح من المصحف .

(٢) جزء من الآية رقم ١٦٥ من سورة النساء رقم ٤ .

(٣) الآيات رقم ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨ من سورة النجم رقم ٥٣ .

(٤) « وخلودكم » فى زبدة الفكرة .

(٥) جزء من الآية رقم ٩٩ من سورة الأعراف رقم ٧ .

(٦) « إلى » ساقط من زبدة الفكرة .

(٧) « وعللوا نفوسهم من اليقين بالأمانى » فى زبدة الفكرة .

ثم بلغنا بعد عودنا إلى بلادنا ، أنهم ألقوا فى قلوب العساكر والعوام، وراموا جبر ما أوهنوا من الإسلام ، أنهم فيما بعد يلتقونا (١) على حلب أو الفرات ، وأن عزمهم مصر على ذلك لاسواه ، فجمعنا العساكر وتوجهنا للقياهم ، ووصلنا (٢) [٢٤٤] الفرات مرتقبين ثبوت دعواهم ، وقلنا لعلهم وعساهم ، فما لمع لهم (٣) بارق ، ولا ذرّ لهم (٤) شارق ، فتقدمنا إلى أطراف حلب ، وتعجبنا من بطائهم غاية العجب، فبلغنا رجوعهم بالعساكر ، وتحققنا نكوصهم عن الحرب . وفكرنا أنه متى (٥) تقدمنا بعساكرنا الزاخرة (٦) ، وجموعنا العظيمة القاهرة ، ربما أخرب البلادَ مرورُها (٧) ، وبإقامتهم فيها فسدت أمورها ، وعم ضرر العباد ، وخراب البلاد (٨) ، فعدنا بقيّا (٩) عليها ، ونظرة لطف من الله إليها .

وها نحن أيضا الآن مهتمون بجمع العساكر المنصورة ، ومشحذون غرار عزماتنا المشهورة، ومستعملون (١٠) المجانيق وآلات الحرب ، وعازمون بعد الإنذار، ﴿ وما كنا مُعَذّبين حتى نبعث رسولا ﴾ (١١) .

---

(١) « يلقونا » فى زبدة الفكرة .

(٢) « ووصلنا » مكررة فى بداية الورقة التالية .

(٣) « لهم » ساقط من زبدة الفكرة .

(٤) هكذا بالأصل .

(٥) « متى » ساقط من زبدة الفكرة .

(٦) « الباهرة » فى زبدة الفكرة .

(٧) « الضرر » فى زبدة الفكرة .

(٨) « الخراب » فى زبدة الفكرة .

(٩) « بقى » فى الأصل . والتصحيح من زبدة الفكرة .

(١٠) « ومشتغلون بصنع » فى زبدة الفكرة .

(١١) جزء من الآية رقم ١٥ من سورة الإسراء رقم ١٧ .

وقد سيّرنا حامل هذا الفَرْمان الأمير الكبير ناصر الدين بن على خواجا (١)، والإمام العالم ملك القضاة كمال الدين موسى بن يونُس، وقد حملناهما كلاما يُشافهانهم بهن (٢)، فَلْيثقُوا بما تقدمنا به إليهما، فإنهما من الأعيان المعتمد عليهما، لنكون كما قال الله تعالى: ﴿ قل فلله الحجة البالغة فلو شاء لهداكم أجمعين ﴾ (٣)، فتعُدّون (٤) لنا الهدايا والتحف، فما بعد الإنذار من عاذر، وإن لم تداركوا (٥) الأمر فدماء المسلمين وأموالهم مطلوبة بتدبيرهم، ومطلوبة منهم عند الله على طول تقصيرهم.

فلْيمعن السلطان لرعيته النظر فى أمره، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «مَنْ ولاّه الله أمرا من أمور هذه الأمة واحتجب دون حاجتهم وخَلّتهم وفقرهم، احتجب الله دون حاجته وخلّته وفقره» (٦). وقد أعذر من أنذر، وأنصف من حذّر، ﴿ والسلام على من اتبع الهدى ﴾ (٧).

---

(١) «بن» ساقط من زبدة الفكرة.

(٢) «يشافهاهم به» فى زبدة الفكرة.

(٣) الآية رقم ١٤٩ من سورة الأنعام رقم ٦.

(٤) «فتعدوا» فى زبدة الفكرة.

(٥) «تتداركوا» فى زبدة الفكرة.

(٦) قال عليه الصلاة والسلام: «من ولاه الله عز وجل شيئا من المسلمين فاحتجب دون حاجتهم وخلتهم وفقرهم احتجب الله عنه دون حاجته وخلته وفقره» - انظر سنن أبى داود ج ٣ باب «فيما يلزم الإمام من أمر الرعية» ص ١٣٥ حديث رقم ٢٩٤٨.

(٧) جزء من الآية رقم ٤٧ من سورة طه رقم ٢٠.

كتب فى العشر الأول من شهر رمضان « سنة سبعمائة »[١] بجبال الأكراد ، والحمد لله رب العالمين والصلاة على سيدنا محمد المصطفى وآله الطاهرين[٢] .

وسنذكر ما أجابه السلطان عن هذا الكتاب في السنة الآتية إن شاء الله تعالى[٣] .

ذكر وقوع الفناء فى الأبقار :

وفيها : أصاب الفناء الأبقار دون غيرها من المواشى حتى تعطلت الدواليب والسواقى ، وغلت أسعارها غلوا لم يُسمع بمثله ، وبيع الرأس البقر بألف درهم[٤] وما يقاربها ، واستعمل الناس الخيل والجمال والحمير عوضًا عنها ، فما أجدت فى الحرث والكرب ولا أغنت عنها ، فتعذرت الأقصاب وتعطلت ، وتُرك زراعة أكثرها وأبطلت ، فارتفعت قيمة القنود وبلغت عشرة دنانير القنطار . ولقد حكى عن شيخ من أهل الفلاحة ببلد أشموم[٥] أنه كان يملك من الأبقار الحيسية السارحة فى تلك الجزائر ما جُملته ألف وإحدى عشرة رأسا ، فماتت فى هذا الفناء أولا فأولا حتى لم يبق له منها غير ثمانية[٦] لاسواها[٧] .

(١) « » ساقط من زبدة الفكرة .

(٢) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٢٣ب — ٢٢٤ ب .

(٣) انظر ما يلى ص ١٥٥ — ١٦٦ .

(٤) « وبلغ الثور ألف درهم » فى السلوك جـ ١ ص ٩١٤ .

(٥) « أشموم طناح » فى السلوك جـ ١ ص ٩١٣ .

(٦) « ثمانية عشر » فى السلوك جـ ١ ص ٩١٤ .

(٧) ينقل العينى هذا الخبر عن زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٢٢ ب — ٢٢٣ أ .

وقال صاحب نزهة الناظر : كان مبدأ فناء الأبقار فى أواخر سنة تسع وتسعين وستمائة ، فلما دخلت سنة سبعمائة تزايد الأمر فى موتها ، وتعطلت الدواليب وزراعات الأمصار ، وتوقف حال أرباب السواقى ، وتزايد الأمر على الناس فكان يكون فى السافية عشرة أروس يصبح الستة منها موتى ، ويأتى اليوم الثانى والثالث فلا ترى منها شئ ، ويحتاج صاحبها إلى شراء غيرها بقيمة زائدة ، فحصل الضرر البالغ لأصحاب البساتين ، خصوصا لأهل دمياط وأشمون والمزاحميين والقليوبيين ، [٢٤٥] وكذلك بلاد الصعيد ودواليب المعاصر ، وقال : لقد بلغنى أنه كان بدمياط رجل من أكابرها وله عدة بساتين ، وكان فيها مائة واثنى عشر رأسا متمنة (١) ، فما مضى عليها ثلاث شهور إلا وقد بقيت منها تسعة أروس لا ينتفع بها .

وكتب الأمراء إلى سائر البلاد أن لا يذبح أحد شيئا من البقر ولا من العجول ، وكتبوا إلى نائب الشام بأن يجهز إليهم أبقارا شامية من سائر البلاد للدواليب السلطانية ، ثم وصلت أبقار كثيرة مع التجار ، وأبيع الرأس منها بثلاثمائة ، وبمائتين ، وظلقت معاملة سوق البقر فى تلك السنة للمقطعين ، وفاضت على ذلك مائة وستون ألف درهم .

ذكر بقيّة حوادث مصر والشام :

وفيها : اقتضى رأى السلطان والأمراء أن يخرج الأمير شمس الدين سنقر الأعسر مع جماعة من المماليك السلطانية إلى الوجه القبلى ليُحصّل من عزبة الخيلَ

(١) هكذا فى الأصل ، ولعل المقصود « سمينة » .

والجمال وآلات السلاح ، والسببُ لذلك أنهم لما علموا بسفر السلطان مع العسكر لحقهم الطمع فى مثل الأمراء والجند ، ومنعوا الحقوق ، وعصوا على الولاة ، وقطعوا الطريق ، وأخافوا السبيل ، فجرد لذلك سنقر المذكور وصحبته مائة نفر من المماليك السلطانية ، فركب إلى أن وصل إليهم ، وكان له فى نفوس الناس حرمة عظيمة ومهابة قوية ، فكبس البلاد ، وأتلف كثيرا من المفسدين ، ولم يزل سائرا إلى أن وصل الأعمال القوصية ، ولم يَدَع فرساً فى بلاد الصعيد من خيل العرب ولا خيل القضاة والفقهاء والمتعممين إلا أخذه ، وأخذ سائر السلاح من الرماح والسيوف والدرق(١) ، فكانت عدة ماحضر معه من الخيل ألف وستون فرسا ، ومن الجمال ثمانمائة وسبعون رأسا ، ومن الرماح ألف وستمائة رمح ، ومن السيوف ألف ومائتا سيف ، ومن الدرق تسعمائة درقة ، ومن الغنم ستة آلاف رأس ، فأصلح تلك البلاد حتى أخذ الناس مغلهم كاملا .

وقال بيبرس فى تاريخه : جرّد الأمير سيف الدين سنقر الأعسر إلى الصعيد للكشف والتمهيد ، [ورسم له بحسم مادة العربان ، فانهم تظاهروا بالنفاق والعصيان](٢) وتوجهنا إلى الوجه(٣) فاجتمعنا بمنفلوط وأحضرنا أعيانهم ، وقررت عليهم جباية من المال والخيل والجمال والسلاح ، وجُبيت فكانت ألف ألف وخمسمائة ألف درهم ، وألف رأس خيل ، وألفى جمل ، وعشرة آلاف(٤) رأس

(١) الدرق : آلة لاتقاء قذائف العدو ، وتكون من الجلد ، وخاصة جلد البقر — صبح الأعشى ج ٢ ص ١٤٣ .

(٢) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٣) « وتوجهت إلى ذلك الوجه » — فى زبدة الفكرة .

(٤) « ألف » فى زبدة الفكرة .

فيم ، وحُسِمت مادتهم فى ذلك الوقت (١) .

وفيها : فى يوم الجمعة الثالث والعشرين من ذى القعـدة عزل شمس الدين ابن الحريرى عن قضاء الحنفية بالقاضى جلال الدين أبى حسام الدين على قاعدته وقاعدة أبيه من قبله ، وذلك باتفاق من الأمير سنقر الأعسر والنائب جمال الدين أقوش الأفرم .

وفيها : استقال الأمير كراى السلحدار من نيابة صفد ، فأقيل ، وجُهز إليها عوضا عنه الأمير بُخاص المنصورى من دمشق (٢) .

وفيها : استعفى سيف الدين قطلوبك من نيابة الحصون ، فأعفى ، وجُهّز إليها من دمشق سيف الدين أسندمر الكرجى ، وأعيد قطلوبك إلى دمشق ، فاستقر من أمرائها (٣) .

وفيها : ولّى الأمير فارس الدين البكى الظاهرى نيابة السلطنة بحمص ، وجُهّز الأمير قفجق إلى الشوبك وأعطى بأعمالها إقطاعا (٤) .

وفيها : ألزمت السلطنة طائفتى النصارى واليهود بمصر والشام بلبس العمائم الغيار [٢٤٦] ، فألبس النصارى عمائم زرقاء، واليهود عمائم صفراء، والسامرة بالشام عمائم حمراء ، وغلقت كنائسها (٥) ، ثم فتح بعضها أولا فأولا (٦) ، ثم اتفق

(١) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٢٣ أ .

(٢) زبدة الفكرة مخطوط جـ ٩ ورقة ٢٢٢ ب .

(٣) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٢٢ ب .

(٤) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٢٤ ب .

(٥) « وأغلقت كنائسهم » فى زبدة الفكرة .

(٦) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٢٣ أ .

أن بعض أكابر النصارى سعى فى فتح كنيسة وفتحها، واشتهر ذلك بين العامة، فوقفت حرافيش كثيرة للنائب والأمراء بسبب ذلك .

وقالوا أيضا : إن بعض النصارى تكبروا عن لبس الأزرق، وإن بعضهم احتمى ببعض أكابر الأمراء، فاقتضى رأيهم باشهار النداء، فأمروا والى القاهرة بالمناداة فى مصر والقاهرة بأن كل من لا يلبس الزُّرْقَ من النصارى، أو الصُّفر من اليهود ينهبه العامّة، ويُسْتحل ماله وحريمه، وأن لا يُسْتخدم نصرانى عند أمير ولا فى شغل من أشغال السلطنة إلا إذا أسلم، فتسلطت عليهم العامّة من الحرافيش وغيرهم، فمَنْ رأوا منهم ما عمل بموُجَب النداء ضربوه إلى أن كاد أن يقتلوه، وكذا إذا رأوا أحدا منهم راكبا على حمار من غير أن يُثْنى رجله عليها، فصار كثير منهم لا يجترئ على الركوب ويمشى فى الطريق وهو خائف على نفسه وأسلمت منهم جماعة كثيرة (١) .

وفيها : قصد الأمراء عزل الأمير شمس الدين سنقر الأعسر عن الوزارة، وذلك لكبره وشممه وزيادته عن الحدّ وعدم توقيره لمن يكون من جهة الأمراء حتى أنه مَسَك التاجَ بن سعد الدولة (٢)، وكان مستوفى الدولة وممن يلوذ بالأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير، وعرّاه وضربه بالمقارع ضربا مؤلما، فأسلم من حرارة الضرب وألزمه أن يُشهد عليه بالإسلام، وبعد ذلك تحمل مال السلطان، فلما أطلقه دخل إلى زاوية الشيخ نصر (٣) وألزم نفسه أن لا يخرج منها،

(١) انظر ما ورد فى النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٣٢ — ١٣٥ .

(٢) « بن سعيد الدولة » فى السلوك جـ ١ ص ٩١٦ .

(٣) زاوية الشيخ نصر المنبجى : خارج باب النصر من القاهرة، أنشأها الشيخ نصر بن سليمان أبو الفتح المنبجى الناسك القدوة، المتوفى سنة سنة ٧١٩ هـ / ١٣١٩ م — المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٤٣٢ .

وأرسل الشيخ نصر إلى بيبرس الجاشنكير أن يتحدث فيه ليُعفى من المباشرة ، ففعل ذلك واستمر عليه إلى أن وقفت الأمراء لبيبرس وحسنوا له أن يطلب الأمير عز الدين أَيْبك البغدادى من نيابة الإسكندرية ويتولى الوزارة بالديار المصرية ، عوضا عن شمس الدين سنقر المذكور ، وأجمع بيبرس مع الأمير سلّار على ذلك وولّوا أيبك المذكور الوزارة ، ثم اتفق رأيهم أن يكون شمس الدين سنقر كاشف القلاع الشامية بأمرها ، فينظر فيها ويُصلح أمورها ويرتب الرجال وما تحتاج إليه من سائر الأصناف ، فخلع عليه بذلك(١) .

وفيها : أعرس السلطان على بنت الأمير كَرتَيْه(٢) ، وكانت تعرف بالأشرفية ، فكانت زوجة أخيه الملك الأشرف ، فعمل على ذلك مهما عظيما ، وخلع على سائر الأمراء وأرباب الوظائف بخلع سنية .

ذكر ما جرى فى بلاد الشمال :

قد ذكرنا فى العام الماضى ما وقع بين ولدى نُوغيه ، وهما جكا وتكا(٣) ، وأن جكا استقر موضع أبيه ، وكان عند استيلائه على المملكة قد أقام له نائبا يسمى طُنْغر من أكابر الأمراء ، فلما أقدم على قتل أخيه تكا نفرعنه واتفق مع طاز بن منجك — وهو صهر نُوغيه زوج ابنته طُغاجا — على التوجه للإغارة على بلاد أولاق والروس ، فسارا بمُضافيهما ، ولما خلا أحدهما بالآخر تحادثا وتفاوضا فى أمر جكا وجرأته وسوء سيرته وقالا : إذا كان هذا لم يُبق على أخيه ، [٢٤٧]

(١) أعاد العينى ذكر هذا الخبر فى أحداث سنة ٧٠١ هـ — انظر ما يلى ص ١٨٩ .

(٢) « خوندا أردكين بنت نوكاى » فى السلوك جـ ١ ص ٩١٢ .

(٣) انظر ما سبق ص ٨٣ .

فكيف يبقى علينا ؟ ، واتفقا على أن يعودا إليه ويقبضا عليه ، فعادا نحو مقامه ، فشعر واحد من عسكرهما أنهما اتفقا على إعدامه ، فركب وساق مسرعا ، وأعلمه بالحال تنصحا ، فلما تيقن أنهما قد دهماه ركب من ساعته فى مائة وخمسين فارسا من جماعته ودخل بلاد آص ، وكان بها مقدم وثُمان من عسكره ، فآوى إليهم وأقام بينهم .

وحضر طغرل نائبه وطاز صهره إلى بيوته ، فنهبوها واستولوا عليها ، ووجدوه قد فاتهما .

ولما أقام جكا ببلاد آص وتحقق عسكره أنه حى موجود باق تسلل إليه كثير منهم ، فكثرت بهم عدته وعاد لحرب طغرل وطاز ، والتقى الجمعان ، فاستظهر عليهم وكسرهم ، وفرق شملهم ، وسبى وغنم ما شاء ، واسترد بيوته وغنائمه منهم .

ولقد حكى من شهد الوقعة أن أخته طغلجا — بنت أبيه نوغيه — ركبت الخيول وقاتلت مع الفحول ، فلما انكسر زوجها ومن معه كاتبوا طقطا يستمدونه ويلتمسون أنجادهم بعسكر يقاتلون به جكا ويعاودونه ، فأمدهم بجيش صحبة أخيه برلك بن منكوتمر ، فلما جاءهم المدد من عند طقطا دعوا نزال وعادوا إلى القتال ، فلم يكن لجكا بهم قبل ، فهرب ولحق ببلاد أولاق ، وكان ملكها والحاكم عليها متزوجا إحدى أقاربه ، فتطلع إلى حصنه معتقدا أنه يمتنع عنده ، فقال لذلك أصحابه : هذا الوارد إليك هو عدو لطقطا ، وهو مجد فى طلبه ، ومتى علم بمقامه عندنا سار إلى نحونا وأهلكنا ، والصواب تعويقه وإعلامه بأمره ، فقبض

عليه وعوقه فى قلعته ، واسمها ترنو ، وطالع طقطا بأمره ، فأمره بقتله ، فقتل فى هذه السنة .

وخلت مملكة طقطا ممن يناوئه ، وبلغ من إبادة أعاديه أمانيه ، ولم يبق من أولاد نوغيه إلا أصغرهم المسمى طرنه ، ورتب ينجى بن قرمشى موضع أباجى أخيه ، وجهز تكل بغا وايربصار ولديه إلى بلاد نوغيه ، فأما تكل بغا فإنه استقر فى طقجى ونهرطنا وما يلى باب الحديد ، وهى منازل نوغيه ، وأقام ايربصار بنهر بيق ، وتكملت بلاد الشمال للملك طقطا[1] .

ذكر ما جرى فى بلاد الغرب من الحوادث فيها :

ومن الحوادث فيها أن جزيرة جربة كانت قد خرجت عن أيدى المسلمين ، كما ذكرناه فى سنة ثمانين وستمائة[2] ، وأقامت بيد المزاليا نائب الإفرنسى بصقلية يجبى إليه خراجها كل عام ، فهلك فى هذه السنة ، أعنى سنة سبعمائة ، فاغتنم أهلها الفرصة بهلاكه فأرسلوا إلى صاحب تونس يعلمونه بذلك ويستنجدونه ، فجهز إليهم ابن عمه أبا زكريا يحيى وجهز معه تقدير عشرين قطعة من المراكب ، وثلاثة آلاف فارس ، وعشرة آلاف راجل ، فتوجه إليها ونزل عليها ، وبلغ ذلك ولد المزاليا صاحب صقلية ، فتجهز فى طواعيته ، وجاءهم بجماعته ، فلما أقبلت شوانيه خرجت شوانى تونس عنها ، وأقلعت منها ، وعاد أبو زكريا اللحيانى ولم ينل مراما ولا شفى أواما ، فدخلها ابن المزاليا وتملكها وأمن أهلها ، وأقام بها إلى سنة ست وسبعمائة ، والله أعلم .

---

(١) ينقل العينى هذا الخبر عن زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٢٥ أ ، ب .

(٢) لم يرد هذا الخبر فى المطبوع من عقد الجمان ، نظرا لوجود سقط فى المخطوط تضمن بعض حوادث سنة ٦٨٠ هـ .

وفيها : كان وفاء النيل [٢٤٨] المبارك على سبعة عشر ذراعا وخمسة عشر إصبع ، وكانت السنة من السنين المقبلة على الناس من كثرة الغلال ورخص الأسعار .

وفيها : حج بالناس الأمير سيف الدين بكتمر أمير جندار ، وصنع لفقراء الحرمين معروفا ، وفرق من الأموال ألوفا ، قيل : إنه قد فرق من ماله خمسة وثمانين ألف دينار مصرية .

«[1] وقال صاحب « . . . . »[2] أن الأمير بكتمر هذا جهز سبعة مراكب « . . . . »[3] قمحا وشعيرا ودقيقا وسكرا « . . »[4] ، وزيتا وحلواء وقاووتا سوى ما حمله معه على الجمال ، وعند وصوله إلى ينبع قد وجد ثلاث مراكب قد وصلت قبله بيومين ، فأخرج جميع مافيها وجعل كل صنف من الأصناف المذكورة كوما بمفرده ، وأمر مناديا ينادى فى الركب أن أى من كان محتاجا إلى مؤنة أو حلواء أو شيئا من ذلك ، فليحضر إلى خيمة الأمير ، فحضرت الناس وفرق عليهم ، ثم فرق على الأمراء والجند من الحجاج وعلى أرباب البيوت كذلك ، ومافضل من ذلك فرق على أهل ينبع ، وعند الرحيل بقيت بقايا من الدقيق والشعير .[5]

(١) بداية المكتوب على هامش الورقة ٢٤٨ ، و بنفس الخط .

(٢) موضع ثلاث كلمات غير مقروءة .

(٣) موضع كلمة غير مقروءة .

(٤) موضع كلمة غير مقروءة .

(٥) « » نهاية المكتوب على هامش الورقة ٢٤٨ ، وبنفس خط المخطوط .

ولم يحج أحد فى هـذه السنة من الشام ، والذى حـج راح إلى غزة ولحق بالمصريين عند عقبة أيلا[1] .

(١) هكذا بالأصل .

ذكر مَنْ توفى فيها من الأعيان

الشيخ الصالح حسن الكُردى[(١)] المقيم بالشاغُور فى بستان يأكل من غلته ، و يُطعم من ورد عليه ، وكان يُزار، وكانت له كرامات وأحوال ، ولما احتضر اغتسل وأخذ من شعره ، واستقبل القبلة وركع ركعات ، ثم توفى يوم الإثنين الرابع من جمادى الأولى منها وقد جاوز المائة ، وصلى عليه بجامع جراح ، ودفن بمقابر باب الصغير .

الشيخ يعقوب بن محمد بن حسن الزُرْزارى الكردى العدوى ، توفى فى هذه السنة .

الشيخ الإمام العالم العلامة محمود[(٢)] بن أبى بكر بن أبى العلاء الكلاباذى[(٣)] البخارى الفرضى ، الملقب شمس الدين ، أحد السادات الحنفية .

له المصنفات الفائقة فى الفرائض وغيرها[(٤)] ، وكان محدثا متقنا فاضلا، حسن الأخلاق ، سمع ببخارى وقدم بغداد، فأقام بها يسمع وصنف وكتب، ثم رحل إلى دمشق والقاهرة وسمع بها من أصحاب ابن طبرزد والكندى، وحدّث .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٥ ص ١٤٦ رقم ٩٣٧ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٧ ، الوافى جـ ١٢ ص ٣١٣ رقم ٢٨٥ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، تاج التراجم ص ٧٠ رقم ٢١٠ ، العبر جـ ٥ ص ٤١٢ ، السلوك جـ ١ ص ٩١٨ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٥٧ .

(٣) الكلاباذى ، نسبة إلى كلاباذ : محلة فى بخارى — معجم البلدان .

(٤) من مؤلفات صاحب الترجمة انظر هدية العارفين جـ ٢ ص ٤٠٦ .

قال الذهبى : هـو رأس فى الفرائض ، عارفا بالحديث والرجال ، جـم الفضائل ، مليح الكتابة ، واسع الرحلة ، سّود كتابا كبيرا فى[1] مشتبه النسب[2] ونقلت منه كثيرا ، وسمع منه الحافظ المزّى وابن سيد الناس وغيرهما ، ومولده ببخارى فى مُستهل جمادى الأولى سنة تسع وأربعين وستمائة .

وفى تاريخ ابن كثير : توفى بدمشق فى العشر الأول من ربيع الأول سـنة سبعمائة[3] . وذكر غيره : أنه مات بماردين .

الشيخ الصالح المُسند عز الدين أحمد[4] بن عبد الحميـد بن عبد الهادى بن يوسف بن قدامة المقدسى .

كان شيخا مباركا كثير الصلاة والذكر ، حسن الخلق ، متوددا إلى الناس ، سمع جماعة ، وحدّث بجميع مسموعاته ، مات فى هذه السّنة[5] بجبل الصالحية ، ودفن بتربة الشيخ موفق الدين بقاسيون .

الشيخ عماد الدين القصاص[6] ، الفقيه الأحمدى المزمزم .

---

(١) « فى » مكررة فى الأصل .

(٢) هو كتاب : مشتبه النسب فى أسماء الرجال — هدية العارفين جـ ٢ ص ٤٠٦ .

(٣) لم يرد هذا النص فى المطبوع الذى بين أيدينا من البداية والنهاية .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : العبر جـ ٥ ص ٤٠٩ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٥٥ .

(٥) « فى ثالث المحرم ، وله ثمان وثمانون سنة » — العبر جـ ٥ ص ٤٠٩ .

(٦) هو : أحمد بن محمد بن سعد بن عبدالله بن سعد بن مفلح ، أبو العباس المقدسى الصالحى الحنبلى ، المسند عماد الدين .

وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٢ ص ٨٤ رقم ٢٥٨ ، العـبر جـ ٥ ص ٤٠٩ ، الوافى جـ ٧ ص ٤٠٢ رقم ٣٤٠١ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٥٥ .

مات فيها[1] بزاويته بميدان الحصى ، ودفن بمقابر الصغير ، وكان فقيرا حسنا ، مليح الشيبة ، معروفا مشهورا .

الشيخ الصالح أبو عبد الله محمد بن أبي بكر عبد الرحمن بن عبد الله المكنجي .

جاور بجامع بني أمية بدمشق أكثر من ستين سنة ، وسمع من الزين خالد ، والحرستاني ، وابن عبد الدايم ، وابن البُرهان ، وكان من الصلحاء الأخيار ، كثير الذكر والعبادة ، مات في هذه السنة ، وكان قد بلغ تسعين سنة ، ودفن بمقابر باب الصغير .

الشيخ يوسف[2] بن أحمد بن أبي بكر الغسولي الصالحي الحجار[3] .

كان قد انفرد بالرواية عن موسى[4] بن الشيخ عبد القادر وبأشياء ، ومولده في سنة اثنتي عشرة وستمائة ، ومات في هذه السنة .

الشيخ الصالح عبد الله ، المعروف بالقَانُولَة .

كان من عقلاء المجانين ، وله كرامات ومكاشفات وكان على حاله مُسفة من خشونة العيش ، مات بمسجد الرفاعة[5] [٢٤٩] العتيقة بدمشق ، ودفن بسفح قاسيون بتربة المولهين .

(١) « في المحرم ، وله ثلاث وثمانون سنة » — العبر جـ ٥ ص ٤٠٩ .

(٢) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٩٧ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٥٨ ، العبر جـ ٥ ص ٤١٢ .

(٣) « المعروف بابن غالية » — في المنهل الصافي .

(٤) هو موسى بن عبد القادر الجيلي ، أبو نصر ، المتوفى سنة ٦١٨ هـ / ١٢٢١ م — العبر جـ ٥ ص ٧٥ .

(٥) المقصود : زاوية الرفاعي — الدارس جـ ١ ص ٤١ .

الشيخ عمار المشرقى المولّه .

كانت له كرامات ومكاشفات ، وكان يعلق فى رقبته عظام الجمال ، مات فى هذه السنة .

الشيخ الكبير المعمّر شمس الدين أبو إسحاق إبراهيم[(١)] بن أبى بكر بن عبدالعزيز الجزرى الكتبى ، المعروف بالفاشوشة ، ويعرف أيضا بابن سمعون .

كان مشهورا بالكتب ومعرفتها والتجارة فيها ، وكانت عنده فضيلة تامّة ، ومذاكرة حسنة ، ومروءة كثيرة ، وكرم نفس ، كثير السعى فى حوائج أصحابه . وعلى ذهنه قطعة جيدة من التاريخ وأيام الناس وماجرياتهم .

وله نظم حسن ، فمنه قوله :

وما ذكرتكم إلّا وضعت يدى ... على حُشاشة قلب قلّ ما بَرَدا

وماتذكرت أياما بكم سلفت ... إلا تحدّر من عينى ما بَرَدا[(٢)]

وله مخمّس :

ولما وقفنا بالقرو يروعينه ... من الربع قد بانوا وبان قرينه

وقد كاد من حزن تَدُكُّ حزونه ... بكيتُ على الوادى ففاضت عيونه

ونُحت على النادى فمالت غُصونه

(١) وله أيضا ترجمة فى : الوافى جـ ٥ ص ٣٢٨ رقم ٢٤٠٧ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٥٦ .

(٢) انظر شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٥٦ .

زمانا تذكرت الحمى وأحبتي ولذة عيش معهم لى تولّت
سقيتُ رباه من سحائب مُقلتى وأحرقت بان الجروع من حرّ رذى
فأسهله مسوده وحزونه

وكيف يطيق الغمض أو يعرف الكرى محبٌّ جرى من جفن عينيه ما جرى
ويُؤلمه مَسّ النسيم إذا سرى وإنى امرءٌ أضحى من السُقم لا يُرى
ولا يعرفون الناس إلّا أنينه

سألتكم بالله يا ساكنى قبا صلوا مُغرما أمسى حزينا معذّبا
سوى حبكم لم يتخذ قط مذهبا يحنّ اشتياقا كلما هبّت الصبا
وتبكيه شجوًا سرب سَلَع وعينُه

له مهجة ذاب بطول عنائها وأجفانه قد قرحت من دمائها
رحلتم فأضحى ذاهب العقل تائها وماجادت السُحب العوادى بمائها
سل الذى جادت عليكم جفونه

لقد شمتت من بعد بعدكم العدا وقد بان يوم البَين طرفى مُسهدا
فرقوا الصبّ بالسقام قد ارتدى تهيّجه نوح الحمام إذا شدى
ويعلقه وجدانه وحنينه

غدا يومَ وشك البَين فى زىّ حائر يُسائل عنكم كل غادٍ سائر
حكمتم عليه فى الهوى حكمَ جائر ولولاكم ماهاجَه نُوح طائر
ولا فاض من أجل الظبا عيونه

ألا أيها الحادى المحث لركبه إذا جُزت فى وادى الأواك وكثبه
فَقُل للظباء الراتعات بسربه لكل محب فنٌ وجد يُحبه
وصبِّكم فيكم كثير فنونه

مات بدمشق فى التاسع عشر من رجب منها، ودفن بسفح قاسيون، ومولده سنة اثنتين وستمائة بالجزيرة العمرية .

الشيخ أبو جَلنك[(1)] أحمد بن أبى بكر الحلبى، الشاعر المشهور .

كان بقلعة حلب أيام وصول التتار إليها، فنزل هو وجماعة للكشف والإغارة على التتار، فوقعت نشابة فى فرسه فمات وبقى راجلا، فأسروه وأحضروه بين يدى المقدم، فسأله عن عسكر المسلمين فكثّرهم ورفع شأنهم، فأمر بقتله، فقتل .

ومن نظمه قوله :

أتى العذارُ بما إذا أنت معتذر وأنت كالوَجْد لا تبقى ولا تذَرُ
[٢٥٠] لاعُذر يُقبَل إذ تم[(2)] العذارُ ولا يُنجيك من شَرّه خوفٌ ولا حذَرُ[(3)]
كأنى بوحوش الشَعر قد أنست[(4)] بوَجْنتيك وبالعُشاق قد نفروا

---

(١) وله أيضا ترجمة فى: المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٢١ رقم ١١٣، درة الأسلاك ص ١٥٣، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٩٤، الوافى جـ ٦ ص ٢٧١ رقم ٢٧٦٦، فوات الوفيات جـ ١ ص ٦٠ رقم ٢٢٥، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٥٦، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٣٦ .

(٢) « إن تم » — فى فوات الوفيات .

(٣) « ينجيك من خوفه بأس ولا حذر » — فى فوات الوفيات .

(٤) « قد نزلت » — فى فوات الوفيات .

وكلما مرّ بى مرد أقول لهم ... قفوا(١) انظروا وَجْهَ هذا(٢) الحزو اعتبروا
هذا الذّى قد سرت يا صاحبى له ... بقُبح سـيرته بين الورَى سِيَرُ
قد كان شكلا نقىّ الخد مُعتدلا ... كأنه غصنُ بان فوقَه قمرُ
ذا حُمرة وبياض فوق وجنتـه ... لها اجْتماعٌ بطرف زانه الحَوَرُ
وحُكمه نافــذٌ فى عاشِقيه فــلا ... يُخالفُـون له أمراً إذا أُمروا
فعادَ لحيـان فانفـلّ الجماعة إذ ... رأوا طريقا إلى السُلوان وانتصروا
وعادَ فى قبضهم لا شـكر(٣) جَوْدَلَةُ ... الأفراح والدمعُ من عَينَيه منهمرُ
يبكى على ما مضى من حُسنه أسَفا ... وعَسْكر الشَعْر من خَدَّيْه مُعتكِرُ
لا يسـتطيعُ له رَدًّا وكم حَرَصُـوا ... بردّ ذلك أقـوامٌ فما قـدَروا
فهـذه المـوتةُ الأُولى تجرعها ... فصار أولى من الدنيا به الحفر
فاقرأ على نعشـه آخر سَـبأ فلقـد ... جاءت بما يقتضى أحواله السُوَرُ
إذ كان حاجبُه نوناً وناظِرُه صادًا ... وعُشاقُه من حـوله زُمَرُ
إذا رأى عاشِقا فى النازعات غَدا ... ما بَعْدها وهو قد أوْدَى به الضَرَرُ
فعاد والليـل يغشـى نورُ طلعتـه ... وزال عن عاشقيه الهم والحصر
هـذا جزاؤك يا مَن لا وفاءَ له ... والعاشقون لهم طوبَى بما صبروا(٤)

(١) « قف » فى الأصل ، والتصحيح من شذرات الذهب .
(٢) « هذا الكيس » فى شذرات الذهب .
(٣) « لا شك » فى شذرات الذهب .
(٤) انظر بعض الأبيات الواردة هنا فى شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٥٦ ، وفوات الوفيات جـ ١ ص ٦١ .

وله :

جعلتك المقصد الأقصى وموطنك الـ ... ـبيت المقدس من روحى وجثمانى (١)

وقلبك الصخرة الصماء حين قست ... قامت قيامة أشواقى وأشجانى

أما إذا كنت ترضى أن تقاطعنى ... وأن يزورك ذا زور وبهتان

فلا تغرك نار فى حشاى فمن (٢) ... وادى جهنم تجرى عين سلوان

ولآخر ألطف من هذا :

أيا قدس حسن قلبه الصخرة التى ... قست فهى لا ترثى لصب متيم

ويا سولى الأقصى عينى باب رحمة ... ففى كبد المشتاق وادى جهنم

ولأبى جلنك المذكور فى مليح يصفع عاشقه :

وشادن يصفع مغرى به ... براحة أندى من الوابل

فصحت فى الناس : ألا فاعجبوا ... بحر غدا يلطم فى الساحل (٣)

الأمير عز الدين أيدمر الظاهرى (٤) ، الذى كان نائب الشام فى الأيام الظاهرية .

---

(١) ورد هذا البيت هكذا :

[جعلتك المسجد الأقصى ومنزلك بهاض البيت المقدس من قلبى وجثمانى] .

تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٣٧ .

(٢) « فلا تغرنك » فى فوات الوفيات جـ ١ ص ٦٢ .

(٣) انظر المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٢٣ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٩٥ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٣ ص ١٨٣ رقم ٦٠٩ ، درة الأسلاك ص ١٥٣ ، نهاية الأرب جـ ٢٩ (مخطوط) ورقة ١٢٨ ، العبر جـ ٥ ص ٤١٠ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٥٦ = ٤٥٧ ، السلوك جـ ١ ص ٩١٧ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٣٥ .

مات برباطه بالجبل(١) ودفن به ، وكان رجلا كبير القدر ، شجاعا مقداما ، كريم النفس ، وكانت له جماعة من المماليك [٢٥١] أمراء ، فمن جملتهم الأعسر وأيدمر النقيب وآخرون .

الأمير عز الدين محمد(٢) بن أبي الهيجاء الهمداني الإربلي متولى دمشق .

كانت لديه فضائل كثيرة في التاريخ والشعر ، وربما جمع شيئا من ذلك ، قيل : جمع مجلدا ابتدأ فيه من النبي عليه السلام إلى وقعة قازان ، وكان يسكن درب سعود فعرف به . فيقال : درب بن أبي الهيجاء .

وقال ابن كثير : وهو أول منزل نزلناه حتى قدمنا دمشق في سنة ست وسبعمائة(٣) .

وكانت وفاة ابن أبي الهيجاء في طريق مصر بالسوادة ، ونقل إلى جبل قاسيون ، فدفن به ، ومولده سنة عشرين وستمائة بإربل ، ومات وله ثمانون سنة ، وكان مشكور السيرة ، حسن المحاضرة .

الأمير جمال الدين أقوش(٤) الشريفي ، والى الولاة بالبلاد القبلية .

وتولى نيابة الصلت أيضا ، توفي في شوال منها ، وكانت له هيبة وسطوة .

---

(١) « برباط له بالجسر الأبيض بدمشق » - المنهل الصافي .

(٢) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي ، الوافي جـ ٥ ص ١٢٨ رقم ٢١٣٥ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٧ .

(٣) البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٧ .

(٤) وله أيضا ترجمة في : البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٧ .

الأمير الكبير سيف الدين بلبان[1] السلحدار المنصورى ، المعروف بالطباخى .

مات بالعسكر على الساحل وهو البيكار الذى خرج فيه السلطان إلى جهة الشام ، ودفن عند قبر بنيامين بن يعقوب عليه السلام ، فورثه الملك الناصر بالولاء وصارت إليه أمواله ومماليكه ، وكان من أعيان الأمراء وشجعانهم ، وأكثرهم مماليك وأصحاب ، ولى نيابة السلطنة بحلب مدة ، وكانت سيرته فى ولايته حميدة ، وكان قليل الأذى ، كان إذا غضب على أحد يكون عقوبته البعدَ عنه من غير ضرب ولا مصادرة .

وفى النزهة : كان بلبان هذا اشتراه الحاج إبراهيم أخو جاشنكير الملك المنصور ، فربّاه وهو صغير ، وكان يدخل مع أستاذه يحمل سرموحته عند قلاون وهو أمير ، فرآه فطلبه منه وأخذه ، وعوضه عن ثمنه ثلاثة آلاف درهم ، واستمر عنده إلى أن تسلطن قلاون وكان من أمره ما كان .

الطواشى صفى الدين جوهر[2] التفليسى المحدث .

اعتنى بسماع الحديث وتحصيل الأجزاء ، وكان رجلا جيدا ، مباركا صالحا ، ووقف أجزاءه[3] التى ملكها على المحدثين ، مات فى هذه السنة ، رحمه الله .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٣ ص ٤٢٢ رقم ٦٩٩ ، درة الأسلاك ص ١٥٢ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ٥٦ رقم ٨٥ ، الوافى جـ ١٠ ص ٢٨٢ رقم ٤٧٨٨ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٩٤ ، شذرات الذهب جـ ٥ ص ٤٥٧ ، كنز الدرر جـ ٨ ص ٥٣ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٢٤ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٧ .

(٣) « أجزائه » — فى الأصل .

فصل فيما وقع من الحوادث
في السنة الحادية بعد السبعمائة (*)

استهلت هذه السنة : والسلطان هو : الملك الناصر ، والخليفة هو : الحاكم بأمر الله العباسى ، ونواب البلاد والقضاة وهم المذكورون قبلها .

ذكر جواب السلطان عن كتاب قازان :

قد ذكرنا كتاب قازان إلى الملك الناصر فى السنة الماضية ، وذكرنا نسخته (١) .

وفى أول هذه السنة حصل الاهتمام بإعادة جواب كتاب قازان وإرسال الرسل إليه ، فجهز إليه الأمير حسام الدين أزدمر المجيرى (٢) أحد الأمراء ، والقاضى عماد الدين بن السكرى (٣) من أعيان القضاة والكبراء ، وكتب الجواب على يدهما ، وأنشأ الكتاب وكتبه القاضى علاء الدين (٤) بن محيى الدين بن عبد الظاهر .

(*) يوافق أولها يوم الأربعاء ٦ سبتمبر ١٣٠١ م .

(١) انظر ما سبق ص ١٣١ — ١٣٥ .

(٢) « وشخصا أمير آخور من البرجية » — النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٤٠ .

(٣) هو : على بن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن محمد ، عماد الدين بن السكرى ، كان خطيب جامع الحاكم ، ومدرس مشهد الحسين ، توفى سنة ٧١٣ هـ / ١٣١٣ م — الدرر جـ ٣ ص ٢٢٣ رقم ٢٧٧٦ .

(٤) هو : على بن محمد بن عبد الله بن عبد الظاهر ، علاء الدين ، أحد أعيان كتاب الإنشاء بمصر ، توفى سنة ٧١٧ هـ / ١٣١٧ م — المنهل الصافى .

ذكر نسخة الكتاب (١)

بسم الله الرحمن الرحيم : بقوة الله وميامين الملة المحمدية .

أما بعد حمد الله الذى جعلنا من السابقين الأولين الصادين المهتدين ، التابعين لسنة سيد المرسلين بإحسان إلى يوم الدين ، والصلاة (٢) على سيدنا محمد ، والسلام على آله وصحبه الذين فضل الله من سبق منهم إلى الإيمان فى كتابه المكنون . فقال سبحانه وتعالى : ﴿ والسابقون السابقون ، أولئك المقربون (٣) ﴾ .

بإقبال دولة السلطان الملك الناصر ، كلام محمد بن قلاون .

فليعلم السلطان المعظم محمود غازان أن كتابه ورد ، فقابلناه [٢٥٢] بما يليق بمثلنا لمثله من الإكرام ، ورعينا له حق القصد فتلقيناه منا بسلام ، وتأملناه تأمل المتفهم لدقائقه ، المستكشف عن حقائقه . فألفيناه قد تضمن مؤاخذة بأمور ، هُم بالمؤاخذة عليها أحرى ، معتذرا فى التعدى بما جعله ذنوبا لبعض طالَبَ بها الكل ، والله تعالى يقول : ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى (٤) ﴾ .

(١) انظر نص الخطاب فى كل من : زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٢٦ أ - ٢٣٠ أ ، ونهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٩ ورقة ٣٣٠ وما بعدها ، صبح الأعشى جـ ٧ ص ٢٤٣ وما بعدها . وانظر أيضا نصا مختلفا لهذا الخطاب فى كنز الدرر جـ ٩ ص ٦٦ - ٧٠ ، والنجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٤٢ - ١٤٦ .

(٢) « والصلوة » فى الأصل .

(٣) الآيتان رقم ١٠ ، ١١ من سورة الواقعة رقم ٥٦ .

(٤) جزء من آية تكرر فى أكثر من سورة - انظر الآية رقم ١٦٤ من سورة الأنعام رقم ٦ ، والآية رقم ١٥ من سورة الإسراء رقم ١٧ ، والآية رقم ١٨ من سورة فاطر رقم ٣٥ ، والآية رقم ٧ من سورة الزمر رقم ٣٩ .

أما حديث من أغار على ماردين فمن رجّالة[1] بلادنا المتطرفة ، وما نسبوه إليهم من الإقدام على الأمور البديعة ، والأحوال الشنيعة . وقولهم إنهم أنفوا من تهجّمهم ، وغاروا من تقحمهم ، واقتضت الحمية ركوبهم فى مقابلة ذلك ، فقد تلمّحنا هذه الصورة التى أقاموها عذرا فى العدوان ، وجعلوها سببا إلى ما ارتكبوه من طغيان ، فالجواب[2] عن ذلك أن الغارات من الطرفين ، لم يحصل من المهادنة والموادعة ما يكف يدها الممتدة ، ولا يغير هممها المستعدة ، وقد كان آباؤكم وأجدادكم على ما علمتم من الكفر والنفاق ، وعدم المصافاة للإسلام والوفاق ، ولم يزل ملك ماردين ورعاياه منفذين ما يصدر من الأذى للبلاد والعباد ، منهم متولّين ، كبر مكرهم ، والله تعالى يقول : ﴿ ومَن يتولهم منكم فإنه منهم ﴾[3] .

وحيث جعلتم هذا ذنبا موجبا للحمية الجاهلية ، وحاملا على الانتصار الذى زعمتم أن هممكم به مليّة ، فقد كان هذا القصد الذى ادعيتموه يتم بالانتقام من [أهل][4] تلك الأطراف التى أوجب ذلك فعلها ، والاقتصار على أخذ الثأر ممن ثار ، اتباعا لقوله تعالى : ﴿ وجزاء سيئة سيئةٌ مثلها ﴾[5] لا أن تقصدوا الإسلام بالجموع الملفقة على اختلاف الأديان ، وتطأوا البقاع الطاهرة بعبدة الصُلبان ، وتنتهكوا حرمة البيت المقدس الذى هو ثانى بيت [الله][6] الحرام ، وشقيق مسجد

(١) « من » فى زبدة الفكرة .

(٢) « والجواب » فى زبدة الفكرة .

(٣) جزء من الآية رقم ٥١ من سورة المائدة رقم ٥ .

(٤) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٥) جزء من الآية رقم ٤٠ من سورة الشورى رقم ٤٢ .

(٦) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

رسول الله عليه الصلاة والسلام ، وإن احتججتم بأن زمام تلك الغارة[1] بيدنا ، وسبب تعديهم من سببنا ، فقد أوضحنا الجواب عن ذلك ، وأن عدم الصلح والموادعة أوجب سلوك هذه المسالك .

وأما ما ادعوه من سلوك سنن المرسلين ، واقتفاء آثار المتقدمين فى إنفاذ الرسل أولا ، فقد لمحنا هذه الصورة ، وفهمنا ما أوردوه من الآيات المسطورة ، والجواب عن ذلك أنهم[2] ما وصلوا إلا وقد دنت الخيام من الخيام ، وناضلت السهام عن السهام ، وشارف القوم القوم ، ولم يبق للقاء إلا يوم أو بعض يوم ، وأشرعت الأسنة من الجانبين ، ورأى كلّ خصمه رأى العين ، ولا نحن[3] ممن لاحت له رغبة راغب ، فنتشاغل عنها ولها ، ولا ممن يسالم فيقابل ذلك بجفوة النفار والله تعالى يقول : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها[4] ﴾ . كيف والكتاب بعنوانه ، وأمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه يقول : ما أضمر الإنسان شيئا إلا أظهره[5] الله فى صفحات وجهه وفلتات لسانه . ولو كان حضور هؤلاء الرسل والسيوف وادعة فى أغمادها ، والأسنة مستكنة فى أعوادها ، والسهام غير مفوقة ، والأعنة غير مطلقة ، لسمعنا خطابهم ، وأعدنا جوابهم .

وأما ما أطلقوا به لسان قلمهم ، وأبدوه من غليظ كليمهم فى قولهم : فصبرنا على تماديكم [٢٥٣] فى غيكم ، وإخلادكم إلى بغيكم ، فأىّ صبر ممن أرسل

---

(١) « الغارة » فى الأصل ، و « الغارة » فى زبدة الفكرة .

(٢) « أن هؤلاء الرسل » — فى زبدة الفكرة .

(٣) « وما نحن » — فى زبدة الفكرة .

(٤) جزء من الآية رقم ٦١ من سورة الأنفال رقم ٨ .

(٥) « إلا ظهر » — فى زبدة الفكرة .

عنانه إلى المكافحة ، قبل إرسال [رُسل][1] المصالحة ، وجاس خلال الديار ، قبل ما زعمه من الإنذار والإعذار ، وإذا فكروا فى هذه الأسباب ، ونظروا فيما صدر عنهم من خطاب ، علموا العذر فى تأخير الجواب ، وما يتذكر إلا أولوا الألباب[2] .

وأما ما يحتجوا به مما اعتقدوه من نُصرة ، وظنوا[3] من أن الله جعل لهم على حزبه الغالب فى كل كَرّة الكرّة ، فلو تأملوا ما ظنّوه ربما لوجدوه هو الخسران المبين ، ولو أمعنوا[4] النظر فى ذلك لما كانوا به مفتخرين ، ولتحققوا أن الذى اتفق لهم كان غرما لا غنما ، وتدبّروا معنى قوله تعالى : ﴿ إنما نُملى لهم ليزدادوا إثما ﴾[5] . ولم يخف عنهم ما أبلته السيوف الإسلامية منهم ، وقد رأوا عزم مَنْ حضر من عساكرنا التى لو كانت مجتمعة عند اللقاء لما ظهر خبر عنهم ، فإنا كنا فى مفتتح مُلكنا ، ومبتدى أَمرنا ، حللنا بالشام للنظر فى أمور البلاد والعباد ، فلما تحققنا خبركم ، وقفونا أثركم ، بادرنا نقد أديم الأرض سَيرا ، وأسرعنا لندفع عن المسلمين ضررا وضيرا ، ونؤدى من الجهاد السنة والفرض ، ونعمل بقوله تعالى : ﴿ وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض ﴾[6] .

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٢) أسلوب قرآنى مأخوذ من « إنما يتذكر أولوا الألباب » — جزء من الآية رقم ٩ من سورة الزمر رقم ٣٩ .

(٣) « وظنوه » — فى زبدة الفكرة .

(٤) « أنعموا » — فى زبدة الفكرة ، وهو تحريف واضح .

(٥) جزء من الآية رقم ١٧٨ من سورة آل عمران رقم ٣ .

(٦) جزء من الآية رقم ١٣٣ من سورة آل عمران رقم ٣ .

فاتفق اللقاء بمن حضر من عساكرنا المنصورة، وثوقا بقوله تعالى : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة ﴾ (١) ، وإلا فأكابركم يعلمون وقائع الجيوش الإسلامية التى كم وطئت موطئا يغيظ الكفار ، فكتب لها به عمل صالح ، وسارت فى سبيل الله يفتح الله عليها أبواب المناجح ، وتعددت أيام نصرتها التى لو دققتم الفكر فيها لأزالت ما حصل عندكم من لبس ، ولما قدرتم أن تنكروها ، وفى تعب من يجحد ضوء الشمس ، وما زال الله لها نعم المولى ونعم النصير ، وإذا راجعتموهم قصّوا عليكم نبأ النصرة : ﴿ ولا ينبئك مثل خبير ﴾ (٢) .

وما زالت تتفق الوقائع بين الملوك والحروب ، وتجرى المواقف التى هى بتقدير الله فلا فخر فيها للغالب ولا عار على المغلوب ، وكم من ملك أُستظهر عليه ثم نُصر ، وعاوده التأييد فجبّره بعدما كُسر ، خصوصا ملوك هذا الدين ، فإن الله تكفّل لهم بحسن العقبى فقال سبحانه : ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾ (٣) .

وأما إقامتهم الحجة علينا ، ونسبتهم التفريط إلينا ، كوننا لم نسيّر إليهم رسولا عند حلولنا بدمشق ، فنحن عندما وصلنا إلى الديار المصرية لم نُزد على أن اعتددنا وجمعنا جيوشنا من كل مكان ، وبذلنا فى الاستعداد غاية الجهد والإمكان ، وأنفقنا جزيل الأموال فى جمع العساكر والجحافل ، ووثقنا بحسن الخلف لقوله تعالى ﴿ مثل الذين يُنفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبعَ سنابل ﴾ (٤) .

(١) جزء من الآية رقم ٢٤٩ من سورة البقرة رقم ٢ .

(٢) جزء من الآية رقم ١٤ من سورة فاطر رقم ٣٥ .

(٣) جزء من الآية رقم ١٢٨ من سورة الأعراف رقم ٧ .

(٤) جزء من الآية رقم ٢٦١ من سورة البقرة رقم ٢ .

ولما خرجنا من الديار المصرية بلغنا خروج الملك من البلاد، لأمر حال بينه وبين المراد ، فتوقفنا عن المسير توقف من أغنى رغبة عن حث الركاب ، وتلبثنا تلبث الراسيات ، ﴿ وترى الجبال تحسبها جامدةً وهى تمرُّ مرَّ السَّحاب ﴾ (١) وبعثنا طائفة من العساكر لمقابلة من أقام بالبلاد ، فما لاح لهم منهم بارق ولا ظهر ، وتقدمت فلحقت (٢) من حمله على التأخير الغرر، ووصلت الفرات فما وقعت للقوم على أثر .

[٢٥٤] وأما قولهم إنا ألقينا فى قلوب العساكر والعوام أنهم فيما بعد يلتقوننا على حلب أو الفرات . وأنهم جمعوا العساكر ورحلوا إلى [الفرات و إلى] (٣) حلب مُرتقبين وصولنا ، فالجواب عن ذلك أنه من حين بلغنا حركتهم جزمنا ، وعلى لقائهم عزمنا ، وخرجنا وخرج أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ابن عم سيدنا رسول الله ، [صلى الله عليه وسلم] (٤) ، الواجب الطاعة على كل مسلم ، المفترض المبايعة والمتابعة على كل معترض ومُسلِّم (٥) ، طائعين لله ولرسوله فى أداء فرض الجهاد ، باذلين فى القتال (٦) بما أمرنا اللهُ غاية الاجتهاد ، لايتم أمر دين ولا دنيا إلا بمتابعته (٧) ، ومَن والاه فقد حفظه الله وتولاه ، ومَن عانده أو عاند من أقامه فقد أذلّه الله ،

(١) جزء من الآية رقم ٨٨ من سورة النمل رقم ٢٧ .

(٢) « فتخطفت » — فى زبدة الفكرة .

(٣) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٤) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٥) « منازع » — فى زبدة الفكرة .

(٦) « فى القيام » — فى زبدة الفكرة .

(٧) « إلا بمشايعته » — فى زبدة الفكرة .

فحين وصلنا إلى البلاد الشامية تقدّمت عساكرنا تملأ السّهل والجبل ، وتبلغ بقوة الله فى النّصر الرجاء والأمل ، ووصلت أوائلها إلى أطراف بلاد حماة وتلك النواحى ، فلم يقْدم أحد عليها ، ولا جّسر أن يمدّ حتى ولا الطرف إليها ، فلم نزل مقيمين حتى بلغنا رجوع الملك إلى البلاد، وإخلافه موعد اللقاء ، والله لايخلف الميعاد [1] ، فعدنا لاستعداد جيوشنا التى لم تزل تندفع فى طاعة الله تعالى اندفاع السيل ، عاملين بقول الله تعالى : ﴿ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ [2] .

وأما ما جعلوه عذرا فى الإقامة بأطراف البلاد وعدم الإقدام عليها، وأنهم لو فعلوا ذلك [ودخلوا بجيوشهم] [3] ربما أفسد [4] البلاد مرورها ، وبإقامتهم فيها فسدت أمورها ، فقد فُهم هذا المقصود ، ومتى ألفت البلاد والعباد منهم هذا الإشفاق ؟ ، ومتى اتصفت جيوشهم بهذه الأخلاق ؟ ، وها آثارهم موجودة، ودعاوى خلافها بمشاهدة الحال مردودة ، وهل هذا اعتماد من رمق شخص الإسلام بإنسانه ؟ ، كيف ورسول الله عليه السلام [5] يقول (المسلم من سلم

(١) أسلوب قرآنى مأخوذ من الآية « إن الله لايخلف الميعاد » ــ جزء من الآية ٩ من سورة آل عمران رقم ٣ ، وجزء من الآية ٣١ من سورة الرعد رقم ١٣ ، وجزء من الآية ٢٠ من سورة الزمر رقم ٣٩ .

(٢) جزء من الآية رقم ٦٠ من سورة الأنفال رقم ٨ .

(٣) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٤) « أفسدوا » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٥) « صلى الله عليه وسلم » فى زبدة الفكرة .

الناس من يده ولسانه)(١) ، وأسارى المسلمين عندهم فى أشد وثاق ، فى يد الأرمن والتكفور منهم ما يخالف ما أدعوه من الإشفاق(٢) .

وقد كان المسلمون غزوا عسكر أبغا وقتلوا من قتلوا من التتار ، وحصل لهم التمكن فى البلاد والاستظهار . واستولوا على ملك آل سلجوق ولا(٣) تعرضوا لدار ولاجار ، ولاعفوا أثرا من الآثار ، ولاحصل لمسلم منهم ضرر ، ولا أوذى فى وِرْد ولاصَدر ، وكان أحدهم يشترى قوته بدرهمه وديناره ، ويأبى أن يمتد إلى أحد من المسلمين يد أضراره ، هذه سنة أهل الإسلام ، وفعل مَن يُريد لملكه الدوام .

وأما ما أرعدوا به وأبرقوا ، وأرسلوا فيه عنان قلمهم وأطلقوا ، وما أبدوه من الاهتمام بجمع العساكر ، وتهيئة المجانيق إلى غير ذلك مما ذكروه من التهويل ، فالله تعالى يقول : ﴿ الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخْشَوْهم فزادهم إيمانًا وقالوا حَسْبُنا الله ونعم الوكيل ﴾(٤) .

وأما قولهم وإلا فدماء المسلمين مطلولة ، فما كان أغناهم عن هذا الخطاب ، وأولاهم بأن لا يصدر عن ذلك جواب ، ومَنْ قَصدُه الصلح والإصلاح ، كيف يقول هذا القول الذى عليه فيه من جهة الله وجهة رسوله [٢٥٥] أى جناح ؟

---

(١) قال عليه الصلاة والسلام : «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه» . انظر فتح البارى ـ جـ ١ ص ٥٣ ـ باب «الإيمان» حديث رقم ١٠ .

(٢) «إشفاق» ـ فى زبدة الفكرة .

(٣) «وما» فى زبدة الفكرة .

(٤) الآية رقم ١٧٣ من سورة آل عمران رقم ٣ .

وكيف يضمر هذه النية ، وينجح بهذه الطوية ، ولم يَخف مواقع هـذا القول وخاله ؟ ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول : (نيـة المرء أبلغ من عمله)(١) . وبأىّ طريق تُهـدر دماء المسلمين التى من(٢) تعـرض إليها يكون الله له فى الدنيا والآخرة مُطالبا وغريما ، ومؤاخذا بقوله تعالى : ﴿ ومَن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها ، وغضب الله عليه ولعنه وأعدّ له عذاباً عظيماً ﴾(٣) .

وإذا كان الأمر كذلك فالبُشرى لأهل الإسلام بمـا نحن عليـه من الهمم المصروفة إلى الاستعداد وجمع العساكر التى يكون لها الملائكة الكرام إن شاء الله [تعالى](٤) من الإمداد(٥) ، والاستكثار من الجيـوش الإسلامية المتوفرة العُدد ، المتكاثرة المدد ، المدعوة بالنصر الذى يحفها فى الظعن والإقامة ، الواثقة بقوله صلى الله عليه وسـلم : (لا تزال طائفـة من أمتى ظاهرين على عدوهم إلى يوم القيامة)(٦) ، المبلغة فى دين الله آمالا ، المستعدة لإجابة داعى الله إذ قال : ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً ﴾(٧) .

(١) قال عليـه الصلاة والسلام : « الأعمال بالنية ، ولكل امرىء ما نوى » فتح البارى جـ ١ ص ١٣٥ باب « الإيمان » حديث رقم ٥٤ ، وانظر بنفس الكتاب أحاديث رقم ١ ، ٢٥٢٩ ، ٥٠٧٠ ، ٣٨٩٨ ، ٦٦٨٩ ، ٦٩٥٣ .

(٢) « الذى » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٣) جزء من الآية رقم ٩٣ من سورة النساء رقم ٤ .

(٤) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٥) « الانجاد » ــ فى زبدة الفكرة .

(٦) قال عليـه الصلاة والسلام : « لا تزال طائفـة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم المسيح الدجال » ــ انظر سنن أبى داود جـ ٣ ص ٤ ، كتاب الجهاد ، باب « فى دوام الجهاد » حديث رقم ٢٤٨٤ .

(٧) جزء من الآية رقم ٤١ من سورة التوبة رقم ٩ .

وأما رُسلهـم وهم فلان وفلان فقد وصـلوا إلينا ، ووفدوا علينا ، فأكرمنا وفادتهم ، وعززنا لأجل مُرسلهم من الإقبال مادتهم ، وسمعنا خطابهم ، وأعدنا جوابهم ، هـذا مع كوننا لم يخف علينا انحطاط قدرهم ، ولاضعف أمرهم ، وأنهم ما دُفعوا لأفواه الخطوب ، إلا لمـا ارتكبوه من ذنوب ، وما كان ينبغى أن يُرسل مثـل هؤلاء لمثلنا من مثله ، ولا يُندب لهـذا المهم إلا من يجُمع على فصل خطابه وفضله .

وأما ما التمسوه من الهدايا والتحف ، فلو قدموا من هداياهم حسنة لعوضناهم بأحسن منها ، ولو أتحفونا بتحفة لقابلنا (١) [هم] (٢) بأجل عوض عنها ، وقـد كان عمه الملك أحمد (٣) راسل والدنا السلطان الشهيد ، وناجاه بالهدايا والتحف من مكان بعيد ، وتقرب إلى قلبه بحسن الخطاب ، فأحسن له الجـواب ، وأتى البيوت من أبوابها بحسن الأدب ، وتمسك من الملاطفة بأقوى سبب .

والآن فحيث انتهت الأجوبة إلى حدها ، وأدركت الآنفة من مقابلة ذلك الخطاب غاية قصدها ، فنقول : إذا (٤) جنح الملك للسلم جنحنا لهـا ، وإذا دخل فى الملة المحمدية ممتثلا ما أمر الله به مجتنبا ما عنه نهى ، وانضم فى سلك الإيمان ، وتمسك بموجباته تمسك المتشرف بدخوله فيه لا المنان ، وتجنب التشبه بمن قال الله فى حقهم : ﴿ قل لاتمنوا على إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان ﴾ (٥) ،

(١) « تحفونا » ــ فى الأصل .

(٢) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٣) هو ، أحمـد سلطان ، المسمى تكودار بن هلاون بن طلو بن جنكزخان ، ملك التتار ، المتوفى سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م ــ المنهل الصافى جـ ٢ ص ٢٥٤ رقم ٢٣٤ .

(٤) « إذ » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٥) جزء من الآية رقم ١٧ من سورة الحجرات رقم ٤٩ .

وطابق فعله قوله ، ورفضَ الكُفار الذين لايحل له أن يتخذهم حوله ، وأرسل إلينا رسـولا من جهته يرتل آيات الصلح ترتيـلا ، و يروق جوابه وخطابه حتى يتلو كل أحد : ﴿ ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ﴾(١). صارت حجتنا وحجته المركبة على مَن خالف ذلك ، وكلمتنا وكلمته قامعة أهل الشرك فى سائر الممالك ، ومظافرتنا له تكسب الكافرين هـوانا ، والمُشاهد لتصافينا يتلو قوله تعـالى : ﴿ واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾(٢) .

و ينتظم إن شـاء الله شمل الصـلح أحسن انتظام ، ويحصـل التمسك من الموادعة والمُصافاة بعروة لا انفصال لهـا [٢٥٦] ولا انفصام ، وتَسـتقر قواعد الصلح على مايُرضى الله ورسوله عليه أفضل الصلاة والسلام(٣) .

قال صاحب النزهة ، وختم الكتاب وأرسل على يد الرسـل الذين ذكرناهم من جهة السلطان صحبة الرسل الواردين من جهـة قازان فى العشرين من المحـرم من هذه السنة .

ذكرُ ماجرى للأمير حُسام الدين المجُيرى مع قازان:

قال القاضى جمال الدين بن الكُرم فى تاريخه(٤) : قال المجيرى لمـا حضرت بين

---

(١) جزء من الآية رقم ٢٧ من سورة الفرقان رقم ٢٥ .

(٢) جزء من الآية رقم ١٠٣ من سورة آل عمران رقم ٣ .

(٣) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٢٦ أ — ٢٣٠ أ .

(٤) انظـر أيضا ما أورده ابن أيبك فى كتابه كنز الدرر حيث يقـول : « كان الأمـير حسام الدين أزدمر بينه وبين الوالد — سقى الله عهدهما — صحبة أكيـدة وخشداشية من قديم الزمان ، فلما عاد بعد طول مدة إقامته عند التتار ، حتى هلك غازان ، وتملك خدابنده — حسبا =

يدي قازان أوقفني بعيدا منه (١) وسألني عن أمور كثيرة وتحدث مع الحُجاب ، فكان أول كلامه لي : ما اسمك ؟ قلت : أُزدمر . قال: لا أنتم تتَسمون بأسماء ثلاثة ، قلت : نعم . قال : وماهي أسماؤك أنت ؟ قلت : حسام الدين أزدمر المُجيري . قال : وما معنى المجيري ؟ قال : فقبلت الأرض وقلت : يحفظ الله القان ، نحن يشترينا التجار ونحن صغار ، ثم يجلبونا إلى البلاد ، يُنسب كل منا إلى اسم تاجره أو لقبه ، وكان اسم أستاذي الذي اشتراني مجير الدين . فقالوا لي : المجيري . قال : صدقت ، ثم قال : ماجنسك ؟ قلت : تركي . قال : من أيّ الترك ؟ قلت : من قفجاق . قال : صدقت .

قال المجيري : لما سألني قازان عن أشياء كثيرة فجاوبته عنها ، وعرف مني الصدق في القول ، قربني إليه (٢) ، ثم سألني عن أشياء أخرى منها : أنه قال لي : مامحلك عند السلطان — يعني الملك الناصر — ؟ قلت : جندي . قال: جندي؟ قلت : نعم . قال : فنظر إلي وأطال نظره ، ثم قال : مثل ملك مصر يُرسل إلى مثلي جنديا . قلت : نعم . قال : ما أنت أمير؟ قلت : نعم . قال : على بابك طبلخاناة . قلت : نعم . قال : فكيف تقول : أنا جندي . قال : فقبلت الأرض وقلت : يحفظ الله القان إنما الأمير هو جندي السلطان، والجندي هو جُندي الأمير وكلنا جند الله ، ثم قال لي : أنت مملوك هذا السلطان وشراء ماله . قلت : مملوكه ومملوك أبيه وأخيه ، وهو الذي أحسن لي وأنشأني وعمل

= يأتي ذكر ذلك في تاريخه إن شاء الله تعالى — فحضر عنده في داره الوالد — رحمه الله — وأنا معه أسمع » . كنز الدرر جـ ٩ ص ٧١ وما بعدها .

(١) « وكلمني من أربعة حجاب » كنز الدرر جـ ٩ ص ٧١ .

(٢) « وكلمني من حاجب واحد » كنز الدرر جـ ٩ ص ٧٢ .

معى خيرا، وعمل على بابى طبلخاناة ، وإنما أنا مملوك الملك الظاهر البندقدارى، ثم قال لى : كم رأيت مصافا ؟ قلت : فى نفسى ما للسكوت محل ، فقبلت الأرض وقلت : يحفظ الله القان ، إنى كنت مع جدك هلاون نوبة تمرقابو ، قال : لما سمع هذا الكلام أطرق برأسه إلى الأرض ، ثم التفت إلى شيخ من التركان إلى جانبه وتحدّث معه ، ثم قال : كيف هربتم منا ؟ فقبلت الأرض وقلت : عسكرا كثيرا لهم سنون يهربون منا ، ونحن هربنا منكم مرة واحدة ، وما كان هروبنا منكم خوفا من كثرتكم ولكن احتقارا بكم . قال الملك : كيف ذلك ؟ قلت : يحفظ الله القان ، نحن كسرنا التتر مرات عديدة مدة سنين من أيام جدك هلاون حتى صار ملتقاهم علينا أهون مايكون، وإن عساكر مولانا السلطان الملك الناصر عساكر كثيرة وخلق عظيم لا يعلم عددهم إلا الله تعالى ، وإن لنا أعداء كثيرة من سائر الأقاليم ، ولنا إقليم يعرف ببلاد قوص ، وهى تجاور بلاد السودان ، تركنا فيها عشرة آلاف فارس ، وتركنا أيضا بإقليم يعرف ببلاد دمياط مجاورة لأقاليم الإفرنج عشرة آلاف فارس ، وكل هذا مع قلة اهتمامنا بالتتر، وكانت سعادة القان كبيرة ، وكان فى ذلك فى الكتاب [٢٥٧] مسطورا .

قال المجيرى : وكلّ هذا جرى بينى وبينه ولم يكن بيننا غير حاجب واحد وهو يسمع كلامى مشافهة ، ولم يحصل لى منه حرج إلا فى كلام واحد . قال : ثم سألنى قازان فقال : كيف يترك أمراؤكم الرجال ويستخدمون الشباب ، وأراد بذلك المرْدان .

قال المجيرى : فعلمت أنه يُريد أذاىَ ، فجاوبته بجواب أسخطه علىّ ، فقبلت الأرض وقلت : يحفظ الله القان ، إن أمراءنا ما كانوا يعرفون شيئا من

ذلك ، وإنما هذا استجدّ فى بلادنا لما جاء إلينا طرغاى ، فإنه لما ورد كان معه شبابٌ من أولاد التتر ، فاشتغل الأمراء بهم عن النساء .

قال المجيرى : لما سمع قازان منى هـذا الجواب أطرق إلى الأرض وعظم عليه كلامى » والتفت إلى جماعة من أعيان التتر ، فتحدث معهم بلسان التتر ، وأنا واقف بين يديه ، ثم التفت إلى القاضى عماد الدين بن السُكرى فقال : ياقاضى تشهد على صاحبك بما قال ؟ . قال : نعم (١) ، والله منذ حضرنا بين يديه إلى حين خروجنا من عنده لم يتحدث مع القاضى عماد الدين غير هذا الكلام .

قال المجيرى : ثم سألنى قازان على لسان حاجبه ماتقول فى نسائنا ونسائكم ؟ فقبلت الأرض وقلت : أيد الله الملك (٢) ، إنه ملك عظيم ، فيقبحُ أن نذكر النساء فى مثل هذا المجلس ، إن نساءنا يستحين من الله ومن الناس ، فيسترن وجوههن وأما نساؤكم فأنتم أخبر بحالهن . قال : فأطرق قازان رأسه إلى الأرض زمانا ، ثم أمر لحاجبه أن يحطونا فى لفة منجنيق ويرمونها .

قال : فلما خرجنا من عنده توضأ للموت ، وقام القاضى عماد الدين ليتوضأ وهو يرتعد وتطقطق أسنانه ، فتبسمت ، فالتفت إلى وقال : يا حسام الدين هذا وقت الضحك . قلت له : يا قاضي لا تخف فلن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا .

قال المجيرى : كان قازان سألنى قبل أن أخرج من بين يديه كم يكون فى عسكركم مثلك تركى ؟ قلت : عشرون ألف من الفرسان ، فالتفت الملك قازان إلى أمير على بن بركنجان — وكان بعيدا منه — فأشار إليه ، فدنا منه وقال : ما تقول

(١) « بما قال ؟ نعم ، قال : نعم » فى الأصل .
(٢) هكذا بالأصل .

فى حسام الدين ؟ أصحيح ما يقوله أم لا ؟ قال : والله يا خوند[1] ما قال صحيحا . وحق رأس القان ما فى عسكر مصر مثله خمسة أنفس . قال : فالتفت نحوى وقال : ياحسام الدين تسمع ما قال ابن بركنجان . قلت : وما يقول أيدك الله ؟ قال : يقول إنك ما قلت الصحيح .

قال المجيرى : فقبلت الأرض وقلت : يحفظ الله القان هو والله ما قال الصحيح ، وهو من جملة الذين ما رضى بهم السلطان أن يستخدمهم فى عسكر مصر وأعطاه أربعة آلاف درهم فى حلب ، ولو وجد فى مصر أربعة آلاف ما هرب وجاء إليكم ، فالتفت قازان إلى ابن بركنجان فقال له : أنت من عسكر الشام ، فأطرق ، فقال قازان : أنت لما جئت إلينا ما قلت أنا من عسكر مصر . قال المجيرى : قلت وحق رأس القان هو أقل مَنْ فى عسكر الشام .

قال : ثم لما خرجنا من بين يدى قازان على أنهم يحطونا فى المنجنيق إذا بمرسوم ثان أتى بأن يحبسونا فى مدرسة هناك ولا يمكنوا أحدا من العبور إلينا لا المهمندار[2] ولا غيره من الناس ممن نعرف وممن لا نعرف . قال : فعلمنا عند ذلك أنه غضبان علينا ، وسنذكر ما جرى عليهم بعد ذلك إن شاء الله تعالى .

---

(١) « يا خراند » فى الأصل .

(٢) « المهما ندار » فى الأصل . المهمندار : لفظ فارسى مركب بمعنى القائم على أمر الضيف ، ويقوم صاحب هذه الوظيفة بلقاء الرسل والعربان الواردين على السلطان ، وينزلهم دار الضيافة ، ويتحدث فى القيام بأمرهم — صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥٩ .

[٢٥٨] ذكرُ عصيان عُربان الوَجْه القبليّ :

قال بيبرس فى تاريخه : وفى هذه السنة كثرت شكوى الولاة الذين بالوجه القبلى من فساد العربان ، وما ظهر منهم من العصيان والنفاق والعدوان ، وأنهم لم يزدجروا بالجباية التى أخذت منهم فى السنة الماضية ، ولم يسيروا مع الرعية والجند السيرة الراضية ، بل منعوا الحقوق واعتمدوا العقوق ، وقطع أراذلهم الطريق ، وهاشوا على الأجناد ، وثاروا فى البلاد ، وأكثروا من الفساد ، فسار الأمير سيف الدين سلار ، والأمير ركن الدين أستاذ الدار كفيلا الممالك ومشيراها وممهدا الدولة ومدبراها إلى الأعمال المذكورة فى جموع من العساكر المنصورة[1] ، وفرقا العساكر ثلاثة فرق ليحيطوا بهم برا وبحرا ، ويأخذوهم حيث حلوا سهلا ووعرا ، فتوجهت فرقة من البر الغربى ، وفرقة من الحاجر ، وفرقة من البر الشرقى[2] ، وضربوا على البلاد حلقة كحلقة الصيد ، فبقى العربان جميعا فى حلقتهم ، وحصلوا فى قبضتهم ، فما أفات منهم أحد من ربقتهم ، وأخذوهم بنواصيهم وأقدامهم ، وجاؤوهم من خلفهم وقدامهم ، وأذاقوهم الوبال ، ونكلوا بهم كل النكال ، وأبادوا مفسديهم ، وأهلكوا معتديهم ، ومزقوهم تمزيقا ، وفرقوهم بيد الحتوف تفريقا ، وأوثقوا مشايخهم بالقيود ، وملأوا من رهائنهم السجون ، وأخذوا ما كان لهم من خيل وإبل وبقر وغنم ، ومنعوا أن يركب أحد من العربان فرسا أو يحمل سلاحا ، فانطفأت جمراتهم ،

---

(١) « فى رابع جمادى الآخرة » — فى السلوك جـ ١ ص ٩٢١ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٥١ .

(٢) « فرقة من البر الشرقى ، وفرقة من البر الغربى ، وفرقة من الحاجر » — فى زبدة الفكرة .
وانظر بعض التفاصيل فى النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٤٩ — ١٥٤ .

وزالت مضراتهم ، وتمهدت تلك الأعمال تمهيدا واضحا ، وعاد من سلم من مفسدى العرب فقيرا صالحا ، وحمل أكثرهم السواك والسبحة (١) ، عوضا عن حمل الرماح والأسلحة ، وكان الذى أخذ من موجودهم وسيق من خيولهم خمسة آلاف فرس (٢) ، وعشرون ألف جمل ، ومائة ألف رأس غنم (٣) ، سوى الأبقار والأتن والأغنام (٤) ، وتركوهم على الديار ، وعادوا فى أواخر شعبان (٥) وقد فرغوا من أمر العربان وتمهيد البلدان ، فخلع عليهم السلطان (٦) .

وقال صاحب النزهة : وفيها كثر فساد العرب بالوجه القبلى ، وقطعوا الطريق ، وأوغلوا إلى أن كانوا يدخلون مدينة أسيوط ومنفلوط ويقتسمون تجارها ، ويأخذون من كل واحد مبلغا على زى الجالية (٧) ، وتسمى كل واحد منهم باسم أمير من أمراء البرجية ، وأمروا من بينهم كبيرين ، فسموا أحدهما بيبرس والآخر سلار ، ومنعوا حقوق الجند والأمراء من المغل ، وكانوا يهجمون على السجون ويخرجون منها المفسدين .

---

(١) « والمسبحة » ــ فى زبدة الفكرة .

(٢) « ألف » فى زبدة الفكرة .

(٣) « ثمانين ألف رأس مابين ضأن وماعز ، ونحو أربعة آلاف فرس ، واثنين وثلاثين ألف جمل ، وثمانية آلاف رأس من البقر » ــ فى السلوك جـ ١ ص ٩٢٢ .

(٤) « والأغيار » ــ فى زبدة الفكرة .

(٥) « فى سادس عشر رجب » ــ السلوك جـ ١ ص ٩٢٢ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٥٣ .

(٦) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٣١ أ ــ ٢٣٢ أ .

(٧) الجالية « يقصد بها الجزية ــ محيط المحيط ، وهى الجزية المقررة على أهل الذمة فى كل سنة ــ صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٦٢ .

ثم اتفق الأمراء على الخروج إليهم ، وطلبوا ناصر الدين [محمد](1) بن الشيخي متولي الجيزة ، وقالوا له أن يمنع سائر المسافرين في البر والبحر ، وأي من خرج من مصر شنق ،(2) وأشاعوا بالتجهيز إلى الشام ، وكتبوا الأوراق بأسماء المقدمين ، كل مقدم بمضافيه من الأمراء والأجناد ، فكانوا أربعة وعشرين مقدما بمضافيها ، وافترقوا أربع فرق : فرقة في البر الغربي ، وفرقة في البر الشرقي ، وفرقة في البحر بالحراريق(3) ، وفرقة في الطريق السالك ، واتفقوا أن يضعوا السيف في الكبير والصغير والرضيع ، [٢٥٩] والحقير والجليل ، ولا يرحموا شيخا ولا صبيا ، ولايبقوا على أحد من الذين يظفرون به ، ولا يقع لهم في قلبهم رحمة .

وكان سفرهم من مصر في نصف ربيع الآخر ، ورُسم للأمير شمس الدين الأعسر أن يكون في جهة الواحات ، وصحبته خمسة من الأمراء ، وتفرقت عشرون من المقدمين الألوف بأمراء الطبلخانات ، وتخلف مع السلطان أربع من المقدمين ، وكان أول أمرهم من الجيزة وانتهوا في عمل قوص ، واستقبلوا من وجدوه بسفك دمه ، فمنهم من عف عن الحريم وعن الشيخ الكبير وعن الطفل ، ومنهم من استحل الجميع ، وكانوا إذا وجدوا رجلا ويريدون مسكه

---

(1) [ ] إضافة التوضيح — السلوك جـ ١ ص ٩٢٠ .

(2) وذلك حتى لا تصل أخبار الاستعداد للخروج إلى الصعيد إلى العربان ، إذ ورد « وقد عميت أخبار الديار المصرية على أهل الصعيد لمنع المسافرين إليها » — النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٥٢ .

(3) حراقة — حراقات ، حراريق : نوع من السفن الحربية التي ترمى بالنيران ، وهي من السفن الخفيفة — السفن الإسلامية على حروف المعجم .

فيقول الرجل حضرى ، فيقولون له قل : دقيق ، فإذا قالها : دكيك يقتلونه[1] ، وإذا قال : دقيق يتركونه ، وأخذل الله العرب إلى أن ضاقت عليهم المسالك ، ودماهم الله فى طريق المهالك ، وما أحسوا بالعساكر إلا وقد دهموهم وأخذوا عليهم الطرقات ، فأى موضع قصدوه وجدوا فيه طائفة من العساكر حتى إن الغلمان والجمالين يخرجونهم من الأماكن ، أما الذين قصدوا جهة البحر فإن أكثرهم قُتل بالنشاب والغرق ، والذى سلم نفسه إليهم قتلوه ، ولم يرفعوا عنهم السيف من الأعمال الجيزية إلى الأعمال القوصية من الشرق إلى الغرب حتى جافت سائر الطرق بالموتى ، وأسروا منهم ، فمن اختفوا بالفلاحة نحو ألف وستمائة نفر ، وحصل للعسكر من الأموال والمواشى والخيل والسلاح ما لا يحصر ، والذى فهم بالتقدير وأحيط به العلم من الغنم نحو ستة عشر ألف رأس ، ومن الخيل نحو ألف وثمانمائة فرس ، ومن الجمال نحو إثنى عشر ألف رأس ، ومن الأبقار من المعاصير وغيرها نحو ثمانية آلاف رأس ، وما يعلم أحد ما حصل من الكسب للجمالين والغلمان ، وبيع خروف سمين بثلاثة دراهم وما دونه ، وبيع الماعز بدرهم وأقل من ذلك ، والجزة الصوف المرعزى بنصف ، والكساء بخمسة دراهم ، والرطل من السمن بربع درهم ، وكذلك الرطل من العسل .

وكانوا يجدون مطامير القمح فلا يلتفت أحد إليها ، ولا يجدون من يشتريها أو يحولها ، وما رجعت العساكر من بلاد الصعيد إلا وقد تركوها كما قال الله

---

(١) « فإن قال بقاف العرب قتل » ــ السلوك جـ ١ ص ٩٢١ .

« فإن قال : دقيق بالكاف لغات العرب قتل ، وإن قال « بالقاف المهودة أطلق » ــ النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٥٣ .

تعالى : ﴿ قاعا صفصفا ، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا ﴾(١) .

وكان شخص يمشي في بلاد الصعيد بعد رجوع العسكر فلا يجد في طريقه أحدا ، وإذا بات في بلد لا يجد من يحدثه فيه غير النساء أو الأطفال الصغار .

ولما وصلوا إلى القاهرة عرضوا الرجال الذين أحضروهم على السلطان ، فاقتضى رأيهم أن يصفحوا عنهم ليذهبوا إلى البلاد لحفظ الزراعات والسواقي وغيرهما .

ذكر قضية الفتح أحمد بن البققي(٢) :

بتاريخ يوم الإثنين الرابع والعشرين من ربيع الأول ، قتل الفتح المذكور ، وكان من أهل حماة ، رُمي بالزندقة ، فمُسك وسُجن بالقاهرة ثم حكم فيه القاضي زين الدين(٣) بن مخلوف المالكي بما ثبت عنده من تنقيصه للشريعة المطهرة ، واستهزائه بالآيات المحكمات ، ومعارضته المتشابهات ، وذُكر عنه أنه كان يُحَل

(١) جزء من الآية رقم ١٠٦ ، الآية رقم ١٠٧ من سورة طه رقم ٢٠ .

(٢) « الثقفي » في الأصل ، وفي شذرات الذهب ، وورد « البققي » في مصادر ترجمته ، وورد في المنهل الصافي « بباء موحدة وقافين » .

وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي جـ ٢ ص ١٨٧ رقم ٦ ٣ ، الدرر جـ ١ ص ٣٢٩ رقم ٧٨٤ ، الوافي جـ ٨ ص ١٥٨ رقم ٣٥٨٣ ، شذرات الذهب جـ ٦ ص ٢ ، السلوك جـ ١ ص ٩٢٥ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٤١ .

(٣) هو : علي بن مخلوف بن ناهض ، أبو الحسن ، المالكي ، زين الدين ، المتوفى سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م – المنهل الصافي .

المحرمات من اللواطة وشرب الخمر لمن يجتمع بهم من الفسقة من الترك وغيرهم من الجهلة ، هذا وقد كان لديه فضيلة وله اشتغال وهيئة « جميلة » فى الظاهر، ولبسة [٢٦٠] جيدة ، ولما أوقف عند شباك الكاملية ببين القصرين استغاث بالقاضى تقى الدين بن دقيق العيد وقال : ما تعرف منى ؟ فقال : إنما أعرف منك الفضيلة ، ولكن حكمك إلى القاضى زين الدين ، فأمر القاضى للوالى أن يضرب عنقه ، فضربت وطيف برأسه فى البلد، هذا جزاء من طعن فى الله ورسوله .

وفى نزهة الناظر : وكان هذا الرجل من أهل حماة ، وله اشتغال ، وحفظ كتبا كثيرة ،وكان ذكيا مفرطا، وحفظ سائر كتب الفقه ودواوين الأشعار، وكان قليل الدين ، سيء الاعتقاد ، كثير الزندقة ، وكان قد اشتغل بكتب المنطق والحكمة وهى التى أفسدت عليه نظامه ، وكان له إدلال على القضاة وجرأة لسان من غير أن يهاب منهم .

وقال صاحب النزهة : حكى لى الشيخ فتح الدين بن سيد الناس أنه دخل يوما على قاضى القضاة الشيخ تقى الدين ، فسلم عليه ووقف بين يديه وسأله مسألة ، وقصد الشيخ أن يجيبه عنها ، فولى ظهره وهو يقول : وقف الهوى ، وقف الهوى ، فأجابه الشيخ تتمة البيت ، فلم يعبأ به ، وتتمته :

وقف الهوى بى حيث أنت فليس لى ... متأخر عنه ولا متقدم
أجد الملامَ على هواك يلذ لى ... حبا لذكرى فليلُمْنى اللُّوَّمُ

قال : والتفت إلى الشيخ وقال لى : يا فتح الدين عقبى هذا الرجل إلى التلاف . قال : فوالله كان بين ذلك الكلام وقتله واحد (١) وعشرون يوما، فإنه

(١) « أحد » — فى الأصل .

صار يقع فى حق القاضى زين الدين بن مخلوف قاضى القضاة المالكية ويسبّه، ويبلغه ذلك عنه، ويبلغ من أمره إلى أن شهدت عليه عنده جماعة كثيرة ممن حضروه : أنه كان عزم على جماعة فى بيته وأطعمهم طعاما، وأنه قام إلى رَفّ عنده فى البيت يتناول منه شيئا فقصرت يده عنه، فوضع الكتاب العزيز تحت رجليه ليطول إلى الرف، فقاموا وأنكروا عليه، فشرع فى سبهم بأنهم ناسٌ حمير، ثم تلفظ بعد ذلك بالكفر، فشهدوا عليه عند القاضى زين الدين، وكتبوا محضرا بأمور، ثم أتوا بها إلى قاضى القضاة تقى الدين، فلما وقف عليها قال : ما المراد من هذا ؟ قالوا : يا سيدى إثباتها. قال : ما أفتى فى رجل يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، ورماها من يده. فتوقف حال إثباتها.

وسعت جماعة كثيرة ممن كانوا يعنون بابن البقّقى[(1)] من جملتهم ناصر الدين الشيخى وجماعة من أكابر القبط وغيرهم وسألوا القاضى زين الدين فى أمره بأن يستتيبه، وسعوا فيه بشيء كثير حتى أرادوا أن يثبتوا له جنونا ليتخلص من هذه الورطة، فكتبوا محضرا وشهدت فيه جماعة كثيرة ممن يسمع قولهم، وأرادوا أن يثبتوه على قاضى القضاة الشيخ تقى الدين لما رأوا عنه الإعراض من إثبات كفره، وفهموا أيضا أن للشيخ به عناية، فأحضروا المحضر إليه، فلما وقف عليه رفع رأسه وقال : من يجعل المولى فتح الدين مجنونا ؟ ما نعرفه إلا رجلا عاقلا، ثم لما أحضروا المحضر إلى القاضى زين الدين ونظر فيه خلاه إلى جانب منه وتفكر فى أمره، واقتضى رأيه أنه يصلى تلك الليلة صلاة الاستخارة ويسأل الله فى أمره، فلما نام تلك الليلة رأى كأن جماعة جاءوا إليه وبينهم كلب أسود

(1) « النقنى » فى الأصل، والتصحيح من مصادر الترجمة.

زوبرىّ قدر الكبش ، وفى رقبتـه [٢٦١] طوق وزنجير وهم يقودونه إليه ، ثم قتلوه وألقوه فى حُفْرة وهو يراه ، فلما استيقظ حمد الله تعالى على تلك الرؤيا ، وأصبح عازما على قتله .

ولما فتح بابه وجد شخصا من طلبته جالسا على الباب ، فسلم عليه وناوله ورقة مكتوب فيها من شهاب الدين الأعزازى(١) الشاعر وأخبر أن شهاب الدين المذكور حضر إلى بيته وقت الأذان وأعطاه هذه الورقة وقال : عرّف قاضى القضاة ما انتظاره فى هذا الزنديق ، وفيها من شعره :

قـل للإمام [العادل](٢) المرتضى وكاشف المُشكل والمُبْهَم
لا تمهل الكافر واعمل بما قد جاء فى الكافر عن مسلم

فلما وقف عليها تبسم وقال : شاعر ومكاشف ، هكذا عزمنا إن شاء الله .

وكتب وهو فى سجن المالكى إليه من شعره :

يا من يُخادعنى باسهم مكره بسلاسل نُعمت كلمس الأرقم(٣)
اعتد لى زرَدا تضايق نسجه وعلى فكى(٤) عيونها بالأسهُم

(١) هكذا فى الأصل ، وهو « أحمد بن عبد الملك بن عبد المنعم العزازى ، شهاب الدين » المتوفى سنة ٧١٠ هـ/١٣١٠ م – المنهل الصافى جـ ١ ص ٣٦٢ رقم ١٩٦ .

(٢) [ ] إضافة من السلوك جـ ١ ص ٩٢٦ .
وورد هذا البيت :
« قل للإمام المرتضى كاشف الـ مشكل بين الناس والمبهم » – كنز الدرر جـ ٩ ص ٧٨ .

(٣) « يا لابسا لى حلة من مكره بسلاسة نعمت كلمس الأرقم » – السلوك جـ ١ ص ٩٢٦

(٤) « نزق » – فى السلوك .

وأرسلها إليه ، فوقف عليها وقال : نرجو أن الله لا يمهله لذلك ، ثم اجتمع هو والقاضي زين الدين السُروجي، وشاوروا السلطان ،وعرفوه زندقته وكفره، وكان قد بلغ السلطان أمره ، فتحدث السلطان بكلام فهم القاضي منه المهلة عليه ، فانزعج القاضي لذلك وقال : هذا الرجل ثبت عندي كفره وزندقته، وقد وجبت عندي إراقة دمه ، فلما رأى السلطان تصميم القاضي قال : إذا كان لا بد فاعقدوا له مجلسا بحضور الحكام ، فإذا وجب عليه أمر شرعي افعلوه ، ورسم لناصر الدين بن الشيخي والحاجب بأن يحضرا المجلس ، فجلست القضاة والأمراء في شباك الصالحية وطلبوه من السجن ، وشقوا به بين القصرين ، وهو بزنجير في رقبته ، مكشوف الرأس ، وهو يستغيث : يا قوم أتقتلون رجلا يقول ربي الله ويعلن بالشهادة ، إلى أن وصل إليهم ، ووقعت الدعوى والإنكار ، وأخرجوا الشهادة عليه والإثبات بكفره ، فنهض القاضي السروجي وهو ينشد :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى　　حتى يراق على جوانبه الدم

وأشار أن يخرجوه إلى ظاهر المدرسة إلى أن وقف مقابل الشباك وهو يصيح ويعلن بالشهادة ويقرأ القرآن ، والتفت الحاجب وناصر الدين للقاضي زين الدين وقالا : يا سيدنا إش ثبت عندك في هذا الرجل ؟ قال : ثبت عندي كفره ووجب قتله ، فنهض السروجي وقال : إضربوا رقبة الكافر ودمه في عنقي، فأشار في ذلك لعلاء الدين آقبرص بعض مقدمي الحلقة أن يضرب رقبته ،وكان قوي اليد، ماضي السيف ، فضربه ثلاث ضربات وأراد بذلك تعذيبه، ثم علق جسده على باب زويلة وطيف برأسه المدينة ، وكان قد تكهل .

وقال ابن دانيال فيه لما ضُربت عنقه (١) :

لا تـلم البق فى فعـله ... إن زاغ تضليلا عن الحـق
لو هـذّب الناموس أخلاقـه ... ما كان منسوبا إلى البق (٢)

[٢٦٢]

وقال فيه لما سجن ليُقتل :

يظن فـتى البقفى (٣) إنـه ... سيخلص من قبضة المالكى (٤)
نعـم سوف يُسلمه المـالكى ... قريبا ولكن الى مالك (٥)

والفتح المذكور شعر ، فمنـه قوله :

جبلت على حبى لهـا وألفتـه ... ولا بـد أن ألقى به الله مُعلنا
ولم يخل قلبى من هواها بقدرما ... أقـول وقلبى خاليا فتمكّنا

وله أيضا :

أين المراتبُ فى الدنيا ورفعتها ... من الذى جاز علما ليس عندهم
لا شك أن لنا قـدرا رأوه ... وما لمثلهم عنـدنا قدر ولا لهم
هم الوحوش ونحن الأنس حكمتنا ... نقودهم حيث ما شئنا وهم نَعمُ

(١) هو : محمد بن دانيال بن يوسف الموصلى ، الحكيم شمس الدين الكحال ، الأديب ، المتوفى سنة ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م — المنهل الصافى ، فوات الوفيات جـ ٢ ص ٣٣٠ رقم ٤٤٣ .

(٢) المنهل الصافى جـ ٢ ص ١٨٨ .

(٣) « الثقفى » فى الأصل ، والتصحيح من تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٤٢ ، الدرر جـ ١ ص ٣٢٩

(٤) المقصود : قاضى القضاة المالكية .

(٥) المقصود : مالك خازن النار .

وليس شيء سوى الاهمال يقطعنا عنهم لأنهم وجدانهم عدَم
لنا المَرتجان من علم ومن عدم وفيهم المُتعبان الجهل والحشم

قلت : عارض بهذه الأبيات الأبيات التي للقاضي تقي الدين بن دقيق العيد وهي :

أهل المراتب في الدنيا و رفعتها أهل الفضائل مَرْذولون بينهم
فما لهم في توقي صبرنا نظر ولا لهم في ترقي قدرنا همم
قد أنزلونا لأنا غير جنسهم منازل الوحش في الإهمال عندهم
فليتنا لو قدرنا أن نعرفهم مقدارهم عندنا أو لو دَرَوْه هُم
لهم مرتجان من جهل وفرط غنىً وعندنا المتعبان العلم والعدَم

وله :

لحى الله الحشيش وآكليها لقد خبثت كما طاب السُلافُ
كما تُصبي كذا تُضني وتشقي كما تُشقي وغايتها انحرافُ
وأصفرُ دائها والداء جَمٌّ بغاء أو جنُون أو نِشافُ

ذكر غزوة سيس :

وفيها كتب نائب حلب إلى السلطان والأمراء بأن تكفور صاحب سيس منع الحمل وتجاهر بالعصيان وادعى أن البلاد لقازان وأنه يحمل الحمل ، فاقتضى رأيهم بتجريد الأمير بدر الدين أمير سلاح والأمير عز الدين أيبك الخزندار بمضافيهما أن يدخلوا بلاد سيس ومعهما نائب حلب وحماة وحمص ويخربوها

و ينزعوا زرعها ، وأن لا يوغلوا فى عتورهم إلا إذا وجدوا فرصة ، وألا يكونون فى أطراف البلاد .

وقال ابن كثير : وكان رحيلهم فى شهر رمضان ، وفى ذى القعدة ضربت البشائر بقلعة دمشق أياما بسبب فتح أماكن من بلاد سيس عنوة ، وفى الحادى والعشرين من ذى الحجة قدم الجيش إلى دمشق ، فخرج نائب السلطنة والجيش إلى تلقيهم (١) .

ذكر الجزيرة التى سكنها الفرنج مقابل طرابلس :

وفيها : كتب الأمير سيف الدين أسندمر نائب طرابلس إلى السلطان بأن الإفرنج قد أنشأوا جزيرة مقابل طرابلس (٢) ، واتخذوها لهم حصنا ونقلوا إليها عددا ورجالا ، وتزايد أمرهم إلى أن صاروا يركبون البحر و يتجرمون فيه و يأخذون المراكب ، وأضر ذلك بحال أهل الساحل ، وأنه قصد على تجريد عسكر فى مراكب تأتى إليهم مع جند طرابلس ، [٢٦٣] ولعل الله أن يظفر المسلمون بها ، وأخذ من فيها من الإفرنج قبل أن يشتد أمرها و يقوى حال العدو فيها ، وهم يريدون أن يعمروا فيها قلعة ، فإذا بنوها يصعب على المسلمين أمرها ، فلما وقف السلطان على الكتاب أمر للوزير بالاهتمام فى تعمير أربع شوانى (٣) .

---

(١) انظر البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٩ ، حيث يوجد جزء من هذا الخبر فى المطبوع بين أيدينا من البداية والنهاية .

(٢) « تعرف بجزيرة أرواد » — السلوك جـ ١ ص ٩٢٣ .

وهى جزيرة رودس المعروفة ، والفرنج المقصودون هنا هم : هيئة الفرسان الاسبتارية .

(٣) شينى — شانى — شينية أو شونة : شوانى : السفينة الحربية الكبيرة ، وهى من أهم قطع التى يتكون منها الأسطول فى الدول الإسلامية — السفن الإسلامية على حروف المعجم :

وفى المحرم من السنة الآتية : جُهزت الشوانى وتكملت .

قال بيبرس فى تاريخه : وفى المحرم من سنة اثنتين وسبعمائة جهزت الشوانى للسفر إلى جزيرة أَرْوَاد ، وهى جزيرة قبالة انطرطوس فى البحر المالح ، وكان قد اجتمع فيها جمع من الفرنج الذين جاءوا من الساحل وسكنوها ، وأحاطوا بها سورا وحصنوها ، فجهزت الشوانى لقصدها ، وجرد فيها جماعة من الجند لأخذها ، ولما تجهزوا وتكملوا ولم يبق إلا سفرهم ركب مقدم الأجناد الذين سُفروا فيها فى الشينى الكبير وهو جمال الدين أقوش العلائى (١) المعروف بوالى البَهْنسا ، ومعه جماعة ، وخرجوا قبالة مقياس مصر (٢) ليلعبوا وينحدروا . فانقلب الشينى فى خروجه ، فغرق المقدم المذكور وأكثر من كان فيه ، فجهز عوضا عنه سيف الدين كُهُرْدَاش (٣) ، وسُفر بالشوانى ، فوصلوا إلى الجزيرة وأوقعوا بأهلها وأخذوا ما كان فيها ، وأحضروا منها عدة أسرى (٤) وعبروا بهم عند وصولهم إلى القاهرة مُصفّدين ، وشقوا بهم المدينة مقيدين وبقوا (٥) فى الأسر مخلدين (٦) .

وقال ابن كثير : وفى يوم الأربعاء الثانى من صفر من سنة ثنتين وسبعمائة فتحت جزيرة أرواد المذكورة ، وقتلوا منها نحوا من ألفين ، وكانت الأسرى قريبا من خمسمائة نفس (٧) .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ ١ ص ٤٢٧ رقم ١٠٣٠ .

(٢) مقياس مصر : هو المقياس الذى يقاس به ماء النيل ، ويقع بطرف جزيرة الروضة — المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٨٥ .

(٣) هو : كهرداش بن عبد الله ، الأمير سيف الدين ، المعروف بالزراق ، توفى سنة ٧١٤هـ/١٣١٤م — المنهل الصافى .

(٤) « فكانت عدة الأسرى مائتين وثمانين » — السلوك جـ ١ ص ٩٢٩ .

(٥) « وبقيوا » — فى الأصل .

(٦) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٣٢ ب .

(٧) البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢١ .

وقال صاحب النزهة : وكانت الشوانى مشحونة بالعُدد والسلاح والنفطيّة والزاد ، وفيها جماعة من الحلقة ، ومن كل مقدم نفران ، ومن الطباخانات والعشرات ، وجرد أيضا من المماليك السلطانية جماعة من الزَّرّاقين ، وزُينت الشوانى بأشياء من الآلات ، وباتت الناس تلك الليلة ، لم يبت أحد فى بيته ، وغُلقت مصر والقاهرة يومين لأجل التفرج ، وكان من أول بولاق إلى الصناعة (١) خلائق من البرين لا يُحصى عددهم حتى إن الإنسان لا يستطيع أن يضع قدمه إلى الأرض ، وأما بقية مراكب البحر والشخاتير (٢) الصغار فإنها طبقت وجه البحر ، والمركب الذى كان يكرى بعشرة أكروه بمائة درهم (٣) .

ففى صبيحة يوم السبت الثانى عشر من محرم سنة ثنتين وسبعمائة : نزل السلطان والنائب وسائر الأمراء ، ووقفت العساكر جميعهم على بَرّ بستان الخشاب ، وعدّى الأمراء فى الحراريق إلى الروضة ، ثم أمر بخروج الشوانى واحدة بعد واحدة ، فخرج الشينى الأول ولعب ساعة ولعبوا فيه بالنفط ، وصاحت الخلائق من الجانبين ، ثم الثانى ، ثم الثالث ، ثم خرج الرابع وهو الذى كان فيه أقوش العلائى ، ولعبت فيه الهوى ، فمال ميلة ، فانقلب فصار أعلاه أسفله ، وصرخت الناس عن صوت واحد ، وتكدر ذلك الصفاء ، فتحيرت الأمراء والسلطان ، وحزنوا حزنا عظيما ، وأدركت المراكب إليه ، وخلصوا منه خلقا وغرق آخرون ، وممن غرق أقوش المذكور المقدم فيه (٤) .

---

(١) صناعة مصر : بساحل فسطاط مصر — المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ١٩٧ .

(٢) شختور — شخاتير : سفينة صغيرة بسار واحد فى الوسط ، وهو من اصطلاح النوتية — السفن الإسلامية على حروف المعجم .

(٣) انظر النجوم الزاهرة ج ٨ ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(٤) « فلم يعدم منه سوى أقوش ، وسلم الجميع » — فى السلوك ج ١ ص ٩٢٨ .

ومن الغرائب أن أقوش هذا كان فيه من الكبر والحمق مالا يوصف، ومن الظلم وقتل النفس مالا يعد ، وكان [٢٦٤] هـو الذى زين هـذا الشينى من عنده بأفخر زينة وأكمل عدة ، وعند نزوله إليـه قدمت له الاسـقالة ، فمشى عليها إلى أن جلس ، ثم عند الخروج استعجل ، فقال له الرئيس : طول روحك ياخوند ، فانحرف وشتمه وقال : اخرج لا كتب الله علينا بالسـلامة ولا أحيانا أن نرد إليهم .

قال الراوى : وأغرب من ذلك أن هذا الشينى انحـدر إلى أن وقف عند بولاق وبقى هناك ثلاثة أيام مقلوبا إلى أن ركب والى الصناعة والرئيس ومعهم رجال ، فجاءوا إليه وأقلبـوه ووجدوا زوجة الرئيس وولدها وهى ترضـعه وهما بالحياة ، فسألوها عن حالها فقالت : إن الشـينى لمـا انقلب لم يحصـل عليهـا تشويش أصلا ولا بذل عليها من المـاء ، فتعجبوا من ذلك وقالوا : قدرة الله أعظم من هذا .

ثم رسم السلطان بأن يُجَهـز شينى آخر عوض ذلك ، فجهـزوه وكانوا قـد أحضروا رؤساء من الإسكندرية ودمياط ، ثم سافروا إلى أن وصلوا إلى طرابلس ودقت بوقاتهم ، ووجدوا أهـل طرابلس أيضا قد تجهزوا كما ينبغى مما يحتاجون إليه من العدد والنفط وآلات الحصار ، ثم ركبوا نصف الليل ورئيت لهم الجزيرة وجه الصبح ، وصاحوا بالتكبير والتهليـل ، وزعقت البـوقات والطبلخانات ، وقاموا فى المقاديف قومة رجل واحد ، فتوجه كل مركب بمقـدمه على الميـناء ونفر الفرنج أيضا ، فبينما يركبون مراكبهم سبقت مراكب المسلمين بمقـدميها(١)

---

(١) « بمقاديموها » فى الأصل .

على الساحل ، وتسابقت الفرسان من المقابلة إلى أن أحاطوا الساحل وتقاتلوا بالسيوف فى الوجوه والصدور وبالرماح بالطعن فى المحاجر والنحور ، وانعزلت الجرخية ناحية والأفحية ناحية ، ولم تتعال الشمس صبيحة ذلك اليوم حتى خذلت الكفار ، وانتصرت ملة الإسلام ، وملأوا من قتلاهم الأرض ، ورجع من بقى إلى قلعتهم وأغلقوها ، وزحفت الرجال إليهم ، وأرسلوا سهامهم إلى من فيها ، فثبتوا ساعة مقاتلين ، ثم وقع كلهم مابين قتلى وجرحى ، وصاحوا طالبين الأمان ، وسلموا أنفسهم ، وملك المسلمون القلعة أيضا ، وكان ذلك اليوم يوم الجمعة الثامن والعشرين من صفر عام ثنتين وسبعمائة ، وأخذوا جميع ما فيها من حواصل وسلاح ، ووجدوا فيها تجارا ومعهم تجارة .

وكانت هذه القلعة أعتنى بها وبعمارتها صاحب قبرس مع جماعة من أكابر الفرنج على أنهم يتخذونها سكنا لهم ويسمونها عكا الصغيرة ، ثم هدها المسلمون إلى أن صارت دكا دكا ، فحصل للمسلمين بذلك السرور التام والشكر على دين الإسلام .

ذكر وفاة الخليفة :

الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين أبى العباس أحمد بن محمد بن الحسن بن أبى بكر بن الحسن بن على القبى بن الراشد بالله الهاشمى العباسى البغدادى ثم المصرى[(٢)].[(١)]

(١) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة (مخطوط) جـ٩ ورقة ٢٣٠ ب ، المنهل الصافى جـ١ ص ٧٩ رقم ٢٠٣ ، درة الأسلاك ص ١٥٥ ، الوافى جـ ٦ ص ٣١٧ رقم ٢٨١٩ ، تاريخ الخلفاء ص ١٩٢ ، السلوك جـ١ ص ٩١٩ ، النجوم الزاهرة جـ ٧ ص ١١٨ ، كنز الدرر جـ ٩ ص ٣٠٦ ، الدرر جـ١ ص ١٢٨ رقم ٣٣٢ ، شذرات الذهب جـ ٦ ص ٢ ، تذكرة النبيه جـ١ ص ٢١٠ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٩ ، التحفة الملوكية ص ١٩٢ .

(٢) اختلف المؤرخون فى نسبه — انظر مصادر الترجمة .

بويع بالخلافة فى الدولة الظاهرية فى أول سنة إحدى وستين وستمائة ، فاستكمل أربعين سنة فى الخلافة ، وكانت وفاته ليلة الجمعة الثامن عشر من جمادى الأولى منها [٢٦٥] بالمناظر المعروفة بالكبش (١) بمرض عراه ، وصلى عليه العصر بسوق الخيل (٢) ، وصلى عليه الشيخ كريم الدين عبد الكريم (٣) الآملى (٤) شيخ الصوفية ، ودفن بجوار مشهد السيدة نفيسة (٥) رضى الله عنها ، ومشى الأمراء والكبراء والقضاة والحكام والأعيان فى جنازته إكراما لمحله ، وخلّف من الأولاد سليمان (٦) ، وهو أول من دفن بمصر من الخلفاء العباسيين .

وقال صاحب النزهة : وصلّى عليه شيخ سعيد السعداء كريم الدين المذكور ومعه الصوفية كلهم ، وحضر السلطان أيضا جنازته ، وصلّى عليه بجامع ابن طولون .

(١) مناظر الكبش : أنشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٤٠ — ١٢٤٩ م) على جبل يشكر بجوار الجامع الطولونى ، وهى عبارة عن قصر كبير سماه « الكبش » ، وكان يشرف على بركة قارون عند الجسر الأعظم الفاصل بين بركة الفيل وبركة قارون ، وظل بعده من المنازل الملوكية ، وما زال موضعه يعرف بالكبش إلى اليوم — المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ١٣٣ . صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٦٢ ، السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب (رسالة غير منشورة بجامعة القاهرة) ص ١٨٢ — ١٨٣ .

(٢) « من تحت قلعة الجبل » المنهل الصافى .

(٣) هو : عبد الكريم بن الحسين بن عبد الله الآملى الطبرى ، أبو القاسم كريم الدين ، شيخ خانقاة سعيد السعداء بالقاهرة ، المتوفى سنة ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م — المنهل الصافى .

(٤) « الأبلى » فى السلوك جـ ١ ص ٩١٩ .

(٥) هى : نفيسة ابنة الحسن بن زيد بن الحسن بن على بن أبى طالب ، رضى الله عنهم ، توفيت بمصر سنة ٢٠٨ هـ / ٨٢٣ م ، ودفنت بمنزلها ، وهو الموضع الذى به قبرها الآن — المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٤٤٠ وما بعدها .

(٦) توفى سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٣٩ م — المنهل الصافى .

وقال بعض معاصرينا فى تاريخه : وتولى تغسيله والصلاة عليه شيخ الشيوخ كريم الدين عبد الكريم المذكور ، وخلّف من الأولاد سليمان أبو الربيع ، وإبراهيم أبو إسحاق .

ذكر خلافة الإمام المستكفى بالله أبو الربيع سليمان بن الإمام الحاكم بأمر الله :

بعهد من أبيه بويع له يوم وفاة أبيه (١) ، وتقدير عمره عشرون سنة ، وخطب له على المنابر ، واستمر فى صحبة السلطان والركوب معه كأنهما أخوان ، وفى اللعب بالصوالجة فى الميدان ، والسفر والتفرج فى الصيد ، وأجرى له الإكرام والإحسان .

وقال ابن كثير : وكان أبوه عهد إليه وكتب له بذلك تقليدا ، وقرىء بحضرة السلطان والدولة (٢) يوم الأحد العشرين من ذى الحجة منها ، وكان يوما مشهودا (٣) .

ذكر مجلس عُقِد فيه لليهود :

وفى شوال : عقد مجلس لليهود الخيابرة ، وألزموا بأداء الجزية أسوة أمثالهم من اليهود ، فأحضروا كتابا معهم يزعمون أنه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه وضع الجزية عنهم ، فلما وقف عليه الفقهاء تبينوا أنه كذب مفتعل لما فيه

(١) يذكر ابن تغرى بردى : « وبقى الأمر موقوفا إلى يوم الخميس رابع عشرين جمادى الأولى المذكور » ــ انظر النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٤٩ .

(٢) هكذا بالأصل ، ولعل المقصود « كبار رجال الدولة » .

(٣) البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢٠ .

من الألفاظ الركيكة والتواريخ المخبطة واللحن ، وحاققهم عليه الشيخ تقي الدين ابن تيمية ، وبين لهم كذبهم ، وخطأهم وأنه مزور مكذوب ، فأنابوا إلى أداء الجزية ، وخافوا من أن يستعاد عليهم بالسنين الماضية .

وقال ابن كثير : وقد وقفت أنا على هذا الكتاب ، فرأيت فيه شهادة سعد بن معاذ عام خيبر ، وقد توفي قبل ذلك « بنحو من ثلاث سنين ، وشهادة معاوية بن أبي سفيان ولم يكن أسلم إذ ذاك وإنما أسلم بعد ذلك[1] » بنحو من سنتين ، وفيه : كتب علي بن أبي طالب[2] ، وهذا لحن لا يصدر عن أمير المؤمنين على أنه يسند إليه علم النحو من طريق أبي الأسود الدؤلي عنه[3] .

قال ابن كثير : وقد جمعت فيه جزءا مفردا وذكرت فيه ما جرى أيام القاضي الماوردي وكبار[4] أصحابنا في ذلك العصر[5] .

ذكر بقية الحوادث :

وفيها : عُزل شمس الدين الأعسر عن الوزارة[6] ، وسُفّر إلى الشام لكشف القلاع ، وقُرّر عوضه نائب الإسكندرية الامير عز الدين أيبك البغدادي ،

(١) « » ساقط من المطبوع من البداية والنهاية ، مما أدى إلى تغيير المعنى .

(٢) « بن طالب » في البداية والنهاية .

(٣) البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٩ .

(٤) « وكتاب » — في البداية والنهاية .

(٥) البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٩ .

(٦) سبق أن ذكر العيني هذا الخبر في أحداث سنة ٧٠٠ هـ — انظر ما سبق ص ١٤٠

وهو الرابع من الوزراء [الأمراء](١) الترك أرباب السيوف والأقلام : أولهم علم الدين سنجر الشجاعى، ثم الأمير بدر الدين بيدرا قبل النيابة، ثم شمس الدين الأعسر ، وهذا عز الدين أيبك .

وفيها : فى يوم الثلاثاء العاشر من ربيع الآخر : شُنق الشيخ على الحورانى(٢) بـواب الظاهرية على بابها ، بسبب أنه اعترف بقتل الشيخ زين الدين السمرقندى(٣) .

وقال الشيخ علم الدين البرزالى [٢٦٦] فى تاريخه : وفى وسط ربيع الأول ورد كتاب من حماة يُخبر فيه أنه وقع فى هـذه الأيام ببارين من عمل حماة بَرَد [كبار](٤) على صور حيوانات مختلفـة ، منها سباع وحيات وعقارب، وطيور ومعز وبلشون(٥) ، ورجال فى أوساطهم حوائص ، وأن ذلك ثبت بمحضر عند قاضى الناحية ، ثم نقل ثبوته إلى قاضى حماة(٦) .

---

(١) [ ] إضافة للتوضيح من النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٤١ .

« من الوزراء الأمراء الأتراك بالديار المصرية ، الذين كان تضرب على أبوابهم الطبلخاناة على قاعدة الوزراء بالعراق زمن الخلفاء » ــ النجوم الزاهرة .

(٢) « الحورانى » فى البداية والنهاية .

(٣) البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٨ .

(٤) [ ] إضافة من البداية والنهاية .

(٥) « ونساء » ــ فى البداية والنهاية .

بلش ــ البلشون ، طائر طويل العنق والجناحين والساقين ، يعرف بمالك الحزين ، وهو يعيش بالقرب من المياه ، فإذا جفت يبدو كئيبا .

(٦) هذا الخبر منقول من البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٨ .

وفيها : نقل ناصر الدين محمد الشيخى من ولاية القاهرة إلى الخاص السلطانى بالجيزية ، وبقى فيها إلى أن نقل إلى الوزارة .

وفيها : ولى الأمير سيف الدين أقجبا المنصورى نيابة غزة .

وفيها : فى شوال ، حصل بالشام جراد عظيم أكل الزروع والثمار ، وجرد الأشجار حتى صارت كالعصى، ولم يعهد مثل هذا .

وقال ابن كثير : وفيها ولد كاتبه — يعنى نفسه — إسماعيل بن عمر ابن كثير القرشى البصراوى الشافعى[1] .

وفيها : ظهر بالقاهرة إنسان سمى نفسه المهدى وادعى أنه من ذرية الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهما، وأنه ينذر بوقائع يعلم وقوعها، فاعتقل امتحانا لنقله[2] ، فلم يصح شىء من قوله ، وظهر أن به فسادا فى عقله ، فعزر تأديبا له ، ثم خلى سبيله[3] .

وفيها : كان خروج بكتمر الحسامى من وظيفة الأمير آخورية ، بسبب غيظ الأمراء عليه، لأنه نقل عنه أنه يكثر الحديث مع السلطان ويذكر الأمراء عنده ، وكان الأمراء قد اتفقوا أنهم لا يدعون أحدا يجتمع بالسلطان أو يتحدث معه ، مع ما كان فى نفوسهم منه من تكبره عليهم ، فأخرجوه إلى الشام من غير إقطاع ، وأقام مدة إلى أن توفى الأمير علاء الدين مغلطاى التقوى بدمشق

(١) لم يرد هذا الخبر فى المطبوع الذى بين أيدينا من البداية والنهاية .

(٢) هكذا بالأصل ، ولعل المقصود « امتحانا لقوله » .

(٣) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٣٢ أ .

وطالع نائب الشام بسببه ، فرسم بلا قطاع له ، وتولى عوضه فى الأمرآخورية علم الدين سنجر الصالحى .

وفيها : وصل كتاب نائب الشام يخبر بحضور القاضى علاء الدين بن القاضى شرف الدين بن القلانسى ، وشرف الدين بن الأثير من عند قازان ، وذلك أنهما كانا مع الوزير نجيب الدين وزير قازان ، فإنه كان أخذهما رهينة إلى أن يحضر أخوه عبد اللطيف الذى كان معوقا عند السلطان ، والمذكوران قد تحيلا بحيل كثيرة حتى تخلصا ، واختفى ابن القلانسى بتبريز ، وتحيل و بذل ما لا إلى أن مَنّ الله عليهما بالخلاص .

ذكر تحرك طَراى بن نُوغيه لطلب ثأر أبيه وأخويه :

فشرع فى التحيل لإدراك مطلبه ، فالحق بَصراى بغا بن منكوتمر ، وقد ذكرنا(1) أن أخاه طقطا رتبه فى مقام نوغيه ، فتوصل طراى إليه ولازمه ، فلما آنس منه الميل إليه فاتحه فى أمر أخيه طقطا ، وفاوضه فى أنه أحق منه بالمملكة وأقدر على تدبير السلطنة ، فاستغواه فمال معه ، وانصاع إلى خداعه ، وركب فى ثمانه وعبر على نهر إتل وهو جامد بفرسانه ، وخطر بباله أن يستشير أخاه برلك و يستعينه ، فنزل العسكر ناحية ، وتوجه جريدة ، فاجتمع ببرلك وشاوره فى أمره ، فأظهر له الموافقة لهواه ، ثم بادر لوقته بإعلام طقطا بما هم به صراى بغا أخوه وطراى بن نوغيه من الوثوب عليه ، فركب طقطا لوقته فى خواصه و بطانته ، وجهز إلى نحوهما من أحضرهما ، فقتلا بين يديه [٢٦٧] وتفرق عسكرهما ،

(١) انظر ما سبق ص ١٤٠ وما بعدها .

وأرسل طقطا ولده إيل بَصَار إلى المكان الذى كان قد رتب صراى بغا ، فاستقر به عوض أخيه.(١)

وفيها هرب قرا كسك بن جكا بن نُوغيه ، وهرب معه اثنان من أقاربه ، وهما جركتمر ويلقطلو ، وذلك أنه لما قتل طقطا أخاه صراى بغا وطراى بن نوغيه أرسل بُرْلك فى طلب قرا كسك ، فانهزم هو وهذان المذكوران وطرحتهم الجفلة إلى بلاد شُشَمن إلى مكان يسمى بَدُول بالقرب من كَرَلْ ، ومعهم نحو من ثلاثة آلاف فارس ، فآواهم ششمن وأصحابه ، وأقاموا عندهم يغيرون على الأطراف ويأكلون بالأسياف .

قال بيبرس فى تاريخه : إلى يومنا هذا.(٢)

وفيها : حج الأمير ركن الدين بيبرس أستاذ الدار فى جماعة من ألزامه وخواصه ، وكان رحيله من البركة مستهل ذى القعدة .

وقال بيبرس فى تاريخه : فنُدبت للتقدم على الركب المصرى وكان ركبا كبيرا ، [وقد جمع خلقا كثيرا](٣) .

وحج فى هذه السنة ثلاثون أميرا ، وجعلوا ركبانا ثلاثة يتعاقبون فى المنازل والمراحل .

قال : ولما حصل اجتماعنا فى الحرم الشريف حضر اثنان من أولاد الشريف نجم الدين بن نُمَى أحدهما يسمى عُطَيْفة والآخر أبو الغيث ، وشكوا إلى المقر

(١) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٣٢ ب ، ٢٣٣ أ .

(٢) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٣٣ أ .

(٣) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

المشار إليه بحضرة من حضر من الأمراء فى أخويهما الكبيرين ، وهما أسد الدين رُمَيثة وعز الدين حُمَيضة ، وذكرا أنهما لما اتفقت وفاة والدهم الشريف ابن نمى فى هذه السنة ، وثبا عليهما وأساءا إليهما واعتقلاهما ظلما و بغضا ، فتحيلا وهربا من مكان سجنهما ، وتوجها إلى بنى عمهما أولاد إدريس بن قنادة ، وأقاما عندهم ، وسألا إنصافهما من أخويهما ، [ومقابلتهما بما جنياه عليهما](١) فاتفقت الآراء بإمساك رُمَيثة وحُمَيضة وتأديبهما بالسجن والعزل لإساءتهما على بنى أبيهما ،(٢) [والجرأة عليهما](٣) وغير ذلك من أمور نُقلت عنهما ، فأُمْسكا ، [ونسبت إليهما](٤) ورتب المشار إليهما(٥) عُطيفة وأبا الغيث عوضا عنهما ، وأحضرا هذان(٦) إلى الأبواب السلطانية واعتقلا مدة(٧) .

وقال صاحب نزهة الناظر : لما فرغ الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير من الوقوف بعرفة ، ورجع إلى طواف الزيارة وطواف الوداع بعده ، وقف له أبو الغيث وعطيفة وبقية إخوتهما(٨) من البنات ، وشكوا من أخويهم حُمَيضة ورُمَيثة و بالغوا فى الشكوى ، فأرسل الأمير ركن الدين وراءهما ، فحضرا بالحرم

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٢) « لما أقدما عليه من الإساءة إلى بنى أبيهما » ـ زبدة الفكرة .

(٣) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٤) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٥) « إليه » فى الأصل ، وفى زبدة الفكرة ، والتصحيح يتفق والسياق .

(٦) « هذان » ساقط من زبدة الفكرة .

(٧) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٣٢ أ ، ب .

(٨) « رميثة » فى الأصل ، وهو تحريف ، والتصحيح مما سبق ، وانظر أيضا ما يلى .

الشريف فقال لهم : اسمع يا حميضة لأى شيء تفعل كذا حتى يشكو منك أخويك ؟ فأجابه بقوة نفس وقال : يا أمير نحن نفتصل مع إخوتنا ، وأنتم قد قضيتم حجكم وجُزتم خيرا ، فلا تدخلوا بيننا . فغضب بيبرس لذلك غضبا شديدا ، وأشار إلى الأمير سيف الدين طشتمر الجمقدار أن يلكمه ، فلكمه فأرماه إلى الأرض ، وما قام إلا وقد [وجد](١) روحه مكّتفا هو وأخاه(٢) ، ووقع الصوت فى الحرم بمسكهما ، فتصايحت النسوان والعبيد ، وطلعوا على البيوت وأسطحة الحرم بالأحجار ، وركبت الأشراف والعبيد .

فلما رأت الأمراء ذلك أدركوا خيولهم وركبوها ، وركّبوا الأميرين المذكورين مكتفين مُنزنجرين فى رقابهما ، وهم يصيحون يالبنى حسن ، يالبنى أولاد نمى ، فخرجت البنات من مكة وسبقت خيل الشرفاء ، ومسكوا طرق الأبواب والأزقة ، وسمعت أيضا بقية الأمراء النازلين [٢٦٨] فى الوطاق ، فركبوا بالقسى والرماح ، واستعدوا ، ولما رأى بنو الحسن الجند والأمراء من خلفهم ومن بين أيديهم أخذ كل منهم فى طريق ، وخرج منهم نحو ثلاثة عشر نفرا ، وقتل ستة نفر ، وقيل ثمان رءوس من الخيل ، وخرجت جماعة من الذين على الأسطحة إلى أن خرجوا إلى المخيّم وطلبوا أبا الغيث وعطيفة وولوهما مكة ، وخلعوا عليهما ودخلوا بالمسوكين مصر مُزنجرين وأودعا بالسجن مُدة .

قال صاحب النزهة : وكان وصول الأمير ركن الدين بيبرس من الحجاز الشريف فى أول المحرم من سنة اثنتين وسبعمائة ، وكان خروجه من مصر نصف

(١) [ ] إضافة يقتضيها السياق .
(٢) « وأخوه » — فى الأصل .

ذى القعدة ، ووصل إلى مكة فى التاسع والعشرين منه ، فكان سفره أربعة عشر يوما .

قلت : بيبرس هذا هو بيبرس الجاشنكير أحد أركان الدولة بمصر ، وليس هو بيبرس الدوادار ، فإن بيبرس الدوادار كان أمير الركب على ما ذكرنا عنه الآن ، وقد ذكرنا أيضا أنه ذكر أن بيبرس الجاشنكير قد رحل من البركة مستهل ذى القعدة ، وهذا صاحب النزهة ذكر أنه رحل فى نصف ذى القعدة ، وبينهما تفاوت كثير على ما لا يخفى .

ذكر من تُوفى فيها من الأعيان

الشيخ الإمام العالم العامل شرف الدين أبـو الحسين على(١) بن الشيخ الإمام العلامة الحافظ تقى الدين أبى عبد الله محمد بن أبى الحسين بن عبد الله بن عيسى ابن أحمد بن محمد بن محمد اليونينى البعلبكى .

وكان أكبر من أخيـه الشيخ قطب الدين ، وولد شرف الدين سنة إحدى وعشرين وستمائة(٢) ، تفقه وسمع الكثير ، وكان عابداً عاملا ، كثير الخشوع ، وكانت وفاته أنه دخـل فى الخامس من رمضان إلى خزانة الكتب التى بمسجد الحنابلة ببعلبك ليعزل كتبه من كتب الوقف وعنـده خادمه الشجاع ، فدخل عليه فقير اسمـه مؤمن المصرى ، فضربه بعصى على رأسه ضربات ، ثم أخرج سكينا صغيرة فجرحه فى رأسه ، فاتقى بيده فجرحه فى يده ، فدخل عليه الناس ، وأمسك(٣) وحمل إلى متولى البلد وضُرب ، فصار يُظهر الاختلال ويتكلم بكلام غير منتظم ، فحُبس بعد الضرب الكثير .

وأما الشيخ فإنه حُمل إلى داره ، وأقبل على أصحابه وتحدث معهم على جارى عادته ، وأتم صومه ، فحصل له حمى واشتد مرضه ، فلما كان يوم الجمعه الثانى

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص٥٦ أ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٩٨ ، الدرر جـ ٣ ص ١٧١ رقم ٢٨٥٣ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢٠ ، شذرات الذهب جـ ٦ ص ٣ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ٦٦ رقم ١٠٢ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٤٢ .

(٢) « فى حادى عشر شهر رجب ... ببعلبك » ـ النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٩٨ .

(٣) « ومسك » فى الأصل .

عشر من رمضان[1] مات ، وصلى عليه بدمشق وغيرها صلاة الغائب .

وقال ابن كثير : ودُفن بباب سطحا .

الصدر ضياء الدين أحمد[2] بن الحسين ، ابن شيخ السلامية .

والد القاضي قطب الدين موسى[3] الذى تولى فيما بعد نظر الجيوش الإسلامية الشاميـة ، وفى وقت المصرية أيضا ، وكانت وفاته يوم الثلاثاء العاشر من ذى القعدة ، ودفن بقاسيون .

المسند المعمر الشيخ الجليل بقية السلف شهاب الدين أبو المعالى أحمد[4] بن إسحاق بن محمد بن المؤيد بن على بن إسماعيل بن أبى طالب الأبرقوهى الهمدانى ، ثم المصرى .

ولد بأَبَرْقُوه[5] من بلاد شيراز فى رجب أو شـعبان سنة خمس عشر وستمائة ، وسمـع الكثير من الحديث على المشايخ الكثيرين ، وخُرجت له مشيخات ، وكان شيخا حسنا متيقظا ، وكانت وفاته بمكة بعد خروج الحجيج بأربعة أيام ، ودفن بالمعلاّ ، رحمه الله .

---

(١) « الخميس حادى عشر شهر رمضان » ـ النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٩٨ .

(٢) هو : أحمد بن الحسين بن بدر بن أحمد ، ضياء الدين .

وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ ١ ص ١٣٢ رقم ٣٤٩ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢٠ .

(٣) هو : موسى بن أحمد بن الحسين ، القاضى قطب الدين الخاقانى ، المتوفى سـنة ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م ـ المنهل الصافى .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٣٥ رقم ١٢٤ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٩٨ ، الوافى جـ ٦ ص ٢٤٢ رقم ٢٧٢١ ، الدرر جـ ١ ص ١٠٩ رقـم ٢٨٢ ، العقد الثمين جـ ٣ ص ١٥ رقم ٥١٨ ، شذرات الذهب جـ ٦ ص ٤ .

(٥) أبرقوه : بلد مشهور بأرض فارس من كورة اصطخر بأصبهان ـ معجم البلدان .

الإمام العالم الكامل الأوحد العلامة شمس الدين أبو الندى مَعَد [٢٦٩] ابن الشيخ الإمام العلامة زين الدين أبي الفتح نصر الله بن رجب ، المعروف بابن الصيقل الجزري .

مات بهرمز ، وكان فقيها شافعيا ، متفننا بعلوم كثيرة ، صنف المقامات الزينية خمسين مقامة على منوال الحريري .

الشيخ الإمام العالم الصالح الزاهد العابد مفتي المسلمين ركن الدين عبيد الله[1] ابن محمد بن عبد العزيز السمرقندي الحنفي .

مات بالمدرسة الظاهرية بدمشق ، وُجد بالبركة بها ميتا ، ولم يعلم حاله ، فغسل وكُفن ، وصُلّي عليه ، ودفن بمقابر الصوفية ، وكان كثير الصوم والصلاة والاجتهاد في العبادة ، وكان ورده كل يوم مائة ركعة ، فلما اتفق له ذلك مُسك يحيى قيم دار الحديث الظاهرية وضُرب ، فاعترف بقتل الشيخ ركن الدين ، فشُنق على باب الظاهرية في عاشر ربيع الآخر .

الشيخ جمال الدين عثمان[2] بن أحمد بن عثمان بن هبة الله بن أبي الحوافر ، المتطبب بالقاهرة .

مولده سنة تسع وعشرين وستمائة ، وكان رئيس الأطباء بالديار المصرية ، وإليه تُنسب الحمام التي بمصر عند الجامع الجديد ، مات في هذه السنة .

شيخ الشيوخ فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ تاج الدين أبي بكر عبد الله ابن شيخ الشيوخ عماد الدين عمر بن علي بن محمد بن حموية الجويني .

---

(١) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي ، الدرر جـ ٣ ص ٤٢ رقم ٢٥٠٩ .

(٢) وله أيضا ترجمة في : الدرر جـ ٣ ص ٤٩ رقم ٢٥٦٦ .

مات فى ربيع الأول بالشميساطية ، ودفن بسفح قاسيون عند أخيه ، وله من العمر خمسون سنة ، وتولى عوضه فى المشيخة قاضى القضاة بدر الدين ابن جماعة .

الخطيب علاء الدين على بن الحسن بن عبد الله الشافعى ، المعروف بابن الجابى ، خطيب جامع جراح ظاهر باب الصغير .

مات فى هذه السنة ، وكان يقصد لسماع خطبته من حسن صوته ، وكان مهووسا بعلم الكيمياء ، وتولى مكانه الشيخ شرف الدين الفزارى .

الشيخ العالم الصدر وجيه الدين محمد[1] بن عثمان بن أسعد بن المنجى الحنبلى .

مات بمدرسته دار القرآن بدمشق ، ودفن بقاسيون ، ومولده سنة ثلاثين وستمائة بدمشق .

الشيخ الصالح الزاهد العابد العارف القدوة عيسى بن الشيخ ثروان بن الشيخ محمد بن الشيخ الكبير ثروان التدمرى البيانى .

مات بدمشق ، ودفن بباب الصغير جوار قبر الشيخ أبى البيان ، وكان شيخ البيان ، وكان له صيت وقبول تام وكلمة مسموعة ، وكان عمره جاوز تسعين سنة .

الصدر الكبير الفاضل مجد الدين يوسف[2] بن محمد بن على الأنصارى ، المعروف بابن القبافبى .

(١) وله أيضا ترجمة فى « درة الأسلاك ص ١٥٦ ، الوافى جـ ٤ ص ٩١ رقم ١٥٦١ ، الدرر جـ ٤ ص ١٥٧ رقم ٣٩٧٢ ، شذرات الذهب جـ ٦ ص ٣ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٤٢ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ ٥ ص ٤٧ ؟ رقم ٥١٥٦ .

مات بالقاهرة ، ودفن بتربة ابن عبد الظاهر ، كان فاضلا في صناعة الترسّل وحساب الديوان ، ولّى كتابة الدرج بالفتوحات الطرابلسية (١) .

وله نظم حسن ، فمن ذلك قوله في زهر الباقلاء :

عطّر زهر الباقلا الرُّبَى   فنشْره في الروض منشورُ
لايعجبُ الناشقَ منْ ريحه   فإنه مسك وكافُور

وقال وقد وقع بدمشق ثلج عظيم :

طمت الثلوجُ على الوهاد مع الرُّبَى   فالكون يعجب منه وهو مُفضض
فانهض لتجمع شمل أنس مقبل   بلذاذة فاليوم يوم أبْيَض

[٢٧٠] وكتب إلى الأمير علم الدين الدواداري :

ياَمن كفاني وحربُ الدهر قائمة   بنَصْرة شمتها من فَضله الخدم
حللت من بابك العالى بذى سَلم   فليهنى (٢) أنى من جيرة العلم

الشريف الكبير أبو نمى محمد (٣) بن الأمير أبى سعد حسن بن على بن قتادة الحسنى ، صاحب مكة منذ أربعين سنة ، توفى في هذه السنة وكان حليما وقورا ذا رأى وسياسة وعقل ومروّة ، وخلف من الأولاد أحدا وعشرين ولدا ذكرا ، ومن البنات عشرة .

(١) « كان ناظر الفتوحات بدمشق » — في الدرر .

(٢) « ليهنى » — في الدرر .

(٣) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي ، درة الأسلاك ص ١٦٥ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢١ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٩٩ ، الدرر جـ ٤ ص ٤٢ رقم ٣٦٤٤ ، شذرات الذهب جـ ٦ ص ٢ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٤١ ، كنز الدرر جـ ٩ ص ٨٠ ، غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام جـ ٢ ص ٩ رقم ١٧٤ .

وقال بيبرس : ويكنى أبا مهدى أيضا ، وساق نسبه ، وهو محمد بن أبى سعد حسن بن على بن قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن على بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم .

الأمير الكبير المجاهد المرابط علم الدين أرجواش(١) بن عبد الله المنصورى ، نائب قلعة دمشق .

كان ذا همة وشهامة وقصد صالح ، قدّر الله على يديه حفظ معاقل الشام لما ملكت التتار أيام قازان ، وكانت وفاته بقلعة دمشق ليلة السبت الثانى والعشرين من ذى الحجة ، وأُخرج منها ضحوة يوم السبت ، فصُلّى عليه ، وحضر نائب السلطنة فمن دونه ، ثم حُمل إلى قاسيون ودفن فى تربته .

وقال صاحب النزهة : ولم يخلف غير أربع بنات ، ووُجد له من تركته من الذهب خمسة عشر ألف دينار ، ومن الفضة خمسين ألف درهم ، وأوصى بعتق مماليكه وجواريه ، وأوقف عليهم وقفا ، ووجد له فى زردخاناته ثمانمائة قوس حلقة ومائتا عدة كاملة .

وقال : حكى لى مَنْ كان خصيصا بمنادمته ، ولم يعرف أنه اجتمع بأحد غيره ، أنه لحقه فى بعض الأيام قولنج ، فأُحضر له طبيب يَهودى ، فوصف له حقنة ولم يحضر أحد يَصف له صفة الحقنة غير ذلك النديم ، فلما رآها قال : ما هذه ؟ قال : هى الحقنة ، فنهض وقعد ، وأراد أن يشربها ، فقال له الرجل :

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٢ ص ٢٩٤ رقم ٣٠٨ ، الوافى جـ ٨ ص ٣٣٨ ، رقم ٣٧٦٦ : الدرر جـ ١ ص ٣٧١ رقم ٨٦٥ ، كنز الدرر جـ ٩ ص ٨٠ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢٠ ، وورد اسم « سنجر بن عبد الله المعروف بأرجواش المنصورى » فى النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٩٨ .

ياخوند هـذا ما يُشْرب . فقال : وما يُعمل به . فقال له : كذا وكذا ، فحين سمع ذلك تغيّر لونه ، ثم توجه إلى اليهودى فقال : ويلك يا ملعون ، أنا اشترانى الملك المنصور بعشرة آلاف درهم وما قدر أن يُمرّ فى دبرى شيئا ، وأنت جئت فى آخر عُمرى تحـط فى دُبرى عَظْما ، ثم أشار لمماليكه أن يُسقوا اليهـودىَّ تلك الحقنة ، فكتّفوه وأسقوها إياه ، فلما شربها مات فى اليوم الثانى .

الأمـير عز الدين أيبك[1] بن عبد الله النجيبى الدوادار، والى البر (بدمشق) ، وأحد الأمراء الطبلخانات بها .

مات بدمشق يوم الثلاثاء السادس عشر من ربيع الآخر منها ، ودفن بسفح قاسيون ، وكان مشكور السيرة ، ولم تطل مدته .

قُنجى[2] بن أُرْدَنو بن دوشى خان بن جنكزخان صاحب غزنة وَباميان .

توفى فى هـذه السنة ، واختلف بنو عمه وأولاده وهم : بَيَان ، وكُبـلك ، وطقتمر ، وبُغـاتمر ، ومَنقطاى ، وصاصى ، وافـترق بعضهـم من بعض ، وكان كبلك قـد استقر فى الملكُ بعد أبيه ، وسار أخـوه بيـان إلى طقطا مستنجدا ومستمدا على أخيه ، فأمدّه وعضده ، وسار كبلك إلى قيدو مُستغيثا ومُستعينا ، فأعانه وأيّده ، ثم التقى الجمعان واقتتل الأخـوان ، فكسر كبـلك وأدركه أجله ، فهلك ، واستقر بيان أخوه فى المملكة الغزنوية .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ ١ ص ٤٥٢ رقم ١١١١ .

(٢) انظر تاريخ الدول الإسلامية جـ ٢ ص ٥٠٨ حيث يوجد اختلاف فى الأسماء والسنوات إذ ورد فيه أن قونجوق خان بن دوراخان حكم من ٧٠٦ — ٧٠٨ هـ ، ثم تاليقو ٧٠٨ — ٩ ٧ هـ ، ثم كبك خان سنة ٧٠٩ هـ .

[٢٧١] فصل فيما وقع من الحوادث

في السنة الثانية بعد السبعمائة (*)

استهلت هذه السنة : والخليفة المستكفي بالله أمير المؤمنين بن الحاكم بأمر الله العباسي .

وسلطان البلاد : الملك الناصر محمد بن قلاون ، ونائبه بمصر الأمير سيف الدين سلار ، ونائب الشام الأمير جمال الدين أقوش الأفرم ، ونائب حلب شمس الدين قراسنقر ، وقضاة مصر والشام هم المتقدم ذكرهم .

وفيها : وصلت رسل من جهة قازان ، ولم تعد معهم رسل السلطان ، وقد ذكرنا أن السلطان جهز إليه الأمير حسام الدين أزدمر المجيري أحد الأمراء ، والقاضي عماد الدين بن السكري (١) من أعيان القضاة والكبراء .

وقال ابن كثير : ولم يعد رسل السلطان هؤلاء المذكورون إلا بعد هلاك قازان في أيام خربندا ، وكان وصول رسل قازان يوم الأحد الثامن من محرم هذه السنة (٢) .

وقال بيبرس في تاريخه : وتواترت الأخبار بحركة التتار ، ثم وردت كتب

(*) يوافق أولها يوم الأحد ٢٦ أغسطس ١٣٠٢ م .

(١) انظر ما سبق ص ١٥٥ .

(٢) لم يرد هذا الخبر في المطبوع الذي بين أيدينا من البداية والنهاية .

النواب بالبلاد الحلبية مخبرة بأن قطلوشاه نائب قازان قد تحرك إلى جهة الفرات ، ويُخشى من تقدمه إلى هـذه الجهات ، وأنه قدّم بين يدى قدومه كتابا محشوا من خُبثه ولُؤمه مضمونه ما معناه أن بلادهم فى هذه السنة قد أمحلت ، وأراضيهم من الأعشاب والمـراعى خلت ، وأن التتار على عزم الانتشار لارتياد المـروج والأماكن التى توجد بها المرعى ومُروج ، وربما وصلت منهم طائفة إلى صوب الفرات لأجل قصد الأعشاب ، فيحصل بهم الإرتياب ، وليس قصدهم سوى الانتجاع والنزول بهما صادفوا به خصبا من تلك البقاع ، فإذا سمع أهل البلاد الحلبية وسكان الأعمال الفراتية باقترابهم لا يبرحون من أماكنهم ولا يتزحون من مواطنهم ، فـلا بأس عليهم وليس ثمّ تعرض إليهم ، فعُلم أن هذا الكلام عين الخداع ، ولم يلج القلوب ولا الأسماع .

ثم تواترت الأخبار بقـدوم التتار ، وأنهـم جاسوا خلال الديار ، وقدمت طائفة منهـم من جهة الرحبة ، ووصلت إلى دَيْر بسـير ، وجاءت طائفـة على مرعش ، بجفلت الرعية من البلاد الحلبية ، وحصل التأهب والاهتمام ، وبرزت المراسـيم السلطانية بالاسـتخدام ، وأن كل أمـير [من الأمراء](١) بمصر والشام يَستخدم نظير الربع من عدته ويُضيفهم إلى جماعته ، وقُرّر على أهل البـلاد من الحواضر والبوادى خيّالة يقومون بهـا من أموالهـم ، ويقيمونها من أحوالهـم ، واتفقت الآراء عند الاجتماع فى المشاورة على تجـريد مقدّمة من العساكر تقوية لجأش أهـل الشام ، وتثبيتا لجيوشـه على المقام إلى أن يتضح الحـال ويزول الإشكال(٢) .

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٢) انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٣٣ ب — ٢٣٤ ب ، التحفة الملوكية ص ١٦٣ .

وقال صاحب النزهة : لما وصل القاصد إلى السلطان والأمراء ، وأخبرهم بأن قازان مجتهد على دخوله البلاد ، وقع اتفاق الأمراء مع السلطان على أنه لابدّ من تجريد عسكر ويكون صحبتهم أمير كبير يُشار إليه في الأمور ، فإن فيه إرداعا للعدو وتطمينا للإسلام وأهل القلاع والنُواب ، ويكونون مقيمين في دمشق ، فإن وجدوا حركة قازان صادقة كتبوا إلى مصر فيخرج السلطان بمن بقى من الأمراء والعساكر ، وإن كان قازان يبعث من يختاره من جنسه ، ورأى نائب الشام والأمراء أن يلاقوهم بجميع عسكر الشام ، فالرأى رأيهم [٢٧٢] في ذلك ، وإن بلغهم أن عسكر قازان كثيرون يتأخرون قدامهم منزلة بمنزلة إلى أن يدركهم السلطان مع العسكر ، وما نهضوا من المشورة حتى وقع اتفاقهم على تعيين أمراء للتجريدة .

ذكر مَنْ جُرد من الأمراء ومن مُضافيهم إلى الشام :

قال بيبرس في تاريخه : جُرِّد الأمير ركن الدين بيبرس أستاذ الدار ، والأمير حسام الدين لاجين الرومى أستاذ الدار ، والأمير سيف الدين طغريل الإيغانى ، والأمير سيف الدين كراى المنصورى السلحدار ، والأمير شمس الدين سنقرجاه المنصورى ، وجامع هذا التأليف — وأراد به نفسه بيبرس الدوادار — قال : فكنا ستة من مقدمى الألوف ، وجماعة المضافين من الأمراء والمقدمين ، فرحلنا من مسجد التبر في الثامن عشر من رجب الفرد من هذه السنة ، وسرنا على

(١) « التبن » في زبدة الفكرة .

مسجد التبر : يقع هذا المسجد خارج القاهرة قريبا من المطرية ، ويعتبر موضعه المنزلة الأولى في الطريق إلى الشام ، وتسميه العامة مسجد التبن ، وهو خطأ ، وقبر هذا أحد الأمراء الأكابر في أيام الأستاذ كافور الإخشيدى — المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٤١٣ .

اسم الله وبركته ، فلما وصلنا قاقون تواترت الأخبار بصحة وصول التتار ، وأن قازان كان فيهم ، وعبر الفرات معهم ، وبلغ إلى الرحبة ، فقصد منازلتها ورام محاولتها ، وبها يومئذ نائب يسمى علم الدين سنجر الغتمى ، فأرسل إليه الإقامات صحبة ولده ، فتلطف به واستوقفه عما أزمعه من المحاصَرة والمنازلة ، وأرسل يقول له : الملك الآن سائر إلى الشام لقصد المُدن العظام ، وهذا بلد سهل المرام ، فإذا أخذت البلاد التي قدامك وحويتَ تلك الممالك التي هي أمامك ، فهذا البلد بين يديك وما يتعسر أمرُه عليك ، وخاطبه بهذا ومثله ، فاستوقفه عن التعرض إليها ، ثم أنه رحل ولم يعج عليها ، وأخذ ولد علم الدين الغُتمى المذكور صحبته إلى بلاد الشرق ، ثم لم يلبث أن عاد راجعا وعَبر الفرات قاطعا ، وعدّى نحو بلاده مسارعا ، وجرّد من العسكر الذى وجهه نحو الشام قطلوشاه نائبه ، ومعه اثنى عشر تُومان ، لقصد هذه البلدان ، وأخبروا أنه لما عاد عن الرحبة كتب منها كتابا إلى أهل الشام يَستغْويهم ويَستْميلهم عن مضافرة أهل مصر ويخدعهم ، [وجعله ملطفا](١) ، ودسه(٢) إلى من يُوصله إليهم(٣) .

ذكر نُسخة الفرمان الذى سَطّره قازان من رحَبة الشام(٤) :

بسم الله الرحمن الرحيم

فرمان السلطان محمود غازان

ليعلم الأمير أقرم وأكابر الأمراء ، ورءاء العساكر ، والأجناد ، والقضاة

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٢) « ودس الكتاب » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٣) انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٢٤ ب — ٢٢٥ أ ، التحفة الملوكية ص ١٦٣ — ١٦٤ .

(٤) انظر نص الفرمان فى زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٢٥ أ وما بعدها .

والسادات ، والأئمة والصدور ، والأكابر ، والمشاهير والرؤساء ، وعوام الرعايا من أهل دمشق ، أنه حيث خصنا الله تعالى بالعناية الأزلية ، والسعادة الأبدية ، وشرح صدرنا للإسلام ، ونور قلبنا للإيمان ، وأورثنا سلطنة[1] الآباء والأجداد ، وأمدنا بالنُصرة المتواترة الأمداد ، تصدينا لإثابة الشكر على نعمائه حسب الإمكان ، فعاهدنا الله تعالى على ملازمة البر والإحسان ، ودفع الرزايا عن الرعايا ، وإيصال البرّ إلى البرَايا ، سَيّما طوائف المسلمين ، وطبقات المؤمنين ، وأن لا نرخص في القتال ، مالم يبدأنا به الجُهال ، فكل لبيب يعلم أن البَادى أظلم ، والذى يحقق ذلك ماعرفه الدانى والقاصى ، من طريقتنا المسلوكة مع المطيع والعاصى ، وماترتب بيننا وبين أنسابنا [٢٧٣] الأصاغر والأكابر ، وتركنا المقاتلة إلا مع بَاد مُكابر .

وحيث كان أهل مصر والشام ، يحبّون ويؤدّون قوة الإسلام ، كان الواجب عليهم إظهار السرور ، وإبداء الحُبور بإسلام ذرارى جنكزخان ، وعساكرهم التى لا غاية لأواخرهم وتؤمن غلبة المتسلطين فى تلك البلاد ، وإنفاذ الرسل إلينا عن الوداد ، وإرسال التحف والهدايا ، والشكر لله ولنا على تلك المزايا ، فما أبصرنا منهم في[2] عموم الأوقات إلا ما لا يحسن من الحركات حتى أنهم عَثُوا[3] على ماردين وديار بكر طغيانا ، وأقدموا على القتل والنهب فيها عدوانا ، فدعتنا الحمية على الإسلام إلى الفساد بالإنتقام ، وهممنا بأن نجر إليهم العساكر ، ونبيد

(١) « سلطان » في الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٢) « من » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٣) « عملوا » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

البادى منهم والحاضر ، فصادفتهم المراحم العميمة التى لم تزل لنا خلقا وشيمة ، فتوقفنا مقتدين بقوله تعالى : ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾[1] فأنفذنا الإيلجية[2] مع قضاة ثقات ، لعلهم فى أمرهم يتفكرون ، وإلى الإنابة يهتدون ، فأتوهم بصرائح النصائح ، وهدوهم إلى جُدد المصالح ، فعصى سلطان مصر عُتُوا ونفُورا ، وأودعهم السجن تجبرا وغرورا ، فأفضَتْ حركاتهم الذميمة إلى أن هال عليهم الجنود ، وحل عليهم ماحل بعاد وثمود ، ولولا رفقنا المجبول بنا لأضحَت شامُ خالية الديار .

وأما ما أصاب من[3] لاحقه بعض العساكر من بعض الرعية فما كان أحد بذلك مأمورا ، وكان أمر الله قدرا مقدورا .

وجُرْم جَرّهُ سُفهاءُ قوم فحلَّ بغيرجانيه العقابُ

ولما ثنينا عنان العزيمة تَرحُّماً[4] على البُراء من الجريمة ، ثنَّينا لتركيب الحجة الرسالة ، لعلهم ينتهون عن التمادى فى الجهالة ، فما سمعوا من الرسول قيلا ، وحبَسوه زمانا طويلا .

وأما فى الإعادة ، فقد خالفوا الذاهبين فى العادة ، لأنهم لم يصحبوه واحدا من رسلهم ، ليتداركوا ما فرط من زَللهم ، و ياليت ماحملوه من الجواب ، كان

---

(١) جزء من الآية رقم ١٥ من سورة الإسراء رقم ١٧ .

(٢) ايلجى ، و إيلجى : لفظ تركى الأصل ، وهو السفير أو المبعوث . Dozy: Supp. Dict-Ar

(٣) « وأما ما كان » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٤) « ترحنا » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

متضمنا لوجه من الصواب، فإن كتابهم دلّ على فساد آرائهم ، وتعمقهـم في متابعة أهوائهم ، فقد ضمنوا مهذين المقال مطواه ، وكتبوا اسم سلطانهم بالألقاب البليغة بالذهب أعلاه ، واسم(١) الله [تعالى](٢) ورسـوله عليه [الصـلاة و](٣) السلام بالمداد ، واسمنا بعد عدّة سطور للعناد ، فحملنا ذلك على عـدم معرفتهم بالرسـوم والآداب ، وقلة ممارستهم مراسيم الخطاب والجواب .

وحيث أردنا [أن](٤) لايتأذى بذلك المسلمون ، « صفحنا عنهـم وتلونا »(٥) : ﴿ فاصفح عنهم وقل سلام فسوف يعلمون ﴾(٦) وعاودنا إرسال(٧) الإيلجية مع أكابر القضاة ، وحملنا إليهم الخلع والموهبات ، ليسلكوا مسالك الموافقات ، ويجتنبوا جوانب المخالفات ، فوصل الخبر عقيب توجه الإيلجية أن القـوم قصدوا ديار بكر ، وحلّوا حـبى الكيد والمكر ، فأمرنا بركوب العساكر وإهـلاك الباغين بالسيوف البواتر ، فانتهى خبر ذلك إليهم ، ونزعوا من سطواتنا عليهم ، فأخذوا من ديار بكر جانبا ، وأصبح صحيح أملهم كاذبا ، لكنهم عموا على خرت برت وملطية وسيس ، وأخربوا أطرافها وحواليها بالحيلة والتلبيس ، ولا شـبهة لأحد إن خرت برت وملطيـة من ولايتنا [٢٧٤] وصاحب سـيس من الداخلين في

(١) « وباسم » في الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٢) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٣) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٤) [ ] إضافه من زبدة الفكرة .

(٥) « تلونا » في زبدة الفكرة .

(٦) الآية رقم ٨٩ من سورة الزخرف رقم ٤٣ .

(٧) « إنفاذ » في زبدة الفكرة .

شريعة طاعتنا ، وقد كانوا أظهروا للإيلجية الألية[1] ، واستلزم[2] إقدامهم على ذلك كذب القضية ، وأيضا كاتبوا الأكراد والروم بخطاب الأخ مرارا ، ودعوهم إلى إثارة الشر والفتن سرا وجهارا ، وما علموا أن صحارى بلادنا مملوءة من أمثال أولئك ، ولا التفات لأحد إلى ذلك ، وكتبوا أيضا إلى ملك الكرج بار بن داود ، وأثبتوا البر والعبودية ، مع أنه عندنا[3] خالص النية والطوية ، وحرضوه على العصيان ، والبغى والكفران ، وأرسلوا الرسل إلى طقطا وسائر أنسابنا بدست قفجاق ، وأغروهم على إظهار الخلاف والشقاق ، فوقفنا واطلعنا على مايمكرون ، وتوقفنا النظر بم يرجع المرسلون ، فلما أتوا وقصوا العجب بما رأوا ، وذكروا أنهم أمسكوا فى البيوت إلى حين الإعادة ، وقالوا هذه عادتنا وبئست العادة ، وقد أتوا بمكتوب مسطور ، على الوضع المذكور ، فأفصح ذلك أنهم يتكبرون ، وحيث يناسب التواضع يتجبرون ، وإلا كيف يسوغ أن تكون مكاتباتهم مع المذكورين كذلك ، والكتاب الذى أنفذ إلينا بذلك ، لا سيما إذا زعموا الألية وخلوص النية ، فما عساه أفضى إلى هذا الندا ، كما أفضى مرارا فيما مضى ، لكنه وصل الخبر حالته أنهم أنفذوا بيبرس بشبهة الحج مع جمع وافر ، وعموا على ملوك مكة — شرفها الله تعالى — وأخذوهم بأنهم دعوا لنا فى المواسم الشريفة ، والمقامات المنيفة ، وأى مسلم يقصد بيت الله الحرام ، الواجب تعظيمه على كافة الأنام ، وهو البيت المطهر للطائفين والعاكفين والركع السجود ، ويستوى فيه الأمير والمأمور ، والسلطان والجنود .

(١) الألى ، الإلى : النعمة — محيط المحيط .

(٢) « واستلزام » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٣) من الواضح أنه توجد ورقة ناقصة من مخطوط زبدة الفكرة تبدأ من هذا اللفظ ، وانظر نهاية هذا السقط فيما يلى .

فحيث لم يبق من وجوه العـدد شيء ، تبين أن آخر الطب الكي ، فشحذنا عرار العزم متوكلين واثقين ، بمـا عودنا الله من النصر العـزيز والفتح المبين ، ونهضنا من قرب منا من الجنـود ، ورفعنا على السماك الألوية والبنود ، عازمين على الإقامة هـذه الصيفية بالشام ، منتقمين لمـا فى الضمير من الانتقام ، والله المستعان وعليه التكلان .

وإنمـا المراد من تسطير هذا الفرمان الرابع : أنا حيث نعلم أن أهل الشام من أهـل الدهاء والفطنة ، فلا يشاركون المصريين فى الشر والفتنة ، ولا يرون بمـا يؤول إلى وقوع المصريين فى العذاب والمحنة ، أردنا أن ننبههم من رقدة الغفول ، ونوضح لهـم طرف الود والقبول ، بينا لهم أنهم هـل وجدوا فى قواعد الأصول والفروع ، وصحائف المعقول والمشروع ، وجها يقتضى أن يتبـع من ليس إتباعه ضرورة ، ولا نزلت فى وجوبه آية ولا سورة ، ويخالفوا من لا تعارض شوكته ، ولا تطاق سطوته ، فتصيبهم المحن والفناء ، وينزل بساحتهم الجهد والبلاء ، وهانحن قد وردنا بالجنود المجندة ، والجيوش المؤيدة ، وسيصل إلينا من الروم والكرج ، وتكفور والإفرنج ، عساكر لا تحصى ، [٢٧٥] كالنجوم فى موعد مقرر ووقت معلوم ، ويكون مصيف الجميـع ببـلاد الشام وحواليها ، وجبالها وصحاريها ، فكشفنا القناع وركبنا المحجـة ، وقـدمنا الوعيد وأظهرنا الحجة ، وعقدنا النية بأنه كل من سـلك سبيل مخالفتنا ، ولم ينتهج طـريق طاعتنا ، فإنا نأمر برعى فلاتهم[1] ، وسبى أزواجهم وبناتهم ، وبقطع أشجارهم ، وبقتل صغارهم وكبارهم ،

---

(١) نهاية الورقة الناقصة من مخطوط زبدة الفكرة .

ونحرق مساكنهم ، ونتبع مخافيهم ومكامنهم ، ونجعل أطلالهم ممحوة بالطمس ، وأجسادهم كأن لم تغن بالأمس .

وإن لاح لهم الاحتراز فليستدركوا فارطهم ، وليرحموا أنفسهم وأزواجهم وأولادهم وأموالهم ، وليبادروا إلى ما هو السبب للخلاص ، ويدخلوا في طاعتنا عن صدق وإخلاص ، وليتحققوا أنا لا نريد منهم خزائن ولا أموالا ، فإن الله تعالى قد أتانا من المال (ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة)(١) ، أغنانا بما أعطانا ، عما هو في أيدى من سوانا ، وفيما منحنا من المملكة العريضة ، والسلطنة المستفيضة ، والعساكر والجيوش غير المحصورة ، والألوية والأعلام المنصورة ، متسع وكفاية ، بل يخطبون باسمنا ، ويضربون(٢) الدينار بسكتنا حتى نقرر الجمهور على أمورهم ، من أميرهم ومأمورهم ، زائدين في الإقطاعات والمشاهرات ، والمرتبات والإفرارات .

ولا يخفى عليهم أن الشام كان في الأعوام الماضية ، والأيام الخالية ، تارة مع الروم وأخرى مع العراق ، وعن مصر لازال منقطع العلاق ، إلى زمان تغلب طائفة من أهل الخروج والفتن ، فكما كانوا يتصورون أن الثغر هو العراق وديار بكر ، فليتصوروا بعد اليوم أنه غزة وحدود الرمل ، وكما كانوا يستمدون منهم علينا ، يستمدون منا عليهم ، ولا يعتمدوا على القلاع ، فإنهم بالمحاصرة يعجزون ، ومن الاضطرار يسلمون ، ومهما تركوا الوساوس(٣) والخيالات ، وأطاعونا بصدق النيات ، فهم في أمان الله الملك العلام ، وأمان الرسول عليه السلام ، وأماننا في النفس والأهل والمال ، ولا تصيبهم في عساكرنا أذية في عموم الأحوال .

---

(١) جزء من الآية رقم ٧٦ من سورة القصص رقم ٢٨

(٢) « ويضربوا » في الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٣) « الوسواس » في الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

وكتب فى رابع شعبان سنة اثنتين وسبعمائة .

والحمد لله رب العالمين والصلاة على سيدنا محمد وآله الطيبين(١) الطاهرين أجمعين وسلم تسليما(٢) .

وفى نزهة الناظر: كُتب ونحن بأرض(٣) الرحبة، على عزم الركوب، فى مستهل شعبان المبارك، وقال أيضا : واتفق قبل وصول رسله حضور البطائق من حلب، تخبر عن نائب الرحبة ما أخبره .

وكان قد وصل إلى دمشق الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير بمن معه من الأمراء المجردين ، ووقفوا على سائر الأحوال ، واتفق أمرهم على أن يكتبوا للسلطان وللنائب يعرفونهم بالحال ، ويستحثوهم على الخروج ، ثم توارد خيل حلب وحماة أولا فأولا .

وكان أهل دمشق عند حضور عسكر مصر اطمأن أمرهم ، وطابت نفوسهم ، فلما وصلت جفال حلب ، أخذ كل أحد لنفسه الخلاص ، واعتدوا للرحيل ، واشتروا الدواب للسفر ، فوقع اتفاق الأمراء مع نائب الشام أن ينادى بدمشق أن أى من خرج من بيته حلّ ماله ودمه، ثم وقع اتفاق الأمراء أن يجردوا عسكرا من الشام، ويقيمون بين حماة وحمص[٢٧٦]، فيكون فى ذلك قوة وطمأنينة لأهل البلاد ، فجردوا الأمير سيف الدين بهادر آص ، والأمير سيف الدين قطلوبك المنصورى ، وآنص الجمدار ، وكتبوا لنائب حماة وطرابلس وحلب أن

(١) « الطيبين » ساقط من زبدة الفكرة .

(٢) انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٣٥ أ ــ ٢٣٧ ب ، مع ملاحظة وجود ورقة ناقصة من المخطوط والترقيم موضعها فيما بين ٢٣٦ ب و ٢٣٧ أ ــ انظر الهوامش السابقة بهذا الخصوص.

(٣) « بأرض » مكتوبة بهامش المخطوط ، وبنفس الخط ، ومنبه على موضعها بالمتن .

يركبوا بالعسكر، ويكون الجميع مقيمين بين حماة وحمص، وركبوا إلى أن وصلوا.

وفى بكرة ذلك النهار حضرت جماعة من العربان وأخبروا أن طائفة من المغل قد طرقت نحو القريتين للغارة، فاجتمع الأمراء بنائب حلب وقالوا: ينبغى أن يركب بعض العرب على الهجن ويكشف خبر هذه الطائفة وهم فى مثل ذلك، وإذا قد حضر الأمير ثابت بن يزيد وعرفهم أن الخبر صحيح، وطائفة من المغل كبست على القريتين وأخذت وتركمانها(١) وجميع ما فيها من المواشى، ولم يدعوا فيها أحدا، وساقوا أموالا عظيمة، وأنهم عازمون العود، وبكرة النهار يكونون بالقُرب من عُرْض.

ذِكر إغارة التتار على القريتين:

قال بيبرس فى تاريخه: وعند دخولنا دمشق استبشر أهلها وفرحوا، واتصل بنا اجتماع عسكر حلب صحبة الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى، نائب السلطنة بها، وعسكر حماة صحبة الأمير زين الدين كتبغا المنصورى الملقب بالعادل، وعسكر طرابلس صحبة الأمير سيف الدين أسندمر الكرجى نائب السلطنة بها، ومَن كان قد جُرِّدَ إليهم من العساكر الدمشقية وهم: الأمير سيف الدين بهادر آص، والأمير سيف الدين آنص الجمدار وغيرهما، واتفق وصول مقدمة التتار إلى قريب القريتين(٢) فأغاروا عليها فى خمسة آلاف فارس، وبها جمع كثير من التركمان الجافلين(٣) بحريمهم وأولادهم وأغنامهم، فوقع التتار

(١) هكذا بالأصل، ويبدو أن هناك كلمة ساقطة قبل ذلك اللفظ.

(٢) بلدة كبيرة من أعمال حمص، وتدعى حوارين — معجم البلدان.

(٣) «الحالين» فى الأصل، والتصحيح من زبدة الفكرة.

عليهم وحَوَوهم وما في يديهم ، فاتصل بهـؤلاء [الأمراء](١) الخبر ، فركبوا على الأثر ، وجردوا سيف الدين أسندمر ، وسيف الدين بهادرآص ، وسيف الدين آنص ، وسيف الدين تمـر الساقي ، وشجاع الدين غرلو(٢) الزيني مملوك الأمير زين الدين كتبغا ، وهو يومئذ من أمراء حماة ، وناصر الدين محمد ولد الأمير شمس الدين قراسنقر المنصوري ، في ألف وخمسمائة فارس إلى نحو هؤلاء التتار الذين شنوا هذه الغارة ، فساقوا(٣) خلفهـم إلى مكان يسمى عُرُض(٤) ، فوجدوهم قـد نزلوا بما كسبوا ، واطمأنوا بما غنموا ، وفرحوا بما أوتوا ، فأشرفـوا عليهم وأقبلوا من أمامهم ، فظن هؤلاء أنهم من عسكرهم قد جاءوا في أثرهم ، فما تحركوا من أماكنهم حتى خالطوهم واتصلوا بهم ، فتحققوا أنهم من العساكر الإسلامية والعصابة المحمدية ، فاعتزلوا ناحية وتركوا المواشي والغنائم مهملةً ليتشاغل العسكر بالنهب وينهمكوا على الكسب ، فينالـوا منهـم الغَرض إذا تشاغلوا بالعَرَض ، ففطن الأمراء بمكائدهم ، وعرفوا أن المكر عادتهم ، فما عرجوا على الغنائم ، بل تفرقوا على القوم أربـع فرقات ، وجاؤوهم من أربـع جهات ، ورتبوا أن الفرقة الواحدة تحمل عليهم وتتقدم إليهم ، فإذا اشتغلوا بقتالها واستعدوا لنزالها

---

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٢) « أغرلو » في زبدة الفكرة .

(٣) آخر ما وجد من هذا النص في زبدة الفكرة ، ويبدو أن هناك أوراق ناقصة وساقطة من من الترقيم في زبدة الفكرة فيما بين الورقة ٢٣٨ ب ، والورقة ٢٣٩ أ . أنظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٣٨ ب . وانظر التحفة الملوكية ص ١٦٤ – ١٦٥ ، حيث يوجد باقي النص ولكن مع اختلاف في الألفاظ .

(٤) عرض : بلدة في برية الشام بين تدمر والرصافة الهاشمية — معجم البلدان .

يحيط بهم الفرق الثلاث من سائر الجهات ، ففعلوا كذلك وأخاطوا بهم ندهكوهم [٢٧٧] بهذا التدبير ، وغلب القليل من المسلمين جمعهم الكثير ، وكسروهم ، واستنقذوا التركمان الذين كانوا أسروهم ، وخلصوا النسوان والولدان ، واقتلعوا منهـم المواشي والأموال ، وأبـلوا بلاء حسنا ، وفازوا بالأجر والثناء ، وتفاءلوا بهذه البداية المباركة ، وأيقنوا النُصرة المتداركة ، وكانت هـذه مقدمة لنتيجة الظفر ، وقضية موجبة للتأييد المنتظر ، سالبة ما استلبه فُراط التتر ، ولم يُستشهد في الوقعة إلا الأمير سـيف الدين آنص الجمدار ، وناصر الدين محمد بن باشقرد النـاصري .

وقال صاحب النزهة : كان السبب لغارة المغل على القريتين أن قطلوجا لمـا عدى الفرات طلب بعض أمراء التوامين وقال له : اركب بمن معك من عسكرك ، وأغر على طريقك أى جهـة رأيتها قريبة منك ، واقتـل وانهب واسبْ وسُق ما تجده وما تقدر عليه من أسْرى المسلمين ، وكان قصد بذلك إيقاع هيبته في قلوب الرعية والعسا كر ، ثم أنه أول ما جاءت طريقـه على القريتين رأى بهـا بيوت التركمان والعرب والخـلق الكثير ، وقد سرحوا مواشيهـم إلى أن سدت تلك تلك الأرض ، فضربوا عليهـم حلقة ووضعوا فيهـم السيوف ، فلما رأوهم صاحوا بالأمان ، وأقاموا ذلك اليوم وتلك الليلة ، إلى أن ساقوا جميع أموالهم ، وأخذوا مواشيهـم ، وشرعوا في أخذ الرجال والنساء والأطفال ، وربطوا الجميع أسْرى ، وساقوهم بين أيديهم ، والرجال تبكى ، والنساء يَصحْن ، والأطفـال يتصاعون .

فلما جاء الخبر بذلك إلى الأمراء عينوا جماعة من الأمراء وهم الذين ذكرناهم ومعهم يزيد بن ثابت بجماعة من عَربه ، وكلهم بالهجن راكبون ، وفرس كل

واحد منهم جنيبا على يده ، وساروا ذلك اليوم إلى أن دخل عليهم الليل فاستراحوا ساعة واحدة ، وجاء في ذلك الوقت بعض العرب وأخبرهم أن العدو يكونون في نصف الليل نازلين على عُرْض بمن معهم من الكَسْب والأَسْرى ، فركبوا وساروا الليل كله إلى أن انشق الفجر ، وجاء في ذلك الوقت بعض العرب أيضا وأخبروا أن العدو قد نزلوا في الليل وإنكم قربتم منهم ، ثم أن الأمراء نزلوا واستراحوا ، وتوضؤوا لصلاة الفرض ، ثم بعدها صلاة الموت ، وودّع بعضهم بعضا ، ثم ساقوا على نفس واحد إلى أن طلع قرص الشمس ، فتراءت مضارب العدو ، وكانوا تحت تل من تلك الأرض ، فساق الأمراء بمن معهم إلى أن ركبوا التلّ ، ثم قال لهم سيف الدين بهادر آص : إعلموا يا أمراء أن هذه الوقعة هي وقعة الانفصال بيننا وبينهم ، فإن كانت النصرة لنا فهي بشارة تستمر بنا ، وإن كان غير ذلك فنعوذ بالله . وقال الأمير سيف الدين أسندمر : كل زوجة لي طالق وكل جارية ومملوك لي حرّ إن ولّيت ظهري حتى أبلغ قصدي ، وإن مت فما يكون لي موتة أكرم منها ، ثم شرع كل واحد منهم يقول بمثل هذه المقالة ، وكانت العدو في المقام ، وكان يحرسهم أمير ومعه خمسمائة فارس ، وأول من حمل بمن معه الأمير سيف الدين أسندمر ، وصاح الله أكبر ، فجاوبه العسكر بصوت واحد حتى الأَسْرى : الله أكبر ، الله أكبر [٢٧٨] ، وكانت الأَسْرى نحوا من ستة آلاف نفس .

وكانت هذه الساعة ساعة عظيمة ، وقتل المسلمون منهم خلقا كثيرا ، وأفنوا أكثرهم على السيف ، وأسروا منهم نحو مائة وثمانين أسيرا ، ومَن وجد مجروحًا قتلوه ، ثم كتبوا بهذا الفتوح لنائب حلب ونائب حماة ، ورفعوا بعد ذلك طالبين الأمراء .

وكانت الوقعة فى الحادى عشر من شعبان من هـذه السنة ، واستشهد فيها الأمير آنص ، وناصر الدين بن الباشقردى الناصرى ، ونحو ستة وخمسين من الجند ومماليك الأمراء ، وجرحت نحو ثمانين نفرا[1] ، وقتلت خيول كثيرة .

ولما سبق البشير إلى الأمراء، ركب الأمير شمس الدين قراسنقر نائب حلب ، والأمير زين الدين كتبغا نائب حماة ، وبقية الأمراء والعسكر ، والتقوهم ودعوا لهم ، وفرحوا .

ولما نزلوا الخيم اجتمع رأيهم على أن يكتبوا لنائب الشام والأمراء المصريين ويُبشّرونهم بما فتح الله من النصر على الأعداء ، وخلاص أسرى المسلمين ، فكتبوا كتابا ، وخلّقوا عنوانه ، وأول الكتاب :

بسم الله الرحمن الرحيم «إنا فتحنا لك فتحا مبينا»[2] ، «وينصرك الله نصرا عزيزا»[3] .

ثم عرفوهم بما اتفق من لطف الله تعالى ونَصْره ، فاستبشرت الأمراء بذلك ، وضربت البشائر، وفرح أهل دمشق وشكروا الله على ذلك، وتيقن كل أحد منهم أنهم منصورون على عدوهم .

ثم فى ذلك الوقت وصلت جماعة من العرب وأخبروا أن قطلوشاه جاسَ خلال الديار ، وقد سارت خيوله سيرا غير حثيث ينتظر قازان يأتى من بعده ، فاتفق رأى الأمراء على أن يكتبوا للسلطان ويستحثوه على الخروج بالعسكر ، ويعرفوه بما اتفق من النصر، فلما وصل الكتاب إلى السلطان فرح فرحا عظيما ، وأمر بعرض العساكر والخروج سريعا .

(١) هكذا بالأصل .

(٢) الآية رقم ١ من سورة الفتح رقم ٤٨ .

(٣) الآية رقم ٣ من سورة الفتح رقم ٤٨ .

وقال ابن كثير : قدمت الأسارى دمشق يوم الخميس منتصف شعبان ، وكان يوم خميس النصارى ، ثم لما قوى خبر التتار خافت الأمراء والعسكر أن يدهمهم التتار لاقتراب مجيئهم ، فرحلوا ونزلوا المرج يوم الأحد الخامس والعشرين من شعبان ، ودخل التتار إلى حمص وبعلبك ، وعاثوا في تلك الأرض فسادا ، وقلق الناس قلقا عظيما وخافوا خوفا شديدا ، واختبطت دمشق لتأخير قدوم السلطان ببقية الجيش . وقال الناس : لا طاقة لجيش الشام مع هؤلاء المصريين بلقاء العدو لكثرتهم ، وتحدث الناس بالأراجيف ، فاجتمع الأمراء يوم الأحد المذكور بالميدان الأخضر وتحالفوا على لقاء العدو ، وشجعوا أنفسهم ، ونُودى في البلدان لا يجفل أحد ، فسكن الناس ، وجلس القضاة بالجامع ، وحلفوا جماعة من الفقهاء والعامة على حضور الغزاة ، وتوجه الشيخ تقى الدين بن تيمية رحمه الله إلى العسكر الواصل من حماة ، فاجتمع بهم في القطيعة فأعلمهم بما تحالف عليه الأمراء والناس من لقاء العدو ، فأجابوا إلى ذلك ، وحلفوا معه .

وكان الشيخ ابن تيمية يحلف للأمراء وللناس أنكم لمنصورون في هذه الكرة على التتار ، ثم يقول إن شاء تحقيقا لا تعليقا ، وكان يتأول في ذلك أشياء [٢٧٩] منها قوله تعالى : ﴿ ذلك ومَن عاقب بمثل ما عوقب به ثم بُغى عليه لينصرنه الله إنّ الله لعفو غفور ﴾ (١) .

ولما كان يوم الأربعاء الثامن والعشرين من شعبان (٢) : خرجت العساكر الشامية فخيمت على الجُسور ومعهم القضاة .

---

(١) الآية رقم ٦٠ من سورة الحج رقم ٢٢ .
البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢٣ .

(٢) « ولما كان يوم الرابع والعشرين من شعبان » في البداية والنهاية .

ولما كان ليلة الخميس : ساروا إلى ناحية الكسوة ، وقد وصلت التتار إلى القطيعة ، فانزعج الناس لذلك ، ولم يبق حول دمشق من القرى والحواضر أحد ، وامتلأت القلعة ، وازدحم الناس فى المنازل والطرقات ، وخرج تقى الدين بن تيمية صبيحة يوم الخميس المذكور من باب النصر بمشقة كبيرة ، وفى صحبته جماعة ليشهد القتال بنفسه ومن معه ، وبقى البلد ليس فيه حاكم ، وعاثت اللصوص والحرافيش فى بساتين الناس يخربون وينهبون ، وانقطعت الطريق إلى الكسوة ، وظهرت الوحشة على البلد ، ويتعجبون من أمر الجيش مع كثرتهم أين ذهبوا ، ولا يدرون ماذا فعل الله بالناس ، فانقطعت الآمال ، وألحّ الناس فى الدعاء والابتهال (١) .

ذكر ما جرى لعسكر الشام وما فعل التتار القادمون :

ولما كان الناس فى الحيرة والدهشة من قدوم التتار وتأخر السلطان ، وعدم علمهم بأمر عسكر الشام ، جاء فخر الدين إياس — أحد أمراء دمشق — آخر نهار يوم الخميس التاسع والعشرين من شعبان يُبشر بوصول السلطان واجتماع العساكر المصرية والشامية ، وقد أرسل ليكشف هل طرق البلد أحد من التتار ، فوجد الذين يكشفون الخبر أن التتار قد عرجوا عن دمشق إلى ناحية العساكر ، ولم يشتغلوا بالبلد ، لأنهم كانوا يقولون : إن غَلَبْنا فالبلد لنا وإن غُلِبنا فلا حاجة لنا به ، فعند ذلك نودى فى البلد بتطييب الخواطر لأن السلطان قد وصل وإن التتار غير متوجهين إلى البلد ، فسكنت قلوب الناس ، والله المستعان (٢) .

(١) انظر البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢٤ حيث يوجد اختلاف فى بعض الألفاظ وإضافات لا تغير المعنى .

(٢) البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢٤ — ٢٥ .

وقال بيبرس فى تاريخه : ولما عاد التتار الذين انهزموا من القريتين اجتمعوا مع بقية عساكرهم وتحدثوا فى مشاورهم وقالوا : إن السلطان لم يتحرك من الديار المصرية فى هذه الأيام ، وما ثم إلاّ بعض العسكر المصرى وعسكر الشام ، واتفقوا على المبادرة ليغتنموا الفرصة — على زعمهم — وأقبلوا مسرعين بطمّهم ورمهم ، فكثرت الأراجيف لمفاجأتهم والإنذار بمهاجمتهم ، هذا والسلطان ومن معه لم يتحقق حالهم ، ولا علم قبالهم ، فتقسمت الأفكار والظنون ، وتطلعت لقدومه العيون ، واجتمعنا للاستخارة ، واقتدحنا زناد الاستشارة ، فأجمعنا على استطلاع الحال قبل العزم على الترحال .

قال : فتوجهتُ(١) مستكشفا ، وللأخبار متعرفا ، فلما وصلنا القطيعة صادفنا عسكر حلب وحمص وحماة قد تقدموا جائين ، وأقبلوا متواترين ، وأخبروا بأن العدو سائر سير المُجِدّ فى الرواح والغدو ، وقد اقترب الإقدام من الأقوام ، ودنت الخيام من الخيام ، فرجعنا إلى مرج راهط ، وخرج الأمير ركن الدين الأستادادار ، والأمير جمال الدين أقوش الأفرم ، ومعهما الأمراء المصريون والشاميون ، فاقتضت الآراء التأخر عن المرج قليلا والنزول من دونه ولو ميلا ، ريثما يحصل التوثق من وصول السلطان واجتماع العساكر قبل أن يلتقى الجمعان ، فلما رجعوا إلى خلف شيئا [٢٨٠] يسيرا ولّت الأطلاب ، وعادت العساكر على الأعقاب حتى إن أكثرهم ترك حماله ، ورمى أثقاله ، وأهمل قماشه وماله ، ولم يتهيّأ ردّهم ولا أمكن صدّهم ، وعبروا على مدينة دمشق بهذه الصورة ، فتصدعت قلوب أهلها المكسورة ، وعجّوا وضجوا واستصرخوا ولجوّا ، وحملهم ما دهموه

(١) أول ما وجد من هذا النص فى نسخة مخطوط زبدة الفكرة التى بين أيدينا — انظر ما سبق ص ٢١٧ هامش رقم ٣ .

من انتقاض العزائم على أن صرحوا بالشتائم ، وبادر أكثرهم بالحفل لينجو ، وقالوا : إذا رجعت هنا العساكر فأى حياة نرجو ، فحصل بلطف الله التوقف والتثبط والتمسك بالمرج والتضبط ، فما كان إلا كلمح شرارة أو وحى إشارة حتى أتى البريد مخبرا بإقبال الملك الناصر وأطلاب العساكر ، فزال البأس وغلب الرجاء اليأس ، ثم أقبل السلطان فى جيوشه ، وأسوده الكاشرة ووحوشه ، فقويت القلوب ، وانحلت الكروب ، واجتمعت العساكر المصرية والشامية وتكتبت الكتائب المحمدية (١) .

وقال صاحب النزهة : وقد كان السلطان كتب إلى نائب الشام والأمراء وعرفهم بأنه خرج من مصر وصحبته الخليفة المستكفى بالله أبو الربيع سليمان ، فلما وصل إليهم الخبر فرحوا واستبشروا بذلك وطابت خواطر العامة بكون العسكر مقيمين عندهم ، وكون السلطان فى الطريق وهو جاى .

وفى ثالث اليوم من ذلك : جاءت الأمراء المقيمون بمصر وهم : نائب حلب ، ونائب حماة ، ونائب طرابلس ، فلاقتهم الأمراء الذين بدمشق واجتمعوا ، فلما نزلوا للمشورة تحققوا أن قطلوبغا نائب قازان بمن معه من العسكر قد وصل إلى قرون حماة طالبا دمشق طلبا لقلعتها ، فإنه بلغه ما جرى على السرية التى غارت على أهل القريتين ، وبلغه أن نائب الشام متوجها للقائه بعسكر الشام ، فعند ذلك اجتمعت سائر الأمراء : نائب حلب قراسنقر ، ونائب حماة كتبغا العادل ، ونائب طرابلس أسندمر ، ونائب الشام الأفرم ، والأمير ركن الدين

---

(١) « كان قدوم السلطان فى يوم السبت مستهل شهر رمضان » — انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٢٩ أ ، ب .

بيبرس الجاشنكير ، والأمير حسام الدين الرومى ، ومبارز الدين بن قرمان ، وكراى المنصورى ، وتُغريل النُوغاى ، وسائر أمراء مصر والشام ، على أنهم يخرجون إلى مرج دمشق ويلاقون العدو فيه ، ولا يدعونهم يدخلون دمشق .

فلما انتظم الحال على هذا لم يعجب هذا الرأى الحسام الأستاذ الدار ولا تحدث معهم فى هذا الرأى . فقال له بيبرس : مالك لا تتكلم مع الأمراء ؟ فهذا ليس وقت السكوت ، وأنت رجل كبير ورأيت ما لا رأيناه ، وجرت عليك التجاريب ، فلا يحل لك أن تسكت ، فإن رأيت خيرا من هذا الرأى تكلم ، حتى نُوافقك على هذا إن رأيناه مصلحة ، وإلا فأنت تعلم شيئا فيه مصلحة وتسكت عنه تُطَالب به يوم القيامة . فقال يا أمراء : أنا أقول ما أعلم أنه يُخَلِّصنى عند الله تعالى ، ولكن ما يُعجب ذلك بعض الأمراء . قال له بيبرس : قل حتى نسمع . فقال : إعلموا أن هذا عدو ثقيل ، وهو قاصدكم وطامع فيكم لكون أنكم نواب البلاد ، ولا يعلم أن عسكر مصر مع السلطان ، قد قربوا منكم ، فمتى لاقيناهم يجرى علينا ما لا نحبه من غلبة العدو علينا ، فيتفرق شمل العسكر الذين تجمعوا ، ويحضر السلطان والعسكر على حال الفساد ، ويكون العدو خلفنا ، فيتوهم عسكر السلطان ، وتنكسر قلوب الناس ، [٢٨١] ويقع العتب علينا أيضا من السلطان حيث يقول : كنتم صبرتم حتى اجتمعنا كلنا جملة ، والحال أنكم سمعتم بقدومى ، فلا يفيد بعد ذلك الندم ، وهذا السلطان قد قرب وبقى بيننا وبينه يوم أو يومان ، والمصلحة عندى أن نرجع إليه ، ونجتمع بين يديه ، وتكون الآراء رأيا واحدا ، واللقاء جملة واحدة ، ويعطى الله النصر لمن يشاء .

فلما سمع بيبرس هذا الكلام التفت إلى الأمراء فقال : والله أنا لا أخرج من إشارة هذا ، فإن الذى قاله وأشار إليه ما عليه فيه جُناح عند الله ، ثم قال نائب الشام للحسام الأستاذ الدار : يا أمير أنت إذا خرجت الساعة يُغير العدو على دمشق من بعدك ، ويضع السيف فى أهلها ، فماذا يكون عذرك عند الله ؟ فقال له الحسام : يا أمير إن العدو إذا علم بخروج العسكر من دمشق لا يلتفت إليها ، ولا يكون عزمه إلا على اللحوق بالعسكر ويقول : إن دمشق فى يدنا ، ومع هذا يتوهم عن خروج العسكر .

فلما سمع الأمراء هذا الكلام منه أمروا ساعتئذ بقلع الخيام والركوب ، ونادى المنادى بالرحيل ، فوقع الصوت فى دمشق ، فتحير أهلها ودهشوا بحيث لا يغفل الوالد على ولده ، ولا الولد على والده ، وسَيَّبت النساء والبنات ، وغلت أسعار الجمال والحمير ، فبلغ كل حمار كان يساوى مائة بخمسمائة وستمائة ، وكل جمل كان يساوى ثلاثمائة بيع بألف وأكثر ، وفى الناس مَن نجا بنفسه وخلّى حريمه ، ومن كان ظهره ثقيلا طلع القلعة ، وما جاء الليل إلا ودمشق يبكى عليها ويَندبُها النوادب .

وأما الجند والعسكر فإن أحدا منهم لا يلتفت إلى رفيقه ولا إلى خشداشه ، ولا ينظر المملوك إلى أستاذه ، وخرجت الغلمان والحمالة على وجوهها ، والصناديق التى فيها الأكل والحلواء يرمونها لأجل الخفة ، وكان يوما عظيما ، وأما فقراء دمشق ومشايخها وصلحاؤها وفقهاؤها وقضاتها ، فقد اجتمعوا بالجامع الأموى ، ووطنوا أنفسهم على الموت ، وكشفوا رؤوسهم يتضرعون إلى الله تعالى ويبكون ، ولم يزالوا كذلك إلى أن طلع الفجر ، ولاحت للناس مواكب العدو وجحافله ،

وقد رجعوا عن دمشق وركبوا أعالي الغوطة ، ففرحت الناس لذلك وعلموا أن الله قد استجاب دعاءهم ورحمهم .

وكان سبب عدولهم عن دمشق أن جواسيس قطلوشاه قد حضروا إليه في الليل ، وعرفوه أن النواب مع عساكرهم ، لما سمعوا بوصولك إليهم ، وتحققوا أن عسكرك عظيم ، وأنهم ليس لهم طاقة للملاقاة ، اتفقوا على أن يخلوا لك دمشق حتى تدخل إليها وتشتغل بأهلها ، وينجون هؤلاء بأنفسهم ، مع أنا سمعنا أن لهم عسكرا خرجوا من مصر وهـم مقبلون ، فهؤلاء قد ذهبوا إليهم حتى يعتضدون بهم ، ثم يرجعون جملة واحدة ويعملون شيئا وأنتم مشغول في المدينة ، فلما سمع قطلوشاه ذلك أعلم أمراءه بذلك وأكابر عسكره ، واتفق رأيهم أن لا يدخلوا دمشق ، فإنه إن دخلوا يفسد أمرهـم ويشتغل العسكر بالكسب ، فيحصل الفساد إن عاد عسكرهم علينا ، ومع هذا يمكن أن يكون هذا مكيدة من نائب الشام ، فعند ذلك ركبوا وقصدوا الطريق التي من وراء المرج حتى ينزلون من خلف دمشق على الكسوة ، ثم يتتبعون آثار [٢٨٢] عسكر الشام ، فحيثما يتلاقون بهم يحطمونهم .

فلما رأت أهل دمشق ذلك حمدوا الله تعالى . واستمروا مقيمين في الجامع ، مشتغلين بالدعاء والقنوت في الصلوات .

قال الراوي : وكان يوم خروج الشاميين من دمشق يوم نزول السلطان الملك الناصر بعساكره على رأس العقبة ، وكان يوم استهلال شهر رمضان المعظم .

ذكر خروج السلطان من القاهرة ووصوله إلى شقحب :

كان خروج السلطان من مصر في الثالث من شعبان من هذه السنة ، وأسرع

فى السير إلى أن وصل إلى رأس العقبة مستهل رمضان كما ذكرنا ، والتقى الأمراء بالسلطان وترجلوا وباسوا الأرض ، وما لحقوا أن يقفوا إلا وأجناد العدو قد وصلت بوصوله ، فوقف السلطان وأمر للنقباء والحجاب أن يدوروا على الجيش ويأمروهم بلبس الأسلحة والاستعداد للملاقاة ، وبقى السلطان والأمراء راكبين فى الموكب سائرين ، واستعد العساكر باللُبْس والتجهيز .

وفى ذلك الوقت وقع كلام فج بين الأمير شمس الدين سنقر العلائى — أحد الأمراء البرجية — وبين الأمير حسام الدين الأستادار، وكان هذا سنقر من جمرة البرجية التى تتعد وكان مُدلا بشبابه وقوة ساعده وفروسيته ، ولما رأى الأمراء سَلّم عليهم ، ورآهم على تلك الصورة ، أنكر عليهم ، فصار كل أحد منهم يحكى له حكاية ، ومال بعضهم فيها على حسام الدين الأستادار حيث أنه منع العسكر عن ملاقاة العدو، وترك دمشق وأخذ العسكر وأخلاها ، وأشار إليهم أن الملاقاة تكون بحضور السلطان ، وأن الأمير ركن الدين بيبرس وافقه على هذا الرأى ، فتبعته الأمراء ، فما سمع سنقر هذا الكلام إلّا وقد ركض فرسه وسط الموكب وقال للأمير بيبرس : يا أمير إش هذا الرأى الذى فعلته بالناس حتى أفسدت حال العسكر، وكسرت قلوب أهل دمشق، ونهبت أموالهم، وسمعت من واحد قد كبر وخرف وما يشتهى الموت ، والأمير حسام الدين إلى جانب السلطان يتحدث معه ويَسمعُ كلامه ، ثم التفت بيبرس إليه وقال له : اسكت ، ما هذا الكلام؟ ، ثم قال حسام الدين : يا أمير — يخاطب سُنقرا — أما أنا فإنى أشرتُ إليهم ، فالله يُطالبنى بها يوم القيامة إن كان قصدى فساد المسلمين ، وأما أنى كبرت فصحيح ، ولكنى ما خرفت ، فوقع بينهما كلام كثير ، ثم غضب بيبرس وصاح علي سنقر العلائي وأخرجه من مكان كان واقفا فيه .

قال الراوى : سمعت من قال : إنى رأيتُ حسام الدين تخرجُ الدموعَ من عينيه ، وقد بلّت شيبته ، وهو يتمثل بأبيات من شعر الطغرائى :

تقدّمنى رجال كان سوطهم		وراء خطوى إذا أمشى على مهل
هذا جزاء امرئ أقرانُه درَجوا		من قبله فتمنى فسحة الأجل

ذكرُ وَقْعة شقحب :

قال صاحب النزهة : هذه الوقعة عرفت بين الناس بوقعة شقحب ، ثم بغباغب ، فإنها كانت مشتملة على طرف شقحب وغباغب والضمين .

قلت : هذه أسماء قرى هناك ، وهى فى أراضى وَعِرة ذات أحجار سُود .

[٢٨٣]

قال بيبرس فى تاريخه : ذكر كسرة التتار على مَرْج الصُفَّر فى غُرّة الشهر الأزهر : لما انتظم شمل العسكر انتظام الجمان ، واصطفت صفوفه كأنها[(1)] بنيان ، أضحوا كما قال أبو الطيب المتنبى :

وإذا رأيت[(2)] إلى السهول رأيتها		تحت العجاج فوارسًا وجنائبا
وإذا نظرت إلى الجبال رأيتها		فوق السهول عواسلا وقواضبا
فكأنما كُسى النهار بها دُجىً		ليل واطلعت الرماح كواكبا
أسدٌ فرائسُها الأسود يَقودهم		أسد تصيرُ له الأُسود ثعالبا[(3)]

(١) « كا » فى الأصل ، والتصحيح من زبدة الفكرة .

(٢) « وإذا نظرت » فى زبدة الفكرة .

(٣) انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٣٩ ب .

وقال النُويرى : لما وصل الملك الناصر رتب العساكر الإسلامية ميمنة ومَيْسرةً وقلبا ، والتقى الفريقان بمَرج الصُّفَّر نصف النهار .

وقال صاحب النزهة : وكما قدر الله تعالى وصول السلطان والعسكر وجدوا قطلو شاه ومن معه من المغل قد وصلوا ،ووقف على أعلا النهر وقد نظروا العساكر من عُلوه ، فظنوا أنها عسكر الشام ، فتباشروا ، وأخذت الحجاب فى ترتيب المواكب والأمراء والمقدّمين ، واجتمع الجميع قدام السلطان ، وحضر الخليفة أبو الربيع ، ووقفت أكابر الأمراء والنُواب ، وأجمعوا على تعيين أمراء للميمنة ، وأمراء للميسرة .

ووقف السلطان فى القلب بلوائه ، والخليفة بإزائه ، والأمير سيف الدين سلار ، والأمير ركن الدين أستادار ، والأمير عز الدين أيبك الخزندار ، والأمير سيف الدين بكتمر أمير جاندار ، والأمير جمال الدين أقوش نائب الشام ومن معه من عساكر الشام ، وبلرغى ، وأيبك الحموى ، وبكتمر الأبو بكرى ، وقطلوبك ، ونُوغيه السلحدار ، وأغرلو الزينى .

وفى الميمنة : الأمير حسام الدين الرومى أستاذ الدار ، والأمير جمال الدين أقوش الموصلى ، والأمير بهاء الدين يعقوبا الشهرزورى ، والأمير مبارز الدين بن قزمان ، ومبارز الدين سوارى أمير سنجار .

وفى الميسرة : الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح ، والأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى نائب حلب ومن معه من العسكر الحلبى ، والأمير سيف الدين بتخاص المنصورى نائب صفد ، والأمير سيف الدين طغريل الإيغانى ، والأمير بكتمر السلحدار ، والأمير بيبرس الدوادار صاحب التاريخ .

وفي الجناح الأيمن : الأمير سيف الدين قفجاق نائب حماة ومعه العسكر الحموية ، وجماعة العربان فيهم مهنى وآل فضل .

وقال صاحب النزهة : وفي الجناح الأيمن شمس الدين قراسنقر نائب حلب مع مهنى وآل فضل ، والأمير بهاء الدين أولياء بن قرمان ، وفي الجناح الأيسر : سيف الدين بُرلغي ، وعلم الدين الجاولي ، وشمس الدين سنقر الكمالي .

وقال صاحب النزهة : كانت الأمراء قصدوا أن يعزلوا السلطان مع جماعة بناحية عن المصَاف ، فأبى ذلك ولام الأمراء وقال : والله أنا أول من يحمل قدامكم . فقال له أسندمر كُرجي نائب طرابلس : ياخوند نحن ما نريد منك أن تحمل ، ولا للملوك عادة بالجملة ، ولكن إثبت أنت مكانك ، فإذا ثبت السلطان [٢٨٤] ثبت العسكر . فقال له : يا أمير إن اخترتم هاتوا قيدا فقيّدوا فرسي به حتى أموت وهو واقف ، فأعجب ذلك الأمراء ودعوا له .

وقال ابن كثير : ولما اصطفت العساكر والتحم القتال ثبت السلطان ثباتا عظيما ، ويقال : إنه أمر بجواده فقيد حتى لا يهرب (١) ، وبايع الله تعالى في ذلك الموقف (٢) .

وقال صاحب النزهة : ولما تكامل ما رتبوا وقف كل أحد مكانه ، والخليفة إلى جانب السلطان يتلو كتاب الله ويذكر ما أعدّ الله للجاهدين من الثواب والأجر ، ويقول : أيها المجاهدون لا تقاتلوا لأجل سلطانكم ، فقاتلوا لأجل حريمكم ، فعند ذلك ما كنت ترى إلا أدمعا على الخدود ترادف ، وزعقات من صميم

---

(١) « ويقال أنه » ساقط من البداية والنهاية .

(٢) البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢٦ .

الأكباد تتضاعف، وعاينت جماعة من الجند وقع بهم الاختلال فى عقولهم فى ذلك الوقت ووقعوا إلى الأرض، وبقى الأمير سيف الدين سلار فى حفدته ومضافيه، والأمير ركن الدين فى حفدته من البُرجية ومضافيه، يترددان بين القلب والميمنة، وكان هـؤلاء جمرة الإسلام، وعليهم العمدة فى الأحكام، وكل منهما فى نحـو أربعين طباخاناة.

قال الراوى: وبلغنى من أحد الأمراء أنه سمع بيبرس يقول: أنا عاهدت نفسى الموت، وذلك حين قال له سلار: يا أخى أنت تعلم أن الحديث فينا كثير، وأنا نسبونى إلى التتار لكونى من جنسهم، وأنت نسبوك إلى أنك تبغض الجند، فبالله أوص لأصحابك بالثبات وإلا لايبقى لنـا وجه عند أحد بعد هـذا اليوم، وتعاهدوا، ووثق بعضهـم بكلام بعض، ثم نشروا السناجق والأعلام الخليفتية والسلطانيـة، وسيروا النقباء فداروا على الركبدارية والغلمان والجمالة، وجمعوا الجمـع، وأوقفوهم صفا واحدا خلف أستاذيهم ليكثر بهـم السواد، ونادى منادى: أى جندى خرج من المصاف بغير عذر أو جرح، فدمُه حلال، وعدته وفرسه لهم، وكذلك الجمالة والغلمان.

ذكُر ما اعتمد عليه قطلُوشاه فى ذلك اليوم:

ولمـا تناهى ترتيب المسلمين، عاين ذلك قطلوشاه مقـدم المغل وهـو أعلى الخيل، وهو فى جيش قد سَـدّ السهل والوعر، ثم شرع فى ترتيب أمره، فقصد أن يرتب مقابل كل موكب موكبا، وجمع الأمراء على ذلك، فلم يجد فى أمرهم فسحة، ووجد مَيسرة المسلمين قد انتشرت، وبينهم وبين التتار النهر الكبير هنالك فلا يمكن الوصول إليهم، فمشوا إلى آخر النهـر إلى أن وصـلوا إلي

رأس الميمنة ، فوجدوا النهر رائجا مديدا ، ولكن وجدوا مخافا للجبل ، فتشاوروا فى أمر نزولهم ، واتفق رأيهم على أنهم لايجـدون مـكانا للنزول أسهل من هذه المخاضة ، وأنهم ينزلون جملة واحدة ، وأنهم إذا كسروا هذه الطائفـة التى بين أيديهـم يدورون خلف الذين يبقون ، فإنهـم لمـا رأوا ميمنـة المسلمين ورأوا عسكرهم أمثال هؤلاء استحقروهم .

وقال بيبرس : وفى الوقت الحاضر أقبلت كراديس التتار كقطـع الليل ، لا يبين فيها الرجل من الخيـل ، وقد علاهم القتام والغبار ، وفيهم من مقدميهم الكبار : قطلوشـاه ، وسُـوتاى [٢٨٥] أقطاجى ، وجـوبان بن تُداون ، ومولاى ، وقرمشى بن الناق ،(١) [وطوغان](٢) ، وسبوشى بن قطلوشاه ، وطغريل ابن آجاى ، وآبشقا ، وأولا جغان ، والكان ، وطَيطق فى مائة ألف من المغـول والكرج والأرمن وغيرهم(٣) .

ذكر كيفية الوَقْعَة :

قال صاحب النزهة : لمـا رأت التتار عسكر الإسلام وهم على الجبل صاحوا وضربوا الطبول ، ونزلوا وقد أحاطوا النهر ، ووقفوا عند المخاضة ، وكان مُقابلهم من ذلك الجانب الأمير حسام الدين الأستادار ، والأمـير بهاء الدين أوليا بن قزمان ، ولمـا رآهم حسام الدين قال : بسم الله نية الغزاة ، فجذب سيفه ومشى ، وقال بعض مماليكه : ياخوند ارجع قليلا عن يمينك أو عن شمالك ، فلم يلتفت

(١) « ومـولاى ، وقرمشى بن النـاق » مكتوبة بهامش المخطـوط ، ومنبه على موضعهـا بالمتن .

(٢) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٣) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٤٠ ب .

إليهم إلى أن صدمته الخيل ، وصدمت ابن قزمان أيضا ، فكان الإثنان بينهم كالواحد فى ألف ، فإن الجميع اجتمعوا على مخاضة واحدة ، وطلعوا طلوع رجل واحد ، وكان الأمير الجاولى رديفهم ، و برلغى رديف الجاولى ، والأمراء متصلون بعضهم ببعض ، وارتفع الغبار ، ولم يشعر الناس إلا وقد اندق الجاولى و بُرلغى على الكمالى ، ورأى بيبرس وسلاّر ذلك ، فصاح سلار : هلك والله الإسلام ، وصاح على بيبرس والأمراء البرجية ، فنهض الأمراء المنهزمون وصدموا جيش المغل ، فرجّعوها قهرا ، ورموا منهم جماعة كثيرة إلى أن كشفوهم عن المسلمين .

وكان جُوبان وقرمشى ومَن معهما قد ساقوا يَعينون مُولاى وهو خلف المسلمين ، فرأوا قطلوشاه وقد انكسر ، فعادوا إليه ، ووقف فى وجه بيبرس وسلار .

وكان السلطان والأمراء قد رأوا سلاّر و بيبرس قد خلى مكانهما ، ورأوا أطلاب العدو تتواتر ، فخرج أسندمر وقطلبك وقفجق والمماليك السلطانية وردفوهما ، ولما رأى سلار السلطان والأمراء أخذ على جانب وتمكن من العدو ، وطعن فيهم وأبادهم ، ولم يبق أمير إلا وقد ألقى نفسه للموت ، فلما رأى المغل ذلك أخذوا جهةً وتمكنوا منها ، وكان الأمير سيف الدين برلغى بين أيديهم ، فصدموه ومزّقوا طلبه وفرقوه ، ثم صاروا أىّ جهة مالوا إليها فرقوها ، وتم الحرب بين سلار بمن معه من الأمراء والسلطان و بين قطلوشاه تارة تارة ، وكل من الفريقين قد ثبت .

ولم يعلم سلار والأمراء أن الجانب الذى نزلوا عليه قتَلت أمراؤهم وانهزم من كان معهم ، وأن طائفة من المغل ساقت وراء المنهزمين ، وفى ذلك نُهبت

خزائن السلطان ، فإن الكسرة حيث انتهت بالمسلمين على تلك الطريق جعلت الناس بين أيديهم ، وتفرق مَن كان حول الخزائن ، ولما رأى السواد الأعظم ذلك صاروا يبركون جمال الخزائن البخاتى و يكسرون الصناديق ، و يخرجون أكياس الذهب والفضة ، فيأخذ كل أحد ما يقدر عليه .

ومازالت الحرب بينهم إلى أن مالت الشمس للغروب ، وكان الملتقى بينهم بعد الظهر ، ثم مال قطلوشاه بمن معه إلى جانب جبل [٢٨٦] إلى جانبه ، وطلع عليه وفى نفسه أنه منصور ، ورجع جماعة منهم كانوا وراء المنهزمين ، ومعهم جماعة من أمراء المسلمين وفيهم الأمير عز الدين أيدمر النقيب من المماليك السلطانية ، فلما اجتمعوا قال قطلوشاه : هذا عسكر كثير وليس الأمر كما ظننا فلابد أن نعلم خبرهم ، فاقتضى رأيهم أن يُحضروا أسيرًا من الأَسرى ويستخبروا منه خبر العسكر ، وقالوا لقطلوشاه : إن فى الأسرى رجلا وهو أمير ، وهو عز الدين أيدمر المذكور ، فأمر بإحضاره ، فأحضروه بين يديه وقال : أنت من أمراء الشام ؟ قال : لا أنا من أمراء مصر . فقال له : وما جاء بك ههنا؟ فقال : جئت مع السلطان . قال : مع الملك الناصر . قال : نعم ، قال : وأين السلطان وعسكر مصر ؟ قال : الكل واقفون . قال له : وعسكر مصر جميعهم الساعة ههنا حاضرون والملك الناصر حاضر . قال له : نعم . قال : فأى وقت وصلتم إلى ههنا ، فأخذ يُعرفه ويُخبره بجميع أمور السلطان من يوم خرج من مصر إلى هذا اليوم . ومن جملة ما قال له : هذا الذى كسرتموه من الميمنة فقط ، وعسكر الملك الناصر كثير ، فلم يصدقوه حتى أحضروا غيره ، فسألوه فأخبر نحو ما أخبره عز الدين أيدمر ، ثم سألوا غيره وغيره إلى أن سألوا جماعة كثيرة ، فالكل أخبروا بخبر واحد ، ولما تحققوا صدق مقالهم وقعوا فى بحر زخار ، فقال لهم مُولاي :

تحققتم أن هذا هو الملك الناصر قالوا : ما بقى شك فى أمره ، فقال : ألم تعلموا أن الخان قازان قد كتب يغلق(١) ، وعاهدنا أننا إذا رأينا أو سمعنا أن الملك الناصر حاضر بعسكره أو بغير عسكره لا نضرب معه مصافا ؟ فقال له قطلوشاه : لو علمنا من الأول أن الملك الناصر حاضر ههنا ما ضربنا معه رأسا ، ولكن اعتقادنا أنه نائب الشام مع عسكر الشام ، والآن فقد وقعنا كلنا فى فم السبع فما بقى إلّا الموت جميعا أو الحياة جميعا ، وهم فى مثل ذلك الكلام إذا بالكوسات قد دُقّت والبوقات قد زعقت ، حتى ملأت الأرض وأزعجت القلوب ، وكان ذلك برأى الأمراء حيث رأوا التتار قد تجمعوا فوق الجبل حتى تقع الهيبة فى قلوبهم ، وحتى يسمع المنهزمون فيرجعون .

ولما سمعوا حسّ الكوسات ، قال مولاى لقطلوشاه : هذا الطبل ما يدق إلّا للسلطان ، وأنا ما أخالف يسق الخان ، فضرب طبله وخرج من قدام قطلوشاه بتومانه ، ونزل من الجبل بين العشائين ، ولم يزل إلى أن طلع من المخاضة التى نزلوا منها ، وعلم به بعض العسكر ، فلم يجسر أحد أن يقرب به ولا أن يتبعه .

وبات الأمراء والناس فى هذه الليلة والنيران قد ملأت الأرض ، والمشاعل توقد ، وكذلك التتار قد اوقدوا النيران وباتوا محترسين على أنفسهم ، ولم يزل فى تلك الليلة النقباء والحجاب ومعهم سلار و بيبرس وأسندمر وقبجق وأكابر الأمراء دائرين على الأمراء والأجناد يوصونهم بأن يكونوا على يقظة من أمرهم ، فعرفهم الأمير سيف الدين قفجق أن التتار لو قتلوا عن [٢٨٧] آخرهم فى هذا المكان ما ينزل أحد منهم فى الليل ولا يقاتل ، وإنما لابد لهم من النزول غدا .

---

(١) أى مرسوم .

ذكر هزيمة التتار :

قال الراوى : وما أصبح الصباح إلا وقد انضم شمل عساكر السلطان ، وأخذ كل أحد موضعه ، وأما قطلوشاه فإنه شاور مع بعض الأمراء الكبار الذين معه فيما يفعله ، وقد تحققوا فى أنفسهم الموت ، فوقع رأيهم على أن يقيموا على الجبل ولا ينزلوا ويقاتلوا العسكر إلى أن يفنوا ولا يسلموا أنفسهم ، ومازالوا محترسين على أنفسهم الى أن طلعت الشمس وقوى نورها ، فنظروا إلى عسكر قد ملأ الأرض ، ولم يروا مثلهم فى أعمارهم ، وأراهم الله فى عيونهم فى كثرة لا تحصى ولا تعد .

ثم شرع المسلمون يُريدون أن يهجموا عليهم ، فمنعهم الأمراء ، وفرقوا العساكر حول الجبل على بعد .

وشرع قطلوشاه والأمراء ورتبوا عسكرهم ، فجعلوا كل مقدم إلى جهة ، ونزل منهم بعض ركاب وجماعة من الرجالة وقصدوا قتال العسكر .

ولما رأى السلطان والأمراء ذلك جعلوا قبالة كل مقدم مع طائفته أميرا من الأمراء ، وأضافوا إليه مَن كان يناسبُه ، وخرج مماليك السلطان إلى مقابل قطلوشاه وجوبان ، فشرعوا يقاتلون معهم تارة بالرمى وتارة بالهجوم عليهم ، وقد لاح للإسلام وجه النصر على الأعداء ، وصار كل مقدم من الأمراء يُقاتل بالنوبة ، يقاتل واحد ثم يذهب ويجيء غيره ، وكذلك فعل المغل ، والسلطان والأمراء واقفون ينظرون إليهم ، فإذا قتل فرس واحد منهم أحضروا غيره فى الساعة حتى أن بعضهم كان يقتل له فرس وفرسان وثلاثة من النَشاب .

ولم يزالوا فى القتال إلى أن توسطت الشمس من نهار الأحد ، وانفصل القتال بينهم ، وطلع قطاوشاه ومن معـه من التتار وقد قاسوا نهارا عظيما ، وقتل منهم نحو ثمانين رجلا ، وخرجت جماعة وركبتهم الذلّة ، وقاسـوا من قلة المـاء أمرا عظيما لأنهم لم يحسنوا انحصارهم على الجبـل ، فمـا أخذوا من المـاء إلا قليلا ، ولمـا رأوا ذلك أجمعـوا على النزول بكرة النهـار ، فمَن مات مات ومن له أجل عاش ، وذبحوا من خيولهم وشووا وأكلوا .

ولمـا أصبحوا اعتمدوا على النزول ، وهرب منهم ناس من الأسرى وجاءوا إلى السلطان وأخبروه بمـا هم فيـه من الذلة والعطش والخوف ، وأنهـم اتفقوا على أن يصدموا الجيش ، وأنهـم قد تحققوا الموت ، فعند ذلك تشاور أكابر الأمراء ، ووقع رأيهم على أن يفسحوا لهم طريقا ولا يتقرب إليهم أحد إلى أن ينزل الجميع قدام العسكر ، ثم يركبون ظهورهم .

ولمـا أرادوا النزول رأوا جماعة من المغل قد عدمت خيولهم وبقوا رجالة ، وما بقى مع أحد من الأمراء فضلة خيل ، فاتفقوا أن يأخذوا خيول الأرمن الذين معهم ، فأخذوا منهم نحو مائتى فرس وأعطوا هؤلاء ، ثم شرعوا فى تجهيز حالهم إلى الساعة الرابعة من النهار ، ثم ضربوا طبولهـم ونزلوا ، وكل منهـم قد أعدّ نفسه للموت وتموا سائقين إلى أن وصلوا إلى النهر ، ورموا خيولهم فيه ، فمن كان فرسه قويا طلع ، ومن كان فرسُه قليل القوة وقف فيه ، ولمـا طلعوا [٢٨٨] منه تبعتهم خيول المسلمين ، وأنزل الله عليهم الذلة والمسكنة ، ومُزّقت جموعهم ، وتفرقوا بحيث لم يلتفت أحد إلى أحد .

وكانت تلك الأراضى وعرةً كما ذكرنا لا يتمكن الفرس من حـط رجلها إلا على حجر ، فقاست خيول المسلمين من ذلك شدة .

وأما التتار فإن راكبا منهـم ما يهربُ مقدار رمية نشاب إلا وقـد وقع على الأرض .

ولو عاينت ما كنت ترى غير رؤوس تُرمى بالسيوف ، ورجال يُقبض عليهم بالأيادى والكفوف ، وتمت خيل المسلمين تابعة أثرهم إلى أن صار وقت العصر ، فرجعت الأمراء واجتمعوا عند السلطان ، واتفق رأيهم على تجريد أمراء يتبعونهم ، فجردت جماعة منهم بمضافيهم من أصحاب الخيول الجياد ، فتزودوا وساروا وراءهم ، ورسم للعرب أيضا أن يتبعوا آثارهم ، فأىّ موضع أدركوا منهم جماعة يقبضون عليهم ويقتلونهم ويأسرونهم .

وقال النويرى : التقى الفريقان بمـرج الصفر نصف النهـار ، فاضطربت ميمنة المسلمين ، واستشهد جمـاعة من الأمراء ، وانهزم بعضهم إلى دمشق ، وأردف القلب الميمنة فردّت التتار عنهـا ، وأما الميسرة فثبتت وحملت على ميمنة التتار وكان مقدمهم مولاى ، فولى منهزما وتبعهم المسلمون ، وحجز الليل بينهم ، والتجأ التتار إلى الجبل وأحاطت العساكر الإسلامية بهم وضايقوهم أشد مضايقة إلى الصباح ، ثم أفرج لهم الأمير أسندمر فرجة من رأس الميسرة ، فخرجوا منها هاربين على أعقابهم ، وتبعتهم العساكر الإســلامية فأبادوهم قتلا وأسرا وغنموا منهم خيلا عظيمة حتى بيع الأكديش بخمسة دراهم .

وقال ابن كثير (١) : وأصبح الناس يوم الجمعة أول رمضان فى هم شديد وخوف أكيد لا يعلمون ما خبر الناس ، فبينما هم كذلك إذ جاء الأمـير غرلو العادلى ، فاجتمع بنائب القلعة ، ثم عاد سريعا ولم يدر أحد ما الخـبر ، ولم يفهم أحد من العامة فيم جاء غُرلو .

(١) انظر البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢٥ ـــ ٢٦ .

وأصبح الناس يوم السبت على ما كانوا عليه من شدة الحال ، فرأوا [من المآذن](١) سوادا وغبرة من ناحية العسكر والعدو ، فغلب على الظنون أن الوقعة فى هذا اليوم ، فابتهلوا إلى الله بالدعاء فى الجامع والبلد ، وطلعت النساء والصغار على الأسطحة ، وكشفوا رءوسهم وضج البلد ضجة عظيمة ، ووقع فى ذلك الوقت مطر عظيم غزير ، ثم سكن الناس .

فلما كان بعد الظهر قرئت بطاقة بالجامع تتضمن أن فى الساعة الثانية من نهار السبت هذا اجتمعت الجيوش ، ووصل الركاب السلطانى إلى مرج الصُفّر ، وفيه طلب الدعاء من الناس ، والأمر بحفظ القلعة والتحرز على الأسوار ، فدعى الناس فى المأذنة والجامع والبلد ، وانقضى النهار ، وكان يوما مزعجا هائلا .

وأصبح الناس يوم الأحد يتحدثون بكسر التتار ، وخرج ناس إلى ناحية الكسوة ، فرجعوا ومعهم شىء من المكاسب [٢٨٩] ورءوس التتار ، وصارت أدلة الكسر تقوى قليلا قليلا ، ولكن الناس مما عندهم من شدة الخوف لا يصدقون .

فلما كان بعد الظهر قُرئ كتاب السلطان إلى متولى القلعة يخبر باجتماع الجيش ظهر السبت بشقحب وبالكسرة ، ثم جاءت بطاقة بعد العصر من النائب جمال الدين الأفرم إلى نائب الغيبة مضمونها أن الوقعة كانت من العصر يوم السبت إلى الساعة الثانية من يوم الأحد ، وأن السيف كان يعمل فى رقابهم ليلا ونهارا ، وأنهم وهنوا وركنوا إلى الفرار ، وأنه لا يسلم منهم إلا القليل ، فأمسى الناس وقد استقرت خواطرهم ودقت البشائر بالقلعة .

---

(١) [ ] إضافة للتوضيح من البداية والنهاية .

وفى يوم الإثنين الرابع من رمضان : رجع الناس من الكسوة ، ودخل ابن تيمية وأصحابه البلد ، ففرح الناس به ودعوا له ، وذلك لأنه ندب العسكر الشامى إلى أن يسير إلى ناحية السلطان ، وحرض السلطان وبشره وجعل يحلف له بالله الذى لا إله إلا هو إنكم منصورون عليهم فى هذه الكرة ، ويقول : إن شاء الله تحقيقا لا تعليقا ، وأفتى للناس بالفطر يومئذ ، وكان يدور على الأطلاب فيأكل من شىء معه من يده فيأكل الناس ويتناول فى الشاميين قوله عليه السلام : (إنكم تلاقوا العدو غدا والفطر أقوى لكم [1]) ، يعزم عليهم فى الفطر عام الفتح ، كما فى حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه .

وأما السلطان فإنه رجع مع الأمراء إلى مكان الوقعة ، فوجدوا المجاهدين قد ملأوا تلك الأرض ، وهم بين تلك الأحجار مطروحين ، وكل من رأوه وجدوه مستقبل القبلة ، وسبابته تشير بالشهادة ، ووجهه يتقد نورا ، فكأنه فى حال الحياة ، وكل من رأوا من قتلى المغل وجدوه ماقى على وجهه ، ثم أمر السلطان بأن يروح بدر الدين الفتاح مبشرا إلى مصر ، وكتب معه كتاب البشارة ، وكان النائب فى مصر عز الدين البغدادى ، وكتب إلى غزة أيضا بالبشارة ، وأمر النائب فيها أن لا يمكن أحدا من المنهزمين من التوجه إلى مصر ،

(١) قال أبو سعيد الخدرى : خرجنا مع النبى صلى الله عليه وسلم فى رمضان عام الفتح ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم ونصوم ، حتى بلغ منزلا من المنازل فقال : « إنكم قد دنوتم من عدوكم ، والفطر أقوى لكم » ، فأصبحنا منا الصائم ومنا المفطر ، قال : ثم سرنا فنزلنا منزلا فقال : « إنكم تصبحون عدوكم والفطر أقوى لكم فأفطروا » ، فكانت عزيمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم . انظر سنن أبى داود جـ ٢ ص ٣٢٨ كتاب الصوم — باب الصوم فى السفر حديث رقم ٢٤٠٦ ؛ وانظر أيضا البداية والنهاية جـ ١٤ ص ١٤ ص ٢٥ — ٢٦ .

وكتب أيضا إلى سائر القلاع والحصون بالبشارة والتهنئة بما فتح الله على الإسلام بالنصر على الأعداء، وأقام السلطان إلى يوم الثلاثاء، ثم ركب إلى نحو دمشق .

ذكر دخول السلطان دمشق مؤيدا منصورا :

قال ابن كثير : ثم دخل السلطان إلى دمشق يوم الثلاثاء خامس رمضان ، وبين يديه أبو الربيع سليمان الخليفة ونزل بالقصر الأبلق ، ثم تحول إلى القلعة يوم الخميس ، وصلى بها الجمعة ، وخلع على النواب وأمرهم بالرجوع إلى بلادهم ، واستقرت الخواطر ، وذهب الناس ، وطابت قلوب الناس .

ولما دخل السلطان دمشق خرجت إليه سائر الدماشقة من الصلحاء والمشايخ والحكام والكُتاب والعامة حتى لم يبق بدمشق مخلوق ، وتلقوه بالدعاء والثناء ، وازدحموا عليه حتى لم يبق لفرسه مكان يمشي عليه من كثرة العامة ، وضُربت البشائر والكوسات ، وسيقت الأسارى بين يدى موكبه مقرنين فى الأصفاد ، وسناجقهم بأيديهم منكوسة ، وطبولهم معكوسة .

وكان السلطان لما دخل دمشق ولى وعزل ، وأمر ونهى ، وقطع ووصل ، [٢٩٠] وعزل ابن النحاس عن ولاية المدينة ، وعوض عنه بالأمير علاء الدين أيدغدى أمير علم ، وعزل صارم الدين إبراهيم والى الخاص عن ولاية البر ، وعوض عنه بحسام الدين لاجين الصغير رحمه الله (١) .

ذكر ما جرى للتتار بعد انهزامهم :

وقال صاحب النزهة : لما انكسرت التتار انتشروا فى الأرض ، فكان

(١) يوجد هذا النص ملخصا فى البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢٦ .

الرجل منهم يقع من نفسه ، وآخر يقف فرسه فينزل ويمشى ساعة ، ثم يقطع من لباده الذى عليه قطعة فيلفها على رجليه ، هـذا هم الذين غفل عسكر الإسلام عنهم ، وأما الذى يصادفه أحد منهم فإما يقتله أو يأسره ويقوده مثل الكلاب ، وقد ملئت الأرض من دمائهم ومن أجسادهم ، فأوقع الله عليهم الذلة والصغار حتى يقبض على واحد منهم فلا يمـد يده ولا يقاتل ، وإذا كان فى يده قوس أو سيف يرميه إلى الأرض ، وإذا رأى الرجل طالبه يمدّ رقبته إليه ويسلم نفسه من غـير قتال ، وقتلت منهـم الغلمان والحرافيش خلقا كثيرا ، وكانت الجنـد ومماليك الأمراء يتذاكرون فى قتلاهم ، فمنهم من يقول : قتلت عشرين ، وآخر يقـول : قتلت ثلاثين ، وآخر يقـــول : قتلتُ عشرة ، ونحـو ذلك ، وأما العـرب فقـد فعلوا بهـم من النهب والقتل ما لا يحصى ، ومنهم خلق كثير ماتـوا عطشا فى البرارى ، وكذلك دوابهـم ، ومنهـم ناس التجأوا ببساتين دمشق فدخلوا فيها ، فكان الرجل يجىء إلى بستانه فيجد فيها اثنين وثلاثة فيقتلهم ، ولا يقدر أحد منهم على منعه من الخوف والجوع والتعب ، ولما علم الأمراء بذلك نادوا فى دمشق إن من وجد أحدا من المغل أو الأرمن ولم يحضره إلى نائب الشام فقد حل دمه ، فصار من يظفر بواحد منهم أو أكثر يأتى به إلى النائب ، فالنائب إما يقتله وإما يستخلصه لنفسه .

وقال بيبرس فى تاريخـه[١] : لما حصل التظافر[٢] على التتار أسرع[٣] مولاى أحد

(١) النص التالى اختصره العينى من زبدة الفكرة ، ولم ينقـله نصا ــ زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٤١ أ ــ ٢٤١ ب .

(٢) « وحصل التضافر » ــ فى زبدة الفكرة .

(٣) « فأسرع » . ــ فى زبدة الفكرة ، ويبدو أن العينى عدل بعض الحروف ليتسق الكلام .

مقـدميهم فى الفرار ، وفر معـه منهم زهـاء عشرين ألفا ، ثم افـترق التتار ثلاث فرق : الأولى فرقة فيها جوبان فى زهاء ثلاثين ألفا ، والثانية فرقـة فيها قطلوشاه ومعه تقدير ثلاثين ألفا ، والفرقة الثالثة كانت مع طيطاق تقدير عشرين ألفا ، فحملت العساكر عليهـم فصيروهم رميما ، وركبوا أكتافهم فغادروهم هشيما .

ولمـا كان من غد يوم الوقعة يوم الإثنين ثالث رمضان : جرد خيل الطلب فى الآثار ، فكان فيها الأمير سيف الدين سلار، والأمير عز الدين أيبك الخزندار وتتابعت العساكر تقفو قفى التتار، وتأخذ من حماتهم وكماتهم الثأر بالبتّار ، فامتلأت من قتلاهم القفار ، وأمسوا حديثا فى الأمصار ، وعبرة لأولى الأبصار :

مضوا متسابقى[1] الأعضاء فيهـم لأرجلهم بارؤسهـم[2] عثار
إذا فاتوا[3] السيوف تناولتهـم بأسياف من العطش القفار[4]

وسرح السلطان واحدا من أسراهم ليخبرهم بما تم ، وأرسـل على يده كتابا تحدث فيه بنعمة ربه وما منحه من نُصرة حزبه .

---

(١) « تتسابق » فى التحفة الملوكية .

(٢) « لأروسهم بأرجلهم » فى التحفه الملوكية .

(٣) « فات » فى التحفة الملوكية .

(٤) انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٤١ أ ، ب ، وانظر التحفة الملوكية ص ١٦٧ حيث يوجد بيتان آخران .

ذكر نسخة الكتاب الصادر [٢٩١] من السلطان من مرج الصفّر إلى قازان فى رابع شهر رمضان (١) :

الحمدُ لله على ما جدّد لنا من النعمة التامة، وسمح به من الكرامة العامّة حين أعاد النعيم إلى كماله، والسرور إلى أتم حاله، فاستأنست النفوس إلى استمرار عوائدها، وارتاحت القلوب إلى مُعجز فوائدها، وأضاءَتْ شمسُ المعالى، وطلعت بدورُها بالسعدِ المتوالى، إذْ كانت غلطة من الدهر فاستَدْركها، وسقطة بدت عنه فما تركها، فقرّت بذلك العُيون، وتحققت فى بلُوغ الآمال الظنون، فلله الشكر الجزيل ما أومض فى الجو بارق، وسرى فى الآفاق نجم طارق.

وبعد: فليعلم الملكُ الجليل محمود، جامع الجيوش وحاشدُ الجنود، أنه تظاهر بدين الإسلام، وأشهر ذلك بين الأنام، وأبطن خلاف ما ظهر، وتظاهر بالباطل والحقّ ستَر، ثم فعَل ما قدره الله عز وجل وما حكم به القدَر، فحملنا ذلك على أنه تقدير، وأن ليس يجدى فيما أراد الله عز وجل تدبير، فما لبث الملك إلا أيسرَ مُدّة، وأرسلَ رسله إلينا مجدّه، وهو يطلبُ الصلحَ ويُحرِضُ عليه، ويذكر الإسلام ويَندُبُ إليه، وزعم أنه ليس يختار الفساد فى الأرض، فإن الواجب علينا وعليه إصلاح ذوى الدين وأنّ ذلك فرض، فعلمنا مقصده فى مقاله، وتسترّ منا بستر يلوح وجه القدر من خلاله، فأكرمنا رُسله كرامة تليق بفعالنا، وسمعنا رسالتهم وجاوبناهم على مقتضى حالهم لا مقتضى حالنا، وأعدناهم إليه بما هم مُصرّون عليه، فعاد رسوله يطلب رسولا يُسمع

(١) انظر نص الخطاب فى كنز الدرر ج ٩ ص ١١٩ أ — ١٢٢ أ، حيث يوجد اختلاف فى بعض الألفاظ ولكنها لا تغير من المعنى.

كلامه ، وليس يخفى عنا مقصده ومرامه ، فأرسلنا إليه ما طلب ، وركبناه فرس البغى فيا بئس ما ركب .

فما كان إلا عند وُصول رسلنا إليه ، بجهز عسكره وأظهر من الغدر مالم يكن يخفى عليه ، وأمرهم بما عاد وباله عليهم ، وحرضهم على ما وجدوه حاضرا لديهم ، ثم تقدّم معهم وعدى بهم ماء الفرات ، وجهزهم ورجع ، وعلم أن الغلبة من قراه ، فما كان إلا أن دخلوا البلاد ، وعملوا بما أمرهم من الفساد ، وتفرقت خُيولهم فى الأطراف والأوقاف ، وقطعوا أيدى الأشجار وأرجل الزُروع من خلاف ، ونزلوا بالقُرب من حلب ، وشنوا الغارات وجدوا فى الطلب ، وجيوشنا الشامية لهم بالمرصاد ، قد أخلصوا لله تعالى نيّة الجهاد ، وهم يتقدمون إليهم كل وقت ويظهرون لهم الضعف والتأخير ليتوسطوا البلاد ويحصل هناك التدبير ، فعاد منهم تُومان إلى القريتين ، بجهز من جيوشنا إليهم ألفان ، فوجدوهم قد أخذوا أغنام التركمان ، فوافوهم بالقرب من عُرْض فكانا كفرسى رهان ، فلم يلبث الباغون(﴿ساعةً من النهار﴾)(١) ، حتى عجل الله بأرواحهم إلى النار ، وبقيت أجسادهم ملقاة بأرض عُرض إلى يوم العَرْض ، ولم يفلت منهم إلا من يفعل الخير ، إنهم قد صاروا أخيارا ، ثم أُخذ منهم جماعة أسارى : كرج ، وأرمن ، ومغل ، ونصارى .

فما أقنعهم ذلك ، ولا اكتفى بأرواحهم مالك ، [٢٩٢] وهموا طالبين الغُوطة ، ولم يعلموا أن من دونها رماحا مَشْرُوعة وجيادا مَرْبُوطة ، وعساكر يتأخرون عنهم قليلا بعد قليل ، وجيوشنا ترصدهم بالغداة والأصيل ، فلما عاينوا دمشق المحروسة ظنوا أنهم بدخولها يستبشرون ، وما علموا أنهم من حولها إلى

(١) جزء من الآية ٣٥ من سورة الأحقاف رقم ٤٦ .

جهنم يُحشرون ، فعبروا عليها وطلعوا إلى جبل يُعرف بالمانع ، فأخذ الرعب من قلوبهم بالمجامع ، وتحققوا أن نتيجة الغدر الهلاك ، وأن مصرع البغي ليس لهم منه فكاك ، فمالوا إلى جانب البرية للفرار ، وطلبوا أطراف الميمنة للذلة والانكسار ، فضربت عليهم جيوشنا حَلَقا ، وسلبوهم أثواب الحياة والبقاء ، ودارت بهم الخيول وبثت سنابكها سماء من العجاج نجومها الأسِنَّة ، فطارت إليهم عُقبان من الجياد قوادمها القوادم وخوافيها الأعِنَّة ، وتصوبت عيون السُّمْرِ إلى قلوبهم كأنها تطلب سُوَيْداها ، وقصدت أنهار السيوف أكبادهم فكأنها أرادت تُروى صداها ، فشربوا كأس المنون لما تبلجت صفحات الصِفاح ، وعانتهم عيون الرماح ، وأنشأت لهم الحوافرُ غمامةً من الغُبار ، ونزلت عليهم أمطار من السهام كمطار الشرار ، وأخذتهم رعود من الصهيل ، وأبرقت في جوانبها بُروق من كل سيف صقيل ، ولم تغب الشمس حتى افترشوا أديم الأرض والوَعر والسَّهْل ، والتجأ من بقي منهم إلى جبل يعصمهم من القتل ، وباتوا عليه ليلة الأحد ، وأيقنوا أن ليس ينجو منهم أحد ، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة ، وأيسوا من الخلاص وقنطوا من السلامة ، وضاقت عليهم الأرض بما رَحُبت ، وظنوا أن أرواحهم من أجسادهم قد ذهبت ، ونادوا بلسان حالهم ، وقد قربت مدة آجالهم ، اعتقنا أيُّها الملك الرحيم ، واعُف عنا أيها الملك العظيم ، فإننا جميعنا مُسْلمون ولا تُؤاخذنا بما جناه كُفارنا المسرفون ، فإننا منهم بريئون ، فأردنا أن يطاب النصر من حيث عوّدنا من العفو ، فأمرنا جيوشنا أن تفتح لهم طريقا ليذهبوا ، وتركناهم من فعالنا يتعجبوا ، ففروا فرار الشاة من الأسد ، ولم يلتفت منهم والد إلى ولد

فلو رأيت أيها الملكُ ذلك اليوم ، لبقيت زمانا يروعك رؤياه فى النوم ، وما كنت ترى من جيشك إلا قتيلا أو أسيرا (وكان يوما على الكافرين عسيرا)(١) فلله درّه من يوم تصاحب فيه الذئب والنمر ، والقيدُ والأَسر ، وهلك الذين هم ديوية الفرسان ، قد قادهم الذل والصغار ورماة العربان ، والكرج قد لحقت بقية آثارهم ، وعجل الله بدمارهم ، والأرمن وقد سِيق من سلم منهم فى القيود إلى خزانة البنود(٢) .

ولو نظرت عيناك ما جرى من أرض حوران إلى الفرات ، لراعك وأرعبك من الهول ما كنت تراه ، ولو رأيت أصحابك كيف بقوا طعم الرخم والذباب ، لقات من هول ما شاهدت : ﴿ يا ليتنى كنت ترابا ﴾(٣) ، وكيف لك بالتراب ؟ ولكن روعك من السماع أسهل عليك من العيان ، [٢٩٣] فنظرك إلى من عاد إليك من أصحابك يكفيك فى البيان ، وإنما لو حضرت لرأيت ذلك المقام مشهود ، الذى فيه الملائكة شهود .

ولقد نصحنا لك أيها الملك فما ارعويتَ ، وبذلنا من القول فما رعيت ، وركبت من خيل البغى أجرى كُميت ، وقلنا لك إن مَنْ جرد سيف البغى كان به المقتول ، فلم تعِ القول ولم تُصغ لمن يقول ، فاستيقظ لنفسك ، وتلق هذه المصيبة التى تدخل بها إلى رمسك ، ولا يغرك بالله الغرور ، واعلم أن ذلك فى

(١) جزء من الآية ٢٦ من سورة الفرقان رقم ٢٥ .

(٢) خزانة البنود ، أنشاها الخليفة الظاهر الفاطمى بالقاهرة فيما بين قصر الشوق وباب العيد لخزن وصنع أنواع البنود من الرايات والأعلام ، ثم احترقت سنة ٤٦١ هـ ، وجعلت بعد ذلك حبسا للأمراء والوزراء والأعيان ، وفى العصر الأيوبى أصبحت منازل للأسرى من الفرنج وغيرهم — صبح الأعشى جـ ٣ ص ٣٥٤ ، المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٤٢٣ .

(٣) جزء من الآية رقم ٤٠ من سورة النبأ رقم ٧٨ .

الكتاب مسطور ، واندك المين بالإيمان ، ودع عنك ما يُسوله الشيطان ، فإنه ما يأمرك إلا بما جنيت ثماره ، ولا تحصد إلا مازرعت بذاره .

وأنت تزعم أن الإسلام شريعتك وبه تدين ، فنجتمع نحن وأنت على كلمة الإيمان ، ﴿ ولا تعثوا فى الأرض مفسدين ﴾[1] ونخرج عن بغداد والعراق ونعيدها إلى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، الذى شرق به ظلام الآفاق ، ونتبع نحن وأنت أمره ونؤيد به هذا الدين ، ومن فعل غير هذا فعليه اللعنة إلى يوم الدين ، لتعلم أنك كما تزعم متمسك بشريعة المسلمين ، وإن أنت سولت لك نفسك خلاف ذلك ، فأنت لا محالة هالك ، وعن قليل تخلو منك العراق والعجم ، ويصير وجودك إلى العدم ، وقد أوضحنا لك القول لكيلا تميل ، وهديناك إلى أقوم سَبيل ، ثم تتقدم بإرسال رسلنا المُسيّرة إليك فى أتم الكرامة ، وتُسيّر معهم من يوصلهم إلينا فى حرز الأمن والسلامة ، وترتحل بمن بقى من جيشك إلى طبرستان ، وتخلى لمالكيها هذه الأوطان .

وبلغنا أنك قلت إن خيلك ورَجلك تدخل الديار المصرية ، فقد صدقت أنت لكن المُنجمين غلطوا فى القضية ، أما الخيل فإنها دخلت مجنوبة ، وأما الرجال فكان فى حلوقهم الطبول وبأيديهم الصناجق مقلوبة ، فقد صدقت منهم المقال ، وتباركت بهذا الفأل ، وعن قليل نأتيك برجال تميد من تحتها الأرض وترجف ، فترى ما يهولك حتى تتمنى أن تنجو ولو على بطنك تزحف ، فتيقظ من رقدة المنام ، وبادر الرحيل ، والسلام .

(١) جزء من الآية رقم ٦٠ من سورة البقرة رقم ٢ .

ذكر من استشهد من أمراء المسلمين :

الأمير حسام الدين الأستادار ، والأمير مبارز الدين أوليا بن قرمان ، والأمير شمس الدين سنقر الكافرى ، والأمير عز الدين أيدمر الشمسى القشاش ، والأمير جمال الدين أقوش الشمسى الحاجب ، وعز الدين أيدمر الرفا المنصورى ، وعز الدين أيدمر النقيب ، وعلاء الدين على [ابن][(١)] دُقَّا الزكانى ، وحسام الدين على بن باخل ، واستشهد من أجناد الأمراء وغيرهم تقدير ألف فارس[(٢)] .

وقال صاحب النزهة : وكان ولد الأمير حسام الدين الأستادار قد حمل والده فى تابوت وأحضره إلى دمشق على أنه يدفنه بها ، فشاور الأمراء ، فأنكر عليه الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير والأمير سيف الدين سلار وقالا : إحضره ، فأحضره ، وكشفوا التابوت ورأوا تلك الشيبة الحسنة وقد تخضبت بالدماء [٢٩٤] وفى وجهه أثر ضرب السيوف وقد أصاب نحره النُشّاب ، وقد ملىء سلاحه دمًا ، فلما رأوا ذلك تباكوا ، وتمنى كل منهم أن يموت هذه الموتة ، وأشاروا لبعض أمراء دمشق ووالى البر أن يركبوا ويذهبوا إلى موضع الوقعة ويجمعوا من يجدونه من الموتى من الأمراء وغيرهم ، ويدفنون الجميع — من غير أن يغسلوهم — فى مكان واحد ، ثم تبنى عليهم قبة ، وأمّروا أن يدفنوا الجند والمماليك الذين قتلوا مع أستاذهم خارج القبة .

وقال الراوى : أخبرنى مَن حَضر دفنهم أنه شاهد الأمير أوليا بن قرمان وعليه من الأنوار والجلالة والمهابة ما لا رآه على أحد غيره ، وأخبر عن بعض

---

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٢) انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٤٠ ب .

العسكر الذين أسروا من عدة جُوبان أنهم لما قصدوا للقتال كان ابن قزمان هذا راكبا حصانا أشهب، وأنه كان يعرف أستاذهم جُوبان، فما جعل دأبه إلا هذا، وكان يحمل إلى أن يكاد يقرب منه، فتردّه جماعته، فينعطف، فيأتى من مكان آخر، وعلم جوبان أيضا قصده إياه، قصده فى جماعته ولم يبق بينهما إلا القليل، فرماه سلحدار جوبان بَياسَج فى خاصرته، فمال عن فرسه، ثم استوى، ثم قصده ثانيا، فقتل فرسه بسهمين متواليين ووقع إلى الأرض، ونهض ابن قزمان قائما، فرماه ذلك السلحدار فى وجهه وفى صدره إلى أن وقع واستشهد. فقال جوبان: هذا أمير كبير، عرفه بلبسه وفرسه.

وأما الأمير حسام الدين الأستادار فإنه من حين وقع بينه وبين سنقر العلائى قدام الأمراء والسلطان لم يسمع أحد عنه كلاما غير وصيته لولده على بناته ومماليكه، ثم قال: كنتُ أنتظر هذا اليوم، والله لاعشتُ بعد هذا اليوم، وقد عشنا سُعداء، ونرجو أن نلقى الله ونحن شهداء، ثم إنه من حيث جذب سيفه وتقدم لم يلتفت إلى أحد بوجهه، ولا سمعوا منه غير الله أكبر، فقاتل حتى قُتل.

ذكر رحيل السلطان من دمشق ودخوله القاهرة :

أقام السلطان بدمشق مع العسكر إلى يوم عيد الفطر، وقد ذكرنا أنه قد دخلها فى الخامس من رمضان[1]، وكان عيدا عظيما لما اتفق فيه من نصرة أهل الإسلام واجتماع شملهم بالأمن والطمأنينة، ثم رحل السلطان من دمشق فى الثالث من شوال، فوصل فى ذلك اليوم شمردل الركاب، وأخبر السلطان والعسكر أن القاهرة قد صنعوا فيها زينة عظيمة وقلاعا، والناس فى أرغد عيش وأطيبه.

(١) انظر ما سبق ص ٢٤٤.

وقال ابن كثير : عاد السلطان إلى مصر مع العسكر فى يوم الثلاثاء[1] الثالث من شوال ، ودخل القاهرة يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من شوال مؤيدا منصورا ، وزُين له البلد ، وكان يوما مشهودا[2] ، و يوم دخوله القاهرة كانت الأسارى بين يديه مقرنين فى الأصفاد ، وسناجق بأيديهم منكوسة ، وطبولهم معكوسة ، وشق المدينة ، ولما وصل السلطان إلى تربة والده الشهيد الملك المنصور قلاون ترجل ودخل إلى ضريحه وزاره ثم [٢٩٥] ركب والأمراء فى ركابه يَمشون إلى أن طلع القلعة ، وتحت حوافر فرسه شقق حرير مبسوطة .

وقال بيبرس فى تاريخه : وكانت مدة هذه السفرة السافرة عن وجه النجاح، المشرقة إشراق الصباح منذ استقلال ركابه وإلى حين إيابه ثمانين يوما ، وصل فيها إلى الشام وكسر عدو الإسلام ، ورتب أحوال البلاد وأعاد النازحين بين الرُبَى[3] والوهاد .

وقال صاحب النزهة : لما قدم السلطان إلى القاهرة خرج إليه سائر من كان فى مصر من الجند والعامة وسائر المتعيشين والحرافيش ، ولم يبق فى البيوت من النساء والأطفال أحد ، و بلغت بيوت الأرباع التى على طريقه كل بيت منها بمائة درهم وأكثر ،وأقلها خمسون درهما[4]،وكان عُبوره من باب النصر

(١) إذا كان الثلاثاء ٢٣ شوال حسب ما ورد فى المصادر ، فيكون رحيل السلطان يوم الأربعاء ثالث شوال .

(٢) إلى هنا ينتهى الخبر الوارد فى البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢٦ – ٢٧ .

(٣) لا يوجد هذا النص فى مخطوط زبدة الفكرة الذى بين أيدينا لوجود نقص فى أوراق المخطوط

(٤) المقصود : « و يلغ كراء البيت الذى يمر عليه السلطان من خمسين درهما إلى مائة درهم » انظر النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٦٦

لأجل ما اتفق من نصب القلاع التى صنعها الأمراء وتباهوا فيها لما حضر الأمير بدر الدين الفتاح بالبشارة بنصرة المسلمين وهزيمة العدو كما ذكرنا .

وكانوا قد قرأوا كتاب البشارة بحضور نائب الغيبة الأمير أيبك البغدادى ، وكان من إنشاء القاضى علاء الدين بن عبد الظاهر .

بسم الله الرحمن الرحيم : ﴿ نصر من الله وفتـح قريب ﴾(١) ، خصه الله من البشائر بأحسنها وأجملهـا ، ومن التهانى بأتمهـا وأكملها ، ومن المسرات بأوفرها وأجزلهـا .

نعلمه أن التتار المخذولين كانوا قد امتدوا إلى البلاد المحروسـة ووصلوا إلى حمص ، وتعدوا جهة دمشق ، وكانت العساكر المنصورة بحلب وحمـص قد انضموا إلى دمشق ، وعند وصولنا إلى مرج شقحب ساق التتار المخـذلون ، ووصلوا إلى المنزلة التى نحن بها ، وكانوا فى العـدد الذى لا يحصى ، وذكر عدتهم عن مائة ألف أو يزيدون ، وللوقت قابلناهم بالعزائم الصادقة ، والنيات الخالصة وركبنا بالجيوش المؤيدة ، وصدمناهم بالعساكر المنصـورة الصدمة العظمى ، ومازال الحرب إلى أن نصر الله تعالى عليهم ، وقتل منهـم ما لا يحصى عددهم إلا الله ، ثم بعد ذلك استند من بقى منهم إلى جبل واجتمعوا به ، فأحاطت عساكرنا المنصورة بهم ، ومازلنا راكبين بأنفسنا وخيـولنا ، مجاهدين فى الليل والنهار ، والحـرب قائمة على أوزارها ، وفى كل وقت يتناقص عددهم حتى امتلأت من قتلاهم الأرض ، وانهزموا من بين أيدينا ، وكسبت العساكر المنصورة من أموالهم وخيولهم مافتح الله ، وبقينا يومين وليلة فى مضايقتهم فى الجبال التى تحصنوا بها

(١) جزء من الآية رقم ١٣ من سورة الصف رقم ٦١ .

إلى ظهورهم ثانى شهر رمضان ، فنزلوا على حمية وساقت عساكرنا المنصورة فى إثرهم إلى أن قتلوهم عن آخرهم بقوة الله تعالى .

وسطرت هذه المكاتبة ، ونحن نحمد الله تعالى طيبون سالمون ، نحن وأمراؤنا وعساكرنا المنصورة ، وقد رحلنا إلى دمشق ، وكتبنا للجناب أن يشيع خبر هذه البشارة ﴿ ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾(١) .

ولما وقف عليها ، وفرحت قلوب الناس ، واطمأنت أهل البلاد ، واتفق رأيه مع الأمير بدر الدين الفتاح أن يصنعوا زينة مفتخرة ، يراها السلطان والعسكر ، وذكروا زينة السلطان الملك الأشرف عند أخذ عكا ، وطلب سائر مباشرى الأمراء [٢٩٦] وعرفهم أن مرسوم السلطان برز : يعمل كل أمير قلعة وتزيينها بالخر ملبوس ، ويكون من باب النصر(٢) إلى باب السلسلة(٣) ، وعرفهم أنه متى فرغ شهر رمضان وتأخر عمل ذلك كانت روحه وماله للسلطان ، وكتب مراسيم لسائر الأقاليم أنهم لايدعون فى بلاد الأمراء من مغانى العرب ولا من أرباب الملاهى أحد إلا ويرسلوه إلى المدينة ، وكل أمير فى بلده مغانى تأتى وتكون فى قلعة ذلك الأمير ، وطلب ناصر الدين الشيخى متولى المدينة وعرفه أن يأخذ أستادرية الأمراء ويرتب لكل أحد مكانا ويسلمه إليه ، ثم شرع المباشرون فى طلب الصناع بحيث أنه نودى على أرباب الصنائع أن أحدا منهم لايعمل عند أحد وأن أحدا لا يستعمل أحدا منهم حتى يفرغ العمل الذى عينوه ، ثم وقع الاهتمام فى أمر

(١) جزء من الآية رقم ٢٨ من سورة الرعد رقم ١٣ .

(٢) باب النصر : أحد أبواب القاهرة فى سورها الشمالى — المواعظ والاعتبار .

(٣) باب السلسلة : أحد أبواب قلعة الجبل — المواعظ والاعتبار .

العمل ، وتحسنت معيشة التجار سيما تجارة الخشب والقصب وآلة النجارة ، واستعملت الحرافيش بالأجرة ، وشرعُ كل أحد يفتخر بصُنعه على غيره من أرباب جنسه ، وعملوا قلاعا حسنة عظيمة ، ووضعوا فيها آلات الحرب والحصار وجعلوا فيها من الصور المضحكة والوحوش والخيالة والفرسان ، وزين كل أحد قلعته بأفخر مايقدر عليه من الفصوص واللآلى والحرير والزركش والأشياء المفتخرة .

ومافرغ شهر رمضان إلّا وجميع القلاع قد تكامل عملها وزينتها .

وكان أول القلاع على باب النصر ، صنعه متولى المدينة ، ودخل على النائب بهذا السبب ، وصنع فيها من كل شيء من الهزل والجدّ ، وعمل حيضانا (١) برسم السكر والليمون ، وعين هنالك مماليك بأيديهم كاسات يسقون الجند والأمراء .

وعند وصول السلطان إلى باب النصر ترجلت أرباب الوظائف ، وأول من ترجل على كبر سنه كان الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح ، وأخذ السلاح (٢) ، فطلبه السلطان وسأله أن يركب ويحمل السلاح وهو راكب ، فأبى ذلك ، وحمل الأمير مبارز الدين الرومى أمير شكار القبة والطير (٣) ، والأمير سيف الدين بكتمر أمير جندار العصاة (٤) ، والأمير سيف الدين سنجر الجمقدار الدَّبُوسَ ، ومَشت سائر الأمراء فى منازلها ، وكان كل أمير من أصحاب القلاع بَسط شققا

(١) حيضان = أحواض = حياض : جمع حوض — لسان العرب ، وانظر أيضا المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية ص ٣٨ .

(٢) « وأخذ سلاح السلطان » — فى السلوك — ١ ص ٩٣٩ .

(٣) يبدو أن المقصود بهما المظلة — انظر صبح الأعشى ج ٤ ص ٧ وما بعدها .

(٤) المقصود الصولجان .

أطلس كل واحد من حد قلعته إلى قلعة صاحبه ، وكان السلطان يمشي هُوَينا والأسراء بين يديه مقيدين ، والأرقاب المضروبة معلقـة فى أرقابهم ، ونحـو ألف رأس على الأرماح مُشتالة ، ونحو ألف ومتمائة أسـير وطبولهم مخـرقة فى حلوقهم .

وكانت الثانية من القلاع للأمير علاء الدين مغلطاى أمير مجلس(١) ، وبعـده لابن أيتمش السعدى ، ثم للأمير علم الدين الجاولى ، ثم للأمير سيف الدين تغريل الأيغانى ، ثم للأمير سيف الدين بهادر اليوسُفى ، ثم للأمير سيف الدين سودى ، ثم للأمير بدر الدين بيليك الخطيرى ، [ثم برلغى](٢) ، ثم للأمير مبارز الدين أميرشكار ، ثم للأمير عز الدين أيبك الخزندار ، ثم للأمير شمس الدين سنقر الأعسر ، ثم للأمير ركن الدين بيـبرس الدوادار ، ثم للأمير شمس الدين سنقر الكمالى(٣) ، ثم للأمـير مظهر الدين موسى بن الملك الصالح ، [٢٩٧] ثم للأمير سيف الدين آل ملك ، ثم للأمير عـلم الدين الصوابى ، ثم للأمـير جمال الدين الطُشلاقى ، ثم للأمير سيف الدين آدم ، ثم للأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة ، ثم للأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير ، ثم للأمـير بدر الدين أمير سلاح ، ثم للطواشى شهاب الدين مرشد الخـزندار على باب المنصورية وبعـده للأمير سيف الدين بكتمر أمير جَندار ، ثم للأمير عز الدين أيبك البغـدادى ، ثم لابن الأمير سيف الدين أمير سلاح ، ثم للأمـير بكتوت الفتاح ، [ثم تباكز التغريلى](٤) ، ثم للأمير قـلى

(١) « ابن أمير مجلس » — فى الأصل ، والتصحيح من النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٦٧ .

(٢) [ ] إضافة من السلوك جـ ١ ص ٩٤٠ .

(٣) « الكاملى » — فى النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٦٧ .

(٤) [ ] إضافة من السلوك جـ ١ ص ٩٤٠ ، « قاكز الطغريلى » — فى النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٦٨ .

الساحدار ، ثم لبكتمر الساحدار[1] ، ثم للاجين زيرباج[2] الجاشنكير ، ثم لطيبرس الخردارى[3] نقيب الجيش ، ثم لبلان طُرنا ، ثم لُسنقر العلائى ، ثم لبهاء الدين يعقوبا ، ثم للأمير الأبوبكرى ، ثم لبهادر العزى ، [وكوكاى بعده][4] ، ثم لقرا لاجين ، ثم لكراى المنصورى ، ثم للأمير جمال الدين الموصلى قُتال السبع على باب زويلة ، ومنه اتصل القلاع إلى باب السلسلة ، وأولها من باب النصر كما ذكرنا ، وكانت عدة القلاع سبعين قلعة .

ذكر ما اسْتُجِدَ فى هذه السنة من الولايات :

وفيها استعفى الأمير سيف الدين بُتخاص من نيابة صفد ، وتولاها الأمير شمس الدين سنقرجاه المنصورى ، وأقام بتخاص بمصر ، ورسم بنقل الأمير سيف الدين قفجق من مدينة الشوبك إلى نيابة حماة بحكم وفاة نائبها ، ورُسم للأمير سيف الدين بلبان الجوكندار بنيابة حمص بحكم وفاة نائبها الأمير سيف ألبكى ، وكان بلبان المذكور نائب قلعة دمشق تولاها عوضا عن الأمير سنجر المعروف بأرجواش بحكم وفاته ، ثم تولى نيابة قلعة دمشق عوضا عن بلبان المذكور الأمير ركن الدين بيبرس التلادى ، ثم استعفى الأمير بلبان المذكور ص نيابة حمص ، وتولاها الأمير عز الدين الحموى الظاهرى .

وفُوض قضاء القضاة الشافعية بالشام للقاضى نجم الدين أبى العباس أحمد ابن صصرى الشافعى ، عوضا عن بدر الدين بن جماعة ، وطُلب بدر الدين

(١) « ثم لبكتمر الساحدار » — لم ترد فى السلوك والنجوم الزاهرة .

(٢) « زبرباج » فى ، السلوك .

(٣) « الخازندارى » فى السلوك ، النجوم الزاهرة .

(٤) [ ] إضافة من السلوك .

للقاهرة ، فتولى قضاءها ، عوضا عن تقى الدين ابن دقيق العيد بحكم وفاته ، وفُوضت خطابة جامع بنى أمية لزين الدين عبد الله بن مروان الشافعى الفارقى (١) ، وفُوضت مشيخة الشيوخ بالشميساطية للقاضى جمال الدين الزُّرعى (٢) ، ثم عزل ، وفوضت للشيخ أبى عز الدين بن عبد السلام ، ثم عزل ، وفوضت للشيخ صفى الدين (٣) محمد الأرموى (٤) المعروف بالهندى بسؤال من الصوفية ، وباشر الشيخ شرف الدين الفزارى مشيخة دار الحديث الظاهرية ، عوضا عن الشيخ شرف الدين (٥) الناسخ .

ذكر الزَلزَلة الكائنة بالبلاد المصرية :

قال بيبرس فى تاريخه (٦) : وفيها فى يوم الخميس الثالث والعشرين من ذى الحجة : حدثت زلزلة عظيمة بكرة النهار بالقاهرة ومصر وسائر أعمال الديار المصرية ، وخاصة فى ثغر الإسكندرية ، وكانت عظيمة حتى أن الجُدُر (٧) تساقطت ، والجبال

(١) هو : عبد الله بن مروان عبد الله بن الحسن الفارقى ، شيخ الشافعية ، توفى سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م - انظر ما يلى فى وفيات ٧٠٣ هـ .

(٢) هو : سليمان بن عمر بن سالم ، قاضى القضاة جمال الدين ، أبو الربيع الأذرعى ، والزرعى ، الشافعى ، توفى سنة ٧٣٤ هـ / ١٣٣٣ م - المنهل الصافى جـ ٦ ص ٤٦-٤٨ رقم ١٠٩٤

(٣) هو : محمد بن عبد الرحيم بن محمد الأرموى ، الهندى ، الشافعى ، شيخ الشيوخ صفى الدين أبو عبد الله ، المتوفى سنة ٧١٥ هـ / ١٣١٥ م - شذرات الذهب جـ ٧ ص ٣٧ .

(٤) « الأموى » فى الأصل ، والتصحيح من شذرات الذهب .

(٥) هو : عمر بن محمد بن عمر بن حسن بن خواجا إمام الفارسى ، شرف الدين ، المعروف بالناسخ ، المتوفى سنة ٧٠٢ هـ / ١٣٠٢ م - انظر ما يلى فى وفيات ٧٠٢ هـ .

(٦) لا يوجد النص التالى فى مخطوط زبدة الفكرة الذى بين أيدينا لوجود نقص فى أوراق المخطوط ، وانظر ما ورد فى التحفة الملوكية ص ١٧٣ .

(٧) جدار ، جدر وجدران : والجدار هو الحائط ، ويطلق على الحوائط الداخلية للغرف ، أو الحوائط الخارجية التى بين الديار - المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية ص ٢٨ ، ٣٢ .

تشققت ، والمباني تهـدمت ، والصخور تقطعت ، والمياه من خلال الأرضين تفجرت ، ومادت الأرض بمن عليها ، وماجت المساكن بساكنيها ، وتشعثت الأسـوار والأركان ، وثار الصراخ بكل مكان ، وخرجت النساء حاسرات إلى الطرقات ، وظن الناس أنها إماتة الأحياء وقيامـة الأموات ، وابتهلوا إلى رب السموات لمـا عراهم من المخافات ، فأدركتهم رأفتـه ، وأنقذتهم رحمتـه بأن سَكّن [٢٩٨] زلزالها ، وخفّف أهوالهـا ، ولو دامت ثُلث ساعة من النهار لم يبق على الأرض دار ولا ثبت بهـا جدار ، فكان تقصير مسافتها وتخفيف آفتها لطفا من الله بعباده ، ومِنّة على ساكني بلاده ، وأثرت فى البحرين العذب والأجاج ، وأثارت فيهما الأمـواج ، وارتج كل منهما غاية الارتجاج ، وكان تأثيرها قويا جدا بالإسكندرية والنواحى الغربية ، وهدمت بالثغر أكثر الأبراج والأسوار ، ورمّت جانبا وافرا من المنار ، وفاض البحر المالح وطمىَ ، وتعطمط المـاء وأغرق قماش القصارين ، وكسر قوارب البحارين ، وقطع مراسى المراكب الفرنجيـة وطرح أكثرها إلى الأسوار والشعاب .

ولمـا عاين أهل الثغر هيجان البحار ، وانهدام المنار ، وتساقط المآذن والأسوار وتناثر الأحجار من الجدران ، وتداعى الأركان المشيدة البنيان ، بادروا مسرعين وخرجوا من باب السدرة هاربين ، ولمـا سكّن الله حركتها ، وأذهب رجفتها ، تراجعوا إلى أماكنهم ، وعادوا إلى مساكنهم .

وتواترت الأخبار ، فإن الزلزلة المذكورة كانت قوية الأثر فى البلاد الغربية والجزائر البحرية ، وجهات الفرنجية ، وأنها أيضا حدثت فى تلك الساعة وذلك النهار ببلاد الكرك والشوبك والسواد وتلك الأقطار .

وحكى أن شخصا من الباعة يبيع اللبن فى بعض الحوانيت بالقاهرة سقط فى الزلزلة حانوته عليه، وظنه الناس قد مات وأقام ثلاثة أيام ولياليها تحت الردم، ثم نُظف التراب ووُجد الرجل سالما وأخرج حيًّا سويا، لأنه تشبكت عليه الأخشاب، وحملت عنه الطوب والتراب، وسلمت له من حانوته جرة لبن، فكان يقتات منها إلى أن نظف عنه الردم.

وفيها: سقط جانب من قلعة صفد وأسوارها، وبرج الباب، عند حدوث هذه الزلزلة، فرممت فى السنة القابلة.

وفيها: تهدّم جانب من جامع بنى أمية وأعيد ترميمه، وأقام الناس أياما وهم خائفون وجَلون، ومن مكان إلى مكان ينتقلون، ولمعاودة الزلزلة متوقعون وكان ذلك فى الصيف فتوالت بعدها سموم تلفح فتشوى الوجوه حين تنفخ، ولم يمت مع ذلك إلاّ نفر قليل بالقاهرة ومصر وثغر الإسكندرية.

وقال النويرى: وجَزر البحر باسكندرية، ثم رجع فأتلف أموالا عظيمة للتجار، وغرق جماعة كثيرة، وانكشف البحر بساحل عكا، فظهر فى قاعه شىء كثير مما ألقاه أهل عكا فى مدّة حصارها، فتبادر الناس لأخذه، فرجع البحر عليهم فغرّقهم عن آخرهم.

وقال صاحب النزهة: قد تقدم ذكر الاهتمام بعمل القلاع والتفاخر فى زينتها، وكان ابتداء ذلك خامس رمضان وانتهاؤه فى العشر الأخير، وتهتكت الخلائق على التفرج عليها، ولم يخشو الله تعالى، واستمروا على ذلك إلى [أن][1] استهل شوال، ومشى فيهم المنكر والأمور القبيحة، وصار لكل قاعة أهل يحمل إليها من

(١) [ ] إضافة تتفق وسياق الكلام.

المحرمات ، ويتجاهرون بالمعاصى ، وتهتكت بسبب ذلك مخدرات النساء ، وافتضح من كان يخشى الفضيحة من كل مستور ، ولم يبق فى المدينة من أكابر البيوت من الأمراء وغيرهم من الأعيان إلا من خرج من بيته مع غلمان أو خُدام أو قهرمانات[1] ، وكان يرى ما يذهله ويروع به عقله ، حتى كان يطرح الحشمة ويستحسن الفضيحة .

وطمس الله على قلوبهم ، لقضائه السابق وأمره اللاحق ، حتى أرسل الله عليهم زلزلة [٢٩٩] عظيمة يوم الخميس الثالث والعشرين من ذى الحجة عند صلاة الصبح ، فتزلزلت الأرض بأركانها ، وسمعت للحيطان قعقعة ورعدة ، وكذلك السقوف ، ومالت الأرض بالماشى وأخرجته عن طريقه ، وأرمت الراكب ، وقيل للخلق إن السماء انطبقت على الأرض ، فكان الماشى يهرب من الخوف إلى زقاق آخر فيجد فيه من الرعد والقعقعة أكثر مما هرب منه ، وخرجت النساء مستّبيات حاسرات ، فما قدرت من الخوف أن تأخذ شيئا تستتر به ، وكذلك البنات والأطفال ، وخرجت الفقراء من المساجد والزوايا ، وأسقطت كثير من النساء الحبالى حملها ، وورد على البحر ريح بموج عاصف متلاطم ، ففاض البحر فيضا حتى طلع بالمراكب التى على ساحل البحر وحدفهم من البحر مع الريح مقدار رمية نشاب ، ثم لما عاد الماء إلى حاله بقيت المراكب على اليبس ، فتقطعت مراسيها ، وكذلك مراكب المسافرين اقتلعها الريح من وسط البحر إلى ساحل البر .

وقد ضرب كثير من الأمراء خياما فى الفضاء وأخرجوا حريمهم إليهم ، وكذلك خرجت خلق كثير نحو بولاق والجزيرة والروضة وغير ذلك ،

---

(١) القهرمان : الوكيل ، أو أمين الدخل والخرج — المنجد .

وأصبحت المدينة إذا نظر إليها إنسان لا يجد فيها بيتا صحيحا ، إما هدم منه حائط أو وقع منه جانب ، أو اشتق بناؤه ، وهدمت الأزربة[1] التي على البيوت ، وبقيت الأتربة والطوب أكواما أمام البيوت ، وفتنوا في صبح الجمعة وفي ليلتها في سائر الجوامع والمساجد ، وأقاموا ليلتهم ويومهم إلى حين صلاة الجمعة واقفين يبتهلون إلى الله تعالى ويتضرعون .

ثم جاءت الأخبار من إقليم الغربية أن بعض بلادها وهي تعرف بسخا هدم جميعه حتى لم يبق فيه حائط ، فصار كوما ، وكذا جرى على قريتين أخريتين وكذا وقع بإقليم الشرقية .

ثم شرع الأمراء والسلطان في اقتماد الأعمال الضرورية التي لابد منها ومن إصلاحها .

وقد أفلح الأمير سيف الدين سلار نائب السلطنة ما هدم من الجامع العمري بمصر ، وأصرف عليه مالا جزيلا .

وتصدى الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير لعمارة جامع الحاكم بأمر الله ، وقد كان هدم منه حائط كبير ووقعت مأذنته ، ولما نزل إليه ومعه المهندسون والمباشرون قال لهم : اجعلوا بالكم في هدم ما يستحق الهدم ، فإني سمعت أن في ركن من أركان هذه المأذنة ذهبا كثيرا ادخره الحاكم بأمر الله ، وربما أحاط بحكمته أن يعرض على هذا الجامع عارض من أمر الله يكون ذلك الذهب برسمه وعمارته ، فإنه كان رجلا حكيما ، ثم إنه عمّره كما ينبغي وزاد فيه زيادة واسعة

(١) أزربة ، زروب : جمع زرب ، وهي المزراب أو الميزاب ، قناة توضع في أرضية الأسطح وتبرز من حائط المبنى لإزالة مياه الأمطار وغيره خارج هذه الأسطح — انظر المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية ص ٥٩ .

للمصلين ، وجَددَّ المأذنة وعمر فيها زيادة ، وأوقف عليه أوقافا حسنة ، ووضع فيه مدرسا ، وحديثا ، وصدقة ، ومؤذنين ، وقراء ، وفقهاء ، ورتب لهم الرواتب والصدقات ، وأوقف وقفا يكفى ذلك كله (١) ، وعند هدم المأذنة وجدوا فى ركن منها كفا بزنده ملفوفا فى قطن ، وعليه أسطر مكتوبة لم يعلم أحد ما هى ، والكف طرية ، وعجزوا عن قراءة الكتابة .

وتصدى الأمير سيف الدين سلار لعمارة الجامع الأزهر وإصلاحه ، وإصلاح مأذنتــه ، وإصلاح الواجهة التى وقعت ، وجدد فيــه جميع أماكنه ، وبلطــه وبيضه ، وأنفق عليــه نفقات كثيرة ، وكان للأمير شمس الدين سنقر الأعسر مشاركة له فى الجامع الأزهر .

وعُمر جامع الصالح الذى خارج باب الزويلة من مال بيت المـال ، وكان الأمير علم الدين سـنجر مُشده ، وأرصـدوا لعمارة مأذنة [٣٠٠] المنصورية الأمـير سـيف الدين كهُرواس الزراق ، وأصرف على عمارتها من مال الوقف ، ورسم للأمير ركن الدين بيـبرس بالسفر لثغر إسكنـدرية ليكشف (٢) ما هـدم من المنار وغيره ، وأن يرمم جميع ما يحتاج إلى الترميم ، وكان نائب إسكنـدرية كتب إلى السلطان أن الذى هُدم من المنار ستاً وأربعين بدنة (٣) ، ومن السُور خمس عشرة بدنة ، ورسم السلطان أن يُعمر جميع ذلك من مال السلطان .

(١) انظر وثائق وقف السلطان بيـبرس الجاشنكير — فهرست وثائق القاهرة ص ٨ — ٩ مسلسل ٢٥ ، ٢٦ .

(٢) « ليشكف » فى الأصل .

(٣) البدنة : فى العمارة المملوكية هى الدعامة القائمة بذاتها ، أى حامـلة ، وتكون مادة من الطوب أو الحجر ، وقـد تكون مربعة أو مستطيلة المسـقط — المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية ص ٢٠ .

ذكر ظهور دابة عجيبة من النيل :

بتاريخ يوم الخميس الرابع من جمادى الآخرة : ظهرت دابة عجيبة الخلق[١] من بحر النيل إلى أرض المنوفية ، وهذه صفتها : لونها لون الجاموس بلا شعر ، وآذانها كآذان الجمل ، وعيناها وفرجها مثل الناقة ، يغطى فرجها ذنب طوله شبر ونصف طرفه كذنب السمك ، ورقبتها مثل غلظ الكيس[٢] المحشو تبنا ، وفمها وشفتاها مثل الكربال ، ولها أربعة أنياب اثنان من فوق واثنان من أسفل طولها دون شبر وعرض أصبعين ، وفى فمها ثمانية وأربعون ضرسا وسنا مثل بنادق الشطرنج ، وطول يديها من باطنها إلى الأرض شبران ونصف ، ومن ركبتها إلى حافرها مثل أظافير الجمل ، وعرض ظهرها مقدار ذراعين ونصف ، وطولها من فمها إلى ذنبها خمسة عشر قدما[٣] ، وفى بطنها ثلاثة كروش ، ولحمها أحمر ، وزفرته مثل السمك ، وطعمه كلحم الجمل ، وغلظ جلدها أربع أصابع ما تعمل فيه السيوف ، وحمل جلدها على خمسة جمال[٤] فى مقدار ساعة من ثقله على جمل بعد جمل ، وأحضروه إلى القلعة المعمورة بحضرة السلطان ، وحشوه تبنا ، وأقاموه بين يديه ، ذكر هذا الشيخ علم الدين البرزالى فى تاريخه .

وقال النويرى : وهى التى تسمى فرس البحر ، كانت تطلع ترعى فى البرّ ، ثم تعود إلى البحر ، فرصدها الصيادون وصادوها بالمنوفية ، وهى سوداء قدر

(١) « تعرف بفرس البحر » — فى كنز الدرر جـ ٩ ص ٨٠ .

(٢) « التيس » فى السلوك ، و « التليس » فى النجوم الزاهرة ، و « التيس » فى البداية والنهاية .

(٣) هكذا بالأصل .

(٤) « أجمال » فى الأصل .

البغل ، بأظلاف كأظلاف البقر ، وذنب قصير ، وسلخت وحمل جلدها إلى القاهرة وحُشّى تبنا ، وتعجب الناس منه .

قال صاحب النزهة : وكانت هذه الدابة تأتى من نحو جزيرة مقابل شُبرا ، وتنتقل فى الأماكن ، وتؤذى كثيرا من الزرع والمواشى ، ولا يجسر أحد على أن يقربها ، وبلغ ذلك الأمراء ، وطلبوا متولى الجزيرة وأمروه أن يجمع عليها أهل البلاد ويتحيلون على مسكها ، فجمعوا خلقا كثيرا ، وتتبعوا آثارها أياما ، وهى كلما رأت الرجال تحيد عنهم ، وإذا غُلبت تنزل إلى البحر ، إلى أن أرموها فى مكان وَحل وتكاثروا عليها إلى أن قتلوها .

ذكر ما أبطله الأمير بيبرس — رحمه الله — من الأمور المنكرة :

منها : كتب إلى مكة أن لا يمكنوا الزيدية من الآذان الذى كانوا يجهرون فيه بقولهم : حىّ على خير العمل ، وأن لا يقتدوا بإمام منهم ، ولا يَدَعوا أهل السنة أن يصلوا معهم .

ومنها : ما كانت أهل مكة تربط الحاج بالصعود إلى التمسك بالعروة الوثقى ، فكان الحاج يقاسى من الصعود إليها أمراً عظيما حتى يصل إليها ، [٣٠١] وكان أكثر الشدة على النساء ، وربما كان ينكشف عوراتهم (١) ، وكان كثير من الحرامية يقفون ويعاينون الناس عند انكشاف ما عليهم من نفقة مربوطة على وسطه من ذهب أو فضة فيتحيلون على أخذها .

ومنها : أن النصارى كانوا يزعمون أن كبراءهم من علمائهم كانوا يزعمون أن إصبعا من أصابع أحد الحواريين موضوعا فى تابوت ، فإذا جاء أوان

(١) هكذا بالأصل .

احتياجهم إلى زيادة النيل يرمون ذلك الأصبع فى البحر فيزداد ، ومتى لم يرموه لم يزد شيئا ، وكان يجتمع فى ذلك اليوم الذى يُرمى الأصبع فيه خلق من سائر الأقاليم من أهل الملة النصرانية و يركبون الخيل فى ذلك اليوم ويلعبون عليها ، وكان أهل مصر والقاهرة يَرحلون إليهم فى المراكب والخيل ، ويضربون الخيام على جانبى البحر وفى وسط الجزائر ، ولا يبقى شىء من الملاهى وأرباب الطرب إلاّ ويكون هناك فى ذلك اليوم ، ويجتمع هناك نساء خواطى ، وربما يقتل فيه قتيل ، وتقوم فيه فتن ، وتباع فيه الخمور بنحو مائة ألف درهم .

قال صاحب التاريخ : حكى لى بعض النصارى أنه باع فى ذلك اليوم خمورا بإثنى عشر ألف درهم ، ولما جاء أوان عيده سيّر الأمير ركن الدين بيبرس متولى المدينة وجماعة من الحجاب ومنعوهم عن ذلك ، وكتب للولاة أن ينادوا فى النصارى أن لا يخرج أحد فى ذلك اليوم ، ولما بلغ ذلك النصارى اجتمعوا بالتاج بن سعد الدولة ودخلوا عليه على أن يتحدث مع الأمير بيبرس ، لما كانوا يعلمون من منزلته عنده ، فشرع فى الحديث معه من طريق الأموال ، وأن هذا يحصل منه مال عظيم ، والعادة جارية به ، فلم يلتفت إلى كلامهم وقال : إن كان النيل ما يزيد إلا بهذا الأصبع لا يزيد ولا يطلع ، وإن كان الله عز وجل يتصرف فيه كيف يشاء فهؤلاء يفشرون ، فأبطله[1] .

ومنها : أن القمامة[2] التى بالقدس الشريف كان فى وسطها قنديل كبير ، صنعته أكابر النصارى ، وفى كل سنة يوم معلوم عندهم يجتمع إليه النصارى من

(١) المقصود : إبطال عيد الشهيد ، انظر السلوك جـ ١ ص ٩٤٠ — ٩٤٢ ، وعن عيد الشهيد انظر المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ٦٨ وما بعدها .

(٢) هى كنيسة القمامة أو القيامة .

سائر الأجناس ، ولا يوقد ذلك القنديل فى كل السنة إلا فى ذلك اليوم ، ولا يظهر نوره إلا فى الرابعة من ذلك اليوم ، ومتى أبطأ فى ذلك الوقت يقولون: إن نيل مصر فى هذه السنة شحيح ، وكانت عادة السلطان يبعث إليها قرب هذا اليوم من يثق بأمانته ، فيحصّل شيئا كثيرا من الذهب والفضة وسائر التحف ، ثم يُحضره إلى السلطان ، وينقل من زيت ذلك القنديل إلى سائر نصارى البلاد من الملوك وغيرهم على سبيل التبرك عندهم ، وكان هذا القنديل يشتعل من ذاته ، وهو أمر عظيم عندهم ، فهو الذى يكون سببا لضلال النصارى وثباتهم على دينهم الباطل ، واتفق أن نجم الدين بن الحباب سافر إليه فى الدولة المنصورية حتى يحقق أمر هذا القنديل ، فلما حضر فحص عن ذلك واجتهد فيه إلى أن انكشف له أنه مصنوع من أدوية بحكمة مذكورة عندهم ، وأن الشمس فى الرابعة من النهار يقوى جرمها فيقع شعاعها من طاقة قريبة من القنديل المذكور ، فإذا وقع يطلقون موضع وقوع جرم الشمس شيئا من القلفونية المصنوعة بالحكمة فتتصل قوتها إلى فتيلة ذلك [٣٠٢] القنديل فيشتعل ، فلما ظهر له ذلك كتب إلى الوزير والسلطان فى ذلك فتهاونوا فى أمره ، فأمر الأمير بيبرس بمنعه وتبطيله ، فأنكروا عليه من حيث أنه يحصل من ذلك كل سنة جملة من المال لبيت المال ، ولم يزل يسعى فيه إلى أن كتب السلطان بإبطال ذلك القنديل ، وكان آخر ذلك فى صحيفته .

وفيها : كان صاحب سيس جهّز مركبا من مراكب الإفرنج وفيه أصناف كثيرة مقدارها يُساوى قيمتها مائة ألف دينار ، على أنه يدخل بلاد قبرس والجزائر ، فاتفق أن الله عز وجل أراد أن يجعلها غنيمة لأهل الإسلام(١) ، فأرسل

(١) « السلام » فى الأصل .

ربحا عاصفا أتى[1] به إلى ميناء دمياط ، فأخذه المسلمون وغنموه .

وفيها : كان الجدب والقحط والغلاء ببلاد الشمال — بلاد طقطاى — لأنهم زرعوا ثلاث سنين فلم ينبت لهم شيء ، فهلك الخفّ والحافر ، وبلغت حالهم من القحط إلى أن صاروا يبيعون أولادهم ونسوانهم فى الأسواق ، فاشتراهم الفرنج والتجار وجلبوهم إلى سائر البلاد خصوصا إلى مصر .

ذكرُ القصائد التى مُدحَ بها السُلطان فى هذه الغزوة :

وأول من نظم فى ذلك القاضى علاء الدين بن عبد الظاهر ، نظم فيها مجلدا صغيرا وسماه : الروض الزاهر فى غزوة السلطان الملك الناصر[2] ، وتوصل إلى أن قرأه عليه ، وأنعم عليه بمائة دينار ، من غير أن يعلم بها بيبرس وسلار .

ومن نظمه قوله :

هم زعموا بأنك ليس تأتى ركبت إلى لقائهم البُرَيدا
ولاذوا بالفرار فلم تدعهم وأعددت السلاسل والقيودا[3]

ومنها : قصيدة من نظم الشيخ شهاب الدين أحمد[4] بن عبد الملك العزازى الشاعر :

(١) « إلى آتى » فى الأصل .

(٢) أورد النويرى نص هذا الكتاب — انظر نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٢٠ ورقة ٢٣٧ ب وما بعدها .

وقد نشر هذا النص فى ملاحق كتاب السلوك — ملحق رقم ١٦ — انظر السلوك جـ ١ ص ١٠٢٧ — ١٠٣٩ .

(٣) هذه الأبيات غير واردة فى المنشور بالسلوك من هذا الكتاب .

(٤) هو : أحمد بن عبد الملك بن عبد المنعم ، الأديب الشاعر شهاب الدين أبو العباس العزازى ، المتوفى سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م — المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٦٢ رقم ١٩٦ .

لقد تمت النُّعمى وضوعفت البشرى … وأظهر هذا الفتح فى الأوجه البِشْرا
فمن كان ذا نذر فهذا أوانه … ومَن كان ذا وتر فقد أدركَ الوترا
هناء هناء أيها الناس فالهدى … عَلا الشركَ والإيمان قد غلب الكُفرا
ولما غزا غازان عقر ديارنا … وأعطاه من يُعطى ومن يمنع النَّصْرا
تمرّدَ طُغياناً وتاه تجبراً … ولم يَسْتَبِنْ نصحا ولم يستفقْ سُكرا
وظنَّ بأن لا غالباً لجنوده … ولا قاهراً حتّى فتكْنا بهم قهرا
وراسَلنا فى الصلح مَكرا وخدعةً … وأىُّ امرئ يرضَى الخديعةَ والمكرا
فسارَ له مّنا رسولٌ مُذكّرٌ … يُحذّره العُقبى فلم تنفع الذكرا
وعاوَدنا بَغياً وللبَغى مَصْرع … فشاهَدَ من إقدامنا الآيةَ الكُبرى
وأنصفت الأيامُ فى الحكم بيننا … وكانت له الأولى وكانت لنا الأُخرى
هو الدهرُ لا يَبقى على فرد حالةٍ … فطوراً يُرَى حُلوا وطَوراً يُرى مُرا
رعَى اللهُ يوم المَرْج للتُرك أنفساً … تدرّعَت الإقدامَ والبأسَ والصبرا

[٣٠٣]

غداة يَرَوْنَ القتلَ فى الله طاعةً … صياماً يودّون الحِمَامَ لهم فِطرا
إذا ذكروا أُحُداً تمنّوا بأنهم … رأوا أُحُدا أو شاهدوا قبله بَدْرا
تنادوا وقالوا فى الثبات حياتُنا … ومن هَهُنا نلقى النجاةَ أو الخُسرا
وجاءت جيوشُ المغل كالرمل كثرة … وقد ملأتْ سهلَ البسيطة والوَعْرا
وأقبلَ سلطانُ الزمانِ محمدٌ … يقود العتاق[(1)] الجردَ والعَسكرَ المجْرا
فطارت قلوبُ المارقين مخافةً … وذُعراً وياما أقبل الخوفَ والذُعرا

(١) « القباق » فى النحفة الملوكية ، وهو تحريف ؟

رأت سُيُفا شهبا و بيضًا قواضبًا وخَطيــة سُمْـرا وألوِيةً صُفْرا
وحزبًا من الأتراك شُوسًا ضراغما يَذُودون عن مصر وعن سا كني مصْرا
وكان نهار السَبْت بالنصر شاهدًا صدوقا وكان الوقتُ قد زاحم العصرا (١)
فكرَّت وكرَّ المسلمون فلا تَسَل لدى الرَوْع عن بحرٍ غدا صادماً بحرا (٢)
ومدّ سواد النَقعْ ليــلا فاطلعَتْ ذُبال القنى فى كل داجيــة فجرا
ولله دَرُّ التُرك كم سفكت دَمـاً (٣) وكم فلقت رأساً و كم طعنَتْ نحرا
وكم طعنت بالسُمر حتى تقصّفت وكم ضار بت بالبيض حتى انثنَتْ حُمرا (٤)
أمالوا عروش الكافرين وكالحُوا عن الدين يَرجُون المثو بة والأجْرا
فذلّت وكان العزّ ملء رؤوسهـا وقد أوطأتها التُركُ من بأسها جمرا
وولّت ولاذتْ بالجبــال تحصّنا ولولا تخافُ القتلَ لاختارت الأَسْرا
وجافت رحابُ الأرض من قتلائها ولكنها طابت لنَـا شقها نشرا
ولمّـا أتى الفتّاح بالفتــح نحونا شكرْنا الذى يستوجب الحمد والشكرا
فحمـــدا لمن أعلى منار نبيّه وشكرا لسُلطان أبادَ العدَى قسرًا
أجلّ الملوك النّـاصر بن قلاون وأبركُهم وجْهًا وأرحبهُم صَدْرا
لقد خلّف المنصورُ هديًا وهيبةً ومنقبةً طُــولى ومنقبة بكسرا
فلا زالت الأقدار طــوع مُراده (٥) ولا زال يَعلُو فوق هَام السُهى قدرا (٦)

---

(١) « قد أرحم » فى التحفة الملوكية ، وهو تحريف .
(٢) « صازما » فى التحفة الملوكية .
(٣) « فلله » فى التحفة الملوكية .
(٤) « حمرى » فى التحفة الملوكية .
(٥) « ولازالت » فى التحفة الملوكية .
(٦) يوجد عشرون بيتا من هذه القصيدة فى التحفة الملوكية ص ١٧٠ ــ ١٧١ .

وقال الفقيه عبد الواحد التبريزى — الخطيب بعجلون(١) — قصيدة منها :

اللهُ أكبر : جاء النَّصْرُ والظفرُ — والحمدُ لله ، هذا كنتُ أنتظرُ
وأبرزَ القــدرَ المحتومَ بارئُه — سبحانه بيديه النفْــع والضَرَرُ
وهوّن الصعبَ بالفتح المبُين لكم — ربٌّ يهـــونُ عليه المقْفِلُ العَسِرُ
أين النجوم وتأثـيرُ القِران وما — تخرّصوا فيه من إفكٍ وما زَجروا
قـــد دبّر الله أمْرًا غـير أمرهم — وخاب ما زَخرفوا فينا وما هجروا

[٣٠٤]

وأَقبـل العسكرُ المَنصورُ يَقْدُمه — منَ الملائكِ جُنــدٌ ليس تَنْحصرُ
كنانةُ الله مصر جُندهـا ثبتت — لاريب فيه وجُنـــدُ الله تنتصر
ثاروا سِراعًا إلى إدراك ثأرهم — وهجّروا فى طلاب المجد وابتكروا
وأسهْروا أعينًا فى الله ما رقـدوا(٢) — أكرِم بقومٍ إذا نام الورى سهروا
وأوْجفوا نفرا بالخيـــل مُلجمةً — وبالركاب وما ملّوا ولا فـــتروا
حتى أتوا جِلّقا(٣) فى يوم ملحمــة — فيه الأسود أسود الغاب تهتصر
والجـــو أغبر والتتـار راجفـة — مثل الجراد على الدنيا قد انتشروا(٤)
حتّى إذا عبَّ مثل البحر جحفلنا — ومدّ قبضًا على أعـدائنا جُزِرُوا
لاذوا بشمّ شماريـخ الجبال فـما — حمتهـم قُلَلٌ منهـا ولا مَفـرُ(٥)
ومُزّقوا شذرا بين الزحام فـكمْ — شِـلْوٍ تنازعَ فيه الذئب والنَمِـرُ

(١) « القاضى جمال الدين أبو بكر قاضى عجلون » — فى كنز الدرر ج ٩ ص ٩٣.
(٢) « ما رقدت » — فى كنز الدرر ج ٩ ص ٩٤ .
(٣) جلق = دمشق .
(٤) لم يرد هذا البيت فى كنز الدرر .
(٥) « ولا صور » فى كنز الدرر ج ٩ ص ٩٥ .

أين المفرُّ وقد حام الحِمام بهم هيهات لا ملجأ يُرجى ولا وَزَرُ
جاءوا وقد حفروا من مكرهم قُلُبا ألقاهمُ اللهُ قسراً فى الذى حفروا
أتوا أُراة (1) وقد راموا النجاة فكم حلّت بهم عِبَرٌ فيها وما اعتبروا
جميعهم قُتِلوا صبرا وقد جُعلت عظامُهم (2) بنواحى جِلّق صُبَرُ
لم يُقبَروا فى نواويس ولا جُدُثٍ وإنما فى بُطون الوحش قد قُبِروا
والطيرُ تَرعى نهارا لحمهم فإذا ما الليل جَنّ ففى إلحافهم تكرُ
ملك أُعيدَ به عَصْر الشباب لكم مسترغدا صافيا واستوقفُ العمر (3)
إنا انرجُوه من بغداد يَنهلها بماء دجلة ريّا ثم تصطدرُ (4)
نؤمها (5) وإمامُ المسلمين معا ثقوا بقولى فهذا منه مُنتظر
فدام للدّين والدُنيا يَسُوسُهما فكرٌ له (6) فيه سرُّ الله مُستتر
وعُمره الجمّ أعيادًا مُجدَّدة وأشهرا (7) بعزيز النَصر تُشتهرُ

وقال الشيخ بدر الدين محمد (8) بن عمر البزار، المعروف بالمنبجى، الشاعر فى ذلك أيضا قصيدة :

(1) «أموا القراة» فى كنز الدرر جـ ٩ ص ٩٦ .
(2) «وأعظمهم جميعها» فى كنز الدرر جـ ٩ ص ٩٦ .
(3) جاءت هذه الشطرة «مستوردا صافيا واستوفق العمر» — فى كنز الدرر جـ ٩ ص ٩٩ .
(4) جاءت هذه الشطرة «بماء دجلة يرويها لتصطدرا» — فى كنز الدرر جـ ٩ ص ٩٩ .
(5) «يؤمها» فى كنز الدرر جـ ٩ ص ١٠٠ .
(6) جاءت هذه الشطرة «فكن فيه له حرز ومستتر» — فى كنز الدرر جـ ٩ ص ١٠٤ .
(7) انظر كنز الدرر جـ ٩ ص ٩٣ — ١٠٠ حيث أورد ابن أيبك ١١٤ بيتا من هذه القصيدة .
(8) توفى سنة ٧٢٣هـ / ١٣٢٣م — المنهل الصافى، الوافى جـ ٤ ص ٢٨٦ رقم ٥٠٦ [.

وافى على قَـدْرٍ ما يَختاره القَـدَر (١) … وجاء عمّـا جَناه الدهرُ يعتـذر (٢)
وإن أساءت لياليـه التى سلَفَت … ظلما فقـد أَحْسنت أيامُه الأُخَر
وبعد إدراكك الثارات منتصرا … فكل ذَنْبٍ جنـاه قبل مغتفـر
بشـائرٌ طارَ بالإقبـال طائرُها … لمثلهـا كانت الآمالُ (٣) تنتظـر
فتـحٌ على جبهة الأيام أسـعدُه … بالجـدّ والسعد والتأييد مُستطر (٤)
ما شاهـد الناسُ فتحا مثله أبدا … إلاّ فتُـوحا تولّى أمرَه (٥) عُمَـر
سارتْ بأخبارها الركبان واقعـة … لم تحوِ أمثالهـا الأخبارُ والسِـيَر

[٣٠٥]

وفى الليـالى إذا عُدّت محاسـنها … السمّارُ (٦) فى كل نادٍ ذكرها سَمَـر
عم السرور بها كُلّ النفوس فمـا … للنـاس فى لّذة من بعـدها وطَر
إن البغـاة بنى خاقان (٧) أقدمهـم … على هلاكهم الطغيان والأشَـر (٨)
راموا وقد حشدوا غُلْبا فمـا غلبوا … وحاولوا النصر تضليلا فمـا نُصروا
أتوا وقـد مكر الله الخبير بهـم … فـردّ كُفارهم (٩) بالغيظ إذ مكروا

(١) « ما تختاره » فى التحفة الملوكية . (٢) « معتذر » فى كنز الدرر جـ ٩ ص ٩١ .
(٣) « الأيام » — فى كنز الدرر .
(٤) « منتظر » — فى كنز الدرر .
(٥) « أمرها » — فى كنز الدرر ، والتحفة الملوكية .
(٦) « أسمار » — فى كنز الدرر .
(٧) « بنى قاقان » فى التحفة الملوكية .
(٨) « والأسر » فى التحفة الملوكية .
(٩) « فرد طغيانهم » فى كنز الدرر جـ ٩ ص ٩٢ .

وطبّقوا الأرض من سهل ومن جبل كأنما هم جراد فيه منتشر
داسو بلادك لا يثنى أعنتهم عن قصدها جهلهم والتيه والبطر
غرتهم فلتة فى الدهر عن غلط منه خلت بهم من بعدها الغير (١)
وأمَّلوا أنها مثل التى ذهبت فغودروا ودماهم فى الفلا هدر (٢)
قابلتهم بجيوش ما لهم قبل بأسها فلقد قلوا وإن كثروا
قاموا وأقعدتهم عن قصدهم بشبا البيض الرقاق فقد غابوا وإن حضروا (٣)
أفنيتهم بليوث منك باسلة وهل تقاوم آساد الشرى الحمر
فكم قتيل لهم من بعد صولته (٤) تحت السنابك أمسى وهو منعفر
عصابة لم تزل بالحق ظاهرة فى الحرب بالله والأملاك تنتصر
من سيد الرسل بالتأييد قد وعدت فالنصر يخدمها ما زال والظفر
يا وقعة المرج مرج الصفر افتخرت بك الوقائع فى الآفاق والعصر
رفعت بالنصر أعلام الهدى ولقد جردت للشرك كسرا ليس ينجبر
يوم تدارك جمع المسلمين به من لم يزل فى يديه النفع والضرر
يا من أوامره والله يعضده بها الليالى مع الأيام تأتمر
لولا يثبتك الله العزيز بعدة (٥) لم يبق للدين (٦) لا سمع ولا بصر

(١) « منها » — فى كنز الدرر .
(٢) « فغودرا » — فى كنز الدرر .
(٣) لم يرد هذا البيت فى كنز الدرر .
(٤) « له » — فى كنز الدرر .
(٥) « به » — فى كنز الدرر .
(٦) « للناس » — فى كنز الدرر .

قرّت به أعينُ الإسلام وابتهجت ... به القلوبُ وكادت فيه تنفطرُ

نامت عيون الرعايا فى ذرى ملك ... فى رعيهم طرْفُه عاداته السهر(١)

المخجل السيف(٢) عزماً وهو منصلت ... والمُرْعب الليث بأساً وهو مُهتصر

والثابت الجأش والإقدام فى دحض ... فيه التثبت إلاّ عنده عسر(٣)

يا ناصر الدين يا من حُسْنُ دولته ... أمست على دول الماضين تفتخر

فأوقدت(٤) نيران حرب أصبحوا حطباً ... للجمر منها لها شوكُ القنى شررُ

دارت عليهم رحى الحرب الزبون فما ... لجمعهم بعدها عين ولا أثر(٥)

وضاقت الأرض مذ ولّوا بما رحبت ... عليهم فهم بالخوف قد حُصروا

وألبسوا الذُّلّ حتى أن أشجعهم ... يأتى إليك بألف منهم نفر(٦)

[٣٠٦]

وأصبحوا بعد ذاك الكبر يحسُدُ ... قتلاهم من الذُّلّ والتقريع من أُسروا(٧)

وبعد قد أمنا من كل حادثة ... فما لنائبة منه نابٌ ولا ظفر(٨)

---

(١) لم يرد هذا البيت فى كنز الدرر.

(٢) « يا مخجل السيف » — فى كنز الدرر.

(٣) « إلا أنه عسر » — فى كنز الدرر.

(٤) « أوقدت » — فى كنز الدرر جـ ٩ ص ٩٣.

(٥) ورد هذ البيت فى كنز الدرر هكذا:

« دارت عليهم رحاه الموت فانهزموا ... فما لهم بعدها عين ولا أثر »

(٦) « نفروا » — فى كنز الدرر.

(٧) لم يرد هذا البيت فى كنز الدرر.

(٨) ورد هذا البيت فى كنز الدرر هكذا:

« وبعدها قد أمنا كل حادثة ... فما لنائبة ناب ولا ظفر ».

بالسيد(١) الناصر المنصور جحفله ... زهت برونقها(٢) الآصال والبكر
هزت معاطفها الدنيا به فرحا ... وطاب(٣) بالأمن فى أيامه العمر
أزال عنا مخافات النفوس فما ... يدور بالخوف أوهام ولا فكر
يأمن به راقت الأوقات وابتسمت ... بعد العبوس فما فى صفوها كدر
لازال ملكك ملكا لا نفاذ له ... ما شق شقة جلباب الدجى سحر(٤)

وقال الشيخ تقى الدين عبد الله بن تمام الحنبلى قصيدة طويلة، منها قوله :

كثر على لمالى بعدها وطر ... بشارة كنت أرجوها وأنتظر
هبت علينا بنصر الله هاتفة ... لم تروَ أخبارها الأخبار والسير
نتلو أحاديثها دأبا وندرسها ... كأنها بيننا الآيات والسور

وقال صاحب نزهة الناظر :

لمثل ذا اليوم كان الدهر ينتظر ... فليهنك اليوم هذا النصر والظفر
يا يوم شقحب لو عاش الألى سلفوا ... من الملوك لهذا اليوم ما ذكروا
لله درك والأعداء قد بسطت ... خيولهم سربا فى الأرض تنتشر
صدمتهم بخيول لو صدمت بها ... صرف الزمان اولّى وهو منذعر
يأتوا بليل تمنوا أنه لهم ... ليل الضرير وصبح ليس ينتظر

(١) « السيد » — كنز الدرر .
(٢) « برونقه » — فى كنز الدرر .
(٣) « فطاب » — فى التحفة الملوكية .
(٤) انظر كنز الدرر ج ٩ ص ٩١ — ٩٣ حيث أورد ابن أيبك ٤٠ بيتا من هذه القصيدة ، كما أورده بيبرس الدوادار ١٦ بيتا من هذه القصيدة فى التحفة الملوكية ص ١٧١ — ١٧٣ .

وجاوزوا النهر خوضا من دمائهم — مخثرا وصفاه منهم كدر
ولوا ظهورهم والسيف حاكمها — كأنهم حمر استنفروا نفروا
وأصبح الدين منصورا بناصره — والكفر يخذل والإسلام منتصر
وشتت الله شملا كان مجتمعا — وضرب الله أرقاب الألى كفروا
فإن تكن زلة للدهر واحدة — فقد أتاك « ... » (١) وهو يعتذر
فليهنك اليوم هذا الفتح يا ملكا — وافى لك الفتح ما وافى به عمر
وافت لغازان أخبار معنعنة — فصدق الخبر لما عاين الخبر
وأصبح النوح تترى في منازلهم — بالحزن والويل والتعديد والفكر
كل يؤمل أن يأتي لصاحبه — حتى يراه فلا عين ولا أثر

وأحسن ما قيل في هذه الوقعة قصيدة شمس الدين الطيبي (٢)، وهي هذه :

برق الصوارم للأبصار (٣) تختطف — والنقع يحكي سحابا بالدما تكف

[٣٠٧]

أحلا وأفلا وأعلا قيمة وسنا — من ريق ثغر الغواني حين يرتشف
وفي قدود القنى معنى شغفت به — لا بالقدود التي قد زانها الهيف
ومن غدا بالخدود الحمر ذا كلف — فإنني بخدود البيض لي كلف

---

(١) « ... ... » بياض في الأصل .

(٢) هو : أحمد بن يعقوب بن إبراهيم بن أبي نصر الطيبي ، الشيخ الأديب شمس الدين ، أبو الفضل ، المتوفى سنة ٧١٧ هـ / ١٣١٧ م — المنهل الصافي جـ ٢ ص ٢٦٧ رقم ٣٤٦ .

كما ورد اسمه : أحمد بن يوسف بن يعقوب ، القاضي شمس الدين ، المعروف بالطيبي — انظر المنهل الصافي جـ ٢ ص ٢٨٠ رقم ٣٤٨ .

(٣) « والأبصار » في تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٥١ .

ولامة الحرب فى عينى أحسن من لام العذار الذى فى الخد منعطف (١)
كلاهما زردٌ هذا يُفيد وذا يُردى فشأنُهما فى الفعـــل مختلف
والخيلُ فى طلب الأوتار صاهلةٌ ألذ لحناً من الأوتار تختلف (٢)
ما مجلس الشرب والأقداح دائرة كموقف الحرب والأبطال تزدلف
والعزّ من تحت ظل الرمح مُقترنٌ بالعز والذلّ يأباه الفتى الصلف
لا عيش إلّا لفتيان إذا انتدبوا ثاروا وإن بذلوا (٣) فى غمّة كشفُوا
يبقى بهـــم ملة الإسلام ناصرها كما يقى الدُرّة المكنونة الصدفُ
قاموا لقـــوة دين الله ما وهنوا لما أصابهم فيـــه ولا ضعُفوا
وجاهدوا فى سبيل الله فانتصروا من بعـــد ظلم ومما ساءهم أنفُوا
لمّا أتتهم جُيوش الكُفر يقدمُهم رأسُ الضلال الذى فى عقله جنف
جاءوا وكل مقام ظل مُضطرباً منهـــم وكلُّ مقام بات يرتجف
فشاهدوا علَم الإســلام مُرتفعا بالعدل فاستيقنوا أن ليس ينصرف
لاقاهُم الفيلق الجرارُ فانكسَروا خوف العوامل بالتأنيث فانصرفوا
يا مرج صفّر بيّضت الوجوه كما فعلت من قبلُ فالإسلام يؤتلف
أزهرُ روضك أزهى عند لفحته أم يانعات رءوس فيك تقتطفُ
غُدران أرضك قد أضحت اواردها ممـــزوجة بدماء المُغْل تغـــترف
زلّت على كتف المصرىّ أرجلهم فليس يدرون أنّى يؤكل الكتف

---

(١) « ينعطف » فى تذكرة النبيه .

(٢) « تأتلف » فى تذكرة النبيه .

(٣) « وإن نهضوا » فى تذكرة النبيه .

آووا إلى جبل لو كان يعصمهم … من موج نوح المنايا حين يختطف
دارَتْ عليهم من الشُجْعان دائرةٌ … فما نجا سالمٌ منهم وقد زَحَفوا
ونكّسوا منهم الأعلام فانهزموا … ونكصوهم على الأعقاب فانتصفوا
ففي جماجمهم بيض الظلا ز بروا … وفى كلا كلهم سمر القنا قصفوا
فرّوا من السيف ملعونين حيث سروا … وقُتلوا فى البرارى حيث ما ثقفوا
فما استقام لهم فى أعوج عوج … ولا أجارهم من مانع كنف
وملت الأرض قتلاهم بما قذفت … منهم وقد ضاق منها المُهمهُ القذفُ
والطيرُ والوَحْش قد عافت لحـ … ـومهم ففى مراح الضوارى منهم قَذَفُ.

[٣٠٨]

ردوا[1] فكُلُّ طريق نحو أرضهم … يدل جاهلها الأشلاءُ والجيفُ
وأدبروا فتــولىَّ قطـعَ دابرهم … والحمـــد لله قومٌ للوفى ألفوا
ساقوهُم فسقوا شـــط الفُـراة … وماوطمهم بعُباب السيف فانحرفوا
وأصبحوا بعـــد لاعينٌ ولا إثر … غير القــلاع عليها منهم شعفُ
يا بَرْق بلغ إلى غازان قصـــتهم … وصْف فقصتهم من فوق ما تصفُ
بَشّر بهلكهم ملك العراق لكى … يُعطيك حلوانها حلوان والنجفُ
وإن يَسَلْ عنهم قــل تركتهمُ … كالنحل صرعى فلا تمر ولا سعفُ
ما أنت كفؤ عروس الشام تخطبها … جَهلا وأنتَ إليها الهائم الدنفُ
قـــد مات قبلك آباءٌ بحسرتها … وكلهم مُغرَمٌ مغرىً بها كلِفُ
إنّ الذى فى جحيم النار مسكنهُ … لا يُستباحُ له الجنانُ والغُــرَفُ

---

(١) « فروا » فى درة الأسلاك ص ١٥٩ .

وإنْ تعودوا تعُــد أسيافُنا لكُمُ ضربًا إذا قابلتها رضب الحجَفُ
ذُوقوا وَبالَ تعــديكمُ وبغيكمُ فى أمركم ولكأس الخزى فارتشفوا
فالحمــد لله مُعطى النصر ناصره وكاشف الضُرّ حيث الحال منكشف (١)

ذكرُ ما اتّفق لقُطلوشاه ومن معه من التتار :

قد ذكرنا عند نزولهم من الجبل اتبعهم العسكر وجردوا خلفهم الأمراء وقتلوا منهم خلقا كثيرا ، وكذلك العرب قتلوا منهم ، ومات أكثرهم من العطش والجوع ، والذى سلم منهم أو خرج قُتل فى الطريق ، وقتلت أهل المدن والضياع منهم خلقا عظيما ، وما وصل قطلوشاه إلى الفرات إلا فى نفر يسَير ، ولم يعد الفرات سالما إلّا مُولاى فإنه ما عدم له إلّا نفر يسير من الذين انقطعوا منه فإنه خرج أولا وذهب كما ذكرنا ، ولم يقابل العسكر ، وبلغ الخبر إلى غازان ، وإلى همدان ، ووقعت الضجات ، واستقبلهم أهل البلاد بالبكاء والعويل ، وخرجت أهل تبريز وغيرها ، وركبت النساء والخواتين لسماع أخبارهم ، لينظرن مَنْ قتل ومَن بقى ، ونظر الخلائق إلى عسكر مُبدَّد ما بين ماش وراكب ، ومحمول ومجروح ، ونادب على ولده وعلى أخيه .

قال الراوى : وحكى لى من حضرهم من تجار تبريز أنه أقام مدة شهرين لم يَسمع غير بكاء ونياحة وتعديد بلسان المغل ، ولما وُصف لقازان كيفيّة انكسارهم ، وما جرى عليهم ، خرج من منخريه دم كثير إلى أن كاد يقتله ،

(١) انظر أيضا تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٥١ — ٢٥٢ ؛ درة الأسلاك ص ١٥٩ حيث توجد أبيات أخرى من هذه القصيدة .

ودخل إلى خركاته [(١)]، ولم يجتمع بأحد من الأمراء، ولا من الخواتين إلى أن أخبروا له أنّ مُولاى وصل، وحكى له طرفا من أمره، وأقام إلى أن وصل قطلوشاه وعسكره، وملك مسامعه من البكاء والتعديد، وخرجت نساء المغل وأهل العسكر لتلقى رجالهم وأولادهم فلم يجدوا من كل عشرة واحدا، فركب الأُرْدو عن بكرة أبيهم، فهنّى بعضُهم باللقاء. وقيل لبعضهم: خلّفناه فى ماردين أو غيرها. وقيل لبعضهم: [٣٠٩] جُرِح. وقيل لبعضهم: أُسِر، ومثل هذا الكلام.

فلما علم غازان بذلك خرج وجلس على التخت [(٢)]، وطلب أمراء التوامين الذين كانوا قد تأخروا عنده، والخواتينَ، فأجلسهم على العادة، ورسم بحضور قطلوشاه وجُوبان وسُوتاى، ومن كان معهم من الأمراء، وأوقفهم بين يديه مَوقف الذلّ، وقال للحاجب: قل لهم كيف خالفتم يسق [(٣)] السلطان حتى كسرتم عسكره؟ فقالت الأمراء: نحن كنا مع نائبك ويَسَقك أن لا نخالفه فيما يفعله. فقال لقطلوشاه: كيف خالفت يَسَق ولاقيت الملك الناصر صاحب مصر وعسكره. فردّ عليه الجواب بما اتفق له من سوقه خلف عسكر الشام وكيف أدركهم وكسَرهم، وأن سلطان مصر وصل فى ذلك الوقت على غفلة منه، فلم يقبل له عذرا، ورسم أن يقيد بالكلاليب، فقامت الأمراء والخواتين وشفعوا فيه، وقالوا له: إن له على الخان خدمةً كثيرةً،

(١) خركاة: كلمة فارسية، ويقصد بها هنا فى المتن، الخيمة الكبيرة أو المرادق — انظر المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية — ص ٤٤.

(٢) التخت: كرسى المملكة الذى يجلس عليه الملك لإدارة المملكة. انظر: صبح الأعشى جـ ٤ ص ١٣٢ — ١٣٣.

(٣) اليسق: كلمة مغولية بمعنى القانون أو الأمر — انظر صبح الأعشى جـ ٤ ص ٣١٠ — ٣١١.

وأنه اجتهد غاية الاجتهاد . ولكن أتاه الأمر بغير ما حسبه ، وما زالوا به وهم واقفون بين يديه ، والخواتين قد كشفن رءوسهن إلى أن عفى عنه ، ورسم أن يُوقفوه على بعد من بين يديه وهـو ممسوك بين الحُجاب ، ويقوم كل مَن حضر بين يدى الخان فيخرج إليه ويتفل فى وجهه ، وهـذه حدّ الإهانة عندهم للكبير إذا لم يقتلوه ، ثم رسم أن يخـرج مع جماعته وعسكر آخر إلى كيلان ولا يُوريه وجهَه إلى أن يملكها ، وكان من أمره ما سنذكره إن شاء الله ، وطلب بعدها مُـولاى ورماه وضربه تسع عصا وقال : كنت مُتَّ معهـم . وأهانه الإهانة البالغة .

وفيها . كان النيل أوفى على ستة عشر ذراعا ، وكان كسر الخليج خامس المحـرّم .

وقال صاحب النزهة : الصحيح أن النيل غلّق ثمانية عشر ذراعا .

وفيها : حج بالناس سيف الدين بُرلغى .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

الشيخ الإمام شيخ الإسلام بقية المجتهدين قاضى القضاة تقى الدين محمد(1) بن الشيخ [ال](2) صالح بقية السلف مجد الدين أبى الحسن على بن وهب بن مطيع ابن أبى الطاعة القشيرى المصرى ، المعروف بابن دقيق العيد .

ولد يوم السبت الخامس والعشرين من شعبان سنة خمس وعشرين وستمائة بساحل مدينة ينبع من أرض الحجاز ، وتوفى يوم الجمعة الحادى عشر من صفر ببُستان عند باب اللُوق ، وصُلّى عليه تحت القلعة ،وحضر جنازته : نائب السلطان ، والأمراء ، وأعيان الدولة ، وخلق كثير من الناس ، ودفن بالقرافة .

وكان أجل مَن بقى من علماء المسلمين علما وديانه وعملا ، و كان من علماء الحديث ، وكان إماما متقنا ، متفننا ، أصوليا ، فقيها ، أديبا ، نحويا ، شاعرا ، ناثرا ، مجتهدا ، وافر العقل ، كثير السكينة ، تام الورع ، شديد التديّن ، مُديم السهر ، مكبا على المطالعة والجمع ، قلّ أن ترى العيون مثله ؛

وكان قد قهره الوسواس فى أمر المياه والنجاسات ، وله فى ذلك حكايات عجيبة ، وكان كثير التسرى والتمتع ، وكان مهوّسا بعلم الكيمياء ، معتقدا صحتها ،

(1) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ١٦٢ ، الوافى جـ ٤ ص ١٩٢ رقم ١٨٤١ ، فوات الوفيات جـ ٣ ص ٤٤٢ رقم ٤٨٦ ، الدرر جـ ٤ ص ٢١٠ رقم ٢٠)٤) ، طبقات الشافعية جـ ٦ ص ٢ ، شذرات الذهب جـ ٦ ص ٥ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٥٤ ، السلوك جـ ١ ص ٩٤٧ — ٩٤٨ ، الطالع السعيد ص ٥٦٧ رقم ٤٦٣ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢٧ ، البدر الطالع جـ ٢ ص ٢٢٩ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٠٦ — ٢٠٧ .

(2) إضافة تتفق والسياق — انظر مصادر الترجمة .

وكان له عدة أولاد بأسماء الصحابة العشرة ، تفقه بأبيه وبالشيخ عز الدين بن عبد السلام وغيرهما ، واشتهر اسمه فى حياة مشايخه ، وتخرج به أئمة ، وكان عارفا بمذهبى مالك والشافعى ، كان مالكيا أولا ، ثم صار شافعيا .

وقال [٣١٠] ابن كثير : سمع الحديث الكثير ، ورحل وخرّج ، وصنّف فيه إسنادا ومتنا بمصنفات عديدة مفيدة فريدة(١) : وانتهت إليه رئاسة العلم فى زمانه ، وفاق جميع أقرانه ، ودرس فى أماكن كبار كثيرة ، ثم ولى قضاء مصر سنة خمس وتسعين وستمائة ، ومشيخة دار الحديث الكاملية(٢) .

وقال بيبرس : وكانت مدة ولايته ست سنين وسبعة أشهر وأياما .

وقال النويرى : وكان نشوه بمدينة قوص ، وتفقه على أبيه ، وعزل نفسه عن القضاء ، وسُئل فى العَود : فامتنع ، فألحّ عليه ، فعاد ، وهو الذى نقل خِلَع القضاة من الحرير إلى الصُوف ، وكان يخلع على القضاة قبله الحرير الكنجى ، وتولى بعده القضاء بدر الدين بن جماعة .

وقال صاحب النزهة : وصلّى عليه السلطان وسائر الأمراء والأكابر . وهو آخر من ولى القضاء من المجتهدين الذين لم يُر فى دولة الترك مَن ولى منصب القضاء مثله .

قال : ويذكر له نكتة غريبة ، وهى : أنه اتفق أن شخصا أحضر إليه فُتيا فكتب عليها ، فلما فارقه تذكر أنه كتب فيها ما لايجوز ، فقلق لذلك قلقا عظيما ولم يحكم ذلك النهار . فلما كان بكرة اليوم الثانى حضر الرجل ومعه الفتوى ، وسأل الشيخ أن يكتب له عليها بخط مُقَسّر وذكر أنه من حين خرج من عند

(١) من مصنفات صاحب الترجمة ، انظر هدية العارفين جـ ٢ ص ١٤٠ .

(٢) ملخصا من البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢٧ .

الشيخ بالفتوى عرضها على النــاس ، فكل من أخذها لم يحُسن قــراءتها لكون حروفها مخبطةً ولم يظهر منهــا شيء ولا حرف واحد . فأخذها فكتب عليها بمــا يجــــوز .

وروى عنــه الشيخ فتح الدين بن سيد الناس شيئا كثيرا من لطافته وكرمه واحتمال نفسه ، ومن أشعاره الرائقة ، ومن ذلك قوله :

أُفكّر فى حالى وقُــــرب منيّتى … وسَيْرى حثيثا فى مَصيرى إلى القبر
فيُنشِىء لى فكرى سحائِبَ للأسَى … تَسِحّ هموماً دونها وابلُ القطــر
إلى الله أشكو من وجودى فإننى … تعبتُ به مُذ كنتُ فى مَبْدءِ العمُر
تروح وتغــــدو للمنايا بخــائِعً … تكدّره والمــوتُ خاتمةُ الأمرْ

وله :

سحابَ فكرى لا يزال هامياً … وابـــلُ همىّ لا أراه راحلا
قــــد أتعبتنى فكرتى وهمــــتى[1] … فليتــــنى كنتُ مهيناً جاهــــلا[2]

وقال الشيخ شمس الدين محمد بن نباتة ، أنشدنى الشيخ تقى الدين بن دقيق العيد لنفسه :

أتعبتَ نفسك بين ذلّة كادِح … طلب الحياة وبين حرص مؤمل
وأضعتَ عُمرك لاخلاعة ما جنِ … حصلت فيــــه ولا وقار مبجّل
وتركتَ حظ النفس فى الدنيــا … وفى الأخرى ورحت عن الجميع بمعزل

---

(١) « همى وفطنتى » فى النجوم الزاهرة ، الوافى .

(٢) انظر النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٠٧ .

وله دُوبيت :

الجسمُ تَذيبُــه حقوقُ الخدْمة والقلبُ عــذابُه(١) علو الهمّة
والعمُر بذاك ينقضى فى تعب والراحة ماتت فعليهـا الرحمة

ومن العجب أن هذين البيتين حفظهما الشيخ تاج الدين أحمــد أخو الشيخ تق الدين ، فاتفق له أنه قال : بينا أنا وقت الهاجرة بمسجد الجوارى بالحُسيْنية ؛ إذ غلبتنى عيناى فنمت و رأيت والدى الشيخ مجـد الدين ، فسلم علىّ وسألنى عن حالى فقلتُ ياسيدى بخير . فقال : كيف محمد أخـوك ؟ [٣١١] — يعنى الشيخ تقى الدين — فقلت : بخـير ، الساعة كنتُ عنده وأنشدنى دوبيت ، وأنشدته البيتين المذكورين . فقال : سلم عليه وقل :

الروُح إلى محلّها قــد تاقَتْ والنفسُ لها مع جسمها قد عاقت
والقلبُ معــذّب على جمعهــم والصبرُ فضى وحيلتى قد ضاقت

فانتبه تاج الدين ، وقد حفظ الدوبيت المذكور .

وله أيضا :

يا معُرضا عنى ولست بمعـرض(٢) يا ناقضًا عهدى ولست بناقِض(٣)
أتعبْتَنى بخـلائق لك لم تُفـد(٤) فيها وقد جمحت — رياضة رائض
أرضيتَ أن تختارَ رفضى مذهبا فيشيعُ(٥) للأعداء أنك رافضى

(١) « والنفس هلاكها » — فى الوافى .

(٢) ، (٣) « وليس » — فى فوات الوفيات .

(٤) « لم يفد » فى الوافى ، وفوات الوفيات .

(٥) « فتشنع » فى الطالع السعيد ، و « فيشنع » فى الوافى .

وقال شهاب الدين بن الكُوَيك التاجر الكارمى : اجتمعت به مرة فرأيته فى ضرورة شديدة . فقلت له : ياسيدى ما تكتب ورقة لصاحب اليمن وأنا أقضى فيها الشغل . فكتب ورقة لطيفة فيها :

تجادل أربابُ الفَضائل إذْ رأوا ... بضَاعتَهم موكُوسة الحَظّ فى الثَمَنْ

وقالوا[1] عرضناها فلم نُلف طالبا ... ولا مَن له فى مثلها نظرٌ حسَنْ

ولم يبق إلاّ رفضها وإطراحُها ... فقلت لهم لاتعجلوا السوق باليَمَنْ

وأرسلها إليه . فأرسل له مائتى دينار ، واستمرّ يرسلها له فى كل سنة إلى أن مات صاحب اليمن ، رحمه الله .

الشيخ برهان الدين إبراهيم[2] بن فلاح بن محمد بن حاتم السكندرى .

سمع الكثير وتفقه ، ودرس بالقوصية ، وأعاد وأفتى ، وناب فى الخطابة مدة ، وفى الحكم عن ابن جماعة ، وكان دينا فاضلا ، ولد سنة ست وثلاثين وستمائة ، ومات يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من شوال ، عن خمس وستين سنة ، ودفن بالقرب من الصَندْلاوى بباب الصغير .

الشيخ المحدث شرف الدين[3] عمر بن محمد بن عمر بن الحسن بن خواجا إمام الفارسىّ ، شيخ الحديث بدار الحديث الظاهرية .

مات بها وقدناهز التسعين سنة ، ودفن عند مسجد القدم ، وكان قد أوصى به ، وأوصى أيضا أن يشترى بخمسمائة درهم حلاوة صابونية وتفرق على قبره بعد

(١) « فقالوا » فى الطالع السعيد .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ ١ ص ٥٤ رقم ١٣٨ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢٧ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ ٣ ص ٢٦٦ رقم ٣٠٧٤ .

دفنه على من يشيع جنازته ، ففعلوا ذلك ، فأكل الناس وترحموا عليه ، وكان مشكور السيرة ، حسن المخالطة .

الشيخ محيى الدين عثمان[1] بن الشيخ أحمد بن عثمان ابن إمام الكلاّسة ، إمام مشهد عروة .

مات فى هذه السنة فى عاشر شوال[2] ، ودفن بقاسيون ، وكان من القراء الصيّتين .

الشيخ الإمام شمس الدين محمد[3] بن إبراهيم بن يحيى الصنهاجى ، إمام المالكية بجامع دمشق .

مات بالمارستان النورى ودفن بباب الصغير ، وكان فقيها فاضلا من أهل العلم والصلاح ، وتولى مكانه أبو الوليد بن الحاج الإشبيلى .

الصدر الكبير العالم الفاضل كمال الدين أبو العباس أحمد[4] بن أبى الفتح محمود ابن أبى الوحش أسد بن سلامة بن سلمان بن فُتيان الشَّيْبانى ، المعروف بابن العطار ، كاتب الدرج الشريف منذ أربعين سنة .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ٣ ص ٤٩ رقم ٢٥٦٧ .

(٢) « مات فى شعبان » — فى الدرر .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ٣ ص ٣٨٦ رقم ٣٣٢٠ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٢ ص ٢١٠ رقم ٣١٠ ، درة الأسلاك ص ١٦٣ ، نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٣٠ ق أو رقة ٦٦ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ٢٥ رقم ٣٦ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢٧ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٥٦ ، النجوم الزاهرة جـ٨ ص ٢٠٣ ، الوافى جـ ٨ ص ١٩٧ رقم ٣٥٩٠ .

مات بباب البريد ، وحمل إلى قاسيون فدفن فى تربة له فى نواحى الكهف ، وكان فيه تلاوة قرآن ، وذكر ، وملازمة للصلوات مع الجماعة . واقتنى كتبا كثيرة جليلة ، [٣١٢] وله ترسّل ونظم ، فمن نظمه :

قل يانسيم فإن رجعت مخبرا		برضاهم ومُبشرا بقبَول
فلك الهناء لأمنحنك رقتى		ولأخلعنّ عليك ثوب نحَول

الأمير فارس الدين ألبكى (١) الساقى المنصورى نائب حمص .

كان أميرا كبيرا مقدما . مات فى هذه السنة يوم الثلاثاء الثامن من ذى القعدة ، وهو الذى توجه إلى قازان ملك التتار وعاد إلى الشام . وولى مكانه عز الدين أيبك (٢) الحموى ، وكان نائبا بصرخد ، فنقل إلى حمص ، كذا قال النُويرى .

وقال بيبرس : تولى عوضه الأمير بلبان (٣) الجوكندار المنصورى ، وكان نائبا بقلعة دمشق .

الأمير شمس الدين سنقر العيلتابى ، توفى فى هذه السنة بدمشق ، وكان من أمرائها .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٣ ص ٣٧ رقم ٥٢٤ ، الوافى جـ ٩ ص ٣٥١ رقم ٤٢٨٠ ، الدرر جـ ١ ص ٤٣٢ رقم ١٠٤٠ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٠٤ .

(٢) توفى سنة ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م — المنهل الصافى جـ ٣ ص ١٣٢ رقم ٥٧٦ .

(٣) توفى سنة ٧٠٦ هـ / ١٣٠٦ م ــ المنهل الصافى جـ ٣ ص ٤٢٠ رقم ٦٩٧ .
ويبدو مما ورد فى المنهل أن كلا من أيبك الحموى ، وبلبان الجوكندار تولى نيابة حمص ، فقد وليها — بعد وفاة كتبغا — أيبك الحموى ، ثم وليها بلبان بعد وفاة أيبك ــ المنهل الصافى جـ ٣ ص ١٣٢ ، ص ٤٢١ ، وانظر أيضا السلوك جـ ١ ص ٩٤٩ .

الأمير سيف الدين بكش رأس النوبة الجمدارية ، توفى فى هذه السنة .

الأمير ناصر الدين بن باشقرد[1] [الناصرى الأيوبى][2] .

تقنطر به فرسه فى سوق الخيل ، فوقع ميتا ، ودفن بجبل قاسيون عند والده . وكان شابا حسنا جميلا .

الأمير حسام الدين[3] الأستادار ، استشهد فى الوقعة المذكورة وكان يعرف بالرومى .

وكان مملوك السلطان الملك المنصور قلاون ، اشتراه من تاجر ، وذكر أنه رومى ولقبه بلاجين ، وكبّره عنده ، وترقى إلى أن عمله أستاذالدار ، وحكى عنه أنه قال : ما أنا من الروم ، وإنما جنسى وبيتى من التركمان ، وكان أبى وأمى مسلمين ، وكان اسمى خليلا واتفق أن زوقنا[4] كبست وأغير عليها ، فأسر كل من فيها ، وباعونى فى بلاد الروم ، ثم اشترانى تاجر وجابنى إلى مصر ، وكان له تلاوة وسماع حديث .

الأمير أوليا بن قرمان[5] ، وقد ذكرناه من المستشهدين فى الوقعة المذكورة .

(١) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ١٦٣ ، الدرر جـ ٢ ص ٣ رقم ١٢٦٨ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٥٦ .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح من تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٥٦ .

(٣) هو لاجين الرومى ، الأمير حسام الدين . وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ ٣ ص ٣٥٧ رقم ٣٢٢٤ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٠٩ .

(٤) هكذا بالأصل . ولعله اسم القرية التى كان يعيش بها .

(٥) وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ ١ ص ٤٤٨ رقم ١٠٩١ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٠٥ .

وكان قد وفد إلى مصر فى الدولة الظاهرية، وكان يقال ابن قرمان ، ولم يكن كذلك وإنما كان ابن أخت قرمان .

الأمير عز الدين أيدمر الرفا ، ذكرناه فى المستشهدين .

وكان من الأمراء المنصورية المشهورين بالفروسية والشجاعة ، وحكى من أكابر مماليكه أنه أخذه التركمان . ثم وصل إلى بيت الملك الناصر صاحب حماة .

الأمير عز الدين أيدمر[1] الفشاش[2] . قد ذكرناه فى المستشهدين أيضا .

وكان له تقدم وسمعة فى الولايات ، وحرمة كبيرة ، وآخر ولايته ولاية الغربية ، وأضيفت له ولاية الشرقية ، وكان يتحدث فى الإقليمين ، وكانت له اختراعات فى الأعمال من جملتها : كان يضرب فى الأرض خوازيق ويضع على علوها صارى ببكرة ، فإذا علق عليه أحد من المفسدين يجذبونه[3] إلى فوق جدا ، ثم يرخونه إلى أن يقع على خازوق من تلك الخوازيق ، فيخرج من جسده حيث يقع منه ، وكانت له مهابة فى النفوس ولم يجسر أحد فى أيام ولايته أن يلبس مئزرا أسودا ، ولا يتقلد بسيف، ولا يحمل عصىّ ، ولا يركب فرسا . ورُئى فى المنام بعد موته راكبا حصانا أشهب . وعليه عدة الحرب ، وبيده رمحه ، وعليه مهابة عظيمة ، فقيل له : بم نلت هذه ؟ فقال : غفر الله لى بعمارتى جسر السقفى ،

(١) وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ ١ ص ٤٠٧ رقم ١١٢٥ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٠٥ .

(٢) « الخشاش » — فى الدرر .

(٣) « يجيدونه » فى الأصل .

وهو جسر كان أنشأه بين ملفة صندفا وبين أرض سمنود . وكان فى آخر عمره عرض له وجع المفاصل ، فدخل على الأمراء أن يعفوه عن الولايات . فأعفى وأقام فى بيته إلى أن خرج السلطان إلى لقاء العدو ، فتجهّز للسفر . فقيل له : إنك ما تحمل على الركوب على الخيل ، فلم يسمع كلامهم [٣١٣] ومازال راكب المحفّة إلى أن قامت الحرب، فركب فرسه وهو فى غاية ما يكون من الألم ورجلاه متورمتان . فقيل له : أنت ترمى نفسك للموت . فقال . ويلكم لمثل هذا اليوم كنت انتظر، وإلا كيف يخلّص القشاش نفسه من ربة . فرفص فرسَه وحمل عليهم ورمحه فى يده . ووصل إلى صدر العدو وكأنه ليس به ألم ، فلم يزل يقاتل حتى قتل ، ووجد فيه نحو من ست جراحات ، رحمه الله .

الشيخ نجم الدين أيوب (١) الكردى ، قتل فى هذه الوقعة .

وكان قد ورد من البلاد فى سنة سبع وثمانين وستمائة ، ومعه جماعة من الأكراد ، وأقام بدمشق مدة سنتين، ونال من أمرائها حظا كبيرا . وظهرت له أمور من المكاشفات والصلاحية . وكان لايدخل إليه أمير إلاّ ويطالبه بالهدية، ولابد أن يحمل له شيئا من الدنيا، واتبعوا أمره فى ما يأخذه ، فوجدوه يتصدق به ولا يدخره . ثم رحل إلى مصر ويوم عبوره حصلت له معرفة مع ابن قرمان المذكور . فأخذه إلى بيته . ثم بنى له زاوية بجوار بيته . وأقام فيها إلى أن خرج السلطان للقاء العدو، فخرج معهم . ولما التقوا بالعدو كان راكبا بآلة الحرب، واقفا إلى جانب ابن قرمان ، فقُتل معه ، ثم دفنا جملة واحدة ،

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ ١ ص ٤٦٤ رقم ١١٤٥ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٠٦ .

الأمير عثمان بن يغمراسن بن عبد الواد صاحب تلمسان .

توفى فى هذه السنة على فراشه . وجلس بعده ولده محمد بن عثمان بن يغمراس .

قال بيبرس فى تاريخه : وقد أمضهم الحصار ومسهم الجهد . فأقام أربع سنين والمحاصرة مستمرة والمضايقة متضاعفة ، وعدمت الأقوات وغلت الأسعار ، فبلغ الحمل من الملح إلى مائة دينار ، والحمل من القمح إلى ستين دينارا كبارا ، ولحم الفرس الواحد إلى مائة دينار ، والشاة إلى عشرة دنانير ، والثور إلى ستين دينارا . والدجاجة إلى ثلاثة دنانير . وورد على المحاصرين خبر من بلاد العدو فأوجب رحيلهم .

الملك العادل زين الدين كتبغا[1] . توفى بحماة نائبا عليها بعد صرخد كما ذكرناه .

وكانت وفاته يوم عيد الأضحى ونقل إلى تربته بسفح قاسيون غربى الرباط الناصرى ، وله عليها أوقاف داره على وظائف قراءات وغيرها ، وكان من كبار المنصورية ، وقد تملك بعد مقتل الأشرف خليل بن المنصور قلاون ، ثم عزله عنها لاجين وحوله إلى صرخد ، فكان بها حتى قتل لاجين وعاد الملك إلى الملك الناصر محمد بن قلاون فاستنيب بحماة ، وكانت وفاته بها .

وكان من خيار الملوك وأعدلهم ، وأكثرهم برا .

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ١٦٢ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ١٣١ رقم ٢٠٨ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٥٥ — ٧٠ ، ص ٢٠٦ ، الدرر جـ ٣ ص ٣٤٨ رقم ٣٣٠١ ، السلوك جـ ١ ص ٨٤٦ ، ٩٤٧ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٥٤ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢٧ .

ورتب بحماة عوضه الأمير قفجق ، فتوجه إليها وولى النيابة فيها ، وكان نائبا بالشوبك .

وقد تقدم فى ترجمته أنه أخذ فى نوبة حمص هو وبيدرا عقيب كسرة المغل على عين جالوت ، وحكى أنه لما فتح هلاون الشام أحضر منجما حاذقا يقال له : نصير الطوسى ، فقال : أبصر من يملك مصر من مقدمى عسكرى فقد قيل إنى لا أملكها . فنظر فلم يجد من الأسماء من يملكها إلا كتبغا ، وكان صهر هلاون يسمى كتبغا نوين ، فظنه هلاون إياه ، فأنفذه على العسكر الذى خذله الله على عين جالوت على يد الملك المظفر قطز ، وكان بين ذلك وبين ملك كتبغا هذا مصر خمسة وثلاثين سنة ، وملك صاحب هذا الاسم لكنه ليس من أصحاب هلاون . والذى اتفق لهذا ما اتفق لأحد من الملوك فى دولة الترك ، فإنه خرج من السلطنة إلى نيابة بلد [٣١٤] ، ثم حضر إلى مصر وجلس مع الأمراء ، وصار يُرقل على ما يكتبه نائب السلطان ، ويمشى فى خدمته ، ويخاطب بالأمير ، وهذا لم يتفق لأحد أصلا والله أعلم .

فصل فيما وقع من الحوادث
فى السنة الثالثة بعد السبعمائة (*)

استهلت هذه السنة ، وخليفة الوقت : المستكفى بالله بن الحاكم العباسى .

وسلطان البلاد : الملك الناصر محمد بن قلاون ، ونائبه بمصر الأمير سلار ، وقاضى الشافعية بدر الدين بن جماعة ، ونائب الشام جمال الدين أقوش الأفرم ، وقاضى الشافعية بدمشق نجم الدين بن الصصرى .

ذكر المدرسة الناصرية التى بين القصرين :

قال ابن كثير (١) : وفى هذه السنة كمل عمارة المدرسة الناصرية (٢) ببين القصرين ، وكان الملك العادل زين الدين كتبغا قد شرع فى عمارتها وابتدأ فى إنشائها ، فلم تطل مدته لتمام بنائها ، فعند عود الملك الناصر إلى مملكته ثانيا أمر بتكميلها ، ورسم بترتيبها ، ورتب الدروس على المذاهب الأربع ، فللحنفية شمس الدين السروجى (٣) ، وللمالكية زين الدين على (٤) ، وللحنابلة شرف الدين عبد الغنى (٥) الحرانى ،

(*) يوافق أولها يوم الخميس ١٥ أغسطس ١٣٠٣ م .

(١) لم يرد الخبر التالى فى المطبوع من البداية والنهاية الذى بين أيدينا .

(٢) المدرسة الناصرية بالقاهرة : بجوار القبة المنصورية من الجهة البحرية — المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٨٢ .

(٣) هو : أحمد بن إبراهيم بن عبد الغنى ، شمس الدين السروجى ، المتوفى سنة ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م — المنهل الصافى جـ ١ ص ٢٠١ رقم ١٠٢ .

(٤) هو : على بن مخلوف بن ناهض ، المالكى ، قاضى قضاة مصر ، المتوفى سنة ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م — المنهل الصافى .

(٥) هو : عبد الغنى بن يحيى بن محمد ، قاضى القضاة شرف الدين أبو محمد الحرانى ، الحنبلى ، المتوفى سنة ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م — المنهل الصافى .

وللشافعية الشيخ الفاضل صدر الدين محمد[1] بن المرحل المعروف بابن الوكيل ، ونقل الملك الناصر والدته من التربة المجاورة لمشهد السيدة نفيسة إلى قبة المدرسة المذكورة ، ودفنت بها ، وعيّن لها أوقافا جارية[2] .

وفى النزهة : وكانت هذه المدرسة دارًا تعرف بدار الأمير سيف الدين بلبان الرشيدى . ولما تسلطن الأمير زين الدين كتبغا وتلقب بالملك العادل اختار أن يجعل له مدرسة ومكانا يدفن فيه ، فسعى له جماعة ودلّوه على هذا المكان لأنه مجاور لمدرسة[3] السلطان قلاون أستاذه ، وفى وسط المدارس ، ففرح بذلك واشتراه من ورثته ، وشرع فى عمارته ، وجلب إليه سائر الصناع ، وعمل لها بابا عجيبا ، وهو رخام أبيض قطعة واحدة ، وكذلك واجهة الباب وأعتابه[4] ، وأصل ذلك أن الملك الأشرف خليل بن قلاون لما أخذ حصن عكا[5] وجد فيها بناء عظيما من أيام السنين من العمائر العجيبة جدا[6] ، وكان هذا الباب فى هذا البناء ، وكان الأشرف قد رتب علم الدين الدوادار الصالحى على تخريب سور عكا وسور

(١) هو « محمد بن عمر بن مكى بن عبد الصمد ، صدر الدين بن المرحل ، ويعرف أيضا بابن الوكيل ، المتوفى سنة ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م — المنهل الصافى .

(٢) انظر المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٨٢ .

(٣) « المدرسة » فى الأصل .

(٤) عتب الباب : هو الحجر الذى يعلو الباب أو الذى يوطأ — المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية ص ٨٠ .

(٥) فى سابع عشر جمادى الأولى سنة ٦٩٠ هـ — انظر ما سبق بالجزء الثالث من هذا الكتاب ص ٥٨ وما بعدها .

(٦) « أقام الأمير علم الدين سنجر الشجاعى لهدم أسوارها وتخريب كنائسها فوجد هذه البوابة على باب كنيسة من كنائس عكا ، وهى من رخام قواعدها وأعضادها وعمدها كل ذلك متصل بعضه ببعض ، فحمل الجميع إلى القاهرة » — المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٣٨٢ ، وانظر ما سبق بالجزء الثالث من هذا الكتاب ص ٦٣ .

عثليث وغيرهما من القلاع التي فتحها الله على يديه ، ولما سمع الأمير بدر الدين بيدرا نائب السلطنة بهذا الباب أرسل إلى الأمير علم الدين المذكور وطلب منه هذا الباب ، وسأله أن يحمله إلى مصر ، ويكون ذلك إحسانا منه إليه ، ولما انتهى شغل الأمير علم الدين حمل هـذا الباب إلى مصر ، وقدمه له ، وكان عند بَيْدرا إلى أن جرى عليه ما جرى في قضية الأشرف ، وقُتل كلاهما وتسلطن كتبغا ، وشرع في عمل هذه المدرسة ، فأخبره من كان يعرف هـذا الباب أنه عند ورثة بيدرا وأنه معدوم المثل ، فسأل كتبغا ورثة بيدرا عن ذلك . فأحضروه إليه وأمر بوضعه بابا للمدرسة ، ولما اتفق لكتبغا ما اتفق ، وقدم [الناصر محمد] (١) إلى مصر اشتراها القاضي زين الدين المالكي بطريق الوكالة عن السلطان الناصر ، وشرع في استكمال عمارتها [٣١٥] ، وشرع في شراء أملاك ليوقفها عليها : فمن جملتها قيسارية أمير علي بالشرابشيين . والرَبع المعروف بالدهشة (٢) ، وحوانيت بباب الزهومة ، والحمام المعروف بالصخرية بجوار السيفية ، ودار والدة السلطان قلاون ، والحمامان اللذان تعرفان بالشيخ خضر ، وخان الطعم بظاهر دمشق (٣) .

ذكر الإفراج عن الشريفين أسد الدين رُمَيثة وعز الدين حميضة ولدى الشريف نجم الدين بن نُمَي :

ولما اتفق وصول الأمير سيف الدين بُرلغي الأشرفي من الحجاز الشريف ،

(١) [ ] إضافة للتوضيح .

(٢) الدهشة أو الدهيشة — النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢١٠ .

(٣) انظر ملخص كتاب الوقف الخاص بالمدرسة الناصرية في نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٣٠ ورقة ٣٤١ ب وما بعدها ، والمنشور بالملحق رقم ١٧ بالجزء الأول من كتاب السلوك ص ١٠٤٠ — ١٠٥٠ .

أخبر عن أميرى مكة أبى الغيث وأخيه عُطيفة بأنهما عاجزان وليست لهما حرمة، وأن عبيدهما يشوشون على الحاج وأن الحال تقطع من مكة، اتفق رأى الأمراء بين يدى السلطان على إخراج الشريفين رميثة وحميضة من الاعتقال فى الإسكندرية، وكان قد سبق سؤالهما فى الإفراج عند حضور الأمراء والسلطان من الغزاة، وأن يقيما بمصر فى خدمة السلطان، ولما ذكر سيف الدين براغى ما ذكره أمر السلطان بإخراجهما، وسيّروا أمير جندار إليهما، فأحضرهما، ولما قدما اقتضى رأى الأمير بيبرس والأمير سلار أن يخلع عليهما وأن يلبسا الكلوتات الزركش، فامتنع حُميضة من ذلك، وقالوا له: متى خالفت ذلك رجعت إلى السجن، فعند ذلك لبس، وأجلسوهما فوق الأمراء اشرف نسبهما، ثم أرسل إليهما سائر الأمراء ما يحتاجان إليه من سائر الأشياء، وخصوصا — أحسن إليهما غاية الإحسان — سلار و بيبرس، وكانا يركبان مع السلطان فى الميدان، وألزموا حميضة أن يلعب الأكرة مع السلطان والأمراء تلعب، واتصل بهم اتصالا حسنا.

وقال بيبرس فى تاريخه: وأُنعم عليهما وأعيدا إلى منصبهما، وعُزل أخواهما عُطيفة وأبو الغيث، وسيّر صحبتهما الأمير عز الدين أيدمر الكُوندكى، فرتبهما فى الإمرة(١).

ذكر تجريد العساكر إلى سيس:

قال ابن كثير: وفى هذه السنة أمر السلطان بتجريد العساكر إلى سيس، وسبقه أن طائفة من العسكر الحلبى دخلت بلاد الأرمن غارة، فكبستهم التتار

(١) انظر غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام جـ٢ صفحات: ٥٤ — ٥٥، ٨٠ — ٨١، ١١٢، التحفة الملوكية ص ١٧٤.

ببلاد سيس وسلموا ، بجرد السلطان الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى ومعه عدة من العسكر المصرى ثلاثة آلاف ، فتوجهوا إلى دمشق ، ووصلوها ثانى عشر رمضان[1] ، وأضيف إليهم ألفان من دمشق صحبة الأمير بهادر آص ، وساروا ، فأخذوا معهم نائب حمص الأمير بلبان الجوكندار ، ووصلوا إلى حماة ، فصحبهم الأمير قفجق نائب حماة ، وجاء إليهم الأمير أسندمر[2] نائب طرابلس ، وانضاف إليهم الأمير قراسنقر[3] نائب حلب ، وانفصلوا كلهم عنها ، فافترقوا فرقتين : فرقة سارت صحبة قفجق إلى ناحية ملطية وقلعة الروم ، والفرقة الأخرى صحبة قراسنقر ودخلوا الدربندات[4] ، وحاصروا تل حمدون[5] ، فتسلموه عنوةً فى الثالث عشر من ذى القعدة ، بعد حصار طويل ، ووقع الاتفاق مع صاحب سيس على أن تكون للمسلمين من نهر جهان إلى حلب ، وللأرمن من النهر إلى ناحيتهم ، وأن يعجلوا حمل سنتين ، ووقعت الهدنة على ذلك بعد [٣١٦] ما قتل خلق كثير من أمراء الأرمن ورؤسائهم[6] .

(١) يذكر ابن أيبك أن الخروج من مصر كان فى « العشرين من شهر رمضان المعظم » — كنز الدرر جـ ٩ ص ١١٠ .

(٢) هو « أسندمر بن عبد الله الكرجى ، نائب طرابلس ، ثم حلب ، والمتوفى سنة ٧١١ هـ / ١٣١١ م — المنهل الصافى جـ ٢ ص ٤٤٣ رقم ٤٦٥ .

(٣) هو « قراسنقر بن عبد الله المنصورى ، المتوفى سنة ٧٢٨ هـ / ١٣٢٧ م — المنهل الصافى .

(٤) الدربند ـ الدربندات : لفظ فارسى من معانيه : المضايق والطرقات ، والمعابر الضيقة — Dozy .

(٥) « ثالث وعشرين » — فى كنز الدرر جـ ٩ ص ١١١ .

« فى ثالث ذى القعدة » — فى البداية والنهاية .

(٦) ورد هذا الخبر ملخصا فى المطبوع من البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢٨ — ٢٩ .

وقال النُويرى : وتأخر بدر الدين بكتاش(١) فى حلب عن هـذه الغزوة لمرض عرض له . وإن تلّ حمدون لمـا فتحوها كان بها جماعة من نُواب القلاع المجاورة لهـا لقبض مال ، فلما أطلقهم المسلمون وصـل رسول صاحب سيس يقول : إن هؤلاء الذين بتّل حمدون هم ملوك القلاع ، وكلما أردت بذل الطاعة وإرسال الحمـول للسلطان خالفونى وعصونى ، فإن أنتم مسكتموهم سـلموا إليكم القلاع والأموال . فأرسل الأمراء مَن أدركهم قبل وصولهم الى مأمنهم وكانوا ثمـانية(٢) ، فقتلوهم إلا واحدا اسمه السَرْماق(٣) صاحب قلعة نُجمية ، فإنه لمـا شاهد الموت أسلم وقال : أنا لى أخ فى خدمة السلطان الملك الناصر ، وأنا أُسلّم قلاعى إلى السلطان ، والتزم له فتـح سيس بألفى فرس ، فعادت العساكر إلى مصر ووصلوها فى المحرم سنة أربع وسبعمائة .

وقال صاحب النزهة : ولمـا تأخر بدر الدين أمير سلاح فى حلب لمرض عاقه عن الذهاب مع العسكر أرسل طُلْبه صحبة ولده ، ودخلت العساكر إلى بلاد سيس وأخربوا الضياع ، وأحرقوا جميـع المزارع ، وأسروا أهلها ؛ وبلغهم أن قلعـة تلّ حمدون قـد تجمع فيها جماعة كثيرة من الأرمن ، فـنزلوا عليها وأقاموا أياما فى حصارها إلى أن فتح الله عز وجل وتسلموها بالأمان ، وكان فيها ثمـانية من ملوك الأرمن أصحاب القلاع ، وكانوا قـد أتوها على سبيل زيارة كنيسة فيها ، فبلغهم وصول العسكر ، فخافوا النزول منها واستأمنوا ، فأعطاهم الأمراء أمانا وأمهلوهم يومين ، فبلغ ذلك صاحب سيس ، فصعب عليـه ذلك لكون مثل هذا الحصن

(١) « بغزة » — فى كنز الدرر جـ ٩ ص ١١٠ .

(٢) « ستة ملوك » فى السلوك جـ ١ ص ٩٤٩ .

(٣) « فضربت رقاب الملوك الخمسة » فى السلوك جـ ١ ص ٩٤٩ .

يخرج من يده بمكيدة فعلها الأرمن ، فأرسل قاصده إلى نائب حلب ، وجرى ما ذكرناه آنفا .

ذكرُ وفود جَنكلى بن البابا أحد مقدمى التتار إلى السلطان :

قال ابن كثير: وفى هذه السنة ورد إلى الأبواب الشريفة الأمير سيف الدين جنكلى[1] بن شمس الدين المعروف بابن البابا، أحد مُقدَّمى التتار ومعه حريمه والزامه عدتهم أحد عشر نفرا[2] منهم أخوه نيروز ، فأقبل عليه السلطان وأمَّره طبلخاناة ، ثم نقله إلى أمير مائة ، وكان مقام المذكور ببلاد آمد ، وكان يُكاتب السلطان بالنصيحة ، فلهذا عظم شأنه[3] .

قال صاحب النُزهة : وفيها ورد مملوك نائب حلب وعرف السلطان أن جنكلى ابن البابا نائب رأس العين سَيَّر إليه وكاتبه فى الدخول إلى مصر ، فكتب السلطان إلى نائب حلب بالركوب إليه وتلقيه والإكرام إليه ، وكذلك كتب لنائب دمشق وأن يجهز له الإقامات .

وفى ثالث ذى الحجة منها : قدم جنكلى المذكور، وكان قد جهز حاله وهو فى بلاده إلى أن اتفق موت قازان وبلغه ذلك ، فوجد الفرصة فركب بمن معه من الزامه وأقاربه ، وأخذ كلّ ما عز عليه ، وركب على نية انقياد ما حوله

(١) « بدر الدين جنقلى » فى السلوك ج ١ ص ٩٥٠، وتوفى الأمير جنكلى سنة ٧٤٦ هـ/ ١٣٤٥ م — المنهل الصافى ج ٥ ص ٢٢ رقم ٨٦٤.

(٢) « وفى صحبته نحو من عشرة » — البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٩ .

(٣) « وأعطاه مائة فارس » — التحفة الملوكية ص ١٧٥ .

من البلاد التي يتولاها وقصد الفرات وعدّى ، وبلغ ذلك نائب حلب ، فكتب إلى بهسني ونكتا وسائر النُوّاب بالركوب إليه وإكرامه ، وعند وصوله إلى حلب تلقّاه نائبها وأكرمه ، وكذلك نائب دمشق إلى أن [٣١٧] وصل إلى مصر ، وركب الأمير ركن الدين بيبرس إلى لقائه ومعه سائر الأمراء إلى قبة النصر ، وأحضروه بين يدى السلطان ، وباس الأرض ثم يده ، فقرّبه وتحدث معه ، ووعده بكل خير ، ورسم له أن يسكن فى القلعة ، وعند استقراره رسم للأمير بهاء الدين قراقوش الظاهرى أن يذهب ثانيا إلى صفد ورسم بإقطاعه لجنكلى المذكور ، وكتب له زيادةً على ذلك مائة ألف درهم ، ورسم لأمير على أخو قطلوبك بعشرة ، ولفيروز الذى جاء معه تقدمة .

قال ابن كثير : وفيها وصل أيضا الأمير بدر الدين بأهله من آمد ومعه جماعة إلى مصر ، فأقبل عليهم السلطان وأحسن إليهم[1] .

ذكر وصول الرسوَل من جهة البَرْشُونى الفرنجى :

قال ابن كثير[2] : وفيها وصل رسول من جهة الريداكون البرشونى[3] ، أحد ملوك الفرنج ، برسالة تتضمن الشفاعة فى النصارى الذين بمصر ليجروا على عوائدهم ، وينعم عليهم بفتح كنائسهم ، فقبل شفاعته وفتحت لهم كنيستان بالقاهرة : كنيسة لليعاقبة بحارة زويلة ، وكنيسة بالبندقانيين للملكية ، وعاد الرسول إلى بلاده ، وسُيّر صحبته فخر الدين عثمان الأقرمى ، فلما وصلا إلى إسكندرية وركبا

(١) البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢٩ .

(٢) لم يرد هذا الخبر فى المطبوع من البداية والنهاية الذى بين أيدينا .

(٣) المقصود ملك أرجونة ، وكانت عاصمته برشلونة .

منها فى البحر تفاوضا مفاوضةً أدّت إلى أن رسول البَرشونى طرح عثمان من المركب إلى القارب الذى خرج من الميناء ، فشيعهم هو وغلمانه ، فأقلع من فوره ، فرجع فخر الدين عثمان إلى مصر .

وفى النزهة : وصل رسول البرشونى وصحبته هدية حسنة خارجة عن عادته ، فإن تناهى فى التحف والأشياء المفتخرة من المصاغ والبلور والذهب للسلطان وأرباب الوظائف من الأمراء وغيرهم ، فأعجب السلطان والأمراء ذلك ، وكان فى كتابه سأل أن يحضر إليه رسول من جهة السلطان فإنه اختار أن يشافهه ، فرسم بتجهيز فخر الدين عثمان استادار الأمير عز الدين الأفرم ، وكان قد تأمر وولى ولاية القاهرة أياما وعزل ، فتجهز وأولع فى الطمع حتى اقترض على ذمته نحو ستين ألف درهم غير ما كان فى حاصله ، واشترى أصنافا كثيرة من أصناف صالحة لتلك البلاد ، ولما فرغ الرسل من التجهيز تمثلوا بين يدى السلطان وباسوا الأرض ، وأخرجوا فى ذلك الوقت مُلطفا صغيرا وقالوا للترجمان : إن الملك كان أوصى إليهم أن السلطان إذا قضى حاجته فى الكنائس نُخرج هذا الملطف ونُعطيه ، وإن لم يجب إلى ذلك فلا تعطوه ، فلما قُرئ على السلطان وجد فى ضمنه أنه طلب بعض الأسرى المحبوسين فى مصر ، وذكر أن أباه وأمه قد توفيا ولم يبق غير أخته ، وأنها قد دخلت على زوجته أن تسأل صدقات السلطان أن يجمع بينها وبين أخيها ، فرسم السلطان أن يفك قيد هذا الأسير المطلوب ويُسلم إليهم ، ثم كتب لمتولى الإسكندرية بإكرامهم وتسفيرهم ، ولما وصلوا إلى إسكندرية باتوا تلك الليلة على نية السفر ، وعند طلوع الشمس تغيّر الهواء وأعاقهم عن الخروج من الميناء ، وعندما تضاحى النهار وقعت بطاقة : إن كانت الرسل قد سافروا تحيلوا

على ردهم [٣١٨] إلى إسكندرية إن أمكن ذلك ، وإن كانوا ما سافروا عوّقوهم وخذوا منهم ذلك الأسير الذى فكّ قيدهُ وسُلم إليهم ، وأَحضروه إلى مصر ، ويأذن السلطان بعد ذلك للسفر .

وكان الموجب لذلك أن هـذا الأسير لمـا طلب من بين الأُمراء كان قـد حصل بينه وبين أحد منهم كلام أوجبَ التباغُض بينهما ، اجتمع بمُشدّ الأمراء وعرّفه أن له نصيحة يريد أن يُبـديها للسلطان ، فعـرّف المشد بذلك للأمراء وبلغوا السلطان فطلبه ، فلما حضر قال : إن هذا الأسير الذى شفع فيه صاحب برشُونة وأجاب إليه السلطان ابن ملك كبير فى البلاد ، وله مال عظيم ، ولو طلب السلطان منه ملءَ مركب ذهبا أعطاه وأعطى أضعافه . فقيل له : كيف أصلأَسْر هذا وما جرى عليه ؟ فقال : هذا كان قد حضر بمركب تجارة إلى مدينة طرابلس وأخذ منها متجرا عظيما ، وتردد إليها مرات ، وكان يتردّد أيضا إلى جزيرة أَرْواد لمـا كانت عامرة ، وجعـل له فيها حواصل (١) كثيرة ، ولمـا أُخذت جزيرة أرواد واستولى عليها المسلمون كان هـو مقيما فيها ، وأُخذ مع جمـلة الأسراء وقال : أنا أعرف بلده وأعرف أباه وأمه وما هو عليـه من الدنيا الواسـعة وأنا أُسرت معه ، وتم الأمر علينا إلى هـذه الأيام ، ولمـا بلـغ والده أن ابنه فى قيد الحياة وأنه أسير عندكم ، فتحيل ودخل على صاحب برشـونة وقدم له هدية عظيمة ، وهو الذى أقام بجميع ما جهزه إلى السلطان من عنده ما قيمته أربعون ألف دينار ، وكتب صاحب برشونة إلى السلطان بسبب الكنائس وما كان قصده إلا خلاص هذا الأسير ، وإنمـا جعل ذكر الكنائس حجّة وسُلّما إلى وصول قصدهم .

(١) الحاصل : فى العمارة المملوكية تدل على معنى : مخزن أو حانوت — انظر : المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية ص ٣١ .

فعند ذلك كتب بطائق إلى متولى الإسكندرية ، وسيروا بعدها البريد ، فسبقت البطاقة ، وأراد الله عز وجل أن لا يبلغهم آمالهم ، وفسدت الريح إلى أن أدركهم الأمر ، فركب متولى إسكندرية فى الحال وأخذ الأسير منهم وأعاده للقيد ، وسيره صحبة البريد إلى مصر ، وعرف رسول صاحب برشونة أن السلطان علم خبر هذا الأسير ورسم أن يرجع إلى مكانه ، وسافروا أنتم ؛ فلم يمكنهم الكلام بعد ذلك ، وعلموا أن الذى جاءوا بسببه لم يتم لهم ، وخشيوا عاقبة أمرهم ، فأقلعوا من وقتهم وسافروا .

ولما بعدوا عن إسكندرية تشاوروا فيما بينهم فى أمر الرسول الذى معهم من جهة السلطان ، فاتفقوا على أن يأخذوا جميع ما معه من جهة السلطان، ثم يقتلوه ويسافروا ، فتصدى شخص من عقلائهم فقال : قتل الرسول ليس بجيد وأيضا إذا قتلناه نخشى عاقبة ذلك ، وربما يصعب ذلك على الملك أيضا ، وصاحب مصر لا يعانَد ، فعند ذلك اقتضى رأيهم أن يأخذوا جميع ما معه ويردوه إلى إسكندرية ، ولما انتظم الأمر بينهم على ذلك قاموا إليه وأخذوه وحده ووضعوه فى قارب ، وكان رجلا ضخما وقالوا له : رُح إلى مكان جئتَ منه ، فلو كان قتل الرسول جائزا لقتلناك ورميناك فى البحر ، فسألهم أن يردوا عليه شيئا من ماله فإنه أخذه بالدين ، فأبوا أن يردوا عليه شيئا ، وقالوا : هذا بعض ماجبناه إلى ملككم ، وأقلعوا ، ورجع هو بالقارب إلى [٣١٩] الإسكندرية وليس معه سوى ما عليه من القماش ، فجهزه متولى الإسكندرية إلى القاهرة ، وكتب إلى السلطان وعرفه بخبره ، ولما وصل إلى مصر دخل إلى الأمراء وشكى حاله فقال : إنى تداينت أموالا كثيرة على ذمتى وأُخذ جميعها ، وبكى بين أيديهم ، فكان جواب سلار : نحن سيرنا رسولا ما سيرنا تاجرا ، وأرسلوا إلى متولى

الإسكندرية وأمروا له بأن يحتاط على من عنده من الإفرنج التجار وغيرهم من برشونة ، وإن لم يكن عنده أحد منهم يترقب حضورهم ، فإذا حضر أحد منهم يعرف الأبواب الشريفة بذلك .

ذكر بقيّة الحوادث فى هذه السّنة :

منها : أنه ولد للملك الناصر ولد من زوجته أُرْدُكين خاتون بنت الأمير سيف الدين نُوكَيْه السلحدار الظاهرى ، وسماه عليّا ولقبّه علاء الدين ، ثم لُقِّب بعد ذلك بالملك المنصور ، وكانت هى زوجة أخيه الملك الأشرف رحمه الله .

وقال صاحب النزهة : وعملت له الأمراء مهما كبيرا وفرحوا به ، وقصد السلطان أن يقيم عنده المغانى سبعة أيام فلم يوافقه الأمراء على ذلك وعملوه يوما واحدا .

ومنها : أنه ارتفع سعر الغلال بالديار المصرية فبلغ الأردب من القمح إلى أربعين درهما فما فوقها ، ثم أخذ فى الانحطاط .

ومنها : أنه وقع الموتان فى الحيوان بحلب والشام وأعمالها، فقيل : إن الذى نفق منها يناهز ثمانين ألف رأس .

قال بيبرس : ووصلت ريح الوباء التى أصابتها إلى الديار المصرية ، فنفق من خيول العسكر شيء عظيم .

ومنها : أنه وقع ببلاد قاقون وغزة والساحل وما حولها جراد لا يحصى كثرة فجمع الفلاحون منه شيئا كثيرا ، ولم يؤذ الزروع وغيرها .

ومنها ما قال بيبرس في تاريخه : وفي هـذا العام شملني الإنعام بأن رُشحتُ بحمل الجتر(١) السلطاني في المواكب ، وهي وظيفة معزوقة بذوي المراتب ، فشكرت الله تعالى على ذلك(٢) .

ومنها : أن القاضي صدر الدين بن المرحل قـدم من دمشق إلى القاهرة ، ومعه كتاب نائب الشام إلى الأمير ركن الدين بيبرس ، والأمير سيف الدين سلار نائب السلطان ، بسبب وظائف كانت بيده وخرجت عنه ، وكان هذا الرجل مشهورا بالفضيلة ، والشعر الحسن ، والمنادمة الحسنة ، وله شهرة بشغفه الشراب ، ومنادمة الأكابر ، وبهذه الأشياء اتصل بنائب الشام حتى كتب معه في حقه ، ولما اجتمع بالأمير بيبرس اتفق مبيته عنده تلك الليلة .

قال الراوي : فحكى لي شمس الدين البابخي المؤذن شيئا من بعض لطائفه ، أنه لما بات عند الأمير بيبرس تلك الليلة أحضر إليه الأمير بيبرس بعد العشاء سلطانية كبيرة ملآنة بالسكر وماء الليمون مع بعض السقاة ، وكان ذلك الساقي تركيا صاحب وجه حسن ، ولكنه كان أجرودا كبيرا في العمر ، فلما ناوله المشروب أخذه منه وبهت في وجهه زمانا ، ثم التفت إليّ وقال : يا شمس الدين إن هذا شاب مليح . قال : فقلت له : يا مولانا لا يغرك نظر الشمع ، هذا كبير ولكنه أجرود ، ومع ذلك يا مولانا هو رجل مأبون ما منه خلاف ، فقال : وإلى الآن ، قلت له : نعم ، فشرب منه ، فأنشأ يقول :

شاب قلبي بشابٍ من سَنَى البدر أوجَهْ
كلما شاب يخنى بيّض الله وجهَه

(١) عزق الجبر : حبسه ، والمقصود أن هذه الوظيفة لايتولاها إلا ذو المراتب .
(٢) انظر التحفة الملوكية ص ١٧٥ .

[٣٢٠] ثم أنه حصـل له ما طالع به نائب الشـام ، فكتب له توقيـع بالعدراوية ، ودار الحـديث ، وخطابة الجامع الأموى والإمامة ، ثم سافر إلى دمشق ، وأوقف نائب الشام على توقيعه ، فعلّم عليـه ، وكان الخطيب إذ ذاك الشيخ شرف الدين الفزارى ، وكان قد تولى الخطابة بحكم وفاة الشيخ زين الدين الفـارقى .

وكان الناس فرحوا بتولية الشـيخ شرف الدين الخطابة لكونه من أهـل الصلاح والدين والعلم ، فلمـا بلغ أهل دمشق أن صدر الدين المذكور قد تولى هذه الوظائف المذكورة تعصبوا عليه ، واتفقوا أنه إذا حضر وأراد أن يخطب لا يصلون وراءه ، وكان حضوره من القـاهرة يوم الأربعاء ، فصبروا عليه إلى أن كان يوم الجمعة ، اجتمعت أكابر دمشق مثل : كمال الدين ابن الزملكانى ، وإمام الدين القزوينى ، وعلاء الدين بن العطار ، والشيخ على الكردى ، والشيخ تقى الدين بن التيمية ، وأصحابه ، وقاضى الشافعية ، وقاضى الحنفية ، ومنعوا النـاس عن سماع خطبته والصـلاة خلفه ، وكان نائب الشام ركب إلى الجامع للصلاة ، فرأى المدينة قد انقلبت إلى أن دخل الجامع ، وخرج الشيخ صدر الدين وهو لابس حلة الخطابة ، وما لحق أن يصعد المنبر حتى صاحت الناس فى وجهه ، وخرجت جماعة ، فخرجوا من الجامع وهم يصيحون ويقـولون : أين الإسلام ؟ كيف يجوز أن يكون هـذا الرجل خطيب المسلمين وإمامهم ، وصـدر الدين لم يعلم ما يقـال من قوة غلبة الناس والصياح ، وما صدّق نائب الشام فراغه من الصلاة وسكون الحال حتى خرج وركب إلى دار السعادة ، فحضرت إليه القضاة وابن تيمية والمشايخ ، وقـد نظموا محضرا على صـدر الدين ، وشهدوا عليه فيه أنه رجل فاسق يشرب الخمر ، وأن الصلاة خلفه لا تجوز ، وقرئ المحضر بحضرته .

ورأى نائب الشام أنه لا يقـدر على دفع هؤلاء ، وعرف أن هـذا الأمر لا يتم لصـدر الدين ، فمشى فى طوعهـم ، وقال : أنا ما وليت هـذا الرجل ، وإنمـا جاب توقيعا سلطانيا ، وأنا امتثلت ما رُسم به ، وعلّمت على توقيعـه ، وأنا أطالع السلطان فيه ، فمهما رسم به اتبعناه ، وكتب من وقته وعرّف للسلطان وللأمراء ما وقع من الأمر ، وبقى صـدر الدين[1] يصـلى بالجامع ، ولكن أكثر الناس لا يصـلون وراءه ، ويصلون فى الكلاسـة وغيرها إلى أن ورد الجواب أن يتبع ما يقوله القضاة وأهل الشرع ، فإذا لم يختاروا صدر الدين يستقر مَن كان قبله ، فطلب نائب الشام أكابر دمشق والقضاة ، واستقر بشرف الدين الفزارى فى الإمامة والخطابة ، وهرعت الناس إليـه ، وكان حسن الصوت ، فخطب خطبة فى العزل والولاية ، وكان يوما مشهودا .

ذكر ما اتفق لناصر الدين الشيخى مع الدواوين وتوليته الوزارة :

كان ناصر الدين هـذا متولى القاهرة ، ثم انتقل إلى ولاية الجيزية ، ففى ولايته على الجيزية تعاظم على الوزير وعلى المباشرين لقوة حرمته ، وما كان أحد منهم يجسر عليه ، وقلّ متحصل أرباب الأقلام فى أعمال الجيزة ، فاتفق رأيهم مع الوزير [٣٢١] أن يثبتوا فى حقـه وفى حق مماليكه أموالا سلطانية ، فسعى الوزير عند نائب السلطان سلّار فى أمره ، لأنه كان يعلم أن سلار يكره ناصر الدين الشيخى ، فقرر معه أن يحضر الأمراء عند النائب ، ويحضر المباشرون ، ويطلبون[2] ناصر الدين وينظرون[3] فى أمره ، فلما أصبحوا طلبوا ناصر الدين وسائر الدواوين

(١) « صدر الناس » — فى الأصل ، وهو تحريف .

(٢) « ويطلبوا » فى الأصل .

(٣) « وينظروا » فى الأصل .

والنظار ، وشرعوا فى المحاققة ، وكان التاج الطويل مستوفى الدولة حاققى معه كثيرا ، وكلما سألوه فصلا من الأموال أجاب عنه ناصر الدين ، وإذا أنكروا المصروف أخرج لهم خصمه بالشواهد ، فأبطل كلامهم وأدحض حجتهم ، فتزايد الكلام بينهم إلى أن قال التاج الطويل : يا ناصر الدين مال السلطان ما يؤخذ بالفجور ، فقال ناصر الدين : ويلك أنتم أكلتم مال السلطان ، وأنتم تقاسمتموه ، ثم نهض واقفا ، ثم قال للأمراء : وحق نعمة السلطان هؤلاء هم الذين أكلوا مال السلطان ، فسلمونى إياهم آخذ منهم ثلاثمائة ألف دينار للسلطان ، واكتب خط يدى بذلك ، فقال له التاج الطويل : يا ناصر الدين بقيت تأمر وتنهى ؛ لو طلعت رأسك إلى السماء أنت عندى ضامن(١) بتقارير مكتوبة عليك مثل سائر الضُمان ، فلما سمع بيبرس بذلك غضب فقال : والك ما كفى كذبكم حتى تجعل أميرا من أمراء السلطان مثل الضامن الذى يأكل المفارع ؟ ، والله ما يأكل مال السلطان غيركم يا مناحيس يا كلوب ، فنهره وأشار بقيامه من المجلس .

وكان فى المجلس من الأمراء : الأمير سيف الدين سلاّر ، والأمير برُلغى ، والبغدادى ، وأَيبك الخزندار ، وبكتمر الخزندار ، وغيرهم ، فلما رأوا أن بيبرس مال عليه ، وشدّ من ناصر الدين ، مالوا معه عليه ، وشدوا من ناصر الدين ، ثم التفت إلى ناصر الدين وقال له : اعلم ما تقول إنك تحمل من جهتهم المبلغ الذى ذكرته . قال : نعم يا خوند وأكثر مما قلت ، ثم قال الأمير بيبرس للوزير

(١) الضامن : الملتزم الذى يتولى لحسابه جمع ضريبة أو مكس ، ويضمن فى مقابل توليه ذلك مبلغا من المال يدفعه إلى الجهة المختصة فى أوقات محددة كل سنة — المواعظ والاعتبار ج ١ ص ٧٩ ؛

والحجاب : اجمعوا جميع الدراوين وسلموهم له يفعل فيهم ما يختاره ، ويُطالبهم بالحساب والمال ، وإذا لم يقم بالذى قاله أخذته من أجنابه .

وما بقى مستوفى ولا كاتب ولا متصرف ولا معين ولا مشد حتى سُلّم إليه ، غير القاضى تاج الدين بن السنهورى ، والقاضى شهاب الدين بن الواسطى ، فإنهما كانا ناظرين فى ذلك الوقت ، وكانا محترمين لأمانتهما .

ولما جمعهم ناصر الدين عنده طلب منهم حساب ثلاث سنين ، ورمّم عليهم ، وضيق عليهم ، وخصوصا على التاج الطويل فإنه أهانه ونكل به ، فما مضى عليهم أيام يسيرة حتى أظهر فى حقهم أموالا كثيرة من حاصل الأمراء والقنود والدواليب وغيرها ، وعرف الأمراء بذلك ، وقام معه ابن سعيد الدولة وعرّف الأمير بيبرس فى الباطن أن ناصر الدين ظهر عليهم ، وكان كلامه عند بيبرس مقبولا ، فتحدث بيبرس مع سلار والأمراء ، وشكر من فعل ناصر الدين ، فرسموا له باستخراج الأموال منهم وعقوبتهم ، فعند ذلك شدّ عليهم ناصر الدين ، فشرعوا فى تحصيل الأموال وتبع موجودهم ، ثم سعوا عند أكابر الأمراء حتى دخلوا على ناصر الدين [٣٢٢] بأن يلطف فى أمرهم ، وحذّره بعض الناس أيضا عاقبة أمرهم ، وعرف ناصر الدين للأمير بيبرس أنه حمل من جهتهم لبيت المال ثلاثمائة ألف درهم ، وهى التى وجد لهم .

فحاصل الأمر لما كثر عليه الشفاعات رسم بالإفراج عنهم ، وأعيدوا إلى مباشراتهم ووظائفهم ، وكان الوزير هو الأمير عز الدين البغدادى ، وكان بينه وبين ناصر الدين وقعة كبيرة بسبب المباشرين وما جرى عليهم ، وأراد أن يعزل نفسه عن الوزارة ، ولم يجد سبيلا لذلك ، غير أنه سأل أن يحج فى خدمة

الأمير سيف الدين سلار، وكان سلار فى تجهيز الحج ، فأجيب إليه ، فعلم ناصر الدين بذلك فسعى بواسطة الأمير سيف الدين بكتمر أمير جندار ، وسيف الدين برلغى، وسيف الدين بينجار، وبالأمراء الذين يُسمع كلامهم عند سلاّر ، وأهدى إلى كل واحد من هؤلاء ما يناسبه ، وحصل لهم بلاد فى الجيزيَّة بالإجارة من ديوان السلطان ، وعمل لهم سواقى وغير ذلك ، حتى ملأ أعينهم ، ثم استعمل الأكواز الفضة والذهب ، والسلاسل الذهب والفضة ، وما يناسب سفر الحاج لمثل سلاّر نائب السلطان، وحصل « ... ... »[1] ، وكان فى ذلك الوقت لا يوجد ، وغير ذلك من الأشياء الحسنة وقدّم الجميع لسلار .

وكان سلار يكرهه لقربه من بيبرس وتعرضه للأمراء، ومع ذلك لما نظر إلى ما قدّمه أعجبه ذلك ، وأراه البشاشة والقبول ، وشكره على ذلك ، ثم بعد أيام خاطبه الأمير سيف الدين برلغى، والأمير سيف الدين بكتمر أمير جندار، وغيرهما، وقالوا : يا خوند من تعملون وزيرا وأنتم تسافرون بخير وسلامة . فقال : النُظار يتحدثون إلى حين نعود من الحج . فقال بكتمر الجوكندار : أنا أعرف واحدا يصلح للوزارة . فقال : مَنْ ؟ قال : ناصر الدين الشيخى، فلما سمعه أحمر وجهه وظهر فيه الغضب . وقال : يا أمير ما يكفى ما سمعنا فى حقه حتى نعمله وزيرا .

وبقى الأمير على ذلك إلى أن خرج الحاج ، وتأخر الأمير سلاّر خلف الحجاج قليلا ، ففى يوم خروجه جاء إليه الأمير برلغى ، و بكتمر الجوكندار ، وطغلق ،

(١) « ... ... » موضع كلمة غير مقروءة « وعمل للأمير سلار من آلات السفر شيئا كثيرا » فى السلوك جـ١ ص ٩٥٤ .

وتباكز ، وجماعة آخرون من الأمراء ، وسألوه أن يقبل شفاعتهم ، وتولى ناصر الدين الوزارة إلى أن يحضر الأمير من الحجاز ، فإذا حضر بيبرس وسلامة ووجده قد حصل من الأموال ما يُرْضيه يُبْقيه وإلا فعل فيه ما يختاره ، فقام برلغى وباس يده ، وكذلك الجوكندار ، وساعدتهما الأمراء الحاضرون ممن كان يتعصب لناصر الدين ، فعلم الأمير سلاّر أنه لايمكن ردّ كلامهم، ولا يفُيد التعلل بعد وقوف هؤلاء ، فأجاب إلى سؤالهم ورسم بكتابة توقيعه ، وأحضروه وباس يده، وما جاء آخر النهار حتى كُتب التوقيع (١) ، وفُصّلت له الخلعة ، ولما أحضروا توقيعه قام الأمير سيف الدين برلغى وأخذ الدواة ، [٢٢٣] وأخذ الأمير بكتمر الجوكندار المرملة ، والأمير سلار ينظر إليهم وهم معتنون بأمره ، ولكن قلبه يكره ذلك ، فعلم على توقيعه وألبسوه الخلعة ، وحضر ليبوس يده ، فالتفت إليه والأمراء حاضرون وقال له : اسمع يا ناصر الدين أنا أقول لك قدام هؤلاء الأمراء : تعرف آش كنت وأين وصلتَ ؟ وما أوصلك إلى هذه المنزلة سيفك ولا رمحك ولا فروسيتك ؟ وإنما أوصلك شطارتك ومعرفتك وأمانتك ، وأنا ما يمكنني أن أخالف هؤلاء ، وإياك إذا حضرتُ من الحجاز أسمع عنك أنك ظلمت أحدا من الرعيّة ، أو جددت ظلما ، أو أحدثت حادثا ، أو خنت فى مال السلطان ، فأسلخ جسد جنبك بالمقارع . فقال : يا خوند: ما يكون إلا ما يُبيّض وجهى عندك ، وباس يده وخرج من عنده ، وهو طائر من فرحه بما نال ، وما علم أن ليس لارتقاء هذه الدرجة بقاء ، ويصير ذلك التنعم إلى شقاء ، وكل من تعدى درجته سقط ، ومن استعلى على أبناء جنسه هبط .

(١) « يوم الإثنين سابع عشر شوال » — فى كنز الدرر جـ ٩ ص ١١٣ .

وقال الشاعر :

وَمَن طلب العلياء ولم يك أهلها تُرَجِّلُه الأيّامُ لو كان راكبا

قال الراوى : ولما خرج ناصر الدين من عند سلار نظر إليه من ورائه نظر المغضب ، ومسك لحيته بيده وقال : يا قواد إن عشت ووجعت إن لم أقتلك تحت المقارع فلا يكون اسمى سلّار .

ثم إن ناصر الدين جلس فى دست الوزارة وحكم ، وركب فى اليوم الثانى فى موكب عظيم ، ثم طلب سائر المباشرين والولاة ، فعزل ناسا وولى آخرين ، ومدحته الشعراء مثل شهاب الدين الأعزازى ، وشرف الدين القدسى ، وغيرهما ، فأحسن إليهم ، وكان فيه كرم وأريحيّة ، وسكن فى دار الحاج بهادر آص المجاورة لمشهد الحسين رضى الله عنه ، لأنه كان تزوج بزوجته ، وكان إذا نزل من القلعة ينزل فى حفدة[1] كثيرة ، وجميع أرباب الوظائف فى خدمته إلى أن يصل إلى داره ، وكانوا يترجلون له من بعيد حتّى عزّ الدين الأشقر مشد الدواوين ، والأمير بدر الدين المحسنى متولى القاهرة ، وكل منهما يعضده ويُنزله ، ولا يلتفت إلى أحد منهم ، وكان يفعل فعل من لا يفتكر فى عاقبته ، ومَن غرّ بدنياه وسلامته ، وسنذكر ما جرى عليه إن شاء الله تعالى .

ذكر وفاة قازان بن أرغون بن أبغا بن هلاون بن طولو بن جنكزخان

فى الثالث عشر من شوال منها :

قال بيبرس فى تاريخه : وفيها ، أي في سنة ثلاث وسبعمائة ، اتفقت وفاة

(١) حفدة = خدام — لسان العرب .

قازان[1] ملك التتار بمقام جبل من نواحى الرىّ ، وذلك أنه لما بلغه انكسار جيوشه ، واقتناص وحوشه ، فاعتورته الهموم ، واستولت عليه الغموم ، ثم وصلت إليه صُبابات[2] عسكره المغلول ، مشمولة بالذلة والخمول ، فسقط فى يده ، وفتّ ذلك فى عضده ، فمرض بحمّى حادّة ، كان بها الحِمام موصولا ، والحتف مقرونا ، فمات مكمودا ، وما نال مقصودا ، وأدركه الرّدى ، وكفى الله شر العادى والعِدَى ، وكانت مدة مملكته ثمان سنين وعشرة أشهر .

[٣٢٤] وقال ابن كثير : توفى قازان بالقرب من همدان ونقل إلى تُرْبته بتبريز ، بمكان يُسمى بالشّام ، ويقال : إنه مات مسموما ، والله أعلم .

وفى نزهة الناظر : لما حصل من كسر عسكر قازان ما حصل ، وما عدم من أمرائه وأكابر المغل لم يبق ينظر إلى وجه بقية أمرائه ولا يتحدث معهم ، وعزل نفسه عن النوم مع أزواجه ، وصار كلما ركب يجد فى أىّ مكان يجوز[3] عليه أو ينزلُ عزاء وبكاء وتعديدا على من عدم من أهله ، واشتاع بين نساء المغل أن قازان هو الذى قتل هؤلاء لأنه ما كانت عادة المغل أن يدخلون الشام بغير ملك ، ومتى كان للمغل عادة بالدخول إلى بلاد الإسلام .

---

(١) قازان ، أو غازان ، وقيل محمود ، بن أرغون .

وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ١٢٢ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٢٩ ، الدرر ج ٣ ص ٢٩٢ رقم ٣١٣٣ ، النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢١٢ ، السلوك ج ١ ص ٩٥٦ ، تذكرة النبيه ج ١ ص ٢٥٧ ، نهاية الأرب ج ٢٧ ص ٤١٦ ، التحفة الملوكية ص ١٧٤ .

(٢) صبابات : جمع صبة : وهى الجماعة من الناس ، أو القطعة من الخيل — لسان العرب .

(٣) جاز المكان : سار فيه — لسان العرب مادة جاز .

واتفق فى هذه الأيام وصول خبر من كيلان أن نائبه قطلوشاه قتل هو واميران معه من أمراء المغل وجماعة من الذين كانوا معه ، فازداد نارا على نار وحرقة على حرقة ، ولا سيما اشتاع الخبر بين نساء المغل وبقية العسكر أن أحدا من ملوك المغل لم يظفر بأخذ هذا المكان ، وكانت عادة الملوك من المغل إذا أرادوا هلاك أحد من أمرائهم أرسلوه إلى هـذا المكان ، فلابد وأن قازان سير قطلوشاه إلى هذا المكان ليُقتل هناك والجماعة الذين معـه ، ولما سمع بذلك قازان ازداد غيظا فى نفسه وانطلقت نيران فى كبده بسبب ما اتفق لعساكره ، وبقى متحيرا لا يدرى أى جهة يقصـد إلى أن قوى عزمه على جمع العساكر ليغزو بلاد الإسـلام ، ثم يتوجه إلى بلاد كيـلان ، وطلب وزراءه وأمرهم أن يحصـلوا أموالا لأجل النفقات .

ولما سمع الأمراء بذلك أرادوا أن يسألوه أن يؤخر الغزاة فى هـذه السنة ، ولم يَجسُر أحد على الكلام معه .

ووجد قازان فى نفسه من الانحصار وضيق الصدر ، فطلب حكيما له وعرّفه بحاله . فقـال له : إنه يصلح للملك الركوبُ والتنزّه ، وأمر بالتجهز إلى الرَىّ ، وما وصل إليها إلّا وقد أحسَّ فى جسمه بالألم .

فمن الناس من أخبر أنه مات من دُبلة (١) على قلبه .

ومنهم مَن أخبر أن أمراء المغـل اتفقوا مع امرأة غازان على إهلاكه وقالوا لهـا : إن الملك يُريد إفناء المغُل ، ثم يدخل عسكر مصر وسلطانها إلى هذه البلاد ويخربوها ، وإن القُصاد حضروا من مصر وعرفوهم بذلك ، وإن سلطان مصر عزم

(١) الدبل : القمر من الثريد — لسان العرب « د ب ل »

على أن يفعل بهـذه البلاد ما فعله قازان ببلادهم ، وجهّزوا لهـا فصوصا مثمنة وجواهر مقومة على أن تسقيه شيئا يمرّض به ، ليشتغل بنفسه عن الركوب ، ولم يزالوا بها إلى أن وافقتهم على ما اختاروا ، وكان قازان يحب زوجته محبة عظيمة ، واسمها بلغان خاتون (١) ، فصنعت له شيئا من السموم فى مشروب وسقته .

ومنهم من يقول : إنّها سمته فى منديل الجماع ، فسقطت محاشمه بعد أيام . وحُمل إلى تربة كان صنعها على مرحلة من تبريز ، فسّماها دمشق الصغيرة ، وعمّر فيها عمارات عظيمة ، وأوقف عليها أوقافا كثيرة .

ذكر جلوس خَرْبَندا أخ قازان [٣٢٥] فى السلطنة بعده :

قال بيبرس فى تاريخه : جلس خربندا (٢) أخو قازان فى السلطنة ، ولقّب غياث الدين محمد ، وله من الأولاد : أبو يزيد وبسطام .

وقال ابن كثير : وكان جلوسه على سرير المملكة بتاريخ الثالث والعشرين من ذى الحجة ، ولُقّب أولجاتو سلطان ، ولقب أيضا غياث الدين محمد ، وخُطب له على منابر العراق ، وخراسان وتلك النواحى (٣) .

وقال صاحب النزهة : وكان خربندا فى جهة الروم ، وكان قازان أرسل إليه ليحضر عنده ، فحضر قبل وفاة أخيه ، ولما توّلى رسم لعسكره الذى جمعه قازان

(١) « همبا خاتون » — فى كنز الدرر ج ٩ ص ١١٢ .

(٢) ويعرف أيضا باسم : خدابنده ، ومعناه بالعربية : عبد الله ، توفى سنة ٧١٦ هـ / ١٣١٦ م .

وردت ترجمته بالمنهل الصافى تحت اسم : محمد بن أرغون بن أبغا ، وانظر أيضا الدرر جـ ٣ ص ٦٨، رقم ٢٥٢٢ ، درة الأسلاك ص ١٦٤ ، ٢٠٩ ، نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٤٠٩ .

(٣) ورد الخبر ملخصا فى البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢٩ .

أن يذهب كل أحد منهم إلى مكانه، ثم طلب رسل السلطان الملك الناصر الذين عوقهم قازان عنده من يوم أرسلهم الناصر فأكرمهم وأنعم عليهم ، ورسم بتجهيزهم ، وتجهيز رسول من جهته صحبتهم ، ليسعى بينه وبين السلطان بالودّ والمحبة وبرد الجواب .

ذكر خروج السُّلطان إلى الصيد والتنزه :

وفيها : قصد السلطان الصيد والفُرْجة ، وطلب الأمير ركن الدين بيبرس وعرفه أن صدره ضيق وأنه يختار أن يتصيد نحو البُحَيْرة ، فأجاب إليه ، وسيَّر وراء ناصر الدين الشيخي الوزير وعرّفه أن السلطان يقصدُ الخروج إلى الصيد نحو البحيرة ، وأمره أن يُجهِّز الإقامات ، فقال له الوزير : ياخوند ما لهذا الأمر إلا أن يخرج المملوك بنفسه بهذا السبب ، وأيضا أريد أن أكشف أحوال الإسكندرية وما يتحصل منها ، وللسلطان فيها مصالح ، فرسم له بذلك ، وكتب لسائر الولاة بتجهيز الإقامات ، ثم خرج الوزير والمباشرون معه قبل خروج السلطان ، ووصل إلى الإسكندرية ، وخرج إليه الأمير بدر الدين أمير شكار وتلقاه ، فلم يكرمه الوزير ، ولم يُرَوِّه له وجهاً ، وكان الأمير بدر الدين هذا له حرمةٌ عند سائر الأمراء وتقدم فى الدولة ، وله وُصلةٌ بالأمير سَلّار والأمير بيبرس ، فلما رآه تكبّر عليه لم يلتفت إليه ، ورجع إلى الإسكندرية ، وشرع ناصر الدين فى طلب الدواوين والحُسّاب ، وطلب التجار وقصد العَسْف بأهلها ، فلم يُمكنه أمير شكار من ذلك ، وأرسل إليه ناصر الدين يقول له إن أموال السلطان ضائعة وأنت تمنعني من استخراجها ، وأرسل إليه أمير شكار يقول له : إن قصدك

أن تخرب الإسكندرية وترميها في رقبتى ، فاصبر إلى أن يجئ نائب السلطان وهو الذى تسلمتُ منه هذا الثغر فيتسلمه منى .

وفى أثناء هـذه المفاوضة وصل مركب من تجار الإفرنج فيـه بضائع كثيرة وتجارة عظيمة فيها الموجب للسلطان أربعون ألف دينار، فتحدث فيها ولم يعارضه أمير شكار فيها .

واتفق وصول السلطان على تَرُوْجة ، فطلب ابن عُبادة وهو وكيل السلطان ، فقال له : أبصرلى دراهم ترسلها إلى الإسكندرية يُشْترى بها هدية ، فقال يا خوند : ما ثم الآن حاصل ، فقال له : اقترض من أحد من التجار ونحن نُوفيه .

فركب ابن عبادة إلى أن وصـل قريب إسـكندرية ، فوجد الوزير نازلا بخيمة فمـا أمكنه أن يتعـداه ، فنزل وسلم عليـه ، فرحب به وأكرمه ، وسأله إش قصده ؟ وعرفه ما سأله السلطان ، وما هو فيـه من قلة النفقـة ، وحاله ضعيف ، [٣٢٦] وأن الأمراء ما يَدعُون له تصرفا ولا له خزانة .

وكان ناصر الدين ناظرا إلى حال السلطان مُلتفتا إلى القرب منه ، لأنه لمـا كان والى مصر ، كان الأمراء رسَموا له أن يكبس بيوت المنجمين ، ويأخذ كتبهم وأوراقهم ، لأنه بلغهم أنهم أخبروا أن الملك النـاصر تطول أيامه وأنه يَقتُل الأمراء ، ولمـا وقف ناصر الدين على كتبهم وأوراقهم وجد فيها أن الناصر يَصلُح شأنه جدا فى آخر دولتـه وتطول أيامهُ ، فلذلك كان ناصر الدين يتقرب إليه حتى تكون له منزلة عنده ، ولمـا سمع كلام ابن عُبادة قال يا مولانا : ملك مصر لا يجد لنفسه شيئا حتى يقترض ، ثم قال له : ارجع إليه وعَرِّفه أن عندى ألفى دينار حاصلة ، فإن كان السلطان يأذن لى أجى إليه وأحضرها له ، وقل له :

إنى أحق بجميع ما يختاره السلطان ، فركب ابن عبادة وجاء إلى السلطان وأخبره بما جرى ، ففرح بذلك فرحا كثيرا .

وفى اليوم الثانى حضر ناصر الدين ، ودخل على السلطان ، وباس الأرض ، وأجلسه بين يديه ، ورحب به ، وشرع السلطان يقول له ما هو فيه مع الأمراء من قلة نفاذ الكلمة وقصر اليد ، فقال ناصر الدين : يا مولانا السلطان مهما تحتاج إليه عرفنى به أُحملُ إليك ، ولا تتكل على الطلب من الأمراء ، وطَوِّل روحك يا خوند فإن الأمور مصيرها إليك ، وجسّر السلطان على الأمراء ، وهون(١) أمرهم عليه ، ثم نهض من عنده .

وكان هناك أصحاب النّوبة والجمدارية ، فسمعوا ما جرى بينه وبين السلطان ، ثم إن السلطان أقام هناك أياما ، ثم رجع إلى المدينة ، وكذلك ناصر الدين رجع إلى المدينة ، بعد أن حصّل مالا جزيلا ، وذهبا كثيرا ، وكساوى هائلة ، وبلغ الأمير ركن الدين بيبرس جميع ما جرى له مع السلطان ، وأضمر فى نفسه ، ثم إن ناصر الدين عَرَّف بيبرس أن أمير شكار قد غلب على إسكندرية ، وحصّل منها أموالا عظيمة ، وكانت إسكندرية فى ذلك الوقت ليس فيها للسلطان إلا شىء قليل ، وكان فيها مَتجرُ وبَيْع وشراء لسائر الأمراء مثل سلار وبيبرس والجوكندار وبُرلغى وغيرهم .

وفيها : بلغ النيل المبارك بعد وفائه إلى ستة عشر ذراعا وستة عشر إصبعا ، وكان قد توقف فى أوائل الأمر ، وتحسن فيه سعر الغلّة .

وفيها توجه سلار إلى الحجاز الشريف بعد رحيل الركب المصرى بأيام قلائل ، وحج صحبته من الأمراء :

(١) « ويهون » فى الأصل .

الأمير عز الدين أيبك البغدادى .

والأمير شمس الدين سنقر الكمالى الحاجب .

والأمير علم الدين سنجر الجاولى الأستادار .

والأمير سنقر الأعسر .

والأمير سيف الدين كورى الصالحى السلحدار .

والأمير سيف الدين سُودى .

والأمير سيف الدين الملك الجوكندار .

والأمير بدر الدين بكتوت الشجاعى .

والأمير بدر الدين بكتوت القرمانى .

والأمير نظام الدين آدم .

والأمير علاء الدين على .

والأمير سيف الدين تَمُوك .

والأمير سيف الدين أدكاون الحسامى .

والطواشى شهاب الدين بن مرشد الخزندار .

وآخرون من الأمراء جملتهم خمسة وعشرون أميرا ، وحجوا وتوجهوا من المدينة النبوية [٣٢٧] إلى القدس الشريف ، فقدّسوا حجهم ، والتحقوا بالركب ، ودخلوا المدينة صحبة سلار .

وكان الذى حج بالركب المصرى فيها سيف الدين الناق الحُسَامى ، وجهز سلار فى البحر عشرة آلاف أردب قمح برسم الصدقة ، وجهّز سنقر الأعسر ألف أردب ، وكل أمير منهم سيّر على قدره لأجل الصدقة ، وتصدّقوا ، وانتفع أهل الحرمين والمجاورين بها نفعا كثيرا .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

الشيخ القدوة الورع أبو إسحاق إبراهيم[(١)] بن أحمد بن محمد بن معالى بن محمد ابن عبد الكريم الرقى الحنبلى .

ومولده بالرقّة فى سنة سبع وأربعين وستمائة ، اشتغل وحصل وسمع شيئا من الحديث ، وقدم دمشق فسكن بالمأذنة الشرقية فى أسفلها ، بأهله ، إلى جانب الطهارة [بالجامع[(٢)]] وكان معظما عند الخاص والعام ، فصيح العبارة ، كثير العبادة ، خشن العيش ، حسن المجالسة ، لطيف المفاكهة ، كثير التلاوة ، عارفا بالتفسير والحديث والفقه والأصلين ، وله مصنفات وخُطب وشعر حسن ، وفى عمره ما أكل شيئا من الوقف ، وكان يعرض عليه المناصب فلا يتولى شيئا ، وكانت له رياضات ومجاهدات ، وكانت وفاته بمنزله ليلة الجمعة الخامس عشر من المحرم ، وصلّى عليه نائب السلطان وأكثر أهل البلد ، ودفن بسفح قاسيون بتربة الشيخ أبى عمر ، رحمهما الله .

الخطيب ضياء الدين أبو محمد عبد الرحمن[(٣)] بن الخطيب جمال الدين أبى الفرج عبد الوهاب بن على بن أحمد بن عقيل العقيلى السُلمى .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى « المنهل الصافى جـ ١ ص ٣٤ رقم ٥ ، درة الأسلاك ص ١٦٦ ، الوافى جـ ٥ ص ٣١٣ رقم ٢٣٨٧ ، مرآة الجنان جـ ٤ ص ٢٢٨ ، الدرر جـ ١ ص ١٥ رقم ٢٢ ، شذرات الذهب جـ ٦ ص ٧ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٦٠ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٢٩ — ٣٠ .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح من البداية والنهاية .

(٣) وله أيضا ترجمة فى « درة الأسلاك ص ١٦٦ ، الدرر جـ ٢ ص ٤٤٣ رقم ٢٣٢٠ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٣٠ ، شذرات الذهب جـ ٦ ص ٩ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٦١ » ووردا اسمه « عبد الرحيم » فى درة الأسلاك ، وهو تحريف .

خطيب بعلبك نحوا من ستين سنة ، بعد والده ، وكان مولده فى سنة أربع عشرة وستمائة ، سمع الكثير ، وتفرد عن القزوينى ، وكان رجلا جيدا حسن القراءة ، من كبار العدول ، توفى ليلة الإثنين ثالث صفر ، ودفن بباب سَطْحا.

الشيخ زين الدين أبو محمد عبد الله[1] بن مروان بن عبد الله بن الحسن الفارقى ، شيخ الشافعية .

ولد سنة ثلاث وثلاثين وستمائة ، وسمع الحديث الكثير ، واشتغل ، ودَرّس فى عدّة مدارس ، وأفتى مدة طويلة ، وهو الذى عمر دار الحديث[2] بعد خرابها من زمن قازان حين احترقت ، وقد باشرها سبعا وعشرين سنة ، من بعد النووى إلى حين وفاته ، وكانت معه الشامية البرانية[3] ، والخطابة ، وإنما باشر الخطابة تسعة أشهر قبل وفاته ، وقد انتقل إلى دار الخطابة ، وكانت وفاته بها يوم الجمعة بعد العصر ، وصَلّى عليه ضحى يوم السبت القاضى ابن صصرى عند باب الخطابة ، وبسوق الخيل قاضى الحنفية ابن الحريرى ، وعند الجامع بالصالحية قاضى الحنابلة تقى الدين سليمان ، ودفن بتربة أهله شمالى تربة الشيخ أبى عمر ، رحمه الله .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : نهاية الأرب جـ ٣٢ ق أ ورقة ٩٦ ، الدرر جـ ٢ ص ٤١١ رقم ٢٢٣٧ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٣٠ ، مرآة الجنان جـ ٤ ص ٢٣٩ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ٩ رقم ١١ ، شذرات الذهب جـ ٦ ص ٨ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٥٨ ، الدارس جـ ١ ص ٢٦ .

(٢) المقصود دار الحديث الأشرفية بدمشق ، وتنسب إلى الأشرف موسى بن الملك العادل المتوفى سنة ٦٣٥ هـ / ١٢٣٧ م — الدارس جـ ١ ص ١٩ وما بعدها .

(٣) المدرسة الشامية البرانية بدمشق ، أنشأتها ست الشام ابنة نجم الدين أيوب بن شادى ، أخت السلطان صلاح الدين — الدارس جـ ١ ص ٢٢٧ ، ص ٢٨١ .

الشيخ حسن بن السراج الحلبى — من قرية باب الله — المقرىء ، وكان هو الملقن بالكلاسة (١) ، وكان مجتهدا على التلاوة ، وعمر حتى انحنى كثيرا زائدا عن حد الركوع ، مات فى هذه السنة ودفن بمقبرة باب الصغير .

الصدر كمال الدين موسى بن قاضى القضاة شمس الدين بن خلكان .

مات فيها بقاسيون ، ودفن عند والده ، ومولده سنة خمسين وستمائة ، وكان عاقلا ذكيا ذا مروءة .

الشيخ الصالح [٣٢٨] الزاهد بدر الدين على (٢) بن محمد السمرقندى الحنفى . شيخ خانقاه خاتون (٣) ، وشيخ الخانقاة الشبلية (٤) ، مات فى هذه السنة ودفن بقاسيون ، وكان دينا ، متنعما ، يلبس الرفيع من الثياب الحسان ، وعنده تجمل ومكارم أخلاق .

---

(١) المدرسة الكلاسة بدمشق : لصيق الجامع الأموى من شمال ، ولها باب إليه ، أنشأها العادل نور الدين محمود سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م ، وسميت بهذا الاسم لأنها كانت موضع عمل الكلس أيام بناء الجامع ، ثم جعلت زيادة بالجامع لما ضاق الجامع بالناس — الدارس جـ ١ ص ٤٤٧ — ٤٤٨ .

الملقن : المحفظ ، والمقصود محفظ القرآن بالمدرسة .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ ٣ ص ١٧١ رقم ٢٨٥٢ .

(٣) الخانقاة الخاتونية بدمشق ، تنسب الى خاتون بنت معين الدين أنر ، زوجة نور الدين محمود — والمتوفاة سنة ٥٨١ هـ / ١١٨٥ م — الدارس جـ ١ ص ٥٠٧ ، جـ ٢ ص ١٤٤ وما بعدها .

(٤) الخانقاة الشبلية بدمشق : تنسب إلى شبل الدولة كافور الحسامى طواشى حسام الدين محمد ابن لاجين ولد ست الشام ، والمتوفى سنة ٦٢٣ هـ / ١٢٢٦ م — وقد أنشأ هذه الخانقاة بسفح قاسيون — الدارس جـ ١ ص ٥٠٣ ، جـ ٢ ص ١٦٣ .

الصاحب الوزير الصدر الكبير فتح الدين أبو محمد عبد الله[1] بن محمد بن أحمد ابن خالد بن محمد بن نصر القرشى المخزومى ، المعروف بابن القيسرانى الحلبى .

كان شيخا جليلا ، دينا فاضلا ، شاعرا مجيدا ، من بيت الرئاسة والوزارة ، وولى وزارة دمشق مدة ، ثم أقام بمصر موقعا مدة ، وكان له اعتناء بعلوم الحديث وسماعه وإسماعه ، وله مصنف فى أسماء الصحابة الذين خرج لهم فى الصحيحين ، وأورد شيئا من أحاديثهم فى مجلدين[2] موقوفين بالمدرسة الناصرية بدمشق ، وقد خرج عنه الحافظ الدمياطى ، وهو آخر من توفى من شيوخه ، وتوفى بالقاهرة يوم الجمعة الحادى والعشرين من ربيع الآخر ، وأصلهم من قيسارية الشام ، وكان جده موفق الدين أبو البقاء خالد وزيرا لنور الدين الشهيد ، وكان والده عز الدين وزير الملك الناصر صاحب دمشق ، وكان من الكُتّاب المجيدين ، توفى فى الأيام الصلاحية سنة ثمان وثمانين وخمسمائة ، وأبوه محمد بن نصر ، ولد بعكا قبل أن يأخذها الفرنج سنة ثمان وأربعين وأربعمائة ، فلما أخذت بعد التسعين وأربعمائة انتقل أهلهم إلى حلب ، فكانوا بها .

وكان شاعرا مطيعا ، وله ديوان مشهور ، ومعرفة جيدة بالنجوم والهيئة ، وغير ذلك ، ومولده سنة ثلاث وعشرين وستمائة ، ودفن بتربته بجوار مشهد السيدة نفيسة رضى الله عنها .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، نهاية الأرب جـ ٣٠ ق ١ ورقة ١٠٩ ، درة الأسلاك ص ١٦٥ ، الدرر جـ ٢ ص ٣٨٩ رقم ٢٢٠٠ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٣١ ، شذرات الذهب جـ ٦ ص ٩ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ٢٢ رقم ٣٢ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٦١ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢١٣ .

(٢) هو كتاب « معرفة الصحابة » — كشف الظنون جـ ٢ ص ١٧٣٩ . هدية العارفين جـ ١ ص ٤٦٤ .

ومن نظمه :

بوجه مُعـذبى آيات حسن (١) — فقل ما شئت فيه ولا تُحاشى

ونسخةُ حسنه قُرئت وصحت (٢) — وها خَطُّ الكمال على الحواشي

وله فى مليح بوجهه أثر :

قالوا بوجه الذى أَحْببتَـــه أثرٌ — يَشِينُه فأنشد فى الوصف والقصر (٣)

فقلت قد جاء بالآيات ظاهرة — فى حُسـنه وهى تُغنينا عن الأثر

فكان كالشمس لكن خاف يوصف — بالتأنيث يوما لحا كى صورة القمر

القاضى الإمام شمس الدين سلمان (٤) بن إبراهيم بن إسماعيل الحنفى الملطى .

كان نائبا فى الحكم مـدة طويلة بدمشق عن قاضى القضـاة حسام الدين الرازى الحنفى ، وناب أيضا بالقاهرة عن السُرُوجى ، وكان رجلا مباركا ديّنا صالحا ، مات بدمشق فيها ، ودفن بقاسيون .

القاضى علاء الدين على (٥) بن عبد الرحيم بن مراجل الكاتب .

---

(١) « آثار » فى شذرات الذهب .

(٢) « نصحت » فى النجوم الزاهرة .

(٣) « واقتصر » — فى تذكرة النبيه .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ ٢ ص ٢٢٣ رقم ١٨٢٤ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢١٢ ، وفيهما : « سليمان بن إبراهيم » .

(٥) وله أيضا ترجمـة فى : درة الأسلاك ص ١٦٧ ، الدرر جـ ٣ ص ١٣١ رقم ٢٧٧٢ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ١٠٨ رقم ١٦٤ ، السلوك جـ ١ ص ٩٥٦ ، تذكرة النبيـه جـ ١ ص ٢٦٢ .

كان ماهرا فى صناعة الكتابة والحساب ، ويعرف بلسان التركى ، وعنده فضيلة تامة ، وأدب حسن ، وهو والد الصاحب تقى الدين سليمان(١) بن مراجل ، مات فى السادس عشر من ذى القعدة .

ومن نظمه :

أأحبابنا شوقى إليكمْ مضاعف ... وذكركمُ عندى مع البُعْد وافرُ
وقلبى لما غبتم طار نحوكم ... وأعجبُ شىءٍ واقعٍ وَهْوَ طائرُ

[٣٢٩] وله :

هذا كتابُ محبّ رق حاسدُه ... من فرط وَجدٍ بكم أضحى يكابده
غرامه فيكم أضحى يحاكمُه ... وشوقُه نحوكم والله قائدُه
وشوقه حاصلٌ والقلبُ عندكم ... باقٍ وخاطرهُ فيكم يُراوده
والدمع مصروفُهُ قد صح شاهدهُ ... يودّ ناظركم لو كان شاهده
والليل يُحييه كى يَرعى فراقده ... ومَن يموتُ به وجدا فراقده
عاهدتموه على حفظ الوداد لكمُ ... وهو المِلىّ بما قد كان عاهده
قد مَسّه الضرّ من طول السَقام ... فما يضر طيفكم لو كان عائده

وقال وهو بمصر لما دخل إليها فى سنة إحدى وسبعمائة :

أقولُ فى مصر إذ طال المقامُ بها ... وسَاء من سوء خلق أهلها خُلُقى(٢)

---

(١) هو : سليمان بن على بن عبد الرحيم بن مراجل ، الصاحب تقى الدين ، وزير دمشق ، توفى سنة ٧٦٤ هـ / ١٣٦٢ م — المنهل الصافى جـ ٦ ص ٤٥ رقم ١٠٩٣ .

(٢) « وساء من ملق ملقى على حلق » — فى الدرر جـ ٢ ص ١٣١ .

يا أهل مصر أجيبوني السؤال عسى ... يُسكن الله ما ألقاه من قلق

هل فيكم مَن يُرجّى للنوال ومَنْ ... يلقى اوفد بوجهٍ ضاحكٍ طلِق

أم عندكم لغريب في دياركُمُ ... بقية من يدٍ أو عارض غدق

فقيل لي ذاك[1] مما ليس نعرفهُ ... وإنما سُقتُنا فيها على الملق[2]

الصدر شرف الدين محمد[3] بن شمس الدين سعيد بن محمد بن سعيد، المعروف بابن الأثير، كاتب الإنشاء بدمشق.

مات في سابع ربيع الأول، ودفن بسفح قاسيون، وكان شابا حسنا، عاقلا وقورا، خلّصه الله من أسر التتار ورجع إلى أهله.

الشيخ الصالح العارف المحقق السيد الشريف أبو فارس عبد العزيز[4] بن عبد الغني ابن سُرور بن سلامة، المعروف بالمنوفي.

مات بمنزله بمصر ليلة الإثنين خامس عشر ذي الحجة، ودفن بالقرافة، وكان من الصلحاء الأخيار المعمرين، وله ديوان شعر، فمنه قوله:

خيامٌ بنجد كل قلب ثوى بها ... وكل محبّ قد غدا في طِلابها

وتمّ لليلى العامرية مضربٌ ... إذا جِئت تلقاه قريبٌ قبابها

تجلّت على عشاقها من خبائها ... وقد لاح بدرُ التم تحت نقابها

---

(١) «ذلك» — في الدرر.

(٢) «وإنما سفنتنا تجرى على الملق» — في الدرر.

(٣) وله أيضا ترجمة في: الدرر جـ ٤ ص ٦٦ رقم ٢٧١٦.

(٤) وله أيضا ترجمة في: المنهل الصافي، نهاية الأرب جـ ٣٠ ق ١ ورقة ١٠٠، درة الأسلاك ص ١٦٦، الدرر جـ ٢ ص ٤٨٣ رقم ٢٤٣٥، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٥٨.

على رغم عُـذّالى وصلتُ لحبّهـا وطفْتُ سـبوعا كاملا بخبائها
وقبلتُ أعتابا لهـا ومواطنـا ومرغتُ خدى فى التُراب ببابها
ولى شرفٌ إن صحّ لى ما ذكرتُه إذا فُزتُ فى الدنيـا بلثم ترابها
ولمـا رأتنى خاطبتنى بلطفهـا وقـد أسكرتنى من لذيذ شرابها
ودارت كؤوس العتبَ بينى و بينها وما العيش إلا ساعة من عتابها
نعم جُودُها عدل نعم سُخطها رضَى نعم كل عـــذب فى أليم عذابها
لقد كملت حُسْنا وفاقت ملاحة وقـد ملكت منها تمـام نِصابها
وفى حبّها كم ماتَ من مغرم بهـا فلو جاوبته عاش عنـد جوابها
وكم فى رُبى نجـد قتيل صبابة وكم طائح قـد ظل بين شِـعابها
[٣٣٠]
وكم عاشـــقٍ بين الخيـام مُوَله يَهِيمُ بهـا فى بُعـــدها واقـترابها
صبت قلبه والعجب ما ارتفعت له فمـا حاله عنـــد ارتفاع حِجابها

وله يُعارض بانت سُعاد :

قلبى و إن أطْنبَ العُذّال مشغُول عن المـــلام فمهما شئتمُ قُولُوا
ما يكتم السِرّ إلاّ كيّسٌ فطِنٌ ويُظهـر الصبرَ إلاّ ماجدٌ قيـلُ
ويُودع السِرّ إلاّ عنـــد من تثبُت له العدالة لا زيغٌ ولا ميلُ
ما كلُ علمٍ إذا الغيبـــة انسعت له العقُـولُ ولا ماء الحَسَا نِيـلُ
أيضا ولا كلُ مديحٍ بالقريض إذا نظمته حَسُنت فيـه الأقاويلُ
يا مدّعى مَدح مَنْ أسرَى الإلهُ به ليـلا فلم يدر إلا وَهْـــو محمولُ

ماذا تقول إذا ما رُمت تمدحه وقد أتاه بوحى الله جبريلُ
هذا ومركبُه متن البراق وقد جاءت بُبشراه توريةٌ وإنجيلُ
وأنزلت فيه من حب الآله طه وشورى ويس وتنزيلُ
فمن يرى أنه وفّى المديح له فعقله وجلال الله مخبولُ
هذا هو الحقُّ عندى والدليلُ على ما قلتُه أنه بالعلم منقولُ
ما يمدحُ المُصطفى إلا الإلهُ وقد جاءت بذلك آيات وتأويلُ
إن النبى لمولى يُستجارُ به عبد بسيف الهوى والحظ مقتول
يرجو شفاعته يوم المعاد إذا قال الآلهُ له قُلْ أنتَ مقبول
صلى عليه إلآه العرش ما طلعت شمس وما لاحَ فى الظلماء إكليلُ
وازنت مَن قال قبلى وهو مُرتجلٌ بانت سُعادُ فقلبى اليوم متبولُ

النَصير[(1)] — بفتح النون — ابن أحمد بن على المناوى الحمامى، الأديب المشهور.

مولده بمنية خصيب فى سنة تسع وستمائة .

قال الشيخ صلاح الدين الصفدى : أخبرنى الحافظ العلّامة أثير الدين أبو حيان من لفظه قال : كان المذكور بمصر أديبا كيّس الأخلاق ، يحترف باكتراء الحمامات،[(2)] ثم طعن فى السنّ وضعف عن ذلك، وكان يستجدى بالشعر، وكتبتُ عنه قديما وحديثا . قال : وأنشدنى أثير الدين من لفظه، قال: أنشدنى النصير المذكور لنفسه قوله :

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، فوات الوفيات جـ ٤ ص ٢٠٥ رقم ٥٥١ ، الدرر جـ ٥ ص ١٦٦ رقم ٤٩٤١ .

(٢) « وكان يرتزق بضمان الحمامات » — الدرر .

لا تَفُـه ما حَييتَ إلا بخـير ليكون الجـوابُ خيرا لَدَيْكا
قد سمعت الصَّدى وذاكِ جماد كل شئٍ تقـولُ ردُّ عليـكا

قال الصفدى : وأنشدنى له أثير الدين أيضا :

[٣٣١]

أقول للـكأس إذ تبـدّت فى كفّ أحوى أغنّ أحْوَرْ
خربت بَيْـتِى و بيت غـيرى وأصـل ذا كعبـك المُـدوَّرْ

قال : وانشدنى له أيضا :

إن الغـزال الّذى هامَ الفُؤاد به استأنس اليوم عندى بعدما نفرا
أظهرتها ظاهريات وقد ربضت فيها[1] الأسود رآها الظبى فانكسرا

قال : وأنشدنى له أيضا :

قالـوا افتضحت بحبّـه فأجبتُ لى فى ذا اعتـذارُ
من لى بكتمان الهـوى وبخـدّه نَـمَّ العِـذارُ

قال : وانشدنى له أيضا :

مازال يَسقينى زلالَ رُضابه لمـا خفيت ضئ وذُبْتُ تَوَقُّدَا
ويطينى[2] حيّا رَوِيتُ بريقـه فإذا دعا قلبى يُجاوبهُ الصَّدا

قال : وأنشدنى له أيضا :

ماذا يضركَ لـو سمحتَ بَزَوْرَةٍ وشفعتهـا بمـكارم الأَخْلاق
وردعتَ نفسك حين تمنعك اللقا وتقـولُ هـذا آخر العُشاق

---

(١) « بها » — فى الدرر .

(٢) المقصود ، يميتنى ، مأخوذ من طن فلان ، أى مات ، والطن ، هو بقية الروح — لسان العرب .

قال وأنشدنى له أيضا :

إنّى لأكرَه فى الأنام ثلاثةً		ما إن لها فى عَدّها من زائدِ
قربُ البخيل وجاهلا متعاقلا		لا يستحى وتودّدا من حاسدِ
ومن البَليّة والرزيّة أن ترى		هذى الثلاثةَ جُمعت فى واحد

وقال الصَّفدى : أنشدنى القاضى جمال الدين إبراهيم بن شيخنا الشهاب محمود قال : أنشدنى النَّصير لنفسه بقلعة الجبل قوله :

رأيت فتى يقول بشط مصر		على درج بدت والبعض غارِق
متى غطّى لنا الدرجُ استقمنا		فقلتُ نعم وتنصلح الدقائقُ

وله أيضا :

ومُذلزمتُ الحمّامَ صرتُ فتىً (١)		خلّا يُدارى مَن لا يُداريه
أعرِفُ حرَّ الأشياء وباردَها		وآخذُ الماءَ من مجاريه

وقال الصفدى : أنشدنى الشيخ العلامة فتح الدين محمد بن محمد بن محمد ابن سيد الناس قال : أنشدنى النَّصير الحمامى لنفسه :

رأيتُ شخصًا آكلا كرشةً		وهو أخو ذوقٍ وفيه فِطَنْ
وقال مازلتُ محبًّا لها		قلتُ مَن الإيمان حبُّ الوَطنْ

وكتب النَّصير إلى السراج الورّاق :

أتى فصلُ الخريف علىَّ جدًّا		بأمراضٍ لواعجُها شِدادُ
واعذر عائدى إن لم يَعُدنى		ورُبَّ مريضِ قومٍ لا يُعادُ

---

(١) « فى » — فى الدرر .

فأجاب الوراق من ذلك :

خلائفك الربيعُ فليس يَخشى … خريفاً فى الجُسـومُ له اعتيادُ
ولا والله لم أَعلمك إلا صحيحًا … والصَّـحيحُ فما يُعـادُ

[٣٣٢] وكتب إليه يستدعيه إلى حمامه :

من الرأى عندى أن تُواصل خلوة … لها كبدٌ حَرّى وفيض عيونى
تراعى نجوماً فيك من حرّ قلبها … وتبـكى بدمـع فارح وحزين
غدا قلبها صبًّا عليك وأنت إن … تأخرتَ أضحى فى حياض مَنُون

وله دَو بيت :

فى وَجهك للجمال والحُسن فنون … فى طرفك للسحر فتورٌ وفتُونْ
أنّى يَسلو هَواك يامن باتت … عيناه تقول للهوى كن فيكُونْ

ولـه :

إن عجّـل النَورُوزُ قبـل الوَفا … عجّـل للعالِم صَفْعَ القَفـا
فقد كفى من دَمعهم ما جَرى … وما جَرى مِنْ نيلهم ما كفَى

الخطيبُ شهاب الدين أبو حفص عمر (١) بن كثير بن ضوء بن كثير بن ضوء ابن درع القرشى .

من بنى حصلة ، وهم منسوبون إلى الشرف ، وبأيديهم نسب . وهو والد الشيخ الإمام الحافظ عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير صاحب التاريخ المشهور (٢) .

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٣١ — ٣٢ ، الدرر جـ ٣ ص ١٦١ رقم ٣٠٥٨ .

(٢) هو كتاب « البداية والنهاية » .

ولد عمر المذكور فى قرية يقال لهـا الشركوين غربىّ بُصْرى ، بينها وبين أذرعات ، فى حدود سنة أربعين وستمائة ، واشتغل بالعلم عند أخواله بنى عقبة بِبُصرى ، فقرأ البـداية[1] فى مذهب أبى حنيفة ، وحُمل الزجاجى ، وعُـنى بالنحو والعربية واللغة ، وحفظ أشعار العرب حتى كان يقول الشعر الجيد الرائق الفائق فى المديح والمراثى ، وقليل من الهجاء ، ونزل بمدارس بصرى ، وأمّ بمبرك الناقة شمالى البلد ، ثم انتقـل إلى خطابة القـرية شرقى بصرى ، وتمذهب للشافعى ، وأخذ عن النووى وعز الدين الفزازى ، فأقام نحوا من ثنتى عشرة سنة ، ثم تحول إلى خطابة مجيدل القرية التى منها والدة الشيخ عماد الدين إسماعيل ولده ، فأقام بها مدة طويلة ، وقد ولد له عدّة أولاد من والدة الشيخ عماد الدين ومن أخرى قبلها ، فأكبرهم إسماعيل ، ثم يونس ، وإدريس ، ومن والدة الشيخ عماد الدين عبد الوهاب ، وعبد العزيز ، ومحمد ، وأخوات عدّة .

قال ابن كثير فى تاريخه : ثم أنا أصغرهم وسُمّيت باسم الأخ إسماعيل لأنه كان قد [قدم دمشق فـ][2] ما اشتغل بالعـلم ، وسقط من سطح الشامية البرانية ، فمـات بعد أيام ، ووجد عليه والده وجدا كثيرا ، ورثاه بأبيات ، قال : فلما وُلدت أنا له بعده سمّانى باسمه ، فأكبر أولاده إسماعيل وأصغرهم إسماعيل . ثم قال : وكانت وفاة الوالد فى جمادى الأولى سـنة ثلاث وسبعمائة بقرية مجيدل ، ودفن بمقبرتها الشمالية عند الزيتونة ، وكنتُ إذ ذاك صغيرا ابن ثلاث أو نحوها ، لا أدركه إلا كالحلُم ، ثم تحولنا بعده فى سنة سبع وسبعمائة إلى دمشق صحبة الأخ

(١) هكذا بالأصل ، وفى البداية والنهاية ، ولعلها « الهداية » .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح من البداية والنهاية .

كمال الدين عبد الوهاب ، وقد تأخرت وفاته إلى سنة خمسين ، فاشتغلت على يديه بالعلم .

ومن أشعار عمر بن كثير والد الشيخ عماد الدين إسماعيل :

نأى النومُ عن جَفني فبتُّ مُسَهّدا ... أخا كلفٍ حِلفَ الصَّبابة مُكْمَدا (١)

[٣٣٣]

سميرَ الثُّريا والنجوم مدلها ... فمن وَلَهي خالتْ الكواكب رُكّدا

طريحا على فرش الصبابة والأسى ... فما ضركم لو كنتم لى عُوَّدَا

تُقلبني أيدى الغرام بلوعة ... أرى النار من تلقائها لى أبْردا

ومزّقني (٢) صبرى بعد جيران حاجز ... سعيدُ غرام بات فى القلب مُوقدا

فأمطرته دمعى لعل زفيره ... يقلّ فزادته الدموع توقدا

فبتّ بليل أنسى ولم أر ... على النأى من بعد الأحبة مُسْعدا (٣)

فيالك من ليل تباعد فجره ... علىّ إلى أن خلتُه أن (٤) يُخلّدا

غراما ووَجْدًا لا يُحدّ أقله ... بأهيف مَعسول المراشف أغيدا

له طلعة كالبدر زان جمالها ... بطُرّةِ شعرٍ حالك اللون أسودا

يهزّ من القدّ الرشيق مُثقّفًا ... ويُشهر من جفنيه سيف مهندا

(١) « موجدا » فى البداية والنهاية .

(٢) « ومزق » — فى البداية والنهاية .

(٣) ورد هذا البيت فى البداية والنهاية هكذا :

فبت بليل نابغى ولا أرى ... على النأى من بعد الأحبة صعدا

(٤) « قد » فى البداية والنهاية ؟

إلى وَرد خدّيه وآس عـذاره (١) وضوء ثناياه فنيت تجـلدا

فـدا كل حُسن دونه متقاصرا وأضحى له رب الجمـال موحّدا

أيا كعبة الحسن التى طاف حولها فؤادى أما للصدّ عنك (٢) من فدا

قنعتُ بطيف من خيالك طارقا وقد كنت لا أرضى بوصلك سَرْمدا

وقد شفـنى شوق تجاوز حدُّه وحسبك من شوق تجاوز واعتدا

سألتـك إلا ما مررت بجفنـا بفضلك يارب الملاحة والنـدا

فاطت بهجرانى ولو كنت صائبا لما صدّك الواشون عنى ولا العِدا (٣)

الشيخ شهاب الدين أحمـد (٤) بن سامة بن كوكب الطائى الحنفى ، إمام المدرسة الفارقانية التى بحارة الوزيرية .

سمع من جماعة ، وكتب وروى ، توفى فى هذه السنة ، وكان عدلا يشهد على القضاة ، ويكتب الشروط والإسجالات .

الأمير زين الدين قراجا (٥) أستادار الأفرم .

توفى فى المحرم منها ، ودفن بتربته بميدان الحصى عند النهر .

(١) « رق ورد » فى البداية والنهاية .

(٢) « عندك » فى البداية والنهاية .

(٣) انظر البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٣٢ — ٣٣ حيث توجد أبيات أخرى من هـذه القصيدة التى عدتها ثلاثة وعشرون بيتا .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ ١ ص ١٤٤ رقم ٣٧٦ .

(٥) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٣٠ .

الأمير الكبير عز الدين أيبك(١) الحموى .

ناب بدمشق مدة ، ثم عزل عنها إلى صرخد ، ثم نقل قبل موته بستة أشهر إلى نيابة حمص ، فكانت وفاته بها يوم الأحد عشرين ربيع الآخر ، ونقل إلى تربتـه بالسفح ، غربىّ زاوية ابن قوام ، وإليـه ينُسب الحمام بمسجد القصب الذى يقال له حمام الحموى ، عمّره فى أيام ولايتـه ، وكان أميرا عاقلا ، شجاعا مقداما ، كثير التلاوة ، وكان من ممـاليك المنصور صاحب حماة هو والأمـير علم الدين أبو خرص ، وكان ضنينا بهما ، فأرسل الملك الظاهر وطلبهما منه ، فاعتذر بمرضهما ، فأرسـل من يحضرهما فى محفات ، فأرسلهما إليـه ، وعند وصولهما أمّرهما ، وصار لهما صورة فى الدولة الظاهرية وغـيرها ، وولاه الملك الأشرف [٣٣٤] نيابة دمشق ، عوضا عن الشجاعى فى سنة إحدى وتسعين ، فاستمر فى النيابة إلى سـنة خمس وتسعين ، ولمـا تملك كتبغا العادل عزله وولى غرلوا العادلى عوضه ، وأرسله إلى صرخد ، فأقام بها إلى هذه السنة ، ثم أعطى نيابة حمص فأقام بها قليلا ، ومات فى التاريخ المذكور .

الأمير ركن الدين بيبرس(٢) التلاوى ، مشد الدواوين بالشام .

توفى يوم الإثنين تاسع رجب ودفن بقاسيون ، وكان ظالمـا عسوفا جبارا ، وكانت مدة ولايته سنة واحدة وسـتة وأربعين يوما ، أقام منها مريضا تسعة

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٣ ص ١٣٢ رقم ٥٧٦ ، درة الأسلاك ص ١٦٥ ، الدرر جـ ١ ص ٤٥١ رقم ١١٠٧ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ١٦ رقم ٢٥ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢١٢ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٣٠ ، الوافى جـ ٩ ص ٤٧٩ رقم ٤٤٤٠ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٥٨ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢١٢ ، الدرر جـ ٢ ص ٤١ رقم ١٣٧٥ .

أشهر وأياما ، وولى الشدمكانه شرف الدين قيران الدوادارى ، وكان مشدا بطرابلس ، فنقل إلى دمشق .

الأمير سيف الدين بكتمر[1] السلحدار الظاهرى .

توفى فيها ، وهو أحد من كان توجه إلى قازان وعاد ، وكان من أكابر الأمراء الشجعان الفرسان المقاديم فى الحروب ، وخدم الدولة الظاهرية والمنصورية ، وكان يرمى على ستة وخمسين رطلا بالدمشقى مع خفة ولطافة ، وكان يحبّ الطرب ويتولع بالسماع والرقص فيه ، ويلبس الكامليات، ويتعانى الطرافة فى ملبسه ، وفى الأكل المفتخر من الطعامات ، وله مكارم كثيرة على الناس .

الملك قازان بن أرغون بن أبغا بن هلاون بن طلو بن جنكزخان .

مات فى هذه السنة ، وقد ذكرناه[2] ، وقازان — بالقاف ، ويقال بالغين المعجمة ، وبعد الألف زاى معجمة ، وفى آخره نون — وكان تسمّى بمحمود لما أظهر الإسلام ، كما أن أخاه خربندا تسمى بمحمد .

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٣ ص ٤٠١ رقم ٦٨١ ، الدرر جـ ٢ ص ١٦ رقم ١٣٠٥ ، كنز الدرر جـ ٩ ص ١١٣ .

(٢) انظر ما سبق ص ٣١٦ .

رَفْعُ

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

فصل فى ما وقع من الحوادث
فى السنة الرابعة بعد السبعمائة (*)

استهلت هذه السنة : والسلطان : الملك الناصر محمد بن الملك المنصور قلاون ، وقد عاد من صيده وتنزهه فى بلاد البحيرة ، وقد ذكرنا خروجه من القاهرة فى السنة الماضية وما اتفق لناصر الدين الشيخى الوزير معه [1] .

وذكر بيبرس فى تاريخه : خروج السلطان إلى الصيد فى هذه السنة .

وقال : وفى سنة أربع وسبعمائة توجه الركاب الشريف إلى الإسكندرية والجهات الغربية متصيدا فى الحمامات ومتفرجا فى تلك الجهات ، ولما قضى وطره عاد إلى دياره ، وكان عوده فى جمادى الأولى .

قلت : التوفيق بين الكلامين أن سفره كان فى أواخر السنة الماضية وعوده فى هذه السنة ، والله أعلم .

ذكر مجىء ناس الى خدمة السلطان من بلاده ومجىء رسل من ملوك بلاد غيره :

منهم ما قال بيبرس فى تاريخه : وفد إلى الأبواب الشريفة من الشرق أعيان العربان منهم : الأمير قطايا بن سيف [2] أمير بنى كلاب وجماعة من شيوخهم ،

(*) يوافق أولها يوم الثلاثاء ٤ أغسطس ١٣٠٤ م .

(١) انظر ما سبق ص ٣١١ .

(٢) « سيفر » فى السلوك جـ ٢ ص ٣ .

فأكرم مثواهم ، وأصغى لنجواهم ، وشملتهم الصدقات بالإقطاعات ، وعادوا إلى حلب وقد نال كلٌّ فوق ما طلب .

وقال صاحب النزهة : وفى مستهل المحرم تواترت الأخبار بوصول الأمير سيف الدين قطايا بن الأمير سيف أمير بنى كلاب ، وكان هذا الرجل قد خرج عن طاعة السلطان وأفسد فى نواحى حلب وقطع الطريق ، فطلبته السلطنة ، فدخل هو وجماعته إلى بلاد الشرق ، وأقاموا مع المغُل وأكرموهم إكراما كثيرا ، فلما اتفق موت غازان كاتب نائب حلب ، ورجع إلى الطاعة ، وورد إلى مصر ، وأقبل عليه السلطان والأمراء وأكرموه ، وكتبوا لنائب حلب بردّ أخبازهم وإكرامهم ، وهؤلاء قوم معروفون بالفروسية والشجاعة ، وكانوا يركبون [٣٣٥] ويغيرون على المغل كل وقت ، وكان يتفق لهم معهم وقائع غريبة ، وما كانوا يخرجون من بلاد المغل إلا بالكسب والغنيمة .

ومنهم ما ذكره بيبرس وغيره : أنه قدم إلى مصر الأمراء الذين توجهوا إلى بلد سيس فى السنة الحالية وهم : الأمير بدر الدين أمير سلاح ، والأمير علم الدين سنجر الصوابى ، والأمير سُنقرجاه المنصورى ، ومن معهم من العسكر المنصور بعد ارتجاع القلاع التى كان الأرمن قد عدوا عليها وتطرقوا إليها وخربوا تل حمدون .

ومنهم : رسل السلطان الذين كانوا قد توجهوا إلى قازان وعوقهم قازان عنده كما ذكرنا ، وهما الأمير حسام الدين [أزدمر](١) المُجيرى ، والقاضى عماد الدين [على بن عبد العزيز](٢) ابن السكرى ، وقد عادوا إلى الديار المصرية فى رمضان ،

---

(١) [ ] إضافة للتوضيح — السلوك جـ ٢ ص ٦ .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح — السلوك جـ ٢ ص ٦ .

وحضر صحبتهما رُسل خَرْبندا برسالة مشتملة على طلب الصلح وكف الغارات من الجهتين ، فأحسن السلطان إلى رسل خربندا وأعادهم ، وأرسل صحبتهم علاء الدين على بن سيف الدين بلبان القلنجى (١) ، أحد مقدمى الحلقة ، والقاضى صدر الدين سليمان المالكى الشُبْرامَرْيقى (٢) ، وشُبرا مَرْيق : قرية من قرى الغربية من أعمال مصر ، وتوجهوا في ذي القعدة وعادوا في رمضان سنة خمس ، ومعهم رسول خربندا .

وفى نزهة الناظر : وعند تملك خربندا بلاد قازان وجلوسه على التخت جَهّز رسل السلطان : حسام الدين المجيرى ومَن معه بعد أن أنعم عليهم ، وكتب معهم كتابا خاطب فيه السلطان بالأخوة ، وسأل إخماد الفتن والصلح بين المسلمين ، وآخر كلامه فى كتابه : وعفَا الله عما سلف ، ومَن عاد فينتقم الله منه . وسَيّر صحبتهم قليلا من الهدية ، ولما وردوا أكرمهم السلطان أيضا وأجاب إلى سؤالهم ، وأرسل معهم هدية تليق به .

ومنهم : رسل الملك طقطاى صاحب سراى و بر القفجاق (٣) ، وصلوا إلى الأبواب الشريفة .

قال بيبرس فى تاريخه : وفى هذه السنة وصل رسول من جهة الملك طقطا اسمه قرلجى ، فأكرم غاية الإكرام ، وأُنزل بمنظرة الكبش فى خير مقام ، وتفرّج فى الجيزة والأهرام ، ثم أعيد جوابه ، وجُهّز إلى مُرسله بأنواع التحف والهدايا ، وسُفّر الأمير سيف الدين بلبان الصَرْخدى صحبته رسولا من الباب العزيز .

---

(١) « القلنجق » — فى السلوك جـ ٢ ص ٦ .

(٢) « المرتق » — فى السلوك جـ ٢ ص ٦ .

(٣) « القبجاق » فى السلوك جـ ٢ ص ٧ .

وقال صاحب النزهة : وصل رسول طقطاى ومعه هدية وتحف ، وكان قد حمل مماليك وجواريا كثيرة ، فمات أكثرهم فى البحر وبقى منهم قليل ، ولما حضر قدّم بعضهم وباع بعضهم ، ومن جملة مضمون كتابه : أن السلطان يركب بعسكره وهو أيضا يركب بعسكره ويأخذون بلاد قازان وعسكره بينهم ، ويكون لكل منهما مكان يَصل إليه خيله ، وكتب السلطان فى جوابه : أن الله عز وجل كفاهم أمر غازان ، وأن أخاه قد سَيرّ إليه رسولا فسأله الصلح ، وأنه أسلم واتبع الدين المحمدى والشريعة الإسلامية .

ومنهم : جماعة وصلوا من جهة أبى يعقوب المرينى صاحب الغرب(١) ، وفيهم رسول سمى علاء الدين أَيُدغدى الشَهرُزورى ، أصله من أولاد الشهرزوريّة الذين نُفيوا إلى المغرب فى الدولة الظاهرية ، وحضر بصحبته من جهة صاحب المغرب المذكور هدايا جليلة ، وتحف كثيرة ، وخيل عربية ، وبغال مغربيّة ، وجمال وقماش ، وجملة كثيرة من الذهب العين على سبيل الإمداد والهدية ، ووصل معه ركب كبير فيه من المغاربة خلق كثير لقصد الحجاز الشريف ، ولما كان أوان الحج حج الرسول المذكور ، وحجوا معه جميعا ، وعادوا إلى مرسله فى سنة خمس وسبعمائة .

[٣٣٦] وفى النزهة : وكان علاء الدين أيدغدى المذكور من أصحاب الأمير بهاء الدين يَعقوبا أمير الأكراد الشهرزوريّة ، ولما حصل له العبور إلى مصر مُسك يَعقوبا فى الدولة الظاهرية هو وجماعة من أكابرهم ، فهرب هذا الرجل مع جماعة من الأكراد إلى بلاد البحُيُرة ، ثم دخلوا إلى الإسكندرية ، وكان معه شىء من المال ، واجتمع بجماعة من المغاربة وعاشرهم إلى أن أخذوا له بضائعا

(١) الغرب : المقصود بلاد المغرب الأقصى — انظر ما يلى .

تصلح للغرب، وركب معهم فى مركب هو وأصحابه، ولما وصلوا إلى أبى يعقوب المرينى عرفوه بحاله، فأكرمه وقربه، فوجده كافيا للأمور، فتعاظم عنده فى تلك المدة إلى أن مكنه فى التحدث فى الوزارة، وسار فيها سيرة حسنة، وعرف أخلاق المغاربة لطول مدته عندهم، وكان وقت دخوله إليهم شابا، ثم سأل المرينىَّ أن يحج ويقضى فرضه، فأنعم له بذلك، وجهز أيضا صحبته جماعة من أهله وأقاربه، وتبعتهم جماعة كثيرة، وسير صحبته خيلا وبغالا، وتحفا سنية تصلح للملوك، وأخذ الوزير أيضا صحبته ما يليق به، ولما دخل على السلطان أكرمه وقرَّبه وأمر بإنزالهم فى الميدان، ورتب لهم كل ما يحتاجون إليه، ورسم للوزير والمباشرين أن يجهزوهم بكل ما أمكن.

ومنهم متملك دُنْقُلة وبلاد النوبة واسمه أَيَاىْ، وصل إلى مصر وأحضر معه هدية من الرقيق والهجن والجمال والأبقار والشبّ والسُّنْبَاذج، وأُنزل بدار الضيافة، وقُبلت هداياه، وشُرِّف بالخلع الملوكية والتشاريف السلطانية، وسأل أن يجرد معه عسكرا لينهض به على إعدائه[1]، فجرد معه جماعة من أجناد الأمراء وجند الولايات وعربان الصعيد، وجعل سيف الدين طُقصُبا الذى كان والى قوص مقدما عليهم.

وقال صاحب النزهة: وجردوا من مصر نحوا من ثلاثمائة فارس من جند الحلقة والأمراء، فخرجوا إلى أن وصلوا فى المركب والبر أيضا إلى قوص، وأقاموا إلى أن أكتمل الجند والعرب، ورحل طقصبا بالعسكر جميعه وصحبتهم ملك دنقلة، فبلغه خبرُ هروب صاحب دنقلة صحبته جماعة كثيرة من السودان، وعلم أنه لا ينال طائلا، واتفق مع الملك، ورجع بالعسكر إلى مصر.

(١) هكذا بالأصل، ولعل المقصود «على أعدائه».

ومنهم: جماعة من التتر نحو مائتى فارس وصلوا فى جمادى الأولى منها بنسائهم وأولادهم وأموالهم ، ودخلوا دمشق تاسع الشهر ، وقيل : إن فيهم أربعة من السلاحدارية للملك قازان .

وقال صاحب النزهة : ورد مملوك نائب حلب يخبر أن جماعة من المغل قصدوا بلاد الإسلام ، وفيهم جماعة من ألزام قازان ، وفيهم بعض أولاد سنقر الأشقر(١)، وعند وصولهـم إلى مصر تلقوهم ملتقى حسنا ، وأكرموهـم ، وأعطوا بعضهم الأخباز ، وأطلقوا لبعضهم الرواتب ، وفرق منهم جماعة على الأمراء ، وكان فيهم ناس من ألزام الأمير بدر الدين جنكلى بن البابا ، فأخذهم إليه ، وكان السبب لحضورهم أن الأمـير سيف الدين سـلاّر كان سـيّر جماعة من القُصّاد بسبب حضور والدته وبقية إخوته ، ووقع التحيل فى أمرهم ، فلم يجدوا التمكّن من ذلك ، واتفق موت غازان وتفرق عسكره بحيث لم يلتفت أحد على أحد ، فتحيلوا وخرجوا بهـم ، ووصلوا إلى قريب حلب ، ووجس فى خاطرهم الدخول إلى مصر والاجتهـاد [٣٣٧] فى الرغبـة فى الإسلام ، ولمـا وصـلوا إلى مصر حصل لهـم الخير ، وعنـد حضور والدة الأمـير سيف الدين سلاّر وإخوته : فخر الدين داود وسيف الدين جَبَا ، عَمّر لوالدته فى الميدان الذى أنشأه الملك العادل ، وكان اصطبل الجوق فى الدولة المنصورية ، ثم آل أمرها إلى أن يُعرف بحكر الخـازن .

(١) « الأشرف » فى الأصل ، والتصحيح من السلوك جـ ٢ ص ٥ . وعن سنقر الأشقر انظر المنهل الصافى جـ ٦ ص ٨٧ رقم ١١٢٣ .

وقال الراوى : أخبرنى شخص من جهتهم أن هذين الاثنين افترقا من أخيهما[1] سلار فى وقعة أبلستين للملك الظاهر مع تداون ، وبعد ذلك لم يكن أحد يعرف حال صاحبه ولا مكانه إلى أن أراد الله باجتماعهم فى هذه المدة .

ذكر بقية الحوادث فى هذه السنة :

منها : أن الأمير سيف الدين سلار قدم من الحجاز فى رجب المحرم ، وذُكر عنه أنه أنفق فى هذه السفرة [ما][2] لم ينفق أحد من الأمراء مثله ، ولما أراد أن يحج طلب مُباشريه وقال لهم : جَهِّزُوا لى أشياء لأعمل خيرا ما سبقنى أحد إليه ، واعملوا أضعاف ما عمله الأمير سيف الدين بكتمر أمير جندار لما حج ، وقد ذكرنا ما فعله فيما مضى[3] ، وقال لهم أيضا : خذوا معكم شيئا كثيرا من الذهب والفضة ، واحملوا من الغلال فى المراكب ، فإن سلمت فيها ونعمت ، وإلا يكون معنا شئ نُعوِّض عنها ، فأوسقوا ثمانى مراكب ما بين غلّة ودقيق وسكر وغير ذلك ، وجهّزوا المال فى صناديق صحبته .

وعند وصوله إلى مكة شرّفها الله جلس وسيّر أستاداره بدر الدين أبا فدّة وجماعة ممن يثق بهم إلى المجاورين بالحرم ، واستعلم من كل منهم ما عليه من الدين وكم مؤنته فى السنة ، وما يحتاج إليه ، فداروا على الجميع وكتبوا أسماءهم وأسماء أصحاب الديون ، فطلب الجميع وأوفى ما على المجاورين وغيرهم من الديون ، ثم أعطى لكل واحد منهم مؤنة سنة ، وفى ذلك الوقت وصل قاصده من جُدّة

(١) « من أخيه » — فى الأصل ، والتصحيح يتفق مع السياق .

(٢) [ ] إضافة يقتضيها السياق .

(٣) انظر ما سبق فى أحداث سنة ٧٠٠ هـ .

وأخبره بوصول المراكب سالمة إلى جُدة ، فرسم بحمل ما فيها ، ثم سيَّر إلى بيوت أهل مكة وطلب الجمع ، الجليل منهم والفقير ، وأعطى لهم من الذهب والفضة والغلة مؤنة سنة حتى لم يبق فى مكة لا كبير ولا صغير ، ولا شيخ ولا شاب ، ولا فقير ولا غنى ، ولا شريف ولا عبد إلّا وقد حصل له من ذلك شيء، ولما فرغ من ذلك طلب الحاج من الزيلع وفرق عليهم من الذهب والفضة والغلة والسكر والحلواء شيئا كثيرا ، وكان الزيلع تطوف بالبيت ويقولون فى طوافهم : ياسلاّر كفاك الله همّ النار ، ثم سيّر المباشرين الى جدة وفعلوا بأهلها كما فعل هو بأهل مكة .

ولما أتم سلاّر حجة ركب إلى المدينة ، وعند وصوله وادى بنى سالم وقفت العرب التى بالجبال التى هناك ، وعبثوا على الحاجّ ، وأخذوا أطرافهم ، ونهبوا جمالا كثيرة ، فركبت الأمراء عليهم وقاتلوهم بالحجارة ساعة ، فانهزموا ، فتبعوهم إلى الجبال ، وأخذوا منهم خمسين نفرا ، وجرحوا منهم جماعة ، وأحضرهم الأمير سيف الدين سلاّر إلى المدينة واستفتى العلماء فيهم ، فأفتى الجميع بقوله تعالى : ﴿ إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ﴾ (١) . الآية ، فأمر عند ذلك بقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف .

قال الراوى : وبلغنى ممن حضر هذه القضية ، أنه من الخمسين ، صبيٌّ ما دون البلوغ ، فرحمه الأمراء ، وسألوا سلاّرا بإطلاقه ، فأمر بإطلاقه ، فقال : لا والله لست أكون سالما دون أبى وأخى وأصحابى ولى أسوة بهم [٣٣٨] ، فأمر عند ذلك بقطعه ، فتعجبت الناس من قوة نفس هذا الصبيّ .

---

(١) الآية رقم ٣٣ من سورة المائدة رقم ٥ .

ولما وصل سلّار إلى مصر أراد مُباشروه أن يرفعوا حساب ما نُفِقَ فى هذه السفرة فلم يَرْضَ بذلك ، وقال : مال أنفقناه فى سبيل الله من وجه حل ، فنرجو قبوله ، ولا ينبغى أن نُحاسب فيه .

ومنها أن الأمير سيف الدين أسندمر نائب طرابلس كتب إلى السلطان والأمراء أن أميرا من أمراء طرابلس يقال له سيف الدين بآوُج الحسامى — من مماليك لاجين — أساء عليه الأدب فى دار السلطنة بحضور الأمراء كلهم ، وأخرق حرمة السلطنة ، فالمسؤول تأديبه ، فكتب السلطان بأن يطلبه قدام الأمراء ويأخذ سيفه ويحبسه ، فلما وصل إليه الكتاب طلبه وأخذ سيفه وأهانه وحبسه .

وكان السبب فى ذلك أن شخصا من السمَرة (١) كان يتحدث فى ديوان النائب ويتجر له فى سائر الأصناف ، فطغى بسبب ذلك حتى صار يركب الجورة العربية بالسُروج المحلاة بالذهب والفضة ، ولم يدَع كلاما لأحد فى طرابلس حتى صار يحكم فى الجيش ، وحصّل أموالا عظيمة له وللنائب ، وتألم منه أهل طرابلس ألما عظيما ، ولم يخلّوا أحدا من الأمراء حتى شكوه إليه ، ولم يكن أحد منهم يجترئ أن يبلغ ما يفعله للنائب إلى أن تزايد أمره وفشى طغيانه ، ثم إن بالوج المذكور اتفق مع الأمراء على أنه يتحدث مع النائب بسبب ذلك بشرط أن يُساعدوه عند فتح الكلام ، فاتفقوا على ذلك ، ولما حضروا يوم الموكب للخدمة شرع الأمير بالوج وفتح الكلام ، وقال : يا خوند أهل طرابلس جميعهم يشكون من هذا السامرى ، وعندهم ألم كثير وضرر عظيم بسببه . فالتفت إليه النائب

(١) السمرة أو السامرة : طائفة من اليهود ، وهم أتباع السامرى الذى أخبر الله تعالى عنه بقوله فى سورة طه آية ٨٥ (وأضلهم السامرى) — صبح الأعشى جـ ١٣ ص ٢٦٨ وما بعدها .

كالمُغضب وقال: يكذب أهل طرابلس فإنهم مراجفون مناجيس، وأنت أيضا بقيت مثلهم ، وكان بالوج شرس الأخلاق ، فقال يا أمير أقول لك إن هؤلاء ناس مسلمون يشتكون من هذا الخنزير الكافر وتقول لى أنت منهم، يعنى تقول لى تكذب . قال : نعم ، فلما سمع بالوج هـذا الكلام نهض قائمـا ، وقال : والله لأضربن عنق هذا السامرىّ حيث وجدته، فالسلطان ما يَشْنُقُنى لأجل سامرىّ خبيث، ثم اتفق ما ذكرناه من النائب فى حقه ، فتزايد السامرىّ على الناس إلى أن وقع منـه كلام فى يوم من الأيام يُوجب قتـله ، فشهدت جماعة بذلك من العـدول وغيرهم ، وكتبوا بذلك محضرا وأرسلوه إلى قاضى المـالكية بدمشق ، فأثبته القاضى ، ثم اجتمع بالقاضى الشافعى والحنفى ، وتوجهوا إلى ملك الأمراء جمال الدين الأفرم وعرّفوه بالقضية ، فكتب إلى الأمراء بمصر وعرّفهم بجميع ما وقع ، وعرّف أيضا أن هـذا الرجل خصيص بنائب طرابلس ، فقام الأمير ركن الدين فى ذلك وكتب إلى أسندمر نائب طرابلس أن يرسل هذا السامرى إلى دمشق ليتولى أمره القاضى المـالكى ، ويفعل فيـه ما يجب عليـه بالشرع ، ويُطلق سـيف الدين بالوج عن الحبس ، فلمـا وصل الكتاب إلى أسندمر ، وفيه الإنكار عليـه بسبب ما بلغ الأمراء من أمر السامرىّ ، وعلم أنه لا دافع عنـه ، وتصوّر أن السامرىّ إذاً [٣٣٩] وصـل إلى دمشق يُحدّثُ بمـا كان يفعله هو ، أراد به أسندمر نفسه ، فيقع بسبب ذلك فى أمر أعظم ممـا كان، فطلب سيف الدين بالوج ، واعتذر إليـه وقال : ما كنت أعرف حال هـذا الملعون وما كان يفعله حتى ظهر لى فى هذا الوقت ، وخلع عليه وطيب خاطره، ثم طلب السامرىّ بين يديه وأهانه وقيده، وجعله فى زنجير، وسلّمه إلى البريدىّ، وسيّر معه بعض مماليكه ووصّى بهم بأنكم إذا وصلتم إلى حمص وركبتم منها فى الليل

اضربوا رقبة السامرى ، وخذوا معكم رأسه، فإذا وصلتم إلى الشام عرفوا نائب الشام بأنا لما نزلنا فى حمص جاءت علينا جماعة فى الليل وضربوا رقبته ، وهم من أهل طرابلس ، فإنهم اتبعونا من طرابلس لما خرجنا منها ، فما وقعت لهم فرصة فى قتله إلا فى حمص، وكانوا أرادوا أن يفعلوا هذا وهم فى طرابلس ولكن ما اتفق لهم ذلك ، وذلك أن الأمير سيف الدين بالوج لما كان فى الحبس ، وأخذ بعض الناس هذا السامرى إلى ان ركب فى ليلة من مكان كان يتنزه فيه ، فوقفوا له فى طريقه ، فضربه بعضهم بالسيف على أن يُطيّر رقبته ، فلم تجىء الضربة إلاّ على شاشه فأرمته من رأسه ، ووقع السامرىّ على الأرض مذعورا ، فهرب أولئك القوم ونجا السامرى ، ولما بلغ ذلك نائب طرابلس قال : هذا شغل بالوج ، سلّط عليه هؤلاء القوم، ولما سمع نائب الشام بذلك طلب القضاة وأخبرهم بما جرى على السامرى فى الطريق وأراهم رأسه، فقالوا : قد قتله الله وكفى المسلمين شرّه .

ومنها : أنه حضرت جماعة من الكارم من جهة اليمن فى هذه السنة ، وأخبروا أن الملك المؤيد صاحب اليمن (١) تعرض لهم ، ولم يُجزهم على عادتهم ، وقال لهم : إن السلطان صغير، وقطع أيضا الهدية التى كانت ملوك اليمن تُرسلها إلى صاحب مصر، خارجا عما كان مقررا عليهم فى كل سنة فى الأيام الظاهرية ، فإن الملك المظفر (٢) ولى اليمن نحو أربعين سنة ، ولم يقطع ما كان عليه من المقرر

(١) هو : داود بن يوسف بن عمر بن على بن رسول ، الملك المؤيد هزبر الدين المتوفى سنة ٧٢١ هـ/ ١٣٢١ م — المنهل الصافى جـ ٥ ص ٣٠٧ رقم ١٠٢٣ .

(٢) هو : يوسف بن عمر بن على بن رسول ، الملك المظفر أبو منصور ، المتوفى سنة ٦٩٤ هـ/ ١٢٩٤ م — المنهل الصافى ، العبر جـ ٥ ص ٣٨٤ .

وهـو ستة آلاف دينار فى كل سنة ، كان يشترى بها أصناف المتجر، ويسيرها إلى قلعة الإسماعيلية فكانت تُرصد هناك ، وهذا كانت عادتهم من تقادم السنين مع هـدية يختص بهـا السلطان ، فلما ولى ولده الأشرف أياما قليلة وخرج عليه هِزَبر الدين مـلك اليمن قطع الجهتين ، وتجاهر للتجار بصغر السلطان ، ولمـا سمع الأمراء بذلك اقتضى رأيهـم أن يُسـيرّوا إليه رسولا وكتابا وينتظرون ما يجئ جوابه ، فعينوا لذلك مقدما من مقدمى الحلقة يُقال له ناصر الدين الطُورى (١)، ومعه القاضى شمس الدين [محمـد] (٢) بن عَدْلان ، وكتبوا كتابا ، وأغلظوا عليـه فى الكلام ، وهدّدوه وقالوا له : لا تُحوج نفسك إلى مجئ عسـكر إليك ، فيكون دماء أهل اليمن فى ذمتك .

وكتب الكتابَ القاضى ناصر الدين بن عبد الظاهر، ومن محاسن كتابه : أنه غـيرُ خافٍ عليك ما كان والدك عليه وما صار إليه، وكان عندنا بالاستعفاء والجنوح إلى سبيل الوفاء ، وسلكَ فيه من التلطف أبهج المسالك ، واجتنب أن يوقع نفسه فى المهالك ، وحَسمَ تلك المـادّة أن ترعى ، وربمـا أوصى بها أصلا وفرعا ، ووافاه الموتُ فقصم عُروة عتابهـا ، وحال بين المسألة [٣٤٠] وبين أعتابها وأفضت نوبةُ الملك إلينا فدانَتْ لنا الرقاب وتباطت لنا الهضاب ، وكاتبنا الملوكَ شرقا وغربا ، ووصلت إلينا هداياهم ، وكان اعتقادنا أنه أول ملك تصل إلينا كُتبه ، فكان أوحدهـم عقوقا وأوعرهم طريقا ، فكما علمت أن عدونا المقهور ، وسلطاننا الناصر المنصور ، وعلمتَ أمرَ التتار ، وما لهـا من المنازلة فى طول المـدد ، وقُوة الجأش ، واقتياتهم بمـا على الأرض من خَشاش ، فمـا

(١) « مبارز الدين » فى العقود اللؤلؤية جـ ١ ص ٣٦٧ .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح — السلوك جـ ٢ ص ٧ .

لبث مليكهم أن سلّم جيشه وولّى، بعدما قال أنا ربكم الأعلى(١)، وكانوا مائة ألف أو يزيدون، هذا وهم العدو الأكبر، والخصمُ الأقدر، فما ظنك بمن هو أضعف ناصرا، وأقلّ عددا، ممّن قد ألف الوساد، وأوصل النوم، وجفى المُهاد، وجعل دأبه قَينةً، زاعما بعدم الوصول إليه من بُعد المسافة، وهي أقرب إلينا من حبل الوريد(٢)، ولا مانع عنه في اقتحام الأهوال، وما ذلك على جُندنا ببعيد، والطريق التي استولى عليها الملك المسعود ابن مولانا السلطان الملك الكامل معروفة، ومَسالكها مألوفة، ونحن نحمد الله ما ثارت إلينا سحابة إلا وجّنت بحمد الله ثمراتها من حيث حلّت، ولا أتيحت سفينة إلا ألقت ما فيها وتخلّت، فيقف عند حدّه ويستدرك هزلة بجدّة، فما بعد العتاب من ألم، ويقتفي سَنن المهادنة، فمَن أشبه أباه فما ظلم، ويقدّم ما في ذمته لبيت مال المسلمين من الحقوق، ويتجنب طريق العقُوق، فمن النهج أن لا تكون عقُوق.

وقُرئت هذه النسخة على السلطان والأمراء، فطلبوا الطوري والقاضي شمس الدين وعرفوهما ما يقولانه، واتفق رأيهم أن يكتب الخليفة أيضا إليه كتابا وينهاه، فكتب من جهته كتابا وأغلظ على الملك المؤيد فيه، وأمَره ونهاه.

---

(١) اقتباس قرآني، مأخوذ من الآية «فقال أنا ربكم الأعلى» — الآية رقم ٢٤ من سورة النازعات رقم ٧٩.

(٢) اقتباس قرآني مأخوذ من الآية «ونحن أقرب إليه من حبل الوريد» — جزء من الآية رقم ١٦ من سورة ق رقم ٥٠.

ومنهـا : أن قاضى القضاة المـالكى بدمشق حكم بإراقة دم شمس الدين(١) ابن الشيخ جمال الدين عبد الرحـيم الباجربقى بمقتضى ما ثبت عنده ما يوجب ذلك ، فهرب المذكور واختفى ، ثم حـكم تقى الدين سليمان الحنبلى بحقن دمه بثبوت عداوة الشهود الشاهدين عليه ، فأنكر المـالكى عليه ذلك وأشهد على نفسه أنه باق على ما حكم به من إراقة دمه ، فاستمر هروب الباجربقى لذلك .

ومنها : أن نجم الدين أبا بكر بن بهاء الدين بن خلكان ادعى بدمشق أنه حكيم الزمان ، وأنه يخاطب بكلام يشبه الوحى من جملته : يا أيها الحكيم افعل كذا ، يا أيها الحكيم افعل كذا ، وادعى أنه قد اطلع على علوم كثيرة وطلسمات عظيمة منها : طبل إذا ضُرب به انكسر العدو وانهزم ، وغير ذلك ، وادعى أنه أرسل إلى الملك الناصر بمصر أنه إذا اجتمع به عمل له طلسمات عظيمة فى فنون شتى ، فعُقـد مجلس بدمشق بحضرة النائب جمـال الدين أقوش الأفرم وطُولب بإقامة البرهان على صحة دعواه ، فلم ينهض ، فاستتيب وأطلق على أنه لا يعود ، فأقام مدة ، ثم عاد إلى دعواه فأمسك واستتيب وأطلق ، فأقام مدة ، ثم عاد إلى دعواه فأودع المـارستان وأقام مدة ، ثم خرج منه ، فتوجه إلى القاهرة وعاد إلى دعواه ، فأمسكه الأمـير سيف الدين ألجاى الدوادار [٣٤١] واستتابه وأطلقه ، فأقام مدة ، ثم عاد إلى دعواه ولم يزل مُصرًا عليها ، وكان هذا الرجل قبل هذه الدعوى

(١) هو : محمد بن عبد الرحيم بن عبد المنعم بن عمر بن عثمان الباجربقى ؛ وكان قـد هرب بعد الحكم عليـه ، وأقام بمصر بالجامع الأزهر ، ثم نسحب إلى دمشق ونزل إلى القابون قرب دمشق ، وأقام به إلى أن مات سنة ٧٢٤ هـ / ١٣٢٣م — درة الأسلاك ص ١٦٩ ، الدرر جـ ٤ ص ١٢٠ رقم ٣٨٩٣ ، فوات الوفيات جـ ٢ ص ٤٤٤ رقـم ٤٢١ ، الوافى جـ ٣ ص ٢٤٩ رقم ١٢٦٩ ، شذرات الذهب جـ ٦ ص ٦٤ .

ينُوب عن الحكام بالشام، فلما غلب عليه هذا الحال ترك الولايات الحكمّية وأخذ في هذه الحال .

ومنها : أن الشيخ تقي الدين ابن تيمية(١) توجه ومعه جماعة إلى مسجد النارنج(٢) بدمشق ، فأحضر جماعة من الحجارين وقطع صخرة هنالك كان الناس يزورونها وينذرون لها ، وكان لهم فيها أقاويل كثيرة فأزالها(٣) .

وقال صاحب النزهة : وفيها وصل كتاب نائب الشام يذكر فيه عن الشيخ تقي الدين بن تيمية أنه جرى بينه وبين أهل دمشق منازعة بسبب الصخرة التي كانت بمسجد النارنج ، وكان كثير من الدماشقة يترددون إليها يدّعون أن فيها أثر قدم النبي صلى الله عليه وسلم ، ويتغالون في أمرها ، ففسدت بذلك حال جماعة كثيرة من الرجال والنساء ، واتفق أن الشيخ تقي الدين أنكر ذلك ، وأنكر على جماعة كثيرة ، فوقع بينهم تنازع ، فبلغ ذلك إلى نائب الشام ، وبلغ أنه يُريد قطعها ، وأكابر الشام والقضاة لا يمكنونه ، وآخر الأمر قام الشيخ فيه قياما عظيما ، وركب بنفسه ، وأخذ جماعة من الحجارين ودخل المسجد، وأخذ الفأس بيده ، وقطع الحجارون بعده ، ولم يَبْقَ لها أثر ، وكيف يكون العمل في هذا الرجل ؟ فإنه يقول : إن هذه بدعة ، وإنه لم يصح عنده شيء فيها ، فكُتب الجواب من كتاب نائب الشام : أن الأمر إن كان على مازعمه ابن التيمية فقد

---

(١) هو : أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ، شيخ الإسلام تقي الدين أبو العباس — المعروف بابن تيمية ، المتوفى سنة ٧٢٨ هـ / ١٣٢٧م — المنهل الصافي جـ ١ ص ٣٥٨ رقم ١٩٥ .

(٢) « بجوار مصلى دمشق » في السلوك جـ ٢ ص ٨ .

(٣) « وأن الأثر الذي بها ليس هو قدم النبي صلى الله عليه وسلم » — السلوك جـ ٢ ص ٨ .

فعل الخير وأزال بدعة فى الإسلام ، وإن كان أمره غير صحيح فبينوا عليه عدم صحة ما فعله وتعديه ، ثم قابلوه على ما فعله .

ومنها : ما كان دخول الأمير مظفر الدين موسى بن الملك الصالح علاء الدين على بن الملك المنصور على بنت الأمير سلار نائب السلطان .

وقال صاحب النزهة : وكان سلار مملوك الملك الصالح ، وهو الذى ربى أمير موسى المذكور ، وأحسن تربيته ، ورأى أن ابن أستاذه أحق وأولى من غريب يأتى ، فعرف السلطان والأمراء بذلك ، وشرعوا فى أمر التهادى والتقادم للعرس ، فقدموا شيئا كثيرا ، ويقال : إن سلار أقام ثلاث سنين يعمل جهاز بنته من سائر الأصناف ، وعمل من كل شىء حتى عمل برسم بيت الخلاء[1] بكلة من الفضة والنحاس المكفت[2] ، وكان جملة ما صنعه من الجهاز — على ما نقله من يوثق به — مبلغ مائة ألف وستين ألف دينار ، وكان المهم فى القلعة ، ولم يبق أحد من الأمراء إلا وقد مشى فى خدمته ، وكان الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير هو الذى تولى أمر ذلك المهم ، وجميع الأمراء ، وحمل له من الشمع ثلاثمائة وثلاثون قنطارا .

ومنها : أن نيابة صفد فوضت لسيف الدين سنقرجاه المنصورى ، عوضا عن الأمير بتخاص ، وحضر بتخاص إلى مصر وأقام بها ، وفوضت الجوبية بدمشق للأمير بكتمر الحسامى .

(١) بيت الخلاء : المرحاض ، وهو موضع قضاء الحاجة والاغتسال — المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية — ص ١٠٤ .

(٢) مكفت : مطعم بمعدن آخر ثمين بأشكال أو رسومات أو كتابات — المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية ص ١١٥ .

ومنها : أنه ظهر فى معدن الزمرد بمصر قطعة كبيرة لم تكن ظهرت فى المعدن من أول ظهوره إلى ذلك الوقت مثل ذلك ، وكان وزنها مائة وخمسة وسبعين مثقالا ، فسرقها الضامن وحملها إلى ملك اليمن ، فدفع له فيها مائة ألف وعشرين ألف ، فما رضى ببيعها ورجع بها ، فأُخذت منه وحملت إلى الملك الناصر [٣٤٢] ، فانفطرت مرارة الضامن ومات ، وهذا المعدن لا يوجد فى الدنيا إلا بالديار المصرية فقط ، والله أعلم .

ومنها : أنه أجدب الشام من الغور إلى مصر جدبا عميا ، وقلت المياه حتى ارتحل بعض أهلها من عدم الماء واختلاف أنواء السماء .

ذكر الإيقاع بناصر الدين الشيخى الوزير :

قال بيبرس فى تاريخه : وفيها أُوقع بناصر الدين الشيخى[1] الوزير إيقاعا شديدا ، وعُزل عن الوزارة عزلا مُبيدا ، وخُلع من الإمارة خلعا عنيفا عتيدا ، وطولب بالمال ، وجنح سَعده فمال[2] وآل إلى شر مآل ، وبُسط عليه العقاب ، وعُذّب أمر العذاب ، فأدركه حتفه ، وفارقه إلفه ، ومات شرّ ميتة ، فكثر الشامت بوفاته ، والناعت لسوء صفاته ، والذاكر لظلماته ومحدثاته التى كان بها يتوصل إلى أرباب الدول ، ويتوسل بأحداثها فى تولية العمل ، ولا يفكر فى جانب الله عز وجل ، ولا يعلم أن الدعاء لابد من تأثيره وإن طال الأجل ، فأسخط الله عليه

(١) هو : محمد — ويقال دبياى — الشيخى ، الأمير الوزير ناصر الدين . وله أيضا ترجمة فى : السلوك جـ ٢ ص ١٤ .

(٢) بداية ما يوجد فى مخطوط زبدة الفكرة — الذى بين أيدينا — بعد السقط فيما بين الورقة ٢٤١ ب ، ٢٤٢ أ ، والمفروض أن بهذا السقط باقى أحداث سنة ٧٠٢ هـ من أثناء الكلام من وقعة شقحب ، وأحداث سنة ٧٠٣ هـ ، وأحداث سنة ٧٠٤ هـ حتى هذا الموضع .

الذين أرضاهم بظلم عباده ، وعجل له عذاب الدنيا قبل عذاب معاده ، فلله در القائل (١) :

وابغ رضى الله فأغنى الورى   من أسخط المولى وأرضى العبيد

قلت : وناصر الدين المذكور كان من أولاد القاهرة فقيرا (٢) ، وكان يتكسب بخياطة الكوافى والاقباع ، ثم امتدت به أسباب الأطماع ، فسافر مع الفقراء المجردين ، ووصل إلى بلد ماردين ، واتفق إلمامه بابن الصاحب ، وهو الأمير شمس الدين محمد المعروف بابن التيتى (٣) ، وحضر معه إلى الديار المصرية عند تردده فى الرسلية من جهة أحمد (٤) سلطان بن هلاون فى الدولة المنصورية ، ولما أقام شمس الدين المذكور بالأبواب السلطانية أقام المذكور وتظاهر بالجندية ، وأعطى مباغا مرتبا على ساحل الغلة بالقاهرة ومصر ، فما لبث أن تحدث فى المعاملة حديثا كثيرا ، وأظهر فصولا وأبدى فضولا ، وألزم بها لمقطعها ضمانا ، وجدد فيها رسوما ظلما وعدوانا ، ثم توصل حتى أنه باشر شد الدواوين ، وانتقل منه إلى ولاية القاهرة ، ومنها إلى ولاية الخاص بالجيزية ، ثم طمحت نفسه إلى الإمارة ، وسولت له طلب الوزارة ، فبذل بذولا قررها ، ووعد أرباب الدولة وعوداً كررها وكثرها ، فتولى الوزارة كما ذكرنا ، وآثر فيها ما شرحنا ، ولم يخل من تفتيق مظلمة وتجديد حادثة مؤلمة ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، وأولاه

(١) « فلله القائل » — فى زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٤٢ أ .

(٢) « أصله من بلاد ماردين » — السلوك جـ ٢ ص ١٤ .

(٣) هو : محمد بن محمد بن عقيل بن سالم بن عقيل بن التيتى ، المتوفى سنة ٦٩٢ هـ/١٢٩٣ م — انظر الجزء الثالث من هذا الكتاب ص ٢٤٨ .

(٤) هو : أحمد سلطان تكدار بن هولاكو ، الذى ولى أمر السلطنة ببلاد التتار سنة ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م وتوفى سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م — المنهل الصافى جـ ٢ ص ٢٥٤ رقم ٢٣٤ .

ما كان به من الهوان أولى ، وأنجز للظالم وعيده ، وللمظلوم وعده ، إن وعده كان مفعولا(١) ، فليحذر الغافل إذا نزلت به الأيام إلى المعاقل ، فإن لهـا بعد الرفع [وضعا](٢) ، وبعد التمكين صرعا ، وليأخذ بالرفق ويتجنب الجور والخرق .
قال الشاعر(٣) :

فإن المظالم يوم المعاد	لمن قد تزودها شر زاد(٤)

وقال صاحب نزهة الناظر : وكان السبب للإيقاع به أنه لما حضر الأمير سلار من الحجاز بلغه من خواصه ما فعله ناصر الدين المذكور عند سفر السلطان إلى بلاد البحيرة للتصيد ، [٣٤٣] وما تحدث للملك الناصر من السر وحمله إليه ألفى دينار كما ذكرنا ، وأنه جسره على أمور كثيرة لم تكن فى ذهنه ، وأن السلطان ملتفت إليه التفاتا كبيرا ، وكل ما كان يحتاج إليه طلبه منه فيحمله إليه ، ولما سمع سلار بذلك خرج عليه نقما كان فى نفسه منه ، فكتم ذلك فى باطنه إلى أن جهز الأمير ركن الدين بيبرس لأجل سفر الحجاز ، وعلم أنه متى أوقع به فى غيبة بيبرس كان يتوهم أنه كياد فى حقه حيث ما فعله وهو حاضر ، فاستشار الأمير علم الدين الجاولى فى أمره واتفق الحال على أن يقيموا شخصا من القبط يرافع عليه ويظهر فى جهته أموالا كثيرة أخذها هو ومماليكه ، فأحضروا شخصا من القبط وأمروه بذلك ، فكتب أوراقا عليه بجملة مستكثرة ، ولما

(١) « إنه كان وعده مفعولا » — فى زبدة الفكرة :
وهو اقتباس قرآنى مأخوذ من بعض الآيات ، ولكنه ليس آية فى القرآن .
(٢) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .
(٣) « قال الشاعر » — ساقط من زبدة الفكرة .
(٤) انظر زبدة الفكرة (مخطوط) ج ٩ ورقة ٢٤٢ أ ، ب .

حضر الأمراء فى دست المملكة شرع الأمير سلار وتحدث فيه بأنه فعل كذا وأخذ[1] ، فقالت الأمراء : إذا ظهر أنه حاق قطع جلده بالمقارع ، فعند ذلك ، رسم بطلبه وطلب مماليكه ، كبك وبكتوت وغيرهما ، وكان قد أرصد هؤلاء يتحدثون فى أعمال الجيزة ، فلما حضر قال له سلار : اسمع إش يقول هذا الرجل فيك بأنك أخذت من مال السلطان كذا وكذا ، وإنك خُنْت ، وقد عرفت كيف شرطت على نفسك ، ثم قال للرافع : تكلم معه وقل له على هذه الفصول التى ذكرتها عنه ، فأخذ ناصر الدين يتكلم بعزة نفس وقال : إش هذا النجس حتى أتكلم معه أو يسمع منه فى حق ، فما هو أتم كلامه حتى قال سلار : وأنت أيضا يا قواد يا نجس ما كنت بين الخلق حتى تكبر نفسك وتتكلم بنفس وعزة ، وإذا عرف أحد خيانتك تخرق به قدامنا ، فما لنا عندك حرمة ، ثم التفت إلى الحاجب وقال له : انزل على رأسه ، فضرب به على رأسه إلى أن أخرب شاشه ، ثم طلب مشد الدواوين وقال له : خذ هذا ومماليكه واستخلص منهم مال السلطان ، ولم يتكلم أحد من الأمراء كلمة واحدة ، وخرج به مشد الدواوين مُتَكَلَا به وقد أخذ سيفه[2] .

وفى اليوم الثانى : شاور عليه مشد الدواوين الأمير عز الدين الاشقر فقال له : اطلبه قدامك وطالبه بالمال وإلا أسلخ جلده بالمقارع ، فخرج عز الدين وطلبه إليه ، وعرّفه ما رسم به نائب السلطان ، فقال : السمع والطاعة ، وشرع فى تحصيل المال وفى بيع خيله وعدته وجميع حواصله أولا فأولا ، وصار مشد

(١) « وأخذا » فى الأصل .

(٢) « فى آخر يوم من شعبان » ـ السلوك جـ ٢ ص ٥ أ .

الدواوين كل يوم يخرجه وينكل به ، وكان في نفسه منه شيء كثير لما سبق له من إهانته إياه وتكبره عليه ، وجلس يوم الثلاثاء في الصناعة ، وسيّر وراءه من أحضره من القاهرة ، وهو راكب حمار وعليه أربع رسل ، ودخلوا به إلى سوق مصر ونواحي أسواق الصناعة ، فقامت إليه أهل مصر وصاحوا عليه وسبوه ولعنوه وأرادوا أن يرجموه ، فمنعهم من ذلك مماليكه ، فبلغ ذلك سلارا وكان يعلم أن الأمير بيبرس ممن يعينه ويساعده ، وبقي ينتظر أن بيبرس يفتح معه كلاما في حقه فلم يتكلم بشيء في حقه .

ثم أقاموا أياما إلى العشر الأول من شهر رمضان [٣٤٤] يتشاورون فيمن يُولّوه وزيرا يدبّر أمر الدولة ، فاقتضى رأيهم وزارة القاضي سعد الدين بن عطايا ، وسنذكر توليته[1] ، وقد ذكرنا أن ناصر الدين هذا كان قد تزوج بامرأة الأمير سيف الدين بهادر رأس نوبة ، وسكن في بيتها المجاور لمشهد الحسين رضي الله عنه ، وكانت أولادها جركتمر وأمير علي وخليل أولاد بهادر خصيصين بخدمة الأمير بيبرس ، وكانوا يسعون لناصر الدين عند بيبرس ، وبيبرس تارة يجيبهم ، وتارة ما يرد عليهم كلاما ، ومع هذا كان لبيبرس عناية لناصر الدين في الباطن ، ولكن كان يعلم أن سلارا يكرهه ، ولا يريد أن يعارضه في أمر يفعله هو .

وبقي الأمر على هذا إلى ليلة عيد الفطر ، وطلعت زوجته إلى بيت بيبرس ، ودخلت على أهله في أمر زوجها ناصر الدين ، وتكلمت امرأة الأمير بيبرس معه في أمره ، فوعد لها بأن يتكلم في خلاصه ، ولما جلست الأمراء في الشباك ، وهنّوا نائب السلطان سلارا ، فتح الأمير بيبرس معه الكلام في أمره وقال :

(١) انظر ما يلي ص ٣٦٥ .

هذه ليلة العيد، تصّدق على هذا المسكين وارسم بخلاصه . فقال له سلار : يا أخى أنت غافل عما فعل هذا ، والله والله أنت تعلم محلك عندى ، لو كان هو إلى اليوم باقيا فى الوزارة ما كنت أنا ولا أنت فى الحياة ، وأنا أعرفك به ، فإن كان ذهبه[(1)] يسيرا وأمرتَ لى بخلاصه أخلّصه ، ثم شرع يحدثه ما فعله فى غيبته ، وكيف راح إلى الإسكندرية ، وكيف اجتمع مع السلطان وتكلم معه شيئا كثيرا ، ومن جملة ما قال : أَشْ هم هؤلاء وأرادَ به إيانا ، فأى وقت اشتهيت مَسَكْتَهم مثل الكلاب ، واتفق معه على أمور كثيرة فى الفساد والإيقاع بنا ، وجسّر السلطان على أمور ما كانت فى نفسه ، وهذا الرجل قد قصد فتنة كبيرة بين المسلمين ، والله عز وجل يقول : ﴿ والفتنة أشد من القتل ﴾[(2)] . فإن كنت تختار أن نُطالقه ، نفرج عنه ، قد عرفتك ذنبه ، فلما سمع بيبرس ذلك منه تحقق أن سلار ما يفعل كذبا . فقال له : من يرمى فتنة بين المسلمين يستحق هذا وأنحس منه ، ثم قام من عنده وشرع فى تجهيزه إلى الحجاز الشريف .

ولما استهل شهر ذى القعدة : ركب الأمير بيبرس والأمراء صحبته ، وأمر لمشد الدواوين بعقوبة ناصر الدين المذكور وضربه بالمقارع ، فأقام يعاقبه سبعة أيام ، وتوفى بعدما من ألم الضرب ، وكان فيه عصبية ومروءة وأريحية ، وكان ينبعث للخير ، وله كتابة حسنة ، ومعرفة بالحساب .

قال صاحب النزهة : وكان أصله من بلاد ماردين ، وكان قدم إلى الديار المصرية مع رسل السلطان أحمد وقاصد صاحب ماردين ، وكان ماشيا طول

(١) هكذا بالأصل ، ولعلها « ذنبه » — انظر ما يلى .

(٢) جزء من الآية رقم ١٩١ من سورة البقرة رقم ٢ .

الطريق فقيرا ، ثم عمل صنعة الأقباع فى مصر فى دكان أشهراً ، ثم عمل جنديا شادا فى موضع ، وصار يكثر التردد إلى خدمة الحسام برتاق(١) مشد الكيالة مدة طويلة إلى أن [عرف](٢) الدخل والخرج(٣) ، ثم ضمن ساحل الغلة وفاض معه جملة ، ثم خدم الصاحب ابن الخليلى وبعض الأمراء ، وقدم لهم الهدايا والتقادم ، وأرغب حكام الدولة إلى أن تولى مشد الدواوين ، ومنه تنقل إلى شد الأعمال الجيزية ، ثم إلى الطبلخاناة ، وعمل ولاية [٣٤٥] القاهرة مضافا للجيزة ، ثم انتقل إلى الوزارة ، ومنها كان هلاكه .

ذكر تولية ابن عطايا الوزارة :

قد ذكرنا أن سلارا شاور الأمراء فى منصب الوزير ، واتفق رأيهم على تولية القاضى سعد الدين محمد بن عطايا ، وكان ناظرا بديوان البيوت السلطانية ، وله إلمام بالأمير علم الدين الجاولى من جهة أستادرية الدار ، ففوضت إليه الوزارة ، وخلع عليها(٤) ، وحملت إليه دواتها وبغلها ، وكانت مباشرته لها فى الثانى عشر من شهر رمضان .

وقال ابن كثير : وتولى ابن عطايا الوزارة بعناية علم الدين سنجر الجاولى ، وجلس يوم الأربعاء الثانى عشر من شهر رمضان(٥) .

---

(١) « برناق » — فى السلوك ج ٢ ص ١٤ أ .

(٢) [ ] إضافة يقتضيها السياق .

(٣) « حتى عرف دخل المباشرة وخرجها » — فى السلوك ج ٢ ص ١٤ .

(٤) هكذا بالأصل « يقتضيها عليه خلعها » فى زبدة الفكرة (مخطوط) ج ٩ ورقة ٢٤٢ ب .

(٥) يوجد هذا الخبر ملخصا فى البداية والنهاية ج ١٤ ص ٣٤ .

وقال النُويرىّ : رأيت الصاحب شمس الدين بن عطايا قبـل وزارته بثلاثة أيام قائمـا بين يدى علم الدين سنجر يقرأ عليه ورقة حساب ، ورأيته يوم جلس فى الوزارة والأمـير سنجر الجاولى جالس بين يديه ، وقد وقع الصاحب وكتب علم الدين بالامتثال وذيل على خطه ، وكان علم الدين المذكور استاذ الدار .

ذكر حج الأمير بيبَرس :

حج الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير المنصورى وصحبته جماعة من الأمراء وهم : الأمير ركن الدين(1) بيبرس الدوادار ، والأمير يعقوبا ، وآخرون من الأمراء ، وأولاد الأمراء ، وتسامعت النـاس بحج الأمير ركن الدين بيـبرس وكثروا ، فاجتمع عالم كثير إلى أن خرج المحمل إلى البركة ، ورأى أمير الركب خلقا كثيرا لم يعهد الناس مثلهم ، واجتمع رأى الأمراء على أن يكون الحج ثلاث(2) ركوب : ركبٌ صحبة الأمـير بيبرس الدوادار ، وركب صحبة الأمـير بهاء الدين يعقوبا ، وركبٌ صحبة أمير الركب الأمير عز الدين أيبك الخزندار ، وتأخر الأمير ركن الدين بيبرس إلى العشر الأخير من شوال ، ثم قصد أن يسافر مع الحاج وعرض له أمر أخره إلى أن سافر مستهل ذى القعدة على الهجن مخففا .

وحصل للحاج فى هذه النوبة أمر لم يعهد بمثله ، لأنهم كانوا ثلاث ركوب ، ومن حين خرجوا من مصر لم يجد أحدٌ ماء يرْوى دوابةّ إلى العقبة ، وعند نزولهم إلى العقبة قَلّ الواصل ، وتحسّن الشعير ، و بيع الأردبّ من الشعير بخمسين درهما ، وتم الأمر على ذلك وهم يرجون وصول المراكب إلى ينبـع من مراكب الأمراء

(1) « ركن الدين » مكتوبة بهامش المخطوط ، ومنبه على موضعها بالمتن .
(2) « ثلاث » مكررة فى الأصل .

والتجار ، فلم يصل شيء ، وغرقت مراكب كثيرة ، فتخبطت أحوال الناس ، وغلت الأسعار ، ثم عند رحيلهم إلى وادى النار لفح الناس هواء بسموم ، فهلك خلق كثير ، ونشفت قربهم حتى صارت كالقدّ من اليُبْس ، ولم يجدوا فى الوجه ماء إلا قليلا ، ولفح الناس هواء أيضا ، فكان الركاب يقعون من الجمال موتى ، وأما المشاة فإن أكثرهم ماتوا ، وبعضهم أنقطعوا ، وهرب المقومون ، وقاست الناس شدة عظيمة ، وتاه ركْبُ الأمير يعقوب بدليله ، فانقطعت منه جماعة كثيرة وماتوا ، واشتد الغلاء إلى أن بيعت الويبةَ من الشعير بأربعين درهما ، والويبة من الدقيق بستين درهما ، والبقسماطة بإثنى عشر درهما ، وكانت سنة شديدة ، وسمت الناس تلك السنة سنة رأعم[1] ، وبلغ الخبر مع المبشرين إلى الأمير سيف الدين سلار وبقية الأمراء ، فجهزوا للحاج من الأمراء ولغيرهم الإقامات والجمال [٣٤٦] بالأحمال ، واستقبلوا الحاج بالشعير إلى قريب ينبع بجمال العرب ، وبالدقيق وغيره الى عيون القصب وعقبة ، وأرسلوا إلى نائب غزة أن يجلب للناس الزيت والعسل وغير ذلك ، فألزم نائب غزة تجارا كثيرين بذلك ، وحضرت أيضا جماعة إلى العقبة من الكرك والشوبك ومعهم أصناف كثيرة ، وحصل للناس بذلك رفق عظيم .

وفيها : كان وفاء النيل على سبعة عشر ذراعا وثمانية عشر إصبعا .

وفيها : حج بالناس عز الدين أيبك الخزندار المنصورى أمير الركب المصرى كما ذكرناه ، وحج بالركب الشامى الأمير ركن الدين بيبرس المعروف بجالق ، ومعه سيف الدين جوبان المنصورى .

(١) رعم — رعاما ، وأرعمت الشاة : اشتد هزالها فسال رعامها ، والرعام : المخاط ، والمقصود : سنة الهزال — لسان العرب .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

الشيخ شرف الدين عبد المؤمن[(١)] بن خلف بن الحسن بن شرف بن الخضر ابن موسى الدمياطى، شيخ الحديث بمدرستى الظاهر[(٢)] والمنصور[(٣)] ببين القصرين.

وكان إماما فى وقته ، صدرا فى طبقته ، مات فيها[(٤)] بالقاهرة ، ودفن بباب النصر.

وقال ابن كثير : ولم يزل فى إسماع الحديث دائما إلى أن أدركته وفاته وهو صائم فى مجالس الإملاء ، فغشى عليه وحمل إلى منزله ، فمات من ساعته يوم الأحد الخامس عشر من ذى القعدة ، وكان مولده فى سنة ثلاث عشرة وستمائة، وكان جمع معجما لمشايخه الذين لقيهم بالحجاز والشام والجزيرة والفرات

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ١٧٠ أ ، نهاية الأرب (مخطوط) ج ٣٠ ورقة ٣٨ ، زبدة الفكرة (مخطوط) ج ٩ ورقة ٢٤٤ أ ، الدرر ج ٣ ص ٣٠ رقم ٢٥٢٥ ، فوات الوفيات ج ٢ ص ٤٠٩ رقم ٣٠٨ ، شذرات الذهب ج ٦ ص ١٢ ، مرآة الجنان ج ٤ ص ٢٤١ ، طبقات الشافعية ج ٦ ص ١٣٢ ، تذكرة النبيه ج ١ ص ٢٧٢ ، البداية والنهاية ج ١٤ ص ٤٠ ، النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢١٨ .

(٢) المدرسة الظاهرية بالقاهرة : تنسب إلى الملك الظاهر بيبرس ، وانتهى من عمارتها سنة ٦٦١ هـ/ ١٢٦٢ م — المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٣٧٨ .

(٣) المدرسة المنصورية بالقاهرة : داخل باب المارستان المنصورى — المواعظ والاعتبار ج ٢ ص ٣٧٩ .

(٤) ورد ذكر وفاته سنة ٧٠٥ هـ/ ١٣٠٥ م — انظر مصادر الترجمة .

ومصر يزيدون على ألف وثلاثين شيخا ، وهو عندى بخطه رحمه الله[1] .

وذكر بعضهم[2] وفاته فى السنة الآتية ، وكان تخرج بالحافظ زكى الدين المنذرى ، وروى عنه المزىّ والذهبي وخلق ، وكان مولده بتُونه[3] ، قرية من أعمال تنّيس ، ونشأ بدمياط ، ومات وله اثنان وتسعون سنة .

الشيخ المحدث الصالح نور الدين على بن[4] مسعود بن نفيس الموصلى ، ثم الحلبى ، مات بالمارستان الصغير بدمشق ، ودفن بسفح قاسيون ، وكان رجلا صالحا من المشهورين بطلب الحديث وكتابته وقراءته عن نحو خمسين سنة ، روى عن ابن رواحة ، وأصحاب البُوصيرى ، وأصحاب الخشوعى ، وغيرهم .

الشيخ الإمام علم الدين عبد الكريم[5] بن على بن عمر ، المعروف بالعراقى ، كان عالما كثير الفضائل ، شافعى المذهب ، جاوز الثمانين ، مات فى هذه السنة ، وولى مكانه بالقبة المنصورية الشيخ[6] عز الدين النمراوى .

الشيخ الكبير المعمّر ركن الدين أحمد بن عبد المنعم بن أبى الغنائم المقرئ ، القزوينى ، الصوفى ، الطاوسى .

---

(١) انظر البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٤٠ حيث يوجد اختلاف فى بعض الألفاظ ، وفى ترتيب العبارات.

(٢) منهم ابن كثير فى البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٤٠ ، وشذرات الذهب ، والنجوم الزاهرة .

(٣) تونة : جزيرة فى بحيرة تنيس ، وتعرف حاليا بكوم سيدى عبد الله بن سلام الواقع فى بحيرة المنزلة — القاموس الجغرافى .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، الدرر جـ ٣ ص ٢٠٣ رقم ٢٩١٦ ، شذرات الذهب جـ ٦ ص ١٠ .

(٥) وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ ٣ ص ١٣ رقم ٢٤٨٦ .

(٦) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ١ ص ٣٧٣ رقم ١٩٧ ، الوافى جـ ٧ ص ١٥٨ رقم ٣٠٨٤ ، الدرر جـ ١ ص ٢٠٦ رقم ٤٩٨ ، شذرات الذهب جـ ٦ ص ١٠ .

مات بالشُّمَيساطية، ودفن بمقابر الصوفية، وكان يذكر أن مولده في شعبان سنة إحدى وستمائة، وكانت وفاته في سابع جمادى الأولى منها.

الشيخ أمين الدين محمد(١) بن الشيخ قطب الدين محمد بن أحمد القسطلاني.

مات بمكة في الحرم منها، وكان شيخا صالحا من بيت الصلاح والحديث، أسمعه أبوه بمكة على مشايخها والواردين إليها شيئا كثيرا، وكان عنده فضيلة في علم الحديث، وكان شيخ الحديث بمكة، روى عن ابن الجُمَيزي(٢) وغيره.

الشيخ العالم نجم الدين عمر(٣) بن أبي القاسم بن أبي الطيب.

مات بداره داخل باب الفرج، ودفن بمقبرة باب الصغير، وكان رجلا جيدا، مشكورا في ولاياته، باشر نظر المارستان النوري، ونظر ديوان [٣٤٧] الخزندار، وصاحب حماة، ونظر الخزانة، ووكالة بيت المال، وكان مدرسا بالكروسية نحو أربعين سنة، وسمع الحديث من الجمال العسقلاني، وغيره.

الشيخ بهاء الدين عبد المحسن(٤) بن الصاحب محيي الدين محمد بن أحمد ابن هبة الله بن أبي جرادة.

---

(١) وله أيضا ترجمة في: درة الأسلاك ص ١٦٨ — ١٩٩، الدرر جـ ٤ ص ٢٨٧، السلوك جـ ٢ ص ١٣، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٦٤.

(٢) هو: على بن هبة الله بن سلامة اللخمي، المصري، الشافعي، بهاء الدين أبو الحسن ابن الجميزي، المتوفى سنة ٦٤٩ هـ/١٢٥١م — المنهل الصافي، عقد الجمان جـ ١ ص ٥٧.

(٣) وله أيضا ترجمة في: الدرر جـ ٣ ص ٢٦١ رقم ٣٠٥٧، السلوك جـ ٢ ص ١٣.

(٤) وله أيضا ترجمة في: درة الأسلاك ص ١٦٨، الدرر جـ ٢ ص ٢٦ رقم ٢٥١٢، أعلام النبلاء جـ ٤ ص ٥٣٨، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٦٧، السلوك جـ ٢ ص ١٣.

مات بالديار المصرية، ودفن بمقابر باب النصر، روى عن يوسف[1] بن خليل وغيره، وكان شيخا جليلا فاضلا .

الشيخ الحكيم الفاضل الأديب النحوى شهاب الدين أبو بكر بن يعقوب[2] ابن سالم الدَّنْيرى الرحبى، المعروف بالشاعور .

مات فى أوائل هذه السنة ببلاد اليمن بقلعة تعز[3]، كان قد حصل مالاً كثيرا، وحصل له إقبال من أهل اليمن، ومن صاحبها الملك المؤيد، وله التصانيف المفيدة .

الشيخ الإمام الزاهد أبو القاسم خلف[4] بن عبد العزيز بن محمد القَبْتورى الإشبيلى .

مات بمدينة النبى صلى الله عليه وسلم فى أوائل السنة، ومولده فى سنة خمسة عشر وستمائة، وله نظم ونثر، وفضائل كثيرة، فمن شعره .

ماذا جَنَيتُ على نفسى بمـا كتبت ... كفى فياوَيح نفسى من أذى كَفّى
ولـو يشاء الذى أجرى علىّ بـذا ... قضاءه الكفَّ[5] عنى كنتُ ذا كفى

---

(١) هو : يوسف بن خليل بن قراجا بن عبد الله، محدث الشام الدمشقى، المتوفى سنة ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م — عقد الجمان جـ ١ ص ٤٥ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ ١ ص ٥٠١ رقم ١٢٠٨ .

(٣) « مات بقلعة مصر » — فى الدرر .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ ٢ ص ١٧٤ رقم ١٦٥٢ .

(٥) « لكف » — فى الدرر .

وله :

واحسرتا لأمـــور ليس يبلغها		مالى وهن مُنَى نفسى وآمالى

أصبحتُ كالآل لاجَدْوى لدىّ		وما ألوتَ جَدَاولكن جَدَىَ الآل

الصاحب زين الدين أحمد[1] بن الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب الكبير بهاء الدين على بن محمد بن سليم ، المعروف بابن حنا .

كان رئيسا كبيرا، فقيها شافعيا ، ذا حرمة وافرة، ودين متين ، وله فضيلة تامة فى العلوم الشرعية ، روى الحديث عن سبط السلفى وغيره ، مات فى صفر منها[2] ودفن فى قبر كان قد حفره لنفسه تحت رجلى الشيخ ابن أبى حمزة بالقرافة قبلى الحوش الظاهرىّ .

الصدر شرف الدين محمد[3] بن على بن محمد بن سـعيد التميمى ، المعروف بابن القلانسى .

مات بداره بقاسيون ، ودفن به ، وكان من بيت كبـير ، وورث أموالا كثيرة ، وهو صاحب حمام الزُهُور بجبل الصالحية بدمشق ، سمع فى صغره من السخاوى ، والقرطبى ، والعزّ بن عساكر ، وابن مسلمة ، وغيرهم ، وهو خال المولى عز الدين بن القلانسى .

---

(١) وله أيضا ترجـمة فى : درة الأسـلاك ص ١٦٨ ، الدرر ج ١ ص ٢٠٢ رقم ٧٢٧ ، النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢١٥ ، تذكرة النبيه ج ١ ص ٢٦٥ ، السلوك ج ٢ ص ١٢ .

(٢) « ليلة الخميس ثامن صفر » — السلوك ج ٢ ص ١٢ أ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : الدرر ج ٤ ص ٤٤٠ رقم ٤٠٩٢ .

شمس الدين محمد بن الصاحب شرف الدين إسماعيل بن أبي سعد الآمدي[1]، عرف بابن التيتي .

مات بالقاهرة ، جفلت به الفرس فوقع وتعلقت رجله بالركاب فتكسرت أعضاؤه ، وحمل إلى منزله ، فبقي قليلا ومات ، وكان رجلا فاضلا ، عارفا خبيرا ، خالط الملوك والدول ، وباشر المناصب الجليلة ، وكان نائب دار العدل بالقاهرة ، يقعد مع القضاة ، وله سماع كثير من ابن المقير ، وابن الجميزي ، والكفرطابي ، وغيرهم ، ومات وله من العمر خمس وستون سنة .

شمس الدين محمد بن الخطيب شمخ[2] بن ثابت العرضي[3] ، خطيب داريا .

مات بمدرسة سيف الدين السامري بدمشق ، سمع من والده ، وغيره .

الشريف الأمير عز الدين جماز[4] بن شيحة الحسيني ، صاحب المدينة النبوية .

مات فيها ، وكان شيخا كبيرا ، أضر في آخر عمره ، وقام بالأمر بعده ولده [٣٤٨] الشريف ناصر الدين منصور[5] .

---

(١) وله أيضا ترجمة في : درة الأسلاك ص ١٩٨ ، الدرر جـ ٤ ص ٦ رقم ٣٥٤٠ ، الوافي جـ ٢ ص ٢٢٧ رقم ٦١٩ ، تالي كتاب وفيات الأعيان ص ١٥٥ رقم ٢٥٣ ، شذرات الذهب جـ ٦ ص ١١ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٦٦ ، السلوك جـ ٢ ص ١٣ .

(٢) وله أيضا ترجمة في : الدرر جـ ٤ ص ٩٦ رقم ٣٧٤٣ ، وفيه أن صاحب الترجمة توفي « في رجب سنة ٧٣٤ هـ » .

(٣) « شيخ » في الدرر ، وورد « شمخ » في فهرس الدرر .

(٤) وله أيضا ترجمة في : درة الأسلاك ص ١٦٨ ، زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٤٤ أ ، المنهل الصافي جـ ٥ ص ١٨ رقم ٨٦١ ، مرآة الجنان جـ ٤ ص ٢٣٩ ، الدرر جـ ٢ ص ٧٥ رقم ١٤٥٧ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢١٧ ، شذرات الذهب جـ ٦ ص ٩ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٦٥ ، السلوك جـ ٢ ص ١٣ ، كنز الدرر جـ ٩ ص ١٣٠ .

(٥) توفي منصور بن جماز سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٤ م — المنهل الصافي .

الأمير ركن الدين بيبرس(١) الموفقى المنصورى، مات فيها(٢) بدمشق، وظهر بعد موته بقليل أن مماليكه خنقوه وهو سكران(٣)، وجرى فى ذلك فصول كثيرة، وادعى أولاد سنقر الأشقر أنه مملوكهم باق على ملكهم، فلم يثبت لهم ذلك .

الأمير سيف الدين بهادر سمز المنصورى(٤) .

مات بأرض المرج، كان مع نائب السلطنة والأمراء فى الصيد، فدهمهم فى الليل طائفة من العرب فقاتلوهم، فقتل من العرب أكثر من نصفهم، ودخل سمز بينهم ولم يرجع عنهم، فضربه واحد منهم برمح فقتله، وحمل إلى قبر البيت فدفن هناك .

وقال ابن كثير : لما دهمهم العرب كان يرميهم بالنشاب ويقول : أنا بهادر دمشق، فرماه بعض العرب بحربة وقال : خذها، وأنا عصفور بن عصفور(٥)، فقتله .

الأمير مبارز الدين سوارى بن بركى(٦) الجاشنكير الرومى، أمير شكار، توفى فى هذه السنة .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : الدرر ج ٢ ص ٤٣ رقم ١٣٨٥، السلوك ج ٢ ص ١٣ .

(٢) « فى يوم الأربعاء ثالث عشرى جمادى الآخرة » ـــ السلوك ج ٢ ص ١٣ .

(٣) « وهو سكران » بهامش المخطوط، وموضح موضعها بالمتن .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : الدرر ج ٢ ص ٣١ رقم ١٣٥٩، السلوك ج ٢ ص ١٤، النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢١٧، وورد اسمه « بهادر تمر » فى البداية والنهاية ج ١٤ ص ٣٤، « بهادر سمر» فى الدرر .

(٥) لم يرد هذا النص فى المطبوع الذى بين أيدينا من البداية والنهاية .

(٦) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة (مخطوط) ج ٩ ورقة ٢٤٣ ب، السلوك ج ٢، ص ١٤، النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢١٧، الدرر ج ٢ ص ٢٧٥ رقم ١٩٠٨ .

الشيخ تاج الدين بن الرفاعى، شيخ الأحمدية بأم عبيدة من مدة مديدة .
وكان يكتب عنه إجازات الفقراء، توفى فى هذه السنة ، ودفن هناك عنـد سلفه بالبطائح .

فصل فيما وقع من الحوادث
في السنة الخامسة بعد السبعمائة (*)

استهلت هذه السنة ، والسلطان ، الملك الناصر محمد بن قلاون .

والخليفة : المستكفي بالله العباسي .

ونائب الشام : جمال الدين الأفرم ، ونائب حلب : شمس الدين قراسنقر المنصوري .

ذكر من قدم من الرسل ومن غيرهم :

وفيها : وصل رسول الملك المؤيد صاحب اليمن ، ومعه الهدية الثمينة من البهار والقنا والشاشات والتحف ، فقومت هديته فكانت أقل قيمة من الهدايا الجارى بها عادة أبيه ، فصدرت إليه الكتب الشريفة بالإنكار والتهديد والإغلاظ والوعيد ، وأرسلت على يد بدر الدين (١) محمد الطورى أحد مقدمى الحلقة ، فلم يصادف منه لما اجتمع به قبولا ، ولا أعاد معه رسولا ، فرجع بعد مدة. (٢)

وفيها : وصل من بلاد التتار اثنان من أخوة المقر السيفي سلار . أحدهما بعد الآخر (٣) بُرهة يسيرة ، وهما الأمير سيف الدين جَبا ، والأمير فخر الدين داود ، ووصلت والدته صحبة الأول ، فقرت عينه بجمع شمله ، وحضور أهله بعد طول

(*) يوافق أولها يوم السبت ٢٤ يولية ١٣٠٥ م .

(١) « ناصر الدين » — فيما سبق — انظر ص ٣٥٤ .

(٢) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٤٤ أ .

(٣) انظر التحفة الملوكية ص ١٧٨ .

الافتراق والإياس من التلاق ، فإن له منذ فارقه أهله وانصدع شمله ، من نوبة الأبلستين فى الدولة الظاهرية فى سنة خمس وسبعين وستمائة ، ثلاثين سنة معدودة إلى هذه المدة المحدودة ، فأتوه من شاسع البلاد ، وبلغ بقُربهم المراد ، كما صنع الله ليوسف بن يعقوب ، وابتهجت بجمعهم القلوب (١) .

قـد يجمعُ اللهُ الشتيتينَ بعـــدما يظنان كل الظن أن لا تـلاقيا

وأمرّ كلٌّ منهم بطبلخاناة ، وانتظم عِقدهم جميعا ، وعادَ خبائهم منيعا (٢) .

وفى كتاب اللطائف : كان وصـول سيف الدين ووالدته وأولاده أولا فى العشر الأوسط من صفر ، وبعدهم وصل داود فى العشر الأول من جمادى الأولى .

وفيها : وصلت رسل من جهة ملك الكرج إلى القُسطنطينية لقصد الأبواب الشريفة ، فجهز الأشكرى [٣٤٩] معهم رسولا من عنده وأرسلهـم ، فوصلوا فى البحر إلى ثغر الإسكندرية ، ومنها إلى الأبواب الشريفة (٣) برسالة يسألون فيها أن تعاد إليهم كنيسة معروفة بهم بالقدس الشريف تسمى المُصلّبة ، كانت قد أخذت منهم منـذ مدة ، وبنى فيهـا مسجد بمئذنة ، فأعيدت إليهم ، ورُدّت ضالّتهم عليهم (٤) .

وقال ابن كثير : وكان الشيـخ خضر انتزعها منهم فى الدولة الظاهرية ، وجعلها زاوية فأعيدت عليهم بمقتضى فتاوى العلماء ، وأذن لهم فى الاستواء فى

(١) انظر ما سبق ص ٢٤٨ .

(٢) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٤٥ ب ، ٢٤٦ أ .

(٣) « السلطانية » فى زبدة الفكرة .

(٤) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٤٦ أ ، ب .

الركوب ، وكانوا قبل ذلك يركبون عرضا من ناحية واحدة .(١)

وفيها : كان عود رسول البَرْشُونى الواصل من جهته ، وفخر الدين عثمان الأفرمى المجهز فى صحبته ، فلما خرجا من الأبواب الشريفة ، ووصلا إلى الإسكندرية ركبا المركب ، وعزما على الإقلاع ، فتفاوضا مفاوضة أفضت إلى الخصام ، فاستشاط الفرنجى غضبا ، وطرح فخر الدين من المراكب إلى قارب الخيمة التى خرج من الميناء مُشيعا للمركب على العادة ، هو وغلمانه ، ولم يعطهم شيئا مما كان معهم ، وأقلع من فوره ، فعاد المذكور إلى الثغر ، وحضر إلى الباب العزيز خائبا مسُعاه ، مجدبًا مرعاه .(٢)

وفيها عاد علاء الدين [أيدغدى](٣) الشهرزورى رسول المرينى من الحجاز ، وجُهز إلى بلاد المغرب ، وجُهز صحبته الأمير علاء الدين أيدغدى التُلَيلى ، وعلاء الدين أيدغدى الخوارزمى ، وصحبتهم ما يليق من الهدايا النفيسة والتحف الثمينة ، وسيّر صحبتهم خمسة عشر تتريًّا من المأخوذين فى وقعة مرج الصُّفَّر ، وخمس مماليك أتراك ، وغير ذلك(٤) .

وفيها : وصل إلى دمشق رُسل خربندا ، ومعهم صدر الدين المالكى الخطيب رسول المسلمين ، فأقاموا بدمشق يومين وتوجهوا إلى الديار المصرية .

---

(١) لايوجد هذا النص فى حوادث سنة ٧٠٥ هـ فى البداية والنهاية (المطبوع) الذى بين أيدينا .

(٢) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٤٦ أ .

(٣) [ ] إضافة للتوضيح من زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٤٤ أ .

(٤) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٤٤ أ .

ذكر من أنعم عليه بوظيفة أو إمرة أو أفرج عنه :

وفى أول المحرم : باشر القاضى جلال الدين القزوينى [(١)] الحكم [بدمشق] [(٢)] نيابة عن القاضى نجم الدين بن صَصْرَى [(٣)] .

وفيها : رسم للأمير سيف الدين بكتمر الحاجب أن يباشر شدّ دمشق ، فامتنع من الدخول فى ذلك إلا بشروط ، وكتب مطالعة ، فعاد الجواب بما اشترطه ، وأجيب إلى سؤاله .

وقال ابن كثير : تولى سيف الدين بكتمر الحسامى الحاجب بدمشق وشد الدواوين بالشام ، عوضا عن شرف الدين قيران ، واحتيط على قيران المذكور [(٤)] .

وفيها : رُسم للقاضى شمس الدين محمد [(٥)] بن إبراهيم بن سليمان الأذرعى بقضاء الحنفية بالشام ، عوضا عن شمس الدين الحريرى .

وفى شهر جمادى الآخرة : أُمِّرت جماعة بدمشق وأقطعوهم جبال الجرديين والكسروانيين وهم : علاء الدين بن معبد البعلبكى ، وسيف الدين بكتمر عتيق بدر الدين بكتاش أستادار حسام الدين لاجين ، وعز الدين خطاب العراقى ،

---

(١) هو : محمد بن عبد الرحمن بن عمر القزوينى ، قاضى القضاة جلال الدين ، أبو عبد الله ، القزوينى الشافعى ، قاضى قضاة دمشق ، ثم الديار المصرية ، المتوفى سنة ٧٣٩ هـ / ١٣٣٨م - المنهل الصافى

(٢) [ ] إضافة للتوضيح من السلوك جـ ١ ص ١٤ .

(٣) هو : أحمد بن محمد بن سالم ، قاضى القضاة نجم الدين أبو العباس الدمشقى الشافعى ، الشهير بابن صصرى ، المتوفى سنة ٧٢٣ هـ / ١٣٢٣ م — المنهل الصافى جـ ٢ ص ٩٧ رقم ٢٦٤

(٤) لا يوجد هذا النص فى البداية والنهاية (المطبوع) الذى بين أيدينا .

(٥) توفى سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م — المنهل الصافى .

وركبوا بالشرابيش(١) ، ثم بعد ذلك توجهوا لأجل عمارة الجبال وحفظ ميناء البحر من جهة بيروت وتلك النواحى .

وفيها : قصوُر الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح الصالحى من الكِبَر وعجز القدرة ، وسأل الإعفاء من الخدمة ، فأجيب إلى سؤاله ، وارتجع إقطاعه إلى الخاص السلطانى ، وأضيفت أجناده الى الحلقة المنصورة .

وفيها : أفرج عن الأمير سيف الدين الحاج بهادر(٢) السلاحدار ، وأعطى إمرة بدمشق ، فسافر إليها .

ذكر غزوة سيس :

وفيها : جرّد الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى نائب حلب عسكرا إلى بلد سيس ليُغيروا عليها ، وذلك أن صاحبها أخّر حمل المال المقرّر عليه ، وقطع القطيعة ، فتوجه العسكر المذكور صحبة سيف الدين قشتمر الشمسى(٣) ، ومعه من أمراء حلب : شمس الدين آقسنقر الفارسى ، وفتح الدين بن صُبْرة المهمندار(٤) ، وسيف الدين [٣٥٠] قَشْتُمر النجيبى ، وسيف الدين قشتمر المُظَفّرى ، ومن معه من الحلقة والأجناد ، فدوخوا تلك البلاد ، وشنّوا الغارة على الأرمن .

(١) الشربوش : قلنسوة طويلة أعجمية ، تلبس بدل العمامة ، وكانت شارة للأفراد ، وكان الشربوش يلبس عادة مع الخلع السلطانية — المواعظ والاعتبار جـ ٢ ص ٩٩ .

(٢) هو : بهادر بن عبد الله المنصورى ، الأمير سيف الدين ، المعروف بالحاج بهادر ، المتوفى سنة ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م — المنهل الصافى جـ ٣ ص ٤٣٦ رقم ٧١٢ .

(٣) ، أحد مقدمى حلب ، — السلوك جـ ٢ ص ١٦ .

(٤) المهمندار : لفظ فارسى مركب معناه ، القائم على أمر الضيف وكان صاحب هذه الوظيفة يقوم بلقاء الرسل الواردين على السلطان ، وينزلهم في دار الضيافة ، ويتحدث في القيام بأمرهم — صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥٩ .

وكان التتار المجردون ببلد سيس قد علموا بهم ، وكمنوا لهم فى موضع مخرجهم ، فلما رجعوا ونزلوا بأثناء الطريق خرجوا إليهم وصالوا عليهم ، ودهموهم بغتة : ولما اقتتلوا قُتل من المسلمين جماعة ، وأُسر الأمراء الأربعة المذكورين [(١)] ، وجماعة من الجند وأرسلوهم إلى الأُرْدُو .

فلما جرت هذه الواقعة استشعر صاحب سيس الخور ، وتحقق وقوعه فى الغرر ، وأيقن أنه من السطوات الشريفة على خطر ، فأرسل إلى الأمير شمس الدين قراسنقر رسلا يبدى الطاعة ، ويذكر الإنابة ، والقيام بما عليه من القطيعة ، ويسأل الصفح والإغضاء والمسامحة والإعفاء ، فوردت كتب المشار إليه إلى الأبواب العالية يعرض ذلك على الآراء الشريفة ويذكر ما التمسه المذكور ويستأذن فى هذه الأمور ، فاقتضى الحال أن يُجرّد عسكرا إلى حلب ، ويكتب لصاحب سيس بأنه أجيب إلى ما طلب ، فإن حقق قوله بفعله وحمَل ما جرت عادته بحمله أعفى من الإغارة وكفى من الاستثارة ، وإن سوف وتوقف كانت الجيوش قريبة من إرهاقه متمكنة من خناقه .

قال الراوى : فجُرِّد أربعة آلاف فارس وجماعة من الأمراء والمقدمين وأصحاب الطبلخانات والمئين صحبة الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى أمير سلاح .

قال بيبرس فى تاريخه : وكنت فى المجردين ، فرسم لى بالحديث معه فى تقدمة العسكر ، وتدبير أحوال التجريد ، وتلقى الوارد والصادر من البريد [(٢)] ، لأن

(١) « وخلص قشتمر مقدم العسكر ، وآقسنقر الفارسى » ، فى السلوك جـ ٢ ص ١٦ .
« وأسر هؤلاء الأمراء الثلاثة وأرسلوا الى الأردوا ، وعاد قشتمر مملوك قراسنقر ومن معه الى حلب » — التحفة الملوكية ص ١٧٧ .

(٢) « وأنا معه متحدثا فى التجريد مخاطبا بالبريد » — التحفة الملوكية ص ١٧٨ .

المشار إليه[1] كان قد مكن منه الكبر وخانه الثقبان ، السمع والبصر ، فلم يكن يستبين شخصا ، ولا يُسمع لمخاطب نصا ، فتحدثتُ في التقدمة وأسبابها ، وحملت عنه جميع أتعابها ، ولم أقطع أمرا دون عرضه عليه ، وتوصيله إليه ، رعاية لقدمته ، وحفظا لسابقته . وكان في التجريد من مقدمى الألف : الأمير جمال الدين الموصلى قتال السبع ، والأمير شمس الدين الدكز السلاحدار ، وجماعة من الحلقة . وكان الخروج من القاهرة في منتصف شعبان من هذه السنة . ولما وصلنا غزة أقمنا بها ، وصدرت الكتب إلى الأمير شمس الدين قراسنقر معلمة له بذلك ، فكاتب صاحب سيس يخبره بالصورة ، ويُنذره بحركة العساكر المنصورة ويُعرفه أنه إن بذل الطاعة والإنابة ، وعجّل القطيعة قرين الإجابة ، فإنه يوفر من المغزى الصائر ، ويغنى من الغزو الثائر ، وإلا فالعساكر تطأ بلاده وتستأصل طَريفه وتلاده ، فعند ورود هذه الرسائل عليه ، أرسل يبذل الإذعان ، ويَلتمسَ تحقيق الأمان بالأَيمان ، ووصلت رسله إلى الأمير شمس الدين ، فأرسلهم إلى الأبواب العالية ، ونحن بظاهر غزة نازلون ، فاقتضى الحال عودنا ، إذ قد حصل الغِنى عن العَنا ، فعادت العساكر . وكان الرحيل من غزة آخر شوال ، والوصول إلى الباب الشريف أول ذى الحجة ، ولما وصل الأمير بدر الدين أمير سلاح إلى الأبواب العالية استعفى من الخدمة لأجل كبره [٣٥١] فأجيب إلى سؤاله ، وقد ذكرناه عن قريب[2] .

---

(١) المقصود الأمير بدر الدين بكتاش الفخرى .

(٢) انظر ماسبق ص ٣٨١ .

وقال ابن كثير: لما جرّد هؤلاء الأمراء المذكورون إلى غزوة سيس(١)، كان ولد قطلوشاه بأطراف بلاد الروم فى ثلاثة آلاف فارس، فأرسل إليهم صاحب سيس، وبذل لهم مالا جزيلا، وكان عنده جمع من الفرنج فاجتمعوا هم والتتار فى ستة آلاف فارس، فلما بلغ العسكر الحلبي اجتماعهم أشاروا على مقدّمهم قشتمر بالرحيل بالغنائم قبل أن يدركهم العدو، فلم يرجع إلى رأيهم وقال: أنا وَحدى ألقى هذا الجمع، ففارقه بعض الأمراء فى نحو رُبع العسكر، وساقوا تلك الليلة كلها فنجوا، وبقى بقية العسكر، فأدركهم التتار ومَن انضم إليهم من الفرنج والأرمن، فانهزم العسكر الحلبى من غير قتال، وأسر التتار منهم الأمراء الأربعة المذكورين وجماعة من الجند، وأرسلوهم إلى الأردو، وسلم قشتمر فى جماعة ووصل إلى حلب، ثم إن صاحب سيس ندم وخاف العاقبة وكتب إلى نائب حلب يبذل له الطاعة والأموال ويسأل العفو، فكاتب النائب الملك الناصر فى ذلك، فأجيب إلى سؤاله، ثم جرى ما ذكرناه الآن.

ذكر قضية جبال الكسروان:

قال ابن كثير(٢): وفيها توجهت العساكر الشامية إلى جبال الكسروان، وكان أهلها قد طغوا واشتدّت أذيتهم، وتطرقوا إلى أذى العسكر عند انهزامه فى سنة تسع وتسعين وستمائة، وتراخى الأمر وحصل الإغفال، فزاد طغيانهم وخرجوا عن الطاعة، فتوجه إليهم الشريف زين الدين بن عدنان، ثم توجه بعده تقى الدين بن تيمية، وقراقوش الظاهرى، ووعظوهم فلم يفد فيهم،

(١) لم يرد هذا الخبر فى المطبوع الذى بين أيدينا من البداية والنهاية.

(٢) لم يرد هذا الخبر فى المطبوع الذى بين أيدينا من البداية والنهاية.

فعند ذلك رسم بتجريد العساكر إليهم من كل مملكة من الممالك الشمالية ، فتوجه أقوش الأفرم من دمشق يوم الإثنين ثانى المحرم بالعساكر الشامية ، وصحبته من الرجالة نحو خمسين ألفا على ماقيل ، وتوجهوا إلى جبال الكَسروانيينَ والجُرْدِيِّين ، وطلع إليهم سيف الدين أسندمر النائب بطرابلس من أصعب المسالك ، واجتمعت عليهم العساكر من الرجال والتراكمين الأبطال ، فأبادوهم قتلا وتشتيتا فى البلاد ، وسُبيت نساؤهم ، وبيعت أولادهم ، واستخدم أسندمر المذكور منهم جماعة بطرابلس ، وانقطع أثرهم من الجبال ، وعاد العسكر إلى دمشق ، وقُتل فى هذه الوقعة الأوحد ابن الملك الزاهر ، أحد أمراء دمشق ، وعاد الناس إلى دمشق فى رابع صفر .

ذكر مَهلك قُطلُوشاه نائب خربندا ملك التتار :

قال بيبرس فى تاريخه : وفيها هلك قطلوشاه نائب قازان ، وكان قد استقر به خربندا على قاعدته ، وجرّده إلى بلاد كيلان لقتال الأكراد والغارة على تلك البلاد ، فسار إليهم ، وقد حشدوا واستعدوا ، فخرجوا للقائه ، واقتتلوا معه ، فكانت لهم النصرة وعليه الكسْرة ، فعلت كلمتهم لأنها كلمة التوحيد ، وتبدّد التتار أى تبديد ، وقُتل قطلوشاه فى الوقعة .(١)

قلتُ : وكان السبب فى تجريد خربندا نائبه قطلوشاه إلى بلاد كيلان مابلغه عنهم أنهم على مَذهب يُخالف مذهب المسلمين ، فقال : لابد لى أن أبعث إلى

(١) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٤٦ ب ، التحفة الملوكية ص ١٧٨ ؛ وانظر أيضا نهاية الأرب جـ ٢٧ ص ٤١٧ أ .

كيلان واطلب أكابرهم وأجمع بينهم وبين فقهاء تبريز، فيبحثون معهم فى عقيدتهم، فإن لم يظهر لها صحة ضربت أعناقهم ، فكتب [٣٥٢] إلى مــلوك كيلان ، وكانوا سبعة عشر ملكا ، وكبيرهم الذى يرجعــون إليه يُقال له : نُو بَرْشاه ، فلما وصل إليه رسول خربندا وناوله الكتاب وقرأه . قال : من أين لخربندا معرفة بهـذا الأمر ؟ فسألوا الرسول (١) عن ذلك . فقال : قد بلـغ الملك من الشيخ بَرَاق، وهو شيخ يعتقد فيه الملك اعتقادا عظيما بأنكم على مذهب شخص من أهل دمشق يقال له : ابن تيمية ، وقد وقـع عليه الانكار من المسلمين ، وقد ذُكر عنـكم أنكم مُجَسِّمون ، وأن مذهبكم بطال ، وما أنتم على شىء من الدين .

ولمـا سمعوا بذلك جمعوا فقهاءهم وأخبروهم بهـذا الخبر . فقالوا : أىّ من راح منا أو منكم إلى خربندا يُقتل بلا خلاف لأن فقهاءهم لا يرجعون إلينا ، فأىّ شىء يذكر لهم يردّونه ، ثم يفتون فى إباحة أرواحنا وأموالنـا . فقال نو برشاه : ما الحيلة فى ذلك ؟ فقالوا : نحن نكتب عقيدتنا ونُسَيِّرها إليهم ونقول : هذه عقيدتنا ما نعتقد بشىء غيرها . فقال لهم نو بَرشاه : افعلوا ذلك .

فخرجوا من عنده وكتبوا بعد البسملة : اعلم أيها الملك العظيم الشأن، صاحب الأقاليم والبلدان ، أنا نحن قوم منقطعون فى هذه البلاد ، وقد نقـل عنا بأنا مجسمون ، فنعوذ بالله من ذلك ، ونحن نرى بأن من يُجسِّم ماله توبة عنـدنا ، وليس حده إلا القتـل ، وأما ما ذكره المـلك من أمر حضورنا وتمثلنا بين يديه لنبحث مع الفقهاء ، فالملك لا يخفى عليه أن ضد كل أحد من جنسه ، ونحن فى هذه البلاد نَتَسبَّبُ (٢) ولا نتناول شيئا فى الجوامك ، وجميع فقهاء بلادكم أصحاب

(١) « من الرسول » — فى الأصل .

(٢) المقصود : أن لهم أعمال يتكسبون منها ، وليست لهم رواتب فى

الجوامك ، وأكثرهم يتناولونها بغير استحقاق، فنحن نرى بحرمة هذا ، بل فيهم أناس بلغنا أنهم يتناولون من المكس ومن المظالم ، فمن هـذا الوجه بيننا وبينهم نزاع ، فإذا بحثنا معهم لا يُنصفوننا ، وأما عقيدتنا فهذه ، وكانوا كتبوا عقيدة على طريقة أهل السنة والجماعة كما هي المذكورة في الكتب .

فعاد رسول خربندا بذلك ، فلما وقف عليـه ازداد غضبا فقال : لابد من إحضارهم ، فأرسل رسولا آخر ، فلما حضر قال له نُوبَرشاه : ارجع من حيث أتيت ، فمـا عندنا أحد يروح ، وأنتم قوم تتار ، فإيش تعرفون من أمور الدين ، فإن كان قصدكم خراب البلاد فافعلوا . فقال الرسول : إن لم تسمعوا كلام الملك يأتي إليكم بنفسه بعساكر المغـل جميعها ، فيخرب البـلاد ، ويسفـك الدماء ، ويسبي الحريم والأولاد . فقال له نُوبَرشاه : افعلوا ما شئتم .

فرجع الرسول وأخبر خربندا بذلك ، فغضب غضبا شديدا ، وطلب نائبه قطلوشاه وأخبره بالخبر ، ثم جمع أمراءه وأمرهم بالتجهيز ، وكان قد سَيَّر جُوبان إلى ناحية باب الحديد ، ولمـا جُمعت عساكره ولم يبق إلا الرحيل تقدم إليه وزيره رشيد الدولة وقال : أيدّ الله القان ، هذا الأمر الذي عَوّلت عليه لم يعول عليه أحد من القانات ، فهذا الذي تفعله يُخرّب بلادك ، ويضعف أجنادك ، ويجعل لك عدوّا في وَسط بلادك ، والصواب أن تبطل هذا الرأي ، فإن كان قصدك أهل كيلان فأنا أحضرهم إليك ، فقال : لابدّ لي من الدخول إلى بلادهم على كل حال ، فسكت رشيد الدولة وركب عدو الله في عساكره ، ومعه أمراء التوامين والألوف ، وكان أشدّ المغل حَنَقا على أهل كيلان قطلوشاه .

ولما نزلوا على مكان ، كان بُنى به مدينة ، فأقاموا هناك ثلاثه أيام ، وجرد عساكره [٣٥٣] فكانوا سبعين ألفا ، ثم أرسل إلى جوبان وهو فى ناحية باب الحديد وأمره أن يجوز إلى كيلان ، ويضع فيهم السيف ولا يرفعه عنهم حتى يفنيهم ، ثم هم أن يركب من هذه المنزلة تقدم إليه أمراء الأاوف وقطلوشاه معهم . فقالوا له : ياخونداش هؤلاء ؟ أوباش العجم ، حتى تذهب إليهم بنفسك وتقلّ حرمة المغل بذلك — فقال : مَن يشفينى فيهم فى هذه النوبة ؟ فقال قطلوشاه : أنا أذهب إليهم وأخرب ديارهم ، وأقتل رجالهم ، وأسوق إليك نساءهم وأولادهم ، فلما سمع بذلك خربندا قال : أخاف عليكم أن يُجرى مثل نوبة مرج الصُفَّر . فقالوا : ياخوند ليس هذا مثل ذلك ، فإن هؤلاء ناس أعجام[1] أوباش ، لاقدر لهم ولا قدرة ، ولا لهم عسكر ، فعند ذلك أمر قطلوشاه أن يأخذ أمراء التوامين ويسير ، وأوصاه أن لا يُبق على كبير ولا على صغير ، فسار قطلوشاه طالبا بلاد كيلان .

وبلغ ذلك أهل كيلان ، فوقع فيهم صائح بذلك ، وبلادهم كلها جبال وأودية ودَرْبندات وعرة ما يقدر أحد أن يسلكها إلا بمشقة عظيمة ، واجتمع أهلها مع ملوكهم وحصّنوا الدربندات ، واجتمعوا كلهم فى مكان واحد ، وكان أمر ملوكهم وغيرهم يرجع إلى ثلاثة أنفس ، وهم : نُوبَرشاه ودُوباج وزكايزن ، فتشاوروا فيما بينهم ، واتفقوا على أن يُسيّروا جواسيس ، وقالوا : إن قصدونا من رأس الدربند نزلنا إليهم ، وربما يقع الصلح بيننا وبينهم لأنه لا قدرة لنا معهم ، فسارت الجواسيس وغابوا أربعة أيام ، ثم حضروا وأخبروا أن المغل وصلت إلى رأس الدربند وهم فى جمع عظيم قد سدّوا تلك الأراضى ،

(١) هكذا بالأصل .

فحصل لهم فزع وخوف ، فقال لهم دوباج : يا قوم أنتم تعلمون أن بينى وبين قطلوشاه صحبة عظيمة ، وله عندى لباس فتوة ، فإن رأيتم أن أسيّر إليه ولدى ومعه شيء من الهدية ، ويدخل عليه ، فلعله أن يردّ هذا العسكر عنا ، ومهما أرادوا نحمل إليهم ، فاستصوبوا ذلك منه ، ثم جهز ابنه ومعه عشرة من أكابر كيلان ، ومعهم هدية سنية ، ولما وصلوا إلى رأس الدربند لاقاهم طوالع قطلوشاه . فقالوا لهم : نحن رُسُل ملوك كيلان فحملوهم إلى قطلوشاه ، فتقدم ابن دوباج وقبّل الأرض ، وقدم ما معه من الهدية ، ثم قال : إن والد المملوك يقبل الأرض بين يدى النوين ، ويذكر أن بينكم وبينه صداقة ومودة ، ويسألكم أن تكونوا سببا للصلح نظرا فى حال المساكين أهل كيلان ، وهؤلاء أكابرهم ، وقد أحضرتهم بين يديك ، فافعل فيهم ما شئت . فقام هؤلاء ودعوا له ولحربندا وتحدثوا ، فقال لهم : ما الذى تريدون؟ فقالوا : نريد أمان القان على حريمنا وأولادنا ، وكل ما يطلبه القان والنوين نحمله ، وندخل تحت ما يرسم به ، فعند ذلك ضحك قطلوشاه اللعين وقال : هيهات هيهات ، فأمر بضرب رقبة ابن دُوباج ، فضربوا رقبته ، ثم علقوا رأسه فى رقبة واحد من هؤلاء العشرة ، وكان من فقهائهم ، وقال لهم : رُوحوا فى أسرع وقت وقولوا لهم : يحضر الجميع بأولادهم ونسائهم وملوكهم حتى نحضرهم بين يدى القان ، فمن شاء قتله ومن شاء أبقاه وأخذ كل ما كان معهم ، ثم سّيبهم ، فخرجوا ولا يصدقون بالنجاة .

ولما وصلوا قصوا بقصتهم ، ولما عاين دوباج إلى رأس ابنه قامت عليه القيامة ، وحزن على ولده حزنا عظيما [٣٥٤] ووبّخ نفسه على إرساله ولده ، ثم أقسم بالله وبالنبى صلى الله عليه وسلم أنه إن مكّنه الله منهم لأنزل بهم ما يتحدث به الركبان فى كل زمان ومكان .

وكان له أخ يسمى جُوان يغير مايشاء على بلاد العجم، أشد بأسا منه والأكثر شجاعة، وكان مغرماً بتواتر الغارات على بلاد الكرج، وكان له مدة شهر غائبا فى بلاد الكرج، وكان دو باج متعلقا بسبب غيبته، وكان يتمنى أن يكون عنده ليلاقى به التتار.

وأما باقى ملوك كيلان فقد ضعفت قلوبهم، وتشاوروا فيما بينهم، وقالوا ما لنا قدرة بهؤلاء العدو، وقد عجز عنهم سلطان مصر وجيشه، فاتفقوا كلهم على النزول إلى قطلو شاه إلا اثنان منهم عارضا بذلك، هما : دو باج وزكايون، فإنهما قالا : لا سمع ولا طاعة، ولا نبدل إيماننا بكفر ونحن قط ما رأينا ولا سمعنا بعبور التتار إلى بلادنا، وعندنا سناجق الخليفة، ونحن على إيمانه وعهوده، ومن قال غير هذا ما نسمع منه، فمال إليهما أكثر أهل كيلان. وشجعان الرجال، ومن فى رأسه نخوة الإسلام، والفقهاء، والعلماء.

ولما مضى ذلك النهار وأقبل الليل ركب نوبر شاه، وأخذ أصحابه، وسار بهم يطلب قطلو شاه. ولما أصبح دو باج لم يجد إلا زكايون لا غير، والبقية راحوا إلى التتار، فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، راحت واقه البلاد منا، وصعدت أكثر الناس إلى الجبال والمواضع المنيعة، وتحصنوا فيها.

وركب دو باج وزكايون، وأخذا معهما الفقهاء وأهل بلادهما، وكان هؤلاء أصحاب البلاد الجوانية من كيلان على جانب البحر، فتشاوروا فيما بينهم. وكانوا جماعة كثيرة. وقالوا إذا كان هؤلاء قد وطنوا أنفسهم إلى الذلة فنحن ما نقدر على ذلك، وكانت لهم فى ساحل البحر مائة مركب. فنقلوا إليها أولادهم ونساءهم وما يعز عليهم من أموالهم، وأوسقوا بها المراكب. وقالوا، إذا رأينا

التتار تدخل إلى بلادنا ويملكوها ركبنا في المراكب . فاتفقوا على ذلك ، ولكن في قلب دوباج نار بسبب غيبة أخيه .

ثم سيروا كشافة إلى رؤوس الجبال ، وهم في ذلك ، فإذا أخو دوباج قد وصل ، ومعه أصحابه — ورفقته ، ومعهم غنائم كثيرة ، فلاقى أخاه ، وهو يبكي وينوح لأجل ولده ، وأظلمت الدنيا في وجهه بسبب ذلك ، وغضب على أخيه على تسييره ولده إلى قطلوشاه الكافر الظالم ،وقال : وإش هذه المراكب الموسوقة ، فأخبروه بحكايتهم ، فلما سمع بذلك ، قال : والله العظيم لقد كان في قلبي من هؤلاء الكلاب من سنة عبر قازان إلى بلاد الشام ، وقال لأخيه : وكم مرة أردت الغارة على بلادهم ، وتمضي أنت ! ويلك إذا هربنا من أعداء الله ورسوله ، فأين الإيمان ؟ وأين الإسلام ؟ ثم إنه جمع رجاله ، وكانوا سبعمائة فارس مجردين لخوض البلاد ، وكان قد جعل عليهم مقدما يسمى توكل ، رجل طويل ، عريض الهامة ، معجر الوجه (١) ، مكسر الأبدان ، عريض القلال ، وافي النيبال ، صاحب زنود عريضة ، وأعضاد قوية ، فقال له : ياتوكل خذ أصحابك وسيرهم إلى رأس الدربند ، فاكشفوا لنا خبر هؤلاء الكلاب ، ولا تنزل من مكانك وإن جاء قطلوشاه ، ثم أرسل وأعلمني بذلك ، فقال له : السمع والطاعة ، فسار من ساعته ، وثبت قلوب الناس من الغم ، وقال : كونوا مكانكم فوحدي ألتق أعداء الله ، وسوف ترون مني [٣٥٥] ومنهم العجب .

وسمعت أهل تلك البلاد بقدوم جوان شير ، فأتت الناس من جميع الجهات ثم كتب كتبا إلى جبال اللكزية والقيذية ، وكان بينه وبينهم هدنة ومصاحبة ،

---

(١) معجر الوجه : أي ممتلىء الوجه — أنظر مادة عجر — لسان العرب .

والمقصود بالصفات المذكورة بالمتن : أن هذا الرجل ضخم الجثة .

وقال لهم : هؤلاء العدو قاصدون إلينا ، وأنتم تعرفون أن آباءنا وأسلافنا قط ما أطاعوا التتار ، فإن هؤلاء قوم مايحبون إلاّ الفساد وهتك حريم الناس ، فإن تخليتم عنا أخذونا ، ثم عبروا إليكم ، ولما وقفوا على كتبه وكان مقدمهم يومئذ شخص يقال : أمير حاج ابن ناجى . قال : والله ما نقعد عن نصرة جوان شير ، فإن له علينا أيادى كثيرة .

فتجهزوا وساروا إليه فى جمع كثير ، فلاقاهم دوباج ، وأنزلوهم فى أعز مكان ، وحملوا إليهم مايحتاجون إليه من سائر الأشياء ، ثم تشاوروا فيما بينهم فى أمر العدو . فقال جوان شير : قد رأيت رأيا فلا تخالفونى فيه . فقالوا : ماهو؟ فقال : يَأخذ أمير حاج رجاله ويسير بهم ، ويُمسك لنا رأس الدربند ، فإذا رآهم وقد دخلوا الدربند يُعلمنا بذلك ، فنقوم وندور من خلفهم ونقطع الطريق عليهم ، فإذا رآنا وقد التقينا ، وكان النصر لنا ، لا يمكن أحدا من الخروج . فقال دوباج : أنت تعلم إنك تكسر هؤلاء الجيش العظيم . فقال له : إما أكسرهم أو أموت ، فلا أبالى بما يكون بعدى . فقال أمير حاج : ياجوان شير إعلم أنى ماجئت إليك بهؤلاء الرجال إلا ونحن قد بايعنا الله على أنفسنا ، فمُرْنا بما تريد . فدعى لهم جوان شير ، ثم ركب أميرها من وقته وسار بجيشه إلى الدربند ، وكان جوان شير قد أوصى له بأنه إذا رأى أنا نحن كَسَرْنا التتار لا يمكن أحدا من الخروج ، وإن رأى أنهم كسرونا يذهب هو بمن معه إلى رءوس الجبال ، ثم يذهبُ إلى بلاده .

وفى ذلك النهار وصلت إلى جوان شير أخبار من عند توكل : بأن أول العدو قد وصلوا إلى رأس الدربند ، وهم معولون على العبور ، وقد منعناهم ، فألحقوا

بنا سريعاً ، أو ترصل إلينا وتعلمنا ماذا نَفعل لأنهم خلق كثير . فلما سمع جُوان شير بذلك طلب أخاه دوباج وزكايون وقال لهما : إنى قـد عولت على أمر . فقالا : ماهو ؟ فقال : أسير إلى رأس الدربند بمن معى ، وكان معه أربعمائة رجل ، ومع التوكل ستمائة ، فأضرب مع العدو رأسا فى الدربند فى آخر النهار ، ثم أظهر لهم الإنهزام ، فيتحققون منا الإنكسار ولايتبعوننا من وجهين :

أحدهما : إقبال الليل وهجوم الظلام وهم لا يعرفون حال تلك الأرض .

والآخر : يستخفون بنا لقلتنا ويستحقرون شأننا ، ثم آخذ أنا بقية الجيش الذين عند توكل ونطلب موضع مقدمهم ، ويكون رجاله قد تفـرقوا لأجل طلب الكسب ، فآخذهم بعون الله تعالى . فقالوا له : أفعـل مابدالك . فأخذ أربعمائة فارس ، وسـار بهم تحت الظلام فى تلك الليلة وصبيحة الغـد ، وأما توكل فإنه لمـا أصبح ثار عليه غبار حتى سدّ الدربنـد وملا على عنان السماء ، ثم انكشف عن خيل قد سدّت الأرض بكثرتها وأظلمت الدنيا من غبرتها .

ولمـا رأت المغل رجال العجم تقدمت كالعقبان ، وصاح توكل على رجاله فكبروا ، وذكروا النبىّ صلى الله وسلم ، ثم حملوا ، ورشّت المغل السهام عليهـم كالمطر ، واختلطت الخيل بالخيل ، فصار النهار كالليل ، وكان مقـدم هؤلاء المغل شخص يقال له : دَمَنْدار ، فلما رأى ماحل بهم من العـجم نبه رجاله ، وصرخ [٣٥٦] فى أبطاله ، فحملت المغل حملة رجل واحد ، فبينما هم فى الحرب الشديدة ، إذ وصل من المغل تومان مـع شخص يسمّى نوين رمضان ، فرأى الحرب فى عمل عظيم ، فعند ذلك تأخرت العجم وقد كثر عليهـم الرجال ، ولمـا رأى ذلك توكل كشف رأسه وزعق : إلى أين يالشام ؟ تسلمون البلاد إلى هؤلاء الأَوْغاد ؟ أما لكم نخوة الكرام ؟ ، ثم نادى : يالدين محمد صلى الله عليه وسلّم ،

الحمل ، فعند ذلك تراجعت العجم كأنهم أسود قد خرجت من الآجام . فلله درّ توكل فى ذلك اليوم ، لقد قاتل قتالا شديدا ، مارأت الراؤون مثله ، ولا سمعت السامعون نظيره ، ولقد قاتل بستمائة فارس مع عشرين ألف فارس من أول النهار إلى آخره ، ولما أمسي الليل تأخرت المغل وخرجوا من الدَرْبَنْد ، ونزلت العجم مكانهم .

ثم افتقد توكل أصحابه ، فوجد مائة نفس عدموا ، وجُرح أكثر البقية ، فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، أفغدا لا يبقى معى أحد ، فأرسل تلك الليلة فارسا يعلم جوان شير إن لم تلحقنا لا يبقى منا أحد ، فلما علم بذلك جوان شير أسرع فى السَيْر حتى وصل إليهم فى آخر الليل ، ولما رآهم على تلك الحالة ضاق صدره إلا أنه أضمر ذلك فى نفسه ، فشرع يُثبت قلوبهم ويشجعهم .

ولما أشرق الصبح ، ركب ورفع على رأسه السناجق ، ودقت الطبول ، ونُفخ فى البُوقات ، وصاحت العجم ، ورأى الترك ذلك فعلموا أن مددًا جاء لهم ، وكان قطلوشاه قد وصل إلى رأس الدربند ، فلما رأى المغل على تلك الحالة استعجزهم فقال : إش هؤلاء العجم حتى طولتم هذا المقدار ، فقالوا : يانُوين والله لقد قاسينا منهم أمس ما قاسينا يوم مرج الصُفّر . فضحك قطلوشاه من ذلك ثم أمرهم بالحملة ، ولما رأت العجم ذلك أعلنوا بالتكبير والتهليل ، ثم حملوا وتصادموا فى وسط الدربند ، وتقدم جوان شير ، وحمل بالمغل حتى أيقنوا بالهلاك ، وخُيِّلَ لهم أن قد نزل عليهم من السماء عذاب ، ولكنهم يستطيلون لكثرتهم ، وتخبلت العجم أيضا ، فلما رأى جوان شير ذلك مزّق درعه ، ورمى خوذته عن رأسه ، وصرخ : يا لدين محمد ! إلى أين تفرون يابنى الأندال وتتركون

حريمكم وأولادكم إلى أعداء الله ورسوله ، فلله درّ فارس ما أجرأه ، وسيد بأمور الحرب ما أخبره وأدراه ، فلقد زلزل المغل عن مكانهم ، وأنزل بهـــم الويل والثبور ،ومن خلفه أولاد أخيه وهم ينادون : يالثأرات أخينا الذى قتله قطلوشاه حين راح إليه فى الرسلية لأجل الاصطلاح ، كما ذكرنا .

ولقد أخبر من حضر هـذه الوقعة أن جوان شير غير فى ذلك اليـوم عشرة أروس[1] من الخيل . وكلما رجع لأجل تغيير الفرس يتزاحم أصحابه فى الهروب إلى الخيام ، فإذا رجع هدر كالأسد فيرجع أصحابه إلى الحرب ، ففى أقل من ساعة أخرج المغل من الدربنـد ، فنظر إلى ذلك قطلوشـاه فكفر ونخر وعتى وتجـبر ، ثم حمل بمن معه وكان آخر النهار ، ولمـا رأى جوان شير ذلك ، قال لأصحابه : انقلعوا من بين أيديهم لأن الليل قد أقبل ، وأكون أنا خلفكم ، فتقلعوا وخرجوا من الدربند ، وصاحب المغل [٣٥٧] وراءهم من سائر النواحى ، وتبعوهم ، وقالوا : لو حمل قطلوشاه من أول النهار ما وقفت العجم ساعة واحدة ، وانقطع جـوان شير من خلف العجم ومعه جماعته الخواصّ ، ورأى ذلك أمير حاج بن ناجى مقدم اللكزية من رأس الدربند وقال : والله ما بقى تقوم لهم قائمة ، وروحوا بنا فى رءوس الجبال . وأما المغل فإنهم لازالوا خلف العجم إلى دخول الليل ، ورجعوا إلى قطلوشاه ، وكان نازلا فى رأس الدربند من داخل ، وقالوا له : إنا لم نزل سَعْيا وراء العجم حتى أظلم علينا الليـل ، ففرح قطلـوشاه فرحا عظيما ، وقال : إلى أين تذهبون ؟ والله لا أبقى منهم أحدا لاصغيرا ولا كبيرا .

ثم إنه بات مكانه فى تلك الليلة إلى الصباح ، فلما أصبح ركب وسار يطلب كيلان وبلادها ، فنظر إلى المدينـة وإلى رستاقها وما فيها من الأموال والخيل

(١) أروس : رأس — رؤوس — انظر المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية ص ١٢ .

والأبقار والأغنام، وكان دوباج نادى فيهم بأن يتركوا أموالهم وأولادهم ويحفلوا بأنفسهم فقط ، فلما عاين قطلوشاه ذلك قال لأصحابه : والله لقد رابنى أمر العجم ، وأخَافُ من ردهم علينا . فقالت له الأمراء: وكيف يكون ذلك ؟ فقال : لأنهم ما حصنوا أموالهم ولا أولادهم ، وأخاف أن تكون ذلك مكيدة كانوا قد دبروها حتى نشتغل وتنصرف عسكرنا ، ثم يرجعون إلينا . فضحك دَمندار وقال : أطال الله عمر النُوين ، ومن أين للأعجام هذا الفهم ؟ وهم مثل البقر السارحة ، غير أنهم أرادوا النجاة لأرواحهم وتركوا أموالهم وأولادهم، فعند ذلك تفرقت المغل فى البلاد والشعاب والأودية والتلال فى طلب الكسب ، فحاشوا أموالا لا تعد ولا تُحد ، ولم يَبق عند قطلوشاه إلّا اليسير من المغل ، والباقى تفرقوا فى طلب الكسب .

وكان جوان شير لما انكسر أرسل إلى أمير حاج بن ناجى أمير اللكزية : لا يهُولنكم ما جرى علينا ، فنحن هربنا من بين أيديهم مكرا منا وحيلة دبرناها لعل الله أن يجعل فيها دَمارهم ، فاحفظوا أنتم الدربند ، وانظروا منا العجب ، ولما سمع أمير حاج هذه الرسالة قال للرسول : والله لولا وصولك إلينا فى هذه الساعة لعولتُ على المسَير إلى بلادى .

وأما جوان شير ودوباج وزكايون فإنهم قد جمعوا العجم ، فكان فرسانهم ألفين وخمسمائة ، ومُشاتهم ثلاثين ألف راجل ، وقد بايعوا الله تعالى وتحالفوا بالله الذى لا إله إلا هو أنهم لا يُولون من بين أيدى المغل ولو يبقى واحد منهم .

ثم أن جوان شير أرسل كشّافة يكشفون الخبر فقال لهم : إذا رأيتم قطلوشاه قد وصل إلى مرج الجاموس تعالوا اعلمونى بذلك . فسارت الكشافة ، و إذا

قطلوشاه مع عسكره قد أشرفوا على المرج ، فعادوا فى الحال وأعلموا جوان شير . فقال جوان شير : الحرب خدعة فما ترون فى أمر الكبسة على هؤلاء بالليل ؟ فقالوا له : افعل ما بدالك ، فركب وركبت العساكر ، وساروا على طريق ليس فيه ديدبان قطلوشاه ، فساروا بين جبال شامخات ، وأماكن وعرات ، وآجام وغابات ، ومع ذلك هم خبيرون بتلك الأراضى لأنها أرضهم ، ثم قال لهم جوان شير : يا قوم قد قربنا منهم ولم يبق بيننا و بينهم [٣٥٨] إلا هذا الجبل ، والرأى عندى أن تنزلوا وتستريحوا ، وتُريحوا خيولكم إلى آخر الليل ، وفى وقت السحر فى الغلس نكبسهم فنزلوا .

وقال جوان شير : أنا أروحُ وأكشف هؤلاء ، فمنعوه ولم يسمع منهم ، فأخذ معه جماعة ممن يثق بهم و يتكل عليهم فى الشدائد ، وساروا وهم مُشاةٌ ، فصعدوا إلى ذلك الجبل ، ثم نزلوا إلى مرج الجاموس ، فإذا هم نازلون فيه ، وهم آمنون مطمئنون ، وخيولهم سارحة ، فدارَ جوان شير مع أصحابه حولهم . فقال : القوم نحو ثلاثين ألفا والباقى تفرقوا فى طلب الكسب ، ثم رجعوا إلى أصحابهم فقال لهم : قوموا ندهمهم قبل إسفار الصبح . فقاموا وركبوا ، وساروا غير بعيد ، فإذا بصياح من خلفهم يقول : قد دهمت الخيل من ورائنا فقال دوباج : قد عملت التتار علينا الحيلة وسبقونا إلى ما قد دبرناه . فقال لهم جوان شير : سيروا أنتم هُوينا وأنا أرجع وأكشف لكم هذا . فأطلق عنان جواده وطلب المكان الذى سمع منه الصياح ، فلما قرب منه سمع صهيل الخيل وزمجرة الفرسان وقعقعة السلاح . فقال : هذا والله عسكر لا محالة وهلكنا لا محالة . فأنصت إليهم وإذا هم يتحدثون بالعجمى و يقولون : ما نظن أن نلحق بجُوان شير لأنه

رجل مقدام على البلاء وربما يكبس الكفرة من قبل وصولنا إليه ، فناداهم جوان شير بالعجمى : من أنتم رحمكم الله ؟ فأنا جوان شير . فلما سمعوا به تسابقت إليه الفرسان وفى أوائلهم نشاوور الشُشْترى صاحب مازندران ، وهم أربعة آلاف فارس كأنهم الأسود العوابس ، وقد أتوا إلى نُصرة جوان شير ، فلما تلاقوا اعتنقوا على ظهور الخيل وساروا يطلبون دو باج وزكايون ، فتلاقوا واعتنقوا وفرحوا ولم ينزلوا ، بل ساروا من وقتهم فأشرفوا على أعداء الله وهم على الحالة التى خلّاهم جوان شير ، ولهم يزك من ناحية كيفان ففرق جوان شير أصحابه حولهم من الخيالة والرجالة ، وقال لهم : لاتخرجوا حتى تسمعوا النفير وقد ضرب ، فكل منهم يُحركَ كُوساته ويَخرجُ من مكانه ، ودَوّسُوهم بسنابك الخيول . ففعلوا مثل ما قال ، وصرخوا صَرْخةً واحدة وقالوا : الله أكبر فتح الله ونصر . قال : فنادتهم الجبال والأشجار ، فخيل للمغل بأن السموات قد انطبقت على الأرض ، وثأر قطلوشاه وقد طار فؤادُه ، ثم قال : حسبت هذا الحساب ، ونطّ على ظهر جواده ، وكان هذا الجواد لايَبرَحُ واقفا فى النَّوبة ، فلما ركب صَرخ فى مماليكه وأتباعه وقال : لاتُفارقونى وإذا هو بدَمَنْدار ورمضان نُوين وسيباوجى ونوينات المغل وأمراؤها وقد أقبلوا إلى قطلوشاه ، فلما رآهم وقد اشتد ظهره ، وقال لهم : ماذا ترون فى هذه الحيلة التى تمت علينا ؟ فقال سيباوجى : اعلم أنهم عملوا شيئا ، وما تم معهم . فقال له : وكيف العملُ ؟ فقالت الأمراء : ها نحُن قد اجتمعنا عليك والآن يلوحُ الضوء فنأخذهم على رءوس الرماح والمرُهْفات الصفاح . فقال لهم دبندار : إش هذا الكلام والله ما يصبح الصباح إلا وعسكرنا على الأرض وهم أشباح [٣٥٩] بلا أرواح . وهم فى الكلام فإذا العجم قد

صرخت كالأسود « ... »[1] فكشف جوان شير رأسه وحمل ، فحملوا معه حملة الأسود على فرائسها .

وبينما قطلوشاه فى جماعته وأصحابه ، وهو يحرضهم على القتال ، إذ هجم عليه جوان شير وضربه ضربة صادقة ، فوقعت الضربة على بيضته[2] فقدتها نصفين وقطعت أذنه ، وحافت رأسه ووجهه ، فصاح وصرخ ، وقال : أيها الفارس لاتعجل علىّ فأنا قطلوشاه ، فانتظر وأعطيك ماشئت ، فلم يلتفت إلى كلامه ، وجذبه ، وأخذه أسيرا ، وقاده حقيرا ، ووصل نشاوور إلى دمندار ، وضربه « ...... » من حديد[3] فأرماه ، وأخذه أسيرا ، ووصل دو باج إلى ابن قطلوشاه ، وهو هارب ، فقال له : إلى أين يالئيم ابن اللئيم ، فأنا الذى أقتلك لآخذ ثأرى ، وأُقر عَيْنى ، ثم أخذه أسيرا ، فعند ذلك عملوا السيوف فى المغل ، وقتلت منهم جماعة لاتحصى ، والذين هربوا وأتوا إلى الدربند فوجدوها [٣٦٠] مسدودة ، كما ذكرنا .

وكان قطلوشاه لما عبر بعساكره أخلى الدربند ، وكان أمير حاج نزل إليها فى اللكزية ، وسدوها بالأحجار والأخشاب « ..... »[4] .

وهرب جماعة من المغل ، ودخلوا الدربند ، والعجم مشغولون بالقتال والأسر ، فلحقهم نشاوور وجوان شير على مسيرة يوم ، ثم عادوا والمغل معهم أسارى فى القيود .

---

(١) يوجد عشرون سطرا مطموسة بحيث يصعب متابعة النص .

(٢) البيضة : غطاء حديد واق للرأس أشبه بالخوذة ، وتلبس على البيضة العمامة أو القلنسوة ــ صبح الأعشى جـ٢ ص ١٤٢ .

(٣) « ... » موضع كلمة غير مقروءة .

(٤) « ... » يوجد بالأصل نحو ستة أسطر مطموسة بحيث تصعب متابعة النص .

ثم احترست العجم ، وجمعوا ما حصّلوا من خيول المغـل ، وأثاثهم ، وقماشهم ، وساروا إلى أن أتوا مدينة دوباج ، وهى على « . . . . . . »[1] يقال لها ذماهى ، فالتقاهم أهل المدينة مهللين ومكبرين إلى أن دخلوا البلد ، ولما استقروا قام إليهم دوباج وهو يبكى ويصرخ بسبب ولده الذى قتله قطلوشاه ، وأرسل رأسه إليه — كما ذكرنا — فقالت له أمراء العجم : لاتبك ، فهؤلاء المغل بين يديك ، ونحن نمتثل كلامك ، فافعل بهـم ماتريد ، فقال : والله إنى أريد أن أعذبهم عذابا ماعذب به أحد فى العالم ، فقالوا له : إفعل ما تريد ، فعنـد ذلك طلب قطلوشاه والأمراء الذين كانوا معه ، وكانوا سبعين أميرا ، وطلب جماعة من اليهود المزينين ، وأمرهم بأن يقطعوا أيديهم وآذانهم وأنوفهـم ، ويحلقوا ذقونهم ، ففعلوا بهم ذلك ، ثم أركبوهم حميرا وداروا بهم فى بلادهم ، ثم أمر بعد ذلك بأن تنصب لهم خوازيق ، فلما نظر قطلوشـاه إلى ذلك عرف مايريد به وبكى وتحسّر ، ونظر إلى دوباج ، وقال له : يا أمير ارحمـنى ، فالله عليـك لاتهلكنى بهذه الخوازيق ، وأعلم بأنك ميت بعدى ، وبلادك تخرب ، فقدم إلى حبلا ، ومايضيع فىّ ، فقال له : ياكلب بن كلب ماعملت معى من الخير حتى أقدم لك جميلا ، وقـد قتلت ولدى وقطعـة كبدى . فأمر لمماليكه بأن يشيلوه فشالوه ، وهو يبكى ويقول : هل من مخبر يخبر خربندا بحالنا ، وما نحن فيه ، وأرموه على الخازوق فدخل فى دبره وخرج من ظهره .

وأقاموا أياما والعجم يأتون برجال من المغـل حيث خمسة وعشر مقشرة ، وأكثر وأقل ، ويضربون رقابهم ، فحسبوا القتلى منهم . فمات أربعون[2] ألف

(١) « . . . » موضع ثلاث كلمات غير مقروءة .

(٢) « وأربعين » فى الأصل .

نفس ، وسبعون[1] أميرا من الأمراء الكبار ، فهذا الذى جرى على هؤلاء المغل .

وأما خربندا فإنه كان نازلا على مدينته الجديدة التى بناها ، وهو ينتظر خبر قطلوشاه ساعة بساعة ، وفى بعض الأيام ركب إلى الصيد إلى ناحية الدروب . فإذا بغبار قد لاح من بعيد ، فقال : إيتونى بخبر هذا ، وأظنه من عسكرى ، فتسابقت إليه الخيل . ثم رجعوا [٣٦١] ومعهم بعض ناس من المنهزمين ، فلما رأوا خربندا أرموا أنفسهم على الأرض ، وحثوا التراب على رؤوسهم ، وعووا مثل ما تعوى الكلاب ، ونعوا لأهلهم وأصحابهم ، ثم احكوا[2] لخربندا بما جرى عليهم مفصلا . فقال خربندا : ما فعل قطلوشاه ؟ فقالوا : ما نعلم إلا أنهم تبعونا إلى الدربند ، وكانوا قد مسكوا الدربند ، فقاتل قطلوشاه بمن معه وهم مشاة ، والظاهر أنهم أخذوا أسرى .

ولما سمع بذلك خربندا ألوى رأس فرسه ورجع ، وبات تلك الليلة بأشر بيات ، ولما أصبح أرسل كشافة إلى رأس الدروب ليستصحوا الأخبار ، ورحل هو طالبا مدينة تبريز ، ثم بعد مدة رجعت كشافته وأخبروا بما جرى على عسكره ، وما فعلوا بقطلوشاه وبقية الأمراء ، ولما سمع بذلك خربندا طار فؤاده وخرج من عقله من الغضب والقهر ، وكان فى ذلك الوقت الشيخ براق حاضرا وهو الذى كانت هذه الفتنة من تحت رأسه . وكان بينه وبين قطلوشاه مودة عظيمة . فقال لخربندا : لا تحمل الهم فأنا أسير إلى بلاد كيلان فأحضر بقطلوشاه

(١) « وسبعين » فى الأصل .

(٢) هكذا بالأصل .

ومن معه ، وكان يعتقد أنهم أحياء ، فقال له خربندا : افعل بما تريد ، فركب الشيخ براق وسار طالبا كيلان .

وأما خربندا فإنه انقطع عن الركوب سبعة أيام ، فلما رأت المغل ذلك خافوا أن يطمع أعداؤه فى الملك ، فقالو لجوبان نائب أبى سعيد : هذه التى فعلها الملك ما هى عادة الملوك فإنه قوى يورى الناس الضعف ، وهذا نقص فى حقه ، فقال لهم جوبان : اليوم أركب إليه وأتحدث معه فى هذا الأمر ، فقام وركب ، وجاء إلى باب خربندا وطلب العبور ، فمنعوه ، ثم قال لبعض الخدام : اعبر وقل للملك إن جوبان على الباب يريد أن يتحدث مع الملك من باب النصيحة ، فدخل الخادم واستأذن له ، فأذن ، فدخل جوبان وقبّل الأرض ودعا له ، فقال له خربندا : ما معك من النصيحة ؟ فقال له : أيداك الملك ، الملوك يورون[1] الناسَ القوةَ عند الضعف لأجل حرمة المملكة ، وأنت تُورى الضعف عند القوة ، فلا تحمل هذا الهم على قلبك ، فرجالك أجواد ، وليوثك أفراد ، وسيوفك حداد ، ويُخشى أن يسمع الملك الناصر صاحب مصر فيطمع فيك وفى مملكتك ، فقال له : يا جوبان كيف لا أحمل الهم وقطلوشاه وسبعون أميرا فى الأسر وأكثر عسكرى قد فنى ، فقال يا مولانا : أمّا أمْر الأجناد هين ، فإن المغل او باتت عند نسائها ليلة واحدة لجابت النساء أكثر من ذلك ، ولم يزل عليه جوبان حتى أمر بشد الخيل للصيد ، فركب وركبت معه الأمراء وسار يطلب الصيد .

وأما الشيخ براق فإنه وصل إلى دربند كيلان ، فمسكه اللكزية الذين يحفظون الدربند ، وأتوا به الى دوباج ، فلما مثل بين يديه سلم عليه ، فقال له دوباج :

(١) المقصود : يظهرون .

انت براق . فقال : نعم ، فأمره بالجاوس ، فجلس وكان قد بلغه منه أنه هـو الذى حرض المغل على الدخول إلى بلادهم ، ثم قال دوباج : الحمد لله الذى أتى بك ياشيخ براق من غير تعب ، فوالله لقد كان فى قلبى نار من جهتك ، ثم قال له : لماذا أتيت فى هذا الوقت ؟ فقال له : اعلم أن سلطان البلاد ، [٣٦٢] ومالك رقاب العباد خربندا قد سيرنى إليكم ناصحا ، لما علم أنى صادق ، وكلامى للحق موافق ، وهو يأمركم أن تحلوا قطلوشاه ومن معه من الأمراء وتبعثوا إليه ما عليكم من الأموال ، وأن ترجعوا عما تعتقدون من مذهب المجسمة ، وتعتقدوا بما قاله الأشعرى ، وإلا سار إليكم بعساكر تضيق لها الأرض .

فلما سمع دوباج بذلك قال له : أنت يا براق ما جئت إلا فى هذا الأمر ، قال : نعم . فقال له : فكأنك تحب قطلوشاه . فقال : نعم ، لأنه أخى وصاحبى . فقال له يا فقير : وأين الإسلام الذى عندك إذا كان مثل هـذا أخوك ؟ واش هذه الحالة التى أنت عليها ؟ محلوق الذقن والرأس وقد خليت شواربك كأنك شيطان ، اش هذا الذى تعتقده من الأديان ؟ اليومَ أُخلى منك الأوطان ، وافجع فيك أصحابك والخلان ، ثم قال : ردوه إلى أخيه قطلوشاه فإنه يحبه ، فأخذوه وجاءوا به إلى قطلوشاه وهـو قاعد على الخازوق ، وهو ميت قديد ، فلما رآه على هـذه الهيئة بكى وصاح ، ثم نظر فإذا هم قـد نصبوا خازوقا مثله بجنب قطلوشاه . فقال لهم : ما هذا ؟ قالوا له : هذا مجلسك الذى أُمِرْنا بأن نُجلسك عليه (١) . فقال : يا قوم لا تفعلوا فما أظن دوباج يفعل بهذا لأنه صاحب دين ويقين صادق ، وهـو صالح من الصالحين . فقالوا له : لا تطول هـذا

(١) هكذا بالأصل .

الكلام ، فلابد لك من الجلوس على هذه الخشبة، ونصبوا مع خشبته ثلاثين خشبة لأصحابه ، وأقعدوا جميعهم على الخوازيق ، ولم يتركوا منهم إلا واحدا من غلمانهم ليروح بالخبر، ثم قطعوا أنفه وأذنيه، وقالوا له : اذهب واعلم خربندا بالذى رأيت ، فسار وهو ذليل حقير حتى وصل إلى جوبان ، فلما رآه جوبان على هذه الهيئة قام ودخل على خربندا .

وكان خربندا ينتظر قدوم الشيخ براق . فقال له يا مولاى : قد جاء واحد من أصحاب الشيخ براق ،وهو مقطوع الأذنين والأنف ومحلوق الذقن والشنبات ، فقال : أتونى به ، فلما دخلوا به عليه أرمى روحه على الأرض ، وبكى وانتحب ، ونعى الشيخ براق ، فقال خربندا : ويلك حدثنى ما جرى لكم ، فحدثه بجميع ما جرى ، وأنه رأى قطلوشاه ومن معه من الأمراء قاعدين على الخوازيق وهم أموات صاروا قديدا ، فلما سمع خربندا بذلك أرمى روحه على الأرض من سريره ، وبكى حتى غشى عليه لأجل براق وقطلوشاه والأمراء الذين معه ، ثم قال ، كيف هان عليهم عملوا هذا بالشيخ الصالح ، ثم قال : والله يا أمراء لقد حملت هما على الشيخ براق أكثر من همى على قطلوشاه وعسكرى ، ثم نادى بالتجهيز إلى كيلان ويكون البيكار ثلاث سنين إما تفنى المغل أو تخرب كيلان ، ثم إنه فتح الخزائن وأنفق الأموال ، وسنذكر ما جرى بعد ذلك .

واعلم أن قضية الشيخ براق مع أهل كيلان إنما كانت بعد سنة ست وسبعمائة[1] ، لأن المؤرخين ذكروا قدوم الشيخ براق إلى الشام فى سنة ست وسبعمائة على ما سنذكره إن شاء الله ، وإنما ذكرناها فى هذه السنة قصدا لسوق ما جرى

---

(١) قتل براق سنة ٧٠٧ هـ / ١٣٠٧ م — انظر مصادر ترجمته فيما يلى ق

لأهل كيلان مع عسكر خربندا على تمامها وكما لها من غير فصل [٣٦٣] بأجنبى .

ذكر ترجمة الشيخ براق (١) :

كان أصله روميا من بعض قرى توقات (٢) ، وكان يمشى وفى صحبته مائة فقير كلهم محلوقة اللحى وقد وفروا شواربهم ، عكس ما وردت به السنة ، وعلى رؤوسهم قرون لبابيد ، ومعهم أجراس وكعاب وجواكين (٣) خشب ، وكانت له منزلة عند قازان ، وذلك أنه سلط عليه نمرا ، فزجره فانهزم منه ، فحظى عنده ، وصارت له مكانة ، وأعطاه فى يوم ثلاثين ألفا ففرقها كلها ، ومن طريقة أصحابه أنهم لايقطعون الصلاة ، ومن ترك صلاة ضربوه أربعين جلدة ، وكان الشيخ براق يزعم أنه إنما سلك هذا الزى ليخرب به على نفسه ، ويرى أنه فى زى المسخرة ، وإنما المقصود الباطن ونحن إنما نحكم بالظاهر ، والله متولى السرائر .

وقال صاحب النزهة : كان الشيخ براق شيئا عجيبا ، قد حلق ذقنه وترك شواربه ، وعمل على رأسه من اللباد على صفة قرون البقر ، وعلق فى رقبته أجراسا

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٣ ص ٢٤٧ رقم ٦٤٥ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٦٩ ، الوافى جـ ١٠ ص ١٠٦ رقم ٤٥٦٣ ، السلوك جـ ٢ ص ٨ ق ١ — ٢٩ كنز الدرر جـ ٩ ص ١٥٠ .

(٢) توقات — دوقات ، بلدة فى أرض الروم بين قونية وصيواس — معجم البلدان .

(٣) الجوكان : المحجن أو الصولجان الذى تضرب به الكرة — صبح الأعشى جـ ٥ ص ٤٥٨ .

وكهاب الأبقار والأغنام ، وفى رقبته سلاسل الحديد ، وهو جبّار من الجبابرة ، ومعه مائتا نفس بهذه الصفة .

قال : وهؤلاء الذين يأكلون الحرام ، وأكثرهم ما يصومون شهر رمضان ، وقد جعل بُراق له منهم نائبا وقاضيا ووزيرا وحاجبا ومحتسبا وسلحدارية ، وله طبلخاناة ، وكان كلامُه مقبولا عند التتار ، وأمرُه مسموعا نافذا خصوصا عند الملك خربندا ، وكان يقال عند التتار إنه يركب السباع ، ولما قتل فى بلاد كيلان على ما ذكرنا كان عمره ما ينيف على أربعين سنة .

ذكرُ بقيّة الحوادث :

منها ما قال ابن كثير : وفى يوم السبت تاسع جمادى الأولى حضر جماعة كثيرة من الفقراء الأحمدية الرفاعية[1] إلى نائب السلطنة بالقصر بدمشق ، وحضر ابن تيمية ، فسألوا من النائب بحضرة الأمراء أن يكفّ تقى الدين إنكاره عليهم وأن يُسلم لهم حالهم ، فقال [لهم الشيخ][2] : هذا لا يمكن ولابد لكل أحد أن يدخل تحت الشريعة[3] قولا وفعلا ، ومن خرج عنها وجب الإنكار عليه على كل أحد ، فأرادوا أن يفعلوا أشياء من الأحوال التى يتعاطونها فى سماعهم ، فذكر الشيخ أن هذا كله من باب الحيل والبُهتان ، ومن أراد منكم أن يدخل النار فليدخل الحمام وليغسل جسده غسلا جيدا ويدلكه بالخل ، ثم يدخل النار إن كان صادقا ، ولو فرض أن أحدا من أهل البدعة دخل النار ، فإنه لا يدل على

(١) « الرفاعية » ساقط من البداية والنهاية .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح من البداية والنهاية .

(٣) « تحت الكتاب والسنة » — فى البداية والنهاية .

صلاحه ، بل هذا من الأحوال الدجالية المخالفة للشريعة المحمدية إذا كان صاحبها على غير الطريقة السُنية (١) ، فابتدر شيخ المُنَيبع الشيخ صالح وقال : نحن أحوالنا تنفق عند التتار ما تنفق عند الشرع ، فضبط عليه هذه الكلمة الأمراء والحاضرون ، وكثر الإنكار عليهم من كل أحد ، ثم اتفق الحال على أنهم يخلعون الأطواق الحديد [من رقابهم] (٢) ، وأن من خرج منهم عن السنة ضُربت عنقه ، وصنف ابن تيمية جزءا لطيفا فى طريقة الأحمدية وأصل مسلكهم ، وما فى ذلك من مقبول ومردود بالشرع (٣) .

ومنها ما ذكره ابن كثير أيضا : أن فى خامس رمضان يوم الإثنين جاء كتاب من الأبواب السلطانية [٣٦٤] وفيه الكشف عما كان وقع للشيخ ابن تيمية « بسبب فُتيا الطلاق » (٤) ، وأن يُحمل إلى مصر ، وكذلك نجم الدين بن صَصْرَى ، فتوجها على البريد يوم الإثنين ثانى عشر رمضان ، وكان دخول تقى الدين إلى غزة يوم السبت ، فعمل فيها مجلسا بجامعها ، ودخلا معا إلى القاهرة يوم الإثنين الثانى والعشرين من رمضان ، وعُقد لابن تيمية مجلس بالقلعة ، وأراد أن يتكلم فلم يُمكن على عادته ، وحُبس ببرج هناك أياما ، ثم نقل إلى الجُبّ ليلة عيد الفطر هو وأخواه زين الدين وشرف الدين (٥) .

(١) « إذا كان صاحبها على السنة » — فى البداية والنهاية .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح من البداية والنهاية .

(٣) البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٣٦ .

(٤) « فى أيام جاغان » فى البداية والنهاية .

(٥) هذا الخبر ملخصا عما ورد فى البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٣٧ — ٣٨ .

وأما ابن صَصْرَى فإنه أكرم وجُدِّد له توقيع بالقضاء، وخُلع عليه ، وجاء بعده كتاب إلى دمشق فيه الحط على ابن تيمية ومخالفته فى العقيدة، وأن يُنَادى بذلك فى البلاد الشامية، وألزم أهل مذهبه مخالفته ، وكذلك وقع بمصر بجُاه الجاشنكير والشيخ نصر [المنبجى] (١) ، وساعدهم طائفة كثيرة من الفقهاء ، وجرت فتن منتشرة ، وحصل للحنابلة بمصر إهانة كثيرة جدا ، وكان قاضيهم كثير العقل ، كثير العلم ، وهو شرف الدين الحرانى ، ولولاه (٢) نال أصحابه أذى كثير ، فلطف الله بهم إذ كان هو قاضيهم (٣) .

وقال بيبرس فى تاريخه : استدعى الشيخ تقى الدين احمد بن تيمية الحنبلى من دمشق لأمور نقلت عنه ، وعُقد له مجلس بحضور الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير والأمير سيف الدين سلار والقضاة وغيرهم ، واقتضى الحال اعتقاله مدة ، ثم خُلّى سبيله أياما ، ثم ردّ إلى السجن (٤) .

ومنها : أن أبا سعيد ابن عم محمد بن الأحمر — صاحب مالقه — أخذ مدينة سَبتة بالأندلس ، وكانت فى يد شخص من أهل الأندلس يسمى العَسْفى ، كان أولا ينوب فيها عن الموحدين ، فخلع طاعتهم لما وهت مملكتهم واستبدّ بها وانتمى إلى المَرِينى إذ كان أشدّ شوكة وأكثر جماعة ، وجعل له جعالة يحملها إليه كل سنة ، فاتفق بينه وبين شخص يسمى ابن زيد مستحفظ القلعة [التى بسبتة] (٥)

(١) [ ] إضافة للتوضيح من البداية والنهاية ج
(٢) « ولولا هو » — فى الأصل .
(٣) هذا الخبر ملخصا عما ورد فى البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٣٨ .
(٤) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٤٧ أ .
(٥) [ ] إضافة من زبدة الفكرة حيث نقل العينى هذا الخبر .

شيئا ، ووقع بينهما واقع ، فكاتب ابن زيد صاحب مالقه وهو ابن عم الأحمر يستدعيه ليسلم له قلعة سبتة ، فعزم على التوجه إليه وخشى من ظهور أمره واتصال خبره بالعسفى فيحتاط لنفسه ، فلا يبلغ منه مراما ، فأعمل الحيلة ، وورى بقصد طنجة ، وكتب إلى العسفى بسببه يقول له : إن أهل طنجة قد كاتبونى وقرروا الأمر معى أن يسلموها إلى على أن أوجه إليهم بأربعين ألف دينار وأسير إليهم(1) وأتسلمها ، وقصدت أن تكون لى مساعدا بأمرين : —

أحدهما : أن تسعفنى ببعض المال .

والثانى : أن أجعل عبورى على سبتة وتسير جفانى — يعنى المراكب — من تحتها ليخفى على من بطنجة أمرنا ، فنأتيهم بغتة فنظفر بالبغية .

فمشت هذه الخدعة على صاحب سبتة ، وظن المكيدة حقا ، وسار أبو سعيد على الأثر بجفانه وأنصاره وأعوانه إلى نحو سبتة ، فلما رأى النواظير والأحراس مراكبه مقبلة أخبروا صاحب سبتة . فقال : لا بأس عليكم منه ، فإن له مقصدا هو قاصده ، [٣٦٥] فلما جن الليل طرق البلد على غفلة ، وتسلم القلعة من مستحفظها من أول وهلة [واحتلها(2)] ، وانبسط فى البلد ، هو ومن معه ، فأخذها ، وأسر أولاد العسفى ، وساقهم إلى غرناطة فى الأسر ، واستولى على سبتة بكيده ، وبقيت فى يده وأيده(3) .

(1) « نحوهم » فى زبدة الفكرة .

(2) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(3) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٤٧ أ — ٢٤٨ أ .

ومنها : أنه فى رمضان جاء كتاب من مقدم الخدام بالمشهد النبوى يستأذن السلطان فى بيع طائفة من قناديل الحرم النبوى ، ففيها قنديلان من ذهب زنتهما ألف دينار ، وأن يصرف ذلك فى بنـاء مئذنة[1] عند باب السلام ، الذى عنده المطهرة ، فرسم بذلك ، وشرع فى بنائها[2] ، وولى خطيبها سراج الدين عمر قضاءها « مع الخطابة بدمشق ، ذلك على الروافض[3] » .

ومنها : أن فى هذه السنة اختلفت السوقة والعامة فى أخذ الفلوس المصكوكة عددا ، وقرروا أمرها وزنا ، وقطع سعرها — بدرهمين ونصف — الرطل ، واستمرت على ذلك .

ومنها : أن فى شهر رجب قرأ الشيـخ جمال الدين المزى فصلا فى الرد على الجهمية من كتاب أفعال البخارى[4] تحت [قبة[5]] النسر[6] ، فغضب بعض الفقهاء الحاضرين وقالوا : نحن المقصودون بهذا التكفير ، وسعوا به إلى قاضى القضاة ابن صصرى ، فأحضره إلىّ بين يديه ورسم بحبسه ، فبلغ ذلك الشيخ ابن تيمية فقام حافيا وأصحابه خلفه إلى الحبس فأخرجه منه ، وطلع القاضى إلى النائب ، وطلع الشيخ تقى الدين ، فالتقوا[7] عند النائب ، وتخاصما ، فأسقط تقى الدين على القاضى ،

---

(١) « مأذنة » فى الأصل .

(٢) البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٣٨ .

(٣) « » هكذا بالأصل .

(٤) « أفعال العباد للبخارى » فى البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٣٧ .

(٥) [ ] إضافة للتوضيح من البداية والنهاية .

(٦) « بعد قراءة ميعاد البخارى بسبب الاستسقاء » — فى البداية والنهاية .

(٧) هكذا بالأصل .

وذكر نائبه جلال الدين ، وأنه آذى أصحابه بسبب غيبة ملك الأمراء ، فأمر ملك الأمراء أن يُنادى فى المدينة : من تكلم فى العقائد حلَّ قتله ، ونهبت داره . وكان قصد الأمراء تسكين الفتنة .

ومنها فى رجب[1] طلبوا القضاة والمفتين والفقهاء والشيخ تقى الدين بن تيمية إلى حضرة نائب دمشق ، بالقصر الأبلق ، فلما اجتمعوا عنده سأل الشيخ تقى الدين عن عقيدته ، فأملى شيئا منها ، ثم أحضر عقيدته : الواسطية ، وقُرئت فى المجلس ، وبُحث فيها ، وبقى مواضع أخر أخرت لمجلس آخر ، ثم اجتمعوا يوم الجمعة الثانى عشر من رجب ، وحضر المجلس أيضا الشيخ صدر الدين الهندى ، وبحثوا معه ، وسألوه عن مواضع ، وجعل الشيخ صدر الدين يتكلم معه ، ثم رجعوا عنه ، واتفقوا على [أن[2]] الشيخ كمال الدين ابن الزملكانى يحافقه ، ورضوا بذلك ، وانفصل الحال أن الشيخ تقى الدين أشهد على نفسه الحاضرين أنه شافعى المذهب ، يعتقد ما يعتقده الإمام الشافعى ، رضى الله عنه ، نرضى منه بهذا القول وانصرفوا ، وبعد ذلك حصل من أصحاب الشيخ تقى الدين كلام ، وقالوا : ظهر الحق مع شيخنا ، فأُحضر واحد منهم إلى القاضى جلال الدين القزوينى ، وأمر بتعزيزه ، فشفع فيه ، وكذلك فعل القاضى الحنفى باثنين من أصحابه .

---

(١) « ثامن شهر رجب الفرد » — فى كنز الدرر جـ ٩ ص ١٣٣ .

(٢) [ ] إضافة تتفق وسياق الكلام — انظر البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٣٦ .

ومنها : أن الله تعالى أغاث الشام بالأمطار ، ووقع الرخاء ، وكان عاليا .

وفيها انتهت زيادة النيل إلى ستة عشر ذراعا وأثنى عشر أصبعا .

وفيها حج بالناس حسام الدين لاجين الجاشنكير المنصورى ، أميرا على الركب المصرى ، وكان على الركب الشامى (٣٦٦) الأمير شرف الدين حسين ابن حيدر .

ذكر من توفى فيها من الاعيان

الشيخ عيسى[(١)] بن الشيخ القدوة الكبير سيف الدين رجيحي بن سابق بن الشيخ يونس[(٢)].

توفى فى هذه السنة ، ودفن بزاويتهم التى بالشرف الأعلى ، غربى الورافة المطلة على الميدان الأخضر . وكانت وفاته يوم الثلاثاء سابع عشر المحرم منها .

الخطيب شرف الدين أبو العباس أحمد بن[(٣)] إبراهيم بن سباع بن ضياء الفزارى المقرىء ، النحوى ، المحدث ، شيخ الشافعية .

ولد سنة ثلاثين وستمائة ، وسمع الحديث الكثير ، وانتفع على المشايخ فى ذلك العصر كابن الصلاح ، والسخاوى ، وغيرهما ، وتفقه ، وأفتى ، وناظر ، وبرع وساد أقرانه ، وكان أستاذا فى العربية ، واللغة ، والقراءات ، وإيراد الأحاديث النبوية . مات عشية الأربعاء تاسع شوال عن خمس وسبعين سنة ،

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٨ رقم ١٧٨٩ ، جـ ٧ ، الدرر جـ ٣ ص ٣٧٩ رقم ٣١٠٧ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٣٩ .

(٢) ورد : « عيسى بن أرحجى » فى الدرر ، و « عيسى بن الشيخ سيف الدين الرجبى » فى البداية والنهاية .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ١٧٠ ، البداية والنهاية جـ ١٤ رقم ٣٩ ، تالى كتاب وفيات الأعيان ص ٤١ رقم ١٢ ، الدرر جـ ١ ص ٩٥ رقم ٢٤ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢١٧ ، شذرات الذهب جـ ٦ ص ١٢ ، الدارس جـ ١ ص ١١٩ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٧١ ،

ودفن عند أبيه وأخيه العلامة الشيخ تاج الدين عبد الرحمن[1] بباب الصغير[2]، وولى الخطابة بعده ابن أخيه العلامة برهان الدين[3] شيخ الشيخ ابن كثير.

ورثاه الشيخ شمس الدين بن الصائغ بقوله :

لا تطمعى ياعين فى الإغفاء ... وثقى بسهد دائم وبكاء
فلقد بُليت بصدمة مامثلها ... صبرى عدمت بها وعزّ عزائى
مالى وما للنائبات فقد رمت ... قلبى بأنواع من البرحاء
يا ليلة حققت فيها ما جرى ... كم بتّ تبكى بليلة ليلاء
قالوا خطيب المسلمين أصيب فى ... عليائه فقضى بسهم قضاء
فوجمت فى السر الفسيح تألما ... حتى حسبت بضيقة النداء
وترنم الحادى فقلت له : انشد ... فالحزنُ قدّامى وكان ورائى
أفلت نجوم المجد بعد طلوعها ... وخبت بروق العلم بعد ضياء
وتوقدت شمس النهار تأسفا ... وأصيبت السراء بالضراء
« . . . . »[4] ... وبكى الرجاء سائر الأرجاء
وجدوا على الشيخ الإمام أخى العلمـ ... ـاء قطب الأئمة سيد العلماء
من للمنابر عند مجتمع الورى ... لعظيمة يا فارس الخطباء

(١) هو : عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع الفزارى الشافعى ، تاج الدين أبو محمد ، المتوفى سنة ٦٩٠ هـ/ ١٢٩١م — المنهل الصافى جـ٧ ، تذكرة النبيه جـ١ ص ١٤٣ .

(٢) باب الصغير : بدمشق .

(٣) هو : إبراهيم بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن سباع الفزارى ، برهان الدين ، المتوفى سنة ٧٢٩ هـ / ١٣٢٨م — المنهل الصافى جـ١ ص ٩٩ رقم ٤٥ .

(٤) هذه الشطرة والبيت التالى مطموس فى الأصل .

وهى قصيدة طويلة .

الصدر علاء الدين على بن[(١)] معالى الأنصارى الحرانى الحاسب ، يعرف بابن الوزير .

كان فاضلا ، بارعا فى صناعة الحساب[(٢)] ، وانتفع به جماعة . وكانت وفاته فى أواخر صفر[(٣)] منها فجأة ، ودفن بقاسيون .

الشريف الرئيس الصدر عماد الدين يحيى بن[(٤)] أحمد بن يوسف بن السراج الحنفى ، المعروف بالبصراوى ، ناظر ديوان الأشراف .

كان من أعيان الأشراف ، دينا ، صالحا ، ورعا ، من أهل السنة ، وكان على ذهنه طرف جيد من التاريخ والمحاضرات ، كثير المحفوظ ، وكان أمينا [٣٦٧] فى مباشرته ، باشر ديوان الأشراف نحو خمسين سنة ، مات بدمشق ، ودفن بمقابر الصوفية .

الأديب الفاضل بدر الدين محمد[(٥)] بن عبد الله ، المعروف بابن البابا ، المغزى الشاعر .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ ٣ ص ٢٠٧ رقم ٢٩٢٠ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٣٩ .

(٢) ويقول ابن كثير ، ولقد أخذت الحساب من الحاضرى عن علاء الدين الطيورى عنه » — البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٣٩ .

(٣) « توفى فى آخر هذه السنة » — فى البداية والنهاية .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ ٥ ص ١٨٨ رقم ٤٩٩٩ .

(٥) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ١٧١ ، الدرر جـ ٤ ص ٨٦ رقم ٣٧٧٤ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٧٠ .

وكان قد توجه من دمشق إلى طرابلس ، إلى نائبها الأمير سيف الدين أسندمر ومدحه بقصيدة فأدركه أجله ، فمات بها ، ومن شعره :

لاح مثل الهلال وهو منيرُ وانثنى كالقضيب وهو نضيرُ
رشا فاتن اللحاظ كحيل الطرف ساجى الجفون أحور غرير
بابلى الألفاظ حلو لما بابلى اللحاظ فيها فتور
يتهادى مثل «....»(1) ولم لا وهو من ريق ثغره مخمورُ
فهو للأحباء روض أنيق وهو للثم جنة وحرير
شفنى خده وناهيك خدّ وسبانى عذاره المُستدير
وسقانى من ريقه العذب كأسا كالحُميا مزاجُها كافور
بشفاه مثل العقيق وثغر لؤلؤى كأنه بلورُ

وهى طويلة .

الشيخ الصالح تقى الدين حسين بن(2) صدقة بن بدران الموصلى .

كان رجلا صالحا ، خيرا، على قدم التجريد لا يملك شيئا ، وربما بقى أياما لا يحصل له ما يأكله وهو صابر لا يسأل أحدا ، وعنده فضيلة .

وله شعر ، فمنه قوله-فى مجد الدين يوسف بن القهافى وكان بديع الحسن ، وقد رآه يشتغل فى النحو على شيخه النور المصرى :

يحق لقلبى لا يقر قراره إذا بانَ مَنْ أهوى وشط مزارة(3)

(١) «....» كلمة غير مقروءة .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ ٢ ص ١٤٣ رقم ١٥٩١ .

(٣) وردت هذه الفقرة هكذا « إذا صد من يهوى وعز اصطباره» — فى الدرر جـ ٢ ص ١٤٣ .

فيا عذّلى لا تُنْـكِروا فَرْط ذِلّتى ... فَـذُلُّ المعـنَّى للحبيب فخارُه

تمرّ ليالى الصبر شـوقا وحسرة ... وتفنى بمـا قاساه ليـلا نهـارُه

بليتُ بمن لا يعرف العطف قلبُه ... كذلك قلبى ليس تخمـد نارُه

فيا مُنيتى رفقا بمن عيـل صبرُه ... غدا نازحاً عنـه وشـط مزارُه

وصـله فإنّ الهجـر راح بعمره ... فحتى متى هـذا الغرام حوارُه

ولم أنس يوماً فيه شاهدتُ يوسفُ ... كبدر على غصن زهاه اخضراره

فحاولت أخفى الغرام فلَم أطِق ... وقام بعـذرى فى هواه عذارُه

فكن أيّها المصرىُّ يا أفصح الورى ... سجيا بعـلم النحو فهو اختيارُه

وعلمه باب العطف[1] كيا يرّق لى ... و يحنو فقـد أودى بقلبى نفارُه

وعرّفه معنى الوصل فى شرح درسه ... جعلت جوارا للـذى عزّ جاره[2]

القـاضى شمس الدين محمـد بن محمـد[3] بن بهرام الشافعى ، خطيب حلب ، المعروف بالدمشقى .

باشر نيابة الحكم بدمشق عن قاضى القضاة بهـاء الدين بن زكى ، وتولى قضاء القضاة بحلب ، وكان دينا صالحا ورعا ، [٣٦٨] مات بحلب فى مستهل

(١) « بأن » ــ فى الدرر .

(٢) ورد فى الدرر :

« وعلمـه بأن للعطف كيا يرق لى ... جعلت جوارا الذى عزّ جاره » .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ١٥٥ ، ١٧١ ، الدرر ج ٤ ص ٢٨٩ رقم ٤٣٢٣ ، الوافى ج ١ ص ٢٠٩ رقم ١٣٥ ، شذرات الذهب ج ٦ ص ١٣ ، تذكرة النبيه ج ١ ص ٢٤٢ ، النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٢٠ .

جمادى الأولى منها وقد بلغ الثمانين[1] .

القاضى مجد الدين سالم[2] بن أبى الهيجاء بن حميد الأذرعى ، قاضى نابلس .

أقام قاضيا بها مدة أربعين سنة[3] ، وعزل عنها فى آخر عمره ، فحمله أولاده على التوجه إلى الديار المصرية للتسبب فأدركه أجله هناك ، ومات فى ثانى عشر صفر ، ودفن بمقابر باب النصر ، رحمه الله .

الشيخ شمس الدين محمد بن الشيخ عماد الدين أحمد بن العماد إبراهيم بن عبد الواحد بن على بن سرور المقدسى .

مات بدمشق بالمارستان الصغير ، ودفن بقاسيون ، كان شيخا كبيرا ، كثير الصلاة والذكر ، صحب الفقراء طول عمره ، وروى عن أبى مسلمة ، والمرسى ، وغيرهما .

الملك الأوحد تقى الدين شادى[4] بن الملك الزاهر مجير الدين داود بن الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه بن شادى ابن مروان .

(١) « مولده سنة خمس وعشرين وستمائة » ـ تذكرة النبيه .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ ٢ ص ٢١٨ رقم ١٧٧٦ .

(٣) « ناب فى الحكم بدمشق نحوا من أربعين سنة » ـ فى الدرر .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ١٧٠ ، المنهل الصافى ، نهاية الارب (مخطوط) جـ ٣٠ ورقة ٣٨ ، الدرر جـ ٢ ص ٢٨١ رقم ١٩٢٠ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٧٠ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢١٩ ـ ٢٢٠ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٣٩ .

مات بقرية من عمل الجرد، وحُمل منها إلى الصالحية فدفن بتربة والده بسفح قاسيون ، وكان أحد الأمراء بدمشق ، معظما فى الدولة ،وكان لديه فضيلة وخبرة بالأمور ، ومولده سنة ثمان وأربعين وستمائة ، وكانت وفاته فى ثانى صفر منها آخر نهار الأربعاء .

فصل فيما وقع من الحوادث
في السَّنة السَّادسة بعد السبعمائة (*)

استهلت هذه السنة : والخليفة : المستكفي بالله العباسي .

وسلطان البلاد المصرية والشامية : الملك الناصر محمد بن قلاون ، ونواب مصر والشام وقضاتها هم المذكورون في التي قبلها .

والشيخ تقي الدين بن تيمية مسجونٌ بالجُبِّ في قلعة الجبل .

ذكر من قدم من الرُّسل وغيرهم :

وفيها : عادت الرسل السلطانية من عند طقطا(1) ملك التتار وهم : الأمير سيف الدين بلبان الصرخدي ، وسيف الدين بلبان الحكمي(2) ، وفخر الدين [إياز](3) أمير آخور الشمسي ، وصحبتُهم رسول اسمُه نامُون من جهة الملك المذكور ، فبُولغ في إكرامه ، وأعيد بجواب لرسالته ، وجُهِّز معه شمس الدين بكمش الخزنداري رسولا ، وفخر الدين إياز أمير آخور الشمسي .

(*) يوافق أولها يوم الأربعاء ١٣ يولية ١٣٠٦ م .

(١) « طقطاى » ــ في السلوك جـ ٢ ص ٢٧ .

(٢) « الحكيمي » ــ في التحفة الملوكية ص ١٨٥ ، وهو تحريف .

(٣) [ ] إضافة من التحفة الملوكية ص ١٨٠ للتوضيح .

وقال بيبرس فى تاريخه : وكان من مُساهلة سفرهم وتيسيره لهم على ما أخبر به من لسانه سيف الدين الحكمى المذكور إنهم استهلوا هلال صفر من هذه السنة فى قرم ، وسافروا أول الشهر ، فوصلوا فى العشر الأخير منه إلى اسكندرية ، وتوجهوا فى الحراريق إلى مصر فوصلوها سلخ صفر ، وكانت المسافة شهرا من قرم إلى اسكندرية[1] .

وفيها : وصلت رُسل صاحب سيس بالقطيعة إلى الباب العزيز[2] ، وأطلق من أسرى المسلمين مائتين وسبعين أسيرا ، وأوصلهم إلى حلب .

وفيها : وصل فتح الدين بن صبره من بلاد التتار ، وكان قد أُسر فى جملة الأمراء الذين أُسروا ببلاد سيس كما ذكرنا .

وفى يوم الخميس التاسع من جمادى الأولى دخل الشيخ بُراق إلى دمشق وصحبته فقراؤه ، أكثر من مائة فقير ، وقد ذكرنا صفاتهم وزيهم وهيئتهم فى ترجمة الشيخ براق فى السنة الماضية ، فنزلوا بالمنيبع[3] ، وحضروا صلاة الجمعة برواق الحنابلة ، ثم توجهوا نحو القدس فزاروا ، ثم استأذنوا فى الدخول [٣٦٩] إلى مصر ، فلم يؤذن لهم ، فعادوا إلى دمشق ، فصاموا بها رمضان ، ثم انشمروا راجعين إلى بلاد الشرق إذ لم يجدوا بدمشق قبولا ولا منزلا ومقيلا .

---

(١) « إلى مصر » فى زبدة الفكرة .

(٢) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٤٨ ب .

(٣) انظر ما سبق ص ٤٠٥ .

وفى بعض التواريخ ، ونظم فى الشيخ براق السراج المحار موشحة[1] أولها :

جئنا عجم من جوّا الروم صُوَرٌ تحير فيها الأفكار

لهم قرونٌ مثل الثيران إبليس يصيح منهم زنهار

وهى طويلة :

ولما قدم دمشق أراد الدخول إلى الأفرم فى الميدان ، فأرسل الأفرم نعامة كان قد تعاظم أمرها وتفاقم شرها فلا يكاد يُقاومها أحد ، فلما عرضوه لها قصدته ، فتوجّه إليها وركبها ، فطارت به فى الهواء فى الميدان تقدير خمسين ذراعا إلى أن قرب من الأفرم فقال له : أطيِّرُها إلى فوق شيئا آخر . فقال : لا ، ثم أحسن إليه ، وكان القان قازان أحضره مرة وأحضر له سبعا ضاريا ، فركب على ظهره ولم ينله سوءٌ ، فأعظم قازان ذلك ، ونثر عليه عشرة آلاف دينار فلم يتعرض لشيء منها .

وقال صاحب النزهة : وكان خربندا أرسله إلى الشام فى الرسلية وذلك لأمر جرى له كما سنذكره إن شاء الله تعالى ، ولما توجّه الشيخ براق إلى الشام كان معه يَرْلِق خربندا وكتابه إلى سائر البلاد أن يخدموه أوفر خدمة ، ولم يزل سائرا حتى وصل من ناحية الروم إلى بلاد سيس ، فسمع صاحب سيس بقدومه ، فركب إلى ملتقاه وأنزله فى دار المضيف ، وحمل إليه كل ما يحتاج ، وكان معه خط خربندا بأنه يعطيه عشرة آلاف درهم ، فأحضرها له وسير معه جماعة من أصحابه فى خدمته إلى دَرْبِسَاك ، وهى حده إلى بلاد المسلمين ، ولم يزل براق

---

(١) هكذا بالأصل ، والصواب « مواليا » ، فالموشحة — تلتزم باللفظ العربى الصحيح ، بينما المواليا لا تلتزم بذلك ، وهو ما نلاحظه فيما يلى .

حتى وصل إلى حلب، وعلم قراسنقر بقدومه فطلبه إليه ، فلما حضر قرّبه وأدناه، ولما خلا به حدّثه وسأله لما جاء به، فقال : جئت حتى أصلح بين الملك الناصر وبين خربندا بحيث أن لا يعلم بذلك أحد غيره، وفى الحال أرسل قراسنقر بريديا إلى الملك الناصر يُعلم بذلك ، وبعد قليل جاء البريدى وطلبه إلى دمشق ، فجهز قراسنقر معه جماعة يخدمونه إلى دمشق ، ودخلها فى يوم مشهود لأنه قد كان وقع صيته بين الناس بأن شيخا جاء من بلاد التتار يركب السبع ، واجتمع خلق كثير عنده إلى أن دخل ميدان دمشق إلى القصر الأبلق، وحوله أصحابُه ، وكان نائب السلطان الأفرم جالسا فى شباك القصر الذى يشرف على الميدان ، وحوله أمراء دمشق مثل : بهادر رأس نوبة، وقطلبك الشيخى ، وبكتمر أمير آخور، والبدرى ، وقطلوبك الوشاقى ، فلما رآهم برّاق زعجر وأخذه حال الفقراء ، وحمل عليهم يطلبهم ، وكان فى الميدان طير نعامة لها أربع سنين يربّونها فى الميدان ، فلما رأت الشيخ براق حملت عليه ،وقبضت بفمها على رقبته ،وكادت أن تقصفها، وأرمت براق تحته و بركت فوقه ، ولو لم يدركه الرجال لمات براق تحته ، فتعجبت الناس منه ، وعلم براق أن هذه عبرة ليعتبرها ،فأسرّها فى نفسه ، ثم لما قام [٣٧٠] تقدم إلى الأفرم وسلّم عليه، وكذلك سلّم على الأمراء ، فقال له بهادر آص : آش هذا يا براق ؟ أنت تقول : إنك تركب الأسد فى خراسان ، فهذا طير من طيور الشام عمل بك ما حارت به الأوهام، ولكن أزِلْ ما قلبك، واستغفر ربك ، وتأدب مع رجال الشام ، ثم إن بهادر آص حقق النظر فيه ، فإذا هو محلوق الذقن ، وقد عفى عن شواربه ، وفى رقبته خيوط من صوف الأغنام ، وفيها كعاب البقر والغنم والأحراش . فقال له : إش هذا ؟هو دينك . فقال يا أمير : المملوك رجل فقير من جملة فقراء المسلمين . فقال له بهادر

آص : ما أنت مسلم . فقال له : لِمَ ؟ فقال له : بدليل واضح لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال وهو صادق فى المقال : «قُصّوا الشوارب واعفوا عن اللحى»(١) . وأنت خالفت ، فصّيت اللحيةَ وعفوت عن الشارب، وهذه مخالفة لدين الإسلام ولمحمد عليه السلام ، والله لولا حرمة مولانا السلطان لأضربن رقبتك . فقال براق : استغفر الله من سوء فعلى، ثم إن بهادر آص طلب مقصّا، فقص شوار به، ثم أمر ملك الأمراء أن ينزلوهم فى اللمَنْيَبع ، وأن ينقلوا إليهم كل ما يحتاجون إليه ، ورتب لهم كل يوم : خمس أروس من الغنم ، وقنطار خبز، وعشرين رطلا من الحلاوة السكّرية، وعشرة أطباق فاكهة ، ثم أرسل البريدى إلى مصر بسببه، فرجع البريدى بطلبه ، فجهزه النائب ورتب له الإقامات فى الطرقات إلى غزّة ، ولما ورد غزة ، فإذا بمرسوم السلطان حضر بالإقامة إلى حين يطلبهم ، وذلك أن السلطان لما جاء إليه خبره شاور الأمراء فيه وما يكون الصواب ، فاتفق رأيهم على أن لا يمكن من الدخول إلى مصر ، فربما يكون من دخوله غائلة ، فأرسل إليه مملوكا من مماليكه يقول له : اكتب ما معك من المشافهة وسيّره ، ثم رجع براق من غزة إلى دمشق ، وصاحب دمشق جهّزه إلى أطراف البلاد وسار يطلب خربندا .

ذكر من أُنعِم عليه بإمرة أو وظيفة ومَنْ قُطِعَ :

وفيها : تولى بكتوت الجوكندار المعروف بالفتاح وظيفة أمير جندار على ما نذكره .

(١) انظر ما جاء فى سنن أبى داود ج ٤ باب فى أخذ الشارب ص ٨٢ .

وفيها : تولى قضاء الحنفية بدمشق يوم الأحد العشرين من ربيع الأول[١] القاضي شمس الدين الأذرعي[٢] الحنفي ، ثم عزل ، وتولى عوضه قاضي القضاة صدر الدين أبو الحسن علي بن الشيخ صفي الدين أبي القاسم بن محمد الحنفي البُصْراوي ، وذلك يوم الجمعة التاسع والعشرين من ذي القعدة منها .

وفيها : سفر الأمير علم الدين سنجر الجاولي الأستادار إلى الشام، وقُطع خُبزه من مصر لتغيّر حصل من ركن الدين بيبرس من جهته ، وبعد وصوله إلى الشام بمدة أنعم عليه بإقطاع وإمرة ، وكان قد تقدم إلى الدواوين بمحاققته على ما يتعلق بمباشرته ، فعملوا عليه أوراقا بجملة ، وطُولب بجملتها ، فشملته الصدقات السلطانية بالإعفاء من كلها ، بعد وصوله إلى الشام بمدة أيام .

وفي الثامن من ذي الحجة : عُزل الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب عن شدّ دمشق ، وولى عوضه الأمير جمال الدين أقوش الرسمي والي الولاة ، وأعيد سيف الدين بكتمر إلى الجوبية بدمشق .

وفيها : صرف القاضي سعد الدين [٣٧١] بن عطايا عن الوزارة، وصودر على مائة ألف درهم[٣] خُرّجت في معاملة البيوت مُذ كان يباشرها، فقام بثمانين ألف منها ، ثم سُومح وأُطلق ، فلزم بيته ، واستوزر عوضا عنه القاضي ضياء الدين

---

(١) ورد هذا الخبر في أحداث سنة ٧٠٥ هـ / ١٣١٥ م - في تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٦٩ .

(٢) هو محمد بن إبراهيم بن إبراهيم بن داود بن حازم الأذرعي الحنفي ، قاضي القضاة شمس الدين أبو عبد الله ، المتوفى سنة ٧١٢ هـ / ١٣١٢ م - المنهل الصافي .

(٣) « ألفا » في الأصل . والتصحيح من زبدة الفكرة .

أبو بكر[(١)] بن عبد الله النشائى ، وكان يباشر ذلك[(٢)] الوقت نظر الدواوين ، وقبله استيفاء المقابلة ، فلما صارت الوزارة إليه كان فيها محكوما عليه إلا أنه اعتمد لين الجانب وخفض الجناح، ومسالمة الناس . وكان الأمر والنهى والحل والعقد إلى التاج بن سعيد الدولة ، فإنه كان مستبدا بالإشارة والنظر على الوزارة[(٣)] .

قال ابن كثير[(٤)] : وفى أول المحرم ظهر الوحشة بين الملك الناصر وبين الأمراء: سلار النائب ، وركن الدين بيبرس الجاشنكير ، وكان السلطان قد امتنع عن العلامة زمانا حتى ظنه الناس مريضا ، ثم عبرا له فى ثالث الشهر ، فتنكر لهما ومنعهما، فاستعطفاه وألانا له الكلام حتى رضى وخلع عليهما . ولما خرجا قويت نفوسهما، وأظهرا ما بنفوسهما ، وهما بأن يركب جماعة من العسكر وتقف تحت القلعة ، فركب شمس الدين الأعسر بعد العشاء ، فظهر السلاح، وشق القاهرة ، ووقف تحت القلعة ، وكذلك ركبت إخوة سلار ، وهم : داود ، وسمول ، وحيا ، فخرج إليهم بعض الوشاقية ، فراسلوهم بالنبل ، ووصل سهم سَمُول أخى سلار إلى الشباك الذى يجلس فيه السلطان .

وبات الأمراء تلك الليلة على مساطب الدركاه بباب القلة ، ولما أصبحوا ترددت المراسلة بينهم وبين السلطان على لسان أقوش الموصلى ، وسيف الدين إكاى ، وبهاء الدين يعقوبا الشهرزورى ، وسألوا رضى السلطان ، والتمسوا منه

---

(١) هو : أبو بكر بن عبد الله بن أحمد بن منصور النشائى ، ضياء الدين ، المتوفى سنة ٧١٦ هـ/ ١٣١٦ م — الدرر جـ ١ ص ٤٧٤ رقم ١١٨٣ ، درة الأسلاك ص ٢٠٦ .

(٢) « إذ ذلك » فى زبدة الفكرة .

(٣) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٤٨ أ ، ب .

(٤) لم ترد الأحداث التالية فى المطبوع الذى بين أيدينا من كتاب البداية والنهاية .

بعض الخاصكية الذين هم سبب إثارة هذه الفتنة ، فسيرهم إليه[1] بعد أن استحلفهم أنهم لا يتعرضون إليهم بمكروه ، وهم : سيف الدين بيبغا ، الذى كان من خواص السلطان ، وسيف الدين خاص ترك ، وسيف الدين بقتمر ، فأرسلوهم من وقتهم إلى القدس ، وانتظم الصلح .

ولما بلغ ذلك الأمير أقوش الأفرم — نائب دمشق — أرسل يلوم الأمراء ، ويعنفهم على ما وقع منهم فى حق الأمراء ، ويسأل إعادتهم ، وإلّا حضر هو بنفسه ، فأعادوهم ، فلم يسكن الأمير بيبغا القلعة بل بسويقة العزى ، ثم لم يلبث أن مرض ومات ، فى السنة المذكورة .

وفى خامس عشر المحرم منها — بعد إخراج المماليك السلطانية — رُسم بإخراج سيف الدين بكتمر الجوكندار وقطع خبزه ، فأُخرج من ساعته إلى الشام ، فلما وصل إلى غزة عُيِّنت له الصبيبة فتوجه إليها فاستوحشها ، فسأل غيرها ، فعينت له صرخد ، واتفقت وفاة الأمير سنقر جاه المنصورى — نائب صفد — فرسم له بها ، فتوجه إليها ، ولما خرج من مصر تولى بعده وظيفة أمير جاندار بمصر بكتوت الجوكندار المعروف بالفتاح .

ذكر بقية الحوادث :

منها : ابتداء الأمير بيبرس فى عمارة الخانقاة والتربة داخل بابى النصر ، موضع دار الوزارة ، فعمرت ، وأوقف عليها أوقافا جليلة[2] ، ومات قبل فتحها ،

---

(١) هكذا بالأصل ؟

(٢) انظر وثائق وقف بيبرس بن عبد الله الجاشنكير المحفوظة بدار الوثائق القومية (مجموعة المحكمة الشرعية) رقم ٢٢ / ٤ ، ٢٢٤ / ٤ ، والمؤرخة ٢٦ شوال ٧٠٧ هـ — فهرست وثائق القاهرة ص ٨ ، ٩ مسلسل ٢٥ — ٢٦ .

فأغلقها الملك الناصر مدة ثم فتحها ، ورتب فيها جماعة من الصوفية [٣٧٢] وأبقى بعض الأوقاف التي كانت لها ، وارتجع البقية ، وأما التربة فاستمرت مغلقة إلى آخر سنة خمس وعشرين وسبعمائة ، كما نذكره إن شاء الله تعالى .

وفيها : كملت عمارة الجامع الجديد الذي بسفح قاسيون ، والذي أنشأه جمال الدين أقوش الأفرم ، وخطب فيه شمس الدين أبو العز الحنفي يوم الجمعة الرابع والعشرين من شوال .

وفيها : وردت كتب من حماة تتضمن حدوث أمر غريب ، متضمنة فيها محضر مثبوت بأنه كان في حصن الأكراد جبلان بالقرب من بارين[1] — من بلد حماة — بينهما واد تجرى الماء فيه ، فانتقل نصف الجبل الواحد من موضعه ، وتعدى الوادي ، والتصق بالجبل الآخر ، ولم يسقط في الوادي الذي بينهما شيء من الحجارة ، وبقى ما انسلخ منه منقطعا من الجبل كهيئة محراب ، والماء جار على العادة ، وكشف ذلك القاضي والحاكم ببارين ، وعمل به محضرا[2] ، وكان طول النصف الذي انفصل من الجبل مائة ذراع وعشرة أذرع ، وعرضه خمسة وخمسون ذراعا ، ومسافة الوادي الذي بين الجبلين مائة ذراع ، واسم الجبل : بنبابة ، واسم القرية القريبة منه : دانة[3] .

وفيها : إهتم الأمراء المصريون بتعزير الخيول السوابق ورياضتها حتى إذا بلغت الحد من التعزير وأخذت مأخذها من التسيير خرجوا جميعا إلى بركة الحجاج ،

(١) بارين (بعرين) : مدينة بين حلب وحماة ، من جهة الغرب — معجم البلدان .

(٢) انظر نص المحضر في : نهاية الأرب جـ ٣٠ ورقة ٤٠ .

(٣) وردت هذه الحادثة في كل من : درة الأسلاك ص ١٧٢ ، نهاية الأرب جـ ٣٠ ورقة ٤٠ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٢٢ ، السلوك جـ ٢ ص ٢٣ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٧٤ .

وتتباهى وتتهادى حتى إذا كان انتهاء المطلق تقدم فرس الأمير سيف الدين سلار وانطلق ففاز بالسبق ، وكان الرهن لمن سبق ، وجملته سبعة آلاف درهم لمن سبق — عن كل فرس مائة درهم ، وعدة الخيول الأخرى سبعين فرسا .

وفيها : فى آخر يوم من رمضان أحضر نائب السلطنة الأمير سلار القضاة وجماعة من الفقهاء كالباجى والجزرى وغيرهما ، وتكلموا فى إخراج ابن تيمية من السجن ، فاشترط بعض الحاضرين شروط عليه فى ذلك ، وأرسلوا إليه المحضر فامتنع ، وصمم ، وتكررت الرسالة ست مرات فلم يجب ، وطال عليهم المجلس ، فتفرقوا عن غير شئ ، فطلب النائب أخاه الشيخ شرف الدين عبد الله ، وأخاه الآخر زين الدين عبد الرحمن ، وجرى بينهما وبين المالكى كلام كثير ، ولما كان يوم الجمعة أحضروا شرف الدين وحده ، وحضر شمس الدين بن عدلان فى مجلس النائب ، ووقع بينهما بحث كثير .

وفيها : فى يوم عرفة عقد مجلس بالقصر الأبلق بدمشق ، وحضر القضاة والعلماء ، وحضر موسى أحد فقهاء البادرائية من المارستان فاعترف إنه مصر على القول بخلق القرآن ، وأصر على ذلك ، فاختلفوا فى تكفيره ، ورُسم بتعزيره ، فضرب ، وأخذ ونودى عليه ، وحُبس ، ثم أُحضر إلى مجلس قاضى القضاة نجم الدين بن صصرى ، وأظهر التوبة ، والتبرؤ من ذلك ، فأطلق سبيله .

وفيها اختلف أهل جزيرة جربة فيما بينهم ، فسعى محمد بن السمو من — شيخ الوهّبية — فى ابن أمغر شيخ النكاره ، ونقل إلى الفرنج عنه أمورا منكرة ، فأمسكوه ، وسَيّروه إلى بلاد صقلية ، فاعتقل هناك [٣٧٣] ثم إنه فدى نفسه

بمال ، فأطلقوه[(١)] ، فعاد إلى جربة ، وحشد حشودا كثيرة[(٢)] ،وقصد ابن السمومن ومن معـه من الفرنج ، فخرجوا لقتاله [والتقوا معـه][(٣)] ، فكانت الكسرة على ابن السمومن والفرنج ، وظهر ابن أمغر عليهم ، وأرسل يعلم صاحب تونس باستظهاره وسأله نجدة ، وأرسل الفرنج الذين بجـربة يعلمون أصحابهم بصقلية بحالهم ويسألونهم إنجادهم ، فكان منهم ما نذكره ، إن شاء الله تعالى .

ذكرُ قضيّة أبي يَعْقُوب المرِّيني صاحب المَغْرب ومَقْتَله :

وكان أبو يعقوب[(٤)] هذا بمدينة تلمسان ، وهو نازل فيهـا ، محاصرا إياها ، وكان قد ضايقها سنين كثيرة ، ونفد ما كان لأهلها ولصاحبها من الأزواد والأقوات ، وخلت من سُكانها ، فمنهم من تسلّل من الضُّر والضيق ، ومنهم من مات ، ولم يكن بقى عندهم إلى هذه الغاية إلا شىء يميرهم مقدار شهر لا غير ، واتفق موته مقتولا .

(١) « فأطلقه الفرنج من صقلية » — فى زبدة الفكرة التى ينقل النويرى عنها هذا الخبر .

(٢) « حشدا كبيرا » — فى زبدة الفكرة .

(٣) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(٤) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٥١ أ ، ب ، هـو يوسف بن يعقوب المرينى ، أبو يعقوب ، المتوفى سنة ٧٠٦ هـ / ١٣٠٦ م وله أيضا ترجمـة فى : المنهل الصافى ، درة الأسلاك ص ١٧٢ أ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٢٥ ، السلوك جـ ٢ ص ٢٣ ، التحفـة الملوكية ص ١٨٥ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٧٦ ، الدرر جـ ٥ ص ٢٥٦ رقم ٥١٨٣ ، شذرات الذهب جـ ٦ ص ١٢ ، ومرآة الجنان جـ ٤ ص ٢٤١ ، الأنيس المطرب ص ٣٧٤ ، ص ٣٨٨ ، روضـة النسرين ص ٢١ وما بعدها وورد فى الدرر وشذرات الذهب أنه توفى سنة ٧٠٥ هـ .

وكان سبب قتله : أنه كان قد تعلق بخدمته شخص من بنى عبد الواد يُسمّى الزُعيم ، من أصحاب صاحب تلمسان ، فحظى عنده ، وبقى فى خدمته سنين ثم غضب عليه ، فسجنه مدة طويلة ، وكان له وزير يقال له العزّ ، فلما سجن الزُعيم العبد الوادى تعرّض العز الوزير إلى حُرَمه ، ثم إن المرينى رضى عن الزُعيم ، وأطلقه ونفاه إلى بلد الأندلس ، واتفق بعد مدة أن ولدت جارية من جوارى المرينى اسمها إزرزاره بنتا ، ومعنى هذا الاسم الغزالة ، فبُشّر بها المرينى فأنكرها ، وقال : ما أعلم أننى باشرت أمها ، فقالت له إحدى النساء الحاضرات : إن مولاى باشرها وهو على حالة سُكْر [فسلم](١) وأمسك ، وبلغ الزعيم الخبر وهو يومئذ بالأندلس ، وكان قد اطلع على ما فعله العز الوزير بحريمه ، فأرسل يقول للمرينى : إننى لم يشق علىّ تعرض الوزير العزّ إلى حُرَمى كما شق علىّ تعرضه لحُرمك ، وما فعله بإزرزاره(٢) حتى إنه أولدها الطفلة التى أنكرتَ كونها منك ، وهى فى الحقيقة منه ، فاستشاط المرينى غضبا ، وأمر من ساعته بإحضار العزّ وجَبَّه ، وقلع عينيه ، وصلبه ، واستدعى الخادم الذى هو زمام داره واسمه عنبر ، واتهمه بمواطاة العزّ على فساد حريمه ، وأمر بإخراجه ليقتل ، وفيما هم مارون به رآه جماعة أصحابه الأزمة والخُدام ، فسألوه عما جرى ، فقال لهم : يجّر لنا خير وهاهم ذاهبون بى إلى القتل وكلكم يقتل بعدى ، فانظروا لنفوسكم ماذا تصنعون ؟

وكان أبو يعقوب قد خَضَّب لحيته بالحناء ذلك النهار ، واستلقى مضطجعا فى خضابه داخل داره ، وليس عنده إلا بَوابة الباب ، فهجم عليه خادم من

---

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة حيث ينقل العينى هذا الخبر .

(٢) « بإذراره » فى الأصل ، والتصحيح مما سبق ، من زبدة الفكرة .

الخدم وفى يده سكين فضربه فى جوفه وابتدر الخروج عنه ، وأغلق الباب عليه ، فصاحت البوابة فدخل أصحابه عليه فأدركوه وبه بعض الرمق .

وكان ابنه أبو سالم عنده فقال له : إنى ميت فانظر فى أمرك[1] .

وقضى أبو يعقوب من يومه ، فأمر ابنه أبو سالم [٣٧٤] أن تضرب الطبول ، فضربت واستدعى أعيان القوم لمبايعته ، فبلغ ذلك ابن أخيه أبا ثابت عامر[2] بن عبد الله ، وعمه يحيى ، وكانا على مباشرة الحصار ، فاشتورا واتفقا على أن يقصدا أبا سالم ويمنعاه من السلطنة ، وأن تكون لأبى ثابت[3] دونه ، ويكون عمه يحيى مدبرا لأمره ، وأبرما هذا الرأى بينهما[4] .

ولما اتفق المذكوران على هذا الرأى أرسلا إلى محمد بن عثمان صاحب تلمسان العتيقة ، وهو على شفا جرف هار لما توالى عليه من تضييق وحصار ، وصالحاه ، ورفعا عنه المحاصرة ، والتمسا منه المناصرة ، فأمدهما بمن كان قد بقى عنده من الجند ، وتوجها نحو أبى سالم ، فهرب منهما وخرج على وجهه ، فحصل فى يد بعض أهل البلاد ، فأمسكوه وأرسلوا يخبرون ابن أخيه بأنهم قد قبضوا عليه ، فأرسل جماعة من فوارس الفرنج والمسلمين فقتلوه هناك ، وجاءوا إليه برأسه[5] .

---

(١) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٤٩ أ — ٢٥٠ أ .

(٢) « أبا عامر ثابت » — فى الأصل ، والتصحيح من المصادر المذكورة فى ترجمة أبو يعقوب المرينى ، ومما أورده العينى فيما يلى فى أحداث نفس السنة .

(٣) « لأبى عامر » فى الأصل .

(٤) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٥٠ أ .

(٥) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٥٠ ب .

واستقر أبو ثابت المذكور فى هذه السنة ، وأمر بقتل الخادم الذى أقدم على قتل أبى يعقوب ، فقتل من وقته ، وأخذ الخدم كافة فقتلوا ، وأضرمت لهم النيران ، وزجوهم فيها بالرماح ، ولم يترك أبو ثابت بمملكته خادما خصيا حتى أباده ، ثم وثب على عمه بسعاية قومه فقتله ثانى يوم ، فكان بين يحيى وبين أخيه أبى يعقوب يوم واحد أو يومان ، ورحل أبو ثابت من تلمسان وأطلق لمحمد بن عثمان العبد الوادى كل ما كان عنده بتسلمان الجديدة من الحواصل والذخائر والغلال والأزواد ، وكان شيئا كثيرا ، وأخذ المال صحبته ، وكان من الذهب ثلاثمائة حمل ، كل حمل إثنان وعشرون ألف دينار كبارا ، ومن الفضة مائتين وسبعين حملا ، ومن حفائظ الذهب التى تكتب فى آخر جمعة من رمضان للتعوذ والتبرك على عادة المغاربة وقر إثنى عشر بغلا ، وسار إلى فاس ، وجهز مستحفظا من بنى عمه إلى مراكش اسمه يوسف بن أبى عياد ، وجهز معه جماعة ليقيم بها ، وأرسل إليه شخصا من الحاضرة يسمى الحاج محمد ، ولقبه المخنة ، ليكون على جباية الأموال ، فوقع بينهما ، فقتله ابن أبى عياد ، فكانت الأحنة قاتلة للمخنة ، وخلع يوسف المذكور طاعة أبى ثابت وعصى عليه ، وقعد بما فى يديه من العمل ، فسار أبو ثابت لقتاله على ما نذكره إن شاء الله تعالى .(١)

وفيها : انتهت زيادة النيل إلى ستة عشر ذراعا وخمسة عشر أصبعا .

وفيها حج بالناس الأمير سيف الدين نغيه ققجاق السلحدار أميرا على الركب المصرى ، ومن الشام ركن الدين بيبرس المجنون .

(١) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٥٠ب ، ٢٥١أ ، وانظر ما يلى ص ٤٦٨ وما بعدها .

ولما حضر المبشرون من الحج أخبروا أن أمير الحاج حصل بينه و بين أمير مكة حُمَيْضه وعبيده كلام أوجب سفك الدماء، وذلك أنه يوم النزول من عرفة شرعت عبيد الشريف تخطف التجار وتتعرض للحاج ، فأخذوا من بعض التجار قماشا ، فمنعهم ، فضربوه ، فصاح صياحا منكرا إلى أن أقلت(1) الركب ، فسمع أمير الحاج نُغَيه ، فأرسل بعض مماليكه ليكتشفوا [٣٧٥] الخبر ، فحضر من عرّفه الأمر ، فأشار لمماليكه بمَسكهم ، فساقوا إليهم ، فانهزموا ، فلحقوا البعض بعد أن خرج منهم جماعة ، ووقع الصوت فى مكة بوصول العبيد، فركب حُميضة لابسا سلاحه ، وركب معه بنو حسن ، وكان عند حميضة جهل كبير ، فجاء الخبر إلى الأمير نُغَيه، فركب هو ومماليكه وركب من كان فى الركب من الأمراء والجند ووقع الصوت ، ثم إن نغيه نادى للحجاج أن لا يخرج أحد من خيمته ، وتوجه هو ومن معه فأشاروا عليه بأن يقف إلى أن يحضروا إليه ، فلم يقبل وساق ، فلقى جماعة من السَّرْو ، فظن أنهم عبيد للشرفاء ، فوضع السيف فيهم ، فترجل إليه بعض الأمراء وعرّفه أن هؤلاء أناس صالحون ، ووصل الخبر إلى حميضة أن أمير الركب قتل السرو وهو واصل إليك ، وهو رجل تترى لايعرف الإسلام ، فحكموا على حميضة بالرجوع ، فرجع إلى مكة ، وبلغ ذلك نغيه فلم يرجع ، ووصل إلى مكة، ونظر الأشراف إلى جيش لايهابون شريفا ولا غيره ، فهربوا ، وخرج إليه شيوخ مكة والمجاورون وسألوه ، فرجع وقتل فى هذه النوبة من السَّرْو خلق كثير .

(1) هكذا بالأصل ، ولعلها « أقبل » .

رفع

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

ذكر منْ تُوفى فيها من الأعيان

القاضى تاج الدين صالح(١) بن ثامر بن حامد بن على الجعبرى الشافعى(٢)، نائب الحكم بدمشق، ومعيد الناصرية.

وله فضائل، وعلوم، وديانة، وأمانة، مات فى ربيع الأول عن ست وسبعين سنة(٣)، ودفن بقاسيون.

الشيخ ضياء الدين أبو محمد عبد العزيز(٤) بن محمد بن على الشافعى الطُوسى، مدرس النجيبية(٥)، شارح الحاوى(٦)، ومختصر ابن الحاجب(٧).

(١) وله أيضا ترجمة فى: درة الأسلاك ص ١٧٣، الدرر جـ ٢ ص ٢٩٨ رقم ١٩٦١، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٤٣، الدارس جـ ١ ص ٤٦٦.

(٢) ورد اسمه «صالح بن أحمد بن حامد بن على الجعدى» فى البداية والنهاية، كما ورد «صالح بن ثامر» فى الدارس.

(٣) «مولده سنة ثلاثين وستمائة» — تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٧٥.

(٤) وله أيضا ترجمة فى: درة الأسلاك ص ١٧٣، المنهل الصافى، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٢٥، السلوك جـ ٢ ص ٣٢، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٤٣، مرآة الجنان جـ ٤ ص ٢٤١، الدارس جـ ١ ص ٢٤٧، شذرات الذهب جـ ٦ ص ١٤، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٧٧.

(٥) المدرسة النجيبية بدمشق: لصق المدرسة النورية، وضريح نور الدين جهة الشمال، أنشأها النجيبى جمال الدين أقوش الصالحى النجمى، أستادار الملك الصالح أيوب — الدارس جـ ١ ص ٤٦٧.

(٦) هو كتاب: «الحاوى الصغير فى الفروع»، لمؤلفه عبد الغفار بن عبد الكريم، القزوينى، المتوفى سنة ٦٦٨هـ/١٢٦٩م، وقد شرحه الطوسى وسماه: «المصباح» — كشف الظنون جـ ٦ ص ٦٢٥.

(٧) هو مختصر كتاب «منتهى السؤل والأمل فى علمى الأصول والجدل»، لمؤلفه عثمان بن عمر ابن أبى بكر الكردى الإسنائى، المعروف بابن الحاجب، والمتوفى سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م — كشف الظنون جـ ٢ ص ١٦٢٥، ١٨٥٣.

كان شيخا فاضلا ، دخل الحمـام وخرج ، فغشى عليه ومات ، وشُـكَّ فى موته ، وأخَّروا دفنه إلى ثانى يوم ، ودفن بمقـابر الصوفية ، وكانت جنـازته حفـلة .

وقال ابن كثير : وكان موته فى التاسع والعشرين من جمادى الأولى منها[1] .

الشيخ الجليل سيف الدين الرُجيحى[2] بن سابق الدين[3] هـلال بن يونس، شيخ اليونسية بمقامهم .

مات فيها ودفن فى داره التى كان يسكنها داخل باب توما ، وتعرف بدار أمين الدولة ، وكان ضخم الهـامة جدا ، محلوك[4] الشعر ،وخلف أولادا ، وجلس مكانه ولده الشيخ حسام الدين فضل ، وكانت له حرمة وافرة ، ومنزلة عالية فى الدولة من حين قدم من الشرق فى زمان المنصور قـلاون ، وكان عنده أتباع كثير .

الشيخ جمال الدين إبراهيم[5] بن محمد بن سعد الطيبى، المعروف بابن السواملى[6]، والسوامل الكاسات[7] .

---

(١) هكذا بالأصل ، و فى النجوم الزاهرة ، ولكن ورد « تاسع عشر من جمادى الأولى » فى المطبوع الذى بين أيدينا من البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٤٣ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٤٤ ، السلوك جـ ٢ ص ٢١ .

(٣) « ابن سابق » فى البداية والنهاية ، والسـلوك .

(٤) هـكذا فى الأصل ، و « محلوق » فى البداية والنهاية .

(٥) وله أيضا ترجمـة فى : الدرر جـ ١ ص ٦١ رقم ١٥٩ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٤٣ ، شذرات الذهب جـ ٦ ص ١٣ .

(٦) هـكذا بالأصل ، وفى شـذرات الذهب ، ووردت « السوابلى ، والسوابل » فى البداية والنهاية .

(٧) « والسوامل أوعية من حرث (خزف) » — فى الدرر .

كان معظما ببلاد الشرق جدا ، وكان تاجرا كبيرا ، مات في جمادى الأولى منها ، وكان قد سافر في أول عمره إلى الصين ومعه مال يسير ، ففتح عليه ، وتمول إلى الغاية ، وكان ينطوي على دين وكرم وبر وصدقة ، واعتقاد في أهل الخير ، وكان يحمل إلى الشيخ عز الدين الفاروثي في كل عام ألف مثقال ، ثم مالت عليه التتار بالأخذ حتى تضعضع حاله وقلت أمواله ، وانتقل إلى واسط .

قال ابن مُنتاب ، قال لي جمال الدين السواملي : ما بقي لي شيء سوى هذا الحُبّ ، وأراني حُبّا فيه ثمانون ألف دينار ، [٣٧٦] أبعثه إلى الصين ، فكسب الدرهم تسعةً ، وولي ابنه سراج الدين عمر نيابة الملك بالمَعبر ، وصار ابنه محمد ملك شيراز ، وابنه عز الدين كامل جميع الممالك التي لفارس ، ورزق جمال الدين من السعادة ما لاحد لها .

قيل : إنه اشترى صدفة مجوفة بدرهم ، وذلك في أول سعادته ، وكسرها ، فخرج منها درة بيضاء مدورة زنتها خمسة عشر حبة ، فقيل : إنها قُومت على الملك أبغا بستين ألف دينار ، وهي التي كانت أول سعادته ، وكان من حسنات الزمان ، رحمه الله .

الشيخ العابد الصالح خطيب دمشق شمس الدين محمد[1] ابن الشيخ أحمد ابن عثمان الخلاطي ، إمام الكلاسة .

---

(١) وله أيضا ترجمة في : درة الأسلاك ص ١٧٣ ، المنهل الصافي ، الوافي جـ ٢ ص ١١٩ رقم ٤٦١ ، ص ١٦٩ رقم ٥٢٧ ، تالي كتاب وفيات الأعيان ص ١٥٥ رقم ٢٥٣ ، الدرر جـ ٣ ص ٤٢٤ رقم ١١٣٤١ ، السلوك جـ ٢ ص ٣٢ ، شذرات الذهب جـ ٦ ص ١٤ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٤٤ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٧٦ .

كان شيخا حسنا بهى المنظر، باشر إمامة الكلاسة قريبا من أربعين سنة، وخُطب لخطابة جامع دمشق من غير سؤال منه ولا طلب ، فباشرها ستة أشهر ونصفا ، وكان حسن الصوت ، طيب النغمة ، عارفا بصناعة المُوسيقى ، مع ديانة وعفة، وكانت وفاته فجأة بدار الخطابة يوم الأربعاء ثامن شوال عن ثنتين وستين سنة[1] ، ودفن بقاسيون فوق مغارة الجوع ، وكان أولا أمّ بالمسجد الذى بالقرب من المارستان النورى مدة وهو صبى ، ثم انتقل إلى إمامة مشهد ابن عروة ، ثم لما مات والده انتقل إلى إمامة الكلاسة ، رحمه الله .

الشيخ القدوة العابد أبو عبد الله بن مطرف .

توفى بمكة فى رمضان ، وكان مجاورا بمكة ستين سنة ، وكان يطوف فى كل ليلة خمسين أسبوعا[2] ، توفى عن تسعين سنة ، رحمه الله .

الشيخ الصالح عمر[3] السعودى[4] .

توفى بزاويته بالقرافة فى ثانى جمادى الآخرة[5] ، ودفن بها .

القاضى شرف الدين محمد بن القاضى فتح الدين بن عبد الله بن القيرانى الحلبى، أحد كتاب الدرج بمصر .

---

(١) « مولده سنة أربع وأربعين وستمائة » — تذكرة النبيه .

(٢) هكذا بالأصل ، ومن المعروف أن الطواف سبعة أشواط ، ولعل المقصود ، خمسين طوافا كاملا .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ ٣ ص ٢٧٥ رقم ٣٠٩٥ ؛ كنز الدرر جـ ٩ ص ١٥٣ — ١٥٤ .

(٤) ورد اسم صاحب الترجمة « عمر بن يعقوب بن أحمد السعودى » — فى الدرر .

(٥) « سنة سبع وسبعمائة » — فى كنز الدرر ، والدرر .

توفى فيها ، ودفن بالقرافة ، وكان دينا فاضلا ، سمع الحديث النبوى .

القاضى جمال الدين أبو بكر محمد[١] بن عبد العظيم بن على بن سالم الشافعى ، المعروف بابن السقطى ، خليفة الحكم العزيز .

توفى فيها ليلة الإثنين حادى عشر شعبان بالقاهرة[٢]، ودفن بالقرافة ، ومولده سنة ثمان وعشرين وستمائة ، وولى نيابة الحكم بالقاهرة نحوا من أربعين سنة وتركها فى آخر عمره .

الصاحب الكبير شهاب الدين أحمد[٣] بن أحمد بن عطا الحنفى الأذرعى .

مات فى هذه السنة ، ودفن قبالة داره بسفح قاسيون ، وكان رجلا حسنا متواضعا ، مليح الملتقى ، حصّل أملاكا كثيرة ، وعَمَّر عمائر كثيرة . وخالط الدولة من الأيام الظاهرية ، وولى الوزارة فى دولة الملك العادل زين الدين كتبغا أياما يسيرة ، وولى حسبة دمشق مدة مضافا إلى الديوان العادلى ، وغير ذلك .

الصدر الرئيس بدر الدين محمد[٤] بن فضل الله بن مجلى العدوى .

مات بدمشق ، ودفن بقاسيون ، وكان من أعيان الكتاب المتصرفين ، جاوز السبعين من العمر ، وهو أخو القاضى شرف الدين[٥]، والقاضى محى الدين[٦]،

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ ٤ ص ١٣٦ رقم ٣٩١٠ .

(٢) « مات فى شعبان سنة ٧٠٧ هـ » ــ فى الدرر .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ ١ ص ١٠٦ رقم ٢٧٣ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٢٤ ، الوافى جـ ٤ ص ٣٢٨ رقم ١٨٨٧ ، الدرر جـ ٤ ص ٢٥٤ رقم ٤٢٢٤ ، السلوك جـ ٢ ص ٣٢ .

(٥) هو : عبد الوهاب بن فضل الله بن مجلى ، القاضى شرف الدين ، كاتب السر بمصر ، توفى سنة ٧١٧ هـ / ١٣١٧ م ــ المنهل الصافى .

(٦) هو يحيى بن فضل الله بن مجلى ، القاضى الرئيس محيى الدين كاتب السر بالشام ومصر ، توفى سنة ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧ م ــ المنهل الصافى .

وهو الأوسط، وكان التتار قد أخذوه معهم من دمشق فى سنة تسع وتسعين وستمائة، ولطف الله به وخلّصه حتى مات بين أهله وولده، رحمه الله.

الصدر علاء الدين على بن الحسن بن النحاس المعروف بابن عمرون.

مات [٣٧٧] بدمشق ودفن بقاسيون، وكان ناظر ديوان الحشرية(١) بدمشق، وخدم فى عدة جهات، وأقطار كبار، وكان مشكور السيرة(٢).

الشيخ أبو بكر(٣) بن مسعود بن عمرون القدسى، المعروف بالزرعى.

مات فى دمشق، ودفن بمقابر الصوفية، وكان فقيرا، وعمّر، وأضر فى آخر عمره، ومولده فى سنة اثنتى عشرة وستمائة(٤).

وله شعر، فمنه فى زهرة السفرجل:

زهر السفرجل قد أتاك مبشّرًا بالورد وهـــو لذلك غير مخلّد

فكأنه عيسى بن مريم قد أتى للعالمين مبشـــرا بمحمـــد

---

(١) ديوان المواريث الحشرية: وهـو الديوان المسئول عن تحصيل مال المـواريث الحشرية وهى التى يستحقها بيت المـال، وهى مال من يموت وليس له وارث، أو المـال الباقى بعـد الفرض أى من له وارث لا يستحق كل الميراث ــ انظر صبح الأعشى جـ ٣ ص ٤٦٠، المواعظ والاعتبار جـ ١ ص ١١١.

(٢) باقى هذه الترجمة يقع فى نحو عشر بن سطرا، معظمها مطموس، ويصعب معه متابعة النص.

(٣) وله أيضا ترجمة فى: الدرر جـ ١ ص ٤٩٩ رقم ١٢٠١؛ وورد فيه اسم صاحب الترجمة «أبو بكر بن مسعود بن هارون القدسى، يعرف بالزرعى».

(٤) «بالقدس» ــ فى الدرر.

ولــه :

لا سحر إلا الذى تبديه عيناك		ولا ملاحة إلا « ... ... » لمحياك[(1)]

قال زجل[(2)] :

[٢٧٩]

مالى وللنـاموس		أش بى عبـوس

الشربُ بالقادوس يُحيى النفوس

الشرب فى المـاجور قلبى يحنّ		ومجلسى معمور ، من كل فن

ودع نصير طنبور		أنقـر اطن

أرنّ بالنـاقوس		بين القـوس

الشربُ بالقادوس يحيى النفوس

يوم أرى عنـدى		نكرش خابـع

فذاك يكون سعدى		وأنـا جميـع

وكلمـا عنـدى		أرهن وبيـع

وأجور فى السالوس		وأهجـم وبوس

الشربُ بالقادوس يحيى النفوس

ما العيش باحضار		عيش خطيب

(١) « ...... » كلمة مطموسة ، كما توجد أبيات أخرى من الشعر ٢٥ بيتا تشغل باقى هذه الورقة والورقة التالية (٢٧٨) ، ومعظمها مطموس مما يصعب معه متابعة النص .

(٢) توجد بعد ذلك أربعة أسطر مطموسة .

فـير الزهر والطار وأغيـد حبيب
مالى ويلتقيان كانى خطيب
قاعدكذا كيموس أسمـع دروس
الشرب بالقادوس يحيى النفوس

يا عاذلى اقصر عن المـلام
فى الراح واستبصر ياذا الغـلام
وكلما نقتـدر نوش المـدام
واخلع الملبـوس على الجـلوس
الشرب بالقادوس يحيى النفوس

ما أحسن الحضرة مـا بيننـا
وساقى الخمـرة هـو زيننـا
ما عنـدنا فكرة ولا عنـا
ووقتنا محـروس من كل بوس
الشرب بالقادوس يحيى النفوس

وله موالبا :

لمـا رقم طرز أطلس وجنتـو سـندس
قال العـذول صباحو قد رجع حنـدس
دمـو فورد خـد وذ قـد ملى كندس
فقلت ما أظـرف الأطلس مع القندس

وقال :

جاء البشير يبشرنا بمـــزل البرد فقدّم الباطيـــه يا صاحبي والنَرْدْ

واشرَب على وجه أغيدْ في الملاحة فرد يجلو عليك البنفسج في رياض الورد.

وقال دُو بيت :

عرج بربوع جيرة قـــد خانوا عهدي وناءوا كأنّهم ما كانوا

ساروا سحرا وأضرموا حين باتوا من قلبي من مرامهم نيران

الأمير سيف الدين بلبان[1] الجوكندار المنصوري ، نائب حمص .

توفي فيها ، وتولاها سيف الدين بكتمر الساقي ، وكان بلبان المذكور من خيار الترك ، ولي نيابة قلعة صفد ، وشدّ دمشق ، ونيابة القلعة بها ، ونيابة حمص في آخر عمره .

الأمير علم الدين سنجر[2] الصوابي الجاشنكير ، أحد الأمراء المقدمين بمصر[3] ، توفي فيها .

الأمير بدر الدين بكتاش[4] الفخري أمير سلاح .

---

(١) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي جـ ٣ ص ٤٢٤ رقم ٦٩٧ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٢٤ ، الوافي جـ ١٠ ص ٢٨٣ رقم ٤٧٨٩ ، الدرر جـ ٢ ص ٢٦ رقم ١٣٢٣ ، السلوك جـ ٢ ص ٣١ .

(٢) وله أيضا ترجمة في : الدرر جـ ٢ ص ٢٨٥ رقم ١٨٧٨ .

(٣) « ولي ولاية القاهرة في سنة ٦٩٣ هـ » ــ الدرر .

(٤) وله أيضا ترجمة في : درة الأسلاك ص ١٧٢ ، المنهل الصافي جـ ٣ ص ٣٨٥ رقم ٦٧٥ ، تالي كتاب وفيات الأعيان ص ٥٦ رقم ٨٦ ، الدرر جـ ٢ ص ١٤ رقم ١٣٠١ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٢٤ ، الوافي جـ ١٠ ص ١٨٨ ، كنز الدرر جـ ٩ ص ١٤٦ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٧٧ ، السلوك جـ ٢ ص ٣٠ .

كان أصله من مماليك الأمير فخر الدين بن الشيخ ، وارتجع إلى مملكة السلطان الملك الصالح ، وكان من أكابر الأمراء الصالحية المترددين فى الغزوات ، المشهورين بالخير والصدقات ، ولما قتل الملك المنصور لاجين أجمعوا على تمليكه فلم يوافق ، وأشار بالملك الناصر محمد بن قلاون ، وفى آخر عمره طلب النزول عن الإمرة لكبر سنه ، فأجيب إلى ذلك ، فأقام فى منزله حتى مات [٣٨٠] ، وكان منزله داخل القاهرة . ووفاته فى ربيع الأول من هذه السنة وكان بين موته وقطع خبزه ثلاثة أشهر كوامل ، وكان ذا همة ونهضة ، ورأى ومعرفة ، وهو آخر من مات من الأمراء الصالحية النجمية من الركب الأول رفيق الملوك . وقيل : آخر من مات ركن الدين بيبرس الجالق (١) .

الأمير علاء الدين على (٢) بن الملك القاهر عبد الملك بن المعظم شرف الدين عيسى بن الملك العادل سيف الدين أبى بكر بن أيوب .

توفى فيها بدمشق ، ودفن بقاسيون .

الأمير فارس الدين أصلم (٣) الردادى ، توفى فيها .

الأمير سيف الدين كاوركا (٤) المنصورى ، توفى فيها .

---

(١) انظر ما يلى ص ٤٨٠ .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ ٣ ص ١٥٠ رقم ٢٧٩١ .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى جـ ٢ ص ٤٥٥ رقم ٤٧٢ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٢٥ ، السلوك جـ ٢ ص ٣٢ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٢٤ ، الدرر جـ ٣ ص ٣٤٧ رقم ٣٢٩٨ ويرد فيه « كارزكا » ، السلوك جـ ٢ ص ٣٢ .

الأمير بهاء الدين أصلم[١] بن مرداش ، توفى فيها بدمشق .

الأمير بهاء الدين يعقوبا الشهرزورى[٢] ، مات فى سابع عشر ذى الحجة[٣] منها بمصر .

الأمير عز الدين أيبك الطويل[٤] الخازندار المنصورى .

مات فيها ، ودفن بقاسيون ، وكان أميرا دينا ، كبير القدر ، له بر وصدقة .

الطواشى الكبير الصالح شمس الدين صواب[٥] السهيلى الخزندار .

مات فيها بالكرك ، وقد قارب المائة سنة ، وكان الملك الظاهر قد سلم إليه قلعة الكرك ، فاستمر بها إلى سنة إحدى وثمانين وستمائة فى أيام الملك المسعود نجم الدين خضر بن الظاهر ، فتوجه إلى الحجاز الشريف فى جملة الركب الشامى ، فلما وصل إلى تبوك لحقه الأمير عينه أمير فى عقبه وقبض عليه وحمله إلى الملك المنصور قلاون ، فلما ملك المنصور قلعة الكرك أعاده إليها وثوقا بأمانته

(١) وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ ١ ص ٤١٦ رقم ٩٩٢ ، وفيه « أصلم بن تمركاش أحد الأمراء بدمشق ، مات فى ذى القعدة سنة ٧٠٧ هـ » .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ ٥ ص ٢١٢ رقم ٥٠٧٧ ، كنز الدرر جـ ٩ ص ١٥٤ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٢٥ ، السلوك جـ ١ ص ٣٢ .

(٣) « توفى فى السابع والعشرين من ذى الحجة ، سنة ٧٠٧ هـ » فى كنز الدرر جـ ٩ ص ١٥٤ ، الدرر .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ ١ ص ٤٥٢ رقم ١١١٠ ، السلوك جـ ٢ ص ٣٠ .

(٥) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٢٥ ، الدرر جـ ٢ ص ٣٠٢ رقم ١١٨٤ ، كنز الدرر جـ ٩ ص ١٥٤ ، السلوك جـ ٢ ص ٣١ — ٣٢ .

وديانته ، فلم يزل بها إلى أن مات فيها ، وكان له برّ ومعروف ، ورباط وتربة ، وكان كثير المال كبير السن .

الطواشى شهاب الدين فاخر[1] المنصورى ، مقدم المماليك السلطانية .

توفى فى سابع ذى الحجة منها ، وكان ذا مهابة وسطوة ، وأخلاق حسنة .

(١) وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، النجوم الزاهرة ج ٨ ص ٢٢٥ وفيهما « توفى سنة ٧٠٧ هـ » الدرر ج ٣ ص ٢٩٩ رقم ٣١٥٠ وفيه « توفى سنة ٧٠٤ هـ » .

فصل فيما وقع من الحوادث
في السنة السابعة بعد السبعمائة (*)

استهلت هذه السنة : والخليفة المستكفي بالله العباسي .

والسلطان : الملك الناصر محمد بن قلاون ، ونائب دمشق الأفرم ، ونائب حلب قراسنقر ، وصاحب البلاد الشمالية طُقطا ، وصاحب العراقين وما والاها الملك خربندا ، وصاحب اليمن الملك المؤيد هِزَبر الدين داود .

وذكر بيبرس في تاريخه في هذه السنة : وقوع الوحشة بين السلطان الملك الناصر محمد وبين الأمراء سلار وبيبرس وغيرهما (١) ، وقد ذكرناه في السنة الماضية كما ذكره ابن كثير (٢) .

ذكر إغارة خربندا على بلاد كيلان :

قال بيبرس في تاريخه : وفيها وصل الأمير فتح الدين صبره (٣) المهمندار من بلاد التتار ، وأخبر من لسانه أن خربندا سار إلى بلاد كيلان وأغار عليها ، ونهب من بها من العجم والأكراد ، وقتل منهم خلقا يتجاوز الأعداد ، وسبي النسوان والأولاد ، وباعوهم بتبريز وتلك البلاد ، مجازيا لهم مما فعلوه من كسر

(*) يوافق أولها يوم الإثنين ٣ يولية ١٣٠٧ م .
(١) انظر زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٥١ ب ، كنز الدرر جـ ٩ ص ١٤٧ .
(٢) انظر ماسبق ص ٤٢٧ .
(٣) « بن ضبرة » — في كنز الدرر جـ ٩ ص ١٤٩ .

عسكره وقتل قطلوشاه نائبه[١] .

قلت : قد ذكرنا فيما مضى قضية قطلوشاه وكيف قتل[٢] ، ولما جاء الخبر بذلك إلى خربندا اغتم غما شديدا وأمر بأن ينادى فى عسكره بأن البيكار ثلاث سنين إلى كيلان ، إما تفنى المغل أو [٣٨١] تموت كيلان ، ثم إنه فتح الخزائن ، ونفق الأموال ، وأمر أن من قتل له أخ أو قريب فليتزوج بامرأته ، وإن كان ما له أخ ولا قريب فليتزوجها أكبر غلمانه ، وأخذت العساكر الأموال ، وأخذوا فى إصلاح أحوالهم .

وقد كانت جماعة من ملوك كيلان قد هربوا وجاءوا إلى قطلوشاه ، لما سار قطلوشاه إلى بلادهم ، وكان قطلوشاه قد أرسلهم إلى خربندا ، فلما جرى للمغل ما جرى من الإنكسار والهزيمة ، وقتل قطلوشاه ، ندم هؤلاء على مجيئهم ، واجتمعوا عند كبيرهم نوبرشاه ، وقالوا له : أخطأنا فى مجيئنا إلى ههنا ، وتركنا أموالنا وأولادنا ، وجرى علينا ما جرى ، وما بقينا نقدر على الرواح إلى كيلان ، ولا نأمن على أنفسنا من المغل ، [فقال لهم :[٣]] والله ياقوم ما ظننت أصلا أن أهل كيلان تكبس التتار ، ولكن النصر بيد الله تعالى ينزله على من يشاء من عباده ، فما بقى إلا أننا نستغفل خربندا ونهرب طالبين بلادنا . فقالوا : ما يكون عذرنا عن جوان شير — وكان أكبر ملوكهم — وعند أصحابه إذا لامونا على خطئنا . فقال : نقول لهم : كان رواحنا

---

(١) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٥٣ ب .

(٢) انظر ما سبق ص ٣٨٥ وما بعدها .

(٣) [ ] إضافة تتفق مع السياق .

لمصلحة لكم لأنا خشينا عواقب الأمور، فقلنا إن جرى أمر والعياذ بالله كنا لكم عليه عند الشدة، ونكون عينا لكم عندهم، فاتفقوا على مثل ذلك، ولم يعلموا ما قدره الله فى الأزل.

ثم إنهم خرجوا فى بعض الليالى، وباتوا خارج تبريز فى وليمة صُنعت لهم، فقاموا فى نصف الليل وركبوا، وطلبوا بلادهم. فسمع خربندا بذلك، وأركب جوبان خلفهم ومعه ألفا فارس، فساقوا خلفهم ولاحقوهم فى أرض سوداء ليس فيها أنيس، ولا حس حسيس.

ولما رأى هؤلاء غبار التتار، قال بعضهم لبعض: جاءنا الفناء، خذوا فى رواحكم، وقالوا: وماذا نصنع فى هذه البرية، فقال نوبر شاه: نقاتل عن أنفسنا، وإلاّ أىّ من سلّم نفسه يقعدونه على الخازوق، كما فُعل بقطلوشاه، وكانت عدتهم خمسة عشر أميرا ومائتى جندى، فتحالفوا أنهم لايسلمون أنفسهم حتى تسقط رؤوسهم عن أبدانهم. فعند ذلك نزلوا عن خيولهم، واعتدوا للحرب ووهبوا أنفسهم لله عز وجل، وأيقنوا الموت، وهم فى ذلك، فإذا الغبار قد انكشف، وأظهرت التتار الإهتمام، فتسابقوا إليهم، وكان أسبق الناس إليهم قجمرن، وكان من فرسان التتر المشهورين، ولما رآته المغل، وهو قاصد إليهم حملوا عليه، وضجوا بكلمة التوحيد، ووثبت عليهم التتار «... ...»[1] فلم يفكروا فيه، وواجهوهم بالرماح، فكم من رأس قد طارت، وكم من دماء قد «سالت»[2]، وفى ذلك الوقت «... ...»[3] فحمل كل منهما على صاحبه،

(١) « » موضع كلمة غير مقروءة.

(٢) «طارت» فى الأصل، ولعله تحريف، والتصحيح يتفق مع السياق.

(٣) «... ...» موضع عدت كلمات غير مقروءة.

فرمى كالتمر على نوبرشاه - زعيمهم - فأصاب نحره ، وخرج من ظهره ، ثم ولّى نصوّب نوبرشاه رمحه إليه - وهو فى ألم شـديد مشرف على الموت - وطعنه بين كتفيه ، نخرج الرمح من صـدره ، فوقع كلاهما ، فولّى هـذا إلى الجنة ، وذاك إلى النـار .

فلما نظر جـوبان إلى ذلك أظلمت الدنيا فى عينيه ، وصرخ فيمن معه من التتار [٣٨٢] ، وضربوا عليهم حلقـة ، وشرعوا فى الحرب ، فلله در العجم ، لقد قاتلوا قتال الموت ، وجعلوا الآخرة نصب أعينهم ، وما أمسى الليل إلاّ والقوم صرعى على وجه الأرض ، ولم يسلم منهم أحد ، فأمر جوبان بأن تُحز رؤوسهم ، وبات تلك الليلة فى مكان الوقعة .

ولمـا أصبحوا رحلوا طالبين خربندا ، فلمّا وصلوا ، ومعهم رؤوس هؤلاء ، فرح خربندا فرحا عظيما بذلك الثأر ، وخلع على جوبان ، وولاّه موضع قطلوشاه ، وجعله صاحب المشورة والتدبير .

وكان ذلك الوقت مستهل الشتاء ، فأعطى خربندا الأمراء دستورا ليروح كل أمير إلى مشتاه ، ويتجهز ، فإذا خرج الشتاء يجتمعون ليسير بهم خربندا إلى كيلان ، وسار خربندا أيضا إلى مشتاه ، وهو موضع يسمى موقاى .

وفى أول الربيع رجع إلى تبريز ، وأمر بحضور العساكر ، وكتب إلى جبال الأكراد يأمرهم بالحضور ، فحضرت أمراء الأكراد ، ومعهم خلق عظيم ، ولم يخلّ طائفة فى بلاده حتى سير خلفهم ، فجمع خلقا لا يحصون .

وكان لأهل كيلان جواسيس أتوا إليهم ، وأعلموهم بأن خربندا قد جمع العساكر ، وهو قاصد إليكم ، فتحصنوا فى الجبال ، وسدّوا الدربندات ، وتجهزوا لالتقى معه ، وكتبوا الى أمير حاج ، وتشاوروا بأن يجهزا أحوالهما حتى اذا سيروا خلفهما يكونان متجهزين ، فأخذا فى التجهيز ، ثم إن جوان شير قال : إنى أريد أن آخذ معى مائة فارس ، وأكشف الأخبار ، فسار غير بعيد ، ثم رجع ، وقال : الذى طلبت من الله قد أعطانى ، فقالوا له : وما ذاك ؟ فقال : كنت أريد من الله أن يسوق إلينا من نأخذ الخبر ، وقد ساق الله إلينا جماعة منهم ، فحين رأيتهم رديت ، فقالوا : وكم يكون هؤلاء ؟ ، قال : مقدار أربعين فارسا أو أقل ، ثم إنه فرّق أصحابه ما بين تلك الرجوم ، وقال لهم : إذا سمعتم حسّ الطبل بازا اخرجوا وأمسكوا عليهم الطرق من بين أيديهم وأنا آخذ عليهم الدرب من خلفهم .

وكان خربندا لما نزل على قنغر أولان طلب علجا من علوج المغل — يقال له : زنبور ، كان معروفا عندهم فى المهمات ، وقال له : اذهب واكشف لى جبال كيلان ودربنداتها ، وكان أخبر الناس ببلاد كيلان ، فأخذ معه خمسين فارسا ، وسار بهم ، فلما أشرف على هذه الرجوم ، وكانت تعرف عندهم برجوم الغيلان ، قال لأصحابه : يا قوم هذا مكان نحس ، وعر مضيق ، ونخاف من هذا المكان ، فقال له بعض المغل : يا زنبور تخاف فى قنغر أولان من جوان شير ؟ ، فقال : نعم ، فتضاحكت المغل عليه ، فاستحى زنبور ، وسار قدامهم ، وقلبه خائف ، فلما توسط الرجوم نظر إلى الأرض فاذا عليها أثر خيل جديد ، فصرخ فى المغل ، فتشوشوا وهموا بالرجوع ، وإذا قد خرج من خلفهم جوان شير وضرب عليهم طبل بازه ، فخرج أصحابه من كل ناحية وأخذتهم الصيحات من جميع الجهات ،

وتنادوا جوان شير ، قال لهم زنبور : ما قلت لكم ، ما سمعتم منى ، وضحكتم على ورديتم نصيحتى ، ولا بق لكم غير الصبر على البلاء ، ثم صرخ زنبور فى أصحابه ، وحمل على العجم ، وهو على مقدمتهم [٣٨٣] فرمى واحد من العجم بسهم فأرماه ، فتهاربت العجم من بين يديه ، وفتحوا له طريقا ، خرج هو وأصحابه وطلبوا صوب كيلان ، لأن جوان شير كان قد ملك الطريق الذى جاءوا منه .

ولما رأى جوان شير أن طرائق المغل قد أخذت خرج على أصحابه وقال لهم : دونكم وإياهم ، ثم أطلق عنان فرسه ، وكان حصانا كرجيا أبرش ، إن حمحم أدهش ، وإن صهل أرعش ، وساق وراءهم فأيقنت المغل بالدمار ، ثم لحق جوان شير الهاربين فطعن فارسا منهم فأرماه ، ثم الثانى ، ثم الثالث ، ثم وصل أصحابه إليه وأحاطوه بهم ، ومسكوا منهم ثلاثين فارسا ، وهرب زنبور ومعه عشرة من أصحابه ، والتجأوا إلى تل عال ، وأسندوا ظهورهم إليه ، وأخذوا قسيهم بأيديهم ، وأيقنوا بالحمام ، وجاء جوان شير بمن معه ، فضربوا عليهم حلقة ، ونادى جوان شير ويلكم يا كلاب ، سلموا أرواحكم وإلا نزل بكم الدمار ، ولما رأى زنبور أن الذى ينادى جوان شير طلب منه الأمان عليه وعلى من معه ، فأمنهم جوان شير ، وسلموا أنفسهم ، وفرح بذلك جوان شير ، ثم سأل عن خربندا ، فأخبروه بأنه نازل على قنغر أولان ومعه خلق لا تحصى ، وهو قاصد إليكم وقد سيرنا لنكشف له الأخبار .

ثم قال جوان شير لتوكل : خذ معك عشر فرسان وخذ هؤلاء الأسرى وسر بهم إلى البلاد ، فقال له : وأنت ؟ ، فقال : أنا قد عولت أن أغار على دشارات خربندا وعسكره ما داموا آمنين من جهتنا . فقال توكل : لا تفعل .

فقال : لا غنى عن ذلك ، ثم قال توكل : فإن كان لا بد من ذلك فأنا ما أروح مع هؤلاء ، ولا أنقطع عنك ، وسألتك بالله العظيم أن لا تحرمنى الغزوة فى هذه النوبة فقال جوان شير : أين الفارس منكلى ؟ فأجابه بالتلبية . فقال له : سِر بهؤلاء ، فسار منكلى بهم .

ورجع جوان شير وأصحابه طالبين دشارات المغل ، فسار فى ذلك اليوم والثانى وعند آخر النهار أشرف على ثغر أولان وإذا عليها عساكر قد سدت تلك الأراضى ، ونُصبت خيامٌ وقبابٌ لا تُحصى ، ودشارات الخيل والجمال سارحات فى البرية ، فلما عاين جوان شير ذلك أكمن بأصحابه فى جانب من العسكر بين كثبان رمل إلى أن ولّى النهار وأقبل الليل ، ولما أظلم الليل قام ومعه أصحابه وقصدوا موضع الدشارات فأتوها وهى سارحة ، والرعاة نيام لكونهم آمنين فى هذا الموضع ، فضربوا عليها الحلقة ، ومن الغرائب أنهم وقعوا بدشار خربندا من خيوله الخاص التى يعتمد عليها ، وخيل الأمراء أيضا ، وهى سبعة آلاف حصان ، ثم ساقوها من بعد ما تمكنوا من قِتل الرعيان ، وقال للدليل : افتح عينك واسلك طريق السلامة ولا تخف ، فها نحن خمسون فارسا خلفك ، ثم ساروا والخيل أمامهم وجوان شير وراء الكل ، ولم يزالوا سائرين إلى الصبح ، فما أصبحوا إلا فى أراضى بعيدة .

ثم علم بذلك المغل وبلغوا الخبر لخربندا بأن جوان شير ساق الدشارات ، فماجت عساكره ، وركب خربندا وقد خفق فؤاده ، وطار رقاده ، وكان إلى جانبه رشيد الدولة الوزير ، [٣٨٤] وسعد الدين ، وقدامه جُوبان ، وأتته أمراء الألوف من كل جانب ، ولم يزالوا واقفين إلى طلوع الفجر ، وكان

جوبان سير جماعة من أصحابه يكشفون له الدشارات فينظرون ما نقص منها ، فحضروا عند الصباح وقالوا : إنما ساقوا خيل خربندا الخاص ودشار الأمراء ، فأعلم جوبان بذلك لخربندا ، فصَعُب عليه وكبر لديه وقال : ما دلّهم على هذا إلا أحد من جندنا ، وإلاّ كيف يكون هذا ؟ فقال جوبان : طيب قلبك ياخوند ، فأنا آتيك بها ، فإلى أين يسيرون بها ونحنُ فى طلبهم ، ثم إنه انتخب خمسة آلاف فارس وسار خلفهم ، وخربندا يقول له : اُجعل بالك من حيلة تُعمل عليك ، فلا تهمل لهم أمرا ، وقلبى خائف من جهة الكشافة الذين سيَّرناهم ، فلا يكون التقاهم فى الطريق شيطان العجم — يعنى جوان شير — فقال جوبان : إن زنبورا خبير بهذه الأراضى ، وما أظن أنه يسلك على الطريق الجادّة ثم سارَ جوبان على عجل ، ويقطع الأراضى فى اليوم والثانى والثالث .

وأما جوان شير فإنه جدّ فى السير، وكلّما يقف فرس من الدشارات يُعرقبه ، ولم يزل كذلك حتى أشرف بمن معه على دربند كيلان ، ثم جازوا الدربند ، فإذا دُوباج التقاهم ومعه ألف فارس وخمسمائة راجل ، وذلك لأنه لما وصل إليه منكلى ومعه زنبور وأصحابه ، وأخبره منكلى بأن جوان شير قد عوّل على أن يذهب ويسوق دشارات خربندا وأمرائه ، ففزع من ذلك وخاف على جوان شير ، وركب من وقته وساق بمن معه إلى أن التقى جوان شير ، وكان آخر النهار ، ولما رأى دوباج تلك الخيل تعجب منها ، وكان لها أيام وهى فى السوق والطرد ، وفى الدربند عُشب ومرعى ومياه تجرى من تلك الجبال ، فوقفت تلك الخيل فى تلك المراعى واشتغلت بها . فقال لهم دوباج : انزلوا بنا نبيت فى هذه الليلة ههنا ونستريح ونريح الخيل ونقوم وقت الصباح ، فأجابوه إلى ذلك ونزلوا .

ولما دخل الليل أخرج دوباج من أصحابه يزكا إلى باب الدربند فباتوا ليلتهم إلى الصباح ، ثم عولوا على الرحيل ، وإذا باليزك قد جاءوا من باب الدربند وأخبروا بأنهم رأوا غبارا قد ظهر من الدرب الذى جاءوا منه . فقال جوان شير : هذا والله خيل خربندا وقد جاءوا وراءه . فقال دوباج : تخلّى الدشارات، وتأخذ معك مائة فارس وتُدبّر لنا عليهم مكيدة ، ثم إن جوان شير ودوباج وأصحابهما جميعهم ساروا إلى رأس الدربند ، وإذا بالغبار قد نما ولحق بعنان السماء ، فقال دوباج عندى رأى . فقالوا : وما هو؟ فقال : أنا أكمن خارج الدربند فى لحف هذا الجبل بين الصخور والأحجار ، ويقف جوان شير بجماعة مقدار سبعين أو ثمانين فارسا ، فإذا رأوك يحملون عليك لأنهم لا يعتقدون أن معك أكثر من هؤلاء ، فصابروا ساعة ، ثم اهربوا واطلبوا الدربند ، فإذا [٣٨٥] ساروا وراءك وعبروا إلى الدربند أخرج أنا من خلفهم ، وأملك عليهم الدرب ، وترد أنت أيضا بمن معك « ... ... »[(١)] .

وسار الوزير يطالب خربندا ومعه جماعة من أهل كيلان من أكابرها [٣٨٧] وأعيانها حتى وصلوا إلى خربندا ، وحدثه الوزير بما جرى ، فرضى خربندا بما وقع عليه الإنفاق ، ثم خلع على هؤلاء وردوهم إلى بلادهم فى إكرام ، ثم رحل خربندا ، وسار حتى وصل إلى قنغر أولان ، وإذا بها خراب ، وقد وقع من قلعتها ثلاثة أبراج وبدنتان من الزلزلة ، وخرب أكثر بيوتها ، وأقام عليها ثلاثة أيام ، ثم رحل حتى أتى تبريز ، ونزل من قلعتها ، ثم سيّر خلف أمرائه وملوك بلاده ، فأتى جميعهم وجمعهم للشورة ، وتحدث معهم فى الركوب إلى الشام ،

(١) « ... ... » ورقتان مطموستان مما يصعب معه متابعة النص .

وذلك لأنه أمن من جهة كيلان ومن جهة خراسان . فقال رشيد الدولة : الرأى عندى أن تتركوا حديث الشام ، وذلك لأن العسكر ضعيف ، ولهم ثلاث سنين فى البيكار ، ووافقه الأمراء على كلامه ، فسكتوا عن ذلك واشتغلوا بغيره . وسنذكر ما جرى بعده فى السنة الآتية والتى بعدها إن شاء الله .

ذكر مقتل هَيْثوم صاحب سيس :

قال بيبرس فى تاريخه : وفيها : وثب مقدم من مقدمى التتار ، كان مجردا ببلاد[1] سيس ، مقدما على التومان المقيم بها ، اسمه بُرلغو[2] على هيثوم[3] صاحب سيس فقتله .

قيل . كان السبب فى ذلك أن بُرلغو قصد أن يُنشىء مدرسة ببلد أذنه ، ويجعل فيها مئذنة ، فلم يوافق هذا رأى صاحب سيس ، وأرسل إلى خربندا يشكوه ويقول له : إنه اتفق مع أهل الشام وواطأ بلاد الإسلام ، فاطلع بعض أصحاب بُرلغو المقيمين بالأردو على ذلك ، فأرسلوا يعرفونه بشكوى المذكور منه ، فخاف على نفسه ، وخطر له أن يحيل بالذنب على صاحب سيس ويحتال عليه ، فعزم على أن يعمل له طُوَى[4] وهى الوليمة ويدعوه ، ورتب مع أصحابه إذا حضر واستقر به القرار يقتلونه ، فلما هيأ له الضيافة حضر إليه هو وإخوته وهم : الناق ، وليون ، وأوشين ، فما استقر بهم القرار إلا وقد وثب أصحاب برلغو عليهم وبذلوا السيوف فيهم ، فقتل هيثوم والناق ، وجرح برلغو ، جرحه بعض الأرمن ،

(١) « ببلد » فى زبدة الفكرة .

(٢) « برلغى » فى التحفة الملوكية .

(٣) « هشوم » فى التحفة الملوكية ، وهو تحريف .

(٤) « طى وهو الوليمة » فى زبدة الفكرة .

فسار متوجها نحو الأردو، وأمسك شخصا يسمى أيدغدى الشهرزورى من مماليك الأمير شمس الدين قرا سنقر نائب حلب، كان عند صاحب سيس من جهة المشار إليه، وجهه له فى طلب القطيعة، وعلم برلغو به، فأمسكه وأخذه معه [على][1] أنه إذا قدمه إلى خربندا يثبت فعله[2] عن صاحب سيس فى مواطآته للسلمين ومراسلته لهم، ثم إن أخا صاحب سيس المسمى ليون توجه إلى الأردو واستصحب معه نساء أخويه الذين قتلا، لابسات الحداد، متذرعات بالسواد، شاكيات من قتل أصحابهن، فلما وقف خربندا على الخبر أمر بقتل برلغو بالسيف، فقتل على مكانته، وأقر صاحب سيس على مملكته وأعاده إلى بلاده[3].

ذكر ما اتفق لابن تيمية فى هذه السنة :

وفى يوم الجمعة رابع عشر صفر: اجتمع قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة بابن تيمية فى دار الأوحد[4] من قلعة الجبل، وطال بينهما الكلام، ثم تفرقا قبل الصلاة، وابن تيمية مصمم على عدم الخروج من السجن، [٣٨٨] فلما كان يوم الجمعة الثالث والعشرين من ربيع الأول: جاء الأمير حسام الدين مهنى ابن عيسى ملك العرب إلى السجن بنفسه، وأقسم على الشيخ ليخرجن إليه، فلما خرج أقسم لا يعود حتى يأتى معه إلى دار سلار: فاجتمع به بعض الفقهاء فى دار سلار وجرى بينهم بحوث كثيرة، ثم فرقت بينهم الصلاة، ثم اجتمعوا إلى المغرب، وبات تقى الدين عند سلار، ثم اجتمعوا يوم الأحد بمرسوم

(١) [ ] إضافة من زبدة الفكرة.
(٢) هكذا بالأصل، والمقصود « قوله ».
(٣) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٥٣ ب — ٢٥٤ ب، وانظر أيضا التحفة المملوكية ص ١٨٢.
(٤) « دار الأوحدى » — فى البداية والنهاية.

السلطان أول النهار ، ولم يحضر أحد من القضاة ، بل اجتمع هناك الفقيه نجم الدين ابن رفعة (١) ، وعلاء الدين بن الباجى (٢) ، وتقى الدين ابن بنت سعد (٣) ، وعز الدين النمراوى ، وشمس الدين بن عدلان (٤) ، وانفصل المجلس على خير ، فبات الشيخ عند نائب السلطنة .

وكان حسام الدين مهنى يريد أن يستصحبه معه إلى الشام ، فأشار سلار بإقامة الشيخ مدة بمصر ليرى الناس فضله ، ويجتمعوا به ، وكتب الشيخ كتابا إلى الشام بمضمون ماوقع من الأمور .

ثم عقد له مجلس بالصالحية بعد ذلك كله ، ونزل الشيخ بالقاهرة بدار ابن شقير ، وأكب الناس على الاجتماع به ليلا ونهارا .

وفى بعض التواريخ : وفيها حضر إلى الأبواب الشريفة الأمير حسام الدين مهنى بن عيسى ، فأكرمه السلطان وخلع عليه ، فخاطب السلطان فى أمر الشيخ ابن تيمية ، فأجاب سؤاله فيه ، وأحضر مهنى بنفسه إلى الجبّ وأخرجه منه ، ثم جرى ما ذكرناه .

وفى شوال اجتمع نحو خمسمائة من الصوفية ، وفيهم شيخ الشيوخ كريم الدين الآملى إلى الحاكم الشافعى ، فاشتكوا الشيخ ابن تيمية من كثرة ماينال من ابن عربى ، فلم يثبت من ذلك شىء ، وجرى كلام فيما يتعلق بالإستغاثة ، فعنفه

(١) « ابن رفع » فى البداية والنهاية .

(٢) « التاجى » فى البداية والنهاية .

(٣) « وفخر الدين بن بنت أبى سعد » — فى البداية والنهاية .

(٤) « عدنان » فى البداية والنهاية .

الحاكم وقال : هـذا يعزر ، ثم خيرته الدولة بين المسير(١) إلى الإسكندرية أو إلى الشام بشروط ، وبين الحبس ، فاختار الحبس على ذلك .

فأشار عليه بعض أصحابه بالشام ، فاختارها ، فأركب على البريد ، فلما انفصل لحقه بريدى آخر فرده ، ثم أحضره إلى الحاكم الشافعى فقال له : الدولة لا ترضى إلا بالحبس ، فأناب القاضى شمس الدين التونسى المالكى . فقال : ماثبت عليه شىء وامتنع أن يحكم ، فأناب نور الدين الزواوى المالكى ، فامتنع أيضا . فقال الشيخ : أنا أمضى بنفسى إلى السجن من غير حكم لاصلاحة ، فحبس فى حبس القاضى — فى المكان الذى كان فيه تقى الدين بن بنت الأعز حين سجن — وجعل عنده من يخدمه ، وكل ذلك بإشارة الشيخ نصر المنبجى ، فأقام الشيخ فى السجن مدة يستفتيه الناس ويزورونه ويتوالونه ويحبونه(٢) .

وقال بعضهم : فى شوال اجتمع الشيخ ابن عطا السكونى وشيخ الخانقاة وجميع الصوفية ، فكانوا أكثر من خمسمائة نفس وطلعوا إلى القلعة ، فلما وصلوها كان هناك جماعة من أرباب الصنائع ، فاختلطوا معهم ، فصاروا جمعا كثيرا ، فلما رآهم أهل الدولة قالوا لهم : اش مرادكم ؟ قالوا : إن تقى الدين بن تيمية تكلم فى مشايخ الطريقة وأنه قال : لا ينبغى أن يستغاث بالنبى صلى الله عليه وسلم ، وسألوا أن يعقد لهم وله مجلس ، [٣٨٩] فردّوا الأمر فى ذلك إلى قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة الشافعى ، ففوض ابن جماعة إلى القاضى تقى الدين الزواوى المالكى ، فاقتضى الحال تسفيره إلى الشام ، فسافر مع البريدى ، ثم ردّوه ، وحبس بحبس الحاكم .

(١) « المصير » فى الأصل ، والتصحيح من البداية والنهاية .

(٢) انظر البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٤٤ — ٤٦ .

وفيها : عقد مجلس بالقصر الأبلق لنجم الدين بن خلكان بحضور نائب السلطنة ، وأحضروا مسطورا كتب عليه بالتوبة فى سنة أربع وسبعمائة ، وذكروا أنه تجدد منه أمور بعد ذلك واختلفوا فى أمره ، فبعضهم أشار بقتله وبعضهم رأى ضربه وتعزيره ، ومنهم من جنح إلى استتابته وحبسه عن الناس ، والرفق به ، وهو الشيخ برهان الدين بن الشيخ تاج الدين ، فرسم نائب السلطنة أن يعمل بقوله ، وانفصل الحال على ذلك ، وكتب عليه مكتوب آخر بالتوبة والإقلاع عما صدر منه من الكلام فى المغيبات ، ووضع بالمارستان مدة ، وأخرج منه وأقام بالنيرب .

ذكر من انعم عليه بإمرة أو وظيفة أو قطع :

وفيها : تولى نيابة غزة الأمير ركن الدين بيبرس العلائى الحاجب ، عوضا عن الأمير سيف الدين أقجبا .

وفيها : نزل سيف الدين كراى المنصورى عن إقطاعه وعدته ، واستقال من إمرته ، واختار الإنقطاع والتخلي عن الإقطاع ، وارتجع خبزه ، وأعطى للأمير بتخاص ومضى إلى القدس ، وأقام ببلاد غزة .

ذكر ما فعل الملك طقطا صاحب البلاد الشمالية ملك التتار :

وفيها : نقم طقطا على الفرنج الجنوية الذين بقرم وكفا والبلاد الشمالية ، لأمور قيلت عنهم منها : استيلاؤهم على أولاد التتار واستجلابهم إلى هذه الأقطار وغير ذلك ، فأرسل جيشا إلى مدينة كفا وهى مسقط رءوسهم ، فأحسوا

بوصولهم فتهيأوا فى مراكب فى البحر وركبوا[1] وساروا إلى بلادهم ، فلم يظفر التتار منهم بأحد ، فنهب طقطا أموال من كان منهم بمدينة صراى وما يليها[2] .

ذكر العزم على تجهيز العساكر الى اليمن :

وفيها : وقع عزم ولاة الأمور بمصر على تجهيز عسكر إلى اليمن ،لأن صاحبها الملك المؤيد هزبر الدين داود [ابن الملك المظفر صلاح الدين يوسف بن رسول][3] منع الهدية التى كانت العوائد جارية بإرسالها إلى الأبواب السلطانية ، فبرز المرسوم على أن كل مقدم ألف منهم يعمّر مركبا كبيرا يسمى جَلبة ، وقياسة لطيفة تسمى فلوة ، برسم حمل الأزواد والآلات ، وتسفيرها إلى جهة الطور والسُوَيس على الظهر لتركّب هناك وتُرْمَى البحر وتُسفّر،فاشترك كل مقدم ألف ومضافيه فى مركب وقارب، وندب عز الدين أيبك الشجاعى المشد إلى قوص لعمارة هذه المراكب ، وانقضت هذه السنة والإجتهاد مستمر فى ذلك ، على أنه إذا تنجزت الأشغال توجه العسكر المجرد صحبة سيف الدين سلاّر .

فسأل اعيان الكارم الإمهال إلى أن يتوجه الرُسُل الى صاحب اليمن ويعود الجواب ،فأمهلوا، وأرسل القاضى شمس الدين بن عدلان والأمير سنقر السعيدى رسلا إلى اليمن، وكُتب إلى صاحب اليمن كتاب من الخليفة ليتقدم بين يدى

(١) « وركبوها » — فى زبدة الفكرة .

(٢) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٥٨ أ .

(٣) إضافة للتوضيح من زبدة الفكرة .

البعوث المجهزة بألفاظ مرجزة، وهذه نسخته : بسم الله الرحمن الرحيم [٣٩٠]: — ﴿يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله و [أطيعوا] الرسول وأولى الأمر منكم﴾(١). ﴿إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم﴾(٢) . أما بعد حمد الله مانح القلوب السليمة هداها، ومرشد العقول إلى أمر معادها ومبداها ، وموفق من اختاره إلى محجة صواب لا يضل سالكها ، ولا تظلم عند اختلاف الأمور مسالكها ، وملهم من اصطفاه لإقتفاء آثار السنن النبوية ، والعمل بموجبات القواعد الشرعية ، والإنتظام فى سلك من طوقته الخلافة عقودها ، وأفاضت على سدته الجليلة برودها ، وملكته أقاصى البلاد وأناطت بأحكامه السديدة أمور العباد ، وصارت تحت خوافق أعلامه أعلام الملوك الأكاسرة، وشيدت بأحكامه مناهج الدنيا ومصالح الآخرة، وتبختر كل منبر بذكره فى ثوب من السيادة معلم ، وتهللت من ألقابه الشريفة أسارير كل دينار ودرهم ، الذى يحمده أمير المؤمنين على أن جعل أمور الخلافة ببنى العباس منوطة ، وجعلها كلمة باقية فى عقبه إلى يوم القيامة محوطة ، ويصلى على ابن عمه محمد الذى أخمد الله ببعثه ما ثار من الفتن، وأطفأ برسالته ما اضطرم من نار الإحن ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الذين حموا حمى الخلافة وذادوا عن مواردها ، وعمدوا الى تشييد المعالم الدينية فأقاموها على قواعدها ، صلاة دائمة الغدو والرواح ، متصلا أولها بطرة الليل وآخرها بجبين الصباح ، هذا وأن الدين الذى فرض الله على الكافة الإنضمام إلى شعبه، وأطلع فيه شموس هداية تشرق من مشرقه ولا تغرب فى غربه ، جعل الله حكمه بأمرنا منوطا، وفى

(١) جزء من الآية رقم ٥٩ من سورة النساء رقم ٤ .

(٢) الآية رقم ٣٠ من سورة النمل رقم ٢٧ . وورد « من عبد الله ووليه أبى الربيع سليمان » — فى زبدة الفكرة .

سلك أحكامنا مخروطا ، وقلدنا من أمر الخلافة المعظمة سيفا طال نجاده ، وكثر أعوانه وأنجاده ، وفوّض إلينا أمر الممالك الإسلامية ، فإلى حُرَمنا تُجبى ثمراتُها ، ويُرفع إلى ديواننا العزيز نفيُها وإثباتها ، يخاف الأسد اذا مضى فى غابه شبلُهُ ، ويلقى فى الخبُر والخبَر مثله .

ولما أفاض الله علينا حُلة الخلافة ، وجعل محلّنا الشريف محل الرحمة والرأفة ، وأقعدنا على سُدّة خلافة طالما تشرفت(1) بالخلائف من آبائها ، وابتهجت بالسادة الغطاريف من أسلافنا ، وألبَسنا خلعة من ملابس السُؤدد مصبوغة ، ومن سواد العيون وسويداوات القلوب مصوغة ، أمضينا على سُدّتنا الشريفة أمر الخاص والعام ، وقلّدنا كل إقليم من عمالنا من يصلح سياستها على الدوام ، واستكفينا بالكفاة من عمالنا على أعمالنا ، واتخذنا مصر دار مَقامنا وبها سدة مُقامنا لما كانت فى هذا العصر قبة الإسلام ، وقبة الإمام ، وثانية دار السلام ، تعين علينا أن نتصفح جرائد أعمالنا ، ونتأمّل نظام عمالنا ، مكانا فمكانا ، وزمانا فزمانا ، فتصفحناها فوجدنا قطر اليمن خاليا من ولايتنا فى هذا الزمن ، عَرّفنا هذا الأمر من اتخذناه والممالك الإسلامية عينا وقلبا ، وصَدراً وَلبا [٣٩١]وفوضنا إليه من الممالك الإسلامية فقام فيها قياما ما أقعد الأضداد ، وأحسن فى ترتيب ممالكها ، فهابه الإصدار ، وغاته الإيراد ، وهو السلطان الأجل السيد الملك الناصر ، لا زالت أسباب المصالح على يديه جارية ، وسحابة الإحسان من أفق راحته سارية ، فلم يعد جوابا لما ذكرناه ، ولا عذرا عما أبديناه إلا بتجهيز شرذمة من جحافله المشهورة ، وتعيين أناس من فوارسه المذكورة ، يقتحمون الأهوال ،

---

(1) « أشرفت » فى زبدة الفكرة .

ولا يعبأون بتغيرات الأحوال ، يرون الموت مغنما إن صادفوه ، وسَبْيا المرهف مكسبا إن صالحوه ، لا يشربون سوى الدماء مدامة ، ولا يلبسون غير الترايك عمامة ، ولا يعرفون طربا إلا ما أصدره صليل الحسام من غنى ، ولا ينزلون قفرا إلاَّ ونَبَت ساعة نزولهم قنا .

ولما وثقنا منه بإيفادهم راجعنا رأينا الشريف فاقتضى أنَّ يكاتب من بسط يده فى مهالكها ، واحتاط على جميع مسالكها ، واتخذ أهلها خولا ، وأبدى فى خلال ديارها من عدم سياسته خالا ، برز مرسومنا الشريف النبوى أن يكاتب من قعد على تخت ملكها ، وتصرف فى جميع أمور دوانها ، فطولع بأنه ولد السلطان الملك المظفر يوسف بن عمر الذى له شبهة تمسك بأذيال المواقف المستعصمية ، وهو مستصحب الحال على زعمه ، أو ما علم الفرق بين الأحياء والأموات ، أو ما تحقق الحال التى بين النفى والإثبات ، أصدرناها إلى الرحاب الثغرية ، والمعالم اليمنية ، نُشعر من تولى فيها فاستبد ، وتولىَّ كبره ، فلم يعرج على أحد أن أمراء اليمن ما برحت نوابنا ، تحكم فيه بالولاية الصحيحة ، والتفويضات التى هى غير جَرِيحة ، وما زالت تحمل إلى بيت المال المعمور ما تمشى به الجمال وئيدا ، وتقذفه بطون الجوارى إلى ظهور اليعملات وليدا ، ويطالعنا بأمر مصالحه ومفاسده ، ومجان مَعَاهده ومُعاهده ، ولك أسوة بوالدك فلان ، هلاَّ اقتفيت ما سنّه من آثاره ، ونقلت ما دونته أيدى الزمن من أخباره .

واتصل بمواقفنا الشريفة أمور صدرت منك :

منها : وهى العُظمى التى ترتب عليها ما ترتب : قطع الميرة عن البيت الحرام ، وقد علمت أنه وادٍ غير ذى زرع ، ولا يحلّ لأحد أن يتطرق إليه بمنع .

ومنها : انصبابك إلى تفريغ مال بيت المال فى شراء لهو الحديث ، ونقض العهود القديمة بما تبديه من حديث .

ومنها : تعطيل أجياد المنابر من عقود اسمنا ، وخلو تلك الأماكن من أمر عقدنا وحلنا .

ولو أوضحنا لك ما اتصل بنا من أمرك لطال ولاتسعت فيه دائرة المقال ، رسمنا بها ، والسيف يود لو سبق القلم حدّه ، والعَلَم المنصور يود لوفات العلم ، واهتز بتلك الروابى قدّه ، والكتائب المنصورة تختار لو بدرت عنوان الكتاب ، وأهل العزم والحزم يودّون إليك إعمال الركائب ، والجوار المنشآت قد تكونت من ليل ونهار ، وبرزت كصور الأفيلة لكنها على وجه الماء كالأطيار . وما عمدنا إلى مكاتبتك إلا الإنذار ، ولا جنحنا إلى مخاطبتك إلا للأعذار ، فاقلع عمّا أنت بصدده من الخيلاء والإعجاب ، وانتظم [٣٩٢] فى سلك من استخلفناه ، فأخذ بيمينه ما أعطى من كتاب ، وصُن بالطاعة من زعمت أنهم مقيمون تحت لواء علمك ، ومنتظمون فى سلك أوامر كلمك ، وداخلون تحت طاعة قلمك ، فلسنا نشن الغارات على من نطق بالشهادتين لسانُه وقلبُه ، وامتثل أوامر الله المطاعة عقله ولبه ، ودان الله بما يجب من الديانة ، وتقلد عقود الصلاح ، والتحف مطارف الأمانة ، ولسْنَا ممن يأمر بتجريد سيف إلّا على من علمنا أنه خرج عن طاعتنا ، ورفض كتاب الله ، ونزع عن مبايعتنا .

فأصدرنا مرسومنا هذا إليهِ نقُص عليه من أنباء حلمنا ما أطال مدة دولته ، وشيد قواعد صولته ، ونستدعى منه رسولا إلى مواقفنا الشريفة ، ورحاب ممالكنا المنيفة ، لينوب عنه فى قبول الولاية مناب نفسه ، وليجن بعد ذلك ثمار

شفقاتنا إن غرس شجر طاعتها ، ومن سعادة المرء أن يجنى ثمار غرسه ، بعد أن يُصحبه من ذخائر الأموال ما كثر قيمته وخفّ حملا ، وتعالى رتبةً وحَسُن مثلاً ، واشرط على نفسك فى كل سنة قطيعة ترفعها إلى بيت المال ، وإياك ثم إياك أن تكون عن هذا الأمر ممن مال ، ورتّب جيشا مقيما تحت علم السلطان الأجل الملك الناصر للقاء العدو المخذول التتار، ألحق الله أولهم بالهلاك وآخرهم بالبوار ، وقد علمت تفاصيل أحوالهم المشهورة ، وتواريخ سيرهم المنكورة ، فاحرص على أن يخصك فى هذا المشرب السائغ أوفر نصيب ، وأن تكون ممن جهز جيشا فى سبيل الله ، فرمى بسهم فله أجر ، كان مصيبا أو غير مُصيب، ليعود رسولك من دار الخلافة بتقاليدها وتشاريفها ، حاملا أهلة أعلامنا المنصورة ، شاكرا بر مواقفنا المبرورة ، وإن أبى حالك إلا أن استمريت على غَيِّك ، واستمريت مرعى بغيك ، فقد ، فقد منعناك التصرف فى البلاد ، والنظر فى أحكام العباد حتى تطأ خيلنا العتاق مشمخرات حصونك ، وتعجل حينئذ ساعة منونك ، وما علمناك غير ما علمه قلبك ، ولا فهّمناك غير ما حدّسه لبك ، ولا تكن كالصفير تزيده كثرة التحريك نوما ، ولا ممن غره الإمهال يوما فيوما ، أعلمناك ذلك فاعمل بمقتضاه ، موفقا إن شاء الله[(1)] .

ذكر قضية أبى ثابت المرينى :

قال بيبرس فى تاريخه : وفى هذه السنة سار « أبو ثابت عامر بن عبد الله ابن أبى يعقوب »[(2)] المرينى لمحاربة يوسف بن أبى عياد متحفظ قلعة مراكش

(١) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٥٥ أ — ٢٥٧ ب .

(٢) « أبو عامر ثابت بن عبد الله » — فى الأصل : والتصحيح من زبدة الفكرة ، وروض القرطاس ص ٣٨٩ ، روضة النسرين فى دولة بنى مرين ص ٢٢ ، وانظر ما سبق ص ٤٣٢ .

لخروجه عن الطاعة ، فخرج يوسف [لمحاربته](1) والتقيا على مراكش ، فكانت الهزيمة على ابن أبي عياد، فأخذ أسيرا ، وقُتل من جماعته تقدير ألف نفر ، وعاد أبو ثابت(2) إلى طنجة ظافرا ، وكان بها أقدام من عرب رباح وغيرهم قد نافقوا عليه فقاتلهم ، وقتل منهم خلقا ، ثم أقام بطنجة فمرض ومات(3) ، وكانت مدته سنة وثلاثة أشهر وأياما(4) .

وجلس بعده على بن يوسف بن يعقوب ، عمه ، وذلك أنه كان مع العسكر لما مات ابن أخيه ، فاستقر في الأمر وظن أنه يتم له فوثب عليه شخص اسمه عبد الله بن أبي مدين ، كان وزير الدولة فخلعه لليوم [٣٩٣] الثاني من جلوسه ، ووافقه العسكر على ذلك .

ولما خلع على المذكور اتفق عبد الله الوزير مع الأشياخ ونصبوا سليمان ابن عبد الله وبايعوه(5) ، فاستمال الناس إليه ، وأخرج الأموال المدخورة وفضها فيهم ، وفرقها عليهم ، وزاد في أعطيات بني مرين ، وأحسن إليهم ، وأبطل المكوس ، ووضع المظالم ، وأحسن إلى الرعية ، فمالت إليه النفوس ، وقبض على [على](6) المخلوع ، واعتقله بطنجة ، واستوزر عبد الله المذكور وأقام اثنين من

(1) [ ] إضافة من زبدة الفكرة .

(2) « أبو عامر » — في الأصل ، انظر ما سبق من تصحيح الاسم .

(3) انظر ما يلي في وفيات السنة ، وورد أن أبو ثابت عامر توفي ٨ صفر سنة ٧٠٨ هـ — روض القرطاس ص ٣٨٩ .

(4) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٥٨ أ ، ب . « فأيامه سنة واحدة وثلاثة أشهر و يوم واحد » — روض القرطاس ٣٨٩ .

(5) بويع في ٩ صفر سنة ٧٠٨ هـ / ١٣٠٨ م، وتوفي في سنة ٧١٠ هـ / ١٣١١ م — الأنيس المطرب ص ٣٩٣ ، ص ٣٩٤ ، روضة النسرين ص ٢٣ .

(6) [ ] إضافة للتوضيح من زبدة الفكرة .

بنى مرين لجباية الأموال ، أحدهما يسمى رجُّو بن يعقوب ، والآخر إبراهيم ابن عيسى[(١)] .

وقال بيبرس أيضا وفيها : خرج الشيخ أبو إدريس بن إبراهيم بن عيسى المرينى ابن عم أبى يعقوب من المغرب قاصدا الحج ، فاتفق وصوله إلى تونس فى أواخر هذه السنة ، فسأله صاحب تونس أن يتوجه إلى جزيرة جربة مقدما على جيش جهزه إليها ، فأجابه وأخرجه وتوجه[(٢)] .

ذكر بقية الحوادث :

منها : أنه جُرّد الأمير شرف الدين أمير أحمد بن قُصرا التركانى ، والأمير بدر الدين بيليك المحُسنى إلى بَرْقة لتمهيد العربان الثائرين بذلك الوجه ، فساروا فى شعبان وأوقعوا بأهل العصيان ، واستاقوا إبلهم وعادوا[(٣)] .

ومنها ما قاله بيبرس فى تاريخه وفيها : مدّا النيل مدّا أروى البلاد وشمل الرُبى والوهاد ، وكان قد قصّر منذ سنوات عن المُعتاد ، وتضرر بتقصيره أهل السواد ، فلطف الله تعالى فى عامه وأجراه بإنعامه ، فانتهتْ زيادته إلى تسعة عشر ذراعا إلّا ثلاثة أصابع ، وكانت بركته كثيرة ، وبلغ غاية ما بلغته الآمال العزيزة ، وزُرعت البلاد زرعا شاملا ، وخُضّرت تخضيرا كاملا ، وأقبل الزرع إقبالا

(١) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٥٨ أ — ٢٥٩ أ وانظر تفصيل هذه الأحداث فى روض القرطاس ص ٣٨٩ — ٣٩٥ ، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى جـ ٣ ص ٩١ — ١٠٣ ، روضة النسرين ص ٢٢ — ٢٣ .

(٢) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٥٩ أ .

(٣) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٥٤ ب .

أعجب الزراع ، فاهتزوا طربا ، وتاهوا به عجبًا وعَجبا ، فلما كان فى أواسط نيسان الموافق لشهر شوال من السنة العربية وبرمهات من السنة القبطية ، وهو وقت كمال الغَلة وختامها ، وحين نهايتها وتمامها ، أرسل الله تعالى عليها ريحا زعزعا ، نخفقت من الحَب ما كان مُمرعا ، فهاف أكثر الزروع وجف معظم الضروع ، حتى ترك أكثرها فى الأرض بغير حصاد ، وغالب الناس لم يسترد ما بذر ، وأكثرهم من خسر وانكسر ، ولم يتحصل للأمراء وأصحاب الإقطاعات إلا النذر اليسير من الغلات ، واحتسبوا بأكثرها بالمسامحات تخفيفا عن الفلاحين ورغبة فى العمارة والتوطين ، فكان ذلك كما قال عز من قائل فى محكم تنزيله : ﴿ إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض ﴾ . إلى قوله ﴿ لقوم يتفكرون ﴾[1] . وتميزت أسعار الغلال حتى انتهى القمح إلى خمسين درهما الأردب[2] ، ثم انحط يسيرا بعد يسير بلطف المسهل كل عسير .

وفيها : حج بالناس الأمير طغريل السلحدار الإيغانى ، أميرا على الركب المصرى ، وبالركب الشامى الأمير سيف الدين بلبان البدرى .

(١) آية رقم ٢٤ من سورة يونس رقم ١٠ .

(٢) زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٥٣ أ ، ب .

ذكر مَن تُوفى فيها منَ الأعيان

الشيخ صالح[(١)] الأحمدى الرفاعى ، شيخ المنيبع .

وكان التتار يكرمونه [لما قدموا دمشق[(٢)]] ولما جاء قطلوشاه نائب ملك التتار [٢٩٤] نزل عنده ، وهو الذى قال لابن تيمية حين تناظروا بالقصر : نحن ما يتفق حالنا إلا عند التتار وأما قدام الشرع فلا .

الشيخ الصالح أبو حفص عمر[(٣)] بن يعقوب بن أحمد السُعودى ، توفى يوم الأربعاء ثانى جمادى الآخر منها .

الشيخ فخر الدين عثمان بن جوشن السُعودى ، توفى فيها ، وجلس أحد أولاده مكانه .

الصدر الرئيس أمين الدين يوسف[(٤)] بن محمد بن رجب الرومى المحتسب بدمشق .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٤٧ ، وورد فى الدرر « صالح بن عبد الله البطائحى ، شيخ المنيبع بالشام » جـ ٢ ص ٢٠٠ رقم ١٩٦٥ .

(٢) [ ] إضافة للتوضيح من البداية والنهاية .

(٣) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٥٩ أ ، السلوك جـ ٢ ص ٤١ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٢٨ ، الدرر جـ ٣ ص ٢٧٥ رقم ٣٠٩٥ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٥٩ أ ، السلوك جـ ٢ ص ٤٢ ، الدرر جـ ٥ ص ٢٤٤ رقم ٥١٤٨ .

مات فيها (١) ، ودفن بتربته جوار الصوفية ، وكان مشكور فى حسبته . أقام متوليها سنين ، وعزل قبل موته بنصف سنة ، ومات وهو ناظر المارستان النورى ، وكان موصوفا بالأمانة والكفاية فى جميع أموره .

الصدر الكبير شرف الدين محمد (٢) بن فتح الدين عبد الله بن محمد بن أحمد ابن خالد القيسرانى الحلبى (٣) ، أحد أعيان الموقعين بالديار المصرية .

مات فى مستهل شعبان بالقاهرة ، ودفن بالقرافة الصغرى ، وكان مشكور السيرة ، حسن الطريقة ، كثير التلاوة ولديه فضيلة مشهورة ، وبيته مشهور ، رحمه الله .

أقضى القضاة جمال الدين أبو بكر محمد (٤) بن عبد العظيم بن على بن سالم الشافعى المعروف بابن السقطى .

مات بالقاهرة ، ودفن بالقرافة الصغرى ، كان مشكور السيرة فى قضاياه ، ناب فى القاهرة مدة أربعين سنة ، وترك القضاء فى آخر عمره ، ومولده سنة اثنين وعشرين وستمائة (٥) ، ووفاته فى حادى عشر شعبان منها .

---

(١) ورد أن صاحب الترجمة « مات فى جمادى الآخرة سنة ٧٠٤ هـ » فى الدرر .

(٢) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ١٧٥ ا ، نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٣٠ ورقة ٤٦ ، الوافى جـ ٣ ص ٣٧٠ رقم ١٤٤٨ ، السلوك جـ ٢ ص ٤٢ ، الدرر جـ ٤ ص ١٠٠ رقم ٣٨٠٦ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٨٠ .

(٣) « ومولده بحلب سنة ثمان وأربعين وستمائة » ـ تذكرة النبيه ، الدرر .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : الدرر جـ ٤ ص ١٢٦ رقم ٣٩١٠ ، شذرات الذهب جـ ٦ ص ١٦ ، السلوك جـ ٢ ص ٤٢ .

(٥) « ولد سنة ٦٣٢ هـ » ـ فى الدرر .

الشيخ الصالح أبو القاسم عمر اليونيني السّلاوى (١).

مات بزاويته خارج باب النصر بدمشق ، كان رجلا صالحا خيرا ، وهو ابن أخت الشيخ ناصر الدين السلاوى ، ومولده في سنة خمس وعشرين وستمائة.

الشيخ المسند شهاب الدين (٢) محمد بن أبي العز بن مشرف البزاز الأنصارى الدمشقى.

مات بدمشق ، ودفن بسفح قاسيون ، وكان قد تفرد بالرواية عن ابن صباح (٣) ، واشتهر بالرواية ، وصار متسمعا بدار الحديث الأشرفية ، رحمه الله.

الصاحب الكبير الفاضل تاج الدين محمد (٤) بن الصاحب فخر الدين محمد بن الصاحب الكبير الوزير بهاء الدين على بن محمد بن سليم المصرى الدار والوفاة ، المعروف بابن حنا.

سمع من سبط السلفى جزء الذهلى ، ومن الشرف المزينى بدمشق ، مات بمنزله ببركة الحبش ، وحمل إلى تربته بالقرافة بالقرب من مشهد الإمام الشافعى

---

(١) هو : عمر بن أبي الفتح بن أبي القاسم بن عمر اليونيني ، وله أيضا ترجمة في : الدرر جـ ٣ ص ٢٦٠ رقم ٣٠٥٤.

(٢) وله أيضا ترجمة في ، درة الأسلاك ص ١٧٧ ، الدرر جـ ٤ ص ٦٧ ، رقم ٤٠٠٦ ، شذرات الذهب جـ ٦ ص ١٦ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٨٣.

(٣) هو الحسن بن صباح المخزومى المصرى، الكاتب، أبو صادق، المتوفى سنة ٦٣٢ هـ/١٢٣٤م ـ شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٤٨.

(٤) وله أيضا ترجمة في ، زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٥٩ أ ، درة الأسلاك ص ١٧٦ ، نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٣٠ ورقة ٤٥ ، المنهل الصافى ، الدرر جـ ٤ ص ٣٢٢ رقم ٤٤١٢ ، الوافى جـ ١ ص ٢١٧ رقم ١٤٦ ، شذرات الذهب جـ ٦ ص ١٤ ـ ١٥ ، فوات الوفيات جـ ٢ ص ٣١٥ رقم ٣٧١ ، مرآة الجنان جـ ٤ ص ٢٤٢ ، كنز الدرر جـ ٩ ص ١٥٢ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٨٤ ، السلوك جـ ٢ ص ٤١ .

رضى الله عنه ، وكانت عنده رئاسة وحشمة وكرم نفس ، وحسن عقيدة فى فى الفقراء والصالحين ، وجده لأمه الوزير شرف الدين الفائزى ، وهو من بيت رئاسة ووزارة كابرا عن كابر ، وهو الذى اشترى الآثار النبوية على ما يقال بأربعمائة ألف درهم(١) ، وهى قطعة من العنزة ، وبرود ، ومخصف ، وملقط ، وقطعة من قصعة ، وجعلها فى المكان المعروف بالمعشوق ، انتهت إليه رئاسة عصره بمصر ، وكان يتباهى فى المطاعم والملابس والمساكن ، وكان كثير الصدقات والتواضع .

قال القاضى شرف الدين بن فضل الله : اجتزت على تربته بالقرافة فرأيت إلى جانبها مكتبا للأيتام وهم يكتبون القرآن فى الألواح ، فإذا أرادوا مسحها غسلوا ألواحهم [٣٩٥] وسكبوا ذلك الماء على قبره ، فسألت عن ذلك ، فقيل لى : هذا شرط الواقف(٢) ، وهذا قصد جيد ، وعقيدة صحيحة .

وله شعر حسن ، فمنه قوله :

لله فى الأحوال لطف جميل فاغن به عن ذكر قال وقيل

ولا تفارق أبدا بابه فمنه قد جاء العطاء الجزيل

واشكر على الإنعام فيما مضى كم أسبل الستر زمانا طويل

وأخبيه المعرض عن بابه خلّى كريما ثم أم البخيل

فقل لمن عدد أنعامه كل لسان عند هذا كليل

(١) « شراهم بستين ألف درهم » ــ فى كنز الدرر جـ ٩ ص ١٥٢ .

(٢) « وأوقفهم فى رباط الذى بجهة الأثر ظاهر مصر على النيل المبارك » ــ كنز الدرر جـ ٩ ص ١٥٢ .

وله موشح (١) :

قد انحل الجسم أسمر أكحل		وأرحل القلب فيه مدخل

يميل		وعنه لا أميل

يحول		وعنه لا أحول

أقول		إذ زاد بى التحول

أما حل عقد الصدود يدخل		ويرحل عن نجمى المزحل

برغمى		كم يستبيح ظلمى

ويرمى		بحربه اسلمى

وجسمى		مع التزام سقمى

منحل وقد غدا مزحل		فلم حل سفك دمى وما حل

متوج		بالحسن هذا الأبهج

مدبج		عذاره البنفسج

مفلج		يرنو بطرف ادعج

مكحل وريقه المنحل		مفحل بالعنبر المحلل

كم ابعد		وكم أبيت مكمد

ويعمد		بهجره لا يفقد

ويجهد		فى ارتضاء من قد

تمحل والحاسدون دحل		ومحل والوعد منه أمحل

(١) « وله موشح مشهور بين أهل مصر التزم فيه الحاء قبل اللام فى أقفاله » ــ الوافى جـ١ ص ٢٢١ .

فلانى واشترط هـذا الجافى
رمانى فى عشقه زمانى
خلانى أشكو لمن يرانى
قد انحل الجسم أسمر أكحل وأوحل القلب فيه مذ حلَّ(١)

وله أيضا :

بالله انشـدوا لى فؤادى قد ضاع وقت الرحيل
واستجيروا كل حادى واستوقفوهم قليـل

* * *

لا أوحش الله منكم يا أهـل وادى العقيق
والله مذ غبت عنكم انسان عينى غريق
والقلب قد سار عنكم مرفقا بذلك الرفيق

* * *

غربتموه عن بلادى والظن فيكم جميل
يهـيم فى كل وادى ما ترحموا ابن السبيل

* * *

قد ذاب قلبى وطرفى وشرح حالى يطـول
ما تنظرون لضعفى أو تسمعوا ما أقول
يا جفنُ ما صرت تخفى ما اشتكى من عـذول

* * *

(١) انظر الوافى جـ ١ ص ٢٣١ — ٢٣٢ .

أشمتّ بى الأعـادى كم ذا عليهم تميـــل
قـــد سار عنى رقادى وصار ليلى طويل

* * *

فشهد إن جزت نجدا فاقرئ عليها السلام
وجـــز ديـار ... ... وانزل بتلك الخيـام
وقل لهم مات وجدا قتـــل ذاك الغرام

* * *

وان صحبت فادى ... ...
فى حبـــكم بالبعـاد وليس عنكم بديل

* * *

يا لائم الصب جهلا دع عنك ما لا يفيد
أكثرت فى الحب عذلا والصبر عنك بعيد
وأنت يا شوق مهلا كم ذا عليهم يزيـــد

* * *

هذى العرب فى البوادى ترعى ذمام النزيل
من فضلهم والأيادى تلقاك ظـــل ظليل

* * *

البرق يخـــق وهنـا يحكى فؤادى الحزين
والدّ تبكى حـــزنا فى دارهم بالأنين

[٣٩٦]

والجسم أصبح مضنَى والقلب معهـم رهين

* * *

يا ساكنا بفؤادى ارحم خضوع الذليل
فأنت مالك قيادى بكل فضل جزيل

الأمير الكبير ركن الدين العجمى بيبرس[١] الصالحى النجمى ، المعروف بالجالق[٢] .

أحد الأمراء البحرية ، كان رأس الجمدارية فى أيام الصالح نجم الدين أيوب ، وأمّره الملك الظاهر ، رحمه الله ، وكان من أكابر الدولة ، كثير المال . وكان له مدة بالشام . مات بالرملة فى منتصف جمادى الأولى، ونقل إلى القدس[٣] ، وكان قد أسنّ فكان آخر البحرية ، وخاتمة الأمراء النجمية ، رحمه الله .

الأمير علاء الدين مغلطاى[٤] البيسرى ، توفى فيها بدمشق .

الأمير بهاء الدين يعقوبا بن نور الدين بدَلَ[٥] الشهرزورى .

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : درة الأسلاك ص ١٧٥ ، نهاية الأرب (مخطوط) جـ ٣٢ ورقة ٤٦ ، المنهل الصافى جـ ٣ ص ٤٧٤ رقم ٧١٩ ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٢٧ ، السلوك جـ ٢ ص ٤٠ ، البداية والنهاية جـ ١٤ ص ٤٧ ، الدرر جـ ٢ ص ٤٤ رقم ١٣٧٦ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٨٠ ، كنز الدرر جـ ٩ ص ١٥١ – ١٥٢ ، الوافى جـ ١٠ ص ٣٤٨ رقم ٤٨٤٢ .

(٢) جالق : بفتح الجيم وبعد الألف لام مكسورة وقاف ساكنة ، باللغة التركية ، اسم للفرس الحاد المزاج الكثير اللعب – المنهل الصافى ترجمة بيبرس الجالق ، النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٢٧ – ٢٢٨ .

(٣) انظر ما سبق ص ٤٤٦ .

(٤) وله أيضا ترجمة فى : زبدة الفكرة (مخطوط) جـ ٩ ورقة ٢٥٩ أ ، الدرر جـ ٥ ص ١٢٤ رقم ٤٨٢٦ ، السلوك جـ ٢ ص ٤١ .

(٥) انظر ما سبق ص ٤٤٦ حيث ذكره المؤلف فى وفيات سنة ٧٠٦ هـ .

مات بالقاهرة ، وكان من أكابر الأمراء مقدمي الألوف بالديار المصرية ، وله مكانة عالية في الأيام الظاهرية ، والمنصورية ، وكان من فرسان المسلمين المشهورين ، رحمه الله .

الأمير شمس الدين الخضر[1] الحلبي ، المعروف بشلحونه[2] .

كان في أيام الظاهر والى القاهرة ، واستمر في الولاية أيام الظاهر والمنصور ، ولما تولى الأشرف عزله وجعله شاد الدواوين لأنه كان ناهضاً أمينا في جميع ما تولاه ، وعنده معرفة ومروءة وديانة ، ولقب شلحونة زمن الولاية ، لأنه كان إذا أراد أن يضرب أحدا يقول : شلحونه[3] ، فبقيت عليه لقبا . وكان والده أمير جاندار الملك الظاهر[4] صاحب حلب .

علاء الدين أيدمر[5] السناني .

مات فيها ، ودفن بمقابر الحموريين بدمشق . كان معروفا بتعبير المنامات ، وينظم الشعر الجيد ، وخدم بقلعة دمشق ، وبقي في مغارة بها .

---

(١) هو : خضر بن إبراهيم ، الأمير شمس الدين الحلبي وله ، أيضا ترجمة في « الدرر جـ ٢ ص ١٧٢ رقم ١٦٤٣ ، كنز الدرر جـ ٩ ص ١٠٤ ، السلوك جـ ٢ ص ٤١ .

(٢) « بشلجونة » — في كنز الدرر .

(٣) « كان يستعمل هذه اللفظة مكان عروة » — الدرر .

(٤) هكذا بالأصل وورد « وكان أبوه خازندار السلطان صلاح الدين يوسف صاحب حلب ودمشق » — في السلوك جـ ٢ ص ٤١ .

(٥) وله أيضا ترجمة في : المنهل الصافي جـ ٣ ص ١٧٩ رقم ٦٠٦ ، درة الأسلاك ص ١٥٣ . النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٢٧ : الدرر جـ ١ ص ٤٠٧ رقم ١١٢٣ والوافي جـ ١٠ ص ١٥ رقم ٤٤٦٦ ، تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٣٥ ، فوات الوفيات جـ ١ ص ٢١٤ رقم ٧٩ . وأورد ابن حبيب وفاة صاحب الترجمة في سنة ٧٠٨ هـ — انظر درة الأسلاك ، وتذكرة النبيه .

ومن شعره :

سفرت نفلت الصبح حين تبلجا ... فى جنح فودٍ كالظلام إذا سَجا
فتانة فتاكة من طرفها ... كم حاول القلبُ النجاة فما نجا
نحلتْ نضير الغصن قامة قدها ... وحبت مهاة الجزع طرفا أدعجا
تفتر عن برد نقى برده ... بالرشف حرّ حشاشتى قد أثلجا
ما إن دخلتُ رياض جنة وجهها (١) ... فرأيت عنها الدهر يوما مخرجا
لما رشفتُ رحيق فيها ظاميـاً ... فازددت إلاّ حرقة وتوهجا
تعطو برخص طرفته بعندم ... وتريك ثغرا كالأقاح مفلّجا
أنّى نظرتَ إلى رياض جمالها ... عاينت ثَمّ مفوّقاً ومدبّجا
زارت وعُمْرُ الليل فى غلوائه ... فغدا من الشمس البهية أبهجا
وسرى نسيم الروض ينكر إثرها ... فتعرفت آثاره وتأرجا (٢)

وله :

وَرَدَ الوردُ فأوردنا المُدَامـا ... وأرحْ بالرّاح أرواحاً هيامى
وأجلها بكرا على خطّابها ... بنت كرم قد أبَتْ إلاّ الكراما

[٣٩٧]

ذاتُ ثغرٍ جوهرىّ وصفُه ... فى رحيق رشفُه يَشْفى الأوَاما
رُقمتْ باللؤلؤ الرطب على ... وجنتها (٣) كالنار لاتألو ضراما

---

(١) « خدها » فى فوات الوفيات .

(٢) الوافى جـ ١٠ ص ١٦ ، فوات الوفيات جـ ١ ص ٢١٤ .

(٣) « وجنة » فى الوافى ، وفوات الوفيات .

أقبلت تسمى بها شمسُ ضحى (١) تُخجل البدر إذا يبدو تماما
بجفون بابلىّ سحرُها سقمُها أهدى (٢) إلى جسمى السقاما
ونضير الورد فى وجنتها نبتُه أنبت فى قلبى الغراما
ودّت الأغصانُ لما خطرت لو حكت منها التثنى والقواما
قال لى خالٌ على وجنتها حين ناديت أما تخشى الضراما
منذ ألقيتُ بنفسى فى لظى خدها ألفيتُ برداً وسلاما (٣)

السلطان (٤) أبو ثابت عامر بن عبد الله بن يعقوب المرينى .

توفى فيها بطنجة ، وكانت مدة سلطنته سنة وثلاثة أشهر وأياما ؛ وجلس بعده على بن يوسف بن يعقوب المرينى ، وقد مرّ خبر قضيته .

* * *

والحمد لله وحده .

يتلوه فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة : الثامنة بعد السبعمائة ، إن شاء الله تعالى (٥) .

(١) « الضحى » فى الوافى ، فوات الوفيات .

(٢) « أبدى » فى الوافى .

(٣) « قلت شعر متوسط » — الوافى جـ ١٠ ص ١٦ — ١٧ .

(٤) انظر ما سبق ص ٤٦٨ وما بعدها ، وله أيضا ترجمة فى : المنهل الصافى ، الدرر جـ ٢ ص ٣٣٨ رقم ٢٠٧٧ ؛ الأنيس المطرب ص ٣٨٩ ، روضة النسرين ص ٢٢ ، الدرر جـ ٢ ص ٣٣٨ رقم ٢٠٧٧ ، وورد فى مصادر الترجمة أن صاحب الترجمة توفى سنة ٧٠٨ هـ وانظر تذكرة النبيه جـ ١ ص ٢٨٣ .

(٥) آخر ما وجد بهذا الجزء بخط المؤلف .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــــــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه وسلم.

وبعد، فهذا هو الجزء الخامس من القسم الخاص بعصر سلاطين المماليك من كتاب " عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان "، لمؤلفه بدر الدين العيني ، وهو عبارة عن : " الجزء العشرون " من تجزئة النسخة الملفقة والمحفوظة بمكتبة ولي الدين باسطنبول، والتي توجد نسخة مصورة منها بدار الكتب المصرية والمحفوظة تحت رقم ١٥٨٤ تاريخ[(١)].

ويتناول هذا الجزء أحداث وتراجم الفترة ٧٠٨-٧١٢هـ / ١٣٠٨-١٣١٢م، ورغم قصر هذه الفترة الزمنية نسبيًا إلا أن العيني أسهب فيها في تفاصيل كثير من الأحداث، والتي لم ترد بهذا الإسهاب في المصادر المتداولة، مما يضفي على هذا الجزء أهمية خاصة، فقد استقى العيني مادته العلمية لهذا الجزء من مصادر معاصرة للأحداث، لم تصل أي منها إلينا، فيما عدا ما ينقله العيني عن بيبرس الدوادار، وابن كثير، والنويري، وهو قليل بالنسبة للتفاصيل التي أوردها العيني في ثنايا هذا الجزء.

ويختلف هذا الجزء عما سبق نشره من القسم الخاص بعصر سلاطين

---

(١) تنظر مقدمة الجزء الأول من عصر سلاطين المماليك ص١١ وما بعدها.

المماليك، فبينما اعتمد الجزء الأول والثاني على القسم الثالث والرابع من الجزء ١٨ من تجزئة النسخة الملفقة، وهو بخط محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي الأخميمي الحنفى، من نسخة كتبها بمنزله بباب الجوانية داخل باب النصر بالقاهرة فيما بين سنتي ٨٩٣- ٨٩٨ هـ ، واعتمد الجزء الثالث والرابع على الجزء ١٩ من تجزئة النسخة الملفقة، وهو بخط المؤلف ، فقد اعتمد هذا الجزء وهو الخامس من القسم الخاص بعصر سلاطين المماليك على : " الجزء العشرون " من تجزئة النسخة الملفقة ، وهو من نسخة بخط الشيخ عبد الله بن الحاج عيسى بن إسماعيل بن عيسى بن إسماعيل بن محمد بن عبد الله العمري الأزهري المالكي ، الخلفى أصلا ، العدوى نسبا ، الكريمى وطنا ، فرغ من كتابتها فى يوم السبت عشية النهار لتسع بقين من شهر صفر سنة ٨٩١ هـ [(١)].

وهي نسخة بخط واضح جيد، وتبلغ مسطرتها ١٩ سطرًا في الورقة الواحدة بمتوسط ٩ كلمات في السطر ، وتسير على نفس نسق النسخ الأخرى من حيث وجود عناوين أساسية، وعناوين فرعية بخط واضح، وقد جاء هذا الجزء في ٤٦٨ ورقة.

وإزاء الاعتماد على نسخة واحدة باعتبارها النسخة الأقدم، والتي وصلت إلينا من خلال النسخة الملفقة، فإن مقابلة النص وتصحيحه تعتمد على مقابلة النص على المصادر المعاصرة ، وبخاصة تلك التي نص العيني صراحة على أنه نقل منها، فضلاً عن تحقيق الأحداث والتعريف بالأعلام والأماكن والمصطلحات من المصادر المتداولة والخاصة بعصر سلاطين المماليك.

(١) لمزيد من الدراسة التفصيلية ينظر : Nobutaka NAKAMACHI , Al-Ayni's Chronicles as a Source for the Bahri Mamluk Period – ORIENT vol. XL ٢٠٠٥ , The Society for Near Eastern Studies in Japan (NIPPON ORIENTO GAKKAI)

وفي ختام هذه المقدمة الموجزة لا يسعني إلا التقدم بالشكر للهيئة العامة لدار الكتب والوثاق القومية ، والشكر موصول إلى مركز تحقيق التراث بالهيئة والعاملين به ، لما قدموه من تيسيرات علمية ساهمت إلى حد كبير في إخراج هذا الجزء على هذا النحو.

وشكر خاص إلى السيد الدكتور حسام عبد الظاهر ، والأستاذة نعمات محمد عباس - أعضاء لجنة التاريخ بمركز تحقيق التراث - لمساهمتهما في مقابلة النص، ومراجعة تجارب الطباعة.

وبعد، فالكمال لله وحده، ولا يسعني إلا أن أذكر قوله تعالى ﴿ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ﴾، وأدعوه سبحانه وتعالى أن يوفقنا لإتمام هذا العمل خدمة للتراث الإسلامي، وأن ينتفع به الباحثون والدارسون وبخاصة في مجال تاريخ مصر والشام في عصر سلاطين المماليك .

والله ولي التوفيق.

دكتور محمد محمد أمين

القاهرة في ٨ ربيع أول ١٤٣٠هـ

٥ مارس ٢٠٠٩م

[٢] بسم الله الرحمن الرحيم ، وهو حسبى

رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

فصل فيما وقع من الحوادث

فى السنة الثامنة بعد السبعمائة(*)

استهلت هذه السنة : والخليفة هو: المستكفى بالله(١) العباسى.

وسلطان البلاد المصرية والشامية هو: الملك الناصر محمد(٢) بن قلاوون، ونائبه بالديار المصرية هو الأمير سيف الدين سلار(٣)، وهو والأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير(٤) يدبران المملكة، وإليهما يرجع الحل والعقد.

ونائب الشام هو: الأمير جمال الدين أقوش الأفرم(٥).

وبحلب: الأمير سيف الدين قرا سنقر(٦).

وبحماة: الأمير سيف الدين قفجق(٧).

وبطرابلس: الأمير سيف الدين أسندمر التركى(٨).

(*) يوافق أولها ٢١ يونيو ١٣٠٨م.

(١) هو سليمان بن أحمد، أبوالربيع، ثانى الخلفاء العباسيين بمصر، بويع بالخلافة بعهد من أبيه فى سنة ٧٠١ هـ/ ١٣٠٢م، وتوفى سنة ٧٤٠هـ/ ١٣٤٠م، مورد اللطافة ١/ ٢٤٢ وما بعدها.

(٢) توفى سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤١م، المنهل الصافى ١٠ / ٢٦٨ رقم ٢٣٢٥.

(٣) هو: سلار بن عبدالله المنصورى، المتوفى سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م، ينظر ما يلى.

(٤) توفى سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م، ينظر ما يلي.

(٥) توفى سنة ٧٢٠هـ/ ١٣٢٠م، المنهل الصافى ٣/٩ رقم ٥١١.

(٦) هو: قرا سنقر بن عبدالله المنصورى، الأمير سيف الدين، المتوفى سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م، المنهل الصافى ٩/ ٤٧ رقم ١٨٥٧.

(٧) هو: قبجق بن عبدالله المنصورى، الأمير سيف الدين، المتوفى سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م، ينظر ما يلى.

(٨) هكذا بالأصل. وهو: اسندمر بن عبدالله الكرجى، الأمير سيف الدين، المتوفى سنة ٧١١/ ١٣١١م، ينظر ما يلى.

ذكر من قدم من الرسل وغيرهم

وفى تاريخ جمادى الأولى من هذه السنة: وصلت رسل صاحب سيس[١] ملك الأرمن، بالحمل المقرر عليه، ومعهم هدية سنيّة، من جملتها: طست[٢] ذهب وإبريق مرصع بالجواهر بديع المنظر بحيث أنه لم يعمل مثله لملك من الملوك، فأعجب السلطان ذلك، وقبله بالفرح، وخلع على الرسل، ثم أعادهم إلى مُرسلهم بعد أن أنعم عليهم[٣].

وفى هذه السنة: وردت الأخبار[٤] باشتغال البحر الملح وحركة الفرنج المخذولين، وانقطعت مراكبهم عن الثغور، فخشوا أن يكون ذلك لأمر من الأمور، فحصل الاهتمام من السلطان بإصلاح [٣] الجسور التى على السبيل السلطانى الواصل إلى ثغر دمياط[٥]، وعمارة قناطره، وتجديد التى دُثرت منها، فندب لذلك الأمير جمال الدين أقوش الرومى[٦] الحسامى، فلما ذهب إلى البلاد شرع فى العمل الذى نُدب إليه، وشَوَّش على الناس بسبب ذلك، فثقلت وطأته على البلاد، وجَبى شيئًا كثيرًا من الأجناد زاعمًا أن ذلك لكُلفة العمل، فلم يزل على ذلك إلى أن تم وكمل.

وندب السلطان أيضًا الصارم الجرمكى[٧] لأجل عمارة الجسر الواصل من قناطر

---

(١) سيس: بلدة كبيرة ذات قلعة بثلاثة أسوار، وهى قاعدة بلاد الأرمن، تقويم البلدان ٢٥٦، وصاحبها فى هذه السنة هو ليون، ينظر زبدة الفكرة ٤٢٧، نهاية الأرب ٣٢/ ١٣٩، عقد الجمان ٤/ ٤٥٨- ٤٥٩، السلوك ٤٣/٢.

(٢) طست = طشت: صوابه بالسين المهملة مع فتح الطاء، وقد غلب استعمال لفظ الطشت، بشين معجمة مع كسر الطاء، صبح الأعشى، ٤/ ٩- ١٠.

(٣) ينظر زبدة الفكرة، ٤٠٢.

(٤) ورد أن هذا الخبر وعمارة الجسر كانتا فى عهد السلطان بيبرس الجاشنكير، ينظر زبدة الفكرة ٤٠٧، السلوك ٢/ ٤٨- ٤٩.

(٥) فجمع السلطان الأمراء وشاورهم، فاتفقوا على عمل جسر مار من القاهرة إلى دمياط خوفًا من نزول الفرنج أيام النيل : فى السلوك ٢/ ٤٨.

(٦) قتل على يد مماليكه سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م، ينظر ما يلى.

(٧) الأمير صارم الدين الجرمكى، كان من الأمراء المجردين لمنع خروج بعض الأمراء إلى الناصر محمد بالكرك سنة ٧٠٩هـ/ ١٣٠٩م، فجُرح بسيف فى فخذه، وسقط إلى الأرض، السلوك ٢/ ٦١، وينظر ما يلى.

الجيزة إلى الرمل آخذًا إلى تحت الهرمين [١]، فذهب المذكور إليه وشرع فيه واجتهد إلى أن أتقنه، وكان مغرمه أيضًا من الأمراء والأجناد.

وفى بعض التواريخ [٢]: أن الأمير جمال الدين أقوش الرومى المذكور لما تولى عمارة الجسر من دمياط إلى القاهرة رسم لسائر الولاة بجمع الرجال والأبقار، وكَتب الأمراءُ أيضًا إلى المشدّين فى بلادهم وإلى استاداريتهم بإخراج الرجال والأبقار وأن أحدًا لا يحتمى، وتوجه الأمير جمال الدين أقوش إلى فارسكور وطلب المهندسين واستهم فى العمل، ورتب ثلاثمائة جرّافة وثلاثين ألف رجل، وأقام حرمة عظيمة حتى قيل أنه دفن جماعة من مشايخ العربان بالحياة فى التراب، ففرغ عن العمل بهذا الاجتهاد فيما دون الشهر، ومد الجسر من باب دمياط إلى قليوب، وعرضه كان [من][٣] فوق أربع قصبات ومن أسفل ست [٤] قصبات [٤]، ولو كان غير أقوش المذكور لما فرغ هذا العمل فى نصف سنة، ولكن هذا كان ناهضًا شاطرًا، صاحب كفاية فى أشغال يتولاها، ولكن كان ظالمًا سفاكًا للدماء.

ذكر تجريدة مصر

وفى هذه السنة: وصلت الأخبار إلى الأبواب الشريفة بحركة التتار، فأمر السلطان بتجهيز جماعة من العساكر المنصورة للتجريد، وقصد فى ذلك إظهار الصيت للقريب والبعيد على وجه الاحتياط والحزم، وإرهاف حَدّ الجدّ والعزم، وليسُمع فى البلاد وعند الملوك أن عين السلطان فى مملكته وأنه ليس [بغافل][٥] عن أمر الملك، فعين من

(١) جسر آخر بطريق الإسكندرية: في السلوك ٢/ ٤٩.
(٢) ينظر السلوك ٢/ ٤٩.
(٣) إضافة يقتضيها السياق، ينظر ما ورد بالسلوك ٢/ ٤٩.
(٤) وعرضه من أعلاه أربع قصبات، ومن أسفله ست قصبات، يمشى عليه ستة فرسان صفًا واحدًا: في السلوك ٢/ ٤٩.
(٥) بعاقل: فى الأصل والتصويب يتفق مع السياق.

مقدمى الألوف مقدمين وهما: الأمير جمال الدين أقوش[١]، الموصلى المشهور بقتال السبع، والأمير شمس الدين الذُكْر [٢] السلحدار، وجماعة من الأمراء أصحاب الطبلخانات، وجماعة من أمراء العشرات، فَتُجهزوا لذلك، ولم يبق إلا البروز، وهم فى التهيُوء فى ذلك، فإذا بالأخبار وصلت من جهة الناصحين للسلطان الملك الناصر[٣] على وجه التحقيق أن العدوّ المخذول قد تأخر وأن أمره قد بطل[٤]، فاستقر القرار وتأخرت حركة البيكار[٥].

وقال الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار فى تاريخه: وقيل: إن السبب كان فى تأخير حركات العدو وسكونهم عن الحركة أن قَرَا [٥] غُولهم [٦] الذين كانوا مجردين على تخوم ممالكهم تجاه قراغول الملك طقطا[٧]، لحفظ البلاد أنفع مع المذكورين، وكبس بعضهما بعضًا، فكانت الكِسْرة على [قرا][٨] غول الملك خَرْبَنْدَا [٩]، وانكسروا كِسرة عظيمة فما نجا منهم إلا نفر يسير، ونُهبت خيولهم وما معهم، وتشتت جمعهم وتفرق شملهم، فكان

(١) هو أقوش بن عبدالله المنصورى قلاوون، الأمير جمال الدين المعروف بقتال السبع، توفى سنة ٧١٠هـ/ ١٣١٠م ، ينظر ما يلى.

(٢) الأمير شمس الدين الذكر السلاح دار، صهر الأمير علم الدين سنجر الشجاعى، مات وهو فى الحبس سنة ٧١٧هـ/ ١٣١٧م، السلوك ٢/ ١٨٠.

(٣) الأشرف الناصر: فى الأصل ومشطوب على كلمة الأشرف.

(٤) وكان هناك سيف الدين بتخاص، أحد مماليك الأمير شمس الدين قرا سنقر نائب السلطنة بحلب، فتوجه بجماعة من الرجالة، وكبس التتار، وأوقع بهم واستظهر عليهم وأسر بعضهم، وحضر إلى الأبواب السلطانية فأنعم عليه: في نهاية الأرب ٣٢/ ١٤٠، وينظر ما يلي.

(٥) البيكار : لفظ فارسي معناه : الحرب عامة، ينظر صبح الأعشى ١٣/٩٤، ٩٧.

(٦) قرا غولهم : كلمة واحدة ، ولكنها وردت فى الأصل بين ورقتين فكتبت على سطرين .

(٧) هو: طقطاى بن منكو تمر بن طغاى بن باطو بن جنكز خان، ملك القبجاق، توفى سنة ٧١٦هـ/ ١٣١٦، المنهل الصافى ٦/٤٢٥ رقم ١٢٦٤.

(٨) إضافة تتفق مع السياق.

(٩) هو: خرابندا = خدا بندا، واسمه محمد بن أرغون بن أبغا بن هولاكو ، السلطان غياث الدين، واختلف المؤرخون فى تاريخ وفاته بين سنوات ٧١٠هـ، ٧١٥هـ، ٧١٦هـ، المنهل الصافى ٥/٢٠٣ رقم ٩٨١، ٩/٣١٥ رقم ٢٠٧٤.

ذلك مانعًا عن مسيرهم(١).

وذكروا أيضًا أن خَرْبَندا جَرْد جوبان(٢) نائبه بمن معه من التوامين رديفًا لقراغوله لما بلغه ما كان منه، وكانت هذه الوقعة المذكورة فى ربيع الآخر، من هذه السنة.

ذكر غارة التتار على مدينة كركر

قال ابن كثير: وفى جمادى الآخرة جاءت جماعة من التتار الذين فى شرق الفرات فأغاروا على بلاد كركر (٣)، وكان هناك أحد مماليك الأمير قرا سنقر نائب حلب يدعى بتخاص، فندبه [نائبًا للقلعة] (٤)، وتوجه بجماعة من الرجال وكبسوا على التتار، وأوقعوا بهم بعد قتال شديد، واستظهروا عليهم، وأخذوا عدة من خيولهم، وأسروا بعضهم (٥)، وعادوا سالمين غانمين، وحضر بتخاص المذكور إلى الباب العزيز بهذا الإعلام، فشمله التشريف بالإكرام والإنعام (٦).

قلت: كان السبب فى تحريك التتار وهجومهم على بلاد الشام وصول الأمير أحمد(٧) بن عميرة إلى خَرْبَنْدا، فلما سمع بذلك التتار طمعوا فى بلاد الشام [٦] واستضعفوا عسكرها حتى أغار منهم جماعة على بلاد كركر.

---

(١) يراجع زبدة الفكرة ٤٠٢ حيث يوجد اختلاف فى بعض الألفاظ.

(٢) هو: جوبان، نائب القان بوسعيد بن خربندا، قتل سنة ٧٢٨هـ/ ١٣٢٧م، المنهل الصافى، ٣٣/٥ رقم ٨٦٨.

(٣) كركر: بالفتح ثم السكون، حصن قرب ملطية بينها وبين آمد، معجم البلدان.

(٤) نائب القلعة : فى الأصل ، والتصويب للتوضيح .

(٥) وأسروا منهم ستين رجلاً: السلوك ٢/ ٤٣.

(٦) لم يرد هذا النص فى البداية والنهاية المطبوع، ينظر ٧٨/١٨- ٧٩.

(٧) هو : أحمد بن علي بن عميرة، الأمير من آل فضل، كان ممن سار إلى بلاد الططر وآذى الناس، ثم رجع عن ذلك وتاب ودخل الشام بالأمان في صفر سنة ٧٠٩هـ : في الدرر الكامنة ٢٣١/١ رقم ٥٥٧، وينظر ما يلي.

ذكر قضية أحمد بن عميرة

كان أحمد بن عميرة هذا ابن عم مهنا[١] بن عيسى ملك العرب، وأنه نفر من الشام إلى بلاد التتار خارجًا عن طاعة السلطان الملك الناصر. وكان هذا من فرسان العرب، وكان أبوه عميرة كذلك، ولأحمد هذا وقائع مشهورة فى العرب وإغارات وكان [لأبيه][٢] صيت عظيم، وكانت له منزلة كبيرة عند السلطان الملك الناصر، وكان الناصر يعظمه لأجل شجاعته وشهامته وكل وقت يُنعم عليه ويُحسن إليه، وكان من كِبره ونخوته ما يجاور مهنا بن عيسى، وكانت له منازل معروفة ومواضع مشهورة ما ينزلها غيره، ولا يدانيها أحد سواه، ومع هذا كان مهنا هو ملك العرب والحاكم عليهم.

واتفق أن عميرة خَطَب أخت مَهنا، فأنعم له بها وأجاب إلى سؤاله، ولكن بعد ما طلب منه مهرًا عظيمًا، فسمع بذلك ثابت بن يزيد، فأرسل إلى عميرة يعتب عليه، ثم أرسل إلى مَهنا لخطبها، فقال للذى جاء من عنده: قل له إنى قد أنعمت بها لعميرة على: خمسمائة جمل، وعشرين رأسًا من الخيل، وعشرين عبدًا، وعشرين أمةً، ومائة ثوب، وخمسمائة [ألف][٣] دينار، فأرسل إليه ثابت وقال: قبلت أنا ذلك، بل إنما أعطى زيادة على هذا، فمهما طلب مهنا من المهر [٧] أنا أقوم به، وكان غرضه أن [لا يعطيها][٤] لعميرة.

وكان ثابت هذا صاحب مال عظيم ومواش كثيرة، ثم إنه تحيّل فى ذلك، فقدَّم لإخوة مَهنا ولأولاده ولمن يلوذ به ــ ممّن كلامه لا يردّ عنده ــ أشياء كثيرة من سائر الأصناف إلى أن انصلح كلهم وصاروا حزبًا لثابت.

---

(١) هو: مهنا بن عيسى بن مهنا، الأمير حسام الدين، أمير آل فضل من عرب الشام، توفى سنة ٧٣٥هـ/ ١٣٣٤م، المنهل الصافى ٢٩١/١١ رقم ٢٥٥٩.
(٢) أبيه: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.
(٣) آلاف: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.
(٤) لا يعطى هى: فى الأصل والتصويب يتفق مع السياق.

فقالوا لمهنا: إن ثابت بن يزيد أولى بإجابة سؤاله وأحق بمصاهرته، وهو أحب إلينا من عميرة، وفيما رأينا مصلحة أخرى وهى أنك إذا أجبت إلى سؤال ثابت وزَوَّجْت أختك منه تكون هى مالكة رقبة ثابت حاكمة فى ماله، لأنه يراعى حقك ويحفظ غيبتك ويقيم حرمتك، فلا جرم يطيع لأختك لأجلك حتى لا يبلغ عنه شيئًا فيه سوء إليك، وأما عميرة فإنه لا يراعى حرمتك ولا يعرف مقدارك فكيف يمسك الحرمة مع إمرأة ؟ والمرأة هى محل الازدراء والاستخفاف، وتكون هي عنده مثل الأسير، فيبلغ إليك ذلك فيسوءك، فتندم على ما فعلت ولا ينفعك الندم فى ذلك الوقت، فتوكل على الله تعالى وزوجها من ثابت فإنه أهل لذلك.

فقال مهنا: كيف أفعل وعميرة قد سبق فى ذلك؟

فلم يزالوا به حتى أنعم بها لثابت.

ثم سير مهنا إلى أخته يقول لها: مَنْ تختارين: ثابتًا أو عميرة ؟

فأرسلت إليه تقول له: يا أمير المؤمنين، تخلى [أحدًا][١] يتخير ؟ لأجل عشاة بعير أو تصاهر لمن [٨] يأتى بمنسف، فإن خيرّتنى فلا أريد سوى عميرة، [فاغتاظ][٢] مهنا من كلامها وقال: أذلّ الله من يشاور النساء، ثم أعطى يده لثابت، وكان بتَلّ [اعزاز][٣]، وهى قرية من بلد سَلَمْية[٤] خاص له، فقال لثابت: أريد أن أهتم فى أمر العرس، فقال: افعل ما بدا لك، فأخذ فى إصلاح شأنه، وأحضر لهم جميع ما طلبوا من المال، وأولم وليمة عظيمة نحر فيها النوق والجمال، وعبر على أهله وسار إلى البرية.

وبلغ الخبر إلى عميرة، فقامت عليه القيامة، وسير إلى مهنا: يقول له: غدرت بى

(١) أحلا : في الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.
(٢) "فاغتاض" فى الأصل.
(٣) اعزا: فى الأصل، والتصويب من معجم البلدان.
(٤) سلمية: بفتح أوله وثانيه وسكون الميم: بليدة فى ناحية البرية من أعمال حماة، وكانت تعد من أعمال حمص، معجم البلدان.

وزوجت امرأتى لغيرى، فرد عليه مهنا يقول له: ما اخترنا غيرك، ولكن لما رأيناك قد قصرت فى الطلب زوجناها لغيرك، لأن المرأة لا تبقى بلا زوج، فبقى ذلك فى قلب عميرة.

ثم فى يوم من الأيام جاءه بعض عبيده وقال له: يا مولاى، إن ثابتًا قد نزل على جُنيجُل – اسم موضع- وهو غوطة، فقام وركب بأربعمائة فارس، وسار وكبس على ثابت وكان معه أربعة آلاف بدوى، فهرب كلهم وهرب ثابت أيضًا، وتبعه هلال بن عثمان وأدركه، فقال له: يا هلال أنا فى جيرتك. فقال له: قد أجرتك، وإذا بعميرة قد أدركه، فقال له هلال: يا أبا أحمد أجرتُه اليوم، فقال له: لا تفعل. فقال: قد كان ذلك، فقال عميرة لثابت: أغدوة [٩] يا طنجير، عليك يوم غيره، فولى ثابت وهو لا يصدق بالنجاة، وأخذ عميرة من بيته عشرة آلاف جمل، وكانت امرأته عند مهنا، فلو كانت حاضرة لأخذها.

وسمع نائب دمشق هذه القضية، وهو الأمير جمال الدين الأفرم، فسيّر إلى عميرة يقول له: أحضر عندنا حتى نعرف حقيقة هذه القضية، فأرسل عميرة ولده أحمد ومعه نوق وجمال وخيول، وقال له: يا أمير، أنت ما تعرف ما بيننا، ونحن عرب يوم لنا ويوم علينا، وبيننا مؤاخذات وتارات، فلما وصل أحمد مسكه النائب، ورسَّم عليه فى الزردخانة (١)، وأقام هناك أيامًا، ثم أخرجه.

فبقى عميرة لا يدخل دمشق، ورحل من منزله ذلك.

وجاء ثابت إلى نائب الشام، وقال له: يا مولاى، أنت نائب دمشق وعميرة يأخذ جمالى من تحت كتفك.

ثم إنه (٢) خلع على أحمد بن عميرة وسيره إلى أبيه، وقال له: لأجلى ردّ على ثابت

---

(١) الزردخاناه: كلمة فارسية مركبة تعنى دار السلاح، كما تعنى أيضًا السجن المخصص للمجرمين من الأمراء وأصحاب الرتب، صبح الأعشى ٤/ ١١، Dozy: Supp. Dict.Ar
(٢) المقصود نائب الشام.

جماله، فلما حضر إلى أبيه وبلّغه ما قال له نائب الشام، قال: نرد عليه جماله لأجل خاطر نائب الشام، ولكن لا يعود ينزل أرضًا ننزل فيه، ولا يقر بها، فرد عليه خَمْسة آلاف جمل. فقال: وأين الباقى؟ قال: نهبتها العربان والبعض مات. وبقى فى قلب عميرة من مهنا نار.

ثم إن مهنا أرسل ابنه موسى [(١)] إلى مصر بالتقادم للسلطان، وهى شئ كثير من الخيل [١٠] والجمال وغير ذلك، فسأله السلطان عن أبيه فقال: هو معزول. فقال: مَنْ عزله؟ فقال: كيت وكيت وأخبر بجميع ما جرى، فاغتاظ[(٢)] السلطان، ثم شرع موسى يذكر أن قصاد عميرة لا ينقطعون عن التتار وأنه مائل إليهم، فعند ذلك أمر السلطان أن يُكتب كتاب إلى نائب الشام بطلبه [(٣)]، فقال الأمير سلار نائب السلطان: فأىّ وقت طلبناه يهرب، ولكن أمراء العرب يحضرون فى هذه الأيام بالتقادم، وأظن أنه يحضر معهم، فإذا حضر نمسكه بلا تعب، واتفق أنه حضر ومعه تقدمة هائلة، فأمر السلطان بالقبض عليه، وحُبس فى البرج، فهرب العرب والعبيد الذين كانوا معه، ووصلوا إلى أبياته وأعلموا ولده أحمد بذلك، فرحل من غوطة دمشق وسار إلى حلب، فأقام بها أيامًا، ثم بلغه أن عميرة مات فى الحبس، فرحل وطلب بلاد الشرق، ونزل على بلد الموصل وتقدم إلى نوين[(٤)] الذى بها، وكان يسمى إيْليا حميش وتدرُّك بحران، ففرح إيْليا حميش بذلك ووعده بكل جميل، فخلى أبياته وعبر إلى الشام، وأغار على تدمر وأخذ من حولها أغنامًا كثيرة وألفى جمل، ورجع بها طالبًا الشرق، وهو يقول: خرجنا من بلاد الإسلام وكذلك من الدين، سوف يَعْلم مهنا من هو غريمه.

---

(١) هو: موسى بن مهنا، الأمير مظفر الدين، أمير آل فضل وابن أميرها، توفى سنة ٧٤٢هـ/ ١٣٤١م، المنهل الصافى ١١/ ٣١٢ رقم ٢٥٨٠.

(٢) فاغتاض : في الأصل.

(٣) المقصود طلب عميرة، ينظر ما يلى .

(٤) النوين: لفظ فارسى، ويستخدم كلقب لنواب ملك التتار، وكبار قادته، صبح الأعشى ٤/ ٤٢٣، ٦/ ٣٣.

ثم إنه سَيَّر إلى مهنا يقول مع بعض العربان: والله، يا طنجير لأقصدنك [١١] ولو كنت فى تخوم الأرض، فالذى يكون ملك يهرب إذا سمع أننى قاصده، فإذا جمع الله بيننا نعرف ذلك الوقت من يصلح للإمرة، ثم اشتغل بالغارات فى بلاد عانة والحديثة أيامًا، ثم رجع وقال: هذه النَّوْبَة ما أقصد إلا مهنا أينما كان.

وكان جواسيس مهنا فى سنجار وأعلموه، وقالوا: ابنُ عميرة قاصد إليك فى ألف فارس، وكان قد رجع من البريّة إلى قريب الرحبة، فرحل ورجع طالبًا تدمر، ولم يزل سائرًا حتى نزل أرض تدمر.

وأما ابن عميرة فإنه لحق العرب من خلف مهنا وأخذ منهم ألف جمل، وأخذ المغالى التى لمهنا وكانت خمسين جارية، وعاد طالبًا بلاده، وهو فرحان بذلك، ومعه جماعة من خدم مهنا عبيد وجوارٍ، فكتب كتابًا إلى مهنا، وفيه هذه الأبيات:

ألا مخبرًا عنّى صبيحًا وسالمًا ... وموسى وسلمانًا وعمرًا وفائِد

بفضل بن عيسى مع مهنا وآله ... وأولاده إنى لهـا غير عائِد

قصدنا كموا فى كل شهم غضنفر ... جَسُور إذا صار الغبار يعاقد

على كل زياف من الخيل أغْضبٍ ... سليل من الخيل العتاق المكابد

[١٢] فيا ملك الأعراب يا مير أهله ... إذا كنت فى الكرام معاند

وأنت ذليل لا ترد طريدة ... تفر إذا عاينت ليثًا لمجالدى

أنا ابن عروس الخيل أحمد فارس ... بضرب اليمانيات كم لى عوائدى

تعودت خوض [الحرب](١) طفلاً فصار لى ... قرينٌ ومألوفُ وكيدُ وكائد

---

(١) إضافة تتفق مع المعنى.

قال الراوى: وسلم الكتاب إلى عبد من عبيد مهنا، فرجع إليه بالكتاب، فقرأه مهنا وأوقف عليه إخوته، وقال لهم: ما أفعل؟ فقالوا له: اركب إليه واطلبه حيثما كان ولا تبقى تحت الذل والهوان.

ثم إن ابن عميرة حضر إلى خرْبَندا وهو على ظاهر تبريز ومعه ألفا جملٍ وعشرون رأسًا من الخيل، فأكرمه خربندا وأحسن إليه، وحكى لخربندا جميع ما جرى عليه، فقال له خربندا: طيّب خاطرك فلك كل ما تريد، فقال: يا مولاى، مكنّى من عشرة آلاف فارس حتى أخرب لك الشام. فقال: كيف تعمل؟ فقال: أواظب على الغارة ليلاً ونهارًا. فقال خربندا: أما تخاف من العساكر؟ فقال: يا مولاى، والله إن [البلاد][1] سائبة، وحال [١٣] الأجناد ضعيف، ولو أنك توجهت إليها لأخذتها من غير حرب.

فلما سمع خربندا هذا الكلام منه فرح وخلع عليه، وَوَعده بأن يقدمه على عشرة آلاف فارس، ثم طلبه بعد أيام وولاه حاكمًا على جيش العراق وديار بكر، وقال لهم: لا تخالفوه إن طلبكم ليلاً أو نهارًا، فأجابوه بالسمع والطاعة.

قال لخربندا: أعطنى دستورًا حتى أروح وأجمع عربانى، ولا يدرى بنا أحد إلا وقد أغرت على أطراف الشام لأنهم آمنون من جهتى، فأذن له، وخرج فى الليل من غير أن يعلم به أحد، وطلب أمراء العرب وكبار عشيرته وأخبرهم بخبره وما فعل به خربندا من الخير وما وعد له، فأجابوا له.

ثم سار معهم يطلب بلاد الرحبة [2]، فنزل على منهل من المناهل يقال له: المقرون، [وإذ][3] قد طلع غبارٌ، فقال لمن معه: استفيقوا، وكان [4] أكثر من ألف وخمسمائة فارس، وانكشف الغبار عن خمسمائة فارس مقدمهم يسمى عبدالرحمن، وكان

---

(١) البلا : في الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٢) الرحبة : على شاطئ الفرات، بين الرقة وبغداد، معجم البلدان.

(٣) وإذا : في الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٤) المقصود "وكان الغبار"، ينظر ما يلى.

من الشجعان المشهورين، فلما رآهم عبدالرحمن صاح على من معه وقال: البلاد غافلة، مَنْ هؤلاء الكلاب؟ والآن يُهلكون الناس، ثم بعث خمسمائة فارس من عسكره إلى البيرة [(١)]، وأخذ خمسمائة أخرى معه وسار يطلب الرحَبَة، وتلاقى مع ابن عميرة، فحمل عليه عبدالرحمن وفرق شمل، ثم رماه بسهم فأصاب فخذه، فولّى هاربًا من بين يديه، ولما رآه عربه [١٤] حملوا على عبدالرحمن وأشغلوه عن ابن عميرة إلى أن ركب حجرة [(٢)] دهماء كانت خلفه مع عبد من عبيده، ولما رأى عبدالرحمن ذلك ترك ابن عميرة واشتغل بعربه أطلق فيهم السهام فأقلب واحدًا، ثم آخر، ثم آخر، ثم آخر، وكان أرمى أهل زمانه.

وانكسرت العرب، فولوا هاربين طالبين النجاة وتبعتهم خيل المسلمين إلى آخر النهار، فأسروا منهم خلقًا كثيرًا، وأخذوا خيلاً كثيرة، وعادوا منصورين غانمين، وطلبوا البيرة، وساروا ليلاً ونهارًا إلى أن أشرف عبدالرحمن على [قلعتها][(٣)]، وقد علموا بقدومه، فركب نائب البيرة، وكان يومئذ طوغان [المنصورى][(٤)]، فتلقى عبدالرحمن بأحسن ملتقى، ونزل هناك، ثم قدَّم عبدالرحمن لنائب البيرة أشياء مما غنمه من العرب.

ثم سار يطلب حلب، وقد سبقت أخباره إلى نائبها الأمير قرا سنقر، فتلقاه مع عسكره وشكره على فعله، ثم حكى له عبدالرحمن بجميع ما جرى فى الوقعة، فقال له قرا سنقر: كيف فات عليك ابن عميرة بعد وقوع هذه الكسرة عليه؟ فقال له: يا مولاى، له فى الحياة نصيب، والآن ما انقطع، ولكن أرجو من الله أن يجعل هلاكه على يدىَّ، والله

---

(١) البيرة: بين حلب والثغور الرومية، معجم البلدان.

(٢) الحِجْر : الأنثى من الخيل، أما قول العامة للواحدة الحجرة بالهاء فهو لحن مسترذل، تاج العروس، مادة حِجْر.

(٣) فعلتها : فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٤) المنصور: فى الأصل وهو: طوغان المنصورى، من مماليك قلاوون، تنقل فى الخدم إلى أن قرره فى نيابة البيرة، ثم قبض عليه الناصر محمد فى أواخر سنة ٧١٠هـ/ ثم أفرج عنه وولاه شد الدواوين بدمشق، ثم قبض عليه وسجن بالكرك إلى أن مات سنة نيف وعشرين وسبعمائة، الدرر الكامنة ٢/ ٣٢٩ رقم ٢٩٥١.

على كل شئ قدير .

وأمر خربندا فإنه عزل إيْليا حميش من الحكم من أطراف بلاده، وقد ذكرنا أنه كان نازلاً على الموصل، وكان يحكم فى تلك البلاد نيابة عن خربندا، [١٥] ولما عزله خربندا ولى عوضه شخصًا من أمرائه يقال له سُوتَاى، وكان من أمكر المغل وأخبثهم وأفرسهم، ثم قال لخربندا: أنا الآن حاكم جديد ولابد من أن أعمل شيئًا أرعب به المسلمين وإلا ما استقر معهم، فقال له خربندا: ماذا تصنع؟ قال: أريد عشرين ألف فارس، فأول ما أنزل أغير بهم على أطراف البلاد، فقال له: افعل ما بدا لك، فجرد معه عشرين ألف فارس، ثم أضاف إليه عشرين ألف فارس أخرى مع شخص من المغل يقال له تُوكال بُغَا، فسار بهم سُوتَاى أولاً إلى [خِلاطُ][١]، وكان ابن عميرة لما هرب من عبدالرحمن وصل إلى [خلاط][٢]، فاجتمع بسوتاي هناك وأخبره بجميع ما جرى عليه مع عبدالرحمن، ثم سار سوتاى ومعه ابن عميرة وجاءوا إلى البشيرية [٣]، فأقاموا عليها ثلاثة أيام، ثم رحلوا طالبين سنجار[٤].

وكان فى سنجار قصاد من حلب، فلما سمعوا بهم خرجوا مسرعين وأتوا إلى حلب وأعلموا الأمير قرا سنقر بذلك، وقال عبدالرحمن: أخاف أن [يغيروا] [٥] على قلعة الروم، فعند ذلك سَيَّر قرا سنقر إلى جميع القلاع وأعلمهم بأن يكونوا على حذر.

وأما سوتاى فإنه جاء بمن معه إلى تصيبين، ثم عاد منها يطلب قلعة الروم، وكان فى تلك البلاد تركمان فأعلمواَ بذلك أهل البلاد، فإذا هو قد عدّى بمن معه من مخاضه

---

(١) أخلاط: فى الأصل، خِلاَط: بكسر أوله، بلدة مشهورة، وهى قصبة أرمينية الوسطى، معجم البلدان.

(٢) أخلاط: فى الأصل، ينظر الهامش السابق.

(٣) قلعة بشير: من قلاع الأكراد، معجم البلدان.

(٤) سنجار: بكسر أوله، وسكون ثانيه: مدينة مشهورة من نواحى الجزيرة، فيما بن الموصل ونصيبين، معجم البلدان.

(٥) تغيروا: في الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

[سُمَيْساط](١) وأغار على حصن منصور، ثم أغار على [بَهَسْنا](٢) إلى قلعة الروم، وكان [١٦] تركمانٌ كثيرٌ نازلين فى هذه البلاد ومعهم أغنام كثيرة وجمال، فساق سوتاى جميعها، وسبى حريم التركمان وأولادها، وبلغ الخبر إلى نائب قلعة الروم، فأرسل إلى نائب حلب وأعلمه بذلك، فجمع نائب حلب أمراء حلب وأعلمهم بذلك، فاتفق رأيهم على أن يبعثوا من يُعْلِم بذلك: نائب الشام، ونائب حماة، ونائب طرابلس، ليجتمعوا على حلب، فإن سوتاى هذا ملعون وله شوكة لا ترد من هذه البلاد.

ثم قال [نائب](٣) حلب لعبدالرحمن: مالك ساكت لا تتكلم؟ فقال: تسمعون منّى؟ قال: نعم، فقال: اجمعوا هؤلاء العساكر جميعهم، فنجتمع كلنا على نهر الساجور(٤)، ثم [نكشف](٥) أخبار سوتاى، فإن كان قصده التوجه إلى ديار بكر سرنا خلفه، وإن كان معولاً على سنجار قطعنا عليه الطريق ونأخذه إن شاء الله تعالى، فاستصوَبوا رأيه، ثم خرجوا إلى ساجور، وخيموا هناك، واجتمع عندهم عساكر القلاع، وأتوا أولاً فأولاً.

وجاء إلى نائب حلب بعض الجواسيس وأخبر أن سوتاى لما أغار على تلك البلاد عاد بمن معه راجعين، ولما سمع بذلك عبدالرحمن قال: يا مولاى، أقول إن شاء الله ما يفوتنا هؤلاء لأنهم لا غنى لهم عن الرواح إلى سنجار، ونحن الآن أقرب إلى سنجار منهم، وهم فى هذا، فإذا جماعة أقبلت من ناحية قلعة الروم وهم خمسمائة فارس [١٧] يقدمها على شير، وأتت جماعة أخرى من ناحية البيرة وهم أيضًا خمسمائة فارس يقدمها سليمان بن اسْبَاسالاَر، وأتت جماعة أخرى من ناحية عينتاب(٦) وهم سبعمائة

(١) شميساط: فى الأصل، والتصويب من معجم البلدان، وهى: سُميساط: بضم أوله وفتح ثانيه: مدينة على شاطئ الفرات فى طرف بلاد الروم على غربى الفرات، معجم البلدان.

(٢) بهستي : في الأصل، والتصويب من معجم البلدان، وهي : بَهَسْنا: بفتحتين وسكون السين، قلعة بقرب مرعش وسميساط، معجم البلدان.

(٣) يا يلب : في الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٤) الساجور: نهر بمنبج، معجم البلدان.

(٥) يكشف : في الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٦) عينتاب: مدينة : بين حلب وأنطاكية، وهى من أعمال حلب، معجم البلدان.

فارس يقدمهم جمال الدين بن قرا على، ولما اجتمع الجميع قالت الأمراء: نُعدى من البيرة، ثم نسير إلى سُروج ، فإن رأينا أثر العدو تبعناه، فقال لهم عبدالرحمن: إن كان لكم غرض فى خلاص ما أخذه [سوتاى][(١)] اللعين من الغنائم وحريم التركمان وأولادهم وغير ذلك فاسمعوا منى، فقالوا: ها نحن نتبعك فيما تريد، فرحلوا، وعبدالرحمن أمامهم وهو ينشد:

أيا قلب دع ذكر الغوير ونعمان ... وعَيش تَقَضّى مع سراةٍ وغلمان

ودع ذكر سُعْدى والرباب وزينب ... وهندٍ وسلمَى فى اثيل وكثبان

وساروا إلى أن عدوا من الفرات إلى أن نزلوا على جُبَ يُسمَّى أمّ جرن، فرووا خيلوهم وعلقوا عليها واستراحوا وأراحوا، ثم رحلوا فى الثلث الأخير إلى الصبح، فنزلوا على البليخ[(٢)]، فتقدم عبدالرحمن إلى قرا سنقر وقال له : يا مولاى، ما للعدوّ طريق إلا من هاهنا، فكونوا مكانكم حتى أسير وأكشف لكم طريق حران وأعود، فقال له قرا سنقر: اذهب واحترس [١٨]، فركب ومعه سليمان وعشرون فارسًا، وساروا آخذين ناحية حران وكشفوا، فإذا هم قد نزلوا على حران، ثم رحلوا منها طالبين ناحية المشهد وعَين الذّهب، فعلم عبدالرحمن أنهم سائرون إلى البليخ، فلم يزل يشارفهم وهو [على][(٣)] رؤوس الجبال والتلال، وكلما طلعوا من شعب عبر هو من غيره إلى المساء، ثم نزل اللعين على عين الذهب لأن معهم ثقل كثير لا يقدرون على الاستعجال.

فلما نزلوا واستقروا وجاء عليهم الليل، قال عبدالرحمن لأصحابه: إنا قد جئنا لكشف الأخبار، فلا يتم ذلك إلا بأخذ أحدٍ منهم نذهب [به][(٤)] إلى الأمير قرا سنقر ليأخذ منه الخبر الصحيح، فقالوا له: صدقت، ثم قاموا ونزلوا على تل عال، ثم نزل

---

(١) سوتان: في الأصل، والتصويب مما سبق.
(٢) البليخ: اسم نهر بالرقة، معجم البلدان.
(٣) إضافة تتفق مع السياق.
(٤) إضافة تتفق مع السياق.

عبدالرحمن ومعه ناصر بن قرا سنقر وقشتمر وإبراهيم ابن أخت عبدالرحمن، وأوصوا لرفقتهم أن لا يتحركوا من موضعهم ولو سمعوا صياحًا إلى أن يصبح الصباح، ثم سار عبدالرحمن بهؤلاء إلى ناحية عين الذهب، وكانت عينًا تطلع وسط المشهد وتنزل فى وسط البرية، وهى رأس البليخ وعليها أقصاب وأشجار، ثم قال عبدالرحمن لمن معه: لابد أن يجئ هاهنا أحد وحده لأخذ ماء أو حطب، فنأخذه، فأقاموا هناك إلى نصف الليل والتتار يجيئون عشرة عشرة وعشرين عشرين يملأون الماء [١٩] ومضى عليهم الليل وانقطع الناس، وهمّ عبدالرحمن بالرواح قبل أن يُعلم مَكانه، فإذا بإنسان جاء وحده ومعه قربة يريد الماء، فقال عبدالرحمن: هذا نأخذه، ولكن اجعلوا بالكم وقت مسكه، فليجعل واحد منكم يده على فمه حتى لا يصيح فيسمعه الناس فيجتمعون فلا نخلص بعد ذلك، فقال قشتمر: دعونى لأجل هذا ولو كان مَنْ كان، فتقدموا ومسكوه، فأراد أن يصرخ، فضرب قشتمر يده على فمه وحلقه وكاد أن تخرج روحه ورماه إلى الأرض، ثم ربطوا يديه وساقوه، ثم ساروا يطلبون رِفقتهم، فأتوا إلى مكانهم، ثم ركبوا وساروا، وقد ستر الله عليهم وأعمى أبصار العدو عنهم إلى أن وصلوا إلى قرا سنقر.

وكان قرا سنقر قد ضاق صدره بسببهم حتى أنه كان ركب مع اليزك[١]، فلما رآه فرح به وقال: ما معكم من أخبار؟ فقدّموا إليه ذلك التترىَّ، فسأله قراسنقر عن حال عسكر سوتاى وعن عددهم وإلى أين طلبهم، وقد كان ناصر الدين بن قراسنقر قد قال له فى الطريق: متى قلت إن التتار أكثر من ثلاثة آلاف فارس ضربت رقبتك، فلما رآه أنه يسأل قال: هم ثلاثة آلاف فارس ومع هذا هم ضعاف وخيولهم تَعَابى هَلكى، فلما سمع الأمراء بذلك زاد طمعهم واشتد قلبهم، ثم قال عبدالرحمن: رأيت رأيًا، قالوا: ما هو؟ فقال: آخذ خمسمائة فارس وأكمن بهم فى هذه الدخلة، [٢٠] فإذا أشرف عليكم العسكر وتصاففتم وزحفوا عليكم انقلعوا من بين أيديهم، ثم انظروا العجب منى ومنهم. فقال له الأمير قرا سنقر: لا يكون لهم طريق غير هذا يذهبون منها، فقال عبدالرحمن: ما لهم

(١) اليزك: طلائع الجيش، صبح الأعشى، ١٠/ ١١.

طريق غير هذا، فقال: افعل بما تريد، فأخذ خمسمائة فارس من الصناديد وكمنوا فى جانب البليخ.

وركب قرا سنقر ورتب أصحاب ميمنةً وميسرة، وما تَضَاحى النهار حتى طلع لهم غبار من ناحية حران، فإذا هو معسكر عظيم ومعهم نساء وأطفال يضجون ويصيحون، فلما رأوهم استكثروهم وداخلهم الرعب، فقال لهم قرا سنقر: لم يبق إلا القتال والثبات ونحن فى مكان لا ملجأ فيه إلا إلى الله تعالى، ثم قال: يا معشر المسلمين، انظروا إلى نساء إخوانكم المسلمين وأولادهم كيف يُساقون وهم فى الذلة؟ وهذه أبواب السماء قد فُتحت فبيعوا أنفسكم لله تعالى.

ولما رأى التتار المسلمين، قال سوتاى لثوكال بُغا: مَنْ هؤلاء قدامنا؟ قال: هذه عسكر المسلمين ولا نعرف من أين جاءوا فاستقلوهم واستحقروهم، ثم رتب سوتاى عسكره ميمنة وميسرة وقلبًا، ثم زحف على المسلمين، فكبر المسلمون وهللوا وصلوا على النبى صلى الله عليه وسلم، ثم حملوا حملة صادقة، ووقع بينهم قتال عظيم إلى أن ولّت المسلمون إلى ورائهم [٢١]، ولما رأت التتار ذلك صرخوا من كل جانب وطلبوا المسلمين، وأبعد المسلمون أنفسهم، ولما علم عبدالرحمن بذلك خرج من خلفهم من الكمين هو وناصر الدين بن قرا سنقر وجمال الدين بن قرا على وسيف الدين كشكل وعلاء الدين الكبْتشى، وعبدالرحمن ينادى إلى أين يا حزب النار؟ وهجم عليهم ناصر الدين بن قرا سنقر، وقاتلوا قتالاً لا يوصف، ولما رأت التتار ما حل بهم من المسلمين وَلُّوا وطَلَبوا النجاة، وطلبتهم المسلمون فى ذلك البرّ، وكان برًا واسعًا وليس فيه ملجأ، ولم يسلم منهم إلا مَنْ كان له عُمر فى الأزل، وتبعهم المسلمون مسافة كبيرة، ثم عادوا واجتمعوا ومعهم من الأسرى خلق كثير، ونزلوا على البليخ، [وأقاموا][1] هناك يومين واستراحوا وأراحوا، ثم نادى قرا سنقر: إن مَنْ وجد شيئًا مع أسير من هؤلاء الأسرى فليأخذه، ثم فرق عليهم ما غنموا من التتار، ثم أمر بقتل الأسرى وحمل رؤوسهم، فكانت حمل جملين، وذلك

---

(١) وأقام: في الأصل.

غير الذى قتل فى المعركة.

وساروا يطلبون حلب، ولما دخلوها كان يومًا عظيمًا، وفى الحال أرسل إلى السلطان يُعرفه بذلك، وأرسل حملاً من جلود رؤوس التتار المحشوة تبنًا، ولما وصل قاصد نائب حلب إلى دمشق "اجتمع بالأفرم وحكى له بجميع ما جرى، وخلع عليه الأفرم، وفرح بذلك فرحًا عظيمًا، ثم جهزه إلى السلطان، وكان الأفرم قد جهز عسكر دمشق"[(١)] مع الأمير سيف الدين بلبان البدرى[(٢)] والأمير سيف الدين بهادر[(٣)] المعزى فأخّر هذه التجريدة إلى مُهِمّ [٢٢] آخر سلطانى.

وأنشد بعضهم فى هذه الوقعة:

سلوا هند عن يوم البليخ وما جَرَى ... لسوتاى بن الكلب مع ثوكال مع قرا
وطغْريل مع مَنْكُود مُرجى وطغرق ... وابن هلاون اللّعين وبَيْدَرَا
أتونا بأصناف طُغاة وأزمنٍ ... جموعٌ تكل العين فيها تَحيُّرًا
فَفَرّق شمْلهم وبدّد جَمْعهُم ... خيول من الإسلام قهرًا مُصَغّرا
بمن كان رأسهم هدير[(٤)] غَضَنْفَرٌ ... يكل لسان الوصف عنه مُخبرا
هو الشهم شمس الدين أوحد عصره ... قَرا سنْقُر المعروف فى ألسن الورا

ولما وصل مملوك قرا سنقر إلى مصر ومعه رؤوس القتلى، وتمثل بين يدي

(١) مكتوب على هامش الأصل، ومنبه على موضعها بالمتن.
(٢) هو: بلبان البدرى، أحد مقدمى الألوف بدمشق، توفى سنة ٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م، الدرر ٢/ ٢٥ رقم ١٣٢٩.
(٣) هو: بهادر بن عبدالله المعزى، من أعيان الأمراء فى الدولة الناصرية محمد بن قلاوون، توفى فى أواخر ٧٣٩هـ أو أوائل ٧٤٠هـ/ ١٣٣٨أو ١٣٣٩م، المنهل الصافى ٣/ ٤٣٠ رقم ٧٠٥.
(٤) هزبر: في الأصل، ومصححة إلى هدير.

السلطان الناصر وحدثه بما جرى، سُرّ السلطان بذلك سرورًا عظيمًا، وخَلع عليه خُلْعة عظيمة، وأعطاه خمسة أروس من الخيل المسومة، وحياصة [١] من ذهب فيها عشر قطع من الجوهر، وسيفًا من سيوفه الخاص، وكتب إلى قرا سنقر كتابًا وشكر فيه شكرًا عظيمًا.

ذكر ما جَرَى على صاحب سيس من التتار

ولما رجع مملوك قرا سنقر من مصر، وبلَّغ كتاب السلطان إليه، ومعه الخُلَع له ولمن كان معه من الأمراء في تلك الغزاة مع التتار، قال للأمراء: أبعثُ إلى صاحب سيس وأطلب منه الحمل المقرر عليه لأنه قد عوّقه وأنه سمع ما جرى على سوتاي مع التتار وربما داخله الرعب، فاستصوبوا ذلك، وطلب الشهروزى [وأرسله] [٢] إلى صاحب السيس.

ولما وصل إليه أكرمه وأجلسه إلى جانبه، وسأله عن قرا سنقر وعن الوقعة التى كانت بينه وبين سوتاى، فأخبره الشهروزى، فأظهر صاحب سيس فرحًا فى الظاهر، وفى الباطن خلاف ذلك، ثم سأله الشهروزى عن سبب تأخير الحمل، فقال: ما كان التأخير تسويفًا منا ولكن عذرنا واضح، وذلك أنه قد وصل إلى قيسارية الروم أمير من أمراء التتار، فأرسل إلىّ وطلبنى أن أحضر عنده، فحصل لى من ذلك تشويش كبير، وما أرضيت رسوله إلا بالغصب، واجتهدت على تشييعه لما سمعت بقدومك، وقدمت له الخيل والأموال، وقلت له: ما أقدر على الحضور إليه لأنى سمعت أن قرا سنقر كسر سوتاي، وربما يغيرون على بلادي، وكان الرسول أيضًا قد بلغه خبر سوتاى، قبل منى العُذر، فسافر والآن ما بقى لنا إلا تجهيز [٢٤] الحمل فى أسرع ما يكون، ثم أرسل إلى

(١) الحياصة: الحزام أو المنطقة، ما يشد فى الوسط، وتختلف باختلاف الرتب، فمنها ما يكون من ذهب مرصع بالفصوص، ومنها ما ليس كذلك، صبح الأعشى ١٣٤/٢.

(٢) وأرسلوا: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

سائر قلاعه وطلب من نوابه ما يجهز به الحمل، فشرع فى تجهيز الخيل والبغال والقماش الفاخر، وفرح بذلك الشهروزى، وأقام هناك مقدار عشرين يومًا.

ثم قال صاحب سيس له: لا تخلّ أحدًا من أصحابك يبرز إلى الناس، فقال له: لم؟ قال: لأنه وصل رسول من الروم وذكر أن أميرًا من أمراء التتار يسمى [قازان] [١] جوق واصل إليكم، فأخشى أن يرى أحدًا منهم أحدًا من حاشيتك فلا يجرى علينا خير، ثم فى ثانى اليوم جاء رسول من قازان جوق يطلب صاحب سيس إليه، وأنه نازل على قلعة تسمى بطرسية لأن تحتها مرج واسع ومياه كثيرة، فلما سمع بذلك طلب أمراءه وقاله لهم: هذا أمر قد رابنى وما لى عادة بالرواح إلى أحد، وما فى قلبى أن أروح إليه، ونفسى تحدثنى عنه بكل شرّ، فقالوا له: اخرج هذا من خاطرك، [أتريد][٢] أن تخرب بلادك بيدك؟ ولابُدّ من الرواح إليه على كل حال، فلم يزالوا عليه إلى أن أجاب إلى الرواح.

ثم طلب الشهروزى وأصحابه وأطلعهم إلى قلعة سيس، وقال له: تعلم أن هؤلاء الكلاب [دخلوا][٣] بلادنا ولا غنى لى عن الرواح إليهم وأرضيهم، فإذا جئت من عندهم نجهز الحمل، ثم سار وأخذ معه جميع أمرائه وعسكره وإخوته، وكان له أخ يسمى قرياقس، وقد بلغ التتار منه أنه كان يقول لناس [٢٥] من جهة التتار: إن أموال بلادنا كلها تُحمل إلى مصر وأن التكفور ومن عنده لا يريدون إلا صاحب مصر، وإن لم يدركوا إلى البلاد وإلا راحت من أيديهم، وهذا قاصد صاحب حلب عند التكفور لطلب الحمل المقرر عليه.

وكان قازان [جوق][٤] لما سمع بهذا الكلام قال لمن معه: إن لم نـدبّر حيلة على صاحب سيس وإلا تغلب، لأن بلاده [٥] قلاع وربما تعصى علينا، ولا نأمن أن يجئ إلينا

(١) قزان : فى الأصل ، فى هذا الموضع وبعض المواضع التالية ، والتصويب وتوحيد الرسم مما يلى .
(٢) فتريد : فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.
(٣) دخو: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.
(٤) جق: فى الأصل، والتصويب مما سبق.
(٥) صاحب بلاده: فى الأصل ومشطوب على كلمة صاحب.

قرا سنقر صاحب حلب ويجرى بيننا وبينه أنحس مما جرى على سوتاى، فقالوا له: افعل ما تريد، وكان فيه من المكر والحيل والخداع ما لا يوصف، فلذلك نزل على قلعة البطرسية وأرسل إلى صاحب سيس وطلبه، ثم أرسل قاصده أيضًا إلى قرا سنقر وقال له: إنى قد عولت على خراب سيس وأُقيل التكفور، ثم آجئ إليك لأتمثل بين يدى السلطان وأدخل تحت طاعته، غير أنى خائف فأريد أن تطلب لى أمان السلطان يكون بيدى.

ولما ذهب رسوله إلى حلب حضر صاحب سيس عنده، فتلقاه قازان جوق بأحسن ملتقى وتيقن إليه، ففرح بذلك صاحب سيس وزال عنه ما كان فى قلبه من الخوف، ثم قدم له ما كان معه من التقادم، ثم التفت قازان جوق ورأى خلف صاحب سيس أخاه قرياقس، وكان معه خمسمائة من الأرمن، وكلهم واقفون، وكان [٢٦] وصاه صاحب سيس أن لا يجلس مع التتار وأن يكون على يقظة منهم، [فقال][(١)] قازان جوق لصاحب سيس: قل لأخيك وأصحابه يقعدون.

فقال: لا يمكن ذلك لأنكم أضياف ونُريد أن نكون كلنا فى خدمتك، ولم يزالوا فى ذلك اليوم فى الشرب والملاهى إلى الليل.

ولما جاء الليل أمنت الأرمن إلى التتار لأنهم رأوا منهم بشاشة وخدمة، ثم قام قازان جوق وأخذ بيد قرياقس وأجلسه إلى جانبه وملأ كأسًا وناوله إياه، وأقسم عليه بأن لا يقوم، فجلس واختلطت الأرمن بالمغل، فشربوا إلى أن ولّى أكثر الليل.

وكان قازان جوق اتفق مع المغل أنهم إذا رأوه أجلس قرياقس بحذاه، فيختلطون هم بالأرمن، وإذا رأوه قتل صاحب السيس يسرعون هم بالقتل فى الأرمن، ثم بقى قازان جوق ينتظر غفلة من صاحب سيس، وإذا بقرياقس قد خرج ليقضي حاجته، فاغتنم قازان جوق وجذب سيفه وضرب رقبة صاحب سيس وأفصلها عن بدنه، فوقع الصياح

(١) فقال له : في الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

فى الأرمن، وسمع قرياقس الصراخ فرجع فتلقاه الأرمن وأخبروه بقتل أخيه، فطلب أن يركب فحالوا بينه وبين الخيل، فارتفعت[1] الأصوات تحت الظلام، وكان قرياقس من الشجعان فهجم على قازان جوق وحصل مركوبًا فركبه، واجتمع [معه][2] عَصَبة من الأرمن فلم يزل يقاتل معهم إلى أن قتل منهم جماعة ومَا [٢٧] أصبح الصبح إلا وقرياقس معه مائة من أصحابه قد أسندوا ظهورهم إلى جبل هناك وقتلوا من المغل كثيرًا، فلما رأى ذلك قازان جوق قال: إن تخلص هذا ودخل[3] قلعة من القلاع لا يحصل لنا خير، فإنه يُعَرِّف بذلك أصحاب القلاع وبما يمسكون الدربندات، وما يمكنوننا من الخروج فنهلك، فحمل هو بنفسه على قرياقس، وكان من فرسان الخيل، فتلقاه قرياقس وجعل قازان جوق نفسه هاربًا بين يديه، ثم أخرج سهمًا وأرسله إليه فأصاب صدره وخرج من ظهره ووقع ميتًا، ثم عمل السيف فى الأرمن وأفنوهم عن آخرهم.

ثم سار قازان جوق ونزل على قلعة سيس ورأس التكفور ورأس أخيه قرياقس على رماح المغل، وأمر أن يُنادى بأنكم رأيتم هذا، فإن أردتم السلامة فأَنْزِلُوا رسولَ[4] صاحب مصر حتى آخذه وأروح وإلا حاصرتكم وأخربت بلادكم وأسبى الحريم والأولاد، وتحيرت الأرمن وتشاوروا فيما بينهم، فاتفقوا على أن يسلموا إليه الشهروزى وأصحابه، فأخذهم قازان جُوق ورحل يطلب ناحية الروم، وكانت الأرمن قد اجتمعوا مع أمير من أمراء القلاع يقال له: زنجفرى، وكان من جبارة الأرمن، وساروا ومسكوا عليهم درب الروم، فلما سمع المغل بذلك لامُوا قازان جوق على فعله. فقال لهم : لا تذلوا أنفسكم [٢٨] يأخذونا، فأشار إليهم أن يخرجوا من دربند مَرى إلى عينتاب، فقال بُرْغلى، وهو أمير أيضًا: نخاف من عسكر حلب، فقال له قازان جوق: لا تخافوا، أنا أصلحت قرا سنقر وعملت معه مكيدة.

---

(١) فارتفع : في الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٢) عنه فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٣) ودخل معه: فى الأصل ومشطوب على كلمة معه.

(٤) رسول: فى هامش الأصل، ومنبه على موضعها بالمتن.

ثم لم يزالوا سائرين حتى خرجوا من المرِى، فجفل فيهم أهل عينتاب وأعزاز والراوندان وأهل تلك البلاد، ثم أرسل قازان جوق إلى أمراء التركمان فى تلك البلاد أن لا تخافوا فإنا من جملة غلمان مولانا السلطان، وقد أخربت بلاد سيس وقتلت التكفور وجئت هاربًا إلى السلطان، ثم أركب جماعة من عنده وأرسلهم إلى الأمير قرا سنقر نائب [حلب][(١)] [بأنه][(٢)] أخرب سيس وقتل تكفور وأخاه وجماعة كثيرة من الأرمن، وأنه وصل إلى عينتاب ومعه عشرة آلاف من المغل وأنه يريد أمان السلطان، فلما وقف قرا سنقر على خبره فرح وأرسل فى الحال بريديًا إلى مصر يُعلم السلطان بما جرى لقازان جوق ونزوله على عينتاب وأنه يطلب الأمان.

وأقام قازان جوق على عينتاب، ووصلت إليه الإقامات والعلوفات، واستراح هو وأصحابه من التعب، وبقى قرا سنقر ينتظر البريدى الذى أرسله إلى مصر، فإذا به وقد حضر ومعه أمان السلطان والخُلع السنية لقازان جوق وللأمراء الذين معه، ووعد لهم بالإقطاعات والأخباز، فأرسل قرا سنقر جميع ذلك إليه مع [٢٩] مملوك من مماليكه يقال له: كيكلدى [الخازندار][(٣)].

فلما وصل إليه كيكلدى قرأ عليه كتاب السلطان، وكان التركمان الذين هناك قد تراجعوا من الجفل واطمأنوا، ولما فرغ [من][(٤)] قراءة الكتاب وأخذ قازان جوق الأمان والخلع قبض على كيكلدى، وركب فى الحال بمن معه، وأغار على التركمان، ثم طلب ناحية أغجا دَرَبند وعبر منها إلى ملطية.

وكان صاحب سيس قد أرسل أخاه هَرِيُنْد إلى خَرْبَنْدا فى الأردو، قبل أن يجرى لقازان جوق ما ذكرناه من الأمور، وكان معه تقادم لخَرْبندا، وكان فى كتابه أن حكام

(١) إضافة مما سبق للتوضيح.
(٢) فإنه : في الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.
(٣) الخزندار : في الأصل.
(٤) عن: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

الروم يطلبون بلادهم كل وقت ويشوشون عليهم، والقصد أن تكون بلادهم تحت حكم الملك، فالذي يعطون لهم ولغيرهم من حكام الشام يُعطون للملك خَرْبندا، فكتب له خربندا يَرْلَق[(١)] بأن لا يحكم عليهم أحد من حكام الروم ولا يعترض إليهم أحد، وإذا دهمهم عدو يركب عسكر الروم إليهم ويُساعدونهم، ثم خلع على هَريْند[(٢)]، فلما وصل إلى سيواس سمع [بما][(٣)] جرى على أخويه وبما حصل للبلاد من التشويش، وأسرع فى الرواح حتى وصل إلى سيس، فرآهم فى حالة عجيبة، ثم جمع أمراء الأرمن وأكابرهم والقسيسين والرهبان وقرأ عليهم يزلق خربندا وتشاوروا فيما بينهم، فكل واحد رأى برأى، فقال هَريْند: يا قوم اعلموا [٣٠] إن بلادنا ما يخربها إلا الشام، ولا سيما الذى جرى فى هذا الوقت من أخذ رسول قرا سنقر، وهو الذى مسكه قازان جوق وتأخير الحمل المقرر علينا ولا نأمن من إغارتهم علينا ويخربون بلادنا ونخسر من الجهتين، فملكُنا قد راح وتخرب بلادنا أيضًا، فقالت الأرمن جميعهم: اعمل بما ترى فيه من المصلحة لأنك اليوم ملكنا والأمر أمرك.

وكان هَرِيند رجلاً عاقلاً، ففى الحال كتب كتابًا إلى قرا سنقر يُعلمه بصورة ما جرى عليهم من أوله إلى آخره، وذكر فيه:

إنا نحن عبيدكم فى هذه البلاد ونوابكم، والأمر أمركم، وقد كنا فى تجهيز الحمل المقرر علينا، فجرى ما جرى حتى تأخر الحمل، ولا نأمن من شرهم، وربّما يرجعون إلينا، فإن جاءوا إلينا فاكشفوهم عنا لأن البلاد بلادكم وإلا أخليناها لكم والأمر أمركم.

فأرسل كتابه مع [مهمندار][(٤)] سيس يقال له: عيسى، ووصوا لعيسى أيضًا أن

---

(١) يزلق : مرسوم.
(٢) هرنيد: فى الأصل، والتصويب مما سبق.
(٣) إضافة تتفق مع السياق.
(٤) مهما ندار : في الأصل، والتصويب من صبح الأعشى.
والمهمندار : فارسى مركب، وصاحب هذه الوظيفة يقوم بلقاء الرسل الواردين على السلطان، وينزلهم دار الضيافة، ويتحدث في القيام بأمرهم، صبح الأعشى ٤٥٩/٥.

يقول لقرا سنقر بأنه يبعث إلينا مَنْ يقبض المال، فلما وصل عيسى إلى قرا سنقر وقرأ كتابه تحير فيه لأجل ما فعل قازان جوق، فآخر الأمر أرسل إليهم مملوكًا من مماليكه يُقال له: علاء الدين ايدغدى ليقبض الحمل، وقال له: إذا وصلت إليهم اقبض المال واكشف خبر خشداشك- يعنى الذى قبض عليه قازان جوق- وكتب كتابًا إلى هريند وذكر فيه: ما أعرف خلاص مملوكى [٣١] إلا منك.

ولما وصل ايدغدى إلى هريند، وقرأ كتابه، طلب ابن خالته [يقال](١) له جرجس، وهو شيطان فى زى إنسان، وكان مقدامًا على الأهوال، وقال له: تروح بكتابى هذا إلى خربندا وتقول له: إن هَريند لما رجع من عندك بِيَزْلق وجد قازان [جوق](٢) وقد قتل أخاه وأخرب بلاده وعصت أهل القلاع ولا يأمنون إلى أحد، فإن لم تبعث يَزْلق بسببي وفيه تطيب قلوب الناس تُخرب البلاد ولا يَسمع أحد من أحد، ولا يخفى على علمه أن سيس وبلادها مِلْك آبائى وأجدادى، فإذا كان بيدى يزلق من الملك لا يطمع فىّ أحدٌ، وهذا الذى فعله قازان جوق ما كان مصلحة، وكان الأمراء الذين كانوا قبله يقدرون على أعظم من ذلك، ومع هذا ما صدر منهم ما صدر من قازان جوق، لأنهم كانوا يعلمون أن غيرنا ما يقدرون أن يقيموا فى بلادنا، وكذا الملك الناصر صاحب مصر لو أراد خراب بلادنا كان أخربها، غير أنا نداريهم على كره منا، وإن كان الملك يحتج علينا برسول صاحب مصر الذى جاء إلينا لأجل أخذ المال، فالملوك من قديم الزمان كانوا يفعلون ذلك، ويراسل بعضهم بعضًا، ونحن بأيدينا يزلق من أبيك بأن نصالح المسلمين ونداريهم، فإن كانتَ لك قدرة أن تردهم عنا فيا حبذا ذلك فنحن نريد أن نعطى الجزية [للمسلمين](٣) لا، وحق [٣٢] ما نعتقده، ولا نعطى الذى نعطى إلا على رغم أنفنا، لأن بلادنا متصلة ببلادهم ونحن مجاورون [لهم](٤)، وهم فى كل سنة يغيرون علينا

---

(١) فقال : فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٢) جق : في الأصل، والتصويب مما سبق.

(٣) للمسين : فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٤) إضافة للتوضيح.

مرات ويخربون بلادنا فما يسعنا إلى مصالحتهم ومداراتهم، فإن [رددتموهم][1] عنا فنحن نحمل إليك الذى نحمله إليهم وأكثر من ذلك، فيكون ذلك أقوم لجاهنا وأقوى لحرمتنا، وأنتم أحق منهم بذلك.

وكتب كتابًا آخر لرشيد الدولة وزير خربندا وذكر فيه:

أن يقول لخربندا أن بلاد الأرمن ما برحت على هذه الصورة من قديم الزمان، وتساعدنا عند الملك بكل وجه، ثم وصّى لجرجس أن يكشف خبر الشهروزى وكيكلدى وما جرى لهما مع خربندا.

وأما [قازان جوق][2] فإنه لم يزل سائرًا من ملطية حتى وصل إلى الأزدو، ومعه أموال وغنائم أخذها من بلاد الأرمن و بلاد عينتاب ومن التركمان، فقدَّم جميع ذلك لخربْندا، وحدثه بما جرى له مع صاحب سيس وكيف قتله بالحيلة، وكيف أخذ الشهروزى من قلعة سيس، وكيف احتال على قرا سنقر حتى أرسل إلى السلطان وأحضر له الأمان والخلع، فتحير خربندا من ذلك، ثم قال له: هل تقدر أن تقيم فى بلاد سيس؟ فقال له: نعم، فإذا تقررت هناك أخرب بلاد حلب إلى حمص ولا أُمكن أحدًا يستقر فى دمشق فى راحة، ففرح بذلك خربندا، فأمر أن يكتب له [٣٣] يزلق بذلك بشرط أن يكون الأرمن على حالهم مع ملكهم، فكتبوا له بذلك، وعول هو على الرواح.

فبينما هو فى التجهيز فإذا جرجس قد وصل بكتب من عند هَرِيْنْد الذى تولى سيس، فلما قرأها خربندا طلب رشيد الدولة الوزير وأوقفه على [الكتب][3]، وحكى له ما جرى لقازان جوق مع صاحب سيس وأنهم قد مَلَّكُوا عليهم هريند.

وكان جرجس حين قدم إلى الأردو اجتمع أولاً برشيد الدولة وقدم له ما أرسل به هريند من التقدمة الهائلة ليساعده عند خربندا، فقال رشيد الدولة لخربندا: يا خوند إن

---

(١) رديموهم : فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٢) قاراجوق : في الأصل، والتصويب مما سبق.

(٣) الكعب: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

بلاد هؤلاء الأرمن مجاورة لبلاد المسلمين وكل وقت [(١)] يغير عليهم المسلمون، فلو أرسلنا كل مَا يُغيرون عسكرًا كان يتعب عسكر المغل وينالهم مشقة، فبلادهم بين بلادنا وبلاد المسلمين، بل هى أقرب إلى بلاد المسلمين، [فما][(٢)] يسعهم إلا المداراة معهم، فإن كنت تريد أن لا يأخذ المسلمون منهم الجزى والمال الذى قرروه عليهم، فجهز العساكر واعتد للمصاف، فقال خربندا: هذا شئ غير طائل، فقال رشيد الدولة: المصلحة أن يُكتب يَرْلِق باستقرار هَرَيُنْد على ما قرره الأرمن عليهم، فيكون نائبًا هناك عن الملك، فيحصل بذلك الخير فى هذا الوقت إلى [أن][(٣)] تتمكن مما تريد غير ذلك، فعند ذلك كتب خربندا يرلق لهريند وسير [٥][(٤)] له ومعه خُلعَةٌ [٣٤] وسيف.

وكان قازان جُوق قد قدم معه الشهروزى وكيكلدى كما ذكرنا، [فأُحضرا][(٥)] بين يدى خربندا، فقال: ما جاء بكما إلى بلادى؟ فقال الشهروزى: أيد الله القان، نحنُ رُسل، وما جرت عادة الملوك بقتل الرسل، فالملك لا يجعل هذا سنةٌ تذكر فى سير الملوك، فلما سمع خربندا بذلك، قال: هؤلاء ما لهم ذنب، ولكن احبسوهم فى موضع إلى أن يرسل صاحب مصر إلىّ بطلبهم، فأُرسلهم إليه، ثم أمر خربندا لقازان جوق أن لا يروح إلى بلاد سيس فإنى أعطيتها لهريُند، ثم شيع جرجس إلى بلاده، فلما وصل إلى هَريُند أعطى له اليرلق والخلعة والسيف، وأخبره بما قال خربندا، وأن الشهروزى وكيكلدى معوقان عنده إلى وقت طلب السلطان الملك الناصر إياهما، ففرح هَريُند بذلك.

وكان قد جهز حمل سيس، [فطلب][(٦)] علاء الدين أيدغدى وسَلَّم الحمل إليه،

---

(١) وقت: ملحقة بين الأسطر فى الأصل.

(٢) فيما: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٣) إضافة للتوضيح.

(٤) إضافة لاستكمال الكلمة.

(٥) فأحضروا: فى الأصل.

(٦) بطلب: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

وأرسل أيضًا لقرا سنقر مثله، وأرسل جماعة من أصحابه صحبة عيسى المهاندار وسأل تقليد السلطان الملك الناصر بالنيابة عنه فى بلاده، وذكر أن الشهروزى ما عليه شئ ولكن فى هذا الوقت ما يمكننى الحديث فيه، وخَلاصه علىّ، ثم لما وصل أيدغدى إلى حلب، وأُحضر قصاد هريند إلى قرا سنقر وسمع كلامهم، جهزهم بالحمل إلى السلطان، [٣٥] فلما وصلوا إلى مصر وحضروا قدام السلطان وتحدثوا أمرَ السلطان بكتابة تقليد بنيابة سيس وبلادها، وخلع عليهم، وردهم، فلما حضروا إلى هَريند طاب خاطره بذلك.

ذكر اهتمام السلطان على خروجه من مصر وتركه السلطنة ورواحه إلى الكرك

بتاريخ العاشر من جمادى الآخرة توجه السلطان إلى الجيزة وخيم بمنزلة الأهرام، ولم يزل مخيمًا بها مترددًا فى الصيد إلى الحادى والعشرين من شعبان(١)، وكان قد نوى أن يخرج من مصر ويُخلى السلطنة لما فيها من التشويش والضجر من تغلب المتغلبين، وجعل إظهار قصده الحج وسيلة إلى ما(٢) نواه فى ضميره، فسأله الأمراء تأخير الحركة فلم يسمع، وشرع فى التجهيز وتعيين مَنْ يسافر معه.

وقال بيبرس فى تاريخه: لما شرع السلطان فى إعداد الأهبة وتعيين من يسافر معه أعلم الأمير سيف الدين سلاّر والركن بيبرس الاستادار بما أضمره، فاجتمعا ذات يوم فى الإيوان بدار النيابة فى شهر رمضان(٣).

قال بيبرس: فحضرت أنا والأمير علاء الدين بن البرواناه عنده، فقال لنا فى معرض

(١) ينظر زبدة الفكرة ٤٠٣، وورد : إلى أن كان العاشر من شعبان المكرم عاد إلى القلعة: فى التحفة الملوكية ١٨٧، كما ورد : وقام يتصيد نحو عشرين يومًا: فى السلوك ٢/ ٤٣، وينظر النجوم الزاهرة ١٧٥/٨ .

(٢) ما: بين الأسطر فى الأصل.

(٣) زبدة الفكرة ٤٠٣.

ما دار بيننا من الحديث: إن السلطان قد قوى عزمه على السفر قاصدًا الحجاز، ولابد له من التوجه إلى الكرك فى طريقه، وربما أنه نوى الإقامة بها، فإذا جرى [٣٦] الأمر على هذا فكيف التدبير؟ وما عندكما من الإشارة للمستشير؟[(١)]

قال بيبرس: فقلت: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كانت إقامته بمدينة يثرب عامة الأيام، وهى وإن عظمت ذكرًا وكرمت قدرًا من أصغر المدن وفى جانب من الحجاز، وكان الناس على طاعته، ولم يمنع [إقامته][(٢)] بها مِنْ متابعته، ثم خلفاؤه من بعده: الإمام أبوبكر الصديق رضى الله عنه، والإمام عمر بن الخطاب رضى الله عنه، كان مقامهما بها واحدًا بعد واحد، وكانت عمالهما بالعراقين وخراسان ومصر والمغرب والشام وبعوثهما تفتح البلاد، وكل هذه الأقطار وشاسع الأمصار يؤدون إليهما الطاعة ويحملون إليهما الأخماس والأفياء على بعد المسافة، وأمرهما نافذ بالرسائل والرسل، ولم يتوقف شئ من أمور الخلافة لبعد الشُّقة ولا تعذّر رسم من رسوم الإمامة لصغر موضع الإقامة، فلو فرضنا إقامة [الملك الناصر][(٣)] بالكرك فى مملكته، وأنتما وسائر نوابه مستمرون على طاعته وامتثال إشارته واستمرار خطبته لجاز ذلك والنظام مستمر، والحال مستقر، وانقضى الخطاب بيننا فى هذا الباب[(٤)].

وفى نزهة الناظر: استولى الأمير سلار والأمير بيبرس الجاشنكير على الملك، وطمعت الناس فى الأجناد، وأىّ أمير لا يطاوعهما على [٣٧] ما يريدان شيعاه إلى الشام، وهلكت أجناد الحلقة، وسَلَّما الشام للأمير أفرم، فاشتغل هو ليلاً ونهارًا [بشرب][(٥)] الخمر والصيد ولا يفكر فى مصلحة الناس، ولم يكن عنده ديانة من الله ولا

---

(١) زبدة الفكرة ٤٠٣.
(٢) إقامه: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.
(٣) إضافة للتوضيح.
(٤) ينظر ما ورد عن هذا الاجتماع فى زبدة الفكرة ٤٠٣-٤٠٤، التحفة الملوكية ١٨٧-١٨٨، حيث يوجد اختلاف فى بعض الكلمات لا يغير من المعنى.
(٥) يشرب: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

حرمة للسلطان يخاف منه، فكتب أهل [الشام][(١)] إلى السلطان مرارًا عديدة يشكون حالهم، فلم يُزل أحدٌ شكواهم، فمتى كان الناصر يقول لسلار وبيبرس أن ينظرا فى هذا ويعملا بمصالح المسلمين، كانا يقولان مَنْ يقدر على رضى الناس؟ ولا يقدر على ذلك إلا الله، وكانا يراعيان الأفرم ويتركان جانب الله تعالى، وكان الناصر كلما يقول لهما اكتبا إلى الأفرم بأن يُقلّل ركوبه إلى الصيد وشرب الخمر وينظر فى مصالح الرعية ويخلص أموال الجند وحقوق الناس، كانا يقولان نعم، فإذا خرجا من عنده لا يفكران ولا يذكران، فبقى السلطان يسمع كل وقت منهما ما يضيق به صدره.

فبينما هو كذلك فإذا قد حضر إليه سليمان[(٢)] بن مهنا أمير العرب ومعه تقادم جليلة وخيل، وكان الناصر مغرمًا بالخيل السبق، فاستعرض الخيل فما لقى شيئًا يرضيه ولا يعجبه، فقال: اش هذا الخيل؟ قال سليمان: يا مولاى نحن نجيب الخيل الملاح التى تعجب السلطان ولكن بيبرس وسلارا يأخذانها، فتقدم عثمان الركاب، وكان [٣٨] خصيصًا بالسلطان، ويكشف أخبار الخيل من العرب وغيرهم، وقال: يا مولانا السلطان، عند سليمان حصان أخضر [ما ملكه][(٣)]كسرى ولا قيصر، فلما سمع به السلطان طار فؤاده وقال: يا سليمان هات هذا على كل حال، فقال: يا مولاى، هذا الحصان أنا اشتريته من أهل البحرين، ولكن إلى الآن ما وزنت ثمنه، فقال: بكم اشتريته؟ فقال: بعشرين ألف وخمسين بعيرًا وخمسين ثوبًا من ثياب بعلبك وخمسين شاشًا وخمسين وصيفة وخمسين منسفًا، فقال له السلطان: أحضر الحصان وأنا أعطيك ما تريد، فأرسل سليمان فى الحال نجابًا إلى ابنه بأن يُسَير له الحصان، فلما وصل الحصان إلى مصر وأحضره سليمان إلى السلطان ورآه أعجبه وفرح به غاية الفرح، وأعطاه كل ما طلب وأطلق له قرية فى بلد حلب مغلها كل سنة خمسون ألف درهم.

---

(١) إضافة للتوضيح.

(٢) هو : سليمان بن مهنا بن عيسى بن مهنا، توفى سنة ٧٤٤هـ/١٣٤٣م، الدرر الكامنة ٢/٢٥٨ رقم ١٨٦٤، المنهل الصافي ٦/٥٥ رقم ١٠٩٩.

(٣) مالكه: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

وبقى السلطان فى ذلك اليوم طول النهار فى الاصطبل من فرحه بهذا الفرس، فسمع سلار وبيبرس بقضية الحصان، فامتلأ غيظًا على سليمان، وبقى الحصان عند السلطان ثلاثة أيام ومات، فحزن عليه السلطان حزنًا عظيمًا.

ولما سمع سلار وبيبرس بموت الحصان حضرا إلى السلطان، وقالا له: اش هذه الأعمال؟ فكل من سمّن فرسًا وأتى به إليك تصرف عليه جملة من بيت [٣٩] المال، ثم أمرا بأن يؤخذ جميع ما أعطاه لسليمان، فبلغ السلطان ذلك، فقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، إش لى أنا فى الملك؟ إذا كنت أعطى شيئًا ثم يُسترد منه، والله ما أرضى بهذا لنفسى ولا غنى لى أن أعمل شيئًا يعجز عنه فحول الرجال ويتحدثون به من بعدى، ثم كتم ما به وأخفاه.

ثم بعد أيام قال لسلار وبيبرس: اعلموا إن البلاد ما تحفظ إلا بالجند، والجند ما تصلح إلا بالمال، والمال لا يحصل إلا بالعدل، وقد بلغنى أن جند الشام هلكى وأحوالهم فاسدة، وقد عولت أن أخرج إلى الشام ونُصَيّف فيه ونكشف أحوال البلاد، فقالا: حركة السلطان ما هى هينة، فإذا تحركت ارتجت البلاد [ويخلو][1] بيت المال، فمالك أمر ضرورى يحوجك إلى الخروج، فقال لهما السلطان: كل هذا شفقة على بيت المال، ولى عشر سنين أسمع تقولان: نجمع شيئًا فى بيت المال لمصالح المسلمين، وهذا بيت المال فارغ، فقالا: لا يَسمع السلطان كلام مماليكه فينحل نظام ملكه.

ثم خرجا من عنده وتشاورا فى ماذا يُصنع، وكذلك السلطان طلب الأمير بكتمر[2] الجوكندار وقال له: قد عولت على أمر، فقال: ما هو؟ قال: غدًا إذا جاء سلار وبيبرس اقبضوا عليهما، فإن امتنعا اضرب رقابهما، ثم إنه طلب مماليكه كلهم ورتبهم بين

(١) ويخلى: فى الأصل.

(٢) هو: بكتمر أمير جندار المنصوري، كان أولاً جوكندارًا، ثم صار أمير جندار، قبض عليه في جمادى الأولى ٧١١هـ وسجن بالإسكندرية، ثم نقل إلى الكرك، ويقال إنه قتل بها في سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م، الدرر الكامنة ١٨/٢ رقم ١٣٠٧، المنهل الصافي ٢٩٨/٣ رقم ٦٨٠.

الأبواب والدهاليز [٤٠] وأخفاهم فى داره.

وفى تلك الليلة سير الأمير بكتمر الجوكندار إلى سلار وبيبرس يقول لهم: إذا جزتما غدًا إلى القصر مسككما السلطان، وقد رتب مماليكه بين الأبواب.

فلما سمعا بذلك طلبا أمراء مصر فى الليل، وحَلَّفاهم بأن يكونوا معهما على ما يريدان ولا يخون بعضهم بعضًا، ثم قال لهم سلار: يا أمراء ما يعرف هذا السلطان أحد أكثر منى، فوالله، فأى وقت تمكن منكم ما يخلى منكم أحدًا لا كبيرًا ولا صغيرًا، فحلف كلهم أنهم مع سلار وبيبرس يدًا واحدة.

فلما أصبحوا لبس سلار الزردية[١] تحت ثيابه وكذلك بيبرس، وألبسا مماليكهما أيضًا الزرديات تحت الثياب، وجاءوا وقعدوا على باب القُلَّة[٢]، وجاءت الأمراء إلى الخدمة وبقى السلطان ينتظر أن يعبر إليه أحد، فما عبر إليه أحد إلى الظهر، فأرسل أرغون[٣] الدوادار وطلب الأمراء أن يعبروا عنده، فقال سلار: ما لنا عبور إليه ما دام هو على هذه الفعال الذى قد عول عليه، ولكن هذا جزاؤنا منه، خدمناه وحفظنا له الملك وهو يطلب هلاكنا، فعبر أرغون، وقال: قد بلغهم ما عولت عليه، وأنهم قد أخذوا حذرهم، فقال له السلطان: رُوح إليهم وقل لهم: إن الذى سمعتم هو كلام الأعداء، فلا تسمعوا ذلك، فاعبروا حتى [٤١] نحرّر هذا الأمر ونبصر من قال هذا الحديث، فخرج أرغون إليهم وقال لهم ما قال السلطان، فقالوا: ما بقى يروج علينا هذا.

ثم إنهم قاموا ونزلوا من باب القُلَّة إلى سوق الخيل، وأمر سلار بضرب كوساته[٤]، ونفخ بوقاته، فاجتمعت إليه الأمراء من كل ناحية، فعند ذلك أمر السلطان بغلق باب القلعة، ودارت الأمراء مع سلار وبيبرس حول القلعة.

(١) الزردية : نوع من الدروع يلبسها المقاتل للوقاية من السيوف والسهام، ينظر صبح الأعشى.

(٢) قلة القلعة : أي قمة القلعة، ينظر لسان العرب.

(٣) هو : أرغون الدوادار، اشتراه المنصور ورباه مع ولده الناصر محمد، وكانت وفاته بحلب سنة ٧٣١هـ/١٣٣٠م، الدرر الكامنة ٣٧٤/١ رقم ٨٧٣، المنهل الصافي ٣٠٦/٢ رقم ٣٦٧.

(٤) كوسة ـ كوسات : صنوج من نحاس تشبه الترس الصغير، يدق بأحدها على الآخر بإيقاع مخصوص، ويتولى ذلك الكوسي، ينظر صبح الأعشى ٩/٤، ١٣.

القلعة، ودارت الأمراء مع سلار وبيبرس حول القلعة.

وكان لسلار أخ يُقَال له: سُمُك، وهو أعرج، شيطان، عريض الأكتاف، فساق هو وجماعة من مماليك سلار وأخوته إلى اصطبل السلطان وأخذوا كل ما فيه من الخيل، وطلع السلطان إلى الطارمة(١) وأخرج رأسه لينظر، فرماه سُمُك بسهم كاد أن يصيبه، فعند ذلك تقدمت مماليك السلطان ورموا، وسُمُك أيضًا رمى بمن معه، فعظم الأمر، وقتل من مماليك السلطان جماعة، وطلب مماليك السلطان أن يفتحوا باب القلعة وينزلوا، فمنعهم السلطان، وقال: لا يخرج أحدٌ، فجميع الأمراء مع سلار والدنيا منقلبة علينا، ودام الحصار على القلعة ثلاثة أيام.

ثم اجتمعت فقهاء مصر وقضاتها وصلحاؤها، وقالوا لسلار وبيبرس: هذا ما يحل لكم من الله تعالى أن تعملوا مع ابن أستاذكم هذا، ارجعوا إلى الله تعالى، فقال سلار: يا قوم نحن معذورون وهو الذى يطلب هلاكنا، وحققنا ذلك، من غير جريمة جرت منّا، [٤٢] ثم طلعوا عند السلطان، فرحب بهم السلطان وقالوا له : سألناك بالله أن تحقن دماء المسلمين. فقال: ما جرى مِنى، هم الذين حاصرونى وأخرقوا بناموسى وضيعوا ما كان بينى وبينهم، فقالوا: هم قالوا: إنك قد طلبت هلاكهم. فقال السلطان: هذا ليس بصحيح وإلا فتقولون لى مَنْ قال هذا القول؟ فقالوا: ما قال إلا الأمير بكتمر الجوكندار، فقال ما عندى من هذا علم فأنكر.

ثم لم [يزل](٢) هؤلاء بينهم حتى أنهم اتفقوا على أن يُخرجوا الجوكندار من مصر إلى الشام والمماليك الذين كانوا سبب هذه الفتنة، فوافقهم السلطان على ذلك، لأنه رأى من نفسه عجزًا وتقصيرًا فى دفع هذا الشر، فأخرجوا الأمير بكتمر إلى قلعة صفد، وفرقوا هؤلاء المماليك من حول السلطان، ثم حلف السلطان أنه لا يسمع فيهم كلام أحد من

(١) الطارمة : بيت من خشب يبنى سقفه على هيئة قبة، معد لجلوس السلطان، معرب عن تارم، معجم الألفاظ الفارسية المعربة ١١٢.

(٢) يزال: فى الأصل.

الناس، ولكن فى قلبه نار بعدم تمكنه منهم.

ثم جاء إليه سلار وبيبرس وغيرهما، فقبلوا الأرض ووقفوا بين يديه، فخلع عليهم ولم يحدثهم بما كانوا فيه، بل قال لهم : على كل حال ما أعرف أحدًا ربانى إلا أنتم، فجزاكم الله عنى خيرًا، فباسوا الأرض وخرجوا، وفى قلبه منهم شئ عظيم.

ثم إن السلطان بقى فى الفكر ليلاً ونهارًا فيما يريد ويصنع حتى إنه اصفر لونه وتغير ذاته، فقال له مملوكه أرغون الدوادار: [٤٣] لا يحمل مولانا السلطان على قلبه همًا ففى أضيق ما يكون يأتى الله بالفرج، فقال: يا أرغون والله الموت أهون عليّ من هذا، فأين السلطنة؟ فلا أقدر على إعطاء ومنع، ولا على [كشف][1] ظلامة أحد، فإش يكون أعظم من هذا؟ ثم أنشد:

ألاَ مـوت يُبـاع فأشـتريه   فهـذا العـيش مـا لا خـير فيـه
ولـو أبـصرت قـبرًا في فـلاةٍ   وددت بـأن أكـون ممـا يليـه

فقال: يا أرغون اكتم ما معك، فسوف ترى ما يكون.

ثم إن السلطان كل قليل يخلع على سلار وبيبرس ويُريهما أنه وَطّن نفسه على كل ما يريدانه، فقال فى يوم من الأيام لسلار: قد عولت على الصيّد، فقال سلار: [المرسوم][2] مرسوم مولانا السلطان، فقال له السلطان: أنا من اليوم ما بقيت أعمل شيئًا حتى أشاورك، فإن رأيته مصلحة وإلا تركته، لأنى تحققت ما تريد لى إلا خيرًا، فباس الأرض وخرج من عنده واستجمع بالأمير بيبرس وهو يضحك.

فقال له: مالك؟ [فحكى][3] له الحكاية، فقال بيبرس: ما أخوفنى منه فإنه صاحب

(١) شفه : فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.
(٢) الموسوم : في الأصل.
(٣) فأحكى: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

مكر وخداع، ثم قال له ما ذكر [السلطان له][(١)] من أمر الصيد، فقال بيبرس: مصلحة، لأنه محصور فى هذه القلعة، فأخذوا فى إصلاح أمورهم للصيد، وفى اليوم الثانى جاء سلار وأعلم السلطان بأنه تجهز أمرهم للصيد.

[٤٤] فقال: اخرجوا بنا إلى ناحية الصعيد فإن فى قلبى منه، فساروا وطلبوا نحو الصعيد، ولما توسطوا البلاد اشتغلوا بالصيد، وجاءتهم التقادم من العربان وانفرد السلطان بمماليكه، فبينما هو سائر إذ مرّ بقرية خراب، فخرج إليه منها عشرة أنفس من الفلاحين وقدامهم شيخ كبير، فلما رأوا السلطان باسوا الأرض ودَعوا له واشتكوا من الجور والظلم، فوقف لهم السلطان وقال لهم: مَنْ ظلمكم؟ فقالوا : يا خوند، ظلمنا سلاّر. فقال: وكيف؟ فقالوا: هذه القرية خاصّ للسلطان، وعمّر هو إلى جانبنا قريةً ورمى علينا من السخر والكُلَف ما لا طاقة لنا به، ثم إنه نادى فى البلاد بحماية قريته، فهرب جميع فلاحى هذه القرية إليها، وخربت أملاكهم، وبقى الخراج علينا بالكلف والسخر مثلما كان فى أيام عمارتها، ونحن عاجزون عن ذلك، وكنا نستنظر هذا اليوم، إما تكشف ظلامتنا أو نحتمى نحن مثل هؤلاء، فطيب السلطان خاطرهم وانصرف عنهم وهو حائر ما يدرى ما يصنع.

ثم إنه كلما مر على قرية عامرة كأنها مدينة يسأل عنها هى لمن؟ يقولون: هى لسلار أو لبيبرس، وكلما مر على قرية خراب يسأل عنها هى لمن؟ يقولون: هى للسلطان.

فقال السلطان: أنا خرجت حتى أزيل عنى الهم، وقد حملت فوق همى هما آخر، والله لقد أحزننى ما رأيت [٤٥] وبقى فى صيده أيامًا، ثم رجع.

ولَمَّا دخل شهر رجب من هذه السنة طلب سلارا وبيبرس وقال لهما: إنى قد عولت على الحجاز الشريف والحج إلى بيت الله الحرام، فماذا تقولان؟ فقالا: إذا رُحْتَ

(١) السلطان له السلطان : فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

مَنْ يَخْلُفكَ فى الْمُلْكِ؟ فقال: لا تنكدُوا عَلَىّ، ولا غنى لى عن هذا الأمر، فأجاباه إلى ما أراد، فانفصل الأمر على هذا.

ذكر خروجه من مصر

قال ابن كثير: لما كان الخامس عشر من رمضان جمع السلطان الأمراء أرباب المشورة وأوصاهم بالاتفاق والانتظام، وخلع على نوابه ومماليكهم الذين حضروا إليه، ثم ركب يوم السبت الخامس [١] والعشرين من رمضان من قلعته، وركب أعيان العساكر والأمراء الأكابر لتوديعه، فسار من فوره وأذن لهم فى الرجوع فرجعوا.

وتوجه معه: عز الدين أيدمر الخطيرى أستاذ الدار، وحسام الدين قرا لاجين أمير مجلس، وسيف الدين آل ملك الجوكندار، وسيف الدين بلبان المحمدى أمير جاندار، وعز الدين أيبك الرومى، وركن الدين بيبرس الأحمدى، وسيف الدين طقطاى [٢] الساقى، وعلم الدين سنجر الجمقدار، وزين الدين مبارك أمير آخور، وشمس الدين سنقر السعدى النقيب، وبعض الخاصكية والخدم والغلمان، [٣] فسار إلى الصالحية وعيّد بها عيد الفطر، ثم سار [٤].

وفى نزهة الناظر: لما تحدث السلطان [٤٦] بالسفر إلى الحجاز اشتاع الخبر بين الناس بأن السلطان رائح إلى الحجاز، ولما عزم على الخروج، قال له بيبرس وسلار: أنت الساعة متوجه إلى الحجاز، فإذا أحدث عندنا أمر أو فى البلاد واحتجنا إلى كتب كيف نعمل؟ قال: اكتبوا كتابًا. قالا: كيف نكتب بلا علامة [٥] السلطان؟ فقال: كيف العمل؟

---

(١) الرابع: فى كنز الدرر ٩/ ١٥٦، السادس: فى تاريخ البرزالى ٣/ ٤٠٢.

(٢) يقطاى: فى السلوك ٢/ ٤٣.

(٣) ومن المماليك خمسة وسبعون نفرًا: فى السلوك ٢/ ٤٣، النجوم الزاهرة ٨/ ١٧٦ .

(٤) لم يرد هذا النص في المطبوع من ابن كثير، ينظر البداية والنهاية ١٨/ ٧٩.

(٥) العلامة السلطانية : هي ما يكتب السلطان بخطه على صورة اصطلاحية خاصة، وكان لكل سلطان علامة تعتبر بمثابة توقيع. =

قالا: عَلِّم لنا على ورق أبيض بعض [العلامات][1] نخليه عند نائبك، فإذا احتجنا إلى كتاب بعلامة السلطان كتبنا عليه، فعلّم لهم على درج أبيض، وكان قد استناب موضعه الأمير بيبرس[2] الخطائى، فسلم الدرج إليه، ثم إنه ركب، وركب الأمراء معه إلى مرحلتين، ثم رجعوا، وأخذ معه خمسمائة مملوك وبعض الأمراء.

وكان الأمير سلار قد أوصى للأمراء الذى معه أنهم يُعلمونهم بالنجاب كل ما يفعله السلطان ساعة فساعة ويومًا فيومًا، ثم إنه لَمَّا عبر البرية قال للأمراء الذين معه: قد عولت على أننى أخلّى الركب يسيرون على الطريق الجادة وبيتى وحريمى معهم وأنا آخذكم وأسير بكم على الكرك، فيكون أروح للركب، فنحن نتفرج ونصطاد. فقالوا: الرأى رأى مولانا السلطان.

ولما سار إلى جهة الكرك أرسل الأمراء نجابًا إلى مصر يُعَرِّفُون سلارًا[3] وبيبرس، ولما وصل النجاب وسمع الأمراء رواحه إلى الكرك، قال سلار: أخاف أن يطلع إلى الكرك [٤٧] ولا يعود بعد هذا، ثم إنه يُعد الشام فيحتاج إلى صداع عظيم.

وقال بيبرس أيضًا: هذا هو محل النظر.

ثم اتفق الأمراء على أن يكتبوا كتابًا إلى الأمير جمال الدين[4] نائب الكرك بأن السلطان قد توجه إلى الحجاز الشريف، وقد بلغنا أنه رجع من الطريق طالبًا الكرك، فإذا جاء إليك لا تمكنه من الطلوع إلى القلعة، إلا إنك أخرج إليه كل ما يطلبه، وعلم

= وجرت العادة أن تكتب العلامة في سطر مستقبل بخط السلطان، بقلم جليل، ينظر صبح الأعشى ٦/٣١٤.

(١) العلمات: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٢) هو : بيبرس المنصوري الخطائي الدوادار، صاحب التاريخ المشهور، والمتوفى سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٤م، الدرر الكامنة ٢/٤٣ رقم ١٣٨٤، المنهل الصافي ٣/٤٧٧ رقم ٧٢٢.

(٣) يعرفون الأمراء سلار: فى الأصل، ويوجد شطب على كلمة الأمراء.

(٤) هو : آقوش = آقوش الأشرفي جمال الدين البرناق، المعروف بنائب الكرك، وولي نيابة الكرك نحو العشرين سنة، ولذا عرف بنائب الكرك، مات بالإسكندرية سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م، الدرر الكامنة ١/٤٢٣ رقم ١٠٢٣، المنهل الصافي ٣/٢٧ رقم ٥١٨.

بيبرس على الكتاب الذى كُتب إلى نائب الكرك لأنه كان بينه وبين نائب الكرك علامة، ثم إنهم قالوا: من يؤدى الكتاب؟ اطلبوا لنا نجابا، فقال بيبرس: ما هذا وقت النجاب. فقال سلار: عندى مَنْ يروح بالكتاب، ثم أحضر واحدًا من خشداشيته[١] يُقال له: الطنبغا، وكان سلار يعتمد عليه فى المهمات، وقال له: يا علاء الدين نحن ما نعتمد إلا عليك، ونريد منك أن تجرد عزمك وتسير فى أسرع وقت إلى الكرك، فإن صادفت السلطان فى الطريق فإياك أن تحضر عنده، وإذا جئت نعطى لك إمرةً ويُرفع قدرك عندنا وأعطوا له خمسمائة دينار، فخرج وسار.

وكان هذا المملوك من أكبر مماليك المنصور، وكان أكبر من بيبرس وسلار، ولكن الله رفع قدرهما عليه، وافتكر وهو سائر، فإن وصيَّة بيبرس وسلار لى بأن أحترز عن الاجتماع بالسلطان [٤٨] لا يدل على خير، فإنهما ربما جعلا مكيدة عليه فيطالبنى الله به " لأنى قد أكون ساعدتهما وأنا من مماليكه، ثم لم يزل يدعو الله على أن يرزقه الاجتماع به"[٢]، ولم يزل سائرًا إلى أن أشرف على وطاق[٣] السلطان فى البرية، ثم اجتمع بأرغون الدوادار، فذهب أرغون وأعلم السلطان به فأحضره، فقال له: ما حاجتك فى هذا الوقت؟ فقال: يا مولانا السلطان إن الأمير سلار والأمير بيبرس أعطيانى كتابًا وقالا لى: سر به إلى الكرك، فإن رأيت السلطان فى الطريق لا تجتمع به، وحرّضانى على ذلك، وأعطيانى خمسمائة دينار، [ووعدانى][٤] بإمرة، وأنا من بعض مماليك السلطان، فخشيت أن يكون فى الكتاب بعض مكائد على مولانا السلطان، فقلت: والله، لا أعصى على مولانا السلطان، فأخذ الكتاب وفتحه، فإذا فيه:

---

(١) خشداش : معرب اللفظ الفارسي خواجا تاش، أي الزميل في الخدمة، والخشداشية من مصطلحات عصر سلاطين المماليك، وتعني الأمراء الذين نشأوا كمماليك عند سيد واحد، فتكونت بينهم رابطة الزمالة، ينظر هامش السلوك ١/٣٨٨، التعريف بمصطلحات صبح الأعشى ١٢٠.

(٢) مكتوب على هامش الأصل، وموضح موضعها بالمتن.

(٣) وطاق = وطاقات : كلمة تركية بمعنى الخيمة؟

(٤) ووعدونى : فى الأصل.

إلى جمال الدين نائب الكرك، إذا وصل إليك السلطان، إياك أن تمكنه من الطلوع إلى القلعة، وأىّ شئ يطلبه احمله إليه.

فلما سمع السلطان ذلك أطرق رأسه ساعة، ثم قال لأرغون: اكتب كتابًا مثله إلى نائب الكرك عن لسانهما، وقل: ساعة وقوفك على هذا الكتاب، انزل ولاق السلطان، ثم أطلعه إلى القلعة، وقف فى خدمته بكل ممكن، وكل ما يطلبه احضره بين يديه، فكتب أرغون بذلك، وعَلَّم عليه السلطان علامة سلار وبيبرس، ثم ناوله [لألطنبغا][1]. وقال له: صنيعك [ما يضيع][2] عندى، وأمر له بألف دينار، فإذا بلَّغت كتابى ارجع إلى بيتك [٤٩]، فإن مكننى الله من الملك فسوف ترى ما أصنع معك إن شاء الله تعالى.

ثم سار إلى أن وصل إلى الكرك، واعلموا نائب الكرك بمجيئه فأحضره عنده، فلما رآه نائب الكرك عرفه وأجلسه إلى جانبه وأكرمه، فناوله الكتاب، فلما قرأه قال: السمع والطاعة، فأين فارقت مولانا السلطان؟ فقال: فى الموضع الفلانى، فوصف موضعًا، فعند ذلك أمر نائب الكرك الأمير جمال الدين بتجهيز الإقامات والعلوفات وأخلى القلعة وما خَلّى فيها أحدًا، وفرش دار السلطان وأصلح شأنه، وأمّا السلطان فإنه أسرع فى المسير خوفًا على أن يكون كتابًا آخر مع شخص آخر غير الطنبغا المذكور، فيسبقه إلى الكرك ويحصل لنا توقف الحال.

ذكر وصول السلطان إلى الكرك وطلوعه قلعتها

قال بيبرس: وصل السلطان إلى الكرك يوم الأحد عاشر[3] شوال، فلما مر على جسر الممشى الذى على الخندق داخلاً إلى القلعة، ومماليكه ماشون فى ركابه، انكسرت أخشاب الجسر من تحت أرجلهم، بعد أن تقدمت يدا فرس السلطان وصارتا على سفح

---

(١) لا طنبغا: فى الأصل، والتصويب مما سبق.

(٢) ما بصنيع: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٣) ثامن: فى كنز الدرر ٩/ ١٥٦، الرابع فى تاريخ البرزالى ٣/ ٤٠٢.

الجبل، فسلمه الله من الزلل والخلل، وسقط بعض من كان فى الركاب من المماليك، ولم يمت أحد، "وربما انصدع المماليك فصح بالجبار"(١).

وقال النويرى فى تاريخه: وسقط أكثر الخاصكية فى الخندق، وسلموا كلهم إلا اثنين [٥٠] وهما الحاج عز الدين أزدمر رأس نوبة الجمدارية، انقطع نخاعه وبطل نصفه، وعاش "كذلك لسنة ستةَ عشر، فمات فيها"(٢)، والآخر مات لوقته(٣).

وقال ابن كثير فى تاريخه: ولما توسط السلطان الجسر انكسر، فسلم مَن قدامه، وقفز به الفرس فسلم، وسقط(٤) مَنْ [كان](٥) وراءه، وكانوا خمسين، فمات أربعة وتهشم أكثرهم فى الوادى الذى تحته(٦).

وقال صاحب النزهة: لما انقطعت سلسلة الجسر وتمزق الخشب صرخ السلطان على فرسه، وكان قد [نزلت](٧) رجله فى الخشب، فوثب إلى داخل الباب، ووقع كل من كان على الجسر، وكانوا أكثر من مائة مملوك، فوقعوا فى الخندق، فمات منهم سبعة واتهشم منهم خلق كثير، فضاق صدر السلطان، وقال فى نفسه: هذه شدة يكون عقيبها خيرٌ إن شاء الله تعالى(٨)، ولما استقر به الجلوس وقف نائب الكرك فى خدمته، فقال له: ما سبب انقطاع الجسر فى هذا الوقت؟ فباس الأرض وقال: أيد الله مولانا السلطان، هذا الجسر عتيق، فثقل بالرجال فما حَمل، فقال له: صدقت وأمره

(١) والذى انصدع صح بالجبار: فى زبدة الفكرة ٤٠٥، والمقصود أن مَنْ أُصيب من المماليك بكسر فقد صح بعد أن ركبت له جبيرة.

(٢) إلى أن مات فى سنة عشرة وسبعمائة : فى المطبوع من نهاية الأرب ٣٢/ ١٤٠، النجوم الزاهرة ١٧٧/٨.

(٣) والآخر مات لوقته: لم يرد فى المطبوع من نهاية الأرب.

(٤) وسقط: مكررة فى الأصل.

(٥) إضافة للتوضيح، من البداية والنهاية.

(٦) البداية والنهاية ١٨/ ٧٩ ، الجوهر الثمين ٣٣٦ ، وينظر النجوم الزاهرة ٨/ ١٧٧ .

(٧) نزل: فى الأصل.

(٨) ينظر النجوم الزاهرة ٨/ ١٧٧ .

بالانصراف.

وقال ابن كثير: وبقى نائب الكرك، وهو جمال الدين أقوش، خجلاً متوهمًا أن يكون هذا [يظنه السلطان][1] عن قصد، وكان قد عمل ضيافة للسلطان غرم عليها أربعة عشر ألفًا، فلم تقع الموقع لاشتغال السلطان بهمّة وما جرى له [ولأصحابه][2]، ثم خلع [٥١] على نائب الكرك وأذن له بالانصراف[3].

ذكر ما وقع من السلطان بعد دخوله الكرك

قال ابن كثير: لما جرى على السلطان ما جرى واستقر فى القلعة خلع على النائب وأذن له بالتوجه إلى مصر فسافر[4].

وفى النزهة: لما بات السلطان تلك الليلة فى القلعة وأصبح طلب نائب الكرك فقال له: يا جمال الدين سافر إلى مصر واجتمع بخشداشيتك، فباس الأرض وقال: السمع والطاعة، ثم إنه فى تلك الساعة صرخ بمماليكه وكل من يلوذ به، ثم بعد ثلاثة أيام نادى السلطان فى القلعة والكرك: لا يبقى هنا أحد لا كبير ولا صغير حتى يخرج، فيجيب ثلاثة أحجار من خارج البلد، فخرج كل من فى القلعة والبلد، ثم أمر السلطان أن يُغلق باب الكرك، فرجعت الناس ومعهم الأحجار فرأوا الباب مغلوقًا، فقيل لهم: كل من له أولاد أو حريم يخرج إليه ولا يبقى أحد بحوز الكرك، وما أمسى المساء وقد بقى فى الكرك من أهلها ديّار، فمِنْهم مَنْ تفرق فى البلاد، ومنهم من سكن فى مؤتة، ولم يبق فى القلعة إلا مماليك السلطان لا غير، واستقل السلطان بتدبير المملكة بالكرك وحدها، فيحضر دار العدل ويباشر الأمور بنفسه، ثم طلب أرغون الدوادار وضم إليه مائتى

---

(١) إضافة لاستكمال النص، من البداية والنهاية ١٨/ ٧٩.

(٢) إضافة لاستكمال النص، من البداية والنهاية ١٨/ ٧٩.

(٣) ينظر البداية والنهاية ١٨/ ٧٩.

(٤) يراجع البداية والنهاية ١٨/ ٧٩.

مملوك، وقال له: سِرْ إلى عقبةُ أيلا، فاحضر [٥٢] بيتى وأولادى وحريمى من الحجاج، فخرج وسار إلى أن وصل العقبة، فأخذهم ورجع بهم إلى السلطان[١] .

وقال ابن كثير: وكان السلطان قد قرّر سفر حُرمَه وولده مع الركب المصرى صحبة جمال الدين خضر بن سيف الدين نوكيه، وعاجوا[٢] من العقبة إلى نحو الكرك، فوصلوها ودخلوا القلعة، فعند ذلك تقدم إلى الأمراء الذين معه بالعوْد إلى مصر، وأعاد خمسمائة هجين من الهجن التى استصحبها، وحضر سيف الدين آل ملك الجوكندار وركن الدين بيبرس الأحمدى وزين أمير آخور على الهجن إلى الباب السعيد، وأحضروا كتابًا صادرًا عن السلطان إلى الموالى الأمراء يتضمن رغبته عن الملك وتركه إياه والإقامة بالكرك والإذن لهُم بإقامة مَنْ يصلح لهذا الأمر من بينهم إلى غير ذلك من كلام طويل، فوردت مكاتباته بذلك إلى القاهرة يوم الجمعة الثانى والعشرين من شوال، وذكر أنه وجد فى الكرك من الأموال سبعة وعشرين ألف دينار عينًا وألف ألف درهم وسبعمائة ألف درهم[٣]، وأما نائب الكرك فإنه سار ووصل إلى مصر، ولما تمثل بين يدى سلار وبيبرس قالا له: مَنْ أمرك [بتمكين][٤] السلطان من الطلوع إلى القلعة؟ فقال: كتابكم وصل إلىّ يأمرنى بأن أنزل إليه وأطلعه إلى القلعة، فقالا: وأين الكتاب؟ فأخرجه، فقالا: هذا غير الذى كتبناه، اطلبوا الطنبغا، فطلبوه، فهرب إلى الكرك عند [٥٣] السلطان[٥].

وقال بيبرس فى تاريخه: لما كان يوم السبت الثالث والعشرين من شوال ركبنا جميعًا للتنسير فى سوق الخيل كجارى العادة، فأجرى الأمير سيف الدين سلار والركن أستاذ الدار ذكر ذلك مع الأمراء وقالا: إن السلطان سيّر يتنصل من الملك ويلتمس الإعفاء منه

(١) ينظر النجوم الزاهرة ٨/ ١٧٨ .
(٢) عَاج، عَوْجًا : وقف ورجع، القاموس المحيط، مادة : عَوج.
(٣) يراجع السلوك ٢/ ٤٤ ، النجوم الزاهرة ٨/ ١٧٩ .
(٤) بتمكن : فى الأصل.
(٥) لم يرد هذا النص فى المطبوع من البداية والنهاية ١٨/ ٧٨- ٧٩.

وأن يقيم بالكرك[(١)].

قال بيبرس: فقلت ينبغى مراجعته واستعطافه وترضيه ومراسلته إلى أن يذعن لعوده ويستمر فى سلطنته، ويتوجه إليه من له صورة من كبار الأمراء فى هذه الرسالة، فقالا: متى حصل التردد والمراجعة والتعييد والمعارضة نخشى من اضطراب الأمور وعبث الجمهور ونفاق العربان وثورة أهل العصيان، فلابد من اجتماعنا بالإيوان، فظهر لى النفس واتضح، ورأيت أن الإناء بما فيه نضح، فأمسكت عن الجواب، وقلت : الله الموفق للصواب[(٢)].

وقال صاحب النزهة: لما وجّه الناصر الأمراء الذين معه إلى مصر أمر لوكيله ابن عبادة أن يكتب كتابًا، فكتب:

بسم الله الرحمن الرحيم، حرس الله تعالى نعمة الجنابين العاليين الكبيرين الغازيين المجاهدين، [وفقهما] [(٣)] الله تعالى توفيق العارفين، أما بعد: فقد طلعتُ إلى قلعة الكرك، وهى من بعض قلاعى ومُلكى، وقد عولت [على] [(٤)] الإقامة بها [(٥)]، فإن كنتم مماليكى ومماليك أبى فأطيعوا نائبى ولا تخالفوه فى أمر من الأمور [٥٤] ولا تعملوا شيئًا حتى تشاورونى، فأنا ما أريد لكم إلا الخير، وما طلعت إلى هذا المكان إلا لأنه أرْوَح لى وأقلّ كلفة، وإن كنتم ما تسمعون منى فأنا متوكل على الله، والسلام [(٦)].

ثم سلم الكتاب للأمراء المتوجهين إلى مصر، فلما حضروا إلى مصر استجمعوا بيبرس وسلار ودفعوا الكتاب إليهما، وقرأوه وتشاوروا ساعة، ثم قاموا من باب القلعة وذهبوا إلى دار بيبرس، واتفقوا على أن يرسلوا إلى السلطان كتابًا، فكتبوه وأرسلوه مع

---

(١) زبدة الفكرة ٤٠٥.

(٢) زبدة الفكرة ٤٠٥- ٤٠٦.

(٣) وفقهم : فى الأصل ، والتصويب من النجوم الزاهرة ٨/ ١٨٠ .

(٤) إضافة من النجوم الزاهرة ٨/ ١٨٠ .

(٥) فيها : فى النجوم الزاهرة ٨/ ١٨٠ .

(٦) ينظر النجوم الزاهرة ٨/ ١٨٠ .

البَرواني[1] على البريد، فسار البرواني إلى أن وصل إلى الكرك، فاجتمع بالناصر وناوله الكتاب، وأعطاه لأرغون [الدوادار] [2] فقرأه، فتبسم السلطان وقال: لا إله إلا الله، وكان في الكتاب :

ما علمنا ما عولت عليه، وطلوعك الكرك وإنزالك [3] أهلها وتشييعك نائبها، وهذا أمل بعيد، فخل عنك شغل الصبى وقم واحضر إلينا، وإلا بعد ذلك تطلب الحضور ولا يصح لك، وتندم ولا ينفعك الندم، فيا ليت لو علمنا ما كان وقع فى خاطرك وما عولت عليه، غير أن لكل [مُلْك] [4] انصرام، [ولإنقضاء الدولة] [5] أحكام، ولحول الأقدار إسهام، فلأجل هذا أمرك غيّكُ بالتطويل، وحَسَّن لك زخرف الأقاويل، فالله الله حال وقوفك على هذا الكتاب يكون الجواب حضورك بنفسك ومعك [مماليكك][6]، وإلا تعلم إنا ما نخلّيك فى الكرك، ولو كثر شاكروك، ويخرج [المُلْكُ] [7] من يدك، والسلام.

[٥٥] فقال السلطان: لا إله إلا الله، لقد أظهروا ما فى صدورهم، ثم أمر بإحضار آلة الملك مثل العصائب والسناجق والكوسات والهجن، وكل ما كان معه من آلات الملك وسلمها للبرواني، وقال له: قل لسلار، ما أخذت لكم شيئًا من بيت المال، وهذا الذى أخذته قد سيرته لكم، وافتصلوا بحالكم، فأنا ما بقيت أعمل سلطانًا وأنتم على هذه الصورة، فدعونى أنا فى هذه القلعة منعزلاً عنكم إلى أن يفرج الله تعالى إما بموت أو غيره.

---

(١) هو : سنجر البرواني، أحد الأمراء بمصر، اختص بالمظفر بيبرس الجاشنكير، ولذا قبض عليه الناصر عندما رجع إلى السلطنة، ثم أفرج عنه سنة ٧٢٧هـ، واستقر أمير طبلخاناة، توفى فجأة سنة ٧٣١هـ/١٣٣٠م، الدرر الكامنة ٢/٢٦٩ رقم ١٨٨٤.

(٢) إضافة للتوضيح من النجوم الزاهرة ٨/ ١٨١ .

(٣) وإخراج : فى النجوم الزاهرة .

(٤) إضافة من النجوم الزاهرة .

(٥) ولا تتقاضى الدول : فى الأصل ، والتصويب من النجوم الزاهرة .

(٦) مماليك: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٧) إضافة من النجوم الزاهرة .

فأخذ البرواني الكتاب الذي أعطاه السلطان إياه، وجميع ما أعطاه السلطان أيضًا، وسار إلى أن وصل مصر ودفع الكتاب لسلار وبيبرس، فلما قُرئ الكتاب قالوا: ولو جاء هذا الصبي ما بقي يصلح للسلطنة، وأيّ وقت عاد إلى السلطنة لا نأمن غدره واتباعه عثراتنا (١).

ذكر سلطنة الملك المظفر بيبرس الجاشنكير

وهو السابع(٢) من سلاطين الترك، لأن أولهم هو الملك المُعز أيبك التركماني، ثم الملك المظفر قطز، ثم الملك الظاهر بيبرس، ثم الملك المنصور قلاوون، ثم الملك العادل كتبغا، ثم الملك المنصور لاجين، ثم الملك المظفر بيبرس الجاشنكير.

قال ابن كثير: ولما وصلت كتب السلطان الناصر بذلك اجتمع الأمراء على الأمير سلار، فخاف سلار وخشى العاقبة، واختار الأمراء ركن الدين بيبرس الجاشنكير، وكانت البرجية تختاره، [٥٦] وبويع له بعد أن أُثبت كتاب الملك الناصر على القضاة بديار مصر.

وكانت البيعة له بالسلطنة فى الثالث والعشرين من شوال يوم السبت بعد العصر بدار سيف الدين سلار، اجتمع أعيان الدولة من الأمراء وغيرهم وبايعوه وخاطبوه بالملك المظفر، ثم ركب إلى القلعة ومشوا بين يديه وجلس على سرير المملكة، ودُقت البشائر، وسارت البريدية بذلك إلى سائر البلدان(٣)، وحضر الخليفة المستكفى بالله فقلده السلطنة، وكتب له عهد شمله خَطه.

---

(١) ينظر النجوم الزاهرة ٨/ ١٨١ .

(٢) لا يدخل فى هذا التعداد أبناء السلاطين الذين تولوا الحكم وهم: على بن أيبك، وبركة بن بيبرس، وسلامش بن بيبرس، والأشرف خليل بن قلاوون، والناصر محمد بن قلاوون ، ولذا ورد : وهو الثانى عشر من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية : فى بدائع الزهور ١/ق١/٤٢٣ .

(٣) يراجع تاريخ البرزالى٣/ ٤٠٣، البداية والنهاية ١٨/ ٨٠- ٨١.

وفى نزهة الناظر: ولما بلغ أمراء مصر إقامة الملك الناصر فى الكرك وتركه السلطنة طلبوا بيبرس الخطائى الذى كان نائب الناصر وطلبوا منه الدرج الذى فيه علامة الملك الناصر، فأحضره لهم فكتبوا على بعضه:

بسم الله الرحمن الرحيم، من أخيهم محمد بن قلاوون الذى يُعْلَم به الأمراء المقدمون والنواب والأجناد والقضاة والعلماء والعامّة وأهل السواد أننى قد نزلت عن السلطنة لعجزى عن القيام بمصالحها وشروطها وسلوك واجباتها، والمسلمون بلا سلطان لا يكون، فليختاروا لهم سلطانًا وأنا لهم موافق على ذلك.

ذكر إرسال المظفر إلى نواب الشام

ثم طلب بيبرس أميرين من أمراء مصر أحدهما يسمى أيبك البغدادى [٥٨] والآخر يقال له [ساطى][١]، فكتب معهما كتابًا وأمرهما أن يذهبا إلى الشام ويُحلِّفان نائبه الأمير جمال الدين أقوش الأفرم وسائر الأمراء، فأخذا الكتاب وسارا إلى أن وصلا إلى دمشق[٢]، فخرج نائب الشام [ولقيهما][٣]، ثم أنزلهما فى داره، فلما قرأ الكتاب كاد أن يطير من الفرح، وذلك لأنه كان خشداش بيبرس[٤].

وفى الحال طلب الأمراء والقضاة والعلماء، ثم أخرج كتاب بيبرس يذكر فيه أن السلطان الناصر عزل نفسه من السلطنة، وأن أمراء مصر وعلماءها وقضاتها قد عاقدونى على السلطنة، وقد سيّرت لك خط الملك الناصر الذى كتبه بيده الذى عزل فيه

---

(١) ساطر : في الأصل، والتصويب مما يلي.
وهو : ساطي السلاح دار، أحد كبار الأمراء في أوائل دولة الناصر، وكان صهر سلار، توفى سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م أو ٧٦٢هـ/١٣٦٠م، ينظر الدرر الكامنة ٢/ ٢١٦ رقم ١٧٦٨.

(٢) يوم الأحد مستهل ذى القعدة: فى تاريخ البرزالى ٣/ ٤٠٤.

(٣) ولقاها : في الأصل.

(٤) وردت رواية أخرى تفيد بأن الأفرم قال : أنا لا أحلف لبيبرس ، وقد حلفت للملك الناصر ، حتى أبعث إلى الناصر : يراجع السلوك ٢/ ٤٧ .

نفسه، وعليه خطوط علماء مصر، فحال وقوفكم على هذا الكتاب تحلفون جميعكم وتبعثون إلينا نسخة الإيمان، فأجاب جميع الأمراء بالسمع والطاعة، وسكت منهم أربعة أنفس ولم يتحدثوا بشئ، وهم: بيبرس العلائى[١]، وبهادر آص[٢]، وأقجبا[٣] الظاهرى، وبكتمر[٤] حاجب الحجّاب، فقال لهم الأفرم: يا أمراء كل الناس منتظرون كلامكم، فتكلموا، فقال بهادر آص: نريد الخط الذى كتبه الملك الناصر بيده وفيه عزل نفسه، فأخرج النائب خطه، ثم قال بهادر آص: يا مولانا ملك الأمراء، لا تستعجل، فالشام فيها أمراء غيرنا مثل قرا سنقر وقفجق وأسندمر [٥٩] وغيرهم، فنرسل إليهم ونتفق معهم على المصلحة، فإذا شاورناهم تطيب [خواطرهم][٥]، وربما يرون من المصلحة ما لا نرى نحن.

ثم قام بهادر آص وخرج، وخرجت الأمراء وراءه، فقال أيبك البغدادى للأفرم: لو مسكت بهادر آص لنصلح الأمر على ما تريد. فقال: والله العظيم لو قبضت عليه لقامت فتنة عظيمة، فطوّل روحك وتغيير الدول ما هو هيّن، وأنا ما أخاف من أحد من أمراء الشام إلا من قفجق لأنه ربما يقيم فتنة من خوفه على روحه.

ولما كان اليوم الثانى طلب الأفرم هؤلاء الأمراء الأربع واختلى بهم، وقال لهم: اعلموا أن هذا الأمر قد انفصل، ولم يبق لنا ولا لغيرنا فيه مجال، وأنتم تعلمون أن كل من يجلس على كرسى مصر هو السلطان ولو كان عبدًا حبشيًا، فما أنتم بأعظم من أمراء مصر، وربما يبلغ هذا إليه فيغلظ قلبه عليكم، ولم يزل يلاطف حتى حلفوا، ثم حلف

---

(١) بيبرس العلائي : أحد أمراء دمشق، توفى بالكرك سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م، الدرر الكامنة ٤٢/٢ رقم ١٣٧٩، وينظر ما يلي.

(٢) بهادر آص المنصوري : توفى بدمشق سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م، الدرر الكامنة ٣٠/٢ رقم ١٣٥٧.

(٣) آقجبا الظاهري، فخر الدين : أحد الأمراء بدمشق، توفى سنة ٧١٤هـ/١٣١٤م، الدرر الكامنة ٤٢١/١ رقم ١٠١١.

(٤) توفى سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م، الدرر الكامنة ١٧/٢ رقم ١٣٠٦، وورد أنه توفى ٧٣٨هـ/١٣٣٧م، في المنهل الصافي ٣٨٩/٣ رقم ٦٧٧.

(٥) حوارهم : فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

باقى الأمراء.

وخلع الأفرم على جميع الأمراء والقضاة بخُلع سَنيّة، وكذلك خلع على أيبك البغدادى وساطى وأعطاهما ألفى دينار، ورَدّهما فى أسرع وقت، لأن بيبرس كان عينه فى الطريق لأجل خبرهما، وكتب معهما كتابًا إلى بيبرس يهنئه بالملك ويقول: فعن قليل تأتيك نسخة الإيمان من الشام [٦٠] كلها، وسار أيبك وساطى فوصلا إلى مصر، وأعلما الملك المظفر بما جرى، فانشرح صدره.

وأما الأفرم فإنه جهز بهادر الجاغانى إلى حلب ليُعلم الأمير سيف الدين قراسنقر بما قد جَرى، فلما وصل إليه وقرأ كتابه قال لبهادر : آش الحاجة إلى مشاورة أستاذك إيانا بعد أن حَلف؟ وكان ينبغى أن يتأنى فى ذلك.

وكذلك أرسل الأفرم إلى قفجق، فلما قرأ كتابه قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، أى شئ يجرى من ابن أستاذنا حتى عزل نفسه، فوالله لقد دبرتم أشأم التدبير، هذه والله نوبة لاجين، ثم قال لمملوك الأفرم: اذهب إلى أستاذك وقل له: الآن بلغت مرادك وسوف تبصر من يصبح نَدْمان وفى أمره حيران، آش كانت العجلة فى هذا الأمر؟

وكذلك أرسل الأفرم إلى أسندمر، فلما قرأ كتابه أطرق رأسه إلى الأرض، ثم قال: قم واذهب وقل لأستاذك: يا بعيد الذهن وقليل العلم بعد أن دبرت أمرًا فما الحاجة إلى مشاورتنا ؟ فوالله ليكونن عليكم أشأم التدبير، وسيعود وباله عليكم، ولم يكتب له جوابًا.

وأما قرا سنقر نائب حلب فإنه أرسل إلى قفجق وإلى أسندمر يعلمهما بأن الأفرم حَلَّف عسكر دمشق ، لأنه مع بيبرس عضو واحد ، ولا نأمن بعد أن وصل [٦١] إلى المُلْك ، أن يعمل الأفرم علينا، فهلموا نجتمع فى موضع واحد ونتشاور فى أمر يكون فيه الصلاح، فاتفقوا كلهم على أن يجتمعوا فى حلب عند قرا سنقر وعينوا ليلة يكون اجتماعهم فيها.

وأما قفجق فإنه ركب إلى الصيد بمماليكه خاصةً وصيّد إلى الليل، ثم رجع عنه وسار فى الليل طالبًا حلب، وأما أسندمر فإنه أظهر أنه ضعيف وأمر أن لا يخلى أحدًا يدخل عليه، وفى الليل ركب بمماليكه الذين يعتمد عليهم وقد غيّروا ملابسهم وسار يطلب حلب.

فاجتمع كلهم فى دار قرا سنقر، فقال لهم قرا سنقر: ما تقولون فى هذه القضية التى جرت؟ فقال قفجق: والله لقد جرى أمر عظيم، وإن لم نحسن التدبير نقع فى بحر المقادير، فهذه دولة سُلِبت من ابن أستاذنا وأخذها بيبرس ويكون الأفرم مدبر الدولة، وهوعلى كل حال عدونا ولا نأمن شره. قالوا: فما نفعل؟ فقال: الرأى أن نكتب إلى ابن أستاذنا فى الكرك ونطلبه إلى حلب ونركب معه، فإما نأخذ له الملك وإما نموت على خيولنا، فقال اسندمر: هذا هو الكلام، فحلف ثلاثتهم أنهم على هذا كلام واحد ولا يقطع أحدًا أمرًا إلا بمشورة أصحابه وإنهم يموت بعضهم على بعض، ثم أنهم تفرقوا فى الليل، وكل واحد راح إلى بلده.

[٦٢] وبعد قليل وصل أميران من مصر إلى دمشق حتى يحلفان قرا سنقر وقفجق واسندمر، فقال لهما الأفرم: أنا أرسلت إليهم مملوكى وردوا عليه جوابًا لا يرضى به مولانا السلطان، وكان الأفرم قد حَلّف عسكر دمشق وقلاعها وسير نسخة الإيمان مع مملوكه مغلطاى، وأعطاه الملك المظفر إمرة أربعين وخلع عليه وأرسل للأفرم خُلعة بألف دينار وأطلق له كل شئ كان له فى الشام من الحواصل وكان شيئًا عظيمًا، ففرح الأفرم غاية الفرح.

قال الأميران اللذان وصلا إلى الأفرم: ما تشير به علينا؟ فقال لهما: ارجعا إلى مصر فلا تذهبا إلى هؤلاء فإن رؤوسهم قوية وربما يثيرون فتنة، فقالا: وغنى لنا من أن نسمع كلامهم، ثم إنهما ركبا وسارا إلى حماة ودخلا على قفجق ودفعا له كتاب الملك المظفر، فقرأه، ثم قال: وأين كتاب الملك الناصر؟ فأخرجا له الكتاب، فلما وقف عليه بكى وفاضت عيناه بالدموع وقال: مَنْ قال إن هذا خط الملك الناصر، والله، يكون فى قرية

رفع

عبد الرحمن النجدي

أسكنه الله الفردوس

ذكر إرسال قرا سنقر ولده إلى الملك الناصر بالكرك

ولما خرج الأميران المذكوران أيبك وسَاطِي من عند قرا سنقر على وجه غير مرضٍ كتب كتابًا إلى الملك الناصر وهو بالكرك يلومه على نزوله عن الملك وكيف وقع ذلك ولم يشاوره فى أول الأمر، ووعد له برجوع المُلْك إليه عن قريب، وإنه هو والأمير قفجق نائب حماة والأمير أسندمر نائب طرابلس ما حلفوا للمظفر وأنهم مقيمون على أيمانهم له، وأرسل إلى قفجق[(١)] وأسندمر نظير ما كتب ليكتبا مثله إلى الملك الناصر، ثم عين ولده ناصر الدين محمد أن يأخذ كتابه وكتاب نائب حماة ونائب طرابلس ويذهب إلى الملك الناصر، فأخذ كتب الثلاثة وسار مسرعًا ومعه نجاب يسمى [مَعَن][(٢)]، وكان خبيرًا بتلك الأراضى ومنازلها ومناهلها من جهة البرّ، فلم يزالا سائرين فى البرارى والمفاوز إلى أن وصلا إلى الكرك وناصر الدين عليه زى النجابة.

ولما وقفا على باب قلعة الكرك، وسألوهما من أين [٦٥] أقبلتما؟ فقالا: من مصر، فدخلوا وأعلموا الملك الناصر بأن على الباب نجابين من مصر، وهما يطلبان الحضور، فقال: أحضروهما، فلما تمثلا بين يديه كشف ناصر الدين لثامُه عن وجهه فعرفه السلطان الملك الناصر، فقال له: محمد، فقال: لبَّيك، فقبل الأرض وقال: يا مولانا السلطان، لابّد من خلوة، فأمر السلطان لمن حوله بالانصراف، فعند ذلك حَدَّث ناصر الدين بما جرى لأبيه وقفجق وأسندمر، وأنهم اجتمعوا فى حلب وتحالفوا بأنهم على قلب واحد، [وبأنهم][(٣)] مقيمون على الأيمان التى حلفوها للملك الناصر، ثم دفع الكتب الثلاثة إليه فقرأها، ثم قال: يا محمد، فما لهم قدرة على ما اتفقوا عليه لأن كل مَنْ فى مصر والشام قد اتفقوا على سلطنة المظفر بيبرس، ولما سمع بذلك ناصر الدين حلف بأن كل واحد من هؤلاء الثلاثة كفؤ لأهل مصر والشام ومولانا السلطان أخبر بذلك منى، فتبسم

(١) وأرسل إلى قفجق: مكررة فى الأصل.
(٢) معنا : في الأصل، والتصويب مما يلي.
(٣) وأنهم اجتمعوا فى حلب وتحالفوا بأنهم: فى الأصل، وهو تكرار مما سبق.

السلطان الملك الناصر وقال: صدقت يا محمد، ولكن القائل يقول:

كـن جـريًا إذا رأيـت جبـانًا		وجبـانًا إذا رأيـت جـريًّا

لا تقاتـل بواحـد أهـل بيـتٍ		فـضعيفان يغلبـان قـويًّا

وهذه البلاد كلها دارت مع بيبرس ولا يتم لنا الحال [٦٦] إلا بحسن التدبير والمداراة والصبر على الأمور، ثم إنه أنزله فى موضع وأحسن إليه، وقال له: استرح اليوم وغدًا، ثم سافر.

فأقام عنده يومين، ثم طلبه الناصر في صبيحة اليوم الثالث وأعطاه جواب الكتب وقال له: سلّم على أبى وقل له: اصبر، ثم خلع على ناصر الدين خُلْعة سَنية وأعطاه ألف دينار مصرية، وخلع على مَعَن النجاب أيضًا وأعطاه ألف درهم، فخرج ناصر الدين والنجاب معه وأسرعا فى السير إلى أن وصلا إلى حلب، قيل: إنهما وصلا فى ثلاثة أيام، فدخل على أبيه ودفع له كتاب الملك [الناصر](١)، ففتحه فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم، حرس الله تعالى نعمة المقر العالى الأبوى الشمسى ومتعنا بطول حياته، فقد علمنا ما أشار به وما عوّل عليه، وقد علمنا قديمًا وحديثًا [أنه](٢) لم يزل على هذه الصورة، وأريد منك أن تطول روحك عَلَيّ فهذا الأمر [ما ينال](٣) بالعجلة، فإنك قد علمت انتظام أمراء مصر والشام فى سلك واحد، ولاسيما الأفرم ومن معه من اللئام، فهذه عقدة لا تنحل إلا بالصبر، وإن حضر إليك أحد من جهة المظفر ويطلب(٤) منك اليمين [له](٥)، فقدّم النيّة بأنك مجبور [و](٦) مغصوب واحلف، ولا

(١) بالناصر: في الأصل.
(٢) إضافة من النجوم الزاهرة ٨/ ٢٤١ .
(٣) ما يقال: فى الأصل، والتصويب من النجوم الزاهرة ٨/ ٢٤١ .
(٤) وطلب : فى النجوم الزاهرة ٨/ ٢٤٢ .
(٥) إضافة من النجوم الزاهرة .
(٦) إضافة من النجوم الزاهرة .

تقطع كتبك عنى فى كل وقت، وعرفنى بجميع ما يجرى من الأمور قليلها وكثيرها.

وكذا كان [٦٧] كَتب فى كتاب قفجق وأسندمر.

ثم بعد قليل جاء تقليد قرا سنقر بحلب وبلادها دَرْبَسْت على يد أمير من أمراء مصر.

ومن مضمون الكتاب الذى معه، من الملك المظفر إلى قرا سنقر: أنت خشداشى لو علمت أن هذا الأمر صعب عليك ما عملت شيئًا حتى أرسلت إليك وأعلمتك به لأن ما فى المنصورية أحد أكبر منك، غير أنه لما نزل ابن أستاذك عن الملك اجتمع الأمراء والقضاة وكافة الناس واتفقوا، وقالوا: ما لنا سلطان إلا أنت، وأنت تعلم أن البلاد لا تكون بلا سلطان، فلو لم أتقدم أنا كان غيري تقدم، وقد وقع ذلك، فاجعلنى واحد منكم فدبّرنى برأيك، وهذه حلب وبلادها دربست لك وكذا لخشداشيتك الأمير قفجق والأمير أسندمر لحماة وبلادها دربست للأمير قفجق، وطرابلس مع سواحلها دربست للأمير أسندمر.

وسَيَّر لكل واحد من هؤلاء الثلاثة خُلْعة بألف دينار، وفرسًا بقماشه بألف دينار، وحياصة بألف دينار، فأرسل قراسنقر إلى قفجق وأسندمر وأعلمهما بأمر التقليد والخُلَع والخيل وطلب الأيمان، فاتفقوا على أن يحلفوا وهم مُكرهون على ذلك، فحلفوا بهذه النية، ثم أعطى قرا سنقر للأمير الذى جاب له التقليد خُلعة وعشرة أروس من الخيل وألف دينار، وكذا عمل [٦٨] قفجق وأسندمر، ثم رجع الأمير إلى مصر بنسخة الأيمان، فلما وقف عليها الملك المظفر فرح غاية الفرح، وقال: الآن تم لى الملك، فخلع عليه وأعطى له شيئًا كثيرًا، ثم شرع فى كشف أحوال البلاد وإزالة المظالم والنظر فى أحوال الرعية .

ذكر طلب المظفر الشيخ تقى الدين بن تيميّة وهو فى حبس إسكندرية

ولما تمكن المظفر فى السلطنة، قال: نحن قد كنا جبنا من الشام فقيها يقال له ابن تيمية[١]، وهو فى حبس إسكندرية، فأحضروه حتى يوافق علماء مصر على مبايعتنا، فأرسل قاصدًا إلى إسكندرية وأحضره، فلما اجتمع بالسلطان الملك المظفر طلب العلماء والقضاة، ثم قال له المظفر: هل تعلم لأى شئ طلبناك؟ فقال: الله أعلم، قال: لأن السلطان الملك الناصر خلع نفسه من السلطنة واتفق المسلمون بأجمعهم وبايعونى على السلطنة وقد بقيت أنت، فقال له: ومن يشهد على الملك الناصر بأنه نزل عن السلطنة؟ فقال: عندنا [كتاب][٢] بخط يده، فقال: أين الكتاب؟ فأحضروا له الكتاب، فقرأه من أوله إلى آخره، ورفع رأسه وقال: مَنْ يشهد بأن هذا خط الملك الناصر. فقال: [عندنا][٣] مَنْ يشهد بأن هذا خطه بيده بعزل نفسه، وهم عدول، فقال: [٦٩] أحضروا من يشهد، فأحضروا علاء الدين[٤] بن عبدالظاهر فقال له الشيخ: يا علاء الدين أنت تشهد بأن هذا خط الناصر، فقال: بل أعلم بأن هذا علامته، فقال لهم: نحن نطلب مَنْ يشهد بأن هذا خطه بيده بعزل نفسه. فقال المظفر، وقد امتلأ غيظًا: عندى مَنْ يشهد على لسان الملك الناصر بأنه خلع نفسه عن السلطنة، فقال: أطلبوهم، فطلبوا بلبان الدمشقى والبروانى، فلما حضرا قدام الشيخ تقى الدين قال لهما: أتشهدان؟ فقالوا:

(١) هو: أحمد بن عبدالحليم بن عبدالسلام، ابن تيمية الحراني ثم الدمشقي الحنبلي، تقي الدين، ولد سنة ٦٦١هـ بحران، وتوفى سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م. الوافي بالوفيات ١٥/٧ رقم ٢٩٦٤، الدرر الكامنة ١٥٤/١ رقم ٤٠٩، المنهل الصافي ٣٥٨/١ رقم ١٩٥.

(٢) كتابًا: فى الأصل

(٣) عند: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٤) هو: علي بن محمد بن عبدالله بن عبدالظاهر السعدي، الرئيس علاء الدين، ولد سنة ٦٧٦هـ، وأدخل ديوان الإنشاء في الدولة المنصورية وعمره إحدى عشر سنة، وتوفى سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م، الوافي بالوفيات ٥٢/٢٢ رقم ١٤، المنهل الصافي ١٧٣/٨ رقم ١٦٥٢.

نشهد على الملك الناصر بأنه خلع نفسه من السلطنة لعجزه عن القيام بواجبها، فقال الشيخ تقى الدين: من أين أنتما؟ قالا: نحن من أمراء مصر من مماليك الملك المنصور، فقال: هل [لكما][١] عتاقة من المنصور؟ قالا: لا. فقال: لا تجوز شهادة العبد على مولاه، وأنتما فى العبودية فلا تجوز شهادتكما على ابن أستاذكما، فاغتاظ الملك المظفر، وقال: ودوه إلى موضع كان فيه، فردوه إلى حبس إسكندرية.

قلت: وكذلك لم يوافق قاضى قضاة الحنابلة بدمشق بقية القضاة والعلماء فى إثبات الكتاب الذى فيه عزل الناصر نفسه.

فقال ابن كثير: وفى مستهل ذي القعدة وصل الأمير عز الدين البغدادى إلى دمشق، فاجتمع نائب السلطنة والقضاة [٧٠] والأمراء والأعيان بالقصر الأبلق، فقرأ عليهم كتاب الناصر إلى مصر، وأنه قد ترك المُلك وأعرض عنه، فأثبته القضاة، وامتنع الحنبلى من إثباته وقال: ليس أحد يترك الملك اختيارًا ولولا أنه مضطهد ما تركه، فَعُزل وَوُلِّى غيره، ثم استحلفهم للسلطان المظفر، وكُتبت ألقابه على القلعة ومحال المملكة، ودُقت البشائر، وزَيّن المدينة، ولما قُرئ كتاب السلطان على الأمراء بالقصر: "أنى صحبت الناس عشر سنين ثم اخترت المقام بالكرك، تباكى جماعة من الأمراء، ثم بايعوا مُكرهين[٢].

وخُطب للمظفر بدمشق يوم الجمعة السادس من ذي القعدة، وحضر النائب فى تاسع عشر ذى القعدة، وقرأ تقليد النائب كاتب السر القاضى محيي الدين بن فضل الله بالقصر بحضرة [أرباب][٣] الدولة وعليهم الخُلَع كلهم، والله أعلم.

---

(١) كلما: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٢) ينظر البداية والنهاية ١٨/٨٠ حيث يوجد اختلاف في بعض الألفاظ.

(٣) إضافة تتفق مع السياق.

ذكر بقية الحوادث

منها: أن الفرنج ملكت جزيرة رودس(١) من يد الأشكرى صاحب مدينة قسطنطينية، واستقر بها الاسبتار وتعطل لذلك ورود مراكب البحار إلى مصر.

وفيها: وردت الأخبار باشتغال البحر الملح وحركة الفرنج المخذولين وانقطعت مراكبهم عن الثغور، فخشى أن يكون ذلك لأمر من الأمور، فحصل الاهتمام بجسر السبيل السلطانى الواصل [٧١] إلى ثغر دمياط وعمارة قناطره، وقد ذكرناه فى أوائل الفصل(٢).

ومنها: أنه كان الخلف بين بيان ومُنُغطاى أخيه ولدى قُبْجى بأقصى خوارزم بالمشرق، وتنازعا الملك بينهما بعد مسير بزلك عنهما، وانحاز إلى كل منهما فئةٌ، فاستظهر منغطاى على بيان بكثرة مَنْ انحاز إليه، فانهزم بيان قدامه لقلة من كان معه وتوجه هاربًا إلى بلاد فكمرين وهى على أطراف حدودهم، واستقر منغطاى المذكور فى المنصب.

ومنها: أنه ورد الخبر بأن علاء الدين التِلِيلى ورفيقهُ واصلان(٣) من المغرب، وخشى عليهما وعلى من معهما فى الطرقات، فجرد جماعة من الجند [لإحضار](٤) المذكورَيْن، واستدعى الأمير بدر الدين أمير شكار وسُيِّر معهم مقدمًا عليهم، فساروا فى أواخر ذي الحجة.

ومنها: أن الشيخ أبا إدَريس [عبدالحق](٥) ابن عم أبي يعقوب المرينى لما وصل إلى تونس عازمًا على الحج أنزله الأمير أبوحفص عمر صاحب تونس وأكرمه، وقال له: إن

---

(١) غزا فرسان الاسبتارية جزيرة رودس سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٦م، ولكنهم لم ينجحوا في الاستيلاء على مدينة رودس إلا في ١٥ أغسطس ١٣٠٨م/ ٢٦ صفر ٧٠٨هـ، ينظر تاريخ الحروب الصليبية ٧٣٠/٣.

(٢) ينظر ما سبق ص١٠ .

(٣) هما علاء الدين أيدغدي التليلي، وعلاء الدين أيدغدي الخوارزمي، ينظر ما يلي ص٦٢، ٧٦.

(٤) الاحضار: فى الأصل.

(٥) إضافة للتوضيح، ينظر ما يلي ص٧٧.

الطريق إلى ديار مصر مجدبة والمسالك إليها فى هذه السنة مستصعبة، وعرض عليه أن يجعل الجهاد فى هذا العام والحج قابلاً، فأطاعه، وجهزه إلى جزيرة جربه، وهذه الجزيرة من عمل قابس، ومشى فيها يوم واحد، وهى فى وسط البحر، ولها مخاضة متصلة ببرها السالك إليها، ودَوْرُها [٧٢] ستة وسبعون ميلاً، وكانت فى يد المسلمين إلى سنة ثمانين وستمائة، فخرجت عن أيديهم واستولى عليها الفرنج كما قد ذكرناه فيما مضى[١]، فلما كان فى هذه السنة أرسل أهلها يسألون صاحب تونس إنجادهم ويلتمسون إمدادهم، فجهز إليهم أبا إدريس المذكور، وجهز معه قائد البحر واسمه ابن يعقوب ومعه اثنتى عشرة قطعة مشحنة بالرجال، فوصولها فى أوائل هذه السنة، وشرعوا فى حصارها و مضايقتها، وكان محمد بن السُّمُوّ من أحد شيوخها، قد توجه يستنجد فرنج صقلية كما ذكرنا، فمات بصقلية، وقام أخوه أبونوح مقامه، فأقام أبو إدريس ومن معه على حصارها حتى أدركه الشتاء، فرجع قائد البحر بقطائعه إلى تونس، وبقى أبو إدريس على جربه إلى أن[٢] بلغه أن شوانى[٣] صقلية قد أقبلت إليها من جهة ابن المزاليا[٤]، فانصرف عنها لقلة مَنْ كان معه من المسلمين وعاد إلى تونس، فصادف رسل الأبواب الشريفة علاء [الدين][٥] التليلى وعلاء الدين الخوارزمى ومن معها قد عادوا من المغرب وهم فى تونس سائرون إلى الديار المصرية، فسار معهم ووصل إلى الأبواب السلطانية، ودخلت شوانى صاحب صقلية إلى جربة واستولت عليها.

ومنها: أنه وقعت الوحشة بين الملك الناصر والملك المظفر [٧٣] وذلك أن الناصر لما دخل الكرك سأل عن الأموال الحاصلة بها، فأحضر جمال الدين أقوش بها أوراقًا

(١) ينظر ما سبق بعقد الجمان ١٤٤/٤، وزبدة الفكرة ٢١٢، ٣٥٥.

(٢) أن : ملحقة بين الأسطر في الأصل.

(٣) شيني ـ شواني : السفينة الحربية الكبيرة، ، ينظر السفن الإسلامية على حروف المعجم ٨٣-٨٥.

(٤) هكذا بالأصل، ووردت : المراليا : في زبدة الفكرة، وشرحها المحقق بقوله : المراليا : مشتقة من Ammiraglio ، والمقصود Roger di Lauria صاحب صقلية، وابنه هو أيضًا Roger ، ينظر هامش ١٠ من زبدة الفكرة ٣٥٥.

(٥) إضافة مما سبق.

بمائتى ألف درهم لا غير، خوفًا أن يطلعه على المال، فيأخذه كله، وأخرج الأمير جمال الدين منها كما ذكرنا وقنع بالكرك، وخطب للملك المظفر بجامع الكرك، وتأدب معه حتى إذا كان كاتبه يكتب الملك المظفرى، وقصد بذلك سكون الأحوال، فلما كان بعد استقراره بالكرك بقليل أرسل المظفر وطلب من الناصر إنفاذ الخيل والمماليك [الذين](١) استصحبوه والأموال التى بالكرك، فبعث إليه الناصر بمائتى ألف درهم وقال: ما عندى إلا هذا القدر، فأعاد المظفر الجواب بطلب الخيول والأموال والتهديد، فأهان الناصر الرسول وأمر باخراجه ماشيًا إلى الغور، وأخذ من هذا الوقت فى التحفّل، وكان منه ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

ومنها: أن فى ربيع الأول أخرج السلطان الأمير نجم الدين الخضر بن الملك الظاهر بيبرس الملقب بالملك المسعود من البرج بقلعة الجبل، وسكن مصر على شاطئ النيل بدار الأمير عز الدين أيبك الأفرم [الكبير](٢)، وكانت اشتُريت له، ولم تطل مدته، فإنه توفى فى خامس رجب بالقاهرة بدار الحلبى(٣)، وتوفى ولده قبل وفاته بيوم.

ومنها: [٧٤] إن الشيخ كريم الدين نزل من مشيخة خانقاه سعيد السعداء وتولاها قاضى القضاة بدر الدين بن جماعة(٤).

وفيها: بلغت زيادة النيل إلى ثمانية عشر ذراعًا وأصبع واحد من تسعة عشر(٥).

وفيها: حج بالناس الأمير سيف الدين قطلوتمر صهر جَالق.

---

(١) الذي : في الأصل.

(٢) إضافة للتوضيح من النجوم الزاهرة.

وهو : الأمير عز الدين أيبك الأفرم الكبير، المتوفى سنة ٦٩٥ هـ / ١٢٩٥ م، ينظر عقد الجمان ٣/ ٣٣٨.

(٣) ينظر ما يلي ص٧٣.

(٤) في جمادي الآخرة ٧٠٩هـ، ينظر ما يلي ص٧٥.

(٥) ينظر النجوم الزاهرة ٨/ ٢٣١.

ذكر من توفى فيها من الأعيان

● **الشيخ الصالح الحلبونى[١] [عثمان بن عبدالله الصعيدى][٢].**

أصله من صعيد مصر ، فأقام بقرية حَلْبون وغيرها من تلك الناحية، ومكث مدة لا يأكل الخبز ، واجتمع عليه جماعة من المريدين.

مات بقرية بَرْزة في أواخر المحرّم ودفن بها.

● **الشيخ شمس الدين محمد[٣] الحَيْدرى.**

مات فى تاسع عشر جمادى الأولى بزاويته[٤] ظاهر دمشق فى طرق العُقيبة، ودفن بسفح قاسيون.

وكان ضخمًا، نبيل القطعة، وله رواية كثيرة.

● **الشيخ مجاهد المنبجى[٥].**

مات بالمارستان الصغير بدمشق، ودفن بقاسيون، جوار تربة المولهين، وقد جاوز الستين.

● **الشيخ الصالح أبوالحسن على[٦] بن محمد بن كثير الحرانى الحنبلى، إمام مسجد عطية[٧]، ويعرف بابن المقرئ.**

---

(١) وله أيضًا ترجمة فى : تاريخ البرزالى ٣٨٥/٣ رقم ٩٣٩، الوافى بالوفيات ٥٢٠/١٩ رقم ٥٣٤، البداية والنهاية ٨١/١٨، مرآة الجنان ٢٤٤/٤، الدرر الكامنة ٥٦/٣ رقم ٢٥٨٧، السلوك ٢/ ٥٠ .

(٢) إضافة للتوضيح من الدرر الكامنة.

(٣) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٣٩٢/٣ رقم ٩٥٨.

(٤) لعلها الزاوية القلندرية الحيدرية، ينظر الدارس ٢١٢/٢.

(٥) وله أيضًا ترجمة فى : تاريخ البرزالى ٣٩٨/٣ رقم ٩٧٢.

(٦) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٤٠١/٣ رقم ٩٨٠، البداية والنهاية ٨١/١٨- ٨٢.

(٧) مسجد عطية: عند باب الجابية بدمشق، وينسب إلى عبدالله بن عطية بن عبدالله بن حبيب المقرئ المفسر العدل الدمشقى المتوفى سنة ٣٨٣هـ/٩٩٣م، ينظر الدارس ٣٣٥/٢- ٣٣٦.

ومولده بحران سنة أربع وثلاثين وستمائة، ومات بدمشق فى العشر الأخير من رمضان، ودفن بسفح قاسيون.

● وتوفى قبله الشيخ أمين الدين بن شقير[١] الحرانى بغزة، قاله ابن كثير.

قلت : هو الشيخ العدل أمين الدين عبدالله[٢] بن عبدالأحد بن [٧٥] عبدالله بن سلامة بن خليفة بن شقير الحرانى،

مات بغزة[٣] وحُمِل إلى القدس الشريف ودفن هناك.

وكان رجلاً مشكور السيرة محمود الطريقة، وهو من أكبر بيت فى حران، وله فى حران أملاك تساوى ألف ألف درهم وبضائع كثيرة فى أيدى [التجار] [٤]، فترك الجميع وسافر إلى الشام، ثم خرج من دمشق مع جماعة من أقاربه وأولاده [بقصد القاهرة][٥] فى أول رمضان لأسباب له، فأدركه أجله فى الطريق.

● السيد الشريف زين الدين أبوعلى الحسين[٦] بن محمد بن عدنان الحسينى، بقية الأشراف.

كان فاضلاً، بارعًا، فصيحًا، متكلمًا، يعرف طريقة الاعتزال، وصاحب الإمامية، وتناظر على ذلك بحضرة القضاة وغيرهم، وقد باشر قبل وفاته بقليل نظر

---

(١) أمير الدين بن سعد: فى البداية والنهاية ٨٢/١٨.

(٢) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٤٠١/٣- ٤٠٢ رقم ٩٨١، الوافى بالوفيات ٢٣٦/١٧ رقم ٢١٧، تالى كتاب وفيات الأعيان ١٢٤ رقم ١٩١، الدرر الكامنة ٣٧٠/٢ رقم ٢١٥٤.

(٣) فى ثالث عشرى رمضان: فى أعيان العصر، الدرر الكامنة.

(٤) البحارى : فى الأصل ، والتصويب يتفق مع السياق .

(٥) إضافة للتوضيح من أعيان العصر ٦٩١/٢.

(٦) وله أيضًا ترجمة فى :تاريخ البرزالى ٤٠٥/٣ رقم ٩٨٤، البداية والنهاية ٨٢/١٨، الوافى بالوفيات ٥٠/١٣ رقم ٥٧، درة الأسلاك ١٧٩، تذكرة النبيه ٢٩٠/١، الدرر الكامنة ١٥٧/٢ رقم ١٦١٤، تالى كتاب وفيات الأعيان ٦٦ رقم ١٠٣، الدارس ٤٩٥/١.

الجامع [الأموى][(١)] ونظر ديوان الأفرم.

ومات يوم الخميس السادس[(٢)] من ذى القعدة عن خمس وخمسين سنة، ودفن بتربتهم بباب الصغير.

وله شعر جيد، فمنه قوله:

عامل الناس بالصفاء تجدهم مثل ما يُشتهى وفوق المراد
ودع المكر والخداع جميعا فقلوب الأنام كالأجناد[(٣)]

● **الشيخ الجليل ظهير الدين أبو عبدالله محمد[(٤)] بن عبدالله بن أبى [٧٦] الفضل البغدادى، شيخ الحرم الشريف بمكة،** بعد عمه عفيف الدين منصور[(٥)] بن مَنَعَة.

وقد سمع الحديث وأقام ببغداد مدة طويلة، "ثم سار إلى مكة بعد موت عمه"[(٦)]، فولى المشيخة إلى أن توفى فيها، رحمه الله.

● **الشيخ الصالح أحمد[(٧)] بن أبى القاسم المراغى.**

مات ليلة السبت ثانى المحرم بمصر، ودفن بالقرافة.

---

(١) إضافة للتوضيح من مصادر الترجمة.

(٢) يوم الخامس من ذى القعدة: فى البداية والنهاية ٨٢/١٨.

(٣) كالأكباد: فى الدرر الكامنة ١٤٥/٢.

(٤) وله أيضا ترجمة فى : تاريخ البرزالى ٤٠٩/٣ رقم ٩٩٤، البداية والنهاية ٨٢/١٨، العقد الثمين ٧٥/٢ رقم ٢٢٨، إتحاف الورى ١٤٦/٣.

(٥) هو : منصور بن محمد بن عبدالكريم الطائي الزعفراني البغدادي، المتوفى سنة ٦٦٤هـ/١٢٦٥م، العقد الثمين ٢٨٥/٧ رقم ٢٥٢٥.

(٦) أقام بمكة ثمانية وخمسين سنة، وكان دخلها شابا مع الشيخ عفيف الدين منصور بن منعة : في العقد الثمين ٧٥/٢.

(٧) وله أيضا ترجمة فى: نهاية الأرب ١٤٤/٣٢، تاريخ البرزالى ٣٨٥/٣ رقم ٩٣٧، السلوك ٥١/٢.

● القاضى برهان الدين إبراهيم[(١)] بن أحمد بن ظافر [البرلسى][(٢)]، ناظر بيت المال بالديار المصرية.

مات فى خامس صفر منها.

● الشيخ شمس الدين محمد[(٣)] بن عبدالرحمن بن [سامة][(٤)] الطائى، المحدث بمصر.

مات يوم الثلاثاء الرابع [و][(٥)] العشرين من ذى القعدة، ودفن بالقرافة.

سمع [الحديث][(٦)] ورحل فى طلبه، ومولده سنة اثنتين وستين وستمائة.

● الشيخ عبدالغفار[(٧)] بن [أحمد بن عبدالمجيد الدورى المعروف بابن][(٨)] نوح القوصى.

مات بجامع مصر ليلة الجمعة سابع ذى القعدة.

وكان فصيحًا لسنا، وله فى الطريق وترتيب السلوك كلام مستحسن، وكان له قدم

---

(١) وله أيضًا ترجمة فى: نهاية الأرب ١٤٤/٣٢، تاريخ البرزالي ٣٨٦/٣ رقم ٩٤٠، أعيان العصر ٥٣/١ رقم ٨، المقفى الكبير ٤٢/١ رقم ١٨، السلوك ٢/ ٥٠ ، الدرر الكامنة ٩/١ رقم ٩.

(٢) البلسى: فى الأصل، والتصويب من مصادر الترجمة.

(٣) وله أيضًا ترجمة في : نهاية الأرب ١٤٤/٣٢، الوافي بالوفيات ٢٣٨/٣ رقم ١٢٤٩، أعيان العصر ٤٨٩/٤ رقم ١٦٠٦، المقفى الكبير ٢٦/٦ رقم ٢٤٠٨، الدرر الكامنة ١١٧/٤ رقم ٣٨٥٨، السلوك ٢/ ٥٠ ، المنهل الصافي ١٠٢/١٠ رقم ٢١٨٦.

(٤) أسامة فى الأصل، وشامة: فى السلوك ، المنهل الصافى ١٠٢/١٠، والتصويب من مصادر الترجمة.

(٥) إضافة للتوضيح

(٦) إضافة للتوضيح.

(٧) وله أيضًا ترجمة فى: الطالع السعيد ٣٢٣ رقم ٥٠، الوافي بالوفيات ٢٧/١٩ رقم ١٩، أعيان العصر ١١١/٣ رقم ١٠٠٣، تذكرة النبيه ٢٨٩/١، السلوك ٢/ ٥٠ ، النجوم الزاهرة ٨/ ٢٣٠ ، الدرر الكامنة ٤٩٥/٢ رقم ٢٤٥٤، المنهل الصافي ٣١١/٦ رقم ١٤٥٢.

(٨) إضافة للتوضيح من المنهل الصافي.

فى التجريد، وصحب الشيخ عبدالعزيز المنوفى[(١)]، وبنى فى آخر عمره رباطًا[(٢)].

وفى السنة الماضية[(٣)]، جرى ببلد قوص حديث فى أمر كنائس النصارى، فأطمع العامة فيها، فهدموها بأيديهم وهى ثلاثة عشر كنيسة، فأُنكر عليه، وطُلب إلى القلعة، فحضر وعُوِّق بها أيامًا فى المسجد، ثم [خُلى][(٤)] سبيله، فأقام بجامع مصر فأدركته منيته به [٧٧] وبيعت أثوابه التى مات فيها بخمسين دينارًا وفرقت على الزوايا والفقراء، والذى اشتراها بعض الأمراء.

● **الشيخ كمال الدين يوسف[(٥)] بن محمد بن إسماعيل المنشد.**

كان ينشد ديوان الصرصرى[(٦)] ويحفظه، وكان صوته شجيًا، وهو الذى أشهر ديوان الصرصرى بالشام، مات بدمشق، ودفن بتربة الشيخ رسلان.

● **الحكيم علم الدين إبراهيم[(٧)] بن الرشيد بن أبى الوحش، المعروف بابن أبى حُلَيْقة رئيس الأطباء بالديار المصرية والبلاد الشامية.**

---

(١) هو : عبدالعزيز بن عبدالغني بن أبي الأفراح سرور، المعروف بالمنوفي، ولد سنة ٦٠٧هـ، وهو من أتباع ابن العربي، وتوفى سنة ٧٠٣هـ/١٣٠٣م، ينظر الوافي بالوفيات ٥٢٦/١٨ رقم ٥٢٧، الدرر الكامنة ٤٨٣/٢ رقم ٢٤٣٥، عقد الجمان ٣٣١/٤.

(٢) وبنى بظاهر قوص رباطًا حسنًا : في الدرر الكامنة ٤٩٥/٢.

(٣) في سنة ٧٠٠هـ : في الدرر الكامنة.

(٤) إضافة تتفق مع السياق.

(٥) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٣٨٧/٣ رقم ٩٤٢، الدرر الكامنة ٢٤٤/٥ رقم ٥١٤٧.

(٦) هو : يحيى بن يوسف بن يحيى الأنصاري، جمال الدين الصرصري، الشاعر، من أهل صرصر على مقربة من بغداد، قتله التتار يوم دخول بغداد سنة ٦٥٦هـ/١٢٥٨م، مرآة الجنان ١٤٧/٤، الوافي بالوفيات ٣٥٩/٢٨ رقم ٢٩١، فوات الوفيات ٢٩٨/٤ رقم ٥٧٥، هدية العارفين ٥٢٣/٢.

(٧) وله أيضًا ترجمة فى : تذكرة النبيه ٢٩٠/١، تالى كتاب وفيات الأعيان ٤٥ رقم ٦٩، الدرر الكامنة ٧٧/١ رقم ٢٠٠، السلوك ٢/ ٥٠ .

مات فى هذه السنة، قيل [تصدق بمائتي][١] ألف دينار، وهو أول حكيم رَكَّب بدمشق شراب الورد الطرىّ ولم يكن يُعرف بدمشق قبل ذلك، رحمه الله.

● **الصدر الكبير عماد الدين سعيد[٢] بن ريّان بن يوسف بن ريّان الطائى العجلونى.**

مات فى الرابع والعشرين من رجب[٣] منها بداره بدمشق، ودفن من يومه بتربة بنى صصرى.

وكان حسن السيرة، سمح الكف، باشر مناصب جليلة، [ولديه][٤] فضيلة، رحمه الله.

● **الشيخ الحافظ العدل بقية المسندين عماد الدين أبوالبركات إسماعيل[٥] بن الشيخ الزاهد أبي الحسن على بن أحمد بن إسماعيل بن حمزة، المعروف بابن [الطَّبال][٦] الأزجى[٧]، شيخ الحديث بالمستنصرية[٨] ببغداد.**

مات فى هذه السنة[٩]، ودفن بمقبرة [٧٨] الإمام أحمد، ومولده فى سنة إحدى

(١) صدق مائتى: فى الأصل ، وينظر السلوك ٢/ ٥٠ .

(٢) وله أيضًا ترجمة فى : الوافي بالوفيات ٢١٨/١٥ رقم ٢١٨، أعيان العصر ٤٠٦/٢ رقم ٦٩٩، تذكرة النبيه ٢٩١/١، الدرر الكامنة ٢٢٨/٢ رقم ١٨١٣، وفيه : سعيد بن زبان.

(٣) في ثامن شهر رجب : في أعيان العصر.

(٤) ولدته: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٥) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٣٩٩/٣ رقم ٩٧٦، الوافى بالوفيات ١٦٥/٩ رقم ٤٠٧٨، أعيان العصر ٥٠٢/١ رقم ٢٦٢ ، درة الأسلاك ١٧٨، تذكرة النبيه ٢٨٨/١، المنهل الصافى ٤١٢/٢ رقم ٤٤١ الدرر الكامنة ٣٩٤/١ رقم ٩٣٨.

(٦) البطال : في الأصل، والتصويب من مصادر الترجمة.

(٧) نسبة إلى باب الأزج: محلة كبيرة ذات أسواق كثيرة فى شرقى بغداد، معجم البلدان.

(٨) المدرسة المستنصرية ببغداد : أنشأها الخليفة المستنصر بالله أبوجعفر المنصور، المتوفى سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م، ووقفها على تدريس المذاهب الأربعة، وهى أول مدرسة فى الدولة الإسلامية تدرس المذاهب الأربعة، انتهى من بنائها سنة ٦٣١هـ/١٢٣٤م، حسين أمين: المدرسة المستنصرية، ٢٨- ٣٠.

(٩) في سابع عشر شعبان : في أعيان العصر ٥٠٣/١.

وعشرين وستمائة.

سمع البخارى من ابن كرم وابن القُطيعى وابن رُوزبة، وحدث بالكثير، وله إجازات كثيرة، ولم يخلف بالعراق مثله.

● **الشيخ صفى الدين[1] أبونصر[2] بن الرشيد بن أبى نصر، ناظر الجيوش بدمشق.**

مات بها، ودفن بسفح قاسيون بتربة الشيخ موفق الدين، ومولده سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وكان موته فى الحادى والعشرين من رمضان.

وكان أولاً سامريًا[3]، ثم أسلم فى زمن الملك المنصور قلاوون وحسن إسلامه، وكان مواظبًا على الصلوات فى الجامع، ويحب أهل الخير، واشترى ملكًا وأوقفه على من يقرأ فى المصحف بعد صلاة الصبح تحت قبة النسر، وكان يتصدق كثيرًا على فقراء كل ملة من المسلمين والسمرة واليهود والنصارى، وكان عفيفًا متواضعًا، لين الجانب، قاضى حوائج الناس، انقطع فى آخر عمره لمرض لحقه، وعجز وشاخ، ولم يزل متمرضا إلى أن مات.

● **الشيخ المسند الرحلة بقية المشايخ شمس الدين أبو جعفر محمد[4] بن على بن حسين الموازينى السلمى الدمشقى.**

كان شيخًا مسندًا، له ثروة، وعنده ديانة، وكان قد قسم ميراثه فى حياته وبقى

---

(١) ظهير الدين: فى السلوك ٥٠/٢، النجوم الزاهرة ٢٣١/٨.

(٢) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالي ٤٠٠/٣ رقم ٩٧٨، السلوك ٥٠/٢، النجوم الزاهرة ٢٣١/٨.

(٣) أي من اليهود السامرة ، وهم أتباع السامري الذي ورد ذكره في سورة طه الآية ٨٥ ﴿ وأضلهم السامري ﴾ ، وعن هذه الطائفة ينظر صبح الأعشى ٢٦٨/١٣، وينظر المواعظ والاعتبار المجلد الرابع ٩٤٢ وما بعدها.

(٤) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٤٠٧/٣ رقم ٩٨٩، تذكرة النبيه ٢٨٩/١، مرآة الجنان ٢٤٥/٤، الوافى بالوفيات ٢١٣/٤ رقم ١٧٤٦ ، أعيان العصر ٦١٨/٤ رقم ١٦٦٩ ، المقفى الكبير ٢٦٧/٦ رقم ٢٧٣٨ ، الدرر الكامنة ١٨٢/٤ رقم ٤٠٤٠.

فقيرًا، وسكن فى آخر عمره بقرية تلتيانة من[1] [٧٩] غوطه دمشق، ومات فيها فى مستهل[2] ذى الحجة منها، ودفن بمقابر الباب الصغير.

وكان حج ثلاثين حجة، وانفرد بالرواية عن الحسين بن صصرى[3]، ومولده سنة أربع عشرة وستمائة[4].

● العدل الفاضل محيي الدين أحمد[5] بن أبي الفتح نصر الله بن باتكين.

مات بالقاهرة[6]، ومولده سنة أربع عشرة وستمائة.

وكان فى أول عمره يعانى الخِدم وكان أديبًا حُلو المفاكهة.

وله شعر حسن فمنه قوله:

يــا جفــن مقلتــه ســكرْتَ فَعِزْبــد	كيف اشتهيت " على فؤاد المُكَمد "[7]

ورميت عن قوس الفتور فأصبحت	غَرضًـا لأسـهمك القلـوب فـسدِّد

من لم يبت بعذاب حبك قلبُه	متنعمًـا لا فــاز منــك بِمَوعِـد

للـصب أسـوة خـال خَـدِّك إنـه	متـــنعم فى جمــــره المُتَوقـــدِ

(١) من: مكررة بين ورقتى ٧٨- ٧٩.

(٢) منتصف: فى أعيان العصر ، الدرر الكامنة.

(٣) هو : الحسين بن هبة الله بن محفوظ بن الحسن بن الحسين بن صصري، القاضي شمس الدين أبو القاسم، مسند الشام في زمانه، توفى سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م، الوافي بالوفيات ١٣/ ٨٠ رقم ٦٩.

(٤) سنة خمس عشرة تقريبًا : في أعيان العصر.

(٥) وله أيضًا ترجمة فى: الوافى بالوفيات ٨/٢١٤ رقم ٣٦٥٢، أعيان العصر ١/٤٠٢ رقم ٢١٣، المقفى الكبير ١/٧٢٩ رقم ٦٧٤، السلوك ٢/ ٥٠ ، الدرر الكامنة ١/٣٤٥ رقم ٨١٨، المنهل الصافى ٢/٢٤٣ رقم ٣٢٨.

(٦) ذكر ابن أيبك الصفدى أن صاحب الترجمة توفى سنة ٧١٠ هـ، وعنه نقل كل من ابن حجر،وابن تغرى بردى، والمقريزي، تنظر مصادر الترجمة.

(٧) علي فؤادي الكمد : في أعيان العصر ١/٤٠٢.

أهـوى قـوامَ الغُـصن تعطِفُـه الـصبا فِعْـلَ الـصِّبا[١] بقوامـك المتـأوّدِ

لا موا على ظمائى عليك[٢] وما دروا [٨٠] فى ماء خدك ما حلاوةُ موردِى

طـورا أُحَيِّـا بالأقـداح[٣] وتارةً فى الخـدّ بالريحـان والـوَرْد النَّـدى

وجـه كـما سـفر الـصباح وحـوله حـسنا بقـايا جـنح ليـل أسـود

وكأنمـا خـاف العيـون فألبـست وجناتـه زَرَدًا مخافـة مُعْتَـدِ

أنى يخـاف مَـنْ اسـتجار بحبِّـه[٤] بمحمـد بـن عـلى بـن محمـد[٥]

وأراد به الصاحب فخر الدين[٦] بن الصاحب بهاء الدين.

وكتب إليه [أبو الحسين][٧] الجزار :

ومـا شـئٌ له نَقْـشٌ ونفـس ويـؤكل عظمـه ويُحـك جِـلدُه

يَـوَدُّ بـه الفـتى إدراك سُـؤْل وقـد يلقـى بـه مـا لا يـودُّه

ويأخـذ منـه أكـثره بحـق ولكـن عنـد آخـره يـرُدّه

فأجابه محيى الدين المذكور:

(١) الصبى: فى الأصل.
(٢) إليك: فى الوافى بالوفيات ٢١٥/٨.
(٣) بالآقاح: فى الوافى بالوفيات.
(٤) محبه: فى الوافى بالوفيات.
(٥) يراجع الوافى بالوفيات ٢١٥/٨- ٢١٦ ، أعيان العصر ٤٠٢/١-٤٠٣.
(٦) هو محمد بن على بن محمد بن سليم، فخر الدين بن حنا المتوفى سنة ٦٦٨ هـ/١٢٧٠م، الوافى بالوفيات ١٨٥/٤ رقم ١٧٢٥، المنهل الصافى ٢٠٢/١٠ رقم ٢٢٦٥.
(٧) أبو الحسن : في الأصل.
وهو يحيى بن عبدالعظيم بن يحيى الأنصاري، أبو الحسين الجزار، المتوفى سنة ٦٧٩هـ/١٢٨٠م، ينظر فوات الوفيات ٢٧٧/٤ رقم ٥٧١، الوافي بالوفيات ١٨٣/٢٨ رقم ١٦٧، المنهل الصافي ٨٤/١٢ رقم ٢٦٣٩.

أمـــولاى الأديـــب دُعـــاء عبـــد ودود لا يَحُـــــولُ الدهـــــــرَ وُدُّه
يـــرى محـــض الثنـــاء عليـــك فرضًـــا ولا يثـــنى عنـــان الـــشكر بُعْـــدُه
لقـــد أهـــديت لى لغـــزًا بـــديعًا يَـضِلُّ عـن اللبيـب لديـه رُشْـدُه
وقـــد أحكمتَـــــه دُرًا نـــضيدًا يـــشنف مـــسمعى بالدّرَ عِقْـــدُه
[٨١] فـشطر اللغـز أخـاسٌ ثلاثٌ للغُـزْك "إن تُـرِدَ يومًـا أحُـدُّه"[1]
وباقيـــه مـــع التـــصحيف ســـت[2] إذا مـــا زدتـــه حرفًـــا تعـــدُّه
هـــا ضـــدّان يقتـــتلان وَهْنـــا ويـــضطجعان فى فـــرش يـــدُّه
هـــا جيـــشان مـــن زنج وروم يقابـــل كل قـــرن فيـــه[3] ضـــدُّه
تقـــوم الحـــرب فيـــه كل وقـــت[4] ولا تـــدْمى مـــن الوقعـــات جُنـــده
ويـــشتد القتـــال بـــه طـــويلاً ويحـــكم بالأصـــاغر فيـــه عَقْـــدُه
ويُقتِـــل ملكـــه فى كل حـــين ويبعثـــه النـــشاط فيـــسترده
ومـــا ينجـــى الهـــام بـــه حـــسام وقـــد ينجـــى مـــن الإتـــلاف بَنْـــدُه
ونـــصر الله فى الهيجـــاءِ سجـــال فمـــن شـــاء الإله بـــه يُمِـــدُّه
وهـــذا كلـــه حـــسب اجتهـــادى وغايـــة فكـــرة الإنـــسان جهـــده[5]

(١) أن ترد أنى أحده: فى الدرر الكامنة.
(٢) كسب: فى الوافى بالوفيات ٢١٦/٨، أعيان العصر ٤٠٤/١.
(٣) منه : في أعيان العصر ٤٠٤/١.
(٤) كل حين : في أعيان النصر.
(٥) ينظر الوافى بالوفيات ٢١٦/٨- ٢١٧، أعيان العصر ٤٠٣/١-٤٠٤.

● **الأمير الفقير علاء الدين أَلْطِبَرس[1] المنصورى، من قدماء المماليك المنصورية.**

وكان أميرًا بطبلخاناه، فنزل عن الإمرة وسلك الطريق وأدركه التوفيق، فلبس المرقعة والزيق، وأعتق المماليك والرقيق، وترك الإقطاع، وعكف على الصلاة والقيام إلى أن ناداه داعى الحمام، وتوفيت زوجته ليلة وفاته، [فدفنا][2] فى يوم واحد، فكانا كما قيل: فكأنما كانا على ميعاد .

● **الأمير عز الدين أيبك [3] الشجاعى[4]، مشد الدواوين.**

توفى بمدينة قوص فيها، وتوفى أولاده وأهل بيته فى زمن متقارب.

● **الأمير عز الدين أيدمر[5] الرشيدى، استادار الأمير [٨٢] سلار.**

مات فى تاسع عشر شوال منها بالمالخوليا، وكان عاقلاً ذا ثروة وجاه.

● **الملك المسعود نجم الدين خضر[6] بن الملك الظاهر بيبرس.**

مرض أيامًا قليلة فى هذه السنة، بعد ما سكن فى دار الأفرم على شاطئ النيل، ومات على فراشه، ودفن بتربتهم بأقصى القرافة.

وقد ذكرنا أنه كان محبوسًا فأفرج عنه الناصر[7].

---

(١) وله أيضًا ترجمة فى: السلوك ٥١/٢، النجوم الزاهرة ٢٣٠/٨.

(٢) فدنا: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق، وتنظر مصادر الترجمة.

(٣) وله أيضًا ترجمة فى: الدرر الكامنة ٤٥٠/١ رقم ١١٠٣، وفيه أن صاحب الترجمة توفى فى المحرم سنة ٧٠٧ هـ؛ السلوك ٥١/٢، النجوم الزاهرة ٢٢٩/٨.

(٤) كان من مماليك الشجاعى: فى الدرر الكامنة.

(٥) وله أيضًا ترجمة فى: نهاية الأرب ١٤٤/٣٢، تاريخ البرزالى ٤٠٣/٣ رقم ٩٨٣، الدرر الكامنة ٤٥٨/١ رقم ١١٢٨، السلوك ٥١/٢، النجوم الزاهرة ٢٣٠/٨.

(٦) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٣٩٧/٣ رقم ٩٧٠، الوافى بالوفيات ٣٣٩/١٣ رقم ٤١٨، أعيان العصر ٣١٢/٢ رقم ٦٢٥، تذكرة النبيه ٢٨٧/١، كنز الدرر ١٦٠/٩، مرآه الجنان ٢٤٤/٤، السلوك ٢/ ٥٠ ، المنهل الصافى ٢٢١/٥ رقم ٩٩١.

(٧) ينظر ما سبق ص٦٣.

فصل فيما وقع من الحوادث

فى السنة التاسعة بعد السبعمائة[*]

استهلت هذه السنة وخليفة الوقت المستكفى بالله.

وسلطان البلاد الملك المظفر بيبرس الجاشنكيرى.

ونائبه بمصر الأمير سلار.

وبالشام الأمير جمال الدين أقوش الأفرم.

وبحلب الأمير سيف الدين قراسنقر.

وبحماة الأمير سيف الدين قفجق.

وبطرابلس الأمير سيف الدين اسندمر.

وقضاة مصر والشام على حالهم.

ذكر ما تجدد فى أيام المظفر

وفى ليلة[1] سلخ صفر: وُجّه ابن تيمية من القاهرة إلى الإسكندرية صحبة أمير مقدم[2] فأدخله دار السلطان بها، وأنزله فى برج منها فى مكان فسيح، وكان الناس يدخلون عليه ويبحثون معه، ثم كان بعد ذلك [يحضر][3] الجُمُعَات ويعمل المواعيد بها

(*) يوافق أولها ١١ يونيو ١٣٠٩م.

(١) ليلة: فى الهامش الأيمن للأصل، ومنبه على موضعها بالمتن.

(٢) المقصود: أمير مائة مقدم ألف: وهى أعلى مراتب الأمراء فى مصر فى عصر سلاطين المماليك، ينظر صبح الأعشى ١٤/٤، المواعظ والاعتبار المجلد الثالث ٧٠٠.

(٣) تحضر: فى الأصل.

على عادته فى الجوامع[(١)]، وقد ذكرنا فى السنة الماضية[(٢)] أنه كان فى الإسكندرية وأن المظفر طلبه، ثم جرى بينهم وبينه ما ذكرنا [٨٣] فأعاده إلى الإسكندرية.

وقال ابن كثير: وكان سبب ذلك أن الشيخ نصر[(٣)] المنبجى، شيخ الجاشنكير، كانت تمكنت عداوتُه من الشيخ تقى الدين بن تيمية بسبب أنه كان ينال من الجاشنكير ويقول: زالت أيامه وانتهت رئاسته وقَرُب انقضاء أجله، [ويتكلم][(٤)] فيه، فأرادوا أن يسيروه إلى إسكندرية كهيئة المنفى لعل أحدًا من أهلها يتجاسر عليه فيقتله غيلة فيستريحوا منه، فما زاده ذلك إلا محبة الناس وحُنُوًّا عليه[(٥)].

وفى جُمادى الأولى: برزت المراسيم السلطانية المظفرية إلى نواب البلاد الساحلية بإبطال الخمور وتخريب [الحانات][(٦)] ونفى أهلها، ففعل ذلك، ففرح المسلمون فرحًا كثيرًا[(٧)].

وفى مستهل جمادى الآخرة: تولى قضاء الحنابلة بدمشق الشيخ شهاب الدين [أحمد][(٨)] بن شرف الدين حسن بن الحافظ جمال الدين بن أبى موسى عبدالله بن الحافظ عبدالغنى المقدسى، عوضًا عن القاضى علم الدين سليمان[(٩)]، بسبب أنه كان يتكلم فى نزول الناصر عن الملك وأنه مضطهد فى ذلك وليس بمختار،وقد صدق فيما

(١) ينظر البداية والنهاية ٨٣/١٨.

(٢) ينظر ما سبق ص٥٩ وما بعدها.

(٣) هو: نصر بن سلمان بن عمر المنبجى، أبوالفتح، توفى سنة ٧١٩هـ/١٣١٩، الوافى بالوفيات ٦٧/٢٧ رقم ٢٩، الدرر الكامنة ١٦٥/٥ رقم ٤٩٣٧، المنهل الصافى ٣٥٣/١٢ رقم ٢٨١٤.

(٤) ونتكلم: فى الأصل.

(٥) ينظر البداية والنهاية ٨٣/١٨- ٨٤، حيث ينقل العينى بتصرف.

(٦) الخانات: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٧) ينظر البداية والنهاية ٨٥/١٨، حيث ينقل العينى بتصرف.

(٨) إضافة من تاريخ البرزالى ٤٢٢/٣، البداية والنهاية ٨٥/١٨ للتوضيح.
توفى سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م، الدرر الكامنة ١٢٨/١ رقم ٣٣٣، وينظر ما يلي.

(٩) التقى سليمان بن حمزة: في البداية والنهاية ٨٥/١٨-٨٦، وهو سليمان بن حمزة بن أحمد بن عمر بن قدامة المقدسي، القاضي تقي الدين، توفي في ذي القعدة سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م، الوافي بالوفيات ٣٧٠/١٥ رقم ٥١٧، الدرر الكامنة ٢٤١/٢ رقم ١٨٣٧.

قال[١].

وفى جُمادى الآخرة: باشر بدر الدين[٢] بن جماعة مشيخة سعيد السعداء[٣] بطلب الصوفية له، ورضوا بالحضور منه عندهم فى الجمعة مرة واحدة، وعُزل كريم الدين [٨٤] [الآملى][٤] لأنه عَزَل منها الشهود، فثاروا عليه وكتبوا فى حقه محاضر بأشياء قادحة، فانصرف عنهم، وعُومل بنظير ما كان يُعامِل الناس به[٥].

وفيها: وردت الأخبار بغارة بعض التتار على الأطراف، وأوقعوا بالتركمان الذين بعينتاب وغيرهم ونهبوهم، فأمر بتجريد أقوش [قتال السبع][٦] الموصلى، وحسام الدين لاجين[٧] الجاشنكير، ومُضَافوهما، فتوجهوا إلى حلب بألفى فارس وجماعة من أمراء [الطبلخانات][٨] والعشرات.

وقال بيبرس فى تاريخه: وفى أوائل هذه السنة كَثُر الإرجاف بأن العدو المخذول قد تحرك فى البلاد الشرقية، فبرز الدهليز المنصور إلى ظاهر الريدانية وذلك فى شهر ربيع الأول[٩].

وفى الشهر المذكور: خُسَف القمر خُسوفًا كاملاً.

---

(١) ينظر البداية والنهاية ١٨/٨٥- ٨٦، حيث ينقل العينى بتصرف.
(٢) هو : محمد بن إبراهيم بن سعدالله بن جماعة، قاضي القضاة بدر الدين، الشافعي، المتوفى سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٢م، الدرر الكامنة ٣/٣٦٧ رقم ٣٢٦٦، المنهل الصافي ٩/٢١٩ رقم ١٩٩٥.
(٣) عن خانقاه سعيد السعداء: ينظر المواعظ والاعتبار، المجلد الرابع ٧٢٧- ٧٣٢.
(٤) الأماى: فى الأصل، والتصويب من البداية والنهاية ١٨/٨٦.
وهو : عبدالكريم بن الحسن بن عبدالله الآملى، أبوم القاسم كريم الدين، المتوفى سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م، ينظر ما يلي.
(٥) ينظر البداية والنهاية ١٨/٨٦، حيث ينقل العينى بتصرف.
(٦) إضافة للتوضيح من السلوك ٢/٥٥.
وهو : آقوش، الأمير جمال الدين المنصوري، المتوفى سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م، ينظر ما يلي.
(٧) هو : لاجين المنصوري، يعرف بالزيرباج الجاشنكير، توفى سنة ٧٣١هـ/١٣٣٠م، الدرر الكامنة ٣/٣٥٧ رقم ٣٢٣٠.
(٨) الطبلخات : في الأصل، وهو تحريف.
(٩) ينظر زبدة الفكرة ٤٠٩.

وفيها: بنى الأمير سيف الدين برلغى الصغير القفجاقى ببنت الركن الجاشنكير ودخل بها.

وفيها: وصل علاء الدين أيدغدى[١] التَّلِيلى وعلاء الدين أيدغدى[٢] الخوارزمى رسولا الباب الشريف من بلاد المغرب، ووصل صحبتهما الشيخ أبو يحيى زكريا[٣] المعروف باللحيانى، نائب صاحب تونس بطرابلس، قاصدًا الحج، والشيخ أبو إدريس عبدالحق ابن عم أبي يعقوب المرينى ومَنْ معهما، وأخبر الرسولان المذكوران بما اتفق لهما فى هذه السفرة، وهو أنهما [٨٥] لما توجها من الباب العزيز فى شهور سنة ست وسبعمائة سارا على المنازل التى تذكر، وهى:

من الإسكندرية إلى طَلميثا[٤] ببلاد برقة، ومنها إلى سِرْت، ومنها: إلى مزانة[٥]، ومنها: إلى طمجورة، ومنها: إلى طرابلس الغرب، ومنها: إلى قَابِس، ومنها: إلى سفاقّس، ومنها: إلى المَهْدِية، ومنها: إلى سُوسَة، ومنها: إلى تونس، ومنها: إلى باجه، ومنها: إلى بُونَه وهى آخر بلاد إفريقية. ومنها: إلى [قُسنطِينة][٦] الهوى وهى أول أعمال بجاية، ومنها: إلى أول أعمال تلمسان وهى [المديَّة][٧]، ومنها: إلى مِلْيايـة، ومنها: إلى البقيعة، ومنها: إلى تلمسان، وأقاموا بها أيامًا وخرجوا منها إلى وَجْدَة، ومنها: إلى تازة، ومنها: إلى فاس، ومنها: إلى مكناسة، ومنها: إلى سَلا، ومنها: إلى أزُمُّوره، ومنها: إلى آسَفى، ومنها: إلى مراكش،

---

(١) كان أحد الأمراء بدمشق، مات بطالا بدمشق سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م، الدرر الكامنة ٤٥٤/١ رقم ١١١٥.

(٢) مات وهو حاجب دمشق سنة ٧٢٩هـ/١٣٢٨م، الدرر الكامنة ٤٥٤/١ رقم ١١١٦.

(٣) هو : زكريا بن أحمد بن محمد بن يحيى بن عبدالواحد بن أبي حفص عمر الهنتاتي اللحياني الحفصي، القائم بأمر الله، توفى بالإسكندرية سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م، الدرر الكامنة ٢٠٦/٢ رقم ١٨٣٤، الوافي بالوفيات ٢٠٨/١٤ رقم ٢٩١، المنهل الصافي ٣٦٣/٥ رقم ١٠٥٢.

(٤) طليمثا – طَلمويه: منزل بريد بين برقة والإسكندرية، ينظر معجم البلدان، وتقويم البلدان ١٣٨- ١٣٩.

(٥) مسراتة: فى زبدة الفكرة، ٤١١.

(٦) قسطينة : في الأصل، والتصويب من زبدة الفكرة ٤١١.

(٧) المدينة : في الأصل، والتصويب من زبدة الفكرة، وينظر ما يلي.

ومنها: إلى أغمات، ومنها: إلى جبال ذرني، وهى آخر عمارة المغرب(١)، فجملة المسافة التى ساروها إلى تلمسان مائة يوم وستة أيام(٢).

قال المُخبر منها: ووصلنا إلى تلمسان فى ربيع الأخر سنة سِت وسبعمائة [واجتمعنا](٣) بأبى يعقوب(٤) المرينى، وأوصلنا إليه المماليك والهدايا، فَوسَّع لنا فى العطايا، وأرسلنا إلى فاس، فتفرجنا فيها وفى أعمال مراكش، وأقمنا بمدينة فاس أربعة عشر يومًا [٨٦] ننتظر إذنه لنا بالعودة، فبينا نحن على ذلك، إذ جاءنا خبر وفاته، وقام أبوثابت(٥) ابن ابنه مقامه، فخرجنا من فاس، وصحبنا منها ركبٌ عظيم كانوا قد تجهزوا لقصد الحج من تجار وأعيان وطبقات الناس، واستصحبنا معنا ما جهزناه من الهدايا وما معنا من الموجود الذى لنا، فلما سرنا صادفنا أبا ثابت وهو سائر نحو فاس، فاجتمعنا به وتجهزنا من عنده، وأرسل برسم الأبواب الشريفة خيلاً وبغالاً وجمالاً سبعمائة، ولما وصلنا تلمسان(٦) وجدنا صاحبها محمد(٧) بن عثمان بن يغمراسن قد مات وجلس بعده أخ له

---

(١) عن هذه المنازل يراجع معجم البلدان، وتقويم البلدان.

(٢) زبدة الفكرة ٤١٠- ٤١١.

(٣) واجتمعا: فى الأصل والتصويب من زبدة الفكرة.

(٤) هو : يوسف بن يعقوب المريني، أبو يعقوب، صاحب المغرب، المتوفى سنة ٧٠٦هـ/١٣٠٦م، الأنيس المطرب ٣٧٤، ٣٨٨، روضة النسرين ٢١ وما بعدها، الدرر الكامنة ٢٥٦/٥ رقم ٥١٨٣، المنهل الصافي ٢٥٤/١٢ رقم ٢٧٣١

(٥) هو : عامر بن عبدالله بن يوسف بن يعقوب بن عبدالحق المريني، أبو ثابت، صاحب فاس، قتل سنة ٧٠٨هـ/١٣٠٨م، الدرر الكامنة ٣٣٨/٢ رقم ٢٠٧٧، الأنيس المطرب ٣٨٩، روضة النسرين ٢٢، المنهل الصافي ٣١٤/١٢ رقم ٢٧٨٦.

(٦) كانت تلمسان عاصمة بني زيان (بني عبدالواد، الذين استقلوا بالمغرب الأوسط (الجزائر)، عن الموحدين سنة ٦٣٧هـ/١٢٣٩م، وكان مؤسس الدولة المستقلة هو يغمراسن بن زيان، أبو يحيى، ينظر تاريخ الجزائر العام ١٢٥/٢ وما بعدها، تاريخ الدول الإسلامية ٦٠.

(٧) توفى سنة ٧٠٧هـ/١٣٠٨م، ينظر تاريخ الجزائر العام ١٤٤/٢.

اسمه أبوحَمُّو[(١)] فلم [نجد][(٢)] منه إكرامًا، وأولانا غِلظة وإحجامًا، وكانت الأعراب قد اهتاجت ببلاد الغرب منذ [قتل][(٣)] المرينى، فسألنا ابن يغمراسن المذكور أن يُجهز معنا من يوصلنا إلى حد بلاده، فلم يعبأ بنا، فكررنا عليه السؤال حتى جهز معنا ثلاثة أشخاص من العرب لا يغنون غناء، ولا يدفعون عناء.

فسرنا بالرغم، وتزودنا الغم، نتوقع الإيقاع، ولا نهتدى فى تلك البقاع، وسارت صحبتنا الركبان إلى أن تجاوزنا تلمسان، فما تعديناها قليلاً، [ولا بعُدنا عنها][(٤)] إلا ميلاً، حتى خرجت علينا طوائف من العربان كالجراد الناشر والسيل الجارف من عرب حُصين وغيرهم، فأحاطوا بالركب من كل جانب، على موضع يقال له المُديّه، [٨٧] فتمكنت هنا لكم الأذية، ووضعوا أيديهم فى الرجال والنسوان، والرحال والركبان، فقاتلناهم ما استطعنا، ودافعناهم حتى اندفعنا، ونفذ ما فى الجعاب من السهام، وكاد يدركنا الظلام، فأعيينا من الكفاح وجلاد الصفاح، وتمزق ذلك الركب [بين][(٥)] مقتول ومنهوب ومطروح ومسلوب، وحَوَتْ العربان كلَّ ما كان معنا ومعهم[(٦)] من الأموال والخيل والبغال والدواب والجمال والكِسَى والنفقات، وتركونا فى تلك [الصحراء][(٧)] منبوذين بالعراء، قد أشفينا من الظمأ، وليس فينا من يهتدى إلى الماء، فقصدنا شخصًا نازلاً بالقرب من تلك الأرض اسمه أبوبكر بن زَغْلى، فسرنا دون ثلاثة أيام حتى أشرفنا عليه، ودخلنا إليه، فأقمنا فى مثواه ريثما استرجعنا رمقًا قليلاً، وارتدنا لنا دليلا، ثم سرنا من

---

(١) هو : موسى بن عثمان بن يغمراسن بن زيان، أبو حمو، وهو رابع سلاطين بني عبدالواد في تلمسان، قتل سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م، تاريخ الدول الإسلامية ٦٠، تاريخ الجزائر العام ١٤٤/٢، المنهل الصافي ٣٢٠/١٢ رقم ٢٧٩٥.

(٢) يجد : فى الأصل، والتصويب من زبدة الفكرة.

(٣) قليل: فى الأصل والتصويب من زبدة الفكرة.

(٤) ولا بعد منها: فى الأصل، والتصويب من زبدة الفكرة.

(٥) من : في الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٦) ومعهم: فى هامش الأصل، ومنبه على موضعها بالمتن.

(٧) إضافة من زبدة الفكرة.

عنده فوصلنا بجاية على غاية من الإقتار، والإدبار، والمشقة والبوار، وبها الأمير خالد المؤمنى فتلقانا، وأكرم مثوانا، وأنزلنا، وجهزنا، وزودنا، وكسانا أثوابًا وسرحنا، فلما وصلنا تونس وجدنا بها أبا عبدالله المؤمنى[١]، فجهز معنا أدلاء أوصلونا إلى طرابلس الغرب، فوصلنا وبها الشيخ أبوزكريا يحيى اللحيانى ابن عمه، فسار صحبتنا إلى الديار المصرية مظهرًا أنه يقصد الحج، وكان ذلك بسبب [٨٩] جرى بينه وبين ابن عمه صاحب تونس المذكور، أوجب له [النفور][٢].

قال بيبرس رحمه الله: فأنزل بمناظر الشرف الأعلى، وأوسع طولاً وفضلاً، وكان وصول بدر الدين أمير شكار إلى الرسل، إلى مكان يقال له: سُوسه، وقد حصلوا فى حدود الأرض المأنوسة، وعاد صحبتهم بمن معه من الأجناد، فكانت إقامة التُّليلى ورفقته[٣] فى هذه السفرة ثلاث سنين وستة أشهر[٤].

وفيها: كان الوباء بالقاهرة ومصر، ومات خلق كثير، وكان الموت كثيرًا فى مماليك الأمراء.

وفيها: وصلت رُسل صاحب سيس بالقطيعة المقررة وبالهدايا، فأكرموا وأعيدوا إلى مرسلهم.

---

(١) هكذا بالأصل، ومتولي تونس في ذلك الوقت هو : محمد بن يحيى، أبو عبدالله، الملقب بالمنصور، والمشهور بأبي عصيدة، والمتوفى سنة ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، ينظر المؤنس في أخبار إفريقية وتونس ١٤١، تاريخ الدولتين ٥٤ وما بعدها، المنهل الصافي ١١/١٤٠ رقم ٢٤٤١.

(٢) التغور: فى الأصل، والتصويب من زبدة الفكرة، وينظر زبدة الفكرة ٤١٠- ٤١٢، حيث ينقل العينى دون أن يشير إلى ذلك، ويراجع التحفة الملوكية ١٩٢- ١٩٣.

(٣) ورفيقه: فى زبدة الفكرة.

(٤) ينظر زبدة الفكرة ٤١٢ ، وورد : فكانت غيبة التليلى ورفيقه ثلاث سنين وثلاثة أشهر : فى السلوك ٢/ ٥٢ .

ذكر اضطراب دولة الملك المظفر

بتاريخ الخامس عشر من جُمادى الأخرى: قفز جماعة من الأمراء والمماليك السلطانية بالقلعة والقاهرة، مائة وستة وثلاثون نفرًا.

وقال بيبرس فى تاريخه: تسحب من الديار المصرية إلى الكرك المحروس: سيف الدين انغيه[1] قفجاق أحد المماليك السلطانية، وسيف الدين طقطاى البساقى، وعلاء الدين مغلطاى القازانى، وتوجه معهم من المماليك السلطانية السكان بالقلعة والقاهرة مائة وستة وثلاثون نفرًا، وخرجوا طُلبًا واحدًا بخيلهم وهجنهم وغلمانهم، وتركوا [٨٩] بيوتهم وأولادهم وراءهم[2].

وفى نزهة الناظر: لما ولى المظفر الملك بقى سلار هو الملك الظاهر بين الناس، والمظفر بيبرس من وراء حجاب، ففى يوم من الأيام دخل على المظفر أميران من أمراء مصر، أحدهما يسمى نُغَيْة والآخر مغلطاى، فباسا الأرض بين يديه وشكيا من ضعف أخبازهما، فقال لهما المظفر: اشكيا حالكما إلى سلار فهو أعلم بحالكما، فقالا: خلد الله ملك مولانا السلطان، أهو مالك البلاد أم مولانا السلطان؟ فقال: اذهبا إلى سلار، فخرجا من عنده وجاءا إلى سلار وأعلماه بما قال المظفر، فقال: والله يا أمراء بهذا الكلام أبعدكما، وأنتما تعلمان أن النائب ماله كلام مثل السلطان، وكان الأمير نُغيه فارسًا لا يُطاق، ومُرا لا يُذاق، فأقسم بالله لئن لم تغيروا خبزه ليقيمن شرًا يهرق فيه الدماء، ويُقام فتنة تهيج بين الأرض والسماء، ثم خرج من عند الأمير سلار وهو يدمدم، وفى الحال ركب سلار وطلع إلى المظفر بيبرس وحدثه بما جرى له مع نغيه ومغلطاى القازانى، وقال: هذا نُوغيه يصدق فيما يقول لأنه قادر على إثارة الشر، والمصلحة قبضه وحبسه فى

---

(١) أنغاى قبجق السلحدار: فى كنز الدرر ١٦٧/٩.
وهو : نوغاي المنصوري الجمدار، سيف الدين، توفى سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م، الدرر الكامنة ١٧١/٥ رقم ٤٩٥٣، وينظر ما يلي.
(٢) ينظر زبدة الفكرة ٤١٤.

السجن، فاتفقوا على قبضه، وكان هناك فى ذلك [الوقت][(١)] أمير يقال له: أبتر، سمع بهذا الحديث، فلما خرج أعلم نُوغيه[(٢)] بذلك، ولما سمع نُوغيه بذلك طلب مغلطاى [٩٠] وجماعة من مماليك الملك الناصر، وقال لهم: يا جماعة هذا الرجل قد عوّل على قبضنا، وأما أنا فما أسلم روحى إلا بعد حرب تضرب فيه الرقاب، فقالوا له: على ماذا عولت؟ فقال: عوّلت على أن أسير إلى الكرك إلى الملك الناصر أستاذنا، فقالوا له: نحن معك، فحلف كلهم على ذلك، قال نُوغيه- وكان بيته خارج باب النصر[(٣)]: كونوا عندى وقت الفجر الأول راكبين وأنتم لابسين، ثم إنه جهز حاله فى تلك الليلة، وركب بعد الثلث الأخير مع مماليكه وحاشيته ومن يلوذ به، ثم جاءه مغلطاى القازانى بمماليكه ومعه جماعة من مماليك السلطان الناصر، والكل ملبسون على ظهر الخيل، ثم أن نغيه حرك الطبلخاناة حربيًا وشق فى الحُسينية[(٤)] وهو خارج[(٥)].

قال الراوى: فماجت الناس، وركبت الخيل من الحسينية، وساروا، وأعلموا الأمير سلار، فركب سلار وطلع إلى القلعة وأعلم السلطان المظفر بأن نُغية راح هو ومغلطاى القازانى، فقال: على أى شئ راحا؟ فقال: على نباح الجراء فى بطون الكلاب، وأنا خبير بنُوغيه، والله ما ينظر فى عواقب الأمور، ولا يخاف آثار المقدور[(٦)].

وقال ابن كثير: وممن خرج معهم سيف الدين طقطاى الساقى، وذلك بمباطنة الأمير سلار، وعند ذلك اتفقوا على تجريد [٩١] عسكر وراء المتسحبين[(٧)].

---

(١) إضافة للتوضيح.
(٢) هكذا فى الأصل، حيث وردت نُغيه ونُوغيه، ينظر ما يلى.
(٣) باب النصر: من أبواب القاهرة المعزية فى الجهة الشمالية، ينظر المواعظ والاعتبار، المجلد الثانى ٢٦٧، ٢٧١- ٢٧٢.
(٤) الحسينية: عن حارة الحسينية ينظر المواعظ والاعتبار، المجلد الثالث ٥٩- ٦٨.
(٥) يوم الثلاثاء حادى عشرين جمادى الآخرة: فى كنز الدرر ٩/١٦٧.
(٦) ينظر النجوم الزاهرة ٨/ ٢٤٩ - ٢٥٠ .
(٧) لم ترد هذه العبارة فى المطبوع من البداية والنهاية فى أحداث سنة ٧٠٩ هـ.

ذكر تجريد العسكر وراء المتسحبين إلى الكرك طالبين الناصر

ولما ظهر أمر المتسحبين جرد المظفر فى آثارهم جماعة من الأمراء صحبة: الأمير علاء الدين مغلطاى[1] المسعودى، وسيف الدين قلى، فساروا سيرًا رفيقًا قصدا فى عدم إدراكهم، وحفظًا لسلطانهم وابن سلطانهم، فلم يدركوهم، وأقاموا على غزّة أيامًا، وعادوا إلى القاهرة.

وفى نزهة الناظر: وجردوا وراءهم خمسة آلاف فارس صحبة أخ سلار [سُمُك][2]، وقالوا له:لا ترجع إلا بهم ولو غاصوا فى البحر المحيط، وكان فيهم: الأمير شمس الدين دبا كُوز، وبجاس، وبشكاس، وجنكلى بن البابا، وكُرى، وكَهَرداش، وأيبك البغدادى، وبلاط، وساروجا، والقرمانى، وهم نقاوة عسكر مصر، فساروا، وكان نُغيه قد وصل إلى بلبيس وطلب واليها وقال له: إن لم تحضر لى فى هذه الساعة خمسة آلاف دينار من مال السلطان لأسلخن جلدك من كعبك إلى أذنك، وحلف عليه، ففى الساعة أحضر الذهب، وكان نُغية قد رصد أناسًا يكشفون له الأخبار، فجاءوا وذكروا أن عسكرًا عظيمًا قد وصلوا من القاهرة وهم سائقون، فعند ذلك ركب نُوغيه بأصحابه وقال لوالى بلبيس: قل للأمراء الجايّين خلفى، ها أنا رايح [٩٢] على مهل حتى يلحقوا بى، وأنا أقسم بالله العظيم لأن وقعت عينى عليهم لأجعلن عليهم يومًا يذكره أصحاب التواريخ، ولم يبعد نُوغيه حتى وصل أخو سلار وهو سُمك مع العسكر، فلاقاهم والى بلبيس وأخبرهم بما جرى له مع نُغيه، وما ركب نُغيه إلا من ساعة، فلما سمعوا بذلك ساقوا إلى أن وصلوا إلى مكان بين الخَطّارة وبين [السعيدية][3]، فإذا بنوغية واقف وقد صف رجاله ميمنة وميسرة، وهو واقف فى القلب قدام الكل، فلما رآهم سُمُك

---

(١) توفى سابع ذي القعدة ٧٣٢هـ/١٣٣١م، السلوك ٣٥٥/٢.

(٢) إضافة للتوضيح مما يلي.

(٣) الصعيدية : في الأصل، والتصويب من النجوم الزاهرة ٢٥٢/٨.

وهي من مراكز البريد بين بلبيس والخطارة، صبح الأعشى ٣٧٧/١٤.

أرسل إليهم فارس من كبار الحلقة، فاجتمع بنوغية وقال له: أرسلنى سمك إليك وهو يقول: السلطان الملك المظفر يسلم عليك ويقول لك: سبحان الله، أنت كنت أكبر أصحابى فما الذى غيرك عليه، فإن كان لأجل الخبز فما يأكل الخبز أحد أحق منك، فإن عدت إليه فكل ما تشتهى يحصل لك، فلما سمع نغية هذا الكلام ضحك وقال: اش هذا الكلام الكذب [في الأمس][١] سألته أن يصلح خُبزى بقرية واحدة ما أعطانى وأنا تحت أمره، فكيف سمح لى اليوم ما أشتهى وأنا عدوه الآن، فخل عنك هذا الهذيان ومالكم عندى إلا السيف، فرجع الرسول وأعلم سُمُك بما قال نغيه، ثم إن نغيه [ركس][٢] فرسه وتقدم [٩٣] إلى سُمُك وأصحابه، فقال له: اعلم أن هؤلاء [الذين][٣] معى أنا الذى أخرجتهم من بيوتهم، وأنا المطلوب، فمن كان يريدنى يبرز إلى وهذه الميدان، فنظرت الأمراء بعضهم إلى بعض، ثم قال: يا أمراء ما أنا باغى ولا عاصى على أحد، ولا خرجت من شئ عبثًا ولكننى مغبون وأنتم أغبن منى ولكن ما تظهرون، وها أنتم سمعتم منى الكلام، فمن أراد الخروج إلى فليخرج، وإلا احملوا علىّ بأجمعكم، وكان آخر النهار، فلم يخرج إليه أحد، فرجع إلى أصحابه، ونزل سُمُك فى ذلك المكان.

ولما أمسى الليل رحل نغيه بأصحابه، فسار طول الليل وثانى النهار إلى آخره، ثم نزلوا وأراحوا دوابهم وأكلوا شيئًا، ثم ركبوا وساروا، فما أصبح الصبح إلا وهم فى قطيا[٤]، وكانوا قد أرسلوا البطاقة إلى [قطيا][٥] بأن نغيه خرج هاربًا إلى الملك الناصر فى الكرك

---

(١) فلامس: فى الأصل.

(٢) دكس: فى الأصل، ويبدو أنها عامية، والتصويب يتفق مع السياق، وأركست الشيئ : إذا رددته ورجعته، أي أنه رد فرسه، ينظر لسان العرب، مادة ركس.

(٣) الذى: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٤) هكذا في الأصل.

وهي: قطيه = قطيا : قرية في الطريق بين مصر والشام قرب الفرما، وكان بها والي طبلخاناة، مقيم لأخذ العشر من التجار، ولا يمكن أحد من الجواز إلى مصر من الشام، أو بالعكس إلا بجواز مرور، ينظر القاموس الجغرافي ق١/ ٣٥٠-٣٥١.

(٥) قاطيه : فى الأصل ، والتصويب و، وتوحيد الرسم ، مما سبق ، ينظر الهامش السابق .

فلا تمكنوه من الجواز، وكان والى قطيا قد جمع عربانًا كثيرة قريب ثلاثة آلاف نفس، فلما رآهم نغيه قال لأصحابه: احملوا عليهم وبادروهم حتى لا يأخذهم الطمع فيكم وتأتى الخيل التى وراءنا، فحملوا عليهم، وكان مقدم القوم نوفل بن حايس البياضى، فحمل بخمسمائة فارس وعليهم اللبوس وحملت الأتراك، فوقع بينهم قتال عظيم، فترجحت الأتراك، عليهم وولت العرب هاربين، [٩٤] وطلبوا البرارى والقفار، ولحق نُوغيه والى قطيا وطعنه برمح فألقاه فى الأرض وأخذه أسيرًا، ثم رجعت الترك من خلف العرب بعد ما لمّوا الخيل الشاردة، وأما سُمُك بعسكر مصر فلم يزالوا يتبعونهم منزلة بمنزلة حتى وصلوا إلى قطيا فرأوها خرابًا، وسمعوا ما جرى بين نُغيه وبين العرب، فقال للأمراء: الرأى عندى أن تسيروا إلى غزة وتشاوروا نائب غزة وتدبروا أمرًا يكون فيه المصلحة، [فساروا](١) إلى غزة فلقاهم نائبها البدرى(٢)، وأنزلهم على ظاهر غزة، ونقل إليهم جميع ما يحتاجون إليه، فقال له سُمُك: نحن ما جينا إلا لأجل نُغيه، وإنه من العريش سار يطلب الكرك، فما رأيك فينا؟ فهل نسير إلى الكرك أو نرجع من هاهنا ؟ فقال لهم البدرى: رواحكم إلى الكرك ما هو مصلحة، وأنتم حين خرجتم من مصر سائرون وراءهم ورأيتموهم فى الطريق فما قدرتم عليهم، وقد وصلوا إلى الكرك وانضموا إلى الملك الناصر، وازدادت قوتهم أكثر فأكثر، والرأى عندى أن ترجعوا إلى مصر وتقولوا للسلطان: ما كانت المصلحة فى تغليظ الكلام على نُوغيه، والرأى عندى مداراته بكل ممكن وأنا أعرف الناس به، وينبغى أن لا [يتعرض](٣) السلطان [٩٥] إلى خبزه ولا إلى بيته، فباتوا تلك الليلة فى غزة، ولما أصبحوا ركبوا وساروا طالبين مصر.

فلما تمثل سُمُك بين يدى المظفر أخبره بجميع ما جرى فى الطريق، وأن نائب غزة أشار عليهم بالرجوع إلى السلطان، فلما سمع المظفر بذلك انزعج واحترق قلبه وأمر

---

(١) فساووا: فى الأصل.

(٢) هو: بلبان بن عبدالله البدرى، الأمير سيف الدين، ولى نيابة غزة فى أيام المظفر فيما بين سنتى ٧٠٩-٧١٠هـ، وتوفى سنة ٧٢٧ هـ/١٣٢٧م: الدرر الكامنة ٢٥/٢ رقم ١٣٢٩.

(٣) يعترض: فى الأصل.

[ساعتئذ][(١)] أن يُكتب كتاب إلى الملك الناصر وفيه: ساعة وقوفك على هذا الكتاب، ومن قبل وضعه من يدك، ارسل لَنا نُغيه ومغلطاى ومماليكهما، وتبعث المماليك [الذين][(٢)] عندك فى الكرك، ولا تخل منهم عندك سوى خمسين مملوكًا والباقى أرسلهم فإنى اشتريت الكل من بيت المال، وإن لم تسيرهم سرت إليك وأخذتك وأنفك راغم، وسير الكتاب مع بريدى إلى الملك الناصر.

وأما نُغيه فإنه سار إلى الكرك فوجد السلطان فى الصيد، فقال نُغيه لمغلطاى : أنزل أنت هاهنا وأنا أسير إلى السلطان، ثم إنه ركب هجينا وأخذ معه ثلاثة مماليك، وسار إلى ناحية عقبة أيلا، وإذا بالسلطان نازل فى موضع وعنده خلق كثير من العرب والترك، فلما رأوا نُغيه وقد أقبل من صدر البرية أرسل إليه خيلاً ليكشفوا حاله وخبره، فلما قربوا منه عرفه مماليك السلطان، فرجعوا وأعلموا الناصر أنه نغيه، فقال السلطان: الله أكبر، ما جاء هذا إلا عن أمر عظيم، ولما [٩٦] حضر باس الأرض بين يدى الناصر ودعا له، فقال له السلطان: أراك جئت فى مثل هذا الوقت إلى هذا المكان، حدثنى بحقيقة أمرك، فأنشأ نُغيه يقول:

أنت الملك وهذه أعناقنا خضعت لِعز عُلاك يا سلطانى

أنت المُرجَّى يا مليك فمن لنا أسد سواك ومَالِكُ البُلْدَانى

يا مرتجى عند الشدائد كلها يا ناصرٌ منصور بالرحمانى

جئناك يا بطل همام فقم بنا فالمُلك مُحتاج إليك عَيَانى

ارحم بلادك والرعيةَ كلَّها وعواتقُ الفتيان والنسيانى

ثم قال: يا خوند، لما توجه مولانا السلطان إلى الكرك ما كان يقدر المملوك على

(١) مساعتئذ: في الأصل، وهو تحريف.

(٢) الذى: فى الأصل.

الركوب لأجل المرض، فلما أفاق المملوك من مرضه جمع خشداشيته وحلفوا لمولانا السلطان، فقلت لهم: قوموا بنا نروح إليه، فنحن ما يقوم لنا صورة لأن ما فينا رأس نتبعه، فسمع بذلك بيبرس وأراد أن يقبض علينا، فخرجنا من القاهرة على حمية، ثم سَيَّر خلفنا أخا[٩٧] سلار سُمُك ومعه أربعة آلاف فارس، فلحقونا فى كورة العباسة(١) وجرى له معنا كذا وكذا، ولم يزالوا خلفنا إلى العريش، فقال له السلطان: ومن جاء معك؟ قال ملغطاى القازانى وثلاثمائة مملوك، فقال له السلطان: يا نُغيه كيف خلفت قلوب الأمراء والرعية؟ فقال: الناس كلهم داعون لمولانا السلطان ومنتظرون له.

وفى تلك الساعة ركب السلطان وسار يطلب الكرك، ونُغيه إلى جانبه، وقد أركبه جنيبًا من جنائبه، وهو يحدثه ويبشره برجوع المُلْك إليه، إلا أن السلطان لما سمع أن أخا سلار جاء خلفهم داخله الريب، وقال فى نفسه: لا يكون حيلة دبروها عَلَيّ. ليحيلوا بينى وبين الكرك، فساق سوق المستعجل، ولما أشرف على الكرك ركب مغلطاى القازانى بمن معه، فلما عاينوا السلطان ترجلوا وباسوا الأرض، وجرى مغلطاى وباس يد السلطان، فأركبه جنيبا من جنائبه وطيب قلبه وقلوب مَنْ معه، ووعد الجميع بكل خير، ولم يزالوا قدامه حتى طلع السلطان إلى الكرك.

ونزل نُوغيه ومغلطاى ومن معهما فى وطاقاتهم وأمر السلطان بالإقامات والعلوفات لهم، وباتوا تلك الليلة، ولما أصبحوا طلبهم السلطان، فحضروا وباسوا الأرض ودعوا له، فأمرهم بالجلوس وخلع عليهم، ثم قَرَّب الأمراء والأكابر إليه، فشاورهم فيما يصنعون. فقال [٩٨] نغيه: من ذا الذى يعاندك ويقف قدامك والجميع مماليكك؟ والذى خلق الخلق إذا كنت معى ألتقى وحدى كل مَنْ فى مصر والشام، فقال له السلطان: صدقت فيما قلت، ولكن مَنْ لم ينظر فى العواقب ما الدهر له بصاحب.

وقال ابن كثير: ووصل المتوجهون إلى الكرك إلى الملك الناصر فى الحادى

---

(١) العباسة: بليدة أول ما يلقى القاصد لمصر من الشام، تنسب إلى قصر أنشئ للعباسة بنت أحمد بن طولون، ينظر معجم البلدان.

والعشرين من جمادى الآخرة من هذه السنة، فقبلهم الناصر أحسن قبول، وكان حين [دخلوا][(١)] القاطيه أخذوا ما بها من المال، ووجدوا أيضًا فى طريقهم تقدمة لسيف الدين طوغان[(٢)] النائب بقلعة البيرة، فأخذوها بكمالها، وأحضروا الجميع بين يدى الناصر محمد، ولما وصلت الأمراء أمر بالخطبة لنفسه، ثم كاتب النواب[(٣)].

ذكر مُكاتبة الناصر محمد إلى النواب بالممالك الشامية

قال ابن كثير: لما وصل المتسحبون من مصر إلى السلطان الناصر كاتب النواب بالممالك الشامية ومهنا أمير العرب، فوردت عليه أجوبتهم يبذلون له الطاعة ويعرضون أموالهم بين يديه، إلا أقوش الأفرم نائب دمشق فإنه امتنع من الطاعة وجرد من جهته على الطريق مَنْ يحفظها[(٤)].

وفى النزهة: ولما وصلت الأمراء إلى الناصر طلب وكيله ابن عُباده، وأمره أن يكتب إلى: قراسنقر نائب حلب، وقفجق نائب حماة، واسندمر [٩٩] نائب طرابلس، وأعلمهم بصورة الحال، وذكر أن نُغيه ومغلطاى القازانى وجماعة من عسكر مصر [حضروا][(٥)] إلَيّ، فأجمعوا أنتم رأيكم وأعلمونى بما تتفقون عليه، وربما نسير إلى دمشق فى هذا الوقت، ولا يمكن التأخير بعد ذلك، ثم طلب نجابا يقال له: صخر، وقال له: سر ليلاً ونهارًا وأوصل هذه الكتب إلى أصحابها، وإياك أن تأوى إلى جدار أو يطلع عليك أحد، فأخذ الكتب وسار على هجين كأنه سهم مارق، فوصل إلى حلب فى اليوم الرابع، واجتمع بقراسنقر ودفع إليه كتاب السلطان، فلما قرأه سيَّر فى الحال إلى قفجق واسندمر

---

(١) دخولوا: فى الأصل.

(٢) هو : طوغان المنصوري، سيف الدين، قرره السلطان قلاوون في نيابة البيرة، مات بسجن الكرك ٧٢٤هـ/١٣٢٣م، الدرر الكامنة ٣٢٩/٢ رقم ٢٩٥١.

(٣) لم ترد هذه الأخبار فى المطبوع من البداية والنهاية.

(٤) لم ترد هذه الأخبار فى المطبوع من البداية والنهاية.

(٥) لحضروا: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

يطلبها إليه للمشاورة، فلما وصل قصاده إليها ركبا فى الليل كأنها سارحان للصيد، فسارا حتى وصلا إلى حلب، واجتمعا بالأمير قراسنقر بالليل وتشاوروا فيما بينهم، فقال لهم قفجق: بعد أن جاء الأمراء إلى السلطان من مصر اتضح الأمر، والتأخير لا يفيد، ونخشى أن يجئ عسكر من مصر إلى الكرك ويتحرك الأفرم بعسكر الشام فيتعذر وصولنا إلى الناصر، ثم يبعث الناصر ويطلبنا فلا نقدر، فيكون تهاون فى حقه، فقالوا له: صدقت، ولكن نريد الآن أن نسير إليه أحدًا ويكون معولنا عليه، فقال اسندمر نائب طرابلس: أنا أسير إليه، فقال قراسنقر: إذا سرت أنت إليه [١٠٠] ترتج البلاد، فقال اسندمر: أسير بحيث لا يعلم أحد بى، فإنى أُظهر أنى ضعيف وأمنع الناس الدخول عَلَيَّ، ولى عادة بمنع دخول الناس إلىّ، فاتفقوا على هذا، وكتبوا الكتب، وأخذها اسندمر، فلما وصل إلى الساحل أظهر أنه مريض، حصل له المرض فى الصيد وأنه مشرف على الهلاك لقوة مرضه، وأرسل إلى الأفرم فى دمشق يطلب منه حكيمًا حاذقًا من حكماء المارستان، فقام فى تلك الليلة وركب هو ومعه نجاب واحد وثلاثة مماليك، وأوصى مملوكه سنقر إذا جاء الحكيم من دمشق صَبَّره يومًا بعد يوم، وتعلل عليه إلى أن أحضر، فسار فى حندس[1] الظلام، فما أصبح الصبح عليهم إلا وهم على قرية من قرى حمص يقال لها: غُنْثُر، فنزلوا عليها حتى استراحوا، ثم ركبوا منها ودخلوا البرية.

وقد ذكرنا أن المظفر كان قد سَيَّر البريدى إلى الناصر يطلب منه نغيه [ومغلطاى][2] ومن معهما، فوصل البريدى واسندمر فى ساعة واحدة، كأنهما كانا على ميعاد، فأخذ السلطان الكتاب واسندمر إلى جانبه وعليه لبس العربان وقد ضرب اللثام، فقرأ السلطان الكتاب، ثم ناوله لأسندمر فقرأه وفهم معناه، ثم أمر الناس بالانصراف، ولم يخلّ عنده أحدًا، فقال السلطان: يا أمير ما يكون الجواب؟ فقال له: المصلحة أن نخادعهم بالكلام ونرق لهم [١٠١] فى الخطاب حتى نُجهز أمرنا ونستظهر، فقال السلطان: فاكتب له الجواب مثل ما تختار، فكتب اسندمر:

---

(١) حندس الليل: اشتد ظلامه، لسان العرب، مادة: حندس.

(٢) ومغلطيه: فى الأصل، والتصويب مما سبق، ومن مصادر الترجمة.

المملوك محمد بن قلاوون يقبل اليد العالية المولوية السلطانية المظفرية، أسبغ الله ظلها ورفع قدرها ومحلها، وينهى بعد رفع دُعائه وخالص ولائه وعبوديته وثنائه أنه وصل إلىَّ المملوك نغيه ومغلطاى وجماعة مماليك، فلما علم المملوك بوصولهم أغلق باب القلعة ولم يُمكن أحدًا منهم يعبر إليه، وسَيَّرت إليهم ألومهم على ما فعلوه، وقد دخلوا على المملوك بأن يبعث ويشفع فيهم، فأخذ المملوك فى تجهيز تقدمة لمولانا السلطان ويشفع فيهم، والذى يحيط به علم مولانا السلطان أن هؤلاء من مماليك السلطان- خلد الله ملكه- وأن الذى قيل عنهم غير صحيح، وإنما هربوا خوفًا على أنفسهم وقد استجاروا بالمملوك، والمملوك مستجير بظل الدولة المظفرية[١] أن لا يخيبه فى سؤاله، ولا يكسر قلبه، ولا يرد ما قصده، بل يُسَير لهم أمانًا ومناشير إقطاعاتهم بزيادة عليها، ويكون ذلك من جملة صدقات الدولة المظفرية والمراحم الأعظمية، وفى هذه الأيام يجهز المملوك تقدمته مع المماليك الذين طلبهم مولانا السلطان، وأنا مالى حاجة [١٠٢] بالمماليك فى هذا المكان، وإن رسم مولانا، مالك الرق، أن يسير إلى القلعة نائبًا له وينزل المملوك ويلتجئ بالدولة المظفرية ويحلق رأسه ويقعد فى تربة الملك [المنصور][٢]، والمملوك قد وطن نفسه على مثل هذا، وقد قال أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه: ما أقرب الراحة من التعب، والبؤس من النعم، والموت من الحياة، وقد قال بعضهم: إياك وما يسخط سلطانك ويُوحش إخوانك، فمن أسخط سلطانه فقد تعرض للمنية ومن أوحش إخوانه تبرأ عن الحرية، لا تُحاجج سلطانك ولا تُلاجج إخوانك، والمملوك يسأل كريم العفو والصفح الجميل، والله تعالى قال فى كتابه الكريم، وهو أصدق القائلين: ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[٣]. والمملوك ينتظر الأمان والجواب، أنهى المملوك ذلك والرأى العالى أعلاه[٤].

(١) والمراحم الأعظمية، وفى هذه الأيام يجهز المملوك: فى الأصل، ومشطوب عليه، وهى سبق نظر من الناسخ، ينظر ما يلى.

(٢) الناصر : في الأصل، وهو خطأ، فالخطاب على لسان الملك الناصر.

(٣) جزء من الآية ١٣٤ من سورة آل عمران رقم ٣.

(٤) ينظر نص الكتاب فى النجوم الزاهرة ٨/ ٢٥٦ - ٢٥٧ ، حيث يوجد اختلاف فى بعض الألفاظ .

وطوى الكتاب وسلمه إلى البريدى، فسار يطلب القاهرة بعد أن أعطاه مائة دينار، فلما حضر بين يدى المظفر أعطاه كتاب الناصر، فلما قرأه خف عليه ما كان عنده، وكان سلار حاضرًا فقال له: ما قلت لك إن الملك الناصر ما بَقيت له قُدرة على المعاندة، وقد أصبح مُلَك الشام ومصر طوع يدك، ولكن عندى رأى أنا نُسَير إلى الأفرم بأن يجعل بالة من الأمراء، [١٠٣] فإنهم ربما يهربون إلى بلاد التتار، واستصوب المظفر ذلك، ففى الحال أرسلوا البريدى إلى الأفرم، وقالوا له: أمسك طريق الرحبة، واجتهد غاية الاجتهاد، وإياك والإهمال، وعَرِّفنى أخبارك ساعة بساعة.

فلما وصل البريدى إلى الأفرم، وفهم مضمون الكتاب، أرسل فى الحال وراء حمزة وأمير حسين بن جندر وجردهما إلى المرج، وأمرهما أن يتفقدا كل وقت طريق الرحبة، ولا يمكنا أحدًا من العبور على تلك الطريق، وأرسل معهما حمامًا [ليعرف][1] أخبارهما كل وقت، ثم طلب الأفرم: أيدغدى شقير، والملك الكامل، وابن صبح، وجوبان، والطشلاقى، وقال لهم: ما تقولون فى الأمراء الذين هربوا من مصر إلى الكرك؟ والله أنا خائف من الملك الناصر، فكثر بينهم الكلام، فإذا قد دخل عليهم الأمير [علم الدين][2] الجاولى[3] فأطلعوه على أمرهم، فقال لهم: ما أخوفنى أن يكون نغيه مفتاح الملك الناصر فى أموره، فقال له الأفرم: والله صدقت، لأنى أعرف أن ما فى مصر والشام من يقوم مقامه، ولا أهجم منه على الأمور الصعاب، ولا سيما وقد قدم على الملك الناصر الذى ما على وجه الأرض أدرى منه ولا أكثر حيلة، وسوف ترون ما يجرى، فقال الجاولى: والله لقد نظرت فى موضع النظر.

وأما الملك [١٠٤] الناصر فإنه من بعد رواح البريدىَ من عنده قال لأسندمر: يا أمير قد اتضح الأمر، وانتهك الستر، وما بقى إلا تجهيز الجيوش وتجريد العزم والتوكل

---

(١) ليعرفا: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٢) علاء الدين : فى الأصل ، والتصويب من مصادر الترجمة ، ينظر الهامش التالى .

(٣) هو : سنجر بن عبدالله الجاولي، الأمير علم الدين، توفى سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٤م، الدرر الكامنة ٢٢٦/٢ رقم ١٨٧٧، المنهل الصافي ٧٤/٦ رقم ١١١٣.

على الله تعالى، فقال له: صدقت، ثم طلب نُغيه وطلع إليهم، فأطلعوه على أمرهم، ورأى اسندمر قاعدًا عند السلطان، فقال: يا خوند، بعد هذا نخاف مِمن؟ فقم بنا نمشى، فوالله ما كنا نخاف إلا من قراسنقر وقفجق والأمير اسندمر، وبعد هؤلاء معنا فلا نبالى من أحد، فقال السلطان: فالأفرم لا يُهْمَل أمره، لأن كل مَنْ فى الشام ممتثلون أمره، والمصلحة أن أُسير إليه بعض مماليكى وأدعوه إلى طاعتى، فقال نُغيه: خَلِّنا من الأفرم وغيره، فقم بنا نهجم على دمشق، نأخذها وقد مَلَكْتَ البلاد وأَطَاعتك العِباد، من هو الأفرم ؟ والله ما بينك وبينه إلا قدر ما يسمع بأنك قد قدمت عليه، وقد خَلَّى دمشق وتسحب، فقال له السلطان: لابد من التَّسَيُّر إليه حتى ننظر ما جوابه .

ذكر تَسيُّر الناصر مملوكه دنكز إلى الأفرم نائب الشام

ثم إن السلطان طلب دنكز[1] الخازندار، وكان مملوكا عاقلاً، لبيبا فاضلاً، وكتب معه كتابًا يذكر فيه هذه المكاتبة:

إلى المقر العالى الجمالى، مدبر الدول والممالك، [١٠٥] الذى يحيط به علمه الكريم، أنه قد وصل إلَيَّ نغيه ومعه مغلطاى القازانى وصحبتها جماعة، ومعهم كتب من أمراء مصر الأعيان، وهم يدخلون عَلَيَّ ويقولون: بالله ارجع إلى مُلكك ومُلك أبيك ومُلك أخيك، فقد بَالغ بنا الضرر، ولا بقى لنا على ما نحن عليه مُصْطَبر، وإن لم ترحمنا ارحم المماليك الذين لك، فقد ضيقوا الحبوس وملأوا الأبراج، وشبع من لحومهم الكلاب، وهذا المظفر ما ينتظم له المُلك، وأنت أكبر مماليك أبى، فجهز أمرك وحلِّف الأمراء الذين عندك، فأنا قَادم إليك حتى تعبر معى إلى الديار المصرية، ويكون على يدك الفتح والنصر، وأنت تعلم شفقتى عليك، والتمامى إليك، ولولاك لم يصل المُلك إلَيَّ فى القديم، وكُنتَ فى قلعة الكرك وأعطيتك ما طلبته، وسلمتُ إليك نيابة الشام، وجعلتُك قسيمى

---

(١) دنكز = تنكز: وهو: تنكز بن عبدالله الحسامى الناصرى، المتوفى سنة ٧٤١ هـ/١٣٤٠م، الوافى بالوفيات ١٠/٤٢٠، رقم ٤٩٢٦، الدرر الكامنة ٢/٥٥ رقم ١٤٢٤، المنهل الصافى ٤/١٥٦ رقم ٧٩٧.

فى الملك، والسلام.

والآن أريد منك ما عَلِمته منك فى الأول، وعلى حقيقة هذا الأمر فعول، فأنا لا غنى لى عن مُلك البلاد، ولو عاندتنى فيها الفراعنة الشداد، فو الله الذى لا إله إلا هو إن لم تجب إلى سؤالى أخذتُك من دمشق وأنت صاغر، وتندبُ عليك الأكابرُ والأصاغرُ، وتندم حيث لا ينفعكُ الندم إذا زلت[1] بك القدم، فهذى أمراء الشام[2] مكاتبون لى وموافقون على ما أختار، ومنهم [١٠٦] مَنْ هو واصل إلَىَّ فى هذه الأيام، فتكون أنت أسبق فهو بك أليق، ولا تك جاهلاً بالأمور وترتكب بمخالفتك المحذور، فأقرب من هو إليك هو عَينُنا عليك.

ثم طَوَى الكتاب وسلمه إلى دنكز، وسير معه عثمان الركاب.

فلما ركب وراح، قال الناصر لاسندمر: يا عمى قد عولتُ على التوجه إلى دمشق، لأنى ما دمت مقيمًا فى الكرك تُهمل الناس جانبى، وإذا سَمعت الأمراء والناس أنى برزتُ جاؤونى، وأيضًا أعرف فى ذلك الوقت عدوى من صديقى، فقال له اسندمر: هذا هو الرأى السديد والأمر الحميد، ولكن تَأنَّ واصبر حتى أذهب واجتمع بالأمراء وأتشاور معهم ونرسل إليك كتبنا، فكتب كتابًا إلى قراسنقر ووعد له بدمشق، ووعد لقفجق بحلب، وكتب خَطَّه لاسندمر بأنه يعطيه كل ما يطلب منه، واعلم فى كتاب قراسنقر وقفجق بنزوله من الكرك، وحثهما على المجئ إليه، ثم إنه خلع على اسندمر وأعطاه ألفى دينار وسيره، ثم شرع فى النزول.

ذكر ما فعل المظفر بعد تسحب الأمراء المذكورين بمن معهم إلى الكرك

قال بيبرس رحمه الله: ولما تسحب من ذكرناه، وعزم ولاة الأمر على إمساك من أمسكوا من المماليك السلطانية، أشرتُ أن لا يَفعلوا لأن فى ذلك إجحافًا وإفسادًا

(١) بك : ملحقة بين الأسطر في الأصل.
(٢) أمراء الشام: مكررة فى الأصل.

للخواطر، [١٠٧] فلم يقبل هذه الإشارة، [ولما][(١)] تحقق وصولهم إلى السلطان، أشرتُ بأن المصلحة تقتضى التلطف، وأن يُعين لهم إقطاعًا يقوم بهم فى خدمته، فلم يعرجوا على ذلك.

ثم تواترت الأخبار بأن الأمراء الذين بالشام والعساكر قد حلفوا لمولانا السلطان الملك الناصر، فجمعونا للاستشارة فى تجريد العساكر، فقلت: الصواب تسكين الثوائر وإغماد البواتر، ومكاتبة السلطان الملك الناصر، بأن الملك مُلكه ومُلك والده، وإنه يعود لمستقره آمنًا من مُعانده، فلم يُفد بعد الكلام، ولم يستبن لهم النصيحة فى تلك الأيام، وجرد الأمير سيف الدين برلغى[(٢)] مقدمًا وصحبته ثلاثة من مقدمى الألوف وهم: الأمير جمال الدين أقوش الأشرفى نائب الكرك، والأمير عز الدين أيبك البغدادى، والأمير شمس الدين [الدكز][(٣)] السلحدار، ومن معهم من الأمراء، فبرزوا يوم السبت التاسع من شهر رجب، وخيموا بمسجد التبن[(٤)] ولم يتقدموا، بل عادوا بعد أربعة أيام، وكان الباعث على عَودهم أن كتب أقوش الأفرم وردت على يد ألطنغش مملوكه تتضمن وصول السلطان إلى البرج الأبيض بالقرب من طفس[(٥)] وعودته راجعًا، فاطمأن وسكن، كقول الشاعر :

[١٠٨] نُهال للشئ الذى يروعنا		ونرتعى فى غفلة إذا انقضى

(١) ولا: فى الأصل، والتصويب يتفق مع سير الأحداث، ينظر ما سبق.

(٢) بلرغى: فى الأصل والتصويب مما يلى.

وهو: برلغى بن عبدالله الأشرفى، ابن عم السلطان الناصر محمد، و المتوفى سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م، ينظر ما يلى.

(٣)الذكر : فى الأصل ، والتصويب مما سبق ، ومما يلى .

(٤) مسجد التبن : هكذا في الأصل، وزبدة الفكرة، وهو قول العامة.

وهو : مسجد التبر، وموضعه خارج القاهرة قريب من المطرية، ينظر المواعظ والاعتبار المجلد الرابع ٧٢١-٧٢٢.

(٥) طفش = طفس : من مراكز البريد على الطريق بين غزة ودمشق، ينظر صبح الأعشى ١٤/٣٨٠.

كـــثلة ريعـــت لليـــث فـــانزوت حـتى إذا غـاب اطمأنست إن مـضى

وأرسل إلى برلغى ومن معه من المجردين يأمرهم بالعود فعادوا(١).

ثم إنه أرسل علاء الدين مغلطاى أيتغلى وقطلوبغا برسالة إلى السلطان الناصر، [فاشتد](٢) غضبه وقبض عليهما بعد أن أوجعهما بالضرب الشديد.

ثم كتب إلى الأمراء بحلب ودمشق وصفد والساحل وحماة يقول لهم: إنى لما اشتد الضنك عَلَيَّ خَرجتُ من مصر وتركت لهم الملك يتصرفون فيه كما يختارون وأقمت بالكرك متجنبًا عنهم، ورضيت بأحقر المساكن وأصغر الأماكن ليستريح خاطرى من التشويش، فما رجعوا عنى، ولا تركوا مشاكلتى ومطالبتى بالمال والخيل وغيرهما، وانتهى الحال إلى أن أغلظوا فى المخاطبة، وأحنقوا(٣) فى المراسلة، وأرسلوا يقولون لى: لئن لم تمتثل مراسيمنا وأوامرنا لجرى لك معنا ما جرى لولد الملك المعز وأولاد الملك الظاهر، وأمثال هذا الكلام الذى يقرح الخوطر ويقدح فى الضمائر.

وما أحقه حينئذ بالتمثل بأبيات سنان(٤) صاحب الحصون، إذ يقول:

[١٠٩] ياللرجـال لأمـر هـال مقطعُـه مـا مَـرَّ قـط عـلى سمعـى تَوَقُّعُـه

قـــام الحمـــام إلى البـــازى يُرَوِّعُـــه وشُمِّـــرت لأســـود الغـــاب أَضْـــبُعه

يا الذى بقـــراع الـــسيف هَـــدَّدَنى لا قـام مَـصْرع جَنْـبى يـوم تَـصْرَعُه

وقال السلطان فى رسالته للأمراء: أنتم تعلمون ما لوالدى عليكم من حق التربية

(١) ينظر زبدة الفكرة ٤١٤- ٤١٥.
(٢) اشتد: فى الأصل، والتصويب للتوضيح.
(٣) واجنفوا: فى زبدة الفكرة.
(٤) هو : سنان بن سلمان بن محمد، أبو الحسن راشد الدين، كبير الإسماعيلية وصاحب الدعوة النزارية، كان أديبًا فاضلاً، بنى بالشام حصونًا لطائفة الإسماعيلية، بعضها مستجد وبعضها كان قديمًا، احتال في تحصيلها وتحصينها، توفى سنة ٥٨٩هـ/١١٩٣م، الوافي بالوفيات ٤٦٣/١٥ رقم ٦٣٢.

والعتق والإحسان من قديم الزمان، [وما][(١)] أظنكم ترضون لى بهذا الهوان، فإما أن تكفوا عنى هؤلاء المتغلبين الأشرار، وإلا فأنا ألتجئ إلى بلاد التتار، فهو خير لى من النفى إلى بلاد الكفار.

وأرسل بالكتب المذكورة جنديًا يسمى تاج [الدين][(٢)] أوران، [وكان][(٣)] يخدم مع النواب بالكرك، معى[(٤)] أولاً، ثم مع الأمير جمال الدين أقوش الأشرفى، وبقى مقيمًا هناك، وله إلمام بالصيد ومعرفة بمظانه، فألم بالركاب الشريف فى أوقات التصيد، وصار له بين يديه ادلال التردد، فأنس به، فلما كان فى شهر رجب من هذه السنة خرج السلطان إلى الصيد، وقد أضجرته الرسائل التى ترد من جهة الركن إليه، وأحنقه ما أظهره من التحكم عليه، وهجس بفكره أن يلحق ببلاد التتار لكثرة ما استولى عليه من الإضجار، [١١٠] فألقى إلى أوران المذكور بعض ما فى نفسه من هذه المعاملة، ويقابله بهذه المقابلة، فقال له أوران: أرسلنى إلى الأمراء سرًا وأنا أتوصل إلى إبلاغهم هذه الرسالة، وإعلامهم بهذه الحالة، ويكون فى ذلك بلوغ الوطر والراحة من هذا الخطر، والتوفير من التوجه إلى بلاد التتر، وكان الأمر كما ذكر الشاعر:

إذا اشتملت على البأس القلوب	وضاق لما به الصدر الرحيب
أتاك على قنوط منك غوث[(٥)]	يمن به اللطيف المستجيب
وكل الحادثات إذا تناهت	فموصول[(٦)] بها الفرج القريب

وصغى السلطان إلى مقاله، وأرسله بكتب يتضمن هذه الخطوب ، فسار إليهم

---

(١) ولما: فى الأصل، والتصويب للتوضيح.
(٢) إضافة من زبدة الفكرة ٤١٦.
(٣) إضافة للتوضيح من زبدة الفكرة ٤١٦.
(٤) مازال الحديث على لسان بيبرس الدوادار.
(٥) عون: فى التحفة الملوكية ١٩٥.
(٦) فمقرون: فى التحفة الملوكية.

وتوصل للدخول عليهم، فلما وصلت كتبه ورسائله أخذتهم الحمية وعطفتهم النفوس الأبية والصدقات المنصورية، ولم يرضوا بما جرى من الأضداد، وأظهروا الأهبة للمساعدة على المراد، وأرسلوا يعرفونه بأنهم طوع يده، ووفق مقصده، ومتى أراد الحركة بادروا نحوه، وحذوا فى كل ما يؤثر حذوه، فتحرك من الكرك برأى مشترك[١].

ذكر[٢] [١١١] حركة السلطان من الكرك فى المرة الأولى

سار السلطان الناصر إلى البرج الأبيض من أعمال البلقاء، وسمعت الناس من جميع الجهات بأن الناصر نزل من الكرك وطلب دمشق، وسمع والى حُسْبان[٣]، وكان الأفرم قد سير له حَماما، فأطلقه بالبطاقة التى جاءت من والى حسبان، فارتجت دمشق بساكنيها وماجت بقاطنيها، وقال الأفرم للأمراء: ما تقولون فى نزول هذا الصبى من الكرك؟ فكل واحد منهم قال شيئًا، ووصل عثمان الركاب ودنكز وأعطيا كتاب الناصر[٤] للأفرم، فلما قرأه اسود وجهه من الغيظ، ودمدم على دنكز وقال: أنت وأمثالك الذين حَمَّقوا هذا الصبى حتى يكتب لى هذا الكتاب، ويلك، مَنْ هو الذى يوافقه على ما فعل؟ وما فعل إلا وقد حان أجله، وشتمه، ثم حبسهما فى قاعة السلاح، ثم طلب الأمراء وأخرج كتاب الناصر وقرأه عليهم، فنظر الأمراء بعضهم إلى بعض، ثم قالوا له: ماذا عولت؟ فقال: إن كان يلعب بعقل الناصر ويجئ فأنا أقبضه وأبعثه إلى مصر فيحبس هناك إلى أن يموت، فقال بيبرس المجنون: ما هذا بمصلحة تجاوب لابن أستاذك بهذا الجواب، ولكن لاطفه وقل له: أنت تعلم أننا كلنا متبعون مصر وما يبرز منها، فإن أردت [١١٢] الملك فاطلبه من مصر ولا تبتلش[٥] بنا وارجع عنا، فإن انتظم

---

(١) ينظر زبدة الفكرة ٤١٥- ٤١٦.

(٢) ذكر: مكررة فى الأصل، فى نهاية الورقة ١١٠ وبداية الورقة ١١١.

(٣) حُسْبان : بضم الحاء وإسكان السين، بلدة صغيرة من عمل البلقاء، وكان واليها جنديًا، ينظر صبح الأعشى ٤/١٠٦، ٢٠١.

(٤) الناصر: ملحقه بهامش الأصل، ومنبه على موضعها بالمتن.

(٥) المقصود: لا تبدأ.

لك أمر فى مصر فكلنا تبع لك موافقون على كل ما تريد، فإذ سمع هذا الكلام فقد أرضيته وما عليك فى هذا من ملام، فقال الأفرم: أنا ما أقول هذا الكلام، وليس له عندى إلا السيف إن جاء، ثم إنه طلب ثلاث مقدمين من الحلقة وأعطاهم مائة وخمسين فارسًا وقال لهم: سيروا إلى الزرقاء وطالعونى بكل ما يجرى، ثم طلب دنكز وقال له: سر إلى أستاذك وقل له يرجع وإلا يسمع المظفر بما جرى فيمسكك ويحبسك فتبقى تتمنى أن تشبع الخبز ولا ينفعك حينئذ أحد، فإن كان لك رأى فاقبض على نغيه ومَنْ معه وسيرهم إلىّ حتى أسيرهم إلى المظفر، فإن فعلت ذلك فقد انصلح حالك ومشى، ولا تفعل غير هذا فتهلك، وكتب كتابًا مضمونه هذا، وأعطاه لدنكز ورده.

فى تلك الليلة: أرسل بيبرس المجنون خلف بيبرس العلمى وزين الدين بن دنداش وصلاح الدين يوسف بن الجوكندار وحلفوا كلهم للملك الناصر، ثم خرجوا تحت ظلام الليل، ولما وصلوا إلى الصنمين[1] رأوا الناس فى رجيف شديد يقولون: الناصر نازل على أرحاب[2]، وهى قرية فى طرف البرية خراب، ففرحوا وساروا يطلبونه، فلما أشرفوا عليه وقع صائح جاءت الخيل، [١١٣] فركب السلطان، وركب نُوغيه قدامه كالأسد، والى جانبه مغلطاى، والمماليك حولهم، ثم قال نغيه: يا خوند: مُرنى أن أذهب وأكشف هذا الخيل، فقال: افعل، فأخذ معه عشرة أنفس وساروا يطلبون ذلك السواد من الخيل، ولما قربوا منهم عرف نغيه بيبرس المجنون، "فسلم بعضهم على بعض، ثم أرسل نُوغيه شخصًا إلى الناصر يعلمه بقدوم بيبرس"[3] ومَنْ معه، ثم رجعوا طالبين الناصر.

ولما وقع نظر[4] بيبرس على السلطان ترجل وباس الأرض، ثم تقدم وباس يده.

---

(١) الصنمان : قرية من أعمال دمشق فى أوائل حوران ، بينها وبين دمشق مرحلتان ، وهى منزلة من منازل البريد، في الطريق من جينين إلى دمشق، ينظر معجم البلدان ، صبح الأعشى ٣٨١/١٤.

(٢) أرحاب : منزلة من منازل البريد، في الطريق من حلب إلى بغراس، آخر الحد مما يلي بلاد الأرمن، ينظر صبح الأعشى ٣٨٣/١٤.

(٣) ملحق بهامش الأصل، ومنبه على موضعها بالمتن.

(٤) نظر: فى هامش الأصل، ومنبه على موضعها بالمتن.

فقال له السلطان: ما وراءك؟ فقال: مماليك السلطان: بيبرس العلمى وابن دنداش، وصلاح الدين بن الجوكندار، وتقدم كلهم وباسوا الأرض، ثم إن الناصر خلع عليهم ووعدهم بكل خير، وأعطى كل واحدٍ من الأمراء ألف دينار، ولكل مقدم من الحلقة خمسمائة دينار، ولكل جندى مائة دينار، ثم قال لهم: ما يقول الأفرم؟ لأن دنكز كان قد وصل قبلهم، وقرأ الكتاب الذى سيره الأفرم، وكان قد امتلأ غيظًا، ثم قال: لاغنى له أن يضرب معى مصافًا، فقال بيبرس المجنون: هو أقل وأذل من هذا، والله متى يتحقق الناس بقدوم مولانا السلطان جاء الكل بين يديه على رغم أنفه، ثم قال السلطان: بلغنى أنه قد خرج من دمشق ثلاث مقدمين ليكشفوا أخبارنا، فقال: نعم، راحوا إلى الزرقاء ومعهم والى ولاة حَوْرَان.

فطلب السلطان [١١٤] هلال بن ساعد الزبيدى، وقال: قم واكشف لى أخبار هؤلاء وعد سريعًا، فسار هلال وكشف، ثم عاد وقال: هم فى ناحية ابن معبد، وبكتمر فى حسبان، وخطاب وقطلوبك قد تقدما من الزرقاء، وكأنهم قد أخذوا أخبارنا، وهم خائفون، فأمر السلطان لنغيه أن يأخذ معه خمسين فارسًا ويذهب إليهم، فإن جاءوا طائعين [فبها][1] وإلا فأرسل وأعلمنا بذلك، فقال نغيه: إن جاءوا فقد سلموا وإن امتنعوا ضُربت رقابهم، فسار ومعه هلال بن ساعد طول ذلك النهار، ونزلوا للاستراحة وأكل العليق، ثم ركبوا إلى أن أصبح الصباح فإذا بالقوم وهم نازلون، فضرب عليهم حلقة وصاح نغيه: أنا نغيه، سلموا أرواحكم وإلا فقد هَلَكت، فتقدم قطلوبك وقال: يا أمير لا تستعجل، فنحن سائرون إلى الناصر، فقال نُوغيه: الآن لكم الأمان، سيروا قدامى.

فساروا كلهم إلى أن وصلوا إلى السلطان، فقال لهم السلطان: إلى أين كنتم رايحين؟ فباس قطلوبك الأرض وقال: خلد الله ملك مولانا السلطان، نحن قد سَيَّرنا الأفرم لنكشف أخبار مولانا السلطان، ورأينا الناس كلهم مع مولانا السلطان، فاتفقنا على المجئ إليه، والمملوك والى ولاة حوران فإن رسم مولانا السلطان أخرج له

(١) فيها: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

الإقامات، وأى وقت قلّ علينا الشئ ضربت رقبته، ثم [١١٥] رحل السلطان من أرحاب إلى أن نزل على أذرعات، فجاءت أهل حوران جميعها وهم يهللون ويكبرون وعلى رؤوسهم المناسف(١).

وأما الأفرم فإنه بلغه وصول الناصر، فانقطع قلبه، وكتب فى الحال إلى الملك المظفر بذلك، وأن أهل البلاد كلها معه، وأن بيبرس المجنون وبيبرس العلمى وجماعة من مقدمى الحلقة قد نفروا إليه، وكثير من الناس يريدون النفور إليه، وأنا خائف من الأمراء الذين عندى فى دمشق، وإن لم ترسل نجدة هائلة من مصر وإلا راحت البلاد من يدك، ثم طلب مملوكه أقطوان وقال له: اذهب مسرعًا، فخرج على البريد، ففى اليوم الرابع: تمثل بين يدى المظفر وقدم كتاب الأفرم فقرأه المظفر، ثم طلب سلارا وأوقفه عليه، فكتب إلى الأفرم جوابه يستعجزه فيه ويقول: إش مع الناصر حتى تخاف منه، وكتب كتبًا أيضًا إلى الأمراء يأمرهم فيه بالمطاوعة للأفرم ويحذرهم من المخالفة.

وكان الأمير جمال الدين قتال السبع مجردًا فى حلب ومعه الحاج بهادر وبيبرس العلائى من دمشق، فأرسل خلفهم البريد وطلبهم إلى مصر، وكتب أيضًا كتابًا إلى الملك الناصر يقول له فيه: إنه قد وصل إلى كتابك بالشفاعة فى نغيه ومغلطاى، وقد قبلنا شفاعتك فيهما، ورددنا أخبازهما إليهما وزدناهما إقطاعًا، وأمرنا أن [١١٦] يكون إقطاعهما فى مصر، وهما مقيمان عندك، وقد تقدم أمرنا إلى نائب الشام بأن يسلم إليك البلقاء وبلد حوران جميعها لعلمنا بأن الكرك ما تقوم بحالك، وأما قولك بأن تسير إلينا تقدمة ومماليكًا فقد أعفيناك من ذلك، والتقدمة والمماليك لك، وأنت ابن أستاذنا على كل حال، وكل شئ تشتهيه فى المأكول والمشروب والملبوس فابعث إلى الأفرم واطلبه منه، ولكن ينبغى(٢) أن لا تسمع كلام نغيه ولا كلام أمثاله فيحصل لك الضرر بسببهم، ثم طلب الأمراء جميعهم وقال لهم: ألا ترون ما جرى من الملك الناصر؟ فإنه قد خرج من

---

(١) المنسف : الغربال الكبير، والمقصود إناء ملآن بالطعام، يفيض من الامتلاء، ينظر المحيط في اللغة، مادة: نسف.

(٢) لا ينبغي : في الأصل، ومشطوب على حرف لا.

الكرك، فطلب دمشق، وأن بعض أمراء دمشق راحوا إليه، " فتشاوروا فى أمره. فقال بعضهم: جرد له عسكرا وحاصره فى الكرك"[١]، فما هو خير من ابن الملك الظاهر بيبرس، وقال بعضهم: هذا ما هو مصلحة، وربما يفسد الأمراء [الذين][٢] يرجعون إليه، لأن أكثر الأمراء بل كلهم مماليك أبيه وأخيه، فنهض برغلى وقال: يا خوند، أرسل أحدًا إلى الشام يأتيك بالخبر الصحيح، وبعد ذلك أنا أروح إليه وأجيبه، ولو كان معه كل مَنْ فى الأرض، فعند ذلك طلب السلطان شخصًا يُقال له: بلاط[٣]، وكان من خشداشيته ويعتمد عليه، وقال له: سر إلى الشام واكشف لى هذه الأخبار على حقيقتها، وكتب معه كتابًا إلى الأفرم وإلى أمراء دمشق، فركب [بلاط][٤] وسار يطلب الشام.

وأما [١١٧] البريدى الذى خرج قبله وهو مملوك الأفرم، فإنه وصل دمشق ورأى الدنيا منقلبة، والناس يقولون: غدا يعبر الملك الناصر أو بعد غد[٥]، والبريدى سار أولاً إلى أذرعات إلى الملك الناصر وأعطاه كتاب المظفر، فلما قرأه ضحك وطلب الأمراء وقال: المظفر يتناوم ويرى أنه ما سمع بما جرى فى الشام، وأعطانى بلد البلقاء وحوران وقَبِلَ شفاعتى فى نغيه ومغلطاى، وردّ إليهما أخبازهما فى مصر، وهو يحتال عَلَىَّ فى هذا الوقت حتى أفرق الذين حولى ليبلغ مراده منى، وهذا ما له إليه سبيل، ثم إنه أعطى للبريدى مائة دينار، وقال له: سِرْ، فإذا طلعنا إلى الكرك اكتب جواب الكتاب.

فمضى البريدى يطلب دمشق، لأنه كان رائحًا إلى حلب خلف قتال السبع، وأخذ الأفرم كتابه وقرأه على الأمراء، وإذا قد وصل بلاط فطلعت الأمراء قدامه، وأخرج كتب المظفر للأفرم فقرأها على الأفرم، فباسوا الأرض وقالوا: كلنا ممتثلون أوامر السلطان كما يحب ويختار، فقال لهم بلاط: ما خبر الملك الناصر عندكم؟ فقال الأفرم: هو

---

(١) فى هامش الأصل، ومنبه على موضعها بالمتن.

(٢) الذي : في الأصل.

(٣) بلاط : كان مقدمًا عند المظفر بيبرس الجاشنكير، توفى بطرابلس سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م، الدرر الكامنة ٢٤/٢ رقم ١٣٢٥.

(٤) بلاد: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق، ينظر ما سبق.

(٥) غدًا : في الأصل.

نازل على أذرعات، وفى تلك الحالة جاءت الأخبار بأنه رحل من أذرعات قاصدًا دمشق، فارتاع الأفرم وقال: ما تقولون يا أمراء؟ هذا قد وصل، ما يكون عملنا معه؟ فقال بعض الأمراء: اخرج [١١٨] إليه بعسكر دمشق، فقال الأفرم: والله، لو طلعت إليه أخذونى برقبتى وودونى إليه، قالوا سَيِّر إليه أيدغدى شقير[١] وسيف الدين جوبان[٢] يقولان له: هذا الذى تفعله ما هو جيد لك، والبلاد ما هى بلا سلطان، غدا يأتى عسكر مصر فيمن تلاقيه، والمصلحة أن ترجع وتصبر علينا شهرًا حتى نرسل نكاتب الملك المظفر، وربما ينصلح الأمر بينكما فتكون الشام لك ومصر له.

فسار أيدغدى شقير وجوبان، فاجتمعا بالملك الناصر وهو على الجمان نازل، فتمثلا بين يديه وبلغا ما قاله الأفرم، فضحك وقال: ما أقل عقله وعقولكم، هذا أمر ما بقى فيه اصطبار، اذهبا إليه وقولا له: إن كل مملوك يجئ إلىّ فهو أسوة مَنْ قد جاء، وإلا يروح إلى أى موضع يختار. فقال له أيدغدى: وأين نروح ونحن مماليك السلطان وقد جئناك بالكلية؟ فقال السلطان: هاتوا المصحف، فأحضروه وحَلَّف الاثنين، ثم خلع عليهما وأعطى لكل منهما ألف دينار، وقال: سِيرا إلى دمشق، وحَلِّفا الأمراء وَعِدَا لهم بكل جميل، فرجعا ووصلوا إلى الشام وأعلما الأفرم بأن السلطان واصل لا محالة، فتحير الأفرم فى أمره وطلب بلاط، فأخبره بذلك، فقال: وعلى ماذا عولت؟ فقال: أهرب وأروح إلى السلطان المظفر من على الساحل، لأنه ما بقى لنا طريق إلا منه، ثم إنه أمر أن يُحَمِّلوا جماله، [١١٩] ولما رأى ذلك بلاط، فقال: ذهب والله الشام، فركب ودموعه تجرى وطلب مصر.

وأما الناصر فإنه أقام على الجمان ينتظر قدوم قراسنقر وقفجق واسندمر لأن ميعادهم أن يجتمعوا كلهم على دمشق، ثم إن الناصر أراد أن يقتل قطلبك والى حوران،

(١) هو : أيدغدي شقير، الأمير علاء الدين الحسامي، أحد مماليك الملك المنصور حسام الدين لاجين، قتل في ربيع الأول ٧١٥هـ/١٣١٥م، السلوك ١٥٩/٢.

(٢) هو : جوبان المنصوري، الأمير سيف الدين، كان من مماليك الأشرف، وأمره الناصر بدمشق، توفى بدمشق سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م، الدرر الكامنة ٧٩/٢ رقم ١٤٦٤.

فاستجار ببيبرس المجنون وهرب فى الليل، ثم جاء أرغون وأعلم السلطان بأن مملوك قراسنقر قد وصل، فطلبه السلطان، فحضر وباس الأرض، وسأله السلطان عن قراسنقر واش حال ولده ناصر الدين؟ فقال: أطال الله عمر مولانا السلطان، فضرب السلطان يده على يده، فقال: ﴿ إنا لله وإنا إليه راجعون ﴾[1]، فحزن عليه قويًا، ثم قال: ما كان سبب موته؟ فقال: يا خوند، كان عند أبيه استادار يقال له: الطنبغا، وكان رجلاً ظالمًا يشكو الناس منه، فأوعده ناصر الدين بالقتل، ففزع منه، فخدمه خدمة بالغة وأحضر له كُلَّ ما يريد حتى اطمأن إليه، فسقاه فقتله، فعلم بذلك مماليكه فقتلوه، ثم قال له: ما خبر الأمير؟ فأخرج كتابًا وناوله فقرأه سرا، فإذا بالسلطان قد تغير وانخطف لونه وشرست أحداقه وبقى يفرك يديه، وكان آخر النهار، ولما جاء الليل أمرهم أن يرموا الخيام والمضارب، وطلب ناحية الكرك، فتعجبت الأمراء من ذلك غاية العجب [ولم يقدر][2] أحد أن يكلمه، فنزل على أرحاب، فتقدم إليه نغيه وقال: أريد أن أعلم ما سبب رجوع مولانا السلطان [١٢٠] بعد ما وصلنا إلى دمشق وجاء إلينا [أمراؤها]؟[3] فأخرج له كتاب قراسنقر، فقال له: اسمع ما فيه وقرأه عليه؛ فإذا فيه ساعة وقوفك على الكتاب، وقبل وضعه من يدك، ارجع إلى الكرك وامش ليلاً ونهارًا لأنه قد جاء لى قصاد وأخبروا أن المظفر قد جهز أربعة آلاف فارس مع [برلغى][4] وسَيَّرهم على تيه بنى إسرائيل، وأوصاهم أن يسيروا بالليل ويكتموا بالنهار، وأمرهم أن [يحولوا][5] بينك وبين الكرك، فارجع واحفظ القلعة فإننا واصلون إليك لأن مملوكك محمد قد مات، فاشغلنا فى هذا الوقت عن الحركة، وكذلك قفجق واسندمر عرض لهما ما يشغلها، ولا تحسب أن تأخير الأفرم بعسكر دمشق إنما كان خوفًا، وإنما العلم معهم من المصريين، وهم يريدون أن يستجروك عن الكرك ليحولوا بينك وبينها، فقال نغيه: والله هذا الكتاب زور، قد

(١) جزء من الآية ١٥٩ من سورة البقرة رقم ٢.
(٢) ولم يقد: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.
(٣) أمرها: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.
(٤) برغلى: فى الأصل، والتصويب مما سبق.
(٥) يحيلوا: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

زوروه على لسان قراسنقر، وأنا أعرف أن ما فى مصر مَنْ يخرج إليك ولو كنت على الصالحية.

قال الراوى: فطلب السلطان مملوك قراسنقر، فقال له: مَنْ أعطاك هذا الكتاب؟ فقال: أعطانى الأمير شمس الدين من يده إلى يدى، ثم كتب جوابه لقراسنقر يقول: إنى تأخرت من بعد ما كنت وصلت لأجل كتابك، فأريد من الأمير أن يجهز لى قصاده الذين أتوه بهذا الخبر من مصر، وكتب أيضًا كتابًا لقفجق، وكتابًا لأسندمر يعلمهم بتأخيره، وطلب مملوك قراسنقر، وقال له: سر مع مملوكى إليه [١٢١] فضم إليه مملوكًا يقال له: أقطاى، وأرسل معهما نجابًا وقال: سر بهما غير الطريق.

وركب الملك الناصر من أرحاب، وخلى ثقله وأكثر الغلمان، وسار مسرعًا إلى أن أشرف على الكرك، فلما رآها وما عليها أحد شكر الله تعالى، ولم يطمئن قلبه حتى أنه دخل إلى القلعة، وبعد يومين وصل الثقل والغلمان، وكذلك الأمراء الذين كانوا معه، ونزلوا على ظاهر الكرك وفى قلوبهم نار، ولا سيما نغيه، وكان بعد أن سار السلطان إلى الكرك، قال نغيه للأمراء: يا أمراء هذا الصبى ما يجئ منه شئ، وإن جاءنا أحد من مصر لا غنى لى أن أعمل شيئًا تتحدث به الناس، فإذا غُلبت كل الغلبة أخرج من بينهم على حمية، وأطلب البر والقفار، وأسكن رؤوس الجبال، وأخرب البلاد بتواتر الغارات، ولا أسلم روحى إلى من يسوقنى سوق البقر إلى المنحر، فحلف الأمراء كلهم معه على ما يحب ويختار، وما استقر نزولهم على الكرك حتى سير السلطان فطلبهم، فجاءوا وباسوا الأرض، فقال لهم السلطان: يا أمراء قد أنكرتم علىّ لأجل رواحى وردودى، وكان فى ذلك مصلحة، وجاءنى الخبر بأن المظفر قد نفق فى الناس، وأن ديار مصر مُخَبَّطَة.

فبينما هو فى هذا الحديث [إذ][1] قد دخل أرغون وقال: يا خوند، قد وصل طرنطاى الأشرفى ومعه عشرون مملوكًا، فقال: أحضرهم، فلما حضروا قبلوا[١٢٢] الأرض، فقال السلطان: يا طرنطاى ما أخبار مصر؟ فقال: يا خوند، أما ديار مصر فإنها

(١) إذا: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

مخبطة، فناس كانوا يقولون: الملك الناصر ملك دمشق، وناس يقولون: راح إلى حلب، وناس يقولون غير ذلك، فكثر الكلام بينهم، ولكن العوام خواطرهم عند مولانا السلطان، وداعون له ليلاً ونهارًا، ثم قال السلطان: واش خبر [برلغي][1] مع العسكر الذى جرده المظفر؟ فقال طرنطاى: إن السلطان المظفر طلب [برلغى][2] وأعطاه عشرين ألف دينار، وجرد معه عشرة من الأمراء بأربعة آلاف فارس، وإلى الآن ما خرج أحد من ديار مصر، فخلع عليه السلطان، وعلى مَنْ جاء معه.

وأما أقطاى مملوك الناصر ومملوك قراسنقر والنجاب فإنهم ساروا ليلاً ونهارًا حتى وصلوا إلى حلب، وأعطوا الكتب لقراسنقر، فلما قرأه اصفر لونه وضرب بديه على يده، وقال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، خرب كل شئ عملناه، ثم التفت إلى مملوكه وقال له: كيف أعطيت كتابى لنائب دمشق حتى كتب بضد ما كتبت أنا. فقال المملوك: أعوذ بالله أن أخون أستاذى وأعطى كتابه لغير من كتب له، ثم قال قراسنقر: احك الذى جرى عليك فى دمشق وإلا أسلخ جلدك. فقال: لما حضرت قدام الأفرم فقال لى: إلى أين رايح؟ قلت له: إلى الكرك، لأن الأخبار قد وصلت إلينا بأن الناصر قد نزل من الكرك يطلب دمشق، [١٢٣] فقال لى أستاذى: اذهب إليه وانصحه منى وقل له: البلاد ما هى ساية ولا هى بلا سلطان، فاقعد ولازم موضعك والزم حرمتك، ولا تسمع من الذين حولك، فالذى أشار عليك بهذا أشار برأى غير صالح، قال: فلما سمع الأفرم بذلك فرح، وأمر بأن أنزل عند بعض مماليكه، ثم ودانى إلى داره فأكلنا وشربنا، فقال له قراسنقر: المصيبة من هاهنا، فأكلت عنده وشربت وسكرت، فأخذ الكتاب الذى كتبته إلى الناصر من جرابك وأنت سكران لا تدرى، وكتب بضد ما كتبتُ أنا.

فكان الأمر كما ذكر سواء بسواء، فإنه لما سكر ونام، فقام مملوك الأفرم وفتح جرابه وأخذ الكتاب الذى كتبته للناصر وأعطاه لأستاذه الأفرم، ففتحه، فإذا فيه حال

---

(١) برغلي : في الأصل، والتصويب مما سبق.

(٢) برغلى : في الأصل، والتصويب مما سبق.

وقوفك على هذا الكتاب إن كنت فى الكرك فانزل، وإن كنت فى الطريق فجد فى السير إلى دمشق، فهذه خطوط أمراء دمشق وغيرها عندى، وأنا والأمير سيف الدين قفجق والأمير اسندمر قد تجهزنا وجهزنا العساكر، فترد لنا الجواب سريعًا، فلما سمع الأفرم بذلك داخله الرعب واصفر لونه وأرسل وراء ابن فضل الله وقال له: خذ هذا الكتاب وخذ الوصل الذى فيه علامة قراسنقر وأوصله بدرج أبيض واكتب ضد ما فيه، وقابل كل فصل بضده، فأخذه ابن فضل الله وكتب مثل ما قال، فلما سمع قراسنقر ذلك قال: الحرب والمسالمة لا يتفقان.

[١٢٤] وكان قتال السبع على حلب كما ذكرنا عن قريب، وهو مجرد معه ألفا فارس من عسكر مصر، والحاج بهادر وبيبرس العلائى ومعهما ألفا فارس من عسكر دمشق، فطلبهم قراسنقر وقال لهم: يا أمراء، الملك الناصر ما هو ابن أستاذكم؟ فقالوا: نعم. فقال: إذا نزل هو وطلب دمشق ما تساعدونه وأنتم أكابر الأمراء؟ فقالوا[١]: الأمير جمال الدين قتال السبع أخبر منا وهو مقدمنا وكبيرنا. فقال لهم: وأنا ما أقدر أدخل بينكم وبين ابن أستاذكم، فأنا رجل غريب بينكم، وأنتم أخبر منى بهذا الأمر، وأى مَنْ حكم فى المُلك كنت غُلامه، فقال قراسنقر: لاغنى عن الكلام، فقالت الأمراء: أنت أحق بالكلام، فقال قراسنقر: إن سمعتم منى تكلمت وإلا أنا ساكت، فقالوا: كلنا نسمع منك ولا نخالفك، فقال لهم: عندى أن ابن أستاذكم أحق بالملك من كل أحد، وأنتم تعلمون أنه ورث الملك من أبيه وأخيه، وأيضًا أنه فتح الشام بعد أن كان خرج من أيدى[٢] المسلمين، وأيضًا أنه مقدام عند الشدائد، ثابت عند تراكم الأهوال وتصادم الرجال، وما فيكم إلا مَنْ رآه يوم حمص وقد ولينا كلنا وثبت هو مع صغر سنه، فكيف إذا بلغ ما بلغ غيره من السنين، فقال قتال السبع: يا أمير، كلامك يدل على أن قلبك معه، فقال له قراسنقر: وكيف لا يكون ذلك ؟ فوالله، إن ابن أستاذى أحب إلى من خشداشى، فقالوا: يا أمير، نوافقك على ما تختار، ثم خرج من عنده، فوصل إلى البريدى الذى

(١) فقال: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٢) أيدى: ملحقة بهامش الأصل ومنبه على موضعها بالمتن.

[١٢٥] سيره الملك المظفر، فجمع الأمراء المصريين وخرج بهم الأمير جمال الدين قتال السبع ورحلوا فى الليل.

وكان الحاج بهادر وبيبرس العلائى قد حلفا مع قراسنقر للملك الناصر، فقال لهم قراسنقر: ارحلوا ولا تنقطعوا عن المصريين، وإذا وصلتم إلى دمشق فحلفوا الأمراء الذين فيها، فنحن أيضًا واصلون وراءكم، فرحلوا.

ولما وصل قتال السبع إلى دمشق ركب الأفرم إلى ملتقاه، وأنزله فى ميدان الحصى، ونقل إليه كل ما يحتاج إليه، وأما بهادر وبيبرس فإنهما نزلا فى بيوتهما، واختلى قتال السبع بالأفرم وحدثه بما سمع من قراسنقر، فقال: كل الشام مخامرون على السلطان المظفر، وقد عجزت مما أسير إليه، فما يأتينى منه خبر شاف أعتمد عليه، وأريد منك أن تجد فى السير، فلعلك إذا وصلت تحدثت للسلطان بكل ما سمعت.

وما أقام قتال السبع فى دمشق إلا يوم دخوله، ثم رحل طالبًا مصر، فلما نزل إلى الغور هرب منه أمير يقال له: غانم بن أطلس خان، فسار إلى الكرك، وأما قتال السبع فإنه جد فى السير حتى وصل إلى مصر وحضر بين يدى المظفر، فحدثه بحديث قراسنقر، فانقطع قلبه وقال: راح الشام ورب الكعبة، وطلب سلار وحدثه بالذى سمع، فقال له سلار: وماذا عولت؟ فقال له: اخرج إلى الشام بالعسكر وإلا راحت البلاد منى، فقال له سلار: أى وقت [١٢٦] خرجت تتلف خيول الناس جميعها، لأنها كانت فى الربيع[1] وتخرج وتقاسى الرمل، وربما صح اتفاق قفجق واسندمر وقراسنقر ويخرجون إلينا بخيول قوية وخيولنا عجاف ولم تشبع الربيع، فلا يحصل خير ولا نأمن على أنفسنا منهم، والناس كلهم يعلمون أن أى من كان صاحب مصر فهو صاحب البلاد، وأنت الآن قاعد على كرسى المملكة فلا تبال.

---

(١) الربيع : ربيعان، ربيع الشهور، وربيع الأزمنة، وربيع الأزمنة ربيعان : الأول يأتي فيه النور والكمأة، والثاني تدرك فيه الثمار، وارتبع بمكان كنا أقام به في الربيع، وربما سمى الكلأ والغيث ربيعًا، والربيع ما تعتلفه الدواب من الخضر، ينظر تاج العروس، مادة ربع.

ثم إنه خرج من عنده، ولما وصل إلى باب داره وإذا قد أتى إليه نجاب من عند قطلوبك[1] المنصورى من الشام، فطلبه سلار وأخذ كتابه، وقال له:من أين جئت؟ فقال له: على غير الطريق السلطانى، فقال له: لا تظهر إلى السلطان ولا إلى أحد، ففتح كتابه وإذا فيه المملوك قطلوبك يقبل الأرض وينهى أن الملك الناصر قد توجه طالب البلاد، وهو قوى العزم، وربما الأمراء جميعهم معه، وقد سار إليه بيبرس المجنون وجماعة من أمراء دمشق، ولا سيما وقد وافقه وحلف معه قراسنقر وقفجق واسندمر وهم قوام الشام، والأفرم ما هو حجة، والناس كلهم مائلون إلى الملك الناصر، فأريد جواب هذا الكتاب سريعًا مع القاصد بما أعمله، فكتب إليه سلار جواب يقول: حال وقوفك على هذا الكتاب تروح إلى الملك الناصر أنت ومن وافقك من الأمراء، فتأخذونه وتعبرون به إلى دمشق وتُحَلِّفون عسكر الشام، ثم تتوجهون إلى مصر، فأُسَلِّم [١٢٧] لكم البلاد، لأن المُلْك ما يدوم للمظفر، فأخذ النجاب الكتاب، وكان يقال له: شداد. فقال له: يا شداد، تأخذ معك هذا القاصد وتوصله إلى دمشق بحيث أن لا يراكم أحد فى الطريق وتسلمه إلى قطلوبك، فركب من وقته وسار ليلاً ونهارًا إلى أن وصل إلى دمشق واجتمع بقطلوبك وأعطاه كتاب سلار، فقرأه وفهم مضمونه.

ففى الحال ركب وجاء إلى نائب الشام، وكان عنده فى منزلة عالية لأنه كان أكبر أمراء الشام، فقال له: جِئتَ فى غير العادة فلابد من ضرورة، فقال: أنت تعلم أنى فى كل سنة من هذه الأيام أخرج إلى الأغوار وأصيد فيها وأتنزه بعض شئ، فقال الأفرم: كيف تروح والملك الناصر فى الحركة، وكيف تأمن من جهته؟ فضحك قطلوبك وقال له: يا أمير، والله لولا أن نغيه شيطان قد لعب بعقله ما كان يفعل شيئًا من هذه الفعائل، والآن هو قد رجع وندم على ما فعل، وربما الآن يهرب من عنده الأمراء الذين تجمعوا عنده إلى بلاد التتار، فقال له الأفرم: إذا كان ولابد من رواحك إجمع أصحابك بالأسلحة

(١) قطلوبك المنصوري الكبير، الأمير سيف الدين، ولاه الملك الناصر نيابة صفد في شوال ٧٠٩هـ، ثم سجنه بالكرك في جمادي الأولى ٧١١هـ، وظل في سجنه حتى قتل سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م، الدرر الكامنة ٣٣٧/٣ رقم ٣٢٦٤، المنهل الصافي ٨٦/٩ رقم ١٨٨٥م.

والقماش، فقال له: وعلى هذا عوّلت، فقال له: متى تروح؟ فقال له: لو رسمت، غدًا، فقال: رُحْ، ولكن خذ معك حمام البلاد، وروح من هنا إلى أذرعات وتبصر المنزلة التى نزل عليها الملك الناصر وتعرفنا بجميع ما جرى [١٢٨] له، ولا يبرح معك الحمام والبريد، فقال له: سمعًا وطاعة.

وكان الحاج بهادر لما وصل من حلب كان قد اجتمع بقطلوبك وحدثه بحديث قراسنقر وقفجق وأسندمر، وكانا قد حلفا للملك الناصر، فلما كان هذا اليوم الذى طلب قطلوبك دستورًا للسفر، وكان الحاج بهادر حاضرًا، ولما خرج قطلوبك قال الحاج بهادر: والله، جيد تُسلِّم الريح لأبي زوبعة؟ فقال له الأفرم: وكيف أعمل؟ وهذا أكبر أمراء الشام ولا أقدر على منعه ولاسيما فى هذا الوقت، فقال له الحاج بهادر: إذا كان ولابد منه سَيِّر معه أحدًا من الأمراء يكون عينًا لك عليه، ويعرفك بكل ما يفعل، فقال له الأفرم: فما لهذا الأمر إلا أنت، فقال له: أريد من إحسانك أن تعفينى فى هذه النوبة وسَيِّر معه غيرى، فقال له الأفرم: لا غنى عن مسيرك معه، فقال له الحاج بهادر: إذا كان ولابد من مسيرى معه خلّنى أعمل شيئًا حتى لا يُنكر عَلَيَّ قطلوبك، فقال له: وكيف تعمل؟ فقال له أروح إليه وأقول له: إنى أشتهى أن أكون معك فى الصيد، وأريد أن تأخذ لى دستورًا من النائب، فإذا كان الأمر كذلك فلا ينكر على شيئًا ولا يُخْفِيني شيئًا، فقال له: افعل ما أردت، فخرج بهادر وأتى إلى دار قطلوبك، وإذا به قد فتح خزانة السلاح وأخرج العدد والجواشن[1] والقراقل والخُوذ، فلما رآه قطلوبك قام له، [١٢٩] فقال: والله، ما جاء الأمر إلا مثل ما أشتهى، والله جاء وقت رواحنا إلى الملك الناصر، ثم حدثه الحاج بهادر بما جرى بينه وبين الأفرم، فقال: قم بنا إليه، فركبا وأتيا إلى الأفرم، فقال له: الأفرم: أراك جئت، فقال: جئتُ لآخذ دستورًا للحاج بهادر يكون معى، ونتفق على المصالح السلطانية، فقال لهما الأفرم: سيرا وتوكلا على الله، واحترزا لا يدخل عليكما دخيل، فودّعاه وخرجا.

---

(١) جوشن – جواشن : وهو مثل الزرد، يلبس على الظهر، وبينما يتكون الزرد من حلقة واحدة، يكون الجوشن حلقة حلقة تتداخل فيها صفائح رقيقة، ينظر صبح الأعشى ٤٧٣/٣.

وفى تلك الليلة كتب الحاج بهادر إلى قراسنقر، وعرفه بأنه خرج هو وقطلوبك إلى الملك الناصر، ولما أصبحا خرجا بالخيل والجنائب وكلها ملبسة، وكذلك الرجال، فكثر كلام الناس فيهما، فمنهم من يقول: قطلوبك رايح إلى الملك الناصر، وقوم يقولون: هو سائر ليكشف الأخبار ويمسك الطرقات.

ولما خرجا وسارا ونزلا على الجمان، وفى تلك الليلة كتبا كتابًا إلى الملك الناصر يُعلمانه بقدومهما، وسيرا الكتب مع خمس مماليك، فقالا لهم: وأى من لقيتم فى الطريق فقولوا له: نحن كشافة قطلوبك، فساروا ليلاً ونهارًا إلى أن نزلوا على ظاهر الكرك.

وأما الأمراء الذين كانوا نازلين على ظاهر الكرك فقد ضاقت صدورهم واجتمعوا مع نغيه، وقالوا له: يا أمير، إننا أصبحنا فى هذا المكان، وما لنا من نلتجئ إليه وهذا [١٣٠] الملك الناصر قد طلع إلى الكرك وما نظنه يبقى ينزل منها، وأمرنا قد انخرم مع صاحب مصر، وأى وقت وقعنا فى يده أشهرنا على الجمال فى مصر والشام. فقال لهم نغيه: طولوا أرواحكم، فإذا رأينا العجز من الملك الناصر وطلبنا صاحب مصر سرنا وطلبنا بلاد الشرق لأنها أوسع من هذه البلاد ، فتفرقوا على هذا.

وأما الملك الناصر فبينما هو مفتكر فى أمر قراسنقر[١] [إذ][٢] قد دخل إليه أرغون وقال: يا مولاى، إن على باب القلعة خمس مماليك وهم يقولون: إنهم من عند قطلوبك إلى مولانا السلطان. قال: فأمر بحضورهم، فحضروا وأعطوا الكتاب لأرغون، فقرأه على السلطان سرًا وفهم معناه، ثمَ رفع رأسه وقال لهم: أين خليتم الأمير قطلوبك؟ فقالوا: على أذرعات، وفى الحال أرسل السلطان وراء نغيه والأمراء الذين معه وقرأ عليهم كتاب قطلوبك والحاج بهادر، وفيه أنهما حلفا جميع أمراء دمشق، فصاحوا وباسوا الأرض، وقالوا: ما بقيت لنا عاقة عن الرواح، فقال لهم السلطان: نعم، غير أنى منتظر جواب قراسنقر، وهم فى الحديث فإذا قاصد من عند[٣] قراسنقر قد حضر فطلبه السلطان وأخذ كتابه

(١) الملك قراسنقر: فى الأصل، ويوجد شطب على كلمة الملك، نتيجة لتنبه الناسخ.
(٢) إذا : في الأصل.
(٣) من عند: ملحقة بهامش الأصل، ومنبه على موضعها بالمتن.

وقرأه، فإذا فيه إن الكتاب الذى ردك إلى كرك عن طلب دمشق ليس منه، وإنما الأفرم قد زوره على لسانه، فالله الله [١٣١] حال وقوفك على هذا الكتاب انزل واطلب دمشق ورد إلينا الجواب، فقد جهزت عسكر حلب وطرابلس، ففرح السلطان، وقال: يا أمراء بعد ثلاثة أيام يكون المسير، فنزلت الأمراء إلى منازلهم، وسير لكل أمير ألف دينار، ونفق فى الجند لكل واحد على مقداره، وأخذ فى إصلاح أمورهم، وأعطى لأصحاب قطلوبك خُلعًا وذهبًا، وقال لهم: أنا راحل من الكرك، فليأتى الأمراء إلى البرج الأبيض، فسارت المماليك الخمسة وأتوا إلى قطلوبك، وأخبروه بخبر السلطان الناصر وأنه نازل طلبًا دمشق.

ثم نذكر ما جرى فى مصر، ونعود بعده إلى أخبار الناصر.

ذكر ما جرى فى مصر بعد حركة الناصر الحركة الأولى

قد ذكرنا أن السلطان الناصر لما سار إلى البرج الأبيض من أعمال البلقاء فى حركته الأولى أرسل الأفرم إلى المظفر أن الأمراء والعساكر قد فسدت بواطنهم وتغيرت ظواهرهم، والملك الناصر قد تحرك من الكرك ووصل إلى الموضع الفلانى، ولا بأس أن تمدنا بعساكر وتعجل بإرسالهم لنستطيع على دفعه، فأظهر المظفر الاهتمام للتجريد عند وصول هذا البريد، وجرد الأمراء الذين ذكرناهم[١] وهم: الأمير سيف الدين برلغى، والأمير عز الدين البغدادى، والأمير شمس الدين الدكز [١٣٢] السلحدار، والأمير[٢] جمال الدين أقوش الأشرفى، ومعهم أربعة آلاف فارس[٣]، فبرزوا للوقت، وشرع فى النفقة العامة للعساكر كافة، وتكملت فى سبعة أيام، فقال أكثر الأجناد بعضهم لبعض: ادعوا لمولانا السلطان الناصر، فما سمحت نفس المظفر بهذه النفقة إلا بحركة الناصر، ولا

(١) ذكرنا أنهم : فى زبدة الفكرة ٤١٧.
(٢) نهاية المنشور من زبدة الفكرة.
(٣) ينظر ما سبق.

حصل لكم هذا الخير إلا ببركته، فكان حاصل المظفر يخلو وذكر الناصر يعلو، وعين جماعة من مماليكه للإمرة بالطبلخانات والعشرات.

ولما كان يوم الاثنين الرابع والعشرين من شعبان نزلوا إلى المدرسة المنصورية(١) ليلبسوا خُلع الإمرة كجارى العادة، واجتمع لهم النقباء والحجاب والعامة بالأسواق والأبواب ينتظرون طلوعهم القلعة، وكل منهم لابس الخُلعة، فاتفق أن شخصًا من المنجمين كان بين يدى النائب يذكر أن الطالع غير موافق، وهذا الوقت لركوبهم غير لائق، والمصلحة تأخير ذلك، فى وقت يستقيم طالعه ويزول عكسه ومانعه، فصادف كلامه محلاً للتأخير، وكان ذلك بما جرى به فأل المقادير، فلما تأخروا أوسعت العامة ارجافًا وقولا، وكثرت الأراجيف، إذ لم يلبس هؤلاء التشاريف.

ثم ركب بعضهم يوم الاثنين الآتى، وهو مستهل شهر الصيام، فاستزراهم الأنام، واستبرد طلبهم العوام، وركب بقيتهم يوم الخميس ركوبًا [١٣٣] ليست له حلاوة، ولا للأنفس منه طلاوة، وكانت عدتهم حول ثلاثين نفرًا(٢)، منهم أصحاب الطبلخانات سبعة عشر نفرًا، فيهم من مماليكه ستة وهم: صنقيجى، وصديق، وطومان، وقرمان، وغُزْلُو، وبهادر، ومن المماليك السلطانية سبعة هم: قراجا الحسامى، وطرنطاى المحمدى، وكيتمر الساقى، وبهادر قفجاق، وانكبار، وطشتمر أخو بتخاص، ولاجين أيتغلى، وممن عداهم: جرمك، وتمر، وبهادر، وحسن بن الردادى(٣)، وأصحاب العشرات من مقدمى الحلقة وغيرهم، وكثر الهرج بالمدينة وتهافت الناس على تحصيل العدد، وخشى من تسلل بعض المماليك السلطانية، فجردوا إلى البلاد القبلية: منهم قوم إلى بلاد البَهْنَسى، وقوم إلى منفلوط، وقوم إلى قوص، وجردت جماعة إلى البحيرة.

---

(١) المدرسة المنصورية : داخل باب المارستان المنصوري بخط بين القصرين بالقاهرة، ينظر المواعظ والاعتبار المجلد الرابع ٥١٣.

(٢) سبعة وعشرين أميرًا : في السلوك ٢/ ٦٩.

(٣) يراجع رسم الأسماء فى كل من كنز الدرر ٩/ ١٨٠، السلوك ٢/ ٦٩- ٧٠، النجوم الزاهرة ٨/ ٢٦٩، حيث يوجد اختلاف فى رسم بعض الأسماء فى المصادر المختلفة.

وقال بيبرس فى تاريخه: ولما وصل السلطان إلى البرج الأبيض كما ذكرنا رأى أن الرأى قبل الشجاعة، وأن فى الأمثال السائرة: الشجاعة صبر ساعة، فخطر بباله أن يعود، فعاد، وكان ذلك من وجوه الحزم والسياسة التى دبرها بفكرته وما اهتدى إليها [الذين][1] كانوا فى خدمته، بل تمت أفكارهم لرجعته وظنوا رجوعًا إلى التأخير أو جنوحًا إلى التقصير، فتبرموا وتندموا وتفاوضوا فيما بينهم، وتكلموا، وقالوا: إن السلطان قد عاد وعساكر مصر فى التجهيز والاعتداد، [١٣٤] ومتى ما جاءوا إلينا وقع الصلح علينا، ويسلمنا إليهم بأيدينا، والمصلحة أنَّا ننظر فى أمرنا ونحتال فى خلاص أنفسنا، فهذه أمور غير مرضية لنا[2]:

غابت عواقبها عنهم وما علموا ... ما يعلم الله فى العُقْبى من الخير
حتى بدا عن قليل وجه حكمتها ... كما حكى الله عن موسى مع الخضر
فاهوا بأشياء ما يدروا مغبّتها ... وكان ذلك من مستحكم الضَّجَر

واتصل بالسلطان كلامهم، فبقى فى باطنه كامنًا، وفى كمينه باطنًا، وأظهر المظفر العزم على تجهيز العساكر والجد فى لقاء الملك الناصر، ونحن نلوح له إن هذا موقف الندامة، [ونشير][3] عليه بأن فى المسألة السلامة، ولسان الحال ينشد قول أبى أسامة :

فيا ابن أُسيد لا تُسام ابن حاتم ... فتقرع إن سَامَيْتَه كفّ نادم
هو البحر إن كلفت نفسك خوضه ... تهالكت فى آذيه المتلاطم

وعيَّن طائفة ثانية من بطانته للإمرة ، يقصد بذلك الكثرة.

(١) الذى: فى الأصل.
(٢) ينظر ما ورد فى التحفة الملوكية ١٩٥- ١٩٦.
(٣) ويشير: فى الأصل.

[١٣٥] وكتب السلطان إلى الأمراء بالديار المصرية كتبًا تذكرهم بما له ولأبيه الشهيد عليهم من الحقوق، وإعلامهم بأن تقاعدهم عنه من العقوق، ويطلعهم أن [أمراء][١] الشام قد ألقوا [المعاداة][٢] ووافقوا على الإرادة ، وأرسلها على يد شخص من المماليك اسمه بهادر السرسماني، كان مبعدًا وبعزه مجردًا، فلما اتفقت هذه الأمور توجه إلى الكرك مهاجرًا، فانتدبه السلطان بالمكاتبات فحضر بها إلى القاهرة، واجتمع بأحد خشداشيته يسمى بكتمر، وأوصلا الكتب إلى أربابها، فمنهم من كتم الأمر وستره، ومنهم مَنْ أذاعه خيفة وأظهره، فلما غشى الخبر وبلغ المظفر، طلب بهادر وبكتمر الواصلين بالكتب، فأحضرا وضُرباً ضربًا أليمًا وقُرِّراً، فاستعاد بعض المكاتبات السلطانية من أربابها، وجَدّ فى استدعائها وطلابها[٣] .

ثم جدد الناصر المكاتبات إلى الأمراء الشاميين، فأعادوا إليه جوابًا مرضيًا، وحرضوا على حركته .

ذكر مسير السلطان من الكرك ثانيًا

وفى شعبان منها : خرج السلطان الناصر محمد من الكرك طالبًا دمشق، وترك بها مملوكه سيف الدين أرغون الدوادار، وترادفت إليه الأمراء من دمشق أولاً فأولاً، ثم سار الناصر ونزل على البرج الأبيض، ويوم نزوله جاءت الكشافة وأخبروه أنهم رأوا مقدار مائتى نفر فرسان نازلِيْن على الزرقاء، قال السلطان: [١٣٦] هم قطلوبك والحاج بهادر، وما جاء الظهر حتى أشرف قطلوبك على البرج الأبيض، فإذا عليه السلطان، فقال لأصحابه: أقيموا مكانكم وأنا آخذ معى الحاج بهادر وثلاث مماليك وسار إلى السلطان، فركب السلطان وأمر [الأمراء][٤] جمعيهم أن يروحوا قدام قطلوبك، فلما

---

(١) الأمراء: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٢) المعادة: فى الأصل.

(٣) ينظر التحفة الملوكية ١٩٧.

(٤) للأمراء : في الأصل.

وصلوا سلم بعضهم على البعض، فأخذوه وجاءوا به إلى السلطان، فلما وصلوا ترجلوا وباسوا الأرض، فهم أن يترجل لهم فمنعوه، وقبلوا ركابه، وساروا تحت ركابه إلى الدهليز، فنزل السلطان وجلس على كرسى من الحديد الصينى، ووقفت الأمراء بين يديه، فأمرهم بالجلوس فجلسوا، وتحدثوا فى أمر العبور إلى دمشق، فقال السلطان: أنا ما رجعت فى المرة الأولى إلا لأمر ذكرته فى قلعة الكرك، وما كان غيرى يقوم بذلك[١]، وما كان يمكن أن أخلى أصحابى على الخان وأروح أنا، والآن قد قَضَيتُ شُغلى بروحى ورجعت، فتقدم قطلوبك وباس الأرض وقال: البلاد بلاد مولانا السلطان والمماليك مماليكه، ومن يمانع مولانا السلطان فى بلاده، ثم تقدم وأخرج كتاب سلار وناوله السلطان، فقرأه وفرح، وقال: أرجو أمْن سَبَقه [فهو][٢] أكثر من هذا.

ثم إن السلطان ألبس قطلوبك خُلعة سَنية، وشد فى وسطه منْطقة[٣] مرصعة بالجوهر بألف دينار، وكلوتاه[٤] [١٣٧] زركش، وشاش[٥] خليفتى، وأعطاه ألف دينار، وكذلك الحاج بهادر، وأمرهم أن ينزلوا بجنب خيامه، وأمر لقطلوبك بأن يعمل استادارا وبهادر حاجبًا.

وفى اليوم الثانى رحلوا طالبين دمشق، وارتجت لهم الدنيا، وأرسلوا البطائق إلى دمشق من أذرعات ومن حسبان، يُعْلِمون الأفرم بأن الحاج بهادر وقطلوبك قد ذهبا إلى الناصر، وهم سائرون إلى دمشق، فلما سمع بذلك الأفرم لطم على رأسه وقال: والله، قد حسبت هذا الحساب، وطلب الأمراء وقرأ عليهم البطائق، وبقى متحيرًا ما يدرى ما يصنع.

(١) بذلك غيرى: فى الأصل، وغيرى، مكررة مما سبق.
(٢) فاهو: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.
(٣) المنطقة، بكسر الميم = الحياصة، وهي ما يشد في الوسط، يُلبسها السلطان للأمراء عند إلباسهم الخلع والتشاريف، ينظر صبح الأعشى ١٣٤/٢.
(٤) الكلوتة ــ كلوتات: غطاء للرأس، تلبس وحدها أو بعمامة، وهي من رسم الدولة التركية، يلبسها السلطان والأمراء وسائر العسكر، ينظر صبح الأعشى ٦/٤، النجوم الزاهرة ٥٣/١٢ هامش ٥.
(٥) شاش: نسيج رقيق من القطن وملاءة من الحرير يعتم بها، محيط المحيط، مادة شوش.

فبينما هو كذلك فإذا قد وصل بلاط، وكان المظفر يعتمد عليه فى جميع أشغاله، فلما رآه الأفرم فرح به، وأخرج كتاب السلطان وأعطاه للأفرم؛ فإذا فيه: قد تواترت علينا كتبك مع البريدية [تتضمن][١] نزول الناصر من الكرك، وأن معه جماعة، وأنتم خائفون منه، وليس معه إلا مائتا نفس، ولا نعرف خوفك من أى شئ؟ فكيف لو جاءكم خربندا؟ وأنت وقطلوبك كفاية له ولمن معه، خل عنك بقية الأمراء، ولولا أن الخيل فى الربيع سَيَّرنا لك جريدة كفت مؤونته، وذكر فى كتابه للأمراء: بلغنا قلة نصحكم ومخالفتكم للنائب، فدعوا الباطل، وما سولت لكم أنفسكم، [فكونوا][٢] لأمره سامعين، وإلا أصبحتم نادمين، فلما سمع الأمراء ذلك [١٣٨] قالوا: السمع والطاعة لله تعالى، ثم لمولانا السلطان.

ثم سير الأفرم وراء القضاة، وطلب المصحف، وأراد أن يُحَلِّف الأمراء، فإذا بجماعة من الحلقة كانوا فى الكشف حضروا وأخبروا أن الناصر ومعه قطلوبك نزلوا على أذرعات، فاختبط القصر وماجت الناس، وتفرقت الأمراء، ولم يبق عند الأفرم إلا مماليكه وابن صبح، فأطرق رأسه إلى الأرض وهو يتفكر، فدخل عليه أيدغدى شقير وعز الدين الزردكاش وحمزة، وقالوا له: قعودك وحدك ما ينفع، فقال لهم: وماذا أصنع؟ فقالوا: ابعث أحد الأمراء الذى تعتمد عليه يأتى لك بالأمان من السلطان الناصر، وإلا أُخِذْت، فقال: والله، لا فعلت ذلك أبدًا ولو سُقيت كأس الرَّدَى، غير أنى أبعث [وأقول له][٣]: أمهلنى عشرة أيام حتى أسير إلى الملك المظفر، فإن حضر ورد عن بلاده وإلا سلمت إليه البلاد من غير حرب ولا قتال، وأكون قد [أخمدت][٤] هذه الفتنة، وربما يرجع المظفر ويسمح له بالشام وبلادها، فقال بلاط: هذا هو الكلام الذى يُعتمد عليه، فاتفقوا على أن يرسلوا إلى الناصر علاء الدين أيدغدى والزردكاشى، فركبا البريد وذهبا إلى الناصر.

(١) يتضمن: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.
(٢) فكوا: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.
(٣) وأقوله: فى الأصل.
(٤) أخذت: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

وأما أمراء دمشق فإنهم بعد خروجهم من القصر تشاوروا فى ماذا يصنعون ؟ فقال لهم [١٣٩] آقجبا الظاهرى: يا قوم، إن الناصر قد وصل وأنتم تعلمون ما هو عليه من التهجم على الأمور الصعاب التى لا يقدر عليها أحد من الملوك، ولَتعلمون عظم صبره على الأهوال ولا سيما إذا ظهر الحق وبان الباطل من الصدق، وقد شاهدتموه يوم حمص وثباته، وقد هربت الأمراء والفرسان من بين يديه وهو واقف، وكذلك يوم مرج الصفر، وهذا كله[١] يدل على أن نفسه أبية وهمته علية، وأنه بعد ما شرع فى هذا الأمر ما بقى يرجع عنه حتى تعض الخيل على لُجمها يَسيل نهر من الدم، فقالوا له: هذا كله صحيح، غير أننا انضربنا ولا ندرى ما نفعل، و[هذه][٢] كتب المظفر واصلة إلينا بأن التجاريد جائية إلى الشام، وهو اليوم صاحب البلاد، وهذا الناصر قد هجم علينا، فقال أقجبا: يا قوم خلو عنكم هذا الكلام، فإن الظاهر عنوان الباطن، والله، ما المظفر بخصم للناصر، ولا أمثاله، ولو كان ألفًا، والله، ليأخذن المُلك منه بعد أن يُوَلِّى هو صاغرًا ذليلاً، فالسعيد من والاه والشقى من عاداه، فقال كجكن: والله، لقد صدق أقجبا، ولكن يا أمراء على ماذا عولتم؟ فقال أقجبا وأقطوان الساقى: نروح إليه ونمتثل أمره.

قال الراوى: فاتفق الجميع على الرواح إليه، ثم انصرف كل واحد إلى منزله ليأخذ ما يحتاج إليه، وتواعدوا على الاجتماع فى ميدان الحصى، [١٤٠] وكان آخر النهار، فبعد ساعة قد اجتمعوا فى ميدان الحصى، ولم يبق أحد إلا آقجبا الظاهرى، فبقى القوم فى انتظاره.

وسمع الأفرم بأن الأمراء راحوا إلى الملك الناصر، فطلب بكتمر الحاجب وقال: اذهب إليهم ورُدَّهم، فركب بكتمر بمماليكه ومماليك النائب وراح خلفهم، فلحقهم فى ميدان الحصى، فقال: يا أمراء ما هو مصلحة تروحون بغير أمر النائب، فارجعوا إليه حتى تتفقوا معه، فهو خير لكم من رواحكم هكذا، فقالوا له: اذهب فى حالك وما لنا أستاذ إلا الملك

(١) كله على: فى الأصل، ومشطوب على كلمة على.
(٢) وهذا: فى الأصل.

الناصر، فكلما خدعهم بكتمر بالكلام لم يسمعوا منه، فقال لهم واحد من مماليك الأفرم: إن لم ترجعوا بالطيبة رديناكم بالغصب وباليد القوية، فلما سمعوا كلامه شتموه وشتموا النائب، وحطوا أيديهم على قوائم سيوفهم، وهموا أن يبطشوا به، وقالوا: يا قدّ القِرْد من هو الذى يردنا ؟ والله، لو جاء المظفر إلينا ضربنا رقبته، وحملوا على المملوك وأرادوا قتله، فما ردهم عنه إلا بكتمر الحاجب، وقال: والله، يا أمراء ما جئتكم بغضًا لكم، غير أنكم تعرفون أنى ما أقدر على أن أخالف النائب، ثم إنه رجع عنهم وهو لا يصدق بالنجاة، وبقى يلوم المملوك على ذلك الكلام.

فلما وصل إلى باب الجابية لقى أقجبا الظاهرى، فقال له: إلى أين ؟ فقال: حتى ألحق الأمراء، وكان مع أقجبا [خمس][(1)] مماليك، فقال له الحاجب: [١٤١] ارجع معى، فرجع معه إلى الأفرم، فتقدم بكتمر وحدث الأفرم بما جرى له مع الأمراء، وأنهم كلهم راحوا ولم يرجع إلا أقجبا، فطار عقل النائب وأيقن بزوال دولته، ثم إنه التفت إلى أقجبا وقال له: هذا فعل جيد ؟ تفسد الأمراء وتروح معهم إلى الناصر، ولابد لى أن أرسلك إلى الملك المظفر يفعل فيك ما يشاء، فضحك أقجبا وقال له نائبه : بهذا العقل تتكلم بهذا الكلام ؟ فالملك المظفر بقى له مُلْك، فإن سمعت منى فأنا لك ناصح، فخذ مماليكك فى هذه الساعة وسر إلى الملك الناصر أستاذك، ويكون لك الخير، وينالك منه كل ما طلبت، ويشكرك كل أحد، وإن لم ترح إليه، فهو جاء إليك ويأخذك أخذ المقتدر، فتصبح حائرًا نادمًا، فلما سمع الأفرم ذلك احترق قلبه من الغيظ، فقال له: يا شيخ النحس ما هذا الكلام ؟ ثم أمر بأن يأخذوا سيفه ويضربوا رقبته، فمنعه بكتمر، وقال: لا تعجل فما ندرى ماذا يكون أمرنا مع الناصر، فتعود تندم على فعلك، فأخرج أقجبا من عنده، وأمر به إلى الزرد خانة ورسم عليه خمس مماليك، ثم إنه جمع مماليكه الذين [يعتمد][(2)] عليهم، وطلب علاء الدين بن صبح وقال لهم: اعلموا أن الناصر يكون غدًا عندنا، وهذه عسكر دمشق كلهم معه، وكل واحد منهم قال شيئًا، فقال له ابن صبح: هذا كله ما ينفع، احترز لنفسك من قبل [١٤٢] ما يقع العين

---

(١) حس: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٢) تعتمد: فى الأصل.

على العين، فيبقى خلاصك بعيدًا، فقال له : صدقت، فإش يكون العمل؟ فقال له ابن صبح: قم حتى آخذك وأطلع بك إلى هذا الجبل، فلو اجتمع كل مَنْ فى الدنيا ما قدروا عليك، ولا يقدر أحد أن يصل إلينا، فقال له: صدقت، خذوا أهبتكم قبل الصباح.

وكان بلاط حاضرًا فى هذا الكلام، فقال: إذا كان الأمر على هذا، فأنا الساعة أركب البريد وآخذ حصانًا من خيلك وأروح على الطريق الجادة، وأى مكان خرج علىّ أحد ركبت الحصان وسقت، فإذا وصلت إلى مصر حرضت عليهم بخروج العساكر، فقال له الأفرم: افعل ما تريد، فقام فى الحال وتجهز وخرج، وحَمّلوا جمال الأفرم، وركب، وكان الأمير بكتمر أمير جندار قد وصل فى تلك الليلة من صفد، ونزل فى دار الهارونى، فسار إليه الجاولى والطشلاقى، وقالوا له: هذا الأفرم هارب فى هذه الساعة، فركب بكتمر بمماليكه، ومعه عسكر صفد، وجاءوا على باب القصر، وإذا بالأفرم طالع، فلما رأى بكتمر قال له: ما الذى جاء بك فى هذا الوقت؟ فقال له: يا أمير، لا تفعل، فهذا الفعل لا يليق بك، ولا يخوفك أحد من الناصر، فو الله ما عنده أعز منك، وأنت أكبر مماليك أبيه، واعتماده عليك، فقال له: يا سيف الدين، كلكم تعملون عَلَىَّ، وصاح على مماليكه، فخرج وخرجوا [١٤٣] معه، وكلهم غائصون فى الحديد، ومعه ابن صبح وأجناده، وبقى بكتمر والجاولى والطشلاقى واقفين حائرين، وسار الأفرم طالبًا المزة(١).

ذكر خروج الأفرم من الشام

ولما سار الأفرم، وصار بين زقاقات المزّة، هرب من منه الطنبغا الخازندار ومعه أربعون مملوكًا، وطلبوا ناحية داريا وساروا إلى الناصر، ولما رأى ذلك أمير عمر، رأس النوبة للسلحدارية، قال للأفرم: الساعة يهرب المماليك كلهم، دعنى أكون فى الأخير أسوقهم، وأى من هرب ضربت رقبته، ثم انقطع خلف المماليك ومعه عشرة من

(١) المزة: قرية كبيرة، وسط بساتين دمشق: معجم البلدان.

السلحدارية، وهم يسوقون الناس، فلما وصلوا [العَرّادة][١] طلب الأفرم أمير عمر وإذا به قد هرب وراح إلى الناصر، فسأل عنه، فقالوا: ما رأيناه من وقت طلعنا من عقبة المزّة، فانقطع الأفرم وابن صبح معه فى أواخر الناس يسوقانهم، ولم يزالوا كذلك إلى أن وصلوا إلى شقيف أرنون، فسمع الأسد الميدانى، وكان بقرية يقال لها: جرين، وكان هذا رجلاً عاقلاً ، رأس اليمن، فقال لأصحابه: هذا الأفرم ما جاء هنا إلا وقد وصل السلطان الناصر إلى دمشق، وربما تبعه أمراء وعسكر فينكرون علينا إن مَكّنَّاهم من العبور إلى الساحل، وكان الأسد يحكم على خمسة آلاف راجل، [١٤٤] فاستدعى بأخيه عز الدين [وأولاد][٢] عمه، وقال لهم: فى هذه الساعة خذوا معكم ألف راجل وأمسكوا هذه الدروب، ولا تمكنوا أحدًا من العبور فيها، ولو جئت أنا، فأجابوه بالسمع والطاعة، ثم إنه أخذ معه تقادم وأغناما وسار يطلب الأفرم، فسمع الأفرم بقدوم الأسد الميدانى، وتلقاه بأحسن ملتقى، ثم أجلسه إلى جانبه، فقدم هو ما معه، وقال له: يا أمير، طيب قلبك فما ينالك إلا الخير، وبعد أن وصلت إلى هذا الموضع ما بقى أحد يصل إليك، وأنا وأولاد عمى وعشرة آلاف راجل كلنا فى خدمتك فى هذه البلاد وبين يديك، فشكره الأفرم وطاب قلبه بذلك.

وقال ابن كثير: ركب الأفرم ومعه جماعة من أتباعه فى السادس عشر من شعبان ومعه ابن صبح إلى شقيف أرنون[٣].

وقال بيبرس فى تاريخه: ولما تحقق أقوش الأفرم قدوم الناصر بالعساكر الوافرة والأمداد المتظافرة فر من دمشق هاربًا واعتصم بجبال الشقيف لائذًا، ولو رشد لكان [بعفو][٤] السلطان عائذًا.

شعر:

---

(١) العراد : في الأصل، والتصويب من معجم البلدان، وهي قرية على رأس تل شبه القلعة بين رأس عين ونصيبين، تنزلها القوافل.
(٢) وأولا : في الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.
(٣) يراجع البداية والنهاية ١٨/ ٨٨.
(٤) يعفو: فى الأصل.

وما الفرار إلى الأحيال[١] من أسد   يمشى النعام به فى مَعقل الوعل

ذكر دخول الناصر دمشق

ولما هرب الأفرم من دمشق، هُيئت بها أبهة السلطنة والإقامات [١٤٥] اللائقة به، ثم دخل الناصر دمشق يوم الثلاثاء، وسط النهار، السابع[٢] عشر من شعبان، وصحبته الأمير سيف الدين بكتمر أمير جندار، وهو خالصة الخلصان وواسطة الأنصار، ومعه العسكر الصفدى، والأمير سيف الدين أسندمر الكرخي ومعه العسكر الطرابلسى، وغيرهم ممن اجتمع إلى الدهليز المنصور، وشرع فى [إنفاق][٣] المال وبذل النوال، وكان يوم دخوله يومًا عظيمًا، ودخل فى أبهة عظيمة، وبسط له من عند المصلى إلى القلعة، وتلقته الأمراء والقضاة وأعيان البلد.

وقال ابن كثير: وكنت ممن شاهد دخوله حال دخوله، وعليه أبهة [المُلْك][٤]، والبسط تحت أقدام فرسه، كلما جاوز شقة طويت من ورائه، والجِتْر[٥] على رأسه، والأمراء السلحدارية عن يمينه وشماله وبين يديه، والناس يدعون له، وكان يومًا مشهودًا[٦].

وقال الشيخ علم الدين [البرزالى][٧]: وكان [على][٨] السلطان يومئذ عمامة بيضاء، وكَلَوْتته حمراء، وقباء من عباءة أبيض وأسود أقلامى تحته فروة سنجاب، وتحت

---

(١) حيل – أحيال : الماء المستنقع في بطن واد، تاج العروس، مادة ح و ل.
(٢) ثامن: فى كنز الدرر ١٧٢/٩، وينظر السلوك ٦٧/٢ ، النجوم الزاهرة ٨/ ٢٦٥ .
(٣) إيقاف: فى الأصل.
(٤) المملكة: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.
(٥) الجتر: المظلة، وهى قبة من حرير أصفر مزركش بالذهب، على أعلاها طائر من فضة مطلية بالذهب، صبح الأعشى ٧/٤.
(٦) يراجع البداية والنهاية ٨٩/١٨ حيث يوجد اختلاف فى بعض الألفاظ.
(٧) إضافة للتوضيح من البداية والنهاية ٨٩/١٨.
(٨) إضافة تتفق مع السياق من البداية النهاية ٨٩/١٨.

ذلك قباء أبيض، وكان الذى حمل الجتر على رأسه يومئذ الحاج بهادر، وعليه خُلعة عظيمة مذهبة بفرو فاقم(١).

قال: ولما وصل السلطان إلى باب القلعة نُصب له الجسر، وخرج إليه نائبها سيف الدين السنجرى، فقَبَّلَ [١٤٦] الأرض بين يديه، فأشار إليه: أنى الآن لا أنزل هاهنا، وسار بفرسه إلى جهة القصر الأبلق، والأمراء بين يديه، فنزل بالقصر، وخُطب له يوم الجمعة بالجامع، ودعى الناس له(٢).

وفى نزهة الناظر: ولم يبق فى دمشق، يوم دخول الناصر، كبير ولا صغير إلا وقد خرجوا إلى ظاهر دمشق، وبأيديهم الشموع والمباخر، ولعبوا بين يديه بالسيوف، وضربت النسوان بالدفوف(٣).

ذكر عود الأفرم إلى الناصر

قال ابن كثير: وفى بكرة يوم السبت الثانى والعشرين من شعبان وصل الأفرم مذعنًا بالطاعة، وقبل الأرض بين يدى السلطان، فترجل له وأكرمه، وأذن له فى مباشرة النيابة، ففرح الناس بوصوله(٤).

وقال بيبرس: أرسل السلطان إليه رسلاً بالأمان والأيمان، وهما: الأميران عز الدين أيدمر الزردكاش، والأمير سيف الدين جوبان، فحضر إلى الخدمة مستوثقًا من العفو والإحسان، فقبل السلطان وفادته وأجزل صلته(٥).

---

(١) فاقم = ققم = حيوان بري، يشبه الفأر، إلا أنه أطول منه، وموطنه بلاد الشمال، وله فروة ناصعة البياض كانت تستعمل في تزيين ملابس السلاطين والأمراء في مصر في عصر سلاطين المماليك، ينظر الملابس المملوكية ١١٣.

(٢) ينظر تاريخ البرزالى ٤٣٥/٣ حيث ينقل العينى بتصرف.

(٣) ينظر ما ورد فى كنز الدرر ١٧٤/٩.

(٤) يراجع البداية والنهاية ٩٠/١٨، حيث يوجد اختلاف فى بعض الألفاظ.

(٥) ينظر التحفة الملوكية ١٩٨.

وفى النزهة: لما جاء إليه الأميران المذكوران قالا له: رواحك من السلطان ما هو مصلحة، وأنت تعلم أن ما عنده أكبر منك، وقدرك كبير، ثم ناولاه أمان السلطان، فأخذه وباسه ووضعه على رأسه، وقال: بإسم الله سمعًا وطاعة لمولانا [١٤٧] السلطان، غير أنه قد بغضونى إليه، وأنا خائف من سطوته، وإن كان أن يمكن أن أحلق رأسى وأقعد فى بعض المساجد. فقالا له: طيب خاطرك واشرح صدرك، فما عند السلطان أعز منك، ثم سير الزردكاش مملوكًا من مماليكه يعرف السلطان بأن الأفرم قد أجاب إلى الطاعة وهذا هو واصل، فأمر السلطان [الأمراء][١] بأن يركبوا إلى المزة ويلاقوه، وركب هو أيضًا بنفسه ولاقاه، فلما أشرف عليه أرمى نفسه إلى الأرض، فقبلها بين يدى السلطان، فأراد السلطان أن يترجل، فأقسم عليه بالله العظيم أن لا يفعل، وسار الأفرم قدامه إلى أن دخلوا القصر، ولما استقر به الجلوس خلع على الأفرم خُلعة من الأطلس الأحمر عليها طرازًا من الذهب، وأعطاه حياصة مجوهرة وسيفًا من سيوفه وحصانًا من خيله بسرج مغرق من الذهب، وقال له: أنت أكبر مماليك أبى، وما كنت أعتمد على أحد من أمراء الشام إلا عليك، فباس الأفرم الأرض، وقال: والله، ما كان رواح المملوك لأجل خروجه عن الطاعة، نعوذ بالله، غير أنه بلغه أن بعض مماليك السلطان نقل عن المملوك شيئًا لا فعله، فخشى على نفسه من سطوة السلطان فيروح بغير جناية عملها، فطيب السلطان خاطره، وقال له: دمشق لك مثل ما كانت أولاً، وما [١٤٨] أغير عليك شيئًا يا أمير جمال الدين، فباس الأرض، فأمره بالانصراف، فخرج من عنده وبين يديه الأمراء والحجاب، فركب وسار إلى منزله[٢].

ذكر مجئ بقية النواب

قال ابن كثير : وصل الأمير قفجق نائب حماة، والأمير اسندمر نائب طرابلس

(١) للأمراء : في الأصل.

(٢) ينظر أيضًا ما ورد فى كنز الدرر ٩/١٧٤- ١٧٥.

يوم الاثنين الرابع والعشرين من شعبان، وخرج الأمراء لتقّليهما، وتلّقاهما السلطان كما تلقى الأفرم.

وفى اليوم الثامن والعشرين من شعبان: وصل الأمير سيف الدين قراسنقر المنصورى نائب حلب، وخرج السلطان لتلقيه أيضًا، ووصل جيش حلب يوم الأربعاء الثالث من رمضان[1].

وفى النزهة: وحين استقر ركاب السلطان بدمشق أرسل بريديًا خلف قراسنقر وقفجق واسندمر، فأول مَنْ حضر كان الأمير قفجق واسندمر، وبعد يومين وصل الأمير قراسنقر على الهجن ومعه خمسون مملوكًا وخيلهم على أيديهم مجنوبة، فسأله السلطان عن عسكر حلب، فقال: هم واصلون، غير أنا لما جاءنا البريدى أسرعنا، ثم تحدثوا مع السلطان فى أمر الأفرم وقالوا: يا خوند، المصلحة أن تكتب له أمانًا بأنك لا تغيره من النيابة ولا يحصل له تشويش، فأجاب إليهم، وكتب وأرسل مع جوبان وزردكاش كما ذكرناه.

وقد ذكرنا أيضًا أن بيبرس ذكر فى تاريخه: أن قدوم الأفرم إلى السلطان [١٤٩] كان قبل قدوم هؤلاء النوّاب، والعمدة على ما ذكره، فإنه أدرى بحال هؤلاء من غيره.

ذكر ما جرى فى مصر وما عزم عليه المظفر

قال ابن كثير: وأما المَظفر فإنه جَرَّد جماعة يتفرقون ليحفظوا، المسالك ويمنعوا من بها من الجند المتسللين سالك، فمنهم قوم أقاموا على الجادة، وقوم على سويس[2].

وقال بيبرس فى تاريخه: وانقطع البريد فى هذه المدة عن الديار المصرية، وعُميت الأخبار من البلاد الشامية، ولم يعد أحد يأتى بخبر جَلى، وعزم السلطان الناصر على إرسال شخص من الثقات إلى أمراء مصر بملطفات ليعلمهم بوصوله إلى مدينة دمشق،

---

(١) البداية والنهاية ٩٠/١٨، كما يراجع تاريخ البرزالي ٤٣٦/٣-٤٣٧.

(٢) لم يرد هذا الخبر فى المطبوع من البداية والنهاية.

واجتماع العساكر إليه، وإطباقها عليه تقوية لعزائمهم وإنعاشًا لهممهم.

فسأل الأمير سيف الدين بكتمر السلارى وسيف الدين بكتمر الحاجب قائلاً : مَنْ هنا من مماليك الأمراء الذين نثق إليهم، ويُعول فى المناصحة عليهم لنسيِّره إلى مصر فى [هذا][١] الأمر.

قال بيبرس: وكان لى بدمشق مملوك اسمه أيبك، مقيم منذ أعوام ببلاد الشام، فقالا له: إن ها هنا مملوكًا لفلان، يعنون به بيبرس الدوادار، فأمر به فأحضر بين يديه، وسلمت[٢] الملطفات الشريفة إليه، فحفظها وأخفاها، وسار فى تلك الأوقات المخيفة، فلما وصل إلى قطيا أخُذ وحُمل على البريد إلى القلعة، [١٥٠]، فسأله الركن الجاشنكير، يعنى الملك المظفر، ما وراءه وما جاء به؟ فموه عليه، وقال: إن لى أيامًا فى عجلون، ولما سمعت بتوجه السلطان حضرت إلى الديار المصرية إلى مخدومى، وبات ليلة جمعاء يسائله ويخايله، وهو على كلامه الأول لم تتغير أخباره ولم يتحول، فتمت الحجة، ووصلت الملطفات إلى أربابها، فنهضت عزائمهم وقويت هممهم، واتفقت أراؤهم على المهاجرة، واجتمعت على المبادرة، فسار الناس إلى الأبواب السلطانية[٣]، واضطربت أمور الجاشنكير، وتعكرت لجج أفكاره أى تعكير، وصار كل ما يبرمه من التدبير إيلاء إلى التدمير، فهو كما قيل:

إذا لم يكن عون من الله للفتى
فأكثر ما يجنى عليه اجتهاده

وهذا شجه الخلاف
وثمرة عدم الإنصاف

---

(١) هذه: فى الأصل.
(٢) وسلمت إليه: فى الأصل، ثم تنبه الناسخ وشطب على كلمة: إليه.
(٣) ينظر التحفة الملوكية ١٩٧.

ولقد كنت أعرض له بأن النزول عن المنصب
إلى الرأى الأصوب أقرب وأنسب

فيأبى وتأبى له بطانته الاستمرار
والتمادى على الإصرار

أمرتك أمرًا جازمًا فعصيتنى
فنفسك وَلِّ اللومَ إن كنت لائمًا

[١٥١] قال: وفى ليلة الجمعة الثانى عشر من شهر رمضان، خرجت جماعة من مماليك السلطان على الخيل والهجن واتصل أمرهم بالركن، فجرَّد فى طلبهم بعض الأمراء الساكنين تحت القلعة ليدركوهم بسرعة، فساقوا خلفهم فأدركوهم وقد وردوا الماء بمراكع موسى[١]، [فناوشوهم][٢] فكر أولئك عليهم كرة كانت عليهم فيها الكسرة، وأنكى المماليك السلطانية فيهم نكاية ظاهرة، وجرحوا شجاع الدين [سُمُك][٣] أخا النائب، والصارم الجرمكى الحاجب، وقُتل بينهم قتلى من الفريقين، وعاد القوم خائبين، وتوجه أولئك ظاهرين، وكان ممن جُرد لحفظ الطرقات أقوش الرومى الحسامى، فلما أنفقت حركة هؤلاء ركب ليدركهم، فلم يصادفهم، لأنهم أخذوا على غير الجهة التى كان فيها، فنزل المذكور ليستريح، فوثب عليه جماعة من مماليكه فقتلوه وحزوا رأسه وتركوه طريحًا، وساروا نحو الدهليز المنصور، وحُملت جثته إلى القاهرة، وبلغ الجاشنكير خبره، فزاد خوره[٤].

---

(١) مراكع موسى= مسجد موسى أو معبد موسى: بخط الركن المخلق بالقاهرة تجاه باب الجامع الأقمر المجاور لحوض السبيل، المواعظ والاعتبار المجلد الأول ٢٥١، المجلد الرابع ٧١٧- ٧١٨، صبح الأعشى ٣٨٦/١٤.

(٢) فناوشهم: فى الأصل، وهو تحريف.

(٣) سموك : في الأصل، والتصويب مما سبق.

(٤) تنظر التحفة الملوكية ١٩٨- ١٩٩.

وتجمع تلك الليلة جموع من العامة والغوغاء والسوقة، وقصدوا باب الأصطبل السلطانى تحت القلعة، وأعلنوا أصواتهم بشتيمة الجاشنكير وسبه والتهكم به، فأخذ بعضُهم وأُدِّب وشُهر، فَطُوِّف، على أنهم يرتدعون فما ازدادوا إلا تحاملاً وتعصبًا وبغضًا وتهكمًا، ولاح للمظفر ميل القلوب عنه [١٥٢] ونِفَارها، وانقباض العكسر وازْوِرَارِها، فخطر بباله أن يتحيل على تجديد الحلف له، لعله يوثقهم بالأيمان ويستوثق لنفسه فيما يحاوله من لقاء الأقران، كيف ؟ وقد جرت الأقدار، فإنه كلما أراد تأنيس الخواطر وتأليف القلوب تزايد بها النفار[١].

فجلس فى يوم الخميس الحادى عشر من الشهر جلوسًا عامًا بالإيوان، وأحضر الخليفة أبا الربيع سليمان الملقب بالمستكفى، وجدد له البيعة والتولية بحضور الحكام وكافة الأمراء، ورُتبت نسخة لتجديد البيعة، وأمر أن يقرأها الخطباء يوم الجمعة بالجوامع، فلما شرعوا فى قراءتها بعد الصلاة وثبت العامة عمومًا وصاحوا جميعًا : كلاً، لسنا لهذا الكلام سامعين، ولا لقول من قال طائعين، ولا نعرف لنا سلطانًا إلا الملك الناصر، وهموا برجم الخطباء وحصبهم والوثوب بهم، جرى ذلك منهم فى الجوامع الثلاثة بمصر والقاهرة، كأنهم اتعدوا له، أو توافقوا عليه، فبطلت قراءة نُسخة البيعة، وأُخرت سدًا للذريعة، وانخرقت الحُرمة، وهتُك ستر الحشمة، وظهرت إمارات زوال النعمة، فصرف اهتمامه إلى بذل العطاء، فأطلق كثيرًا من أمواله وغلاله وخيله وبغاله وجماله، فكان فى إنفاقها كما قال الله عز وجل: ﴿فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ [١٥٣] عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ﴾[٢]. وأعطى طائفة من أصحابه إقطاعات، ونقل جماعة من المفاردة إلى العشرات، قصدًا فى الاستكبار، ورجاء للاستبصار بكثرة الأنصار، هيهات، وقد تمكن الإدبار، وجرت بعكسه الأقدار.

وحرضه أهل شُوراه على التجريد العام، والخروج بعامة الجيوش إلى الشام، ورتب أن يخرج كل يوم أربعة من مقدمى الألوف، فكان أول من خرج من الأطلاب،

---

(١) ينظر التحفة الملوكية ١٩٩.

(٢) جزء من الآية ٣٦ من سورة الأنفال رقم ٨.

فى يوم الاثنين الخامس عشر من شهر رمضان، الأمير بدر الدين بكتوت الفتاح، والأمير سيف الدين بكتمر الأبوبكرى السلحدار، وحسام الدين قرا لاجين أمير مجلس، وسيف الدين باينجار ومضافوهم، فلما كانت عشية النهار حضر إليه سيف الدين بلبان الطغريلى المعروف بتاكز، وكان ممن وجهه إلى صوب سيف الدين [برلغى][1] لحفظ الطرقات، وهو على حالة من القلق وغاية من الانزعاج والفرق، وأخبره بمسير [برلغى][2] والأمراء، الذين معه والعساكر لأجل اللحاق بالملك الناصر، فزاد اضطرابه، ووهت أسبابه، وكانت حاله كما قال ثابت [قطنة][3]:

كل القبائل بايعوك على الذى تدعو إليه وتابعوك وساروا

حتى إذا اشتجر[4] القنا وتركتهم رهن الأسنَّة أسلموك وظَاهَرُوا[5]

وبات تقلبه الأفكار، ولا يعلم الإيراد من الإصدار.

[١٥٤] ذكر خروج الناصر من دمشق

لما اجتمع النواب فى البلاد الشامية عند الملك الناصر فى دمشق طلب قراسنقر وقفجق واسندمر وقطلوبك والحاج بهادر، وقال لهم: أقوش الأفرم حضر، وما بقى لنا إلا

(١) بلرغي: في الأصل، والتصويبَ مما سبق.

(٢) بلرغي : في الأصل، والتصويب مما سبق.

(٣) إضافة من التحفة الملوكية ٢٠٠.

وهو : ثابت بن كعب، أبو العلاء، ويعرف بثابت قطنة لأنه أصابه سهم في إحدى عينيه فجعل موضعها قطنة، وهو شاعر شجاع، كان في صحابة يزيد بن المهلب، قتل سنة ١١٠هـ/٧٢٨م، ينظر الوافي بالوفيات ٤٥٩/١٠ رقم ٤٩٦٠، الأعلام ٩٨/٢.

(٤) استنجر : فى الأصل، والتصويب من التحفة الملوكية ٢٠٠.

(٥) وطاروا : في وفيات الأعيان ٣٠٧/٦.

والبيتان من رثاء ثابت قطنة ليزيد بن المهلب عندما قتل يزيد في إحدى المعارك سنة ١٠٢هـ، ينظر وفيات الأعيان ٣٠٧/٦.

الرواح إلى مصر، لأنا إذا عاجلناهم أخذناهم، وإذا طاولناهم كشفونا، ولا نأمن أن يكون الأمر علينا، فقال له قفجق: صدقت، والمصلحة أن تجهز ألفى فارس إلى العريش وتقطع الطريق، ونحن نرحل خلفهم، ونجهز فى هذا الوقت قُصادا إلى الديار المصرية، إلى أمرائها، وتبصر جوابهم، فقال قراسنقر: يا أمراء، كل مَنْ كان له صاحب يكتب إليه، فقال السلطان: أنا أكتب إلى الأمير سلار، وقال قراسنقر: أنا أكتب إلى [برلغى][1]، وقال قفجق: أنا أكتب إلى أخوة سلار، وقال اسندمر: أنا أكتب إلى قتال السبع، فكتبوا الكتب.

وكتب السلطان مع كل كتاب كتاب أمان، ووعدهم بكل ما يريدون، ثم قال السلطان: أبصروا لنا قاصدًا خبيرًا، فقال اسندمر: عندى كردىّ، وهو خبير يروح ويقضى شغل السلطان كما يجب، فأحضره، وأعطاه السلطان خمسمائة درهم برسم النفقة، وكان يقال له: بهاء الدين الأزقى، فخرج من دمشق فى الليل وسار يطلب مصر.

وفى صبيحة تلك الليلة جرد السلطان تمر [١٥٥] الساقى بألفى فارس، وأمره بأن يمسك يزكًا[2] على العريش، وقال له: إياك أن تمكن أحدًا من الرواح.

ثم خرج الملك الناصر من دمشق فى الساعة الثانية من يوم الثلاثاء سادس عشر رمضان، وقال ابن كثير: تاسع رمضان، وكذا قال بيبرس فى تاريخه[3]، وفى صحبته: نجم الدين بن صصرى، والقاضى صدر الدين الحنفى، وهو إذ ذاك قاضى العساكر، قد باشرها من مدة قريبة، والخطيب جلال الدين، والشيخ كمال الدين الزملكانى، والموقعون، وديوان الجيش، وجيش الشام بكماله من سائر مدنه وأقاليمه بنوابه وأمرائه، وندب إلى غزة: الأمير كراى المنصورى السلحدار، ونائب حمص تمر، ليحفظا الطريق، فوصلاها مقدمة للعساكر السلطانية، واجتمع إليهما جموع من التركمان والعربان.

---

(١) بكرغى: فى الأصل، والتصويب مما سبق.

(٢) اليزك : لفظ فارسي بمعنى طلائع العسكر لمراقبة الطرق، السلوك ١/١٠٥.

(٣) تاسع: فى تاريخ البرزالى ٣/٤٣٧ ، وينظر البداية والنهاية ١٨/٩١ ، التحفة الملوكية ٢٠١ .

وقال بيبرس فى تاريخه: وأما السلطان الملك الناصر فإنه سار من مدينة دمشق بالعساكر بعد أن شملهم بالنفقات وأوسعهم بالصدقات، وأضرب حينئذ عن المكاتبات وأقصر عن المراسلات، فكان كما قال أبوالطيب المتنبى:

ولا كتبٌ إلا المشرفية عنده ... ولا رسلٌ إلا الخَمِيس العَرَمْرَم[1]

وأما القاصد الأزقى، فإنه لما سار أرسل الناصر إلى تمر يقول له: أوصل هذا إلى حد القاهرة على أى حال كان، فانتخب تمر من [١٥٦] الألفين التى معه مائة فارس، وطلب نجابًا كان عنده يقال له: مقلزون، وكان خبيرًا بالبر، وقال له: إنى أريد أن تأخذنى من العريش، ولا تطلع بى إلا من العباسة على غير الطريق، فقال: سمعًا وطاعة، ثم إنه عمد إلى ناقة كانت لتمر تسمى الغيداء، فركبها مقلزون وسار بتمر الساقى وأصحابه خلفه، ولم يزالوا حتى توسطوا البر، وجاء الليل، فأنشأ يقول:

دعى النوم غيداء ثم جدى واجهدى ... وصبرا على طول النهار مكررا
وكونى على خوض الفيافى جليدة ... وخوضى سهولاً مع جبال توعُّرا
ودلى بنا نحو الشعيب وأثلةٍ ... وبانات زيَّاد وسفح بن عكبرا
فحولك فتيان كرام ومعشر ... طخام تثير النقع فى الجو أغبرا
دعوا القال يا فتيان مصر ومن بها ... وقولوا لمن أضحى عليها مظفرا
غداة يجئ ابن المليك ورهطه ... وكل غلام كالقضيب مُثمِّرًا
[١٥٧] ينادون اسم الناصر الملك الذى ... له فى سماء العلاء يناديك مخبرا
فدع عنك بيبرس البلاد وملكها ... فبينكموا مثل الثُّريا إلى الثَّرى

(١) ينظر التحفة الملوكية ٢٠١.

ثم إنهم جدوا السير فى قفار وبرارى ليس بها أنيس إلا النعام مع الغيلان، لا ينزلون إلا لأكل الدواب وقضاء الحاجة، وكلهم ركاب الهجن، وبعض الخيل مجنبة، وأما ناقة النجاب مقلزون فإنها أربعة أيام لا أكلت ولا شربت، فخاف عليها تمر، فقال النجاب: لا تخف يا أمير، فإن جنسها يسمى الصوامات، إذا أبصرن البرية لا يأكلن ولا يشربن حتى يقطعوا المفاوز، وفيها من تبقى سبعة أيام لا تأكل ولا تشرب.

وفى اليوم الخامس رحل النجاب بهم بعد غروب الشمس، فقال: يا أمير نحن فى نصف الليل نكون فى العباسة، ففرح تمر وأمرهم بالنزول، فنزلوا وعلقوا، ثم ركبوا فسار بعض شئ حتى قال له: هذه العباسة وأراضيها، فساروا إلى جانب ما هناك، فنزلوا فيه، وطلب تمر مقلزون وقال: خذ هذا الرجل وأوصله على هذا الهجين ولا يصبح الصباح إلا وأنت على المحرس، ثم تعود إلينا بالهجن، فركب، وركب بهاء الدين عمر الأزقى، وسارا طالبين [١٥٨] المحرس، وقد جعل تمر الساقى بينه وبين الأزقى علامة، وقال له: إذا وصلت إلى المحرس سَيِّر إلىَّ هذه العلامة، ثم أخذه مقلزون وسارا، فلم يأت الثلث الأخير إلا وهما فى المحرس، فنزل الأزقى عن الهجين، وسلمه إلى مقلزون، وأرسل العلامة معه.

قال الأزقى: وسرت أنا طالبًا للقاهرة سيرًا مجدًا، فساعة أمشى على هينتى وساعة أجرى وأنا خائف، فوصلت إلى القاهرة، ولمَّا دخلت رحت إلى السوق، وبعت القماش الذى عَلَىَّ، واشتريت لبس الفقراء، وقلت فى خاطرى أول ما أروح إلى دار جمال [الدين][1] قتال السبع لأنه شيخ كبير، وهو أهون عَلَىَّ من غيره، فسأل عنه، فقيل: هو فى القلعة، قال: فقعدت على الباب وأنا متعلق، فتقدم إلىَّ البرددار وبعض المماليك فقالوا: يا فقير ما حاجتك بالأمير؟ قلت: لى به معرفة وله عَلَىَّ صدقات، وأنا من المجاورين ببيت المقدس، فقالوا: اقعد الساعة يجئ.

قال: فأنا معهم فى الحديث، فإذا بالأمير وقد جاء، فتقدم إليه البردار وقال: يا

---

(١) إضافة للتوضيح.

خوند، قد حضر فقير من بيت المقدس يزعم أن له معرفة بالأمير، فقال: أين هو؟ فقال: هذا هو، فلما رآه الأمير عرفه بالفراسة، وقال إن [صدقت][1] فراستى، فهذا من قصاد الملك الناصر، ثم قال له: أهلاً ومرحبًا بالشيخ يوسف، كيف خليت الفقراء؟ فقال يا خوند، بخير، وهم داعون للأمير [١٥٩] فى كل الأوقات، ويسألون من الله الاجتماع، قال: ثم دخل به الدار، وأحضر له شيئًا للأكل، ثم أخرج جميع مَنْ عنده، ثم قال له: هات حدثنى بأخبار الملك الناصر وأصحابه وما هم [عليه][2]، فحدثه بجميع ما معه من المشافهة، ثم أخرج الكتاب وناوله إياه، فأخذه وقرأه، ثم قال: هل معك كتاب إلى سلار؟ قال: نعم، فقال: قم بنا إليه، ثم أخذه وطلع به إلى القلعة ومضى إلى سلار، فدخل عليه، فقال له سلار: جئت فى غير وقت العادة، قال جئت لأجل قاصد وصل من عند الملك[3] الناصر وعلى يده كتاب إليكم، فاصفر وجه سلار، فقال: وأين القاصد؟ فقال له: على الباب، فقال: عَلَيّ به، فأدخلوه عنده، فلما حضر سَلَّم، فأبلغ فى[4] السلام، ثم قال له سلار: من أين الشيخ؟ فقال: من الشام. قال: وفيما أتيت؟ قال: أرسلنى إليك الملك الناصر، فقال له: وكيف أرسلك إلىّ وهو جاء إلينا قاصدًا حربنا وأخذ بلادنا، فقال له: أنا رسول إليك، يقول لك السلطان: أنت أكبر مماليك أبى، وأنت الذى ربيتنى، وأنت الذى سلمت إلى الملك، وأنت تعلم ما بينى وبينك فى السر والجهر من الذى لا يطلع [عليه][5] أحد، ولقد حذرتنى من بيبرس مرارًا فما قبلت، فأنا واصل بعساكر الشام، فأشر علىّ برأيك كما جرت عوائدك.

قال: ثم أَخرجَ الكتاب ودفعه [١٦٠] إليه، فأخذه سلار وفَهِم ما فيه، ثم التفت إلى قتال السبع، وقال: خل الفقير عندى ورُحْ أنت، فقال: السمع والطاعة، فأقام الأزقى

---

(١) صدق : فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٢) إضافة للتوضيح.

(٣) الملك : ملحقة بين الأسطر في الأصل.

(٤) فى: بين الأسطر فى الأصل.

(٥) إضافة للتوضيح.

عند سلار ثلاثة أيام، وفى اليوم الرابع: طلب منه الجواب. فقال: اذهب أنت وأنا أبعث الجواب بقاصد عن عندى، فأعطاه خمسمائة درهم وخرج من عنده وذهب.

ثم كتب سلار إلى [برلغى][١] يقول فيه: إن الملك الناصر قد[٢] توجه إلينا بعساكر الشام ومعه أمراء كل واحد منهم يُخرب إقليمًا، وأنه قد كاتب إلى جميع أمراء مصر فغدًا لو جاء إليك ألف فارس من الشام هرب كل مَنْ معك إليهم، وربما أخذوك أسيرًا، وأنت أولى بطاعة ابن أستاذك، فإن سمعت منى، فحال وقوفك على هذا الكتاب حَلِّف الأمراء الذين معك واذهب إلى الناصر ليكون لك اليد البيضاء عنده، وأنت تعلم أن بيبرس ما تم له السلطنة ولا هو خصم الملك الناصر، وقد نصحتك، والسلام.

وكتب كتابًا آخر وأرسله إلى الملك الناصر، مع مملوك له يقال له: زنكى، وقال له: إن رأيت برلغى قد أجاب إلى ما قلت إليه، فاذهب إلى الملك الناصر وإلا فارجع إلىَّ سريعًا، فخرج زنكى على الهجين، فما أمسى إلا وهو عند برلغى، فأعطاه كتاب سلار، فلما قرأه بقى مفتكرا يتقدم ويتأخر، فبينما هو فى ذلك، فإذا باستاداره قد حضر وأخبره بأن مماليك أقوش الرومى [١٦١] قتلوا أستاذهم على درب السويس، وراحوا إلى الملك الناصر، فلما سمع بذلك قوى عزمه على الرواح إلى الناصر، ثم قال لزنكى: اذهب وقل للأمير سلار، فخرج زنكى من عنده وأخذ طريق غزة.

وأما الأمير سيف الدين تمر الساقى فإنه أصبح فى أرض العباسة، وجاءته خفراء البلد وقالوا له: يا أمير، مِن أين جئت؟ فقال: من القاهرة، جئت لأحرس هذا الطريق، فقالوا: مرحبًا بالأمير، ولكنا خائفون عليك لأن جماعة من صيادينا كانوا فى البرية جاءوا الساعة وأخبروا أنهم رأوا البارحة عند أبيار مسامة مائة رجل، وهم ركاب هجن ومعهم خيول مجنبة، فنخشى عليك من أن يدهموك على حين غفلة، فضحك تمر وقال: إنهم يأخذوننا من وسط بلادنا، فقالوا: لا تقل هكذا يا أمير، فاليوم فرسان الشام كلها مع

---

(١) بلرغي : في الأصل، والتصويب مما سبق، ومما يلي.

(٢) قد : ملحقة بين الأسطر في الأصل.

السلطان الناصر، فقال تمر: ومن معه؟ قالوا يا مولاى، أولهم الأمير قفجق الذى زلزل الشاميين، والأمير قراسنقر، واسندمر، والحاج بهادر، وقطلوبك، وتمر الساقى، وبهادر آص، وبيبرس العلائى، وبيبرس المجنون، والجاولى الذى ما[١] على وجه الأرض أذرى منه، ولا أكثر حيلة، وبقى الأمير تمر يطول معهم فى الحديث وهو ينتظر مقلزون الهجان، ولما أبطأ عليه[٢] قال لهم: ما تجيبون لنا شيئًا من المأكول لنا ولدوابنا؟ فقالوا: [١٦٢] بلى والله، فأمر واحدًا من مماليكه وأعطاهم مائة درهم، فقال لهم: اشتروا لنا عليقًا يكفينا أربعة أيام، فذهبوا إلى قرية هناك بالقرب منهم، فاشتروا كل ما أراد تمر ورجعوا إليه، وقد مضى نصف النهار، واستراح هو وأصحابه، ثم ركب وقت العصر ولم يحضر مقلزون، فخاف من أمر حدث عليه، فنظر يمينًا وشمالاً، فإذا بخيول الأمراء وهى مربوطة على البرسيم، فقال لأصحابه: لابد لى من سوق هذه الخيول.

فبينما هو فى ذلك الحديث فإذا بمقلزون قد حضر، فقال تمر لأصحابه: اركبوا، فركبوا، ثم ساقوا الخيل التى هناك، وكانت قريبًا من ألف [فرس][٣]، فوقع الصياح وجاءت الخفراء إلى تمر وقالوا: ما هذا يا أمير؟ فقال لهم: أنا الذى كنت بالأمس على آبار [مسامة][٤]، وأنا تمر الساقى،وأنا جاليش[٥] قفجق، وغدا يكون عندكم، ثم توجه هو وأصحابه نحو البرية، والخيل تُساق قدامه.

وقد ذكرنا أن الأمير برلغى على [بلبيس][٦]، فجاءه الخبر، وركب وسار إلى أن وصل إلى العباسة، فجاء إليه الخفراء وأخبروه بما جرى جميعه، وذكروا عن تمر أنه قال.

---

(١) ما: ملحقة بين الأسطر فى الأصل.

(٢) ولما أبطأ عليه من مماليكه : فى الأصل، ومشطوب على كلمة "من مماليكه.

(٣) فارس: فى الأصل.

(٤) سامة : فى الأصل، والتصويب مما سبق.

(٥) الجاليش : راية عظيمة في رأسها خصلة من الشعر، تحمل في مواكب السلطان، لاسيما المواكب الخاصة بالحرب، وكان المماليك يطلقون اللفظ أيضًا على الطليعة من الجيش، ينظر صبح الأعشى ٨/٤، وهامش السلوك ٩٢٨/١.

(٦) تلبيس: فى الأصل، وهو تحريف.

غدا يكون قفجق عندكم بخمسين ألف فارس، فقال برلغى: هذا هو الصحيح، فما بات تلك الليلة إلا فى قرين، ثم سير البريدى إلى المظفر يُعلمه بأن تمر الساقى وصل إلى العباسة وأخذ ما عليها من الخيل والدواب، فلما جاء هذا [١٦٣] الخبر إلى القاهرة ارتجت ديار مصر، ووقع الخبر بأن الشاميين أغاروا[١] على خيل عباسة وعلى بلبيس، فحار المظفر فى نفسه ولم يدر ما يفعل، ثم جهز لبرلغى عشرين ألف دينار يجهز بها حاله، وقال: أنا أيضًا واصل إليك فى هذه الأيام، وفى تلك الساعة وصل قاصد من عند الملك الناصر إلى برلغى وهو يقول له: بالله، إذا كنت أنت الذى عليك الاعتماد، وأنت أكبر مماليك أبى خرجت عَلَىّ، فبالله، فعلى مَنْ أعتمد بعدك؟ ضاعت والله تربية الملك المنصور فيك، فدع ما أنت عليه وعجل قدومك إلى غزة، فقد خرجت من دمشق، ونيابة مصر عينتها لك، وأطمعه بالعطايا الجزيلة، فلما سمع بذلك افتكر، ثم رأى الناس كلهم مائلون إلى الناصر، وكل ليلة يهرب منه جماعة إليه، وهو فى ذلك، فإذا بقاصد من عند قراسنقر وصل إليه ومعه كتاب، وكذلك جاء إليه كتاب من اسندمر، وكان مجردًا على العريش من حين وصل الناصر، فعند ذلك طلب الأمراء الذين معه، وقال: ما تقولون؟ وهذا الملك الناصر قد وصل، وربما اليوم هو فى العريش، وهذا الملك المظفر ما له قابلية للملاقاة، وقد تبين لنا عجزه، وما يكون التدبير؟

فقال كلهم: الذى تختار.

فقال: الرأى عندى أن نسير إلى الملك الناصر، ومماليك أقوش الرومى قد قتلوه [وذهبوا][٢] إلى الملك الناصر، ولا نأمن [١٦٤] أن تكون مماليكنا كذلك، فقالت الأمراء: الذى تقوله حق، فاتفق الجميع على الرواح، ثم قال لهم برلغى: كل منكم يروح ويجهز حاله، فخرجوا من عنده، ثم طلب الأمير برلغى الأمير دباكوز والأمير [بجاس][٣]، ولم يكونا حضرا مع الأمراء لأنهما كانا عينًا للمظفر عليه، فلما حضرا قالا له: ما لخيلك

(١) أغاروا لبرلغى: فى الأصل، ومشطوب على كلمة "لبرلغى"، وهو سبق نظر من الناسخ.
(٢) فذهبوا : في الأصل.
(٣) بشاس: الأصل، والتصويب مما يلى.

مشدودة وجمالك محملة؟ فقال: جاء مرسوم المظفر بأنه خرج من القاهرة وأمرنى أن أرحل إلى العريش، فصدقاه على ذلك وذهبا وحملا أيضًا جمالهما، ثم اجتمع الجميع وساروا، ثم شرع بعض الناس يتحدثون بأن هؤلاء رائحون إلى الملك الناصر، فسمع بذلك بعض مماليك دباكوز وبجاس وأعلموا أستاذيهم بهذا الخبر، ثم نهضا وجاءا إلى برلغى فقالا: يا أمير، إلى أين رائحون نحن؟ قال: إلى الملك الناصر. فقالاَ له: مَنْ وافقك على هذا؟ فقال: جميع الأمراء طوعًا وكرهًا، وأى مَنْ قال لا ضربت عنقه، ثم أنه أمر بأن يأخذوا سيوفهما، ورسم عليهما، فبكى دباكوز، وكان أشد الناس حيلة، وقال: يا أمير سيف الدين، ذهبت الشفقة من بين الخشداشية؟ بالله عليك، لا تكن سبب هلاكنا، فنحن نعلم أن الملك الناصر لا يرحمنا دون الناس، ونريد من إحسانك أن تخلينا لنروح إلى القاهرة، وأنت تأخذ لنا أمانًا من السلطان الناصر، وترسله لنا، فقال: أطلقوهما، فأطلقوهما، وأخذا أطلابهما [١٦٥] وعادا إلى القاهرة.

وأما برلغى فإنه سار بمن معه حتى وصلوا إلى العريش، وجاء الخبر إلى اسندمر وهو نازل على العريش كما ذكرنا، وقالوا له: إن برلغى واصل ومعه عشرة أمراء وعشرين من مقدمى الحلقة وخمسة آلاف فارس، ففرح اسندمر بذلك ولاقاهم، ونزل الجميع على العريش، ثم أطلق البطاقة إلى غزة يعلم بقدوم [برلغى](١)، ثم إنه ركب مع اسندمر، وخليا الأثقال وغالب العسكر على العريش، وذهبا إلى السلطان فى غزة، ولما وصلا إلى تل العجول لاقاهما الأمير الحاج بهادر والأمراء، ولما قربوا من غزة ركب السلطان إلى ملاقاة [برلغى](٢) ومعه قراسنقر وقفجق واسندمر وقطلوبك وساروا بين يديه، فوصل برلغى وقبل ركاب السلطان ورجليه، وأمر السلطان أن يركب فرسًا من جنائبه، فركب وساروا إلى أن نزل السلطان فى دهليزه، ثم طلب [برلغى](٣) وأصحابه، فخلع عليهم.

وأما دباكوز وبجاس، فقد وصلا إلى المظفر، وأعلماه بما فعله برلغى، فضرب بيده

---

(١) برغلى: فى الأصل، وهو تحريف، والتصويب مما سبق.
(٢) برلغلى: فى الأصل، وهو تحريف، والتصويب مما سبق.
(٣) برغلى: فى الأصل، وهو تحريف، والتصويب مما سبق.

على يده، وقال: الله أكبر، راح الملك منا، فمن كان يقول: إن برلغى يفعل هذا الفعل.

وأما تمر الساقى فقد ذكرنا أنه ساق خيل العباسة، ثم وصل إلى العريش واجتمع بالأمير اسندمر، فلما رآه قال: هذا دليل النصر، ثم راح إلى الملك الناصر ومعه الخيل، ففرح الناصر [١٦٦] بذلك، وقال له: حدثنى بما جرى لك، فحدثه، فتعجب السلطان من حيلة تمر وحسن تدبيره، فخلع عليه.

ذكر ما جرى للمظفر بعد توجه الناصر من دمشق إلى مصر

وفى بكرة يوم الثلاثاء السادس عشر من شهر رمضان، وهو يوم خروج الملك الناصر من دمشق، دخل الأمير سلار، وبدر الدين بكتوت الجوكندار، وسيف الدين قجماس السلحدار، إلى الركن المظفر، وقالوا: إن الأمراء قد تسحبوا، إلى السلطان، والباقون منهم على مثل رأيهم، وقد أعجز الضبط، وما بقى يمكن المنع، والرأى أن تُسَير رسالة إلى السلطان مع أحد من الأمراء الأعيان يتوجه إليه وتسأله مكانًا تتوجه إليه أنت وعيالك ومماليكك وألزامك، فلعله يجيبك إلى المطلوب وتستريح من هذه الخطوب، ومتى لم تبادر بهذا أدركتك العساكر، وأحاطت بك المواكب، وتؤخذ كرهًا، وما من الهلكة قهرًا، فقال لهم: ومَنْ هو الذى نسيره إليه بهذه الرسالة، ويبلغه هذه المقالة، ويتلطف معه فى تقرير هذه الحالة ؟.

قال بيبرس فى تاريخه: فأشاروا إلىّ أن أكون أنا الرسول إلى السلطان، والسفر فى طلب الأمان، فاستدعيت أنا والأمير سيف الدين بهادر آص، وكان قد وصل من الشام منذ أيام، وأشار على الركن بالمسالمة فيما دار بينهما من الكلام، [١٦٧] فحضرنا إليه معًا، فتحدث هو والأمراء المذكورون معنا فى المسير، وأعلمونا بما وقع عليه التقرير وترتيب المشافهة، وعين المذكور ثلاثة أماكن، وطلب مكانًا منها: إما الكرك وأعمالها، أو حماة وبلادها، وإما صهيون ومضافاتها، ونزل عن المُلك فى تلك الساعة، وأشهد على نفسِه مَنْ حضر من الجماعة، فمن عجائب الاتفاق التى ينبغى تخليدها بطون الأوراق أن

الساعة التى ركب فيها السلطان من دمشق هى الساعة التى خلع الركن الجاشنكير فيها من المملكة، ثم أنه قال لنا، لما أردنا الانصراف من عنده: لنسافر إلى الأبواب السلطانية، إننى أخشى أن أقيم بالقلعة ريثما تتهيأ لكم الرجعة، وعزمى الخروج منها والتحول عنها وأقيم قريب إطفيح[1] إلى أن تعودا بالجواب وترجعا إلىّ بالأمان والكتاب، فسرنا ضحى يوم الثلاثاء المذكور على خيل البريد المنصور، قاصدين الاجتماع بمولانا السلطان ومطالعته بما قد كان، ومخاطبته فى التماس الأمان[2].

ذكر خروج المظفر من مصر وتوجهه إلى إطفيح

قال بيبرس: وفى عشية الثلاثاء المذكور اضطربت الأمور، وغير الله عليه قلوب الجمهور، فدخل إلى الخزائن السلطانية تلك الليلة واحتمل جميع أموالها، وخرج من القلعة وصحبته مماليكه كافة، وكانت عدتهم تزيد على سبعمائة [١٦٨] مملوك، ومعه: الأمير بدر الدين الفتاح، والأمير عز الدين الخطيرى، وقجماس، ومماليكهم، ونزل من باب القرافة، وأخذ ما كان فى الاصطبلات من الخيول، و شعرت العامة، فتجمعوا وتألبوا وسبوا ورجموا، وكادوا يتعلقون بأتباعه لولا خوفهم من اتباعه، فقيل: إنهم اشتغلوا عنه بدراهم نثرها لهم فى الطريق، فاشتغلوا بالتقاطها عن تألبهم عليه وتطرقهم إليه، وسار بمن معه إلى أطفيح، وأصبحت الديار منه مقفرة، والدنيا عنه مدبرة، ولم يستقر بمكان، بل خطر بباله قصد أسوان.

وقال الشاعر:

مـــوكّل ببقـــاع الأرض يَـــذْرَعُها		من خِفة الروع لا من خِفَّة الطرب[3]

---

(١) إطفيح : بالكسر في أوله والفاء، بلد بالصعيد الأدنى من أرض مصر على شاطئ النيل، في شرقيه، معجم البلدان.

(٢) ينظر التحفة الملوكية ٢٠٢.

(٣) ينظر التحفة الملوكية ٢٠٢.

وخرج من بقى فى المدينة والعساكر طالبين [محمدهم][١]، ودخلوا فى دين طاعته أفواجًا، وأهرعوا إليه فُرادى وأزواجًا، وقطوا[٢] إليه المراحل تأويبًا، وإدلاجًا[٣]، وكيف لا يسعون إلى ملكهم وابن ملكهم وهو المعنى، بقول الشاعر:

أجرأ الورى إن صال، بل أعلاهم ... إن طال، بل أوفاهم إن ما لا
بمضائه وقضائه وعطائه ... أمنوا الرَّدى والجور والإمْحالا[٤]

[١٦٩] ولما فارق الجاشنكير القلعة، اهتم الأمير سيف الدين سلار بحفظها، ورتب [المماليك][٥] السلطانية فيها، وأفرج عن الذين كان الركن سجنهم، وخَلَّص مَنْ كان فى الاعتقال منهم، وكاتب السلطان يطالعه بما اتفق له من السعادة، والأمر جاء وفق الإرادة، وأرسل الطنبغا الجمدار، أحد مماليكه بذلك، وصَيَّح الداعون، ودعا المُصَيِّحون فى القلعة باسم مولانا السلطان بكرة يوم الأربعاء السابع عشر من شهر رمضان، وخُطب له يوم الجمعة التاسع عشر منه على المنابر، فلم يكن فى الناس إلا من يدعو بنصره ويتطرب لذكره، ويعلن بحمد الله تعالى فيه وشكره.

شعر:

قد نال بالحزم والتدبير ما عجزت ... [عنه][٦] الملوك بما نالوا وما جمعوا
وفاق أولهم عزمًا وآخرهم ... فما رأوا مثله يومًا ولا سمعوا

ونصره الله بما قذفه من الرعب فى قلوب أضداده، وأغناه بمناصرة ملائكته

(١) محمدونهم : فى الأصل، والمقصود السلطان الملك الناصر محمد.
(٢) قطوا : جاءوا مسرعين، المحيط فى اللغة.
(٣) الادلاج : سير الليل كله، المحيط فى اللغة.
(٤) الإمحال : الجدب: المحيط فى اللغة.
(٥) المماك فى الأصل، والتصويب يتفق مع المعنى.
(٦) عند : فى الأصل: والتصويب يتفق مع السياق.

وأجناده، وزاده من لطفه وفضله، كما أراد إياه من قبله.

شعر:

أبـوه الذى يـستهزم الخيـل باسمـه وإن كان فيهـا قيـد شـهرٍ مُطَّـرِد

وقـد علمـوا إذ شـد حُقْويـةِ أنـه هـو الليـث ليـث الغـاب لا بالمجـرَّد[1]

[١٧٠] وركب الناس إلى سوق الخيل، وسَيَّرُوا إلى تحت القلعة بالميدان الأسود، وطلع [الأمير سيف الدين سلار][2] إلى دار النيابة كعادته، والنظام مضبوط، والأمر مرتب، وجَهَّز الطُّلب السلطانى بالسناجق والعصائب وشعار السلطنة إلى الدهليز المنصور.

ذكر اجتماع الأمير بيبرس بالملك الناصر

قال بيبرس فى تاريخه: وأما نحن فإنا تقدمنا على البريد، فوصلنا إلى السلطان يوم نزوله على غزة، فمثلنا بين يديه، وأعدنا المشافهة عليه، وطالعناه بنزول الركن عن السلطنة، والتماسه مكانًا من بعض الأمكنة، فاستبشر لحقن دماء الإسلام، وخمود الفتنة بين الأنام، واتفق فى ذلك النهار ورود الأمير سيف الدين برلغى والأمير عز الدين البغدادى ومَنْ معهما من الأمراء والمقدمين، واجتمعنا جميعًا بالدهليز المنصور، وقد شملنا الابتهاج، وزال عنا الانزعاج، وأفاض السلطان على الأمراء التشاريف الجميلة على طبقاتهم، والحوائص الذهب الثمينة لصلاتهم، فلم يترك أميرًا حتى وصله، ولا مقدمًا حتى شرفه بالخلع وجَمَّله، وجدنا استعطاف السلطان فيما سأله الركن من الأمان، وكل من الأمراء الحاضرين بين يديه يتلطف من سؤاله ويتضرع فى مقاله حتى أجاب، وعُدْنا بالجواب[3].

(١) هذه الشطرة مكتوبة بهامش الأصل.
(٢) إضافة لاستكمال معنى النص، ينظر ما سبق.
(٣) ينظر التحفة الملوكية ٢٠٣.

ورحل السلطان على الأثر [١٧١] قاصدًا الديار المصرية، فوصلنا إلى القلعة يوم الخميس الخامس والعشرين من شهر رمضان واجتمعنا بالأمير سيف الدين سلار، ووجدنا الجاشنكير قد تجاوز موضع الميعاد، وأخذ بمن الاصعاد، وحمله الإجفال على الإبعاد، ولم يدعه الرعب يستقر به القرار، ولا تلقيه معه أرض ولا دار، فاقتضى الحال أن أرسلنا إليه الكتب الشريفة الواردة على أيدينا، وعُدْتُ أنا وسيف الدين بهادر آص إلى الخدمة السلطانية، فوجدنا الدهليز على منزلة السعيدية[١].

ذكر دخول الناصر القاهرة وجلوسه على تخت مُلْكه على عادته

قال بيبرس رحمه الله: ثم رحل السلطان إلى بركة الحجاج سلخ شهر رمضان، ونحن فى خدمته، وعَيَّد على البركة[٢]، وخرج الأمير سيف الدين سلار إلى لقائه، وقبل الأرض بين يديه، فأقبل مولانا السلطان عليه، وبرز السلطان للصلاة فى الدهليز المنصور، واجتمع الأمراء الأكابر والمقدمون وأعيان العساكر لصلاة العيد، فأُنشدت بين يديه القصائد، وكان مما أُنشد أبيات نظمها شمس الدين محمد بن على بن موسى الداعى المؤذن:

المُلك عاد إلى حماه كما بدا ... ومحمد بالنصر سَرَّ مُحمدًا
وإيابه[٣] كالسيف عَادَ[٤] لغِمدِه ... ومعاذُه كالورد عاوده الندى
[١٧٢] الحق مرتجع إلى [أربابه][٥] ... من كَفِّ غاصبه وإن طال المدى

ومنها :

(١) السعيدية : مركز من مراكز البريد على الطريق من بلبس إلى غزة، صبح الأعشى ٣٧٦/١٤.
(٢) ينظر التحفة الملوكية ٢٠٣.
(٣) وأتى به: فى التحفة الملوكية ٢٠٣.
(٤) آب: فى التحفة الملوكية ٢٠٣، كنز الدرر ١٩٢/٩.
(٥) أبوابه: فى الأصل، والتصويب من التحفة الملوكية ٢٠٤، كنز الدرر ١٩٢/٩.

يا وارث الملك [العظيم][١] تهنه — واعلم بأنك لم تسد فيه سُدى
عن خير[٢] أسلاف ورثت سريره — فوجدت منصبه السرى[٣] ممهدا
يا ناصرًا من خير منصور أتى — كمهند خلف الغداة[٤] مهندا
آنست مُلكًا كان[٥] قبلك موحشًا — وجمعت شملاً كان منه تبددا[٦]
فتهن عيدا لم نجد مثلاً له — فى الدهر خلق صام قبله[٧] وعيدا
فالناس أجمع قد [رضوك][٨] مليكهم — وتضرعوا أن لا تزال مخلدا
وتباركوا بسناء غرتك التى — وجدوا على أنوار بهجتها هدى
الله أعطاك الذى لم يعطه مَلِكًا — سواك برغم أناف العدا
لازلت منصور اللواء مؤيد — العزمات ما هتف الحمام وغردا[٩]

[١٧٣] وركب السلطان من البركة ظهر النهار، وطلع إلى قلعته فى مستهل شوال، ولم يبق فى مصر والقاهرة حتى خرجوا إليه ويدعون له من كل جانب، وكان يومًا مشهودًا.

ولما كان يوم الخميس الثانى من شوال جلس السلطان بالإيوان وقت الخوان،

(١) العقيم: فى الأصل، المعظم: فى كنز الدرر، والتصويب من التحفة الملوكية .
(٢) من صنو: فى كنز الدرر.
(٣) السَّنى: فى التحفة الملوكية، السمى: فى كنز الدرر.
(٤) الهداة: فى كنز الدرر.
(٥) كا: بين الأسطر فى الأصل.
(٦) مبددا: فى التحفة الملوكية ، النجوم الزاهرة ٦/٩ .
(٧) قبل: فى التحفة الملوكية.
(٨) رضيك: فى الأصل، والتصويب من التحفة الملوكية وكنز الدرر.
(٩) هذه الشطرة، فى هامش الأصل.

وحضرت العساكر ونواب الممالك والمقدمون وغيرهم، وحلفوا له على طبقاتهم ومراتبهم، الكبير منهم والصغير، والأمير والوزير، وأرباب الوظائف والأشغال، فلما تكامل الحلف واتسق النظام المؤتلف، وأُنشدَت هذه الأبيات(١):

تهنـــأت الدنيـــا بقدمـــه الذى أضاءت له الآفاق شرقًا ومَغْـــربــًا

وأمــا سريــر المُــلك فــاهتز رفعــة ليبلـغ فى التشريف قـصدًا ومطلبًــا

وتاق إلى أن يعلـــو المَــلِك فوقـــه كما قـد حـوى مـن قـبله الأخ والأبا

ذكر ما جرى للأمير سلار

ولما تكامل الحلف سأل الأمير سيف الدين سلار دستورًا بالتوجه إلى الشوبك، فإنها جارية فى إقطاعه، فأعطاه الدستور، وخَلع عليه خُلعة العزل من النيابة، وكانت أسنى من خُلعة حال الولاية، وأعطاه حياصة من ذهب مرصعة، وأكرمه وودعه، وسار من فوره سريعًا، وكان نزوله من القلعة عصر يوم الجمعة ثالث شوال، فكانت مدته فى نيابة السلطنة إحدى عشرة سنة، ورحل بكرة السبت رابع الشهر وتوجه [١٧٤] معه الأمير نظام الدين آدم مؤنسًا له، واستقر ولده أميرًا على الباب العزيز، وأعطاه السلطان عشرة طواشية، وأقام عنده من تأخر عن والده من الألزام والحاشية(٢) .

ذكر ما جرى للملك المظفر بعد قدوم الناصر

قال بيبرس فى تاريخه: ثم إن السلطان رسم لى وللأمير سيف الدين بهادر آص بالتوجه إلى المظفر باستحلافه على ما تقرر من الأمور، فتوجهنا إليه إلى أعمال إخميم(٣)،

---

(١) الأبيات التالية منسوبة إلى محمد بن موسى الداعى، ينظر كنز الدرر ١٩٢/٩.
(٢) ينظر التحفة الملوكية ٢٠٦ ، المختصر ٥٨/٤ .
(٣) إخميم : بالكسر ثم السكون، بلد قديم على شاطئ النيل بالصعيد، معجم البلدان.

وقد مسه ومن معه الشتات، وتقسمت به العزمات لاشتداد الأزمات، وامتلأ مماليكه حنقًا لما فارقوا من السعادات، وذاقوا من طعم الإمرة والطبلخانات، وما آل إليه أمرهم من ردى الحالات، ودبت الشرور فى نفوسهم، وفرخ إبليس فى رؤوسهم، ولما علموا أنا عدنا فى طلب الأموال والخيول أيقنوا بالخذلان والخمول، وهموا أن [يثبوا][(١)] علينا ويوقعوا بنا، وباتوا ليلتهم تلك مشتورون فيما يفعلون، ويأتمرون فيما يأتون ويهمون، غاية يهمهمون، وقالوا: نقتل هذين الورادين علينا، ونأخذ مخدومنا وما معنا من الأموال، والأرض لدينا واسعة، فعكس الله أفكارهم، وأبطل اشتوارهم، وصاننا منهم، بأن أطلعنا بعض صبياننا على أمرهم، فأخذنا بالاحتراز وعجلنا بالنجاز، وأعلمناه بأمر أولئك الصبيان وما [١٧٥] أرادوه من العدوان، فأظهر عدم الرضى بذلك ومنعهم من التطرق إلى هذا الفعل، ومازلنا نتلطف حتى استخلصنا الخزائن والأموال منه، وانفصلنا عنه، ونزلنا الحراريق من شرق أسيوط، وحضر هو ومَنْ معه فى البر ومعه الأمير سيف الدين بهادر آص ليتوجه به إلى حيث زعم أنه يتوجه إليه[(٢)].

ثم قال بيبرس: وعاد المظفر من بلاد إخميم على أنه يُعطى صَهيون وأعمالها [ويتوجَّه][(٣)] إليها ويقيم بها، ففارقه الأمَراء الذين معه من إطفيح وحضروا إلى الباب الشريف، وهما: بدر الدين الفتاح[(٤)]، وسيف الدين قجماز[(٥)]، وحضر صحبتهما أكثر مماليكه الذين تقرر أنه يعيدهم ولا يأخذهم معه، وكانوا أكثر من ثلاثمائة نفر، وأحضرا معهما الخيل والبغال التى كان أخذها من الاصطبلات الشريفة، فلما وصل الأميران المذكوران خلع عليهما، وفرقت مماليك الجاشنكير على الأمراء، وأخذ بعضهم وأضيف إلى المماليك السلطانية، ثم قبض على الأميرين المذكورين، وعلى عز الدين الخطيرى عشية

(١) لا يثبوا : فى الأصل: والتصويب من التحفة اللطيفة ٢٠٧، وينظر ما يلى.

(٢) ينظر التحفة اللطيفة، ٢٠٦-٢٠٧، حيث يوجد اختلاف فى بعض الألفاظ.

(٣) وتوجه: فى الأصل: والتصويب يتفق مع السياق.

(٤) هو : بكتوت، الأمير بدر الدين الفتاح، من مماليك المنصور قلاوون، توفى سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م، الدرر الكامنة ٢/٢٣ رقم ١٣١٨.

(٥) قجماز أو قجماس المنصوري : أحد البرجية، أفرج عنه في مستهل ربيع الآخر ٧١٥هـ، السلوك ٢/١٤٤.

النهار.

وعند وصول الركن إلى إطفيح تقرر أنه يفوز منها إلى السويس، ومن هناك يتخرج إلى الصالحية ويتوجه إلى الشام، إلى حيث رُسم له، وصحبته: الأمير سيف الدين بهادر آص، والأمير عز الدين أيدمر الشجاعى، ثم حصل التروى فى أمره والتفكر فى عاقبته، والخيفة من اعتراض [١٧٦] العوارض، وتقلب الحوادث، وأنه قد يحتمل أن عند توجهه إلى تلك البلاد يلتف عليه من له قصد فى الفساد، ومَنْ فى قلبه بقية من الأحقاد، فيحسنون له العصيان ويندمونه على ما كان، فيجنح إليهم، ويكون ذلك سببًا لإثارة ثائر [تتفرق][١] بسببه الكلمة وتضطرب لأجله الأمة، فَتُسفك الدماء، وتقلق الدهماء، فظهر أن من الحزم حسم هذه المواد واستدراكها قبل التماد واستحكام الفساد، فلما وصل المذكور إلى قريب غزة، وكان الأمير شمس الدين قراسنقر الجوكندار نازلاً بعد على الشريعة، والأمير سيف الدين بهادر الحاج، وقد خرجا معًا للصيد، فصادفا الجاشنكير فى النفر الذى معه، فأحاطا به وقبضا عليه وعلى مَنْ معه[٢]، وأحضر إلى الخطارة صحبة الأمراء محتاطًا عليه، وعند وصوله إليها توجه الأمير سيف الدين اسندمر الكرخى من الباب العزيز ومعه مماليكه، فتسلموه، وأحضره إلى القلعة المحروسة يوم الخميس رابع عشر من ذى القعدة[٣]، فأودع الاعتقال، فكان آخر العهد به، وعاد الأمراء الذين أوصلوه من الخطارة إلى الشام، ومات، وسُلم إلى أهله ميتًا بعد أيام، فدفنوه بتربة كانت له قديمًا بالقرافة، وفرق بقية مماليكه على الأمراء، وأُوقعت الحوطة على أملاكه وأمواله وحواصله وتعلقاته، وفُوض الحديث فى حصر تركته إلى الأمير [١٧٧] جمال الدين أقوش الأشرفى نائب الكرك، بحكم أن السلطان يستحق نصيبه منها بالولاء والعتق، فبيعت حواصله وغلاله وتقسمت، بعد عينه، أمواله[٤]

(١) يتفرق: فى الأصل.
(٢) فى سابع ذى القعدة: فى البداية والنهاية ٩٦/١٨.
(٣) ينظر نهاية الأرب ١٦٠/٣٢ ، كنز الدرر ٩/ ١٩٥ .
(٤) ينظر التحفة الملوكية ٢١١- ٢١٣.

ذكر ترجمة المظفر وموته

وكان بيبرس[١] هذا من مماليك الملك المنصور قلاوون الصالحى، وكان جركسى الجنس، وتأمر فى أيام أستاذه، ولم يزل كبيرًا إلى أن تسلطن، وكان من الأمراء المعدودين فى أيام الملك[٢] الأشرف خليل بن قلاوون، ولما تسلطن الملك الناصر محمد بن قلاوون تقرر بيبرس هذا استادارا للناصر، وقد ذكرناه[٣]، وكان ذلك فى سنة ثلاث وتسعين وستمائة، ثم لما تولى كتبغا السلطنة عزله عن الاستادارية،[٤] وولى عوضه سيف الدين بتخاص، وكان من كبراء[٥] مماليكه، وكان بيبرس هذا حُبس وأفرج عنه كتبغا العادل وأعطاه إمرة بمصر، وعُدّ من الأمراء الكبار القاطنين بالقلعة، وكان مع الأمراء الكبار الذين أجمعوا على إحضار الملك الناصر من الكرك لأن يجلس فى السلطنة حين قتلوا الملك المنصور لاجين وذلك فى سنة ثمان وتسعين وستمائة، ولما حضر الناصر محمد واستقر فى السلطنة تقرر بيبرس هذا على عادته استادارا، ولما انكسر الناصر فى وقعة قازان[٦] كان بيبرس هذا معه، ووصل مع الناصر إلى القاهرة، ثم بعد ذلك أرسل الناصر بيبرس هذا ومعه [١٧٨] الأمير سيف الدين سلار لتمهيد البلاد وإصلاح ما استحكم بها من الفساد، ووصلا إلى دمشق ورتبا أحوالها وسددا اختلالها، ثم عادا إلى مصر، وكان ذلك فى سنة تسعة وتسعين وستمائة، ثم صار بيبرس هذا وسلار كفيلى[٧] الممالك الشريفة والمشيرين فيها، ثم عقد له بالسلطنة يوم السبت الثالث والعشرين من شوال من

---

(١) وله ايضا ترجمة فى : تالى كتاب وفيات الأعيان ٥٧ رقم ٨٧ ، الوافى بالوفيات ١٠/ ٣٤٨ رقم ٤٨٤٣ ، أعيان العصر ٢/ ٧١ رقم ٤٨٨ ، الجوهر الثمين ٣٣٦ ، الدرر الكامنة ٢/٣٦ رقم ١٣٧٥ ، النجوم الزاهرة ٨/ ٢٧٦ وما بعدها ، المنهل الصافى ٣/٤٦٧ رقم ٧١٨ .

(٢) الملك : ملحقة بين الأسطر في الأصل.

(٣) ينظر ما سبق بعقد الجمان ٣/٤٥٢.

(٤) عن السلطنة الاستدارية: فى الأصل، ومشطوب على كلمة: السلطنة.

(٥) كبار: فى الأصل، ومصححة إلى كبراء.

(٦) وذلك سنة ٦٩٩هـ، ينظر ما سبق بعقد الجمان ٤/١٢، ١٣، ٦٥.

(٧) لفيلى: فى الأصل، بدون رأس حرف الكاف.

سنة ثمان وسبعمائة، وذلك بعد رواح الناصر إلى الكرك وعزله نفسه عن السلطنة كما ذكرنا[١]، وكانت البيعة بدار سيف الدين سلار، واستقر سلار على عادته نائب السلطان، ثم جرى عليه ما ذكرنا، وكانت مدة سلطنته التى نُسبت إليه ووقع اسمها عليه أحد عشر شهرًا، كما كانت دولة الملك المظفر قطز سَمِيَّه.

قال النويرى فى تاريخه: ولما وصلوا بالمظفر بيبرس إلى السلطان الناصر أوقفه بين يديه، وأمر بدخوله الحمام، وخنق فى بقية يومه، ودفن بالقرافة، وعَفَّى قبره مدة، ثم أمر بانتقاله إلى تربته التى بالخاناقاه، فنُقل إليها [٢].

وكان بيبرس هذا ابتدأ بعمارة الخانقاه والتربة داخل باب النصر، موضع دار الوزارة، فى سنة ست وسبعمائة، وأوقف عليها أوقافًا جليلة[٣]، ولكنه مات قبل فتحها، فأغلقها الملك الناصر مدة، ثم فتحها ورتب فيها جماعة من الصوفية وبعض الأوقاف التى كانت لها، وارتجع البقية، وأما [١٧٩] التربة فاستقرت مغلقة إلى آخر سنة خمس وعشرين وسبعمائة.

وبيبرس هذا هو الذى عَمَّر الجامع الحاكمى بالقاهرة، وكانت الزلزلة قد أخربته، وكان ذلك فى سنة أربع وسبعمائة، وأنفق عليه من ماله جملة كثيرة، ورتب فيه أربعة دروس للمذاهب الأربعة، ورتب فيه درس حديث، ودرس نحو، ودرس القراءات السبعة، ووقف فيه خزانة كتب، وقد ذكرنا جميع ذلك مفصلاً [٤].

(١) يراجع ما سبق.

(٢) فى أواخر سنة تسع وسبعمائة : فى بدائع الزهور ١/ق١/٤٣٤ .

(٣) تنظر وثائق وقف بيبرس بن عبدالله الجاشنكير المحفوظة بدار الوثائق القومية بالقاهرة (مجموعة المحكمة الشرعية) رقم ٤/٢٢ ، ٤/٢٣، والمؤرخة ٢٦ شوال ٧٠٧هـ، فهرست وثائق القاهرة ٨-٩، مسلسل ٢٥ ، ٢٦. وينظر كتاب الأوقاف والحياة الاجتماعية في مصر ٢١٩ وما بعدها، المواعظ والاعتبار المجلد الرابع ٧٣٢-٧٤٣.

(٤) يراجع ما سبق بعقد الجمان ٤/٤٢٨- ٤٢٩، نهاية الأرب ٣٢/٨٥- ٨٧، ١٣٣- ١٣٤.

ذكر ما حدث من الأمور بعد قدوم الناصر

منها: أن السلطان قلد الأمير شمس الدين قراسنقر المنصورى نيابة السلطنة بالشام المحروس، عوضا عن الأمير جمال الدين أقوش الأفرم، وولى أقوش الأفرم صرخد[(١)] وأعطاه مائة فارس وسفره إليها، وفوض إلى الأمير سيف الدين قفجق نيابة حلب، عوضًا عن قرا سنقر، وإلى الأمير سيف الدين بهادر الحاج السلحدار طرابلس والفتوحات، عوضًا عن الأمير أسندمر، وعين لنغيه قفجاق إقطاع الأمير سيف الدين قطلوبك بدمشق، وقبل [المذكورون][(٢)] الأرض، ولبسوا التشاريف الجميلة والمناطق النفيسة وسافروا أولاً فأولاً، فكان أول من سافر منهم الأمير سيف الدين قفجق، وجرد معه تجريدة من العسكر المنصور المصرى لحفظ الثغور والأطراف، وهم: الأمير سيف الدين جبا أخو سلار، والأمير حسام الدين [١٨٠] طرنطاى البغدادى، وعلاء الدين أيدغدى التليلى، وسيف الدين بهادر الحموى، وسيف الدين بلبان الدمشقى، والأمير سابق الدين بوزبا الساقى، وركن الدين بيبرس الشجاعى، وسيف الدين كورى السلحدار، وعلاء الدين أقطوان الأشرفى، وسيف الدين بهادر الجوكندار، وسيف الدين بلبان الشمسى، وعلاء الدين أيدغدى الزراق، وسيف الدين كهرداش الزراق، وسيف الدين بكتمر استادار، وعز الدين أيدمر الإسماعيلى، وفارس الدين أقطاى الجمدار، وجماعة من أمراء العشرات، فتوجهوا إلى حلب احترازًا من ثائر يثور، وطارق يطرق الثغور، فلما وصلوا إلى هناك رسم بإقامة جماعة منهم بالبلاد الشامية عدتهم ستة من أمراء الطبلخاناة وعادت البقية.

ومنها: أنه فوض نيابة السلطنة بالديار المصرية إلى الأمير سيف الدين بكتمر أمير جاندار، فجلس فى دست النيابة عوضًا عن الأمير سيف الدين سلار الذى توجه إلى شوبك وهى اقطاعه.

---

(١) صرخد: قلعة حصينة وبلد ملاصق لبلاد حوران من أعمال دمشق، معجم البلدان.

(٢) المذكور: فى الأصل.

ومنها: أنه فى الخامس والعشرين من شوال أَمَّرَ السلطان جماعه من مماليكه، وهم عشرون نفرًا، منهم طبلخانات ومنهم عشرات، وهم: الأمير دنكز، وسيف الدين كستاى، وجمال الدين خضر بن نوكيه، وبيبرس السلحدار، وسيف الدين أيتمش الساقى الظاهرى، وغيرهم.

ومنها: أنه فوض الوزارة إلى الصاحب فخر الدين عمر بن عبدالعزيز بن الخليلى، عوضًا [١٨١] عن ضياء الدين [النشائي][(١)]، وحُملت إليه الدواة والخلعة، وسيقت إلى بابه البغلة، وعَوق النشائى فى القلعة أيامًا ولم يأخذ منه شيئًا، ثم أطلق سراحه.

واستقر الأمير شمس الدين سنقر الكمالى فى الحجوبية على قاعدته، وخُلع عليه، والأمير سيف الدين بلبان الجمالى أمير جاندار، والأمير حسام الدين قرا لاجين أمير مجلس استادار العالية، بعد ذلك بأيام.

قال بيبرس فى تاريخه: ورُسم لى بدار العدل الشريفة والنظر على الأحباس والأوقاف المبرورة بالديار المصرية والبلاد الشامية، وكتب تقليد بذلك، قال: وكان ذلك فى الخامس من ذى القعدة.

ومنها: أنه أعاد السلطان كريم الدين عبدالكريم الآملى العجمى شيخ الشيوخ لمشيخة الخانقاه الصلاحية المعروفة بدار سعيد السعداء على عادته.

ومنها: أنه أفرج [فى][(٢)] منتصف شوال عن جماعة كانوا معتقلين من أيام كتبغا، وهم: الشيخ على التترى، وجاورجى بن قنغر، وأخوه حمدان بن صلغيه، ومنكلى التترى، وأعطاهم إقطاعات بالشام.

ومنها: أنه فى يوم الخميس السادس عشر من شوال جلس السلطان بالإيوان، وقبض على جماعة من الأمراء البرجية كانوا متهمين بخبث النية.

---

(١) النشآى: فى الأصل، والتصويب من عقد الجمان ٤/٤٢٦- ٤٢٧.

(٢) عن: فى الأصل: والتصويب يتفق مع السياق العام.

وقال ابن كثير: وكانوا قريبًا من عشرين أميرًا[(١)]، وقبض على علاء الدين بن مغلطاى القازانى أحد الأمراء المتوجهين [١٨٢] إليه إلى الكرك وسيره، فاعتقله باسكندرية، وأرسل إلى دمشق، فقبض على الأمير نُغيه وعلى ركن الدين[(٢)] بيبرس العلمى، واعتقلهما بقلعة دمشق.

ومنها: أنه فى ثامن[(٣)] شوال طلب الشيخ ابن تيمية من الإسكندرية، فوصل إلى القاهرة فى ثامن عشره[(٤)] يوم السبت، واجتمع بالسلطان يوم الجمعة [رابع][(٥)] عشرينه، فأكرمه، وتلقاه فى مجلس حفل، فيه قضاة مصر والشام والفقهاء، وأصلح بينهم وبينه، ثم نزل إلى القاهرة وسكن بقرب، مشهد الحسين، والناس يترددون إليه: الأمراء والجند والفقهاء.

وقال ابن كثير: ولقد أخبرنى جمال الدين بن القلانسى بتفاصيل هذا المجلس وما وقع فيه من إكرام الشيخ يومئذ، فذكر: أن السلطان نهض للشيخ أول دخوله، ومشى له إلى طرف الإيوان[(٦)]، واعتنقا هناك، ثم ذهبا إلى صفة[(٧)] فيها شباك إلى بستان، فجلسا ساعة يتحدثان، ثم جاء ويد الشيخ فى يد السلطان، فجلس، وعن يمينه ابن جماعة والقضاة، وعن يساره ابن الخليلى الوزيرى، وتحته ابن صصرى، ثم الصدر على الحنفى ، فجلس تقى الدين بين يدى السلطان على طرف الطراحة[(٨)]، فتكلم الوزير فى

---

(١) البداية والنهاية ٩٥/١٨، وورد: عدة ثلاثين أميرًا: فى كنز الدرر ١٩٦/٩.

(٢) الدين: فى هامش الأصل، ومنبه على موضعها بالمتن.

(٣) فوجه إليه في ثاني يوم من شوال، بعد وصوله بيوم أو يومين : في البداية والنهاية ٩٢/١٨.

(٤) في يوم ثامن الشهر : في البداية والنهاية ٩٢/١٨.

(٥) ورابع: فى الأصل.

(٦) الإيوان : كلمة فارسية معربة، تعني لغويًا قاعة العرش، أما في العمارة المملوكية فالإيوان يمثل وحدة معمارية مربعة أو مستطيلة الشكل لها ثلاث حوائط، أي من ثلاث جهات فقط، والجهة الرابعة مفتوحة، ينظر المصطلحات المعمارية في الوثائق المملوكية ١٧.

(٧) صفة: الصفة من البنيان شبه البهو الواسع الطويل، وتشبه المصطبة ولكنها أقل ارتفاعًا، وتكون دائمًا مبنية داخل القاعات والوحدات السكنية، ينظر المصطلحات المعمارية فى الوثائق المملوكية ٧٣.

(٨) الطراحة ـ الطراحات ـ الطراريح : مرتبة يفترشها السلطان إذا جلس، ينظر صبح الأعشى ٥٠٦/٤.

إعادة أهل الذمة إلى لبس العمائم البيض بالعلائم، وأنهم قد التزموا للديوان بسبعمائة ألف فى كل سنة زيادة على الخالية، فسكت الناس، وتكلم ابن تيمية كلامًا عظيمًا، ورد على الوزير مقالته، وجعل السلطان [يتلافاه][1] ويسكته [١٨٣] وهو يبالغ فى التشنيع على من يوافق على ذلك، وقال للسلطان: حاشاك أن يكون أول مجلس جلسته فى أبهة الملك تنصر فيه أهل الذمة، فذكر أن الجاشنكير هو الذى جدد عليهم ذلك، فقال: والذى فعله الجاشنكير كان من مراسيمك لأنه إنما كان نائبًا لك، فأعجب السلطان ذلك، واستمر بهم على ذلك، وجرت [فصول][2] يطول ذكرها[3].

وقال ابن كثير: وسمعت ابن تيمية يذكر ما كان بينه وبين السلطان من الكلام فى الشباك الذى جلسا فيه حجرة عن الناس، وأنه حرضه على بعض القضاة بسبب ما كانوا تكلموا فيه، وهو يستفتيه فى قتل بعضهم، وإنما كان حنقًا عليهم بسبب ما كانوا سعوا فى عزله ومبايعة الجاشنكير، ففهم الشيخ ذلك وأخذ يعظم القضاة والعلماء وينكر أن ينال أحد [منهم][4] بسوء وقال له: إذا أذهبت هؤلاء لا تجد بعدهم مثلهم، فحلم عليهم وصفح عنهم. قال: وكان قاضى المالكية زين الدين بن مخلوف[5] يقول: ما رأيت مثل ابن تيمية، حرضنا عليه فلم نقدر، وقدر علينا فصَفح [وحاجج][6] عنا[7].

ذكر ما جرى من الحوادث فى البلاد

وفيها : أظهر خربندا ملك التتار الرفض فى بلاده، وأمر الخطباء أن لا يذكروا فى

---

(١) بيدفاه: فى الأصل، والتصويب من البداية والنهاية ١٨/٩٤.

(٢) فطول: فى الأصل.

(٣) يراجع البداية والنهاية ١٨/٩٣- ٩٤، حيث يوجد اختلاف فى بعض الألفاظ.

(٤) فيهم: فى الأصل، و التصويب من البداية والنهاية ١٨/٩٤.

(٥) هو: علي بن مخلوف بن ناهض بن مسلم النويري، قاضي القضاة، توفى سنة ٧١٨هـ/١٣١٨م، الوافي بالوافيات ٢٢/١٨٩ رقم ١٣٧، المنهل الصافي ٨/٢١٤ رقم ٦٨٨.

(٦) حاجف: فى الأصل، و التصويب من البداية والنهاية ١٨/٩٥.

(٧) يراجع البداية والنهاية ١٨/٩٤- ٩٥، حيث يوجد اختلاف فى بعض الألفاظ.

خطبهم إلا على بن أبي طالب وولديه وأهل البيت[١].

وفيها: ابتنى خربندا ببنت الملك المنصور [١٨٤] نجم الدين غازى بن المظفر قرا أرسلان صاحب ماردين، وحملت إليه إلى الأردو، وجهز معها من الجهاز الثمين والجوهر النفيس والتحف اللائقة ببنات الملوك وقر ألف حمل.

وفيها: اتفق بالبلاد الشمالية أن بيان بن قبجى كان قد استنجد [طقطاي][٢] على أخيه كبلك، فأنجده، وأرسل معه أخاه بُرلك فى جيش، فقصد أخاه كبلك، فهزمه واستولى على بلاده وعساكره، ولما استقر أمره تركه برلك بن منكوتمر وعاد إلى بلاده، واتفقت وفاة أخيه كبلك بعد ذلك، وله ولد اسمه قوشاى، فتوجه إلى قيدو مستنجدًا به ومستصرخًا، فجرد معه جيشًا، فقصد بيان عمه، فالتقيا واقتتلا على نهر يبق [فهزمه][٣] وتوجه نحو [طقطاي][٤] لائذًا به، وتمكن قوشاى من بلاده، واستقر بها على قاعدة أبيه وحكمه.

وفيها: اجتمع الفرنج وقصدوا ابن الأحمر[٥]، فأرسل يستنجد سليمان بن أبي ثابت المرينى، فأنجده بجيش، والتقى مع الفرنج ببر الأندلس، فكان ما قتلوا من الفرنج تقدير عشرين ألف فارس وراجل، وكانت القتلى من المسلمين أيضًا خلق كثير، ثم كانت الكسرة على الفرنج والهزيمة، وكانت الكسرة على مكان بالقرب من غرناطة.

(١) وأهل بيته: فى البداية والنهاية ٩٨/١٨، وينظر كنز الدرر ٢٠٦/٩.
(٢) طقطا : في الأصل، والتصويب مما سبق.
وهو طقطاي بن منكوتمر بن طغاي، توفى سنة ٧١٦هـ/١٣١٦، الوافي بالوفيات ٤٦٩/١٦ رقم ٥١٠، المنهل الصافي ٤٢٥/٦ رقم ١٢٦٤.
(٣) إضافة تتفق مع المعنى.
(٤) طقطا : في الأصل.
(٥) هو : نصر بن محمد بن محمد بن يوسف، السلطان أبو الجيوش ابن الأحمر، صاحب غرناطة بالأندلس، توفى سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٢م، الدرر الكامنة ١٦٥/٥ رقم ٤٩٣٨، المنهل الصافي ١٥/١٢ رقم ٢٥٩٥.

ذكر ركوب السلطان الناصر فى موكب ملكه

وبيان ما مدحه الشعراء

لما أثبت الله قواعد سعده، وأظفر الله بضده، آمرًا الخزائن [١٨٥] ففتحت، وبالخُلع فأفيضت على الأمراء والمقدمين والكبراء، ركب موكبا عظيمًا ملوكيا، ارتجت له الأرض، واجتمعت له الخلائق كيوم العرض، فمن مستبشر بطلعته، ومستشرف لرؤيته، وداع بدوام دولته، ورافل فى حلل مسرته بعود [سلطنته][١]، فكان كما قيل:

كأنى به ملء المواكب والحسنى ... يباهى به أفراسه والمساند
فما هو إلا البدر بعد سراده ... بدا وهو ملء العين والقلب صاعد

وقال الشاعر شهاب الدين العزازى[٢] من قصيدة أولها :

عاد للمُلكِ صاحب المُلْك عادا ... ثم أبدَى النعم لنا وأعادا
مرحبا مرحبًا بأوفى ملوك الـ ... أرض عدلاً[٣] فى ملكه وسادا[٤]
أى بشرى بعودة الملك النا ... صر سَرَّت فى الخافقين العبادا
عودة جددت لنا[٥] هناء وأفرا ... حًا وردت أيامنا أعيادا

(١) بسلطنته: فى الأصل: والتصويب يتفق مع السياق.
(٢) الأبيات التالية منسوبة إلى ناصر الدين بن النقيب، فى كنز الدرر ١٩٤/٩.
والعزازى هو: أحمد بن عبدالملك بن عبدالمنعم العزازى، شهاب الدين، المتوفى سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م، ينظر ما يلى.
(٣) قدرا: فى كنز الدرر.
(٤) وسدادا : في كنز الدرر.
(٥) لنا: سقط من كنز الدرر.

عيـــد فطـــر وعيـــد فـــتح وعيـــد		بقـــدوم الذى عـــلى النـــاس[١] ســـادا
مـــــلك شرَّف المـــــالك والعـــــصـ		ـــــر وأوفى عـــــلى الملـــــوك وزادا
[١٨٦] مـن أبـوه قـلاوون المـلك الـ		أعظـــم كانـــت له المعـــالى تـــلادا[٢]
أســـكن الخـــوف فى قلـــوب أعاديـــ		ـــه فولـــت تطـــوى الـــربى والوهـــادا
قـــرن الرعـــب مـــن[٣] محمـــد بالنـــصر		ولم يـــــشرع القنـــــا الميـــــادا
وأذلـــــت له المهابـــــة أعـــــدا		ه فـــأعطوه صـــاغرين القيـــادا
وإذا العبـــــد خـــــان مـــــولاه أو		عـــاداه فـــالله والملائكـــة عـــادا[٤]
كَم دعـــونا حـــتى رجعـــت إلينـــا		وصـــبرنا حـــتى [بلغنـــا][٥] المـــرادا
هم أرادوا إخفـــاء[٦] نـــورك واللـــ		ـــه تعـــالى إظهـــاره قـــد أردا
زادك الله يا محمـــــــد فى المـــــــ		ـــلك اقتـــدارا وفى الحيـــاة امتـــدادا

وقال البدر محمد[٧] البزاز المنبجى الشاعر من [قصيدة][٨] أولها :

قـضت ظُبـاك عـلى أعـداك بالظفـر[٩]		والحـــكم فى المـــلك للهنديـــة البـــتر

---

(١) الخلق: فى كنز الدرر.
(٢) بلادا : في كنز الدرر ١٩٥/٩.
(٣) في : في كنز الدرر.
(٤) سقط هذا البيت من كنز الدرر.
(٥) إضافة من كنز الدرر ١٩٥/٩.
(٦) إطفاء : في كنز الدرر.
(٧) هو : محمد بن عمر بن أحمد بن المثني، بدر الدين، المنبجي، توفى سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٢م، الدرر الكامنة ٢٢٠/٤ رقم ٤١٤٢، المنهل الصافي ٢٥٥/١٠ رقم ٢٣١١.
(٨) قصيد: فى الأصل.
(٩) أعدائك الظفر: فى كنز الدرر ١٩٣/٩.

فطـــل بهمتـــك العليـــاء مفتخـــرًا فبـــاع هِمَّـــةِ مَـــنْ عـــاداك ذو قـــصر
فأنت من ذكره فى الناس[١] شاع وبالـ إقـدام فى النـاس يـوم النفـع والـضرر
وذكـــر ســـيرته الحـــسناء مـــشتهر فقـد غـدت غـره فى أوجـه البـشر[٢]
مـا ورخـوا[٣] قبلهـا مـثلاً لهـا أبـدًا [أهـل][٤] التـواريخ فى بـدو وفى حـضر[٥]
[١٨٧] نشأت فى حجر هذا الملك مرتضعًا لثديـه غـير مفطـوم مـن الـصغر
وحـين آل إليـك الأمـر وامتثلـت منـه المراسـيم[٦] فى ورد وفى صـدر
أعرضـت عنـه لأسـباب علمـت بهـا وخـبر شـهرتها يُغـنى عـن الخـبر
وعـــدت ثانيـــة يقظـــان محترسًـــا وبت من كبد من يخشى على حذر[٧]
وهـــذه العـــودة الغـــراء ثالثـــة تقـضى لك الحـق فى أيامـك الأخـر
فارقـت ملكـك مختـارا لفرقتـه[٨] بنيـة العـود تـسليمًا إلى القـدر
وبعـد مـا سرت عـن مـصر وسـاكنها وغِبـت عنهـا وعـنهم غيبـة القمـر
لامـوك فى كل مـا دبـرت مـن حيـل بليغـة نـسبوها منـك بالـضجر[٩]

(١) بالبأس : في كنز الدرر ٩/١٩٣.
(٢) الدهر: فى كنز الدرر.
(٣) أرخو: فى كنز الدرر.
(٤) هل: فى الأصل، والتصويب من كنز الدرر.
(٥) من بدو ومن حضر : في كنز الدرر.
(٦) المراسم: فى كنز الدرر.
(٧) وبت من كبد تخشي على صدر : في كنز الدرر.
(٨) لمعرفة: فى كنز الدرر.
(٩) للضجر : في كنز الدرر.

إن غبـت عـن وطـن كادت تغـيره ... للبعـد عنـك[١] وحاشـاه[٢] يـد الغـير
فالـشمس أحـسن مـا تجـلى إذا بزغـت ... [١٨٨] من بعد غيبتها ليلاً على[٣] النظر
يفـديك مـن مـال[٤] مـا قـد نال مختلسًا ... مـا لـيس أهـلا له بالكيـد والخـبر[٥]
وجـرد[٦] الجـيش للقيـا فـأخره ... لا نال[٧] مـا يتمـنى شـده الخَـوَر
وأدبـر الـسعد والإقبـال عنـه وقـد ... ولى بـذل وخـذلان عـلى الدبـر
ضـاقت بمـا رحبـت أرض عليـه فقـل ... فى هـارب فى الفـلا بالخـوف منحـصر[٨]
بالنـاصر الملك العـالى الـركاب فـتى الـ ... ـمنـصور خـير ملـوك الـترك والخـزر
سُدت عن الناس طُرق الظلم واتضحت ... سـماء رزق بعـدل[٩] منـه مُنهمـر
فالناس من وجهـه أضـحوا ونائلـه ... فى روضـة دائمًـا[١٠] حـسنًا وفى نهـر
ألقـى الإله عليـه مـن محبتـه ... فاشـتاقه كل ذى سمـع وذى بـصر
وأسـكن الحُـبَّ فى كل القلـوب له ... بـين البريـة مـن أُنـثى ومـن ذكـر

(١) عنه: فى كنز الدرر.
(٢) وحاشاه من : في كنز الدرر.
(٣) عن: فى كنز الدرر.
(٤) نال : في كنز الدرر.
(٥) والحقر : في كنز الدرر.
(٦) وقدم: فى كنز الدرر
(٧) عن نيل : في كنز الدرر.
(٨) فى هارب الخوف لا ينفك منحصر: فى كنز الدرر.
(٩) ببذل: فى كنز الدرر.
(١٠) زينت : في كنز الدرر.

[١٨٩] أبا المظفر لازالت جيوشك بالـ تأييد محفوفة [بالنصر][١] والظفر
بقيت ناصر هذا الدين ما [سجعت][٢] بالدوح ورقاء فى الآصال والبُكَر
ودام مُلكك ما هبت رياح صبا وفُتِّحت فى رياض أعين الزَّهر

وقال القاضى بهاء الدين[٣] سواده كاتب الدرج بحلب من أبيات:

ويا[٤] ملكا جاء بالمعجزات وأيد عند[٥] اضطراب الأمور
عزمت على الملك عزم الملوك وقمت برأى سعيد كبير[٦]
وجئت بعيدين فى شهرنا فعيد القدوم وعيد الفطور
ونولك الله ما رمته وسهل بالعزم[٧] صعب العسير
وأقبل نحوك جيش البلاد ألوفًا ألوفًا بجم غفير
ولو أمكن السعى من[٨] كل القلاع لجاءت إليك وكل الثغور

(١) والنصر: فى الأصل، والتصويب من كنز الدرر.
(٢) سمعت: فى الأصل، والتصويب من كنز الدرر.
(٣) شمس الدين: فى كنز الدرر ١٩٠/٩.
وهو: علي بن علي بن محمد بن أبي سواده، القاضي بهاء الدين، كاتب السر بحلب، وتوفى سنة ٧١٤هـ/١٣١٤م، تذكرة النبيه ٥٩/٢، الدرر الكامنة ١٥٩/٣ رقم ٢٨١٧، المنهل الصافي ١٣٠/٨ رقم ١٦٢٠.
(٤) أيا: فى كنز الدرر.
(٥) عنه: فى كنز الدرر.
(٦) كبور: فى كنز الدرر.
(٧) بالنصر: فى كنز الدرر.
(٨) من: سقط من كنز الدرر.

وقلعـــة مـــصر فقَــد عمهـــا		جزيـــل التهـــانى وفـــرط الحبـــور
فلازلـــت تمـــلك رق الملـــوك		وتعفـــو عـــن الذنـــب للمـــستجير
وبغـــداد لا تنـــسها إنهـــا		مخبـــأة [لـــكم][1] فى الخـــدور

وقال الشهاب أحمد[2] الشرمساحى الكتبى الشاعر من [قصيدة][3] أولها :

وَلَّى المظفـــر لمـــا فاتـــه الظفـــر		وناصر الحـــق[4] وافى وهـــو منتـــصر
وقد طوى الله من[5] بين الورى فتنًا		كادت عـلى عـصبة الإسـلام تنتـشر
فالحمد[6] لله عقبى الناس قد رجعت		إلى الـصلاح الذى قـد كان ينتظـر
[١٩٠] فكلهم نالهم من بعد خوفهم		أمـن تـشارك فيـه البـدو والحـضر[7]
فلتطـمئن قلـوب أمنهـا رهـب		ولـتغمض عيـون نومهـا سـهر
الله أذهـب عنهـا الحـزن فانفرجـت		عـن القلـوب كـروب صـفوها كـدر
إن الزمـان الذى عمـت إسـاءته		عـلى البريـة أمـسى وهـو [معتـذر][8]

(١) إضافة : من كنز الدرر.
(٢) وهو : أحمد بن عبدالدائم بن يوسف بن قاسم، شهاب الدين الشرْمساحي، أبو يوسف، الشاعر، توفى في حدود سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م، الدرر الكامنة ١٧١/١ رقم ٤١١.
(٣) من قصيد : فى الأصل.
(٤) الدين : في الدرر الكامنة ١٧٤/١.
(٥) ما : في كنز الدرر.
(٦) فالحمد: سقط من كنز الدرر ١٩١/٩.
(٧) فنالهم من بعد خوفهم أمن تشاركت فيه أهل البدو والحضر : في كنز الدرر.
(٨) معتطر : في الأصل، والتصويب من كنز الدرر.

فقــل لبيــبرس إن الدهــر[1] ألبــسه أثــواب عاريــة فى طولهــا قــصر

وقــد أتى يــسترد الآن مــا غلطــت بــه عليــه ليــال دأبهــا الغــرر

لمــا تــولى تَــوَلَّى الخــيرُ عــن أمم لم يحمـدوا أمـرَه فـيهم[2] ولا شـكروا

فمــا مــشى للــورى حــال بدولتــه وما[3] استقاموا على الحسنى كما أُمروا

وكيــف تمــشى بــه الأحــوال فى زمــنٍ لا النيـل أوفى [ولا][4] وافى بـه مطـر[5]

وكل خــضراء أمــست وهى يابــسة والـرزق "للمرتجـى تيـسيره"[6] عـسر

هيهــات قــد دهمتــه كل نائبــة لقــدر كل عظــيم عنــدها صــغر

والنــاصر بــن قــلاوون مواكبــه مــازال يــصحبها التأييــد والظفــر

يا أيهــا النــاصر الميمــون طــائره نُـصِرت بالرعـب والأعـداء قـد قُهـروا

فــالله يبقيــك فى خــير وعافيــة فالمــسلمون إلى بُقيــاك تفتقــر

وقال المولى ناصر الدين شافع[7] بن على بن عبدالظاهر من قصيدة أولها:

لك الله فى كل الأمــور معــين وبالــنجح فيهــا كافــل وضمــين

---

(١) إن الله : في الدرر الكامنة.

(٢) أمرهم فيها : فى كنز الدرر، النجوم الزاهرة ١٠/٩، ولم يحمدوا أميرهم : في الدرر الكامنة.

(٣) ولا : في كنز الدرر.

(٤) إضافة من كنز الدرر.

(٥) لا النيل وافي ولا وفاهم مطر : في الدرر الكامنة الكامنة ١٧٤/١ ، النجوم الزاهرة ١٠/٩.

(٦) تيسيره للمرتجى: فى كنز الدرر.

(٧) هو : شافع بن علي بن عباس بن إسماعيل بن عساكر، الكناني، العسقلاني، ثم المصري، الأديب ناصر الدين، سبط الشيخ عبدالظاهر بن نشوان، ولذا عُرف بناصر الدين بن عبدالظاهر، توفى سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م، الدرر الكامنة ٢٨١/٢ رقم ١٩٢٢، المنهل الصافي ١٩٦/٦ رقم ١١٧٢.

فلا غرو إن هانت عليك مصاعب		وصعب ذوى "القصد الجميل"[(١)] يهون
فكن واثقًا بالنصر يا ناصر الورى		ووارث ملك الأرض حيث يكون
[١٩١] بكتك عيون حين وليت مُغرضًا		وقرَّت وقد وافيتهن عيون
ودانت لعلياك الرقاب تدينًا		به يا وحيدًا فى الملوك[(٢)] تدين
تولت أعاديك الهموم فأصبحوا		وجُلَّ مناهم فى الحياة مَنون
وحاروا وجازوا من سُطاك وكلهم		بما كسبوا بالميل عنك[(٣)] رهين
لقد دان عال فى الظنون مهابةً		أبًا[(٤)] الفتح لما أن دَنَوت ودون
أيا ملكًا قد مكن الله ملكه		وأضحى به الحق المبين مبين
ليهن الورى أن عُدْت للملك سالمًا		تُجمله منك العُلا وتزين
أضاءت بك الدنيا وأمست		وربعها بسلطانك العالى الرواق يصون[(٥)]

وفيها بلغ النيل[(٦)].

وفيها: حج بالناس شمس الدين إلْدِكُز السلحدار أميرا على الركب المصرى، ولم يحج أحدا من الشام بسبب التخبيط فى الدولة.

---

(١) القدر الجليل: فى كنز الدرر ١٩٠/٩.
(٢) في الزمان : في كنز الدرر.
(٣) عاد : في كنز الدرر.
(٤) أتى : فى كنز الدرر.
(٥) هذا البيت سقط من كنز الدرر.
(٦) تأخرت الزيادة إلى أن دخل شهر مسرى ... وكان مبلغ الزيادة في هذه السنة ست عشرة ذراعًا وإصبعين : في النجوم الزاهرة ٢٨٢/٨، وينظر بدائع الزهور ١/ق١/٤٢٤ .

ذكر من توفى فيها من الأعيان

• الخطيب ناصر الدين أحمد[(١)] بن الخطيب بدر الدين يحيى بن الشيخ عز الدين بن عبدالسلام، خطيب جامع العقيبة[(٢)].

مات بداره فى دمشق، يوم الأربعاء نصف المحرم، ودفن عند والده بباب الصغير، وباشر بعده ولده بدر الدين [محمد][(٣)] الخطابة.

• قاضى القضاة شرف الدين أبو محمد عبدالغنى[(٤)] بن يحيى بن [محمد بن][(٥)] عبدالله ابن نصر ابن أبى بكر الحرانى الحنبلى.

ولد بحران سنة خمس وأربعين وستمائة، وسمع الحديث،وقدم مصر، فباشر نظر الخزانة وتدريس الصالحية [١٩٢] ثم أضيف إليه القضاء[(٦)]، وكان مشكور السيرة.

توفى ليلة الجمعة الرابع والعشرين[(٧)] من ربيع الأول، ودفن بالقرافة، وولى بعده سعد الدين الحارثى[(٨)].

---

(١) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٤١١/٣ رقم ٩٩٨، الوافى بالوفيات ٢٥١/٨ رقم ٣٦٩١، البداية والنهاية ٩٨/١٨، الدرر الكامنة ٣٥٢/١ رقم ٧٢٧،.

(٢) جامع العقيبة بدمشق: ينظر الدارس ٤٢٨/٢.

(٣) إضافة للتوضيح من تاريخ البرزالى.

(٤) وله أيضًا ترجمة فى : تاريخ البرزالي ٤١٦/٣ رقم ١٠٠٥، الوافى بالوفيات ٣٥/١٩ رقم ٢٨، أعيان العصر ١١٣/٣ رقم ١٠٠٥، تذكرة النبيه ٢٧/٢، الدرر الكامنة ٤٩٨/٢ رقم ٢٤٦٣، النجوم الزاهرة ٨/ ٢٧٨ ، المنهل الصافى ٣١٨/٧ رقم ١٤٥٥.

(٥) إضافة من البداية والنهاية.

(٦) تولى قضاء الحنابلة بمصر يوم السبت سادس عشر ربيع الأول سنة ست وتسعين وستمائة : في أعيان العصر ١١٤/٣.

(٧) رابع عشر: فى تاريخ البرزالى، والبداية والنهاية.

(٨) هو: مسعود بن أحمد بن مسعود بن زياد الحارثى، المتوفى سنة ٧١١هـ/١٣١١م، ينظر ما يلى.

• الشيخ نجم الدين أيوب[1] بن سليمان بن مظفر المصرى، المعروف بمؤذن النجيبى[2].

كان رئيس المؤذنين[3] بجامع دمشق، ونقيب الخطباء، وكان حسن الشكل، رفيع الصوت، استمر فى ذلك نحوًا من خمسين سنة إلى أن توفى مستهل جمادى الأولى، ودفن بسفح قاسيون، ومولده سنة عشرين وستمائة.

• الشيخ شهاب الدين أحمد[4] بن محمد بن أبى المكارم بن نصر بن الأصفهانى، رئيس المؤذنين بالجامع.

ولد سنة ثلاثين[5] وستمائة، وسمع الحديث، وباشر وظيفة الآذان من سنة خمس وأربعين إلى أن توفى ليلة الثلاثاء خامس ذى القعدة، ودفن بباب الصغير، رحمه الله.

• الشيخ العارف تاج الدين أبوالفضل أحمد[6] بن محمد بن عبدالكريم بن عطاء السكندرى المالكى، الصوفى، الواعظ المُذَكِّر.

كان رجلاً صالحًا فاضلاً، يتكلم على الناس ـ على كرسى ـ بكلام حسن، وله ذوق

---

(١) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٤١٨/٣ رقم ١٠١٢، الوافى بالوفيات ٤٧/١٠ رقم ٤٤٨٧، أعيان العصر ٦٧٣/١ رقم ٣٨١، البداية والنهاية ٩٩/١٨، الدرر الكامنة ٤٦٣/١ رقم ١١٣٩، المنهل الصافى ٢٢٦/٣ رقم ٦٣٢.

(٢) نسبة إلى المدرسة النجيبية بدمشق: ينظر خطط الشام ٨٦/٦، الدارس ٤٦٨/١.

(٣) بالجامع، ولد سنة ثلاثين وستمائة، وسمع الحديث وباشر: فى الأصل ومشطوب عليها، وهى سبق نظر من الناسخ، ينظر ما يلي.

(٤) وله أيضًا ترجمة: فى تاريخ البرزالى ٤٤٦/٣ رقم ١٠٦٩، البداية والنهاية ١٠٠/١٨.

(٥) اثنتين : فى البداية والنهاية.

(٦) وله أيضًا: ترجمة فى تاريخ البرزالى ٤٢٥/٣ رقم ١٠٢٩، نهاية الأرب ١٦٠/٣٢، كنز الدرر ٢٠٦/٩، الوافى بالوفيات ٥٧/٨ رقم ٣٤٧١، أعيان العصر ٣٤٥/١ رقم ١٧٧، الدرر الكامنة ٢٩٠/١ رقم ٧٠٠، النجوم الزاهرة ٨/ ٢٨٠ ، المنهل الصافى ١٢٠/٢ رقم ٢٧٥.

ومعرفة بكلام أرباب الطريق والسلف، وله فى ذلك اليد الطولى، وله مصنفات[(١)] ونظم ونثر كثير.

مات بالقاهرة فى[(٢)] جمادى الأخرى، ودفن بالقرافة، وكانت جنازته حفلة، حضرها جمع كثير.

ومن نظمه:

[١٩٣] أيا صاح إن الركب قد سار مسرعًا ... ونحـن قعـود مـا الذى أنـت صـانع
أتـرضى بـأن يبقـى المخلـف بعـدهم ... صريـع الأمـانى والغـرام ينـازع
وهـذا لـسان الكـون ينطـق جهـرة ... بـأن جميـع الكائنـات قواطـع
فقـم وانظـر الأكـوان فـالنور غَمرهـا ... ففجـر التـدانى نحـوك اليـوم طـالع
وكـن عبـده والـق القيـاد لحكمـه ... وإياك تـدبير فمـا هـو نافـع
أتحـكم تـدبيرًا وغـيرك حـاكم ... أأنـت لأحـكام الإله تنـازع
عـلى نفـسه فليبـك مـن كان طالبًـا ... أو مـا لمعـت ممـن يحـب ملامـع
عـلى نفـسه فليبـك مـن كان باكيًـا ... أيـذهب وقـت وهـو باللهـو ضـائع

---

(١) ينظر هدية العارفين ١٠٣/١.

(٢) في حادي عشر : في أعيان العصر ٣٦/١.

• القاضى عز الدين عبدالعزيز[(١)] بن القاضى شرف الدين محمد بن فتح الدين عبدالله ابن محمد بن أحمد بن خالد القيسرانى، أحد كتاب الدرج، والمدرس بالفخرية[(٢)].

مات فى الثامن من صفر[(٣)] [١٩٤] بالقاهرة، ودفن عند والده بالقرافة.

كان من أعيان الموقعين، هو وأبوه وجده، ومات وله دون الأربعين سنة، واشتغل بالفقه، وسمع الحديث، وكان مشكور السيرة، قاضيًا لحوائج الناس، وله نظم ونثر.

ومن نظمه ما كتبه إلى الشيخ إبراهيم بن الرفاعى، عند توجهه من الديار المصرية إلى العراق، وذلك فى شهور سنة أربع وتسعين وستمائة، وهو:

إن فرق الدهر ما بينى وبينكم ... بالرغم منى فقلبى معكم سارى
وإن ترحلتم عنى فذكركم أُنسى ... وكل أحاديثى وأسمارى
وما تذكرت أوقاتى بقربكم ... إلا وغَرَّق طرفى مدمعى الجارى
والصبر قد غاض والأشواق فائضة ... وقد أراق فؤادى حرَّ أفكارى
فارحم، فديتك، عبدًا مِنْ تحرقه ... عليكم صارفى وهج من النار
وسر على خيرة الرحمن فى دعة ... بحيث سرت فأنت الكوكب السارى

---

(١) وله أيضًا ترجمة فى : تاريخ البرزالى ٤١٤/٣ رقم ١٠٠٣، نهاية الأرب ١٦٠/٣٢، أعيان العصر ١٠٣/٣ رقم ٩٩١، تذكرة النبيه ٢٥/٢، الدرر الكامنة ٤٩٢/٢ رقم ٢٤٤٧، النجوم الزاهرة ٨/ ٢٨٠، المنهل الصافي ٢٨٥/٧ رقم ١٤٣٧.

(٢) المدرسة الفخرية بالقاهرة : فيا بين سويقة الصاحب ودرب العداس، أنشأها الأمير فخر الدين عثمان بن قزل أستاذ دار الملك الكامل محمد، سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م، ينظر المواعظ والاعتبار المجلد الرابع ٤٦٦.

(٣) فى يوم الخميس العاشر من صفر: في تاريخ البرزالى.

وكتب فى صدر كتاب:

[١٩٥] فلو أن لى وقتًا أبث صبابتى　　وشـوقى إلى رؤياك كنـت بثثتـه
ولكن يضيق الوقت والطرس دون أن　　أبـثَّ غرامًـا فى هـواك ورثتـه

وكتب أيضًا جواب كتاب:

جـاء الكتـاب ومِـنْ سـواد مـداده　　مـسكٌ ومـن قرطاسـه الأنـوارُ
فتـشرف الـوادى بـه وتعطـرت　　أرجـاؤه وأنارت الأقطـارُ[1]

وقال: وقد قصد بعض بنى الدنيا فى حاجة وعَلَّق آماله به فلم ينجح، فتحقق أن سبب الحرمان تعلق آماله بغير الله تعالى، فعمل هذه الأبيات، فقُضيت حاجته من غير مسألة:

مـن طلـب الحاجـات[2] مـن عنـد　　مـن يطعمـه الله ويـسقيه
يكـون قـد ضَلَّ عـن[3] سـبيل الهدى　　وحـاد عـن نيـل أمانيـه
لأن مـن يعجـز عـن نفـسه يعجـز　　عـن أرزاق راجيـه
فاطلـب مـن الله وكـن واثقًـا　　بالله فى أمـرك يكفيـه
وقطـع الأطـماع مـن غـيره　　واسـأله مهـما شـئت يقـضيه
شـتان مـا بـين فـتى حـائر　　فى رزقـه مـن أيـن يأتيـه

(١) ينظر النجوم الزاهرة ٢٨١/٨.
(٢) الأرزاق : في أعيان العصر ١٠٤/٣، الدرر الكامنة ٤٩٣/٢.
(٣) عن : سقط من أعيان العصر، الدرر الكامنة.

وبـــين رب قـــادر قـــاهر يقـــول كـــن فى الأمـــر يمـــضيه

وهـــو إذا أعطـــى فـــلا مـــانع مَـــنْ ذا الذى يمنـــع معطيـــه

● بهاء الدين عبدالله[١] بن الصدر نجم الدين أحمد بن على بن المظفر، [١٩٦] المعروف بابن الحلى، ناظر ديوان الجيش المنصور.

مات فى هذه السنة[٢]، واستقر عوضه القاضى فخر الدين[٣] صاحب [ديوان الجيش][٤]، رحمه الله.

● الشيخ العلامة أبوالفتح محمد[٥] بن الشيخ أبى الفضل بن أبى على الحنبلى البعلبكى، النحوى.

مات بالقاهرة[٦] بالمدرسة المنصورية، ودفن بمقبرة الحافظ عبدالغنى القدسى بالقرافة.

وكان قد حضر من دمشق إلى القدس، ثم توجه من القدس إلى القاهرة، فأقام بها أيام قلائل ومات.

وكان عالمًا مفتيًا محدثًا، وله يد طولى فى النحو، وله تصانيف[٧] منها: شرح

---

(١) وله أيضًا ترجمة فى: كنز الدرر ٢٠٥/٩، تاريخ البرزالى ٤٤٤/٣ رقم ١٠٦٣، أعيان العصر ٦٥٧/٢ رقم ٨٥٨، المقفى الكبير ٤٥٠/٤ رقم ١٥١٧، الدرر الكامنة ٢٤٥/٢ رقم ٢١١٤، النجوم الزاهرة ٢٨١/٨.

(٢) ليلة الجمعة عاشر شوال : في تاريخ البرزالى ٤٤٤/١، أعيان العصر.

(٣) هو : محمد بن فضل الله، القاضي الرئيس فخر الدين ناظر الجيوش بالديار المصرية، توفى سنة ٧٣٢هـ/١٣٣١م، ينظر السلوك ٣٥٤/٢، الوافي بالوفيات ٣٣٥/٤ رقم ١٨٩٠، الدرر الكامنة ٢٥٥/٤ رقم ٤٢٢٥، المنهل الصافي ٢٦٣/١٠ رقم ٢٣٢٢.

(٤) الديوان : في الأصل، والتصويب والإضافة من النجوم الزاهرة ٢٨١/٨ للتوضيح، وورح : كاتب المماليك : في أعيان العصر.

(٥) وله أيضًا ترجمة فى : تاريخ البرزالى ٤١٢/٣ رقم ١٠٠٠، السلوك ٨٤/٢ وفيه : ابن أبي الفتح البعلبكي، وينظر أيضًا تذكرة النبيه ٢١/٢، بغية الوعاة ٢٠٧/١ رقم ٣٦٥.

(٦) ليلة السبت.. المسفر صباحها عن ثامن عشر المحرم: فى تاريخ البرزالى ٤١٢/١.

(٧) ينظر هدية العارفين ١٤١/٢.

الجرجانية للشيخ عبدالقاهر[(١)] وغيره، ومولده فى سنة خمس وأربعين وستمائة، وموته فى ثامن عشر المحرم.

● **الشيخ الصالح موفق الدين يوسف[(٢)] الخلخالى، إمام الخانقاه السميساطية[(٣)].**

مات فى الثامن والعشرين من جمادى الأولى، ودفن بمقابر الصوفية، وقد قارب الثمانين.

وكان رجلاً صالحًا حسن الطريقة، تصدق بجميع ما يملكه، ووهب ثيابه.

● **القاضى نبيه الدين الحسن[(٤)] بن نصر الأسعردى[(٥)]، محتسب القاهرة.**

مات فى هذه السنة[(٦)]، وكان قد ولى نظر الدواوين[(٧)] لما تولى ضياء الدين النشائى الوزارة.

● **التاج[(٨)] بن سعيد الدولة، مشير الدولة.**

مات فى هذه السنة، وكانت له مكانة عند المظفر.

---

(١) هو عبدالقاهر بن عبدالرحمن الجرجاني، الأديب النحوي، المتوفى سنة ٤٧٤هـ/١٠٨١م، والجرجانية هي : جمل في النحو، ينظر هدية العارفين ٦٠٦/١.

(٢) وله أيضاً ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٤٢١/٣ رقم ١٠١٩.

(٣) الخانقاه السميساطية بدمشق: نسبة للسميساطى أبى القاسم على بن محمد بن يحيى السلمى الحبشى، من أكابر الرؤساء بدمشق والذى توفى سنة ٤٥٣هـ/١٠٦١م بدمشق ودفن بداره بباب الناطفانيين التى وقفها على فقراء الصوفية، ينظر الدارس ١٥١/٢.

(٤) وله أيضًا ترجمة فى : تاريخ البرزالى ٤٢٣/٣ رقم ١٠٢٣، نهاية الأرب ١٦٠/٣٢، أعيان العصر ٢٥٥/٢ رقم ٥٨٧، الدرر الكامنة ١٣٣/٢ رقم ١٥٧٣، السلوك ٨٤/٢ ، وفيه : حسن بن حسين بن جبريل بن نصر الأنصارى الإسعردى .

(٥) الأسعدي : في أعيان العصر.

(٦) فى مستهل جمادى الآخرة: فى تاريخ البرزالى ٤٢٣/٣، وورد : سنة ٧١٠هـ : في الدرر الكامنة.

(٧) الديوان الدواوين: فى الأصل، ومشطوب على كلمة الديوان، وورد : نظر الدولة : فى السلوك ٨٤/٢ .

(٨) وله أيضًا ترجمة فى : تاريخ البرزالى ٤٢٨/٣ رقم ١٠٣٠، كنز الدرر ٢٠٦/٩، البداية والنهاية ٩٩/١٨، تذكرة النبيه ٢٧/٢، وفيه : تاج الدين أحمد بن سعيد الدولة، السلوك ٨٥/٢، الدرر الكامنة ٥٠/٢ رقم ١٤٠٢.

عرضت عليه الوزارة فامتنع والتجأ إلى زاوية الشيخ نصر[١] المنبجى.

وكانت له حرمة أكثر من حرمة الوزير، [١٩٧] وكلمته أنفذ من كلمته، وكان لا يقبل لأحد هدية، ولا يخالط أحدًا، وولى مكانة ابن أخيه[٢] كريم الدين عبدالكريم[٣] ابن العلم هبة الله ابن السديد.

● **شهاب الدين أحمد[٤] بن عبد الله بن جبريل، الموقع.**

مات فى هذه السنة[٥]، ودفن بالقرافة.

وكان يسكن بحارة زويلة، وكان كاتب درج من الدولة المعزية، وهو والد صلاح الدين بن عبيدالله، وكان قد أضر ولزم بيته، وله نظم حسن فمنه:

كلفى بمعسول المراشف قد حمى ... مغسول ريقته بقد غاسل

نشوان من خمر الدلال فقد ... غصن وقد هاجت عليه بلابلى

ويهزه مرح الشباب فينثنى ... فيها كمثل الشارب المتمايل

مذجن فيه العاشقون صَبابة ... قد قُيدوا من شعره بسلاسل

● **الشهاب غازى[٦] بن عبدالرحمن بن محمد، الكاتب المجود.**

---

(١) زاوية الشيخ نصر : خارج باب النصر من القاهرة، أنشأها الشيخ نصر بن سليمان أبو الفتح المنبجي، الناسك، المتوفى سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م، المواعظ والاعتبار المجلد الرابع ٨١٠-٨١١.

(٢) أخته : فى البداية والنهاية.

(٣) هو: عبدالكريم بن هبة الله بن السديد، المعروف بكريم الدين الكبير، والمتوفى سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣م، الدرر الكامنة ١٥/٣ رقم ٢٤٩١، المنهل الصافى ٣٤٥/٧ رقم ١٤٧٥.

(٤) وله أيضا ترجمة فى : تاريخ البرزالى ٤٤٠/٣ رقم ١٠٥٨، أعيان العصر ٢٨٢/١ رقم ١٣٧.

(٥) سحر يوم الثلاثاء الثالث والعشرين من رمضان : فى تاريخ البرزالى.

(٦) وله أيضًا ترجمة فى : تاريخ البرزالى ٤٤٣/٣ رقم ١٠٦١، أعيان النصر ٢٠/٤ رقم ١٣٢٨، الدرر الكامنة ٢٩٥/٣ رقم ٣١٣٧.

مات[١] بالعزيزية،ودفن بباب الفراديس، وقد جاوز الثمانين.

كتب بالعزيزية نحو خمسين سنة، وكان قد كتب على الجمال بن النجار[٢] الكاتب، وانتفع به أهل دمشق، وكتب عليه أولاد الرؤساء.

● **الشيخ الصالح أحمد[٣] بن عبدالله الجوالقى.**

[١٩٨] مات[٤] بزاويته بسفح قاسيون بقرب الرباط الناصرى، ودفن بزاويته، وكان قد جاوز المائة.

وكان يحلق ذقنه، فاستتابه الشيخ شمس الدين[٥] شيخ الجبل فى سنة إحدى وخسين وستمائة حين حج معه فى تلك السنة.

● **الشيخ نجم الدين أبوعبدالله محمد[٦] بن محمد بن العنبرى، الواعظ المشهور.**

مات بالقاهرة[٧]، ودفن خارج باب النصر.

اشتغل بالوعظ على الشيخ عز الدين بن غانم المقدسى، وفاق أهل زمانه، وكان حسن الصوت، ويحفظ أشياء مليحة.

---

(١) ليلة الثلاثاء رابع عشر شوال: فى تاريخ البرزالى.

(٢) هو : إبراهيم بن سليمان بن حمزة القرشي الدمشقي جمال الدين بن النجار المتوفى سنة ٦٥١هـ/١٢٥٣م، الوافي بالوفيات ٢٥٦/٥ رقم ٢٤٣٦، عقد الجمان ٨٢/١، المنهل الصافي ٦٥/١ رقم ٢٩.

(٣) وله أيضًا ترجمة فى : تاريخ البرزالى ٤٤٧/٣ رقم ١٠٧٠،

(٤) ليلة السبت تاسع ذى القعدة: فى تاريخ البرزالى.

(٥) الشيخ جلال الدين عبدالرحمن: فى تاريخ البرزالى.

(٦) وله أيضًا ترجمة فى : تاريخ البرزالى ٤٣١/٣ رقم ١٠٤٣.

(٧) يوم الخميس سادس شعبان: فى تاريخ البرزالى.

• **الأديب إبراهيم[(١)] بن على بن خليل الحرانى، المعروف بعين بصل.**

كان شيخًا حائكًا، أناف على الثمانين، وكان عاميًا مطبوعًا.

قصده قاضى القضاة شمس الدين ابن خلكان واستنشده من شعره، قال: أما القديم فلا يليق، وأما نظم الوقت الحاضر فنعم، فأنشده:

وما كل وقت فيه يسمح خاطرى بنظم قريض رائق[(٢)] اللفظ والمعنى
وهل يقتضى الشرع[الشريف][(٣)] تيممًا بترب وهذا البحر يا صاحبى معنا

ويروى أن ابن خلكان، قال له: إذ ذاك: أنت عين بصر لا عين بصل.

وله لغز فى الشبكة والسمك :

كم كبسنا بيتًا لكى نمسك السـ ـكان منه فى سائر الأوقات
فمسكنا السكان وانهزم البيـ ـت لدينا خوفًا من الطاقات

وله أيضًا:

جسمى[(٤)] بسقم جفونه قد أسقما ريم بسهم لحاظه قلبى رمى
كالرمح معتدل القوام مهفهف مر الجفا لكنه حلو اللمى

(١) وله أيضًا ترجمة فى : الوافى بالوفيات ٧٠/٦ رقم ٢٥١٠، أعيان العصر ٩٣/١ رقم ٣٤، فوات الوفيات ٣٥/١ رقم ١٠، تذكرة النبيه ٢٣/٢، الدرر الكامنة ٤٥/١ رقم ١١١، النجوم الزاهرة ٨/ ٢٨١ ، المنهل الصافى ١٢٠/١ رقم ٥٥.
(٢) فائق : في أعيان العصر.
(٣) إضافة من أعيان العصر ، النجوم الزاهرة ٨/ ٢٨٢ .
(٤) جفنى: فى المنهل الصافى ١٢١/١.

رشــأ أحــلّ دمى الحــرام وقــد رأى   فى شرعــه وصــل [1] الحــلال محرمًــا
عــن ورد وجنتــه وآس [2] عــذاره   وبسيف نرجس طرفه الساجى حما
عاتبتــه فقــسا، وفيــت فخــانني   قربتــه فنــأى، بكيــت تبــسمًا
حكمتــه فى مهجــتى [3] وحــشاشتى   فجنى [4] وصــال عَـلَىَّ حــين تحكـما
يا ذا الذى فــاق الغــصون بقــده   وســما بطلعتــه عــلى قمــر الـسما
رفقًــا بمــن لــولا جــمالك لم يكــن   خلــف الــصبابة والغــرام متــيما
أنــسيت أيامًــا مــضت ولياليــا   ســلفت وعــشنا بالــصريم تــصرما
[٢٠٠] إذ نحن لا نخشى الرقيب ولا نخف   صرف الزمــان ولا نطيــع اللومــا
والعــيش غــض والحواســد نُــوَّم   عنا وعين البين قد كحلت عَمى
فى روضــة أبــدت تغــور زهورهــا   لمــا بــكى فيهــا الغــمام تبــسما
مــد الربيــع عــلى الخمائــل نــوره   فيهــا فأصــبح كالخيــام مخــيَّما
يبــدو الأقــاحى مثــل ثغــر مفهــف   أضحــى المحــب بــه كئيبًــا مغرمًــا
وعيــون نرجــسها كــأعين غــادة   ترنــو فــترمى باللــواحظ [5] أســهما
والطــير يــصدح فى فــروع غــصونها   سحــرًا فيــوقظ بالهــديل النُّومــا

(١) الوصل: فى أعيان العصر ١/٩٥، المنهل الصافى.
(٢) بآسى: فى الوافى بالوفيات.
(٣) مجهتى: فى الأصل، وهو تصحيف.
(٤) فجفا: فى المنهل الصافى.
(٥) باللحواحظ : في الأصل، وهو تصحيف.

والــــراح فى راح الحبيـــب يـــديرها		فى فتيـــة نظــروا المــسرة مغنَمــا
فَــسُقَاتنا تحــكى البــدور وراحُتَـــا		تحكى الشموس ونحن نحكى الأنجمَا[1]

وقال فى مليح ألثغ :

[٢٠١] يقول وقد كررت تقبيل ثغره		بلثغتـــه بُـــثى أخـــذتَ منـــافثى
ثكــــرت بحــــثرة الخنـــدريث		وكأثنا المحث وثكرى قد أثار وثاوثى

وقال أيضًا :

عــن نــد نكهتــه وخمــرة سلــسله		نقــل الــصبا خــبر العبــير مسلــسلة
قمــر له الطــرف المــسهد ناقــل		لكــن له قلــبى المعــذب مــنزله
وسـنان وسـنان الجفون من الكرى		فى سمهــرى قوامـــه مـــا أعـــدله
ما سل سيف الفنج من لحظاته		إلا وأغمــدت فى حــشاى منــصله
إن مـــــاس أزرى بالقـــــضيب		وإن بدا للبدر فى ليل الغلائل أخجله
كالمــشترى لــونا ولكــن وصــفه		كعطـــارد وذؤابتـــاه ســـنبله
مستكمل الإيضاح من لمع الهوى		ومحـصل [الأخبـار][2] عنـدى مجمـله
لا تسألن سواى عن طرق الهوى		فعــلى أهــل العــشق فيــه معــوله
[٢٠٢]قال العذول وقد شغفت بحبه		عجبًــا لمــن كــأس المنــون يــذله
أنا قد رضيت بأن أموت صبابة		هــذا العــذول علــيكم مــالى وله

(١) ينظر الوافى بالوفيات ٦/٧٠- ٧٢، أعيان العصر ١/٩٥-٩٦.
(٢) الأخبا : فى الأصل.

● مخلص[١] الرومى.

مات بقوص، وكان قد سير رسولاً إلى اليمن وعاد من عند صاحب اليمن، فلما وصل إلى مدينة قوص مات ودفن بها.

● الأمير عز الدين أيبك[٢] الخازندار المنصورى.

كان من أكابر الأمراء المنصورية الأقدمين، توفى فيها بمصر، وانتقل خبزه إلى الأمير بيبرس الدوادار صاحب التاريخ.

قال بيبرس فى تاريخه: فرأيت من الموافاة وحفظ العهد بعد الوفاة البر بولده، فنزلت له من العدة عن عشرة طواشية، فكُتبَ له بها، واستقرت باسمه [٣].

● الأمير سيف الدين طغريل[٤] الإيغانى السلحدار، أحد المقدمين بالديار المصرية، مات فيها[٥].

● الأمير علاء الدين على[٦] بن الأمير معين الدين سليمان البرواناه، نائب دار العدل الشريف.

مات فى هذه السنة، واعترف بأن له ولدًا ذكرًا مقيمًا بقلعة سنوب ببلد الروم اسمه مسعود، وكانت وقد وصلت أخته من البلاد لتشاهده قبل الوفاة، فوصلت وشاهدته ميتًا.

---

(١) مخلص : مكتوبة فوق "وله"، فى الأصل ، ولم نعثر له على ترجمة فى المصادر المتداولة .

(٢) وله أيضًا ترجمة فى: كنز الدرر ٢٠٥/٩، المقفى الكبير ٣٢٧/٢ رقم ٨٦٢، السلوك ٨٤/٢، الدرر الكامنة ٤٥٢/١ رقم ١١١٠، النجوم الزاهرة ٢٧٩/٨.

(٣) لم يرد هذا النص فى المطبوع في كل من زبدة الفكرة، والتحفة الملوكية.

(٤) وله أيضًا ترجمة في : السلوك ٨٤/٢ ، النجوم الزاهرة ٨/ ٢٧٨ .

(٥) فى عاشر رمضان: فى السلوك.

(٦) وله أيضا ترجمة فى: الدرر الكامنة ١٢٣/٣ رقم ٢٧٤٦، المنهل الصافى ٨٠/٨ رقم ١٥٨٩.

● الأمير الكبير [٢٠٣] شمس الدين سنقر[١] الأعسر المنصورى.

مات فى جمادى الأولى منها، وكان قد ولى الوزارة بمصر مع شد الدواوين، وباشر الشد بالشام مرات، وله دار وبستان [بدمشق][٢] مشهوران به، مات بمصر، ودفن بتربته خارج باب النصر.

وأصله مملوك الأمير [عز الدين][٣] أيدمر الظاهرى نائب دمشق وكان دواداره، فلما مسك أستاذه توصل إلى الأمير حسام الدين طرنطاى وخدمه، فأوصله إلى الملك المنصور، فاشتراه من أستاذه وهو فى الحبس، وجعله نائب أستاذ الدار، فنهض فى ذلك وقام به أتم قيام، ثم تولى شد الدواوين، عوضًا عن الأمير علم الدين سنجر الدوادارى، وأعطى إمرة وبسط يده، ولم يجعل لنائب دمشق عليه حكم، واستمر مدة أيام المنصور.

فلما تولى الأشرف نكبه، فتوصل وتزوج بابنة الوزير شمس الدين بن سلعوس، فأصلح حاله مع الأشرف وأعاده إلى الشد، وبقى إلى آخر دولة العادل كتبغا، فعزله عند سفره إلى الديار المصرية واستصحبه معه، فوافق المنصور لاجين على كتبغا، فلما تم الأمر للاجين استوزره، ثم قبض عليه وحبسه، فلما قتل لاجين أخرج من محبسه وأعيد إلى الوزارة، فلم يزل فيها إلى سنة إحدى وسبعمائة، فعزل عن الوزارة بالأمير عز الدين [أيبك][٤] البغدادى، ثم استقر مقدم [٢٠٤] ألف.

---

(١) وله أيضا ترجمة فى تاريخ البرزالى ٤١٩/٣ رقم ١٠١٥، نهاية الأرب ١٦٢/٣٢، البداية والنهاية ٩٩/١٨، الوافي بالوفيات ٤٩٧/١٥ رقم ٦٥٩ ، أعيان العصر ٤٧٨/٢ رقم ٧١٥، تذكرة النبيه ٢٤/٢، السلوك ٢/ ٨٤ ، الدرر الكامنة ٢٧٣/٢ رقم ١٩٠٥، النجوم الزاهرة ٨/ ٢٧٨ ، المنهل الصافى٩٦/٦ رقم ١١٢٤.

(٢) إضافة من البداية والنهاية للتوضيح.

(٣) شمس الدين : في الأصل، والتصويب من أعيان العصر ٤٧٨/٢، وتوفى الأمير عز الدين سنة ٧٠٠هـ/١٣٠٠م، ينظر ما سبق بعقد الجمان ١٥٤/٤.

(٤) إضافة من أعيان العصر للتوضيح.

وكان خبيرًا بالأمور، مهيبًا، ذا سطوة وهمة عالية، وكرم زائد، أوقف ببعلبك قرية للصدقات، وكان كثير الصدقة.

• **الأمير جمال الدين أقوش[١] بن عبدالله الرستمى، شاد الدواوين بدمشق.**

وولى قبل ذلك ولاية الولاة بالصقعة [٢] القبلية، بعد الشريفى، و كانت له سطوة عظيمة.

توفى يوم الأحد الثانى[٣] والعشرين من جمادى الأولى، ودفن فى القبة التى بناها تجاه قبة الشيخ رسلان، وباشر بعده أقجبا[٤] المنصورى شادا.

وفى بعض التواريخ: وكان صاحب سطوة، قيل: إنه شنق حمارًا دخل فى زرع، وشنق ثلاثة من العرب على رغيف خبز، وكان شيخًا كبيرًا.

• **الأمير شرف الدين قيران [٥] بن عبدالله المنصورى، مشد الدواوين بدمشق.**

مات فى هذه السنة [٦] ودفن بسفح قاسيون.

وكان قد نكب بعد أن تولى الشد بدمشق، وجُعل أميرًا بحلب، ثم قُطع خبزه، وقدم دمشق، وكان عزمه التوجه إلى مصر، فأدركه أجله، فمات، رحمه الله.

---

(١) وله أيضًا ترجمة فى : تاريخ البرزالى ٤٢١/٣ رقم ١٠٢١، البداية والنهاية ٩٩/١٨، أعيان العصر ٤٧٤/١ رقم ٣٠٩، السلوك ٢/ ٨٥ ، الدرر الكامنة ٤٢٦/١ رقم ١٠٢٦، وفيه آقش الرسيمى.

(٢) بالصفقة: فى البداية والنهاية.

(٣) الثامن: فى تاريخ البرزالى، وأعيان العصر.

(٤) آقبجا المنصوري، شاد الدواوين بدمشق، ثم تنقل في النيابات، توفى سنة ٧١٠هـ/١٣١٠م، الدرر الكامنة ٤٢١/١ رقم ١٠١٢، وينظر ما يلي.

(٥) وله أيضًا ترجمة فى : تاريخ البرزالى ٤١٧/٣ رقم ١٠٠٦، نهاية الأرب ١٦٣/٣٢، أعيان العصر ١٤١/٤ رقم ١٣٩٠، الدرر الكامنة ٣٤٤/٣ رقم ٣٢٨٤، السلوك ٨٥/٢.

(٦) يوم الجمعة السابع والعشرين من شهر ربيع الآخر: فى تاريخ البرزالى.

• **الأمير جمال الدين أقوش [١] الرومى.**

كان قد جرده المظفر لحفظ الطرقات، فقتله مماليكه بالنشاب، وقد ذكرناه مفصلاً.

• **الأمير سيف الدين مقبل [٢] بن جماز بن شيحه، صاحب المدينة النبوية.**

قتل فيها فى وقعة حرب بينه وبين كبيشه[٣] ابن أخيه منصور[٤]، واستقر منصور عوضه، وحضر برجس بن [٢٠٥] مقبل إلى الأبواب الشريفة مستصرخًا، فأرضى ببعض إقطاع أبيه، ورسم له باجتناب [النزاع][٥] وأن يقيم بالشام إخمادًا للفتنة.

• **الأمير أبويزيد[٦] بن خربندا.**

توفى فيها، فإن خربندا ولد له ولدان فسماهما بأسماء المشايخ لدخوله فى الإسلام، سمى الواحد أبا يزيد والآخر بسطام.

• **الأمير إيل بصار[٧] بن [طقطاي][٨] بن منكوتمر.**

توفى فيها حتف أنفه، وكن مرشحًا عند أبيه لتقدمة العساكر وتدبير الحروب وممارسة القتال، فالموت نقض ذلك كله.

---

(١) وله أيضًا ترجمة فى : تاريخ البرزالى ٤٣٩/٣ رقم ١٠٥١، نهاية الأرب ١٤٨/٣٢، السلوك ٦٣/٢-٦٤، المقفى الكبير ٢٣١/٢ رقم ٨٠٣، الدرر الكامنة ٤٢٦/١ رقم ١٠٢٧، النجوم الزاهرة ٢٦١/٨.

(٢) وله أيضًا ترجمة فى : الدرر الكامنة ١٢٥/٥ رقم ٤٨٣٢، المنهل الصافى ٢٦١/١١ رقم ٢٥٣٢.

(٣) هو: كبيش بن منصور بن جماز، الأمير بدر الدين، المتوفى سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م، الدرر ٣٤٨/٣ رقم ٣٣٠٠.

(٤) هو: منصور بن جماز بن شيحة، الشريف ناصر الدين، المتوفى سنة ٧٢٥هـ/١٣٢٤، تذكرة النبيه ١٥٩/٢، المنهل الصافى ٢٨١/١١ رقم ٢٥٤٧.

(٥) الفراغ : فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٦) وله أيضًا ترجمة فى: التحفة الملوكية ٢١٣، المنهل الصافى ٣٦١/١٢ رقم ٢٨٢٢.

(٧) وله أيضًا ترجمة فى: التحفة الملوكية ٢١٣.

(٨) طقطا : في الأصل، والتصويب مما سبق.

- السلطان محمد[١] بن يحيى ـ الواثق المخلوع ـ ابن محمد المستعين ابن الأمير أبى زكريا ابن عبدالواحد، صاحب تونس.

توفى فيها[٢]، وتولى بعده أبوبكر بن عبدالرحمن ، ابن عمه، وكان معوقًا بتونس محجوبًا، لا يمكنه التصرف فى نفسه، لأن محمد بن يحيى المذكور كان يتخيل أن له ميلاً إلى السلطنة، فلما مات أخرجه أصحاب محمد من المكان الذى كان فيه وأجلسوه فى الملك بتونس.

وكان أبو البقاء خالد بن يحيى بن إبراهيم بن يحيى بن هبة الله، ابن عم محمد [فى][٣] بجاية، وقد سار منها طالبًا تونس، فلما بلغه وفاة محمد بن يحيى المذكور سار مجدًا ودخل تونس، فوجد أبابكر قد جلس وله ثمانية عشر يومًا منذ جلس، فقتله[٤]، واستقر فى مملكة تونس أبوالبقا خالد[٥] المذكور فى ربيع [الآخر][٦] منها.

- الأمير برلك[٧] [٢٠٦] أخو الملك [طقطاي][٨].

مات فى هذه السنة.

---

(١) وله أيضًا ترجمة فى: الوافى بالوفيات ٢٠٤/٥ رقم ٢٢٦٥، السلوك ٨٥/٢ ، الدرر الكامنة ٥٦/٥ رقم ٤٦٦٦، النجوم الزاهرة ٨/ ٢٧٩ ، المنهل الصافى ١٤٠/١١ رقم ٢٤٤١، تاريخ الدولتين ٥٨، المؤنس ١٤١، الحلل السندسية ١٠٤٢/١.

(٢) فى عاشر ربيع الآخر: فى المؤنس ١٤١، السلوك، ٨٥/٢.

(٣) من : فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٤) قتل فى السابع والعشرين من ربيع الآخر سنة ٧٠٩هـ: ينظر تاريخ الدولتين ٥٩، المؤنس ١٤٢، الحلل السندسية ١٠٤٧/١.

(٥) توفى بتونس قتيلاً سنة ٧١١هـ: ينظر تاريخ الدولتين ٦١.

(٦) الأول: فى الأصل، والتصويب من تاريخ الدولتين ٦٠، ويتفق مع تسلسل الأحداث.

(٧) وله أيضًا ترجمة في : التحفة الملوكية ٢١٣.

(٨) طقطا : في الأصل، والتصويب مما سبق.

● الأمير سيف الدين أبوبكر[١] بن أحمد بن [برق][٢] الشُّنبسى الدمشقى.

مات فيها[٣]، ودفن بقاسيون، وكان من أبناء الثمانين، وولى عدة ولايات، وكان أمينًا، وكان أمير عشرة.

(١) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٤٣١/٣ رقم ١٠٤٢، أعيان العصر ٧٢٨/١ رقم ٤٢٤، الدرر الكامنة ٤٦٧/١ رقم ١١٥٤.

(٢) مرى : فى الأصل، والتصويب من مصادر الترجمة.

(٣) ليلة الثلاثاء رابع شعبان: فى تاريخ البرزالى.

بسم الله الرحمن الرحيم

فصل فيما وقع من الحوادث

فى السنة العاشرة بعد السبعمائة(*)

استهلت هذه السنة وخليفة الوقت المستكفى بالله أبوالربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله العباسى.

وسلطان البلاد المصرية والشامية الملك الناصر محمد بن قلاوون.

ونائبه بمصر الأمير سيف الدين بكتمر أمير جاندار.

وقاضى القضاة الشافعية بدر الدين بن جماعة، وقاضى القضاة الحنفية شمس الدين محمد بن السروجى، وقاضى القضاة المالكية زين الدين بن مخلوف، وقاضى القضاة الحنبلية سعد الدين مسعود الحارثى.

والوزير فخر الدين بن الخليلى، وناظر الجيش فخر الدين كاتب المماليك.

ونائب الشام الأمير سيف الدين قراسنقر الجوكندار المنصورى، والقاضى الشافعى بها نجم [الدين](١) بن صصرى، والقاضى الحنفى صدر الدين على البصراوى، والقاضى المالكى جمال الدين محمد الزواوى، والقاضى الحنبلى تقى الدين سليمان .

ونائب حلب الأمير سيف الدين [٢٠٧] اسندمر الكرجى.

ونائب حماة عماد الدين إسماعيل بن الأفضل(٢).

ونائب حمص الأمير سيف الدين غرلو الزينى.

(*) يوافق أولها ٣١ مايو ١٣١٠م

(١) إضافة للتوضيح تتفق مع السياق.

(٢) وحماة بها الأمير سيف الدين قبجق إلى حين وفاته : فى كنز الدرر ٩/ ٢٠٧، والصواب أن قبجق (قفجق) توفى أثناء نيابة حلب، ينظر ما يلى.

ونائب طرابلس والفتوحات الحاج بهادر.

ونائب صفد الأمير سيف الدين قطلوبك.

ونائب صرخد الأمير جمال الدين أقوش الأفرم.

ونائب الكرك الأمير سيف الدين أيتمش الناصرى.

ونائب غزة الأمير سيف الدين [قطلقتمر][١] السلحدار.

ونائب البيرة على الفرات الأمير سيف الدين طوغان.

وصاحب ماردين الملك المنصور نجم الدين ايل غازى بن المظفر قرا أرسلان بن السعيد بن الناصر ابن أرتق.

وصاحب اليمن هزبر الدين داوود بن الملك المظفر.

وصاحب مكة عز الدين حُميضة وأسد الدين رميثة أولاد السيد نجم الدين أبى نمى.

وصاحب المدينة النبوية ناصر الدين منصور [بن جماز][٢] بن عز الدين شيحة.

وصاحب إقليم دلى وكنبايت فى الهند الملك المسعود[٣] بن علاء الدين محمود.

وصاحب العراق وبلاد العجم وخراسان وديار بكر والروم الملك خرابندا بن أرغون بن أبغا بن هولاكو بن طلو بن جنكز خان .

---

(١) اقطلقتمر: فى الأصل والتصويب مما يلي.
(٢) إضافة للتوضيح من كنز الدرر ٩/ ٢٠٧.
(٣) هكذا بالأصل.
وورد : الملك المسعود علاء الدين سنجر، عتيق شمس الدين أيتمش، عتيق السلطان غياث الدين، وهو ملك دله بالهند، ينظر السلوك ١/ ٩١٦ .
وورد : الملك المسعود ناصر الدين محمود بن علم الدين سنجر عتيق شمس الدين أيتمش مملوك شهاب الدين الغوري : في عقد الجمان ٤/ ١٢٠.
وهو علاء الدين محمد شاه الأول من حكام الخلج أو الخلجيين، مؤسسو ثاني دولة إسلامية في الهند ويعتبر علاء الدين محمد شاه (٦٩٥-٧١٦هـ/١٢٩٦-١٣١٦م) ثالث حكامهم، ينظر تاريخ الدول الإسلامية ٥٩٩/٢، ٦٠٥.

وصاحب ما وراء جيجون إلى بلاد خطاى التى أولها خان بالق ونهايتها المدينة العُظمى التى تسمى جنسار، الملك قيدو[١] بن قنجى بن طولو بن جنكز خان.

وصاحب الصين وبلادها شرمون[٢] بن منغلاى [٢٠٨] بن قبلاى خان بن طولو بن جنكز خان.

وصاحب صحراء القفجاق التى كرسيها سراى، الملك طقطاى بن منكو تمر بن طغان بن باطو بن جنكز خان.

وصاحب ما وراء ذلك وهو البلاد المشرقية، مغنطاى[٣] بن قنجى بن أردنو[٤] بن دوشى خان بن جنكز خان.

وصاحب تونس وأفريقية من الغرب أبوالبقاء خالد بن أبى زكريا بن أبى حفص.

وصاحب مراكش والمغرب الأقصى أبوالربيع سليمان بن عبدالله بن يوسف بن يعقوب بن عبدالحق بن حمامة المرينى.

وصاحب الأندلس وكرسية غرناطه أبو الجيوش نصر [بن أحمد][٥] بن محمد بن الأحمر.

وصاحب تلمسان موسى[٦] بن عثمان بن زيان بن يغمراسن.

وصاحب بلاد الحبشة الأمحرى النصرانى.

وصاحب [كرجستان][٧] وكرسيه تفليس، الملك قسطنطين داود[٨] بن سودان.

---

(١) جبارا بن قيدو: فى كنز الدرر ٩/ ٢٠٧.
(٢) قلاصاق بن شرمون: فى كنز الدرر ٩/ ٢٠٧.
(٣) منغطاى: فى كنز الدرر.
(٤) أردوا: فى كنز الدرر.
(٥) إضافة للتوضيح من كنز الدرر ٩/٢٠٨.
(٦) موسى: سقط من كنز الدرر ٩/ ٢٠٧.
(٧) كرجستا: فى الأصل والتصويب من التحفة الملوكية ٢٢١.
(٨) ابن داود : في التحفة الملوكية ٢٢١.

وصاحب قسطنطينية وهى اصطنبول الملك [أندرونيغوس الأشكرى][١].

وصاحب برشونة الريد راكون البرشونى .

وصاحب افرنسه [الريد افرنس][٢] .

وصاحب سيس وبلادها أوشين الأرمنى .

ذكر من قدم من الرسل وغيرهم

وفيها: وفد إلى الأبواب الشريفة منصور بين جماز صاحب المدينة، فقدم التقادم وشمله الإنعام بإعادة ما قطع من خبزه وأعطى لأخيه مقبل.

وفيها: وصل أيدغدى [٢٠٩] الشهروزى مملوك الأمير قراسنقر المنصورى هاربًا من سجن التتار بتبريز، وقد ذكرنا أنه كان قد أخذه بلرغو، مقدم التتار، من سيس لما قتل صاحبها وتوجه إلى الأردو، فسجن فى تبريز إلى هذه السنة، فهرب وعاد إلى مصر[٣].

وفيها: فى جمادى الأولى: حضر إلى الأبواب الشريفة الأمير [حسام الدين مهنا بن][٤] عيسى بن مهنا أمير آل فضل، فأقبل السلطان عليه وشرفه وأحسن إليه.

وفيها فى رجب: وصلت رسل الأشكرى صاحب القسطنطينية إلى الأبواب الشريفة وصحبته رسل الكُرج يسألون إعادة الكنيسة المصلبة[٥] التى بالقدس إليهم، وكان الشيخ

(١) اندروتعوس الأشكر : فى الأصل والتصويب من التحفة الملوكية.
وهو : الإمبراطور أندرونيق الثاني ١٢٨٢-١٣٢٠م.
(٢) الريدا فرش : فى الأصل، والتصويب من التحفة الملوكية.
(٣) ينظر التحفة الملوكية ٢١٦.
(٤) شرف الدين: فى الأصل وهو خطأ،حيث أن شرف الدين عيسى بن مهنا توفى سنة ٦٨٣هـ/١٢٨٤م، وولى بعده ابنه حسام الدين مهنا، ينظر التحفة الملوكية ٢١٦، تذكرة النبيه ١/ ٩٠، السلوك، ٢/ ٧٨.
(٥) الكنيسة المصلبة: فى دير المصلبة بظاهر القدس الشريف، التحفة الملوكية ٢٢١.

خضر[(١)] فى الدولة الظاهرية انتزعها من أيديهم[(٢)]، فأعيدت بمقتضى الفتاوى الشرعية، ووصلت أيضًا شفاعة الأشكرى فى إجراء أهل الذمة على عادتهم وفتح كنائسهم، فأجيب إلى بعض مقصده، وفتح لهم كنيستان للملكية بالقاهرة ومصر، وكنيسة للقبط بالقاهرة، وكنيسة لليهود بمصر، ورسم لهم بالركوب على الاستواء.

وفيها: ورد إسماعيل صاحب حماة إلى الأبواب الشريفة بتقادم هائلة، فأقبل السلطان عليه، وأمره بلحاق العسكر المجردين إلى سيس.

ذكر من أعطى إمرة أو وظيفة وقطع

وفيها: تولى سيف الدين بكتمر [٢١٠] أمير آخور نيابة السلطنة بغزة، ثم بعد ذلك طلب إلى القاهرة وفوضت إليه الوزارة بديار مصر، عوضًا عن فخر الدين الخليلى الوزير، لأنه كان ذا فصاحة ودربة[(٣)].

وفى ليلة الاثنين السابع من صفر، وصل الصدر نجم الدين محمد[(٤)] بن الشيخ فخر الدين عثمان البصراوى من مصر إلى الشام متوليًا الوزارة بها، ومعه توقيع بالحسبة لأخيه فخر الدين سليمان[(٥)]، فباشر المذكوران المنصبين[(٦)].

---

(١) هو: خضر بن أبي بكر محمد بن موسى، شيخ السلطان الملك الظاهر بيبرس، وقيل أنه توفى سنة ٦٧١هـ/١٢٧٢م، فى عقد الجمان ١/ ١٠٩- ١١٠، وورد أنه توفى سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م، فى المنهل الصافى ٥/ ٢١٨- ٢٢٠ رقم ٩٩٠.

(٢) ينظر ما ورد في حوادث ٧٠٥هـ، في عقد الجمان ٣٧٨/٤.

(٣) ينظر التحفة الملوكية ٢١٦.

(٤) توفى سنة ٧٢٣هـ/١٣٢٣م، الوافي بالوفيات ٨٩/٤ رقم ١٥٥٧، أعيان العصر ٥٦٠/٤ رقم ١٦٤٧، السلوك ٢٥٢/٢، وينظر الدرر الكامنة ١٦٥/٤ رقم ٣٩٩٨ حيث رجح أن وفاة نجم الدين البصراوي سنة ٧١٤هـ أو نحوها.

(٥) هو : سليمان بن عثمان، فخر الدين أبو القاسم البصراوي، توفى سنة ٧١٤هـ/١٣١٤م، أعيان العصر ٤٤٨/٢ رقم ٧٢٠، الدرر الكامنة ٢٥٣/٢ رقم ١٨٥٣، النجوم الزاهرة ٢٢٨/٩.

(٦) ينظر تاريخ البرزالى ٣/ ٤٥٨، البداية والنهاية ١٠٣/١٨.

وفيها: عزل القاضى شمس الدين محمد السروجى الحنفى عن منصب الحكم، وولى شمس الدين محمد الحريرى الدمشقى على قضاء الحنفية بالديار المصرية.

وقال ابن كثير: وجاء البريد إلى الشام بطلب ابن الحريرى لقضاء مصر، فسار فى العشر الأول [١] من ربيع الأول، فلما قدم على السلطان أكرمه وعظمه وولاه قضاء الحنفية، وتدريس الناصرية والصالحية وجامع الحاكم، فمكث السروجى أيامًا ومات[٢]، وعزل بعده القاضى بدر الدين بن جماعة عن قضاء الشافعية، وأقام معزولاً إلى أوان الحج، فتوجه إلى الحجاز، وولى بعده جمال الدين سليمان المعروف بالزرعى، وكان قبل توليته نائبًا عن ابن جماعة بالقاهرة.

وفيها : تصدق السلطان على عماد الدين إسماعيل بن الأفضل على بن محمود بن تقى الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بأن فوض إليه نيابة حماة إحياء لبيته ورعاية لسلفه، عوضًا عن [٢١١] الأمير اسندمر الكرجى، ونقل اسندمر إلى نيابة حلب بحكم وفاة قفجق النائب بها[٣] .

وفيها : انتقل الأمير جمال الدين أقوش الأفرم من صرخد إلى نيابة طرابلس، عوضًا عن الحاج بهادر.

وفيها: فى خامس رمضان قدم فخر الدين إياس[٤] نائب قلعة الروم إلى دمشق شاد الدواوين، عوضا عن كتبغا[٥] .

وفيها: فوض لبكتمر الحاجب نيابة غزة، [عوضًا][٦] عن بلبان البدرى، وتوجه إليها

---

(١) فى العشرين: فى البداية والنهاية ١٨/ ١٠٣.

(٢) يراجع البداية والنهاية ١٨/ ١٠٣ حيث يوجد اختلاف فى بعض الألفاظ.

(٣) ينظر التحفة الملوكية ٢١٦.

(٤) هو : إياس، فخر الدين السلاح دار، كان أرمنيًا فأسلم على يد الناصر محمد، قتل سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م، الدرر الكامنة ١/ ٤٤٨ رقم ١٠٩٣.

(٥) هو : كتبغا العادلي الحاجب زين الدين، ولي شد الدواوين والاستادارية وغير ذلك، توفى سنة ٧٢١هـ/١٣٢٠م، الدرر الكامنة ٣/ ٣٥٠ رقم ٣٣٠٢.

(٦) إضافة للتوضيح، تتفق مع السياق.

فى السابع عشر من المحرم، وكان بلبان تولاها عوضا عن قطلقتمر السلحدار.

ذكر قضية الأمير اسندمر كرجى نائب حلب

قال ابن كثير: وفيها، بلغ السلطان عن الأمير اسندمر كرجى أمر كرهه من الظلم والعسف، فجرد إليه كراى ومعه جماعة من الأمراء، وجرد من دمشق بهادر آص بجماعة، وجرد أيضًا من طرابلس جماعة، واجتمعوا كلهم على حمص، ثم توجهوا من حمص ليلة عيد النحر إلى حلب وأحاطوا بدار النيابة، وفيها اسندمر المذكور، فأغلق عليه الباب، ثم أُخرج فقُيد وحُمل إلى مصر[(١)]، [واحتيط][(٢)] على جميع موجوده، ثم اعتقل اسندمر بديار مصر قليلاً، ثم سير إلى اسكندرية، فاعتقل بها حتى مات[(٣)].

ولما مُسك اسندمر رسم السلطان للأمير قراسنقر بالتوجه إلى حلب حسب سؤاله، وكان نائب دمشق، كما ذكرنا، وتولى نيابة دمشق [٢١٢] عوضًا [عنه][(٤)] الأمير سيف الدين كراى الذى جرد إلى حلب مع الأمراء المصريين لأجل مسك اسندمر كرجى، كما ذكرنا الآن.

وذكر بعض المؤرخين هذه الحكاية مفصلة [(٥)] : وهى أن اسندمر لما ولى حلب وقراسنقر ولى الشام ظلما ظلمًا عظيمًا وبالغًا فية، وسنذكر بعض ظلم قراسنقر عن قريب، فكتب أهل الشام مطالعات إلى الديار المصرية يشكون من ظلم قراسنقر، حتى قيل: إن نهار واحد عُرضت على السلطان خمسون مطالعة، بل أكثر منها، كلها فى قراسنقر واسندمر وفيها أمور كثيرة، وذكر فى بعض المطالعات أن الناس كانوا يدعون إلى الله تعالى

---

(١) فى ثانى ذى الحجة: فى البداية والنهاية ١٨/ ١٠٦.

(٢) واحتيطت : في الأصل.

(٣) ورد هذا الخبر مختصرًا فى المطبوع من البداية والنهاية ١٨/ ١٠٦، وينظر ما ورد فى التحفة الملوكية ٢٢٣.

(٤) عن: فى الأصل والتصويب من التحفة الملوكية ٢٢٣، ٢٢٧.

(٥) ينظر نهاية الأرب ٣٢/ ١٦٩- ١٧٠.

أن يرد الملك إلى مولانا السلطان ليعدل بين الناس ويردع الظلمة، فلما ملكه الله البلاد وولى هذين الظالمين اسندمر وقراسنقر، مع علمه بظلمها وعسفها، فإن كان قصد مولانا السلطان الظلم وأخذ أموالنا فهو طيب على قلوبنا لأنه سلطاننا وهو الحاكم علينا، فإش لاسندمر أو لقراسنقر معنا؟ فوالله إن هذا لأكبر الكبائر تؤخذ أموالنا ونقهر بين يدى الظلمة والسلطان ساكت فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، أنت الحاكم علينا ونحن رعيتك، وكل راع مسئول عن رعيته يوم القيامة، فوالله لقد جاءت الأعداء على الشام وما أخربوها هكذا، وقد عرفنا [٢١٣] بحالنا معها مرارًا عديدة ولا نرى لكلامنا تأثيرًا ولا نسمع [إلا](١) مواعيد بالصبر فمتى هذا الوعد ؟ ونحن كما قال الشاعر:

أطل علينا من حياك غمامة ... محملة دهما وأبطى رشاشها
فلا غيمها يجلى فييأس طامع ... ولا غيثها يهمى فيروى عطاشها

وإن كان هذا رضاك فلا بأس، فقد عاقب الله تعالى أناسًا قبلنا بأخذ أموالهم وقتل أولادهم ونسائهم وقد ذكرهم الله فى القرآن بقوله: ﴿ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاَءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴾(٢)، فنستعمل الصبر ونتوكل على الله تعالى، لأن الله تعالى قال وهو أصدق القائلين: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾(٣).

ونحن نخشى عليك من عاقبة الظلم لأنه ورد: أن الملك يدوم للكافر بالعدل ولا يدوم للمؤمن بالظلم، وفى المثل : من أعان ظالمًا بلى به، ونحن قد نبهناك، وليس فيما ذكرنا مصلحة لنا وحدنا، بل فيه مصلحة لنا ولمولانا السلطان، والتى للسلطان، أعظم من وجهين: الأول: فيه عمارة بلاده، والثانى: إشاعة ذكره بالعدل واستجلاب الدعاء لدولته

(١) ولا: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.
(٢) جزء من الآية ٤٩ من سورة البقرة رقم ٢.
(٣) الآية ١٢٧ من سورة النحل رقم ١٦.

بالدوام، ومولانا السلطان ماله عذر يعتذر به بين يدى الله تعالى، لأنه [٢١٤] تعالى قد ملكه نواصيهم وأذل له الظلمة.

فلما وقف السلطان على هذه المطالعات، قال: واحسرتى، قد خربت والله الشام، ودعت الناس علينا بعد أن كانوا يدعون لنا، وهؤلاء الأمراء الذين فى الشام لو بعثت وراءهم بالطلب ما يجيبون وربما يفسدون علىّ الأمر، وإن خليتهم أخربوا البلاد وأهلكوا العباد، ثم أنه طلب الأمير كراى[١] المنصورى والأمير سنقر [الكمالى][٢]، وكانا من أكبر مماليك والده الملك المنصور قلاوون، وقال لهما: إن الشام قد خربت، فقالا: أعوذ بالله، فأخرج المطالعات وأوقفهما عليها، ثم قال: هذا قراسنقر قد أخرب الشام، واسندمر قد أخرب حلب، وقطلوبك قد أخرب صفد، فإن [طلبتهم][٣] ما يحضرون وربما يفسدون الملك علىّ، وإن خرجت أنا إلى الشام فخروجى ما هو بهين.

فقال كراى: حرس الله الممالك ببقاء مولانا السلطان، فمولانا السلطان لا يحمل على قلبه شيئًا من هؤلاء اللئام، فالمصلحة فى هذا الوقت أن ترسل إليهم الهدايا وتكتب إليهم تطمينًا لهم، لأن هذه الأيام شتاء والعدو المخذول مجاور للشام، فإذا جاء الربيع يجرد مولانا السلطان تجريدة والمملوك يخرج معهم ويحضرهم إليه محتاطًا عليهم يفعل فيهم مولانا السلطان برأيه.

فشكره السلطان وخلع [٢١٥] عليه، وقال: هذا أمر ما اطلع عليه غيركم، فاخفوه إلى وقته، فخرجوا من عند السلطان.

---

(١) هو : كراي المنصوري، الأمير سيف الدين، من مماليك السلطان قلاوون، وولي نيابة السلطنة بدمشق لأقل من نصف سنة، توفى في السجن سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م، الوافي بالوفيات ٢٤/٣٣١ رقم ٣٥٦، الدرر الكامنة ٣/٣٥٢ رقم ٣٣٠٩، المنهل الصافي ٩/١٢٣ رقم١٩٠٩.

(٢) الجمالي : في الأصل، والتصويب مما يلي.

وهو : سنقر الكمالي، الأمير شمس الدين الحاجب، مات بمحبسه بالقلعة في ربيع الآخر ٧١٨هـ/١٣١٨م، السلوك ٢/١٨٩، الدرر الكامنة ٢/٢٧٣ رقم ١٩٠٣.

(٣) طبتهم: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

ثم طلب السلطان أمير على[١] بن الأمير قراسنقر، وكان مقيمًا فى مصر، وقال له: تجهز فإنى أرسلك إلى أبيك فى الشام، فقال: سمعًا وطاعة، ثم أمر له بخُلعة سَنِيَّة وحياصة بجوهر تساوى ألف دينار وفرس بسرج ذهب وكنبوش زركش تساوى ألف دينار، وبألف دينار عين، وكتب معه كتابًا، وقال فيه :

إن الله تعالى مكننا فى البلاد والعباد وأمرنا بالعدل والإحسان والنظر فى حال الرعية، وقد بلغنا أن بلاد حوران قد خربت من كثرة الجبايات، وأنت تعلم أن بلاد حوران هى قوام دمشق وقوام جندها، وقد تقدم لك مرسوم منا بمسامحة أهل حوران من الجبايات، ومَنْ كان فيها رأس فتنة أو بادى شر فقد أمرناك بقتله.

ثم اتصل بنا أن أجناد دمشق قد هلكوا من عدم تحصلهم منها، ولا سيما أرباب النقد، فهذا الذى جرى فيها سبب للخراب وزوال الدولة، والأجناد هم عمد الملك، ولا يتم الملك إلا بهم، فإذا كانوا على هذه الحالة فكيف يقيمون البيكارات[٢]، وقد بلغنا أنكم قد جبيتم حقوق البلاد، فلا الأجناد أعطيتم ولا إلينا حملتم، فمقصودنا نعلم أن هذه الأموال وصلت إلى مَنْ؟ فتجعل بالك، وتكشف أحوال الجند وتوصل إليهم حقوقهم [٢١٦] وتزيل ضروراتهم، وتقطع مادة الشكوى.

وإياك وأخذ أموال الناس بغير حق، فهذا لا يخفى علينا لأن من الشام من يطالعنا بذلك وبكل ما تعملونه ، وقد بلغنا أنه جاء إليك جماعة من شياطين حلب ووليتهم أكثر أعمال دمشق، وكذا وليت مماليكك وظائف دمشق وبلادها وأعمالها، فالشاد الذى متولى من جهتنا ما يعمل إذا كان مماليكك يستغلون الجهات، فساعة وقوفك على هذا الكتاب تعزل مماليكك من الأعمال، وكذا تعزل الحلبيين وتحضر بأناس من أعيان الحلقة ومشايخها الذين يخافون على أعراضهم وتوليهم الجهات والأعمال وتكتب عليهم حججًا بأن يوصلوا إلى

---

(١) هو : علي بن قراسنقر، الأمير علاء الدين، توفى سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٦م الوافي بالوفيات ٣٩١/٢١ رقم ٢٦٩، الدرر الكامنة ١٦٩/٣ رقم ٢٨٤٤، المنهل الصافي ١٤٢/٨ رقم ١٦٢٨.

(٢) البيكار : لفظ فارسى معناه: الحرب عامة، ينظر صبح الأعشى ٩٤/١٣، ٩٧.

الأجناد حقوقهم، ولا تُوَلِّ أحدًا من شياطين الحلقة لأجل حمل الأموال إليك، أو تولى أحدًا بالبرطيل[(١)] فيفسد الدنيا، فإن لم تعملوا ما قلنا لكم كشفناه بنظر العين عند وصولنا إلى الشام ومع هذا أنت ما تحتاج إلى وصية مع علمك بالأشياء، فإن كان هؤلاء يعملون هذه المفاسد وأنت لا تعلم ولا يعلمك أحد فقد أعلمناك، وإن كنت تعلم ذلك فأزله، فإن الشام لا يحمل[(٢)] هذا.

وأوصى للأمير على ابنه أيضًا بأشياء كثيرة مشافهة، وقال له: يا أمير على، ما لأحد مال مثل مال أبيك، فإن ماله أكثر من مال سلار فى آخر عمره، ولا ينتهى عن الظلم، فباس أمير [٢١٧] على الأرض وقال: يا مولانا السلطان أنا وأبى وماله، الجميع لمولانا السلطان، ثم قال السلطان: أنا ما أقول هذا حسدًا له ولا من ضيق العين، بل لأنه صار شيخًا كبيرًا، وكان الواجب عليه أن ينصحنا ويقول لنا مثل الذى قلنا له.

ثم إنه كتب كتابًا آخر إلى الأمير اسندمر كرجى، نائب حلب وكتابًا آخر للأمير سيف الدين قطلوبك نائب صفد.

ثم سافر ابن قراسنقر، ولما وصل إلى أبيه وناوله كتاب السلطان فقرأه صعب عليه جدًا، وقامت أخلاقه، وقال: أستحق منه أن يكتب إلى بأبخس من هذا وقد سلمت إليه الملك من بعد خروجه من يده، وطلبت أمراء مصر والشام أن يحلفوا لى فما رضيت، فقلت لهم: إن ابن أستاذنا أحق بها، فهذا جزائى منه أن يكتب لى كتابًا مثل هذا، فقال له ابنه: لا تتكلم بمثل هذا الكلام قدام [أحد][(٣)]، ما يحصل منه خير، فأنت تعلم ما جرى على غيرك.

ثم إنه أخرج الخلعة والحياصة وقدم الفرس والألف دينار، فقال قراسنقر: لا بهذه ولا

(١) البرطيل – البراطيل: الرشوة، محيط المحيط، وينظر كتاب البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك للدكتور أحمد عبدالرازق أحمد.

(٢) لا يحمله : في الأصل، ومصححه.

(٣) إضافة للتوضيح.

بهذا الكتاب، والله، أنا خائف من هذا، فقال له ابنه: خل عنك هذا، والله، ما عند السلطان أحد أكبر منك، وما كتب لك هذا الكتاب إلا [لتعدل][١] حتى يظهر لك عدل وخير فى البلاد، وأيضًا عرَّفك أن له عيونًا فى دمشق يعرفونه بما تفعل أنت وغيرك.

وكذلك [وصل][٢] من السلطان إلى اسندمر نائب حلب كتبا مثل هذا مع خلعة مكملة وفرس.

فلما قرأ اسندمر الكتاب [٢١٨] رمى الخلعة واغتاظ غيظًا عظيمًا وشتم البريدى، وقال له: قل له سلم بلدك إلى غيرى، ولولا أنا ما كان يملك كن [٣] دجاج، وأنا أقدر أن أزيل السلطنة عنه إن لم يقعد وهو عاقل، فقالت له مماليكه: اش هذا الكلام الذى لا يرضى به الجهال؟ فأخرجوا البريدى من بين يديه، وقالوا له: إن به مرضًا يتحرك عليه فى بعض الأوقات، فانزل أنت فى مكان واسترح إلى أن يزول هذا المرض عنه، ثم أنزلوه فى موضع، ثم جاءوا إلى اسندمر وقالوا: اش هذا الكلام الشنع؟ والله، الذى دخل [مارد فيه][٤] ما يتكلم بهذا الكلام، فقال: والله، ما بقى إلا أن أسير إلى خرابندا، فإن كان قفجق ما أخرب البلاد فأنا أخربها وأنظر من يندم أنا أو الملك الناصر، فقالت مماليكه: اترك هذا الكلام، فقال: لا، هذا هو الصواب، وإلا اعمل هكذا وإلا رحت مثل ما راح سلار وغيره، فقالوا له: لا تستعجل فنحن فى أطراف البلاد، فإذا سمعنا بأن السلطان قد توجه إلى الشام لأجل العدو المجاور لنا، فقد علمنا أنه لأجلك، فيحتج عليك بالعدو، ففى ذلك الوقت ندبر ما يكون فيه الخيرة والصلاح، والسلطان ما كتب إليك وحدك، وقد كتب مثل هذا، بل أنجس من هذا، إلى الأمير قرا سنقر نائب الشام، وهو لم يتغير بذلك، فلا تخرب بيتك بيدك ويشمت بك أعداؤك وحسادك، فاطلب الساعة البريدى عندك، واخلع عليه، وقل له: جئتنى وفى رأسى سخونة فما [٢١٩] عرفت ماذا قلت.

(١) تعدل : في الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٢) وصال: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٣) كن- أكنان وأكنة: البيت، القاموس المحيط، مادة كنن.

(٤) ماردين فى الأصل، والتصويب يتفق مع المعنى.

فطلب البريدى واعتذر إليه، وقال له: ما صدر منى هذا وأنا فى عقل، فقال البريدى: أنا ما سمعت منك شيئًا بشيعًا، ثم جهز البريدى وجهز، معه مملوكًا من مماليكه يقال له سنقر، وعلى يده كتاب إلى السلطان يذكر فيه : أن الذى نُقل عنى ما هو صحيح، فلا يسمع مولانا السلطان فىَّ كلامًا من الأعداء، فالمملوك ليلاً ونهارًا واقف بصدد الأشغال السلطانية، ويبعث مولانا السلطان أحدًا يكشف بلاد المملوك وما هو عليه.

وأرسل مع سنقر شيئًا كثيرًا لمملوك من مماليك السلطان يسمى طغاى، فوصل سنقر إلى مصر وتمثل بين يدى السلطان، فوقف السلطان على كتابه، ثم التفت إلى سنقر وقال: أنا أحب أستاذك من دون أمراء مصر والشام، وما سيرت له هذا الكتاب إلا لأنبهه لروحه، فباس سنقر الأرض، فأمر له بخلعة كاملة، وهم فى ذلك فإذا ابن قراسنقر قد وصل ومعه البريدى الذى سيره السلطان إلى قطلوبك، نائب صفد، ومعه كتاب من قطلوبك يطلب الحضور إلى الأبواب الشريفة، وطلب السلطان البريدى الذى كان قد أرسله إلى حلب، وقال له: قل اش قال اسندمر؟ ولا تخف منه شيئًا وإلا أسلخ جلدك، وقد جاءنى خبر ما قال لك قبل أن تجئ أنت، فباس البريدى الأرض وقال: لما قرأ الكتاب الذى هو من(١) مولانا السلطان شتمنى وأخرق بى، وقال: من كذا [٢٢٠] إلى كذا، فأخرجونى من بين يديه، ولما حضرت فى اليوم الثانى خلع علىّ وأعطانى ثلاثة آلاف درهم، وقال: إن رأسى كان مشغولاً فاعذرنى مما قلت لك، فتبسم السلطان وقال : فى جهله ما هو أكثر منه.

ثم إن السلطان بقى ليلاً ونهارًا فى فكر فى أمر هؤلاء وفيما جرى منهم، وأخفى هذه الأشياء كلها فى قلبه وداراهم، فيومًا من الأيام طلب جماعة من مماليكه، وقال لهم: إن قلعة الروم قلعة منيعة، وقد تعب عليها أخى الملك الأشرف والمسلمون معه حتى أخذها من أيدى الأرمن، وأنا خائف عليها من النواب، وأريد أن أجهز إليها مائة مملوك يكون جميعهم عينًا على النائب الذى فيها، ويحفظون القلعة، فقالوا: نعم الرأى ، فطلب مملوكًا من مماليكه

---

(١) من عند: فى الأصل ويوجد شطب فوق كلمة عند.

يقال له: علاء الدين أيدغدى بهلوان، وقال له: خذ مائة مملوك وسر بهم إلى قلعة الروم وأنت مقدمهم، ولا يعمل النائب شيئًا إلا بحضورك، ولكم أخباز البحرية وأُجرى لكم من مالى كل ما تريد، فأجاب بالسمع والطاعة، ثم قال له: احترز من مكائد الناس لأن اسندمر نائب حلب قريب منكم، فربما يكاتب النائب ويميلكم إلى النائب، وإياكم أن تسمعوا من أحد.

فقال أيدغدى: يا خوند، إذا دخلت رجلى القلعة فقد حصل المراد ولو كان فيها جن الأرض.

ثم انتخب السلطان مائة مملوك جياد، وأركبهم الهجن، وقال لهم: سيروا ليلاً [٢٢١] ونهارًا وكتب معهم إلى نائب قلعة الروم بأنه يمكنهم من الطلوع إلى القلعة، وأن يحترمهم ويجريهم على معلوم البحرية، وأوصى بهلوان وأصحابه أن قراسنقر نائب الشام واسندمر نائب حلب وغيرهما إذا سألوا منكم إلى أين أنتم رائحون؟ فقولوا: إلى كركر وكختا لضرورات السلطان، ولا تعلموا أحدًا أنكم رائحون إلى قلعة الروم، ثم أعطاهم كتابًا مطلقًا إلى دمشق وحلب و جميع الممالك الشامية، فيه: أنه سيرهم إلى كختا وكركر، فيجهزون لهم الإقامات والعليق لدوابهم وأى حيوان يعجز منهم تحضرون بدله.

فلما وصلوا إلى دمشق تلقاهم قراسنقر، وأنزلهم فى دار الضيافة، فناوله بهلوان كتاب السلطان، فوقف عليه، وقال: ما الفائدة فى رواحكم إلى كختا وكركر ؟ فقالوا: مرسوم السلطان، ما نعلم غير ذلك، فجهز لهم كل ما يحتاجون من المأكول والمشروب والمركوب، ثم ساروا حتى وصلوا إلى حلب، فتلقاهم اسندمر، ثم وقف على كتاب السلطان، فقال: اش فى كختا وكركر، ثم تروحون إليها، فقالوا: مرسوم السلطان، فأنزلهم وأكرمهم.

ولما خرجوا من عنده وساروا، أحضر مماليكه فقال لهم: قد رابنى أمر هؤلاء المماليك، وربما يكونون رائحين إلى قلعة الروم، فقالت مماليكه: لا، هؤلاء سائرون إلى كختا وكركر، [٢٢٢] فقال اسندمر: هؤلاء ذخيرة مشؤومة أينما كانوا، وأنا ما أمكنهم من الطلوع إلى قلعة من القلاع أبدًا، ثم أنه كتب إلى كختا وكركر وغيرهما يأمر نواب القلاع بأن لا يمكنوهم من الطلوع إلى القلاع، وسَيَّر الكتب مع البريدى، فسبقهم البريدى.

وأما هؤلاء فإنهم ساروا أولاً إلى عينتاب وباتوا فيها، ثم ركبوا ووصلوا إلى قلعة الروم، وكان فيها نائب يقال له: السديدى فأعلموه بوصولهم، فتعجب كيف جاء هؤلاء من مصر؟ وهم جماعة وما علم بهم اسندمر، فأمر لاستاداره بأن ينزل إليهم ويحضر منهم عشرة ليسمع حديثهم، فنزل الاستادار إليهم، وقال لهم: الأمير يطلب منكم عشرة ليسمع كلامهم، فقال بهلوان: نعم، فانتخب من المائة عشرة يقابلون الجاليش، فأخذهم معه، وقال لبقية أصحابه: ها أنا أطول معه فى الكلام وأنتم اطلعون فى أثناء هذا من واحد واثنين وثلاثة، فإن رأينا أن الطلوع ما يمكن لنا طلعنا بالسيف وما شاء الله كان.

ثم إن بهلوان سار إلى القلعة ومعه أصحابه العشرة، فلما وصل إلى الباب ترجل وطلع ومعه أصحابه، فلما رآه السديدى قام له وأجلسه إلى جانبه، ثم أخرج بهلوان كتاب السلطان وناوله إياه، فأخذه وباسه، وفتحه وقرأه، وبقى مفكرًا مطرق الرأس ساعة.

فقال له بهلوان: مالك؟ فقال له: أنت تعلم بأن هذه [٢٢٣] القلاع مضافة إلى حلب، ولا يحكم عليها إلا نائب حلب، فقال له بهلوان: من عملك نائبًا فى هذه القلعة النائب أو السلطان؟ فقال: بل السلطان. قال: فأين عقلك؟ إذا سمع السلطان بأنك ما سمعت من كتابه ومرسومه، اش يقول السلطان؟ فما ينغاظ عليك؟ وربما أنه يأخذك، وحينئذ ما ينفعك نائب حلب، فقالت له مماليكه: لقد نصحك فيما قال هذا، ومعهم مرسوم السلطان فما يكون مرسوم نائب حلب؟ فقال السديدى: كلنا مماليك السلطان، والأمر أمر السلطان، ثم أنه أخلى لهم أماكن فى القلعة وأطلعهم إليها.

وفى ذلك الساعة كتب بهلوان إلى السلطان وعرفه بطلوعهم قلعة الروم وما جرى لهم مع نائبها.

وكان نائب عينتاب قد أرسل إلى اسندمر وعَرَّف أن المماليك الذين كانوا رائحين إلى كركر وكختا قد رجعوا من الطريق وساروا إلى قلعة الروم، فعند ذلك أركب اسندمر البريدى إلى السديدى يقول له: لا تمكنهم من الطلوع إلى القلعة.

فوصل البريدى ووجدهم فى القلعة، فندم السديدى، وجمع مماليكه وقرأ عليهم كتاب

اسندمر، فقالوا له: لا تظهر من هذا شيئًا فالقوم قد تمكنوا من القلعة، ولو أرادوا أن يخرجوك لقدروا عليه لأن معهم كتابًا إلى مقدمى القلعة والرجاله والنقباء ووالى الحُجَر، وقد طلب جميعهم [٢٢٤] البارحة مقدمهم، وقرأ عليهم كتاب السلطان.

فقال السديدى: قُضى الأمر، وكتب إلى اسندمر بأنهم قد طلعوا القلعة وتمكنوا فيها ولا يقدر أحد على إخراجهم.

وأما كتاب بهلوان فإنه لما وصل إلى السلطان فرح وسر، وقال: هان الأمر إن شاء الله، وفى[١] تلك الساعة طلب الأمير كراى المنصورى وسنقر الكمالى وقال لهم: تجهزوا إلى الخروج، فما أعرف قضاء شغلى إلا منكما، ولكن لا تقولا [إلا][٢] إنكما رائحان مع العسكر إلى سيس، فإذا [تمكنتم][٣] من اسندمر وقبضتم عليه ارجعوا إلى دمشق، واقبضوا على [قرا سنقر][٤]، وهذه مراسيمى والبريدية واصلة إليكم كل وقت بكل ما تريدان، وجرد معهما أربعة آلاف فارس وأوصاهم بسرعة المسير.

ثم إنه أرسل البريدى إلى الشام ليعلم النائب بأن العسكر المصرى واصلة إلى سيس، وإنك تجرد من دمشق أربعة آلاف نفس مع: الأمير سيف الدين بهادر آص، وبلبان البدرى، وعز الدين الزردكاش، وكجكن، وأمر نائب الشام أيضًا أن يعلم اسندمر نائب [حلب][٥] بأن العساكر واصلة إليك ليعبر بها إلى سيس، فإن أعطوكم الفتوحات التى فتح لاجين وَلَّا أخربوا بلادهم.

فلما قرأ اسندمر الكتاب، جمع مماليكه، وقال لهم: هذا العسكر واصل إلينا لا محالة، فاهتموا إلى أمركم، فقالوا: وما الذى نفعل؟ فقال: قد عولت على أمر وهو: إنى أسير إلى [٢٢٥] الأمير طوغان، نائب البيرة، يحلف معى، ونكون على كلام واحد، فإن وافقنى فلا

(١) وطلب فى: فى الأصل، ويوجد شطب فوق كلمة طلب.
(٢) إضافة لتصويب المعنى، ينظر ما يلي.
(٣) تكمتم: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.
(٤) سنقر : فى الأصل ، والتصويب مما سبق .
(٥) إضافة للتوضيح.

أبالى بهم، ثم أرسل مملوكًا إليه يعلمه بذلك، ويقول له: أنا خائف منهم، وفى نية هذا السلطان أن لا يخلى أحدًا منا لا كبيرًا ولا صغيرًا، ونريد أن نكون على كلام واحد وعلى يمين، وتكون أنت لى ظهرًا فى البيرة، فإن رأيت شيئًا أكرهه جئت إليك، ولا نبالى بأحد.

فأرسل إليه طوغان: إذا قرب وصولهم، وتحققت منهم المكيدة، فقدم حضورك إلى البيرة فهى لك وأنا مملوكك، ولو اجتمع كل مَنْ فى الدنيا لا نبالى بهم، وإذا رأينا ما نكره، ذهبنا إلى خربندا وتوصلنا إلى أمور لا يقدر غيرنا عليها.

ولما وصل إليه مملوكه بهذا الكلام فرح غاية الفرح، وحلف هو وطوغان إنهما يعيشان معًا ويموتان معًا.

ثم سير اسندمر إلى قرا سنقر يقوله له: هؤلاء العسكر ما خرجت إلا إلَىّ وإليك، فاجعل بالك ودبرنا برأيك، فأرسل إليه يقول له: طول روحك حتى تتحقق أمرهم.

هذا جرى لهؤلاء، وأما كراى فإنه خرج.

ذكر خروج الأمير كراى من مصر مع العسكر

لما خرج الأمير كراى المنصورى ومعه أربعة آلاف فارس وصل إلى غزة، وأقام بها أربعة أيام، وكان نائبها الأمير قطلقتمر صهر جالق، ثم رحل منها وسار يطلب دمشق، وجهز بعض مماليكه إلى صفد يطلب عسكرها إلى دمشق [٢٢٦] ليروحوا معهم إلى سيس، ووصل كراى إلى دمشق، وبعده وصل عسكر صفد، ونزل كراى على القابون، فقال له قراسنقر: انزل عندنا فى دمشق عشرة أيام، فاسترح وأروح، فقال: يا خشداشى أخاف من السطوات الشريفة، فنقل إليهم قراسنقر من الإقامات والتقادم، فأقاموا يومين ورحلوا فى اليوم الثالث، ونزلوا على حمص، وأرسل إلى حلب يعلم اسندمر بأنا نحن عندك بعد العيد، وكان قد بقى للعيد عشرة أيام.

ثم إن اسندمر جَمع مماليكه، وقال: هؤلاء جاؤون إلينا، وأنا ما أقف قدامهم، وأرسل إلى طوغان يعرفه أنه يخرج من حلب نهار العيد ويجئ إليه.

وأما كراى فكان معه كتب السلطان إلى مهنا[1] أمير العرب، فأرسلها إليه مع النجابين، فلما قرأها فإذا فيها: حال وقوفك على هذه الكتب تركب بجميع العرب وتمسك جميع مخائض الفرات، ولا تمكن أحدًا من العبور.

فركب مهنا ومعه العرب مقدار أربعة آلاف فارس، وجاء إلى مخاضة بداية ووقف عليها بنفسه، ثم فرق بقية غزيه على المخائض.

وأما كراى فإنه يركب كل يوم فى حمص.

وأما اسندمر فإنه أرسل علم الدين بن الترجمان إلى قراسنقر، وقال له: إن كراى قد وصل إلى حمص، وهو بمن معه معولون علىّ، فإذا مسكونى يرجعون إليك، وأنا قد كاتبت طوغان ونحن على كلام واحد، وفى يوم يرحلون [٢٢٧] من حمص، أخرج من حلب وأروح إلى البيرة عند طوغان وأكاتب إلى خربندا والتتار وأخرب البلاد.

ولما وصل ابن الترجمان إلى قراسنقر، وقرأ الكتاب، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، والله كل ما يقوله اسندمر صحيح، فإن أخذوه أخذوني لا محالة، فجمع مماليكه وتشاوروا تلك الليلة، فقال له مماليكه: لو أن للمصريين فيك نية ردية قبضوا عليك لما خرجت إليهم، واسندمر من خوفه يرمى بين الناس فتنة، فكتب قراسنقر إليه يقول له: كن على حذر وخل لك حمامًا فى حماة وحمص مع قصاد من جهتك، فإذا ركبوا من حمص يرسلون إليك الحمام، فعرج من بين أيديهم إلى بعض الحصون، فعند ذلك تدبر على قدر ما ترى.

فركب ابن الترجمان وسار، ولما وصل إلى القطيفة[2] لحقه استادار كراى من

---

(١) هو : مهنا بن عيسى بن مهنا بن مانع، أمير آل فضل، توفى سنة ٧٣٥هـ/١٣٣٤م، البداية والنهاية ٣٨٠/١٨، الدرر الكامنة ١٣٨/٥ رقم ٤٨٦٥، المنهل الصافي ٢٩١/١١ رقم ٢٥٥٩.

(٢) القطيفة : قرية دون ثنية العقاب فى طرف البرية للقاصد إلى دمشق من ناحية حمص، معجم البلدان.

مصر، وكان كراى أرسله إلى السلطان يشاوره فيما يعتمد عليه، فرده سريعًا وقال له: لا تتأخر، فإن للتأخير آفات، فركبوا من القطيفة جملة، وساروا حتى وصلوا إلى حمص.

وكان كراى وصى الأمير أخور البريد الذى فى حمص بأن لا يركب أحدًا إذا جاءه لا بالليل ولا بالنهار دون أن يشاوره عليه، فلما وصل أستادار كراى وقرأ كتابه الذى أرسله السلطان وفيه حثه على سرعة السير وقضاء الشغل، فقال له: كم لك من اليوم الذى خرجت من مصر؟ قال بهذا اليوم خمسة [٢٢٨] أيام، فقال: من جاء معك من مصر؟ قال: ما جئت إلا وحدى، غير أنى فى القطيفة لحقنى مهمندار حلب وجاء معى إلى هاهنا، فقال له: على خيله؟ فقال: لا ، بل على خيل البريد، وهو رائح من عند قراسنقر، فأمر كراى لعشرة أنفس من مماليكه بأن يأتون به من اصطبل البريد.

وأما ابن الترجمان فإنه كان أراد أن يركب فما مكنوه، فإذا بمماليك كراى قد أحاطوا به، وكان يوم عرفة، فأحضروه إلى كراى، فقال له كراى: من أين جئت؟ فقال: من دمشق، فقال: ما كان لك شغل فى دمشق، فقال: أرسلنى اسندمر فى شغل، فقال له: أمعك كتاب؟ قال: لا، فأمر مماليكه أن يفتشوه، ففتشوه، فإذا معه كتاب قراسنقر قد كتبه لاسندمر، فلما قرأه كراى أمرهم بأن يحملوه إلى القلعة، ثم طلب الأمراء الذين معه، وقال لبهادر آص والكمالى: نحن جئنا فى شغل السلطان، فقعودنا لماذا ؟ فقالوا: نحن ننتظر مرسومك، ثم أخبر بأنه مسك مهمندار حلب، فقالوا: ترسل إلى اسندمر وتعلم بقدومنا، فإذا خرج إلينا قبضنا عليه، فقال كراى: لا يكون هذا، فقالوا: فكيف الرأى؟ فقال: نركب فى هذه الساعة ونسوق، ولا نعلق إلا مرتين، وننزل على حلب فى الليل، فقالوا: افعل ما تختار.

ثم إنه كتب إلى نائب قلعة حلب[١]، يقول له: حال وقوفك على هذا الكتاب تجهز

(١) نيابة قعلة حلب : هي نياب منفردة عن نيابة السلطنة بحلب، وليس لنائب السلطنة على القلعة ولا على نائبها حكم، وعادة يكون نائبها أمير طبلخاناه، وتوليتها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف، ينظر صبح الأعشى ٢١٧/٤.

ثلاثمائة راجل مستعدين منتظرين، فإذا وصلت إلى حلب [٢٢٩] بالليل- وقد عينه- ينزل هؤلاء من القلعة ويمسكون باب السر للديار التى فيها اسندمر، ولا يمكنونه من الخروج، وكذا كتب إلى سائر أمراء حلب، فإنهم يركبون فى ليلة كذا ويمسكون الأزقة والدروب، فإذا سمعوا النفير قد ضُرب فى القلعة، يجتمع كلهم على دار اسندمر، وأرسل هذه الكتب مع هجان يسمى سراب، فقال له: ينبغى أن تصل إلى حلب فى يوم وإلا راحت روحك، فركب سراب، ناقة لكراى، مشتراها أربعة آلاف درهم، وصرخ عليها فخرجت من تحته كالريح، ولم تزل تقطع البرارى إلى أن وصل إلى حلب، ثم ركب كراى عقيبه ولحقه العسكر أولاً فأولا.

وكان كراى قد ركب الهجين، ومعه ثمانية وعشرون أميرًا، كلهم ركاب الهجن وخيلوهم مجنبة ، وكل أمير معه عشرون أو ثلاثون مملوكًا على الهجن، فساقوا يقطعون الأراضى بغير مهل، وعدوا حماة، وكان سنقر، مملوك اسندمر فى حماة، ومعه حمام أرسله اسندمر معه، ووصاه [أنه إذا][1] رأى العسكر قد وصلوا إلى حماة يطلق الحمام، فلما نظر المملوك بأن العسكر عابرون فى حماة، وكانت له معرفة بكراى، قال : والله لا أروح حتى أبصر كراى، وربما أتنسم بعض الأخبار، وأتحقق تحقيق الأمر، فسار إلى كراى، ورآه كراى فعرفه، فقال له: ما خبرك؟ ولماذا جئت إلى هنا؟ فقال: جئت لشغل الأمير، لأجل استخراج مال له [٢٣٠] فقال كراى ما هذا الوقت وقت استخراج المال، فتعال معنا، فقال: حبا وكرامة، ولكن أرجع إلى أصحابى وأركبهم وأعود، فقال له: سر فلا حاجة إلى أصحابك، فقال: ما تحتى مركوب ينفع، فقال كراى فى نفسه : هذا معه حمام أرسله اسندمر، فإن مسكناه عرف أصحابه فيرسلون الحمام لأنه عندهم، فقال له: اذهب والحقنا، فقال السمع والطاعة، فرجع وقال فى نفسه: أن لا يعود.

وأما كراى فإنه طلب عشرة مماليك وقال لهم: اتبعوا سنقر هذا من بعيد إلى البيت الذى هو فيه، فإذا رأيتموه وقد دخل اهجموا عليه، وإياكم أن تمكنوه من إرسال الحمام ،

(١) إذا أنه إذا: فى الأصل.

بل امسكوه والحمام معه، فقال له الأمير سنقر الكمالى: ومن أعلمك بأن معه حمامًا؟ فقال: قلبى يجزم بهذا.

فذهب المماليك خلف سنقر، مملوك اسندمر، إلى أن وصل هو إلى بيته الذى هو نازل فيه، فى المنصورية، فدخل إليه، وكان معه مملوكان آخران، فقالا له: ماذا قعودك [والعسكر][1] قد وصلت، فحدثهما بالذى جرى له مع كراى، ثم قال لهما: نكتب البطائق[2] ونرسل مع الحمام، فقالا البطائق مكتوبة، ونحن ننتظر حتى تعلم عليها، فقال: هاتوها، فأحضراها وعلم عليها، ثم أحضر الحمام، وشدوا البطائق، فإذا بالمماليك قد هجموا عليه، فأخذوا الحمام وهو بالبطائق، وأخذوا سنقر [٢٣١] والمملوكين معه، وساروا بهم إلى كراى، فأمرهم بأن يقيدوا سنقر ليأخذه معه، فقيدوه وأركبوه هجينًا، وخلى المملوكين فى حبس حماة.

ثم ساق من حماة بعَجَل إلى أن وصلوا إلى حلب، فإذا بعض مماليك ينتظرون كراى خارج المدينة، فلما رآهم كراى قال: من أنتم؟ قالوا: مماليك نائب قلعة حلب، أرسلنا إليك، فقال لهم: لا، يكون اسندمر خرج من البلد؟ فقالوا: لا، ولم يعلم بشئ، فقال: ماذا عمل أستاذكم؟ قالوا: من حين وصل نجابك فرق الكتب على الأمراء وجهز الرجالة، وفى هذه الليلة، وكانت ليلة العيد، [نزلهم][3] فى المواضع التى عينتها فى كتبك، والآن هم على باب سر اسندمر، وعلى الأزقة والدروب، وما يعلم أحد بهم، لأن الناس مشغولون بالعيد، واسندمر لا يهتم لأجلكم إلا بعد العيد.

فنزل كراى على جانب نهر قويق[4] ساعة حتى وصل المتأخرون من العسكر، وقعد هناك حتى مضى بعض الليل، فركب عند ذلك ومعه مقدار خمسمائة نفر غائصين فى الحديد، فساقوا إلى أن وصلوا إلى باب القلعة، ثم قال لمماليك نائب القلعة، اطلعوا،

---

(١) بالعسكر: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٢) البطائق : نوع من المكاتبات تُحمل على أجنحة الحمام، ينظر صبح الأعشى ١٢٢/١٤.

(٣) نبهم: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٤) نهر قويق : نهر مدينة حلب، مخرجه من قرية سبتات، ويمر بمدينة حلب، معجم البلدان.

وقولوا لأستاذكم بأن ينزل، فطلعوا وأعلموه، فنزل إليه، فقال له كراى: ما عندك من خبر اسندمر؟ فقال البارحة جمع مماليكه وقال لهم: إذا سمعتم الصراخ فى البلد يلبس كل أحد منكم فى داره ولا يجئ إلا وهو معول على الموت [٢٣٢] فأمر كراى بضرب النفير فى القلعة، ثم ساقوا وطلبوا دار اسندمر فازدحمت الخيل وزعق النفير فى القلعة، وسمعت أمراء حلب، فركبوا وأتوا، وسمعت أيضًا مماليك اسندمر، فلبسوا وأتوا، فكان أول من جاء منهم مملوكه أيدمر الثور، وخلفه عشرون مملوكًا، فلما وصل ورأى الأمراء قد ازدحموا على الباب جذب سيفه وحمل، يريد حفظ الباب، فتقدم فارس فضرب، واجتمع عليه رجال فأرموه من فرسه، وأخذوه مع أصحابه كلهم، ثم أن كل مَنْ جاء من مماليك اسندمر يلقطونه أولاً فأول.

وسمع اسندمر الصياح، فخرج وهو عريان، وسأل الخدام عن ذلك، فقالوا: جاءت الخيل، وهؤلاء الأمراء على الباب، فنظر من طاقة كانت فوق الباب فرأى الأمراء والمشاعل توقد بين أيديهم، فنزل وأخذ مملوكًا معه يسمى قبلاى، وطلب باب السر فوجد عليه الرجال، فطلع السطح وإذا عليه الرجال من القلعة، فعلم عند ذلك أنه مأخوذ، فنزل وقعد، ولم يزل الأمراء على الباب حتى انتشر الضياء، فقال كراى : دقوا الباب، فإن فتحوه وإلا فاكسروه، فدقوه، وجاء الخدام واعلموا اسندمر، فقال لهم: افتحوا الباب، وهو قد خرج ووقف وراء الباب، فلما فتحوا، فكان أول من دخل كراى وهو لابس قرقلا [١] أحمرًا، وخلفه بهادر آص، وخلفهما الأمراء كلهم، وتزاحمت المماليك، فلقاهم [٢٣٣] اسندمر، وقال لهم: يا أمراء، ما كان حاجة إلى هذا العمل، كنتم أعلمتمونى بمجيئكم، وكنت أخرج إليكم كما تحبون، فقال له كراى:ما فعلنا إلا مثل ما وصى به السلطان، ثم قال له كراى: اقعد، فقعد، فأخرج له قيدًا، وقال: مرسوم السلطان أن تحط رجلك فى هذا القيد، فقال سمعًا وطاعة لأمر السلطان.

---

(١) قرقل- قرقلات: نوع من الدروع تتخذ من صفائح الحديد، وتغشى بالديباج الأحمر والأصفر، وقد تكون مبطنة، صبح الأعشى ٢/ ١٤٣، ٤/ ١١.

ذكر مسك اسندمر

ولما سمع اسندمر ما قال له كراى أخذ القيد وباسه، ثم حطه فى رجله، ثم سمروه فى رجله، وطلبوا بغلاً من قلعة حلب، فأتوا به، فأمر كراى بأن يركب، فقال له اسندمر يا أمير، أمهل عَلَىَّ حتى أُعين مَوْجودى وأموالى حتى لا يضيع، فإن أخذه السلطان كان مُعينًا، وإن تصدَّق عَلَىَّ فأكون قد أحرزت مالى، فأنا أعرف أن الذى قِيل فى حقى كذبٌ وافتراء، ولابد أن يتبين كلام الأعداء عند حضورى قدام السلطان، قال كراى: والله ما خَلاَّ لك ظُلمَك صديقًا فى مصر ولا فى الشام، ثم إن كراى طلب نائب القلعة وسَلَّم إليه اسندمر وقال له: اطلع به إلى القلعة واحتفظ به، وإياك والتوانى، فأرسل معه عشرة مماليك من مماليكه، فطلعوا به إلى القلعة، ثم أنه طلب عُمَّاله وكُتَّابه، فعَيَّنُوا مالَه، وكان شيئًا كثيرًا.

وفى صبيحة الغد استدعى كراى نائب حمص الأمير غرلو العادلى والأمير بنجار، [٢٣٤] وقال لهما: خُذا اسندمر واذهبا به إلى حمص، استريحا، ثم اركبا وقت العصر، واجعلا طريقكما على بعلبك، ثم خُذَا خيل والى بعلبك واذهبا من وادى التيم على جسر يعقوب عليه السلام، فقالا: سمعًا وطاعة.

ثم إن كراى طلب منكودمر الطباخى، وكتب معه كتابًا إلى السلطان يُعلمه بمسك أسندمر، وَسيَّرَ معه كتابًا إلى قراسنقر، يقول له: إن الأمير سيف الدين اسندمر واصل إليك ومعه خمسون فارسًا، فجهزه إلى الأبواب العالية سريعًا .

فلما وصل الكتاب إلى قراسنقر وقرأه غاب صوابه، وأظلمت الدنيا فى عينيه، وحكى له الطباخى كيف كان مسك اسندمر، وكيف عملوا الحيلة عليه، فجمع قراسنقر مماليكه وتشاوروا، فقال قراسنقر: الآن النوبة علينا بلا خلاف، وقالوا: وعلى ماذا عولت؟ فقال: إذا وصل اسندمر عندى خلصته وأخذته معى، وقد حلف معى جماعة من الأمراء، وطلعت إلى القريتين، فإن وجدت الوقت لنا لاقيت كراى، وإن رأيت الأمر علينا خرجنا على حمية ورحنا إلى خربندا، وجبنا التتر إلى هذه البلاد وأخربناها، وأخذنا منه الملك،

فقالوا: هذا هو الرأى، فانتظم أمرهم على هذه الحال، ثم فى الحال جهز مملوكًا إلى مدينة قارا[١] ومعه حمام، وقال له: إذا وصل اسندمر إلى قارا سيره إلينا واعلمنا بذلك.

ثم إنه [٢٣٥] قد عزل كل شئ له، [إذ][٢] وصل مملوك الأمير قطلوبك نائب صفد، وأعلمه بأن اسندمر راح على جسر يعقوب، ومعه الأمير غرلو وبنجار، ومعهما خمسون فارسًا، فتعجب قراسنقر من حيلة كراى التى رتبها عليهم، ثم قال لمملوكه: لا تأمن أن يكون قد أوصى علينا أمراء دمشق، وإذ خرجنا ما يمكنونا من الخروج، والرأى عندى أن نخرج إلى المرج فهو خير لنا من مقامنا فى البلد، فكل أهل دمشق يبغضوننا.

ولما عول على الخروج، [إذ][٣] وقعت بطاقة من الصَّنَمَيْن[٤] يُذْكر فيها بأن أرغون الدوادار جاء على البريد ومعه عثمان الركاب وعشرة مماليك وقبل الظهر يكون عندكم، فركبت الأمراء جميعهم لما سمعوا بقدوم أرغون، وأن قراسنقر ألبس مماليكه لبوسات تحت قماشاتهم، ثم خرج وسار إلى ملاقاة أرغون، فلقاه على الجسر، ثم سار به إلى القصر، ولما استقر "الجلوس، أخرج" [٥] أرغون كتاب السلطان يقول فيه: حال وقوفك على هذا الكتاب تروح إلى حلب فقد وليناك عليها، وعند وصولك إليها يصل إليك تقليدك، فقرأ الكتاب وبقى مفكرًا ساعة، فقال له أرغون: مالك؟ فقال: ولا شئ، السمع والطاعة لمولانا السلطان، ثم إنه أعلم أصحابه بذلك، وتفرقت الأمراء، وتحدثوا أن أرغون جاء يشيع قراسنقر إلى حلب، فكان عندهم أعظم من الأعياد برواحه عنهم.

وفى [٢٣٦] تلك الليلة فَرَّق أرغون كُتُب السلطان على الأمراء بدمشق، يقول فيها: أقسم بالله العظيم أن من راح عنكم أحد إلى قراسنقر، أو مملوك من مماليكه، ضربت

---

(١) قارا — قارة : قرية كبيرة في منتصف الطريق بين دمشق وحمص، ينر تقويم البلدان.

(٢) فإذا : فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٣) فإذا فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٤) الصنمان : قرية من أعمال دمشق، في أوائل حوران، بينها وبين دمشق مرحلتان، وهى منزلة من منازل البريد فى الطريق من جينين على دمشق ، معجم البلدان ، صبح الأعشى ٣٨١/١٤ .

(٥) بهامش المخطوط، ومنبه على موضعها بالمتن.

رقابكم كلكم[(١)]، وقد أعطينا نيابة دمشق لكراى، فجميع ما يقول لكم فاقبلوه ولا تخالفوه، وأى من خالفه لا [يسأل][(٢)] ما يجرى عليه من أليم عذابنا، واحتاطوا كلكم على قراسنقر من حيث لا يعلم إلى أن يصل كراى.

فلما سمع الأمراء بذلك [أحاطوا][(٣)] بالقصر، ونزل تلك الليلة نائب قلعة دمشق ومعه مائتا رجل وباتوا حول القصر، وأصبح أرغون، وقال لقراسنقر: لم لا تفعل ما رسم به السلطان وتسير إلى حلب سريعًا؟ فقال له: إن مولانا السلطان تصدق على بحلب، وأنا وحدى ما أقدر أروح، فأمهل عَلَيّ حتى آخذ مماليكى وعيالى، فقال له: مرسوم السلطان إنك تروح على البريد، فقال: إذا كان كذلك فحط فى رجلى قيدًا، واغتاظ غيظًا شديدًا[(٤)]، وقال: يا مخانثة مازلتم حول هذا السلطان حتى ما خليتم له صديقًا، وما بقيت أروح حتى [يأتينى][(٥)] مرسوم ثان، فقال له أرغون: افعل ما تريد.

فعند ذلك أرسل قراسنقر مملوكًا على البريد إلى السلطان، يذكر فى كتابه: أن المملوك لم يزل مترقبًا ما يرد من الأبواب الشريفة ليقابله بالسمع والطاعة، وقد جاء الأمير سيف الدين أرغون الدوادار، وعلى يده كتاب يتضمن مسير المملوك إلى حلب، [٢٣٧] فأجاب المملوك بالسمع والطاعة، غير أن مولانا السلطان يعلم أن المملوك شيخ كبير ولولا المماليك [الذين][(٦)] حوله يركبونه وينزلونه كان عاجزًا عن الركوب، وقال أرغون للمملوك: أن يروح إلى حلب على البريد بمملوكين، والمملوك عاجز عن مثل هذا الرواح، فإن كان أحد قد نقل إلى المسامع الشريفة عن المملوك شيئًا وتريد أن تفعل بى كما فعلت بغيرى فلا حاجة إلى هذه الدورة، والمملوك يشد وسطه بمنديل ويجئ إلى الأبواب الشريفة.

---

(١) كلكم: بهامش الأصل ومنبه على موضعها بالمتن.
(٢) يسأ: فى الأصل، وتم استكمال الكلمة.
(٣) احتاطوا : في الأصل.
(٤) عظيمًا: فى الأصل، ومشطوب عليها، وفوقها بين الأسطر كلمة شديدًا
(٥) تأتينى: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.
(٦) الذى: فى الأصل.

ثم إنه قال لمماليكه: لا يبقى منكم أحد إلا ويبيت عندى فى الميدان، وربما يجرى لكم مثل ما يجرى لمماليك اسندمر، فحول مماليكه حوائجهم إلى الميدان، وسمعت الأمراء بذلك، فقال بيبرس العلائى، وبيدرا العادلى، وجوبان، وفخر الدين إياس المشد، إن راح قراسنقر من بينكم راحت أرواحكم مع السلطان، فركب الجميع من سوق الخيل، وتشاوروا فيما بينهم: فقالوا: ما نمكنه من الخروج حتى يجئ مرسوم السلطان، ومسكوا أبواب الميدان وباب القصر، وجاء مماليك قراسنقر وقالوا له: أنت غافل وهؤلاء الأمراء كلهم دائرون بالقصر من كل جانب، وهم ركاب ملبسون، فصاح عليهم قراسنقر من السطح، وقال: يا أمراء إن كان جاءكم مرسوم السلطان بأنكم تمسكوننى، فقالوا: لا، قال: فما لكم هكذا؟ فقالوا: سمعنا بأنك تخرج بمماليكك، فقلنا ما نمكنه حتى يجئ مرسوم [٢٣٨] السلطان، فقال: ما أقل عقولكم، هل يهرب أحد بغير ذنب عمله؟ فروحوا واستريحوا، فلم يسمعوا منه، ومسكوا يزكا[١] طوال الليل، ولما أصبحوا أقاموا هناك بالنوبة.

وأما قراسنقر فإنه ترك الركوب، وبعد مدة يسيرة وصل مملوكه من مصر ومعه كتاب السلطان إلى قراسنقر يقول: إنما أرسلنا إليك، رُحْ سريعًا إلى حلب لأجل العسكر المجردين لأن اليوم قوم المغل والأجناد ضعاف، وإن كنت تريد أن تروح بطُلْبِك، [فلك][٢] ذلك، وخذ كل شئ لك فى دمشق.

فلما قرأ الكتاب فرح به، وأرسل خلف الأمراء فحضروا، وقرأ الكتاب عليهم، فقالوا: سمعًا وطاعة، ثم نادى قراسنقر فى أصحابه: غدًا الرحيل فتجهزوا، وكان عنده خلق كثير من أهل حلب من الفقهاء وغيرهم، وكان قد ولاهم وظائف وأعمالاً، فتجهز الجميع حتى بلغ كراء كل حمل إلى حلب مائة وخمسين درهمًا.

(١) اليزك : طلائع من الجند تقوم بما يلزم من الاستكشاف والحراسة، صبح الأعشى ١٠/١١٠.
(٢) ولك : في الأصل.

ذكر توجه قراسنقر نائب دمشق إلى نيابة حلب

قال الراوى: ثم إن قراسنقر خرج من دمشق بمماليكه وحاشيته [(١)] وألزامه كلهم، ولم يخل له شيئًا فى دمشق، قيل: إنه حمل أثقاله على ألف وستمائة جمل. وذكر بعضهم [(٢)]: أن خروجه كان يوم الأحد ثالث المحرم من سنة أحد عشر وسبعمائة، ثم إنه جد السير ليلاً ونهارًا حتى أشرف على حلب، فنزل على نهر قويق، فجمع مماليكه [٢٣٩] وقال لهم: أعلموا أننا وصلنا إلى حلب، وعليها عساكر مجتمعة، وما يعلم أحد غائلة الناس، وقد رأيتم ما جرى على غيرنا، وفى المثل يقول القائل: العاقل من اتعظ بغيره، وقد رأيتم ما جرى لبيبرس وسلار واسندمر وغيرهم، وكيف بقيت مماليكهم يشحتون فى البلاد وهم دائرون، وأنا لا أسلم روحى مثل بقية الأمراء، فقال مماليكه: لك عندنا ما يسر قلبك، وها نحن بين يديك.

فبات تلك الليلة، ولما أصبح طلب ناصر الدين الدوادار وأستادار جركس، وقال لهما: اجتمعا بكراى والكمالى وباقى الأمراء، [وقولاً] [(٣)] : هذا قراسنقر قد جاء، وقد أرسلنا إليكم ويقول لكم: إن كنت أنا نائبًا فاخرجوا من حلب حتى يدخل قراسنقر لأنه صار متدرك البلاد، وإن كان لكم فيه نية أخرى فها هو قد وصل إليكم.

ولما بلّغ هذان الاثنان الرسالة إلى كراى وبقية الأمراء، قال لهما كراى: ارجعا وقولا له: إنه نائب، ونحن عنده مجردون، فإن كان معه مرسوم السلطان برجوعنا فيعرضه علينا حتى نرحل، وإلا فهو يدخل ويعمل نيابته إلى أن يجئ إلينا مرسوم السلطان بما نعتمد عليه، فرجعا إلى قراسنقر وأخبراه بذلك، فجمع مماليكه وتشاوروا، فاتفق رأيهم على أن يدخلوا فإن جرى منهم شئ يقابلونهم بالحرب.

ولما أصبح الصباح لبسوا كلهم آلات الحرب، وأوصى قراسنقر لمماليكه أن الأمراء إذا [٢٤٠] أرادوا أن يسلموا عليه لا تمكنوهم إلا واحدًا بعد واحد، ولا تغفلون عنهم، قال:

---

(١) وحاشيته: بهامش الأصل إمتدادًا للسطر.

(٢) ينظر نهاية الأرب ١٧٨/٣٢، البداية والنهاية ١٠٩/١٨، السلوك ١٠٠/٢، النجوم الزاهرة ٢٨/٩.

(٣) وقوا: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

هذا اليوم يوم الانفصال مع هؤلاء الأندال.

وأما كراى والكمالى والأمراء الذين على حلب فإنهم ركبوا جميعهم، وسار الكل قدام كراى، ولما رأت الأمراء، وقد أقبل قراسنقر ومماليكه ملبسين، قالوا: معذور فيما فعل، ولما رآهم قراسنقر وهم ما عليهم شئ من آلات الحرب استقر فؤاده وقال لمماليكه: لا تمنعوا أحد من الأمراء، فهم اليوم ما عليهم آلات حرب.

ووصلت الأمراء إلى قراسنقر، تكارشوا على ظهر الخيل، وساروا فى خدمته إلى دار النيابة، ثم رجعوا إلى وطاقاتهم.

وفى تلك الليلة أرسل كراى مملوكه على البريد إلى السلطان يعلمه بوصول قراسنقر إلى حلب، فرده السلطان وعلى يده كتاب يقول فيه: حال وقوفك على هذا الكتاب ترحل بطُلْبك ومعك الأمير سيف الدين بهادر آص وتجئ إلى دمشق حتى يجئ إليك التقليد، وتخلى بقية العساكر فى حلب إلى أن يجيئهم مرسوم ثان بما يعتمدون عليه، فلما قرأه كراى أوقف بهادر آص عليه، وتجهز للرحيل، ونادى به، ثم أرسل إلى قراسنقر وأخبره بأن مرسوم السلطان جاءه يأمره بالرواح إلى دمشق، وأن تتولى أنت أمر العساكر، ففرح قراسنقر بذلك.

ذكر توجه كراى إلى دمشق نائبًا بها

وفى صبيحة غده ركب كراى [٢٤١]، بطُلْبه، وركب قراسنقر بمماليكه وودع كراى، ثم رجع إلى حلب، وسار كراى ومعه بهادر آص.

وكان كراى رجلاً دينًا جيدًا، وأوصى لمماليكه وغلمانه وحاشيته أن لا يتعرضوا لأحد بغير حق، ولا يأخذوا من أحد شيئًا، وإذا جاب أحد شيئًا لا يأخذوه، ثم نزل على حمص فأخرجوا له الإقامات وأشياء كثيرة، فلم يقبل منها شيئًا، ثم طلب الذين أتوا بهذه الأشياء من الحكام وغيرهم، فأنكر عليهم بذلك، فقالوا: أنت مخدومنا الآن وخدمتك واجبة علينا، فقال لهم: ما عرفتم أن كراى لا يأخذ من أحد شيئًا، وكل من لا يسلك الطريقة المستقيمة لا

يلتقى منى خيرًا، ثم رحل من حمص، ولما قرب من دمشق قال لمماليكه وغلمانه: ها نحن قد وصلنا إلى[١] دمشق ، وأنا أقسم بالله العظيم أنه إذا بلغنى عن أحد منكم أنه تجوه[٢] على أحد، أو حمى شيئاً أو أخذ من أحد شيئًا، أو ظلم أحدًا، أو تعرض إلى أحد بغير حق، لأسمرنه على جمل، ولأعاقبنه عقابًا شديدًا.

ثم تلقته أهل دمشق من الأمراء المقيمين وبقية عسكرها، ومن الأعيان والحكام إلى القطيفة، ومعهم أنواع الحلاوات والفواكه، ومدوا له سماطًا هائلاً، فامتنع من الاكل، فقال له بهادر آص: كل واجبر خواطر الناس، فقال: مالى بهذا عادة، أنت قط رأيتنى أنى أكلت لأحد شيئًا، قال: لا والله،ثم رحل، ورأى أهل دمشق من الرجال [٢٤٢] والنساء مثل الجراد المنتشر، قد لاقوه بشموعات وأعلام، وقد أظهروا الفرح الزائد، فقال كراى: إش هذه البدعة؟ لا سيما خروج النساء، فقال بهادر آص: قد علموا ما فى الأمير من الدين والعدل والإنصاف وحسن السيرة، فلذلك لم يبق أحد من الكبار والصغار إلا وقد خرج لملتقاك فرحًا بك، ولما دخل المدينة نثروا عليه الذهب والفضة، ولما قرب من القصر بسطوا شقق الحرير تحت حوافر فرسه، ولما وصل القصر قالوا له تنزل هاهنا ؟ قال: لا ، بل ننزل فى دار الجاولى، وكانت إلى جانب الميدان، وفتح له الباب إلى الميدان فنزل فيها.

وفى تلك الليلة اجتمع أعيان الشام وأكابرها وجاؤوا إلى القاضى وقالوا له: نجمع من بيننا شيئًا ونقدمه إلى كراى على جارى العادة للنواب، فرأى القاضى ذلك مصلحة، فجمعوا من بينهم: مبلغ ألفى دينار، وشيئًا كثيرًا من الثياب الحرير، فأتوا بها وقدموها له: فقال لهم: ما هذا؟ فقالوا لأجل غلمان مولانا الأمير، لأنه جاء فى غير وقت المغل، وإقطاع المخدوم ما فيها شئ اليوم، فأقبل هذه منا واعذرنا، فدعا لهم وشكرهم، ثم قال لهم: خذوا، مالى بهذه حاجة، وأنا لا آخذ من أحد شيئًا، وما أحل الله لى أموالكم، وأنتم عندى أعز من نفسى ما دمتم على الاستقامة والصحبة، وقد بلغنى أن بعضكم يتقرب إلى النواب ويتجوه بهم ويفتح

(١) إلى: ملحقة بين الأسطر فى الأصل.
(٢) تجوه: تعظم أو تكلف، تاج العروس، مادة جوه.

أبواب الظلم، فيحصل بذلك حيف وعسف على الضعفاء المساكين، وأنا [٢٤٣] فما عندى شئ من ذلك، وأى من لا يمشى فى الطريق المستقيم عاقبته وأشهرته فى دمشق، ولو كان ولدى من صلبى، فخرجوا من عنده ولم يأخذ لهم شيئًا يساوى درهمًا.

ولما أصبح شرع فى الكشف عن الظلامات وخلاص الحقوق وإعانة المظلومين وردع المفسدين، وكان معه جماعة من الأجناد الصالحين فأعلموه بأن فى دمشق منكرات كثيرة، وفيها حانات عليها رنوك الأمراء تباع فيها الخمور والحشيش وفيها الخواطى، فلما سمع بذلك طلب حاجب الحجاب وأمره أن يدور على هذه المواضع ويبطلها، وأى مَنْ كان فيها يأخذه ويحلق ذقنه ويضربه ثم يشهره، وأى مَنْ تجوه أو يمانع فأعلمنى به.

فركب الحاجب وفعل ما أمر به.

وكان للأمير بيبرس المجنون زقاق فيه إصطبل تباع فيه الخمر، فجاء الحاجب إليه وسَدَّ باب الإصطبل، وأخرب الزقاق، ومسك كل من فيه من غلمان بيبرس وحلق ذقونهم وضربهم، ونادى عليهم : هذا [جزاء][١] من باع فى بلاد الإسلام خمرًا، فجاء بعضهم إلى بيبرس وأخبروه بذلك، فقال لهم: روحوا واسكتوا، فإن هذا النائب ما هو لعب، وهو نائب جديد، وربما يكاتب السلطان فينا فيخرب بيوتنا، وقد علمتم ما جرى على الأفرم.

ثم أرصد كراى أُناسًا يرصدون من يشترى خمرًا أو يبيع أو ينقل من موضع إلى موضع، أو [يرون][٢] سكرانًا [يمسكونه ويأتون][٣] به إليه، ثم طلب والى المدينة وقال له: إن أصبح [٢٤٤] أحد فى دمشق من المخنثين وسطتك، ولما سمعوا بذلك [وما يجرى][٤] عليهم، فهجُّوا من دمشق حتى لم يبق فيها أحد منهم.

ثم إنه طلب رؤساء الضياع التى يُعمل فيها الخمر، وتحول إلى دمشق وإلى غيرها،

(١) جزاه: فى الأصل.
(٢) ترون: فى الأصل.
(٣) تمسكونه وتأتون: فى الأصل.
(٤) يا ما جرى : فى الأصل.

فكتب عليهم إشهادات بالقسامات أن لا يَعْصر أحدٌ عنبًا للخمر، ولا يستعمل بضيعتها، فمن ظهر عليه بذلك كان عند ألف دينار لبيت مال المسلمين، بعد الضرب الشديد والتشهير.

ونشر العدل، ورفع الظلم، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر.

ثم طلب الولاة والدواوين والعمال، وقال لهم: بلغنى أنكم تأخذون الرشى والبراطيل، وتضيعون حقوق الناس، وأنا أقسم بالله العظيم أن أى مَنْ بلغنى عنه أنه أخذ من أحد درهمًا فردًا بغير حق قطعت يده.

قال الراوى: وبقيت مدة سبع شهور ما يعرف له مملوك، لقلة حرمتهم بين الناس، وأى من اشترى شيئًا من مماليكه يبيع له السُّوقى ما يساوى الدرهم بدرهمين، فشكى المماليك ذلك إلى كراى أستاذهم، فقال لهم: أما البيع والشراء فمراضاة، وأما الحرمة فتريدون منى أن أعمل مثل غيرى، وأدخل جهنم بسببكم؟ لا كان ذلك أبدًا، ونهاهم عن مخالطة الناس، وقال: لا جاه إلا جاه الله الدائم الباقى.

ذكر ما جرى على طوغان نائب البيرة

قد ذكرنا أن سيف الدين كراى كان قد مسك اسندمر [٢٤٥] الكرجى نائب حلب، وذلك قبل مجيئة إلى نيابة دمشق، وكان لما مسكه قال للأمراء: قد بقى أمر آخر وفيه خطر، نريد أن نفعله قبل فواته، فقالوا: ما هو؟ قال: اطلبوا إلى براج[١] حلب، فطلبوه، فحضر، فقال له: عندك حمام للبيرة؟ فقال: نعم، قال: هات لى نوبة حمام، فكتب لطوغان نائب البيرة كتابًا: أن فى النهار الذى وصلنا إلى حلب قبضنا على نائبها اسندمر، فهرب من مماليكه جماعة وطلبوا التعدية من الفرات، ووجهنا خلفهم أمراء وعربانًا، فحال وقوفك على الكتاب تنزل بمن معك من القلعة وتمسك المخائض، وإياك أن يفوتك فيقع عليك

(١) البراج: هو الذى يحمل بريد الحمام، أو يقدمه إلى السلطان، إلا أن كاتب السر هو الذى يقرأه، صبح الأعشى ٤٨٩/١٤.

الإنكار من الأبواب العالية.

وكان كراى قد كتب إلى والى الحجر فى البيرة، وللمقدمين بها: بأنى أنا واصل إليكم، فامسكوا طوغان وأنزلوه لى.

فلما جاء الحمام إلى طوغان، وقرأ الكتاب الذى هو معلق بالحمام، اصفر لونه، وتغير ذاته، حتى أنكر حاله كل من كان حوله، فقالوا له: مالك؟ فقال: قبضوا على أسندمر، فقال له ابنه: فماذا يكون العمل؟ قال: تركب الساعة، أنت وكل مَنْ فى القلعة، فيروح بعضكم إلى المخائض، وبعضكم إلى الطرقات، وإياكم أن يفوتكم أحد.

فركبت بحرية[١] القلعة مع ابن طوغان، والتركمان [الذين][٢] فى القلعة من مماليك طوغان، ولا بقى من البحرية لا كبير ولا صغير حتى خرجوا مع ابن طوغان، وباتوا تلك الليلة، فلما أصبحوا جاء خادم طوغان [٢٤٦] إليه، وأعلمه بأن شحنه الجسر، على الباب يذكر أن: كراى المنصورى قد وصل إلى الجسر، ومعه مقدار خمسمائة فارس، وهو يطلب العبور.

فلما سمع طوغان ذلك حار واندهش، ثم قال لمن حوله: ماذا تَرون من المصلحة؟ قالوا: الرأى رأيك، فقال: أنا ما أمكن أحدًا من العبور إلينا، فنخليهم ينزلون من ذلك الجانب، ونحن ننقل إليهم ما يحتاجون من المأكول والمشروب، فإن كان معه مرسوم السلطان بالعبور فليعبر.

فقال والى الحجر وأسباسلار [٣]: نحن ما نسمع هذا الكلام، تقول: خلوا كراى واقفًا هناك، وأمس مسك أسندمر، وهو أمين السلطان فى الشام.

---

(١) بحرية القلعة : المقصود حرس القلعة، ينظر المعنى الاصطلاحي للفظ " البحرية " : محمد مصطفى زيادة، بعض ملاحظات جديدة في تاريخ دولة المماليك بمصر، مجلة كلية الآداب جامعة فؤاد الأول (القاهرة) المجلد الرابع – الجزء الأول مايو ١٩٣٦.

(٢) الذى: فى الأصل.

(٣). أسبا سلار: تحريف عامى للفظ اسفهسلار، ومعناه فى الأصل مقدم العسكر، ينظر صبح الأعشى ٤٧٩/٣، ٤٨٣.

فقال طوغان: ويل لكم يا كلاب، مَنْ يحكم عَلَيَّ ويفتح الباب؟ فقال له والى الحجر: يا طوغان، راح الذى كنت فيه من الفشر والهذيان، ثم تواثبوا عليه مثل العقبان، فضرب بيده إلى سيفه، فهجموا عليه، وقبضوه، وقيدوه على باب داره، وأخذوا مفاتيح القلعة والجسر، وودوها إلى كراى، ومعهم طوغان مقيدًا، ولم يحضره كراى، [وتحدث][1] مع والى الحجر فيما جرى لهم معه.

ووقع بذلك فرح عظيم فى البيرة وبلادها، لأن طوغان قد زاد فجوره وطغيانه وفسقه فى حريم الناس وأولادهم، وكان إش امرأة[2] سمع بها أنها ذات حسن وجمال أرسل إليها وأخذها باليد، وإن كان لها رجال أهلكهم، حتى هتك حريمًا كثيرًا فى البيرة، فلما كان [٢٤٧] ذلك اليوم نزلت عليهم الرحمة، ووصل الخبر إلى ابنه ومماليكه، وكانوا على المخائض، وطلبوا الهروب إلى التتار، ومنعهم سليمان بن مهنا.

وأما كراى فإنه أمر لوالى الحجر أن يحكم فى البيرة إلى أن يجيئها النائب، ثم سار طالبًا حلب، ووصل ابن طوغان ومن معه، فلم يمكنوهم من الطلوع إلى القلعة.

وأما كراى فإنه وصل إلى حلب، وحال وصولهم جهز طوغان مع أميرين من المصريين إلى السلطان، وكتب معهم مطالعة يقول فيها: قبضنا أعداء مولانا السلطان بسعادته، وهذا وقت المغل، والأجناد ضعفاء يسألون حسن النظر الشريف فى حالهم، وأقام ينتظر الجواب، ثم بعد ذلك جاء قراسنقر نائب دمشق إلى حلب نائبًا بها، وتوجه كراى إلى دمشق نائبًا كما ذكرناه مفصلاً[3].

ثم فى يوم من الأيام جاء طوغان نائب البيرة من مصر، ومعه توقيع السلطان بشد دمشق، فأعرض توقيعه على كراى واستمر به، ولكنه تعجب من أمره عجبًا شديدًا، وقال: يا لله العجب، هذا قد راح إلى مصر فى قيد، وفعل فى البيرة ما لم يفعله أحد، ثم رضى

(١) وحدث: فى الأصل
(٢) المقصود: أى إمرأة.
(٣) ينظر ما سبق ص١٩٠.

عليه السلطان وولاه وظيفة، إن هذا أمر عجيب.

ذكر قضية أمير موسى بن الملك الصالح

قال ابن كثير: وفيها بلغ السلطان أن بتخاص حَسَّن للأمير موسى(١) الخروج على عمه الملك الناصر، وطلب المُلك لنفسه، واتفقا [٢٤٨] على ذلك، واعتضد بالمماليك المظفرية الركنية، وكانوا متفرقين عند الأمراء، وتقرر معهم أن يثب كل مملوك على الأمير الذى هو عنده فيقتله، فطلب السلطان بتخاص، وكان ساكنا بالقلعة، ففهم بالأمر، فأغلق داره وامتنع بها، وصعد مماليكه على أعلى الدار بالقسى للممانعة، وقصد هو خلع الشباك الحديد والخروج منه، فوجه السلطان جماعة من الوشاقية (٢) وغيرهم، فوقفوا تحت الشباك، وآخر حاله أنه أُحضر فقُبض عليه.

ثم طلب الأمير موسى، ابن أخيه الملك الصالح، فهرب، واشتد الأمر فى طلبه، ثم ظفروا به عند بلبان استادار سيف الدين قطز بن الفارقانى بحارة زويلة، فقُبض عليه، وعلى الذى وُجد عنده، وأحضر بين يدى السلطان، فأمر بتشهير الذى أخفاه، فسُمِّر وطيف به على جمل، ثم وقعت الشفاعة فيه فأُطلق، وقرر أمير موسى وبتخاص فأقرا على جماعة من المماليك المظفرية، فقُبض عليهم، وأدخل أمير موسى إلى بعض قاعات القصر، وأشيع أنه سفره إلى(٣) اليمن، ثم أظهر موته فى العشر الأول من صفر سنة ثلاث عشرة(٤)، وأمر بعمل عزائه (٥).

(١) هو: موسى بن على بن قلاوون، أشيع موته سنة ٧١٨هـ/١٣١٧م، الدرر الكامنة ١٤٨/٥- ١٤٨، رقم ٤٨٨٧، وينظر أعيان العصر ٤٨٠/٥ رقم ١٨٩٤.
(٢) الوشاقية = الأوجاقية: أوشاق- أجاق: الذى يتولى ركوب الخيل للتسيير والرياضة، صبح الأعشى ٤٥٤/٥.
(٣) وأمر بعمل عزائه: فى الأصل، وهو سبق نظر مما يلى:
(٤) ينظر هامش (٢) بالصفحة السابقة .
(٥) لم يرد هذا الخبر فى المطبوع من البداية والنهاية، وينظر ما ورد فى التحفة الملوكية ٢٢٤.

وفيها بلغت زيادة النيل[١].

وفيها حج بالناس الأمير علاء الدين الشمسى التليلى [٢] بالركب المصرى، وبالركب الشامى الأمير زين الدين كتبغا [٣] رأس نوبة المنصورى .

(١) في هذه السنة لم يحرر الماء القديم، ومبلغ الزيادة ثماني عشرة ذراعًا وثلاث أصابع، وكان وفاء النيل يوم النيروز، ينظر النجوم الزاهرة ٢١٧/٩، تقويم النيل ١٧٢/١-١٧٣.

(٢) هو: أيدغدى التليلى، مات بطالا بدمشق سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٨م، الدرر الكامنة ٤٥٤/١، رقم ١١١٥.

(٣) هو: كتبغا، الأمير زين الدين، صاحب الشام، توفى سنة ٧٢١هـ/١٣٢١م، الوافى بالوفيات ٣٢٠/٢٤، رقم ٣٣٦، المنهل الصافى ١١٨/٩، رقم ١٩٠٥.

ذكر من توفى فيها من الأعيان

● [٢٤٩] قاضى القضاة العلامة شمس الدين أبوالعباس أحمد[١] بن إبراهيم بن عبدالغنى بن أبى اسحاق السروجى الحنفى.

تفقه على القاضى صدر الدين سليمان[٢] بن أبى العز بن وهيب، وعلى أبى الطاهر اسحاق[٣] بن على بن يحيى الشيخ نجم الدين وصاهره، وولى الحكم بمصر مدة، وعزل قبل موته بأيام.

وكان بارعًا فى علوم شتى، وله اعتراضات على ابن تيمية فى علم الكلام، ووضع شرحًا على الهداية[٤] وسماه: الغاية، ولم يكمله، ولو كمل هذا لكان يحصل به الاستغناء عن شروح الهداية كلها وعن غيرها، فإنه سلك طريقة لم يسلكها أحد قبله.

وولد سنة تسع، وقيل سبع، وثلاثين وستمائة، وتوفى يوم الخميس الثانى والعشرين من ربيع الآخر[٥] من هذه السنة، بالمدرسة السيوفية[٦]، ودفن من يومه بتربته بقرافة مصر، جوار قبة الإمام الشافعى، رضى الله عنه.

---

(١) وله أيضًا ترجمة فى: نهاية الأرب ١٧٢/٣٢، تاريخ البرزالى ٤٦٦/٣ رقم ١١٠٣، تالى كتاب وفيات الأعيان ٨ رقم ٧، الوافى بالوفيات ٤٩/٣٠، رقم ٦٨، أعيان العصر ١٥٩/١ رقم ٧٠، تذكرة النبيه ٣١/٢، تاج التراجم ١١ رقم ٢٥، البداية والنهاية ١٠٧/١٨، الدر الكامنة ٩٦/١ رقم ٢٤١، المقفى الكبير ٣٤٨/١ رقم ٤٠٩، السلوك ٢/ ٩٤ ، النجوم الزاهرة ٩/ ٢١٢ ، المنهل الصافى ٢٠١/١ رقم ١٠٢.

(٢) توفى سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٨م، ينظر الوافى بالوفيات ٤٠٤/١٥ رقم ٥٥٢، المنهل الصافى ٥٧/٦ رقم ١١٠١.

(٣) توفى سنة ٧١١هـ/١٣١١م، الدرر الكامنة ٣٨١/١، رقم ٨٩٢، المنهل الصافى ٣٦٣/٢ رقم ٤٠٩

(٤) هو كتاب: الهداية- فى الفروع، لشيخ الإسلام على بن أبى بكر المرغينانى الحنفى، المتوفى سنة ٥٩٣هـ/١١٩٦م، شرحه السروجى فى مجلدات ولم يكمله، ثم أكمله القاضى محمد الديرى المتوفى سنة ٨٦٧هـ/١٤٦٢م، ينظر كشف الظنون ٢٠٣١/٢- ٢٠٣٣.

(٥) يوم الخميس ثالث عشرى رجب : فى السلوك ٩٤/٢ .

(٦) المدرسة السيوفية : أوقفها السلطان صلاح الدين الأيوبي على الفقهاء الحنفية سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م، ينظر المواعظ والاعتبار المجلد الرابع ٤٦٠.

• الشيخ كريم الدين أبوالقاسم عبدالكريم[١] بن الحسين الأملى شيخ الشيوخ بالديار المصرية.

وكان عنده تجريد، وله وصلة بالأمراء والدولة، وعُزل مرة بابن جماعة، ثم أعيد.

وكانت وفاته ليلة السبت سابع [٢] شوال بخانقاه سعيد السعداء، وتولى بعده علاء الدين القونوى[٣] .

• الشيخ الإمام العالم العلامة نجم الدين أحمد [٤] بن محمد بن الرفعة.

وإليه كانت حسبة مصر، وكان مشارًا إليه فى مذهب الشافعى، وله من المصنفات [٢٥٠] كتاب النبيه فى شرح التنبيه[٥]، وغير ذلك.

قلت: شرح التنبيه فى اثنى عشر مجلدًا [٦]، وله شرح الوسيط [٧] فى أربعين مجلدًا.

توفى فى ثامن عشر رجب، ودفن بالقرافة، ولم يزل محتسبًا بمصر إلى أن مات،

(١) وله أيضًا ترجمة فى نهاية الأرب ١٧٤/٣٢، البداية والنهاية ١٠٨/١٨، الوافى بالوفيات ٧٧/١٩ رقم ٧٣، أعيان العصر ١٣٣/٣ رقم ١٠٢٢ ، السلوك ٩٥/٢ ، الدرر الكامنة ١٠/٣رقم ٢٤٨٠، المنهل الصافى ٣٣٥/٧ رقم ١٤٧٠ .

(٢) تاسع : فى السلوك ٢/ ٩٥ .

(٣) هو: على بن إسماعيل بن يوسف القونوى الشافعى، توفى بدمشق سنة ٧٢٩هـ/١٣٢٨م، تذكرة النبيه ٢/ ١٩٢ .

(٤) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٤٨٣/٣ رقم ١١٦٠ ، نهاية الأرب ١٧٤/٣٢، البداية والنهاية ١٠٨/١٨، الوافى بالوفيات ٣٩٥/٧ رقم ٣٣٩٢، أعيان العصر ٣٢٤/١ رقم ١٦٩ الدرر الكامنة ٣٠٣/١ رقم ٧٣٠، تذكرة النبيه ٢٣/٢، المقفي الكبير ٦٢٣/١ رقم ٦٠٩، السلوك ٢/ ٩٤ ، النجوم الزاهرة ٩/ ٢١٣ ، المنهل الصافي ٨٢/٢ رقم ٢٥٦.

(٥) هو كتاب : التنبيه، في فروع الشافعية للشيخ إبراهيم بن علي الشيرازي، المتوفى سنة ٤٧٦هـ/١٠٨٣م، ينظر كشف الظنون ٤٨٩/١ وما بعدها.

(٦) خمسة عشر مجلدًا: فى الوافى بالوفيات ٣٩٥/٧.

(٧) هو كتاب: شرح الوسيطً للإمام الغزالى، وهو فى فقه الإمام الشافعى، وشرحه ابن الرفعة فى ستين مجلدًا، ينظر كشف الظنون ٢٠٨/٢.

رحمه الله.

● القاضى شهاب الدين أحمد[1] بن علاء الدين على بن عبادة.

كان من أعيان الكتاب، وكان اختص بالملك الناصر وولى وكالته والنظر على خاصته بالديار المصرية والبلاد الشامية.

مات فى هذه السنة[2]، وتولى بعده كريم الدين أبوالفضل عبدالكريم[3] بن العلم بن السديد، أحد كتاب الأقباط، وكان قبل ذلك صاحب ديوان الركن الجاشنكير.

● الفقيه الكبير عز الدين [عبدالعزيز][4] بن عبدالجليل النمراوى الشافعى

كان فاضلاً بارعًا، صاحب سلار وارتفع بسببه، مات فى هذه السنة[5].

● القاضى عز الدين الحسن[6] بن الحارث بن مسكين القرشى الزهرى الشافعى.

توفى بمصر بداره ليلة السبت ثامن جمادى الأولى، ودفن بالقرافة.

وكان من أعيان فقهاء الشافعية، وكان مدرسًا بالشافعى، وعُين لقضاء الشام فامتنع منه تزهدًا، رحمه الله.

---

(١) وله أيضًا ترجمة فى: نهاية الأرب ١٧٣/٣٢، تاريخ البرزالى ٤٧١/٣ رقم ١١١٧، تالى كتاب وفيات الأعيان ٣٣ رقم٤٥، الوافى بالوفيات ٢٤٥/٧ رقم ٣٢١٠، الدرر الكامنة ٢١٠/١ رقم ٥٤٣ ، السلوك ٩٥/٢ .

(٢) ليلة الأحد سادس عشر جمادى الأولى : فى تاريخ البرزالى .

(٣) هو: عبد الكريم بن هبة الله بن السديد المصرى، قتله الملك الناصر سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣م، الدرر الكامنة ١٥/٣ رقم ٢٤٩١، المنهل الصافى ٣٤٥/٧ رقم ١٤٧٥.

(٤) إضافة للتوضيح.

وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٤٩٤/٣ رقم ١١٨٨، البداية والنهاية ١٠٨/١٨، أعيان العصر ٣/ ٩٩ رقم ٩٨٧ ، الدرر الكامنة ٤٨١/٢ رقم ٢٤٣١، السلوك ٩٤/٢.

(٥) فى تاسع ذى القعدة: فى تاريخ البرزالي ، أعيان العصر .

(٦) وله أيضًا ترجمة فى: نهاية الأرب ١٧٢/٣٢، تاريخ البرزالى ٤٧٠/٣ رقم ١١١٣، تذكرة النبيه ٢٤/٢.

● القاضى بدر الدين أبو البركات عبد اللطيف[١] بن قاضى القضاة تقى الدين محمد بن الحسين بن رُزين الحموى.

توفى يوم الأحد الثامن والعشرين من جمادى الآخرة بالقاهرة[٢]، ودفن عند والده بالقرافة، وولد بدمشق سنة تسع وأربعين وستمائة، وكان قاضى العسكر.

● القاضى بهاء الدين عبد الرحمن[٣] [٢٥١] بن الخطيب عماد الدين على بن [السكرى][٤].

توفى بمصر ليلة السبت حادى عشر رجب، ودفن بالقرافة فى حياة والده.

● الشيخ بهاء الدين أبو الحسن على[٥] بن الفقيه عيسى بن سليمان بن رمضان الثعلبى المعروف بابن القيم.

توفى بالقاهرة يوم السبت السادس والعشرين من ذى القعدة، ودفن بالقرافة، وكان قد انفرد بالرواية عن الشيخ شمس الدين الفارسى[٦]، وكان ناظر الأحباس، وولى التركة الظاهرية، وصاهر الصاحب بهاء الدين بن حنا[٧].

ولد سنة ثلاث عشرة وستمائة، وكان صحيح العقل والحواس.

---

(١) وله أيضًا ترجمة فى: نهاية الأرب ١٧٢/٣٢، تاريخ البرزالى ٤٧٦/٣ رقم ١١٣٨، تالى كتاب وفيات الأعيان ١٢٤ رقم ١٩٣، الوافى بالوفيات ١١٧/١٩ رقم ١٠٢، الدرر الكامنة ٢٣/٣ رقم ٢٥٠٠.

(٢) ورد ذكر وفاة صاحب الترجمة سنة ٧١١هـ : فى شذرات الذهب ٢٦/٦.

(٣) وله أيضًا ترجمة فى: نهاية الأرب ١٧٤/٣٢، تاريخ البرزالى ٤٨٢/٣ رقم ١١٥٦، الدرر الكامنة ٤٤٤/٢ رقم ٢٣٢٧، السلوك ٩٦/٢.

(٤) السكر: فى الأصل، والتصويب من مصادر الترجمة .

(٥) وله أيضًا ترجمة فى: نهاية الأرب ١٧٥/٣٢، تاريخ البرزالى ٤٩٤/٣ رقم ١١٨٩، الوافى بالوفيات ٣٧١/٢١ رقم ٢٤٣، أعيان العصر ٤٦٩/٣ رقم ١١٩٩، السلوك ٢/ ٩٦ ، الدرر الكامنة ١٦٤/٣ رقم ٢٨٣٤.

(٦) هو: محمد بن إبراهيم بن أحمد الفارسى، المتوفى سنة ٦٢٢هـ/١٢٢٥م، العبر ٩١/٥.

(٧) هو على بن محمد بن سليم، بهاء الدين بن حنا، وزير السلطان الملك الظاهر بيبرس، والمتوفى سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٨م، ينظر عقد الجمان ٢٠٧/٢، المنهل الصافى ١٥٠/٨ رقم ١٦٣٢.

● الصاحب أمين الدين أبو بكر[(١)] بن الوجيه عبد العظيم بن يوسف المعروف بابن الرقاقى[(٢)]، ناظر الدواوين بديار مصر.

مات ليلة الأحد الثالث والعشرين من جمادى الأولى، ودفن بتربته بالقرافة، وكان دينًا خيرًا كثير الإحسان إلى الناس.

● الشيخ الإمام العالم شهاب الدين أبو العباس أحمد[(٣)] بن شرف الدين حسن بن عبد الله بن عبد الغنى بن عبد الواحد المقدسى الحنبلى.

مات بداره بدير الحنابلة[(٤)] بسفح قاسيون، ودفن بتربة الشيخ أبي عمر[(٥)].

كان من أعيان الحنابلة، ودرس بالصالحية، وولى الإمامة بمحراب الحنابلة بالجامع الأموى، وولى أيضًا قضاء القضاة بالشام.

ومولده فى المحرم سنة ست وخمسين، ومات فى ربيع الأول منها[(٦)].

● الشريف شمس الدين محمد[(٧)] بن على بن أبي طالب، المعروف بعطوف العطار.

---

(١) وله أيضًا ترجمة فى: نهاية الأرب ١٧٣/٣٢، تاريخ البرزالى ٤٧١/٣ رقم ١١١٩، البداية والنهاية ١٠٧/١٨، الوافي بالوفيات ٢٣٧/١٠ رقم ٤٧٢٩، الدرر الكامنة ٤٧٨/١ رقم ١١٩٢، السلوك ٢/ ٩٥ ، المنهل الصافي ٢٨٩/١٢ رقم ٢٧٦١.

(٢) ابن الدقاق: فى تاريخ البرزالى.

(٣) وله أيضًا ترجمة فى : تاريخ البرزالى ٤٦٣/٣ رقم ١٠٩٧، الدرر الكامنة ١٢٨/١ رقم ٣٣٣، وينظر الدارس ٣٧/٢- ٣٨.

(٤) دير الحنابلة: فى الناحية الشرقية لجبل قاسيون بصالحية دمشق، كان ديرا لجماعة من الرهبان، فاتفق أنهم أحدثوا أمرًا فأخرجوا منه، يراجع خطط الشام ٢٩/٦.

(٥) هو محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسى، الشيخ أبوعمر، المتوفى سنة ٦٠٧هـ/١٢١٠م، ينظر ما ورد عن جامع الجبل المشهور بجامع الحانبلة، وبالمظفرى، بسفح قاسيون بدمشق، فى الدارس ٤٣٥/٢، وما بعدها، العبر ٢٥/٥.

(٦) توفى ليلة الأربعاء التاسع والعشرين من شهر ربيع الأول : في تاريخ البرزالي.

(٧) وله أيضًا ترجمة فى : المقفي الكبير ٣٠١/٦ رقم ٢٧٦١، السلوك ٢/ ٩٥ ، الدرر الكامنة ١٨٥/٤ رقم ٤٠٥٤.

[٢٥٢] مات فى هذه السنة (١) ودفن خارج باب النصر.

وكانت روايته عالية، روى صحيح مسلم عن المشايخ الاثنى عشر، وله إجازات عوال من بغداد وغيرها.

- **الشيخ كمال الدين إسحاق (٢) بن أبى بكر بن إبراهيم بن هبة الله بن طارق النحاس الأسدى.**

مات بدمشق(٣)، ودفن بمقابر الباب الصغير.

كان كثير السماع، وحدث به، وجاوز الثمانين سنة.

- **القاضى جلال الدين أبو المحاسن يوسف (٤) بن سعد بن الحسن النابلسى الأصل، الدمشقى، الشافعى.**

كان فقيهًا فاضلاً، وله سماع كثير، سمع: الشرف المرسى، والإسفرائنى، وشيخ الشيوخ الحموى، وابن عبدالدايم.

مات ببعلبك(٥) ودفن بباب سطحا.

- **القاضى الإمام محى الدين يحيى (٦) بن صالح بن عتيق الزواوى المالكى.**

مات بالمدرسة الشرابشية(٧) بدمشق، وصُلِّى عليه يوم عيد الفطر، ودفن بمقبرة

---

(١) خامس جمادي الآخرة : في المقفي الكبير،السلوك ٢/ ٩٥ ، وورد : مات فى جمادى الأولى ٧٢٠هـ : فى الدرر الكامنة.

(٢) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٤٨٦/٣ رقم ١١٦٨، تذكرة النبيه ٢٣/٢، الدرر الكامنة ٣٧٩/١-٣٨٠ رقم ٨٨٨، المنهل الصافى ٣٥٦/٢- ٣٥٧ رقم ٤٠٣.

(٣) ليلة السبت السادس عشر من شهر رمضان : في تاريخ البرزالي.

(٤) وله أيضًا ترجمة في : تاريخ البرزالي ٤٨٧/٣ رقم ١١٧٠، الدرر الكامنة ٢٥٨/٥ رقم ٥١٨٨.

(٥) في الخامس والعشرين من رمضان : في تاريخ البرزالي.

(٦) وله أيضًا ترجمة في : تاريخ البرزالي ٤٨٨/٣ رقم ١١٧٢، أعيان العصر ٥٦٠/٥ رقم ١٩٣٨، الدرر الكامنة ١٩١/٥ رقم ٥٠١٣.

(٧) المدرسة الشرابشية بدمشق : بدرب الشعانين داخل باب الجابية، أنشأها شهاب الدين بن نور الدولة بن محاسن الشرابيشي، التاجر السفار، ينظر الدارس ٤٩٤/١.

الشريف زين الدين بن عدنان، بالقرب من مسجد الريان[(١)].

كان فقيهًا فاضلاً، ناب عن قاضى القضاة جمال الدين المالكى[(٢)] بدمشق، وكان متواضعًا دينًا.

- **الحكيم الفاضل عفيف الدين عمران[(٣)] بن على بن عمران الدمشقى الفراء.**

مات فيها[(٤)]، ودفن بقاسيون، وكان طبيبًا جيدًا، عاقلاً، يحب الفقراء ويصحبهم، صحب ابن هود[(٥)] ودخل معه اليمن، وكان كثير الأمراض.

- **الشيخ الإمام العالم رضى الدين أبوبكر[(٦)] بن محمود بن أبى بكر الرقى الحنفى، المعروف بالمقصوص.**

مات بدمشق، ودفن [٢٥٣] بالباب الصغير.

كان فقيهًا فاضلاً، عالمًا، وله اشتغال بعدة علوم، درس بالمدرسة العزية[(٧)] بالشرف الشمالى ظاهر دمشق إلى حين وفاته.

- **الشيخ الزاهد العابد شمس الدين محمد[(٨)] الكردى، المعروف باللاوى، المقيم بحرم القدس الشريف.**

مات فى ذى الحجة، كان من الصلحاء المجتهدين فى العبادة، رحمه الله.

---

(١) لعله مسجد الذبان خارج باب الجابية بدمشق، ينظر الدارس ١٨١/٢، ٦٢٦.

(٢) هو : محمد بن سليمان بن سومر البربري الزواوي المالكي، المتوفى سنة ٧١٧هـ/١٣١٧م، ينظر الوافي بالوفيات ١٣٧/٣ رقم ١٠٧٩، البداية والنهاية ١٧١/١٨.

(٣) وله أيضًا ترجمة في : تاريخ البرزالي ٤٨٩/٣ رقم ١١٧٤.

(٤) ليلة الثلاثاء عاشر شوال : في تاريخ البرزالي.

(٥) هو : حسن بن علي بن يوسف بن هود المرسي، الشيخ الزاهد، المتوفى سنة ٦٩٩هـ/١٢٩٩م، العبر ٣٩٧/٥، تذكرة النبيه ٢٣١/١، وينظر عقد الجمان ١٠٩/٤-١١٣.

(٦) وله أيضًا ترجمة في : النجوم الزاهرة ٢١٣/٩.

(٧) المدرسة العزية البرانية : وقفها بالشرف الأعلى شمالي ميدان القصر خارج دمشق الأمير عز الدين أيبك أستادار المعظم المعروف بصاحب صرخد، المتوفى سنة ٦٤٥هـ/١٢٤٧م، الدارس ٥٥٠/١ وما بعدها.

(٨) وله أيضًا ترجمة في : تاريخ البرزالي ٤٩٥/٣ رقم ١١٩١.

● الشيخ الإمام العلامة قطب الدين محمود[(١)] بن مسعود الشيرازى.

كان فاضلاً فى العلوم الفلسفية والأصول والمنطق والحكمة، وله فى ذلك مصنفات[(٢)]، وولى قضاء الروم مدة، ولم يباشر، لكن كان له نواب فى البلاد، وكانت له إطلاقات وإدارات على ملوك التتار والأمراء وغيرهم.

وكان من تلامذة النصير الطوسى[(٣)]، وبنى له بتبريز تربة، أنفق عليها جملة من الأموال ودُفن بها، وأغلق البلد يوم وفاته[(٤)].

وكان قاضيًا لحوائج الناس، وله الجاه العريض عند ملوك الشرق، وخلف جملة كثيرة من المال، وكان قد بلغ الثمانين[(٥)].

● الشيخ الفاضل الأديب شهاب الدين أحمد[(٦)] بن عبد الملك بن عبد المنعم بن عبد العزيز العزازى.

التاجر بقيسارية جركس[(٧)]، الشاعر المشهور.

مات فى هذه السنة، ودفن بسفح المقطم.

---

(١) وله أيضًا ترجمة في : تاريخ البرزالي ٤٨٧/٣ رقم ١١٧١، الوافي بالوفيات ٣٦٢/٢٥ رقم ١٩٨، أعيان العصر ٤٠٩/٥ رقم ١٨٤٨، الدرر الكامنة ١٠٨/٥ رقم ٤٧٨٥، السلوك ٢/ ٩٦ ، النجوم الزاهرة ٩/ ٢١٣ ، المنهل الصافي ٢٢٤/١١ رقم ٢٥٠٠.

(٢) ينظر هدية العارفين ٤٠٦/٢.

(٣) هو : محمد بن محمد بن الحسن الطوسي، نصير الدين، المتوفى سنة ٦٧٢هـ/١٢٧٣م، ينظر العبر ٣٠٠/٥، المنهل الصافي ٢٧/١١ رقم ٢٣٤٤.

(٤) رابع عشري شهر رمضان: في أعيان العصر.

(٥) ولد في صفر ٦٣٤هـ بمدينة شيزر : في الدرر الكامنة.

(٦) وله أيضًا ترجمة في : الوافي بالوفيات ١٤٨/٧ رقم ٣٠٧٩، فوات الوفيات ٩٥/١ رقم ٤١، المقفي الكبير ٥٠٩/١ رقم ٤٩٤، السلوك ٢/ ٩٥ ، الدرر الكامنة ٢٠٥/١ رقم ٤٩٧، النجوم الزاهرة ٩/ ٢١٤ ، المنهل الصافي ٣٦٢/١-٣٧٣ رقم ١٩٦.

(٧) قيسارية جهاركس بالقاهرة : أنشأها الأمير جهاركس بن عبد الله الناصري سنة ٥٩٢هـ/١١٩٥، ينظر المواعظ والاعتبار، المجلد الثالث ٢٨٩-٢٩٤.

كان متقدمًا فى فنه، مطبوعًا، جيد النظم فى الشعر والموشحات والأزجال، ومن شعره:

[٢٥٤] تعشقته ساحر المُقلتين ... كبدر يلوحُ وغصن يميلُ
إذ احمرَّ من وجنتيه الأسيل ... واحور من مقلتيه الكحيل
فقل [للشقائق][1] ماذا ترين ... وللنرجس الغض ماذا تقول
وقالوا: ذبول بأعطافه ... فقلت: يزين القناة الذبول
وعابوا تمرض أجفانه ... فقلت: أصح النسيم العليل

وكتب إلى ناصر الدين بن النقيب[2] ملغزا فى شَبَّابه أحسن فيه كل الإحسان:

وما صفراء شاحبة ولكن ... يزينها النضارة والشباب
مُكتَّبة وليس لها بنان ... منقبة وليس لها نقاب
تصيخ[3] لها إذا قبلت فاها ... أحاديثا تلذ وتستطاب
ويحلو المدح والتشبيب فيها ... وما هى لا سُعاد ولا الرباب

فأجابه ناصر الدين عن قوله :

أنت عجمية أعربت عنها ... لسلمان يكون لها انتساب

---

(١) للشايق : في الأصل، والتصويب من الوافي بالوفيات ١٥٠/٧.
(٢) هو : الحسن بن شاور بن طرخان الكناني، المعروف بابن النقيب، المتوفى سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م، ينظر عقد الجمان ٣٧٦/٢، المنهل الصافي ٨١/٥ رقم ٩٠١.
(٣) يصيخ : استمع وأنصت لصوته : لسان العرب، مادة صيخ.

وتفهم ما تقول ولا سؤال إذا حققت ذاك ولا جواب
يكاد لها الجماد يهز عطفا ويرقص فى زجاجته الحباب

وله :

إن كنت تقبلنى عبدًا بلا ثمن رأيتها مِنَّه من أعظم المنن
يا معرضًا عن عتابى فى محبته كمثل إعراض أجفانى عن الوسن
[٢٥٥] ولم يمر له شخص على بصرى لكن أحاديثه مرت على أذنى

وله موشح :

يا فؤادى ذُب بنار الحسرات دون هاتيك الثنايا الخفرات
أنا مفتون بمعسول اللما فضح الغيد وأزرى بالدما
كيف يروى ما بقلبى من ظما

وأرى ناظره بالرشفات ما نعى من سلسبيل الرشفات
وشادن حلو مذاق القبل قد تحلى جيده بالعطل
ذو جفون ساحرات المقل

قتلت عشاقها بالفترات ألها عند المحبين ترات
خصره ألبسنى ثوب الضنا وجنى فيه على ضعفى جنى
كلما هَزَّ قوامًا ورَنَى

أَخَـذَت عنـه الغـصون الثغـرات واسـتعار الظـبى منـه النظـرات

[٢٥٦] قمرى الوجه ليلى الشعر سحـرى النـشر سحـرى النظـر

نرجسى اللحـظ وردى الخـفر

كتبـت أصـداغُه فى الوجـات لا سـبيل لا سـبيل للحيـاة

يا شـقيق البـدر بـدر الظـلم هـب جفـونى زورة فى الحـلم

وَانَـه أحداقـك من سـفك دمى

أنا أخـشاها ولا أخـشى الكـماة أرى فيـها حيـاتى ومـماتى

لـيس مـع حَيَّـات صـدغك حيـاه فاشف حر الوجد من بـرد الشفاه

وأوف لى بالوعـد من قبـل الوفـاه

ومـتى لم تـوف لى منـك العـدات بلغـت مـنى أمانيـها العُـداة

● الحكيم الأديب الخليع شمس الدين محمد [١] بن دانيال الموصلى.

صاحب الكتب الغريبة[٢] والنوادر العجيبة، وهو مصنف كتاب: طيف الخيال.

وكان كثير المجون والخلاعة، وكان له دكان كحال داخل باب الفتوح، وكان أعجوبة فى

(١) وله أيضًا ترجمة في : تاريخ البرزالي ٤٧٧/٣ رقم ١١٣٩، تالي كتاب وفيات الأعيان ١٥٨ رقم ٢٦٣، الوافي بالوفيات ٥١/٣ رقم ٩٥١، مسالك الأبصار ١٥٣/١٩ رقم ١٨، فوات الوفيات ٣٣٠/٣ رقم ٤٤٣، المقفي الكبير ٦٣٩/٥ رقم ٢٢٣٠، السلوك ٢/ ٩٥ ، الدرر الكامنة ٥٤/٤ رقم ٣٦٨٥، النجوم الزاهرة ٩/ ٢١٥ ، المنهل الصافي ٤٦/١٠ رقم ٢١٣٦.

(٢) ينظر هدية العارفين ١٤١/٢.

النوادر [٢٥٧] والأجوبة.

ولد بالموصل سنة سبع وأربعين وستمائة، ومات فى الثامن والعشرين[(١)] من جمادى الآخرة منها بمصر.

ومن شعره:

قـــد عقلنـــا والعقـــل أى وثاق، وصـــبرنا والـــصبر مـــر المـــذاق،
كل مـــن كان فاضـــلاً كان مـــثلى فاضـــلاً عنـــد قـــسمة الأرزاق

ولـه:

مـــا عاينـــت عينـــاى عطلـــتى أيْـــشَم[(٢)] مـــن حظـــى ومـــن بختـــى
قـد بعـت عبـدى وحـمارى[(٣)] وقـد أصـــبحت لا فـــوقى ولا تحـــتى

وله فى أقطع:[(٤)]

وأقطـــــــــع قلـــــــــت له "هـــل أنـــت"[(٥)] لـــص أو حـــد
فقـــــال تـــــلك[(٦)] صـــــنعة مـــا عـــاد[(٧)] لى فيهـــا يـــد

(١) مات في ١٢ جمادي الآخرة : في الدرر الكامنة ٦٥/٤.
(٢) أقل : في الوافي بالوفيات ٥٣/٣، النجوم الزاهرة ٩/ ٢١٥ ، المنهل الصافي ٤٧/٠.
(٣) وحصاني : في الوافي بالوفيات، النجوم الزاهرة ٩/ ٢١٥ ، المنهل الصافي.
(٤) وله في الزئبق الأقطع : في الوافي بالوفيات، المنهل الصافي ٤٨/١٠.
(٥) أأنت : في الوافي بالوفيات ٥٤/٣.
(٦) هذي : في الوافي بالوفيات، التجوم الزاهرة ، المنهل الصافي.
(٧) لم يبق : فى النجوم الزاهرة .

وصحبه ولد القسيس المَلْكِي [1]، وكان جميل الصورة فخاف والده عليه، فكتب إليه:

قـــــل للقـــــسيس يومًـــــا والـــــورى يفهـــــم قـــــصدى
مـــا الذى أنكـــرت مـــن نجـــلك إذا خلـــــــــــص ودى
خفـــــت أن يَـــــسْلَمَ عنـــــدى هـــــو مـــــا يُـــــسْلِم عنـــــدى

وقال فى الحشيش:

قل للذى ترك الحشيشة جاهلاً وله بكاســـات المـــدام وُلُـــوع
[٢٥٨] إن المدامـــــة إن أردت تطوعًـــــا لهـــى المحـــرم والحـــشيش ربيـــع

ولـه:

قـــل لـــلذى غـــدت جـــوائز مـــدحهم رقعًـــا عـــلى ذى عـــشرة مُـــدَّاق
جينـــــاكم بالكـــــذب فى أوراقنـــــا فـــــأجزتم بالكـــــذب فى الأوراق

ولـه:

قـــد قـــام ناعـــى الدجى عـــلى ســـاق يا حـــاسى الكـــأس نبِّـــه الـــسَّاقى
وبَـــشَّرت بالـــصباح ســـاجعة خـــضيبة الكـــف ذات أطـــواق
ورقـــاء تـــشدو بعودهـــا طـــربًا محجوبـــة منـــه بـــين أوراق

---

(١) القسيس : مرتبة من مراتب رجال الدين المسيحي، الملكي : نسبة إلى طائفة مسيحية عرفت باسم النصارى الملكية: ينظر صبح الأعشى ٤٧٣/٥، المواعظ والاعتبار، المجلد الرابع ١٠٥٥.

وللصبا فى الرياض إذا نعس		النرجس بالطّل مشى سَرَّاق
فاغتنم العمر فى أوائله		فلست تدرى أواخر الباق

- الطواشى شهاب الدين مرشد [١] الخازندار المنصورى.

كان كبير الخازندارية، وزمام الآدر الشريفة السلطانية، وشيخ الخدام [٢٥٩] النبوية، وناظر المارستان المنصورى والأوقاف، والتربتين المنصورية والأشرفية [٢]، وكانت هذه الوظائف بيده.

وكان خيرًا دينًا، مات بداره فى القاهرة ليلة الخميس ثالث ذى القعدة منها، بعد أن أعفى عن الإمرة.

- الأمير أقجبا [٣] المنصورى.

مات بدمشق [٤] فى هذه السنة، ودفن بتربته خارج باب الجابية، وكان من خيار الأمراء ديانة وعفة وأمانة، ولى نيابة بعلبك، ثم نقل إلى شد دمشق، ثم إلى نيابة غزة، ثم استقر مقدمًا بدمشق إلى أن مات.

- الأمير الكبير الحاج بهادر [٥] المنصورى نائب طرابلس.

مات فى هذه السنة [٦].

---

(١) وله أيضًا ترجمة في : نهاية الأرب ١٧٥/٣٢، كنز الدرر ٢١٠/٩، تاريخ البرزالي ٤٩٤/٣ رقم ١١٨٧، السلوك ٢/ ٩٦ ، الدرر الكامنة ١١٤/٥ رقم ٤٨٠٠، وفيه أن صاحب الترجمة توفى سنة ٧١٦هـ .

(٢) التربتان المنصورية والأشرفية تحت القبة بالبيمارستان المنصوري، ينظر المواعظ والاعتبار، المجلد الرابع ٥١٣-٥١٤، المنهل الصافي ٢٧٨/٥.

وعن أوقاف البيمارستان المنصوري، ينظر وثائق وقف السلطان قلاوون على البيمارستان المنصورى ، وفهرست وثائق القاهرة.

(٣) وله أيضا ترجمة في : نهاية الأرب ١٧٥/٣٢، تاريخ البرزالي ٤٦٤/٣ رقم ١٠٩٨، الدرر الكامنة ٤٢١/١ رقم ١٠١٢.

(٤) ليلة الاثنين التاسع عشر من شهر ربيع الأول : في تاريخ البرزالي.

(٥) وله أيضا ترجمة في : تاريخ البرزالي ٤٦٤/٣ رقم ١٠٩٩، كنز الدرر ٢١٠/٩، تالي كتاب وفيات الأعيان ٨ رقم ٧، الوافي بالوفيات ٢٩٥/١٠ رقم ٤٨٠٩، المقفى الكبير ٥٠٤/٢ رقم ٩٨٢، السلوك ٢/ ٩٦ ، الدرر الكامنة ٣٣/٢ رقم ١٣٦٩، المنهل الصافي ٤٣٦/٣ رقم ٧١٢.

(٦) فى ربيع الآخر : فى السلوك ٢/ ٩٦ .

- الأمير قشتمر[1] الشمسى.

توفى فيها بدمشق.

- الأمير جمال الدين أقوش[2] الموصلى، المعروف بقتال السبع، أمير علم.

مات بمصر فى تاسع[3] رجب منها، ودفن بالقرافة.

- الأمير خضر[4] بن الخليفة المستكفى بالله العباسى.

توفى فى الثالث من جمادى الأولى، ودفن بالتربة التى بجوار السيدة نفيسة[5]، رضى الله عنها.

- الأمير بُرُلْغى[6] الأشرفى.

توفى ليلة الأربعاء الثانى من رجب معتقلاً فى قلعة الجبل[7]، قيل أنه منع الطعام والشراب حتى مات، ودفن بالحسينية خارج باب النصر، بجوار تربة علاء الدين الساقى استادار العالية[8].

---

(١) وله أيضًا ترجمة في : نهاية الأرب ١٧٥/٣٢، وفيه : هو مملوك الأمير شمس الدين قرا سنقر المنصوري.

(٢) وله أيضًا ترجمة في : نهاية الأرب ١٧٤/٣٢، كنز الدرر ٢١٠/٩، تاريخ البرزالي ٤٨٣/٣ رقم ١١٦١، الوافي بالوفيات ٣٣٥/٩ رقم ٤٢٦٦، السلوك ٢/ ٩٦ ، الدرر الكامنة ٤٢٧/١ رقم ١٠٣٢، النجوم الزاهرة ٩/ ٢١٦ ، المنهل الصافي ٢٦/٣ رقم ٥١٧.

(٣) ليلة السبت التاسع عشر من رجب : في تاريخ البرزالي.

(٤) وله أيضًا ترجمة في : تاريخ البرزالي ٤٧٦/٣ رقم ١١٣٧، السلوك ٢/ ٩٦ ، الدرر الكامنة ١٧٢/٢ رقم ١٦٤٦.

(٥) عن مشهد السيدة نفيسة، ينظر المواعظ والاعتبار المجلد الرابع ٨٣٧ وما بعدها.

(٦) وله أيضًا ترجمة في : نهاية الأرب ١٧٣/٣٢-١٧٤، كنز الدرر ٢١٠/٩، تاريخ البرزالي ٤٨١/٣ رقم ١١٥٢، الوافي بالوفيات ٢٨٧/١٠ رقم ٢٧٩٤ وفيه: بلرغي ، السلوك ٢/ ٩٦ ، الدرر الكامنة ٩/٢ رقم ١٢٨٦، النجوم الزاهرة ٩/ ٢١٦ ، المنهل الصافي ٣٥٧/٣ رقم ٦٦٣.

(٧) كان برلغى صهر المظفر بيبرس الجاشنكير ، زوج ابنته ، ومن ألزامه : فى النجوم الزاهرة ٩/ ٢١٦ .

(٨) أستادار العالية : من الوظائف العسكرية، ينظر صبح الأعشى ٤٥٧/٤.

● الأمير حسام الدين طرنطاى [١] البغدادى

توفى فيها.

● الأمير علاء الدين الطنبغا[٢] الجمدار.

[٢٦٠] توفى فيها.

● الأمير سيف الدين أرغون[٣] [الجمدار][٤].

توفى فيها.

● الأمير قفجق[٥] المنصورى نائب حلب.

توفى فيها فى جمادى الأولى، وكان موته ببلاد حلب، وحُمل إلى حماة، ودُفن بتربته التى أنشأها، وكان له مدة متمرضًا، وخرج إلى الصيد وهو مسهول، فتزايد به الإسهال فمات بقرية يقال لها عين كذابة من عمل أعزاز، وكان شهمًا شجاعًا.

● الأمير بلبان[٦] البيدغانى، نائب بغراس.

قتله مماليكه، وقد وجل به فرسه فى مرزة فى مزارع بغراس.

---

(١) وله أيضًا ترجمة في : السلوك ٩٦/٢.

(٢) السلوك ٢/ ٩٦ ، مع ملاحظة أنه غير الطنبغا الجمدار، الأمير علاء الدين، الذى كان من جملة الأمراء الذين اشتركوا في قتل الأشرف خليل، وأنه قتل سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٤، ينظر المقفي الكبير ٢٨٣/٢ رقم ٦٩٣، السلوك ٧٩٥/١، وينظر أيضًا النجوم الزاهرة ٢٢/٨ .

(٣) وله أيضًا ترجمة في : السلوك ٩٦/٢.

(٤) الجمعدار : في الأصل، والتصويب من السلوك.

(٥) وله أيضًا ترجمة في : تاريخ البرزالي ٤٧٣/٣ رقم ١١٢٧، البداية والنهاية ١٠٧/١٨-١٠٨، كنز الدرر ٢١٠/٩، الوافي بالوفيات ٤٧٨/٢٤ رقم ١٨٥، الدرر الكامنة ٣٢٥/٣ رقم ٣٢٣٦، تذكرة النبيه ٢٩/٢، النجوم الزاهرة ٩/ ٢١٦ ، المنهل الصافي ٢٩/٩ رقم ١٨٣٤.

(٦) وله أيضًا ترجمة في : السلوك ٩٥/٢.

● الأمير نغية[١].

مات فى حبس قلعة دمشق، ودفن بمقابر الباب الصغير، وبقى الحرس على قبره أيامًا.

● الأمير حسام الدين درباس[٢] بن يوسف بن درباس الحميدى.

مات[٣] بداره بسفح قاسيون، ودُفن هناك.

وكان عنده فضيلة، تولى حاجبًا بدمشق، وولى شد الأوقاف بها.

● الملك المنصور علاء الدين على[٤] بن الملك الناصر محمد بن قلاوون.

مات فى ليلة الأحد حادى عشر شهر رجب بقلعة الجبل، ودفن بقبة الناصرية ببين القصرين، وكان عمره ست سنين وشهورًا، وكان والده الناصر فى الصيد ولم يحضر وفاته.

● الأمير الكبير سيف الدين سلار[٥]، الكلام فيه على أنواع:

الأول: فى أصله وجنسه:

كان أصله من التتار، اكتسبه السلطان الملك المنصور قلاوون من التتار فى وقعة

---

(١) وله أيضًا ترجمة في: أعيان العصر ٥٢٥/٥ رقم ١٩٢٠، الدرر الكامنة ١٧١/٥ رقم ٤٩٥٣، النجوم الزاهرة ٢١٧/٩.

(٢) وله أيضًا ترجمة في: تاريخ البرزالي ٤٥٩/٣ رقم ١٠٨٦، أعيان العصر ٣٥٣/٢ رقم ٦٤٨، الدرر الكامنة ١٠١/٢ رقم ١٦٩٣.

(٣) في يوم الثامن من صفر: في تاريخ البرزالي.

(٤) وله أيضًا ترجمة في: تاريخ البرزالي ٤٨٢/٣ رقم ١١٥٥، أعيان العصر ٥١١/٣ رقم ١٢٢٠، الدرر الكامنة ١٩٠/٣ رقم ٢٨٩٢.

(٥) وله أيضًا ترجمة في: تاريخ البرزالي ٤٦٩/٣ رقم ١١١٠، تالي كتاب وفيات الأعيان ٨٩ رقم ٦٣٠، فوات الوفيات ٨٦/٢-٨٩ رقم ١٨٦، الوافي بالوفيات ٥٥/١٦-٥٩ رقم ٧٦، أعيان العصر ٤٨٩/٢ رقم ٧٥٩، السلوك ٢/ ٩٧ وما بعدها، الدرر الكامنة ٢٧٦/٢ رقم ١٩١٣، النجوم الزاهرة ٩/ ٢١٧ وما بعدها، المنهل الصافي ٥/٦-١٣ رقم ١٠٧٣.

أُبلُسْتَيْن[(١)]، وأعطاه لولده علاء الدين [٢٦١] على[(٢)]، فاختص به وخدمه وتقدم عنده، وشفع فيه الأمير طرنطاى فى وقت أن يكون أمير عشرة فاحتقره السلطان، وقال: ليست دولة يكون فيها سلار أمير عشرة، ثم إن الدهر أناله ما لم ينله أحد من النواب قبله، فأقام نائب السلطنة بمصر إلى حين خروجه إلى الشوبك، أحد عشر سنة وأربعة أشهر وستة وعشرين يومًا.

وقال بعض المؤرخين: وأصله مملوك الملك الصالح على بن قلاوون، ولما مات أستاذه بقى فى خدمة الملك المنصور قلاوون إلى أن مات قلاوون[(٣)]، ثم اتصل بخدمة الملك الأشرف خليل بن قلاوون، وحظى عنده، وبقى فى خدمته إلى أن قتل الأشرف[(٤)]، وكان بينه وبين حسام الدين لاجين[(٥)] مودة عظيمة، ولما قتل لاجين لم يبق[(٦)] الملك الناصر محمد بن قلاوون بالحضور إلى الديار المصرية إلا بكتاب سلار، فلما حضر وتسلطن قال: ما أعمل نائبى إلا سلار[(٧)]، فوافقه جميع الأمراء المنصورية لعلمهم بدينه وعفته. وكان أصله من التتار الأويراتية.

النوع الثانى : فى ترجمته:

كان أسمر اللون، لطيف القد، أسيل الخد، لحيته فى حنكه سوداء، وكان ظريفًا فى

---

(١) وقعة أبلستين = الوقعة على حمص، وكانت سنة ٦٨٠هـ/١٢٨١م، ينظر عقد الجمان ٢٦٩/٢ وما بعدها.

(٢) هو : علي بن قلاوون، الملك الصالح، توفى سنة ٦٨٧هـ/١٢٨٨م، ينظر المنهل الصافي ١٤٤/٨ رقم ١٦٣٠.

(٣) سنة ٦٨٩هـ/١٢٩٠م، المنهل الصافي ٩١/٩ رقم ١٨٩٠، وينظر عقد الجمان ١٢/٣ وما بعدها.

(٤) سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٣، المنهل الصافي ٢٧٠/٥ رقم ١٠٠٩، وينظر عقد الجمان ٢٠٣/٣ وما بعدها.

(٥) هو : لاجين بن عبدالله المنصوري، الملك المنصور حسام الدين لاجين، قتل سنة ٦٩٨هـ/١٢٩٨م، المنهل الصافي ١٦٦/٩ رقم ١٩٤٨، ينظر عقد الجمان ٤٢١/٣ وما بعدها.

(٦) هكذا بالأصل، والمقصود أنه لم يقتنع.

(٧) ينظر عقد الجمان ٤٥٢/٣.

لبسه؛ اقترح أشياء فى اللبس منسوبة إليه، وكذلك فى المناديل، وفى قماش الخيل، وآلات الحرب.

وكان عاقلاً، ذا رأى وحزم وشجاعة، إلا أنه لم ينفعه ذلك عند بلوغ الأجل، [٢٦٢] وكان صاحب صدقات كثيرة وبر إلى الضعفاء، وحج سنة ففرق فى الحرمين الشريفين أموالاً عظيمة، حتى لم يدع فيها فقيرًا، وكان يحب العلماء ويحسن إليهم، رحمه الله.

النوع الثالث : فى القبض عليه:

وكان السبب فيه: أن السلطان بلغه عن سلار المذكور، وبعض الأمراء الذين كانوا عاكفين عليه، أمور أنكرها، فقبض عليهم، وعلى أقوام آخرين كانوا بالشام من نسبتهم، وعدة مَنْ مسك من أمراء الشام سبعة، منهم: أقطوان الأشرفى، وعدة [الأمراء][١] الذين قُبض عليهم أربعة عشر نفرًا [٢].

وأما سلار، فقد ذكرنا أن السلطان أعطى له الشوبك وراح إليها، وكتب إليه السلطان مما بلغه عنهم، وعرض عليه الحضور إلى الأبواب الشريفة لإزالة القيل والقال، ولم تكن قلعة الشوبك معه، فإنه لما راح إلى الشوبك قال: هذا تقليد السلطان بالشوبك والقلعة، فقال له النائب هناك: أنا جانى بريدى أمس معه كتاب السلطان أنه لم يعط القلعة لك؛ فقال سلار: أنا أجيب مرسوم السلطان.

ثم إنه بعث مملوكًا من مماليكه إلى السلطان فى أمر القلعة، فجاءه الجواب، وهو أنه يقول: أنا أعطيتك الشوبك وبلادها، وما أعطيتك القلعة، وأنت تحسب أننى نسيتك أو أخليك فى الشوبك؟ وإش الشوبك وإش قلعتها؟ وسأبعث إليك وأجيبك إلى القاهرة وأوليك نائبًا بها على عادتك، وخلع على مملوكه، وَطُيِّب وخرج.

(١) أمراء : في الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.
(٢) ينظر التحفة الملوكية ٢١٤ ، نهاية الأرب ٣٢/ ١٦٤ .

وبعد [٢٦٣] خروجه من بين يديه كتب إلى عُربان الحجاز كتابًا، و حلف فيه أن سلار متى خرج من بينكم وذهب إلى موضع ولم تمسكوه أقطع جاذرتكم من الأرض.

قال الراوى: ولما جاء مملوك سلار إليه، وقرأ كتاب السلطان، أرسل إليه أيضًا يقول: أنا رايح إلى القدس، فأحلق رأسى وأقعد بين المجاورين إلى أن أموت.

وكان السلطان قد أرسل إلى الأمير سيف الدين قفجق والأمير اسندمر، بأنكم قد كنتم ضمنتم سلار عندى، وما أعرفه إلا منكم.

ثم طلب الأمير علم الدين الجاولى والطشلاقى، وكتب معهما كتاب أمان، وأرسلهما إليه، وقال له: اركب فى ثلاث سروج وأحضر.

فلما وصلا إليه وناولاه الكتاب، فقرأه قال: يا أمير علم الدين مثلى يركب على هذا الوجه؟ والله أنا رايح إلى الحجاز الشريف، ثم قال أنتم لا تزالون على هذا الوجه حتى لا يبقى منا أحد، ثم إنه صاح لمماليكه فركب الجميع، فقال له الجاولى: لا تفعل هذا؛ فقال: قد فعلنا، وكان الذى كان وبالله المستعان، ثم قال له الجاولى والطشلاقى: يا أمير نحن معك لا نفارقك، أو يأتينا مرسوم بالرجوع عنك.

قال الراوى: فأخذ الأدلاء بين يديه، وسافروا ثلاثة أيام إلى أن أوقعهم الله فى أرض ذات مروج ومياه، وفى طرف مرجها قلعة خراب، فدخل إليها، وقعد وعصى فيها، فقال له الطشلاقى: يا أمير، هذا ليس برأى، فغدًا يأتى إليك العربان [٢٦٤] من كل مكان، وهب أنك تحصنت فيها، هذا المكان ليس فيه مأكل ولا مشرب، فو الله ما عند السلطان أعز منك ولا يؤذيك أصلاً، فمت طائعًا ولا تمت عاصيًا.

ومازالوا عليه حتى قام وركب، وجاء إلى الشوبك، وكان قد أرسل إليه أيضًا الأمير ركن الدين بيبرس الدوادار، صاحب التاريخ، فحضر إليه وسمع منه[1] وركب فى ثلاثة من مماليكه، وركب الجاولى والطشلاقى والأمير بيبرس، فساروا إلى أن وصلوا إلى القاهرة فى

(١) ينظر التحفة الملوكية ٢١٤-٢١٦.

سلخ ربيع الآخر؛ فدخلت الأمراء، وأعلموا السلطان بقدومه، فطلبه، فلما حضر بين يديه قال له : يا سلار:

قال : لبيك يا خوند .

قال له : كم لك مدة أنت حاكم فى ملك مصر والشام؟

قال: أربعة عشر سنة.

قال: قد استوليت على دخل مصر والشام، وأنت الذى كنت تقطع وتوصل، وأخذت الكل فى كيسك، ومنعت بيت مال المسلمين، وها أنت وأنا نتحاكم بين يدى القضاة الأربع ليحكموا فيك، وفىّ.

ثم أحضر القضاة، وأجلس سلار [بحذائه][1]، وقال: ادعى على غريمى هذا بمال مصر والشام من مدة أربعة عشرة سنة.

فقالت القضاة لسلار: ماذا تقول؟

فقال: والله إن قارون يعجز عن عشر ما يدعى، لكن أحمل على قدر طاقتى، فعند ذلك أمر السلطان للأمير الجاولى أن يأخذ معه مماليكًا وينزل إلى داره ويأخذ ما فيها.

قال ابن كثير: فاستخلصت أمواله وحواصله فى مدة شهر، [٢٦٥] ثم قتل بعد ذلك[2].

ونذكر عن قريب ما أُخذ منه من سائر أصناف الأموال، ثم بعد ذلك أرسله إلى السجن بقلعة الجبل.

---

(١) بحذاه : في الأصل.

(٢) البداية والنهاية ١٨/١٠٤.

النوع الرابع : فى كيفية حبسه وموته.

قال الراوى: أمر السلطان بأن يُبنى عليه أربع حيطان فى محبسه، وأمر بأن لا يُطعم ولا يُسقى.

وقال بعض المؤرخين: لما مسكه السلطان وسجنه بالقلعة، أحضر إليه طعامًا فأبى أن يأكل، وأظهر الحرد، فطولع السلطان بذلك، فأمر بأن لا يرسل إليه طعام بعد هذا، فبقى سبعة أيام لا يطعم ولا يسقى، وهو يستغيث الجوع.

فأرسل إليه السلطان ثلاث أطباق مغطاة بشفر الطعام، فلما حطوها بين يديه فرح فرحًا عظيمًا وظن أن فيها أطعمة يأكل منها، فكشفوها فإذا فى طبق ذهب، والآخر فضة، وفى الآخر لؤلؤ وجواهر، فعلم سلار بأنه ما أرسل إليه هذه الأطباق إلا ليقابله على ما فعل فقال: الحمد لله الذى جعلنى من أهل المقابلة فى الدنيا، وبقى على هذه الحالة اثنى عشر يومًا ومات، فأعلموا السلطان بموته، فجاؤا إليه ووجدوه قد أكل ساق خفيه، وقد أخذ السرموجة[١] وحطها فى فيه، وقد عض عليها بأسنانه وهو ميت، فسبحان القهار الفعال لما يريد، ثم حملوه إلى تربته بالكبش[٢] فدفن فيها، وهى التربة التى أنشأها الجاولى عند الكبش ظاهر القاهرة.

وتولى أمر تجهيزه الأمير الجاولى بأمر السلطان، وقيل: إنهم [٢٦٦] جاءوا إليه وهو فى سياق الموت، فقالوا له: إن السلطان قد عفى عنك، فقام ومشى خطوات ووقع ميتًا، رحمه الله.

وكان موته يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ربيع الآخر[٣].

(١) السرموجة = سارموزة = سرموزة : لفظ فارسي، معناه رأس الخف، وتطلق على نعال النساء، أو نوع من الأحذية القصيرة التي تخلع عند دخول المنزل، ينظر المواعظ والاعتبار المجلد الثالث ٣٠٥ هـ ٤، ٣٤٦.

(٢) ينظر عن الكبش : المواعظ والاعتبار المجلد الأول ٣٤٠، المجلد الثاني ١٥٨.

(٣) جمادي الأولى : في كنز الدرر ٢١٠/٩، وينظر البداية والنهاية ١٠٤/١٨.

قال ابن كثير: وماتت والدته بعد ذلك بقليل[١].

وقال بعضهم: دفنوه أولاً فى باب القرافة، بحيث لم يعلم به أحد، ثم نقلوه إلى تربته المذكورة، والله أعلم.

النوع [الخامس][٢]: فى بيان ما خلفه من الأموال بأصنافها:

وذكر فى [سيرته][٣] أنه لما أحضر بين يدى السلطان، وعاتبه عتابًا كثيرًا، ثم أمر الجاولى أن ينزل معه ويحمل المال، فنزل معه إلى داره، وفتح سربًا تحت الأرض، فأخرج سبائك ذهب وفضة، وجِرَب من الأديم الطائفى فى كل جراب عشرة آلاف دينار.

قال الراوى: حملوا من ذلك السرب أكثر من حِمل خمسين بغلاً من الذهب والفضة، ثم أحضره بعد ثلاثة أيام وألزمه بالمال، فأخذ الجاولى وجاء [به][٤] إلى الطارمة[٥] التى كان يحكم تحتها، وقال: احفروا ههنا، فحفروا، وأخرجوا سبعة وعشرين خابئة مملوءة ذهبًا، ومائة حجر من الجواهر، وفيها حجر بهرمان وزنه أربعون مثقالاً، وأخرج ألفى حياصة مجوهرة، وألفى قلادة من الذهب كل قلادة تساوى مائة دينار، وألفى كلوتاه زركش.

قال الراوى: أخبرنى سيف الدين البرددار [٢٦٧] وقال: وجدوا اليوم فى ركبخانة سلار لجمًا مفضضة قد عتقت سيورها، ففكوا الفضة عن السيور ووزنوها فجاء وزنها عشرة قناطير بالشامى، ثم أحضره السلطان وقال له: أجمل. فقال: ما بقى لى شئ غير أنى أعطيت الصاحب ابن الخليلى مائة ألف دينار وأنا رايح إلى الشام، فبعث السلطان إليه فحضر، وقال له: هات مائة ألف دينار، فحمل ستين ألفا، فسلمه السلطان إلى مملوكه كستاى، وأمره بعقوبته حتى يكمل، وهو تحت العقوبة، مائة ألف دينار.

---

(١) لم يرد هذا الخبر في المطبوع من البداية والنهاية.

(٢) الثالث : في الأصل، والتصويب يتفق مع السياق، ينظر ما سبق.

(٣) سيرة : في الأصل.

(٤) له : في الأصل.

(٥) الطارمة : بيت من خشب يبنى سقفه على هيئة قبة، معد لجلوس السلطان، أو الأمير، معرب عن اللفظ الفارسي تارم، معجم الألفاظ الفارسية المعربة ١١٢.

ثم طلب السلطان سلارًا وقال له: أش لك عند أمير موسى(١) زوج ابنتك؟ فقال: مالى عنده شئ، وجميع ما عندها لها بمكاتيب شرعية من سنتين وشئ، فقال له السلطان: كذبت. ثم طلب السلطان القضاة، والشيخ تقى الدين ابن تيمية، وقال: ما تقولون فى رجل مملوك، وله بنت من جاريته، وليس فى يدها عتاقه شرعية، وقد زوج المملوك من جاريته من رجل بغير إذن أستاذه فهل يجوز النكاح؟ وهل يصح عقد أمير موسى على بنت سلار أم لا؟ أفتونا فى ذلك.

فقالوا: لا، يا مولانا السلطان.

فقال السلطان: فعقد هذا على بنت جاريتى باطل.

قالوا: نعم.

قال الراوى: فعند ذلك أمر السلطان علم الدين الجاولى بأن ينزل [٢٦٨] إلى دار الأمير موسى زوج بنت الأمير سلار، ويحتاط على ما فى داره، فنزل إليها، ووجد أربع دكك: دكتان من ذهب، ودكتان من فضة، ووجدوا طشوتًا وأطباقًا، وهواوين وشماعدين، كلها من ذهب وفضة، ووجدوا تختًا من ذهب وفضة، وزنه عشرون قنطارًا بالدمشقى ففكوه، وكان عليه شبكة لؤلؤ وقطع بلخش وزمرد أخضر.

ثم أمر السلطان بأن ينادى فى مصر والقاهرة: أن من كان عنده لسلار شئ فليحضره إلى السلطان، فجاء تاجر من الكارم وأحضر مائة ألف دينار، وقال: هذه لسلار أعطانى إياها حتى أشترى بها بضائع، ثم أمر السلطان بأن الذهب والفضة التى أخذت من السبائك ومن اللجم ورؤوس الأرماح ونحو ذلك أن تضرب دنانير ودراهم، فأقام الصياغ فى ذلك مدة من الزمن.

(١) هو: موسى بن علي بن قلاوون، ينظر ما سبق.

وذكر الشيخ علم الدين البرزالى[(١)] ، قال[(٢)]: دفع إلَيَّ المولى جمال الدين بن الفويرة[(٣)] ورقة فيها بعض أموال سلار وقت الحوطة على داره فى أيام متفرقة:

يوم الأحد: ياقوت أحمر: رطلان، بلخش[(٤)]: رطلان ونصف، زمرد ريحانى وذبابى[(٥)]: تسعة عشر رطلاً، صناديق ضمنها فصوص وجواهر ستة: فصوص ماس وغيرهن [ثلاثمائة قطعة][(٦)] ، ولؤلؤ مدور كبار من مثقال إلى درهم : ألف [٢٦٩] ومائة[(٧)] وخمسون حبة، ذهب عين: مائتا ألف دينار وأربعة وأربعون ألف دينار[(٨)]، دراهم: أربعمائة ألف درهم وأحد[(٩)] وسبعون ألف درهم.

يوم الاثنين : ذهب مصرى : خمسة وخمسون ألف دينار، دراهم : ألف ألف وأحد

(١) هو : القاسم بن محمد بن يوسف، علم الدين أبو محمد، له كتاب في التاريخ بدأ فيه من عام مولده سنة ٦٦٥هـ، وهو العام الذس توفى فيه أبو شامة، ولذا عرف بالمقفي على تاريخ أبي شامة، أو تاريخ البرزالي، وتوفى علم الدين سنة ٧٣٩هـ/١٣٣٨م، أعيان العصر ٤/ ٤٩ رقم ١٣٥٢ .

(٢) لم يرد النص التالي في المطبوع من تاريخ البرزالي.

وورد : قال محمد بن شاكر الكتبى : وقفت على قوائم ، بخط القاضى جمال الدين بن الفويرة ، تتضمن ما اشتمل عليه موجود الأمير سلار : فى بدائع الزهور ١/ق١/٤٣٦ ، وينظر فوات الوفيات ٢/ ٨٨ .

(٣) هو : يحيى بن محمد بن عبدالرحمن بن محمد، القاضي الرئيس جمال الدين بن الفويرة، المتوفى سنة ٧٤٢هـ/١٣٤١م، أعيان العصر ٥/٥٧٨ رقم ١٩٥٠.

(٤) بلخش : من الأحجار الكريمة، يتكون بنواحي بلخشان (بذخشان)، وهي بلاد الترك تتاخم الصين، ينظر صبح الأعشى ٢/ ١٠٣، النجوم الزاهرة ٩/ ٢١ هامش (٤).

(٥) زمرد ريحاني : أي لونه أخضر فاتح شبيه بلون ورق الريحان، أما الذبابي : فهو شديد الخضرة، ولا يشوب خضرته لون آخر من الألوان، جيد المائية، شديد الشعاع، ويسمى ذبابيًا لتشبيه لونه بلون كبار الذباب الأخضر الربيعي، ينظر صبح الأعشى ٢/ ١٠٨، النجوم الزاهرة ٩/ ٢١ هـ ٥ ، ٦.

(٦) إضافة للتوضيح من الوافي بالوفيات ١٦/ ٥٧، أعيان العصر ٢/ ٤٩٥، وينظر السلوك ٢/ ٩٧، النجوم الزاهرة ٩/ ٢١، المنهل الصافي ٦/ ١٠.

(٧) خمسمائة : في المنهل الصافي.

(٨) مائتا ألف وأربعون ألف دينار : في أعيان العصر.

(٩) وأحد : سقط من أعيان العصر.

وعشرون ألف درهم، فصوص : رطلان ونصف، مصاغ وعقود وأساور وزنود ومراسل وحلق ودمالج من الذهب : أربع قناطير، فضيات وصدور وطاسات وأطباق وطشوت وهواوين : ست قناطير.

يوم الثلاثاء: ذهب مصرى : خمسة وأربعون ألف دينار، دراهم : ثمانمائة[(١)] ألف وثلاثون ألف درهم، قطريات وبراجم وأَهِلَّة وسناجق : ثلاث قناطير.

يوم الأربعاء[(٢)] : ذهب مصرى : ألف ألف دينار، دراهم: ثمانمائة ألف، أقبية بفرو قاقم[(٣)]: ثلاثمائة، أقبية ملونة عمل الدار[(٤)] بسنجاب[(٥)]: أربعمائة قباء، سروج زركش بذهب مصرى: مائة سرج.

ووُجد عند صهره الأمير موسى ثمان صناديق، لم يُعلم ما فيها[(٦)]، حُملت إلى الدار، وحُمل أيضًا إلى الخزانة تفاصيل طرد وحش[(٧)] وعمل الدار: ألف تفصيلة، وخيام ستة عشرة نوبة.

(١) ثمانية : في الوافي بالوفيات، أعيان العصر، ثلاثمائة : في السلوك، النجوم الزاهرة، المنهل الصافي.

(٢) يوم الأربعاء : سقط من الوافي بالوفيات، وأعيان العصر.

(٣) القاقم : حيوان بري يشبه الفأرة إلا أنه أطول منها، له فروة ناصعة البياض، وتستعمل للزينة، ينظر الملابس المملوكية ٤٧، السلوك ٩٨/٢ هامش (١).

(٤) عمل الدار : لعل المقصود دار الطراز : وتشمل عدة مصانع لنسج الملابس السلطانية بتنيس ودمياط والإسكندرية، أو دار الديباج : وكانت بالقاهرة، ينظر صبح الأعشى ٤٧٢/٣، ٤٩٠، الملابس المملوكية ٦٠.

(٥) السنجاب : حيوان لذيله فروة نفيسة، تستخدم لتزيين الملابس، ينظر الملابس المملوكية ١٠٥-١٠٧، السلوك ٩٨/٢ هامش (٢).

(٦) كان من جملة ما فيها عشر حوائص مجوهرة سلطانية، وتركاش ما له قيمة (أي لا يقدر بثمن) : في أعيان العصر ٤٩٣/٢.

(٧) طرد وحش = طرز وحش : قماش من الحرير مزين بصور الصيد والطرد، ينظر الملابس المملوكية ١٠٦، السلوك ٧٨٨/١ هامش (٢).

ووصل معه من الشوبك من الذهب المصرى: خمسون ألف دينار، ومن الدراهم: أربعمائة ألف وسبعون ألفًا [٢٧٠]، ومن الخلع الملونة ثلاثمائة خلعة، وخركاه[١] كسوتها أطلس معدني[٢] مبطنة بمروزى أزرق[٣] وبابها زركش مصرى، وثلاثمائة رأس خيل، ومائة وعشرون قطارًا بغالاً، ومائة وعشرون قطارًا جمالاً.

هذا خارج عما وُجد له من الغلال والخيول والبغال والجمال والأغنام والمماليك والجوار والعبيد.

ودلّ مملوك له على مكان مبنى فى داره، فوجدوا حائطين مبنيين فأخربوهما، فوجدوا أكياسًا فيها ذهب، لم يعلم عددها، وفتح له من الطهارة بركة مملوءة ذهبًا مصريًا، ووجدوا فى حواصله ثلاثمائة ألف أردب من القمح والشعير والفول وغير ذلك.

ومع هذا كله مات بالجوع كما ذكرنا.

ويقال: كان يدخل إليه من أجرة أملاكه كل يوم ألف دينار، ومن الإقطاعات والضمانات والحمايات تتمة ألف درهم فى كل يوم[٤].

---

(١) خركاه – خركاوات : كلمة فارسية، كانت تطلق على الخيمة الكبيرة، ثم أطلقت على سرادق الملوك والوزراء، ثم أصبح يقصد بها الهيكل الخشبي الذي يثبت عليه الخشب الخرط تشبيهًا بالخيمة، ويغشى بالجوخ ونحوه، ينظر المصطلحات المعمارية ٤١.

(٢) معدني : نسبة إلى مدينة معدن بأرمينية قرب منابع نهر دجلة، السلوك ١/٦٩٠ هامش (٤).

(٣) حرير أزرق مروي : في السلوك، وهو الحرير المصنوع بمدينة مرو عاصمة خراسان، ينظر السلوك ٢/٩٨ هامش (٨).

(٤) ينظر السلوك ٢/ ٩٧ وما بعدها ، النجوم الزاهرة ٩/ ١٧ وما بعدها ، ٢١٧ .

رَفْعُ
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس

فصل فيما وقع من الحوادث

في السنة الحادية عشر بعد السبعمائة(*)

استهلت هذه السنة، والخليفة المستكفي بالله العباسي.

وسلطان البلاد المصرية والشامية الملك الناصر محمد بن قلاوون.

ونائبه بمصر الأمير سيف الدين بكتمر الجوكندار، وبالشام الأمير سيف الدين كراي، وبحلب الأمير سيف [٢٧١] الدين قراسنقر المنصوري.

وقال ابن كثير : استهلت هذه السنة، أعني سنة إحدى عشرة وسبعمائة، وقد مات نائب حلب الأمير أسندمر، وهي شاغرة عن نائب، وأرغون الدوادار قد وصل إلى دمشق لتسفير قرا سنقر المنصوري منها إلى نيابة حلب، وإحضار الأمير كراي إلى نيابة دمشق، فخرج قرا سنقر من دمشق في ثالث المحرم منها، وسار معه أرغون لتقريره بحلب، وجاء المرسوم إلى نائب القلعة الأمير بهادر السنجري أن يتكلّم في الأمور بدمشق إلى أن يأتيها نائب، ثم قدم النائب كراي المنصوري إلى دمشق نائبًا عليها يوم الخميس الحادي والعشرين من المحرم(١).

قلتُ : وقد ذكرنا، مما ذكر غيره من المؤرخين، أن الناصر أرسل الأمير كراي المنصوري المذكور مع عسكر إلى حلب في السنة الماضية، وأنه مسك نائبها الأمير أسندمر، ثم جاء المرسوم من السلطان أن يتقرر قرا سنقر، وكان نائب الشام، في نيابة حلب، وأن يتقرر الأمير كراي المذكور في نيابة دمشق(٢)، ثم جرى عليهم مانذكره إن شاء الله تعالى عن قريب.

(*) يوافق أولها ٢٠ مايو ١٣١١م.
(١) ينظر البداية والنهاية ١٠٩/١٨ حيث يوجد اختلاف في بعض الألفاظ.
(٢) ينظر ما سبق .

ذكر مَنْ قدم من الرسل وغيرهم

وفيها عادت رسل السلطان من عند الملك طقطا، وصحبتهم رسل طقطا، فاعترضهم الفرنج في ربيع الأول وأسروهم [٢٧٢] جميعهم، وكانوا هم وأتباعهم تقدير ستين نفرًا، ومروا بهم على البلاد الساحلية وعرضوهم للبيع، وحلفوا ألا يأخذون في ثمنهم إلا ستين [ألف دينار][١]، فلم يشتريهم أحد، فتوجهوا بهم إلى جزيرة المَصْطكي[٢]، فأمر السلطان بالقبض على مَنْ بالإسكندرية من تجار الفرنج، والحوطة على أموالهم إلى أن يحضروا رسله، فتوجه شكران[٣] الجنوي التاجر إلى جزيرة المَصْطكي وخلصهم وبعث بهم إلى مصر، ووصلوا في سادس عشر ربيع الآخر من سنة اثنتي عشرة وسبعمائة.

وفيها عادت رُسل صاحب سيس، المسمى أوشين إليه، وخالته معهم لأنها كانت جاءت لزيارة القدس.

وفيها وصلت رسل الملك المؤيد هزبر الدين، صاحب اليمن، بهداياه إلى الأبواب السلطانية، وكانت نحو مائتي جِمْل[٤]. من أنواع القماشات، وخيول ووحوش وطيور، وتحف غير ذلك، ففرقها السلطان على الأمراء الأكابر والأصاغر.

وفيها وفد سليمان[٥] بن مهنا بن عيسى إلى الأبواب السلطانية، وطالع ما أغار على التتار ما بين هيت وتكريت، في جماعة من آل فضل، قاتلوا فيهم وأسروا منهم واستاقوا مواشيهم وأحضروا نفرًا من [أسراهم][٦]، فأحسن السلطان رفادته وأجزل صلته.

---

(١) ألفا : في الأصل،والإضافة من نهاية الأرب ١٧٥/٣٢، السلوك ١٠٢/٢.

(٢) جزيرة المَصْطكي : إحدى جزر الأرخبيل اليوناني بالقرب من مدخل خليج القسطنطينية، تقويم البلدان ١٨٩ ، وينظر السلوك ٢/ ١٠١ هـ ٣ .

(٣) السكران : في نهاية الأرب ١٧٦/١٣٢، سكران : في النهج السديد ١٩٩/٣، وينظر السلوك ١٠٢/٢.

(٤) أربع مائة حمال وتسعة حمالين : في كنز الدرر ٢١٧/٩، وورد مائتي حَمَل،ومائتي حَمَّال : في السلوك ١٠٧/٢.

(٥) هو سليمان بن مهنا بن عيسى، الذي ولي الإمرة بعد وفاة أخيه موسى سنة ٧٤٢هـ، وتوفى سنة ٧٤٤هـ/١٣٤٣م، المنهل الصافي ٥٥/٦ رقم ١٠٩٩.

(٦) أساراهم : في الأصل.

وفيها وصل كرنبس النوبي، صاحب دنقلة، وحمل ما هو مقرر عليه من الرقيق [٢٧٣] والثمار وغير ذلك، إلى الأبواب الشريفة، وكان كرنبس [تولى][1] هذه السنة عوضًا عن أخيه [أياي][2] بحكم وفاته، والله أعلم.

ذكر مَنْ أُعطي إمرة أو وظيفة ومَنْ قُطِع

وفيها فُوِّضت الوزارة بمصر للصاحب أمين الدين عبدالله[3] بن غنام، وكان ناظر الدواوين، وذلك عوضًا عن سيف الدين بكتمر الحُسَامي[4]، ونقل الحسامي إلى الحجوبية، عوضًا عن شمس الدين سنقر الكمالي، وذلك في سادس[5] ربيع الآخر.

وفيها في حادي عشرين ربيع الآخر، أُعيد بدر الدين بن جماعة إلى القضاء بمصر، واستقر جمال الدين الزرعي[6] قاضي العسكر، ورُسم له بتدريس جامع الحاكم، وأن يجلس بين القضاة مع الحنفي والحنبلي بدار العدل عند السلطان.

وفيها في مستهل جمادي الأولى، فُوِّضت نيابة السلطنة بغزة لعلم الدين سنجر الجاولي، عوضًا عن الأمير قطلقتمر، وقُبض على قطلقتمر واعتقل.

وفيها عُزل القاضي زين الدين علي بن مخلوف المالكي عن القضاء، بسبب بناء أراد

(١) إضافة تتفق مع السياق، ومع ما ورد بالسلوك ١٠٧/٢، وينظر ما ورد في صبح الأعشى من أن أياي توفى سنة ٧١٦هـ وأن كرنبس قد تولى النوبة بعده : ٢٧٦/٥.

(٢) آبي : في الأصل، والتصويب مما سبق في عقد الجمان ٣٤٧/٤، زبد الفكرة ٣٨٢، السلوك ٧/٢، ١٠٧، وورد : أمي : في صبح الأعشى ٢٧٧/٥.

(٣) توفى سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م، الدرر الكامنة ٢٥٧/٢-٢٥٨ رقم ٢١٢٩.

(٤) توفى سنة ٧٢٤هـ/١٣٢٣م، الدرر الكامنة ٢١/٢ رقم ١٣٠٣، وورد أنه توفى سنة ٧٢٩هـ/١٣٢٨م : في السلوك ٣١٤/٢.

(٥) في مستهل ربيع الآخر : في نهاية الأرب ١٧٦/٣٢.

(٦) هو : سليمان بن عمر بن سالم بن عمر الأذرعي، جمال الدين الزرعي، المتوفى في سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٣م، الوافي بالوفيات ٤١٦/١٥ رقم ٥٥٩، تذكرة النبيه ٢٤٩/٢، الدرر الكامنة ٢٥٥/٢ رقم ١٨٥٩، المنهل الصافي ٤٦/٦ رقم ١٠٩٤.

السلطان بعضه، فأبى المذكور، فعزله عن الحكم، ثم أعاده بعد أيام في سادس رجب[(١)].

وفيها في صفر، فُوِّض لسيف الدين طوغان المنصوري شَد[(٢)] الدواوين بدمشق، عوضًا عن فخر الدين أياز، ووصل دمشق وقُبِض على أياز في الثامن عشر من صفر، وأُخذ خطه بثلاثمائة [٢٧٤] ألف درهم وسُلِّم إلى طوغان المذكور[(٣)].

وفيها، فُوِّض إلى الأمير ركن الدين [بيبرس][(٤)] العلائي النيابة بحمص، وتوجه إليه، وفُوِّض للأمير بهادر آص نيابة صفد، عوضًا عن الأمير قطلو بك، فقَبض عليه، ووُلِّي سيف الدين بيبغا الأشرفي[(٥)] نيابة الكرك، عوضًا عن أيتمش [المحمدي][(٦)].

وفيها في ثاني رمضان، فُوِّض شد الدواوين بدمشق لبدر الدين بكتوت القرماني[(٧)]، عوضًا عن سيف الدين طوغان، وفُوِّضت الحجوبية بها للأمير زين الدين كتبغا المنصوري، عوضًا عن سيف الدين قطلو بك الجاشنكير.

وفي ثامن عشر رمضان، ورد المرسوم إلى دمشق بولاية بلبان [البدري][(٨)]

---

(١) ينظر ما ورد في نهاية الأرب ١٧٧/٣٢-١٧٨.

(٢) شاد : في الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٣) المذكوري شاد الدواوين : في الأصل، ومشطوب على الزيادة بعد أن تنبه الناسخ أنها مكرة مما سبق.

(٤) إضافة للتوضيح مما يلي، ينظر الدرر الكامنة ٤٢/٢ رقم ١٣٧٩.

(٥) توفى بعد ٧٣٠هـ/١٣٢٩م، الدرر الكامنة ٤٥/٢ رقم ١٣٨٨.

(٦) إضافة للتوضيح من السلوك ١٠٥/٢.

وهو : أيتمش بن عبدالله المحمدي الناصري، الأمير سيف الدين، توفى سنة ٧٣٦هـ/١٣٣٥م، المنهل الصافي ١٣٨/٣ رقم ٥٨٥ ، وورد أنه توفى سنة ٧٣٣هـ/١٣٣٢م : في الدرر الكامنة ٤٥٤/١ رقم ١١١٤.

(٧) كان من مماليك المنصور قلاوون، وعاش إلى أن مات بالطاعون سنة ٧٤٩هـ/١٣٤٧م الدرر الكامنة ٢٢/٢ رقم ١٣١٧.

(٨) إضافة للتوضيح من السلوك ١٢٠/٢.

وهو : بلبان البدري، أحد مقدمي الألوف بدمشق، مات في يوم عيد الفطر سنة ٧٢٧هـ/١٣٢٦م، الدرر الكامنة ٢٥/٢ رقم ١٣٢٩.

النائب بقلعتها، عوضًا عن بهادر السنجرى[١]، ورسم [له][٢] بنيابة قلعة البيرة.

وفيها، تولى كتابة السر بالديار المصرية القاضي علاء الدين علي بن تاج الدين بن الأثير، عوضًا عن القاضي شرف الدين عبدالوهاب بن فضل الله العمري، ورسم لابن فضل الله بكتاب سر الشام، عوضًا عن أخيه القاضي محي الدين.

وفيها، فوَّض السلطان النيابة بالديار المصرية للأمير ركن الدين بيبرس المنصوري الدوادار صاحب التاريخ، وذلك في العشر الأوسط من جُمادي الأولى، وقال هو في تاريخه : وفي العشر الأوسط من جُمادي الأولى رُتِّبْتُ في نيابة السلطنة، عوضًا عن الأمير [٢٧٥] بكتمر الجوكندار، وقُبض عليه وسيُر إلى كرك فاعتقل بها حتى مات[٣].

ذكر القبض على الأمير بكتمر الجوكندار نائب السلطان بالديار المصرية

قال ابن كثير : وفي يوم الجمعة سادس[٤] عشر جُمادي الأولى أمر السلطان بالقبض على نائبه الأمير بكتمر الجوكندار وعلى ألزامه، فقُبض عليه وعَلى : صهره سيف الدين ألكْتمُر[٥]، وصهره الآخر علاء الدين أيدغدي النعماني[٦]، وشمس الدين[٧] بكمش الساقي، وعز الدين أيدمر الصفدي، وأيدمر الشَّيخي، وسيف الدين مَنْكُوتَمُر الطباخي،

---

(١) توفى في ذي الحجة ٧٣٣هـ/١٢٣٢، الدرر الكامنة ٣٢/٢ رقم ١٣٦٥، وفيه : بهادر الشجري، وينظر السلوك ٣٧١/٢.

(٢) إضافة للتوضيح.

(٣) لا يوجد خبر هذه السنة في المنشور من كتاب زبدة الفكرة، وينظر ما ورد في التحفة الملوكية ٢٢٧-٢٢٨.

(٤) سابع : في نهاية الأرب ١٦٩/٣٢، السلوك ١٠٢/٢، النجوم الزاهرة ٢٩/٩.

(٥) بكتمر : في نهاية الأرب ١٧٧/٣٢.

(٦) العثماني : في التحفة الملوكية، نهاية الأرب ١٧٧/٣٢، السلوك ١٠٢/٢

(٧) بدر الدين : في نهاية الأرب ١٧٧/٣٢، النجوم الزاهرة ٢٩/٩.

فاعتقلوا كلهم إلا الطباخي فإنه قُتل لوقته لكلام تكلم به[١].

وكان السبب في ذلك[٢]. ماذكره صاحب سيرة الناصر : أن الأمير بكتمر الجوكندار لما رأى ما يحل بالأمراء، وأن حرمته قلّت خاف على نفسه، فطلب إليه بتخاص، الذي كان نائب صفد، وغيره ممن يلوذ به، فقال لهم ، قد علمتهم ما يفعل السلطان بالأمراء، فمنهم من يأخذه بحق، ومنهم من يأخذه بغير حق، وأنا خائف منه، وما أدري ما أصنع ؟ فقالوا له : والله، نحن كذلك، قال ، فابصروا ماذا نعمل ؟ فقال بتخاص : ما في الأمر إلا أنك توافقنا عليه، وكلنا نحلف لك أنك سلطاننا، فقال لهم الجوكندار : وعلى ماذا عزمتم ؟ قالوا : نُكاتب : قطلبك، وكراي، وقطلقتمر، وقراسنقر، [٢٧٦] ونجتمع كلنا على كلمة واحدة، ونقبض هذه السلطان ونخصمه في دار، وله ما يأكل وما يشرب، وما نُخرجه إلى الممات، فقال لهم : هذا هو الرأي، فاتفقوا على هذا الاتفاق.

وكتب الجوكندار إلى الأمير كراي نائب الشام، وكان خشداشه، وذكر له صفة ما هم عليه، وكذا كتب إلى قطلو بك نائب صفد، وإلى قطلقتمر نائب غزة، وما كتب إلى الأمير قرا سنقر نائب حلب، لأنه قال : هذا خائف ولا نأمن أن يُعَرِّف بحالنا إلى السلطان، ويتوجه إليه.

ورجع قصاد الجوكندار إليه، الذين أرسلهم إلى الشام، وقد وافقه : قطلو بك نائب صفد، وقطلقتمر نائب غزة، وأما كراي، نائب دمشق، فإنه سَيَّر إليه، ويقول : يا أخي، قد عَلِمت ما الذي جرى على غيرك، وكانوا أقدر منك، فلا تُدِر هذا في ذهنك فتَهلك ونَهْلك معك، وهذا ابن أستاذنا وقد أخذ المُلْك وهو خائف.

فلما قرأ الجوكندار الكتب التي جاءت من الشام على الأمير برلغي وبتخاص قالا: نحن نعرف كراي إنه ما يوافق، وما نحن بمحتاجين إليه، ونحن نقضي الشغل، فإذا قضينا

---

(١) لم يرد هذا النص في المنشور من البداية والنهاية، ولكنه أقرب إلى النص الوارد في نهاية الأرب ١٧٧/٣٢

(٢) ينظر كنز الدرر ٢١٢/٩-٢١٧.

الشغل وافقتنا الناس كلهم، لأن الناس خائفون من هذا السلطان.

واتفق رأيهم على أن يدخلوا عليه بمماليكهم، فإن رأوا أنهم مستظهرون عليهم قبضوا عليه وإلا قتلوه، واتفقوا على [٢٧٧] أن يكون هذا يوم الخميس، وكان الاتفاق يوم الثلاثاء، ولم يطلعوا أحدًا على هذا الأمر، وباتوا تلك الليلة ومن الغد على هذا.

وطلع بكتمر الخدمة، لأنه نائب ولا يقدر على الانقطاع، فوقف في الخدمة إلى قريب الظهر، وكان قد طلع معه مملوك صغير، ابن عشر سنين، يحمل سرموجته، وكان السلطان أمرهم أن لا يعبر أحد عليه بمملوك صغير، وكان هذا المملوك واقفًا بين الأبواب عند الخدام، فجاء إليه مملوك من مماليك السلطان، صغير مثله، فلعب معه، فتضاربا، فاجتمع الصغار من مماليك السلطان عليه وضربوا مملوك الجوكندار، فجاء خادم من الخدام وخلصه منهم، وبقي مملوك الجوكندار ما يرجع عنهم والخدام يردونه، وهو ما يرتد، فضربه زمام الدار وقال له : ما ترجع عن مماليك السلطان، يا شيطان، فبكى، وقال : يا عبد النحس راحت دولتكم، غدًا أقول لكم.

ولما سمع زمام الدار بذلك المقال منه مسكه، ودخل به إلى السلطان، وقال له من حيث لا يسمعه أحد : جرى من الأمر كذا وكذا، فلما سمع السلطان ذلك طار عقله، وقال له : هات المملوك، ثم سَيَّر عشرين مملوكًا، وقال لهم : إن طلب بكتمر النائب الرواح، لا تمكنوه، فخرجوا إليه من حيث لا يعلم بهم، وطلب السلطان [٢٧٨] المملوك وقال له : ما معنى ما قلت : رَاحَتْ دولتكم غدًا أريكم ؟ ففزع المملوك، فقال له السلطان لا تفزع، أنت اليوم مملوكي، وضحك في وجهه، فحكى له المملوك كل ما جرى بين أستاذه الجوكندار وبين بتخاص وبرلغي، فقال السلطان : " هل معهم آخر، قال: كانوا يقولون إن معهم أمراء آخرين، ولكن أنا ما أعرفهم، فقال السلطان "[1] : اطلبوا بكتمر النائب، فطلبوه، وهو على غاية الاحتراز، وقد حمل أثقاله، وذلك أنه كان له عند السلطان مَنْ يخبره بكل ما جرى عند السلطان في غيبته، ولما بلغه أمر مملوكه أمر

(١) بهامش الأصل، ومنبه على موضعه بالمتن.

بشيل الأثقال والخزائن، وطلب مماليكه، وحكى لهم بالقضية، فلما سمعوا بقوا مفكرين ساعة من غير جواب، فقال لهم [خُذِلْتم][1] يا مخانثة من حديث ؟ فالله يدري أهو صحيح أو كذب، فلعن الله من يرجوكم لدفع شدة، ثم إنه دمدم ونخر[2]، وقال كَمْ نحمل الضرر ولا نثبر الغُبن، وهم يبلوننا بها، فيظنون أنني مثل مَنْ أخذوه قبلي، هيهات هيهات، والله، إن الوصول إليَّ بعيد، والقُدوم عَلَيَّ صعب شديد، وأنا أقسم بالله العظيم، ونبيه الكريم، لئن لم تنتهوا عني لأثيرن حربًا تعثر الخيل فيها بالجماجم وتقطع فيها الزرادم[3]، ثم التفت إلى مماليكه، وقال لهم : الساعة لابد من ركوب الخيل ولبس العُدد.

قال الراوي : فبينما هو يقول ذلك، إذْ سَيَّر إليه السلطان يطلبه، فما قدر على المخالفة، فلما حضر، أمرهم السلطان بأن يأخذوا [٢٧٩] سيفه، فأخذوه، ثم قال له : ما عملت معك من القبيح حتى إنك تجازيني بمثل هذه المجازاة ؟ فقال له بكتمر : والله، ما ضَرَّيتني، إلا أنك ضربت الناس وأهلكتهم وقتلتهم بغير حق، فقال السلطان : أصحيح ما قالوا عنك ؟ فقال له : نعم، فقال السلطان لمماليكه : شيلوه إلى أسند مر.

قال الراوي : فشالوه إلى الجب، ثم سير السلطان خلف بتخاص بعض مماليك الجوكندار، لأنه بعد مسكه طلب مماليكه كلهم، وخلع على أعيانهم ووعدهم بما يسرّ قلوبهم، وطيب خواطرهم، فباسوا الأرض، ثم قال لهم : من كان فيكم يرسله أستاذكم إلى الأمراء ؟ فأشاروا إلى مملوك، وقالوا : هذا الذي كان يروح إلى الأمراء، ثم أرسل إلى برلغي، فجاء إليه ذلك المملوك ورآه وهو قائم يصلي الظهر، فلما سَلَّمَ، قال له : إن الأمير يطلبك، فقال له برلغي : من عنده ؟ فقال : عنده بتخاص، ولما سمع نهض طالبًا بيت بكتمر، وكان السلطان قد أرسل إلى بيت بكتمر مائتي مملوك، وقال لهم : إذا دخل برلغي اقبضوا عليه.

---

(١) خذلتهم : في الأصل.

(٢) نخر الإنسان والحيوان : مد الصوت والنفس في خياشيمه، تاج العروس، مادة نخر.

(٣) الزردمة : موضع الابتلاع من الحلق، محيط المحيط، مادة زردم.

قال الراوي : فلما دخل برلغي ومعه مملوكه يحمل السرموجة، دارت عليه المماليك من خلفه، وقبضوا عليه قبضًا باليد، وساروا به إلى السلطان، فلما وصلوا به إليه، قال لهم: ودُّوه إلى الجب.

وكان السلطان قد أرسل أيضًا مائتي مملوك إلى بيت بتخاص [٢٨٠] وأمرهم بالقبض عليه.

ثم إن السلطان أرسل بكتمر الجوكندار إلى الكرك وحُبس فيها إلى أن مات[(١)].

ذكر مسك نائب صفد

وأرسل السلطان الأمير سنجر[(٢)] الجمقدار إلى صفد، ومعه كتب إلى الأمراء الذين بها، يقول فيها : إن امتنع قطلبك على المرسوم وخرج من بينكم راحت أرواحكم، وكان ذلك نهار الاثنين[(٣)]، فأخرج الجمقدار الكتب [وأعطاها][(٤)] لقطلو بك بحضور الأمراء، فلما قرأها قال : السمع والطاعة لمولانا السلطان، أنا .. والله، لي سنة انتظر هذا اليوم، فعند ذلك أخرج الجمقدار قيدا وحَطَّه في رجلي قطلو بك[(٥)]، فلما رأت مماليكه ذلك نظر بعضهم إلى بعض، وقالوا : ما نُمَكن أحدًا من أستاذنا، وهموا بالجمقدار، فصرخ عليهم قطلو بك وردهم عنه، وفي تلك الساعة ركب الجمقدار وأخذ معه قطلو بك وسار به إلى الكرك.

فكان وصول كراي نائب الشام، ودخول قطلو بك نائب صفد، وقطلقتمر نائب غزة إلى الكرك في يوم واحد، فسلموهم إلى نائب الكرك، فأنزلهم كلهم في الجب.

---

(١) كان آخر العهد به بتاريخ سنة ٧١١هـ/١٣١١م تقريبًا، ينظر المنهل الصافي ٣/٣٩٨ رقم ٦٨٠.

(٢) كان من المماليك المنصورية، وتنقل في الخدم، وتوفى سنة ٧٤٥هـ/١٣٤٣م، الدرر الكامنة ٢/٢٧٠ رقم ١٨٨٩.

(٣) يوم الجمعة الرابع والعشرين من جمادي الأولى : في تاريخ البرزالي ٤/٢٥.

(٤) وأعطاه : في الأصل.

(٥) بحضور الأمر : في الأصل، ومشطوب عليها.

ونذكر الآن قضية كراي نائب الشام

ذكر مسك الأمير كراي نائب الشام

قال ابن كثير : وفيها، في يوم الأربعاء الثاني والعشرين من جمادي الأولى، حضر سيف الدين أرغون[١]، على البريد إلى دمشق [٢٨١] وعلى يده مكاتبات للأمراء بالقبض على الأمير كراي النائب بدمشق.

وصفة مسكه : أنه قدم الأمير أرغون الدوادار فنزل القصر، فلما كان يوم الخميس الثالث والعشرين من جمادي الأولى خَلَع على كراي خُلْعةً سَنية فلبسها وقبّل العتبة، وحضر الموكب، ومُدَّ السِّماط، فَقُيِّد بحضرة الأمراء، وحُمل على البريد إلى الكرك صُحبة غُرلو العادلي وبيبرس المجنون[٢].

ثم قدم الأمير أقوش نائب الكرك على نيابة دمشق يوم الأربعاء [رابع عشر جمادي الآخرة][٣] منها، وتلقاه الناس، واشتعلت الشموع، وكان يومًا مشهودًا.

وقال ابن كثير : وفي يوم الأربعاء الثاني والعشرين من جُمادي الأولى وصل مملوك سيف الدين كراي إلى دمشق، وصُحبته لمخدومة تشريف وحياصة وسيف، واتفق في ذلك اليوم وصول رُسل التتار، فأصبح كراي المذكور يوم الخميس ركب الموكب ولبس

(١) هو : أرغون الدوادار، اشتراه الملك المنصور ورباه مع ولده الناصر محمد، وتنقل في الخدم حتى ولي نيابة السلطنة بالديار المصرية سنة ٧١٢هـ، وتوفى بحلب سنة ٧٣١هـ/١٣٣٠م، الدرر الكامنة ٣٧٤/١ رقم ٨٧٣، المنهل الصافي ٣٠٦/٢ رقم ٣٦٧.

(٢) ينظر البداية والنهاية ١١٢/١٨ حيث يوجد اختلاف في بعض الألفاظ.

وبيبرس المجنون : هو أحد الأمراء بدمشق، وتوفى سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م، الدرر الكامنة ٤٢/٢ رقم ١٣٨٢.

(٣) في يوم الأربعاء الرابع والعشرين من ربيع الآخر : فى الأصل ، والتصويب من تاريخ البرزالي ٢٦/٤، وهو الأرجح حيث مسك كراي في الثالث والعشرين من جمادي الأولى، ينظر ما سبق ، نهاية الأرب ٣٢/ ١٨٢ ، البداية والنهاية ١٨/ ١١٢ .

التشريف ورجع فمّد السماط، وكان قد احتفل لأ [جل][1] التشريف ولأجل رسل التتار، فلما أكلوا رَسم للرُسُل بالانصراف، وأحاطت الأمراء بكراي المذكور، وأخرجوا له المرسوم بالقبض عليه، فأجاب بالسمع والطاعة، وقلع شاش التشريف وضرب به الأرض، وقُيد من وقته، وحُمل إلى الكرك، فاعتقل بها[2].

وقال ابن كثير أيضًا [٢٨٢] إن كراي لما تولى دمشق قرر على أهلها في أول الشهر الذي قدم فيه، وهو شهر المحرم من هذه السنة، ألفًا وخمسمائة فارس، لكل واحد خمسمائة درهم، فضُربت على الأملاك والأوقاف، فتألم الناس بسبب ذلك، وسعوا إلى الخطيب جلال الدين، فسعى إلى القاضي، فاجتمع الناس [بكرة][3] الاثنين ثالث عشر المحرم، واختلفوا في الاجتماع، وأخرجوا معهم المصحف العثماني والأثر النبوي والسناجق الخليفتية، ووقفوا في الموكب، فلما رآهم النائب تغيظ عليهم، وشتم القاضي والخطيب، وضرب مجد الدين التونسي، ورَسَّم عليهم، ثم أطلقهم بضمان وكفالة، فتألم الناس لذلك كثيرًا، فلم يمهله الله إلا عشرة أيام وجاءه الأمير فُجَاءةً، فقيد وعُزل وحُبس، ففرح الناس لذلك فرحًا شديدًا[4].

ذكر قضية الأمير قرا سنقر المنصوري نائب حلب وتوجهه إلى الحجاز، ثم توجهه إلى خَربَندا ملك التتار

قال ابن كثير : وفيها أرسل شمس الدين قرا سنقر المنصوري نائب [حلب][5] يسأل الإذن من السلطان في التوجه إلى الحجاز، فأذن له، وأنعم عليه بألفي دينار عينًا، وفوضت نيابة حلب في غيبته للأمير شهاب الدين قرطاي الحاجب، وخرج قراسنقر

---

(١) إضافة لاستكمال الكلمة، ينظر ما يلي.

(٢) لم يرد هذا النص في المطبوع من البداية والنهاية، يقارن بما سبق في الفقرة الأولى.

(٣) بكر : في الأصل، والتصويب من البداية والنهاية ١١١/١٨.

(٤) البداية والنهاية ١١١/١٨-١١٢.

(٥) إضافة لاستكمال النص، وينظر البداية والنهاية ١١٢/١٨.

على نية الحج، فلما وصل إلى أطراف البلاد من بلاد البلقاء بلغه أن السلطان [٢٨٣] جَرَّد جماعة من مماليكه بالهجن والخيل، فظن أنهم يقصدونه، فرجع إلى حلب، فَمُنع من الدخول إلاّ بعد العود من الحجاز الشريف، أو بمرسوم شريف، فطلب موجوده الذي بحلب فُمنع أيضًا منه، فجاء إلى الأمير ابن مهنا وعَرَّفه بذلك، فأرسل إلى الأمراء بحلب في تمكينه من موجوده، وإن لم تفعلوا هجم حلب ونَهَبها، فمكنوه من موجوده فأخذه وقصد البرية، وجهز ولده فرج[١] إلى ديار مصر بجملة من أمواله، فوصل إلى القاهر [ة][٢] في أواخر ذي الحجة، فأُنْعِمَ عليه بإمرة عشرة، واستقر بالقاهرة مع أخيه علاءْ الدين عَلِيّ، ثم إن قراسنقر كاتب أقوش الأفرم ونائب طرابلس وبذل له بالطاعة وأن يكون هو صاحب الأمر، وبذل له المال مرة ومرة ومرة، وهو يُدافعه.

ولما اتصل خبر قرا سنقر بالسلطان جَرَّد الأمير أرغون وجماعة أمراء فوصلوا دمشق واستصحبوا جماعة من عسكرها وتوجهوا، ثم أردف السلطان هذه العساكر بعساكر أخرى، فوصلوا إلى حمص واجتمعوا بمرجها، ولما توجهت العساكر توهم أقوش الأفرم منهم فركب ونزل على رأس عين، ووصل إليه بها : أيدمر [الزردكاش][٣]، وبلبان الدمشقي، وبيبرس الحسامي، وذكروا له أن الكلمة قد اجتمعت عليه، [وكاتب][٤]، الأمراء بطرابلس، فلم يجيبوه، فركب [٢٨٤] وقصد البرية، فتبعه [أَلركتمر][٥]، الجمدار الناصري، فلحقَ أثقالَه فأخذها، ولم يلحقه فرجع، ولما بلغ قرا سنقر مسير الأفرم خلفه ظنه مكيدة، فجعل كلما نزل منزلة يتقدمه منزلة، حتى أرسل إليه يحلف له إنما جاء في ميعاده، فقال : إن كان الأمر كذلك [فلتجتمع][٦] معي مع مَمْلوكَيْن، فركب على

(١) هو : فرج بن قرا سنقر المنصوري، كان أحد الأمراء بمصر، وتوفى سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٣، الدرر الكامنة ٣١٢/٣ رقم ٣٢٠٢.

(٢) إضافة لاستكمال الكلمة.

(٣) الزركاش : في الأصل، والتصويب مما سبق.

(٤) وكانت : في الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٥) ادوكتمر : في الأصل، والتصويب مما سبق.

(٦) فلتجمع : في الأصل.

الهجن ولحقه، وحلف له، فاطمأن، ثم قال : خفف من هذا الجمع الذي معك فليس لنا بهم حاجة، فاحتال عليهم الأفرم حتى رجعوا، وتوجه هو وقرا سنقر، والثلاثة الأمراء الذين كانوا لحقوا بالأفرم، كما ذكرنا، وتبعهم العسكر الناصري إلى الرحبة، ثم رجع، ولما قربا من بلاد التتر كتبا إلى خربندا يستأذناه في الوصول إليه، فأرسل إليهما الإذن والخلع، فوصلوا إليه فأكرمهم، وأعطى جمال الدين أقوش الأفرم همدان، فتوجه إليها ولم يزل بها حتى مات[١]، وأقام قرا سنقر عند التتار إلى أن مات في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، كما [سنذكره][٢] إن شاء الله تعالى.

وذكر في كتاب سيرة الناصر : أن قرا سنقر طلب مماليكه وقال لهم : إني بقيت رجلاً كبيرًا، والله تعالى يعلم ما بقي من عمري، وقد عولت أن أسير إلى بيت الله الحرام وأزور قبر نبيه محمد سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام، فإن شاء الله تعالى أجاور في بقية عمري عند ضريح [٢٨٥] النبي عليه السلام، فتجهزوا، ثم كتب كتابًا إلى السلطان يستأذنه إلى الحجاز الشريف [ويشاوره][٣] على أن يكون النائب مكانه إلى حين يجيء، وأرسل الكتاب مع مملوكه مغلطاى الخطاي، فلما وصل إلى مصر، وتمثل بين يدي السلطان، باس الأرض وناوله الكتاب، فلما قرأه السلطان، قال لمغلطاي : لم ما أعلمني من قبل هذه الأيام حتى كنت أجهز جميع ما يحتاج إليه وأقمت بواجب حقه ؟ لأن الأمير شمس الدين عندي في منزلة الملك المنصور، فباس مغلطاي الأرض ودعا له، فأمره السلطان بالإنصراف إلى حين يكتب جوابه.

وفي تلك الليلة طلب السلطان [نائبه][٤] بيبرس الخطاي، وقال : غدًا أطلب لي الجمالين الجادة إلى الحجاز، وتخليهم أن يحملوا إلى مكة [شرفها][٥] الله : ألف أردب

---

(١) توفي سنة ٧١٦هـ/١٣١٦م، السلوك ١٦٧/٢، وينظر المنهل الصافي ٩/٣ رقم ٥١١، كما ينظر عقد الجمان حوادث ٧١٦هـ.
(٢) سيذكره : في الأصل.
(٣) ونشاوره : في الأصل.
(٤) نائب : في الأصل.
(٥) شرف : في الأصل.

شعير، ومائة قنطار بقسماط، وألف علبة حلاوة، وأن يُشتري هناك خمسمائة رأس غنم لأجل قرا سنقر، ثم أَرسَلَ البريدي إلى الكرك، وأمر لنائبها بأن ينزل لقرا سنقر، ويُرسل له: ألف أردب شعير، وخمسمائة رأس غنم، وأن يُجهز له الإقامات في المنازل، ثم طلب مملوكه وكتب جواب كتاب قرا سنقر يقول فيه : والله لقد عتبت على الوالد كيف أنه ما أعلمني من قبل، وربما كنت أنا أيضًا توجهت إلى الحج وكنا نقضي الفرض جميعًا، وأنت تعرف علو منزلتك عندي، والإذن معك، وأي مَنْ أردتَ [٢٨٦] أنت عَيِّن لنيابة الغيبة إلى حضورك، لأنك تعلم بأن حلب هي لك ما لأحد فيها حكم.

وذكر أيضًا أنه أرسل لأجله إلى مكة كذا وكذا، وأمر من الكرك أيضًا، وخلع على مملوكه خُلعة هائلة، وسَيَّر معه لقرا سنقر أيضًا خُلعة كاملة، فلما وصل إلى أستاذه وقرأ قراسنقر الكتاب، قال : الله يكفينا شر هذا العطاء، ثم إن قرا سنقر عاد إلى مكره وخداعه، وقال : قل للذي يدعي علم الفلسفة، حَسِبتَ شيئًا وغابَتْ عنك أشياء، إن كان خاطر الملك الناصر شيء لأجلي وأذن لي أن أدخل البلاد ليتمكن مني مثل ما يريد، فقد فرطت أنا في روحي، على أني أدعي أني أدري أهل الأرض وأمكر من كل ماكر.

ثم كتب كتابًا إلى السلطان، يقول فيه : أقل المماليك قرا سنقر المنصوري الناصري، لما أتى إليه المثال الشريف قبله قائمًا، وقابله لاثمًا، وأثنى بالشكر له على ذلك دائمًا، وإن المملوك يسأل من الصدقات الشريفة " مرسومًا شريفًا بأن لا يدخل إلى دمشق، لأن أهلها حين خرج المملوك من بينهم سبوه وشتموه، ولولا خوفهم من سطوة السلطان رجموه، وربما إذا دخلت إليها فأهلها يُسْمِعُونني ما لا أريده، وقد شملت المملوك الصدقات الشريفة"[1] فيكون تمامها أن يروح إلى البرية ولا يخرج إلا من الكرك.

فلما وصل كتابه إلى السلطان رَدَّ إليه الجواب، بأن البلاد كلها في تصريفك وتحت حكمك أينما أردت توجه، فلما أتى إليه الجواب فرح فرحًا شديدًا، واهتم في أمره، وتجهز

(١) بهامش الأصل، ومنبه على موضعه بالمتن.

هو ومماليكه، وتجهز معه أكثر أهل حلب، ثم كتب كتابًا إلى مهنا يُعْلمه أنه قصد سفر الحجاز، وسأله أن يُرسل إليه ابنه [٢٨٧] سليمان ليكون معه، فلما وصل الكتاب إلى مهنا أرسل إليه ابنه مع جماعة من العربان، فأنزلهم قرا سنقر في الميدان، ورتب لهم ما يكفيهم طول إقامتهم، ثم خرج قرا سنقر من حلب في الثاني عشر من شوال من هذه السنة، وقيل من سنة اثنى عشر.

قال الراوي : وخرج في زي عظيم عجيب، حتى قال أهل حلب هذا نهاية قراسنقر بالعُجب، إن كان يرد إلى حلب بعد ذلك، وكان أخرج معه مَخْمَلاً أصفر وعليه رَصَّافِيَّه من الذهب وقد رُصعت بالفصوص، وهو على جمل بختي[١] في رقبته قلائد الذهب والفضة، وفي رجليه خلاخيل الذهب، وحوله جملة كجوات[٢] من الأطلس المختلفة الألوان، وخرج هو في سبعمائة مملوك غائصين في حديد، ورُفعت العَصَائب على رأسه، ودُقَّت الكُوسات، وزَعقت البُوقات، واستناب مملوكه جركس وأوصاه بأنه لا يقطع كتبه عنه مع النجابة، ويطالعه الأخبار ساعة بساعة، ولا يخرج من حلب، ثم سار بمن معه من منازل البرية، والعرب أدلاؤه في الطرقات، فما خرجوا به إلا من تحت صرخد، ثم ساروا حتى انتهوا إلى زيزاء[٣] فاجتمع بركب دمشق، وكان أمير الحاج للركب الشامي طيبغا قراباش، أخو بهادر آص، فلاقى قرا سنقر وسار معه في خدمته حتى نزل في مخيمه، وما استقر به النزول حتى جاءت إليه من الكرك الأغنام [٢٨٨] والشعير.

وكان قرا سنقر لما نزل بالركب على زيزاء أمر لمماليكه أن لا ينزلوا مع الركب ولا يخلوا أحدًا منهم ينزل بينهم، ولا يدخل بينهم غريب، فنزلوا على جانب من الركب، ولم يزل طيبغا أمير الركب الشامي معه إلى نصف الليل، فخلع عليه قرا سنقر، ثم أمره بالانصراف فانصرف، وأقاموا هناك ثلاثة أيام، ومن الليلة الرابعة، حرك قرا سنقر

---

(١) البخت : الإبل الخراسانية، محيط المحيط، مادة : بخت.

(٢) كجاوة : لفظ فارسي بمعنى : هودج النساء، ينظر.

(٣) زيزاء : من قرى البلقاء، من منازل حج الركب الشامي، معجم البلدان.

كوساته ورحل، فرحل طيبغا خلفه، وكل منزلة ينزلها قرا سنقر يجد فيها الإقامة من الكرك، وكذا لما نزل على الكرك بعث له النائب شيئًا كثيرًا، وأعلمه بأنه سير إلى معان خمسمائة أردب شعير، وكان قرا سنقر دائمًا يقول : اللهم اعطنا خير هذا العطاء واكفنا شره.

ولما نزل قرا سنقر على معان وصل إليه نجابان من مصر، من عند ابنه، ومعهما كتاب، فلما قرأه تغير لونه، فقال : الله أكبر، والله حسبت هذا الحساب، ثم اختلى بمماليكه الذين يعتمد عليهم، فقال له مملوكه بنجار : رأيت وجهكم قد تغير حين قرأت الكتاب، فقال : حتى أقرأه عليكم، فإذا فيه ساعة وقوفك على الكتاب احذر على روحك غاية الحذر، واعلم بأن السلطان قد جهز أرغون الدوادار ومعه : قرا لاجين الزيرباح، وجنكلي ابن البابا، ومعهم جماعة من الفرسان أكثر من ألفي نفس [٢٨٩] وأمرهم أن يروحوا إلى غزة، فإذا خرجت إلى البر يسيرون إلى الكرك ويتوجهون خلفك، وجرد أيضًا أمير حسين بن جندر والأمير قُلَيّ ومعهم عسكر، أكثر من ألفي نفس، وأمرهم بأن يسيروا ويلاقوك من طريق المدينة النبوية، فاحذر كل الحذر.

قال الراوي : فلما سمع مماليكه ذلك الكلام بهتوا وشخصوا، فقال لهم قرا سنقر ذللتم يا مخانثة، الله يدري أصحيح هذا أم كذب، فإذا كان صحيحًا هل يتلاقون معنا أم لا ؟ فلعن الله من يرجو منكم خيرًا يوم الشدة، ثم إنه أمر لهم أن يردوا ما معهم من الأثقال ولا يخلوا معهم غير نصف الزاد، ثم طلب سليمان بن مهنا، وقال له : يا سليمان جرى كذا وكذا، وأوقفه على الكتاب، فقال له سليمان على ماذا عولت يا أمير ؟ فقال: يا سليمان أنا ما اخترتك معي إلا لعلمي بغزارة مروءتك وزيادة كرمك وشدة شجاعتك، ومثلك لا يضيع نزيله ولا يُخَيِّب سائله، وأنا اليوم صرت من ألزامك ومن جملة نزلائك، فقم معي قومة الرجال ولا تخلّ يتحدث فيك الأرذال.

فلما سمع سليمان بذلك انتخى وهزته أريحيّة المروءة وطبع العرب، فقال : يا أمير شمس الدين، طيب قلبك واشرح صدرك، فها نحن بين يديك، والله، ما يصيبك إلا ما

يصيبنا، ولكن أخبرنا على ماذا عولت ؟

فقال له : [٢٩٠] أعلم أن معنا الحريم والعيال والأحمال والأثقال في هذه البراري، وليس من المروءة أن نضيعهم، فنرجع بهم، وأنت قدامنا في البراري حتى نصل إلى حلب، فإذا وصلنا نرى هناك رأيًا آخر مما قدره الله تعالى، فقال سليمان : نِعْمَ ما رأيت.

وما أصبح الصباح حتى شالوا الأحمال وحَمَّلُوا الجِمَال، وساروا وسليمان أمامهم.

ثم إن قرا سنقر يتذكر ما جرى عليه، وتفيض عيناه بالدموع وينشد ويقول :

إذا ثار الغبار إلى العنان		وقام الحرب ملأ العيان
وأبرقت الصوارم مشهرات		يكف هامها البطل المُدَان
ودارت من الأكف على البرايا		كؤوس الموت يا بئس الأواني
هناك ترى مني صبرًا جميلاً		أقدُّ الرؤوس ضربًا باليماني
حلفت ولي جنان لا يبالي		على كُثر الخطوب وإن دَهاني
[٢٩١] ولي قلب صبورٌ على الرزايا		ولي جَلَدٌ على رَيْبِ الزمان
وكم من شدةٍ ورخاءٍ وضيقٍ		وأخُول لها كل اللسان
صبرت لها فولت عند صَبْري		ودَلَّت من حسامي مع سناني
فكيف أخشى من الأيام ريبًا		وأُمَرَاء آل فضل يُعضدان
غطارفة سموا للعزّ قادة		برامكة علوا يوم الطعان
أبا موسى مهنى قد لجأنا		إليك وقد دهاني ما دهان

وإني واثـــق مـــنكم بحبـــل متـــين لا يُـــرَثُّ له مبـــاني

فكـن لي عنـده حِـصْنًا حَـصِينا فـــإن في ذمامـــك في أمـــانى

قال الراوي : فلما سمع سليمان ذلك من قرا سنقر طرب واهتز على ظهر حصانه، وأنشد يقول :

ألا يا صـــاح دع ذكـــر المغـــاني [٢٩٢] وكاسـات المثالـث والمثـاني

ولهـو العـيش مـع بـيض وغيـد تعـرق الـشمس حـسنا مـع معـاني

ألا يا آل فـــضل يا عـــوادي أيا عـــونًا عـــلى رَيْـــب الزمـــان

أجيبـــوا للنـــداء بـــكل فحـــل متـــين المـــتن مُغْتـــدّ حـــصان

وكلِ سَمَيْـــدعٍ شـــهم هُـــمام غـضنفر باسـلٍ ضخـم اليـدان

أنا ليـث الحـروب أبـو المعـالي سـليمان غـدًا تنظـر طعـاني

إذا ثار الغبـــار مـــن الـــسعالي وطـار الـشُّهب مـن تحـت اليـدان

هنـــاك تـــرى ليثًـــا عبوسًـــا أُوافيهـــا ولـــو قطعـــت يمـــان

بـــسيف كان لي في عهـــد عـــادٍ صـقيل المـتن أخـضر هنـدواني

وتبـــصر مـــوقفي في كل أرض صـديقي مـع عـدوي يـشهداني

[٢٩٣] فكن لنا ظَهرًا وحِصنًا فـنحن إليـك نـسعى لاسـتماني

إذا جئنـــا نزلنـــا منـــك أرضًـــا فـشمس الديـن يُـصبح في أمـان

قال الراوي : فلما سمع قرا سنقر ذلك من سليمان شكره ودعا له، فقال له سليمان: يا أمير شمس الدين، طيب قلبك واشرح صدرك، ما بقى ينالك مكروه، ها نحن لك

وبين يديك، وأنت تعلم إش بينك وبين محنا من الصداقة والمودة، فقال قرا سنقر : صدقت، ولكن أخاف أن الصداقة في ذلك الزمان كانت وأنا مالك البلاد، فقال سليمان: دع عنك هذا المقال، والله، لو أُعْطى محنا ملؤ الدنيا ذهبًا على أن يتركك لما تركك ولا يتخلى عنك.

ثم إنهم جدوا في السير ليلاً ونهارًا، حتى قطعوا البراري من بين الرحبة وتدمر على قرية يقال لها أريكة، فنزلوا عليها يومين واستراحوا، ورحلوا في اليوم الثالث طالبين حلب.

وشاعت الأخبار برجوع قرا سنقر، وسمع السلطان بذلك، فأرسل البريدي في الحال إلى حلب وعلى يديه كتاب للأمير قرطاي الحاجب ولبقية الأمراء بحلب، يقول : إن كان يجيء إليكم قرا سنقر فلا تمكنوه من العبور إلى حلب، [٢٩٤] فلما وقفوا على كتب السلطان احترزوا وتأهبوا، ومسك قرطاي نائب قرا سنقر، الذي استنابه في حلب، وهو مملوكه جركس، كما ذكرنا، وحبسه في قلعتها.

وأقاموا ينتظرون قدوم قرا سنقر، فإذا به وقد قدم ومعه مماليكه وحاشيته كلهم ملبسون، وخرج أمراء حلب بعسكرها، ولما وقعت العين على العين أرسل قرطاي الحاجب يقول لقرا سنقر : مَا لَكَ عبور إلينا، لأنك خرجت على أنك تروح إلى الحجاز ثم رجعت، فلا ندري هل رجعت بمرسوم السلطان أم لا ؟ ولا نمكنك من الدخول إلا بمرسوم السلطان، فقال قرا سنقر : حبًا وكرامة، فأنا أنزل على حَيْلان وأرسل إلى السلطان ليرسل مرسومًا بذلك، فخلوا حريمي يدخل حلب، فخلوا الحريم، فدخلوا الدور، وأقام قرا سنقر على حَيْلان، وهي قرية بالقرب من حلب من ناحية الشمال، والقناة التي تعبر حلب تجوز عليها، وخيولهم تلفت جدًّا من كثرة السوق وبُعْد المسافة.

وكان قرا سنقر لما خرج من حلب خَلَّى جملة خيل على القصيل، وهو ربيع حلب، وكانت قد سمنت من أكل القصيل والراحة، فقال لأصحابه : أبصروا كيف تعملون حتى تجيبوا لنا هذه الخيل، فقالوا : كيف الوصول إليها ؟ وهي في داخل حلب وبعضها

في بستان [٢٩٥] السلطان، وقرطاي كل ليلة يُبَيّتُ عليها حُراسًا ؟ فقال رجل منهم، من أهل النجدة والقوة، يسمى عثمان بن قرا علام : أما التي في البستان فأنا أجيبها الليلة، وكانت مائة فرس، فلما جن الليل أخذ معه عشرة مماليك وسار يطلب البستان حتى وصل إليه، وإذا بالبَيَّاتة على الباب، وهم مقدار عشرين رجلاً من حلقة حلب، فخلاّهم عثمان ودار إلى خلف البستان، وأخرب موضعًا من الحائط، وعبروا على السواس[1] بقدومهم، فقاموا وأخرجوا الخيل كلها من ذلك الموضع، وساروا بها إلى قرا سنقر، فلما رآهم قراسنقر فرح فرحًا شديدًا، وقال كُنَّا رَجّالة [قَلَّما][2] ركبنا الخيل، وأخبره السواس وأمير آخوره بما جرى في حلب، وأن جركس مملوك ملك الأمراء محبوس في القلعة.

وكان سليمان بن مهنا سار إلى أبيه يطلبه وكان على الجبُّول، ثم إن قرا سنقر جمع مماليكه وقال لهم : إني غدًا أريد أن أهجم على حلب، فإن ظفرت بما أريد فيها، وإن جاء عسكر دمشق أو تجريدة من مصر دخلُ البرية مع العرب، فقال مماليكه : كيف تعمل بعسكر حلب ؟ وهم أيضًا كثير، فقال قرا سنقر : أكثرهم ما يقاتلون، فأجناد الحلقة لا يقاتلون، ولا يقاتل منهم إلا الأمراء، وأنتم كفؤ لهم.

ولما أصبحوا ركب قرا سنقر [٢٩٦] ومعه مقدار سبعمائة مملوك من الذين كانوا معه في السفر، ومن الذين اجتمعوا حوله حين قدم، وسمع الأمير قرطاي حاجب حلب بذلك فركب، وركب أمراء حلب بعسكرها، فلما تلاقوا صاح عليهم قرا سنقر وقال لهم: يا طناجرة مسكتم مملوكي وكسرتم حرمتي فإش جرى ؟ أنا عاصٍ للسلطان حتى فعلتم ما فعلتم ؟ ثم حمل عليهم حملة مَنْ أَيس من الحياة، فتقلعوا من بين يديه إلى قريب القلعة، ثم أرسل إليهم ناصر الدين الدوادار يقول لهم : أقسم بالله العظيم، لئن لم تطلقوا مملوكي جركس ولم تسلموا إلَيّ بقية خيلي وجمالي التي في حلب نهبت حلب وأحرقتها ولا أبالي،

(١) السواس : جمع سائس، وهو من يقوم على خدمة الخيل، صبح الأعشى ٤٧٤/٣، وينظر المعجم الوسيط، مادة ساس.

(٢) فلما : في الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

فلما سمع الأمراء بذلك قالوا لقرطاي : ما كان القبض على مملوكه بمصلحة، فقال قرطاي : قد كان ذلك، وإن لم يرجع إلى أن يجئ مرسوم السلطان قاتلناه، فقال له جمال الدين بن قَرا عَلِي : يا أمير، بمن نُقاتل ؟ وهو نار مُحْرِقة، والله، يقاتل معك واحد وعشرة ما تقاتل، فقالت بقية الأمراء : صدق والله جمال الدين، فطلب قرطاي الحاجب قضاة حلب وأكابرها، فأرسلهم إلى قرا سنقر ليرجعوه عما هو فيه، فجاءوا إليه، وقال لهم قرا سنقر : لماذا جئتم ؟ فقالوا : يا مولانا شمس الدين، نسألك لوجه الله تعالى أن ترحم هؤلاء المساكين وترجع [٢٩٧] عنهم، فإن الذي تفعل فيه خراب المملكة وفساد بين الخلق وسفك الدماء، وحاشى منك أن تكون سببًا لهذه الأشياء، ولا يَخْفى عليك أن في حلب طوائف مُجَمَّعة وفيهم أكراد، فنخاف إذا وقع القتال تنهب هؤلاء المدينة فيحصل الفساد في حريم الناس، فقال لهم قرا سنقر : ما أقل عقولكم، فأُخَلِّي مملوكي في الحبس من غير ذنب وأترك أموالي وأروح بغيرهم لأجلكم ! فوالله العظيم، لئن لم يطلقوا مملوكي ومالي لدخلت في دماء أهل حلب، فعادوا وأخبروا قرطاي بذلك، فقال : ما أقدر على إطلاق مملوكه إلا بمرسوم السلطان.

وهَمَّ قرا سنقر بالحملة عليهم، ولكن ما منعه من ذلك إلا غبار شديد ثار عليهم من جهة جَبّول، فانكشف الغبار عن جماعة من الفرسان وهم عرب مهنا ملك العرب، ومهنا قدامهم ومعه أخوته، ولما رآه قرا سنقر أسرع إليه [وتصافح][1] معه، وهما على ظهر الخيل، فقال مهنا ما الخبر ؟ فحدثه قرا سنقر بما جرى عَلَى مملوكه جركس، وكيف منعه أهل حلب عن الدخول إليها، ثم إن مهنا : قال لولده سليمان : اذهب إلى قرطاي وقل له: يقول لك مهنا : أقسم بالله العظيم، لئن لم تُخْرج كل شيء [٢٩٨] للأمير شمس الدين قرا سنقر وتطلق مملوكه تركت حلب كجوف حمار، فسار سليمان إلى قرطاي وبلغه ما قال له مهنا، فقال له : قرطاي : نحن قد فرحنا لما جاء أبوك، وقلنا إنه يرده عنا، وما هو إلا يقويه علينا، ولما أبطأ سليمان على مهنا أرسل أخاه فضلاً، وقال له: قل لهذا

(١) وصالح : في الأصل.

النحس قرطاي : إن كان معه مرسوم السلطان بالقبض على مملوك الأمير قرا سنقر يوقفنا عليه، وإلا يطلقه سريعًا، فسار فضل إليه وبلغه ما قال له مهنا، قال : والله، ما جاءني مرسوم بذلك غير أني قبضت عليه، ولا أقدر على إطلاقه إلا بمرسوم من السلطان، فقال له فضل : أخرجه وسلمه إليّ بالإشهاد بأنك سَلَّمته إليَّ، وكذا [خيله][1] وقماشه، وكل شيء له، فقال له قاضي حلب : هذا هو المصلحة، فأنزلوا جركس من القلعة وكل مَنْ معه، وأخرجوا كل شيء لقرا سنقر في حلب من الخيل والجمال.

ثم سار قرا سنقر ومهنا بمن معهما ونزلوا على حَيْلان، وتَشَاوروا تلك الليلة، فقال قرا سنقر لمهنا : يا ملك العرب، أنت اليوم ملك العرب، وليس في الترك ولا في العرب أكبر منك، ولا أَدْرَي بالأمور، وأنا ما بقى لي مقام مع السلطان الملك الناصر بعد أن جرى هذا الأمر، ولا بَقِيتُ آمن على روحي منه، وقد علمت [٢٩٩] ما جرى على الذي قبلي، فقال له مهنا : ماذا تريد تَفْعل ؟ قال : أعبر إلا بلاد التتار، وأجلب العساكر وأقلع المُلْك منه، فقال له مهنا : بئس الرأي، تبدل الإيمان بالكفر، فما الذي جرى عليك الآن فلا تعرف رجوعك إلى حلب إلاَّ مِنِّي، وفي هذه الساعة أكتب إلي السلطان فيك، ونجيب لك بكل ما تختار، فقال : يا ملك العرب، لا تفعل، لأني ما بقيت آمنًا على نفسي منه أبدًا، لأني رأيت كيف حلف لغيري، ثم أخذه، فقال مهنا : أنا أقول لك شيئًا آخر، وهو أني آخذ لك حلب وأتدرَّك أن لا يسير إليك تجريدة، وأنت تدرَّك بلاد حلب، فقال قرا سنقر : رضيت بذلك، ولكن إذا جاء عَلَيَّ عسكر كثير فأذهب حينئذ إلى البلاد.

ثم إن مهنا وقرا سنقر تحالفا أن يكونا على قلب رجل واحد في السراء والضراء.

ثم في الحال طلب مهنا ولده سليمان، وكتب معه إلى السلطان، وذكر فيه أحوال قرا سنقر، وأنه كان رائحًا إلى بلاد العدو المخذول، وقد منعته عن ذلك، وضمنت له عن مولانا السلطان أنه يرده إلى حلب كما كان، وسؤاله من الصدقات الشريفة أن لا يُرَدُّ ما

---

(١) خليه : في الأصل، وهو تصحيف.

سأله المملوك، لأن مولانا السلطان يعلم أني ما قصدت بهذا إلا خيرًا لمولانا السلطان ولبلاده، لأنه لو عبر إلى بلاد [٣٠٠] التتار لكان يحصل منه فساد كثير، وربما كان يحوصل(١) إلى أمور لا يقدر عليه غيره، فمولانا السلطان، خلد الله ملكه، يعلم ما جرى على المسلمين من نوبة [قفجق](٢)، ولا شك أن قفجق ما يجيء قدر ذَرَّة في قرا سنقر، ولولا أني أدركته لفات الأمر، وكنا نتعب بعد ذلك.

وهم في هذا، فإذا بقاصد قرا سنقر قد وصل من دمشق وأخبر أن أرغون الدوادار قد وصل إلى دمشق ونزل على القابون، وقد تجرد معه أربعة آلاف فارس وهم طالبون، فقال قرا سنقر لمهنا : كيف ترى ما أقول لك ؟ فقال : طيب قلبك، فأنا ما أُخلِّي أحدًا منهم يتجاوز عن حمص حتى يجيء إلينا مرسوم السلطان بما نعتمد عليه، فركب قرا سنقر من حلب ونزل على الباب(٣)، ثم رحل من الباب ونزل على بالس(٤).

وأما سليمان فإنه لما حضر بين يدي السلطان أعطاه [كتاب](٥) والده فقرأه وعلم ما فيه، فقال : ولأي معنى رجع قرا سنقر من سفر الحجاز ؟ وقد سَيَّرنا له الإقامات إلى المنازل، واحتفلنا له غاية الاحتفال، فباس سليمان الأرض، وقال : فكأنه توهم من العسكر الذي أخرجه مولانا السلطان مع أرغون الدوادار فظن أنه لأجله، وداخله الخوف من السطوات الشريفة، ولولا مهنا لكان قرا سنقر الآن في بلاد [٣٠١] العدو، غير أنه قد عوقه، وضمن له عن مولانا السلطان، فقال السلطان : هذا الذي توهمه قرا سنقر قطّ ما مر بخاطري، ولكن لمَّا سافر هو خِفْت على أطراف البلاد، فجرَّدت أرغون إليها فيقيم بها إلى حين يقدم قرا سنقر، وما عندي في أمراء مصر والشام أحدٌ أكبر منه عندي، فيرجع إلى حلب منشرح الصدر طيب الخاطر منبسط الأمل، ثم

(١) هكذا بالأصل ، والمقصود : يوصل .

(٢) فقجق : في الأصل، والتصويب مما سبق.

(٣) الباب = باب بزاعة : بليدة في طرف وادي بطنان من أعمال حلب، معجم البلدان، تقويم البلدان.

(٤) بالس : بين حلب والرقة على شط الفرات، معجم البلدان.

(٥) كتا : في الأصل.

أمر سليمان بالخروج.

وأمّا كتاب مهنا لما وصل إلى أرغون فإنه قد تأخر عن حمص مثل ما أشار به مهنا، ثم بعد خروج سليمان من مصر قدم مملوك أرغون الدوادار إلى مصر ومعه كتاب أرغون فيه: أننا لما وصلنا إلى حمص جاءنا كتاب مهنا يذكر فيه أنك أي وقتٍ تتحرك من حمص يهرب قرا سنقر ويذهب إلى بلاد العدو المخذول، فتأنَّ فيه إلى أن يجيء مرسوم السلطان، فإني قد سَيَّرت إليه، وننظر بماذا يجيء الجواب، فنعتمد نحن وأنت عليه، واليوم قرا سنقر على الجزيرة المنسوبة للرقة، ولو تقدمنا يومًا واحدًا قطع الفرات إلى بَرِّ العدو، وأما مهنا فإنه نازل على سلمية، وأخوه فضل وولده موسى عندي.

ولما وقف السلطان على كتابه، كتب جواب كتاب مهنا بأنا نحن نعلم ما أشار به الوالد من شفقته على هذه [٣٠٢] الدولة، وأما ما ذكره من قرا سنقر، فوالله العظيم، أنا ما عندي خبر من كل ما جرى، وما هذا الوهم الذي دار في قلبه ؟ وما موجب هذا ؟ وأنا ما أنسى خدمة قرا سنقر لي، ولا في مماليكي كلهم من هو خير منه عندي ولا أكبر منه، وحلب دربست له، والذي جرى من قرطاي الحاجب كان بغير أمري، وإن أراد هو أرسل إليه وأُخرجه من حلب، وكذلك الأمراء الذين قاتلوا معه، فيرجع هو إلى بلده، ونحن لا نستغني من مشورته وكتبه على عادته، فما بقى من مماليكي الكبار لأبي غيره، وأما [أرغون][1] فقد أرسلت إليه وقلت له : أنه إذ سمع بأن قرا سنقر قد رجع إلى حلب يرجع هو من حمص.

وكتب أيضًا [لأرغون][2] مثل كتاب مهنا في الظاهر، وفي الباطن أنك تكشف أخبار قرا سنقر، فإذا تحققت عبوره إلى حلب اعمل كما عمل الأمير كراي للأمير اسندمر[3]، وهو أنك تركب أول الليل من حمص ولا تُدْري أحدًا وتسوق إلى ناحية حلب، فتهجم على قرا سنقر على غفلة، ثم تعود من حلب وتأتي إلى طرابلس، وتعمل

(١) رغون : في الأصل.

(٢) لقرا سنقر : في الأصل، والتصويب يتفق مع السياق، ينظر ما يلي.

(٣) ينظر ما سبق .

مع الأفرم كما عملت مع قرا سنقر، ثم تأتي إلى حمص فإن كان مهنا على سلمية تركب من الليل وتكبس عليه وتمسكه، وتمسك معه أولاده، وإياك أن ينفلت [٣٠٣] منهم أحد، واحذر كل الحذر، ثم ارجع بهم إلى دمشق، وامسك في دمشق الأمير [الزردكاش][1] والبرواني وبلبان الدمشقي، وهاتهم صحبتك تحت الاحتياط.

وكتب أيضًا كتابًا لقرا لاجين مثل كتاب أرغون، وكتب لبقية الأمراء، لكل واحد بمعنى، ثم أمر لمملوك أرغون بالخروج والرواح إلى أستاذه.

ولما خرج تلاقى في الطريق سليمان بن مهنا، فإنه كان خرج قبله بمقدار نصف يوم، فسار ليلاً ونهارًا إلى أن وصلا إلى قاقون، وكان قد وقع بينهما أنسٌ في الطريق، وكان سليمان صاحب مكر وخداع.

قال الراوي : فشرع كلاهما يتحدثان في أمر قرا سنقر، فقال سليمان : والله، لو أني كنت صاحب مصر ما كنت أبقى قرا سنقر ساعة واحدة لأنه شيطان الأرض، وكل شرٍّ يقع في مصر أو في الشام فهو من تحت رأسه، وهو ذخيرة سوء، وإش كان هذا النحس حتى رَدَّ السلطان إليه حلب، فماذا يرجو منه ؟ وكان المملوك غُتْمِيًا[2] لا يعرف المكر ولا المكيدة، فلما سمع هذا الحديث من سليمان ضحك، وقال له : أنت تظن أن هذا صحيح من السلطان وأنه يردّ قرا سنقر إلى حلب، والله، ما بينك وبينه إلى جوازه إلى حلب، ثم أحاط به البلاء.

فلما سمع سليمان هذا الكلام من المملوك سكت [٣٠٤] وأضمره في خاطره، وركبا من قاقون وسارا، فصار سليمان يتحيل إلى [أن][3] يسرق بعض الكتب التي مع مملوك أرغون، فتمّا سائران إلى أن وصلا إلى دمشق، وقت والعشاء الآخرة، فقال سليمان للمملوك : قد هجم علينا الليل ونحن سهارى، وما ينقطع الليل إلا بالتلهي، ثم

(١) الزركاش : في الأصل.
(٢) الأغتم : الأعجم، وهو من لا يفصح شيئًا، تاج العروس، فصل الغين.
(٣) إضافة لتوضيح المعنى.

أخرج دينارًا وأعطاه لغلام البريد وقال له : خذ لنا بهذا نُقْلا[1] وحَلاَوة صابونية نتنقل بها في الطريق حتى لا ننعس، فأخذ الغلام ذلك، ثم ركبوا، ولما وصلوا إلى قابون قال سليمان للغلام : هات لنا الحلاوة، فأتى بعلبة ففتحها سليمان، وأخرج منها قطعة لنفسه، وقطعة للمملوك، وأعطى الباقي [للغلام][2]، فأكلوا وهم سائرون إلى أن وصلوا إلى حرستا، فصار المملوك لا يقدر أن يحمل روحه من غلبة النوم، فقال لسليمان : يا أمير، قد قتلنا النوم، انزل بنا ساعة نستريح، ثم نركب، فنزلوا، وانطرح المملوك مثل الميت وهو يشخر، وكان مع سليمان بنج في كاغدٍ، فجعل منه شيئًا في الحلاوة التي دفعها للمملوك، وكان سبب تغلبه ذلك، ثم مد سليمان يده إلى جراب المملوك وأخرج جميع الكتب وقرأ عنوانها، فأخذ الكتاب الذي باسم أرغون، [فقرأ][3] كل ما ذكر السلطان في حق قرا سنقر في هذا الكتاب، ورد باقي الكتب في الجراب، ثم اتكأ ونام إلى الصبح، ثم انتبه ونبه المملوك [٣٠٥]، فقعد وهو مُخَبَّل من البنج، فركبوا وساروا إلى القصير، فغيروا خيولهم، ولم يزالوا سائرين إلى أن صلوا إلى القطيفة، فافترقا، فسار سليمان يطلب درب جنيجل، وسار المملوك يطلب حمص.

ولما وصل سليمان إلى أبيه مهنا وهو في سلمية، دفع له كتاب السلطان، فلما قرأه فرح وشرع يسأل عما جرى عند السلطان في حق قرا سنقر، فلما سمع ذلك من أبيه أخرج له الكتاب الذي أخذه من جراب المملوك، وقال له : اقرأ هذا، فلما قرأه، قال : الله أكبر، يا للرجال، ثم أمر في الحال بأن ترحل بيوته من سلمية فرحلوا، وما أصبح الصباح إلا وهم على منزلة يقال لها الشحيرة، وطلب سليمان، وقال له : يا ولدي، اذهب إلى قراسنقر، وقل له : يأتي إلينا بالعجلة حتى نتفق معه على أمر نفعله، وأعطاه الكتاب الذي [كتبه][4] إليه السلطان، والكتاب الذي كتبه إلى أرغون فيه، فسار سليمان حتى

(١) النقل : ما يتنقل به على الشراب، لا يقال إلا بفتح النون، وقد يضم، ينظر لسان العرب، مادة نقل.

(٢) الغلام : في الأصل.

(٣) فقال : في الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٤) كتب : في الأصل.

وصل إلى الرقة فاجتمع به وأعطاه الكتابين، فلما قرأ الذي له فرح وانشرح صدره، ولما قرأ الآخر اصفر وجهه وتغير لونه، ثم قال : يا أمير سليمان، لولا هذا الكتاب راحت أرواحنا، فكيف يكون التدبير ؟ فقال : مهنا يطلبك حتى تتفق معه على مصلحة تُفعل.

فبينما هما في الحديث إذ عبر مملوكه [٣٠٦] مغلطاي، وقال : قد حضر بريدي من السلطان، فأمر بإحضاره، فحضر، فإذا هو علاء الدين بن الدبيس، فدفع له الكتاب، فقرأه، فإذا فيه : عتبت على قرا سنقر من جهة [تَخَيُّلِه][1] بهذا الخيال الذي لم يخطر على البال، وهذا جزاؤك مني ! فأنت عندي أكبر من الكل وأخير، فحال وقوفك على هذا الكتاب ترد إلى حلب على ما كنت عليه، وتُخرج منها قرطاي والأمراء الذين اتفقوا معه على ما جرى في حقك.

فقال قرا سنقر : يا علاء الدين، أنا ما بقى يجئ مني نائب في حلب، وقد بقيت شيخًا كبيرًا، فإن كان الكلام صحيحًا، وله فيَّ حُسن ظن يعطيني البيرة أو الرحبة، وأنا أكفيه مؤنة التجاريد إلى الأطراف في كل وقت، وأكون أنا ومماليكي مقيمين بها، وإن كان كَرِهني فأنا أخليه وأروح من البلاد، فقال له علاء الدين بن الدبيس : اصبر عَلَيَّ حتى أروح إلى مصر وأعود إليك بكل ما تريد، ولكن اكتب معي كتابًا إلى السلطان بطلب أي قلعة أردتَ، حتى آتي بمرسوم السلطان بما تريد، فكتب قرا سنقر، وطلب البيرة.

ثم قال لعلاء الدين : قل لأرغون لا يتحرك من حمص، فأي وقت ركب من حمص عبرت إلى بلاد العدو، فركب علاء الدين وسار.

وأما مملوك أرغون فإنه لما وصل إليه دفع له الكتب التي معه ففرقها [٣٠٧] للأمراء، وما رأى كتابًا يخصه، فتحيَّر، وقال : لله العجب، ما جاءني كتاب، ثم سأل عن لاجين، فقال : أين كتابك ؟ فأحضره وقرأه، وإذا فيه نسخة الكتاب الذي كتبه السلطان لأرغون، وهو الذي أخذه سليمان في الطريق كما ذكرنا، وكلما يذكر فيه فصلاً يقول : هكذا ذكرنا في كتاب أرغون، فعلم أرغون أنه جرى أمر في كتابه، فَاخْتَلَى

(١) تخليه : في الأصل.

بمملوكه، فقال له : قل كيف كانت قضيتك ؟ وما جرى في الكتاب الذي أرسله السلطان إليّ مع كُتب الأمراء، فشرع يحكي له بجميع ما جرى له مع سليمان حين رافقه في الطريق، وكيف ناموا في حَرَسْتا، فقال أرغون : ما أخذ الكتاب إلا سليمان بلا شك، وأنه قد جَفَّل قرا سنقر ومهنا، ففي تلك الساعة أمر بالركوب، فركب هو وساق يطلب حلب، وقال للأمير جوبان : خذ معك ألف فارس، ورُحْ بهم إلى الرحبة، فأخذهم وساروا نحو الرحبة.

وجاء الخبر إلى قرا سنقر بجاسوسه أن أرغون وصل إلى حلب، فرحل من الرقة ونزل على جعبر، وأرسل جواسيسًا من الناس إلى الثقات عنده يُعَرِّفُونه الأخبار كل وقت، ورحل أرغون من حلب ونزل على الحمامات، فجاء الخبر بذلك إلى قرا سنقر، فخاف على نفسه، فقال له سليمان : يا أمير، لا تخف، وطيب قلبك، فوالله، لو أن القوم أشرفوا علينا ما نُبَالي، [٣٠٨] ولاسيَّما بيننا وبينهم مسيرة يومين.

ثم كتب قرا سنقر إلى أرغون كتابًا وأرسله مع مملوكه مغلطاي، مضمونه : أنه يقول لأرغون لا تستعجل عَلَيَّ، هذا مرسوم السلطان جاءني بحلب، وإنه ما يُغَيِّر عَلَيَّ شيئًا، ولولا وصلت إلى هاهنا لكنت أنا اليوم في حلب، وقد أرسلت إلى مصر وطلبت مرسوم السلطان برجوعك فلا تستعجل عَلَيَّ واصبر حتى يجيء المرسوم[(١)] بم أعتمد عليه أنا وأنت.

وكان الأمير بيبرس العلائي، نائب حمص، مع أرغون، فقال له : المصلحة أن تصبر فلعل مرسوم السلطان[(٢)] يجيء وتستريح من هذا التعب، فقرا سنقر اليوم مثل باز على قُفاز، وأي وقت [رحلنا][(٣)] من هاهنا يذهب إليه الخبر بجاسوسه، فيدخل إلى بلاد العدو، فلا يبقى لنا وصول إليه، فقال أرغون : صدقت، والوقت لا يحتمل المداراة، فلعله ينخدع.

(١) المرسوم السلطان : في الأصل، ومشطوب على كلمة السلطان.
(٢) السلطان : في هامش الأصل، ومنبه على موضعها.
(٣) أحلنا : في الأصل.

وأقام أرغون على الحمامات تسعة أيام، ونفذت أزواد الناس، وعلائق الخيل، فهرب أكثرهم من الجوع، فأعلم الأمراء بذلك لأرغون، فأمرهم بالرجوع إلى حمص.

وأما جوبان(١) فإنه هو ونائب الرحبة كل يوم يركبان ويتصيدان في تلك البراري حتى أن خيل جوبان كانت وصلت إلى البليخ.

البَليخ : بفتح الباء الموحدة وكسر اللام وسكون الياء آخر الحروف وفي آخره [٣٠٩] خاء معجمة، وهو نهر بالعراق معروف، قاله البكري، وقال غيره : هو موضع بجزيرة الشام، ويقال هو برقة الشام.

وكان عليه كشافة لجوبان، فجاءوا وأعلموه أن قرا سنقر رائح إلى عربان، فركب جوبان ومعه الأزكشي بألف فارس، وجدوا في السير يومين، وفي اليوم الثالث أصبحوا على عربان عند طلوع الشمس، فانذعرت أهل عربان، فخرجوا من البلد وأتوا إلى جوبان، وقالوا : نحن مماليك السلطان وتحت أوامره، فقال الأزكشي، قرا سنقر في أين ؟ قالوا له : يا مولانا، والله، ماله عندنا خبر، غير أن نهار أمس جاء إلينا من مماليكه عشرة أنفس، قد هربوا منه من البليخ، وكانت أُنَاس عندنا من جهة صاحب ماردين، فأخذوهم وراحوا بهم إلى ماردين، فنزل جوبان والأزكشي على عربان، وتزودوا منها لهم ولدوابهم، وأقاموا ذلك اليوم عندهم.

وأما أرغون فإنه لما نزل على حمص علم قرا سنقر بذلك، وعاد وقطع الفرات، وسار طالبًا مهنا، ومعه سليمان، فوصلا إلى مهنا، فقال له قرا سنقر : يا ملك العرب، ما لهذا السلطان نية جيدة، فإذا قدر، لا يُخَلِّي مَنَّا أحدًا، كيف نعمل ؟ قال له : صدقت، ثم إنه في الحال أرسل قاصده إلى دمشق معه كتاب إلى الزردكاش والكتاب الذي أرسله [٣١٠] السلطان إلى أرغون، وذكر في كتابه أنكم شبه غنم في حبس جزار، فكل وقتٍ يخرج منكم جماعة فيذبحهم، والبقية ينتظرون الموت بالنوبة، فخذوا لأرواحكم وارحموا على

(١) هو : جوبان المنصوري، الأمير سيف الدين، من مماليك الأشرف، ثم أمره الناصر بدمشق، مات سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٧م، الدرر الكامنة ٢/٧٩ رقم ١٤٦٤، السلوك ٢/٣٠٤.

أنفسكم، ففي الساعة التي تقفون على كتاب السلطان اركبوا وروحوا إلى الأفرم نائب طرابلس، وخذوه معكم، وتعالوا إلينا لندبر أمرًا يكون لنا ولكم فيه خلاص أرواحنا، وإن تعوقتم راحت أرواحكم.

وكان قد اتفق أن السلطان أرسل تجريدة أخرى تقوية لأرغون وفيهم من الأمراء : أمير حسين بن جندار، والأمير قلي، وكانوا قد وصلوا إلى أرغون واجتمعوا على حمص.

ولما وقف الزردكاش على كتاب مهنا، طلب في الحال : بلبان الدمشقي، والتاجي، والبيسري، وغيرهم، وعرض عليهم الكتاب الذي جاءه، والكتاب الذي جاء لأرغون، فقال التاجي : الله يعلم أن هذا صحيح أم لا ؟ وربما يكون هذا دسيسة مهنا وقرا سنقر لأجل أنهما قد خامرا على السلطان، فقال الزردكاش : أنتم إلى الآن تكذبون الخبر، فسنرى مَنْ يندم.

ثم اتفق الزردكاش وبلبان الدمشقي والبرواني على أنهم يروحون إلى الأفرم ويأخذونه ويذهبون إلى قرا سنقر، فحلفوا على ذلك، وتشاوروا أنهم يخرجون وقت الظهر يوم السبت، وتواعدوا على أنهم [٣١١] يجتمعون على صيدنايا، فلما فرغ الموكب يوم السبت طلب الزردكاش مماليكه وأمرهم أن يركبوا كلهم بالعدة، ثم ركبوا كلهم، وهم ثمانون فارسًا، وخرجوا من باب الفرج، ورآهم الناس، وظنوا أنهم خارجون إلى الصيد، وكان بلبان الدمشقي نازلاً بالعُقَيبة، فجاز إليه الزردكاش فركب معه، ولحقهما البيسري أيضًا، فخرجوا ووقع الصوت أن الأمراء قد هربوا، وأمر النائب لجمال الدين والي البر، وقال له : اركب خلفهم، وانظر إلى أين يروح هؤلاء، فإنهم لو كانوا هاربين لكانوا خرجوا بالليل، وركب أيضًا وراءهم الأمير طرنطاي الحموي والمشد في مائتي فارس، وأدركوهم وهم نازلون على بركة صيد نايا، فركب الزردكاش والبيسري مع جماعة، وخرجوا وحملوا على طرنطاي، وكان طرنطاي رجلاً عاقلاً، فقال لهم : نحن ما جئنا لنقاتلكم، بل جئنا حتى ننظر إلى أين أنتم رائحون، فقال الزردكاش : وإش تريدون ؟ ونحن رائحون إلى الصيد، ارجعوا عنا، وإلاّ يكون بيننا أشأم الأيام، فرجع طرنطاي والحموي ومعه المشد،

ولاقوا في الطريق ثلاثين بغلاً مُحَمَّلة قرقلات وخوذ ونحو ذلك فأخذوها.

وأما الزردكاش فإنه رحل في الليل وطلع على عُسال، [٣١٢] ونزل على اللفيكة وقطع العاصي، وسار يريد مرج حين، وكان الأفرم نازلاً عليه ومعه أمراء طرابلس، وكان أمير حسين بن جمدار[1] أرسل إليه من حمص يقول له : إني أريد أن أتصيد أنا وأنت والأمير قلي معنا من جبل مرج حين إلى بعلبك، وكان الأفرم قد أرسل مملوكه [ألطنغش][2]، وهو استاداره أيضًا، إلى الناعم، ومعه إقامة للأمراء، ولما وصل إلى الأفرم قاصد الزردكاش وأعلمه بقدومه، ركب هو وعسكر طرابلس فلاقوا الزردكاش، وأخذهم الأفرم إلى وطاقه، ثم أخلى الزردكاش مع الأفرم، وأوقفه على الكتاب الذي جاء إلى أرغون بقبضهم، فلما قرأه اصفر وجهه، ثم قال : ماذا تعمل ؟ قال الزردكاش نروح إلى مهنا وقراسنقر ونتفق معهما على أمر نفعله، فقال الأفرم : كيف نروح وأمراء طرابلس معنا مع العسكر ؟ فقال الزردكاش : نزور كتابًا على لسان أمراء الشام ونائب دمشق وأرغون والمصريين كلهم بأنهم اتفقوا كلهم على أن يسلطنوا الأفرم، وها نحن رائحون إلى حمص، وتأخذ معك مَنْ تريد من الأمراء، فإذا عدّينا هذا الجبل افتصلنا في أرواحنا، فقال الأفرم : هذا هو الرأي.

[٣١٣] وكان عند الأفرم رجل نصراني، كاتب له، يُقال له : المكين، وكان أمكر النصرانية، وما كان بينهم مثله، فطلبه الأفرم وقال له : نريد أن نكتب كتابًا حتى أن من يراه ومن قرأه لا ينكر عليه، فقال له أكتب كُتُبًا وأضعُ عليها علائم الأمراء، بحيث لو وقع كتاب منها بيد المُزَوَّرِ عليه لحلف أنه خطه، ثم شرع الزردكاش يُملي ويكتب النصراني، ولما فرغ قرأه على الأفرم فقال : والله، لولا علمي به لَحَلَفْتُ أنه صحيح.

ثم أرسل[3] النصراني إلى حاله، وطلب أمراء طرابلس، وقال لهم : تعلمون لأجل ماذا طلبتكم، فقالوا : لا، فقال : إن أمراء دمشق ونائبها اتفقوا مع الأمير قرا سنقر ومهنا

(١) هكذا في الأصل، في هذا الموضع.

(٢) الطنقاش : في الأصل ، والتصويب مما سبق ص ٩٩ .

(٣) أرسلت : في الأصل، ومصححة.

ملك العرب على أنهم يسلطنونني في الشام، وقد حلف الجميع على ذلك، وهذه خطوطهم وأيمانهم، فأخرج الكتاب الذي بخط النصراني فقرأه الموقع عليهم، فإذا فيه خطوط أمراء مصر والشام كلهم وأيمانهم، فلما سمع أمراء طرابلس والساحل بذلك، قالوا : نحن لا نُخالف، وهذه أكبرشهواتنا، ثم قال الأفرم : يا أمراء، طيبوا خواطركم، فإن استمريت في السلطنة جعلتكم أقرب الأمراء إليّ، ودعوا له.

ثم عين الأفرم منهم خمسة أمراء ،[٣١٤] وقال للباقي : اذهبوا إلى طرابلس لأنه ربما يخرج الإفرنج طمعًا في غيبتنا، فأجابوه بالسمع والطاعة، فعند ذلك ركب الأفرم في مماليكه والأمراء الذين عينهم معه.

وأما أرغون فإنه جمع أمراء مصر، وقال لهم : إن السلطان قد أرسلنا في أمور، وما قضينا أمرًا واحدًا، وقد عولت أن أسير وأمسك الأفرم، لأنه من بعض الغرماء الذين عينهم السلطان، فقالوا : افعل ما بَدَا لك، فطلب أمير حسين بن جندار وقلي، وعين معهما ألف فارس من عسكر مصر والشام من الرجال المشهورين، وقال لهم : اقصدوا مرج حين، واهجموا على الأفرم واقبضوا عليه، فركبوا من حمص وساقوا يقطعون الأرض بغير راحة، حتى وصلوا إلى مرج حين وكبسوا المرج، فلم يجدوا فيه غير تركمان وبعض الغلمان الذي انقطع مع الثقل، فسألوهم عن الأفرم، فقالوا : البارحة رحل وسار يطلب حمص لأنه جاءه من دمشق ثلاث أمراء فأخذوه وراحوا، ولما سمع بذلك أمير حسين وقلي قالا: على أي طريق أخذوا ؟ فقالوا : على هذه الطريق، وأشاروا إليها، فسارا خلفه.

وكان على المقدمة أمير من أمراء دمشق يقال له : قطلوبك بن جاشنكير، وكان حامل رنك الأفرم [٣١٥] وقد سبق العسكر جميعه، وهو واقف على عين في طرف مرج حين يسقي خيله، فطلع المصريون ورأوه، فوقع فيهم الصوت، وقالوا : جاء الأفرم، فرجعت الناس إلى ورائهم، وكان أمير حسين وأمير قلي خلف الناس، فقالا : ما للناس ؟ فقالوا : قد أشرف الأفرم وهذي سناجقه، فتغيرت ألوان الناس، ولبس

أمير[١] حسين وقلي اللبوس، وبقيا ينظران إلى السناجق وهي لا تتحرك من مكانها، فَسَير أمير حسين مَنْ يكشفها، وإذا بها سناجق قطلوبك بن جاشنكير، فغضب أمير حسين وطلبه، وأخرق به وضربه مائة، وتشوش وأحرق سناجقه.

ثم نزلوا من مرج حين إلى جانب العاصي، فرأوا منزلة الأفرم، فيها جماعة من الفلاحين يفتشونها، فسألوهم عن الأفرم، قالوا : بات البارحة هاهنا، ولكن جماله ما وصلت إلى الصباح، فلما سمعت الأمراء بذلك ساقوا على آثارهم إلى بعد الظهر فوصلوا إلى الغسولة ولم يروا أحدًا فأيسوا منه.

وجاء واحد من مماليك أمير حسين إلى خان الغسولة يسأل عن الأفرم، فأخبره واحد بأن الأفرم عبر عليهم، وهم مقدار خمسمائة فارس وجماعة أمراء، وجاء الزردكاش إلينا وأخذ خيل البريد وراحوا من ضحوة النهار، وأما جماله وثقله [٣١٦] [فما][٢] راحت.

فأخبر المملوك بذلك لأمير حسين، فساروا مجدين، وقد ذكرنا أن مغلطاي كان قد انقطع مع الثقل في ثلاثين [فارس][٣]، وهم سابقون مجدون، فإذا بأمير حسين قد أدركهم هو والأمير قلي، ولما رآهم مغلطاي صاح لأصحابه، فقال : إن سَلَّمنا لهؤلاء يكون عيب عظيم، فقوموا واجتهدوا واتبعوني أينما رحت، ولا يهرب منكم أحدٌ، فأي من هرب ضربت رقبته.

ثم إنه لما رأى أمير حَسين قدام الخيل عرفه، فقال له : يا ولد الزنا وتربية الخنا، هذا جزاء الأفرم منك ؟! فعارضه كالبرق الخاطف، وكان مغلطاي شجاعًا مشهورًا بينهم، ورماه بسهم فأصاب رقبة فرس أمير حسين، ثم رماه بآخر فأصاب جنبه، فوقع الحصان على الأرض، فأسرعت إليه مماليكه وأركبوه، فنجى منه، بعد أن قتل سبعة أروس من

(١) الأمير : في الأصل، ومصححة.
(٢) فكما : في الأصل.
(٣) فارسًا : في الأصل.

الخيل.

فأخذ أمير حسين وقلي الثقل كله، وعاد مغلطاى إلى أستاذه وفي قلبه النار، فسأله عن قضيته، فأخبره بما جرى، وأن الثقل قد أُخذ، وأنه بعد جهد عظيم تخلص منه، فقال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

وأما الأمراء الذين كانوا مع الأفرم فعلموا في ذلك الوقت أن الكتاب الذي قرأه الأفرم عليهم كان زورًا، وأنه راح إلى قرا سنقر، وكان كل ما يملكه الأفرم [٣١٧] كان على الجمال التي أُخذت.

ولم يزل الأفرم سائرًا حتى أتي إلى سلمية، وسأل عن مهنا، فقالوا : هو على القسطل، وكان قد جاء إليه خبر الأفرم بأنه واصل إليه، وكان قد اختفى قرا سنقر وغير حليته، وكان يقول للناس إنه قد راح من عندي، وكان أرغون قد أرسل إليه يعتب عليه، ويقول له : لا تضيع ما بينك وبين السلطان لأجل قرا سنقر ويكون ذلك سبب دمار العرب كلها، وعلى كل حال إن قرا سنقر مملوك السلطان، فلا تدخل بينه وبين مملوكه، فأرسل مهنا إليه : أن قرا سنقر راح من عنده، وكان مهنا قد قال لابنه سليمان : خذ قراسنقر وابعد عنا مسيرة يوم في البرية.

ولما جاء الخبر بذلك إلى أرغون كتب إلى السلطان : بأن مهنا بأطراف البرية وقراسنقر عنده، ولولاه لأخذنا قرا سنقر، وأن أخا مهنا فضلاً وولده موسى عندي مواظبين الخدمة ليلاً ونهارًا، وأخبره بجميع ما جرى، وأرسل كتابه مع ابن موسى، وكان شابًا يسمى محمد،وكتب أيضًا فضل كتابًا إلى السلطان.

وأما الأفرم والزردكاش فإنهما وصلا إلى مهنا، فركب إلى ملاقاتهما، ثم أنزلهما في جواره، فسألاه عن قرا سنقر، فقال : إنه مع ابني سليمان في البرية يصطادان، ثم قال الأفرم : أريد أن توقفني على الكتاب الذي جاء به سليمان، فأحضره مهنا ووقف [٣١٨] عليه الأفرم، فإذا فيه :

إلى أرغون، إنك إذا قبضت على قرا سنقر اقبض على مهنا وعلى الأفرم وعلى

عشر أمراء من دمشق، وعينهم بأسمائهم.

فقال الأفرم : الله أكبر، هذا الرجل نيته أن لا يُخَلِّي أحدًا منا،وسمع مهنا بأن كل ما كان مع الأفرم أُخذ، فقال له : لا تضيق صدرك مما قد راح منك، فهذه أموالي كلها بين يديك، فقال الأفرم : نريد أن نبصر الأمير قرا سنقر، فطلب مهنا ولده أحمد، وقال له: اركب إلى أخيك يحضر هو ومعه قرا سنقر، وأعلمهم بقدوم الأمراء، فسار خلفهم.

وأما أمير حسين بن جندر فإنه وصل إلى حمص ومعه ثُقل الأفرم، وأحضره بين يدي أرغون، وحدثه بجميع ما جرى له، وفي الحال جهز أرغون بَريديًا إلى السلطان يُعْلم أن الأفرم قد هرب وراح إلى مهنا، وقد ساقوا خلفه فلم يلحقوا إلا ثقله فأخذوه وأحضروه إلى دمشق، ونحن نازلون على حمص، هم نزول على القسطل، وكشافتهم عندنا ليلاً ونهارًا، وربما يكاتبهم بعض الأمراء الذين عندنا، وقد اجتمعت عندهم جماعة كثيرة، قيل: إنهم أكثر من خمسة آلاف نفس.

وأما قرا سنقر فإن الأمراء قد اجتمعوا به وتشاوروا فيما بينهم فيما يعملون به، ومهنا معهم، وكل واحد منهم رأى رأيًا : فقال [٣١٩] الزردكاش : اعلموا أن كل شيء فيه تأخير يكون للشيطان فيه تدبير، وعندي من الرأي أن نركب جميعًا ونسوق ونكبس العسكر الذي على حمص مع أرغون، ثم نعبر دمشق وقد انتظم لنا الأمر كما نريد، وينضم إلينا كل مَنْ في الشام، وما دمنا نحن في هذه البرية لا يجيء إلينا أحد ويقل عددنا ونضعف، فقال الأفرم : والله، صدقت. فقال مهنا : هذه هي المصلحة، غير أنا نخاف أن يهلك بيننا مسلمون، ونعدم شيئًا كثيرًا، فيتعلق ذلك برقابنا، بل الرأي عندي أن نكاتب الأمراء الذين على حمص، فلعلهم يوافقوننا، ونعدهم بكل جميل، فإذا مالوا إلينا هان أمرنا بغير حرب ولا قتال مع المسلمين. فقال الزردكاش : هذا الأمر لا يتم لكم، وسوف تعلمون قدر كلامي. فقال مهنا : أنت يا أيبك رجل جاهل، وهذا ما هو بمصلحة.

فبينما هم في الكلام جاء حاجب مهنا، وقال لهم : جاء علاء الدين بن دبيس ومعه مملوك السلطان، فقال له مهنا خَلِّه يحضر، فأذن لهما، فدخلا على مهنا، وسلما عليه وعلى

الأمراء الحاضرين، ثم أخرج المملوك كتاب السلطان وناوله لمهنا، ثم أخرج كتابًا آخر، وقال : هذا لقرا سنقر،، ثم قال أين قرا سنقر حتى أعطيه كتابه ؟ فقال له مهنا : أنت ما تعرف قرا سنقر، قال : بلى، أعرفه،ولكنه ما هو عندكم هنا.

[٣٢٠] قال له مهنا : هذا هو قرا سنقر، فأشار إلى رجل بجانبه، فنظر إليه " مملوك السلطان ومعه "[1] ابن الدبيس، فإذا هو بدوي عليه ثياب البدوية، وقد تلثم بلثامين، وكان هو قرا سنقر قد غير حليته، فكشف عن لثامه فعرفه المملوك، فقام إليه وقبل يديه، ثم أعطاه كتاب السلطان، فأخذه، وقال لمهنا : نقرأ كتابك أولاً أو أقرأ كتابي ؟ فقال مهنا: لا، إلا كتابي، ففتح مهنا كتابه، وإذا فيه يقول لمهنا :

يا والدي، كنت أحسب كل حساب، ولكن ما كنت أحسب أنك خيرت قراسنقر عَلَيِّ، فيا سبحان الله، بلغ قرا سنقر إلى هذا الحد حتى يجاوبني ويقابلني بهذه المقابلة، وأنت ترضى له بهذا الفعل، هذا قط ما خطر بخاطري، فأريد من شفقة الوالد، كما أعرف منه قديمًا، أن لا يرضى بشق العصى ولا بخلال النظام، لأن بهذا الأمر الذي فعله قرا سنقر يطمع غيره في المملكة ويضر في الدولة، فأريد من إحسان الوالد، إن لم تقبض عليه وتسلمه إلى مملوكي أرغون، فابعده عنك إلى مكان، ثم أرسل إلى أرغون وأعلمه بمكانه فيروح هو إليه ويكبس عليه ويأخذه، ويكون لك اليد البيضاء.

فوقف مهنا على ما في الكتاب جميعه، ثم طواه وشاله، ثم فتح كتاب قرا سنقر، وإذا فيه يقول :

من ولده محمد بن قلاوون، والله العظيم، [٣٢١] لقد أَتْعَبْتَ نفسك وأتعبتنا من غير شغل، أنا أعطيك حلب وبلادها على عادتك فأنت ترسل إليّ وتطلب مني البيرة، وإش البيرة ؟ فوالله، ما أرضاها لبعض مماليكك، لكن الأغراض تُنفق السّلع، وقد أجبتك إلى ما طلبت وأعطيتك البيرة تقيم فيها، وخبزك الذي في حلب معك، ولا تُخَلّ نائبًا في حلب إلا مَنْ تريده أنت، وإن أردت أن تكون في البيرة وتُعين نائبًا في حلب من

---

(١) بهامش الأصل، ومنبه على موضعه بالمتن.

مماليكك، وكل شيء في خاطرك أشرحه حتى أزيل الذي لا ينفعك، وهذا الخيال الذي تخيلت به ما وقع في [خاطري][1]، والله العظيم، فانظر بين يديك ومن ورائك، ولا تشمت بك أعداءك، فقرأ الكتاب على الأمراء جميعهم.

ثم إن قرا سنقر التفت إلى مملوك السلطان، وقال : بطل حكم هذا الكتاب، لأني كنت أولاً وحدي، والآن صرنا جماعة، فقال مهنا للمملوك ولابن الدبيس : رُوحَوُا الآن واستريحوا، فقاموا وراحوا، وبعد خروجهم قرأ مهنا كتابه على الأمراء، فقال الأفرم : يا لدين محمد، ما يأمن إلى هذا السلطان إلا مَنْ ليس له عقل، أين هذا الكتاب من هذا الكتاب ؟ فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ثم تحدث كل واحد منهم على مقدار عقله، وقال لهم مهنا، وأنا ما أمكنكم من الرَّوَاح [٣٢٢] إلى بلاد العدو أبدًا، ونفسي دون نفوسكم، فنقيم في هذه البلاد على هذه الصورة، وأكتب إلى السلطان بأن يعطيكم الرحبة وقلعة البيرة وقلعة الروم وبهنسي، وأنتم تدركون الأطراف، وأخبازكم على حالها، فإذا أجاب وأقمتم في هذه الأطراف أمنتم شره، وأنا ظهركم، وتكون البرية حصننا، فأي وقت ظهر لكم منه شرٌ، اخرجوا من البلاد إلى البرية، وهي قريبة منكم، فقالوا : هذا رأي جيد، غير أنا نريد أن تحلف لنا أنت وأخوك محمد وابنك سليمان، فقال لهم : نعم، فاجتمعوا، وحلفوا كلهم بأيمان مغلظة على أنهم يد واحدة، يعيشون جملةً واحدة ويموتون جملةً واحدة، ولا يتخلف بعضهم عن بعض.

ثم كتب مهنا إلى السلطان، وطلب هذه الأماكن المذكورة، وذكر في كتابه أيضًا :

أما ما ذكره مولانا السلطان أني خيرت قرا سنقر عليه، فهذا شيء لا يكون أبدًا، ولولا مولانا السلطان ما عرفت أنا قرا سنقر ولا غيره من الترك، غير أن قرا سنقر قد جاز على المملوك وهو في بيته، وقد لزم المملوك أن يؤدي حقه بكل ممكن لأن

---

(١) خاطره : في الأصل.

[عادة][(١)] العرب من قديم الزمان أن لا يُضام نزيلهم، ولو كان هذا غريبًا أجنبيًا جاز على بيتي بذلت روحي دونه، ولاسيما هذا رجل كبير أمير من الأمراء الكبار، فكيف كان يليق [٣٢٣] بالمملوك أن يغدر به أو يشوش عليه وهو نزيله، ومع هذا المملوك ما عمل شيئًا قبيحًا فإنه عوقه عنده، ولولا المملوك لكان قد ذهب إلى بلاد العدو من زمان، ومما يذكره المملوك أن جماعة من الأمراء أيضًا قد وصلوا إلى المملوك وفيهم الأفرم والزردكاش وغيرهما، وقد سألوا المملوك بأن يسأل مراحم مولانا السلطان ويتصدق عليهم بالقلاع المذكورة التي في أطراف البلاد التي لا يحصل لمولانا منها فائدة، وهم يتدركون البلاد ويكونون تحت ظل هذه الدولة القاهرة، والمملوك يضمنهم في كل ما يجرى منهم، فإن قبل مولانا السلطان كلام المملوك وسؤاله هذا يرسل مملوكًا من مماليكه فيُخْلِي لهم هذه القلاع، والمملوك يوديهم إليها، وإلا فهم مصممون على الرواح إلى بلاد العدو، ويكون المملوك قد عَرَّف المصلحة وما قُبل منه، فإن نقل ناقل خلاف ذلك فقد كذب، فإن المملوك على حلفه للسلطان بأن لا يتخلَّى عنه ولا يخونه.

ثم إن مهنا أوقف الأمراء على هذا الكتاب، ثم سلَّمه إلى حاجبه وأمره أن يُسيِّره إلى السلطان، ثم يأتي بجوابه، فركب المذكور وسار.

ثم بلغ مهنا أن أرغون سائر إليه وإلى الأمراء الذين عنده، فكتب إليه :

يا أرغون، لا يلعب أحد بعقلك بالركوب إلينا، والله العظيم، [٣٢٤] ما أخلِّي أحدًا يخرج معك، فاسكن في موضعك، فإني كتبت إلى السلطان كتابًا وأنا مُنتظر جوابه، فإذا حضر الجواب كان لنا الرأي بعد ذلك فيما يُفعل.

وأما قرا سنقر فإنه أرسل إلى بيبرس العلائي والأمراء الذين على حمص مع أرغون لكل واحدٍ منهم كتابًا ومعه ألف دينار، وقال لهم : أنتم تظنون أن الملك الناصر إذا أخذني يخلِّي منكم أحدًا ؟! والله، بعد أن يأخذني ما يخلي منكم ذقنًا، فهلموا بنا حتى نتفق ونملك الشام، فأي وقت حلفتم لي ووافقتموني، أطاعنا الشام كلها، وإن خالفتم فأنا

(١) عادت : في الأصل.

خَلَّيت ورُحت، فبعد ذلك يقبض عليكم كلكم، فتندمون ولا ينفعكم الندم، وقد ظهر لكم فعله بغيركم، وإن أمراء دمشق كلهم كاتبوني، وكذا كاتبني نائب دمشق، والمعول عليه كله أنت، يقول(١) لبيبرس العلائي.

ولما وصل القاصد إلى بيبرس بالذهب طلب كجكن وغرلو وغيرهما من الأمراء الذين على حمص، وقرأ عليهم الكتاب، فقال كلهم : والله، إنه لصادق فيما قاله، وفرق عليهم الذهب، فأعطى ألف دينار لطوغان، وألف دينار لبرواني، وألف دينار لبيبرس المجنون، وألف دينار للتاجي، وألف دينار لكجكن.

وسَيَّر قرا سنقر أيضًا قاصدًا إلى نائب دمشق، جمال الدين أقوش، وسير له معه جملة من الذهب [٣٢٥] قيل مقدار خمسين ألف دينار، وكتابًا يذكر فيه على لسان الأمراء المماليك :

قرا سنقر، وأقوش الأفرم، وأيبك، وبلبان الدمشقي، ومن معهم من الأمراء، يقبلون الأرض وينهون أن المماليك قد اتفقوا مع أمراء الشام وحلفنا كلنا بأنا قد رضينا بأن تكون أنت سلطانًا علينا لما نعلم من دينك وعقلك ومروءتك ورفقك بالرعية، وحلف معنا أيضًا مهنا وجميع أمراء العربان، ونحن منتظرون الجواب.

فلما قرأ نائب الشام كتاب قرا سنقر ورأى الذهب(٢) الذي مع قاصده إليه صدقة في نفسه، فكتب جوابه :

بأن المملوك رجل غريب في الشام، وما أظهر بيبرس لأحد من أمراء الشام، ومهما [عملتم](٣) أنتم فأنا موافق لكم.

ولما جاء الجواب بهذا إلى قرا سنقر فرح فرحًا شديدًا.

وأما مماليك الأفرم ومماليك قرا سنقر ومماليك بقية الأمراء اتفقوا مع التركمان الذين

(١) تقول : في الأصل.
(٢) الذهب : في هامش الأصل، ومنبه على موضعها بالمتن.
(٣) علمتم : في الأصل، وهو تصحيف.

معهم، وقالوا : والله، إن عيشنا عيش قدر[1] نكد، ونحن في هذه البراري فلا نشبع ولا نستريح، فلماذا نُضَيِّع حالنا وأولادنا وأوطاننا ونخالف السلطان، فالرأي أن نكبس بالليل على الأمراء وعلى مهنا أيضًا ونقتلهم، ونأخذ رؤوسهم ونذهب بها إلى الملك الناصر، فتحالفوا على ذلك [وفوضوا][2] أمرهم إلى أمير التركمان علاء الدين بن الدربساكي، [٣٢٦] واتفقوا على أن يكون عملهم بهذا ليلة الجمعة، وكان اتفاقهم يوم الثلاثاء.

فخرج ابن الدربساكي واجتمع بالأفرم وحكى له جميع ذلك، فاجتمع الأفرم بقراسنقر وأعلمه بذلك، وكانت عدة المماليك نحو ألف وخمسمائة مملوك غير [التركمان][3]، فلما سمع قرا سنقر بذلك تَحَيَّر، ثم قال : قوموا بنا إلى مهنا، فجاءوا إلى مهنا وأخبروه بذلك، فقال مهنا، والله حسبت هذا الحساب، والرأي عندي أن نفرق هؤلاء المماليك فإنهم مضرة غير منفعة، ثم قال لبعض عبيده : اطلب لي سليمان، فلما حضر حكى له الحكاية، ثم قال له : البس أنت وعبيدك وأعمامك وإخوتك، وألبس معك ثلاثة آلاف فارس من العرب، وتحضر بهم عندي قبل العصر، وإياك أن تعلم به أحدًا.

فخرج سليمان من عنده على هذا، ومكث قرا سنقر والأفرم عند مهنا إلى العصر، فحضر سليمان ومعه ثلاثة آلاف فارس في عدد كاملة.

ثم طلب الأمراء مماليكهم، فلما حضروا كلهم، قال لهم الأفرم وقرا سنقر :

اعلموا يا أولادي بأنكم ما قصرتم فيما فعلتم، وخدمتم كما ينبغي، حيث تركتم أولادكم وحريمكم وجئتم معنا إلى هذا المكان، وهذا المكان فيه شقاء وتعب وجوع وعدم راحة، وهلكت خيولكم وتلفتم أنتم، والمطلوب نحن، وما عليكم [٣٢٧] شيء، وقد رأينا المصلحة أن تروحوا إلى أهليكم وأولادكم، فإن انصلح أمرنا كنتم مماليكنا على عادتكم، بل نعمل معكم خيرًا أكثر مما في خواطركم، وإن كانت الأخرى كنتم أنتم عند أولادكم.

---

(١) قَدر : ضَيِّق.

(٢) وفضوا : فى الأصل ، والتصويب يتفق مع السياق .

(٣) التركمانى : فى الأصل ، والتصويب يتفق مع السياق .

فنظر المماليك بعضهم إلى بعض، ورأوا العرب ملبسين مستعدين وسليمان على مقدمتهم، فعلموا أنهم علموا بحالهم، [فقالوا][(١)] السمع والطاعة، غدًا نروح، فقال مهنا: والله، ما أخلّي أحدًا منكم يمشي في هذا المكان، فَشيَّعُوا الجميع، غير أن كل أمير منهم خَلى عنده عشر مماليك أو اثنى عشر ممن يثق بهم ويعتمد عليهم، وكذا شَيَّعُوا التركمان.

وقال الأفرم لابن الدربساكي : أنت اليوم مقدم التركمان، وربما تنفعنا في يوم آخر.

فركب ابن الدربساكي وأخذ التركمان معه، وسار يطلب حمص، ولما وصل إليها راح إلى أرغون واجتمع به، فقال بيبرس العلائي : هذا قد كان مع الأفرم، والآن قد جاء ومعه خلق من التركمان، فأوهم أرغون من ذلك، فقال له أرغون : كيف كان رواحك إليهم ثم مجيئك عندنا ؟ قال لا شك أن الأفرم كان حاكمًا علينا، وكنا تحت أوامره، فلما طلعنا معه إلى مرج حين أخرج كتابًا مزورًا بأن الأمراء الذين على حمص قد اتفقوا على أنهم يسلطنوني، وأنا رايح إلى حمص، وأن أرغون قد حلف معي، فاعتقدنا أنه صحيح، فلما نزلنا من الجبل [٣٢٨] أخذنا وراح إلى ناحية مهنا، وكنا عاجزين في ذلك الوقت، لأنه كان معه جمع كثير، فصرنا معه حتى وصلنا إلى مهنا، فلما كان أول أمس أعطى الأمراء لمماليكهم دستورًا فتفرقوا، وما بقى عندهم أحد، فركبت أنا في الليل وخرجت من عندهم بالتركمان الذين كانوا معي، فقال له أرغون : طيب قلبك ورح استرح، فخرج من عند أرغون، فقالت الأمراء : لم ما مَسَكتَ هذا الشيطان، هذا هو[(٢)] الذي أثار الفتنة ؟ فقال لهم أرغون : إذا جاء وقت العصر مسكناه، فسمع بذلك بعض تركمان حمص، وأعلم لابن الدربساكي بذلك، فركب يطلب حلب، لأن بيوته كانت قريبة من حلب، وسمع أرغون بأنه هرب، فأركب وراءه الخيل، وأرسل بطاقة إلى حلب، إلى الأمير قرطاي الحاجب، بأن : ساعة وصول ابن الدربساكي تقبض عليه.

وأما ابن الدربساكي فإنه سمع في الطريق أن بيوته راحت إلى بلاد مرعش، فسار

---

(١) فقال : في الأصل.

(٢) هو : في هامش الأصل، ومنبه على موضعها بالمتن.

إليها، ولما وصل إلى بيوته رَحَّلها إلى جبال منيعة في بلاد سيس وحَصَّنها هناك، وكان معه خمسة من أمراء التركمان ومعهم خمسمائة بيت.

وأما قرطاي فإنه لما جاء له بطاقة ركب في مائتي نفس من عسكر، فلم يقدروا عليهم، ورجعوا خائبين، ثم أرسل قرطاي إلى أرغون بأن ابن الدربساكي ما جاء إلى حلب، [٣٢٩] بل أخذ بيوته وراح إلى جبال منيعة في بلاد سيس، فالآن ما يقدر عليهم أحد.

وأما ما كان من حاجب مهنا الذي أرسله إلى السلطان، وابن موسى الذي أرسله أرغون، فإنهما لما وصلا إلى مصر وحضرا قُدَّام الملك الناصر، فقرأ الملك الناصر أولاً كتاب أرغون وفهم ما فيه، ثم قرأ كتاب مهنا، ثم قال لحجابه، وهو مُغضب، إش مهنا ؟ وإش مقداره حتى يكتب لي كل وقت مثل [هذه][1] الكتب التي ليس تحتها طائل، ويأمرني أن أفرق البلاد على هؤلاء الكلاب، ولولا مهنا ما خرجوا عليَّ، وهو الذي أطمعهم فيِّ، دعه يأخذهم ويروح بهم إلى [أي][2] موضع شاء، ثم أمر في الحال أن يُخلع علي ابن موسى، وأمر أن يُكتب له نصف إمارة العرب، ونصفها لفضل بن عيسى، فكتب الإمرة بين الاثنين، وكتب إلى أرغون يقول :

حال وقوفك على هذا الكتاب، وقبل وضعه من يدك، تركب بعسكر مصر والشام وتسوق خلف الأفرم وقرا سنقر ومهنا أينما كانوا، إما أنك تجيبهم، وأما تهلك أنت ومن معك في البراري.

ثم أمر لابن موسى بالرجوع، وأرسل معه كتبًا لموسى وفضل ومشافهة كثيرة لهما، فقال ابن موسى : والله، لنحضرنهم بين يدي مولانا السلطان وهم أذلاء صاغرون، ولو غاصوا في الأرض [٣٣٠] السابعة، فشكره السلطان.

وأما حاجب مهنا فإنه طلب جواب كتابه، فقال السلطان : خَلُّوه يروح، وليس

---

(١) هذا : في الأصل.

(٢) إضافة للتوضيح.

لمهنا ولا لقرا سنقر عندي ولا الأفرم جواب، دعهم يفعلون ما يريدون، فعليهم الهرب وعَلَيَّ الطَّلَب.

فخرج ابن موسى وحاجب مهنا من مصر طالبين، فوصل ابن موسى ومعه منشور إلى عمه بالإمرة، ومعه كتاب إلى أرغون بأنه يسوق خلفهم أينما كانوا، ووصل حاجب مهنا وليس معه جواب، وأخبر لمهنا أن خبزَه قد خرج لفضل بن عيسى وشُطِب على خُبز سليمان.

فقال مهنا : أنا خرجتُ من الخبز وعن البلاد من اليوم الذي جرى هذا الأمر، وجاء له الخَبر بأن السلطان أرسل إلى أرغون بأن يسوق خلفهم، ولا يرجع عنهم، وأنه مع الأمراء في تجهيز الروايا والقِرَب، فقال قرا سنقر : كيف يكون احتيالنا ؟ قال مهنا : إش جرى ؟ إن جاءوا يرجعون مثل الكلاب، وأنا لي كشافة عندهم يكشفون أخبارهم ليلاً ونهارًا، فكلما يتقدمون نتأخر نحن إلى البريَّة ولا نبالي نحن، لأن معنا الأكل والشرب، فالشرب من ألبان الإبل والأكل من فصلاته[1]، ثم أمر سليمان ابنه أن يأخذ معه خمسمائة فارس يكونون وراءهم، فأي من تقدم منهم للكشف يأخذونه، فإن كان [٣٣١] من الأجناد لا تؤذونه لأنه خرج غَصْبًا، وأي من ظفرتم من العرب فاقتلوه.

ثم إن مهنا رحل من القسطل.

وأما أرغون فإنه جرد ثلاثة آلاف فارس مع كجكن وغرلو، وقال لهم : سوقوا خلف مهنا، فساروا إلى سلمية، ومنها شالوا الماء في القِرَب والروايا ورحلوا، ثم نزلوا على الشجيرة، ثم رحلوا طالبِيَن القسطل، فلقوا في ذلك اليوم مشقة عظيمة، وكان يوم صيف شديد الحر، وحَمِي عليهم البر، وقل الماء، وهم يرجون أن يكون في القسطل ماء، وسار بهم العرب مسيرة ثلاثة أيام حتى جاءوا إلى الماء، ثم من أين للجند راوية يجيب فيها ما يسقي خيله ؟ فأخذهم سليمان، وبات العسكر في [القسطل][2] في

(١) الفصيل : ولد الناقة إذا فصل عن أمه، لسان العرب، مادة : فصل.

(٢) القصطل : في الأصل، والتصويب مما سبق.

[أشأم][١] بيات، وعند الصباح رحلوا راجعين، ولم يزالوا حتى وصلوا إلى حمص، فتلقاهم أرغون، وقال لهم : ما جرى ؟ فأخبروه بأن مهنا ضرب في البرية ومعه الأمراء، وسرنا خلفهم ثلاثة أيام حتى هلكت خيلنا من العطش، ورجعنا ونحن في أَسْوَأ حال.

ثم إن مهنا أرسل إلى سليمان، يقول له : إن العسكر قد رجع إلى حمص، ورجع هو من المَرْبَعة ونزل على الشجيرة، بجنب سلمية.

وأرسل أرغون بريديًا إلى مصر يُعلم السلطان بأن العسكر راحوا خلف مهنا ومن معه [٣٣٢] ثلاثة أيام، فلم يظفروا بهم، لكونهم دخلوا في البرية، وهلكت خيول الناس، فرجعوا، فما وصلوا إلى حمص حتى عاد مهنا بمن معه إلى سلمية، وبهذا الحال ينكسر عسكر السلطان ولا يحصل المقصود، وأنهم لا يقدرون على العرب إلا بعسكر يركبون الهجن ويجنبون الخيل، ويكون معهم روايا وقرب كثيرة.

فأرسل السلطان إلى أرغون، وهو ينكر عليه، ويقول : مَن هلك من الأمراء، ومن خَرج منهم ؟ فوالله العظيم، إن لم يروحوا وراءهم ويسوقوا خلفهم أخربت ديارهم وأعدمت أرواحهم، فَجَرِّد كل من عندك وتبقى أنت وحدك على حمص.

فلما وقف أرغون على هذا في كتاب السلطان قال للأمراء : هذا مرسوم السلطان يأمركم أن تخرجوا وراءهم ولا ترجعوا عنهم إلا أن يخرجوا من البلاد وتهلكوا أنتم كلكم، فقالوا : السمع والطاعة.

فعند ذلك جَرَّد أرغون : الأمير كجكن، والأمير غرلو، والأمير جنكلي [بن][٢] البابا، ومعهم خمسة آلاف فارس، ومعهم : محمد بن أبي بكر، وآل علي، وموسى بن مهنا، فركبت العساكر، وبلغ الخبر إلى مهنا، فرحل من الشجيرة ونزل على القسطل.

قال الراوي : بلغني أن في ذلك النهار بينما وصلوا إلى سلمية هلكت مائة وخمسون

---

(١) أيشم : في الأصل.

(٢) إضافة مما سبق للتوضيح.

[٣٣٣] فرسًا، ثم رحلوا من سلمية إلى قدم وقديم، [وبقوا][(١)] يومين وثلاثة ما رأوا نقطة من ماء، فهلكت الناس، وسليمان مع العرب يذبحون الجمال ويرمونها في الماء، فيأتي العسكر عليه، فأي من يشرب منه يرميه في الحال من فوق وأسفل.

وخرجت جماعة من آل علي يُدَوِّرون على الماء، فأخذهم سليمان بن مهنا، وما بقى أحد من العرب يستجرئ أن يخرج[(٢)] إلا ويأخذه، فيصادف أصحاب سليمان جماعة من الجند فيقولون : ما جاء بكم هاهنا ؟ فيقولون : العطش، فيقول لهم أصحاب سليمان: دُلونا على العرب الذين معكم ونحن نسقيكم، فيدولونهم عليهم، فيحصلونهم، ثم لم يزل سليمان يعترض العسكر تارة من اليمين وتارة من الشمال، فكلما يطردونه يَرُدُّ عليهم فيكسر منهم، فلم يزل العسكر سائرين كذلك حتى وصلوا إلى عُرْض، وهم في أسوأ حال من العطش، وقد انقطع أكثرهم من العطش والسوق، [وتلف][(٣)] منهم في ذلك النهار خلق كثير وخيل كثير، ولما وصلوا إلى عُرْض وقعوا على قناتها مثل القطا، وكان ماؤها قليلاً فصاروا يتضاربون عليها بالسيوف، وعَظُم الأمر بين المصريين والشاميين، وسليمان واقف من بعيد ينظر إلى أحوالهم، ولو أراد الكبسَ عليهم لكبسهم وأخذهم، ولكن أباه مهنا [٣٣٤] ما كان يُمَكنه من ذلك، وما كان يريد أن يؤذي مسلم، ثم رحلت العسكر يطلبون الرحبة.

وأما مهنا فإنه نزل على جانب الفرات على أرض فيها ماء ومرعى وكلأ، وبقى هو مع الأمراء يتصيدون، وسمع أهل عانة والحديثة بهم، فجلبوا إليهم القمح والشعير وكل ما يحتاجون إليه.

ونزلت عسكر السلطان مع كجكن على الرحبة، وتلقاهم نائب الرحبة الأزكشي، وجاز سليمان وراءهم من الرحبة، وأرسل يقول للأزكشي أحسن إلى ضيوفك، وجاء إلى أبيه وأخبر بأن العسكر وصلت إلى الرحبة، وهم في أسوأ حال، وتلف منهم خيل كثير،

(١) وبقيوا : في الأصل.

(٢) أن يخرج : بهامش الأصل، ومنبه على موضعها بالمتن.

(٣) وفلق : في الأصل، والتصويب يتفق مع السياق، ينظر ما يلي.

وهلك منهم ناس، وتضاربوا على الماء بالسيوف، فقال مهنا : لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، هذا والله نقص في المسلمين، وما ينال المشقة إلا الأجناد المساكين والغلمان والخدام، وأما الأمراء فإنهم لا يبالون بذلك، وهذا كله في ذمة الملك الناصر، فقال سليمان: والله، لولا خوفي لكنت كبستهم في الليل، وما كنت أخلِّي منهم ذقنًا.

ثم طلب مهنا ولده أحمد، فقال له : خذ معك مائتين من العرب واذهب بهم إلى المشهد، واعمل لنا يزكًا، ولا تغفل عن كشف القوم ليلاً ونهارًا، وأمر ولده الآخر أن يأخذ معه خمسمائة فارس ويمسك يزكًا[١] [٣٣٥] على قُبَاقب، وأمر مفرج بن هلال أن يأخذ معه مائتي فارس ويمسك يزكًا على السُّخْنَة، وقال لهم : اجعلوا بالكم من ناحية تدمر، ثم سير أخاه محمدًا مع خمسمائة فارس إلى قائم العنقاء، فقال له قرا سنقر : ما الحاجة إلى أن ترسل هؤلاء إلى قائم العنقاء وهو في الشرق ؟ ومَنْ يجئ إلينا من الشرق ؟ فقال نَعم : من الشرق ومن الغرب فلا تهملهما، وأنا أَخْبَرَك بالملك الناصر وبحيلته وبمكره، وفرّق العربان في أقطار الأرض، ثم استدعى مهنا حاجبه وهو عُبيّد بن جلال، وقال له : سر إلى هؤلاء الأمراء الذين نزلوا على الرحبة، وأعطاه كتابًا، وأمره أن لا [يقرأه][٢] حتى [يجتمعوا][٣] كلهم، فأخذ عبيد الكتاب وسار حتى وصل إلى الرحبة، واجتمع بنائبها الأزكشي، وكانت العسكر نازلين عليها وهم أكثر من أربعة آلاف فارس، والرحبة ما تحمل أكثر من مائتي نفس، وهم في قلق شديد من جهة المأكول، فنزل الأزكشي ومعه عبيد حاجب مهنا، وجاء إلى خيمة لاجين، واجتمعت الأمراء جميعهم، فقال : يا أمراء، مهنا يُسَلِّم عليكم ويقول لكم : كلما تأخرنا إلى وراء وأنتم تتبعوننا، وأنا، والله العظيم، ما تأخرت عنكم فزعًا وخوفًا منكم، وأنا لو جاءني [٣٣٦] كل من على وجه الأرض وتبعني أهلكته في هذا البر، ولكنني ما أريد أذى مسلم، ولو أني أردت قتلكم قتلتكم من زمان، ولكن أنا أعلم أنكم مجبورون على خروجكم، وقد طولت معكم إلى

(١) يزكا : مكرة في نهاية ٣٣٤، وبداية ٣٣٥.
(٢) يقرأ : في الأصل.
(٣) يجتمع : في الأصل.

ها هنا، فصار العذر واضحًا عند كل أحد.

ثم إنه أخرج كتاب مهنا وناوله لقرا لاجين، ففتحه وقرأه على الأمراء، فإذا فيه يقول : من أخيهم مهنا، أراكم يا أمراء قد زاد طمعكم فينا، وكثير جهلكم بنا، وقد تعديتم طوركم، وزاد علينا أمركم، ولو أردت من [أول][1] يوم فرقت جمعكم، وشتت شملكم، ولكن ما أردت أن يُقال عني أنه أفسد البلدان وقَطَع الطرقات وخَوَّف الناس في جميع الجهات، فلمّا تأخرت عنكم ظننتم أني عاجز، وفي قلبي خوف،وأنا، والله العظيم، ما فعلت هذا إلا إخمادًا للشر وإصلاحًا للأمر، ولو أردت الفساد كَبَستُ عليكم في حمص، لكن كان يحصل الأذى للأجناد الصعاليك والفقراء، وإنا قد حلفنا برب السموات والأرض، إن أَمْسَى منكم أحد على الرحبة لأذقنه طعم السيوف والرماح، وقد أعذر من أنذر، وأنصف من حَذَّر، والسلام.

وهم في الحديث، فإذا بالكشافة التي كانوا على قَبَاقِب قد جاءوا وهم عرايا مشلَّحين، فسألهم الأزكشي عن حالهم، فقالوا : نحن وقوف عند طلوع الشمس، وإذ [٣٣٧] أقبل علينا سليمان بن مهنا ومعه فرسان كثير من العرب ملبسين، فقبضوا علينا وجابونا إليه، فأخذ خيلنا وقماشنا، ثم قال : رُوحُوا، غدًا نرد عليكم خيلكم وقماشكم إذا جئنا إلى الرحبة، فبينما هم في ذلك، فإذا براج الرحبة قد جاء ومعه بطاقة، فقال الأزكشي : من أين هذه البطاقة. قال من قائم العنقاء، وكان هناك كشافة من جهتهم، ففتح الأزكشي البطاقة فقرأها على الأمراء، فإذا فيها : يذكر أن محمد بن عيسى وصل ومعه ألف فارس، وأنه قد مَسَك جميع الطرقات، وأنا قد هربنا منه إلى زور الفرات، فقالت الأمراء : [لَيَكون][2] في نية مهنا الغدر بنا، ويمسك علينا الدروب والطرقات، فقال بيبرس العلائي : والله، لو أراد مهنا أذيتكم ما خَلَّى أحدًا منكم يصل إلى هذا المكان، فتشاوروا فيما بينهم، وقالوا : نرجع بحرمتنا، وهؤلاء قد وصلوا إلى الفرات وما بقى

(١) لول : في الأصل.

(٢) لا يكون : في الأصل ، والتصويب يتفق مع المعنى .

علينا لوم، وهم في حكم بلاد التتار، وقد خرجوا من بلاد السلطان.

واتفق الأزركشي معهم على ذلك، ثم قاموا ورحلوا، ولم يبت منهم أحد في تلك الليلة على الرحبة .

ذكر ما جرى لقرا سنقر والأفرم ومن معهما ودخولهم في بلاد التتار

[٣٣٨] ثم إن قرا سنقر والأفرم ومن معهما قالوا لمهنا : ما بقى بعد هذا الأمر شيء، وها نحن قد وصلنا إلى بلاد التتار، ولم يبق لنا إلا العبور، وقد صبرنا إلى هذا الوقت، وقلنا عسى الملك الناصر يرجع وينظر في أحوالنا وأحوال المسلمين، فما فعل شيئًا، فآخر الأمر رَضِينا منه بالقلاع الخَرَاب في أطراف البلاد بعد مُلْك الشام وحلب، فما رضي بذلك، وكل ما رَقَّ قلبنا قسى قلبه، وما بقى إلا العمل بضد قصده، فقال لهم مهنا : طولوا أرواحكم، فأنا لأجلكم تشَتَّتُ عن بلادي وتركت أخبازي، وطاوعتكم، ودخلت معكم في أي شيء أردتم، فندخل في هذه البراري فنصبح في أرض ونمسي في أرض، وأمراء العرب يُخَربون البلاد ويُحَرِّمون أحدًا يدب على وجه الأرض حتى يرجع الناصر ويسألنا ويدخل علينا، فقال قرا سنقر : والله، يا أبا سليمان ما بقى الملك الناصر يخلينا نعبر البلاد إلا إن كان بالرغم منه، وهذا رجل مُعانِدُ مَكِر لا يرجع إلى أحد، فاتفقوا على أن يرسلوا قاصدًا إلى خَرْبندا يطلب لهم منه الأمان حتى يعبروا إلى بلاده، فقال لهم البيسري : والله، ما يجدون قاصدًا أَخْيَرَ مني، أنا أروح إليه، فقالوا له : إذا رُحْتَ أنت ينبغي أن لا يعلم بك أحد إلا الله تعالى، فقال : أنا أروح بالليل، فإذا أصبحتهم فقولوا هرب البيسري [٣٣٩] وأنا أروح إلى خَرْبندا وآخذ منه الأمان وأرسله إليكم، فقال قراسنقر : أنا أكتب كتابًا إلى حاجب ماردين يُسَيِّر معك مماليكًا من جهته.

ثم تجهز وسار وَعدَّى الفرات بالليل، وسار يطلب ماردين، ولما أصبحوا شاعوا بأن البيسري قد هرب الليلة، فرَكِبت الخيل، ورَكَب أيضًا مهنا وقَصُّوا آثاره إلى مخاضة الفرات، ثم رجعوا، ولم يروا شيئًا.

وأما البيسري فإنه سار ليلاً ونهارًا إلى أن وصل إلى عربان، [ومِنْ][(١)] عربان وصل إلى ماردين، وكان سوتان مقدم الأطراف نازلاً على النشيرية من قرب ماردين، فلما دخل البيسري إلى ماردين طلع إلى حاجب ماردين، فلما رآه أكرمه وأجلسه، وسأله عن حاله، فأخرج كتاب قرا سنقر وقرأه، وقال : السمع والطاعة، أمعك كتاب إلى خربندا ؟ فقال : نعم، فأمر بأن يذهبوا معه إلى سوتان، فسأله سوتان، فحكى له البيسري الحكاية وصورة ما جرى، وكان خربندا على أوجان، فساروا به إليه، فلما حضر قبّل [الأرض][(٢)]، وكان معه مملوك حاجب ماردين ومملوك سوتان، وناول مملوك حاجب ماردين كتاب أستاذه إلى خربندا، فإذا فيه يقول :

إن في يوم كذا من شهر كذا وصل إليَّ أمير من أمراء الشام يسمى البيسري [٣٤٠] وذكر بأن قرا سنقر والأفرم وجماعة من الأمراء وصلوا إلى جانب عانة، وقد سَيَّروه ومعه كتاب فيه شرح حالهم.

وكذا قدّم مملوك سوتاى[(٣)] كتاب أستاذه فقرأه، ثم التفت إلى البيسري، وقال له : إش الحكاية ؟ فأخرج الكتاب من وسطه وناوله لخربندا، فأمر خربندا لسعد الدين بقراءته، فإذا فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم، المماليك : قرا سنقر، وأقوش الأفرم، وأيبك الزردكاش، وبلبان الدمشقي، يقبلون الأرض، وينْهُون أن المماليك جنى عليهم أستاذهم من غير جريمة عملوها، وقد انشمروا من بينَ يديه إلى أطراف البلاد، فإن كان الملك الأعظم يتصدق على المماليك بأمان[(٤)] شريف، بأن يحضروا إلى تحت ظله الشريف ويعيشوا تحت ركابه أسوة مَنْ شملتهم صدقاته، وإن كان لا، فالبلاد واسعة وأرض الله عز وجل متسعة، فإذا حصل التصدق على المماليك بالأمان يرجع به حاجبنا، ويكون معه الأمير سيف

---

(١) وبن : في الأصل.
(٢) إضافة للتوضيح تتفق مع السياق.
(٣) هكذا في الأصل، في هذا الموضع.
(٤) مصححة في الأصل.

الدين بزلار.

فلما سمع خربندا بذلك أرسل وراء بزلار، وكان في كنجا، فلما حضر خلع عليه وعلى البيسري خُلعة سَنية وأعطاه فرسًا من الخاص، وقال لهما : اذهبا إلى الأمراء ولهم الأمان وما يريدون، فلما وصلا إليهم فرحوا بذلك، وسَيَّروا [٢٤١] لخربندا هدايا وتحفًا، وكان معهما كتاب من خربندا مضمونه :

بسم الله الرحمن الرحيم، من أخيهم خربندا محمد، الذي يعلم به الوالد شمس الدين قرا سنقر والأمراء، أعزهم الله تعالى، أنه وصلني كتابكم وعلمت مضمونه، وحدثني الأمير بدر الدين البيسري ما كان معه من المشافهة، وعلمت مقصودكم، فتجهزوا واحضروا طيبين القلوب منشرحين الصدور منبسطين الآمال، وكل مَنْ خَلَّى في بلده شيئًا من الغنم أعطيته عوضه فرسًا، ومَنْ خَلَّى درهمًا أعطيته دينارًا، وبلغني أنكم كنتم خائفين من مدة أربع شهور، وعَوَّقكم عن الحضور كلام المبغضين، لأنهم قالوا لكم إذا رحتم إلى خربندا ربما لا يأمن إليكم، وربما يُهلككم، لأن الأمير قفجق، نائب الشام، غَيَّر أيام قازان، ثم رجع وترك المُلْك، وليس فيه شيء، لأن قفجق قد أتى إلينا مستجيرًا مما قد حَلَّ به من الأمور، وما رأينا منه إساءة، ووعدنا له أن يُكْشف ضُرُّه ونُعيده إلى دمشق كما كان نائبًا، فلما ملكنا دمشق وَلَّيناه نائبًا كما كان، وأنه كان ناصحًا لنا ودبر جيشنا، والدليل على ذلك أنه لما كان دليل عسكرنا انتصرنا وكسرنا عسكر الشام، وفي المرة التي توجه عسكرنا بدونه انكسرت عسكرنا، [٣٤٢] ولو كان حَيًّا وكان عندنا، كان هو المدبر لأمورنا والمتولي لمصالح بلادنا، فاصفوا نياتكم، وتوجهوا إلينا، ولا تحملوا هَمَّ نسائكم وأولادكم، فإن شاء الله تعالى، أجمع شملكم كما تريدون.

وكان قرا سنقر والأفرم ومن معهما، من حين سافر البيسري، عزلوا بيوتهم عن بيوت مهنا، فلما جاء البيسري بهذا الخبر، اتفقوا على الرواح، وما أصبح الصباح إلا وهم قد ركبوا ملبسين وشالوا خيامهم، وبلغ ذلك مهنا فركب،وركب معه العربان، فقال لهم: إش هذا ؟ فقالوا : جزاك الله عنا كل خير، لقد عملتَ معنا ما لم يعمله أحد، واجتهدت

غاية الاجتهاد، وضيعتَ أموالاً بسببنا، غير أنا رأينا الأمر يطول، وهذا السلطان ما يحصل لنا منه خير، ومتى ما ظفر بنا ما يشرب علينا ماءً ، ثم بكوا[1] بالضجيج والعجيج[2].

وبكى سليمان ومهنا والده، ثم دخل عليهم مهنا أن لا يروحوا إلى ديار الغربة، فما رآهم إلا وقد صمموا على الرواح، ثم ساروا وودعوا مهنا وولده وهم يبكون، وقرا سنقر على أولهم، ولسان حاله ينشد يقول :

إذا رشَقَتْ قلبي سهامُ المصائِب   وفاضت دموعي من جفوني السَّحَائب
[٣٤٣] وزادت بي الأشواق أقلقني الضَّنَى   ولا لي طريق على سبيل الحبايب
تَرَحَّلْتُ عن أرض الشام وخَضْبها   على الرغْم منِّي بعدَ شِيب الذَّوائب
وسِرْتُ بأبطال كِرامٍ وسَادَةٍ   يُجيبوا النِّداء يوم ازدحام المواكِب
عسفت بهم بَرًا وقفرًا موعرًا   على جوالٍ يجيح الغياهب
إذا ما رخى الليل البهيم ستُورَه   تُعَارضني الأشواقُ من كلِّ جَانب
وتنفر غزلان الفلا من هديرِنا   ويجفل مَنَّا غُولُها وهو راعب
ونحن على جرد قداح ضوامرٍ   طوال الهوادي لينات المراكب
نسير إلى قيل هُمام غضنفرٍ   من أولاد خاقان جزيل المواهب
مليكٌ من الترك الصناديد أصلُه   له الفخر بين الناس سهل المطالب
فإن تُجرِّبَنَّه للنوال فحاتم   [٣٤٤]وما مثله في شرقها والمغارب

---

(١) بكون : في الأصل، والتصويب يتفق مع السياق، ينظر ما يلي.
(٢) العجيج : رفع الصوت بالصياح، لسان العرب، مادة : عجج.

قـــصدناك يا شمـــس الملـــوك محمـــدٌ تلقَّـــبُ خَرْبنـــدا العظـــيم المناقـــب
تكـــــون لنـــــا جِـــــصْنًا ومُرْتَجَـــــى فأنـت الذي تُدعَى لكـشفِ النَّوائـب

ثم قال قرا سنقر لسليمان : يا علم الدين، لقد أَوْلَيتنا بالجميل ما يعجز عن مكافأته، فلله درّك من ملك ما أكرمه، ومن همام ما أَجَلَّه، فلا أخمد الله نارك، ولا كلَّ[1] بتَّارُك، فارجع راشدًا، فقال : وذمة العرب ما أرجع حتى تصلوا إلى مأمنكم، فسار معهم إلى سنجار، ثم ودَّعهم وعاد.

وكان يوم دخولهم سنجار يومًا مشهودًا، لأنه وقع النداء في سنجار : أيّ مَنْ لا يخرج ومعه شمعة راحت روحه، فلم يبق فيها أحدٌ من الرجال والنساء والكبار والصغار إلا وقد خرج، ونثرُوا عليهم الدراهم والدنانير، ثم إنهم نزلوا في جوسق[2] بخارج سنجار، كان الأمير بدر الدين لؤلؤ بناه، ولما رجع سليمان أعلَم والده مهنا بأنه شَيَّعهم إلى سنجار.

ثم كتب مهنا إلى الملك الناصر يُعْلمه بأنهم عبروا إلى التتار، وأَني نصحتك فما قبلت، وما كان كلامي إلا إصلاح [٣٤٥] بلادك، وصلاح مماليكك، وما بقيت ترى مثل هؤلاء الأمراء، والرأي رأيك.

وأرسل كتابه مع ابن أخيه إلى مصر من الرحبة.

ونائب الرحبة الأزكشي أرسل إلى نائب دمشق [يُعْلِمه][3] برواح الأمراء،و لما تحقق السلطان ذلك طلب مملوكه سودي وولاه نيابة حلب، وقال له : اركب من ساعتك هذه ورُح إلى حلب، فركب من ساعته وخرج، ثم بعد خروجه طلب السلطان تمر الساقي، وقال له : خذ معك ألف فارس واخرج بهم إلى الشام، واعبر إلى حمص وامسك بيبرس العلائي، فإن بيبرس هذا كان في العسكر مع أرغون، وكان قد أرسل

---

(١) أكل : في الأصل.
(٢) الجوسق : القصر، معربة، ينظر مختار الصحاح، مادة : ج ق.
(٣) يعلمهم : في الأصل.

إلى السلطان وطلب الحضور حتى يحكي له ما جرى ويكون له يد عند السلطان.

فلما حضر عند السلطان قبل الأرض، ثم أخرج كيسًا فيه ألف دينار ووضعه بين يدي السلطان، فقال له : إش هذا ؟ فقال : ألف دينار جاءني من عند قرا سنقر، فقال له: جاء لك وحدك ؟ قال : لا، بل سَيَّر لكل أمير في الشام " ألف دينار "[١]، وسَيَّر لنائب الشام جملة مستكثرة، وأكثر العسكر متفقون معه، أنا، ونعمة السلطان، أقدر على أن أجيبه وهو ذليل حقير، فإن رسم مولانا السلطان يُجَرِّد معي ألف فارس من مماليكه، فإن لم أجيبه اشنقني على [٣٤٦] باب القرافة، فقال السلطان : قل لي، مَنْ هم من الأمراء الذين أخذوا الذهب من قرا سنقر، قال : المملوك، ونائب الشام، وبيبرس المجنون، [والبرواني][٢]، والتاجي، وطوغان، وكجكن، وغرلو، هؤلاء الأمراء أخذوا الذهب، ثم إن السلطان خلع عليه وقال : ارجع سريعًا وأنا أجَرِّد لك ألف فارس من المماليك يلحقونك.

ثم أرسل السلطان بريديًا إلى نائب الشام، يقول له : ساعة وقوفك على هذا الكتاب، اركب البريد واحضر عندنا، فإنا نريد أن تكون في المشورة في أمر، فخرج البريدي من مصر قبل خروج بيبرس العلائي، ثم افتكر السلطان في أمر بيبرس، فتارة يصمم على مسكه وتارة على تركه، وكان قبل خروجه من مصر، ثم أرسله كما ذكرنا، ولما وصل إلى الغور لقى نائب الشام، وجو جاءٍ رائح إلى مصر على البريد، فقال له : إش عملت في مصر ؟ وهل جِئت كلامي عند السلطان ؟ فحلف أنه ما جاء بذكره، ولا علم بمجيئه إلى أن التقاه.

ثم سار بيبرس حتى وصل إلى دمشق، ومعه كتاب السلطان إلى القرماني بأن يجرد معه ألف فارس، وينفق لكل فارس خمسمائة درهم، ففعل القرماني ذلك، ثم سار إلى حمص وأخبر أرغون ما جرى في مصر وطول الطريق، ولما استقر [٣٤٧] فإذا

---

(١) مكرر في الأصل.

(٢) والمرواني : في الأصل، والتصويب مما سبق.

بتمر الساقي قد وصل إلى أرغون.

وقد ذكرنا أن السلطان كان قد أمر بمسك بيبرس هذا، فمسكه، ومعه كتاب إلى أرغون بأن يرحل من حمص وينزل على دمشق ويرسل ابن الأفرم ومماليكه، وكذا بيت الزردكاش ومماليكه وأولاده، وكذا مماليك قرا سنقر، وأمره أن لا يُخَلِّي أحدًا من أتباع الأمراء الذين هربوا من الشام، ففعل أرغون جميع ذلك.

وأما جمال الدين، نائب الشام، فإنه وصل إلى مصر، فلما حضر بين يدي السلطان، قال له : أقوش، قال : لبيك يا مولانا السلطان، قال : تكون أنت نائب الشام، وتهرب من عندك ثلاثة أمراء من وسط دمشق ما تركب خلفهم ولا ترسل أحدًا، وعندك أربعة آلاف فارس، ويُرسل إليك قرا سنقر ذهبًا وتأخذه، أما كان يكفيك مُلْك الشام ؟ فقبل الأرض، وقال : أيد الله مولانا السلطان، لا تسمع من كلام الأعداء والأضداد، واصبر عَلَيَّ، فقال: قل، فقال : يا خوند، إن جاء أحد من غير الأضداد يقول أني كاتبت قرا سنقر وأخذت ذهبًا فأبرأك الله من دمي، وأما الأمراء الذين خرجوا من دمشق فقد كان ذلك، وكان يوم الموكب، وكانوا في الخدمة إلى الظهر، وكلهم راحوا إلى بيوتهم، ثم أنهم خرجوا وراحوا فما أعلموني برواحهم [٣٤٨] إلا في المساء، [فأرسلت][(١)] خلفهم والي البر، فما رجع والي البر إلا وهم عند قرا سنقر، فصاح السلطان، وقال : ارفعوه إلى الجب، فشالوه من بين يديه.

وأما أرغون فإنه بعد أن جَهَّز أولاد الأمراء ومماليكهم وبيوتهم، جاءه مرسوم بطلبه هو والمُجَرَّدين الذين كانوا معه، ثم ساروا من دمشق إلى مصر، وكان جاء إلى دمشق طقطاي الجمدار بكتاب السلطان، فقرأه على الأمراء، وفيه اقبضوا على : بيبرس المجنون، وطوغان، والبرواني، والتاجي، فقبضوا عليهم، وشالوهم إلى قلعة دمشق، ثم إن طقطاي ركب بجماعة وسار بهم، ومعهم بيبرس العلائي أيضًا، إلى الكرك، فسلمهم إلى نائب الكرك.

---

(١) فأرسل : في الأصل.

وقد ذكرنا أن مهنا كان قد كتب كتابًا إلى السلطان[(١)] يُعلم فيه برواح الأمراء إلى بلاد التتار، فلما قرأ السلطان كتابه قال لابنه : وأين مهنا اليوم نازل ؟ قال : خليته بين الرحبة والرقة، فقال : أنا ما أخرج من كلام مهنا وهو عندي مثل الملك المنصور، وما أخرجت عنه إمرة العرب إلا أن ثابت بن يزيد كتب إليَّ يقول : إن مهنا قد أرسل أولاده إلى خربندا، وهو الذي ما يخلي قرا سنقر عن المجيء، وهو الذي عَصَّاه عليك وعَصَّى الأمراء، وربما حلف له الأمراء، ولازلت في شَكٍّ من هذا، حتى راحت الأمراء ولم يرح هو، ولا [٣٤٩] تغير من مكانه، فعلمت أن كل شيء قالوه في حقه كذب، وما كان قصد مهنا إلا الإصلاح، ثم إنه أمر أن يُكتب كتاب لمهنا بأنه ملك العرب، وأنه مُستمر على خُبزه، وزَادَه قرية من الخاص تعمل كل سنة ألف غرارة، وأخرج كتاب ثابت بن يزيد وأعطاه لابن مهنا، وقال له : هذا كتاب ثابت حتى يعلم مهنا صحة ما قلت، فَقَبَّل ابن مهنا الأرضَ، وقال صدق مولانا السلطان.

ثم إن السلطان استدعى بأحمد الكلابي وسَيَّره بالكتاب مع أحمد بن مهنا، وقال له: قل لمهنا مشافهة : يا أبي دعني من هذا الحديث، فأنت على كل حال بركتي ووالدي، وإن كان هؤلاء المُدْبِرين رَاحوا يُعَوِّض الله بخير منهم، فلا تحمل على قلبك همًا، وأريد أنك تمشي على عادتك ولا تقطع عني كتبك، والسلام.

ثم إنهما خرجا وسارا إلى أن وصلا إلى مهنا وناولاه الكتاب وبَلَّغاه الأخبار، ففرح فرحًا شديدًا، وخلع على أحمد الكلابي، وأعطاه ألف دينار، وعشرة أروس خيول، وخمسين جملاً، وأرسل معه حصانه الذي يسمونه المعضد الذي ليس له نظير في الديار.

ثم إن السلطان طلب مملوكه سيف الدين دنكز، فقال له : يا دنكز، قال له : لبيك يا مولانا السلطان، قال له : رُح إلى دمشق [٣٥٠] فإني وليتك نائبًا فيها، وتوصَّ بأهلها وأظهر العدل بين الرعية.

(١) مهنا السلطان : في الأصل، ومشطوب على كلمة مهنا.

وكان تولية دنكز الشام في السنة الآتية[١]، ونذكره إن شاء الله تعالى.

ذكر اجتماع الأفرم وقرا سنقر مع خربندا

ولما وصل الأفرم وقرا سنقر ومن معهما إلى خربندا أكرمهم وأحسن إليهم، وأعطى الأمير جمال الدين أقوش الأفرم همدان، فتوجه إليها، ولم يزل بها حتى مات، وأقام قراسنقر عند التتار إلى أن مات في سنة ثمان وعشرين وسبعمائة، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وفي سيرة الناصر، أن قرا سنقر ومن معه من الأمراء لما وصلوا إلى ماردين تلقاهم صاحب ماردين، وأنزلهم في موضع يليق بهم، وخدمهم وأكرمهم، وضرب لهم الخيام، ومَدَّ لهم سِمَاطًا هائلاً، وفي تلك الليلة اجتمع الأفرم وقرا سنقر [وتشاورا][٢] في ماذا[٣] يصنعان إذا حضرا قدام خربندا، فقال قرا سنقر : أنا أتكلم مع خربندا وأخليه يكون أطوع الناس لكم، غير أني أخاف من صاحب ماردين يعمل علينا عنده وربما يهلكنا، فقال الأفرم : كيف العمل، وقد وقعنا في وسط بلادهم ؟ فقال قرا سنقر : معي حُق فيه سُم، وقد صحبته معي لوقت [٣٥١] الحاجة، وكنت قد عولت أن أي وقت يظفر بي الملك الناصر من قبل وصولي إليه أشربه وأقتل روحي ولا أُخليه يتمكن مني، وهذا هو معي، وأنا أسقيه لصاحب ماردين، فقال الأفرم : نخاف أن [يعلموا][٤] بنا فيهلوكنا، فقال قرا سنقر : سوف ترى مني ما يسر قلبك، ثم تفرقوا وذهب كل أمير إلى خيمته.

وفي صبيحة ذلك اليوم عمل صاحب ماردين مجلسًا هائلاً، وطلب الأمراء إليه، فأخذ قرا سنقر الحُق معه ونظر إلى الأفرم، وقال : يا أمير جمال الدين، انقضى شغلنا

---

(١) ينظر ما يلي.

(٢) وتشاوروا : في الأصل.

(٣) فيما بينهم ذا : في الأصل، ومشطوب على كلمة بينهم.

(٤) يعملوا : في الأصل، وهو تصحيف.

ونلتُ من صاحب ماردين كل ما أريد إن شاء الله تعالى، وسار وجميع الأمراء معه، فتلقاهم صاحب ماردين بأحسن ملتقى، وأجلس قرا سنقر في مرتبته، وجلس هو أسفل منه، وكذا أجلس الأفرم إلى جانبه، وأجلس بقية الأمراء، ثم قال : يا أمراء، والله، لكم زمان في نَصَبٍ ومشقة وضيق صدر، وما انشرح لكم خاطر مما جرى لكم، واليوم مضى جميع ذلك، ووصلتم إلى الفرح والسرور، وقد عولت على أني أعمل لكم مجلسًا فيه طيب وفرح ليذهب عنكم الهم والغم، فقال له قرا سنقر : الرأي رأيكم، فأنت أهل لذلك.

فأمر صاحب ماردين لأمير مجلسه أن ينصب مجلس البسط، [٣٥٢] ففي الحال رتب أشياء أدهشت الأمراء، وفيها من جميع الأواني من الذهب والفضة المرصعة بالفصوص، وأحضر الفتيات ومعهن العيدان وسائر آلات اللهو والمغنى، ثم دارت الكاسات، فشرب صاحب ماردين كأسًا، ثم ملأه وناوله لقرا سنقر، فأخذه من يديه، ثم تذكر أهله وأولاده ووطنه فبكى حتى أنه أبكى الحاضرين، ثم قام وخرج ليقضي له شغلاً ثم أخرج الحُقَّ الذي فيه السم، وأخذ برأس إبرة قدر القمحة، ثم عبر، فقام له كل من في المجلس، وجلس على مرتبته، وأخذ ذلك الكأس الذي أعطاه إياه صاحب ماردين فشربه وأعطاه للساقي، فقال له : املأه وهاته، فملأه وأعطاه، فأخذه قرا سنقر ونظر فيه، [فقال للساقي][1] احترز، ألا تنظر إلى هذه الشعرة ؟ فمد يده وحط فيه ذلك الذي أخذه على رأس الإبرة، فأوهم الحاضرين أنه شال منه شعرة، ثم قَبَّل القَدَح وناوله لصاحب ماردين، فأخذه صاحب ماردين وشرب بعضه، ورَدَّ البعض، فقال له قرا سنقر : أنا شربت جميع الكأس الذي ناولتني إياه، فقال : والله، يا أمير، استعملت كثيرًا وقد غلب الخمر عَلَيَّ، وطفح السُّكْر فِيَّ، وهذا ولدي يقوم [٣٥٣] مقامي، ولم يدر ما في الغيب، فشرب ولده بقية ما في الكأس، ثم دارت عليهم السُّقاة بالكبار والصغار ساعة من النهار، فحكم فيهم العقار حتى لا يعرف أحد منهم باب الدار، ثم طلب الأمراء دستورًا، فأعطاهم دستورًا، وساروا إلى منازلهم، فقال قرا سنقر : والله نلنا

(١) فقال له الساقي : في الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

المقصود، فقالوا بماذا ؟ قال : بقتل صاحب ماردين وولده، ففزع الأفرم، فقال : والله ما فَعلتَ خيرًا.

ولما أصبحوا قال قرا سنقر : ما جئنا للإقامة وتطويلنا ضرر لنا، ولا راحة لنا إلا بالحضور قُدَّام خربندا، فقالوا : الرأي رأيك، فقال : ارحلوا، فقاموا ورحلوا، وسمع صاحب ماردين جلبتهم فركب إليهم، وهو مُخَبَّل من الخمر، فلما قرب منهم ساروا إليه وشكروا له، وقالوا : لازلت متفضلاً، لا أعدم الله إحسانك، فالله تعالى يجازيك بأفضل الجزاء، فقال : يا أمراء إش هذه العجلة في رواحكم ؟ استريحوا عندي أيامًا حتى أجهز تقدمة لخربندا وأسير معكم، فقال قرا سنقر : أنت تعلم عذرنا في سرعة المسير من وجوه شتى، ثم سار صاحب ماردين معهم مقدار نصف النهار، ثم ودعهم ورجع.

وسار الأمراء يومهم ذلك واليوم الثاني والثالث، فوصلوا إلى ميافارقين، فخرج لهم نائبها بالإقامات والعلوفات، [٣٥٤] فأقاموا هناك يومين، ثم عزموا على الرحيل، وإذا قاصد من أمراء ماردين قد وصل على البريد،وهو رائح إلى خربندا ليُعْلمه بأن صاحب ماردين وولده قد ماتا في ليلة واحدة، فتعجبت الناس من ذلك، وقالوا : أول أمس كان يشرب معنا وما به شيء من المرض، والله هذا هو موت الفجاءة، ولم يعلم بالأمر غير قراسنقر والأفرم.

ثم ساروا، وأي منزل ينزلون به يجدون فيه علوفة وإقامات، وكل ما يحتاجون إليه، إلى أن بقي بينهم وبين تبريز ثلاثة أيام، فبلغ خبرهم لخربندا، وكان نازلاً على أوجان، فأمر لجوبان نائبه أن يأخذ معه عساكر المغل فيلاقيهم، فركب جوبان وسار حتى أتى تبريز، وأمر بزينة توريز[1] غاية الزينة، ونادى فيها أن لا يبقى كبير ولا صغير وإلا يخرج إلى ظاهر تبريز ومعهم شموعات ومشاعل وهم في حسنة وثياب فاخرة، وخرجت المغاني بأنواع الملاهي.

ولما أشرف قرا سنقر على تبريز، قال للأمراء الذين معه : يا أمراء، ما أخوفني أن

(١) تبريز = توريز، معجم البلدان.

يكون الملك الناصر قد جهز فداوية يجدون فرصة في هذا الجمع العظيم، وربما يقفز واحد منهم عَلَى واحد منا فيقتله، فقالوا كيف يكون الرأي ؟ فقال قرا سنقر: الرأي عندي أن يلبس كلكم الزرديات من تحت [٣٥٥] الثياب، وتحترزون غاية الاحتراز، ولا تهملوا هذا الأمر، فالملك الناصر ما يغفل عنكم، فقال الأفرم : يا شمس الدين، لقد بالغت، مَنْ هو الذي يسبقنا إلى تبريز ؟ فقال له قرا سنقر : سوف أذكرك، أنا أخبر بالملك الناصر، وما عنده من الحِيَل [والمُخَادعة][1]، وهو لا يُؤمن منه، فلبس الجميع الزرديات.

وقد وصل جوبان بمن معه من أمراء المغل، فتلقاه قرا سنقر، وأراد أن يترجل فمنعه من ذلك، وتصالحوا على ظهور الخيل، وكذلك جميع الأمراء، وساروا طالبين تبريز، وبقي جوبان يحدثهم ويعدهم من خربندا بكل خير، ولما أشرفوا على تبريز خرج جميع أهلها على الصفة التي ذكرناها، وشقوا المدينة، وخرج بهم جوبان إلى بستان لخربندا في ظاهر تبريز، وكان بستانًا هائلاً، وكانوا يسمونه الشام، لحسنه ونضارته وكثرة خيراته، ولم يبق لأهل تبريز إلا [الحديث][2] في قرا سنقر ومن معه من الأمراء، فقوم يلعنونهم حيث أنهم دخلوا بلاد الأعداء وتركوا بلاد الإسلام، وقوم يقولون هم معذورون.

وفي ساعة نزولهم أرسل جوبان إلى خربندا يُعلمه بوصولهم[3]، ويشاوره فيما يفعل، فرد الجواب بأن يقيم بهم [٣٥٦] يومًا في توريز إلى أن آجي، فتأخروا، وأقاموا عشرة أيام، كل يوم يركب جوبان والأمراء وهم ملبسون تحت قماشهم من خوفهم من الفداوية.

ذكر قضية الفداوى مع الأفرم

قال الراوي : لما كان في يوم من الأيام وهم قد فضوا الموكب ورجعوا يريدون منازلهم، وفي [الرجعة][4] اختلطت الأمراء بالأجناد والعوام على العادة، وإذا فداوى

(١) والمتخاوعة : في الأصل، والتصويب يتفق والسياق.
(٢) إضافة للتوضيح.
(٣) بنزولهم بوصولهم : في الأصل، ومشطوب على كلمة بنزولهم.
(٤) الرجعوا : في الأصل.

قد وثب على الأفرم من مؤخر الفرس، وصرخ فيه بصوت هائل، ثم ضربه بسكين في صدره، فردت السكين إليه، ولم تعمل شيئًا لأنه كان عليه زردية ضيقة العيون لا يعمل فيه شيء، فصرخ الأفرم على مماليكه، فجاء إليه مملوك وضرب الفداوى بالدبوس فأرماه، فنظر الفداوى إلى ما حل به، فصاح : الله أكبر، الله أكبر، يا ثارات الملك الناصر، ووثب على المملوك وضربه بالسكين في جنبه الأيمن، ووصلت السكين إلى أمعائه، فانقلب المملوك إلى الأرض، وتسابقت المماليك إلى الفداوى، فجعل الفداوى يحمل عليهم يمينًا وشمالاً، ويقول: يا عِلوق[1] أين تروحون مني ؟ فقتل منهم اثنى عشر مملوكًا، فتكاثروا عليه، وجاء إليه واحدٌ من خلفه فضربه بدبوس على دماغه فنثر مخه من أذنه.

وأما قرا سنقر والزردكاش وبلبان الدمشقي، [٣٥٧] لما رأوا الفداوى قفز على الأفرم هربوا وخرجوا من بين الناس، فقال لهم : يا أمراء كنت أخاف من هذا، وقلت لكم ما سمعتم مني، والله، إن لم تجعلوا بالكم وإلا رحتم أشأم الرواح.

وحملوا الأفرم إلى وطاقة، وكان قد انجرح من ضربة ثانية، وطلب له جوبان الجرائحية فداووه وشدوه، ثم طلب جوبان شِحْنَة تبريز ونائبها، وقال لهما : اعلما بأن هذا الفداوى لم يكن وحده، بل له رفاق، ولا أعرفهم إلا منكما.

وأرسل قاصدًا إلى خربندا وأعلمه بالذي جرى، فقال خربندا : والله العظيم، ما أمنت من غائلة هؤلاء الأمراء إلا هذا الوقت، فإني كنت مُتَشككًا فيهم، وكنت أظن مجيئهم مكر وخداع، وكنت مُعَلاً على قتلهم، ثم إنه ركب من ساعته وسار يطلب تبريز، وركب جوبان ومعه الأمراء، وركب الأفرم وهو مجروح، ومن معه من الأمراء، وساروا حتى لاقوا خربندا، فلما قربوا منه ترجلوا وقبلوا الأرض، وترجل خربندا أيضًا، وتعانقوا، ثم ركبوا وساروا، وأخذ قرا سنقر عن يمينه والأفرم عن شماله، وجعل يسأل عن الأفرم ويحمل همه ويُطيب قلبه، وساروا يطلبون الشام، يعني البستان الذي ذكرناه، ونزل في

(١) معاملة العلوق : تقال لمن تكلم بكلام لا فعل معه، تاج العروس، مادة علق.

خيمة هائلة قد[١] [٣٥٨] نُصبت له، ونصبوا قُدَّام الدهليز صوانًا يظل خمسمائة إنسان، ثم جلس وأجلس الأمراء كل واحد في منزلته.

ثم إن خربندا قال : يا شمس الدين، حدثني بالذي جرى عليك مع السلطان الناصر، قال : فحدثه بالقصة من أولها إلى آخرها، فقال خربندا : يا أمراء، الآن تَحققتُ أمرَكم وصِدْقَكم، فطيبوا خواطركم واشرحوا صدورَكم، فقد وصلتم إلى مقصودكم، فإن تركتم في الشام مَالاً أُعوض لكم بأكثر منه، أو إقطاعًا فأعطيكم أحسن منها، أو حُكْمًا فقد حَكَّمْتُكُم في جميع بلادي، وبلادي لكم مُبَاحة، فأي شيء أردتم منها خَوَّلتكم فيه، فعند ذلك قامت الأمراء على أقدامهم، ودعوا له بالدوام والبقاء، فأمرهم بالجلوس، ثم خلع عليهم، وأنعم عليهم، وأطلق لهم شيئًا كثيرًا، وطلب أميرًا يُقالُ له : دَرَقلي، وقال له : واظب خدمتهم ليلاً ونهارًا، وأي شيء طلبوه أحضر لهم سريعًا.

فبينما هم في ذلك، فإذا بغلبة عظيمة على الباب، فقال خربندا : ما هذا ؟ فخرج جوبان وسأل عن ذلك، [فقال][٢] : يا مولانا في اليوم الذي قفز الفداوي على الأفرم طلبنا شِحْنَة تبريز والنائب بها، وقلنا [لهما][٣] : هذا الفداوي ما جاء وحده، ولابد أن يكون له رفيق، وما أعرف رفاقه [٣٥٩] إلا [منكما][٤]، وقد أحضروا كل غريب أنكروا عليه، وأمر خربندا لجوبان أن يحبسهم ويعذبهم بأنواع العذاب حتى يظهر الغريم، وإذا بالأفرم قد تقدم وقَبَّل الأرض، فقال خربندا : ما بال الأمير جمال الدين ؟ فقال : أطال الله عمر الخان، إن علمتُ هكذا يحصلُ للناس ضرر ويجفل المترددون، فقال خربندا: إنما عملتُ هذا لأجلك، فقال الأفرم : اسأل من صدقات الخان أن يَعْرضوا عَلَيَّ هؤلاء الذين مَسَكوهم لأن المملوك عَمِل نيابة الشام ويعرف الفداوية والقصاد جميعهم، فإن كان في هؤلاء أحدٌ منهم قبضنا عليه، وإلا أطلقناهم صدقة عن الخان، فقال له :

---

(١) قد : مكررة في الأصل في آخر ٣٥٧، وأول ٣٥٨.
(٢) فقالوا : في الأصل، والتصويب يتفق مع كون الكلام على لسان جوبان، ينظر ما يلي.
(٣) له : في الأصل.
(٤) منكم : في الأصل، والتصويب مما سبق.

أخرج وافعل مثل ما تريد، فخرج الأفرم وعرضوا عليه الممسوكين فَوجًا فَوجًا، وهو يطلقهم، ويقول ما في هؤلاء أحد من أرباب الشُّبْهة، فأطلق الجميع، فلما سأله خربندا، قال : هؤلاء كلهم تجار ومترددون، وقد أطلقناهم صدقة عن الخان، فقال خربندا : إنما فعلتُ ذلك لأجلك، ثم خَلَع عليه وعلى سائر الأمراء وأعطاهم دستورًا، فساروا إلى الوطاق.

وأما قضية هذا الفداوي فهي عجيبة، وذلك أن هؤلاء الأمراء لما قفزوا، وبلغ السلطان ذلك، [٣٦٠] كان سَيَّر إلى نائب مصياب وأمره أن يرسل اثنين من الفداوية مشهورين بالشطارة والنهضة إلى نائب الرحبة، وهو يرسلهما مع قُصَّاد ثِقات إلى تبريز، ويَعِدُهما أنهما إذا قَضَيَا الشغل كما يريده السلطان فلهما ما أرادا، وكان نائب الرحبة بدر الدين الأزكشي، وكان رجلاً جيدًا مشكور السيرة، فلما وصل الاثنان منهم إليه، سأل من مماليكه الذين يَعتَمِد عليهم في أسرَارِه عن رجلٍ ثقة معروف خبير بالطرقات نسفره مع هذين الاثنين من الفداوية، فقال واحد، وهو المهمندار، [ها هنا][1] قاصد من أهل الحديثة يقال له : عَلِيّ بن المعلم، وهو من المترددين إلى دمشق، وهو رجل معروف، فقال بدر الدين : اطلبوه.

فلما حضر بين يديه ذكر له هذه القضية، فإن قضاها يكون له اليد البيضاء عند السلطان ويحصل له خير كثير، فقال : السمع والطاعة، نبذل مجهودنا في طاعة السلطان ولو راحت أرواحنا،ثم قال : ما جل المقصود ؟ قال : قَتْل قرا سنقر والأفرم، فلما سمع ذلك تبسم وقال : والله العظيم، هذا كان في خاطري بأن أروح إلى دمشق وأشاور نائبها في ذلك وآخذ معي فداوية وأذهب بهم إليهما وأقتلهما، فلما سمع الأزكشي بذلك فرح وخلَع عليه، وأحضر هذين الاثنين من الفداوية وسلمهما إليه، وأمرهما [٣٦١] أن يمتثلا ما قاله، وسَلَّم إليه سكاكين مختومة ومائتي دينار.

فخرجوا وساروا في زي تجار ومعهم صابون، مع كال واحد حماران يطلبون

(١) ههنا : في الأصل.

الموصل، فلما وصلوا، فنزلوا في خان، سألوا عن قَفْل رائحين إلى تبريز، فوجدوا جماعة من سَلْمَاس رائحين إلى تبريز فخرجوا معهم.

وكان علاء الدين هذا من أحسن الناس وجهًا، وذا كرم وخدمة، فسألوه من أين أنت ؟ قال : أنا من الحديثة ومعي بعض صابون، ولا أعلم سعره في تبريز، لأني ما عبرت تبريز قط، ثم كان كلما نزلوا منزلاً يسبق عَلِيٌ هذا ويشتري أحسن الأشياء وأطيب المأكولات، ويأتي إلى التجار ويُطعمهم، وكذا المكارية، ويخدمهم ويتقرب إلى قلوبهم، ويُساعدهم في الشَّد والحَلّ طول الطريق، فأحبه جميع هؤلاء حتى لا يقدر أحد منهم أن يفارقه، وقالوا : يا علاء الدين، أمسك يدك فقد استحيينا منك، وإش معك ؟ الكل ست أحمال صابون، فإش مقدار ما يُكْسب مع هذه النفقة الواسعة ؟ فقال : أنا ما طلعت إلا بسبب الفُرْجَة، وهذه الأحمال بسبب النفقة، وهذه صدقة الله تعالى، وقد مَنَّ الله عَلَيَّ بصحبتكم، والله، لو ذهبت روحي في خدمتكم لكان قليلاً.

ولما وصلوا إلى سَلْمَاس تنازعوا عليه، فكل واحد منهم يقول : [أنا آخُذُه][1] إِلَيَّ وأُضَيفه، [٣٦٢] فقوى عليهم شخص يقال له : مبارك، فأنزله عنده وأَضَافه ثلاثة أيام، ومع هذا كل يوم يعمل له التجار ضيافات، ففي اليوم الرابع رحلوا إلى تبريز فنزلوا في خان خارج تبريز، والتجار الذين معه أخذوه ودخلوا به إلى تبريز وأعرضوا صابونه فباعوه قبل بضائعهم، والمكارية أخذوا هذين الاثنين من الفداوية ودخلوا بهما الخمارة وشربوا طول ذلك النهار، فاستمروا على ذلك أيامًا.

وأما عَلِيٌ فماله شُغل إلا تتبع آثار قرا سنقر إلى ذلك اليوم الذي جرى فيه ما جرى من الفداوي الذي جَرَح الأفرم وقَتَل جماعة من الناس ثم قُتِل، ففي هذا اليوم قال عَلَيّ لذلك الفداوي : هؤلاء غُرماء السلطان الملك الناصر، فأبصر إش تعمل ؟ وأعطاه سكينًا من السكاكين المختومة التي عنده، وفعل هو كما ذكرناه، ورفيقه الآخر ما قَدَرَ

(١) أناخذه : في الأصل.

على عمل شيء، بل هربَ واختلط بالناس(١).

وكان عَلِيّ هو والمكارية واقفين هناك مع الناس، فلما مسكوا الناس، كما ذكرنا امسكوا عَلِيًا والفداوي الآخر مع الناس، فخاف عَلَيّ من الأفرم أن يعرفه، فاصفر وجهه وظهر عليه الخوف، فقال له أولئك التجار : ما بك يا عَلِيّ ؟ فقال : نحن غرباء ما لنا مَنْ يُعَرِّفُنَا، فيتعلقون بنا وينكرون علينا [٣٦٣] فيقتلوننا، فقالت التجار : طيب قلبك، فنحن ما نُخَلِّي أحدٌ يحضر بك إلى الملك، ولو أنا خسرنا لأجلك جميع أموالنا، ثم بذلوا مالاً كثيرًا للظَّلَمَة الذين مسكوهم، وقالوا : هذا ، يعني عَليًا، ورفيقه، يعني الفداوي الآخر، ناس غرباء، وبهما حُمَّى وباردة، فلما تركوهما ودُّوا الناس إلى الأفرم، واستعرضهم وأطلقهم، كما ذكرنا، رجعت التجار إلى الخان وتجهزوا وسافروا.

فخرج عَلِيٌّ والفداوي معهم إلى أن وصلوا إلى الموصل، ناموا فيها يومين، ثم سافروا إلى أن جاءوا إلى الرحبة، ودخل [عَلِيّ](٢) والفداوي على الأزكشي، وأخبره عَلِيٌّ بما جرى، وأن أحد الفداويّين قُتل، وأن هذا ما وقع، فكتب الأزكشي إلى نائب الشام وأعلمه بذلك، وكتب نائب الشام إلى السلطان.

ثم إن نائب الشام خلَع عَلَى عَلِيّ وأعطاه خمسمائة دينار، وحبس الفداوي الآخر في الشام.

ذكر بقية الحوادث في هذه السنة

منها : أن الأمير منصور بن جماز، صاحب المدينة النبوية أيقع مع قتادة بن إدريس، صاحب الينبع، وطارده، ولم يتمكن منه، ورجع عنه.

ومنها : رسم السلطان الملك الناصر بنقض الإيوان الأشرفي الذي بقلعة الجبل وتجديده على هيئة اقترحها، وتوجه إلى الصيد متصيدًا، [٣٦٤] فنُقِض الإيوان المذكور

(١) فلما مسكوا الناس، كما ذكرنا : في الأصل، وعليها شطب، فهي سبق نظر من الناسخ، ينظر ما يلي.
(٢) إضافة للتوضيح.

وجُدد على هيئة حَسَنة، ولما عاد من تَصيده جلس فيه جلوسًا عامًا للعدل ورفع المظالم والإحسان إلى العالم.

وقيل في ذلك :

شرَّفت إيوانًا جلستَ بصدرِه ... فشرحتَ بالإحسان صُدُورًا

قد كان ينتقل الفراقد[1] رفعةً ... إذ حاز منك الناصر المنصورًا

مَلِكُ الزمان ومن رعية ملكه ... مِنْ عدله لا يُظْلَمون نقيرا

لا زال منصورَ اللواء مؤيدا ... أبَدَ الزمان وضده مقهورَا

وقيل أيضًا :

يا مَلِكًا أطلع من وجهه ... إيوانه لما بدا بدرا

أنسيتنا بالعدل كِسْرى ... ولن نرضى لنا جَبْرًا به كَسْرا

ومنها : أنه وصلت الأخبار بأن خربندا قتل : صاحب ديوانه، واسمه سعد الدين الساذُجي، ويحيى بن جلال الدين، وشيخ الشيعة الذي كان خربندا يتتلمذ له واسمه شرف الدين التلاوي.

وسبب قتله إياهم : أما صاحب الديوان فلِمَا بلغه عنه من احتجاز الأموال لنفسه دون الملك، وأما يحيى بن جلال الدين، فلمنافسةٍ [٣٦٥] حصلت بينه وبين صاحب ماردين، وقد كان خربندا تزوج بابنة صاحب ماردين، فأوهمه يحيى [أنها][2] ليست بابنته وإنما هي جارية من جواريه، فاستوضح ذلك، فتبين له كذبه في سعايته فقتله، وأما شيخ الشيعة فلأنه كان قد أخذه باتباع مذهبهم، فلما انكشف له أن مذهب

---

(١) الفرقد : تطلق على فرقدان، نجمان في السماء، ينظر تاج العروس مادة : فرقد.

(٢) أنه : في الأصل.

الشيعة ضلال، وجد عليه وقتله.

ومنها : أنه خُطب للملك الناصر بالمغرب، وذلك أن الشيخ أبا زكريا يحيى الذي يقال له اللحياني، من أكابر المغاربة، كان ورد إلى الأبواب السلطانية فأكرمه السلطان، وقصد الحج فجهزه كما يختار[١]، فلما رَجع من حَجه سأل توصيله إلى بلاده، وهي طرابلس المغرب وما معها، والتزم إن فتح الله عليه تلك البلاد أقام نفسه فيها مقام غلام ونائب للسلطان، فجهزه وجرد معه جُندًا لتوصله، فتسامعت به العربان وأهل تلك البلاد، وأنه واصل بجيش من باب السلطان، عظم في نفوسهم وتمكنت مهابته في قلوبهم، وعقدوا له البيعة بالسلطنة فيما بينهم، ووثبوا على صاحب بجاية وتونس، واسمه أبو البقاء خالد، وقبضوا عليه، واستقام له الأمر، وتظاهر بشعار السلطنة، ودخل تونس والسناجق المنصورة السلطانية قد نُشرت عليه، فسارع إليه الخاص والعام، وكان ممن طَاعه ابن أبي دبوس، واستوثقت [٣٦٦] له مملكة إفريقية وبجاية وقسنطينة الهواء وبلاد الراب، وخُطب باسم الملك الناصر في هذه الممالك كلها على المنابر، وذلك في شهر رجب الفرد من هذه السنة.

ومنها : أن السلطان رسم بعمارة جامع على شاطئ النيل بمصر، فصرفت مصارفه من خالص ماله، ورتبه برأيه، فجاء غاية في حسن الأوضاع، وكملت عمارته في سنة ثنتي عشرة وسبعمائة، وولي خطابته بدر الدين بن جماعة، ورتب به جماعة من الصوفية وجعل شيخهم قوام الدين الشيرازي، وهو الجامع المعروف بالجامع الجديد[٢].

وقال فيه بعض أهل العصر من قصيدة منها :

وجعلت شكران التمكّن جامعًا ... قد وقَّرت من أجله لك أسُهُم
جاريت فيه النيل نيلا فاغتدى ... يجري ليدرك ما يجود وينعم

(١) ينظر ما سبق .
(٢) ينظر السلوك ١١٤/٢، وينظر المواعظ والاعتبار المجلد الرابع ٢٥٠.

عَوَّضــته بالتــبن تــبرًا فأغتــدى		[قـوتُ](١) القلـوب بـه ونعـم المغنم

ومنها : أن خربندا جدد جسرًا لبغداد،وبنى جامعًا أنفق عليه ألف ألف درهم.

وقال ابن كثير : من الحوادث في هذه السنة : أن في يوم الاثنين العشرين من جُمادي الأولى جلس الناصر بدار العدل لكشف المظالم ومعه القضاة الأربعة، واستمر كذلك إلى وقتنا،و كان قبل ذلك يتولاه الأمراء(٢).

وفيها بلغ النيل إلى [.......](٣).

[٣٦٧] وفيها حج بالناس سيف الدين بكتمر السلحدار الأبو بكري بالركب المصري، وحج بالركب الشامي سيف الدين ألطنبغا الجمدار.

---

(١) قلوت : في الأصل.

(٢) لم يرد هذا النص في المطبوع من البداية والنهاية في حوادث سنوات ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧١٣.

(٣) بياض في الأصل نحو نصف سطر، وورد : الماء القديم ذراعان وثلاث أصابع، مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعًا وإحدى وعشرون إصبعًا : في النجوم الزاهرة ٢٢٣/٩.

ذكر من توفى فيها من الأعيان

- الشيخ الرئيس بدر الدين محمد[١] ابن رئيس الأطباء أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن طرخان الأنصارى، من سلالة سعد بن مُعاذ، رضى الله عنه، السويدى، من سويداء [حَوْران][٢].

سمع الحديث، وبرع فى الطب.

مات فى ربيع الأول[٣] ببستانه، بقرب الشبلية[٤]، عن سبعين سنة[٥].

- الشيخ الصالح الزاهد أبوالبركات شعبان[٦] بن أبي بكر[٧] بن عمر الأربلى، شيخ مقصورة الحلبيين بجامع دمشق.

توفى فى التاسع والعشرين من رجب، ودُفن بمقابر الصوفية، عند ضريح الشيخ محمد الجرديكى، وله سبع وثمانون سنة.

رَوى عن: الرشيد العطار، والحافظ عبدالغنى، والضياء، والشارعى، والنجيب عبداللطيف، وابن عبدالدايم، وآخرين.

خرج من إربل صبيًا، ونشأ بحلب، ثم رحل إلى القاهرة، فأقام بها مدة.

---

(١) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ١٧/٤ رقم ١٨، البداية والنهاية ١١٦/١٨، أعيان العصر ٢١٣/٤ رقم ١٤٣١، الدرر الكامنة ٣٨٠/٣ رقم ٣٣٠٥، الدارس ٥٣٦/١.

(٢) سويداء حوران: قرية من نواحى دمشق، معجم البلدان.

(٣) يوم الجمعة ثامن عشر شهر ربيع الآخر: فى تاريخ البرزالى، وأعيان العصر.

(٤) المدرسة الشبلية البرانية الحسامية بدمشق: بسفح جبل قاسيون، بالقرب من جسر ثورى، ينظر الدارس ٥٣٠/١، وما بعدها، خطط الشام ٩٣/٦-٩٤.

(٥) ومولده تقريبًا سنة خمسة وثلاثين وستمائة : في أعيان العصر ٢١٣/٤.

(٦) وله أيضًا ترجمة فى : تاريخ البرزالى ٣٣/٤ رقم ٥٣، البداية والنهاية ١١٦/١٨، الوافى بالوفيات ١٥٢/١٦ رقم ١٧٦، أعيان العصر ٥١٩/٢ رقم ٧٧٠، الدرر الكامنة ٢٨٧/٢ رقم ١٩٣٥.

(٧) بن أبي بكر محمد : في البداية والنهاية .

• **الشيخ الكاتب الصدر المجود المنشئ الشيخ شرف الدين محمد**(١) **بن شريف بن يوسف الزرعى، المعروف بابن الوحيد.**

كان حسن الخط، موصوفًا بحسنه، فاضلاً مقدامًا شجاعًا، يعرف عدة ألسن، خدم بديوان الإنشاء بالقاهرة، وكتب للبرواناه(٢) بالروم، وآخر الأمر كتب للشجاعى(٣) وحظى عنده، ثم تعطل [٣٦٨] بعد ذلك، وتنزل صوفيًا بخانقاه سعيد السعداء.

وكان يحل المترجم، فلما كان فى سنة إحدى وسبعمائة قدم رسل التتار من عند قازان ومعهم كتاب قازان، فلم يكن فى الموقعين من يحله، فَطُلب من الخانقاه فحله وكتب جوابه، فرتبوه بديوان الإنشاء، فخدم به إلى أن مات بالقاهرة بالمارستان المنصورى(٤) يوم الثلاثاء السادس والعشرين(٥) من شعبان منها، ومولده فى شهور سنة سبع وأربعين وستمائة بدمشق.

وله نظم جيد، ومنه:

---

(١) وله أيضًا ترجمة فى : تاريخ البرزالي ٣٧/٤ رقم ٦٥، البداية والنهاية ١١٨/١٨، الوافى بالوفيات ١٥٠/٣ رقم ١١٠٤، أعيان العصر ٤٦٦/٤ رقم ١٥٩١، فوات الوفيات ٣٩٠/٣ رقم ٤٦٠، تذكرة النبيه ٤٣/٢، المقفى الكبير ٧٢٠/٥ رقم ٢٣٤٧، الدرر الكامنة ٧٣/٤ رقم ٣٧٤٠، النجوم الزاهرة ٢٢٠/٩، المنهل الصافي ٨٢/١٠ رقم ٢١٦٧.

(٢) هو : سليمان بن علي، الصاحب معين الدين البرواناه، ومعنى البرواناه الحاجب، وكانت الأمور بيده في بلاد الروم، وتوفى سنة ٦٧٦هـ/١٢٧٧م، ينظر الوافي بالوفيات ٤٠٧/١٥ رقم ٥٥٦، المنهل الصافي ٤٣/٦ رقم ١٠٩٢.

(٣) هو : سنجر، الأمير الكبير علم الدين الشجاعي المنصوري، وزير الديار المصرية، ومشد دواوينها، ونائب السلطنة بدمشق، قتل سنة ٦٩٣هـ/١٢٩٤م، ينظر الوافي بالوفيات ٤٧٥/١٥ رقم ٦٤٣، المنهل الصافي ٨٠/٦ رقم ١١١٧.

(٤) عن المارستان الكبير المنصوري، ينظر المواعظ والاعتبار المجلد الرابع ٦٩٢ وما بعدها، ووثيقة وقف السلطان قلاوون على البيمارستان المنصوري في نهاية الجزء الأول من كتاب تذكرة النبيه لابن حبيب الحلبي، فهرست وثائق القاهرة مسلسل ١٥، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠١.

(٥) سادس عشر: فى البداية والنهاية ١١٨/١٨، السلوك ١١٣/٢.

يقولون لى من أرغد الناس عيشةً ومن بات على طرق[١] المخاوف نائيا
فقلت لبيب عارف قهر الهوى فصار[٢] بحكم الله والرزق راضيًا

وله

جهد المغفل فى الزمان مُضَيَّع وإن ارتضى إسناده[٣] وزمانه
كالثور فى الدولاب يسعى وهو لا يدرى الطريق فلا يزال مكانه

وله فى تفضيل الحشيش على الخمر:

وخضراء لا الحمراء تفعل فعلها لها وثباتُ فى الحشا وثبات
[تؤجج][٤] نارًا فى الحشا وهى حنة[٥] وتبدى مرير العيش[٦] وهى نبات

وكان ناصر الدين شافع[٧] قد وقف على شئ من أدبه فأثنى عليه وشكره، وكان ناصر الدين قد أُضرّ[٨]، فلما بلغ ابن الوحيد ذلك قال:

---

(١) عن سبل : في تذكرة النبيه ٤٣/٢.

(٢) وصار : في تذكرة النبيه.

(٣) أستاذه: فى الوافى بالوفيات ١٥١/٣، أعيان العصر، المقفي الكبير، المنهل الصافى ٨٣/١٠.

(٤) تأجج: فى الأصل ، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٠ .

(٥) جنة: فى الوافى بالوفيات، أعيان العصر، المقفي الكبير، والمنهل الصافى.

(٦) الطعم: فى الوافى بالوفيات، أعيان العصر، المقفي الكبير، النجوم الزاهرة، المنهل الصافى.

(٧) هو: شافع بن على بن عباس الكنانى العسقلانى المصرى، المتوفى سنة ٧٣٠هـ/١٣٢٩م، الوافى بالوفيات ٧٧/١٦ رقم ٧٩، الدرر الكامنة ٢٨١/٢ رقم ١٩٢٢، المنهل الصافى ١٩٦/٦ رقم ١١٧٢.

(٨) اخر: فى الأصل، والتصويب من الوافى بالوفيات ١٥١/٣.

أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى[١].

فلما بلغ شافعًا قوله كتب إليه:

نعـم نظـرتُ ولكـن لم أجـد أدبًا[٢]	يا مَـنْ غـدا واحـدا[٣] فى قـلة الأدب
عَيَّرتـنى بعمـى أصـبحت تـذكره[٤]	والعيب فى الرأس دون العيب فى الذنب

• **الشيخ ناصر الدين يحيى[٥] بن إبراهيم بن محمد بن عبدالعزيز العثمانى، خادم المصحف العثمانى بدمشق، نحوا من ثلاثين سنة.**

مات بدمشق، وصُلى عليه يوم الجمعة رابع رمضان، ودُفن بمقابر الصوفية وبلغ خمسًا وستين سنة.

• **الشيخ الصالح الجليل القدوة أبوعبدالله محمد[٦] بن الشيخ القدوة إبراهيم بن عبدالله الأرموى.**

مات بمكانه بسفح جبل قاسيون فى [ليلة][٧] الحادي والعشرين من رمضان[٨]،

---

(١) هذه الشطرة من قول المتنبى، ضمنها ابن الوحيد ضمن أربع أبيات كان آخرها
فكدت أنشد لولا نور باطنه	أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى ، ينظر الوافي بالوفيات ١٥٢/٣.

(٢) أحدًا: فى أعيان العصر، المنهل الصافى ٨٣/١٠.

(٣) غدا واحدا : في فوات الوفيات.

(٤) جازيت مدحي وتقريظى بمعيرة: فى الوافى بالوفيات ١٥٢/٣، أعيان العصر، الدرر الكامنة ٧٥/٤، المنهل الصافى ٨٣/١٠.

(٥) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٣٩/٤ رقم ٦٨، البداية والنهاية ١١٧/١٨.

(٦) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٤٠/٤ رقم ٧١، البداية والنهاية ١١٧/١٨، أعيان العصر ٢١٥/٥ رقم ١٤٣٥، المقفي الكبير ١٠٠/٥ رقم ١٦٤٢، الدرر الكامنة ٣٧٣/٣ رقم ٣٢٨٣.

(٧) الليلة : في الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

(٨) في عاشر شهر رمضان : في أعيان العصر ٢١٦/٤.

وصُلى [عليه][١] بالجامع المظفرى[٢]، ودُفن عند والده، وكانت [جنازته][٣] [٣٧٠] مشهودة.

وكان رجلاً حسنًا، ذا فضيلة وخير وتودد، وكانت شفاعته مقبولة، وكلمته نافذة، ويُكاتب السلطان والنواب فلم ترد ورقته إلا مقضية الشغل، ومولده سنة خمس وأربعين وستمائة.

وله نظم حسن، فمنه:

إذا كنت فى قلبى وسمعى وناظرى ... ومجراك مجرى الروح كيف تغيب
فوا عجبى شوقى إلى غير غائب ... وكل شئوون العاشقين عجيب
أتيه على الأكوان عُجْبا وعزمة ... لأنك لى دون الأنام حبيب
وإنك من قلبى على كل حالة ... وإن بَعُدَت منَّا الديارُ قريب
ولو أن داع منك يدعو وأعظُمى ... بقايا من الأحداث كنَّ تجيب
ويطربنى ذكراك مر بمسمعى ... وكل فتى يهوى الجمال طَرُوب
فترتاح أرواح هناك صبابةً ... ويخشع من ذكراك ثم قلوب
ويمرضنى فرطُ اشتياقى إليكم ... [٣٧١] فأشكو إليكم عِلَّتى فأطيب
وما ساءنى مَنْ صدّ عَنّى أو جَفَا ... إذا كان لى فى الحب منك نصيب
أنوح كما ناح الحمام وليس لى ... أنيس سواه فى الدجى ونسيب

(١) إضافة للتوضيح من تاريخ البرزالى.
(٢) الجامع المظفرى: هو جامع الحنابلة فى الجبل، أنشأه ابن قدامة المقدسى، وأتمه الملك المظفر كوكبرى صاحب إربل، خطط الشام ٦٢/٦.
(٣) صارية: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق.

يهاب اقتحام الحب قلبى فينثنى ويغلبه فرط الجوى فيؤوب
تجول به أيدى الغرام كأنها لهن بجنات القلوب دبيب

وقال:

ماس عجبا منه القضيب علينا فحيانا من كل معنى كريم
لا عجيب أن ماس عُجْبا وتيها من تربى بين الندى والنسيم

وكان قد خانه بصره قبل موته بقليل، فقال:

خانني ناظرى و هذا دليل أن حَيْنِى دَنَا وآن رحيل
هكذا الركب إن أراد رحيلا جعلوا النور تابعا للدليل

وقال:

لله أيام الربيع وطيبها وتفاخر الأطيار فى الألحان
والورد يشرق فى الغصون كأنه [٣٧٢]ماء الحياء فوجنة الخجلان
والغصن يثنيه النسيم كما ثنى سكر الشمول شمائل النشوان
والماء يمشى فى الرياض كما مشت سِنَة الرقاد بمقلة الوسنان

وقال :

حديقة إذا نبَّهها الصَّبا لم يبق منها مقلة غافية
وَشى بطيب العَرف نَمَّامُها لما أتته الأعين الصافية

وقال:

يا طيب ما جاء النسيمُ فعُرْفكم وحديثه عنكم حديث مُرسل
حَمَّلْتُه منى السلام عليكم فأطاعنى لكنه يتعلل[(١)]

● الصاحب الكبير الوزير فخر الدين عمر[(٢)] بن الشيخ مجد الدين عبدالعزيز بن "الحسن بن الحسين"[(٣)] الخليلى التميمى الدارى.

مات بمصر، ودُفن بالقرافة الصغرى، وكان موته يوم عيد الفطر، ومولده سنة أربعين[(٤)] وستمائة.

تولى الوزارة فى أول دولة السعيد بن الملك الظاهر[(٥)]، [٣٧٣] ثم تولى وزارة الملك العادل كتبغا، وكذلك تولى فى أول دولة الملك المنصور لاجين، ثم تولى فى أول دولة الملك الناصر، ثم عُزل ومات معزولاً.

وقد سمع الحديث، وكان خيرًا، عاقلا كافيا، عنده كرم زائد، وفيه بر وصدقة وتودد لأصحابه.

● القاضى العلامة الحافظ سعد الدين مسعود[(٦)] بن أحمد بن مسعود بن [زيد][(٧)]

---

(١) تنظر أشعار أخرى في أعيان العصر ٢١٧/٤-٢٢٠.
(٢) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٤٤/٤ رقم ٧٩، البداية والنهاية ١١٨/١٨، الدرر الكامنة ٢٤٦/٣ رقم ٣٠١٩، الوافى بالوفيات ٥١٤/٢٢ رقم ٣٦٤، أعيان العصر ٦٣٥/٣ رقم ١٢٧٤، السلوك ٢/ ١١٣، النجوم الزاهرة ٢٢٠/٩، المنهل الصافي ٢٩٦/٨ رقم ١٧٤٣.
(٣) الحسين بن الحسن: فى الدرر الكامنة ٢٤٦/٣.
(٤) ومولده سنة تسع وثلاثين وستمائة: فى تاريخ البرزالى، وورد : توفى عن ٧٢ سنة : في أعيان العصر.
(٥) هو محمد بن بيبرس، الملك السعيد بركة خان المتوفى سة ٦٧٨هـ/١٢٧٩م، المنهل الصافى ٣٣٦/٩ رقم ٢١٠٠.
(٦) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٥٢/٤ رقم ٩٨، نهاية الأرب ١٩٣/٣٢، الوافي بالوفيات ٥٣٧/٢٥ رقم ٣٤٤، مرآة الجنان ٢٥١/٤، تذكرة النبيه ٤٠/٢، البداية والنهاية ١١٩/١٨، أعيان العصر ٤١٦/٥ رقم ١٨٥٣، السلوك ٢/ ١١٣، الدرر الكامنة ١١٦/٥ رقم ٤٨٠٧، النجوم الزاهرة ٢٢١/٩.
(٧) يزيد: فى الأصل، والتصويب من مصادر الترجمة.

الحارثى[١] الحنبلي.

مات بالمدرسة الصالحية بالقاهرة، ودُفن بالقرافة، وكان من أعيان العلماء والمحدثين.

نشأ[٢] فى العلم، واشتغل فى الحديث، وقرأ الكثير بنفسه، ورحل إلى دمشق وإلى الإسكندرية، وحَج غير مرة، وسمع المشايخ، وخَرَّج لنفسه ولجماعة من شيوخه.

تولَّى مشيخة الحديث بالجامع الحاكمى، وتدريس الفقه بجامع ابن طولون، ثم وَلِي قضاء الديار المصرية مدة سنتين ونصفًا.

وكان موته فى الرابع والعشرين[٣] من ذى الحجة، رحمه الله، وتولى بعده تقى الدين[٤] بن بنت القاضى شمس الدين الحنبلى، وكان جده المذكور قاضيًا من قبل.

قال ابن كثير رحمه الله: وكانت له [يد][٥] طولى فى الأسانيد والمتون، وشرح قطعة من سنن أبى داود، رحمه الله.

● القاضى مجد الدين أبوالفرج عيسى[٦] بن عمر بن عبدالمحسن ابن الخشاب، وكيل بيت المال.

كان فقيهًا فاضلاً، عالمًا ورعًا، شافعيًا، مات [٣٧٤] فى ثامن ربيع الأول، ودفن بتربته بالقرافة.

---

(١) نسبة إلى الحارثية: قرية قريبة من بغداد، ينظر الوافى بالوفيات ٥٣٧/٢٥.

(٢) ولد سنة ٦٥٢هـ فى الوافى بالوفيات ٥٣٧/٢٥.

(٣) رابع عشر : في أعيان العصر ٤١٧/٥.

(٤) هو: أحمد بن عمر بن عبدالله بن عمر بن عوض المقدسى، تقى الدين، توفى بعد سنة ٧٣٨هـ/١٣٣٧م، البداية والنهاية ١٢١/١٨، الدرر الكامنة ٢٣٩/١ رقم ٥٨٠.

وورد : وخلفه في الفقه ولده الإمام شمس الدين عبدالرحمن : في أعيان العصر.

(٥) إضافة للتوضيح من البداية والنهاية ١١٩/١٨.

(٦) وله أيضًا ترجمة فى: نهاية الأرب ١٩٣/٣٢، تاريخ البرزالى ١٥/٤ رقم ١٥، أعيان العصر ٧١٨/٣ رقم ١٣١٤، تذكرة النبيه ٤٠/٢، السلوك ٢/ ١١٣ ، الدرر الكامنة ٢٨٥/٣ رقم ٣١٢١.

● الحكيم الفاضل شرف الدين عبدالله(١) بن شهاب الدين أحمد بن أبى الحوافر.

توفى ليلة الجمعة الثالث والعشرين من شوال، ودُفن بالقرافة الصغرى. وكان دينًا فاضلاً حسن الأخلاق.

● القاضى تاج الدين عبدالرحمن(٢)، المعروف بالتاج الطويل، ناظر الدواوين بالديار المصرية.

مات فى الثانى والعشرين من ذى القعدة، ودُفن بالقرافة.

وهو الذى راك الإقطاعات(٣) فى الأيام المنصورية الحُسامية، كان من أخبر الناس بصناعة الحساب وتنفيذ الأشغال، وعنده مروءة وعصبية وبر ومعروف، و كان من مسالمة القبط، وانتهى إليه علم الكتابة الديوانية فى زمانه.

● الشيخ الصالح محمد(٤) العُريان.

مات بظاهر القاهرة فى رجب(٥)، وكان يلبس سراويل، وعلى رأسه طاقية بلا عمامة، وباقى جسده مكشوف، ومع أحد أصحابه حصيرة صغيرة يبسطها تحته حيث قعد، ويصلى عليها.

وكان لأهل الديار المصرية فيه اعتقاد عظيم، سافر إلى دمشق سنة شقحب(٦)، وعاد إلى مصر، وكانت له زاوية بالروضة خارج القاهرة.

---

(١) وله أيضًا ترجمة فى: نهاية الأرب ١٩٤/٣٢، تاريخ البرزالى ٤٥/٤ رقم ٨٤، السلوك ٢/ ١١٣ ، الدرر الكامنة ٣٤٩/٢ رقم ٢١١١.

(٢) وله أيضًا ترجمة فى: نهاية الأرب ١٩٤/٣٢، تاريخ البرزالى ٤٩/٤ رقم ٩٤، وينظر السلوك ٨٤٢/١ وما بعدها ، ٢/ ١١٤ .

(٣) ينظر ما سبق بعقد الجمان ٣٩٤/٣ وما بعدها.

(٤) وله أيضًا ترجمة فى: نهاية الأرب ١٩٥/٣٢، تاريخ البرزالى ٣٣/٤ رقم ٥٤، البداية والنهاية ١١٧/١٨ ، السلوك ٢/ ١١٣ .

(٥) فى الثامن والعشرين من رجب: فى تاريخ البرزالى ، فى ثامن عشر رجب : فى السلوك ٢/ ١١٣ .

(٦) المقصود سنة ٧٠٢ هـ/١٣٠٢م، ينظرما سبق بعقد الجمان ٢٣١/٤.

• الصدر أمين الدين عبدالحق[١] بن أبى على بن عمر، المعروف بابن الفارغ[٢] الحموى.

مات بالقاهرة[٣]، ودفن بالقرافة، ومولده سنة إحدى وخمسين وستمائة[٤].

كان فاضلاً عاقلاً، حسن النظم والترسل، فمن شعره:

[٣٧٥] دوادار الأمـــــــير له دواة	كَتَـــلّ اليـــاسمين بغـــير صـــوف
تـــرى قـــلم الأمـــر يغـــوص فيهـــا	كغـــوص حـــلاوة فى حلـــق صـــوف

وله:

إلام عـلى جهـل الـصبا أنـت عـاكف	وَفِىٌّ كلـــما يـــأتى عليـــك رقيـــبُ
وكم توبـــة فى كل يـــوم وعـــودة	أَمَـا تـستحى مـن مثـل ذا وتتـوبُ
أَمَـــا لك يا نفـــسى مـــن الله رادعٌ	ولا لك فى فعـــل الجميـــل نـــصيب
أَلَـــم تعلمـــى أن لا خلـــود وأنـــه	لمـــسترفع منـــك الحـــساب حـــسيبُ

• الشيخ فخر الدين إسماعيل[٥] بن نصر الله بن أحمد بن محمد بن الحسن بن عساكر الدمشقى.

---

(١) وله أيضا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٨/٤ رقم ٥، تالى كتاب وفيات الأعيان ١٢٥ رقم ١٩٦، أعيان العصر ١٩/٣ رقم ٩٢٣، الدرر الكامنة ٤٤٥/٢ رقم ٢٢٦٥.
وورد : وبعضهم قال فيه عبدالخالق : ينظر أعيان العصر ١٩/٣، ٢٢.
(٢) هكذا بالأصل وأعيان العصر، ووردت : الفارع: فى تاريخ البرزالى، البارع: فى الدرر الكامنة.
(٣) فى الرابع والعشرين من المحرم: فى تاريخ البرزالى.
(٤) وستمائة: بهامش الأصل، ومنبه على موضعها بالمتن.
(٥) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ١٠/٤ رقم ٩، تالى كتاب وفيات الأعيان ٣٧ رقم ٥٤، أعيان العصر ٥٢٧/١ رقم ٢٧٤، الدرر الكامنة، ٤٠٨/١ رقم ٩٦٧، النجوم الزاهرة، ٢٢١/٩.

مات بدمشق[١]، ودفن بمقابر الباب الصغير، ومولده فى سنة سبع[٢] وعشرين وستمائة.

روى عن جماعة من المشايخ، وكانت نفسه قوية، وعنده شر، وَلِىَ مشارفة الجامع ومشارفة المساجد، رحمه [الله][٣].

- **قاضى القضاة عز الدين أبوالبركات عبدالعزيز[٤] بن الصدر الكبير الرئيس محى الدين محمد بن القاضى نجم الدين أحمد بن هبة الله [٣٧٦] بن محمد بن هبة الله بن أبى جرادة الحلبى الحنفى، المعروف بابن العديم.**

كان قاضى حماة مدة أربعين سنة، ومولده سنة ثلاثة وثلاثين وستمائة بحلب، مات بحماة فى ثانى ربيع الآخر.

- **الشيخ العارف الزاهد القدوة شمس الدين محمد[٥] بن أحمد بن نصر الدُّباهى.**

مات بدمشق[٦]، ودُفن بسفح قاسيون.

وكان شيخًا صالحًا، وله كلام حسن في التصوف، مولده سنة ست وثلاثين وستمائة [ببغداد][٧]، وفارق والده وجاور بمكة مدة، ولم يزل على قدم الخير والصلاح، وكان والده من أكابر التجار وأصحاب الأموال.

---

(١) يوم الاثنين العاشر من صفر: فى تاريخ البرزالى.

(٢) ولد سنة ٦٢٩ هـ: فى أعيان العصر، الدرر الكامنة.

(٣) إضافة لاستكمال النص.

(٤) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ١٦/٤ رقم ١٦، أعيان العصر ١٠٥/٣ رقم ٩٩٣، أعلام النبلاء ٥٤٢/٤، تذكرة النبيه ٤١/٢، الدرر الكامنة ٤٩٢/٢ رقم ٢٤٤٤.

(٥) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ١٨/٤ رقم ٢٠، مرآة الجنان ٢٥/٤، الوافى بالوفيات ١٤٣/٢ رقم ٤٩٩، المقفي الكبير ٢٨٦/٥ رقم ١٨٥٩، الدرر الكامنة ٤٦٥/٣ رقم ٣٥١٥.

(٦) يوم الخميس الرابع والعشرين من شهر ربيع الآخر: في تاريخ البرزالي.

(٧) إضافة للتوضيح من المقفي الكبير ٢٨٦/٥.

● الشيخ الإمام الزاهد العارف عماد الدين أبوالعباس أحمد(١) بن الشيخ القدوة إبراهيم ابن عبدالرحمن الواسطى، المعروف بابن شيخ الحزاميين.

مات بالمارستان الصغير بدمشق، ودفن بقاسيون قُبالة زاوية السيوفى.

وكان رجلاً فاضلاً صالحًا ورعًا، منقطعًا إلى الله تعالى، ومولده فى ذى الحجة سنة سبع وخمسين وستمائة، وكانت وفاته فى السادس والعشرين من ربيع الآخر.

اختصر سيرة النبى عليه السلام، وله مصنفات عدة(٢)، وشعر، فمنه قوله:

كيف السلو ومالى عنك عوض		وكل شئ سوى حُبّى لكم عَرَضُ
تفنى الليالى ونارى غير خامدة		[٣٧٧] وَوُدكم حَشْو قلبى ليس ينقرض

● الفقيه الخطيب جلال الدين محمد(٣) بن الشيخ سعد الدين محمد بن محمود الحنفى البخارى.

مات بدمشق فى العشرين(٤) من جُمادى الآخرة، ودُفن بمقابر الصوفية.

كان شابًا حسنًا ظريفًا، حسن الأخلاق، وكان خطيب المدرسة الزنجيلية(٥) ظاهر دمشق، وكان حسن الصوت والصورة، ولى تدريس الفروخشاهية(٦) وانتزعت

(١) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ١٩/٤ رقم ٢١، الوافى بالوفيات ٢٢١/٦ رقم ٢٦٨٩، فوات الوفيات ٣٥٦/١ رقم ٢٢، أعيان العصر ١٥٣/١ رقم ٦٦، الدرر الكامنة، ٩٦/١ رقم ٢٤٠، المنهل الصافى ٢١٠/١ رقم ١٠٧.

(٢) صنف فى السلوك والمحبة، وشرح منازل السائرين، واختصر السيرة لابن إسحاق، ودلائل النبوة: فى المنهل الصافى ٢١١/١، وينظر هدية العارفين ٤٥٢/١- ٤٥٣.

(٣) وله أيضًا ترجمة فى : تاريخ البرزالى ٢٩/٤ رقم ٤٣.

(٤) يوم الأربعاء الحادى والعشرين: فى تاريخ البرزالى.

(٥) المدرسة الزنجيلية بدمشق = المدرسة الزنجارية، خارج باب توما وباب السلامة، تنسب إلى فخر الدين عثمان بن على الزنجيلى، نائب عدن، المتوفى سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م، ينظر الدارس ٥٢٦/١ وما بعدها.

(٦) المدرسة الفروخشاهية بدمشق: تنسب إلى عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب صاحب بعلبك ونائب دمشق لعمه صلاح الدين، والمتوفى سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م، ينظر الدارس ٥٦١/١ وما بعدها.

منه لما مرض وطالت مرضته.

ومولده[(١)] فى سنة تسع وسبعين وستمائة بقونية من بلاد الروم.

● **الشيخ مجد الدين يحيى[(٢)] بن خضير بن سليمان بن بدر بن كامل السلمى البصروى.**

كان شاعرًا مفوهًا، له قدرة على النظم، وله معرفة بالنحو واللغة وأيام الناس، وكان يعمل الحياكة فى بيته.

ومن شعره في مليح أرمد :

لما بدا وعلى عينيه من رمد شعرية ما لها شبهٌ سوى الغَسق

حسبته البدر فوق الغصن يستره غيم وقد كَحَّلته الشمس بالشفق

● **الشيخ الإمام العالم [جمال الدين أبوالفضل محمد[(٣)] بن][(٤)] جلال الدين [أبى العز المكرّم][(٥)] بن على بن أحمد بن أبى القاسم الأنصارى الخزرجى، الأفريقى الأصل، أحد كتاب الإنشاء.**

مات بداره بالقاهرة، ودُفن بالقرافة، فى الحادى عشر من شعبانُ[(٦)]، ومولده[(٧)] [٣٧٨] سنة ثلاثين وستمائة، روى عن المقير، وابن النخيلى، وابن الصابونى، وتفرد بأشياء من مسموعاته، وانتفع به الطلبة، وكان فاضلاً، وله معرفة بالنحو واللغة والتاريخ

---

(١) فى رابع ذى القعدة: فى تاريخ البرزالى ٢٩/٤.

(٢) لم نعثر له على ترجمة فى المصادر المتداولة .

(٣) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٣٦/٤ رقم ٦٣، نهاية الأرب ١٩٣/٣٢، الوافى بالوفيات ٥٤/٥ رقم ٢٠٤٤، فوات الوفيات ٣٩/٤ رقم ٤٩٦، السلوك ٢/ ١١٤ ، الدرر الكامنة ٣١/٥ رقم ٤٥٨٨، المنهل الصافى ١٢٦/١١ رقم ٢٤٢٤.

(٤) إضافة من تاريخ البرزالى.

(٥) الكرم: فى الأصل والتصويب والإضافة من مصادر الترجمة.

(٦) فى ثالث عشرى المحرم : فى السلوك ٢/ ١١٤ .

(٧) ومولده: مكرر فى الأصل، فى نهاية ٣٧٧، وبداية ٣٧٨.

بالنحو واللغة والتاريخ والكتابة والإنشاء، وله نظم، فمن قوله، على ما قيل:

بالله إن جُزت بوادى الأراك وقبَّلت أغصانه[١] الخضرَ فاك

فابعث[٢] إلى المملوك[٣] من بعضها[٤] فإننى والله مالى سِوَاك

- الشيخ الصالح الزاهد القدوة شرف الدين عبدالكريم[٥] ابن الشيخ نجم الدين أبى الفرج[٦] بن الحكيم الحموى، الشافعى.

مات بحماة[٧]، ودُفن بتربته بعقبة تقيرين.

كان شيخًا حسنًا دَرَّس بالمدرسة الحميريّة ولم يزل مدرسًا إلى حين وفاته، وباشر حسبة حماة مدة، وكان يُعرف بالمحتسب فى حياة والده، وكانت له رواية حسنة، ويقصده الفقراء والوزراء، ويجدون عنده الراحة والتفضل، والأوقات الطيبة والسماعات.

- الشيخ الإمام العالم الخطيب شمس الدين محمد[٨] بن يوسف بن عبدالله الجزرى الشافعى، خطيب جامع ابن طولون.

---

(١) عيدانه: فى الوافى بالوفيات ٥/٥٦.

(٢) ابعث: فى الوافى بالوفيات، المنهل الصافى ١١/١٢٧.

(٣) عبدك: فى الدرر الكامنة ٥/٣٣.

(٤) من بعضه: فى الوافى بالوفيات، فوات الوفيات ٤/٣٩.

(٥) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٤/٤٤ رقم ٨٠، الدرر الكامنة ٣/١٥ رقم ٢٤٨٨.

(٦) نجم الدين بن أبى الفرج: فى الأصل، والتصويب من مصادر الترجمة.

(٧) يوم الخميس ثامن من شوال: فى تاريخ البرزالى.

(٨) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٤/٥٣ رقم ١٠٠، أعيان العصر ٥/٣١٨ رقم ١٨٢٥، المقفى الكبير ٧/٤٩٨ رقم ٣٥٩٠، السلوك ٢/ ١١٤ ، الدرر الكامنة ٥/٦٧ رقم ٤٦٩١ ، النجوم الزاهرة ٩/٢٢١.

مات بالمدرسة المعزية[١] بمصر، ودُفن من الغد فى أوائل ذى الحجة[٢] بالقرافة، ومولده سنة سبع وثلاثين وستمائة بالجزيرة[٣].

وعُرض عليه قضاء دمشق فلم يقبل، ومات وهو خطيب جامع ابن طولون ومدرس المعزية.

[٣٧٩] وله نظم، فمنه قوله:

رأوا حمرة فى عينيه فتعجبوا لنرجسه ... إذا عاد فى لون ورده

إذا هو أَغْذَى خصرَه سُقمُ جفنِه ... فلا غَروَ أن أَعْدَتْهُ حمرةُ خَدِّه

وله:

وحقك ما خَلَّى اشتياق ولا أَبقى ... سوى عبرَة تَنْهل أو نَفَس يَرْقى

ولى كلما هبت صبًا منك صَبْوة ... تعلم من لم يدر كيف الهوى العشقا

سأودعها إن راجعت من تأوهى ... ومن زفراتى بَعْدك الرعد والبرقا

وامطر فى أثنائها دارة الحمى ... مدامع تغنيها لذى المجد أن تُسْقَى[٤]

---

(١) المدرسة المعزية بالفسطاط: تقع على شاطئ نيل الفسطاط، بناها السلطان الملك المعز أيبك سنة ٦٥٤هـ/١٢٥٦م، برحبه دار الملك، والتى عرفت فيما بعد برحبة الحناء، ينظر المواعظ والاعتبار المجلد الثالث ٥٥١، الانتصار ٩٢/٤.

(٢) توفى سادس ذي القعدة : في أعيان العصر.

(٣) ومولده فى شهر رمضان سنة سبع وعشرين وستمائة بالإسكندرية: فى تاريخ البرزالى ٥٣/٤.

وورد: ومولده بجزيرة ابن عمر : في المقفي الكبير ٤٩٨/٧.

(٤) تنظر أشعار أخرى في أعيان العصر ٣٢٠/٥-٣٢١.

● الأديب الفاضل سراج الدين عمر[١] بن مسعود الحلبى، المعروف بالمَحّار.

كان أولاً صانعا يحر فى الكتان، ثم اشتغل بالأدب وفاق فيه، واتصل بخدمة الملك المنصور[٢] صاحب حماة فقرر له جامكية ورتب له راتبا، واستمر على ذلك إلى حين [توفى][٣] بدمشق فى هذه السنة[٤].

وله نظم رائق لطيف، وموشحات مليحة فائقة، فاق فيها على المغاربة، وكذلك فى الأزجال [٣٨٠] فمن نظمه قصيدته الفائقة التى أولها:

ما بث شكواه لولا مَسّه الألم ... ولا تأوّه لولا شَفَّه السَّقَمُ
ولا توهم أن الدمع مُهْجتُه ... أذابها الشوق حتى سال وهو دم
صَبٌّ له مدمَعٌ صَبٌ يُكَفْكِفُه[٥] ... فتَسْتَهِلُّ غَواديه فينسجم[٦]
فطرفه بمياه الدمع فى غرقٍ ... وقلبه بلهيب الشوق يضطرم
أراد إخفاء ما يلقاه من كمدٍ ... حتى لقد عاد بالسلوان يُتهمّ

---

(١) وله أيضًا ترجمة فى: فوات الوفيات ١٤٦/٣ رقم ٣٨٠، أعيان العصر ٦٦٢/٣ رقم ١٣٠٠، الدرر الكامنة ٢٧٠/٣ رقم ٣٠٩٠، النجوم الزاهرة ٢٢١/٩، المنهل الصافى ٣٢٤/٨ رقم ١٧٦٧.

(٢) هو محمد بن محمود بن محمد بن عمر بن شاهنشاه بن شاذى بن أيوب، الملك المنصور، المتوفى سنة ٦٨٢هـ/١٢٨٣م، ينظر عقد الجمان ٣١٤/٢.

(٣) إضافة للتوضيح .

(٤) مات سنة ٧١١هـ أو ٧١٢هـ : في الدرر الكامنة ٢٧١/٣.

(٥) يكفكه : في فوات الوفيات ١٤٨/٣.

(٦) وتنسجم: فى فوات الوفيات ١٤٨/٣.

يُبدى التجلّد والأجفانُ تفضحه كالبرق يبكى[١] الغوادى وهو ينقسم[٢]
سَقّته أيدى النوى كأسا مُدغدغة[٣] فما نداماه إلا الحزن والندم
يُمسى ويصبح لا صبرٌ ولا جلدُ ولا قرارٌ ولا طَيف ولا حُلُمُ
ولم يؤمل إلماما بجيرته لكان[٤] يعتاده مما به لَمم
[٣٨١] قالوا[٥] الوشاة تَسَلَّى عن أحبته[٦] يا ويحهم جهلوا فوق الذى علموا
توهموا فيه ما ساءت ظنونهم به ألآ سَاء ما قالوا وما زعموا
أَنَّى يُميل إلى السلوان مكتئبٌ باق على العهد[٧] والأيام تنصرمُ
قضى بحبهم عصر الشباب وما خان الوداد وهذا الشيب والهرم
أنا المقيم على ما يرتضون به مُضغ إذا نطقوا راضٍ بما حكموا
متى دعانى هواهم جئت معتذرًا أسعى على الرأس إن لم يسعد[٨] القدمُ
كم قلت والقلب منى خائف وجل بين الرجاء وبين الخوف ينقسمُ
يا قلب لا تيأس القرب رُبَّ غدٍ تسخو بقربهم الدنيا ونلتئم
ويصبح الخوف أمنا والصدود رضى والبعد قربًا وتدنوا دارهم وهُمُ

(١) تبكي : في فوات الوفيات.
(٢) يبتسم: فى فوات الوفيات.
(٣) مدعدعة: فى فوات الوفيات
(٤) لكاد: فى فوات الوفيات ١٤٩/٣.
(٥) قال : فى فوات الوفيات.
(٦) محبتهم : فى فوات الوفيات
(٧) الود : فى فوات الوفيات
(٨) هكذا في الأصل، ولعلها : إن لم يسعف.

ويـــــسعفونك بالحـــــسنى فعنـــــدهم [٣٨٢] مكارم ولهم حسن الوفاء شيمُ

يعـــزى الجمـــال إلـــيهم والجميـــل كـــما إلى المظفـــر يُغـــزى الجـــود والكـــرم

وكتب إلى صاحب له:

عهـــدناك تحفـــظ منـــا العهـــودا فعلمـــك الدهـــر هـــذا الـــصدودا

وقـــد كنـــت خِـــلا ودودًا لنـــا فـــصَيَّرك الدهـــر خـــلاً ودودا

وقال:

لمـــا تـــألَّق بارقٌ مـــن ثغـــره جـادت جُفُـونى بالـسَّحابِ المطـر

فكـأن عقـد الدر[1] حُـلَّ قلائـد الــ عقيـان منـه عـلى صحـاح الجـوهرى

وقال:

رأيتـــــه فى المنـــــام معتنقـــــى يا ليـــت مـــا فى المنـــام لـــو كانا

ثم انثـــنى معرضًـــا فـــوا عجـــبى[2] يهجـــرنى نائمًـــا ويقظـــانا

ومن موشحاته قوله:

مـــا ناحَـــت الُـــورقُ فى الغـــصون إلا هاجـت علـى، تغريـدها لوعـةَ الحـزين

هل ما مضى لى من[3] الحبايب آيـــب، بعـــد الـــصدود

(١)عقد الدمع: فى النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢١ ، المنهل الصافى ٣٢٦/٨.
(٢) فوا عجبا: فى المنهل الصافى ٣٢٦/٨.
(٣) مع : فى النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٢ .

[أو هل لأيامـا الذَّوَاهـــــب واهـــب ، بأن تعـــــود
بكل مصـــقولة الترائـــــب كاعـب ، هيفـــاء رُود] [١]
تَفْــتّر عـــن جَـوْهرٍ ثمـين، جَـلاّ أن يُجْتلى، يُحمى بقضيب[٢] من الجفون
وأهيـــف[٣] ناعم الـــشمائل مائـــــل، فى بُـــــزدِه
فى مُهَج العاشـقين منه عامـل[٤] عامـــل مـــن قـــدِّه
[٣٨٣]يسطو بسيف من المقاتل[٥] قَاتـــلْ، فى غِمْـــدِه
أشطى من الأُسْد فى العرين ، فِغلا وقَــتْلا[٦] ، لعاشــقيه مــن المَنُــون
علقتــــه كامــل المعـــانى عــــانَى، قلـــبى بـــه
مُبَلْبَـــلُ البـــال قـــد[٧] جفـــانى فــــإنى، فى حبــــه
كم بِـتُّ مــن[٨]حيـث لا يـرانى رَآنى، لقُربـــــــه
وبات مــن صُــدْغِه يُـرينى ، نمــلا يَسعَى إلى ، رضـابه العـاطر المـصون
قاســوه بالبــدر وهــو أحــلى شـــكلاً ، مـــن القمـــر

---

(١) إضافة من النجوم الزاهرة ، المنهل الصافى .
(٢) بغضب: فى المنهل الصافى، بقضب: فى النجوم الزاهرة ٢٢٢/٩.
(٣) أحببته: فى المنهل الصافى، والنجوم الزاهرة.
(٤) فى أنفس العاشقين عامل: فى المنهل الصافى، النجوم الزاهرة ٢٢٢/٩.
(٥) يرنو بطرف إلى المقاتل: فى المنهل الصافى ، النجوم الزاهرة .
(٦) وا قتالا: فى المنهل الصافى ، وأقتلا : فى ، النجوم الزاهرة .
(٧) مذ: فى المنهل الصافى ، النجوم الزاهرة .
(٨) من: سقط من المنهل الصافى.

وراش[1] هُــذبَ الجفــون نــبلا ... أبـــلَى، بهـــا البـــشر
وقـــال لى وهـــو[2] قـــد تَجَــلَّى ... جَـــلاّ، بارئ الـــصّور
يتــصف البــدرُ فى[3] جبيــنى أصــلاً ... فقلت لا، قال ولا السحر من عيونى
بتنـــا وقـــد نال[4] مـــا تمـــنى ... منـــا، طيـــف[5] الوســـن
نفـــض[6] مـــن فرحـــه لَدنا ... دَنَا، [تنفـــى الحـــزن
وكلـــما مـــال أو تثـــنى غـــنى][7] ... صـــوتا حـــسن
لا تـــستمع فى الهـــوى المـــصون عَـــذْلا ... وانهض إلَىّ، راح تقى سورة الشجونى[8]

قال فى الملك المنصور صاحب حماة:

جـــسمى ذَوَى بالكمـــد، والـــسهر ... والوصـــب، مـــن جـــانِ
ذى شـــنب كالـــبرد، كالدرر، ... كالحَبَـــب، جُـــمانِ
بى غـــصن بان نـــضر . ... يـــسبيك منـــه الهيـــفُ
يرتـــع فيـــه النظـــر، ... فزهـــره يقتطـــف
الخـــدُّ منـــه خفـــر، ... والجـــسم منـــه تـــرف

---

(١) فراش: فى المنهل الصافى.
(٢) وهو: سقط في النجوم الزاهرة.
(٣) من: فى المنهل الصافى ، النجوم الزاهرة .
(٤) وما نال: فى المنهل الصافى.
(٥) طيب: فى المنهل الصافى.
(٦) يغض: فى المنهل الصافى.
(٧) إضافة من المنهل الصافي.
(٨) ينظر ما ورد من هذه الموشحة فى كل من المنهل الصافى ٣٢٦/٨، النجوم الزاهرة ٢٢٢/٩.

[قـــــد جـــــاءنا يعتـــــذر عـــــذارُه المنعطـــــف][1]

[٣٨٤] ثم التـوى كالـزَّرّدِ معبقـرى معقـــــربى ريحــــانى

فى مُـذْهَبٍ مُـوَرَّدٍ مـدَ نَّـرِ مُكَتِّـــب سَوْسَـــانِ

ظـــــبى له مرتـــــشف، كالسلــــسبيل البـــــاردِ

غـــصن نقـــا ينعطـــف، مـــن لـــين قَـــدٌ مائـــد

بـــدر عـــلاه ســـدف، مـــن ليـــل شَـــعْرٍ وارد

مُقرطـــــق مـــــشنف يختـــــال فى القلائـــــد

بـــين اللـــوى وثهمـــد كجـــؤذر فى ربـــــرب، غَـــــزْلان

فى[2]كثـــب ذى جيـــد، ذى حـــورٍ ذى هـــدب وســـنان

أمَـــا وحـــلى جيـــده ورنـــــة الخلاخـــــل

والـــضَّمُّ مـــن بـــروده، قَـــدُّ قـــضيبٌ مائـــل

والـــورد فى[3] خـــدوده، إذ نَمَّ فى الغلائـــــل

لا كنـــت فى[4] صـــدوده، مـــستمعا[5] لعـــاذِل

نار الجـــوى لا تخمـــدى، واســـتعرى، وكـــذّبى، ســـلوانى

---

(١) إضافة من أعيان العصر ٦٦٨/٣ لاستكمال المعنى.

(٢) من : في أعيان العصر ٦٦٨/٣.

(٣) من : في أعيان العصر.

(٤) من : في أعيان العصر.

(٥) متصلاً : في أعيان العصر

وانسكبى، واطردى، وانهمرى		كالسحب، أجفانى
مولاى جفنى ساهر،		مؤرقٌ كما ترى
فلا خيال زائر،		يَطرُقنى ولا كرى
إنى عليك صابر،		فما جزاءُ مَنْ صَبِرا
إن سَحَّ دمعى الهامرُ		فلا تلمه إن جَرى
وجال[١] الهوى فى خلدى، ومضمرى		أضرَّ بى، كتمانى
[٣٨٥] مؤنبتى اتئدى لا تفترى،		وجنِّبى[٢] عن عان
ان صال بالهجر[٣] وصَدَ		رحت بصيرى محتَدِ[٤]
عنه وإن طال الأمَدْ		إلى ذُرَى محمدِ
وكيف يخشى من قَصَدْ		ملكًا كريم محتَدِ[٥]
الملك[٦] المنصور قد		سما سَمى السؤدَدِ[٧]
ثم استوى بأجرد		ومضمر مقتضب[٨]، يمانى

---

(١) جال : في أعيان العصر.
(٢) مؤنبي اتئد لا تفتر	وجنب : في أعيان العصر.
(٣) إن زاد في الهجر : في أعيان العصر.
(٤) مرتدي : في أعيان العصر.
(٥) عظيم المحتد : في أعيان العصر.
(٦) فالملك : في أعيان العصر.
(٧) سما سماء الفرقد : في أعيان العصر.
(٨) مضمر ومقتضب : في أعيان العصر.

ذى شُطَبٍ مهنّدِ وسَمْهرى مضربى[1]، مُرّان

ملك علت همّاته من فوق هام المُشتَرى

وبخّلت راحاته سَحّ السّحاب المطرِ

وعوّدت رياتُه بمحكّمات السُّوَرِ

بدرٌ بدت هالاته مثل الصباح المُسفِر

تحت لواء[2] منعقد بالظفر فى موكب، فرسانِ

كالشهب فى الأسعد، والأقمر فى عذب تيجان

يا ملكا دون الورَى تخطبه[3] الممالكُ

ومالكًا إذا سَرَى تحرسه[4] الملائك.

بعض عطاك هل تُرَى جادت به البرامك

فاستجلها من عُمرا ثغر سناها ضاحك

لا تُحْتَوى كالشهد، كالسُّكَّرى، كالضرب، معانى

كالسحب كالعسجدِ، كالجوهرِ من حَلَبى، كتانى[5]

(١) مضطرب : في أعيان العصر.

(٢) لوى : في أعيان العصر.

(٣) تخبطه : في أعيان العصر.

(٤) تحجبه : في أعيان العصر.

(٥) ينظر فوات الوفيات ١٤٩/٣-١٥٠، أعيان العصر ٦٦٧/٣-٣٣٩.

[٣٨٦] وله:

ظهـرت دلائـل حُسنه فى خـده		ورد جـنى تحـت آس أخـضرى
طلـب انتظـار أطرافـه فى قتلـتى		وبغـير كـسر جفونـه لم ينـصرى

وله:

تختـال مثـل قـضيب		يمـيس بـين الحـدائق
تركيـةٌ أوقفتـنى		جفونهـا فى مـضايق

- **الأمير بدر الدين بكتوت[(١)]، الذى كان متولى ثغر الإسكندرية[(٢)].**

توفى معزولاً فى ثانى عشر[(٣)] رجب بالقاهرة، بعد أن نُكب وصودر.

- **الأمير شمس الدين سنقر[(٤)] جاه الظاهرى.**

توفى فيها[(٥)] بدمشق.

- **الأمير شجاع الدين يونس[(٦)] النقيب بعسكر الشام.**

توفى[(٧)] فى هذه السنة[(٨)].

---

(١) وله أيضا ترجمة فى : تاريخ البرزالى ٣٣/٤ رقم ٥٥، نهاية الأرب ١٩٥/٣٢، تذكرة النبيه ٤٠/٢، البداية والنهاية ١١٧/١٨، السلوك ١١١/٢، الدرر الكامنة ٢٢/٢ رقم ١٣١٦ ، النجوم الزاهرة ٩/ ٢١٧ .
(٢) بكتوت الخازندار ، ثم أمير شكار ، ثم نائب السلطنة بثغر الإسكندرية : فى النجوم الزاهرة ٩/ ٢١٧ .
(٣) فى ثامن عشرين: فى نهاية الأرب ١٩٥/٣٢، ثامن عشر: فى السلوك ١١٣/٢.
(٤) وله أيضا ترجمة فى : تاريخ البرزالى ٥٠/٤ رقم ٩٥، نهاية الأرب ١٩٥/٣٢، السلوك ٢/ ١١٣ ، الدرر الكامنة ٢٧١/٢ رقم ١٨٩٤، وورد : سنقر شاه : في تاريخ البرزالي، والدرر الكامنة.
(٥) يوم الاثنين ثانى ذى الحجة: فى تاريخ البرزالى، ثامن ذى القعدة: فى نهاية الأرب ١٩٥/٣٢.
(٦) وله أيضا ترجمة فى: تاريخ البرزالي ٤٤/٢ رقم ٢٨، نهاية الأرب ١٩٥/٣٢، وفيه : شجاع الدين يوسف.
(٧) فى يوم الثلاثاء رابع عشر جمادى الأولى: فى تاريخ البرزالى ٢٢/٤.
(٨) ذكر لى أن مولده سنة ٦١٣هـ بدنيسر: فى تاريخ البرزالى ٢٢/٤.

• **الأمير ناصر الدين محمد[١] بن عماد الدين حسن بن النشائى.**

كان أحد الأمراء الطبلخانات، وهو حاكم البندق، ولى ذلك بعد سيف الدين [بلغاق][٢].

مات بدمشق فى العشر الأخير من رمضان.

• **الأمير اسندمر[٣].**

• **والأمير بتخاص[٤].**

توفيا فى ذى القعدة فى السجن بقلعة الكرك.

• **الملك المنصور غازى بن المظفر قرا أرسلان الأرتقى.**

مات فى هذه السنة، والأصح أنه مات فى السنة الآتية على ما نذكره إن شاء الله تعالى[٥].

---

(١) وله أيضًا ترجمة في : البداية والنهاية ١١٨/١٨، الدرر الكامنة ٤٦/٤ رقم ٣٦٥٣.

(٢) بلقاق : في الأصل.

وهو : بلغاق بن كنجك بن بار تمش الخوارزمى، المتوفى سنة ٧٠٩هـ /١٣٠٩م، ينظر الدرر الكامنة ٢٨/٢ رقم ١٣٤٥.

(٣) وله أيضًا ترجمة فى : تاريخ البرزالي ٤٨/٤ رقم ٩٠، الوافى بالوفيات ٢٤٨/٩ رقم ٤١٥٦، الدرر الكامنة ٤١٤/١ رقم ٩٨٨، المنهل الصافى ٤٤٣/٢ رقم ٤٦٥.

(٤) وله أيضًا ترجمة فى : تاريخ البرزالي ٤٨/٤ رقم ٩١، الدرر الكامنة ٥/٢ رقم ١٢٧٦، المنهل الصافى ٢٣٧/٣ رقم ٦٤٠.

(٥) أجمعت المصادر المتداولة على أن وفاة الملك المنصور غازى بن المظفر قرا أرسلان كانت سنة ٧١٢ هـ، إلا أن ابن حبيب ذكر: رأيت بخط الشيخ صفى الحلى ما يدل على وفاته سنة إحدى عشرة، ولذا ذكر وفاته فى السنتين ٧١١، ٧١٢ فى كل من درة الأسلاك ، وتذكرة النبيه، وقد حذا العينى حذوه فذكر وفاته فى السنتين، ينظر ما يلى فى وفيات سنة ٧١٢هـ.

فصل فيما وقع من الحوادث

فى السنة الثانية عشر بعد السبعمائة(*)

[٣٨٧] استهلت هذه السنة والخليفة والسلطان هما هما.

ونائب مصر الأمير ركن الدين بيبرس صاحب التاريخ ، والوزير أمين الملك.

ونائب الشام الأمير جمال الدين أقوش(١) [نائب](٢) الكرك .

ونائب حلب الأمير سودى .

ونائب طرابلس الأمير سيف الدين تمر الساقى .

ونائب حمص الأمير بيبرس العلائى .

ونائب صفد الأمير بهادر آص .

ذكر مَنْ وَلِى وظيفة ومَنْ قُطع

وفيها تولى الأمير سيف الدين دنكز(٣) نيابة الشام، فطلبه السلطان وقال: اذهب إلى دمشق نائبًا وتوص بأهلها، فخرج وسار إلى دمشق، ولما علم أمراء دمشق بقدومه ركبوا إلى ملتقاه، ولم يبق فى دمشق كبير ولا صغير حتى خرج للتفرج، وكان يومًا عظيمًا أُشعلت فيه الشموع، ودُقت الطبول، وغنّت المغانى، وفرحت الناس فرحا عظيما، ونثروا عليه الدراهم والدنانير.

(*) يوافق أولها ٩ مايو ١٣١٢م.

(١) إلى حين عزل وقُبض عليه، وأُخلع على الأمير سيف الدين تنكز الحسامى الناصرى، يوم الجمعة سادس شهر ربيع الآخر بنيابة دمشق: فى كنز الدرر ٩/٢٤٢- ٢٤٣، وينظر ما يلى.

(٢) ونائب : فى الأصل والتصويب يتفق مع السياق.

(٣) دنكز= تنكز، وهو : الأمير تنكز بن عبدالله الحسامى الناصرى، المتوفى سنة ٧٤١هـ/١٣٤٠م، ينظر الوافى بالوفيات ١٠/٤٢٠ رقم ٤٩٢٦، المنهل الصافى ٤/١٥٦ رقم ٧٩٧.

وبسطوا تحت [حوافر فرسه][١] شقق الحرير حتى نزل فى دار السعادة.

وقُرِئ كتاب السلطان والتقليد على الناس، وطيب قلوبهم، ونادى فى البلد بكشف المظالم وإظهار العدل، وفرحت به الدماشقة، وطلب والى المدينة، وكان جمال الدين والى الرحبى، وقال: أقسم بالله العظيم، أن أى من ظهر على [مماليكى][٢] [٣٨٨] وحاشيتى أن أحدًا منهم شرب خمرًا ولم تُعلمنى بذلك وسَّطْتُك فى سوق الخيل.

واتفق أنهم أحضروا بين يديه جنديًا يُقال له: عثمان بن صبرة، وقد كان [شاربًا][٣]، وخرج فضربه أربعمائة دبوس، فقال له بعض الأمراء: لقد جاوزت الحد، قال: هذا حدى، فمن أراد يشرب فقد عرف الحد، ثم إنه طلب الحُجَّاب والنُّقباء وقال لهم: قولوا للأمراء إن السلطان قد رسم أن من شرب خمرًا ضربه هذا الضرب الذى رأيتموه، فإن كان أميرا أعلم بحاله إلى السلطان، وهم يعرفون من هو، فليحفظوا أرواحهم.

وقال ابن كثير: فوض السلطان نيابة دمشق للأمير دنكز بن عبدالله الناصرى، فتوجه إليها ودخلها يوم الخميس العشرين من ربيع الآخر، وذلك عوضًا عن الأمير جمال الدين أقوش نائب الكرك، وكان السلطان أرسل إليه وطلبه فركب البريدى من ساعته إلى مصر، وتكلم فى نيابة الغيبة الأمير قرا لاجين، ولما وصل جمال الدين المذكور إلى مصر قُبض عليه[٤].

وقال النويرى: بلغ السلطان عن جماعة من الأمراء أنهم كانوا متفقين مع قراسنقر والأفرم، فاستدعى أقوش الأشرفى نائب دمشق وأكرمه، ولما قصد العود إلى دمشق بلغه عنه ما كرهه فقبض عليه [٣٨٩] وعلى جماعة من الأمراء، وهم: سنقر [الكمالى][٥]

---

(١) حوافر سه: فى الأصل والتصويب يتفق مع السياق.

(٢) المماليكى: فى الأصل والتصويب يتفق مع السياق.

(٣) ضارب: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق التالى

(٤) ينظر البداية والنهاية ١٢٢/١٨.

(٥) الكمال: فى الأصل والتصويب من نهاية الأرب ١٩٩/٣٢.

الحاجب، وعلاء الدين مغلطاى المسعودى، وشمس الدين الدكز[(١)] الأشرفى، وحسام الدين لاجين الجاشنكير[(٢)]، [وشمس الدين][(٣)] باينجار، ولاجين العمرى، وركن الدين بيبرس صاحب التاريخ ونائب السلطان[(٤)].

وقال بيبرس فى تاريخه: وقُبض عَلَىّ أيضًا عند طلوعنا من الموكب يوم الاثنين الثانى[(٥)] من ربيع الآخر، فحُبست بالقلعة نحوا من شهرين، ثم نُقلتُ إلى الكرك[(٦)].

وفى ربيع الآخر أيضًا مُسك بيبرس العلائى نائب حمص، وبيبرس المجنون، وطوغان، وجماعة آخرون من الأمراء[(٧)] وسيروا إلى الكرك فاعتُقلوا بها[(٨)].

قلت: قد ذكرنا على مسك بعضهم فى السنة الماضية بطريق الاستطراد، ولا يظن أنه مكرر.

وذكر بعض المؤرخين: أن الأمير سودى تولى نيابة حلب فى هذه السنة[(٩)]، وأنه لما وصل إلى حلب رآها جَافلة والناس فى هرج عظيم، وقد هرب أكثر الفلاحين من القرى، فنادى فى الناس بالأمان، فسكن روع الناس، وخرج بنفسه من حلب، ودار فى حلب، ورآه الفلاحون وهو راكب بالعساكر، فاطمأنت خواطرهم، ثم سار بعسكر حلب، ونزل فى مرج دابق وأظهر العدل بين الناس، وكتب إلى سائر القلاع وأعلمهم بقدومه.

---

(١) الدكن: فى نهاية الأرب ١٩٩/٣٢.

(٢) المعروف بزيرباج أمير مائة مقدم ألف: فى كنز الدرر ٢٤٣/٩.

(٣) سيف الدين: فى الأصل، والتصويب من نهاية الأرب ١٩٩/٣٢.

(٤) ينظر نهاية الأرب ١٩٩/٣٢ حيث ينقل العينى بتصرف.

(٥) ثالث شهر ربيع الآخر: فى نهاية الأرب ١٩٩/٣٢.

(٦) لم يرد هذا الخبر فى المطبوع من كل من زبده الفكرة، والتحفة الملوكية.

(٧) ستة فى نهار واحد: فى البداية والنهاية ١٢١/١٨.

(٨) البداية والنهاية ١٢١/١٨.

(٩) نهاية الأرب ١٩٧/٣٢.

ذكر تولية أرغون الدوادار نيابة [٣٩٠] السلطنة بالديار المصرية

قال ابن كثير: وفى يوم الاثنين مستهل جمادى الأولى فُوضت النيابة بمصر للأمير سيف الدين أرغون الدوادار مملوك السلطان، وفوضت نيابة صفد لسيف الدين بلبان طُرْنَا أمير جاندار، عوضا عن الأمير بهادر آص، ورجع بهادر إلى دمشق [أميرًا][1] على عادته[2].

وفى عاشر ربيع الأول باشر الحكم للحنابلة بمصر القاضى تقى الدين أحمد بن [المعز][3] عمر بن عبدالله بن عوض القدسى، وهو ابن بنت الشيخ شمس الدين ابن العماد أول قضاة الحنابلة[4].

ذكر نزول التتار الرحبة وقصدهم أخذ بلاد الشام

وكان السبب [فى][5] ذلك سعى الأمراء الذين هربوا من السلطان والتجأوا بخربندا والتتار، وهم: الأفرم، وقراسنقر، والزردكاش، وبلبان الدمشقى، وغيرهم كما ذكرنا فيما مضى مفصلاً[6].

ولما استقر هؤلاء الأمراء هناك، قالت أمراء المغل يومًا من الأيام لخربندا: والله، لقد رَفعت منزلة هؤلاء الذين لو كان فيهم خير لما خامروا على أستاذهم الذى اشترى بعضهم واستخدم بعضهم ورباهم وخولهم فى النعم والحكم وصرفهم فى بلاده وبين رعاياه، فهذا كان جزاؤه منهم حيث لم يرعوا حقه ولا حفظوا حرمته، فإذا لم يكن لهؤلاء خير

---

(١) امرا: فى الأصل والتصويب يتفق مع السياق.

(٢) لم يرد هذا النص فى المطبوع من البداية والنهاية.

(٣) العز: فى الأصل والتصويب من البداية والنهاية ١٨/١٢١.

(٤) ينظر البداية والنهاية ١٨/١٢١.

(٥) إضافة يقتضيها السياق.

(٦) ينظر ما سبق .

[٣٩١] للذى فعل معهم هذا الفعل فما يكون لك، وإش يُرجى منهم الخير؟ فقال لهم خربندا: أخطأتم فى هذا المقال، وحملكم الحسد والحقد، وهؤلاء استجاروا بنا والتجأوا إلينا، وليس من المروءة نخيبهم، فيا أمراء، لقد حضرت حكاية عجيبة اسمعوا لها، وهى أن موسى بن عمران عليه السلام كان يومًا من الأيام جالسًا، وإذا بباز قد [طارد][(١)] حمامة يريد قبضها، فاستجارت بموسى عليه السلام ودخلت تحت ذيله، فأتى الباز وجلس بحذاء موسى عليه السلام، وقال له: يا نبى الله، سلم إلىّ صيدى وإلا أشكوك غدا إلى الله تعالى عز وجل، فتحير موسى عليه السلام، وقال إن الله تعالى قد قال: من أجار خائفًا كان جزاؤه الجنة، ومن أشبع جائعًا كان جزاؤه الجنة، وقد جاءنى جائع وخائف، ورِضَى الواحد منهما هلاك الآخر، فكيف أصنع؟ ثم قال للباز: هل لك أن تتبعنى إلى منزلى لأذبح لك شاة من الغنم تأكل لحمها وتشرب دمها، فقال له: أنا ما آكل إلا مِنْ صَيدى ولا ألتفت إلى غيره، ثم قال موسى للحمامة: هل لك أن تذهبى إلى الباز ليأكلك وأضمن لك على الله عز وجل الجنة، فقالت الحمامة: يا موسى كيف تكون حليمًا عند غضب غيرك، لأى شئ هربت من فرعون حين أراد قتلك؟ لم لا وقفت له حتى كان قتلك، وكنت [٣٩٢] من أهل الجنة؟ فكيف يهون عليك ما يعز علىّ؟ وكذا أنتم، فعلى كل حال، هؤلاء غرماء وقد التجأوا إلىّ ولابد لى [من أن][(٢)] أتبعهم إلى كل ما يرضيهم.

ولما سمع المغل كلام خِربندا ورأوه منبسطًا معهم من غير عادة ويدافع عنهم، تركوا التعرض بالكلام، ولم يعد أحد منهم يذكرهم إلا بخير.

ثم إن يومًا من الأيام جمع خربندا الأمراء للمشورة فى العبور إلى الشام، فتكلم كل واحد من أمراء المغل بنوع من الحديث، فقال خربندا لقراسنقر والأفرم: ما لكم [لا][(٣)] تتحدثون؟ فقال قراسنقر: أيد الله الخان، هؤلاء الأمراء أقدم منا، ونحن أناس غرباء فما

(١) طرد: فى الأصل.

(٢) إضافة تتفق مع السياق، ينظر ما يلي من الحديث.

(٣) مما: فى الأصل والتصويب يتفق مع السياق.

يمكننا الكلام، فقال خربندا: نحن ما نعبر الشام إلا لأجلكم ولأجل أهلكم وأولادكم، فقام قراسنقر وقبل الأرض، وكذا قام معه بقية أصحابه من الأمراء ودعوا له، فانقضى ذلك النهار.

ثم بعد ذلك طلب قراسنقر الحضور بين يدى خربندا فى الخلوة، فأمر بإحضاره، فدخل عليه وقبل الأرض بين يديه، فأمره بالجلوس فجلس، ثم قال له: ما يقول الأمير؟ فقال قراسنقر: أطال الله عمر الخان، أنتم ترسمون لنا بالحديث فى مجالس الأمراء، وكل حديث نتحدث به فيها يُنقل إلى الملك الناصر أولاً فأولا وقتا فوقتا. فقال خربندا: ومن ينقل [٣٩٣] الكلام من مجلسى؟ فقال: يا مولانا أخبار الملوك تنقل من القصاد والذين يظهرون النصيحة، ألا تنظر إلى هؤلاء الفداوية كيف سبقونا إلى تبريز، فإن كان لمولانا نية فى العبور إلى الشام يكون بمشورتنا بحيث لا يقف عليها أحد، ونتجهز ونروح وندهم، ولا يدرى أحد بذلك، فقال له: كيف العمل؟ فقال غدًا إذا حضرت مع الأمراء اطلبنى إليك واخلع علىّ وعلى مَنْ معى من الأمراء، وقل لنا: يا أمراء خليتم أهلكم وأولادكم وبلادكم وإنا إن شاء الله تعالى ما أخيب سعيكم، ولكن ما فى هذه السنة عبور إلى الشام، فإن شاء الله فى السنة الآتية، ثم قل: أنا أوليكم بلاد خراسان فاستقلوا بها، فتروح الأخبار إلى الملك الناصر فيمهل فى أمرنا ويغفل، ثم لا يسمع إلا ونحن فى بلاده، فقال خربندا: هذا رأى سديد.

ثم إنه طلب جميع الأمراء، ومدَّ لهم سماطًا هائلاً، فأكلوا، ولما فرغوا خلع على قراسنقر وأصحابه، ثم قال لهم: يا أمراء خذوا لكم بلادا في خراسان واستقلوا بها، فقبلوا الأرض ودعوا له، فتحدث الناس بأن خربندا أعطى لأمراء الشام بلادًا من أعمال خراسان، واشتاع الخبر بذلك، ثم إن قراسنقر وجوبان، نائب خربندا، يدخلان عليه فى الخلوة ويتحدثون فى أمر الشام.

[٣٩٤] وأرسل خربندا إلى جميع بلاده بأن تُحمل إليه الخيل والبغال، ويُجمع الشعير والأغنام، ثم أنهم اتفقوا على أنهم يعبرون إلى الشام فى ثلاث فرق، كل فرقة

خمسون ألفا: فرقة من ناحية الروم، وفرقة من ناحية الرحبة، وفرقة من ناحية البيرة، ثم سَيَّر خربندا إلى قزان جُق الذى هو فى الروم من جهته، فقال له: قرر أمر الروم حتى نجهزكم إلى الشام.

قال الراوى: ولما وصل القاصد إلى قزان جُق وبَلَّغه ما أمر به خربندا طلب أرنجى وتشاور معه فى هذا الأمر، وقال له: متى خليتك فى الروم وخرجت بالعسكر إلى ناحية الشام خرجت عليك التركمان وأخذوا منك البلاد، وذلك لأنه قد بلغنى أن مقدم [التركمان][1] اليوم ابن إيلامين يكاتب ابن قرمان، وقد عولت أن أمسكه قبل رواحى لتستقر البلاد، فاتفقوا على أنهم يبعثون خلفه فإذا حضر قبضوا عليه.

وكان جميع أمراء قازان جق يحبون ابن إيلامين، فأرسلوا إليه وأعلموه فى الباطن بأن قازان جق يريد أن يمسكك، فعند ذلك جمع أمراءه وأمرهم بالرحيل فرحلوا، وهم مقدار خمسين ألف بيت يطلبون ابن قرمان.

فلما سمع قازان جق برحيله ركب خلفه بعشرين ألف فارس ولم يلحقهم، وقد عبروا الدربندات.

وأما خربندا فإنه جهز جميع أشغاله وجمع العساكر [٣٩٥] من جميع الجهات، ولم يخلِّ فى بلاده أحدًا حتى طلبه، فجهز جيشًا عظيمًا، فقال له جوبان: إن هذا الجيش ما تحمله الأرض ينزل فيها، فقال له خربندا: قد عولت إنى أفرق الجيش ثلاث فرق، وما نجتمع إلا فى سنجار أو فى المَوصل، فقال: هذا هو الرأى.

وكانت عُدة جيشه فى ذلك الوقت مائة وخمسين ألفا، فأخذ منه قطعة وسلمها إلى جوبان، وقال له: خذ قراسنقر وروح على أخلاط وبدليس إلى البشيرية، وأنزل أنا على شهروز وأخرج إلى الموصل، ويكون اجتماعنا على الرحبة، ثم أرسل خربندا قاصدًا إلى الروم، فأخذ قازان جق عسكر الروم ونزل إلى الدربند إلى ناحية حلب، ولاقاهم

(١) التركما: فى الأصل.

التركمان مع ابن قرمان [فوقعت][١] بينهم حرب [شديدة][٢]، فآخر الأمر انكسر قازان جق وتشتت شمله، وقُتل قزان جق، فجاء الخبر بذلك إلى خربندا وأنهم معولون إلى أخذ بلاد الروم.

ولما سمع خربندا ذلك ضرب يده على يد، وقال: الله أكبر، كل ما نعزم على العبور إلى بلاد الشام يعرض أمر يعوقنا عن ذلك، وهذا من سعد الملك الناصر.

ثم إنه طلب جوبان وقراسنقر والأفرم والزردكاش وبلبان الدمشقى والبيسرى وأمراء المغل، وأحضروا القاصد الذى أتى بخبر قازان جق، فقال خربندا: اسمعوا [٣٩٦] وانظروا ما قد نزل بقازان جق وأصحابه، فكيف العمل؟ ونحن قد جهزنا الجيش إلى الشام، وهؤلاء التركمان قد خرجت على عسكر الروم واستطالوا عليهم.

فقال له بعض الأمراء: خلى التركمان وغيرهم وسيروا إلى الشام، فإذا فتحت الشام دلت[٣] البلاد للخان.

فقال جوبان: والله هذا رأى فاسد، من لم ينظر فى عواقب الأمور يقع فى المحذور، وربما يكون الملك الناصر قد اتفق مع التركمان وتواعد معهم على أنهم يأتون من ورائنا إذا قابلنا عسكر الناصر ونبقى بين العسكرين.

وتقدم قراسنقر أيضًا وقال: إن الأكراد فى جبل هكار كلهم مع الملك الناصر، فنخاف أيضا منهم أن ينزلوا من الجبال على بيوتنا فينهبوها وتتخبط البلاد، وما نعلم هل يكون النصر لنا أم علينا.

فقال خربندا: ولا يمكن تعطيل حركتنا من بعد أن سُمع فى البلاد أنا قد تجهزنا فيطمع كل أحد فينا.

---

(١) فوقع: فى الأصل.

(٢) شديد: فى الأصل.

(٣) دلت: أى دانت.

فتقدم فى ذلك الوقت الأمير الزردكاش وقبّل الأرض، فسأله خربندا عن مقصوده، فقال: أطال الله عمر الخان، المملوك أخبر الناس بالتركمان، وقد جاورهم المملوك عشر سنين، فإن رسم الخان أن يعطينى ثلاثين ألفًا من العسكر آخذهم وأسير بهم إلى الروم، وأخرب بلاد التركمان، وأقتل رجالهم، وأنهب أموالهم، ولو أن عسكرهم مائتا ألف فارس، فإذا كسرتهم آخذ [٣٩٧] الجيش وأنزل إلى حلب.

فلما سمع خربندا بذلك فرح فرحًا شديدًا، وفى الحال جهز معه ثلاثين ألف فارس، وسيره إلى الروم، ثم ركب خربندا وسار يطلب شهروز، وقام جوبان ومعه قراسنقر والجيش الذى عينه خربندا معه وساروا يطلبون ديار بكر.

وأما الأفرم فإنه لعب عليه جرحه، الذى كان الفداوى جرحه على ما ذكرنا[1]، فأمر خربندا أن يقيم فى تبريز، فقبل الأرض، وقال: قتلى أهون عَلىَّ من المقام، فأشتهى أن لا تقطعنى من العسكر، فقال خربندا: ما قلت لك هذا إلا شفقة عليك، ثم أمر بأن يحملوه معهم فى محفة، فحملوه كما أمر.

ولما وصل خربندا إلى شهروز سمعت بذلك أكابر الدولة من الأكراد مثل: أمير على، وشمس الدين، والشهروزى، والغرز، وكان هؤلاء أكبر مماليك الأكراد، فقال لهم الغرز: اعلموا أن خربندا جاء يريد العبور إلى بلادنا، ولا غنى لنا عن النزول إليه، لأنكم ما تقدرون على العصيان عليه، وكان خربندا يهادى الأكراد، ويهاديهم كل وقت.

قال الراوى: فلما سمع الأكراد كلام الغرز قالوا له: صدقت، لكن أمرنا كله للشيخ شرف الدين بن الشيخ عدى.

فبينما هم فى هذا الحديث إذ وصل [٣٩٨] رسول خربندا إلى الغرز فطلبه، فجهز الغرز شيئًا كثيرًا من التقادم لخربندا، وأرسل ابنه الأمير على إلى الشيخ يشاوره فى أمر المسير إلى خربندا، فرد عليه الشيخ يقول: إياك والرواح إليه، فإن سمعتم منى تحصنوا

---

(١) ينظر ما سبق .

فى جبالكم، فوالله، أى وقت ظفر بكم ما يخلى أحدًا منكم.

فلما وصل ابن الغرز إلى أبيه بهذا الحديث من الشيخ، قالت الأكراد: صدق الشيخ فيما قال، فقال الغرز: لا تفعلوا، فإنكم متى عصيتم يخرب البلاد والقرى التى فى لحف الجبال كلها.

ثم إن الغرز لعب بعقول بعض الرجال من الأكراد، وأخذ معه الحسام الشهروزى، ونزل إلى خربندا، وقدم ما معه من التقادم لخربندا، فقال خربندا: وأين الشيخ؟ فقبل الغرز الأرض وقال: أطال الله عمر الخان، إن الشيخ أى وقت نزل من الجبل يقع السيف بين الأكراد فيقتل بعضهم بعضا لأنهم ما لهم عقول، ولولا الشيخ بينهم لكان بينهم كل وقت حرب وفساد، فسكت خربندا على مضض منه، لكن يريد أن يلاطفهم رجاء أن ينزل الشيخ ويقبض على الجميع.

فنظر الغرز وإذا بالأفرم والزردكاش مع خربندا فى منزلة عالية بالقرب منه، فسأل عنهما الغرز، فقال له خربندا: هؤلاء تَجَبَّر عليهم الملك الناصر، ونحن سائرون إلى إعانتهم لأجل [٣٩٩] حمية الإسلام، ويجب على كل مسلم مساعدتهم لأنهم قد فارقوا أولادهم وبلادهم وقد ذلوا بعد العز، ثم قال له: يا غرز الدين أريد منك أن تركب معى فى عشرة آلاف نفس من الأكراد، وعندى كل ما تريد من الدنيا، ويكون لك يد بيضاء عندى.

فقبل غرز الأرض وقال: أيها الملك، طب نفسا وقر عينا، فلو طلبت منى عشرين ألفا لكنت قادرا عليها، لكن أريد من الخان أمرًا تفعله، فقال: وما هو؟ فقال: إن الشيخ رجل جليل القدر، وجميع الأكراد يسمعون منه، وما يخلى لنا رأيا فى أمر(١) نفعله، ونحن فى تعب معه فى هذا الجبل إلى غاية ما يكون.

وكان الغرز صاحب مكر وخديعة، فتحيل بهذا الكلام، ولما سمع خربندا بذلك فرح، وبقى فى النار من جهة الشيخ، ثم قال له: فماذا يكون العمل؟ فقال: تخلصنا منه،

---

(١) فى أمر: فى هامش الأصل و منبه على موضها بالمتن.

فقال خربندا: وكيف الوصول إليه؟ فو الله، لو وقع فى يدى ما خليته يشم الهواء، فقال الغرز: أنا أجيبه بلا تعب ولا نصب. قال: وكيف تعمل؟ فقال تجهز معى فى هذه الساعة رسولاً من عندك ومعه خلعة للشيخ وبعض هدية، فإذا وصلنا إليه نحدثه بما رأيت منك من المحبة والمودة والنية الحسنة، وأطمعه منك بكل لما يريد، فإذا نزل إليك لا تخله يعيش ساعة واحدة، [٤٠٠] وأى وقت قتلته بقيت الأكراد قدامك مثل الغنم.

ولما سمع بذلك خربندا، ظن أنه صحيح، ففى الحال أمر أن يجهز للشيخ وأصحابه عشرة خُلع مذهبة، وكتب له توقيع بالموصل، وخلع على الغرز خُلعة سَنية، فقال له: إن جئت لى بالشيخ أعطيتك جبل هكار والموصل وأعمالها، فقال الغرز: لا تعرف هذا إلا منى، لكن بشرط : أنه إذا وقع لك تقتله ولا تستبقيه.

وكان خربندا كلما سمع بهذا وتحريض الغرز على قتل الشيخ كان يفرح بالوقوع بينهم، ويقول فى خاطره: إذا قبضت على الشيخ والغرز أجوز إلى الجبل وأُهلك كلَّ من فيه من الأكراد، ثم جهز مع الغرز رسولاً من المغل أميرًا، وقال له: سر إلى الشيخ.

وكان عنده أمراء الأكراد فأراد أن [يخليهم][1] عنده، فقال الغرز: أى وقت بقى عندك منهم أحد ينكر الشيخ علينا[2] فى الأمر الذى نريده، فالمصلحة أن تطلب الأمراء وتخلع عليهم، وتأمر لكل واحد منهم أن يأتيك بألف فارس من عشيرته وقومه، قال خربندا: فإن كانوا يعصون علينا إذا راحوا وطلعوا إلى الجبل، فقال الغرز: ضمانهم علىّ بالطاعة، فطلب خربندا الحسَام الشهروزى وجميع أمراء الأكراد فخلع عليهم، وطلب من كل واحد منهم بأن يأتيه ألف فارس [٤٠١] ونفقتهم علىّ.

فركب الغرز وهو لا يصدق بالسلامة من خربندا، وركب معه الرسول بمائة فارس، وساروا يطلبوا الجبل، فلما جاوزوا دربند الجبل، قال الحسام الشهروزى للغرز: إش هذا التدبير الذى دبرت؟ فقال: والله لولا هذا التدبير لكنا شربنا كأس الحمام،

(١) يخليهم: فى الأصل وهو تصحيف.

(٢) إذا راحوا وطلعوا إلى الجبل: فى الأصل، ومشطوب عليها، فهو سبق نظر من الناسخ، ينظر ما يلى.

فمكرى وخداعى هو الذى خلصكم من شباك البلايا، وقد سلمتم ووصلتم إلى الجبل فمن هاهنا افتصلوا بأرواحكم، فقالوا: نروح كلنا إلى الشيخ ونأخذ رأيه، لأنه قال لنا لا تنزلوا وما قبلنا منه فنزلنا، فساروا حتى نزلوا على الشيخ.

وكان الشيخ فى قرية تسمى لاكش، فلاقاهم الشيخ، وأنزل الرسول ومن معه فى مكان أخلاه لهم، فاجتمع بالغرز والأمراء، فسألهم عما لقوا من خربندا، فحدثه الغرز وقال: لولا عملت عليه حيلة ما سلم منا أحد، ثم أحضر الخُلَع والحَوائص والخيل، وذكر له ما قال خربندا عنه، وقال له أى وقت نزلت إليه ما يخلى من الأكراد لا كبيرًا ولا صغيرًا، وأخبره بأنه نازل إلى الشام وقد طلب منى عشرة آلاف فارس، فتبسم الشيخ وقال: سيرهم يا غرز حتى يغزون فى المسلمين ويكون الثواب لك.

ثم إن الأكراد حلفوا للشيخ أنهم ممتثلون أمره وسامعون [٤٠٢] قوله وأنهم ما يموتون إلا بين يديه، فقال لهم: يا جماعة، اعلموا أن خربندا نازل إلى الشام، وقد أطمعه الأفرم وقرا سنقر فى بلاد الشام، وعلى كل حال التتار أطمع الناس، وأنا، أقسم بالله العظيم، لو ملكوا الشام ما خلوا الأفرم ولا قراسنقر ولا غيرهما، واعلموا يا أمراء إذا لم ننصر إخواننا فى الإسلام نروح مع الكفرة اللئام، فإذا نصرناهم فأين نروح من الله عز وجل، ثم إنهم اتفقوا بأن يمسكوا الرسول ومَنْ معه، فقال الشيخ: ما هو مصلحة، بل نرده عنا.

فلما أصبح الشيخ طلب الرسول، وعنده أمراء الأكراد وبين يديه أكثر من ألفى كردى بأيديهم السيوف، فلما حضر الرسول، لم يقم له الشيخ ولا قال له اقعد، بل قال للترجمان: قل له فيما أتيت؟ قال الرسول: جئت من عند ملك الأرض خربندا بأن تنزل إليه أنت وأصحابك ولك منه ما يسر قلبك، فقال له الشيخ: أنا رجل كبير وشيخ مقيم فى هذه الجبال، ولولا أرد الأكراد عنكم وعن البلاد ما خلوكم تقرون، وأى وقت نزلت من الجبال أكل بعضهم بعضًا، فإذا نزلوا من الجبال أخربوا البلاد وأفسدوا فى العباد، فارجع وأعلم خربندا أننى ما أقدر على النزول إليه، فقال له الرسول: لا تفعل هذا فيكون سبب

هلاك الأكراد [٤٠٣] ويركب إليك خربندا ببعض التوامين فلا تقدر حينئذ على دفعهم .

فلما سمع الشيخ بذلك قال له: اخسأ يا كلب، ومَنْ خربندا من الكلاب؟ ويلكم(١)، أخرجوه عنى، فأخرجوه من عنده، فلما خرج طلب الغرز، فخرج إليه وحوله جماعة من الأكراد، وقال له: مالك سَكتَّ والشيخ قد أخرق بى هذا الإخراق العظيم؟ فقال له الغرز: أحمد الله الذى قد أخرجك من عنده سالمًا، ونحن قبل دخولك عنده شفعنا فيك، وإلا كان أمر بضرب عنقك، رح إلى خربندا وقل له يقطع طمعه من الأكراد وجبالها، ويلك، نحن نذهب ونغزو المسلمين؟! فإش هذا الفعل الفاسد؟ فرجع الرسول وهو لا يصدق بالنجاة.

وأما الأكراد فإنهم جفلوا إلى رؤوس الجبال وحصنوا الدربندات وسدوا الطرقات، ووصل الرسول إلى خربندا وأعلمه بأن كل ما فعله الغرز كان مكرًا وخديعة حتى خَلَّص نفسه والأكراد، وأن الشيخ لم يجب إلى الطاعة، وأن الغرز وأصحابه كلهم متفقون على ما يريده الشيخ.

فندم خربندا غاية الندم كيف راح الغرز من يده سالمًا وهو قوام الجبل، ثم سار خربندا حتى نزل على كشاف، وهى قلعة خراب على شط نهر الموصل، وسير القُصَّاد إلى نواب بلاده كلهم [٤٠٤] يطلبهم، وأرسل آخر إلى جوبان يطلبه، وجمع الناس على كشاف.

وحضر جوبان بمن معه، مثل قراسنقر والزردكاش وبلبان الدمشقى والبيسرى، وعمل خربندا مجلسًا عظيما، وجمع الأمراء للمشورة، وأجلس قراسنقر فوق جميع الأمراء وخلع عليه خلعة سنية مكللة بالدر والياقوت وحياصة مجوهرة، ثم قال له: طيب قلبك واشرح صدرك فأنت عندى بمكانة عظيمة، فبكى قراسنقر بكاء شديدا، وبكى معه أصحابه، فقال له خربندا: مم بكاؤك؟ فقال: تذكرت أولادى وتغربت عن أوطانى وأهلى والتجأت إلى جنابك الرفيع وحجابك المنيع، وفى أملى بمواعيدك الحسنة أن أرجع إلى

(١) والكم: فى الأصل.

أهلى وأولادى، وهؤلاء الأكراد قد عصوا عليك، فخطر بخاطرى أنك رجعت عما نويت فى السفر إلى الشام.

قال الراوى: فلما سمع خربندا حصل عنده بعض الانحراف، فقال: أنا أبالى من الأكراد، حتى أرجع عن عزمى؟ وما مكثت إلى هذه الأيام إلا لأجمع أمراء المغل جميعهم وأشاورهم فى ماذا نفعل.

ثم طلب جوبان ودمندار وحسن قطلو وقطلوقيا ورمضان الغزى وسويج الخراسانى وهندو وبلاى وغيرهم، ممن يطول ذكرهم، من أمراء التوامين، وطلب الأفرم وغيره أيضًا، وتشاوروا، فقال جوبان: إن سمعتم منى، هذه السنة [٤٠٥] ما هى سنة نزول الشام، لأن أكثر خيلنا بمرض الطابق[١]، والبلاد جدبة، وليس فيها شئ يؤكل، ونخاف يجرى علينا مثل نوبة مرج الصُّفر[٢]، ونبقى أحدوثة بين الناس.

وتكلم كل واحد بلون، فقال خربندا: كل هذا، ما أسمعه، ثم التفت إلى قراسنقر وكان إلى جانبه، وقال له: قل يا أبى فكلامك مسموع.

فقال قراسنقر: الرأى عندى أن نرحل وننزل على الرحبة ونحاصرها، فإذا سمع الملك الناصر لابد أن يجرد عساكرا من مصر، لأنه رجل حاد لا يصبر، وخيلهم اليوم فى الربيع، ولا يصلون إلينا إلا وقد انقطع أكثرهم، وأما الضعفاء فلا يقدرون أن يتبعوهم أصلاً، ومع هذا فقد قاسوا رملاً، ولا يجيئون إلا وهم هلكى، وعسكرنا مستريح، فننال منهم ما نريد، وإن لم يجئ إلينا أحد فقد أخذنا الرحبة، لأنها لا تحتمل الحصار، وخط نائبها عندى أرسَلَه إلىّ بأنه يسلمها إلينا إذا نزلنا عليها، ثم إذا أخذناها رحلنا إلى حلب وشَتَّيْنَا فى بلادها، فهى عامرة كثيرة الخير والغلات، فيقوى عسكرنا وتسمن خيلنا، وإن لم يخرج الملك الناصر فقد علمنا عجزه فنرحل إلى دمشق ونصيف فيها، ونفرق العساكر فى البقاع وبلاد بعلبك ومرج حمص ومرج برغوث ونستغل بلاد الشام، [٤٠٦] فتقوى

(١) مرض الطابق: من أمراض الخيول، والمقصود به انخلاع الحافر.

(٢) المقصود وقعة شقحب سنة ٧٠٢هـ/١٣٠٢م، ينظر ما سبق بعقد الجمان ٢٣١/٤ وما بعدها.

عسكرنا، وعند دخول الشتاء نروح إلى مصر، وإن أكثر الأمراء بمصر يكاتبوننى.

فلما سمع خربندا بذلك تبسم، وقال: هذا هو الصواب، واتفقوا على هذه المشورة، ثم أخذوا فى إصلاح أمورهم وتجهيز احتياجاتهم، ورحل خربندا من قلعة كشاف فى نصف شعبان المبارك من هذه السنة، وقيل فى التى بعدها، وسار يطلب الرحبة.

ثم تقدم قراسنقر، وقال أيد الله الخان، إن رسمت ترسل قصادًا إلى مصر تأتى لنا بالأخبار، فقال: أفعل ما تريد، فجهز خمسة من العرب من أصحاب[1] سليمان بن مهنا، ومعهم نفرًا من أهل رأس العين، وأعطى لهم جملة من الذهب، ووعد لهم بالخير الكثير إذا فتحو البلاد، وكتب معهم كُتُبا إلى ناس، وقال لهم: إياكم والطرق الجادة فربما يدرون بكم فلا يحصل خير، فقال له واحد منهم، يقال له صُمى بن سالم: علىّ أن أسلك بهم فى طرقات لا يُرى فيها إنس ولا جن، فقال قراسنقر: هذا هو المقصود.

فخرجوا ودخلوا[2] البرارى.

وأما خربندا فإنه سار بمن معه حتى وصل سنجار، ووقعت هجة فى تلك البلاد، وكان هناك جماعة ينصحون المسلمين كتبوا إلى نائب الرحبة، بدر الدين الأزكشى- وكان رجلاً كرديًا- بأن خربندا واصل، فجهز هو أيضًا قصادًا من عنده إلى نائب الشام بأن [٤٠٧] خربندا قد توجه إلى الرحبة، ثم نادى فى الرحبة بمجئ التتار والاجتهاد فى الاحتراز عنهم، وحصّن الرحبة، وادخر فى القلعة شيئًا كثيرًا، وأمر أهل القرى أن لا يخلوا عندهم شيئًا من الحبوبَ فيحولوها إلى مواضع لا تُدرى، وأن يحرقوا الأتبان، ففعلوا ذلك بحيث أن أحدًا لو كان يسير حول الرحبة مسيرة يوم لا يجد شيئًا من الحبوب وغيرها، وكل ما يتجدد الأخبار عند نائب الرحبة يرسل إلى نائب الشام ويُعلمه بذلك.

ولما أرسل نائب الشام الخبر إلى السلطان، والأمراء قد ربطوا خيولهم على الربيع، فقال السلطان: يا ليتنا ما ربطنا على الربيع، فطلب الأمراء وقال لهم: هذا كتاب نائب

---

(١) أصحاب: فى هامش الأصل، ومنبه على موضعها بالمتن.

(٢) ودخلوا: فى هامش الأصل، ومنبه على موضعها بالمتن.

الشام يذكر أن عدو الله قاصد إلينا وأنتم تعلمون أنى كنت معولاً على السفر حتى أدخل إلى بلاده، وها هو قد عاجلنى وخيولنا على الربيع، فإن أخرجناها فلا ننتفع بها، وإن تركنا السفر أخذوا الرحبة، ثم يتوجهون إلى حلب أوغيرها.

فسكت الأمراء، وقال لهم: أنا جمعتكم للمشورة لا للسكوت، ثم تكلم مملوكه أرغون الدوادار، الذى هو نائب الديار المصرية، وهو أكبر مماليكه، فقال: أيد الله مولانا السلطان، إن العدو وحركته ثقيلة بينما يجئ إلى الرحبة ويقم عليها ويحاصرها وتمانعه [٤٠٨] أهلها مدة يمضى شهران، ومن اليوم إلى شهرين تأخذ الخيول حقها من الربيع، ثم يخرج مولانا السلطان بعسكر جرار فتكون الدائرة عليهم إن شاء الله تعالى، غير أن مولانا السلطان ينبغى له أن يجرد عساكر الشام إلى حلب وحمص، فالبعض يذهب إلى حلب والبعض يقيمون على حمص.

فقال السلطان: تجريد العسكر على هذا الوجه ليس بوجه لأنها تضعف.

فقام علاء الدين أيدغدى شقير، وقال: أيد الله مولانا السلطان، إذا لم يجرد مولانا السلطان عسكر الشام كلها يجرد بهادر آص وبلبان البدرى والإبراهيمى بثلاثة آلاف نفس من عسكر دمشق يروحون إلى حلب، ويكونون عند الأمير سودى نائب حلب، لتقع الأخبار بأن العسكر وصلت إلى حلب.

فقال: هذه مصلحة، وأرسل البريدى فى الحال ومعه مرسوم بتجريد هؤلاء الأمراء، ثم بقى السلطان ينتظر الجواب، وإذا بمملوك نائب حلب قد وصل، فأخرج مطالعة سودى نائب حلب يذكر فيها: أنه قد ورد إلينا الأخبار بوصول العدو إلى الرحبة، فبعثنا الكشافة فكشفوا، ثم عادوا وأخبروا أن العدو تفرق اجتماعه، وأن خربندا نزل إلى بغداد.

فطلب السلطان الأمراء، وقرأ عليهم المطالعة، ففرحوا وقالوا: لو كان مولانا السلطان استعجل [٤٠٩] وخرج بالعساكر المنصورة كانت قد ضعفت وخربت البلاد.

ولما خرج مملوك نائب حلب من عند السلطان، فإذا بمملوك نائب الشام أيضًا قد

وصل، و[يقال له][١] عبدالله الخراط، وذكر هو أيضًا أن العدو تفرق وأن خربندا نزل إلى بغداد، فخلع عليه السلطان وأعاده إلى دمشق، فطلب نائب الشام دنكز عبدالله المذكور، وقال له: يا عبدالله هذا الخبر الذى بلغته إلى السلطان لا يكن قد سمعته ممن لا يؤبه به من أطراف الناس ثم يظهر الأمر بخلاف ذلك فيقع علينا الإنكار، فقال: أعز الله مولانا ملك[٢] الأمراء، ما أخبرنى أحد بذلك، بل أنا الذى شاهدته بعينى.

وأما عدو الله خربندا فإنه لما نزل على سنجار جاءته ملوك تلك البلاد، فأمرهم أن يأخذوا معهم المجانيق إلى صوب الرحبة، ثم أمر لهندو وبلاى ومحمد شاه أن يركبوا بعساكر العراق وينزلون على الرحبة، فركبوا وساروا حتى وصلوا إلى موضع يقال له: أبوالديات، وكان عليه كشافة من الرحبة، ومعهم حمام فأطلقوه، ورآهم هؤلاء فركبوا وراءهم فلم يلحقوا بهم، ووصلت الكشافة إلى الرحبة وأعلموا الأزكشى بأنهم شاهدوا العدو، وهم قد نزلوا على أبى الديات قاصدين الرحبة، ومعهم [٤١٠] [المجانيق][٣] على العجل، [فسير][٤] الأزكشى إلى دمشق وحلب وغيرهما بالخبر، فجفلت البلاد إلى حلب وإلى دمشق.

ولما بلغ الخبر إلى نائب الشام تعجب، وقال: اطلبوا لى عبدالله، فلما حضر قال له: هذا كتاب الأزكشى يذكر أن كشافتهم قد فارقوا العدو على أبى الديات، وهذا ضد ما ذكرت أنت، وقال عبدالله: أى يوم نزل عدو الله على الرحبة اشنقنى، وربما يكون الكشافة قد شاهدوا منهم جماعة قد ضربوا حلقة صيد فجفلت الناس من ذلك، فقال النائب: يمكن ذلك حتى ننظر.

ثم فى اليوم الثانى وصل قاصد أيضًا من الأزكشى، وهو يقول: العجل قبل حلول الأجل، فإن عساكر عدو الله قد وصلت ونحن كل ما نرسل كتابا لا يأتى إلينا خبر

---

(١) معه فقال له: فى الأصل والتصويب يتفق مع السياق.

(٢) السلطان ملك: فى الأصل، ومشطوب على كلمة اللسلطان.

(٣) فسيروا: فى الأصل.

(٤) المناجيق: فى الأصل.

شافى، وما بقى بعد هذا الخبر خبر، ولا يحل لكم أن تخلونا قدام العدو وتجعلونا هدفا للمصائب.

فلما وقف نائب الشام على هذا، قال : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، راحت والله الرحبة، ثم اشتد غضبه، وقال: اطلبوا لى عبدالله، فلما حضر، قال له: يا عدو الله، إش حملك على أنك قلت إن العدو تفرقوا؟ وها هم قد وصلوا إلى الرحبة، فقال قيدونى واحبسونى فى القلعة إن طلع خبرى كاذبًا.

ثم أركب نائب الشام دواداره إلى مصر، وأركب استاداره إلى الرحبة، وقال [٤١١] له: اذهب واكشف العدو بعينك، [فسار][١] إلى أن وصل الرحبة، ورأى العدو وقد قطعوا الفرات ونزلوا بقرية على جنب الفرات يقال لها عُشارا فرجع إلى الشام وأخبر النائب بذلك، وقال ليس بحقيق أكثر من ذلك.

وكان السلطان قد بعث أميرًا يقال له: عاقول إلى حلب، ليكشف الأخبار، فوصل إلى دمشق يوم وصل استادار نائب[٢] دمشق من الرحبة، ومعه كتاب نائب حلب بأن العدو ما له خبر عندنا، وأرسلت كشافة إلى بلاد ماردين والخابور فلم يروا أحدًا من العدو، وقال استادار نائب الشام: أنا رأيت بعينى هذه خيامهم وهى مضروبة على جنب الفرات، وهم فى إصلاح جسور يعدون عليها.

وراح الآتيان إلى مصر، فأخبر كل منهما بما عنده من الخبر، فتعجب السلطان من ذلك، وأنكر على النواب، وأرسل إليهم يستعجزهم، ويقول لهم: إذا كان العدو على الفرات، وأنتم قد عجزتم عن مجرد الخبر، فإش يُرجى منكم؟ والذنب منى أنى قد فرطت حيث وليت على البلاد من ليس بكفء.

وأما خربندا فإنه طلب قراسنقر، وقال له: قد قلدتك أمر العساكر ولك التصرف حيث شئت فافعل فيه إصلاحنا، فقال قراسنقر: أيد الله الخان، أبشرك بشارة، فأى

(١) فسارا: فى الأصل.

(٢) نائب: بين الأسطر فى الأصل.

يوم نزلنا [٤١٢] على الرحبة يسلمها إلينا نائبها، ونواب البلاد كلهم نوابى، وأى يوم قطعنا الفرات جاءتنا أمراء الشام جميعهم.

وهو فى هذا الحديث مع خربندا، فإذا حاجبه قد دخل، وقال إن سليمان بن مهنا على الباب، ومعه جماعة من العرب من عند مهنا، وهم يقولون إن البلاد خالية من العساكر، فإش الذى يعوق الخان عن أخذ البلاد؟ وأن جميع أمراء دمشق ونواب البلاد قد تجهزوا ينتظرون قدوم الخان.

فتقدم جوبان إلى خربندا وقال له فى السر: لا تسمع كلام قراسنقر، ولا كلام مهنا، فإن لهما أغراضًا يريدان أن ينالا إلى أغراضهما بهلاكنا، ولو كان كلامهما صحيحًا بأى شئ يقربا من البلاد، وسيظهر لك صدق كلامى إذا نزلت إلى الشام، فقال له خربندا: كلامك لا يفيد، فإن قراسنقر أخبر منك بهذا الأمر، فتولَّ أنت أمر الجند والمعاملة، وهو يتولى تدبير الأحوال، ثم أمر بالرحيل فرحلوا كالجراد المنتشر، وساروا يطلبون الرحبة، وقراسنقر فى أوائل العسكر.

وكان خربندا قد رسم على قراسنقر أمير تومان يقال له: إشن قطلو ومعه عشرة آلاف نفس، من غير أن يعلم به قراسنقر، وكان [٤١٣] قال له: اركب معه جملة، وانزل جملة، وعينك عليه ليلاً ونهارًا، وإياك أن تغيب عنه وإلا تروح روحك، وكان معه ليلاً ونهارًا فى الرحيل والنزول.

ولما توسط قراسنقر أهله[1]، تذكر أهله وأولاده، وما كان عليه من المملكة والراحة فاضت عيناه بالدموع، ثم أنشأ يقول:

رحلت وأحباب الفؤاد لهم بعدى	علىّ حنين لا يقر ولا يهدى

يهيم إذا ما لاح من سفح حاجر	نسيم صبا هاجت به الريح من بعد

(١) هكذا فى الأصل، ويبدو أن كلمة أهله: سبق نظر من الناسخ، ينظر ما يلى.

يحنوا إلينا فى الأصايل والضحى إذا ما حدى حادى وحركه الوجد
وإن صاح من نحو الأثيلات صائح فتهت بسكرى لا أعيد ولا أبد
رعى الله أياما تقضت بقربكم وحبى لويلات على الأجرع السرد
يقرب معا سيل من الترك خرّدا إذا ما انثنوا تحت الغلائل بالقد
أتوه فلا أدرى من الغنى أن أنا [٤١٤]من المعشر الحضار أم غائب الرشد
أيا معشر السادات جدوا وجوّدوا وثوروا إلى الخيل المسومة الجرد
فلا يدرك العلياء عزم مقصر ولا يبلغ القصوى بغير التجرد
ولا كل من رام العلا نالها ولا كل ساع يدرك السؤل والقصد

قال الراوى: واندفعت العساكر، والأفرم قدام خربندا لايفارقه ليلاً ولا نهارًا، فقال له خربندا، يا جمال الدين لأى معنى قراسنقر فى اجتهاد عظيم ليلاً ونهارًا من أمر العساكر وتجهيزها، وأنت ساكت لا تتكلم، فباس الأفرم الأرض، وقال: أيد الله مولانا الخان، أعلم بأن قراسنقر مكره معروف بين الناس، وقد عرفه كل من جربه، والخان أيضًا لابد أن يعرفه، وله كلام من غير اعتبار سواء أن يصيب أو يخطئ، ومثلك الملك لا ينبغى أن يُتكلم بين يديه إلا بشئ يكون، وشئ فيه مصلحة ظاهرة، ولابد أن ينكشف لك كلام قراسنقر عن قريب، وأنا، أقسم بالله العظيم، ونبيه الكريم، أن كل شئ يقوله قراسنقر قدام الخان ما فيه شئ صحيح، والله العظيم [٤١٥] ولو وافقنا من أمراء الشام أميرًا وأميران لما جئنا إلى هاهنا، ولو كان نائب الرحبة سلم الرحبة إلينا لما جئنا إليك، وكيف يقول بين يدى مثلك أن أمراء الشام معى، ونائب الرحبة معى إذا وصلنا إليه يسلمها لنا، هذا شئ أنا ما أقدر أن أقوله قدام مثلك.

قال الراوى: وكان جوبان حاضرًا: فلما سمع هذا الكلام ضحك، وقال: هذا هو الكلام الصحيح، فقال خربندا: قراسنقر مجتهد، فإن أصاب كان المراد، وإن أخطأ

فيكون قد بذل المجهود، ثم ساروا يطلبون الرحبة، والأخبار عند الأزركشى ساعة فساعة، وصمم على التجلد وحفظ القلعة، وأرسل نائب الشام سيف الدين غرلو ومعه مائة فارس ليكشف الأخبار كما ينبغى، فخرجوا متوجهين إلى الرحبة، وغرلو ينشد هذه الأبيات:

يا خليلى قد جفانى رقادى وهجرت الأوطان والأولاد

وصحبت لدنًا طويل كعوب وحسامًا قد كان من عهد عاد

أخضر قاطع صقيل متين ابتر ماض طويل النجاد

وركبت من العتاق حصانا [٤١٦] أدهم عال شديد السواد

وصحبنى من الكرام جماعة أسود كل منهم قوى الفؤاد

من رجال قد بايعوا الله وناداهم فلبوا المنادى

ذكر وصول خربندا إلى الرحبة

وصل خربندا مشرقًا على الرحبة فى الثانى والعشرين من شعبان هذه السنة، عند طلوع الشمس.

وقال ابن كثير: كان وصولهم إليها فى أوائل رمضان[(١)]، وكان قراسنقر قدام خربندا، فقال له: إش هذا؟ فقال: هذه الرحبة، فرآها قد حصنوها، وحصنوا قلعتها، فقال لقراسنقر: ألست [قلت][(٢)] أنهم يسلموننا القلعة عند وصولنا إلى الرحبة، فقال قراسنقر: أيد الله الخان، هى فى يدك، وجميع قلاع الشام.

فنزل عدو الله فى الدهليز، والكل يدعون على قراسنقر، وباتوا تلك الليلة، ولما

(١) ينظر البداية والنهاية ١٨/١٢٤.

(٢) إضافة للتوضيح، تتفق مع السياق، ينظر ما سبق.

أصبحوا ركبت الأمراء إلى خدمة خربندا، ولما تكلموا، قال خربندا لقراسنقر: يا شمس الدين اركب وازحف على الرحبة، فإن سلموها إلينا من غير حرب كان الخيار لهم وتُصان دماؤهم، وأَخلع على أكابرهم، و أُعطى الأزكشى تقدمة الأكراد فى بلادى، وأُعطيه أربل [٤١٧] وجبالها، وأُطلق له فى كل سنة تمضى خمسين ألف دينار تُحمل إليه من الموصل.

فخرج قراسنقر، ومعه الأفرم والزردكاش ومماليكهم[١] وهم ملبسون، وأمر خربندا بأن يركب معهم قطلو ودقماق ودمندار بثلاثين ألف فارس، وأمرهم أن يكونوا فى طوع قراسنقر، فإن سمعوا منه وسلمها الأزكشى، وإلا فازحفوا عليه، فساروا إلى أن وصلوا إلى قرب القلعة، ونادى مملوك من مماليك قراسنقر: خَلُّوا الأمير بدر الدين يكلم، فهذا الأمير قريب منه ليسمع كلامه، فقال الأمير بدر: ها أنا أسمع كلامكم فقولوا، فتقدم قراسنقر وسلم عليه، وقال: يا بدر الدين أنت تعلم بحالنا، وأنت أخبر بكل أحد، وتعلم ما جرى علينا، وما هربنا إلا من ضرر عظيم، وكنا نخاف من التتار لقلة مباشرتنا معهم، فلما خالطناهم وجدناهم أكثر الناس مروءة، وأقربهم إلى الحق، منعكفين على [هذا][٢] الدين، معتقدين فيه بيقين، ولاسيما هذا الملك الذى عطاياه كموج البحار، وكلتا يديه كَسَيْلِ الأمطار، وقد أغنانا بعد الفقر، وجَبَرنا بعد الكسر، وجهز معنا جيوشه، وأنفق أمواله وذخائره، وقد وعدك بتقدمة الأكراد وإطلاق كل سنة بخمسين ألف دينار، ويعمل خيرًا مع الذين معك فى القلعة، وإن لم تسمع ولم تسلم القلعة زحف عليكم فأخذها [٤١٨] فى فرد ساعة، وما يحصل لكل واحد منهم حجر يحمله إلى موغان.

فلما سمع بدر الدين هذا الكلام غضب وقامت أخلاقه، وقال: أُفًا لك يا خسيس، يا أمكر من إبليس، يا خارجًا عن الملة [المحمدية][٣]، ويا مطرودا عن باب الملك، فهذا لا يليق إلا لمثلك، ارجعوا من حيث جئتم، والله، إن دون أخذ القلعة حروب يهرب

(١) ومماليكهم مكررة فى الأصل.
(٢) هذه: فى الأصل.
(٣) المحدية: فى الأصل

منها الصناديد من الرجال، فبينما هو فى الحديث إذا بواحد من مماليك الأفرم قد رماه بسهم، فوقع السهم فى كتف الأزكشى، وكان عليه قرقل فولاذ، فرجع السهم إلى بطال ووقع فى الخندق، فضجت أهل القلعة بصوت واحد الله أكبر، [ووقعت][1] الحرب إلى قرب الظهر، وقُتل من المغل جماعة.

وكان خربندا نازلاً فى موضع يُقال له: مشهد الزكية، غربى الرحبة، وأمر لهندو وبلاى ومحمد خواجا وصاحب ماردين وأمراء بلاده [أن ينصبوا][2] سبع[3] مجانيق على القلعة، ثم قام هو ودار بنفسه حول الرحبة، وأراهم مكان المجانيق، وأمر بأن تنقب النقوب، وأمر بقطع الأشجار التى على الرحبة، ثم أمر أن يُعمل يزك على كواثل، فعين لها سليمان بن مهنا ومعه عشرة آلاف فارس، ويزك على خان قباقب، ويزك على المنتصف، واجتهد فى أمر الحصار، وتفرقت المغل، واشتغلوا بتخريب بيوت الرحبة وأخذ أخشابها وأشجار البساتين ليجعلوها [ستائرًا][4] [٤١٩] على النقوبات والمنجنيقات.

وقد ذكرنا أن غرلو خرج من دمشق بمائة فارس لكشف الرحبة، وأنه لم يزل سائرا حتى وصل إلى تدمر، فخرج أهل تدمر لملاقاته وأعلموه بأن خربندا نازل على الرحبة، وأن سليمان بن مهنا معه عشرة آلاف فارس من المغل قد تقدم على الرحبة، فنفذ غرلو كتابا إلى الأزكشى بأنه وصل إلى تدمر، وأنه خرج لكشف الأخبار، وأنه ينتظر الجواب.

فكتب إليه الأزكشى يقول: خذوا لأنفسكم الحذر، وعندهم خبرك من يوم خرجت من دمشق، وسليمان بن مهنا معه عشرة آلاف فارس، ولا ندرى إلى أين قاصد.

وكان خربندا لما نزل على الرحبة جهز خمسين ألف فارس مع أمير يقال له: ابجيل، مقدم قراؤول الأطراف، وأمره بأن يقطع مخاضه بالس، فيسمع عسكر حلب ويقع فى

(١) ووقع : في الأصل.
(٢) إن لم تنصبوا: فى الأصل، وما أثبتناه يتفق مع السياق والأحداث.
(٣) سبع: مكتوبة بين الأسطر فى الأصل.
(٤) ستايوا: فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق، وينظر ما يلى.

قلوبهم الخوف، وأمره أن يغير على تلك البلاد وتصل إغاراته إلى الباب وبزاعا، فاحذروا كل الحذر.

وأما الأمير سودى، نائب حلب، فإنه قد كان أرسل كشافة من الغرب إلى صوب الرحبة، فوصلوا وأخبروا بأن العدو على الرحبة، وكان قد وصل إليه عسكر من دمشق، وهم الذين عينهم السلطان، وهم: بهادر آص، وبلبان البدرى، والإبراهيمى، فقال لهم سودى: إش يكون عملنا؟ فسكتت [٤٢٠] الأمراء، فقال لهم بهادر آص: نخاف أن تأتى طائفة من الرحبة وطائفة من مخاضة بالس، ولا نأمن أن يأخذوا الباب وبزاعا وتركمان الجبُّول، وتأتى طائفة من ناحية الروم وسيس، فقالت الأمراء: كيف الرأى؟ فقال: [نجرد][1] ثلاثمائة فارس من عسكر دمشق وحلب، بخيل جياد، مع الأمير سيف الدين قطلوبك الوشاقى والأمير سيف الدين بن العينتابى، ونسيرهم إلى مخاضة بالس، ونضم إليهم مائتى فارس من العرب يكونون طول النهار على المخاضة، وفى الليل يبعدون عنها، ويقيم عليها عشر فرسان من العرب طول الليل إلى حين يتحقق أمرهم، وتتحقق أخبار السلطان وما هو عليه، فرأى كلهم رأيه هذا مصلحة، فتقدم سودى وفعل ذلك.

فخرج هؤلاء الذين عينهم بهادر آص وساروا يريدون مخاضة بالس، فقال ابن العينتابى لقطلوبك: يا أمير، ما جَرَّدنا الأمراء إلا وظنهم فينا أن ما فى عسكر الشام أفرس منا، ونريد أن لا نخيب ظنهم فينا، فقال له قطلوبك: ما الحيلة؟ فقال: نحلف كلنا بأنا لو لقينا خربندا بمجمعه ما رجعنا عنه، فقال: نعم، فحلفوا على ذلك، وساروا ليلاً ونهارًا حتى وصلوا إلى المخاضة فى الفجر الأول، فإذا خيل خارجة من الماء، وعلى جانب الماء فرسان تقدير ألفى فارس، والخيل [٤٢١] متصلة، فلما رآهم قطلوبك وابن العنيتابى قالا هذه الخيل وقد قطعت الماء، إلا أن هذه أوائلهم، والرأى أن نحمل عليهم ونرميهم إلى الماء، ولو كان خربندا خلفهم، أو نصبر إلى أن يلوح الضوء، فإن رأيناهم فى كثرة تأخرنا عنهم شيئًا فشيئًا، وإن كانوا مقدار ما حزرنا أو أكثر من ذلك إلى عشرة آلاف نتقدم،

(١) تجرد: فى الأصل.

فلا نمكن أحدا من الجواز إلى هذا الجانب، ثم قوّوا قلوبهم وحملوا، ولم يصبروا إلى انتشار الضوء، وصاحوا صيحة واحدة بقولهم: الله أكبر، فيالها من ساعة ما كان أعظمها، ومصيبة على العدو وما كان أظلمها، وذلك أنهم كانوا آمنين فى المخاضة، ظنا منهم أنها خالية عن الناس، ووقع كثير من التتار فى الماء، وهلك منهم خلق كثير، وكان معهم جماعة من مماليك قراسنقر، فيهم مملوكه الذى يُقال له الخطاى، وهو كبيرهم، وأضافهم قراسنقر حين وجه هذه الطائفة من التتار مع [أمير ابجيل][١]، كما ذكرناه الآن.

[وكان ابجيل][٢] هذا متأخرًا عن الذين عدّوا الفرات إلى هذا الجانب، فلما جرى على هؤلاء ما جرى من الهزيمة وغرق أكثرهم فى الماء، وأصبح الصباح، تقدم قطلوبك وقال لأصحابه: كونوا مكانكم حتى أعبر أنا فى الماء من المخاضة فإن رأيتمونى وقد خرجت من ذلك [٤٢٢] الجانب، فاعبروا خلفى، فقالوا له: افعل ما تريد ونحن فى طوعك، فركب حصانًا أخضر عاليًا، فدخل المخاضة، فلما رآه التتار من ذلك الجانب تعجبوا منه، وقالوا: هذا جِنّىّ فعل شيئًا ما فعله أحد، وهو على ذلك فإذا بابجيل مقدم التتار، وقد وصل إلى المنكسرين الذين تقدموا إلى المخاضة، فرأى قطلوبك فى الماء يريد العبور إلى ذلك الجانب، فسأل عن الخطاى مملوك قراسنقر، أتعرف هذا، فقال: نعم، هذا يقال له: قطلوبك الوشاقى، فقال: حدثه، فنادى الخطاى له، وقال: يا أمير قطلوبك، تأنَّ على نفسك ولا تعجل فتقع فى المهلكة، فيا قليل العقل، أنت تعرف تقاتل من؟ وأيضًا أفلا تعلم ما جرى على المسلمين؟ وعلى الأمراء من السلطان؟ ولولا خروجنا نحن من البلاد لما بقى أحد منكم إلى الآن، فعودوا وارجعوا عما أنتم فيه، فإن هذا الخان هو صاحب الإقليم ومالك البلدان، وقد حلف لقراسنقر والأفرم ولغيرهما من الأمراء أنه ما يرجع حتى يفتح البلاد الشامية والمصرية ويسلمها إليكم، ويعمكم بالإنعام والإحسان، فإن قبلتم كان خيرًا لكم، وإن خالفتم راحت أرواحكم، وسُبيت حريمكم وأولادكم، ونُهبت أموالكم.

(١) أمير الجيل: فى الأصل والتصويب مما سبق.
(٢) وكان الجيل: فى الأصل والتصويب مما سبق.

فلما سمع قطلوبك ذلك، قال له: يا كلب، أنت أيضًا تتحدث بهذا الحديث، ويلك ما رأيتم من الخير حتى تدعو الناس إلى ما أنتم فيه [٤٢٣] من الضلال والفساد، ثم إنه مَدَّ يده إلى قوسه وأطلق نشابة نحوه، فانشمر كل من كان يريد العبور من[١] المخاضة إلى أماكنهم من ذلك الجانب، ثم أنهم رموا بالسهام على قطلوبك، فلما رأى أصحابه ذلك أرموا خيولهم كلها فى الماء، فلما رأى التتار ذلك ولوا إلى الإدبار وركنوا إلى الفرار، وهلك من المسلمين فى ذلك اليوم جماعة، فهذا الذى جرى لهؤلاء.

وأما ما كان من خربندا فإنه قال لقراسنقر: [ازحفوا][٢] على البلد فقد طال علينا الأمر، فلما أصبح الصباح تقدمت علوج[٣] المغل، وركب خربندا وبين يديه قراسنقر والأفرم والزردكاش، وتفرقت أمراء المغل إلى المواضع التى عينها لهم خربندا، واجتهد المسلمون أيضًا وحرضهم الأزكشى، [وقامت][٤] بينهم فى ذلك النهار حرب [شديدة][٥] إلى آخر النهار، وبات أهل الحصن فى أمر عظيم من الحصار.

ولما أظلم الليل وخمدت النيران، طلب خربندا الأمراء وقال لهم: إش هذا القتال الذى قد طال بكم؟ ولو نصحتم كنتم أخذتم القلعة فى يوم واحد، فقالوا: يا خوند، قد شاهدت بعينك ما جرى فى هذا النهار، فقال لهم: غدًا يكون الانفصال، فلا تطولوا، ورتب منازل الأمراء والمقاتلين من الليل.

ولما أصبح الصبح تقدمت المغل، وقدامهم قراسنقر والأفرم [٤٢٤] والزردكاش، وداروا بالقلعة من كل مكان، ونظر إليهم الأزكشى، فقال لمن معه: يا معاشر المسلمين قاتلوا عن حريمكم وأولادكم، ألا ترون إلى هؤلاء وما هم عليه من الهمة، فقاتلوا بهمة صادقة.

---

(١) إلى: ومصححة إلى من: فى الأصل.

(٢) ارجفوا: فى الأصل.

(٣) العلج – علوج : الرجل من كفار العجم، والقوي الضخم منهم، ينظر تاج العروس، مادة علج.

(٤) وقام : في الأصل.

(٥) شديد: فى الأصل.

ثم هجمت المغل، وأرموا النشاب بلا عدد ولا حساب حتى أن أحدًا من أهل القلعة لا يقدر أن يخرج يده من وراء الستائر، وأرموا عليهم من سبع [منجنيقات][(١)]، وبقى قراسنقر يدور بنفسه على المنجنيقات ويحرضهم، وقد أخربوا من أبراج القلعة أربعة أبراج وهدوها إلى الأرض، وقد رجعوا عن الزحف، وأيقنوا بأنهم غداة غد يأخذون القلعة بلا خوف.

وأما رجال الرحبة، فقد باتوا تلك الليلة على الأبراج الخراب[(٢)] وهم فى قلق عظيم.

وأما خربندا فإنه فى تلك الليلة طلب قراسنقر والأفرم وجوبان نائبه، [وقال][(٣)]: ما تقولون فى هجومنا القلعة غدًا، فنهض جوبان، وقال: أيد الله الخان، فإنه يعلم أن هؤلاء مسلمون ونحن أيضًا مسلمون، وسمعت اليوم صراخ النساء والصبيان، وما أظن الله تعالى يتخلى عنهم، والرأى أنك ترسل إليهم غدًا وتنذرهم، وتحلف لهم أنهم إذا سلموا القلعة إليك لا تؤذى أحدًا منهم، وإن لم يسلموا فافعل [ما بدا لك][(٤)] [٤٢٥] فقال: هذا هو الرأى.

وأما بدر الدين الأزكشى فإنه طلب مقدمى القلعة وأكابرهم، فقال لهم: اعلموا بأن أبراجًا من القلعة أخربت، وانهدمت قطعة من السور، وما بقى إلا هجومهم علينا، فما رأيكم، فقالوا: نحن بايعنا الله على الموت، فقال صدقتم، ولكن إيقاع الشخص نفسه فى التهلكة حرام، وعندنا نساء وأطفال، فلا يحل أن نكون سببًا لهتكهم وسبيهم، والرأى عندى أن نرسل إليهم القاضى والمحتسب ومشايخ البلد، فإن حلف لهم خربندا والأمراء جميعهم أنهم لا يشوشوا علينا، وأن نكون آمنين على أنفسنا وأموالنا وحريمنا وأولادنا سلمنا إليهم وخرجنا، فلم يرض المقدمون على ذلك.

---

(١) مناجيق: فى هذا الموضع والمواضع التالية، وتم تصويبها وفقا لما ورد فى المصادر التى تتناول الآلات الحربية.

(٢) الخراب : بين الأسطر فى الأصل.

(٣) وقالوا : فى الأصل.

(٤) ما بذلك : فى الأصل.

وباتوا تلك الليلة، فلما أصبحوا جاءوا إلى الأزكشى، وقالوا: إن الرسول قد جاء من خربندا، فأمر بمد الاسقالة على الباب، فدخل الرسول، وقعد مع الأزكشى فى داخل باب القلعة، ثم قال الرسول: إن الملك خربندا لما رأى ما حل بكم، وسمع بكاء النساء والصبيان، رق لكم، وحمل همكم، فإن أردتم أن تَسْلَموا من هذه المصيبة سلموا هذه القلعة، وهو يحَلف لكم بالله أنه لا يؤذى أحدًا منكم، وإلا فإنه نوى أن يزحف عليكم زحفة واحدة فلا يبقى أحدًا منكم.

وكان قاضى البلد ومشايخه حاضرين هناك، [٤٢٦] فقالوا: المصلحة أن تسلموا هذه القلعة إن حلفوا لكم أنهم لا يؤذون ولا يشوشون على أولادكم وحريمكم، فقال الأزكشى للقاضى ومشايخ البلد: انزلوا أنتم فاذهبوا فيحلف لكم، ونحن نسلم القلعة إليه، ويمكننا من الرواح إلى الشام.

فنهض القاضى والمشايخ فنزلوا وذهبوا إلى خربندا، فلما حضروا بين يديه قربهم وأدناهم وأمرهم بالجلوس، فقالوا: أيها الملك، إن أمنتنا جلسنا، فقال: قد أمنتكم، فقام القاضى ودعا له، وطلب الأمان لأهل القلعة، فتبسم خربندا، وقال: قلنا لكم من أول يوم احقنوا الدماء ما سمعتم، فقال القاضى: الماضى ما يذكر، فالمسئول من صدقات الملك أن يأمر بكتابة كتاب الأمان إلى أهل القلعة والبلد جميعهم على أنهم ينزلون بالحريم والأولاد، وأن يأمر الملك بإيصال من يريد الرواح إلى الشام إلى مأمنه، فأمر بذلك، فكتبوا، فأخذه القاضى وعاد إلى القلعة، ووقفوا عليه، ورضوا بالتسليم.

وعاد القاضى إلى خربندا، وأخبره بذلك، فخلع عليه وعلى مَنْ معه، ثم أمر لأمير يُقال له: آسن قطلو، وقال له: خذ معك ألفا من المغل وتسلم القلعة، وأنزل أهلها.

فسار القاضى قدامهم حتى وصلوا إلى القلعة ففتح الباب ودخل القاضى، ورأوا وراءه رجال المغل، فقامت [٤٢٧] الأكراد وقالوا: إش بقى بعد أن جاءت المغل ودخلوا القلعة؟ سلموا إليهم نساءكم وأولادكم وأنتم بالحياة تنظرون إليهم، وهؤلاء ما لهم يمين، فلمن

صَدَقُوا فى يمينهم حتى [يَصْدُقوا][1] لكم؟ ثم جردوا السيوف، وتقدم شخص منهم يُقال له: خضر البردار، فضرب واحدا من المغل على رأسه فنزل السيف إلى نصف رأسه.

فعند ذلك قامت الحرب [الشديدة][2] بينهم، وقُتل من الفريقين خلق، فولت المغل الأدبار، فقالوا: هذه حيلة عملوها معنا، وما صَدَّق آسن قطلو بالنجاة حتى عاد إلى خربندا، فازداد خربندا غضبًا، وأمر للمغل بالزحف من كل جانب، فزحفوا، واشتد المصاف بأهل القلعة، وعملت السيوف والسهام والحجارة، فَقُتِل خلقٌ كثير من المسلمين، ومن النساء أيضًا عند النقوب، حتى أيقن التتار أنهم قد أخذوا وملكوا.

وكان خربندا قد نزل فى خيمته، والأمراء فى خدمته، فإذا استادار قراسنقر جاء، وحدث فى أذن قراسنقر، فقام قراسنقر وتقدم إلى خربندا، وقال: أيد الله الخان، الجواسيس [الذين][3] قد سيرناهم إلى مصر قد حضروا، فأمر بإحضارهم، وكان فيهم شخص يقال له: زُريق، فقال له خربندا: ماذا رأيت بعينك؟ فقال: رأيت بأن عسكر مصر [٤٢٨] قد خرجوا، وهم فى عدد وعُدَدٍ، وسمعنا أن الملك الناصر أرسل مملوكه كسناى[4] والأمير قجليس[5] والأمير جنكلى بن البابا بخلق كثير بالخيل والهجن على البرية، ومعهم عربان يدلون على الطرق يأتون من عانة والحديثة، والملك الناصر بمن معه ماشون على الطرق المادة.

فلما سمع خربندا ذلك قال للأمراء: ما تقولون؟ وهم فى ذلك، وإذا برسول من الأردو[6] وقد حضر، فلما رأى خربندا آرمى روحه إلى الأرض، ونعى رجاله وبلاده، وقال له: يا خوند، أنت مشتغل ببلاد غيرك، وقد ملكوا بلادك وأخذوها من يدك،

---

(١) إضافة تتفق مع السياق.

(٢) الشديد: فى الأصل.

(٣) الذى: فى الأصل.

(٤) كُستاى، الأمير سيف الدين الناصرى، توفى سنة ٧١٦هـ/ ١٣١٦م، الدرر الكامنة ٣٥٣/٣ رقم ٣٣١١.

(٥) قجليس الناصرى السلاح دار، توفى سنة ٧٣١هـ/١٣٣١ م، الدرر الكامنة ٣٢٨/٣ رقم ٣٢٣٨.

(٦) الابد: فى الأصل، والتصويب مما يلى.

فقال: ويلك ما هذا؟ بيِّن لى، فقال: قد خرج من بلاد الترك مقدم ومعه مائة ألف فارس يسمى [ذلدى](١) ، ومقدم آخر معه مائة ألف فارس أيضًا يسمى قنغورى، قال: فلما سمعنا بهم ركبنا إليهم بعسكر خراسان وجموعها، [فعملوا](٢) علينا كمينًا وانكسروا قدامنا وجازوا إلى الكمين فخرجوا علينا فقتلوا منا بلا عدد، وقتل يولاى مقدم العساكر، وقتل ولدك بسطام، وانهزمت العساكر وأخذوا خراسان، وكلما تقدموا أخذوا البلاد.

فلما سمع بذلك خربندا تغيرت حواسه، وسمعت بذلك عساكره، فعلا فيهم البكاء والصراخ لأنه ما فيهم أحد إلا وله فى خراسان أخ أو ابن أو قرابة، فقال خربندا: فليس [٤٢٩] هذا موضع البكاء، فاتفقوا على أنهم يرحلوا إلى بلادهم ليحموها عن أعدائهم.

ذكر رحيل خربندا من الرحبة

لما سمع خربندا من رسول الأُردو ما ذكرنا، ركب من تلك الساعة وأخذ معه قراسنقر والأفرم فى عشرة آلاف فارس وعبروا الفرات، وقال لجوبان، الحقنى ببقية العساكر، واحرقوا المجانيق التى نصبناها على الرحبة والزردخانة أيضًا، ولا يبيت منكم أحد ليلة غد فى أرض الشام.

ولما سار خربندا وقع الصوت فى العساكر، ووقعت الهجة، وأرسل جوبان إلى الأمراء الذين فى النقوب يأمرهم بأن يخرجوا، وكذا أرسل وراء اليزك، ووقعت الضجة بينهم فى ظلام الليل، وسمع أهل القلعة بذلك، وقالوا: ما هذه الضجة؟ فقال الأزكشى: إن صدق حزرى فقد جاءهم الخبر بأن السلطان [قادم](٣) فلذلك رحلوا، وإلا ما هذا وقت الرحيل وقد أشرفوا على أخذ القلعة.

---

(١) دلداى : فى الأصل ، والتصويب مما يلى ص ٣٧٨ ، ص ٣٨٠ .

(٢) فيملوا: فى الأصل.

(٣) إضافة لاستكمال المعنى.

وما أصبح الصباح وقد بقى هناك أحد من التتار سوى جوبان ومعه عشرة آلاف فارس، فأمر للزراقين بأن يضرموا النيران فى المنجنيقات وفى الزردخانة، وأمر بإحراق سائر الأثقال التى ما قدروا على حملها، ثم ساروا خلف خربندا.

وقال ابن كثير: وفى أوائل رمضان نازلت التتار الرحبة وحاصروها عشرين يومًا، وقاتلهم نائبها بدر الدين موسى الأزكشى خمسة أيام قتالاً شديدًا، [٤٣٠] فأشار رشيد الدين له بأن ينزلوا إلى خدمة السلطان خربندا ويهدوا له هدية ويطلبوا منه العفو، فنزل القاضى نجم الدين إسحاق وجماعة وأهدوا له خمسة أروس خيل وعشرة أباليج سكر، فقبل ذلك ورجع.[١]

وكانت بلاد حلب وحماة وحمص قد أخلوا[٢] منها وخرب أكثرها، ثم تراجعوا لما تحققوا رجوع التتار عن الرحبة، وأما أهل الرحبة فإنهم لما رأوا ذلك سجدوا شكرًا لله تعالى، وقالوا، بعد ما أشرفوا على الأخذ: رحلوا عنا بغير مدافع.

وأرسل الأزكشى إلى الشام من يعلم النائب بذلك.

ذكر خروج السلطان من مصر وتوجهه إلى الشام لمحاربة خربندا

قال ابن كثير فى تاريخه: لما كان العشر الأول من رجب تواترت الأخبار بحركة التتار، فندب للكشف الأمير سيف الدين أقول السلحدار، وتوجه السلطان إلى نحو الجيزة يتصيد، وختم بالأهرام، ورسم لأرغون النائب بأن ينزل الأجناد البطالة فى مدة الغيبة ليكونوا معينين إن دعت الضرورة إليهم، ففعل ذلك.[٣]

وعاد الركاب الشريف من الجيزة إلى القلعة فى شعبان، وأعطى لمن استخدم من الجند البطالين مثالات مبلغ من معاملة ساحل الغلة، وأُحضرت الخيول من الربيع

(١) البداية والنهاية ١٨/١٢٤.
(٢) قد أُجلوا: فى البداية والنهاية ١٨/١٢٤.
(٣) لم يرد هذا النص فى المطبوع من البداية والنهاية ١٨/١٢٣.

وأبرزهم[١] الدهليز إلى مسجد التبر فى أوائل رمضان، وأنفق فى العسكر، وتأهب للعرض والتبريز، فكان [٤٣١] يعرض فى كل يوم أميرين من مقدمى الألوف، ويخرجان بمن معهما من الأمراء والمقدمين والحلقة ويرحلون أولاً فأولا، من التاريخ المذكور إلى الثانى والعشرين من الشهر، فلم يبق في الديار المصرية أحدٌ من الجيوش الإسلامية.

وعَيَّد السلطان عيد الفطر بالقلعة، وفى ثانيه ركب منها وحل فى ثالثه، ورتب سيف أيتمش نائبًا بالقلعة، وسيف الدين المحسنى مشد الدواوين، وقد ذكرنا أن الأمير غرلو كان نازلاً على تدمر لكشف الأخبار، فلما طال به الأمر رجع إلى دمشق وأعلم النائب دنكز بأن العدو محاصر الرحبة ليلاً ونهارًا، وقد جدوا على الحصار غاية الجد، وإن لم يُدْركوا وإلا أُخذت، فأرسل النائب البريدى إلى السلطان، بذلك، وضاقت صدور أهل دمشق، وصاروا بالليل والنهار يدعون الله تعالى بأن يزيل هذه الغمة عنهم، وكان فى جامع دمشق صريخ بالدعاء ليلاً ونهارًا، وجفل أهل الشام ورحل أكثرهم إلى الحصون وإلى الديار المصرية، وجيش الشام كانوا فى تجهيز العدد ليلاً ونهارًا، وإنعال الخيول، وهم ينتظرون قدوم السلطان.

وهم فى ذلك فإذا [بريدى][٢] وصل من ديار مصر بأن السلطان قد عبر منازل الرمل، ويجعل منزلتين منزلة واحدة، وأرسل إلى نائب [٤٣٢] دمشق يقول له أنفق فى الجيش ليكونوا مجهزين للركوب، فإنا عن قريب عندكم.

فلما قرأ النائب الكتاب، ضُربت البشائر[٣]، ودُقت الكوسات ونادت النقباء فى العساكر بالعرض والنفقة، وشرع النائب فى النفقات.

وهم على ذلك، فإذا قاصد من نائب الرحبة قد حضر، وأخبر أن العدو قد رحل، ولم يصل إلى الرحبة بحال، ولا نال منها غرضًا، فلما سمع النائب بذلك تهلل وجهه فرحًا،

(١) هكذا بالأصل.

(٢) بردى: فى الأصل.

(٣) فى ثامن شوال: فى البداية والنهاية ١٢٤/١٨.

وقال: ما كان سبب رحيلهم؟ فقالوا: لا علم لنا، إلا أنهم جدوا علينا وأشرفوا على الأخذ، فإذا بهم وقد وقع بينهم أصوات فى الليل، فلما أصبح الصباح ما رأينا منهم أحدًا، وأحرقوا المنجنيقات والزردخانة، وعدوا الفرات، وقطعوا الجسر، وسارت الكشافة وراءهم، ولم يروا لهم أثرًا.

فتعجب دنكز من ذلك، ومن الحال كتب دنكز مطالعة إلى السلطان، وأرسل خازنداره مع مملوك الأزكشى فلاقوا السلطان وهو على غزة، فأعلموه بذلك، فقال السلطان: لا غنى عن السير وراءهم، ولو قطعوا جيحون، ثم أنه أمر بالرحيل فرحلوا، وجدّوا يطلبون دمشق.

ذكر وصول السلطان إلى دمشق

ولما قرب السلطان من دمشق، ركب سيف الدين دنكز وسائر الخلق إلى ملاقاة السلطان، فلاقوه، ودعوا له، وكان يوم دخوله يومًا مشهودًا[1]، [٤٣٣] ونزل بالقصر، ونزلت العساكر فى ظاهر دمشق، ثم طلب السلطان الأمراء، وقال لهم: تجهزوا، فإن الرحيل بعد ثلاثة أيام إلى بلاد العدو، ثم قال لهم: ما قلتم؟ فقالوا: خلد الله ملك السلطان، وإش نحن حتى نتحدث، والمرسوم مرسوم السلطان، فالسلطان يسير ونحن بين يديه، برجال لا يخافون الموت، بل يرونه مقيما، ويرون الحياة مغرما، فخرجوا على هذا وشرعوا فى التجهز.

وفى تلك الليلة، طلب الأمراء كلهم، وقال: اعلموا أن فيكم مشايخ وقد شاهدوا الحروب وقاسوا النوائب فليشيروا علينا، فالرأى شرك، فقام الأمير سيف الدين كجكن، وجوبان، وبلبان البدرى، وأقجبا الظاهرى، وبلبان التترى، هؤلاء من أمراء دمشق، ومن المصريين: الأمير جنكلى بن البابا، وطغاى، وكستاى، وبكتمر الحاجب،

---

(١) يوم الثلاثاء ثالث عشرين من شوال: فى البداية والنهاية ١٨/١٢٤.

وحسين بن جندر، وأيدغدى شقير، وباسوا الأرض، ودعوا للسلطان، وقالوا: ما فينا إلا مَنْ يُشير بشئ غير أنه يمتنع من هيبة السلطان، فإن رسم لنا نتحدث، وإلا فنحن سكوت، فقال: أنا جمعتكم إلا للمشورة، فكل منكم يقول ما عنده، فقالوا: أيد الله مولانا السلطان، إن عدو الله ما رحل عن الرحبة إلا عن أمر عظيم ناله فى ذلك الوقت، مع شدة البرد، وقلة المأكول، وضعف عسكره، وبلوغ قدوم السلطان [٤٣٤] بالعساكر المنصورة إليه، ولا يخفى على مولانا السلطان أن الشتاء مقبلة على الخيل، فإذا توجه مولانا السلطان إلى بلاد العدو يقاسي الجيش شدة، ويحصل لأهل البلاد أيضًا فساد، ومولانا السلطان فى قلبه رحمة، لا نريد أن يتأذى أحد من المسلمين، والرأى رأى مولانا السلطان، ورأيه عَلّى، فقال لهم السلطان: لقد صدقتم، ولكن تتحدث الناس بأن العدو فى أيام الملك الناصر حاصر ثغر من ثغور المسلمين شهرًا والناصر لم يكشف عنهم، وهذا عجز عظيم للملك، وقالوا: إش يريد مولانا السلطان فى تاريخه أعجب من هذا، يأتى مثل خربندا بعسكر لا يُعد ولا يُحصى، ويعدى من الفرات، ويقيم على أقل الثغور شهرًا ولم يقدر على أخذ حجر منه، ثم يهرب ويعدى الفرات، وهذا ليس بقليل، والناس ما يقولون إلا أنه من حركة السلطان لما سمعها، فاستحسن السلطان كلامهم، ولكنه قال: لابد من الحركة، ولو إلى سفرة زيارة بيت [الله][1] الحرام، وزيارة قبر نبيه عليه السلام، فقالوا: الرأى رأى مولانا السلطان.

ذكر سفر السلطان إلى الحج

قال بيبرس فى تاريخه: وفى الثامن من شوال وردت إلى السلطان مطالعات بأنه لما كان ليلة السادس والعشرين من رمضان رحلت التتار من الرحبة، فثنى السلطان عزمه إلى الحجاز، [٤٣٥] وفرق العساكر المنصورة فى قاقون وعسقلان، واستصحب من شاء من الأعيان، ودخل دمشق فى اليوم التاسع من شوال، وتوجه منها إلى الكرك فى ثانى ذى القعدة فوصلها فى ثامنه، وسار منها إلى الحجاز.

(١) إضافة يقتضيها السياق.

وأقامت العساكر التى بدمشق صحبة سيف الدين أرغون نائب الكرك[(١)] .

وقال ابن كثير: وخرج السلطان إلى الحجاز فى أربعين أميرًا من خواصه[(٢)].

وقال النويرى: توجه بهم يوم السبت ثانى ذى القعدة إلى الكرك، ثم منها إلى مدينة النبى صلى الله عليه وسلم، ثم منها إلى مكة شرفها الله، وتصدق بصدقات وقضى مناسكه، ورجع إلى المدينة فزار، وتوجه إلى الكرك، ثم إلى دمشق، فدخلها يوم الثلاثاء الحادى عشر من محرم سنة ثلاث عشرة وسبعمائة.[(٣)]

وذكر فى كتاب سيرة الناصر: ولما عزم السلطان على الحج كان الركب قد خرج من دمشق من مدة عشرة أيام، وعين السلطان الأمراء الذين يأخذهم معه، واشتغلوا بتجهيز الشعير والبقسماط والروايا والقرب، وبعد ثلاثة أيام رحل، وكان رحيله فى الخامس من ذى القعدة، وسار فى خدمته خمسون أميرًا من أمراء مصر والشام، وخمسة أمراء من أمراء العربان، وألفا رجل من المماليك والعسكر [٤٣٦] على الهجن والخيل، وكانت تلك السنة خير ورخص وكثرة مياه فى المنازل، ولما قرب السلطان من المدينة لاقاه صاحبها منصور[(٤)] ومعه أولاده، وخلع عليه السلطان خلعة سَنية، وسار بين يديه حتى نزل السلطان بظاهر المدينة، ثم اغتسل من وعث الطريق، ثم سار إلى النبى عليه السلام وزاره، وفرق على المجاورين الدنانير والدراهم، وأقام بالمدينة يومين، وقال لمنصور صاحب المدينة، أحضر ولدك كُبَيْشًا[(٥)] لأنه بلغنى عنه أمور منكرة، وكان قد بلغ

---

(١) لم يرد هذا النص فى المطبوع من كل من زبدة الفكرة، والتحفة الملوكية.

(٢) ينظر البداية والنهاية ١٢٥/١٨.

(٣) ينظر نهاية الأرب ٢٠٢/٣٢، ٢٠٥.

(٤) هو: منصور بن جماز بن شيحة بن هاشم، قتل سنة ٧٢٥هـ/ ١٣٢٥ م، الدرر الكامنة ١٣٢/٥ رقم ٤٨٤٩، تذكرة النبيه ١٥٩/٢، المنهل الصافي ٢٨١/١١ رقم ٢٥٤٧.

(٥) هو: كبيش بن منصور بن جماز بن شيحة بن هاشم، المتوفى سنة ٧٢٨هـ/١٣٢٨، الدرر الكامنة ٣٤٨/٣ رقم ٣٣٠٠.

السلطان بأنه دخل إلى الحرم النبوى راكبًا، فقام إليه المجاورون وأنكروا عليه، وقالوا هذا لا يحل لحرمة النبى صلى الله عليه وسلم، فشتم المجاورين، فقام منصور وباس الأرض، وطلب العفو عنه، فقال السلطان: لابد من إحضاره، وإلا آخذك معى إلى الديار المصرية، ثم إنه رسم عليه، فخرج مع السلطان تحت الترسيم.

وكان قد بلغ خبر السلطان إلى حُميضة(١) ورُميْثه(٢) ابنى أبى نميّ صاحبى مكة، شرفها الله تعالى.

وقال حُميضة أنا لا أقابل السلطان، وأى وقت حضرنا عنده قبض علينا لذنوب سَلفت منا فى حقه وحق الناس، فاتفقا على أن ينهزما ويتعلقا بجبال بنى شعبة إلى حين رواح السلطان.

وهما فى ذلك، وإذا بنجاب قد وصل إليهما من عند منصور صاحب [٤٣٧] المدينة، يعلمهما بقدوم أخيهما أبى الغيث(٣) مع السلطان، وفى نية السلطان أن يقبض عليكما ويخلى أبا الغيث فى مكة، فلا يقف أحد منكما قدامه، وإلا تروح روحه، فسألا النجاب: كم يكون مع السلطان من العسكر؟ قال: الجملة تجئ مقدار أربعة آلاف غير العرب، وأمراء العرب من مصر والشام، وأما عرب الحجاز فإنهم معه فى ذل عظيم، وقد رسم على منصور، وطلب منه ابنه كُبيشا وقد هرب، فلما سمع حميضة ذلك قال: والله، هذا هو الموت بعينه، ثم إنه ركب فى ساعته.

---

(١) هو: حميضة بن أبي نمى محمد بن حسن بن علي بن قتادة الحسني ، الشريف عز الدين، أمير مكة، قتل سنة ٧٢٠هـ/١٣٢٠م، الدرر الكامنة ١٦٧/٢ رقم ١٦٣٧، العقد الثمين ٢٣٢/٤ رقم ١٠٨٣، المنهل الصافي ١٨٦/٥ رقم ٩٦٩.

(٢) هو : رميثة بن أبي نمى محمد بن حسن بن علي بن قتادة الحسني، توفى سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م، الدرر الكامنة ٢٠٤/٢ رقم ١٧٢٨ وفيه توفى رميثة سنة ٧٤٨هـ، العقد الثمين ٤٠٣/٤ رقم ١١٩٦، المنهل الصافي ٣٥٦/٥ رقم ١٠٤٧.

(٣) هو: أبو الغيث بن محمد بن حسن بن علي بن قتادة الحسني، قتل سنة ٧١٥هـ/١٣١٥م، الدرر الكامنة ٢٩٨/٣ رقم ٣١٤٩.

وكان قد جاء كارم كثير من اليمن وتجار فنهب الجميع، وطلب أكابر مكة فصادرهم وأخذ أموالهم، وهرب منه خلق كثير، وطلب المجاورين وأخذ كل ما كان معهم من القوت والمال، وأى مَنْ مَانع قتله، وأرسل من يكشف له الخبر ساعة فساعة، ثم خرج من مكة وسار إلى جبال بنى شعبة، وكانت جبالاً حصينة عالية، ما لأحد عليها سبيل.

ولما وصل السلطان إلى خُليص أرسلَ صاحبَ خُليص إلى مكة يقول لحميضة أن يحضر ولا يتأخر، هو ومن معه، فإن حضر فله الأمان ولا يؤاخذ بالذى جرى منه وله العطاء والإنعام، وإلا فالسلطان يضيق عليه ويحصله وهو صاغر ذليل، ويسلخ جلده ويحشيه تبنًا، فسار صاحب خليص حتى وصل مكة [٤٣٨] وإذا بحميضة قد خرج من مكة، ونهب أموال الناس، وسد الأبيار التى فى منى، وأفسد البلد، وجفل الناس، وعاد ولاقى السلطان على بطن مر، فأخبره بما فعل حميضة فى مكة.

ورحل السلطان ودخل مكة، وخرج التجار المأخوذون وصرخوا: يا مولانا السلطان أجرنا من هذا الباغى الطاغى الفاجر، فاشتد غضب السلطان عليه، فطلب السلطان أبا الغيث وسأل عنه عن الجبال التى تحصن بها حميضة، فقال: يا خوند، جبال منيعة لا يقدر على السلوك فيها إلا أهلها غير أن أهلها إذا رأوا طول الحصار عليهم أخذوه وأخرجوه من عندهم، فقال السلطان: هذا الوقت أدركنا مناسك الحج وليس لنا فراغ، ولكن اطلبوا لى رجلاً من خيار أهل مكة، فأتوا برجل صالح يُقال له: حماد، فأعطاه السلطان أمانًا وأرسله إلى حميضة فى تلك الجبال.

ذكر قضية رُمَيْثه مع الحُجّاج

قال الراوى: كنت فى تلك السنة مع الحجاج، ونحن وقوف بعرفة، وكان قد قل الماء للناس لأن حميضة أفسد آبار مكة ومنى، فراحت الناس يَرِدون الماء من وادى نخلة، وإذا بالصياح وقد علا، فسأل السلطان: ما الخبر؟ فقيل له أن حُميضة قد خرج على الحجاج الذين وردوا الماء فى وادى نخلة فقتل منهم جماعة، وأخذ منهم مقدار

خمسمائة [٤٣٩] جمل، فركب السلطان بعسكره، وركبت الأمراء معه، وسار حتى طلع إلى ظهر الجبل، فترجل الأمير علاء الدين أيدغدى شقير، فقال: يا خوند، أنا أروح وراءه، فأخذ معه مائة فارس وسار على مقدمتهم، وإلى جانبه أبو الغيث بعربان تلك الأرض، فساقوا ودخلوا إلى وادى نخلة فى ساعة، وإذا بالمأخوذين ينادون بالويل والثبور، فصاح أيدغدى شقير وقال: إلى أين راح الذى أخذكم، فقالوا: يا خوند، ما راح إلى الآن، لأنه كان معنا جماعة من الروم والتركمان والعجم، فهربوا بجمالهم، وعبروا فى شعب من شعاب الجبل، فإن لم تلحقهم أخذوه فى هذه الساعة، فلما سمع بذلك أيدغدى ساق حتى أشرف عليهم، وإذا بالعرب قد ترجلت وتستروا بحدايج[1] الجمال خوفًا من النشاب، وحدبوا سيوفهم، وأصحاب الجمال قد أيقنوا بالأخذ، فأشرف عليهم أيدغدى، ولما رآهم العرب ركبوا خيولهم، وكانوا مقدار خمسمائة فارس، وألف راجل، ومقدمهم رُميثة أخو حُميضة، وكان يزعم أنه يلاقى عسكر مصر بالذين معه، وكان أكثر من معه عبيدًا قد تربوا عندهم.

فلما رأوا الترك: تصارخوا وقالوا: دونكم وإياهم، فما هم بشئ وقد ساقهم الله إليكم، وهم يظنونكم عرب بلادهم، فحملوا عليهم، وفى أوائلهم رُميثه [٤٤٠] وعليه قرقل أصفر وبركستوان أحمر وتحته حصان أخضر، وكان أفرس أهل زمانه، فحمل هو، وهو يقول: يا طناجرة[2] الترك حل بكم الدمار، أهلكتم العباد، وأفسدتم البلاد، فاليوم نترككم حديثًا للناس.

فعند ذلك هجمت عليهم الترك، وعلى مقدمتهم أيدغدى شقير، وهو على حصان أشقر، وعليه زردية، ولم يقصد رُميثه إلا أيدغدى، فحمل عليه، فلما حمل عليه أطلق أيدغدى نشابه فى يده فتلقاها بترس[3] مكى فى يده سبع طبقات من جلود الجمال،

---

(١) الحداجة – حدائج : مركب من مراكب النساء نحو الهودج والمحفة، ينظر لسان العرب، مادة حدج.

(٢) الطنجير : كناية عن الجبان أو اللئيم، ينظر تاج العروس مادة طنجر.

(٣) التُّرس : بالضم، من السلاح المتوقى بها، تاج العروس، مادة ترس.

فأخرقت النشابة الترس ووصل إلى رميثه فجرحته، فوقع الرمح من يده، وعانق ظهر جواده، وطلب النجاة لنفسه.

ثم رشت الترك السهام فأعملوا بها الخيل وركابها، فولت العبيد، وأدركتها الترك بالسهام، فعظمت فيهم المصيبة، وتفرق جمعم وتبعتهم الترك، فأدرك الليل، ولولا ذلك لأُخذوا كلهم.

ثم رجع أيدغدى شقير مع أصحابه، وقد قتلوا منهم[1] جماعة، وأسروا خلقًا كثيرًا وإذا بالحجاج وقد جمعوا الجمال الشاردة.

وكان مع رُميثه عرب، وهم رُكاب هجن، فلما رأوا رُميثه هاربًا نزلوا من الهجن وتعلقوا بالجبال، فأخذت الترك منهم سبعين هجينًا، وردوا كل ما كانوا أخذوه من الحجاج، وساروا يطلبون جبل عرفات، وما وصلوا إلى الجبل إلا فى نصف الليل.

[٤٤١] ثم اجتمعوا بالسلطان، وحدثه أيدغدى بجميع ما جرى، فسر السلطان بذلك.

ولما نزل السلطان على منى جاء إليه استادار حُميضه، ومعه ثلاثون فرسًا جيادًا من خيل الحجاز، ومائة هجين، وشئ كثير من القماش والثياب والعبيد، فقدمها إلى السلطان، وقال: أقل مماليكك حُميضه ورُميثه يقبلان الأرض ويسألان المراحم الشريفة، وأن لا يسمع مولانا السلطان فيهما كلام الحساد والأعداء الذين ينقلون الكذب لأجل أغراضهم ليتقربوا إلى المقام الشريف بالكلام المزور، فقال السلطان: الظاهر عنوان الباطن، ولو لم يكن الذى قيل عنهم صحيحًا لما هربوا منى، فقال: يا مولانا السلطان، ومن هو الذى ما يهرب من بين يدى الأسد؟ وما هربوا إلا خوفا من السطوات الشريفة، ونسأل العفو من هذه الجَزْية.

وكان أيضًا قَدِم بتقادم إلى الأعيان الذين مع السلطان من الأمراء والخاصكية،

(١) منهم: بين الأسطر فى الأصل.

فالكل ساعدوه على ما طلبه، وكان السلطان قد عين [أميرًا][(١)] من أمراء مصر ومعه خمسمائة مملوك بأن يقيموا فى مكة ومعهم أبوالغيث.

ثم قال له السلطان: أنا ما لى غرض فى أخذ مكة ولا فى أخذ المال، وأنا ما أطلب إلا أمن الحجاج والتجار والمترددين إلى مكة، فقال استاداره: يا خوند، من عَدِم [٤٤٢] له عقال أعطيناه بعيرًا، ومن راح له درهم أعطيناه دينارًا، والله على ما أقول وكيل، فعند ذلك تحدثت الأمراء أيضًا، فرضى السلطان، وخلع على استاداره، وجهز معه خُلعًا لحُميضة ورُميثة، وسيوفًا وحوائص، وتقليد مكة ونواحيها ما داموا على الاستقامة.

ثم رحل السلطان طالبا الديار الشامية.

ذكر بقية الحوادث فى هذه السنة

منها: أن السلطان احتاط على دار شمس الدين قراسنقر المنصورى بالقاهرة، ووجد فيها، على ما قيل، اثنان وثلاثون ألف دينار عينًا، ومائة ألف وخمسون ألف درهم، وسروج مذهبة، وغير ذلك، فحُملت إلى بيت المال.

ومنها: أن فى يوم الأربعاء مستهل ذى القعدة قدم الإمام تقى الدين ابن تيمية إلى دمشق، وكانت غيبته عنها سبع سنين كوامل، ومعه أخوه[(٢)] وجماعة من أصحابه، وخرج كثير من الناس لتلقيه، وسُروا بقدومه وعافيته، وكان قد خرج مع السلطان من مصر بنية الغزاة، فلما تحقق عدم الغزاة فارق الجيش من غزة وزار البيت المقدس وجاء على عجلون وبلاد السواد وزُرَع حتى قدم يوم قدم[(٣)].

(١) أمراء : فى الأصل، والتصويب يتفق مع السياق، ينظر ما يلى.

(٢) هو عبدالرحمن بن عبدالحليم بن عبدالسلام بن تيمية، زين الدين أبو الفرج، المتوفى سنة ٧٤٧هـ/١٣٤٦م ، الدرر الكامنة ٤٣٧/٢ رقم ٢٣٠٠ .

(٣) ينظر البداية والنهاية ١٢٥/١٨.

ومنها: أن خربندا لما رحل من الرحبة إلى بلاده بعساكره نزل على الموصل فجاءته نواب بلاده بالأموال والتقادم، فلم يستقر بل رحل طالبا تبريز، ولما استقر فى تبريز [٤٤٣] سَير رُسلا إلى بلاده، فطلب النواب والملوك الذين بها مع عساكرهم، فأتى الجميع إلى تبريز، واجتمع عليها خلق كثير، فبينما هم كذلك، [إذ][1] قد وصل رسول من عند ذلدى.

قال الراوى: فأحضره خربندا، بعد أن حضر جميع الأمراء وقراسنقر والأفرم، وقال للرسول: قل لما جئت؟ فقال: يقول لك ذلدى: إن ملك الترك قد سيره ومعه ثمانون ألف فارس، وهو يطلبك أن تروح إليه، وإلا فهو يجئ إليك، قال: وأنت تعلم أنّا إنما خَلَّينا لك هذه البلاد حتى تُسَير إلينا فى كل عام الحمل، وقد انقطع الحمل من مدة ثلاث سنين، وقد علمت أنّا لو أردنا أن نَصفّ من بلادنا إليكم عساكرا فارسًا بعد فارس لقدرنا، ولكنا نقنع بالحمل، فلا يكون جوابك إلا إرسال حمل ثلاث سنين التى مضت، أو الحرب بيننا.

فلما سمع خربندا بذلك، قال للرسول: اذهب الآن واسترح حتى يجيئك الجواب، فخرج من عنده.

ثم قال خربندا: ماذا يكون الجواب؟ فكل واحد منهم تكلم بشئ، ولم يكن جُوبان حاضرًا، فلما كان بعد ثلاثة أيام حضر جوبان، فقال له خربندا: نحن ننتظرك فى الجواب، قال له جوبان: جوابه حاضر، فطلب الرسول وضربه بالدبوس إلى أن كاد أن يموت، فقال: أنا رسول وليس من عادة الملوك ضرب الرسول، [٤٤٤] فقال جوبان: أنا ما ضربتك حتى تعلموا أن ما عندنا جواب غير الرمح والسيف، فقال الرسول: أنا ما جئت إليك، وإنما جئت لصاحب الكرسى، قال: فقال له خربندا: اسمع من كلامه ما قال لك.

فرجع الرسول إلى ذلدى وأخبره بما جرى عليه مع خربندا، فامتلأ عليه غضبًا، ثم أرسل إلى ملك الترك بأنه قد كسر عساكر خُراسان وقتل مقدميها، وأرسل إلى خربندا

---

(١) إذا: فى الأصل.

يطلب منه حمل البلاد، وأنه ضرب رسوله ورده بما يكره، ونحن منتظرون الجواب، فرد إليه الجواب: بأنك حال وصول الرسول إليك تركب إليه بعسكرك، فإن رأيتم فيكم قلة فأعلمني أُسير لكم عسكرا يسد الأرض، ولولا خوفي من العساكر لسَيَّرت لك جيشا يكون أوله عندكم وآخره في بلاد الترك.

فرجع الرسول إلى ذلدى، وكان نازلاً على خُرسان، فلما سمع الرسالة قام وركب، وكان قد وصل إليه خبر دَمندار بأنه وصل إلى الماء الأسود، وهو نازل على بكر وبكير[١]، فلما ركب ذلدى سَيَّر دمندار يُعلم خربندا بركوبه.

قال: فجمع خربندا الأمراء وقال لهم: اعلموا أن ذلدى ركب، ونخاف على دَمَنْدَار من مكيدة يعملها عليه ويهلك مَنْ معه من العساكر، وكان دمندار من أمراء خربندا، وكان قد جهزه إلى مازندران بعشرة آلاف فارس.

ولما جمع خربندا أمراءه، قال لهم: ماذا [٤٤٥] تريدون في أمر ذلدى، فقال جوبان: ما ينفع إلا أن نجرد العساكر ونسير إليه، وهذه أيام الشتاء، فإن كان هو طلبنا قاتلناه، وإن تأخر سَيّرنا نوابًا إلى خراسان، ونحن نشتى في هذه السنة في مُوغان.

فقال: فاستصوب الأمراء كلهم هذا الرأى، وسار خربندا يطلب خُراسان، فإذا برسول من عند دَمَنْدَار أعلمه بأن ذلدى نازل على الماء الأسود، واليزك منا ومنهم على المشارع[٢]، وإن لم تلحقوا بالعساكر وإلا عبروا إلينا.

قال الراوى: فساق خربندا وهو مسرع من غير تمهل حتى وصل إلى الماء الأسود، فإذا بعسكر ذلدى وهم يريدون قطع الماء إلى الناحية الأخرى، ولهم يزك مقابل دمندار.

وكان ذلدى قد سير رسولاً إلى بلاد كيلان، لما نزل على الماء الأسود، يقول لهم: قد علمنا ما جرى عليكم مع التتار أولا، وكيف جاءوا عليكم وقصدوا هلاككم، ونصركم الله تعالى عليهم، فالآن نحن قد وصلنا إليهم، ونحن مسلمون وأنتم مسلمون، ونريد منكم أن

(١) بكر وبكير : قلعتان على النهر الأسود، ينظر ما يلى.

(٢) مشرع – مشارع : المواضع التي يُنحدَر إلى الماء منها، ينظر لسان العرب، مادة شرع.

تمكنونا من العبور فى رأس الماء، لأن الماء الأسود من بلد كيلان ينزل من جبالها فيجتمع ويصير بحرًا لا يقدر أحد أن يعبر فيه، ولا له مشرع، وإذا أراد أهل كيلان أن لا يمكنوا أحدًا من العبور فى رأس الماء يمنعونه، لأنه مكان وعر كثير الأشجار صعب المسلك.

فلما وصل رسول [٤٤٦] ذلدى إلى صاحب كيلان جوان شير، وسمع كلامه، أجابه: السمع والطاعة، وقال له: لكم منا كل ما تريدون، فإن [جئتم][١] إلينا نزلنا معكم، وإن أردتم أن لا نمكن أحدًا من العبور فى رأس الماء من التتار فعلنا ذلك، فقال له نعم.

وفى الحال جهز جوان شير أربعة آلاف راجل إلى دربند الماء فساروا إليه، وسَيَّر مع الرسول حاجبه ومعه هدايا وتحف.

ولما وصل حاجب جوان شير إلى ذلدى فرح به، وقال له: إن جوان شير يقبل الأيادى الكريمة ويهنئ مولانا بالنصر على الأعداء، ويقول لك: لا يهولك مكر التتار، فإنهم ما ملكوا البلاد إلا بالمكر والحيل، وإنهم لا يقاومونكم فى الحرب أبدًا، وإذا جد بينكم الحرب أرسلوا إلينا وعرفونا حتى ننزل إليكم ونشهد موقفكم.

وأما خربندا، فإنه لما وصل إلى الماء الأسود، كما ذكرنا، ونظر إلى ذلدى وأصحابه، جمع أصحابه وقال لهم: ماذا ترون لى مع هؤلاء؟ وهؤلاء عسكر عظيم مقدار عسكرنا مرات، فإن عبروا إلينا ما نعرف يكون الأمر بيننا وبينهم، وكان ذلك الوقت أول زمان الشتاء.

قال الراوى: فأقام خربندا هناك شهرين مقابل ذلدى [ولا يقدر][٢] أحدهما على الآخر لأجل عدم التمكن من العبور فى الماء، فلما جمد الماء حتى صار يحمل مشى الخيل عليه أرسل ذلدى إلى خربندا يقول له: [٤٤٧] نحن نعبر إليكم أو نتأخر حتى تعبروا إلينا، فقال خربندا: نحن نتأخر واعبروا أنتم إلينا، فرجع رسول ذلدى إليه وأعلمه بذلك.

---

(١) اجبلم: هكذا فى الأصل، وما أثبتاه يتفق مع السياق.

(٢) ولا يقد: فى الأصل.

وكان ذلدى هذا معروفًا بالمكر والدهاء والحيل فى أمور الحرب، فأحضر أميرًا من أصحابه يقال له: تكال بغا، يعلم أنه كفء لما نُدب إليه، وقال له: خذ معك مائة ألف واعبر من دربند كيلان من رأس الماء، ويكون اجتماعنا فى يوم واحد، فقال له: سمعًا وطاعة، وقال لهم: لا ترحلوا إلا فى الليل بحيث لا يعلم أحد إلى أين أنتم رائحون، فأى مَنْ وجدتموه فى الطريق فاقبضوا عليه، فرحل تكال بغا فى تلك الليلة مع أصحابه وساروا.

وأما خربندا فإنه جمع الأمراء للمشاورة، وقال لهم: اعلموا أننا اتفقنا مع العدو بأنه يعبر إلينا، وقد تعين الحرب، فأشيروا، فالرأى مشترك، فقال جوبان: الرأى عندى إنا ليلة الميعاد نؤخر منا عشرين ألفا يكمنون بين هذه الروابى والشعاب ليلة المصاف، فإذا [اشتدت][1] الحرب وعظم الخطب فَنُهزم بين أيديهم إلى وسط الكمين، فنخرج عليهم فنكسرهم، فقال له خربندا: لقد أصبت فى هذا الرأى، ولكن نخاف أن يولى العسكر فلا نقدر على جمعه، فقال جوبان: هاهنا رأى آخر، وهو أنا نخلى لنا كشافة عليهم، فإذا شرعوا فى العبور[2]، تترصدهم كشافتنا، فإذا عبر نصف [٤٤٨] عسكرهم يعلموننا بهم فنعاجلهم فنأخذهم إن شاء الله تعالى، فقال خربندا: نخاف من عاقبة البغى، فقال قراسنقر، مَنْ شفق على عدوه بُلى به، فآخر الأمر اتفقوا على هذا الرأى.

ولما كان ثانى اليوم رحل خربندا وتأخر إلى الوراء، وركب ذلدى وقال لقومه: إن خربندا يريد أن يخادعنا فيترصد عبورنا فى الماء حتى عَدَّى نصفنا يعاجلنا، فالرأى عندى أن لا تعبروا كردوسًا[3] كردوسًا ملبسين متأهبين للحرب، ولا يعبر ناس بعد ناس لأن الماء قد جمد فيحمل الخيل والجمال، وها أنا أول من يعبر، وكان هو أول من عبر ومعه عشرة آلاف ملبس، وكشافة خربندا وقوف، وكان قد صح عندهم أن مع ذلدى مائتا ألف فارس، فقالوا: إذا رأينا وقد عبر مقدار مائة ألف فارس أعلمنا خربندا بذلك، وشرعت عسكر ذلدى تعبر أولاً فأول، وما انتصف النهار إلا وقد عبر أكثر من مائة

---

(١) اشتد: فى الأصل.

(٢) فى العبور على : فى الأصل.

(٣) كردوس – كراديس: فرقة من الجيش حوالى عشرة آلاف فارس، ينظر تاج العروس، مادة كردس.

[ألف][(١)] فارس، وذهبت كشافة خربندا فأعلموه بذلك، وكان خربندا وعسكره على ظهور خيولهم واقفين غارقين فى السلاح، فساق خربندا حاطمًا على ذلدى، فلما رأى ذلدى ذلك صاح فى رجاله وأبطاله.

ولما رأى قراسنقر ذلك، قال للأفرم وهو إلى جانبه: كم هربنا من الموت وما قدرنا، وهذا آخر أيامنا من الدنيا، فياليتنى ما خرجت من بلاد [الملة][(٢)] الإسلامية المحمدية، ثم قال [٤٤٩] للأفرم: اجمع بالك ولا تفارقنى وقد [قامت][(٣)] الحرب، ولما رآهم ذلدى وهم فى لبسهم، ولم يغيروا ذلك، قال لأصحابه: إن صدق حزرى فهؤلاء الأمراء الذين هربوا من السلطان الملك الناصر وجاءوا عند خربندا، فاحذروهم، فإنهم رجال الحرب.

وفى ذلك الوقت حملت الخيل على الخيل، وقد ذكرنا أن خربندا جعل كمينا، وكان رأس الكمين هو جوبان ومعه عشرون ألف فارس، وحمل خربندا بباقى عسكره، فبينما هم فى شدة الحرب، إذ وَلَّى خربندا مع التتار يطلبون موضع الكمين، فلما رأى ذلدى ذلك تبعهم، فخرج جوبان بمن معه، فلما رأى عسكر ذلدى خروج الكمين من خلفهم، وأن العسكر المنهزمة رَدَّت، قال ذلدى: والله، سبقونا إلى ما دبرناه، فولت عسكره، وأخذوا الطريق الذى خرجوا منها، وجاء خربندا من قدامهم بمن معه من العسكر فالتجأوا إلى جبل هناك، ومانعوا عن أنفسهم، وكان قريب المساء، فدارت عساكر خربندا بهم من كل جانب وأيقن ذلدى وأصحابه بالهلاك، فقال له أمراؤه: والله، أسأت حيث فرقت[(٤)] عسكرك فرقتين، وما نعلم ما الذى جرى لتكال بغا، واليوم ميعاده معنا، فقال ذلدى: الذى قدره الله كان، وما بقى هذا الكلام يخلصكم، ولا يخلص إلا ضرب الحُسام [٤٥٠] وتجريع الموت، فقاتلوا عن أنفسكم قتال من أيس من الحياة وأيقن

---

(١) إضافة مما سبق.
(٢) إضافة تتفق مع السياق.
(٣) قام: فى الأصل.
(٤) فرقت: فى هامش الأصل، ومنبه على موضعها بالمتن.

بالوفاة، ولو كان القوم يبارزوننا فارس بعد فارس لخرجت إليهم وبذلت نفسى دونكم، وفى غد ترون ما أصنع.

وبات تلك الليلة يشجعهم ويطمعهم بزخرف الأقاويل.

هذا وخربندا فى الفرح والسرور وأنه فى يقين من انتصاره عليهم، وقد عول أن يأخذهم وقت الصباح.

ولما أصبح الصباح قامت الحرب، وأمر خربندا لعساكره بأن تترجل فترجلوا على الأرض، ولما نظر ذلدى وأصحابه إلى ذلك عزموا على أن يسلموا لهم أرواحهم ويطلبوا الأمان، فبينما هم على ذلك فإذا بغبار قد ثار حتى ملأ الأقطار من ناحية بلاد التتار، ولم يسمعوا من تحت الغبار إلا دق الطبول وصياح الفرسان، فصرخ ذلدى فى أصحابه وقال لهم: هذا تُوكال وقد أقبل إليكم فخذوا لأرواحكم وشجعوا أنفسكم، فالشجاعة هى صبر ساعة، فلما سمعوا ذلك قووا قلوبهم وركبوا خيولهم، وانحدروا من رأس الجبل.

وأما خربندا، فإنه لما نظر إلى عسكر وقد أقبلت، قال لأصحابه: إش هذا الغبار؟ فقال له جوبان: هذا غبار كمين ذلدى، فوالله، لقد رابنى قلة عسكرهم، وإذا بالغبار وقد ارتفع عن تُكال بُغا ومعه مائة ألف فارس، فصرخ فى فرسانه فحملوا، ونزل ذلدى من الجبل وحمل من [٤٥١] ناحية أخرى.

ولقد قاتل فى ذلك اليوم قراسنقر والأفرم وجوبان، ما [رأى][(١)] الراؤون بمثله، فكثر بين الفريقين القتل والجرح، وامتلأت المعركة من [القتلى][(٢)]، فعند ذلك ذلت طائفة التتار وطلبوا النجاة لأنفسم، وذلدى تبعهم بمن معه ثلاثة أيام.

هذا والأفرم وقراسنقر والزردكاش ومماليكهم حول خربندا، فقال خربندا: والله، إن كان عسكر الشام مثل هؤلاء فما على وجه الأرض أفرس منهم.

---

(١) رأت: فى الأصل.

(٢) القتلاء: فى الأصل.

وأما خربندا فإنه تأخر إلى ورائه قليلاً، قليلاً، وسار حتى وصل تبريز، [وتفقد][(١)] عسكره، فوجد قد عدم منهم خمسين ألفًا، فاغتم غمًا شديدًا، وقال له جوبان: لا تُضيق صدرك فالدنيا هكذا، فيوم لنا ويوم علينا، ولكن عن قريب يبقى عسكرك أحسن مما كان وأكثر إن سمعت مِنِّي، فقال له : وما أصنع؟

فقال: اخرج الأموال القديمة التى من عهد الآباء والأجداد، وأنفق فى العسكر، واستخدم الرجال، فقال له: نِعم الرأى.

ففى الحال أرسل البريدية، ونادى فى البلاد بالنفقة فى الجند، وأرسل إلى بحيرة المجمع وجاب منها الأموال على ظهور الجمال، واجتمع عليه الجند من جميع البلاد ونفق عليهم، فما مضى عليه ستة أشهر حتى بقى عسكره مائتى ألف مقاتل.

وأما ذلدى فإنه عول على الرحيل خلفهم، ونزل على بكر وبكير، وهما [٤٥٢] قلعتان على النهر الأسود، فنزل إليه صاحب القلعتين وقدم له تقادم واستعرض حوائجه، فقال له: يا ملك، أنا وبلادى وأولادى كلهم مماليك الملك الكبير، ففرح ذلدى بذلك وشكره على فعله، ثم رحل طالبًا لبلاده.

وأما خربندا فإنه أقام أيامًا فى هم وحزن بسبب انكساره ورواح رجاله وأمواله، فدخلت عليه المغل وطيبوا قلبه، وقالوا: أيها الملك، بلادك متسعة، ورجالك كثيرة، وأموالك غزيرة، فلا تحمل الهم.

فقال: ما همى إلا صاحب مصر يسمع بهذه الكِسرة فيطمع فِىَّ ويَشْمتَ بى، فقال له قراسنقر والأمراء، صاحب مصر يرضى بالمساكتة، فعند ذلك فرح بعض الفرح، وخلع على قراسنقر، وأعطى الأفرم همدان وجهزه بأحسن جهاز، وشكر صنيعهم.

قال الراوى: فباسوا كلهم الأرض، ورحل كل أمير إلى محل ولايته.

(١) وافتقد: فى الأصل.

ومن الحوادث فى هذه السنة

أن عمارة الجامع الجديد الناصر بمصر بشاطئ النيل انتهت فى هذه السنة، وكان الناصر قد شرع فيها فى أوائل سنة عشرة وسبعمائة كما ذكرنا[١].

ومنها أن الوزير أمين الملك تكلم بعد سفر السلطان فى الأموال، وطلب أرباب الولايات، وأمر بالاستخراج والعقوبة، وممن صودر القاضى محيى الدين[٢] بن فضل الله، أُخذ منه جملة من المال، [٤٥٣] فانقطع عن ديوان الإنشاء.

وفيها بلغ النيل[٣].

وفيها حج بالناس بالركب المصرى الأمير مظفر قيدان الرومى، وبالركب الشامى حسام الدين لاجين الصغير الذى كان والى البر.

(١) ينظر ما سبق.

(٢) هو : يحيى بن فضل الله بن مجلي العمري، محي الدين، توفى في رمضان ٧٣٨هـ/١٣٣٧م، الدرر الكامنة ١٩٩/٥ رقم ٥٠٣٦، المنهل الصافي ٩٩/١٢ رقم ٢٦٤٤، وينظر أعيان العصر ٥/ ٥٧١ رقم ١٩٤٦ .

(٣) الماء القديم ثلاث أذرع وأصابع، مبلغ الزيادة ست عشرة دراعًا واثنان وعشرين إصبعًا : في النجوم الزاهرة ٢٢٤/٩.

ذكر من توفى فيها من الأعيان

● قاضى القضاة شمس الدين أبو عبدالله محمد(١) بن إبراهيم بن [إبراهيم بن داوود ابن](٢) حازم الأذرعى الحنفى.

وكان بارعًا فاضلاً، دَرَّس وأفتى، وكان من أعيان مذهبه، يعرف الفقه والأصول والنحو، ودَرس مدة بالشبلية التى على جسر ثورا بدمشق، وتولى القضاء بدمشق سنة كاملة ثم عُزل، وسافر منها إلى الديار المصرية فدخلها متمرضًا، ونزل بخانقاه سعيد السعداء فأقام بها خمسة أيام.

ومات فى سلخ رجب(٣)، وكان مولده بأذرعات سنة أربعين(٤) وستمائة، وكان متواضعًا ساكنًا، كريم الأخلاق، رحمه الله.

● القاضى تاج الدين عبدالرحيم(٥) بن تقى الدين عبدالوهاب بن الفضل بن يحيى بن السنهورى(٦)، كان ناظر النظار بالديار المصرية.

أقام فى نظر الدواوين نحوا من ثلاثين سنة(٧)، وعُرضت عليه الوزارة مرارًا فلم يقبل، قيل أنه لم يكن أحد يعرف أموال الديار المصرية مثله.

---

(١) وله أيضًا ترجمة فى : تاريخ البرزالى ٧٧/٤ رقم ١٣٥، البداية والنهاية ١٢٨/١٨، تذكرة النبيه ٥٢/٢، المقفي الكبير ٤٧/٥ رقم ١٥٧٤، السلوك ١٢٢/٢، الدرر الكامنة ٣٦٥/٣ رقم ٢٣٥٨، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٣ ، المنهل الصافى ٢١١/٩ رقم ١٩٨٥.

(٢) إضافة من مصادر الترجمة للتوضيح.

(٣) فى خامس رجب: فى تاريخ البرزالى، يوم الأربعاء ثانى عشرين رجب: فى البداية والنهاية ١٢٩/١٨، ثامن عشرين رجب : في المقفي الكبير.

(٤) أربع وأربعين: فى تاريخ البرزالى، المقفي الكبير، المنهل الصافى.

(٥) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٦٧/٤ رقم ١٢١، السلوك ٢/ ١٢٢ ، الدرر الكامنة ٤٦٧/٢ رقم ٢٣٩٤.

(٦) السمنودى: فى الدرر الكامنة.

(٧) مدة ستين سنة: فى الدرر الكامنة ٤٦٧/٢، السلوك١٢٢/٢.

مات فى سابع عشر[(١)] ربيع الآخر بمصر معزولاً، وعمره نحو مائة سنة وتسع سنين.

وكان كثير الصيام والذكر [٤٥٤] والتلاوة.

● **القاضى شهاب الدين غازى[(٢)] بن شهاب الدين أحمد بن الواسطى ناظر حلب.**

وولى نظر الدواوين بمصر مدة، ونظر الصحبة، و نظر دمشق، وغير ذلك، وكتب بديوان الإنشاء مدة.

توفى فى الثامن عشر من ربيع الآخر منها[(٣)].

● **القاضى تاج الدين أحمد[(٤)] بن القاضى عماد الدين محمد بن شمس الدين محمد بن هبة الله بن الشيرازى الدمشقى.**

مات ببستانه بالمزة، ودُفن بسفح قاسيون بتربة والده.

وكان من أعيان الدماشقة، ولى وكالة بيت المال والحسبة ونظر الدواوين، وتنقل فى المناصب، ولما مات لم يكن فى يده منصب.

ومولده سنة ست وخمسين وستمائة، ومات فى رابع رجب، وهو والد القاضى عماد الدين[(٥)].

---

(١) ثامن عشر: فى تاريخ البرزالى، سابع : فى الدرر الكامنة.

(٢) وله أيضا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٦٧/٤ رقم ١٢٣، نهاية الأرب ٢٠٣/٣٢، تالى كتاب وفيات الأعيان ١٢٧ رقم ٢٠٣، أعيان العصر ٢١/٤ رقم ١٣٣٠، السلوك ٢/ ١٢٢ ، الدرر الكامنة ٢٩٤/٣ رقم ٣١٣٥، المنهل الصافى ٣٥٧/٨ رقم ١٧٩٠.

(٣) ومولده بحلب، وكان من أبناء الثمانين : في أعيان العصر.

(٤) وله أيضا ترجمة فى : تاريخ البرزالى ٧٥/٤ رقم ١٣٢، وفيه: تاج الدين أبو الفضل محمد، نهاية الأرب ٢٠٣/٣٢.

(٥) وهو: محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن هبة الله، عماد الدين، المتوفى سنة ٧٤٩هـ، أعيان العصر ٢٥٦/٤ رقم ١٤٦٥ ، الدرر الكامنة ٣/ ٤٥٥ رقم ٣٤٨٣ .

● القاضى نور الدين أحمد[(١)] بن الشيخ شهاب الدين عبدالرحيم بن عز الدين عبدالله ابن رواحة الحموى الأنصارى، وكان رأس الدرج بطرابلس.

مات بحماة معزولاً فى السادس عشر[(٢)] من شعبان.

وكان دينًا فاضلاً، وله شعر فمنه ما ذكره الشيخ علم الدين البرزالى، قال أنشدنى نور الدين بن رواحة لنفسه قوله:

ألا يا رسول الله دعوة مخلص يُرَجِّيك فى بُعد المزار وقربه
وسائله سارت لأكرم مرسل [٤٥٥] متى يدعه للجود داع يُلبه
وقد كان من أنصار جندك جنده فكن أنت من أنصاره عند ربك
وسله له جدوى بإغناء فقره وكبت أعاديه وغفران ذنبه[(٣)]

● شرف الدين محمد[(٤)] بن موسى بن محمد بن خليل المقدسى، الكاتب المنشىء.

مات فى خامس عشر[(٥)] شعبان بالقاهرة.

وكان فاضلاً، حسن النظم والنثر، إلا أنه كان كثير الهجاء، وكان معروفًا بكاتب أمير سلاح، وعنده حكمة وفلسفة.

(١) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٨٠/٤ رقم ١٤٣، نهاية الأرب ٢٠٤/٣٢، الوافى بالوفيات ٥٦/٧ رقم ٢٩٨٨، وفيه: أحمد بن عبدالرحمن.

(٢) فى السادس والعشرين: فى تاريخ البرزالى.

(٣) لم ترد هذه الأبيات في المطبوع من تاريخ البرزالي.

(٤) وله أيضًا ترجمة في: تاريخ البرزالي ٨١/٤ رقم ١٤٦، نهاية الأرب ٢٠٤//٣٢، تالي كتاب وفيات الأعيان ١٥٧ رقم ٢٦١، الوافي بالوفيات ٩٣/٥ رقم ٢١٠٦، أعيان العصر ٢٨٤/٥ رقم ١٨٠١، المقفي الكبير ٢١٩/٧ رقم ٣٢٨٢، فوات الوفيات ٤٢/٤ رقم ٤٩٨، الدرر الكامنة ٣٩/٥، رقم ٤٦٠٧، النجوم الزاهرة ٢٢٣/٩،المنهل الصافى ١٣٢/١١ رقم ٢٤٣٠.

(٥) الاثنين الخامس والعشرين من شعبان: فى نهاية الأرب.

ومن شعره:

اليـــوم يـــوم سرور لا شرورَ بـــه فَـزَوِّج ابـن سحـاب[١] بابنـة العنـب

ما أنصف الناس[٢] من أبدى القطوب بها[٣] وثغرهـــا باسم عـــن لؤلـــؤ الحبـــب

وله:

صَرِّف بـصِرف الحُميـا مـا حَمى طـربًا فـإن فيـه[٤] لـسم الهـم دزياقـا[٥]

دنيـــاك معـــشوقةٌ والـــروح ريقتهـــا فارشُـف مراشـفها إن كنـت عَـشَّاقا

وله:

نقـــص الفـــتى يُبديـــه قرينـــه فـــاهجر كبـــيرك إن أردت كـــمالا

[٤٥٦] فالبدر صار لبعده عن شمسه بـــدارا وكان مـــن الدنـــو هـــلالا

وقال الشيخ بدر الدين بن المحدث[٦]: رأى شرف الدين المذكور عندى صبيًا حسنًا يكتب، فأخذ لوحه وكتب فيه، وكان اسمه سالمًا :

وأهيـــفَ تهفـــو نحـــو بانـــة قَـــدِّه [قلـوب][٧] تبـث الـشجو فهـى حـمائمُ

---

(١) ابن سماء : في أعيان العصر ٢٨٥/٥.
(٢) الكأس: فى الوافى بالوفيات ٩٤/٥، أعيان العصر ٢٨٥/٥، النجوم الزاهرة ٢٢٣/٩، المنهل الصافى ١٣٢/١١.
(٣) لها: فى الوافى بالوفيات ، النجوم الزاهرة .
(٤) فيها : في أعيان العصر.
(٥) دزياقا: فى الأصل، والتصويب من الوافى بالوفيات ٩٤/٥.
(٦) هو : الحسن بن علي بن محمد بن عدنان بن شجاع الحمداني، بدر الدين ابن المحدث. المجود الكاتب، المتوفى سنة ٧٣٤هـ/١٣٣٣م، أعيان العصر ٢١٠/٢ رقم ٥٧٩، الدرر الكامنة ١٠٩/٢ رقم ١٥٣٥.
(٧) إضافة من الوافى بالوفيات ٩٥/٥، أعيان العصر ٢٨٧/٥.

عجبــــت له إذ دام توريــــدُ خــــدّه　　وما الـورد فى حـال عـلى الغـصن دائمُ

وأعجــب مــن ذا أن حيَّــة شَــعْره　　تجــول عــلى أعطافــه وهــو ســالمُ

وله :

عانقتُــه ولثمــت وجنتــه الــتى　　ختمــت بعنــبر خــاله الفيَّــاح

فــبكى وبَــلَّ الدمــعُ خديــه كــما　　ضحـك الجبـابُ عـلى احمـرارِ الـراح

وله القصيدة البديعة التى أولها:

مــا مِلــتُ عنــك لجفــوة ومــلال　　كلا[1] ولا خطــرَ الــسلو ببــالى[2]

● الشيخ عمر[3] بن الشيخ أبى عبدالله بن النعمان.

توفى بمصر فى أواخر [٤٥٧] شهر رمضان[4] .

● العدل الفاضل شهاب الدين أحمد[5] بن سليمان بن مروان بن على بن سحاب البعلبكي .

مات بداره بدمشق[6]، ودفن بسفح قاسيون.

---

(١) يومًا: فى الوافى بالوفيات ٩٦/٥، أعيان العصر ٢٨٨/٥، المنهل الصافى ١٣٢/١١.

(٢) تنظر القصيدة فى الوافى بالوفيات ٩٦/٥- ٩٨، أعيان العصر ٢٨٨/٥-٢٩٠، ووردت بعض أبياتها فى المنهل الصافى ١٣٢/١١- ١٣٣.

(٣) وله أيضًا ترجمة فى : السلوك١٢٢/٢.

(٤) يوم الأربعاء خامس عشرى رمضان: فى السلوك ١٢٢/٢.

(٥) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٦٤/٤ رقم ١١٧، الدرر الكامنة ١٤٩/١، رقم ٣٩٣، أعيان العصر ٢٢٢/١ رقم ١١٠.

(٦) يوم الخميس السادس من شهر ربيع الآخر: فى تاريخ البرزالى، وأعيان العصر.

وكان تاجرًا بالخواصين، ثم ترك ذلك وشهد عند [الحكام][١]، واستقر فى شهادة القيمة.

وكان له اشتغال بالعربية والأدب، ونظم الشعر، فمن نظمه قوله:

صُن ذا الجمال الذى استولى على المهج ... وراقب الله فى ذا المنظر البهج
فما القلوب جماد عند رؤيته ... كم مغرم بك يا روح الحياة شج
عد الجميل وخف يوم المعاد ولا ... تثنى سجاياك دعوى البارد الحجج
ولا يصدك عن إسعاف ذى كمد ... متيم بك عذل العاذل السمج
بما بقدك من لين ومن هيف ... وما بطرفك من سحر ومن دعج
لا تتعب الطرف فى نهب الورى عبثًا ... أرح قليلا سرايا طرفك الغنج
فكم أسير غرام فى قيود هوى ... ومن سليب من الأشواق فى لجُج
[٤٥٨] يساير النجم لا ترقى مدامعه ... ولا يبيت على وعد ولا فرج
وإن جرى العذل فى مجرى مدامعه ... قال الهوى بلسان الحال لا تلج

وقال:

هم الأحبة إن جاروا وإن عدلوا ... ومنتهى أربى صدوا وإن وصلوا
مالى أعترض عليهم فى تصرفهم ... جاروا على بوصل أم هم بخلوا
أحبابنا كيف حللتم قطيعة مَنْ ... أمسى وليس له فى غيركم أمل
لا يحمل الضيم إلا فى محبتكم ... ولا يُقاس به فى عزه رجل

(١) الحرام: فى الأصل، والتصويب من مصادر الترجمة.

ولى رسائل فى ظن القبول خذوا		منها حديثى الذى نيطت به القبل
إذا تذكرت إياى بقربكم		والوصل متصل والهجر منفصل
وخدد الدمع خدى من تدفقه		وفى الحشا لهب الأشواق يشتعل
والآن قد حيل ما بينى وبينكم		[٤٥٩] وضاق منه عَلَىَّ السهل
ترى أرى صافيا ما قد تكدر من		عيشى وترجع لى أيامى الأول
ويصبح الشمل ملتاما وليس لمن		قد كان يحسدنا قول ولا عمل
والحب يبدى اعتذارا من جنايته		بغير وجه ويعلو وجهه الخجل
وكل ساع سعى فينا يقول لنا		لا ناقة لى فى هذا ولا جمل

وله:

إلى سحر عينيك العيون تهاجر		وقد فبيت أبصارنا والبصائر
بكل فؤادى للعيون وساوس		نواه بتحكيم الغرام أوامر
بآيات هذا الحسن مازلت مؤمنًا		وإنى بما يُوحى من العذل كافر
وحزنى طويل مثل حسنك كامل		ودمعى سريع مثل هجرك وافر
وربع اشتياقى أهل بك عامر		ومغنى اصطبارى دارس الرسم داثر
[٤٦٠] لسانى وطرفى منك يا غاية المنى		وفى كلف عندى خطيب وشاعر
فهذا لمعنى حُسن وجهك ناظم		وهذا لدمعى من تجنيك ناثر
وإنى لشاك للمشيب وواجد عليه		وداع للشباب وشاكر

ليـــالى فيـــه الغانيـــات نـــواظر إلىّ وغُــــصنُ اللهـــو فينـــان ناضر
ويجمعنـــــا روضُ بُــــنعمان زاهـــــر تجــاوب عيـــدان بـــه ومزاهـــر
يطـــوف علينـــا بالحُميـــا جـــاء در ولـيس لنا عـن مـذهب الغى زاجـر
ولا كاشح يخـــشى ولا عيـــبُ عائـــب وعـاد لنـا مـن سـائر النـاس عـادر

● **الشيخ الصالح نور الدين أبوالحسن على[1] بن محمد بن هارون بن محمد بن هارون بن على بن حميد الثعلبى الدمشقى، قارئ الحديث.**

مات فى ربيع الآخر[2] بالقاهرة، ودفن خارج باب النصر، ومولده سنة ست وعشرين وستمائة.

وكان مسند القاهرة فى وقته، وخَرَّج له قاضى القضاة تقى الدين[3] السبكى مشيخة، وكان [٤٦١] رجلاً صالحًا مشهورًا بقراءة الحديث، معروفًا بالخير، وهو والد زين الدين عبدالرحمن[4] المعروف بابن القارئ.

---

(١) وله أيضًا ترجمة فى : تاريخ البرزالى ٧٠/٤ رقم ١٢٦، البداية والنهاية ١٢٨/١٨، الوافي بالوفيات ١٥٢/٢٢ رقم ٩٧، أعيان العصر ٥١٧/٣ رقم ١٢٢٥، السلوك ١٢١/٢ ، الدرر الكامنة ١٩٥/٣رقم ٢٨٩٦.

(٢) بكرة الثلاثاء سابع وعشرين ربيع الآخر: فى تاريخ البرزالى، تاسع عشر: فى البداية والنهاية، وسابع عشر : في أعيان العصر.

(٣) هو : علي بن عبدالكافي بن علي بن تمام السبكي، قاضي القضاة تقي الدين، توفى سنة ٧٥٦هـ/١٣٥٥م، الوافي بالوفيات ٢٥٣/٢١ رقم ١٨٠، أعيان العصر ٤١٧/٣ رقم ١١٧٩، الدرر الكامنة ١٣٤/٣ رقم ٢٧٧٨، المنهل الصافي ١٠٦/٨ رقم ١٦١٢.

(٤) هو: عبدالرحمن بن على بن محمد بن هارون، زين الدين، أبوالفرج، توفى فى أواخر سنة ٧٧٦هـ/١٣٧٤م، الدرر الكامنة ٤٤٥/٢ رقم ٢٣٣٠.

● الفقيه العدل علاء الدين على[١] بن عماد الدين إبراهيم بن عبدالمحسن بن عبدالصمد ابن قرناص، الخزاعى الحموى.

مات بظاهر دمشق[٢]، ودفن بمقابر الصوفية، ومولده فى أواخر سنة أربع وخمسين وستمائة.

وكان فاضلاً، اشتغل وحصل، وسافر إلى الحجاز واليمن وديار مصر.

وله نظم كثير، فمنه قوله:

إليك اشتياقى لا إلى الربع والمغنى ... وأنت لقلبى[٣] عندما نطق المعنى
فيا غائبًا وفى القلب حاضر ... فلله ما أقصاه[٤] عنى وما أدنى
أذبت فؤادى بالقطيعة والجفا ... وأنعمت عيشى بالتواصل والحسنى
أأحبابنا منوا علىَّ بعودة[٥] ... فقد سلمت أرواحنا بالجفا منا
وحقكم لم أبغ[٦] عنكم تسليا ... وإن كان ما قد قيل حقًا فلا كُنَّا

(١) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٧١/٤ رقم ١٢٨، أعيان العصر ٢٤٩/٣ رقم ١١٠٢، تذكرة النبيه٥١/٢، الدرر الكامنة ٧٥/٣ رقم ٢٦٣٩.

(٢) فى ليلة السبت الثالث عشر من جمادى الآولى: فى تاريخ البرزالى، وأعيان العصر.

(٣) للفظى : فى تذكرة النبيه ٥٢/٢.

(٤) ما آناك : في تذكرة النبيه ٥٢/٢.

(٥) أأحبابنا منوا بعودة آيب : فى تذكرة النبيه.

(٦) نبغ: فى تذكرة النبيه.

● **الشيخ المسند نور الدين على[١] بن نصر الله بن عمر بن عبدالواحد القرشى، المعروف بابن الصواف.** [٤٦٢]

مات بسوق الغنم ظاهر القاهرة[٢].

روى عن ابن باقا[٣] وسمع: جعفر الهمدانى، وابن الصابونى، وجماعة كثيرة، ومولده سنة عشرين وستمائة تقريبًا.

تفرد بالرواية، وقصده الطلبة وأخذوا عنه، رحمه الله.

● **الشيخ الفاضل الصدر الرئيس سراج الدين عبداللطيف[٤] بن رشيد بن محمد التكريتى، التاجر الكارمى.**

مولده فى شهر رمضان سنة سبع وثلاثين وستمائة بتكريت، ودخل اليمن والهند، وقدم الإسكندرية واستوطنها، وبنى بها مدرسة للفقهاء الشافعية .

وكان له عند السلطان الملك المنصور قلاوون مكانة عظيمة، وكان يقول ما لأحد

---

(١) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٧٨/٤ رقم ١٣٧، الوافى بالوفيات ٢٧٣/٢٢ رقم ٢٠٠، أعيان العصر ٥٧٠/٣ رقم ١٢٤٤، السلوك ٢/ ١٢١ ، الدرر الكامنة ٢١٠/٣ رقم ٢٩٢٩، المنهل الصافى ٢٣٢/٨ رقم ١٦٩٧.

(٢) ليلة الخميس – قبل الصبح- الثانى والعشرين من رجب : فى تاريخ البرزالى.

(٣) روى أكثر صحيح النسائى عن عبدالعزيز بن باقا : فى الوافى بالوفيات ٢٧٤/٢٢.

(٤) أورد له ابن حجر ترجمتين، الأولى باسم : عبداللطيف بن رشيد بن محمد بن سديد الربعى التكريتى، والثانية باسم : عبداللطيف بن محمد بن مسند الإسكندرانى الكارمى، سراج الدين، ينظر الدرر الكامنة ٢٠/٣، ٢٣، رقم ٢٤٩٦، رقم ٢٥٠٢، وفيهما أن صاحب الترجمة توفى سنة ٧١٤هـ.

وينظر ما أورده ابن حبيب أيضًا فى كل من درة الأسلاك ٢٠٠، تذكرة النبيه ٦٠/٢، وفيهما أيضًا أن صاحب الترجمة توفى سنة ٧١٤هـ

وله ترجمة باسم: عبداللطيف بن الرشيد الربعى التكريتى الكارمى: فى الوافى بالوفيات ١٢٣/١٩ رقم ١٠٩، ولم يذكر تاريخ وفاته.

على فضل وأنا أمير مثل سراج الدين التكريتى، عُرض عليه أشياء كثيرة من الولايات فلم يقبل.

ولسراج الدين قصائد رائقة فى النبى صلى الله عليه وسلم، منها قوله:

مــا شـــاقه البـــان ولا يـــشوقه		مـــذ لمعـــت ببـــارق بروقُـــه
وجـــرى إلى المغـــنى القـــديم فـــانثنى		وشـــوقه نحـــو الحمـــى يـــسوقه
يهـــوى بأكنـــاف الحمـــى مُحبّـــا		حـــكاه مـــن غـــض النقـــا وريقـــه

[٤٦٣] وهى قصيدة طويلة.

وله أيضًا قوله:

يا دار عـــزه مَـــنْ للـــواله البـــاكى		بنظـــرة يـــتملى مـــن مُحيـــاكى
أضحـى الخـزام وبيـت الـشيح منـذ سرى		بـــه النـــسيم عبـــيرًا حـــين وافـــاك
كم لـــيلة بات طـــرفى ســـاهرا قلقـــا		يرعـى النجـوم ولـيس القـصد إلّاك
حملـــت بارقـــك النجـــدى حـــين سرى		إلى الحمـــى أرجّى يحـــكى خزامـــاك
مـــا المنحـــنى مـــا رُبى نجـــد وابرقهـــا		ومـــا العُـــذيب وبان الجـزع لـــولاك
ومـــا ســـعاد ومـــا لُبـــنى وزينتهـــا		إليـــك أنـــت ولكـــن لَـــوَّح الحـــاكى
يا ظبيـــة المنحـــنى مـــن أضـــلعى ســـكنت		جـاورت قلـبى فأمـسى وهـو مرعـاك
مازلـــت راعيـــة حـــب القلـــوب ومـــا		زالـــت قلـــوب جميـــع الخلـــق ترعـــاك
لـــولاك مـــا سرت الهـــوج الـــركاب بنـــا		وَخْـدًا ومـا سـارت الركبـان لـولاك
[٤٦٤] دعوت وفدك والأشواق تجدُ بهم		إلى قـــراك فـــكل الوفـــد لبـــاكى

تُـــرى تجـــود لنـــا الأيام عائـــدة بالمنحـــنى ويُحيِّيَنَّـــا محيـــاكِ
وهـــل تعـــود لياليـنـــا بقـــربكم ويرجـــع الـــشمل محـــصلاً بـــرياك
ودعـــت قلـــبى وصـــبرى بعـــد بعـــدكم والبـــين أقـــصاهما مـــن حـــين أقـــصاك
هَـــبى المنـــام لأجفـــانى ولا سِـــنَة يحـــيى بطيفـــك فيهـــا بعـــض قـــتلاك
أزوره فى الدجى أقـــضى بهـــا وطـــرا لا أصـــغر الله رب العـــرش ممـــشاكِ
أو لامـــع الـــبرق مـــن تلقـــاك لى سَحَـــرًا يلـــوح وَهْنًـــا فـــيحكى حُـــسن مَـــرآك
يا نـــوق لا تـــسامى حـــر الهجـــير ولا طـــول المـــسير وهـــذا مـــن سجـــاياك
لك الهنـــا إن بـــدا وادى العقيـــق لنـــا ضُحـــى فمـــا بعـــده إلا مـــضحاك
لا مَـــسَّ ظهـــرك مـــن بعـــد النقـــا قتـــب [٤٦٥] ولا تعدى الحيا الوسمى مغناك
بُـــشراك يا نفـــس إن نلـــت المنى وحـــوى مغنـــاك صريـــع هـــذا الحـــى بـــشراك
هـــذا محـــل الرجـــاء فـــيما أؤمـــله هـــذا الحبيـــب وهـــذا الحـــى حيـــاك
وأنـــشد بنـــا وناد حـــول روضـــته الغنـــاء لا فـــض مـــن بعـــد النـــداء فـــاك
يا تربـــة المـــصطفى المختـــار مـــن مـــضر ســـقى ثـــراك الحيـــاط لا ورواك
ضممـــت خـــير عبـــاد الله كلهـــم مـــن أنبيـــاء وعُبـــاد ونُـــساك
هـــذا النـــبى الذى تُـــرجى شـــفاعته للهـــارب المـــستجير الخـــائف البـــاكى
هـــذا البـــشير النـــذير الـــشافع القمـــر المنـــير الطيـــب الطهـــر التقـــى الـــزاكى
يا ســـيد العـــرب العـــرباء قاطبـــة وأشرف الخلـــق مـــن عـــرب وأتـــراك

يا مــن سَمَــتْ ســماء العليــاء رتبتــه عــلى القبيلــين مــن رســل وأمــلاك
[٤٦٦] إن رمت وصفك أو احصاء معجزة مـن معجزاتـك كل الوصـف والحـاكى
لكــن أتيتــك بالتقــصير معترفــا إذا اعــترافى بالتقــصير إدراكى
يا ســيدى يا رســول الله يا أمــلى يا عــدتى ورجــائى عنــد إضــناكى
هــاجرت نحــوك مــن أقــصى الــبلاد وقــد هجــرت أهــلى وأولادى وأمــلاكى
وقــد نزلــت حــماك اليــوم معتــضدًا أســير ذنــب عظــيم حــائر بــاكى
وعــادة العــرب العــرباء جاريــة حمـى النزيـل وكـشف الـضيم للـشاكى
وهــذا أوان انــصرافى عــن حــماك وفى يــديك عتقــى وتــسريحى وإفــكاكى
صــلى عليــك إله النــاس مــا طلعــت شمس الـضحى وسرت شـهب بـأفلاك

وشعره كثير، وكله مديح فى النبى صلى الله عليه وسلم.

- **الشيخ مجد الدين أحمد**[١] **بن ديلم بن محمد الشيبى، شيخ بنى شيبة، وشيخ الكعبة المعظمة، وشيخ الحرم الشريف.**

مات فى هذه [٤٦٧] السنة[٢]، ودفن بالمعلاة[٣].

روى عن ابن مسدى، والمرسى، وغيرهما.

---

(١) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٤/٨٩ رقم ١٥٧ ، السلوك ٢/ ١٢١ ، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٣ .

(٢) ليلة سلخ شوال: فى تاريخ البرزالى.

(٣) المعلى : في الأصل.

• الملك المظفر شهاب الدين غازى[١] بن الملك الناصر صلاح الدين داوود بن الملك المعظم عيسى بن الملك العادل أبى بكر بن أيوب.

مات بالقاهرة يوم الاثنين ثانى عشر رجب بعد العصر.

وتوفيت زوجته، وهى ابنة عمه الملك المغيث بن المعظم، وقت عشاء الآخرة. فخرجت جنازتهما جميعًا[٢].

وكان قد حج وزار القدس وتوجه إلى دمشق وعاد إلى القاهرة فمات بها.

وولد بالكرك عاشر جمادى الأولى سنة تسع وثلاثين وستمائة.

وكان فاضلاً دينًا متواضعًا.

• الملك المنصور صاحب ماردين، وهو نجم الدين أبوالفتح غازى[٣] بن الملك المظفر فخر الدين قرا أرسلان بن الملك السعيد نجم الدين غازى بن أرتق الأرتقى، أصحاب ماردين من عدة سنين.

وكان شيخًا حسنًا، مهيبًا، كامل الخلقة، سمينًا بدينا، إذا ركب يكون خلفه محفة خوفًا أنه يمسه لغوب[٤] فيركب فيها.

وكانت وفاته فى تاسع ربيع الآخر، ودفن فى مدرسة تحت القلعة، وعَمر فوق السبعين، فكانت مملكته قريبًا من عشرين سنة.

---

(١) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٧٦/٤ رقم ١٣٤، نهاية الأرب، ٢٠٤/٣٢، تذكرة النبيه ٥٠/٢، البداية والنهاية ١٢٨/١٨، الدرر الكامنة ٢٩٥/٣ رقم ٣١٣٦ ، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٤ ، المنهل الصافى ٣٦١/٨ رقم ١٧٩٢.

(٢) ينظر نهاية الأرب ٢٠٤/٣٢، السلوك ٢/ ١٢١ .

(٣) وله أيضًا ترجمة فى : تاريخ البرزالى٦٥/٤ رقم ١١٩، البداية والنهاية ١٢٧/١٨، أعيان العصر ٢٣/٤ رقم ١٣٣١، تذكرة النبيه ٤٠/٢، ٤٨، الدرر الكامنة ٢٩٦/٣ رقم ٣١٤٠ ، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٤ ، المنهل الصافى ٣٦٢/٨ رقم ١٧٩٣.

(٤) اللغوب : التعب والإعياء، لسان العرب، مادة لغب.

وقام من بعده ولده العادل عَلِيّ فملك سبعة عشر يومًا، ثم ملك [أخوه][1] الصالح بن المنصور.

● الأمير سيف الدين قطلوبك[2] الشيخى.

كان من أمراء دمشق الكبار، توفى فى هذه السنة فيها[3] :

[٤٦٨] رحمه الله.

● الأمير بهاء الدين مغلطاى[4] البهائى.

توفى فيها[5] بطرابلس، وكان قد رُسم بالقبض عليه، فوصل البريدى بذلك بعد وفاته بيوم[6].

---

(١) إضافة للتوضيح من البداية والنهاية.

(٢) وله أيضًا ترجمة فى: تاريخ البرزالى ٦٥/٤ رقم ١١٨، نهاية الأرب ٢٠٤/٣٢، البداية والنهاية ١٨/ ١٢٨ ، النجوم الزاهرة ٩/ ٢٢٤ ، الدرر الكامنة ٣٣٩/٣ رقم ٣٢٦٦.

(٣) فى خامس شهر ربيع الآخر: فى تاريخ البرزالى

(٤) وله أيضًا ترجمة فى: نهاية الأرب ٢٠٥/٣٢، السلوك ١٢٢/٢، النجوم الزاهرة ٢٢٤/٩.

(٥) فى حادى عشر شهر ربيع الآخر: فى نهاية الأرب ٢٠٥/٣٢.

(٦) ورد بعد ذلك فى نهاية هذه الورقة النص الآتى:

" تم الجزء الحادى والثلاثون من عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان للعينى، يتلوه الجزء الثانى والثلاثين الذى أوله : فصل فيما وقع من الحوادث فى السنة الثالثة عشرة بعد السبعمائة، والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا، ورضى الله عن أصحاب رسول الله أجمعين، وحسبنا الله ونعم الوكيل، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم، آمين، آمين، آمين ".

ويلاحظ أن تحديد رقم هذا الجزء هو وفقًا لتجزئة ناسخ هذه النسخة ، وليس له علاقة بتجزئة العيني لكتابه، أو لتجزئة النسخة الملفقة التي تم تجميعها من ثلاث نسخ مختلفة الخط والمسطرة، من بينها أجزاء من نسخة بخط المؤلف، وباقى الأجزاء من نسختين بخط ناسخين مختلفين ، وبالتالى فإن ترقيم الأجزاء يختلف من نسخة إلى أخرى ، ينظر ما ورد بمقدمة الجزء الأول، ومقدمة هذا الجزء.